جمهورية تركيا

جامعة نجم الدين أربكان

معهد العلوم الاجتماعية

قسم العلوم الإسلامية الأساسية

قسم التفسير

تفسير القرماني

دراسة وتحقيق (سورة المائدة، الأنعام، الأعراف، الأنفال)

تأليف:

أحمد بن محمود الأصم القرماني اللارندي

(ت. ٩٧١ هـ/١٥٦٤م)

(رسالة لنيل درجة الدكتوراه)

إعداد

عبد الله واركل أغلو

إشراف

الأستاذ المشارك أ.د. علي أكبنار

قونيا

(١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م)

جمهورية تركيا

جامعة نجم الدين أربكان

معهد العلوم الاجتماعية

قسم العلوم الإسلامية الأساسية

قسم التفسير

تفسير القرماني

دراسة وتحقيق (سورة المائدة، الأنعام، الأعراف، الأنفال)

تأليف:

أحمد بن محمود الأصم القرماني اللارندي

(ت. ٩٧١ هـ/١٥٦٤م)

(رسالة لنيل درجة الدكتوراه)

إعداد

عبد الله واركل أغلو

إشراف

الأستاذ المشارك أ.د. علي أكبنار

قونيا

(١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢ م)

الرموز الاختصارات

ب	نسخة مكتبة الدولة بايزيد (٤٨٢)
ج	نسخة مكتبة السليمانية، جار الله أفندي (١١١)
ق	نسخة مكتبة السليمانية، قلج علي باشا (٥٤)
+	إشارة إلى كلمة أو عبارة زائدة في النسخة
–	إشارة إلى كلمة أو عبارة ناقصة في النسخة
:	إشارة إلى الاختلاف بين النسخ في كلمة أو عبارة
ت	توفي
تع	تعالى
د.ت.	دون تاريخ نشر
ح	أبو حنيفة
ح	حينئذ
رضـ	رضي الله عنه
ص	صفحة
صلعم	صلى الله عليه وسل
الظ	الظاهر
ظ	ظهر الورقة
ع م	عليه السلام
فح	فحينئذ
فظ	فظاهر
لا يخ	لا يخلو
المص	المصنف
و	وجه الورقة

فهرس المحتويات

تقديم المحقق..٣

سورة المائدة..٥

سورة الأنعام..٢٧٣

سورة الأعراف..٥١٨

سورة الأنفال..٨٣٢

تقديم المحقق

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلَّا على الظالمين، وأشهد ألَّا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وعلى كل شيء قدير، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله المبعوث رحمة للعالمين، بالكتاب المبين، والصراط المستقيم، والحبل المتين، والذكر الحكيم، أنزله الله لقراءته تأمُّلًا، وتدبّره تبصُّرًا، والهناءة به تذكُّرًا، وأن نجتهد لإقامة أوامره ونواهيه تعبُّدًا، وننعم بثمار علومه النافعة الموصلة إليه سبحانه، فإنَّها السبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وأُغلقت الأبواب، وهو حياة القلوب، وشفاء الصدور ولذة النفوس، فاللهم لا تحرمنا لذة قراءته والسعادة بتلاوته وسماع آياته، إنَّك سميع قريب مجيب الدعوات. وبعد

فقد أُنزِل القرآن هذا الوحي المبارك على النبي– ﷺ – بلسان عربيٍّ مبين؛ للبشرية جمعاء بشيرًا ونذيرًا، بواسطة جبريل عليه السلام. وأوصى الله تعالى وشدَّد بشكل مستمر على قضية فهم القرآن وتدبُّره فقال: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾! ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾! وكذلك النبي– ﷺ – أمر بتدبر القرآن الكريم والتأمّل في آياته من خلال تجويده وترتيله وتحقيق قراءته؛ ليكون ذلك بابًا نافذًا لفهم معانيه.

كانت الفترة التي نزل فيها القرآن الكريم الذي هو أعظم معجزات الرسول ﷺ فترةً بلغ فيها الشعر والبلاغة الذروة في الأدب. في مثل هذه الفترة، تحدى القرآن مخاطبيه بإيجازه الفريد وبلاغته الراقية، وبيَّن أنَّه، حتى لو اجتمع الإنس والجن وكان بعضهم لبعض نصيرًا وظهيرًا، فلن يتمكنوا من الإتيان بمثله.

حفظ النبي – ﷺ – الوحي، وأملاه على كَتَبَة الوحي، وعلَّمهم ألفاظه ومعانيه، وبعد وفاته استمرت جهود الصحابة ومَن بعدهم من التابعين في فهم القرآن.

من المجهودات العلمية التي بُذلت في خدمة القرآن الكريم، تفسير الزمخشريفي كتابه المسمَّى الكشَّاف،حيث جمع بين فنَّي الرواية والدراية، فكشف عن جوانب القرآن اللغوية والبلاغية، في بيان المعنى العربي، والإعرابي، والبياني، ويذكر المناسبة بين الآيات، ويحتكم إلى اللغة في الترجيح، ويعرِض لمذاهب العلماء الفقهية في آيات الأحكام، ويذكر أقوالهم وأدلتهم ويختم تفسير بعض الآيات بالأحاديث والأخبار التي وردت عن رسول الله – ﷺ – وعن السلف ،ولقد أثَّر هذا الكتاب – الذي حافظ على مكانته على التفسيرات التي كُتبت بعده، وأجريت عليه العديد من الشروح والحواشي، كما تمَّ تدريسه ككتاب مدرسي في المدارس العثمانية.

مِن الذين خدموا هذا الكتاب بالشرح الشيخ المفسر المتصوِّف الواعظ أحمد بن محمود الأصم القرماني، أحد العلماء المعاصرين للسلطان سليمان القانوني، فالفترة التي عاش فيها تعتبر فترة الذروة في تقديم الشروح والتعليقات والحواشي.

يعتبر الكشاف الكتاب الأكثر تفصيلًا وإيضاحًا، فمن الأهمية بمكان تتبُّع هذا العمل القيّم، والاستفادة منه وسبر أغواره، وإبرازه لأهل العلم، ذلك المؤلف المعدُّ في اثني عشر مجلدًا، الجامع بين التفسير والتعليقات والحاشية والاقتباسات المأخوذة من مصادر متعددة.

لقد بذلنا قصارى جهدنا للحصول على النسخة الأصلية، وتحقيق ما جاء في تفسير سورة المائدة والأنعام والأعراف والأنفال، ومع أننا قد اجتهدنا، لا ينفي ذلك وجود ببعض الهنَات والأخطاء اللاإرادية، فنعتذر مقدَّمًا عنها، فجلَّ من لا يخطأ وعزَّ من لا ينسى.

تعرَّضنا في المقدمة من دراستنا لِلَمحة عابرة عن إطار البحث ومصادره، والفترة التي عاش فيها أحمد القرماني.

في الفصل الأول، قدَّمنا معلومات عن حياة الزمخشري وأعماله وحاشيته، وشرح الكشاف والتعليقات التيتم إجراؤها عليه.

في الفصل الثاني، قدَّمنا تعريفًا عن أحمد القرماني وكتابه المسمَّى تفسير القرماني، وقمنا بتدقيق ودراسة مخطوطات التفسير وخصائها بالتفصيل. وحصلنا على نسخة مُسوَّدة (النسخة الأولى للمؤلف قبل أن يهذِّبها)، وأخرى مُبيَّضة (النسخة الثانية للمؤلف مهذَّبة ومَرضيَّة)، بصيغة المستندات المحمولة الكترونيًّا المعروفة اختصارًا بـ[pdf]، من مكتبة السليمانية، ثم تبيَّن لنا بعد ذلك أنَّ النَّسخ الأكثر قِيْمة مُسوَّدة ومُبيَّضة من نفس المكتبة، كانت نسخة قِلِج علي باشا برقم (٥٤) وجار الله برقم (١١١)، وبايزيد برقم (٤٨٢)، فاتخذناها كأساس في دراستنا.

قمنا بمقارنة نسخة جار الله المرقَّمة بـ(١١١) بالنُّسَخ الأخرى فوجدنا كتابتها واضحة ومقروءة، وهي في مجلد واحد، ونظرًا لذلك فقد أجرينا عملية الترقيم وفقًا لها، غير أنَّا التمسنا فيها بعض القصور، وهو غياب بعض التعبيرات التي وجدناها مُثْبَتةً في نسخة قلج علي باشا ونسخة بايزيد،وقد أشرنا إلى ذلك في الحاشية.

قدَّمنا معلومات تعريفية عن الطريقة والمنهج الذي اتبعه المؤلف في عمله، كما حاولنا توضيح مصطلحات علوم القرآن، وماهية التفسير بالدراية والرواية ببعض الأمثلة والنماذج تحت عناوين.

في الفصل الثالث، قمنا بتضمين جزء التحقيق.

في الختام أنا مدين بخالص الامتنان لمشرفي البروفيسور علي أكبينار الذي أشرف على هذا التحقيق- رسالتي لنيل درجة الدكتوراه في التفسير- ولم يألُ جهدًا في مساعدتي، وكذلك الشكر موصول لكلٍّ من البروفيسور هارون أوغمُش، والبروفيسور سامي بايبل اللذيْن ساهما معي بأفكارهما القيّمة، وكلُّ من ساهم معي ولم يشمله الذِّكْر له خالص الشكر والتقدير ، والحمد لله رب العالمين.

عبد الله واركل اوغلو

قونيا ٢٠٢٢

[٢٨/ظ] سورة المائدة

مدنيَّة، إلا قوله: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ فإنّها نزلت بعرفاتٍ، روى: أنّها نزلت مُنصَرف رسول الله من الحديبية.

وذكرالنقَّاش[١] عن أبي سلمة[٢] أنه قال: لَمّا رجع رسولُ الله من الحديبية قال: «يا علي أشعرتَ أنه نزلت عليَّ سورة المائدة، ونعمت الفائدة».

قال ابن العربي:[٣]هذا حديثٌ موضوعٌ لا يحلُّ لمسلم اعتقادُه؛ أما إنَّا نقول: سورة المائدة، ونعمت الفائدة. ولا نأثُره على أحد، ولكنَّه كلامٌ حَسَنٌ.

وقال ابن عطية: وهذا عندي لا يُشبه كلام النَّبي ع م.

ومن هذه السورة ما نَزَل في حِجَّة الوداع، ومنها ما نزل عامَ الفتح، وهو قوله: ﴿**يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ**﴾.

وكلّما نزل عام الفتح من القرآن بعد الهجرة فهو مَدَني، سواء نزلَ بالمدينة أو في سفرٍ.

والمكيّ ما نزل قبل الهجرة. وهي مائة وعشرون آيةً.[٤]

وقيل: اثنان وعشرون، وقيل: ثلاث وعشرون، الإختلاف في ثلاث آياتٍ؛ ﴿**أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ**﴾،﴿**وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**﴾،﴿**فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ**﴾.

وكلماتها: ألفان وثمانمائة وثلاث، وحروفها أحد عشر ألفًا وتسعمائة واحد وخمسون.

---

[١] أبو بكر محمد بن الحسن بن محمد بن زياد [بن هارون بن جعفر بن سند] المقرئ، المعروف بالنقاش، الموصلي الاصل البغدادي المولد والمنشأ؛ كان عالما بالقرآن والتفسير، وصنف في التفسير كتابا، سماه شفاء الصدور،وسافر الكثير شرقا وغربا، وسمع بالكوفة والبصرة ومكة ومصر والشام والجزيرة والموصل والجبال وخراسان وماوراء النهر، وكانت ولادته سنة ست، وقيل خمس، وستين ومائتين. وتوفي يوم الثلاثاء ودفن يوم الأربعاء، لثلاث خلون من شوال سنة إحدى وخمسين وثلثمائة رحمه الله تعالى. انظر: **وفيات الأعيان** لشمس الدين أحمد ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت. ٢٩٨/٤-٢٩٩.

[٢] أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الأَسَدِبْنِ هِلالِ بْنِ عبد الله بن عمر بن مخزوم. واسم أبيسَلَمَة عَبْد الله وأمه برة بِنْت عَبْد المطلب بْن هشام بْن عَبْد مناف بْن قصي. وكان لأبي سَلَمَة من الولد سَلَمَة وعُمَر وزينب ودرة وأمهم أُمُّ سَلَمَة واسمها هند بِنْت أبي أمية بْن المغيرة بْن عَبْد الله بْن عُمَر بْن مخزوم،فَبَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي المحرَّم عَلَى رَأْسِ خَمْسَةٍ وَثَلاثِينَ شَهْرًا مِن الْهِجْرَةِ سَرِيَّةً إِلَى بَنِي أَسَدٍ بِقَطَنٍ. فَغَابَ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ثُمَّ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَانْتَقَضَ بِهِ الْجُرْحُ فَاشْتَكَى. ثُمَّ مَاتَ لِثَلاثٍ لَيَالٍ مَضَيْنَ مِنْ جُمَادَى الآخِرَة. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ١٨٠/٣-١٨٢.

[٣]أبو بكر محمد بن عبد الله بن أحمد، المعوف بابن العربي المعافري الأندلسي الإشبيلي الحافظ المشهور؛ ذكره ابن بشكوال في كتاب (الصلة) فقال: هو الحافظ المستبحر، ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها،وكانت ولادته بإشبيلية، وقيل إن ولادته كانت سنة تسع وستين، وقيل إن وفاته كانت في جمادى الأولى على مرحلة من فاس عند رجوعه من مراكش، ونقل إلى فاس، ودفن بمقبرة الجياني ، دخل الشام ولقي بها أبا بكر محمد بن الوليد الطرطوشي وتفقه عنده، ودخل بغداد وسمع بها من جماعة من أعيان مشايخها، ثم دخل الحجاز فحج في موسم سنة تسع وثمانين، ثم عاد إلى بغداد وصحب بها أبا بكر الشاشي وأبا حامد الغزالي وغيرهما من العلماء والأدباء. انظر: **وفيات الاعيان** لابن خلّكان، ٢٩٦/٤.

[٤] **الجامع لأحكام القرآن** لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ٢٤٣/٧-٢٤٤؛ **اللباب في علوم الكتاب**؛ لسراج الدين عمر بن علي بن عادل، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود–والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ١٦٠/٧.

وانتظام هذه السورة بالسورة التي قبلها أنّ الله ذكر في تلك السورة حكم أموال اليتامى، وحكم النساء، وحكم المواريث، والمحرّمات، والمحلّلات في حكم السكران، والصلوات، والأمانات، والقتال، وقتل المؤمن، وصلاة الخوف، والخلع، والصلح، والشهادة، والحكم، وحكم المنافقين، وأهل الكتاب، وختمها بقوله: ﴿**يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا**﴾ أي: هذه الأحكام لئلا يخطئوا، وهذه عهود الله مع خلقه وهي أوامره ونهاهيه. وقال تع: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**﴾ [يس ٦٠/٣٦]، وقال: ﴿**أَوْفُوا بِعَهْدِي**﴾.

وذكر في آخر تلك السورة نقض أهل الكتاب العهودَ، وأمر في أوّل هذه السورة المؤمنين بالوفاء بهذه العهود مخالفة لهم، وذكر هناك أنّه حرّم عليهم الطيّبات بنقضهم المثاق، وذكر ههنا أنّه أحلّ لهم الطيبات بوفائهم المثاق.

بسم لله الرحمن الرحيم

بسم الله الذي يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، الرحمن الذي يحبهم ويحبّونه الرحيم الذي يدخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار.

﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١)**﴾

﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ**﴾ هذا خطاب تشريف، وما بعده خطاب تكليف. فقدم التشريف بالثناء على التكليف بالأداء، فقال من فتحت مصائرهم شهود حقي لا يكون كمن أعرضت عنهم من خلفي.

وقال ابن عطاء:[٥] يا أيها الذين أعطيتهم قلوبًا لا تغفل عني، ولا تحجب دوني طرفة عينٍ.

وقيل: حقيقة الإيمان تصديق القلوب بما أعْلمه الحق من الغيوب.[٦]

وقال أبو ميسرة:[٧] أنزل في هذه السورة منسوخ ، وفيها ثمانية عشر حكمًا، لم ينزلها في غيرها، قوله: ﴿**وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ**﴾، ﴿**وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ**﴾ [المائدة ٣/٥]، ﴿**وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ**﴾[المائدة ٤/٥]، ﴿**وَطَعَامُ [٢٩/و] الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**﴾، ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ**﴾ [المائدة ٥/٥]، ، **وتمام الطّهور**؛ ﴿**إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ**﴾[المائدة ٦/٥]، ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ**﴾

---

[٥] هو عطاء بن أبي ربح بن صفّان القرشي، أبو محمد (ت. ١١٤هـ/٧٣٢م). من أجِلّاء الفقهاء والمحدِّثين وتابعيّ مكة. سمع جابر بن عبد الله الأنصاري وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وخلقًا كثيرًا من الصحابة. وكان أعلم الناس بمناسك الحجِّ في زمانه. انظر: **الطبقاتالكبرى** لابن سعد، ٤٦٧/٥-٤٧٠، **وفايات الأعيان** لابن خلّكان، ٢٦١/٣-٢٦٣.

[٦] **حقائق التفسيرتفسير القرآن العزيز**، لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي، تحقيق: سيّد عمران، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م ١٦٧/١؛ **تفسيرعرائس البيان في حقائق القرآن** لصدر الدين روزبهان بن أبي نصر البقلي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨، ٢٩٢/١.

[٧] عَمْرُو بْنُ شُرَحْبِيلَ.وهو أبو ميسرة الهمداني ثم الوادعي. روى عن عمر وعلي وعبد الله ،كَانَ عَمْرُو بْنُ شُرَحْبِيلَ إِمَامَ مَسْجِدِ بَنِي وادعة، أَخْبَرَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ الضَّرِيرُ عَنِ الأَعْمَشِ عَنْ شَقِيقٍ قَالَ: مَا رَأَيْتُ هَمْدَانِيًّا قَطُّ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ فِي مِسْلاخِهِ مِنْ عمرو بن شرحبيل،قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ. قَالُوا: وَتُوُفِّيَ أَبُو مَيْسَرَةَ بِالْكُوفَةِ فِي وِلايَةِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زياد،عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: أَوْصَى أَبُو مَيْسَرَةَ أَخَاهُ الأَرْقَمَ: لا تُؤْذِنْ بِي أَحَدًا مِنَ النَّاسِ وَلْيُصَلِّ عَلَيَّ شُرَيْحٌ قَاضِي الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامُهُمْ. وَأَسْرِعْ بِجَنَازَتِي الْمَشْيَ وَلا تَجْعَلْ عَلَى لحدي إلا طن قصب.انظر: **الطبقات** لابن سعد، ١٦٣/٦.

[المائدة ٣٨/٥]، ﴿لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة ٩٥/٥]، ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ﴾ [المائدة ١٠٣/٥]، وقوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾[المائدة ١٠٦/٥].[8]

قال القرطبي:[9] وفريضةٌ تاسعةَ عشْرة، وهي قوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة ٥٨/٥]،ليس للأذان ذِكْرٌ في القرآن إلا في هذه السورة؛ وأمّا أنّه جاء في سورة «الجمعة» فمخصوصٌ بالجمعة، وهو في هذه السورة عامٌّ لجميع الصّلوات.

روي عن النبي ع م: أنه قرأ في حِجَّة الوداع سورة «المائدة» وقال : «يا أيها الناس، إنّ هذه السورة من آخرِ ما نزلَ، فأَحِلّوا حلالها، وحرِّموا حرامها».[10]

﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾: يقال: وَفَى وأَوْفَى من الوفاء ضدّ الغَدْر، وهو القيام بمقتض العهد، والنّقل إلى أفعل لا يفيد إلا المبالغة.

والعقد: العهد الموثّق. قال الحطيئة:

قَومٌ إِذا عَقَدوا عَقدًا لِجارِهِم   شَدّوا العِناجَ وَشَدّوا فَوقَهُ الكَرَبا

قَومٌ[11] هُمُ الأَنفُ وَالأَذنابُ غَيرُهُمُ   وَمَن يُسَوّي بِأَنفِ الناقَةِ الذَنَبا[12]

الممدوحون بنو أنف الناقة، سمّوا به؛ لأنّ أباهم الأكبر يُدخل يده في أنف ناقةٍ منحورةٍ كلّما حمل رأسها إلى المطبخ. وكانوا يعدّونه لقبًا شنيعًا، إلى أن أبرزه الشاعر في صورة المدح، فصاروا بعده يفتخرون به. وقيل:سموا به لهذا البيت.

و«العناج»: في الدَّلو: حبلٌ يشدّ في أسفلها، ثم يشدّ إلى العَراقي ليكون عونًا لها وللأَوْذَام، فإذا انقطعت أمسكها العناجُ، فإنّ الدلو إذا ما يوضع على رأسها خشبتان كالصليب، ويشدُّ أطرافها بالسيور، فالخشبتان العرقوتان، والسيور أوذام، فيجعل حبل في أسفل الدلو إلى العراقي، ويشدّ بها حتى لو انقطعت الأوذام قام ذلك الحبل مقامها،[13] وذلك الحبل العناج، ثمّ

---

[8] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٢٤٤/٧؛ **اللباب** لابن عادل، ١٦٠/٧.

[9] لم تُشِر المصادر التي ترجَمت له إلى سنة ولادته، وقد رجَّح بشير عيون – محقق كتاب (التذكار في أفضل الأذكار (ص: ٦٩) أنه ولد في أواخر القرن السادس الهجري تقريبًا، وذكرت الموسوعة العربية (١٦٣/١٨) أنه ولد سنة ٦٠٠هنشأ – رحمه الله – في قرطبة بالأندلس، في عصر الموحِّدين ، وانتقل منها إلى مصر، واستقرَّ بها حتى وافته المنيَّة، ، من أشهر شيوخه: ابن أبي حجة وهو الشيخ أبو جعفر أحمد بن محمد القيسي المعروف بابن أبي حجة، من أهل قرطبة [**الاعلام** للزركلي ٢١٠/١]: ، وابن أُبيِّربيع بن أحمد بن ربيع الأشوي، من أهل قرطبة وقاضيها [**التكملة** لابن الآبار ص ٥١]:،وابن الجميزيهو بهاء الدين أبو الحسن علي بن هبة الله بن سلامة اللخمي [**الأعلام** للزركلي ٢٨٤/١٣]:، وذكر الإمام السيوطي في طبقات المفسرين أنَّ من تلاميذه ابنه حيث قال: "وروى عنه بالإجازة ولده شهاب الدين أحمد." وافته المنية في الصعيد الأدنى بمصر، وذلك يوم الاثنين من شهر شوال من سنة إحدى وسبعين وستمائة (٦٧١هـ)، ودفن هناك – رحمة الله عليه.

[10] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٢٤٤/٧.

[11] ج – قوم.

[12] **ديوان الحطيئة برواية وشرح** لابن السكيت، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ص ٤٥؛ **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، جار الله الزمخشري، رتَّبه وضبَطه وصحَّحه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ٥٨٨/١؛ **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**؛ ناصر الدين الشيرازي البيضاوي، تحقيق: محمد صبحي بن حسان حلاّق، محمود أحمد الأطرش، دار الرشيد، بيروت/لبنان ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ٤١٦/١.

[13] **حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي**؛ محيي الدين محمد بن مصلح الدين مصطفى، شيخزاده، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ٤٦٣/٣.

يشدّ حبلٌ آخر في وَسَط العَرَاقي يوثنّي و يُثلّث ليكون هو الذي يلي الماءَ فلا يعفَن الحبلُ الكبير، وذلك الكرب وهو في أعلى الدّلو، والعناج في أسفلها، ثمّ يجعل الحبل الكبير الذي ينزح به.[١٤]ويقال: يَمْلأُ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَبِ[١٥] لمن يبالغ فيما يَلِي من الأمر.

وفي البيت إشارةٌ إلى كون العقد بمعنى العهد، مستعارًا من عقل الحبل حيث رشح بذكر الحبل والدَّلو وما يتعلّق بهما،[١٦] والمقصود والمبالغة في وصف قومه بالوفاء، وأصل العقد الجمع بين الشيئين بحيث يعسر الإنفصال.[١٧]

وهي عقود الله التي عَقدها على عباده وألزمها إيَّاهم من مواجب التَّكليف.[١٨] جمع موجب اسم مفعول، يعني: ما أوجبه التكاليف من أداء الواجبات لزومًا، والمندوبات رجحانًا، واجتناب المحرّمات والمكروهات،كذلك وهذا أوفق لعموم اللفظ وأوفى بعموم الفائدة.[١٩]

وقيل: ما يعقدون بينهم من عقود الأمانات ويتحالفون عليه ويتماسحون من المبايعات ونحوها.[٢٠] لكن الحمل على تحليل الحلال، أي: إعتقاد حلّه والعمل على وفقه، وتحريم الحرام كذلك أظهر نظرًا إلى ما يشعر به سوق الكلام من الإجمال والتفصيل. لا يقال: السورة مشتملة على أمَّهات التكاليف في الأصول والفروع لا يختصُّ بالتحليل والتحريم، وكفى بقوله تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ**﴾ [المائدة ٢/٦]﴿**اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾ [المائدة ٨/٦]، فلا يلزم حصر المجمل على التَّحليل والتَّحريم، ولو سلّم فليكن من التفريع على الأصل لا التفصيل للمجمل، كما تقولوا: امتثلوا أوامر الله أقيموا الصلوة، وآتوا الزكوة، وصوموا رمضان؛ لأنَّا نقول: المراد إنَّ ما وقع في معرض التَّفصيل هو التحليل والتحريم، وظاهر أن ليس بجميع السورة كذلك، وأنَّ المذكور بالتفصيل أوفقُ منه بالتفريع.[٢١] وهذا تقرير كلام المصنّف.

وقال قدس سره:[٢٢] يعمُّ ما عقده الله على عباده، وما يَعْقِدون بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها ممَّا يجب الوفاء به، أو يحسن إن حملنا الأمر على المشترك بين الوجوب والنّدب.[٢٣]ونظره إلى إنَّه جمع محلّى باللّام؛ ليعمَّ الجميع.

---

[١٤] **فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب**؛ لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، تحقيق: إياد محمد الغوج، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م؛ ٢٥٢/٥-٢٥٣؛ **حاشية الكشاف للتفتزاني**، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني،مكتبة سليمانية، نسخة: يوسف آغا، مرقّمة (٧٢)، ٢٥٩و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**؛ تحقيق: محمد فاضل جيلاني، مركز جيلاني للبحوث العلمية والطبع والنشر، إسطنبول، الطبعة الاولى، ٢٠٢١/١٤٤٣، ٦٠٦/٣؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٥٩و؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤٦٣/٣.

[١٥] **مجمع الأمثال** لأبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النسابوري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت — لبنان، د.ت. ٤٢١/٢.

[١٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٥٩و.

[١٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤١٦/١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤٦٣/٣.

[١٨] **الكشاف** للزمخشري، ٥٨٩/١.

[١٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٥٩و.

[٢٠] **الكشاف** للزمخشري ٥٨٩/١.

[٢١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٥٩و؛ **حاشية الشهاب (عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي)**، أحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المصري الحنفي، دار صادر، بيروت، د.ت ٢١٠/٢.

[٢٢] عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي، أبو سعيد، أو أبو الخير، ناصر الدين البيضاوي: قاض، مفسر، علامة. ولد في المدينة البيضاء (بفارس -قرب شيراز) وولي قضاء شيراز مدة. وصرف عن القضاء، فرحل إلى تبريز فتوفي فيها.من تصانيفه " أنوار التنزيل وأسرار التأويل – ط " يعرف بتفسير البيضاوي، من شيوخه والده الإمام أبو القاسم عمر بن محمد بن علي البيضاوي، (ت: ٦٧٥هـ) أخذ عنه الفقه على مذهب الشافعي،

وقال **أبو اللث:**[٢٤] هي ثلثة: ما عقده الله عليهم، وما عقدوه بينهم وبين الله كالنُّذور، وما عقدوه بينهم.[٢٥]

واحتجَّ به أبو **حنيفة:**[٢٦] عل أنَّ من نذر صوم يوم العيد، أو ذبح الولد، يجب عليه أن يصوم يومًا يحلّ فيه الصوم، ويذبح ما يحلّ ذبحه؛ لأنَّه عهد فوجب الوفاء بما صحّ، وعلى أنَّ خيار المجلس غير ثابتٍ؛ لآنَّ العاقدين لَمَّا عقدا وجب الوفاء فلا يفسخ بلا تراضٍ.

وعلى أنَّ الجمع بين الطلقات حرام؛ لأنَّ النِّكاح عقد، فوجب أن يحرم رفعه، وقد تُرك العمل بعمومه في حقِّ الطلقة الواحدة بالإجماع، فيبقى فيما عداها على الأصل.[٢٧]

﴿**أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ**﴾ قال المصنّف:[٢٨] البهيمة: كلُّ ذات أربع في البرّ والبحر.[٢٩] وقال قدس سره: كلُّ حيّ لا يميز.[٣٠]

وكان من الأئمة وتولى القضاء بشيراز ، أخذ عن الإمام البيضاوي من لا يحصى كثرة من التلامذة، عرف منهم: الشيخ الإمام فخر الدين أبو المكارم أحمد بن الحسن الجاربردي (ت: ٧٤٦هـ) و الشيخ كمال الدين أبو القاسم عمر بن إلياس بن يونس المراغي، مات بتبريز في سنة ٦٨٥ هـ الموافق عام ١٢٩٢م وقيل: سنة ٦٩١ هـ وأما قول الشهاب الخفاجي في حاشية التفسير: إنه توفي سنة ٧١٩هـ، فمما لا يعول عليه. **الأعلام** خير الدين بن محمود الزركلي، دار العلم للملايين، د.م، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م ، ١٠٩/٤.

[٢٣] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤١٢/١.

[٢٤] هو أَبُو اللَّيْث السَّمَرْقندي (٣٧٣هـ-٩٨٣م) نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السَّمَرْقَنْدي، أبو الليث، الملقب بإمام الهدى: علامة، من أئمة الحنفية، من الزهاد المتصوفين. له تصانيف نفيسة، منها (تفسير القرآن) أجزاء متفرقة منه، وهو غير كبير، اقتنيت منه الجزء الأخير، أوله تفسير سورة " الحاقة " وله (عمدة العقائد) و (بستان العارفين) تصوف، سماه (البستان) و (خزانة الفقه) رسالة، و(تنبيه الغافلين) مواعظ، و (فضائل رمضان) و (المقدمة) في الفقه، و(شرح الجامع الصغير) في الفقه، و(عيون المسائل) فتاوى وتراجم، و (دقائق الأخبار في بيان أهل الجنة وأهوال النار) و (مختلف الرواية) في الخلافيات بين أبي حنيفة ومالك والشافعيّ، و(شرعة الإسلام)، و(النوازل من الفتاوى) و(تفسير جزء: عم يتساءلون) موجز، ورسالة في (أصول الدين) انظر: **الأعلام** للزركلي ٢٧/٨.

[٢٥] **بحر العلوم (تفسير السمرقندي)**، لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، تحقيق: علي محمد معوّض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت–لبنان ١٤١٣هـ /١٩٩٣م، ٤١٢/١.

[٢٦] هو أبو حنيفة (٨٠-١٥٠ هـ / ٦٩٩ - ٧٦٧م) النعمان بن ثابت، التيمي بالولاء، الكوفي، أبو حنيفة: إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. قيل: أصله من أبناء فارس. ولد ونشأ بالكوفة. وكان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه، ثم انقطع للتدريس والإفتاء. وأراده عمر بن هبيرة (أمير العراقين) على القضاء، فامتنع ورعا. وأراده المنصور العباسي بعد ذلك على القضاء ببغداد، فأبى، فحلف عليه ليفعلن، فحلف أبو حنيفة أنه لا يفعل، فحبسه إلى أن مات (قال ابن خلكان: هذا هو الصحيح) .وكان قويّ الحجة، من أحسن الناس منطقا، قال الإمام مالك، يصفه: رأيت رجلا لو كلمته في السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته! وكان كريما في أخلاقه، جوادا، حسن المنطق والصورة، جهوريّ الصوت، إذا حدّث انطلق في القول وكان لكلامه دويّ، وعن الإمام الشافعيّ: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة. له (مسند) في الحديث، جمعه تلاميذه، و (المخارج) في الفقه، صغير، رواه عنه تلميذه أبو يوسف. وتنسب إليه رسالة (الفقه الأكبر) ولم تصح النسبة. توفي ببغداد. انظر: **الاعلام** للزركلي ٣٥/٨.

[٢٧] **اللباب** لابن عادل، ١٦٣/٧-١٦٤.

[٢٨] هو الزَّمَخْشَرِي (٤٦٧- ٥٣٨هـ/١٠٧٥- ١١٤٤ م) محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشريّ، جار الله، أبو القاسم: من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب. ولد في زمخشر (من قرى خوارزم) وسافر إلى مكة فجاور بها زمنا فلقب بجار الله. وتنقل في البلدان، ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم) فتوفي فيها. أشهر كتبه (الكشاف) في تفسير القرآن، و (أساس البلاغة) و (المفصل). وكان معتزلي المذهب، مجاهرا، شديد الإنكار على المتصوفة، أكثر من التشنيع عليهم في الكشاف وغيره. انظر: **الاعلام** للزركلي ٣٥/٨.

[٢٩] **الكشاف** للزمخشري، ٥٨٩/١.

وقيل: هذا هو الأصل، ثمَّ جعل اسمًا لذوات الأربع، وهو من استبهم الأمر على فلان إذا أشكل، ولم يدر طريق الوصول إليه،[٣١] وذلك لما في صورتها من الإبهام، أو لما أبهم من جهة نقص الفطن، والفهم.

﴿**ٱلْأَنْعَامِ**﴾ الأزواج الثمانية، فالإضافة[**٢٩**/ظ] للبيان؛ فإنَّ العامَّ قد يضاف إلى الخاصِّ،

ولذلك وهي الإضافة التي بمعنى «مِنْ» كخاتَم فضَّة، ومعناه: البهيمة من الأنعام[٣٢]

وقد اشترطوا في الإضافة بمعنى من كون المضاف إليه جنس المضاف كالفضّة للخاتم، وههنا الأمر بالعكس، و «من» في البهيمة من الأنعام لا يكون إلا بيانية، وفي خاتم من فضّة بيانية، أو ابتدائية، أو تبعيضيَّة.[٣٣]

ومن ههنا يظهر أنَّ تمثيله قدس سره بقولهم: ثوب خزّ، يكون أولى من التمثيل به، وألحق بالأنعام الظباء وبقر الوحشي. وقيل: هما المراد البهيمة ونحوهما مما يماثل الأنعام في الاجترار وعدم الأنياب.[٣٤]

فالإضافة بمعنى اللّام على جعل ملابسة الشَّبه اختصاصًا بينهما، أو بمعنى «من» البيانية على جعل المشبه نفس المشبه به على طريقة: زيد أسد، و«الاجترار»: إخراج الجرّة، وهي ما يجرّه النعم من العلف من الكرش إلى الفم، فيمضغه، ثم يبتلعه.[٣٥]

وههنا سؤالان: الأول: أنه لو قيل: أحلّت لكم الأنعامُ ليتم الكلام بدليل قوله: ﴿**وَأُحِلَّتْ لَكُم ٱلْأَنْعَامُ**﴾ فأتى فائدة في زيادة لفظ البهيمة. الثاني: لفظ «البهيمة» مفرد، «والأنعام» جمع.

وأجيب عن الأوَّل: بأنَّا إن حملنا بهيمة الأنعام على شيئين متغايرين، وجعلنا الإضافة بملابسة الشبه فالأمر ظاهر، وإن حملناهما على شيءٍ واحد، فالفائدة سلوك طريق الإبهام والتَّفسير، وعن الثاني: بأن الاختلاف الواقع بحسب الإفراد والجمع إنَّما هو في اللَّفظ، فإن مضى الجمعية مضمحلة في الأنعام، وليس فيه إلا معنى الجمعية، كما في البهيمة، فإن من حلف لا أتزوّج النساء يحنث بتزوج واحدة لتحقق شرط الحنث وهو تزوّج الجنس.

ولَمَّا ورد أن يقال: إنَّ ﴿**مَا يُتْلَىٰ**﴾ استثناء متصل من ﴿**بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ**﴾ وليس من جنسها؛ لأنَّ المتلو لفظ، حاول العلامتان جعل المستثنى من جنس المستثنى منه بتقدير مضاف محذوف، من ﴿**مَا يُتْلَىٰ**﴾ الذي يكون عبارة عن البهائم المحرّمة، لقوله: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ**﴾إلى قوله: ﴿**عَلَى ٱلنُّصُبِ**﴾ [المائدة ٣/٥] وبآياتٍ أخر تلائم ذلك تقديره: إلا محرَّم ما يتلى عليكم، أي: إلا الذي حرمه المتلو من القرآن، أو من فاعل ﴿**يُتْلَىٰ**﴾، أي: يتلى بآية تحريمه على طريقة: اسأل البحار، أي: سقيا سحابه،[٣٦] في قوله لوَصْف البرق:

ألا مَــنْ رأى لي رأيَ بَــرْقٍ شــريقِ أســالَ البِحــارَ فــانْتَحَى للعَقِيــقِ[٣٧]

---

[٣٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤١٦/١.

[٣١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤٦٤/٣.

[٣٢] **الكشاف** للزمخشري، ٥٨٩/١.

[٣٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٥٩و؛ **حاشية الشهاب على البيضاوي**، ٢١١/٢.

[٣٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤١٦/١.

[٣٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٥٩و-ظ؛ **حاشية الشهاب**، ٢١٠/٢.

[٣٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٥٩و-ظ.

[٣٧] **كتاب شرح المفصل** لابن يعيش، ٢٠٠/٢؛ **المفصل** للزمخشري، ص ١١٢؛ **مفتاح العلوم** للسكاكي، ص ٣٤٨.

البحار والعقيق: موضعان.

فـ﴿يُتْلَى﴾ في الأصل مسندًا إلى أنَّه مضافة إلى تحريمه، فحذف المضاف الأول فقام المضاف إليه مَقامه وهو «تحريمه»، ثم حذف المضاف الثاني، وهو تحريم فقام الضميرُ المجرورُ مَقامه فانقلب مرفوعًا، واستَتَر في ﴿يُتْلَى﴾.[٣٨]

ولا يبعد في هذا الوجه اعتبار التجوّز في الإسناد فلا يحتاج إلى تقدير مضاف، وعلى التقديرين كان استثناءُ متَّصلًا منصوب المحلِّ لكونه استثناءً متصلًا من موجب، كأنه قيل: أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا الميتة إلى آخره.

وأمّا جعل الاستثناء مفرَّغًا من الموجب في موقع الحال، أي: إلا كائنة من الحالات المتلوة، فبعيد جدًّا مع الاحتياج إلى التأويل في كونها متلوةً؛ لأن المتلوَّ ما يدلُّ على هذه الأحوال،[٣٩] ثم إنَّ الآية إشارةٌ إلى رد قول الثنوية الذين لا يرون ذبح الحيوان وأكله، ويقولون: هي بهائم لا تعقل وذبحها وأكلها من القسوة وقلة الرحمة، فأخبر تعالى: أن الحكم لله والخلق كله لله، وتناولها بأمر الله نعمة، ومنه على عباده ليقوموا على عباداته.[٤٠]

﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ الاولى حال من الضمير في ﴿لَكُمْ﴾.[٤١] وهذا إنما يصح إذا أريد بهيمة الأنعام نحو: الظباء؛ إذ ح يظهر للتقييد بهذه الحال فائدة؛ إذ يصير المعنى ح: أحلت لكم ما يماثل الأنعام من الوحشيات، حال انتفاء كونكم يحلّون الصَّيد وأنتم حرم.

وأما إذا أريد الانعام المستثنى منها البعض ففيه تقييد لإحلال بهذه الحال وليس كذلك. ويمكن دفعه بأنَّ المراد بالأنعام أعمُّ من الإنسي والوحشي مجازًا أو تغليبًا أو دلالةً أو كيف ما شئت، وإحلالها على عمومها مختصّ بحال كونكم غير محلين للصيد في الإحرام أو معه تحريم البعض وهو الوحشي،[٤٢]أو من واو بـ﴿أَوْفُوا﴾ والتقدير: أوفوا بالعقود في حال انتفاء كونكم محلّين الصيد.

وفيه لزوم الفعل بين الحال وصاحبها بجملة أجنبية، ولا يفصل بينهما إلا بالاعتراضية، وهي أعني: أحلت لكم بهيمة الأنعام ليست اعتراضيةً، بل مورده لحكم مستقل، والاعتراض إنما يفيد التأكيد، ولزوم تقييد الأمر بإيفاء العقود بهذه الحال، وهو مأمور بكل حال.

وقيل: استثناء من بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم إلا الصيد في الإحرام، وفيه أن غير في الاستثناء قليل، والحمل عليه مع الاستغناء عنه تعسف، ولا سيما أن أداة الاستثناء دخلت على إحلال الصيد لا على الصيد، فجعل الإحلال مستثنى من البهيمة، فيه تعسُّف أيضًا، والثانية: حالٌ من المستكنّ في محلي، وجعله حالاً من نفس محلي يستلزم وقوع الحال من المضاف إليه في غير المواضع المستثناة، وأما جعل الأولى حالًا من فاعل أحللنا المدلول عليه بقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ﴾، ويستلزم جعل الثانية[٤٣] أيضًا حالًا من مقدر، أي: حال كوننا غير محلين الصيد لكم في حال إحرامكم. فليس ببعيد إلا من جهة انتصاب

---

[٣٨] **فتوح الغيب** للطيبي ٢٥٦/٥.

[٣٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٥٩و؛ **حاشية الشهاب**، ٢١١/٢.

[٤٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤٦٤/٣.

[٤١] **الكشاف** للزمخشري، ٥٨٩/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤١٦/١.

[٤٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٥٩ظ؛ **حاشية الشهاب**، ٢/-٢١١-٢١٢.

[٤٣] أي: «وَأَنْتُمْ حُرُمٌ».

حالين متداخلين من غير ظهور ذي الحال في اللفظ. وترجيحه بأن التحليل والتحريم شأن الشارع دون المكلفين ليس بشيء؛ لأنَّ معناه تقرير الحل والحرمة عملًا واعتقادًا، وهو سائغ في الكتاب والسنة،[٤٤] كما ذكر في قوله ع م: «فَأَحِلُّوا حَلَالَهَا وحَرِّمُوا حَرَامَهَا».[٤٥]

والصيد يحتمل المصدر والمفعول؛ فإنه في الأصل: مصدر صاد يصيد، فيطلق على المصيد كما يطلق ضرب الأمير على مضروبه، فإن كان باقيًا على مصدريته يكون المعنى: غير محلين الاصطياد وأنتم محرمون، وإن كان بمعنى المفعول يكون: غير محلين الشيء المصيد وأنتم محرمون.[٤٦]

و﴿**حُرُمٌ**﴾ جمع حرامٍ، بمعنى: محرم. ويجوز أن يكون هو اسمًا كالجنب سمي به الواحد والجمع. قال تع تعالى: ﴿**وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا**﴾ [المائدة ٦/٦] والحرم، والمحرم واحد، يقال: أحرم فلان إذا دخل في الحرم أو في الإحرام.

والآية مع قصر ألفاظها تتضمَّن خمسة أحكامٍ: الوفاء بالعقود، وتحليلُ بهيمة الأنعام، واستثناء ما يتلى آية تحريمه، واستثناء حال الإحرام فيما يُصاد، وما يقتضي ذلك من إباحة الصيد لمن لم يحرم.

حكي: أن أصحاب الكندي قالوا له: أيّها الحكيم، اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال: نعم، أعمل لكم مثلَ بعضه، فاحتجب أيامًا، ثم خرج فقال: والله ما أقدر، ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف، فخرجت سورةُ المائدة، فنظرتُ، فإذا هو قد نطق بإلزام الوفاء، ونهى عن النَّكث، وحلَّل تحليلًا عامًّا، ثم استثنى استثناءً بعد استثناءٍ، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أحدٌ أن يأتي هذا إلا في الأَجْلَاد.[٤٧]

﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ**﴾ من تحليل وتحريم.[٤٨] فأباح الأنعام في جميع الأحوال، وأباح الصيد في بعض الأحوال؛ لأنه مالكُ الأشياء وخالقها، فلا اعتراض عليه في حكمه.

وفيه ردٌّ للمعتزلة؛ لأنهم يقولون: يريد الله طاعة كل أحد، ولو أراد ذلك لحَكم به إذا أخبر أنه يحكم ما يريد، ولا جائز أن يريد ولا يحكم، ولو حكم لنَفذ حكمه، فدلَّ أنه لم يرد.

وقال جعفر: حكم بما أراد، وأمضى إرادته ومشيئته، فمَن رضي بحكمه استراح وهدي لسبيل رشده، ومَنْ سخط فإن حكمه ماضٍ، وله فيه السخط والهوان.[٤٩] نعوذ بالله من الخذلان.

﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)**﴾

---

[٤٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٥ظ؛ **حاشية الشهاب**، ٢١٢/٢.

[٤٥] **فضائل القرآن** أبو عبيد، ص ٢٣٩.

[٤٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٤٦٦/٣.**

[٤٧] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٢٤٥/٧-٢٤٦.

[٤٨] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤١٧/١.

[٤٩] **حقائق التفسير** لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي، تحقيق: سيّد عمران، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ١٦٨/١؛ **عرائس البيان** للبقلي، ٢٩٥/١.

لَمَّا أراد أن يشرعَ في عقد من العقود المعتبرة في الدين، وهو شرعية مناسك الحجّ، وتعظيم شعائر الله على وجه يستتبع أحكامًا جمّة، ذكر تحليل بهيمة الأنعام توطئةً وتسبيبًا لذكر تعظيم شعائر الله، واستثنى منها ما هي محرَّمة على الإبهام المستدعي للتفصيل والبيان، وجعل قوله: ﴿**غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ**﴾ توطئةً للتوطئة ليتخلَّص منها إلى المقصود بسببه مشتملًا على معنى رفع الحَرَج امتنانًا، ثم أتى بما أُجري له الكلام معظَّمًا مفخَّمًا، فكرّر النداء والتنبيه، وذكر المؤمنين بعد استهلال السُّورة به اعتناءً بشأن المتلقِّ بعده.[٥٠]

ويعني: شعائر الله مناسك الحج، جمع شعيرة، وهي: اسم ما أشعر، أي: جُعل شعارًا وقد صرَّح العلاّمتان[٥١] في أمثال هذه المواضع بلفظ الاسم؛ لئلا يتوّهم أنه صفة حيث كان له اشتقاق ظاهر ودلالة على معنى زائد على الذات، ودليل عدم الوصفية أنه لا يجري على الموصوف، ولا يعمل عمل الفعل، ولم يعدّ الهدى في الشعائر مع ورود النّص بذلك نظرًا إلى عطفها عليها. ولم يجعله من قبيل: ﴿**وَمَلَائِكَتِهِ وَجِبْرِيلَ**﴾ [البقرة ٢/٩٨] لعدم فضلها على سائرها، لا للفضل بالشهر الحرام؛ فإن رسله وكتبه أيضًا فاضل.[٥٢]

قال ابن عباس: لا تستحلُّوا شيئًا من ترك المناسك؛ من الطواف بالبيت، والسّعي بين الصّفا والمروة، ومسح الرّكن، والوقوف بعرفات والمزدلفة، ورمي الجمار، واستلام الحجر وغير ذلك.[٥٣]

والأنصار كانوا لا يسعون بين الصفا والمروة، وكان أهل مكة لا يخرجون إلى عرفات، وكان أهل اليمن يرجعون من عرفات، فسمي أعمال الحج ومواقفه بها، لأنها علامات النظر وإعلام المناسك.

وقيل: دينُ الله لقوله: ﴿**وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ**﴾ [الحج ٢٢/٣٢] أي: دينَه.

وقيل: فرائضه التي حدَّها لعباده أي: لا تحلّوا شيء من شرائع الله.[٥٤]

وفسر المصنف: الشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ بشهر الحجِّ قضاءً لحقِّ المناسبة لما قبله وما بعده، وإلا فالشهر الحرام: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، ومحرّم، وشهر الحج: شوّال، وذو القعدة، وعشر ذي الحجة، ولا اشتراك إلا في شهر، وبعض أشهر، ووجه الصحة أن معظمه من أشهر الحج.[٥٥]

فقلت: والمراد حرمة القتال فيه، وهي لا تختص بشهر الحج؛[**٣٠**/ظ] لتناوله رجب ولا يعمّه لعدم تناولها الشوَّال. فعلى إرادة الأشهر يكون من إطلاق الواحد على الجنس، ويجوز أن يراد رجب؛ لأنه أكمل هذه الأشهر الأربعة في الصفة.

وقال ابن زيد: هي النَّسيء؛ لانهم يحلّونه عامًا ويحرّمونه عامًا.[٥٦]

والهدي: ما أُهدي إلى الكعبة تقرّبًا من ناقة أو بقرة أو شاة، جمع هدْيَة،كجَدْيٍ جمع جديَة السّرج.[٥٧]

---

[٥٠] **فتوح الغيب** للطيبي ٥/٢٥٧.

[٥١] **الكشاف** للزمخشري، ١/٥٩٠؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤١٦.

[٥٢] **حاشية الكشاف** للتفتازاني، ٢٩٦و.

[٥٣] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي، تحقيق: ماهر أديب حبّوش، دار اللباب، الطبعة الأولى، إسطنبول- تركيا ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م، ٥/٢٩٠.

[٥٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤١٧؛ **بحر العلوم** لعلاء الدين علي بن يحيى السمرقندي، مكتبة سليمانية، نسخة أسد أفندي، مرقمة: ٦٧، ٢و.

[٥٥] **حاشية الكشاف** للتفتازاني، ٢٩٦و.

[٥٦] **الكشاف** للزمخشري، ١/٥٩٠؛ **اللباب** لابن عادل، ٧/١٧٧.

ومن عمّم الشعائر بالهدى جعل ذكره ثانيا للتخصص، وقد عرفت ما فيه.ومن فسر الشعائر بالهدي جعلها ما كان مُشعَرًا، أي: معلَمًا بإسالة الدَّم من سَنامه، والهدي الذي لم يُشْعَر بذلك، بل اكتُفى بغيره، ومن فسرها بالبدن فسر الهدي بالبقر والغنم.[٥٨]

والمراد بـ«القلائد» ذوات القلائد من الهدي، عطفًا عليه للاختصاص، فإنها أشرف الهدي، والقلائد أنفسها مبالغةً في النهي عن التّعرض للهدي،[٥٩]على معنى: لا تحلّوا قلائدها فضلًا أن تحلّوها أصل هذا التعبير، نفي منع إحلال قلائدها عن إحلالها أي: انتفى جواز إحلالها بالكلية، ونفي النفي عن إحلال قلائدها، ونظيره قوله: ﴿**وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ**﴾ [النور ٢٤/٣١]، فنهى إبداء الزينة مبالغةًفي النهي عن إبداء مواقعها.[٦٠]

و«القلائد»: جمع قلادة، وهي ما قُلِّد به الهدي من نعلٍ أو لِحاء شجرٍ، أو غيرهما ليُعلم به أنه هدي فلا يُتعرض له.[٦١] وكانوا في الجاهلية إذا أرادوا الخروج من الحرم قلَّدوا أنفسهم وإبلهم كي لا يُتعرّض، ونهى الشرعُ عن استحلال شيءٍ منه.[٦٢]

﴿**وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا**﴾ أي: القاصدين لزيارته من: أمَّ يؤمّ أمًّا إذا قصد، و﴿**الْحَرَامَ**﴾ المحرم المحرَم.

﴿**يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا**﴾ أي: يطلبون ثوابًا منه ورضوانًا، وفيه استنكار تعرّضهم، والتّنبيه على المانع له، أي: لا تتعرّضوا لقومٍ.

هذه صفتهم ﴿**آمِّينَ**﴾ و﴿**يَبْتَغُونَ**﴾ صفتان لموصوف محذوفٍ،لا أن يكون ﴿**يَبْتَغُونَ**﴾ صفة ﴿**آمِّينَ**﴾؛ ليرد عليه أن اسم الفاعل، إذا أُضيف لا يعمل فيالسعة لضعف شبهه بالفعل، وإن ﴿**آمِّينَ**﴾ إذا كان مفعول ﴿**لَا تُحِلُّواْ**﴾كانغير معتمدٍ فلم يصحّ عمله.

فسقط ما قال أبو البقاء، وتبعه قدس سره. إن ﴿**يَبْتَغُونَ**﴾ في موضعالحال من الضّمير في ﴿**آمِّينَ**﴾ ولا يجوز أن يكون صفة لـ﴿**آمِّينَ**﴾، والمعنى: لا تُحِلُّوا قتال قوم آمِّين نعم، يتوجهإنه إذا جاز الاعتماد على الموصوف المقدر كان اشتراط الاعتماد لغوًا، ولا يمتنع العمل في شيء من الصور.[٦٣]

وعن ابن عباس: كان المسلمون والمشركون يحجّون جميعًا، فنهى الله المسلمين أن يمنعوا أحدًا عن حجّ البيت لقوله: ﴿**لاتُحِلُّوا**﴾، ثم نزل بعد ذلك ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**﴾ [التوبة ٩/٢٨]، ﴿**ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ**﴾ [التوبة ٩/١٧].[٦٤]

---

[٥٧] **الكشاف** للزمخشري، ١/٥٩٠؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤١٧؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/٤٦٨.**اللباب**، لابن عادل، ٧/١٧٧.

[٥٨] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٧/٢٥٧؛**اللباب**، لابن عادل، ٧/١٧٧.

[٥٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٢٣٧-٢٣٨.

[٦٠] **الكشاف** للزمخشري، ١/٥٩٠؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤١٧؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/٤٦٨؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٦و.

[٦١] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤١٧.

[٦٢] **اللباب**، لابن عادل، ٧/١٧٨.

[٦٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٦و؛ **حاشية الشهاب**، ٢/٢١٢-٢١٣.

[٦٤] **الكشاف** للزمخشري، ١/٥٩٠؛ **إرشاد العقل السليم** لأبي السعود، ٣/١٢.

روي أن الآية نزلت عام القضية، أي: قضاء العمرة التي أحصر عنها في العام الماضي في حجّاج اليمامةبما همَّالمسلمون أن يتعرّضوا لهم بسبب أنه كان فيهم الحطيم: شريحُ بن ضُبَيْعَة، إذ كان قبل إلى المدينة، ودخل على النبي، فقال: إلى ماذا تدعو الناس؟ فقال: «إلى شهادةِ أن لا إله إلا الله، وإقام الصلوة، وإيتاء الزكاة»، فقال: حسن، ألا إنَّ لي أصحابًا لا أقطع أمري دونهم، ثمَّ خرج فقال ع م: «دخل بوجهٍ كافرٍ، وخرج بقفا غادرٍ، فمرّ بسَرْح المدينة واستاقها، فلمَّا كان في العام القابل خرج معهم، فبلغ ذلك أصحاب السَّرح، فقالوا له عليه السلام: هذا الحُطَمُ خرج حاجًّا في بكر بن وائل، فخلِّ بيننا وبينه، فقال عليه السلام: «إنه قلّد الهدي»، قالوا: يارسول الله، هذا شيء كنَّا نفعله في الجاهلية، فأبى ع م فنزلت.[٦٥]

ولَمَّا ورد على الروايتين أن المشركين لا يبتغون الفضل والرضوان، فكيف يدخلون في عموم﴿**وَلَا آمِّينَ**﴾، أو وكيف يكون المراد هؤلاء؟

أجاب عنه العلَّامتان:[٦٦] بأن المراد حينئذ ابتغاء الفضل بالتجارة دون الثواب؛ لأنّ المشركين ما كانوا يعرفون الآخرة، ولا يعترفون بها. وأمَّا ابتغاؤهم الرِّضا من الله، فقد كان في ظنّهم فوصفهم الله بذلك؛ بناءً على ظنّهم، لكن يردُّ عليه أنَّ ذلك الوصف إنما ذكر في معرض التَّعليل للكفِّ عنهم، وابتغاء التجارة والرضوان المتوهّم الذيلا يكون ألبتّة لا يصلح علّة للكفّ، والجواب: أنه مبالغة في الكفِّ عن المسلمين بأنّ توهّم الكفّ يوجب الكفَّ، فكيف تحقّقه وإحماد لما عليه الحجَّاج، والعمَّار، وترغيب عنه.[٦٧]

وهذا واضح على أن يرادالمشركون، كما هو مقتضى الرِّواية الثانية، وأمَّا على التعميم كما هو مقتضى الرواية الأولى، فيلزم تعميمالفضل بالثواب، والتجارة، وابتغاء الرضا بالمتحقّق والمتوهّم.

وفيه ما لا يخفى، ثم إنهم اختلفوافي أن قوله تع: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَلَا آمِّينَ**﴾ محكمة أو منسوخة.

فقيل: محكمة، والمراد بـ﴿**الآمِّينَ**﴾ المسلمونولكن يشكل بقوله: ﴿**وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ**﴾.

وقيل: منسوخةٌ لما فيها من حرمة القتال في الشهر الحرام، وقد نسخت بقوله تع: ﴿**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ**﴾ [البقرة ١٩١/٢] ومن حرمة منع المشركين عن المسجد الحرام. وقد نسخت بقوله: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**﴾الآية [التوبة ٢٨/٩]، ﴿**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ**﴾/ الآية [التوبة ١٧/٩] [**٣١/و**].

ولا خفاء في أن نسخ ﴿**وَلَا آمِّينَ**﴾ إذا كان للمسلمين والمشركين، إنما هو في حقِّ المشركين خاصة، وهو في الحقيقة تخصيص، لكن لَمَّا كان المخصّص متراخيًا لا مقارنًا سمّي نسخًا على ما هوقاعدة أصول الحنفية، وأما إذا كان للمشركين فالنسخ ظاهر.

وقرئ: «تَبْتَغُونَ»[٦٨] خطابًا للمؤمنين، وفيه قلق؛ لأنه يقتضي أن يقال: من ربكم.

---

[٦٥] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٢٩٣/٥؛**الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٧/ ٢٦٣-٢٦٤.

[٦٦] هما: الزمخشري البيضاوي.

[٦٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٦ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ١٨٧/٣

[٦٨] قراءة شاذّة مروية عن الحميد. **الكشاف** للزمخشري، ٥٩٠/١؛ **شواذ القراءات** لرضيّ الدّين شمس القرّاء أبي عبد الله محمّد بن أبي نصر الكرماني، تحقيق: شمران العجلي، مؤسسة البلاغ، بيروت-لبنان، ص ١٤٩؛ **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه. ص٣٧.

و﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّق بمحذوف صفة ﴿فَضْلًا﴾، فحذف صفة ﴿رِضْوَانًا﴾ للدلالة، أو بالفعل فلا حاجة إلى الحذف.

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ مربوط بقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ أذِن في الاصطياد بعد زوال الإحرام بعد المنع عنه في حالة الإحرام يعني: إذا كان المانع من حلّ بالاصطياد هو الإحرام، فإذا زال الإحرام وجب أن يزول المنع.[٦٩]

وقال قدس سره: لا يلزم من إرادة الإباحة ههنا من الأمر دلالة الأمر الآتي بعد الحظر على الاباحة.[٧٠]

وعلَّله بعض المحشِّين: بأنه لا يلزم من اعتبار الأخصّ ووجوده اعتبار الأعمّ ووجوده.

وأنت خبير: بأنه ليس من باب الأخصّ والأعمّ، ولئن سُلِّم ذلك فلا نسلم عدم اللزوم المذكور، بل التقرير أن يقال: لما استقلالقائل بدلالة الأمر الوارد بعد الحظر على الاباحة ههنا مع أن المتبادر من الأمر الوجوب، فإنه إذا حمل عليها ههنا يلزمه الحمل عليها في سائر المواضعالتي ورد فيها،كذلك أجاب عنه قدس سره بما حاصله: أن ظاهر الأمرإفادة الوجوب، سواء ورد بعد الحظر أو ابتداء، وإنما عرفنا أن الامر ههنا لم يعُد الوجوب بدليل منفصل؛ فإن الآية المتقدّمة لما دلَّت على أن الإحرام مانع لحلّ الاصطياد، فإذا زال المانعوهو الإحرام عاد حلّ الاصطياد ومباحيته، لا إن الإباحة مستفادة من نفس الأمر الوارد بعد الحصر، حتى يدلّ على ما ذكر.[٧١]

وقرئ: «أَحْلَلْتُمْ»،[٧٢] وهي لغة في «حلّ»، يقال: أحلَّ من إحرامه، كما يقال: حَلَّ.

وقرئ: بكسر الفاء[٧٣] العاطفة، وهي قراءة ضعيفة مشكلة.

وخرَّجها المصنف على أن الكسر في الفاءبدلٌ من كسر الهمزة في الابتداء.[٧٤]

وقال بن عطية: وهي صعبة، ومن توجيهها أن يكون راعَى كسرَ الألف الوصل اذا ابتدئ فكسر الفاء مراعاةً، وتذكيرًا لكسر ألف الوصل.

وقال أبو حيان:[٧٥] وليس عندي هو كسرًا محضًا، بل هو إمالةٌ محضةٌ لتوهُّم وجود كسر همزة الوصل، كما أمالوا فاء «فإذا»لوجود كسر الهمزة.[٧٦]

---

[٦٩] **مفاتيح الغيب**،لمحمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت–لبنان، ١٤٠١هـ/١٩٨١، ١١/١٣٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤١٧.

[٧٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤١٧.

[٧١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٣/٤٦٩–٤٧٠.**

[٧٢] قراءة شاذّة مروية عن ابن مسعود وزيد بن علي. **الكشاف** للزمخشري،١/٥٩٠؛ **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٤٩.

[٧٣] قراءة شاذّة مروية عن الحسن. **الكشاف** للزمخشري،١/٥٩٠؛ **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٤٩.

[٧٤] **الكشاف** للزمخشري،١/٥٩٠.

[٧٥] أَبُو حَيَّان النَّحْوي (٦٥٤– ٧٤٥ هـ/١٢٥٦– ١٣٤٤م) محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن حَيَّان الغرناطي الأندلسي الجياني، النِّفْزي، أثير الدين، أبو حيان: من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات. ولد في إحدى جهات غرناطة، ورحل إلى مالقة. وتنقل إلى أن أقام بالقاهرة. وتوفي فيها، بعد أن كف بصره. واشتهرت تصانيفه في حياته وقرئت عليه. من كتبه (البحر المحيط) في تفسير القرآن، ثماني مجلدات و (النهر) اختصر به البحر المحيط، و (مجاني العصر) في تراجم رجال عصره. انظر: **الأعلام** خير الدين بن محمود الزركلي، دار العلم للملايين، د.م، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م ، ٧/١٥١/١٥٢.

وقيل: إمالة؛ لإمالة الطاء وإن كانت من المستعلية.[٧٧]

وعن بعض العارفين: المحرم عند أصحاب اليقين وأرباب التمكين، مَنْ اكتسى في إحرام أنوار عزَّته في حرمِ مشاهدة قربه، قد منعه أن لا يصيد في بيداء العبودية صيود الحظوظ؛ لانَّ صيده هو بنفسه تع لا غير، ومن كان هو صيده حرّم عليه سواه.[٧٨] وقد قال قائلهم :

هَرَبْنَــــا رَبَّنَــــا مِمَّـــــن سِـــوَاكَا وشـــئنا عُزْلـــةً عمَّـــا عَـــدَاكا
وغمَّضـــنا العيـــونَ عـــن الوجـــوهَ وجوَّعنـــا البطـــونَ لِكَـــيْ أَرَاكـــا
ومـــا مطلُوبُنـــا إلَّا جمالـــك ومـــا ملحُوظنـــا إلا رضـــاكا

وقال الأستاذ:[٧٩] والمحْرِمُ متجرّد عن نصيب نفسه بقصد إليه، فالأليق بصفاته كفُّ الأذى عن كل حيوان، وقد هتفت هواتف خاطري بأن العاشق إذا لبس إحرام العشق حرّم عليه ما فيه آثار صنع معشوقه، وأنوار خصائص جوده.

ألا ترى إلى مجنون بن عامر لما اصطاد ظبيًّا خلاة عن القيد، وأطلقه، وأنشد:

وعَيْنــاكِ عَيْناهــا وجِيــدُكِ جِيــدُها سِــوَى أنَّ عَظْــمَ السـاقِ مِنْـكِ رقِيـقُ[٨٠]

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي: إذا خرجتم عن أمر حقوقنا، فارجعوا إلى استجلاب حظوظكم، فأمّا ما دمْتُمتحت نظر بطشتنا فلا نصيب لكم منكم، لأنكم لنا.[٨١]

يروى: أن عجوزًا سلَّم ابنَه إلى شيخ مرشدٍ يُرشده، فجاءت يومًا فرأت أنَّ ابنه يأكل خبزًا يابسًا في دهليز، فدخلتالدّار، فرأت الشيخ يأكل دجاجةً مشويَّة وخبزًا لطيفًا، فقالت: ما هذا؟بإنصاف! إن ابني يأكل خبزًا يابسًا في دهليز، وأنت تأكل دجاجةً وخبزًا لطيفًا في الدّار، فقال الشيخ للدجاجة: قُومي بإذن الله، فقامت بإذن الله، فقال: إن ابنك إذا وصل إلى هذا المقامَ يحقُّ لهأكل الدجاجة.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ «جَرَمَ» يجري مَجرى «كَسَبَ» في تعديته إلى مفعولٍ واحدٍ واثنين؛ تقول: «جرَم ذَنْبًا»، نحو: «كَسب»، و«جرمتُه ذَنْبًا» نحو: «كسبتُه إيَّاه»، ويقال: «أجرمتُه ذَنْبًا» على نقلِ المتعدّي إلى مفعولٍ بالهمزة إلى مفعولين، كقولهم: «أكسبتُه ذنبًا»،وعليه قراءة «ولا يُجْرِمَنَّكُمْ».[٨٢]

---

[٧٦] **اللباب في علوم الكتاب**، لابن عادل، ١٨٠/٧

[٧٧] **روح المعاني** للآلوسي، ٢٢٩/٣.

[٧٨] **عرائس البيان** للبقلي، ٢٩٤/١.

[٧٩] هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري.

[٨٠] **عرائس البيان** للبقلي، ١/٢٩٣.

[٨١] **لطائف الإشارات**، لعبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ٢٤٧/١.

وإنما ذهب إلى نقل المتعدّي نظرًا إلى أنَّ الأصل هو أن تكون الهمزة للتعدية، وإلا فيجوز أن يكون من: «جرمتُهذنبًا» للمبالغة.[٨٣]

و«الشَّنَآنُ»: مصدر شَنِئَ، أي: أبغض من حد علم، فهو شَانِئ قال تعالى: ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**﴾ [الكوثر ٣/١٠٨].

وقرأ ابن عامر وإسماعيل عن نافع وابن عياش عن عاصم بسكون النون،[٨٤] وهو أيضًا مصدر، وإن كان فَعلان بالفتح كثيرًا في المصدر قليلًا في الصفات وبالسكون بالعكس، لكون معنى المصدر أليق بهذا المقام.

وجوَّز قدس سره أن يكون بالسكون نعتًا بمعنى: بغيض قومٍ، أي: مبغضهم على أن يكون البغيض فعيلًا بمعنى الفاعل، والمبغض اسم فاعل من أبغض وإضافة إلى القوم إضافة بيان، أي: البغيض من بينهم، وليس مضافًا إلى الفاعل ولا إلى المفعول، بخلاف إذا كان مصدرًا؛ فإنَّه يكون مضافًا إلى المفعول أو الفاعل، والمعنى على الأوَّل: بغضُكم لقومٍ، فحذف الفاعل، وعلى الثاني: بغض قومٍ إيَّاكم فحذف مفعوله، والأول أظهر.[٨٥]

و﴿**أَنْ صَدُّوكُم**﴾ علّة للشنآن، أي: شنآن قومٍ لأن صدّوكم؛ لأجل صدّهم إيّاكم عن المسجد الحرام.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر الهمزة[٨٦]على أنه شرطٌ معترِض أغنى عن جوابه ﴿**لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ**﴾.[٨٧]

ويرد عليه أنه لا قدرةَ لهم على الصدِّ بعد فتح مكة لقوله: ﴿**أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾. أجيب بأنّه للتّوبخ على الصدِّ الواقع يوم الحُديبية، والدّلالة على أنَّه كان ينبغي أن لا يكون وقوعُه إلا على سبيل الغرض والتقدير، كما في قوله تع: ﴿**إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ**﴾ [الزخرف ٥/٤٣][٨٨]فيمن قرأ بالكسر لقصد التّوبيخ والتّجهيل في ارتكاب الإسراف وتصوير أنَّ الإسراف من العاقل في مثل هذا المقام، واجبُ الانتفاء حقيقٌ أن لا يكون ثبوته إلا على مجرّد الفرض.[٨٩]

ثمّ إنَّ أوَّل المفعولين ضمير المخاطبين في ﴿**لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ**﴾، والثاني ﴿**أَنْ تَعْتَدُوا**﴾.

---

[٨٢] قراءة شاذّة، مروية عن ابن مسعود والأعمش وإبراهيم. **الكشاف** للزمخشري، ٥٩٠/١؛ **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، شيخ الإسلام أبو السعود محمد بن العمادي، تحقيق: مجموعة من المحقّقين، دار الرياحين،٢٠٢١، ١٢/٣؛ **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٤٩؛ **مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع**، لأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه ، مكتبة المتنبي، القاهرة، د.ت. ص ٣٧.

[٨٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٦ظ؛ **حاشية الشهاب**، ٢١٥/٣.

[٨٤] «شَنْآنُ». **كتاب السبعة في القراءات** لابن مجاهد، تحقيق: شوقي ضيف،دار المعارف، القاهرة، ١١١٩ص ٢٤٢؛ **التيسير** للداني، ص ٣٣٣؛ **النشر** لابن الجزري، ١٩٠/٢-١٩١.

[٨٥] **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين**، لأبي العباس شهاب الدين أحمد أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، السمين الحلبي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م،١٩٠/٤-١٩١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤٦٩/٣-٤٧٠.

[٨٦] «إِنْ صَدُّوكُم». **كتاب السبع** لابن مجاهد، ص ٢٤٢؛ **التيسير** للداني، ص ٣٣٣؛ **النشر** لابن الجزري، ١٩١/٢.

[٨٧] **تفسير ابن كمال باشا** لشمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا؛ تحقيق: ماهر أديب حبّوش، مكتبة الإرشاد، إسطنبول- تركيا ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.، ٢٣٩/٣.

[٨٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٦و.

[٨٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ٢٦٦/٥-٢٦٧؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٦.

والمعنى: لا يُكْسِبَنَّكم بُغض قومٍ أو بغيض منهم لأن صدّوكم أو أن صدّوكم الاعتداء، ولا يَحملنَّكم عليه. ولم يجعل جرم، وأجرم من المتعدّي إلى واحدٍ، وأن تعتدوا على حذف الجار؛ لأنه الواقع موقع المفعول الذي يكون بلا واسطة البتة.[٩٠]

وقوله: «**ولا يحملنكم**» عليه بيان لحاصل معنى المتعدِّي إلى مفعولين؛ إذ لو كان يجرمنّكم بمعنى يحملنّكم كان أن تعتدوا على حذف الجار ألبتة،[٩١] نعم قد ذهب بعض المفسرين: إلى أن يكون لا يجرمنكم بمعنى: لا يحملنكم على أن صدوكم، فَمَنْ كسر «إِنْ صَدُّوكُمْ» يكونُ الشرطُ وجوابُه المقدر في محلّ جر صفة لـ«قوم»، أي شنآن قوم هذه صفتُهم، ومَنْ فتحها فمحلُّها الجرُّ أو النصب، لأنها على حَذْفِ لام العلة كما تقدَّم.[٩٢]

ومعنى الاعتداء: الانتقام منهم بإلحاق مكروه بهم.[٩٣]وفيه دليل على أنَّ المكافاة لا تجوز من غير الجنس الذي فعل به ويكون ذلك اعتداء.

وقيل: اعتداء أحد الشرعي بمنع هؤلاء المانعين أوّلًا عن المسجد الحرام، فلا قدوة في الباطل فلا يجوز اعتداء الحقِ إلى الباطل، والعدل إلى الظلم.

وقد قال رسول الله عليه وسلّم: «أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»[٩٤] وقد مضى القول فيه مستوفى. ونظير هذه الآية: ﴿**فَمَنِ اعْتَدٰى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدٰى عَلَيْكُمْ**﴾ [البقرة ١٠٤/٢.]

وعنه عليه السلام: «أَمَرَنِي رَبِّي بِكَلِمَة الْعَدْلِ فِي الْغَضَبِ والرِّضاءِ».[٩٥]

﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢)**﴾

﴿**وَتَعَاوَنُواْ**﴾: على العفو والإغضاء ﴿**وَلَا تَعَاوَنُواْ**﴾: على الانتقام والتّشفّي، ويجوز أن يراد العموم لكلِّ برٍّ وتقوى، وكلّ إثمٍ وعدوان، فيتناول بعمومه العفو والانتصار،[٩٦] أي: تناول البرّ والتّقوى الغفو، وتناول الإثم والعدوان الانتصار. وفي هذا العموم إشارة إلى أن ليس المراد فيما سبق تفسير البرّ بالعفو والتّقوى بالإغضاء وتفسير الإثم بالانتقام والعدوان بالتَّشفّي.

والثاني أولى لتصير الآية من جوامع الكلم، و يكون بديلًا للكلام فيدخل البرّ والتقوى جميع مناسك الحجّ، قال تعالى: ﴿**فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ [الحج ٣٢/٢٢] والعفو والإغضاء أيضًا وفي النهي عن الإثم والعدوان عدم التّعرض لقاصدي بيت الحرام دخولًا أوّليًّا، وعلى الوجه الأوّل يكون عطفًا على ﴿**لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ**﴾ من حيث المعنى؛ لأنّه من باب لا أرينّك ههنا، وهو على الشرطية أعني: إذا حللتم فاصطادوا، كأنّه قيل: لا تعتدوا على قاصدي بيت الحرام لأجل أَنْ صدّكم قريش عنه، وتعاونوا على العفو والإغضاء، ومن ثمّة قيل: الوقف على ﴿**تَعْتَدُوا**﴾ لازم؛ لأنّ الاعتداء منهيٌّ عنه، والتّعاون على البرّ مأمور به.[٩٧]

---

[٩٠] **حاشية الشهاب،** ٢١٥/٣.

[٩١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٦.

[٩٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده،** ٤٦٩/٣–٤٧٠.

[٩٣] **الكشاف** للزمخشري، ٥٩١/١.

[٩٤] **سنن أبي داود،** ٣٩٥/٥ (٣٥٣٥)، **سنن الترمذي،** ٥٥٦/٣ (١٢٦٤).

[٩٥] **مشكات المصابيح** لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥، ١٤٧٢/٣ (٥٣٥٨).

[٩٦] **الكشاف** للزمخشري،٥٩١/١.

[٩٧] **فتوح الغيب** للطيبي، **٢٦٧/٥–٢٦٨؛ حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٦.

وقيل: ليُعن بعضكم بعضًا، وتحابوا على ما أمر الله واعملوا به، وانتهوا عمَّا نهى الله عنه وامتنعوا منه، وهذا موافق لما روي عن النبي ع م أنه قال: «الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ».[٩٨] وقد قيل: الدّال على الشرّ كصانعه. وقد قيل: البرّ والتّقوى لفظان بمعنى واحد، وكرّر باختلاف اللّفظ تأكيدًا ومبالغةً، إذ كلّ برٍّ تقوى وكلّ تقوى برٌّ.

قال ابن عطية: وفي هذا تسامح ما، والعرف في دلالة هذين اللفظين أنّ البرّ يتناول الواجب والمندوب إليه، والتّقوى رعاية الواجب، فإن جعل أحدهما بدلَ الآخر فيتجوّز.

وقيل: ندب الله إلى التّعاون بالبرّ وقرنه بالتقوى؛ لأن فيه رضى الله، وفي البر رضى الناس، فمن جمع بينهما فقد تمّت سعادته.

وقيل: والتعاون على البرّ والتّقوى يكون بوجوه، فواجب على العالم أن يعين الناس بعلمه، والغنيُّ بماله، والشّجاع بقوّته، وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة المؤمنون تتكافؤ دماؤهم ويسعى بذمّتهم أدناهم وهم يد على من سواهم. ويجب الإعراض عن المتعدي وترك النّصرة له وردّه عمّا هو عليه.[٩٩]

قِيلَ: البِرُّ: متابعةُ الأمْرِ، والتَّقْوَى مُجانَبَةُ النَّهْيِ.

وقيل: البرُّ: الإسلامُ، والتقوى: السُّنةُ.

والإثم: الكفرُ، والعُدْوانُ: الظلمُ. أو الإثمُ: المعصيةُ والعُدوان: البِدْعَةُ

قال النَّواسُ بْنُ سَمْعان الأنْصَارِيّ: سُئِلَ رسولُ اللهَ عن البر والإثْمِ، فقال: «البرُّ حُسْنُ الخلقِ، والإثمُ ما حَاكَ في نفسك، وَكَرِهْتَ أنْ يَطَّلِعَ الناسُ عليه»،[١٠٠] ثم أمر بعد ذلكبالتّقوى تهديدًا وتشديدًا، وأخبر أنه تعالى: ﴿**شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ**﴾، لمن ترك التّعاو الحقَّ وأخذ التّعاون الباطل، وترك التّقوى زجرًا ووعيدًا.

وقال القشيري:[١٠١] البرُّ: إيثار حقّه، والتّقوى: تركُ حظِّك، والمعاونة على البِرِّ بحُسْنِ النصيحة، وجميل الإشارة، والمعاونة على التّقوى بقبض يدي الخطَّائين، وإبلاغ الموعظة وتمام المعاونة بالتّصافك بحميد الخِصال، على الوجه الذي يُقْتدَى بك، والمعاونة على الإثم والعدوان أن تعمل شيئًا يقتدى بك ممّا لا يرضى الله،فيكون فعلك سببًا لفساد غيرك من الموحّدين.

والعقاب: ما يَعقب الجُرْم ممَّا يسوء صاحبه، وشدة العقاب: حجاب المعَاقَبِ عن شهود المعَاقِبِ؛ فإنَّ تَجرُّعَ كاساتِ البلاءعلى شهود الْمُبْلِي أحلى من الشَّهد.[١٠٢]

وعنه عليه السلام: «مثَلُ الَّذي يُعينُ قومَه على غيرِ الحقِّ كمَثَلِ بعيرٍ تردَّى في بئرٍ فهو يُنزَعُ منها بذَنَبِه».[١٠٣]

---

[٩٨] **مسند أحمد**، ٤٤/٣٧(٢٢٣٦٠).

[٩٩] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٧/ ٢٦٣-٢٦٤.

[١٠٠] **صحيح مسلم**، ١٩٨٠/٤ (٢٥٥٣).

[١٠١] أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري الفقيه الشافعي؛ كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف، جمع بين الشريعة والحقيقة، أصله من ناحية أستوا من العرب الذين قدموا خراسان، توفي أبوه وهو صغير، وقرأ الأدبفي صباه ،هذه النسبة إلى قشير بن كعب، وهي قبيلة كبيرة ، توفي ضحوة نهار الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع عشرة وخمسمائة بنيسابور، ودفن في المشهد المعروف بهم، رحمه الله تعالى. **وفيات الاعيان**، ٣/ ٢٠٥.

[١٠٢] **لطائف الإشارات**، للقشيري، ٢٤٧/١؛ **التيسير في التفسير** للنسفي، ٢٩٥/٥.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)﴾

بيان ﴿مَا يُتْلَى﴾ وعند شمس الأئمة وفخر الإسلام يضاف الحرمة إلى الأعيان، وعند الأكثر يضاف إلى الأعمال فهو من إقامة المحلِّ مقامَ الحال أو حذف المضاف.

والميتة التي ماتت حتف أنفها، و«حَتْفَ» نصب على المصدر وهو: الهلاك، وإضافة إلى الأنف؛ لأنّهم زعموا أنّ من مات خرج روحه من أنفه، ومن ذبح أو جرح فمن جِراحته.

وإنّما حرمت؛ لأنّ الدّم جوهرٌ لطيف، فإذا مات الحيوان حتف أنفه احتبس الدّم في عروقه وتعفن فيحصل من أكله مضار كثيرة.[١٠٤] والمراد بالدّم المسفوح لقوله: ﴿**أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا**﴾ [الأنعام ١٤٥/٦] وهو الدّم وهو الدّم في المباعر، كانوا يشوونها ويقولون: لم يحرم من فُزْدَ له.

والمباعر: مواضع البَعر، وهي الأمعاء، كانو يحفظون أمعاء الإبل، فإذا جاء الضيف يقصدون له بعيرًا فيجعلون الدَّم في معاء ويُشَوُّونها ويُطعمونها الضيف ويقولون: لم يُحْرَمْ، أي: الضيافة من فُزْدَله، أي: مَن قُصِد لأجله قلبت الصاد زاء، ثمّ أسكنت وهي لغة طيّ. وأوّل من قال ذلك حاتمُ الطّائ، والفعل مسند إلى الجارِّ والمجرور، أي: من فعل لأجله القَصْد.[١٠٥]

والخنزير حرام بجميع أجزائه، وتخصيص اللَّحم؛ لما أنّه معظم المقصود، وفد قال في سورة أخرى: ﴿**فَإِنَهُ رِجْسٌ**﴾ [الأنعام ١٤٥/٦] والكناية ترجع إلى الخنزير، فدلَّ على أنَّ كلَّه نجس العين.[١٠٦]

والغذاء يصير جزءًا من جوهر المغتذي، ولا بدَّ أن يحصل للمغتذي أخلاق و صفات من جنس ما كان حاصلًا في الغذاء، والخنزير مطبوع على حرص عظيم ورغبة شديدة في المشتهبات، فحرم أكله على الإنسان لئلَّا يتكيّف بتلك الكيفية.[١٠٧]

ومن جملة خبائث الخنزير أنّه عديم الغيرة، فإنَّه يرى الذكر من الخنازر ينزو على الأنثى له ولا يتعرّض له؛ لعدم غيرته، فأكل لحمه يورث عدم الغيرة.

والإهلال: رفع الصوت، وأصله: رؤية الهلال، لكن يجرى العادة على رفعه عنده سمّي إهلالا، ثم قيل لكلّ رفعٍ، ومنه يقال: أهلّ فلان بالحجّ إذا لبّى، ومنه استهلال الصبيّ، وهو صراخه إذا ولد، وكانوا يقولون عند الذبح: باسم اللّات والعزّى، فحرّم ذلك بقوله: ﴿**وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ**﴾، أي: وما نودي عليه بغير اسم الله. وأخّر الجلالة في البقرة [البقرة ١٧٣/٢]؛ لأنها هناك فاصلة، أو تشبهها بخلافها ههنا، فإنّها بعدها معطوفات.[١٠٨] فكما لايحلّ إذا أهلّ لغير الله لا يحلّ إذا أهلّ مع الله غيره،

---

[١٠٣] **صحيح ابن حبان**، ٢٧١/١٣ (٥٩٤٢).

[١٠٤] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٣٥/١١.

[١٠٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٧و.

[١٠٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٤٠٩.

[١٠٧] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٣٥/١١؛ **اللباب** لابن عادل، ١٨٨/٧.

[١٠٨] **اللباب** لابن عادل، ١٨٨/٧؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤٦٩/٣–٤٧٠.

وذلك على وجوه وجهٍ يذكر، موصولً لا معطوفًا فمكروه، ووجه يذكر موصولًا معطوفًا فحرام، ووجه يذكر منقطعًا قبل الذبح أو بعد ما فلا بأس به.

﴿**وَٱلْمُنْخَنِقَةُ**﴾: التي ماتت بالخنق. والاختناق: احتباس التفس بسبب انعصار الحلق، وهي حرام سواء خنقها آدميّ أو اختنقت بنفسها.

﴿**وَٱلْمَوْقُوذَةُ**﴾: المضروبة إلى ان ماتت، من وقذه، من حدّ ضرب حتى استرخى. ومنه وقذه النُّعاس، أي: غلبه، وفلان موقوذ بالعبادة، أي: كسرته، فالمادة تدلّ على السكون والاسترخاء، ويدخل فيها ما رُمِي بالبندق.

﴿**وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ**﴾: الساقطة في بئرٍ أو ماءٍ، أو من علوٍ، من تردَّى، أي: سقط وهلك، ويدخل فيها إذا أصابه سهمٌ وهو في الجبل فسقط على الأرض؛ لأنّه لا يُعلم أنّه مات بالتردّي أو بالّسهم.

﴿**وَٱلنَّطِيحَةُ**﴾: المنطوحة، وقد نطحته الشاة بقرنها، أي: ضربَته فقتَلَته، والباء فيها لتعلّمها من الوصفيّة إلى الاسميّة، فإنّ الصفات إذا لم تذكر موصوفاتها، ولم تكن جارية عليها يعطف عليها الاسمية فيلحقها التاء لتدلّ على غلبتها، وعدم احتياجها إلى الموصوف وكلّ ما يحقّقه بهذه «التاء» يستوي فيه المذكر والمؤنث.

وقيل: «التاء» فيها لكونها صفاتٍ لموصوف مؤنث وهو الشاة، كأنه قيل: حرّمت عليكم الشاة المنخنقة والموقوذة. وخصّت الشاة بالذكر لكونها أعمَّ ما يؤكل، والكلام يُخرَّج على الأعمّ الأغلب، [**٣٢**/ظ] فيكون المراد الكلَّ.

وقيل: النطيحة «فعيلة» بمعنى «مفعول»، وكان من حقّها عدم دخول التاء كقَتيل وجَريح، إلا أنّها جرت مَجرى الأسماء، أو لأنها لم يذكر موصوفها، فلو لم تدخل لم يُعرفْ أ ذكر أم أنثى، وفيه أنَّ التاء إذا لم يذكر الموصوف؛ لأجل اللَبس، نَحْو: مررت بِقَتيلةِ فُلانٍ، وهنا اللَّبْسُ مُنْتفٍ، وأيضًا حكم الذكرِ والأنْثَى فيه سَوَاءٌ.[١٠٩]

﴿**وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ**﴾ «مَا» بمعنى «الَّذِي» ، وعائِدُهُ محذُوفٌ، أي: وما أكلَهُ السّبُعُ، ومحلُّه الرفعُ عَطْفاً على مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُه، وهذا غيرُ ماشٍ على ظاهره؛ لأنَّ ما أكله السبعُ لا يُذَكَّى، ولا يمنع من أكله.[١١٠] فقدر المصنف: «وما أكل بعضه السبع»،[١١١] وقدر قدس سره: «وما أكل منه السبع»[١١٢]

قال قتادة: كان أهل الجاهلية إذا جرح السبع شيئًا فقتله وأكل منه أكلوا ما بقي، فحرّم.[١١٣]

و﴿**السّبُعُ**﴾ اسم لما له نابٌ، ويَعدُو على الانسان والدّوابّ، ويفترسها كالاسد والنّمر، ويجوز التخفيف في سَبُعٍ، فيقال: سَبْع وسبْعَة.[١١٤]

والاستثناء متَّصل مما مضى من المحرمات من قوله: ﴿**والمُنْخَنِقَةُ**﴾ إلى قَوْلِهِ: ﴿**وما أكَلَ السَّبُعُ**﴾. إلى«إلا ما أدركتم ذَكاتَه، وهو يضطرب اضطراب المذبوح، وتشخب أوداجُه».[١١٥]

---

[١٠٩] **اللباب** لابن عادل، ٧/ ١٨٨-١٨٩.

[١١٠] **اللباب** لابن عادل، ٧/١٨٩.

[١١١] **الكشاف** للزمخشري، ٥٩١/١.

[١١٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤١٨.

[١١٣] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٣٦/١١؛ **اللباب** لابن عادل، ١٩٠/٧.

[١١٤] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤٦٢/٣.

«وهو يضطرب»:[١١٦] حال من ضمير «ذكوته» أي: يقع تذكيته مقرونة بهذه الحال بأن يضطرب بعد قطع الحلقوم، والمريئ، وتشخب أوداجه ،كما هو الحكم في المذبوح، وليس المراد أن يكون التذكية في في هذه الحال؛ فإنها لا تحلّ،[١١٧] أو ممّا أكل السبع خاصةً، أو منقطع، أي: ولكن ما ذكيتم من غيرها فحلالٌ، وكان هذا القائل رأى أنها وصلت بهذه الأسباب إلى الموت، أو إلى حالةقريبةٍ منه، فلم تُفدْ تزكيتها عنده شيئًا.[١١٨]

و«الذكوة» شرعًا بقطع الحلقوم. والمريء على وزن فعيل: اسم لما اتّصل بالحلقوم، وهو الذي يجري فيه الطعام والشراب، والجمع مُرُؤٌ، مثل سرير وسرر.[١١٩]

وأقلّ الذّكاة في الحيوانالمقدُور عليه قطع الحلقوم والمريء، وكماله أن يقطع الودجان معهما، ويجوز بكل مُحدَّد بجرح من حديد أو قصب أو زجاج أو حجرٍ ونحوها ما خلا السّنَّ والظفر والعظم.

والسن والظفر المنهي عنهما في التذكية ما لم يكونا منزوعين؛ لانَّ الذبح هما يكون خنقًا، وأما المنزوعان فإذا فَرَيا الأوداج فالذكاة جائزة. والذكاة الذبح التام الذي يجوز معه الاكل؛ لأن أصل الذكاة إتمام الشيء، ومنه الذّكاء في الفهم، والذّكاء في السنّ، وهو الشباب يقال: ذَكَى الرجل إذا أسنَّ.[١٢٠]

﴿**وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ**﴾ رَفْعٌ – أيضًا – عطفًا على﴿**الْمَيْتَةُ**﴾.

وقال بَعْضُهمْ: النُّصُبُ الأوْثانُ، واسْتَبْعَدَهُ قَوْمٌ؛ لأنَّ هذا مَعْطُوفٌ على قولِهِ: ﴿**وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ**﴾ وذلك هو الذَّبْحُ على اسمِ الأوْثانِ، والمعطوفُ يَجِبُ أنْ يكُونَ مُغَايرًا للمعطوفِ عَلَيْهِ.

وقال ابنُ زَيْدٍ: ﴿**وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ**﴾،﴿**وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ**﴾ هُمَا وَاحِدٌ.

وقال مُجاهدٌ وقتادةُ وابن جُرَيج: كانت حول البيت ثلاثمائة وستون حَجَرًا مَنْصُوبَة. كان أهل الجاهلية يعبدونها ويعظّمونها ويذبحون لها وليست بأصنام، إنما الأصنام هي الصّور المنقوشة، وكانوا يُلَطِّخُونَهَا بتلك الآدمية، ويضعون اللحوم عليها. فقال المسلمون يا رسول الله: كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدّم،فنحن أحقُّ أن نفعله، وكان النبي لم يكره ذلك،فأنزل الله: ﴿**لَن يَنَالَ الله لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا**﴾ [الحج ٣٧/٢٢].[١٢١]

و«على» بمعنى «اللام»، أي: ما ذبح لأجل الاصنام، أو لأجل الأحجار أو على بابها. فعلى الأول: في محل نصب على الحال، أي: وما ذبحمسمّى على الأصنام، وفيه تقدير المتعلق شيئًا خاصًّا، وعلى الثاني: في تقدير وما ذبح على إعتقاد تعظيم النصب، ثم إنه جمع، وواحده نِصَابٌ، كحُمُرٍ وحمار، ونَصب كسُقُف وسَقف، أو النصبة، وهي علامة تنصب للقوم، أو واحد، فجمعه أَنْصاب، مثل عُنُق وأعناق.[١٢٢]قال:

---

[١١٥] **الكشاف** للزمخشري، ٥٩١/١.

[١١٦] **الكشاف** للزمخشري، ٥٩١/١.

[١١٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٧و.

[١١٨] **اللباب** لابن عادل، ١٩٠/٧.

[١١٩] **الصحاح** للجوهري «مرأ».

[١٢٠] **اللباب** لابن عادل، ١٩٠/٧–١٩١.

[١٢١] **اللباب** لابن عادل، ٧/١٩٣.

[١٢٢] **اللباب** لابن عادل، ١٩٢/٧– ١٩٣.

وَذَا النُّصُــبَ المَنْصُــوبَ لا تَعْبُدَنَّــهُ لِعَاقِبَــــةٍ واللهَ رَبَّــــكَ فَاعْبُــــدَا[١٢٣]

أي: فاعْبُدَنْ فأبدلت النون الخفيفة في الوقف ألفًا، دلّ على إفراد النصب بذكر اسم الإشارة، والضمير، والوصف أعني: المنصوب.[١٢٤] وقد روى البيت بوجهٍ آخر:

وقرئ بفتحتين[١٢٥] على أنه اسم بمعنى: المنصوب، وبالسكون،[١٢٦] وهو واقع موقع المفعول به.[١٢٧]

﴿**وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ**﴾ «أنْ» وما في حَيّزِهَا في مَحَلّ رَفْعٍ عَطْفًا على ﴿**المَيْتَةُ**﴾ أي: وحُرِّم عليكم الاستقسام بالأقداح، وذلك أنهم إذا قصدوا فعلًا ضربوا ثلاثة أقداح مكتوبٍ على أحدها: أمرني ربي، وعلى الآخر، نهاني ربي، والثالث غُفْلٌ، أي: خال عن الكتابة يقال: «أرضٌ غُفْلٌ: لا علمَ بها ولا أثر عمارة»،[١٢٨] فإن خرج الآمر مضى على ذلك، وإن خرج الناهي تجنبوا عنه، وإن خرج الفعل أجالها عودًا، أي: عائدًا أو أعادها عودًا.[١٢٩] فمعنى الاستقسام: طلب معرفة ما قُسم له من الخير[**٣٣**/و] والشر مالم يُقسم له بواسطة ضرب القداح.[١٣٠]

وقيل: هو استقسام الجَزور بالأقداح على الأَنْصِبَاء المعلومة،[١٣١] وهو الميسر، وهو قمار العرب بالأزلام، واشتقاقه من الميسر؛ لأنه أخذ مال الرجل بيسرٍ وسهولة من غير كدٍّ ولا تعبٍ، أو من اليسار؛ لأنه سلب يساره أي: غناه. وصورة الميسر: أن العرب كانت لهم عَشْرَةُ أقداحٍ، وهي: الأزْلامُ، ثم الفَذّ، ثم التوأمُ، ثم الرّقيبُ، ثم الحِلْسُ، ثم النّافِس، ثم المِسْبِلُ، ثم المعَلّى، وهذه القداح السبعة لها أنصباء من جَزورٍ ينحرونها، ويُجَزِّئونها، والثلاثة الأخرى لا نصيب لها، وهي: السَفيحُ، والمنيحُ، والوَغْدُ.[١٣٢]

قيل: كان أهل الجاهلية يجمعون عشرة أنفس و يشترون جزورًا، ويجعلون لحمهثمانية وعشرين جزءًا،ويجعلون لكلّ واحدٍ من صاحب الأزلام السبعة نصيبًا معلومًا للفذّ سهم وللتؤم سهمان، وللرقيب ثلاثة أسهم، وللحلس أربعة، وللنافس خمسة، وللمُسْبِل ستة، وللمعلى سبعة، يجعلون الأزلام في خريطة، ويضعونها على يد رجل يجلجلها، أي: يحرّكها ذلك الرجل فيخرج باسم كل رجل قدحًا منها، ومن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم له ذلك القدح، ومن خرج له قدح ما لا نصيب له لم يأخذ شيئًا، ويغرم ثمن الجزور، وكانوا يدفعون الأنصباء إلى الفقراء، ولا يأكلون منه شيئًا، ويفتخرون بذلك، ويذمون من لم يدخل فيه، ويسمُّونه «البَرَمَ» يعني: اللئيم.[١٣٣]

---

[١٢٣] **الديوان** للأعشى، ص ١٣٧؛ **الكشاف** للزمخشري، ٥٩١/١؛ **اللباب** لابن عادل، ١٩٣/٧.

[١٢٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٧و.

[١٢٥] قراءة شاذّة، مروية عن الحسن. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٤٩؛ **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه. ص٣٧.

[١٢٦] قراءة شاذّة، مروية عن عيسى بن عمر. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٤٩.

[١٢٧] **اللباب** لابن عادل، ١٩٢/٢.

[١٢٨] **الصحاح** للجوهري «غفل».

[١٢٩] **الكشاف** للزمخشري، ٥٩٢/١؛ **اللباب** لابن عادل، ١٩٤/٧؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤١٨/١.

[١٣٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٤٧٣/٣.**

[١٣١] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤١٨/١.

[١٣٢] **الكشاف** للزمخشري، ٢٥٨/١-٢٥٩.

[١٣٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٤٧٣/٣.**

وقال المؤرخ وكثير من أهل اللغة: الاستقسام ههنا هو الميسِر وهو القمار، ووجه ذكرها مع هذه المطاعم أنها كانت ترفع عند البيت.[١٣٤]

وقال سعيد بن جبير: الأزلام حصًى بيض كانوا يضربون بها. وقال مجاهد: هي كعابُ فارسٍ، والرُّوم التي يتقامرون بها.

وقال الشعبي: الأزلام للعرب، والكعاب للعجم.[١٣٥] وفي حكم الميسر أنواع القمار من العود، والشطرنج وغيرهما.

روي أنه ع م قال: «إياكم وهاتين الكعبتين المشؤمين، فإنهما من ميسر العجم».[١٣٦]

وعنه عليه السلام: «من تكهّن، أو تقسّم، أو تطيّر طيرة ترده عن سفره لم ينظر إلى الدّرجات العلى من الجنة».[١٣٧]

والأزْلامُ: القِدَاحُ، واحدُها: زَلَم، وزُلَم بِفَتْح الزَّاي وضَمِّها ذكره الأخْفَشُ.

وإنَّما سُمِّيتِ القِدَاحُ بالأزلامِ؛ لأنَّها زُلِمَتْ أي: سُوِّيَتْ، ويقال: رجلٌ مُزْلَّمٌ، وامرأةٌ مُزْلِمَةٌ إذَا كان خَفِيفًا قَلِيلَ العلائِقِ، ويقال: قَدَحٌ مُزْلَّمٌ وزَلْمإذا حُرِّرَ وأُجِيدَ قَدُّهُ وَصِفَتُهُ، ومَا أحْسَنَ ما زلم سهمه، أيْ: سَوَّاهُ، ويقالُ لِقَوائمِ البَقَرِ: أزْلاَمٌ شُبِّهَتْ بالقِدَاحِ لِلَطَافَتِهَا.[١٣٨]

وقد ذهب جمهور العلماء: إلى أن اللُّعب بالنرد حرامٌ، ونقل بعض مشايخنا: الإجماع على تحريمه، واختلفوا في اللعب بالشطرنج؛ فذهب بعضهم: إلى إباحته؛ لأنه يستعان به في أمور الحرب، ومكائده، لكن بشروط ثلاثة: أحدها: أن لا يؤخر بسببه صلاة عن وقتها. والثاني: أن لا يكون فيه قمار. والثالث: أن يحفظ لسانه حال اللعب عن الفحش، ورديء الكلام؛ ومتى فعل شيئًا من الثلاثة، كان ساقط المروءة، مردود الشهادة، وكرهه الشافعي تنزيهًا، وقد حرم المداومة عليه، وعند جماهير العلماء: حرام مطلقًا.[١٣٩]

﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾

الإشارة إلى الاستقسام بالأزلام، وكونه فسقًا بالمعنى الأول؛ لانه توسّل في طلب علم الغيب إلى غير الله، كاستعلام الخير والشر من الكهَنة والمنجمّين، وضلال باعتقاد أنّ ذلك طريق الله، وافتراء على الله إن أريد بربّي، وجهالة وشرك إن أُريد به الصنم.[١٤٠]

وأما أن مجرّد استعلام الغيب، واعتقاد أن اليه طريقًا ولو من قبيل علام الغيوب الذي قد يطلع عليه بعضُ العباد حرامٌ، ففيه كلام كيف. وقد أطبقوا على جواز الاستخارة بالقرآن، وطلب علم الغيب بالنّظر والرياضة، وإن لم يجعل هذا من طلب علم الغيب بناءً على تخصيصه ببعض الأقسام كانت المحرمة مختصة؛ بما لا طريق إلى معرفته، ولا كلام فيه.[١٤١]

---

[١٣٤] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٣٨/١١؛ **اللباب** لابن عادل، ١٩٥/٧.

[١٣٥] **اللباب** لابن عادل، ٧/١٩٥.

[١٣٦] **سنن البهقي**، ٣٦٤/١٠ (٢٠٩٥٤).

[١٣٧] **المعجم الأوسط** للطبراني، ١١٨/٣ (٢٦٦٣).

[١٣٨] **اللباب** لابن عادل،/٧١٩٤.

[١٣٩] **الترغيب والترهيب** للمنذري، ٤٩/٤.

[١٤٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤١٨/١.

[١٤١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٧و.

وقال الإمام: لو لم يجز طلب علم الغيب لَزم أن يكون علم التعبير محظورًا؛ لأنه طلب للغيب، وكذا إدعاء الأولياء الالهامات الصادقة.[١٤٢]

وقد يقال: الاستخارة بالقرآن، وبصلاة الاستخارة ودعائها ونحوها ليس عبارةً عن استعلام الغيب، والدخل بعلمه، بل هي عبارة عن استدعاء الخير، ونيله بالتّضرع إلى علّام الغيوب، ولايعتقد صاحبها كونه طريقًا إلى علم الغيب، وإنما يعتقد كونها طريقًا إلى نيل الخير وإصابته، والمنجّمون يزعمون أن في النجوم، وما لها من المواضع والاحوال، والاتّصالات طريقًا إلى علم الغيب، ودلالة على الخير والشر، والكهّان يدعون أن من أخبار الجن، أو بعض ما يظهر لهم من الصور، والخيالات،[١٤٣]وكلاهما بمثابة الاستقسام، والعلم عند الله العلي العلّام، وبالمعنى الثاني؛ لانه ميسر، وطلب معرفة كيفية قسمة الجزور بطريق حرامٍ، أو إلى تناول ما حرّم عليهم وأشر زيادة لفظ التناول إلى أن التَّحليل والتَّحريم، إنهما متعلقان بالأفعال دون الأعيان. فيكون الفسق في الحنفية، هو تناول هذه المحرمات لا أنفسها.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾ لم يُرد به يومًا بعينه، حتى يقال ما يئسوا قبله بيَوم أو يَومين، بل المراد الزمان الحاضر، وما يتّصل به من الطرفين، وهو كلام خارج على عادة أهل اللسان، ونظيره قولك: كنت بالأمس شابًّا، فاليوم قد صرت شيخًا؛ فإنك لا تريد باليوم الامس الذي قبل يومك، ولا بـ«اليوم» اليوم الذي أنت فيه. ونحوه «الآن» في قولك:

الآن لَمَّا ابْيَّضَ مَسْرُبَتي ... وَعَضَضْتُ من نابي على جِذْمِ[١٤٤]

والمسرُبَة، بضم الراء: الشَّعر المستدِقُّ يأخذ من الصَّدِر إلى السُّرة، والجِذم: أصل الشيء، يريد أن أسنانه، تَحاتَّتْ حتى وقع العضُّ منها على أصولها.[١٤٥]

وقيل: أريد يومُ نزولها، وقد نزلت يوم الجمعة – وكان يوم عرفة– بعد العصر في حجَّة الوداع.[١٤٦]

وقيل: هو يوم مكة سنة تسع. وقيل: ثمان جمع هذين القولين.

يكون اللام للعهد، وعلى الأوّل لا يكون له، والظرف منصوب بـ«يَئِسَ»، ويقال: يَئِسَ يَيْئَسُ ويَئْيِسُ بفتح عَيْنِ المضارعِ وكسرها، فهو شاذّ.

ويقال: أيس أيضًا مقلوب من «يَئِسَ» فوزنُهُ «عَفِل» ويدلُ على القَلْبِ كَوْنُهُ لم يُعَلَّ، إذ لو لم يقدر ذلك لَلَزِمَ إلغاءُ المقتضى، وهو تَحَرُّكُ حَرْفِ العَلّة، وانفتاحُ ما قبله، لكنَّه لَمَّا كان في مَعْنَى ما لم يُعَلَّ صَحَّ.[١٤٧]

---

[١٤٢] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٣٩/١١.

[١٤٣] **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ١٩٢/٣.

[١٤٤] **جمهرة اللغة** لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٦، ٣١٠/١؛**الكشاف** للزمخشري، ٥٩٢/١.

[١٤٥] **فتوح الغيب** للطيبي، ٢٧٢/٥.

[١٤٦] **الكشاف** للزمخشري، ٥٩٣/١.

[١٤٧] **اللباب** لابن عادل، ١٩٥/٧-١٩٦.

﴿مِن دِينِكُمْ﴾ أي: من إبطالكم إياه بأن تحلّوا هذه الخبائث بعد أن جعلها الله محرمة، أو من إبطالهم دينكم، وأن يغلبوكم على دينكم، فعلى الوجهين من تقدير المضاف وذلك؛ لأنه قد وعد بإعلاء هذا الدين على كلّ الأديان، فلما حقق النصر والإعلاء يئسوا منه.

﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ﴾ أن يظهروا عليكم ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾: وأخلصوا الخشية لي.[١٤٨] والاختصاص مستفاد من ورود الأمر بخشيته بعد النهي عن خشيتهم محددًا في العمل بالشرائع، ولا تداهنوا. وفيه دليل على أن التقيّة جائزة عند الخوف.

﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ الكلام في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ كالكلام في ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ قبله.

وإكمال الدين بالنصر، والإظهار على الأديان كلّها.[١٤٩] وهذا كما تقول الملوك: اليوم كمُل لنا الملكُإذا كُفوا مَنْ ينازعهم ووصلوا إلى مباغيهم؛[١٥٠] فإن أريد بـ«اليوم» ذلك الزمان فلا سؤال، فإن أريد العهد، فالكمال اليومي بالنظر إلى الآثار والأشهار، فلا ينافي الكمال في نفسه قبل ذلك اليوم، أو بالتنصيص على قواعد العقائد، وبالتوقيف على أصول الشرائع، وقوانين الاجتهاد، والقياس.

وتقريره ما قال القفال: الشرع أبدًاكان كاملًا، وإنَّ الشرائع كانت كافيةًفي كل وقتٍ بحسب اقتضاء ذلكالوقت، لكن بحسب النِّسبة إلى بعضها كانت كاملةً وأكملَ؛ ولهذا كان يزاد في كل وقتٍ، ويُنسخ، وأمَّا في آخر زمان المبعث، فإنه تع أنزل شريعةً كاملةً، وحكم ببقائها إلى يوم القيامة، ويمكن أن يقال: إنَّ الشرائع كانت كاملةً في كل زمانٍ بالنسبة إلى أهله، وكلّ مَن كان مكلّفًا فيه، لكنَّ كمالها بالنسبة إلى جميع المكلفين إلى آخر الزمان، إنما حصل في ذلك.[١٥١]

وإتمام النعمة بالهداية والتوفيق، وهذا ظاهر أيضًا إذا لم يكن «اللام» للعهد، وإن كان له، فبالنظر إلى الرسوخ، والقوة، والشعائر، والآثار أيضًا، أو بدخول مكة آمنين وحجّ البيت مطمئنّين، وعدممخالطة أحدٍ من المشركين، وهدم منار الجاهلية، فيكون تخصيص أعظم مراد الإكمال على التفسير الأول له، ويجوز أن يكون تكميلًا له نظرًا إلى أنه علم من الأوَّل زوال الخوف، وحصول الأمن، ومن الثاني الغلبة وقهر الأعداء، أو بإكمال الدين على التغاير مع المذكورة له؛ فإن الإكمال دلَّ بمفهومه على نعمةٍ خطيرةٍ، فبيَّنه وتمَّمه بقوله: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ أي: بذلك.

وقالوا: إكمالُ الدين في حقّنا من وجوهٍ: لنا جوامعُ الكلم، وأُعطي رسولُنا جميعَ ما أعطى الرّسل، وزيد له ما لم يكن لهم، وآمنَّا بجميع الرسل، والكتب، وشريعتُنا باقية. وضعف لنا ثواب الحسنات، ووعد لنا تبديل السيِّئات، ولنا طرفا الدَّارين؛ نحن الآخرون في الدّنيا، السَّابقون في العقبى، وكتابنا أشرف الكتب، ورسولنا أفضل الرسل، ونحن أكثرُ الأمم عددًا، وأسبقهم موردًا.[١٥٢]

---

[١٤٨] **الكشاف** للزمخشري، ٥٩٣/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٤٣/٣.

[١٤٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤١٨/١.

[١٥٠] **الكشاف** للزمخشري، ٥٩٣/١.

[١٥١] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٤٠/١١-١٤١؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٢٧٤/٥.

[١٥٢] **التيسير في التفسير** للنسفي، ٣٠١/٥.

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾: أي: خيَّرتُه لكم دينًا رضيًا على جعل الفعل المذكور حالاً دون العكس، اخترتُه لكممن بين الأديان، وآذنتكم بأنه هوالدِّين المرضيّ وحدَه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾، [آل عمران٣/ ٨٥].[١٥٣]

يقال: رضيته صاحبًا، والمنصوب الثاني يحتمل الحال والتّمييز، والمفعول الثاني على تضمين معنى التصيير،[١٥٤] وبالنظر إلى معنى الاختيار عدّى بـ«اللام» دون «عن» كما هو صفة الرّضا، ودل الاختيار على معنى المختار منه، وهو سائر الأديان، وأما الدَّلالة على الإيذان والإعلام بأنه الدين المرضي، فكأنها من المقام.

وقيل: تخصيص الإسلام وإيقاع الدين تمييزًا عنه للإيذان بأنهالدين المرضي دون غيره؛ لما عرف من قوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران٣/ ٨٥]، وإنما أورد لكم للإعلام بأنه ما اختار ليضركموهو الملة المحمدية، ويرد عليه أيضًا لزوم عدم الرضا [**٣٤**/و] قبل اليوم، أو أنَّ «اللام» للعهد، ويجاب بالرّضى على تمام الكمال، وفيه ضعف، والأولى الحمل على الإخبار لا أنَّ الرضا وقع فيه، ويمكن أن يقال: لا يلزم أن يقيد قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾: بالظرف المذكور.

ولَمَّا نزلت كان ع م على ناقته العضباء، فكادت عضد الناقة تندق من ثقلها، فبركت وقالت اليهود لعمر: أُنزلت عليكم آية لو أنزلت علينا لاتَّخذنا ذلك اليوم عيدًا، فقال عمر: أشهد أنها أنزلت يوم عرفةويوم الجمعة؛ أي: اجتمع فيه عيدان.[١٥٥]

قال ابن عباس: كان ذلك اليوم خمسة أعياد: جمعة وعرفة، وعيد اليهود وعيد النصارى والمجوس، ولم يجتمع قبله ولا بعده، ولما نزلت بكى عمر؛ لأنه لم يكمل شيء إلا نَقَصَ، فكانت نعيَ رسول الله. وعاش بعدها إحدى أو اثنتين وثمانين يومًا، ومات يوم الاثنين بعد ما زاغت الشمس لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة. وقيل: في اليوم الثاني عشرة، وكانت هجرته في الثاني عشرة منه.[١٥٦]

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ متصل بذكر المحرمات، وما بينها اعتراض لما يوجب التجنب عنها، وهو أنَّ تناولها فسوق،[١٥٧] وأنه مما اعتاد به الكفرة، فيجب عليكم مخالفتهم في ذلك؛ لأنه لم يبق خوف منهم، وإن حرمها من جملة الدين الكامل، والنعمة العامة والإسلام المرضي، وفي هذا الاعتراض البليغ، وتقديم بيان تحريم المطعم على سائر الأحكام إيذان باهتمام أمر المطعم، وإن قاعدة الامر، وأساس الدين مبني عليه؛ لانَّ به قوامَ البدن الذي به تمكُّن المكلَّف من العبادة.

ومعنى ﴿ٱضْطُرَّ﴾: أُصيب بالضَّرر الذي لا يمكنه الامتناع منه من الميتة وغيرها. و«في» متعلِّق به. و«المخمصة»: المجاعةُ؛ لأنها تَخْمَص لها البطون؛ أي: تضْمُر، فهو من الخَمْص الذي هو ضُمور البطْن. يقال: خَمِيص وخمصَانٌ، وامرأة خميصة وخُمْصَانة، والجمع خمائص وخمصاناتٌ، وهي صفة محمودة في النساء. ومنه أَخْمصُ القدمِ لدقَّتها، ويستعمل في الجوع والغرث. قال:

---

[١٥٣] **الكشاف** للزمخشري، ٥٩٣/١.

[١٥٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٧ظ.

[١٥٥] **التيسير في التفسير** للنسفي، ٣٠٢/٥.

[١٥٦] **اللباب** لابن عادل، ١٩٧/٧-١٩٨.

[١٥٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤١٩/١.

كُلُــوا فِي بَعْــضِ بَطْــنِكُمُ تَعِفُّــوا فَــإِنَّ زَمَــانَكُمْ زَمَــنٌ خَمِــيصٌ[١٥٨]

وُصِفَ الزمانُ بذلك مبالغةً كقولهم: نَهَارُهُ صَائِمٌ، ولَيْلُهُ قائم. و «غَيْرَ» نُصبَ على الحال.

قال بعضُهم: يَنْتَصِبُ بمحذوفٍ مُقَدَّرٍ على معنى: فيتناول غَيْر مُتجانِفٍ، ويجوز أن يَنْتَصِبَ بقوله: ﴿**ٱضْطُرَّ**﴾: ويكونُ المقدرُ متأخرًا.

والجمهور على ﴿**مُتجَانِفٍ**﴾ بألف وتخفيف النون من «تَجَانَفَ» .

وقرئ: «مُتَجنّفٍ»[١٥٩]بتشديدِ النُّونِ دُونَ ألفٍ.

وهي أبْلَغُ من ﴿**مُتجَانِفٍ**﴾ في المعنى؛ لأنَّ شِدّةَ العينِ تدلُ على مُبالغةٍ وتوغُّلٍ في المعنى.

و﴿**لِإِثْمٍ**﴾ متعلّق بـ﴿**مُتجَانِفٍ**﴾،واللام على بابها.

وقيل: هي بمعنى «إلى» أي: غَيْرَ مائِلٍ إلى إثْمٍ ولا حاجة إليه.

وقد تقدم معنى هذه اللفظة، واشتقاقها عند قوله: ﴿**فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً**﴾[البقرة٢/١٨٢].

وقيل: هو معنى قوله: ﴿**غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ**﴾ [البقرة ٢/١٧٣]، ومعنى «الإثم» هاهنا أنْ تأكُلَ فوق الشِّبَع تلذُّذًا في قولِ أهل «العراق». وفي قولِ أهْلِ «الحجازِ» : أنْ تكُون عَاصِيًا.

قال قتادةُ: غَيْرَ مُتَعرّضٍ لمعْصِية في مقصده.

وقوله: ﴿**فَإِنَّ الله غَفُورٌ**﴾ جُمْلةٌ، إمَّا في محلِ جَزْمٍ، أو رفعٍ على حَسَبِ ما قيل في «مَنْ»، وكذلك إما واجبةٌ أو جائزةٌ، والعائدُ على كِلاَ التقديرين محذوفٌ، أيْ: «فَإِنَّ الله غَفُورٌ» له، يعني: يَغْفِرُ له أكْلَ المحَرَّمِ عند الاضطرارِ «رَحِيمٌ» بعباده حَيْثُ أحَلَّ لهم ذلك المحرمَ عند احتياجهم إلى أكْلِهِ.[١٦٠]

وعن بعض العارفين: الدنيا ميتة الأولياء، والاجتناب منها واجبٌ عليهم فى تجريد التوحيد، فإذا وقعوا فى السير فى بحر الأنس، وغلب عليهم البسط والانبساط، وصاروا منعوتين بوصف العشق والمحبة، وطابت نفوسهم فى روح القلوب الملكوتية، واحتاجوا الى مباشرة الرخص والسعادة، فهم فى حدِّ الاضطرار من جهة نفوسهم الركنة الساكنة بروح الأنس؛ لأنها تطلب من مستحسنات الكون ما يليق بزيادة هيجان القلوب، وزيادة شوق الأرواح، فإذا باشروا طيبات الدنيا على حدِّ ترويح الخواطر، وتسكينها من الحرق والهيجان، فهي مباحة لهم ما داموا فى سير المعارف، فاذا بلغوا منتهى المقامات، ولم تتجاوز النفوس من تلك المباحات الى استدامة الحظوظ فهى غير متجانفة إلى الفترة، فإن الله سبحانه يتجاوز عن مؤاخذتها بالحجاب، ويعينها فى طلب المآب، فإنه غفورٌ لخطرات أوليائه رحيمٌ بنعت الوصلة باصطفائه.

---

[١٥٨] **الكتاب** لعمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ١/ ٢١٠؛ **شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية** ، لمحمد بن محمد حسن شُرَّاب، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ-٢٠٠٧ م، ٢/٣٥.

[١٥٩] قراءة شاذّة، مروية عن يحيى و إبراهيم. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٤٩؛ **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه. ص ٣٧.

[١٦٠] **اللباب** لابن عادل، ٧/٢٠١-٢٠٢.

وقال الأستاذ: يحتمل أن معناه مَنْ نزل عن مطالبات الحقائق إلى رخص العلم لضعف وجده فى الحال فرعًا، يجرى معه مساهلةً إذا لم يفسخ عقد الإرادة.[١٦١]

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤)﴾

لَمّا ورد أن يقال: مفعول «سأل» إنما يكون مفردًا أبدًا، فكيف أوقع على الجملة؟ أجاب عنه العلاّمتان:[١٦٢] بأن ذلك يتضمَّن السؤال معنى القول.[١٦٣]

و«ما» للاستفهام [**٣٤**/ظ] في حيّز الابتداء، و«ذا» بمعنى: «الذي»، والموصول مع صلته خبرُ المبتدأ، أو «ماذا» اسم واحد بمعنى: «أيّ شيء»، ويحكم على موضعه بحسب ما يقتضيه العاملُ، وههنا في محلّ الرّفع على الابتداء، و﴿**أُحِلَّ لَهُمْ**﴾ خبره.

ولَمّا ورد أن يقال: وجه كون مفعول «يسئلون» جملة متضمّنة معنى القول، فتكون الجملة محكيةً عنهم ومقولًا لهم، وإنما مقولهم: «ما أُحلَّ لنا»، فحكاية كلامهم تقتضي أن يقال: «لنا»؛ لتطابق الحكاية المحكي؛ إجابًا عنه أيضًا، بأنه إنما لم يقل لهم نظرًا إلى «يسئلونك» بلفظ الغيبة، فإنه لَمَّا عبر عن القائلين بضمير الغيبة، حيث قيل: يسئلونك جاز أن لا يحكى كلامهم بعبارتهم، بل يحكى عنهم محصول سؤالهم، ولو قيل: ماذا أحلَّ لنا؟ لَكان جائزًا وصوابًا أيضًا على أن يكون حكايةً لكلامهم بعبارتهم،[١٦٤] كما جاز أن يقال: «أقسم زيد لأضربنّ» على حكاية الجملة المقسم عليها بعبارة زيد.[١٦٥]

وقيل: الاستفهام المذكور معلّق للسّؤال، وإن لم يكن من أفعال القلوب إلا أنَّه لَمّا كان سبب العلم، والعلم يُعلَّق،فكذلك سببه فلا حاجة إلى التضمين المذكور على الوجه المزبور،[١٦٦] والمسئول «ما أحل لهم» من المطاعم ،كأنهم لما تُلِي عليهم ما حُرِّم عليهم سألوا عمّا أحلَّ لهم.[١٦٧]

وقيل: نزلت في عديّ بْنِ حَاتِمٍ، وَزَيْدِ الخيل الذي سمَّاه رسول اللهَ زيد الخيْرِ، قالا: يا رسول الله، إنّا قَوْمٌ نَصِيدُ بالكِلاَبِ، والبزاةِ، فَمَاذَا يَحِلُّ لَنَا منها؟

وقيل: لما أمر ع م بقتل الكلابِ، قالوا: ماذا يحلُّ لنا من هذه الأمّةِ التي أمرت بقتلها؟ فلمَّا نزلت أَذِنَ رسولُ اللهَ في اقتناءِ الكِلابِ التي يُنْتَفَعُ بها، وَنَهَى عن إمْسَاكِ مَا لاَ يُنْتَفَعُ بها.[١٦٨]

---

[١٦١] **عرائس البيان** للبقلي، ٢٩٨/١-٢٩٩.

[١٦٢] الزمخشري، البيضاوي.

[١٦٣] **الكشاف** للزمخشري، ٥٩٤/١. **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤١٩/١. ولا حاجة إلى التضمين الاصطلاحي، بل يكفي «أن في السؤال مع القول»، كما هو الله تعالى من كلام المصنف. وأما كلام السمرقندي فعلى الاصطلاحي حيث قال: يقولونه سائلين أو يسئلون قائلين. منه. **بحر العلوم** للسمرقندي، ٤ظ.

[١٦٤] **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٤٧٦/٣.**

[١٦٥] **اللباب** لابن عادل، ٢٠٣/٧.

[١٦٦] **اللباب** لابن عادل، ٢٠٣/٧.

[١٦٧] **تفسير ابن كمال باشا ، ٢٤٥/٣.**

[١٦٨] **اللباب** لابن عادل، ٢٠٤/٧.

﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ﴾ وهي: جمع «طيبةٍ»، والطيب: هو المستلذُّ المستطاب، والحلال المأذون فيه يصير- أيضا- طيِّبًا تشبيهًا لما هو مستلذٌّ مستطاب؛ لأنهما اجتمعا في انتفاء الضّرورة، ولا يمكن أن يراد بالطيبات هنا المحلّلات وإلا لصار تقدير الآية: قل أحلَّ لكم المحللات.[١٦٩]

فالمراد ما لم تستخبِثْه الطباع السليمة، ولم تَتَنَفَّرْ عنه،[١٧٠] فمن منطوقه يحلّل ما كانت العرب يحرّمونه من الطيبات، كالبحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، فهم كانوا يستطيبونها إلا أنهم كانوا يحرّمون أكلها لشُبهاتٍ ضعيفةٍ، ويؤكده قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف ٣٢/٧]، وقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾ [الأعراف ١٥٧/٧] ومن مفهومه يحرم مستخبثات العربِ؛ فإن أهل البادية يستطيبون أكل جميع الحيوانات، فالاعتبار باستطابة أهل المروءة، أو ما لم يدل نصٌّ، ولا قياس على حرمته، بل بقي داخلًا عموم قوله: ﴿هُوَ الذَّيِ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة ٢٩/٢]، فإنَّ عموم هذه الآية قد خصّ بقوله: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾ [الأعراف ١٥٧/٧]، وغير ذلك من الأدلة الشرعية القائمة على حرمة بعض مافي الأرض، وأنَّ محلَّ الطيبات على المعنى الأوّل يجب تخصيصها أيضًا، بتلك الأدلة.[١٧١]

وفي التحقيق الطيباتُ للمحبّين في الدنيا والاخرة مشاهدة الله، كما قال عليه السلام: «الدُّنْيَا محرَّمةٌ على أَهْلِ الآخِرَة، والآخرةُ عَلَى أهْلِ اللهِ».[١٧٢]

سئل النوري عن القوت؟ فقال: ذكر الحي الذي لا يموت.

وقال يوسف بن الحسين: الطيّب من الرزق ما يبدو لك من غير إشراف نفس، ولا تكلّف.

وقيل: ما وقع للعارف في مقام التوكّل من الغيب بنعت الرضا.[١٧٣]

﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ قال المصنف: عطف على ﴿ٱلطَّيِّبَاتُ﴾ أي: أحلَّ لكم الطيبات وصيْدَ ما علَّمتم، فحذف المضاف، أو تجعل ﴿مَا﴾ شرطيةً وجوابها ﴿فَكُلُوا﴾.[١٧٤]

فقوله: «أو تجعل» عطفٌ على قوله: «وصيْدَ ما علَّمتم فحذف المضاف»، فعلى الأوَّل: ﴿مَا﴾ موصولة، و﴿مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ بيانيّة، وعلى هذا شرطية على تقدير المضاف أيضًا، رُوي عن المصنف أنه سُئل عنه وقيل: فإذن يبطل كونها شرطية؟ فقال: لا؛ لأن المضاف إلى الاسم الحامل لمعنى الشّرط في حكم المضاف إليه، تقول: غلامَ من تضربْ أضربْ.

---

[١٦٩] **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٢٠٤/٧؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤٧٦/٣.

[١٧٠] **إرشاد عقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي، تحقيق: مجموعة من المحققين، نشريات وقف ديانة التركي، أنقرة، ٢٠٢١، ٣/ ١٩؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٤٥/٣.

[١٧١] **اللباب** لابن عادل، ٢٠٤/٧.

[١٧٢] **الفردوس بمأثور الخطاب** للديلمي، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ٢٤٧/١. ٢٣٠/٢ (٣١١٠).

[١٧٣] **عرائس البيان** للبقلي، ٢٩٩/١.

[١٧٤] **الكشاف** للزمخشري، ٥٩٤/١.

وقال صاحب **اللباب:**[١٧٥] فإن تقدَّم أسماء الشرط شيء فالمعنى الموجب لها التصدَّر، فقُدّر قبله لاتحاده بها، فعلى هذا يكون غلام من تضرب أضرب، أي: إنْ تضربْ غلام زيد أضربْ، وفيه بحث؛ لأنه ليس من مواضع وضع المظهر موضع المضمر في الجزاء؛ إذ ليس موضع التعظيم، فلعلّ التكرير الذي لإناطة ما بعده عليه.

ويُمكن أن يقال: إن السائل كأنه كان متردِّدًا في حلّ ما أمسكه الضواري، فقدم في الجواب ﴿**أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ**﴾ وعطف عليه «صيد ما علَّمتم» اختصاصًا له، ثم زيد في المبالغة بأن جعل الجزاء عين الشَّرط، ويجوز أن لا يُقدَّر المضاف، ويكون مبتدأ خبره الشرط والجزاء على المختار، والجملة عطف على جملة: ﴿**أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتِ**﴾، فعلى هذا قوله: «أو تجعل» عطفٌ على قوله: «عطفٌ على ﴿**الطَّيِّبَاتُ**﴾»، لا على قوله: ﴿**وَمَا عَلَّمْتُمْ**﴾ كما توهم.[١٧٦]

وفيه وجه ثالث، وهو أن يكون موصولةً في محلّ الرّفع على الابتداء، والخبر قوله: ﴿**فَكُلُوا**﴾ وإنَّما دخلت الفاء تَشَبُّهًا للموصول باسْمِ الشَّرْطِ، و﴿**مِنَ الْجَوَارِحِ**﴾ في محَلّ النَّصب، حال من الموصول، أو من العائد إليه.

والجوارح: جمعُ «جَارِحَةٍ»، والهاء للمبالغة سميت [**٣٥**/و] بذلك؛ لأنَّها تجرح الصيد غالبًا، أو لأنها تكسبه والجرح الكسب.

ومنه: ﴿**وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ**﴾ [الأنعام، ٦/٦٠] والجارحة صفة جارية مجرى الأسماء؛ لأنَّها لم تذكر موصوفها سابقًا[١٧٧]

والمراد منها في الآية كلّ ما يكسب الصيد على أهله من سباع البهائم، كالفهد والنَّمِر والكلب، ومن سباع الطير كالبازي والعُقاب والصَّقر والشاهين ونحوهما مما يقبل التعليم؛ فان صيد جميعها حلال.[١٧٨]

﴿**مُكَلِّبِينَ**﴾ أي: معلِّمين إيّاه الصيد. والمكلِّب: مؤدِّب الجوارح ومضرِّها بالصيد، مشتقٌّ من الكلب، فالتكليب جعل الشيء كلبًا، والكلب كلب بنفسه لا بجعل المعلِّم فلا بدّ أن يفسّر بجعله كلبًا كاملًا، وذلك أن يكون بتعليمه وتعويده على الاصطياد، ولَمَّا ورد أن يقال: بهذا المعنى مختصّ بالكلب والمدّعى أن التَّكليب تأديب الجوارح، أي: جارحة كانت من سباع الطيور والبهائم، أجيب عنه بأنه مبني على تغليب الكلب على باقي السّباع لكون الكلب آثر للصيد، وكون التأديب أكثر فيه، وبأن كل سَبُع يسمى كلبًا.[١٧٩]

قال عليه السلام في حقّ عتبة بن أبي لهب حين أراد سفر الشّام وصدر عنه ما استحق به أن يدعو عليه السلام عليه: «اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كِلَابِكَ فأَكَلَهُ الأسد»،[١٨٠] لكن يرد عليهأنه إنما يدلُّ على تسمية سباع البهائم كلبًا؛ لان دعائه عليه السلام إنما استجيب بالأسد، ولا يدلُّ على تسميته سباع الطيور به، وهو داخل في المدّعى، أو من الكلب وهو الضراوة، يقال: هو كلب بكذا، أي: حريص، وبه كلب، أي: حريص، وكأنه –أيضًا– مشتقّ من الكَلْب هذا الحيوان لحرصه،وانتصابه

---

[١٧٥] **هو اللباب في علوم الكتاب** لعمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقيّ، أبو حفص، سراج الدين (بعد٨٨٠هـ/١٤٧٥م).

[١٧٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٢٧٩.

[١٧٧] **اللباب** لابن عادل،٧/٢٠٥.

[١٧٨] **اللباب** لابن عادل، ٧/٢٠٦؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/٤٧٧.

[١٧٩] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/٤٧٨.

[١٨٠] **المستدرك** للحاكم، ٢/٥٣٩ (٣٩٨٣)؛ **السنن الكبرى** للبيهقي، ٥/٣٤٦ (١٠٠٥٢).

على الحال من ﴿عَلَّمْتُمْ﴾[181]ولما ورد أن يقال: معنى الحال استغني من الفعل، فما فائدتها؟ أجيب: بأن فائدتها المبالغة في التعليم، فكأنه قيل: وما علَّمتم ماهرين في تعليم الجوارح، حاذقين فيه مشتهرين به.[182]

فقيل: هي حال مؤكدة. وقيل: مؤسسة.

وقرئ: «مُكْلِبِينَ»[183] بتخفيف اللام من الكلب صار ذا كلب، وجملة الجواب فعليّةٌ، والسؤال اسمية، وهي ماذا أحلّ لكم؟ فهي جواب لها من حيث المعنى، لا من حيث اللفظ؛ إذ لم يتطابقا في الجنس.[184]

قال عليه السلام: فَقَالَ: «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ المعَلَّمَ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ عليه فَكُلْ».[185]

﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ استئناف، أو حال ثانية من فاعل ﴿عَلَّمْتُمْ﴾ ومنعه من لا يجيز للعامل أن يعمل في حالين، أو من الضمير في ﴿مُكَلِّبِينَ﴾، فيكون متداخلة، وعلى التقديرين مؤكدة؛ لأنها مفهومة من ﴿عَلَّمْتُمْ﴾، ويمكن التأسيس، أو اعتراض إن جعل ﴿مَا﴾ شرطيةً أو موصولةً خبرها ﴿فَكُلُواْ﴾ فيكون اعتراضًا بين الشرط وجوابه، أو المبتدأ والخبر. ولا تكون حالًا ﴿مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ للفصل بأجنبيٍّ، وهو مكلِّبين. وأُنِّث الضمير مراعاة للفظ الجوارح.[186]

«وفيه أن على كل آخذ علمٍ أن لا يأخذه إلا من أقتل أهله علمًا، وأنحرهم درايةً، وأغوَصهم على حقائقه، وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكبادَ الإبل، فكَمْ من آخذٍ عن غيره متقنٍ، قد ضيَّع أيَّامه، وعضّ عند لقاء النَّحارير أناملَه»![187]

وهو من : قتَلْتُه علمًا بالغتفي علمه، وبلغت الغاية. وضمير لا يأخذه وأهله ولطائفه يعود إلى علمًا في قوله: «على كل آخذ علمًا»، وهو مفعول «آخذ» ولا اعتماد إلا على موصوفٍ مقدَّرٍ، وممَّا تفرَّد به صدر الأفاضل تجويز العمل بالاعتماد على المضاف والفعل، وحرف الجر، وحرف النّداء، وضمير إليه «لأَقْتَلِ أَهْلِهِ». ووجه الدَّلالة على ذلك في ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ أنه علّق بقوله: ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾. فأفاد أنه إنما يحلّ صيد الكلب الذي علّمه مَنْ أخذ العلم من الله الذي هو أعلم العالمين، بل لا يشبه بعلم أحدٍ إلى علمه.[188]

---

[181] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤١٩/١.

[182] **الكشاف** للزمخشري، ٥٩٤/١؛ **البحر المحيط** لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ-١٩٩٣، ٤٤٥/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤١٩/١؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٠٥/٧-٢٠٦؛ **إرشاد عقل السليم** لأبي السعود، ١٩/٣.

[183] قراءة شاذّة، مروية عن أبي رزين الكوفي. **المحتسب في تبيين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها**، أبو الفتح عثمان بن جنّي الموصلي، تحقيق: مجموعة من المحقّقين، دار سزكين للطباعة والنشر، د.م. ١٤٠٦هـ/١٩٨٦، ٢٠٨/١؛ **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٤٩؛ **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٣٧.

[184] **اللباب** لابن عادل، ٢٠٦/٧.

[185] **صحيح البخاري**، ٨٦/٧ (٥٤٧٦)؛ **صحيح مسلم**، ١٥٢٩/٣ (١٩٢٩).

[186] **اللباب** لابن عادل، ٢٠٧/٧.

[187] **الكشاف** للزمخشري، ٥٩٤/١.

[188] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٧ظ.

﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من الحِيَل، وطرق التأديب؛ فإن العلم به إلهامٌ من الله، أو مكتسب بالعقل الذي هو منحة منه، أو ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أن تعلِّموه منِ اتّباع الصَّيد بإرسال صاحبه، وينزجره بزجره، وينصرف بدعائه، ويمسك عليه الصيد، ولا يأكل منه.[١٨٩]

فما مبيّن على الأوّل: بما يتعلّق بأحوال المخاطبين من كيفية التعليم للكلاب، ولطائف الحِيَلِ في ذلك الباب، وذلك بإلهامٍوفكرٍ، وعلى الثاني: مبيَّن بما يتعلق بأحوال الكلاب في باب الاصطياد من الجزئيات التي هي شرط في حلِّ الصَّيد، وذلك بالشرع، فكلامها من تعليم الله إيّانا، فعلى الأوّل الحال الثانية أعني: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ بمنزلة التفسير، والتَّفصيل للحال الأوَّل أعني: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾، وعلى الثاني: قيد زائد، فتقيدالكلامأن المعلِّم للكلاب ينبغي أن يكون كَلِبًا، فقيهًا في ذلك الباب، وفيه إشارة إلى أن العَالِم وإن كان أوحدَ متبحّرًا في العلوم ينبغي أن يكون محدَّثًا مُلهمًا من عند الله، مُجانبًا مشارَب علمه من كدورات الهوى ولَوْثِ النَّفس الأمَّارة مستعدًّا لفَيَضان العلوم اللَّدُنيَّة، مقتبسًا من مشكاة الأنوار النَبَوِيَّة.[١٩٠]

والتعليم أن يوجد فيها ثلاثة: إذا دعيت أجابت، وإذا زجرت انزجرت، وإذا أخذت أمسكت، ولم تأكل فإذا وجد مرارًا، وأقله ثلاث مرات كانت معلّمة ولو صاد المعلّم وجرح.

وقيل: يحلّ؛ لأن جرحه كالذبح وكذا في السهم، وإذا صاد فجثم عليه وقتله بالفم بلا جرح، اختلف فيه، وهذا كلّه إذا لم يأكل منه، فإن أكل منه، فقيل: لا يحلّ وهو أحد قولي الشافعي؛ لأنه أمسك على نفسه لا عليكم.

وقيل: يحلُّ وهو قوله الثاني، ولا فرق فيه بين سباع البهائم والطير.

وقال أبو حنيفة: يؤكل ما بقي من جوارح الطير؛ إذ تأديب البازي إلى أن لا يأكل عسير بخلاف الكلب.[١٩١]

و﴿مِنْ﴾ للتبعيض، والبعض المأكول ما عدا عظمه ودمه، أو ما بقي ممَّا أكلت الجوارح عند من يقول بحلِّه، أو زائدة، والبصريون لا يقولون به في الإثبات، فعلى الأول: هي متعلقة بمحذوف منصوبٍ على أن صفةٌ لموصوف محذوفٍ، وهو مفعول الأكل، أي: فكلوا شيئًا كائنًا مما أمسكت الجوارح، وعلى الثاني: لا متعلَّق لها، و«على» بمعنى «اللام»، أي: ممَّا أمسكن لكم، لا لأنفسهنَّ، أو على أصل معناها، فتتعلَّق بمحذوفٍ، أي: أمسكن حال كونهن مستقراتٍ على شأنكم ومصلحتكم لا على مقتضى طبيعتهنّ.

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾

والضمير لـ﴿مَا عَلَّمْتُمْ﴾، والمعنى: سمّوا عليه عند إرساله، أو لـ﴿مَا أَمْسَكْنَ﴾ بمعنى: سمّوا عليه إذا أدركتم ذكاته، أو للمصدر المفهوم من الفعل وهو الأكل، كأنه قيل: واذكروا اسم الله على الأكل، ولكل من هذه الوجوه مؤيّد من الروايات، قال عليه السلام لعديّ بن حاتم: «إذا أرسلت كلبك وسمّيت فأمسك وقتل فكُلْ، وإن أَكَل فلا تأكلْ فإنما أمسك على نفسه؛ وإذا خالط كلابًا لم يذكر اسم الله عليها فأمسكن وقتلن فلا تأكل، فإنك لا تدري أيُّها قتلت، وإذا رميتَ الصيد فوجدتَه بعد يوم، أو يومين ليس به إلا أثر سهمك فكُل، وإذا وقع في الماء فلا تأكل، فإنك لا تدري الماء قتلَه أو سهمك».[١٩٢]

---

[١٨٩] **الكشاف** للزمخشري، ٥٩٤/١.

[١٩٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٢٨١/٥-٢٨٢؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤٧٨/٣.

[١٩١] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٤٦/١١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤٧٨/٣-٤٧٩.

[١٩٢] **صحيح البخاري**، ٤٦/١ (١٧٥)؛ **صحيح مسلم**، ١٥٢٩/٢ (١٩٢٩).

وقال لأبي ثعلبة: «مَا صِدْتَ بِقَوْسِكَ فَذَكَرْتَ اسْمَ الله عَلَيْهِ فكُلْ. وَمَا صِدْتَ بِكَلْبِكَ المعَلَّمِ فذكرت اسمَ اللهِ عليْهِ فَكُلْ، وإذَا صِدتَ بِكَلْبِكَ غَيْرِ المعَلَّمِ فأدْرَكْتَ ذَكَاتُه فَكُل».[١٩٣]

وقال لِعُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ: «يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ».[١٩٤]

وقال عليه السلام: «إن الشَّيْطَانَ لَيَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لاَ يُذْكَرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ»[١٩٥] فإنْ نَسِي التسمية أوّل أكله فليسمِّ آخره. ورَأَى ع مَرَجُلًا يَأْكُلُ وَلَمْ يُسَمِّ، فَلَمَّا كَانَ فِي آخِرِ لُقْمَةٍ، قَالَ: بِسْمِ اللهِ، أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ ، فَقَالَ ع م: «مَا زَالَ الشَّيْطَانُ يَأْكُلُ مَعَهُ، فَلَمَّا سَمَّى، قَاءَ مَا أَكَلَ».[١٩٦]

قال أبو رافع: استأذن جبريلُ على النبيّ، فأذن له، فلم يدخل، فأخذ النّبيُّ ردائه وخرج، فرآه، فقال: «أذنَّا لك»، فقال: أجل، إلا أنَّا معاشر الملائكة لا يدخل بيتًا فيه كلبٌ، أو صورةٌ، فالتمسوا، فوجدوا جروًا، فدخل بيتهم، فلمَّا أصبحنا أمرنا النبيُّ بقتل الكلاب، فقتلوا وسئلوا ماذا يحلُّ لنا منها؟ فنزلت فأمر ع م باقتناء الكلب الذي يُنتفع به، وأمر بقتل الكلب العَقور، وقال: «إِنَّ قَوْمًا اتَّخَذُواكَلْبًا لَيْسَ بِكَلْبِ حَرْثٍ أَوْ صَيْدٍ أَوْ مَاشِيَةٍ؛ فَإِنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أَجُورِهِمْ كُلَّ قِيرَاطٍ».[١٩٧] وفي روايةٍ: قيراطان.[١٩٨]

قيل لأبن المبارك: ولِم ذاك؟ قال: «لأنَّه يَنبحُ على الضّيف ويروّعُ السَّائِل».[١٩٩]

وقال القرطبي: وهذا المنع؛ إمَّا أن يكون لترويعِه المسلمين وتَشْويشه عليهم بنُبَاحه، وإمَّا لمنع دخول الملائكة البيتَ، أو لنجاسته على مذهب من يرى ذلك، وإما لاقتحام النَّهي عن اتّخاذ ما لا مَنْفَعة فيه.[٢٠٠]

ودلت الآية على فضل العلم؛ فإن الكلب الخسيس بالتعلم جلَّ قدره، وحلَّ صيده، وفيه عظةٌ أن بترك علمه، والأكل من صيده يُحكم بجهله وزوال علمه، فلا يحلُّ صيده، فكذا من علم من الناس، فخالف علمه، وقد سمَّى الله مخالفَ علمه جاهلًا قالتع خبرًا عن يوسف: ﴿**وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ [يوسف ١٢/٣٣]، وقال: ﴿**هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ**﴾ [يوسف ١٢/٨٩].[٢٠١]

ثم ذيل الكلام بقوله: ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ**﴾ أي اتقوه في جميع أموركم لا سيَّما في الأمور المذكورة في هذه الآيات، ثم توَّعد بقوله: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ**﴾؛ لأنه قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كلَّ شيءٍ عددًا، فلا يحتاج إلى محاولة عددٍ، ولا عقد، كما يفعل الحساب فهو يحاسب الخلائق دفعةً، ويحتمل أن يكون وعيدًا بيوم القيامة؛ كأنه قال: إن حساب الله لكم سريع إتيانه؛ إذ يوم القيمة قريبٌ، ويحتمل أن يريد بالحساب المجازاة، فكأنه توعَّد في الدنيا بمجازاة سريعة قريبة إن لم يتقوا.

---

[١٩٣] **صحيح البخاري**، ٨٦/٧ (٥٤٧٨)؛ **صحيح مسلم**، ١٥٣٢/٣ (١٩٣٠).

[١٩٤] **صحيح البخاري**، ٦٨/٧ (٥٣٧٦)؛ **صحيح مسلم**، ١٥٩٩/٣ (٢٠٢٢).

[١٩٥] **صحيح مسلم**، ١٥٩٧/٣ (٢٠١٧).

[١٩٦] **سنن النسائي الكبرى**، ٢٦٣/٦ (٦٧٢٥).

[١٩٧] **سنن النسائي**، ١٨٥/٧ (٤٢٨٠).

[١٩٨] **صحيح مسلم**، ١٢٠٣/٣ (١٥٧٥).

[١٩٩] **تفسير الثعلبي**، ١٩/٤؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٠٧/٥.

[٢٠٠] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٣١٢/٧-٣١٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٢١٠/٧.

[٢٠١] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٠٧/٥.

وقال القشيري: لَمّا ترك الكلبُ المعلَّم حظَّه، وأمسكَ ما اصطادَه على صاحبه، حلَّت فريستُه، وجازَ اقتناؤهُ، وسقطت نجاستُه، كذلك مَن كانت نيَّته وأعماله لله لا يشوبُه حظُّ نفسه.[٢٠٢]

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥)﴾

كرر المنَّة بهذا؛ تأكيدًا. وقيل: الأوَّل بيان الحكمة، وهذا بيان المنَّة، و﴿**ٱلْيَوْمَ**﴾ بمعنى: الآن حين أكملتُ لكم الدِّين، وأتممتُ عليكم النِّعمة.

وقيل: هو يوم نزول هذه الآية. وقيل: إشارةٌ إلى عصر النبي عليه السلام، وتُذكر هذه اللفظة لحالةٍ دائمة، يقال: لا يصلح اليومَ منِّي هذا الأمرُ، ولا يقدر أحدٌ أن يظلم اليوم.[٢٠٣]

وقيل: الكلام فيه كالكلام فيما قبله، وزعم قوم أن المراد بالثلاثة الأيام المذكورة ههنا وقت واحدٍ، وإنما كرره توكيداً، ولاختلاف الأحداث الواقعة فيه حَسُن تكريره، وليس بشيء.

﴿**وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ**﴾ مبتدأ، خبره ﴿**حِلٌّ لَّكُمْ**﴾ أبرز الإخبار بذلك في جملة اسمية اعتناءً بالسؤال عنه. وجوّز بعضهم أن يكون ﴿**وَطَعَامُ**﴾ معطوفًا على لم يُسمَّ فاعله وهو ﴿**ٱلطَّيِّبَٰتُ**﴾ ويكون قوله: ﴿**حِلٌّ لَّكُمْ**﴾ خبر مبتدأ محذوف، وهذا ينبغي أن لا يجوز ألبتَّة لتقدير ما لا يحتاج إليه مع ذهاب بلاغة الكلام. وقس على ما مرّ قوله: ﴿**وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ**﴾

فالمراد بـ﴿**وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ**﴾ الذبائح؛ لأنَّ ما سوى الذبائح حلالٌ قبل أن كانت لأهل الكتاب، فلا يبقى للتَّخصيص بأهل الكتاب فائدةٌ، ولأنَّ ما قبلها في بيان الصَّيد والذبائح، وهي التي تصير طعامًا بفعل الذبائح.

وقيل: المراد نحو الخبزُ والفاكهةُ، وما لا يحتاج فيه إلى الزَّكاة.

وقيل: جميع المطعومات، بحيث يتناول الذبائح وغيرها وهو الأولى، ويعمُّ الذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى ومن دخل في دينهم من سائر الأمم قبل مبعث محمد.

وأمَّا من دخل في دينهم بعد مبعث محمد فلا تحلُّ ذبيحتُه، ولو ذبحَ يهودي أو نصراني على اسم غير الله، كالنصراني يذبح على اسم المسيح، فاختلفوا فيه: فقال ابن عُمَرَ: لا يحلُّ، وهو قول ربيعةَ. وذهب أكثر العلماء إلى أنه يحلُّ، وهو قول الشَّعبي وعطاء والزهري ومكحولٍ.

سئل الشعبي وعطاء بن النصراني يذبح باسم المسيح قالا: يحلُّ، فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون.

وقال الحسن: إذا ذبح اليهوديُّ أو النصرانيُّ، فذكر اسم غير الله وأنت تسمع فلا تأكله، وإذا غاب عنك فكُلْ، فقد أحلَّ الله ذلك.[٢٠٤]

---

[٢٠٢] **لطائف الإشارات** للقشيريّ، ١/٢٥٠؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٥/٣٠٧.

[٢٠٣] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٥/٣٠٨.

[٢٠٤] **اللباب** لابن عادل، ٧/٢١٠–٢١١.

وعن عليٍ أنه استثنى نصارى بني تَغْلِبَ، وقال: ليسوا على النصرانيَّة، ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر. وبه أخذ الشافعي، كذا عن المصنفوفي حواشيه أخذه بحكم الصحابة بذلك، ولا يختص ببني تغلب، بل يعم نصارى العرب،[٢٠٥] وهم بهراء وتنوخ وتغلب.

وعن ابن عباسٍ: أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب، فقال: لا بأس، وبه أخذ أبو حنيفة.

وحكم الصَّابئين حكم أهل الكتاب عند أبي حنيفة. وقال صاحباه: هم صنفان: صنف يقرؤون الزَّبور ويعبدون الملائكة، وصنف لا يقرؤون كتاباً ويعبدون النجوم، فهؤلاء ليسوا من أهل الكتاب. وأما المجوس فقد سُنَّ بهم سنة أهل الكتاب في أخذ الجزية منهم دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم.

وعن ابن المسيب: إذا مرض المسلم فأمر المجوسي أن يذكر الله فذبح، فلا بأس. وقال أبو ثور: وإن أمره بذلك في الصِّحة، فلا بأس، وقد أساء.[٢٠٦] يعني: بأمر المجوس بالذكر، والذبح.[٢٠٧]

ولَمَّا ورد أن يقال: إن الكفار ليسوا من أهل الشرع، فكيف شُرع لهم حلُّ طعامنا؟

أجيب عنه: بأن حلّ طعامنا لهم كناية عن أن يحلّ لنا إطعامهم بالبيع، أو الهبة، أو الإباحة، فحلّ طعامنا لهم كناية عن ملزومه الذي هو المعاملة معهم، فيكون خطاب الحلّ مع المسلمين، خوطبوا به تفرقه بين إطعام الكفّار، وتزويجهم المسلمات؛ فإنه ذكر عقيب حكم النساء، ولم يذكر حلّ المسلمات لهم، فكأنه قيل: حلالٌ لكم أن تطعموهم، حرامٌ عليكم أن تزوّجوهم.[٢٠٨]

قال رجل للنبي: «إِنِّي أَتَحَرَّجُ مِنْ طَعَامِ النَّصَارَى»، فقال ع م: «لَا يَتَخَلَّجَنَّفِي صَدْرِكَ شَيْءٌ ضَارَعَتْ فيه النَّصْرَانِيَّة».[٢٠٩]

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

﴿**وَٱلْمُحْصَنَٰتُ**﴾ مبتدأ، خبره محذوف، أي: حِلٌّ لكم، أو عطف على ﴿**ٱلطَّيِّبَٰتُ**﴾، و﴿**مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ**﴾ حال من ﴿**ٱلْمُحْصَنَٰتُ**﴾، أو من الضمير فيها، والمراد بـ﴿**ٱلْمُحْصَنَٰتُ**﴾ من الفريقين الحرائر، فأجازوا نكاح كل حرّة مؤمنة كانت أو كتابيَّةً فاجرة كانت أو عفيفةً. فلا يجوز للمسلم نكاح الأمة الكتابيّة؛ لقوله: ﴿**فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ**﴾ [النساء ٤/ ٢٥]، ولأن مهرها لا يسلم إليها، بل إلى سيّدها، والأكثر على أن تخصيصهنَّ، بعث على الأولى، فيجوز نكاح الأمة الكتابيَّة في الحربية.

وابن عباس: لا يجوز الحربيات لقوله: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ إلى قوله: ﴿**حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ [التوبة ٩/٢٩]. والشافعي: لا يرى نكاح الأمة الكتابيّة، أو العفائف حرائرُكنّ، أو إماءً.

---

[٢٠٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٨و.

[٢٠٦] **الكشاف** للزمخشري، ١/٥٩٥-٥٩٦.

[٢٠٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٨و.

[٢٠٨] **اللباب** لابن عادل، ٧/٢١٢.

[٢٠٩] **سنن الترمذي**، ٤/١٣٣ (١٥٦٥).

فأجازوا نكاح الأمة الكتابية وحرَّموا البقايا من الفريقين، والأكثر على أنه بعث على الأولى أيضًا. وابن عمر: لا يرى نكاح الذميّة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة ٢/٢٢١] ويقول: لا أعلم شركًا أعظم من قولها: إن المسيح ربٌّ. وأجاب عن الآية: بأن المراد الذين آمنوا منهم، أو بأن الرّخصة في التزوّج بالكتابية في ذلك الوقت؛ لأنه كان في المسلمات قلّة، والآن فيهن كثرة فزالت الحاجة.[٢١٠]

و﴿إِذَا﴾ ظرفٌ، والعامل [**٣٥**/ظ] فيه «حلّ» الملفوظ والمقدّر، والجملة بعده في محلّ خفض بإضافته إليها، وهي هنا لمجرّد الظّرفية.

ويجوز أن تكون شرطيةً، وجوابها محذوف، أي: إذا آتيتموهن أجورهنَّ حللن لكم، والأول أظهر.

وتقييدُ الحِلّ بإتيانها تأكيد لوجوبها، وحثٌّ على الأولى، وتنبيه على أنّ مَنْ تزوّج على عَزم أن لا يعطي أجرها كان في صورة الزّاني.

وقيل: المراد بإتيانها التزامها و﴿مُحْصِنِينَ﴾ حال، والعامل ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾، وصاحب الحال الضمير المرفوع، أو «أَحلَّ» أو «حلَّ» المحذوف، و﴿غَيْرَ﴾ نصب على أنه نعت لـ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أو حال وصاحبها المضمر في ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أو فاعل ﴿آتَيْتُمُوهُنَّ﴾، على أنّها حال ثانية منه.

﴿وَلَا مُتَّخِذِي﴾ جرّ على العطف على ﴿مُسَٰفِحِينَ﴾، وزيادة «لا» لتأكيد النفي، أو نصب على العطف على ﴿غَيْرَ﴾ باعتبار الوجوه المذكورة.

والزنا ضربان: الزّنا على سبيل الإعلان، واتّخاذ الأخدان، وهو الزّنا في السرّ، والله حرّمهما، وأباح التمتُّع بالمرأة على وجه الإحصان.[٢١١]

والأخْدان: جمع خِدْنٍ، وهو الصديق يقع على الذكر والأنثى. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ يريد بالإيمان الشرائعَ والإسلام، وبالكفر إنكارَه؛[٢١٢] لانَّ الكفر إنما يكون بالمؤمن به لا بالإيمان نفسه، فهو كالتَّذييل لقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ تعظيمًا لشأن الإحلال والتحريم، وتحريضًا على المحافظة عليها، وتغليظًا على المخالفة.[٢١٣]

﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ بطلَ سعيُه في الإسلام بالكفر بعده.

قال قتادة: إن ناسًا من المسلمين، قالوا: كيف نتزوّج نساءهم وهم على غير ديننا فنزلت، يعني: أن أهل الكتاب، وإن أُلحق حكمهم في حلّ ذبائحهم لنا، وحلّ نكاح نسائهم؛ فإنهم لم يفارقوا المشركين، بل كفروا بالإيمان، أي: جحدوا به أن يكون دينًا حقًّا، وحبط بذلك عملهم، وهو تديُّنهم، بالكتاب ونبوّة موسى وعيسى.[٢١٤]

ويجوز على هذا أن يقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ بما نزل في القرآن، فهو كذا وكذا، فسمّى القرآن إيمانًا؛ لاشتماله على بيانه، وهو مبتدأ، وخبره ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ و﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ متعلِّق بما تعلَّق به الخبر، أو بمحذوفٍ يدل عليه الخبر، أي:

---

[٢١٠] **اللباب** لابن عادل، ٧/٢١٢-٢١٣.

[٢١١] **اللباب** لابن عادل،/٧٢١٤.

[٢١٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٢١.

[٢١٣] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٢٨٥.

[٢١٤] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٥/٣٠٩-٣١٠.

وهو خاسرٌ في الآخرة، أو بالخبر أن يجعل اللام فيه بمعنى: «الذين»؛ إذ لو كان موصولًا لَامتنع أن يعمل ما بعدها فيما قبلها؛ لان الموصول لا يتقدَّم عليه ما في حيّزه.

ولا يجوز أن يكون ﴿**فِي الْآخِرَةِ**﴾ خبرًا و﴿**مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ متعلّقًا بما تعلّق به؛ إذ لا فائدة فيه.[٢١٥]

﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)**﴾

﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ**﴾لا خفاء ولا خلاف في أن ليس وجوب الوضوء حال القيام إلى الصلاة أو بعدها؛ لأنه إن أريد مباشرة الصلاة عقيب القيام يكون الوضوء فيها أو بعدها، وإن أريد القيام المنتهي إلى الصلاة، أو متوجّهًا إليها يكون مُتَّصلًا بها بعد القيام، فلا يتمكّن من الصلاة قط، فجعل مجازًا عن إرادته بعلاقة كونه مسببًا عنها.[٢١٦] والمجاز للإيجاز والتّنبيه على أن من أرادالعبادة ينبغي أن يبادر إليها، بحيث لا ينفكّ الفعل عن الإرادة،[٢١٧] أو عن قصد الصلوة، وإرادتها بعلاقة كونه من لوازم التوجّه إلى الصلاة فعبَّر عن لازم الشّي بالقيام إليه والتوجّه، فيطلق اسم أحد لازمي الشيء على لازمه الآخر، لا من إطلاق اسم الملزوم على لازمه، أو المسبب على سببه بناءً على أنّ إرادة الشيء لازم، أو سبب على أنه لو سلّم، فيكفي في تغاير الوجهين اعتبار العلاقتين.[٢١٨]

فلا يرد ما قيل المصنف: جعل الأول: من إطلاق المسبب على السبب، والثاني: من اطلاق الملزوم على اللازم، وقصد الشيء كما أنه لازم للقيام إليه مسبب له، فلا فرق في ذلك.

فقوله قدس سره في تعليل الوجه الثاني: لأنَّ التوجّه إلى الشَّيء والقيام إليه قصد له[٢١٩] مأوّل بأن كلاًّ منهما، مستلزم للقصد، واختار المصنفان[٢٢٠] الوجه الأول؛ لما في الثاني نوع تكلّف.[٢٢١]

ف«ظاهر الآية يوجب الوضوء على كلِّ قائمٍ إلى الصلوة» وإن لم يكن محدِثًا؛[٢٢٢] لان المؤمن القاعد للصلاة يتناول المحدث وغيره، فسقط ما قيل: إنها لا دلالة فيها على ما ذكر؛ لأن قوله: ﴿**إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ**﴾ لا يقتضي العموم؛ لأنَّ كلمة «إِذَا» لا يدلُّ على تكرّر الفعل فضلًا عن اقتضاء العموم؛ فإن من قال لامرأته إذا دخلت الدار فأنت طالق، فدخلت مرّة طُلّقت، ولو دخلت ثانيةً لم تطلق.[٢٢٣]

---

٢١٥ **اللباب** لابن عادل، ٧/٢١٥-٢١٦.

٢١٦ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٨و.

٢١٧ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٢١.

٢١٨ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٨و.

٢١٩ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٢١.

٢٢٠ هما: الزمخشري والبيضاوي.

٢٢١ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٨و.

٢٢٢ **الكشاف** للزمخشري، ١/٥٩٧؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٢١.

٢٢٣ **اللباب** لابن عادل، ٧/٢١٨.

والإجماع على خلافه؛ لما روي أنه ع م: «صلّى الخمسَ بوُضوء واحدٍ يوم الفتح».[٢٢٤]فقال عمر: صنعتَ شيئًا لم تكن صنعته! فقال: «عمدًا فعلتُه».[٢٢٥]

فأجاب عنه المصنف أولًا: بأنه يجوز أن يراد بـ«الذين آمنوا»، أو الخطاب «قُمْتُمْ» هماالمحدثون خاصّة بقرينة دلالة الحال، واشتراط الحدث في البدل، أعني: التيمّم؛ فإن البدل لا يخالف المبدل منه في الشروط والأسباب، وهذا أولى مما يقال: الخطاب على عمومه، لكن خصّ بحال الحدث، كأنه قيل: وأنتم محدثون وذلك؛ لأنه لا دلالة في اللَّفظ على عموم الأحوال ليخصّ بالبعض. ولقائل أن يقول: إذ لا دلالة على عموم الأحوال والمرات، فلا حاجة إلى تخصيص الأفراد؛ إذ يجب على كلِّ مؤمنٍ الوضوء عند القيام ولو مرّةً، وثانيًا بأنه يجوز أن يكون الأمر للندب، ويعلم الوجوب للمحدث من السُّنة، وهو بعيد لما فيه من مخالفة كون الأمر المطلق للإيجاب، وإطباق العلماء على أنَّ وجوب الوضوء مستفادٌ من الآية مع الافتقار إلى تخصيص الخطاب بغير المحدثين من [**٣٦/و**] غير دليل، ضرورة أنه لا ندب بالنسبة إلى الْمُحْدث. وأمَّا امتناع العموم، والأمر بالنّسبة إلى البعض للإيجاب، وإلى البعض للنّدب، فمبني على اشتراك الصيغة لفظًا، أو كونها حقيقةً في الإيجاب مجازًا في النّدب؛ لا أن يكون لمطلق الطّلب، أو للطَّلب الرَّاجح على ما يراه البعض؛ لأنَّه لا اعتداد به، ومع ذلك فالإلغاز بحاله.[٢٢٦]

وليس المراد به الإلغاز المتعارف، وهو أن يطلق لفظةً له معنيان: قريبٌ وأبعد، ويراد به القريب غير مصحوبة بقرينة، بل مراده أنّ عند إرادة الحقيقة لا يحتاج إلى القرينة، وعند إرادة المجاز يحتاج إليها، فلا يُعلم المقصود.[٢٢٧]

وثالثًا: بأن ذلك كان أوَّل الأمر، «ثم نسخ»،[٢٢٨] وفيه ضعف من جهة أنه لا يظهر له ناسخ من الكتاب والسنة المتواترة، ومن جهة إطباق الجمهور على أن المائدةتامَّةٌ كلّها لا نسخَ فيها.[٢٢٩]

عن عائشة: أنها آخر سورة نَزَلَتْ فَأَحِلُّوا حَلَالَهَا وَحَرِّمُوا حَرَامَهَا.[٢٣٠]

قال عليه الصلاة والسلام: «لا تُقْبَلُ صَلاةٌ بغيرِ طُهُورٍ ولا صَدَقَةٌ مِن غُلُولٍ».[٢٣١]

﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ أمرُّوا الماء عليها، ولا حاجة إلى الدَّلك خلافًا لمالك،[٢٣٢] أي: فليَغسل كلُّ واحد منكم وجهه؛ لأنها مقابلة الجمع بالجمع يقتضي انقسام الآحاد بالآحاد، والوجه من منابت شَعر الرأس إلى منتهى الذقنِ طولًا، وما بين الاذنين عرضًا، وهو من المواجهة، وبهذا القدر هو الواحد عند الملاقاة، ويغسل ما بين الحاجبين، وأهداب العينين، والشارب، والعَنْفَقَة، وإن كانت كثيفةً.

---

[٢٢٤] **صحيح مسلم**، ٢٣٢/١ (٢٧٧).

[٢٢٥] **صحيح مسلم**، ٢٣٢/١ (٢٧٧).

[٢٢٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٨و-ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٢٠٠/٣.

[٢٢٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٢٨٨-٢٨٩.

[٢٢٨] **الكشاف** للزمخشري، ٥٩٥/١-٥٩٦

[٢٢٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٨و-ظ.

[٢٣٠] **فضائل القرآن** أبو عبيد، ص ٢٣٩.

[٢٣١] **صحيح مسلم**، ٢٠٤/١ (٢٢٤).

[٢٣٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢١/١.

وأما العارض واللِّحية فإن كانت كثيفة يغسل ظاهرها،وما استرسل من اللِّحيةلا يغسل عند أبي حنيفة، وقال غيره: يجب إمرار الماء على ظاهره.[٢٣٣]

«و﴿إِلَى﴾ تفيد معنى الغاية مطلقًا»[٢٣٤] من غير دلالةٍ على الدخول، والخروج وذلك؛ لأن المشهور من كلام أئمَّة اللّغة أنها لانتهاء الغاية، فجاز أن يقع على أوّل الحدّ، وأن يتوغل في المكان، لكن يمتنع المجاوزة، وإلا لما كان غاية. فمن ههنا ورد استعمالها في المعنيين، فمال بعضهم إلى الاشتراك اللفظي، وبعضهم إلى ظهور الدُّخول، وبعضهم إلى عدم الدخول نظرًا إلى ما وجد من كثرة الاستعمال، وما أدّى اليه نظره من أن كمال الغاية أن يوصل إلى آخرها، أو يوقف على أوّلها، وفصَّل بعضهم؛فإن صدر الكلام إن لم يتناول الغاية، فذكرها لمدّ الحكم إليها، فلا يدخل مثل ﴿**أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ**﴾ [البقرة ١٨٧/٢] وإن تناولها كما في ﴿**أَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ**﴾ فذكرها لإسقاط ما وراها فيبقى داخلًا تحت الحكم، وهذا أيضًا ليس على إطلاقه؛ إذ يدخل في مثل قراءة القرآن من أوَّله إلى آخره بخلاف قراءته إلى سورة كذا.[٢٣٥]

وحاصل كلام المصنف أنه لما أفاد مطلق الغاية، فالدخول في الحكم وعدمه يدور مع الدليل، ومما فيه دليل على الخروج قوله: ﴿﴿**أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ**﴾[البقرة ١٨٧/٢] ؛ إذ لو دخل الليل لَوجب الوصال، ومما فيه دليل على الدّخول: ﴿**مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى**﴾ [الإسراء ١/١٧]؛ لأنه لا يسري به إلى بيت المقدس من غير أن يدخل، وههنا لا دليل على أحد الأمرين، فأخذ بالاحتياط.[٢٣٦]

ونقل قدس سره أيضًا: «أن «إلى» من حيث إنها تفيد الغاية تقتضي خروجها وإلا لم تكن غايةكقوله تعالى: ﴿**فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ**﴾ [البقرة ٢٨٠/٢]لكن لَمَّا لم تتميز الغاية ههنا عن ذي الغاية وجب إدخالها إحتياطًا».[٢٣٧]

وقال ابن الكمال:[٢٣٨] ضرب الغاية لا بدَّ له من فائدة، وهي: إمَّا مدُّ الحكم إليها، أو إسقاط ما وراءها، والأول يحصل ههنا بدونه؛ لأن اليد اسم لذلك العضو إلى الإبط، فتعيَّن الثاني، ومُوجَبه دخول الغاية تحت المغيَّا.[٢٣٩]

وعلى الوجوه الثلاثة يحصل الجواب عن قول زفر[٢٤٠]: أن الأصل في الغاية عدم الدخول تحت المغيَّا كالليل في الصوم، فيخرج عن المغسول.[٢٤١]

---

[٢٣٣] **اللباب** لابن عادل، ٢١٩/٧.

[٢٣٤] **الكشاف** للزمخشري، ٥٩٨/١.

[٢٣٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٨ظ.

[٢٣٦] **الكشاف** للزمخشري، ٥٩٨/١.

[٢٣٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢١/١.

[٢٣٨] ابن كمال باشا (٩٤٠ هـ/ ١٥٣٤ م) أحمد بن سليمان بن كمال باشا، شمس الدين: قاض من العلماء بالحديث ورجاله. تركي الأصل، مستعرب. قال التاجي: قلما يوجد فن من الفنون وليس لابن كمال باشا مصنف فيه. تعلم في أدرنه، وولي قضاءها ثم الإفتاء بالآستانة إلى أن مات. له تصانيف كثيرة، منها طبقات الفقهاء، وطبقات المجتهدين، ومجموعة رسائل تشتمل على ٣٦ رسالة، ورسالة في الكلمات العربية نشرت في المجلد السابع من مجلة المقتبس، ورسالة في الجبر والقدر، و إيضاح الإصلاح في فقه الحنفية، ورجوع الشيخ إلى صباه مجون، سيأتي ذكره في ترجمة التيفاشي، وتاريخ آل عثمان وتغيير التنقيح في أصول الفقه. **الأعلام** للزركلي، ٣٧٧/١.

[٢٣٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٥١/٣.

[٢٤٠] هو زفر بن الهذيل العنبري (ت.١٥٨هـ/٧٧٥) الفقيه المجتهد الرباني ، العلامة أبو الهذيل بن الهذيل بن قيس بن سلم. ولد سنة عشر ومائة وحدث عن الأعمش، وإسماعيل بن أبي خالد ، وأبي حنيفة ، ومحمد بن إسحاق ، وحجاج بن أرطاة ، وطبقتهم. مات زفر سنة ثمان وخمسين ومائة.**سير أعلام النبلاء** لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، مؤسسة الرسالة، د.م، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ٣٩/٨.

ونقل قدس سره: أن يكون «إلى» بمعنى «مع» كقوله تعالى: ﴿**وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ**﴾[هود ٥٢/١١] أي: مع قوَّتكم وإن يتعلّق بمحذوفٍ تقديره: وأيديكم مضافةً إلى مرافقكم، ولو كان كذلك لم يكن بمعنى التحديد، ولا لذكره مزيد فائدة، لانَ مطلق اليد يشتمل عليه.[٢٤٢]

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «أَنَهُ كَانَ يُدِيرُ الْمَاءَ عَلَى مِرْفَقِهِ».[٢٤٣] وهذا لا يدلُّ على الوجوب إلا أن يقال: إنه بيان لما في الكتاب، لكن لا يخفى أن المطلق ليس بمحمل.

و﴿**الْمَرَافِقِ**﴾ جمع مِرْفق، وهو مجتمع طرفي السَّاعد والعضُد، وسمي مرفقًا؛ لأنه الذي يرتفق به أي يتكأ عليه من اليد، وفيه لغتان: فتح الميم مع كسر الفاء، وعكس ذلك، واللغة الفصيحة هي الأولى.

قال عليه السلام: «إِذَا تَوضَّأَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ أَوِ الْمُسْلِم، فغَسلَ وجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خطِيئةٍ نظر إِلَيْهَا بعينهِ مَعَ الْماءِ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرَةٍ مِنَ الْماءِ».[٢٤٤]

﴿**وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ**﴾ المسح في اللّغة: إمرارُاليد على الشَّيء السائل أو المتَلَطّخ لإذهابه.[٢٤٥]

وفي الشرع: إصابة البَلَلِ سواءٌ كان المصاب عضوًا أو غيره، كالخفّ والسيف ونحوه، وسواء كانت الإصابة باليد أو بغيرها، يرشدك إلى هذا أنه لو أصاب رأسَه أو خفَّه من ماء المطر قدر المفروض أجزاه مسحُه باليد أو لم يمسَحْه.[٢٤٦] فلم يصب مَنقال: المسح إصابة اليد المبتلَّة العضوَ، وكذا من قال: المسح هو اللمس بباطن الكف.

وأنت خبير: بأن هذينالقولين مبني على الظاهر [**٣٦**/ظ] ومقتضى المقام، وما ذكر من المواد تنزيل ذلك منزلةَ الحقيقة، فعدم الإصابة ممنوع.

وشرط في صحة المسح أن لا يكونَ البلَل مستعملًا ،كما شرط في صحة الغسل أن لا يكون الماء مستعملًا، فلا يصح ببلَل يأخذه من عضوٍ، ممسوحًا كان أو مغسولًا،وكذلك ببلَل يبقى في يده بعد المسح.

وأمَّا الذي بقى فيها بعد الغسل، فقال الحاكم الشهيد: لا يجوز المسح به أيضًا، وخطَّأه عامة المشايخ، لما ذكره محمد في مسح الخفِّ أنَّه إذا توضَّأ ثم مسح على الخف ببلّة، بقيت على كفّه بعد الغسل جاز.

والصحيح ما قاله الحاكم، فقد نصّ الكرخيُّ في «**جامعه الكبير**» على الرواية عن أبي حنيفة وأبي يوسف مفسَّرًا معلَّلًا: أنه إذا مسح رأسه بفضل غسل ذراعيْه لم يجزِ إلا بماءٍ جديدٍ؛ لأنه قد تطهر به مرّةً.[٢٤٧]

قيل: «الباء» مزيدة؛ فإن زيادتها في المفعول شائع كثير، نحو: ألقى بيده ونرحب بالفرح. وحكى عن سبويه: إن مسحت رأسه وبرأسه بمعنًى.

---

[٢٤١] **الهداية شرح بداية المبتدي** برهان الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر الفرغاني المرغيناني، دار الأرقام، بيروت–لبنان، د.ت. ١٣/١.

[٢٤٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢١/١.

[٢٤٣] **سنن النسائي الكبرى**، ٩٣/١ (٢٥٥).

[٢٤٤] **صحيح مسلم**، ٢١٥/١ (٢٤٤).

[٢٤٥] **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «مسح»، تحقيق: مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

[٢٤٦] **الايضاح في شرح الاصلاح في الفقه الحنفي** لابن كمال باشا، تحقيق: عبد الله داود خلف المحمدي ومحمود شمس الدين أمير الخزاعي، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٢٧هـ/٢٠٠٧م، ١٥/١.

[٢٤٧] **الايضاح في شرح الاصلاح** لابن كمال باشا، ١٥/١–١٦.

وقيل للتبعيض؛ فإنّه الفارق بين قولك: مسحتُ المنديل، ومسحت بالمنديل، ووجهه: أنَّ المسح وإن تعدّى بنفسه لكن «الباء» في المفعول على تضمين معنى الإلصاق.[٢٤٨] الأصل في الباء أن تدخل في الآية وإنتعدّى الفعل إلى محلّه بنفسه، نحو: «مسحتُ بيدي المنديل»، والآلة غير مقصودة بذاتها، بل وسيلة إليه، وهو حصول الفعل في المحلّ؛ فلا يثبت استعاب الآلة في التوسل بجميع أجزائها، بل يكفي منها ما يتوسّل به إلى المقصود بخلاف المحلّ؛ فإن تعلّق الفعل به لما كان مقصودًا، وذُكر مطلقًا ثبت استيعابه، وتعلّق به الفعل على الكمال.

فإذا دخلت في المحلّ شبه المحل بالآلة فلم يثبت استيعاب المحلِ كما لم يثبت استيعاب الآلة إذا ثبت هذا.

فقال الشافعي: يكفي في العمل به مَسحُ اليد بجزءٍ من أجزاء الرَّأس وهو غير مقدّر في الآية، ولو قدّرناه لم يكفي ذلك إلا بدليلٍ مغاير لها، فتكون الآية مجملةً، وهو خلاف الأصل، وإن قلنا: يكفي فيه إيقاع المسح على أيِّ جزءٍ كان كانت مبيّنة، فالحمل عليه أولى.[٢٤٩]

وقال أبو حنيفة: الأقلّ ليس بمراد حصوله في ضمن غسل الوجه مع عدم تأدي الفرض به بالاتفاق، بل المراد بعض مقدَّر، فصار مجملًا بيَّنه حديث المغِيرة، وهو أنه ع م: «مَسَحَ عَلَى نَاصِيَتِهِ وخُفَّيْهِ»،[٢٥٠]ومبني ذلك على عدم اشتراط الترتيب.[٢٥١]وإلا فيجوز أن يكون عدم اعتبار ما يحصل في ضمن غسل الوجه مبنيًّا على مقدار الترتيب، أو يقول أمر الله به قصدًا ينعقد بما يحصل من غير قصد، فقدَّرناه ثلاثة أصابع من اليد؛ لأنها هي آلة المسح، والثلُث أكثرها، وللأكثر حكمُ الكلّ.

وفي رواية عن أصحابنا: هو مقدَّر بالرُّبع؛ لأنه يُحكى عن الكمال لقول الرجل: رأيت فلانًا، وإنما رأى جانبًا منه، وهو ربْعُه.[٢٥٢]

وأمَّا الاستيعاب في قوله تع في باب التيمم: ﴿**فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ**﴾؛ فإنه ثبت بالسنة المشهورة، وبأنَّ التيمم خَلفٌ عن الوضوء إلا أنه نُصّف بترك مسح الرأس، وغسل الرجلين.[٢٥٣]

ونقل حسن بن زياد عن أبي حنيفة جواز تيمّم الأكثر بمقتضى الباء.

وقال مالك: بمسح الكلّ احتياطًا ونظرًا إلى زيادة الباء ، واعتبارًا بذكر الرؤوس كالوجوه.

﴿**وأَرْجُلَكُمْ**﴾ نصبه نافع، وابن عامر، وحفص، والكسائي، ويعقوب، عطفًا على ﴿**وُجُوهُكُمْ**﴾، وجرّه الباقون.[٢٥٤]

---

[٢٤٨] وقيل: فلا تدل على الاستيعاب. يعني: أنَّ المسح وإن تعدّى بنفسه، لكن دخل «الباء» في المفعول على تضمين معنى الإلصاق. منه. وجعل بعضهم الأصل المذكور بتمه لوجه التعريض وليس به.منه. **تفسير القرماني** للقرماني، مكتبة سليمانية، نسخة قيلج علي باشا: (٥٤)، ٢٩ظ.

[٢٤٩] **اللباب** لابن عادل، ٢٢٢/٧.

[٢٥٠] **صحيح مسلم**، ٢٢٩/١ (٢٧٤).

[٢٥١] **شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه** لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، د.ت. ٢١٣/١.

[٢٥٢] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣١٣/٥.

[٢٥٣] **شرح التلويح** للتفتازاني، ٢١٣/١.

[٢٥٤] **قرأ بها ابن كثير وأبو عمر وحمزة و عاصم في رواية أبي بكر. التيسير** للداني، ص ٣٣٣؛ **النشر** لابن الجزري، ١٩١/٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٢/١.

فقال المصنّف: «الأرجل من الأعضاء المغسولة تُغسل بصبِّ الماء عليها، فكانت مظنّة الإسراف المذموم المنهيِّ عنه، فعطفت على الرابع المَمْسوح لا لِتُمسحَ، ولكن ليُنبِّه على وجوب الاقتصاد في صبِّ الماء عليها».[٢٥٥]

يعني: بالرابع الرأس؛ لأن أعضاء الوضوء أربعة، فلمَّا ذكر المغسولات بلفظ الثلاثة كان الممسوح رابعًا بالضّرورة، وإن كان ذكره في القرآن في المرتبة الثالثة. فإن قيل: العطف على الممسوح لا لتمسح، يكون جمعًا بين الحقيقة والمجاز؛ حيث أريد بالمسح بالنسبة إلى المعطوف عليه حقيقته، وبالنسبة إلى المعطوف الغسل الشَّبيه بالمسح في قلّة استعمال الماء. قلنا: لا كلام في قوة الإشكال، ولا محيص سوى الحمل على تقدير إعادة العامل في المعطوف، فيراد به المعنى المجازي، فتكون الأرجل معطوفةً على الرأس في الظاهر، ومن عطف الجملة على الجملة في التَّحقيق، أي: «وامسحوا بأرجلكم»، يعني: اغسلوها غسلًا شبيهًا بالمسح، لكن لا يخفى أن هذا يُفضي إلى إضمار الجارّ، وهو ضعيف. وقيل: مراده بالعطف على الممسوح الجرّ بالجوار، كما في: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ [هود ٨٤/١١] وجُحْر ضَبٍّ خَرِبٍ، وهو في المعنى منصوب على العطف على المغسول،[٢٥٦] والتَّنبيه على الاقتصاد يستفاد من صورة العطف. ولَمَّا ورد عليه أن الجرَّ بالجوار لم يجئ مع الإلباس، وههنا مُلبِسٌ، أجاب بأنه لا إلباس؛ لأنَّ المسح لم يضرب له غاية في الشرع.[٢٥٧]

وههنا قد ذكر غايته فدلَّ على أن ليس جرَّه وعطفه على الممسوح لقصد تعلّق فعل المسح به؛ لئلّا يفضي إلى ما ليس في الشرع. وهذا لا يتوقّف على أن يكون كلّ غسل في الشّرع له غاية، كما فهمه البعض ليرد الاعتراض بغسل الوجه [٣٧/و]، بل على أنَّ كلَّ مسح، فهو لم يضرب له غاية في الشرع، والنقض بمسح الخف وَهْم؛ لأنه لم يذكر له في الكتاب أو السنةغاية لا يصحُّ هو بدونها. وأنت خبير بأنه لا دلالة له لكلام المصنّف على هذا المراد بوجهٍ من الوجوه. وقد يقال: إن العطف على الممسوح من قَبيل:«عَلَفْتُها تِبْنًا وماءً باردًا»وهو مع أنه ليس من كلام المصنف مفتقر إلى دفع الإشكال بجمع بين الحقيقة والمجاز؛ إن كان من عطف المفرد، وإلى بيان كيفيّة تعلّق الغسل بالمجرور، إن كان من عطف الجملة على معنى: واغسلوا أرجلكم. وأقرب ما قيل في إيجاب غسل الأرجل أنَّ قراءة النّصبتوجب الغسل؛ لأنه محال للعطف على محل الجارِّ والمجرور مع الإلباس. فوجب حمل قراءة الجر عليه بطريق المشاكلة، أو الجر على الجوار؛ لانتفاء الإلباس بضرب الغاية، أو بتقدير: وامسحوا بأرجلكم مرادًا به الغسل الشبيه بالمسح؛ تنبيهًا على وجوب الاقتصار، أو بالتزام الجمع بين الحقيقة والمجاز؛ دفعًا لاختلاف القراءتين، فلو سُلِّم تساويهما، وجواز حمل قراءة النصب على المسح بالعطف على المحلّ بقرينة «أَنَّ» في العطف المنصوب تخلل الفاصل الأجنبي، فغايته أن تصير الآية بمنزلة المجمل أو يدلّ على جواز الأمرين. وقد دلت الأحاديث المشهورة على وجوب الغسل والوعيد على الترك، وكان هذا أوفق بما عليه الاكثرون، وأوفى بتحصيل الطهارة المقصودة بالوضوء،وأقربُ إلى الاحتياط؛ لما في الغسل من المسح أو الإسالة بدون الإصابة، فتعيَّن الرجوع إليه.[٢٥٨]

وقرئ: بالرفع[٢٥٩] على «أرجُلُكُمْ مَغْسُولةٌ»أو ممسوحة بدلالة ﴿فَاغْسِلُوا﴾، أو ﴿وَامْسَحُوا﴾، والتفسير إلى الاسمية، وحذف خبرها يدلّ على إرادة ثبوتها وظهورها وأن مضمونها مسلم بقرينة ما عُلِم من منطوق القراءتين ومفهومهما، وعُرِف من

---

[٢٥٥] **الكشاف** للزمخشري، ١/٥٩٨-٥٩٩.

[٢٥٦] ج: معطوف منصوب على العطف على المغسول.

[٢٥٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٩و.

[٢٥٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٩و-ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٢٠٣/٣-٢٠٤.

[٢٥٩] قراءة شاذّة، مروية عن الحسن. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٥١؛ **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٣٧؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٢/١؛ **إرشاد العقل السليم** لأبي السعود، ٢٦/٣.

قول الرسول وفعله، والصحابة،[٢٦٠] وقطعها على الثانية مع قربها دلالة على الانفصال الكلي، ولا كذلك الأولى لبعدها عنها، ولذلك يغسل.

﴿**إِلَى الْكَعْبَيْنِ**﴾ الكلام في هذه الغاية، كالكلام في الغاية السابقة، وهي قوله: ﴿إِلَى الْمَرَافِقِ﴾.

والكعب: هو العظم النَّاتِئ عند أسفل الساق، من: كَعَبتِ الجارية، إذا نَتَأَ ثديها.[٢٦١]

وهو الصحيح، احتراز عما ذكر هشام عن محمد أنه المفصل الذي في وسط القدم عند معقد الشراك، قال: لأن الكعب اسم للمفصل ومنه كعوب الرمح، والذي في وسط القدم وهو المتيقن، وهذا سهو من هشام، لم يرد محمد تفسير الكعب بهذا في الطهارة، وإنما أراد في المحرم إذا لم يجد نعلين أنه يقطع خفيه أسفل من الكعبين، أمَّا في الطهارة فلا شكَّ أن العظم النَّاتِئ المتَّصل بعظم الساق، وكذا في قوله ع م: ألصقوا الكعاب بالكعاب.

وذكر المرافق بلفظ الجمع والكعبين بلفظ التثنية؛ لأن مقابلة الجمع بالجمع تقتضي انقساماالآحاد إلى الآحاد، كما يقال: ركب القوم دوابَّهم، ولكلّ يدٍ مرفقٌ واحد فحصل المقابلة، ولو قيل: إلى الكعاب، فهم منه أن الواجب بإزاء كل رِجلٍ كعب واحد، فذكر الكعبين بلفظ التثنية ليتناول الكعبين من كل رِجل؛ فإن قيل: يشكل بقوله: وَأَيْدِيَكُمْ — وَأَرْجُلَكُمْ، على ما ذكرتم ينبغي أن يكون الواجب على كلّ مكلَّف غسل يدٍ واحدةٍ، ورجلٍ واحدةٍ. قيل له:جاز أن يكون من الثابت بالنصِّ غسل يدٍ ورِجلٍ واحدةٍ والأخرى بدلالة النصّ، أو يقال: الأصل ما ذكرنا، ولكنتخلف الحكم عنه بدليل خارجي، وهو فعل رسول الله وإجماع المسلمين، وتخلُّف الحكم عن الأصل في صورة الدليل لا يمنع التمسك في صورة فقد ذلك الدليل، وقيل: إنما ذكر المرافق بلفظ الجمع والكعبين بلفظ التثنية؛ لأن المرفق طرف العظم يُرتفق به، أي: يُتكأ عليه، وإنها في كل يد ثلثة طرف، أحد عُظمي الساعد وطرفا عظم العضد،بخلاف الكعبين؛ فإنهما العظمان النائتان من جانبي القدم، قال الأصمعي وعليه عامَّة الفقهاء.[٢٦٢]

واختلفوا في الترتيب، فقال أبو حنيفة: ليس بواجب؛ لانّ الواو للجمع المطلق، فلا يقتضي الترتيب. وقال مالكٌ أحمد و والشافعيُ: أنه واجب؛ لأنه يقتضي وجوب الابتداء بغسل الوجه؛ لأن «الفاء» للتعقيب، وإذا وجب الترتيب فيه؛ وجب في غيره؛ إذ لا قائل بالفرق.

قيل: فاء التَّعقيب إنما دخلت في جملة هذه الأعمال، فجرى مجرى قوله: ﴿**إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوةِ**﴾، فأتوا بمجموعهذه الأفعال؟

فأجيب: بأن فاء التعقيب إنما دخلت على الوجه لالتصاقها بذكر الوجه، وبواسطة دخولها على الوجه، دخلت سائر الأفعال، ولا منافاة بين إيجاب تقديم غسل الوجه، وبين إيجاب مجموع هذه الأفعال.

ونحن اعتبرنا التعقيب الذي مدلول الفاء فيما دخلت هي عليه أصالة، وأنتم اعتبرتموهفيما دخلت عليه تبعًا، فكان قولنا أولى.

---

[٢٦٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٢٩٥.

[٢٦١] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٥/٣١٥.

[٢٦٢] **الكفاية في شرح الهداية** لجلال الدين الخوارزمي، تحقيق: محمد أحمد الحقّاني الأفغاني، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ١٩٧١،١/٤٢–٤٣.

ولا يخفى عليك أن مبنى الاحتجاج على أن يكون وضع الفاء الجزائية للتعقيب بدون الفعل، ولم يثبت ذلك كيف وقد صح الفصل بين القصد [**٣٧**/ظ] إلى الصلاة والوضوء بعمل آخر؛ ولأنه تعالى أورد وظائف الوضوء على ترتيب خاصٍّ، وهو ذكر الممسوح في أثناء ذكر المغسولات والترتيب الظاهر أن يُبتدأ بذكر وظيفة الرأس نازلًا إلى القدم، أو يبتدأ بذكر وظيفة القدم صاعدًا إلى الرأس، وأن لا يدرج الممسوح بين مغسولين؛ لأنه قطع النظير عن النظير، فالتَّرتيب الظَّاهر لا يعدل عنه إلا لحكم. فلما عدل عنه علِم أنه كان يجب نفس تلك الوظائف تجب مراعاة الترتيبينها على ما نصَّ عليه؛ ولأنه تع بدأ بالوجه، فوجب علينا في الامتثال بأمره أن يبتدئ بغسل الوجه؛ لقوله تعالى ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ**﴾ [هود ١١٢/١٣]، ولقوله عليه والسلام: «أَبْدَؤُوا بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ».[٢٦٣] وهذا الخبر وإن ورد في قصة الصَّفا والمروة إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.[٢٦٤]

﴿ **وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ**﴾

سبق ذلك سبق تفسيره ولعل تكريره ليتَّصلالكلام في بيان أنواع الطهارة؛[٢٦٥] فإنَّه لما ذكر كيفية الطهارة الصغرى ذكر الكبرى، وهي الغسل من الجنابة، ولَمَّا ذكر كيفية الطهارة عند وجود الماء ذكر كيفيتها عند إعوازه.

﴿**فَاطَّهَّرُواْ**﴾ أصله: «تطهَّروا» أدغمت تاء التفعّل في الطَّاء لقرب مخرجها، واجتلبت همزة الوصل ليمكن الابتداء.فقيل: «اطَّهَّروا» وهو أمر بالطهارة على الاطلاق بحيث لم يكن مخصوصًا بعضوٍ معيّنٍ، فشمل جميع البدن؛ ولأنَّ الطَّهارة الصغرى لَمَّا اختصّت ببعض الأعْضاء، لاجَرَم ذكر تلك الأعضاء وههنا لما لم يذكر، علم أنَّه أمر بطهارة كل البدن، ويدخل فيها الأنفن والفم، والأذن والسرّة، وخلال الأصابع، ومنابت الشعر، وموجبه إنزال مني على أيِّ وجهٍ كان عند الشافعي، وإنزاله بدفقٍ وشهوةٍ عند الانفصال فقط عند أبي حيفة ومحمَّد، وعند الخروج أيضًا في قول أبي يوسف.

فإذا انفصل عن مكانه شهوة، وأخذ رأس العضو حتى سكنت شهوته، فخرج بلا شهوةيجب الغسل عندهما لا عنده، وكذا لو اغتسل قبل أن يبول أو ينام، فخرج بقية المني يجب الغسل ثانيًا عندهما لا عنده.[٢٦٦]

والتِقَاءُ الخِتَانَيْنِ، وختان الرجل: الموضع الذي يقطع منه جِلدة القلْفة، وختان المرأة أن شفري فرجها محيطان بثلثةٍ: ثقبة في أسفل الفرج مدخل الذكر ومخرج الولد والحيض، وثقبةُ فوقها مثل إحليلِ الذَّكر مخرج البول، وفوقها جِلدةٌ رقيقةٌ قائمةٌ مثل عُرفِ الدِّيك، وقطعها ختانها، فإذا غابت الحشفة حَاذى ختانُه ختانها.[٢٦٧]

والمراد من عدم وجدان الماء عدم التمكّن من استعماله، وإن خاف المريض الضرر والتَّلف باستعمال الماء يتيمّم اتِّفاقًا. وإن لم يخف ذلك لا يتيممعند الشافعي خلافًا لمالك وأبي حنيفة. وإن خاف زيادة المرض، أو بُطْء البرء يتيمم. وإن خاف بقاء شين في العضو يتيمم في الصحيح.

والتَّيمم: القصد. والصَّعيد: وجه الأرض، والطَّيب: الطّاهر.

---

[٢٦٣] **صحيح مسلم،** ٨٨٦/٢ (١٢١٨) .

[٢٦٤] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٥٦/١١-١٥٧؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٣٠/٧؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده،** ٤٨٦/٣-٤٨٧.

[٢٦٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٢/١؛ **إرشاد العقل السليم** لأبي السعود، ٢٦/٣.

[٢٦٦] **الكفاية في شرح الهداية** للخوارزمي ١/٧٩.

[٢٦٧] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٦٨/١١؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٣٠/٧.

ولا يجوز التَّيمُّم عند الشافعي إلا بالتُّراب الخالص؛ لما روي عن ابن عباسٍ أنه قال: «الصَّعيد هو التُّراب، وأن التُّراب إذا لم يكن له غُبارٌ يعلَق باليد لم يَجُزْ التيممُ به عنده، وبه قال أبو يوسف أيضًا؛ استدلالًا بقوله: ﴿فَامْسَحُوا منه﴾.

وقال أبو حنيفة ومالك: يجوز بناءً على أن كلمة «من» في ﴿**مِنْهُ**﴾ لابتداء إلقائه، ولهذا لم يشترط كون الصعيد ذا غبارٍ فضلًا عن أن يعلق باليد منه غبار.

ويجب استيعاب العضوين في التَّيمم، ونقل الحسن بن زياد عن أبي حنيفة: إذا تيمَّم الأكثر؛ جاز لدخول «الباء» في الآية، نزلت في قصة عائشة، قال عَمَّار بْنَ يَاسِرٍ: «كَانَ رسول اللَّهُ فِي سَفَرٍ ومَعَهُ عَائِشَةُ ، فَهَلَكَ عِقْدٌ لها من جَزْعٍ، فَاحتبس النَّاسُ فِي طلب عقدِها، حَتَّى أَصْبَحُوا في مكانهم ذلك، وليس مَعَهُمْ مَاءٌ، فأتاها أبوبكر فتغَيَّظ لها في حبسها الناس، فبينما هملى ذلك، فأنزل الله الطَّهور بالمسح بالصَّعيد، فأتى أبو بكر عائشة فقال: والله ما علمت أنَّك لَمباركةٌ».[٢٦٨]

وفي روايةأنَّ أُسيدًا قال لابي بكرٍ: «ما أعظمَ بركتكم يا آل آبي بكرٍ، إن الله لم ينزل بكم نازلةً إلا جعل للمسلمين فرجًا ومخرجًا».[٢٦٩]

وقيل: نزلت في عبد الرحمن بن عوف: كان به جُدريٌّ، فأصابته جنابة وعنده ماءٌ، فخَشِي، فرخَّص له في التَّيمم.[٢٧٠]

ورأى عمر وابن مسعود أنَّ الجنب لا يتيمَّم ويدع الصلاة، حتى يدع الماء، ويردُّه قوله: «جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا و تُرابه طهورًا». وقوله: التُّراب طهُورُ المؤمن، ما لم يجد الماءَعشر سنين.[٢٧١]

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

ما يريد الأمر بالطهارة للصلوة، أو بالتيمم تضييقًا عليكم ﴿**وَلَٰكِن يُرِيدُ**﴾ الأمر بذلك ﴿**لِيُطَهِّرَكُمْ**﴾، أي: لينظِّفكم، أو: ليطهرِّكم من الذنوب، فإن الوضوء يكون للذُّنوب، أو ليطهّركم بالتراب إذا أعوزكم التَّطهير بالماء، فمفعول ﴿**يُرِيدُ**﴾ فيالموضعين محذوف، و«اللام» للعلة. وقيل:[**٣٨**/و] مزيدة، والمعنى: ما يريد الله أن يجعل عليكم من حرجٍ، حتى لا يرخِّصَ لكم في التَّيمم ﴿**وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ**﴾ وهو ضعيف؛ لان أن لا يقدر بعد المزيدة ﴿**مِنْ حَرَجٍ**﴾ مفعول ﴿**لِيَجْعَلَ**﴾. والجعل: يحتمل أن يكون بمعنى الإيجاد،[٢٧٢] فيتعدّىلواحدٍ وهو ﴿**مِنْ حَرَجٍ**﴾ و﴿**مِنْ**﴾ مزيدة وساغ ذلك؛ لأنه في حيّز النفي، وإن لم يكن النفي واقعًا على فعل الحرج، ويتعلّق عليكم بـ«الجعل» أو بـ«حرج»، وعدم تقدم معمول المصدر مختصّ بالمصدرالأوَّل بحرف مصدري وفعل؛ لانه بمعنى الموصول وأن يكون بمعنى التصيير، فيكون ﴿**عَلَيْكُم**﴾ هو الثاني.

قالت الحنفية: عند خروج الحدث تنجس الأعضاء حكمًا، فالتَّطهير لإزالة الحكميَّة، واستبعد بأن المؤمن لا تنجس حيًّا ميّتًا، وبأن بدنَ المحدِث لو أصاب رطبًا لا ينجس، وبأن خروج النجاسة من موضع، كيف يُنجِّس موضعًا آخر! وبأن المراد إن كان من جملة الاجسام، فالحسّ يشهد بالبطلان، إن كان من جملة الأعراض، ولا ينتقل العرض.

---

[٢٦٨] **السنن الكبرى للبيهقي**، ٣٢٠/١ (١٠٠٣).

[٢٦٩] **صحيح البخاري**، ٧٤/١(٣٣٤)؛ **صحيح مسلم**،٢٧٩/١(٣٦٧).

[٢٧٠] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣١٦/٥-٣١٧.

[٢٧١] **اللباب** لابن عادل، ٢٣٣/٧.

[٢٧٢] ج- فيكون.

فالوجه أن يراد طهارة القلب منصفة التمرُّد، فإنَّ الكفر والمعاصي نجاسات روحانية، ولَمَّا أمر بإسالة الماء على الأعضاء الطاهرة، ولم يعرف وجهه، ومع ذلك لما انقاذ كان ذلك إظهار العبودية، والانقياد للرُّبوبية؛ فكأنه أزال عن قلبه آثارَ التمرُّد.[٢٧٣]

والظاهر أن مراد الحنفيّة بالنجاسات الحكميّة كونها مانعةً لصحة الصّلوة بحكم الشارع لا أنَّ المُحدِث والجنُب ينجس ما يتصل ببدنهما؛ ولا أن المصلي إذا حملها يفسد صلاته، وأما تنجس الماء الذي استعمله، فإنما هو لانتقال الآثام اليه لا لكون بدنها نجسًا.

﴿وَلِيُتِمَّ﴾ شرعه ما هو مطهرة لأبدانكم، ومكفِّرة لذنوبكم ﴿نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ في الدين، أو وليتمَّ برخصة إنعامه عليكم بعزائم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلّق ﴿وَلِيُتِمَّ﴾، أو بـ﴿نِعْمَتَهُ﴾، أو بمحذوفٍ على أنه حالٌ من ﴿نِعْمَتَهُ﴾.

وقال سعيد بن جبر: أي: ويدخلكم الجنّة؛ فإنه لا يتمّ نعمة إلَّا به. وقيل: هو الختم على الإسلام، قاله علي بن أبي طالبٍ. وقيل: تمام النعمة شهود المنعم.[٢٧٤]

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ لكي تشكروا نعمه جَنانًا ولِسانًا وأركانًا. والآية مشتملةٌ على سبعة أمورٍ كلّها مثنى: طهارتان أصل وبدل، والأصل اثنان مستوعب وغير مستوعب، وغير المستوعب باعتبار الفعل غسل ومسح، وباعتبار المحل محدود وغير محدود، وأن آلتهما مائع وجامد، وموجبهما حدث أصغر وأكبر، وأن المبيح للعدول إلى البدل مرض أو سفر، وأن الموعود عليها تطهير الذنوب وإتمام النعمة.[٢٧٥]

ودلت على أن الأصل في المضار أن لا يكون مشروعة؛ فإنه ما جعل في الدين من حرج، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ [البقرة ١٨٥/٢]، وقال ع م: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ فِي الْإِسْلَامِ».[٢٧٦] وأيضًا دفع الضرر مستحسن في العقول، فوجب أن يكون الشرع كذلك، وفيه رمز إلى أنهتعالى لخفف عنهم أيضًا يوم القيامة، ويتجاوز عن سيئاتهم.

وقال القشيريُ: كما أن للظواهر طهارةً، فللسَّرائر أيضًا طهارة، وطهارةُ الأبدان بالمياه، وطهارة القلوب بماء النَّدم والخجَل، ثم بماء الحياء والوجَل.

وأنه تع يطهّر الظواهر عن الزَّلة بعصمته، ويطهّر القلوب عن الغفلة برحمته، يفرّغ الظواهر عن الوقوع في شِباك الأشغال، ويطهِّر السرائر عن ملاحظة الأشكال، يطهِّر العقائد عن التَّدنُّس بما يوهنها، والأعمال عن الاعتماد عليها. وإتمام النِّعمة لقومٍ بنجاتهم عن نفوسهم، ولقومٍ بنجاة نفوسهم، فشتان بين قومٍ وقوم.[٢٧٧]

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ٧﴾

---

[٢٧٣] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١١/١٨١-١٨٢، **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل،٧٢٣٨/-٢٣٩.

[٢٧٤] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٢١٨/٥.

[٢٧٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٢/١.

[٢٧٦] **موطأ امام مالك**، ٧٤٥/٢ (٣١).

[٢٧٧] **لطائف الإشارات** للقشيري، ١/ ٢٥٢-٢٥٣؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٢١٨/٥.

لَمَّا أمر بأنواع الطهارة على حسب اختلاف الأحوال، وعلَّله بأنه لتطهيرهم وإتمام النعمة عليهم لتشكروا، وأردفه بما يذكر المنعم، ويوجب عليهم شكر نعمه؛ فإن عظمها يوجب الاشتغال بخدمة المنعم، والانقياد لأوامره ونواهيه، وعطف عليه ميثاقهم؛ لأن ذلك موجب له أيضًا.[٢٧٨]

وقيل: لَمّا ذكر التَّكاليف إلى ههنا ذكر هذين الموجبين وهما ذكر النعمة والميثاق وفي الأمر تذكير النعم مع أنها متوالية متكاثرة، بحيث لايقبل النسيان إيماءً إلى أن عدم الجريان بمقتضياها بمنزلة نسيانها، وأنها لغاية ظهورها وورودها في حيّز الخفاء.

قيل: هي المذكورة في قوله: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة، ٥/٣]، أو إثبات الرخص المذكورة في السورة، أو الإسلام أو جميع النعم، وأفرد؛ لأنه جنس.

والميثاق الذي أخذه مع المسلمين حين بايعهم رسول الله على السَّمع والطَّاعة في العُسر واليُسر، والمَنْشَط والْمَكره.[٢٧٩]

والمَنْشَط: مَفْعَل من النَّشاط، وهو الأمر الذي تنشَطُ وتُؤثِر فعلَه، وهو مصدر بمعنى النشاط. والمكرَه: بمعنى الكراهة وأضافه ألى نفسه شريفًا للنهي وتنبيهًا مع أن ميثاقه مثاق الله وأنه بأمره ورضاه أو ميثاق ليلة العقبة.

قال ابن الجوزي: كانت هذه المبايَعة في العقبة الثَّانية من سنة ثلاثَ عَشْرَةَ من النُّبوة، وأما العقبة الأولى ففي سنة إحدى عشرة، قال عبادة بن الصامت: فبايعناه فيها ما بايع عليه النساء يعني:ماورد في سورة الممتحنة، أو بيعة الرضوان ما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح، ١٨/٤٨].[٢٨٠]

وقيل: هو عهد الله الذي أخذه من العباد بعد الإيمان؛ بأداء حقوق الله، [**٣٨**/ظ] وحقوق العباد.[٢٨١]

وقال ابْنُ عَبَّاسٍ: هو الميثاقُ الذي أخذه اللَّه على بَنِي إسْرائِيل حين قالُوا: آمَنَّا بالتَّوْرَاة وبكُلِّ ما فيها، وكَان من جُمْلة ما في التَّوْرَاةِ البِشَارَةُ بمقدم مُحَمَّد ع م.

وقال مُجاهِد والكَلْبِي ومقاتل: هو المِيثَاقُ الذي أخَذَهُ منهم حِين أخْرَجَهم من ظَهْر آدَم، وأشْهَدَهُمْ على أنْفسِهم «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ، قَالُوا: بَلَى».

وقال السّديّ: المرَاد بالميثاقِ: الدَّلائل العَقْلِيَّة والشَّرْعِية التي نَصَبَها اللَّهُ على التَّوْحِيدِ والشَّرائع.[٢٨٢]

و﴿إِذْ قُلْتُمْ﴾ منصوب بـ﴿وَاثَقَكُمْ﴾، أو على الحال من الهاء في ﴿بِهِ﴾، أو من ﴿مِيثَاقَهُ﴾، فعلى هذين الوجهين الأخيرين يتعلَّق بمحذوفٍ على القاعدة المقرَّرة. و﴿قُلْتُمْ﴾ في محل خفضٍ بالظرف. و﴿سَمِعْنَا﴾ في محل نصب بالقول،[٢٨٣] ثم حذرهم عن نسيان نعمه، ونقض ميثاقه بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بخفياها، فيجازيكم عليها فضلًا هي جليات أعمالكم.

---

[٢٧٨] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٨١/١١-١٨٢، **اللباب** لابن عادل،٧٢٣٨/-٢٣٩.

[٢٧٩] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٠/١.

[٢٨٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٢٩٦/٥-٢٩٧؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٩ظ.

[٢٨١] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٢١/٥.

[٢٨٢] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٨٣/١١-١٨٤.

[٢٨٣] **اللباب** لابن عادل،٢٤١/٧.

وقال **القشيري**: الآية إشارة إلى التَّعريف السابق، الذي لولاه لما علمت مَن هو، فأمر بتذكُّر ما سبق من القسم، وهو في كتم العدم، ما للأغيار عنهم خبر، ولا لهم عين وأثر، ولا وقع لأحد عليهم بصر، وقد سمَّاهم بالإيمان، وحكم لهم بالغفران، قبل حصول العصيان، ثم لَمَّا أظهرهم عرَّفهم التوحيد قبل أن كلَّفهم الحدود، وعرض عليهم بعد ذلك الأمانة، وحذَّرهم الخيانة، فقابلوا قوله بالتَّصديق، ووعدوا من أنفسهم الوفاءَ بشرط التحقيق، فأمدَّهم بحسن التوفيق، وثبَّتهم على سواء الطريق، ثم شكرهم حيث أخبر عنهم بقوله: ﴿**سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾، ثم قال: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ في نقض ما أمرتم من العقود، والرجوع مِمَّا قدَّمتم من العهود؛ إنه عليم لا يخفى عليه شيءٌ من خطرات قلوبكم، وفكرات صدوركم.[٢٨٤]

قال ع م: «التَّحدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ وتَرْكُ التَّحَدُّثِ بِها كُفْرٌ».[٢٨٥]

﴿**يَا أَيُّهَآ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىَ أَلاَّ تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ٨**﴾

لَمّا حثَّهم على الانقياد للتكاليف وهي مع كثرتها منحصر في نوعين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلقه،[٢٨٦] أكد الأوَّل بالقيام لله، والثاني بالشهادة بالقسط، والقيام لله أن يقوم له بالحقِ في كلِّ ما يلزم القيام به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإظهار مقتضى العبودية، وتعظيم شأن الربوبية.[٢٨٧]

و﴿**شُهَدَاءَ**﴾ خبر بعد خبر، أو حال من المنوي في ﴿**قَوَّامِينَ**﴾ بمعنى: شاهدين بالعدل، وغير عادلين عن الحقِّ في الشهادة طلبًا لرضاء أهل الوُدِّ، أو سخطًا على أهل البُغض ومؤدّين شهاداتكم؛ لإحياء كل ذي حقٍ من المعادي والصديق ابتغاءَ لوجه الله.[٢٨٨]

وقيل: مبينين دين الله مما أحلَّ وحرَّم، وفرض ودعى الله من الاعتقاد الفصيح، والعمل الصحيح؛ لأنَّ الشاهد يبيّن ما شهد عليه.

وقد مرَّ أنَّ «جرم» يتعدّى إلى مفعول مثل: جرم ذنبًا، وليس هذا منه؛ لأن مفعوله المكسوب لا الشخص، وإلى مفعولين، وليس منه لوجود الحرف في الثاني، فاعتبر تضمين الحمل ليكون الأوَّل الشخص، والثاني مع حرف الاستعلاء، وجوّز أن يكون قوله تع: ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا**﴾ [المائدة ٢/٥] من هذا القبيل بحذف حرف الجرِّ، أي: على أن تعتدوا، وتمثيله بقوله ع م: «مَنْ أُتْبِعَ عَلَى مَلِيءٍ فَلْيَتْبَعْ»[٢٨٩] مشعرٌ بأنه جعل من المتعدّي إلى مفعولين أدخل في ثانيهما كلمة ﴿**عَلَى**﴾ بمعنى مع الحمل، فإن أتبع متعد إلى مفعولين قطعًا أُقيم الأوَّل مُقام الفاعل، وجعل في الثاني حرف الاستعلاء لتضمين معنى الإحالة، والأصل: «من أتبع مليًّا».

---

[٢٨٤] **لطائف الإشارات** للقشيري، ١/ ٢٥٣؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٢١/٥.

[٢٨٥] **المعجم الكبير** للطبراني، ٨٥/٢١ (٨٤).

[٢٨٦] ج: على خلق الله.

[٢٨٧] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٨٤/١١.

[٢٨٨] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤٨٩/٣.

[٢٨٩] **صحيح البخاري**، ٨٤/٣ (٢٢٨٨).

وقرئ: ﴿شَنْآنُ﴾[٢٩٠] بالسكون. «ونظيره في المصادر: «الليّان»، أي: المطَلُ: لَوَا بدَيْنِه ليًّا وليّانًا، ولو كان أصله: اللَّيان بالفتح لَما صحَّ الإدغام للإلباس، وإنما احتاج إلى التنظير لندرة فعلان بالسكون في المصادر، بل بالفتح أيضًا، لا يكون إلَّا حيث حركة واضطراب، وكان في اشتداد البُغض حركة معنوية، والنهي وإن كان في الظاهر للبغضاء عن أن يحملهم على ترك العدل لكنه في المعنى: نهي لهم عن أن يتركوا العدل بناءً على البغضاء، وإطاعة لها.[٢٩١]

فنهاهم عن ترك العدل أوّلاً، ثم استأنف فصرَّح لهم بالأمر بالعدل؛ لأنّ الأمر بالعدل تأكيدٌ للنهي عن تركه، ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل بقوله: ﴿**ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾، أي: أقربُ للتقوى، أي: أقرب إلى التقوى، وأدخلُ في منابستها، أو: أقرب إلى التقوى؛ لكونه لطفًا فيها مفضيًا إليها، فعلى الأول القرب بينهما مناسبة الطَّاعة للطَّاعة، فكان التقوى كمال الطاعات ونهايتها، وهو أنسبُ الطاعات إليها وأقربها من جهة الكمال، وعلى الثاني مناسبة إجراء السبب إلى المسَبَّب، فكأنه أقرب إجراء الوسيلة إليها بمنزلة الجزء الأخير من العلَّة.[٢٩٢]

و«اللام»: للاختصاص يغني غِناء صِلةِ القرب، وهي: من يقال قرب منه. و«إلى» في أفعل التفضيل بـ«من» لدفع الالتباس، قال الله ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ [ق ١٦/٥٠]، يعني: أن أورد «مِنْ» في صلة أقرب الذي للتفضيل المستعمل بـ«مِنْ» يلتبس الصلة مع «من» التفضيلية؛ فلذلك أخبر كلمة «إِلَى» للصلة.

وفيه تنبيهٌ عظيمٌ على أنَّ وجوب العدل مع الكفَّار الذين هم أعداءُ الله إذا كان بهذه الصِّفة من القوَّة، فما ظنُّك بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه![٢٩٣]

ومبناه على أن ضمير هو[**٣٩**/و] أقرب لخصوص مصدر ﴿**ٱعْدِلُواْ**﴾ المراد به العدل مع المشركين بترك الاعتداء عليهم، وأمَّا إذا كان لمطلقه فلا تنبيه، ونعني بهذه الصفة كونه معلَّلاً بأن العدل أقرب لا كونَه أقرب؛ فإنه صفة العدل لا وجوبه.[٢٩٤]

وقدِّم ﴿**الْقِسْطِ**﴾ في النساء؛ [النساء ١٣٥/٤]؛ لأنها جِيء بها في معرض الإقرار على نفسه، وأقاربه، والتي هنا جِيء بها في معرض ترك العداوة، فبدئ بالقيام لله؛ لانه أَردع للمؤمنين.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩)﴾﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٠﴾

كان مقتضى الظاهر نصب مغفرةً، وأجرًا على أنه مفعول ثان لـ﴿**وَعَدَ**﴾، كما في آخر سورة الفتح [الفتح ٢٩/٤٨]، فاحتيج في ذكره بطريق الجملة الاسمية، أعني: لهم مغفرة إلى بيانٍ، وتقريره فبيّنه المصنف بوجوهٍ:

الأوَّل: أن ثاني مفعول ﴿**وَعَدَ**﴾ متروك يعني: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ كلام تامٌّ معناه: قدَّم لهم وعدًا.

---

[٢٩٠] **كتاب السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٤٢؛ **التيسير** للداني، ص ٣٣٣؛ **النشر** لابن الجزري، ١٩٠/٢-١٩١.

[٢٩١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٩ظ-٣٠٠و.

[٢٩٢] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٠/١؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٩ظ-٣٠٠و.

[٢٩٣] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٠/١.

[٢٩٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٢٩٩ظ-٣٠٠و.

وقوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ استئناف في موقع البيان للموعود، جواب لسؤالٍ مقدَّرٍ وهو:«أيّ شيء وَعدُه لهم؟ أي: موعوده، وقدّر السؤال هكذا؛ ليلائمه الجواب بالجملة الاسمية؛ إذ لو قيل: أيّ شيء وعدهم مع أنه ليس بحسن الترتيب على ما قبلهكان جوابه مغفرةً بالنصب.[٢٩٥]

وقيل: كان الواجبُ رعايةَ المطابقة بين البيان والمبيَّن، وقد أَتَى في البيان باللَّام، فوجب أن يؤوّل المبيَّنُ بما يشتمل عليها، ولذلك قال: «كأنه قيل: قدَّم لهم وعدًا» ليكون موردًا للسؤال المتضمِّن باللام، وهو قوله: «أي شيء وعدُه لهم»؟ ونظيره قوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، [المؤمنون ٢٣/ ٨٦-٨٧]. فإنه محمول على المعنى؛ لأن معناه: لمن السموات؟ فقيل: لله.[٢٩٦]

فعلى هذا لا محلَّ لقوله:﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ من الإعراب، الثاني: أنه بتقدير القول أي: وعدهم قائلًا: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ فتكون الجملة منصوبةً بقول محذوف.

الثالث: أنه مفعول ﴿وَعَدَ﴾ باعتبار كونه في معنى: «قال» لكونه نوعًا من القول.

الرابع: أنه مفعول ﴿وَعَدَ﴾ لا بهذا الاعتبار، بل باعتبار الحكاية بمعنى: وعدهم هذا الكلام على طريقة قوله:﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصفات/٧٨–٧٩]، ثم بيّن فائدة وعد هذا القول بقوله: وإذا وعدهم من لا يخلف الميعاد هذا القول، فقد وعدهم مضمونه من المغفرة والأجر العظيم؛ لأنه يلزم بموجب عدم اختلاف الميعاد أن يقول لهم ذلك البتَّة.

وإذا قال ذلك لهم، وفي حقهم كان إخبارًا، ووعدًا لهم بثبوت المغفرة والأجر، فصحَّ أنه وعدهم مضمون القول لكن بالواسطة، ثم بيَّن أن هذا القول يقال لهم: ويتلقَّون به عند الموت، فيُسَرُّون به ويهوّن عليهم سكرات الموت ويوم القيامة، فيستروحون إليه ويهوَّن عليهم الأهوال التي تكون قبل الوصول إلى الثواب من الموقف، والحساب والصراط.[٢٩٧]

وذكر غيره وجهًا آخر، وهو أن يكون المفعول الثاني لـ﴿وَعَدَ﴾ محذوفًا وهو الجنة، وجملة ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ تفسير لذلك المحذوف تفسير السبب للمسبب؛ فإن الجنة مسببه عن المغفرة، وحصول الأجر العظيم، والوجه المذكور أولًا أولى منه؛ لأن تفسير الملفوظ به أحسنُ من ادِّعاء تفسير شيء محذوف.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠)﴾

وقوله:﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مبتدأ، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ثانٍ و﴿أَصْحَابُ﴾ خبره، والجملة خبر الأوَّل، وهذه الجملة مستأنفةٌ، أي: أُتي بها اسمية دلالة على الثّبوت والاستقرار، ولم يُؤت بها في سياق الوعيد، كما أتى بالجملة قبلها في سياق الوعد حسمًا لرجائهم، وأجاز بعضهم أن تكون هذه الجملة داخلةً في حيّز الوعد على ما تقدّم تقريره في الجملة قبلها حال؛ لأن الوعيد اللَّاحق بأعدائهم مما يشفي صدُورهم، ويذهب ما كانوا يجدونه من أذاهم، ولا شكَّ أن الأذى اللّاحق للعدوّ، ممَّا يسُرُّ

[٢٩٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٠و.

[٢٩٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٢٩٩-٣٠٠؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٠و.

[٢٩٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٠و-ظ.

ويفرح ما عند عدوّه، وفيه نظر فإن الاستئناف وافٍ بهذا المعنى؛ فإن الإنسان إذا سمع خبرًا بسوء عدوّه سرّ بذلك، وإن لم يوعد به، وفي النظر نظر؛ لأنه إذا سمع ذلك سرّ به سرورًا، لكن لا يكون بمثابة ما وعد به، وكان في حيّزه.[٢٩٨]

وقيل: لَمَّا كان قوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ وعدًا ووعيدًا، ذكر بعدها آيتين: إحداهما في الوعد، والأخرى في الوعيد.[٢٩٩]

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾

رُوي: «أن المشركين رأوا رسول الله بعُسفانَ قاموا إلى الظهر معًا، فلما صلَّوا ندِموا ألّا كانوا أَكَبُّوا عليهم، وهمُّوا أن يُوقعوا بهم إذا قاموا إلى العصر، فردَّ الله كيدهم بأنْ أنزل صلاةَ الخوف».[٣٠٠]

قيل: «قاموا» حال، و«قد» مقدّرة، ولو كان من رؤية القلب لكان مفعولًا ثانيًا،[٣٠١] و«عُسفانَ» على مرحلتين من مكة، وفي غزوته كان العدوُّ تجاه القبلة، و«صلاة الخوف» المذكورة في القرآن هي صلاة، «ذات الرقاع»، وهي: أرض كانت ألوانها مختلفةً من سوادٍ وبياضٍ وصفرةٍ وحمرةٍ كالرقاع المختلفة الألوان، وشبه أن يكون سمي بذي أَنْمَار لذلك المعنى على أنها جمع نَمْرٍ لاختلاف لونه، وإن كان المشهور في جمعه النُّمُورُ. وَذُكِرَ[**٣٩**/ظ] في **دلائل النبوة**: أن غزوة ذي الأنمار، هي غزوة ذت الرقاع. كانت في السنة الخامسة من الهجرة، لقى الكفَّار فصلى هذه الصلاة، ثم انصرف المسلمون والكفار من غير حرب، وفي المغرب الأنمار جمع نمر، وبه سمي أبو بطن من العرب، غزاهم رسول الله بعد غزوة بني النظير، ولم يكن بينهم قتالٌ. وقيل: سمي به الموضع لكثرة نموره. وقيل: أصابهم سحاب أغبر، أي: على لون النمر يرى في خلله نقاطًا.

وقوله: «ندموا ألا كانوا»،[٣٠٢] أي: هلَّا وهي كلمة تنديم، وحمله على «ندموا» على «أن لاكانوا» ليس بسديد.[٣٠٣]

وروي: «أنه أتى قريظة ومعه الخلفاء الأربعة يستقرضهم لدية المسلمين قتلَهما عمرو بن أميَّة الضَّمْريُّ خطأً، يحسبهما مشركَين، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، اجلس حتى نطعمَك ونقرضَك، فأَجْلَسوه فهمُّوا بقتله، فعمد عمرو بن جِحَاشٍ إلى رَحًى عظيمة يطرحها عليه، فأمسك الله يده فنزل جبريل فأخبره، فخرج».[٣٠٤]

وقيل: نزل رسول الله منزلاً فتفرَّق الناس في العَضَاه يستظلُّون بها، فعلَّق رسول الله سلاحَه بشجرة، فجاء أعرابي فسلَّ سيف رسول الله ثم أقبل عليه، فقال: من يمنعك منّي؟ قال: «الله» قالها ثلاثًا. فشام الأعرابي السيفَ فصاح رسول الله بأصحابه فأخبرهم فأبى أن يعاقبه. قالها أي: تلك الكلمة ثلاث مرات، شامَ السيفَ غمده أبى، أي: رسول الله أن يعاقب الأعرابي وهذا

---

[٢٩٨] **اللباب** لابن عادل، ٢٤٤/٧.

[٢٩٩] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٢٢/٥.

[٣٠٠] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠١/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٣/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٥٩/٣.

[٣٠١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٠١/٥؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٠ظ.

[٣٠٢] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠١/١.

[٣٠٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٠ظ.

[٣٠٤] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠١/١.

على رواية المصنف،[٣٠٥] وعلى روايته قدس سره فقال: «من يمنعك مني»؟ فقال: «الله»! فأسقطه جبريل من يده، فأخذه الرسول وقال: «مَن يمنعك مني»؟ فقال: لا أحد أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.[٣٠٦]

فالرواية الأخيرة لا يوافق خطاب ﴿**أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ**﴾ ظاهرًا، ولا بدَّ من توجيه مثل أن يقال: إن بسط العدوَّ يده إلى رسول الله بسط إليهم، ودفع ذلك. والبسط نعمة على الكلّ، وأمَّا في الرواية الثانية فهمَّهم به ع م كأن يستتبع هَمّ من معه.

﴿**وَعَلَيْكُمْ**﴾ متعلق بـ﴿**نِعْمَتَ**﴾ أو بمحذوف على أنه حال منها. و﴿**إِذْ**﴾ ظرف ناصبه «النعمة» أيضًا، أي: اذكروا نعمته عليكم في وقت همّهم.

ويجوز أن يتعلّق هذا الظرف بما تعلَّق به ﴿**عَلَيْكُمْ**﴾ إذا جعلته حالًا من﴿**نِعْمَتَ**﴾، ولا يجوز أن يكون منصوبًا بـ«اذكر» لتَّنافي زمنيهما؛ فإن ﴿**إِذْ**﴾ للمُضيّ، و﴿**ٱذْكُرُواْ**﴾ مستقبل، ﴿**وَأَنْ يَبْسُطُوا**﴾ على إسقاط الباء، أي: بأن يبسطوا، ففي موضع «أَنَّ» الخلاف المشهور.[٣٠٧]

يقال: بسط إليه يده: إذا بَطَشَ به، وبسط إليه لسانه: إذا شتمه، وحقيقة معنى بَسط اليد: مدّها، وكذلك بسط اللسان، وإنّما البطش والشَّتم حاصل المعنى، فلا يكون: ﴿**وَيَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ**﴾ [الممتحنة ٢/٦٠]. من الجمع بين معنيين مختلفين للفظٍ واحدٍ.[٣٠٨]

﴿**فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ**﴾ أيدي القوم المذكور ﴿**عَنكُمْ**﴾ منعها أن تمدَّ إليكم، وردَّ مضرتها عنكم ﴿**وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ**﴾ وتثبتوا على التقوى في كل شيء لا سيّما فيما تقتضي تلك النعمة، ﴿**وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ**﴾ فلا يتوكّلوا على غيره، وكونوا في طاعته، ولا تخافوا أحدًا في مخالفته.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢)﴾

لَمَّا ذكر المؤمنين ميثاقه ذكر أخذ الميثاق من بني إسرائيل، ونقضهم لئلا يكونوا مثلهم، فيؤاخذون كما أخذوا، أو لَمَّا ذكر نعمته التي هي هم اليهود بسطَ الأيدي إليهم ذكرهم فضائح اليهود، وأن ديدنهم ذلك، أو لَمَّا ذكر تكاليفه ذكر أنه كلّف من قبلهم، وهي عادة جارية منه تع مع عباده.

و﴿**مِيثَٰقَ**﴾ مضاف إلى المفعول، أي: أنه تع واثقهم، أو الفاعل، أي: أنهم واثقوه، والمفاعلة تجوز نسبة الفعل فيها إلى الكلّ من المذكورين، و﴿**مِنْهُمْ**﴾ متعلّق بـ﴿**بَعَثْنَا**﴾، أو بمحذوف على أنه حال من ﴿**ٱثْنَيْ عَشَرَ**﴾؛ لأنه في الأصل صفة فقدّم فنصب حالًا.

---

[٣٠٥] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠١/١-٦٠٢.

[٣٠٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٤/١.

[٣٠٧] **اللباب** لابن عادل،٧٢٤٥/.

[٣٠٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٠ظ.

والنَّقِيب: فَعيلٌ بمعنى الفاعل مشتقٌ من النَّقْب، وهو التفتيش قال تعالى: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [ق ٥٠/٣٦]، سمّي بذلك؛لأنه يفتِّش عن أحوال القوم.

قال الزجاج: أصله من النَّقْب، وهو الثُقب الواسع، ومنه المناقب؛ لأنه لا يظهر إلا بالتفتيش عنها ونقبتُ الحائط أي: بلغت في النقب آخره. وقيل: هو بمعنى مفعول، كان القوم اختاروه على علم منهم، وتفتيشٍ على أحواله. وقيل: هو للمبالغة كعليم وخبير.[٣٠٩]

وقيل: النقيب: الطريق في الجبل، وإنما قيل: نقيب؛ لأنه يعلم دخله أمر القوم، ويعرف مناقبهم، وهو الطريق إلى معرفة أمورهم.

روي: أنَّ بني إسرائيل لَمَّا فرغوا من فرعون، واستقرّوا بمصر أمرهم بالمسير إلى أريحاء أرضِ الشام، وكان يسكنها الجبابرة والكنعانيُّون، وقال: إنِّي كتبتُها لكم دارًا وقرارًا، فاخرجوا إليها وجاهدوا مَن فيها، فإني ناصركم. وأمر موسى أن يأخذ من كلِّ سِبط كفيلًا عليهم بالوفاء بما أُمروا به، فأخذ عليهم الميثاق واختار منهم النُّقباء وسار بهم، حتى إذا قربوا من أريحاء بعث هؤلاء النقباء يتجسَّسون له الأخبار، فَلَقِيهم رجل من الجبابرة يقال له: عوج بن عنق طوله ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعًا وثلث ذراع يحتجز بالسحاب ويشرب منه، ويأخذ الحوت من البحر يشويه بعين الشمس ويأكل منه، وقد طبق الماء كلّ جبل في الطوفان وما جاوز ركبته، عاش ثلاثة آلاف سنة، فأهلكه الله على يدي موسى قوّر صخرة[**٤٠/و**]على قدر عسكر موسى، فرسخ في فرسخٍ ليطبقها عليهم، فقوَّر الهدهد الصخرة بمنقاره، فوقعت في عنقه فصرعته، فقتله موسى، فلمَّا لقى عوج النقباء، وعلى رأسه حزمة حطب أخذ الاثني عشر نقيبًا، وجعلهم في حجزته فانطلق بهم إلى امرأته فقال: انظري إلى الذين يريدون قتالنا، وطرحهم بين يديها وقال: ألا أطحنهم برجلي، فقالت: لا، بل خلِّ سبيلهم، حتى يخبروا ما رأو.[٣١٠]

وروي أنه جعلهم في كمِّه وأتى بهم الملك فنشزهم بين يديه، فقال: ارجعوا إلى قومكم، وأخبروهم بما رأيتم، وكان لا يحمل عنقودًا من عنبهم إلا خمسة أنفس بينهم في خشبةٍ، ويدخل في شطر رمّانة إذا نزع حبّها خمسة أنفس، فرجع النقباء وجعلوا يتعرَفون أحوالهم، وقال بعضهم لبعض: يا قوم إنكم إن أخبرتم بني إسرائيل خبر القوم ارتدّوا عن نبي الله، ولكن اكتموا خبر القوم عنهم، وأخبروا موسى وهارون، فيريان رأيهما فأخذ بعضهم على بعض الميثاق بذلك، ثم إنهم نكثوا العهد وجعل كلُّ واحد منهم ينهى سِبطه عن قتالهم، ويخبرهم بما رأى: إلا رجلين كالب بن يوفنا ويوشع بن نون كالب من سبط يهودًا، ويوشع من سبط أفرائيم ابن يوسف وهما اللذان قال الله حكاية عنهما: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ [المائدة ٥/٢٣].

روي: أنه خرَّ موسى وهارون سجودًا، وخرَّق كالب ويوشع ثيابَهما، فأوحي إلى موسى إن كان أولئك لا يقدرون على دخولها، فإني أغفر لهم بكلمتك، وأمَّا كالب ويوشع فإني أدخلهما تلك الأرض حتى يراهما من فيها من العماليق.

عن رسول الله صلعم: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ».[٣١١]

﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢)﴾

---

[٣٠٩] **اللباب** لابن عادل،٧/٢٤٦.

[٣١٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/٤٩٢.

[٣١١] **صحيح البخاري**، ٤/١٧٠ (٣٤٦١).

أراد بالمعية معية الحفظ والنصرة على ما يقتضيه السياق، كما قال تع: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ [التوبة ٤٠/٩] ﴿**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ**﴾ [الأنفال ١٢/٨] ﴿**قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي**﴾. [الشعراء ٦٢/٢٦] ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة ١٥٣/٢].

قال الزجاج:[٣١٢] التعزير النصرة؛ لأن العَزْر في اللغة: الردُّ، وعزَّرت فلانًا: أَدَّبْتُه، معناه: فعلت به ما يردعه عن القبيح، والناصر يردُّ عن صاحبه أعداءه، وهو يستلزم التعظيم، فمن فسَّره به أراد هذا، فهو حقيقة في الرّد، كنايةٌ عن التعظيم والنّصرة.[٣١٣]

وقال الراغب:[٣١٤] هو النصرة مع التعظيم، والتّعزير، ضربٌ دون الحدّ، وذلك يرجع إلى الأوّل؛ فإنه تأديب والتأديب نصرةٌ مّا، لكن الأوَّل: نصرةٌ بقَمْع العدوّ عنه، والثاني: نصرةٌ بقهره عن عدوِّه، فإنَّ أفعال الشرّ عدوٌّ للإنسان، فمتى قمعتَه عنها فقد نصرتَه، وعليه قوله ع م: «أُنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»، فقال: كيف أنصره ظَالِمًا؟ «تكفُّه عن الظلم».[٣١٥]

والتعزير والتأزير من وادٍ لاشتراكهما في معنى التأييد والتقوية، وفي أكثر الحروف مع قرب مخرجي العين والهمزة.[٣١٦]

والإقراض: الإنفاق في سبيل الخير يحتمل المصدر؛ إذ لو قيل: إقراضًا حسنًا لَصَحَّ إلا أنه قد يقام الاسم مقام المصدر، ونحوه قوله: ﴿**أَنْبَتَهَا نَبَاتًا**﴾ [آل عمران ٣٧/٣]،والمفعول على أن يكون اسمًا للمعروض والزكوة في الواجب، وهذا في التطوّع.

واللام جواب القسم لسبقه، وجواب الشرط محذوف لدلالته عليه، وتمَّ الكلام عند قوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾، ثم ابتدأ شرطيّة محصلها: إن امتثلتم لنصرتكم.

ولما ورد أن يقال: من كفر قبل ذلك الشرط المؤكّد المعلّق بالوعد العظيم فقد ضلّ أيضًا. أجاب المصنف: بأن الضَّلال بعده أعظم؛ لأن الكفر إنما عظم قبحُه لعِظَم النعمة المكفورة، فإذا زادت زاد قبح الكفر.[٣١٧]

وأجاب قدس سره: بأنه ضلّ ضلالًا لا شبهة فيه، ولا عذر معه بخلاف من كفر قبله؛ إذ قد يمكن أن يكون شبهة، ويتوهم له معذرة.[٣١٨]

---

[٣١٢] الزَّجَّاج (ت. ٣١١هـ/ ٩٢٣ م) إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج: عالم بالنحو واللغة. ولد ومات في بغداد. كان في فتوته يخرط الزجاج ومال إلى النحو فعلمه المبرد. وطلب عبيد الله بن سليمان (وزير المعتضد العباسي) مؤدبا لابنه القاسم، فدله المبرد على الزجاج، فطلبه الوزير، فأدب له ابنه إلى أن ولي الوزارة مكان أبيه، فجعله القاسم من كتابه، فأصاب في أيامه ثروة كبيرة. وكانت للزجاج مناقشات مع ثعلب وغيره. من كتبه: معاني القرآن، والاشتقاق، وخلق الإنسان ، والأمالي في الأدب واللغة، وفعلت وأفعلت في تصريف الألفاظ، والمثلث في اللغة، مهيأ للنشر في بغداد، وإعراب القرآن ثلاثة أجزاء. **الأعلام** للزركلي، ٤٠/١.

[٣١٣] **معاني القرآن** للزجاج، **١٥٩/٢**؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٠٤/٥

[٣١٤] الرَّاغِب الأَصْفَهَاني (٥٠٢ هـ/١١٠٨م) الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب: أديب، من الحكماء العلماء. من أهل (أصبهان) سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي. من كتبه: محاضرات الأدباء مجلدان، والذريعة إلى مكارم الشريعة، والأخلاقويسمى أخلاق الراغب، وجامع التفاسير كبير، طبعت مقدمته، أخذ عنه البيضاوي في تفسيره، والمفردات في غريب القرآن، وحلّ متشابهات القرآن، وتفصيل النشأتين في الحكمة وعلم النفس، وتحقيق البيان في اللغة والحكمة، وكتاب في الاعتقاد، و أفانين البلاغة. **الأعلام** للزركلي، ٢٥٥/٢.

[٣١٥] **صحيح البخاري**، ٢٢/٩ (٦٩٥٢)؛ **المفردات في غريب القرآن** للإصفهاني، «عَزَرَ»؛ **تفسير الراغب الإصفهاني**، ٥٦٣/١؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٠٤/٥.

[٣١٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٠ظ-٣٠١و.

[٣١٧] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠١/١-٦٠٢.

وأعرض على المصنف أنَّ الوعد بالكفر والإدخال جزاء للشرط، والجزاء هو المعلّق بالشرط لا الشرط بالجزاء، ولذلك قال قدس سره: المعلّق به الوعد،[٣١٩] وأجيب بأنه لا يريد بالتعليق مصطلح الأصول، أعني: جعل أمر على خطر الوجود مربيًا ومقيّدًا حصوله بحصول شرط ومسببًا عنه، بل اللغوي، أعني: جعل الشيء مرتبطًا بشيء ومعلّقًا به، وقد جعل الشرط مرتبطًا بالوعد؛ حيث أخبر بحصول الموعود بعد حصول مضمون الشرط. وهذا كما قال السيرافي: إذا قلت: والله لا أفعلُ إن أتيتني، صار الشرط معلّقًا على جواب اليمين، كما يُعلق عليه الظرف في: والله لا أفعلُ يوم الجمعة.[٣٢٠]

وقد يجاب بأن التعليق من الجانبين؛ لأن كلًّا منهما سبب للآخر من وجه، فالشرط من جهة الوجود العيني، والجزاء من جهة الوجود العقلي، أو بأنَّ الوعد العظيم هو قوله: ﴿**إِنِّي مَعَكُم**﴾ والشرط متعلّق به من حيث المعنى كما تقول: أنا مُعْتَنٍ بشأنك إن خدمتني أرفعْ محلك. وهذا رجوع عن جعل المتعلق اصطلاحيًّا إلى جعله لغويًّا، فليكن الوعد،[٤٠/ظ] هو: ﴿**لَأُكَفِّرَنَّ**﴾ كما هو الظاهر، ثم اللائح أن ليس معنى كلام المصنف ما فهموه: من حمل الشرط على النحوي لظهور أن ليس المعنى من كفر بعد إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل، بل بعدما شرطت هذا الشرط، ووعدت هذا الوعد، وأنعمت هذا الإنعام، ولا خفاء في أن الضّلال بعد هذا أقبحُ وأظهرُ، ولا حاجة إلى حمل الكفر على الارتداد خاصَّة، بل يتناول البقاء على الكفر بعد هذا الإخبار والإعلام بمضمون الشرطية، ويدلُّ عليه أنه وصف الشرط بالمؤكد، والقسم ليس لتأكيد مضمون الشرط، بل الشرطية، بل الجزاء والقسم في مثل: والله إن أتيتني لا أفعل، إنما يقع على الجواب؛ لأنه الإخبار والوعد المحتمل للتصديق، والتكذيب، والوفاء، والإخلاف، والقسم إنما يؤكّد الإخبار.[٣٢١]

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣)﴾

فبنقضهم ميثاقهم، و﴿**مَا**﴾ مزيدة للتأكيد؛ لأنها تمكن فحوى الكلام في النّفس من جهة حسن النّظم، ومن جهة تكثيرها إياه كقوله:

لأمر ما يُسَوَّدُ مَنْ يَسُودُ[٣٢٢]

و﴿**لَعَنَّاهُمْ**﴾: طردهم من الرحمة، أو مسخهم، أو ضرب الجزية عليهم.[٣٢٣]

وقرأ حمزة والكسائي: «قَسِيَّة».[٣٢٤] إمّا مبالغةُ «قاسية»، كالقادر والقدير، أو بمعنى «رديئة»، من قولهم: «دِرْهَمٌ قَسِيٌّ»، إذا كان مغشوشًا وهو أيضًا من القسوة؛ فإن المغشوش فيه يَبْسٌ وصَلابَةٌ للغش الذي فيه.[٣٢٥]

---

[٣١٨] **أنوار التنزيل** لليضاوي، ٤٢٥/١.

[٣١٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٥/١.

[٣٢٠] **شرح كتاب سيبويه** للسيرافي، ٢٨٤/٣؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٢١٢/٣-٢١٣.

[٣٢١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٠ظ-٣٠١و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٢١٣/٣.

[٣٢٢] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٣٧٩/٧.

[٣٢٣] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٣/١.

[٣٢٤] **التيسير** للداني، ص ٣٣٣-٣٣٤؛ **النشر** لابن الجزري، ١٩١/٢.

[٣٢٥] **أنوار التنزيل** لليضاوي، ٤٢٥/١.

وقيل: ليس منها، بل هو معرَّب فارسي، وهو الرّديء من الدراهم وهو المنقول عن الأصمعي، وبالجملة شبّه قلوبهم في كونها غير صافية عن الكَدَر بالدراهم المغشوشة الغير الخالصة.[٣٢٦]

وإسناد جعل قلوبهم كذلك إلى الله على حقيقته عند أهل السُنة، ولَمَّا كان ذلك مخالفًا لمذهب المصنف، قال: خذلناهم ومنعنا الألطاف حتى قست، أو أملينا لهم ولم يعاجلهم بالعقوبة حتى قست.[٣٢٧] أراد: «فعلنا بهم ما أفضى إلى القبيح، وهو ليس بقبيحٍ، كخلق إبليس، وتمكينه لما فيه من الحكم، والمصالح، والأغراض الصحيحة، وهذا في الظاهر من إطلاق المسبب على السبب، وفي الحقيقة من الاستعارة التبعية».[٣٢٨]

﴿**يُحَرِّفُونَ**﴾ بيان لقسوة قلوبهم؛ إذ لا قسوة أشدُّ من الافتراء على الله وتغيير وحيه؛[٣٢٩] فإن معنى قوله: ﴿**قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً**﴾، فيه نوعُ خفاءٍ من حيث إنَّ مَنْ قَسَى قلبه فعل أفعال أهل العناد، فأزال بقوله: ﴿**يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ**﴾ الإبهامَ، ونحوه قوله: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ**﴾ [البقرة، ٢/٨-٩] لم يَعطِفْ ﴿**يُخَادِعُونَ**﴾ على ما قبله لكونه مبيِّنًا له من حيث إنَّهم حين كانوا يوهمون بألسنتهم أنَّهم آمنوا وما كانوا مؤمنين بقلوبهم قد كانوا في حكم المخادعين.[٣٣٠]

والنسيان: عبارة عن الترك، والتنكير في ﴿**حَظًّا**﴾ للتعظيم.[٣٣١] و﴿**مِنْ**﴾ للابتداء، وما ذكروا به التورية أي: تركوا حظًّا جزيلاً، ونصيبًا، وافيًا كائنًا من التورية، أو التنكير على قصد الإضافة، و«من» للابتداء، وما ذكروا به عبارة عما في التورية من وجوب الإيمان بمحمدٍ، وبيان نعته، أي: تركوا نصيبَ أنفسهم ممَّا أمروا به من الإيمان بمحمدٍ وبيان نعته، وعلى الوجهين قوله: ﴿**وَنَسُوا**﴾ وارد على سبيل الاعتراض، أي: يحرِّفون الكلم عن مواضعه، وكان ذلك ترك حظّ عظيمٍ، أو ترك حظّهم، أو حال من فاعل ﴿**يُحَرِّفُونَ**﴾، «وقد» مقدّرة، أو عطف على ﴿**يُحَرِّفُونَ**﴾ بيان للقسوة أيضاً على أنه بمعنى الماضي، وصيغة المضارع للاستحضار، أو استئناف في جواب ماذا فعلوا بعد القسوة؟[٣٣٢] فأجيب: حرَّفوا التورية وزلّت أشياء منها عن حفظهم، كما قال ابن مسعودٍ: «يَنْسَى المرْءُ بَعْضَ الْعِلْمِ بِالْمَعْصِيَةِ.[٣٣٣]

وفيه أن بركة الطاعة، والعمل بما علم موجبة لازدياد العلم، كما قيل: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ ورَّثه اللهُ علم ما لم يَعْلَمْ»،[٣٣٤] فعلى هذا هو على معنى المضي، وقصد الاستحضار، ونسوا عطف عليه.

وقيل: هو ماضٍ عطف على المضارع، وجاعل له بمعنى الاستمرار؛ ليُناسبَه، كما في قوله تع:﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ**﴾، [فاطر ٣٥/٢٩]، أي: «يداومون على تلاوته وهي شأنهم ودَيْدنهم» والنسيان على حقيقته.

---

[٣٢٦] **اللباب** لابن عادل،٧/٢٤٦؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/٤٩٤.

[٣٢٧] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٠٣.

[٣٢٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠١و-ظ.

[٣٢٩] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٠٣.

[٣٣٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٣٠٧-٣٠٨.

[٣٣١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٣٠٧-٣٠٨.

[٣٣٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠١ظ.

[٣٣٣] **كتاب تخريج أحاديث الكشاف** للزيلعي، ١/٣٩٢.

[٣٣٤] **تفسير ابن أبي حاتم**، ١٣/٨٢٩؛ **دلائل النبوة** للبيهقي، ص ١٣.

و﴿مِنْ﴾ للتبعيض، والتنكير للتكثير، أو حالٌ من مفعول ﴿**لَعَنَّاهُمْ**﴾ أي: لعنَّاهم حال اتِّصافهم بالتحريف، أو من المستتر في ﴿**قَاسِيَةً**﴾ لا من القلوب؛ إذ لا ضمير لها. وفيه نظر؛ لأنه يرد على جعله حالًا من المستتر؛ لأنه يعود على «القلوب»، فكما يمتنع أن يكون حالًا من ظاهره يمتنع من ضمير، وكأن المانع المتوّهم كون الواو لليهود لا للقلوب؛ لأنها لا تحرَّف، وهذا يرد على الأوّل أيضًا، فإذا أريد بالقلوب نفس الأشخاص تصحّ الحالية منها.[٣٣٥]

﴿**وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾

«أي: هذه عادتهم، وكان عليهم أسلافهم، [**٤١**/و] كانوا يخونون الرُّسل، وهؤلاء يخونونك، ينكثون عهودك، ويظاهرون المشركين على حربك، ويهمُّون بالفَتْك بك وأن يسمُّوك».[٣٣٦] فظاهر ما يدلّ على أنَّ الإطِّلاع على خيانتهم دأبك، وعادتك، لكنه في المعنى كناية عن دأبهم وعادتهم.

«**وأن يسمُّوك**»[٣٣٧]: عطف على الفتْك، يقال: سَمَّه سقاه السُّمّ، وسمَّ الطَّعامَ؛ جعل فيه السُّمّ.[٣٣٨]

﴿**عَلَى خَائِنَةٍ**﴾ أي: على خيانة على أنها مصدر، كـ«العافية» و«العاقبة» و«اللاغية»، قال تع: ﴿**لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً**﴾ [الغاشية ١١/٨٨]، أي: لغوًا.

ويقال: عافاه الله عافية، ويؤيده قراءة الأعمش «على خِيَانَةٍ»،[٣٣٩]أو على فرقةٍ أو طائفةٍ أو نفسٍ كائنةٍ على أنها اسم فاعلٍ، و«التاء» فيها للتأنيث بأن يقدر موصوفها مؤنّثًا مثل ما ذكر، أو على خائن على أنه اسم فاعل، و«التاء» فيه للمبالغة كما في «راوية» و«علّامة» و«نسّابة»، أي: على شخصٍ خائنٍ غاية الخيانة، وعليه بيت الكلابي:

حَــدَّثْتَ نَفْسَــكَ بِالْوَفَـاءِ وَلَمْ تَكُـنْ ... لِلْغَــدْرِ خَائِنَــةً مُغِــلَّ الإِصْــبَعِ[٣٤٠]

أي: لم تكن خائنًا كائنًا للغدر مغلّ الإصبع، أي: خائن اليد سارقًا من أقلّ، إذا خان. وقيل: معناه مغلّ مقدار الإصبع، أي: لم تكن تخون خيانةً.

وفي الحواشي: أن ما قبل هذا البيت قوله:

أَقَـرِينُ إِنَّــكَ لَـوْ رَأَيْـتَ فَوَارِسـي ... بِعَمَــايَتَيْنِ إِلَى جَوَانِــبِ ضَــلْفَعٍ[٣٤١]

---

[٣٣٥] **اللباب** لابن عادل،٢٤٦/٧.

[٣٣٦] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٣/١.

[٣٣٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠١ظ.

[٣٣٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠١ظ؛ **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٣/١.

[٣٣٩] قراءة شاذّة، مروية عن الأعمش. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٥٢؛ **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٣٨؛ **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٣/١.

[٣٤٠] البيت للكلابي، **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٣/١؛ **الكامل في اللغة والأدب**، محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ٢٨١/١؛ **جامع البيان** للطبري، ٢٥٤/٨؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٥٤/٧.

[٣٤١] **الكامل في اللغة والأدب**، ٢٨١/١؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٣١٠/٥.

أي: لو رأيتَ فوارسي لخِفْتَ وما غدرتَ، «وقرين» اسمُ ضيفٍ بالشاعر، فطمع في جواريه، «وعمايتان» جبلان متقابلان، «وضلفع» اسم موضع.[٣٤٢]

وقال الجوهري: شاهق في ديار بني عقيل.

وأصل خائنة: خاونة، وخيانة: خوانة فاعل إعلال قائمة وقيام.

و﴿مِنْهُمْ﴾ صفة ﴿خَائِنَةٍ﴾إن أريد بها الصفة، وإن أريد بها المصدر قُدِّر مضافٌ، أي: من بعض خياناتهم.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منصوب على الاستثناء من خائنة، أي: لا تزال تطلع على من يخون منهم إلا القليلَ، فإنه لا يخون فلا تطلع عليه، وهم الذين أسلموا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه.

أو من الفعل، أي: لا تزال تطَّلع على فعل الخيانة إلا فعلًا قليلًا، وهذا واضح إن أريد بالخيانة أنها صفة للفَعْلة المقدَّرة، ولكن يبعده قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾، وقد تقدّم نظيره في قوله:﴿مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُم﴾ [النساء ٤/ ٦٦]، حيث جوَّز أن يكون صفةَ مصدرٍ محذوفٍ، أو من ﴿قَاسِيَةً﴾، فالمراد: «المؤمنون؛ لأن القسوة زالت عن قلوبهم»، وهذا بعيدٌ جدًا؛ لقوله: ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ أو من ضمير ﴿مِنْهُمْ﴾.[٣٤٣]

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ إن تابوا وآمنوا، أو عاهدوا، أو التزموا الجزية، أو هو بعث على المخالفة معهم، والمخالطة والمعيشة بحسن الخلق رجاء إيمانهم على طريقة قوله: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه ٢٠/٤٤]، أو هو مطلقٌ، نُسخ بآية السيف.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: العافين الصافحين.

قال ابن عباس: «إذا عفوتَ فأنت محسن، وإذا أحسنت فقد أحبك الله».[٣٤٤] فهو تعليل للأمر بالعفو، والصفح، وحث عليه بأنه وسيلة محبة الله، وتنبيه على أنّ العفو عن الكافر الخائن إحسان فضلًا عن الغفو[٣٤٥] عن غيره.

وقيل: المراد بهؤلاء المحسنين هم المعنيون بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ وهم الذين ما نقضوا العهد.[٣٤٦]وإسناد الإقساء إليه تع، والخيانة إليهم دليل لأهل السُنة في أن الخلق منه والكسب من العبد.

وقال القشيري: قسوةُ القلب: عدم التَّوجع بما يُمتحن به من الصَّدِّ، عن قرب ويمتحن بالرَّدِّ، والرَّدُّ غاية الفراق، ونهاية البعد، وأوَّل حالها فوتُ الصَّفوة، ثم استيلاء الشَّهوة، ثم جريانُ الهفوة، ثم استحكام القسوة، فإن لم يوفَّق للإقلاع عن جملتها، فهو تمام القسوة.[٣٤٧]﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[البقرة، ٢/٧٤].

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الْمَكْرُ وَالْخَدِيعَةُ وَالْخِيَانَةُ فِي النَّارِ»[٣٤٨]

---

[٣٤٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٣١١؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠١ظ.

[٣٤٣] **اللباب** لابن عادل، ٧/٢٥٥.

[٣٤٤] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١١/١٩٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٧/٢٥٥.

[٣٤٥] ج- عن العفو.

[٣٤٦] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١١/١٩٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٧/٢٥٥.

[٣٤٧] **لطائف الإشارات** للقشيري، ١/٢٥٦؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٥/٣٣٥.

[٣٤٨] **الجامع ابن وهب**، ص ٥٨٧ (٤٨٧).

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)﴾

﴿**مِنَ ٱلَّذِينَ**﴾ متعلِّق بـ﴿**أَخَذْنَا**﴾، والتَّقدير: وأخذنا من الذين قالوا: إنا نصارى ميثاقهم فَتُوقعُ ﴿**الَّذِينَ**﴾ بعد ﴿**أَخَذْنَا**﴾ وتُؤخر عنه ﴿**مِيثَاقَهُمْ**﴾، ولا بعدم على ﴿**ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ**﴾.

وإن جاز من حيث كونهما مفعولين، كلٌّ منهما جائز التَّقديم والتأخير؛ لأنه يلزم عودُ الضمير على متأخّر لفظًا ورتبة في غير مواضع مخصوصة.[٣٤٩]

أو بمحذوف هو خبر مبتدأ محذوف، قامت صفته مقامه، أي: «ومن الذين قالوا إنا نصارى قوم أخذنا ميثاقهم» أي: مِيثَاق مَنْ ذُكِرَ قَبْلَهم من قوم موسى، وهو ميثاقهم بالإيمان بالله والرسل وبأفعال الخير، «أي: مثل ميثاقهم» على حذف المضاف؛ لأن ميثاق النصارى لا يكون عين ميثاق اليهود، بل مثله أو ميثاق أنفسهم بذلك، فلا حاجة إلى الحذف، وهذا هو الوجه لاختلاف العبارتين والحالتين، أتى في الأولى بالقَسَمية، وهي: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَا**﴾ [المائدة ١٢/٥]، وعرّى الثانية عن التوكيد، وقيل ثمة: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ**﴾ مع «ما» المؤكدة إلى ذُكّروا به، وهاهنا ﴿**فَنَسُوا حَظاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ**﴾. انظركم التفاوت بين إجزاء النقيضين كيف [**٤١**/ظ] يدلّ على تمام المراد، فإن اليهود لَمَّا كانوا قومًا بُهتًا شديد الشَّكيمة جِيء بما يدلُّ على قوّة الأمر ليؤذن بالقَسر والقهر. وأما النصارى فلسهولة مأخذِهم، ولينِ جانبهم عرّى ما نُسب إليهم عن التوكيد.[٣٥٠]

وقيل: المراد بـ﴿**مِيثَاقَهُمْ**﴾أنه مكتوب في الإنجيل أن يؤمنوا بمحمَّدٍ، ﴿**فَنَسُوا حَظاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ**﴾ وهو الإيمان به عليه السلام، فالتنكير للتوحيد، وخصّ هذا الواحد بالذكر مع أنهم تركوا كثيرًا مِمَّا ذكِّروا به؛ لأنه اهتمّ.[٣٥١]

ولَمَّا ورد أن يقال لِمَ لَمْ يقل من النصارى؟ أجاب عنه العلامتان[٣٥٢]: بأنه قال:﴿**قَالُوا إِنَّا نَصَارَى**﴾ ليدلَّ على أنهم سَمَّوْا أنفسهم بذلك ادِّعاء بنصرة الله»[٣٥٣] وحاصله أنه إنما عَدَل من الإيجاز إلى الإطناب لتصوُّر تلك الحالة في ذهن السَّامع، وتقرُّر عنده أنَّهم ادَّعوا نصرةَ دين الله، نحوه قوله: ﴿**وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ**﴾ [يوسف ٢٣/١٢]، عَدَل عن اسمها زيادةً لتقرير المراودة.

وقيل: «لَمّا كان المقصود من الآية ذمَّهم بنقض الميثاق المأخوذ عليهم بنصرة دين الله، وبما يدلّ على أنَّهم لم يوفوا بما عاهدوا عليه من النَّصر، فحاصلُ ما صَدَر منهم قولٌ بلا عمل».[٣٥٤]

﴿**فَأَغْرَيْنَا**﴾ فألزمنا وألصقنا.من غَرِيَ بالشيء: إذا لزمه ولصق به، وأغراه غيره.[٣٥٥] «ومنه: الغِرَاءُ»: وهو ما يُتَّخذ من السَّمك ليُلْصق به الشيءُ، فإذا فَتَحْتَ العين قصرتَ، وإن كسرتَ مددتَ.[٣٥٦]

---

[٣٤٩] **اللباب** لابن عادل، ٢٥٦/٧؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٣١١/٥.

[٣٥٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/ ٣١١

[٣٥١] **اللباب** لابن عادل، ٢٥٧/٧.

[٣٥٢] الزمخشري، والبيضاوي.

[٣٥٣] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٤/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٦/١.

[٣٥٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/ ٣١٢.

[٣٥٥] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٤/١.

[٣٥٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣١٣/٥.

﴿بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَامَةِ﴾ بين فرق النصارى المختلفين، وهم نسطورية، ويعقوبية وملكانية.[٣٥٧]

روي: أن «بولس» دعا طائفة منهم، فقال لهم: إن عيسى أحيا الموتى وأزال الكمه والبرص، ولا يفعله إلا الله، فهو الله،[٣٥٨] ثم دعا طائفة فأخبرهم بذلك[٣٥٩] فقال: إنه كان ابنه، ثم دعا[٣٦٠] بطائفة وأخبرهم بذلك، فقال: إنه ثالث ثلاثة، فلمَّا كان في بعض الليالي خرج من بين ظهرانيهم، وجعل كلّ فريقٍ يقول: قد علمني كذا وكذا، وكذبه الفريق الآخر، فاختلفوا واقتتلوا وقتلوا خلقًا عظيمًا، وبقيت العداوة بينهم إلى يوم القيامة. فالنسطورية قالوا: المسيح ابن الله، واليعقوبية قالوا: إن الله هو المسيح، والملكانية قالوا: إن الله ثالث ثلاثة: المسيح، وأمّه، والله، أو بينهم وبين اليهود، ونحوه قوله: ﴿**وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا**﴾ [الأنعام، ١٢٩/٦]،[٣٦١]أي: «نُخلِّيهم حتى يتولّى بعضهم بعضًا، وقوله: ﴿**أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا**﴾ [الأنعام ٦٥/٦] أي: يَخْلِطكم[٣٦٢] فِرَقًا مختلفين على أهواءٍ شتَّى.[٣٦٣]

﴿**وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ**﴾، بالجزاء والعقاب،[٣٦٤] هذا وعيدٌ لهم في الآخرة مع ما ذكر من وعيد الدنيا. وقيل: ينبئهم به توبيخًا، ثم يجازيهم تعذيبًا.[٣٦٥]

﴿**يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥)**﴾

خطاب لليهود والنصارى جميعًا، وقد سبق ذكرهم، ووحَّد ﴿**الْكِتَابِ**﴾؛ لأنه للجنس، والرسول محمد، ولم يذكر باسمه؛ ليُعلم أن الرُّسل يُعرفون بالآيات المعجزة، دون الأسامي. وفيه دليل على أنَّ مَن آمن بالرُّسل كلِّهم يكون مؤمنًا، وإن لم يعرف أسماءهم.[٣٦٦]

ولَمَّا حكي عن اليهود والنصارى نقض العهد، دعاهم بعد ذلك إلى الإيمان بمحمدٍ و﴿**يُبَيِّنُ**﴾ في محلّ نصب على الحال من ﴿**رَسُولُنَا**﴾، أي: حاكم رسولنا في تلك الحالة، و﴿**مِمَّا**﴾ متعلقٌ بمحذوفٍ؛ لأنَّه صفة لـ﴿**كَثِيرًا**﴾، و﴿**مَا**﴾ موصولةٌ اسميَّة، و﴿**تُخْفُونَ**﴾ صلتها، والعائد محذوف، أي: من الذي كنتم تخفونه، و﴿**مِنَ الْكِتَابِ**﴾ متعلق بمحذوفٍ على أنَّه حال من العائد المحذوف.[٣٦٧]

والذي بين لهم مما أخفوه آية الرَّجم المذكورة في التورية، والبِشارة بالنَّبي في التورية والإنجيل، وقصَّة أصحاب السَّبت الذين مسخوا قردةً،كانوا يخفونه؛ لما فيه من السُّبَّة.

---

[٣٥٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٦/١-٤٢٧.

[٣٥٨] ج- فهو الله.

[٣٥٩] ج- بذلك.

[٣٦٠] ج- كان.

[٣٦١] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٤/١.

[٣٦٢] ج: يجعلكم.

[٣٦٣] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣١٣/٥.

[٣٦٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٧/١.

[٣٦٥] **التيسير في التفسير** لأبي حفص، ٥/ ٣٣٧.

[٣٦٦] **التيسير في التفسير** لأبي حفص ،٥/ ٣٣٧-٣٣٨

[٣٦٧] **اللباب** لابن عادل، ٢٥٧/٧.

وقال الحسين بن الفضل: «وهما ملَّة إبراهيم، وحرمةُ لحوم الإبل وألبانها، كتموها عن السَّفِلةِ، وقصَّة عيسى ع م».[٣٦٨]

قال ابن عباس: أخفوا صفةَ محمد، وأمر الرجم، ثم إن رسول الله بيَّن ذلك لهم، وكان هذا معجزةً له ع م؛ لأنه لم يقرأ كتابًا ولم يتعلّم علمًا من أحدٍ، فلمَّا أخبرهم بأسراره في كتابهم كان ذلك إخبارًا عن الغيب، فيكون معجزةً.[٣٦٩]

﴿**وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**﴾ مما تخفونه لا يبيّنه، وإن أعلمه الله له إذا لم تضطرَّ إليه مصلحةٌ دينيةٌ، ولم يكن فيه فائدة إلا اقتضاءُ حكمٍ، وصفتُه عليه السلام مما لابدَّ من بيانه، وكذلك الرَّجمُ وما فيه إحياءُ شريعة وإماتةُ بدعة.[٣٧٠]

وقال الإمام: والفائدة في ذلك أنهم يعلمون كون الرَّسول عَالِمًا بكلِّ ما يخفونه بإعلام الله، فيصير داعيًا إلى ترك الإخفاء لئلا يفتضحوا.[٣٧١]

وقال **الخازن**: والفائدة في ذكر ذلك أن يعلموا كون الرسول عالِمًا بما هم يخفونه وهو معجزة له أيضًا، فيكون ذلك داعيًا إلى ترك الإخفاء لهم إلى الإيمان،[٣٧٢] أو عن كثير منكم فلا يؤاخذه بحرمة، وردَّ **[٤٢/و]** بأنه مخالف للظاهر لفظًا ومعنًى، أما لفظًا فلأنَّ ﴿**كَثِيرٍ**﴾ الثاني مرتبط بـ﴿**كَثِيرًا**﴾ الأوَّل، فيكونان مما أخفَوْا من الكتاب، وأما معنًى فلأن تخصيص العفو بالبعض غير مناسب، ويمكن دفع الثاني بأن التخصيص بمقتضى المصلحة، ثم إن التّبيين والعفو بتلو بما كتموه من الكتاب، وكثرة المبين لا ينافي كثرة المعفوّ عنه، فإن الكثرة خلاف الأكثرية.

روي: أنَّ يهوديًّا قال: ما الكثير الذي يعفو عنه؟ فأعرض، فسأله ثانيًا وثالثًا، فأعرض، وكان قصد اليهودي أن يظهر عليه مناقضته بترك العفو، فلمَّا أعرض تيقَّن بصدقه وأسلم.[٣٧٣]

وقد جوَّز قوم أن يعود الضمير في ﴿**يُبَيِّنُ**﴾﴿**وَيَعْفُو**﴾ على الله وعلى هذا فلا محلَّ لقوله: ﴿**يُبَيِّنُ**﴾ من الإعراب، ويُمتنع أن يكون حالًا من ﴿**رَسُولُنَا**﴾ لعدم الرَّابط.

﴿**قَدْ جَاءَكُمْ**﴾ لا محلَّ له لاستئنافه، و﴿**مِنَ اللهِ**﴾ متعلّق بـ﴿**جَاءَ**﴾ أو بمحذوف على أنه حال من ﴿**نُورٌ**﴾ قدِّمت صفة النكرة عليها، فنُصبت حالًا.[٣٧٤]

و﴿**كِتَابٌ**﴾ عطف على ﴿**نُورٌ**﴾ و﴿**مُبِينٌ**﴾ صفة للكتاب، وهو إمَّا عطف الصفة على الصفة والمراد بهما القرآن، أما كونه نورًا فلأنه الكاشف لظلمات الشكِّ والضَّلال، والسَّبب ليبيّن الأحكام كما أن النور سبب ليبيّن الأعيان، وأيضًا أنه سبب لوقوع نور الإيمان في القلب، فسمي نورًا بطريق تسميته السّبب باسم المسبّب، أما كونه كتابًا مبينًا فلابانته حقائق الأشياء، وما كان خفيًّا على الناس من الحقِّ على أن يكون أبان من المتعدي، أو لظهور إعجازه، وأنه من عند الله على أن يكون من

---

[٣٦٨] **التيسير في التفسير** لأبي حفص، ٥/ ٣٣٨.

[٣٦٩] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٣٢٦/١١.

[٣٧٠] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٥/١.

[٣٧١] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٩٤/١١.

[٣٧٢] **لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)**لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١هـ) تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥هـ، ٢٤/٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٥٩/٧.

[٣٧٣] **التيسير في التفسير** لأبي حفص، ٥/ ٣٣٨.

[٣٧٤] **اللباب** لابن عادل، ٢٥٩/٧.

اللازم، وأمَّا عطف الذات على الذات على أن المراد بالنور محمد ع م، أو الإسلام، وكونهما نورًا يعلم مما سبق في بيان كون القرآن نورًا.

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)﴾

صفة ثانية لـ﴿**كِتَابٌ**﴾ وصفه بالجملة بعد وصفه بالمفرد، أو صفة لـ﴿**نورٌ**﴾، وفيه أنه إذا اجتمعت التَّوابع قدِّم النعت على عطف النَّسق، تقول: «جاءني زيد العاقل وعمرو»، ولا تقول: «جاءني زيد وعمرو العاقل»؛ ولأن فيه إلباسًا، أو حالٌ من ﴿كِتَابٌ﴾؛ لأن النَّكرة لَمَّا تخصَّصت بالوصف قرُبت من المعرفة، أو من ﴿**نُورٌ**﴾، أو استئناف، ولما أريد الوصف، أو الحال من أحد المذكورين أفرد الضمير في ﴿**بِهِ**﴾، وإذا أريد كلاهما، فإفراده؛ لأنَّ المراد بهما واحدٌ إن كان من عطف الصفة على الصفة، أو لأنهما في الحكم واحد إن كان من عطف الذات.

و﴿**مَنْ**﴾ موصولةٌ أو نكرةٌ موصوفةٌ، وراعَى لفظها في ﴿**اَتَّبَعَ**﴾ فلذلك أفرد ومعناها، في﴿**وَيُخْرِجُهُم**﴾ فلذلك جمعه.

وقرئ: «سُبْلَ»[٣٧٥] بسكون الباء، وهو تخفيف قياسي كقولهم في عُنُقٍ: عُنْقٍ وهذا أولى لكونه جمعًا، وهو مفعول ثانٍ لـ﴿**يَهْدِي**﴾ على إسقاط حرف الجرِّ، أي: إلى «سُبْلٍ»، ويجوز أن ينتصب على أنه بدلٌ من ﴿**رِضْوَنَهُ**﴾ إما بدل كلّ من كلّ؛ لأن سبل السلام هي رضوان الباري، أو اشتمال؛ لأن الرضوان مشتمل على سبل السلام، أو لأنها مشتملة على رضوان الله، أو بدل بعض من كلّ؛ لأن سبل السلام بعض الرضوان،[٣٧٦] أي: يهدي به من اتبع رضاه طرُق السلامة من العذاب،[٣٧٧] أو سبل الله على أن يكون السلام من أسماء الله، وضع موضع المضمر ردًّا على اليهود والنصارى القائلين باتصافه بنقيصة شبه المخلوقين،[٣٧٨] أو سبل الجنة على أن السلام اسم الجنة، كما قال تع: ﴿**وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ**﴾ [يونس ٢٥/١٠].

وقيل: إنما قال: سبل السلام جمعًا ودين الإسلام طريق واحد، ولذلك قال تع: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ**﴾ [الأنعام ١٥٣/٦]؛ لأن أصل الدين واحدٌ، لكن طرق الطَّاعات مُتَفَنِّنَةٌ، وكلُّ طريقٍ يفضي سالكه إلى الجنة بوعد الله تع: ﴿**وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ**﴾ من أنواع الكفر إلى النُّور إلى الإسلام.

وقيل: من الشكوك إلى اليقين، أو من الجهالات إلى العلم، أو من الضلالات إلى الرُّشد.[٣٧٩]

﴿**بِإِذْنِهِ**﴾، أي: بتيسيره أو بتوفيقه، و«الباء»: للحال مصاحِبِين بتيسيره أو بتوفيقه أو بأمره أو بإرادته، و«الباء» للسَّبب، أي: سبب أمره المنزَّل على رسوله أو بسبب إرادته.

وقيل: الباء متعلِّق بـ«يَتَّبِعُ»، أي: يتَّبع رضوانه بإذنه، وهو بعيد بعد عطف ﴿وَيُخْرِجُهُمْ﴾ على «يتبع»؛ إذ لو كان صلة له لَذكر قبله، ولا يجوز أن تتعلَّق بالهداية.[٣٨٠]

---

[٣٧٥] قراءة شاذّة، مروية عن الحسن. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٥٢؛ **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٣٨.

[٣٧٦] **الدر المصون** للسمين الحلبي، ٢٢٩/٧؛ **اللباب** لابن عادل، ٧/-٢٦٠٢٥٩.

[٣٧٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٧/١.

[٣٧٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٢و.

[٣٧٩] **التيسير في التفسير** لأبي حفص، ٣٣٩/٥-٣٤٠.

[٣٨٠] **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٢٦١/٧.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريقٍ هو أقرب الطُّرق إلى الله ومؤدٍّ إليه لا محالة،[٣٨١] فإن استقامة الطَّريق في الظاهر إيصالُه إلى المطلوب على وجهٍ أيسرَ وأقربَ، فلمَّا استعير الصِّراط المستقيم لدين الله اعتبر فيه خاصّة المستعار منه، ثم إنه قد ظهر من تفسير الهداية إلى سبل السلام، والإخراج من الظُّلمات إلى النُّور، والهداية إلى الصراط المستقيم مغايرة كل واحدٍ منها للآخر، ولو بالاعتبار والمفهوم [**٤٢**/ظ] والأوصاف والخواصّ.

وقيل: المراد من الأول: إعطاء الهداية، ومن الثاني: حفظهم من الغِواية بعد الهداية على أن يكون الإخراج مجازًا عن الحفظ، ومن الثالث: إبقاؤهم على تجديد الفوائد.[٣٨٢]

وقيل: الثلثة شيء واحد والتكرار للتأكيد والتقرير.

وقال ابن عطاء: يهدي لنوره مَنْ رَضي عنه في الأزل، وخصَّه بكرامات الأولياء، وأخرجه من ظلمات الاعتراض إلى نور الرضاء والتسليم.[٣٨٣]

وعنه عليه السلام: «الْقُرْآنُ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».[٣٨٤]

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)﴾

معناه: «بتُّ القول على أن حقيقة الله هو المسيح لا غير»،[٣٨٥] بدلالة حمل الشَّخص على الشَّخص مع ضمير الفصل، والتَّأكيد بـ﴿إنّ﴾، والفصل هنا لمجرد التأكيد؛ لحصوله القصر بدونه،[٣٨٦] فإن الخبر إذا عرِّف باللّام أفاد القصر سواء كان التَّعريف فيه عهدًا أو جنسًا،[٣٨٧] ولأن القصر ههنا للمسند إليه على المسند، أي: لا غير المسيح كما في قولهم: الكرم هو التقوى، وكقوله عليه السلام: «فإنَّ اللهَ هُوَ الدَّهرُ»،[٣٨٨] أي: الجالب الحوادث لا غير الجالب بخلاف زيدٍ هو المنطلق، فإن معناه: لا غير زيد.[٣٨٩]

قيل: كان في النصارى قومٌ يقولون ذلك.[٣٩٠] وهم الذين قالوا بالاتِّحاد منهم.[٣٩١]

---

[٣٨١] **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** للبيضاوي، ٤٢٨/١.

[٣٨٢] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٤٠/٥.

[٣٨٣] **عرائس البيان** للبقلي، ٣٠٦/١.

[٣٨٤] **جامع الترمذي**، ١٧٢/٥ (٢٩٠٦)، **شعب الإيمان** للبيهقي، ٣٣٦/٣ (١٧٨٩).

[٣٨٥] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٥/١.

[٣٨٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٢و.

[٣٨٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣١٥/٥.

[٣٨٨] **أخرجه البخاري، ٤١/٨** (٦١٨٢).

[٣٨٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٢و.

[٣٩٠] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٥/١.

[٣٩١] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٨/١.

وقيل:«ما صرَّحوا به، ولكنَّ مذهبهم يؤدي إليه حيث اعتقدوا أنه يخلق ويحيي ويميت، ويدبِّر أمر العالم»،[٣٩٢] يعني: لما اعتقدوا اتّصافه بصفات الله الخاصَّة.

وقد اعترفوا بأن الله موجود لزمهم القوم بأن الله هو المسيح، وإلّا فمجرد اعتقاد اتّصافه بصفات الله، إنما يناسب الحكم بأن المسيح هو الله أو إله.[٣٩٣]

وقال قدس سره: قيل: لَمْ يُصَرِّح به أحدٌ منهم ولَكِنْ لَمّا زَعَمُوا أنَّ فِيهِ لاهُوتًا، وقالوا لا إلهَ إلّا اللّهُ واحِدٌ لَزِمَهم أنْ يكونَ المسيحَ فنسب إلَيْهِمْ لازِمَ قولِهِم تَوْضِيحًا لِقولِهم وتَفْضِيحًا لِمُعْتَقَدِهِمْ».[٣٩٤]

وقيل: فيه إبطال لقولهم بقولهم؛ لأنهم قالوا: هو ابن مريم، فكيف يكون إلهًا؟ والأمُّ أقدمُ من الولد، فهو حادثٌ، والحادث لا يكون إلهًا، وهو بعضها في أصل الخلقة، والمتبعِّض لا يكون إلهًا، وهو منتقل من الرَّحم إلى الأرض، والمتمكِّن في مكان، والمنتقل من مكانٍ إلى مكانٍ؛ لا يكون إلهًا.[٣٩٥]

﴿**فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا**﴾ «فمن يمنع من قدرته ومشيئته شيئًا».[٣٩٦] ظاهر هذا التفسير على أن يملك مجاز عن «يمنع» أو متضمن معناه، و﴿**مِنَ اللهِ**﴾ متعلِّق به على حذف المضاف، لكن ذكر في سورة الأحقاف في قوله تع: ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ [الأحقاف ٨/٤٦] فلا تقدرون على كفّه عن معالجتي، ولا تطيقون دفع شيء من عقابه، ثم قال ومثله: ﴿**قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا**﴾ وحقيقته: فمن يستطيع إمساك شيء من قدرة الله، وإذا لم يستطع إمساكه ودفعه عنهم، فلا يمكن منعهم منه، ولهذا فسّر بالمنع أخذًا بالحاصل، وحقيقة الملك: الضبط والحفظ عن حزم، تقول: ملكت الشيء، إذا دخل تحت ضبطك دخولًا تامًّا، ولا أملك رأس البعير إذا لم تستطع.[٣٩٧]

وقيل: «الفاء» عاطفة هذه الجملة على جملة مقدَّرة قبلها، والتقدير: قل كذبوا وليس الأمر كذلك، فمن يملك إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه، إن أراد أن يهلك مَنْ دعوه إلهًا من المسيح وأمِّه، قال ذلك دلالةً على أنَّ المسيح عبدٌ مخلوق كسائر العباد.

وأراد بعطف ﴿**مَنْ فِي الْأَرْضِ**﴾ على ﴿**الْمَسِيحَ...وَأُمَّهُ**﴾ أنهما من جنسهم لا تفاوتَ بينهما وبينهم في البشريَّة، وهذا كلام المصنِّف.[٣٩٨]

وقال قدس سره: «احْتُجَّ بِذلك عَلى فَسادِ قولِهِمْ وتَقْرِيره: أنَّ المسِيحَ مَقدورٌ مَقهورٌ قابِلٌ لِلْفَناءِ كَسائِرِ المـْمكناتِ، ومَن كانَ كذلِكَ فَهو بِمَعْزِلٍ عَنِ الأُلُوهِيَّةِ».[٣٩٩] فتأمّل في الفرق بين الكلامين.

---

[٣٩٢] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٥/١.

[٣٩٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٢و.

[٣٩٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٨/١.

[٣٩٥] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٤١/٥.

[٣٩٦] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٥/١.

[٣٩٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٢و؛ **نواهد الأبكار وشواهد الأفكار** للسيوطي، ٢٥٢/٣.

[٣٩٨] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٥/١.

[٣٩٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٨/١.

وقيل: ﴿مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من قبيل عطف العامّ على الخاصّ، حتى يبالغ في نفي الإلهيَّة عنهما، فكأنه نصّ عليهما مرتين؛ مرة بذكرهما مفردين، ومرةً باندراجهما في العموم.[٤٠٠]

ثم إن الكلام مبني على الإهلاك المفروض، لا الإهلاك الخارجي المخصوص، فلا يرد أن مريم إهلاكها حقيقة، فلا يحتاج إلى الاعتذار بأنه بمعنى المضيّ، أي: من كان يمنع الله من إهلاك المسيح، وإهلاك أمِّه حال حياتها.

و﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ من المسيح وأمِّه ومن في الأرض، أو من «مَنْ» وحدها لعمومها، ويجوز نصبها على التوكيد.[٤٠١]

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

أي: يخلق من ذكرٍ وأنثى، كما يرى في الناس وسائر الحيوانات، ويخلق من أنثى من غير ذكرٍ كما خلق عيسى ع م، ويخلق من غير ذكرٍ وأنثى كما خلق آدم، أو يخلق ما يشاء كخلق الطَّير على يد عيسى معجزةً له، وكإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك، فيجب أن يُنسب إليه ولا يُنسب إلى البشر الْمُجْرى على يده.[٤٠٢]

ولَمَّا كان ظاهر ما يشاء التعميم في المخلوق دون المخلوق منه، كان هذا الوجه أنسبَ باللفظ، كالأوّل بالمعنى.[٤٠٣]

وقوله: «المجرى على يده»[٤٠٤] يجوز أن يكون صفة البشر، مسندًا إلى الجارّ [**٤٣/و**] والمجرور، أعني: على يده؛ إذ لو كان مسندًا إلى ضمير المخلوق لَوجب إبرازه بلاخفاء، وأن يكون فاعل ينسب ولا ينسب على التّنازع أي: ما أجرى على يد البشر يجب أن ينسب إلى الله تع لا إلى ذلك البشر.[٤٠٥]

وتقرير الوجهين أن قوله تع: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ جاء ههنا مبيِّنًا لما هو المراد من قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بحسب اقتضاء المقام، يعني: أن الله تع مالك العالم كلِّه قهرًا وتصرُّفًا وخلقًا بها على إنحاءٍ مختلفةٍ، فلا ينبغي لكم حين شاهدتم خلاف العادة في المسيح أن تقولوا: هو إلهٌ وهو الوجه الأول، أو حين نظرتم إلى أنه الواسطة في خلق الطَّير أن تقطعوا النِّسبة منَّا وتنسبوا إليه، وهو الوجه الثاني.[٤٠٦]

وعبارته قدس سره في تقرير الوجه الأول: «إنه تع قادر على الإطلاق يخلق من غير أصل كما خلق السموات والأرض، ومن أصلٍ كخلقِ ما بينهما، فيُنشئ من أصل ليس من جنسه كآدم وكثير من الحيوانات، ومن أصلٍ يُجانسه إمَّا من ذكرٍ وحده كما خَلق حواء أو من اثنى وحدها كعيسى عم، أو منهما كسائر الناس».[٤٠٧]

وإنما قال: ﴿وَمَا بَيْنَهَمَا﴾ ولم يقل: وما بينهن؛ لأنه ذهب بذلك مذهب الصنفين والنوعين، وقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ جملة لا محل لها لاستئنافها.

---

[٤٠٠] **الدر المصون** للسمين الحلبي، ٢٣٠/٧؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٦٢/٧.

[٤٠١] **الدر المصون** للسمين الحلبي، ٢٣٠/٧؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٦٢/٧.

[٤٠٢] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٥/١.

[٤٠٣] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٥/١. **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٢و.

[٤٠٤] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٥/١.

[٤٠٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٢و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٢١٩/٣.

[٤٠٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣١٧/٥.

[٤٠٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٨/١.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: «كانَ رسول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، إذَا أَمْسَى قالَ: أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الملكُ لِلَّهِ، والحمد لله، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهو علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ».[٤٠٨]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال: أَبو بَكرٍ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللَّهِ مُرْنِي بِشيءٍ أَقُولُهُ إِذَا أَصْبَحْتُ وإِذَا أَمْسَيتُ، قَالَ: قُلْ: اللَّهُمَّ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادةِ فَاطِرَ السَّمَواتِ والأرضِ، ربَّ كُلِّ شَيءٍ وَمَلِيكَهُ. أَشْهَدُ أَن لاَ إِله إِلاَّ أَنتَ، أَعُوذُ بكَ منْ شَرِّ نفسي ومِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ قُلْه إِذا أَصْبحْتَ، وَإِذا أَمْسَيْتَ، وإذا أَخذْتَ مَضْجِعَكَ».[٤٠٩]

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلمإذا أمسى قال: أمسينا وَأَمْسَى الملكُ لِلَّهِ، والحمد لله، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهو علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ».[٤١٠]

وعنه عليه السلام: «اللَّهمَّ ربَّ السَّمواتِ السَّبعِ وربَّ العرشِ العظيمِ ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ مُنزِلَ التَّوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ العظيم، أنتَ الأوَّلُ فليس قبْلَكَ شيءٌ، وأنتَ الآخِرُ فليس بعدَكَ شيءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهرُ فليس فوقَكَ شيءٌ، وأنتَ الباطنُ فليس دونَكَ شيءٌ اقضِ عنَّا الدَّينَ وأَغْنِنا مِن الفقرِ».[٤١١]

وعنه عليه السلام: «اللَّهمَّ لك الحمدُ أنتَ نورُ السَّمواتِ والأرضِ، ولك الحمدُ أنتَ قيامُ السَّمواتِ والأرضِ، ولك الحمدُ أنتَ ربُّ السَّمواتِ والأرضِ ومَن فيهنَّ أنتَ حقٌّ ووعدُك حقٌّ ولقاؤُك حقٌّ».[٤١٢]

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)﴾

لَمَّا ورد أن يقال: إن القائلين بالبنوّة هم النَّصارى فقط دون اليهود، وأنهم إنما يقولون ببنوَّة عيسى فقط دون أنفسهم.

أجيب عنه أوّلًا بأن اليهود قالوا: عزيرٌ ابن الله، والنصارى: المسيح ابن الله، ثم زعموا أنهم أشياع عزير والمسيح وأصحابهما، والمختصُّون بهما والمختص بشيء يطلق عليه ما يطلق على ذلك الشخص، كما أن أقارب الملك إذا قال فاخروا إنسانًا قد يقولون: نحن ملوك الدنيا، وكما قال مؤمنُ آل فرعون مخاطبًا لهم: **﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾** [المؤمن ٤٠/٢٩] وكان الملك لفرعون لا لهم، وجعلهم ملوكًا لاختصاصهم به. وكما قيل لأصحاب أبي خبيب «الخُبَيْبُون» قال:

قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ الخُبَيْبَيْنِ قَدي ... لَيْسَ الإِمامُ بالشَّحِيح المُلْحِدِ[٤١٣]

وخبيب اسم رجل تصغير خبب ضرب من العَدْو دون العَنَق وهو خبيب بن عبد الله بن زبير وكان عبد الله يكنى بأبي خبيب، ومن روى بلفظ التثنية أراد بهما عبد الله ابن زبير وابنه. وقيل: عبد الله وأخاه مصعبًا، ومن روى بلفظ الجمع أراد الثلاثة المذكورة. وقال ابن السكيت: يريد أبا خُبيب، ومن كان على رأيه والاستشهاد مبني عليه.

فإن قيل: التمثيل به إنما يطابق إن سُمي ابن الزبير خبيبًا، ثم أطلق على أشياعه ما أطلق عليه، وليس كذلك؟

---

[٤٠٨] **صحيح مسلم**، ٤/ ٢٠٨٩ (٢٧٢٣).

[٤٠٩] **سننأبو داود، ٤٠٣/٧** (٥٠٦٧)؛ **سننالترمذي**، ٤٦٧/٥ (٣٣٩٢)، **السنن الكبرى** للنسائي، ١٤٧/٧ (٧٦٦٨).

[٤١٠] **صحيح مسلم**، ٤/ ٢٠٨٩ (٢٧٢٣).

[٤١١] **صحيح مسلم**، ٤/ ٢٠٨٤(٢٧١٣).

[٤١٢] **صحيح البخاري**، ٨/ ٧٠ (٦٣١٧).

[٤١٣] هذا البيت لأبي نخيلة حميد بن مالك الأرقط. **لسان العرب** لابن منظور، «لحد».

قلنا: إن التمثيل به أظهر لتأييد المراد؛ لأنه لما سمي أصحاب أبي الخبيب ب«الخبيبيون»، فأولى أن يسمّى أشياع ابن الله بأبناء الله.

وثانيًا: بأنهم لم يريدوا حقيقة البنوّة، بل أرادوا بها ما يلزمها من القربة، ومزيد العناية والرَّحمة، وكما جاز أن يقال إنه تع: «اتَّخَذَإبْرَاهِيمَ خَلِيلًا» بهذا المعنى زعموا جواز أنه تع: اتخذ اليهود أبناء، بمعنى تخصيصهم بمزيد العناية والشفقة والمحبة.

وثالثاً: بأن كلامهم محمولٌ على حذف المضاف، والتقدير: نحن أبناء رسلِ الله، فأضافوا إليه تع ما هو مضافٌ في الحقيقة إلى رسله، ونظيره قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ**﴾ [الفتح ٤٨/١٠].

وإنما لم يحمل على التوزيع يعني: أنفسنا الأحباء، وأنبياؤنا الأبناء حملًا؛ للجمع على الاثنين محافظةً على مشاكلة الأحبَّاء؛ لأن ظاهر الخطاب بقوله: ﴿**بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ**﴾ يأبى هذا المعنى ويدلُّ على ادعائهم[**٤٣**/ظ] البنوّة بأيِّ معنًى كانت.[٤١٤]

فقيل لهم: إن صحَّ ما تزعمون، فلم تذنبون وتعذَّبون بذنوبكم؟[٤١٥] فلم تذنبون مستفاد من تقييد التعذيب بالذنوب، وقد كان يكفي أن يقال: إن كنتم أبناؤه فلم يعذبكم، وجعل عذاب الدنيا المسخ الواقع في أسلافهم، وعذاب الآخرة مس النار أيّامًا ليتم الإلزام؛ إذ المسخ تعذيب ألبتَّة بخلاف سائر البلايا والمحَن؛ فإنها كثرت في الأحباء وأولاد الأنبياء.

قال المعرِّي:

عظِيمٌ لَعَمْري أنْ يُلِمّ عظيمُ بآلِ عليّ والأنامُ سَليمُ[٤١٦]

ولكنّهُمْ أهلُ الحَفائظِ والعُلى فهُمْ لملمّاتِ الزمانِ خُصومُ

و«مستهم النَّار أيامًا معدودات» مما يعترفون به بخلاف العذاب المخلَّد الذي يخبر به نبيُّنا ويشهد به كتابنا.

والحاصل: أنه إذا قيل: لو كنتم أبناؤه وأحباؤه لَما عذّبكم، لكن اللازم منتف، فربَّما منعوا انتفاء اللازم، وطالبوا بالحجَّة، وإذا قيل: لما عذَّبكم في الدنيا بالمسخ، وفي الأخرة بما تزعمون؛ تمّ الإلزام، وأمَّا الملازمة فمن العادات والمشهورات التي يعترف بها الجمهور.[٤١٧]

وأمَّا اتِّصالُ هذه الآية بما قبلها فهو أنه تع لما أجاب عن قول القائلين في المسيح: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ**﴾ بقوله: ﴿**قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ**﴾ [المائدة، ١٧/٥] أتى بما يناسبها من حديث الغلاة من أهل الكتاب وادّعائهم أنهم أبناء الله، وأجاب بما يقرب منه.[٤١٨]

﴿**بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾

---

[٤١٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٢و؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤٩٧/٣.

[٤١٥] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٥/١. **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٢و.

[٤١٦] هذا البيت لأبي العلاء المعري. **ديوان سقط الزند** لأبي العلاء المعري، ضبطه عمر فارق الطباع،دار الأرقام، بيروت – لبنان ١٤١٨هـ/١٩٩٨م،ص ١٥٣؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٢٢٠/٣.

[٤١٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٢ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٢١٩/٣-٢٢٠.

[٤١٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣١٨/٥.

أورد ههنا أنه إذا كان معنى قولهم:﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ﴾ أنهم أشياع ابنه، فغاية الأمر أن يكونوا على طريقة الابن تحقيقًا للتبعيّة، لكن من أين يلزم أن يكونوا من جنس الأب في انتفاء فعل القبائح، وانتفاء البشرية والمخلوقيّة؛ ليحسن الردُّ عليهم بأنهم بشرٌ من جملة ﴿مَنْ خَلَقَ﴾، نعم! ما ذكر من استلزام المحبّة عدم العصيان والعقاب؛ ربَّما يتمشّى بأنّ من شأن المحب أن لا يعصى الحبيب، ولا يستحقّ المعاقبة منه على أنه محل مناقشة؛ لأن ذلك شأن المحبين والأحباء هم المحبوبون. أمَّا الجواب عن إشكال إثبات البشريَّة فظاهر، وهو أنه ليس إثباتًا لمطلق البشرية؛ ليجب أن يكون ردًّا لدعوى انتفائه، بل هو إثبات أنهم بشر مثل سائر البشر، ومن جنس سائر المخلوقين، فمنهم المطيع والعاصي والمستحقُّ للمغفرة والعذاب، لا كما ادَّعوا من أنهم الأشياع والأحباء الممتازون بمزيد قربٍ واختصاصٍ لا يُوجد في سائر البشر. ولذا وصف ﴿بَشَرٌ﴾ بقوله: ﴿مِمَّنْ خَلَقَ﴾ حتى لا يبعد أن يكون ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أيضًا في موقع الصفة على حذف العائد، أي: لمن يشاء منهم. وأمَّا إشكال الجنسيّة فقيل في جوابه: المراد أنّكم لو كنتم أشياع ابني الله لَكنتم على صفة أبيهما في ترك القبائح وعدم استحقاق العقاب؛ لأن من شأن الأشياع والأتباع أن يكونوا على صفة المتبوعين الذين هم الأبناء، ومن شأن الأبناء أن يكونوا على صفة الأب، فمن شأن الأشياع أن يكونوا على صفة الأب بالواسطة. وقيل: هو على حذف المضاف، أي: لو كنتم أشياع ابن الله لَكنتم من جنس أشياع الأب أعني: أهل الله الذين لا يفعلون القبائح، ولا يستوجبون العقاب. وقيل: إن قولهم: «نحن أبناء الله» يتضمَّن أمرين: إثبات الابن وكونهم أشياعه،وأحباء أبيه، فيردّ عليهم الأمران جميعًا، بأن من ادّعيتم بنوّته، لو كان ابنًا لَما جاز عليه القبيح، ولَمَّا صدر ولو على سبيل الذلّة، ولم يؤاخذ ولو بالمعاتبة والأبناء ليسوا كذلك، وما ادَّعيتم من كونكم الأشياع والأحبَّاء لو صحَّ لَمَا عذَّبتم، بل إذا أبطلت البنوّة بطل كونكم أشياع الابن وأحباء الأب بواسطة ذلك. فالخطاب في قوله:«ولو كنتم أبناء الله»[419] يتناول الأشياع والمتبوعين على[420] التغليب، وفي قوله:«لكنتم غير فاعلين»،[421] يخصّ المتبوعين كعزير وعيسى، وفي قوله: «ولو كنتم أحبَّاءه لَما عصيتموه»[422]يخصّ الأشياع. وأنت خبير: بأن قوله: «فَلِم تُذنبون وتعذَّبون»[423] بالمسخ، ومسّ النار، بيانٌ لانتفاء اللازم مقدَّم على الشرطية، فلا معنى لتخصيص جزاء البنوَّة بالمتبوعين الذين لا قطع بذنبهم وعقابهم، بل يقطع بخلافه، وكيف يصحُّ هذا مع عوم خطاب الشرط، وارتكاب الجمع بين الحقيقة والمجاز. وقيل: المراد إبطال أن يكونوا أبناء حقيقة، كما يفهم من ظاهر اللفظ، أو مجازًا كما فسَّره، فيكون أوكد في إفادة المطلوب وهذا مع بعده، إنما يصحُّ لو كان مع القوم لإبطال ما ادّعوا من كونهم أشياع الابن.[424]

وقوله: «﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾وهم أهل الطاعة ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ وهم أهل المعصية»[425] تفسير على مذهبه، وما كان ينبغي أن يخفى على مثله أنّ هذا لإظهار القدرة، وكمال الاستغناء والتّنزه عن صفات المخلوقين، فالمعنى: «يغفر لمن يشاء من المذنبين ويعذب من يشاء» ومع هذا فلو قال: وهم أهل التوبة بدل قوله: وهم أهل الطاعة لَكان أنسب.[426]

وقيل: يغفر لمن تاب من اليهودية والنصرانية، ويعذِّب من مات عليهما.

---

[419] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٦/١.

[420] ج + سبيل.

[421] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٦/١.

[422] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٦/١.

[423] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٦/١.

[424] **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٢٢٠/٣-٢٢١.

[425] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٦/١.

[426] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٣و.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فله التَّصرف فيهم. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وإلى جزائه مرجعُ الكلّ.[٤٢٧]

﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩)﴾

يا أهل اليهودية والنصرانية، وأراد بالكتاب [**٤٤**/و] الكتابين؛ التوراة والإنجيل؛ لأن الكتاب مصدر، أو اسمُ جنسٍ فصلح للتَّثنية والجمع. ﴿**رَسُولُنَا**﴾ يعني: محمدًا.[٤٢٨] ﴿**يُبَيِّنُ لَكُمْ**﴾ أي: الدين، وحذف لظهوره، أو ما كنتم تكتمون، وحذف لدلالة ما تقدَّم عليه، ويجوز أن لا يقدر مفعول على معنى: ويبذلكم البيان، وهذا أكمل؛ لأنه أشمل. والجملة في موضع الحال، أي: جاءكم رسولنا مبَيِّنًا لكم.[٤٢٩]

﴿**عَلَى فَتْرَةٍ**﴾ متعلِّق بـ﴿**جَآءَكُمْ**﴾ تعلّق الظرفية كما في قوله تع: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾، [البقرة، ١٠٢/٢]، وهذا أولى من جعله حالًا من ضمير ﴿**يُبَيِّنُ**﴾؛ لأن البيان بعد الفترة لا عندها.[٤٣٠]

أو حالٌ من الضمير المجرور في﴿**لَكُمْ**﴾، فيتعلَّق على الأخيرين بمحذوفٍ، و﴿**مِنَ الرُسُلِ**﴾ صفةٌ لـ﴿**فَتْرَةٍ**﴾، على أن معنى ﴿**مِنْ**﴾ ابتداءُ الغاية، أي: فترة صادرة من إرسال الرُّسل.[٤٣١]

قال ابن عبَّاس: يريد على انقطاع من الأنبياء، يقال: فَتَرَ الشيء يَفْتر فُتورًا إذا سكنت حركتُه، وصار أقلَّ ممَّا كان عليه، وسمِّيت المدة بين الأنبياء فترةً لفُتور الدواعي في العمل بترك الشرائع.[٤٣٢]

﴿**أَنْ تَقُولُوا**﴾ كراهةَ أن تقولوا على أنه في موقع المفعول له؛لقوله: ﴿**جَآءَكُمْ رَسُولُنَا**﴾ لكونه في معنى: «أرسلنا إليكم رسولًا»، فلو لم يقدّر المضاف جاز حذف اللام بلا تأويلٍ، لكن لابدَّ حينئذ من تقدير «لا»، أي: لئلا تقولوا.[٤٣٣]

﴿**مِن بَشِيرٍ**﴾ فاعل زيدَت فيه ﴿**مِنْ**﴾ لوجود الشَّرْطين، ﴿**وَلاَ نَذِيرٍ**﴾ عطف على لفظه، ولو قُرِئ بالرفع مُراعَاةً لموضْعِه جَازَ،[٤٣٤] أي: ما جاءنا من بشير يعلِّمنا كيفية العبادة إذ قد تطرَّق التغير إلى الشرائع المتقدمة، واختلط الحقُّ بالباطل.[٤٣٥]

فنفعنا الناس على ما أدركناهم عليه، ولم يكن عندنا علم بما تدلّوا، وغيَّروا، ويبشرنا بالجنَّة والرَّحمة على الطاعة، ولا نذير ينذرنا على الكفر والمعصية بالعذاب والنقمة.

﴿**فَقَدْ جَاءَكُمْ**﴾ متعلِّق بمحذوفٍ، أي: لا تعتذروا فقد جاءكم.[٤٣٦] تفصح عنه الفاء، وتفيد بيان سببه كالتي تذكر بعد الأوامر والنواهي بيانًا؛ لسبب الطَّلب، لكن كمال حسنها وفصاحتها؛ أن تكون مبنية على التقدير، منبئة عن المحذوف بخلاف

---

[٤٢٧] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٤٥/٥.

[٤٢٨] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٤٤/٥.

[٤٢٩] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٦/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٨/١-٤٢٩.

[٤٣٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٢ظ-٣٠٣و.

[٤٣١] **الدر المصون** للسمين الحلبي، ١٢٣/٧؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٦٥/٧.

[٤٣٢] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٩٩/١١؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٦٥/٧.

[٤٣٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٣و.

[٤٣٤] **اللباب** لابن عادل، ٢٦٦/٧.

[٤٣٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٣ و-٣٠٤ظ.

قولك: اعبد ربك فالعبادة حقّ له، ومبنى الفاء الفصيحة على الحذف اللازم بحيث لو ذكر لم تكن بتلك الفصيحة، تختلف العبارة في تقدير المحذوف، فتارةً أمرًا أو نهيًا كما في هذه الآية، وتارةً شرطًا ،كما في قوله تعالى: ﴿**فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ**﴾ [الروم ٣٠/٥٦]، وقول الشاعر:

قَالُوا خُرَاسَانُ أَقْصَى مَا يُرَادُ بِنَا　　　ثُمَّ الْقُفُولُ فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَا.[٤٣٧]

وتارةً معطوفًا عليه كما في قوله تع: ﴿**فَانْفَجَرَتْ**﴾ [البقرة ٢/٦٠]، وقد يصار إلى تقدير القول، كما ذكر في سورة الفرقان في قوله: ﴿**فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ**﴾ [الفرقان ٢٥/١٩]؛ إن هذه المفاجئة بالاحتجاج حسنة رائقة، وخاصّة إذا انضمّ إليها حذف القول، وجعل هذه الآية، وهذا البيت من ذلك القبيل.[٤٣٨]

وفي الآية نكتةٌ، وهي أنه تع أضاف الرسول إلى نفسه تع، وقال: ﴿**رَسُولُنَا**﴾ وما أضاف إليهم؛ لأن فائدة رسالته لم تكن راجعةً إليهم، ولَمَّا خاطب هذه الأمة، وأخبرهم عن مجيء الرسول ما أضاف إلى نفسه، وإنما جعله من أنفسهم فقال تع: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ**﴾ [التوبة ٩/١٢٨]؛ لأن فائدة رسالته كانت عائدةً إليهم، ثم قال:«يبين لكم» أن تكونوا من أهل الله لا أهل الكتاب، ولا تقنعوا من الدين باسم، ومن الكتاب برسم، ومن الله بذكرٍ.[٤٣٩]

﴿**وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ فيقدر على الإرسال تترى كما فعل بين موسى وعيسى، أي: واحدا بعد واحد، قال تعالى: ﴿**ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ**﴾ [المؤمنون ٢٣/٤٤]، وذلك بأن تنفصل بعثة أحد الرسولين من انقضاء الآخر بزمانٍ يسيرٍ بعد أن كان الإرسال على سبيل التتابع، والتوالي.

وأصلها: «وترًا» من الوتر وهو الفرد، والمواترة: المتابعة مع انفصال التابع عن المتبوع بزمانٍ، ولا تكون المواترة بين الأشياء، إلا إذا وقعت بينها فترة، وإلا فهي مداركة ومواصلة، ومواترة الصّوم: أن تصوم يومًا، وتفطر يومًا أو يومين، وتأتي به وِترًا وِترًا من غير مواصلة، وعلى الإرسال على فترةٍ،[٤٤٠] كما فعل بين عيسى ومحمدٍ، أي: على الانقطاع من الأنبياء، كان بين موسى وعيسى ألف وسبعمائة سنة وألف نبي، وكان بين عيسى ومحمد خمسمائة وستون سنة. وقيل: ستمائة. وقيل: أربعمائة ونيف وستون وأربعة أنبياء ثلاثة من بني إسرائيل، وواحد من العرب خالد بن سنان العبسيوذلك قوله تعالى: ﴿**إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ**﴾ [يس ٣٦/١٤]، فيكون الرابع: خالد بن سنان الذي قال فيه رسول الله هو نبي ضيَّعه قومه.[٤٤١]

---

[٤٣٦] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٠٦.

[٤٣٧] هذا البيت للعباس بن الأحنف. **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الجرجاني، تحقيق: ياسين الأيوبي الناشر: المكتبة العصرية– الدار النموذجية الطبعة، د.ت. ١/١٢٣.

[٤٣٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٤ظ؛

[٤٣٩] **التأويلات النجمية في التفسير الإشاري الصوفي** لأحمد بن عمر بن محمد نجم الدين الكبرى، تحقيق: أحمد فريد المزيادي، دار الكتاب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م، ٢/٢٦٦-٢٦٧.

[٤٤٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/٤٩٧.

[٤٤١] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٠٦؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٢٨-٤٢٩؛ **اللباب** لابن عادل، ٧/٢٦٦؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/٤٩٧.

وقال «**صاحب الكامل في التاريخ**»: إنَّ خالد بن سِنَان العَبْسيَّ كان نبيًّا، ومن معجزاته أنَّ نارًا ظهرت بأرض العرب فافتتنوا بها وكادوا يتمجّسون، فأخذ خالد عصاه ودخلها حتى توسّطها ففرّقها، فطفئت وهو في وَسَطها.[٤٤٢]

والمعنى: الامتنان عليهم، وأن الرسول بعث إليهم حين انطمست آثار الوحي أحوج ما يكونون إليه ليهشُّوا إليه ويعدّوه أعظم نعمةٍ من الله، وفتح باب الرحمة، وتلزمهم الحجّةُ، فلا يعتلّوا غدًا بأنه لم يرسل إليهم من ينبّههم عن غفلتِهم.[٤٤٣]

فقوله: «أحوج ما يكونون»[٤٤٤] بدلٌ من «حين انطمست»،[**٤٤**/ظ] أي: في حين هو أحوج أوقات كينونتهم إليه على طريقة: أخطب ما يكون الأمير قائمًا.[٤٤٥] فإسناد الاحتياج إلى الوقت مجاز للمبالغة، ومنه يظهر ما في قوله قدس سره: «وكانوا أحوج ما يكونون إليه»؛ إذ يكون مآله على قياس ما ذكر، وكانوا أحوج أوقات كونهم إليه، وهذا لا يخلو عن التكلّف، ولو قال: وكانوا أحوج إليه لكان أظهر مع كونه أخصر.

> ويقال: هَشِشْتُ بفلان، بالكسر: أهشُّ هشاشةً: إذا خفقْتَ إليه وارتحتَ له، ورجلٌ هشٌّ بَشٌّ، ويناسب هذا المقام ما قال الإمام في«المعالم»: إنه عند مَقدم النبي كان العالَم مملوءًا من الكفر والضلالة، أمَّا اليهود: فكانوا في المذاهب الباطلة من التشبيه والافتراء على الأنبياء، وتحريف التوراة، وأمَّا النَّصارى: فقد قالوا بالتثليث والأب والابن والحلول والاتّحاد، وأمَّا المجوس: فأثبتوا إلهين: يزدَان وأهرَمَن، وتحليل نكاح الأمَّهات، وأمَّا العرب: فانهمكوا في عبادة الأصنام، والفساد في الأرض، فلما بُعث صلوات الله عليه انقلب الدنيا من الباطل إلى الحقّ، ومن الظّلمة إلى النّور، وانطقت الألسنة بتوحيد الله، واستنارت العقول بمعرفة الله، ورجع الخلق عن حبِّ الدُّنيا إلى حبِّ المولى، وإذا كان لا معنى للنبوة إلا تكميل النَّاقصين في القوة: العلمية والعمليَّة، ورأينا أنه حصل هذا الأمر بمَقدم سيدنا محمد صلوات الله عليه أكثر مما ظَهَر بمقدم سائر الأنبياء علمنا أنه سيّدهم وقدوتهم.[٤٤٦]

وهذا طريقة أرباب البصائر في الاستدلال على نبوّة نبينا عليه الصلاة والسلام.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠)﴾

عطف على قوله: **﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾** [المائدة ١٢/٥] أخبر أنه أخذ ميثاقهم وميثاق الذين قالوا: إنا نصارى، وأنهم نقضوه ونسوا ما ذكروا به، وأنه عاقبهم بما يستفتحون وأوعدهم بما يعذبهم به في الآخرة، عطف على هذه القصة قصة أن موسى ذكر قومه نعم الله عليهم، ورغبهم في شكرها، وطاعة المنعم بها، فما أمر به من جهاد الجبارين، كأنه قال: واذكر يا محمد ما حدث، إذ قال موسى لقومه: «جعل فيكم أنبياء»، فأرشدكم وشرفكم بهم، ولم يبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء، منهم السبعون الذين اختارهم من قومه، وأيضًا كانوا من أولاد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، وهؤلاء الثلاثة من أكابر الأنبياء، وأولاد يعقوب أنبياء والله أعلم أنه لا يبعث الأنبياء إلا من ولد يعقوب ومن ولد إسماعيل، وهذا

---

[٤٤٢] **الكامل في التارخ** لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ٣٤٢/١؛ **فتوح الغيب**، للطيبي، ٣٢٠/٥.

[٤٤٣] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٦/١-٢٠٧.

[٤٤٤] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٦/١-٢٠٧.

[٤٤٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٣ظ.

[٤٤٦] **فتوح الغيب**، للطيبي، ٣٢٠/٥-٣٢١.

الشرف حصل لمن مضى من الأنبياء، وبالحاضرين مع موسى، وبالذين أخبر الله موسى أنه يبعثهم من ولد يعقوب وإسماعيل، ولذلك ذكر الأنبياء بلفظ الجمع مع تنكير التكثير.[٤٤٧]

﴿**وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا**﴾؛ لأنه ملّكهم بعد فرعون مُلكَه، وبعد الجبابرة ملكهم، ولأن الملوك تكاثروا فيهم تكاثر الأنبياء. وقيل: كانوا مملوكين في أيدي القبط، فأنقذهم الله فسُمِّي إنقاذُهم ملكًا.[٤٤٨]

فعلى هذا يكون المجاز في لفظ الملوك، وعلى الأول في الإثبات للكلّ، وإنّما كان للبعض، ولم يسلك في إثبات النبوة هذا المسلك؛ لأن أمرها خطيرٌ، وهذا على ما يقتضيه كلام المصنف.[٤٤٩]

وأمَّا قدس سره فلم يسلك مسلك أحد هذين المجازين، بل قدّر المضاف قبل ضمير الخطاب، أي: وجعل منكم أو فيكم ملوكًا،[٤٥٠]وهذا غير ملائم للنظم كما لا يخفى.

وقيل: كلّ من كان مشتغلًا بأمر نفسه ومعيشته، ولم يكن محتاجًا في مصالحه إلى أحد فهو ملك.

وقيل: كانوا أوَّل من مَلَك الخدم، ولم يَكُنْ قَبْلَهم خَدَمٌ.

وعنه عم: «كان بنو إسرائيل إذا كان لأحَدهم خَادِمٌ وامْرَأةٌ ودَابَّة يُكْتَبُ مَلِكًا».

وقال رجل لعبد الله بن عمرو: أَلَسْنَا فُقَراء المهَاجِرين؟ فقال لَهُ: «أَلَكَ امْرَأَةٌ تَأْوِي إِلَيْهَا؟ قال: نَعَمْ، قال: أَلَكَ مسْكَنٌ تسكنه؟ قال: نَعَمْ، قال: فأَنْتَ من الأَغْنِيَاء، قال: لِي خَادِمٌ، قال: فأنت من الملُوكِ».[٤٥١]

و﴿**مَا لَمْ يُؤْتِ**﴾ عام، وكذا ﴿**الْعَالَمِينَ**﴾، فلا بدَّ من تخصيص الأوَّل بالمعجزات المختصَّة بهم من فَلْق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنِّ والسَّلوى، ونحوها مما آتاهم أو الثاني: بعالمي زمانهم؛ لئلَّا يلزم تفضيلهم على جميع العالمين.

فإن قيل: لا نسلِّم أنه لابد من تخصيص أحدهما؛ لئلا يلزم التفضيل المذكور، فإن إجراء كل واحدٍ منهما على عمومه لايستلزم تفضيلهم على أنَّه من الأمم فضلًا عن سائر الأمم؛ لجواز أن يؤتوا جميع ما لم يؤت أحدٌ من الناس، وقد أوتي الأحد أضعاف ما أوتوا.

أجيب: بأن سوق مثل هذا الكلام لا يكون إلا للتفضيل والتخصيص تقول: أعطاني السلطان ما لم يعط أحدًا، ومعناه: التفضيل على الكل؛ فإن كان المعطي عامًا فعلى العموم، وإن خاصًّا فعلى الخصوص، ولو كان الكلام على ظاهره لم يكن امتنانًا لجواز أن يؤتيهم من الفضائل والفواضل ما لم يؤت أحدًا من الناس، ويؤتى كلًا من الآحاد أضعاف ما آتاهم.[٤٥٢]

أمر الله بني إسرائيلَ على لسان نبيِّهم [**٤٥**/و] أن يذكروا نعمَه، وأمر هذه الأمة بخطاب نفسه؛ بأن يذكروه، وجعل جزاء هؤلاء ثوابه الذي هو فعلُه، وجعل جزاء هؤلاء ذكرَه الذي هو قوله.

والْمَلِكُ من المخلوقين: مَن عبد الملكَ الحقيقيَّ. والملكُ: مَنْ ملك هواه، والمملوكُ مَن هو في رِقِّ شهواته ومُناه.

---

٤٤٧ **مفاتيح الغيب** للرازي، ٢٠٠/١١؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٦٧/٧؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٩/١.

٤٤٨ **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٧/١.

٤٤٩ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٣ظ.

٤٥٠ **أنوار التنزيل** للبيضاوي ، ٤٢٩/١.

٤٥١ **اللباب** لابن عادل، ٢٦٧/٧.

٤٥٢ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٣ظ.

والملك: من لم يحتج إلى الأمثال، ولم يحجب عن الله بالأشغال، وسهَّل السَّبيل إليه في كلّ الأحوال.

وقد أغنى بني إسرائيل بمقتضى جوده، وأغنى هذه الأمة بوجوده، والاكتفاء بوجوده أتم الاستغناء لجوده.[٤٥٣]

﴿يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١)﴾

أرضَ بيت المقدس، سُمِّيت بذلك؛ لأنها كانت قرار الأنبياء، ومسكن المؤمنين،[٤٥٤] وردَّ هذا التعليل بأن تلك الأرض التي أمرهم موسى بدخولها ما كانت مقدسة عن الشرك، وما كانت مقرًّا للأنبياء حين قال لهم: اُدْخُلُوا، فالتعليل بأنها مطهَّرة عن الآفات، وأجيب بأنها كانت كذلك فيما قبل،[٤٥٥] أو أنه تع عبَّر عنها بذلك باعتبار التقدير الإلهي، أو باعتبار المآل.

وقيل: الطُّور وما حوله. وقيل: دمشقَ وفلسطينَ وبعض الأردُنِّ. وقيل: الشام.[٤٥٦]

﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قسمها لكم وسمَّاها، أو كتب في اللَّوح أنها تكون مسكنًا لكم، ويؤيد الأوَّل ما روي: أنه صعد إبراهيم جبل لبنان فقيل له: انظر بما أدركه بصرك وهو مقدس، وهو ميراث لذريَّتك.[٤٥٧]فيجوز أن يجعل مسماها على أصل معناه، وأن يكون بمعنى التعيين، فيكون كتب مجازًا عن التَّسمية بأحد المعنيين.

«**في الأساس**»: ومن المجاز: كُتب عليه كذا: قُضي عليه، وكتب الله الأجلَ والرِّزق، وكتب على عباده الطاعةَ، وعلى نفسه الرَّحمة، وهذا كتاب الله أي: قدَرُه،[٤٥٨]وعلى الوجه الثاني: يكون حقيقة.

واعلم أن المصنِّف حين عَّد الأقوال الأربعة في تفسير الأرض المقدسة، كان من حقِّه أن يفسِّرَ بعده معنى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ على الوجهين، لكن أوقع في البَيِّن قولًا يفهم منه ترجيحُ القول الأوَّل من الأحوال الأربعة، يشهد له قوله: «وكان بيت المقدس قرارَ الأنبياء»، وأولويَّةُ الوجه الأوَّل من الوجهين المذكورين في تفسير ﴿كَتَبَ اللهُ﴾ على ما ذكرنا يؤيِّده قوله:«سمَّاها الله لإبراهيم».[٤٥٩]

ثم لما ورد أن يقال: كيف يصحُّ هذا الوعد بالدخول، وقد قال تع: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة ٥/٢٦]؟

أجيب: بأن هذ الوعد كان مقيَّدًا بشرط الإجابة والطَّاعة، فلما خالفوا الشرط حرموها، وبأن الخطاب كان لبني إسرائيل، فقد وقع الفتح على أيدي أولاد هؤلاء، ودخلوها وتحقَّق الوعد فيهم.[٤٦٠] وبأن اللفظ وإن كان عامًا، لكن المراد الخصوص، فصار كأنه مكتوب على بعضهم، وحرام على بعضهم.[٤٦١]

---

[٤٥٣] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٢٥٩/١؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٤٩/٥.

[٤٥٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٩/١

[٤٥٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥٠٣/٣.

[٤٥٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٩/١

[٤٥٧] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٢٠١/١١؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٦٩/٧.

[٤٥٨] **أساس البلاغة** للزمخشري، «**كتب**»دار صادر، بيروت ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م.؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٢٣/٥.

[٤٥٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٢٤/٥.

[٤٦٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥٠٣/٣.

[٤٦١] **مفاتيح الغيب** للطيبي، ٢٠٢/١١.

فإنه روي: أن موسى، ويوشع بن نون، وكالب بن يوفنّا لم يموتوا في التيه، وخرجوا بأولاد من مات في التيه، وقاتلوا الجبارين يقهروهم، ودخلوا بلادهم، وبأنها «محرمة عليهم أربعين سنة» فيكون موقته.[٤٦٢]

﴿وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ﴾ الجار والمجرور حال من فاعل ﴿تَرْتَدُّوا﴾ أي: لا ترتدوا منقلبين، أو متعلّق بنفس الفعل قبله،[٤٦٣] أي: لا ترجعوا على أدباركم خوفًا من الجبابرة.[٤٦٤]

قيل: لَمَّا سمعوا حالهم من النُّقباء بَكَوْا وقالوا: ليتنا مِتنا بمصر، تعالوا نجعلْ علينا رأسًا ينصرف بنا إلى مصر، أو لا ترتدُّوا في دينكم بالعصيان، وعدم الوثوق على الله تع،[٤٦٥] ولأن موسى عليه السلام لَمَّا أخبر أن الله جعل تلك الأرض لهم، كان هذا وعدًا بأن الله ينصرهم عليهم، ولو لم يقطعوا بهذه النصرة، صاروا شاكّين في صدق موسى، فيصيروا كافرين بالنبوة والإلهيَّة، فعلى الأوَّل يكون الارتداد على الإدبار حقيقةً، وعلى الثاني مجازًا.

﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ ثواب الدارين مع الوصول إلى عقابهما.

وقيل: ترجعون إلى الذُّل. وقيل: تمزّقون في التيه، ولا تصلون إلى شيءٍ من مطالب الدنيا، ومنافع الآخرة.[٤٦٦]

وقوله: ﴿فَتَنقَلِبُوا﴾ يجزم عطفًا على فعل النهي، أو منصوب بإضمار «أن» بعد الفاء في جواب النهي.[٤٦٧]

و﴿خَٰسِرِينَ﴾ حال من فاعل ﴿تَنْقَلِبُوا﴾. نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر، ومن الانقلاب بالخسران والحرمان والخذلان.

﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣)﴾

الجبَّار: فعَّال من جَبَرَه على الأمر، بمعنى: أَجْبَرَه، وهو الذي يُجبر الناس على ما يريده.

قال الفرَّاء: لا أسمَع فعَّالًا من أفعل إلا في حرفين وهما: جبَّار من أجبر، ودرَّاك من أدرك.

وقيل: مأخوذٌ من قَولِهِم: نَخْلةٌ جَبَّارَةٌ، إذا كانت طَوِيلَةً مُرْتَفِعَةً لا تَصِلُ الأيْدِي إليها، يُقَال: رَجُلٌ جَبَّارٌ، إذا كان طَوِيلًا عَظِيمًا قويًّا تَشْبِيهًا بالجبَّار مِن النَّخْلِ، والقَوْم كانوا في غاية القُوَّة وعِظَمِ الإجْسَامِ، بِحَيْثُ ما كَانَ أيْدِي قوم موسى تَصِلُ إليهم، فَسَموهم جبَّارِين لِهذَا المعنى [٤٥/ظ].[٤٦٨]

﴿وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ بغير قتالٍ، فيسلِّموها لنا ﴿فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ أي: سلِّموها لنا طائعين، أي: بغير قتالٍ.

---

[٤٦٢] **مفاتيح الغيب** للطيبي، ٢٠٢/١١؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٧٢/٧؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥٠٣/٣.

[٤٦٣] **الدر المصون** للسمين الحلبي، ٢٣١/٤؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٧٠/٧.

[٤٦٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٩/١

[٤٦٥] **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٨/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٩/١.

[٤٦٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٢٩/١.

[٤٦٧] **اللباب** لابن عادل، ٢٧٠/٧.

[٤٦٨] **اللباب** لابن عادل، ٢٧٠/٧-٢٧١.

﴿**فإنَّا دَاخِلُونَ**﴾ بلادهم وأرضهم، فحذف المفعول للدلالة عليه. قالوا ذلك خوفًا منهم، وجبنًا لما سمعوا من النُّقباء الذين رأوهم عظمهم وقوّتهم، ولم يعتمدوا على وعد الله وحوله؛ فلذلك أخذوا به.

و﴿**قَالَ رَجُلَانِ**﴾ كالِبُ ويوشَعُ ﴿**مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ**﴾ في محل الرفع صفة لـ﴿**رَجُلَانِ**﴾، ومَفْعُول ﴿**يَخَافُونَ**﴾ محذوفٌ أي: «يَخَافُون الله»، أو يخافُون العَدُوّ ولكن ثَبَّتَهُمَا اللَّهُ تعالى بالإيمَان والثِّقَةِ به، حتى قَالُوا هَذِه المقَالة، ويُؤيّد التَّقْدير الأوّل قِرَاءة ابْن مَسْعُود «يَخَافُون الله».[٤٦٩]

﴿**أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا**﴾ صفة ثانية فمحلها الرَّفع، وجيء هنا بأفصح الاستعمالين من كونه قدَّم الوصف بالجارّ على الوصف بالجملة لقربه من المفرد، أو معترضة، أو حالٌ من الضمير في ﴿**يَخَافُونَ**﴾، أو من ﴿**رَجُلَانِ**﴾، وجاء الحال من النّكرة؛ لتَخصُّصها بالوصف، أو من الضمير المستتر في الجارّ والمجرور، وهو ﴿**مِنَ ٱلَّذِينَ**﴾ لوقوعه صفةً لموصوف، فإن جعلتها حالًا فلا بدَّ من إضمار «قد» مع الماضي على الخلاف.[٤٧٠]

وقيل: كان الرجلان من الجبابرة أسلما وصارا إلى موسى، فعلى هذا يكون الضمير المرفوع في ﴿**يَخَافُونَ**﴾، راجعًا إلى بني إسرائيل، ويكون المفعول المقدّر ضميرًا راجعًا إلى الموصول، والتقدير: رجلان من الَّذين يخافهم بني إسرائيل.[٤٧١] فعلى هذا يجوز أيضًا أن يكون التقدير: يَخَافُون الله، أو يخافُون العَدُوّ إلَّا أن الأوّل أَنسبُ.[٤٧٢]

وأيَّد هذا القول قراءة من قرأ: «مِنَ الَّذِينَ يُخَافُونَ»[٤٧٣] مبنيًا للمفعول، أي: المخُوفِينَ الذين يخافهم بنو إسرائيل وهم الجبارون، فهٰذه القراءة تؤيِّد كون «واو» يخافون في قراءة الفتح لبني إسرائيل؛ للقطع بأن المخُوفِينَ هم الجبابرة، والخائفون بنوا إسرائيل، فيتوافق القراءتان بخلاف ما إذا جعل «الواو» للموصول، وكان المعنى: رجلان من الخائفين، فإنه لا يوافق رجلان من المخُوفين، وكذلك «أنعم الله عليهما» إنما يظهر كمال فائدته في حقِّ الذين يكونان من الجبابرة، فأنعم الله عليهما ووفّقهما للإيمان.[٤٧٤] وأمَّا الخائفون المتقون فكلّهم قد أنعم الله عليهم لا اختصاص، اللَّهم إلا أن يراد الإنعام بالتوفيق للثَّبات على الحقِّ، والامتثال للأمر والتشجيع للقوم، والتحريض على متابعة النّبي.[٤٧٥]

وهذا التأييد إنما يكون على تقدير أن يكون يخافون مجهول «يُخَافُ» الثلاثي، وأمَّا على تقدير أن يكون مجهول «يخيف» من الإضافة فيحتمل أن يكونوا بني إسرائيل؛ لأنهم يخوّفون بالموعظة والجبابرة؛ لأنهم يخوفون بأليم العقاب فلا تأييد فيه على هذا الوجه الأوَّل كما توهّم.

وتحتمل القراءة أيضًا وجهًا آخر، وهو: أن يكون المعنى: يُخَافُونَ، أي: يُهَابُون ويُوَقَّرون، ويُرجع إليهم لفَضْلهم وخيرهم. وقد يقال: فبالاحتمالين الأخيرين، لا ترجيحَ فيها للوجه الثاني أيضًا.[٤٧٦]

---

[٤٦٩] قراءة شاذّة، مروية عن عبد الله ابن مسعود. **اللباب** لابن عادل، ٢٧٢/٧.

[٤٧٠] **الدر المصون** للسمين الحلبي، ٢٣٤/٤؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٧٣/٧.

[٤٧١] ج – ويكون المفعول المقدّر ضميرًا راجعًا إلى الموصول، والتقدير: رجلان من الَّذين يخافهم بني إسرائيل.

[٤٧٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥٠٥/٣.

[٤٧٣] **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٨/١؛ ا **اللباب** لابن عادل، ٢٧٣/٧.

[٤٧٤] ج + المنفون.

[٤٧٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٤و؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥٠٥/٣.

[٤٧٦] **اللباب** لابن عادل، ٢٧٣/٧.

﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

مقول الرجلين المذكورين يعنون: باب قريتهم، أي: باغِتوهم وضاغطوهم في المضيق، وامنعوهم من الإصحار،[٤٧٧] أي: ادخلوا عليهم بغتةً، أي: فجأةً، والمباغتة: المفاجأة من البغت، وهو: أن يفجأك الشيء، ويقال: بَغَته، أي: فاجأه، والمضاغطة: المزاحمة، يقال: ضغَطه بضغَطه ضغطًا، أي: زحمه إلى حائطٍ ونحوه ومنه: ضغطة القبر. والإصحار: الدخول في الصحراء، يقال: أصحر القوم إذا دخلوا في الصحراء، نحو: أصبح القوم.[٤٧٨]

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ لتعسّر الكرّ عليهم في المضائق، ومن عظم إجرامهم، ولأنهم أجسام لا قلوب فيها. فيكون علمُهما بالغلبة عليهم[٤٧٩] إذا دخلوا الباب من الفراسة، ومقتضى العادة المتفرِّعة على علمهم بعظم أجسامهم، فإن العظام الجسام إذا قاتلوا مع الصغار بدون الإصحار تكون الغلبة للصغار، لتعسّر الفرار والكرّ على الكبار في المضائق، ويجوز أن يكون علمهما بذلك من أخبار موسى عليه السلام.

وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ لأنهما كانا جازمين بنبوّته، وقد أخبرهم بأن الله قال: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة٥/ ٢١] قطعًا بأن النُّصرة لهم والغلبة إنما يكون من جانبهم، أو مِمَّا عَلِمَا من عادته تعالى ونصرة رسله، وما عاهدا من صنيعه لموسى عليه السلام في قهر أعدائه.[٤٨٠]

فبالغا في الوعد بالنصرة والظفر، كأنه قال: متى دخلتم باب بلدهم انهزموا، ولا يبقى منهم نافخ نار ولا ساكن دار فلم يخافوهم. ولذلك ختما كلامهما بقولهما: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ يعني: لَمَّا وعدكم النَّصر، فلا ينبغي أن يكونوا خائفين من شدَّة بطشهم وعظم أجسامهم وضخامة أجرامهم، بل توكَّلوا على الله في حصول هذا النصر لكم إن كنت مؤمنين بوجود الإله القادر، وبصحَّة نبوَّة موسى عليه السلام؛[٤٨١]فإن الإيمان بالله يوجب الثقة بوعد الله، والاعتماد على نصر الله والائتمار بأمر الله،[٤٨٢] وأن الإيمان بنبيّه يقتضي طاعته، والجهاد معه والاطمئنان بما أخبر.

وقال بعض العارفين: في قوله: ﴿يَخَافُونَ﴾ أي: يخافون من الله فراقه، وتذوبون في جلاله وعظمته وميثاقه ﴿الَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا﴾ بأن لا يخافا غير الله، ويتوكَّلا [٤٦/و] على الله، وفي قوله: ﴿أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا﴾ زيادة النعمة عليهما أن الله عصمهما من جريان الخواطر المذمومة على قلوبهم، وأنه تع أدخلهما في باب عظمته وأنوار معيته.

وقال سهل: أنعم الله عليهما بالعصمة والمراقبة.

وقال الأستاذ: أنعم الله عليهما بأنوار العرفان، فلم يحتشما من المخلوقين.

وفي قوله: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا﴾: كونوا على رجائي في وقت إياسكم، وثقوا بمحبتي لكم، ولا تفزعوا إن امتحاني إياكم؛ لأني لا أقطع حبل الوصال عنكم، ولا أنزع ثياب عصمتي عنكم، إن كنتم عارفين بي تصدقون قولي توكّلوا عليّ عند مباشرة قهري إياكم ، فأنا اللطيف لأوليائي الرحيم بأصفيائي.

---

[٤٧٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٠/١.

[٤٧٨] **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٥٠٦/٣.**

[٤٧٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٠/١.

[٤٨٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٠/١.

[٤٨١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٥٠٥/٣.**

[٤٨٢] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٥٣/٥.

قال شقيق: التّوكل طمأنينة القلب بموعود الله.

وقال سهل: التوكل طرح البدن في العبودية ، وتعلُّق القلب بالربوبية.

قال الواسطي: من توكّل على الله بعلّة غير الله فليس بمتوكّل على الله، جعله سببًا إلى مقصوده، وفي ذلك قلّة المعرفة بربّه.[٤٨٣]

﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)﴾

نفيٌ لدخولهم في المستقبل على وجه التأكيد المؤيس، و﴿**أَبَدًا**﴾: تعليقٌ للنّفي المؤكّد بالدّهر المتطاول، و﴿**مَا دَامُوا فِيهَا**﴾ بيان للأبد.[٤٨٤] يعني: أنهم لا يدخلوا البتّة، وأمّا إن ذلك يكون دائمًا، أو في زمانٍ قليل أو كثيرٍ فلا دلالة فعلّق بـ﴿**أَبَدًا**﴾ دلالةً على كونه في دهر متطاول لا أبد الأبدين على ما هو الظاهر من التأبيد لدلالة البيان، أعني: ما داموا فيها على ذلك،[٤٨٥] وكونه بيانًا له إمّا بأن يكون بدل كل من كل، فإنه بيان للأوّل وإيضاح، وإمَّا بأن يكون بدل بعض من كل؛ لأن بدل البعض من الكُلِّ مُبَيِّنٌ للمراد نحو: «أكلتُ الرَّغيف ثلُثَه»، وإمَّا أن يكون عطفَ بيانٍ، والعطف قد يكون بعد النكرتين.[٤٨٦]

و﴿**مَا**﴾ مصدرية ظرفية، و﴿**دَامُواْ**﴾ صلتها وهو «دام» الناقصة، وخبرها الجارُّ بعدها ﴿**وَرَبُّكَ**﴾ مرفوع عطفًا على الفاعل المستتر في «اذْهَبْ»، وجاز ذلك للتأكيد بالضمير، أو بفعل محذوف، أي: يذهب ربك، ويكون من عطفه الجمل، وقد تقدّم هذا القول والرّد عليه، ومخالفته لنصِّ سيبويه عند قوله: ﴿**اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ**﴾ [البقرة ٢/٣٥]، أو مبتدأ، والخبر محذوف، و«الواو» للحال، أو «الواو» للعطف، وما بعدها مبتدأ محذوف الخبر أيضًا، ولا محل لهذه الجملة لكونها دعاءً، والتقدير: وربُّك يعينك.

و﴿**هُنَا**﴾ وحده هو الظَّرف المكاني الذي لا ينصرف إلا بجرِّه بـ«من» و«الى»، و﴿**ها**﴾ للتنبيه كسائر أسماء الإشارة، وعامله ﴿**قَاعِدُونَ**﴾، وقد أجيز أن يكون هو خبر «إنَّ» و﴿**قَاعِدُونَ**﴾، خبرٌ ثانٍ وهو بعيد. وفي غير القرآن إذا اجتمع ظرف يصحُّ الخبرية مع وصف آخر، يجوز أن يُجعل الظرف خبرًا، والوصف حالًا، وأن يكون الخبرُ الوصفَ، والظرفُ منصوب به كهذه الآية.[٤٨٧]

ولَمَّا ورد أن يقال: ما وجه قولهم: بذهاب الرَّب معه عليه السلام أجاب عنه المصنف أولاً: «بأنهم لم يقصدوا حقيقة الذهاب، ولكن كما تقول: كَلَّمْتُه فذهب يجيبني؛ تريد: معنى الإرادة للجواب، كأنهم قالوا: أريدا قتالهم.

وثانيًا: بأنهم قالوا ذلك استهانةً بالله ورسوله وقلَّة مُبالاةٍ بهما واستهزاءً، وقصدوا ذهابَهما حقيقةً بجهلهم وجفائهم وقسوة قلوبهم التي عبدوا بها العجل، وسألوا رؤية الله جهرةً، والدَّليل عليه مُقابلة ذَهابهما بقعودهم».[٤٨٨] حيث قالوا: ﴿إِنَّا هُهُنَا قُعِدُونَ﴾ فإن التَّقييد بـ«ههنا» يشعر بأنَّ المراد حقيقة القعود ولا القعود عن القتال والامتناع عنه، والمناسب في مقام إظهار

---

[٤٨٣] **عرائس البيان** للبقلي، ٣٠٨/١-٣٠٩.

[٤٨٤] **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٨/١.

[٤٨٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٤و؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥٠٥/٣.

[٤٨٦] **اللباب** لابن عادل، ٢٧٤/٧.

[٤٨٧] **الدر المصون** للسمين الحلبي، ٢٣٣/٤-٢٣٤؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٧٣,٧/٧/٢٧٤-٢٧٥.

[٤٨٨] **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٨/١.

المخالفة تقابل الجالس، ولا يعني بالدَّلالة في أمثال هذه المواضع سوى التَّرجيح بأمثال هذه المرجحات،[٤٨٩]ولعل هذا الجواب غير الجواب الذي ذكره الإمام بقوله: «لعل القوم كانوا مجسمة، يجوِّزون الذهاب والمجيء عليه تع».[٤٩٠]

فإن مبنى ذلك اعتقاد الجسمية وجواز المجيء والذهاب، فيرد عليه أنهم لو قالوا ذلك اعتقادًا لَكفروا به،وحاربهم موسى ولم يكن مقاتلة الجبارين أولى حينئذ من مقاتلة هؤلاء، ومبنى هذا العناد والعتوّ، وطلب ما ليس في اعتقادهم تمرّدًا ومخالفة، ولذلك خرَّ موسى وهارون لوجوههما قدامهم لشدة ما ورد عليهما فهمُّوا برجمهما، ولأمر ما قرن الله اليهود بالمشركين وقدمهم عليهم في قوله: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾ [المائدة ٥/٨٢]. وقال قدس سره: بعد ما لخّص جواب المصنف.وقيل: تقديره: اذهب وربك يعينك.وقال غيره: أرادوا بالربِّ هارون؛ وكان أكبرَ من موسى، وكان موسى يُطيعه.[٤٩١] وبالجملة هذا القول منهم فسقٌ شنيعٌ استحقُّوا به المؤاخذة على ما سيجي.

﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥)**﴾

قاله شكوى بثّه وحُزنه إلى الله، وحسرة ورقّة على طريقة استجلاب الرَّحمة، واستنزال النصرة لما خالفه قومُه، وأيس منهم،[٤٩٢] وليس القصد إلى الإخبار، وكذا كلّ خبر يخاطب به علّام الغيوب يقصد به معنى مناسب سوى إفادة الحكم أو لازمه،[٤٩٣] كما روي [**٤٦**/ظ] عن علي رضي الله عنه:«أنه كان يدعو الناس على منبر الكوفة إلى قتال البُغاة، فما أجابه إلا رجلان، فتنفَّس الصُّعداء ودعا لهما»، وقال أين تقعان مما أريد![٤٩٤] فإنه ليس لقصد معنى الاستفهام، ولا للدَّلالة على أنكما لا تكفيان، بل للبث والحزن ونحو ذلك،[٤٩٥] ولما ورد أن يقال: لِمَ لم يذكر مع أخيه الرجلين مع أنهما وافقاه؟

أجاب عنه العلّامتان[٤٩٦] بوجوه الأول: أنه لم يثق بهما لما كابد من تلوّن قومه فصح القصر على أخيه، الثاني: أنه لم يكن القصد إلى القصر على أخيه، بل إلى بيان[٤٩٧] قلة من يوافقه تشبيهًا لحاله بحال مَن لا يملك إلا نفسه وأخاه، الثالث: أنه أريد بأخي جنس من يواخيه في الدين، فيتناول هارون والرجلين.[٤٩٨]

﴿**وَأَخِي**﴾ نصبٌ عطفًا على ﴿**نَفْسِي**﴾، أي: ولا أملك إلا أخي، أو على اسم «إنَّ» بحذف الخبر لدلالة خبر المعطوف عليه، أي: وإن أخي لا يملك إلا نفسَه، أو رفع عطفًا على المستكنِّ في ﴿**لَا أَمْلِكُ**﴾: ولا يملك أخي إلا نفسَه.[٤٩٩]

وجاز العطف على الضمير المرفوع المتَّصل بلا تأكيد لوجود الفصل بالمفعول كما تقول: ضربت زيدًا وعمروًا، ثم هذا لا يوجب الاتّحاد في المفعول، بل يُقدّر للمعطوف مفعولٌ آخر، أي: وأخي إلا نفسه، كما تقول: ضربت زيدًا وعمرًا وبكرًا،

---

[٤٨٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٤و.

[٤٩٠] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٢٠٤/١١.

[٤٩١] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤٠٠/٧.

[٤٩٢] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٩/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٠/١.

[٤٩٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٤و.

[٤٩٤] **الكشاف** للزمخشري، ٦٠٩/١.

[٤٩٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٤و.

[٤٩٦] **الزمخشري**، البيضاوي.

[٤٩٧] ج – بيان.

[٤٩٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٤و

[٤٩٩] **اللباب** لابن عادل، ٢٧٥/٧-٢٧٦.

وتحقيقه أن العطف على معمول الفعل لا يقتضي إلا المشاركة في مدلول ذلك، ومفهومه الكلي لا الشخص المعيَّن بمتعلقاته المخصوصة فإن ذلك إلى القرائن.[٥٠٠]

أو على محل «إن» مع اسمها، فإنَّ المكسورة لَما لم تغير معنى الجملة كان اسمها المنصوب في محل الرَّفع بالابتداء؛ لأن فائدتها ليست إلا التأكيد، فكانت في حكم المعدوم، فكما يجوز العطف على المبتدأ بالرفع، نحو: زيد قائم وعمرو، فكذا العطف على محل اسم «إن»، والمفتوحة لما كانت مع ما في حيّزها في حكم المفرد مرفوع أو منصوب أو مجرور بغير معنى الجملة بها، فكان اسمها كبعض حروف الكلمة فلم يجز العطف على محل اسمها، وشرط في جواز العطف على محلِّ المكسورة مضي الخبر لفظًا أو تقديرًا خلافًا للكوفيين، وقد تقدّم الخبر في الآية لفظًا، فجاز العطف على محلِّ اسم «إن» بلا خلاف.

وعبارة بعضهم جاز العطف على محلِّ اسم المكسورة ومبناها أنّ الاسم هو الذي كان مرفوعًا قبل دخول «إن» فدخولها عليه كَلًا دخول فبقي على رفعه محلًّا لاشتغل لفظه بالنصب، وعبارة بعضهم على محلِّ «إن» واسمها ومبناها إن اسمها لو كان وحده مرفوع المحلِّ لَكان وحده مبتدأ وليس كذلك؛ لأن المبتدأ يجب تجرُّده عن العوامل اللفظية، واسمها ليس بمجرّد فلا يقال: أنه مرفوع المحلّ على الابتداء، بل المرفوع عليه هو أن مع اسمها، أو جرّ عطفًا على ياء المتكلم في ﴿نَفْسِي﴾، أي: لا أملك إلا نفسي ونفس أخي؛ والضمير المجرور لا يعطف عليه عند البصريين إلا بإعادة الخافض نحو: مررت بك وبزيد.

﴿وَبَيْنَ﴾ ظرف لقوله: ﴿فَافْرُقْ﴾ وحقها أن لا تكرَّر في المعطوف، تقول: المال بين زيدٍ وعمروٍ لا و بين عمرو، فالتكرير للاحتياج إلى إعادة الخافض في العطف على المجرور وهو يؤيّد مذهب البصريين،[٥٠١]

﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا﴾ وبينهم، بأن تحكم لنا بما نستحقُّ، وتَحكم عليهم بما يستحقون، وهو في معنى الدُّعاء؛ فذلك وصل ما بعده عليه بالفاء،أو: باعد بيننا وبينهم، وخلِّصنا من صحبتهم،[٥٠٢] فالفرق على هذا مكاني، وعلى الأول حكمي، ومبنى الوجهين على أنَّ موسى هل كان معهم في التيه أم لا.[٥٠٣] وإظهار الفاسقين لتعليل الحكم، وإخراج من لم يفرق منه.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾

عامل الظرف إمَّا ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾ فيكون التحريم مؤقّتًا غير مؤبّدٍ، فلا يخالف ظاهر قوله: ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة، ٥/٢١] ويؤيّدهما روي: أن موسى سار بعده بمن بقي من بني إسرائيل، ففتح أريحاءَ وأقام فيها ما شاء الله، ثم قُبض.

وقيل: إنه قُبض في التيه. ولما احتضر أخبرهم بأن يوشع بعده نبيّ، وأن الله أمره بقتال الجبابرة فسار بهم يوشع، وقتل الجبابرة وصار الشام كلّها لبني إسرائيل.[٥٠٤]

فعلى هذا ﴿يَتِيهُونَ﴾ مستأنف، أو حال من الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾، وأما ﴿يَتِيهُونَ﴾ أي: يسيرون فيها متحيّرين لا يرون[٥٠٥] طريقًا فيكون قد قيّد التيه بالأربعين ، وأما التَّحريم فمطلقٌ، فيحتمل أن يكون مستَمرًّا، وأن يكون متقطعًا، وأنها أجلَّت لهم.[٥٠٦]

---

[٥٠٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٤و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٢٢٧/٣.

[٥٠١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥٠٥/٣.

[٥٠٢] **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٨/١.

[٥٠٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٤ظ.

[٥٠٤] **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٨/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٠/١؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٧٧/٢٧٦/٧.

[٥٠٥] ج + له.

وقد قيل: بكلٍّ من الاحتمالين، وقد قيل: لم يدخل الأرض المقدسة أحد ممن قال: ﴿**إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ**﴾، بل هلكوا في التيه، وإنما قاتل الجبابرة أولادهم.

والتِّيه: الحَيْرة، ومنه: «أرضٌ تَيْهَاءُ» لحَيرة سَالكها وعدم اهتدائه فيها إلى السبيل، ومقدار أرض التيه ستةُ فراسخ، أو تسع فراسخ في ثلاثين فرسخًا، أو ستة فراسخ في اثني عشر، والقدم ستمائة ألف فارس.[٥٠٧]

روي: أنهم لبثوا أربعين سنة يسيرون من الصباح إلى المساء، فإذا هم بحيث ارتحلوا عنه، وكان الغمام يظلّهم من الشمس وعمودٌ من نور يطلُع بالليل، فيُضيء لهم، وكان طعامهم المن والسلوى، وماءهم من الحجر الذي يحملونه.[٥٠٨]

فإن قيل: كيف يعقل بقاء الجمع العظيم في المفازة الصغيرة أربعين سنةً [**٤٧**/و] بحيث لا يتَّفق لأحدهم أن يجد طريقًا إلى الخروج عنها؟ ولو أنهم وضعوا أعينهم على حركة الشمس لخرجوا منها ولو كانوا في البحر العظيم، فكيف بالمفازة الصغيرة؟

قلنا: ما يخرق العادة في زمان الأنبياء غير عزير، ولو فتح باب الاستبعاد لزم الطعن في المعجزات، ويحتمل أن يكون التحريم تحريم تعبد بأن تحرم عليهم الرجوع إلى أوطانهم، ويأمرهم بالمكث فيها جزاء لهم على سوء فعلهم.[٥٠٩]

فقيل: إن موسى وهارون ما كانا معهم في التيه؛ لأنه دعا أن يفرق بينه وبين الفاسقين، ودعوة الأنبياء مستجابة، ولأن ذلك المكث كان عذابًا لمن تمرد، والأنبياء لا يعصون ولا يعذبون، والصحيح: أنهما كانا معهم إلا أنه تع سهل عليهما ذلك العذاب بما سهل على إبراهيم النار، فجعلها عليه بردًا وسلامًا، وكان ذلك روحًا لهما، ورفعة لدرجتهما وعقوبة لهم، وأنهما ماتا فيه، مات هارون، وموسى بعدَه بسنةٍ، وكان عمر موسى مائةً وعشرين سنة.

روي: أنَّ يوشع بن نون رأى موسى بعد موته في المنام، فقال لله: كيف وجدتَ الموتَ؟ فقال: كشاةٍ تُسلخ وهي حيَّة،[٥١٠] ثم دخل يوشع وأريحا بعد ثلاثة أشهر ومات النقباء فيه بغتةً غيرَ كالب ويوشع.[٥١١]

وقيل: بل بقي موسى وفتح أريحاء، وقابل، ولما دعا موسى على بني إسرائيل أخبره الله تعالى بأحوال التيه، ثم إن موسى أخبر قومه بذلك، فقالوا له دعوت علينا، فندم موسى على ما فعل فأوحي إليه.

﴿**فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ**﴾ أي: فلا تحزن عليهم بما أصابهم، فإنهم فاسقون مستحقون لذلك، ويحتمل أن يكون الخطاب لرسولنا عم بعد ما حكي له مؤاخذتهم بالتيه.

والأسى: الحزن، يقال: أَسِيَ-بكسر العين- يَأْسَى، بفتحها، ولام الكلمة تحتمل أن تكون واوًا، لقولهم: « رجل أَسْوان» يريد «سَكْران»، أي: كثيرُ الحزن، وقلبت الواو في «أَسِيَ» ياءً لإنكسار ما قبلها، ويُحتمل أن تكون ياءً؛ لما حكي أنه يقال: «رجل أسيان» أي: كثير الحزن، وتثنية «الأسى» على الأوّل «أسوان»، وعلى الثاني: «أسيان».[٥١٢]

---

[٥٠٦] **الدر المصون** للسمين الحلبي، ٢٣٦/٤؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٢٧٧/٧.

[٥٠٧] **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٢٧٧/٧-٢٧٨.

[٥٠٨] **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٨/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٠/١.

[٥٠٩] **مفاتيح الغيب** للرازي ٢٠٧/١١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٥٠٩/٣.**

[٥١٠] **الجامع لأحكام القرآن، ٤٠٨/٧.**

[٥١١] **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٨/١. **مفاتيح الغيب** للرازي ٢٠٦/١١.

[٥١٢] **الدر المصون** للسمين الحلبي، ٢٣٧/٤؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٢٨٠/٧

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩)فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)﴾

إن حوَّاء كانت تلد لآدم في كلِّ بطنٍ غلامًا وجاريةً، وكان جميع ما ولدته أربعين ولدًا في عشرين بطنًا؛ أوّلهم قابيل وتوأمته إقليما، وآخرُهم عبدُ المغيثِ وتوأمته أمة المغيث ثم بورك في نسله عم.

وقيل: لم يمت حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفًا.

وقيل: غشي آدم وحوّاء بعد مهبطهما بمائة سنة، فولدت له قابيل وتوأمته إقليما، ثم هابيل وتوأمته ليودا.

وقيل: غشي حواء في الجنة، فحملت بقابيل وتوأمته، ولم تجد ما تجده النساء من الطلق والدم، فلمَّا هبطا غشيها فحملت بهابيل وتوأمته، فوجدت عليهما ما تجده بناتهما. فأمر آدمَ أن ينكح قابيل ليوذا أخت هابيل، وهابيل إقليما أخت قابيل، وكانت أحسن من أخت هابيل فسخط قابيل وقال: هي أختي ونحن أحقّ بها، ونحن من ولادة الجنة وهما من ولادة الأرض، فقال له أبوه: إنها لا تحلّ لك فأبى أن يقبل ذلك، وقال له: الله لم يأمر به وإنما هو من رأيه. فقال لهما آدم: فقرّبا قربانًا فأيُّكما يقبل قربانه فهو أحقّ بها، وكانت القرابين إذا كانت مقبولة نزلت نار من السماء فأكلتها، وإذا لم يقبل لم تنزل، وأكلتها الطير والسباع.[٥١٣]

قيل: ما كان في ذلك الوقت فقير يدفع إليه ما يتقرب به، فكانت علامة القبول نزول النار وأكله.

وقيل: هما رجلان من بني إسرائيل ضرب الله المثل بهما؛ لبيان أن التَّحاسد في بني إسرائيل قد بلغ مبلغًا على ما يدلُّ عليه القصة، وهؤلاء أولاد أولئك فلا يبعد ما وقع منهم في حبك. وسمّاهما ابني آدم، كما قال: يا بني آدم، ولذلك قال: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [المائدة ٣٢/٥]، وهذا وإن كان أقرب سباقًا وسياقًا، لكنه خلاف المأثور المشهور على ما ذكر.[٥١٤]

وفي «التَّقريب»:الباء في ﴿بِالْحَقِّ﴾، إمَّا للملابسة، أي: ملتبسًا بالحقِّ والصِّدق، وهو إمَّا صفة التلاوة، أو حالٌ من النَّبأ، أو عن فاعل «أُتْلُ»، وإما للسببية، أي: بالغرض الصحيح. وهذا تلخيص كلام المصنِّف! لكن ليس «الباء» في قوله: «بالغرض» للتسبيب، بل هي صلة «ملتبسًا»؛ لأن «بالغرض»: عطف بالواو، في الأصحِّ على «بالصِّدق»، يدلُّ عليه قوله: في «الأحقاف» في قوله: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلا بِالْحَقِّ﴾ [الأحقاف، ٣/٤٦]: «إلا خلقًّا ملتبسًا بالحكمة والغَرَض الصحيح». وقال في «**أساسه**»:[٥١٥] حقّ الله الأمر حقًّا: أثبته وأوجبه، وهذا قول حقّ، وأحقَّ الرَّجل: إذا قال حقًّا وادَّعاه، وهو محقٌّ غير مبطل، ومن المجاز: كلامٌ محقَّق: محكم النظم، فقوله: «أولاً تلاوةً ملتبسةً بالحقِّ» مبنيٌّ على المجاز؛ لأن ﴿بِالْحَقِّ﴾ حينئذ: صفة للتلاوة، ومن حقِّ التلاوة أن تكون على الصِّحة والاستحكام عُرْيًا عن الفساد، وقوله ثانيًا: «نبأً ملتبسًا بالصِّدق» مبنيٌّ على قوله: «هذا قولٌ حقّ»؛ لأن ﴿بِالْحَقِّ﴾ حينئذ: صفةٌ للنبأ، ومن حقِّ النبأ أن لا يتطرَّق إليه الكذب، بل يكون صدقًا مَحضًا، ومع ذلك لا يكون عبثًا، بل يكون لغرض صحيح، ونحوه قوله تع: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾ [آل عمران، ١٩١/٣]، أي: «ما خلقته خلقًا باطلًا بغير حكمة، بل خلقته [**٤٧**/ظ] لداعي حكمة عظيمة، وهو

---

[٥١٣] **معالم التنزيل** للبغوي،٤٢/٣.

[٥١٤] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٦٠/٥.

[٥١٥] **هو أساس البلاغة** للزمخشري.

أن تجعلها مساكن للمكلّفين أدلةً لمعرفتك. وقوله ثالثًا: «وأنت محقٌّ صادق» مبنيٌّ على قوله: أحقَّ الرجل: إذا قال حقًّا وادَّعاه، وهو محقٌّ غير مبطل؛ لأن ﴿بِالْحَقِّ﴾ حينئذ: صفة للتالي؛ لأن الحال في الحقيقة وصف، فينبغي للنبيِّ أن يكون صادقًا فيما يُنبئ عنه وأن يكون م ُحقًّا في نفسه، و لَمَّا كان أصل الحكمة من إيراد القصص في هذا الكتاب الكريم تسليةً للرسول وتهذيبًا للأُمَّة، والمشركون وأهل الكتاب كانوا يحسدونه، فجيء بهذه القصة المتضمِّنة لسوء مغبَّة الحاسد تقبيحًا لهم على حدسهم، وتصبيرًا للرسول صلى الله عليه وسلم من شر كيدهم وتسلية له.[٥١٦]

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾

نُصب بالنَّبأ؛ لأنه وإن كان هو الخبر ا لمتلوَّ المسموعَ، لكنه متضمِّن معنى الفعل، ومصدر في الأصل، أي: قصَّتهم وحديثهم في ذلك الوقت، أو حالٌ منه، أو بدل على تقدير حذف المضاف ليصحَّ كونه متلوًّا وإلا فمجرَّد الظرفية كاف في الإبدال لحصول الملابسة.

والقربان: اسمُ ما يُتقرَّب به من ذبيحة أو غيرها، كما أن الحُلْوَان: اسم لما يُحَلّى؛ أي: يُعطى.[٥١٧]

يقال: حلوتُ فلانًا على كذا ما لا إذا وهبتَ له شيئًا على ما فعل غير الأجرة، والكل في الصل مصدر، ولذا أطلق على المتعدّد، أي: قرَّبا قربانين، ويجوز أن يكون المعنى قرَّب كلٌ واحد منها قربانًا.[٥١٨]

يقال: «قرَّب صدقةً، وتقرَّب بها»؛ لأن «تَقَرَّب» مطاوع «قَرَّبَ».

قال الأصمعي: تقرَّبوا قِرْفَ القِمع،[٥١٩] وهو- بكسر القاف وسكون الميم وفتحها-: الإناء الذي يُجعل في رؤوس الظروف يُصبّ فيها الدهن ونحوه، «والقِرف» ما اجتمع عليه من الأوساخ بمنزلة قشر له ينادى بذلك الطّلاب الآخذين منه استخفافًا بهم واستحقارًا، أو مطايبةً واستدناء وتقريبًا وقت الأخذ والقراءة، أي: ادنوا مني بأوساخ القمع.[٥٢٠] فيُعَدَّى بالباء حتى يكون بمعنى قرَّب.[٥٢١]

﴿فَتُقُبِّلَ﴾: أي: القربان **﴿مِنْ أَحَدِهِمَا﴾** وهو هابيل لخلوص نيَّته وصفاء طويته، وصدق عزيمته، وجلّ همته، وجودة صدقته، والرضاء بحكمة ربه.

﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾وهو قابيل لانكدار نيَّته، وكذب عزيمته، وغلّ همته، ورداءة صدقته، والسخط لحكم ربه.

فقيل: كان قابيل صاحب زرع، فقَرَّب صبرة من طعام من أردأ زرعه وأضمر في نفسه –ما أبالي أتقبَّل مني أم لا- لايتزوج أختي أبدًا، وكان هابيل صاحبَ غنمٍ فعمد إلى أحسن كبشٍ في غنمه، فقرّب به وأضمر في نفسه رضا الله فوضعا قربانهما على الجبل، ثم دعا آدم فنزلت نارٌ من السَّماء وأكلت قربان هابيل ولم تأكل قربان قابيل.[٥٢٢]

---

[٥١٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٣٢/٥-٣٣٣.

[٥١٧] **الكشاف** للزمخشري، ٦١١/١.

[٥١٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٤ظ.

[٥١٩] **الكشاف** للزمخشري، ٦١١/١.

[٥٢٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٤ظ؛ **الإكليل على مدارك التنزيل**، ٣٣/٣.

[٥٢١] **الكشاف** للزمخشري، ٦١١/١.

[٥٢٢] **معالم التنزيل** للبغوي، ٣٢٠/٣.

وروي عن سعيد بن جبير وغيره: أنه نزلت نارٌ من السَّماء فاحتملت قربانَ هابيل ورفع بها إلى الجنة، فلم يزل يرعى فيها إلى أن فدى بها الذبيح عليه السلام، ولم يحتمل قربان قابيل.

وقيل: قرَّب قابيل سنبلًا من شرِّ زرعه، وهابيل قرّب حملًا سمينًا.[٥٢٣]

وقال السُّدِّيُّ: كان قابيل أكبرَ من هابيل، فأراد آدم الخروج إلى مكَّة، وطلب إلى السماء أن تحفظ عليه أهله وولده بأمانة الله تع فأبت، وطلب إلى الأرض فأبت، فطلب إلى الجبال فأبت، فقال قابيل: أنا أحفظهم عليك بأمانة الله، وذلك قوله: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ**﴾ [الأحزاب ٧٢/٣٣] الآيةَ، فانطلق آدم إلى مكَّة، وطاف بالبيت، وطلب هابيل قابيل أن يزوّجه أخته، قال له قابيل: أنا أكبر منك، وأنا وصيُّ أبي، فقال له قابيل: ما أنت خيرًا مني، فقال: فلنقرِّبْ قربانًا، فأيّنا تُقبّل قربانُه فهو خير من صاحبه، فقرَّبا فتُقبِّل قربان هابيل ولم يُتقبَّل قربان قابيل على ما مر بيانه.[٥٢٤]

وعن بعض العارفين: مَنْ لم يسبق له في الأزل عناية الله صار إحسانه إساءةً، وطاعته تؤول إلى المعصية.

كما قيل: مَنْ لم يكن للوصال أهلًا فكل إحسانه ذنوبٌ، قرَّب هابيل بقربان نفسه، وقرَّب قابيل لحظ نفسه بغيًا وحسدًا على من كان شرفًا بيد الله، فلا جرم حاله يؤل إلى الظلم الأكبر.[٥٢٥]

ويقال: القربان على وجوهٍ: قربان القبول لهابيل، وقربان الرَّدِّ لقابيل، وقربان القدر لعبد المطلب، وقربان الرحمة لجميع المسلمين. وقد رفع عن قرباتهم النار لئلا يهتك أستارهم، فكذا في الآخرة أولى أن لا يهتك، وقربان القهر والقدرة حتى بذبح المورس الجنة والنار.

﴿**قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾

توعَّد بالقتل لفرط الحسد، والبغض على تقبّل قربانه.[٥٢٦] وأصل الحسد كان من حكم التَّزوج بأختيه.

روي: أنه غضب لردِّ قربانه، فأضمر الحسد في نفسه لذلك إلى أن أتى آدم مكة لزيارة البيت، فلمَّا ذهب آدم أتى قابيلُ هابيلَ وهو في غنمه فقال: ﴿**لَأَقْتُلَنَّكَ**﴾، قال: ولِمَ؟! قال: لأن الله قَبِل قربانَك وردَّ قرباني، وتَنكحُ أختي الحسناء، وأَنْكحُ أختك الذميمة، فيتحدَّث الناس أنك خيرٌ منّي ويقولون إذا رأوك ورأوني: هذا مقبول القربان، وهذا مردوده، ويفتخر ولدُك على ولدي.[٥٢٧]

ولَمَّا ورد أن يقال: كيف كان قوله: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ**﴾ جوابًا لقوله: ﴿**لَأَقْتُلَنَّكَ**﴾؟

أجيب بأنه: لَمَّا كان الحسد لأخيه على تقبُّل قربانه هو الذي حَمَله على توعّده بالقتل، قال له: إنما أُوتيتَ من قِبَل نفسك لانسلاخها [**٤٨/و**] من لباس التَّقوى، لا من قِبلي، فلم تقتلني؟ وما لك لا تعاتب نفسك، ولا تحمِلُها على تقوى الله

---

[٥٢٣] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٦١/٥.

[٥٢٤] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٦٢/٥.

[٥٢٥] **عرائس البيان** للبقلي، ٣٠٩/١-٣١٠.

[٥٢٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٢/١.

[٥٢٧] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٦١/٥-٣٦٢.

التي هي السَّبب في القبول؟ فأجابه بكلامٍ حكيمٍ مختصرٍ جامعٍ لمعانٍ،[٥٢٨] أي: ذي حكمة، أو وصفٌ بصفة صاحبهِ كقوله:﴿**يس﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ**﴾ [يس، ٣٦/١-٢]، أي: هذا الجواب واردٌ على الأسلوب الحكيم.[٥٢٩]

وفيه إشارة إلى أن الحاسد ينبغي أن يرى حرمانه من تقصيره، ويجتهدَ في تحصيل ما به صار المحسود محظوظًا، لا في إزالة حظّه، فإن ذلك مما يضرُّه ولا ينفعه، وأن الطَّاعة لا تُقبل إلا من مؤمن تقيٍّ، مما أنعاه على أكثر العاملين أعمالهم![٥٣٠] أي: جعل قوله: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ باعتاد أعمالهم مفعول نعى يقال: نعى عليه ذنوبه، أي: أوضحها وأشهرها؛ إذ الأصل الآية: ناعيه على العاملين أعمالهم.[٥٣١]

وقد شرط في قبول العمل التقوى، كما قال: ﴿**لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ**﴾ [الحج ٢٢/ ٣٧] فأخبر أن الذي يقبله منكم التقوى، وهي من صفات القلوب؛ لقوله عم: «التَّقْوى هٰهُنَا»[٥٣٢] وأشار إلى القلب.

وحقيقة التقوى: أن يكون العامل على خوفٍ ووَجَلٍ من تقصير نفسه فيما أتى به من الطَّاعة، وأن يكون في غاية الاحتراز من أن يأتي بتلك الطاعة لغرض سوى مرضاة الله، وأن يكون فيه شركة لغير الله.[٥٣٣]

قال فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ: «لَأَنْ أكونَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ تَقَبَّلَ مِنِّي مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»؛ وتلا هذه الآية.

وقالوا: قُبِلَ قُربان هابيل لتعظيمه، ورُدّ قربان قابيل لتحقيره، وما ينبغي لأحد أنه يترك تعظيم الله فيما يتقرَّب به إليه، قال تع: ﴿**وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ**﴾ [الحج ٢٢/٣٢] اجتمع في قابيل عقوقُ الأب، وحسدُ الأخ، وتحقير القربان، والتأخير في الائتمار، فأفضى ذلك إلى ردِّ الأمر والوقوع في الكفر، وكذلك إيثار المعاصي والإصرارُ عليها والاستهانة بها.[٥٣٤]

وقال ممشاد الدينوري: كان معصية آدم من الحرص، ومصية إبليس من الكبر، ومعصية ابن آدم من الحسد، والحرص يوجب الحرمان، والكبر يوجب الإهانة، والحسد يوجب الخذلان.

وقال عارف: المتقي: هو المتجرد في التوحيد بالموحد من غير الموحد.

وقال سهل: التقوى والإخلاص محل القبول لأعمال الجوارح.

وقال سلامي: القرابين مختلفةٌ، وأقرب القرابين ما وعد الله: ﴿**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾ [العلق ٩٦/١٩].

وقال آخر: المتقون المخلصون فيما يقولون ويعملون.[٥٣٥]

---

[٥٢٨] **الكشاف** للزمخشري، ٦١١/١.

[٥٢٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٣٤/٥.

[٥٣٠] **الكشاف** للزمخشري، ٦١٢/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٢/١.

[٥٣١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٣٤/٥؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٤ظ.

[٥٣٢] **صحيح مسلم**، ١٩٨٦/٤ (٢٥٦٤).

[٥٣٣] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٢١١/١١؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٨٧/٥.

[٥٣٤] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٦٣/٥.

[٥٣٥] **حقائق التفسير** للسلمي، ١٧٦/١؛ **عرائس البيان** للبقلي، ٣١٠/١.

وعن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر: التقوى في الأحوال، والأحوال في الأفعال كالروح في الأبدان، والأفعال إذا فارقتها الأحوال فهي جيفة ميتة، والتقوى على أربعة أوجهٍ: من الرياء والعجب ورؤية النفس، أن يخطر بعده غير الله عز وجل وهو يقول أهل الخصوص.[٥٣٦]

﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)﴾

لَمَّا ورد أن يقال: روي أن هابيل كان أقوى منه فَلِمَ لم يدفعْ عن نفسه مع أن الدفع عن النفس واجبٌ؟ وهب أنه ليس بواجبٍ ولا أقلَّ من أنه ليس بحرامٍ فلم قال: إني أخاف؟[٥٣٧]

أجاب عنه المصنف: «بأن تحرَّج عن قتله، واستسلم خوفًا من الله؛ لأنَّ الدفع لم يُبحْ بعد،[٥٣٨] فإن الدفع عن النفس يجوز أن يختلف لاختلاف الشرائع.[٥٣٩]

وقال قدس سره: أو تحرّيًا لما هو الأفضل قال عليه السلام: «كُنْ عَبْدَ اللهِ الْمَقْتُول وَلَا تَكُنْ عَبْدَ اللهِ القَاتِلِ»،[٥٤٠]وذيله غيره بفعل عثمان رضي الله عنه، وبقوله عليه السلام: «إِذَا كَانَتْ الْفِتْنَةُ فَكُنْ خَيْرَ ابْنَي آدَمَ»،[٥٤١] وبقوله عم لسعد بن أبي وقاص حين ما قال له: إنْ دخل عليَّ بيتي، وبسطَ يده إليَّ ليقتلني؟ «كُنْ خَيْرَ ابْنَيْ آدَمَ»، وتلا الآية،[٥٤٢] وبقوله عم: «كسّروا قِسيَّكُم، وقطّعوا أوتارَكُم، والزموا أجوافَ البُيُوتِ، وكونوا كخبر ابني آدم».[٥٤٣]

قال أبو منصور:[٥٤٤] هذا في الدين يَقتتلان مع غير إمامٍ عادلٍ بحميَّة أو عصبيَّة، فهما على الخطأ، فأمَّا الخوارجُ على إمام الهدى فقتَالهُم واجبٌ بالإجماع.[٥٤٥]

وقال عم: «قَاتِلْ دُونَ مالِكَ حَتَّى تَمْنَعَ مِالِكَ، أو تَكُونَ مِنْ شُهَدَاءِ الآخرَةِ».[٥٤٦]

---

[٥٣٦] **عرائس البيان** للبقلي، ٣١٠/١.

[٥٣٧] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٢١١/١١؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٨٧/٥.

[٥٣٨] **الكشاف** للزمخشري، ٦١٢/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٢/١.

[٥٣٩] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٢١٢/١١.

[٥٤٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٢/١؛ **مسند أحمد**، ١١٠/٥.

[٥٤١] لم أقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج نحوه **مسند أحمد**، ٥٠٤/٣٢ (١٩٧٣٠)، **سنن أبي داود**، ٣١٥/٦ (٤٢٥٩)، **سن ابن ماجه**، ١٠٨/٥ (٣٩٦١) من حديث أبي موسى الأشعري، **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤١٢/٧.

[٥٤٢] **سنن أبي داود**، ٣١٢/٦ ٤٢٥٧؛ **سنن الترمذي**، **٤٨٦/٤**(٢١٩٤)؛**مسند أحمد**، ١٦١/٣(١٦٠٩)؛ **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤١٢/٧.

[٥٤٣] ج + وتلا الآية. **سننأبي داود**، ٣١٥/٦ (٤٢٥٩).

[٥٤٤] **أبو منصور**(٣٣٣هـ/٩٤٤ م)محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي: من أئمة علماء الكلام. نسبته إلى ما تريد (محلة بسمرقند) من كتبه (التوحيد) و (أوهام المعتزلة) و (الرد على القرامطة) و (مآخذ الشرائع) في أصول الفقه، وكتاب (الجدل) و (تأويلات القرآن) و (تأويلات أهل السنة – ط) الأول منه، و (شرح الفقه الأكبر المنسوب للإمام أبي حنيفة) . مات بسمرقند. انظر: **الأعلام** للزركلي، ١٩/٧.

[٥٤٥] **تأويلات القرآن**، لأبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، تحقيق: أحمد وانلي اغلى، دار الميزان، اسطنبول، ٢٠٠٥، ٢٠٣/٤؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٦٤/٥.

[٥٤٦] **السنن الكبرى**للنسائي، ٤٥٠/٣ (٣٥٣٠).

وقيل: بل كان الدفع واجبًا حينئذٍ؛ لأن ترك المعارضة إهلاكُ نفسه، ومشاركة للقاتل في إثمه، لكن معناه: ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ﴾ مبتدئًا ظالِمًا كقصدك ذلك منّي، وكان عازمًا على مدافعته إذا قصد قَتْلَه، لكن أخذه على غفلةٍ وهو نائم، فشدخَ رأسَه، فلم يمكنه دفعه.[٥٤٧]

فعلى الأول: الخوف خوف العقاب عن معصية ومخالفة حكمه، وعلى الثاني: الخوف عن انتقاص الأجر بترك ما هو الأفضل والأولى، وعلى الثالث: ظاهر، ولما ورد أن يقال: لِمَ جاء الشرط بلفظ الفعل والجزاء بلفظ اسم الفاعل حيث قال:«لئن بسطت ما أنا بباسط»؟

أجاب عنه العلّامتان[٥٤٨] بما حاصله: أنه لو جاء بلفظ الفعل وقيل: لا أبسط يدي إليك، لكان المعنى: أنَّه لا يفعل الفعل في الحال، أو فيما سيأتي من غير إشعار بتحرّزه عن اكتساب الاتِّصاف بهذه الصِّفة الشنيعة التي هي مدُّ اليد إلى أخيه؛ ليَقتلَه لخلاف ما لو جاء الجواب بلفظ اسم الفاعل، فإنه يدلُّ على التَّبرئ والتَّنزه عن الاتصاف به رأسًا، فكأنه قيل: لست ممن يوصف به قديمًا وحديثًا؛ لأنه أخرج ذأبه عن صلوح الاتصاف به، فكان أبلغ في نفي الفعل ضرورة أن الاتصاف بالفعل من لوازم كون الشخص فاعلًا له، فبقي اللازم مطلقًا يكون كناية عن التبرئ عن الفعل [٤٨/ظ] رأسًا، فيكون أبلغ في نفي الفعل، «ولهذا أكّد نفيه بالقسم أولًا، وبالباء ثانيًا على ما قرّر في: ﴿**وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ [البقرة ٨/٢] من أنه لتأكيد النفي لا لنفي التأكيد».

وقال صاحب **الانتصاف**: صيغةُ الفعل لا تعطي إلا حدوثَ معناه منَ الفاعل لا غيرُ، أمَّا اتِّصافُ الذات به فذلك لَمَّا كان يعطيهِ اسمُ الفاعل عَدَلَ من الفعل إلى الاسم تغليظًا، إذ يصير ذلك كالسِّمة والعلامة الثابتة.[٥٤٩]

وأنت خبير: بأن القصد المبالغة في الامتناع، ولو وجَّه على هذا لَكان العكس أوْلى، إذ لا يَلْزَم من نفي الاتصاف المذكور نفيُ الحدوث، ثم إن جعل ﴿**مَا أَنَا بِبَاسِطٍ**﴾ جزاء الشَّرط مبني على أنَّه واقع موقع جواب القسم والشرط، وإلا فهو بحسب اللفظ جواب القسم؛ ولذا لم يكن مع «الفاء».[٥٥٠]

وعن النبي عم: «إِذَا التَقَى المسْلِمَانِ بسَيْفَيْهِما؛ فَالقَاتِلُ والمقْتُولُ في النَّارِ»، قَالُوا: يا رَسولَ اللَّهِ، هذا القَاتِلُ، فَما بَالُ المقْتُولِ؟ قالَ: «إنَّه كانَ حَرِيصًا علَى قَتْلِ صَاحِبِهِ.[٥٥١] فيه دلالة على أن الحرص على المحرم يؤاخذ به، وعلى أن قصد كل منهما القتل، حتى لو قصد أحدهما الدفع، ولم يجد بدًّا منه إلا بقتله لا يؤاخذ به.

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓءَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

بإثم قتلي لك إن كان، وإثم قتْلِك لي، أي: «بمثل إثمى على الاتساع في الكلام»، وهو أن يُنسب إلى شيءٍ ما لا تصحُّ إلا بتقدير مثل، نحو: «أبو يوسف أبو حنيفة»،[٥٥٢] وعدم الصحة ههنا أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ونحوه قوله عم: «الْمُسْتَبَّانِ مَا قَالاَ، فَعَلَى الْبَادِئِ، مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ».[٥٥٣]

---

[٥٤٧] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٦٤/٥.

[٥٤٨] الزمخشري، والبيضاوي.

[٥٤٩] **الانتصاف بحاشية الكشاف** لابن المنيّر، مكتبة سليمانية، نسخة حمدية:١٦٦، ١١٣و؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٣٨/٥.

[٥٥٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٣٨/٥.

[٥٥١] **صحيح البخاري**، ١٥/١ (٣١).

[٥٥٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٣٥/٥-٣٣٦.

«المستبَّانِ» مبتدأ، خبره الجملة الشرطية بعده، أعني: «ما قالا فعلى البادئ»، ويجوز أن يكون «ما» موصولةً، و«ما لم يعتد»: ما دام لم يظلم، ولم يتجاوز حدّ المساواة، أي: على البادئ إثمُ سبّه، ومثلُ إثم سبّ صاحبه، وإنما كان عليه مثل إثم صاحبه؛ لأنه كان سببًا في سبِّ صاحبه، ولما ورد هل على صاحبه إثم حتى يكونَ له مثل. أجيب بأن له إثمًا لكنَّه محطوط عنه؛ ما لم يخرج عن المكافأة، ويدلُّ عليه الفعل؛ وهو أنَّ صاحبه مكافئ دافع. والحديث حيث قيّد كون الكلِّ على البادي خاصّةً؛ بحال عدم الاعتداء، فدلَّ على أن عند الاعتداء خاصةً، يكون للصاحب إثمٌ، وهو ليس إثم البادي، ولا مثل إثم نفسه، بل إثم نفسه عينًا، فدلَّ على أن ذلك لا يكون حال عدم الاعتداء وهو الحطّ. فإن قيل: أيّ حاجة إلى التكليف والحديث دلَّ على اختصاص الجميع بالبادي عند عدم الاعتداء، ولا يكون للصاحب شيء منه؟ قلنا: حمل الجميع على إثم البادي، ومثل إثم الصاحب، فلم يدلَّ على أن نفس إثم الصاحب لايبقى عليه، لكن يرد أن تقدير المثل يحتمل في الآية كما مرَّ. وأمَّا في الحديث فقد ذكر الجميع بلفظٍ واحدٍ وهو «ما قالا»، أي: إثم ما قالا، فلا يحمل على إثم ما قال البادي، ومثل إثم ما قال الآخر إلا على الجمع بين الحقيقة والمجاز. فالأقرب أن يحمل على ظاهره، ويجعل إثم غير البادئ ذا جهتين: جهة السبّ، وهو من هذه الجهة ساقط عنه بدليل، وجهة الحملِ عليه وهو على البادي؛ لكون الجهة من قبله على طريقة قوله: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَلَهُ وِزْرُه وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا فَلَا يَكُونُ مِنْ حَمْلِ وِزْرِ الْوَازِرَةِ وِزرَ أُخْرَى».[554] وأمَّا أن غير البادئ ليس له المعارضة بالمثل أيضًا، بل الرفع إلى الحاكم ليجري على البادي الحدّ أو التعزير فبحث آخر. ولَمَّا ورد أنَّ كلًّا من المتسببين سابّ يتصوَّر له إثم يسقط عن غير البادي، ويثبت مثله للبادئ مع إثمه فيتضاعف به، وأمَّا ههنا فلا، فمثل من هابيل فلا إثم له ولا مثل له ليتحمَّله قابيل مع إثمه، أجيب: بأن المراد مثل الإثم المقدّر الذي يثبت على تقدير بسط اليد إليه، فهو كافٍ في إثبات المثل، فالمثل يفسر ثانيًا في الجانب الآخر، سواءٌكان ما له المثل محقَّقًا أثبت فأسقط، كما في الحديث، أو مقدَّرًا لم يثبت أصلًا، كما في الآية. ثم إنَّ هذا الإثبات إنما هو بحسب قصد القاتل وإرادته سواء ثبت أو لم يثبت، ومنهم من حاول في الآية أيضًا ثبوت الإثم في جانب هابيل أيضًا، ثم تحميله قابيل، فقال: المراد بإثمي: بعزمي على قتلك لمجرّد ظني أنك تقتلني؛ لأنَّك كنت السّبب فيه، أو بإثمي الذي يحمل عليك في القيمة على ما ورد في الحديث: أنه إذا لم يجد للظالم ما يرضي خصمه حمل عليه من سيئات الخصم. وقيل: معنى ﴿بِإِثْمِي﴾:«بإثم قتلي» على تقدير المضاف، فلا يحتاج إلى تقدير المثل، ومعنى: إثمك الحاصل قبل ذلك الذي لم يتقبَّل به قربانك، ولا خفاء في أنه لا يحسن المقابلة بالتّكلم والخطاب ح؛ لأنَّ كليهما إثم المخاطب.[555]

والظرفان حالان معًا، أي: ترجع ملتبسًا بالإثمين حاملًا لهما، ثم إنه لم يرد معصية أخيه، بل قصد أن ذلك إن كان لا محالة واقعًا، فأريد أن يكون لك لا لي، فالمراد بالذات أن لا يكون له لا أن يكون لأخيه، أو المراد بالإثم العقوبة وإرادة عقاب العاصي جائز.[556]

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)﴾

فسهَّلت له نفسه قتل أخيه، أي: جعلته سهلًا، وهوَّنته وصوّرت له أن قتله طوعٌ له سهلٌ عليه، ومتّسع له لا ضيق فيه، فإن قتل النفس بغير حقٍ لا سيَّما قتل الأخ، إذا تصوّره الإنسان يجده نافرًا كلَّ النفرة عن الشرع والعقل السليم، والطبع

---

[553] **صحيح مسلم**، ٢٠٠٠/٤ (٢٥٨٧).

[554] **صحيح مسلم**، ٧٠٤/٢ (١٠١٧).

[555] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٥و- ٣٠٦ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٢٣٣/٣-٢٣٥.

[556] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٢/١.

المستقيم بعيدًا عن الانقياد، ثم إنَّ الأمارة إذا استعملت [**٤٩**/و] القوة السبعية الغضبية صار سهلًا عليه، فكأن النفس صبَّرته كالمطيع لها بعد أن كان نافرًا.

فالتضعيف للتعدية؛ لأن الأصل: طاع له قتلُ أخيه، أي: إنقاد، من الطَّواعية، فعُدِّي بالتَّضعيف، فصار الفاعل مفعولًا.

وقرئ: «فَطَاوَعَتْ»[٥٥٧]على أنه «فاعل» بمعنى: «فَعَّلَ» فإنه قد لا يكون للمشاركة، نحو: نَاعَمْتُه بمعنى نَعَّمْتُه، أو على أنه للمشاركة، فإن قتل أخيه كأنه دعا نفس قابيل إلى الإقدام عليه. تَأْبى ذلك إلى أن غلب القتل النفسَ فطاوعَته. و«له» متعلّق بـ«طَوَّعت» على القراءتين.

ويتمّ الكلام بدونه إلا أنه جيء به لزيادة الرَّبط كما يتمّ إذا قيل: «حَفِظْتُ مالَ زيد» إلا أنه يقال: حَفْظْتُ لزيدٍ مالَه بزيادة «اللام» لقوَّة الربط.[٥٥٨]

قيل: لم يَدر قابيل كيف يقتل هابيل، فتمثل إبليس، وأخذ طائرًا فوضع رأسه على حجرٍ، ثم ضربه بالحجر الآخر، وقابيل ينظر إليه فعلَّمه القتل، فوضع قابيل رأس هابيل بين حجرين، فضرب فقتل وهو مستسلم.[٥٥٩]

وقيل: طلبه ليقتُله، حتى انتهى إليه في ظلِّ جبلٍ نائمًا، وغنمُه تَرعى حولَه، فأخذ صخرةً فضرب بها رأسه فقتله.[٥٦٠]

﴿**فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ**﴾: دينًا ودنيًا وآخرةً، إذ ارتكب ما يهدم الدين وأسخط والديه، وفقد أخاه وبقى مدة عمره مطرودًا محزونًا، وأسخط ربه وصار إلى البوار والنار.

قيل: قُتل هابيل وهو ابن عشرين سنةً، عند عَقَبة حِرَاءَ بكسر الحاء والمد والتنوين، وقد لا ينوَّن فلا يُصرف. جبل من جبال مكة. وقيل: بالبصرة في موضع المسجد الأعظَم.[٥٦١]

سئل عليه السلام عن يوم الثلاثاء، فقال: «يوم الدَّم، فيه حاضت حوَّاء، وفيه قتل ابن آدم أخاه».[٥٦٢]

وفي الصحيح: «لاَتُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لأَنَّهُ كَانَ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ».[٥٦٣]

وهذا نصٌّ على التعليل؛ وبهذا الاعتبار يكون على إبليس كفلٌ من معصية كلِّ مَنْ عصى بالسجود؛ لإنه أوَّل من عصى به، وكذلك كل من أحدث في دين الله ما لا يجوز من البِدع والأهواء.

وهذا ما لم يَتبْ الفاعلُ؛ لأنَّ آدم كان أوَّل من خالف في أكل ما نُهى عنه، فلا يكون عليه شيءٌ من أوزار مَن عصى بأكل ما نُهى عنه؛ لأنه عليه السلام تاب عنه، فصار كأن لم يكن.

---

[٥٥٧] قراءة شاذّة، مروية عن نبيح وأبي واقد والجراح. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٥٣؛ **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٣٨.

[٥٥٨] **الدر المصون** للسمين الحلبي، ٢٤٢/٤-٢٤٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٩٠/٧-٢٩١.

[٥٥٩] **اللباب** لابن عادل، ٢٩٢/٧.

[٥٦٠] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٦٨/٥.

[٥٦١] **الكشاف** للزمخشري، ٦١٣/١.

[٥٦٢] **سنن أبي داود**، ١٣/٦ (٣٨٦٢)؛ **الطب النبوي** لأبي نعيم، ٣٦١/١ (٢٩٨).

[٥٦٣] **صحيح البخاري**، ١٣٣/٤ (٣٣٣٥).

تضمَّنت الآية البيانَ عن حال الحاسد، حتى إنه قد يحملُه حسدُه على إهلاك نفسه بقتل أقربِ الناس إليه قرابةً، وأمسّ به رحِمًا، وأولاهم بالحُنُوِّ عليه ودفع الأذيَّة عنه.[٥٦٤]

وقال علي بن الحسن: «وكِّل به ملكان يطلُعان به مع الشمس إذا طلعت، ويغربان به إذا غربت، وينضحانه بالماء الحارِّ مع حرِّ الشمس، حتى تقوم الساعة».[٥٦٥]

وقال مجاهد: عُلِّقتْ إحدى رجلَي القاتل بساقها إلى فخذِها من يومئذ إلى يوم القيامة، ووجْهُه إلى الشمس حيث ما دارت، عليه في الصَّيف حظيرةٌ من نار، وعليه في الشتاء حظيرةٌ من ثلج.[٥٦٦]

وروي: أنه لَمَّا قتله، هرب إلى اليمن، فأتاه إبليس فقال: إنما أكلت النارُ قربان هابيل؛ لأنه كان يخدم النار، فإن عبدت حصل مقصودك، وهو أول من يعبد النار.[٥٦٧]

وروي: أن الوحوش والطيور كانت تألَفُ أولاد آدم، فلمَّا وقعت هذه الحادثة نفرت واستوحشت، وهاجت ريحٌ أظلمت لها الدنيا، وكان آدم في الحج، فقال له جبريل: هذا من شؤم قتل ابنك قابيل أخاه، فحزن، وبكى، ولم يضحك مائة سنة،ولم يقرب حوَّاءَ بعده.[٥٦٨]

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)﴾

روي: أنه لَمَّا قتله تحيَّر في أمره ولم يدر ما يصنع؛ إذ كان أوَّل قتيل من بني آدم، فبعث الله غُرابَيْنِ فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخرَ، فحفَر له بمِنقاره ورجليه، ثم ألقاه في الحُفرة.[٥٦٩]

ويرد عليه أن المبعوث إذا كانا غُرابين فلِمَ وحَّد الله؟ فلم يظفر في حكمته شيئًا، فلعلَّ الله ذكر الغراب العامل الموازي لما أنه يكفي في بيان ما وقع من أمره بعد قتله.

وروي أنه لَمَّا قتله وتركه بعث الله غرابًا فحثى التراب على المقتول، فلمَّا رأى كيف يُكرم اللهُ المقتول بعد موته عَلم وندم.[٥٧٠]

وقيل: إن الغراب بحث الأرض على طُعْمِه ليخفيَه إلى وقت الحاجة إليه؛ لأنه من عادة الغراب فعل ذلك؛ فتنبّه قابيل بذلك.[٥٧١]

وعن ابن عبَّاسٍ: جاء غرابٌ حيٌّ إلى غرابٍ ميّتٍ، فواراه في التراب.[٥٧٢]فعلى هذه الروايات فتو جيد الغراب ظاهر.

---

[٥٦٤] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي ، ٤١٩/٧-٤٢٠.

[٥٦٥] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٦٨/٥.

[٥٦٦] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤٢٠/٧.

[٥٦٧] **اللباب** لابن عادل، ٢٩٢/٧.

[٥٦٨] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٦٩/٥.

[٥٦٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٣/١.

[٥٧٠] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٢١٤/١١.

[٥٧١] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤٢١/٧.

وروي:«أنه لَمَّا قتله تركه بالعراء لا يدري ما يصنع به، فخاف عليه السِّباع، فحمله في جِرابٍ على ظهره سنةً، حتى أَرْوح وعَكَفت عليه السِّباع». [٥٧٣]

«العراء»: الفضاء بلا سُترة. «أروح»: أنْتن من الرائحة. «عكف» على الشيء أقبل مواظبًا عليه.

وعن أنس رض: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «امتنَّ الله على ابن آدمَ بثلاث بعد ثلاث: بالرِّيح بعد الرُّوح؛ فلولا أن الرِّيح يقع بعد الرُّوح ما دَفن حميمٌ حميمًا، وبالدُّود بالجُثَّة؛ فلولا أنَّ الدُّود يقع في الجثَّة لاكتنزها الملوك، وكان خيرًا لهم من الدَّراهم والدنانير، وبالموت بعد الكِبَر، وإن الرجلَ لَيَكْبَر حتى يملَّ نفسَه، ويملَّه أهلُه وولده وأقرباؤه، لكان الموت أستر له». [٥٧٤]

و﴿يَبْحَثُ﴾ معناه: يُفَتِّش التُّرابَ بمنقاره ويثيرُه. ومن هذا سُميت سورةُ«البراءة»: البُحوثَ؛ لأنها فَتَّشَت عن المنافقين، [٥٧٥] ومنه قوله:

إنِ النَّاسُ غَطَّوني تَغَطَّيتُ عَنهُمُ وَإنْ بَحَثونيكنت فِيهم مَبَاحِثُ [٥٧٦]

﴿لِيُرِيَهُ﴾ ليريه الله، أو ليريه الغراب؛ أي: ليعلِّمه؛ لأنه لَمَّا كان سببَ تعليمه، فكأنَّه [**٤٩**/ظ] قصد تعليمَه على سبيل المجاز. [٥٧٧]

إنما قال:«لِيُعَلِّمَهُ»؛ إذ لو كان بمعنى البصرة لم يكن لقوله: ﴿كَيْفَ يُوَارِي﴾ موقع حسن، وأمَّا على تقدير«لِيُعَلِّمَهُ» فهو في موقع المفعول، أي: ما به يجاب عن السؤال بـ﴿كَيْفَ يُوَارِي﴾، لكن يمكن أن يكون له حسن موقع على ما قيل: إن الجملة الاستفهامية معلِّقةٌ للرؤية البصرية، فهي في محلِّ المفعول الثاني سادَّة مسده؛ لأن الرؤية البصرية قبل تعديتها بالهمزة متعديةٌ إلى مفعول واحد، وبالهمزة صارت متعدية إلى اثنين. [٥٧٨]

وقوله: «على سبيل المجاز» [٥٧٩] أي: الاستعارة التَّبعية الحرفية في «اللام»، حيث شبه ترتب التعليم على بحث الغراب في الأرض، وتسببه عنه بترتب ما يقصد بالفعل عليه، والكلام صريح في هذا المعنى وإن كان قد يسبق إلى الوهم أن مراده أن إسناد التعليم إلى الغراب مجازٌ لكونه سببًا، ولو أراد هذا لَقال: فكأنَّه علم، ثم بعد التجوز في «اللام» هل الإسناد مجازي فيه تأمل.

وأمَّا على كون الضمير لله، فاللَّام متعلِّق بـ﴿بَعَثَ﴾ لا بـ﴿يَبْحَثُ﴾.

﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ عورة أخيه و مالا يجوز أن ينكشف من جسده. والسَّوءة: الفضيحة؛ لقبحها قال:

يَا لَقَوْمِي لِلسَّوْءِةِ السَّوْآءِ

---

[٥٧٢] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٧٠/٥.

[٥٧٣] **الكشاف** للزمخشري، ٦١٣/١.

[٥٧٤] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤٢١/٧–٣٢٢.

[٥٧٥] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤٢٣/٧؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٩٣/٧.

[٥٧٦] **المحرر الوجيز** لابن عطبة، ١٨١/٢؛ **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤٢٣/٧.

[٥٧٧] **الكشاف** للزمخشري، ٦١٣/١.

[٥٧٨] **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٥١٥/٣.**

[٥٧٩] **الكشاف** للزمخشري، ٦١٣/١.

أي: الفضيحة العظيمة، وكنى بها عنها.

﴿مِنْ﴾ تبعضيَّة، أو ابتدائيّة لا بيانيّة؛ لأنَّ ما لا يجوز أن ينكشف ليس هو الجسد، وكنى بها، أي: بالسوءة عنها، أي: عن العورة لما في كشف العورة من القبح.[٥٨٠]

أو فخصَّص السوءة مع أن المراد الجسد؛ للاهتمام بها؛ لأن سترها أوكد وهو قدس سره على أن السوأة الجسد لاستقباح رؤيته.[٥٨١]

وفسَّر السَّوْءَة السَّوْآء بالفضيحة العظيمة؛ لكونها من قبيل: لَيْلَةٍ لَيْلَاء، البيت لابن زيد:

ظَلَّ ضيْفًا أخُوكُم لأخينَا في شَرابٍ ونَعْمَةٍ وَشِواءِ

لَمْ يَهَبْ[٥٨٢] حُرْمَة النَّديم وَحُقَّتْ يَا لَقَوْمِي للسَّوْأةِ السَّوْآءِ[٥٨٣]

﴿قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾

كلمة «جزع» و«تحسّر»، وأصله: «ويلتي» فأبدل ياء المتكلم ألفًا، وهي لغةٌ شائعة في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم. والمعنى: يا وَيْلَتِيَ احضري، فهذا أوانُ حُضُورك.

والنِّداء وإن كان أصله لِمَنْ يتأتَّى منه الإقبالُ فهم العقلاء، إلا أن العرب تتجوَّز وتنادي ما لا يعقل إظهارًا للتحسُّر، ومثله: ﴿**يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ**﴾ [يس٣٦/٣٠]، و﴿**يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ**﴾ [الزمر ٣٩/٥٦].[٥٨٤]

والويل والويلة: الهلك.[٥٨٥]

﴿**أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ**﴾: لا أهتدي إلى ما اهتدى إليه. عَجَزَ يَعْجِزُ من باب ضَرَبَ يَضْرِبُ، وهي اللغة الفصيحة، واستعماله من باب عَلِمَ شاذّ. استفهام تعجُّب من فوت مقدار هذا العلم عنه وتحسّر عليه.

وقوله: ﴿**فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي**﴾ نصب عطفًا على ﴿**أَكُونَ**﴾ المنصوبة بـ«أن»، أي: أعجزت عن كوني مواريًا مشبهًا بالغراب مواريًا.[٥٨٦]

---

[٥٨٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٥و- ٣٠٦و.

[٥٨١] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٣/١.

[٥٨٢] الهيبة بمعني: الإجلال والمخافة، أي: لم يعظم حرمته وحقّت تلك الحرمة بأن تهاب و ترعى، ثم دعى قومه ليعجّبهم من النظر إلى هذه الفضيحة التي هي هتك حرمة النديم. منه. انظر: **خزانة الأدب** عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م. ٤٤٤/١ ٢٢/٢؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٦و.

[٥٨٣] هذا البيت من قصيدة لأبي زبيدٍ الطّائيّ النّصرانيّ. الأغاني لابن زبيد، ١٥٥/١٢؛ **خزانة الأدب** للبغدادي، ٢٢/٢؛ **الكشاف** للزمخشري، ٦١٣/١؛ تهذيب اللغة للأزهري، ٨٩/١٣؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٥و- ٣٠٦ظ.

[٥٨٤] **الدر المصون** للسمين الحلبي، ٢٤٥/٤؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٩٤/٧؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٥١٥/٣**.

[٥٨٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٣/١.

[٥٨٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٣/١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٥١٥/٣**.

وجعله المصنف: «نصبًا على جواب الاستفهام»،[٥٨٧] ولا يظهر لعدوله عن الظاهر المكشوف مع ما في جعله جواب الاستفهام من التكلف؛ إذ من شرطه كونَ الأول سببًا للثاني، والعجز لا يصلح سببًا للمواراة، ولا يصح: إنْ عجزت وارَيْتَ، ولا بدَّ أن يصار إلى أن الاستفهام للإنكار بمعنى النفي، وهو سببٌ، أي: إن لم أعجز وارَيْت.

وقيل: هو من قبيل: أتعصي ربك فيعفو عنك بالنصب لينسحب الإنكار التوبيخي على الأمرين، ويشعر بأنه في العصيان وتوقّع العفو مرتكب خلاف العقل حيث يجعل سبب العقوبة سببَ العفو، ويكون التوبيخ على هذا الجعل، فكذا هنا نزل نفسه منزلة من جعل العجز سبب المواراة دلالةً على التعكيس المؤكد للعجز والقصور عما يهتدي إليه غراب.[٥٨٨]

وقرئ: بالسُّكون على: «فَأَنَا أُوارِي»،[٥٨٩]فوجهه أن الاستفهام للإنكار بمعنى النفي، و«الفاء» في موقع الجزاء، أي: إذا لم أعجز: فأنا أواري، ولو كان القصد إلى جعل الفاء للعطف، وانسحاب الإنكار على جميع الأمرين العجز والمواراة مع شائبة التعقيب والتسبيب لم يحتج إلى تقدير المبتدأ، كما في قولك: أتعصي ربك فيعفو عنك بالرفع، والاعتذار بأنه لمجرد إيضاح أنه ليس بجواب،[٥٩٠] أو على التسكين في موضع النصب تخفيفًا وهي لغيَّة لتوالي الحركات.[٥٩١]

قالالقرطبي: بعث الله الغراب حكمة؛ ليرى ابنُ آدم كيفية المواراة، وهو معنى قوله: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾، [عبس، /٢١] فصار فعلُ الغراب في المواراة سُنَّةً باقيةً في الخلق، فرضًا على جميع الناس على الكفاية، مَنْ فَعَله منهم سقط فرضُه عن الباقين.[٥٩٢] وأخصُّ الخلق به الأقربون الذين يلونه، ثم الجيرة، ثم سائر المسلمين. وأما الكفَّارُ فقد روَى أبو داود عن عليٍّ قال: قلت للنبي: إنَّ عمَّك الشيخَ الضالَّ قد مات؛ قال: «اذْهَبْ فوَارِ أباكَ، ثم لا تُحدِثنَّ شيئًا حتى تأتيَنِي». فواريتُه، وجئته، فأمرني فاغتسلتُ، ودعا لي. ويستحب في القبر سعته وإحسانه، قال عم: «احْفِرُوا وأوسعوا وأحسنوا».[٥٩٣] واللَّحد أفضل من الشَّقِّ، فإنه الذي اختار الله لرسوله؛ فإن النبي لَمَّا تُوفي؛ كان بالمدينة رجلان؛ أحدهما يَلْحَد والآخر لا يلحد، فقالوا: أيُّهما جاء أوَّلَ؛ عَمِلَ عملَه، فجاء الذي يلحد، فَلَحَدّ لرسول الله. واللَّحد: هو أن يحفر في جانب القبر إن كانت تربةً صلبةً، يوضع فيه الميت، ويوضع عليه اللَّبِن، ثم يهال التُّراب، قال سعد بن أبي وقَّاص في مرضه الذي توفي فيه: اِلْحَدُوا لي لَحْدًا وانصِبُوا عليَّ اللَّبِن نَصْبًا؛ كما صُنِع برسول الله. قال عليه السلام: «اللَّحدُ لنا والشَّقُّ لغيرنا».[٥٩٤]وعن سعيد بن المسيَّب قال: حضر ابن عمر في جِنازة، فلمَّا وضعها في لحده قال: بسم الله، وفي سبيل الله، وعلى ملة رسول الله، فلمَّا أخذه في تسوية اللَّحد [٥٠/و]قال: اللَّهم أَجِرها من الشيطان ومن عذاب القبر، اللهم جاف الأرضَ عن جنبيها، وصعِّدْ رُوحَها، ولَقِّها منكَ رضوانًا. قلت: يا ابنَ عمر، أشيءٌ سمعتَه من رسول الله، أم قلتَه برأيكَ؟ قال: إني إذًا لقادرٌ على الكلام! بل شيءٌ سمعتُه من رسول الله.[٥٩٥]

---

[٥٨٧] **الكشاف** للزمخشري، ٦١٣/١.

[٥٨٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٦و؛ **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، ٢٣٦/٣.

[٥٨٩] قراءة شاذّة، مروية عن طلحة ابن سليمان. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٥٣؛ **المحتسب** لابن جني، ٢٠٩/١؛ **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٣٨.

[٥٩٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٦و.

[٥٩١] **اللباب** لابن عادل، ٢٩٥/٧.

[٥٩٢] ج: سقط عن الباقين فرضُه

[٥٩٣] **مسند أحمد**، ١٨٧/٢٦ (١٦٢٥٩)؛**سنن أبي داود**، ١٢٣/٥ (٣٢١٥)؛ **سنن ابن ماجه**، ٤٧٧/١ (١٥٦٠).

[٥٩٤] **مسند أحمد** ٥١٤/٣١ (١٩١٧٧)؛ **سنن أبي داود**، ١١٧/٤٥ (٣٢٠٨)؛ **سنن بن ماجه**، ٤٩٦/١ (١٥٥٤)؛ **سنن الترمذي**، ٣٥٤/٣ (١٠٤٥)؛ **سنن النسائي**، ٨٠/٤ (٢٠٠٩).

[٥٩٥] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤٢٥/٧-٤٢٦.

﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّادِمِينَ﴾

على قتله لِمَا كابد فيه من التَّحيُّر في أمره، وفقد أخيه، وحمله على رقبته سنةً أو أكثرَ، وتلمّذه الغراب، وإكرام الله هابيل بأن قيَّض الغراب حتى واراه، واسوداد لونه وتبرؤ أبويه منه. سأله آدم عن أخيه، فقال: ما كنت عليه وكيلًا، فقال: بل قتلتَه ولذلك اسودَّ جسدُك، وتبرأ عنه، ولم يضحك مائة سنة، وعدم الظَّفر بما فعله من أجله.[٥٩٦] إذ تزوج شِيث بـ«إقلِيمَا»، فلما كان ندمه لأجل هذه الأسباب، لا للخوف من الله سبب ارتكابه معصية لم تكن توبة.

وقيل:كانت ندامته على ذنبه، وكذلك قال: **﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾** [الشعراء، ١٥٧/٢٦]: إنهم ندموا على قتلها، لكنَّ ندمَ الأوَّلين لم يكن توبةً، وكانوا يعاقَبون على جنايتهم بعد ندامتهم، كما عُرِف في الذين عَبدوا العجلَ وندموا على ذلك، كما قال: **﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾**، [الأعراف، ١٤٩/٧] ، ومع ذلك عُوقِبوا بقَتل أنفسِهم، وإنما جُعل الندمُ توبةً في حقِّ هذه الأمَّة.[٥٩٧]

ويَحتمل أن يكون: **﴿فَأَصْبَحَ﴾** بمعنى: يصبح، يعني: في القيامة، ماضٍ بمعنى المستقبل، **﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ﴾** [المائدة ١١٦/٥].[٥٩٨]

روي: أنه لَمَّا قتله رجفت الأرض سبعة أيَّام بما عليها، ثم شربت الأرض دمه كما تشرب الماء، فناداه الله: أين أخوك؟ قال: لا أدري ما كنت عليه رقيبًا، فقال الله: إن دَمَ أخيك ليُنَاديني من الأرض. فلم قتلتَ؟ قال: فأين دمُه إن كنت قتلته؟ فحرَّم اللهُ على الأرض أن تشْرَب دمًا بعده أبدًا.[٥٩٩]

وقيل: هامَ في الأرض خائفًا يرميه مَن رآه بحجرٍ، فرآه بعض ولدِه، فرما بحجر فقتله.[٦٠٠]

ويقال: إنَّ آدم وحوَّاء أتيا قبر هابيل، ومكثا أيَّامًا عليه. ثم إن قابيل كان على ذِروة جبل فنطحه ثورٌ فوقع إلى السفح وقد تفرَّقت عروقُه. ويقال: دعا آدمُ فانخسف به الأرض.[٦٠١]

وقيل: قتل أخاه غير مستحلّ، ولا رادٍّ للأمر، وكان عاصيًا لكنه حملَه شؤمُ المعصية على الكفر، على ما مرَّ بيانه، وهو أوَّل من سجد للنَّار، وأوَّل من يُساق إلى النار،قال تع: **﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾** [فصلت٤١/٢٩].

وما روي: أن آدم رثا هابيل بشعرٍ! فهو كَذِب، وما الشعر إلا مَنْحول ملحون. منحول، أي: منسوب إلى غير قائله، حيث نُسب إلى آدم وليس له ملحونٌ، أي: فيه لحن من جهة الإعراب أو القافية، وذلك أن الشعر على ما رواه كثير من العلماء:

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَ مَنْ عَلَيْهَا ... فَوَجْهُ الْأَرْضِ مُغْبَرٌّ قَبِيحُ

---

٥٩٦ ج: لأجله. **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٣/١.

٥٩٧ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٧١/٥.

٥٩٨ **تأويلات القرآن** للماتريدي، ٢٠٤/٤؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٧١/٥.

٥٩٩ **الكشف والبيان عن تفسير القرآن** لأحمد بن إبراهيم الثعلبي، تحقيق: عبد الله بن عواد الجهني– هاشم بن محسن باصرة، دار التفسير، جدة – المملكة العربية السعودية ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م،٢٧٩/١١–٢٨٠؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٩٧/٧.

٦٠٠ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٧١/٥.

٦٠١ **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤٢٢/٧.

تَغَـــيَّرَ كُـــلُّ ذِي طَعْـــمٍ وَ لَـــوْنٍ وَقَـــلَّ بَشَاشَـــةُ الْوَجْـــهِ الْمَلِـــيحِ
وَمَا لِي لاَ أَجُوْدُ بِسَكْبِ دَمْـــعٍ وَهَابِيـــلُ تَضَـــمَّنَهُ الضَّـــرِيحُ
أَرَى طُـــولَ الْحَيَـــاةِ عَلَـــيَّ غَمًّـــا فَهَـــلْ أَنَا مِـــنْ حَيَـــاتِي مُسْـــتَرِيحٌ[٦٠٢]

فالمليح: إن رُفِع فخطأ؛ لأنه صفةُ «الوجه»، وإن خفض فأقواء، وهو عيب في القافية وإن كثر، وقول من قال: الوجه مرفوعٌ فاعل «قَلّ». «وبشاشة» نصبٌ على التَّميز بحذف التَّنوين إجراء للوصل مُجرى الوقف أَلْحن، وقد صحَّ أن الأنبياء معصومون من الشعر.[٦٠٣]

روي عن ابن عباس: أن محمداً والأنبياءَ عليهم السلام كلَّهم معصومون من الشّعر، لكن رثاه آدمُ بالسُّريانية كلامًا منثورًا، فلم يزل ينقل إلى أن وصل إلى يعْرُبَ بن قَحْطان، وهو أوَّل مَنْ خطَّ بالعربية، فنظر في المرثيَّة فقدَّم وأخَّر وجعله شعرًا عربيًا.[٦٠٤]

وقال محمد بن علي التِّرمذي: إنَّ قابيلَ تولَّده من قوّة حبَّةٍ أكلها آدمُ من الشَّجرة مع النَّهي، فأثَّر في فساد هذا الولد، وصار أبًا ليأجوج ومأجوج الذين يكثُر فسادُهم في آخر الزَّمان على وجهٍ لا تعرف غايتُه.[٦٠٥]

وقيل: هو أب السُّودان. وفي ذلك عبرة للناظرين.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)﴾

بسبب ذلك وعلَّتِه. وأصل «أَجْل» مصدر: «أَجَل شرًّا»: إذا جَناه يَأْجُلُه أَجْلًا ومنه قوله:

وأهـــلِ خِبـــاءٍ صـــالحٍ ذاتُ بَيْـــنَهُمْ قـــد احتَرَبُـــوا في عاجـــلٍ أنا آجِلُـــه[٦٠٦]

يصف نفسه بالدهاء وتهييج الحروب، أي: ربِّ أهل خِباءٍ متعاطفين متراحمين، قد تحاربوا بسبب عاجل شرٍّ أنا جانيه وكاسبه، ولا يخفى لطف إيهام العاجل والآجل، وبعده:

فأقبلـــتُ في السَّـــاعِين أســـألُ عَـــنْهُمْ ســـؤالَكَ بالأمـــر الـــذي أنـــتَ جاهلُـــه[٦٠٧]

أي: لما أقبل الناس يسعون إليهم؛ ليكشفوا عن سبب النِّزاع بعدما كان بينهم من الأُلفة والمودَّة أقبلت فيهم أسأل متجاهلًا؛ لئلا ينسب إليّ،[٦٠٨] كأنك إذا قلتَ: من أجلك فعلتُ كذا، أردتَ: من أن جَنَيْتَ فِعْلَه وأوجبتَه، ويدلُّ عليه قولهم:

---

[٦٠٢] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٨٣/١١؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٤٥/٣.

[٦٠٣] **رسائل ابن كمال**، ٢١٧/٢.

[٦٠٤] **معالم التنزيل** للبغوي، ٤٥/٣؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٨٢/١١؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٤٠/٥؛ **حاشية الشهاب**، ٢٣٧/٣.

[٦٠٥] **التيسير في التفسير** للنسفي، ٣٧٢/٥.

[٦٠٦] شعر زهير بن أبي سلمى، ص ٦١؛ **الكشاف** للزمخشري، ٦١٤/١؛ **الجامع لأحكام القرآن**، ٤٢٢/٧؛ **الدر المصون** للحلبي، ٥١٥/٢.

[٦٠٧] شعر زهير بن أبي سلمى، ص ٦١؛ **الصحاح** للجوهري، «أجل».

[٦٠٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٦ظ.

من جَرَّاك فعلتُه؛ أي: من أن جرَرْتَه، بمعنى: جَنَيْتَه، وهو فعلى من جَرَّ يَجُرُّ كدعوى من دعا يدعو، كأنه قيل: فعلته من أجل أن جررته بأن فعلت أنت فعلًا قد جر فعلك ما فعلته بأن كان سببًا له.[٦٠٩]

فاستعمل نحوُه في تعليل الجنايات، ثم اتّسع فيه، فاستعمل في كل تعليل،[٦١٠] وذلك إشارة إلى القتل المذكور، «أي: من أن جَنَى ذلك القتل الكَتْب وجرّه ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، أي: ابتدأ الكَتْبُ ونشأ من أجل ذلك، ويقال: فعلت كذا لأجل كذا، وقد يقال: أَجْلَ، كذا بحذف الجارّ وإيصال الفعل، قال:

أَجْــلَ أَنَّ اللهَ قَــدْ فَضَّــلَكُمْ   فَــوْقَ مَــا أَحْكَــى بصُــلْبٍ وإِزارِ[٦١١]

وروي: فَوْقَ مَا أَحْكَأَ صُلْبًا بإزارِ، أي: شَدَّ صُلْبَه بإزارٍ. من: أحكأتُ العُقدة وأحكَيْتُها: شددتها. البيت لعَدِيّ بنِ زَيد من قصيدةٍيمدح بها النعمان ويعاتبه في حبسه.[٦١٢]

وقيل: أصل المادة يدلُّ على الجرِّ، ومنه الأَجَل؛ لأنه وقتٌ يُجرُّ إليه العقدُ الأوَّل. ومنه الآجل: نقيض العاجل، وهو بمعنى: يُجُرُّ إليه أمر متقدّمٌ، ومنه أَجَلْ: نَعَمْ؛ لأنه انقيادٌ لما جُرَّ إليه.[٦١٣]

وقرئ: «مِنَ اجْلِ ذلك»[٦١٤] بحذف الهمزة وفتح النُّون لإلقاء حركتها إليها. و«مِنْ إِجْلِ»[٦١٥] بكسر الهمزة وهي لغةٌ، فإذا خفّف بكسر النون لإلقاء كسر الهمزة عليها.[٦١٦]

واستشكل الواحدي: سببية ذلك القتل للكتب على بني إسرائيل بناءً على أنه لا مناسبة بين واقعة قابيل وهابيل، وبين شديد قتل النفس على بني إسرائيل.[٦١٧]

فالأظهر أن يقال: معنى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ سبب ما ذكر في قصّة قابيل وهابيل من أنواع المفاسد المترتبة على القتل، منها قوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الخاسِرِينَ﴾ [المائدة ٣٠/٥]، ومنها قوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النّادِمِينَ﴾ [المائدة ٣١/٥]،فإنه يندرج في إجمال قوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الخاسِرِينَ﴾، خسارة جميع الفضائل الدينيّة والدنيوية، وفي إجمال قوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النّادِمِينَ﴾ ابتلاؤه بجميع ما يوجب الحسرةَ والنّدامةَ من غير أن يكون لشيءٍ منها ما يدفعه البتَّةَ.[٦١٨]

---

[٦٠٩] **الصحاح** للجوهري، «أجل»؛ **الكشاف** للزمخشري، ٦١٤/١؛ **الدر المصون** للسمين الحلبي، ٢٤٥/٤؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٩٤/٧؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥١٦/٣.

[٦١٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٣/١.

[٦١١] **الكشاف** للزمخشري، ٦١٤/١؛ **الصحاح** للجوهري، «أجل»؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٤٢/٥؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٩٨/٧.

[٦١٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٤٣/٥؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٦ظ.

[٦١٣] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤٢٨/٧.

[٦١٤] **الكشاف** للزمخشري، ٦١٤/١.

[٦١٥] قراءة شاذّة، مروية عن زيد بن علي. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٥٤؛ **الكشاف** للزمخشري، ٦١٤/١ **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٣٨.

[٦١٦] **الكشاف** للزمخشري ، ٦١٤/١؛ **الجامع لأحكام القرآن**، ٤٢٨/٧.

[٦١٧] **الوسيط** للواحدي، ١٨٩/٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٤٤/٥؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٢٩٩/٧.

[٦١٨] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٩٤/١١؛ **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤٢٨/٧.

ولَمَّا كانت قصَّة هابيل وقابيل مشتملًا على تلك المفاسد إجمالًا حسن أن يقال: من أجل كون القتل عدوانًا مشتملًا عليها كتبنا على بني إسرائيل كذا، لكن يلوح أنه لا إشكال في الأوَّل أيضًا؛ لأن وقوع ذلك القتل سبب للكتب والتشديد عليهم، ولولا ذلك لم يكن التشديد بذلك المثابة، وإن حمل ابني آدم على ناقلته من بني إسرائيل فالأمر ظاهر، ثم إن القتل بغير حقٍّ وإن كان حرامًا في جميع الأديان والملل إلا أنه خصَّ بنوا إسرائيل؛ لأنهم أوَلُ أمَّةٍ نزل الوعيدُ عليهم في قتل الأنفس مكتوبًا، وكان قبل ذلك قولًا مطلقًا بسبب طغيانهم، ولأن الجهل، وقسوة القلب، وسفك الدماء، والبعد عن طاعة الله، قد بلغ فيهم إلى أقصى المراتب حتى استحلوا قتل الأنبياء فاحتاجوا إلى مزيد هذا الوعيد بالنسبة إلى غيرهم.

﴿ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾

بغير قتل نفسٍ، يوجب الاقتصاص، ﴿**أَوْ فَسَادٍ**﴾ عطفٌ على ﴿**نَفْسٍ**﴾، أي: بالنظر إلى ظاهر اللفظ، وأمَّا بحسب التحقيق فهو عطف على المضاف المحذوف، أي: قتل نفسٍ ولا يلزم أن يكون المعنى، أو بغير قتل فسادٍ؛ فلذا قيل: أو بغير فساد ﴿**فِي الْأَرْضِ**﴾ كالشِّرك والردَّة، فإن الفساد اسم للكفر قال تع ﴿**إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [القصص ٤/٢٨]، وقطعِ الطَّريق والزِّنا وهو محصن.

قال ع م: «لا يَحِلّ دمُ امرئٍ مسلمٍ إلا بإحدى معانٍ ثلاثة: زنًى بعدَ إحصانٍ، وكفرٌ بعد إيمانٍ وقتلُ مؤمنٍ بغير حقٍّ».[٦١٩]

﴿**وَمَنْ أَحْيَاهَا**﴾: ومن تسبّب لبقاء حياتها بعفوٍ عمن وجب عليه القِصاصُ، أو منع من القتل، أو استنقاذ من بعض أسباب الهَلَكَة، كغَرَقٍ أو حَرَقٍ أو هدْمٍ.[٦٢٠]

ولَمَّا ورد أن يقال: كيف شبّه الواحدَ بالجماعة، أي: فيما لزم من الكلام وإلا ففي الظاهر التشبيه إنما وقع لقتل الواحد بقتل الجميع، ولذا قيل: وكيف جعل حكمه حكمهم؟ أجاب عنه المصنفان:[٦٢١]

أولاً: بأن قتل الواحد كقتل الجميع في هَتْكِ الحرمة، وإزالة الكرامة، وعبارةُ المصنف ليس بتامٍّ في هذا المعنى؛ لأن غايته أن كلَّ واحدٍ فهو في الكرامة وثبوت الحرمة بمنزلة الآخر، وأمَّا أنه بمنزلة الجميع وأن إهانة كرامة، وهتك حرمة بمنزلة إهانة كراماتٍ وهتك حرماتٍ ولا، ما لم يضمّ إليه أن ذلك باعتبار المعنى الجنسيّ، وهو في كلٍّ والكلُّ على السَّواء وهذا مراده،[٦٢٢] وكذا إحياءُ الواحد كإحياء الجميع في إبقاء الحرمة، وحفظ الكرامة.

وعن رسول الله صعلم: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ»[٦٢٣] «ولَوْ أَنَّ أَهلَ السَّماوات وأَهلَ[٦٢٤] الأرضِ اشْتَرَكُوا فِي قَتْلِ مُسْلِمٍ لأَدْخَلَهُمُ النَّارِ».[٦٢٥]

---

[٦١٩] **مسند أحمد**، ٤٩١/١ (٤٣٧)؛ **سنن ابن ماجه**،٥٧٣/٣(٢٥٣٣)؛**سنن أبي داود**، ٢٩٠/٤(٤٥٠٢)؛**سنن الترمذي**، ٤٦٠/٤؛ (٢١٥٨).

[٦٢٠] **الكشاف** للزمخشري ، ٦١٤/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٣/١.

[٦٢١] الزمخشري، والبيضاوي.

[٦٢٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٦ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٢٤٠/٣.

[٦٢٣] **سنن ابن ماجه**، ٨٧٤/٢ (٢٦١٩)؛ **سنن الترمذي**، ١٦/٤؛ (١٣٩٥)؛**سنن النسائي**، ٨٢/٧؛ (٣٩٨٧).

[٦٢٤] ج–وأَهلَ.

[٦٢٥] **سنن الترمذي**، ١٧/٤؛ (١٣٩٨).

وثانيًا: بأن قتلَ الواحد كقتلِ الجميع في استجلاب غضب الله وعقَابِه، كما قال: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾ [النساء، ٩٣/٤].

وإن إحياءَ الواحدِ كإحياء الجميع في استجلابِ سعادة الدَّارين، ولَمَّا ورد أن يقال: سلمنا أن الأمر كذلك، وأنه لا فرق بين الواحد والجميع في ذلك لكن، «ما الفائدة في ذكر ذلك»؟[٦٢٦] أجابا بأنَّ فائدةَ الذكر جعل أمر القتل، والإحياء عظيمًا في القلوب خطيرًا في النفوس، وتصوير كلّ واحد منهما ليمتنعوا عن الأوّل ويرغبوا في الثاني.[٦٢٧]

وقال ابن عباس: «هذا في حقّ مَن قتلَ نبيًّا أو إمامًا عدلًا»،[٦٢٨] فالآيةُ في بني إسرائيل، وكانوا معروفين بقتلِ الأنبياء، وقتلهم كلّ عالم، [**٥١**/و] أو هو في حقّ كلّ مقتولٍ، لكن خُصَّ بني إسرائيل بهذا التَّغليظ، كما خُصُّوا بسائر التَّغلظيات.[٦٢٩]

والصحيح أنه في حقّنا كذلك على ما قرّر، ولأنه لما سنَّ القتل وجرُّه الناس عليه صار سببًا؛ لما وقع في الدنيا من آحاد القتل، فرجع إليه من العذر مثل أوزار من باشرها، ولَمَّا امتنع عنه صار سببًا لامتناع كلّ أحد، ولأنه يجب عليه من القِصاص بقتلها مثل الذي يجب عليه لو قتل الناس جميعًا، ويتخلَّص بالامتناع عن مثل الذي يجب عليه، ولأنَّ نفع الواحد يصل إلى كلّ المؤمنين، وكان يقوم بيدنه في مصالح كلّ المؤمنين وكان يقول بلسانه: اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، فيصل ذلك إلى كلّ المؤمنين.[٦٣٠]

وفيه إشارةٌ لطيفةٌ من الحقِ سبحانه:إن النِّية إذا وقعت من قبل النفس الأمَّارة في شرٍّ وباشرتها، فكأنها باشرت جميع عصيان الله تعالى؛ لأنها لو قدرت على جميعها لَفعلت؛ لأنها أمَّارة بالسوء، ومن السوء خُلقت، فالجزاء يتعلَّق بالنِّيَّة، وكذلك إذا وقعت النيةُ من قِبَل العقل الروحاني في خير وباشرها، فكأنه باشر جميع الخيرات؛ لأنه لو قدر لَفعل، قال عم: «نيَّةُ المؤمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ».[٦٣١]

وفي قوله: ﴿**أَحْيَاهَا**﴾ تجوُّز، فإنه عبارة عن الترك والإنقاذ من الهَلَكَة، وإلا فالإحياء- الذي هو الاختراع- إنما هو لله تع، وإنما هذا الإحياء بمنزلة الإحياء في قوله: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة ٢٥٨/٢][٦٣٢]

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾

أي: ولقد جاء بني إسرائيل هؤلاء ﴿**رُسُلُنَا**﴾ بالآيات الواضحات الدَّالات على صدقهم، والمعجزات الموجبة لتصديقهم، ﴿**ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم**﴾ بعد ما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم من أمثال ذلك الجناية الدَّالة عليها القصة، وأرسلنا إليهم الرسل بالآيات الواضحة؛ تأكيدًا للتَّشديد، وتحديدًا للتَّهديد، وتقريرًا للأمر، وتذكيرًا للعهد؛ كي يتحاموا عنها ولا يقترفوا مثلها، ويتحرَّزوا عنها بكلّ همَّتهم، وبكلّ عزيمتهم ﴿**لَمُسْرِفُونَ**﴾ في الأرض بالقتل، ولا يتحامون عنه، وذلك إشارة إلى المذكور من الكُتُب على بني إسرائيل، ومجيء الرُّسل إياهم بالبينات.

---

[٦٢٦] **الكشاف** للزمخشري، ٦١٤/١.

[٦٢٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٦ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٢٤٠/٣.

[٦٢٨] **اللباب** لابن عادل، ٣٠٢/٧.

[٦٢٩] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٧٣/٥-٣٧٤.

[٦٣٠] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٧٣/٥-٣٧٤.

[٦٣١] **معجم الكبير للطبراني**، ١٨٥/٦ (٥٩٤٢)؛ **عرائس البيان** للبقلي، ٣١١/١.

[٦٣٢] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤٣٠/٧.

والظرفان متعلّق بقوله: ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾ وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ ينبغي أن يحمل على الاستبعاد؛ لأن الإفادة أحسنُ من الإعادة وهو أبلغ أيضًا من جهة المعنى؛ لأن المقصود من الآيات ذكرُ عنادِهم وفسادهم، فوقوع ذلك بعدما ذكر من التهديد والتذكير في غاية الشناعة.

وقيل: المجاوزون حدَّالأمر والنَّهي، ومناقضون الميثاقَ وناقضوه بالعصيان، والكفر، والطغيان.

وقال الكلبي: لمشركون. وقال عطاء: يسرفون على أنفسهم. فمِن قائل: الملائكةُ بنات الله، وقائل: عزير ابن الله، وقائل: المسيح ابن الله، وقائل: الأصنام شركاء الله.

قال مقاتل: المسرفون في سفك الدِّماءِ واستحلال المعاصي.[٦٣٣]

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أوَّلُ ما يُقْضَى يَومَ القِيامَةِ بيْنَ النَّاسِ في الدِّماءِ».[٦٣٤]رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه. وللنسائي أيضًا: «أوَّلَ ما يُحاسَب عليه العبدُ الصَّلاة، أوَّلُ ما يُقْضَى بيْنَ النَّاسِ بالدِّماءِ».[٦٣٥]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رض قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ». قِيلَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ»؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يوم الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ».[٦٣٦]رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

«الْمُوبِقَاتِ»: المهلكات.

وعن ابنِ عمرَ رضي اللَّه عنهما قال قال رسولُ اللَّه صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَالَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا»[٦٣٧].

وقال ابن عمر: «إِنَّ مِنْ وَرَطَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا، سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ»[٦٣٨]رواه البخاري والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

«الوَرَطَاتِ»: جمع وَرْطَة بسكون الراء، وهي الهلكة، وكلُّ أمر تعسر النجاة منه.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لزوال الدنيا أهونُ على الله من قتل مؤمنٍ بغير حقٍّ»،[٦٣٩] رواه ابن ماجة بإسناد حسن، ورواه البيهقي والأصبهاني. وزادا فيه: «لو أن أهل سماواته، وأهل أرضهِ اشتركوا في دم مؤمنٍ لأدخلهمُ الله النار».

---

[٦٣٣] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٧٤/٥-٣٧٥.

[٦٣٤] **صحيح البخاري**، ٢/٩ (٦٨٦٤).

[٦٣٥] **سنن النسائي**، ٨٣/٧ (٣٩٩١).

[٦٣٦] **صحيح البخاري**، ١٧٥/٨(٦٥٨٧)؛ **صحيح مسلم**، ٩٢/١ (٨٩)؛ **سنن أبي داود**، ٧٤/٣ (٢٨٧٤)؛ **سنن النسائي**، **٢٥٧/٦** (٣٦٧١).

[٦٣٧] **صحيح البخاري**، ٢/٩ (٦٨٦٢).

[٦٣٨] **صحيح البخاري**، ٢/٩ (٦٨٦٣).

[٦٣٩] **سنن ابن ماجه**، ٨٧٤/٢ (٢٦١٩).

وفي رواية للبيهقي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَزوالُ الدُّنيا أهونُ على اللهِ من قتلِ رجلٍ مسلمٍ»[٦٤٠] رواه مسلم والنسائي والترمذي مرفوعًا وموقوفًا، ورجح الموقوف.

وروى النسائي والبيهقي أيضًا من حديث بريدة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قتلُ المؤمنِ أعظمُ عندَ اللهِ من زوالِ الدُّنيا».[٦٤١]

وعن معاذ[٦٤٢]رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللهُ أنْ يغفِرَه إلّا الرَّجُلُ يموتُ كَافرًا أَو الرجُلُ يقتُلُ مُؤمنًا مُتعمّدًا».[٦٤٣] رواه النسائي والحاكم.[٦٤٤]

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣)﴾

يحاربون رسول الله، ومحاربة المسلمين [**٥١**/ظ] في حكم محاربته ع م،[٦٤٥] وليس هذا تفسيرًا لقوله: ﴿**وَرَسُولَهُ**﴾، بل لقوله: ﴿**يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾ دلالة على أن ذكر الله للتمهيد.[٦٤٦]

وقوله:«**ومحاربةُ المسلمين في حكم محاربته**»[٦٤٧]تنبيهٌ على أن ما ذكر في الآية من حكم قطّاع الطريق شاملٌ للقطّاع على المسلمين، ولو بعد الرسول بأعصار؛ لأنهم يحاربون الرسول حيث يحاربون من هو على طريقته، وأهل شريعته فلا يتوهّم أنَّ الحكم فيهم بطريق الدلالة والقياس، وما يقال: إنه إشارةٌ إلى أنَّ ذكر الرَّسول تمهيدٌ على تمهيد كلام خالٍ عن التَّحصيل؛ كيف ولا ذكر للمؤمنين بعده.[٦٤٨] هذا تقرير كلام المصنف.

وقال قدس سره: «أي: يحاربون أولياءهما وهم المسلمون، وَجَعَل محاربتهم محاربتهما تعظيمًا»،[٦٤٩]وهذا ينظر إلى أن حملَ الكلام على أصل معناه متعذرٌ؛ لأن محاربةَ الله حقيقةً غيرُ متصوّر، ومحاربة رسوله وإن كان ممكنًا في نفسه إلا أن قطّاع الطريق لا يحاربونه.[٦٥٠]

فشرَّف الله المؤمنين بجعْلِ محاربتهم محاربتهما بقول الله تع: «مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ».[٦٥١]وهو كقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾[الأحزاب ٥٧/٣٣] وقال في هذه: ﴿**وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾ [الحشر ٨/٥٩].

---

[٦٤٠] **سنن الترمذي،** ٦٩/٣ (١٣٩٥)؛ **النسائي،** ٨٢/٧ (٣٩٨٧).

[٦٤١] **سننالنسائي،** ٨٣/٧ (٣٩٩٠).

[٦٤٢]عن معاوية بن أبي سفيان. **سننابن ماجه،** ٨٧٤/٢ (٢٦١٩).

[٦٤٣] **سننالنسائي** ، ٨١/٧ (٣٩٨٤)؛ الطبراني **المعجم الأوسط** ٢١٩/٥ (٥١٣٥).

[٦٤٤] **الترغيب والترهيب** للمنذري، ٢٩٥/٣. تحقيق: عمارة.

[٦٤٥] **الكشاف** للزمخشري، ٦١٥/١.

[٦٤٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٦ظ.

[٦٤٧] **الكشاف** للزمخشري، ٦١٥/١.

[٦٤٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٦ظ-٣٠٧و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف،** ٢٤١/٣.

[٦٤٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٤/١.

[٦٥٠] **حاشية محي الدين شيخ زاده،** ٥١٧/٣.

[٦٥١] **المعجم الأوسط** للطبراني، ١٩٢/١؛ **مجمع الزوائد** للهيثمي، ٢٧٠/١٠.

وقيل: معناه: يخالفون الله ورسولَه، فإنه لا محاربة بدون المخالفة، ثم جعلَ أخذَ مالِ المسلمين بغير حقٍّ محاربةً لله ورسوله بأيِّ طريقٍ كان، فقال في الأخذ قهرًا هكذا، وقال في الأخذ لطفًا ومعاقدةً: ﴿**فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾[البقرة ٢/٢٧٩].[٦٥٢]

وأصل الحرب السلب.[٦٥٣]تقول: حَرَبَه يَحْرُبُه حَرَبًا، مثل طَلَبَه يَطْلُبه طَلَبًا، إذا أَخذَ مالَه وتركه بلا شيءٍ.، وقد حرب الرجل ماله، أي: سلبه فهو محروبٌ وحَرِيب.[٦٥٤]

و﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ**﴾: مبتدأٌ خبره ﴿**أَنْ يُقَتَّلُوا**﴾ وما عطف عليه ﴿**وَيَسْعَوْنَ**﴾ عطف على ﴿**يُحَارِبُونَ**﴾ والسعي: الكسب قال تع: ﴿**وَاَنْ لَيْسَ لِلْاِنْسَانِ اِلَّا مَا سَعٰى**﴾ [النجم٥٣ /٣٩]، أي: كسب، وأصله: المشي بسرعةٍ، فاستعير للكسب والتَّصرُّف؛ لأنه به يحصل غالبًا، ﴿**وَفَسَادًا**﴾ نصبٌ على أنه حالٌ من واو ﴿**يُفْسِدُونَ**﴾ أي: يسعون في الأرض مفسدين، أو ذوي فسادٍ، أو جعلوا نفس الفساد مبالغةً، أو على أنَّه مصدر من غير لفظ الفعل؛ نظرًا إلى جانب المعنى؛ لأن سعيهم في الأرض لما كان على وجه الإفساد، نزل سعيُهم منزلةَ الإفساد؛ كأنه قيل: يفسدون في الأرض فسادًا، أو على أنه مفعولٌ له، أي: ويسعون لأجل الفساد.[٦٥٥]

والظاهر: أن فسادًا اسمُ مصدر قائم مَقامَ الإفساد، فيتضح بذلك التقادم المذكورة، ثم إن المراد بذلك قطع الطريق، والفرق بينه وبين اللُّصوصية التي هي السَرِقة، أن قطع الطريق إنما يكون من قوم مجتمعين، ولهم منعة أي: قوةٌ وشوكةٌ تمنعهم ممن أرادهم بسبب ما يكون بينهم من التَّظاهر، ويتعرضون دماءَ المسلمين وأهلَهم وأموالهم، وهذه القوة غيرُ معتبرة في اللصوصية، وإن كان اللص مكابرًا مجاهرًا في أخذ المال والنهب. والقوم الموصوفون بهذه القوة إذا اجتمعوا في الصحراء فهم قطَّاع الطريق بالاتِّفاق. وإذا اجتمعوا في الأمصار فكذلك عند الشافعي.[٦٥٦]

وعن أبي حنيفة: أنهم إن قصدوا في المصر بالسلاح يجري عليهم أحكامُ قطَّاع الطريق، وإن قصد بالحجر أو الخشب، فإن كانوا خارج المصر فكذلك الحكمُ، وإن كانوا بقربٍ منه أو في المصر فإن كان بالليل فكذلك أيضًا، وإن كان بالنهار لا يجري عليهم حكمُ قطَّاع الطريق، واستحسن المشايخ هذه الرواية وبه يفتى.

﴿أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾

قيل: «الإمام مخيَّر بين هذه العقُوبات في كلِّ قاطع طريقٍ من غيرِ تفصيل»،[٦٥٧] نظرًا إلى أن كلمة ﴿**أَوْ**﴾ للتَّخيير حقيقةً، فيجب العمل بها إلى أن يقومَ دليل المجاز، ولأنَّ قطع الطريق في ذاته جنايةٌ واحدة، وهذه الأجزية ذُكرت بمقابلتها فيصلح كلُّ واحدٍ جزاءً له، فيثبت التخييرُ كما في كفَّارة اليمين، والجواب: لا يمكن القول بالتخيير ههنا؛ لأن الجزاء على حَسَب الجناية ويزداد بزيادتها وينتقص بنقصانها، قال تع: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلِهَا﴾ [الشورى٤٢/٤٠]، فيبعد أن يقال: عند غِلَظِ الجناية يُعاقَب بأخفِّ الأنواع وعند خفَّتِها بأغلظها، وذلك لأن المحاربةَ تتفاوت إلى أنواعها في صفة الجناية من تخويفٍ أو أخذ

---

[٦٥٢] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٧٦/٥.

[٦٥٣] **أنوار التنزيل** للبيضاوي ، ٤٣٤/١.

[٦٥٤] **لسان العرب** لابن منظور، «حرب»؛ **الصحاح** للجوهري، «حرب»؛ **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥١٧/٣.

[٦٥٥] **الدر المصون** للسمين الحلبي، ٢٤٥/٤؛ **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥١٧/٣–٥١٨.

[٦٥٦] **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥١٧/٣–٥١٨.

[٦٥٧] **الكشاف** للزمخشري، ٦١٥/١.

مالٍ، أو قتل نفسٍ، أو جمع من القتل وأخذ المال، والمذكور في الآية من الأجزية متفاوتةٌ في معنى التشديد والغِلظة، فوقع الاستغناء بتلك المقدِّمة عن بيان تقسيم الأجزية على أنواع الجناية نصًّا، وهذا التقسيم يرجع إلى أصلٍ لهم، وهو أن الجملة إذا قوبِلت بالجملة ينقسم البعض على البعض، كما يقال لمن سأل عن حدودِ الكبائر: هي جَلدُ مائة، أو ثمانين، أو الرجم، أو القطع، يُفهم منه التقسيمُ والتفصيلُ لا التخيير، فكذا ههنا، فظهر أن معنى الآية: أن جزاء المحاربين لا يخلوا من هذه الأنواع: إما أن يُقتلوا من غير صَلبٍ إذا أفردوا القتل، أو يُصلَّبوا مع القتل إذا جَمَعوا بين[**٥٢**/و] أخذ المال والقتل.[٦٥٨]

فقيل: يُقتل ويصلَّى عليه، ثم يُصْلَب. وقيل: يُصلب حيًّا ويترك إلى أن يموت مصلوبًا.

وعن أبي حنيفة ومحمد: يُصلب حيًّا ويُطعن حتى يموتَ.[٦٥٩]

﴿**أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ**﴾ إذا أفردوا الأخذ، ﴿**أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ**﴾ إذا أفردوا إخافة السابلة، والقياس الجلي يقتضي هذا التفصيلَ أيضًا، فإن القتل العمد بغير حقٍّ يوجب القصاصَ، فغلظ ذلك في قاطع الطريق حيث وجب قتلُه حدًّا ولم يسقط ذلك بعفو الولي. وأخذ المال يتعلَّق به القطع إذا وقع من غير قاطع الطريق، فغلَّظ ذلك في قاطع الطَّريق بقطع الطرفين، وإن جمعوا بين القتل وأخذ المال جمع في حقهم بين القتل والصلب؛ لأن بقائه مصلوبًا في ممرّ الطريق يكون سببًا لاشتهار هذه العقوبة، فيصير ذلك زاجرًا لغيره عن الإقدام على مثل هذه المعصية. وأمَّا إذا اقتصر على مجرد الإخافة فقد اقتصر الشرع فيه على عقوبة حفيفة، وهي النفي من الأرض. واختلفوا في تفسير النفي من الأرض، فقيل: إن الإمام يطلبه ففي أيِ بلدٍ يوجد ينفيه عنه ولا يمكنه من القرار.[٦٦٠]

وقيل: يُنفى من بلده، وكانوا ينفونَهم إلى «دَهْلَك» وهو بلد في أقصى تهامة، و«ناصِع» وهو من بلاد الحبشة.[٦٦١]

وقيل: إن الإمام إن وَجد منهم مَن اقتصر على القتل، أو على أخذ المال، أو على من جَمَع بينها أقام عليه الحدَّ المختصَّ به، وإن لم يجدهم طلبهم أبدًا حتى إذا قدر عليهم فعل بهم ما ذكرناه.

وقال أبو حنيفة: هو الحبس وكونهم خائفين من الإمام هاربين من بلدٍ إلى بلدٍ هو المراد من النفي؛ لأن المحبوس يكون سبب الجنس منفيًا من جميع الأرض لازمًا بمكان الحبس غير منتفع بشيءٍ من الطَّيِّبات مفارقًا عن أصحابه لازمًا بتلك البقعة الصغيرة كلزوم الأموات القبور.

وقال بعض من حُبس على تهمة الزندقة في مَحْبس مضيقٍ وطال مكثه هناك:

خَرَجْنَا مِن الدُّنيا وَعَنْ وصل أهلها فَلَسْنَا مِنَ الأَحْيَاءِ فيها وَلَا الْمَوْتَى

إذا جَاءَنَا السَّجَّان يومًا لحَاجَةٍ عَجِبْنَا وَقُلْنَا: جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيا[٦٦٢]

---

[٦٥٨] **فتوح الغيب**، ٣٤٦-٣٤٧.

[٦٥٩] **الكشاف** للزمخشري، ٦١٥/١.

[٦٦٠] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٢٢١/١١-٢٢٢؛ **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥١٨/٣.

[٦٦١] **الكشاف** للزمخشري، ٦١٥/١.

[٦٦٢] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٢٢١/١١-٢٢٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٣٠٩/٧؛ **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤٣٠/٧؛ **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥١٧/٣.

ورجح ذلك بأن النفي من بلدٍ إلى آخر إن كان إلى دارِ الإسلام فيعود بهم، وإن كان إلى دار الكفرِ فيكون تعريضًا له بالرّدة.

﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

ذلك إشارة إلى ما ذكر من الجزاء الفظيع، وهو في محل الرّفع على الابتداء و﴿لَهُمْ﴾ خبرٌ مقدَّمٌ مبتدأه ﴿خِزْيٌ﴾ والجملة خبر الأول، أي: ذلٌّ وفضيحةٌ في الحياة الدنيا، ولهم مع تلك الفضيحة في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يستحقر عنده ذلك و﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم مبتدأه: ﴿عَذَابٌ﴾ ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ متعلّقٌ به، أو صفةٌ له، ولما تقدّم انتصب حالًا عنه، و﴿عَظِيمٌ﴾ صفة ﴿عَذَابٌ﴾[٦٦٣]

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤)﴾

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ استثناءٌ مخصوصٌ بما هو حقّ الله، ويدل عليه: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وأما ما يتعلّق منها بحقوق الآدميين فإنه لا يسقط بهذه التوبة، فإن قطّاعَ الطريق إذا قتلوا إنسانًا، ثم تابوا قبل القدرة عليهم يسقط عنهم بها وجوبُ قتله حدًّا، وكان ولي الدّم على حقِّه في القصاص والعفو، وإن أخذوا، ثم تابوا قبل القدرة عليهم يسقط عنهم بها وجوبُ قطع أيديهم وأرجلهم من خلافٍ، وكان حقُّ صاحبِ المال باقيًا في ماله وجب عليهم ردُّه، وإن أخافوا المسلمين، ثم تابوا سقط عنهم ما بها النفي من الأرض، وتقبل التوبة بالتقدم على القدرة عليهم، يدلُّ على أن التوبة بعد القدرة علهم لا تسقط الحدود، مذكورة وإن أسقطت العذابَ في الآخرة، وأن الآية في قُطَّاع المسلمين؛ لأن توبةَ المشرك تدرأ عنه العقوبةُ قبلَ القدرة وبعدها.[٦٦٤]

لكن يشكل ذلك بقول المصنف: «نزلت في قوم هلالِ بن عُوَيْمِرٍ، وكان بينه وبين رسول الله عهدٌ، وقد مرَّ بهم قومٌ يريدون رسولَ الله، فقطَعوا عليهم. وقيل: في العُرَنِيِّين».[٦٦٥]

ويقول **النحرير**[٦٦٦]: فسّر الآية على وجهٍ يوافق التنويع والتفصيل المذكور هناك، ويدلُّ على أن هذا الحكم لا يخصُّ قاطع الطَّريق الكافر على ما يُفهم من ظاهر ﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، لا من نزول الآية في الكفَّار إذ العبرة لعموم اللَّفظ، لا لخصوص السبب.[٦٦٧]وذللك لأنه يدل على أنه يعُمُّ الكافر، والتقييدُ المذكور ينافي ذلك؛ لأن التوبةَ قبل القدرة عليه وبعده، سواء في حقِّه في درء العقوبة عنه.

وقال القشيري: السّعيُ بالفساد على ضربين؛ بالظاهر، وعقوبتُه هذه الظَّواهر وبالباطن وعقوبتُه واردةٌ على السَّرائر، وذلك بقطعِ ما كان متَّصِلًا من وارداتِ الحقّ، والسِّتر بعد الكَشْف، والحجاب بعد البَسط، واستشعار الوَحْشَة بعد

---

[٦٦٣] **الدر المصون** للسمين الحلبي، ٢٥١/٤.

[٦٦٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٤/١؛ **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥١٩/٣.

[٦٦٥] **الكشاف** للزمخشري، ٦١٥/١.

[٦٦٦] هو السَّعْد التَّفْتَازاني (٧٩٣هـ/١٣٩٠م) هو مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، سعد الدين: من أئمة العربية والبيان والمنطق. ولد بتفتازان (من بلاد خراسان) وأقام بسرخس، وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند، فتوفي فيها، ودفن في سرخس. كانت في لسانه لكنة. من كتبه (تهذيب المنطق – ط) و (المطول – ط) في البلاغة، و (حاشية على شرح العضد على مختصر ابن الحاجب – ط) في الأصول، و (التلويح إلى كشف غوامض التنقيح – ط) و (شرح التصريف العزي – ط) في الصرف، وهو أول ما صنّف من الكتب، وكان عمره ست عشرة سنة. **الاعلام** للزركلي ٢١٩/٧.

[٦٦٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٧و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٢٤٢/٣.

الأُنس، وتبديل تَوالي التَّوفيق بتتابعِ صنوفِ الخِذلان، والنَّفي عن بساطِ العبادة، والإخراج إلى متابعات النُّفوس، في ذلك – والله – خزيٌ عظيمٌ، وعذابٌ أليم.

وقال في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾: مَن أقلع عن معاصيه، وارتدعَ عن ارتكاب مساويه، قبل أن يهتك عنه سِتْرُ السَّداد، لا تقام عليه في الظاهر حدودُ الشريعة، [٥٢/ظ] ولا يؤاخذُه الحقُّ بسَالف الجريمة، وإذا قَدَر عليه قبلَ إظهار التوبة، أقام عليه الحدَّ وإن تَقنَّع بقناع التَّقوى والخشية، وكذلك إذا سقطَ العبدُ عن عينِ الله لا يصل بعدَه إلى ما كان عليه من تقريبِ الله إيَّاه بالمشاهدة.[٦٦٨]

ومن ذلك قيل: من أساء الأدب على البساط ردّ إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب ردٌّ إلى اصطبل الدَّواب.

وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أسرَعُ الخَيْرِ ثَوَابًا البرُّ وصِلَةُ الرَّحِمِ، وأَسْرَعُ الشَّرِّ عُقُوبَةً البَغْيُ وقَطِيعَةُ الرَّحِم»[٦٦٩]

وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: « مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِى الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنَ الْبَغْىِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ».[٦٧٠]رواه ابن ماجه والترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥)﴾

﴿**إِلَيْهِ**﴾ متعلّق بـ﴿**ابْتَغُوا**﴾، أو بنفس ﴿**الْوَسِيلَةَ**﴾؛ لأنها بمعنى المتوسّل به، وليست بمصدرٍ، حتى يمتنع أن يتقدَّم معمولها عليها، ويحتمل أن يتعلّق بمحذوفٍ على أنه حالٌ من ﴿**الْوَسِيلَةَ**﴾ ، أي: ابتغوا الوسيلة موصلة إلى ثوابه.

والوسيلة: كل ما يُتَوسَّل به؛ أي: يُتقرَّب من قرابةٍ أو صنيعةٍ أو غير ذلك، فاستُعيرت لما يُتوسَّل به إلى الله من فعل الطَّاعات، وترك المعاصي وأنشد للبيد:

أَرَى النَّـاسَ لا يَـدْرُونَ مـا قَـدْرُ أَمْـرِهِمْ ... أَلَا كُــلُّ ذِي لُــبٍّ إِلَى اللهِ وَاسِــلُ[٦٧١]

«أي: لا يَدْرُون ما خَطَر بشأنهم الذي هم فيه المراد بالواسل المتقرّب، أو ذو الوسيلة على طريقة لابِنٍ وتامِر، ففي الجملة تدل على أن معنى الوسيلة ما يتقرَّب به، وحمله على كلِّ ذي لبٍّ يشعر بأنه يعمُّ فعلَ الطاعات وترك المعاصي».[٦٧٢]

وقال قدس سرُّه:[٦٧٣] وفي الحديث «الوَسِيلَةُ مَنْزِلَةٌ فِي الجَنَّةِ»،[٦٧٤] إن أراد به ذكر ذلك بالمناسبة اللفظية، فالأمر ظاهرٌ، وإنْ أراد تفسيرها بها فلا يلائم ظاهرَ النَّظم؛ لأن الظَّاهر ح أن يقال منه الوسيلة، اللهم إلا أن يقال: التقدير: وابتغوا متقربًا إليه

---

[٦٦٨] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٢٦٢/١-٢٦٣؛ **التيسير في التفسير** للنسفي، ٣٧٩/٥.

[٦٦٩] **سنن ابن ماجه**، ٢٩٧/٥ (٤٢١٢).

[٦٧٠] **سنن ابن ماجه**١٤٠٨/٢ (٤٢١١)؛ **سنن الترمذي**، ٦٦٤/٤ (٢٥١١).

[٦٧١] **ديوان لبيد بن ربيعة العامري** لَبِيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري، اعتنى به: حمدو طمّاس، دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م، ص ٨٥؛ **الكشاف** للزمخشري، ٦١٥/١-٦١٦

[٦٧٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٤٨/٥؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٧و.

[٦٧٣] هو: البيضاوي.

[٦٧٤] **السنن الكبرى** للبيهقي، ٦٠٣/١ (١٩٣٠).

الوسيلة مع أنه غير ملائم أيضًا سباقًا وسياقًا، ولما كان ذلك الابتغاء أمرًا عسيرًا وشأنًا خطيرًا جعل مقدمته التقوى، وساقته المجاهدة في سبيله بمحاربة أعدائه الظَّاهرة من الكفَّار والمعاندين، وأعدائه الباطنة من النفوس الأمَّارة والشياطين.

وقال فخر الدين:[٦٧٥] التكليف نوعان: ترك المنهيات، وإليه الإشارة بالتقوى، وفعل الطَّاعات، وإليه الإشارة بطلب الوسيلة والترك مقدَّم على الفعل بالذَّات؛ لأنه بقاء على العدم، والفعل إيجادٌ وتحصيل، فلذلك قُدِّم التقوى، ثم لما أمر بترك ما لا ينبغي أوَّلًا، وفعل ما ينبغي ثانيًا، وكلّ منهما شاقٌّ على النَّفس المائِلة إلى اللذَّات الجسمانيَّة والشَّهوات الحيوانيَّة أمر على مقتضى الفعل الداعي إلى خدمة الله المفضي إلى الفلاح الأبدي بقوله: ﴿**وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾.[٦٧٦]

وشيخنا **جمال الدين القرماني**:[٦٧٧] ههنا كلامٌ يتعلَّق بتحقيق التقريرين واعتبار الوجهين، وقد علَّقه على حواشيه لتفسيره قدس سره،[٦٧٨] ومن أراد الاطِّلاع عليه فَلْيَطلبْ من معدنه.

وقيل: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾، ولا تُؤذوا عبادَ الله، وثِقُوا بوعد الله، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهِ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة، ٢٧/٥].

﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾: القُربة بالتَّقوى، فلا يُقَرِّبُكم إليه غيرُه، لا كما يفعله هؤلاء اليهود بالتَّوسُّل بآبائهم، والإفراط في ذلك، حتى يقولوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة، ١٨/٥].

﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ هؤلاء اليهودَ وسائرَ الكفَّار.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: لتأمنوا ما تخافون، وتنالون ما تَرجون.[٦٧٩]

---

[٦٧٥] أي: فخر الدين الرازي.

[٦٧٦] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٢٢٥/١١-٢٢٦.

[٦٧٧] هو الشَّيْخ جمال الدّين اسحق القرماني الْمَعْرُوف بِجَمَال خَليفَة (ت.٩٣٣هـ/١٥٢٧م). كَانَ رَحمَه الله تَعَالَى مشتغلا بِالْعلمِ الشريف وَكَانَ مشهودا لَهُ بِالْفَضْلِ بَين أقرانه وَقَرَأَ على الْمولى الْفَاضِل قَاضِي زاده ثمَّ وصل الى خدمَة الْمولى مصلح الدّين الْقُسْطَلَانِيّ وَكَانَ يكْتب الْخط الْحسن واستكتبه السُّلْطَان مُحَمَّد خَان الكافية فِي النَّحْو واعطاه بَعْضًا من المَال وَحج بذلك ثمَّ جَاءَ الى قسطنطينية حكى نَفسه انه قَالَ كَانَ مَعَ بعض رُفَقَائِي من الْحجَّاج مصحف بِخَط ارغون الْكَاتِب وأخذته مِنْهُ وأتيت بِهِ الى الْمولى الْقُسْطَلَانِيّ وَعند ذَلِك كَانَ قَاضِيا بقسطنطينية فَنظر الى الْمُصحف الشريف وَقَالَ كم درهما يُرِيد صَاحبه قلت سِتَّة آلَاف دِرْهَم فَقَالَ كثير وَدفع الْمُصحف الي وَعند ذَلِك أُتِي افراس من بِلَاد قرامان وَاشْترى وَاحِدًا مِنْهَا بِعشْرَة آلَاف دِرْهَم قَالَ فَقلت فِي نَفسِي اني لَا أصير فِي طَرِيق الْعلم مثل الْمولى الْقُسْطَلَانِيّ وَمَعَ ذَلِك هَذِه حَاله فِي آخر عمره وَكَانَ ذَلِك سَببا لانقطاعي عَن طَرِيق الْعلم وميلي الى طَرِيقَة التصوف ثمَّ وصل الى خدمَة الشَّيْخ حبيب واشتغل عِنْده بالرياضات القويمة والمجاهدات الْعَظِيمَة حَتَّى اجاز لَهُ بالارشاد وَقعد مُدَّة فِي بِلَاد قرامان ثمَّ أَتَى مَدِينَة قسطنطينية وَبنى لَهُ الْوَزير يري باشا زَاوِيَة وَقعد فِيهَا الى أَن مَاتَ كَانَ رَحمَه الله تَعَالَى ماهرا فِي التَّفْسِير وَكَانَ يعظ النَّاس وَيذكرهُمْ ويلحقه عِنْد التَّذْكِير وجد وَحَال وَرُبمَا يبكي ويصيح وَرُبمَا يغلب عَلَيْهِ الْحَال ويلقي نَفسه عَن الْمِنْبَر وَكَانَ لَا يسمع صَوته أحد الا وَيحصل لَهُ حَال وَكم من فَاسق تَابَ من فسقه عِنْدَمَا رأى أَحْوَاله وَرَأَيْت كَافِرًا سمع صَوته من بعيد حَتَّى دخل الْمَسْجِد وَأسلم على يَدَيْهِ وَكَانَ متواضعا متخشعا صَاحب أَخْلَاق حميدة وَكَانَ عابدا زاهدا ورعا تقيا نقيا وَكَانَ متعبدا بالليالي يتَضَرَّع الى الله تَعَالَى ويناجيه وَكَانَ يَسْتَوِي عِنْده الْغَنِيّ وَالْفَقِير وَكَانَ متطهرا يغسل ثِيَابه بِنَفسِهِ مَعَ مَاله من ضعف المزاج وَقد عدته فِي مرض مَوته فطلبت مِنْهُ الْوَصِيَّة فَقَالَ لَا تسلك مسالك الصُّوفِيَّة اذ لم يبْق لَهَا الْيَوْم اهل وَقَالَ التَّوْحِيد والالحاد يصعب التَّمْيِيز بَينهمَا وَرُبمَا لَا يقدر على التَّمْيِيز بَينهمَا فالوقوف على طريقتك اسْلَمْ مِنْهَا ثمَّ قَالَ فان غلب عَلَيْك خاطرك بالميل الى التصوف فاختر من الْمَشَايِخ من كَانَ ثَابت الْقدَم فِي الشَّرِيعَة وان رايت فِيهِ شيأ يُخَالف الشَّرْع وان كَانَ قَلِيلا فاحترز مِنْهُ فان مبْنى الطَّرِيقَة رِعَايَة الاحكام الشَّرْعِيَّة وآدابها كلهَا هَذِه وَصيته لي ثمَّ توفّي بعد يَوْمَيْنِ فِي سنة ثَلَاث وَثَلَاثِينَ وَتِسْعمِائَة قدس سره. **الشقائق النعمانيه في علماء الدوله العثمانيه** لطاشكبري زاده، ٢٢٢-٢٢٣.

[٦٧٨] ج ــ قدس سره.

[٦٧٩] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٢٦٢/١-٢٦٣؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ، ٣٧٩/٥.

وعن بعض العارفين: اتقوا الله في النَّظر إلى غيره، وابتغوا إليه الوسيلة بنصب التقوى، ولا يكون عندكم الوسيلة إليه شيئًا دونه؛ لأنه هو الوسيلة إليه. ألا ترى إلى قول الشاعر:

أيا جود مَعْنٍ ناج معنا بحَاجَتِي ... فليس إلى مَعْنٍ سِوَاهُ شَفِيعُ

وسيلته محبته ومعرفته والاستعانة به عنه.[٦٨٠]

وقال محمد بن علي: الوسيلة: الرِّضاء بالقضية، والصبر على الرَّزِية، ومجاهدة في سبيله وصبر على عبادته.

وقال ابن عطاء: الوسيلة: القُربة بآداب الإسلام وآداب الفرائض لدخول الجنة والنجاة من النار.

وقال الحسين: ﴿**ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾ التي كانت لكم مني إليَّ لا منكم إليّ، والوسيلة ما منه إليك من غير سببٍ ولا سؤالٍ.[٦٨١]

وقال القشيري: ابتغاءُ الوسيلة: التَّبرِّي عن الحول والقوّة، والتَّحقق بشهود الطُّول والمنَّة.

ويقال: ابتغاءُ الوسيلة إليه بما سبق إليك من إحسانه.

ويقال: هو استدامةُ الصِّدق في الولاء إلى آخر العمر.

ويقال: هو تجريدُ الأعمال عن الرِّياء، وتفريدُ الأحوال عن الإعجاب، وتخليص الأنفاس عن الحظوظ.[٦٨٢]

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦)﴾

﴿**مَا فِي الْأَرْضِ**﴾ اسم ﴿**أَنَّ**﴾، و﴿**لَهُمْ**﴾ خبرُها قدّم على الاسم، و﴿**جَمِيعًا**﴾ تأكيدٌ له، أو حال منه، ﴿**وَمِثْلَهُ**﴾ منصوب بالعطف على اسم ﴿**أَنَّ**﴾ وهو ﴿**مَا**﴾ الموصولة.

و﴿**مَعَهُ**﴾ ظرفٌ واقعٌ موقعَ الحال من ﴿**مِثْلَهُ**﴾، و«اللام» [**٥٣**/و]متعلّقةٌ بمحذوفٍ يستدعيه «لو»؛ فإن حرفَ الشرط يستدعي الفعل لفظًا أو تقديرًا، أي: لو ثبت أن لهم ما في الأرض و﴿**لَوْ**﴾ مع ما في حيِّزه خبر ﴿**إِنَّ**﴾، ولما ورد أن يقال: لِمَ وحد الضميرُ في ﴿**بِهِ**﴾ وقد ذكر شيئان: ما في الأرض ومثله معه؟ أجيب عنه أولًا بأنه نحو قوله:

دَعَاك الْهَوى والشَّوقُ لما تَرَنَّمت ... هُتوفُ الضُّحى بين الغُصون طَروبُ
تجاوبها ورقُ الحمام بصَوْتها ... فكلٌّ لكُلٍّ مُسْعِدٌ وَمُجِيبٌ
ومن يك أمسى بالمدينة رَحْلُه ... فإني وقيَّار بها لغَرِيبٌ[٦٨٣]

---

[٦٨٠] **عرائس البيان** للبقلي، ٣١٢/١.

[٦٨١] **حقائق التفسير** لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى السلمي، تحقيق: سيد عمران، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ١٧٧/١.

[٦٨٢] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٢٦٣/١؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٨٠/٥-٣٨١.

[٦٨٣] هذه الأبيات لضابئ بن الحارث البرجمي؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٤٩/٥؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٧ظ.

«قيَّار»: اسمُ جَمَلٍ للشَّاعر، أو غلام، أو فرس له، وقيل: المراد الوصف، أي: أسودُ كالقيار. وقوله: «**لَغَرِيبُ**» خبر «إنَّ»، وخبر «قَيَّار» محذوفٌ، أي: قيَّار أيضًا غريبٌ، فكذا ههنا فضمير ﴿**لِيَفْتَدُوا بِهِ**﴾ لما في الأرض، والعائد إلى مثله محذوفٌ، أي: ومثله ليفتدوا به، كما حذف الخبر في «قيَّار»، وقد يقدَّر ليفتدوا به وبمثله، فحذف بمثله، أو ليفتدوا به، وبه ليرجع الأول إلى ما، والثاني إلى مثله وليس بذاك، وثانيًا: بإجراء الضمير مُجرى اسم الإشارة، كأنه قيل بذلك كقوله: ﴿**عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ**﴾ [البقرة، ٢/٢٧].

وثالثًا: بأن «الواو» في ﴿**وَمِثْلَهُ**﴾ بمعنى «مع»، ومرجعُ الضمير شيءٌ واحدٌ وهو ما في الأرض بمقارنة مثله، أو المجموع وردَّ بأن النظم ح يكون في قوة أن يقال: مع مثله معه، أي: مع مثل ما في الأرض مع ما في الأرض، ولا فائدة فيه؛ لأنه إذا استقرَّ لهم ما في الأرض مع مثله كان مثله معه، ولا يفيد ذكر معه، وأيضًا ناصبُ المفعول معه الفعل الذي يستدعيه «لو» فيلزم كون عامل المفعول معه مغايرًا لعامل صاحبه؛ لأن العامل في ﴿**وَمِثْلَهُ**﴾ ثبت المقدر وفي صاحبه وهو ما في الأرض كلمة «إن»؟

وأجيب: عن الأول بأن معه للتأكيد للمعيَّة المستفادة من المفعول معه، وعن الثاني: بأن كلمة «إن» مع اسمها وخبرها في تقدير المصدر، أي: لو ثبت حصول ما في الأرض ومثله لهم للاقتداء ﴿**مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ**﴾ فالعامل في ﴿**وَمِثْلَهُ**﴾ ثبت وهو العامل في مصاحبه وهو حصول ما في الأرض، لكن لا يخفى أن المصاحب أعني: ما في الأرض ليس معمولًا لذلك الفعل المحذوف، ولا متعلِّقًا به من جهة المعنى، بل بمعنى الحصول المستفاد من الظَّرف الواقع خبر «أنَّ» أعني: حصل لهم، ولا يجوز أن يجعل هو العامل في المفعول معه؛ لأنه إذا كان العامل معنًى، وجاز العطف تعيَّن العطف مثل: ما لزيد وعمرو بالجرِّ، ولا يجوز وعمروًا بالنَّصب.[٦٨٤]

والجملةُ تمثيل للزوم العذاب لهم لا بمعنى الاستعارة التمثيلية، بل إيراد مثال وحكم يُفهم منه لزوم العذاب لهم، أي: لم يقصد بهذا الكلام إثبات هذه الشرطية، بل انتقال الذهن منه إلى هذا المعنى، وبهذا الاعتبار يقال: إنه كناية فإن هذه الجملة، بل هذه الملازمة المدلولة لها لازمةٌ لها للزوم العذاب، وكني بها عنه، ويمكن أن يكون كناية عن أن الوسائل حينئذ غيرُ نافعةٍ فتكون وزان الآية مع قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾[المائدة٥/٣٥]، وأن قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [البقرة، ٢/٢٥٤]، ويمكن تنزيلُه على التمثيل الاصطلاحي بأن يقال: حالهم في عدم التَّقصي من العذاب بمنزلة حال من يكون له أمثالُ ما في الأرض، يحاول بها التخلُّص من العذاب فلا يتقبل منه ولا يتخلَّص.[٦٨٥]

﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ تصريح بالمقصود وكذا ما بعده.

وعنه عم: «يُقَالُ للكافِرِ يومَ القِيامَةِ: أَرَأَيتَ لَوْ كَانَ لكَ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا، أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقولُ: نَعَمْ، فيُقالُ لَهُ: قدْسُئِلْتَ أَيْسَرُ مِن ذلكَ».[٦٨٦] يعني: كلمة الشهادة.

﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٧)**﴾

---

[٦٨٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٧ظ. .

[٦٨٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٧ظ؛ **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، ٣/٤٦٩.

[٦٨٦] **صحيح مسلم**، ٤/٢١٦١ (٢٨٠٥).

قال المصنف: «ما يُروى عن عكرمة: أن نافعَ بن الأزرق قال لابن عباس: يا أعمى البصر أعمى القلبِ، تَزعم أن قومًا يُخرجون منَ النار وقد قال الله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾. فقال: ويحك! اقرأ ما فوقها، هذا للكفَّار؛ فَمِمَّا لَفَّقته المجبرةُ وليس بأوَّل تَكَاذيبِهم وفراهم. وكَفاك بما فيه من مواجهة ابن الأزرق ابنَ عمِّ رسول الله وهو بين أظهر أعضاده من قريشٍ وأنضاده من بني عبد المطلب، وهو حَبر الأمة وبحرها، بالخطاب الذي لا يَجْسُر على مثله أحدٌ من أهل الدنيا، ويرفعه إلى عكرمة، دليلين ناصَّين أن الحديث فريةٌ ما فيها مريةٌ».[٦٨٧]

فقوله «ويرفعه»: عطفٌ على «بما فيه»، والضميران لـ«ما يروى»، و«الفِرى» جمع فرية، وهي النوع من الافتراء، و«المرية»: الشك،[٦٨٨] يعني: أن ما فيه من المواجهة، ورفعه إلى عكرمة دليلان على كذِب الحديث، أما مواجهة ابن الأزرق فلأنه يهوديٌ منافقٌ كيف يواجه ابن عمِّ رسول الله بذلك الخطاب الشنيع بين أعضاده، وأما رفع عكرمة فلأنه مولى ابن عباس فكيف يَنْقُل مثلَ هذه العبارة في حقِّ مولاه؟[٦٨٩]

قال صاحب «**الجامع**»: عكرمة كان مولًى لابن عباسٍ، أصله من بَرْبَر، أحد فقهاء مكَّة وتابعيها، قيل لسعيد بن جبيرٍ: هل أحدٌ أعلمُ منك؟ قال: عكرمة؟[٦٩٠] فعرض المصنف تكذيب نسبه هذا المذهب، وهو خروج قوم من النار إلى ابن عباس، وإلا فلا شكَّ أن الآية في حقِّ الكفَّار، فيقال: إن أهلَ السنة ما ناقلوها، ولا يتمسَّكون بها، بل بالأحاديث الصحيحة المخرَّجة في كتب [**٥٣**/ظ] الأئمة المتقِين مثلَ البخاري ومسلم وأبي داود والتِّرمذي وغيرهم، وبالتخصيص الذي يفيده التقديم كما سبق في البقرة، فلينظر هناك، وروينا في **مسند أحمد بن حنبل**، عن طَلْقِ بن حَبِيب قريبًا مما رُوِي من حديث عكرمة، قال: «كنت من أشد الناس تكذيبًا بالشَّفاعة، حتى لقيتُ جابر بن عبد الله، فقرأتُ عليه كلَّ آية ذَكَر الله فيها خلودَ أهل النار، قال: فإن الذي قرأتَ هم أهل المشركون، لكن قومًا أصابوا ذنوبًا، فعذّبوا بها ثم أُخرجوا، صُمَّتا–وأهوى بيده إلى أذنيه– إن لم أَكُنْ سمعتُ رسول الله، يقول: «يخرجون من النَّار»،[٦٩١] ونحن نقرأ ما تقرأ.[٦٩٢]

ثم إن قوله تع: ﴿**يُرِيدُونَ**﴾: يَطمعون، كما يقول الرجل لآخر: إنَّما يريد أن تعطيني كذا؛ أي: أطمع، وهو كقولهم: ﴿**لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً**﴾[اليقرة، ٢/ ٨٠] قال الشاعر:

يُرِيدُ المرءُ أَن يُعطَى مُناهُ　　　وَيَأبَى اللهُ إِلّا مَا أَرادَ[٦٩٣]

فمعناه: يَطمعون اليومَ أَنْ يَخْرُجوا منها غدًا، فقطع طمعَهم بقوله: ﴿**وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا**﴾.

وقيل: معناه: يَتمنَّون في النَّار أن يخرجوا منها، ولا يكون ما يَتمنَّون.

وقيل: هو قصدُهم في النَّار إليه، ولا يتمكَّنون منه، قال تع: ﴿**كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا**﴾ [السجدة ٣٢/ ٢٠].

---

[٦٨٧] **الكشاف** للزمخشري، ٦١٧–٦١٨.

[٦٨٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٧ظ؛ **حاشية الشهاب**، ٤٦٩/٣.

[٦٨٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٥٠؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٧ظ.

[٦٩٠] **تتمة جامع الأصول في أحاديث الرسول**، ٧٠٦/١٢.

[٦٩١] **مسند أحمد**، ٤٠٤/٢٢ (١٤٥٣٣).

[٦٩٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٥٠–٣٥١.

[٦٩٣] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٨٢/٥.

وقيل: هو سؤالهم الإخراجَ من النَّار، يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾. [فاطر ٣٧/٣٥].

وقيل معناه: يكادونَ يَخرجون منها إذا رفعَتهم بلهبها، وهو كقوله: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ [الكهف ٧٧/١٨].[٦٩٤]

وقرئ: «أن يُخْرَجُوا»[٦٩٥] من «أخرج»، ويشهد لقراءة العامَّة قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ﴾،[٦٩٦] وعدل إليه مع أن قوله: ﴿أَنْ يَخْرُجُوا﴾ يقتضي أن يقال: وما يخرجون للمبالغة؛ ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ وهو الخلود للكفَّار، وصدرُ الآية فيهم.

قال **مجاهد:** إذا خرج المؤمن من النَّار، تمنَّى الكفار أن يكونوا مسلمين، وإليه يشير قوله تع: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر ٢/١٥].

وقال عوفٌ للحسن البصري: بم يدخلون النَّار؟ قال: بذنوبهم، قلت: وبم يَخرجون؟ قال: بإيمانهم.[٦٩٧] وقد صح أنه يخرج مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أدنى من مثقالِ ذرَّةٍ.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨)﴾

ولَمَّا كان ظاهر التركيب من قبيل الإضمار على شريطة التَّفسير بناءً على جواز النصب بالفعل المذكور على تقدير تسليطه؛ إذ «الفاء» لا تمنع ذلك، كما في قوله تع: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر ٣/٧٤]، ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى٩/٩٣] وكان من مواضع اختيار النصب لكون الفعل أمرًا لا يقع خبرًا للمبتدأ بزعم الجمهور إلا بتأويل.

وقد اتَّفق عامة القراء على قراءة الرفع، احتيج إلى إخراج الكلام عن باب الإضمار على شريطة التَّفسير، وذهب سيبويه: إلى أن الكلام جملتان: على أن المرفوع مبتدأ محذوف الخبر، أي: فيما يتلى عليكم من الأحكام حكم السَّارق والسارقة، ثم ابتدأ فاقطعوا فلا مجال للتَّسليط لكون كلٍّ من الاسم والفعل في كلام آخر مستقلّ. وذهب المبرَّد: إلى أنَّ «الفاء» ليست هي «الفاء» التي تعمل ما بعدها فيما قبلها كما في: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر ٣/٧٤]؛ ليصح النَّصب بالتسليط على ما بين ذلك في موضعه، وإنما هي الفاء الجزائيَّة الدَّاخلة على الخبر؛ لتضمن المبتدأ معنى الشرط بناءً على أن «اللام» ليست حرفَ تعريف كما في المؤمن، والكافر، والصانع، والساحر، ونحو ذلك مما لم يقصد باسم الفاعل معنى الحدوث ليصحَّ وقوعه صلة، بل هي اسمٌ موصولٌ، واسم الفاعل في معنى الحدوث، حتى كأنه فعل في صورة الاسم، والمعنى: الذي سرق، والتي سرقت فاقطعوا أيديهما، ومثل هذه الفاء يمنع عمل ما بعدها فيما قبلها بالاتفاق، والأمر في مثل هذا الموقع يقع خبرًا للمبتدأ بلا تأويلٍ، ولا يكون من قبيل زيد فاضربه وذلك لكونه في الحقيقة جزاءَ الشرط، أي: إن سرق أحد فاقطع، وتفضيل سيبويه قراءة النصب على قراءة العامَّة إنما هو على تقدير عدم التَّأويل، والصَّرف عن باب الإضمار على شريطة التفسير، وهذا ما قال ابن الحاجب، «الفاء» للشرط عند المبرّد، وجملتان عند سيبويه وإلا فالمختار النصب. وعبارة سيبويه: أنه قال بعد تقرير وجه الرفع، وقد قرأ ناس والسارق والسارقة بالنصب وهو في القرينة ما ذكرت من القوَّة، وأبت العامَّة إلا الرفع يعني: أن قراءةَ النصب مبنية على

---

[٦٩٤] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٨٢/٥-٣٨٣.

[٦٩٥] قراءة شاذّة، مروية عن أبي واقد والجراح. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٥٤؛ **الكشاف** للزمخشري، ٦١٧/١.

[٦٩٦] **الكشاف** للزمخشري، ٦١٧/١.

[٦٩٧] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٨٣/٥.

كون الكلام من باب الإضمار على شريطة التفسير، وهو أقوى في القرينة من الرفع، والعامّة اتفقوا على الرّفع فجعلته على كلامين لئلا يضعف قراءتهم بأن الإنشاء كيف يحمل على المبتدأ.[٦٩٨]

﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ يديهما، ونحوه: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[التحريم٦٦/٤][٦٩٩]في إطلاق الجمع وإرادة التثنية اكتفاءً بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف؛ احترازًا عن تكرير التثنية، تعويلًا على القرائن الحالية المعلومة من المصالح الشرعية أنه لا يقطع من كلٍّ منهما يداه، فيكون هذا من قبيل قلوبكما في أمن الإلباس لا من قبيل أفْرَاسكما وغلمانكما، حيث لا يجوز قصدُ التثنية للإلباس.

فاضمحلّ ما قيل شرط وقوع التثنية موقع الجمع كون الجزء المضاف إلى كله واحدًا نحو: قلوبكما [**٥٤**/و] لا أيديهما، وأنت تريد يديهما للإلباس ودلالة الدليل على كون المراد بلفظ الأيد اليد الواحدة، لا يدفع الالباس لاحتمال أن يكون اليمين والشمال، كيف وهذا الاحتمال ثابتٌ أيضًا إذا قيل يديهما، فالتعيين فيه ليس من التثنية، بل من الرجوع إلى قراءة ابن مسعود: «أيمانَهُمَا»[٧٠٠] وفعل الرسول.

وقيل: إنما جمعَ الأيدي؛ لأن السَّارقَ اسمُ جنس، وكذا السَّارقة، وأريد بهما الجمع، فلذلك قال: الأيدي؛ لأنها أفرادٌ مضافةٌ إلى الجمع، وقال: ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾، ولم يقل: أيديهم؛ لظاهرِ اللَّفظ، وهذا جمعٌ بين اعتبار اللَّفظ، واعتبارِ المعنى في كلامٍ واحدٍ، وهذا شائعٌ في اللغة، كالجَمعِ بين تذكيرِ المعنى وتأنيث اللَّفظ.[٧٠١]

﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

منصوبان على المفعول له، فاقطعوهما مكافأةً لهما على ما فعلا من السَّرقة عقوبةً رادعةً لهما من العود، ولغيرهما من الاقتداء بهما.

والنَّكال: اسم بمعنى التنكيل مأخوذٌ من النُّكول، وهو الامتناع، «وترك العاطف إشعارًا بأن القطع للجزاء، والقطع على قصد الجزاء للنكالِ، والمنع عن المعاودة»،[٧٠٢] أو المصدر، أي: جازُوهما جزاءً ونكلوهما نكالًا، أي: تنكيلاً ويدلُّ على الفعلين فاقطعوا.

فإن قلتَ: كيف يكون قطعٌ لا قيمةَ لها بسرقة شيءٍ يسيرٍ جزاءً لها، وقد قال تع: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سيئةٌ مِثْلَهَا﴾ [الشورى ٤٢/٤٠]؟

قلتُ: جزاءُ الدنيا محنةٌ يُمتَحَنُ بها المرءُ، ولله أن يَمْتَحن بما شاء ابتداءً من غير أن يكون مجازاةً، ولأنه ليس بجزاء ما أخذ، بل جزاء ما هتكَ من الحُرمة، فيجوز أن يَبْلُغَ جزاءُ الهتك القطع، وإن قَصر عِلمُنا عنه؛ لأن مقاديرَ العقوبات إنما يعلمها مَنْ يَعلم مقاديرَ الجنايات.[٧٠٣]

---

[٦٩٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ظ٣٠٧-٦٠٨و.

[٦٩٩] **الكشاف** للزمخشري، ٦١٩/١.

[٧٠٠] وهي قراءة شاذّة. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٥٤؛ **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦١٩؛ **الجامع لأحكام القرآن**، ٤٦٠/٧.

[٧٠١] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٨٤/٥.

[٧٠٢] **حاشية الكشاف للتفتزاني**، ٣٠٨و.

[٧٠٣] **تأويلات القرآن** للماتريدي، ٢٢٠/٤؛ **التيسير في التفسير**، ٣٨٥/٥.

«وفي مواعظ الحسن: احْذَرْ مِن قطع يدِكَ في درهمٍ»[٧٠٤] مع أن الدرهمَ أقلُّ قليل، واليد قُوَّامُ الأفعال، وعذاب الدنيا أهون، فكيف حال مَن اكتسب الآثام في حكم عذاب الآخرة.[٧٠٥]

حكي عن الأصمعي: أنه قال كنت هذه الآية فقرأت سهوًا ﴿**وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾، فقال أعرابي: كلام من هذا؟ قلتُ: كلام الله. قال: أعد، فأَعَدْتُ ﴿**وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾، فقال: ليس هذا كلام الله، فتنبَّهت وقرأت: ﴿**وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ فقال: أصبت هذا كلام الله، قلت له: أتقرأ القرآن؟ قال: لا قلت: فمن أين علمت أني أخطأت؟ قال: يا هذا، عزّ فحكم فأمر بالقطع، فلو غفر ورحم لَمَا أمر به.[٧٠٦]

والسرقة في اللغة: أخذُ الشَّيء من الغير على الخفية بحيلة، وفي الشريعة في حقِّ القطع أخذُ مكلَّف خفية قَدْرَ عشرةِ دراهمَ مضروبة مُحْرَزَة بمكانٍ أو حافظٍ. فإذا سرق قدر عشرة دراهم وقيمتها أقل من عشرةِ دراهمَ مضروبةٍ لا يكون سرقةً، وإذا سَرق ما دون النصاب يكون سرقةً شرعًا حتى يرد العبد به على بائعه لكن لا يقطع، والخفية شرطُ ابتداء وانتهاء إذا كانت بالنهار؛ لأنه وقتٌ يلحقُه الفوتُ فيه، أو ابتداء لا غير إذا كانت بالليل، كما إذا نقر الجدار سرًا، وأخذ المال جهرًا؛ لأنه وقت لا يلحقه الغوث فيه، ونصاب السرقة عندنا عشرةُ دراهم مضروبةٍ، أو ما هي قيمته لقوله ع م: «لا يقطع في أقلّ من دينار أو عشرة دراهم أو ما يساوي أحدهما».

وعند الشافعي: ربع دينار كما روي أنه ع م:«قَطَعَ سَارِقًا فِي رُبْعِ دِينَارٍ» ونحن نقول الأخذ بالأكثر أولى احتياطًا لدرء الحدود، والمعتبر في هذه الدراهم أن يكون عشرة منها وزن سبعة مثاقيلَ، كما في الزكاة.

وقال مالك: ثلاثة دراهم لحديث ابن عمر وهو أنه ع م: «قَطَعَ سارِقًا في مِجَنٍّ قِيمَتُهُ ثَلاثَةُ دَراهِمَ».[٧٠٧]

ويقول الشافعي: لا دلالة عليه؛ إذ ليس فيه ما يدل على المنع من القطع بما دونه، ولا تعيين هذا القدر من الشارع؛ فإنه تقديمٌ من الراوي فلعله أمر بالقطع؛ لأن المجن كان مساويًا لربع دينار.

وفي الصحيح عن النبي ع م: «لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ البَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ».[٧٠٨]

قيل: المراد بالبيضة بيضةُ الحديد، وبالحبل ما يساوي عشرة دراهمَ.

وقيل: كان هذا في الابتداء كان يقطع السَّارق بالقليل والكثير ثم نسخ بحديث عائشة.

وقيل: معناه كأن يتبع نفسه أولًا في أخذ مثال هذه المحقرات، حتى يعتاد السرقة فيفضي به إلى أن يأخذ ما يقطع فيه. وقال أحمد: إن كان المسروق ذهبًا فنصابه أن يبلغ قيمته ربعُ دينارٍ أو ثلاثة دراهمَ جمعًا بين الخبرين، والمراد بالأيدي الأيمان لما مَرَّ.

واليد: اسم تمام العضو؛ ولذلك كان المقطع المِنْكب عند الخوارج، والجمهور أنه الرسغ؛ لأنه ع م أمر به.[٧٠٩]

---

[٧٠٤] **الكشاف** للزمخشري، ٦١٩/١.

[٧٠٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٦٠٨و.

[٧٠٦] **البسيط** للواحدي، ١٨٥/٢.

[٧٠٧] **صحيح مسلم**، ١٣١٣/٣ (١٦٨٦).

[٧٠٨] **صحيح البخاري**، ١٥٩/٨ (٦٧٨٣).

[٧٠٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٦/١.

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩)﴾ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٤٠)﴾

من بعد أن ظلم غيره بسرقة ماله على أنه إضافة المصدر إلى فاعله، قال تع: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يوسف ٧٥/١٢]؛ أي: السارقين.

﴿وَأَصْلَحَ﴾ أمْرَه بالتقصّي عن التّبعات والعزم على أن لا يعود إليها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ يقبل توبتَه فلا يعذِّبه [٥٤/ظ] في الآخرة. أما القطع فلا يسقط بها عند الأكثر؛ لأن فيه حقَّ المسروق منه[٧١٠] كذا قال قدس سره، ويخالفه ما روي: «أَنَّ صَفْوَانَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ بسارقٍ، فَأَمَرَ أَنْ تُقْطَعَ، فَقَالَ صَفْوَانُ: هُوَ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، قال ع م: فَهلَّا قَبْلَ أَنْ تأتيَني بِهِ؟[٧١١] معناه: فهلا تصدَّقتَ وتركتَ حقَّك قبل وُصوله إليَّ، فالآن قطعُه واجبٌ ليس لك فيه حقٌّ، بل هو حقُّ الشَّرع.

فإن المفهوم من الأوَّل: أنَّ الحدَّ لحقِّ العبد، ومن الثاني أنه حقُّ الشرع، وأيضًا قد مرَّ في حكم قاطع الطريق أنَّه لا حق للمأخوذ منه المال في الحد مع أنه سرقة كبرى، فإذا كان كذلك كان ينبغي أن يكون حكم الصغرى كذلك، وأيضًا أثبتوا الفرق بين التوبة قبل القدرة وبينها بعد القدرة في الكبرى، ولم يثبتوا في الصغرى، ويدلُّ عليه أيضًا نظمُ الآيتين في المحلّين؛ لكن حديث صفوان يشعر بالفرق بينهما في الصغرى أيضًا، ثم إنه كما أن القطع لا يسقُطُ بالتوبة عند الأكثرين، فكذا نفسُ القطع ليس بتوبةٍ، بل هو جزاءٌ على الجناية، ونكالٌ لقوله تع: ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ فلابد من توبةٍ مستقلَّةٍ غير القطع، وتوبتُه النَّدمُ على ما مضى، والعزم على تركه في المستقبل.

وقال المصنف: «﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من يجب في الحكمة تعذيبُه، والمغفرة له من المصرّين والتائبين. وتقديم التعذيب؛ لأنه قوبل بذلك تقدُّمُ السَّرقة على التوبة»،[٧١٢] يعني: فيه لفًا ونشرًا، وقال «**صاحب الانتصاف**»: عنده أن المغفورَ لهم: التائبون، والمعذَّبون: السرَّاق، فلا تَتْبَعُ المغفرةُ المشيئةَ، بل المشيئةُ تتبعُ التوبةَ، ونحن نعتقد أنَّ المغفرة تابعةٌ للمشيئة في حقِّ غير التائب، فيدخل السارق في عموم قوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء ٤٨/٤] وإن لم يتب، فتقديم التعذيب، لأن الكلام للوعيد.[٧١٣]

قال الطيبي:[٧١٤] والحقُّ هذا؛ لأن قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الآيةَ، تذييلٌ للكلام السابق من لدُنْ قصة موسى، ومقابلته الجبَّارين، وقصة قابيل وهابيل، وأحكام قُطَّاع الطريق، وتحريض المؤمنين على الجهاد، وقطع السُّراق، وقد يخلص به إلى نوع آخر من الكلام، كأنه قيل له: الحكم في ملكه كيف يشاء مَنَعَ وأعطى، عذَّب أو عَفا وهو على كل شيء قدير.[٧١٥]

وأنا أقول: اللائح أن يكون تذييلًا لما قبله، وأن يكون من يشاء تعذيبَه المصرُّون، ومن يشاء مغفرتَه التائبُون، لكن لا على ما ذهب المصنف من تبعية المشيئة بالحكمة الموجبة، بل تبعية الحكمة بالمشيئة؛ فإنه تع لما أوجب قطعَ السُّراق وعقاب

---

[٧١٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٦/١.

[٧١١] **موطأ إمام مالك، ١٢٢٠/٥** (٣٠٨٦)؛ **مسند أحمد**،٦٠٩/٤٥ (٢٧٦٤١)؛ **سنن ابن ماجه**،٨٦٥/٢(٢٥٩٥).

[٧١٢] **الكشاف** للزمخشري، ٦١٩/١.

[٧١٣] **الانتصاف بحاشية الكشاف** لابن المنير، ١١٤ظ-١١٥و؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٥٥-٣٥٦.

[٧١٤] الحسين بن محمد بن عبد الله، شرف الدين الطيبي: من علماء الحديث والتفسير والبيان.من أهل توريز، من عراق العجم. كانت له ثروة طائلة من الإرث والتجارة، فأنفقها في وجوه الخير، حتى افتقر في آخر عمره. وكان شديد الردّ على المبتدعة، ملازما لتعليم الطلبة والإنفاق على ذوي الحاجة منهم، آية في استخراج الدقائق من الكتاب والسنة، متواضعا، ضعيف البصر ، ومن كتبه (شرح الكشاف) أربعة مجلدات ضخمة، في التفسير، سماه (فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب) في الخزانة الأزهرية توفى: ٧٤٣ هـ. **الأعلام** للزركلي، ٢٥٦/٢.

[٧١٥] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٥٦.

الآخرة لمن مات منهم قبل التوبة، ثم ذكر أنه يقبل توبتَه إن تاب، أردفه ببيان أنه: ﴿**يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**﴾ ﴿**وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ**﴾ فـ﴿**يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ بحسن منه التعذيب تارة والمغفرة أخرى؛ لأنه مالك جميع المحدثات، وربُّهم وإلٰهم، والمالك له أن يتصرف في ملكه كيف يشاء، وأراد فحسن أفعالَه ليس لأجل كونها على وفق مصالح الخلق، ومتضمنة لرعاية ما هو الأصلح لهم، كما زعمه المعتزلة، بل لأجل كونه إلهًا للخلق ومالكًا لهم ومَلِكًا يتصرف في ملكه على مقتضى مشيئته.[٧١٦]

وقيل: يُسقط حدًا يجري بالتوبة ليكون أدعى إلى الاسلام، ولا يُسقطه عن المسلم ليكون أنفع للحياة، ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾ [البقرة ١٧٩/٢]أي: لبقاء النظام أو لبقاء اليد بأن يتصوَّر من يريد السرقة القطع فيرتدع.

وقيل: يقطع السارق مع توبته، ولا يقطع قاطع الطريق إذا مات قبل القدرة.

وقيل: ﴿**يُعَذِّبُ**﴾ المصِرَّ على الصغيرة، ﴿**وَيَغْفِرُ**﴾ المسْتَغْفِرَ عن الكبيرة.[٧١٧]

﴿**يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١)**﴾

«لا تهتمّ بمسارعة المنافقين ﴿**فِي الْكُفْرِ**﴾ أي: في إظهاره بما يلوحُ منهم من آثار الكيدِ للإسلام، ومن موالاة المشركين، فإني ناصرك عليهم.

يقال: أسرع فيه الشَّيبُ والفساد، بمعنى: وقع فيه سريعًا، فمسارعتهم في الكفر تَهافُتهم فيه أسرع شيءٍ إذا وجدوا فُرصةً لم يخطئوها».[٧١٨]

فقوله: «لا تَهْتَمّ»[٧١٩] إشارة إلى أن إسناد ﴿**لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ**﴾، وإن كان مجازًا لا يقدر له فاعل بكون الإسناد إليه حقيقةً، بل المراد لا تحزن أنت.[٧٢٠]

وقدر قدس سره: «صنيع الذين»[٧٢١] إشارة إلى أن الذات مع قطع النظر عن الصفات لا تورث الحزن والفرح،[٧٢٢] ومع ذلك أيضًا يكون نهيًا عن أن يتحزن على طريقة لا أرسلك ههنا.

وإنما قال: «في إظهاره»؛[٧٢٣] لأنَّ كفر المنافق ثابتٌ، وإنما المسارعة في إظهاره، ثم إنَّ ذلك يكون لظهور الآثار لا بالأخبار، وإلّا لم يكن منافقًا، و«أسرع شيء»[٧٢٤] حال من ضمير «تهافتهم»، أي: تساقطهم بتقدير موصوف مقدر، أي: شيئًا.[٧٢٥]

---

[٧١٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٥٦.

[٧١٧] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٣٢/١١؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٨٧/٥.

[٧١٨] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٠/١.

[٧١٩] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٠/١.

[٧٢٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٦٠٨ظ.

[٧٢١] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٦/١.

[٧٢٢] **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥٢٤/٣.

«وأفعل التفضيل يقع حالًا إذا كان مضافًا إلى النَّكرة، نحو: جاءني زيدٌ أحسَنَ ما كان عليه»،[٧٢٦] والأحسن أن يجعل في موقع المصدر، أي:[**٥٥**/و] أسرع تهافت.[٧٢٧]

وقوله: «لا تهتمَّ»، «فإني ناصرك» إنما يحسن لو كان حزنُه للخوف منهم، لا للخوف عليهم، حيث لم يدخلوا في الإيمان، وبقوا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.[٧٢٨]

ورجح الثاني بأنه إنما نُهي عن الحزن لأجل مسارعتهم، ثم بيَّن بقوله: ﴿**مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ**﴾، وبقوله: ﴿**وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ**﴾ على سبيل التعليل، حيث أوقع تلك الصفات صِلاتٍ للموصولات، أنَّ سبب مسارعتهم في الكفر: النِّفاقُ وسَمَاعُ الكذب وتحريفُ كتاب الله وتغييرُ أحكامه وكتمانُ نُبُوَّته، وذلك الذي أوقعه في الحزن، ألا ترى كيف أوقع ﴿**وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا**﴾ اعتراضًا مؤكِّدًا لمعنى المعترض فيه؟[٧٢٩]

وقال **الإمام**[٧٣٠]: خاطب بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ**﴾ كثيرًا، وما خاطب به ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ**﴾ إلا في موضعين: أحدهما: ههنا، والثاني: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ**﴾ [المائدة ٥/٦٧] وهو خطابٌ تشريفٌ، وأنه لَمَّا بيَّن بعض التكاليف، وكان قد علم من البعض المسارعة إلى الكفر صبر رسوله على تحمل ذلك.[٧٣١]

﴿**مِنَ الَّذِينَ قَالُوا**﴾ حالٌ من ﴿**الَّذِينَ يُسَارِعُونَ**﴾، أو من فاعل ﴿**يُسَارِعُونَ**﴾ أي: يسارعون حالَ كونهم بعضَ الذين قالوا، أو بيانٌ لجنس الموصول الأوَّل، و﴿**آمَنَّا**﴾ منصوبه بـ﴿**قَالُوا**﴾.

و﴿**بِأَفْوَاهِهِمْ**﴾ متعلِّق بـ﴿**قَالُوا**﴾ وإنما ذكره مع أن القول بالأفواه إيماءً إلى أن ألسنتهم ليست معتبرةً عمَّا في قلوبهم، وأن ما يجرونه على ألسنتهم لا يجاوز أفواههم لا﴿**آمَنَّا**﴾ لفساده لفظًا ومعنًى، أمَّا معنى فظاهر، وأما لفظًا فلأنه حينئذ يلزم أن يقال: بأفواهنا.

﴿**وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ**﴾ جملةٌ حاليةٌ جيء بها للتصريح؛ لما أشار إليه بقوله:﴿**بِأَفْوَاهِهِمْ**﴾، أو معطوفة على الجملة قبلها، فتكون الصلة مجموع الجملتين، ﴿**وَمِنَ الَّذِينَ**﴾ عطفٌ فيكون حالًا أو بيانًا مثل ما قبله.

و﴿**سَمَّاعُونَ**﴾ خبرٌ محذوفٌ، أي: لا يحزنك المسارعون من المنافقين ومن اليهود، ثم وصف الكلَّ بسماع الكذب، أو خبرٌ مقدّم، مبتدأه ﴿**سَمَّاعُونَ**﴾، أي: من الذين هادوا قومٌ سماعون، فتكون مستأنفة.

واللام: إما مزيدةٌ للتأكيد؛ فإن ﴿**سَمَّاعُونَ**﴾ فرع في العمل، فَقَوِي بها، كما في: ﴿**فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ**﴾ [البروج ٨٥/ ١٦]، أو لتضمين السماع معنى القبول، ومنه: سمع الله لمن حمده.

---

[٧٢٣] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٠/١.

[٧٢٤] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٠/١.

[٧٢٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٦٠٨ظ.

[٧٢٦] **فتوح الغيب** للطيب، ٣٥٨.

[٧٢٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٦٠٨ظ.

[٧٢٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٦٠٨ظ.

[٧٢٩] **فتوح الغيب** للطيب، ٣٥٧.

[٧٣٠] هو فخر الدين الرازي.

[٧٣١] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٢٣٧/١١-٢٣٨.

وقد يناقش بأن القبول تعدَّى بالذات، وبمن يقول: قبلت الشيء وقبلت منه. والَّام في: لمن حمده راجع إلى معنًى من فلا يفيد التضمين.

والكذب: الذي يقبلونه هو ما يقوله رؤساؤهم من الأكاذيب في دين الله، وفي تحريف التوراة، وفي الطَّعن في نبوَّة سيد المرسلين.[٧٣٢]

﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾

«اللَّام» ههنا، إمَّا للتأكيد والتقوية، أو لتضمين معنى القبول، ولا يرد المناقشة السابقة ههنا، فإنه لو قيل: السمع فيه بمعنى القبول، و«اللام» بمعنى: «من»، كما في قوله: «سمع الله لمن حمده» لَكان له وجهٌ، ويجوز أن يكون اللامين في الموضعين للتعليل والسماع على حقيقته وهو الإصغاء، ومفعوله محذوفٌ، فالمعنى على الأوَّل: قائلون من الأخبار الأكاذيب، ومن قومٍ آخرين من اليهود لم يحضروا مجلسك، ويجافوا عنك تكبُّرًا وعجبًا، أو إفراطًا في البغضاء بحيث لا يقدرون أن ينظروا إليك، و به يندفع المناقشة أيضًا بأن يقولوا: اللام الأولى رجع إلى معنى مَن أَثْنَى قبل منه.

وعلى الثاني: سماعون كلامك؛ لأجل أن يكذبوا عليك، بأن يمسخوا ما سمعوا منك بالزيادة والنقصان، والتبديل والتغيير، سمَّاعون كلامك لأجل قومٍ آخرين من اليهود وجَّهُوهُمْ عيونًا وجواسيسَ ليبلِّغوا إليهم أخبارك.[٧٣٣]

وقال قدس سره: «ويجوز أن تتعلق اللام بالكذب؛ لأنَّ ﴿**سَمَّاعُونَ**﴾ الثاني مكرَّر للتأكيد، أي: سمَّاعون ليكذبوا لقوم آخرين».[٧٣٤]

﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ**﴾ يُميلُونه ويُزيلُونه ﴿**عَنْ مَوَاضِعِهِ**﴾ التي وضعه الله فيها، فيهملونه بغير مواضع بعد أن كان ذا مواضع.[٧٣٥]

فهذا تفسيرٌلقوله: ﴿**مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ**﴾، وتنبيهٌ على الفرق بين ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ**﴾ [النساء ٤/٤٦]، ويحرفونه من بعد مواضعه، فإن معنى الأوَّل مجرّد الإمالة والإزالة عن مواضعه.

فإن قيل: فينبغي على هذا أن يفسّر المحرَّف المزَال بالرجم على ما ذكر في سورة النساء[٧٣٦] لا بالجلد على ما يشعر به سياق الكلام؛ لأنه لا يهمل بغير مواضع، بل أثبت في موضع الرجم.

قلنا: أُزيل عن موضعه الذي كان فيه، وأهمل بدونه فجاز التفسير بكل منهما[٧٣٧] قال في سورة النساء.

فإن قلت: كيف قيل هنا: ﴿**عَنْ مَوَاضِعِهِ**﴾ [النساء ٤/٤٦]، وما في المائدة ﴿**مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ**﴾؟

---

[٧٣٢] **الدر المصون** للسمين الحلبي، ٤/٢٦٨-٢٦٩؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٧/٣٣٥-٣٣٦؛ **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٣/٥٢٤-٥٢٥.

[٧٣٣] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٢٠.

[٧٣٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٣٧.

[٧٣٥] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٢٠.

[٧٣٦] النساء ٤/٤٦.

[٧٣٧] **حاشية الكشاف للتفتزاني**، ٣٠٨ظ.

قلت: أمّا ﴿عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾فعلى ما فسَّرنا من إزالته ﴿عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ التي أوجبت الحكمة وصفه فيها ما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه، وأمّا ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾، فالمعنى: أنه كانت له مواضع هو قَمِن بأن يكون فيها، فحينئذ حرَّفوه وتركوه كالغريب الذي لا موضع له بعد مواضعه ومَقَارِّه،[٧٣٨] والمعنيان متقاربان، وذلك لأن التحريف عن المواضع إزالته وتبعيده عن موضعه،[٧٣٩] والتَّحريف بعد الموضع جعله بحيث لم يبق له موضع، ولا شكّ أنهما متقاربان مفهومًا متساويان، ولعلَّ تفسيره قدس سره هذا، وذاك توجيهٌ لذلك التقارب، حيث قال: «يُميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها»[٧٤٠]، إلا أنه قال هناك: «يُميلونه عن مواضعه التي بإزالته عنها وإثبات غيره فيها، أو يأوِّلونه على ما يشتهون فيُميلونه ما أنزل فيه».[٧٤١]

وقال ههنا: «يميلونه عنها، إما لفظًا: بإهماله أو تغيير وضعه، وإما معنًى: بحَمْلِهِ على غير المراد، وإجرائه في غير مورده».[٧٤٢] فتأمَّل في الفرق بين المحلَّين، والتفاوت بين المعنيين المستفادين من التعبيرين.

واشتقاق التحريف: من الحَرْفِ بمعنى: الطَّرَف، فكأنه أزال من الوسط إلى الطَّرَف، والجملة صفة أخرى ﴿لِقَوْمٍ﴾، أو صفةٌ لـ﴿سَمَّاعُونَ﴾، أو حالٌ من الضمير فيه، أو استئناف لا موضعَ له، أو في موضع الرفع خبرٌ لمحذوفٍ، أي: هم يحرِّفون.[٧٤٣]

عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الغالينَ وَانْتِحالَ المبطلينَ وتأويلَ الْجَاهِلِينَ».[٧٤٤]

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾: إنْ أُوتِيتُمْ هَذَا المحرَّف، فاقبلوه واعملوا به ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ﴾ بل أفتاكم محمد بخلافه ﴿فَاحْذَرُوا﴾قبولَ ما أفتاكم به.[٧٤٥]

روي: أن شريفًا من خيبر زنى بشريفةٍ، وكانا محصنين، فكرهوا رجمَهما، فأرسلوهما مع رهْطٍ إلى بني قريظة، فقالوا لهم: أيُّكم جيران محمد ومعه في بلده فنحب أن تسألوه عن حدِّ المحصنين إذا زنيا؟ فقالوا لهم: إذن يأمركم بما يكرهون، فانطلق قوم إلى محمد فسألوه عن ذلك، فقال: هل ترضون بقضائي، قالوا نعم، فنزل بالرجم، فأبوا أن يأخذوا به، فقال جبريل: اجْعَل بينك وبينهم ابنَ صُوْرِيَا ووصفه له فقال ع م: «هل تعرفون شابًّا أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا»؟ قالوا: نعم، قال عم: ما تعتقدون فيه؟ قالوا: أعلم يهوديٍّ بما أنزل الله على موسى فأرسلوا إليه، فأتاهم فقال عم: «أنت ابن صوريا»؟ قال نعم، قال: «فأنت أعلم اليهودي»؟ قال: كذلك يزعمون، قال: أتجعلونه بيني وبينكم؟ قالوا نعم، فقال له رسول الله: أنشدك الله الذي لا إله إلا هو، الذي فَلق البحر لموسى، ورفع فوقكم الطور وأنجاكم وأغرق آل فرعون، والذي أنزل عليكم كتابه، وحلاله وحرامه، هل تجدون فيه الرَّجم على من أُحصن؟ قال: نعم، فوثب عليه سِفْلةُ اليهود فقال: خفتُ إن كذَّبتُه أن ينزِّل علينا

[٧٣٨] **فتوح الغيب** للطيب، ٣٦٠.

[٧٣٩] ج: عن مواضعه.

[٧٤٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٧/١.

[٧٤١] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٦١/١.

[٧٤٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٧/١.

[٧٤٣] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٧/١.

[٧٤٤] **مسند الشاميين** للطبراني، ٣٤٤/١ (٥٩٩)

[٧٤٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٧/١.

العذاب، ثم سأل رسول الله عن أشياء كان يعرفها من أعلامها، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول اللهِ النبيُّ الأمّيُّ الذي بشَّر المرسلون، وأمر رسول الله بالزّانيين فرجما عند باب مسجدين.[٧٤٦]

وقوله: «وَكَانَا مُحْصنَيْنِ» أي ذوى زوجين، وإلا فالإحصان الشرعي لا يتصوَّر في الكافر.[٧٤٧]

وقوله: «فَرُجِمَا» حجة على الحنفيَّة في اشتراط الإسلام، إلا أن يقال: إن ذلك كان قبل نزول الجزية، أو كان على اعتبار شريعة موسى،[٧٤٨] لكن يوافقه ما روي: أن ابن صُوريًّا قال له عم: كيف هي في كتابك؟ قال: إذا شَهِدَ أربعة رَهْطٍ عُدولٍ، أنه قد أدخله فيها كما يدخل الْمِيل في الْمُكْحُلة وجب الرَّجمُ، فقال: والذي أنزل التوراة على موسى هكذا أنزل الله فيها، فقال له عم: فماذا كان أوَّل ما ترخَّصتم به أمر الله، فقال: كنَّا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف رَجَمْنَاه، فكثر الزّنا حتى زنا ابنُ عمّ مَلِكنا ولم نرجمه، ثم زنى رجلٌ، فأراد الملك رجمَه، فقال قومه لا نرجمه حتى نرجم ابن عمّ الملك. فقلنا تعالوا فلنَضَعْ شيئًا دون الرَّجم يستوي فيه الوضيع والشريف، فوضعنا الجلدَ والتَّحميم؛ وهو أن يُجلَد أربعين جلدةً بجبلٍ مَطْليٍّ بالقار، ثم يسودَّ وجوههما، ثم يُحملان على حمارين وجوههما من قبل دبر الحمار، ويُطاف بهما، فقال عليه السلام: اللهم، إني أوَّل من أحيا أمرَك إذا ماتوه، فأنزل الله: ﴿**يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ**﴾ الآية،[٧٤٩]

وفيه وجوهٌ من الدلائل أحدها: أنه ظهر بكتمانهم الحقوقَ التي بينهم وبين الله حتاهم في كتمانهم بعث النبي عليه السلام، والثاني: إثبات رسالته عليه السلام، والثالث: أنهم لما طلبوا منه الرخصة والتخفيف في الحدِّ دلَّ على أنهم عرفوا أنه رسولُ الله؛ إذ لا يطلب ذلك من غير الرسول لكنَّهم عاندوا، والرابع: جواز شهادة بعضهم على بعض، إذ قبل شهادة ابن صُوريًّا، وفيه غاية تهديد، ونهاية تشديد، للذين يكتمون الأحكام، لأجل الحطام، ويهملون في إجراء الشرائع؛ لتحصيل الذرائع ويجرون على الشريف نصف جزائه ويجرون على الضعيف أضعاف جزائه.

﴿**وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١)**﴾ **٤٢**-﴿**سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ**﴾

﴿**مَنْ**﴾ شرطيةٌ ﴿**فَلَنْ تَمْلِكَ**﴾ جوابه، و﴿**شَيْئًا**﴾ مفعول به، أو مصدرٌ، أي: شيئًا من الملك، و﴿**مِنَ اللَّهِ**﴾ متعلقٌ بـ﴿**تَمْلِكَ**﴾،أو حالٌ من ﴿**شَيْئًا**﴾؛ لأنه صفة في الأصل.[٧٥٠]

والمعنى: ومن يرد الله كفرَه وضلاله، فلن يقدر أحدٌ على دفع ذلك عنه، وكيف يقدر والحال أنه تع لم يرد أن يطهِّر قلوبهم، لعلمه منهم اختيارَ الكفر.

فقال أهل السُنة: دلَّت على أنه تع غيرُ مريد إسلام الكافرِ، وتطهير قلبهِ عن الشكِّ والشِّرك، ولو فعل ذلك لآمن فهي من أشدِّ الآيات على القدرية.[٧٥١]

---

[٧٤٦] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٠/١-٦٢١؛ **معالم التنزيل؛ تفسير الخازن؛ التيسير في التفسير**، ٣٩١/٥-٣٩٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٧/١.

[٧٤٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٨ظ.

[٧٤٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٨ظ.

[٧٤٩] **اللباب** لابن عادل، ٣٣٧/٧.

[٧٥٠] **الدر المصون** للسمين الحلبي، ٢٤٢/٤-٢٤٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٣٣٨/٧.

[٧٥١] **اللباب** لابن عادل، ٣٣٩/٧. **حاشية محي الدين شيخ زاده، ٥٢٦/٣**.

فقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ﴾ اعتراضٌ بين الإعلام بتحريفهم كتاب الله وبين التسجيل بأن ذلك لأجل أنه تع لا يريد أن يطهّر قلوبهم؛ لأن لفظة ﴿أُولَئِكَ﴾ عَلَمٌ بأن الذي يرد عَقِيبَهُ هو الحامل لمن سَبَق على اتِّصافه بذلك الوصف، وموقعُ هذا الاعتراض هو إعطاء معنى التوكيد: التعليل؛ لئلا يَتوهَّم القدريُّ خلاف ما عليه النَّصُّ القاطعُ، فالعجب من المصنف أنه يحرِّف كتابَ الله ويسلُك مسلكَ المجاز بقوله: «ومن يرد فتنته تَرْكَه مفتونًا وخذلانَه فلن تستطيع له من لطف الله شيئًا، ومع ذلك يقول: أولئك لم يرد الله أن يمنحهم من ألطافه؛ لأنهم ليسوا من أهلها؛ لعلمه أنها لا تنفع فيهم»[٧٥٢]

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ هوانٌ، وهو الخوف من المؤمنين، والخزية، والفضيحة، وهتْك السَّتر بإظهار نفاقهم وفيلهم.[٧٥٣]

﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بالخلود، والدرك الأسفل من النار. فالضمير «للذين هادوا» إن استأنفتَ بقوله: «ومن الذين» وإلا فللفريقين.[٧٥٤]

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)﴾

واللائح أن يذكر ذلك الترديد في ﴿أُولَئِكَ﴾؛ فإن الضمير تابع لذلك ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ كرّره للتأكيد وغاية التشنيع ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أي: الحرام من «سَحَته»، أي: استأصله قال تع: ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه ٦١/٢٠] سُمِّي الحرام به؛ لأنه يعقب عذاب الاستئصال، أو لأنه مسحوتُ البركة، أو لأنه يُذْهِبُ البركة ويمحقُها، أو لأنه يذهب مروَّة الرجل.

وقال الأخفش: السحت كلّ كسب لا يحلُّ كالرّشوة في الحكم، والرّبا، ومهر البغي، وثمن الحمر، وثمن الكلب، وعسب الفحل ونحو ذلك.[٧٥٥]

وقيل: إنما ذلك في الحكَم إذا رشوته ليحقّ لك باطلًا، أو يبطل عنك حقًّا. وإما أن يعطي الرجل يخاف ظلمه ليدرأ به عن نفسه فلا بأس به.[٧٥٦]

وقال أبو الشعثاء: لم نجد في زمن زياد شيئًا أنفعَ من الرّشا.[٧٥٧]

وأمر النبي ع م بلالًا أن يعطي رجلًا، وقال له: «اِقْطَع لسانه».[٧٥٨]

وقال ابن مسعود: هو الرشوة في كل شيءٍ، من يشفع شفاعةً يُردُّ بها حقًّا، أو يدفع بها ظلمًا، فأهدي له فقبل، فهو سحتٌ.

---

٧٥٢ **الكشاف** للزمخشري، ٦٢١/١؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٦١/٥.

٧٥٣ **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥٢٦/٣.

٧٥٤ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٧/١؛ **اللباب** لابن عادل، ٣٣٩/٧.

٧٥٥ **اللباب** لابن عادل، ٣٤١/٥.

٧٥٦ **معالم التنزيل** للبغوي، ٥٨/٣؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٣٤١/٧.

٧٥٧ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٩٥/٥.

٧٥٨ **السنن الكبرى** للبيهقي، ٢٤١/١٠ (٢١٦٦٠)؛**الضعفاء الكبير**للعقيلي (٤١٤/٣)؛ **كشف الخفاء** للعجلوني ١٨٩/١-١٨٨؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٩٥/٥.

فقيل له: يا أبا عبد الرحمن، ما كنَّا نرى ذلك إلا الأخذَ على الحُكْم، فقال: الأخذ على الحكم كفرٌ؛ قال الله: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [المائدة، ٤٤/٥].[٧٥٩]

قيل: سماعون الأكاذيب التي كانوا ينسبونها إلى التوراة، أكَّالون للسحت، أي: الربا لقوله: ﴿**وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا**﴾ [النساء ١٦١/٤].

وقال عمر رض: رشوة الحاكم من السحت. وعن رسول الله: «كلُّ لَحْمٍ نبتَ من السُّحت فالنَّارُ أَوْلى به».[٧٦٠]

قالوا: يا رسول الله، وما السُّحتُ؟ قال: «الرَّشوةُ في الحكم».

وقال أبو حنيفة: إذا ارتشى الحاكم؛ انعزلَ في الوقت، وإن لم يُعْزَلوا، بطل كلُّ حُكم بعد ذلك.

قال القرطبي: وهذا لا يجوز أن يُختلَف فيه؛ لأن المرتشي فاسقٌ فلا يجوز قضاؤه ولا ينفُذُ حكمُه.[٧٦١]

ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب: بضمَّتين،[٧٦٢] وهما لغتان كالعُنْقِ والعُنُقِ. وقرئ: بفتح السين على المصدر.[٧٦٣]

﴿**فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾

تخيير لرسول الله إذا تحاكموا إليه بين الحُكم والإعراض، ولذلك قيل: لو تحاكم كتابيَّان إلى القاضي لم يجب عليه الحكم بناءً على أن حكم التخير بات، وليس في سورة المائدة منسوخ، فحكَّام المسلمين بالخيار في الحكم بين أهل الكتاب إن شاؤوا حكموا وإن شاءوا لم يحكموا، وإن حكموا حكموا بحكم الإسلام وهو قولٌ للشافعي، والأصح عنده وجوبُه إذا كان المترافعان أو أحدهما ذميًّا؛ لأنا التزمنا الذبَّ عنهم ودفعَ الظلم، ولأنهم يجريان أحكامنا عليهم إذا تحاكموا إلينا، وفي إمضاء حكم الإسلام عليهم صغارٌ لهم. والآية ليست في أهل الذِّمة، وأمَّا المعاهدون الذين لهم مع المسلمين عهدٌ إلى مدَّةٍ فليس بواجبٍ أن يحكم الحاكم بينهم، بل يتخيَّر فيه، ولذلك قيل: الآية مخصوصةٌ بالمعاهدين.[٧٦٤]

وعند أبي حنيفة: يجب أن يحكموا بينهم مطلقًا، والآية منسوخة بقوله: ﴿**وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ**﴾[المائدة ٤٩/٥].[٧٦٥]

وروي ذلك عن ابن عباس قال: لم يُنْسَخْ من المائدة إلَّا آيتان: قوله: ﴿**لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ**﴾ [المائدة ٢/٥] نسخها قوله: ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ**﴾ [التوبة ٥/٩].[٧٦٦]

---

[٧٥٩] **اللباب** لابن عادل، ٣٤١/٥.

[٧٦٠] **مسند أبي يعلى، ١٢٩/١ (٨٤).**

[٧٦١] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤٨٥/٧-٤٨٦؛ **اللباب** لابن عادل، ٣٤٢/٥.

[٧٦٢] «**السُّحُت**».**كتاب السبع** لابن مجاهد، ص٢٤٣؛ **التيسير** للداني، ص ٣٣٤؛ **النشر** لابن الجزري، ١٩١/٢.

[٧٦٣] «**السَّحَت**». **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٢/١؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٣٤٠/٧؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٨/١.

[٧٦٤] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٢٤٢/١١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٨/١؛ **اللباب** لابن عادل، ٣٤٣/٧.

[٧٦٥] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤٨٥/٧-٤٨٦؛ **اللباب** لابن عادل، ٣٤٢/٥.

[٧٦٦] **اللباب** لابن عادل، ٣٤٣/٧.

وقوله: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ﴾ نسخها قوله: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ﴾[المائدة ٤٩/٥] وذلك لأن الجزم بالحكم رفع للتخيير بينه وبين الإعراض، لا يقال: ما أنزل الله هو التخيير؛ لأنا نقول لا معنًى لأمره بأن يحكم بالتخيير.

«وأما أهل الحجاز فإنهم لا يرون إقامة الحدود عليهم، ويذهبون إلى أنهم قد صُولحوا على شركهم، وهو أعظمُ من الحدود، ويقولون: رَجَم اليهود بين كان قبل نزول الجزية».[٧٦٧]

وقوله: «وهو أعظمُ مِنَ الْحُدُود»،[٧٦٨] أي: الشركُ أعظمُ مما استحقُّوا به الحدود، [**٥٦**/ظ] أو الصلحُ أعظمُ من ترك الحدود.[٧٦٩]

﴿**فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا**﴾ «لأنهم كانوا لا يتحاكمون إليه إلَّا لطلب الأيسر والأهون عليهم، كالجَلد مكان الرَّجم، فإذا أعرضَ عنهم وأبى الحكومة لهم شقَّ عليهم، وتكرّهوا إعراضه عنهم، فكانوا خلفاء بأن يعادوه ويضارُّوه، فأمَّن الله سربه».[٧٧٠]

فقوله: «**لأنهم كانوا**»[٧٧١] تعليل لمحذوفٍ، أي: إنما قال ذلك؛ «لأنهم كانوا» إلى آخره، وأصل الكلام وأن تُعرض عنهم، فلا تَخفْ منهم، فإنهم لن يضرُّوك شيئًا، فوضع عليه الجزاء موضعه[٧٧٢] مبالغةً وتفريجًا عن قلبه الشريف.

و«خُلَفَاء» جمع خَلِيقٍ. في «**الصحاح**» هو آمنٌ في سِربه، بالكسر، أي: في نفسه، ويقال: خَلِّ سَرْبَه بالفتح، أي: وِجْهَتَه التي تمرُّ فيها، وفي «**الأساس**» خَلِّ له سَرْبَه بالفتح، طريقه، ومنه: «مَنْ أصبح آمنًا في سَرْبِه» في مُنْقَلبه ومُنصَرفه، وروي بالكسر في حِزبه وعِياله من سِرب الظِّباء والبقر.[٧٧٣]

﴿**بِالْقِسْطِ**﴾ بالعدل الذي أمرك الله به، تقول منه: أَقْسَطَ الرَّجلُ وهو مُقْسِطٌ. والقُسُوطُ: الجور، والعدُول عن الحق. تقول منه:[٧٧٤] قَسَط يَقْسِطُ قُسُوطًا، قال تع: ﴿**وأمَّا القاسِطونَ فكَانُوا لجهنَّمَ حَطَبًا**﴾ [الجن ١٥/٧٢]. وقال ههنا: ﴿**يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾، أي: العادلين، فيحفظهم ويعظِّم شأنهم، ويسهِّل أمرَهم، ويبطل كيدَ عدوِّهم.[٧٧٥]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»،[٧٧٦]رواه مسلم والنسائي.

وعن عِياض بن حمار رضي الله عنه قال سمعت رسول الله يقول: «أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى مُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ»،[٧٧٧] رواه مسلم.

---

[٧٦٧] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٣/١

[٧٦٨] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٣/١

[٧٦٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٩و.

[٧٧٠] **الكشاف** للزمخشري ، ٦٢٣/١.

[٧٧١] **الكشاف** للزمخشري ، ٦٢٣/١.

[٧٧٢] ج – موضعه.

[٧٧٣] **الصحاح** للجوهري، «سرب»؛ **تاج العروس** للزبيدي، «**سرب**»؛ **أساس البلاغة** للزمخشري، «**سرب**»؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٩و.

[٧٧٤] ج – منه.

[٧٧٥] **الصحاح** للجوهري، «**قسط**»؛**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٨/١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥٢٧/٣.

[٧٧٦] **صحيح مسلم**، ١٤٥٨/٣ (١٨٢٧)؛ **سنن النسائ** الكبرى، ٣٩٥/٥(٥٨٨٥).

[٧٧٧] **صحيح مسلم**،٢١٩٧/٤ (٢٨٦٥).

وعنه ع م: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا إِمَامٌ جَائِرٌ».[٧٧٨] وعنه عليه السلام: «عَدْلُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَةً».[٧٧٩]

٤٣ -﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾

تعجيب من جعلهم حكمًا مَن لا يؤمنون به، والحال أن الحكم المنصوص عليه في الكتاب الذي هو عندهم، وتنبيهٌ على أنهم ما قصدوا بجعله ع م حَكمًا معرفة الحقّ، وإقامة الشرع. وإنما طلبوا به ما يكون أسهلَ عليهم وإن لم يكن حكم الله في زعمهم،[٧٨٠] أو وإن كانوا عارفين بنبوته باطنًا ولو عاندوا وحسدوا ظاهرًا.

﴿**وَكَيْفَ**﴾: حالٌ من ضمير الفاعل في ﴿**يُحَكِّمُونَكَ**﴾ فهو عامله أخّرت؛ لاقتضاء الاستفهام الصَّدارة، كأنه قيل: وعلى أيِّ حالٍ يحكِّمونك، ففيه إنكارٌ لتحكيمهم بإنكار الحال التي تقع فيها على الطريق البرهاني؛ لأن صدوره لا ينفكُّ عن حالٍ، فإذا أنكر أن يكون لتحكيمهم حال يوجد عليها استلزم ذلك إنكار وجوده على وجه الصَّواب، لا إنكار وجوده؛ لأن التحكيم وجد منهم، لكنهم لم يقصدوا به المعرفة والإقامة، والتحكيم المعتدّ به ما يكون على قصد ذلك.

﴿**وَعِنْدَهُمُ التَوْرَيةُ**﴾: الجملة حالٌ من الفاعل أيضًا على التَّرادف و﴿**التَّوْرَيةُ**﴾ مبتدأ، ﴿**وَعِنْدَهُمْ**﴾ الخبر، ويجوز أن ترتفع ﴿التَّوْرَيةُ﴾ بالظَّرف، لكن في جعلها مرفوعًا بالظرف المصدّر بالواو الحالية محل نظر؛ إذ فيه نوعٌ منع من الاعتماد، و ﴿**فِيهَا**﴾ خبرٌ مقدَّم، و﴿**حُكْمُ اللهِ**﴾ مبتدأ مؤخَّر، أو فاعل الظَّرف والجملة حالٌ من ﴿**التَّوْرَيةُ**﴾على تقدير أن تكون التوراةُ فاعلَ الظرف، ومن الضمير المستتر في الخبر على تقدير كونها مبتدأ؛ لأن انتصابَ الحال عن المبتدأ غيرُ جائزٍ، وهذا هو مراد المصنف من جعله حالًا من ﴿**التَّوْرَيةُ**﴾ على تقدير كونها مبتدأ، وجوّز أيضًا «أن تكون جملةً مبنيةً؛ لأن عندهم ما يغنيهم عن التحكيم، كما تقول: عندك زيدٌ ينصحُك، ويشير عليك بالصَّواب، فما تصنع بغيره»؟[٧٨١]

فقوله: «**لأن عندهم**»[٧٨٢] صلةٌ مبيِّنَةٌ، يعني: أن قوله: ﴿**وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَيةُ**﴾ معناه: أن عندهم ما يُغنِيهم عن التحكيم، وقوله: ﴿**فِيهَا حُكْمُ اللهِ**﴾ يُبيِّن هذا المعنى ويقرّره، وحمله على التعليل تعسف.[٧٨٣]

ولما ورد أن يقال: إنه لا تأنيث في التوراة بحسب المعنى؛ لأن تسميتها كتاب الله ولا بحسب اللفظ؛ لأنها اسم أعجمي وتاؤها ليست للتأنيث؛ لأن ذلك يكون في الاسم العربي، فما وجهُ تأنيثها حيث أرجع إليها ضمير التأنيث؟

أجاب عنه المصنفان:[٧٨٤] بأن تأنيثَها لكونها نظيرَ المؤنث في كلامهم لفظًا كـ«مَوْمَاة»، وهي: المفازة و«دَوْدَاة»، وهي: أُرجوحةُ الصِّبيان، وهي: الحبل أو الخشبة التي يترجح الصبيان يقال: ترجحت الأرجوحة بالغلام أي: مالت.[٧٨٥]

﴿**ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ**﴾ ثم يُعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم بعد التحكيم، وثم لاستبعاد التَّولّي بعد التحكيم.

---

[٧٧٨] **المعجم الأوساط** للطبراني، ٢٣٩/٥ (٥١٩٦).

[٧٧٩] **فضيلة العادلين من الولات** لأبي نعيم، ص ١١٦ (١٥)؛ **كشف الخفاء** للعجلوني، ٦٧/٢؛

[٧٨٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٨/١.

[٧٨١] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٣/١.

[٧٨٢] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٣/١.

[٧٨٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٩و.

[٧٨٤] الزمخشري، والبيضاوي.

[٧٨٥] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٣/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٨/١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥٢٨/٣.

وقيل: ﴿**مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ**﴾ من بعد حكم الله الذي في التوراة ترحم من أخص. «وهو عطفٌ على ﴿**يُحَكِّمُونَكَ**﴾ داخل في حكم التَّعجيب»،[٧٨٦] فإن تحكيمَهم من لا يؤمنون به، والحال أن الحكم منصوصٌ عليه في كتابهم، كما أنه عجيب فكذا تحكيمهم إياه، ثم إعراضهم عن حكمه، وعدم قبولهم إياه مع علمهم بأنه حكم الله المنصوص عليه في كتابهم [**٥٧**/و] مائلين إلى ما يجحدون أنه من عند الله طلبًا للرخصة تحجيب أيضًا، فظهر جهلهم وعنادهم، وعدولهم عن حكم كتابهم، ورجوعهم إلى حكم من كانوا يعتقدون كذبه، أو يعاندونه وإعراضهم بأن حكمه بعد ما حكَّموه.[٧٨٧]

﴿**وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ**﴾ بكتابهم لإعراضهم عنه أوَّلًا، وعما يوافقه ثانيًا، أو بك وبه.[٧٨٨]

وقيل: بالمؤمنين في المستقبل[٧٨٩] بك وبكتابك، فهذا في قومٍ عَلِمَ الله أنهم لا يؤمنون،[٧٩٠] أو بالكاملين في الإيمان على سبيل التَّهكُّم بهم، والإشارة بـ﴿**أُولَئِكَ**﴾تنعيد لهم عن ساحة الحضور.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾

يعني: أنبياء بني إسرائيل من لدن موسى إلى عيسى؛ لأنه من أنبياء بني إسرائيل ولا يحكم بالتوراة.[٧٩١]

وعن ابن عباس: أن الله بعث في بني إسرائيل أُلُوفًا من النبيين ليس معهم كتاب، وإنما بعثهم لإقامة التوراة،[٧٩٢] أو موسى ومن بعده إن قلنا: شرع مَن قبلنا شرعُنا ما لم يُنسخ،[٧٩٣] فإنه تع جعلها هدًى ونورًا فيعم الأصول والفروع، ولو نسخ بالكلية لَما كان فيه هدًى ونور، ولو حمل على ما يتعلَّق بالأصول يكون قوله: ﴿**وَنُورٌ**﴾ تكرارًا، بل الهدى فيما يتعلَّق بالأصول والنور فيما يتعلَّق بالفروع أو بالعكس.

وقال الزجاج:[٧٩٤]﴿**هُدًى**﴾، أي: بيان الحكم الذي جاؤوا يستفتون فيه النبي، ﴿**وَنُورٌ**﴾، أي: بيانُ أنَّ أمرَ النبي حقٌّ.[٧٩٥] ويدلُّ على كونه هدًى ونورٌ في أصول الشرع وفروعه أنها إنما نزلت في الرَّجم، ولابدَّ من دخول الأحكام فيها، فإنها

---

[٧٨٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٨/١.

[٧٨٧]**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥٢٨/٣.

[٧٨٨]**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٨/١.

[٧٨٩] ج – في المستقبل. الزَّجَّاج (٢٤١ – ٣١١ هـ/٨٥٥ – ٩٢٣ م) إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج: عالم بالنحو واللغة. ولد ومات في بغداد.كان في فتوته يخرط الزجاج ومال إلى النحو فعلمه المبرد. وطلب عبيد الله بن سليمان (وزير المعتضد العباسي) مؤدبا لابنه القاسم، فدله المبرد على الزجاج، فطلبه الوزير، فأدب له ابنه إلى أن ولي الوزارة مكان أبيه، فجعله القاسم من كتابه، فأصاب في أيامه ثروة كبيرة. وكانت للزجاج مناقشات مع ثعلب وغيره. من كتبه (معاني القرآن) و (الاشتقاق) و (خلق الإنسان) و (الأمالي) في الأدب واللغة، و (فعلت وأفعلت) في تصريف الألفاظ و (المثلث) في اللغة، مهيأ للنشر في بغداد، و (إعراب القرآن) ثلاثة أجزاء. ويلاحظ أن في خزانة الرباط (٣٣٣ أوقاف) مخطوطة

[٧٩٠]**التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٩٧/٥.

[٧٩١]**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥٢٨/٣.

[٧٩٢]**الوسيط** للواحدي، ١٩٠/٢؛ **حاشية القونوي على تفسير البيضاوي**، ٤٦٩/٧.

[٧٩٣]**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٨/١.

[٧٩٤] الزَّجَّاج (٢٤١ – ٣١١ هـ = ٨٥٥ – ٩٢٣ م) إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج: عالم بالنحو واللغة. ولد ومات في بغداد. كان في فتوته يخرط الزجاج ومال إلى النحو فعلمه المبرد. وطلب عبيد الله بن سليمان (وزير المعتضد العباسي) مؤدبا لابنه القاسم، فدله المبرد على الزجاج، فطلبه الوزير، فأدب له ابنه إلى أن ولي الوزارة مكان أبيه، فجعله القاسم من كتابه، فأصاب في أيامه ثروة كبيرة. وكانت للزجاج مناقشات مع

وإن اختلفنا في أن غير سبب النزول هل يجب أن يكون داخلًا، لكنا توافقنا في دخول سبب النزول، واستضعف بأنه لو كان كذلك لَكان حكم التوراة كحكم القرآن في وجوب طلب الحكم منه، لكن الشرع نهى عن النَّظر فيه، بل المراد الأمر الخاص وهو الرجم؛ لأنهم طلبوا الرخصة فيه بالتحكيم،[٧٩٦] ولقوله: ﴿**لِلَّذِينَ هَادُوا**﴾؛ لأنه متعلق بـ«أنزل»، أو «يحكم»، أي: يحكمون بها في تحاكمهم فهو يدلُّ على أن «النبيون» أنبياؤهم.

في «**الصحاح**»:حَكَمَ بينهم يَحكُم، أي: قضى. وحكم له وعليه،[٧٩٧] والمصنِّف: أتى في كلامه بعَلَى وهو يوهم أنه مبدل من «اللام»، وليس به؛[٧٩٨]لأنَّ «اللام» في ﴿**لِلَّذِينَ هَادُوا**﴾ بمعنى «لأجل» وليست بصلة، مثلها في قوله: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [الأحقاف ١١/٤٦]، أي: لأجلهم، فالنبيون إذا حكموا لأجل مَن يخالفهم إلى وصف اليهودية لحملوهم على ما هم عليه من الحقِّ، ولا يتركونهم أن يعدلوا عنه إلى هواهم، كما فعل عليه السلام حين حكم لأجل اليهود في الزَّانيين حين دعا ابن صُوريا وسأل عنه حكم التورية.[٧٩٩]

﴿**الَّذِينَ أَسْلَمُوا**﴾ صفةٌ «للنبيين» على المدح، كالصفات الجارية عليه تع، لا للتوضيح، وأريد بها التعريض باليهود وأنهم بُعَدَاءُ عن ملَّة الإسلام التي هي دين الأنبياء كلهم.

وقوله: ﴿**الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا**﴾ منادٍ عليه.[٨٠٠]

اعترض بأن النُّبوة أعظمُ فكيف يمدح به، فهو للتَّنبيه على عظم الصفة، حيث وصف بها العظماء، كما في وصفِ الأنبياء بالصلاح، والملائكة بالإيمان، فإن أوصافَ الأشراف أشرافُ الأوصاف، وإلا فالنُّزول من الأعلى إلى الأدنى قصورٌ في البلاغة، كما في قوله:

شمسُ ضُحاها هلالُ ليلتها ... درُّ تقاصيرها زَبرجدُها[٨٠١]

ولا كذلك الصفات الجارية على القديم؛ فإن مدلول الموصوف هو الذات، وإن كانت موصوفها صفات الكمال لا نفس الصفات، حتى إن مدلول اسم الله هو ذاته، لا الوصف بالألوهية التي هي أعظم من الكلِّ، وما ذكرنا من تعظيم الوصف إنما يقتضي كونه صفةَ مدح، لا أن يكون إيراده لقصد مدح الموصوف، وحمل كلام المصنف عليه، أي: على سبيل مدح الصفة لهم بعيدٌ جدًا.

فالجواب: أن المراد أنها أجريت عليهم على سبيل المدح دون التخصيص أو التوضيح، لكن لا لقصد المدح ليلزم ما ذكرتم، بل لقصد التعريض على ما قال، وأريد بإجرائها التعريض إلى آخره.[٨٠٢]

ثعلب وغيره. من كتبه (معاني القرآن – خ) و (الاشتقاق) و (خلق الإنسان – ط) و (الأمالي) في الأدب واللغة، و (فعلت وأفعلت – ط) في تصريف الألفاظ و (المثلث – خ) في اللغة، مهيأ للنشر في بغداد، و (إعراب القرآن – ط) ثلاثة أجزاء. ويلاحظ أن في خزانة الرباط (٣٣٣ أوقاف) مخطوطة. **الأعلام** للزركلي، ٤٠/١.

[٧٩٥] **معاني القرآن** للزجاج، ١٧٨/٢؛ **مفاتيح الغيب** للرازي، ٣/١٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٣٤٥/٧.

[٧٩٦] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٢٤٣/١١.

[٧٩٧] **الصحاح** للجوهري، «حكم».

[٧٩٨] ج – به.

[٧٩٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٦٨/٥.

[٨٠٠] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٣/١.

[٨٠١] **البيت للمتنبي**. **ديوان المتنبّي**، ص ١٠؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٦٦/٥؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٩و.

وعبارتُه قدس سره أقربُ إلى الاعتذار وأَفيد، حيث قال: مدحًا لهم وتنويهًا بشأن المسلمين، وتعريضًا باليهود.[٨٠٣]

وقوله: «منادٍ على ذلك»:[٨٠٤] أي: على بُعدهم عن ملَّة الإسلام حيث قابل من أسلموا وهادوا.[٨٠٥]

وفيه رمزٌ إلى أن شأن أهل الله الإسلام والانقياد، وإن ديدن مخالفيهم اللجاج والعناد، والله الهادي إلى الرشاد، والدَّاعي إلى السداد.

وعنه ع م: «إِنَّ اللهَ أَعْطَى مُوسَى التَوْرَيَةَ وَأَعْطَانِي السَّبْعَ الطُّولَ بَدَلَهَا»[٨٠٦]

﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾

عطف[٨٠٧] على **﴿النَّبِيُّونَ﴾**. والربانيُّ: المتأله العارف بالله المخلص وجهه له، وقيل: الربانيون العلماء الحكماء، والأحبار: فقهاء اليهود وعلماؤهم.[٨٠٨]

قال الجوهريُّ: الحِبْرُ والحَبْر: واحد أحبار اليهود، وبالكسر أفسحُ؛ لأنه يُجمع على أفعال دون فُعُول. قال الفراء: هو «حِبر» بالكسر، يقال ذلك للعالم، باعتبار توسُّله إلى تحصيل العلوم بالحبر الذي يكتب به.

وقال أبو عبيد: والذي عندي أنه الحَبْرُ بالفتح، ومعناه: العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسِينه، كأنه مصدر قولك: حبرته حَبرًا إذا حسَّنته، وتحبير الخطِّ والشعر [**٥٧**/ظ] وغيرهما: تحسينُه.[٨٠٩]

«بما سألهم أنبياؤهم حفظَه من التورية، أي: بسبب سؤالهم أنبيائهم إيَّاهم أن يحفظوه من التغيير والتبديل». و**﴿مِنْ﴾** في **﴿مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾** للتبيين. **﴿وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾** رقباء لئلا يبدّل؛ والمعنى: يحكم بأحكام التورية النبيون بين موسى وعيسى، وكان بينهما ألفُ نبيٍّ **﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾**، وكذلك حكم الرَّبَّانيُّون والأحبار المسلمون بسبب ما استحفظَهُم أنبياؤهم من كتاب الله والقضاء بأحكامه، وبسبب كونهم عليه شهداء.

ويجوز أن يكون الضمير في **﴿ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾** للأنبياء والرَّبَّانيين والأحبار جميعًا، ويكون الاستحفاظُ من الله، أي: كلَّفهم الله حفظه، وأن يكونوا شهداء.[٨١٠]

فقوله: «سبب سؤال أنبيائهم»[٨١١] بيان لحاصل المعنى على ما هو قاعدة تعليق الحكم بالوصف من الإشعار بالحيثية والعلية لمأخذ الاشتقاق لا دلالة على أن ما مصدرية لتنافي جعل **﴿مِنْ﴾** للتبيين، كيف وقد جعل هذا التفسير مكتنفًا شاهدي

---

[٨٠٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٩و–ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣/٢٥٥-٢٥٦.

[٨٠٣] **أنوار التنزيل** للزمخشري، ١/٤٣٨.

[٨٠٤] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٢٤.

[٨٠٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٩ظ.

[٨٠٦] لم أجده بهذا الفظ.

[٨٠٧] ج– عطف.

[٨٠٨] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/٥٢٨.

[٨٠٩] **الصحاح** للجوهري، «حبر»؛ **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٧/٤٩٥-٤٩٦؛ **اللباب** لابن عادل، ٧/٣٤٨-٣٤٧؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/٥٢٩.

[٨١٠] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٢٤.

[٨١١] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٢٤.

عدل على أن ﴿مَا﴾ موصولة فلينظر، وكذا الكلام في قوله: «وبسبب كونهم»،[٨١٢] أي: الرَّبَّانيين والأحبار عليه، أي: على كتاب الله شهداء، فإن عطف كانوا على ﴿ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾ وهو صلة وضمير عليه لما فيكون موصولة لا مصدرية.

والغرض من بيان هذه السببية أن ليس «الباء» في ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾مثلها في ﴿بِمَا﴾ ليلزم تعلّق حرفي جرٍّ بمعنى واحد بفعل واحد، بل الأوَّل صلة كما في قولك: حكمت بحكم كذا؛ وهذه سببية، وإن كانتا داخلتين على شيءٍ واحدٍ بالذات وهو كتاب الله.[٨١٣]

وقوله:«وكذلك حَكَمَ»[٨١٤]بلفظ الماضي إشعار بأن يحكم حكايةَ حالٍ ماضيةٍ على قصد الاستحضار والاستمرار. وفي قوله: «المسلمون»،[٨١٥] إشعارٌ بأن هذا الوصف المعتبر في المعطوف عليه معتبر في المعطوف تكميلًا للتعريض وتنويهًا للصِّفة.[٨١٦]

وقوله:«ويجوز أن يكون»[٨١٧] على الأول كان الضمير: للربَّانيين والأحبار، والاستحفاظ من النبيين بمعنى سؤالهم حفظه من التغيير والتبديل، واستدعائهم ذلك لا بمعنى التَّكليف كما في هذا الوجه، فإن الطلب الكائن من الله هو بمعنى التكليف.[٨١٨]

وقيل: إن حفظ كتاب الله يكون على وجهين: الأول: أن يحفظ ولا ينسى. والثاني: أن يحفظ ولا يضيع أحكامه بالتحريف والتغيير، وأن المراد به ههنا الحفظ بالمعنى الثاني المستلزم الحفظ بالمعنى الأوَّل، فإنه تع قد أخذ عليهم حفظ كتابه من هذين الوجهين مما أحدهما: أن يحفظوه في صدورهم، الثاني أن لا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه.[٨١٩]

وأما دخول كونهم عليه شهداء تحت الطلب فلا دلالة في اللفظ عليه، وإنما هو من جهة المعنى كأنه قيل: وكانوا عليه شهداء بحكم الله وطلب منه.

وقال عارف: الربانيون الراجعون إلى الربِّ في جميع أحوالهم، والأحبار العلماء بأحكام الله.

وقيل: الربانيون الصحابة الذين أخذوا كلام الله عن السفير الأعلى، والواسطة الأدنى، والأحبار علماء الأمة العاملون بعلمهم.[٨٢٠]

﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾

نهيٌ للحكّام أن يخشوا غير الله في حكوماتهم، ويداهنوا فيها خشية ظالمٍ، أو مراقبة كبيرٍ،[٨٢١] وأن يستبدلوا بالأحكام التي أنزلها الله ثمنًا قليلًا وهو الرِّشوة والجاه، والمداهنة المصانعة، والملاينة، وكذا الإدهان قال: أدهن في الأمر أي: لاين فيه وداري.

---

[٨١٢] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٤/١.

[٨١٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٩ظ.

[٨١٤] ا**لكشاف** للزمخشري ، ٦٢٤/١.

[٨١٥] **الكشاف** للزمخشري ، ٦٢٤/١.

[٨١٦] ج- للصفة؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٩ظ.

[٨١٧] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٤/١.

[٨١٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٠٩ ظ -٣١٠و.

[٨١٩] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٥/١٢؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٥٣٠/٣.**

[٨٢٠] **عرائس البيان** للبقلي، ٣١٤/١.

وقيل: لما بيَّن أن النبيين والربانيين والأحبار، كانوا قائمين بأحكام التورية من غير مبالاة، خاطب معاصري النبي من اليهود، ومنعهم من التحريف والإقدام، إمَّا لدفع ضررٍ أو طلب نفعٍ، وكان الدفع أقوى قدّم ذلك في النهي، ثم أردفه بالآخر.[٨٢٢]

وقيل: كان ذلك لأمرين: لخوف الكبار، وطمع العوام سدَّ عليهم البابين.

وقيل: إنه تع استحفظ كتابه أهل الكتاب فتولوا، وحفظ القرآن بنفسه فلم يتولّوا، وكان بعد التورية نزول الإنجيل فعرَّفهم بتبديل اليهود التورية، وكان بعد الإنجيل نزولُ القرآن فعرَّفهم بتبديل النصارى الإنجيل، ولم يكن بعد القرآن كتابٌ آخر، ولا نبيٌّ آخر يعرفهم، لو وقع التحريف فحفظ بنفسه.

﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ**﴾ مستهينًا به ومنكرًا له ﴿**فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ**﴾ لاستهانتهم به وتمرُّدهم بأن حكموا بغيره، ولذلك وصفوا بالظلم والفسق وأيضًا، فكفرهم لإنكاره، وظلمهم بالحكم على خلافه، وفسقهم بالخروج عنه،[٨٢٣] وهذا على ما أفاده قدس سره، ويؤيده قول ابن عباس: من جحد شيئًا من حدود الله فقد كفر، ومن أقرَّ بها ولم يحكم بها فهو ظالم فاسقٌ،[٨٢٤] أو الأخيران وصف لهم بالعُتُوّ في كُفرهم حين ظلموا بآيات الله بالاستهانة، وتمرّدوا بأن حكموا بغيرها،[٨٢٥] وهذا على ما أفاده المصنف.

> وذلك لأن الفسق والظلم إذا وصف بهما الكفَّار يراد بهما أغلظ مراتبهما، ويجوز أن يكون كل واحدة من الصفات الثلٰث باعتبار حالٍ انضمت إلى الامتناع [**٥٨**/و] عن الحكم به ملائمة لها، فإنه كافرٌ باعتبار حالٍ ملائمة لصفة الكفر، وهي كونه جاحدًا لنعمة المولى منكرًا له، و«ظالمٌ» باعتبار حالٍ أخرى ملائمة لصفة الظلم، وهي إلقاءُ نفسه في العقاب الشديد بحكمه على خلاف ما أنزل الله، وهو ظلم عظيم على النفس، و«فاسقٌ» باعتبار خروجه عن طاعة الله، وهذا كما يقال: مَن أطاع الله فهو البَرُّ، ومَن أطاع الله فهو المؤمن، ومَن أطاع الله فهو المتَّقي؛ فإن كلًّا من هذه الصفات الثلٰث حاصلةٌ لموصوفٍ واحدٍ باعتبار أحوال مختلفةٍ منضمة إلى الإطاعة،[٨٢٦] وأن يكون كل واحدة من الصفات لطائفةً على أن لا يكون من عطف الصفات، بل من عطف الذات؛ لما قيل: هذه في المسلمين لاتصالها بخطابهم، والظالمون في اليهود والفاسقون في النصارى.[٨٢٧] وهذا هو المنقول عن الشعبي، فيلزم أن يكون المسلمون أَسوأَ حالًا من اليهود والنصارى، فيقال: إن الكفر إذا نسب إلى المؤمنين يكون تغليظًا، والظلم والفسق إذا نسب إلى الكفار يكون إشعارًا بغاية عتوّهم وتمرُّدهم، ثم الخطاب إن كان مع أهل الكتاب، فالفاء جزاءُ شرطٍ محذوفٍ، أي: إذا استُحفظتم أيها الأحبار كتاب الله فلا تخشوا الناس، وإن كان مع المؤمنين فالفاء فصيحة؛ إذ المعنى حينئذ: أنتم أيها المسلمون[٨٢٨] حين تُليت عليكم أخبار النبيين والربانيين والأحبار واستحفاظِهم كتاب الله وما عرض باليهود الذين غيَّروا

---

[٨٢١] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٩/١.

[٨٢٢] **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥٣٠/٣.

[٨٢٣] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٩/١.

[٨٢٤] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٥/١؛ **الوسيط** للواحدي، ١٩١/٢.

[٨٢٥] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٥/١.

[٨٢٦] **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥٣١/٣.

[٨٢٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٩/١.

[٨٢٨] ج: المؤمنون.

دينَ الله، وبدَّلوا كتابه وحكموا بغير ما أنزل الله رهبةً من الناس ورغبةً في الدنيا وعرفتُم حالَهم؛ فلا تكونوا مثلهم فتخشوا الناس وتشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا.[٨٢٩]

وفي الخبر القدسي: «يا عباد لا ترجو غيري، ولا تخافوا غيري وارفعوا حوائجكم إليّ أيسرها لكم».[٨٣٠]

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)﴾

قرأ الكسائي: «وَالْعَيْنُ»[٨٣١] وما عطف عليه بالرفع على عطف جملة اسمية على **﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾** معنًى لا لفظاً؛ لأن المعنى: كتبنا عليهم النفس بالنفس بطريق الحكاية، فإن الجملة تقع مفعولًا للكتابة كما تقع مفعول القراءة والقول، تقول: كتبت **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾**، وقرأت **﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾** [النور ١/٢٤] ولم يعطف لفظ «والعين» على محلّ اسم **﴿أَنّ﴾** لعدم جواز العطف على اسم **﴿أَنّ﴾** المفتوحة، أو على عطف الأسمية على جملة **﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ﴾** فتكون الجملة المعطوفة ابتداءَ تشريع وبيان حكمٍ جديدٍ غير مندرج فيما كتب في التوراة، فالواو ليست لتشريك مدخولها مع الجملة الواقعة موقع مفعول «كتبنا»، بل لتشريك مضمون مدخولها مع مضمون الجملة الفعلية التي قبلها في التحقُّق والوقوع كما هو الأصل والعطف على الجمل التي لا محل لها من الإعراب. فعبر المصنفان عنه بالاستئناف على أنها غيرُ معطوفة على الجملة الواقعة في حيّز «كتبنا فيها»، فالاستئناف بهذا المعنى لا ينافي العطف على الفعلية،[٨٣٢] أي: وكتبنا عليهم فيها أن النفس مأخوذة بالنفس، وكذا العين مفقوءة بالعين، والأنف مجدوعة بالأنف؛ تقول: حذمت الشيء إذا قطعته، والأذن مصلومة بالأذن.

والصلم: قطع الأذن من أصلها تقول: صلمت الأذن أصلمها صلمًا، إذا استأصلتها، ورجلٌ أصلمُ إذا كان مقطوع الأذنين.[٨٣٣]

فقدَّر متعلق كل مجرور لما يناسب خصوص المادة وإلا فالفاء لا تدلُّ إلا على مجرَّد المبادلة والمقابلة. والفقأ للعين، والقلع للسن، والصلم للأذن، والجزم للأنف، أو على أن المرفوع منها معطوف على المستكنّ في قوله: **﴿بِالنَّفْسِ﴾** وهو الضمير المرفوع، إذ الأصل النفس مأخوذةٌ بالنفس، فلمَّا حذف المتعلِّق انتقل ضميره إلى الجارّ والمجرور.

ولَمَّا ورد أن يقال: كيف جاز العطف على الضمير المرفوع المتَّصل من غير فصل بين المتعاطفين، ولا تأكيد بمنفصل ولا فصل بـ«لا» بعد حرف العطف، كما في قوله: **﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾** [الأنعام ١٤٨/٦]، وهذا لا يجوز عند البصريين؟

أجيب أنه وإن لم يتوسط ما يفصل بين المرفوع والضمير المستكنّ لفظًا إلا أنه متوسِّطٌ بينهما في الأصل، فإن الأصل أن النفس مأخوذة بالنفس والعين، فقوله: **﴿وَالْعَيْنَ﴾** معطوفة على المستكن في «مأخوذة». وقد توسّط الظرف أعني: «بالنفس» بين ذلك المستكنّ وبين ما عطف عليه، والجار والمجرور المتوسط بينهما في محلّ النصب على الحال مبينة للمعنى؛ إذ المرفوع ههنا مرفوع بالفاعلية لعطفه على الفاعل المستتر.[٨٣٤]

---

[٨٢٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٧١/٥.

[٨٣٠] لم أجده.

[٨٣١] **كتاب السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٤٤؛ **التيسير** للداني، ص ٣٣٤؛ **النشر في القراءات العشر** لابن الجزري، ١٩١/٢.

[٨٣٢] **حاشية محي الدين شيخ زاده، ٥٣١/٣–٥٣٢.**

[٨٣٣] **الصحاح** للجوهري، «صلم»؛ **لسان العرب** لابن المنظور، «صلم».

[٨٣٤] **حاشية محي الدين شيخ زاده، ٥٣٢/٣.**

روي: أنه قال بنو قريظة لكعب بن الأشرف: إخواننا بنو النضير، أبونا واحدٌ، ودينُنا واحدٌ، وكتابنا واحد، فإن قَتَلَ بنو النضير منَّا، أعطونا سبعين وسقًا من تمرٍ، وإنْ قتَلنا منهم واحدًا، أخذوا منا مائةً وأربعين وسقًا، وجراحتنا على أنصاف جراحتهم؟ فاقض بيننا وبينَهم.

قال: فإني أحكمُ أنَّ دمَ القُرظِيِّ وفاءٌ [**٥٨**/ظ] من دم النَّضيريِّ، ودمَ النَّضيري من دم القرظي، وذلك قبل أن يبعثَ محمد، ليس لأحدهما فضلٌ على الآخر في دمٍ ولا عقلٍ لا جراحةٍ، الدَّمُ بالدَّم، والجِراحةُ بالجراحة فغضب بنو النضير، وقالوا: لا نَرضى بذلك؛ فإنك لنا عدوٌّ، إنك لا تألوا من وضعنا وتصغيرنا، فأنزل الله في ذلك: ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ**﴾ [المائدة ٥٠/٥] يعني: حكمهم الأول، ثم أخبر أنه كتب عليهم القِصاص في النَّفس، وفيما دون النفس بهذه الآية.[٨٣٥]

﴿**وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾

أي: ذاتُ قصاص بتقدير المضاف؛ لأن الجروح جمعُ جِراحة فلا يكون عين قصاص. ورفعها الكسائي[٨٣٦] أيضًا بناءً على الوجوه السابقة في رفع السابقة.

وقرأ نافع وحمزة وعاصم الجميعَ بالنصب[٨٣٧] على أن يكون كلُّ واحد من المنصوبات معطوفًا على اسم ﴿**أَنّ**﴾ لفظًا وهو ﴿**النَّفْسِ**﴾، وأن يكون كلّ واحد من الجارِّ والمجرور الواقع بعد قوله: ﴿**بِالنَّفْسِ**﴾ معطوفًا على قوله: ﴿**بِالنَّفْسِ**﴾، فـ«الجروح» عطف على ﴿**النَّفْسِ**﴾ و﴿**قِصَاصٌ**﴾ خبر ﴿**الْجُرُوحَ**﴾ عطف الاسم على الاسم، والخبر على الخبر نحو: إن زيدًا قائم وعمروًا منطلقٌ، حيث عطف عمروًا على زيدًا، ومنطلق علي قائم فيكون الكتب شاملًا للجميع.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر السابقة بالنصب[٨٣٨] على ما ذكر في وجه النصب، وههنا بالرفع قطعًا له عمَّا قبله ورفعه بالوجوه الثلاثة المذكورة في رفع السابقة، وذلك للفرق بين المجمل والمفصّل؛ فإن قوله: «النفس بالنفس والعين بالعين والأذن بالأذن والسن بالسن» مفسّر غير مجمل، بخلاف الجروح فإنها مجملة؛ إذ ليس كلّ جرح يجري فيه القصاص وإنما يجري فيما يمكن فيه حفظ المماثلة، كاليد والرجل والشفة والذكر والأنثيين، وأمَّا ما لا يمكن فيه حفظ المماثلة مثل كسر عظم أو رضّ لحم أو جراحة نافذة إلى الجوف فَلَا قصاص فيه؛ لأنه لا يمكن الوقوف على نهايته فيجب فيه الإرش؛ أو لأن «الجروح» مبتدأ و«قصاص» خبره، ويكون المقصود من الجملة ابتداء تشريع وتعريف حكم جديدٍ، لا حكاية ما كتب على بني إسرائيل.

﴿**فَمَنْ تَصَدَّقَ**﴾ من أصحاب الحقِّ ﴿**بِهِ**﴾، أي: بالقصاص وعفا عنه ﴿**فَهُوَ**﴾ أي: التصدُّقُ به كفَّارةٌ للمُتَصدِّق يكفِّر الله من سيئاته ما تقتضيه الموازنة، كسائر طاعاته. وعن عبد الله بن عمرو: «يهدم عنه ذنوبه بقدر ما تصدَّق به».[٨٣٩] وقيل: فهو كفَّارة للجاني إذا تجاوز عنه صاحبُ الحقِّ، سقط عنه ما لَزِمَه[٨٤٠] في الدنيا والآخرة، وأمَّا أجر العافي فعلى الله؛ قال

---

[٨٣٥] **تفسير مقاتل ابن سليمان** لأبي الحسن مقاتل ابن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (١٥٠هـ) ، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت ١٤٢٣هـ، ٤٨٠/١؛ **التيسير في التفسير**، ٤٠٢/٥-٤٠٣.

[٨٣٦] **كتاب السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٤٤؛ **التيسير** للداني، ص ٣٣٤؛ **النشر** لابن الجزري، ١٩١/٢.

[٨٣٧] **كتاب السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٤٤؛ **التيسير** للداني، ص ٣٣٤؛ **النشر** لابن الجزري، ١٩١/٢.

[٨٣٨] **كتاب السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٤٤؛ **التيسير** للداني، ص ٣٣٤؛ **النشر** لابن الجزري، ١٩١/٢.

[٨٣٩] **تفسير ابن أبي حاتم**، ١١٤٦/٤(٦٤٤٨)

[٨٤٠] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٥/١.

تع: ﴿**فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ**﴾[الشورى ٤٢/٤٠].[٨٤١] «وهذا يدلُّ على أنَّ خبر المبتدأ مجموع الشرط والجزاء، حيث لم يكن العائد إلا في الشرط».[٨٤٢]

وقرئ: «فَهُوَ كفَّارتُهُ لَهُ»،[٨٤٣] يعني: فالمتصدِّق به كفَّارته له، أي: الكفَّارة التي يستحقها بدلالة الإضافة المفيدة للاختصاص له، لا ينقص منها وإلا لم تكن حاصلة له؛ لأن بعض الشيء لا يكون ذلك الشيء.

قال المصنف: «وهو تعظيمٌ لِما فعل، كقوله: ﴿**فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ**﴾ وترغيبٌ في العفو».[٨٤٤]«والتعظيم من حيث جعله مقتضيًا للاستحقاق اللائق من غير نقصانٍ، لكن لا خفاء في أن هذا يكون ترغيبًا في العفو، وظاهر عبارته أن التنظير بقوله: ﴿**فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ**﴾ [الشورى ٤٢/٤٠] في الدلالة على تعظيم الفعل الذي استحق به الأجر، ولا يخفى أنَّ فيه الترغيب في ذلك الفعل والدَّلالة على استحقاق الأجر وأنه لا ينقص منه.[٨٤٥]

فلو قدِّم قوله:«وترغيب في العفو» على قوله: «كقوله: ﴿**فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ**﴾» [الشورى ٤٢/٤٠] لكان أولى.

وروي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثَلَاثة مَنْ جَاءَ بِهِنَّ مَعَ إِيمَانٍ دَخَلَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ، وَزُوِّجَ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ كَمْ شَاءَ: مَنْ أَدَّى دَيْنًا خَفِيًّا، وَعَفَا عَنْ قَاتِلِهِ، وَقَرَأَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ عَشْرَ مَرَّاتٍ: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَوْ إِحْدَاهُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ فَقَالَ: أَوْ إِحْدَاهُنَّ».[٨٤٦]

وعنه ع م: «مَنْ تَصَدَّقَ بِدَمٍ أَوْ دُونَهُ كَانَ كَفَّارَةً لَهُ مِنْ يَوْمِ وَلَدِ إِلَى يَوْم تَصَدَّق»، ورواه رواة الصحيح.[٨٤٧]

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٦)﴾

أي: وأتبعناهم على آثارهم بعيسى، فإن قفينا فقلنا: من قفَوْتُ أثرَه قَفْوًا وقُفُوًّا، أي: اتَّبَعته،[٨٤٨] وإذا قلتَ: قفيتُ على أثره بفلانٍ، يكون المعنى اتَّبعته إياه وقفًا بدون التضعيف متعدٍّ إلى واحدٍ قال تع: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء ١٧/٣٦]؛ فإن «ما» الموصولة مفعولة، فالتضعيف فيه ليس للتعدية، فإن فعّل المضعّف قد يكون بمعنى فَعَل المجرَّد كقَدَّر وقَدَر، وإنما تعدى إلى الثاني بالباء فمفعوله الأوَّل محذوفٌ، والثاني بـ«عيسى» أي: وأتبعنا النبيين أو الأحبار والرَّبانيّين بعيسى بن مريم، وجئنا به بعدهم فحذف المفعول وجعل على آثارهم كالقائم مقامه.

و﴿**مُصَدِّقًا**﴾ حالٌ من «عيسى» وهي مؤكّدة؛ لأنَّ من [**٥٩**/و] شأن النبي أن يكون مصدّقًا للكتب السَّابقة، وأن يدعو الناس إلى التَّصديق بها، وأنها حقٌّ وأنها من عند الله، وأن العمل به واجب عليهم إلى ورود نسخ ما نسخ منها.

---

[٨٤١] **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥٣٢/٣-٥٣٣.

[٨٤٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٠و.

[٨٤٣] قراءة شاذَّة. **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٥/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٣٩/١؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٣٤٨/٧-٣٤٧.

[٨٤٤] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٦/١.

[٨٤٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٠و-ظ.

[٨٤٦] **المعجم الأوسط** للطبراني ؛ ٣٤٧/٣ (٣٣٦١)؛ **حلية الأولياء** لأبي نعيم، ٢٤٣/٦؛ **مسند أبي يعلى**، ٢٩٣/٣ (١٧٩٤).

[٨٤٧] **مسند أبي يعلى**، ٢٩٠/٩ (٦٨٦٩).

[٨٤٨] **الصحاح** للجوهر، «قفو».

﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ عطف على ﴿قَفَّيْنَا﴾. وقرأ الحسن «الأَنْجِيلَ» بفتح الهمزة،[849] فإن صحَّ عنه فلأنه أعجميٌّ خرج لعجمته عن أوزان العربية، كما خرج «هابيل» وآجر،[850] يعني: «أنه اسم أعجمي فلا بأس بأن يكون على ما ليس من أوزان كلام العرب وهو «أَفْعِيل» أو «فَعْلِيل» بالفتح».[851]

و﴿فِيهِ﴾ وحده حال من ﴿الْإِنْجِيلَ﴾ و﴿هُدًى﴾ فاعل له؛ لما اعتمد على ذي الحال ورفع الفاعل، أو ﴿فِيهِ﴾ خبرٌ مقدَّم فـ﴿هُدًى﴾ مبتدأ مؤخَّرٌ، والجملة حال منه ﴿وَنُورٌ﴾ عطفٌ على ﴿هُدًى﴾ ومثله في الإعراب فلا بد للطريق من الهادي، ففيه هدًى لسالك سبيل الحقِّ، ومن الوضوح، ففيه نور له وقد مرّ زيادة الكلام فيه، ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ حال مؤكِّدة أيضًا؛ لأنَّ من شأن الكتاب الإلهي أن يكون موافقًا للكتب الإلهية في الأصول، ونفس الطاعة على محل ﴿فِيهِ هُدًى﴾ بالاعتبارين أي: باعتبار أن يكون ﴿فِيهِ﴾ وحده هو الحال، فعطف هذه الحال عليه، وأن يكون ﴿فِيهِ هُدًى﴾ جملةً اسميةً محلُّها النصب على الحاليَّة، ويكون هذا عطفًا على محلِّها.

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً﴾ منصوبان على الحاليَّة بالعطف على الحال قبلهما، أي: ذا هدًى وموعظة أو هاديًا وواعظًا، أو جعل نفس الهدى والموعظة مبالغة، ولعلَّ تكرير الهدي؛ لأن الأول في الأصول، والثاني في الشرائع، وتخصيص كونه موعظةً للمتقين؛ لأنهم هم المنتفعون كقوله تع: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، أو على أنهما مفعولان لهما بقرينة أنه عطف عليهما ما هو مفعولٌ له قطعًا، كأنه قيل: وللهدي والموعظة آتيناه الإنجيل وللحكم بما أنزل الله فيه وقدّر الفعل المعلل بعد الأولين لكونهما فعلين لفاعله؛ ولذلك جاز حذف اللاَّم فيهما بخلاف الثالث، ولذلك أتى باللام فخالف بين النوعين، وقد جرت عادة المصنف في مثل هذا المقام بتقدير الفعل مؤخّرًا عن المعمول الواقع بعد العاطف للإشعار بأن في ترك العامل دلالةً على زيادة اهتمام بالمعمول،[852] ولا يجوز أن يكونوا مفعولين لـ﴿آتَيْنَا﴾ المذكور؛ إذ لا وجهَ لتوسط الواو بين الفعل المعلّل والمفعول لأجله فلا يقال: ضربته في حال الفساد وتأديبًا إلا أن يقدر شيء يكون مفعولًا له وتعطفًا عليه، أي: وآتيناه الإنجيل حالَ كونه كذا وكذا، إرشادًا و هدًى،[853] وإلى الوجهين أشار قدس سره بقوله: «مفعولان لهما عطفًا على محذوفٍ، أو تعليقًا به».[854]

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧)﴾

قرأ الجمهور: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾[855] بسكون «اللام» وجزم الفعل بعدها على أنها لام الأمر أسكنت تشبيهًا لها بـ«كَتْف»[856] أخبار عمَّافرض[857] عليهم في ذلك الوقت من الحكم بما تضمَّنه الإنجيل، والتقدير: وقلنا لهم: وليحكم أهل الأنجيل، ثم حذف القول، أو أمر لأهل الإنجيل الذين كانوا في عصره ع م أن يحكموا بما في كتابهم من بعث محمد من نبوته،

---

[849] قراءة شاذَّة. **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٥/١؛ **البحر المحيط** لأبي حيان، ٢٧٨/٤؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٠/١.

[850] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٦/١.

[851] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٠ظ.

[852] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٠ظ.

[853] **حاشية محي الدين شيخ زاده، ٥٣٣/٣.**

[854] **أنوار التنزيل** للبضاوي، ٤٤٠/١.

[855] **كتاب السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٤٤؛ **التيسير** للداني، ص ٣٣٤؛ **النشر في القراءات العشر** لابن الجزري، ١٩١/٢.

[856] **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٣٦٢/٧.

[857] ج: كتب.

ويؤمنوا به، ولا يعاندوا الحق، وعلى الوجهين لا يرد ما يتوهّم من أن الأمر بعد نزول القرآن إنما هو الحكم بالقرآن، فكيف يؤمرون بالحكم بما في الإنجيل؟!

وقرأ حمزة: «وَلِيَحْكُمَ»[٨٥٨] بكسر اللّام وفتح الميم على أنه لام كي يقدّر بـ«أَنْ»، عطف على ﴿**هُدًى وَمَوْعِظَةً**﴾، إن كانا مفعولين لهما على ما مرَّ، وعلة لفعلٍ مقدَّر كما قدَّر قدس سره بقوله: «وآتيناه الإنجيل ليحكم»،[٨٥٩] «والمصنف بقوله: وليحكم أهل الإنجيل آتيناه إيَّاه»،[٨٦٠] فتقديم الفعل نظرًا إلى تقدم العامل، وتأخيره نظرًا إلى مصلحة الحصر والاهتمام بالمعمول إن كانا حالين.

وقرئ: «وأَنْ لِيَحْكُمْ»[٨٦١] بزيادة «أن» مع الأمر على أنَّ «أنْ» موصولةٌ بالأمر: كقولك: «أمرتُه بأن قُمْ»، كأنه قيل: وآتيناه الإنجيل وأمرْنَا بأن يحكم أهل الإنجيل.[٨٦٢]

فهم يسمُّون الحروف المصدرية موصولةً، حيث تتمّ أسماء بجملة، ويقسمون الموصول إلى الإسمي والحرفي. وقد جرت عادة المصنف بتجويز صلته بالأمر والنهي، ومعناه مصدر طلبي ولا بدَّ له من موقع من الإعراب، وهو ههنا النصب عطفًا على «الإنجيل»، كأنه قيل: وآتيناه الإنجيل، والحكم الطلبي من أهل الإنجيل.

وحاصله: أنَّا أمرنا بأن يحكم أهل الإنجيل؛ فلذلك قدّر كذلك، ولا يخفى أنَّ الكلام بعد موضع خفاء، وقد حققه في سورة نوح في قوله: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ**﴾ [نوح ١/٧١]، أي: بالأمر بالإنذار، وعلى هذا يكون المعنى: وآتيناه الأمر بأن يحكم أهل الإنجيل، وهو معنى: أمرنا بأن يحكم أهل الإنجيل.[٨٦٣]

وذكر قدس سره: دلالة الآية على أن الإنجيل مشتمل على الأحكام، وأن اليهودية منسوخةٌ ببعثة عيسى، وأنه كان مستقلًا بالشرع.[٨٦٤] ودلالتها على الأوَّل، والثالث واقعة بتقدير. وقلنا قبل قوله: وليحكم فانضمام ما في الآية الأولى، فإن مجرّد الأمر بالحكم بما في الإنجيل لا يدلّ على الاشتمال، ولا على الاستقلال [**٥٩**/ظ] لاحتمال أن يكون المراد: وليحكموا بما فيه من أمر النبوة محمد، وليصدِّقوا وليطيعوه على ذلك وأن يكون لما فيه من أحكام في التوراة، أو من وجوب الإبتاع بها كما لو قيل: وليحكم أهل الزبور بما أنزل الله فيه كان كلامًا حسنًا مع أنه لا يدلُّ على الاشتمال والاستقلال.

وأما الثاني: قليل الدلالة عليه من قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ﴾ على معنى: ومن لم يحكم بالإنجيل؛ فإن ما قبله لا يفيد ذلك فإن الأمر لأهل الإنجيل بالحكم بما فيه لا ينافي الأمر لأهل التورية بالحكم بما فيها.

ولا يخفى أن ذلك إنما يتمّ بتقدير: وقلنا: وأن لا يكون المراد ومن لم يحكم من أهل الإنجيل، وأن لا يراد بالحكم صدق موسى وصدق محمد. وقدذكر سبحانه إنزال التورية على موسى، ثم إنزال الإنجيل على عيسى، ثم إنزال الفرقان على محمد وبين

---

[٨٥٨] **كتاب السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٤٤؛ **التيسير** للداني، ص ٣٣٤؛ **النشر في القراءات العشر** لابن الجزري، ١٩١/٢.

[٨٥٩] **أنوار التنزيل** للبضاوي، ٤٤٠/١.

[٨٦٠] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٦/١.

[٨٦١] قراءة شاذَّة. **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٥/١؛ **البحر المحيط** لأبي حيان، ٢٨٠٢/٤؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٠/١.

[٨٦٢] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٦/١.

[٨٦٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٠ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٢٦٢/٣.

[٨٦٤] **أنوار التنزيل** للبضاوي، ٤٤٠/١.

أنه ليس بمجرَّد السماع، بل للحكم به، فقال في الأول: ﴿**يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ**﴾ [المائدة ٥/٤٤]، وقال في الثاني: ﴿**وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ**﴾ [المائدة ٥/٤٧]، وقال في الثالث: ﴿**فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ**﴾ [المائدة ٥/٤٨].

وعن النبي ع م: «مَنْ كَانَ قَاضِيًا فَقَضَى بِالْجَهْلِ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَمَنْ كَانَ قَاضِيًا وَقَضَى بِالْجُورِ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَمَنْ كَانَ قَاضِيًا فَقَضَى بِحَقٍّ أَوْ بِعَدْلٍ يَسْأَلُ التَّفَلُّتَ كَفَافًا، فَمَا أَرْجُو مِنْهُ بَعْدَ ذَا».[٨٦٥]

﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)**﴾

«اللَّام» في ﴿**الْكِتَابَ**﴾ الأوَّل للعهد؛ لأن المراد القرآن وفي الثاني للجنس؛ لأن المراد الكتب المنزلة. ويجوز أن يكون للعهد؛ إذ لم يرد به ما يقع عليه اسم الكتاب مطلقًا، وإنما أريد نوع معلوم منه، وهو ما أنزل سوى القرآن.[٨٦٦]

يعني: أنه لم يقصد إلى جنس مدلول لفظ الكتاب، بل إلى نوع مخصوص منه هو بالنظر إلى مطلق الكتاب معهود، وبالنظر إلى وصف كونه سماويًّا جنس؛ فلذا جاز الأمر أنَّ غايته أن عهديَّته ليست إلى حدِّ الخصوصية الفردية، بل إلى خصوصية نوعيَّة أخصّ منه من مطلق الكتاب، وهو ظاهر، ومن الكتاب السَّماوي حيث خصّ بما عدا القرآن.[٨٦٧]

وحاصل الوجه الأوَّل يرجع إلى هذا؛ لأنَّ ﴿**الْكِتَابَ**﴾ مطلق فيما يصحّ أن يقال له: كتاب، ولا ارتيابَ أن الكتب الباطلة غير محصورة، فلا يكون القرآن مصدِّقًا لها، فرجع إلى أن الكتب السماوية هي التي تستحقّ أن تسمى كتابًا لكمالها، وأن غيرها كأنَّها ليست بكتاب كما ذكره: في:﴿**الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ**﴾ [البقرة، ٢/١-٢] نعم، الفرق من حيث المبالغة في الأوّل.[٨٦٨]

وقال أهل اللغة: المهيمن: الرقيب الحافظ يقال: هَيْمَنَ الرجل يُهَيْمِنُرقيبًا على الشَّيء، وقيل: المهيمن: الشاهد المصدق واحتيج عليه بقول حسان:

إِنَّ الْكِتَابَ مُهَيْمِنٌ لِنَبِيِّنَا   وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ ذُو الْأَلْبَابِ[٨٦٩]

يعني: أن القرآن شاهد يدل على صدق نبيّنا بسبب إعجازه وخروجه عن طوق البشر، بمعنى كونه مهيمنًا على سائر الكتب الإلهية، أن ما أخبر أهل الكتاب من كتابهم إن كان في القرآن فمصدّق وإلا فمكذّب، أو أن الكتاب الذي لا يصير منسوخًا البتة، ولا يتطرق إليه التبديل والتغيير لقوله: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[الحجر، ١٥/٩] يشهد لها بأنها حقّ وصدق شهادة باقية أبدًا، فكانت حقية هذه الكتب معلومة أبدًا.[٨٧٠]

---

[٨٦٥] **الأوسط للطبراني،** ١٣٩/٣ (٢٧٢٩)؛ **صحيح ابن حبان،** ٥١٠/٣ (٢٨٤٩)،.

[٨٦٦] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٧/١.

[٨٦٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٠ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف،** ٢٦٣/٣.

[٨٦٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٧٨/٥.

[٨٦٩] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٢/١٢.

[٨٧٠] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٢/١٢.

وقرئ: «مُهَيْمَنًا عليه»[٨٧١] بفتح الميم على بناء المفعول، أي: هُومِنَ عليه أي: على الكتاب الذي أنزل إليك بأن حُفظ من التغيير والتبديل،كما قال: ﴿**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ**﴾[فصلت، ٤٢/٤١]. والذي هَيْمَنَ عليه الله تع، أو الحفَّاظ في كل عصر، فلو حُرِّف حرفٌ منه، أو حركة أو سكون لَتنبَّه عليه كل أحد ولاشْمَأَزُّوا رادّين ومنكرين.[٨٧٢]

قيل: أصل هيمن أيمن على وزن فيعل؛ لأنه من الأمن قلبت الهمزة هاءً، كما في هَرَقْت وأَرَقْت. وليس في الكلام هيمن حتى يكون الهاء أصلًا.

«وحفظ الحفاظ»[٨٧٣] من حِفظ الله، ففي الحقيقة: هو الحافظ وحده، كما قال: ﴿**وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ بخلاف الكتب المتقدمة، فإنه لم يتولَّ حفظها، وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم، وكان التحريف، ولم يَكِلِ القرآن على غير حفظه.[٨٧٤]

﴿**فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ**﴾ كالرجم على المحصَن، والتَّسوية في القصاص بين القرظي والنضيري. ﴿**وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ**﴾ في ترك القَوَد، وإعطاء الدِّية، وترك الرجم واختيار الجلد[٨٧٥] ﴿**عَمَّا جَاءَكَ**﴾ صلة ﴿**لَا تَتَّبِعْ**﴾ لتضمنه معنى: لا تنحرف، كأنه قيل: لا تنحرف عمَّا جاءك من الحق متَّبِعاً أهواءهم.[٨٧٦]

وفي تقدير معنى التضمين عبارات مثل أن يجعل المضمَّن حالًا أو بالعكس، أو غير ذلك مثل: أحمد إليك فلانًا أنهى إليك حمده؛ لأن المقصود اعتبار معنى الفعلين كيف ما ناسب المقام،[٨٧٧] أو حال من فاعله، أي: لا تتَّبع أهواءهم منحرفًا عمَّا جاءك، والأبلغ هو الأوَّل؛ لأن الحال قيدٌ فيوهم أنه تجوز المتابعة إذا زال الانحراف.[٨٧٨]

﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً**﴾

«الشِرعة» و«الشريعة»: الطريقة الظاهرة التي توصل إلى الماء شُبِّه ما شرع الله لعباده بها، وذلك متفرع على شبيه ما شرع بالماء في كونه سبب الحياة؛ فإنها سبب الحياة الأبدية، كما أن الماء سبب الحياة الحيوانية.

و«المنهاج»: الطريق الواضح[٨٧٩] يقال: «نهج الأمر» وأنهج إذا وضح فالعطف باعتبار جمع الأوصاف. [**٦٠**/و] وقيل: الشِرعة: ما شرع من الدين، والمنهاج: الدليل الموصل إلى معرفة الدين. وقيل: الشريعة: مطلق الدين والمنهاج: مكارمه. وقيل: الشريعة: المورد والمنهاج: الطريق إليه. واستدل به على أنا غير متعبّدين بالشرائع المتقدّمة من حيث إنَّ الخطاب يعمُّ الأمم، ومعنى ﴿**لِكُلٍ**﴾: لكل أمة لا لكلٍّ واحد من أفراد الأمَّة، فيكون لكل أمّة دين يخصّه ولو كان متعبدًا بشريعة أخرى لم يكن ذلك الاختصاص ولايعارضه، نحو قوله: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا**﴾ [سورة الشورى، ١٣/٢٦]، وقوله:

---

[٨٧١] قراءة شاذَّة. **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٧/١؛ **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٥٥.

[٨٧٢] **الكشاف** لزمخشري، ٦٢٧/١.

[٨٧٣] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٧/١.

[٨٧٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٧٨/٥.

[٨٧٥] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٠٦/٥-٤٠٧.

[٨٧٦] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٧/١.

[٨٧٧] **حاشية الكشاف للتفتزاني**، ٣١١و.

[٨٧٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٧٩/٥.

[٨٧٩] ج – الواضح.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام، ٦/٩٠]؛ لأنها مصروفة إلى ما يتعلّق بأصول الدين، «والجواب بعد تسليم دلالة اللّام على الاختصاص الحصري منع الملازمة لجواز أن يكون متعبّدين بشريعة من قبلنا مع زيادة خصوصيات في ديننا يكون بها الاختصاص؛[880] لكن اللائح أنا متعبَّدون بها ما لم ينسخ من حيثُ صار شريعة ديننا لا من حيث هو شريعة غيره، وإلّا يلزم اتّباع الرسول ع م لغيره منهم، وكون ذلك الغير مبعوثًا إلينا، ولزوم تتبع الكتب السابقة مع أنه لا يجوز فضلًا عن الوجوب.

و﴿مِنكُمْ﴾ متعلق بمحذوف، أي: أعني منكم. وقيل: صفة ﴿لِكُلٍّ﴾ وردَّ بأنه توسُّط أجنبي بين الموصوف والصفة، وبين الفعل ومعموله أي: جعلنا شرعة، وقد يجوز بأن ذلك ليس بفصل أجنبي كما في قوله:﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام، ٦/١٤] فصل بين الجلالة وصفتها بالعامل في المفعول المقدَّم ولمفعوله الثاني.

وقال مقاتل: شرعةُ اليهود القصاص، ولا عفوَ ولا ديةَ، وشرعة النصارى العفوُ لا غير، وشرعتُنا القصاص أو العفو وكذلك الحد في الزّنى مختلفٌ.[881]

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ جماعة متَّفقة على دين واحد في جميع الأعصار من غير نسخ وتحويل، ومفعول ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ محذوف دلَّ عليه الجواب،[882] أو ذوى أمَّة واحدة، أي: دين واحد لا اختلافَ فيه.[883]

ففي الأوَّل أريد بالأمة الجماعة وهو ظاهر، وفي هذا أريد الملَّة على حذف مضافٍ ليصح الحمل على ﴿لَجَعَلَكُمْ﴾، وإنما ارتكب؛ لأنه أوفقُ بقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

وقيل: المعنى: لو شاء الله لجعلكم أمة واحدة متفقين على الاسلام بلا اختلاف ولا تفاوت، كقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[السجدة، ٣٢/١٣]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ﴾ [يونس ١٠/٩٩].

وهذا ظاهر على رأي أهل السنة؛ لأنَّ الله تعالى لم يشأ إسلام الجميع؛ لأن لو شاء لَوقع لأن ما شاء الله كان، وأمَّا عند المعتزلة فقد شاء الله الإسلام من الجميع، لكن لم يقع لأن بعضهم اختاروا خلافه فوقع ذلك، وكلّ ما شاء الله وقوعه من أفعال المكلفين لا يلزم أن يقع عندهم ، فحملوا المشيئة المنفية بكلمة «لو» على هذا التفسير على مشيئة الجبر والإلجاء، فقالوا: لو شاء الله مشيئة جبر وإلجاء لَجعلكم أمة واحدة، ولم يشاء ذلك المشيئة؛ لأن مبنى الأمر على الاختيار دون الإجبار.

وعنه ع م: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ، وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ وَالْأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ دِينُهُمْ وَاحِدٌ وشَرَائِعُهُمْ شَتَّى».[884]

﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

قال المصنف: ﴿وَلَكِنْ﴾ أراد ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾،[885] أشار به إلى أن المعنى: ولو شاء الله أن يجعلكم أمة واحدة لَجعلكم لكن لم يشأ، وعبّر عن ذلك بقوله: ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ فقدر أراد دون شاء ليصح تعلّق اللّام به، وقدَّر أبوا البقاء:[886] ولكن

---

[880] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١١و.

[881] **تفسير مقاتل بن سليمان**، ٤٨٢/١؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٠٨/٥.

[882] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤١/١.

[883] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٧/١.

[884] **صحيح البخاري**، ١٦٧/٤ (٣٤٤٢)؛ **صحيحمسلم، ١٨٣٧/٤** (٢٣٦٥)؛ **سنن أبوداود**، ٦٥/٧ (٤٦٧٥).

[885] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٧/١.

فرّقكم ليبلوكم،[٨٨٧] وقدر بعضهم: ولكن لم يشاء جعلكم أمة واحدة، وهذا أحسن لدلالة اللفظ والمعنى عليه، أي: لكن لم يشاء ذلك ليختبركم، أي: ليعاملكم معاملة المختبرين.

﴿**فِي مَا آتَاكُمْ**﴾ من الشرائع المختلفة المناسبة لكل عصر وقرن، هل تعملون بها مذعنين لها معتقدين أن اختلاف تلك الشرائع على مقتضى الوقائع موجب الحكمة الإلهية، أم تزيغون عن الحق وتفرِّطون في العمل،[٨٨٨] «أم تزيغون» عطف على «هل تعملون» بناءً على وقوع «هل» موقع الهمزة، أو يجعل منقطعة، وذلك لأنَّ «أم» المتَّصلة لا بدَّ أن تكون قسمة همزة الاستفهام.

﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾ فابتدروا إلى العمل بالشرائع، وتَسابقوا نحوها انتهازًا للفرصة وحيازة لفضل السبق والتقدّم إلى اغتناماتها.

و«النهزة»: الفرصة وانتهزتها: اغتنمتها.[٨٨٩] و«الحيازة»: الإحاطة يعني: أن في الاستباق والمبادرة إلى الأعمال الصالحة حسب ما أُمروا بها الأمن من الفوات وتحصيل فضل السبق على ما أشير إليه بقوله: ﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ**﴾﴿**أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**﴾ [الواقعة، ٥٦/١٠-١١]، فلذلك قال فاستبقوا دون فاعملوا، أو امتثلوا، أو نحو ذلك. وقد قال تعالى: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ**﴾ [آل عمران ٣/١٣٣]،﴿**سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ**﴾[الحديد ٥٧/٢١]، وقال: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوايُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ**﴾ [الأنبياء، ٢١/٩٠].

﴿**إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ**﴾ استئناف في معنى التعليل لاستباق الخيرات،[٨٩٠] أي: لطلب الاستباق، أو لزومه لظهور أن ليس المعنى: أنه يلزمكم استباق لأجل أن مرجعكم إلى الله، بل إني آمركم به، أو أنه واجب عليكم لهذه العلة. [**٦٠**/ظ]

وعبارته قدس سره أسلم عن هذا التكلّف، وأكثر فائدة، حيث قال: «استئناف فيه تعليل الأمر بالاستباق ووعد ووعيد للمبادرين والمقصرين».[٨٩١]

و﴿**جَمِيعًا**﴾ حالٌ من الضَّمير المجرور، والعامل المصدر المضاف؛ لأنه في تقدير: إليه ترجعون جميعًا، والضمير المجرور عاملٌ في المعنى، أو قائم مقام الفاعل، أو الاستقرار الذي ارتفع فيه مرجعكم، أو الضمير الذي في الجار ﴿**فَيُنَبِّئُكُمْ**﴾ فيخبركم لما لا يشكون معه من الجزاء الفاصل بين محقِّكم ومبطلكم وعاملكم ومفرطكم بإدخال المحقّين العاملين الجنَّة والثواب، وإدخال المبطلين العاطلين بالنَّار والعقاب.

---

[٨٨٦] العُكْبَري (٥٣٨ - ٦١٦ هـ/ ١١٤٣ - ١٢١٩م) عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبريّ البغدادي، أبو البقاء، محبّ الدين: عالم بالأدب واللغة والفرائض والحساب. أصله من عكبرا (بليدة على دجلة) ومولده ووفاته ببغداد. أصيب في صباه بالجدري، فعمي. وكانت طريقته في التأليف أن يطلب ما صنّف من الكتب في الموضوع. فيقرأها عليه بعض تلاميذه، ثم يملي من آرائه وتمحيصه وما علق في ذهنه. من كتبه: شرح ديوان المتنبي، اللباب في علل البناء والإعراب، شرح اللمع لابن جني، التبيان في إعراب القرآن، ويسمى، إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقرآت في جميع القرآن، الترصيف في الترصيف. **الأعلام** للزركلي، ٤/٨٠.

[٨٨٧] **التبيان في إعراب القرآن**لعبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري المعروف بأبي البقاء، تحقيق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، د.م.ت.، ١/٤٤١.

[٨٨٨] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٤١.

[٨٨٩] **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ٥/١٣٥.

[٨٩٠] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٢٧.

[٨٩١] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٤١.

وقال القشيري:[٨٩٢] أفردنا كلَّ واحد منكم معاشر الأنبياء بطريقة، وأمَّا أنت يا محمد، فلا يدانيك أحد في طريقتك على الحقيقة، فأنت المقدَّم على الكافَّة، والمفضَّل على الجملة، ولو شاء الله لَسوَّى مراتبكم، ولكن غاير بينكم ابتلاءً، وفضَّل بعضكم على بعض امتحانًا.

﴿**فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ**﴾؛ أي: سارعوا إلى الطَّاعات، ومسارعة كلِّ أحدٍ على ما يليق به ويقتضيه وقته، فالعابدون يسارعون بقدمِهم من حيث الأوراد، والعارفون بهمَمِهم من حيث المواجيد.

ويقال: استباق الزاهدين برفض الدُّنيا، واستباق العابدين بقطع الهوى، واستباق العارفين بنفي الْمُنى، واستباق الموحِّدين بترك الورى، واستباق المقرَّبين بنسيان الدنيا والعقبى.[٨٩٣] والإقبال بشراشرهم إلى ما فيه رضاء المولى.

﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾

عطف على ﴿**ٱلۡكِتَٰبَ**﴾ على أنَّ «أَنْ» المصدرية دخلت على الأمر دخولها على سائر الأفعال، أي: أنزلنا إليك الكتاب وأن احكم، أي: الحكم الأمري ومعناه: الأمر بالحكم، أو على ﴿**بِالْحَقِّ**﴾ أي: أنزلناه بالحق، أو بأن احكم، أو على ﴿**فَاحْكُمْ**﴾ من حيث المعنى ليكون التكرير لإناطة قوله: ﴿**وَاحْذَرْهُمْ**﴾ ويجوز أن يكون جملة بتقدير: وأمرنا أن احكم.[٨٩٤]

وقيل: يتّصل بقوله: ﴿**مُصَدِّقًا**﴾، أي: أنزلناه بتصديق ما بين يديه وبـ﴿**أَنِ ٱحۡكُم**﴾.

وقيل: يقع عليه الإنزال، وتقديره: أنزلنا إليك ﴿**أَنِ ٱحۡكُم**﴾.[٨٩٥]

قال ع م: «مَنْ قَالَ بِالْقُرْآنِ صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».[٨٩٦]

وقال الإمام: «أعاد ذكر الأمر بالحكم بعد ذكره في الآية الأولى إما للتأكيد، وإما لأنهما حكمان أمر بهما جميعًا؛ لأنَّهم احتكموا إليه في زنا المحصن، ثم احتكموا إليه في قتيل وقع فيهم».[٨٩٧] فلعلَّ ما قاله مبني على عطفه على فاحكم وإلا فعلى الوجوه السابقة في العطف لا يتخايل ذلك على أنَّ الظاهر عود ضمير بينهم إلى الناس الأعم غايته أن يدخلوا فيه أوّلًا

---

[٨٩٢] القُشَيْري: (٣٧٦ - ٤٦٥ هـ/ ٩٨٦ - ١٠٧٢م) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك ابن طلحة النيسابوريّ القشيري، من بني قشير ابن كعب، أبو القاسم، زين الإسلام: شيخ خراسان في عصره، زهدا وعلما بالدين. كانت إقامته بنيسابور وتوفي فيها. وكان السلطان ألب أرسلان يقدمه ويكرمه. من كتبه: (التيسير في التفسير ويقال له: التفسير الكبير)، و(لطائف الإشارات) ثلاثة أجزاء منه، في التفسير أيضا، و(الرسالة القشيرية). **الأعلام** للزركلي، ٥٨/٤.

[٨٩٣] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٢٦٧/١؛ **التيسير في الفسير** لأبي حفص النسفي، ٤١٠/٥.

[٨٩٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤١/١؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٧٢/٥؛ **اللباب** لابن عادل، ٣٧٢/٧.

[٨٩٥] **التيسير في الفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٠٩/٥.

[٨٩٦] **سنن الترمذي،** ٢٠٩٨/٤ (٣٣٧٤)

[٨٩٧] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٢٦/١٢.

لاحتكامهم إليه، ونزوله بسببه ﴿**أَنْ يَفْتِنُوكَ**﴾ أن يضلّوك ويصرفوك ﴿**عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ**﴾، فإن الفتنة ههنا الميل عن الحقّ، والوقوع في الباطل، كما في قوله ع م: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا»،[٨٩٨] أي: بالعدول عن الطريق المستقيم.

و«أَنْ» بصلته بدل من «هُمْ» بدل اشتمال، كأنّه قيل: واحذر فتنتهم، كقولك: «أعجبني زيدٌ علمُه»، أو مفعول له، أي: احذرهم مخافةَ أن يفتنوك.[٨٩٩]

وقال أبو عبيد: كلّ من صرف من الحق إلى الباطل وأميل عن القصد فقد فتن.[٩٠٠]

وقال **مقاتل**:[٩٠١] إن رؤساء يهود بني النّضير قال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى محمد نفتِنُه، ونردُّه عمَّا هو عليه، إنما هو بشر، فأَتَوه فقالوا له: هل لك أن تحكم لنا على أصحابنا في أمر الدِّماء كما كنَّا عليه من قبل، فإن فعلت فإنا نبايعك، وإن بايعناك تابعك أهلُ الكتاب كلُّهم، بقيَّتهم وخيارهم، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية تحذيرًا وتثبيتًا.[٩٠٢]

وفيه غاية دعوة الاتّباع بما أنزل الله تعالى، ونهاية رهبة من اتباع الهوى والبدع، وزجر شديد عن بعض ما أنزل الله.

وعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَلَيْس تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟قَالُوا: بلى، قَالَ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا».[٩٠٣] رواه الطبراني في الكبير بإسناد جيّد.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سبعةٌ لعَنَهم اللهُ ولعنتهم وكلُّ نبيٍّ مجابٌ الدعوة: الزَّائدُ في كتابِ اللهِ، والمكذِّبُ بقَدَرِ اللهِ، والمتسَلِّطُ على أمَّتي بالجبَروتِ ليُذِلَّ مَن أعزَّ اللهُ و يُعزَّ مَن أذَلَّ اللهُ، والمستَحلُّ حرمة اللهِ و المستحلُّ مِن عِترتي ما حرَّمَ اللهُ، و التَّاركُ لسنَّتي».[٩٠٤] رواه الطبراني في الكبير وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد ولا أعرف له علة.

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الْغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمُضِلَّاتِالْهَوَى»،[٩٠٥] رواه أحمد والبزاز والطبراني في معاجيمه الثلاثة.[**٦١/و**].

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾

---

[٨٩٨] مسند أحمد، ٢٠٩/١٥ (٩٣٥٧). مقاتل بن سُلَيْمان (١٥٠هـ- ٧٦٧م) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء، البلخي، أبو الحسن: من أعلام المفسرين. أصله من بلخ انتقل إلى البصرة، ودخل بغداد فحدّث بها. وتوفي بالبصرة. كان متروك الحديث. من كتبه (التفسير الكبير – خ) جزء منه، و (نوادر التفسير) و (الرد على القدرية) و (متشابه القرآن) و (الناسخ والمنسوخ) و (القرآت) و (الوجوه والنظائر). انظر:**الأعلام** للزركلي، ٢٨١/٧.

[٨٩٩] **اللباب** لابن عادل، ٣٧٣/٧؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤١/١؛ **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥٣٥/٣.

[٩٠٠] **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥٣٥/٣.

[٩٠١] هو مقاتل بن سُلَيْمان (١٥٠هـ- ٧٦٧م) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء، البلخي، أبو الحسن: من أعلام المفسرين. أصله من بلخ انتقل إلى البصرة، ودخل بغداد فحدّث بها. وتوفي بالبصرة. كان متروك الحديث. من كتبه (التفسير الكبير – خ) جزء منه، و (نوادر التفسير) و (الرد على القدرية) و (متشابه القرآن) و (الناسخ والمنسوخ) و (القرآت) و (الوجوه والنظائر). الأعلام للزركلي، ٢٨١/٧.

[٩٠٢] **تفسير مقاتل بن سليمان**، ٤٨٢/١-٤٨٣؛ **التيسير في الفسير** لأبي حفص النسفي، ٤١١/٥.

[٩٠٣] **معجم الكبير** للطبراني،١٢٦/٢ (١٥٣٩).

[٩٠٤] **المعجم الكبير**، ٤٣/١٧ (٨٩)؛ **وابن حبان**، ٥٢٣/٣ (٥٧٤٩)؛ **المستدرك على الصحيحين**، ٥٧١/٢ (٣٩٤٠).

[٩٠٥] **مسندأحمد**، ٣٣/٣٣ (١٩٧٨٧)؛ **مسندالبزار**، **٢٩٢/٩**(٣٨٤٤)؛ **المعجم الصغير** للطبراني، ٣٠٩/١ (٥١١).

فإن أعرضوا عن الحكم المنزل وعن الانقياد لك ولحكمك ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ**﴾ يعني: ذنب التولّي عن حكم الله، فعبّر عنه بذلك تنبيهًا على أن لهم ذنوبًا كثيرةً وهذا -مع عظمه- واحد منها معدود من جملتها،[٩٠٦] وفي هذا الإبهام دلالة على عظم التولّي واستسرافهم في ارتكابه،[٩٠٧] أي: عدّهم مسرفين. والسرف: مجاوزة الحدّ في النفقة،[٩٠٨]فإنّه كما أنَّ التنكير يعطي معنى التكبير وهو في معنى البعضيّة، فكذلك إذا صرّح بالبعض. ونظيره قول لبيد:

أو لم تَكن تَدري نوارُ بأنَّني وصَّال عقدِ حبائلِ جذَّامها[٩٠٩]

ترَّاك أمكنةٍ إذا لم أَرْضهاأو يرتبط بعض النُّفوس حِمَامُها[٩١٠]

والمعنى: أنها لم تدر أنِّي وصَّال عقد من أراد محبّتي، قطّاع لمن يقطع وصلتي، وأني جوّال الفيافي.[٩١١] «ترَّاك أمكنة إذا لم يكن مجموع الأمرين الرضى بها والموت فيها، والمعنى: اترك الأمكنة على تقدير ابتغاء الرضاء والموت جميعًا، وإذا حصل الرضى أو الموت فلا ترك. وهذا المعنى يستفاد من كون «يرتبط» مجزومًا على المجزوم قبله، فينسحب حكم النفي على الأمرين جميعًا، وكلمة أو بمعنى الواو، أي: إذا لم أَرْضها ولم أمت فيها. فإعراضهم عن الحكم وإرادة غيره من أجل أن الله يريد أن يعجّل لهم العقوبة في الدنيا ببعض ذنوبهم،[٩١٢] فإن الدنيا ليس بدار كمال الجزاء، وعذاب الدنيا عذاب بعض الذنوب؛ لأنه لا يدوم، وعذاب الآخرة عذاب جميع الذنوب؛ لأنه يدوم وقد أصابهم بذلك بأن يسلّطه ع م، عليهم وعذّبهم بالقتل والجزية والجلاء.

وقد دلت الآية على أن جميع أفعال العباد من الطاعة والعناد بإرادة الله تع لا يريد أن يصيبهم ببعض ذنوبهم إلا وقد أراد ذنوبهم.[٩١٣]

﴿**وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ**﴾ أي: من رؤساء اليهود وغيرهم.[٩١٤] ﴿**لَفَاسِقُونَ**﴾ لَمتمرِّدون في الكفر معتدون فيه؛ يعني: أن التولّي عن حكم الله من التمرّد العظيم والاعتداء في الكفر، وإن تولّيهم عن حكم الله بسبب تمرّدهم في الكفر واعتدائهم فيه.[٩١٥]

وقالالقشيري: المعنى الذوقي عِظْهم بلسان العلم، فإن أبَوْا قبولَه، فعاينهم بعَين التصريف، فإن الحق سبحانه وتعالى بشرطِ التكليف يُلزمهم، وبحكم التصريف يؤخِّرهم ويقدِّمهم، فالتكليف فيما أوجبَ، والتَّصريف فيما أوجد، والعبرة للإيجاد لا للإيجاب.[٩١٦]

وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ قال: «إنَّ هذا القرآنَ شافعٌ مُشَفَّعٌ، من اتَّبعهُ قادهُ إلى الجنَّةِ، ومن ترَكَهُ أو أعرضَ عنه – أو كلمةً نحوَها – زُخَّ في قفاهُ إلى النَّارِ». رواه البزار هكذا موقوفًا على ابن مسعود رضي الله عنه.[٩١٧]

---

[٩٠٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤١/١-٤٤٢.

[٩٠٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١١و.

[٩٠٨] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٨/١؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١١و.

[٩٠٩] **شرح المعلقات السبع** حسين بن أحمد بن حسين الزَّوْزَني، دار احياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ص ١٩٢.

[٩١٠] **الديوان** للبيد بن ربيعة، ص١٠٣؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٨٣/٥؛ **حاشية محي الدين شيخ زاده، ٥٣٦/٣**.

[٩١١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٨٣/٥.

[٩١٢] **حاشية محي الدين شيخ زاده، ٥٣٦/٣**.

[٩١٣] **حاشية محي الدين شيخ زاده، ٥٣٦/٣**-٥٣٧.

[٩١٤] **التيسير في الفسير** لأبي حفص النسفي، ٤١١/٥.

[٩١٥] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٨/١.

[٩١٦] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٢٦٨/١؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤١٠/٥-٤١١.

وعن جابر رضـ قال: «جَاءَتْ مَلَائِكَةٌ إلى النبيّ وهو نَائِمٌ، فَقالوا: إنَّ لِصَاحِبِكُمْ هذا مَثَلًا، فَاضْرِبُوا له مَثَلًا، فَقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّه نَائِمٌ، وقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ العَيْنَ نَائِمَةٌ، والقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقالوا: مَثَلُهُ مَثَلُ رَجُلٍ بَنَى دَارًا، وجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً وبَعَثَ دَاعِيًا، فمَن أجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وأَكَلَ مِنَ المَأْدُبَةِ، ومَن لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ ولَمْ يَأْكُلْ مِنَ المَأْدُبَةِ، فَقالوا: أوِّلُوهَا له يَفْقَهْهَا، قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّه نَائِمٌ، وقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ العَيْنَ نَائِمَةٌ، والقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقالوا: فَالدَّارُ الجَنَّةُ، والدَّاعِي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فمَن أطَاعَ مُحَمَّدًا فقَدْ أطَاعَ اللَّهَ، ومَن عَصَى مُحَمَّدًا فقَدْ عَصَى اللَّهَ، ومُحَمَّدٌ فَرْقٌ بيْنَ النَّاسِ».[٩١٨]

وهو بالسكون مصدر، أي: هو الفارق بين المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي، وروى بالتشديد على صيغة الماضي.

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٥٠﴾

قرأ الجمهور: بضم الحاء، وسكون الكاف ونصب الميم، على أن «حُكْمَ» مفعول مقدّم، و﴿يَبْغُونَ﴾ فعل وفاعل ومضمونه هو المستفهم عنه في المعنى. وهمزة الإنكار داخلة على الفعل المقدّر الذي عطف عليه قوله[٩١٩]: ﴿يَبْغُونَ﴾ بالفاء، والتقدير: أيتولّون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية.[٩٢٠]

وفيه وجهان: أحدهما: أن قريظة والنضير طلبوا إليه أن يحكم بما كان يحكم أهل الجاهلية من التّفاضل بين القتلى. فقال ع م: «الْقَتْلَى بَوَاءٌ»[٩٢١] ولم يرض به بنوا النضير.

والثاني: أن يكون تعبيرًا لليهود بأنهم أهل كتاب وعلم، يبغون حكم المِلَّةِ الجاهلية التي هي جهل وهوًى، ليس من كتاب ولا وحي.[٩٢٢]

ففي الأوَّل: الجاهلية قومها، والحكم التفاضل خاصّة والغرض التوبيخ، وفي الثاني: الحكم عامٌّ والجاهلية الملة الباطلة الجاهليَّة والغرض تعيير اليهود، واعترض على الأوَّل أن طلب التَّفاضل إنما كان من قريظة؛ حيث قالوا: بنوا النضير أخونا، فإن قتلوا منَّا أعطوا سبعين وَسقًا من تمر، وإن قتلنا منهم أخذوا منَّا مائة وأربعين وسقًا وأُرُوش[٩٢٣] جناياتنا على النِّصف من أُرُوش جراحاتهم.

وأجيب: بأنهم إذا طلبوا ذلك منهم فبنوا النضير بطريق الأولى ألا ترى إلى قوله: «فلم يرض بنوا النضير» بالتسوية، بل الطلب بالحقيقة منهم وإنما قريظة مذعنون [**٦١**/ظ] منقادون لذلك. وأمَّا ما قيل بعد هذا النقل أن قريظة لم يطلبوا التفاضل بل التسوية فسهو ظاهر.[٩٢٤]

وعن الحسن: هو عامّ في كلّ من يبتغي غير حكم الله. والحكم حكمان: حكم بعلمٍ، وهو حكم الله، وحكم بجهلٍ، فهو حكم الشيطان. وسئل طاووس عن الرّجل يفضّل بعضَ ولده على بعض، فقرأ الآية.[٩٢٥]

---

[٩١٧] **مختصر زوائد مسند البزار**، ١٣٦/١ (١١٥).

[٩١٨] **صحيح البخاري**، ٩٣/٩(٧٢٨١).

[٩١٩] ج – قوله.

[٩٢٠] **الدر المصون** للسمين الحلبي، ٢٩٥/٤؛ **اللباب** لابن عادل، ٣٧٤/٧؛ **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥٣٧/٣.

[٩٢١] الزيلعي **تخريج الكشاف** ٣٩٧/١، غريب ابن حجر العسقلاني، الكافي الشاف ٩٤، لم أجده هكذا.

[٩٢٢] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٨/١.

[٩٢٣] أَرْشُ الجمع : أروش: الشَّجّة ونحوها. دية الجراحة. **لسان العرب** لابن المنظور، «أرش».

[٩٢٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١١و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٢٦٦/٣.

وقرئ برفع «الحُكْمُ»[٩٢٦] على أنه مبتدأ، ﴿وَيَبْغُونَ﴾ خبره، والراجع محذوف حذفه في الصلة في قوله: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾،[٩٢٧] واستُضعف بأن الجملة لما وقعت خبرًا وقت اشتماله على ضمير للمبتدأ، وحمل الخبر على الصلة في جوازٌ حذفُه ضعيف؛ لأنه كسر فيها ولم يُرو في الخبر إلا في قول أبي النجم:

قد أصبَحتْ أمُّ الخِيَار تَدَّعِي   عليَّ ذنبًا كلُّه لَمْ أَصنَع[٩٢٨]

أي: لم أصنعه؛ فإنّ كلّه روي مرفوعًا مبتدأً، وبه يتمُّ الغرض وهو التبرّئ عن جميع الذنوب، ولو نصب لَاحتمل سلب العموم، وأنه صنع بعض الذنوب مع أن مراده عموم السلب لكلّ فرد من أفرادها.

وقرئ: «أَفَحَكَم الجاهِلِيَّةِ»[٩٢٩] بفتح الحاء والكاف ونصب الميم على أنه مفعول ﴿يَبْغُونَ﴾ بمعنى: الحاكم يراد به الجنس؛ إذ المعنى: أحُكَّام الجاهليَّة يبغون؟ بتقدير المضاف، أي: فحُكْمَ حُكَّامِ الجاهلية يبغون، أو تقدير موصوف، أي: تبتغون حاكمًا مثل حكَّام الجاهلية؟ وأ تريدون من غاية سفاهتكم أن تكون سيد المرسلين كأحد حكام الجاهلية؟

والاستفهام في ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ للإنكار، والجملة حال مقرِّرةٌ لجهة الإشكال، أي: أيبتغون حكم الجاهلية؟ والحال أنه لا أحسن حكمًا من الله.[٩٣٠]

و«اللَّام» للبيان، فتتعلّق بمحذوف، كما في «سقيًا لك» و﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف، ٢٣/١٢]، فإن «سقيًا» دعاء للمخاطب بأن يسقيه الله فيكون لك خطابًا لمدعو له، وكذلك «هَيْتَ» بمعنى: «هَلُمَّ» فيه ضمير المخاطب، فيكون «لك» بيانًا للهيت له. وهٰهنا يراد هذا الاستفهام ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فإنهم هم الذين يتدبّرون الأمور، ويتحققون الأشياء بأنظارهم فيعلمون أن لا أحسن حكمًا من الله، ولم يلتفت إلى احتمال أن تكون اللام متعلّقةً بقوله: ﴿حُكْمًا﴾؛ لأن حكم الله لا يختصُّ قومًا دون قوم.[٩٣١]

وفي الصحيح عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهْرِيقَ دَمَهُ»،[٩٣٢] والمراد بالناس عصاة هذه الأمة.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥١)﴾

---

[٩٢٥] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٨/١.

[٩٢٦] قراءة شاذّة، مروية عن يحيى وإبراهيم والسلمي. **المحتسب** لابن جنّي، ٢١٠/١.

[٩٢٧] سورة الفرقان، /٤١؛ **الكشاف**، ٦٢٨/١.

[٩٢٨] ديوان لأبي النجم ص ٢٥٦؛ **المحتسب** لابن جني، ٢١١/١؛ **الدر المصون** للسمين الحلبي، ٢٩٥/٤

[٩٢٩] قراءة شاذّة، مروية عن الحسن و قتادة والأعرج؛ **شواذّ للقراءات** للكرماني، ص ١٥٥؛ **المحتسب** لابن جنّي، ٢١١/١؛ **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٣٩.

فتوح الغيب، ٣٨٦/٥.

[٩٣١] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٢/١؛ **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥٣٧/٣.

[٩٣٢] **صحيح البخاري**، ٦/٩ (٦٨٨٢).

لا تعتمدوا عليهم، ولا تميلوا إليهم، ولا تعاشروهم معاشرة الأحباب، ولا تناصروهم مناصرةَ الأصحاب، وهذا إذا تولّاهم لدينهم، وأما الصحبة بمعاملة أو شراء شيء أو لطلب عمل منهم مع المخالفة في الاعتقاد والأمور الدينية، فليس فيه هذا الوعيد، وإن كان الأقوى والأحرى ترك ذلك أيضًا، إذا لم يدع إليه ضرورة ضرورية.

﴿**بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾؛ «لاتّحادهم في الدين واجتماعهم في الكفر، فما لمن دينُه خلافُ دينهم ولموالاتهم».[٩٣٣]

فقوله: «**وَلِمُوَالاَتِهِمْ**»[٩٣٤]«في موقع المفعول معه، كما تقول: ما لزيد ومحبة عمرو، أي: ما يصنع مَنْ دينه خلاف دينهم مع موالاتهم».[٩٣٥] وهذا علَّة النهي من هذا الوجه على ما ذكره المصنف، وعبارته قدس سره: «إيماء إلى علة النهي؛ لأنهم متّفقون على خلافكم يوالي بعضهم بعضًا لاتّحادهم في الدّين واجتماعهم على مضادّتكم».[٩٣٦] فتأمّل في الفرق بين كلاميهما.

وقال **عياض الأشعري**: قدم أبو موسى على عمر، ومعه كاتبٌ له نصرانيٌّ، فقال: ادع كاتبك، فدعاه، فقرأ كتابًا، فأعجبه ظرفه وحفظُه، فلمَّا كان يوم الجمعة قال له: ادع كاتبَك، قال: إنه لا يدخل المسجدَ، فقال أجُنبٌ هو؟ قال: لا، ولكنَّه نصرانيّ، فقال: قاتلك الله! ألا اتّخذت حنيفًا، أما سمعتَ قول الله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾.

قلت: له دينه ولي كتابته، قال: لا تكرموهم إذ أهانهم الله، ولا تأمنوهم إذا خوَّنهم الله، ولا تُدنوهم إذا أقصاهم الله.[٩٣٧]

وروي أنه قال له أبو موسى: لا قِوَام للبصرة إلا به، فقال: مات النصراني والسلام؛ يعني: هب أنه مات، فما كنت تكون صانعًا حينئذٍ فاصنَعْه الساعةَ، واستعن عنه بغيره.[٩٣٨]

﴿**وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾، أي: فمن والاهم منكم فإنه من جملتهم، وهذا للتشديد والتغليظ في وجوب مجانبة المخالف في الدين، واعتزاله، ونحوه ما روينا عن الترمذي وأبي عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى خَثْعَمٍ، فَاعْتَصَمَ أُنَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ، فَأَسْرَعَ فِيهِمْ الْقَتْلَ، قَالَ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ، فَأَمَرَهُمْ بِنِصْفِ الْعَقْلِ وَقَالَ: «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لِمَ؟ قَالَ : «لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا».[٩٣٩]

«**التَّرائي**»: تفاعل من الرؤية، يقال: تراءى القوم: إذا رأى بعضهم بعضًا، وإسناد الترائي إلى النار مجاز من قولهم:داري تنظر إلى دار [**٦٢/و**] فلان، أي: تقابلها، تقول: ناراهما مختلفان، هذه تدعوا إلى الله وهذه تدعوا إلى الشيطان فكيف يتفقان؟ والأصل في تراءى: تتراءى، فحذف إحدى التاءين تخفيفًا، والمعنى: لا ينبغي لمسلم أن ينزل بالموضع الذي إذا أُوقدت فيه ناره تَظهر لِنَار المشرك إذا أوقدها في منزله،ولكنه مع المسلمين في منزلهم،[٩٤٠] أو لأن الموالين لهم كانوا منافقين فصح كونهم منهم بلا احتياج إلى تأويل.

---

[٩٣٣] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٨/١.

[٩٣٤] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٩/١.

[٩٣٥] **حاشية الكشاف للتفتزاني**، ٣١١ظ.

[٩٣٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٢/١.

[٩٣٧] **السنن الكبرى** للبيهقي، ٢١٦/١٠ (٢٠٤٠٩)؛ **التيسير في الفسير** لأبي حفص النسفي، ٤١٣/٥.

[٩٣٨] **الكشاف** للزمخشري، ٦٢٩/١؛ **اللباب** لابن عادل، ٣٨٠/٧.

[٩٣٩] **سنن أبو داود**، ٤٥/٣ (٢٦٤٥).

[٩٤٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٨٧/٥؛ **حاشية الشهاب**، ٢٥٢/٣-٢٥٣.

﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ الذي ظلموا أنفسهم بمُوالاة الكفار، أو المؤمنين بموالاة أعدائهم،[٩٤١] أي: لا يخلق فيهم الهداية، ولا يرشدهم لسوء اختيارهم وشؤم أفعالهم. ولَمَّا خالف ظاهره مذهب المصنف حمله على منع الألطاف والخذلان مقتًا لهم.[٩٤٢] ولا يخفى أنه خروج عن النيّر الظاهر، وعما ثبت بالبرهان الباهر.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «لا توالوا الأشرار ولا تعادوا الأبرار»[٩٤٣]

﴿**فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢)**﴾

«يَنكَمِشُون في موالاتهم ويرغبون فيها»،[٩٤٤]«تفسير بالأخفى؛ إلَّا أنَّ القصد إلى وجه استعمال في يقال: انكمش في سعيه وتكمَّش: أسرع، وهو مُنْكَمِشٌ في الحاجات. وانكمش الفرس في سيره، كذا في **الأساس**،[٩٤٥] وأكثر استعمال المسارعة بـ«إلى».[٩٤٦]

«ويعتذرون بأنهم يخافون أن تصيبهم دائرة من دوائر الزمان؛ أي: صرفٌ من صروفه، ودولةٌ من دوله، فيحتاجوا إليهم وإلى معونتهم»،[٩٤٧] أي: عُقْبَةٌ من عُقَبِه ونَوْبَةٌ من نُوَبِه، فإنه يستعمل لغةً في الخير والشرّ، وإن غلب عرفًا في الخير.[٩٤٨]

وقيل: لم يفرِّق المصنف بين الدولة والدائرة، وفرق بينهما الراغب حيث قال: الدائرة: عبارة عن الخطِّ المحيط، يقال: دار دَوَرَانًا، ثم عبّر بها عن الحادثة، والدورة والدائرة: في المكروه، كما يقال: «دولة» في المحبوب[٩٤٩].

روي: أنه جاء عبادة بن الصامت إلى رسول الله، فقال: يا رسول الله، إن لي مواليَ من يهود كثير عددهم، وإني أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولايتهم، فقال عبد الله بن أبيّ: إني أخاف الدوائر، لا أبرأ من ولاية موالي، وهم يهود بني قينقاع، فقال رسول الله لعبد الله بن أبي: «ما بخلت به من ولاية اليهود فهو لك»، قال: قد قبلت، فأنزل الله فيهم: ﴿**لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ**﴾ إلى قوله: ﴿**فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**﴾، أي: نفاق ﴿**يُسَارِعُونَ فِيهِمْ**﴾، ونزل في عبادة: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ [المائدة، ٥/٥٥].[٩٥٠]

﴿**فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ**﴾ لرسول الله على أعدائه ﴿**أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ**﴾ يقطع شأفة اليهود من القتل أو الإجلاء.[٩٥١]

---

[٩٤١] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٤٢.

[٩٤٢] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٢٩.

[٩٤٣] لم أقفه.

[٩٤٤] **الكشاف**، ١/٦٢٩.

[٩٤٥] **أساس البلاغة** للزمخشري، «كمش».

[٩٤٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ورقة:٣١١ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣/٢٦٨.

[٩٤٧] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٢٩.

[٩٤٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ورقة:٣١١ظ.

[٩٤٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٣٨٨.

[٩٥٠] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٢٩-٦٣٠؛ **التيسير في الفسير** لأبي حفص النسفي، ٥/٤١٣.

[٩٥١] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٣٠؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٤٣.

الشأفة: القرحة تخرج في أسفل القدم فتُكوى فتذهب، يقال: استأصل الله شأفتَه، أي: أذهبه الله كما أذهب تلك القرحة بالكَيِّ، فعلى هذا: يكون الأمر بمعنى الشأن،[٩٥٢] «أو أن يُؤمر النبيُّ بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم، فعلى هذا يكون الأمر مصدر أمره بكذا، أو أمرٍ من عند الله لا يكون فيه للناس فعل كبني النضير الذين طرح الله في قلوبهم الرعبَ، فأعطَوا بأيديهم من غير أن يوجف عليهم بخيلٍ ولا ركابٍ،[٩٥٣] ويكون الأمر بمعنى النازل الإلهي من غير واسطة أحد.

﴿**فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ**﴾ أي: على ما استبطنوه من الكفر والشك في أمر رسول الله، وظنَّ أن لا يتم أمره، وأن تكون الدولة والغلبة لهؤلاء الذين كانوا يسارعون في موالاتهم فضلاً عما أظهروا بما أشعر على نفاقهم.[٩٥٤]

﴿**فَيُصْبِحُوا**﴾ عطف على ﴿**أَنْ يَأْتِيَ**﴾ بوجود الفاء السببية، ولولاها لم يجز ذلك؛ لأن المعطوف على الخبر خبر، و﴿**أَنْ يَأْتِيَ**﴾ خبر ﴿**عَسَى**﴾ فيه ضمير عائد إلى اسمها. وقوله: ﴿**فَيُصْبِحُوا**﴾ ليس فيه ضمير يعود إلى اسمها، وكان من حق المسألة الامتناع، لكن «الفاء» السببية، جعل الجملتين كالجملة الواحدة، وذلك جائز في الصلة نحو: «الذي يطير فيغضب زيد الذباب». والصفة نحو: «مررت برجل يبكي فيضحك عمرو»، والخبر نحو: «زيد يضحك فيبكي خالد» ولو كان العطف بلا «فاء» لم يجز.[٩٥٥]

و﴿**عَسَى**﴾ من الله للإيجاب؛ لأنه وعد كريم، وخصَّ لفظ الإصباح لأمرين: أحدهما: أنه لما كان أكثرُ محارباتهم وغاراتهم وقت الصباح كثر عبارتهم عن التعبيرات به. قال:

يا راقدَ الليل مسرورًا بأوَّله إنَّ الحوادثَ قد يطرقن أسحارًا[٩٥٦]

والثاني: أنه لما كان بالإصباح انمحاءُ الظُّلمة وانتشار الأشعَّة وظهور ما كان مستترًا بالليل، اختصّ «فأصبحوا» تنبيهًا على زوال غمَّة الجهالة، وظهور الخفاء، وعليه قولهم: بدأ الصبح لذي العينين.[٩٥٧]

و«لعلّ» كلمة الإطماع لتعليق القلوب لحسن الرجاء، وحمل المؤمنين على صدق الالتجاء، وكذا إدخال «أو» بين الأمرين فتعليق القلوب بلطف الله دون الاعتماد على الأمر الكائن، والندم على وجه الحسرة لا التّوبة وشر النّدامة ما كان بعد الملامة.

﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ**﴾**(٥٣)**

﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ بالرفع[٩٥٨] قراءة [**٦٢**/ظ] عاصم وحمزة والكسائي على أنَّه جملة ابتدئ بالأخبار بها. فالواو استئنافية لمجرد عطف جملة على جملة، ولا بعد أن يعطف على ﴿**فَتَرَى**﴾.

---

[٩٥٢] **فتوح الغيب** للطيبي ، ٥/٣٨٨-٣٨٩.

[٩٥٣] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٠/١.

[٩٥٤] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٠/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٣/١.

[٩٥٥] **اللباب** لابن عادل، ٣٨٣/٧.

[٩٥٦] ديوان طرفة بن العبد. **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٨٩/٥.

[٩٥٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٨٩/٥.

[٩٥٨] **كتاب السبعة** لابن جاهد، ص ٢٣٥.؛ **التيسير** للداني، ص ٣٣٥.

وعبارته قدس سره: «على أنه كلام مبتدأ، ويؤيده قراءة ابن عامر ونافع مرفوعًا بغير واو على أنه جواب قائل يقول: «فماذا يقول المؤمنين حينئذ»،[٩٥٩] يعني: «كلام مبتدأ» لا محل لها من الإعراب، وبه يظهر الفرق بينه وبين ما ذكر.

ووجه التأييد أنه بغير «واو» ويكون جملة مستأنفة مسوغة جوابًا لسؤالٍ مقدّر، فإنه لما تقدم قوله:﴿**فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ**﴾ إلى قوله: ﴿**نَادِمِينَ**﴾، كان سائلًا سأل فقال: ماذا قال المؤمنين حينئذ؟ فأجيب: ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، و«الواو» ساقطةٌ في مصاحفِ مكّة والمدينة والشام؛ فلذلك قرأ أصحاب هذه المصاحف بغير «واو» وليست قراءتهم بغير الواو لمجرد اتّباعهم مصاحفهم، بل وَافقت روايتهم مصاحفهم، وهي بأنه في مصاحف الكوفة والبصرة، والقارئ بذلك هو صاحب هذا المصحف، لا لمجرّد ذلك أيضًا، بل لموافقة روايتهم مصاحفهم.[٩٦٠]

وبالنصب قراءة أبي عمرو ويعقوب[٩٦١] عطفًا على ﴿**أَنْ يَأْتِيَ**﴾، ولما ورد عليه أن يقال: كيف يجوز أن يقال: «عسى الله أن يقول الذين آمنوا»؛ لأن ﴿**أَنْ يَأْتِيَ**﴾ خبر «عسى»، والمعطوف عليه في حكمه فيفتقر إلى ضميرٍ يرجع إلى اسم «عسى» ولا ضميرَ في قوله: ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، فيصير كقوله: «عسى الله أن يقول الذين آمنوا».[٩٦٢]

أجاب عنه قدس سره: بأنه عطف عليه باعتبار المعنى، وكأنه قال: عسى أن يأتي الله بالفتح ويقولَ الذين آمنوا،[٩٦٣] وهذا ما قيل هو من قبيل العطف على التّوهم من قبيل: ﴿**فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ**﴾ [المنافقون ٦٣/١٠].

وذلك أن «عسى» فيه لغتان: إحداهما أن يذكر لها مرفوع ومنصوب، نحو: عسى زيد أن يخرج، وثانيهما: أن يذكر لها مرفوع فقط. ويستغنى عن الخبر لاشتمال الاسم على المنسوب والمنسوب إليه، كما استغني في: علمت أن زيدًا قائم عن المفعول الآخر، فتقول: عسى أن يخرج زيد بإسناد «عسى» إلى «أن» وما في حيّزها، وفي هذا الاستعمال لما لم يكن لـ«عسى» خبر منصوب لم يحتج إلى ضميرٍ يربط الخبر باسمها، فكذا لم يحتج إليه فيما عطف على مرفوعها، أو يجعله بدلًا من اسم الله لا[٩٦٤] خبرًا، فتكون «عسى» حينئذ تامّةً لمرفوعها، فكأنه قيل: عسى أن يأتي الله وأن يقول الذين آمنوا.[٩٦٥]

وأجاب غيره: «بتقدير الضمير، أي: عسى الله أن يقول الذين آمنوا به، أو باعتبار أن قول المؤمنين لما كان مسبّبًا عن الإتيان بالفتح أقيم مقامه مبالغةً في اتّحاده». فإن قيل: خبر «عسى» ليس في موقع خبر المبتدأ ليحتاج إلى العائد.

قلنا: نعم، إلا أنه لا يصح بدون الرابط لا تقول: عسى زيد أن يخرج عمروا وعطفًا على المصدر قبله أعني: بالفتح،[٩٦٦] كأنه قيل: «فعسى الله أن يأتي بالفتح»، وبأن يقول الذين آمنوا، فحذف «أن» وبقي أثره الذي هو النصب كما في قوله:

لَلُبْسُ عَبَاءةٍ وَتَقَرَّ عَيْنِي   أحبُّ إليَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ[٩٦٧]

---

[٩٥٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٤٣.

[٩٦٠] **لدر المصون** للسمين الحلبي، ٤/٣٠١-٣٠٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٧/٣٨٣.

[٩٦١] **النشر** لابن الجزري، ٢/١٩١.

[٩٦٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٣٨٩.

[٩٦٣] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٤٣.

[٩٦٤] ج + بدلًا.

[٩٦٥] **للباب** لابن عادل، ٧/٣٨٣.

[٩٦٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١١ظ.

[٩٦٧] **الكتاب** سبويه، ٣/٤٥؛ **الخزانة**، ٨/٥٠٣، **الجامع لأحكام القرآن**، ٨/٥٠.

أي: وأن تقرّ، وقوله:

أَلَا أَيُّهَا الزَّاجِرِي أَحْضُر الوَغَى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي[٩٦٨]

أي: أن أَحْضُر ولَمَّا ورد عليه أن يقال: ليس المعنى على: «فعسى الله أن يأتي بأن يقول الذين» فكيف يصح عطفه عليه، أجيب عنه: بأن الإتيان لما يوجبه كالإتيان به، أو عطفًا على «يُصْبِحُوا» على تقدير أن يكون نصبًا بإضمار «أن» في جواب التَّرجي بعد «الفاء»، إجراءً للتّرجي مُجرى التّمنّي على رأي الكوفيين.[٩٦٩]

﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾

مقول ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ «إما أن يقوله بعضهم لبعض»[٩٧٠] تعجّبًا من حال المنافقين عندما أظهروا الميل إلى موالاة اليهود والنصارى، وقالوا: إنهم كانوا[٩٧١] يُقسمون بالله جهد أيمانهم إنهم معنا ومن أنصارنا، والآن كيف صاروا موالين لأعدائنا محبّين للاختلاط والاعتضاد بهم؟[٩٧٢]وتبجُّحًا بما منَّ الله عليهم من الإخلاص أي: فرحًا من التبجُّح وهو الفرح يقال: بَجَّحْتُه أنا تَبْجِيحًا فَتَبَجَّحَ، أَي: أَفرحته فَفَرِح.[٩٧٣]

وإما أن يقولوه لليهود، فإن المنافقين حَلفوا لهم بالمعاضدة، كما حكى الله عنهم ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر، ١١/]، فخطاب «مَعَكُمْ» على الأول: للمؤمنين، وعلى الثاني: لليهود، وضمير أنهم للمنافقين على الوجهين، «وهذا تفسير وحكاية لمعنى المقسم عليه، لا لألفاظهم؛ إذ لو كانت حكايةً لألفاظهم لَقيل: إنا معكم».[٩٧٤]

و﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ في أقوى دليلٍ، مصدرٌ، ونصبه على الحال على تقدير: وأقسموا بالله يجهدون جهد أيمانهم، فحُذف الفعل وأُقيم المصدر مُقامه ولذلك ساغ كونها معرفة، أو على المصدر؛ لأنه بمعنى: أقسموا.[٩٧٥]

والمذكور في النحو: أن الحال تكون نكرةً، وما وقعت هي منه حالًا معرفةً، وحال تكون معرفة مأوّل بنكرة فعلًاكان أو اسمًا مثل: «أَرسَلَها العِراكَ» و«مررتُ به وحدَه» فإنهما مؤوَّلان تارة يتعرّك العراك، أي: يجتمع الاجتماع الصادر منها وينفرد وحده، وتارة بمُعْترَكة ومتفردًا، فميل **اللباب** إلى الثاني،[٩٧٦] وميل **الفريد** إلى الأوَّل،[٩٧٧] وكذا ما ذكرنا ميل إلى الأول، **[٦٣/و]** وأنتَ إذا أمعنتَ النظر وجدتَ أن نصب ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ على المصدرية، إمَّا من فعلٍ محذوف كان حالًا أقيم هو مُقامه وسُمّي باسمه، أو من فعل سابق[٩٧٨] في معناه وإن لم يكن من لفظه لما أن الشرط في ذلك أن يكون فعل فاعل مذكور بمعناه دون أن

---

[٩٦٨] البيت من معلقة طرفة بن العبد. انظر: **كتاب شرح الشواهد**، ٢٧٧/١.

[٩٦٩] **اللباب اللباب** لابن عادل، ٣٨٤/٧.

[٩٧٠] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٠/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٣/١.

[٩٧١] ج – كانوا.

[٩٧٢] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٢٠/١٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٩١/٥.

[٩٧٣] **لسان العرب** لابن منظور، «بجح».

[٩٧٤] **اللباب** لابن عادل، ٣٨٦/٧.

[٩٧٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٣/١.

[٩٧٦] **اللباب** لابن عادل، ٣٨٦/٧.

[٩٧٧] **الفريد في إعراب القرآن المجيد** المنتجب الهمذاني، تحقيق: محمد نظام الدين الفتيح، دار الزمان للنشر والتوزيع، المدينة المنورة – المملكة العربية السعودية ١٤٢٧هـ /٢٠٠٦، ٤٥٥/٢-٤٥٦.

[٩٧٨] ج + كان.

يكون من لفظه، وإمّا كون لفظه الآن على الوجه الأول غير نصبه الأصلي، بل مأخوذًا من نصب الحال التي قام هو مقامها البعيد، وإن كان المفهوم ذلك بما ذكر أوّلًا.

قال في **اللباب**: «الأظهر أنه مصدر مؤكّد لـ﴿**أَقْسَمُوا**﴾ فهو في معناه، يعني: أقسموا إقسامَ اجتهاد في اليمين».

«ويجوز أن يكون منصوبًا على الحال كقولهم: «افعل ذلك جَهْدَك» أي: مجتهدًا، ولا يبالى بتعريفه، فإنه مُؤَوَّل بنَكِرة، والمعنى ههنا: «مجتهدين في أيمانهم».[٩٧٩]

وقال في **الفريد**: «مصدر في موضع الحال، لفعلٍ مضمرٍ كان حالًا من: «أقسموا» أي: يجهدون جهد أيمانهم.[٩٨٠]

وجهدُ اليمين: إغلاظُ اليمين وتأكيده، و«جهد يمينه» مستعارٌ من «جهد نفسه»: إذا بلغ وُسعها، وذلك إذا بالغ في اليمين وبلغ شدَّتها ووكادتَها.[٩٨١]

﴿**حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ**﴾ من جملة قول المؤمنين في حقّ المنافقين، أي: بطلت أعمالهم التي كانوا يتكلفونها في رأي أعين الناس، وفيه معنى التعجّب، كأن قيل: ما أحبط أعمالهم! فما أخسرهم![٩٨٢] كان الحاضر لَمَّا شاهد فرطَ اغتباط المؤمنين وتعجُّبهم من حال المنافقين، وسمع قولهم: ﴿**أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ**﴾ سئل: فماذا تكلّموا بعد هذا الكلام؟ فقال: قالوا: حبطت أعمالهم تعجّبًا إلى تعجّبهم واغتباطًا إلى اغتباطهم،[٩٨٣] أو من قول الله شهادةً لهم بحوط الأعمال وتعجيب من سوء حالهم للسامعين،[٩٨٤] وأما على الأول فليس للمؤمنين الحكم بذلك شهادة ولا فيه فائدة فيحمل على التعجب.

وقال القشيري: ﴿**فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**﴾ أي: إن الذين سَقِمت ضمائرُهم، وَضَعفت في التَّحقيق بصائرهم، سبقَ إلى قلوبهم هوادةُ الأعداء؛ خوفًا من معرَّتهم، وطمعًا في المأمول من صُحبتهم، ولواستيقَنوا أنَّهم في أسرِ العجز وذلِّ الإعراض، لأمَّلوا من الله الموعودَ من كفايته، والمعهود من رعايته، ولكن حُجبوا عن محلِّ التَّوحيد والإيمان، فتفرَّقوا في أودية الظُّنون والحسبان، وعن قريب يأتيكم الفرجُ أيها المؤمنون، وهم يستشعرون النَّدمَ، ويُقاسون الألمَ، وأنتم تعلو رؤوسُكم، وتضيء بزواهر القُرَب قلوبُكم، وتصلون من الموعود إلى ما يُربي على المقصود.[٩٨٥]

وهذا ظاهر عند أهل الشهود، وباهر لأصحاب الوجوه.

﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)**﴾

---

[٩٧٩] **اللباب** لابن عادل، ٣٨٦/٧.

[٩٨٠] **الفريد في إعراب القرآن المجيد** للهمذاني، ٤٥٥/٢.

[٩٨١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٩١/٥.

[٩٨٢] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٠/١.

[٩٨٣] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٩٢/٥.

[٩٨٤] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٠/١.

[٩٨٥] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٢٦٨/١-٢٦٩؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤١٧/٥.

قرأه على الأصل:[٩٨٦] نافع وابن كثير فهو كذلك في الإمام، والباقون: بالإدغام.[٩٨٧]

قال الزجاج: الفكُّ هو الأصل؛ لأنه إذا سكن الثاني من المضاعف ظهر التضعيف.[٩٨٨]

وهذا من الكائنات التي أخبر الله عنها قبل وقوعها، وكان من المعجزات، وقد ارتدّ من العرب في أواخر عهد رسول الله ثلاثُ فِرَقٍ:

بنو مُدلج رئيسهم ذو الحمار الأسود العَنْسيّ، كان له حمار يقول له: قف، فيقف! وسر، فيسير! وكان يُنْبئ بعض الأمور على الحمار، وكانت النساء يتعطَّرْن بروث حماره. وقيل: يعقدون روثة بخمرهنّ فسمّي ذو الخمار بالمعجمة.**٩٨٩**

و«العنسي»: بسكون النون منسوب إلى عنس وهو يزيد بن مذحج بن أدد بن زيد بن يشحب تنبّأ باليمن واستولى على بلاده، حتى أخرج عمَّال رسول الله، فكتب ع م إلى معاذ بن جبل والمسلمين، وأمرهم أن يحثُّوا الناس على التّمسك بدينهم، وعلى النُّهوض إلى حرب الأسود، فقتله فَيْروز الدَّيْلمي على فراشه، فأتى الخبر النبيَّ من السماء ليلة قتله، فبَشَّر أصحابَه بهلاكه، وقُبض ع م من الغد؛ وأتى مقتل العنسي المدينةَ آخرَ شهر ربيع الأول، فكان ذلك أوَّل فتحٍ جاء أبا بكر.

وبنو حنيفة باليمامة، رئيسهم مسيلمة الكذَّاب تنبَّأ في آخر سنة عشرين من الهجرة، وكتب إلى النبي ع م «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله: أمّا بعد فإن الأرض نصفها لي ونصفُها لك، وبعثه برَجُلين، فقال ع م لهما: «لولا أن الرُّسل لا تقتل لضربت أعناقكما»، فكتب: «من محمد رسول الله إلى مسيلِمة الكذاب: «أمَّا بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء عباده والعاقبة للمتقين»، فمرض ع م وتُوفّي، وبعث أبو بكر خالدَ بن الوليد في جيش حتى أهلكه الله على يدي وحشيٍّ، قاتلِ حمزة بن عبد المطَّلب، فكان يقول: قتلتُ خيرَ الناس في الجاهليَّة وشرَّ الناس في الإسلام، يريد في جاهليتي وإسلامي وقبل قتل على يدي وحشي وعبد الله بن زيد الأنصاري طعنه الوحشي وضربه عبد الله بالسيف، قال عبد الله: ألم تراني ووحشيهم، قتلنا مسيلمة المقهن، سائلني الناس عن قتله، فقلت ضربت وهذا طعن.

[**٦٢**/ظ] وبنوا أسد رئيسهم طُلَيحة بن خويلد، وكان آخر من ارتدَّ وادّعى النبوة في حياة رسول الله، وأوَّل من قوتل بعد وفاته من أهل الرّدة، فبعث أبو بكر خالد بن الوليد إليه فهزمهم خالد بعد قتالٍ شديدٍ، وأفلت طليحة فمرَّ على وجهه هاربًا نحوَ الشام، ثم أسلم وحسن إسلامه.

وفي عهد أبي بكر سبع فرق ذكرها العلامتان:[٩٩٠] منها بعضُ تميم قوم سجاح بنت المنذر كاهنة تدَّعي زمانًا أن رِئِيَّها ورِئِيَّ سطيح واحدٌ، ثم جعل ذلك الرِّئِيّ ملكًا فادّعت النبوة في بني يربوع فتبعها قوم، ثم زوّجت نفسها مسيلمة وجعلت دينها ودينه واحدًا.

وفيهما يقول قيس بن عاصم:

أضحت نبيَّتُنا أنثى نُطيف بها وأَصبحت أنبياء الناس ذُكْرَانا

---

[٩٨٦] أي: ﴿مَنْ يَرْتَدِدْ﴾.

[٩٨٧] **كتاب السبعة** في القراءات، لابن مجاهد ص ٢٤٥؛ **التيسير** للداني، ص ٣٣٥؛ **الكشاف**، ٦٣٠/١؛ **أنوار التنزيل**، ٤٤٣/١.

[٩٨٨] **معاني القرآن وإعرابه**، إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج ، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ١٨٢/٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٩١/٥.

[٩٨٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١١ظ.

[٩٩٠] الزمخشري والبيضاوي.

فلعنة الله والأقوام كلّهم على سَجَاحَ ومَنْ بالإفك أَغْرَانا،

أعني مسيلمة الكذَّاب لا سقيت أصداؤه ماء مُزْنٍ حيثما كانا[٩٩١]

وفيها يقول أبو العلاء المعرّي في **كتاب** «**استغفر واستغفري**»[٩٩٢] أي: في ديوان شعر التزم في قصائده استغفر واستغفري:

أمَّت سجاح ووالاها مسيلمة كذَّابة في بني الدنيا وكذَّاب[٩٩٣]

يروي آمت بالمد وتخفيف الميم من الأيمة أي صارت أيمًّا، وأمّت بالتشديد من الإمامة، وفي إمرة عمر غسان قوم جَبَلَة بن الأيهم تنصّر وسار إلى الشام. وقد ذكرنا قصته في البقرة في قوله: ﴿**اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى**﴾ [البقرة، ٢/١٦].[٩٩٤]

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾

قال المصنف: «الراجع من الجزاء إلى الاسم المتضمِّن لمعنى الشرط؟ محذوف، معناه: فسوف يأتي الله بقوم مكانهم، أو بقوم غيرهم، أو ما أشبه ذلك».[٩٩٥]

«وهذا[٩٩٦] ميل منه إلى القول بأن خبر المبتدأ هو الجزاء، وإلا فضمر دينه راجع إلى مَنْ وهو كان، أو تقرير الكلام على ذلك المذهب، واعتبر الراجع ضمير الجمع نظرًا إلى المعنى».[٩٩٧]

وهم أبو بكر وأصحابه؛ لأنهم هم الذين قاتلوا أهلَ الردة، والآية نازلة في محاربة المرتدِّين، ولم يتولّ محاربتهم أحد مثلهم، أو أهل اليمن روي أنها لما نزلت أشار ع م إلى أبي موسى الأشعري فقال: «هم قوم هذا»،[٩٩٨] أو الفرس؛ لأنه ع م لما سئل عنها ضرب يده على سلمان فقال: هذا وذووه، ولو كان الدين معلَّقًا بالثريا لناله رجالٌ من أبناء فارس أو علي؛ لأنه ع م لما دفع الراية إليه يوم خيبر قال: لأدفعن الراية إلى رجل يحبّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، وهذه الصفة هي المذكورة في الآية إلا أن عليًا لم يتفق له قتال مع أهل الرّدة، أو هم أحياء من اليمن ألفان من النَّخع وخمسة آلاف من كِندةَ وبَجيلة، وثلاثة آلاف من أحباء الناس جاهدوا في سبيل الله يوم القادسية مع عمر.[٩٩٩]

والقادسية: موضع بينه وبين الكوفة خمسة عشر ميلًا حارب فيها سعد بن أبي وقاص مع رُسْتَم صاحبُ جيش يَزْدَ جُرْد الشّقي، وإنما سمي قادسية؛ لأن ابراهيم ع م لَمَّا هاجر من أرض الكوفة وصل إليها، فقدَّسته امرأته، أي: غسلت رأسه.[١٠٠٠]

---

[٩٩١] **كتاب غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة**، أبو إسحق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي المعروف بالوطواط، تحقيق: ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م، ص ٢٦٩–٢٧٠.

[٩٩٢] استغفر واستغفري: كتاب في المنظوم، به نحو عشرة آلاف بيت، ويقع في مئة وعشرين كراسة. ذكره ياقوت، وأهمله صاحب الكشف.

[٩٩٣] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٠/١.

[٩٩٤] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٠/١؛ **أنوار التنزيل**، ٤٤٣/١؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١١ظ.

[٩٩٥] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٠/١.

[٩٩٦] «هذا» أي: الراجع.

[٩٩٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٢ظ.

[٩٩٨] **معجم الكبير** للطبراني،٣٧١/١٧ (١٠١٦).

[٩٩٩] **اللباب** لابن عادل، ، ٣٩١/٧؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٦٩٠/٣.

[١٠٠٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١١ظ؛ **حاشية الشهاب**، ٢٥٤/٣.

وقال الراغب: «المحبة إرادة ما تراه الإنسان أو تظنُّه خيرًا»،[١٠٠١] فإن غرضه في كلّ ما سعى له ثلاثة الفضيلة والنَّفع، واللذة، والمحبة، تحصيل الأعراض الثلاثة إذا تعلّقت بها، ومن أجل ذلك ترى محبة الأبرار بالفضيلة، ومحبة التجار بالمنفعة، ومحبة الأحداث وذوي اليسار باللذة، ولا يتوهّم أنّ الله يحبّ عباده على المعنى المذكور، بل باعتبار لزومها ومقتضاها وهو صدور الإحسان من المحبّ إلى المحبوب على أتم ما يقتضيه المحبة.

وقال المصنف: «محبّة العباد لربهم طاعته وابتغاء مرضاته، وأن لا يفعلوا ما يوجب سخطه، ومحبة الله لعباده أن يثيبهم على طاعتهم، ويعظّمهم، وأما ما يعتقده أجهلُ الناس وأعداهم للعلم وأهله، وهم الفرقة المفتعلة المتفعّلة من الصُّوف، وما يدينون به من المحبة والعشق والتَّغني على كراسيِّهم خرَّبها الله، وفي مراقصهم عطَّلها الله، فتعال الله عنه علوًّا كبيرًا».[١٠٠٢]

وهذا منه مبني على أنّ المحبة تتعلّق بالمستلذّات والمحدثات، وإنكاره المحبة بناءً على ذلك. وأمَّا العارفون فيقولون: كما أن اللذّة محبوبة، فالكمال والجمال المعنويّ محبوب، ولا كمال ولا جمال بهذا المعنى إلّا الله، وكل ما يرى كمالًا من غيره فهو منه وبه وإليه، فيصح حينئذ محبوبيّته ومحبّته، ومن ذلك قيل: «محبة العبد لله كيفيّة روحانيّة مترتبة على تصوّر الكمال المطلق الذي فيه على الاستمرار، ومقتضية للتّوجه التّام إلى حضرة القدّس بلا فتور وفرار»،[١٠٠٣] وكذا يمكن أن يفسّر محبة الله للعبد بحالة لائقة؛ لذلك وهو أن يكشف الحجب عنهم، ويقرّبهم من جناب عزّه، ويبوّئهم في حرم قدسه ونحو ذلك، ولما حرمته تع بهذا المعنى صحّ ما يلزمه ويتبعه من الأنس والشّوق، ولذة المناجاة وسائر لوازمه.

فللعشّاق سَمَاعٌ وهو أوّل الأمر، وحال متفرع عليه وهو الوجد والفهم الذوقي الإلهي الروحاني، ويثمر الوجد تحريك الأطراف إمَّا بحركة موزونة فيسمّى التصفيق والرقص، وإمَّا غير موزونة فتسمّى الاضطراب، وجميع ذلك لا ينكره أهل العرفان **[٦٣/و]**.[١٠٠٤]

وأمّا ما يفعله متصوفة الزمان من الدَوَران وضربِ الأرض بالأقدام بناءً على ذلك فقياس مفارق وبينهما فرق فارق؛ لأن العشّاق مضطرّون بهجوم الأحوال، وهؤلاء لا اضطرار لهم بطول الآمال.

﴿ **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾

جمعُ ذَلِيل، وأما ذَلُول فجمعه: ذُلُلٌ، ومن زعم أنه من الذِّلّ الذي هو نقيض الصعوبة فقد غبي عنه أن ذلولًا لا يجمع على أذلّة، أي: خفي عليه.

قال في **أساسه**: «غبي عليه»،[١٠٠٥] ولم يقل: أذلّة للمؤمنين، بتضمين الذلّ معنى ا لحُنُوّ والعطف، كأنه قيل: عاطفين عليهم على وجه التَذلّل والتّواضع، أو لأنّهم مع شرفهم وعلوّ طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم.[١٠٠٦]

[١٠٠١] **المفردات في غريب القرآن** للراغب الأصفهاني، «حب».

[١٠٠٢] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٠/١.

[١٠٠٣] **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي، تحقيق: علي دحروج نقل النص الفارسي إلى العربية: عبد الله الخالدي الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان –بيروت الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ٤٨١/٢.

[١٠٠٤] **إحياء علوم الدين**، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، دار المعرفة – بيروت، د.ت. ٢٦٨/٢.

[١٠٠٥] **أساس البلاغة** للزمخشري،

[١٠٠٦] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٠/١.

قيل: حاصله تضمين معنى العلوّ والفضل، ولا دلالة لعبارة الكتاب على هذا المعنى، وقيل: المراد أن الجار والمجرور صفة أخرى لـ﴿**قَوْمٍ**﴾ لا متعلّقة بـ﴿**أَذِلَّةٍ**﴾. فقوله: «أنهم مع شرفهم» تفسير لقوله: ﴿**عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾. وقوله: «**خافضون**»تفسير لـ﴿**أَذِلَّةٍ**﴾ قدّم الأول إيذانًا بأنه صفة مستقلة، لا أنه من تتمة ﴿**أَذِلَّةٍ**﴾، لكن لا يخفى أن قولك: يقوم على المؤمنين ليس من جسن كلام التنزيل، وقيل: المراد أنه استعمل بدل اللّام على ليؤذن بأنهم غلبوا غيرهم من المؤمنين في التواضع حتى علوهم بهذه الصفة، وكان هذا القائل فهم من قوله: مع شرفهم مشاركة هذه الصفة لذواتهم والاتّصاف بخفض الجناح، وإيذان على بهذا المعنى لا يؤثر فينا،[١٠٠٧]أو لمقابلة قوله: ﴿**أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾، وهذا من باب التكميل، فإنه لَمَّا قيل: ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أوهَمَ أنهم أذلاء محقّرون مصغّرون كمّل ذلك على معنى أنهم مع عزّتهم وعلوّ طبقتهم متواضعون مبالغون فيه لِمَن يجب أن يتواضع له، نحوه قول الشاعر:

جلوسٌ في مجالسهم رِزانٌ وإن ضيفٌ أَلَمّ فهم خفوف[١٠٠٨]

ونحوه قوله تع: ﴿**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾ [الفتح، ٢٩/٤٨]. فوصفهم في هذه الآية بالذّل والعزّة، وفي تلك الآية بالشدة والرحمة، ولعلّ تأخير قوله: ﴿**أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ ههنا ليناسب ما ذكر بعده وتأخر[١٠٠٩] قوله:﴿**تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا**﴾ [الفتح، ٢٩/٤٨].

﴿**يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ يبذلون المجهود في قتال الكفار حملًا لهم على الإسلام، ومنعًا عن عبادة الأصنام.

روي: أن عامّة العرب بعد وفاة النبي قالوا: أما الصلاة فنصلي وأما الزكاة فلا تغصب أموالنا، فقال أبو بكر: لو منعوني عقالًا أو عناقًا مما أدوا إلى رسول الله لقاتلتهم عليه، فقال عمر: أليس قال رسول الله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها» فقال: هذا حقها، وفيه إثباتُ إمامة أبي بكر؛ لأنّ الله مدحَ المجاهدين معه بأمره، فثبت أن الائتمار بأمره طاعة وأنه مفترض الأمر، وفي ثبوت خلافته خلافة عمر وعثمان وعلي، وفيه دليل على أن عليًا لم تكن له الخلافة في حين قُبض رسول الله؛ إذ لا يحتمل أن يرى الحقّ لنفسه في زمن أبي بكر، ثم يترك طلبها، وفيه تضييع حقّ الله مع قوله: ﴿**يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾.[١٠١٠]

وقال بعض العارفين:[١٠١١] «الجهاد ثلاثة: جهادٌ مع نفسك، وجهادٌ مع عدوّك، وجهاد مع قلبك، والجهاد في سبيل الله هو مجاهدة القلب لئلا تتمكّن فيه الغفلة بحال، وجهاد النفس أن لا تفتر عن الطاعة بحال، وجهاد الشيطان أن لا يجد منك فرصة فيأخذ بحظّه منك».[١٠١٢]

وقيل: ﴿**يُجَاهِدُونَ**﴾ بنفوسهم باستدامة الطاعات، وبقلوبهم بقطع المنى والطَّلبات، وبأرواحهم بحذف العلاقات، وبأسرارهم بالاستقامة على الشُّهود في دوام الأوقات.[١٠١٣]

[١٠٠٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٢و-ظ.

[١٠٠٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٩٦/٥.

[١٠٠٩] ج - وتأخر.

[١٠١٠] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٢٠/٥-٤٢١.

[١٠١١] هو أبو بكر الوراق.

[١٠١٢] **عرائس البيان** للبقلي، ٣١٨/١؛ **حقائق التفسير** للسلمي، ١٨٠/١.

[١٠١٣] **لطائف الإشارات للقشيري**، ٢٧٠/١؛ **حقائق التفسير** للسلمي، ١٨٠/١؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٢١/٥.

«والناس في مجاهداتهم ثلاثة مرتبطون بأفعالهم وصفاتهم، يقولون في القيامة: ﴿**هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ**﴾ [الحاقة، ١٩/٦٩]، والذين غلبت صفات الله على أسرارهم، ينظرون إلى ما جرى من الحكم، والذين تجلى الله لأسرارهم فخشعت عمّا سواه».[١٠١٤]

﴿**وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)**﴾

«حال بمعنى: أنهم يجاهدون وحالهم خلافُ حال المنافقين، فإنهم يخرجون في جيش المسلمين خائفين ملامَةَ أوليائهم من اليهود، فلا يعملون شيئًا يلحقهم فيه لوم من جهتهم».[١٠١٥] وأمّا المؤمنون فكانوا يجاهدون لوجه الله لا يخافون لومة لائم قطّ، أو عطف على ﴿**يُجَاهِدُونَ**﴾ على أن من صفتهم المجاهدة، وأنهم صِلاب في دينهم، إذا شرعوا في أمر من أمور الدين، إنكارِ منكَر أو أمر بمعروف، مضوا فيه كالمسامير المحمّاة لايزعهم قول قائل، ولا اعتراضَ معترض، ولا لومةَ لائم يشقّ عليه جِدُّهم في إنكارهم وصلابتهم في أمرهم.[١٠١٦]

فالفرق أنه إذا جعل حالًا كان قيدًا لـ﴿**يُجَاهِدُونَ**﴾، فيكون تعريضًا بمن يجاهد ولم يكن حاله كذلك، ومن ثمة قال: «وحالهم خلاف حال المنافقين»، وإذا جعل عطفًا كان تتميمًا بمعنى ﴿**يُجَاهِدُونَ**﴾ فيفيد المبالغة والاستيعاب، وإلى المبالغة الإشارة بقوله: «مضوا فيه كالمسامير المحماة». والعجب أن قوله: «المحمّاة» أيضًا تتميم [**٦٣**/ظ] لقوله: «مضوا كالمسامير»، قال امرء القيس:

حَمَلْتُ رُدَيْنِيًّا كَأَنَّ سِنَانَهُ　　　سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ[١٠١٧]

وقد ألَمَّ إلى معنى «الاستيعاب» بقوله: «لا يزعهم قول قائل» إلى آخره،[١٠١٨]

وقوله: «يشقّ عليه جِدهم»،[١٠١٩] أي: على القائل أو المعترض أو اللائم أو على كل من الثلاثة، ولا خفاء في أنه صفة للائم، لا لكل من النكرات لاختلاف العامل، فالوجه جعل الضمير للائم والمعنى على اعتبار مثل هذا الوصف في كلّ من الأوّلين، كأنه قيل: «لا يزعهم قول قائل يشقّ عليه ذلك، ولا اعتراض معترض يشقّ عليه ذلك».[١٠٢٠]

بقى ههنا أن المضارع المنفي بـ«لا» أو «ما» كالمثبَت في أنه لا تباشره واو الحال، فكما لا يقال: جاءني زيد ويركب، لا يقال: جاءني زيد ولا يركب، وقوله: ﴿**وَلَا يَخَافُونَ**﴾ مضارع منفي بـ«لا» فكيف يقع حالًا، اللهم إلا أن يقال: القول بأن المضارع المنفي بـ«لا» كالمثبت غير مجمع عليه، بل يجوّزه بعض النحاة.

«واللّومة: المرّة من اللّوم، وفيها وفي تنكير لائم مبالغتان»؛[١٠٢١] لأنه ينتفي بانتفاء الخوف من اللّومة الواحدة خوف جميع اللّومات؛ لأن النكرة في سياق النّفي تفيد العموم، ثم إذا انضمّ معها تنكير فاعلها يستوعب انتفاء خوف جميع اللّوّام، وهذا تتميم في تتميم، أي: لا يخافون شيئًا من اللوم من أحد من اللّوّام،[١٠٢٢]

[١٠١٤] **حقائق التفسير** للسلمي، ١٨٠/١.
[١٠١٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٥/١.
[١٠١٦] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٥/١.
[١٠١٧] **ديوان امرئ القيس**، ص ١٦٢.
[١٠١٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٩٧/٥.
[١٠١٩] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٥/١.
[١٠٢٠] **حاشية الكشاف للتفتزاني**، ٣١٢ظ.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من الأوصاف التي وصف بها القوم من المحبّة والذلّة والعزّة، والمجاهدة في سبيل الله، وانتفاء خوف اللّائمة من كلّ أحد، واسم الإشارة يجوز أن يشار بها إلى أكثر وهو على لفظ الإفراد، كما في قوله: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة، ٢/٦٨].[١٠٢٣]

«﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يوفّق له ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ ممّن يعلم أن له لطفًا»[١٠٢٤] فسر الإيتاء بالتوفيق يتضح في الكل إذ منها ما هو فعل اختياري للعبد كالذّلة والعزّة والمجاهدة ليس بخلق الله في زعمه،[١٠٢٥] وكذلك جرى على مذهبه في قوله:«ممن يعلم أنَّ له لطفًا»،[١٠٢٦] أي: لطفًا نافعًا له، فقدّم الظّرف لكون الاسم نكرةً، يعني: يوفّق للمحبّة والذلّة والعزّة والمجاهدة وانتفاء الخوف مَن يعلم أن الألطاف المحصّلة والمقرّبة تجدي فيه وينفع، فخصّ العامّ لما يؤدّي إليه مذهبه، وجعل المشيئة تابعة للُّطف، والحُكم على العكس عند أهل السُنة، والمعنى: ذلك المذكور من منح الله وفضله، ليس لأحد فيه سعي، يختصّ بها من يشاء من عباده؛ لأنه فعّال لما يريد، وأنه كثير الفواضل، عليهم بكل الأشياء وإن خفي على الخلق وجه حكمته فيعلم من يليق به.[١٠٢٧]

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يُسئَلَ».[١٠٢٨]

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾

لَمّا نهى عن موالاة الكفّار ذكر عقيبه من هو حقيق بها، فتتصل الآية بقوله:﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ﴾ [المائدة، ٥/٥١]، وما بينها لتأكيد النهي.[١٠٢٩]

«ومعنى ﴿إِنَّمَا﴾: وجوب اختصاصهم بالموالاة»،[١٠٣٠]«أي: جعلهم منفردين بذلك وقصر الموالاة عليهم»،[١٠٣١] ولما ورد أن يقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ جملة اسمية، والمبتدأ مفرد، والخبر جماعة، فهلّا قيل: أولياؤكم؟

أجاب عنه المصنف: بأن أصل الكلام: إنما وليكم الله، فجعلت الولاية لله على الأصالة، ثم نظم في مسلكه إثباتًا له إثباتًا للرسول والمؤمنين تبعًا.

قيل: عليه هذا بعيد عن القاعدة؛ إذ جعل ما لا يستوي فيه الواحد والجمع جمعًا، وهو الولي، بل التقدير: إنما وليكم الله ورسوله والمؤمنون أولياؤكم، فحذف الخبر لدلالة السابق عليه، والفصل بالخبر للتنبيه على المذكور، ودفع بأن مراد المصنف

[١٠٢١] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٣٥.
[١٠٢٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٣٩٩.
[١٠٢٣] **اللباب** لابن عادل، ٧/٣٩٥.
[١٠٢٤] **حاشية الكشاف للتفتزاني**، ٣١٢ظ.
[١٠٢٥] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٣٥.
[١٠٢٦] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٣٥.
[١٠٢٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٣٩٨.
[١٠٢٨] **سنن الترمذي**، ٥/٥٣٢ (٣٥٧١).
[١٠٢٩] **حاشية الكشاف للتفتزاني**، ٣١٢ظ.
[١٠٣٠] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٣٥.
[١٠٣١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٢ظ.

بقوله: «ثم نظم» غير ما قدّره، لا أنّ ﴿وَلِيُّكُمْ﴾ جمع؛ لأنه هرب من هذا المعنى إلى التّبعية، فكأنه قال: «إنما وليكم الله وكذلك رسوله والمؤمنون» لتصحّ التبعيّة، ففيه مع ما ذكره القائل رعاية حسن الأدب.[١٠٣٢]

و﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ﴾ بدل من ﴿الَّذِينَ﴾، أو رفع أو نصب على الاختصاص، ولم يجعل وصفًا لاشتراك الموصولين في كونهما وصفين، والوصف لا يوصف إلا إذا جرى مجرى الاسم كالمؤمن مثلًا، لخلاف الذين آمنوا، فإنه في معنى الحدوث، ألا ترى أنه جعل الذي يوسوس صفة الخناس لخلوّه عن معنى الحدوث.

و«فيه»: أي: في هذا الإبدال أو الاختصاص، وبالجملة في ذكر ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ﴾ بعد ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تمييز للمؤمنين الخلّص ألسِنَةً وقلوبًا عن المؤمنين ألسِنَةً فقط، كالمنافقين، إن قصد بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكوة، والركوع، الكناية والدلالة على الإخلاص، أو عن المؤمنين قلوبًا و ألسِنَةً، مع تقصير في العمل وعدم مواظبة عليه إنْ أريد بها ظاهرها من الاستمرار والاعتياد بالصلاة والزكاة اللتين هما إمّا العبادات.[١٠٣٣]

﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ الواو للحال أي: متخشعون ومتواضعون في صلاتهم وزكاتهم.

وقيل: حال مخصوصة بـ﴿يُؤْتُونَ﴾، أي: «يؤتون الزكوة» في حال ركوعهم في الصلاة، حرصًا [**٦٤**/و] على الإحسان ومسارعة إليه. وإنها نزلت في عليّ حين سأله سائل وهو راكع في صلاته، فطرح له خاتمه. واستدل بها الشيعة على إمامته زاعمين أن المراد بالولي المتولّي في الأمور والمستحق للتصرّف فيها، والظاهر ما ذكرناه، مع أن حمل الجمع على الواحد أيضًا خلاف الظاهر، وإن صح أنه نزل فيه فلعلّه جيء به بلفظ الجمع، لترغيب الناس بمثل فعله فيتدرجوا فيه، والتنبيه على أن سجيّة المؤمن يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على الإحسان، وتفقُّد الفقراء، حتى إن لزَّهم أمر لا يقبل التأخيرَ وهم في الصلاة لم يؤخِّروه إلى الفراغ منها.[١٠٣٤] فعلى هذا لا دلالة فيه أيضًا على ما ذكروا؛ لأن ذلك وصف عمّ خلص المؤمنين.

فإن قلت: بل دلالة من حيث إن المعنى: إنما المتصرف فيكم أيها المؤمنون الله ورسوله والمؤمنون الموصوفون بتلك الصفات فهو يقتضي أن يكون المؤمنون الموصوفون بها متصرفين في جميع الأمة، وهذا معنى الإمامة فيدخل فيه عليّ أوّلًا.

قلنا: يحمل[١٠٣٥] على معنى الناصر والمحبّ لا على المتصرّف أيضًا، دفعًا للاشتراك، واختيارًا للمعنى الذي يوافق ما قبله وما بعده.

واستدل به على أن الفعل في الصلاة لا يبطلها، ودفع بأن خاتمه كأنه كان مرجا في خنصره فلم يتكلّف لخلعه كثير عمل يُفسد به الصلاة، وعلى أن الصدقة سمي ركعةً.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾

أمّا أن يكون من إقامة حزب الله موضع الضمير من غير لفظه السَّابق، جعلا لهم أعلامًا لكونهم حزب الله، أي: مشاهير بذلك من قولهم: فلانٌ عَلَمٌ للكرام، أو في الكرم، أي: مشهور به بحيث إذا ذكر الكريم لم يتبادر الفهم إلى غيره، فكذا ههنا لما أقيم حزب الله مقام الضمير العائد إلى من يقول الله علم أنه من الشهرة في كونه حزب الله، بحيث لا يتبادر به إلى الفهم

[١٠٣٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٩٩/٥.

[١٠٣٣] **حاشية الكشاف للتفتزاني**، ٣١٢ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٢٧٦/٣.

[١٠٣٤] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٥/١-٦٣٦؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٦/١.

[١٠٣٥] ج – يحمل.

غيره، وتنبيهًا على البرهان عليه، فكأنه قيل: ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله وحزب الله هم الغالبون، وتنويهًا بذكرهم وتعظيمًا لشأنهم، وتشريفًا لهم بهذا الكم، وتعريضًا لمن يوالي غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان، أو من جعل جزاء الشرط في معنى الشرط للتنويه، كقوله: من أدرك الصمان فقد أدرك المرعى، أي: مَن تولاهم فقد تولّى بمن يحقُّ له الولاية، وهو المراد بقوله: «فقد تولى حزب الله واعتضد بمن لا يغالب»، فعلى الوجه الأوّل لا يكون ذكر الله توطئةً وتمهيدًا بخلاف الوجه الثاني المبني على أنه ليس من إقامة المضمر موضع المظهر.[١٠٣٦]

وأصل الحزب القوم يجتمعون لأمر حزبهم.[١٠٣٧] والتحزّب: التجمُّع لدفع ما يحزب؛ أي: ينوب. وأخبر أنَّ الغلبة لحزب الله، وقد كان كذلك، فقد جعل الغلبة للمسلمين على اليهود، فقتلهم وأجلاهم، وفرّقهم وسباهم، وخيَّب ظنونهم من تولَّاهم. وكذلك سائر أعداء الدين قاتلهم الله أنى يؤفكون.[١٠٣٨]

وقال بعض العارفين: محبّة الله سبق العناية، ومحبّة الرسول تأدّبهم بالشريعة، ومحبّة المؤمنين إيثار النفس والمال لهم بالأخوة.

وقال سهل: أما ولاية الله فهو الاختيار لمن استولاه، وولاية الرسول ع م إعلام الله ورسوله أنه وليّ، فيجب على الرّسول أن يوالي مَن وال الله.

وقال في قوله: ﴿**وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ**﴾ أي: ومَن وقع له تولية من رسول الله لموافقته لطاعة الله، وتولية المؤمنين من جهة استعداد الفطرة ورؤية أنوار الغيب في وجوههم، فإنه محبوب الله، ومحبوب رسوله، ومحبوب المؤمنين، ويكون غالبًا على نفسه وشيطانه بالنصرة الإلٰهيّة.

وقال القاسم: موالاة الله مشيعة من موالاة رسول الله، وموالاة رسول الله مشيعة من موالاة السّادة والكبراء من عباده، وهم المؤمنون، ومن لم يطع الكبراء السّادة لا يبلغ إلى شيء من مقام الولاية مع الله ورسوله.[١٠٣٩]

وقال عليه السلام: «مِنْ تَعْظِيمِ جَلَالِ اللهِ إِكْرَامُ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ».[١٠٤٠]

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: «مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بعد إذ أنقذه الله منه كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».[١٠٤١] وفي رواية: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ وَطَعْمَهُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ فِي اللَّهِ وَيُبْغِضَ فِي اللَّهِ وَأَنْ تُوقَدَ نَارٌ فَيَقَعُ فِيهَا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا»[١٠٤٢]

[١٠٣٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٠٢/٥؛ **حاشية الكشاف للتفتزاني**، ٣١٢ظ.

[١٠٣٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٦/١.

[١٠٣٨] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٢٣/٥.

[١٠٣٩] **عرائس البيان** للبقلي، ٣١٩/١.

[١٠٤٠] **سنن أبي داود** ٢١٣/٧.

[١٠٤١] **صحيحالبخاري**،١٢/١ (١٦)، **صحيحمسلم**، ٦٦/١ (٤٣)، **سنن ابن ماجه**، ١٦٠/٥ (٤٠٣٣). **سنن الترمذي** ، ١٥/٥ (٢٦٢٤)

[١٠٤٢] **صحيح البخاري**، ١٣/١ (٢١)؛ **سنن الترمذي**، ١٥/٥ (٢٦٢٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلالِي، اليومَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّ عَرْشِي لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي».[١٠٤٣]

وعن العرباض بن سارية: «قال الله تع: الْمُتَحَابُّونَ بِجَلالِي فِي ظِلِّ عَرْشِي، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي».[١٠٤٤]

حشرنا الله وإياكم في زمرة أهل الودّ والوفاء، وبعّدنا وإياكم عن جملة أهل البغض والجفاء.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧)﴾

لَمَّا نهى عن موالاة اليهود والنصارى، نهى أيضًا عن موالاة جميع الكفار على العموم، فقوله: ﴿**الَّذِينَ اتَّخَذُوا**﴾ مفعول أوّل[**٦٤**/ظ]لقوله: ﴿**لَا تَتَّخِذُوا**﴾، ومفعوله الثاني: هو قوله: ﴿**أَوْلِيَاءَ**﴾،[١٠٤٥]واتخاذهم دينكم هزوًا[١٠٤٦] أن يهزؤا به ويسخروا، واتخاذهم لعبًا أن ينسبوه إلى العبث ويقولوا: هو محدث لا قرارَ له ولا ثباتَ، ولا هو من عند الله آت.[١٠٤٧]

نزلت في رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث أظهرا الإسلام، ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادّونهما. وقد رتب النهي عن موالاتهم على اتخاذهم دينهم هزوًا ولعبًا، وإيماءً على العلّة، وتنبيهًا على أن اتخاذهم دينكم هزوًا ولعبًا لا يصحّ أن يقابل باتّخاذكم إياهم أولياء، بل يقابل ذلك بالبغضاء والشنان، وأن مَن هذا شأنُه بعيد عن الموالاة جدير بالمعادات. وفصّل المستهزئين بأهل الكتاب والكفّار على قراءة من جَرّه[١٠٤٨] وهم: أبو عمرو والكسائي ويعقوب.[١٠٤٩]

ولما ورد أن يقال: كيف عطف الكفار على أهل الكتاب مع أن العطف يقتضي التمايز بين المتعاطفين، وقوله: ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ**﴾ [البينة ٩٨/١] صريح في أن أهل الكتاب كفّار، وما يعمّ الشيء وغيره كيف يجعل قسمًا له؟

أجاب عنه: بأن الأمر كذلك إلا أن كفر المشركين لما كان أغلظ وأعظم حسن تخصيصهم باسم الكفار بسبب توغّلهم في الكفر، والمعنى: أنه تعالى نهاهم عن أن يتخذوا المستهزئين أولياء،[١٠٥٠] وبيّن أنهم صنفان: أهل الكتاب وعبدة الأوثان؛ فإن اسم الكفار غالب على عبادة الأوثان، كما أن أهل الكتاب غالب في اليهود والنصارى، ويدلّ عليه أنه قرئ: «وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا»،[١٠٥١] وتعضد قراءة الجر أنه قرئ: «وَمِنَ الْكُفَّارِ».[١٠٥٢]

[١٠٤٣] **مسند أحمد**، ١٦٨/١٤ (٨٤٥٥)؛ **صحيح مسلم**، ١٩٨٨/٤ (٢٥٦٦).

[١٠٤٤] **مسند أحمد**، ٤٢٧/١٤ (٨٨٣٢)؛ **صحيح مسلم**، ١٩٨٨/٤ (٢٥٦٦).

[١٠٤٥] **اللباب** لابن عادل، ٤٠٠/٧.

[١٠٤٦] ج- هزوًا.

[١٠٤٧] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٢٤/٥.

[١٠٤٨] **التيسير** للداني، ص ٣٣٥؛ **النشر** لابن الجزري، ١٩٢/٢.

[١٠٤٩] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٦/١-٦٣٧؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٦/١.

[١٠٥٠] ج- أولياء.

[١٠٥١] قراءة شاذَة، **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٧/١.

[١٠٥٢] قراءة شاذَة، **البحر المحيط** لأبي حيان، ٣٠٢/٤؛ **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٧/١.

وقرأ الباقون بالنصب عطفًا على ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ على أن النهي عن موالاة من ليس على الحق رأسًا سواء من كان[١٠٥٣] ذا دين تبع فيه الهدى، وصرفه عن الصواب كأهل الكتاب ومن لم يكن كالمشركين.

﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ واحذروا عذاب الله؛ في ترك ما أمركم به، وفعلِ ما نهاكم عنه مِن اتّخاذ الكفّار أولياء وغير ذلك ﴿**إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ حقًا؛ لأن الإيمان حقًّا يوجب طاعة الله، وترك موالاة أعداء الله.[١٠٥٤]

وقيل: إن كنتم مؤمنين بوعده ووعيده.[١٠٥٥] ولا حاجة إليه؛ لأن تقدير المتعلّق غير محتاج إليه في تعليل الأمر بالتقوى والإطلاق، أحسن في التعليل وأبلغ.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ»،[١٠٥٦] رواه ابن حبان في صحيحه.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ثَلَاثٌ أَحْلِفُ عليهِنَّ: «لا يجعلُ اللهُ مَنْ له سَهمٌ في الإسلام كمن لا سهمَ له وأسهُمُ الاسلام ثلاثةٌ: الصلاة، والصَّوم، والزَّكاة، ولا يتولَّى اللهُ عبدًا في الدنيا، فيولِّيه غيره في القيامة، ولا يحبُّ رجل قومًا إلا جعله الله معهم».[١٠٥٧]

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَفْضَلُ الأَعْمَالِ الحُبُّ في اللهِ والبُغْضُ فِي اللهِ».[١٠٥٨]

اللهم اجعلنا سلمًا لأوليائك، وعدوًّا لأعدائك.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨)﴾

وإذا أذّن مؤذِّنُكم، فدعا إلى الصلاة، اتخذوا الصلاة أو المناداة سخريةً وعبثًا، وقالوا: هذا أمر لا ثبات له، فإذا كان صنيعُهم هذا بأجلّ أمورِ دينكم، فكيف يجوز لكم أن تُوالوهم وتَثِقوا بهم؟[١٠٥٩]

روي: أنهم كانوا إذا سمعوا النّداء والإقامة، قالوا: قد قاموا لا قاموا، قد صلّوا لا صلّوا.[١٠٦٠]

وروي: أن المؤذنين إذا أذّنوا للصلاة، تضاحكت اليهود فيما بينهم، وتغامزوا سفهًا، ومجانةً، واستهزاءً بالصلاة، وتجهيلًا بأهلها، وتنفيرًا للناس عنها وعن الداعي إليها.[١٠٦١]

[١٠٥٣] ج + على.

[١٠٥٤] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٢٤/٥.

[١٠٥٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٧/١.

[١٠٥٦] **صحيح ابن حبان**، ٢٠٧/٢ (١١٦٣)؛ **سنن أبي داود** ٤٠٧/٤ (٤٨٣٢).

[١٠٥٧] **مسند أحمد**، ٥٥/٤٢ (٢٥١٢١).

[١٠٥٨] **سنن أبي داود**، ٩/٧ (٤٥٩٩).

[١٠٥٩] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٢٤/٥.

[١٠٦٠] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٦٠/٨؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٠١/٧.

[١٠٦١] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٦٠/٨.

وروي: أن نصرانيًّا بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: «أشهد أن محمدًا رسول الله»، قال: أحرق الله الكاذب، فدخل خادمه ذاتِ ليلة بنارٍ وأهله نيام فتطاير شرره في البيت فأحرقه وأهله.[١٠٦٢] وفيه دليل على ثبوت الأذان بنصّ الكتاب لا بالمنام وحده.[١٠٦٣]

وقوله: «خادمه»:[١٠٦٤] أي: جاريته؛ لأن الخادم واحد الخدَّم غلامًا كان أو جاريةً.[١٠٦٥]

ووجه الدلالة أنه لما دلّ على أن اتخاذ المناداة جزءًا من منكرات الشّرع دلّ على أن المناداة التي كانوا عليها من معروفاته، والحقوق الثابتة فيه، وإن كان ابتداء مشروعيته بالسُنة المبنيّة على منام عبد الله بن زيد الأنصاري، وهذا لا ينافي كون مشروعية الأذان أوّل ما قدموا المدينة، والمائدة آخر القرآن نزولًا.

وفي قوله: «لا بالمنام وحده»:[١٠٦٦] إشارة إلى ما ذكرنا وإلى أنه لا يمتنع اجتماع الأدلة الشرعيّة على حكم واحد؛ لأنّها معرفات وأمارات لا مؤثرات وموجبات.[١٠٦٧]

وأمَّا حديث المنام فممَّا روينا عن أبي داود، عن أبي عُمَيْر بن أنس، قال: اهتمّ رسول الله للصلاة كيف يجمع الناس لها، فقيل: انصِبْ رايةً عند حضور الصلاة، فلم يعجِبْهُ، فذُكر له القنع، وهو: شبُّور اليهود، فلم يعجبه، فذكر له النَّاقوس قال: «هو من النصارى»، فانصرف عبد الله بن زيد الأنصاري وهو مهتمّ لهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأُري الأذان في منامه فغدا على رسول الله فأخبره، [**٦٥**/و] فقال: يا رسول الله إني لبَيْن نائم ويقظان إذا أتاني آتٍ فأراني الأذان، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه رآه قبل ذلك فكتمه، فقال رسول الله: «يا بلال قم فانظر ما يأمرك به عبد الله بن زيد فافعل» فأذَّن بلالٌ.[١٠٦٨]

والشبُّور: البُوقُ، وفُسِّر أيضًا بالقُنْع، واللفظة عبرانية.[١٠٦٩]

﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ فإن السفه يؤدي إلى الجهل بالحقّ والهزء به، والعقل يمنعه منه،[١٠٧٠] فهم سفهاء، لا يعلمون ما في الصلاة والدّعاء إليها من النّهي عن الفحشاء والمنكر في الدنيا، والثّواب الجزيل في العقبى.[١٠٧١]

وقال القشيري: نبَّههم على موجب التحيُّز عنهم، والتّميّز منهم، وإن المخالف في العقيدة لا يكون موافقًا في الحقيقة، وأمرهم بأن يلاحظوهم بعين الاستصغار، كما لا حظوا دينَ المسلمين بعين الاستحقار، ثم الأذان دعاء إلى محلّ النّجوى، فمن تحقّق بعلوّ المحلّ فسماع الأذان يوجب له روحَ الروح، ومَن كان محجوبًا عن حقيقة الحال، لاحظ ذلك بعين اللّعب، وأصغى إليه بأذن الاستهزاء، وذلك حكم الله تعالى غاير بين عباده على ما يشاء.[١٠٧٢]

[١٠٦٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٧/١.

[١٠٦٣] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٧/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٧/١.

[١٠٦٤] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٧/١.

[١٠٦٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٢ظ.

[١٠٦٦] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٧/١.

[١٠٦٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٣و.

[١٠٦٨] **سنن أبي داود**، ٣٧٠/١؛ **السنن الكبرى** للبيهقي، ٥٧٤/١ (١٨٣٤)؛ **فتوح الغيب**؛ ٤٠٣/٥-٤٠٤.

[١٠٦٩] **فتوح الغيب** للطيبي؛ ٤٠٤/٥.

[١٠٧٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٧/١.

[١٠٧١] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٢٥/٥.

[١٠٧٢] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٢٧١/١؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٢٥/٥.

وعن النبي ع م: «لا يَسْمَعُ مدى صوتِ المؤذِّنِ، جنٌّ ولا إنسٌ ولا شيءٌ، إلا شَهِدَ الله لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».[١٠٧٣]

وقال ع م: «المؤذّنُ يُغفرُ له مدى صوتِه ويشهدُ له كلُّ رطبٍ ويابسٍ، وشاهدُ الصلاةِ يُكتبُ له خمسٌ وعشرون صلاةً ويكفِّرُ عنه ما بينهما».[١٠٧٤]

وعنه عليه السلام: «إِنَّ الْمُؤَذِّنِينَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».[١٠٧٥]

﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩)﴾

لما حكي عنهم أنهم اتخذوا دين الإسلام هزوًا ولعبًا، نفى عنه ما يكون مهزوءًا به وملعبة على طريقة قوله:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن ضيوفهم تُلَامُ بنسيانِ الأحبَّة والوطنِ[١٠٧٦]

أي: هل تنكرون منّا وتعيبون إلا هذا وهو ليس مما ينكر ويعاب، **﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا﴾** مفعول «تنقم» وهو استثناء مفرّغ و**﴿مِنَّا﴾** متعلّق به،[١٠٧٧] يقال: نَقَمَ منه كذا إذا أنكره وانتقم إذا كافأه.[١٠٧٨]

وقرئ: بفتح القاف[١٠٧٩] يقال: نَقَمَ يَنْقِمُ بالفتح والكسر وبالعكس.

﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ عطف على **﴿أَنْ آمَنَّا﴾**: وما تنقمون إلا الجمع بين إيماننا وبين خروجكم عن الإيمان، كأنه قيل: وما تنكرون منّا إلا مخالَفتكم اعتبر معنى الجمع لظهور أن ليس المراد أنهم يعتقدون كونهم فاسقين، ويعيبون ذلك كما يعيبون إيماننا إذا أريد تعلّق ذلك الفعل بكلّ من الأمرين، ثم لَمَّا كان الجمع بين إيماننا، وكفركم غير ظاهر الانتظام مع قولهم منا جعل راجعًا إلى معنى المخالفة فانتظم.[١٠٨٠] وهذا ما قال قدس سره: المستثنى لازم الأمرين؛ فإن لازم إيمان المؤمنين وخروج هؤلاء مخالفة المؤمنين إياهم، وبه سقط أيضًا أنهم لا يعترفون فسق أكثرهم حتى تنقموا ذلك.

فإن قيل: اليهود كلهم فسّاق. قلت: تخصيص الأكثر؛ لأن المراد أنهم في دينهم فسّاق أيضًا فإن الكافر المبتدع قد يعدل في دينه، ومعلوم أنّ كلّهم ما كان كذلك، أو لئلا يظنّ أن من آمن منهم داخل في ذلك، أو «وما تنقمون إلا أن آمنّا واعتقاد أن أكثركم فاسقون فحذف المضاف، أو على مَا أي: وما تنقمون منّا إلا الأيمان بالله وبما أنزل وبأن أكثركم فاسقون،

[١٠٧٣] **صحيح البخاري**، ١٢٥/١ (٦٠٩).

[١٠٧٤] **سنن أبي داود**، ٣٨٧/١ (٥١٥)؛ **سنن ابن ماجه**، ٢٤٠/١ (٧٢٤).

[١٠٧٥] **مسند أحمد** (١٦٨٩٩)؛ **صحيح مسلم** ، ٢٩٠/١ (٣٨٧)؛ **سنن ابن ماجه**، ٤٦٦/١ (٧٢٥).

[١٠٧٦] **البيت للنابغة الذبياني**. **خزانة الأدب وغاية الأرب** تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي، تحقيق: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى ،١٩٨٧م، ٣٩٩/٢.

[١٠٧٧] **اللباب** لابن عادل، ٤٠٥/٧.

[١٠٧٨] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٧/١.

[١٠٧٩] وهي قراءة شاذّة، مرويَّة عن يحيى وإبراهيم. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٥٦؛ **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦١٩؛ **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٣٩.

[١٠٨٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٣و.

أو على علَّةٍ محذوفةٍ، والتقدير: هل تنقمون منّا إلا أن آمنا لقلّة إنصافكم وفسقكم، أو «الواو» بمعنى «مع» أي: وما تنقمون منّا إلا الإيمان مع أنكم فاسقون»،[١٠٨١]

كأنَّه يكتفي في المفعول معه بالمصاحبة والمقارنة في الوجود، لكن ظاهر كلام النُّحاة المصاحبة في المعموليَّة للفعل المذكور، وحينئذ يعود المحذور: وهو أن يكونوا ينقمون كونهم فاسقين مع شيءٍ آخر وهو إيماننا، نعم يستقيم هذا إذا كان بدل «الواو» لفظ «مع» ليجعل ظرفًا في موقع الحال، أي: ما تنقمون منّا إلا الإيمان مقارنًا لفسقكم»،[١٠٨٢] فلا يكون الفسق معمولًا لـ﴿**تَنْقِمُونَ**﴾، بل يكون معمولًا لقوله: «مقارنًا» لكونه ظرفًا مستقرًّا.

أو نصب بإضمار فعلٍ دلَّ عليه ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ﴾ أي: ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون، أو رفع على الابتداء، والخبر محذوف، أي: وفسقكم ثابت معلوم عندكم؛ لأنّكم علمتم أنّكم على الباطل وأنّا على الحقّ، إلا أنّ حبّ الرياسة وكسب الأموال لا يدَعُكم فتنصفوا.[١٠٨٣]

وفيه أن جواز حذف الخبر إذا كان المبتدأ أن المفتوحة مع أسمها وخبرها محلّ بحث؛ لأن علة امتناع وقوعها في أوّل الكلام، وهو الالتباس بأن التي بمعنى: «لعل» قائمة ههنا، ثم ما قدّر من الخبر متأخرًا عن المبتدأ إنما هو لبيان المعنى وعلى تقدير التعبير عن المبتدأ بلفظ المصدر، وإلا فلا بدَّ أن يقدّر الخبر مقدمًا أي: ثابت معلوم أنّكم فاسقون.[١٠٨٤]

«والآية خطاب لليهود سألوا رسول الله عمَّن يؤمن به؟ فقال:﴿**آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا**﴾ إلى قوله: ﴿**وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [البقرة، ١٣٥/٢] فقالوا حين سمعوا ذكر عيسى: لا نعلم دينًا شرًا من دينكم».[١٠٨٥]

وقرئ: «وَإِنَ أَكْثَرَكُمْ» بالكسر.[١٠٨٦] وفي الآية عظة عظيمة لمن له فكرة سليمة، حيث يكره الكمال أهل النقصان ويعدّه عيبًا، ويميل أهل النقصان إلى النقصان[**٦٥**/ظ] ويعدُّه شيئًا.

قال ع م: «شَرُّ النَّاسِ من سحح بالشَّرِّ ويُعَيِّر النّاس عَلَى الخَيْرِ».[١٠٨٧]

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠)﴾

أي: من ذلك المنقوم وهو الإيمان، والمنقوم منهم[١٠٨٨] المؤمنون، والخطاب لليهود الذين خُوطبوا بقوله: ﴿**هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا**﴾ وهم الذين جحدوا نبوَّته ع م، وقالوا: والله لا نعلم أهل دين أكثر خطأً في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينًا شرًا من دينكم

[١٠٨١] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٨/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٧/١؛ **الفريدفي إعراب القرآن المجيد** للهمذاني، ٤٦٢/٢.

[١٠٨٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٣و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٢٦٩/٣.

[١٠٨٣] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٨/١.

[١٠٨٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٣و.

[١٠٨٥] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٧/١-٦٣٨؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٨/١.

[١٠٨٦] وهي قراءة شاذّة، مرويَّة عن نعيم بن ميسرة. **مختصر في شواذ القرآن**، ص ٣٩؛ **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٧/١؛ **الفريدفي إعراب القرآن المجيد** للهمذاني، ٤٦٢/٢.

[١٠٨٧] لم أجده.

[١٠٨٨] ج + وهو.

فنزل فيهم قوله: ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾ مع قوله: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم﴾ [آل عمران، ١٥/٣]، أي: قل يا محمد لليهود: هل أخبركم بشر مما نقمتم من إيماننا مثوبة جزاء ثابتًا عند الله.

و«الْمَثُوبَة» و«الْمَثْوَبَة»[١٠٨٩] كـ«الْمَشُورَة» وَ«الْمَشْوَرَة»، وهي مختصة بالخير كالعقوبة بالشر، «فوضعت ههنا موضعها على طريقة قوله:

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيع[١٠٩٠]

أي: في التّهكم، وإن كان ما في الآية استعارة لطيّ ذكر المشبَّه، وما في البيت تشبيهًا انتزع وجهه من التَّضاد على طريق التَّهكم؛ لذكر الطرفين بطريق حمل أحدهما على الآخر، لكن على عكس قولك: زيد أسد؛ إذا «التَّحية» مشبَّه به و«الضرب» مشبَّه. ولَمَّا ورد أن يقال: «المعاقبون في الواقع» من فريقي المؤمنين، واليهود هم اليهود خاصّة فلم شورك بين الكلّ في العقوبة حيث ذكر اسم التفضيل المقتضي للشركة في أصل الفعل».[١٠٩١]

أجاب عنه المصنف: «بأنهم يزعمون أن المسلمين ضالّون مستوجبون للعقاب، فقيل لهم: مَن لعنه الله شرٌّ عقوبة في الحقيقة من أهل الإسلام في زعمكم»،[١٠٩٢] «يعني: أنه من باب المجازات والقصد إلى بيان زيادة عقوبة اليهود بعد إثبات الشركة بطريق ثبوت الفعل لهم بحسب الواقع، وللمؤمنين بحسب زعم اليهود، فقوله:«في الحقيقة» ليس متعلِّقًا بـ«شرّ»، بل بـ«عقوبة» على معنى: أن عقوبة الملعونين في الواقع أشدُّ من عقوبة المؤمنين في زعمكم».[١٠٩٣]

فإن قلت: أليس هذا مشعرًا بأن لفظ «شرّ» يستعمل بالنسبة إلى: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾ بالحقيقة، وبالنسبة إلى أهل الإسلام بالمجاز؟

قلت: لا؛ لأنه تع جعل المفضَّل والمفضَّل عليه من جنس واحد على سبيل المبالغة، أحدهما: بالحقيقة، والآخر: بالادّعاء على زعم الكفرة، ثم فضَّل أحدهما على الآخر جريًا على إرخاء العِنان، ومثله في الأسلوب جعل المال والبنين وسلامة القلب من جنس واحد، ثم استثنى أحدَ الجنسين من الآخر في قوله تع: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء، ٢٦/ ٨٨-٨٩]، وهو قريب من القول بعموم المجاز.[١٠٩٤]

﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾ في محل الجرّ بدلٌ من ﴿بِشَرٍّ﴾، أو في محلّ الرفع على أنه خبر محذوف، أي: هو من لعنه،[١٠٩٥] وعلى التقديرين لا بدَّ من حذف مضاف قبل قوله: ﴿ذَلِكَ﴾، أي: شر من أهل ذلك من لعنه، أو قيل: قوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ﴾ أي: دين من لعنه، أمّا على تقدير كونه خبرًا عن ضميره فظاهر إذ لو لم يقدّر لزم حمل الذات على المعنى، وأما على تقدير كونه بدلاً فلئلا يلزم وقوع بدل الغلط في أفصح الكلام وهو لا يقع في الفصيح فكيف في الأفصح؛ لأن الملعونين ليسوا نفس ما هو شر من المنقوم ولا بعضًا منه ولا اشتمالَ بينهما فتعيّن أن يكون بدل غلط فبالتقدير سقط ذلك، وهم اليهود، أبعدهم من رحمته

[١٠٨٩] قراءة شاذّة، مرويَّة عن الحسن وابن عمران وابن بريدة. **المحتسب** لابن جنّي، ٢١٣/١؛ **الكشاف** للزمخشري، ٦١٩/١.

[١٠٩٠] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٨/١؛ **إرشاد العقل السليم** لأبي الصعود ،١١٥/٣.

[١٠٩١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٣و.

[١٠٩٢] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٨/١.

[١٠٩٣] **حاشية الكشاف للتفتزاني**، ٣١٣و-ظ.

[١٠٩٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٠٧/٥.

[١٠٩٥] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٨/١.

وسَخِط عليهم بكفرهم وانهماكهم في المعاصي بعد وضوح الآيات، ومَسَخ بعضهم قردةً وهم أصحاب السبت، وبعضهم خنازير وهم كفّار مائدة عيسى.[١٠٩٦]

وقيل: كلا المسخين في أصحاب السبت مُسخت شُبّانهم قردة، ومشايخهم خنازير.[١٠٩٧]

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلعم: «لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ، وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ؛ فَضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ وَلَعَنَهُمْ ﴿**عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ**﴾ فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا».[١٠٩٨]

﴿**وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ**﴾: بدأ قدس سره بذكر قراءة الجمهور ﴿**وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ**﴾[١٠٩٩] على أن «عَبَدَ» فعل ماض مبني للفاعل، وفيه ضمير يعود إلى ﴿مَنْ﴾، وذكر بعدها قراءتان:

أولاهما: «وَعُبِدَ الطَّاغُوتُ»[١١٠٠] على بناء الفعل للمفعول ورفع «الطاغوت».

وثانيهما: «وعَبُدَ الطاغوتُ»[١١٠١]بفتح العين والدال: وضم الباء، ورفع «الطاغوت» بمعنى: صار معبودًا من دون الله، كما يقال: أَمُرَ فلان أي: صار أميرًا، وجعل هذه القراءات الثلاث معطوفًا على صلة «مَنْ» في قوله: ﴿**مَنْ لَعَنَهُ اللهُ**﴾، والجملة المعطوفة على الصلة خالية من رابط يربطها بالموصول على القراءتين الأخيرتين؛ إذ ليس في «عُبِدَ الطاغوتُ»[١١٠٢] وفي «وعَبُدَ الطاغوتُ» ضمير يعود[١١٠٣] على ﴿**مَنْ لَعَنَهُ اللهُ**﴾، وليست معطوفة بالفاء كما في قوله: الذي يطير فيغضب زيد الذباب حتى يكتفي بوجود العائد في إحداهما لكونهما جملةً واحدةً، فالتوجيه أنهما محمولان على حذف العائد، ثم ذكر قراءات أخر كلها بجرّ الطاغوت بالإضافة ونصب المضاف عطفًا على القردة.[١١٠٤]

منها: «وعَابِدَ الطَّاغوت»[١١٠٥]على أنه مفرد أريد به الجنس، كأنه قيل: وعابدي الطاغوت، ومنها: ﴿وعَبُدَ الطَّاغوتِ﴾،[١١٠٦]وهي قراءة حمزة بضم الباء وفتح الدَّال [**٦٦**/و] وجرّ «الطاغوت» بالإضافة إليها صفة مشبهَّة بمعنى العبد، وضمّ الباء للمبالغة كقولهم: للفطن فَطُنٌ وللحَذَر حَذُرٌ مضمون العين للمبالغة ومعناهما بليغ في الفِطْنَة والحذر، قال الشاعر:

أَبَنِي لُبَيْنَى إِنَّ أُمَّكُم   أَمَةٌ وإِنَّ أباكُم عبدُ[١١٠٧]

[١٠٩٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٨/١.

[١٠٩٧] **أنوار التنزيل**، ٤٤٨/١؛ **التيسير في التفسير**، ٤٢٥/٥.

[١٠٩٨] **سنن الترمذي**، ٢٥٢/٥ (٣٠٤٧).

[١٠٩٩] **النشر** لابن الجزري، ١٩٢/٢.

[١١٠٠] قراءة شاذّة. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٥٧؛ **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٣٩؛في **إرشاد العقل السليم** لأبي الصعود ،١١٦/٣.

[١١٠١] قراءة شاذّة. **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٣٩؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٤١٦/٧؛ **إرشاد العقل السليم** لأبي الصعود ،١١٦/٣.

[١١٠٢] ج– الطاغوت.

[١١٠٣] ج: يرجع.

[١١٠٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٨/١

[١١٠٥] قراءة شاذّة، مروية عن أبي بريدة والعقيلي. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٥٧؛ **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٣٩؛ **اللباب** لابن عادل، ٤١٨/٧؛ **إرشاد العقل السليم** لأبي الصعود ،١١٦/٣.

[١١٠٦] **النشر** لابن الجزري، ١٩٢/٢؛ **حجة القراءات** لابن زنجلة، ص ٢٣١.

و «لُبَيْنَى»: تصغير لبني وكلاهما من أسماء النساء، وطعن بعضهم عليها بأن ضم «الباء» في ضرورة الشعر، وأمَّا في القراءة فلا. وقد سألوا عنه العلماء ووجدوه صحيحًا، وإذا تواتر القرآن فلا التفات إلى منكره.[١١٠٨]

ومنها: «وعَبَدَةَ الطّاغُوتِ»[١١٠٩] وهي جمع «عَابِدٍ»، مثل «فَاجِرٍ»، و«فَجَرَةٍ»، و«كَافِرٍ»، و«كَفَرَةٍ».

ومنها: «وعَبَدَ الطاغوتِ»[١١١٠] وأصله: عَبَدَةٌ، فحذفت التاء للإضافة يعني: كراهة اجتماع الزائدتين الياء والإضافة في عجز كلمة كما في قوله: وأخلفوك عدا الأمر الذي وعدوا، أو هو ك«خَدَمٍ» في جمع «خادمٍ».

ومنها: «وعَبَدِ الطَّاغُوتِ»[١١١١] بجرّ «عَبُدِ» وإضافته إلى الطَّاغوت عطفًا على ﴿**مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ**﴾ يعني: على تقدير إبداله من ﴿بِشَرٍّ﴾ ولم يجعل عطفًا على ﴿شَرٍّ﴾؛ لأن البدل هو المقصود ولأنه مقصود بالإبدال، ولَمَّا خالف أن يجعل الله.

منهم: «عُبَّاد الطاغوت»[١١١٢] مذهب المصنف، ذكر له وجهين، أحدهما: أنه خذلهم حتى عبدوها. والثاني: حكم عليهم بذلك، وفي كل منهما جمع بين الحقيقة والمجاز؛ لأن جعل القردة على حقيقته، والجواب: أنه وإن صح حقيقة لا يلزم أن يراد من اللفظ بطريق الحقيقة، وإنما يلزم لو لم يصحّ الإرادة بطريق هذا المعنى المجازي مثل خذلهم حتى صاروا قردةً ولا ينافي كون تلك الصيرورة بجعل الله وكذا الحكم عليهم بالقردية لا يمتنع أن يكون في ضمن مسخهم وجعلهم قردة على أنه يجوز أن يقدر وجعل منهم عبدة الطاغوت فالتجوز في ذلك المقدر.

و«الطَّاغُوت»:العجل استعير له لكونه معبودًا باطلًا مثل الشيطان، أو تجوّز في الإضافة والإيقاع لكون عبادة العجل بتسويل الشيطان، فعبادتهم له عبادة للشيطان وهو الطاغوت.

وعن ابن عباس: «أطاعوا الكهنة، وكل من أطاع أحدًا في معصية الله فقد عبده».[١١١٣]

«فالتجوز في المسند والمسند إليه حيث أريد بالعبادة الإطاعة، وبالطاغوت الكهنة».[١١١٤]

في الدعاء المأثور: «آمَنْتُ بِاللهِ وَكَفَرْتُ بِالطَّاغُوتِ».[١١١٥]

﴿**أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ**﴾ أي: الملعونون الممسوخون ﴿**شَرٌّ مَكَانًا**﴾جُعلت الشّرارة للمكان، وهي لأهله، وفيه مبالغة ليست في قولك: أولئك شرّ وأضلّ؛ لدخوله في باب الكناية التي هي أخت المجاز.[١١١٦]

[١١٠٧] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٨/١؛ **حجة القراءات** لابن زنجلة، ص ٢٣١؛ **اللباب** لابن عادل، ٤١٤/٧.

[١١٠٨] **اللباب** لابن عادل، ٤١٤/٧.

[١١٠٩] قراءة شاذّة. **البحر المحيط** لأبي حيان، ٣٠٨/٤؛ **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٣٩؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٤١٨/٧.

[١١١٠] قراءة شاذّة، مروية عن أحمد بن يحيى النحوي. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٥٧؛ **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٣٩؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٤١٨/٧؛ **إرشاد العقل السليم** لأبي الصعود ،١١٧/٣.

[١١١١] قراءة شاذّة. **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٣٩؛ **إرشاد العقل السليم** لأبي الصعود، ١١٧/٣.

[١١١٢] قراءة شاذّة، **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٣٩.

[١١١٣] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٨/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٨/١.

[١١١٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٣و-ظ.

[١١١٥] **المعجم الكبير** للطبراني (٢٩٧/٣) (٣٤٥٤).

[١١١٦] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٩/١.

وكون «الشرارة للمكان»؛[١١١٧] لأنَّ التمييز في المعنى فاعل، وإثبات الشرارة لمكان الشيء كناية عن إثباته له كما في قوله: «سلام على المجلس العالي» «والمجد بين ثوبيه»، وصف الكناية بكونها أخت المجاز؛ لأن المبالغة فيه أظهر حيث أريد اللازم على القطع، ويجوز أن يكون من باب الإسناد المجازي، كما في: «يطاؤهم الطريق» و«جري النهر»، و ح لا كناية.[١١١٨]

ثم إنَّه تع أثبت لهم الشَّرية عقوبة من المنقوم أوّلًا والشَّرية مكانًا والأضلّية عن سواء السبيل ثانيًا، فورود على المذكور أوّلًا والمذكور ثانيًا أنَّه كيف يتصوّر الشرية من المنقوم ومن المنقوم منهم، وهو الدين الصحيح، والمؤمنون ولا شرّ فيه وفيهم أصلًا والحال أن أفعل التفضيل يقتضي اشتراك المفضَّل والمفضَّل عليه في أصل الفعل، ولا مشاركة بين الملعونين والمنقوم وأهله في أصل الفعل.

فأجاب المصنف عنه هناك، وأجاب قدس سره ههنا ومعنى جوابه: «أن المراد من صيغتي التفضيل الزيادة مطلقًا»،[١١١٩] كما في قولهم: «الشتاء أبردُ من الصيف»، أي: أنه أبرد من جميع ما سواه مطلقًا لا بالإضافة إلى الصيف فقط. وإنما ذكر الصيف لمجرّد التمثيل، لا للتقييد هكذا حقّق الشارح المرحوم[١١٢٠] كلامَه، لكن الجواب غير متضح بالنظر إلى المثال الذي ذكره بالنظر إلى معناه الذي أفاده؛ لأن على هذا التقدير يكون المعنى: شرّ وأضل من الجميع فيرد الإشكال، وإن كان معنى المثال المذكور على ما هو المشهور من أن الشتاء في بُرُودته أشدُّ من الصيف في حَرَارته، فلا يناسب أيضًا؛ لأنه يكون المعنى حينئذ عقوبة هؤلاء أشدّ من مثوبة هؤلاء، وضلالهم أشدّ من هداهم ولا يرى له وجه، فالأولى: أن يبنى الكلام في الجواب ههنا أيضًا على ما بني عليه المصنف أوّلًا وهو أن يكون من قبيل إرخاء العِنان، والإنصاف في الخطاب، والبناء على زعم الخصم، أي: أولئك الملعونون شرٌّ مكانًا وأضلُّ سبيلًا في الحقيقة واليقين من المنقوم منهم وهم المؤمنون في زعمكم ودعواكم.

وقيل: إن صيغتي التفضيل باقيتان على معنييهما والمفضلّ عليه طائفة من الكفّار لم يتّصف بجميع الصفات المذكورة من اللعن وغيره، أو المؤمنون والمراد أنّ مكان هؤلاء في الآخرة شرّ وأضلّ من مكان المؤمنين في الدنيا لما يلحقهم فيها من الشّرِّ والضّلال الحاصل لهم بالهموم الدنيويّة، كسماع الأذى وغيره.

وعن عبد الله بن مسعود قال: «دخَلْتُ [**٦٦**/ظ] على النَّبيِّ، وهو في غرفةٍ كأنَّها بيتُ حَمَّامٍ، وهو نائمٌ على حصيرٍ قد أثَّر بجنبِه، فبكَيْتُ، فقال: «ما يُبكِيكَ يا عبدَ اللهِ»؟ قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ كِسْرَى وقيصرُ يَطؤونَ على الخَزِ والدَّيباجِ والحريرِ، وأنت نائمٌ على هذا الحصيرِ قد أثَّر بجنبِك؟ قال: «فلا تبكِ يا ابن مسعود، فإنَّها لهم الدُّنيا ولنا في الآخرة وما أنا والدُّنيا، وما مَثَلي وما مَثَلى في الدُّنيا إلَّا كمَثَلِ راكبٍ نزَل تحتَ شجرةٍ، ثُمَّ سَارَ وترَكَها».[١١٢١] رواه أبو الشيخ في **كتاب الثواب** بنحو الطبراني.

قوله «كأنه بيت حمَّام»: هو بتشديد الميم، ومعناه أن فيها من الحر والكرب ما في بيت الحمّام.[١١٢٢]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ».[١١٢٣]

[١١١٧] **الكشاف** للزمخشري، ٦٣٩/١.

[١١١٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٣ظ.

[١١١٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٨/١.

[١١٢٠] أي: محي الدين شيخ زاده.

[١١٢١] **المعجم الكبير** للطبراني (١٦٢/١٠) (١٠٣٢٧).

[١١٢٢] **الترغيب والترهيب** للمنذري، ٩٨/٤؛ **مجمع الزوائد** للهيثمي، ٣٢٩/١٠.

[١١٢٣] صحيح مسلم، ٢٢٧٢/٤ (٢٩٥٦).**سنن الترمذي**، ٥٦٢/٤ (٢٣٢٤)؛ **المعجم الكبير** للطبراني (٦/ ٢٦٨) (٦١٨٣).

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ(٦١)﴾

نزلت في يهود نافقوا رسولَ الله، أو في عامّة المنافقين. والجملتان حالان من فاعل ﴿قَالُوا﴾، و﴿بِالْكُفْرِ﴾ وبه حالان من فاعل ﴿دَخَلُوا﴾ و﴿خَرَجُوا﴾، ففي الكلام حالان مترادفتان، كلّ واحدةٍ منهما مشتملة على حال فتكونان متداخلتين.[١١٢٤]

و﴿قَدْ﴾ دخلت لتقريبالماضي من الحال ليصحَّ أن يقع حالًا،[١١٢٥] أي: ليكسر سورة استبعاد ما بين الماضي والحال في الجملة، لا لتحقّق المنافاة بين وقوع الجملة حالًا وبين كون الفعل فيه ماضيًا، فإن مقتضى وقوعها حالًا أن يكون[١١٢٦] مضمون الحال واقعًا في ذلك الزمان أيضًا، ولا مدخل لـ«قد» في تلك المقارنة؛ لأنَّها إنما تقرب الماضي إلى حال الإخبار والتّكلم، والظَّاهر أن الاحتياج إليها إنما هو في الأولى لا في الثانية؛ لأنَّها جملة اسمية معطوفة على جملة حالية غاية أن الخبر فيها وقعت فعلية مصدرة بها لتقرب الماضي من الحال، وإنما جاءت الأولى فعلية، والثانية اسمية تنبيهًا على فرط تهالكهم في الكفر، فإنه كان ينبغي لهم إذا دخلوا على الرسول أن يؤمنوا لما يروا من حسن سمته وهيئته، وما يظهر عليه من دلائل نبوته من الخوارق المعجزات، فلما لم يؤثر ذلك فيهم، واستمروا على كفرهم السابق أكد الإخبار بكفرهم حال الخروج بأن أبرز الجملة اسمية صدرها اسم وآخرها فعل ليتكرر الإسناد بذلك، ويتقوى الحكم لكون المقام مقام التَّردُّد في كفرهم، بخلاف حال الدخول؛ فلذلك لم يحتج إلى تأكيد مضمونه، والظَّاهر أنَّ الواو في قوله: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ عاطفة لجملة حالية على مثلها، ولم يحتج في هذه الجملة الاسمية الحالية إلى الواو لكونها معطوفةً على الحال المربوطة بالواو.

فكما أفاد ﴿قَدْ﴾ التقريب المذكور على الوجه المزبور أفاد أيضًا لما فيه من معنى التوقُّع أن أمارات النِّفاق كانت لائحةً عليهم، وكان الرسول يظنه فإنك إنما تخبر بقولك: قد قامت الصلاة لقوم يعلم أو يظنّ أنهم ينتظرون ويتوقّعون أن يخبرهم بقيام الصلاة، أي: قد آن ما كنتم تتوقّعون، فكذلك ههنا أفاد تصدير الجملتين بـ«قد» أنه ع م كان يظنُّ نفاقهم لكون أمارات النفاق لائحة عليهم، ويتوقّع أن الله يُظهر نفاقَهم.[١١٢٧]

ويرد عليه أن حرف التّوقع إنما دخل على الدخول والخروج بالكفر، لا على إظهار الله نفاقهم الذي هو المتوقَّع عنده عليه السلام، ويجاب بأن الإخبار بذلك إظهار له، وقد يقال: المناقشة باقية؛ إذ لا نسلم أنه إظهار، بل مستلزم له، لكن اللائح الإخبار بالدخول والخروج بالكفر هو إظهار نفاقهم، والإخبار بأنهم متلبسون بالكفر حال دخولهم عليه وحال خروجهم من عنده لا يتأثرون مما سمعوا منه، ولكونه عليه السلاميظنّ ذلك منهم قال تع: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ بصيغة التفضيل التي تشعر بأن له ع م علمًا في الجملة بذلك من مخائلهم وروائهم، أي: والله أعلم بما لم يزالوا يضمرونه من النفاق، والحقد عليكم، وفيه وعيد لهم ونصح لغيرهم أن يعلموا أن الله تع يعلم المكتوم والمضمرات، ولا تكتموا ما هو من قبيل سوء الملكات، لئلا يقع في الهلكات، يوم تبلى السرائر.

[١١٢٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٨/١.

[١١٢٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٨/١.

[١١٢٦] ق: مضمونها مقارنًا لمضمون عامل الحسب الزمان، فإن كان مضمون عاملًا واقعاً قبل زمان إخبارك بأزمنةٍ مقارنةٍ وجب أن يكون مضمون الحال واقعًا.

[١١٢٧] **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥٤٨/٣-٥٤٩.

قال ع م: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ النِّفَاقِ والشِّقَاقِ وَسُوءِ الْأَخْلَاقِ».[١١٢٨]

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢)﴾

أي: من اليهود أو من المنافقين.[١١٢٩]

والمسارعة في الشيء: الشروع فيه بسرعة. الإثم: الكذب بدليل قوله: ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾ [المائدة، ٥/٦٣].[١١٣٠]

ورد بأن الإثم مقولٌ يحتمل كونه كذبًا وشركًا، فلا دلالة، ودفع بأنه وإن احتمل كونه شركًا على ما فسر به أيضًا، لكن الأول أظهر، فإنَّ الإثم مطلق متأوّل لجميع المعاصي والمنهيّات، وكان من حق الظاهر بعده: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾عما سارعوا فيه، فلما أعيد الإثمُ وخص بالقول احتمل كلمة الشِّرك وقول الكذب أيضًا، فدلَّ قرائن الكلام، وهو قولهم: آمنا، على أنَّ المراد الكذب، فخصَّ به، كقوله تع:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة ٢/٨-١٠].[١١٣١]

فالمنقول منهم من المقالات المؤثمة ليس إلا قولهم: آمنا وليسوا بمؤمنين، فإنه كذب سواء كان إخبارًا أو إنشاءً، [**٦٧**/و] أمَّا إذا جعل إخبارًا فظاهر، وأمَّا إن جعل إنشاء فلتضمنه خبرًا كاذبًا وهو الخبر بحصول صفة الإيمان لهم.

وإنما ترك العدوان في الثانية، وخصّ الإثم بالقول- والعلم عند الله- ليؤذن بأن قول الكذب وأكل السحت أفحشُها، وهو الأصل في العدوان لا سيَّما من العلماء، روينا عن الإمامين: مالك وأحمد رضي الله عنهما، عن مالك، عن صفوان رضي الله عنه، قال: قلنا: يا رسول الله، أيكون المؤمن جَبَانًا؟ قال:«نَعَمْ»، فقلنا: أيكون المؤمن بخيلًا؟ قال: «نَعَمْ»، قيل: أيكون المؤمن كذَّابًا؟ قال: «لا».[١١٣٢]

واختار قدس سره التفسير بالحرام؛[١١٣٣] لأنه أعمُّ من الكذِب وهو ظاهر، وحمله على الخاصّ تخصيص بلا دليل، وقد عرفت ما يدلّ عليه.

والعدوان: الظلم، ومجاوزة الحد في المعاصي. فيكون عطف كل منهما على الإثم بمعنى الحرام من قبيل التخصيص بعد التعميم لزيادة التوبيخ والتقبيح.

وقيل: الاثم ما يختص بهم. والعدوان: ما يتعداهم إلى غيرهم.[١١٣٤]

﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ﴾ الحرام وهذا تخصيص بالذكر أيضًا إن فسر الإثم بالحرام، واستئنافه من السحت وهو الإهلاك والاستئصال سمي به؛ لأنه يسحّت البركة أي: يذهبها.

[١١٢٨] **سنن أبي داود**،٢/٦٤٥ (١٥٤٥)؛ **سنن النسائي**، ٨/٢٦٤(٥٤٧١).

[١١٢٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٤٩.

[١١٣٠] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٤٠.

[١١٣١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٤١٢.

[١١٣٢] **موطأ مالك**، ٢/٩٩٠ (١٩)؛ **مسند أحمد**، ٣٦/٥٠٥ (٢٢١٧١).

[١١٣٣] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٤٩.

[١١٣٤] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٤٠.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَبْغَضُ خَليقةِ الله يومَ القيامة: الكذّابون والمستكبرون الذين يكنزونَ البغضاءَ لإخوانهم في صدورهم، وإذا لقوهم لقوهم بوجوه منبسطة، والذين إذا دعوا الله ورسوله كانوا بطاءً وإذا دعوا إلى الشيطان وأمره كانوا سراعًا».[١١٣٥]

وعنه ع م: «إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّهُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».[١١٣٦]

وعنه ع م: «إِيَّاكُمْ وَالْبَغْيَ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عُقُوبَةٍ أَسْرَعُ مِنْ عُقُوبَة بَغْيٍ».[١١٣٧]

وعنه ع م: «أَسْرَعُ الشَّرِّ عُقُوبَةً الْبَغْيُ وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ».[١١٣٨]

وعنه عليه السلام «ما من ذَنبٍ أَجدرُ أن يُعَجِّلَ الله لصاحبِه العُقوبةُ في الدنيا مَعَ ما يُدَّخَرُ لهُ في الآخرة، من البَغي وقَطيعةِ الرَّحِمِ»[١١٣٩] وفي رواية «مِنْ قَطِيعَةِ الرَّحْمِ، وَالْخِيَانَةِ، وَالْكَذِبِ».[١١٤٠]

وعنه ع م: «إِنَّ للهِ مَلَكًا عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ يُنَادِي كُلَّ لَيْلَةٍ مَنْ أَكَلَ الْحَرَامَ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ».[١١٤١]

فقيل: الصرف النافلة والعدل الفريضة.

وعنه ع م: «كُلُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنَ الْحَرَامِ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ».[١١٤٢]

﴿**لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ لبئس شيئًا عملوه. ففاعل ﴿**بِئْسَ**﴾ مضمر مميّز بما الذي بمعنى شيئًا، وما بعده صفته، أي: بئس الشيء شيئًا عملوه عملهم من المسارعة في الإثم والعدوان وأكل السحت.

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)﴾

تخصيص لعلمائهم على النهي عن ذلك، فإن ﴿لَوْلَا﴾ إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ، وإذا دخل على المستقبل أفاد التخصيص، قال ابن **الحاجب**: «لولا» «لوما» «هلا»: معناها الأمر إذا وقع بعدها المضارع، والتوبيخ إذا وقع بعدها الماضي، فإذا قلت: هلَّا تُسلم، فأنت حاضٌّ على ما وقع بعدها طالب له، وإذا قلت: هلَّا ضربت زيدًا، فأنت توّبخ على تركه ذلك.[١١٤٣]

﴿**لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**﴾، أبلغ من قوله: ﴿**لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ من حيث إن الصنع عمل الإنسان بعد تدرّب فيه وتحرّي إجادة، ولذلك ذمّ به خواصّهم، وإليه يشير قول الإمام: استبعد من علماء أهل الكتاب عدم نهيهم عوامَّهم وسفلتهم عن المعاصي، وذمُّ تاركِ النهي عن المنكر أقوى من مرتكبه، والأمر في الحقيقة كذلك؛ لأن المعصية مرض الروح،

[١١٣٥] **مساوئ الأخلاق** للخرائط، ص ١٤٠ (٢٨٥).

[١١٣٦] **مسند أحمد،** ٨٩/١٠ (٥٨٣١)؛ **سنن أبي داود،** ٢٩/٤ (٢٣٨٦).

[١١٣٧] **المعجم الأوساط** للطبراني، ١٨/٦. (٥٦٦٤).

[١١٣٨] **سنن ابن ماجه،** ٢٩٧/٥ (٤٢١٢).

[١١٣٩] **سنن أبي داود،** ٢٦٣/٧ (٤٩٠٢)؛ **سنن الترمذي،** ٦٦٤/٤ (٢٥١١)؛ **سنن ابن ماجه،** ٢٩٦/٥ (٤٢١١).

[١١٤٠] **مسند أحمد،** ١٥٦/١٩ (٢٠٤٠٢).

[١١٤١] لم أجده. ذكره الحافظ العراقي (تخريج الإحياء) وقال: لم أقف على أصل. انظر: **كتاب تخريج الإحياء،** ١٠٥٣/٢.

[١١٤٢] سبق تخريجه.

[١١٤٣] **الإيضاح في شرح المفصل،** ٢٣٤/٢؛ **فتوح الغيب،** ٤١٢/٥.

وعلاجه العلم بالله وصفاته وأحكامه، فإذا حصل ذلك، ولم تزل المعصية يكون كمن شرب الدواء ولم يزل المرض عنه، فدلّ ذلك على أن المرض صعب شديد.[١١٤٤] ولأن ترك الحسنة أقبح من مدافعة المعصية؛ لأن النفس يلتذ بها ويميل إليها حتى كان له فيه نوع اضطرار، ولا كذلك تارك النهي والإنكار على الغير معصية، فإن ذلك النهي محض تقصير ليس فيه اضطرار.

وقال المصنف: «ولعَمري أن هذه الآية ممَّا يَقِذُ السامع ويَنعى على العلماء توانيهم».[١١٤٥]

قال الجوهري: وَقَذَه يَقِذُه وَقْذًا: ضربه حتَّى استرخى وأشرف على الموت. هذا إذا روي يَقِذُ بكسر القاف مخفَّفة، فمن روى بضمّها مشدَّدة فمن قذَّه يقُذُّه.[١١٤٦]

قال في **أساسه**: قذَّ الريش بالْمِقَدّة: حذف أطرافه، وسهمٌ مقذوذ: مريَّش، وقذَّ السِّهام يقذُّ.[١١٤٧]

فقوله: «**يقُذُّ السامع**» أي: يحرِّضه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويردَعه عن التَّواني في ذلك؛ فإن السَّهم إذا قُذَّ كان أصوب إلى الرَّميَّة، ومثله ما مرَّ في آل عمران في قصة نعيم بن مسعود: «لم يخل ناس يضامُّونه ويصلّون جناح كلامه».[١١٤٨]

وقوله: «**ينعَى على العلماء توانيهم**»[١١٤٩] إشارة إلى ما في «لو» من معنى التخصيص على ما مرّ.[١١٥٠]

وعن ابن عباس: هي أشدُّ آية في القرآن. وعن الضحاك: ما في القرآن آيةً أخوف عندي منها.[١١٥١]

وقال بعض العارفين: في الآية تحذير الربانيين العارفين بالله وبحقوق الله، والأحبار العلماء بالله، وبعذاب الله لمن عصاه، وبثواب الله لمن أطاعه؛ لئلا يسكنوا عن زجر المبطلين والعاطلين المائلين عن طريق الحق إلى طريق النفس، وبيّن تع: أن مَن داهن في دينه عذَّبه وإن كان ربانيًا. قال رسول لله صلى الله عليه وسلم: مَا مِنْ رَجُلٍ يُجَاوِزُ قَومًا فَيَعْمَل بالمعاصي بين ظهرانيهم، فَلَا يَأْخُذُون على يديه إلا أوشك الله أن يعمَّهم بعقاب. وعن بعضهم: [**٦٧**/ظ] الربانيون العارفون مقادير الخلق من الحق، والأحبار الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر.[١١٥٢]

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمْ يَقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ». وفي رواية «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَغَيَّرَهُ بِيَدِهِ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَغَيَّرَهُ بِلِسَانِهِ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَغَيَّرَهُ بِقَلْبِهِ فَقَدْ بَرِئَ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».[١١٥٣]

[١١٤٤] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٢/٤٢؛ **فتوح الغيب** للطيب، ٥/٤١٤-٤١٣.

[١١٤٥] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٤٠.

[١١٤٦] **الصحاح** للجوهري، «وقذ»؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٤١٣.

[١١٤٧] **أساس البلاغة** للزمخشري، «قذذ»؛**فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٤١٣.

[١١٤٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٤١٣.

[١١٤٩] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٤٠.

[١١٥٠] **فتوح الغيب**، ٥/٤١٣.

[١١٥١] **مفاتيح الغيب**، ١٢/٤٢؛ **الكشاف**، ١/٦٤٠ ؛ **اللباب**، ٧/٤٢٤.

[١١٥٢] **عرائس البيان** للبقلي، ١/٣٢٠.

[١١٥٣] **صحيح مسلم**، ١/٦٩ (٤٩).

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)﴾

«غلّ اليد وبسطها» مجاز عن البخل والجود؛[١١٥٤] لتعذر إرادة الحقيقة، فإن اليهود متّفقون على امتناع إرادة الحقيقة وبطلانها ببديهة العقل، فكيف يقولون ذلك معتقدين معناه الحقيقي؟ فإن الاعتراف بالحقيقة ينافي إرادة الحقيقة، لأنَّ قولنا: «الله» اسم لموجود قديم، قادر على خلق العالم، وحفظه وتدبيره، ومثل هذا الموجود يمتنع أن تكون له يدٌ مغلولةٌ، أو قدرة مقيدة، وإلا فكيف يمكنه حفظ العالم وتدبيره.[١١٥٥]

فلمَّا حكى الله عنهم أنهم يقولون ذلك ثبت أنهم قد قالوه، ولَمَّا اتَّفقوا على امتناع إرادة الحقيقة وجب صرف كلامهم إلى المعنى المجازي وهو يقتر أرزاق العباد وعدم إشباعهما عليهم.

وقيل: معناه أنه فقير كقوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران ١٨١/٣]، وهذا فيمن لا يصحّ الحقيقة أصلًا كما في هذا المقام، بخلاف قولك: يد فلان مغلولة أو مبسوطة؛ فإنه كناية عن ذلك كما ذكر في سورة طه في قوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه ٥/٢٠] وقد بسط الكلام في ذلك في قوله: ﴿لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران ٧٧/٣].

وقد بيَّن بعض الشارحين:[١١٥٦] «أنه قد يراعي هذه التفرقة وقد لا يراعى، كما في جعل ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه ٥/٢٠] كناية عن الملك»،[١١٥٧] فلا قصد فيه إلى إثبات يدٍ، وغلّ وبسطٍ، وكذلك يستعمل حيث لا يتصوَّر ذلك كقوله:

جَادَ الحِمَى بَسْطُ اليدينِ بِوَابِلٍ شَكَرَتْ نَدَاهُ تِلَاعُهُ وَوِهَاده[١١٥٨]

«الحِمى»: الأرض المحميّة، وهي مفعول «جَادَ»، و«بسط اليدين» فاعله، والمراد منه: السَّحاب، و«الوابل»: المطر الشديد، و«النَّدى»: الجود ويقال: رجل نداي جواد، وفلان أَنْدى من فلانٍ إذا كان أكثر خيرًا منه، والنَّدى أيضًا: المطر، وندى الأرض: نداوتها وبَلَلها، يقال: ندى الشيء إذا ابتلّ، وقوله: «نداه» مفعول «شَكَرَتْ»، «وتِلَاعُه» فاعله، والتِّلعة: ما ارتفع من الأرض، «والوهدة»: ما أطمأنّ منها.

ولقد جعل لبيدٌ للشّمال يدًا في قوله:

وغَدَاة رِيحٍ قد كَشَفَتْ وقِرَّةٍ إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا[١١٥٩]

[١١٥٤] **الكشاف** للزمخشري، ٦٤١/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٩/١.

[١١٥٥] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٤٣/١٢.

[١١٥٦] **هو سعد الدين التفتزاني**.

[١١٥٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٤و.

[١١٥٨] **الكشاف** للزمخشري، ٦٤١/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٤٩/١؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٢٧/٧.

[١١٥٩] **ديوان لبيد**، ١٧٦؛ **الكشاف** للزمخشري ، ٦٤١/١؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٢٧/٧. **دلائل الإعجاز** للجرجاني، ٣٣٤/١.

شبَّه الشَّمال في تصرُّفها في القِرَّة على حكم طبيعتها بالإنسان المتصرِّف فيما يكون زمامه في يده، وأثبت لها على سبيل التخييل يدًا – وهي من لوازم الإنسان – ليكون قرينةً، وشبَه القِرَّة بإبِلٍ يحرّك ويتصرّف فيه، وجعل لها زمامًا؛ لأن التصرف فيه لا يتم إلا به، تقول: كم من غداةٍ تَهُبُّ فيها الريح، وقرّة ملك الشمال، زمام تلك القرّة قد كشفت عادته بردها بإيقاد النيران للضيفان.

ونظيره من المجازاة المركبة: شابت لِمَّة اللّيل.[١١٦٠] والشيب بياض الشعر، واللِّمة: بالكسر الشعر الذي تجاوز شحمة الأذن، فإذا بلغت المنكب فهي جمَّة، والمجاز في الهيئة المركبة ولا تصرف في المفردات، شبّه هيئة طلوع الصبح بابيضاض اللّمة فجعل ابيضاضها مجازًا عنه من غير قصد إلى إثبات اللمة لليل. وقال الشاعر:

وقد رَابَنِي وَهْنُ الْمُنى وانقِبَاضُهَا　　　وبَسْطُ جدِيد اليأْسِ كفَّيْهِ في صَدْرِي[١١٦١]

«جعل «اليأس» بمنزلة إنسانٍ لهُ التَّصرف استعارة بالكناية، فأثبت له «الكفين» تخييلًا من غير أن يريد إثبات شيئين هما بمنزلة الكفين».[١١٦٢]

ولَمَّا استوى عامتهم وعلماؤهم في المعاصي ابتلاهم الله بالسنين، وكذلك كانت سننه في الماضين قال تع: ﴿**فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ [النحل، ١٦/١١٢]، فلم يتنبهوا ولم ينتهوا، لكن تجاهلوا وتسفَّهوا، ووصفوه سبحانه بالبخل بمنع الخصب وتسليط المحل.

قال عليه السلام: «يدُ اللهِ ملأَى لا يُغِيضُها نَفَقَةٌ، سحَّاءُ اللَّيْلَ والنهارَ».[١١٦٣]

﴿**غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ**﴾

لَمَّا ورد أن يقال: قد صحَّ أن قوله: ﴿**يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ**﴾ مجاز عن البخل فما تصنع بقوله: ﴿**غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ ومن حقه أن يطابق ما تقدَّمه، وإلا تنافر الكلام وزل عن سننه؟[١١٦٤] أجاب عنه المصنفان[١١٦٥] بوجهين، الأوّل: «أن يكون معناه الدعاء عليهم بالبخل والنكد، فيكون مجازًا أيضًا فيتوافقان، ومن ثمة كانوا أبخلَ خلق الله وأنكدَهم ونحوه بيت الاشتر:

بَقَّيتُ وَفرِي وَانحَرَفتُ عَنِ العُلَى　　　وَلَقِيتُ أضيَافِي بِوَجهِ عَبُوسِ

إن لَم أَشُنَّ عَلَى ابنِ حربٍ غَارَةً　　　لَم تَخلُ يَومًا مِن نِهَابِ نُفُوسِ[١١٦٦]

حيث دعا على نفسه بالبخل، وتبقية المال الكثير، وعدم إنفاقه، في وجوه المحامد ومعالي الأمور إن لم يصبّ الغارة ولم يُفرقها من كل أوب وصوب على معاوية بن صخر بن حرب، ولم يقل: على ابن صخر لكون حرب أشهَر آبائه وأليق بالمقام بحسب معناه الأصلي، حتى كأنَّه كناية عن ملازمة [**٦٨/و**] للحرب كأبي لهب عن الجهني.[١١٦٧]

[١١٦٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٤٩.

[١١٦١] **دلائل الإعجاز** للجرجاني، ١/٣٣٥؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٤و؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٤١٦.

[١١٦٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٤و.

[١١٦٣] **صحيح البخاري**، ٦/٧٣ (٤٦٨٤).

[١١٦٤] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٤٢.

[١١٦٥] الزمخشري والبيضاوي.

[١١٦٦] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٤٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٤١٦.

«وشنّ الغارة»: تفريقها على العدوّ ومن كل وجه، «والنهب»: الغنيمة والنهاب الجمع، «والغارة»: الخيل المغيرة والغارة اسم من الإغارة على العدوِ، «ولم تخل يومًا»: لا يخلو مدَّة ما يكون من نهاب النفوس، ويروي لم يخل من الإخلاء على أن الغارة لا تجعل القوم خلوًا عن النهاب.

الثاني: «أن يكون دعاء عليهم بغلِّ الأيدي حقيقة يغلُّون في الدنيا أسارى، وفي الآخرة معذَّبين بأغلال جهنم: فالطباق من حيث اللفظ وملاحظة أصل المجاز، كما تقول: سبَّني سبّ الله دابره».[١١٦٨]

يعني: تُعتبر المطابقة في قوله: ﴿**يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ**﴾ مع قوله: ﴿**غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ في إرادة الحقيقة في الثاني مع ملاحظة أصل المجاز في الأول، وهو غلُّ اليد لا البخل الذي هو المراد منه الآن، لاستوائهما في التلفّظ، كمنا أن «سبَّ الله» من حيث اللفظ مطابق لقوله: «سبَّني»[١١٦٩] على أن معنى القطع ملاحظ في قولك: «سبَّني» أي: شتمني لكون الشتم سببًا لقطع المودَّة، كما أن ذلك المعنى ملاحظ في قولك: سبَّ الله دابره، أي: قطعه، وهذا نوع من المشاكلة لطيف المسلك بخلافه في قول الشاعر:

قالوا اقْتَرِحْ شيئًا نُجِدْ لَكَ طَبْخَه   قلتُ اطْبُخُوا لي جُبَّةً وقَميصًا[١١٧٠]

فإنه وضع اطبخوا موضع خيِّطوا لمجرّد مراعاة اللفظ دون المعنى.[١١٧١]

ولَمّا ورد على الوجه الأول بناءً على مذهب المصنف الاعتزالي أنه كيف جاز أن يدعو الله عليهم بما هو قبيح وهو البخل والنَّكد؟

أجاب عنه: بأن المراد به الدعاء بالخذلان، فإنه ليس بفسخ لاستحقاقهم ذلك بصدور الكفر والمعاصي عنهم، فيزيدون بذلك الخذلان المؤدّي إلى قسوة القلوب بخلًا إلى بخلهم، ونكدًا إلى نكدهم، فيكون من إطلاق المسبّب على السّبب، أو بلصوق العار، وسوء الاحدوثة التي تخزيهم وتمزّق أعراضهم المسبب عن البخل والنكد، فيكون من إطلاق السبب على المسبب.

والآية نزلت في فِنحَاصِ بن عَازُورَاء فإنه قال ذلك لما كف ّّ الله عن اليهود ما بسط عليهم من السَّعة بشوم تكذيبهم محمدًا واشترك فيه آخرون لأنهم رضوا بقوله،[١١٧٢] فقال فنحاص: يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ؛ أي: ممسكة عنَّا في الرزق، محبوسة لا يبسُط علينا كما كان يبسط.

وقيل: قالوا ذلك حين نزل قوله تع: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا**﴾، [البقرة، ٢/٢٤٥] قالوا: ﴿**يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ**﴾ لا يوسِّع الدُّنيا على محمد وأصحابه،[١١٧٣] وفيما ذكر دلالة على أن الراضي بالقبيح في حكم مباشرة والرضاء بالقول القبيح كقوله:

[١١٦٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٤و–ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٢٨٨/٣؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤١٧/٥.

[١١٦٨] **الكشاف** للزمخشري، ٦٤٢/١.

[١١٦٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤١٧/٥.

[١١٧٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤١٨/٥.

[١١٧١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤١٨/٥.

[١١٧٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٠/١.

[١١٧٣] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٣٢/٥.

﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾: لَمَّا ورد أن يقال: إذا كان بسط اليد مجازًا عن الجود فإثباته يحصل بإفراد اليد، وفيه مطابقة لما قبله فما وجه التثنية؟

أجاب المصنف: بأنه مبالغة في ردّ ما قالوا، ونفي البُخل عنه، وأن غاية ما يبذله السَّخي من ماله الذي أن يعطيه بيده.[١١٧٤]

وقوله: «**غاية السخاء**»[١١٧٥]وهي اليد وإثباتها مجاز عن جوده ولا محذور، ولم يلزم من ذلك إطلاق السَّخي على الله تع فيمنع بعدم ورود الشرع والعرف، لكن قوله: «**تأكيد للوصف بالسخاء**»[١١٧٦] ربما يشعر ذلك.[١١٧٧]

وقال قدس سره: «وتنبيهًا على منح الدنيا والآخرة وعلى ما يعطى للاستدراج وما يعطى للإكرام»،[١١٧٨] ويمكن أن يشار إلى الروحانية والجسمانية، أوالظاهرة والباطنة والدينية والدنيوية، أو الثواب والعقاب، أو المغفرة والتعذيب، أو النفع والرفع.

وقرئ: «بَلْ يَدَاهُ بُسُطَانِ»[١١٧٩]يقال: يدُه بُسُط بالمعروف، ونحوه: مشْيَةٌ سُجُحٌ، وناقة سُرُحٌ،[١١٨٠]«سُجُحٌ» بضمَّتين وتقديم الجيم على الحاء المهملة، أي: سهلة وناقة سرح أي: سريعة، وليس من استعمال لفظ الجمع والمفرد مبالغة؛ لأن البناء مشترك بين المفرد والجمع، ولم يثبت الجمع في خصوص المحل.

﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ تأكيد لذلك، ودلالة على أنه لا ينفق إلا على مقتضى الحكمة والمصلحة،[١١٨١] ووجه التأكيد تعميم الأحوال المستفاد من ﴿كَيْفَ﴾، ووجه الدلالة على أنه لا ينفق إلا على مقتضى الحكمة التعليق بمشيئة الحكيم الذي لا يشاء إلا ما هو حكمة ومصلحة؛[١١٨٢]كما هو مذهب المصنف.

وأنت خبير: بأنه تقييد للمطلق، وهو ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، يعني: من مقتضى الحكمة أن لا يؤديَ بسط اليدين في العطاء إلى التبذير والإسراف والاصطناع إلى غير الأهل، وهو شرط السَّخاء في الشاهد، وهذا كما ترى تكميل لا تأكيد، كقوله:

حليمٌ إذا ما الحِلم زيَّن أهلَه   مع الحِلم في عَين العدوِّ مهيبُ[١١٨٣]

[١١٧٤] **الكشاف** للزمخشري، ٦٤٣/١.

[١١٧٥] **الكشاف** للزمخشري، ٦٤٣/١.

[١١٧٦] **الكشاف** للزمخشري، ٦٤٣/١.

[١١٧٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٤ظ.

[١١٧٨] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٠/١.

[١١٧٩] قراءة شاذّة، مروية عن عبد الله بن مسعود وطلحة بن مصرف. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٥٨؛ **الكشاف** للزمخشري، ٦٤٣/١؛ **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٤٠.

[١١٨٠] **الكشاف** للزمخشري، ٦٤٣/١.

[١١٨١] **الكشاف** للزمخشري، ٦٤٣/١.

[١١٨٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٤ظ.

[١١٨٣] خزانة الأدب، ٤٧٤/١؛ نهاية الأرب، ١٣١/٧؛ ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري ص ٢٢٥؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤١٩/٥.

والتأكيد أن يقال: ينفق كيف يشاء لا يمنعه مانع ولا يكفُّه من الإنفاق نقصٌ ولا إعدامٌ، لا يبالي بكثرة العطاء، فالإنفاق على الإطلاق مستتبع للحكمة ومشتمل عليها، كما قال-صلوات الله عليه-: «يدُ اللهِ ملْأَى لا يُغِيضُها نَفَقَةٌ، سحَّاءُ اللَّيْلَ والنهارَ، أرأيتم ما أنفق منذ خلَقَ السموات والأرض؟ فإنَّه لَمْ يَغِضْ ما عنده»[١١٨٤] أخرجه الشيخان عن أبي هريرة.

«سحَّاءٌ»: خبر بعد خبر، و«الليل»: ظرف: يقال: سحَّ يَسِحُّ سَحًّا: هطل، ولَمَّا كان [٦٨/ظ] ينفق تأكيدًا لقوله: ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**﴾، فصَّله ولم يأت بالواو ولا قيَّده بها حالًا، فيكون استئنافًا.[١١٨٥]

ومنع قدس سره «كونه حالًا من الهاء للفصل بينهما بالخبر ولأنها مضاف إليها»،[١١٨٦] وزيف التعليل الأوَّل بأنه ليس بمانع، ومنه قوله: ﴿**وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا**﴾ [الهود، ٧٢/١١] إذا قلنا: إنَّ ﴿**شَيْخًا**﴾ حالٌ من اسم الإشارة وقد توسّط الخبر بينهما، والثاني: بأنه غير مانع أيضًا كما في قوله: ﴿**قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾ [البقرة، ١٣٥/٢]، فإن مجيء الحال من المضاف إنما لا يجوز إذا لم يكن المضاف من المضاف إليه، أو كجزء منه وما نحن فيه يحتملهما، ومن اليدين لعدم ضمير لهما فيه، وزيّف بأن عدم الضمير صريحًا لا يمنع فيقدّر، أي: ينفق بهما كيف يشاء، نعم، الحال من المبتدأ مختلف فيه، ومن الضمير المستكن في ﴿**مَبْسُوطَتَانِ**﴾ لعدم العائد إليه فيه، وزيّف أيضًا بأنه يجوز تقديره ينفق بهما، غاية ما في الباب أن يكون حذف العائد في مثله قليلًا، ولما كان في كل واحدة من تلك الاحتمالات المذكورة نوع إشكال يرجح أن يكون استئنافًا لا محلَّ لها من الإعراب، أو يكون خبرًا ثانيًا لـ﴿**يَدَاهُ**﴾ فلا بدَّ ح من ضمير مقدَّر راجع إلى المبتدأ، و﴿**كَيْفَ**﴾ في مثل هذا التركيب شرطية نحو: «كيف يكن أكن».

﴿**وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾

﴿**وَلَيَزِيدَنَّ**﴾ مفرد مذكر مبني على الفتح بالنون الثقيلة، و«اللام» جواب قسم مقدّر، «ما» موصول مرفوع المحل على فاعلية ﴿لَيَزِيدَنَّ﴾، و﴿**كثيرًا**﴾ مفعول أول له، و﴿**طُغْيَانًا**﴾ مفعول ثان «أي: هم طاغون كافرون، ويزدادون طغيانًا وكفرًا بما يسمعون من القرآن، كما يزداد المريض مرضًا من تناول الغذاء الصالح للأصحاء»،[١١٨٧] ولأن فيه كشف سرائرهم القبيحة وكسر أهوائهم المختلفة، وهذا من إضافة الفعل إلى السبب، كما قال تع: ﴿**فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ**﴾ [التوبة ١٢٥/٩].

فقد دلَّ الكلام على أنه لا يراعي مصالح الدين والدنيا؛ لأنه تعالى لما علم أنهم يزدادون عند إنزال تلك الآيات كلَّما أنزلها علمنا أنه تعالى ما يراعي مصالح العباد، فإن قالوا: علم الله من حالهم أنهم سواء أنزلها أو لم ينزل، فإنهم يأتون بتلك الزيادة من الكفر، فلذلك يحسن منه إنزالها.

قلنا: فعل هذا التقدير لم يكن ذلك الازدياد؛[١١٨٨] لأجل تلك الآيات، وهذا يقتضي أن تكون إضافة ازدياد الكفر إلى إنزال تلك الآيات باطلًا، وذلك تكذيب لنصِّ القرآن.[١١٨٩]

[١١٨٤] **صحيح البخاري**، ٧٣/٦ (٤٦٨٤).

[١١٨٥] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤١٨/٥.

[١١٨٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٠/١.

[١١٨٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٠/١.

[١١٨٨] ج – الازدياد.

[١١٨٩] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٤٧/١٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٣٢/٤٣١/٧.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ فلا يتوافق قلوبهم ولا يتطابق أقوالهم، وهذا عقوبة لهم على ما كان منهم، وامتنان على النبي وأصحابه، فإن ذلك يورث الفشل لعدوِّهم.[١١٩٠]

وقيل: أنهم لما حرَّموا على أنفسهم سعادة الدين بسبب ازديادهم كفرًا وطغيانًا، كلما نزل شيء من القرآن حرَّم الله عليهم سعادة الدنيا أيضًا بأن جعلهم طرائف مختلفة: بعضهم جَبْريَّة، وبعضهم قدريَّة، وبعضهم مشبِّهة، وبعضهم مرجئة، وكذلك فرق النصارى، كالملكانية، والنسطورية، واليعقوبية.

قال الحسن ومجاهد: ﴿**وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمْ**﴾، أي: بين فرق اليهود والنصارى؛ لأن ذكرهم جرى في قوله: ﴿**لَا تَتَخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى**﴾.

وقيل: أي: فرق اليهود خاصة، واختلاف فرق المسلمين لم يجعل في عصر النبي وإنما هي بدعة حدثت بعد عصر الصحابة والتابعين، فلذلك لم يجعل اختلاف القلوب والأقوال عيبًا للمسلمين، وجعله عيبًا لفرق أهل الكتاب.[١١٩١]

﴿**كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ**﴾ مجاز عن أنهم كلما أرادوا محاربة أحدٍ غُلبوا وقهروا لم يقم لهم نصر من الله قطّ، على أحد، وقد أتاهم الإسلام وهم في ملك المجوسِ.

وقيل: خالفوا حكم التوراة، فبعث الله عليه بُخْت نَصَّرَ، ثم أفسدوا، فبعث الله عليهم فُطْرُسَ الرُّومِيَّ، ثم أفسدوا فسلَّط عليهم المجوس، ثم أفسدوا فسلط[١١٩٢] عليهم المسلمين، وقيل: كلما حاربوا رسول الله نُصر عليهم. وعن قتادة: لا تلقى اليهود ببلدة إلا وجدتَهم من أذلِّ الناس.[١١٩٣]

و﴿**لِلْحَرْبِ**﴾ صلة ﴿**أَوْقَدُوا**﴾ أو صفة ﴿**نَارًا**﴾.[١١٩٤] وقيل: الإيقاد: حقيقة؛ لأنهم كانوا يوقدونها عند قصد المحاربة أو الجمعية للمخالفة.

﴿**وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا**﴾، ويجتهدون في الكيد للإسلام، ومحو ذكر رسول الله من كتبهم.[١١٩٥] وقيل: بالمعاصي. وقيل: باختداع الضَّعفة، وصدّهم عن الإسلام. وقيل: بأخذ الرّشا وتغيير الكتاب. وقيل: بقطع الطريق وإخافة السبيل.[١١٩٦]

وانتصاب ﴿**فَسَادًا**﴾ على العلّة، أي: للفساد كما قال تع: ﴿**سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا**﴾ [البقرة، ٢/٢٠٥].

﴿**وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ فلا يجازيهم إلا شرًّا.[١١٩٧] وقال هناك: ﴿**وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ**﴾، ونفي الحبّ كناية عن البغض فهو أبلغ، وفيه أيضًا إيماء إلى أنه يحب أضدادهم المصلحين الصالحين.

﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥)**﴾

[١١٩٠] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٤٧/١٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٣٢/٤٣١/٧.

[١١٩١] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٤٧/١٢؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل ، ٤٣٢/٧.

[١١٩٢] ج+ الله.

[١١٩٣] **الكشاف** للزمخشري، ٦٤٣/١.

[١١٩٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٠/١.

[١١٩٥] **الكشاف** للزمخشري، ٦٤٣/١.

[١١٩٦] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٣٥/٥.

[١١٩٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٠/١.

ولو أنهم مع ما عدَّدْنا من سيئاتهم ﴿ءَامَنُواْ﴾ برسول الله وبما جاء به وقرنوا إيمانهم بالتقوى ﴿لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ﴾ تلك [**٦٩**/و] السيئات ولم نؤاخذهم بها ﴿وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ﴾ مع المسلمين الجنة. وفيه إعلام بعظم معاصي اليهود والنصارى وكثرة سيئاتهم،[١١٩٨] فإنه تع لَمَّا عدَّد سيئاتهم وقبائحهم كان من حقّ الظّاهر أن يقال: ولو أن أهل الكتاب تابوا لَكفرّناها عنهم، فوضع موضع تاب: آمن، وصرَّح بذكر سيئاتهم إيذانًا بأن ليس لهم التَّنصُّل من تلك الذنوب إلا بأن يدخلوا في الإسلام؛ لأن الإسلام يهدِم ما قبله.[١١٩٩]

ودلالةٌ على سعة رحمة الله حيث يتوب على من له تلك السيئات الكثيرة العظام، وأن الإسلام يجُبُّ ما قبلَه، وأن الكتابي لا يدخل الجنة ما لم يسلم.[١٢٠٠]

ويؤيده ما روينا عن أبي هريرة، عن النبي ع م: «والذي نفسُ محمد بيده، لا يَسْمَعُ بي أَحَدٌ من هذه الأُمَّةِ يهوديٌّ، ولا نصرانيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ ولم يُؤْمِنْ بالَّذِي أُرْسِلْتُ به، إلَّا كان من أهل النار».[١٢٠١]

وقال المصنف: «وأن الإيمان لا ينجي إلا مع التقوى»،[١٢٠٢] كما قال الحسن للفَرَزْدَقِ حين اجتمع في جنازة ما أعدَدْتَ لهذا المقام؟ فقال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ كذا سنةً، فقال الحسن: هذا العمود فأين الأطناب؟ والفاء في «فأين الأطناب» كالفاء في «خَوْلَانُ فَانْكِح نساءهم»؛ على تأويل: هؤلاء خولان فانكح، يعني: هذه الكلمة مستدعية للأعمال الصالحة، ومقتضية للاجتناب عن الآمال الطالحة، كما أن هذه القبيلة تستوجب أن تنكح نساؤها لجمالها، شبَّه الإسلام بخيمة، وجعل عمودها: كلمة التوحيد والأعمال الصالحة: الأطناب، فكما أن الخيمة لا تقوم إلا بالعمود، فكذا لا يستقيم الإسلام إلا بالشهادتين، وكما لم يرتفع العمود إلا بالأطناب، كذا الكلمة لا ترفع إلا بالعمل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر، **١٠/٣٥**]، والاستقامةفيها الأوتاد، والتشبيهات متفرقة، تحقيقه: إذا اعتبر مفرداتها مستقلة، وإذا انتزع التشبيه من المجموع كان تمثيلًا، وما في قول الحسن، الشَّطر الأول منه تشبيه لذكر الطَّرفين والثاني: استعارة؛ لأن المشبَّه المتروك هو الأعمال. وقال **صاحب الانتصاف**: لَمَّا شرط في هذه الأمة مجموع الأيمان والتقوى فالإجماع منّا ومنه أن الإيمان يجُبُّ ما قبله، فلو مات رجل عقيب دخوله في الإيمان لكفِّرت عنه سيئاتُه ولَدَخل جنَّات النعيم، فدلَّ أن اجتماعهما ليس شرطًا؛ هذا إذا كان التقوى الأعمال، وإن كانت أصل وضعها في الخوف من الله، فهذا ثابت لكل مؤمن ولو قارف الكبيرة.[١٢٠٣]

وقد يجاب: بأن الميت المذكور، وإن مات عقيب إيمانه فهو جامع بين الإيمان والتقوى، حيث اتّقى المعاصي وأتى بما وجب عليه من الطاعات التي أدرك وقتها، فإن الإيمان المكفّر هو الإيمان الذي يباشره المكلّف لغرض التقوى والطاعة لا لغرض آخر من الأغراض العاجلة كإيمان المنافقين.[١٢٠٤] وربما تدعي الإشارة في كلامه قدس سره إلى هذا المعنى حيث قال: «والإسلام يجُبُّ ما قبله»[١٢٠٥] حيث لم يقل: والإيمان يجُبُّ؛ للإشارة إلى أن الأعمال إنما يجُبّ ما قبله إذا صدر عن قصد الاستسلام

[١١٩٨] **الكشاف** للزمخشري، ٦٤٤/١.

[١١٩٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٢١/٥.

[١٢٠٠] **الكشاف** للزمخشري، ٦٤٤/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٠/١؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٢١/٥.

[١٢٠١] **صحيح مسلم**، ١٣٤/١ (١٥٣)؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٢١/٥.

[١٢٠٢] **الكشاف** للزمخشري، ٦٤٤/١.

[١٢٠٣] **الانتصاف بحاشية الكشاف** لابن المنير، ١٢٠ظ؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٢١/٥-٤٢٢.

[١٢٠٤] **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥٥٥/٣.

[١٢٠٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٠/١.

وإتباع أحكام الشريعة، وقصده فيكون الإيمان المنجّي هو الإيمان المقرون بالتقوى، واللائح أن الإتكال بمجرد الإيمان على خطر، وكذا سلب النجاة بمرّده.

وقال القشيري: شرطَ في حقِّهم الإيمان والتقوى لإدخالهم الجنة، ووعد للظالمين مع السابقين والمقتصدين في هذه الأمّة.[١٢٠٦] والله دافع الغمة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦)﴾

لَمَّا تبيَّن أنهم لو أمنوا لفازوا سعادة الآخرة، بيَّن بعده أنهم لو أقاموا أحكام الكتابين، وعملوا بما فيها من التصديق لسيد المرسلين، والوفاء لله بما عاهدوا فيهما، وأقاموا ما أنزل إليهم من سائر الكتُب فإنها من حيث إنهم مكلَّفون بالإيمان بها كالمنزَّل عليهم، أو وأقاموا القرآن لَفازوا سعادة الدنيا ووجدوا طيّباتها، وزال عنهم ما أصابهم من القحط بسبب إصرارهم على تكذيب محمد، حتى قالوا بسبب جهلهم بما هو السبب **﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾** [المائدة، ٥/٦٤].

ففيه بيان أن ما كفَّ عنهم بشؤم كفرهم ومعاصيهم، لا لقصور الفيض، ولو أنهم آمنوا وأقاموا ما أُمروا به لَوسّع عليهم، وجعل لهم خير الدارين.

وقيل: بيَّن أوَّلًا: أنهم لو آمنوا برسولنا المؤيّد بالمعجزات، وخافوا الله، وتركوا العناد، لَكفّر عنهم قبائحهم، ولأدخلهم جناتٍ، ثم تنزل عنه، أي: دعُوا تلك القبائح، «ولو آمنوا» بمعنى ما عندهم من النصوص، وما ثبت عندهم من نعته وتركوا التّبديل، لَوسَّع عليهم خير الدارين، ورُوعِي فيهما مع معنى التنزل الترقّي أيضًا.[١٢٠٧]

وإقامة الشيء عبارة عن رعاية حقوقه، كإقامة الصلوة. وجميع الكتب آمرة بالإيمان لمن صدقه المعجزة ناطقة بوجوب الطاعة، وكُتُب بني إسرائيل مملوءةٌ من البشارة بمبعث سيد المرسلين.

﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾بأن يفيض عليهم بركات من السماء والأرض، أو بأن يكثر ثمرة الأشجار وغلة الزروع، أو بأن يرزقهم الجِنان اليانعة الثِّمار، ويجتنونها من رأس الشجر ويلتقطون ما تساقط على الأرض.[١٢٠٨]

[**٦٩**/ظ] واللائح أن ذكر الأكل لكونه أعظم المنافع واستتباعه سائرها، كقوله: **﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾** [النساء، ٤/١٠]، ثم تكرير قوله: **﴿مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾** لاستيعاب جميع الأحوال والأزمان، كقوله: **﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾** [مريم، ١٩/٦٢]، فيشمل خير الدارين.[١٢٠٩]

وهذا في حقِّ مَن عدَّد سيئاتهم من أهل الكتاب إذا أقاموا مجرَّد حدود التوراة والإنجيل، فما ظنُّك بالسَّالك إذا قمع هوى النفس، وانكمش من عالم اللإدبار إلى عالم القدس معتصمًا بحبل الله وسنَّة حبيب الله؟ فالله تع لا يُفيض على قلبه سجال فضائله، وسحاب بركاته، فتكمن فيه كمون الأمطار في الأراضي، فتظهر ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه كلًّا، وفي تعليق الأكل من فوق على إقامة التوراة والإنجيل ومن تحت الأرجل، تلويح إلى معنى قوله ع م: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ

[١٢٠٦] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٥/٤٣٥-٤٣٦.

[١٢٠٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٤٢٤.

[١٢٠٨] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٤٤.

[١٢٠٩] **فتوح الغيب**، ٥/٤٢٢.

يَعْلَمْ»؛[١٢١٠] لأنهم إذا أقاموا العمل بكتاب الله استنزل ذلك من فوقهم البركات، فإذا استجدّوا العمل بتلك البركات المنزّلة، وأقاموا عليها بثبات أقدامهم الراسخة استنزل لهم من الله بركاتٍ، هي أزكى من الأولى، فلا يزال العلم والعمل يتناوبان إلى أن ينتهيَ السالك إلى مقام القرب ومنازل العارفين، وفي ذكر الأرجل إشارةٌ إلى حصول ثبات القدم ورسوخ العلم، وفي اقترانها مع «تحتُ» دلالة على مزيد الثّبات، وأنهم من الرّاسخين المقتبسين علومهم من مشكاة النبوة دون المتزلزلين الذين أخذوا علومهم من الأوهام، ولهذا كتب بعض العارفين بهذه الآية إلى الإمام[١٢١١] إرشادًا إلى معرفة طريق أهل الله.[١٢١٢]

ودلَّ ذلك على أن العمل بطاعة الله سببٌ لسعة الرزق، وهو كقوله: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا۝وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**﴾ [الطلاق٦٥/٢-٣] وقوله: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ ۝ غَفَّارًايُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا**﴾ [نوح، ٧١/١٠-١١] الآيات.[١٢١٣]

﴿**مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ**﴾

أي: عادلة غير غاليَة ولا مقصّرة؛[١٢١٤] فإن الاقتصاد في اللغة الاعتدال في العمل من غير غلوٍّ ولا تقصير، فلم يزيغوا، ولم يَغلُوا في دينهم، ولم يقولوا في المسيح وفي أمّه غير الحقّ، وهم الذين آمنوا بموسى وعيسى ومحمد، كالنَّجاشيِّ وأصحابه، وعبد الله بن سلام وأشكاله، وبَحيرَاء الراهب، وسلمان، ورهط من الشام،[١٢١٥] أو مقتصدة متوسطة في عداوته عليه السلام وعداوة المسلمين.

و﴿**مِنْهُمْ**﴾خبر مقدَّم، و﴿**أُمَّةٌ**﴾ مبتدأ مؤخَّر، و﴿**مُقْتَصِدَةٌ**﴾ صفتها، ﴿**وَكَثِيرٌ**﴾ مبتدأ، و﴿**مِنْهُمْ**﴾ صفته، وجملة ﴿**سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ**﴾ خبره، أي: كثير منهم يقال: في حقّهم ذلك، والجملة الكبرى معطوفة على الجملة الأولى؛ ليفصل أهل الكتاب إلى الأمَّة المؤمنة والمكذبة التي بئس شيئًا نكذبهم، أو إلى الأمة المعتدلة في الكفر، والعداوة، والمتوغّلة فيه بالجروح عن مقتضى دينه أيضًا، وشدة الكفر، والعداوة، وصد الناس عن طريق الحقّ والتّكذيب، واستجلاب السحت.

و﴿**سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ**﴾ فيه معنى التّعجب، كأنه قيل: وكثير منهم ما أسوأَ عملَهم![١٢١٦] أي: يقول في حقهم ذلك، ومعنى التعجُّب مستفاد من المقام ﴿**وسَاءَ**﴾ بمعنى: «بئس»، و﴿**مَا**﴾ نكرة بمعنى: «شيئًا» مميزة لفاعل «بئس» المضمر فيه، وما بعدها صفتها والمخصوص محذوف تقديره: بئس الشيء شيئًا عملوه عملهم الذي كانوا يعملونه، أو موصولة فاعل ﴿**سَاءَ**﴾ فيقدَّر الفاعل فيه أيضًا، وردَّ بأن فاعل فعل الذمّ إذا كان مظهرًا يجب أن يكون معرّفًا باللام، أو مضافًا إلى المعرَّف بـ«الّام»، وهنا ليس كذلك، فأجيب بأن هذا في فعل المدح والذّمّ حقيقة، لا في الملحقات و﴿**سَاءَ**﴾ منها، ولم يجعل قوله: ﴿**وَكَثِيرٌ**﴾ المخصوص؛ لأنه لا يقدَّم على فعل الذمّ لبطلان صدارته.

[١٢١٠] **حلية الأولياء** لأبي نعيم ١٠/ ١٥.

[١٢١١] يعني: الإمام الفخر الرازي.

[١٢١٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٤٢٣.

[١٢١٣] ا**لتيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٥/٤٣٧.

[١٢١٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٥٠.

[١٢١٥] **مفاتيح الغيب** للطيبي،١٢ /٥٠؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٥/٤٣٧.

[١٢١٦] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٤٤.

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:«القَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا»[١٢١٧] أي: عليكم بالقصد من الأمور في القول والفعل، وهو الوسط بين الطرفين، وهو منصوب على المصدر المؤكّد، وتكريره للتأكيد، وفيه أيضاً كانت صلاته قصدًا وخطبته قصدًا، وفيه أيضًا ما افتقر من لا سرف في الإنفاق ولا يقتر.

وقال عليه السلام: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ».[١٢١٨]

معنى الحديث: أن من تعمّق في أمر الدّين لا يجب عليه، فربّما يغلبه ويضعف عن القيام بحقّ ما كلّف به، «فسدّدوا»، أي: اقصدوا السّداد وهو الصواب، والطريقة المستقيمة، «وقاربوا»، أي: اسلكوا سبيل الاقتصاد واليسر، واتركوا التعمّق، «والدلجة»: السّير في الليل، والمراد من الألفاظ الثلاثة التحريض على طاعة الله.

وفي الصحيحين: عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا مَعْشَرَ اليَهُودِ، ويْلَكُمْ! اتَّقُوا اللَّهَ؛ فَواللَّهِ الذي لا إلَهَ إلَّا هُوَ، إنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أنِّي رَسولُ اللَّهِ حَقًّا، وأَنِّي جِئْتُكُمْ بحَقٍّ، فأسْلِمُوا»[١٢١٩] قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم أوّل ما قدم المدينة بعد إسلام عبد الله بن سلام.

وفي الصحيحين أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا».[١٢٢٠]وفي الحديث دلالة على اتّحاد الإسلام، والإيمان، والعلم عند الله الحنّان المنّان.

﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)﴾

[**٧٠/و**] أي: بلِّغ جميع ما أنزل، وإنما قلنا كذلك ليظهر فائدة الأمر بالتبليغ للمبلّغ، وهو يستدعي أن يكون كلمة «ما» موصولةً بمعنى «الذي»؛ لأنها على تقدير أن تجعل نكرةً موصوفة يكون التقدير: بلغ شيئًا أنزل إليك وهو لا يفيد الأمر بتبليغ الجميع بخلاف الموصول؛ إذ قد يحمل على الاستغراق على حسب المساق، وهذا أولى من أن يقال: ليس المراد إحداث التبليغ بل المداومة عليه كقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ**﴾ [الحشر، ١٨/٥٩].

وقال: ﴿**وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ**﴾، ولم يقل: «وإن لم تبلّغ»؛ ليتغايرا لفظًا وإن اتّحدا معنًى، وهي أحسن بهجةً من تكرار اللفظ الواحد في الشرط والجزاء، وهذا من محاسن علم البيان.[١٢٢١]

والمعنى: وإن لم تبلِّغْ جميعَه كما أمر ربك، فورد أن يقال: ما وجه صحة وقوع قوله: ﴿فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ جزاء لهذا الشرط؟

أجاب عنه المصنف: بأن فيه وجهان، أحدهما: أنه إذا لم يمتثل في تبليغ الرِّسالات، وكتم كلَّها، كان أمرًا شنيعًا.

[١٢١٧] **صحيح البخاري**، ٩٨/٨ (٦٤٦٣).

[١٢١٨] **صحيح البخاري**، ١/ ١٧ (٣٩).

[١٢١٩] **صحيح البخاري**، ٦٢/٥ (٣٩١١).

[١٢٢٠] **صحيح البخاري**، ١٠٧/٩ (٧٣٤٨)؛ **صحيح مسلم**، ٣/ (١٧٦٥).

[١٢٢١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٢٦/٥.

فقيل: إن لم تبلّغ منها أدنى شيء، فأنت كمن ركبت الأمر الشنيع الذي هو كتمان كلّها، كما عظّم قتل النفس بقوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة، ٣٢/٥].

والثاني: أن يراد: فإن لم تفعل فلك ما يوجبه كتمانُ كلّه من العقاب، فوُضع السَّبب موضع المسبَّب ويعضده قوله ع م: «فأوحى الله إليّ: إن لم تبلّغ رسالاتي عذّبْتُك».[١٢٢٢]

فقال النحرير:[١٢٢٣] حاصل الأوّل: إن تركت تبليغ أدنى شيء كنت كمن ترك التبليغ بالكلّية، وهو في غاية الشناعة، وهذا ما قال ابن الحاجب: إذا اتّحد الشرط والجزاء كان المراد من الجزاء المبالغة، كأنه قيل: وإن لم تبلِّغ فقد ارتكبتَ أمرًا عظيمًا. والثاني: إن تركت تبليغ أدنى شيء استوجبتَ عذاب كتمان الكلّ من جهة أن كتمان البعض يضيع ما أُدّى منها؛ لعدم حصول غرض الدعوة، بمنزلة من ترك بعض أركان الصلاة، وهذا ربّما يناقش فيه. فالوجه هو الأوّل ومثله قوله ع م: «مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ».[١٢٢٤]وهذا في الشرط بمنزلة: شعري شعري.[١٢٢٥]

وفي التقريرين نظر: أما في الأول: فلأنه ليس من اتحاد الشرط والجزاء؛ إذ على كون الشرط تركَ تبليغ شيءٍ، وكون الجزاء تبليغ الجميع لا اتّحاد، فمبنى السؤال ليس الاتّحاد، بل جعل ترك شيء منه بمنزلة ترك الجميع، فالدَّفع بأنه كذلك بالنظر إلى أن في كلّ منها ترك حرمة وارتكاب شنيعة، كما أنّ قتلَ نفس كقتل الناس بالنظر إلى ذلك.

وأما في الثاني: فلأن المناقشة فيه أن يجعل عذاب كتمان البعض كعذاب كتمان الكلّ؛ فإن الظاهر أنه ليس كذلك، ويمكن أن يحمل كلام المصنف على أنَّ كتمان البعض والكلّ سواء في استجلاب العقاب حكمًا إن ترك الكل يستجلبه كذلك ترك شيء لا على أنَّ عذاب كل منهما مساوٍ للآخر، وفيه ذكر السبب وإرادة المسبَّب.

وأمَّا قوله: «بمنزلة من ترك بعض أركان الصلاة»، فاللائح أن يجعل هذا جوابًا مستقلًا غير الوجهين وهو الذي ذكره قدس سره أولًا، وتقريره: أنَّ كل واحد مما أرسل به لما تعلّق التكليف بتبليغه صار الجميع بمنزلة شيء واحد من تلك الحقيقة، فصار ترك تبليغ واحدٍ منها بمنزلة عدم تبليغ شيء منها؛ لأنَّ الشيء الواحد لا يكون مبلّغًا وغير مبلّغٍ وعدم تبليغ الكل تضييع البعثة فكذا عدم تبليغ شيء منها، وبهذا الاعتبار صارا متّحدين، فظهر الفرق بينه وبين الوجهين، ثم إنَّ الوجوه على أن المبني ليس الاتّحاد المذكور، بل الجعل المذكور، وإن حمل على الاتحاد كما في الحديث الشريف بأن يحمل على وإن لم تبلّغِ الجميع لما بلغت الجميع توجه بما قاله ابن الحاجب من المبالغة، وفيما سبق من الوجوه مبالغة أيضًا لكن ليس بالنظر إلي الاتّحاد.

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

إزاحة لمعاذيره في ترك تبليغ ما أرسل وعدة وضمان من الله بعصمته، ولما ورد أين ضمان[١٢٢٦] العصمة وقد شُجَّ وجهه يوم أحد وكسرت رباعيته؟ أجيب عنه بوجهين، الأول: أنه يعصمه من القتل، فالعصمة عامّة في كلّ الأحوال خاصّة من حيث إرادة العصمة من القتل.

وفيه أن عليه أن يتحمل كلّ ما دون النَّفس في ذات الله، فما أشدَّ تكليفَ الأنبياء في ذات الله، أي: في الله.[١٢٢٧]

[١٢٢٢] **الكشاف** للزمخشري، ٦٤٦/١؛

[١٢٢٣] سعد الدين التفتزاني.

[١٢٢٤] **صحيح البخاري**، ٢٠/١ (٥٤).

[١٢٢٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٥و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٢٩٢/٣.

[١٢٢٦] ج – ضمان.

عن أبي هريرة قال: «بَعَثَ رَسُولُ اللهِ عَشَرَةً مِنْهُمْ خُبَيْبٌ الأَنْصَارِيُ فَأُسِرَ فَلَمَّا خَرَجَ الْمُشرِكُونَ بِهِ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ قَال:

وَلَسْتُ أُبَالِي حين أُقْتَلُ مُسْلِمًا   على أَيِّ شِقٍّ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعي

وذلك في ذاتِ الإله وَإِنْ يَشَأْ   يُبَارِكْ في أَوْصَال شِلْوٍ مُمَزَّعِ[١٢٢٨]

الثاني: أنها نزلت بعد أُحدٍ، فعلى هذا العصمة خاصَّة بحسب الزمان عامَّة في مقتضاها، بمعنى: أن الله لا يمكِّنهم ممّا يريدون إنزاله تع من الهلاك، لكن يشكل هذا بما استتبّ لليهود من تمكّنهم من أن سمُّوه، ولذلك فسّروا قوله: ﴿**وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ**﴾ بقولهم: إنهم يبذلون جهدهم في قتله فلذلك سمّوه، ويمكن أن يقال: إن المعنى: يا أيها الذي تَصدَّى لمنصب الرِّسالة وتبليغ ما أنزل إليه، امض لشأنك وأدِّ ما عليك ولا تهتَمَّ بأعدائك،[**٧٠**/ظ] فإنه تع ضمن لك العصمة من الهلاك بسبب تبليغ الوحي؛ لأنه لا يهدي القوم الكافرين إلى إطفاء نور الله لقوله: ﴿**وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾ [التوبة، ٣٢/٩] ففي وضع قوله: ﴿**ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ**﴾ موضع ضمير ﴿**ٱلنَّاسِ**﴾ إشارة إلى ذلك، فلم يقل: لا يهديهم، ولم يكن تمكين اليهود مما أرادوا به من الهلاك يوم خيبر لأجل التبليغ، بل للذّبِّ عن البلاد والأموال والأنفس، لكن لا يخفى عليك أن ذلك سبب التبليغ. وقال الراغب: عصمة الأنبياء: حفظه إياهم أولًا: بما خصَّهم به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل والأخلاق، ثم بالنصرة وتثبيت الأقدام، ثم بإنزال السَّكينة عليهم وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق.[١٢٢٩]

روي: أنه ع م دعا اليهود، فأكثرَ الدّعاء، فجعلوا يستهزؤون به ويقولون: تريد أن نتخذك حنانًا، كما اتَّخذ النصارى عيسى حنانًا، فسكت عليه السلام ولم يقل شيئًا، فنزلت في التحريض، فعاد إلى دعوتهم، وقال: «ما أُبالي مَن خَذَلَني ومن نصرني».[١٢٣٠]

«واستُدلَّ بالآية على أنه ع م لا يكتم شيئًا مما نزَّل الله، بخلاف ما قالت الشيعة: إنه قد كتم أشياء على سبيل التقيَّة، وعن بعض الصوفية: ما يتعلَّق به مصالح العباد وأمر بإطلاعهم عليه فهو منزَّه عن كتمانه، وأما ما خصَّ به من الغيب ولم تتعلَّق به مصالح أمَّته فله، بل عليه كتمانه».[١٢٣١]

وقال الواسطي: حقائق الرسالة لو وُضعت على الجبال لذابت، إلا أنه يظهرون للعالم على مقادير طاقتهم، ألا ترى إلى قوله: ﴿**بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ**﴾، ولم يقل ما تعرفنا به إليك،[١٢٣٢] وإليه ينظر ما روينا في الصحيح عن أبي هريرة قال: «حفظتُ من رسول الله وِعَائَيْنِ مِنَ العلْمِ، فأما أحدهما فبَيَّنْتُهُ، وأمَّا الآخر فلو بَيَّنْتُه قُطِعَ هذَا الْبُلْعُومُ».[١٢٣٣] والبلعوم: مجرى الطَّعام.[١٢٣٤]

[١٢٢٧] **الكشاف** للزمخشري، ٦٤٦/١؛**فتوح الغيب** للطيبي، ٤٢٨/٥.

[١٢٢٨] قصيدة لخُبَيْبُ بنُ عَدِيٍّ رضي الله عنه. **صحيح البخاري**، ٧٤٠٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٢٨/٥.

[١٢٢٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٢٨/٥-٤٢٩.

[١٢٣٠] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي،٤٤٠/٥.

[١٢٣١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٢٥/٥.

[١٢٣٢] **عرائس البيان** للبقلي، ٣٢٢/١.

[١٢٣٣] **صحيحالبخاري**، ١٢٠.

[١٢٣٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٢٦/٥.

وقال القشيري: «في قوله: ﴿**بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ**﴾، أي: بَيِّنْ الكافة أنَّك سيد ولد آدم، وأن آدم دون لوائك. وقيل: بلِّغ أني أغفر العصاة ولا أبالي وأردُّ من المطيعين مَن شئتُ ولا أبالي».[١٢٣٥]

وفي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «بَلِّغُوا عَنِّي ولو آيَةً، وَحَدِّثُوا عن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ».[١٢٣٦] **وبالجملة** تبليغ الأحكام ووعظ الأنام من خصال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

﴿**قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨)**﴾

أي:﴿**لَسْتُمْ**﴾ على دين يعتدُّ به ويصح أن يسمَّى شيئًا لفساده وبطلانه كما تقول: هذا ليس بشيء، تريد تحقِيره وتصغير شأنه، وفي أمثالهم: أقلُّ مِن لا شيء.[١٢٣٧]

﴿**حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ**﴾، من سائر الكتب الإلهية، فإنها من حيث مكلَّفون بالإيمان بها كالمنزل عليهم، أو من القرآن، ومن إقامتها الإيمان بمحمد والإذعان لحكمه، فإن الكتب الإلهية بأسرها آمرة بالإيمان بمن صدقه بالمعجزة الناطقة بوجوب الطاعة له، أو المراد إقامة أصولها وما لم ينسخ منها من فروعها.[١٢٣٨]

﴿**وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا**﴾: وقد مرّ قبيل هذا تقريره وبيانه، وتكريره لزيادة التقرير والتأكيد ﴿**فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ فلا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم بما تبلِّغه إليهم، فإن ضرر ذلك لاحق بهم لا يتخطاهم وفي المؤمنين مندوحة لك عنهم.[١٢٣٩]

وقيل: ولا تحزن على أن لم يدخلوا في دينك، ولم يَصيروا من أتباعك، فليسوا ممَّن يُتَأَسَّف بفوتهم، وهو كقوله: ﴿**فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ**﴾ [فاطر٣٥،٨/].

وقيل: معناه: لا تحزن بنزول العذاب عليهم، فإنَّهم كفار، وليسوا منك ولست منهم.

«وفي الآية تنبيهٌ للكلِّ أنه لا قدرَ لأحد ولا لعمل، إلا بمراعاة الأمر والنهي، والمحاماة على أحكام الشرع»،[١٢٤٠] ونحوه قوله: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ**﴾ [الفرقان، ٧٧/٢٥].فكلُّ أحد لا يراعي أمر الشرع لا اعتداد له، وكلُّ عمل ليس على قانون الشرع لا اعتبار له.

وفيه غاية شديد ونهاية تهديد للذين يتقرَّبون إلى الله بما يخالف الشريعة، ويدعون عند الله المنزلة بمضادَّة الطريقة، ومن ذلك قال بعض العارفين: أصلنا هذا معتد بالكتاب والسُنَّة، وكلُّ حقيقة تخالف الشريعة فهو ردٌّ، وكلّ وجد لا يشهد له الكتاب والسُنة فهو رد فمبنى أمر الطريقة على تعظيم الشريعة.

[١٢٣٥] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٢٧٣/١

[١٢٣٦] **صحيح البخاري**، ١٧٠/٤ (٣٤٦١) .

[١٢٣٧] **الكشاف** للزمخشري، ٦٤٦/١.

[١٢٣٨] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥١/١.

[١٢٣٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٢/١.

[١٢٤٠] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٢٧٣/١؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٤١/٥.

واعلم أن خطاب الله تعالى ذو صفتين: صفة القهر، وصفة اللُّطف، فمن تجلَّى القرآن لقلبه بصفة اللطف يزيد نور بصيرته بلطائف حكمته، وحقائق أسراره، ودقائق شأنه، ويزيد بذلك نور إيمانه وتوحيده، ويعرف ظاهر الخطاب وباطنه، ومن يتجلَّى لقلبه بصفة القهر يزيد ظلمة طغيانه، وقلَّة عرفانه، بحيث لا يدرك فهم الخطاب، ويزيد لحظة بعد لحظة ظلمة قلبه؛ لأن القرآن صفة الله وصفته [**٧١/و**]لا نهاية له، إما برؤية اللطف أو برؤية القهر، قال تعالى: ﴿**يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ**﴾ [البقرة ٢/٢٦].

قال الواسطي:«هم الذين تولَّى الله إضلالهم وصرف عن درك حقائق الحكمة».[١٢٤١]

فكلُّ أحد يأخذ من القرآن على قدر استعداده ومقدار قابليته، فمن كان له حسن استعداد يزداد بذلك إيمانًا وإيقانًا، قال الله تع: ﴿**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**﴾ [الأنفال، ٢/٨].ومن لم يكن له حسن استعداد، بل له سوء ملكة يزداد بذلك كفرًا وطغيانًا ﴿**وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا**﴾ [الإسراء ٨٢/١٧].

﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)**﴾

تفسيره مذكور في سورة البقرة﴿**وَٱلصَّٰبِئُونَ**﴾ رفع على الابتداء، وخبره محذوف، والنيَّة به التأخير عما في حيِّز ﴿**إِنَّ**﴾ من اسمها وخبرها، كأنه قيل: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حُكْمُهم كذا، والصابئون كذلك، وأنشد سيبويه شاهدًا له:

وإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَا وَأَنْتُمْ بُغَاةٌ مَا بَقِينَا مِنْ شِقَاقِ

أي: فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك.[١٢٤٢]

وإنما اختار هذا دون العكس، وهو أن يكون المذكور خبرًا عن الثاني، وقد حذف عن الأوَّل؛ لأنه أقيسُ حيث جعل السابق قرينة اللاحق، وقدّم للاهتمام بالمقدّم، وأوفقُ بالاستعمال كقوله:

وَمَنْ يَكُ أَمْسَى بِالْمَدِينَةِ رَحْلُهُ فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ[١٢٤٣]

فإن المذكور خبر ﴿**إِنَّ**﴾ وخبر «قَيَّارٌ» محذوف، والتقدير: وقيّار بها كذلك وسط بها بين إجراء جملة «إن» على نيّة التَّأخير تأكيدًا لتأثر الغربة فيه، فإن قيَّارًا مع كونه بهيمة إذا تأثر بها فهو أولى به، ولا يجعل المذكور خبر «قَيَّار» والمحذوف خبر «إن»؛ لأنه يلزم دخول اللام في خبر المبتدأ الغير المنسوخ بـ«إن» وهو قليل، وقد يعارض بأنَّ ترك الفصل بين المبتدأ، والخبر أنسب، والإلحاق بالأقرب أقربُ، والاستعمال في قوله:

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفٌ[١٢٤٤]

يشهد له حيث لم يقل: راضون، وإنما اعتبر نيَّة التأخير ليسلم عن الفصل بين اسم «إنَّ» وخبره، وليعلم أن الخبر ماذا على ما أشار إليه بقوله: كذلك هذا والمذكور في كتب النحو: أن اختيار سيبويه في نحو: «زيد وعمرو قائم» أن المذكور خبر

١٢٤١ **عرائس البيان** للبقلي، ٣٢٣/١.

١٢٤٢ **الكشاف** للزمخشري، ٦٤٧/١.

١٢٤٣ **الكتاب** عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٧٥/١؛ **حاشية الكشاف للتفتزاني**، و٣١٥و؛ **حاشية الشهاب**، ٥١٤/٣.

١٢٤٤ **الكتاب** لسبويه، ٧٥/١؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٢٦/٥؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٤٢/٧.

عن الثاني، فما ذكر المصنف أن سيبويه أنشد شاهدًا له ينبغي أن يحمل على أنه أنشده شاهدًا لمجرد الرفع على الابتداء، لا للرَّفع على الابتداء مع حذف خبره ونيّة التأخير؛ إذ لا شهادة في البيت بذلك، اللَّهم إلا أن يقال: إن الظرف أعني: «ما بقينا» بمعنى: مدة بقائنا متعلِّق بـ«بُغَاةٌ» وهو شاهد بكون الخبر للأوَّل؛ إذ لا يصحّ أن يقال: أنتم بغاة ما بقينا، بل: ما بقيتم، ولو جعلته متعلّقًا بالظرف الواقع خبرًا عن الأوّل، أي: أنا في شقاق ما بقينا، و«بغاة» خبرًا عن الثاني على أنها جملة معترضة لم تكن مما نحن فيه أصلًا لاختلاف الخبرين، وذكرهما من غير حذف، وقد يقال: إن المصنف اختار في الآية خاصّة كون الخبر للأوَّل، والحذف من الثاني، مع نيَّة التقديم؛ لأن الكلام مسوق لبيان حال أهل الكتاب، فصرف الخبر المذكور إليهم أولى. «والصابئون»: أشد الفرق ضلالًا على ما ذكر المصنف، فاعتبار ذكرهم متأخرًا قدّم لمزيد الاهتمام أولى، وبالدلالة على هذا الغرض أوفى، وأيضًا في صرف الخبر إلى الثاني قطع للنصارى عن اليهود وتفرقة بين أهل الكتابين؛ لأنه حينئذ عطف على ﴿الصَّابِئُونَ﴾ قطعًا نعم، لو صح أن المنافقين واليهود أوغلُ المعدودين في الضلال، والصابئين والنصارى أسهلُ صح تعاطفهما، وجعل المذكور خبرًا عنهما، وترك كلمة التحقيق المذكورة في الأولين دليلًا على هذا المعنى، والبيت لبشر بن أبي حازم، وقبله:

إِذَا جُزَّتْ نَوَاصِي آلِ بَدْرٍ فَأَدُّوهَا وَأَسْرَى فِي الْوَثَاقِ[١٢٤٥]

وذلك أن بني بدر من فَزارَة، وهم خلفاء أسد جاوروا «بني لَأْمٍ» من طيّ، فعمد «بنو لأم» إليهم فجزُّوا نواصيَهم وقالوا: مننَّا عليكم ولم نقتلكم، وحبسوهم فيقول بشر: أدّو غرامة الجزّ والمحبوسين معًا وإلا فاعلموا أنَّا نَظْلِمكم أبداً كما ظلمتمونا.[١٢٤٦] ثمَّ إنَّ الجملة الحاصلة من المرفوع، وخبره المحذوف كالاعتراض؛ لكونه في أثناء الكلام؛ للتأكيد، أمَّا في الآية فظاهر، وأمَّا في البيت فلأن إثبات النفي للمخاطبين مع كونهم بادين في الخيانة، واغلين في الشَّرّ، لا يقين بأن يرجعوا ويعتذروا، يؤكد ثبوته لنا مع كوننا بصدد الانتقام، ودفع نقيصة الضيم والعار، ولم يكن حقيقة الاعتراض لتحقيقه في العطف.[١٢٤٧]

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

لَمَّا ورد أن يقال: كيف قيل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ثم قيل: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ وإنه كتحصيل الحاصل؟

أجاب المصنف بوجهين، أحدهما: التأويل في ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بأن يراد الإيمان باللِّسان، فلا يكون الإيمان بالقلب تحصيل الحاصل. وثانيهما: التأويل في ﴿مَنْ آمَنَ﴾ بأن يراد به الثبات على الإيمان، فيصحُّ في حقّ المؤمنين الخلّص [٧١/ظ] من غير محذور، فظهر أنه لم يذكر أحد الوجهين وترك الآخر، كما توهّم نعم، في الثاني: شبه جمع بين الحقيقة والمجاز، ويدفع بأنَّ الثبات على الإيمان ليس غير الإيمان، بل هو وإحداث الإيمان فردان من مطلق الإيمان ومع هذا فالوجه هو الأوَّل؛ إذ في ضَمِّ المؤمنين إلى الكفرة في هذا المعنى إخلال بتكريمهم، وبما ذكر من النّكتة في تقديم ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾، ولما ورد أن يقال: ما محلُّ ﴿مَنْ آمَنَ﴾؟ أجاب عنه: بأن فيه ثلاثة أوجه: الرفع على الابتداء، والنَّصب بدلًا من مجموع: «الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى»، أو: «من الذين هادوا والنصارى» وهذا هو المعنى بقوله: «أو من المعطوف عليه»،[١٢٤٨] أي: من الذي عطف على اسم «إنَّ»، ولو قال: مما عطف عليه لَكان أظهر؛ إذ قد سبق، أي: بعض الأفهام أن المراد المعطوف عليه أعني: اسم «إن»، وحينئذ يكون «الذين هادوا والنَّصارى» في حكم «الصابئون» في الرفع والقطع. وتحتمل ما ذكره المصنف؛ إذ في جعلها في حكم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في النصب

[١٢٤٥] **خزانة الأدب** للبغدادي، ٣٧/٤.

[١٢٤٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٥و-ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٢٩٣/٣-٢٩٥.

[١٢٤٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٦و.

[١٢٤٨] **الكشاف** للزمخشري، ٦٤٨/١.

والعطف تخلّل الفاصل بين البدل والمبدل منه، بخلاف ما إذا جعلا في نيّة التأخير ك«الصابئون»، وما يقال: من أن الإبدال من المعطوف يستلزم الإبدال من المعطوف عليه على اسم «إنَّ»، كما ذكره المصنف في قوله: ﴿**إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ**﴾ [التوبة ٢٥/٩]، وحينئذ لا يكون وجهًا آخر ممنوع. فإن قيل: ما ذكر من الوجوه الثلاثة في محل ﴿**مَنْ آمَنَ**﴾ هل يجري في وجهي المراد من ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ و﴿**مَنْ آمَنَ**﴾ ويختصّ البعض بالبعض؟ قلنا: إن جعلته إحداث الإيمان والثبات عليه من أفراد الإيمان جاز إجراء الكلّ في كلّ من الوجهين، والأخصّ الرفع على الابتداء، والنَّصب على الإبدال من المجموع، بماذا أريد ب﴿**الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ المنافقون والنَّصب على الإبدال من المعطوف بماذا أريد بهم خلّص المؤمنين؟ إذ لو أريد ب﴿**الَّذِينَ**﴾ المنافقون لا يستقيم قوله: ﴿**وَلَا خَوْفٌ**﴾.[١٢٤٩]

ولما ورد أن يقال: أين الراجع إلى اسم ﴿**إِنَّ**﴾ على تقدير ارتفاع ﴿**مَنْ آمَنَ**﴾ على الابتداء؛ إذ على تقدير كونه بدلًا فخبر ﴿**إِنَّ**﴾ هو قوله: ﴿**فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**﴾ وضمير ﴿**عَلَيْهِمْ**﴾ عائد إلى اسم ﴿**إِنَّ**﴾ بلا حاجة إلى تقدير حذف والعجب ممن يوهم العكس؟

أجاب: بأنه محذوف تقديره: من آمن منهم ،كما جاء في موضع آخر.[١٢٥٠]

وقرئ: «والص͏ّ͏ابئين»[١٢٥١]بالياء والنون بعد الهمزة، وهي واضحة وإن كان فيها مخالفة لرسم المصحف وهي مخالفة يسيرة.[١٢٥٢]

«والصَّابِيُون»[١٢٥٣] بياء صريحة، وهو من تخفيف الهمزة كقراءة من قرأ «يستهزيون».[١٢٥٤]

«وَالصَّابُونَ»[١٢٥٥] بحذف الهمزة من صبا بإبدال الهمزة ألفًا، أو من صَبَوْتُ؛ لأنهم صَبَوا إلى اتِّباع الهوى والشَّهوات في دينهم، ولم يتَّبعوا أدلّة العقل والسمع.[١٢٥٦]

قال الجوهري: يقال: صَبَأَ الرَّجُلُ صُبُؤًا، إذا خرج من دينٍ إلى دين، وصبأ أيضًا إذا صار صابئًا.[١٢٥٧] والصابئون جنس من أهل الكتاب، وصَبَا يَصْبُوا صَبْوَةً أي: مال إلى الجهل.[١٢٥٨]

وقيل: ﴿**وَالصَّابِئُونَ**﴾[١٢٥٩]منصوب بالفتحة، وعلامة النصب فيه فتحة النون ، والنون حرف الإعراب كالتي في «الزيتون».

وقيل :كما جو͏ّز بالياء جوّز بالواو قال:

[١٢٤٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٥و-ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٢٩٨/٣-٢٩٩.

[١٢٥٠] **الكشاف** للزمخشري، ٦٤٨/١؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٦و-ظ.

[١٢٥١] وهي قراءة شاذّة مروية عن ابن مسعود وأبيّ وعائشة وسعيد بن جبير والجحدري. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٥٨.

[١٢٥٢] **الكشاف** للزمخشري، ٦٤٨/١؛ **الفريد** للهمذاني، ٤٧٣/٢.

[١٢٥٣] وهي قراءة شاذّة مروية عن الحسن والزهري. **المحتسب** لابن جني، ٢١٦/١.

[١٢٥٤] **الكشاف** للزمخشري، ٦٤٨/١.

[١٢٥٥] **النشر** لابن الجزري، ١٩٢/٢.

[١٢٥٦] **الكشاف** للزمخشري، ٦٤٨/١.

[١٢٥٧]**الصحاح** للجوهري، «صبأ».

[١٢٥٨]**مختار الصحاح** للرازي، «صبأ»؛ **لسان العرب** لابن منظور، «صبأ».

[١٢٥٩] وهي قراءة شاذّة، مروية عن ابن مسعود. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٥٨.

وَكَانَ لَنَا أَبو حَسَنٍ عَلِيٌّ أبًا بَرًّا وَنَحْنُ لَهُ بَنِينَ[١٢٦٠]

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

خبر قوله: ﴿مَنْ آمَنَ﴾، والجملة على ما مرَّ من كونها خبر ﴿إِنَّ﴾ أو بدلًا على الوجهين المذكورين، أو خبر المبتدأ إن ابتدئ بقوله: ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾. ولَمَّا ورد أن يقال: لِمَ لَمْ يكن ارتفاع ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ بالعطف على محلِّ ﴿إِنَّ﴾ واسمها على ما هو تعبير الأكثرين بناءً على جعله الحرف مع الاسم جميعًا بمنزلة اسم مفرد هو المبتدأ؛ إذ الاسم وحده منصوب بـ«أن» ليس له في هذا التركيب محلّ رفع البتّة، غايته أنه كان قبل دخول العامل مرفوعًا، وعلى محل اسمها على تعبير البعض بناءً على أن معنى كونه مرفوع المحل أنه كان قبل دخول العامل مرفوعًا؟

أجيب: بأن ذلك العطف مشروط بالفراغ من الخبر؛ إذ لو عطف عليه قبله كان الخبرُ خبرَ المبتدأ وخبرَ «إنَّ» معًا فيجتمع عليه عاملان.[١٢٦١]

ولَمَّا ورد عليه أنه إنما يشترط الفراغ من الخبر لفظًا كما في: أنّ زيدًا قائم وعمرًا، وتقدير الخبر: إنَّ زيدًا وعمرو قائم فلم لا يحمل الآية على هذا بأن يجعل ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ إلى آخره خبرًا عن ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ فقط، فيكون من قبيل: إن زيدًا وعمرو قائمٌ لا عن المجموع ليكون مثل: إن زيدًا وعمرو قائمان.

أجاب المصنّف عنه: بأنه لا يصحّ لاستلزامه اختلاف العامل في المبتدأ والخبر حيث كان العامل في ﴿الصَّابِئُونَ﴾ هو الابتداء من جهة كونه عطفًا على محلّ ﴿إِنَّ﴾ مع اسمها وفي الخبر هو أن قطعًا، فلو جعلت الخبر مرفوعًا بـ﴿إِنَّ﴾وبالابتداء جميعًا لزم اجتماع العاملين على معمولٍ واحدٍ.

وفيه نظر؛ لأنه إنما يلزم ذلك لو كان المذكور خبرًا عنهما ليصير مثل: إن زيدًا وعمرو قائمان، وأمّا على نية التأخير واعتبار مضى الخبر تقديرًا، فيكون المذكور معمول ﴿إِنَّ﴾ فقط، وخبر المعطوف[١٢٦٢] كما في: إنَّ زيدًا قائم وعمرو عطفًا على محلّ ﴿إِنَّ﴾ [٧٢/و] مع اسمها.

وبالجملة ما ذكر لو تم لجرى في جميع صور مضى الخبر تقديرًا والقول بأنه بنى ذلك على ما ذكر من فائدة التقديم لا يكون دفعًا لهذا الاعتراض، وقد يجاب: بأن من آمن منهم صالح لخبرية المجموع والأصل عدم التقدير فلو ارتفع ﴿الصَّابِئُونَ﴾ بالعطف على المحلّ لزم المحذور، فتعيّن الرَّفع على الابتداء، ولزم تقدير الخبر ونيّة التأخير، وهو معارض بأن ﴿الصَّابِئُونَ﴾ صالح للعطف على المحلّ، فتقدير الخبر ونيّة التأخير كما لزمكم فيحمل عليه من غير لزوم محذور، والحق أنه محتمل للوجهين والشأن في الترجيح، وكذا إذا أخّر مثل: إن زيدًا قائم وعمرو يحتمل العطف على المحلّ، فيكون من عطف المفردات، وأن يرتفع بالابتداء فيكون من عطف الجمل.

وقيل: ﴿إِنَّ﴾ بمعنى: «نعم» فيكون حرف جواب كـ«نعم»، فيكون ما بعدها مرفوع المحلّ على الابتداء وما بعده معطوف عليه بالرفع وخبر الجميع قوله: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ وكونها بمعنى: «نعم» قول مرجوح.

[١٢٦٠] **خزانة الأدب** للبغدادي، ٧٦/٨.

[١٢٦١] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٢/١.

[١٢٦٢] ج – محذوف.

قال به بعض علماء العربية وجعل منه قوله: ﴿**إِنْ هٰذَانِ لَسَاحِرَانِ**﴾ [طه ٢٠/٦٣] في قراءة من قرأ بالألف وقول عبد الله بن الزبير «إنَّ وصاحبها» جوابًا لمن قال له: «لعن الله ناقةً حملَتْني إليك»، أي: نعم وصاحبها. قال:

بَرَزَ الغَوَانِي فِي الشَّبَابِ   يَلُمْنَنِي وأَلُومُهُنَّهْ

ويَقُلْنَ شَيْبٌ قَدْ عَلَاكَ   وَقَدْ كَبِرْتَ فَقُلْتُ إِنَّهْ[١٢٦٣]

وأجيب: بأن الاسم والخبر محذوفان في قول ابن الزبير، وبقى المعطوف على الاسم دليلًا عليه، والتقدير: إنها وصاحبها ملعونان. ولو سلم كونها بمعنى «نعم» في الجملة، فلا نسلم صحّته ههنا؛ لأنها لم يتقدَّمها شيء تكون جوابًا له، و«نعم» لا تكون ابتداء كلام، وإنما تقع جوابًا لسؤالٍ، فتكون تصديقًا له.[١٢٦٤]

اللهمَّ إلا أن يقال: كما أن إن تجيء بمعنى «نعم» عند البعض يكون «نعم» في ابتداء الكلام أيضًا عند البعض لتقرير الآتي

﴿**لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠)**﴾

﴿**أَخَذْنَا**﴾ ميثاقهم في كتبهم بالإيمان بالله، وبجميع الأنبياء ﴿**وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا**﴾ لتحدّدوا ذلك ويذكروهم ويتبينوا أمر دينهم، ﴿**كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ**﴾ بما يخالف هواهم من الشرائع ومشاقِّ التكاليف، ﴿**فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ**﴾

ولم يجوّز المصنف كونه جوابًا للشرط لوجهين، أحدهما: أنه تفصيل لحكم إفراد الجميع الواقع في قوله: ﴿**وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا**﴾ أي: كلّما جاءهم رسول من الرسل، والمذكور بقوله: ﴿**فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ**﴾ يقتضي أن يكون الجائي في كل مرة فريقين فبينهما تدافع، وثانيهما: أنه على تقدير قطع النظر عن هذا المانع لا يحسن في مثل هذا المقام تقديم المفعول، مثل: إن أكرمتَ أخي أخاك أكرمتُ؛ لأنه يشعر بالاختصاص وتقرير الفعل مع النزاع في المفعول، وتعليقه بالشرط يشعر بالشك في أصل الفعل، وقيل: لأنه لابدّ من الفاء؛ لأن محلّ تأثير الشرط هو الفعل، وتقديم المفعول يبعده عن المؤثر فيحوجه إلى رابط، ولأنه بتقديم المفعول أشبه الجملة الاسمية المفتقرة إلى الفاء، وإنما قدر الجواب المحذوف ناصبًا دون استكبروا، كما هو صريح في قوله تع: ﴿**أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ**﴾ [البقرة، ٢/٨٧]؛ لأنه أدخل في التوبيخ على ما قابلوا به مجيء الرسول لهدايتهم، وأنسب بما وقع في التفصيل مستقبحًا غاية الاستقباح مذكورًا بطريق الاستحضار وهو قتل الأنبياء، فإن الاستكبار إنما يفضي إلى ذلك بواسطة المناصبة، وأمَّا في الآية الأخرى فقد قصد إلى استقباح الاستكبار نظرًا إلى قبحه في نفسه، وإفضائه إلى المناصبة وما يترتّب من التفصيل.[١٢٦٥]

وجوزه قدس سره: فلعلّه نظر إلى أن لفظ ﴿**رَسُولٌ**﴾ وإن دلَّ على الوحدة إلا أن قوله: ﴿**كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُ**﴾ يدلُّ على كثرة الرُّسل، فجاز جعلهم فريقين بالنظر إلى ذلك، وأن تقديم المفعول يجوز أن يكون للاهتمام ببيان أن كل واحد ممن

[١٢٦٣] ج- قال: بَرَزَ الغَوَانِي فِي الشَّبَابِ يَلُمْنَنِي وأَلُومُهُنَّهْ ويَقُلْنَ شَيْبٌ قَدْ عَلَاكَ وَقَدْ كَبِرْتَ فَقُلْتُ إِنَّهْ. **خزانة الأدب** للبغدادي، ١١/٢١٦؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٧/٤٤٣.

[١٢٦٤] **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٧/٤٤٣؛ **حاشية محي الدين شيخ زاده، ٣/٥٦٠.**

[١٢٦٥] **حاشية الكشاف للتفتزاني،** ٣١٦ظ.

كذّبوه وممن قتلوه من الرسل فريق في جماعة متكثرة منهم ليس بواحد ولا اثنين، وأن عدم الفاء لظهور الربط من حيث المعنى، ثم إن الجملة الشرطية صفة لـ﴿**رُسُلًا**﴾ والراجع محذوف، أي: رسول منهم، ولما ورد أن يقال: لم جيء بأحد الفعلين ماضيًا وبالأخر مستقبلًا، أجاب بأن كذبوا على أصله، وإنما عدل في ﴿**يَقْتُلُونَ**﴾ إلى المضارع لقصد الاستحضار استفضاعًا للقتل واستحضارًا لتلك الحال الشنيعة للتعجب، وإنما لم يذكر وجه الاستمرار وهو أنهم بعد يحومون حول قتل محمد عليه الصلاة والسلام؛ لأن هذا خبر عن أسلافهم، وإنما يستقيم ذلك في المخاطبين الموجودين في زمن محمد كما في قوله تع: ﴿**أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ**﴾ [البقرة، ٨٧/٢].

وعبارته قدس سره: «على حكاية الحال الماضية استحضارًا لها واستفظاعًا للقتل، وتنبيهًا على أن ذلك ديدنهم ماضيًا ومستقبلًا، ومحافظة على رؤوس الآي»،[١٢٦٦] [**٧٢**/ظ] فلعله أراد الماضي والمستقبل الواقع في زمن الماضي الذين أخبر عنهم لا المستقبل الواقع عند نزول الآية فلا ينافي ما ذكرنا.

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١)﴾

وحسب بنوا اسرائيل أن لا يصيبهم بلاءٌ وعذاب في الدنيا والآخرة بسبب تكذيبهم الأنبياء وقتلهم،[١٢٦٧] إما لأنهم كانوا يعتقدون أن النسخ ممتنع على شرع موسى، فكانوا يعتقدون لذلك أن الواجب عليهم في كل رسول جاء بشرع آخر أنه يجب عليهم تكذيبه وقتله، وإما لأنهم وإن اعتقدوا في أنفسهم أنهم مخطئون في ذلك التكذيب والقتل إلا أنهم كانوا يقولون: نحن ابناء الله وأحباؤه وكانوا يعتقدون أن نبوة أسلافهم وآبائهم يدفع عنهم العذاب الذي يستحقّونه بسبب القتل والتكذيب.

وقيل: الفتنة: المحنة، أي: حسبوا أن لا تأتيهم الرُّسل بامتحانهم على خلاف ما أحدثوا بهوى أنفسهم.[١٢٦٨]

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿**أن لا تكونُ**﴾[١٢٦٩]برفع النون على أنَّ ﴿**أَنْ**﴾ غيرُ ناصبة، بل مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن المحذوف، و﴿**لَا**﴾ نافية، و﴿**تَكُونُ**﴾ تامة، ﴿**فِتْنَةٌ**﴾ فاعلها، والجملة الفعلية التي هي خبر ﴿**أَنْ**﴾ مفسرة لضمير الشأن؛ فعلى هذا ينبغي أن يجعل فعل الحسبان لليقين لا للظنّ؛ لأن المخففة من الثقيلة لكونها للتأكيد، كالثقيلة لا تقع إلا بعد فعلٍ يدلُّ على التحقيق والثبات نحو: العلم واليقين، كما «أن» الخفيفة الناصبة لا تقع إلا بعد أفعال الشك قضاء لحق المناسبة، فالأفعال التي تحتمل الشك واليقين يجوز أن تقع بعدها «أن» الناصبة نظرًا إلى تحمل معنى الشك، و«أَنْ» المخففة من الثقيلة نظرًا إلى تحملها معنى التعين ومن نصبه جعل فعل الحسبان على ظاهره، وقال: إن القوم كانوا يكذبون ويقتلون لأجل حفظ الجاه والرياسة وكانوا بقلوبهم عارفين بخطائهم فلا يأمنون كلّ الأمن عن أن يصيبهم بسببه فتنه لكنهم يظنون الاندفاع بما ذكر[١٢٧٠] ومَنْ رفعه جعله للمتقين، وقال: إنهم كانوا جازمين أن لا يكون فتنة لجمعهم وعتوّهم

[١٢٦٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٢/١.

[١٢٦٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٣/١.

[١٢٦٨] **تأويلات القرآن** للماتريدي، ٢٧٨/٤؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٤٥/٥.

[١٢٦٩] **التيسير** للداني، ص ٣٣٦. **النشر** لابن الجزري، ١٩٢/٢.

[١٢٧٠] ج – بما ذكر.

و«أنْ» الناصبة أو «أَنْ» المخففة بما في حيِّزه جملة قامت مقام مفعولي «حسب»؛ لأن معناه: وحسبوا الفتنة غير نازلة بهم، وهذا عند جمهور البصريين، وقال أبو الحسن: إنها قائمة مقام المفعول الأول ومفعولة الثاني محذوف، والتقدير: حسبوا عدم الفتنة كائنًا أو حاصلًا.[١٢٧١]

وينبغي لمن رفع أن يفصل كلمة ﴿**أَنْ**﴾ من ﴿**لَا**﴾ في الكتابة بأن ثبت لها صورة منفصلة غير مدرجة في ﴿**لا**﴾؛ لأن الهاء المضمرة حائلة في المعنى، ومن نصب بنفي له أن لا يفصلها من كلمة «لا»، بل يدرجها فيها لعدم الحائل بينهما.

وقال بعضهم: وهذا التفصيل ربما ساغ في غير مصحف الإمام، أما المصحف فلم يرسم إلا على الاتصال بمعنى أنه لم يثبت له كلمة أن صورة منفصلة عن صورة ﴿**لا**﴾.

﴿**فَعَمُوا**﴾ عن الدين، أو الدلائل والهدى ﴿**وَصَمُّوا**﴾ عن استماع الحقِ، كما فعلوا حين عبدوا العجل، عطفه على ﴿حَسِبُوا﴾ بالفاء للدلالة على أن الحسبان المؤدي إلى تكذيب الرُّسل، وقتلهم كان سببًا قريبًا؛ لرين قلوبهم وعدم إبصارهم الحقّ، ولا قبح ما صنعوا وعدم استماع المواعظ والزواجر عما ارتكبوه من المعاصي؛ وعبّر عن جهلهم بالحقِ وكفرهم به،[١٢٧٢] وعدم تبصُّرهم واستبصارهم وإضفائهم بالعمى والصمم؛ لكونه أبلغ في الدلالة على بعدهم من الحقِ، وعدم اتصافهم به بوجه ما فكأنّهم كانوا عميًا وصمًّا أيفت مشاعرهم، وتعطَّلت قواهم عن ضواحيها ﴿**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ**﴾ أي: ثم تابوا فتاب الله عليهم.

وقيل: ثم أرسلها الله رسلًا فأجابوهم، وتابوا فقبل الله توبتهم.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «شر العَمَى عَمَى الْبَصِيرَةِ».[١٢٧٣] وقال ع م: «ويل للأقماع من النار».[١٢٧٤]

﴿**ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**﴾

كرَّة أخرى.[١٢٧٥] قال المصنف: «بطلبهم المحال غير المعقول في ذات الله وهو الرؤية»،[١٢٧٦] «كأنه يشير إلى أن طلب الرؤية أدخلُ في العمى والصمم، فـ﴿**ثُمَّ**﴾ للاستبعاد لا للتراخي؛ لأن طلب الرؤية كان من الذين كانوا معه في الطّور، وعبادة العجل من المتخلِّفين».[١٢٧٧]

وأنت خبير بأن العَمى والصمَّم لم يكن بمجرّد طلب الرؤية، بل بطلبها من غير استعداد في غير أوانه بغير وجهه.

وقرأ الجمهور: ﴿**عَمُوا وَصَمُّوا**﴾ بفتح العين والصاد، والأصل: عَمِيُوا وصَمِمُوا على وزن عَلِمُوا، فأعِلَّ الأول بالحذف، والثاني بالإدغام.[١٢٧٨]

[١٢٧١] **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥٦٢/٣.

[١٢٧٢] **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥٦٢/٣.

[١٢٧٣] **الزهد والرقائق للخطيب** البغدادي، ص ٩٨ (٦٧).

[١٢٧٤] لم أجده.

[١٢٧٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٣/١.

[١٢٧٦] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٤٩.

[١٢٧٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٤١/٥؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٧و.

[١٢٧٨] **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٤٥٧/٧.

وقرئ بالضّمّ[1279] فيهما على أن الله عمّاهم، وصمّهم،فيكون عمى وصمّ الثلاثيان متعديين، نحو: عميتُه وصمَمْتُه بمعنى: رميته وضربته بالعَمَى والصَّمَم، كما يقال: «نزَكْتُه» إذا ضربتَه بالنَّيزَك،[1280] «وهو: رمح قصير، كأنه فارسيٌّ معرَّب، تكلَّمت به الفصحاءُ، والجمع: النَّيَازكُ، وقد نزَكه، أي: طعنه، وكذلك إذا نزغه وطعن فيه بالقول. ورجلٌ نزَّاك أي: عيَّاب»،[1281] إلا أنه لغة قليلة، واللغة الفاشية أنّ «عمي» و«صمّ» لازمان، وإذا عدّى أدخل عليهما الهمزة.[1282]

و﴿**كَثِيرٌ مِنْهُمْ**﴾ بدل من ضمير ﴿**عَمُوا وَصَمُّوا**﴾وهذا الإبدال في غاية [**٧٣**/و] الحسن؛ لأن بدونه يوهم أن كلّهم صاروا كذلك، أو فاعل والواو علامة لكون الفاعل المذكور صريحًا جمعًا، كما يلحق الفعل تاء التأنيث؛ ليدلّ على تأنيث الفاعل، نحو: «قامت هند»، ويعبِّرون عن هذه اللغة بلغة: «أكلوني البراغيث»، لكنّ الأفصح أن لا تلحق الفعل علامة الجمع نحو: ما ذكر وعلامة التثنية نحو: قامَا أخواك؛ لأنه غير لازم بخلاف التأنيث؛ فإنه في ذات الفاعل، أو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: «العُمْي والصمُّ كثيرٌ منهم».

جمع الأعمى والأصم فتصدق الكثير عليهم، أو مبتدأ والجملة خبره، وفيه ضعف؛ لأن تقديم الخبر في مثله ممتنع، والدليل يقتضي الامتناع والمدعي الضعيف فيجعل صورتان إحداهما جائزة والأخرى ممتنعة، وتكون الصورة الجائزة لكونها مماثلة للمنفعة من بعض الوجوه ضعيفة، والصُّورة التي امتنع فيها تقديم الخبر على المبتدأ ما يكون الخبر فيها فعلًا للمبتدأ نحو: زيد قائم، فإن تقديم المبتدأ وتأخر الخبر واجب فيها؛ لأنه لو قدم الخبر.

وقيل: قام زيد لزم التباس المبتدأ بالفاعل، وما نحن فيه وإن كان الخبر فيه فعلًا للمبتدأ يجوز فيه تقديم الخبر بأن يجعل ﴿**كَثِيرٌ مِنْهُمْ**﴾ مبتدأ وقوله: ﴿**عَمُوا وَصَمُّوا**﴾خبرًا له؛ لأنَّ تقديم الخبر فيه لا يستلزم التباس المبتدأ بالفاعل؛ لأنَّ الالتباس المذكور إنما يكون فيما إذا كان الفاعل مستترا نحو: زيد قام والفاعل فيما نحن فيه ليس بمستتر، فلا يلزم الالتباس فيه على تقدير تقديم الخبر، لكن لما كانت هذه الصورة مماثلة للصورة التي يمتنع تقديم الخبر فيها من حيث كون الخبر فعلًا للمبتدأ أي: في كلّ واحد من الصورتين كانت ضعيفة، فإن قيل: لا نم انتفاء الالتباس بالفاعل على تقدير التقديم في هذه الصورة أيضًا فإنه يلتبس به على لغة: «أَكَلُونِي البراغيثُ».

قلنا: إنها لغة ضعيفة لا يعتد بها فالالتباس بالفاعل بناءً على مثل تلك اللُّغة لا يمنع جواز التقديم، و﴿**مِنْهُمْ**﴾ صفة ﴿**كَثِيرٌ**﴾.

وقيل: ﴿**فَعَمُوا وَصَمُّوا**﴾ بعد موسى، ﴿**ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ**﴾ على عهد عيسى، ﴿**ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا**﴾ بعد عيسى.

وقال الحسن: ﴿**وَحَسِبُوا**﴾ أن لا يبتلوا في الدِّين، ولا يُفرض عليهم طاعةُ محمد ﴿**فَعَمُوا**﴾ عن الدين، ﴿**وَصَمُّوا**﴾ فيه، ﴿**ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ**﴾ فاستنقذهم بمحمد، فكذبوه، ﴿**ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ**﴾ أقاموا على اليهوديَّة.

وقال مقاتل:﴿**وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ**﴾ بلاءٌ وقحطٌ، ﴿**فَعَمُوا**﴾ عن الحقِّ، ولم يبصروه، ﴿**وَصَمُّوا**﴾ فلم يسمعوه، ﴿**ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ**﴾ رفع البلاء منهم، فلم يتوبوا.[1283]

[1279] «عُمُوا وَصُمُّوا» وهي قراءة شاذّة مروية عن يحيى وإبراهيم النخعي. **المحتسب** لابن جني، ٢١٧/١.

[1280] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٤٩.

[1281] **الصحاح** للجوهري، «نزك».

[1282] **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥٦٣/٣.

[1283] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٤٦/٥-٤٤٧.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازيهم وفق أعمالهم.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ(٧٢)﴾

أي: إني عبد مربوب مثلُكم واعبدوا الله خالقي وخالقَكم ﴿**إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ**﴾ في عبادته، أو فيما يختصّ به من الصفات والأفعال،[١٢٨٤] إما من حيثُ اللفظ كما في إطلاق «الرحمن» على غير الله، وإما من حيث المعنى كما في وصف الغير بمعرفة علم الغيب، وقد مرَّ في أول السورة: «أن الاستقسام هو: طلب ما قُسم للشَّخص مما لم يقسم له بالأزلام»، وهو الإشراك بالله في علم الغيب، وفي نسبة الحوادث إلى الكواكب كما كانوا يقولون: مُطرنا بنَوْء كذا، وفي نسبة الأفعال إلى العباد، كما يقوله المعتزلة، لا كما يقوله أهل السنة: إن الله خالق للجواهر والأعراض حقيقةً، فلا يقال: العبد خالق لأفعال نفسه حقيقةً.[١٢٨٥]

﴿**فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**﴾ أي: منع من دخولها كما يُمنع المحرَّم عليه من المحرم، ففي ﴿**حَرَّمَ**﴾ استعارة تبعيَّة للمنع؛ لأن دخول الجنة ليس في وسع العبد حتى يتعلَّق به حقيقة التحريم.[١٢٨٦]

واستدل به أهل السُنة على عدم خلود الفساق في النار، فإنه تع جعله وعيدًا للمشرك فلو كان الفسَّاق كذلك لم يكن لتخصيص الوعيد وجه.

﴿**وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**﴾ أي: وما لهم أحد ينصرهم، الظاهر موضع الضمير تسجيلًا على أنهم ظلموا بالإشراك وعدلوا عن طريق الحقّ،[١٢٨٧] وهو من كلام الله فإنه تعالى لَمَّا نَعى على النصارى قولهم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ**﴾ في أنها كلمة شنعَاء وقائلها كافر مبالغ في وضع الشيء غيرَ موضعه، أي: يقول: عيسى ع م بيانًا؛ لِتبرئة عنهم وخذلانه إياهم، فذيّل بقوله: ﴿**وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**﴾ تأكيدًا،[١٢٨٨] على معنى: أنهم ظلموا وعدلوا عن الحقّ فيما تقَوَّلُوا على عيسى، فلذلك لم يساعدهم عليه ولم ينصر قولهم؛ وردَّه وأنكره، وإن كانوا معظَّمين له،[١٢٨٩] أو من كلام عيسى فإنه ع م لَمَّا سوَّى بينه وبينهم في العبودية بقوله: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ**﴾ ردًّا لزعمهم أن الله هو المسيح، وعلَّله بقوله: ﴿**إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ**﴾ زيادةً للتبرّي عنهم ذيَّله بقوله: ﴿**وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**﴾ مزيدًا للتقرير، يعني: أني بريء مما تقولون، ولا يصح لي[١٢٩٠] أن أساعدكم وأنصركم مع هذا الظُّلم؛ لأن العارف العالم لا يساعد أحدًا على الظلم الفاحش والباطل البيّن بطلانه،[١٢٩١] أو لا ينصركم ناصر في الآخرة من عذاب الله، والوجه الأول أبلغ؛ لأن في الجملة القسمية معنى

[١٢٨٤] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥٠؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٣/١.

[١٢٨٥] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٤٢/٥.

[١٢٨٦] **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥٦٣/٣.

[١٢٨٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٣/١.

[١٢٨٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٤٣/٥.

[١٢٨٩] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥٠.

[١٢٩٠] ج– لي.

[١٢٩١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٤٤/٥.

التعجُّب وقد قُيِّدت بالحال المقررة لجهة الإشكال، [**٧٣**/ظ] وهي قوله: ﴿**وَقَالَ الْمَسِيحُ**﴾، كأنه قيل: ما أكفرهم، والحال أن عيسى وصَّاهم بخلافه وبالغ في الوصيَّة وأكَّدها أبلغ تأكيد.[١٢٩٢]

وعن المصنف: إنما قيل: ﴿**مِنْ أَنْصَارٍ**﴾ تفسيرًا لهم؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن لهم أنصارًا كثيرةً، فنفي الله منهم ما اعتقدوه مع استهزائهم وسخريتهم، وإن كان من ناصر أبلغ، ويحتمل أنه: إنما قيل: ﴿**مِنْ أَنْصَارٍ**﴾ بالنظر إلى لفظ ﴿**الظَّالِمِينَ**﴾ كما قال في قوله: ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾ [فصلت ٤٦/٤١] أنه بالنظر إلى كثرة العبيد وإن كان لفظ «ظالم» أبلغ في المعنى المقصود.[١٢٩٣]

عن ابن مسعود: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهَ صلى الله عليه وسلم أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَذَنْبٌ عَظِيمٌ».[١٢٩٤]

وعن عبادة بن الصامت عن النبي ع م قال: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عبدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ،وابنُ أَمَتِهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ منه، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ عَلَى ما كانَ مِنَ العَمَلِ».[١٢٩٥]

قيل: إن سائر الأرواح البشرية هي كالمولودة من أرواح آبائهم بخلاف روحه ع م، فإنه خلقه بلا توسّط أصل.

﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)**﴾

أي: أحدُ ثلاثة على أن المراد بقولهم: ثالث الواحد من الثلاثة باعتبار حاله، أي: باعتبار مجرّد وقوعه في درجة ثالثة من الثلاثة مع قطع النظر عن العدد الآخر ويصير ذلك الواحد إيَّاه في درجة ما اشتقّ منه، ذلك الواحد بمعنى الواحد الواقع في الدرجة الثالثة من الثلاثة، لا الواحد منها باعتبار التصيير، أي: باعتبار تصيير الواحد العدد الأقلّ من الثلاثة بدرجة مثل الثلاثة، فمعنى: ﴿**ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ**﴾ باعتبار التصيير مصير الاثنين ثلاثة، ومعناه باعتبار حاله واحد من الثلاثة: باعتبار وقوعه في الدرجة الثالثة من آحاد الثلاثة.

وهذا حكاية ما قاله النسطورية، والملكانية، منهم القائلون بالأقانيم الثلاثة، وما سبق قول اليعقوبية القائلين بالاتحاد.[١٢٩٦]

وفيه طريقان: الأول: مذكور المفسرين من أنهم يقولون: الإلهية مشتركة بين الله، ومريم، وعيسى، وكلُّ واحد من هؤلاء إله، ويؤيده قوله لعيسى: ﴿**أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾[المائدة، ١١٦/٥].

[١٢٩٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٤٤/٥.

[١٢٩٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٧و.

[١٢٩٤]**صحيح البخاري، ٨/٨** (٦٠٠١). **صحيح مسلم، ٩٠/١** (٨٦).

[١٢٩٥] **صحيح البخاري، ١٦٥/٤**؛ (٣٤٣٥).

[١٢٩٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٣/١.

وفيه اختصار وهو: إن الله ثالث ثلاثة آلهة، فحذف ذكر الآلهة اعتمادًا على انفهام المراد فإنه لا يكفر من يقول: إن الله ثالث ثلاثة، إذا لم يرد أنه ثالث آلهة ثلاثة؛ لأنه ما من اثنين إلا والله ثالثهما بالعلم، كقوله: ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ**﴾ [المجادلة ٥٨/٧].

الثاني: مذكور المتكلمين حكوا عنهم أنهم يقولون: جوهر واحد: ثلاثة أقانيم: أب، وابن، وروح القدس، والثلاثة إله واحد، كالشمس اسم يتناول القُرص والشعاع والحرارة، وعنوا بالأب الذات، وبالابن الكلمة، وبالروح الحياة، فأثبتوا الذات والكلمة والحياة.

وقالوا: إن الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسم عيسى اختلاط الماء بالخمر. وزعموا أن الأب إله، والابن إله، والروح إله، والكلّ إله واحد، وهذا باطل؛ فإن الثلاثة لا تكون واحدًا، والواحد لا يكون ثلاثة،[١٢٩٧] وما في الوجود ذاتٌ واجب مستحِقٌّ للعبادة من حيث إنه مبدأ جميع الموجودات إلا إله موصوف بالوحدانية متعالٍ عن الشركة.[١٢٩٨]

ف﴿**مِنْ إِلَٰهٍ**﴾ مبتدأ، وخبره محذوف، و﴿**إِلَٰهٍ**﴾ بدل من محل ﴿**إِلَٰهٍ**﴾ المجرور ب﴿**مِنْ**﴾؛لأنه مرفوع بالابتداء و﴿**مِنْ**﴾ مزيدة في المبتدأ لوجود الشرطين كون الكلام غير موجب وتنكير ما جَرّته، أي: وما إله في الوجود إلا إله.[١٢٩٩]

«و﴿**مِنْ**﴾ للاستغراق، وهي المقدَّرة مع «لا» التي لنفي الجنس في قولك: لا إله إلا الله»،[١٣٠٠] وهذا عند الجمهور، وعند السكَّاكي: المقدر ﴿**مَا**﴾ الإبهامية لا من الاستغراقية؛ لأن تقدير الحرف العامل لو أوجب البناء لزم بناء المضاف إليه؛ لأن اللام مقدَّر، والجواب أنه لا تقدير ثمة، بل الاختصاص الإضافي هو الاختصاص الذي يفهم من اللام أو من «مِنْ».[١٣٠١]

وإنما قيل: مثل «لا رجلَ» متضمِّن لمعنى «من» الاستغراقية؛ لأن «لا رجلَ في الدار» أبلغ في النفي من «لا رجلٌ في الدار» بالرفع، وذلك بتقدير حرف مؤكِّدٍ مثبت للاستغراق، ولو أفادت «لا» الاستغراق لَما جاز قولهم: «لا رجلٌ في الدار بل رجلان».

فإن قلت: هذا مخالف لما مرَّ في آل عمران: من أن جميعًا «مِنْ» في «ما مِنْ إلهٍ إلا الله» بمنزلة البناء على الفتح في: «لا إله إلا الله» في إفادة معنى الاستغراق، قلت: قد وجَّه هناك أن الفتح يجوز أن يكون فرعًا على «من» وأن يكون كالأصل بنفسه، فإذا كان أصلا جاز أن يفرَّع عليه، وإذا كان فرعًا جاز أن يبلغ اشتهاره في الاستعمال بحيث يعكِس أمره كالصلاة في عرف الشَّرع واللغة.

وأما إفادة «مِنْ» الاستغراق فلأنها تدخل لابتداء الجنس إلى انتهائه، فقولك: هل من رجل؟ تقديره: هل من واحد هذا الجنس إلى أقصاه؟ إلَّا أنه اكتفى بذكر «من» عند ذكر «إلى» لدلالة إحدى الغايتين على الأخرى.[١٣٠٢]

وقيل: تقدير الوجود غيرُ مطابق للتوحيد الحقِّ، ولو لم يُضمرْ لكان «لا إله» لنفي الماهية، ومعلومٌ أنَّ نفي الماهيَّة [**٧٤**/و] أقوى في التوحيد الصَّرف من نفي الوجود.[١٣٠٣]

[١٢٩٧] **مفاتيح الغيب** للطيبي، ١٢/٦٤؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٧/٤٥٩-٤٦٠.

[١٢٩٨] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٥٣؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٤٤٥.

[١٢٩٩] **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٣/٥٦٤.

[١٣٠٠] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥٠.

[١٣٠١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٧و.

[١٣٠٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٤٤٤-٤٤٥.

﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤)﴾

«من» للبيان؛ لأنهم كلهم كفرة، وفي إقامة الظاهر مُقام المضمر فائدة، وهي تكرير الشهادة عليهم بالكفر في قوله: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا**﴾. «وفي البيان فائدة أخرى، وهي الإعلام في تفسير ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ**﴾ أنهم بمكان من الكفر»،[١٣٠٤] والمعنى: ﴿**لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ من النصارى خاصة، أي: لهم التربية القصوى في ذلك، لكن لا يخفى أن البيان بهم إنما يفيد أن لهم الشهرة بذلك لا الرتبة، ويدفع بأنها من لوازم الشهرة عادة.

وأمّا إفادة «مِنَ النَّصارى خاصَّةً»[١٣٠٥] فلأن منهم وإن كان في موقع الحال، لكنه في معنى الوصف وهو للتخصيص في مسّ العذاب مبالغة، أو بمعنى أن لهم في ذلك خصوصية.

وبعبارة أخرى: لَمّا ذكر أولًا ﴿**لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ على أن التعريف للجنس مبهمًا ومعمَّمًا ثم أوقع قوله: ﴿**مِنْهُمْ**﴾ تفسيرًا للمبهم وتخصيصًا للعامّ، أفاد أنهم علمٌ في الكفر وبمكان منه.

قال المصنف في قوله تع: ﴿**أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ**﴾ [الشعراء ٢٦/١٠-١١] سجّل عليهم الظلم أن قدَّم ﴿**الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾، ثم عطفهم عليهم عطفَ البيان، كأنّ معنى ﴿**الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ وترجمته: ﴿**قَوْمَ فِرْعَوْنَ**﴾.

ويمكن أن يقال: إنه من باب رأيت منك أسدًا، فجُرِّد من نفس النصارى الذين كفروا، فعُلم أنهم جنس ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ مبالغةً لكمال الكفر فيهم.[١٣٠٦]

أو للتبعيض على أن يراد بالذين كفروا بعدا على الكفر، والتعريف على هذا: للعهد، ففي إقامة الظاهر فائدة وهي التنبيه على أن العذاب على من داوم على الكفر ولم ينقطع عنه؛ ولذلك عقّبه بقوله: ﴿**أَفَلَا يَتُوبُونَ**﴾، وفي التبعيض فائدة أخرى وهي أن كثيرًا منهم تابوا من النصرانية، والمعنى: ﴿**لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ**﴾ بَقُوا على الكفر منهم عذاب أليم، أي: نوعٌ شديد الألم من العذاب، والنوعية مستفادة من النكرة والشدَّة من وصف العذاب الذي لا يكون إلا أليمًا بالألم؛ ليكون الوصف مفيدًا غير فائدة التأكيد.[١٣٠٧]

وقوله: ﴿**لَيَمَسَّنَّ**﴾ جواب قسم محذوفٍ، وجواب الشرط محذوف لدلالة هذا عليه، والتقدير: والله إن لم تنتهوا ليمسنّ. وقد تقرر أنه متى اجتمع قَسَم وشرط أجيب سابقهما، وههنا لما أجيب القسم علم أنه مقدّم في التقدير؛ لأنه لو قدّر مؤخرًا عن الشرط لأجيب الشرط دون القسم.

والهمزة في ﴿**أَفَلَا يَتُوبُونَ**﴾ للإنكار ولا نافية، والفاء عاطفة على محذوف، أي: أيصرُّون فلا يتوبون بالانتهاء عن تلك العقائد والأقوال الزائغة ويستغفرون بالتَّوحيد والتنزيه عن الاتّحاد والحلول بعد هذا التقرير المكرّر، والوعيد الشديد.[١٣٠٨]

[١٣٠٣] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٤٤٥.

[١٣٠٤] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥١.

[١٣٠٥] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥١.

[١٣٠٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٤٤٦.

[١٣٠٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٧ظ.

[١٣٠٨] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٥٣.

والظاهر أن الفاء ههنا[١٣٠٩] لا تستدعي تقديم المعطوف عليه، بل هي عاطفة على ما سبق من تقرير كفرهم والتهديد عليه، كما أشير إليه بما قيل: أفلا يتوبون بعد هذا التقرير والتهديد؛ فإن المعنى مستفاد من الفاء العاطفة الدَّالة على التعقيب. وتخللت الهمزة بعد المعطوف والمعطوف عليه لقصد التعجيب.[١٣١٠]

وقيل: الاستفهام بمعنى الأمر؛ أي: فليتوبوا إلى الله من هذه المقالات، وليؤمنوا به، وليستغفروا الله بألسنتهم ﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ يغفر ذنوب التَّائب ويرحمه، فلا يردُّ توبته ولا يعذِّبه.[١٣١١]

وقال الإمام القشيري: لم يُغْلِقْ بابَ التوبة عليهم مع قبح أقوالهم، وفساد عقائدهم وأعمالهم، تقويةً لأطماعِ المؤمنين وآمالهم.[١٣١٢]

فإذا كان غافرًا للذنوب العظام عن الفجرة اللئام، فإن يغفر المؤمن النادم أولى وأولى، ونعم القول ما قيل:

دوستانرا كجا كني محروم تو كه با دشمنان نظر داري[١٣١٣]

﴿**مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥)**﴾

﴿**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ صفة لـ﴿**رَسُولٌ**﴾ أي: ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله خصَّه الله بآيات كما خصَّهم بها، إن أبرأ الله الأبرص، وأحيا الموتى على يده، فقد أحيا العصا، وجعلها حيةً تسعى، وفلق البحر وطمس على يد موسى، وهي أعجب، وإن خلقه من غير ذكر، فقد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى فهو أغرب.[١٣١٤]

﴿**وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ**﴾ أي: ما أمّه أيضًا إلا كبعض النساء المصدقات للأنبياء، المؤمنات بهم، فالحصر مستفاد من المقام ومن العطف على الكلام الذي فيه ذلك، فما منزلتهما إلا منزلة بشرين؛ أحدهما نبيٌّ، والآخر صحابي. فمن أين اشتبه عليكم أمرهما حتى وصفتموهما بما لم يوصف به سائر الأنبياء وصحابتهم؟ مع أنه لا تميُّز ولا تفاوت بينهما وبينهم بوجه من الوجوه،[١٣١٥]

ثم صرّح ببُعدهما عما نُسب إليهما في قوله: ﴿**كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ**﴾؛ لأنّ مَنْ احتاج إلى الطعام، وما يتبعه من الهضم والنفض لم يكن إلا جسمًا مركبًا من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة مع شهوة وقوم، وغير ذلك مما يدلّ [**٧٤**/ظ] على أنه مصنوع مؤلف مدبَّر كغيره من الأجسام، هذا تقرير المصنف،[١٣١٦]

وقال قدس سره: بَيَّن أولًا أقصى ما لهما من الكمال، ودلَّ على أنه لا يوجب الألوهية لهما؛ لأن كثيرًا من الناس يشاركهما في مثله، ثم نبَّه على نقصهما، وذكر ما ينافي الربوبية ويقتضي أن يكونا من المركبات الكائنة الفاسدة.[١٣١٧] فتأمَّل في

[١٣٠٩] ج– ههنا.

[١٣١٠] **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٥٦٥/٣.

[١٣١١] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٤٩/٥.

[١٣١٢] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٢٧٤/١؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٤٩/٥–٤٥٠.

[١٣١٣] **گلستان** لسعدي الشيرازي، ص ١٧.

[١٣١٤] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٤/١.

[١٣١٥] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥١.

[١٣١٦] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥١.

الفرق بين التقريرين، والتفاوت بين التحريرين، ويمكن أن تكون الآية على منوال قوله تع: ﴿**عَفَى اللهُ عَنْكَ لِمَا أَذِنْتَ لَهُمْ**﴾ [التوبة ٩/٤٣]رفع من شأنهما أوَّلًا بأقصى ما لهما من الكمال، ثم جِيء بالمطلوب، وهو إبطال إلٰهيّتهما بأدنى ما لهما من النقصان لئلا يوحشهما إذا وجّها به ابتداء.[١٣١٨]

﴿**انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ**﴾«أي: الأعلام من الأدلة الظاهرة على بطلان قولهم».[١٣١٩] والمراد بالنَّظر: التَّدبر والإبصار بعين القلب، والاعتبار والنبيين للإيضاح ﴿**ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ يصرفون عن استماع الحق وتأمُّله والاستبصار به.[١٣٢٠]

و﴿**أَنَّ**﴾ بمعنى «كيف» في موضع الحال، والعامل فيها ﴿**يُؤْفَكُونَ**﴾ ولا يعمل فيها ﴿**أُنظُرْ**﴾؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، و﴿**ثُمَّ**﴾ لتفاوت ما بين العجبين أي: أن بياننا للآيات عجب وإعراض عنها أعجب.[١٣٢١]

وقيل: هذا تعجيبٌ من الله في ذهابهم عن الفرق بين الرَّبِّ والمربوب.[١٣٢٢] واعلم أنّ أسباب الانصراف عن التأمُّل فيها كثيرة، منها: التقليد لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه، وثبت في النفس التعصّب له بمجرَّد الاتّباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة، والإصرار على الذنب، والاتصاف بالكبر، والابتلاء بهوى مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصداه. فالقلب مثل المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة. وقد شرط الله الإنابة في الفهم والتَّدبر، فقال: ﴿**تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ**﴾ [ق٥٠/٨]، وقال: ﴿**وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ**﴾[غافر٤٠/١٣].[١٣٢٣]

وقد جعل الكبر مانعًا للتّفكُّر والتّذكر، وقال: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ [الأعراف ١٤٦/٧]،فمن لم يصقل مرآة نفسه، وزجاجة قلبه بل ران عليها كُدُورة ضابية لا يتأمّل في الآيات، ولا يتذكَّر من البيِّنات.

﴿**قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦)**﴾

﴿**مَا**﴾ عامَّة في جميع الأشياء، نبّه به على عيسى من جملة المخلوقين فلا يصلح للإلهيَّة، وأن يكون شريكًا لله؛ لأنه لا يضرُّكم ولا ينفعكم بمثل ما يضرّكم به الله وينفعكم،[١٣٢٤] ويقرب منه ما قال قدس سره: «وإنما قال: «ما» نظرًا إلى ما هو عليه في ذاته توطئةً لنفي القدرة عنه رأسًا وتنبيهًا على أنه من هذا الجنس، ومَن كان له حقيقةٌ تقبل المجانسة والمشاركة فبمعزلٍ عن الألوهيَّة، وتقديم الضرِّ؛ لأن التحرُّز عنه أهمُّ من تحرِّي النفع»،[١٣٢٥] فعلى هذا قوله: ﴿**وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ متعلِّق بقوله: ﴿**أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ فيكون حالًا مقرِّرةً لجهة الإشكال، ويكون على معناه توبيخًا لهم وتهديدًا، أي: أتشركون بالله ولا تخشونه وهو الذي يسمع ما تقولون ويعلم مما تعتقدون؟ أو وَصْفٌ جيء به تحقيرًا؛ أي: أتعبدون من دون الله هذا الموصوف الذي لا يملك نفعًا ولا ضرًّا أصلًا؛ لأن كل ما يستطيعه البشر من المضارِّ والمنافع فإقدار الله وتمكينه، فكأنه لا يملك منه شيئًا،

[١٣١٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٤/١.

[١٣١٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/ ٤٤٧-٤٤٨.

[١٣١٩] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥١.

[١٣٢٠] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٤/١.

[١٣٢١] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٤/١.

[١٣٢٢] **مدارك التنزيل** للنسفي، ٤١٥/١؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٥/ ٤٥١.

[١٣٢٣] **إحياء علوم الدين** للغزالي، ٢٨٤/١.

[١٣٢٤] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١ ٦٥.

[١٣٢٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٤/١.

وعلى هذا يكون قوله: ﴿**وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ متعلّقًا بقوله: ﴿**مَا لَا يَمْلِكُ**﴾ حالًا من معناه، فيكون كناية عن القدرة؛ أي: «أتعبدون العاجز الذي لا يقدر على شيء والله هو السميع العليم؟ الذي يصحُّ منه أن يسمع كل مسموع، ويعلم كل معلوم، ولن يكون كذلك إلا وهو حي قادر.[١٣٢٦]

وما يكون حاله منافية لحال الربوبية كيف يصحّ أن يعبد ويتخذ إلهًا، وبيان المنافاة في هذا الوجه بالتَّعرض للجانبين في الوجه الأول لجانب واحد لحصول العلم بأن شأن الربِّ أن يكون قادرًا على كل ممكنٍ،[١٣٢٧] فيكون الحال في الوجه الثاني للدلالة على التعيير والتجهيل.

فإن قلت: هَبْ أن قوله: ﴿**السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ دلَّ على التهديد؛ لأن السامع العالم إذا علم وسمع ما يفعله المجرم يجازيه عليه، فكيف دلَّ على التعيير؟ قلت: إذا دلّ على القدرة على الكناية جاء التعيير كقوله تع: ﴿**أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ**﴾[الصافات ١٢٥/٣٧] ومثل هذين الوجهين سبق في البقرة عند قوله: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[البقرة ١١٦/٢]، وعلى الوجهين فيه دلالةٌ قاطعةٌ على أن أمره منافٍ للربوبية حيث جعله لا يستطيع ضرًّا ولا نفعًا، وصفة الربِّ أن يكون قادرًا على كلّ شيء، لا يخرج مقدور عن قدرته.

«فإن الإله هو الضارُّ النافع، وهما اللذان يصححان العبوديَّة؛ لأن المكلف إنما يعبده لِيَدفع عنه الضَرَّ ويجلب له النَّفع دنيا وعقبى، والتكرير في النفع والضَّرِّ للاستيعاب كما في قوله: ﴿**بُكْرَةً وَعَشِيًّا**﴾ [مريم ١١/١٩]،ولذلك قيل: وصفة الرَّبِّ أن يكون قادرًا على كل شيء».[١٣٢٨]

وقال القشيري: «تعليق القلب بدون الرَّبِّ في استدفاع الشَّرِّ واستجلاب الخير: إمضاء الوقت بما لا يجدي، وإذهاب العمر بما لا يغني؛ إذ المتفرِّد بالإيجاد بريءٌ عن الأنداد ومنزه عن الاضداد ».[١٣٢٩]

والسَّمِيع: هو الذي لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفا، فيعلم [**٧٥**/و] السِّر والنجوى، بل ما هو أدقُّ من ذلك وأَخْفى، ويدرك دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء.[١٣٣٠]

والعلِيمُ: هو المحيط علمًا بكل شيء، ظاهره وباطنه، دقيقه وجليله، أوَّله وآخره، عاقبته وفاتحته. وهذا من حيث الوضوح والكشف، على أتمّ ما يمكن فيه، بحيث لا يتصوّر مشاهدة وكشف أظهر منه. ولا يكون مستفادًا من المعلومات، بل تكون المعلومات مستفادة منه.[١٣٣١] وحاصله بقدرته وتمكينه وقبضته.

﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)﴾

١٣٢٦ **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/ ٤٤٩.

١٣٢٧ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٧ظ.

١٣٢٨ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٥٠/٥.

١٣٢٩ **لطائف الإشارات** للقشيري؛ ٢٧٥/١؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٥/ ٤٥١.

١٣٣٠ **المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى** للغزالي، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي دار ابن حزم، ٢٠٠٣/١٤٢٤، بيروت، ص ٨٦.

١٣٣١ **المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى** للغزالي، ص ٨٦.

قال المصنف: ﴿**غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ**﴾ صفة للمصدر، غُلوًّا غير الحق؛ أي: غلوًّا باطلًا؛ لأن الغلوّ في الدين غلوَّان: حقٌّ: وهو أن يفحص عن حقائقه ويفتّش عن أباعد معانيه، ويجتهد في تحصيل حججه كما يفعله أهل العدل والتوحيد. وباطل: وهو أن يتجاوز الحقَّ بالإعراض عن الأدلَّة واتِّباع الشُّبَه كما يفعل أهل الأهواء.[١٣٣٢]

وقد يناقش في كون الأوّل غلوًّا ومجاوزة حدّ إذ لا حدَّ لتحقيق الحقائق ما لم يتجاوز إلى الباطل، والأوجه أن يجعل ﴿**غَيْرَ الحَقِّ**﴾ حالًا من دينكم، والمعنى: إن كنتم تصرُّون على الباطل فلا تغلوا فيه مثل: ﴿**وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾[البقرة ٢/٦٠]،[١٣٣٣] أو مصدرًا مؤكِّدًا نفسه؛ لأن الغلوّ لا يكون إلا باطلًا.

«وأراد بأهل العدل والتوحيد المعتزلة الذين غَلَوْا في التوحيد، وجحدوا الصفات، وغلوا في العدل، فجعلوا إرادة الحق مغلوبة بإرادة العبد، وبأهل البدع مَنْ عَداهم، الذين أثبتوا الصفات ولم يُثبتوا خالقًا سوى الله.

ونظير الآية قوله تع: ﴿**قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ**﴾ [النساء، ١٧١/٤] غَلَتْ اليهود في حطِّ المسيح من منزلته حيث جعلوه مولودًا لغير رِشدة، وغلت النصارى في رفعه من مقداره حيث جعلوه إلهًا، والطريق القصد هو ما عليه المسلمون، كذلك القدريَّة يثبتون القدرة لغير الله مطلقًا، والجبريَّة يَسْلبون القدرة من الغير رأسًا، وأهل السنة على الصراط المستقيم، وكذلك المعطِّلة لا يثبتون لله صفات، والمجسمة يشبّهونه، وأهل السنة اختاروا القصد».[١٣٣٤]

﴿**قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ**﴾ يعني: من أسلافهم وأئمتهم الذين ضلّوا قبل مبعث محمد ع م في شريعتهم، ﴿**وَأَضَلُّوا كَثِيرًا**﴾ شايعهم على بدعتهم وضلالتهم، ﴿**وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ**﴾، عن قصد السبيل الذي هو الإسلام بعد مبعثه عليه السلام حين كذَّبوه وبَغَوْا عليه وبذلك يندفع التكرار؛ لأنه أسند أضلّوا أولًا إلى أسلافهم، وثانيًا إلى أعقابهم، وقوله: ﴿**عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ**﴾ وإن كان متعلِّقًا بالآخر فالمعنى على تعلقه بالثلاثة.

وقيل: فيه وجوه: الأول: أريد: قد ضلّوا عن سواء السبيل، فلما فصل بينه وبين ما يتعلّق به أُعيد ذكره، كقوله تع: ﴿ولا تحسبن الذين يفرحون بما أوتوا ويحبون أن أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾، الثاني: أن الضَّال قد يعتقد أنه لا يضلُّ غيره، وهو ضالٌّ بذلك، فبين الله تع أن هؤلاء ضلُّوا في أنفسهم وضلّوا بإضلالهم غيرهم، كقوله: ﴿**لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ**﴾ [النحل ٢٥/١٦] الثالث: أن لله هاديين: العقل والرسول، والعقل مقدَّم على الرسول من حيث إنه يهدي إلى معرفة الرسول، فقوله: ﴿قد ضلوا من قبل﴾ إشارة إلى ضلالهم عن مقتضى العقل، ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾: إلى ما أتى به الرَّسول.[١٣٣٥]

وروى الطبراني عن أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَا مِنْ أُمَّةٍ ابْتَدَعَتْ فِي دِينِهَا بِدْعَةً بَعْدَ نَبِيِّهَا إِلَّا أَضَاعَتْ مِثْلَهَا مِنَ السُّنَّةِ.[١٣٣٦] وروي عن أبي أمامة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما تحتَ ظلّ السَّماءِ من إلَهٍ

[١٣٣٢] **الكشاف** للزمخشري، ٦٥٢/١.

[١٣٣٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٧ظ.

[١٣٣٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٥١/٥.

[١٣٣٥] **تفسير راغب الأصفهاني**، أبو القاسم الحسين بن محمد المفضّل، الراغب الأصفهاني، تحقيق من الآية ١١٤ من سورة النساء – وحتى آخر سورة المائدة: هند بنت محمد بن زاهد سردار،كلية الدعوة وأصول الدين – جامعة أم القرى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١م. ٤١٥/٥-٤١٦؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/ ٤٥٢.

[١٣٣٦] **المعجم الكبير** للطبراني، ٩٩/١٨ (١٧٨).

يُعبَدُ أعظمُ عندَ اللهِ من هوًى متّبعٍ»[١٣٣٧] رواه الطبراني في الكبير. وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «فأمَّا المهلكات: فشُحٌّ مطاع، وهوًى مُتَّبعٌ، وإعجابُ المرء بنفسِه».[١٣٣٨]

﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨)**﴾

أي: لعنهم الله في الزبور والإنجيل على لسانهما. وقيل: أهل أَيْلَةَ لَمَّا اعْتَدَوْا في السبت لعنهم داود فقال: اللهُمَّ العَنْهُم واجْعلهم آيةً؛ ومثلاً لخلقك فمسخهم الله قردةً، وأصحاب المائدة لَمَّا كفروا دعا عليهم عيسى ولعنهم فقال: اللَّهم الْعَنْهُم كما لعنتَ أصحاب السَّبت، فأصبحوا خنازير، وكانوا خمسة آلاف رجل.[١٣٣٩]

وإنما خصّ داود وعيسى؛ لأن من قارب عهد موسى كانوا على الحقِ، وإنما حدثت هذه الضلالات بعد ذلك.

﴿**ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ**﴾ «أي: لم يكن ذلك اللَّعن الشنيع الذي كان سبب المسخ إلا لأجل المعصية والاعتداء، لا لشيءٍ آخر».[١٣٤٠]

«والحصر مستفاد من العدول عن جعله متعلِّقًا بـ﴿**لُعِنَ**﴾ إلى الجملة الاستئنافية المقولة في جواب بأيِّ سبب كان ذلك اللعن فوجب أن يكون ذلك هو السبب ليتمّ الجواب»،[١٣٤١] «ثم فسر المعصية والاعتداء بقوله: ﴿**كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ**﴾ أي: لا ينهى بعضهم بعضًا».[١٣٤٢]

﴿**عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ**﴾ على أن يكون التَّناهي [**٧٥**/ظ] تفاعلًا من النهي.[١٣٤٣]

ثم قال: ﴿**لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ للتعجيب من سوء فعلهم مؤكِّدًا لذلك بالقسم المضمر الذي يدلُّ عليه لام الجواب في ﴿**لَبِئْسَ**﴾، كأنه قيل والله بئس شيئًا فعلهم أو ما أسوء فعلهم. وفيه من النفي لتاركي الأمر بالمعروف والنهي عن المناكير ما لا يخفى.

ولَمَّا ورد أن يقال: «كيف وقع ترك التَّناهي عن المنكر تفسيرًا للمعصية والاعتداء؟».[١٣٤٤] فإن الظاهر من المعصية الفعل القبيح، ومن الاعتداء الظّلم، وتجاوز الحد، أجاب عنه المصنف بما حاصله: أن المعصية قد تكون ترك المأمور به كما يكون ارتكاب المنهي عنه، ثم فيه إبقاء على الفساد، بل إغراء فيكون اعتداء،[١٣٤٥] أو لا ينتَهُون ولا يمتنعون عن منكر فعلوه، بل يصرُّون عليه ويداومون على فعله على أن يكون التناهي بمعنى الانتهاء، يقال: انتهى عن الأمر وتناهى عنه: إذا امتنع عنه وكفَّ.

[١٣٣٧] **المعجم الكبير** للطبراني، (١٠٣/٨) (٧٥٠٢).

[١٣٣٨] **المعجم الأوسط** للطبراني، ٤٧/٦ (٥٧٥٤).

[١٣٣٩] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٥/١.

[١٣٤٠] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥٣.

[١٣٤١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٧ظ.

[١٣٤٢] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥٣.

[١٣٤٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥٦٦/٣.

[١٣٤٤] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥٣.

[١٣٤٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٧ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣٠٨/٣.

ولَمَّا ورد على الوجهين أن يقال: لا معنى للنهي عن المنكر بعد فعله، ولا للانتهاء عن المنكر بعد فعله، فلا معنى للإخبار عنهم كانوا لا يفعلون ذلك وذمّهم عليه، لكن إنما يتوجّه السؤال لو كان في الكلام دلالة على وقوع الفعل حال اعتبار تعلّق النّهي؛ إذ لا خفاء في صحة قولنا: كانوا لا ينهون يوم الخميس عن منكر فعلوه يوم الجمعة، وكذا لا ينتهون عن منكر فعلوه بعد، أجيب عنه: بأن معناه لا يتناهون عن معاودة منكرٍ فعلوه، أو عن مثل منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله وتهيئوا له.[١٣٤٦]

والمفهوم من كلام العلامتين اختصاص السؤال بالوجه الأوّل، وليس كذلك فلو أخّرا وجوه التوجيه عن التفسيرين لَكان أولى، والعلم عند المولى.

ودلَّت الآية على أن متعلّق النهي فعلُ ضدّ المنهي عنه؛ لأنه عبَّر عن ترك التناهي بقوله: ﴿**لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾، فسماه فعلًا، وخالف في ذلك أبو هاشم المعتزلي، وكذلك سمَّى تركهم النهي عن المنكر صنيعًا كما مرَّ.[١٣٤٧]

وعنه ع م: «لَمَّا وَقَع النَّقْصُ في بني إسرائيل جعل الرجل منهم يرى أخاه على الذنب فينهاه عنه ولا يمنعه ذلك من أن يكون أَكِيلَه وشريبه وجليسه فضرب الله قلوب بعضهم ببعض وأنزل فيهم القرآن: ﴿**لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ [المائدة، ٧٨/٥] إلى آخر الآيات الأربع، وكان رسول الله متَّكئًا فاستوى جالسًا، ثم قال: «كلّا والَّذي نَفْسي بيدِه حتّى تأخُذوا على يدَيِ الظّالِمِ فتأطِرُوه على الحقِّ أَطْرًا».[١٣٤٨] أي: تقطعوه.

﴿**تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)**﴾

أي: كثيرًا من أهل الكتاب في قوله: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ**﴾ [المائدة ٧٧/٥] فضمير ﴿**مِنْهُمْ**﴾ لعامَّة أهل الكتاب الموجودين في عصر النبوة فاسم ﴿**كَانَ**﴾ وفاعل ﴿**اتَّخَذُوا**﴾ ضميرًا لكثير من أهل الكتاب، فيكون المراد بالنبيِّ نبيّ كلّ فريق منهم، والمنزل إليه التورية والإنجيل، والمعنى: لو آمن كل فريق منهم بنبيّه وما أنزل إليه ما اتخذ المشركين أولياء؛ لأن تحريم ذلك مصرَّح به في شريعة ذلك النبي وفي الكتاب المنزل إليه، أو ﴿**كَثِيرًا مِنْهُمْ**﴾ وهم منافقوهم يتولَّون اليهود لتذبذبهم، فالمعنى: لو كان هؤلاء المنافقون يؤمنون بالله والنبي محمد، وما أنزل إليه يعني: القرآنَ ما اتخذوا الكفار أولياء في السِّر وهم يدعون الإسلام في العلانية، فموالاتهم مع الكفّار دليل واضح على نفاقهم وأن إيمانهم ليس بإيمان، أو كثيرًا من اليهود يتولَّون الكفّار وهم عبدة الأوثان، والمراد منهم كَعْبُ بن الأَشْرف وأصحابه حين استحثوا المشركين على الرسول، والمعنى: لو كان هؤلاء العصابة من اليهود، ويؤمنون بالله وبالنبي –وهو موسى– وبما أنزل الله في التورية كما يدعون ما اتخذوا المشركين أولياء؛ لأن تحريم ذلك متأكّد في التورية وفي شرع موسى، فلمَّا فعلوا ذلك ظهر أن مرادهم ليس تقرير دين موسى، بل تحصيل الرياسة والجاه يسعون في تحصيله بأيّ طريق قدروا عليه ﴿**لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ**﴾، أي لبئس شيئًا قدَّموه ليردوا عليهم يوم القيامة.

ف﴿**مَا**﴾ نكرة مميّز لفاعل ﴿**بِئْسَ**﴾ وقدمت لهم صفتها و﴿**أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ**﴾، هو المخصوص بالذم بتقدير المضاف، أي: موجب سخط الله والخلود في العذاب؛ لأن نفس السخط المضاف إلى الباري لا يقال

[١٣٤٦] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥٣–٦٥٤؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و ٣١٧ظ– ٣١٨و.

[١٣٤٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٥١/٥.

[١٣٤٨] **المعجم الأوسط** للطبراني ١٦٦/١(٥١٩).

إنه المخصوص بالذّم وأيضًا ليس هذا ما قدّمت لهم أنفسهم، وإنما ذلك هو الأسباب الموجبة له، أو هو علّة الذمّ على أن يقدر هناك لام العلة متعلِّقة بجملة الذم، والمعنى: بأن ما قدمت لهم أنفسهم مذموم لسخط الله إياهم بذلك وكونه سببًا له وكاسبًا لهم إياه، والمخصوص بالذم ح محذوف، أي: لبئس سيئًا قدموا عَمَلهم أو صَنيعهم، أو هو في محل الرّفع على أنه بدل من المخصوص بالذمّ المحذوف، على أن تكون كلمة ﴿مَا﴾ اسمًا تامًّا برأسه مستغنيًا عن الصلة والصفة، ويكون معرفة مرفوع المحل على أنها فاعل فعل الذمّ والمخصوص بالذَّم محذوف، و﴿قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ جملة في محلّ الرفع على أنها صفة له، والتقدير: والله لبئس الشيء شيء قدمته أنفسهم، و﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ بدل من شيء المحذوف، وهذا مذهب سيبويه في مثله.[١٣٤٩]

[٧٦/و] ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ أي: من أهل الكتاب، أو من اليهود ﴿فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن دينهم لا يكونون على مقتضاه، ولذلك يتعاطون ما هو محرَّم في دينهم، و﴿كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾: وهم منافقوهم ﴿فَاسِقُونَ﴾: متمرّدون في نفاقهم فلذلك تعارفون خلاف ما يظهرون.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الشِّركُ أخفى من دَبيبِ النَّملِ علَى الصَّفا في اللَّيلةِ الظَّلماءِ وأدناهُ أن تُحبَّ علَى شيءٍ منَ الجَورِ ، أو تُبْغِضَ علَى شيءٍ منَ العَدلِ، وَهَلِ الدِّينُ إلَّا الحبُّ والبُغضُ؟ قالَ اللَّهُ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران، ٣/٣١] الآية.[١٣٥٠]

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢)﴾

وَصَف لشدَّة شكيمة اليهود وصعوبة إجابتهم إلى الحقّ، ولين عريكة النصارى، وسهولة ارعوائهم وميلهم إلى الاسلام، وجعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين، بل نبّه على تقدُّمهم فيها بتقدمهم على المشركين، وكذلك فعل في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ [البقرة، ٢/٩٦]، ولعمري إنهم لكذلك وأشدُّ.[١٣٥١]

وعنه ع م: «مَا خَلَا يَهُودِيَّانِ بِمُسْلِمٍ إِلَّا هَمَّا بِقَتْلِهِ»[١٣٥٢] وذلك لشدة شكيمتهم، وتضاعف كفرهم وانهماكهم في اتّباع الهوى، وركونهم إلى التقليد، وبعدهم عن التحقيق، وتمرّنهم على تكذيب الأنبياء ومعاداتهم، ولين جانب النصارى ورقّة قلوبهم، وقلة حرصهم على الدنيا وكثرة اهتمامهم بالعلم والعمل، وإليه أشار بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، عن قبول الحق إذا فهموه، أو يتواضعون لا يتكبرون كاليهود.[١٣٥٣] فهم على خلاف هؤلاء في جميع ذلك، وبهذا الاعتبار يكون تعليلًا أيضًا لشدة عداوة اليهود على سبيل التعريض في تصريح تعليل الأقربية، والاكتفاء بالتعريض في تعليل الأشدِّيَّة؛ لأن ذلك أشنع الصفات وهذا أشبهها فالاعتناء بشأنه أولى، ويجوز أن يترك تعليل الأول لذلك أو لغاية ظهوره أو للتنزه عن ذكره.

[١٣٤٩] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/٥٦٦.

[١٣٥٠] **حلية الأولياء** لأبي نعيم ٩/ ٢٥٣.

[١٣٥١] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥٤-٦٥٥.

[١٣٥٢] **الأفراد** للدارقطني، ص ١٧٤ (٥٠).

[١٣٥٣] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٥٥.

وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعبادة، والإعراض عن الشهوات، وغم الآخرة والتحدث بالعاقبة محمودةٌ وإن كانت في كافر،[١٣٥٤] وخلاف ذلك أذمُّ وأفضع، إذا كانت فيهم، وفي وضع الموصول مع صلته موضع النصارى؛ لأنه ح مقابلة ذكر اليهود تتميم لذلك المعنى المستفاد من التعليل، حيث يدَّعون أنهم أنصار الله وأودّاء أهل الحق وأنهم لم يظهروا اعتقاد حقية الإسلام، كما أن التعبير عنهم بذلك في بيان بعض العهد كان أدخل في تعبيرهم، والنعي عليهم بسوء صنيعهم، والمعاني تختلف بحسب اختلاف المقامات، فإن مقام المدح يقتضي أن يفسّر بما ينبئ عن المدح كما في هذا المقام، ومقام الذمّ يقتضي بما ينبئ عن الذم كما في قوله تع: ﴿**وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ**﴾ [المائدة ١٤/٥]، «ولكن في قول المصنف هناك: إنما سمُّوا أنفسهم بذلك ادّعاءً لنصرة الله تسامحٌ لِما كان ينبغي له أن يقول: إنما حكى الله قولهم ذلك تعبيرًا لهم وتذكيرًا لِما نسبوا إلى أنفسهم ثم نسوه، وفيه تعريض لشدة ضلالة اليهود أيضًا إذ قيل لهم: ﴿**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ**﴾ [المائدة، ٢١/٥]، فقالوا: ﴿**اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ [المائدة، ٢٤/٥]، وقالت النصارى: ﴿**نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ**﴾ [آل عمران، ٥٢/٣].[١٣٥٥]

واللام في ﴿**لَ تَجِدَنَّ**﴾ للقسم و﴿**أَشَدَّ**﴾ مفعول أوّل ﴿**لَ تَجِدَنَّ**﴾ و﴿**عَدَاوَةً**﴾ تمييز، و﴿**لِلَّذِينَ**﴾ متعلّق بها، قويت باللام؛ لكونها فرعًا في العمل و﴿**الْيَهُودَ**﴾ مفعول ثانٍ.

وقيل: ﴿**الْيَهُودَ**﴾ الأول و﴿**أَشَدَّ**﴾ الثاني؛ إذ المقصود الإخبار عنهم بأنهم أشد الناس عداوةً للمؤمنين، وعن النصارى بأنهم أقربُ الناس مودةً لهم، لا الإخبار عن أشد النّاس وأقربهم بكونهم من اليهود والنصارى.

فإن قيل: إذا استويا تعريفًا وتنكيرًا، وجب تقديم الأول كما في المبتدأ والخبر.

قلنا: ذاك حيث التبس أما إذا دلَّ دليل يتميز به الأول عن الثاني، فيجوز التقديم والتأخير، ومنه:

بَنُونَا بَنُوا أَبْنَائِنَا، وَبَنَاتُنَا بَنُوهُنَّ أَبْنَاء الرِّجَال الأَبَاعِدَ[١٣٥٦]

فـ«بَنُوا أَبْنَائِنَا» مبتدأ، و«بَنُونَا» خبر؛ لأنه على تشبيه أولاد الأبناء بالأبناء،[١٣٥٧] ﴿**وَأَنَّهُمْ**﴾ عطف على أن المجرورة بالباء أي: ذلك بما تقدَّم وبأنهم.

والقسُّ: بنبع الشيء وطلبه ومنه سمِّي عالم النصارى لتتبعه العلم، وقال قطرب: القِسّيس: العالم بلغة الروم.

والرُّهْبَان: جمع راهب، مثل فارسٍ وفُرسانٍ، وأصله: من الرهبة بمعنى المخافة، أو من التَّرهب وهو التَّعبد مع الرهبة في موضعه.[١٣٥٨]

وقيل: هي واحد من علماء النصارى على الحقّ، وكان اسمه قسّيسًا فسمي به من على دينه.[١٣٥٩]

[١٣٥٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٦/١.

[١٣٥٥] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٥٦/٥.

[١٣٥٦] البيت للفرزدق. **خزانة الأدب**، ؛ **الدر المصون** للحلبي، ٣٨٨/٤.

[١٣٥٧] **اللبابفي علوم الكتاب** لابن عادل، ٤٧٤/٧.

[١٣٥٨] ج – موضعه.

[١٣٥٩] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٦٨.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ [٧٦/ظ] تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣)﴾

عطف على ﴿**لَا يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ بيان لرقة قلوبهم وشدة خشيتهم ومسارعتهم إلى قبول الحقِّ وعدم تأبِّيهم عنه.[١٣٦٠] وذلك مثل ما يُحكى عن النجاشي: أنه قال لجعفر بن أبي طالب حين اجتمع عنده المهاجرون إلى الحبشة أو المشركون وهم يُغرُونه عليهم ويتطلَّبون عَنَتهم عنده هل في كتابكم ذكر مريم؟ قال جعفر: نعم، فقرأ سورة مريم إلى قوله: ﴿**ذَٰلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ**﴾ [مريم ٣٤/١٩] وسورةَ طه إلى قوله: ﴿**وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى**﴾ [طه ٩/٢٠]فبكى النجاشيُّ، وكذلك فعل قومُه الذين وَفَدُوا على الرسول وهم سبعون حين قرأ عليهم الرسول سورة يس فبكوا.[١٣٦١]

ولَمَّا ورد أن يقال: الفيض انصباب عن امتلاء فلم أسند إلى الأعين والحال أن الفائض دموع الأعين لا أنفسها؟ أجاب عنه العلامتان بوجهين، الأول: أنه مجاز في المسند والدمع عين ذلك الماء، فإن المراد يمتلئ أعينهم فوضع الفيضان موضع الامتلاء على وضع المسبَّب مواضع السَّبَب للمبالغة في السببية حتى كأنَّ الامتلاء نفس الفيضان؛ فلذلك عبر به عنه. الثاني: أنه مجاز في الإسناد والدمع مصدر حيث أسند الفيض إلى الأعين، كما في جرى النهر وسال الميزاب للمبالغة في وصفهم بالبكاء، أي: تريهم يبكون حتى تظنّ أن أعينهم تفيض أي: تسيل بأنفسها، وترى بصرية وتفيض حال من المفعول. و﴿**مِنَ الدَّمْعِ**﴾ متعلِّق بـ﴿**تَفِيضُ**﴾ و﴿**مِنْ**﴾ للابتداء.[١٣٦٢]

وقيل: هذه العبارة أبلغ العبارات فأوليها: فاض دمعُ عينه، وهو الأصل، والثانية: المحوَّلة: فاضت عينه دمعًا، حوَّل الفاعل تمييزًا مبالغةً، والثالثة: فاضت عينه من الدمع فلم ينبَّه على الأصل كما في الثانية، بل أبرز به تعليلًا، وهذا أبلغ؛ لأن التمييز قد اطَّرد وضعه في هذا الباب موضع الفاعل، كقوله: «تَصَبَّب الفرس عرقًا»، ﴿**وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا**﴾ [مريم ٤/١٩]، ﴿**وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا**﴾ [القمر ١٢/٥٤]، والتعليل لم يعهد فيه ذلك، فيجوز: فاضت عينه من ذكر الله ،كما يجوز: فاضت من الدمع.[١٣٦٣]

و﴿**مِنْ**﴾ متعلِّق بمحذوف على أنه حال ﴿**مِنَ الدَّمْعِ**﴾، أي: في حال كونه ناشئًا من معرفة الحقِّ، ومن أجله وسببه لا بـ﴿**تَفِيضُ**﴾؛ لئلا يلزم تعلّق حرفين متّحدين لفظًا ومعنًى بعامل، و﴿**مِنْ**﴾ في ﴿**مِنَ الْحَقِّ**﴾ لبيان الموصول في ﴿**مَا عَرَفُوا**﴾، أو للتبعيض على أنهم عرفوا بعض الحقّ فأبكاهم وأثر فيهم فكيف إذا عرفوا كله.[١٣٦٤]

[١٣٦٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٦/١.

[١٣٦١] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥٥. وقال بعض العارفين: اعلم أن أهل العرب لما علموا كلام رسائله إلى عباده ومخاطباته إياهم رَأَوْا كل آية بحرًا من أبحر العلم بما تتضمن من ظاهر العلم وباطنه، وجليه وخفيه، وبابًا من أبواب الجنة باعتبار ما تُنَبِّهُ أو تدعو إليه من العمل. فكان من أهم ما عندهم الاستعداد للاستماع، ورَأَوْا أن حسن الاستماع قرع باب الملكوت، واستنزال بركة الرغبوت والرهبوت، ورَأَوْا أن الوساوس أدخنة ثائرة من نار النفس الأمارة بالسوء، وقتام يتراكم من نفث الشيطان، وأن الحظوظ العاجلة والأقسام الدنيوية التي هي مناط الهوى بمثابة الحطب الذي تزداد به النار تأججًا، ويزداد القلب به تحرجًا، فرفضوا الدنيا وزهدوا فيها، فلما انقطعت عن نار النفس أحطابها، وفترت نيرانها وقلّ دخانها، شهدت بواطنهم، وقلوبهم مصادر العلوم، فهيؤوا مواردها بصفاء الفهوم، فلما شهدوا سمعوا. قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ [ق ٣٧/٥٠]. منه. **إحياء علوم الدين** للغزالي، ٦٥/٥-٦٦؛ **عوارف المعارف**شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي، تحقيق: أحمد عبد الرحمن السايح توفيق علي وهبة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة١٣٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص ٢٥-٢٦.

[١٣٦٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٦٨- ٥٦٩.

[١٣٦٣] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٥٩/٥.

[١٣٦٤] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٦٩.

فـ﴿مَا﴾ مصدرية لا موصولة؛ لأن ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ في موقع المفعول فلا عائد ولا داعي إلى اعتباره.

وقيل: بكوا حين عرفوا الحقَّ لمعنيين: إمَّا فرحًا لنيل الإيمان، وإمَا خوفًا من الله بتأخير الإيمان إلى الآن،[١٣٦٥] ويجوز أن يكون لذةً وشوقًا لما ظهر لهم من لوائح الإنس وروائح القدس ﴿يَقُولُونَ﴾ استئناف لا محلَّ له ذكر حسن مقالهم بعد ذكر حسن حالهم.

﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بذلك الحق أو بنبوة محمد ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ الذين شهدوا بأنه حقٌّ، أي: ألحِقنا بهم، واجعلْ أسمائنا في صحف ملائكتك مع أسمائهم، أو الذين هم شهداء على سائر الأمم يوم القيامة ليكونوا شهداء على الناس، وقالوا ذلك؛ لأنهم وجدوا ذكرهم في الإنجيل كذلك وهم أمة محمد صلوات الله عليه وسلامه، أو الذين يشهدون عندك بإيمان من آمن منهم، وكفر من كفر بهم وهم الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه.

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ ذَكَرَ اللهَ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى يُصِيبَ الْأَرْضَ مِنْ دُمُوعِهِ لَمْ يُعذِّبْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١٣٦٦]

وعنه ع م قال الله لموسى: «لَمْ يَتَعَبَّدْ إِلَيَ المتَعَبِّدُونَ بِمِثْلِ الْبَكَاءِ مِنْ خَشْيَتِي».[١٣٦٧]

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤)﴾

استفهام إنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان من أنفسهم مع قيام الداعي وهو الطمع في الانخراط مع الصالحين والدخول مَداخلهم، أو جواب سائل قال: لم آمنتم؟[١٣٦٨] على ما روي: أن وفد النجاشي قَدِمُوا من الحبشة على رسول الله وآمنوا به، ثم رجعوا إلى قومهم فلاموهم على ترك دينهم فأجابوهم فلا تكون هذه المقالة متصلة بقولهم: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ و﴿مَا﴾ في محل الرفع على الابتداء و﴿لَنَا﴾ خبره و﴿لَا نُؤْمِنُ﴾ جملة حالية معمولة للاستقرار الذي يضمنه قوله: ﴿لَنَا﴾ أي: أيّ شيء حصل لنا غير مؤمنين؟ ﴿وَمَا جَاءَنَا﴾ في محلّ الجرّ عطفًا على الجلالة، أي: بالله أي: بوحدانيته، فإنهم كانوا مثلثين أو بكتابه ورسوله فإن الإيمان بهما الإيمان به حقيقة، وذكره توطئةً وتعظيمًا لما جاء ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ حال من فاعل ﴿جَاءَنَا﴾ فتعلّق بمحذوف، أي: جاءنا في حال كونه من جنس الحقّ، أو ﴿مِنْ﴾ للابتداء متعلّق بـ﴿جَاءَنَا﴾فيكون المراد بالحقّ الباري تع.[١٣٦٩]

والأوَّل أقضالحق البلاغة وأنسب سياقًا وسباقًا، كما لا يخفى، و«الواو» في ﴿وَنَطْمَعُ﴾ واو الحال على أنه خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: ونحن نطمع؛ لأن المضارع المثبت لا يحتاج إليها، وصاحبها الضمير المستتر في ﴿لَنَا﴾، والعامل معنى الفعل أيضًا، فإنه يعمل في كلّ واحدة من الجملتين الحاليتين اللَّتين وقعتا حالًا من ذاك الضمير، إلا أنه إنما تعمل في الثانية مع مقيَّدة بالأولى؛ لأنك لو أزلتها وقلتَ: وما لنا ونطمع، «لم يكن كلامًا».[١٣٧٠]

أي: معنى يناسب ما نحن فيه؛ لأنهم لا ينكرون الطمع، بل الطمع في حال عدم الإيمان، على أن في صحة مثل قولنا: ما لنا ونحن نفعل كذا بالواو الحالية نظرًا بالنظر إلى الاستعمال، فكأنه قيل: أيُّ شيء حصل لنا غير مؤمنين طامعين صحبتهم

[١٣٦٥] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٥٦٦/٤.

[١٣٦٦] **المعجم الأوسط** للطبراني، ١٩٥/٦ (٦١٧١).

[١٣٦٧] **المعجم الكبير** للطبراني، (١٢٠/١٢) (١٢٦٥٠).

[١٣٦٨] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٦/١.

[١٣٦٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٥٦/١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٦٩.

[١٣٧٠] **حاشية الكشاف للتفتزاني**، و ٣١٧ظ- ٣١٨و.

في حال عدم الإيمان؟ أو ﴿**لَا نُؤْمِنُ**﴾ على أنهم أنكروا على أنفسهم أنهم لا يوحِّدون الله ويطمعون مع ذلك أن يَصحَبُوا الصالحين، فعلى هذا يكونان حالين متداخلتين، وعلى الأول لا متداخلتين ولا مترادفتين لعدم صحة ذكر الثانية بدون الأول وعدم كونها حالًا عما هي حال عنه، ولنسم مثل هذا متلاصقتين فالحالان المتعاقبتان ثلاثة أقسام، أو واو العطف على ﴿**لَا نُؤْمِنُ**﴾ بأن يكون عطفًا على النفي، أي: يجمع بين عدم الإيمان وبين الطمع، أو على المنفيّ، أي: لسنا نجمع بين الإيمان والطمع، وذلك الجمع بالدُّخول في الاسلام؛ لأن المسلم هو الذي ينبغي أن يطمع في صحبة الصالحين. وما ذكر صاحب **التقريب** من أنه على الأوّل[١٣٧١] ورد الجمع على النَّفي، وعلى الثاني: ورد النفي على الجمع يوهم أن الأوّل يجمع منفيين، وليس كذلك، بل هو جمع نفي وإثبات، والادخال في الصالحين جنة روحانية متقدمة على الجنة الجسمانية ومستلزمة لها، ولذلك سألوه ومن ذلك قيل: «الجار ثم الدار». وقيل: أدخلنا جنتك معهم والصالين الأنبياء أو أمة محمد.[١٣٧٢]

وقال ابن عطاء: كادت جوارحهم وقلوبهم أن تنطق بقبول الوحي قبل سماعه في مشاهدة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه، فلمَّا سمعوا منه لم يطيقوا حمله إلا ببكاء فرحٍ، أو بكاء حسرة، أو بكاء دهشة، أو بكاء حرقة، أو بكاء معرفة، كما قال: ﴿**مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ**﴾ [المائدة ٥/٨٣]،[١٣٧٣] فعند ذلك أظهروا إيمانهم وكشفوا اطمئنانهم وسألوا أهمَّ ما سئل.

وقال بعضهم: كان فيهم ثلاثة أشياء: البكاء، والدعاء، والرضاء. البكاء على الحياء، والدعاء على العطاء والرضاء بالقضاء فكلّ واحد يدعى المعرفة ولا تكون فيه هذه الثلاثة فليس بصادق في دعواه.[١٣٧٤]

وفيه تنبيه على أن الصلاح والانخراط في زمرة الصالحين غاية متمني العارفين ونهاية مسئول السائلين، وقد ذكر سبحانه عن المرسلين دعاء «ألحقني بالصالحين».

﴿**فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦)**﴾

لَمَّا ورد أن يقال: ظاهر قوله: ﴿**بِمَا قَالُوا**﴾ يقتضي أنهم استحقوا الثَّواب بمجرَّد القول، وذلك غير ممكن؛ لأن مجرَّدَ القول لا يفيد الثواب.

أجاب عنه العلامتان[١٣٧٥]: بأن المراد بما قالوا عن اعتقاد وإخلاص من قولك: هذا قول فلان، أي: اعتقاده وما يذهب إليه؛ لكن في التعبير نوع تدافع؛ لأن قوله: عن اعتقاد يشعر بأن القول على حقيقته لكنه مقيّد بأن يكون عن اعتقاد وإخلاص، وقوله: اعتقاده وما يذهب إليه يشعر بأن القول مجاز عن المذهب والمعتقد، وإن كان المقصود حاصلًا على كلا التقديرين وهو أن الإثاقة ليست بمجرّد القول، فلا متعلّق للكراهية بظاهره في أن الإيمان مجرَّد القول لما عرفت أن المراد الإقرار مع ما كان لهم من المعرفة وذلك مذكور في قوله: ﴿**مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ**﴾ [المائدة ٥/٨٣]، ويدلّ عليه أن الله جل جلاله قال: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ [البقرة ٢/٨] نفى الإيمان مع قولهم: آمنا لعدم الاعتقاد منهم.

[١٣٧١] ج- على الأوَّل.

[١٣٧٢] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥٤-٦٥٥؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٨و؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٤٥٩.

[١٣٧٣] **حقائق التفسير** للسلمي، ١/١٨٣؛ **عرائس البيان** للبقلي، ٣٢٧-٣٢٨.

[١٣٧٤] **حقائق التفسير** للسلمي، ١/١٨٣.

[١٣٧٥] هما: الزمخشري، والبيضاوي.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا النظر والعمل. وفي الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:« اَلْإِحْسَانُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»،[١٣٧٦] أو الذين اعتادوا الإحسان في الأمور، وعطف التكذيب بآيات الله على الكفر وهو ضرب منه؛ لأن القصد إلى بيان حال المكذبين، وذكرهم في معرض المصدّقين بها جمعًا بين الترغيب والترهيب، أي: جمعًا بين الترغيب في التصديق أولًا والثواب ثانيًا والترهيب عن التكذيب أوّلًا، وعما يترتّب عليه من العقاب وعذاب الجحيم ثانيًا.

وقال القشيري: هذا أثر الإعراض عن الأعداء، والأوّل أثر الإقبال على الأولياء.[١٣٧٧]

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «يا معشر المسلمين ارغبوا فيما رغبكم الله فيه واحذروا وخافوا مما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنّم، فإنها لو كانت قطرةٌ من الجنّة معكم في دنياكم التي أنتم فيها حلّتها لكم، ولو كانت قطرةٌ من النّار معكم في دنياكم التي أنتم فيها خبّثتها عليكم»[١٣٧٨] رواه البيهقي.

وروي عن كليب بن حزن رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اُطْلُبوا الْجَنَّةَ جَهْدَكُمْ، وَاهْرُبُوا مِنَ النَّارِ جهدكم، فإِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَنَام طَالَبَهَا، وإن النّار لا ينام هاربها، وإن الآخرة محفوفة بالمكاره، وإن الدنيا محفوفة باللذات والشهوات، فلا تلهينكم لذات الدنيا وشهواتها عن الآخرة».[١٣٧٩]

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما رأيْتُ مثْلَ النّارِ نام هارِبُها، ولا مثْلَ الجنَّةِ نام طالِبُها»[١٣٨٠]رواه الترمذي، قال وهذا حديث إنما نعرفه من حديث يحي بن عبد الله يعني ابن موهب التميمي. قال الحافظ قد رواه عبد الرحمن بن شريك عن أبيه عن محمد الأنصاري والسدي عن أبيه عن أبي هريرة أخرجه البيهقي وغيره من الثقات.[١٣٨١]

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧)﴾

أي: ما طاب ولذّ منه، كأنه لما تضمَّن ما قبله مدح النصارى على ترهُّبهم، والحث على كسر النفس ورفض الشهوات عقَّبَه النهيَ عن الإفراط في ذلك.[١٣٨٢] ومعنى ﴿لَا تُحَرِّمُوا﴾: لا تمنعوا أنفسكم كمنع التَّحريم، أو لا تقولوا: حرّمناها على أنفسنا مبالغةً منكم[١٣٨٣]في العزم على تركها تزهُّدًا منكم وتقشُّفًا.[١٣٨٤]

وتوسّع الإنسان في الطيبات وإن أورث الميل إليها، واستغراق أوقاته في طلبها، وذلك يمنع عن الاستغراق في المعرفة، والطاعة المؤدية إلى سعادة الآخرة، بخلاف ما إذا أعرض عنها، فإنه كلّما كان أتم كان فراغه لطلب الأسباب الأخروية أتم، وكانت الرهبانية أنسب ظاهرًا، إلا أنه نهى عنه؛ لأن الإفراط فيه مما يوقع الضعف في الأعضاء الرئيسيَّة التي هي القلب والدِّماغ

[١٣٧٦] **صحيح البخاري**، ٦/١١٥ (٤٧٧٧).

[١٣٧٧] **لطائف الإشارات** للقشيري، ١/٢٧٦؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٥/٤٧٨.

[١٣٧٨] **البعث والنشور** للبيهقي، ص ٣٠٣ (٥٤٦).

[١٣٧٩] **المعجم الكبير** للطبراني، ١٩/٢٠٠ (٤٤٩)؛ **المعجم الأوسط** للطبراني ، ٤/٧٣؛ (٤٦٤٣).

[١٣٨٠] **سنن الترمذي**، ٤/٧١٥ ٢٦٠١.

[١٣٨١] **الترغيب والترهيب** للمنذري، ٣٦٦٢.

[١٣٨٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٥٧.

[١٣٨٣] ج– منكم.

[١٣٨٤] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥٧.

فتختل الفكرة والقوة فنقول الكمالات المتعلقة بالقوّة النظرية والعمليّة، وأيضًا الرهبانية توجب خراب الدُّنيا وانقطاع الحرث والنسل المؤدِّي إلى قلّة المعرفة، والمحبة، والطاعة.[١٣٨٥]

روي أنه شاور قوم واتَّفقوا على أن يتركوا اللذات ويترهَّبوا، ويلبسوا الْمُسُوحَ، ويَجُبُّوا مذاكيرهم، ويصوموا الدهر، ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفُرُش، ولا يأكلوا اللحم والدَّسم، ولا يقربوا النساء والطِّيب، ويسيحوا في الأرض، وحلفوا عليه، فلمَّا سمعه النبيُّ قال: إني لم أُوَمَرْ به، إنَّ لأنفسكم حقًّا عليكم، فصوموا، وأَفْطِروا، وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام، وأصوم وأُفطِر، وآكل اللَّحم والدَّسم، وآتي النِّساء، فمن رغب عن سنَّتي فليس مني، ثم رجع إلى الناس فقال: ما بالُ أقوام حرَّموا النساء والطَّعام والطِّيب والنَّوم وشهوات الدنيا؟ أما إني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانًا، فإنه ليس في ديني تركُ اللحم، ولا اتخاذ الصَّوامع وأن سَيَاحة أمتي الصوم، ورهبانيتهم الجهاد، أعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وحجّوا واعتمروا وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، واستقيموا يستقم لكم، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شدَّدوا على أنفسهم، فشدَّد الله عليهم، فأولئك بقاياهم في الديارات والصوامع، فأنزل الله الآية.[١٣٨٦]

وأتى عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونَ فقال: ائْذَنْ لَنَا فِي الْاخْتِصَاءِ، فَقَالَ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَصَى وَلَا اخْتَصَى، إِنَّما خِصَاءُ أُمَّتِي الصَّوْمُ»، فَقَالَ: ائْذَنْ لَنَا فِي السِّيَاحَةِ، فَقَالَ: «إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الْجِهَادُ»، فَقَالَ: ائْذَنْ لَنَا فِي التَّرَهُّبِ، فَقَالَ: «إِنَّ تَرَهُّبَ أُمَّتِي الْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ انْتِظَارَ الصَّلَاةِ».[١٣٨٧]

والاعتداء: إما بمعنى: تجاوز الحدّ، أي: لا تتجاوزوا حدَّ الله بجعل الحلال حرامًا، فيكون تنبيهًا على أنَّ التَّحريم المذكور اعتداءٌ عن حدِّه تع وهو التحليل ونصب حدّ هو من عنده وهو التحريم.

وقد ذكره قدس سره ولم يذكره المصنف، أو لا تتجاوزوا حدُودَ ما أحلَّ لكم إلى ما حرَّم عليكم، فتكون الآية ناهيةً عن تحليل ما حرَّم بعد النهي، عن تحريم ما أحلَّ وداعية إلى القصد بينهما.[١٣٨٨] وهو تحليل الحلال وتحريم الحرام وهذا ما ذكره قدس سره ثانيًا، والمصنف أولًا، أو لا تتجاوزوا حدَّ الاعتدال في تناول الطيبات إلى الإسراف فيكون منعًا عن الإفراط في تناول الطيبات بعد الإذن لها وهو ما ذكره المصنف ثانيًا ولم يذكره قدس سره.

وأمّا بمعنى الظلم على أن لا يقدر للاعتداء متعلّق ليكون مطلقًا يتناول جميع ما سمِّي اعتداء فيدخل فيه الاعتداء الخاصُّ المذكور دخولًا أوّليًا، فيكون تذييلًا للتحريم بأنه من قبيل الاعتداء، أو على أن يقدّر ما ينبئ عنه السياق فيكون حكمًا بأن التحريم اعتداء وقد ذكرهما المصنف.

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾

﴿**حَلَالًا**﴾ مفعول ﴿**كُلُوا**﴾ أي: شيئًا حلالًا، و﴿**مِمَّا رَزَقَكُمُ**﴾ حال من المفعول متعلّق بمحذوفٍ، و﴿**مِنْ**﴾ تبعيضية، أو ظرف لغو متعلِّق بـ﴿**كُلُوا**﴾ و﴿**مِنْ**﴾ ابتدائية، أي: ابتدؤا أكلكم الحلال من الذي رزقكم الله، أو ﴿**مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ**﴾ مفعول ﴿**كُلُوا**﴾، و﴿**مِنْ**﴾ للتبعيض و﴿**حَلَالًا**﴾ حال من الموصول، أو ﴿**مِنْ**﴾ عائده المحذوف، أو صفة مصدر محذوف؛

[١٣٨٥] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٢/٧٥-٧٦.

[١٣٨٦] **معالم التنزيل** للبغوي، ٣/٨٨-٨٩؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٧/٤٨٩.

[١٣٨٧] **الزهد والرقائق** لابن المبارك، **٢٩٠ (٨٤٥)**؛ **شرح السنة** للبغوي ٢/٢٧٠-٢٧١؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٣/٨٩؛ ا **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٧/٤٨٩-٤٩٠.

[١٣٨٨] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٥٨.

أي: أكلًا حلالًا. وفيه تجوز؛ لأن الشائع المتبادر إلى الفهم وصف المأكول دون الأكل.[١٣٨٩] وقد ذكر قدس سره الوجوه ههنا، والمصنف ذكر الثاني وذكر الأول في سورة البقرة.[١٣٩٠] «وعلى الوجوه لو لم يقع الرزق على الحرام لم يكن لذكر الحلال فائدة زائدة»،[١٣٩١] وحملها على الحال المؤكِّدة خلاف الظاهر، ولعلَّ المصنف إنما خصَّ الحال بهذا المقام دون ذلك المقام؛ لأن الخطاب عامٌّ يدلّ عليه مجيءُ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾ [البقرة ١٧٢/٢] بعده، وههنا خاصٌّ بالمؤمنين الذين ضيّقوا على أنفسهم وتحرَّجوا من الحلال، فاقتضى لذلك حالًا مؤكِّدةً على زعمه، ولذلك أكَّد بما بعده.

وقيل: الأَوْلَى أن يجعل صفة مصدر؛ ليكون توسعةً في الأكل، ورفعًا للتَّضييق، سيَّما إذا اعتبر معنى ﴿**طَيِّبًا**﴾ معه، وذلك أنَّ ورود هذا الأمر عقيبَ النهي عن التحريم عن الطيبات، والتشديد فيه بقوله: ﴿**لَا تُحَرِّمُوا**﴾ وقوله: ﴿**لَا تَعْتَدُوا**﴾ يقتضي ما يقابله من التَّوسعة.[١٣٩٢]

﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ تأكيد للتَّوصية بما أمر به، وزاده تأكيدًا بقوله: ﴿**الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ**﴾؛ لأنَّ الإيمان يوجب التقوي في الانتهاء إلى ما أمرَ به وعما نهى عنه.[١٣٩٣]

قيل: الوجه ترك الواو في: «وعما نهى عنه»[١٣٩٤] إلا أن يجعل من استعمال المشتركة في معنييه أعني: بلوغ النهاية والامتناع عن المنهي، أو من قبيل: «عَلَفْتُها تبنًا وماءً باردًا»[١٣٩٥] بأن يقدر في المعطوف انتهاء بمعنى مطاوع نهيته، أو يحمل على الانتهاء، أي: الامتناع إلى ما أمر به والامتناع عما نهى عنه إلى ما أمَرَ به وهو تكرار محض.[١٣٩٦]

وقيل: إن قوله: كلوا حلالًا، وإن كان المراد به هنا الإباحة والتحليل، إلا أنه إنما أباح أكل الحلال فيفيد تحريم ضدّهِ، فالتأكيد للتحريم المستفاد منه، والآية تدلُّ على أنه تع قد تكفَّل برزق كلّ أحد، فإنه لو لم يتكفَّلْ برزقه لَما قال: ﴿**كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ**﴾، فإذا تكفَّل برزقه وجب أن لا يبالغ في الطلب، وأن يقول على وعد الله وإحسانه، فإنه أكرم من أن يخلِف الوعد، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَاتَّقُوا اللهَ؛ وأَجْمِلُوا في الطَّلَبِ، ولا يحْمِلَنَّكم اسْتِبْطاءُ الرِّزقِ عَلَى أَنْ تطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ».[١٣٩٧]

وقال بعضهم: رزقه الذي رزقك ما هو من غير حركةٍ منك ولا استشرافٍ، وهو الطيب الحلال فحلك محل الدّعة ويطيب قلبك يتناوله.[١٣٩٨]

وقال القشيري: ما أباحه من الطيبات الاسترواح إلى نسيم القرب في أوطان الخلوة، وتحريم ذلك: أن تستبدل تلك الحالة بالخلطة دون العزلة؛ والعِشْرة دون الخلوة، وذلك هو العدوان العظيم.

[١٣٨٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٥٨؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٧١.

[١٣٩٠] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٢١٢.

[١٣٩١] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٥٨.

[١٣٩٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/ ٤٦٥.

[١٣٩٣] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥٨.

[١٣٩٤] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥٨.

[١٣٩٥] **دوان ذي الومة شرح الباهلي**، ١٨٦٢/٣.

[١٣٩٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٨ظ.

[١٣٩٧] **شعب الإيمان** للبيهقي، ١٩/١٣ (٨٩٩١).

[١٣٩٨] **حقائق التفسير** للسلمي، ١٨٣/١؛ **عرائس البيان** للبقلي، ٣٢٧-٣٢٨.

وقال أيضاً: الحلال الصَّافي أن يأكلَ ما يأكل على شهوده، فإنْ نزل الحال عن هذا فعلى ذكره فإنَّ الأكل على الغفلة والسَّهو حرامٌ في شريعة الإرادة وطريقة أهل المحبة وسنة أصحاب الهمَّة.[١٣٩٩]

﴿**يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)**﴾

قد مرّ أن قومًا حرَّموا على أنفسهم الطيبات، فلمَّا نهاهم عنه قالوا: «فكيف نصنع بأيماننا»؟ فإنهم قد كانوا حلفوا على ما اتَّفقوا عليه فنزلت.[١٤٠٠] وأيضًا السورة في الوفاء بالعقود، والأيمانُ من العقود، واللغو في اليمين. عند الشافعي: الحلف بلا قصد، كقول الرجل: «لا والله» و«بلى والله».[١٤٠١]

وعند أبي حنيفة: الحلف على ما يظن أنه كذلك ولم يكن كذلك مثل أن يرى الشيء من بعيدٍ، فيظنّ أنه كذا ويحلف عليه، فإذا هو بخلافه، وكذا لو حَلَف في حقِّ أمرٍ قد مضى على أنه قد وقع أو لم يقع ظانًّا أن الأمر على ما حلف فإذا هو بخلافه.

وثمرة الخلاف أن الشافعي لا يوجب الكفارة في الأوَّل وتوجيهًا في الثاني. وأبو حنيفة بالعكس. ولو حلف على أنه زيد وهو يعلم أنه ليس بزيدٍ، أو على أمرٍ مضى أنه كذا وهو يعلم أنه على خلافه فهو غموس مؤاخذ عليه في الآخرة؛ لأنه تعمَّد في هتك حرمة اسم الله، ولا كفَّارة عند الحنفية؛ لأنها بالحنث في المنعقدة، وهي: الحلف على فعل أو ترك في المستقبل ولا تنعقد على الماضي أو حال؛ لأن المطلوب من اليمين تقوية جانب البر على الحنث. وهي في المستقبل لا في الماضي والحال، فلا ينعقد ما وقع عليهما فلا يوجب الكفارة، لكن يوجب العقوبة بتعمّد الكذب وتأكيده باليمين.[١٤٠٢]

و﴿**بِاللَّغْوِ**﴾ صلة ﴿**يُؤَاخِذُكُمْ**﴾ وكذا ﴿**فِي أَيْمَانِكُمْ**﴾ أي: لا يؤاخذكم في حق أيمانكم بسبب ما كان لغوًا منها، أو هو متعلِّق بمحذوف حال من اللَّغو، أي: كائنًا في أيمانكم أو به؛ لأنه مصدر.[١٤٠٣]

﴿**وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ**﴾، أي: بعقدها وتعقيدها على أن ما مصدرية، والعقد التأكيد والإحكام يقال: عقد فلان اليمين إذا أكَّده وأحكمه، وهو عند الشافعي: بالقصد والنيَّة، وبما هو ضدُّ الحلّ عند الحنفية؛ لأن اللَّغو عندهم يقصد به اليمين على ما مرَّ، فيحترز باعتبار ما هو ضدُّ الحلِّ عن اللغو والغموس، فإن اللغو: وهو الحلف بالظن، والغموس: وهو الحلف على خلاف ما علم بكون المحلوف عليه فيهما ماضيًا أو حاليًا، واليمين عليهما لا يقبل الانحلال فلا يقبل الانعقاد أيضًا بخلاف اليمين على المستقبل، فإنها تقبل الحلَّ فهي التي تتحقَّق العقد فيها فهي المرادة بقوله: ﴿**يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ**﴾ أي: يؤاخذكم في الدنيا بإيجاب الكفَّارة بشرط الحنث فيها، ولا يؤاخذ باللغو أصلًا وبالغموس بإيجاب الكفَّارة؛ إذ لا يثبت بها إلا الإثم وعقاب الآخرة، فإن الكفارة في المنعقدة وهما لا يقبلان الانحلال والانعقاد. والشافعي لما فسَّر العقد بالقصد وهو موجود في الغموس كانت منعقدة ففيها كفَّارة عنده.

[١٣٩٩] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٢٧٧/١.

[١٤٠٠] أخرجه الطبري عن ابن عباس ٧/ ١٣، "الوسيط" ٢/ ٢٢٠، البسيط للواحدي،٥٠٠/٧؛ البغوي ٣/ ٩٠، "زاد المسير" ٢/ ٤١٢.

[١٤٠١] **الكشاف** للزمخشري،٦٥٨/١؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٩١/٤ ؛ **إرشاد العقل السليم** لأبي السعود، ١٥٥/٣.

[١٤٠٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٥٤١/٢.**

[١٤٠٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٣/ ٥٧٢.**

قرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم ﴿عَقَدْتُمْ﴾[١٤٠٤] بالتخفيف على الأصل.

وابن ذكوان عن ابن عامر: ﴿عَاقَدْتُمْ﴾[١٤٠٥]وهو فاعلت بمعنى فعلت، كجاوزت بمعنى جزت، والباقون ﴿عَقَّدْتُمْ﴾[١٤٠٦] بالتشديد. ولما ورد أن يقال: التشديد بقيد تكرير الفعل ووقوعه مرّة بعد أخرى والمؤاخذة بالكفَّارة لا يتوقّف على تكرير اليمين، بل يجب باليمين الواحدة.

أجيب: بأنا لا نسلم أن التشديد يستلزم التكرير، بل قد يكون المشدَّد بمعنى المخفف، سلّمنا أنه يستلزم التكرير، لكن ذلك التكرير ليس بالنسبة إلى حالفٍ واحدٍ، بل المراد منه التكرير اللازم من تعدد الحالف، فإن المخاطب به جماعة والفعل يتكثر بكثرة الفاعل، كما يتكثر بكثرة المتعلّق، سلَّمنا أن المراد منه التكرير بالنسبة إلى واحد لكن المراد أن يعقدها الحالف بقلبه ولسانه فإنه لو كان بلسان أو بجنان لا يكون تعقيدًا، أما لو حصل بهما فقد حصل التكرير والتعقيد.

وعن النبي ع م: «لَغْوُ الْيَمِينِ قَوْلُ الْإِنْسَانِ: «لَا واللهِ، وَبلَى وَاللهِ»،[١٤٠٧]والأكثرون على أنه قول عائشة.

﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾

﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ نَكْثِهِ، أي: الفعْلة التي تُذهب إثمَه وتَسْتُره.[١٤٠٨] فالضمير للعقد المدلول عليه بـ**﴿عَقَّدْتُمْ﴾** وتذكير الضمير يمنع كونه لليمين المدلول عليه بـ«الأيمان»؛ لأنها مؤنث وجعلها بمعنى الحلف تكلف في تكلّف واعتبر الحذف ههنا، كما اعتبر في **﴿يُؤَاخِذُكُمْ﴾** أي: يؤاخذكم[١٤٠٩] إذا حَنِثْتُم، أو بنكث ما عقدتم فحذف الوقت أو المضاف؛ لأنه كونه مرادًا معلوم إذا جمعوا على أن لا كفارة ما لم يَحْنَثْ؛ والاختلاف في جوازه قبل الحنث، فأجازه الشافعي بالمال،[١٤١٠] أي: الإطعام، أو الكسوة، أو العتق، بناءً على جواز تقديم الزكاة على الحول، لا بالصوم؛ لأنه بدنيٌّ فلا يعجّل قبل وقته، كصوم رمضان، واستدل عليه بقوله ع م: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، وَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَافلْيُكَفِّرْ عن يَمِينِهِ، وَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ».[١٤١١] فإن الفاء للتعقيب ولا يدلُّ على تراخي التكفير إلى زمان الحِنْث.

فيه بحث؛ لأنّها لتعقيب الحلف بمجموع التكفير والإتيان ولا دلالة لها على الترتيب بينهما، وقد روي: «فَلْيَأْتِ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ، ثُمَّ لِيَكْفُرْ»[١٤١٢] وهذا أشهَر من الأوَّل. فيكون دلالة ظاهر الآية على التقديم أقوى من دلالة الحديث، فلذلك استدلّ قدس سره بظاهرها وجعل الحديث مؤيدًا للتمسك بظاهرها، وعند الحنفية: لا تقويم، لا بالمال، ولا بالصوم.

﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ﴾: من أقصده، أي: أقربه إلى التوسط بين الإسراف والتقتير، يقال: قصد في الأمر وأقصد فيه إذا رضي بالتوسط. قيل: الأوسط: الخبز والخَلُّ، والأعلى: الخبز والعسل، والأدنى الخبز. ويعتبر التوسط في النوع، والقدر، فيطعم ما بين الجيّد والرّديء، والإسراف والتقتير، والمرة والتثليث، والأوسط: الْمُدُّ بمُدِّ النَّبِيِّ وهو رَطل وثلث عند الشافعية،

[١٤٠٤] **كتاب السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٤٧؛ **التيسير** للداني، ص ٣٣٦؛ **النشر** لابن الجزري، ١٩٢/٢.

[١٤٠٥]**كتاب السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٤٧؛ **التيسير** للداني، ص ٣٣٦؛ **النشر** لابن الجزري، ١٩٢/٢.

[١٤٠٦] **كتاب السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٤٧؛ **التيسير** للداني، ص ٣٣٦؛ **النشر** لابن الجزري، ١٩٢/٢.

[١٤٠٧] **موطأ مالك**، ٦٧٩/٣ (١٧٢٩)؛ **صحيح البخاري**، ٥٢/٦ (٤٦١٣).

[١٤٠٨] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٥٩.

[١٤٠٩] ج- أي: يؤاخذكم.

[١٤١٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٧٢.

[١٤١١] **صحيح مسلم**، ١٢٧١/٣ (١٦٥٠). **سنن ابن ماجه**، ٢٤٥/٣ (٢١٠٨).

[١٤١٢] **صحيح مسلم**، ١٢٧١/٣ (١٦٥٠)؛ **مسند أبي داود**، ٦٨٩/٢ (١٤٤٨).

فالْمُدُّ: ربع الصاع الحجازي وهو خمسة أرطال وثلث رِطل، فإن ربع أربعة أرطال رطل وربع رطل وثُلُث رطل وهو ثلث الرطل، وبيان ذلك أنه لو فرض اثنى عشر جزء، فربعه ثلثه وثلثه أربعة، وإذا جمعنا ربع الأربعة مع الثلاثة كان المجموع أربعةَ، وهي ثلث الرِّطل، فَالْمُدُّ الذي هو الرطل، وثلث الرطل ربع الصاع الحجازي، وعند الحنفية: مدان وهو نصفُ صاعٍ من الصاع العراقي ثمانية أرطال.

ومحلّه النصب، صفة للمفعول الثاني لقوله: ﴿**إِطْعَامُ**﴾ والأوَّل ﴿**عَشَرَةِ**﴾ و﴿**مَا**﴾ موصولة والعائد محذوفٌ، أي: طعامًاكائنًا من أوسط الذي تطعمونه أهليكم، أي: من في عيالكم من الزوجة والأولاد والخدم، أو الرفع بدلًا من﴿إِطْعَامُ﴾ أو خبر محذوف بدلالة ما قبله، أي: طعامهم من أوسط، فتَتِمُّ الجملة الأولى عند قوله: ﴿**مَسَاكِينَ**﴾، أو صفة ﴿**إِطْعَامُ**﴾ أي: إطعام كائن من أوسط.

ولَمَّا ورد أن يقال: «الأهل» اسم وهو لا يجمع جمع السلامة بالواو والنون إلا عند اجتماع شروط، وهي: كونه مذكرًا، وعلمًا، وعاقلًا نحو: زيدون، والأهل ليس بعَلَم؟[١٤١٣]

أجيب: بأنه قد يعدل عن هذا الأصل على الشذوذ، كما يجمع أرض على أَرَضِينَ، وسنة على سِنِينَ.

والذي حسَّن ذلك: أنه كثيرًا ما يُستعمل بمعنى: «مُسْتَحِقّ» فيقال: «هُوَ أهلٌ لِكَذَا»، أي: مستحقٌ له، فأشبه الصفات، فجمع جمعها: ﴿**أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا**﴾ [الفتح ٤٨/١١]، ﴿**أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ**﴾ [التحريم ٦٦/٦]. وفي الحديث: «إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ». قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ: مَنْ هُمْ ؟ قَالَ: «قُرَّاءُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ»،[١٤١٤]و«أَهْلُ اللهِ» جمع حذفت نونه للإضافة. وقرئ: «أَهَالِيكُمْ»[١٤١٥] بسكون الياء، وكان القياس تحريكها بالفتحة؛ لخفّتها، كما تقول: رأيت القاضي، ولكنه شبَّه الياء بالألف، فقدَّر فيها الحركة، في جميع الأحوال.[١٤١٦]

﴿**أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ**﴾ جعله المصنف عطفًا على محل ﴿**مِنْ أَوْسَطِ**﴾،[١٤١٧] ونُقل عنه: أن وجهه أن يكون ﴿**مِنْ أَوْسَطِ**﴾: بدلًا،[١٤١٨] فإنه ح يكون في محل الرفع، فيصحُّ أن يعطف عليه المرفوع، وأمَّا إن جُعل منصوب المحل فلا يصحّ عليه المرفوع، وأمّا إن جعل منصوب فلا يصح أن يعطف عليه؛ لمخالفتهما في الإعراب والبدل هو المقصود، «ولذلك كان [**٧٩**/و] المبدل منه في حكمِ الْمُنَحَّى، فكأنه قيل: فكفَّارته من أوسط».[١٤١٩]

واعترض بأن المعطوف على البدل في موقع البدل ضرورة، وإبدال ﴿**كِسْوَتِهِمْ**﴾ من ﴿**إِطْعَامُ**﴾ غلط، لا يقع في التنزيل، وأجيب: بالمنع، بل قد وجد على ما سبق من أنه قد يعطف البدل؟ ويكون المقصود الانتساب إلى ما انتسب إليه المبدل منه بجعله في حكم المنَحَّى، وقد يجاب: بأنه على طريقة: «علفتها تبنًا وماءً باردًا» والتقدير: إطعام من أوسط ما

[١٤١٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٧٣.

[١٤١٤] **مسند أحمد**، ١٩/ ٣٠٥ (١٢٢٩٢)؛ **مسند أبي داود**، ٥٨٩/٣ (٢٢٣٨)؛ ٢١٥؛ **السنن الكبرى** للنسائي، ٢٦٣/٧ (٧٩٧٧).

[١٤١٥] **البحر المحيط**، ١٣/٤.

[١٤١٦] **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٤٩٦/٧-٤٩٧.

[١٤١٧] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥٩.

[١٤١٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/ ٤٦٩؛**حاشية الكشاف للتفتزاني**، ٣١٨ظ.

[١٤١٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/ ٤٦٩؛**حاشية الكشاف للتفتزاني**، ٣١٨ظ.

تطعمون، أو إلباس من كسوتهم، وردَّ بأنه ح يكون عطفًا على المبدل منه لا البدل مع ما فيه من تغيير الكلام، والجواب أن المراد أنه بالنظر إلى ظاهر اللفظ عطف على البدل.[١٤٢٠]

وأما بالنّظر إلى توضيح المعنى بحيث لا يتوجه عليه المذكور فعلى الطريقة المذكورة، فإن قيل: هنا وجه ظاهر هو عطفه على﴿**إِطْعَامُ**﴾ وجعل ﴿**مِنْ أَوْسَطِ**﴾ صفة إطعام، أو صفة مصدر محذوف، أو مفعولًا به، أي: إطعامًا، أو طعامًا من أوسط، فما الباعث على الوجه المتعسّف المتكلّف؟

أجيب: بأنه لتكون الكفّارة فيما يتعلّق بالمساكين ملائمة؛ إذ الكسوة اسم للثوب فيناسب أن يعتبر في جانب الإطعام المطعوم وهو الأوسط ليصير عينًا،كالثوب بخلاف الاعِتاق، فإنه جنس آخر فليكن باسم المعنى أعني: التحرير، ومن حاول ردّ الكلّ إلى نهجٍ واحدٍ ذهب إلى أن التقدير إطعام أو إلباس كسوة،[١٤٢١] والمراد ثوب يُغطِّي العورة، أو ثوبٌ جامعٌ قميصٌ، أو رداء وإزار.[١٤٢٢]

وقُرِئَ بِضَمِّ الكافِ[١٤٢٣] وهي لُغَةٌ كَـ«قُدْوَةٍ» و«قدرة»، وبحرف الجر الداخلة على الأسوة، أو كـ«أُسْوَتِهِمْ»، و«الكاف» بمعنى المثل مرفوع المحل على العطف على محلّ ﴿**مِنْ أَوْسَطِ**﴾ على البدلية. والأسوةيؤتسى به من طعام الأهل كـ«الكسوة» بمعنى «المكسوّ» من اللباس، والمعنى: فكفارته من أوسط ما تطعمون أهليكم أو مثل ما تطعمونهم.

«تواسون بينهم وبينهم إن لم تطعموهم الأوسط»،[١٤٢٤] أي: تشاركون وتساوون بين أهليكم وبين المساكين.[١٤٢٥]

وما قيل: «أو إطعامُهم كأُسْوَتِهِمْ»[١٤٢٦] بيان لموصوف المثل المدلول عليه بالكاف، فعلى هذا الآية ساكنةً عن التّعرض للكسوة مع أنهم اتّفقوا على أنها إحدى النكث في الكفارة، فلعلّه استفاد الكسوة من السنة وهو بعيد.

والمراد من الرَّقَبَةِ تمام البدن، لكن التحرير في معنى فكِّ الأسير المغلول العنقِ، فلذلك ذكر الرقبة. والمراد الكاملة ليس بها نقصانُ عين، أو قطع يدين أو رجلين ونحوهما، صغيرةً كانت أو كبيرة، مسلمةً كانت أو كافرةً.[١٤٢٧]

وعند الشافعي: لا يصحّ إلا مؤمنة قياسًا على كفارة القتل؛ إذ قيدت هناك بالإيمان.[١٤٢٨] وأطلقها ههنا، وفي كفارة الظهار والجماع في نهار رمضان، والمطلق يُحمل على المقيَّد، ونحن نقول إنما يحمل المطلق على المقيَّد إذا اتحدت الحادثة التي ورد فيها، وليس كذلك.[١٤٢٩]

[١٤٢٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٨ظ.

[١٤٢١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٨ظ. **حاشية الشهاب**، ٢٧٧/٢٧٦/٣.

[١٤٢٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٥٩.

[١٤٢٣] قراءة شاذّة، مروية عن يحيى وإبراهيم. **شواذّ للقراءات** للكرماني، ص ١٦٠.

[١٤٢٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٥٩.

[١٤٢٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٥٩؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٧٣-٥٧٤.

[١٤٢٦] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥٩.

[١٤٢٧] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٧٤/٥.

[١٤٢٨] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥٩؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٥٩.

[١٤٢٩] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥٧٤/٣.

«ومعنى «أو» إيجابُ إحدى الخصال وتخيير المكلَّف في التَّعيين»[١٤٣٠] وهو المختار في الواجب المخير، لا ما ينسب إلى بعض المعتزلة من أن الواجب الجميع ويسقط بواحد منه، وبعضهم أن الواجب واحد معيَّن عند الله وهو ما يفعله المكلف فيختلف بالنسبة إلى المكلَّفين، وبعضهم أن الواجب واحد معيّن لا يختلف ولكنه يسقط به وبالآخر، والواجب في كفارة اليمين أحد الثلاثة على التخير وعند الفجر عن الصوم. ومعنى الواجب المخيّر أنه لا يجب عليه الإتيان بكل واحد، ولا يجوز ترك الجميع، ومتى أتى[١٤٣١] بواحدة منها، فإنه يخرج عن العهدة، فإذا اجتمعت القيود فذاك هو الواجب المخير.[١٤٣٢]

وعنه عليه السلام:«واللهلَأَنْ يَلَجَّ أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ آثَمُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي فَرَضَ اللَّهُعليه».[١٤٣٣]

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ واحدًا من الثلاثة، فكفارته صيام ثلاثة أيام. فعند الشافعي: إذا كان عنده قوته، وقوت عياله يومه وليلته ومن الفضل ما يطعم عشرة مساكين لزمته الكفارةُ بالإطعام، وإن لم يكن عنده هذا القدر جاز له الصيام.

وعند أبي حنيفة: إذا كان عنده من المال ما لا يجب فيه الزكاة جاز له الصيام، فيجعل من لا زكاة عليه عادمًا.[١٤٣٤] وهي مطلقة عند الشافعي إن شاء تابعَها، وإن شاء فرّقها؛ لإطلاق النصّ، وعندنا: هي متتابعة لقراءة عبد الله بن مسعودٍ: «فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ»،[١٤٣٥] وقراءتُه بمنزلة روايته عن النَّبي، فقيَّدنا به المطلقَ.[١٤٣٦]

والشافعي يقول: «الشَّواذُّ لَيسَتْ بِحُجَّةٍ إذا لَمْ تَثْبُتْ كِتابًا ولَمْ تُرْوَ سُنَّةً».[١٤٣٧]

وعن مجاهد: كلُّ صومٍ متتابعٍ إلا قضاءَ رمضانَ ويُخَيَّرُ في كفارة اليمن. ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور **﴿كَفَّارَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡ﴾** وحَنِثْتُم. فترك ذكر الحنث لوقوع العلم بأن الكفَّارة إنما تَجِب بالحِنث في الحَلِف لا بنفس الحلف، ولو قيل: تلك كفارةُ أيمانكم لَكان صحيحًا بمعنى تلك الأشياء، أو لتأنيث الكفارة.[١٤٣٨]

وإنما اختير ذلك؛ لأنه أدخل في الاستعمال وأدلُّ كلفظ الفعل، فإن الرجل إذا قال: أكرمتُ زيدًا وأحسنتُ إليه، وأعطيته كذا، فتقول: نعم ذلك [**٧٩**/ظ] وصار كأنك أعدتَ جميعَ ما ذكر إلا أنّك اختصرت فكذلك ههنا، ولو قيل: تلك وإنه إشارة إلى جميع المذكورات لَكان تصريحًا بها لا كناية عنها، وإيجاب الكفَّارة بالحِنْث ظاهرة يخالف قاعدة أصول الحنفية؛ فإن سبب الكفارة عندهم اليمين بشرط الحنث؛ فإنها دائرة بين العبادة والعقوبة، فسببها يجب أن يكون دائرًا بين الحظر

[١٤٣٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٥٩.

[١٤٣١] ج- أتى.

[١٤٣٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٣/٥٧٤.**

[١٤٣٣] **صحيحالبخاري، ١٢٨/٨** (٦٦٢٥).

[١٤٣٤] **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٣/٥٧٤-٥٧٥.**

[١٤٣٥] قراءة شاذّة، قرأ بها عبد الله بن مسعود. **شواذّ للقراءات** للكرماني، ص ١٦٠. **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٥/٤٧٤.

[١٤٣٦] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي ، ٥/٤٧٤.

[١٤٣٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٥٩.

[١٤٣٨] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٥٩- ٦٦٠.

والإباحة، كاليمين المعقودة على أمرٍ في المستقبل بمعنى: أنه طريق الوصول إلى وجوب الكفارة بعد الحنث، فيجب أن يحمل الباء في قوله: «بالحنث» على غير السببية من الشرطية أو الملابسة.[١٤٣٩]

﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ بأن تَبَرُّوا فيها ما استطعتم ولم يفُت بها خير، وأما إن عجز عن البرّ أو رأى غير المحلوف عليه خيرًا منه فله ح أن يحنث ويكفّر؛ لقوله ع م: «مَن حَلَفَ عَلى يَمِينٍ ورَأى غَيْرَها خَيْرًا مِنها ولْيَأْتِ بالَّذِي هو خَيْرٌ، ثُمَّ لِيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ»،[١٤٤٠]أو بأن تكفروها إذا حلفتم وحنثتم، أو بأن تضنُّوا بها ولا تبذلوها لكلّ أمر، أو بِتَرك اليمين بالكُلِّيَّة، قال الشاعر:

قليلُ الألايا حافظٌ ليمينهِ وإن بَدَرَتْ مِنْهُ الأَلِيَّةُ بَرَّتِ[١٤٤١]

أو بأن لا تنسوها تهاونًا بها.[١٤٤٢] و«الكاف» في﴿ كَذَلِكَ﴾ منصوب المحلّ على أنه صفة مصدر محذوف، أي: يبين الله آياته تبيينًا مثل ذلك التبيين. وقيل: إنه حال من ضمير ذلك المصدر.[١٤٤٣]

قال المصنف: ﴿آيَاتِهِ﴾ «أعلام شريعته وأحكامه».[١٤٤٤] أراد علاماتها وأماراتها، لكن عطف أحكامه عليها محل بحث إلا أن يراد أنه يجوز أن يراد الأعلام، وأن يراد الأحكام بمعنى آيات كلامه الدَّالة على الأحكام.[١٤٤٥]

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته فيما يعلِّمكم ويسهِّل عليكم المخرج منه،[١٤٤٦] أي: فيما يعلِّمكم من التكليف، ولولا العائد لكان الأحسن أن يجعل «ما» مصدرية.

وقال قدس سره: «أي: نعمَه الواجب شكرُها، فإن مثل هذا التبيين يسهِّل لكم المخرج منه».[١٤٤٧] يعني: «أن طريق الشكر إنما هو التمسك بقواعد الشرع والعمل بمقتضاها، وذلك إنما يسهِّل بمثل ذلك التبيين».[١٤٤٨]

وقيل: كما بيَّن حكمَ اليمين، بيَّن سائر الأحكام؛ لتشكروا نعمَه ببيان ما بكم إليه حاجةٌ.

وقيل: ﴿تَشْكُرُونَ﴾ نعمته رفع الاثم بيمين اللَّغو، وكان الأولون مأخوذين به، وكذلك شَرَع لكم التَّحليل بالكفارة، ورَفَعَ إثم الحنث بها.[١٤٤٩]

[١٤٣٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٩و.

[١٤٤٠] سبق تخريجه.

[١٤٤١] ديوان لكُثَيِّر عَزَّة ص ٣٢٥ إحسان عباس ؛ دار الثقافة بيروت ١٣٩١/١٩٧١ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٧٢/٥؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٧٥/٥.

[١٤٤٢] **الكشاف** للزمخشري، ٦٦٠/١.

[١٤٤٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥٧٤/٣-٥٧٥.

[١٤٤٤] **الكشاف** للزمخشري، ٦٦٠/١.

[١٤٤٥] **حاشية الكشاف** للزمخشري ، و ٣١٩أ.

[١٤٤٦] **الكشاف** للزمخشري، ٦٦٠/١.

[١٤٤٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٥٩.

[١٤٤٨] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥٧٥/٣.

[١٤٤٩] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٧٥/٥.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)﴾

لما نهى عن تحريم الطيبات، وكان من جملة الأمور المستطابة الخمر والميسر، لا جرم بيَّن أنها غيرُ داخلة في المجاملات.

و«الميسر»: قمارُ العرب في الجَزُور. و«الأنصاب»: الأصنام التي تصيب للعبادة. و«الأزلام» سبق تفسيره في أوائل البقرة.

وقال الزجاج: الرجس اسمٌ لكلِّ ما استقذِر من الأعيان الكريهة والأعمال القبيحة.[١٤٥٠] وقال غيره: هو بمعنى النجس إلَّا أن النجس يقال: في المستقذر طبعًا، والرجس أكثر ما يقال في المستقذر عقلًا؛ ولذلك قيل: قذر: «تُعاف عنه العقُول». «وإفراده»[١٤٥١] حيث لم يقل: أرجاس مع أن المخبر عنه جمع، إمَّا؛ لأنه خبر عن الخمر وجوهًا وحذف خبر المعطوفات لدلالة خبر الأول عليها، فالخبر على نية التقديم والمعطوفات مع خبرها جملة معطوفة على الجملة الأولى، وإما؛ لأنه خبر لمضاف محذوف متناول للجميع، أي: إنما تعاطي هذه الأشياء. ﴿مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾[١٤٥٢] في محلّ الرفع على أنه صفة لـ﴿رِجْسٌ﴾، ولولا تقدير المضاف في المبتدأ لَما صحَّ الإخبار عنه، وعمّا عطف عليه بأنه رجس كائن من قبيل العمل، فإن تلك الأشياء ليست عمل الشيطان، وإنما العمل تناولها وتعاطيها، وهو شرب الخمر والقمر بالميسر، وعبادة الأنصاب والاستسلام بالأزلام، وتعاطي هذه الأشياء، وإن كان عمل الإنسان إلا أنه أسند إلى الشيطان إسنادًا مجازيًّا لكونه مزينًا له وسببًا حاملًا عليه.[١٤٥٣]

والضمير في﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ للرجس،فإنه لما كان واقعًا على كلِّ واحد من المذكورات كان الأمر بالاجتناب متناولًا للكلّ، وإن كان راجعًا إلى المضاف المقدَّر أو إلى الأشياء السابقة باعتبار المذكور فالأمر ظاهر.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكي تفلحوا بالاجتناب عنه.[١٤٥٤] وهذا حاصل معنى استعارة «لعل» وإلا فقد مرَّ أنه لا يكون بمعنى «كي» في اللغة. وقد بالغ سبحانه وتعالى ههنا في بيان تحريم الخمر والميسر حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولم يقل: «يا أيها الناس» وغير ذلك؛ إحضارًا لأيمانهم، وإشعارًا بأن ما ذكر من القبائح من أفعال الكفرة لا تليق بالمؤمن، كأنه قيل: تذَكَّروا أيمانكم، واحْمَدُوا الله على ما هداكم إليه، ولا تفعلوا عمَّا لا تليق شأنكم ولا ترجى من أيمانكم.

وصدَّر الجملة بـ﴿إِنَّمَا﴾ الدّالة على الحصر، فكأنّه قيل: ليس ما ذكر إلا الرّجس وعمل الشيطان لا غير. وقرنهما بالأنصاب والأزلام، فإن جعل تعاطيهما من قبيل عبادة الأصنام تحريمٌ بليغٌ لهما، ولعلّ قوله: ع م: «شَارِبُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ الْوَثَنِ»[١٤٥٥] مستفاد من هذه الآية، وسمَّاها رجسًا، كما قال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج، ٢٢/٣٠]، وجعلهما من عمل الشيطان تنبيهًا على أن الاشتغال بهما شرٌّ بحتٌ أو غالب، والشيطان لا يأتي إلا بالشَّرّ البَحت، وأُمِر بالاجتناب عن عينهما، [٨٠/و] وجعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحًا كان الارتكاب خَيْبَةً ومَحْقَةً، وذكر ما ينتج منهما من الوبال، وهو وقوع التَّعادي والتَّباغض بين أصحاب الخمر والميسر وما يؤدّيان إليه من الصَّدِ عن ذكر الله وعن مراعاة أوقات

[١٤٥٠] **معاني القرآن** للزجاج، ٢/٢٠٣.

[١٤٥١] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٥٩.

[١٤٥٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي ، ١/ ٤٥٩.

[١٤٥٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/٥٧٥-٥٧٦.

[١٤٥٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٠.

[١٤٥٥] **مصنّف عبد الرزاق**، ٩/٢٣٧ (١٧٠٦٤)؛ **ومصنف ابن أبي شيبة**، ٥/٩٧ (٢٤٠٦٩).

الصلاة.[١٤٥٦] هذا ما يقتضيه كلام المصنف في الأخير، وتعبيره قدس سره فيه: «ثم قرّر ذلك بأنْ بيَّن ما فيهما من المفاسد الدينيَة والدنيوية المقتضية للتحريم».[١٤٥٧]

وقال القشيري: الخَمْرُ حرامٌ لسكره، وسَكْرُ الغفلة أصعبُ، والخمرُ يوجب الحدَّ، والغفلة يوجب البُعدَ، والسّكران ممنوع عن الصلاة، والعاقل محروم عنها، والسّكران لا يحدَّ ما لم يُفِقْ، والغافل لا يوعظ ما لم يتنبه، والخمر سببُ كلّ ذلَّة، والغفلة سببُ كل حَجْبَة.[١٤٥٨]

وعنه ع م: «اجْتَنِبُوا الْخَمْرَ، فَإِنَهُ مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ»[١٤٥٩]

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١)﴾

لَمَّا ورد أن يقال: إنه تع أمر أوَّلًا باجتناب الأمور الأربعة، ثم اقتصر على ذكر ما يوجب تحريم الخمر والميسر فقط، فما الوجه فيه؟ أجيب: بأنه إنما خصهما بإعادة الذِّكر وشرح ما فيها من الوَبال تنبيهًا على أنّهما المقصود بالبيان؛ لأن الآية خطابٌ للمؤمنين، والمقصود نهيهم عن الخمر والميسر، وإنما ضمَّ الأنصاب والأزلام إليهما مع أن تعاطيهما مختصّ بأهل الجاهلية؛ تأكيدًا لقبحهما؛ ودلالةً على أنهما مثل ما يقرر حرمته ويحقق قبحه ومفسدته، وبيّن أنهما جالبٌ لأقبح الشرّ الذي هو العداوة والبغضاء، وصادٌّ عن أحسن الخير الذي هو ذكر الله، وخصَّ الصلاة من الذكر بالإفراد للتعظيم، والإشعار بأن الصَّادَّ عنها كالصادِّ عن الإيمان من حيث إنها عمادُه، والفارقة بينه وبين الكفر، وعيّن أنهما مفض إلى المفاسد الدنيوية ومانع عن المصالح الدينية.[١٤٦٠]

وفي ﴿**الْخَمْرُ**﴾ متعلّق بـ﴿**يُوقِعَ**﴾ على أن يكون كلمة «في» سببيَّته كما في قوله: ع م: «إِنَّ امرأةً دخَلَتِ النّارَ في هِرَّةٍ»[١٤٦١]وذلك أن مَن شرب الخمر يشربها مع جماعة حتى يستأنسَ بهم ويفرحَ بمودتهم، إلا أنه ينقلب إلى ضده؛ لأنه يُزيل العقل فيستولي الشهوة والغضب، فتحصل المنازعة والمقابلة، وكذا القمر بالميسر يؤدي إلى ضياع المال، فإن مَن صار مغلوبًا فيه دعاه ذلك إلى اللجاج فيه على رجاء أنه ربّما صار غالبًا، وقد يتّفق أنه لا يحصل له ذلك إلى أن لا يبقى له شيءُ من ماله، فيصير بسببه من أعدى الأعداء لأولئك الغالبين. وإن من شرب الخمر يحصل له الطرب واللَّذة الجسمانية، والنفس إذا استغرقت فيها غفلت عن كل خير، وكذا من قامر بالميسر صار استغراقه في لذّة الغلبة يورثه الغفلة عن الخير وإن صار مغلوبًا صار شدة اهتمامه بأن يحتال بحيلة يصير بها غالبًا مانعًا من أن يخطر بباله شيء سواه.[١٤٦٢]

[١٤٥٦] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٦١.؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٠.

[١٤٥٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٠.

[١٤٥٨] **لطائف الإشارات** للقشيري، ١/٢٧٨؛ **التيسير في التفسير** للنسفي، ٤٧٥/٥.

[١٤٥٩] **المستدرك على الصحيحين** للحاكم، ١٦٢/٤ (٧٢٣١).

[١٤٦٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٠.

[١٤٦١] **مسند أحمد**، ٣٤٤/١٦ (١٠٥٨٤)؛ **صحيح البخاري**، ١٣٠/٤ (٣٣١٨)؛ **المعجم الأوسط** للطبراني، ٢٧٣/٧ (٧٤٨٠).

[١٤٦٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٧٧.

وقوله: ﴿**فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**﴾ من أبلغ ما يُنهى به، لدلالة «الفاء» على أنه قد ثبت الصوارف عنها، وتبيّنت وجوه الفساد فيهما، ودلالة سوق الكلام على أن العاقل إذا خلي، ونفسه بعد ما تُلي عليه ينبغي أن لا يتوقّف في الانتهاء، ولما في الجملة الاسمية بعد هل الاستفهامية المقتضية للفعل من كمال الدّلالة على كمال الانتهاء حتى كأنه ثبت وتحقق.[١٤٦٣]

وقال المصنف: «كأنه قيل: قد تُلي عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف، فهل أنتم منتهون مع هذه الصوارف؟ أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا»،[١٤٦٤] وقال قدس سره: أعاد الحثَّ على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتَّبًا على ما تقدَّم من أنواع الصّوارف إيذانًا[١٤٦٥] بأن الأمر في المنع والتّحذير بلغ الغاية وأن الإعذار قد انقطعت.[١٤٦٦]

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَسَكِرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا فَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ عَادَ فَشَرِبَ فَسَكِرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ عَادَ فَشَرِبَ فَسَكِرَ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ صَلاةً أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ عَادَ فِي الرابعة كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ فِي طينة الْخَبَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا طينة الْخَبَالِ ؟ قَالَ: عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ». رواه ابن حبان في صحيحه. ورواه الحاكم مختصرًا ببعضه. قال: لَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي فَتُقْبَلُ لَهُ صَلَوةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا وَقَالَ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا.[١٤٦٧]

وعنه عليه السلام: «لَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حين شربها وهو مؤمن».[١٤٦٨]

وعنه ع م: «لَعَنَ اللهُ فِي الْخَمْرِ عَشَرَةً: عَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَشَارِبَهَا وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ وَسَاقِيَهَا وَبَائِعَهَا وَآكِلَ ثَمَنِهَا وَالْمُشْتَرِيَ لَهَا وَالْمُشْتَرَى لَهُ».[١٤٦٩]

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢)﴾

كونوا حذرين خاشين؛ لأنهم إذا حذِروا دعاهم الحَذَر إلى اتِّقاء كل سيِّئةٍ، وعمل كلّ حسنةٍ، أو احذروا ما عليكم في الخمر والميسر، أو في ترك طاعة الله والرّسول.

فعلى الأوّل: أمر بالحذر على الإطلاق، وعلى الثاني: بالحذر عن الخمر والميسر؛ لأنهما المقصودان، وعلى الثالث: بالحذر عن ترك طاعة الله والرّسول، فإن ذلك أقرب المذكورات، هذا تقرير كلام المصنف.[١٤٧٠]

وعلى ما قال قدس سره: الإطاعة فيما أمرا به، والحذر عما نهيا عنه، [**٨٠**/ظ] أو عن مخالفتهما.[١٤٧١]

[١٤٦٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣١٩و.

[١٤٦٤] **الكشاف** للزمخشري، ٦٦١/١.

[١٤٦٥] ج- إيذانًا.

[١٤٦٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٠.

[١٤٦٧] **مسند أحمد**، ٣٨٦/١١ (٦٧٧٣)؛ **المستدرك على الصحيحين** للحاكم، ١٦٢/٤ (٧٢٣٢).

[١٤٦٨] **المصنف** لابن أبي شيبة، ٩٨/٥ (٢٤٠٧٣).

[١٤٦٩] **سنن الترمذي**، ٥٨١/٣ (١٢٩٥)

[١٤٧٠] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٢.

[١٤٧١] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦١.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا﴾ أنكم لن تضرُّوا بتولّيكم الرسول؛ لأنه ما كُلِّف إلا البلاغ المبين بالآيات، فقد أدَّى ذلك، وإنما ضرَرْتم أنفسكم حيث أعرضتم عمَّا كلّفتموه.[١٤٧٢]

وقيل: فإن أعرضتم فقد قامت عليكم الحجَّةُ بالإبلاغ الرّسول، وبَرِئ الرسولُ عمَّا كان عليه، ولا يملك هو من أموركم إلّا التَّبليغ الظاهر، ثم الحكم لله في إثابة المطيعين ومعاقبة العاصين، فاحذروهم نزولَ عقابه، وحلولَ عذابه، وهو أبلغ وعيدٍ وتهديدٍ.[١٤٧٣]

واعلم أن حاصل معنى قوله: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة٥/٨٨] اجمعوا بين أكل الطَّيِّبات والاحتراز عن المحظورات، وقوله بعد ذلك: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [المائدة٥/٨٩]إرشادٌ إلى طريق إزالة الحنث بما عقدوا[١٤٧٤] من الأَيمان على أن يَزالوا صائمين قائمين، وقوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ الآية [المائدة٥/٨٨]، بيان للنّهي عن بعض ما يجب أن ينتهى عنه، وهو الأصل في البواقي لتسميتهم الخمر بأم الخبائث، وهدايةٌ إلى بعض ما يجب أن يمتثل به، وهو أمُّ العبادات والعمود والفارق، لقوله صلوات الله عليه وسلامه: «وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ»،[١٤٧٥] ثم كان قوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ الآية، بمنزلة قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ في البقرة [البقرة،٢/١٧٣]لمجيئها عقيب تحريم الطيبات ردًّا لزعمهم أن المستلذّات من الأطعمة منخرطةٌ في سلْكِ المذكورات، وقصر التحريم عليها دونها.[١٤٧٦]

وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ الآية. تقرير بمعنى التوسعة في قوله: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾؛ لأن حاصل معناه على ما سيجيئ: رَفَعَ الجناح عن المؤمنين في أيّ شيء يطمعون من مستلَذَّات المطاعم ومشتهياتها ﴿مَا اتَّقَوْا﴾ ما حرَّم الله، فليس المطلوب منهم الزَّهادةَ عن المستلذَّات وتحريم الطيبات، وإنما المطلوب منهم التَّرقّي في مدارج التّقوى والإيمان إلى مراتب الإخلاص واليقين ومعارج القدس والكمال، والثَّبات على الاتّقاء عن الشّرك وعلى الإيمان بما يجب الإيمان به وعلى الأعمال الصالحة، لتَحْصُلَ الاستقامة التامة فيتمَكّن بالاستقامة من الترقّي إلى مرتبة المشاهدة ومعارج «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»[١٤٧٧]وهو المعنيُّ بذكر الإحسان، وبها تُمنح الزلفى عند الله ومحبَّته. وإليه الإشارة بذكر محبَّته للمحسنين.[١٤٧٨]

وفي هذا النظم الأنيق مع الترتيب الحقيق مِسحة من معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزّاهد إنما يكون بما في يد الله أوثقَ منه بما في يده»،[١٤٧٩] رواه الترمذي.[١٤٨٠]

[١٤٧٢] **الكشاف** للزمخشري، ٦٦١/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦١.

[١٤٧٣] **التيسير في التفسير**للنسفي، ٤٨٥/٥.

[١٤٧٤] ج – بما عقدوا.

[١٤٧٥] **مسند أبي داود**، ٤٥٥/١ (٥٦١) .

[١٤٧٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/ ٤٧٨.

[١٤٧٧] سبق تخريجه.

[١٤٧٨] **الكشاف** للزمخشري،٦٦٢/١؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/ ٤٧٨.

[١٤٧٩]**سنن الترمذي**، ٥٧١/٤ ٢٣٤٠؛ **سنن ابن ماجه**، ١٣٧٣/٢ (٤١٠٠).

[١٤٨٠]**فتوح الغيب** للطيبي، ٥/ ٤٧٩.

وعن علي بن سهل: «المبادرة إلى الطاعة من علامات التوفيق، والتغافل عن المخالفات من علامات حسن الرعاية، ومراعاة الأسرار من علامات التيقظ، وإظهار الدّعاوى من رعونات البشرية، ومن لم يصح مبادئ إرادته لا يسلم في منتهى عواقبها»[١٤٨١]

وقال القشيري: كلّما كان العبد أعرفَ بربّه، كان أخوفَ من ربِّه، وإنما ينتفي الحذر عن العبد عند تحقُّق الوعد بقوله: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام٦/٨٢].[١٤٨٢]

وفي الصحيح قال ع م: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ».[١٤٨٣]

﴿**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤)**﴾

رفع الجناح عن المؤمنين في أيّ شيء طعِموه من مستلذّات المطاعم ﴿**إِذَا مَا ٱتَّقَواْ**﴾ ما حرَّم[١٤٨٤] عليهم منها.

وقيل: لَمَّا نزل تحريم الخمر قالوا: فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر،[١٤٨٥] ويأكلون مال الميسر؟

يعني: لا جناح عليهم في أيّ شيء طعموه من المباحات إذا اتقوا المحارم».[١٤٨٦]

فعلى الأول: الآية نازلة في المؤمنين عامَّةً ويدخل فيهم هذه الطائفة، وعلى الثاني: في هذه الطائفة، لكن الحكم عامٌّ، ولَمَّا ورد أن يقال: ما وجه تكرير التقوى والإيمان مرَّتين والتقوى والإحسان في الثالثة لا سيَّما مع كلمة «ثُمَّ»، وهي للتراخي ولا تراخي بين الشيئين ونفسه.

أجاب عنه المصنف: بأن المراد بما ذكر أوّلًا: حدوث التقوى والثبات على الإيمان، وثانيًا: الثبات على التقوى وعلى الإيمان، وثالثًا: الثبات على التقوى وإحسان الأعمال.[١٤٨٧] وبه ظهر معنى التراخي؛ لأن الثبات على الشيء بعد حدوثه، ويحتمل أن يكون التّراخي للرّتبة؛ لأن كل مرتبة لاحقة أشرف من سابقه، ولهذا خصَّ التقوى في المرتبة الأولى بمحرمات المطاعم وعمّها في الأخيرة وذكر الإحسان في الأخيرة.

وأجاب قدس سره بوجوهٍ: الأول: أن المراد من الأوَّل إحداث التقوى عن المحرمات التي حرمت قبل نزول هذه الآية، والثبات على الإيمان والأعمال.

ومن الثاني: إحداث التقوى عمَّا حرّم بنزولها، وإحداث الإيمان بتحريمه.

[١٤٨١] **طبقات الصوفية** للسلمي، ص ١٨٧.

[١٤٨٢] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٢٧٩/١؛ **التيسير في التفسير** للنسفي، ٤٨٤/٥.

[١٤٨٣] **صحيحالبخاري، ٥٠/٤ (٧١٣٧)؛ صحيح مسلم** ١٤٦٦/٣ (١٨٣٥).

[١٤٨٤] ج + الله.

[١٤٨٥] ج – الخمر.

[١٤٨٦] **الكشاف** للزمخشري، ٦٦٢/١.

[١٤٨٧] **الكشاف** للزمخشري، ٦٦٢/١.

ومن الثالث: الثبات على الاتّقاء عن المعاصي [٨١/و] المحرمة قبل نزولها وبعد نزولها، والاشتغال بالأعمال وإحداث الشيء في الزمان الثاني متراخٍ عمّا وقع قبل ذلك الزمان، والثبات على الشيء متراخٍ عن زمان حدوثه زمانًا أو رتبةً، الثاني: أنه باعتبار الأوقات الثلاثة نحو: أن يكون المذكور أوّلًا الاتّقاء عن جميع المعاصي قبل نزول الآية والمذكور ثانيًا الاتقاء عن الخمر والميسر، وما في الآية المذكور ثالثًا الاتقاء عمَّا يحدث تحريمه بعدها، أو باعتبار الحالات الثلاث استعمال التقوى والإيمان بينه وبين نفسه، وهو أن لا يباشر ما ينافيها في حال خلوته عن الخلقِ، وفراغه عن عبادة ربه وبينه وبين الناس بأن يعاملهم على مقتضى التقوى والإيمان، وبينه وبين الله بأن تكون في عبادته كما قال ع م: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاه وإِنْ لَمْ تَكنْ تراه فإنَّه يَرَاك»؛[١٤٨٨] ولذلك بَدَّل الإيمان بالإحسان في المرتبة الثالثة، أو باعتبار المراتب الثلاث: المبدأ والوسط والمنتهى، أو باعتبار ما يُتَّقى، فإنه ينبغي أن يترك المحرمات توقِّيًا عن العقاب، والشُّبهات تحَرُّزًا عن الوقوع في الحرام، وبعض المباحات تحَفُّظًا للنفس عن الخسَّة وتهذِيبًا لها من دَنَس الطبيعة.[١٤٨٩]

ولَمَّا ورد أن يقال: نفى الجناح في تناول ما لم يحرم لا يقيد بالإيمان والتقوى والإحسان، فإن من شرب الماء لا جناحَ عليه سواء وجد الأمور أو لم يوجد، أشار المصنف إلى جوابه بقوله: والمعنى ومحصول أن ذلك لم يذكر للتقييد، بل للمدح والثناء عليهم بذلك، وجواب الذين قالوا: «كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون»؟ قد تم بقوله: ﴿**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا**﴾؛ لأنهم طعموها قبل التحريم. فذكر ما بعده لمجرّد المدح ولو ذكر تقييد لما ختم الكلام بقوله: ﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾.[١٤٩٠]

وفيه أنّ من فعل ذلك صار محسنًا ومن صار محسنًا صار لله محبوبًا،[١٤٩١] ومن صار محبوبًا له لا بواحد شيء، بل له كلّ شيء.

و﴿**إِذَا مَا اتَّقَوْا**﴾ ظرف منصوب بما يفهم من الجملة السّابقة، فهي ﴿**لَيْسَ**﴾ مع ما في حيّزها، والتقدير: لا يؤاخذون وقت اتّقائهم، ويجوز أن تكون ظرفًا محضًا، وأن يكون فيه معنى الشرط وجوابه محذوف، أو مقدَّم على البصريّ والكوفيّ.[١٤٩٢]

والطعم يتناول الشرب ﴿**وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَهُ مِنِّي**﴾ [البقرة ٢٤٩/٢]، أي: ومن لم يشربه.

وعنه عليه السلام: «مَنْ أَكَلَ طَيِّبًا وَعَمِلَ فِي سُنَّةٍ وَأَمِنَ النَّاسُ شَرَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ».[١٤٩٣]

﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥)**﴾

لَمَّا أمرهم أن يَقتصروا فيما لا يأكلونه، وفيما يأكلونه على ما حرَّم الله وأحلَّ، بيَّن أنَّ من المحرَّمات: صيد البرّ للمحرم، كما أن الخمر والميسر منها.[١٤٩٤]

[١٤٨٨] سبق تخريجه.

[١٤٨٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٢.

[١٤٩٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٨٠.

[١٤٩١] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٢.

[١٤٩٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/٥٨١-٥٨٢.

[١٤٩٣] **سنن الترمذي**، ٦٦٩/٤ (٢٥٢٠)، **المعجم الأوسط** للطبراني، ٢٥/٤ (٣٥٢٠)؛ **المستدرك على الصحيحين** للحاكم، ١١٧/٤ (٧٠٧٣).

نزل في عام الحديبية، ابتلاهم الله بالصيد، ونهاهم عن اصطيادها امتحانًا واختبارًا، أي: معاملةً معاملة المختبر، كما امتحن أصحاب السبت بصيد البحر، وحرَّمها عليهم فيه، وكانت الوحوش والطّيور تغشّاهم في رحالهم، بحيث لم يروا مثل ذلك قط[١٤٩٥]، وكانوا محرمين كما كانت تأتي أصحاب السبت حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعًا.

و«اللام» في ﴿**لَيَبْلُوَنَّكُمْ**﴾ جواب قسم محذوفٍ، أي: والله ليبلونكم، وتجب «اللام» وإحدى النّونين في مثل هذا الجواب، و﴿**بِشَيْءٍ**﴾ متعلِّق به، أي: ليختبرنَّكم بتحريم شيء.[١٤٩٦]

والعلّامتان:[١٤٩٧] على أن التعليل فيه للتنبيه على أنه ليس من العظام التي تدحض الأقدام، كالابتلاء ببذل الأنفس والأموال، وإنما هو شبيه بما ابْتُلي به أهل أيلةَ من صيد السَّمك، فمَنْ لم يثبت عنده، كيف يثبت عندما هو أشد منه؟[١٤٩٨]

وصاحب **الانتصاف**[١٤٩٩] على أن مثل ذلك: ورد في الفتن العظيمة في قوله: ﴿**بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ**﴾ [البقرة ١٥٥/٢]، بل هو إشارة إلى ما يقع به الابتلاء من هذه الأمور، فهو بعض من كلٍّ بالإضافة إلى مقدور الله، فإنه قادر على أن يبتليَهم بأعظمَ وأهولَ منه ليبعثهم بذلك على الصبر، ويدلُّ عليه أنه سبق الوعد به قبل حلوله لتوطين النفوس عليه، فإن المفاجأة بالشدائد شديدةُ الألم، وإذا فكَّر العاقل وجد ما صرَفَ منه من البلايا أكثر مما وقَعَ فيه بأضعاف.[١٥٠٠]

والانصاف أن «لكلِّ وجهةٍ هو مولِّيها»، فإن تعليل ذلك كما يصحُّ بالنسبة إلى ما في قدرة الله يصح بالنسبة إلى ما فوقه من المشاقِّ، ولو سلم تخصيص الأسلوب بالفتن العظيمة فليكن العظم بالنسبة.

و﴿**مِنَ الصَّيْدِ**﴾ في محل الجرِّ صفة ﴿**بِشَيْءٍ**﴾ فيتعلَّق بمحذوف وهو ليس بمعنى المصدر ههنا، بل بمعنى المصدر كصيد الأمير، ويدلُّ عليه التوصيف بقوله: ﴿**تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ**﴾ [المائدة ٩٤/٥]؛ لأن الحدث لا يوصف بأنه تناله الأيدي والرماح، وإنما يوصف به الأعيان. فهو في محل الجر صفة ثانية.[١٥٠١] وعبارة عن غاية الكثرة كقوله: ﴿**وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**﴾ [مريم ٦٢/١٩].

وقيل: نيل الأيدي بالنّظر إلى صغار الطير التي لا يحتاج [**٨١**/ظ] إلى السِّلاح، ونيل الرّماح بالنظر إلى كبارها التي لا يؤخذ إلا بحيلة، ولا يصاب إلا بسلاح، والصَّيد وإن كان اسمًا للمتوحّش الممتنع إلا أن كثرة الصيد، قد تؤدِّي إلى أن ينال بعض منه بالأيدي[١٥٠٢] ﴿**مَنْ يَخَافُهُ**﴾ من يخاف عقابه بتقدير مضاف، و﴿**بِالْغَيْبِ**﴾ حال منه، أي: يخاف عقابه حالَ كون العقاب ملتبسًا بالغيبة، أي: حال كونه غائبًا منتظرًا وقوعه في الآخرة، أو من فاعل ﴿**يَخَافُ**﴾ على أنه يخاف ﴿**بِالْغَيْبِ**﴾؛ أي: بالاستدلال، دونَ العلم الضَّروري الواقع بالعِيان ونحوه، كما ذكر ذلك في الإيمان بالغيب، إذ لا خطر للإيمان ولا للخوف

[١٤٩٤] **التيسير في التفسير** للنسفي، ٤٨٤/٥.

[١٤٩٥] ج- قط.

[١٤٩٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥٨١/٣-٥٨٢.

[١٤٩٧] هما: الزمخشري، والبيضاوي.

[١٤٩٨] **الكشاف** للزمخشري، ٦٦٣/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٦٢/١.

[١٤٩٩] **هو الانتصاف من الكشاف** لابن المنير أحمد بن محمد بن منصور الاسكندري (ت. ٦٨٣ هـ/١٢٨٤م).

[١٥٠٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٨٠/٥.

[١٥٠١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥٨٢/٣.

[١٥٠٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥٨٢/٣.

حالة العِيان، أو بالغيبة عن الناس، وهو الخوف الحقيقيُّ دون ما يظهر منه عند رؤية الناس؛ فإنه يكون مراءاةً لا حقيقة، كعمل المنافقين.[١٥٠٣]

و«اللّام» في ﴿لِيَعْلَمَ﴾ «لام كي»، وعلم الله لَمَّا كان مقتضى ذاته وامتنع عليه التجدّد والتغيّر كما امتنع في ذاته جعل العلم ههنا مجازًا، عن وقوع المعلوم وظهوره على طريق إطلاق السَّبب على المسبَّبِ، أو عن تعلُّقه أي: ليتعلّق علم الله تع[١٥٠٤] بوجود الخائف كما كان يعلمه قبل وجوده، فإن علْمَه وإن كان أزليًّا لا يتحدَّث إلا تعلّقاته بتجدَّد على حسب تجدُّد المعلومات وحدوثها.[١٥٠٥]

﴿فَمَنِ اعْتَدَى﴾ فاصداد بعد هذا الابتلاء؛ وهي النهي والبيان[١٥٠٦] ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فالوعيد لاحق به لأنه فارق المحرَّم، وعلَّله قدس سره بقوله: «فإنَّ مَن لا يملك جأشَه في مثله ولا يُراعي الحكم فيه فكيف به فيما تكون النفس أمِيلَ إليه،[١٥٠٧]

وأنت خبير بأن لحوق الوعيد بهم لما ذكرناه، لا لما أنه إذا لم يملك جأشه فيه لم يملك فيما يكون أصعب منه، والمراد عذاب الآخرة والتعزيز في الدنيا.

روي عن ابن عباس: أن هذا العذاب هو أن يضرب ظهره وبطنه ضربًا وجيعًا وينزع ثيابه؛ فإن اسم العذاب قد يقع على الضّرب كما قال تع في جلد الزانيين: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور ٢/٢٤].[١٥٠٨]

وعنه ع م: «يَقتُلُ المحرِمُ السَّبُعَ العاديَ».[١٥٠٩]

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥)﴾

أي: مُحرِمُون؛ جمعُ «حَرام»، كـ«رَدَاحٍ» و«رُدُح»، والرَّداح والرَّجَاح بمعنًى، وهي: الثقيلة امرأةً كانت أو كثيبةً أو جفنةً، فيكون مدلول الآية أن المحرم ليس له أن يتعرّض للصيد ما دام مُحرمًا لا بالسلاح ولا بالجوارح من الكلاب والطير سواءٌ كان الصيد صيد الحِلِّ أو صيد الحرم، بخلاف الحلال فإنّ له أن يتصيّد. وأمَّا أنه هل يتصيَّد في الحِلِّ فقط، أو في أيِّ موضع اتّفق من الحِلِّ والحرم؟ فلا دلالة في الآية عليه.

وقيل: «الحُرُمُ» يتناول المحرم ومن كان داخل الحرم، فح تكون الآية دالَّةً على أن المحرم لا يتصيَّد أصلًا، وعلى أنّ الحلال إنما يتصيَّد في الحِلِّ دون الحرم، ولعلَّ ذكر القتل دون الذّبح والزّكاة؛ للتعميم لما فيه زهاق الروح سواء كان بطريق الذّبح، والزّكاة، أو بغيرهما.[١٥١٠]

[١٥٠٣] **التيسير في التفسير** للنسفي، ٤٨٨/٥.

[١٥٠٤] ج + تع.

[١٥٠٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥٨٣/٣.

[١٥٠٦] **التيسير في التفسير** للنسفي، ٤٨٨/٥.

[١٥٠٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٢.

[١٥٠٨] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥٨٣/٣.

[١٥٠٩] **سنن الترمذي**، ١٨٧/٢ (٨٣٨).

والصيد: اسم لكلّ ممتنعٍ متوحشٍ من الحيوانات سواء كان مأكول اللحم أو لم يكن، وهذا عند أبي حنيفة، فالمحرم إذا قَتَل سبعًا لا يؤكل لحمُه ضَمِنَ قيمة شاة عند أبي حنيفة. وقال زفر: يجب قيمته بالغًا ما بلغ، ويدل عليه قول علي رضي الله عنه:

صَيْدُ الملُوك أَرَانِب وَثَعَالب وإذا رَكِبْتُ فصَيْدِيَ الأَبْطَالُ.

وقال الشافعي: الصّيد اسم لما يؤكل لحمه؛ فلا يجب الضمان عنده بقتل السبع.[1511] ويؤيده قوله ع م: «خَمْسٌ يُقْتَلْنَ في الحِلِّ والحُرُمِ، الحِدَأةُ والغُرابُ والعَقْرَبُ والفَأْرَةُ والكَلْبُ العَقُورُ».[1512] وفي رواية أخرى: «الحية» بدل «العقرب»[1513] مع ما فيه من التنبيه على جواز قتل كل مؤذٍ.[1514]

أما التَّأبيد فلأن قتل صيد حرم مكةَ حرام لقوله ع م في حقِّ الحرم: «ولا يُنفَّرُ صَيدُها»،[1515] ثم لَمَّا حكم بحلّ قتل هؤلاء الخمس التي لا يؤكل لحمها، فهم منه أنها ليست بصيده دفعًا لتعارض الحديثين. وأما التنبيه فلأن الحديث على ما رواه بعضهم: «خَمْسٌ فَوَاسِقُ لَا جَنَاحَ عَلَى الْمُحْرِمِ أَنْ يقتلهُنَّ فِي الْحِلِّ والْحَرَمِ»[1516] فهو ع م وصفها بكونها فواسق، ثم حكم بحلِّ قتلها، والحكم المذكور عقيب الوصف المناسب مشعر يكون الحكم معلَّلًا بذلك الوصف، فيلزم منه أن يكون كونها فواسق علَّةً لحلّ قتلها، ولا معنى لكونها فواسق إلا كونها مؤذية؛ فلما ثبت أن صفة الفسق والإيذاء علَّةٌ لجواز قتله ثبت الدّلالة على جواز قتل بكلِّ مؤذ.[1517]

والحنفيّة تقول: إنها من قبيل الصّيد على ما يدلّ عليه البيت المنقول عن عليٍّ ولكن خصَّها الشارع، وأيضًا لو علَّلت لَبطلت فائدة التخصيص بالعدوِّ، واعترض بأنكم ألحقتم الذّئب بها بالقياس، وأجيب ذلك بطريق الرّواية لا بطريق الإلحاق.

وقيل: التعليل كونها مؤذيةً عند الإمام مالك، وكونها ممّا لا يؤكل لحمه عند الشافعي، ثم إن الْمُحْرِمِ إذا ذبح صيدًا فذبيحته ميتة لا يحلُّ أكلها عنده كذبيحة الوثني، وقال الشافعي: لا يحلّ للمحرم الذّابح ويحلّ لغيره كالشّاة المغصوبة إذا ذبحها الغاصب، والفرق أن النهي عن الذبح إذا كان [٨٢/و]لمعنًى في الذّابح كالإحرام أو في المذبوح مثل كونه خنزيرًا كان ذلك نهيًا لمعنى في عين الفعل، وكان مانعًا من أن يكون المنهيّ عنه مشروعًا مفيدًا للحلّ، وإذا كان النّهي لمعنًى في الثّالث وهو المالك هنا كان النهي لمعنًى في غيره ومثله لا يمنع كون المنهيّ عنه مشروعًا مفيدًا للحلّ، فلمّا لم يكن نفس الذبيح حرامًا لعينه، بل كانت حرمته لصيانة حقّ المالك بدليل أنّ الحرمة تزول بإذن المالك كان مشروعًا مفيدًا لحلّ المذبوح لمالكه، ولكلّ من أذن المالك له وإن كان حرامًا محضًا في حقّ غيرهم، حتى لو اضطُرَّ المسلم إلى أكل الحرام ويمكن من أكل الميتة، وأكل مالِ الغير كان عليه أن يأكل الميتة لا مال الغير كما صرَّح به في **المحيط**[1518]ووجهه ظاهر.[1519]

[1510]**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٨٤.

[1511]**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٨٣.

[1512]**صحيح البخاري**، ١٣/٣ (١٨٢٩)؛ **صحيح مسلم**، ٨٥٦/٢ (١١٩٨)؛ **سنن ابن ماجه**، ٢٧٣/٤ (٣٠٨٦).

[1513]**صحيح مسلم** ، ٨٥٨/٢ (١٢٠٠).

[1514]**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٢.

[1515]**صحيح البخاري**، ١٢٥/٣ (٢٤٣٣)؛

[1516]**صحيح البخاري**، ١٣/٣ (١٨٢٩)؛ **صحيح مسلم**، ٨٥٦/٢ (١١٩٨)؛ **سنن ابن ماجه**، ٢٧٣/٤ (٣٠٨٦).

[1517]**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٨٤.

[1518]**هو البحر المحيط لأ**بي حايان الأندلسي (ت.٧٤٥هـ/١٣٤٤م).

وعنه ع م قال: «لَحْمُ الصَّيْدِ لَكُمْ فِي الْإِحْرَامِ حَلَالٌ مَا لَمْ تُصِيدُوهُ أَوْ يُصَادُ لَكُمْ».[١٥٢٠]

وروي: «أَنَّهُ أُهْدِيَ لِرَسُولِ اللهِ حِمَارًا وَحْشِيًّا وَهُوَ بِالْأَبْوَاءِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ: إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَّا حُرُمٌ».[١٥٢١]

﴿**وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا**﴾ قال المصنف: التَّعمُّد: أن يقتله وهو ذاكر لإحرامه، أو عالم أن ما يقتله مما يحرم عليه قتله.[١٥٢٢]

«وفيه إشكال؛ لأن التّرديد يوهم أنهما تعريفان مستقلّان، وليس به؛ لأن قوله: «أن يقتله وهو ذاكر لإحرامه» ليس بمانعٍ؛[١٥٢٣] لأنه إذا رمى غيرَ صيد وأصاب صيدًا وهو ذاكر لإحرامه، ينبغي أن يكون عمدًا، وليس به. فإن قيل: قوله: «أن يقتله وهو ذاكر» يُراد به القصدُ، فلا يردُّ مثل هذه الصورة، يقال: مع التسليم يدخل فيه ما إذا لم يعلم أن ما قتله ممَّا يحرم قتله عليه، والذي: يقال في العذر: إنّ «أو» هنا بمنزلة «واو» الجمع كما في قوله: ﴿**فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۞ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا**﴾ [المرسلات ٧٧/٥-٦].[١٥٢٤]

وقد ذكر قدس سره بالواو، ﴿**مِنْكُمْ**﴾ حال من فاعل ﴿**قَتَلَهُ**﴾، أي: قتله كائنًا منكم أي: من المؤمنين؛ ولعلَّ المقصود من التقييد بالحال التوبيخ على عدم الجري على مقتضى الإيمان بمقارفة ما لا يقتضيه، ﴿**مُتَعَمِّدًا**﴾ حال أيضًا من فاعل ﴿**قَتَلَهُ**﴾ على تجويز تعدُّد الحال، ومن لم يجوّز ذلك جعل «من» في ﴿**مِنْكُمْ**﴾ للبيان حتى لا يتعدَّد الحال.[١٥٢٥]

ولَمَّا ورد أن يقال: محظورات الإحرام يستوي فيه العمد والخطأ؛ لأنه تع حرّم على المحرم صيد البَرّ لأجل إحرامه، ولَمّا كان حرمة فعله مبنية على كونه هتكًا لحقّ الإحرام لم يسقط الضمان والجزاء بالخطأ والجهل كما في حلق الرأس حال الإحرام، وكما في ضمان إتلاف مال المسلم، فإنه لَمَّا ثبتت حرمته لحقّ المالك كان إتلاف العامد والخاطئ سواء في إيجاب الضمان،[١٥٢٦]فكذا هنا فما بال التَّعمُّد مشروطًا في الآية الكريمة؟

أجاب عنه المصنف: بأن مورد الآية فيمن تعمَّد، فقد روي أنه عَنَّ لهم في عمرة الحديبية حمارُ وحشٍ، فحمل عليه أبو اليَسَر فطعنه برمحه فقتله، فقيل: إنك قتلتَ الصّيد وأنت محرمٌ؛ فنزلت. ولأن الأصل فعل المتعمّد، والخطأ لاحق به للتغليظ، ويدلُّ عليه قوله: ﴿**لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ**﴾، ﴿**وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ**﴾.

وعن الزهري: نزل الكتاب بالعمد ووردت السنة بالخطأ. وعن سعيد بن جبيرٍ: لا أرى في الخطأ شيئًا أخذًا باشتراط العمد في الآية.[١٥٢٧]

[١٥١٩] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٨٤-٥٨٥.

[١٥٢٠] **مسند الشافعي** ، ١٨٦؛ **شرح السنة** البغوي ٧/٢٦٤/٨٦.

[١٥٢١] **صحيح البخاري**، ١٣/٣ (١٨٢٥).

[١٥٢٢] **الكشاف**،١/ ٦٦٣.

[١٥٢٣] ج- ليس بمانع.

[١٥٢٤] **فتوح الغيب**، ٥/ ٤٨١.

[١٥٢٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٨٥.

[١٥٢٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٨٥-٥٨٦.

[١٥٢٧] **الكشاف** للزمخشري،١/٦٦٣- ٦٦٤.

فقوله: «**ويدل عليه**»،[١٥٢٨] أي: على أنّ حكم الآية في العمد، إما لأنه المورد، أو لأنه الأصل والخطأ ملحقٌ به للتغليظ والإشعار بأنه من العظم بحيث يستوي فيه العمد والخطأ، ووجه الدلالة أنه لا وبالَ ولا انتقام في الخطأ، وقيل: أي: على أنّ الأصل هو العمد وهذا مع أنه لا حاجة إلى الدليل دلالة فيما ذكر عليه، وقيل: أي: على أن الخطأ ملحق به للتغليظ، ولا دلالة عليه أيضًا، وقيل: أي: على أن مراد الآية فيمن تعمَّد وتوسيط قوله: «ولأن الأصل» يأبى ذلك.[١٥٢٩]

وقوله: «وعن سعيد بن جبير»،[١٥٣٠] وجه آخر في الجواب وآخره وإن كان قانون الجواب تقديمه، أي: لا نسلم الاستواء ولئن سلم فذكر التَّعمد لكذا وكذا لا للتّقييد، وذلك لضعفه والمذهب هو الأوَّل.[١٥٣١]

وعبارته قدس سره: «أن ذكره ليس لتقييد الجزاء فإن إتلاف العامد والمخطئ واحد فيه، بل لقوله: ﴿**وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ**﴾ ولأنّ الآية نزلت فيمن تعمَّد».[١٥٣٢]

تقريره: أن التنصيص بقيد التّعمد لا بنفي الحكم عند انتفائه اتّفاقًا، أما عند الحنفية فلعدم قولهم بالمفهوم، وأما عند الشافعية فلأن المفهوم إنما يثبت إذا لم يكن للتقييد فائدة، وفائدة التقييد ههنا تفريع قوله: ﴿**لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ**﴾، ﴿وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾.[١٥٣٣]

فلما اختص ّّ الوَبال والانتقام بالمتعمد وأريد تفريعهما على قتل المحرّم قيَّد قتله بقوله: ﴿**مُتَعَمِّدًا**﴾ لا لتقييد وجوب الجزاء، ولو قيل: ومن عاد إلى ما تقدَّم وهو قتل الصيد وهو مُحرم عامدًا كان أو مخطئًا فينتقم الله منه لزم أن يكون قتل المخطئ موجبًا للانتقام مع أنه لا وبالَ له ولا انتقامَ فيه، فقيَّد بالتَّعمُّد ليصحَّ التفريع ونزول الآية فيمن تعمَّد على ما تقدَّم بيانه.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَقْتُلُ المحْرِمُ السَّبُعَ الْعَادِي» [**٨٢**/ظ].[١٥٣٤]

﴿**فَجَزَاءُ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ**﴾ قرأ الكوفيون ويعقوب برفع ﴿**جَزَاءٌ**﴾[١٥٣٥] منوّنًا، ورفع ﴿**مِثْلُ**﴾ على أنه مبتدأ حُذف خبره؛ أي: «فَعَلَيْهِ جَزَاءٌ»، أو خبر مبتدأ محذوفٍ؛ أي: «فَوَاجِبُه جَزاءٌ». و﴿**مِثْلُ**﴾على التقديرين صفة لـ﴿**جَزَاءُ**﴾،أي: «فعليه جزاء مماثل للمقتول». والجملة جواب الشرط، إن كان كلمة ﴿**مَنْ**﴾ في قوله: ﴿**وَمَنْ قَتَلَهُ**﴾ شرطية و«الفاء» فاء جواب الشرط، فإن كانت موصولة تكون الجملة المصدّرة بـ«الفاء» في محلّ الرّفع على الخبريّة، وتكون «الفاء» زائدةً لتضمن المبتدأ معنى الشرط.

وعلى هذا أي: على تقدير أن يقرأ برفع ﴿**جَزَاءٌ**﴾ وتنوينه، ورفع ﴿**مِثْلُ**﴾ على أنه صفةُ ﴿**جَزَاءٌ**﴾ لا يجوز أن يتعلَّق قوله: ﴿**مِنَ النَّعَمِ**﴾ بنفس ﴿**جَزَاءٌ**﴾؛ لأنه مصدر فيكون بمنزلة الموصول ويكون معموله من تمام صلته، وقد تقرر أن الموصول

[١٥٢٨] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٤.

[١٥٢٩] **حاشية الكشاف للتفتزاني**، ٣١٩ظ.

[١٥٣٠] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٤.

[١٥٣١] **حاشية الكشاف للتفتزاني**، ٣١٩ظ.

[١٥٣٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٣.

[١٥٣٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٨٦.

[١٥٣٤] **سنن الترمذي**، ١٨٩/٣ (٨٣٨).

[١٥٣٥] **كتاب السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٤٨؛ **التيسير** للداني، ص ٣٣٦؛ **النشر** لابن الجزري، ١٩٢/٢.

لا يوصف إلا بعد تمام صلته لئلّا يلزم الفصل بأجنبي، وأيضًا المصدر قد وصف ههنا، وقد تقرر أن في النحو: أن المصدر الموصوف لا يعمل، فتعيّن أن يكون صفة لـ﴿جَزَاءٌ﴾ متعلّقًا بمحذوفٍ؛ أي: «فعليه جزاء كائن من جنس النعم».[١٥٣٦]

وقرأ الباقون برفع ﴿جَزَاءُ﴾[١٥٣٧]وإضافته إلى ﴿مِثْلُ﴾ فلا بدَّ لهذه القراءة من تأويلٍ؛ لأنه ليس عليه جزاءٌ مثلَ ما قتل؛ لأن المثل غيرُ مقتول، بل عليه جزاءٌ ما قتل، وذلك التأويل أن يجعل التركيب من إضافة المصدر إلى معموله، أو يجعل لفظ المثل مقحمًا بين المصدر ومعموله كما في قولك: «أنا أكرمُ مِثْلَك»، وأنت تريد: «أنا أكرِمُك»؛ على أن يكون إكرام مثل المخاطب كناية عن إكرام نفس المخاطب، فكذلك ههنا يكون إيجاب جزاء مثل المقتول كناية عن إيجاب جزاء نفس المقتول.

والمعنى: فعليه أن يَجْزِيَ مثلَ ما قتل على أن يكون أصل التّركيب الإضافي «فجزاءٌ مثلَ ما قتل» على أن يكون[١٥٣٨] مثل مفعول المصدر المنوَّن، ثم أضيف المصدر إلى مفعوله ،كما تقول: «عَجِبْتُ مِنْ ضَرْبٍ زيدًا»، ثم تقول: «مِنْ ضَرْبِ زيدٍ».

وقرئ بنصبهما[١٥٣٩] على أن «جَزَاءً» مصدر لفعلٍ خالصٍ، أو لفعل في خبر مبتدأ بالخبر على: «فَلْيَجْزِ جزاءً أو فَعَلَيْهِ أن يجزي جزاءً».[١٥٤٠]

وقرئ: «فجزاؤه مِثْلُ ما قَتَلَ»[١٥٤١] برفع «جَزَاءُ» مضافًا إلى الضمير، ورفع «مِثْلُ» على أنه خبر له.[١٥٤٢]

وقرئ: «فَجَزَاءُ مِثْلِ مَا قَتَلَ»[١٥٤٣] وهو ظاهر ممّا قبله، وهذه المماثلة باعتبار الخلقة والهيئة عند مالكٍ والشافعي؛[١٥٤٤] إذ قد روي أنه ع م: «سُئِلَ عَنِ الضَّبعِ، أَصَيْدٌ هو؟ فقال: نعم،وفِيهِ كَبْشٌ إذا أخَذَهُ المحْرِمُ».[١٥٤٥] وهذا نصّ في أن المعتبر المماثلة في الصورة، وأيضًا قد تظاهرت الروايات عن عمر، وعثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، وابن عباس، وابن عمر أنهم حكموا أن جزاء الصّيد بالمِثْلِ من النَّعَم صورة، ففي النعامة ببدنة، وفي حمار الوحشي ببقَرَةٍ، وفي الضَّبُعِ بكبش، وفي الغزال بعَنْزٍ وهي الأنثى من المعْزِ، وفي الظَّبْي بشاةٍ، وفي الأرنب بِجَفْرَةٍ. وفي الضب بسَخْلة، وفي اليربوع بجفرة، والظبي هو الغزالُ الكبيرُ الذَّكرُ، والغزال هي الأنثى، واليربُوعُ: الفأرة الكبيرة تكون في الصحراء، والجَفْرَة الأنثى من أولاد المعز المنفصلة من أمِّها، والذّكر جفر، والعَنَاق الأنثى من أولاد المعز إذا قربت قبل تمام الحول.

وباعتبار القيمة عند أبي حنيفة: إذ لا نزاع في أن الصيد المقتول إذا لم يكن له مثل صورة فإنه يضمن بالقيمة، وكان المراد بالمثل في هذه الصّورة هو القيمة، فوجب أن يكون المراد به في سائر الصُّور كذلك؛ لأن اللَّفظ الواحد لا يجوز حمله إلا

[١٥٣٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٨٦.

[١٥٣٧] **كتاب السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٤٨؛ **التيسير** للداني، ص ٣٣٦؛ **النشر** لابن الجزري، ١٩٢/٢.

[١٥٣٨] ج + أصل التركيب.

[١٥٣٩] قراءة شاذّة. **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٤؛ **البحر المحيط** لأبي حيان، ٣٦٥/٤.

[١٥٤٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٣؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٨٧.

[١٥٤١] قراءة شاذّة مرويّة عن بن مسعود و يحيى. **شواذّ للقراءات** للكرماني، ص ١٦٠.

[١٥٤٢] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٤؛ **المحتسب** لابن جنّي، ١/ ٢١٨-٢١٩؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٣؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٨٧.

[١٥٤٣] **الكشاف** للزمخشري، ٦٦٤/١؛ **الفريد** للهمذاني، ٤٩٣/٢.

[١٥٤٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٣؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٨٧.

[١٥٤٥] **سنن أبو داود**، ٦١٩/٥ (٣٨٠١) ، **سنن النسائي**، ١٩١/٥ (٢٨٣٦).

على المعنى الواحد.[١٥٤٦] فقال: يُقَوَّمُ الصّيد حيث صيد، فإن بلغت ثمنَ هدي تَخَيَّرَ بين أن يهدي ما قيمته، وبين أن يشتري بها طعامًا، فيعطي كل مسكين نصف صاع من بُرٍّ أو صاعًا من غيره، وبين أن يصوم عن طعام كلّ مسكين يومًا، وإن لم تبلغ تَخَيَّرَ بين الإطعام والصوم.[١٥٤٧]

والشافعي يقول: إنما يعدل إلى هذا التفصيل إذا لم يكن له نظير من النعم ونوجب الجزاء بالدّلالة. وقال الشافعي: لا جزاء على الدّال؛ لأنه معلّق بالقتل، ولنا: أن في الدّلالة عليه تقويتا لا منه وهو قتل مَعنى.

﴿**يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ**﴾ صفة ﴿**جَزَاءٌ**﴾. ويحتمل أن يكون حالًا من ضميره في خبره، أي: خبر جزاء إن قُدِّر: «فعليه جزاء»، ومراده بالضمير في خبره الضمير في كائن المقدَّر لا الضمير المجرور بعده، أو منه إذا أضفتَه أو وصفتَه ورفعتَه فيهما على الفاعلية بخبر مقدَّر لـ«من» في قوله: ﴿**وَمَنْ قَتَلَهُ**﴾، والتقدير: «فيجب عليه جزاء مثل ما قتل»، أو «جزاء مثل ما قتل حالَ كونه يحكم به ذوا عدل من المؤمنين»، وذلك لأن جزاء إذا نونته تكون نكرة محضة والحال من النّكرة المحضة لا يجوز أن يتأخّر عنها، بخلاف ما إذا أضفته إلى ﴿**مِثْلُ**﴾، فإن لفظ ﴿**مِثْلُ**﴾ وإن لم يتعرف بالإضافة إلى المعرفة إلا أن جزاء يتخصَّص بالإضافة إليه فيجوز أن يتأخَّر عنه ما وقع حالًا منه، وكذا يتخصَّص إذا وصفته بمثل، وكذا إذا قدّر خبر مبتدأ محذوف، أي: فالواجب أو اللّازم أو نصب أو رفع مبتدأ عند من جوّز الحال منه، ولَمَّا تمسَّك به الحنفية في اعتبار المماثلة في التّهمة دون الهيئة قائلين بأن التقويم هو المحتاج إلى النّظر والاجتهاد بخلاف الهيئة والصّورة؛ فإنها مشاهدة لا تحتاج فيها إلى الاجتهاد.

أجاب عنه قدس سره بأنه: «كما أن التّقويم يحتاج [**٨٣**/و] إلى نظر واجتهاد وتحتاج المماثلة في الخلقة والهيئة إليهما، فإنَّ الأنواع تتشابه كثيرًا».[١٥٤٨]

يعني: أن الصّيد المقتول قد يشابه أنواعًا شتّى من النّعم بوجوه كثيرةٍ، فتعيين ما يماثل المقتول من تلك الأنواع، والحكم بأنه هو المماثل له دون غيره مع أن المقتول يماثل كلّ واحد منها من وجه يحتاج إلى النظر والاجتهاد، ويؤيّده ما روي: أن أعرابيًّا جاء إلى أبي بكرٍ الصديق فقال: إني أصبت من الصيد كذا وكذا؟ فسأل أبو بكر أبي بن كعب، فقال الأعرابي: أتيتك أسألك، وأنت تسأل غيرك! فقال: أبو بكر: وما أنكرت من ذلك وقد قال الله: ﴿**يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ**﴾ فشاورت صاحبي، فإذا اتّفقنا على شيء أمرناك به.[١٥٤٩]

وما روي عن قبيصة بن جابر؛ أنه حين كان مُحرمًا ضرب ظَبْيًا فمات، فسأل عمر بن الخطاب، وكان إلى جنبه عبد الرحمن بن عوف، فقال عمر لعبد الرحمن: ما ترى؟ قال: عليه شاةٌ، فقال عمر: وأنا أرى كذلك، قال: اذهب واهْدِ شاةً، قال قُبَيْصَةُ: فخرجت إلى صاحبي، وقلت: إنَّ أمير المؤمنين لم يدر ما يقول، حتى سأل غيره. قال: فَاجَأني عمر وعلاني بالدرَّة، وقال: أَتَقْتُل في الحرم وتُسَفِّهُ حكيمًا؟ قال تع: ﴿**يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ**﴾ وأنا عمر، وهذا عبد الرحمن.[١٥٥٠] ولضعف التمسك المذكور، قال المصنف: «قالوا: وفيه دليل على أن المثل: القيمة»،[١٥٥١] إحالة على الغير لضعفه،[١٥٥٢] وقرئ: «ذو

[١٥٤٦] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٩٥/١٢؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٨٧-٥٨٨.

[١٥٤٧] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٤؛ **المحتسب** لابن جني، ١/ ٢١٨-٢١٩؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٣.

[١٥٤٨] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٨٩.

[١٥٤٩] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٨٩.

[١٥٥٠] **مفاتيح الغيب**، ٩٨/١٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٥٢٢/٧.

[١٥٥١] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٥؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٣.

عدل»[١٥٥٣] على إرادة الجنس[١٥٥٤] ولم يرد أن العدل الواحد يكفي في الحكم، فإنّ من يُكنى للاثنين كما يكنى للواحد، لكن لا دلالة على التعيين، أو على إرادة الإمام، والضمير في ﴿بِهِ﴾ بمثل ما قيل. و﴿هَدْيًا﴾ حالٌ عن ﴿جَزَاءٌ﴾ فيمن وصَفَه بـ﴿مِثْلُ﴾؛ لأنَّ الصِّفة خَصَّصَتْه فقرَّبتْه من المعرفة.

قالوا: هذا؛ إنما يستقيم على مذهب الأخفش في تجويز إعمال الظرف بدون الاعتماد، وإلَّا ﴿فَجَزَاءٌ﴾ مبتدأ والظرف المحذوف أعني: «عليه» خبره، وفيه نظر لجواز أن يعتبر في الظرف معتمدًا على المبتدأ أعني: «من قتل»، وكأنهم نفوا ذلك على أن الواقع موقع الجزاء، لو كان ظرفًا والمرفوع فاعلًا لم يجز الفاء، كما في المضارع المثبت أو الماضي بدون «قد» إلا بتقدير المبتدأكما ذكر في قوله: ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾.[١٥٥٥] فيكون التقدير ههنا: «فهو عليه جزاء»، أو بدل عن مثل باعتبار محلّه على أن يكون مجرورًا بإضافة المصدر إليه، فإنه حينئذ يكون محلّه النّصب على أنّه مفعول المصدر،[١٥٥٦] أو عن لفظه فِيمَنْ نصبه، أو حال من الضّمير في ﴿بِهِ﴾ ، أو نصب بحذف ما به أي: بجرى مهدي.

والهدي بالتخفيف كـ«الهديّ» بالتشديد وهو: ما يُهدى إلى الحرم من النَّعم لينحر لوجه الله.

﴿بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ وصف به ﴿هَدْيًا﴾؛ لأن إضافته لفظيةٌ؛ لأنه اسمُ فاعل أضيف إلى مفعوله، والاصل: بالغًا الكعبة وحذف التنوين للتخفيف، والإضافة اللَّفظيَّة لا تفيد التعريف فتوصَف بالمضاف النّكرة كقوله: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف ٢٤/٤٦].[١٥٥٧] ومعنى بلوغه الكعبة ذبحه بالحرم،[١٥٥٨] حتى لو دفع إلى فقراء الحرم حيًا لا يجوز اتّفاقًا وبعد الذبح فيه يجب تصدُّقُ لحمه فيه عند الشافعي؛ لأن المقصود من ذبحه إيصالُ لحمه إلى الفقراء، وقال أبو حنيفة: له التَّصدّق به حيث شاء؛ لأن يذبحه فيه خرج عن العهدة، وعين الكيفية غير مراده إجماعًا؛ لأنَّها تضاف عن إراقة الدماء فيها، فأريد ما حولها من الحرم الذي له حرمتها، ولَمَّا ورد أن يقال: فما يصنع مَن يفسِّر المثل بالقيمة بقوله: ﴿مِنَ النَّعَمِ﴾ وهو تفسير للمثل، وبقوله: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾؟

أجاب عنه المصنف: بأنه خيَّر من أوجب القيمة بينَ أن يشتريَ بها هديًا، أو طعامًا، أويصوم كما خيّر الله في الآية، فـ﴿مِنَ النَّعَمِ﴾ بيان للمشتَرى بالقيمة في أحد وجوه التخيير؛ لأن مَنْ قَوَّم الصيد واشترى بالقيمة هديًا. فقد جزي بمثل ما قتل من النعم.[١٥٥٩]

واعترض بأن قراءة رفع ﴿جَزَاءٌ﴾ و﴿مِثْلُ﴾ يقتضي أن يكون الجزاء مماثلًا ﴿مِنَ النَّعَمِ﴾ للصيد بأن كان الجزاء القيمة فليس مماثلًا له من النَّعم، بل الجزاء قيمة يشترى بها مماثلة.

وأجيب: بأن ما يشترى بالجزاء جزاء أيضًا، فإن طعام المساكين جزاء بالإجماع وهو يشترى بالقيمة، والحاصل أنه يصدق عليه أنه جزاء وأنه اشترى بالجزاء فلا ينافي بينهما، ثم ترقى في الكلام بقوله: على أن التخيير الذي في الآية يعني: لا

[١٥٥٢] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٥؛ **حاشية الكشاف للتفتزاني**، ٣٢٠و.

[١٥٥٣] **المحتسب** لابن جني، ٢١٩/١؛ **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٥.

[١٥٥٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٣.

[١٥٥٥] **حاشية الكشاف للتفتزاني**، ٣٢٠و.

[١٥٥٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٨٩.

[١٥٥٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٨٩.

[١٥٥٨] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٣.

[١٥٥٩] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٥.

كلام في صحة ذلك، بل المدعي رجحانه بل وجوبه إذا لم يرتكب تعسّف، فإن ظاهر الآية التخيير بين أمور ثلاثة، هي: الجزاء بالهدي، والتكفير بالطعام، والصوم، وذلك إنما يظهر استقامته بعد التقويم بأن يشتري هديًا مثل الصيد، أو طعامًا يطعم منه كلّ مسكين القدر المخصوص أو يصوم عن طعام كلّ مسكين يومًا، وأمّا جعل الواجب هو النظر على التعيين فإذا لم يوجد فأحد الأمرين الإطعام أو الصيام بعد التقويم مخالف لما في ظاهر الآية تاب عنه تبوءًا ظاهرًا فإن قوله: ﴿**أَوْ كَفَّارَةٌ**﴾ عطف على ﴿**جَزَاءٌ مِثْلُ**﴾، والمعنى:« فعليه جزاء مثل»، أو كفارة طعام أو عدل ذلك صيام، وهذا تخيير صريح بين الأمور الثلاثة، لكن ليس مذهب الشافعي ما ذكر من إيجاب النظير من غير تخيير.

﴿**أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا**﴾ [**٨٣**/ظ]

﴿**أَوْ كَفَّارَةٌ**﴾ عطفٌ على ﴿**جَزَاءٌ**﴾ إن رفعتَه، أي: أو فعليه كفارةٌ، وإن نصبتَه فخبر محذوف، كأنه قيل: أو الواجب عليه كفّارةٌ، أو تقدّر: فعليه أن يَجزي جزاءً أو كفارةً، فتَعطفها على «أن يجزي»،و﴿طَعَامُ﴾عطف بيان أو بدل أو خبر محذوف، أي: هي طعام.

وقرأ نافع وابن عامر «كَفَّارَةُ طَعَامِ»[١٥٦٠] بالإضافة، وهذه الإضافة للتبيين كأنه قيل: أو كفارةٌ من إطعام مساكين، كقولك: «خاتمُ فضة»،[١٥٦١] بمعنى: خاتم من فضة؛ لأن المكفر مخير بين الهدي والطعام والصيام، فكأنه قيل: كفّارة طعام لا كفارة هدي ولا كفارة صيام، ولما أوجب الشافعي: أن يكون جزاء الصيد المقتول ما يماثله من النعم صورة، جعل معنى التخير المستفاد من كلمة أو كون القاتل مخيرًا بين ذبح ذلك المماثل في الحرم وبين أن يقوّم ذلك المماثل بالدراهم ويشتري بها طعامًا يساوي قيمته قيمة الهدي ويطعمه مساكن الحرم وبين أن يصوم عن كل مدّ من الطعام يومًا، ولما أوجب أبو حنيفة: قيمة المقتول لا مثله صورة قوم الصيد بقيمته في المكان الذي قتل فيه الصيد، وقال الشعبي: يقوم بقيمته بمكة؛ لأنه يكفر بها ثم خير القاتل فقال: إن شاء صرف تلك القيمة إلى شيء من النّعم وإن شاء صرفها إلى الطعام فيتصدّق به كلّ مسكين نصفَ صاعٍ من برّ أو صاعًا من غيره، وإن شاء صام عن كلّ نصف صاع برًا وصاع من غيره يومًا، وذهب جمهور الفقهاء إلى أن الخيار في نصفين أحد هذه الثلاثة إلى قاتل الصيد الذي وجب عليه الكفّارة؛ لأن الله أوجب عليه أحد هذه الثلاثة على التخيير فوجب أن يكون هو المخير، وقال محمد بن الحسن من أصحاب أبي حنيفة: التخيير إلى الحكمين؛ لأن الله قال: ﴿**يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ**﴾، ومن قال: إن كلمة ﴿**أَوْ**﴾ للترتيب، قال: إن لم يجد الهدي اشترى طعامًا وتصدّق به فإن كان معسرًا صام.

وقرئ: «أو كَفَّارةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ»،[١٥٦٢] وإنما وحّده لأنه واقع موقع التبيين فاكتفى بالواحد الدّال على الجنس يعني: واقع موقع التميز نحو: عشرون درهمًا، فاكتفى ههنا بالجنس كما اكتفى بالتّمييز، وذلك لأن كفارة مبهم يحتمل الطعام والصيام فتبين تارةً بطريق الإضافة وتارةً بطريق الإبدال وفي التمييز يقصد بالواحد الجنس دون الفرد.

وقرئ: «أَوْ عِدْلُ ذَلِكَ»[١٥٦٣] بكسر العين، والفرق بينهما أن عدل الشيء ما عادله من غير جنسه كالصوم والإطعام وعدله ما عدل به في المقدار، ومنه عدلا الحمل؛ لأن كلّ واحد منهما عدل بالآخر حتى اعتدلا كان المفتوح تسمية بالمصدر، والمكسو بمعنى المفعول به كالذبح ونحوه، ونحوهما: الحَمل والحِمل، فإن الحَمل بالفتح ما في البطن وعلى الشجر، والحِمل بالكسر ما على الرأس.

[١٥٦٠] **النشر** لابن الجزري، ١٩٢/٢.

[١٥٦١] ج – خاتم فضة.

[١٥٦٢] قراءة شاذّة مرويّة عن الأعرج. **شواذّ للقراءات** للكرماني، ص ١٦٠.

[١٥٦٣] قراءة شاذّة مرويّة عن ابن عباس والجحدري وطلحة بن مصرف. **شواذّ للقراءات** للكرماني، ص ١٦١.

وقالالفرّاء: «العِدل» بالفتح: ما عاد الشيء من غير جنسه فيدخل فيه الفداء والقيمة، وعِدل الشيء بالكسر مثله من جنسه تقول: عندي غلامٌ عِدل غلامك، وإن أردتَ قيمته من غير جنسه فتحتَ العين.

وقال أبو حاتم: العَدل بالفتح مصدر. والعِدل بالكسر اسم. قال الكسائي: هما واحد. وقال الراغب: العَدل والعِدل يتقاربان لكن العدل يستعمل فيما[١٥٦٤] يدرك بالبصيرة كالأحكام وعلى ذلك: «أو عدل ذلك صيامًا». والعَدل والعديل فيما يدرك بالحاسة كالموزونات، والعدل هو التقسيط على سواء، وعلى هذا روي بالعدل قامت السموات؛ إذ لو كان ركن من الأركان الأربعة في العالم زائدًا على الآخر أو ناقصًا منه لم يكن منتظمًا.

﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾

متعلّق بالمحذوف، أي: فعليه الجزاءُ أو الطعام أو الصوم ليذوق ثقل فعله، وسوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام أو الثقل الشّديد على مخالفة أمر الله.

فعلى الأول: المراد بأمره فعل قاتل الصيد وهتك حرمة الإحرام، وعلى الثاني: أمر الله على حذف المضاف، أي: وبال مخالفة أمر[١٥٦٥] الله. ومعنى الشدة مأخوذٌ من إضافة الوَبال إلى أمر الله؛ فإنَّ بطشه لمن خَالف أمرَه شديدٌ. وقد ذكرهما قدس سره والمصنّف ذكر الأوّل.

وأصل «الوبال»: هو ثِقَل الشيء المكروه، ومنه قوله تع: **﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾** [المزمل، ١٦/٧٣]، أي: شاقًّا ثقيلًا. ويقال: استوبلت الطعام، أي: استثقلته. و«الوبيل»: الطعام الذي يثقل على المعِدَة فلا يُسْتَمْرأ، والوبيل: خشبة القصار والعصا الثقيلة.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ﴾ لكم من الصَّيد في حال الإحرام قبل أن تراجعوا رسول الله و تسألوه عن جوازه. وقيل عمّا سلف لكم في الجاهليّة منه؛ لأنهم كانوا متعبّدين بشرائع مَن قبلهم، وكان الصيد فيها محرَّمًا.[١٥٦٦]

وعبارته قدس سره: «**﴿عَمَّا سَلَفَۚ﴾** من قتل الصيد محرَّمًا في الجاهلية أو قبل التحريم».[١٥٦٧] فلعلّ المصنّف نظر إلى أنه لابدّ من وجود مادّة يمكن فيها المؤاخذة في الجملة ليستجيب له العفو؛ ولذلك قال ما قال[١٥٦٨]، وهو قدس سره نظر إلى أن الإسقاط وعدم المؤاخذة من باب العفو؛ ولذلك لم يشترط ما ذكره في الوجهين.

وقيل: بالكفارة وفع العفو **﴿وَمَنْ عَادَ﴾** [٨٤/و] إلى قتل الصيد وهو مُحرم بعد نزول النَّهي عنه **﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ﴾** ينتقم: خبر مبتدأ محذوف، تقديره: فهو ينتقم الله منه، ولذلك دخلت «الفاء»، ونحوه: **﴿فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا﴾** [الجن ١٣/٧٢][١٥٦٩] وذلك لأنَّ الجزاء إذا وقع مضارعًا لم تصح «الفاء» ما لم يقدّر المبتدأ، وكذا المنفي بلا، فما قيل: إن المضارع يجوز بدون «الفاء» فلا يكون للفاء فائدة، وإذا جعلت الجملة اسميةً ظهرت الفائدة مبني على ما ذكر من أن الجزاء إذا

[١٥٦٤] ج- فيما.

[١٥٦٥] ج – أمر.

[١٥٦٦] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٥.

[١٥٦٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٣.

[١٥٦٨] ج – ما قال.

[١٥٦٩] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٥.

كان مضارعًا مثبتًا أو منفيًّا بلا فوجهان، لكنهم صرّحوا بأن وجه دخول «الفاء» تقدير المبتدأ، وجعل الجملة اسمية يعني: ينتقم منه في الآخرة.

واختلف في وجوب الكفّارة على العائد؛ فعامّة العلماء على وجوبه. وعن ابن عباس وشريح: أنه لا كفّارة عليه تعلّقا بالظّاهر، وأنه لم يذكر الكفارة.[١٥٧٠]

قال الإمام: دليله أنه أعظم من أن يكفَّر بالتصدُّق، بل الله ينتقم منه؛ فإنه جزاءٌ، والجزاء كافٍ وكونُه كافيًا يمنع من وجوب شيءٍ آخر.[١٥٧١]

وقال قدس سره: وليس فيه ما يمنع الكفّارة على العائد.[١٥٧٢] وعند سعيد بن جبير: الانتقام: إيجابه الجزاء بهذه الأشياء سماه انتقامًا كما سمّاه وبالًا؛ لأنه شاقٌّ.

﴿**وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ**﴾ ممّن أصرّ على عصيانه. وقيل: منيع لا يغالب منتقم ممّا يخالفه ولا يعارض.

وقال القشيري: حرّم الله الصّيد على الْمُحرم الذي قَصد زيارةَ البيت، والإشارة فيه أنَّ مَن قصد بيتًا فينبغي أن يكون للصّيد منه أمانٌ، ولا يتأذّى به حيوان؛ فإن البَرَّ من لا يؤذي الذَرَّ، ولا يُضمر الشَّر، وكما أن الصّيد حرام على المحرم إلى أن يتحلَّل، فكذلك الطلب والطمع والإختيار حرامٌ على العارف ما دام مُحرمًا بقلبه، وإذا قتل الصيد فعليه الكفَّارة وإذا لاحظ العارفُ الأغيار، أو طمع في شيء، واختار لزمته الكفارة، لكن لا يُكتفى منه نحو المثل، ولا بأضعافِ ما تصرَّف فيه، لكنَّ كفَّارته تجرُّده عن كلّ خيرٍ، قَلّ أو كثُر. صغر أو كبُر؛ لأن الجنايات متفاوتة والمؤاخذات متباينة.[١٥٧٣]

﴿**أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)**﴾.

ذكر المصنّف في ﴿**صَيْدُ الْبَحْرِ**﴾ وجهين، الأول: أن الصيدَ والطعامَ بمعنى المفعول، وضمير ﴿**طَعَامُهُ**﴾ للصيد، ومعنى إحلال الصيد: إحلال الانتفاع به، وإحلال مطعومه إحلال أكله على حذف المضاف، فيكون عطفُ الخاصِّ على العامّ، الثاني: عن **أبي ليلى**: أنَّ الصيد والطّعام على معناهما، وكذا قدّر المضاف في ﴿**صَيْدُ الْبَحْرِ**﴾، أي: صيدُ حيوانِ البحر. وقال: «وأن تطعموه»[١٥٧٤] وضمير ﴿**طَعَامُهُ**﴾لحيوان البحر، فلا يكون من قبيل: أعجبني زيد وكرمه، بل من قبيل: أعجبني حسن غلام زيد وكرمه، وإلا لما احتيج إلى تقدير المضاف.[١٥٧٥]

وذكر قدس سره وجهين، الأول: أن يكون بمعنى المفعول، لكن ضمير ﴿**طَعَامُهُ**﴾ للبحر، فصيده ما صِيد منه بالحيلة حال حَيَاتِهِ وطعامه ما قذفه البحر، أو نضب عنه الماء، أي: غار وبقى هو في أرضٍ يابسةٍ فأخذ من غير معالجة.[١٥٧٦]

[١٥٧٠] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٥.

[١٥٧١] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٩٨/١٢؛**فتوح الغيب** للطيبي، ٤٩٢/٥.

[١٥٧٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٣.

[١٥٧٣] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٢٨٠/١؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٤٩٤/٥-٤٩٥.

[١٥٧٤] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٥.

[١٥٧٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٠ظ-و؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣٢٩/٣.

[١٥٧٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٥.

ومنهم من أحلَّ الطَّافي[١٥٧٧]؛ لظاهر هذا التفسير، ولا يستقيم، فإن الأحاديث على تحريمه، وهذا فيما قذفه الماء حيًا فمات بآفة.[١٥٧٨]

الثاني: أن الصيد بمعنى المفعول، وطعامه على معناه وضميره للصيد، أي: أحلّ لكم مصيد البحر وأكله، فيكون من عطف الخاصّ أيضًا ولا حاجة إلى ما ذكره الشارح المرحوم: من جعل الصيد على معناه وجعله بمعنى المصيد بالنظر إلى إرجاع الضمير على سبيل الاستخدام.[١٥٧٩]

وقال الإمام: ما صيد منه ثلاثة: الحيتان وأنواعها حلال، والضفادع وأنواعها حرام، واختلفوا في غيرهما. فقال أبو حنيفة: حرام، وقال الأكثرون: حلال.[١٥٨٠]

وقيل: يحلُّ السَّمك وما يؤكل نظيره في البرِّ مثل بقر الماء ونحوه، وما لا يؤكل نظيره في البر لا يحلُّ مثل كلب الماء.

﴿**متاعًا لَكُمْ**﴾ مفعول له مختصٌّ بالطّعام، كما أن ﴿**نَافِلَةً**﴾[الأنبياء،٧٢/٢١] حال مختصَّة بـ﴿**يَعْقُوبَ**﴾؛ يعني: أُحلَّ لكم طعامه تمتيعًا لِتُنَّائِكم، أي: لمقيميكم، جمع تَانِي من: تَنَأَ بالبلد أقام به، يأكلونه طريًّا، ولسيَّارتكم يتزوَّدونه قديدًا، كما تزوّد موسى الحوت في مسيره إلى الخَضِر.[١٥٨١]

وإنما خصَّ لأن ﴿**وَلِلسَّيَّارَةِ**﴾ قرينة على أن المراد التمتُّع بأكله؛ لظهور أنّ المراد هو التزوّد وقدّر المضاف في ﴿**لَكُمْ**﴾ ليخرج عطف ﴿**وَلِلسَّيَّارَةِ**﴾من عطف البعض على الكلِّ، ويجوز التعميم كما هو اللائح من تعبيره قدس سره: «و﴿صَيْدُ الْبَرِّ﴾ ما صيد فيها، أو الصيد فيها، فعلى الأول يحرم على المحرم أيضًا ما صاده الحلال وإن لم يكن له فيه مدخل».[١٥٨٢]والشافعي: على إباحته إذا لم يصد له لقوله ع م: «صَيْدُ الْبَرِّ لَكُمْ حَلَالٌ مَا لَمْ تَصِيدُوهُ أَوْ يُصَادْ لَكُمْ».[١٥٨٣] وأبو حنيفة: إذا صِيد للمُحرم بغير إعانته وإشارته لقوله ع م: «هل أشرتُمْ هل أعنتُمْ؟ قالوا: لا، قالَ: فَكُلوا ما بقي»[١٥٨٤] قاله حين اصطاد قتادة حمارًا وحشيًّا، وهو حلال في أصحاب محرمين له، فسألوه.

«فأخذ أبو حنيفة بمفهوم قوله: ﴿**وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا**﴾ واعترض بأنه لا يقول بالمفهوم، ولو سلم فأخرج مصيد غيرهم [**٨٤**/ظ] بإضافة المصيد إلى المخاطبين مفهوم اللقب والقائلون بالمفهوم لا يقولون به أيضًا، وأجيب: بأن المراد أخذ بما يفهم منه، فإنه لا يدلُّ إلا على حرمة صيد المحرمين في حال الإحرام فيبقى ما سواه على الحل الأصلي، ويدلُّ على أن المراد صيد المحرمين قوله:﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ**﴾ [المائدة٥/٩٥]، فالخلاف بين الحنفية والشافعية في أن المسكوت ليس مدلول النصِّ، بل ثابت على حاله أم لا، فعند الحنفية: لا، بل هو باقٍ على حاله لا تعرض

[١٥٧٧] والطافي: بغير همز من طفا يطفو إذا علا الماء ولم يرسب. انظر: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ٥٢٩/٩.

[١٥٧٨]**التيسير في التفسير** للنسفي، ٤٩٦/٥.

[١٥٧٩]**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥٩١/٣.

[١٥٨٠]**مفاتيح الغيب** للرازي، ١٠٣/١٢.

[١٥٨١]**الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٦.

[١٥٨٢]**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٤.

[١٥٨٣]**مسند أحمد**، ١٧١/٢٣ (١٤٨٩٤)؛ **سنن أبي داود**، ٢٤٦/٣ (١٨٥١)؛ **سنن الترمذي**، ١٩٤/٣ (٨٤٦)، **سنن النسائي**، ١٨٧/٥ (٢٨٢٧).

[١٥٨٤]**سنن النسائي**، ١٨٦/٥ ٢٨٢٦.

فيه للنّص، وكذا مفهوم اللقب عند العامّة حتى إن حرم صيدكم لا يدلّ إلا على حرمة صيد المخاطبين وصيد غيرهم على حاله.[١٥٨٥]

والجمهور: على﴿دُمْتُمْ﴾ من: دَامَ يَدُومُ. وقرئ بكسر الدال[١٥٨٦] من: «دَامَ يَدَامُ» مثل: «خَافَ يَخَافُ» وهما لغتان مثل: «مَاتَ يَمُوتُ ويَمَاتُ» و﴿مَا﴾ في ﴿مَا دُمْتُمْ﴾ مصدرية ظرفية، أي: مدة دوامكم محرمين.[١٥٨٧]

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٩٧)﴾

﴿جعل﴾ بمعنى «صيَّر»، فمفعوله الأول ﴿الْكَعْبَةَ﴾، والثاني ﴿قِيَامًا﴾، أو بمعنى «خلق» و﴿الْكَعْبَةَ﴾ مفعول و﴿قِيَامًا﴾ حال ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ عطف بيان على جهة المدح أو المفعول الثاني.[١٥٨٨]

والعرب تُسمّي كلَّ بيت مربَّع كعبةً تشبيهًا له بكعب الرجل الذي في ملتقى الساق والقدم في كونه على هيئتها في التربيع.

وقيل: أصلها الخروج والارتفاع وسمّي الكعب كعبًا لِنتُوئه، وخروجه من القدم، ومنه قيل للجارية إذا قاربت البلوغ وخرج ثَديها تكعَّبَتْ فسمّيت بها لارتفاعها الصوري؛ لأنها مرتفعة من الأرض، أو لأنّ بناءها منفردةٌ، أو لارتفاعها المعنوي لما ارتفع ذكرها في الدنيا واشتهر أمرها في العالم.[١٥٨٩]

﴿قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ أي: انتعاشًا لهم، أي: سبب انتعاشهم في معاشهم ومعادهم يَلُوذُ به الخائف، ويأمن فيه الضعيف، ويربح فيه التجّار، ويتوجه إليه الحجّاج والعمّار، فيحط به الخطيئات، ويرفع به الدرجات، وينال به الكرامات، أو ما يقوم به أمر دينهم ودنياهم.[١٥٩٠]

فالقائم المتقوي على الأوّل: هو الناس يتقوُّون من البيت في أمر معاشهم ومعادهم، وعلى الثاني: هو الأمور المتعلقة بهما، أو الأوّل: على أن القيام مصدر، والثاني: على أنّه ما يقوم به. وأصله «قوامًا»؛ لأنه من: «قَامَ يَقُومُ قِيَامًا»، فقلبت الواو ياءً لإنكسار ما قبلها، ولما لزم حمل المصدر على العين في الأول قدر السبب المضاف.

وقرأ ابن عامر ﴿قِيَمًا﴾[١٥٩١] على أنه مصدر كـ«الشِّبَع»، فورد أنه لو كان مصدرًا لَصح واوه كما في «حِوَل» فدفع بنه مصدر «قَامَ» الذي أُعلَّ، و«حِوَل» اسم من التحوّل ولم يعلَّ فعله، وجعل قدس سره انتصابه على المصدرية، أي: تقوم قيمًا، أو الحالية بمعنى «قائمًا» فيكون «جعل» بمعنى «خلق»، أو يجعل ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ مفعولًا ثانيًا ولم يجعل ﴿قِيَمًا﴾ مفعولًا

[١٥٨٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٠ظ.

[١٥٨٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. **المحتسب** لابن جنّي، ١٦١/١.

[١٥٨٧] **اللباب** لابن عادل، ٥٣٥/٧.

[١٥٨٨] **الفريد** للهمذاني، ٥٠٠/٢.

[١٥٨٩] **اللباب** لابن عادل، ٧/ ٥٣٦؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٣/ ٥٩٣**.

[١٥٩٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٤؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٣/ ٥٩٣-٥٩٤**.

[١٥٩١] **كتاب السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٤٨؛ **التيسير** للداني، ص ٣٣٦؛ **النشر** لابن الجزري، ١٩٢/٢.

ثانيًا؛ إذ لم يرد استعماله في معنى ما يقوم به الشيء، والمصدر لا يحمل على العين.[١٥٩٢] وقد عرفت ما يدفع ذلك ولذلك جوّزه غيره.

﴿**وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ**﴾ عطف على ﴿**الْكَعْبَةَ**﴾، فيكون المفعول الثاني محذوفًا لدلالة ما قبله عليه، أي: وجعله الله أيضًا قيامًا، كالكعبة، والمراد الشَّهر الذي يؤدَّى فيه الحجّ، وهو ذو الحجة.

قال المصنف: «لاختصاصه من بين الأشهر بإقامة موسم الحجِّ فيه شأنًا قد عرَّفه الله».[١٥٩٣] وقال قدس سره: «لأنه المناسب لقرنائه».[١٥٩٤] «وقيل: عَنى به جنس الأشهر الحرم».[١٥٩٥]

فـ«اللام» لتعريف الجنس وينصرف إلى الكلّ لانتفاء قرينة البعضية، وعلى الأوّل للعهد لدلالة حال العرف.[١٥٩٦] ووجه كون الشّهر الحرام سببًا له، هو أن العرب كان يتعرَّض بعضهم بعضًا بالقتل والغارّة في سائر الأشهر، فإذا دخل الشهر الحرام زال الخوف، وقدروا على سفر الحجّ أو التّجارات آمنين على أنفسهم وأموالهم، فكان سببًا لاكتساب منافع الدين والدنيا، ومصالح المعاش والمعاد؛ وكذا «الهدي»: وهو ما يُهدى إلى البيت ويُذبح هناك ويفرق لحمه بين الفقراء فإنه نسك للمهدي، وقوم المعيشة الفقراء فكان سببًا لقيام أمر الدين والدنيا، وكذا «القلائد»: فإن من قصد البيت في غير الشهر الحرام ومعه هدي قد قلّده، أو قلّد نفسه من لحاء شجر الحرم لم يتعرض له أحد، حتى أن واحداً من العرب يلقى الهدي مقلدًا وهو يموت جوعًا فلا يتعرّض له ألبتَّة ولا يتعرض لها صاحبها أيضًا، وكلّ ذلك إنما كان لأن الله أوقع في قلوبهم تعظيم البيت.[١٥٩٧]

فلما ذكر سبحانه أنه جعل الكعبة قيامًا ذكر بعده هذه الثلاثة؛ لأنه إنما صارت سببًا لقوام المعيشة لانتسابها إلى البيت، وكا ذلك أدلّ دليل على عظمة البيت وشرفه أدام الله بركته.

وعنه ع م: «لَا يَحِلُّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السِّلَاحَ».[١٥٩٨]

﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٩٧) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩٨)

﴿**ذَلِكَ**﴾: إشارة إلى جعل الكعبة قيامًا للناس، أو إلى ما ذكر من حفظ حرمة الإحرام بترك الصيد وغيره.[١٥٩٩] وهو في محل النصب بفعلٍ مقدَّر دلَّ عليه السياق، أي: شرع الله ذلك وبيّن، أو جعل الكعبة وما تبعه قيامًا، و«لام العلة» في قوله: [**٨٥**/و] ﴿**لِتَعْلَمُوا**﴾ متعلِّق بذلك الفعل المقدّر، و﴿**تَعْلَمُوا**﴾ منصوب بإضمار «أنْ» بعد «لام كي».[١٦٠٠]

[١٥٩٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٤؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٩٣-٥٩٤.

[١٥٩٣] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٧.

[١٥٩٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٤.

[١٥٩٥] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٧؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٤.

[١٥٩٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٠ظ.

[١٥٩٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٤؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٩٤.

[١٥٩٨] **صحيح مسلم**، ٢/٩٨٩ (١٣٥٦).

[١٥٩٩] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٧.

[١٦٠٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٩٤-٥٩٥.

فقال المصنّف: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ كلَّ شيء، وهو عالم بما يصلحكم وينعشكم ممَّا أمركم به وكلَّفكم،[١٦٠١] يعني: أن قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كناية عن علمه بكل شيءٍ. فأتى بالعامّ ليندرج تحته هذا العلم الخاصُّ وهو علمه لما يصلح، ويمكن أن يكون المعنى، أي: جَعلنا الكعبة انتعاشًا، أو ذكرنا حفظ ما ذكر لتعلموا أنَّا نعلم مصالحَ دينكم ودنياكم فتستدلُّوا بهذا العلم الخاصّ على أنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض، وتعلموا أنه تعالى عالم ما وراء ذلك كلِّه.[١٦٠٢] ويقرب من هذا الوجه ما ذكره قدس سره بقوله: فإن شرع الأحكام لدفع المضارِّ قبل وقوعها، وجلب المنافع المترتّبة عليها دليل حكمة الشارع وكمال علمه.[١٦٠٣]

وقيل: لَمّا علم في الأزل أن طباع العرب على الحرص على القتل والغارَّة دبَّر فيه تدبيرًا بإلقاء تعظيم البيت والمناسك في قلوبهم، فصار ذلك سببًا؛ لحصول الأمن وقضاء المصالح الدينيّة والدنيويّة، وإتقان الفعل وإحكامه على وفق المصالح دليل على كمال علمه وحكمته.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، تعميم بعد تخصيص ومبالغة بعد إطلاق إن أجري ما قبله على ظاهره، وإن جعل كناية فهو تقرير وتصريح.

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾، تشديد في إيجاب القيام بما أُمر به، وأن الرّسول قد فرغ ممّا وجب عليه من التبليغ وقامت عليكم الحجَّة ولزمتكم الطاعة، فلا عذر لكم في التفريط.[١٦٠٤]

قيل: قوله: «وأن الرسول قد فرغ»[١٦٠٥] عطف على «تشديد»، أي: تشديد في إيجاب القيام وإيذان أن الرسول، ففي الكلام حذف، والوجه أن يكون عطفًا تفسيريًا على «إيجاب القيام»، المعنى: أن حكمة بعثة الرّسل هي أن لا يكون للناس على الله حجة، فإن الله أرسله إليكم ليبلِّغ إليكم ما أرسل به من شرائعه، ولا سيما تعظيم شعائره وأعلام دينه، فبلَّغ وأنذر، فارتفع العذر وأزيحت العلَّة، وبقى الأمر من جانبكم؛ إن أطعتموه فاعلموا أن الله غفور رحيم، وإن عصيتموه فإن الله شديد العقاب، هذا هو المعنيُّ بقوله: ﴿تشديد في إيجاب القيام بما أمر به»،[١٦٠٦] ثم إيقاع هذه الجملة، أعني: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، وهذه التأكيدات في إثبات العلم تدلُّ دلالة ظاهرة على أن جعل المشار إليه بقوله: «ذلك ما ذكره الله من حفظ حرمة الإحرام بترك الصيد وغيره» أولى مِن جعل الكعبة قيامًا، بل كل ما ذكره الله من أول السورة، بل كل ما بلغَّه صلوات الله عليه وما جاء به من الوحي وغيره ليَدخل فيه ما تضمَّنته السورة بالطريق الأولى؛ لأن التأكيد في إثبات العلم بقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ثم التعميم بقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: ثم الوعيد والوعد لمن انتهك محارمه، ولمن حافظ عليها، ولمن أصرَّ عليه، ولمن انقلع عنه لقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ثم التخصيص بما أجرى هذه التشديدات لأجله من قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا

[١٦٠١] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٧.

[١٦٠٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٩٧/٥.

[١٦٠٣] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٤.

[١٦٠٤] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٧.

[١٦٠٥] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٧.

[١٦٠٦] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٧.

تكْتُمُونَ﴾ من تصديق وتكذيب وفعل وغريمه وتوسيط هذا الاعتراض، يدلُّ على أن الخطب عظيم، وإلى هذا المعنى ينظر قوله: «وأن الرسول قد فرغ مما قد وجب عليه من التبليغ».[١٦٠٧]

ومن أدعية النبي ع م: «اَللَّهُمَّ إِنَّكَ تَسْمَعُ كَلَامِي وَتَرَى مَكَانِي وَتَعْلَمُ سِرِّي وَعَلَانِيَتِي وَلَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِي».[١٦٠٨]

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠)﴾

حكمٌ عامٌ في نفي المساواة بين الرّديء من الأشخاص والأعمال والأموال وجيّدها، رغّب به في صالح الأعمال وحلال المال.[١٦٠٩] فيكون تأكيدًا للترغيب المستفاد من قوله: **﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** إلى هنا.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ جواب **﴿لَوْ﴾** محذوف، أي: يمتنع أن يكون مساويًا للطيّب. ومعنى الإعجاب السرور بما يتعجَّب منه، يقال: يعجبني أمر كذا أي: يسرّني.[١٦١٠] «فإن ما تتوهَّمونه في الكثرة من الفضل لا يوازي النُّقصان في الخبيث وفَوات الطيب»،[١٦١١] يعني: لا يساوى بين كثرة الخبيث وفوات الطَّيب، فإن الكثرة قُوبلت بالخبيث الذي في نفسها، وبفَوات الطيِّب الذي هو خارج منها، فَلَنْ يغلب الواحد الاثنين.[١٦١٢]

فالعبرة بالجودة والرّداءة دون القلَّة والكثرة، فإن المحمود القليل خيرٌ من المذموم الكثير، والخطاب لكل معتبر ولذلك قال: **﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ﴾** أي: فاتقوه في تحرِّي الخبيث وإن كثر، وآثِروا الطيّب وإن قلَّ. **﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾**، راجين الفلاح.[١٦١٣]

وقيل: نزلت في حجّاج اليمامة لَمَّا همَّ المسلمون أن يوقعوا بهم فنهوا عنه وإن كانوا مشركين.[١٦١٤]

قال المصنف: من حقّ الآية أن تُكفحَ بها وجوهُ المجبرة إذا افتخروا بالكثرة:

كَاثِرْ بِسَعْدٍ إِنَّ سَعْدًا كَثِيرَةٌ ... وَلَا تَرْجُ مِنْ سَعْدٍ وَفَاءً وَلَا نَصْرًا

لَا يَدْهَمَنَّكَ مِنْ دَهْمَائِهِمْ عَدَدٌ ... فَإِنَّ جُلَّهُمْ بَلْ كُلَّهُمْ بَقَرُ[١٦١٥]

[١٦٠٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٤٩٧-٤٩٨.

[١٦٠٨] تخريج الإحياء للعراقي، ١/٣٤٠. الهيثمي (ت ٨٠٧)، مجمع الزوائد ٣/٢٥٥ • فيه يحيى بن صالح الأبلي قال العقيلي روى عنه يحيى بن بكير مناكير وبقية رجاله رجال الصحيح • أخرجه الطبراني (١١/١٧٤) (١١٤٠٥)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/١٦٣)، وابن عساكر في «معجم الشيوخ» (١٢٠٩) باختلاف يسير

[١٦٠٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٥.

[١٦١٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٩٦.

[١٦١١] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٨.

[١٦١٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٤٩٨.

[١٦١٣] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٥.

[١٦١٤] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٨؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٥.

[١٦١٥] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٨.

قوله: «**أن تكفح**»[١٦١٦] أن تضرب ويواجه في الحرب يقال: كَافَحَهُ لَاقَاهُ مواجهة عن مفاجأة وكافحوهم في الحرب ضاربوهم تلقاء الوجوه، وعن بعض أفاضل أهل السُنة من حقِّ الآية أن يسحم بها وجوه المعتزلة، [**٨٥**/ظ] حيث جمعوا إلى الخبيث القلَّة.[١٦١٧]

فالآية إن أُجريت على العموم لعموم قوله: ﴿**مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ**﴾، أو على الخصوص لخصوصه، فلا يدلُّ على ما ذكره تقرير الأوّل: أيها الذين يدَّعون أنهم أرباب العقول انظروا[١٦١٨] بعد ما بلَّغكم من بيان التوحيد ونفي الشرك، والإرشاد إلى الفضائل وقلع الرذائل: هل يستوي ما أدعوكم إليه من اتِّباع دينِ آبائكم وقطع الأرحام والفساد في الأرض؟ فابذلوا جهيداكم في التَّمييز بين الحق والباطل، واتقوا الله وأنصفوا من نفوسكم لعلكم تَفوزون بالهدى عاجلًا وبالفلاح آجلاً، فالكلام في الدّعوة إلى متابعة الحقِّ والطّاعة ﴿**وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ**﴾ كالتتميم لعدم الاستواء، ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾من إرخاء العِنان والبعث على التَّفكر، فنقول: يا أمة محمد، هلمُّوا إلى النظر فيمَنْ يتَّبع سنّة الرسول منّا ومنكم، ومن ينكص على عقبه ويتَّبع هواه ولا يعمل بالأحاديث حتى يتبيَّن الخبيث ههنا من الطيّب.

وتقرير الثاني: أنه نهي عن التعرض للمشركين القاصدين لزيارة حرم الله لغرض الدنيا، فسمَّاه خبيثًا، وإذا كان التّعرض لهم غيرَ جائز في مثل ذلك المقام كيف جاز التعرُّض لأعراض المسلمين في تفسير كلام الله؟[١٦١٩]

قوله: «كَاثِرْ بِسَعْدٍ» هم قبيله أي: كن غالبًا عليهم ولا تَخفْ عن كثرتهم وبعده:

يَرُوعُكَ مِنْ سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ جُسُومُهَا وَتَزْهَدُ فِيهَا حِينَ تَقْتُلُهَا خُبْرًا.[١٦٢٠]

أي تعلمها يقينًا.

قوله:«**لَا يدهمَنَّك**»[١٦٢١] من: دهمَه غَشِيَه، أي: لا يروعنَّك من جماعتهم وكثرتهم، البيت لأبي تمّام وقبله:

لَمْ يَبْقَ مِنْ جُلِّ هَذَا النَّاسِ باقيةٌ يَنَالُهَا الْوَهْمُ إِلَّا هَذِهِ الصُّوَرُ[١٦٢٢]

ويقال: ﴿**الْخَبِيثُ**﴾: المكسوب حال الغفلة، ﴿**وَالطَّيِّبُ**﴾: المكسوب على شهود الحقِّ.

﴿**الْخَبِيثُ**﴾: ما لم يُخرج منه حقُّ الله، ﴿**وَالطَّيِّبُ**﴾: ما أُخرج منه حقُّه.

﴿**الْخَبِيثُ**﴾: ما ادَّخر به لنفسك، ﴿**وَالطَّيِّبُ**﴾: ما قدَّمته بأمر ربك.[١٦٢٣]

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا».[١٦٢٤]

[١٦١٦] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٨.

[١٦١٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٠ظ.

[١٦١٨] ج- انظروا.

[١٦١٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/ ٥٠١-٥٠٢.

[١٦٢٠] **ديوان الحماسة** لأبي تمام، ٢/٢١٧.

[١٦٢١] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٨؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٠ظ.

[١٦٢٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٠ظ.

[١٦٢٣] **لطائف الإشارات** للقشيري، ١/٢٨١؛ **التيسير في التفسير** للنسفي، ٥/٥٠٢.

[١٦٢٤] **سنن الترمذي، ٥/ ٢٢٠** (٢٩٨٩)؛ **صحيحمسلم**، ٢/ ٧٠٣ (١٠١٥).

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١)﴾

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ هي غير منصرفةٌ، وللنحويين في سبب امتناعه من الصرف وجوهٌ:

الأول: قال الخليل وسيبويه: قولنا: «شَيْءٌ» جمعه في الأصل: «شَيْئَاء» على وزن «فعلاء»، فاستثقلوا اجتماع همزتين بينهما ألفٌ لا سيَّما، وقد سبقهما حرف علَّة وهي الياء، وكثر دوران هذه اللفظة في لسانهم، فنقلوا الهمزة الأولى التي هي لام الفعل إلى أوَّل الكلمة فصار «لَفْعَاء»، وذلك يوجب منع الصرف؛ لأنه لما كان في الأصل على وزن «فَعْلَاءَ» مثل «حَمْرَاءَ» لم ينصرف كما لا تنصرف «حمراء»، وهو أرجح الوجوه؛ إذ ليس فيه شيء غير القلب، والقلب كثير في لسانهم كما في «أنيق» أصله: «أَنْوَق» استثقلت الضم على الواو فقدَّموها فقالوا: «أونق»، ثم قَلبوا الواو ياءً فقالوا: «أَنْيق».

الثاني: أنَّ «أَشْيَاء» وزنه: «أَفْعِلَاءُ»، وأصله: «أَشْيِئَاء» بهمزتين بينهما ألف بعد ياءٍ مكسورةٍ، وذلك لأنه جمع «شَيْءٍ»، و«شَيْءٌ» أصله: «شَيِّءٌ» على أنه «فَيْعِلٌ» من «شَاء» مثل «هيِّن» من: هان عليه الأمر، أي: خفَّ وسهُل و«ليِّن» من: لان، فجمع على«أشياء»، كما جمع هيِّن وليِّن على «أَهْوِنَاءَ» و«أَلْيِنَاءَ»، ثم خُفِّف «شيِّءٌ»، فقيل: «شَيْءٌ» كما قالوا: هَيْن ولَيْن بالتّخفيف، فخُفِّف «أَشْيِئَاءَ» أيضًا؛ لأن إجماع الهمزتين اللتين أولاهما لام الكلمة، والثانية للتأنيث مع توسّط الألف بينها، وهي تشبه الهمزة في بناء الجمع يوجب الثقل التبليغ، فقَلَبوا الهمزة الأولى ياءً لانكسار ما قبلها وحذفوا الياء التي هي عين الكلمة تخفيفًا فصارت «أَشْيَاءُ»، فوزنها الآن «أَفْلَاءُ».

وقيل: أصل «شَيِّئ» «شَيِيئ» على وزن «فَعِيل» فجمع على «أشيئاء» مثل «صَديقٍ وأَصْدقاءَ» و«نَصيبٍ وأَنصِبَاءَ» فخفّف كما ذكر.

والثالث: ما ذكر الكسائي من أنَّ «أَشْيَاءَ» على وزن «أَفْعَالٍ» جمع «شَيْءٍ» كـ«فرح وأفراح» وإنما تركوا صرفهالكثرة استعمالهم لها، ولأنها شبهت بـ«فعلاء» ويرد عليه انصراف «أنباء» «وأسماء»، وأجيب: بأن العلل النحوية لا توجب الاطِّراد، بل هي وجوه القياس تعلل بها الأحكام فيما لم يوجد فيه النّصُّ، والمواضع التي يوجد فيها النَّصّ على خلاف القياس، يعمل فيها بالنص لكونه قويًّا من القياس. وقد وجد النّص على انصراف «أسماء» «وأبناء» فصرفا فلم يوجد في لفظ «الأشياء» فلم يصرف.[١٦٢٥]

روي أنه ع م: كان يخطب ويخبر الناس بفرضية الحجّ، ويقرأ قوله: **﴿وللهِ على النّاسِ حِجُّ البَيْتِ﴾** [آل عمران ٩٧/٣]، فقام رجلٌ من بني أسد- وقيل: أَقْرعُ بنُ حَابِس- وقال: يا رسول الله أفي كلِّ عامٍ؟ فأعرض النَّبِيُّ عنه بوجهه، فأعاد السؤالَ فأعرض عنه بوجهه، فأعاد السؤال، فقال: «لو قلتُ: لكلِّ عامٍ، لَوجب عليكم، ولو وجب عليكم ثم تركتموه لضَلَلتُم». ثم قال: «اتركوني ما تركتُكم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتُم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه».[١٦٢٦]

وروى أبو هريرة عن النبي ع م قال: «اترُكوني ما ترَكْتُكم، فإذا حدَّثتُكم فخذوا عنِّي. فإنَّما هلَكَ من كانَ قبلَكُم بِكَثْرةِ سؤالِهِم واختلافِهِم على أنبيائِهِم».[١٦٢٧]

[١٦٢٥] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١١١/١٢-١١٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٥٤٢-٥٤٦؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٩٧-٥٩٨.

[١٦٢٦] **مسند أحمد**، ٣٥٥/١٦ (١٠٦٠٧)؛ **صحيح مسلم**، **٩٧٥** (١٣٣٧).

[١٦٢٧] **سنن الترمذي**، ٤٧/٥ (٢٦٧٩).

وقال القفَّال: إن المؤمنين كانوا يسألون رسولَ الله أشياءَ عن الغيب ومن المعجزات بإشارة اليهود، كما قال: ﴿**أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ**﴾ [البقرة ٢/١٠٨]، فنُهوا عن ذلك، وهو السؤال عن أمورٍ لا حاجةَ لهم بها، وعن اقتراح آياتٍ بعد وقوع الكفاية بمعجزاتٍ ظهرت لهم من غير سؤال.[١٦٢٨]

والسؤال [**٨٦**/و]ثلاثة: واجب، وهو: السؤال عن المهمّات ممّا كلّف به، وضرب: يكره أو يحظر السؤال عنه وهو قوله: «اتركوني ما تركتُكم»، وضرب: يجوز السؤال والسكوت عنه وهو ما يستحب أن يحمد ولا يؤخذ به الإنسان أن يحث عنه.

﴿**إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ**﴾

قال المصنف: «الجملة الشرطة والمعطوفة عليها، صفة لـ﴿**أَشْيَاءَ**﴾. والمعنى: لا تكثروا مسألة رسول الله حتى تسألوه عن تكاليف شاقَّةٍ عليكم، إن أفتاكم بها وكلَّفكم إيَّاها تغُمَّكم وتشقَّ عليكم، وتندموا على السّؤال عنها. وإن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان الوحي، وهو ما دام الرَّسول بين أظهركم يوحى إليه تبد لكم تلك التكاليف التي تسؤكم، وتؤمروا بتحمُّلها،فتعرضون أنفسكم لغضب الله بالتفريط فيها».[١٦٢٩]

تقريره: يؤذن أن المعطوف عليه وهو قوله: ﴿**إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾، كالتوطئة والبناء، والثانية كالتفسير، ولذلك قال: «﴿**إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا**﴾ صفة لـ﴿**أَشْيَاءَ**﴾»، وعَمَّ زمانَ الوحي حين قال: «ما دام الرسول بين أظهركم يُوحى إليه»، قال مُحيي السُّنة:[١٦٣٠]﴿**إِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ**﴾ لحكم من فَرضٍ أو نَهيٍ، وليس في ظاهره شرح ما بكم إليه حاجةٌ ومست حاجتكم إليه، فإذا سألتم عنها حينئذ تبد لكم، وقرَّر هذا المعنى الإمام حيث قال: السؤال على نوعين، أحدهما: ما لم يَجْرِ ذكره في الكتاب بوجهٍ ما فهو منهيٌّ عنه، وثانيهما: ما نزل به القرآن ولكنَّ السامع لم يفهمه كما ينبغي فههنا يجوز السؤال، والفائدة في الذِّكر أنه تع لَمَّا منع السؤال أوهم أن جميع السؤال ممنوع، فذكر ذلك تمييزًا لهذا القسم. فإن قيل: فإذا يرد سؤال عكَّاشة؛ لأنه بعد نزول آية الحج، يقال: ما أُنكر عليه لسؤاله: أن الأمر يحتمل التّكرار أو المرّة فما المراد منهما، بل لأنه ما تفكَّر في أن إفادة التكرار مما يصعب على الأمَّة سيَّما على سكَّان القاصية، والدِّينُ مبنيٌّ على اليسر: ﴿**مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج ٢٢/٧٨]، وكان ذلك مشهورًا عندهم، كما روى الإمام عن أبي ثعلبة: «إن الله فرض فرائض فلا تضيِّعوها، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها، وحدَّ حدودًا فلا تعتدوها، وعفا عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها. وقال قدس سره: الجملة الشرطية وما عطف عليها صفتان لـ﴿**أَشْيَاءَ**﴾»، المعنى: لا تسألوا عن أشياء إن تظهر لكم تغمَّكم، وإن تسألوا عنها في زمان الوحي تظهرْ لكم، وهما كمقدمتين تُنتجان ما يمنع السؤال، وهو أنه مما يغمُّهم، والعاقل لا يفعل ما يغمُّه. فقيل: هذا عند علماء البيان يسمَّى بالكناية الإيمائيَّة، فيفيد القطع بامتناع السؤال، وليس بوجه في الآية، وتقرير المصنف أقرب لما يُفهم من دليل الخطاب، والتقييد بالوصف: أنَّ هناك سؤالًا لا يغمُّهم وهو ما لا يتعلَّق بالتكاليف الشاقَّة والأمور التي إن ظهرت أوقعتهم في الحرج والضِّيق، هذا حسن لولا أن قوله: ﴿**تُبْدَ لَكُمْ**﴾ يقتضي أن يخصَّ السؤال بما في إخفائه مصالح العباد وفي إبدائه فسادهم، فإن ما يقابل الإبداء هو الإخفاء ،كقوله: ﴿**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ**﴾ [الأحزاب ٣٣/٣٧]، ويعضده ما روينا في الصحيح عن أنس قال: خَطَبَ رَسُولُ اللهِ خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ، فَقَالَ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ

[١٦٢٨] **التيسير في التفسير** للنسفي، ٥/ ٥٠٣-٥٠٤.

[١٦٢٩] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٦٩-٦٧٠.

[١٦٣٠] محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت ٥١٦هـ).

لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»، قال: فَغَطَّى أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ وجوهَهُم لهم خنين، فقال رجلٌ: مَنْ أبي؟ فقال: «فُلَانٌ»، وَكَانَ إِذَا لَاحَى يُدْعَى إلى غَيْرِ أَبِيهِ، فَنَزَلَتْ هذه الآية: ﴿**لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾[1631]

وقال بعض العارفين: لا تسألوا عن مقامات الصدّيقين ودرجات الأولياء؛ فإنه إن أبدا لكم شيءٌ منه فأنكرتم ذلك هلكتم.

وقال سهل: سؤاله حجاب، ودعاؤه قسوةٌ.[1632] فأسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة.

﴿**عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**﴾ (**١٠١**)﴾ ﴿**قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)**﴾

﴿**عَفَا اللَّهُ عَنْهَا**﴾ صفة أخرى لـ﴿**أَشْيَاءَ**﴾ أي: لا تسألوا عن أشياء عفا الله عنها ولم يكلّف بها، وهو كقول النبي عليه السلام: «عَفَوْتُ لَكم عَنْ صَدَقَةِ الخَيْلِ، والرَّقِيقِ»،[1633] أو استئناف، أي: عفا الله عمّا سلف من مسألتكم فلا تعودوا إلى مثلها، ولا محلّ له من الإعراب، وضمير ﴿**عَنْهَا**﴾ على هذا للمسألة المدلول عليها بقوله: ﴿**لَا تَسْأَلُوا**﴾ وهو على الأوّل لـ﴿**أَشْيَاءَ**﴾.[1634]

﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**﴾ لا يعاجلكم فيما يفرط منكم بعقوبته، ولا يعاقبكم إلا بعد الإنذار وهذا ملائم للتفسير الثاني، وأمّا على الأوّل لا يكلّف عليكم ولا يظهر لكم ما فيه كلفه ومنه يظهر ما في كلام العلّامتين.

روي: أنهم سألوا النبي حين أخفوه في المسألة، فصعد ذاتَ يومٍ المنبر، فقال: «لا تسألوني عن شيء إلا بيَّنتُه لكم»، فلمّا سمعوا ذلك أزموا ورهبوا أن يكون بين يدي أمرٍ قد حضر، قال أنس: فجعلت أنظر يمينًا وشمالًا فإذا كلّ رجل لافٌّ رأسه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل كان إذا لاحى يُدعى إلى غير أبيه، قال: يا نبي الله، مَن أَبِي؟ فقال: «أبوك حذافة»، ثم أنشأ عمر، فقال: رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمّدٍ نبيًّا، نعوذ بالله من الفتن، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا رَأَيْتُ فِي الْخَيْرِ والشَّرِّ كَالْيَوْمِ قَطُّ، إنه صُوِّرَتْ لي [**٨٦**/ظ]الجنةُ والنّار حتى رأيتهما دون الحائط».[1635]

قال قتادة: يذكر هذا الحديث عند هذه الآية: ﴿**لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾. وقد روى الإمام أحمد بن حنبل، عن أبي هريرة، وقال: فيه فرجع عبد الله بن حذافة إلى أمِّه، فقال: ويحك! ما الذي حملك على الذي صنعت؟ قال: كنَّا أهلَ جاهلية وأهلَ أعمالٍ قبيحةٍ.[1636]

ولما ورد أن يقال: فعل المسألة لا يتعدّى إلى المفعول به بنفسه وإنما يتعدّى إليه بـ«عن» فكيف قال: ﴿**قَدْ سَأَلَهَا**﴾ ولم يقل: «سأل عنها» كما قال أوّلًا: ﴿**لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ**﴾؟ أجاب عنه المصنّف: بأن ضمير ﴿**سَأَلَهَا**﴾ ليس راجعًا إلى الأشياء التي سألوا عنها، بل إلى سؤالاتهم عن تلك الأشياء، فيكون الضمير في موقع المصدر لا المفعول به بالواسطة كما في

[1631] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/ ٥٠٣-٥٠٦.

[1632] **عرائس البيان** للبقلي، ٣٣٢/١.

[1633] **مسند أحمد**، ٢٨٢/٢ (٩٨٤) ؛. **سنن ابن ماجه**، ١٠/٣ (١٧٩٠).

[1634] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٧٠؛ **مفاتيح الغيب** للرازي، ١١٤/١٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٥؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٩٨.

[1635] **صحيح مسلم**، ٥٣/٩ (٧٠٨٩).

[1636] **مسند أحمد**، ٣١٤/١٦ (١٠٥٣١).

قوله: ﴿**لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ**﴾ ليلزم التعدية بـ«عن» ولا بدون الواسطة، كما في: سألته درهمًا بمعنى طلبته منه؛ لأنهم لم يسألوا تلك الأشياء وإنما سألوا عنها وعن حالها.[١٦٣٧]

وجوّز قدس سره أيضًا أن تكون إشارة إلى أشياء على أن يكون من الحذف والإيصال، ولا حاجة إلى ما قيل: أن السؤال قد عدِّي في الآية الأولى بالجارّ وههنا لم يعد بالجار؛ لأن السؤال هنا طلب تعيين الشيء سألتك درهمًا، أي: طلبتُ منك والسؤال في الآية الأولى سؤالك عن حال الشيء وكيفيّته.[١٦٣٨]

وقال الراغب: يحتمل وجهين، أحدهما: أنه استخبار إشارة إلى نحو قول أصحاب البقرة حيث سألوا عن أوصافها، فلا فرقَ بين قوله: «قَدْ سَأَلَهَا» وبين قوله: «قد سأل عنها».

والثاني: أنه استعطاء، إشارةً إلى نحو قول المستنزلين للمائدة من عيسى، السائلين من صالح النَاقة؛ فعلى هذا لا يصحّ أن يقال: سأل عنها.[١٦٣٩]

﴿**مِنْ قَبْلِكُمْ**﴾ متعلّق بـ﴿**سَأَلَهَا**﴾ وليس صفةً لـ﴿قَوْمٌ﴾، فإنّ ظرف الزّمان لا يكون صفة الجثّة ولا حالًا منها ولا خبرًا عنها.[١٦٤٠]

ثم لما ورد أنه لم يكن كفرهم بنفس المسألة، بل بالمسئول عنه، أجاب عنه بأنه على حذف المضاف، أي: بمرجوع المسألة يعني: كفرهم ليس بنفس المسألة، بل المسألة كان سببًا للجواب وهو سبب لكفرهم، فيكون السؤال سببًا له بالواسطة. قال في **أساسه**:هذا رجْعُرسالتك ومرجوعها أي: جوابها،[١٦٤١] أو الباء للسببية دون الصّلة.[١٦٤٢] سألوا عن حال البقرة مثلا فأجيبوا الجواب فلم يعملوا بموجبه فكفروا به.

﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ **(١٠٣)**.

﴿**جَعَلَ**﴾ قد يستعمل بمعنى «خلق»، كما في قوله: ﴿**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ**﴾ [الأنعام ١/٦]، وبمعنى «صيَّر»كما في قوله: ﴿**جَعَلَ اللَّهُ الْكَعَبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ**﴾ [المائدة ٩٧/٥]، ، ولا يصح أن يكون ههنا بمعنى «خلق»؛ لأن الله تعالى خلق هذه الأشياء كلها، ولا بمعنى «صيَّر»؛ لأن التَّصيير لابدَّ له من مفعولٍ ثانٍ، وههنا عدّي إلى مفعول وهو «البحيرة».[١٦٤٣]

و﴿**مِنْ**﴾ مزيدة وهي فعيلة من البحر وهو الشقُّ، يقال: بَحَرَ ناقته: إذا شقَّ أذنها، وهي بمعنى المفعول، ومنه البحر وهي اسمٌ لا صفة؛ ولذلك دخلت فيها الهاء، كما في النطيحة والذبيحة. وهذا ردٌّ وإنكارٌ لما ابتدعه أهل الجاهلية وبه ظهر ارتباطه بما قبله وهو اشتراكهما في إفادة الإنكار والنّهي عمّا فعلوه لما لم يحكم به الله، وهو أنهم كانوا إذا نتجت الناقةُ خمسةَ أبطُن،

[١٦٣٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٠ظ؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٩٨.

[١٦٣٨] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٧؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٥٩٨.

[١٦٣٩] **تفسير الراغب الأصفهاني** للراغب الأصفهاني ٤٦٧/٥؛ **فتوح الغيب**، ٥/ ٥٠٧.

[١٦٤٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٧.

[١٦٤١] **أساس البلاغة** للزمخشري، «رجع».

[١٦٤٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٠ظ-٣٢١و .

[١٦٤٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٦٠٠.

وكان آخرها ذَكرًا، شقُّوا أذنَ الناقة، وامتنعوا من ركوبها، ونحرها، وسيّبوها لآلهتهم، ولا يجزُّ لها وَبَر، ولا يحمل على ظهرها، ولا تُطرَد عن ماءٍ، ولا تمنع عن مرعًى، ولا ينتفع بها، وإذا لَقِيَهَا الْمُعْيِي لم يركبها.[١٦٤٤]

ونتجت الناقة على ما لم يسمّ فاعله أسند الفعل إلى مفعوله الأول وترك الثاني، والأصل: نتجها أهلها ولدًا يَنْتجُها نتجًا، أي: ولي أهلها نتاجها حتى وضعت، فهو ناتج، وهو للبهائم كالقابلة للنساء، وهي التي تصلح خروج الولد، والبهيمة مفعول أول والمولود ثانٍ، وإذا بني للمفعول الثاني قيل: نُتجت ولدًا: إذا وضعته فهي منتوجة. وكان الرّجل منهم يقول: إن شُفيتُ فناقتي سائبةٌ ويجعلها كالبَحيرة في تحريم الانتفاع، وهي من قولهم: سَابَ الماء يَسِيبُ سيبًا إذا جرى على وجه الأرض، ويقال أيضًا: سابت الحيّة فالسائبة على التي لا تركب حتى تسيب حيث شاءت.

وقيل: هي المسبية كـ«عيشة راضية» بمعنى مرضية.

وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكرًا فهو لآلهتهم، وإن ولدتهما: وصلت الأنثى أخاها فلا يذبح لها الذكر.[١٦٤٥] وهي فعيلة بمعنى فاعلة، أي: ما جعل الله أنثى تحلَّل ذكرًا محرَّمًا عند الانفراد، وإذا نُتجت من صلب الفحل عشرة أبطن حرَّموا ظهره ولم يمنعوه من ماءٍ ولا مرعًى، وقالوا: قد حمى ظهَره. فالحامي اسم فاعل من «حَمَى» «يَحْمِي» أي: منع، يقال: حماه يحميه: إذا حفظه.

﴿**وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ**﴾بتحريم ذلك ونسبته إليه تع ﴿**وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ فلا ينسبون التحريم إلى الله حتى يضرُّوا، ولكنهم يقلّدون في تحريمها كبارهم، أو لا يعقلون الحلال من الحرام والمبيح من المحرَّم، والأمر من النهي ولكنهم يقلدون، وفيه أن منهم مَنْ يعرف ذلك ولكن منعهم حبُّ الرياسة وتقليد الآباء أن يعترفوا به، ويُذعنوا له.[١٦٤٦]

فإن قيل: لها تناقض إسناد الافتراء [٨٧/و] إليهم نفى الافتراء عن أكثرهم.

قلنا: لا؛ لأنَّ إسناد الافتراء إليهم من جهة صدوره عنهم في الجملة؛ حيث يفترى عقلاؤهم الرؤساء،[١٦٤٧] وأوَّلُ مَنْ حَرَّم ذلك وغَيَّرَ دِينَ إسماعيل عَمْرو بنُ لُحَيٍّ وأصحابه، فاتخذ الأصنام ونصب الأوثان وشرع ذلك.

روي أنه ع م قال في حقه: «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنِ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيَّ يجُرُّ قَصْبَه في النار»،[١٦٤٨] وَيُرْوَى: «لقد رأيته في النار يُؤْذِي أهلَ النار بريح قُصْبه».[١٦٤٩] والقصب: المِعَا، فإنه مع أصحابه كانوا يقولون على الله هذه الأكاذيب والأباطيل في تحريمهم هذه الأنعام.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٠٤).

بيان لقصور عقلهم وانهماكهم في التقليد وأن لا سند لهم سواه،[١٦٥٠] أي: وإذ قيل لهؤلاء المشركين الذين يحرمون من عند أنفسهم هذه الأنعام: هلمُّوا إلى حكم الله ورسوله بأن هذه الأشياء غير محرمة قالوا: ﴿**حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾

[١٦٤٤] **الكشاف،** ١/ ٦٧٠؛ **مفاتيح الغيب،** ١١٤/١٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٥؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده،** ٣/ ٥٩٨.

[١٦٤٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٦٥/١؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف،** ٢٤٠/٣.

[١٦٤٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٦٨/١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده،** ٣/ ٥٩٩-٦٠٠.

[١٦٤٧] **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف،** ٣٣٥/٣.

[١٦٤٨] **صحيح اليخاري،** ٥٤/٦ (٤٢٢٣).

[١٦٤٩] جامع البيان، ١٢٠/١١؛ **معالم التنزيل،** ١٠٨/٣.

﴿**حَسْبُنَا**﴾ مبتدأ و﴿**مَا وَجَدْنَا**﴾ خبره و﴿**حَسْبُنَا**﴾ في الأصل مصدر والمراد به اسم الفاعل، أي: كافينا الذي وجدنا عليه أباءنا.[١٦٥١]

﴿**أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ**﴾ «الواو» للحال قدخلت عليها همزة الإنكار، وتقديره: أَحَسْبُهم ذلك ولو كان ﴿**آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾؟ والمعنى: أن الاقتداء إنما يصحُّ بمن عُلم أنه عالمٌ مهتدٍ، وذلك لا يعرف إلا بالحجّة فلا يكفي التّقليد.[١٦٥٢]

فالمقلِّد وإن كان في صحّة تقليده تابعًا للدَّليل غير مقلّد فيها، لكنه مقلّد له في الاعتقاد بحقية أحواله على التفصيل، فإنّ الدَّليل إنّما قام على صدقه في أقواله على الإجمال لا على حقية خصوصية كلّ ما قال به على التفصيل، فالمقلّد متّبع للدليل في الاعتقاد تحقيقه أقوال متفرعة على الإجمال، ومقلّد في الاعتقاد لحقيقة خصوصية كلّ واحد مما قال به على التفصيل وهو المعنى بعدم كفاية التّقليد، فالتقليد هو الاعتماد على قول من حُسنِ الظَّنّ في حَقِّهِ إلا أنّ ذلك الظَّنَّ ينبغي أن يستفاد من الدليل، ولا يجوز أن يكون مقلّدًا في ذلك الاعتماد أيضًا.

والمصنف يجعل «الواو» في مثل هذا الموضع للحال، مع أن ما دخلته «الواو» ليس حالًا من جهة المعنى، بل ما دخلته «لو» أي: ولو كان الحال أن آباؤهم لا يعلمون.[١٦٥٣]

وقال **الراغب**: الواو للعطف والهمزة للتعجُّب من جهلهم، أي: أيكفيهم ذلك وإن كان آباؤهم لا يعلمون، فيفعلون ما يقتضيه علمهم ولا يهتدون بمن له علم؟ وأشير بأنهم من جملة الفرقة الثالثة الذين وصفوا بما روي: الناس عالم، ومتعلّم، وحائر بائر لا يطيع مرشدًا، وروي عن عليٍّ: الناس ثلاثة: عالم ربَّاني، ومتعلّم على سبيل نجاة، وهَمَج رعَاع أتباع كل ناعق يميلون مع كلّ ريح، ولم يستضيئوا بنور علمٍ، ولم يلحقوا إلى ركن وثيق فيمتنعوا. وقوله:﴿**لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾، إشارة إلى أنهم الرَّعَاع والأتباع.[١٦٥٤]

وعن أنس بن مالك رضي قال قال رسول الله صعلم: «العلمُ حياةُ القلبِ من العمى، ونورُ الأبصار من الظُّلم، وقوّةُ الأبدان من الضّعف الفكرة فيه يعدلُ بالصِّيام ومدارسته بالقيام».[١٦٥٥]

وقال عليه السلام: «العلمُ حياةُ الإسلامِ وعمادُ الإيمان».[١٦٥٦]

وقال عليه السلام: «خَيرُ الدُّنيا وَالآخِرَةِ مَعَ العِلمِ وَشَرُّ الدُّنيا وَالآخِرَةِ مَعَ الجَهلِ».[١٦٥٧] وقال النبي صلى الله عليه وسلم «مَن خَرَجَ من بيته في طلب العلم لم يَزَلْ فِي سَبِيلِ الله».[١٦٥٨] وقال ع م: «تناصحوا في العلم ولا يكتمن بعضكم بعضًا فالله

[١٦٥٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٧٨.

[١٦٥١] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٧٨؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٦٠٠.

[١٦٥٢] **الكشاف**، ١/ ٦٧١؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٧٨.

[١٦٥٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢١و ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣/٣٣٦.

[١٦٥٤] **تفسير الراغب الأصفهاني**، ٥/٤٧٠-٤٧١؛ **فتوح الغيب**، ٥/ ٥٠٩.

[١٦٥٥] **أمالي** لابن بشران، ٢١ (٩٩٩).

[١٦٥٦] **جامع الأحاديث** للسيوطي، ١٤/٣٦١ (١٤٤٩١).

[١٦٥٧] كنز العمال، ٣٦٤٧٢.

[١٦٥٨] لم أجده

سائل عنه».[١٦٥٩] وقال ع م: «يأتي على الناس زمانٌ من طلب العلم فيه لوجه الله كان غريبًا».[١٦٦٠] وعنه ع م: «ألا وإن الدين والورع من العلم وإن العلم عز الدنيا وشرف الآخرة».[١٦٦١]

وقال القشيري: «إذا هتفَ بهم داعي الحقِّ بالجُنوح إلى الصِّدق، وصدَّهم عن الإجابة ما مَرَنُوا عليه من سهولة التَّقليد، وإن أسلافهم لم يكونوا إلا في ضلال بعيد».[١٦٦٢]

وَمَنْ يَكُنِ الْغُرَابُ لَهُ دَلِيلًا يَمُرَّ بِهِ عَلَى جيفِ الْكِلَابِ.[١٦٦٣]

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾

لَمَّا بين أنَّ هؤلاء الجهال إذا دعوا إلى اتباع ما أنزل الله أصرُّوا على اللجاج، ومالوا إلى التقليد قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا تبالوا بجهالاتهم وعليكم أنفسكم.

والجمهور على نصب ﴿**أَنْفُسَكُمْ**﴾ على الإغراء بـ﴿**عَلَيْكُمْ**﴾؛ لأنه اسم فعلٍ، وهو: «الزَمُوا»، أي: الزَمُوا صلاحَ أنفسكم وحِفْظَها عما يوجب سخط الله وعذاب الآخرة. وقرئ برفع «أَنْفُسُكُمْ»[١٦٦٤] على أنه مبتدأ ﴿**عَلَيْكُمْ**﴾ خبره قُدِّم عليه، والمعنى: على الإغراء أيضًا.[١٦٦٥]

ولَمَّا توهم من ظاهر الآية الرّخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإذن في ذلك بل الأمر به، أشار المصنف إلى الجواب بوجوه:

الأوَّل: أنه للمنع عن هلاك النَّفس حسرة وأسفًا على ما فيه الكفرة والفسقة من الكفر والضّلال، فليس المراد تركهما فإن من تركهما مع القدرة عليهما فليس بمهتدٍ.

الثاني: أنه تسلية لمن يأمر وينهى ولا يقبل منه عند غلبة الفسق [**٨٧**/ظ] وبعد العهد بزمن الوحي والرّسالة، كما روي عن ابن مسعود: «ليس هذا زمان تأويلها، قيل: فمتى؟ قال: إذا جُعل دونها السيف والسوط والسِّجن».

الثالث: أنه للرّخصة في تركهما إذا كان فيهما مفسدة فوقهما، كما قال ع م: «إن من ورائكم أيَّامًا الصبرُ فيهِنَّ كقبض على الجمر، للعامل منهم مثلُ أجر خمسين رجلًا يعملون مثلَ عمله».[١٦٦٦]

الرابع: أنه للأمر بالثبات على الإيمان من غير مبالاة بنسبة الآباء إلى السفه حيث كانوا على الكفر والضلال والأبناء على الإيمان والهدى، كما روي: «أنه كان الرَّجل إذا أسلم قالوا له: سَفَّهْتَ آباءك ولاموه».[١٦٦٧]

[١٦٥٩] **العقل وفضله** لابن أبي الدنيا، ١١/٧٠ (١١١)؛ **المعجم الكبير** للطبراني (٢٧٠/١١) (١١٧٠١)؛ **حلية الأولياء** لأبي نعيم، (٢٠/٩).

[١٦٦٠] لم أجده

[١٦٦١] لم أجده

[١٦٦٢] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٢٨١/١؛ **التيسير في التفسير** للنسفي، ٥١٠/٥.

[١٦٦٣] **المستطرف في كل فن مستظرف** شهاب الدين الأبشيهي، دار مكتبة الحيات، لبنان-بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢، ١ /٥٣.

[١٦٦٤] قراءة شاذّة، رواها الأصمعي عن نافع. **شواذّ للقراءات** للكرماني، ص ١٦٢؛ **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٧١؛**البحر المحيط** لأبي حيان، ٤٢/٤؛ **الدر المصون** للحلبي، ٦٢٣/٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٥٥٨/٧.

[١٦٦٥] **اللباب** لابن عادل، ٥٥٧/٧-٥٥٨.

[١٦٦٦] **مسند البزار**، ١٧٨/٥ (١٧٧٦)؛ **السنن الواردة في الفتن** للداني، ٦٤٣/٣ (٢٩٥).

قرأ الجمهور: ﴿**لَا يَضُرُّكُمْ**﴾ بضم الراء مشددةً[١٦٦٨]على أنه رفع استئناف سيق للإخبار بذلك، ويؤيده قراءة «لَا يَضِيرُكُمْ»[١٦٦٩] بضمّ الرّاء من «ضَارَ يَضَيرُ ضَيْرًا»، أو جزم على أنه جواب الأمر في ﴿**عَلَيْكُمْ**﴾، والأصل «لَا يَضْرُرْكُمْ» بقلب ضمة الرّاء إلى الضّاد لأجل إدغامها في الراء التي بعدها، فاجتمع ساكنان فحُرِّكت الراء الثانية بالضم إتباعًا لضمة الضاد، ويجوز تحريكها بالفتحة أيضًا للخفة كما قرئ به،[١٦٧٠]أو على أنه نهي مستأنف غير متعلّق بالأمر قبله، وهذا مرجوح من جهة المعنى؛ إذ ظاهره نهي مَنْ ضَلَّ عن الضّرر، والمعنى: نهي المخاطبين عما يؤدّي إلى الضّرر من جهة مَنْ ضَلَّ على طريقة لا أرينك ههنا، وينصر الجزم قراءة «لا يَضُرَّكُمْ»[١٦٧١] بفتح الراء المشددة، «ولا يَضُرْكُمْ» بضمِّ الضّاد وكسرها مع سكون الراء.[١٦٧٢]

﴿**إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا**﴾ فيَجزي مَن ضلَّ ومن اهتدى؛ كلًّا على وفقِ حاله،[١٦٧٣] فهو وعد ووعيد للفريقين، وتنبيهٌ على أن أحدًا لا يؤاخذ بذنب غيره[١٦٧٤] ﴿**فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ يُعْلِمُهم بما عملوا، ثم يَجزيهم على ما عملوا.[١٦٧٥]

وتقديم ﴿**إِلَى اللهِ**﴾ يدلُّ على أنه تع هو المجازي لكل واحد من فريقي المهتدين والضالّين على حسب استحقاقه.

وقال سهل بن عبد الله: للنفس سرٌّ، ما ظهر ذلك السر على أحدٍ من خلقه إلا على فرعون، فقال: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**﴾ [النازعات ٢٤/٧٩]، ولها سبع حجب سماوية، وسبع حجب أرضيّةٌ، وكلّما يدفن العبد أرضًا أرضًا سَما قلبه سماءً سماءً، وإذا دفنت النفس تحت الثّرى وصل القلب إلى العرش.

قال محمد بن علي: عليك نفسك إن كفيت الناس شرَّها فقد أدّيت حقَّها.

وسُئل أبو عثمان عن هذه الآية فقال: عليك نفسك إن اشتغلت بإصلاح فسادها وستر عوراتها، شغلك ذلك عن النظر إلى الخلق والاشتغال بهم.[١٦٧٦]

﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦)**﴾

﴿**شَهَادَةُ**﴾ رفع بالابتداء، خبره محذوفٌ اعتمادًا على دلالة سياق الكلام عليه و﴿**اثْنَانِ**﴾ مرفوع على أنه فاعل المصدر الذي هو ﴿**شَهَادَةُ**﴾ والتقدير: فيما أمرتم به، أو فيما فُرض عليكم أن يشهد اثنان، أو هو الخبر على حذف مضاف، إما من المبتدأ، وإما من الخبر، أي: ذَوَا شهادةِ بينكم اثنان، أي: صاحباها اثنان، أو شهادة بينكم شهادة اثنين، وإنما احتيج

[١٦٦٧] **الكشاف** للزمخشري ، ١/ ٦٧١-٦٧٢؛**حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢١و؛ **حاشيه الشهاب**، ٢٩٠/٣.

[١٦٦٨] **اللباب** لابن عادل، ٥٥٩/٥.

[١٦٦٩] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٧٢.

[١٦٧٠] «لايَضُرَّكم»

[١٦٧١] **اللباب** لابن عادل، ٥٥٩/٥.

[١٦٧٢] **الكشاف** للزمخشري، ٦٧٢/١؛**البحر المحيط** لأبي حيان، ٤٢/٤؛ **اللباب** لابن عادل، ٥٥٩/٥؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٧٨/١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٦٠١-٦٠٢.

[١٦٧٣] **التيسير في التفسير** للنسفي، ٥١٢/٥.

[١٦٧٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٧٨.

[١٦٧٥] **التيسير في التفسير** للنسفي، ٥١٣/٥.

[١٦٧٦] **حقائق التفسير** للسلمي، ١/ ١٨٦؛ **عرائس البيان** للبقلي، ١/ ٣٣٣.

إلى الحذف لئلا يلزم حمل العين على المعنى. و﴿بَيْنَ﴾ ظرف أضيف[١٦٧٧] إليه شهادة على طريق الاتّساع في الظروف بأن يجعل الظرف كأنه مفعول للفعل الواقع فيه، فيضاف ذلك الفعل إليه على طريق إضافته إلى المفعول، نحو: «يا سَارِقَ الليل».

وقرئ «شَهَادةٌ بَيْنَكُمْ»[١٦٧٨] برفعها منوَّنَةً ونصب ﴿**بَيْنَكُمْ**﴾، و«شَهَادَةً بَيْنَكُمْ»[١٦٧٩] بنصبها منوَّنَةً ونصب ﴿**بَيْنَكُمْ**﴾ على لِيَقُمْ شهادة بينكم اثنان، فهو فاعل للفعل المقدَّر ﴿**إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ**﴾، إذا شارفه وظهر أماراته، و﴿إذا﴾ ظرف الشهادة، ولا يجوز أن يتعلّق بـ﴿**الْوَصِيَّةِ**﴾ عند حضور الموت؛ لأن معمول المصدر لا يتقدم عليه؛ ولأن معمول المضاف إليه لا يتقدَّم على المضاف ﴿**حِينَ الْوَصِيَّةِ**﴾، بدلٌ من ﴿**إِذَا حَضَرَ**﴾.

وفي الإبدال دليل على وجوب الوصية، وأنها من اللازم الذي ما سعى أن يتهاون بها، يعني: الوجوب الشرعي الذي هو فوق النّدب بدليل تفسيره وتأكيده باللزوم، ولا دلالة في قوله: ما ينبغي أن يتهاون بها على النّدب، حتى يقال: المراد بالوجوب ههنا التّأكيد والاهتمام، لا الوجوب المتعارف، وذلك لأنه مشترك بين الوجوب والندب، فغايته أنه لا يؤكّد الوجوب بالنسبة إلى النّدب، بل بالنسبة إلى الإباحة فقط. ووجه الدلالة أنّه يشعر بكون الوصيّة من لوازم ذلك الوقت كالموت مقرَّرًا ذلك في الأذهان بحيث يصحُّ التعبير بـ﴿**حِينَ الْوَصِيَّةِ**﴾ عن حين حضور الموت، ومثل هذه الدَّلالة لا يرد في قانون الدلالة، وهذا ما قال الإمام:[١٦٨٠] إنَّه جعل زمانَ حضور الموت زمان الوصيَّة، وهذا إنما يكون إذا كانا متلازمين، وإنما يتم التلازم بوجوبها.[١٦٨١]

﴿**ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ**﴾، أي: من أقاربكم، أو من المسلمين وهما صفتان لـ﴿**اثْنَانِ**﴾﴿**أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ**﴾، عطفٌ على ﴿**اثْنَانِ**﴾ أي: من الأجانب، أو من غير أهل دينكم.

والذِّمي وإن لم يكن عدلًا في الدين فهو عدل من حيث الاحتراز عن الكذب وعما حرم في دينه، فجاز أن يقبل شهادتهم في ابتداء الإسلام لعدالتهم بهذا المعنى، وأن ينسخ هذا الحكم في الانتهاء؛ فإن المسلم إذا حضره الموت في السفر ولم يجد مسلمًا يُشهده على وصيّته، ولم تكن شهادةُ الكافر مقبولةً، فإنه يضيع حينئذ أكثرَ مهمَّاته، فإنَّه ربَّما وجبت عليه زكاة أو كفارة [٨٨/و] وما أدَّاها، وربَّما كان عنده وَدَائِعُ وديونٌ في ذمّته؛ فلهذه الضرورة جاز أن تقبل شهادة الكافر على المسلم في خصوصية الوصية حال السفر، ثم ينسخ ذلك عند انتفاء الضرورة بكثرة المسلمين، حتى ذهب بعض العلماء إلى أن هذا الحكم ثابت غير منسوخ الآن، وقال: إذا لم يجد مسلمين شهد كافرين، قال شُرَيْحٌ: من كان بأرض غربة، ولم يجد مسلمًا يُشهده على وصيته فأشهد كافرين كانا من أهل الكتاب أو عبدة الأوثان، فشهادتهم جائزة ولا يجوز شهادة كافر على مسلم إلا على وصيته في سفر.[١٦٨٢]

وعنه ع م: «مَنْ مَاتَ عَلَى وَصِيَّةٍ مَاتَ عَلَى سَبِيلٍ وَسُنَّةٍ وَمَاتَ عَلَى تُقًى وَشَهَادَةٍ وَمَاتَ مَغْفُورًا لَهُ».[١٦٨٣]

﴿**إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ**﴾

[١٦٧٧] ج- أضيف.

[١٦٧٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعرج والشعبي والأشهب. **المحتسب** لابن جنّي ، ٢٢٠/١.

[١٦٧٩] قراءة شاذّة، نسبت إلى الأعرج. **المحتسب** لابن جنّي ، ٢٢٠/١.

[١٦٨٠] هو أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي الرازي (ت. ٦٠٦هـ)

[١٦٨١] **حاشية الكشاف للتفتزاني**، ٣٢١ظ-٣٢٢و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣٣٩/٣.

[١٦٨٢] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٢٣/١٢.

[١٦٨٣] **سنن ابن ماجه**، ٩/٤ (٢٧٠١).

﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ مرفوع بفعلٍ محذوفٍ تفسيره ما بعده؛ لأن «إن» الشرطية لا تدخل إلا على الفعل تحقيقًا أو تقديرًا، والتقدير: إن ضربتم، فلمّا حذف الفعل انفصل الضمير، وهذا مذهب البصريين، وذهب الأخفش منهم، والكوفيون إلى جواز وقوع المبتدأ بعد «إن» الشرطيّة ؛كما أجازوا ذلك بعد «إذ».

ف﴿ضَرَبْتُمْ﴾ لا محلّ له عند الجمهور؛ لكونه مفسّرًا، ومحلّه الرفع عند الكوفيين والأخفش؛ لكونه خبر ﴿أَنْتُمْ﴾ ونحوه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة ٦/٩]، و﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير ١/٨١]، والشرط بجوابه المحذوف المدلول عليه بقوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾[١٦٨٤] اعتراض فائدته الدلالة على أنه ينبغي أن يشهد اثنان منكم، فإن تعذر كما في السّفر فمن غيركم، ولم يجعل دليل الجواب مجموع قوله: اثنان ذوا عدل منكم أو آخران منكم، حتى يكون الشرط المذكور فيه الأصل الشهادة ويكون المعنى: إن ضربتم في الأرض، فأشهدوا ذوى عدل منكم أو ذوى عدل آخر من غيركم، فدلَّ ذلك على أن شهادة العدل منّا مقبولة مطلقًا، أي: في الحضر والسفر لخلاف شهادة من لا يكون منافاتها إنما يقبل في السفر، فلهذا ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد بقوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ﴾ هو أهل الذمة.[١٦٨٥]

و﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ في محلّ الرفع صفة ل﴿آخَرَانِ﴾ والجملة الشرطة وما عطف عليها معترضة بين الصفة وموصوفها، وفائدة الاعتراض التنبيه على أن العدول إلى آخرين من غير أهل الملة والقرابة على حسب اختلاف العلماء فيه إنّما يكون مع ضرورة السفر وحلول الموت فيه، ولا يخفى أن هذا التنبيه إنما يحصل على تقدير أن يكون الشرط قيدًا لإشهاد آخرين من غيره فقط، لا قيدًا لا شهاد اثنين مطلقًا، أي: سواء كانا منّا أو من غيرنا، والمعنى: تقفونهما وتصبرونهما وكلّ واحد من صبر ووقف يستعمل لازمًا ومتعديًا، يقال: صبر فلان عند المعصية وصبرته أنا، أي: حبسته ووقفت الدّابة ووقفتها أنا.

والتعريف في الصلاة للعهد والمعهود صلاة العصر؛ لأن جميع أهل الأديان يعظِّمون ما بعد صلاة العصر، ويحسون فيه الكذب، ويشتغلون بالذكر، وأهل الكتاب يصلّون عند طلوع الشمس وغروبها وكون ما بعد صلاة العصر معروفًا عندهم بكونه وقت التحليف أعني عن التقييد.

ولما روي: أنه ع م لما نزلت صلّى العصر، فدعا بعديٍّ وتميمٍ، فاستحلفهماعند المنبر، فكان اختصاصه عند أهل الأديان بمزيد التعظيم سببًا لعلم المخاطب به، فإنما مقام تقدم الذكر فصح الإشارة إلى تلك الحصة للمخاطب لا سيَّما، وقد عين فعله ع م كونها المرادة، أو إحدى الصلاتين الظهر والعصر؛ لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعد إحديهما، أو صلاة أهل دين الشاهدين وملتهما؛ لأنهما لا يباليان بصلاة المسلمين، أو للجنس، والمراد بعد أداء أيِّ صلاة كانت، والغَرَض من التَّحليف بعدها أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، فكان احترازُ الحالف عن الكذب فيه أتمَّ.[١٦٨٦]

وقال الشافعي: الأَيمان تُغلَّظ في الدِّماء، والطَّلاق، والعتاق، والمال إذا بلغ مائتَيْ درهم بالزمان والمكان، فيُحْلف بعد صلاة العصر بمكَّة بين الركن والمقام، وفي المدينة عند المنبر، وفي بيت المقدس عند الصخرة، وفي سائر البلدان في أشرف المساجد. وقال أبو حنيفة: لا يختصُّ الحلفُ بزمان ولا مكان.[١٦٨٧] وفي هذا تنبيه على شرف أعقاب الصلوات؛ فلذلك سنَّ فيها الأذكار والدعوات.

[١٦٨٤] **اللباب** لابن عادل، ٥٦٩/٥.

[١٦٨٥] **اللباب** لابن عادل، ٥٦٩/٥.

[١٦٨٦] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٢٤/١٢-١٢٥.

[١٦٨٧] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٢٤/١٢-١٢٥؛ **اللباب**، ٥٧٣/٧.

﴿**فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ**﴾

﴿**إِنِ ارْتَبْتُمْ**﴾ اعتراضٌ بين القَسم والْمُقْسَم عليه. والمعنى: إن ارتبتم في شأن الآخرين الذين ليسا من أهل ملتكم، أو من أقربائكم وفي صدق قولهما فحلِّفوهما، وهكذا قدِّر الجواب ليكون الاعتراض هو الجملة الشرطية؛ إذ لو كان هو الشرط فقط لَكان الجزاء مضمون القسم فلم يحسن توسيطه بين القسم والجواب، بل التقديم عليهما أو التأخير عنهما.[١٦٨٨]

فقوله: ﴿**فَيُقْسِمَانِ**﴾ يتضمَّن قسمًا مضمرًا فيه. وقوله: ﴿**لَا نَشْتَرِي**﴾ ليس هو في نفسه محلوفًا عليه، بل المحلوف عليه حقيقة هو قوله: أنا صادق في شهادتي [**٨٨**/ظ]لم أزد فيها شيئًا مما تحمّلته، ولم أنقص منه شيئًا أيضًا، أو إني أمين في أمر الوصاية ما كتمت وما ضيعت شيئًا مما سُلِّم إلي من المال. إلا أن قوله: ﴿**لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا**﴾ كلام يتكلم به الحالِف عند إقدامه على الحلف تأكيدًا لحلفه، فقد يقول له القاضي: اتق الله، ولا تحلِف كاذبًا، تشتري به ثمنًا قليلًا، فإن اليمين الفاجرة تبقي الديار بلاقع؛ فيقول: معاذ الله أن أكون كذلك، لا أستبدل بالحلف[١٦٨٩] أو باسم الله عرضًا يسيرًا من الدنيا، وإن كان الميّت قريبًا لي فكان في قوة أن يقال: إني غيرُ متَّهم فيما أخبرت به من المحلوف عليه فجعل محلوفًا عليه، يعني: أن هذه عادتهم في صدقهم وأمانتهم، وأنهم داخلون تحت قوله: ﴿**كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ**﴾ [النساء ١٣٥/٤]، ويدلّ عليه التأكيد بقوله ﴿**وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ**﴾ [المائدة ١٠٦/٥]،فإنه إذًا لم يحلف لذي القربى فلغيره أولى.[١٦٩٠]

ولا خفاء في أن هذا إنما هو في تحليف الشاهدين دون الوصيتين، فعلى هذا يكون منسوخة بقوله عليه السلام: «البَيِّنَةُ للمُدَّعَي واليمينُ على مَنْ أَنْكَرِ»،[١٦٩١] وإن أريد الوصيان فلا نسخ. وعن علي: تحليف الشاهد والراوي إذا اتّهما.[١٦٩٢]

﴿**وَلَا نَكْتُمُ**﴾ مرفوعٌ معطوفٌ على جواب القسم، فيكون أيضًا مقسمًا عليها، ويحتمل أن يكون كلامًا مستأنفًا جيء به للإخبار عن أنفسهم بأنهم لا يكتمون الشهادة، و﴿**شَهَادَةَ اللَّهِ**﴾ منصوب على أنها مفعول بها أضيف إليه تع؛ لأنه هو الآمر بها وبحفظها وعدم كتمانها وتضييعها. وعن الشعبي أنه قرأ: «شَهَادَةً» منصوبة منوَّنة على أن مفعول به و«آالله»[١٦٩٣] بمد الألف التي للاستفهام دخلت على لفظ المقسم به تقريرًا لنفس الحالف على الحلف به، وهو عوض عن حرف القسم المقدّر فإن الأصل: فيقسمان بالله لا نكتم شهادة والله فحذفت حرف القسم، وعوّضت عنها ألف الاستفهام.[١٦٩٤]

وروي عنه «شهادةً» منصوبة منونةً «أَلله» بقطع الألف وكسر الهاء بغير مدٍّ، فكما تعوّض ألف الاستفهام عن حرف القسم في هذا الاسم الشريف[١٦٩٥]، فكذلك يعوَّض عنها قطع الهمزة الوصل.[١٦٩٦]

[١٦٨٨] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٧٣؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٢و.

[١٦٨٩] **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٦٠٤/٣.**

[١٦٩٠] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٧٣؛ **التيسير في التفسير** للنسفي، ٥١٦/٥-٥١٧؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٢و .

[١٦٩١] سنن الكبرى للبيهقي؛ كتاب شرح الأربعين للنووي، ٥/٢٩.

[١٦٩٢] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٧٣؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/ ٥١٧.

[١٦٩٣] قراءة شاذّة. **المحتسب** لابن جنّي ، ١/ ٢٢١.

[١٦٩٤] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٧٣؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٣/ ٦٠٤.**

[١٦٩٥] ج- الشريف.

[١٦٩٦] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٧٣.

﴿ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ أي: إنّا إن كتمناها كنّا من الآثمين، وفيه مبالغات بإيراد «إن» والجملة الاسمية وذكر «إذًا» التي تدل على المجازاة، واللام والدّخول في عداد الآثمين وكونهم معدودين في زمرتهم.

وقرأ الجمهور ﴿لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ من غير نقلٍ، ولا إدغامٍ. وقرئ «لَمِلَّاثِمِينَ»[١٦٩٧] بإدغام نون «من» في لام التعريف، بعد أن نقل إليها حركة الهمزة في «آثمين» وحذفها، فاعتَدَّ بحركة النقل فأدغَمَ فيها بغير «من»، ونظيره قراءة من قرأ: ﴿عَادًا لُّولَى﴾ [النجم ٥٣/٥٠] بالإدغام.[١٦٩٨]

وعنه ع م: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ صبرٍ يَقْتَطِعُ بها مالَ مُسْلِمٍ هو فِيهَا فَاجِرٌ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ».[١٦٩٩]

وعنه ع م: «مَنْ كَتَمَ شَهَادَةً إِذَا دُعِيَ إِلَيْهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَ بِالزُّورِ».[١٧٠٠]

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧)

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ فإن اطُّلِعَ يقال: «عَثَرَ عليه يَعْثُرُ عُثْرًا وعُثُورًا»، أي: اطّلع عليه، وعثر في مشيه أو منطقه أو رأيه يعثر عثرة أي: زلّ وسقط، فالفرق بالمصدر فالعثرة: «الذّلة»، والعثور: «الاطلاع».[١٧٠١]

وقيل: الثاني من الأول فإن العاثر إنما يعثُر بشيء لا يراه، فإذا عثر بسببه اطُّلع عليه، ونظر أنه ما هو، فقيل: لكلّ أمرٍ خفيٍّ، ثم اطُّلع عليه «عُثِرَ عَلَيْهِ» أي: فإن حصل العثور على أنهما أتيا بخيانة واستحقّا الإثم باليمين الكاذبة.[١٧٠٢]

فإن الوصيين لما خانا في مال الورثة وكذبا في دعوى البراءة عن الحنانة وحلف على هذه الدعوى الكاذبة فقد فعلا ما أوجب الإثم، فإن اطّلع بعض الوَرَثَة على حالهما قام رجلان منهم مقام الوصيين في اليمين، فيحلفان بالله لقد اطّلعنا على خيانة الذمتين وكذبهما وما اعتدينا في ذلك وما كذبنا.

«من الذين استحقّ عليهم الإثم، معناه: من الذين جني عليهم وهم أهل الميّت وعشيرته»: يشير إلى أنَّ استحقاق الإثم عليهم كنايةٌ عن هذا المعنى، وذلك؛ لأنَّ معنى استحق الشّي لاق به أن ينسب إليه، والجاني الإثم في معنى ارتكبه وجناه فالذين استحقّ عليهم الإثم، أي: جنى عليهم وارتكب الذنب بالقياس إليهم هم الورثة، ففيه تضمين وضمير «استحقَّ» عائدٌ إلى «الإثم». وقد بسط الكلام بعض البسط من قال: استحقَّ مسند إلى الإيصاء أو الوصيَّة، أو الجار والمجرور، أو الإثم، وإنما جاز استحقَّ الإثمَ؛ لأنَّ «آخذه يأخذه آثم فسُمّي إثمًا كما سمي ما يؤخذ منك بغير حقٍّ مظلمةٍ، وكذلك سمي هذا المأخوذ باسم المصدر، وأمَّا ﴿عَلَى﴾ فيحتمل أن يكون بمنزلتها في قولك: استحقَّ على زيد مال بالشهادة، أي: لزمه ووجب عليه الخروج منه؛ لأن الشاهدين لما عُثرا على خيانتهما استحقَّ عليهما ما ولياه من أمر الشّهادة، ولزمهما الخروج منها، وأن تكون بمنزلة «في» أو «من»، أي: استحقَّ منهم أو معهم. والحقُّ أنه مسند

[١٦٩٧] **اللباب** لابن عادل، ٥٧٧/٧.

[١٦٩٨] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٧٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٥٧٧/٧.

[١٦٩٩] **صحيح البخاري**، ١٣٧/٨ (٦٦٧٦).

[١٧٠٠] **المعجم الأوسط** للطبراني، ٢٧٠/٤ (٤١٦٧).

[١٧٠١] **اللباب** لابن عادل، ٧/ ٥٧٨؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٦٠٤.

[١٧٠٢] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٢٦/١٢.

إلى الإثم على طريق المشاكلة والتضمين لقوله: «ومعناه: من الذين جُنيَ عليهم». وذلك لأنَّ بناء قوله: ﴿**فَإِنْ عُثِرَ**﴾ على قوله: ﴿**إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ**﴾؛ لأنَّ المعنى: إنْ كتمنا الحقَّ كنَّا من الخائنين، ثم إنَّ اطُّلع على أنهما خانا وجَنَيا على المشهود عليه، واستحقَّا إثمًا بذلك، فآخران يقومان مقامهما بالشهادة، فكَنَّى عن قوله: خانا وجَنَيَا بقوله: ﴿**اسْتَحَقَّا إِثْمًا**﴾ [٨٩/و] لتشاكل السابق وهو: ﴿**إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ**﴾؛ ولذا قال: «واستوجَبَا أن يقال: إنَّهما لمن الآثمين، ثم عبَّر عن المشهود عليهم بقوله: «استحقَّ عليهم الإثمُ» لتشاكل التّعبير عن الخائنين بأنهما استحقَّا الإثم.[١٧٠٣]

«**ويحتجُّ به**»: مَنْ يَرى ردَّ اليمين على المدَّعي، وأبو حنيفة وأصحابه لا يرونه، فوجه: أن الورثة ادَّعوا على النصرانيَّين أنهما اختانا فحلفا، فلمَّا ظهر كذبهما ادَّعيا الشِّراء فيما كتما، فأنكر الورثة، فكانت اليمين على الورثة لإنكارهما الشِّراء.[١٧٠٤]

ووجه الاحتجاج أنه قد صحَّ الرَّدُّ في الجملة، وإن كان في القصَّة، ومدلول الآية بعد حلف المنكر، فغاية الأمر أنه نسخ الرَّدّ بعد الحلف بالإجماع، فبقي الرد قبل الحلف؛ إذ لا ناسخ.

ولكن لا دلالةَ على الزيادة التي تكون وجهًا للتأويل لا في القصة ولا في الآية، بل ظاهر الآية يأباها؛ لأنه صرَّح بالرَّد والتّعقيب في قوله: ﴿**أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ**﴾ وجعله قاعدة بمثل هذا الواقع، وكذلك قوله: ﴿**فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ**﴾ لا ينبئ عن استئناف دعوى، بل ينبئ عنها.[١٧٠٥]

﴿**الْأَوْلَيَانِ**﴾ الأحقَّان بالشهادة لقرابتهما ومعرفتهما.[١٧٠٦] فقوله: ﴿**فَآخَرَانِ**﴾ مبتدأ و﴿**يَقُومَانِ**﴾ خبره و﴿**مِنَ الَّذِينَ**﴾ حال من فاعل ﴿**يَقُومَانِ**﴾ و﴿**الْأَوْلَيَانِ**﴾ خبر مبتدأٍ محذوفٍ؛ كأنَّ سائلًا قال: «مَنِ الآخران»؟ فقيل: هما الأوليان، أو ﴿**آخَرَانِ**﴾ مبتدأ و﴿**الْأَوْلَيَانِ**﴾ خبره و﴿**يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا**﴾ صفة ﴿**آخَرَانِ**﴾ و﴿**مِنَ الَّذِينَ**﴾ إمّا صفة بعد صفة، أو حال من فاعل ﴿**يَقُومَانِ**﴾، أو ﴿**الْأَوْلَيَانِ**﴾ مبتدأ خبره ﴿**آخَرَانِ**﴾ قدّم عليه، والتقدير: فالأوليان بأمر الميّت آخران يقومان مقام الوصيين الذين استحقَّا إثمًا في أمر الاستحلاف، فيكون التركيب من قبيل قولك: «تَمِيمِيٌّ أَنَا». و﴿**الْأَوْلَيَانِ**﴾ بدل من ﴿**آخَرَانِ**﴾، أو من الضّمير في ﴿**يَقُومَانِ**﴾.

فإن قيل: لو جعل بدلًا من الضمير في ﴿**يَقُومَانِ**﴾ يبقى الخبر بلا عائد إلى المبتدأ.

قلنا: لو سلّم كون المبدل في حكم الطَّرح بالكلية فهو نفس المبتدأ، فيرجع إلى إقامة المظهر موضع المضمر، أو مرتفع بـ﴿**اسْتَحَقَّ**﴾ فاعل له بمعنى: استوجب ولابدَّ من تقدير المضاف؛ لأن الواجب على هذا أن يختاروا من بينهم شخصين من أقارب الميّت موصوفين بالأولوية من غيرهم؛ لاطِّلاعهم على حقيقة الحال، أي: من الذين استحق عليهم انتداب الأوَّلين منهم للشهادة يقال: ندبه الأمر فانتدب له، أي: دعاه له فأجاب، وهذه الوجوه كلّها على قراءة الجمهور. وأمَّا إذا قرئ على بناء الفاعل وهي قراءة حفص.

«**فمعناه من الورثة الذين** ﴿**اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ**﴾ **من بينهم بالشهادة، أن يجرّدوهما للقيام بالشهادة، ويظهروا بهما كذب الكاذبين**»: فـ﴿**الْأَوْلَيَانِ**﴾فاعل ﴿**اسْتَحَقَّ**﴾ والمفعول محذوف، وهو أن يجرّدوهما ويفرّدوهما للشهادة، أي: الحلف على أولويّة شهادتهما، وهما بالحقيقة الآخران اللذان يقومان مقامَ الأوَّليين على وضع الظَّاهر موضعَ المضمر،

[١٧٠٣] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/ ٥٢٠؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني،٣٢٢ و-ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣٤٣/٣.

[١٧٠٤] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٧٤.

[١٧٠٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٢و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣٤٤/٣.

[١٧٠٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٧٠/١.

لكن لم يمكن أن يجعل فاعل ﴿اسْتَحَقَّ﴾ ضمير ﴿آخَرَانِ﴾ للإفراد إلا أن يقال: إنهما لما قاما مقام واحد أفرد الضَّمير في ﴿اسْتَحَقَّ﴾ وجعل ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ بدلًا منه، لكنَّه بعيد جدًّا مع اكتفائه بذكره بلفظ التثنية سابقًا لاحقًا أعني: ﴿يَقُومَانِ﴾ و﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ ويتوجّه ههنا أن توجّه اليمين على الورثة إذا كان من جهة إنكارهم شراء الوصيين كانت اليمين عليهم جميعًا، ولا معنى لتجريدهم الاثنين من بينهم. والجواب بأنَّ المراد بـ﴿اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ أهلالميت وقرابته أعمُّ من الوارث وغيره، والأوليان هما الوارثان من بينهم بمعنى: الأقربان إلى الميّت، بحيث يرثان، ويعلم حال الواحد والثلاثة بطريق دلالة النصّ لا يستقيم على تقرير المصنّف، حيث اعتبر موصوف الدين استحق عليهم هو الورثة، بل الوجه أن هذا على ظاهره من ردِّ اليمين بعد الحلف أيضًا كما تقدَّم.[١٧٠٧]

وقرأ حمزة ويعقوب وأبو بكر عن عاصم: ﴿الأَوَّلِينَ﴾[١٧٠٨] على أنه جمع «أوّل» مقابل «آخر» والأوَّليَّة التّقدّم على الأجانب والشهادة؛ لكونهم أحقَّ بها وهذا على أن يفسر أو آخران بالأحاديث وإذا فسّر بغير أهل دينكم، فالأولية بمعنى التَّقدم في الذكر، فإن شهادة بينكم، وقوله: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة ٥/١٠٦] ذكرًا قبل قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْغَيْرِكُمْ﴾ والمعنى: من الأوّلين الذين استحقّ عليهم أمرهم، أي: غلبوا عليهم فإنهم أولويّة في الذكر, وإعرابه أنه صفة ﴿لِلَّذِينَ﴾ أو نصب على المدح، أو بدل ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾.

وقرئ: «الأَوَّلَيْنِ» على التثنية، وانتصابه على المدح و«الأَوَّلاَنِ»،[١٧٠٩] وإعرابه إعراب ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾.[١٧١٠]

﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

﴿لَشَهَادَتُنَا﴾ أصدق من شهادتهما وأولى أن تقبل، وما تجاوزنا فيها الحق ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الواضعين الباطل موضع الحقّ، أو الظالمين أنفسهم إن اعتدينا.[١٧١١]

وقدم أنه إذا أريد بالاثنين الشاهدان يكون منسوخًا من وجهين؛ لأنَّ كلّ واحد من يحتلف الشاهدين، ثم ردَّ اليمين على الورثة على تقدير خيانة الشاهدين [**٨٩**/ظ] خلاف ما أجمعوا عليه والنسخ بعيد؛ لأن المائدة آخر ما نزل وليس فيها منسوخ، فينبغي أن يحمل على الوصِيَّيْن، والوصي أن وقع فيه ريبة يحلّف؛ لأنه أمين ويحلف الورثة، والشافعية يجوزون رد اليمين إلى المدَّعي قبل أن يحلف المدّعى عليه، والوصي ههنا وإن حلف إلا أنَّه لما بطل عنه بالعثور على خيانته صار كأن لم يحلف فجاز ردّ اليمين إلى الوارث؛ لذلك بخلاف الشاهد؛ فإنَّه لا يتوجَّه إلبيه اليمين أصلًا فضلًا عن أن يرد ما توجَّه إليه إلى المدَّعي.

والحنفية لا يرون ردّ اليمين على المدّعي فوجه تحليف الوارث عندهم ما ذكرنا من قبل من تعبير الوصيين ما ادَّعياه أوَّلًا، فإن الورثة قد ادّعوا على النصرانيين أنهما قد اختانا فحلفا على أنَّهما صادقان، فلمَّا ظهر كذبهما بأن وجد في يدهما شيءٌ من مال الميّت وادّعيا شراءه من الميّت قبل موته، وأنكر الورثة بذلك توجَّهت اليمين على الورثة لإنكارهم الشراء، ومعلوم أنَّ تحليف المنكر ليس بمنسوخ،

[١٧٠٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢١ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣/٣٤٤-٣٤٥.

[١٧٠٨] **النشر** لابن الجزري، ١/١٩٢.

[١٧٠٩] قراءة شاذّة، مروية عن ابن سيرين. **شواذ القراءات** للكرماني، ١/١٦٢- ١٦٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٧/ ٥٨٠.

[١٧١٠] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٧٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٧/ ٥٧٨؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٥؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٦٠٤.

[١٧١١] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٥.

ولَمَّا ورد أن يقال: ما ذكر وإنْ دلَّ على أنه ينبغي أن يحمل اثنان على الوصيين إلا أنَّ ما ينفيه حاصل وهو ذكر العَدد الذي يتوقَّف عليه قبول الشهادة دون صحَّة الإيصاء، فإن الواحد يصحُّ بالإجماع، فلو أريد الوصيان لكان ذكر العدد لغوًا،[١٧١٢] أجاب عنه قدس سره بقوله: «لعلّ تخصيص العدد لخصوص الواقعة».[١٧١٣]

روي أن تميمًا الداري وعدي بن بدَّاء خرجا إلى الشام للتجارة، وكانا حينئذ نصرانيين ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلمًا، فلمَّا قدموا الشام مرض بديلٌ فدوَّن ما معه في صحيفة وطرحها في متاعه فلم يُعلم به صاحبيه أن يدفعا متاعه إلى أهله، ومات ففتشَّاه وأخذا منه إناء من فضة فيه ثلاثمائة مثقال منقوشًا بالذهب فغيَّباه فأصاب أهله الصحيفة وطالبوهما بالإناء، فجحدا، فترافعوا إلى رسول الله فنزلت: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ الآية، فحلَّفهما رسول الله بعد صلاة العصر عند المنبر وخلَّى سبيلهما، ثم وُجد الإناء في أيديهما، فأتاهم بنو سهمٍ في ذلك، فقالا: قد اشترينا منه ولكن لم يكن لنا عليه بيّنةٌ، فكرهنا أن نُقرَّ به، فرفعوهما إلى رسول اله صلى الله عليه وسلم، فنزلت: ﴿**فَإِنْ عُثِرَ**﴾، فقام عمرو بن العاص، والمطلب بن أبي وداعة السَّهْمِيَّان، فحلفا. فرفع الرسول الإناء إليهما وإلى أولياء الميّت، وكان تميم الداري يقول بعدما أسلم: صدق الله ورسوله أنا أخذتُ الإناء فأتوب إلى الله.

وعن ابن عباس: بقيت تلك الواقعة مَخفيَّةً إلى أن أسلم تميم الدّاري، فلما أسلم أخبر بذلك، فقال: حلفتُ كاذبًا وأنا وصاحبي، بعنا الإناء بألف وقسَّمنا الثمن، ثم دفع خمسمائة من نفسه، ونزع عن صاحبه بالخمسمائة الأخرى، ودفع الألف إلى موالي الميّت.[١٧١٤]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ وَمَنْ خَاصَمَ فِي بَاطِلٍ وَهُوَ يَعْلَمُهُ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ».[١٧١٥]

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)﴾

﴿**ذَلِكَ**﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّم من بيان الحكم في هذه الحادثة بتفاصيله. وخُلاصَةُ ما ذكر من التفاصيل أن المحتضر إذا أراد الوصية ينبغي أن يشهد على وصيته عدلين من أقاربه، أو من أهل دينه، أو أن يوصي إليهما احتياطًا. وأخذا بالأحوط الأولى أو من غيرهم إن كان في سفر ولم يوجد قريب أو مسلم، ثم إن وقع ارتياب في شأنهما أقسما على عدم التحريف أو على عدم الخيانة بالتغليظ في الوقت، فإنْ ظهر خيانتهما بعد الحلف أقسم أخران من أولياء الميّت، أو إلى تحليف الشاهدين أو إلى حبسهما بعد الصلاة.

﴿**أَنْ يَأْتُوا**﴾ أصله إلى أن يأتوا و﴿**أَوْ يَخَافُوا**﴾ عطف على ﴿**يَأْتُوا**﴾ والمعنى: ما تقدَّم ذكره من الأحكام؛ أدنى أقرب إلى إتيان الشهداء بالشهادة على ما ينبغي، أو إلى خوفهم من ردّ اليمين إلى غيرهم على تقدير: أن يأتوا بالشهادة لا على وجهها فيظهر كذبهم ويفتضحوا بذلك فيما بين الناس.[١٧١٦]

[١٧١٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٦٠٦.

[١٧١٣] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٦٥؛

[١٧١٤] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٢/١٢٧؛ **اللباب** لابن عادل، ٧/ ٥٧٦–٥٨٧؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٧٠.

[١٧١٥] **سنن أبي داود**، ٥/٤٥٠ (٣٥٩٧).

[١٧١٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٦٠٦–٦٠٧.

والحاصل: أن شرعية الحكم على هذا الوجه كانت لأحد الأمرين: أنهما وقع ففيه صلاحكم وهو أداء الشهادة على الصّدق؛ لكونهم مجبولين على الثناء على الحقّ، والامتناع من أدائها لا على وجهها خوفًا من الافتضاح، وكلمة «إلى» محذوفة وكلمة «أو» على بابها من كونها لأحد الشيئين، وقوله: ﴿**عَلَى وَجْهِهَا**﴾ متعلّق بـ﴿**يَأْتُوا**﴾ ويجوز أن يكون حالًا من الشهادة فيتعلّق بمحذوف، وإنما جمع الضمير في﴿**يَأْتُوا**﴾ و﴿**يَخَافُوا**﴾ مع أن الكلام في الآيتين من الوصي أو الشاهد؛ لأنه ابتداء كلام ذكر لبيان الحكمة في شرعية الحكم على التفصيل المذكور في حقّ كلّ الأوصياء والشهداء، ولم يذكر متعلّق التقوى في قوله: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ ليذهب المخاطبون إلى كلّ ما يصلح؛ لأن يراد في هذا المقام نحو: واتقوا الله في شهادتكم ولا تحرّفوها، وفيأيمانكم [**٩٠**/و] فلا تحلفوا أيمانًا كاذبةً، وفي أماناتكم فلا تخونوها، وفيما بيّنه الله من الأحكام فلا تخالفوا حكمه.

﴿**وَاسْمَعُوا**﴾ ما يوعظون به سماع قبول وإجابة ﴿**وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ أي: فإن لم تتّقوا ولم تسمعوا كنتم قوماً فاسقين، ﴿**وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ إلى الحجة فيما ذهب إليه أو إلى طريق الجنة، ففيه وعيدٌ لمن لم يتقِ ولم يسمعْ الموعظة.

وَعنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عَليه وسلم قالَ: «تَقَبَّلُوا لِي سِتًّا أَتَقَبَّلْ لَكُمْ بِالْجَنَّةِ: إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلاَ يَكْذِبْ، وَإِذَا وَعَدَ فَلاَ يُخْلِفْ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ فَلاَ يَخُنْ»، الحديث. رواه أبو يعلى والحاكم والبيهقي».[١٧١٧]

وعنه عليه السلام: «مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، له شيءٌ يُوصِي فِيهِ، يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ، إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ».[١٧١٨]

عَنْ خُرَيْمِ بْنِ فَاتِكٍ، قَالَ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم صَلاَةَ الصُّبْحِ فَلَمَّا انْصَرَفَ قَامَ قَائِمًا قَالَ «عُدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بِالإِشْرَاكِ بِاللَّهِ». ثَلاَثَ مِرَارٍ ثُمَّ قَرَأَ ﴿**فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ**﴾.[١٧١٩]

وعن عبد الله أنس قال قال رسول الله صلعم: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ: الشِّرْك بِاللَّهِ، وَعُقُوق الْوَالِدَيْنِ، وَالْيَمِين الْغَمُوس، وَمَا حَلَفَ حَالِفٌ بِاللَّهِ عَلَى يَمِينِ صَبْرٍ، فَأَدْخَلَ فِيهَا مِثْلَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ إلاجَعَلَتْ نُكْتَةً فِي قَلْبِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».[١٧٢٠]

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (١٠٩)

﴿**يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ**﴾ ظرف لقوله: ﴿**لَا يَهْدِي**﴾، أو بدل من مفعول ﴿**وَاتَّقُوا**﴾ بدل الاشتمال لما بينهما من الملابسة بغير الكلّية والجزئيّة بطريق اشتمال المبدل منه على البدل، لا كاشتمال الظّرف على المظروف، بل بمعنى أنه ينتقل الذهن إليه في الجملة، ويقتضيه بوجهٍ إجمالي مثلًا إذا قيل اتقوا الله يتبادر الذهن إلى أنه من أيّ أمر من أموره وأيّ يوم من أيّام أفعاله يجب الاتقاء؟ أيوم الجمعة للرسل والأمم، أم غير ذلك؟[١٧٢١] أو مفعول ﴿**وَاسْمَعُوا**﴾ على حذف المضاف، أي: واسمعوا خبر ﴿**يَوْمَ**﴾ جمعة، أو منصوب بإضمار «اذكر»، أو ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ**﴾ كان كيت وكيت على أنّ كيت كناية عن القصة الواقعة خبر كان و﴿**يَوْمَ**﴾ منصوب بـ«كان» ظرفاً لغوًا، و﴿**مَا**﴾ للاستفهام و﴿**ذَا**﴾ بمعنى «الذي» و﴿**أُجِبْتُمْ**﴾ صلة أو ﴿**مَاذَا**﴾ بمنزلة اسم واحدٍ وهو أيُّ شيء ولم يتعرّض للأوّل ههنا لاستلزامه حذف العائد المجرور مع حذف

[١٧١٧]. **مسند أبي يعلى**، ٢٤٨/٧ (٤٢٥٧)؛ **شعب الإيمان** للبيهقي، ٦٨/٨ (٤٣٥٥).

[١٧١٨] **صحيح البخاري**، ٢/٤ (٢٧٣٨).

[١٧١٩] **سنن أبي داود**، ٤٥١/٥ (٣٥٩٩).

[١٧٢٠] **سنن الترمذي**، ٢٣٦/٥ (٣٠٢٠).

[١٧٢١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٣ و؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٦٠٨.

الجار و﴿ذَا﴾ لا يجوز إلا بالتدريج، أي: أيّ شيء الذي أجبتم به، ولما جعله بمعنى: أي شيء تعيَّن أن يكون سؤالًا عن المصدر، أي: أيّ إجابة ﴿أَجَبْتُمْ﴾ إجابة إقرار أو إنكار ولو كان سؤالًا عن المفعول، أعني: الجواب لوجب دخول الباء، أي: بما أجبتم،[١٧٢٢] ولكن قدس سره جوزَّه أيضًا وجعله على حذفالجارّ،[١٧٢٣] والمقصود وإن كان واحدًا في المآل، لكن الاعتبار والتعبير مختلف.[١٧٢٤]

ولَمَّا ورد أن يقال: فالله علام الغيوب، فما معنى سؤاله؟ أجاب عنه المصنف بأنه لتوبيخ القوم كما في صريح الاستفهام، وقد بين في البيان وجه دلالة الاستفهام على ما يتولَّد منه بحسب المقامات، عند امتناع إجرائه على حقيقة السؤال أنه كنايةٌ أو مجازٌ، وأنه من أيِّ نوع من أنواع المجاز، ولَمَّا ورد أنَّهم نفوا العلم عن أنفسهم مع علمهم بما أجيبوا به، فيلزم الكذب، أجاب عنه بوجوهٍ:

الأول: أنه ليس لنفي العلم، بل كناية عن إظهار التَّشكّي، والالتجاء إلى الله بتفويض الأمر كلّه إليه، كأنه قيل: علمك محيط فتعلم بما ابتلينا منهم فنلتجئ إليك في الانتقام.

الثاني: أنه على حقيقته، لكن على خصوص في الزمان، وهو أوّل الأمر، ثم يجيبون في ثاني الحال، وبعد رجوع العقل إليهم بعد دهشتهم من هول القيامة، وهو شهادتهم على الأمم فلا يكون قولهم: «لا علم لنا» منافيًا لما أثبت الله لهم من الشهادة على أممهم.

الثالث: أنه على طريق التشبيه والإشارة إلى أنَّ علمهم في جنب علمه تع بمنزلة العدم، وفيه تفويض الأمر إليه.

الرابع: أنه ليس لنفي العلم بجوابهم عند التبليغ، ومدة حياة الأنبياء، بل بما كان منهم في العاقبة الذي به الاعتبار، واعترض عليه بأنهم يرون عليهم آثار سوء الخاتمة من سواد الوجه وزرقة العين، فكيف يصح نفي العلم بما كان منهم بعد الأنبياء، لا يقال هذا! إنما يدلُّ على سوء الخاتمة، لا الجواب بعد الأنبياء، فلعلّهم أجابوا إجابة قبول، ثم غلبت عليهم الشقوة؛ لأنا نقول معلوم أن ليس المعنى بماذا أجبتم؟ نفس الجواب الذي يقولونه أو الإجابة التي تحدث عنهم مرَّة، بل ما كانوا عليه في أمر الشريعة من الامتثال أو الانخذال.

فإن قيل: قول عيسى ع م: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة ١١٧/٥] يدلُّ على عدم علمه بحالهم بعده.

قلنا: هو إثبات لقبائحهم على الوجه الأبلغ، واعتذار بأنه لم يكن له المنع بعد التَّوَفِّي، وإظهار أنه لا ذنب له في ذلك، ولا تقصير، والحاصل أنه لا يدلُّ على نفي العلم بحالهم بعده، [**٩٠**/ظ] بل على نفي القدرة على التغيّر.[١٧٢٥]

﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ وقرئ: «علَّامَ الغُيُوبِ».[١٧٢٦] بالنصب على أنّ الكلام قد تمَّ بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ﴾ أي: إنّك الموصوف بصفاتك المعروفة من العلم وغيره.[١٧٢٧]

[١٧٢٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٣ و.

[١٧٢٣] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٧١.

[١٧٢٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٣ و.

[١٧٢٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٣ و–ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣/٣٤٦–٣٤٧؛ **حاشيه الشهاب** للخفاجي، ٣/ ٢٩٧.

[١٧٢٦] قراءة شاذّة. **الكشاف**، ١/ ٦٧٦؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٧١.

[١٧٢٧] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٧٦؛

فإن ضمير ﴿**أَنْتَ**﴾ لكونه عبارةً عنه تع يدلُّ على صفاته المعروفة فصحّ بذلك أن يقع[١٧٢٨] خبرًا؛ لـ﴿**إِنَّكَ**﴾ فيكون التركيب من باب:

أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي[١٧٢٩]

فإنه مفيد من حيث كونه في قوّة أن يقال: أنا ذلك المشهور بالبلاغة والفصاحة وشعري هو البالغ في الكمال الجامع للصنائع الشِعريَّة، ثم نصب «علَّامَ الغيوب» على الاختصاص أو النداء، ونعني بالاختصاص النّصب على المدح ولا الاختصاص الذي هو شبيه بالنّداء، أو هو صفة لاسم ﴿**إِنَّ**﴾، واعترض بأن جواز وصف الضمير لم ينقل عن أحد من البصريين والكوفيين إلا عن الكسائي في ضمير الغائب في ضمير الغائب مثل: ﴿**لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [آل عمران٣/١٨] ، فالاعتذار بأنّه قد تنقل الأقوال الضعيفة ليس بشيء، وكذا بأن بعضهم قد جوَّز إضافة الضمير، كما في: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ [الفاتحة١/٤] فالوصف أولى؛ لأن الإضافة لا تفيد إلا التّعريف أو التّخصيص ولا يتصوَّر في الضمير، وفوائد الضمير جمّة؛ لأن هذا مجرّد قياس كيف، والقائلون بالإضافة في ﴿**إِيَّاكَ**﴾ هم الخليل والأخفش والمازني، ولم يقولوا: بالوصف ومن الناظرين في **الكتاب**[١٧٣٠]من زعم أن قوله: أو هو صفة متعقّب بقوله: قد تمَّ الكلام فلا يرتاب أنه لا يريد الصفة النحوية، بل المراد أنه بتقدير، أعني: على الوصف والتفسير، فإنه قد علم من أنك أنت أنه معروف بالعلم فاحتيج إلى تعيين العلم، لكن لا خفاء في أن هذا نصب على الاختصاص لا معنًى لجعله قسيمًا له.[١٧٣١]

وقال بعض العارفين: لَمَّا ظهر لهم الحقُّ بعلمه وسبقه، ثم سألهم جحدوا علومهم، ونسوها في قوله: ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا**﴾ وذلك من إقامة الأدب لا جهلًا بما أجابوا.[١٧٣٢]

حكى عن الواسطي عند الجند أنه قال عن فضله: قالوا لا علم لنا ولو فقهوا لماتوا، ولو لحظت الرسل بما يجب خطابه لذابوا.

وقال محمد بن الأشعب: لا علم لنا لعلمك، فإنّك تعلم ما أظهروا وما أضمروا، ونحن لا نعلم إلا ما أظهروا فعلمك فيهم أنفذ.

وقال الواسطي: خاطبهم بشاهدهم فثبتوا وأجابوا وسعوا في أمره ونهيه، ثم خاطبهم بشاهده في الآخرة وبالحقيقة فجحدوا أمره وأنكروا وذلك حقّهم؛ لأن ما ستر عنهم لو أظهر لهم في الدنيا لَما أدُّوا إرساله وأقاموا لحقّ، كأنهم قالوا: ما دعونا إلا إلى الذي ظهر ولا قمنا نحو ما أظهرت ﴿**لَا عَلْمَ لَنَا**﴾.

قال سهل في قوله: ﴿**لَا عِلْمَ لَنَا**﴾ أي: بمرادك في سؤالك وأنت علّام الغيوب، وتلقى الخطاب بالجواب صعب ولا يتلقى خطابه إلا بالجهل والاستكانة والفقر والذّلة والخشوع.

وعن محمد بن الفضل: لا علم لنا لجواب ما يصلح لهذا السؤال.

[١٧٢٨] ج- أن يقع.

[١٧٢٩] البيت لأبي النجم العجلي. **فتوح الغيب**، ٥/ ٥٢٧.

[١٧٣٠] **هو الكتاب** لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت. ١٨٠هـ/٧٩٦).

[١٧٣١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٣ و-ظ.

[١٧٣٢] **عرائس البيان** للبقلي، ٣٣٥/١.

وقال أيضاً: ﴿**لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا**﴾ بأنّك أنت أعلم بهم منّا وليس علمنا كعلمك يا ربِّ.

وقال بعضهم في هذه الآية: «مَا أَجَبْتُمْ»؟ أي: كيف شكركم عن عبادي قالوا: ﴿**لَا عِلْمَ لَنَا**﴾ بالإجابة، إن شكرنا كذبنا وإن صدقنا شكونا ولا تحتمل قلوبنا من ضعفاء إلى متكَّبر جبَّار، إنك أنت علَّام الغيوب، يستعفون من ذلك السؤال.[١٧٣٣]

﴿**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١١٠)**﴾

﴿**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا**﴾ بدل من ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُ**﴾ وهو على طريقة ﴿**وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ**﴾ [الأعراف ٤٤/٧] حيث عبّر عن الآتي بلفظ الماضي للدلالة على أنها سيأتي لكونه محقق الوقوع كالواقع، والمعنى: أنه يوبّخ الكفرة يومئذ بسؤال الرّسل عن إجابتهم وتعديد ما أظهر عليهم من الآيات، وكذَّبتهم طائفة وسمّوهم سحرة، وغلا آخرون فاتَّخذوهم آلهة.[١٧٣٤]

وقيل: إن قوله: ﴿**مَاذَا أَجَبْتُمْ**﴾ مبهمٌ في إجابة قبولٍ أو ردٍّ، أتى بقوله: ﴿**إِذْ قَالَ اللَّهُ**﴾ إلى آخر السورة بيانًا وتفصيلًا لذلك المجمل، وأوضح أن السؤال على طريق التّمييز وبيانِ أن الجواب كان جواب رَدٍّ لا قبولٍ.[١٧٣٥]

﴿**إِذْ أَيَّدْتُكَ**﴾ الجمهور تشديد الياء.وقرئ: «آيَدْتُكَ»[١٧٣٦] على «أَفْعَلْتُكَ» وكلّ واحدٍ منهما مأخوذ من الأيد، وهو القوّة أي: قوّيتُك وهو ظرف لـ﴿**نِعْمَتِي**﴾ أي: اذكر إذ أنعمت عليك وعلى أمّك في وقت تأييدي لك، أو حالٌ منها، أي: كائنة في ذلك الوقت.[١٧٣٧]

﴿**بِرُوحِ الْقُدُسِ**﴾ بجبريل على أنّ القدس هو الطّهر وأضيف إليه الرّوح مدحًا له بكمال اختصاصه بالطُّهر كما في رجل صدق، ومعنى: تأييده به أن جبريل يجعل حجته ثابتة مقرّرة، أو بالكلام الذي يَحيا به الدين أو النفس حياةً أبديةً، ويطهر من الآثام ويؤيده ما بعده.[١٧٣٨]

والكلام لما كان سببًا لحصول الطُّهر صار بمنزلة روحه الذي به الحياة فسُمِّي الكلام روحًا على طريق تسميَّة المشبه باسم المشبّه به، والكلام في الحقيقة سببٌ لحياة الدين أو لحياة النفس فكان بمنزلة روح الدين أو روح النفس، فكان ينبغي [**٩١**/و] أن يضاف الروح بمعنى الكلام إلى أحدهما إلا أنه أضيف إلى الطهر؛ لأنه لما كان سببًا لحصول الدين الذي هو سبب الطُّهر من الآثام كان سببًا لحصول الطهر أيضًا، وبمنزلة روحه فأضيف إليه لذلك، أو لأنه لما كان سببًا لحياة النفس أبدًا وكانت

[١٧٣٣] **حقائق التفسير** للسلمي، ١/١٨٧–١٨٨.

[١٧٣٤] **الكشاف** للزمخشري، ١/ ٦٧٦؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٧١–٤٧٢.

[١٧٣٥] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٥٢٨–٥٢٩.

[١٧٣٦] قراءة شاذّة، مروية عن ابن محيص ومجاهد. **شواذ القراءات** للكرماني، ١/١٦٣؛ **الكشاف**، ١/ ٦٧٦؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٧١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٦٠٩.

[١٧٣٧] **الكشاف**، ١/ ٦٧٦؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٧١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٦٠٩.

[١٧٣٨] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٧١.

حياتها متوقعة على طهارتها من الآثام كان سببًا لطهارتها من الآثام أيضًا، فصار بذلك كأنه روح طهارتها فأضيف إلى الطُّهر لذلك، وهناك يجوز أن يحور في الروح ويجوّز آخر في إضافته، ولما ورد أن يقال: الآية لتذكر ما أظهر الله على يد عيسى من المعجزات توبيخًا لمن كذبه، ولا شكّ أنّ كلمة في حال كونه في المهد من المعجزات، وأمّا التّكلم في حال كونه كهلًا فمعهود من كل أحدٍ، فما معنى إضافته إلى التكلم في الطفولية الذي هو من الآيات؟

أجيب بأن القصد إلى عدم تفاوت الكلام في الحالين لا إلى أن كلًا منهما آية،[١٧٣٩] وبيانه أنه يكلِّمهم في المهد وحال كونه كهلًا على حدٍ واحدٍ وصفةٍ واحدةٍ من غير أن تفاوت كلامه إيَّاهم في الوقتين ولا شكّ أنّه في غاية الفخامة من جهة الإعجاز.

وقال الإمام: أن الثاني أيضًا معجزة مستقلَّة؛ لأن المراد تكلّم الناس في الطفولة وفي الكهولة حين يَنزل من السّماء؛ لأنه حين رُفع لم يكن كهلًا.[١٧٤٠]

روي عن ابن عباس: أنه تع أرسل عيسى وهو ابن ثلاثين سنة، فمكث في رسالته ثلاثين شهرًا، ثم رفعه الله إليه.[١٧٤١] والمولود يوصف بالطفولة إلى أن يبلغ حدَّ البلوغ قال تع: ﴿**وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ**﴾ [النور ٥٩/٢٤] وفي قوله: ﴿**فِي الْمَهْدِ**﴾ إشارة إلى حدّ معين منها وهو زمان كون المولود في المهد، ففيه ترشيح للإعجاز أيًضا، والكهل من الرجال الذي جاوز الثلاثين ووحطه الشيب أي: يخالطه واكتهل النبات، أي: تم طوله وظهر نَوره.

وقال بعض العارفين: منهم مَن ألقى إليه روح النبوة، ومنهم مَن ألقي إليه روح الصّديقية، ومنهم من ألقى إليه روح المشاهدة، ومنهم من ألقى إليه روح الصلاح والحرمة.

وقال الواسطي: لا تصح الصحبة مع الله إلا بصحبة الروح في صحبة القدم، قال الله تع: ﴿**إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا**﴾ لا بالعقل، فمَن صحب صحبة روحه في القدم صحب صحبته مع الله تع.[١٧٤٢]

وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

المراد جنس الكتاب والحكمة فيكون ذكر الكتابين تخصيصًا مما يتناولهما لشرفهما. وقيل: ﴿**الْكِتَابَ**﴾ مصدر بمعنى الكتابة والخطّ[١٧٤٣] والحكمة الكلام المحكم، أو الفهم بمعاني الكتب، أو استكمال النفس بقويّتَها ﴿**كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ**﴾ هيئة مثلَ هيئةِ الطير، والضمير للكاف؛ لأنها صفة «الهيئة» التي كان يخلقها عيسى لا للهيئة المضاف إليها؛ لأنها ليست من خلقه، وكذا ضمير ﴿**فَتَكُونُ**﴾.

> سألوا عنه على وجه التعنت، فقالوا له: اخلق لنا خفَّاشًا، واجعل فيه روحًا إن كنت صادقًا، فأخذ طينًا وجعل منه خفَّاشًا، ثم نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض، وكان تسوية الطِّين والنفخ من عيسى والخلق من الله، كما أن

[١٧٣٩] **حاشية الكشاف للتفتزاني**، ٣٢٣ظ-٣٢٤و.

[١٧٤٠] **فتوح الغيب**، ٥/ ٥٣٠. **نواهد الأبكار**للسيوطي، ٣١٧/٣.

[١٧٤١] **معالم اتنزيل** للبغوي، ٣/ ١١٦؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٦١٠.

[١٧٤٢] **حقائق التفسير**، ١٨٧/١-١٨٨؛ **عرائس البيان**، ٣٣٥/١-٣٣٦.

[١٧٤٣] ج: وقيل: الكتابة.

النفخ بمريم كان من جبريل والخلق من الله. وشُفي بدعائه مرضى كثيرة، فقالوا: إنّ لنا أطباءَ يفعلون مثله، فذهبوا إلى جالينوس وأخبروه به، فقال: نعم الطبيب يعالج إلا أن الأكمة الذي يولد أعمى لا يبصر بالعلاج، وكذا الأبرص إذا كان بحال لو غرزت الإبرة في موضع برَصِه لا يخرج منه دمٌ، فإنه لا يبرأ بالعلاج، كما لا يحيي الميت ولا يعيش بالعلاج، فإن كان يبرئ الأكمة والأبرص ويحيي الموتى فهو نبيٌّ، فرجعوا إلى عيسى ومعهم أكمةُ وأبرصُ، فمسحهما عيسى بيده فأبصر الأعمى وبرئ الأبرص، ثم طلبوا منه أن يحيي الموتى فأحيا أربعة نفر، أحدهم: عازر، وكان صديقًا له مات، ودُفن، ومضى عليه أيام، فدعا الله على قبره فقام حيًا وعاش ووُلد له. وثانيهم: ابن العجوز: مرَّ به وهو يحمل على سريره فدعا الله فقام حيًا ولبس ثيابه، وحمل السرير على عنقه ورجع مع القوم، والثالث: سام بن نوح، والرابع: ابنة العاشر.[1744]

﴿تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ تخرجهم من قبورهم وتبعثهم ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ يعني: اليهود حين همُّوا بقتله. وقيل: لَمَّا قال الله لعيسى: ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ كان يلبس الشَّعر ويأكل الشَّجر، ولا يدَّخر شيئًا لغَدٍ، يقول: مع كلّ يوم رزقه، لم يكن له بيت فيخْرَبَ، ولا ولدَ فيموتَ أينما أمسى بات.[1745]

فالظاهر على هذا القول أن لا يكون قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ بدلًا من ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ﴾ وعلى هذا يكون هذا القول في الدنيا؛ ليترتّب عليه لبسُ الشعر وأكلُ الشجر، لكن قوله: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة، ١١٧/٥]، الآية وقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ﴾ [المائدة، ١١٨/٥] يؤيد الوجه الأوّل، فالأوجه أن يجعل هذا تتميمًا لوجه التولية لا وجهًا ثانيًا، والمعنى: أن عيسى لَمَّا شاهد أحوال الآخرة وعلم هذا الخطاب، والجواب اختار ما اختار في الملبس والمأكل وغيرهما وبيت أبي العلاء:

سَعِدَ الْمَسِيحُ يَسِيحُ فِي الْغَبْرَاءِ   لَا وَلَدٌ يَمُوتُ وَلَا بِنَاءٌ يَخْرَبُ[1746]

تلميح إلى هذه الرواية.[1747]

وعلى تسليم كونه وجهًا آخر يكون النّظم أنه تع لما خوَّف الشاهدين خصوصًا والناس عمومًا بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾ بمعنى: واتقوا يومَ جمعه الرّسل وسؤاله إياهم: بـ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾في الدنيا حين أرسلتم إلى القوم؟ وقول الرّسل من الهيبة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾، اتَّجه لسائل: ما ذلك السؤال والجواب في الدُّنيا لا علم لنا بذلك؟ فقيل له: اذكر وقت بعثه عيسى إلى القوم وتأييده بالمعجزات القاهرة وجواب بعض القوم له: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، وبعضهم: ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ ليُعلمَ ذلك السُّؤال والجواب، يدلُّ على الأول قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، وعلى الثاني: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.[1748]

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١)﴾ ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾

[1744] **بحر العلوم** للسمرقندي، ٢٦٩/١.

[1745] **الكشاف**، ١/ ٦٧٦؛ **مفاتيح الغيب**، ١٣٦/١٢.

[1746] **الكشاف**، ١/ ٦٧٦؛ **فتوح الغيب**، ٥٣٢/٥.

[1747] **فتوح الغيب**، ٥٣٢/٥؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٤و.

[1748] **فتوح الغيب**، ٥٣١/٥.

إنما ذكر هذا في معرض تقدير النِّعم؛ لأن كون الإنسان مقبول القول عند الناس محبوبًا في قلوبهم من أعظم نِعَم الله على الإنسان، ومنه يظهر أنه عطف على قوله: ﴿**إِذْ أَيَّدْتُكَ**﴾ وعلى معطوفاته، ولَمَّا ورد أن يقال: الوحي إنما يكون للأنبياء، والحواريون ما كانوا أنبياء؟ أجيب بأن المراد أمرهم على لسان الرّسول ولم يكن أمرهم بالإيمان لمجرَّد الإلهام والالقاء في القلب؛ ليكون من قبيل: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى**﴾ [القصص ٧/٢٨] ﴿**وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ**﴾ [النحل ٦٨/١٦]، وأمّا ما قيل على ألسنة الرّسل فلعلَّه يراد بهم عيسى ومَن تبعه في الشريعة من الأنبياء كقوله: ﴿**إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ**﴾ [يس ١٣/٣٦]،و﴿**أَنْ**﴾ مفسّرة لوقوعها بعد ما هو في معنى القول أو مصدرية ﴿**مُسْلِمُونَ**﴾ مخلصون من: أسلم وجهه لله فيفسر الإسلام بالإخلاص؛ ليحسن الاستشهاد عليه بخلاف ما إذا أريد الإنقياد في الظاهر؛ إذ لا يحسن أن يقال: آمنا واشهد بأنَّا منقادون في الظاهر وبحسب الأعمال، لكن يلوح أن الإخلاص من الأمور الباطنة والشهادة للأمور الظاهرة، ويمكن الدفع بأن ذلك الإشكال على تقدير أن يُراد شهادة عيسى، وأمّا على تقدير شهادة الله على ما هو اللَّائح ولا إشكال.

وقيل: لعلّ إيراده بالواو دون الفاء على طريقة قوله: ﴿**رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾ [آل عمران ٥٣/٣]، لاعتبار أن التقدير: فاشهد بأنَّا مؤمنون واشهد بأنَّا مخلصون، وتقديم الإيمان لتقدُّمه ذاتًا وزمانًا، فإنه تصديق القلب والإسلام خضوع الجوارح، لكن الإشهاد على الإسلام بعد إثبات الإيمان يُشعر بالوحدة، ولا بعد أن يقال: إن مرادهم آمنَّا وأسلمنا واشهد بأنَّنا مسلمون ومؤمنون فاقتصر فيكون من باب الاحتباس.

و﴿**إِذْ**﴾ منصوب بـ«اذكر» أو ظرف لـ﴿**قَالُوا**﴾ ﴿**عِيسَى**﴾ في محل النّصب على إتباع حركته حركةَ الابن كقولك: «يا زيدَ بنَ عمرو»، وهي اللغة الفاشية، ويجوز أن يكون مضمومًا كقولك: «يا زيدُ بنَ عمرو»، والدّليل عليه قوله:

أحارُ بنَ عمرٍو كَأَنِّي خَمِرْ يَعْدُو عَلَى الْمَرْءِ مَا يَؤْتَمِرْ[١٧٤٩]

لأن الترخيم لا يكون إلا في المضموم.[١٧٥٠]

وقوله: «**في محل النصب**»[١٧٥١] أي: الفتح لظهور أن المنادي المفرد المعرفة مبنيّ، وأن الحركة الإتباعيّة قلّما تكون إعرابية ولقوله: «**ويجوز أن يكون مضمومًا**»،[١٧٥٢] والمعنى: أنه في موقع لو كان في آخره ما أخره يقبل الحركة لَكان مفتوحًا على ما هو القاعدة في المنادى المفرد الموصوف بابن مضاف إلى علم من اختار الفتح للخفة، وإن جاز الضمير بدليل قول الشاعر فقوله: «أَحَارُ» أي: يَا حَارث، فرخّم، والترخيم إنما يكون في المضموم؛ لأن المفتوح مع الصفة بمنزلة اسمٍ واحدٍ كالمركَّب، ولا ترخيم في وسط الكلمة، ولأن في ترخيم المفتوح إخلالًا بالفتحة المجتلبلة للتناسب والاتباع الخَمِر الذي أصابه الخُمار. وقيل: الذي خَامَره داء. وما يأتمر فاعل «يَعْدُو»، أي: ائتماره وامتثاله على أن «ما» مصدرية، أو ما يمتثل من أمر نفسه وهواه على أنها موصولة.[١٧٥٣]

وقيل: أي: يظلم على المرء داء الاختلاط والانقياد لكل أحد وامتثال أمره في كلّ شيء يقال: «ائتمر الأمر»، أي: امتثل.

[١٧٤٩] **ديوان لامرئ القيس**، ص ٥٨.

[١٧٥٠] **الكشاف**، ١/ ٦٧٦.

[١٧٥١] **الكشاف**، ١/ ٦٧٦.

[١٧٥٢] **الكشاف**، ١/ ٦٧٦.

[١٧٥٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٤و .

وحكي عن حكيم أنه قال: شرائع الإيمان والإسلام يجتمع في أربع خلال: تعظيم الله، وتعظيم أمره، وتعظيم حكمه، وتعظيم مَن عظَّمه من خلقه.

وقال أهل العلم: الإسلام: العمل بطاعة الله فيما أمر به ودعى إليه.

هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾ ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣)﴾

قد جرى المصنف في تفسير هذا المقام على ما هو ظاهر الكلام، من كون الحواريين شاكِّين في قدرة الله، وفي صدق عيسى؛ كاذبين في دعوى الإيمان والإخلاص، [**٩٢/و**] وفي كون طلبهم المائدة للاطمئنان وسائر الأغراض الصحيحة التي ذكروها، لا ما ذهب إليه **محي السنة**[١٧٥٤] وغيره: من أنهم كانوا مؤمنين وسؤالهم للإطمئنان والتثبيت، كما قال ابراهيم: ﴿**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى**﴾ [البقرة ٢/٢٦٠]. و﴿**هَلْ يَسْتَطِيعُ**﴾ سؤال عن الفعل دون القدرة؛ تعبيرًا عن الفعل بلازمه، ومعنى: ﴿**إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ إن كنتم كاملين في الإيمان والإخلاص ومعنى: ﴿**نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا**﴾ نعلم علم مشاهدة، وعيان بعدما علمناه علم إيمان وإيقان، والدليل على ذلك: أن المؤمنين قد أُمروا بالتَّشبيه بالحواريين في قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ**﴾ [الصف ٦١/١٤] الآية، ويمكن الجواب بأن الحواريين فرقتان: مؤمنون هم خالصة عيسى والمأمور بالتشبُّه بهم، وكافرون وهم أصحاب المائدة.[١٧٥٥]

وأشار قدس سره إلى توجيه آخر وهو: أن الذي ينافي الإخلاص وتعظيم الرَّبّ هو الاستفهام عن الاستطاعة التي هي مقتضى القدرة وهم لا يستفهمون عنها، بل مرادهم أن استفهام ذلك هل هو جائز في الحكمة أم لا، وما لا تقتضيه الحكمة ولا يكون جائزًا فيها، فهو كأنه غير مقدور ولا يتعلّق به الاستطاعة فلذلك قالوا: ﴿**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ**﴾ ومرادهم هل يجوز في حكمته؛ وذلك لأن أفعال الله لما كانت موقوفة على رعاية وجوه الحكمة كان الموضع الذي لا يحصل فيه شيءٌ من وجوه الحكمة لا تتعلّق به القدرة، ويقال: فيه أنه تع لا يستطيع أن يفعله، وهذا إنما يتمشى على قول المعتزلة، وكان ضم الإرادة إلى الحكمة لتمشيه على أصل السنة، ونقل أيضًا أن يكون قولهم: ﴿**هَلْ يَسْتَطِيعُ**﴾ بمعنى: هل يُطيع؟ كما يستعمل «استجاب» بمعنى «أجاب» بأن يجعل «سين» استفعل زائدة، والمعنى: هل يجيبك ربّك إن سألته أن ينزّل علينا مائدة؟

ثم إن هذه التوجيهات إنما تحتاج إليها على قراءة الجمهور بـ«ياء» الغيبة، ورفع ﴿**رَبُّكَ**﴾ على الفاعليّة، وأمَّا على قراءة الكسائي: فلا حيث قرأ بـ«تاء» الخطاب لـ﴿**عِيسَى**﴾ ونصب ﴿**رَبَّكَ**﴾[١٧٥٦] على تقدير المضاف، أي: هل تستطيع سؤال ربك من غير أن يصرفك عنه صارف؟ فلا يلزم شبه الحواريين إلى الشك في قدرة الله مع قولهم: ﴿**آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران ٣/٥٣].[١٧٥٧]

و«المائدة»: الخِوان إذا كان عليه الطعام، وإن لم يكن عليه طعامٌ لا يسمّى مائدةً، وإنما يقال له: «خِوان»، كما لا يقال «كأس» إلا وفيها خمر، وإلا فهي قدحٌ، ولا يقال: «ذنُوبٌ» و«سَجْلٌ» إلا وفيه ماء، وإلا فهو دلو، ولا يقال: جراب إلا وهو مدبوع وإلا فهو إهابٌ، وهو من: «مَادَ الماء يَميدُ إذا تحرَّك»، ومنه قوله: ﴿**وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ**﴾ [الأنبياء

[١٧٥٤] أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي (٥١٠هـ -١١١٧م).

[١٧٥٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٤و-ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣/٣٥٣.

[١٧٥٦] **النشر** لابن الجزري، ٢/ ١٩٢.

[١٧٥٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٣/ ٦١٢.**

٣١/٢١] فكأنّها تميد بما عليها من الطعام، أو كأنها تميد بالآكلين، أو المائدة بمعنى: الْمُمَيَّدة، الفاعلة بمعنى المفعولة؛ أي: المحرَّكة، أو من مَادَه: إذا أعطاه فهي مائدة أي: مُعْطية، ونظيرها قولهم: شَجَرةٌ مُطعِمة.[١٧٥٨]

وقال ركن الإسلام في **شرعة الإسلام**:[١٧٥٩]ويحضر البُقول على المائدة، فإنها مطَّردةٌ للشيطان.[١٧٦٠] والبُقول جمع بَقْلٍ وهو كلُّ نبات اخضرَّت له الأرضُ.

وعن إبراهيم النخعي: المائدة بلا بَقْل كشيخ بلا عقل.

وقال جعفر الصادق: من أحبّ أن يكون ماله وولده، فليدم على أكل البقول. وقد روي: أن الملائكة إذا كان عليها بقل تحضر المائدة.

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣)﴾

كانت دعويهم لإرادة ما ذكروا كدعويهم الإيمان والإخلاص إن قدّر أنهم كانوا شاكين فيه.

فإن قيل: فلِمَ سأل عيسى نزول المائدة، ولم ينزلها الله؟

قلنا: ليكمل إلزام الحجَّة بإجابة مقترحهم، وإظهار المعجزة الباهرة، وإلى السؤال والجواب أشار بقوله «وإنما سأل عيسى وأُجيب ليُلزموا الحجَّة بكمالها، ويُرسل عليهم العذاب إذا خالفوا»[١٧٦١]

وكانت تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال؛ لأنهم لَمَّا طلبوا ذلك قال لهم عيسى ع م: قد ظهرت من المعجزات ما فيه كفاية فاتقوا في طلب معجزة أخرى، أجابوا بأنا لا نطلب ذلك لمجرَّد الإعجاز، بل لأمور، أحدها: نريد أن نأكل منها تبرُّكًا يشفى بسببها مرضانا، ويتقوى بها أصحَّاؤنا، ويستغنى بها فقراؤنا. وقيل: مرادهم أكل احتياج؛ لأنهم قالوا ذلك في زمن المجاعة.

وثانيها: أنَّا وإن علمنا قدرة الله بالدليل لَكُنَّا نزداد بها يقينًا وطمأنينةً. وثالثها: إنا وإن علمنا بالمعجزات صدقك لكن إذا شاهدناها تأكّد طمأنينًا ويقينًا. ورابعها: أن جميع المعجزات التي وردت أرضيَّةً، وما طلبُنا سماوية وهي أعظمُ وأعجبُ فإذا شاهدناها كنَّا عليها من الشاهدين «نشهد عليها عند الذين لمن يحضروها من بني إسرائيل، أو نكون من الشاهدين لله بكمال القدرة ولك بالنُّبوة»، أو من الشاهدين للعين دون التابعين للأثر، والسامعين للخبر.[١٧٦٢]

ثم إن جعل **﴿عَلَيْهَا﴾** من صلة **﴿الشَّاهِدِينَ﴾** يلزم تقديم ما في حيّز الصلة وحرف الجر وكلاهما ممنوع، فلا بدَّ من تعلُّقه بمحذوف يفسره **﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾**، ويجوز أن يكون في موقع الحال ولا يخلوا من أن يكون حالًا من الاسم لكان على رأي من يجوّز إعمالَ «كان» في الحال، كما مرَّ في قوله: **﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ[٩٢/ظ] عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾** [البقرة ٩٤/٢]، أو أن يكون حالًا من الضمير والظَّرف الذي هو خبر «كان»، ولا يجوز الثاني لِمَا يَلْزَم من تقدّم الحال على العامل المعنوي، فتعَيَّن الأول. قال ابن الحاجب: وقد اختلف في مثل: «زيدٌ في الدار قائمًا»، فجوَّز بعضهم تقديمه؛ لأن

[١٧٥٨] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٧٢؛ **اللباب**، ٦٠٧/٧؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٦١٢.

[١٧٥٩] **هو شرعة الإسلام (إلى دار السلام)** لإمام زاده ركن الإسلام محمد بن أبي بكر بن الفضل (ت. ٥٧٣هـ)

[١٧٦٠] **شرعة الإسلام (إلى دار السلام)** لإمام زاده محمد بن أبي بكر، بخط محمد بن مصطفى دار الكتب المصرية، ١١٣٤هـ.٥٥ظ.

[١٧٦١] **الكشاف**، ١/ ٦٧٦.

[١٧٦٢] **أنوار التنزيل**، ٤٧٣/١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٦١٢-٦١٣.

التقدير: «استقر»، أو «مستقرٌّ»، وبعضهم يجعلون المقدَّر نَسيًا منسيًّا والظرفَ هو العامل في المعنى، وهذا أرجح؛ لأنه لم يثبت مثل: «زيد قائمًا في الدار»، في فصيح الكلام، ولأنه إذا صار من قبيل المنسيّ صار في حكم العدم وصارت المعاملةُ مع الثابت عنه، وكذلك مذهب المحقِّقين في قولنا: «سُقْيًا زيدًا»، أن زيدًا معمول «سُقْيا لا لفعل المحذوف؛ لأنه في حكم المنسيّ، بخلاف قولك: «ضَرْبًا زيدًا»؛ لأن حكم الفعل باقٍ، فإن قلت لمَ لا يجوز أن يكون حالًا من الضمير في ﴿**الشَّاهِدِينَ**﴾؟ قلت: لا يجوز لما في حيِّز الصلة ومعمولِها لا يتقدَّم على الموصول.[١٧٦٣]

وقال بعض العارفين: أي: نريد أن نربِّي أبداننا بمأكول الجنة، كما نربِّي قلوبنا وأرواحنا بموائد المشاهدة، ونريد في قلوبنا تصديقك ومحبَّتك، حتى لا يبقى فينا معارضة الطبيعة، ونكون من شهداء رؤية المعجزة، الصادقين بآثارنا عند المريدين المقتدين، ولأنَّك قلت لنا: أنتم أصفياء الله وأولياؤه، وإذا حصل مرادنا تحصل طمأنينة قلوبنا في صدق الله، وصدقك، وصدق ولايتنا، قال ع م: مرادهم بقوله: ﴿**أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ**﴾ سأل من السماء لا من الأرض لما فيها من الروحانية والحنانيّة والملكوتيَّة غير ممزوجة بعناصر الدهر الذي يتولَّد منه عصيان الله.

وأيضًا: يسأل من السّماء خصوصية من المعجزات.[١٧٦٤]

﴿**قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)**﴾

لـمّا رأى أنهم لا يُقلعون عن السّؤال على تقدير كونهم شاكّين، أو أنّ لهم غَرَضًا صحيحًا في ذلك على تقدير كونهم مخلصين.

و﴿**اللَّهُمَّ**﴾ أصله: «يا الله»، فحُذف حرفُ النّداء وعُوِّضت «الميم»، و﴿**رَبَّنَا**﴾ نداءٌ ثانٍ لغاية التّضرُّع لا صفة أو بدل؛ لأن ﴿**اللَّهُمَّ**﴾ لا يوصف ولا يبدل منه؛ لأن «الميم» مانعة؛ لأنها عوض؛ لأنَّ ﴿**اللَّهُمَّ**﴾ في تقدير: «يا الله»، ومجموع «يا الله» لا يبدل ولا يوصف، وإن كان «الله» وحده يوصف ويبدل نحو: يا الله الواحد.

﴿**تَكُونُ لَنَا عِيدًا**﴾، أي: تكون يوم نزولها عيدًا. قيل: هو يوم الأحد؛ ومن ثمَّة اتَّخذه النصارى عيدًا. وقيل: العيد: السرور العائد؛ ولذلك يقال: يومُ عيد وكان معناه: تكون لنا سرورًا وفرحًا.[١٧٦٥]

فعلى الأول: العيد اسم ليومٍ فيه سرورٌ مخصوص فاسم ﴿**كَانَ**﴾ ضمير المائدة على حذف المضافين، وعلى الثاني: اسم لسرورٍ يعود بدليل إضافة اليوم إليه في قولنا يوم عيد فلا حذف حينئذ، لكن جعل المائدة سرورًا مجاز في الإسناد، ويجوز أن يكون ﴿**لَنَا**﴾ خبر ﴿**كَانَ**﴾ ويكون ﴿**عِيدًا**﴾ حالًا من الضمير في الظرف، أو حالًا من الضمير في ﴿**كَانَ**﴾ على قول من يقول: إنها عامل في الحال.[١٧٦٦]

﴿**لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا**﴾ بدلٌ من ﴿**لَنَا**﴾ بتكرير العامل، أي: لِمَن في زماننا من أهل ديننا، ولِمَن يأتي بعدنا. وقيل: يأكل منه آخر الناس كما يأكل أوَّلُهم، ويجوز للمتقدّمين منّا والأتباع.[١٧٦٧] يعني: تكون الأولية والآخرية باعتبار الذِّمة والشرف دون

[١٧٦٣] **فتوح الغيب**، ٥/٥٣٦-٥٣٧؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٤و-ظ؛ **حاشيه الشهاب**، ٣/٣٠٠.

[١٧٦٤] **عرائس البيان**، ١/٣٣٨.

[١٧٦٥] **الكشاف**، ١/ ٦٧٨.

[١٧٦٦] **فتوح الغيب**، ٥/٥٣٨؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٤و-ظ.

[١٧٦٧] **الكشاف**، ١/ ٦٧٨-٦٧٩.

الزمان، وأمّا أوّل الناس وآخرهم فبالزّمان كما في الوجه الأوّل إلا أنه لا يختصُّ أهل دينهم، كما أنه يختصُّ بهم في الوجه الأوّل وبذلك يحصل الفرق بين الأوّل والثاني.

وقيل: على الثاني: ولتكرير في ﴿**لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا**﴾؛ لرفعِ التفاوت بين قوم وقوم، يعني: لا تفاوت بين من يأكل أوّلًا ومن يأكل آخرًا لإنزال الله البركة فيها، ولذا قدَّم المصنفُ آخر الناس على أوّلهم، ومثله في التكرير المعنوي قوله: ﴿**وَلَهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**﴾ [مريم ٦٢/١٩]، حيث يريد الدَّيْمُومة ولا يقصد الوقتين المعلومين.[١٧٦٨]

وفي قراءة زيد «لِأُولَانا وأُخْرَانا»[١٧٦٩]باعتبار الأمة أو الجماعة ﴿**وَآيَةً**﴾ عطف على ﴿**عِيدًا**﴾ ﴿**مِنْكَ**﴾ صفة لها، أي: «آية كائنة منك» على كمال قدرتك وصحة نبوّتي، ﴿**وَارْزُقْنَا**﴾ المائدة أو الشّكر عليها ﴿**وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾ خير من يرزق؛ لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض.

وعن بعض العارفين: ﴿**قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً**﴾ الأسرار والحقائق التي تنزلها من سماء العناية عليها أطعمة الهداية ﴿**تَكُونُ لَنَا**﴾ لأهل الحقّ وأرباب الصّدق ﴿**عِيدًا**﴾ ففرح بها ﴿**لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا**﴾ لأوّل أنفاسنا وآخرها، فإن أرباب الحقيقة تراقبون الأنفاس أوّلها وآخرها بتصعد مع الله وتهوي مع الله، ففي صعود النفس مع الله يكون عيدًا له وفي هوية معه يكون عيدًا له،[١٧٧٠] كما قيل بالفارسية:

صوفيان هر نفس دو عيد كنند   عنكبوتان مكس قديد كنند[١٧٧١]

﴿**وَآيَةً مِنْكَ**﴾، أي: تلك المائدة تكون تجلي صفة من صفاتك ﴿**وَارْزُقْنَا**﴾ من فضلك الخاص ﴿**وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾؛ لأن رزقك الذي ترزق به خواص عبادك رزق منك ورزق غيرك لا يكون منه.[١٧٧٢]

ونِعْم ما قيل: عيد الصائمين برؤية الهلال، وعيد القائمين بلذة الوصال، وعيد الأتقياء بالتوقي عما يوجب التكال، وعيد الأسخياء بالإطعام [**٩٣**/و] من الحلال، وعيد العالمين في مطالعة الكبرياء والكمال، وعيد العارفين في مشاهد الجلال والجمال.

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)﴾

﴿**عَذَابًا**﴾ مفعول مطلق يعني: «تعذيبًا» كأنبت نباتًا على أن العذاب اسم للتعذيب، كالسلام للتسليم، والمتاع للتمتيع؛ إذ لو جعل ههنا اسمًا لما يعذب به لقيل: «بعذاب»؛ لأن التّعذيب لا يتعدَّى إلى مفعولين، والحذف، والإيصال خلاف الظاهر فلا يرجع إليه مع ظهور المصدرية، فعلى هذا يكون ضمير ﴿**لَا أُعَذِّبُهُ**﴾ في موقع المفعول المطلق، كما في: ظننته زيدًا قائمًا، ويقوم مقام العائد إلى الموصوف؛ فإن قوله: ﴿**لَا أُعَذِّبُهُ**﴾ صفة ﴿**عَذَابًا**﴾، ويجوز أن يجعل من قبيل: ضربته ضرب زيد، أي: عذابًا لا أعذّب تعذيبًا مثله فيكون مع كونه في موضع المفعول المطلق عائدًا إلى الموصوف.[١٧٧٣]

[١٧٦٨] **فتوح الغيب**، ٥٣٨/٥.

[١٧٦٩] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ والجحدري. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٦٣؛ **الكشاف**، ١/ ٦٧٩.

[١٧٧٠] **التأويلاة النجمية** لنجم الدين الكبرى، ٣٢٢/٢؛ دار الكتب العلمية، لبنان ٢٠٠٩.

[١٧٧١] **ديوان شمس – غزليات – شمارهٔ٩٧٣**؛**روح البيان** إسماعيل حقّ برسوي، ناشر: خليل أثر، مكتبة أثر، استانبول، ١٣٨٩هـ، ٤٦٥/٢.

[١٧٧٢] **التأويلاة النجمية** لنجم الدين الكبرى، ٣٢٢/٢.

[١٧٧٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٤ظ؛ **حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي**، ٣٠١/٣.

ويجوز أن يكون انتصابه على أنه مفعول به على السَّعة، أي: على أن يجعل الحدث مفعولًا به مبالغة؛ فإن المنصوب على التشبيه بالمفعول ثلاثة أنواع المصدر، والظرف المتّسع فيهما ومعمول الصفة المشبهة، أمَّا المصدر فكما تقدَّم، وأمَّا الظرف فنحو: يوم الجمعة صمته ومنه قوله: ويوم شهدناه سليمى وعامرًا أي شهدنا فيه.[١٧٧٤]

فيكون ضمير ﴿**لَا أُعَذِّبُهُ**﴾ راجعًا إليه، وفي حكمه في التشبيه المذكور، ويجوز أن يراد به ما يعذَّب به على حذف حرف الجر، فيكون الضمير أيضًا راجعًا إليه أيضًا على ذلك الحذف، وبهذا يتَّضح استقلال الوجهين ويضعف أن يقال: إن جعله مفعولًا به على السَّعة وكون عذاب بمعنى: ما يعذَّب به على حذف الجر في الموضعين وجه واحد على ما يتخايل من كلامه قدس سره.

وقد ذُكر قصةُ نزولِ المائدة في التفاسير: وأنها نزلت وكان يأكل منها الفقير، والغني، والرجل، والمرأة، والقريب، والبعيد، ثمّ أوحى الله إلى عيسى أَنْ: «اجعل مائدتي ورزقي لليتيم والزَّمنى والفقير، دون الأغنياء من الناس»، فتعاظم ذلك عند الاغنياء وأذاعوا القبيح، وارتابوا، وشكَّكوا الناس فيها، حتى وقعت الفتنةُ في قلوب المرتابين، وحتى قال قائلهم: يا روحَ الله وكلمتَه، إنّ المائدة لحقٌّ أنّها تنزل من عند ربّنا؟ فقال عيسى: ويلَكم هلَكتم، العذاب نازلٌ بكم إلا أن يغفر الله ويرحم.

فأوحى الله إلى عيسى أني آخذهم شرطي الذي اشترطتُ عليهم، وأنّي معذِّب منهم مَن كفر بعد نزولها بعذابٍ لا أعذِّبه أحدًا من العالمين.

فقال عيسى: ﴿**إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾، فأخبرهم نزول العذاب عليهم، فمسخ الله منهم ثلاثة وثلاثين رجلًا، -وفي رواية: ثلاث مائة وثلاثة وثلاثين رجلًا- خنازيرَ. وكانوا باتوا أوّل الليل على فرشهم مع نسائهم في دورهم آمنين، في أحسن صورة، وأطيب عيشٍ، فأصبحوا خنازير، وأصبح الناس مَن بقي منهم فزعين خائفين من عقوبة الله تع، وعيسى يبكي ويتضرّع، وأهلهم يبكون معه عليهم، وكانت الخنازير تَسعى إلى عيسى إذا أبصرته ويَطيفون به، وينظرون إليه، ويشمُّون ريحه، ويسجدون له وأعينُهم تسيل دموعًا، لا يستطيعون كلامًا، ويقوم عيسى عليهم فيناديهم بأسمائهم، يا فلان! ويا فلان! فيقول برأسه: نعم، فيقول: ألم أُنْذِرْكم عقوبة الله وأُحذرِّكم؟ فيقولون برؤوسهم: نعم، وذلك قوله تع: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ الآية [المائدة ٥/٧٨]، فمكثوا كذلك ثلاثة أيام، ثم هلكوا، ولم يتوالدوا، ولم يأكلوا، ولم يشربوا، وكذلك يكون كلّ ممسوخ به.[١٧٧٥]

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾

﴿**وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ يحتمل أنه قال له ذلك وهو: في الأرض بين أظهرهم؛ ليكون ذلك حجَّةً لمن اتَّبعه على مَن زاغ من طريقته؛ لأنه تبرَّأ أن يكون قال لهم ذلك.

ويحتمل أنه قال له ذلك حين رفعه إلى السماء، وقرّر عنده أنَّ قومَه يقولون ذلك.

[١٧٧٤] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣/ ٦١٤.

[١٧٧٥] **التيسير في التفسير**، ٥/٥٣٤-٥٣٥.

ويحتمل أنه يقول له ذلك يوم القيامة، ويكون ﴿**قَالَ**﴾ بمعنى: «يقول»، على طريقة قوله: ﴿**وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ**﴾ [الأعراف ٧/٤٤].

وأكثرهم على هذا؛ لأن ما قبله، وهو قوله: ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ**﴾، وما بعده وهو قوله: ﴿**هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ**﴾، في يوم القيامة.[١٧٧٦]

وهو عطف على قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة ٥/١١٠]، وقد مرَّ أن المراد به[١٧٧٧] توبيخ الكفرة بتقدير ما أنعم عليهم[١٧٧٨]به على الرسل من الآيات الدّالة على صدقهم في دعوى الرّسالة، فيكون هذا توبيخًا أيضًا بوجه آخر.

ولَمَّا لم يكن المقصود إنكار نفس القول، بل قصد توبيخ من قال به، و﴿**لي**﴾[١٧٧٩] حرف الاستفهام المبتدأ ولم يقل: أقلت كذا؛ لأنه يفيد إنكار نفس القول، و﴿**مِنْ دُونِ**﴾ صفة ﴿**إِلَٰهَيْنِ**﴾، أو صلة ﴿**اتَّخِذُونِي**﴾ ومعنى: ﴿**دُونِ**﴾ إما المغايرة فيكون فيه تنبيهٌ: على أن عبادة الله مع عبادة غيره، كلا عبادةَ فمن عبده مع [**٩٣**/ظ] عبادتهما، فكأنه عبدهما ولم يعبده.[١٧٨٠]

وبه حصل الجواب عما يقال: من أن النصارى كيف يصحّ أن يوبخوا باتخاذهم عيسى وأمّه إلهين متجاوزين عن ألوهية الله على أن يكون ﴿**مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ حالًا من فاعل ﴿**اتَّخَذُوا**﴾ مع أن أحدًا منهم لم يذهب إلى القول بألوهية عيسى، ومريم مع القول بنفي إلهية الله، وذلك لأنهم وإن لم يصرِّحوا بنفي ألوهيته تع صريحًا إلّا أنّه لزمهم ذلك حين عبدوا غير الله، فإنّ عبادة الله لا يعتد بها ممن عبد غيره، ومن عبد غيره فكأنه نفى معبوديته تع[١٧٨١] واستحقاقه للعبودة، وأمّا القصور فإن دون ذلك وإن كان بمعنى أقرب منه، لكنه قد يكون نقيض «فوق»، ويكون بمعنى: «الحقير[١٧٨٢] الخسيس»، فيكون ﴿**مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ حالًا من مفعول ﴿**اتَّخَذَ**﴾، أي: حال كوننا ممن هو أدنى حالًا، وأنقص من الله فهم لم يعتقدوا أنهما مستقلان باستحقاق العبادة، وإنما زعموا أن عبادتهما توصل إلى عبادة الله كما قال عَبَدَة الأصنام: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾ [الزمر ٣٩/٣].

وإنَّما خاطب به عيسى؛ لأنه أدخل في توبيخ الكفرة وألزم للحجة عليهم، ولأنهم في غاية البغض عند الله تعالى؛ لغاية فحش ما تكلَّموا به قال: ﴿**كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ**﴾ [الكهف ١٨/٥]، وقال: ﴿**تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ**

[١٧٧٦] **تأويلات القرآن**، ٤/٣٧٦-٣٧٧؛ **التيسير في التفسير**، ٥/٥٣٨-٥٣٩.

[١٧٧٧] ج – به.

[١٧٧٨] ج + عليهم.

[١٧٧٩] وحاصل المذكور ههنا: أن الهمزة، إما للتقرير بمعنى: حمل المخاطب على الإقرار على ما يعرفه لا بأنه قال ذلك، وإما للإنكار، ولما لم يكن إنكار نفس القول، بل لتوبيخ من قال به و«لي» حرف الاستفهام المبتدأ لما ذكر. وقال السمرقندي: التقديم ليعم به حكم الإنكار، لا للتخصيص بأن يعتبر في الأصل مؤخرًا على أنه فاعلٌ معنويٌ قدِّم للاختصاص، بناء على أن ليس القصد إلى التخصيص وإرادة أن القول بالتخاذ الاثنين ينكر من عيسى لا من غيره. منه. انظر: **بحر العلوم** للسمرقندي، ٥٤ظ. أسعد أفند ٦٧.

وأنت خبير بأن ذلك على حمل الإنكار على معنى: أنه لاينفي أن يكون، وأمَّا على معنى أنه لم يكن، فالظاهر الحمل على التخصيص وبه يحصل كما أن التوبيخ للكفرة، وعلى ما ذكره التوبيخ غير واضح لما لا يخفى، وأن قوله قبل قوله هذا الحجوراة المعنى على نفي القول من عيسى قطعًا لا على ثبوت القول وإنكار أن يكون القائل بذلك عيسى فليس لزوجه صحة لما لا يخفى. منه. انظر: **بحر العلوم** للسمرقندي، ٥٤و. أسعد أفند ٦٧.

[١٧٨٠] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٧٤.

[١٧٨١] ج– تع.

[١٧٨٢] ج– الحقر.

﴿وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم ٩٠/١٩]،وهذا كقوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴿ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير ٨١/٨-٩]، ولأن عيسى أصدقُ الناس كلِّهم عند النصارى، فألزمهم كذِبَهم بقوله.

قال عطاء: فأرعدَ عيسى حتى سقط إلى الأرض، وهو يقول: سبحانك.

وروي: أنه تتخلَّع مفاصله، وتَسقطُ من كل شعرةٍ منه قطرة دمٍ.

وهذا حال من يخاطب المعصوم عن الذنوب. والمقصود من الخطاب توبيخ الكفرة، وكيف حالُ من يخاطَب وهو غريقٌ في الذنوب؟[1783]

والمقصود من الخطاب توبيخهُ وتقريعه دون توبيخ غيره وتقريعه، فكيف يكون الحال؟ إذا قال الله: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشَّيْطَانَ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس ٣٦/٦٠-٦١].

﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾(١١٦)

أي: أنزِّهُك تنزيهًا من أن يكون لك شريك،[1784] ففيه إشارة إلى أنّ اتخاذهما إلهين تشريك لهما معك في الألوهية لا إفراد لهما بذلك؛ إذ لا شبهة في ألوهيَّتك، وأنت منزَّه عن الشّركة فضلًا عن أن يتخذ إلهان، دونك على ما يشعر به ظاهر عبارة القرآن كما مرَّ، ويجوز أن يكون إشارة إلى أن ﴿**مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ في موقع الصفة، والمعنى: إلهين سوى الله فيكون المجموع ثلاثة، وهذا إثبات للشَّريك فنزَّهه عن ذلك، وأمَّا على حمل ﴿**دُونِ**﴾ على المغايرة، فيقال: أنزهك تنزيهًا من أن يترك عبادتك، ويعبد غيرك، ما ينبغي لي ﴿**أَنْ أَقُولَ**﴾ قولًا لا يحقُّ لي أن أقوله، فاللائح أن ﴿**لِي**﴾ يتعلَّق بـ﴿**حَقٍّ**﴾، وتقديم صلة المجرور على الجارّ ممتنعٌ، فلا بدّ من تقدير متعلِّق يفسِّره الظاهر.[1785]

﴿**فِي نَفْسِي**﴾: في قلبي، والمعنى: تعلم معلومي ولا أعلم معلومَك، ولكنه سلك بالكلام طريق المشاكلة، وهو من فصيح الكلام، وبيّنه، فقيل: ﴿**فِي نَفْسِكَ**﴾ لقوله: ﴿**فِي نَفْسِي**﴾.[1786]

وقد عرفت أن المشاكلة: ذكرُ الشيء بلفظ غيره؛ لوقوعه في صحبته، فقيل: المعنى: ولا أعلم ما في ذاتك، فعبّر عن الذّات بالنفس؛ لقوله: ﴿**تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي**﴾، وظاهر قوله: «فقيل: ﴿**فِي نَفْسِكَ**﴾ لقوله: ﴿**فِي نَفْسِي**﴾» يشعر بهذ.

وأنت خبير بأنَّ «لا أعلم ما في ذاتك وحقيقتك»، ليس بكلام مرضيّ، بل المراد أنه عبّر عن «لا أعلم معلومك» بـ«لا أعلم ما في نفسك» لوقوع التَّعبير عن: تعلم معلومي بـ«تعلم ما في نفسي».[1787]

وقيل: عبّر عما لحقه الله من معلوماته بقوله: ﴿**مَا فِي نَفْسِكَ**﴾ لوقوعه في صحبة قوله: ﴿**تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي**﴾، فإن معلومات الإنسان مختصَّة في نفسه بمعنى كون صورها مرتسمة فيها بخلاف معلومات الله، فإن علمه تع حضوري لا تنتطبع

[1783] **التيسير في التفسير**، ٥/٥٣٨-٥٣٩.

[1784] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٧٤.

[1785] **حاشيه الشهاب**، ٣/ ٣٠٢.

[1786] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٧٩.

[1787] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٥و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣/٣٥٧.

صورة شيء منها في ذاته فلا يصحّ أن يحمل[١٧٨٨] قوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ على المعنى المتبادر منه، وبه ظهر ضعف ما قيل: «من أن المراد بالنفس الذات».

وقال الزجاج: النفس في كلامهم لمعنيين: أحدهما: قولهم: خرجت نفس فلان، وفي نفس فلانٍ أن يفعل كذا، وثانيهما: جملة الشيء وحقيقته، تقول: قتل فلان نفسَه، أي: حقيقته وذاته، وليس معناه أن القتل وقع ببعضه، فمعنى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ ما أُضمره ولا أَعلم ما في حقيقتك وما عندك علمه.[١٧٨٩]

فقيل: لابدّ من الإقرار بالمشاكلة؛ لأن «ما في النفس» –أن أريد المضمرات– فلا مطابقة من جانب الله، فيجب القول بالمشاكلة، وإن أريد ما في الحقيقة والذات فالمشاكلة من حيث إدخال في الظرفية على أن لا بدّ من القول به في جانب العبد؛ لأن المراد ما في الضمير. وقال الراغب: ويجوز أيضًا أن يكون القصد إلى نفي النفس، فكأنه قال: تعلم ما في [**٩٤**/و] نفسي ولا نفسَ لك فأعلمَ ما فيها، كقول الشاعر:

ولا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ

أي: لا ضبَّ ولا جُحْرَ بها.

وقوله: «﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾: تقرير للجملتين»[١٧٩٠] باعتبار منطوقه ومفهومه؛ إذ هو تقرير للجملة الأولى: باعتبار منطوقه؛ لأن ما اشتملت عليه النفوس من جملة الغيوب التي لا يطلع عليها من يطلع الظواهر، فيعلمه علّام الغيوب.

وتقرير للثانية: باعتبار مفهومه، فإنه لإفادته الحصر يدلُّ على نفي[١٧٩١] علم الغيب عمن سواه، فيفيد أنه لا يعلم معلومه؛ لأن معلومه غيبٌ، وغيره لا يعلم الغيب ودلَّ تصدير الجملة بإنَّ، وتوسيط الفصل، وبناء المبالغة، والجمع المحلَّى باللّام، أن شيئًا من الغيب لا يعزب عن علمه البتَّةَ.[١٧٩٢]

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)﴾

﴿**مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ**﴾تصريح بنفي المستفهم عنه[١٧٩٣] بعد تقديم ما يدلُّ عليه، و﴿**أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ**﴾ عطف بيان للضمير في ﴿**بِهِ**﴾ أو بدل منه. ولا ورد أن يقال: كيف يجوز ذلك ومن لوازم البدل جواز إقامته مقام المبدل؟ وهي لا تجوز ههنا؛ لأنك لو قلت: إلا ما أمرتني بأن اعبدوا الله لزم خلوّ الصِّلة عن العائد إلى الموصول.

أجيب بأن شرط البدل كونه مقصودًا بالنسبة لا جواز طرح المتبوع مطلقًا ليلزم منه طرح الموصول بلا عائد، أو خبر مضمر، أو مفعوله مثل: «هو»، أو: «أعني». ولا يجوز إبداله من﴿**مَا أَمَرْتَنِي بِهِ**﴾؛ لأن البدل هو الذي يقوم مقام المبدل منه، ولا يقال: ما قلت لهم إلا أن اعبدوا الله بمعنى: ما قلت لهم إلا عبادته؛ لأن العبادة لا يقال؛ لأن المقول لا يكون إلا جملة. ويمكن أن يقال: مبناه ما قلت لهم إلا عبادته بالنصب، أي: الزموا عبادته وهذا هو المراد من ﴿**مَا أَمَرْتَنِي بِهِ**﴾، وتكون الجملة

[١٧٨٨] ج: بحمل.

[١٧٨٩] **معاني القرآن** للزجاج، ٢/٢٢٢-٢٢٣.

[١٧٩٠] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٧٩.

[١٧٩١] ج+ الحصر.

[١٧٩٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٤١-٥٤٢.

[١٧٩٣] ج- عنه.

وهي: الزموا عبادته: بدلًا من ﴿مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾، من حيثُ إنها في حكم المفرد؛ لأنها مقولة و﴿مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ مفردٌ لفظًا وجملةٌ معنًى.[١٧٩٤]

«ولا أن تكون «أنْ» مفسِّرة»؛ لأنها لو كانت مفسِّرةً لكان المفسَّر بها، إما فعل القول، أو فعل الأمر، وكلاهما لا وجه له، أمّا عدم كونها مفسّرة لفعل الأمر وهو قوله: ﴿أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ فلا تك لو فسّرته «باعبد والله ربي وربكم» لزم أن تكون هذه الجملة مقولةً لله؛ لأن ما كان مفسّرًا لأمر الله يجب أن يكون مقولًا له والله لا يقول: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، وقد يدفع بأنه لِمَ لا يجوز أنه ع م نَقَل معنى كلام الله بهذه العبارة، كأنه قيل: ما قلت لهم شيئًا سوى قولك لي: قل لهم: أن اعبدوا الله كما سبق في قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران ١٢/٣] على قراءة الياء التحتاني.[١٧٩٥]

وأمّا عدم كونها مفسّرة لفعل القول؛ فلأن فعل القول يُحكى بعده الكلامُ من غير أن يتوسَّط بينهما حرف التَّفسير، لا تقول: ما قلت لهم إلا: أن اعبدوا الله، ولكن: ما قلت لهم إلا: اعبدوا الله،[١٧٩٦] وقد يقال: قوله لا يقول: مسلَّم، وكذا المدّعي وهو أنَّ «أَنْ» المفسّرة لا يقع تفسير الصّريح القول يحكم النقل، وعدم ورود الاستعمال، لكن لو فرض وقوع ذلك فلائم أنَّه يستلزم كون المقول هو: أَنِ اعبدوا الله بل: اعبدوا الله؛ لأنَّ «أَنْ» إنما تفيد التفسير فقط، والمفسّر هو: اعبدوا الله.[١٧٩٧]

والتقصي عن أصل الإشكال أن يحمل فعل القول على معناه؛ لأن معنى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾: ما أمرتهم إلا بما أمرتني به حتى يستقيم تفسيره بـ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.[١٧٩٨]

وعن المصنف: كأَنَّ الأصل: «ما أمرتهم إلا ما أمرتني به»،[١٧٩٩] فوَضَع القول موضعَ الأمر نزولًا على قضيَّة الأدب الحسن لئلا يجعل نفسه وربَّه معًا آمِرَيْن، ودلَّ على الأصل بإقحام ﴿أَنْ﴾ المفسِّرة.[١٨٠٠] ولابتناء جعل القول في معنى الأمر على هذه القرينة، والنُّكتة لم يكن لك أن تجعل كلَّ قول في معنى فعل فيه معنى القول، فتجعل «أَنْ» مفسّرة له، لكن في جعل «أَنْ» مفسّرة لفعل الأمر المذكور صلته، مثل: أمرته بهذا «أَنْ قُمْ» نظر، أمَّا في طريق القياس، فلأنَّ أحدهما مغنٍ عن الآخر، وأمَّا في الاستعمال فلأنه لا يوجد.[١٨٠١]

وقد أخبر الله ذلك القول عن المسيح بقوله: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة، ٧٧/٥] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾[الزخرف، ٦٤/٤٣]

وعنه ع م: «حَقُّ اللهِ عَلَى عَبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ، إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَنْ يُدْخِلَهُمْ الْجَنَّةَ»[١٨٠٢]

[١٧٩٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٤٤/٥.

[١٧٩٥] **التيسير** للداني ص ٣٠٨؛ **النشر** لابن الجزري ١٧٩/٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٤٤/٥.

[١٧٩٦] **الكشاف** للزمخشري، ٦٧٩/١.

[١٧٩٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٥ ٣٢و.

[١٧٩٨] **الكشاف** للزمخشري، ٦٧٩/١.

[١٧٩٩] **الكشاف** للزمخشري، ٦٧٩/١.

[١٨٠٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٤١-٥٤٢.

[١٨٠١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٥٢٥ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣٥٩/٣.

[١٨٠٢] **صحيح البخاري**، ٢٩/٤ (٢٨٥٦)، **صحيح مسلم**، ٥٨/١ (٣٠)، **سنن ابن ماجه**، ٣٥٣/٥ (٤٢٩٥).

﴿**وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)**﴾

رقيبًاكالشاهد على المشهود عليه، أمنعُهم من أن يقولوا ذلك ويتديَّنوا به ويعتقدوه، أو مشاهدًا لأحوالهم من كفر وإيمان. ﴿**فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي**﴾ بالرفع إلى السماء كقوله: ﴿**إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ**﴾ [آل عمران ٣/٥٥]، والتوفي: أخذ الشيء وافيًا، والموت نوع منه. قال الله تع: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا**﴾ [الزمر ٣٩/٤٢]، ﴿**كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ**﴾، المراقب لأحوالهم فتمنع من أردتَ عصمتَه من القول به بالإرشاد إلى الدلائل والتنبيه عليها بإرسال الرسل [**٩٤**/ظ] وإنزال الآيات، ﴿**وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ مطّلع عليه مراقب له.[١٨٠٣]

فإن قلت: إذا كان «الرشيد» بمعنى «الرقيب» لِمَ عدل عنه إلى «الرقيب» في قوله: ﴿**كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ**﴾ مع أنه ذيَّل الكلام بقوله: ﴿**وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾؟ قلت: خولف بين العبارتين ليُميِّز بين الشهيدين والرقيبين، فكونه عليه السلام رقيبًا ليس كالرقيب الذي يَمنع ويُلزم، بل هو كالشاهد على المشهود عليه ومنْعِه بمجرَّد القول، وأنه تع هو الذي يمنع مَنْعَ الإلزام بنصب الأدلَّة، وإنزال البيّنات وإرسال الرُّسل. فإن قلت: قوله: ﴿**فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ**﴾ بعد قوله: ﴿**وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ**﴾، أليس من قبيل قول المصنف قبل هذا في تفسير قوله تع: ﴿**قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**﴾ [المائدة ٥/١٠٩]: «لا علم لنا بما كان منهم بعدنا وأنّ الحكم للخاتمة»، فكيف ردَّه هناك بقوله: «وكيف يخفى عليه أمرهم، وقد رأوهم سود الوجوه»، كما سبق بيانه؟ قلت: ليس منه؛ لأن عيسى ع م في صدد التنصُّل والتبرّي عمَّاُ نسب إليه من الكلمة الشنعاء وإثباتها فيهم، يدلُّ عليه قوله: ﴿**إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ**﴾ أي: «الذين عرفتهم عاصين وجاحدين لآياتك ومكذِّبين لأنبيائك»، كما قال: وأين هذا من ذاك؟ [١٨٠٤]

وعن بعض العارفين: كيف نخفي عليك ما خلقتَ ظاهرةَ وباطنَه، وأنت قديمٌ مقيم[١٨٠٥] محيطٌ بكلِّ ذرةٍ من العرش إلى الثرى، فالعجز عن ذلك صفة مَنْ يتلاشى فيك، كما أنا حين توفيتني عني إليك.

وقيل في قوله: ﴿**فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ**﴾ أي: لَمَّا أسقطت عني ثقل الإبلاغ، كنت مراقبًا لهم ما أجريت عليهم من مختوم قضائك.

قال أبو بكر الفارسي في هذه الآية: الموحِّد ذاهبٌ عن حاله ووصفه وعمَّا له وعليه، وإنما هو ناظرٌ بما يرد ويصدر[١٨٠٦] ليس بينه وبين الحق حجابٌ، إن نطق فعنه وإن سكت فيه، حيث ما نظر كان الحق منظوره، وإن أدخله النار لم يلتمس فرجًا؛ لأن رؤية الحق وطنه ونجاته، وهلكه من عين واحدةٍ، لم يبق حجاب إلا طمسه برؤية التفريد، وكان المخاطِب والمخاطَب واحدًا، وإنما كان يخاطب الحق نفسه بنفسه لنفسه، قد تاهت العقولُ ودرست الرسوم وبطل ما كانوا يعملون.[١٨٠٧]

[١٨٠٣] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٤٧٤.

[١٨٠٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/ ٥٤٥-٥٤٦.

[١٨٠٥] ج – مقيم.

[١٨٠٦] ج + عليه.

[١٨٠٧] **حقائق التفسير** للسلمي، ١/١٨٩؛ **عرائس البيان** للبقلي، ١/٣٤٠-٣٤١.

والشهيد يرجع معناه إلى العليم مع خصوص إضافة، فإنه تع عالم الغيب والشهادة، والغيب عبارة عمّا بطن، والشهدة عبارة عمّا ظهر وهو الذي شاهده، فإذا اعتبر العلم مطلقًا فهو العليم، وإذا أضيف إلى الغيب والأمور الباطنة فهو الخبير، وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيد. وقد يفسر مع هذا أن يشهد على الخلق يوم القيامة بما علم وشاهد منهم.[١٨٠٨]

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾

إن تعذّبهم فإنك تعذب عبادك، ففي هذا التفسير دفعُ سؤالٍ، وذكرُ وجه وإشارة استحقاق، أمَّا السؤال: فهو: أن جواب الشرط ما يقع بوقوع الشّرط، وقد عُلم أنهم عبادُه سواءٌ عذَّبهم أو لم يعذِّبهم، والدَّفع: أن الجواب ليس كونهم عباده، بل وجود وجه التعذيب؛ إذ لا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل في ملكه، وبه ظهر[١٨٠٩] ذكر الوجه، وأمَّا إشارة الاستحقاق: فلأنهم عبادُه وقد عبدوا غيره فاستحقّوا العذاب.

فإن قيل: إذا عبدوا غيره فهم لم يعبدوه فكيف يكونون عباده؟

قلنا: هم عباده تع سواءٌ عبدوه أو لم يعبدوه على أن كلَّهم يعبدونه تسخيرًا وقهرًا، وإن لم يعبدوه طوعًا، وهم إذا عبدوا غيره على أنه المنعِم عليهم فهم يعبدون الله؛ لأنه المنعم وعلى هذا: **﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾**[مريم ١٩/٩٣].

فإن قيل: لو كانوا يعبدون الله بفعلهم لَما ذُمُّوا؟

قلنا: إنما يذمُّون بقصدهم فيما يفعلون؛ لأنهم يقصدون عبادة غير الله والإنسان مُثاب معاقب بنيّته؛ ولهذا قال ع م: «الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ».[١٨١٠]

ولَمَّا ورد أن يقال: كلمة **﴿إِنْ﴾** إنما تستعمل فيما كان كلّ واحد من جانبي وجوده وعدمه جائزًا تحتمل الوقوع ومغفرة الشرك قطعية الانتفاء بحسب الوجود، وتعذيبه قطعيّ الوجود، فكيف جاز الترديد واستعمال **﴿إِنْ﴾** في كلّ واحد من تعذيب المشرك وغفرانه؟

أجاب عنه العلامتان بما حاصله: أن كون غفران المشرك قطعي الانتفاء بحسب الوجود لاينافي كونه جائزًا لوجود بحسب العقل؛ فإن المغفرة لكونه مقتضى الكرم أمرٌ حسنٌ في حقِ كلِّ مجرمٍ، بل متى كان المجرم أعظمَ جُرمًا كان العفو منه أحسنَ؛ لأنه أدخلُ في الكرم، وهذا لا ينافي كونَ العقوبة أحسنَ في حكم الشرع من جهات أخر، فعدم وقوع العفو بحكم النصّ والإجماع.[١٨١١]

وقال الإمام: غفران الشرك جائزٌ عندنا، وعند جمهور البصريين من المعتزلة، قالوا: لأن العقاب حقُّ الله على المذنب، وفي إسقاطه منفعة للمذنب، وليس فيه مَضرَّة على الله، وجب أن يكون حسنًا. ففي الجملة ما ذكره صاحب[**٩٥**/و]

[١٨٠٨] **المقصد الأسنى** للغزالي، ١/١٢٦.

[١٨٠٩] ج- ظهر.

[١٨١٠] **صحيح البخاري**، ١/٦ (١).

[١٨١١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٥ ٣٢ظ.

الانتصاف: إنه لم يوافق السُنة؛ فإنهم يجوزون العفو عن الكافر عقلًا، لكن السَّمع يأبى منه، ولا المعتزلة؛ إذ معتَقَدهم امتناعها على الله عقلًا لمناقضتها الحكمة. ليس على ما ينبغي.[١٨١٢]

وقيل: إن قوله: ﴿**أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ**﴾ عامٌّ، وقوله: ﴿**مَا قُلْتُ لَهُمْ**﴾ كذلك، ثم منهم: من ثبت على معانيه الشنيعة، ومنهم: من أسلم ورجع عن ذلك، وحصر الفريقان جميعًا يوم القيامة، فيكون قوله: ﴿**إِنْ تُعَذِّبْهُمْ**﴾ إشارةٌ إلى الكفَّار منهم، ﴿**وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ**﴾ إشارة إلى المؤمنين منهم.

وإنْ حمل الآيات على ما وقع في الدنيا يكون المعنى: أن تمتهم على الكفر وتعذيبهم بالنار؛ فلك الحكم في ملكك وإنْ تهدِهم وتغفر لهم بذلك؛ فإنك أنت المنيع في سلطانك، أو إنْ تعذِّبهم في الحال فإنّهم عبادك، وإن تُؤخِّر العذاب إلى الآخرة فإنك أنت العزيز الحكيم المنتقم منهم في الآخرة، وتأخير العذاب سمّي مغفرةً قال تع: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ**﴾ [الرعد١٣/٦].

وأمَّا على الأوّل فقوله: ﴿**فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ أي: مع مغفرتك أنت العزيز الحكيم. والعزيز: في صفة الخلق المنتقم وظهور العز في الانتقام، فتقول ههنا: عزُّك ظاهر وسلطانُك قاهرٌ، وبرهانك باهرٌ مع عفوك عن عبادك، ومغفرتك ذنوب خلقك، وعفوُ ملوكِ الدنيا قد تكون لعجزٍ وضعفٍ، وعفوُك لا يكون إلا لفضلك وإحسانك، وكمالِ قدرتك وسلطانك، وأنت حكيمٌ في كلِّ أمورك.

﴿**قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ **(١١٩)**

وقرأ نافع: ﴿**يَوْمَ**﴾[١٨١٣] بالنصب على أنه ظرفٌ لـ﴿**قَالَ**﴾، أي: قال الله هذا القول في يومِ ينفع، والقول هو: ﴿**يَا عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ**﴾، وجاء على لفظ الماضي على نحو: ﴿**وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ**﴾ [الأعراف ٧/٤٤]،[١٨١٤] أو على أنَّ ﴿**هَذَا**﴾ مبتدأ، والظَّرف خبر، ومعناه: هذا الذي ذكرنا من كلام عيسى واقعٌ ﴿**يَوْمَ يَنْفَعُ**﴾. ولا يجوز أن يكون فتحًا كقوله تع: ﴿**يَوْمَ لَا تَمْلِكُ**﴾ [الانفطار ٨٢/٩]؛ لأنه مضاف إلى متمكِّنٍ،[١٨١٥] أي: الفعل المضارع والبناء إنما يجوز إذا أضيف إلى الماضي مثل:

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ المشِيبَ[١٨١٦]

أو إلى المضارع المنفي مثل: ﴿**يَوْمَ لَا تَمْلِكُ**﴾؛ فإنه مضاف إلى ﴿**لَا**﴾ مع الفعل ولا غير متمكِّن، ولعدم تمكُّنها يصير المجموع غيرَ متمكّن، وإن كان الواقع بعد ﴿لا﴾ متمكّنًا مرفوعًا.[١٨١٧]

وقرأ الباقون[١٨١٨] بالرفع على الابتداء أي: يقول الله: إن هذا اليومَ يومُ ينفع الصادقين فيه صدقهم في الدنيا.

[١٨١٢] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٢/١٤٥؛ **الانتصاف** لابن المنير، ١٣٢ظ؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/ ٥٤٥-٥٤٦؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٥ظ؛ **حاشيه الشهاب**، ٣/ ٣٠٢.

[١٨١٣] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/ ٥٤٨-٥٤٩.

[١٨١٤] **النشر** لابن الجزري، ٢/١٩٢.

[١٨١٥] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٧٩.

[١٨١٦] **ديوان النابغة**، ص ٧٩؛ **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٢/١٤٦؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٥/٥٤٩.

[١٨١٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٥ ٣٢ظ.

وقرئ: «يومٌ ينفعُ»[١٨١٩] بالتنوين، كقوله: ﴿واتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي﴾ [البقرة ٢/٤٨].[١٨٢٠]

ولَمَّا ورد أن يقال: إن أريد صدقهم في الآخرة، فليست الآخرة بدار عملٍ، أي: عمل يجازى وينفع، أو لا ينفع، وإن أُريد صدقهم في الدنيا فليس بمطابقٍ لِما ورد فيه؛ لأنه في معنى الشهادة لعيسى بالصِّدق فيما يُجيب به يوم القيامة،[١٨٢١] أي: ورد قوله: ﴿يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ في معنى الشهادة بصدق عيسى في قوله يوم القيامة: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي﴾ إلى آخر كلامه جوابًا عن قوله: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فالإخبار بأن صدق الصادقين في الدنيا ينفعهم في الآخرة لا يلائم ذلك.

أجاب المصنف بما حاصله: أنَّ المراد الصّدق المستمرّ بالصادقين في دنياهم إلى آخرتهم، كما كان لعيسى ع م، فالنفع، والمجازاة تكون باعتبار تحقُّقه في الدنيا، والمطابقة لما نحن فيه، والملائمة باعتبار تقرُّره، ووقوع بعض جزئياته في الآخرة، والمستمرُّ هو الأمر الكلِّي الذي هو الاتِّصاف بالصِّدق، ولا يلزم من هذا أن يكون الصّدق الأخرويّ مدخل في الجزاء؛ ليعود المحذور، ولا يحتاج تمام المقصود إلى أن يعتبر الصّدق الأخروي شرطًا في نفع الصِّدق الدنيويّ، والمجازاة عليه.[١٨٢٢]

وعن قتادة: متكلِّمان تكلَّما يوم القيامة، إلى إبليس فقال: إن الله وعدكم وعد الحقّ، فصدق يومئذ وكان قبل ذلك كاذبًا، فلم ينفعه صدقُه، وأمّا عيسى فكان صادقًا في الحياة وبعد الممات، فنفعه صدقُه.[١٨٢٣]

وقال مقاتل: الصادقون: النبيُّون ينفعهم صدقهم، وكان عيسى صادقًا في الدنيا، فيما قال، فنيفعه ذلك، وكذلك ينفع النبيّين فيما شَهِدوا به على أممهم يومئذ[١٨٢٤].

وقال الكلبي: أي: ينفع المؤمنين إيمانُهم، والصادقون من أسماء المؤمنين، قال تع: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات، ٤٩/١٥]، وقال تع: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد ٥٧/١٩].

وقيل: الصادقون: الموفُّون بالعقود التي أمر الله بها في أوّل السورة.[١٨٢٥]

﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بالسعي المشكور ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بالخبر المدحور.

وقيل: أي: بتوفيقه إياهم على السَّعي المشكور ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فإنه في الآخرة، وهو باقٍ، والفوز في الدنيا غير باقٍ.

[١٨١٨] **كتاب السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٥٠ ؛ **التيسير** للداني، ص ٣٣٨؛ **النشر في القراءات العشر** لابن الجزري، ٢/١٩٢.

[١٨١٩] قراءة شاذّة، مروية عن أبي واقد والجراح. **شواذ القراءات** للكرماني، ١/١٦٣.

[١٨٢٠] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٨٢.

[١٨٢١] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٨٢.

[١٨٢٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٥ظ- ٣٢٦و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣/٣٦١.

[١٨٢٣] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٨٢.

[١٨٢٤] ج- يومئذ.

[١٨٢٥] **التيسير في التفسير** للنسفي، ٥/٥٤٣.

ولَمَّا مهَّد عيسى عليه السلام عذره بتلك العبارات الفائقة البالغة في التَّبري عما يُنْسب إليه ونزَّه الله التنزيه البليغ، قابله الله تع بالشهادة له بالصدق بما هو أبلغ مما أتى به في التنصُّل حيث عمَّ المكلفين كلَّهم وعمَّ أوقاتهم المختصَّة بالصِّدق كلِّها ليدخل عليه السلام [**٩٥**/ظ] في ذلك دخولًا أوَّليًا.[١٨٢٦]

وذكر ما أعدَّ للصادقين من الجنات، والأنهار، والخلود فيها أبد الآبدين، والرضا الكامل من الطرفين، والفوز الذي لا فوز الذي لا فوزَ فوقه.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٢٠)

لَمّا ورد أن يقال: في السَّماوات وَالأَرْض العقلاء وغيرهم، فهلّا غلّب العقلاء، فقيل: ومن فيهنّ؟[١٨٢٧] أجاب عنه المصنّف بأن: «ما يتناول الأجناس كلَّها تناولًا عامًّا. ألا تراك تقول إذا رأيت شبحًا من بعيد: ما هو؟ قبل أن تعرف أعاقل هو أم غيره، فكان أولى بإرادة العموم.[١٨٢٨]

فإن قيل: ما وجه السؤال والتغليب خلاف الظاهر والعموم مستفاد بدونه؟

قلنا: كان السائل توهَّم أنّ ما يختصّ بغير العقلاء فلا يعمّ الكلّ، أو أنّه غلّب غير العقلاء يعمّ لذلك. والجواب: أن ما لا يختصُّ بغير ذوي العقول، بل يتناول الأسباب كلَّها من العقلاء وغيرهم، فكان أولى بالعموم المناسب لمقام العظمة والكبرياء، وكون الكلّ في ملكوته وتحت قدرته، لا يصلح شيءٌ منها للألوهيَّة، سواء منه عيسى وأمِّه وغيرهما.

فلا حاجة في اعتبار العموم إلى اعتبار التغليب، وفي قوله: «**ما هو**» إشارة إلى أنه لا فرق في كون «ما» للعموم بين الموصولة وبين الاستفهاميَّة، وفي قوله: «**قبل أن تعرف**» إشارة إلى أنه إذا عرف فرق بـ«ما» و«من».[١٨٢٩]

وقال قدس سره: وإنما لم يقل: «ومَنْ فيهن» تغليبًا للعقلاء، وقال: **﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾** اتِّباعًا لهم غير أولي العقل إعلامًا بأنهم في غاية القصور عن معنى الربوبية، والنزولِ عن رتبة العبوديَّة، وإهانةً لهم وتنبيهًا على المجانسة المنافية للألوهية.[١٨٣٠]

فقوله: «**وتنبيهًا على المجانسة**» عطف تفسيريّ لقوله: «وإهانة لهم»، أي: بالعقلاء. فإن من أهين باتِّباعه غير أولي العقل نظرًا إلى ما بينه وبين غير أولي العقل من المجانسة، كيف يعقل كونه شريكًا له تع في الألوهيَّة، لكن لا يخفى عليك أن الاتِّباع الذي ذكره إنَّما يتَّضح على تقدير عموم ما يفسر العقلاء وتغليب غير العقلاء، وقد عرفت أنه ليس كذلك، بل هو يعمُّ العقلاء فلا يتخايل الاتِّباع حينئذ.

وقال القشيري: تَمَدَّحَ الله بقدرته القديمة، الشاملة لجميع المقدورات، الصَّالحة لإيجاد المصنوعات، فهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ من التَّقريب، والإبعاد، والإشقاء والإسعاد، والقبول والرَّدِّ، والإقبال والصَّدِّ.[١٨٣١]

[١٨٢٦] **فتوح الغيب**، ٥/٥٥٠.

[١٨٢٧] ج- العقلاء وغيرهم، فهلّا غلّب العقلاء، فقيل: ومن فيهنّ.

[١٨٢٨] **الكشاف** للزمخشري، ١/٦٨٢.

[١٨٢٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و ٣٢٦و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣/٣٦١-٣٦٢.

[١٨٣٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي،١/٤٧٥-٤٧٦.

[١٨٣١] **لطائف الإشارات**، ١/٢٨٥؛ **التيسير في التفسير**، ٥/٥٤٤.

وفي الصحيحين عن ابن عباس أن النبيَّ ع م: «كان إذا قام من الليل تهجَّد وقال: اللَّهمَّ لَكَ الحمدُ أنتَ قَيِّمُ السَّمواتِ والأرضِ ومن فيهنَّ، ولَكَ الحمدُ أنتَ مُلْكُ السَّمواتِ والأرضِ ومن فيهنَّ، ولَكَ الحمدُ أنتَ نور السَّمواتِ والأرضِ ومن فيهنَّ، وَلَكَ الحمدُ أنتَ الحقُّ، ووعدك الحقُّ، وَلِقائُك حقٌّ، وقَوْلُك حَقٌّ، والجَنَّةُ والنَّارُ حقٌّ، ومحمَّدٌ حقٌّ، والسَّعةُ حقٌّ، اللَّهمَّ لَكَ أسلمتُ، وبِكَ آمنتُ، وعليْكَ توَكَّلتُ، وإليْكَ أنَبتُ، وبِكَ خاصَمتُ، وإليْكَ حاكمتُ، فاغفِر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أعلَنتُ، وما أسررتُ، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر لا إله إلا أنت» زاد بعض الرواة: «ولا حول ولا قوة إلا بالله».[١٨٣٢]

عَنِ النَّبِيِّ عليه السلام: «مَن قَرَأ سُورَةَ المائِدَةِ شَفِعَ له عيسى، وأُعْطِيَ له مثل أجر حواري عيسى، وكُتبت له بكلِّ آيةٍ قرأها مثلُ ثواب عُمَّار بيت المقدس».[١٨٣٣]

تمَّت سورة المائدة، وعمَّت النعمة والفائدة، والحمد لله على نعمة المتزايدة، والصلوة على سيِّد الزمرة الحامدة، ونسأل الله الشروع في سورة الأنعام، إنه وليُّ الفضل والإنعام.

[١٨٣٢] **صحيح البخاري**، ٩/١٤٤ (٧٤٩٩).

[١٨٣٣] **التيسير في التفسير** للنسفي، ٥/٥٤٤.

سورة الأنعام

مكيّة في قول الأكثرين. وقال ابن عباس: «مكيّة كلّها إلا آيتين منها نزلت بالمدينة» قوله: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ**﴾ [الأنعام، ٦/٣٩]، وقوله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ**﴾ [الأنعام ٦/١٤١].

وقال الثعلبي: «مكيّة إلا ستّ آيات نزلت بالمدينة: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ إلى آخر ثلاث آيات و﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ**﴾ [الأنعام، ٦/١٥١] إلى آخر ثلاث آيات».

وقال ابن العربي: إن قوله: ﴿**قُلْ لَا أَجِدُ**﴾ نزل بمكّة يوم عرفة.

وفي الخبر: أنها نزلت جملةً واحدةً غير الست الآيات، وشيّعها سبعون ألف ملك مع آية واحدة منها اثنى عشر ألف ملك وهي وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو نزلوا بها ليلًا لهم زجل بالتسبيح والتحميد فدعا رسول الله الكتاب فكتبوها من ليلتهم.

وقال ابن عباس: «شيعها سبعون ألف ملك، ولهم زجَل، أي: صوت بالتسبيح والتحميد والتمجيد حتى كادت الأرض ترتجّ، فقال صلى الله عليه وسلم: «سبحان ربي العظيم، سبحان ربي العظيم، وخر ساجدًا».

وروي عنه عليه السلام مرفوعًا أنه قال: «مَنْ قَرَأَ سورةَ الأنعامِ يُصَلِّي عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره.[١٨٣٤]

وقال سعيد بن جبير: «لم ينزل من الوحي شيء إلا ومع جبريل أربعة من الملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، وهو قوله: ﴿**فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا**﴾ [الجن ٧٢/٢٧]، إلا الأنعام، فإنّها نزلت معها سبعون ألف ملك».

وقال كعب الأحبار: «فُتحت التوراة بأوّل سورة الأنعام إلى قوله: ﴿**يَعْدِلُونَ**﴾، وخُتمت بآخر سورة بني إسرائيل: ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا**﴾ [الإسراء١٧/ ١١١] إلى آخر السورة».

وقيل: ختمت بآخر سورة هود: ﴿**وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ [٩٦/و] وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ [الهود ١١/١٢٣].

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:«من قرأ ثلاث آيات من أول سورة الأنعام إلى قوله: ﴿**تَكْسِبُونَ**﴾ حين يصبح، وكّل الله به سبعين الف ملك في رواية أربعين ألف ملك يحفظونه، ويكتبون له مثل عبادتهم إلى يوم القيامة، ونزل ملك من السماء السابعة، معه مرزبة من حديد، كلّما أراد الشيطان أن يلقي في قلبه شيئًا من الضرّ ضربه بها وجعل بينه وبين الشيطان سبعين ألف حجاب، فإذا كان يوم القيامة قال الله له: ابن آدم امش تحت ظلّي، وكُلْ من ثمار جنّتي، واشرب من ماء الكوثر، واغتسل من ماء السلسبيل، فأنت عبدي وأنا ربك لا حساب عليك ولا عذاب». رواه الإمام الواحدي في **البسيط**،[١٨٣٥]

[١٨٣٤] **ترتيب الأمالي** للشجري، ١/١٣٠.

[١٨٣٥] **هو التَّفْسِيرُ البَسِيْط** لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت. ٤٦٨هـ)؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣-٤.

وفي البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «إذا سَرَّكَ أنْ تَعْلَمَ جَهْلَ العَرَبِ، فاقْرَأْ ما فَوْقَ الثَّلاثِينَ ومِئَةٍ من سُورَةِ الأنْعامِ: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قَوْلِهِ: ﴿وَما كانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]. [١٨٣٦]

وقد قال العلماء: هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المشركين المبتدعين، ومن كذب بالبعث والنشور وهذا يقتضى إنزالها جملة واحدة؛ لأنها في معنًى واحدٍ[١٨٣٧] من الحجة، وأن يصرف ذلك بوجوه كثيرة وعليها بنى المتكلمون أصول الدين؛ لأنّ فيها آيات بينات ترد على القدرية دون السور التي بذكر والمذكورات، وسترى ذلك إنشاء الله مبينًا لحول الله.

بسم لله الرحمن الرحيم

﴿اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْاَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَۜ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)﴾

﴿اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْاَرْضَ﴾ أخبر بأنه تع حقيقٌ بالحمد باعتبار ذاته المستجمعة لجميع صفات الكمال، وعامّة نُعوت الجلال والجمال،[١٨٣٨]

وذلك جعل الحمد المحلّى باللام الجنس مبتدأ، وأخبر عنه باختصاصه لله واختصاصه به يستلزم اختصاص جميع أفراده به؛ إذ لو ثبت من أفراد الحمد لغيره لزم أن يثبت له حقيقة الحمد في ضمن ذلك الفرد، وشكر الأستاذ على تعليمه، وشكر السلطان على عدله، وشكر المحسن على إحسانه على ما قال ع م: «مَنْ لمْ يَشكُرِ الناسَ، لمْ يَشكُرِ اللهَ»[١٨٣٩] راجع إليه تع؛ لأنه تع لو لم يخلق نفس تلك النعمة ولم يحدث داعية الإحسان في قلب المحسن لَمّا قدر على الإحسان، فإن صدور الإحسان يتوقّف على حصول داعية الإحسان في القلب،[١٨٤٠]وذلك ليس من العبد وإلا لافتقر في حصولها إلى أخرى ولزم التّسلسل، بل حصولها ليس إلا منه تع، فلا محسن إلا هو ولا مستحقّ إلا هو.[١٨٤١]

ونبَّه على أنه مستحقّ له باعتبار أفعاله العظام، وأثاره الجِسام أيضًا حُمد أو لم يحمد؛ ليكون حجةً على الذين هم بربّهم يعدلون.[١٨٤٢]

كيف لا؟! وأنه تعالى هو المنفرد في تربية عباده بخلق هذه النعم أسبابًا؛ لتكونهم وتعيشهم لا يعادله أحد في تربيتهم بخلق شيء منها، فيه، تمّ الاحتجاج على من يزعم المعادلة بينه وبين الأوثان، ولا مدخل في هذا الاحتجاج لمجرّد إسناد الحمد إلى الحامد بأن يقول: أحمد الله مثلًا فبهذا فضل الحمد لله، على أن يقال: أحمد الله مع أنّ إسناد الحمد إلى الحامد يشعر بأنه قضى حقّ حمده، ولا تفي بذلك طاقة أحد؛ لما روي من أنه تع أوحى إلى داود يأمره بالشكر فقال: كيف أشكرك وشكري لك لا يحصل إلا بأن توفقني لشكرك؟ وذلك التوفيق نعمة زائدة وأنها توجب الشكر أيضًا.وذلك يجر إلى ما نهاية له ولا طاقة لي

[١٨٣٦] **صحيح البخاري،** ١٨٤/٤ (٣٥٢٤).

[١٨٣٧] ج- لأنها في معنًى واحدٍ.

[١٨٣٨] **تفسير ابن كمال باشا،** ٢٦٣/٣.

[١٨٣٩] سنن الترمذي ١٩٥٥.

[١٨٤٠] ج- قلب المحسن لما قدر على الإحسان، فإن صدور الإحسان يتوقّف على حصول داعية الإحسان في القلب.

[١٨٤١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده،** ٤/٤.

[١٨٤٢] **تفسير ابن كمال باشا،** ٢٦٣/٣.

بفعل ما لا نهاية له. فأوحى لله إلى داود: لم عرفت عجزك عن شكري فقد شكرتني. فكان الحمد بأن يقال: الحمد لله لدلالته على أنه تع هو المستحق للحمد وإن عجز الحامدون عن قضاء حقّ حمده أتم وأكمل من أن يقال: أحمد لله مثلًا.[١٨٤٣]

وجمع السموات دون الأرض وهي مثلهنّ؛ لأن طبقاتها مختلفة بالذات على ما ورد في الأخبار، ومتفاوتة الآثار والحركات.[١٨٤٤]

وقال ابن الكمال: «وأمّا دلالة آثارها وحركاتها على تعدُّدها فمبناها على أصول فلسفيَّة باطلة».[١٨٤٥]

وأنت خبير: بأن ما ذكر ليس على الاستدلال على التعدّد بتفاوتهما، بل على وجه جمعها لذلك ولو سلّم فالبطلان في حيّز المنع كما في موضعه، وقدّمها لشرفها وعلوّ مكانها وتقدم وجودها على ما يدلّ عليه قوله: ﴿**وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَيهَا**﴾ [النازعات، ٣٠/٧٩] وهو قول قتادة، واختياره قدس سره أيضًا في تفسير قوله: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ**﴾ حيث قال: «و﴿**ثُمَّ**﴾ لعله لتفاوت ما بين الخلقين، وفضل خلق السماء على خلق الأرض لا للتّراخي في الوقت، فإنه يخالف ظاهر قوله: ﴿**وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَيهَا**﴾[النازعات، ٧٩/ ٣٠]، فإنه يدلّ على تأخّر دحو الأرض المتقدّم على خلق ما فيها عن خلق السماء وتسويتها».[١٨٤٦]

وقال ابن الكمال: «وقدمها للأولين لا لتقدّمها وجودًا؛ لأنه على خلاف ما ورد في الأخبار الصحيحة. وعبّر بهما باعتبار أنهما قُطرَا العالم عن جميع الأجسام لطيفها وكثيفها، كما عبّر بالظّلمات والنّور عن جميع الأعراض محسوسها بالبصر وغائبها عنه».[١٨٤٧]

والخلق: يكون بمعنى الاختراع ويكون بمعنى التقدير وكلاهما مراد ههنا وذلك دليل على حدوثهما.

قال ع م [عليه السلام]:«الحَمدُ رأسُ الشُّكرِ، ما شكرَ اللَّهَ عبدٌ لا يحمَدُهُ».[١٨٤٨]

﴿**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾ الفرق بين «الخلق» و«الجعل»: أن «الخلق» فيه معنى التقدير، أي: الإيجاد بقدر وتسوية،[١٨٤٩] وفي «الجعل» معنى التضمين أي: جعل [**٩٦**/ظ] شيء في ضمن شيء بأن يحصل منه، أو يصير إياه، أو ينقل منه أو إليه، وبالجملة فيه اعتبار شيئين وارتباط بينهما،[١٨٥٠] ومن ذلك: ﴿**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ [الأعراف، ١٨٩/٧]، ﴿**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾؛ لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة، والنّور من النار، ﴿**وَجَعَلْنَاكُمْ أَزْوَاجًا**﴾ [النبأ، ٨/٧٨]، ﴿**أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا**﴾ [ص، ٥/٣٨].[١٨٥١]

[١٨٤٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/٤.

[١٨٤٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٨٠/١.

[١٨٤٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٦٣/٣.

[١٨٤٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٨٠/١.

[١٨٤٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٦٣/٣-٢٦٤.

[١٨٤٨] **الآداب** للبيهقي، ص ٢٩٣ (٧١٦)؛ **شرح السنة** للبغوي، ٥٠/٥ (١٢٧١)،

[١٨٤٩] **الكشاف**، ٣/٢؛ **أنوار التنزيل**، ٨٠/١.

[١٨٥٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٦و.

[١٨٥١] **الكشاف**، ٣/٢.

«فمثل الإنشاء شيء من شيء بمثالين، ذكر الشيئين في الأوّل صريحٌ، وفي الثاني ضمني، وقيل: لأنَّ الثاني في معرض المقصود، وكذا مثل للتصير بمثالين: أحدهما بحسب الحقيقة، والثاني بحسب القول؛ لأن إثبات الواحد ونفي ما سواه ليس في الحقيقة من تصير الكثير واحدًا، بل بمنزلته. وقد يقال: إنه مثال للنقل بمعنى نقل الألوهية من الكثير إلى الواحد، أو نقل الحكم من التّعدد إلى الوحدة، وهو تكلّف. وقد صرّح المصنف بأنه في معنى التّصيير، ومثال النقل جعل الإمارة فيه، أو إليه».[١٨٥٢]

واللّائح من هذا التقرير على ما يقتضيه كلام المصنف: «أن يكون التضمين في المتعدي إلى اثنين أيضًا»، ومن كلامه قدس سره: أن يكون في المتعدّي لواحد، ولأجل أن فيه معنَى التضمين عبّر عن إحداث النّور والظلمة بالجعل تنبيهًا على أنهما لا يقومان بأنفسهما كما زعمت الثنويّة؛ لأنه إذا كان النور محدثًا من النار والظلمة من الأجرام المتكاثفة لا يقومان بأنفسهما كما زعموا، حيث قالوا: فاعل الخيرات النّور، وفاعل الشّرور الظّلمة.

وفي **التيسير**:[١٨٥٣]«أنه ردّ على الثنويّة في إضافتهم خلق النور إلى يَزْدان، وخلق الظّلمات إلى أَهْرمن، وعلى ذلك خلقُ كلّ خير وشرّ».[١٨٥٤]

وجمعُ الظلمات على الأصل لمكان الكثرة، فإفراد النّور للقصد إلى الجنس، وقصد في النور إلى لجنس وفي الظلمات إلى الأفراد ليحسن التّقابل مع قوله:﴿**خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ**﴾، وأما في مثل: يخرجهم من الظلمات إلى النور ليخرج الناس من الظلمات إلى النور يخرجونهم من النور إلى الظلمات؛ فلأنّ النّور مجازٌ عن الحقّ والهدى، وهو واحد والظلمات من الضلالات، وأنواع الباطل، وهي كثيرة والحمل عليها في هذه الآية خلاف الظاهر،[١٨٥٥] وقد يقال، بل هو الظاهر؛ لأنّ خلق السموات والأرض يدلّ على نصب الأدلّة على التّوحيد وجعل الظلمات والنور على وضع الشرائع والإرشاد بالإنزال والإرسال، ومع ذلك هؤلاء يعدلون به، أو لأنّ النّور من جنس واحد وهو النّار.

فإن قيل: الأجرام النيرة كثيرة أيضًا كالكواكب، ولو سلم فأفراد النّور كثيرة، فاتِّحاد جنس منشأ النّور لا يقتضي الإفراد إلا إذا أريد الجنس فيصير الوجه الأول.

قلنا: مرجع كلّ نيّر إلى النّار على ما قيل: إن الكواكب أجرامٌ نوريّةٌ ناريَّة، وإن الشُّهب منفصلة من نار الكواكب فيصح، أن النور من جنس النار فقط، فالإفراد للقصد إلى هذا وهو غير القصد إلى الجنس.[١٨٥٦]

ومن زعم أن الظّلمة عرضٌ يضادّ النّور احتجّ بها ولم يعلم أنّ عدم المِلكة –كالعَمى– ليس صرف العدم حتّى لا يتعلّق به الجعل.[١٨٥٧] وقد يتوهم أنّ عدم الملكة والعدم الصرف لا يتعلّق الجعل بهما، بل ثبوتهما لمحلّهما، فالعدمان سواء في تعلّق الجعل وعدمه، ودفعه أن العدم المضاف كالعمى يثبت لمحل ناشئًا من سبب مع بقاء ذلك المحل بشخصه وهو معنى تعلق الجعل به ولا يتصوّر ذلك في العدم الصرف.

[١٨٥٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٦و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣/٣٦٣-٣٦٤.

[١٨٥٣] **هو التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي (٥٣٧هـ/١١٤٢م).

[١٨٥٤] **التيسير في التيسير**، ٦/١١.

[١٨٥٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٦ظ.

[١٨٥٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٦ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣/٣٦٤.

[١٨٥٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٧٧.

وعنه ع م: «خَلَقَ اللهُ المكْرُوهَ يَومَ الثُّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَومَ الأَرْبِعَاءِ»[١٨٥٨].

﴿**ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾ الكفر يصحّ أن يُحمل على معنى الشّرك تارةً وعلى كفران النّعمة أخرى، وبحسب هذين المعنيين يدور معنى ﴿**يَعْدِلُونَ**﴾ وتعلُّق «الباء».

فإذا جُعل بمعنى «الكفران» يجب أن يعطف على ﴿**اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ**﴾؛ لأن الحمد وإن كان على غير النّعمة لكن الظّاهر أن هذا الحمد على النّعمة دون مجرّد الأوصاف والأفعال الكماليّة، ولا نعمة أعظم من إخراج الممكنات إلى الوجود.

ف﴿**يَعْدِلُونَ**﴾ على هذا من العدول، و«الباء» صلة ﴿**كَفَرُوا**﴾ بتقدير المضاف، أي: كفروا بنعمة ربهم ﴿**يَعْدِلُونَ**﴾عن الحقّ فيكفرون نعمته.

وإنما ترك متعلّق ﴿**يَعْدِلُونَ**﴾ ليقع الإنكار على نفس الفعل، وحقيقة العدول إشارة إلى أنّه مما يجب أن لا[١٨٥٩] يخطر ببال كذا قيل.[١٨٦٠] إلا أنّ من المعلوم أنّ الإنكار للعدول باعتبار متعلّقه وإلّا فالعدول عن غير الحقّ ليس بمنكرٍ، وإذا جعل بمعنى الشرك يجب أن يعطف على ﴿**خَلَقَ السَّمٰوَاتِ**﴾؛ لأن كفرهم بتسويتهم الأصنام﴿**خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْاَرْضَ**﴾، كقوله تعحكاية عن قول الكفّار يوم القيامة: ﴿**تَاللّٰهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الشعراء، ٩٧/٢٦-٩٨]. ف﴿**يَعْدِلُونَ**﴾ على هذا بمعنى:«يسوُّون»، ليستقيم معنى الشرك، و«الباء» متعلقٌ به. وتقديم الصّلة الاهتمام وتحقيق الاستبعاد، وهذا العطف على الصّلة ليس على قصد أنّه صلة برأسه ليتوجّه الاعتراض بأنه لا معنى لقوله: الحمد لله الذي عدلوا به، بل هو داخل تحت الصلة بحيث يكن المجموع صلةً واحدةً، كأنه قيل: الحمد لله الذي كان معه تلك النّعم العظام، ثم من الكفرة الكفران.

وإلى الوجهين [**٩٧**/و] ينظر معنى الحديث الذي أورده المصنّف في قوله:﴿**يَا اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾ [البقرة، ١٧٢/٢]. عن النبي ع م قال الله[١٨٦١]:«إِنِّي والجِنَّ والإنسَ في نبأٍ عظيمٍ، أخلُقُ ويُعبَدُ غَيْرِي، وأرزُقُ ويُشكَرُ غَيْرِي؟!».[١٨٦٢]

وعلى الوجهين قوله: ﴿**رَبِّهِمْ**﴾ مظهَرٌ أُقيم مُقام المضمر، للعلّية.

وعلى الأول معناه: التّربية، وعلى الثاني: المالكية والقهر، ف﴿**اَلْحَمْدُ**﴾ على الأول: محمول على الشّكر اللّساني، وعلى الثاني: النداء على الجميل.[١٨٦٣]

ومعنى ﴿**ثُمَّ**﴾[١٨٦٤] استبعاد أن يعدلوا عنه أو يعدلوا به على الوجهين، وإنما لم يحمل على التّراخي مع استقامته لكون الاستبعاد أوفقَ بالمقام، ولما حصل منهم عكس ما حصل من الله على طريقة قوله: ﴿**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾[الواقعة،

[١٨٥٨] **صحيح مسلم**، ٢١/٤ (٢٧٨٩).

[١٨٥٩] ج - لا.

[١٨٦٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ١١/٦-١٢.

[١٨٦١] ج - قال الله.

[١٨٦٢] **مسند الشاميين** للطبراني، ٩٣/٢" (٩٧٥).

[١٨٦٣] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٢/٦.

[١٨٦٤] وأما قوله قدس سره: ومَعْنَى ﴿ثُمَّ﴾: اسْتِبْعادُ عُدُولِهِمْ بَعْدَ هَذا البَيانِ، ففيه نظر؛ لأن الاستبعاد بعد ما ذكر من الأقوال الإلهية لا بعد البيان المذكور فتأمل. منه.

٨٢/٥٦] كان الظاهر إيراد «الفاء» وإشارة إلى عكس التسبب، لكنه جيء بـ﴿ثُمَّ﴾ للاستبعاد، وفي الوجه الثاني لما كان العطف من روادف الصلة الموصولة التي هي صفة الله المحمود. ولم يخل المعطوف من رائحة أن يكون محمودًا عليه، وذلك لا يكون بحسب ظاهره، بل كأن قيل: ما أحلَمَه! وما أرحَمَه! لما يصدر منه تلك الفضائل والإنعام، وتُقَابل بذلك الكفر فلا يصبّ عليهم العذاب صبًّا! كما في قوله **تع**:﴿**قُلْ اَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْاَرْضِۜ اِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾ [الفرقان، ٦/٢٥].[1865]

وفي المقام اعتراض مشهور وهو أن كلًا من الوجهين يتأتى على كلّ من العطفين فلا وجه للتخصيص، والجواب: أن ليس المراد من التخصيص حصر كلّ من الوجهين فيما عيّن له بل المراد رعاية زيادة المناسبة فيه، وليس بمخفي أن ذكر كفرانهم نعم الله أنسب لذكر استحقاقه تع جميع المحامد وذكر عدلهم به تع ما لا يقدر على شيء أنسب لذكر كونه خالق السموات.

ولَمّا تضمّنت دلائل الآفاق من الأجرام والأعراض، ذكر منها أعظمها جِرمًا في النظر، وأشملها متناولًا للأعراض، ليدخل في الأوّل سائر الأجسام، من الكبير والصغير، وفي الثاني جميع الأعراض: الظاهرة والخفيّة.

والدليل على الاستيعاب: الجمع في المكرَّرين، والإفراد، والاستغراق، وذكر«الخلق» و«الجعل» إشارةً إلى استيعاب الإنشاءين.[1866]

﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢)**﴾

﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضٰٓى اَجَلاًّ وَاَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ**﴾، أي: ابتدأ خلقكم منه، فإنه أوّل مادّتكم ومادّة أوّلكم، بيان الأوّل: أن الإنسان مخلوق من المني من دم الطمث، وهما متولدان من دم العروق المتولدة من الأغذية الحيوانية، أو النباتية المتحصلة من الطين، وبيان الثاني: أنه لما انتهى سلسلة الآباء إليه ع مكان مادّة لهم من هذا الوجه أيضًا غاية ما في الباب أن لا يكون مبدأ قريبًا. و«من» الابتدائية لا تستلزم ذلك، وإن أريد به المبدأ القريب يقال: ''خلق أباكم'' بتقدير مضاف، والقضاء الإرادة الأزلية والعناية الإلٰهية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاصّ، والقدر هو تعلق تلك الإرادة بالأشياء في أوقاتها. والمراد بالقضاء في قوله ع م: «لا يَرُدُّ القضاءَ إلّا الدُّعاءُ».[1867] ما يخاف العبد منه من نزول المكروه وبالردّ تهوينه أي: تسهيله عليه بحيث يتحمل ما نزل من المكروه، ويصير راضيًا بقضاء الله، والمناسب ههنا التقدير الأزلي، فيكون ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب في الذكر ضرورة أن القضاء بالمعنى المذكور ليس متأخّرًا عن لخلق.[1868] اللهمّ إلّا أن يراد تعلّق ذلك القضاء والأجلان: أجل الموت وأجل القيامة، أو ما بين الخلق والموت وما بين الموت والمبعث، أو النّوم والموت.

«فعلى الأول: الأجل: بمعنى الوقت المعيّن الذي فيه ابتداء الموت أو البعث، كما في قوله:﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ**﴾ [الأعراف، ٣٤/٧]، وعلى الثاني: الوقت الممتد الذي فيه الحياة والموت، كما في قولهم: أجل الدَّين سنة، وعلى الثالث: ما يقع في الوقت مجازًا لا نفس الوقت على ما هو اللُّغة[1869]».

[1865] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٢/٦.

[1866] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٣/٦-١٤.

[1867] **سنن الترمذي**، ٤٤٨/٤ (٢١٣٩).

[1868] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٧/٤.

[1869] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٧و.

وعن ابن عباس: لكلّ أجلان من الخلق إلى الموت، ومن الموت إلى البعث، فإن كان برًّا زيد له من أجل البعث في أجل العمر، وإن كان فاجرًا نقص من أجل العمر وزيد في أجل البعث.[١٨٧٠]

وقيل: الأول آجال الماضين، والثاني: آجال الباقين، وآجال من لم يأت بعد وخصّ بكونه مسمّى؛ لأنّ الأولين لما ماتوا تعيّن آجالهم بخلاف الباقين والآتين، فإن آجالهم عنده لا يعلمها غيره، ولحكماء الإسلام قول بالآجل الطبيعيّة وهي ببقاء الشّخص على طبيعته ومزاجه المختص به والآجال الاحتراميّة وهي بعروض الآفات المهلكة، ولما ورد أن يقال: المبتدأ النكرة إذا كان خبره ظرفًا وجب تأخيره فلم قدّم ههنا.

أجاب عنه المصنف بأنه مخصّص بالصّفة، فقارب المعرفة، كقوله: ﴿**وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ**﴾ [البقرة، ٢/٢٢١].

وَلَمَّا ورد عليه سلَّمنا جواز التقديم، لكنّ المشهور في استعمال الفصحاء تأخير المبتدأ مع الوصف عن الخبر الظرف نحو: «عندي ثوبٌ جيّد»، فما الموجب، أى: المرجّح للتقديم؟ أجاب عنه بأنه قصد التعظيم، فإنه مما يناسبه الاهتمام والتقديم، وظاهر عبارته أنّ هذا التعظيم مستفاد من الاستفهام المعتبر في مثل هذا المنكر، حيث قال: أوجبه أن المعنى: وأيّ أجل مسمًّى عنده [**٩٧**/ظ] كأنّه لغرابته، وعظم رتبته مما يسأل ويستفهم عن حاله.

والاستفهام يقتضي صدر الكلام، وبهذا يندفع ما يقال: إنه يكفي في إيثار التقديم الترجيح فأيّ حاجة إلى اعتبار الوجوب والإيجاب، كما في عبارة **الكتاب**، ولا يحتاج إلى تأويله بأنّ الراجح واجب في حكم البلاغة.

وأما قوله تع:﴿**وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ**﴾[المؤمنون ٢٣/٦٢] فغاية الأمر أنه لم يقصد فيه هذا التعظيم، وإن كان الكتاب معظمًا في نفسه؛ لأنه ليس مقام التفرقة بين كتابين، كما قصد ههنا التفرقة بين الأجلين، بل أجري على ما هو السائر، وأمَّا قوله تع : و﴿**وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ**﴾ [الزخرف ٤٣/٨٥] مع تعريف المبتدأ فللاختصاص[١٨٧١].

وقال قدس سره: «والاستئناف به لتعظيمه ولذا نكّر، ووصف بأنه ﴿**مُسَمًّى**﴾، أي: مثبّت معيّن، لا يقبل التغيير، وأُخبر أنه ''عند الله'' لا مدخل لغيره علمًا وقدرةً ولأنه المقصود بيانه».[١٨٧٢]

﴿**ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ**﴾ استبعاد؛ لأن تمتروا فيه بعد ما ثبتَ أنه محييهم ومميتهم وباعثهم. وقد عرفت أنه لما ذكر دلائل الآفاق ذكر ما ذكر على ما مرَّ تقريره. وكذا لما ذكر دلائل الأنفس، ذكر فيها المبدأ والمنتهى تصريحًا، ولوَّح إلى ما يتوسّطهما تلويحًا: ذكر خلقهم من طين، ونصّ على الأجلين، وعبّر بـ﴿**ثُمَّ**﴾ دلالةً على أطوار ما في البين من النطفة، والعلقة، والمضغة المخلَّقة، والنَّشء حيًّا، ثم الطفولة، والشباب، والشيخوخة إلى الموت،[١٨٧٣] ونبَّه بذكر الامتراء، والعدول من الغيبة في قوله:﴿**بِرَبِّهِمْ**﴾، إلى الخطاب في قوله:﴿**أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ**﴾على التنبيه عن رقْدة الغفلة والجهالة، وأن دلائل الأنفس أقربُ الدلائل وأدقّها، وهي التي يضطرُّ معها الناظر إلى المعرفة التامَّة.

[١٨٧٠] **معالم التنزيل** للبغوي، ١٢٧/٣.

[١٨٧١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٧و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣٦٦/٣؛ **حاشية الشهاب**، ٢١/٤.

[١٨٧٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٧٨/١.

[١٨٧٣] ج – إلى الموت.

وتلخيص المعنى: أن دلائل الآفاق موجبة لإزالة الشرك وإثبات التوحيد، فناسب أن يستبعدَ منهم الشرك مع وجودها، وأن دليلَ الأنفس مقتضٍ لحصول الإيمان، فناسب أن أن يستبعد منهم الامتراء.[١٨٧٤]

وقطْب هذه السورة الكريمة يدور مع إثبات الصَّانع، ودلائل التوحيد وما يتّصل بها انظر كيف جعل احتجاج الخليل على قومه ومآله إلى قوله:﴿**إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا**﴾ [الأنعام ٦/٧٨-٧٩] وكيف أوقع أمر حبيبه صلوات الله عليه بقوله: ﴿فَبِهُدَيهُمُ اقْتَدِهْ﴾ بعد ذكر معظم الأنبياء واسطةَ العقد، ولجّة بحر التوحيد! ثم تفكَّر في قوله:﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام٦/ ١٦٢-١٦٣]. كيف جاءت خاتمةً لها! فسبحان مَن له تحت كلّ سورة من كتابه الكريم، بل كلّ آية وكلمة، أسرارٌ ينفد دُون نفاد بيانها الأبحر![١٨٧٥]

وقيل: «الواو» في ﴿**وَأَجَلٌ مُسَمًّى**﴾ للعطف، أو للحال وأوثر في: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ**﴾ طريقة لخطاب؛ لأن دليل الأنفس أقرب إلى النّاظر من دليل الآفاق المشار إليه بقوله: ﴿**خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾ والشكر عليه أوجب، وقد أُشير في كلّ من الدليلين إلى المبدأ والمنتهى وما بينهما.[١٨٧٦]

فمبدأ دليل الآفاق ﴿**خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ**﴾، ومبدأ دليل الأنفس خلقكم ومنتهاها قوله: ﴿**وَأَجَلٌ مُسَمًّى**﴾ وما بينهما﴾ ﴿**ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾ [الأنعام ٦/١]، وأمثاله من الأحوال، هذا على ما هو مقتضى كلام المصنف من أن الدليلين يتعلق بالمبدأ.

وكلامه قدس سره: على أن الأولى للمبدأ، والثانية للمعاد، حيث قال: «استبعاد لامترائهم بعد ما ثبت أنه خالقُهم وخالق أصولهم ومحييهم إلى آجالهم، فإن من قَدِر على خلق المواد وجمعها وإبداع الحياة فيها، وإبقائها ما شاء كان أقدر على جمع تلك الموادِ وإحيائها ثانيًا».[١٨٧٧] ولم يذكر مدلول قوله:﴿**وَأَجَلٌ مُسَمًّى**﴾ وهو أنه باعثهم؛ لأنه هو المدعي في هذا المقتضى، لكن لو قال استبعاد لامترائهم بالبعث لكان أولى.

وقوله: «**كان أقدر**»[١٨٧٨] تمثيل وتصوير لكمال قدرته بما هو المتعارف في القدرة الحادثة من تفاوت تعلّقها بإبداء المقدور وإعادته، أو كناية عن زيادة استعداد القابل لقبول الأثر من الفاعل وإلا فالقدرة القديمة جميع مقدوراتها على السوية بالقياس إليها.

وفي قوله: «**على جمع تلك المواد**»[١٨٧٩] إشارة إلى أنه اختار في حشر الأجساد طريقة جمع الأجزاء بعد تفريقها إلا طريقة الإيجاد بعد الإعدام.

و«الأمتراء»: الشك، وأصله: المري وهو استخراج اللّبن من الضرع ووجه الشبه الحصول بتكلّف»،[١٨٨٠] وتقرير السمرقندي:«على أن الدليلين في المبدأ، لكن الدليل الثاني: متضمّن للدلالة على المعاد أيضًا».

[١٨٧٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/١٥.

[١٨٧٥] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/١٦.

[١٨٧٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و٣٢٧أ.

[١٨٧٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٧٨.

[١٨٧٨] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٧٨.

[١٨٧٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٤٧٨.

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمٰوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)﴾

الظرف متعلّق بمعنى اسم ﴿اللَّهُ﴾، لا بلفظه؛ لكونه اسمًا لا صفةً، وكذا قوله: ﴿فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف ٤٣/٨٥]؛ لأن ﴿إِلَٰهٌ﴾ اسم وإن كان بمعنى المعبود، كالكتاب للمكتوب، وذلك المعنى الوضعيّ الذي تضمنه اسم ﴿اللَّهُ﴾، كما في «حاتم في طيّئ»، على تضمين معنى الجواد وذلك المعنى، إما المأخوذ من أصل اشتقاق الاسم أعني: المعبودية، أو ما اشتهر به الاسم من الألوهية وصفات الكمال، أي: هو المعروف بذلك فيهما، أو ما يدلُّ عليه التركيب الحصري من التفرّد بالإلٰهية، أو ما تقرر عند الكلّ من مقوليّة هذا الاسم عليه خاصة، [٩٨/و] أي: هو الذي يقال له: الله فيهما لا نشرك به في هذا الاسم، أو خبر ثان ومعنى كونه فيها أنه عالم بما فيها على التشبيه والتمثيل شبهت حال علمه بها بحالة كونه فيها؛ لأن العالم إذا كان في مكان كان عالما به وبما فيه بحيث لا يخفى عليه شيء، ويجوز أن يكون كناية فيمن لم يشترط جواز المعنى الأصلي ولا يستقيم بدون هذا المجاز أو الكناية.[١٨٨١]

وقوله:﴿يَعْلَمُ﴾ تقرير إن أريد المتوحّد بالألوهية؛ لأن عالم السرّ والعلانية هو الله وحده، أو جعل ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ خبرًا؛ إذ معناه أنه كامل العلم بما فيهما، وعلى باقي الوجوه كلام مستقلٌ غير مرتبط بما قبله، ولا حاجة إلى جعله استئنافًا بمعنى جوب سؤال وإن جاز، وبيانه على الأول أنه لَمَّا قيل: هو المعبود فيها، اتَّجه لسائلٍ أن يسأل: فما شأنه مع عابديه؟

فأجيب: يعلم أحوالهم فيجازي عليها. وعلى الثاني والثالث: السؤال بماذا عُرف فيهما؟ وما وصفه فيهما؟[١٨٨٢]

فقيل: وصفه فيهما بالعلم الشامل ولا يكون تقريرًا على هذه الوجوه أعني: تقرير المعبودية أو المعروفية بالإلهية، أو الاختصاص بهذا الاسم؛ لأنه لا دلالة لاستواء السِّرِّ والعلانية في علمه على هذا العنى؛ إذ ربما يعبد، أو يعرف بالإلهية، أو يختصُّ بهذا الاسم من ليس له كمال العلم، لكن لا يخفى أنه إن أريد المعبودية بالحقِ، فله وجه، أو خبر ثالث على تقدير كون الظرف خبرًا ثانيًا، أو خبر ثانٍ على باقي الوجوه، «أو متعلِّق بقوله:﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾والجملة خبر ثانٍ، أو هي الخبر، و«الله» بدل، ويكفي لصحَّة الظَّرفية كونُ المعلوم فيهما، كقولك: رميت الصَّيد في الحرم، إذا كنت خارجه والصيد فيه».[١٨٨٣]

والمعنى: أنه يعلم في السموات أسرار الملائة وفي الأرض أسرار الثقلين، أو يعلم نفوسَكم المفارقة في السموات ونفوسكم المقارنة لأبدانكم في الأرض، أو متعلِّق بالمصدر، وهو بمعنى المفعول وليس بمقدر بحرف مصدري، وصلته حتى يلزم تقدَّم صلته عليه، ولَمَّا ورد أن يقال: الأفعال، إما للقلب وإما للجوارح، وهما السِّرُّ والجهر.

و﴿مَا تَكْسِبُونَ﴾تَكْرَار؛ لأن المكتسب لا يخرج عنهما، أو عطف الشيء على نفسه، أجاب عنه المصنفان بما حاصله الأفعال لها جهات ومن جهة سِرٍّ وجهر، من جهة خير وشر فهو تعبيّن أولاً أنه يعلمه من جهة كونه سرًا وجهرًا، ثم يبين أن يعلمها من جهة كونه خيرًا وشرًا تنبيهًا على أنه إنما يثيب ويعاقب على حسب الاستحقاق وذلك لأن الكسب في الأصل الفعل المفضي إلى اجتلاب نفع أو دفع ضرٍ؛ ولذا لا يوصف فعله تع بالكسب.

[١٨٨٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٧٨/١.

[١٨٨١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٧و-ظ.

[١٨٨٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٢٢/٦.

[١٨٨٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٦٨/٣.

وأجاب قدس سره بوجهٍ آخر: «بأن يراد بالسر والجهر ما يخفى، وما يظهر من أحوال النفس وبالمكتسب أعمال الجوارح».[١٨٨٤]

وقال ابن الكمال:«﴿**سِرَّكُمْ**﴾:باطنكم؛ أي: نفوسكم﴿**وَجَهْرَكُمْ**﴾ أي: أبدانكم ﴿**وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ**﴾ بالقوى النفسانيَّة والجوارح البدنيَّة؛ لأنه خالق والخلق كاسب، ولَمَّا كان يقتضي العلم بذلك كونه خالقًا له، ومظنَّة الاشتباه- حتى ضلّ فيه كثير أعاد الفعل اهتمامًا لتحقيق ذلك الفعل المقتضى».[١٨٨٥]

وقيل: السر الدواعي والصوارف والجهر أعمال الجوارح والمؤثر في الفعل مجموع القدرة مع الداعي والدعية التي هي في باب السر هي المؤثرة في الأعمال ولذلك قدّم.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۞ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤-٥)﴾

لما قرّر أمر الألوهية والوحدانية بدليل الآفاق والأنفس وحقَّق ذلك بقوله: ﴿**وَهُوَ اللَّهُ**﴾الآية، قرَّر بعده أمر النبوّة، أو لَمَّا دلَّ على وحدانيَّته، وبيَّن أنه قضى أجل الموت وأجل البعث وثلث بما يقررهما قرر أمر النبوَّةِ.[١٨٨٦]

وقال ابن الكمال: لَمَّا أثبت المبدأ بما يتوقَّف عليه من التّوحيد، ثم أثبت المعاد بما يتوقَّف عليه من العلم، بيَّن ثبوت النبوَّة بشهادته، وأوعد للمنكرين عليه.

و﴿**مِنْ**﴾ الأولى مزيدة للاستغراق، دلَّ عليه وقوع آية في سياق النَّفي،[١٨٨٧]والثَّانية: للتبعيض؛ لأن الآية للواحدة، وإن استغرقت في حكم النفي، فهي بعض من جميع الآيات، وحملها على النبيين كما زعم ابن الحاجب إنما يستقيم لو كانت النكرةُ في النفي بمعنى جميع الأفراد، وما يقال: إنها لو كانت تبعيضيَّة لَما كانت الأولى استغراقية ممنوع لصحة قولنا: ما يأتيهم بعض من الآيات، أي: بعض كان.[١٨٨٨]

وإسنادها إلى الربّ للتّعظيم والتّنبيه على أنها محض تربية وأنها منتسبة إليه وصادرة منه لمصلحة، أي: ما يظهر لهم دليل قطّ من الأدلة، أو معجزةٌ من المعجزات، أو آية من آيات القرآن.[١٨٨٩]

﴿**إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ**﴾ تاركين للنّظر فيها غير ملتفتين إليها لعدم مبالاتهم بالعواقب، وفي العدول عن حقيقة الفعل، وزيادة «كان» دلالةٌ على شدَّة إعراضهم، وزيادة تمرُّنهم عليه.[١٨٩٠]

﴿**فَقَدْ كَذَّبُوا**﴾ «مردودٌ على كلامٍ محذوفٍ»،[١٨٩١] أي: متعلِّقٌ به في معرض الجزاء وإن كان في الحقيقة سببًا للجزاء؛ إذ المعنى: إن كانوا معرضين عن الآيات فلا تعجب فقد كذبوا بما هو أعظم آية، وهذا أشد من الإعراض.[١٨٩٢]

[١٨٨٤] **أنوار التنزيل**، ٤٧٨/١.

[١٨٨٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٦٩/٣.

[١٨٨٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١١/٤.

[١٨٨٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٦٩/٣.

[١٨٨٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٧ظ؛ **حاشيه الشهاب**، ٣٠٠/٣.

[١٨٨٩] **أنوار التنزيل**، ٤٧٨/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**،٢٦٩/٣.

[١٨٩٠] **تفسير ابن كمال باشا**،٢٧٠/٣.

وقيل: أي: مردود إلى شرط محذوف كقوله:

قالوا خُرَاسانُ أَقْصَى مَا يُرَادُ بِنَا ثم القُفُولُ فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَا[١٨٩٣]

[**٩٨**/ظ] أي إن صحَّ ما قلتم مِن أن خراسان المقصد، فقد جئنا، وأين لنا الخلاص؟[١٨٩٤] هذا ما ذكره الشراح في تقرير كلام المصنف.

وقال قدس سره: «**وهو كاللازم لما قبله**» كأنه قيل: إنهم لَمَّا كانوا معرضين عن الآيات كذبوا بالقرآن لما جاءهم، أو كالدليل عليه على معنى أنهم لَمَّا أعرضوا عن القرآن وكذبوا به وهو أعظم الآيات فكيف لا يعرضون عن غيره، ولذلك رتّب عليه بالفاء.[١٨٩٥]

وذلك أن الفاء السببية، كما تدخل ما هو جزاء لازم مما قبلها سواء تقدم كلمة الشرط، نحو: «إن لقيته فاكرمه»، أو لم يتقدَّم نحو: «زيد فاضل فأكرمه» تدخل أيضاً على ما هو سبب لما قبلها فيكون بمعنى اللام السببية، كما في قوله: ﴿**قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ**﴾ [الحجر ٣٤/١٥]، وفي قولك: «أكرم زيدًا فإنه فاضل»، فهذه الفاء تدخل على ما هو شرط في المعنى، كما أن الأولى تدخل على ما هو جزاء في المعنى.[١٨٩٦]

وقد تحدّوا بالقرآن وعجزوا عن الإتيان بمثله، وكأنه لوضوحه معلوم عند الكلِّ أن الحق هو لا يحتاج إلى تسميته، وعلى هذا معنى الإبهام في: ﴿**أَنۢبَاءُ مَاكَانُوا**﴾ تعظيم القرآن، أي: سيعلمون بأيّ شيء استهزؤوا، وينكشف لهم أنه ليس بموضع استهزاء،[١٨٩٧] وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا أو في الآخرة، أو عند ظهور الإسلام وارتفاع أمره.[١٨٩٨]

و«السين»: لتأكيد الوعيد لا بيان كونه متأخرًا.

وقال ابن الكمال: أي: أخبار ما استمرُّوا على تجديد الاستهزاء به حينًا فحينًا، تارةً بنسبته إلى السِّحر والكهانة، وأخرى إلى الشِّعر وأساطير الأولين، ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ**﴾ [يس ٦٩/٣٦]، ﴿**وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ**﴾ [ص٨٨/٣٨].

والمراد من أخباره: ما فيه من الوعيد للمصدِّقين والوعيد للمنكرين آجلًا وعاجلًا، وهذا منهم غاية الطغيان، حيث أعرضوا عمّا هو آية بيِّنة أوّلًا، وكذبوه ثانيًا، وسخروا ثالثًا، ومَنَّ الرحمنُ زيادة فضلٍ وإحسان إذ أخَّرهم إلى حينٍ، ولم يعجِّل لهم بالعذاب المهين، شدَّد عليهم النكير، ثمَّ جاء بالتذكير بقوله:[١٨٩٩]

[١٨٩١] **الكشاف**، ٥/٢.

[١٨٩٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٧ظ-٣٢٩و.

[١٨٩٣] **فتوح الغيب**، ٢٣/٦.

[١٨٩٤] **فتوح الغيب**، ٢٣/٦.

[١٨٩٥] **أنوار التنزيل**، ٤٧٨/١.

[١٨٩٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١١/٤.

[١٨٩٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧٠/٣.

[١٨٩٨] **الكشاف**، ٦/٢.

[١٨٩٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧١/٣.

﴿**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ(٦)**﴾

القرن الأمة من الناس سمّوا به لأقترانهم في مدّة من الزّمان، أو لأنهم يتقدّمون من بعدهم، مأخوذ من قرن الشّمس، وهو أعلاها وأوّل ما يبدو منها.

وقال الزجّاج: أهلُ كلِّ مدَّة كان فيها نبيٌّ أو طبقة من العلماء، قلَّت السِّنون أو كثرت، والتقدير يردُّه قوله ع م [عليه السلام]: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي»؛ يعني: أصحابه، «ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»؛ يعني: التابعين «ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»؛[١٩٠٠] يعني: تابعي التابعين.[١٩٠١]

ويطلق على المدَّة من الزمان أيضًا، فيحتمل الاشتراك وأن يكون حقيقة في الأوَّل مجازًا في الثاني، أو العكس وهو أولى؛ لأن المجاز خير من الاشتراك، وبالجملة المراد ههنا الأهل، إمَّا بالأصل أو بالتقدير؛ لأن مشهودة نفس الزمان لا يتعلَّق به الإهلاك.

و﴿**كَمْ**﴾ استفهامية أو خبرية، وعلى التقديرين معلّقة للرؤية عن العمل؛ لأن الخبرية تجري مجرى الاستفهامية في ذلك ولذلك أعطيت أحكامها من وجوب التقدير وغيره. والرؤية علمية ويضعف كونها بصرية، وعلى التقديرين هي معلَّقة؛ لأن البصرية تجري مجراها، فإن كانت علمية تكون ﴿كَمْ﴾ وما في حيّزها سادَّة مسد المفعولين وإن كانت بصرية فمسدّ واحد.[١٩٠٢]

﴿**مَكَّنَّاهُمْ**﴾ صفة لـ﴿**قَرْنٍ**﴾ وعاد الضمير إليه جمعًا باعتبار معناه، وضعف بأن ﴿**مِنْ قَرْنٍ**﴾ تمييز لـ﴿**كَمْ**﴾ فكم هي المحدث عنها بالإهلاك، فهي المحدث عنها بالتمكين، لا ما بعدها؛ لأن ﴿**مِنْ قَرْنٍ**﴾ جرى مجرى التبيين، ولم يحدث عنه.

و﴿**مَا**﴾ موصولة صفة محذوف، أي: التَّمكين الذي لم نمكِّن لكم، والعائد محذوف أي: لم نمكِّنه لكم. وردَّ بأن الموصولة لا توصف به النكرة، أو نكرة صفة لمصدرٍ محذوفٍ، أي: تمكينًا ما لم نمكِّنه لكم، وردّ بأن ﴿**مَا**﴾ النكرة التي تقع صفةً لا يجوز حذف موصوفها، فلا يقال: قمت ما، وضربت ما، وأنت تريد قمت قيامًا ما وضربًا ما، أو نكرة موصوفة بالجملة المنفية بعدها. والعائد محذوف أي: مكَّنَّاهم تمكينًا لم نمكِّنه لكم، أو مفعول لـ﴿**مَكَّنَّاهُمْ**﴾ معنى؛ لأن معناه أعطيناهم.[١٩٠٣]

ومعنى: «مكَّن له في الأرض»: جعل له مكانًا، ونحوه: أرَّض له، ومنه قوله: ﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ**﴾ [الكهف ٨٤/١٨]، وأمَّا «مكَّنْتُه في الأرض» فأثبتُّه فيها. ومنه قوله: ﴿**وَلَقَدْمَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ**﴾ [الأحقاف ٢٦/٤٦]، ولتقارب المعنيين جَمَع بينهما ههنا، والمعنى: لم نعط أهل مكة ما أعطينا عادًا وثمود وغيرهم؛ من البسطة في الأجسام، والسَّعة في الأموال، والاستظهار بأسباب الدنيا.[١٩٠٤]

[١٩٠٠]**صحيح البخاري**، ١٧١/٣ (٢٦٥١).

[١٩٠١]**معاني القرآن وإعرابه** للزجاج أبي إسحاق إبراهيم بن السري (٣١١هـ) تحيق: الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ٢٢٩/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧٢/٣.

[١٩٠٢]**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٢/٤

[١٩٠٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٢/٤

[١٩٠٤]**الكشاف**، ٦/٢.

يعني: المعنيان وهما جعل الأرض مكانًا والإثبات في الأرض متقارنان فلهذا جمعهما في قوله: مَكَّنَّاهُمْ ما لم نمكن لكم، أي: أثبتناهم في الأرض ما لم يجعل الأرض مكانًا لكم بمعنى: ما لم نثبتكم في الأرض، ثم إنهما كنايتان عن إعطاء الأسباب والأموال، وهذا على مقتضى كلام المصنف.

وقال قدس سره: أي: جعلنا لهم فيها مكانًا وقرّرناهم فيها، ما لم نجعل لكم في السَّعة وطُول المقام يا أهل مكة، أو أعطيناهم من القوى والآلات ما تمكَّنوابها من أنواع التّصرف فيها. ما لم نعطكم من القوّة والسَّعة [**٩٩**/و]في المال والاستظهار بالعدد والأسباب.[١٩٠٥]

يعني: أنهما إما محمولان على الحقيقة أو على الكناية، ويجوز أن يقال: يعني: أنهما إمَّا من المكان، وإما بمعنى المكنة، ولعلَّ «مكَّن فيه» أبلغُ من «مكَّن له» ولما كان تمكين الأولين أكثر كان إيراد الأبلغ أنفع.

وقال ابن الكمال: «إثباتهم فيها كناية عن طول عمرهم، كما أنّ تاليه كنايةٌ عن بسط معيشتهم».[١٩٠٦]

وأنت خبير بأن فيه ترك المقابلة والمناسبة ولا يرى له وجه، والالتفات للتنبيه والتمييز بينه وبين المحكيِّ عنهم.

﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾

﴿**وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ**﴾ عطف على ﴿مَكَّنَّاهُمْ﴾ صفة ثانية لـ﴿قَرْنٍ﴾ و﴿مِدْرَارًا﴾ حال من ﴿السَّمَاءَ﴾ وكونه بمعنى المطر، أو السحاب ﴿**مِدْرَارًا**﴾ أي: كثير الدّر والصّبّ ظاهر، وأما بمعنى الْمظلَّة، أي: الفلك المحيط بهم، كأنه ألقى ظلِّه عليهم؛ فلانَّ المطر ينزل منه إلى السحاب، ومن السحاب إلى الأرض، وكذا الإرسال على الأولين ظاهر، وأمَّا على هذا فلعلَّ المراد إرسالُ مطره على حذف المضاف، أو جعل إرسال الماء منه متتابعًا في أوقات الحاجات بمنزلة إرسال نفسه.

و«المِدْرَار»: «مِفعال» وهو من أبنية مبالغة الفاعل، كـ«امرأة مِذْكار، ومئْناث»: إذا كانت كثيرةَ الولادة للذكور والإناث، أي: دارّ كثير الغيث يستوي فيه المذكّر والمؤنَّث، ولذلك أجرى على السماء، وأصله من دَرَّ اللبن دُرُورًا، وهو كثرة وروده على الحالب يقال: سحابٌ مدرارٌ ومَطر مدرارٌ: إذا تتابع منه المطر في أوقات الاحتياج إليه؛ ولذلك فسّر بالمِغْزار مبالغة الغزير بمعنى الكثير. يقال: غزر الشيء بالضم يَغْزُرُ فهو غزير مثل كثير لفظًا ومعنًى.[١٩٠٧]

وقال ابن الكمال: «لم يقل: وأجرينا الأنهار، جريًا على مجرى قرينة السَّابق؛ لأن النهر يطلق على الماء حال كونه جاريًا، فليس له أن يجري وأن لا يجري وهو نهر، بخلاف الماء النازل من السماء؛ فإنه قد يُحبس وقد يطلق وهو هو».[١٩٠٨]

وأنت خبير بأن الأنهار تتعلَّق به الجري في جميع القرآن، فكذا ههنا فتكون متعلَّق الأجراء أيضًا، فلا يرى لما ذكره وجه، وإنما صدَّره بالواو الدَّالة على الاستقلال دون الفاء؛ لأن المقام تعديد النِعَم العظام، وفي ضمنه الإشارة إلى أن الأنهار لا يلزم أن يكون من الأمطار.

[١٩٠٥] **أنوار التنزيل**، ٤٧٩/١.

[١٩٠٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧٢/٣.

[١٩٠٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٣/٤.

[١٩٠٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧٢/٣.

وخصَّ وصف الجري من تحتهم بالذكر؛ لأنه مما يتعاظمه الناس، ألا ترى إلى قول فرعون: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف ٤٣/٥١]،[١٩٠٩] وأنه مما يزين البساتين والجنات، وفي ذلك عظائم المهمات واللذات.

و«الفاء» في ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ فصيحة تفصح عن محذوفٍ تقديره: بَطِرَتْ معيشتُهم، كما ورد في قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص ٢٨/٥٨].

﴿**وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ**﴾ بدلهم يعمر به بلادهم، وهذا وِزَانُ قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾[الشمس ٩١/١٥] في كونه تقريرًا للكلام السابق، وتتميمًا لمعنى عدم المبالاة، وتحقيقًا لأمر الوعيد بتسهيل شأن الإهلاك، كأنّه قيل: فأهلكناهم بذنوبهم، وما خفنا عقابهم، وذلك أن المتسلّط على تخريب الديار، وقلع الآثار، إنما يخاف من عقبى الأمر إذا لم يقدر على إنشاء مثل ما خرَّبه ودمَّره، وأمَّا من هو قادر على إنشاء مثله، فلا يخاف عقباها، كما يخاف كلَّ مُعاقِبٍ من الملوك، فَيُبْقِي بعض الإبقاء.[١٩١٠] وفي الاعتبار الإنشاء إشارة إلى أنهم قُلعوا من أصلهم واستؤصلوا ولم يبق أحدٌ مِن نَسْلِهم.[١٩١١]ويعضد ذلك ما رواه ابن مسعود عن النبي ع مأنه قال: «إِنَّ اللَّهَلَمْ يُهْلِكْ قَوْمًا، أَوْ يُعَذِّبْ قَوْمًا، فَيَجْعَلَ لهمْ نَسْلًا».[١٩١٢]

فحاصل الوعيد: أنهم باعوا الدين بالدنيا، وامتنعوا عن الإيمان فعُوقبوا بطريق الاستئصال مع أنهم وجدوا من العدد والعُدد والمعدد أكثر مما وجده أهل مكة، فلما أَصرُّوا على الكفر والشِّقاق لم ينفعهم ما هم فيه من العز وكثرة العدد، والبسط في الأموال، فلِمَ لا يعتبرون بحالهم وما جرى عليهم شؤم معصيتهم، فإنه تعالى كما قدر أن يهلك مَن قبلهم وينشئ مكانهم آخرين يعمر بهم بلادهم قدر أن يفعل بهم ذلك، إن أَصرُّوا على ما كانوا عليه من الكفر، والإباء، والشَّكِّو الامتراء، والإعراض والاستهزاء.

﴿**وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨)**﴾

«نَزَّل» هنا بمعنى: «أنزل»، كخَبَّر بمعنى: أخبر على أن يقال: بمعنى التدريج في التنزيل، وقد عرفتَ فيما سبق ما فيه ﴿**كِتَابًا**﴾ مكتوبًا ﴿**فِي قِرْطَاسٍ**﴾ في رَقٍّ ولم يقتصر على رؤيتهم الكتاب عيانًا في قرطاس، بل زاد عليه التقييد بقوله: ﴿**فَلَمَسُوهُ**﴾ لأن التزوير لا يقع فيه فلا يمكنهم أن يقولوا: إنما سكّرت أبصارنا ولأنه مقدمة الإبصار حيث لا مانع.

وقال ابن الكمال: وليس فيه دفع ما عسى أن يقولوا: سكِّرت أبصارنا وما نزل من السماء شيء؛ إذ باللَّمس إنما يندفع احتمال كون المرئيّ مخيَّلًا، وأمَّا نزوله من السماء فلا يثبت به، بل ذلك تقييد للإدراك البصري بالإدراك الحسي مبالغة في الظهور، وأنت خبير [**٩٩**/ظ] بأن الدفع ليس بمجرد اللَّمس، بل بلمس المنزل من السَّماء المبصر ذلك فثبت ما ذكر، ثم إن اللَّمس أبلغُ من المسّ؛ لأنه لصوق بإحساس، والمسّ لصوق فقط، ولذلك آثر اللَّمس عليه.

وقيَّد بقوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾؛ لأن اللُّصوق بالإحساس يكون بجميع الأعضاء، ولليد خصوصية في الإحساس ليست في سائرها، ولدفع التجوز فإنه قد يتجوّز به للفحص كقوله: ﴿وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ [الجن٧٢/٨].

[١٩٠٩] **تفسير ابن كمال باشا**،٣/٢٧٢-٢٧٣.

[١٩١٠] **فتوح الغيب**،٦/٢٥-٢٦.

[١٩١١] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٢٧٣.

[١٩١٢] **صحيح مسلم**، ٤/٢٠٥١(٢٦٦٣).

وقال ابن الكمال: ولا يندفع به؛ إذ لا بُعد في أن يكون ذلك لبيان مباشرتهم للفحص بأنفسهم، بل يندفع بكون المعنى الحقيقي أنسبَ للمقام، ولِمَا سيق له الكلام.

وأنت خبير بأن هذا التعبير إنما يرد لدفع التجوُّز ويبعد أن يرد لبيان المباشرة بالنفس فالاندفاع ظاهر.

وعدل عن الظاهر في قوله: ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تنبيهًا على أن هذا ليس بأوّل كفر منهم، ويجوز أن يكون الموصول للعهد، وهم المتوغلون في العناد على ما ذكر في سبب النزول، فالتوصيف بسبب قولهم: ﴿إِنْ هٰذَا اِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ جاؤا بالحصر ووصفوا السحر بـ﴿الْمُبِينُ﴾ معارضة للتأكيد الفعلي في الإظهار بالتّأكيد القولي في الإنكار، فيدل على غاية عنادهم ونهاية فسادهم.[١٩١٣]

﴿**وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا**﴾ كما اقترحوا بقولهم: «هلَّا أُنزل معه ملك يكلِّمنا أنه نبيٌّ»،كقوله: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان٢٥/٩] ﴿**لَقُضِيَ الْأَمْرُ**﴾ جوابٌ لقولهم وبيانُ المانع من إنزال مقترحهم.

والقضاء: الإتمام والإلزام، والمعنى: لتمَّ أمر هلاكهم، إمَّا لأن نسبة الله جارية على ذلك عند ظهور الآية القاهرة، وعدم إيمانهم بها لعدم الفائدة في إبقائهم، وإمَّا لزوال الاختيار الذي هو قاعدة التكليف عند ذلك كما في حال الناس برؤية ملك الموت لعراء وجودهم عن الحكمة، أو الإنسان إنما خلق للابتلاء بالتّكليف، وإمّا لأنهم إذا شاهدوا ملكًا في صورته زهقت أرواحهم من الهول ومعنى: ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي: يُمهلون ولا يؤخِّرون بعد ما بين الأمر من قضاء الأمر وعدم الإنظار جعل عدم الإنظار أشدُّ من قضاء الأمر؛ لأن مناجاة الشدة أشد من نفس الشدَّة.

وينصر الوجه الأوَّل قول قتادة: لو أنزلنا ملكًا ثم لا يؤمنون لَعُجِّلَ لهم العذاب، ولم يؤخِّروا طرفة عين. يعني: بعد عدم إيمانهم، لا بعد نزول العذاب.

وفي لفظ «ثم» إشارة إلى أن لهم مهلةً قَدْرَ أن يتأمَّلوا فيما نزل، فيؤمنوا بالاختيار لا بالإلجاء والإضطرار، ففهم هذا الاعتبار[١٩١٤] في ذلك الوجه، وأمَّا في الوجهين الأخيرين فلا اعتبار فيه كما لا يخفى.

وقال بعض العارفين: من أعرض عن الحقّ وأقبل على الدنيا وشهواتها يعمى له قلبه فلا يشاهد الآيات وإن جعلت في كسوة الصورة؛ لأن الله قد أعمى أبصارهم التي بها يبصرون الحقّ فما ازدادوا بها إلا تماديًا في الباطل.[١٩١٥]

﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩)**﴾

جواب ثان لاقتراحهم المذكور إن جعل الهاء للمطلوب، وجواب لاقتراحهم الآخر وهو قولهم: لولا أرسل علينا ملكًا إن جعل الهاء للرسول.

وذكر قدس سره الوجهين، والمصنف الوجه الأوَّل، وردَّ ابن الكمال الأول بأنه: تأباه عبارة: ﴿جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾، فإن المناسب ح أن يقال: ولو أنزلناه ملكًا.[١٩١٦]

[١٩١٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٢٧٣-٢٧٤.

[١٩١٤] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٢٧٦.

[١٩١٥] **التأويلاة النجمية** لنجم الدين الكبرى، ٢/٣٢٢.

[١٩١٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٢٧٧.

وأنت خبير بأنه لا كثرة إباء فيه، بل هو الملائم لما بعده والمعنى على الأوّل: ولو جعلنا قرينًا لك ملكًا يعاينوه، وعلى الثاني: ولو جعلنا الرّسول ملكًا لمثّلناه رجلاً كما مُثِّل جبريل في صورة دِحْيَةِ، فإن القوة البشرية لا تطيق رؤية الملك، وإنما رآهم كذلك الأفراد من الأنبياء بقوتهم القدسية.[١٩١٧]

وإنما لم يقل: بشرًا، مع أنه المناسب لمقابلة الملك؛ تضمينًا للكلام معنًى زائدًا على المرام، وهو الإشارة إلى أن شأن الرسالة البراءة عن النُّقصان، ولابد من رعايته على التقدير المذكور، حتى لا يصحّ أن يكون الرّسول المفروض في صورة امرأة، ولا في صورة صبيٍّ.[١٩١٨]

﴿**وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ**﴾ قرئ: باللّامين على تقدير شرط آخر، أي: ولو جعلناه رجلًا للبسنا. وقرئ: بلامٍ واحدةٍ على العطف، وبالتشديد[١٩١٩] فيهما للمبالغة.[١٩٢٠]

والفرق بين اللَّبس واللُّبس بفتح اللام وضمِّها أن اللُّبس بالضمّ مصدر قولك: لَبِستُ الثوبَ من باب عَلِمَ، واللَّبس بالفتح مصدر قولك: لَبَسْتُ عليه الأمر من باب ضَرَبْتُ، أي: خلطته وجعلته مشتبهًا عليه.[١٩٢١] أي: لخلَطنا عليهم ما يخلِطون على أنفسهم حينئذ، فإنهم يقولون: إذا رأو الملك في صورة الإنسان: هذا إنسان وليس بملكٍ، فإن قال لهم: الدليل على أنّي ملك أنّي جيئت بالقرآن المعجز، وهو ناطق بأنّي ملكٌ لا بشرٌ كذَّبوه، كما كذَّبوا محمدًا، فإذا فعلوا ذلك خُذلوا كما هم مخذولون الآن، فهو لَبْسُ الله عليهم. ويجوز أن يراد: وللبسنا عليهم حينئذ مثلَ ما يلبسون على أنفسهم الساعة في كفرهم بآيات الله البيّنة.[١٩٢٢]

فمبنى الأوَّل: على أن يلبسون استقبال تقديري مؤقَّت لحين جعل الرسول ملكًا ولبسهم التكذيب، وقولهم: إنه بشر وليس بملك. و﴿مَا﴾ موصولة،[١٩٢٣] والعائد محذوف وهو مفعول ﴿لَبَسْنَا﴾. والمعنى: لخلطنا عليهم الذي يخلطونه على أنفسهم، في كون الرسول ينبغي أن يكون ملكًا لا بشرًا. هذا على مذهب أهل السنة ظاهر، دون مذهبهم؛ إذ يلزم من ظاهره إسناد القبيح إلى الله تع، ولهذا أوَّل اللَّبس بالخذلان.

والثاني: على أنه حال تحقيقي وهو ما هم عليه عند إرسال محمد إليهم، ولبسهم تكذيب محمد ونسبة الآيات إلى السحر. و﴿مَا﴾ مصدرية، وهو مفعولٌ مطلق، والكلام فيه تشبيه، وحينئذ لبس الله غيرُ لبسهم. ولهذا كررَ الظرف، حيث قال أولًا: «حينئذ»، وثانيًا: «الساعة».[١٩٢٤]

ويجوز أن تكون موصولةً أيضًا، لكن لا على الوجه الأوّل ولما كان تلخيص ما فصَّل أنه لا نفع لهم فيما سئلوا؛ لأن الملك إذا أرسل لا بدّ أن يكون في صورة رجل ولا يعلمون أنه ملك فلا يجدي نفعًا في دفع شبهتهم، لا يقال: يجوز أن يكون

[١٩١٧] **أنوار التنزيل**، ١/٤٨٠.

[١٩١٨] **تفسير ابن كمال باشا، ٢٧٧/٣.**

[١٩١٩] أي: «وَلَلَبَّسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ»،قراءة شاذّة مرويّة عن الزهري. **شواذّ للقراءات** للكرماني، ص ١٦٤.

[١٩٢٠] **تفسير ابن كمال باشا، ٢٧٧/٣.**

[١٩٢١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ١٥/٤.**

[١٩٢٢] **الكشاف، ٧/٢-٨.**

[١٩٢٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٨و.

[١٩٢٤] **فتوح الغيب، ٢٥/٦-٢٦؛ حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٨و.

له آثار الملك في صورة الرجل، فيندفع الاشتباه بذلك؛ لأنا نقول لا بدَّ لكل من الاشتباه والالتباس كيلا يفوتَ حكمة التكليف، وإليه الإشارة بذلك اللبس تتمة للجواب، والله أعلم بالصواب.

وقال الواسطي: ليس على أهل ولايته فحضرته، كما أنزل في بعض الكتب، بعيني: ما يتحمَّل المتحمِّلون من أجلي وطلب مرضاتي، أتراني أنسى لهم ذلك؟! كيف وأنا الجواد الكريم، أقبل على مَن تولى عنى، فكيف مَن أقبل عليّ؟[١٩٢٥]

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)﴾

تسليةٌ لرسول الله على ما رأى من قومه بأنَّ له في الأنبياء أسوةً وتنبيهًا على أن قولهم المذكور على سبيل الاستهزاء، وإلَّا فهم عقلاء يعلمون أن رسول قومٍ لا يكون إلا من جنسهم.[١٩٢٦]

قرأ حمزة وعاصم وأبو عمرو بكسر الدّال على ما هو الأصل في التقاء الساكنين، والباقون بالضم على الاتباع. ﴿بِرُسُلٍ﴾ متعلِّق بـ﴿اسْتُهْزِئَ﴾ و﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ متعلِّق له ﴿وَحَاقَ﴾ بمعنى: أحاط، وفاعله: ﴿مَا كَانُوا﴾ و﴿مَا﴾ موصولةٌ اسميّة والعائد «الهاء» في ﴿بِهِ﴾ متعلِّق بـ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وهو خبر لـ﴿كَانَ﴾ و﴿مِنْهُمْ﴾ متعلّق بـ﴿سَخِرُوا﴾ والضمير للرسل. يقال: سخرت منه وسخرت به بمعنى. والسخرية: الاستهزاء والتّهكم إلا أن الاستهزاء لا يتعدّى بـ«من» فلا يقال إلا استهزء به.[١٩٢٧] أي: فأحاط بهم الذي كانوا يستهزؤن حيث أُهلكوا لأجله، أو فنزل بهم وبالُ استهزائهم.[١٩٢٨]

فالأوّل: على أن إحاطة الرّسل بهم كنايةٌ عن إهلاكهم إيَّاهم كما في قولك: أحاط بهم العدوّ، وأنّ إسناد الإحاطة والإهلاك إليهم من قبيل الإسناد إلى السَّبب؛ لأن المحيط بهم العذاب لا المستهزئ به، لكن لما كان سببًا وضع موضعه مبالغةً، والثاني: على أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية ويقدر قبلها مضاف.[١٩٢٩]

وقال ابن الكمال: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب الذي كان الرُّسل يخوفهم بنزوله، فلا تجوُّز لا في الإسناد ولا في المسند إليه.[١٩٣٠]

وأنت خبير بأن الظاهر أنَّ ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ما ذكر بقوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ فلا يلائمه ما ذكره. ولَمَّا ذكر إهلاك المستهزئين المكذبين أمر بالسَّير في الأرض للاعتبار بحالهم من مساكنهم، ولما ورد أن يقال: لم ورد ههنا بـ﴿ثُمَّ﴾ وورد بـ«الفاء» في قوله: ﴿فَانْظُرُوا﴾ [النمل ٦٩/٢٧]؟

أجاب عنه العلَّامتان بما حاصله: أن النَّظر إذا عطف على السَّير بـ«الفاء»يكون كلّ واحد منهما مطلوبًا إلا أن الأوَّل يكون مطلوبًا[١٩٣١] لأجل الثاني، وفيما عطف بـ﴿ثُمَّ﴾ لا يكون بنهما ما يدلّ على السّببية، بل ما يدلُّ على كون الثاني متراخيًا

[١٩٢٥] **حقائق التفسير**، ١٩٣/١؛ **عرائس البيان**، ٣٤٨/١.
[١٩٢٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧٨/٣.
[١٩٢٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٥/٤.
[١٩٢٨] **أنوار التنزيل**، ٤٨٠/١.
[١٩٢٩] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٦/٤.
[١٩٣٠] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧٨/٣.
[١٩٣١] ج – مطلوبًا.

عن الأَوَّل، ولا وجه لحمله على التَّراخي الزّماني؛ لأن النظر في آثار الهالكين والاعتبار بحالهم واجب على الفور ليس من حقه أن يتراخى عن السَّير، فحمل على التّراخي الرتبي بأن حمل الأمر بالسَّير على الإباحة والأمر بالنَّظر على الوجوب.

وقال ابن الكمال: ولَمَّا كان في هذا السّير المأمور به من الامتداد جيء بكلمة التراخي، فإن النَّظر وإن لم يكن متراخيًا عن السَّير باعتبار الانتهاء ولكنه متراخٍ عنه باعتبار الابتداء، وأمَّا العطف بالفاء فلعلَّ المراد من الأرض فيه ما هو المشهور من أرض قومٍ نزل العذاب بساحتهم، فجيء بحرف التعقيب تنبيهًا على أن السَّير إنما أمر به لأجل النظر فحقُّه أن لا يتأخَّر عنه، وأمَّا ما ذكر فيأباه سلامة الذَّوق؛ لأن إقحام أمرٍ أجنبيٍّ- وهو إباحة السّير للتجارة- بين الإخبار عن حال المستهزئين وما يناسبه ويتصل به من الأمر بالاعتبار بآثارهم، ممَّا يخلُّ بالبلاغة.[١٩٣٢]

وأنت خبير بأن العادات جاريةٌ على أن السّير لا يكون بمجرد النَّظر، بل للتِّجارة ونحوها، ويترتَّب النظر عليه فالكلام جارٍ على ذلك ولا إخلال ولا اختلال.

وقيل: هما واجبان، و﴿ثُمَّ﴾ لتفاوت ما بين الواجبين كما في قولك: «تَوَضَّأْ ثم صلِّ»، والآية مع الفاء متضمِّنة للتنبيه على الغفلة أو للتوبيخ على التّغافل، ومع «ثم» للتّعبير على التّواني والتّقاعد،[١٩٣٣] أو إلغاء لإظهار السببية، و«ثم» للتنبيه على أن النّظر هو المقصود، والسّير وسيلة وشأن ما بين المقصود والوسيلة.

وقال الراغب: حثّ على السّياحة بالجسم، وقيل: بالفكر، ومراعاة أحواله، كما روي في وصف الأنبياء صلوات الله عليهم: أبدانهم في الأرض سائرة، وقلوبهم في الملكوت جائلة.[١٩٣٤]

وبالجملة لا اعتداد بالسير [**١٠٠**/ظ] الصوري بدون السّير المعنوي، ولا كلامَ في صحة السّير المعنوي بدون السير الصوري.

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢)﴾

سؤالُ تبكيت وإلزام؛ لأنهم لا يقدرون نسبة خلقهما وملكهما إلى غيره تع؛ ولذلك عقَّبه بقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ تقريراً لهم، أي: إلجاء لهم إلى الإقرار بذلك، أو تقريرًا للجواب لأجلهم، فكأن قوله قولهم، لا خلاف بينه وبينهم، وهذا إنما يحسن في الموضع الذي بلغ الجواب من الظهور إلى حيث لا مجال لإنكاره، فليس من حقِّه أن ينتظر جوابه، بل حقُّه أن يبادر السائل إلى الجواب، وفيه أنهم مع كونهم مقرّين بذلك على ما أفصح عنه قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان ٣١/٢٥] تثاقلوا في الجواب لِما ظهر من كونهم محجوجين، فقرَّر عليهم.[١٩٣٥]

فإنّ أثارَ الحدوث والإمكان ظاهرةٌ في الأجسام وصفاتها، فكان الاعتراف بأنَّها بأسرها لله وملك له، ومحل تصرّفه وقدرته؛[١٩٣٦] لازمًا على كلّ عاقل لا سبيل إلى الإنكار والاعتراف به يستلزم الاعتراف بوحدانيته بحكم برهان التمانع، وذلك يستلزم الاعتراف بصحة الإعادة؛ لأن من قدر على إنشاء ذلك قدر على الإيجاد، ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾

[١٩٣٢] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٢٧٩.

[١٩٣٣] **فتوح الغيب**، ٦/٣١.

[١٩٣٤] **فتوح الغيب**، ٦/٣١.

[١٩٣٥] **فتوح الغيب**، ٦/٣١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٧٩.

[١٩٣٦] **مفاتيح الغيب**، ٤/٤٨٩.

[القيامة ٧٥/٤٠]، والاعتراف بحقية بعثة الأنبياء؛ لأن الحكيم لا يصدر عنه مثل هذه المصنوعات العجيبة إلا لحكمة، وذلك يستدعي أن يبتلي عباده ويكلّفهم، ويجازي كلّ واحد على استحقاقه وذا لا يكون إلا بمبلغ.[١٩٣٧]

ففيه تقرير للمطالب الثلاثة المذكورة من إثبات التوحيد، والبعث، والرِّسالة، وكتب، وعلى للوجوب الالتزمي الوعدي الفضلي عندنا، وللدّلالة على أنّ ذاته أوجبها على نفسه بمقتضى حكمته عند المعتزلة.

فقال المصنف: أوجبها على ذاته؛ في هدايتكم إلى معرفته، ونصب الأدلّة لكم على توحيده بما أنتم مقرُّون به من خلق السموات والأرض.[١٩٣٨]

وإنما فسرها بها بالخصوص يناسب ما قبله، والتفسير بالعموم أولى، لما روينا في الصحيحين، قال رسول الله صلعم: لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غضبي»،[١٩٣٩] والمراد: سبق الكثرة لا سبق الزمان تؤيده رواية: «غلبت مكانَ سبقت» فلا يرد أن المسبوق بالغير حادث فيلزم حدوثه صفته تع غاية ما في الباب أن يدخل ما يناسب المقام، أو الأفعال قد سره: «المراد بالرحمة ما يعُمُّ الدارين، ومنه الهداية إلى معرفته، والعلم بتوحيده بنصب الأدلّة، وإنزال الكتب، ولإمهال على الكفر».[١٩٤٠]

وقيل: رحمته لجميع خلقه: أمَّا في حقّ من تاب وأناب فبالجنة والنعيم، وأمَّا في حقِّ من عاند فيدفع عذاب الاستئصال والعقوبة على الاستعجال والإمهال.[١٩٤١]

وقيل: فيه استعطاف منه تع للمتولِّين عنه إلى الإقبال إليه، وإخبار بأنه رحيم بالعباد، ولا يعجِّل بالعقوبة، ويقبل التوبة.[١٩٤٢]

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ استئنافٌ وقَسَمَ للوعيد على إشراكهم وإغفالهم النظر، أي: ليجمعنكم في القبور مبعوثين إلى يوم القيامة، فيجازيكم على شركهم.[١٩٤٣] وهذا التقدير على أن الجمع مقدّمة البعث فكأنهم مبعوثون عنده، أو على أنه حال مقدَّرة، أو في يوم القيامة و«إلى» بمعنى: «في»، أو لما التزم وبكت كأنَّه سئل: ما بال هذا العزم القوي؟ فأجيب: بأنكم ما خُلقتم إلا لرحمة تعبدونه، وتستأهلون بذلك؛ لأنه واسع الرحمة.[١٩٤٤]

وأما قول ابن الكمال: استئناف، وقسَم للوعيد، كأنه قيل: وما تلك الرحمة؟ فقيل: إنه ليجمعنَّكم إلى يوم القيامة، وذلك لأنه لولا خوف الحساب والعذاب لَوقع الهرج والمرج، فتقرير العقاب في العقبى من أعظم أسباب الرَّحمة في الدنيا.[١٩٤٥]

[١٩٣٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٧/٤.

[١٩٣٨] **الكشاف**، ٨/٢.

[١٩٣٩] **صحيح البخاري**، ١٣٥/٩ (٧٤٥٣).

[١٩٤٠] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨١.

[١٩٤١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٨/٤.

[١٩٤٢] **فتوح الغيب**، ٦/ ٣١؛ **تفسير ابن كمال باشا**،٣/ ٢٨٠.

[١٩٤٣] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨١.

[١٩٤٤] **فتوح الغيب**، ٦/ ٣١.

[١٩٤٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٨١.

ففيه نظر؛ لأن الرحمة ح الخبر لا نفس الجمع، وجعل ليجمعنكم في ذلك القوة تكلُّف ظاهر، أو بدل من الرحمة بدلَ البعض، فيكون في محلّ النّصب فإن من رحمته بعثكم والأنعام عليكم، لكن المخاطبين قريش والبعث إنما يكون رحمةً لهم بشرط الإيمان، وهو غير مذكور، وتقديره تكلّف، اللّهم إلا أن يقال: يمهلهم إلى يوم القيامة والإمهال رحمة.

ولك أن تقول: بيَّن أوّلًا كمال قدرته ثم بيَّن كمالَ رحمته بالإمهال، ودفع عذاب الاستئصال، ليُعلم أنَّ إمهاله عن ذلك عن رحمةٍ لا عن عجزٍ، ثم بيَّن بأنه يجمعهم إلى يوم القيامة فيجازيهم على شركهم أنَّه يمهل، ولكن لا يهمل، بل يحشر ويجازي على نقيرٍ وقطميرٍ.[١٩٤٦]

﴿**الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ نصب على الذّم، أو رفع على الخبر، أي: أريد الذين خسروا أنفسهم، أو أنتم الذين خسروا أنفسهم،[١٩٤٧] أو على الابتداء والخبر ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ و«الفاء» للدلالة على أنّ عدم إيمانهم مسبَّب عن خسرانهم، أمّا على الثالث فظاهر؛ لأنه قد اشتهر أن المبتدأ إذا كان اسمًا موصولًا صلته فعل يكون متضمنًا بمعنى الشّرط، فيكون مضمون الصلة سببًا لاتصاف المبتدأ [**١٠١**/و] بالخبر، وكذا على الأولين؛ لأن عدم إيمانهم فرع على خسرانهم.

ولما ورد أن يقال: كيف جعل عدم إيمانهم مسبَّبًا عن خسرانهم، والأمر على العكس؟

أجاب عنه المصنف: «بأن معناه: الذين خسروا أنفسهم في علم الله: لاختيارهم الكفر»،[١٩٤٨] فسلم تلك السببية حين اقتصر على تفسير الخسران بحيث يصحُّ أن يجعل سابقًا على امتناعهم عن الإيمان، وسببًا له وهو الخسران في علم الله تع، ولما كان هذا يخالف أصول المعتزلة حيث جعل العلم بأنهم لا يؤمنون سببًا لعدم الإيمان بحيث لا سبيل لهم إليه، كما هو رأي أهل السّنة أشار إلى دفعه بقوله: لاختيارهم الكفر، ولو قال باختيارهم لكان أظهر في المقصود يعني: أن علم الله بأنهم يتركون الإيمان ويؤثرون الكفر صار سببًا لامتناعهم عن الإيمان باختيارهم، وأما عند أهل السنة فقد[١٩٤٩] صار ذلك لعدم إيمانهم بحيث لا سبيل لهم إليه أصلًا، وبهذا يندفع ما قال الإمام الرازي: إن هذا يدلُّ على أن سبق القضاء بالخسران والخذلان هو الذي حملهم على الامتناع عن الإيمان. وذلك عين مذهب أهل السنة.[١٩٥٠]

نعم، إن ما ذكره المصنف أقرب إلى أصول أهل السنة بحسب الظاهر، وإنَ ما ذكره قدس سره أقرب إلى أصول المعتزلة وهو قوله: «فإن إبطال العقل باتباع الحواس، والوهم، والانهماك في التقليد، وإغفال النظر أدّى بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع عن الإيمان، وكذا ما ذكره صاحب **الفرائد**:[١٩٥١] «من أن مَن أضاع رأس المال، لم يحصل له الرّبح ورأس المال هو نفس الحياة، والربح الإيمان، فإذا أضاعها فيما لا يعنيه فقد أهلكها، فلم يحصل له الربح».[١٩٥٢]

وقيل: إذا حمل على «أريد الذين خسروا أنفسهم» كان الأَولى أن يجري على العموم، ليدخل هؤلاء فيه دخولًا أوليًّا فح يتوجَّه عليه سؤالُ المصنف، وينطبق عليه جوابه. وإذا حمل على «أنتم الذين خسروا أنفسهم» ليختصَّ بالمخاطبين، كان المناسب ما ذهب إليه صاحب **الفرائد**. والذي يقتضيه النظم أن الآية تذييل لما سبق، فإن الكلام من أول السورة في حقِّ

[١٩٤٦] **تفسير ابن كمال باشا**،٣/ ٢٨١.

[١٩٤٧] ج– أنفسهم.

[١٩٤٨] **الكشاف**، ٢/٨.

[١٩٤٩] ج– أنفسهم.

[١٩٥٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٧و؛ **حاشيه الشهاب**، ٢٩/٤.

[١٩٥١] **هوالفرائد البهية في نظم القواعد الفقهية** لأبي بكر ابن أبي القاسم الأهدل.

[١٩٥٢] ج – ورأس المال هو نفس الحياة، والربح الإيمان، فإذا أضاعها فيما لا يعنيه فقد أهلكها، فلم يحصل له الربح. **فتوح الغيب**، ٦/ ٣٤.

المعاندين الممترين، ذكَّرهم آيات الآفاق والأنفس، ثم أنذر ع م بإهلاك من هم أشدُّ منهم تمكُّنًا في الأرض، ثم وبَّخهم على قولهم في الكتاب: إنه ﴿سِحْرٌ﴾، وعلى اقتراحهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، وأرشدهم إلى السير في الأرض للاعتبار، ومكَّنهم، وقرَّرهم، وعرَّضهم لرحمة الله الواسعة، ثم بعد الإياس من إيمانهم أتى بقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: في علم الله ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ذمًّا لهم، وتسليةً للرسول لئلا تذهب نفسه عليهم حسرات. نحوه ما سبق في قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة ٧/٢] بعد قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة ٦/٢]. ولذا أوقع الفاصلة بين قوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، وبين المعطوف عليه، لأن لهما مدخلًا في التسلّي.[١٩٥٣]

وفي ﴿خَسِرُوا﴾ استعارةٌ تبعيَّة حيث شبه فقدان ما يوصل إلى الأرباح الدينية بضياعه رأس مال التاجر، فاستعير له الخسران.

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣)﴾ ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾

عطف على ﴿لِلَّهِ﴾، يعني: أنه من عطف المفرد على المفرد، أعني: الخبر على الخبر، والمبتدأ على المبتدأ، كما تقول في: «لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ» إن «لَهُ» عطف على «لَهُ» و«الْحَمْدُ» على «الْمُلْكُ»، أو أن ﴿لَهُ مَا سَكَنَ﴾ عطف على ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فقد حذف المبتدأ والخبر بقرينة السؤال، والأول أظهر.[١٩٥٤]

والمقصود: أن يدخل هذا أيضًا تحت ﴿قُلْ﴾؛ ليكون احتجاجًا ثابتًا على المشركين بأن له ما استقرَّ في الأزمنة، كما أن له ما استقرَّ في الأمكنة؛[١٩٥٥] لأنه ذكر في الآية الأولى: ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ولا مكان سواهما، وفي هذه الآية ذكر: ﴿اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ولا زمان سواهما، والزّمان والمكن طرفان للمحدثات، فأخبر سبحانه بأنه مالك المكان والمكانيات، والزمان والزمانيات، ولذلك جعل سكن من السُّكنى وهو الاستقرار والتَّمكن يقال: سكنت داري وأسكنتها غيري، وهذا وإن كان يتعدى بنفسه ويقال: سكنت بلدة كذا لكنه يتعدَّى ب«في» أيضًا كما في قوله: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [إبراهيم ٤٥/١٤].[١٩٥٦]

وقال في **أساسه**: «وسكنوا الدار، وسكنوا فيها. وأسكنتُهم الدار، وأسكنتم فيها».[١٩٥٧] وذلك لأنّ ما سكن فيهما بهذا المعنى يعمُّ الجميع بخلاف ما إذا كان من السكون الذي هو ضدُّ الحركة، فإنه لا يتناول المتحرّك، وقد جوّزه قدس سره أيضًا على أن يكون من حذف المعطوف اعتمادًا على دلالة المقام عليه والتقدير: وله ما سكن وتحرك في الليل والنهار، وحذف المعطوف اعتمادًا على شهادة المقام كثير في كلام العرب، ومنه قوله تع: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل٨١/١٦] والمعنى: تقيكم الحر والبرد.[١٩٥٨] ومن لم يجوّزه قال: لا وجهَ للسّكون عن المتحرّك في مقام البسط، والتقرير وإظهار كمال الملك

[١٩٥٣] **فتوح الغيب**، ٦/ ٣٥-٣٦.

[١٩٥٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٧و.

[١٩٥٥] **معاني القرآن** للزجاج، ٢٥٥/٢؛ **فتوح الغيب**، ٦/ ٣٤.

[١٩٥٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٩.

[١٩٥٧] **أساس البلاغة**، للزمخشري «سكن»؛ **فتوح الغيب**، ٦/ ٣٤.

[١٩٥٨] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٩.

والتصرف، ثم إن كلّ واحدٍ من المكان والزمان وإن كان[١٩٥٩] مستلزما للآخر، لكن التنصيص عليهما أبلغُ في مقام التقرير والبسط، وقدَّم المكان؛ لأنه أقربُ إلى العقول والأذهان من الزمان. [**١٠١**/ظ]

وقال ابن الكمال: والظاهر أنه استئناف إخبارٍ وليس مندرجًا تحت ﴿قُلْ﴾. ﴿وَسَكَنَ﴾ من السُّكنى، لا من السكون على الاكتفاء بأحد الضِّدين عن الآخر؛ لأنه لا يناسب البسط الظَّاهر قصدُه من تفصيل قُطرَي المكان وصنفي الزمان.[١٩٦٠]

وأنت خبير بأنه إذا كان القصد هذا التفصيل ناسب أن يدخل تحت ﴿قُلْ﴾؛ لأن إدخال بعض التفصيل في حيِّز ﴿قُلْ﴾، وإخراج البعض الآخر مما يخل بحسن النظم، ولا يلائم المقصود من الكلام، ثم المناسب أن يكون قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ مردودًا إلى المعطوف والمعطوف عليه، أي: يعلم كلَّ معلوم من الأجناس المختلفة في السموات والأرض، ويسمع هواجس كل ما سكن في الْمَلَوَيْنِ من الحيوان وغيره،[١٩٦١] وجعله المصنف من تتمة المعطوف حيث قال: «يسمع كل مَسموع، ويعلم كلَّ معلوم، ولا يخفى عليه شيءٌ مما اشتمل عليه الْمَلَوَان».[١٩٦٢]

فعلى الوجهين يكون تقريرًا لما ذكر وعدًا ووعيدًا للموحِّد والمشرك. وجوَّز قدس سره أيضًا: «أن يكون وعيدًا للمشركين على أقوالهم وأفعالهم».[١٩٦٣] وقدِّم المفعول في ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ للاختصاص و﴿أَ﴾ ولِّي حرف الاستفهام؛ ليدلّ على أن الإنكار لنفس المفعول لا للفعل، ولما كان بناء الفعل على المبتدأ مضمرًا كان أو مظهرًا معرَّفًا، أو منكرًا، قد يكون للاختصاص على ما ذكر في مواضع من كلام المصنف جعل قوله: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يونس ٥٩/١٠] الإنكار أن يكون الله قد أذن لهم لا لنفس الإذن، فإنه قد كان من شياطينهم، وجعله **السكاكي**:[١٩٦٤] للتقوّي دون الاختصاص؛ لأن هذا الإذن منكر من أيِّ فاعل كان بمعنى أنه لا ينبغي أن يقع، والمصنف جعله بمعنى: لم يقع فصح الاختصاص إذ وقع من الشيطان.[١٩٦٥]

وقال ابن الكمال: لا دخل فيما ذكر لتقديم المفعول؛ لأنه لازم لدخول الهمزة فكان تبعًا، وعبَّر بالولي عن المعبود؛ لأن أوَّل درجة العبادة لشخصٍ اتِّخاذه وليًّا، فنفيه أبلغ.[١٩٦٦]

﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤)﴾.

مبدِعهما أي: خالقهما ابتداء لا على مثال سبق؛ ولذلك قال ابن عباس: «ما عرفتُه حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئرٍ، فقال أحدهما: أنا فطرتُها، أي: ابتدأْتُها»،[١٩٦٧] وهو بمعنى الماضي. ولذلك قرئ: «فَطَرَ»[١٩٦٨] فلا يعمل حتى يضافَ إلى

[١٩٥٩] ج- وإن كان.

[١٩٦٠] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٨٢.

[١٩٦١] **فتوح الغيب**، ٦/ ٣٧.

[١٩٦٢] **الكشاف**، ٩/٢.

[١٩٦٣] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨١.

[١٩٦٤] يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي أبي يعقوب السكاكي، سراج الدين الخوارزمي. ولد ليلة الثلاثاء، ثالث جمادى الأولى، سنة خمس وخمسين وخمسمائة. وبرع في عدة علوم، ما بين نحو، وتصريف، ومعانٍ، وبيان، وعروض، وشعر. وصنف كتاب "المفتاح". ومات سنة ست وعشرين وستمائة. تاج التراجم – لأبي الفداء زين الدين أبي العدل قاسم بن قُطلُوبغا السودوني

[١٩٦٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٧ظ-٣٢٨و؛ **حاشيه الشهاب**، ٣١/٤.

[١٩٦٦] **تفسير ابن كمال باشا**،٣/ ٢٨٢-٢٨٣.

[١٩٦٧] **إرشاد عقل السليم**، ٣/ ٢٤٢.

معموله فتكون لفظيةً غير مفيدة للتعريف، بل معنوية مفيدة له فيكون صفته ﴿لِلَّهِ﴾ والجملة الفعلية بينهما ليست بأجنبية عن الموصوف؛ إذ هي عاملة في عامل الموصوف، أو بدلٌ منه ورجح بأن الفصل بين البدل والمبدل منه أسهل؛ لأنه على نية تكرير العامل، فكأنه لا فصل.[١٩٦٩]

وقرئ بالرفع[١٩٧٠] والنصب[١٩٧١] على المدح، ومعنى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، أي: المنافع كلُّها من عنده، ولا يجوز عليه الانتفاع، فذكر الطُّعم من باب تنزيل جلّ الشيء منزلة كلّه.

وقيل: تخصيص الطُّعم لأنها جاءت مقرِّرةً للجوب السابق، وهو قوله: ﴿لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. يعني: قل لهم بعد ذلك للتقرير: أغير الذي ذكرتُه ممن له ما في السموات وما في الأرض، والذي منه الرحمة العظمى أتّخذ وليًّا؟ فوضع: ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ موازيًا لـ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ تغييرًا لهم، وأنّهم لا يعرجون إلى المعارف الوارفة بعد الطّعم، واستيفاء الشهوات واللّذات الجسمانية، كالبهائم.[١٩٧٢]

وقرئ: «وَلَا يَطْعَمُ»[١٩٧٣] بفتح الياء والعين، أي: ولا يأكل، وبعكس الأول على بناء الأول للمفعول والثاني للفاعل على أن الضمير لـ﴿غَيْرَ اللَّهِ﴾، أي: وهو يطعمه غيره ولا يطعم أحد لعجزه فكيف أشرك بمن هو فاطر السموات والأرض ما هو نازل عن رتبة الحيوانية؟[١٩٧٤]

فإن قيل: الكلام مع عبدة الأصنام والصنم لا يطعم كما لا يُطعم.

قلنا: صح ذلك بالنّظر إلى إطلاق غير الله فإن منه من يطعم، كالمسيح من معبودات الكفرة فغلّب، وفيه إنكار أن يصلح الأصنام للألوهية بطريق الأولى وورد على طريقتهم في إطعام الأصنام.[١٩٧٥]

وبنائهما للفاعل، على أن الضمير له تعكما في الأوليين، إمَّا على معنى وهو يُطْعِم ولا يَسْتَطْعِمُ من أَطْعَمَ بمعنى استَطْعَمَ، أو على أنه يُطعم تارةً ولا يطعم أخرى؛ على حسب المصالح، كقولك: هو يعطي ويمنع ويبسط ويقبض.[١٩٧٦]

﴿**قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ**﴾؛ لأن النّبيّ سابقُ أمَّته في الإسلام، وهذا على طريق التّحريض على الإسلام، كما يأمر الملك رعيّته بأمرٍ ثم يُتبعه بقوله: أنا أول من يفعل ذلك؛ ليَحملهم على فعله. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ عطف على ﴿أُمِرْتُ﴾ بتقدير: «وقيل لي: لا تكونَنّ».

وقال ابن الكمال: لا حاجة إلى هذا التقدير؛ لأن معنى قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ﴾ قيل لي: كن أوّل من أسلم، فيعطف باعتبار معناه.

[١٩٦٨] قراءة شاذّة، مروية عن نبيح والجراح. **شواذ القراءات** للكرماني، ١٦٥/١؛ **الكشاف**، ٩/٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨١.

[١٩٦٩] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨١.

[١٩٧٠] قراءة شاذّة، مروية عن ابن أبي عبلة. **شواذ القراءات** للكرماني، ١٦٥/١.

[١٩٧١] قراءة شاذّة. **شواذ القراءات** للكرماني، ١٦٥/١؛ **البحر المحيط** لأبي حيان، ٤٥٢/٤.

[١٩٧٢] **فتوح الغيب**، ٦/ ٣٩.

[١٩٧٣] قراءة شاذّة، مروية عن مجاهد و سعيد بن جبير وعمرو بن عبيد. **شواذ القراءات** للكرماني، ١٦٥/١.

[١٩٧٤] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٢٠/٤.

[١٩٧٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٨و.

[١٩٧٦] **الكشاف**، ٩/٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٢٠؛ **تفسير ابن كمال باشا**،٣/ ٢٨٢-٢٨٣.

وأنت خبير: بأن جعل معناه على هذا ليس بأوّل تكلفًا من التقدير، والمعنى: أمرت بالمسارعة إلى الإسلام، ونُهيت عن الشرك. ولتعلُّق الأمر بالمسارعة دون نفس الإسلام لم يؤكَّد تأكيد النَّهي المتعلِّق لنفس الشرك.[١٩٧٧]

ولا يعطف على ﴿أَنْ أَكُونَ﴾؛ إذ لا وجه للالتفات، ولا معنى لقولك: أمرت أن لا يكونَن،[١٩٧٨] وكان الظاهر [١٠٢/و] حينئذ أن يقال: وأن لا أكون. وجوّز عطفه على ﴿قُلْ﴾ عطف النهي على الأمر، ويَرِدُ عليه: أن سلامة النظم تأبى عن فصل الخطابات التبليغية بعضِها عن بعضٍ بخطاب ليس منها.[١٩٧٩]

وقال بعض العارفين: أمرني حين كنت جوهر فطرة الكون، حيث لم يكن غيري في الحضرة أن أكون أوّل الخلق له في المحبة، والعشق، والشوق، وأوّل الخلق له في الانقياد، والرِّضاء بربوبيته، غير منازع لأمر مشيَّته.

وقال بعضهم: أكون أول مَن انقاد للحق.

وقال ابن عطاء: أن أكون من الخاضعين، لما يبدو من مبادئ القدرة.[١٩٨٠]

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾ ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦)﴾

الشرط معترِض بين الفعل والمفعول، وجوابه محذوفٌ دلَّ عليه الجملة. والأنبياء عليهم السلام وإن كانوا معصومين عن الكفر إلا أنه قد يفرض إذا تعلَّق به غرض صحيح؛ من المبالغة في قطع أطماعهم؛ والتعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب،[١٩٨١] على أن العصمة لا ترسل المحنة والخوف توقع مكروه.

وقال ابن عباس: «الخوف ههنا بمعنى العلم».

﴿مَنْ يُصْرَفْ﴾ أي: العذاب عنه. قال ابن لكمال: وهذا أبلغ؛ لتضمّنه معنى أن يقال: إن انصراف العذاب رحمةٌ من الله سواءٌ كان الصارف هو أو غيره، فإن فيه تنبيهًا على أن الغير كالشُّفعاء وإن كان صارفًا للعذاب عن العصاة لكن صرفهم ذلك بإذن الله.[١٩٨٢]

وأنت خبير: بأن مبناه أن يكون طي ذكر الفاعل للتعميم، وليس كذلك، بل لتضمين الفاعل، وكون القصد إلى المصروف دون الصّارف.

وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو كر عن عاصمٍ ﴿يَصْرِفْ﴾[١٩٨٣] مبنيًا للفاعل، على أن الضمير لله ويؤيده القراءة بإظهاره، ويناسبه الجزاء، والمفعول به محذوف لظهوره ممّا قبله، أو ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بحذف المضاف.[١٩٨٤]

[١٩٧٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٨٤.

[١٩٧٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٨و.

[١٩٧٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٨٥.

[١٩٨٠] **عرائس البيان**، ١/ ٣٤٩.

[١٩٨١] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٨٥.

[١٩٨٢] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٨٥.

[١٩٨٣] **كتاب السبعة**، ص ٢٥٤؛ **التيسير**، ص ٣٣٩؛ **النشر**، ٢/ ١٩٣.

[١٩٨٤] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٨٦.

وقال **الشارح المرحوم**:[١٩٨٥] على تقدير حذف المضاف منه يكون المفعول محذوفًا أيضًا، ولا يكون قوله: «أو يومئذ» بحذف المضاف قسيمًا لقوله: «والمفعول به محذوف»، فلا يكون الفرق بين الوجهين حذف المفعول وعدمه، بل كون يومئذ مبتدأً على أحد الاحتمالين ظرفًا، وعلى الآخر مضافًا إليه.[١٩٨٦]

وأنت خبير: بأن الفرق ظاهر بين هذا المحذوف والمحذوف السابق؛ فإن المحذوف هنا بمعنى المعدول عنه، أي: عن نصب المضاف إلى نصب المضاف إليه، حتى جعل المضاف إليه مفعولًا به بخلاف المحذوف السابق؛ إذ ليس هو معدولًا عنه، بل هو مقدَّر في التَّركيب، ولا كذلك الحال في تقدير المضاف؛ إذ ليس المراد تقدير ما في التركيب على أن يكون المضاف إليه على إعراب المضاف إليه، بل أعطي حكم المضاف المضاف إليه، فجعل مفعولًا به، ولما اتَّحد ظهر الشرط والجزاء، احتيج إلى التأويل؛ ليفيد فذكر المصنف له وجهين حيث قال: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ «الرحمة العظمى وهي النجاة، كقولك: إن أطعمتَ زيدًا من جوعه فقد أحسنتَ إليه، تريد: فقد أتممت الإحسانَ إليه، أو فقد أدخله الجنة؛ لأن من لم يعذَّب لم يكن له بُدٌّ من الثواب».[١٩٨٧]

فعلى الأوَّل: يكون من قبيل: «من أدرك الصمَّان فقد أدرك المرعى»، «ومَن كانَتْ هِجْرَتُهُ إلى اللهِ ورَسولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلى اللهِ ورَسولِهِ»،[١٩٨٨] ومن قبيل صرف المطلق إلى الكامل.

وعلى الثاني: من ذكر الملزوم وإرادة اللازم؛ لأن إدخال الجنة من لوازم الرحمة؛ إذ هي وحدها دار الثواب اللازم لترك العقاب، ونوقض بأصحاب الأعراف،[١٩٨٩] حيث صرف عنهم العذاب مع عدم إدخالهم الجنة، ويمكن أن يقال: إنهم من أهل الجنة من وجهٍ وهي من تتمة الجنة، وإلا يلزم أن يكون الدّار ثلاثة وأن الخلاص من العذاب نوعٌ من الثواب مع أنها مقام الثواب أيضًا على قول بعضهم.

وعبارته قدس سره: ﴿فَقَدْ﴾ نجاه وأنعم عليه فلعلّه إشارة إلى وجهي جواب المصنف، ويحتمل أن يكون بيانًا لنوع المراد من الرحمة، وأن يكون المراد من الآية، فقد ظهر رحمته السابقة، أو فقد وقع عليه الرحمة.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ع م كَانَ يُعَلِّمُهُمْ هَذَا الدُّعَاءَ، كَمَا يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ يَقُولُ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ»، رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.[١٩٩٠]

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨)﴾.

[١٩٨٥] **هو محي الدين شيخ زاده.**

[١٩٨٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٢١.

[١٩٨٧] **الكشاف**، ٢/ ١٠.

[١٩٨٨] **صحيحالبخاري**، ٣/١٤٥ (٢٥٢٩).

[١٩٨٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٨و.

[١٩٩٠] **مسند أحمد**، ٥/ ٤٠ (٢٨٣٨)؛ **صحيح مسلم**، ٤١٢/١ (٥٨٨)؛ **سنن ابن ماجه**، ١٢٦٢/٢ (٣٨٤٠)، **سنن أبي داود**، ٢٢٩/٢ (٩٨٤)، **سنن الترمذي**، ٥٢٤/٥ (٣٤٩٤).

دليل آخر على أنه لا يجوز للعاقل أن يتخذ غير الله وليًّا و«الباء» في ﴿بِضُرٍّ﴾ للتعدية. قال الراغب: «الضُّرُّ: سوء الحال، إما في النفس، لقلَّة العلم والفضل والعفَّة، وإما في البدن، لعدم جارحةٍ ونقصٍ، ومرض، وإما في حالة ظاهرة من قلَّة مالٍ وجاهٍ.[١٩٩١]

وقال ابن الكمال: والضُّر الذي هو سوء الحال أخصّ من الشَّرِّ المقابل للخير، وإنما خصَّه بالذكر لشدة الحاجة فيه إلى الكشف.[١٩٩٢]

﴿**فَلَا كَاشِفَ لَهُ**﴾ أي: فلا قادر على كشفه. ﴿**إِلَّا هُوَ**﴾ ﴿**لَهُ**﴾ خبر ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾﴿إِلَّا هُوَ﴾ بدل من موضع [**١٠٢**/ظ] لا كاشف، أو من الضمير في الظرف.

﴿**فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ فكان قادرًا على إدامته وحفظه، أو فلا يقدر غيره على دفعه كقوله: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس١٠/١٠٧]، وبأحَد هذين يحصل ارتباط في الجزاء بالشرط، ولعلَّ ذكر القدرة على كل شيء للاعتناء بشأن الخير، والملائمة لما يذكر بعده من كمال القهر.

وقال ابن الكمال: حذف جواب الثاني؛ لدلالة جواب الأوّل عليه، ثم أكَّد الجوابين بشمول قدرته على كل شيء.[١٩٩٣]

وعن ابن عباس: «كنت ردف النبي فقال لي: يا غلام احفظ الله يحفَظْك، احفظ الله تجِدْه أمامك، تَعَرَّف إليه في الرَّخاء يعرِفْك في الشدة، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذ استعنتَ فاستعِنْ بالله، فقد جفَّ القلم بم هو كائنٌ، فلو أن الخلق كلَّهم أرادوا أن يضرُّوك بشيءٍ لم يقضِهِ الله لك؛ لم يَقْدِرُوا عليه، واعمل لله بالشكر واليقين، واعلم أنَّ في الصَّبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، وأن النَّصر مع الصَّبر، وأن الفَرَج مع الكَرب، وأنَّ مع العسر يسرًا».

﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ و﴿الْقَاهِرُ﴾ خبر و﴿فَوْقَ﴾ في موضع نصب على الحال من الضَّمير في ﴿الْقَاهِرُ﴾، أي: وهو القاهر مستعليًا أو عاليًا أو في موضع رفع على أنهّ بدل من ﴿الْقَاهِرُ﴾، أو خبر ثانٍ، ولَمَّا ورد أن يقال: إنه يوهم كونه في جهة وهو منزَّه عنها؟

أجيب: بأنه تصوير لقهره، وعلوِّه بالغلبة والقدرة على أنه استعارة تمثيلية صور قهره، وعلوّ شأنه بالعلوّ الحسِّي، فعبّر عنه بالفوقيَّة، وذلك كما يقول: السلطان فوق الرعية، أي: بالمنزلة، والرفعة، والتَّسلُّط، وفي القهر معنى زائد ليس في القدرة وهو منع غيره عن بلوغ المراد.

﴿**وَهُوَ الْحَكِيمُ**﴾ في أمره وتدبيره لأمور عباده ﴿**الْخَبِيرُ**﴾ بهم وبخفايا أحوالهم، فذكر القهر والفوقيَّة لإثبات كمال القدرة، وذكر الوصفين؛ لإثبات كمال العلم، فمن اتّصف بهذه الصفات يجب أن لا يشرك به.

وقال بعض العارفين: إن يمسسك بضرِّ الحجاب، فلا كشف لضرِّه إلا مشاهدة جماله لك.

وقال الجنيد: معبودك أول خاطر يخطر ببالك عند نزول خيرٍ، أو ظهور بلاء، إن رجعت فيه إلى الله فهو معبودك، وهو الذي يكفيك، وإن رجعت إلى غيره تركك.

[١٩٩١] **المفردات في غريب القرآن** للراغب الأصفهاني، ص ٢٩٦؛ **فتوح الغيب**، ٦/ ٤٢.

[١٩٩٢] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٨٧.

[١٩٩٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٨٧.

وقال الأستاذ: إنَّما ينجيك من البلاء من يلقيك من الفناء؛ إذ المتفرِّد بالإبداع واحدٌ، فالأغيار كلُّهم أفعالٌ، والإيجاد لا يصلح من الأفعال.

وقيل: جبر العباد وقهرهم حتى لو استطاعوا عنه معدلًا ما أطاقوا، يجحدون ظاهرين فكذبهم البواطن.

وقال الحسين: القاهرية تمحو كلَّ موجود.

وقال بعضهم: قهرهم على الإيجاد والإظهار، كما قهرهم على الموت والفناء.

وقال بعضهم: القاهر: الآمر الذي يأمر بالطاعة من غير حاجة إليه، والناهي عن المنكر من غير كراهية، والمثيب من غير عوض، والمعاقب من غير حقد، لا يشتفي بالعقوبة ولا يتضرَّر بالطاعة.[١٩٩٤]

وقيل: قهر نفوس العابدين، وقلوب العارفين وأرواح المحبِّين، فنفس العابد مقهور بخوف عقوبته، وقلب العارف مقهور بقهر فرقته، وروح المحبِّ مقهور بكشف حقيقته.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)﴾

نزل حين قال قريش: يا محمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا مَن يشهد لك أنك رسول الله.[١٩٩٥]

«والشيء يقع على كل موجودٍ»؛[١٩٩٦] لأنه في الأصل مصدر شاء أطلق بمعنى شائي تارةً، و ح يتناول الباري، وبمعنى: مشيء أخرى، أي: مشيء وجوده وما شاء الله وجوده فهو موجود. فوضع شيئًا موضع شهيدٍ للمبالغة؛ لأن لا شيءَ أكبر شهادةً أبلغ من لا شهيد.[١٩٩٧]

قال المصنف: الشيء: أعمُّ العامّ لوقوعه على كلِّ ما يصحُّ أن يُعلم ويُخبر عنه، فيقع على القديم والجوهر والعرض والمحال والمستقيم، ولذلك صحَّ أن يقال في الله: «شيءٌ» لا كالأشياء، كأنك قلت: معلوم لا كالمعلومات، ولم يصحَّ: جسمٌ لا كالأجسام.[١٩٩٨] يعني: أنه لا يخصُّ الموجود، ولا المعدوم الممكن، ولا الجسم على ما ذهب إلى كل من ذلك فرقة، وقد يتوهَّم أن الخمسة أقسام متقابلة ينحصر فيه الشيء؛ لأنه إمَّا موجود أو معدوم، والموجود إما واجب، أو جرم، وعرض، والمعدوم، إمَّا ممتنع أو ممكن، ومبناه على نفي المجردات، وعلى شمول الجرم الجوهر الفرد والجسم، وعلى تخصيص المستقيم بالمعدوم.[١٩٩٩]

وكان جهمٌ ينكر كونه تع [تعالى] شيئًا، ويحتجُّ بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف ٧/ ١٨٠] ويقول: «إذا دلَّ اسم على صفة من صفات الكمال، يطلق عليه، والشيء ليس كذلك.[٢٠٠٠]

[١٩٩٤] **عرائس البيان**، ١/ ٣٥٠؛ **حقائق التفسير** للسلمي، ١/ ١٩٥.

[١٩٩٥] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٢.

[١٩٩٦] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٢.

[١٩٩٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٢٢.

[١٩٩٨] **الكشاف**، ٢/ ١٠.

[١٩٩٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٨و.

[٢٠٠٠] **فتوح الغيب**، ٦/ ٤٤.

﴿**قُلِ اللَّهِ**﴾ هو الجواب أي: الله أكبر شهادة، وهذا من باب قوله: ﴿قُلِ اللَّهِ﴾ في كونه جوابًا تقريريًّا وقد مرَّ بيان النكت فيه، ثم ابتدأ بقوله: ﴿**شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**﴾، ولم يقل: «بيننا»؛ للإيماء إلى معنى التفصيل المترتِّب على الشهدة المقبولة.[٢٠٠١]

ووجه النظم أنه احتيج السورة بدلائل الآفاق والأنفس، وقرن معهما حججًا نبّه بالآية على أن جميعها شهادةٌ منه تعالى على توحيده، وعِلمه، وقدرته، وسائر صفاته؛لأن نصب الأدلَّة هو الأصل فيها. ولهذا فصَل شهادة الله على شهادة الغير في قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ [آل عمران ١٨/٣] يعني: مَنْ يَقْدر على مثلِ هذه الأشياء حتى يكون أكبر شهادةً منه؟

ثم جعله مَخْلَصًا إلى إثبات رسالته، يعني: مثلُ هذا الشاهد العظيم الشأن، يشهد بيني وبينكم يوحى هذا القرآن للإنذار. [**١٠٣**/و]

ثم أنكر عليهم الإنكار البليغ بقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ [الأنعام ١٩/٦]، يعني: بعد توضيح الدَّلالات، أنتم ثابتون على ما أنتم عليه؟ ما أعظم عنادكم!

ثم قوله: ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام ١٩/٦]، أمرٌ بالإعراض عليهم، والتبتُّل إلى الله؛ لأنه سنةُ أبيه إبراهيم، فإنه بعد ما أنذر وبالغ، قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم ٤٨/١٩]. وبعد الاحتجاج عليهم بالكواكب، قال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام ٧٨/٦-٧٩].[٢٠٠٢]

ويجوز أن يكون المجموع هو الجواب على أن يكون ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ و﴿شَهِيدٌ﴾ خبرًا. فيشبه الأسلوب الحكيم، كأنه قيل: معلوم أن الله هو الأكبر شهادة، والوهم لا يذهب إلى أن هذا الشاهد يحتمل أن يكون غيره حتى يحتاج إلى التصريح، لكن الأنسب بالمقام هو الإخبارُ بأن الله شهيدٌ لي لينتج مع قولنا: الله أكبر شهادة إن الأكبر شهادة شهيد لي.[٢٠٠٣]

وقد قيل: هذا من الشكل الثالث، وأورد عليه بأن إيجاب الصغرى وكلية إحدى المقدمتين شرط فيه ولا كلية ههنا؟ أجيب بأن الجزئي الحقيقي في قوة الكلية في الإنتاج نحو: زيدٌ كاتبٌ، زيد شاعر، ينتج بعض الكاتب شاعر.

وعن بعض العارفين: أيُّ شيء أعظم من شهود الله بوصف ظهوره تجلّي جلاله وجماله من كل ذرّة على كل شيء من العرش إلى الثّرى، وذلك شهادته الأزلية التي سبقت منه على وحدانيته، حيث لم يكن وجود الحدث في القدم. وتصديق ذلك جواب الأمر بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.[٢٠٠٤]

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (١٩)

[٢٠٠١] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٨٨.

[٢٠٠٢] **فتوح الغيب**، ٦/ ٤٤-٤٦.

[٢٠٠٣] **فتوح الغيب**، ٦/ ٤٦؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و٣٢و؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٨٨.

[٢٠٠٤] **عرائس البيان**، ٣٥٠/١.

وإنما علل الوحي بالإنذار مع كونه للتبشير أيضًا؛ لأنه المقصود الأول منه؛ لأن أوّل ما طلع تباشير الرسالة إنما هو على المتجبرين في بيداء الضلالة، ونداء اقتصر عليه في مبدأ الأمر حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ۝قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [٧٤/١-٢] ولأنه شامل للكلّ فإن بعضًا ينذر بالنار، وبعضًا بانحطاط الدرجات، وبعضًا بالحجاب.

وقال قدس سره: اكتُفي بذكر الإنذار عن ذكر البشارة.[٢٠٠٥]

وقال ابن الكمال: الخطاب لكفَّار مكَّة، وليس فيهم ما يصحُّ أن يبشَّروا به، ولذلك خصَّ الإنذار بالذِّكر.[٢٠٠٦]

وأنت خبير بأنه عامٌّ بالنظر إلى قوله: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ وهو عطف على ضمير المخاطب أي: لِأُنذِرَكم بِهِ يا أهل مكة وسائرَ مَن بلغه من الأسود والأحمر ، أو من الثقلين، أو: لأنذركم به أيها الموجودون ومن بلغه إلى يوم القيامة وهو دليل على أن أحكام القرآن تعُمّ الموجودين وقتَ النزول ومن بعدهم،[٢٠٠٧] لا على أن صيغة الخطاب تتناول لهم قصدًا؛ إذ لا خطاب تكليف بالفعل للمعدوم، بل إما بدليلٍ آخر من نصٍّ، أو إجماعٍ أو قياسٍ، أو يكون الخطاب للحاضرين قصدًا، وللغائبين والمعدومين ضمنًا وتبعًا، أو يكون الأمر في معنى الخبر وفيه بعد، وإمَّا ما يقال: من أن الأمر التكليفي يتعلّق بالمعدوم ضمنًا تعلّق الكلام النفسي به، كأن يقدم بنفس الأب طلب العلم ممن سيولد له لا توجيه الكلام اللفظي نحوه: وفيه كلام ذكر في موضعه، وأنه لا يؤاخذ بالأحكام من لم يبلغه الإعلام.

وقال ابن الكمال: «لا دلالة فيه عليه إلا عند مَن قال بحجيَّة المفهوم».[٢٠٠٨]

وأنت خبير: بأن عنوان الكلام يدلُّ عليه؛ إذ لو لم يتوقف الأمر على الإنذار لم يكن غاية.

ويجوز أن يكون في موضع رفع عطفًا على الضمير المستكنِ في ﴿لِأُنْذِرَكُمْ﴾، وجاز ذلك للفصل بينه وبين الضمير، أي: ولينذر به مَن بلغه القرآن.[٢٠٠٩]

﴿**أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ**﴾ «تقرير لهم»، أي: إلجاء إلى الإقرار بإشراكهم؛ إذ لا سبيل لهم إلى إنكاره لاشتهارهم به، والاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ على وقوعه. والجمهور على تحقيق الهمزتين في: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾. وقرئ: بتسهيل الثانية وبإدخال الفصل بين الهمزة الأولى والمسهَّلة.[٢٠١٠]

والظاهر أن هذه الجملة الاستفهاميَّة في محلِّ النصب؛ لكونها في حيِّز القول على أنه تع أمر رسوله أن يقول: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾، وأن يقول: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ و﴿أُخْرَى﴾ صفة لـ﴿آلِهَةً﴾، ولما كانت تلك الآلهة حجارةً وخشبًا، أُجريت مُجرى المفرد تحقيرًا لها، فوصفت بما يوصف به المفرد.

وقيل: أخرى والأولى أن يقال: إن ما لا يعقل يعامل جمعه معاملة الواحدة المؤنثة، فالتحقير من جعل ما لا يعمل آلهة لا من إجراء جمعه مُجرى المفرد؛ لئلا يرد قوله: ﴿مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه ٢٠/١٨] ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾. والظاهر أن كلمة «مَا» كافَّة؛ لأن عن عملها وهو مبتدأ و﴿إِلَٰهٌ﴾ خبره و﴿وَاحِدٌ﴾ صفته وإن احتمل أن تكون موصولةً بمعنى الذي منصوبة المحل على

[٢٠٠٥] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٢.

[٢٠٠٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٨٩.

[٢٠٠٧] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٢.

[٢٠٠٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٨٩.

[٢٠٠٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٨٩.

[٢٠١٠] **البدور الزاهرة** لعبد الفتاح القاضي، تحقيق: أحمد عنية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص ١٠١.

أنها اسم ﴿أَنَّ﴾ ويكون ﴿هُوَ إِلَٰهٌ﴾ صلةً وعائدًا، وقوله: ﴿وَاحِدٌ﴾ خبران والتقدير: إنَّ الذي هو إله واحدٌ أنكر القول بالإشراك أولًا بالاستفهام الإنكاري، ثم أكّد ذلك وأوجب القول بالتوحيد[٢٠١١] من ثلاثة أوجهٍ: أوّلها: قوله: ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾، وثانيها قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ بأداة الحصر والتصريح بلفظٍ واحدٍ. وثالثها قوله: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ فإنه صريح في التبرئ [١٠٣/ظ] عن إثبات الشركاء فلذلك قال العلماء: يستحب لمن أسلم ابتداء أن يأتي بالشهادتين ويتبرأ عن كل دينٍ سوى دين الإسلام. ونصّ الشافعي على استحباب ضمّ التبرئ إلى الشهادتين.[٢٠١٢]

واستدل عليه بذلك كان النبي ع ميقول: «دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ حِينَ يُسَلِّمُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، له المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهو علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ، لا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللَّهِ، لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، له النِّعْمَةُ وَلَهُ الفَضْلُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ الحَسَنُ، لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصِينَ له الدِّينَ ولو كَرِهَ الكَافِرُونَ».[٢٠١٣]

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٢٠)﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١)﴾

يعرفون رسول الله بحليته ونعته في الكتابين معرفةً يقينيَّة، ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ بحلاهم ونعوتهم، لا يخفون عليهم، ولا يلتبسون بغيرهم. وهذا استشهادٌ لأهل مكَّة بمعرفة أهل الكتاب به، وبصحَّة نبوَّته.[٢٠١٤]

فوزان هذا مع ما قبله وِزانُ قوله تع [تعالى]:**﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾** [الرعد١٣/٤٣].

ولكن هذا خاصٌ ابتداءً، وما نحن فيه عامٌّ مخصَّصٌ بقوله: **﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾**. وبيانه: أنه تعأمر رسوله أولًا بأن يقول للكافرين: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ ويجيب بأن **﴿اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ﴾** إثباتًا لنبوَّته، بكونه تع أظهر هذا الكلام المعجز دلالة عليها، ثمَّ ثنَّى بقوله: **﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾** تقريرًا وتوكيدًا، ثم قدَّر للمشركين أن يقولوا: إن أكثر أهل الكتابين لا يشهدون بذلك، فأجيبوا بقوله: **﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾**: من المشركين ومن أهل الكتاب.[٢٠١٥]

﴿فَـهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ به، على أنه ليس إشارة إلى **﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾** خاصّة، ولذا كان مبتدأً خبره فهم لا يؤمنون لا نصبًا على الذمّ أو رفعًا كما في ما تقدّم، ودخلت «الفاء» في الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط؛ فإنّ تضييع المشركين وأهل الكتاب، فإنه تضييع الإيمان وهو الفطرة الأصلية والعقل السليم سببٌ لعدم الإيمان يترتَّب هو عليه، كما يترتَّب الجواب على الشرط.

[٢٠١١] ج + ثم أكّد ذلك وأوجب القول بالتوحيد.

[٢٠١٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٢٣.

[٢٠١٣] **صحيح مسلم**، ٤١٥/١ (٥٩٤).

[٢٠١٤] **الكشاف**، ٢/ ١١.

[٢٠١٥] **فتوح الغيب**، ٦/ ٤٧.

روي أنه لما قَدِم رسول الله «المدينة» قال عمر لعبد الله بن سلام: أنزل الله هذه الآية على نبيّه فكيف هذه المعرفة؟ فقال: يا عمر لقد عرفت فيكم حين رأيتُه، كما أعرف ابني ولأنّا أشدّ معرفة بمحمد ع م بابني؛ لأني لا أَدري ما صنعَ النساء وأشهدُ أنه حقٌّ مُرسل من الله.[٢٠١٦]

جمعوا بين أمرين متناقضين، فكذّبوا على الله ما لا حجةَ عليه، وكذّبوا بما ثبت بالحجة حيث قالوا: ﴿**لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا**﴾ [الأنعام ١٤٨/٦] ﴿**وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا**﴾ [الأعراف ٢٨/٦] «الملائكة بنات الله» ﴿**هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ**﴾ [يونس ١٨/١٠] ، ونسبوا إليه تحريم البحائر والسَّائب، وكذَّبوا القرآن والمعجزات، وسمَّوها سحرًا، ولم يؤمنوا بالرَّسول.[٢٠١٧]

والأمران افتراؤهم على الله ما هو باطل غير ثابتٍ، وتكذيبهم ما هو ثابت بالحجّة، وظاهر العبارة أنّ كلًا من الأمرين يناقض الآخر، ووجهة أن يراد أنهما لا يجتمعان عند العاقل وأنَّ من نفى ما ثبت بالبرهان، فأولى أن ينفى ما لم يثبت به، ومن أثبت ما لا حجَّةَ عليه، فأولى أن يثبت ما عليه البرهان، ونفي الثّابت يناقض إثباته، وكذا إثبات المنفي يناقض نفيه.[٢٠١٨]

وقيل: المراد أن كلًّا من الأمرين مشتمل على التّناقض؛ لأن تصديق الباطل وإثبات المنفي في قوة أنه ثابتٌ، أي: بحسب الزّعم ليس بثابت، أي: بحسب الواقع وكذا تكذيب الحقّ ونفي الثّابت والكلّ تكلّف، ومعنى: «جمعهم بين الأمرين» أنهم ذهبوا إليهما جميعًا، لكن ورد في النظم كلمة «أو»؛ لأن المعنى: «أنه لا أظلم ممَّن ذهب إلى أحد الأمرين، وأن كلّ واحد منهما بالغٌ غايةَ الإفراط في الظلم على النفس»، فكيف بمن جمع بينهما.[٢٠١٩]

وقيل: للإشارة إلى أنّ كلّ واحد منهما بلغ في الفظاعة بحيث لا يمكن الجمع بينهما، وأن الثابت أحد الأمرين. وهم في الجمع بينهما، كمن جمع بين أمرين متناقضين. ويجوز أن يكون، ﴿**أَوْ**﴾ بمعنى «الواو»، كقوله تع [تعالى]: ﴿**عُذْرًا أَوْ نُذْرًا**﴾ [المرسلات ٧/٨٨].[٢٠٢٠]

﴿**إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ جاء بضمير الشأن مع ﴿**إِنَّ**﴾؛ للإجمال والتّفصيل، والتَّنبيه على أن الظَّالم قط لا يفلح، فكيف بمن لا أحد أظلم منه؟[٢٠٢١]

وقال بعض العارفين: كانوا يعرفونه بنعوته، لكن لم يعرفوه بنور معرفة الله، ورؤية مشاهدة الله في وجهه، كانوا مقلّدين في معرفته؛ لذلك خالفوه، ولو عرفوه بمعرفة الله لَكانوا كالصحابة المباركة، حيث كانوا تراب قدمه.[٢٠٢٢]

﴿**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢)**﴾

ويوم نحشر المفترين أو ويوم نحشر الناس، فيدخل هؤلاء أولًا، وحُذف عامل الظّرف ليكون أبلغ في التهويل؛ [**١٠٤**/و] لأنَّ إبهام ما يقع فيه يدلُّ على أنه لغاية هوله لا يكتنه كنهه، أي: يكون كَيْتَ وَكَيْتَ، مما لا يدخل تحت الوصف،

[٢٠١٦] **اللباب**، ٧٨/٨؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٢٣/٤-٢٤.

[٢٠١٧] **الكشاف**، ٢/ ١١.

[٢٠١٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٨ظ. **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣٦٩/٣.

[٢٠١٩] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٣؛ **فتوح الغيب**، ٦/ ٤٩؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٨ظ.

[٢٠٢٠] **فتوح الغيب**، ٦/ ٤٩.

[٢٠٢١] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٩١.

[٢٠٢٢] **عرائس البيان**، ٣٥١/١.

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾ من إقامة الظَّاهر مُقام المضمر إن جعل ضمير ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ للمفترين إذ الأصل نقول لهم: وإنما أظهر تصريحًا بمنشأ التقريع والتبكيت.[٢٠٢٣]

وقرأ يعقوب: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ و﴿يَقُولُ﴾ بالياء،[٢٠٢٤] وإنما أضيف الشركاء إليهم؛ لأنه لا شركة في الحقيقة بين الأصنام والمعبود بالحقِّ. وإنما أوقع عليها اسمَ الشريك بمجرَّد تسميتهم لها شركاء، فأضيف إليهم بهذه النسبة، ويعضده التعبير عن اعتقادهم بالزَّعم، فإنه كالعَلَم في الباطل، ولا يخفى ما فيه من التَّهكُّم.[٢٠٢٥]

﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم شركاء لله، حذف المفعولان لدلالة سياق الكلام عليه.[٢٠٢٦]

قال المصنف: «وإنما يقال لهم ذلك على التوبيخ، ويجوز أن يشاهدوهم، إلا أنهم حين لا ينفعونهم، ولا يكون منهم ما رَجوا من الشَّفاعة، فكأنهم غُيَّبٌ عنهم، وأن يحال بينهم وبينهم في وقت التَّوبيخ ليفقدوهم في السَّاعة التي علَّقوا بهم الرَّجاء فيها، فيَرَوْن مكان خزيهم وحسرتهم».[٢٠٢٧]

قال **الفاضل**:[٢٠٢٨] قوله: «وأن يحال بينهم» عطف على «أن يشاهدوهم» عطفًا على قوله: «وإنما يقال لهم ذلك على التوبيخ». يعني: إنما يقال للمشركين: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾ على سبيل التوبيخ، كقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، إلى قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام ٦/٩٤]، أو يقال لهم وهم يشاهدونهم على سبيل التعيير، أي: ادَّعيتهم أن هؤلاء شركاؤنا، فيشفعون لنا عند الله، فأين شفاعتهم؟ كما تقول للمهَدَّد، ومعه صاحبه، وقد ادَّعى أنه يعينه في الشَّدائد، وقد وقع فيها وخذله: «أين زيد»؟ فجعلتَه، لعدم نفعه وإن كان حاضرًا، كالغائب.

أو يقال لهم حين يُحال بينهم وبينهم، كما تقول لمن ادَّعى أن له ناصرًا ينصره، ويدفع عنه، وقد جاء لنصرته، فطمع فيه، فضربت الحيلولة بينه وبينه، ثم قلتَ: أين ناصرك الذي علَّقت به الرجاء؟ ادْعُه لتريه تحسُّره. ومنه قول الشاعر:

كَمَا أَبْرَقَتْ قَوْمًا عطاشًا غَمَامَةٌ   فَلَمَّا رَأَوْهَا قَشَعَتْ وَتَجَلَّتْ.[٢٠٢٩]

وقال النحرير: «ويجوز أن يشاهدوهموأن يحال» وجهان في تقرير التوبيخ لاوجهان مقابلان للتوبيخ؛ لتصير الأوجه ثلاثة. وقوله: «حين لا ينفعهم» في موقع شرط جزاؤه: «فكأنهم»، والجملة خبر «أنهم». وقيل: الظرف خبر «أنهم» على حذف مضاف يصلح الظرف خبرًا عنه، أي: إلا أنَّ مشاهدتهم.[٢٠٣٠]

وقال ابن الكمال: وهذا السؤال ظاهرٌ في غيبة الشركاء: وقوله تع: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ نصٌّ فيها، فلا وجه لما قيل: يجوز أن يشاهدوهم إلى آخره.

[٢٠٢٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٢٤/٤.

[٢٠٢٤] **الكشاف**، ٢/ ١٢؛ **النشر**، ١٩٣/٢؛ **إتحاف**، ٥٢٢/١.

[٢٠٢٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٩١.

[٢٠٢٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٩١.

[٢٠٢٧] **الكشاف**، ٢/ ١٢.

[٢٠٢٨] هو الطيبي.

[٢٠٢٩] **فتوح الغيب**، ٦/ ٥١-٥٢.

[٢٠٣٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٨ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣٦٩/٣.

وأما ما قيل: «وأن يحال بينهم وبينهم» إلى أخره، فيرد عليه: أنه حينئذ ينكشف الحال عندهم: ويعلمون أنه لا منفعة لهم في آلهتهم، بل مضرَّة: فلا احتمال للتفقُّد.[٢٠٣١]

ويمكن أن يجاب عن الأوَّل بأنا لا نسلم أن قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ﴾ نصٌّ في غيبة الشركاء؛ إذ يجوز أن يقال ذلك لكونهم بمنزلة الغيب؛ لعدم جدويهم وهو أبلغ في التوبيخ؛ إذ وجودهم أضرُّ من العدم، وعن الثاني بأنه يجوز أن يكون انكشاف الحال بعد أن يحال بينهم وبينهم وبعد تفقُّدهم؛ إذ لا قاطع على انكشاف الحال في جميع الأزمنة والأحوال. وقوله تع: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق ٧/٨٦]، ونحوه: يجوز أن يكون باعتبار بعض الأزمان، وبعض الأحوال، ولو سلم أن يكون في جميع الأزمان والأحوال، فلا يبعد أن يكون ذلك عقيب الإسناد ولو يسيرًا، وهذا ما يلوح بالبال والله أعلم بحقيقة الحال.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٢٣) ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٤)

﴿**فِتْنَتُهُمْ**﴾ أي: كفرهم بمحبَّة غير الله واتخاذه وليًّا من قولهم: للمحبّ المتحير المدهوش: مفتون، أي: لم يكن عاقبة افتتانهم شركهم إلا أن تبرؤوا منه، وحلفوا عليه،[٢٠٣٢] وثم مجرى على ظاهره، أو جوابهم سُمِّي فتنةً؛ لأن قولهم: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ كان كذبًا، والكذب سببٌ لإيقاع الإنسان في الفتنة والهلاك، أو لأنهم قصدوا به الخلاص على أنه من: فتنتُ الذَّهب: إذا خلَّصْتَه، فعلى هذا ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ مُجرًى على ظاهره. و﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي في الرتبة.

يعني: أن جوابهم هذا أعظم في تسويرهم من توبيخنا إيَّاهم بقولنا: ﴿أين شركاءكم﴾؟ وهو الدَّاعِي إلى وضع الفتنة موضعَ الجواب،[٢٠٣٣] أو معذرتهم التي يتوهَّمون أن يتخلَّصوا بها أيضًا.[٢٠٣٤]

وقرأ ابن كثيرٍ وابنُ عامر وحفصٌ: ﴿لَمْ تَكُنْ﴾ بالتَّاء و﴿فِتْنَتُهُم﴾ بالرفّع[٢٠٣٥] على أنها الاسم، ونافع وابن عمرو وأبو بكر عنه بالتاء والنصب[٢٠٣٦] على أن الاسم ﴿أَنْ قَالُوا﴾، والتأنيث للخبر كقولهم: «مَن كانت أمَّك؟»[٢٠٣٧]

وردّ بأن «مَنْ» يُذكَّر ويُؤنَّث. وأجيب بأنَّ «مَنْ» إنما يُؤنَّث ويُذَّكر باعتبار مدلوله، وإبهامه، كالمشترك. وأمَّا لفظه فليس إلا مذكَّرًا.[٢٠٣٨]

وقال ابن الكمال: «والأحسن من اعتبار التأنيث في الخبر أن يقدر ﴿أَنْ قَالُوا﴾ مؤنثًا؛ أي: ثم لم تكن فتنتهم إلا مقالتُهم.[٢٠٣٩]

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿رَبَّنَا﴾ بالنصب على النِّداء،[٢٠٤٠]

[٢٠٣١] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٩٢.

[٢٠٣٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٢٤/٤.

[٢٠٣٣] **فتوح الغيب**، ٥٢/٦-٥٣.

[٢٠٣٤] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٣.

[٢٠٣٥] **كتاب السبعة**، ص ٢٥٤-٢٥٥؛ **التيسير**، ص ٣٣٩؛ **النشر**، ١٩٣/٢؛ **إتحاف**، ٥٢٢/١-٥٢٣.

[٢٠٣٦] **أي**: «لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ» **السبعة**، ص ٢٥٤-٢٥٥؛ **التيسير**، ص ٣٣٩؛ **النشر**، ١٩٣/٢؛ **إتحاف**، ٥٢٢/١-٥٢٣.

[٢٠٣٧] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٣.

[٢٠٣٨] **فتوح الغيب**، ٥٥/٦.

[٢٠٣٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٩٣.

والآية تدلُّ على أن أهل المحشر يكذبون إذ نفوا عن أنفسهم الإشراك في الدنيا، وقد أشركوا فكانوا كاذبين فيه، ولَمَّا ورد عليه أن يقال: إنهم يَطَّلعون على حقائق [**١٠٤**/ظ] الأمور، وعلى أنه لا منفعة لهم في الكذب، ومن كان كذلك لا يجوز أن يكذب؟

أجاب عنه العلَّامتان بمنع المقدمة الثانية بجواز أن لا يميّزوا بين ما ينفعهم، وما لا ينفعهم لغاية الدهش والحيرة، كما أنهم ينتفعون بعدم الخلاص من النّار، وعدم القضاء عليهم، ومع ذلك يسألون ذلك قال تع:﴿رَبَّنَا اَخْرِجْنَا مِنْهَا فَاِنْ عُدْنَا فَاِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون ١٠٧/٢٣]، ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف ٧٧/٤٣]، ومن لم يجوّز ذلك بناءً على ما ذكر في الدار.

وأجاب عن هذه الآية الصريحة في كذبهم بأنّ المراد ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ عند أنفسنا وفي معتقدنا، وذلك صِدْقٌ؛ لأنَّهم كانوا يعتقدون أنهم موحِّدون، ومعنى: ﴿اُنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أنهم كذبوا في الدنيا، ودفعه العلامتان بأنه تمحُّل، أي: تكلُّفٌ لاستعمال الحيلة واجتهاد فيه، وتعسُّفٌ، أي: أخذٌ على غير الطريق، وتحريفٌ لأفصح الكلام إلى ما لا يليق به؛ لأن الآية لا تدلُّ على هذا المعنى بوجهٍ من الوجوه ولا تنطبق عليه؛ لأنها في شأن حشرهم وأمرهم في الآخرة لا في الدنيا، بل ينْبُو عنه أشد نبوّ؛ لأن أوّل الآية ﴿وَيَومَ نَحْشُرُهُمْ﴾ وآخرها ﴿وضلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، وذلك في القيامة لا غير.[٢٠٤١]

ويردّه أيضًا قوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة ٥٨/١٨]، أي: يحلفون لله في الآخرة على أنهم مسلمون، كما يحلفون لكم في الدنيا فَشَبَّه كذِبهم في الآخرة بكذبهم في الدنيا.[٢٠٤٢]

﴿**وَضَلَّ عَنْهُمْ**﴾ عطفٌ على ﴿كَذَّبُوا﴾ فيكون داخلًا في حيِّز ﴿اُنْظُرْ﴾، أو استئناف إخبار فلا يدخل فيه. و﴿مَا﴾ مصدرية، أي: وضلَّ عنهم افتراؤهم، أو موصولة، أي: وضلَّ عنهم الذي كانوا يفترون، أي: «يفترون إلهيَّته وشفاعته». خصَّ هذا التقدير؛ لأن قولهم: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ جوابٌ عن قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ﴾، أي: أين آلهتكم التي جعَلْتموها شركاء لله، وزعمتم أنهم يشفعون لكم؟ أي: يُخَلِّصُونكم الآن ممَّا أنتم فيه من ورطاتِ الهلاك. فحُذِفَ المضافُ أوَّلًا، فصار: «يفترونه»، ثم حذف الضميرُ الراجع إليه.[٢٠٤٣]

﴿وَضَلَّ﴾ بمعنى: ذهب وبطل، وفيه غيره عظيمة لمن انتسب إلى من يؤول انتسابه إليه ضلالًا وهلاكًا، وخيبة وخسارًا من الزائفين عن الشريعة والمتحرفين عن الطريقة ثبتنا الله على الحقيقة.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥)﴾

﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا**﴾المراد أبو سُفْيانَ والوَلِيدُ والنَّضِرُ وعُتْبَةُ وشَيْبَةُ وأبو جَهْلٍ وأضْرابُهم، اجتمعوا فسمعوا رسول الله يقرأ فقالوا للنضر: ما يقول؟ فقال: والذي جعلها بيتَه ما أدري ما يقول، إلا أنه يحرّك لسانه ويقول أساطير الأولين، مثل ما أحدّثكم.[٢٠٤٤]

[٢٠٤٠] **كتاب السبعة**، ص ٢٥٥؛ **التيسير**، ص ٣٣٩؛ **النشر**، ١٩٣/٢؛ **إتحاف**، ٥٢٣/١.

[٢٠٤١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٨ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣٨١/٣.

[٢٠٤٢] **فتوح الغيب**، ٥٦/٦.

[٢٠٤٣] **فتوح الغيب**، ٦/ ٥٤.

[٢٠٤٤] **الكشاف**، ١٣/٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٤.

و«الأَكِنَّةُ»: الأَغْطِيَةُ جمع «كِنَان»، مثل: الأسنَّة والسِّنان، كَنَنْتُ الشيء في كِنَّةٍ: إذا صُنْتُه فيه، وأَكْنَنْتُ الشيءَ أَخْفيته.

و﴿**أَنْ يَفْقَهُوهُ**﴾ في موضع نصبٍ على أنه مفعولٌ له بتقدير «الكراهة»، فلما حُذِفت انتقل نصبها إلى ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾.[٢٠٤٥] ويجوز أن يكون مفعولًا لما دلَّ عليه الكلام المذكور؛ أي: منعناهم أن يفقهوه.[٢٠٤٦]

و«الوَقْرُ»: الثِّقَل يقال منه: وَقِرَتْ أذُنه بفتح الواو تَوْقَرُ وَقْرًا، أي: صَمَّتْ. وقياسُ مصدره التَّحريك، إلا أنَّه جاء بالتسكين، وقد وَقَرَ اللهُ أذنه يَقِرُها وَقْرًا.[٢٠٤٧] وقرئ: بكسر الواو[٢٠٤٨] على تشبيه ما جعل في آذانهم توقيرًا لبصير وهو حمله.

وقال ابن الكمال: قيل: لَمَّا كان القرآن معجزًا من حيث اللفظ والمعنى فثبت لمنكريه ما يمنع عن فهم المعنى وإدراك اللفظ، ويَرِد عليه أنهم ما عجزوا عن إدراك اللفظ المسموع على ما دلَّ في سبب النزول إنما عجزوا عن إدراك اللفظ المطبوع الحامل للخواصّ والمزايا.[٢٠٤٩]

وأنت خبير: بأن العامل لا ينكر إدراك اللّفظ المسموع، وذا لا يضُرُّ بمقصوده من عدم إدراك اللفظ؛ من حيث الإعجاز وكذا الكلام في فهم المعنى، وفي كلام الرادِّ إشارةٌ إلى ما قلنا، ولَمَّا كان ظاهر الآية مخالفًا لما ذهب إليه المعتزلة؛ إذ لو كان كذلك لَكانت حجّةً على الرّسول بأن يقولوا: لما حكم الله بأنه منَعَنا من الإيمان لزم أن نكون عاجزين عنه، فكيف تدعونا إليه وتذمّنا على تركه؟ ويلزم ترك الأصلح؛ إذ الكِنُّ والوَقر يمنع عن إدراك الحق وقبوله.

أَوَّلَ المصنف بوجهين، الأول: أن القوم أعرضوا عن الحقّ، وتمكَّن ذلك في قلوبهم حتى صار ذلك، كالحالة الطبيعيَّة لهم شبّه بالوصف الجبلي، فأعطي له حكم ذلك بالإسناد إليه تع؛ ليكون عبارة عن فرط تمكُّنه في قلوبهم.

الثاني: أنه حكاية لما كانوا ينطقون به من قولهم: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت ٤١/٥]. ونحن نقول: القلوب لا تَقْبل حقيقة الختم والأكنَّة، فالمراد بجعل الله القلوب في أكنَّة. وفي الآذان وقرًا أن يحدث في نفوسهم هيئة تمرُّنهم على استحباب الكفر والمعاصي، واستقباح الإيمان والطاعات بسبب غيِّهم وانهماكهم في التقليد، وإعراضهم عن النظر الصحيح فيجعل قلوبهم بحيث لا ينفذ فيها الحق وأسماعهم تعاف [**١٠٥**/و] إسماعه فيصيرون، كأنهم صمٌّ مختوموا القلوب، وليس إحداث تلك الهيبة في نفوسهم وفي آذانهم؛ إجبارًا لهم على الكفر والضَّلال، بل هو عقوبة مترتّبة على اختيارهم الكفر وانهماكهم في التقليد وإعراضهم، على اتِّباع الدليل والبرهان، فتلك الهيئة من حيث أن الممكنات مستندةٌ إليه تعواقعة بقدرته أسندت إليه ومن حيث إنها مسببةٌ من سوء اختيارهم وتدبيرهم بدليل قوله تع: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء ٤/١٥٥] وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[آل عمران ٣/٦٣]استحقوا لأن يذمّوا عليها ويوبخوا لأجلها.[٢٠٥٠]

[٢٠٤٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٢٧.

[٢٠٤٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٩٤.

[٢٠٤٧] **الصحاح**، للجوهري «وقر»

[٢٠٤٨] **أي**: «وِقْرًا»قراءة شاذّة، مروية عن طاحة. **مختصر في شواذ القرآن** ، ص ٤٢؛ **الكشاف**، ٢/ ١٣.

[٢٠٤٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٩٤-٢٩٥.

[٢٠٥٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٢٧- ٢٨.

وعن بعض العارفين: كانت قلوبهم محجوبةً بعوارض البشريَّة، وظلمات النفس الأمَّارة عن رؤية أنوار الغيب، وفهم خطاب الحقِّ، فليسوا مطبوعين بالستعداد قبول خطاب الله، ورؤية عرائس الملكوت، وفي آذان أسرارهم وقرُ الضَّلالة، ولم يسمعوا بها ما يسمع سمع الخاصِّ، وعلى عيون ظاهرهم وباطنهم غشاوة العُجب والجَهل، حتى لم يَرَوْا براهين الحقِّ في وجوه الصِّدِّيقين.[٢٠٥١]

ونعم ما قيل: إنه تع لم يجعل لهم سمع الفهم، وإنما جعل لهم سمع الخطاب.[٢٠٥٢]

﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ﴾ علامة تدلّ على وحدانية الله ونبوّة رسوله لا يؤمنوا بسببها؛ لفرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم، أو لا يؤمنوا بكونها آية إلٰهية ويسمونها سحرًا وافتراء وأساطير. وتخصُّ الآية بغير الملجئة لئلا يخالف قوله: ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا﴾ [النساء ٢٦/٤]، و﴿حَتَّى﴾ إمَّا ابتدائية، و﴿إِذَا﴾ في موضع نصبٍ بجوابها، وهو ﴿يَقُولُ﴾. و﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ حالٌ من ضمير «جَاؤُوا» وليس لـ﴿حَتَّى﴾ ههنا عملٌ وإنما أفادت الغاية، كما لا تعمل في الجملة. فيكون مضمون الجملة التي بعدها غاية للحكم المذكور قبلها، أي: بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم إذا جاؤوك مجادلين يقولون: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ فإن جعل أصدق الحديث خرافات الأولين غاية التكذيب، فوضع ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ موضع الضمير؛ ليشعر أنّ مجيئهم على تلك الحالة كفر وعناد.

وإمّا حرف جرٍّ بمنزلة «إلى»، فعلى هذا لها عملٌ. فلا تكون ﴿إِذَا﴾ ظرفيةً ولا شرطيةً، بل اسمًا بمعنى الوقت في محل الجرِّ، ﴿وَيُجَادِلُونَكَ﴾ حالٌ أيضًا.[٢٠٥٣]

و﴿**يَقُولُ**﴾ جملةٌ مفسرةٌ لقوله: ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾؛ لأن المجادلة هي قولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، و﴿حَتَّى﴾ غاية هذه الحالة القطيعة. يعني: بلغ تماديهم في الطغيان، وتكذيب آيات الله في الأزمنة الماضية على سبيل التدريج والاستمرار، إلى حدّ انتهى إلى هذا الزّمان، وهذا الطّغيان، وهو مجيئُهم إليك[٢٠٥٤]، وتكذيبُهم هذه الآية البيّنة.[٢٠٥٥]

إذا تقرر هذا ظهر لك أنّ قوله قدس سره: «﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ جواب»[٢٠٥٦] محل تأمل إلا أن يراد به أنه جواب لِمَن يقول: كيف يفعلون عند مجيئك. نعم، إذا كانت ﴿حَتَّى﴾ ابتدائية يحتمل أن يكون ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ جوابًا و﴿يَقُولُ الَّذِينَ﴾ تفسيرًا لها.[٢٠٥٧]

و«الأساطير»: الخرافات والأكاذيب. قيل: أصل الخرافة ما اخترف من الفواكه من الشَّجر، ثم جعل اسمًا لما يتلهى به من الأحاديث، وفي المستقصى أنه رجل من خزاعةَ استهوته الجنُّ فرجع إلى قومه، وكان يحدِّثهم بالأباطيل، وكانت العرب إذا

[٢٠٥١] **عرائس البيان**، ١/ ٣٥٠.

[٢٠٥٢] **حقائق التفسير** للسلمي، ١/١٩٥؛ **عرائس البيان**، ١/ ٣٥١-٣٥٢.

[٢٠٥٣] **الكشاف**، ٢/ ١٣؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٤؛ **فتوح الغيب**، ٥٨/٦؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٢٨.

[٢٠٥٤] ج- إليك.

[٢٠٥٥] **فتوح الغيب**، ٥٨/٦.

[٢٠٥٦] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٤.

[٢٠٥٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٢٨.

سمعت ما لا أصل له، قالت: حديث خرافة، ثم كثر حتى قيل للأباطيل: خرافاتٌ. روي عن المصنّف خرَّافاتٌ بالتشديد لجمعه على «خراريف».[٢٠٥٨]

وهي جمع «أسطورة» نحو: «أرجوحة» و«أراجيح»، و«أحدوثة» و«أحاديث»، أو «أَسْطَار» جمع «سَطَرٍ» بفتح الطاء. وأمَّا «سَطْرٌ» سكونها فجمعه في القلّة على «أسْطُرٍ»، وفي الكثرة على «سُطُورٍ»، كـ«فلس» و«أفلس» و«فلوس». وأصله: «السَّطر» بمعنى الخَطُّ. وإنما قلنا: وأصله؛ لأنه ههنا ليس بمعناه على ما ترى، ويجوز أن يكون عليه ويؤيده ما قال في **الصحاح**: «السَّطْرُ» «الخطُّ» والكتابة، وهو في الأصل مصدرٌ. و«السَّطَر» بالتحريك مثله،[٢٠٥٩] والجمع «أَسْطَارٌ» مثل: «سَبَب» و«أَسْبَاب»، ثم يجمع على «أَسَاطِير»، وما قال **الواحدي**: أساطير الأولين ما سطره الأولون، أي: كتبوه من أحاديثهم.[٢٠٦٠] وهذا ينطبق ما روي عن النظر فيما سبقه.

وقيل: هو جمع لا واحدَ له مثل عباديد، وأبابيل، وشماطيط، ومثله لا يسمَّى اسمُ جمع؛ لأن النحويين قد نصوا على أنه إذا كان اللفظ على صيغة تختصُّ بالجموع لم يسموه اسمَ جمعٍ، بل يقولون: هو جمع وإن لم يستعمل.[٢٠٦١]

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اَلْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ، غَيْرُ مَخْلُوقٌ، فَمَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ».[٢٠٦٢]

وروى الأوزاعي عن حسان بن عطية، عن أبي الدرداء قال: قلت: يا رسول الله! القرآن مخلوق؟ فقال عليه الصلاة والسلام: اَلْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ، غَيْرُ مَخْلُوقٌ.[٢٠٦٣]

وعنه عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ: إنَّ [**١٠٥**/ظ] القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، مِنْهُ خَرَجَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ». فقيل: يا رسول الله تَخَوَّفْتَ علَيْنا؟ فقال: «لا، وَلَكِنْ سَيَأْتِي بَعْدِي أَقْوَامٌ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْقُرآنَ مَخْلُوقٌ. وَكَذَبُوا، وَيَلْقَوْنَ اللهَ كَذَّابِينَ».[٢٠٦٤]

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(٢٦)﴾

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ﴾ الناس عن القرآن، أو عن الرَّسول واتّباعه ويثبّطونهم عن الإيمان به، **﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾** بأنفسهم فيَضِلُّون ويُضِلُّونَ. **﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ﴾** بذلك **﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾**، ولا يتعَدَّاهم الضَّرَرُ إلى غيرهم، وإن كانوا يظنُّون أنهم يضرُّون رسول الله. وقيل: هو أبو طالب؛ لأنه كان ينهى قريشًا عن التعرُّض لرسول الله، وينأىٰ عنه فلا يُؤمن به.[٢٠٦٥]

كان ع م قد خرج إلى الكعبة يومًا، وأراد أن يصلّيَ، فلمَّا دخل في الصلاة، قال أبو جهلٍ: مَن يقوم على هذا الرَّجل، فيفسدَ إليه صلاته. فقام ابنُ الزِّبَعْرَىَ، وأخذ فَرْثًا ودمًا، ولَطَّخ به وجه النبي، فانفتل النّبّي ع م من صلاته، ثم أتى أبا طالبٍ

[٢٠٥٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٨و؛ **حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي** ، ٤٢/٤.

[٢٠٥٩] **الصحاح** للجوهري، «سطر».

[٢٠٦٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٤/ ٢٩.**

[٢٠٦١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٤/ ٢٩.**

[٢٠٦٢] **المعجم الأوسط** للطبراني، ٨٥/٤ (٣٦٧٨).

[٢٠٦٣] **المعجم الأوسط** للطبراني، ٨٥/٤ (٣٦٧٨).

[٢٠٦٤] **التذكار من أفضل الأذكار** للقرطبي، تحقيق: بشير محمد عيون، دار البيان، بيروت، ١٤٠٧، ١٨/١-١٩؛**الكامل في الضعفاء**، ٢٠١/١،**الموضوعات** لابن الجوزي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنور، ١٩٦٦/١٣٨٦، (١٠٧/١).

[٢٠٦٥] **الكشاف**، ٢/ ١٣.

عمَّه، فقال: «يا عمِّ، ألا ترى إلى ما فعل بي»، فقال أبو طالب: «مَن فعل هذا بك»؟ فقال ع م: عبد الله بنُ الزِّبَعْرَى، فقام أبو طالب، فوضع سيفه على عاتقه، ومشى معه حتى أتى القوم، فلمَّا رأَوْا أبا طالب قد أقبل، جعل القوم ينهَضون، فقال أبو طالب: والله لئن قام رجل لَجَلَّلْتُه بسيفي، فقعدوا حتى دنا إليهم، فقال: يا بُنَيَّ، مَنِ الفاعل بك هذا؟ فقال: «عبد الله بن الزِّبَعَرَى»، فأخذ أبو طالب فَرْثًا وَدَمًا فَلَطَّخَ به وجوههم ولِحاهم وثيابَهم، وأساء لهم القولَ، فنزلت. فقال ع م [عليه السلام]: «يا عمِّ نزلت فيك آيةٌ»، قال: وما هي؟ «تَمْنَعُ قُرَيْشًا أَنْ تُؤْذِيَنِي وَتَأْبَى أَنْ تُؤْمِنَ بِي» فقال:

وَاللَّهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ حَتَّى أُوَسَّدَ فِي التُّرَابِ دَفِينَا
فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ وَأَبْشِرْ بِذَاكَ وَقَرَّ مِنْه عُيُونَا
وَدَعَوْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ نَاصِحٌ وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثَمَّ أَمِينَا
وَعَرَضْتَ دِينًا لَا مَحالة إِنَّهُ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حذَار سُبَّةٍ لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا[٢٠٦٦]

فالنّهي على الأوَّل عن تعظيمه، وعلى الثاني عن تحقيره، وجمع الضمير للاستعظام،[٢٠٦٧] أو لما أن لأبي طالب أمثالًا في ذلك على ما أشار إليه قدس سره.[٢٠٦٨]

قال الإمام: القول الأول أشبه؛ لأنه جميع الآيات تقتضي ذم طريقتهم، فقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ينبغي أن يحمل على أمر مذموم، فكيف يحمل على أن أبا طالب ينهى عن إيذائه.[٢٠٦٩]

وقيل: لأن ﴿هُمْ﴾ لمن يسمع، وأبو طالبٍ لم يكن فيهم. والجواب: أنَّ ﴿هُمْ﴾ ليس لهم، بل يرجع إلى ما يرجع إليه ضمير في ﴿وَمِنْهُمْ﴾.

وقيل: إنْ نَزَلت هذه الآية وحدها في أبي طالبٍ فلا وجه لاتّصالها بما قبلها، وإن نزلت مع قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وقع التَّنافي في التوصيف.

فإن قيل: فهلَّا جاز إسناد المجادلة إلى الكلِّ باعتبار البعض، وإسناد النهي إليهم باعتبار البعض الآخر، فيكون المعنى: يجادلونك، والحال أن بعضهم ينهون عنك إيواء المجادلين وينأون عن اتِّباعك؛ فإن ذلك نوع ذمّ ويكون قوله بعده: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ﴾ باعتبار هذه المذموميَّة.

أجيب بأن الذوق يشهد أن القول حتى إذا جاؤوك بعض من الذين كفروا يجادلونك بأن يقولوا للقرآن: ﴿إِنْ هَذَا إِلَا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ والحال أن بعضًا آخر منهم ينهون وينأون غير مرضي، على أن الظاهر أن ضمير ﴿هُمْ﴾ أن يعود إلى المجادلين، وإرجاع ضمير ﴿عَنْهُ﴾ إلى التَّعرُّض كان جائزًا لو لم يقتض المقام الذمَّ ولو توجَّه مع أنّه يأباه قوله: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ﴾.

[٢٠٦٦] **الكشاف**، ٢/ ١٤؛ **الجامع لأحكام القرآن**، ٨/٣٤٧-٣٤٨.

[٢٠٦٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٨ظ-٣٢٩و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣٨٣/٣.

[٢٠٦٨] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٤.

[٢٠٦٩] **مفاتيح الغيب**، ١٩٩/١٢.

ويقال: «وسَّدته الشيء» جعلته وسادة له، أي: «أوسَّد يميني في رَمْسي». «دَفِينًا»: منصوب على الحال. «صَدَعَ بالأمر»: أظهره وتكلَّم به جِهارًا. «الغَضَاضَة»: النَّقص والعيب. «عُيُونًا»: تميز من إطلاق الجمع على الاثنين مبالغة، أو المراد عيون الكلِّ، أي: كأنَّه قيل[٢٠٧٠] من جهة عينك وعين كلِّ مسلمٍ.[٢٠٧١]

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧)﴾

لَمَّا ذكر إهلاك النَّاهين النَّائين أنفسهم شَرَحَ كيفيَّته، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ، وهو أبلغ في التخويف؛ لأن الفكر يذهب إلى أنواع المكروه، ولا يدري أيّ نوع أريد فيعظم الخوف بخلاف ما لو تعين أي: لو تريهم حين يوقَفون عندها حتى يعاينوها، فهم موقوفون على أن يدخلوها، أو يوقفون عليها وهي تحتهم على الصراط الممدود فوقها وأُطلعوا عليها، أو يُدخَلونها فيعرَّفون مقدارَ عذابها من: «وقَّفتُه على كذا» إذا علَّمته.[٢٠٧٢]

وجوز أن يكون «عَلَى» بمعنى: «في» أي: يكونون فيها وهي محيطة بهم، و«على» للإشعار بأنها دركات بعضها فوق بعض فيصحُّ معنى الاستعلاء مع كونها بمعنى «في»: لرأيت أمرًا فظيعًا.[٢٠٧٣]

﴿**وَلَا نُكَذِّبَ**﴾ استئنافٌ، منهم على وجه الإثبات دون التَّمنّي، فليس عطفًا على ﴿نُرَدُّ﴾ حتى يدخل تحت التَّمنّي؛ بل عطف على [**١٠٦**/و] التَّمنّي عطف إخبار على إنشاء وهو جائز باقتضاء المقام، أي: ونحن لا نكذب، ويكون من المؤمنين على كلّ حال نردُّ إلى الدنيا، أو لم نردَّ كقولهم: «دَعْنِي ولا أعود»، أي: وأنا لا أعود على كلِّ حالٍ تَركتَني أو لم تتركْني. وأما تقدير المبتدأ فقد جرى عادة المصنّف بذلك، والظاهر أنه تصويرٌ وتقريرٌ للمعنى، وتحقيقٌ لكونه كلامًا مبتدأً، أو عطف على ﴿نُرَدُّ﴾ داخل في التَّمنّي، حكي عنهم أنهم تَمَنَّوْا ثلاثة: الرَّدُّ إلى الدنيا، وعدم التكذيب الكون من المؤمنين، أو حال من ضمير ﴿نُرَدُّ﴾ على أن يكون خبر محذوفٍ، والجملة اسميَّةٌ حاليَّةٌ، أي: يا ليتنا نردُّ غير مكذِّبين وكائنين مؤمنين، فتمَّني الردِّ مقيَّد بالحالتين فكلٌّ واحد متمني وهو المناسب للمقام؛ لأنهم لَمَّا عاينوا الشدائد المترتبة على تقصيراتهم في الدنيا تمنَّوْا العَوْدَ إليها للتدارك، وذا إنما يحصل بالمجموع، إلا أن المصنفين[٢٠٧٤] قدما الأول؛ لأنه تعكذبهم بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام ٦/٢٨] والتَّمني لا يكذب؛ لأنه إنشاء لا يحتمل الصِّدق والكذِبَ، ولما ورد هذا على الأخيرين أجابا عنه: بأن التّكذيب ح بما تضمنه التَّمني من الوعد، فإنّ ﴿لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ تضمن الوعد بأنا إذا رددنا لآمَنَّا وما كذبنا.[٢٠٧٥]

ونصبهما حمزة ويعقوب وحفصٌ[٢٠٧٦] على جواب المتَمَني على معنى الجزائية والسببية.

قال **التفتازاني:** وفيه نظر.[٢٠٧٧] قيل: وجه النظر أن السببية في «الفاء» دون «الواو»، بل الشرط فيها يعي: الجمعية والصرف، ولا صرف عن الجمع هنا، بل المقصود الجمع بين الرَّدِّ وعدم التَّكذيب والإيمان.

[٢٠٧٠] ج- قيل.

[٢٠٧١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٩و.

[٢٠٧٢] **اللباب**، ٨/٨٨.

[٢٠٧٣] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٤؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٠.

[٢٠٧٤] الزمخشري، والبيضاوي.

[٢٠٧٥] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٤؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣١.

[٢٠٧٦] **النشر**، ٢/١٩٣؛ **إتحاف**، ٢/١٩٣.

[٢٠٧٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٩و.

وقال قدس سره: جواب بإضمار «أن» بعد «الواو»، وإجرائها مُجرى «الفاء»،[٢٠٧٨] يعني: أن وقوع «الفاء» في جواب التَّمني أمر معقول لدلالته على مصدر متوهّم، وكون ذلك المصدر مؤدِّيًا إلى حصول ما ذكر بعد «الفاء» فقبل «الفاء» كالشرط، وبعده كالجزاء، و«الواو» لا يذكر في الجواب حتى يجعل كون ما قبلها أو مابعدها بمنزلة الشرط والجواب باعثًا لانتصاب الفعل بعدها على الجوابية، بل هي حرف عطف بها الفعل المنصوب بإضمار «أَنْ»، فالمعطوف في تأويل المصدر ولا بدَّ له من معطوف عليه، وقبلها فعل فيعطف على المصدر المتموهّم المدلول عليه بالفعل، أي: «يا ليت لنا ردّ وعدم تكذيب وكون من المؤمنين» فالثلاثة بقَيْدِ الاجتماع متمنّي القوم لا أن كلّ واحد متمني على حدة.[٢٠٧٩]

وقرأ ابن عامر برفع الأول ونصب الثاني،[٢٠٨٠] فاعتبر في رفع الأول ما اعتبر في رفع الفعلين من الوجوه، واعتبر في الثاني ما اعتبر في نصب الفعلين من الجواب.[٢٠٨١] لا يقال: الظاهر أن المراد بعَدَم تكذيبهم بآيات الله تصديقهم بها ويكون عين كونهم مؤمنين بها، فكيف يقع جوابًا لذلك مع أن المغايرة لازمة بين الجواب وبين ما يجاب عنه، فإن الشيء لا يكون جوابًا لنفسه؛ لأنا نقول: كونهم معدودين من المؤمنين منظومين في سلكهم، إن قيل: إذا كان عدم تكذيبهم إيمانًا كانوا معدودين من المؤمنين بلا مرية وإلا فلا جواب.

أجيب: بأن المراد كونهم فائزين لما فاز به المؤمنون، كأنّهم قالوا: يا ليتنا نردُّ ونؤمن ونفوز بما فازوا به على أن التَّكذيب تكذيب القلب، وأنه يوجب الإيمان وعليهما كلام.

﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩)﴾

الإضراب عن إرادة الإيمان المفهوم من التَّمنّي؛[٢٠٨٢] فإنهم لَمَّا قالوا: لَيْتَنَا نكون كذا فكأنهم قالوا: أردنا ذلك فأبطل الله هذا الكلام الضمني لهم. قيل: ههنا ليس للانتقال من قصّةٍ إلى أخرى، بل هي لإبطال كلام الكفرة إلى ما ليس الأمر على ما قالوه من: أنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا لآمنوا؛ فإنّ التَّمنّي الواقع منهم يوم القيامة ليس لأجل كونهم راغبين في الإيمان، بل لأجل كونهم خائفين من العقاب الذي شاهدوه وعاينوه. ففيه دلالة على أن الرغبة في الإيمان والطّاعة لا تنفع إلا إذا كانت تلك الرغبة رغبةً فيه لكونه إيمانًا وطاعةً. وأمَّا الرغبة فيه لطلب الثواب وللخوف من العقاب فغير مفيد.[٢٠٨٣]

والمعنى: أنهم تمنَّوا ذلك ضجرًا لا عزمًا على أنهم لو ردُّوا لعادوا وذلك لأنه بدا لهم ما كانوا يخفون من الناس من قبائحهم وفضائحهم في صحفهم وبشهادة جوارحهم عليهم.

وقيل: هو في المنافقين، وأنه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسرّونه. وقيل: هو في أهل الكتاب، وأنه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحَّة نبوة رسول الله.

[٢٠٧٨] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٤.

[٢٠٧٩] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣١-٣٢.

[٢٠٨٠] «وَلَا نُكَذِّبُ .... وَنَكُونَ»،**التيسير**، ص ٣٣٩؛ **النشر**، ٢/١٩٣؛ **إتحاف**، ١٩٣/٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٤.

[٢٠٨١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٢.

[٢٠٨٢] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٤.

[٢٠٨٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٢.

﴿**وَلَوْ رُدُّوا**﴾ إلى الدنيا بعد وقوفهم على النار ﴿**لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ**﴾ من الكفر والمعاصي.[٢٠٨٤]

فإن قيل: إن أهل القيامة قد عرفوا الله بالضرورة وشاهدوا العقاب فمع هذه الأحوال كيف يمكن أن يقال: إنهم يعودون إليها؟

أجيب: بأنه لا رادَّ لما قضاه الله ولا مبدِّلَ لما حكم، فمن جرى القضاء الأزلي على شركه، وغلبت عليه شقوته فلا جرم يصدر منه حكم ذلك القضاء، ولا ينفعه العلم الضّروريّ بسوء عاقبة فعله، ألا ترى أنَّ إبليس قد عاين ما عاين من آيات الله ثم عاند؟[٢٠٨٥][**١٠٦**/ظ]

وقال الزجاج: إنَّ أكثر من عاند من اليهود والمشركين قد علِمَ أن أمر الله حقّ، فرَكَنَ إلى الرفاهيَّة، أن الشيء متأخِّر عنهم إلى أمدٍ، كما فعل إبليس، فأَعلم الله أنهم لو رُدُّوا لعادوا؛ لأنهم قد كفروا بعد وضوح الحجة.

روي عن بعضهم: أنه صلوات الله سئل، فقيل له: ما بالُ أهل النار، عملوا في عُمْرٍ قصيرٍ، فخُلِّدوا في النار، وأهل الجنة كذا، فخلِّدوا في الجنة؟ فقال: إن الفريقين كان كلُّ واحدٍ منهما لو أنه عاش أبدًا عَمِل بذلك العمل.[٢٠٨٦]

ولذلك قال تع: ﴿**وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾، أي: فيما وعدوا به من أنفسهم من الوعد بالإيمان لو ردُّوا.

﴿**وَقَالُوا**﴾ كلام مستأنف بذكر ما قالوه في الدنيا، أو داخل في حيِّز ﴿لَوْ﴾ على أنه معطوف على ﴿قَالُوا﴾ والمعنى: أنهم لو ردُّوا لَكفروا ولقالوا، أي: لأنكروا الحشر والنشر، كما كانوا أنكروه قبل معاينة القيامة، أو عطف على ﴿لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: لعادوا لما نهوا عنه ولما قالوا.[٢٠٨٧]

وقال ابن الكمال: لو كان معطوفًا على أحدهما لَكان حقُّ قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أن يؤخَّر عن المعطوف، أو يقدَّم على المعطوف عليه.[٢٠٨٨]

وأنت خبير: بأنه لا مساعدة للتَّقديم والتَّأخير نظمًا، ومعنى فلذلك فصل بينهما به، أو عطف على ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ على معنى: وإنهم لكاذبون في كل شيء وهم الذين قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ وكفى به دليلًا على كذبهم على أنه من عطف الخاصّ على العامّ، وإنما قدرَ المبتدأ، وجعل «قالوا» صِلة للموصول، وجعل المجموع خبرًا؛ ليوازيَ المعطوفَ عليه المؤكَّد، ويشنَّع عليهم هذا الكذب الخاصّ.[٢٠٨٩]

و«الضمير للحياة»،[٢٠٩٠] فإن من الضمائر ما يذكر مبهمًا ولا يعلم ما يرجع إليه إلّا بذكر ما بعده.[٢٠٩١]

قال ع م: «احذروا يومًا يتلى فيه السرام احذروا يومًا ما لكم فيه من قوم ولا ناصر».[٢٠٩٢]

[٢٠٨٤] **الكشاف**، ٢/ ١٥.

[٢٠٨٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٢-٣٣.

[٢٠٨٦] **معاني القرآن**، ٢/ ٢٤٠؛ **فتوح الغيب**، ٦/ ٦٣-٦٤.

[٢٠٨٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٣.

[٢٠٨٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٩٨.

[٢٠٨٩] **فتوح الغيب**، ٦/ ٦٤.

[٢٠٩٠] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٤.

[٢٠٩١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٣.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۞ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ (٣٠-٣١)﴾

ما قبلها توطئة لها من حيث إنه حكى عنهم: أنهم ينكرون القيامة والبعث في الدنيا بيَّن أنهم يقرُّون بها في الآخرة ويبدل إنكارهم بها إلى الإقرار، ولما تعذر حمل الكلام على ظاهره؛ إذ لو أريد أنهم واقفون على الله كما يقف أحدنا على الأرض يلزم الاستعلاء على ذات الله وهو محالٌ، ولو أريد منه أنهم يقفون عند ربهم بالقرب يلزم أن يكون تعالى في قرب مكان وهو محال أيضًا، وجب تأويله: إما بأن يجعل استعارةً تمثيليةً بتشبيه وقوفهم للحساب، والتوبيخ بوقوف العبد بين يدي سيده ليعاتبه، أو بحذف المضاف مثل: وقفوا على حكم ربهم أو جزائه، أو بأن يجعل الوقوف بمعنى المعرفة كما يقول الرجل لغيره: وقفت على كلامك أي عرفته.[٢٠٩٣]

وقال ابن الكمال: ضمَّن الوقوف معنى العرض، ولذلك قال: ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾، والمعنى: إذا عرضوا على ربهم موقوفين، وقد أفصح عن هذا المعنى قوله تع: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف ٤٨/١٨]، وقوله تع: ﴿إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة ١٢/٣٢].[٢٠٩٤]

ويلوح من ظاهره أنه لا يحتاج إلى التأويل مع هذا التَّضمين، لكن لا يخفى عليك أنه بعد باق.

﴿**قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ**﴾ استئنافٌ، كأنه قال قائل: ماذا قال لهم ربهم حينئذ؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾ إلى أخره، وهذا تقريعٌ وتعييرٌ من الله لهم على التَّكذيب، وقولهم لِما كانوا يسمعون من حديث البعث والجزاء: ما هو بحقٍّ، وما هو إلّا باطل.[٢٠٩٥]

وإنما قدّرَ كذلك؛ لأن قوله: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ سؤالُ تقرير، وقد أتى الْمُنْكِر باسم الإشارة؛ لمزيد التقرير، فيقتضي أن يكون مسبوقًا بإنكار قويٍّ.[٢٠٩٦]

﴿**قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا**﴾ إقرارٌ مؤكَّد باليمين؛ لانجلاء الأمر غاية الإنجلاء،[٢٠٩٧] ولما كانوا منكرين ذلك في أوان التكليف، وقد أقروا به عند معاينة حقيقة الحال، ظهر استحقاقهم العذاب؛ فلذلك قال: ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفركم أو ببدله.

وخصَّ لفظ الذّوق للإشارة إلى أن ما يجدونَه من العذاب في كلِّ حال هو ما يجده الذَّائق لكون ما يجدون بعده أشدّ من الأوّل.[٢٠٩٨]

و﴿لِقَاءِ اللَّهِ﴾ البعث وما يتبعه من أحوال الآخرة، وإنما خسر المكذّبين به؛ لأنه فات عنهم النعيم المقيم ووقعوا في العذاب المستديم، وإنما سماه «لقاء الله»؛ لأنه يحصل عنده الإنكشاف التامُّ، كما في الرؤية، أو هو على تقدير المضاف، أي:

[٢٠٩٢] لم أجده.

[٢٠٩٣] **مفاتيح الغيب، ٢٠٦/١٢**؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٣.

[٢٠٩٤] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٩٩.

[٢٠٩٥] **الكشاف**، ٢/ ١٥-١٦؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٢٩٩.

[٢٠٩٦] **فتوح الغيب**، ٦/ ٦٥.

[٢٠٩٧] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٥.

[٢٠٩٨] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٣-٣٤.

لقاء جزائه وحسابه، ويحتمل الحمل على الحقيقة عند مسيء الرؤية من علماء السنة فينْسَون النعيم إذا رأوه، فيا خسران لأهل الاعتزال.

وفي الصحيح: بَيْنَمَا أهلُ الجنةِ في نعيمِهِمْ؛ إذ سطع لهم نورٌ، فرفعوا رُؤوسَهُمْ ؛ فإذا الربُّ عزَّ و جَلَّ قد أشرفَ عليهِم مِن فوقِهِم، فقال: السلامُ عليكمْ يا أهلَ الجنةِ! فذلك قولُه: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس ٣٦/٥٨]؛ فينظرُ إليهِم وينظرونَ إليهِ تع، ولا يلتفِتونَ إلى شيءٍ من النعيمِ؛ ما داموا ينظرونَ إليهِ، حتى يحتجبَ عنهُم؛ فيبقى نورُهُ وبركتُه عليهِمْ في ديارِهِم». [2099]

ونعم القول ما قيل:

قالَ الطَبيبُ والمنَجِّمُكِلاهُما   لا تُحشَرُ الأَجسادُ قُلتُ إِلَيهِما

إِن صَحَّ قَولُكُما فَلَستُ بِخاسِرٍ   وإِنْ صَحَّ قَولي فَالخُسران عَلَيكُما [2100]

[**١٠٧**/و]ومن أدعية النّبي صلى الله عليه وسلم: «أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ». [2101]

وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:«إذا أحبَّ عَبدي لِقائي، أحبَبتُ لقاءَه، وإذا كَرِه لِقائي، كرِهتُ لقاءَه» [2102]. رواه مالك والبخاري

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١)﴾

غايةٌ لـ﴿كَذَّبُوا﴾، أي: ما زال بهم التكذيب إلى حسرتهم وقت مجيئ الساعة. [2103] وفي هذا التفسير إشارةٌ إلى أن الغاية مضمون الشرط والجزاء، وحقيقته أن تكون الغاية مضمون الجزاء مقيَّدًا بوقت مضمون الشَّرط، [2104] ولما ورد أن يقال: إنما يكذبون إلى أن يموتوا.

أجاب عنه المصنف بأنه لما كان الموتُ وقوعًا في أحوال الآخرة ومقدّماتها جُعل من جنس الساعة، وسُمِّي باسمها، ولذلك قال ع م: «مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ»، [2105] أو جُعل مجيء الساعة بعد الموت لسرعته كالواقع بغير فَترةٍ. [2106]

فالتجوُّز على الأول في إطلاق الساعة على جميع ما يتعلَّق بها من نفس اليوم ومقدّماته من حين الموت، وعلى الثاني في مجيء الساعة حيث أريد به المجيء وما يقرب منه بحيث يصحُّ أن وقت الموت وقتُ وقوع المجيء. [2107]

[2099] **سنن ابن ماجه**، ٦٥/١ (١٨٤).

[2100] «الديوان» لأبي العلاء المعري؛ **حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي** ، ٤/ ٤٧.

[2101] **صحيح البخاري**، ٤٨/٢ (١١٢٠).

[2102] **موطأ أمام مالك**، ٢٤٠/١ (٥٠)؛ **صحيح البخاري**، ١٤٥/٩ (٧٥٠٤).

[2103] **الكشاف**، ٢/ ١٦.

[2104] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و ٣٢٩أ.

[2105] **تخريج الإحياء** للعراقي (١٣٤/٥)، حلية الأولياء لأبي نعيم، (٢٦٨/٦).

[2106] **الكشاف**، ٢/ ١٦.

ولم يجوّز أن تكون غاية لـ«خَسِرُوا»؛ «لأن خسرانهم لا غاية له»، ويمكن أن يُحمل على معنى قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص ٧٨/٣٨] أي: إنك مذموم، مدعوٌّ عليك باللعنة إلى يوم الدين، ثم إذا جاء ذلك اليوم لقيت ما تَنْسى اللعنَ معه. أي: خسر المكذِّبون إلى قيام الساعة، بأنواع من المِحَنِ والبلاء، فإذا قامت الساعة يقعون فيما يَنْسَوْنَ معه هذا الخسران.

وهذا أقرب من قول المصنف بوجهين: أحدهما: سلامته من الوارد المذكور: وثانيهما: أن حمل الأوزار مقارنٌ لهذا التحسُّر، فيناسب أن يكون في الحشر.[٢١٠٨]

و﴿بَغْتَةً﴾ نصب على الحال من فاعل ﴿جَاءَتْهُمْ﴾، أي: باغتهةً مفاجئةً، أو على المصدر فإنها نوع من المجيء والبَغْتُ والبَغْتة: مفاجأة الشيء بسرعة من غير أن يشعر به الإنسان.[٢١٠٩]

ونداء الحسرة مجازٌ؛ إذ لا إقبالَ لها وإنّما المراد المبالغة في التحسُّر، كأنهم نادوها، وقالوا: إن كان لك وقت فهذا أوانك ومثله: «يا ويلتنا» والمقصود التّنبيه على خطأ المنادي حيث ترك ما أحوجه تركه إلى نداء هذه الأشياء ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا﴾ متعلِّق «بالحسرة»، و«ما» مصدرية، أي: على تفريطنا.

والتفريط: التقصير على الشيء مع القدرة عليه، فإنه تع لَمَّا بعث جوهر النفس الناطقة إلى هذا العالم أعطاها الآلات لتحصل المعارف والأعمال، ولما أنكروا البعث وضيَّعوها في الشهوات وانتهوا إلى الآخرة واحتاجوا إليهما وجدوا أنفسهَم خاليةً عنهما وعن رأس المال فيتحسَّرون عنده.[٢١١٠]

﴿فِيهَا﴾ في الحياة الدنيا، أُضمرت وإن لم يَجْرِ لها ذكرٌ للعلم بها، يعني: عدم الحرى في هذا المقال وبالنسبة إلى هؤلاء القائلين.[٢١١١]

وأمّا قوله: ﴿وَقَالُوا اِنْ هِيَ اِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الأنعام ٢٩/٦] فمقال آخر، وقوم آخرون؛ لأن الأولين الناهون عن اتّباع الرسول وهم قريشٌ، و﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللّٰهِ﴾ أعمّ منهم، فالحياة الدنيا مذكورة في قصّة وانتقل منها إلى أخرى، فلا يعود الضمير إلى ما فرع منها، أو في الساعة، يعني: في شأنها وفي الإيمان بها وهم يحملون حال من ﴿قَالُوا﴾.

و«الأوزَارُ»: جمع «وِزْرٍ». وهو في الأصل: الثقيل، ووزرته، أي: حمَّلته شيئًا ثقيلًا، ومنه: الوزير؛ لأنه يتحمَّل أعباء الملك. وهذا تمثيل لاستحقاقهم آصار الآثام ومقاساتهم عذابها وشدائدها؛ لأن الحمل من توابع الأعيان الكثيفة لا من عوارض الأعراض والمعاني، وتخصيص الظهر؛ لأن المعتاد حمل الأثقال عليه، كما أن المعتاد في الكسب الكسبُ بالأيدي.[٢١١٢]

وفسَّر ابن عباس الأوزار بالآثام، فهي استعارة بالكناية والحمل تخييل، والظهر ترشيح، ويجوز الحمل على الظّاهر على ما ورد في الآثار.

[٢١٠٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٩و.

[٢١٠٨] **فتوح الغيب**، ٦/ ٦٦.

[٢١٠٩] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٥، **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٤.

[٢١١٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٤.

[٢١١١] **الكشاف**، ٢/ ١٦؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٥. **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و ٣٢٩أ.

[٢١١٢] **الكشاف**، ٢/ ١٦؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٤-٣٥.

﴿وَسَاءَ﴾ بمعنى: «بئس»، و«ما» موصوفة يفسِّر فاعله، أو موصولة هو الفاعل، وعلى الوجهين المخصوص محذوفٌ، أي: «بئس شيئًا يزرونه وزرهم»، أو: «بئس الذي يزرونه وزرهم»، أو على بابها، و«ما» مصدرية والمفعول محذوف، أي: «ساءهم وزرهم».

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢)﴾

«أي: وما أعمالها» على حذف المضاف؛ لأن نفس حياتها لا تذمّ؛ إذ السعادات الأخرويّة لا تكتسب إلا فيها، وإنما الذمُّ للأعمال التي تقصد لأنْ ينتفع بها فيها، وأما ما يبتغي به وجه الله وإن كان يكتسب فيها إلا أنه لا يقصد؛ لأن ينتفع به فيها فهو من هذا الوجه ليس منها شبّه الأعمال المقصودة لأجلها باللّعب واللّهو؛ لأنهما وإن كانا مما يلتذ بظاهر فعله إلا أنه[**١٠٧**/ظ]عند الاطّلاع على حقيقة الحال لا يوقعان إلا في الحسرة، فكذا أعمالها لا يترتّب عليها إلا الندامة.[٢١١٣]

واللَّعِبُ: طلب الفرح بما لا يُحسنُ أن يطلب به. واللَّهْوُ: صرف الهَمّ إلى ما لا يحسن أن يُصرف إليه.[٢١١٤]

وقيل: الفرق بينهما من وجهين، الأوّل: أن المشتغل بأمر يقبل عليه فيلزمه الإعراضُ عن غيره، فإنّ من لا يشغله شيءٌ عن شيءٍ هو الله، والمشتغل بالباطل يُعرض عن الحق والأوّل لعبٌ، والثاني لهوٌ، الثاني: أن المشتغل شيء يرجح على غيره من وجه، فأما أن يأتي بالغير بعده أو لا يأتي به مستغرقًا في ذلك الشَّيء، والأوّل لعب والثاني لهو، فوجه تقديم اللّعب على الأوّل لما أنّ الطلب والعزم على الفعل مقدّم والصرف تابع له، وعلى أوّل وجهي ما قيل ظاهر وعلى الثاني فللترّقي. وهو جواب لقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، فكأنّه قال: وما الحياة الدنيا إلا هكذا ونحن حكيم لا يخلق هذا العالم الكبير بمثل ذلك بل لحكمة حميدة فلا بدّ من آخرة يعتدبها ولذلك قال: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

و﴿خَيْرٌ﴾ للتفضيل وحذف المفضَّل عليه للعلم به، أي: خير من الحياة الدنيا، أو لمجرّد الوصف بالخيريَّة كقوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان ٢٤/٢٥]. و«اللام» في﴿لِلَّذِينَ﴾ للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف ٢٣/١٢].[٢١١٥]

وفيه دليل على أن ما سوى أعمال المتقين لعب ولهو؛ لأنه لما خصَّ خيريّةَ أعمال الآخرة بالمتقين، وهي في مقابلة أعمال الدّنيا التي هي لعبٌ ولهوٌ، علم أن ما ليس من أعمال المتقين ليس من أعمال الآخرة، فهي من أعمال الدنيا، وأعمال الدّنيا لعب ولهو، فما ليس من أعمال المتقين لعبٌ ولهوٌ.[٢١١٦]

وقيل: لأنّ الظّاهر أن يقال: وما الحياة الدّنيا إلا لعبٌ ولهوٌ وما الدّار الآخرة إلا جدٌّ وحقّ لا باطل زائل. فوضع موضعه خير للذين يتقون إطلاقًا لاسم المسبّب على السَّبب.

يعني: أن حقيقة الدارين معلومة محقّقه عند من يدّعي النّهي، لكن العاقل الذي يستأهل أن يسمَّى عاقلًا هو من يؤثر ما يُعنيه ويترك ما لا يُعنيه.

وتلخيصه: أن العاقل هو المتّقي يرغب عن الدنيا إلى الآخرة.

[٢١١٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٥.

[٢١١٤] **حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي** ، ٤/ ٤٩.

[٢١١٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٦.

[٢١١٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٩و؛ **نواهد الأبكار** للسيوطي، ٦٠/٦.

وفيه تعريض بمن سبق ذكرهم في قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا﴾ [الأنعام ٦/٣١] أي: اشتغلنا بلذّات الدنيا عن الآخرة، وكذبنا بمجيء الآخرة.[٢١١٧]

واللام الأولى لام الابتداء، والثانية لام التعريف، و«الآخرة» مرفوع على أنه صفة الدار.

وقرأ ابن عامر: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾[٢١١٨] بلامٍ واحدةٍ للابتداء وبجرّ الآخرة بالإضافة، فالبصريون يحملونها على حذف الموصوف وإقامة الصفة مُقامه، ويزعمون أن الموصوف والصفة متّحدان بالصِّدق فتلزم إضافة الشيء إلى نفسه ويقولون: تقديرها: «ولدار الساعة الآخرة»، أو «ولدار الحياة الآخرة» ومثله: «مسجد الجامع» و«صلاة الأولى» «مسجد المكان الجامع»، «وصلاة الساعة الأولى». وذهب الكوفيون إلى أنه إذا اختلف لفظ الصِّفة والموصوف جازت إضافته إليها.[٢١١٩]

وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب بالتاء[٢١٢٠]على خطاب المخاطبين به أو تغليب الحاضرين على الغائبين،[٢١٢١] أي: أفلا تعقلون دناءة الدنيا وخيرية الآخرة حتى لا يختاروها عليها.

فإن قلت هذا يقتضي أن حرمة ما يتعلّق بالدنيا لقوله ع م:«كُلُّ لَعب ابن آدام حرام إلا ملاعبته مع أهله وتأديب فرسه والرمي عن قوسه» قلت: الحديث عامٌّ مخصوص.[٢١٢٢]

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٣٣)

﴿قَدْ﴾ للتقليل، وههنا يراد زيادة الفعل وكثرته؛ لتناسب الضدين كما أن «رُبَّ» للتقليل، وقد يجيء للتكثير لما ذكر. وشاهد الأوّل قوله:

أَخي ثِقَةٍ لا يُتلِفُ الخَمرُ مالَهُ وَلَكِنَّهُ قَد يُهلِكُ المالَ نائِلُه

تَراهُ إِذا ما جِئتَهُ مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعطيهِ الَّذي أَنتَ سائِلُه[٢١٢٣]

يريد أن جوده ذاتي ليس ممّا يحدث بالسّكر وينقص بالصحو.[٢١٢٤] وشاهد الثاني قوله:

فإنْ تُمْسِ مَهْجُورَ الْفِناءِ فرُبَّما أقامَ بِهِ بَعْدَ الْوُفُودِ وُفُودُ[٢١٢٥]

وقال ابن الكمال: كأنه إيماءٌ إلى أن كلّ ما يفهم من وقوع مرّات الفعل وزيادته بالنّسبة إلى ما يُراد منه قليلٌ، ويقوّيه في تفخيم الفعل وكثرته إيراد ضمير الشأن ولام الابتداء في المعلوم المفيد للاعتبار به وتحقُّق وقوعه؛ ليلزم من كثرة وقوع الفعل المعلوم كثرةُ العلم به، ومن دوامه دوام العلم.[٢١٢٦]

[٢١١٧]**فتوح الغيب**، ٦/ ٦٨.

[٢١١٨]**النشر** لابن الجزري، ٢/ ١٩٣.

[٢١١٩]**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٦.

[٢١٢٠]**النشر** لابن الجزري، ٢/ ١٩٣.

[٢١٢١]**أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٥.

[٢١٢٢] مسند أحمد، ٥٧٣/٢٨ (١٧٣٣٧).

[٢١٢٣]**الأسماء والصفات** للبيهقي، ٤٠٢/٢ (٩٧٩).

[٢١٢٤]**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٦.

[٢١٢٥]**ديوان الحماسة**، ٣٣١/١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٦.

فالضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ للشأن، والجملة بعده خبره مفسّرة له، و﴿إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ﴾ سادّ مسدّ المفعولين فإنها معلّقة عن العمل، وكسرت ﴿إِنَّ﴾ لدخول اللام في خبرها و﴿الَّذِي يَقُولُونَ﴾ فاعل ﴿يَحْزُنُ﴾ وعائده محذوف، أي: الذي يقولونه من نسبتهم إيّاه إلى ما لا يليق به مثل قولهم: إنه ساحرٌ كذّاب مفترٍ على الله.[٢١٢٧]

وقيل: إيراد «قد» لتصبير رسول الله من أذى قومه وتكذيبهم، يعني: مِنْ حَقِّك، وأنت سيّد أولي العزم، أن لا تُكثر الشكْوَى من أذى قومِك، وأن لا تُعلِم الله من إظهارك الشكوى إلا قليلًا، أو للتهكم بالمستهزئين، والتوبيخ لهم.[٢١٢٨]

وَلَمَّا كان ظاهر الكلام كالمتناقض بناءً على أن الجحود بآيات الله المنزَلة؛ [**١٠٨**/و] لصدق النبي صلى الله عليه وسلم تكذيب له فيما يدَّعيه من النبوة والشرائع.

أجاب عنه المصنف بثلاثة أوجهٍ، الأوَّل: أن المراد بنفي تكذيبه استعظام تكذيبه، وجعله تكذيب الله والتسلية لرسول الله، أي: إنهم يكذبونك ولا يكذبون بها التّكذيب إلا الله.[٢١٢٩]

وقيل: حاصله: أنه اشتغلتَ لخاصَّة نفسك، وذهِلتَ عما هو أعظم من ذلك، وهو ما تستعظمه من جحود آيات الله، والاستهانة بكتابه، ومن عادتك أن تؤثر حقَّ الله على حقِّ نفسِك. ونحوه: قول السَّيِّد لغلامه-إذا أهان بعض الناس-: إنهم لم يُهينوك وإنما أهانوني؟[٢١٣٠]

فقوله: «وإنما أهانوني»[٢١٣١] وإن كان تهديدًا للجاني، لكن فيه ردعٌ للغلام عن تركه الأَوْلَى: وهو استعظام إهانة السَّيد.[٢١٣٢]

الثاني: أن المراد نفي التكذيب بالقلب وإثباته باللسان، الثالث: أن ليس قصدهم إلى تكذيبك؛ لأنك عندهم موسوم بالصدق، وإنما يقصدون تكذيبي والجحود بآياتي.[٢١٣٣]

روي: أن أبا جهل كان يقول: ما نكذِّبُك، وإنَّك عندنا لمصدَّق وإنما نُكَذِّب ما جئتَنا به فنزلت.[٢١٣٤]

وقرئ: «لِيُحْزِنُكَ»،[٢١٣٥] من «أَحْزَنَ». وقرأ نافع والكسائي «لَا يُكْذِبُونَكَ»،[٢١٣٦] من «أَكْذَبَهُ»، إذا وجده كاذبًا، أو نسبه إلى الكذب.[٢١٣٧]

[٢١٢٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٠٢.

[٢١٢٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٦.

[٢١٢٨] **فتوح الغيب**، ٦/ ٧١.

[٢١٢٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٩و-ظ.

[٢١٣٠] **الكشاف**، ٢/ ١٧-١٨؛ **فتوح الغيب**، ٦/ ٧١.

[٢١٣١] **الكشاف**، ٢/ ١٨.

[٢١٣٢] **فتوح الغيب**، ٦/ ٧١.

[٢١٣٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٩ظ.

[٢١٣٤] **الكشاف**، ٢/ ١٨؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٠٣.

[٢١٣٥] **التيسير**، ص ٣٣٩؛ **النشر**، ١٩٣/٢؛ **إتحاف**، ١٩٣/٢.

[٢١٣٦] **التيسير**، ص ٣٤٠؛ **النشر**، ١٩٣/٢.

[٢١٣٧] **الكشاف**، ٢/ ١٧؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٦؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٠٢.

قال الزجاج «معنى كذَّبْتَه»: قلت له: «كذبتَ». و«أكذَبْتَه»: أريته أن ما أتى به كذِب.[٢١٣٨] ووضع الظاهر موضع الضمير للتّسجيل عليهم بالظّلم وإن جحدوهم مسبّب عن تمرنهم، وإفراطهم في الظلم، أو أنهم ظلموا بهذا الجحود.

والالتفات في اسم «الله» بيان لعظم ما ارتكبوه من أنهم يجحدون بآيات الله المستجمع لجميع صفات القهر، والجلال، والكبرياء، والكمال.

و«الباء» لتضمين الجحود معنى التكذيب. وقيل: متعلِّق بـ﴿الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)﴾

تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم على تكذيب قومه إياه، فإنه تعالى لَمَّا أزال الحزن عن قلبه ع مفي الآية الأولى بأن بيَّن أن تكذيبهم في الحقيقة تكذيب الله، ذكر في هذه الآية طريقًا آخر في إزالة الحزن عن قلبه اللّطيف بأن بيَّن أن سائر الأمم عاملوا أنبياءهم بمثل هذه المعاملة، وأن أولئك صبرُوا على تكذيبهم حتى أتاهم النَّصر والفتح والظَّفر، فوجب أن يقتدى بهم في هذه الطريقة.[٢١٣٩]

وهذا دليل على أن قوله: ﴿**فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ**﴾ ليس لنفي تكذيبه، وإنّما هو على أحد المعاني المذكورة ومن فعلك لا يجوز أن يكون صفة لـ﴿رُسُلٍ﴾؛ لأنه زمان والجنة لا توصف بالزمان، وإنما هي متعلّقة بـ﴿**كُذِّبَتْ**﴾.

﴿**وَأُوذُوا**﴾ يجوز أن يكون معطوفًا على ﴿**كُذِّبُوا**﴾؛ فتكون ﴿**حَتَّى**﴾ متعلّقة بـ﴿**صَبَرُوا**﴾. ويجوز أن يكون الوقفُ على ﴿**كُذِّبُوا**﴾، ثم استأنف فقال: ﴿**وَأُوذُوا**﴾. فتتعلّق ﴿**حَتَّى**﴾ به. والأول أقوى.[٢١٤٠] أي: كان صبرهم أو عاقبة أن أوذوا نصر الله إياهم، وفيه إيماء بوعد النّصر للصّابرين والمظلومين.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «واعْلَم أنَّ الفَرجَ منَ الْكَرْبِ، وأَنَّ النَّصرَ مَعَ الصَّبْرِ، وأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا»،[٢١٤١] والنَّصر الموعود لهم شمل النَّصر بإظهار الحُجج، والبراهين، والنَّصر بطريق القهر والغلبة، والنصر بإهلاك الأعداء.[٢١٤٢] والمراد أنه سيأتيك العون والنَّصر أيضًا.

﴿**وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ**﴾ مبين لذلك النّصر، أي: ما وعد الله به فلا يقدر أحد أن يدفعه لا ناقضَ لحكمه ولا خلف لوعده، و﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد ٣٨/١٣] ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المؤمن ٥١/٤٠] ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفات ١٧١/٣٧-١٧٣] ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة٥٨/٢١].

وفي الصحيح عن النبي عليه السلام: «أحَقُّ ما قال العبدُ: اللّهمّ لا مَانِعَ لِما أعْطَيْتَ، ولَا مُعْطِيَ لِما مَنَعْتَ، ولَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ».[٢١٤٣]

[٢١٣٨] **معاني القرآن**، ٢٤٢/٢.

[٢١٣٩] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٧.

[٢١٤٠] **التبيان في إعراب القرآن** للعكبري، ٤٩١/١.

[٢١٤١] **مسند أحمد**، ١٩/٥ (٢٨٠٣)؛ المعجم **الكبير** للطبراني، ٧٥/١٣ (١٨٥)، **شعب الإيمان** للبيهقي ٣٥٤/١٢ (٩٥٢٩).

[٢١٤٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٧.

وفاعل ﴿جَاءَكَ﴾ مُضْمَرٌ فيه. وقيل: المضمر المجيء، وقيل: المضمر النّبأ، ودلّ عليه ذكر الرُّسُل؛ من ضرورة الرُّسل الرِّسالة، وهي نَبأٌ، وعلى كلا الوجهين يكون ﴿مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ حالًا من ضمير الفاعل، والتّقدير: من جنس نبأ المرسلين.

وأجاز الأَخْفَشُ أن تكون «مِنْ» زائدة، والفاعلُ نبأُ المرسلين، وسيبويه لا يُجيز زيادتَها في الواجب، ولا يجوز عند الجميع أن تكون صفة لمحذوف؛ لأن الفاعل لا يُحذف، وحرف الجرّ إذا لم يكن زائدًا لم يصحَّ أن يكون فاعلًا؛ لأن حرف الجر معدّى، وكلُّ فعلٍ يعمل في الفاعل بغير معدٍّ. و﴿نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ بمعنى: أنباءهم، ويدلُّ على ذلك قوله: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾. [هُودٍ١١/١٢٠].[٢١٤٤]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أَشَدُّ النَّاسِ بَلاَءً قَالَ: «الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاَءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ».[٢١٤٥]

وعنه ع م: «أشدُّ الناسِ بلاءً في الدنيا، نبيٌّ أَوْ صفِيٌّ».[٢١٤٦]

وعنه ع م: «أشدُّ النَّاس بلاءً الأنبياءُ ثمَّ الصَّالحون ثمَّ الأَمْثَلُ فالأمثَلُ».[٢١٤٧]

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ [١٠٨/ظ] عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥)﴾

مَنفذًا تَنْفُذ فيه إلى ما تحت الأرض حتى تُطلع لهم آية، أو مصعدًا تصعد إلى السماء فتُنزل منه أية. فافعل، يعني: لا تستطيعه. والمراد: بيان حرصه على إسلامهم، وأنه لو استطاع ذلك لَأتى بها رجاء إيمانهم.

وقيل: كانوا يقترحون الآيات، فكان يودُّ أن يجابوا إليها لتمادي حرصه على إيمانهم، فقيل له: إن استطعت فافعل، دلالةً على أنه بلغ من حرصه أنه لو استطاع لَفعل حتى يأتيَهم بما اقترحوا لعلّهم يؤمنون.

ويجوز أن يكون ابتغاءُ النَّفق أو السُّلَّم هو الإتيان بالآية، أي: لو استطعت النفوذ إلى ما تحت الأرض أو الرُّقِيَّ في السماء لَفعلت، لعلَّه يكون لك آية يؤمنون عندها.[٢١٤٨]

فالمقصود على الأوّل: بيان حرصه على إسلامهم، وعلى الثاني: بلوغ الحرص إلى حيث إنه لو استطاع أن يأتِيَ بكلِّ ما اقترحوا من الآيات، ولو تحت الأرض، أو فوق السّماء لفعل، وعلى الثالث: إلى حيث إنه لو استطاع جعل النفوذ في الأرض، والرُّقي إلى السّماء آية لَفعل.[٢١٤٩]

[٢١٤٣] **صحيح البخاري**، ١٦٨/١ (٨٤٤)؛ **صحيح مسلم**، ٣٤٧/١ (٤٧٧).

[٢١٤٤] **التبيان في إعراب القرآن** للعكبري، ٣٩٢/١.

[٢١٤٥] **مسند أحمد**، ١٥٩/٣ (١٦٠٧)؛ **سنن ابن ماجه**، ١٥٢/٥ (٤٠٢٢)؛ **سنن الترمذي**، ٦٠١/٤ (٢٣٩٨).

[٢١٤٦] **جامع الأحاديث**، ٤٢٢/٤ (٣٤٧١).

[٢١٤٧] **المعجم الكبير** للطبراني، ٢٤٥/٢٤ (٦٢٩).

[٢١٤٨] **الكشاف**، ٢/ ١٩.

[٢١٤٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٩ظ، **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣٨٣/٣.

وبتقريرٍ آخر أن الأول: على تقدير الإخبار. وعنه ينبئ قوله: «لأتى بها»؛ لأنه جعل «إنْ» بمعنى «لو»، ليؤذن أن فيه تعليق إسلامهم بالمحال، أي: بلغ حرصك إلى أنه إن قدرت على الإتيان بالمحال لأتيت.

والثاني: على تقدير: «افعل» أمرًا. وفيه نوع توبيخ. وتلخيصه: بيان حرصه على الإتيان بمقترحاتهم.

والثالث: على تقدير الإخبار أيضًا. لكن المعنيَّ أن انتفاء النَّفق والسُّلَّم نفسُ الآية، لإخراجها منهما.[٢١٥٠]

وقال الإمام: المقصود من الكلام أن يقطع الرسول طمعه عن إيمانهم، وأن لا يتأذى بسبب إعراضهم.[٢١٥١]

و﴿**فِي الْأَرْضِ**﴾ صفةٌ لـ﴿**نَفَقًا**﴾ و﴿**فِي السَّمَاءِ**﴾ صفةٌ لـ﴿**سُلَّمًا**﴾ ويجوز أن يكونا متعلقين بـ﴿**تَبْتَغِيَ**﴾ أو حالين من المستكن، وجواب الشرط[٢١٥٢] الثاني محذوف على ما مرّ، والجملة جواب الأوّل.[٢١٥٣] وإنما أتى بلفظ ﴿كَانَ﴾ ليبقَى الشّرط على الْمُضيّ ولا ينقلب مستقبلًا؛ لأن ﴿كَانَ﴾ لقوّة دلالته على المضيّ لا تقلبه كلمة ﴿إِنْ﴾ إلى الاستقبال بخلاف سائر الأفعال.[٢١٥٤]

﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى**﴾ لجمعهم عليه ووفقهم للإيمان حتى يؤمنوا ولكن لم تتعلّق به مشيئته فلا تَتهالك عليه.[٢١٥٥]

وذلك أنّ الحوادث مستندة إليه ابتداء أو لا يجري في ملكه إلا ما شاء لقدرة العبد لصلاحيته للطرفين غير كافية في رجحان أحدهما فلا بدّ من مرجح وهو الداعي وليس منه، وإلا بتسلسل فخالقه هو الله والداعي مع القدرة يوجب الفعل ولزم منه أن يكون خالق مجموع تلك القدرة مع الدّاعية المستلزمة للكفر مثلًا مريدًا لذلك الكفر غير مريد للإيمان.[٢١٥٦]

﴿**فَلَا تَكُونَنَّمِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ أي: إنّك حريص على إسلامهم والله لم يرد فلا يحصل، وأنت قد علمته فلا تكن بالحرص عليه بعد علمك بعَدم وقوعه من الموصوفين بصفة الجهل. ولا يخفى أن في هذا المعنى دقة وملاحظة للجهل بالفرق بين مواطن الصَّبر ومواقع الحرص بعد اعتبار العلم بمضمون قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ بخلاف ما قال المصنف: وهو أن المعنى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ بأية ملجئة، لكنَّه لا يفعل لخروجه عن الحكمة، ﴿**فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ الذين يجهلون ذلك ويرُومُون خلافه.[٢١٥٧] وهذا بناء على مذهبه، فإن المعتزلة لما ذهبوا إلى أنه لا يريد من المكلف إلا الإيمان والطاعة، قالوا: إن المشيئة المنفية هي المشيئة الملجئة. وقد تركها سبحانه لكونها منافيًا لما هو المقصود من التكليف وهو أن يميَّز المطيع من العاصي ومن يعبد الله ممن يعبد هواه، وأن يجازيَ كلّ أحد بما يختار لنفسه وما يقع بالإلجاء لا عبرة به.[٢١٥٨] ولا يخفى بعده عن الظاهر ومخالفيه لما ثبت بالظواهر.

[٢١٥٠] **فتوح الغيب**، ٦/ ٧٤؛ **حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي** ، ٤/ ٥٣.

[٢١٥١] **مفاتيح الغيب**، ٢١٧/١٢.

[٢١٥٢] **ج– الشرط**.

[٢١٥٣] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٧.

[٢١٥٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٩ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣٨٩/٣.

[٢١٥٥] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٧.

[٢١٥٦] **مفاتيح الغيب**، ٢١٨/١٢؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٨.

[٢١٥٧] **الكشاف**، ٢/ ١٩.

[٢١٥٨] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٨.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٣٦) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٧)

يعني: أن الذين تَحرِص على أن يصدِّقوك بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون، وإنما يجيب الذين يسمعون بفهم وتأمُّل كقوله: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى﴾ [النمل٢٧/٨٠].

﴿**وَالْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ**﴾ مثلٌ لقدرته على إلجائهم إلى الاسجابة بأنه هو الذي يبعث الموتى من القبور يوم القيامة، ﴿**ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾ للجزاء. فكان قادرًا على هؤلاء الموتى بالكفر أن يحييهم بالإيمان، وأنت لا تقدر على ذلك.

وقيل: معناه وهؤلاء الموتى-يعني: الكفرة- يبعثهم الله، ﴿**ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾ فحينئذ يسمعون حين لا ينفعهم، وأمَّا قبل ذلك فلا سبيلَ إلى استماعهم.[٢١٥٩]

فقوله: «**بأنه هو الذي**»[٢١٦٠] متعلِّقٌ بـ«مَثَل» لقدرته من جهة المعنى، أي: حال قدرته خاصّة على إلجائهم إلى الاستجابة، كحال قدرته خاصة على بعث الموتى من القبور».[٢١٦١] واعتبار الإلجاء على طريقة الاعتزال. وعندنا: «مثلٌ لقدرته» على الإفضال عليهم لخلق الاهتداء فيهم، لكن لا يخفى عليك أنه على الحمل على المثل ليس لقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ كثير دخل في التمثيل، إلا أن يراد أنه إشارة [**١٠٩**/و] إلى ما يترتب على الاستجابة من الآثار في الدنيا والآخرة، وعلى هذا المفردات على حقائقها، وعلى ما قيل: ﴿الْمَوْتَى﴾ مجاز عن الكفرة تشبيهًا لكفرهم وجهلهم بالموت على طريقة الاستعارة التبعيَّة.

فإن قلت: لِمَ لَمْ يَحملْ على أن يكون الظرفان على المجاز ويكون على معنى قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام ٦/١٢٢]؟

قلتُ: هذا صحيح في نفسه، لكن حينئذ لا يلائم ما قبله؛ لأنه على حصر الاستجابة في المستمعين منهم، فيحمل قوله: ﴿وَالْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ﴾ على مقابل المستمعين حقًّا، فلا يلائمه المعنى المذكور.

ولَمَّا ورد أن يقال: من طرف بعض الملاحدة الطاعنين في النبوة أن رسول الله صلعملو كان قد أتى بآية ومعجزة لَما صحَّ أن يقال: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾، فإنه يشعر أنه لم ينزل عليه آية ما، ولَمَّا قال الله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾؛ فإنه يشعر بأنه تع سلّم ما أشعر به كلامهم من أنه تعلم ينزل آيةً أصلًا، وادَّعى أن إنزالها مقدور له، ولكن لم يقع لعدم تعلُّق المشيئة به، فلم يكن منه ع مإلا مجرَّد أنه ادَّعى الرسالة، والرسالة لا تثبت بمجرَّد الادِّعاء.

أجيب عن الأول: بأن مرادهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾اقترحناها أو آية غيرها أظهرها بناءً على عدم اعتدادهم بالآيات الظّاهرة عنادًا، وعن الثاني: بأن المراد بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ إنه قادر على أن ينزّل آية مما اقترحوه، لكن لم يقع لعدم المشبه بناءً على صارف وهو أن العرض قد حصل بما أوتوا؛ ولذلك قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إن الله قادر على إنزالها وأنه إنما لم ينزل؛ لأن لهم فيما نزل مندوحة عما اقترحوه، أو إنه قادر على آية ملجئة تضطرهم إلى الإيمان، كفتق الجبل لكن لم يقع لعدم المشيئة بناءً على صارف وهو أن أمر التكليف مبنيٌّ على الاختيار؛ ولذلك قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا

[٢١٥٩] **الكشاف**، ٢/ ١٩.

[٢١٦٠] **الكشاف**، ٢/ ١٩.

[٢١٦١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٩ظ.

يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر على الاختيار، أو إنه قادر على أن ينزّل آيةً معقبةً للهلاك إن جحدوها ولكن لم يقع لعدم المشيئة بناءً على صارف وهو أن لكلِّ أمةٍ أجلٌ، وأن إنزالها يؤدِّي إلى إهلاكهم؛ ولذلك قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن إنزالها إنما يكون بأجلٍ، وأن فيه إهلاكهم، لكن لا يخفى عليك أنه على الأخيرين لا يكون الجواب مطابقًا؛ لأن سؤالهم عن إنزال آيةٍ مقترحةٍ، أو آية غير ما نزل، والجواب عن إنزال آية ملجئة أو مهلكة إلا أن يقال إنه على الأسلوب الحكيم.[٢١٦٢]

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)﴾

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ قال السكاكي: «ذكر **﴿فِي الْأَرْضِ﴾** مع **﴿دَابَّةٍ﴾**، و**﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾** مع ﴿طَائِرٍ﴾ لبيان أن القصد من لفظ **﴿دَابَّةٍ﴾** ولفظ **﴿طَائِرٍ﴾** إنما هو إلى الجنسين وإلى تقريرهما»،[٢١٦٣] كأنه أشار بذكر التقرير إلى أنّ اسم الجنس موضوعٌ للماهية، فكان القصد فيه إلى الجنس؛ تقريرًا له على معناه الأصلي؛ وتجريدًا عمّا عرض له في الاستعمال باعتبار التنوين والتنكير إذا كان القصد في **﴿دَآبةٍ﴾**و**﴿طَائِرٍ﴾** إلى الجنسين فلا إشكالَ في الإخبار عنهما بقوله: **﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾**، كأنّه قيل: ما من جنس من هذين الجنسين إلا أُمَم، ولا شكَّ أن الجنس مفهوم واحد فلا يتصوَّر ح كون الوصف مفيدًا لزيادة التَّعميم، وفي التعبير إشارة إلى فائدة من الاستغراقيّة وأنها بحسب المعنى متعلِّقة بالجنس لا بالجنس الأوَّل وحده.

وقال المصنف: «إن المقصود بالوصفين زيادة التعميم والإحاطة، كأنه قيل: وما من دابة قطُّ في جميع الأرضين السبع، ولا من طائرٍ يطير في جوِّ السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظةٌ أحوالُها غير مهملٍ أمرُها».[٢١٦٤]

وتوجيهه: أن النكرة في سياق النفي تُفيد العموم، لكن جاز أن يراد بها دوابّ أرض واحدة وطيور جوّ واحد، فيكون استغراقًا عرفيًا، فلما ذكر وصفان نسبتهما إلى دوابٍّ، أي: أرض كانت وطيور، أي: جوّ كان على السّواء اتّضح أن الاستغراق حقيقي يتناول دوابَّ جميع الأرضين وطيور جميع الآفاق، فظهر أن الوصفين يفيد أن زيادة التعميم والإحاطة، لكن يرد عليه أن النكرة المفردة في سياق النّفي تدلُّ على كلِّ فردٍ فرد، فلا يصحُّ الإخبار عنهما بقوله: **﴿إِلَّا أُمَمٌ﴾**، وكذا لا يصحُّ ذلك الإخبار وإن أريد بتلك النّكرة النوع؛ لأن كلَّ نوع أمةٌ لا أمم. وجوابه أن النَّكرة ههنا محمول على المجموع من حيث هو بقرينة الخبر، وإلى السؤال والجواب أشار بقوله: فإن قلتَ: كيف قيل: إلا أمم مع إفراد الدابّة والطّائر؟

قلتُ: لما كان قوله: وما من دابة ولا طائرة إلا على معنى الاستغراق ومغنيًا عن أن يقال: وما من دوابٍّ ولا طُيورٍ حمل قوله: **﴿إِلَّا أُمَمٌ﴾** على المعنى. وإذا تحقّقت ما قررناه انكشف لك أن كلامي الشَّيخين[٢١٦٥] ليسا متحدين فمن زعم أنَّ كلامهما واحدٌ فقد سهى.

وقال ابن الكمال: **﴿فِي الْأَرْضِ﴾**؛ أي: تستقرُّ فيها، وفائدته: تحقيق الممانعة بينها وبين قرينها المقابل، فإن بعض الطائر يتحرَّك على وجه الأرض إلا أنه لا يستقرُّ فيها.

﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ تصويرٌ لتلك الحالة الغريبة الدَّالة على القوَّة الباهرة، والمقام مقامُ [**١٠٩**/ظ] بيان كمال قدرته تع .

[٢١٦٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٩.

[٢١٦٣] **مفتاح العلوم** للسكاكي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٤٠٧/١٩٨٦، ص١٩٠؛**فتوح الغيب**، ٦/ ٧٨-٧٩.

[٢١٦٤] **الكشاف**، ٢/ ٢٠.

[٢١٦٥] هما: زمخشري بيضاوي.

وقيل: إنه لقطعِ مجاز السُّرعة، وقيل: للتعميم.

ويَرِد عليهما أنه لو قيل: «ولا طائر في السماء» لكان أخصر، وفي إفادة ذينك الأمرين أظهر، مع ما فيه من رعاية المناسبة بين القرينين بذكر جهة العلوِّ في أحدهما وجهة السُّفل في الآخر.[٢١٦٦]

وأنت خبير بأن قطع مجاز السُّرعة إنما هو بذكر جناحيه بعد ذكر يطير، فجعله وجهًا للوصف غير واضح نعم، ما أورده وارد، ولم يقع من السلف كلامٌ شافٍ في تخصيص الوصف الظرفي في الأول، والفعلي في الثاني مع أنه ممكن.

وفيه رعاية حق المقابلة بأن يقول: وما من دابَّةٍ في الأرض ولا طائرٍ في الجوِّ، أو وما من دابَّةٍ تدبُّ في الأرض ولا طائرٍ يطير في الجوِّ، ويمكن أن يقال: إنه من قبيل الاحتباك وهو الاكتفاء بما ذكر في الأوَّل عمَّا يذكر في الثاني وكذا العكس، فيكون التقدير: وما من دابَّةٍ تدبُّ في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه في الجوِّ، وكونهما إنَّما أمثالهم في أن أحوالها محفوظةٌ، وأرزاقها مقدَّرةٌ، وآجالها موقوتةٌ.

والمقصود الدَّلالةعلى كمال قدرته، وشمول علمه، وسعة تدبيره؛ ليكون كالدَّليل على أنه قادر على أن ينزِّل آية[٢١٦٧].[٢١٦٨]

﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾

قال المصنف: «ما ترَكنا وما أَغفلنا في اللّوح المحفوظ ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من ذلك لم نكتُبْه ولم نُثبت ما وجب أن يثبت ممّا يختصّ به»[٢١٦٩].

روي: «نَختَصّ» بالنون وضمير به لما وروي بالياء، والمستتر لما وضمير به للكتاب وكيف ما كان فهو بيان لما وجب؟ وفيه احتراز عمَّا يتعلَّق بقدر العباد وإرادتهم؛ فإنها لا تكون من هذا القبيل وإنما يعلم تبعًا لما يقع.

و«من ذلك» صفة ﴿شَيْءٍ﴾، و«من» بيان، و«لم نَكْتُبْهُ»: صفةٌ أخرى، أو حال منه. «ولم نُثْبِتْ» عطفٌ تفسيريٌّ.

المعنى: ما تركنا في اللوح من شيءٍ كائنٍ مِن المذكور، ومُتَّصل به غير مكتوب، ولا مثبت فيه البتَّةَ.[٢١٧٠] والإشارة بذلك إلى الأرزاق والآجال والأعمال.

قال قدس سره: يعني: «اللوح فإنه مشتمل على ما يجري في العالم من جليلٍ ودقيقٍ لم يهمل فيه أمر حيوان ولا جماد، أو القرآن فإنه قد دوّن فيه ما يحتاج إليه من أمر الدين مفصلًا أو مجملًا».[٢١٧١]

وفيه دفع لما يقال: القرآن غير مشتمل لتفاصيل علم الطِبِّ وعلم الحساب ولا تفاصيل كثير من المباحث ولا تفاصيل دلائلهم المذكورة في علم الأصول والفروع؛ فإن «من شيء» وإن عمّ إلا أنه أريد به الخاصُّ وهو ما يتعلَّق بأمر الدين، فإن التَّفريط ترك ما يحتاج إليه. وعلم الأصول موجود في القرآن؛ لأن الدلائل الأصلية مذكورة فيه على أبلغ الوجوه، وأمَّا روايات

[٢١٦٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٠٧.

[٢١٦٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٠٧.

[٢١٦٨] وقيل: أمثالهم في المعرفة، ودخول الخفة والتعويض من الآلام، والستفتاس أهل الجنة يصورهم. منه.

[٢١٦٩] **الكشاف**، ٢/ ٢٠.

[٢١٧٠] **فتوح الغيب**، ٦/ ٧٧.

[٢١٧١] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٨.

المذاهب وتفاصيل الأقاويل ولا حاجة إليها، وأمَّا تفاصيل علم الفروع، فالعلماء قالوا: إن القرآن دلَّ على أن الإجماع وخبرَ الواحد والقياسَ حجَّة، وكلُّ ما دلَّ عليه أحدُ هذه الثلاثة كان في القرآن محقَّقًا. قال تع:﴿وَمَا آتِيكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُواْ﴾ [الحشر ٧/٥٩]. وقال عليه السلام: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي».[٢١٧٢]وقد قال ابن مسعود:«مَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ يَعْنِي وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ فَقَالَ لَهُ امرأةٌ: «إِنِّي تَلَوْتُ مَا بَيْنَ الدَّفْتَيْنِ فَلَمْ أَجِدْ ذَلِكَ فَقَالَ لَوْ تَلَوْتِهِ لَوَجَدْتِهِ». قال تع: ﴿وَمَا نَهٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر ٧/٥٩]. وقد قال ع م: «لعن الله الْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ». وقيل للشافعي: ما تقول في قتل المحرم الزنبور؟ فقال: لا شيء عليه. قال تع: ﴿وَمَا آتِيكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر ٧/٥٩]. وقال ع م: «عليكم بسنة الخلفاء». وقد قال عمر: «للمُحرم قتل الزنبور».[٢١٧٣]

﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾. قال المصنف: يعني: الأمم كلَّها من الدوَابِّ والطّير، فيعوِّضها ويُنصِف بعضَها من بعضٍ، كما ورد «أنَّه يأخذ للجَمَّاء من القَرْناء».[٢١٧٤]

وهذا إشارة إلى هو المذهب عندهم: من أن التفويض لا يختصّ المكلّف، وإنما ذلك الثواب وهو منفعةٌ مستحقّة دائمة مفعولة على وجه التعظيم، والعوض منفعة مستحقة غير دائمة ولا مقترنة بالتعظيم، فالحديث استشهاد للتعويض والإنصاف جميعاً.[٢١٧٥]

وإنما أجريت مُجرى العقلاء لإطلاق الأمم عليهم، أو غَلَّب العقلاء؛ لكونهم المقصودين.

و﴿مِنْ﴾ مزيدة، و﴿شَيْءٍ﴾ في موضع المصدر، أو مفعول به على تضمين فرَّط معنى أغفل.

والمقصود: أنَّ مَنْ يضبط أحوال الدَّوابّ والطَّير كلِّها وأعمالَها، فيُنصف بعضها من بعض كيف يهملكم سُدًى.

وقيل: حشرها موتها. ويردُّها أنَّ الحشر بعثٌ من مكانٍ إلى آخر، وتعديته بـ﴿إِلَى﴾ تنصيصٌ على هذا المعنى.[٢١٧٦]

وقيل: الحشر المذكور للكفَّار، وما تخلَّل كلامٌ معترِضٌ وإقامةُ حجج. وأمَّا الحديث فالمقصود منه التمثيلُ على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص، والاعتناء فيه حتى يُفهَم منه أنه لا بدَّ لكلِّ أحد منه، وأنه لا محيصَ له عنه، وعضَدوا ذلك بما قد يروى أنه يُقاد للشاة الجَلْحاء من القَرْناء، وللحجر لِما رَكِبَ على الحجر، وللعود لما خَدَش العود؛ قالوا: فظهر منه أنَّ المراد التمثيل؛ لأن الجمادات لا يُعقَل [**١١٠**/ظ] خطابُها ولا ثوابُها ولا عقابُها.

والصحيح القول الأوَّل؛ فإن العلم وإن لم يجر عليهم، لكن يؤاخَذون فيما بينهم انتطح شاتان عند النبي ع مفقال: هَلْ تَدْرُونَ فِيمَا انْتَطَحَا؟ فقالوا: لا. قال: «لكن الله يدري، وسيقضي بينهما».[٢١٧٧]

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣٩)

[٢١٧٢] **مسند أحمد**، ٣٧٣/٢٨ (١٧١٤٤)؛ **سنن ابن ماجه**، ٢٨/١ (٤٢)، **سنن الترمذي**، ٤٤/٥ (٢٦٧٦).

[٢١٧٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٤٠.

[٢١٧٤] **المسندرك على الصحيحين** والحاكم، ٣٤٥/٣ (٣٢٣١)؛ **الكشاف**، ٢٠/٢.

[٢١٧٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٢٩ظ؛ **حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي** ، ٤/ ٥٧.

[٢١٧٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٠٨-٣٠٩.

[٢١٧٧] **مسند أحمد**، ٣٤٥/٣٥ (٢١٤٣٧).

لَمَّا ذَكَرَ من خلائقه وآثارِ قدرته ما يشهد لربوبيَّته، وينادي على عظمته، ويدلُّ على كمال علمه وقدرته، وأوجب الإقرار بها، والتيقظ لها بذكر الحشر والوعيد به، ذكر أن الذين كذَّبوا بها ﴿صُمٌّ﴾ لا يسمعون كلام المنبِّه ولا يصغون إليها إصغاء تتأثر منها نفُوسهم وتتيقَّظ قلوبُهم ﴿بُكْمٌ﴾ لا ينطقون بالحقِّ ولا يقرون باللائق إلا حقّ.

﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ خبرٌ ثالثٌ، أي: خابطون في ظلمات الكفر أو في ظلمة الجهل، وظلمة العناد، وظلمة التقليد فلا ينظرون ذلك، ولا يتأمَّلون، ولا يتفكّرون فيه. ويجوز أن يكون حالًا من المستكنّ في الخبر، أي: إنهم غافلون عن تأمُّل هذه الدلائل حالَ كونهم مستقرّين في الظلمات فيتعلَّق بمحذوف.[٢١٧٨]

وقال ابن الكمال: «وهذا كناية عن عمَى البصيرة، ناظر إلى ﴿عُمْيٌ﴾ في قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة ١٨/٢]، وهذا أبلغ إذ جعلت ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ ظرفًا لهم، وجُمِعت لاختلاف جهات الضّلالة مع الكفر والجهل والعناد والتقليد».[٢١٧٩]

﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ﴾ إضلاله يضلله يخلق فيه الضَّلالة، ومن يشأ هدايته يجعلْهُ على صراط مستقيم يخلق فيه الهداية ويرشده إلى الهدى ويحمله عليه.

وما أظهر دلالته على مذاهب أهل السنة! وذلك أنه تعلما أنكر على رسول الله حرصَه على إسلام قومه، وتَهَالُكَه عليه، ذلك الإنكار البليغ، وضرب لهم مثلًا بالموتى أتى بقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام ٣٨/٦]،الآية بيانًا لربوبيَّته وشاهدًا على عظمة ألوهيته. وعقَّبه بتلك الآية ليدُلَّ بها على أن هؤلاء الكفرة مع هذه الأدلّة الظّاهرة، والأنوار المتظاهرة خائضون في ظلمات الكفر، كأنما أيفت مشاعرهم وتعطَّلت قُوَاهم.

فالمقصود: أنه ليس في مقدورك هدايتُهم وليس في وسعك استقامتهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة٦/٢]؛ لأن ذلك مبني على المشيئة، وعلمه السابق. ﴿ولَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ولَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة ١٣/٣٢]. وكم ترى من آيات هذا الكتاب الكريم معاضِدةً بعضها بعضًا[٢١٨٠] في هذا المعنى، كما أشرنا إليها في أماكنها.[٢١٨١]

وأما قول المصنّف: ﴿يُضْلِلْهُ﴾، يَخْذُلْهُ وضلَالَه لم يلطف به؛ لأنه ليس من أهل اللُّطْف.[٢١٨٢]

﴿يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: يلطُفْ به؛ لأن اللُّطف يُجدي عليه.[٢١٨٣] فخروج عن الظاهر النيّر كأنه جاء يَرْقُعُه يسدّ ثَلْمَه، هَيْهَات! «اتَّسع الخَرْقَ على الرَّاقِعِ».[٢١٨٤]

وقال بعض العارفين: المشيئة تقع على المقبولين والمطرودين على الإبعاد والقبول والرّضاء والسخط، بما جرى عليهم في الأزل من السّعادة والشقاوة، فَمَن لم يكن صادقًا في بدو إرادته يعوقه الحقّ في ظلمات قهره غيرة على وصله؛ إذ لا يصل إليه غير صادق في محبّته، ومَنْ كان صادقًا في بدو إرادته ولم ينقص عهد بدايته بمتابعة نفسه والفترة عن طاعة ربه يهديه الحقّ بنفسه

[٢١٧٨] **الكشاف**، ٢١/٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٨؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤١/٤.

[٢١٧٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣١١/٣.

[٢١٨٠] **ج – بعضًا**.

[٢١٨١] **فتوح الغيب**، ٦/ ٨٠-٨١.

[٢١٨٢] **الكشاف**، ٢١/٢.

[٢١٨٣] **الكشاف**، ٢١/٢.

[٢١٨٤] **فتوح الغيب**، ٦/ ٨١.

إلى نفسه، ويجعله مستقيمًا في طريق معرفته وطاعته، والطّريق المستقيم طرق أفعاله للعقول بنعت الفكرة، وطرق صفاته للقلوب بنعت المحبة، وطرق ذاته للأرواح بنعت المعرفة.

وقيل أيضًا: مَنْ يرد الله به الشَّرَّ يتركه في سوء تدبيره ليبقى في ضلالته، ومن يرد الله به الخير يجرُّه إلى حسن اختياره، ويوفقه إلى أَحسن الطرق وأسلَمها، وهو الرضاء بمجاري القدر، وهو الصراط المستقيم.[٢١٨٥]

وهو صراط الوصول إلى الوصال بلا إيصال ولا انفصال، وصراط عالم الجلال والجمال وإدراك النوال نسال الله الأَنْوال.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٤٠)﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾ بمعنى: الاستفهام، كما يحتمل أن يكون من رؤية القلب، وأن يكون من رؤية البصر كذلك إذا كان بمعنى: أَخْبِرُونِي يحتمل أن يكون منقولًا عن رؤية القلب باعتبار أن العلم بالشيءِ يصير سببًا للإخبار عنه، فاستعمل الصيغة التي لطلب العلم في طلب الخبر، وأن يكون منقولًا عن رؤية البصر؛ لأنه لما كان رؤية الأشياء طريقًا إلى الإحاطة بها علمًا، وإلى صحة الخبر استعملوا أرأيت في معنى أخبرني.[٢١٨٦]

وقيل: أصله: فيمن ينشد الضالة فيقول: لمن رآه؟ أرأيت ضالَّتي وأراد الإخبار عنها واستعمل فيها مجازًا، ثم إنه إن كان بمعنى: أبصرت أو علمت تكون «التاء» مطابقًا لما قصد به في الإفراد والتثنية وغيرهما، تقول: أَرَأَيْتَ، أرأَيْتُمَا، أَرَأَيْتُمْ، أَرَأَيْتِ. ولا يجوز أن يلحقه «كاف» على أنه حرف خطابٍ، بل يكون اسمًا منصوبَ المحلّ على أنه مفعول أوَّل، [**١١٠**/ظ] ويكون مطابقًا تقول: «أرأيتك، أرأيتاكما، أرأيتموكم، أرأيتكِ»، بكسر الكاف، أرأيتنَّ كُنّ بنونين مشدَّدتين. وإن كان بمعنى: «أخبرني»، فحتثبت له أحكام مختصَّة بها منها أنه لا يلحقه تعليق ولا إلغاء؛ لأن «أخبرني» لا يلحقه شيءٌ من ذلك عند الجمهور. ومنها أنه يلحقه «كاف» هي حرف خطاب بعد ضمير الفاعل الذي هو التاء، وذلك الكاف يطابق ما يراد به من الإفراد والتذكير وضدَّيهما، و«التاء» تبقى على حالةٍ واحدةٍ، مفردة مفتوحة أبدًا، نحو: «أرأيتَك، أرأيتَكما، أرأيتكُم، أرأيتَكِ»، بفتح التاء وكسر الكاف، «أرأيتَكُنّ»، وهذا عند البصريين. وأما عند الكوفيين، فـ«الكاف» الذي يلحقه ليس بحرفٍ، بل هو اسمٌ منصوبُ المحلّ على المفعوليَّة، كما أن «التّاء» اسم مرفوع المحلّ على الفاعليَّة، ويُطابق كلُّ واحدٍ منهما ما قصد، فيقال: «أرأيتُك، أرأيتُماكما، أريتُموكم»، كما إذا كان أرأيت بصريّة أو علميّة. ولَمَّا لم يكن الكاف اسمًا عند البصريين لم يكن له محلٌّ من الإعراب؛ لأن هذا الفعل يتعدَّى إلى مفعولين؛ لقولك: «رأيت زيدًا ما فعل»؟ فلو جعلت «الكاف» معربًا منصوب المحل لَكان ثالثًا، ولكان معنى قولك: «أرأيتك زيدًا ما شأنه، أرأيت نفسك زيدًا ما صنع»؟ لأن «الكاف» عبارة عن المخاطب، وهذا معنى باطل؛ ولأن الكاف لو كان منصوب المحلّ على المفعوليّة لَوجب أن تظهر علامة التثنية والجمع والتذكير والتأنيث في «التاء»، وتقول: «أريتُماكما أرأيتمُوكم أرأيتنَّ كُنَّ.[٢١٨٧]

فقال قدس سره: «الفعل معلَّق أو المفعول به محذوفٌ تقديره: أَرَأَيْتُكم آلِهَتَكم تنفعكم إذ تدعونها».[٢١٨٨]

﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ يعني: أنه في الأصل من أفعال القلوب التي تعلق بحرف الاستفهام لا يتعدّى إلى المفعول، فإن اعتبر كونه بمعنى: أخبرني لا يلحقه التعليق فيقدر له مفعول، والتقدير: أرأيتكم آلهتكم تنفعكم إذ تدعونها أو اتِّخاذكم غير

[٢١٨٥] **عرائس البيان**، ١/٣٥٦.

[٢١٨٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٠و.

[٢١٨٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/٤٢.

[٢١٨٨] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٨٩.

الله آلهة هل يكشف ضركم؟ ونحو ذلك فقوله: «آلهتكم» أو «اتّخاذكم» مفعول أول وما بعده مفعول ثانٍ حَذْفًا للعلم به، والجملة الاستفهامية سادة مسدَّ الثاني. و«التاء»: هي الفاعل و«الكاف» حرف خطاب جيء بها لتدلَّ على أحوال المخاطب من الإفراد والتذكير ونحوهما، فإن هذا «الكاف» إنما لَحِقَ الفعلَ ليدلَّ على أحوال فاعلة فيجب أن يبقى الفاعل على حالةٍ واحدةٍ في جميع الأحوال، والاستفهام فيها للتبكيت وإلجائهم إلى الإقرار بأنهم إن أتاهم عذاب الله في الدنيا أو أتاهم العذاب عند قيام السّاعة لا يرجعون في دفعه إلا إلى الله.[٢١٨٩]

﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١)﴾

قال المصنّف: «متعلَّق الاستخبار محذوفٌ، تقديره: أرأيتكم إن أتاكم العذاب أو الساعة مَنْ تَدعون؟ ثم بكَّتهم بذلك، أي: أتَخُصُّونَ آلهتكم بالدَّعوة فيما هو عادُتكم إذا أصابكم ضرٌّ، أم تدعون الله دونَها»، أو متعلّقة ذلك كأنه قيل: أرأيتكم أغير الله تدعون إن أتاكم.

فإن قلت: إن علَّقْتَه به، فما تصنع بقوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ مع قوله: ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾، وقوارع الساعة لا تكشف عن المشركين؟

قلت: قد اشترط في الكشف المشيئة؛ إيذانًا بأنه إن فَعَلَ كان له وجهٌ من الحكمة، إلا أنّه لا يفعل لوجهٍ آخر منها أَرْجَحَ.[٢١٩٠]

إنما خصَّ السؤال بهذا الوجه؛ لأن الشرطين أعني: ﴿**إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ**﴾ حمتعلّقان بقوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ فيتعلّقان بما عطف عليه على وجه الإضراب، أعني: ﴿**بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ**﴾ وما يترتَّب عليه أعني: ﴿**فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ**﴾ فيصير المعنى: أنكم عند إتيان العذاب أو السّاعة تخصُّون الله بالدّعاء، فيكشف عنكم ما تدعون له، فيدخل فيه قوارع الساعة، أي: شديد القيامة.

فيلزم أن يكشف بالدعاء، بخلاف ما إذا علّق الاستخبار بالمقدّر الذي هو من يدعون فإنه ح يبقى قوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ مع ما عطف عليه وترتّب عليه منقطعًا مستقلًّا لا دلالةَ في الكلام على تعلّق الشّرطين به، فلا يلزم دعوة الله ح كشف شدائد الساعة؛ فضلاً عن الكشف، وفيه نظر! لظهور أنّ المعنى على هذا التقدير أيضًا: أتدعون غير الله عند إتيان العذاب أو الساعة ويتوجّه السؤال غاية الأمر أنه على الأوَّل أظهرُ.[٢١٩١]

ثم إنّ ﴿بَلْ﴾ حرف إضرابٍ وانتقالٍ إلى قصةٍ أخرى لا لإبطال ما تقدّم لما تقرر من أنه لا يقع في كلامه تع إلا كذلك. وقد صرّح قدس سره بأن جواب قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ محذوف، أي: فادعوه ولم يتعرض لجواب قوله: ﴿إِنْ أَتَاكُمْ﴾ لكن يفهم أنه محذوف أيضًا دلَّ عليه متعلّق الاستخبار، ولا يصلح قوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾؛ لأن يكون جوابًا له؛ لأن الجملة المصدرة بهمزة الاستفهام لا تقع جوابًا للشّرط، ولا قوله: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ لكونه مصدرًا بالهمزة ولأن جواب الشرط لا يتقدّم عليه عند البصريّين.

[٢١٨٩] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٤٢.

[٢١٩٠] **الكشاف**، ٢/ ٢١.

[٢١٩١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٠و؛**حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣٩٤/٣.

والنسيان: إما مجاز عن الترك بذكر الملزوم [**١١١**/و] وإرادة اللازم، وإنهم يتركون آلهتهم، أي: دُعاءها مع كونهم ذاكرين لها، وإما على حقيقته، فإنَّهم لا يذكرونها في ذلك الوقت؛ لأن أذهانَهم مغمورةٌ بذكر ربهم وحده؛ إذ هو القادر على كشفِ الضُرِّ دون غيره.

و﴿مَا﴾ موصلة والعايد محذوفٌ، أي: ما تشركونه مع الله في العبادة وهو الملائم لما قبله وإن جاز أن تكون مصدرية، أي: تنسون الإشراك نفسه أو تنسون المشرك به من الأصنام وغيرها على أن يكون المصدر بمعنى المفعول.[٢١٩٢]

أنكر بعض الزنادقة الخالق عند **الصادق**[٢١٩٣]، فقال: هل ركبتَ البحر؟ قال: بلى. قال: أرأيت هَوْلَه؟ قال: بلى. هاجت يومًا رياحٌ هائلةٌ، فكسَّرت السفنُ وغرقت الملَّاحون فتعلَّقت ببعض ألواحها، ثم ذهب عني اللوح، فدُفعت في تلاطم الأمواج، حتى حصلت بالساحل. قال: قد كان اعتمادُك من قبلُ على السفينة والملَّاح وعلى اللوح، فلمَّا ذهبت هل أسلمْتَ نفسك للهلاك، أم كنت ترجوا السلامة بعد؟ قال: بل رَجَوْتُ السلامة. قال: مِمَّنْ؟ فسكت. فقال جعفر: إن الصَّانع هو الذي كنتَ ترجوه ذلك الوقت، وهو الذي أنجاك. فأسلم الرجل.[٢١٩٤]

وقال الجريري: مرجع العارفين إلى الله في أوائل البدايات، ومرجع العامّ إليه بعد اليأس من الخلق، بل الصادق مَنْ إليه يرجع، وإليه يدعوا.

قال بعضهم: بل إليه المرجع لمن عقل عنه خطابه.[٢١٩٥] اللهم إيَّاك ندعوا وإيَّاك نعبد وإياك نستعين يا معين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢)﴾﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣)﴾

التقدير: أرسلنا رسلًا إلى أُمَمٍ من قبلك. وقيل: أي: قبلك، و﴿مِنْ﴾ مزيدة، وهذا إنما يتمشّى على قول **الأخفش** وليس بقول كما سبق.

وفيه إضمار آخر يدلُّ عليه الظاهر تقديره: فكذَّبوا فأخذناهم؛ إذ من البين أن الأخذ لا يكون مرتَّبًا على الإرسال، فـ«الفاء» فصيحة. والأخذ: الإمساك بقوّة وفهم، والمراد هنا مبالغة العقوبة والملازمة.

﴿بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ البؤسُ والضُّرُّ. وقيل: البأساء: القحط والجوع. والضَّراء: المرض ونقصان الأنفس والأموال وهما صيغتا تأنيثٍ لا مذكَّر لهما.[٢١٩٦]

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾: يتذللون لنا، ويتوبون عن الذّنوب بذلك الأخذ؛ فإن البلاء يليّن القلوبَ.[٢١٩٧]

والتَّضرّع تفعل من الضّراعة وهي المذلة والخشوع المبنية على الانقياد والطاعة وترك التّمرد والعناد يقال: «ضَرَعَ الرجل يَضْرَعُ ضَرَاعَةً فهو ضَارِعٌ، أي: ذليلٌ ضعيفٌ.[٢١٩٨]

[٢١٩٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٤٣.

[٢١٩٣] هو جعفر الصادق.

[٢١٩٤] **فتوح الغيب**، ٦/ ٨٣.

[٢١٩٥] **عرائس البيان**، ١/ ٣٥٧.

[٢١٩٦] **الكشاف**، ٢/ ٢٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٣٨٩؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣١١.

[٢١٩٧] **الكشاف**، ٢/ ٢٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٣٨٩؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣١١.

﴿**فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا**﴾ معناه: «نفيُ التَّضرُّع، كأنه قيل: فلم يتضرَّعوا إذ جاءهم بأسنا، ولكنَّه جاء بـ﴿لَوْلَا﴾؛ ليفيد أنه لم يكن عذرٌ لهم في ترك التَّضرُّع».[٢١٩٩]

وذلك أنّ ﴿لَوْلَا﴾ إذا دخلت على المضيّ أفاد التنديمَ والتوبيخَ، كأنه قيل: لِمَ لَمْ يتضرَّعوا؟ وليتهم تضرَّعوا، وكانوا متمكِّنين منه، غير ممنوعين عنه، بل لهم ما يقتضيه ولو بقي التّضرّع صريحًا لم يدلَّ على عدمُ المانع من التَّضرُّع.

قال السكاكي: «وإذا قيل: هلا أكرمتَ زيدًا»؟ وكان المعنى: ليتك أكرمتَ زيدًا، متولّدًا منه معنى التنديم».[٢٢٠٠]

﴿**وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ استدراك على المعنى؛ فإنّه لما كان معنى حمله التحضيض ما تضرَّعوا صحّ أن يستدرك عنها منها بقوله: ﴿وَلَٰكِنْ﴾، كأنه قيل: لَمَّا جاءهم بأسنا لم يتضرَّعوا ولكن قست قلوبهم، وإنّما احتيج إلى هذا التأويل؛ لأن قوله: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ جملة خبرية معطوفة على قوله: لولا تضرَّعوا وهي إنشائية لا يصحّ عطف إحداهما على الأخرى لكمال الانقطاع.[٢٢٠١]

ولَمَّا كان بين عدم التَّضرُّع وقسوة القلب مناسبة لم يتنافر المستدرك عن المستدرك عنه، كما في قوله: «ما جاءني زيد لكن عمرًا حاضر». ولعل من قال: أي: ليس لهم جهة صارف عن التَّضرُّع، لكن قلوبهم قاسية لا تأثُّر عن شيء، ومَن قال: ولما كان بتضرُّع عن لين القلب كان معنى: لم يتضرَّعوا لم يليّنوا استدرك بقوله: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أراد غاية المناسبة وكمال الملائمة بين المستدرك والمستدرك منه، وإلا فالمرتبة التي ذكرناها أولًا كافية في ذلك كما لا يخفى على من تأمَّل فيه.

وفيه بيان أنه لا مانع لهم من التَّضرُّع إلا قساوة قلوبهم، وشدَّة شكيمتهم في عنادهم، وإعجابهم بأعمالهم التي زَيَّنها لهم الشيطان.[٢٢٠٢]

قال **ابن عطية**: استدلَّ العُبَّادُ في تأديب أنفسهم بالبأساء في تفريق الأموال، والضَّرَّاء في الحمل على الأبدان من جوع وعُرْي بهذه الآية.[٢٢٠٣]

قال **القرطبي**: وهذه جهالةٌ ممن فعلها وجَعَل هذه الآية أصلًا لها، هذه عقوبةٌ من الله لمن شاء من عباده أن يمتحنَهم بها، ولا يجوز لنا أن نَمتحنَ أنفسنا قياسًا عليها، فإنها المطيةُ التي نبلغ عليها دارَ الكرامة، ونفوز بها [**١١١**/ظ] من أهوال يوم القيامة، وقد قال تع: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة ١٧٢/٢]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [المؤمنون ٥١/٢٣]، فأمر المؤمنين بما خاطب به المرسلين. وكان رسول الله وأصحابه يأكلون الطيبات، ويلبَسون أحسن الثياب ويتجمَّلون بها، وكذلك التابعون بعدهم.

ولو كان كما زعموا واستدلوا، لَما كان في امتنان الله بالزروع والجنَّات، والأنعام، والإنعامات كبير فائدة.[٢٢٠٤] نعم الزهد والورع و تأديب النفس أولى وأحرى.

[٢١٩٨] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٤٣.

[٢١٩٩] **الكشاف**، ٢/ ٢٢.

[٢٢٠٠] **مفتاح العلوم**، ص ٣٠٧؛ **فتوح الغيب**، ٦/ ٨٥.

[٢٢٠١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٤٤.

[٢٢٠٢] **الكشاف**، ٢/ ٢٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٩٠؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣١٢.

[٢٢٠٣] **المحرر الوجيز** لابن عطية،٢٩١/٢.

[٢٢٠٤] **الجامع لأحكام القرآن**، ٣٧٧/٨.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ(٤٤)﴾

فلما تركوا ما ذُكِّروا به من البأساء والضَّرَّاء ولم يتّعظوا به، ولم يَزْجروا بسببه ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ والمراد التكثير، دون التَّعميم، كما في قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل ٢٣/٢٧].

والفتح المذكور تعبيرٌ عن تيسير مطالبهم الدنيويَّة؛ أي: لما امتحنَّاهم أولًا: بالضَّرَّاء ولم يتَّبعوا به ابتليناهم ثانيًا بالسَّرَّاء مخاشنةً تارة وملاطفةً أخرى. «ليُرَاوح عليهم بين نوبتي الضَّراء والسَّرَّاء، كما يفعل الأب الشفيقُ بولده؛ يخاشنهُ تارةً ويلاطفه أخرى؛ طلبًا لصلاحه،».[2205] يقال: يراوح بين الرجلين قام على إحداهما مرةً، وعلى الأخرى أخرى. ومنه المراوحة بين العملين يعمل هذا مرةً وهذا أخرى.[2206]

ويجوز أن تكون التوسعة عليهم مكرًا أو استدراجًا. فالتّوسعة قهرٌ خفيٌّ في صورة اللُّطف، كما أن الأخذ بالبلاء لطفٌ خفيٌّ في صورة القهر.[2207]

وقد قيل: بل هذا هو الحق، وجعله من باب فعل الأب الشفيق تمحّل للاعتزال وتنكّب عن ظاهر المقال، ولا ينبغي أن يخفى على أحد أن هذا استدراج واستهلاك عند غاية الفرح والسّرور، وانفتاح أبواب الأمالي والأماني والمطالب جميعًا؛ ليكون الأخذُ والهلاكُ أشدَّ عليه وأقطعَ، وليس من قبيل التشفيق والتأديب والبلاء بالحسنات والسيئات.[2208]

ويؤيده ما روي في «**مسند أحمد بن حنبل**» عن عقبةَ بن عامر عن النَّبيِّ عليه السلام قال: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ». ثم تلا رسول الله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ الآية.[2209]

وقال **الواحدي**: وهذا الفتح فتح استدراج ومكر.

وقد قال الحسن: من وسع عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له، ومن فتر عليه فلم ير أنه ينظر إليه فلا رأي له، وتلا الآية. وقال: «مُكِرَ الْقَوْمُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ»[2210] أعطوا حاجتهم ثم أخذوا.

وقرأ ابن عامر ﴿فَتَّحْنَا﴾[2211] بالتشديد؛ لأن التفعيل مؤذن بالتكثير وما بعده ههنا أبواب فناسب التكثير.[2212]

﴿**حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا**﴾ من الخير والنِّعَم، لم يزيدوا على البطر والفرح من غير انتدابٍ لشكرٍ ولا تَصدٍّ لتَوْبةٍ واعتذارٍ، واشتغلوا بالنعمة عن المنعم والقيام بحقِّه. وهو الفرح المذموم كفرح قارون.[2213]

﴿**أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً**﴾ أي: أهلكناهم فجأةً، وهو أشدُّ الإهلاك، إذ لم يتقدم شعورٌ به فتُوطِّنَ النفس على لقائه.[2214]

[2205] **الكشاف**، ٢/ ٢٢.

[2206] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٠و.

[2207] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣١٣.

[2208] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٠ظ؛**حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣٩٥/٣.

[2209] **مسند أحمد**، ٥٤٧/٢٨ (١٧٣١٢).

[2210] هو مرفوعًا في **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٩٠؛ وعن الحسن البصري في **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢٧١/٢؛ **اللباب**، ١٥١/٨.

[2211] **النشر** لابن الجزري، ١٩٤/٢.

[2212] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٤٤.

[2213] **الكشاف**، ٢٢/٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٩٠.

و﴿**بغتة**﴾ مصدر في موضع الحال من الفاعل، أي: مباغتين، أو من المفعولين، أي: مبغوتين. ويجوز أن يكون مصدرًا على المعنى؛ لأن ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾ بمعنى: «بَغَتْنَاهُمْ».

قال بعض العلماء: رَحِم الله عبدًا تدبَّر هذه الآية: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ وقد قيل: أُمهل هؤلاء القوم عشرين سنة.[٢٢١٥]

و﴿إِذَا﴾ للمفاجأة وهي ظرف مكان عند سيبويه، وظرف زمان عند جماعة. وذهب الكوفيون إلى أنها حرف وناصبها على تقدير كونها ظرفًا خبر المبتدأ، أي: أبلسوا في مكان إقامتهم أو في زمانها.[٢٢١٦]

وقال **الراغب**: «الإبلاسُ: الحزنُ المتعرِض من شدة اليأس، ومنه «إبليس» فيما قيل. ولَمَّا كان المبْلِسُ كثيرًا ما يلزم السكوت، ويَنْسى ما يَعْنِيه، قيل: أَبْلَس فلانٌ: إذا سكت وإذا انقطعت حجَّتُه».[٢٢١٧]

وقال بعض العارفين: وصف قومًا تركوا نصائح المشايخ من إعجابهم برأيهم، ولم يتعظوا بدقائق إلهام الله الذي نزل على قلوبهم حين زجرهم طوارق الغيب عن سكونهم بما وجدوا من أنفسهم، فتح الله عليهم أبواب الرئاسة، ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ يرد القلوب عنهم والافتضاح عندهم، لما ظهر خلوّهم من الأحوال.[٢٢١٨]

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)﴾

أي: آخرهم بحيث لم يبق منهم أحدٌ، فإنه إذا قطع آخرهم كان أوّلهم مقطوعًا لا محالة؛ فكأنه ابتدئ القطع من أوّلهم فسرى بالتدريج إلى آخرهم.

والدَّابر: التابع للشيء من خلفه، كالولد للوالد. يقال: «دَبَرَ فلان القومَ يَدْبُرُهم دَبْرًا ودُبُورًا»: إذا كان آخرهم.[٢٢١٩]

ومنه ما روي عن عبد الله بن مسعود: «مِنَ النَّاسِ مَنْ لَمْ يَأْتِ الصَّلَاةَ إِلَّا دَبْرِيًّا»،[٢٢٢٠] أي: في آخر الوقت والتدبير؛ لأنه إحكامُ عواقب الأمور.[٢٢٢١]

وقال الأصمعي: الدّابر الأصل، يقال: قطع الله دابرَه، أي: أذهب الله أصله.[٢٢٢٢]

ويلائمه التفسير بما قبل لم يترك منهم أحدٌ، قد استُؤصلت [**١١٢**/و] شَأْفَتُهم. الشأفة بالهمز وغير الهمز: قرحةٌ تخرج من أسفل القدم، فتُقطع وتُكوى فتذهب.[٢٢٢٣] واستئصال شأفته عبارةٌ عن إذهابه بالكلّية كما تذهب تلك القرحة بالكي.

[٢٢١٤] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣١٣.

[٢٢١٥] **الجامع لأحكام القرآن**، ٨/ ٣٨٠.

[٢٢١٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٤٤.

[٢٢١٧] **المفردات في غريب القرآن** للراغب الأصفهاني، «بلس»؛ **فتوح الغيب**، ٦/ ٨٨.

[٢٢١٨] **عرائس البيان**، ١/ ٣٥٨.

[٢٢١٩] **مفاتيح الغيب**، ٢٣٧/١٢؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٤٥.

[٢٢٢٠] **المصنف** لابن أبي شيبة، ٣٣٦/١٩ (٣٧٢٧٢)؛ **تفسير ابن أبي حاتم**، ٣٧٣/١٢.

[٢٢٢١] **الجامع لأحكام القرآن**، ٩/ ٣٨١.

[٢٢٢٢] **مفاتيح الغيب**، ٢٣٧/١٢؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٤٥.

[٢٢٢٣] **فتوح الغيب**، ٦/ ٨٨.

ووُضع ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ موضع الضمير للتسبيب؛ أي: حقَّ عليهم الدمَارَ والعذاب بسبب تماديهم في ظلمهم، وتناهيهم فيه حيث لم يبق لهم مطمعٌ في صلاحهم ولا وجهٌ في خلاصهم.

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على إهلاكهم، وفيه إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظَّلَمة؛[٢٢٢٤] لأنَّ مثل هذا تعليمٌ للعباد ومقولٌ على ألسنتهم.[٢٢٢٥]

ثم ﴿الْحَمْدُ﴾ على ما سبق في سورة الفاتحة، قد يكون شكرًا للصنيعة، وقد يكون للثَّناء على الفضائل الاختيارية.

أمّا تنزيله على الشّكر فلإن قوله: ﴿ولَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأسَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لهم أسوة بمن قبلهم في هلاكهم وتدميرهم، واستئصال شأفتهم، فإذا تمَّ عليهم ذلك، فاحمدوا الله على طهارة الأرض من خبث الظلمة. فالرَّبُّ على هذا فيه معنى التربية؛ لأن في إهلاكهم تخليصًا لأهل الأرض من شؤم عقائدهم وإضلالهم، واحتباس الخير النازل من السماء. وذلك نعمةٌ جليلةٌ يجب أن يُحمد عليها. وأمَّا تنزيله على الفضائل الاختيارية، فإنه تعالى لَمَّا ذكر إهلاك المتمرّدين، وتطهير الأرضمن أدناسهم، مدح نفسه المقدسة بالقهَّاريَّة والعظمة. فالرَّبُّ على هذا بمعنى المالك .فالمعنى :الحمد لله الملك القهار، الذي له الكبرياء والعظمة، وله التصرف في ملكه كيف شاء. وهذا أحرى في الإيراد، لأن قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ مُجرًى على ظاهر الإخبار .فيكون قوله: ﴿ولَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ إلى آخر ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾، على التقديرين، معترضًا بين قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾، مؤكِّدًا لمضمون معنى الكلامين[٢٢٢٦].

فإن قيل: لا تزر وازرةُ وزر أخرى. قلنا: معناه: لا توجد نفس آثمةٌ بإثم نفس أخرى ولا يجري بجرانها وهذا لا ينافي لحقوق ضررهم شؤم آثامهم بأهل الأرض كاقتباس الخير النازل من السماء.

وقالوا: العذاب قد ينزل خاصًّا بالظالمين وقد ينزل عامًّا، فيكون عقوبةً في حقّ الظالمين وابتلاءً في حقّ المطيعين، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال ٢٥/٨].

وروي عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا ظَهَرَ السُّوءُ فِي الْأَرْضِ أَنْزَلَ اللَّهُ بِأَهْلِ الْأَرْضِ بَأْسَهُ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَفِيهِمْ أَهْلُ الطَّاعَةِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، ثُمَّ يصِيرونَ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ».[٢٢٢٧] فالآية كالحجَّة على وجوب ترك الظلم بما يعقب من قطع الدّابر إلى العذاب الدّائم مع استحقاق القاطع للمحد من كلّ حامدٍ، ففيه غاية التنفير ونهاية التحذير.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ (٤٦)

[٢٢٢٤] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣١٤.

[٢٢٢٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٠ظ.

[٢٢٢٦] **فتوح الغيب**، ٦/ ٨٨- ٨٩.

[٢٢٢٧] **مسند أحمد**، ١٦١/٤٠ (٢٤١٣٣)؛ **مسند الحميدي**، ٢٩٠/١ (٢٦٦).

احتجاج آخر عليهم، ولَمَّا كان هذا التهديد أخفَّ من التَّهديد السّابق اكتفى هنا بخطاب الضمير، ولم يؤكِّد بحرف الخطاب كما أكَّد ثَمَّة.[٢٢٢٨]

والمعنى: أرأيتم إن أصمَّكم الله وأعماكم. وغطَّى على قلوبكم ما يُذهب عقلكم وفهمكم.[٢٢٢٩] وأزال عنكم تلك القوى التي هي من أجل النّعم التي يبطل بزوالها مصالح الدّنيا والدِّين هل من أحد غير الله يأتيكم بها؟ ومن المعلوم أنه لا يقدر عليه إلا الله فهو المستحقُّ للعبادة والتعظيم.[٢٢٣٠]

و قد يُذهب الله نفس تلك الأعضاء قال تع:﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ [النساء ٤٧/٤]. وجواب «إِنْ» محذوف؛ تقديره: فمن يأتيكم به، يدلّ عليه مفعول «أَرَأَيْتُمْ». و«مَنْ» رفع بالابتداء وخبرها «إِلٰهٌ»، و«غَيْرُهُ» صفة له، وكذلك «يَأْتِيكُمْ» موضعه رفعٌ بأنه صفةُ «إِلٰهٌ»، ومخرجها مخرج الاستفهام، والجملة التي هي منها في موضع مَفْعُولَيْ «أَرَأَيْتُمْ».[٢٢٣١] ولا حاجة إلى ما قيل: «المفعول الأول محذوف تقديره: أرأيتم سمعكم وأبصاركم، والاستفهامية في موضع الثاني».[٢٢٣٢] وأفرد ضمير «بِهِ» مع كونه راجعًا إلى جميع المذكورات؛ لتأويل الضّمير باسم الإشارة وإفراد اسم الإشارة بتأويل المذكور، وقد سبق في ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ وجه توسيط اسم الإشارة،[٢٢٣٣] أو لتأويل تلك المذكورات بالذي أخر وختم عليه أو بأحدها لا على التَّعيين،[٢٢٣٤] أو لإرجاعه على السمع بالتصريح مثل: ﴿وَاللّٰهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة ٦٢/٩] ودخلت الأبصار والقلوب بدلالة التضمُّن، أو على الهدى الذي يتضمَّنه المعنى.

والمراد من تصريف الآيات الدَّالَّة على التّوحيد والنّبوة ببيانها وإيرادها على الوجوه المتكاثرة، بحيث يكون كلّ واحد منها يقوى ما قبله في الإيصال إلى المطلوب،[٢٢٣٥] فتارةً من جهة المقدّمات العقلية، وتارةً من جهة التّرغيب والتّرهيب، وتارةً بالتّنبيه والتّذكير بأحوال المتقدمين.[٢٢٣٦]

و«ثم» استبعاد [**١١٢**/ظ] إعراضهم عن التأمُّل فيها مع هذه المبالغة البالغة في تفهيمها، وتقريرها وكشفها وإيضاحها؛[٢٢٣٧] ولذلك قدَّم الضمير على الفعل المضارع وصيَّر الجملة اسمية؛ أي: هم المكرَّر عليهم الآيات متنوّعةً لا غيرهم، يحدِّدون الأعراض دائمًا مع تجدُّد التّصريف، فما أبعد حالهم عما فعلنا بهم![٢٢٣٨] ونحوه قوله: ﴿وَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِاٰيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ اَعْرَضَ عَنْهَا﴾[السجدة ٢٢/٣٢]، والتعريف في «الآيات» للعهد وهي الآيات المكرَّرة من أول السورة إلى ههنا سيَّما من قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ [الأنعام ٤١/٦] وما يشبهه، وإن هذه الآية كالمعترضة توكيدًا للتذكير والاعتبار.[٢٢٣٩]

[٢٢٢٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣١٤.

[٢٢٢٩] **الكشاف**، ٢/ ٢٣؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٩٠؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣١٥.

[٢٢٣٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٤٥.

[٢٢٣١] **الجامع لأحكام القرآن**، ٩/ ٣٨٢.

[٢٢٣٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٤٥.

[٢٢٣٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و٣٣٠ب.

[٢٢٣٤] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٤٥.

[٢٢٣٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤٥/٤.

[٢٢٣٦] **فتوح الغيب**، ٦/ ٩٠.

[٢٢٣٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/٤٥- ٤٦.

[٢٢٣٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣١٥.

[٢٢٣٩] **فتوح الغيب**، ٦/ ٩٠.

وأيضًا، إن كلمة ﴿انْظُرْ﴾ معطية معنى التعجب، نحو: «ألم تر»؟ و«أرأيت»؟ ففيه تعجيب للسّامع من شدّة شكيمة أولئك المشركين، وإصرارهم على العناد، ونفورهم عن الحقِ، بعد تكرير الآيات المنذرة المخوفة، كقوله: ﴿ولَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا القُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا ومَا يَزِيدُهُمْ إلاَّ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/٤١].

فإن قلت: فلم قُرنت هذه الآية من بين تلك الآي المنذرة بهذه؟ قلت: لأن تلك واردة في التخويف بالعذاب النازل من الخارج، وهذه من نفس المخاطب. يعني: إن أنشأنا العذاب من ذاتكم وما أنتم به أهمّ، من إله غير الله ينجيكم منها؟ ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾. ومن ثَمَّ كان دلائل الأنفس أدقَّ وأفيَد للنّاظر من دلائل الآفاق.[٢٢٤٠]

و﴿كَيْفَ﴾ معمول لـ﴿نُصَرِّفُ﴾، ونصبها، إما على التشبيه بالحال، أو التشبيه بالظرف، وهي متعلّقةٌ لـ﴿انْظُرْ﴾.[٢٢٤١]

وقال الترمذي: إن أخذ الله سمعكم عن فهم خطابه، وأبصاركم عن الاعتبار بصنائع قدرته، وختم على قلوبكم سلبكم معرفته، هل أحدٌ يقدّر فتح باب منها؟ كلّا، بل هو المبدئ بالنعمة تفضلًا ومتممها في الانتهاء كريمًا.[٢٢٤٢]

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧)﴾ ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨)﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩)﴾

لَمَّا كان التهديد هنا شديدًا جَمَع بين أداتيَ الخطاب. ولَمَّا كان ما يأتي فجأة من غير سبق علامة في معنى الخفية حسن أن يقابل جهرة بخفية، وهي ما يأتي بعد تقدم أمارة وبُدِئ بما يأتي بغتةً؛ لأنها أردع من الجهرة، وإنما عدل عن المقابل الحقيقي؛ لأن الإخفاء لا يناسب شأنه.

وقيل: ليلاً ونهارًا، وهذا مبنيٌّ على أنَّ الليل محلُّ وقوع الحوادث بغتةً غالبًا، ومن ذلك قصد العدوّ إلى الخصم في الليل على الأكثر، والنهار محلُّ الاطلاع غالبًا، فلا يرد ما يقال: لو كان ما في الليل سبق أمارة لم يكن بغتةً، ولو كان ما في النهار بلا سبق أمارة لم يكن جهرةً.

ولَمَّا بيّن في الآية الأولى تفرّده بإفاضة ما هو من أجل النّعم وأقرب الوسائل، إلى تحصيل الكمالات من المشاعر بين تفرّده في دفع جميع أنواع العذاب، ولا مفيض لخيرٍ إلا هو، ولا دافع لشرٍّ إلا هو فلا يعبد شيء إلا هو.

وقيل: لَمَّا بين أنّه هو الدّافع لعذاب يأتي من جهة المشارع بين أنه هو الدافع لجميع أنواع العذاب، والاستفهام في قوله: **﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾** بمعنى النفي؛ لأن عدم ذكر المستثنى منه إنّما يصحُّ في غير الموجب لعدم صحّة: «جاءني إلا زيد». والجملة الاستفهامية في موضع النصب على أنه سادٌّ مسدَّ مفعولي **﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾** ولا حاجة إلى ما يقال في موضع الثاني، والأوّل محذوف، والمعنى: أخبروني عذاب الله هل يهلك؟ وجواب **﴿إِنْ أَتَيكُمْ﴾** محذوفٌ لدلالة مفعول **﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾** عليه، ولَمَّا ورد أن يقال: إن العذاب إذا نزل لا يميّز بين الظالمين وغيرهم، فكيف خصص الهلاك بهم؟ أجيب: بأن الهلاك وإن عمّ الأبرار والأشرار

[٢٢٤٠] **فتوح الغيب**، ٦/ ٩٠-٩١.

[٢٢٤١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٤٦.

[٢٢٤٢] **عرائس البيان**، ١/ ٣٥٨-٣٥٩.

إلا أن هلاك الأشرار من جهة تعذيبهم وسخط الله عليهم، وهلاك الأبرار ليس من تلك الجهة، بل يستوجبون بذلك مثوباتٍ عظيمةً ودرجاتٍ رفيعةً.[٢٢٤٣]

وقيل: إن الهلاك إزالة صورة وإبقاء حقيقة؛ ولذلك لم يكنْ حملُ الهلاك على هلاك السّخط مقيّدًا، بل صرفًا للمطلق إلى الكامل يعني: أن المراد بالهلاك ليس هلاكًا مقيَّدًا بكونه على وجه السَّخط، بل الهلاك الكامل، فلا يدخل فيه هلاك الثابت، ولكن الظّاهر التقييد، كما لا يخفى.

﴿**وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ**﴾ المؤمنين بالجنّة والرّضاء واللّقاء ﴿**وَمُنْذِرِينَ**﴾ الكافرين بالنّار والسَّخط والحجاب، ولم يرسلْهُم ليُقترح عليهم، ويُتَلَهَّى بهم، فالاستثناء وإن كان حالًا من «الْمُرْسَلِينَ» إلا أنّ فيه من معنى الغلبة، أي: لم نرسلهم لأجل أن يقترح عليهم، بل لأن يبشروا وينذروا ولا قدرة لهم على إظهار الآيات، بل هو مفوَّض إلى مشيئة الله،[٢٢٤٤] فلا وجهَ للاقتراح عليهم، بل الواجب [**١١٣**/و] الإيمان بهم.

﴿**فَمَنْ آمَنَ**﴾ وحلى باطنه، ﴿**وَأَصْلَحَ**﴾ وحلى ظاهره، ﴿**فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**﴾ بشيءٍ من المخاوف ﴿**وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ بفوت شيء من المحاسب، وجَعَل العذابَ من قبيل الأحياء استعارةً بالكناية تخييلًا فأسند إليه المسّ؛ كما جعل الأمر والأَقْوَرِ وهما من أسماء الدّواهي بمنزلة العقلاء في شدّة النكاية فجمعا بالواو والنون. و«الأمر» من المرارة، أو من المرَّة بمعنى القوة و«الأقور»: الأفتح الواسع.[٢٢٤٥]

ويجوز أن تكون الاستعارة في المسّ فتكون تبعيةً، ولَمَّا ورد أن يقال: العذاب المتفرع على التّكذيب العذاب الهائل لا مطلق العذاب، فكان الظّاهر التوصيف بما ينبئ عن الشّدة؟ أجيب بأنه استغني بالتعريف والإشارة إلى العذاب المشهور عند الله عن التوصيف. والمراد بالفسق الخروج عن التّصديق والطّاعة، فلا يرد أنّ كلّ فاسق يقتضي أن يدخل في الوعيد، ولم يقل لهم: عذاب اليم مع أنّه أبلغ للإشارة إلى عظم العذاب، حيث جعل حدوث المسّ جزاءً لفعله.

﴿**قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ**﴾ (**٥٠**)

قال المصنف: «أي: لا أدَّعي ما يُستبعد في العقول أن يكونَ لبشرٍ من ملك خزائن الله- وهي قسمة بين الخلق وإرزاقه، وعلم الغيب، وأني من الملائكة الذين هم أشرف جنسٍ خلقه الله، وأقربه منزلة منه. أى: لم أدّع إلهيّة ولا مَلَكيّة؛ لأنه ليس بعد الآلهية منزلةً أرفعُ من منزلة الملَكِية، حتى تستبعدوا دَعْوَاي، وإنما أدَّعي ما كان مثله لكثيرٍ من البشر، وهو النبوة».[٢٢٤٦]

ومحلُّ ﴿**أَعْلَمُ الْغَيْبَ**﴾ النَّصْب عطفًا على محلّ قوله: ﴿**عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ**﴾؛ لأنه من جملة المقول، كأنه قال: لا أقول لكم هذا القول ولا هذا القول.

> فقوله: «**وأني من الملائكة**»[٢٢٤٧] عطف على «**ما يستبعد**»، فلا يدخل تحت الاستبعاد، وإن كان المعنى عليه وعطفه على «ملك خزائن الله» يفيد ذلك، لكنه ليس بحسن الانتظام من جهة اللفظ. ثم إنّه قد صرَّح في أثناء الكلام بأنّ

[٢٢٤٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٤٦.

[٢٢٤٤] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٩٠؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٤٦.

[٢٢٤٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٠و.

[٢٢٤٦] **الكشاف**، ٢/ ٢٤.

[٢٢٤٧] **الكشاف**، ٢/ ٢٤.

القصد إلى استبعاد دعوى الملَكيَّة، ومبناه أن ذلك مُحال كما صرّح في آخر الكلام ودعوى المحال مستبعدة. وقوله: «**الذين هم أشرف جنس**»[٢٢٤٨] هذا إشارة إلى ما ذَكَر **أبو عليالجبائي**: «أن هذه الآية تدلُّ على فضل الملائكة على الأنبياء؛ لأن المعنى: لا أدَّعي منزلةً أقوى من منزلتي». وقال **القاضي عبد الجبار**: «إن كان الغرض من النفي التواضع، فالأقرب لزوم الأفضلية، وإن كان نفي القدرة على أفعال لا يقدر عليها إلا الملائكة فلا». ولو سلم فتكفي الأفضلية بزعم المخاطبين. فإن قيل: «دعوى الملكية من الممكنات، أي: من دعوى الأمور الممكنة؛ لأن الجواهر متماثلةٌ يجوز أن تقوم بكلّها ما يقوم ببعضها، ولهذا لما قيل لآدم: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ [الأعراف ٢٠/٧] أقدم على الأكل طمعًا في الملكيّة مع أن النّبيّ لا يطمع في المحال. فالجواب: أنَّ المقدّمات على تقدير تمامها، إنما تفيد إمكان أن يصير البشر ملكًا، وأمّا أن يكون ملكًا فلا لتمايزهما بالعوارض المتنافية بلا خلاف، وهذا كما أن كلًّا من العناصر يجوز أن يصير الآخر لا أن يكون، وعلى هذا ينبغي أن يحمل طمع آدم، ولو سلم نبوته وكونه عند الأكل. قوله: «لأنه» من جملة المقول. فإن قيل: إنما يكون من جملته لو عطف على ﴿عِنْدِي خَزَائِنُ﴾ فتعليل عطفه عليه بذلك دور. قلنا: المراد أنه من جملته في الواقع ومحمول على هذا المعنى البتَّة؛ إذ لا فائدة في الإخبار بأنّي لا أعلم الغيب، وإنما الفائدة في الإخبار بأنّي لا أقول ذلك؛ ليكون نفيًا لادّعاء الأمرين من خواصّ الألوهية؛ ليكون المعنى: لا أدَّعي الألوهيّة ولا الملكيّة، ويكون تكرير ﴿لَا أَقُولُ﴾ في: ﴿إِنِّي مَلَكٌ﴾ دون ﴿أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ إشارة إلى هذا، و﴿لَا﴾ في ﴿لَا أَعْلَمُ﴾ مذكّرة للنفي مزيدة، وفي ﴿لَا أَقُولُ﴾ مذكّرة أو نافية. فإن قيل: سياق لا أدَّعي الألوهيّة يهدم أساس دلالة: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ﴾ [النساء ١٧٢/٤] على أفضلية الملائكة. قلنا: في مقام نفي الاستنكاف ينتفي أن يكون المتأخر أعلى لئلّا يلغوَ ذكره، وفي مقام نفي الادّعاء بالعكس، فإن مَنْ لا يتجاسر على دعوى الملكيّة فأولى أن لا يتجاسر على دعوى الإلهية الأشد استبعادًا.[٢٢٤٩]

وقال **ابن الكمال**: ليس المراد التَّبرّيَ عن الألوهية وإلّا لقيل: لا أقول لكم إنّي إله، وأيضًا في الكناية عنها تعتدي خزائ خزائن الخفي من ال خزائن﴿خَزَائِنَ﴾ لا يخفى من البشاعة. ﴿وَلَا أَعْلَمُ﴾ عطفٌ على ﴿وَلَا أَقُولُ﴾ لأن مفهومَي خزائن الخفي من الشناعة ولا أعلم عطف على ﴿لَا أَقُولُ﴾؛ لأنّ مفهومي ﴿عِنْدِي خَزَائِنُ﴾ و﴿إِنِّي مَلَكٌ﴾ مفهومان عند الناس لا حاجة إلى نفيهما، بل إلى نفي ادِّعائهما بخلاف مفهوم قوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ﴾، فإنه كان مجهولًا عندهم، بل الظاهر من حاله ع معلم الغيب.[٢٢٥٠]

فالأوَّل: ردّ لاقتراحاتهم، والثاني: لاستخبار عنه المغيبات إلا معه، والثالث: لقولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ [الفرقان ٧/٢٥].

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾

[**١١٣**/ظ] قال المصنف: مثلُ للضَّالِّ والمهتدي، ويجوز أن يكون مثلًا لمن اتَّبع ما يوحى إليه، ومن لم يتَّبع، أو لمن ادَّعى المستقيم وهو النُّبوَّة، والمحال وهو الإلهية أو الملكية، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾: فلا تكونوا ضالّين أشباه العميان، أو فتعلموا أني ما ادَّعيتُ ما لا يليق بالبشر، أو فتعلموا أنَّ اتِّباع ما يوحى إليَّ لابد لي منه.[٢٢٥١]

[٢٢٤٨] **الكشاف**، ٢/ ٢٤.

[٢٢٤٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٠ظ-٣٣١و؛**حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣٩٨/٣-٣٩٩.

[٢٢٥٠] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣١٧-٣١٨.

[٢٢٥١] **الكشاف**، ٢/ ٢٤.

فكلامه كالصّريح في أن في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ ثلاثة أوجه وإن قوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ مفسر على كل وجهٍ بما يناسبه، وقد ذكره على سبيل النّشر الغير المرتب، وأمّا ما يقال من أن المراد: «مثلٌ للضَّالِّ والمهتدي»، وأنهما إما من يتّبع الوحي ولا يتّبعه، وأما من يدعي المستقيم ومن يدعي المحال فيأباه لفظه عند التّأمُّل.

وقال **بعض الشارحين**: يريد أن كالتَّذييل الذي يقع في آخر الكلام على سبيل التمثيل، في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ كالتَّتْميم للتّذييل، والتّنبيه على مكان التذييل. ثم المذيَّل إمَّا ما سبق من هذه السورة، وجميع ما جرى له مع القوم من الدّعوة إلى الحقّ، وإبائهم إلا الباطل. وإليه الإشارة بقوله: «فلا تكونوا ضالّين أمثال العميان»[٢٢٥٢] يعني: أفلا تتفكّرون في أحوالي وأحوالكم لتميزوا بين الحقّ والباطل ،ولتعلموا الضَّالَّ والمهتَدي؟ وإمّا ما سبق من قوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾، فالبصير من يتَّبع ما يوحى إليه، وهو الرسول، والأعمى من لا يرفع به رأسًا. وهو المراد بقوله: «فتعلموا أن اتِّباع ما يوحى إليَّ ما لابدَّ لي منه»[٢٢٥٣] حتى أكون مهتديًا لا ضالًّا، أفلا تتفكرون في حالي لتعلموا أني مهتدٍ حيث أتَّبع الوحي، ولست بضالٍّ في تركه؟ أو من قوله: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾. فالأعمى من يدَّعي هذا، والبصير من يتَّبع الوحي ويدَّعي النبوَّة. وإليه الإشارة بقوله: «فتعلموا أنِّي ما ادَّعيت ما لا يليق بالبشر»،[٢٢٥٤] يعني: أفلا تتفكرون في اهتدائي بطريق الحقّ، ومجانبتي عن الباطل؟[٢٢٥٥] وظاهر الآية يدل على أنه ع م لا يعمل إلا بالوحي، وأنه لم يكن يعلم من تلقاء نفسه في شيء من الأحكام، وأنه ما كان يجتهد ويحكم بالقياس، ونحن نقول لما أمر بالاجتهاد والقياس بنحو قوله: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر ٢/٥٩] كان العمل بالاجتهاد والقياس عملًا بالوحي. وذُكر في بعض كتب الأصول: أن الوحي نوعان: ظاهر وباطن، فالظاهر ثلاثة: الأول: ما ثبت بلسان الملك والقرآن من هذا القبيل، والنوع الثاني: ما ثبت عنده بإشارة الملك من غير أن يبينه بالكلام، وإليه الإشارة بقوله ع م: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا»،[٢٢٥٦] والنوع الثالث: ما تبدى لقلبه، أي: ظهر لقلبه بلا شبهة بإلهام من الله بأن أراه الله بنور من عنده، أي: من عند الله كما قال ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء ١٠٥/٤]،والباطن ما ينال بالاجتهاد وبالتأمُّل في الأحكام المنصوص عليها، وجعل اجتهاده عليه السلام وحيًا باعتبار المآل، فإن تقريره عليه السلام على اجتهاده يدلُّ على أنه هو الحقُّ، كما إذا ثبت بالوحي ابتداء. وأبي الأشعرية وأكثر المعتزلة والمتكلمين أن يحكم عليه السلام بالاجتهاد.[٢٢٥٧]

وتفسيره قدس سره الآية قرنت من تفسير المصنف لكن قال أيضًا: «مثل العالم والجاهل»[٢٢٥٨] وذلك مبنيٌّ على أن متبعَ الوحي عالمٌ وتاركه جاهلٌ.

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١)﴾

قال المصنف: «الضمير لـ﴿مَا يُوحَى﴾ [الأنعام ٥٠/٦]، والخائفون إمّا قومٌ داخلون في الإسلام، مقِرُّون بالبعث إلا أنهم مفرِّطون فيُنذرهم به ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ يدخلون في زمرة المتقين، وإمّا أهل الكتاب؛ لأنهم مقرّون بالبعث، وإما ناسٌ من المشركين

[٢٢٥٢] **الكشاف**، ٢/ ٢٤.

[٢٢٥٣] **الكشاف**، ٢/ ٢٤.

[٢٢٥٤] **الكشاف**، ٢/ ٢٤.

[٢٢٥٥] **فتوح الغيب**، ٦/ ٩٥-٩٦.

[٢٢٥٦] **حلية الأولياء**لأبي نعيم، ١٠ (٢٧)؛ **مسند البزار**، ٣١٤/٧ (٢٩١٤).

[٢٢٥٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٤٩.

[٢٢٥٨] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٩١.

عُلم منهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقًّا فيهلكوا فهم مِمَّن يُرجى أن ينجع فيهم الإنذار، دون المتمرِّدين منهم».

﴿**لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ**﴾ حالٌ من ﴿يُحْشَرُوا﴾ بمعنى: يخافون أن يُحشروا غير منصورين ولا مشفوعًا لهم، ولابدَّ منها؛ لأن كلاً محشور، فالمخوف الحشر على هذه الحال.[2259]

«ذكر غير المتقين من المسلمين، وأمر بإنذارهم ليتَّقوا، ثم أردفهم ذكر المتقين» منهم وأمره بإكرامهم. قال صاحب **التقريب**[2260]: معنى قوله: يعود إلى مذهبه، يعني: لا بدَّ من القيد؛ لأن الحشر مطلقًا لا يُخاف منه، وإنَّما الذي نخاف منه هو الحشر الذي يعتقد فيه المكلَّف أن لا شفيعَ له ولا نصير إلا الله وهو قد فرَّط في جنب الله، فحينئذ خسرَ خسرانًا مبينًا. فإذا خاف هذه الحالةَ نفع فيه الإنذار ونجع فيه الوعظ، ويُفهم منه أنّ المتَّقيَ الذي يتحرَّى رضاء الله لا يخاف حينئذ، وخرج من هذا الحكم. ولهذا قال بعد هذا: «ذكر غير المتقين، ثم أردفهم بذكر المتقين»، فاعتضد المفهوم بدلالة النَّظم والتَّرتيب. ولكن النّظم الأنيق أن قوله تع: ﴿أَنْذِرْ﴾ أمرٌ واردٌ عقيب قوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ [الأنعام ٦/٥٠] وقد [**١١٤**/و] عُطف عليه ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ﴾ [الأنعام ٦/٥٢]. والكلام مرتبط بعضه ببعض: أمر الله سبحانه لنبيّه أولًا بالإعراض عن المتمرّدين الذين لا ينجع فيهم التذكير، ثم أمره ثانيًا بالإنذار لمن ينجعُ فيه الوعظ من الكفَّار، ثم نهاه ثالثًا عن طرد المتقين، يعني: اتركِ المعاندين وإنذارهم، واشتعل بمن يرجى منهم الخير، والزَمْ مصاحبةَ المؤمنين. وفي **الانتصاف**: «إنما تلزم الحال لو قيل: «وأنذر به الذين يحشرون»، إذ لولا الحال لعَمَّ الأمر بالإنذار، والمقصود تخصصه. وأمَّا وقد قيل: ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا﴾ فهو مستقلٌ لتخصيص الإنذار: إمَّا لإقرارهم به، وإما لأخذهم بالأحوط، دون العُتاة المتمرِّدين، وليس كلّ خائف عنده غير مشفوع له، إذ لا يخاف عنده إلا أصحاب الكبائر غير التّائبين، أو الكفار ولا شفاعة لهم عنده، وإنَّما الشفاعة عنده في زيادة الثَّواب لمن استوجبه –بزعمه– بعمله الصالح. وهذا عنده لا يخاف من البعث؛ لأنه يستوجب الجنة. فجعل الحال لازمة؛ لأن غير الخائف لا تتناوله الآية، والخائف مستوجبٌ للعقاب عنده، فلا شفاعة له.[2261]

وقال **النحرير**: لا خفاءَ في أنَّ الإنذار بالوحي لقَصدِ ترَتُّب التّقوى عليه إنما يُؤَثِّر في المقصر والمتوقّع منه أن يُحشر من غير وليٍّ ولا شفيع، ولذا فسَّر بالمسلمين المفرِّطين في العمل، أو بالكفرة الخائفين من الحشر، وجعل الحال قيدًا لازمًا، ولا يتصوّر حصول الاتّقاء للمتّقين ولا يؤثِّر الإنذار في الكفرة المتمرِّدين ولا في الذين يعتقدون الحشر من غير اعتقادِ أَنْ لا وليَّ سوى الله لا شفيع وهذا كلّه ظاهر، لكن في تعليل قوله: «لا بدّ من الحال» بقوله: «لأن كلًّا محشور» نوع خفاء، وإنما يصلح تعليلًا لضمّ الخوف إلى الحشر؛ إذ مجرّد الحشر ممّا لا يخاف بدون الحال.[2262]

وبالجملة: إذا أريد به المتردِّدون فلا إشكالَ، وإذا أريد المقصّرون فيخالف مذهب أهل السنة في إثبات الشفاعة لهم، فيقال: شفاعة الشّافعين بإذن الله فكانت في الحقيقة من الله، أو يقال: لا نسلم عموم الأزمان والأحوال فعدم كونها في حال الحشر لا يوجب الكون مطلقًا.

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)﴾

[2259] **الكشاف**، ٢/ ٢٤.

[2260] **تقريب التفسير** لقطب الدين الرازي.

[2261] **فتوح الغيب**، ٦/ ٩٨–٩٩.

[2262] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و٣٣١و–ظ؛**حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣/٤٠٠.

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾

قرأ ابن عامر وحده بضمّ الغين وإسكان الدّال وإثبات الواو بعدها تاءً،[٢٢٦٣] وفيه أنها معرفة، ولو كانت نكرةً لَجاز فيها الإضافة كما جاز: غداة يوم الجمعة. وقال أبو علي الفارسي: الوجه: الغداة؛ لأنها تستعمل نكرة وتعَّرف باللّام، وأما غدوةٌ فمعرفة أبدًا، وهو عَلَمٌ صيغ له.[٢٢٦٤] وقال ابن خالويه في توجيهه: إن العرب تُدخل الألف واللّام على المعرفة إذا جاءوا بما فيه الألف واللام؛ ليزدوج الكلام،قال الشاعر: وَجَدْنَا الْوَلِيدَ بْنَ الْيَزِيدَ مُبَارَكًا. فأدخل الألف واللام على «اليزيد» لَمَّا جاوز «الوليد». ومنهم مَن قال: إنما تكون معرفة إذا أردتَ غدوةَ نهارك، وههنا لم يُرِدْ ذلك، وكان التعريف جنسيًّا. وقال الجوهري: سِير فَرَسِك غُدْوَةَ وغُدْوَةً فما نوّن من هذا فهو نكرةٌ، وما لم ينَوَّن فهو معرفة. والمعنى: يعبدون ربهم دائمًا، فإنّ المراد بـ«الغداة والعشي»: الدوام على أكثر استعمالها.[٢٢٦٥]

وقيل: بصلاة الصبح والعصر، وقيل: يتلون القرآن في هذين الوقتين: وقيل: يصلون الصلوات الخمس بالجماعة: وقيل: يحمدون ويمجدون يريدون وجهه، أي: ذاته والوجه يعبّر به عن ذات الشّيء وحقيقته، أي: يدعون ربهم مخلصين، وتقييد الدعاء بالإخلاص للتّنبيه على أنّه الأصل في الباء، ولعلَّ قوله ع م: «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ الدُّعَاءَ مِنْ قَلْبِ غَافِلٍ»[٢٢٦٦] إشارة إليه.

وقد قيل: هي حال مؤكِّدة، فلعله أراد أن الدعاء له تع من حيث إنه ربهم من وجوههم وتربيتهم في دنياهم، وفوزهم لمقصودهم في عقابهم بقيد في عقابهم بقيد الإخلاص.

وقد يقال: وقَّت دعوتهم بالغداة والعشي؛ لأنها من الأعمال الظاهرة وهي مؤقَّتة، وأدام إراداتهم، فاستغرقت جميع أوقاتهم؛ لأنها من الأحوال الباطنة، وهي مؤبَّدة.

وترتيب النّهي على مواظبتهم على دعاء ربّهم وعبادته تع مع الإخلاص، للدَّلاة على أنَّها الموجبةُ لإكرامهم لا إبعادهم، وأن مِلاك الأمر في العبادة الإخلاص، فلا يعتبَر بدونه.

ولَمَّا قصُر لهم لسانُ المعارضة سكتوا متضرّعين بقلوبهم بين يدي الله، داعين له بحسن الابتهال، فتولَّى سبحانه وتعالى خصومتَهم، ونهى نبيَّه عن إبعادهم، ونعم ما قيل: لا تنظر يا محمد إلى إلى خرقتهم على ظوارهم، وانظر إلى حُرقتهم في سرائرهم، لا تنظر إلى رثاثة حالهم، وانظر إلى نظافة بالهم، لا تنظر إلى روائحهم الكريهة البشرية، وانظر إلى فوائحهم اللطيفة الملكية، لا تنظر إلى صوفهم وانظر إلى صفوفهم.

قال الإمام **أبو منصور**: ذهب عامَّةُ أهل التأويل إلى أنَّ النَّبيَّ همَّ بطرد فقراء المسلمين طمعًا في إسلام رؤساء المشركين، فعاتبه الله في ذلك وأنزل عليه هذه الآية. ولكنه بعيدٌ سمِجٌ، يَنسِبون النبي صلى الله عليه وسلم إلى أقبح فعلٍ وأوحشِه، [**١١٤**/ظ]ولا يحتمل أن يكون النبيُّ يقرّب الأعداء، ويُبعد الأولياء، ولو فعل ذلك لوجد الكفرة مطعنًا، يقولون: يدعوا الناس إلى الإيمان والتَّوحيد والاتّباع، فإذا فعلوا ذلك وأجابوه، طردهم وأبعدَهم، هذا لعَمري مدفوعٌ في عقل كلّ عاقلٍ، ولكن يجوز أن

[٢٢٦٣] أي: «بالْغُدْوةِ» **التيسير**، ص ٣٤٠؛ **النشر** لابن الجزري، ٢/١٩٤.

[٢٢٦٤] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣١٩-٣٢٠.

[٢٢٦٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣١٩-٣٢٠.

[٢٢٦٦] **سنن الترمذي**، ٥/٥١٧ (٣٤٧٩)؛ **المستدرك على الصحيحين** للحاكم، ١/٦٧٠ (١٨١٧)؛ **مسند البزار**، ١٧/٣٠٧ (١٠٠٥٩).

يكون طلب ذلك منه أولئك، فأمّا أن يهُمَّ هو به فلا، ويجوز أن يكون هذا من الله ابتداءَ تأديبٍ وتعليمٍ له في صحبة أصحابه رضي لله عنهم ومعاملتهم، وإخبارًا عن قدرهم عنده.[٢٢٦٧]

سئل بعضهم عن صفة المريد فقال: هي ما ذكر في الآية من دوام الذكر، والإخلاص في العمل أوصى الله أكابرهم في التعطف عليهم، والصفح عن زللهم.

وأيضاً الواجب على العبد لزومه حقيقة الذكر وخلوص السرّ فهو المبدأ وهو المنتهى.[٢٢٦٨]

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

كقوله: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي﴾ [الشعراء ١١٣/٢٦]. وذلك أنّهم طعنوا في إخلاصهم، فقال: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ بعد شهادته لهم بالإخلاص، على معنى: وإن كان الأمر على ما يقولون عند الله، فما يلزمك إلا اعتبار الظّاهر، وإن كان لهم باطن غير مرضيٍّ، فحسابهم عليهم لا إليك، كما أنّ حسابك عليك لا إليهم، كقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ [الأنعام ١٦٤/٦].

فإن قلت: لم ضم إليه ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾؟ قلت: جُعلتا بمنزلة جملةٍ، وقُصد بهما مؤدّي، وهو المعني في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام ١٦٤/٦].ولا يفيده إلا الجملتان، كأنّه قيل: لا تُؤاخذ أنتَ ولا هم بحساب صاحبه.[٢٢٦٩]

> يحتمل أن يكون ﴿**شَيْءٍ**﴾ فاعل الظّرف المعتمد على النّفي أعني: ﴿**عَلَيْكَ**﴾، **و**﴿**مِنْ حِسَابِهِمْ**﴾ وصف له قدّم فصار حالًا، و﴿**مِنْ**﴾ في: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ مزيدةٌ للاستغراق لكن يشبه بقوله: ﴿**إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي**﴾ [الشعراء ١١٣/٢٦] الدّال على الحصر بصريح النّفي والإثبات يشعر بأنه آثر أن يكون شيء مبتدأ، والظّرف الخبر المقدّم للحصر؛ لأنّ وقوع النّكرة في سياق النّفي كافٍ في صلوح الابتداء من غير تقديم للخبر عليه. و﴿**مِنْ حِسَابِهِمْ**﴾ حالٌ من الضّمير في الظّرف ولما فيه من الحصر قالفي تقرير معناه: حسابهم عليهم لا إليك، وكذا تقديم ﴿**عَلَيْهِمْ**﴾ على المبتدأ في قوله: ﴿**وَمَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ**﴾ ولذا قال في معناه: كما أنَّ حسابك عليك لا إليهم. ولا يخفى ما في الآيتين من الفرق المعنوي، فإن معنى: «عليهم حسابهم» أنه لازم لهم، وتبعتهم عليهم، ومعنى: «على الله حسابهم» أنه الذي يحاسبهم ويؤاخذهم. ولا ينبغي أن يفهم من التّشبيه به أن المعنى:ما عليك من حسابهم، بل على لينافي ما صرّح به آخرًا من أنّ المعنى: أن حسابهم عليهم لا يخفى عليك. وقوله: «**بعد شهادته**» متعلّق بـ«قال». وقوله: «**وإن كان الأمر**» هي الوصليّة التي لا تفارقها الواو لا الشّرطية الأصلية، والمعنى: لا يلزمك الاعتبار الظاهر وإن كان الأمر عند الله على ما يقولون فكيف إذا لم يكن؟ وأمّا الثانية: أعني: «وإن كان لهم باطن» فشرطيَّة.[٢٢٧٠]

وقيل: ما عليك من حساب رزقهم، أي: لا يجب على النَّبِيِّ ولا على أمته حساب رزق صاحبه، إنما على النّبي التّبليغ، وعلى الأمَّةِ القبولُ والطّاعة.

[٢٢٦٧] **تأويلات القرآن**، ٧٢/٥-٧٣؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣٢١/٣-٣٢٢.

[٢٢٦٨] **حقائق التفسير**، ٢٠٠/١.

[٢٢٦٩] **الكشاف**، ٢٦/٢-٢٧.

[٢٢٧٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣١ظ؛**حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٤٠٢/٣.

وقيل: الضّمير للمشركين، والمعنى: لا تُؤاخَذُ بحسابهم ولا هم بحسابك، حتى يَهُمَّك إيمانهم بحيث تطرد المؤمنين طمعًا فيه.[٢٢٧١]

﴿**فَتَطْرُدَهُمْ**﴾ جواب النّفي نحو: ما تأتينا فتحدثنا بنصب، فتحدث على أن يكون المعنى انتفاء التحدث لانتفاء سببه الذي هو الإتيان. فإنه لو كان مضرّة حسابهم مستقرّة على المخاطب لَكان ذلك سببًا لا يعاد من يتوّهم الوهن في إيمانه، فحكم بأنَ هذا السبب غيرُ واقع حتى يقعَ مسببه الذي هو الطَّرد. ﴿**فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ جواب النّهي وهو قوله: ﴿لَا تَطْرُدْ﴾.[٢٢٧٢]

وقيل: عطف على ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾على وجه التّسبّب؛ لأن الطّرد سبب الظُّلم، فإنّ العطف عليه مع اعتبار كون الطّرد متوقفًا على المنفي وجوابًا له. لا يجوز لاستلزام كون ما عطف عليه جوابًا أيضًا، ولا معنى لقولك: ما عليك من حسابهم من شيء فتكون من الظالمين. ويجوز مع عدم اعتباره؛ إذ لا يستلزم ذلك كون ما عطف عليه جوابًا لتقدّم اعتبار جوابية المعطوف عليه، حتى يلزم المحذور المذكور.

وفيه نظر؛ لأن جعله منصوبًا بالعطف على الجواب يجب أن يكون بالاعتبار المذكور؛ لأن الجملة إذا عطفت على أخرى لها محلٌّ من الإعراب إنما يعطف عليه إذا قصد تشريك المعطوف في حكم إعراب المعطوف عليه.

وقوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ في الآية معرب منصوب على جواب النّفي، فيجب أن يفيد العطف عليه كون المعطوف مشاركًا له في حكم إعرابه وهو كونه جواب النفي، وقد ظهر أنه لا معنى لكونه جواب النفي، فلا وجه لتجويز كونه معطوفًا عليه؛ لأن مستلزم المحال محال، اللهم إلا أن يحمل الكلام على المبالغة في النّهي عن الطَّرد، أي: لو طردتهم على تقدير أن يكون حسابهم عليك كنت ظالما فكيف إذا لم يكن حسابهم [**١١٥**/و]عليك؟ وهو نظير قوله ع م:« نعمَ الرَّجل صُهَيْبٌ. لَو لَمْ يَخَفِ اللَّهَ لَمْ يعصِهِ».[٢٢٧٣] أي: لو لم يعصه على فرض عدم خوفه، فعدم عصيانه عند الخوف أولى والعلم عند المولى.

﴿**وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)**﴾

ومثلَ ذلك الفتن العظيم، فتنَّا بعض الناس ببعضٍ، أي: ابتليناهم بهم، فإن المشركين قالوا للمسلمين: ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ الذين أنعم الله عليهم بالتّوفيق، ونحن الرّؤساء وهم الفقراء، إنكارًا لأَنْ يكون أمثالُهم ممنونًا عليهم من بينهم بالخير، ونحوه: ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [القمر ٥٤/٢٥] ومعنى «فتنَّاهم ليقولوا ذلك»: خَذَلناهم فافتُتنوا، حتى كان افتتانُهم سببًا له؛ إذ لا يقول مثلَه إلا مخذولٌ مفتونٌ.[٢٢٧٤]

يعني: أن المعنى المراد منه المعلّل بقوله: ﴿لِيَقُولُوا﴾، وإلَّا وقد سبق أن معناه اللُّغوي «ابتلينا»؛ فإن قيل: لا خفاء في أنّ هذا القول مسبَّبٌ عن هذا الفتن الذي كان للمشركين بالمؤمنين الواقع مشبّهًا به، وهو بحسب اللفظ متعلّق بفتن البعض بالبعض الواقع مشبَّهًا، فكيف يصحّ ذلك؟

[٢٢٧١] **أنوار التنزيل**، ٤٩٢/١.

[٢٢٧٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٥١/٤.

[٢٢٧٣] **كشف الخفاء** للعجلوني، ٣٨٦/٢-٣٨٧.

[٢٢٧٤] **الكشاف**، ٢/ ٢٧.

قلنا: ليس القصد ههنا إلى مشبَّه ومشبَّه به، بل هو مثل قولك: «ضربته كذلك»، أي: هذا الضرب المخصوص، ومثله كثير،[٢٢٧٥] هذا على ما يقتضيه كلامُ المصنف.

وأمَّا على ما يقتضيه كلامه قدس سره: فيجوز أن يكون ههنا مشبَّهًا ومشبَّهًا به، ويكون القول المذكور مسبَّبًا عن الفتن المشبَّه، حيث قال: «ومثلَ ذلك الفَتْن، وهو اختلاف أحول النّاس في أمور الدنيا ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ في أمر الدين، فقدَّمنا هؤلاء الضعفاء على أشرافِ قريش بالسَّبْق إلى الإيمان. ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ﴾ الذين أنعم الله عليهم بالهداية. ونحن الأكابر وهم المساكين.[٢٢٧٦] فعلى ما سبق بجعل ذلك إشارة الفتن المدلول عليه بقوله: ﴿فَتَنَّا﴾، وعلى هذا يكون إشارة إلى الفتن المدلول عليه بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ فإنه يدلُّ بمعونه ما ذكر في سبب النّزول أنّ أغنياء قريش ازدرؤا فقراء الأصحاب، وافتُتنوا بذلك. والمعنى: كما فتنّا الكفَّار بسبب غناهم وفقر المؤمنين، حتى ازدرؤهم فتنّاهم بسبب سبق المؤمنين إلى الإيمان وتخلفهم عنهم حتى حسدوا.

وقد جعله **الشارح المرحوم**[٢٢٧٧] إشارةً إلى الفتن المدلول عليه بـ﴿فَتَنَّا﴾ على هذا، ولا يخفى ما فيه، ثمّ إن جعل اللّام للتّعليل على تضمين ﴿فَتَنَّا﴾ معنى «خذلنا» مقتضى كلام المصنف على اقتضاء مذهبه؛ لأنَّ هذا القول خلاف الشرع فلا يصحّ أن يكون الله فتنهم؛ لأجل هذا القول على مذهبهم، ويصح بتأول الغني بالخذلان على إطلاق اسم المسبَّب على السبب.[٢٢٧٨]

وجوّز قدس سره أيضًا أن يكون لام العاقبة، لكن قال في **شرح المقاصد**:[٢٢٧٩] جعل «اللّام» للعاقبة، كما في قوله تع: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص ٨/٢٨]إنّما يصحُّ في فعل من يجهل العواقب، فيفعل الغرض فلا يحصل ذلك، بل ضدّه فيجعل كأنه فعل الفعل لهذا الغرض الفاسد بنفسها على خطائه، ولا يتصوَّر هذا في فعل علَّام الغيوب. فلعلّ ما ذكر مبنيّ على عدم اشتراط وقوع ذلك في فعل مَن يجهل العواقب، وهذا هو اللّائح عند الفعل.

فإنه تعيجوز أن يفتنهم، لـ﴿يَسْتَقِيمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ [الجن ١٦/٧٢]، لكن كان مآل ذلك إلى انحرافهم عن الطريقة صحَّ أن يقال: فتنَّاهم ليقولوا، وذلك لا يستلزم جهلَ عاقبة الأمور، ثم إنَّ قولهم غلطٌ فاحشٌ حيث قاسوا نيل السعادات الرّوحانية على أسباب الذّات الجسمانيّة التي يشترك فيها أخس البهائم، فإن بالاستعداد ينال خير الدارين، وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ فإنَّ التّخصيص بتلك النّعم العظام والمنن الجسام، إنما يليق بمن يقوم شكرها حقّ القيام، فالله علم ذلك؛ فلذلك منَّ عليهم وهو دليل الأصحاب في مسألة خلق الأفعال، فإن التاء الفتنة من الله سبب اعتراضهم على الله وهو كفر، لكن لا يخفى أنّ هذا إنما يتّضح على حمل اللّام على ظاهرها.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤)﴾

[٢٢٧٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٢و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٤٠٤/٣.

[٢٢٧٦] **أنوار التنزيل**، ٤٩٣/١.

[٢٢٧٧] شيخ زاده.

[٢٢٧٨] **فتوح الغيب**، ٦/ ١٠٤-١٠٦

[٢٢٧٩] **هو شرح المقاصد**لإمام مسعود بن عمر بن عبد الله الشهير بسعد الدين التفتازاني المتوفى ٧٩٣هـ.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ هم الذين يدعون ربّهم، وصَفَهم بالإيمان بالقرآن واتّباع الحجج بعدما وصفهم بالمواظبة على العبادة، وأمره بأن يبدأ بالتّسليم من عنده عليهم؛ ولذلك «كان ع م: إذا رآهم بدأ بالتسليم»،[2280] أو يبلّغ سلامَ الله إليهم ويقول لهم: إن الله سلم عليكم، ويبشّرهم بسعة رحمة الله وفضله.[2281]

وكتبها على نفسه إيجابها بخيره الصِّدق ووعده الحقّ، فخوطب العباد على ما يعرفونه من أن من كتب شيئًا عليه أوجبه، أو كتبها في اللّوح المحفوظ بعد ما نهى عن طردهم؛ إيذانًا بأنّهم [**١١٥**/ظ] الجامعون لكمال قوتي النظريّة والعمليّة، وفضيلتي العلم والعمل، وإعلامًا بأنَّ من كان كذلك ينبغي أن يقرّب ولا يُطرد ويُعزّ ولا يُذلّ ويبشَّر من الله بالسلامة والرحمة في الدارين، أو بالسلامة في الدنيا والرحمة في الآخرة.[2282]

وفي صحيح مسلم، عن عائذ بن عمرو: «أنَّ أَبا سُفْيانَ، أَتى على سَلْمانَ، وَصُهَيْبٍ، وَبِلالٍ في نَفَرٍ، فَقالوا: ما أَخَذَتْ سُيُوفُ اللهِ مِن عُنُقِ عَدُوِّ اللهِ مَأْخَذَها، قالَ فَقالَ أَبُو بَكْرٍ: أَتَقُولونَ هذا لِشيخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟ فأتى النبيَّ ﷺ فأَخْبَرَهُ، فَقالَ: يا أَبا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ، لقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ. فَأَتاهُمْ أَبُو بَكْرٍ فَقالَ: يا إِخْوَتاهْ أَغْضَبْتُكُمْ؟ قالوا: لا يَغْفِرُ اللَّهُ لكَ يا أَخِي».[2283]

ويستفاد من هذا احترامُ الصالحين واجتنابُ ما يغضبهم أو يؤذيهم؛ فإن ذلك غضب الله، أي: حلول عقابه بمن آذى أحدًا من أوليائه.[2284]

ولم يذكر المفسرون وجه تقديم كمال قوّتهم العمليّة على النظريّة، مع أن الثاني مقدم في الوجود، فلعلّ ذلك باعتبار أنه المقصود بالذّات، وإن شرف كمال القوّة النّظرية لكونه وسيلةً إليه. ومعنى الوجوب الذي يعطيه الكتب ولفظه على التفضيل والكرم، وعدم الخلف لا الوجوب بمعنى: أن تركه يكون قبيحًا ندم عليه على ما قال به المعتزلة تعالعن ذلك. وقالوا أيضًا: هذا ينافي أن يخلق الكفر في الكافر ثم يعذبه عليه، أو يمنعه عن الإيمان ثم يعذبه على تركه، وهو باطل أيضًا؛ لأنه تع يقهر بالموت وغيره ولا منافاة، وعطف هذه الجملة بالواو الجامعة على جملة النهي.

وكان مقتضى الظاهر أن يقال: ولا تطرد الذين يدعون ربهم وقل لهم سلام عليكم، فوضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على أن احترامهم كما أنه معلّق بعملهم معلق بعلمهم.[2285]

فإن قيل: هذا يحصل إذا قيل: و﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ عطفًا ﴿عَلَى الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾. قلنا: لعلّ ذلك للإيماء إلى أنَّ لهم حالين حال الكون معه ع م وحال مجيئهم، فينبغي أن يعامل كونهم معه ع م بعدم الطّرد والمصاحبة، وحال مجيئهم بالسّلام والرّحمة، ففي تعليق كلّ حالة بما علّق به مناسبة جليلة وملائمة جميلة، لا يخفى على أولى الألباب، والله أعلم بالصواب.

[2280] لم أجده.

[2281] **أنوار التنزيل**، ١/٤٩٣. **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٢٤.

[2282] **نواهد الأ بكار** للسيوطي، ٦/٨٨؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٢٤.

[2283] **صحيح مسلم**، ٢٥٠٤.

[2284] **الجامع لأحكام القرآن**، ٨/٣٩٣.

[2285] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٥٣.

وقيل: إن قومًا جاءوا إلى النبي ع م فقالوا: إنَّا أصبنا ذنوبًا عظامًا؟ فلم يردَّ عليهم شيئًا، فانصرفوا، فنزلت.[٢٢٨٦] فعلى هذا يكون كلامًا مبتدأً لا يتعلَّق بما قبله.

وقال الإمام: وههنا إشكال، وهو: أنهم اتَّفقوا على أن هذه السورة نزلت دفعةً واحدةً، فكيف يقال في بعض آياتها أن سبب نزولها الأمر الفلاني؟[٢٢٨٧]

ويمكن أن يجاب بأنه لو سلّم نزولها دفعةً، فالمراد نزول الآية في حادثةٍ إلقاء نزولها في قلب النَّبِيّ حينئذ، إما بواسطة الملك، أو بمجرَّد الإلهام؛ ليعمل بمضمونها ويجري على ما يقتضيها

وقيل: الإشكال إنما يضعف الجواب عنه أن لو لزم أن تتأخر نزول كل عن سببه.

وعن بعض العارفين: والله إن الحقّ هو الذي يسلِّم على الفقراء، والنبي في ذلك واسطةٌ.

وقال الواسطي: برحمته وصلوا إلى عبادته، لا بعبادتهم وصلوا إلى رحمته، وبرحمته نالوا ما عنده لا بأفعالهم؛ لأن النَّبِيَّ يقول: «ولا أنا، إلّا أنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ برَحمَتِهِ».[٢٢٨٨]

﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

استئناف بتفسير ﴿الرَّحْمَةَ﴾ التي كتبها على نفسه. وقرأ ابن عامر ونافع وعاصم ويعقوب بالفتح على البدل منها[٢٢٨٩]تفسيرًا لها والتقدير: كتب على نفسه أنّه من عمل؛ فإن مضمون هذه الجملة لا شكَّ أنها رحمة.

﴿بِجَهَالَةٍ﴾ في موضع الحال، من فاعل ﴿عَمِلَ﴾، أي: عمله ملتبسًا بالجهالة حقيقة بأن يفعله وهو لا يعلم ما يترتّب عليه من المفسدة، كعمر رضي الله عنه حين أشار إليه من إجابة الكفرة فيما سألوا من طرد الفقراء ولم يعلم ما فيه من المفسدة، أو حكمًا بأن يفعله عالما بسوء عاقبته، فإنَّ من عمل ما يؤدي إلى الضَّرر في العاقبة وهو عالمٌ بذلك أو ظان فهو في حكم الجاهل، فهي حالٌ مؤكِّدة؛ لأنها مقرّرة لمضمون قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سُوءًا﴾؛ لأنَّ عمل السوء لا ينفكُّ عن الجهالة حقيقةً أو حكمًا.[٢٢٩٠]

ومن الثاني قول الشاعر:

عَلَى أَنَّهَا قَالَتْ عَشِيَّةَ زُرْتُهَا جَهِلْتَ عَلَى عَمْدٍ وَلَمْ تَكُ جَاهِلًا[٢٢٩١]

أي: ما تدبرت عاقبة هذه الذورة، ولا ما تأملت فيما لها من الضَّرر والخوف، وكنت في ذلك من أهل السفه والجهل مع أنك كنت عالما بحقيقة الحال.[٢٢٩٢] وذلك لأن وقت الإيثار إليها وقت بدم الناس لا قبله فخافت عليه أن يعلموا به فيقع ما نكره.

[٢٢٨٦] **نواهد الأبكار**، ٦/٨٨؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٢٥.

[٢٢٨٧] **مفاتيح الغيب**، ٣/١٣.

[٢٢٨٨] **صحيح البخاري**، ٧/١٢١ (٥٦٧٣). **عرائس البيان**، ٣٦٦-٣٦٧.

[٢٢٨٩] **التيسير**، ص ٣٤١؛ **النشر**، ٢/١٩٤.

[٢٢٩٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٥٤.

[٢٢٩١] **الكشاف**، ٢/ ٢٨.

[٢٢٩٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٢و؛**حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣/٤٠٥.

وقد يقال: وهذا الثاني هو المناسب إن حمل على نزوله في حقّ عمر، واعتبار الحقيقة والحكم هو الفارق بين الوجهين.

وقيل: وجه الفرق أن في الأوّل: يقدّر بجهلةٍ مفعول، أي: جاهلًا بما يتعلّق به، وفي الثاني: [**١١٦/و**] ينزل منزلة اللّازم، أي: فاعل فعل الجهلة، والاعتبار المذكور على حاله أيضًا، وفي ﴿ثُمَّ﴾ إشارة إلى قبول التوبة ولو بعد مدَّةٍ والضّمير في ﴿بَعْدِهِ﴾ للسوء، أو العمل والتوبة، إن حملت على مجرَّد النَّدم، فالإصلاح بالإقلاع في الحال، والعزم على عدم العود في المآل، وإن حملت على التوبة الجامعة للشرائط الحاوية للأركان، فالإصلاح الإتيان بالأعمال الصالحة.

وفتح ﴿أَنَّ﴾ الثانية من فتح الأولى غير نافعٍ[٢٢٩٣] بجعلها في محلّ الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، أي: فأمره أو شأنه أنه غفور أو على أنها مبتدأ حذف خبره، أي: فله غفرانه ورحمته، أو فغفرانه ورحمته حاصلان له. وأما نافع فإنه وإن فتح الأولى بما مرَّ إلا أنه كسر الثانية واستأنف بما بعد «الفاء» لوقوعها في صدر جملة وقعت خبرًا لمن الموصولة أو جوابًا لها إن كانت شرطيةً، فإن من في قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سُوءًا﴾ كانت موصولةً أو شرطيةً في محل الرّفع على الابتداء والجملة لمصدّرة بالفاء خبره، إلا أنَّ هذه الجملة إن اعتبر فيها كونها مرّ جملة أخرى مثل كونها مبتدأً حذف خبره، أو خبر مبتدأ محذوف نزلت منزلة المفرد وإلا جعلت جملة مستأنفة.

وقال **النحرير التفتازاني:** وهذه الآية سيَّما على الوجه الأوَّل تقوّي مذهب المعتزلة، حيث ذكر في بيان مقام سعة الرّحمة أنَّ عمل السوءِ إذا قَارَن الجهلَ والتوبةَ والإصلاحَ فإنه يغفر؛ ولذا قيل: إنها نزلت في عمر رضرضي الله عنه حين لم يعلم لمضرّة وتاب وأصلح، فلا يدلُّ على ما ذكر.[٢٢٩٤]

وقال بعض المتأخرين لأهل السنة: إن يقولوا المراد من الآية سعة الرحمة وأن التائب المذكور يصير أهلًا لوصولها إليه؛ لأنَّ الله كثير الرَّحمة يجوز أن يغفرَ ويرحمَ بأدنى سببٍ، وليس المعنى: أنه يغفر قطعًا، ونزولها في عمر لا يدفع العموم المستفاد من كلمة ﴿مَنْ﴾ وكون الجملة تفسيرًا للرّحمة المطلقة، وكون كتب الرَّحمة في سياق قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

وأنت خبير بأنّ الكلام ليس في القطع، بل الرحمة بالتوبة، كما هو مذهب المعتزلة أيضًا. فالمخلص أنها تدلُّ عليها لكن لا تمنع الرحمة بدونها، ولعل مراد ذلك المتأخر بهذا الذي ذكرناه.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥)﴾

«الكاف» في محلِّ النَّصب على أنه صفةُ مصدر محذوف، وذلك إشارة إلى ما سبق في السورة الكريمة،[٢٢٩٥] أي: تفصيلًا مثل ذلك التفصيل نُفَصِّلُ آيات القرآن في صفة أحوال المجرمين؛ مَن هو مطبوع على قلبه لا يُرجى إسلامه، ومَن يُرى فيه أمارةُ القبول وهو الذي يخاف إذا سَمِعَ ذكر القيامة، ومن دخل في الإسلام إلا أنه لا يحفظ حدوده.[٢٢٩٦]

فقوله: «**مَنْ هُوَ مَطْبُوعٌ عَلَى قَلْبِهِ**»[٢٢٩٧] بدل من «المجرمين»، و«من يرى فيه» معطوفٌ على «من هو مطبوع»، وكذلك: «ومن دخل في الإسلام» فالمطبوع على قلوبهم ذكرهم بقوله: ﴿والَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ العَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

[٢٢٩٣] **التيسير**، ص ٣٤١؛ **النشر**، ٢/١٩٤.

[٢٢٩٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٢و.

[٢٢٩٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٥٤.

[٢٢٩٦] **الكشاف**، ٢/ ٢٨.

[٢٢٩٧] **الكشاف**، ٢/ ٢٨.

[الأنعام ٤٩/٦] والذين يُرى فيهم أمارة القبول ذكرهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ اَنْ يُحْشَرُوا اِلٰى رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام ٥١/٦]والذين دخلوا في الإسلام إلا أنهم لا يحفظون حدوده ذكرهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاٰيَاتِنَا﴾ هذا على ما يقتضيه كلام المصنف.[٢٢٩٨]

وقال قدس سره: «في صفة المطيعين والمجرمين المصرين منهم والأوّابين»[٢٢٩٩] فأدرج فسمى المصنّف في الأوّابين، وزاد عليه ذكر صفة المطيعين يعني: بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام ٥٢/٦]فنظر المصنِّف إلى أن المذكور بعده استتابة سبيل المجرمين، فحصر الأقسام فيهم، ونظر قدس سره إلى أن سبيل المطيعين مذكورةٌ أيضًا، واعتذر عمّا ذكر بأنه من قبيل الاكتفاء والتصريح باستنابة سبيل المجرمين؛ لأن ذكره أهم والنفس إلى الترهيب أطوع منها إلى الترغيب، وأيضاً إذا استبان سبيل المجرمين فقد بان سبيل المؤمنين.

وقال الإمام: ذلك إشارة إلى ما سبق في السّورة من تفصيل دلائل النّبوة والتوحيد والبعث؛ لإلزام الحجّة على مشركي مكة. والمعنى: مثل ذلك التّفصيل نميّز ونبيّن لك حجتان في كلّ حقّ ينكره أهل الباطل.[٢٣٠٠]

وقرأ نافع بـ«التاء» من فوق على إسناد الفعل إلى المخاطب ونصب «السبيل»[٢٣٠١] على المفعولية، أي: ولتستبين يا محمد سبيلَ المجرمين، وتعلم ذلك وتعامل كلًا منهم ما يحقّ له فصّلنا هذا التفصيل. فإن استبان يتعدى ولا يتعدى يقال: «استبان الشّيء واستبنته». وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب وحفص عن عاصم برفعه[٢٣٠٢] على معنى: و«لتستبين سبيلُهم»، ويظهر فصلنا هذا التفصيل. والباقون: وهم: حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بالياء والرّفع [**١١٦**/ظ] على تذكير السّبيل، وإسناد الفعل إليه أيضًا؛ فإنه يذكّر ويؤنّث وتذكيره لغة بني تميم، وتأنيثه لغة أهل الحجاز وقد نطق القرآن بهما قال تع: **﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾** [الأعراف ١٤٦/٧] وقال: **﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾** [إبراهيم ٣/١٤][٢٣٠٣]

ثم إنّه على ما ذُكر علق «اللّام» بمقدّر وهو «فَصَّلنا»، وقدّر على لفظ الماضي نظرًا إلى ما عليه المعنى. وذكر تفصيل الآيات بلفظ المضارع لوجود الاستمرار وتناول الماضي والآتي، وعليه كلام المصنف، وجوّز قدس سره أيضًا أن يعطف على مقدّر يتعلق بالفعل المذكور، أي: نفصّل الآيات ليظهر الحق ولتستبين.[٢٣٠٤]

اعلم أيّها العارف العزيز خصَّك الله بالفصل والتمييز أن مَنْ سلك سبيلَ المطيعين يكون من أهل الطاعة ويُحشر مع المطيعين، ويفوز مع المتقين الفائزين بدخول الجنّات مع السّادات بأنواع الكرامات، ومن سلك سبيلَ المجرمين يكون من أهل الإجرام ويُحشر مع المجرمين ويجيب مع المخذولين الخاسرين بدخول النّيران مع أهل الطّغيان بأنواع النّقمة والخذلان نعوذ بالله من زوال الإيمان، ومن شرّ الشّيطان يا قديم الإحسان يا غفور ويا غفران.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦)

[٢٢٩٨] **فتوح الغيب**، ٦/ ١٠٨.

[٢٢٩٩] **أنوار التنزيل**، ٤٩٣/١.

[٢٣٠٠] **مفاتيح الغيب**، ١٣/ ٧.

[٢٣٠١] **التيسير**، ص ٣٤١؛ **النشر**، ١٩٤/٢.

[٢٣٠٢] **التيسير**، ص ٣٤١؛ **النشر**، ١٩٤/٢.

[٢٣٠٣] **أنوار التنزيل**، ٤٩٣/١-٤٩٤؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٥٥.

[٢٣٠٤] **أنوار التنزيل**، ٤٩٣/١-٤٩٤؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٥٥.

إذ صُرفت وزجرت بنور فطرتي وصفاء عقلي، وما نصب من الأدلّة وأنزل عليَّ من الآيات عن عبادة ما تبعدون من ﴿**دُونِ اللَّهِ**﴾، أو تدَّعونها آلهة.

فعلى الأول: الدّعاء بمعنى العبادة، وعلى الثاني: بمعنى التسمية، وفيه استجعالٌ بعقولهم، ووصف بالاقتحام فيما كانوا فيه على عمى دون بصيرة، ﴿**قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ**﴾ تأكيد لقطع أطماعهم.[٢٣٠٥]

فإن بعض المشركين لَمَّا قال له ع م: استسلم بعض آلهتنا حتى نؤمن إلهك، أمر الله أيّاه بالإخبار عن النهي[٢٣٠٦] قطعًا لها، ثم أكَّد به من حيث أن مضمونه يقرِّره، وفيه إشارة إلى الموجب للنّهي، وعلة الامتناع عن مشايعتهم، كأنّهم قالوا: لِمَ نهيت عن ذلك؟ أجاب: بأنه هوى وليس بهدىً فكيف أتّبع الهوى وأترك الهدى؟! واستجهال لهم؛ لأنّ الأدلّة الفعليّة والسّمعيّة لما كانتا متطابقتين في الدّلالة على التّوحيد والزّجر عن الإشراك، ولم يرتدعوا دلَّ ذلك على أنهم لا يُمَيِّزون بين الحق والباطل، ولا بين الهدى والرّدئ،[٢٣٠٧] وبيان لمبدأ ضلالهم؛ فإن اتّباع الهوى يصدّ عن الحق وإنَّ ما يهمّ عليه هوى وليس بهدًى، وتنبيهٌ لمن تحرّى الحقَّ على أن يتبع الحجَّة ولا يقلّد.[٢٣٠٨]

فإن قيل: أكثر أهل الإسلام آخذون بالتقليد قاصرون أو مقصرون عن الاستدلال، ولم تزل الصّحابة ومَنْ بعدهم من الأئمّة، والعلماء، يكتفون منهم بذلك ويجرون عليهم أحكام المسلمين؟

قلنا: ليس الكلام في الذين نشأوا في ديار الإسلام من الأمصار، والقُرى، والصحاري، وتواتر عندهم حال النَّبي وما أُوتي به من المعجزات، ولا في الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، فإنَّ كلَّهم من هل النَّظر والاستدلال، بل فيمن نشأ في شاهق الجبل مثلًا، ولم يتفكّر في ملكوت السموات والأرض فأخبره إنسان بما يفترض عليه اعتقاده، وصدّقه بما أخبر به بمجرد إخباره من غير تدبُّر وتفكُّر وتذكُّر.[٢٣٠٩]

﴿**قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا**﴾ أي: إن اتَّبعتُ أهواءكم فأنا ضالٌّ، وما أنا في شيءٍ من الهدى وفيه تعريض بأنهم كذلك.[٢٣١٠]

فإن قيل: كلاهما تفسير بالأقوى لما تبيَّن في أصول البلاغة أنَّ قولك: هو ضالٌّ أبلغُ من ضَلَّ وهو ﴿**مِنَ الْمُهْتَدِينَ**﴾ أبلغ من: هو مهتدٍ فنفيه بالعكس.

قلنا: أما الأوَّل فمن المقام؛ لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم إذا اتَّبع أهواء الكفرة كان ذلك غاية في الضَّلال، وأما الثاني: فلما مرَّ غير مرّة من أن نحو: «ما هم بمؤمنين» يكون لتأكيد النَّفي لا نفي التَّأكيد،[٢٣١١] كأنَّه قيل: إن اتَّبعتُ أهواءَكم

[٢٣٠٥] **الكشاف**، ٢/ ٢٨؛ **أنوار التنزيل**، ١/٤٩٤؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٢٦.

[٢٣٠٦] ج + مطلقًا.

[٢٣٠٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٥٦.

[٢٣٠٨] **أنوار التنزيل**، ١/٤٩٤.

[٢٣٠٩] **شرح المقاصد** للتفتزاني،سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، قدم له: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ٢٠١٠م. ٤٥٧/٣.

[٢٣١٠] **الكشاف**، ٢/ ٢٨؛ **أنوار التنزيل**، ١/٤٩٤؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٢٦.

[٢٣١١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٢و–ظ.

قد ضللتُ إذًا، وكنت مثلكم متوغِّلًا في الضَّلال مُنْغمسًا فيه، ولا أكون من الهُدى في شيءٍ كما أنتم عليه، وفيه أنِّي من زمرة المهتدين، وفي مساهمةٌ معروفة في الهداية.[٢٣١٢] وفيه أن اتباع الهوى ضلالة وبعد عن هداية.

وعن ابن عمر رضـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إيّاكم والركونَ إلى أصحابِ الأهواءِ؛ فإنَّهم بَطِروا النِّعمةَ، وأظهَروا البِدْعةَ، وخالَفوا السُّنَّةَ، ونطَقوا بالشُّبْهةِ، عليهم لعنةُ اللهِ والملائكةِ والنّاسِ أجمعينَ».[٢٣١٣]

وقال أبو عمرو بن العلا: «ضَلِلْتُ» بكسر [**١١٧**/و] اللام لغةُ تميم، وهي قراءة ابن وَثَّاب وطلحةَ بن مُصَرِّف، فالأولى هي الأصح والأفصح؛ لأنها لغةُ أهل الحجاز، وهي قراءة الجمهور.[٢٣١٤]

قال الجوهري: والضَّلال والضلالة ضدُّ الرَّشاد، وقد ضلَلْت أضِلُّ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ [سبأ ٣٤/٥٠] فهذا لغةُ نَجْدٍ، وهي الفصيحة، وأهل العالية يقولون: ضَلِلْتُ –بالكسر– أَضِلُّ.[٢٣١٥]

اللهُمَّ إنَّا نعوذ بك من أن يَضلَّ أو يُضلَّ ونسألك الهدية، إنَّك على كل شيء قدير.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ (٥٧)

ولَمَّا بالغ في نفي كون الهوى متَّبعًا نبَّه على ما يجب اتّباعُه. و«البيِّنة»: الحجَّة الواضحة التي تَفْصِلُ الحقَّ من الباطل، فقَيْدُ الوضوح معتبَرٌ في مفهومها، لامستفادٌ من التَّنكير، بل المستفاد منه تعظيم تلك الواضحة، وهي أعمُّ من أن تكون وحيًا، أو دليلًا عقليًّا، أي: إنِّي من معرفة من ربي وإنه لا معبود سواهُ على حجَّةٍ واضحةٍ وشاهدِ صِدْق. ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ أنتم حيث أشركتم به غيره. يقال: أنا على بيِّنةٍ من هذا الأمر، وأنا على يقينٍ منه؛ إذا كان ثابتًا عندك بدليلٍ.[٢٣١٦]

وقيل: على حجَّة من جهة ربي وهو القرآن، ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾، أي: بالبينة وذكر الضمير على تأويل البيان، أو القرآن، فعلى هذا ﴿مِنْ رَبِّي﴾ صفة لـ﴿بَيِّنَةٍ﴾ على معنى: كائنة من ربّي صادرة عنه، وضمير ﴿كَذَّبْتُم بِهِ﴾ على هذا لـ﴿بَيِّنَةٍ﴾ لا لـ﴿رَبِّي﴾؛ إذا القصد إلى التَّفرقة، والتَّفصلة بينه وبينهم، وذلك إني صدقت بالبينة، وأنتم كذبتم بها بخلاف ما إذا قيل: وأنتم كذبتم بربي، وأمَّا على الأول: فيتحقَّق التقابل لعود الضمير إلى ربي؛ لأن المعنى: أنِّي صدقتُ به وأنتم كذبتم، وموقع ﴿مِنْ رَبِّي﴾ صفة «بَيِّنَةٍ»، لكن بمعنى: بيّنة متّصلة بمعرفة ربّي، مرتبطة بها دالَّة عليها.[٢٣١٧]

﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ يحتمل أن يكون جملةً مستأنفةً سيقت للإخبار بذلك، وأن يكون في محل النصب على الحالية،[٢٣١٨] ثم عقَّبه بما دلَّ به على استعظام تكذيبهم بالله، وشدَّة غضبه عليهم لذلك، وإنهم أحقّاء بأن يغاضبوا بالعذاب الْمُستأصل، فقال:

[٢٣١٢] **فتوح الغيب**، ٦/ ١١٠.

[٢٣١٣] **تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة**، لنور الدين، علي بن محمد بن علي بن عبد الرحمن ابن عراق الكناني (المتوفى: ٩٦٣هـ) تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف , عبد الله محمد الصديق الغماري الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ، ٣١٠/١؛ **الكامل في الضعفاء**،لابن عدي ٣٣٧/١.

[٢٣١٤] **الجامع لأحكام القرآن**، ٨/ ٣٩٧.

[٢٣١٥] **الصحاح** للجوهري، «ضلل»؛ **الجامع لأحكام القرآن**، ٨/ ٣٩٧.

[٢٣١٦] **الكشاف**، ٢/ ٢٩؛ **أنوار التنزيل**، ٤٩٤/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٢٧.

[٢٣١٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و٣٣٢و–ظ.

[٢٣١٨] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٥٦.

﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ يعني: العذابَ الذي استعجَلوه في قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال ٣٢/٨].[٢٣١٩] فعلى هذا يتصل بقوله كذبتم به.

وقيل: الظاهر أنه متَّصل بالمقالات الثلاث، أعني: قوله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ﴾ ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾، يعني: دعوتم إيَّاي إلى عبادة ما تعبدونه، وإنّي ما تبعت أهواءكم، وأنتم عليها، وكوني على بينة، وأنتم تخالفوني بالتّكذيب، ممَّا يؤذنُ أنّكم تستعجلوني بالعذاب، واستئصال شأفتِكم. ولذلك قال متضجِّرًا ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ في تعجيل العذاب وتأخيره لا لي وإلا عجلته.[٢٣٢٠]

وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿يَقْضِي﴾[٢٣٢١] بسكون القاف وكسر الضّاد المعجمة المخففة، فيكون الحقّ صفة مصدر محذوف، أي: يقضي القضاءَ الحقَّ، أو مفعول به، على أن يقضي بمعنى: يصنع، فيتعدَّى بنفسه.[٢٣٢٢]

من قولهم: «قضى الدِّرعُ»: إذا صنعها الحقّ ويدبّره وعليه قول الهزلي:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهما دَاوُدُ أو صَنَعُ السَّوَابغِ تُبَّعُ.[٢٣٢٣]

ولَمَّا لم ترسمْ الياء بعد الصاد في المصاحف قرأ الحجازيان وعاصم ﴿يَقُصُّ﴾[٢٣٢٤] بضمّ القاف والصَّاد المهملة المشدَّدة من: «قَصَّ الأثر»، أي: تبعه، و«قصَّ الحديث»؛ كأن الياءَ حذفت خطأً، كما حذفت لفظًا؛ لالتقاء الساكنين كما حذفت في نحو: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾[القمر ١٨/٩٦] ، وكما حذفت الواو في: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق ١٨/٩٦] ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ [الشورى ٢٤/٤٢].[٢٣٢٥]

واحتج أبو عمرو على قراءة ﴿يَقْضِي﴾ من القضاء بأن الفصل يكون في القضاء لا في القصص.[٢٣٢٦]

وأجاب أبو علي الفارسي: بأن القصص هنا بمعنى القول. وقد جاء الفصل في القول كقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق ١٣/٨٦] ﴿أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: ١/١١] ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [الأنعام٦/ ٥٥] وعلى هذا فالأنسب أن يكون من قص الحديث.[٢٣٢٧]

وقال ابن الكمال: من قَصَّ أثَره، أي: يتَّبع ما هو الحق، لا من قصَّ الخبر؛ لعدم ملاءمته ما في السِّباق واللحاق من الحكم والفصل.[٢٣٢٨]

[٢٣١٩] **الكشاف**، ٢/ ٢٩.

[٢٣٢٠] **فتوح الغيب**، ٦/ ١١١-١١٢.

[٢٣٢١] **النشر**، ١٩٤/٢.

[٢٣٢٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٥٧.

[٢٣٢٣] **الكشاف**، ٢/ ٢٩؛ **فتوح الغيب**، ٦/ ١١٠.

[٢٣٢٤] **النشر**، ١٩٤/٢.

[٢٣٢٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٥٧.

[٢٣٢٦] **روح المعاني** للآلوسي، ٨/ ٢٠٠.

[٢٣٢٧] **مفاتيح الغيب**، ١٣/ ٩.

[٢٣٢٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٢٨.

ولما ذكر الفارسي يخرج الجواب عنه، كما لا يخفى. وبه تمسَّك الأصحاب على أنَّ العبد لا يقدر على شيء إلَّا إذا قضى الله به ويدفع بأنّ الكلام في الأفعال الإلهيَّة دون البشريَّة.

﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٥٨)

أي: ﴿لَوْ أَنَّ﴾ في قدرتي ومُكْنَتي[٢٣٢٩] ووسعي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾من العذاب، ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لأهلكتُكم غضبًا عاجلًا لربِّي، لا لنفسي وامتعاضًا من تكذيبكم به، ولتَخَلَّصْتُ منكم سريعًا، وفيه استعظامٌ لتكذيبهم، أي: أنتم إذ كذَّبتم بما هو أبينُ شيءٍ أحقَّاء بأن تغاضبوا بالعذاب المستأصل، لكنّه لا قدرة لي، ولو كان عندي [١١٧/ظ] أشدُّ العذاب لَأوقعتُه بكم معجَّلًا.[٢٣٣٠]

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ وبما تقتضيه حكمته من عقابهم عاجلًا أو آجلًا وبآجالهم، أي: لا أعلم وقت عقوبة الظّالمين، بل الله يعلمه فيئخِّره إلى وقته، وينزل متى شاء، وفيه تسجيلٌ عليهم بأن الشِّرك الذي هم عليه أفظع الظلم وأتبعه، والظلم موجب لاستحقاق العذاب، والله أعلم ما يجب من عذابهم وبوقته.[٢٣٣١]

وقال بعض العارفين: في قوله تع: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي على يقين ومشاهدة ورؤية غيب وسلطان براهين، وسطوع نور الأزل من وجهي، فإنه أعظم البينات في العالم من رآه رأى الحقّ؛ لقوله ع م: «مَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَ الْحَقَّ»، «وَمَنْ رَآنِيفَقَدْ رَآى الحقَّ».[٢٣٣٢]

وقال أبو عثمان المغربي: الأنبياء على بينات، والأكابر من الأولياء على بيّنات، وبيّنات الأنبياء وحي ويقينٍ، وبينات الأولياء الفراسات الصّادقة، والإخبار عن الغيب كما كان ليوشعَ وللصدّيق الأكبر.

وقال أبو سعيد الخرّاز في هذه الآيات: عنايات لنبّيه وحبيبه، فتح عليه سبحانه وتعالى أولًا أسباب التَّأديب، أدَّبه بالأمر والنّهي، ثم فتح عليه أسباب التَّهذيب، وهو المشيئة والقدرة، ثم أسباب التّدريب، وهو قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران ١٢٨/٣]، ثم أسباب التغييب على ما يفضي عنه في موضعٍ آخر بقوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزّمّل ٨/٧٣]، فهذه مفاتح الغيب التي فتحها الله لنبيه صلوات الله عليه وسلامه.

وأيضًا: له مفاتيح لغيبه، ومن تلك المفاتيح التي يعطي قاصديه وطالبيه في بدو شأنهم ما داموا صادقين، هي المعاملات السّنية، والمقامات الشريفة التي يستفتح بها لهم خزائن الملكوت والجبروت، ويستخرج منها أنوار المحبّة والشّوق والعشق والمعرفة ودرجاتها، والتّوحيد ومكاشفاته وعلومه، فيصلون بها إلى وصاله الأبدي وقربه الجلالي.

وأيضًا: له مفاتيح اللُّطفيات والقهريات، يفتح بها أنوار المعرفة للأولياء، ويفتح بها أبواب ظلمات الطبيعة للأعداء.

وأيضًا: عنده مفاتيح غيب الدرجات، يفتح للقلوب خزائنُ المشاهدات، وللأرواح خزائن المكاشفات، وللعقول خزائن المعارف، وللأسرار خزائن علوم الذَّات والصِّفَّات، وللأشباح خزائن المعاملات، يفتح للأنبياء بها خزائنُ المعجزات، ويفتح للأولياء الكراماتُ، ويفتح للمريدين خزائنُ الفراسات.

[٢٣٢٩] المكنة بالضمّ: القدرة والاستطاعة. **تاج العروس** للمرتضى الزبيدي، «مكن».

[٢٣٣٠] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٢٩.

[٢٣٣١] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٢٩.

[٢٣٣٢] **المعجم الكبير** للطبرانب؛ ٦٣٤/١٣ (١٤٥٥٨)؛ **عرائس البيان**، ٣٦٨/١-٣٦٩.

وقال ابن عطاء: تفتح لأهل الخير المحبّة والرَّحمة، ولأهل الشَّرِّ الفتنة والمهانة، ولأهل الولاية الكرامة، ولأهل السرائر السر، ولأهل التَّمكين التَّمكّن.

وقال ابن عطاء أيضًا: الفتح في القلوب الهداية، وفي الهموم الرعاية، وفي الجوارح السياسة.

وقال أيضًا: يفتح للأنبياء المكاشفات، وللأولياء المغيّبات، وللصالحين الطاعات، وللعامّة الهديات.

وقال جعفر الصادق: يفتح من القلوب الهداية ومن الهموم الرّعاية، ومن اللسان الرواية، ومن الجوارح السّياسة والدَّلالة.[٢٣٣٣]

وقد جاء في الخبر: أنَّ هذه الآية الكريمة، أعني: آية المفاتيح لَمَّا نزلت نزل معها اثنى عشر ألف ملَكٍ من الملائكة المقرَّبين الذين لهم كمال منزلة وزيادة قربة، وذلك قوله تع:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٥٩)

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ جعل للغيب مفاتح على الاستعارة؛ لأنها يتوصَّل بها ما في المخازن المستوثَق منها بالأقفال، ومَن علم مفاتحها وكيف تُفتح، تَوَصَّل إليها، فأراد أنه هو المتوصِّل إلى المغيَّبات لا غيره، كمن عنده مفاتح أقفال المخازن ويعلم فتحَها، فهو المتوصِّل إلى ما فيها. و«المفَاتِح» جمع مِفْتَح، وهو المفتاح، وقُرِئ: «مَفَاتِيح»،[٢٣٣٤] وقيل: هي جمعُ مَفْتَح –بفتح الميم– وَهُوَ الْمَخْزَن.[٢٣٣٥]

يعني: بالاستعارة، الاستعارة بالكناية تشبيهًا؛ للغيب بالأشياء المستوثق منها بالأقفال.

وإثبات المفاتح تخييليَّة كأظفار المنيَّة.[٢٣٣٦]

فقوله: «**فأراد أنه هو المتوصِّل**»[٢٣٣٧] إلى آخره بيانٌ للمراد لا دلالة على أنّ الاستعارة تمثيليَّةٌ على ما توّهم بعضهم بأن يجعل الوجه منتزعًا من أمور متوهّمة، وهو ما يتوهَّمُ من تمكين تحصيل شيءٍ مستوثَق منه يختصُّ حصوله بمن عنده ما يتوصَّل به، وأنه مركَّب من أمور متعدِّدة. وإلّا لكان المناسب أن يقال: هذا الكلام استعارةٌ أو تمثيلٌ، وأما جعل المفاتح استعارة للعلوم بقرينة الإضافة إلى الغيب، فليس كلام المصنف،[٢٣٣٨] لكن هو اللّائح من كلامه قدس سره حيث قال: «عنده ما يتوصَّل به إلى المغيّبات مستعارٌ من المفاتح الذي هو مِفْتَح بالكسر وهو المفتاح»،[٢٣٣٩] بقرينة الاستعارة على هذا إضافتها إلى الغيب، وجعلها جمع مَفْتَح –بفتح الميم– بمعنى المخْزن أيضًا استعارة مكنيَّة، جعلَ للغيب مخازن أودعه فيها هو، وهي عنده، فيكون هذا أيضًا

[٢٣٣٣] **حقائق التفسير**، ٢٠١/١-٢٠٢؛ **عرائس البيان**، ٣٦٨/١-٣٦٩.

[٢٣٣٤] وهي قراءة شاذّة، مرويَّة عن أبي البرهسم. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٦٩.

[٢٣٣٥] **الكشاف**، ٢/ ٢٩- ٣٠.

[٢٣٣٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٢و؛ **نواهد الأبكار**، ٩٥/٦.

[٢٣٣٧] **الكشاف**، ٢/ ٢٩.

[٢٣٣٨] **فتوح الغيب**، ٦/ ١١٥؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٢ظ.

[٢٣٣٩] **أنوار التنزيل**، ٤٩٥/١.

عبارةٌ عَن علمه بالمغيَّبات، لا عن قدرته على جميع الممكنات كما قال الإمام الرازي، كما دلَّ عليه قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾.[٢٣٤٠]

وقال بعض المتأخرين:[**١١٨**/و] لعلّ مراد الإمام أن المعنى: وعنده خزائن كثيرة من المقدورات غائبة عن الحسن والعقل ولا يعلم كمّيتها وكيفيّتها إلا هو فيناسبه أيضًا، قوله تع: ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾.

والمفهوم من كلام **ابن الكمال:** أن تكون الاستعارة تصريحيةً على القراءتين حيث قال: استعار المفاتح لِمَا أَوْدَع فيه الغيبَ من خزائنه، أو لِمَا يتوصَّل به إليه، والحصر مستفادٌ من تقديم الخبر أعني: عنده مع التصريح بقوله: ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾. فيعلم أوقاتها وما في تعجيلها وتأخيرها من الحكم، فيُظهرها على ما اقتضته حكمتُه وتغلب به مشيئته.[٢٣٤١]

وتعين على الحصر استغراق مفاتح الغيب؛ إذ هو المناسب للمقام والموافق للمرام، وإن ذهب بعضهم إلى أن المراد المغيّبات الخمس، كما روى عمر عن النبي ع مأنه قال: «مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ، لاَ يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ: لاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي المطَرُ إِلَّا اللَّهُ، وَلاَ تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللَّهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ».[٢٣٤٢]

وتكملة أيضًا قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ﴾ إلى آخره ليضم إلى علم الغيب علم الشهادة فلا حاجة إلى الإيراد بأن لا يعلمها إلا هو تأكيد للحصر، فالأخبار المعطوف عليه يجب أن يكون تأكيدًا، لكن لا يؤكّد علمه بالمغيّبات بعلمه بالمشاهدات، ولا إلى الاعتذار بأنه يكون تأكيدًا باعتبار أن من شمل علمه بمثل هذه المشاهدات تفصيلًا يناسبه اختصاص علم الغيب به، وكلُّ ذلك تزعيم للمنجم المخذول الذي يدعي علم الغيب والفلسفي المطرود الذي يزعم أنه لا يعلم الجزئيّات.

وقال قدس سره: «وفيه دليل على أنه تع يعلم الأشياء قبل وقوعها».[٢٣٤٣]

وقال ابن الكمال: ويَرِدُ عليه أنّ علمه تع ليس بزمانيٍّ، فلا قَبْلِيَّة بينه وبين الأشياء الواقعة في الزّمان.[٢٣٤٤]

وأنت خبير: بأن مراده قدس سره ليس بتقييد علمه تع بالزّمان، بل إثبات أنه تعالى متَّصف بعلمه الشامل الكامل قبل وجود الأشياء، وذا لا يقتضي المحذور المذكور، كما لا يخفى وفي هذا غاية تحذير عن ادِّعاء علم الغيب، كما شاع ذلك في بعض الطائفة.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)﴾

لما كان اختصاص الحقّ بمفاتح الغيب أمرًا معقولًا لا يصل إلى إدراك كلّ أحد ذكر المحسوسات ليكشف عنها؛ لأنَّ الإنسان قد شاهد أحوال البرّ، وكثرةَ ما فيها من المدن والقُرى والجِبال والتِّلال، والمعادن والحيوان والمفاوز والنَّبات والعيون والنَّجم

[٢٣٤٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٢ظ؛ **نواهد الأبكار**، ٩٥/٦.

[٢٣٤١] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٣٠.

[٢٣٤٢] **صحيح البخاري**، ٦٩/٦ (٤٦٩٧).

[٢٣٤٣] **أنوار التنزيل**، ٤٩٥/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٣٠.

[٢٣٤٤] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٣٠.

والشَّجر، وأحوال البحر في الطُّول والعَرض، وما فيه من الحيوانات وأجناس المخلوقات، ولقديم البرّ؛ لأنه أقرب، وأشهر، ولما كان إحاطة علمه بأحوال الجزئيات أبلغ في إحاطة علمه بأنفسها صرّح بها فقال: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾[٢٣٤٥]

قال الزجاج: معناه: أنه يعلمها ساقطةً وثابتةً، فإنك تقول: «ما يجيئك أحدٌ إلا وأنا أعرفه»، فليس تأويله: إلا وأنا أعرفه في حال مجيئه فقط.[٢٣٤٦]

ثم بالغ في إحاطة علمه بأحوال الجزئيّات بقوله: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ فإن «الحبَّة» في غاية الصّغر وظلمات الأرض في غاية الكبر، ومع ذلك لا تخرج عن علمه تع، ثم أجمل الكلام بما هو الشامل للجميع بذلك الرّطب واليابس.

و﴿مِنْ وَرَقَةٍ﴾ فاعل ﴿تَسْقُطُ﴾ و﴿مِنْ﴾ زائدة لاستغراق الجنس ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ حالٌ ﴿مِنْ وَرَقَةٍ﴾ أي: لا تسقط ورقة في حال من الأحوال إلا في حال كونه تعالما بها، ﴿وَلَا حَبَّةٍ﴾ مجرور بالعطف على لفظ ﴿وَرَقَةٍ﴾ولو قرئ مرفوعًا لكان معطوفًا على الموضع، و﴿فِي ظُلُمَاتِ﴾ صفة ﴿حَبَّةٍ﴾ ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ مجروران أيضًا بالعطف على لفظ ﴿وَرَقَةٍ﴾وداخل في حكمها، كأنه قيل: وما يسقط من شيءٍ من هذه الأشياء إلا يعلمه.[٢٣٤٧]

وقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ كالتكرير لقوله: ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾؛ لأن معنى: ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ ومعنى: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ واحدٌ. و«الكتاب المبين» علم الله أو اللوح.[٢٣٤٨] وكونه تكريرًا من جهة المعنى على ما بيّن، وأمَّا من جهة اللَّفظ فهو من صفة للمذكورات، كما أنَّ ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ صفة لـ﴿وَرَقَةٍ﴾.[٢٣٤٩]

وأمَّا ما قيل: لا يكون استثناءً ثانيًا من: ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾؛ لأنّ ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ إثباتٌ من النفي، فيكون ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ نفيًا من الإثبات فيلزم أن لا يعلمها في كتاب وليس كذلك؛ لأنّ كل شيء في كتاب وكلّ ما هو في كتاب فهو في علمه تع فيكون تأكيدًا للاستثناء الأوّل أو بدلًا منه.[٢٣٥٠]فمِمَّا لا يَنبغي أن يصغى إليه المحصَّل،[٢٣٥١] وبه يظهر ما في قوله قدس سره: «بدل من الاستثناء الأوَّل بدلَ الكل من الكلّ على أن الكتاب المبين عِلْم الله، أو بدلُ الاشتمال على أنه اللوح».[٢٣٥٢]

وعلى التسليم جعله بدلَ اشتمال على ما ذكره مبني على ما قيل: من أنه يكفي في بدل الاشتمال مجرَّد الملابسة بغير الكلّية والجزئيّة وهو مختار **ابن الحاجب**، وأمّا على رأي كثير من النُّحاة وهو اشتراط كون المتبوع مشتملًا على التَّابع من حيث كونه دالًّا عليه [**١١٨**/ظ] إجمالًا ومتقاضيًا له بوجه ما، بحيث تبقى النفس عند ذكر الأوَّل، متشوقة إلى الثّاني، فتجيء الثاني ملخَّصًا لما أجمل في الأوَّل مبينًا له فلا يصحّ أيضًا.[٢٣٥٣]

[٢٣٤٥]**مفاتيح الغيب**، ١٣/ ٩.

[٢٣٤٦]**معاني القرآن** للزجاج، ٢/٢٥٧.

[٢٣٤٧]**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٥٨.

[٢٣٤٨]**الكشاف**، ٢/ ٢٩- ٣٠.

[٢٣٤٩]**حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٢و.

[٢٣٥٠]**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٥٨.

[٢٣٥١]**حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٢و.

[٢٣٥٢] **أنوار التنزيل**، ١/٤٩٥.

[٢٣٥٣]**الحاشية على المطوّل** للجرجاني، ص ١٣٣ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧١.

وقرئ: «ولا حبَّةٌ... ولا رطبٌ ولا يابسٌ»؛[٢٣٥٤] بالرَّفع عطفًا على محلّ ﴿مِنْ وَرَقَةٍ﴾، أو رفعًا بالابتداء، والخبر ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، كقولك: لا رجلٌ منهم ولا امرأةٌ إلا في الدَّار.[٢٣٥٥]

وقال أبو سعيد القرشي في هذه الآية: ما من دابَّة إلا ولها ورقةٌ خضراءُ معلّقةٌ من تحت العرش، فإذا يبست الورقة وقعت بين يدي ملك الموت، مكتوبٌ عليه اسمه واسم أبيه، فعلم ملك الموت أنه قد أمر به بقبضِ روحه فقَبض روحَه.

وفي الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: «مِن زَرْعٍ عَلى الأَرْضِ ولا ثِمارٍ عَلى الأَشْجار **إِلَّا عَلَيْها مَكْتُوبٌ** ﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**﴾، رِزْقُ فُلانِ ابْنِ فُلانٍ»، وَذلِكَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.[٢٣٥٦]

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٦٠)

استُعير «التَّوفّي» من الموت للنّوم لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتَّمييز، فإنَّ أصله: قبضُ الشَّيء بتمامه، كاستيفاء العدد.

و«الجرح»: الكسب ومنه، إطلاق الجوارح للأعضاء الكاسبة. وتخصيص اللَّيل بالنّوم والنّهار بالكسب على جرى العادة؛ ولأنهما معظمًا أوقاتهما.

والضمير في ﴿فِيهِ﴾ «للنّهار»، وأُطلق البعث للإيقاظ ترشيحًا للتَّوفّي. وقد يناقش بأن التَّرشيح له نوعٌ خصوصٌ بالمشبه به والبعث مما لا خصوص له بالموت؛ إذ يقال: بعثه من نومه إذا أيقظه، واعتذر بأنه كذلك في أصل اللّغة لكنَّه حقيقة شرعية في بعث الموتى،[٢٣٥٧] وبه يندفع أيضًا ما قال ابن الكمال: «والبعث: الإثارة، لا الإيقاظ، غايته بعث النائم يكون بإيقاظه، فلا ترشيح فيه للتَّوَفّي».[٢٣٥٨]

﴿لِيُقْضَى﴾ علَّة لـ﴿يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي: ليؤدّي ويتمّ أجل مسمّى لمدّة العمر فالقضاء التّمام.

وقال ابن الكمال: «وقضاء الأجل: فصلُ مدة العمر عن غيرها، ويلزمه البلوغ إلى نهايتها، وهو المراد ههنا».[٢٣٥٩] ولا يخفى ما فيه من التّكلُّف بالنّظر إلى هذا المقام، ﴿وَأَجَلٌ﴾ مرفوع بـ﴿يُقْضَى﴾ والفاعل الحقيقي هو الله تع، أو ضمير المخاطين، أي: لتقضوا وتتمّوا آجالهم.

وقرئ: «لِيَقْضِيَ أجلاً»[٢٣٦٠] على المفعوليّة والفاعل هو الله، ولَمّا ذكر أنه يُنيمهم أوّلًا ثم يوقظهم ثانيًا كان ذلك جاريًا مجرى الإحياء بعد الإماتة؛ فلذلك استدلّ به على صحة البعث فقال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في ليلكم ونهاركم في جميع أعماركم،[٢٣٦١] بالمجازاة هذا مقتضى كلامه قدس سره.

[٢٣٥٤] **الكشاف**، ٣٠/٢؛ **البحر المحيط**، ٥٠٦/٤.

[٢٣٥٥] **الكشاف**، ٣٠/٢.

[٢٣٥٦] **الفردوس** للديلمي، **٥٣/٤ (٦١٦٧)**.

[٢٣٥٧] **أنوار التنزيل**، ٤٩٥/١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٥٩.

[٢٣٥٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٣٢.

[٢٣٥٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٣٢.

وقال المصنف: الخطاب للكفرة، أي: أنتم منسدحون اللّيل كلّه كالجِيف، وَيَعْلَمُ ما كسبتم من الآثام بالنّهار، ثمّ يبعثكم من القبور في شأن ذلك الذي قطعتُم به أعماركم من النَّوم باللَّيل وكسبِ الآثام بالنَّهار، أي: من أجله، كقولك: فيم دعوتَني؟ فتقول: في أمر كذا. ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ وهو الذي ضرَبَه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم.[٢٣٦٢]

ففيه تخصيص الخطاب وتخصيص ما أسند إليهم في اللَّيل والنَّهار على الحالة المذمومة من أحوال الإنسان العاقل؛ فإنَّ اللائق به أن يستعمل كلّ نعمة لما خلقت لأجله فينام للاستراحة والتّقوي على الطَّاعة، ويستيقظ لاكتساب ما فيه رضاء الله لا أن يلقي كالجيفة بالليل ويكتسب الآثام بالنهار.[٢٣٦٣]

وعدول عما ذهب إليه كثير من المفسرين، وعليه قدس سره أيضًا من كون ضمير فيه «للنهار»؛ لأن قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ دالٌّ على حال اليقظة باليقظان بالنَّهار والكسب فيه. وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ تدلّ على تأخّر البعث عن ذلك، فالضَّمير جار مجرى اسم الإشارة عائد إلى مضمون كونهم متوفّين وكاسبين، ومعنى: «في» هو حاصل معنى لام العليّة والغرضيّة، و«الأجل المسمى» هو مدة الكون في القبور. وقد ضرب أجلًا للبعث والجزاء منتقض بالبعث من القبور، لكن لا يخفى ما في هذا من التَّكلُّف وأنه لا حاجة إليه؛ لأن قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ إشارةٌ إلى ما كسب في النَّهار السّابق على ذلك الليل لا دلالة فيه على الإيقاظ عن هذا التَّوفِّي، وأنّ الإيقاظ متأخِّرٌ عن التَّوفِّي، وأنّ قوله: يفعل ذلك التَّوفي بالليل والبعث بالنّهار؛ليُقْضى مدةُ الحياة المقدَّرة كلام منتظم غايةَ الانتظام.[٢٣٦٤]

ويرجح التفسير الأوّل بأنه ظاهر الآية العموم وليس فيها ما يقتضي تخصيصها بالكفرة، ويرجح الثاني: بأن النّظم يقتضي أنه ليس عندي ما تستعجلون به من العذاب، ولو كان عندي لَتخلَّصت منكم بإتيانه، ولكن الله أعلم بكم وبظلمكم؛ لأن عنده مفاتح الغيب.[**١١٩**/و]

وَلَمَّا فرغ منه عاد إلى التَّهديد بذلك، وإسناد «التَّوفِّي» إلى الله، و«الكسب» إليهم، إشعار بأنّ نومهم خيرٌ من يقظتهم. وجعل الانسداح في تفسير «التَّوفِّي» المسند إلى الله؛ ليقابل قوله: ﴿مَا جَرَحْتُمْ﴾ فجعل فعلَ الله تابعًا لفعل العبد، ولا مناقشة فيه؛ لأن الكسبَ عندنا منسوبٌ إلى العبد.[٢٣٦٥]

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ (٦١)﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (٦٢)

ليس الفوقية بالجِهة، بل من جهة القهر والعزّة؛ فإنه قهَّار للمعدومات بالإيجاد، والموجودات بالإفناء، وقهَّار لكلّ ضد بضدِّه، النور بالظلمة، والليل بالنهار وبالعكس، والعناصر التي يتألف البدن منها؛ فإنها مع تنافرها قد ألف بينها بأن خلع عنها

[٢٣٦٠] **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٦٩؛ **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٤٣.

[٢٣٦١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٥٩.

[٢٣٦٢] **الكشاف**، ٢/٣٠.

[٢٣٦٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٥٩.

[٢٣٦٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٣و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣/٤١٠؛ **روح المعاني** للآلوسي، ٨/٢١٠.

[٢٣٦٥] **فتوح الغيب**، ٦/ ١١٩-١٢٠.

كيفياتها المتضادة، وأودع كيفيّة متوسِّطة، وللروح والبدن مع أن البدن كثيفٌ سُفليٌّ ظُلمانيٌّ فاسد عَفِنٌ، والروح علويٌّ لطيفٌ نورانيٌّ باقٍ، فقد ألّف بينهما ليصلحا لقبول العهد والمحن.[٢٣٦٦]

﴿ويُرْسِلُ عَلَيْكُمْ﴾ فعليه عطفت على اسمية أو استئنافية للإخبار به وعطفه على «قاهر» لكون «اللام» بمعنى «الذي»، أي: الذي يقهر ويرسل ضعيف للزوم الفصل بين أبعاض الصِّلة بأجنبي، فإن المعطوف عليها من تمامها لا يتحلَّل بينهما أجنبي.[٢٣٦٧]

والجمهور على أنّهم حفظة الأعمال، والكرام الكاتبون. والحكمةُ أن المكلَّف إذا عَلِمَ كُتُبَ أعماله وأنها تُعرض عليه على رؤوس الأشهاد، وكان أزجرَ عن المعاصي، وأنه إذا وَثِقَ بلطف سيِّده، واعتمد على ستره لم يحتشِم منه احتشامَه مِنْ خدمِه المتطلِّعين عليه.[٢٣٦٨]

وقيل: حفظة الأنفاس والعادُّون إياها إلى انقضائها، ثم يقبضون مناسبه ما بعده ﴿وَعَلَيْكُمْ﴾ متعلِّق بـ﴿يُرْسِلُ﴾ كما في قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ﴾ [الرحمن ٣٥/٥٥]، وهم لتمكُّنهم منَّا جعلوا مستولين علينا، أو بـ﴿حَفَظَةً﴾؛ أي: حافظين عليكم.[٢٣٦٩]

وعن ابن عباس: مع كل أحدٍ ملكين عن يمينٍ وشمالٍ، فإذا أحسن كتبها مَنْ على اليمين، وإذا أساء قال مَن على اليمين لمن على اليسار: انتظر لعله يتوب، فإن لم يتُبْ كتب عليه. وقيل: إذا أحسن كتب مَنْ على اليمين عشرًا، وإذا أساء قال لصاحب اليسار: دعه تسعَ ساعاتٍ لعلَّه يستغفر. وقيل: إذا قعد فملكٌ عن يمينه وملكٌ عن يساره، وإن مشى فعَنْ أمامه وعن خلفه، وإنْ نام فعند رأسه وعند رجليه. وقيل: مع كلِّ أحدٍ خمس عن يمينه يكتب الحسنات، وعن يساره يكتب السَّيئات، وأمامه يلقّنه الخير، ووورائه يدفع الآفات، وعلى ناصيته يكتب الصلاة على النّبيّ ويبلّغه. وقيل: معه أربع اثنان باللَّيل واثنان بالنَّهار. وقيل معه سبعون. وقيل: معه مائة وستون يذبون عنه الشَّياطين. ولو وكّل إلى نفسه لَاختطفه الشياطين، وعامّة الحفظ محي الموت، أي: ملكه أو وقته وأسبابه.[٢٣٧٠]

﴿تَوَفَّتْهُ﴾، أي: قبضت روحَه. وفيه إشارة إلى أنَّ الإنسان ليس هذه البينة. وعُني به ملك الموت وأعوانه. وفيه إشارة إلى أنه يأمره، ولذلك أسنده إلى نفسه فقال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ﴾ [الزمر٣٢/٣٩].

﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ حالية أو استئنافية. وقرئ بالتخفيف،[٢٣٧١] والتَّفريط: التَّواني والتّأخير عن الحدِّ، والإفراط: مجاوزة الحدِّ، أي: لا ينقصون مما أُمروا به، ولا يزيدون فيه.[٢٣٧٢]

قيل: جُعلت الأرض مثلَ الطَّسْتِ لملك الموت يتناول منه من تناول، وما من أهل بيتٍ إلا ويطوف عليهم في كلِّ يوم مرَّتين.[٢٣٧٣] وروي أنها كالمائدة الصّغيرة عنده ينقص من هنا وهنا، وإذا كثرت عليه الأرواح يدعوها فتجيب.[٢٣٧٤]

[٢٣٦٦] **مفاتيح الغيب،** ١٣/١٤-١٥؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده،** ٤/ ٥٩.

[٢٣٦٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده،** ٤/ ٦٠.

[٢٣٦٨] ج – عليه. **أنوار التنزيل،** ١/٤٩٥-٤٩٦.

[٢٣٦٩] **تفسير ابن كمال باشا،** ٣/ ٣٣٤.

[٢٣٧٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده،** ٤/ ٦٠.

[٢٣٧١] أي: «لا يُفْرِطُونَ»، وهي قراءة شاذّة، مزويّة عن الأعرج. **المحتسب** لابن جنّي، ١/٢٢٣.

[٢٣٧٢] **تفسير ابن كمال باشا،** ٣/ ٣٣٤.

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ فيه التفاتٌ من الخطاب إلى الغيبة، ومن التّكلم إليها؛ لأن الردَّ يناسبه اعتبار الغيبة وإن لم تكن حقيقة؛ فإنّهم ما غابوا عن قبضته لحظة، فالرّد من البرزخ إلى موضع العرض. ﴿مَوْلَيهُمْ﴾ الذي يتولّى أمرهم، والمراد منه في قوله: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد ٤٧/١١]يعني: المعين والنّاصر، فلا منافاة.[٢٣٧٥]

﴿الْحَقُّ﴾: العدل الذي لا يحكم إلا بالحقِ، ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ يومئذ لا حكمَ لغير ما فيه. ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ يحاسب الخلائق في مقدار حلب شاة لا يشغله حساب عن حساب.[٢٣٧٦]

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(٦٣)﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٦٤)

أي: من شدائدهما، استعير الظلمة للشِّدَّة لمشاركتهما في الهول وإبطال الأبصار، فقيل لليوم الشديد: يومٌ مظلِم، ويومٌ ذو كواكبَ.[٢٣٧٧] ومنه قوله:

فِدًى لِبَنِي ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَ نَاقَتِي إِذَا كَانَ يَوْمٌ ذَا كَوَاكِبَ أَشْنَعَا[٢٣٧٨]

أو من الخَسْف [**١١٩**/ظ] في البرِ، والغَرَق في البحر. فالظُّلمة على حقيقته.

وجعلهما ابن الكمال من جملة الشدائد المذكورة فتكون استعارةً وفاقية كقوله: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام ٦/١٢٢].

وقيل: ظلمة البرّ اللّيل والسَّحاب والغبار. وقيل: هجوم الأعداء وعدم الاهتداء إلى الطَّريق.

﴿تَدْعُونَهُ﴾ حالٌ من مفعول ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾، أي: ينجّيكم داعين إيّاه ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ مصدران في موضع الحال من فاعل ﴿تَدْعُونَهُ﴾ أو مفعولان مطلقان من غير لفظ الفعل مثل: «قعدت جلوسًا».[٢٣٧٩]

و«التّضرع»: الدُّعاء بالإعلان والجهر؛ لأنه في مقابلة الخفية، وأصله: طلب الولد الضّرع من الأم؛ ولذلك قيل: هو شدَّة الفقر والحاجة إلى الشّيء.

وقيل: التذلُّل والمبالغة في السؤال والرغبة فيه. يقال: «ضَرِعَ يَضْرَعُ» بالكسر والفتح، و«تضرَّع» إذا خضع وذلَّ.[٢٣٨٠]

وقرأ أبو بكر بكسر الخاء[٢٣٨١] وهما لغتان كـ«الأسوة والإسوة». وقرئ «خِيفَةً» من الخوف.

[٢٣٧٣]**الكشاف**، ٢/٣١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٦٠.
[٢٣٧٤]**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٦٠.
[٢٣٧٥]**تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٣٥.
[٢٣٧٦]**أنوار التنزيل**، ١/٤٩٦.
[٢٣٧٧]**أنوار التنزيل**، ١/٤٩٦؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٣٦.
[٢٣٧٨]**فتوح الغيب**، ٦/ ١٢٢.
[٢٣٧٩]**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٦٢.
[٢٣٨٠]**النهاية في غريب الحديث والأثر**، ٣/ ٨٥.
[٢٣٨١]أي: «خِفْيَةً» **كتاب السبع**، ص ٥٩؛ **التيسير**، ص ٣٤١.

﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا﴾[٢٣٨٢] مقدّر بالقول الذي هو في محلّ النَّصب على أنّه حال من فاعل ﴿تَدْعُونَهُ﴾، أي: تدعونه قائلين هذه الجملة القسمية.

وقرأ الكوفيون: ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا﴾[٢٣٨٣] ليوافق قوله: ﴿تَدْعُونَهُ﴾، وفي هذه إشارةٌ إلى الظُّلمة. والشّكر: الاعتراف بالنِّعمة مع القيام بحقِّها، وحقُّ نعمة الله أنه مطاع ولا يعصى فضلًا عن أن يشرك به ما لا يقدر على شيء أصلًا. والمقصود من صورة الاستفهام في ﴿مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾ التبكيت والإلزام، ومن قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ﴾ حملهم على الإقرار بأن المنجي من جميع الشَّدائد هو الله تعالى حيث نبَّه به على أنه المتعين في الجواب بالاتفاق.[٢٣٨٤]

﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾، أي: ومن كلِّ كربٍ يقعون فيه هذا هو اللَّائح.

وقال ابن الكمال: عبارة ﴿كُلِّ﴾ للمبالغة في التَّكثير المناسِبة للمقام، فإنَّ كلَّ نفسٍ في مَعرض الآفات التي لا تعدُّ ولا تحصى، والله ينجيها منها، وهي نعمة الدَّفع، قلَّما يتنبَّه الإنسان لها، والأولى نعمة الدَّفع، وهي ونعمة النَّفع ظاهرتان، وتعذّر الخروج عن عهدة الشُّكر لعدم إمكان التَّذكير، لإفراد النَّوع الأول بتفاصيلها؛ لا لأنَّ الشُّكر على النعمة نعمةٌ أخرى. ثم إنَّ الكلام المذكور على طريقة ذِكر أحد الفعلين، وعطف متعلَّق المحذوف على المذكور على حسب ما يقتضيه لفظة، حتى كأنه شريكه في أصل الفعل؛ إجراءً لأحد المتقاربين مجرى الآخر.[٢٣٨٥]

وأنت خبير: بأنَّ عدم الإمكان كما أنه من عدم التذكُّر، كذلك من كون الشّكر نعمة فسلب أحدهما وإثبات الآخر يحكم، وبالجملة عدم الإمكان من وجوهٍ شَتَّى لا تعدُّ ولا تحصى أيضًا، وإن جعل الكلام من الطريقة المذكورةلا يخ عن تكلّف، والظّاهر ما ذكرنا.

و﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإشراك مع الإقرار المذكور، والاعتراف المزبور والمناسب لقولهم: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام ٦٣/٦] أن يقال: ثم أنتم لا تشكرون، أي: لا تعبدون المنعم، لكن وَضع ﴿تُشْرِكُونَ﴾ موضعه؛ تنبيهًا على أن الإشراك بمنزلة ترك الشُّكر رأسًا.[٢٣٨٦]

وقال ابن الكمال: مبالغة؛ لأن مَنْ يُشْرِكْ بالله فهو في غاية البعد عن الشّكر.[٢٣٨٧]

وقرأ الكوفيون ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾[٢٣٨٨] بالتشديد، ومعناهما واحد. وقيل: التشديد للتكثير. و«الكرب»: الغمُّ الذي يأخذ النَفْسَ؛ يقال منه: رجل مكروب. و«الكربة» مشتقَّة من ذلك.[٢٣٨٩]

وقال بعضهم يقول الله: أنا كاشفُ الكروب، ومَنْ قصدني عند كرباته وحاجاته كشفت عنه كروبه، ومن قصد غيري أسقطت عنه وجاهته».[٢٣٩٠]

[٢٣٨٢] **كتاب السبع**، ص ٥٩؛ **التيسير**، ص ٣٤١.
[٢٣٨٣] **كتاب السبع**، ص ٥٩؛ **التيسير**، ص ٣٤١.
[٢٣٨٤] **أنوار التنزيل**، ٤٩٦/١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٦٢-٦٣.
[٢٣٨٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣٣٦/٣ -٣٣٧.
[٢٣٨٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٦٣.
[٢٣٨٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣٣٧/٣.
[٢٣٨٨] **التيسير**، ص ٣٤٢.
[٢٣٨٩] **الجامع لأحكام القرآن**، ٤١٣/٨.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧)﴾

قال المصنف: «هو الذي عَرَفتُموه قادرًا، وهو الكامل القدرة».[٢٣٩١]

قد سبق معنى هذا النَّوع من التعريف باللّام في: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ وأنه غير تعريف العهد والجنس، لكن لقرب معناه من معنى الكامل في مأخذ الاشتقاق، عطفه عليه بالواو دون أو. ولخفاء هذا المعنى على النَّاظرين ذهبوا إلى أنه إشارةٌ إلى تعريفي العهد والجنس، والواو بمعنى: أو، أو المراد أنه ذا وذا على الاحتمال، أو المراد بالمعهود هو المعروف بكمال القدرة، فالثاني بمنزلة التفسير له. قالوا: وإنما لم يحمله على ما هو الظَّاهر من إفادة حصر مطلق القادريّة عليه لكونه خلافَ مذهبه. واعترض بأنه خلاف مذهب أهل السنة أيضًا؛ لأن لغيره قدرة الكسب وإن لم تكن قدرة الإيجاد، وأنت خبير بأن القدرة على الأمور المذكورة ليس لغير الله على المذهبين، فالحصر مستقيم من غير لزوم أن لا يكون غاير الله قادرًا أصلًا، والأقرب ما قيل: إنه لا يصحّ أن يقصر على الله مطلق القدرة على الأمور المذكورة؛ لاشتمالها على شرور، وقبائح كثيرة، فلو لم يقدر عليها غير الله لَكانت واقعةً بقدرة الله وهو خلاف مذهبه.[٢٣٩٢]

وهذا دليل آخر على التَّوحيد مشوب بالتخويف.

وقيل: لما استبعد إشراكهم مع الإقرار بأنّ المنجي [**١٢٠**/و] من الشَّدائد هو الله علَّمهم بأنَّه القادر على تعذيبهم، وبعث العذاب من فوقٍ، كأمطار الحجارة على قوم لوطٍ والصاعقة والصيحة، ومن تحت الأرجل، كإغراق فرعون وقومه والرّجفة وخسف قارون، وقيد أرجلكم لقطع المجار كما في: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ولك أن تقول: أريد بالأول تسلّط الظالمين، وبالثاني تسلُّط السفلة، ولَمَّا كان بين هذه الثلاثة منع الجمع بحسب العادة أتى بأداة التفريق، يقال: لبست عليه الأمر، أي: خَلَطْت، وهو من باب «ضَرَبَ» ومصدره اللَّبس، وقولك: لَبِسْتُ الثوبَ من باب «عَلِمَ»، ومصدره اللُّبس بالضم.

و﴿شِيَعًا﴾ على الحال من مفعول ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾ جمع شِيَعَةٍ، كـ«سِدْرَةٍ وسِدَرٍ»، أي: يخلطكم أضرابًا متفرّقةً باعتبار الأهواء المختلفة، واتِّباع كلِّ ضربٍ هوى فينشب القتال بينكم فتختلطون في الملاحم ومنه قوله:

وَكَتِيبَةٍ لَبَّسْتُهَا بِكَتِيبَةٍ حَتَّى التَبَسَتْ نَفَضَتْ لَهَا يَدِي.[٢٣٩٣]

قال الجوهري: «يقال: نَشِبَ الشيء في الشيء نُشوبًا، أي: عَلِقَ فيه. وأنْشَبْتُهُ أنا فيه، أي: أعلقتُهُ، ومنه: نَشِبَتِ الحربُ بينهم».[٢٣٩٤]

ألحق «الباء» بالكتيبة؛ لأنه جعله اسمًا للجيش، وهو من: تكتَّبتِ الخيلُ، أي: تجمَّعت. يقول: رُبَّ جيش خلطْتها بجيش، فلمَّا اختلطت نفضتُ يدي، وتركتُهم وشأنَهم.

[٢٣٩٠] **عرائس البيان**، ١/ ٣٧٢.

[٢٣٩١] **الكشاف** للزمخشري، ٣١/٢.

[٢٣٩٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٣و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٤١٢/٣

[٢٣٩٣] البيت للفرّار السلمي في **الحماسة البصريّة** لأبي الحسن البصري، ٢٨/١؛ **غرر الخصائص** للوطواط، ص ٤٥٤؛ **الكشاف**، ٣٠/٢؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٦٣.

[٢٣٩٤] **الصحاح** للجوهري، «نشب».

وفي البيت كنايات، إحداهما: أنه مهياجٌ للحرب، وثانيها: قوله: «نفضتُ لها يدي» فإنه يدلُّ على أنه خلَّاهم والفتنة، وحاصله: أنه فتَّان جبَان.[٢٣٩٥]

قال ع م: «وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فرقَةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً ، قيل: وَمَنْ هم اللهِ ؟ قَالَ : مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي».[٢٣٩٦]

قيل: نزلت في المسلمين، وقيل: في المشركين.

ويؤيّد الأول قوله: «سألتُ اللَّهَ أن لا يبعثَ على أمَّتي عذابًا من فوقِهم أو من تحتِ أرجلهم، فأعطاني ذلك، وسألتُه أن لا يجعل بأسَهم بينهم فمَنَعَني، فأخبرني جبريلُ أنَّ فناءَ أمَّتي بالسَّيف».[٢٣٩٧] وعليه حمل إذاقةِ بعضهم بأس بعض.

وفيه دليل على أنه خالق الخير والشَّرِّ، لا يقال: إنها تدلُّ على أنه قادرٌ عليه لا أنه فعل؛ لأنَّا نقول: وجه الدَّلالة إفادة الحصر ذلك، ولا يقال: إنها تمنع عن الاستدلالِ والنَّظر؛ للإفضاء إلى التَّنازع والتخرب لاحتمال أن يكون عن التنازع، لا على وجهٍ يظهر منه الحقُّ؛ لقوله ع م: «اِخْتِلَافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ».[٢٣٩٨]

وقال عارف: العذاب الفوقاني النَّظر إلى الحرام، واللّهو، والفحش، والتّحتاني المشي إلى الملاهي، وأبواب السلاطين.[٢٣٩٩]

انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٦٧).

أي: انظر كيف نحوّلها من نوع إلى آخر من أنواع الكلام تقريرًا للمعنى، وتقريبًا إلى الفهم. وقيل: بالوعد والوعيد، ولا يناسبه قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾. والضمير في ﴿بِهِ﴾ للعَذاب، وهو ظاهر لتقدم ذكره صريحًا في قوله: ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أو للقرآن؛ فإنه كالمذكور من حيث إن تعريف الآيات للعهد، كأنه قيل: انظر كيف نصرِّف آيات القرآن؟ ونوردها على وجوهٍ مختلفةٍ؛ لكي يفهم المشركون بطلان قولهم وتناقض مذهبهم، لكنهم لم يتّعظوا بها ولم يهتدوا بدلائلها، بل كذَّبوا به،[٢٤٠٠] أو لتصريف الآيات، فعلى الأول: الحق لزوم نزوله بهم، وعلى الثاني: كونه كتابًا منزلًا من عند الله، وعلى الثالث: كون هذه الأشياء دلالات على الصانع وصفاته.

فقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ حالٌ من الضمير في ﴿بِهِ﴾، أو استئناف أخبر به ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظٍ وُكِّل إليَّ أمركم أمنعكم من التكذيب إخبارًا، أو وُكِّل إليَّ أمر جزائكم أجزيكم على ما صنعتم، إنما أنا نذير والله هو الوكيل، فعلى هذا المعنى لا حاجة إلى القول بالنسخ بآية السيف، كما قيل: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ﴾ من أنباء العذاب وإلا يعاد به، وهذا التخصيص باعتبار

[٢٣٩٥] **فتوح الغيب**، ٦/ ١٢٣-١٢٤.

[٢٣٩٦] **تخريج الكشاف** للزيلعي ٤٤٩/١.

[٢٣٩٧] **تخريج الكشاف**، ٤٤٠/١.

[٢٣٩٨] **كشف الخفاء**، ٦٩/١.

[٢٣٩٩] **عرائس البيان**، ١/ ٣٧٢.

[٢٤٠٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٦٣.

المقام، وإلا وكّل ما أخبره الله من الوعد والوعيد له مستقرّ يقع فيه من غير خلف ولا تأخير، ولا بد أن يعلم المكلّف جميع ذلك عند ظهوره ونزوله.

ولفظ «المستقرّ» يحتمل أن يكون اسمَ زمانٍ ومكانٍ ومصدرًا؛ لأنَّ جميعَ ذلك من المزيد فيه يكون على لفظ اسم المفعول، فالمصدر على زنة المفعول، نحو: المدخل والمخرج بمعنى: الإدخال والإخراج، ولا مانع من حمله على كل واحدٍ منها في الآية لصحَّة أن يقال: لكلِّ ما أخبر الله به استقرار لا محالة، أو لكلِّ ذلك وقت استقرار أو مكان استقرارٍ، إلا أن المصنِّفيْن حمله على الزّمان؛ لكونه أنسبَ بالمقام وأقربَ من المرام.[٢٤٠١]

﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند وقوعه في الدّنيا بغلبة المسلمين على الكفَّار وقطع شوكة أهل الإصرار، أو في الآخرة عند نزول الهلاك والبوار ودخول النار.

وقال بعض العارفين: لكلِّ خبرٍ على صورة مدركة مرادٌ من الله سبحانه الذي يوافق خبر الغيب، ولا يفهمه إلا رباني الصفة. [**١٢٠**/ظ]

وأيضًا: لكلّ خطابٍ من الله من قلوب العارفين مستقرٌّ لا تنزل إلا في مستقرِّه، هناك لا يضطرب الخبر؛ لأن هناك مسقط تجلِّي الأزل، وخبر الأزل في موضع تجلِّي الأزل مستقرّ؛ لأنه أهله.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَهْلُ الْقُرْآنِ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ».[٢٤٠٢]

وأيضًا: لكلّ نبأ بيانٌ يدلُّ ذلك على مقام من مقامات الصّدّيقين، مثل ما ذُكر في القرآن أوصافهم، ونعوتهم من المحبة، والخوف، والرجاء، والصدق، والمعرفة، والتوحيد، والإيمان، والإيقان، والمشاهدة، والمكاشفة، والحضور، وإلقاء السمع، وأمثال ما ذكرنا يوجب الخبر، وصف فوائد تلك المقامات لأهلها، ولا يستلذه إلا لحاضر شاهد مقيمٍ يسير على باب الأزل تعالى الله عما يصفه الجاهلون، والحمد لله الذي خصَّ أولياءه بهذه المقامات.

وأيضًا: لكل نبأ من أوقات العارفين وقتٌ، ينزل على قلوبهم على قدر الوقت ليدلَّ على معالي درجات الغيب.

وقال الحسين: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ لكل دعوى كشفٌ.[٢٤٠٣]

وقال القرطبي: نقل الثعلبي عن بعض المفسرين أنَّ هذه الآية دواءٌ لوجع الضرس تكتب على رِقٍّ ويُوضع على السنِّ المتوجع يسكن بإذن الله وإرادته.[٢٤٠٤]

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨)﴾

«الخوض» لغةً: الشّروع في الشّيء مطلقًا، ثمّ غلب في الشروع في الباطل، وقيل: المفاوضة على وجه اللّعب والعبث فربّما سئل الرجل عن قومٍ فيجيب قائلًا: تركتهم يخوضون يريد أنَّه تركهم وهم شرعوا في كلمات لا ينبغي ذكرها.[٢٤٠٥]

[٢٤٠١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٦٣.

[٢٤٠٢] **مسند أحمد**، ٣٠٥/١٩ (١٢٢٩٢)؛ **سنن ابن ماجه** ١٤٦/١ (٢١٦)؛ **مسند أبي داود** الطيالسي، ٥٨٩/٣ (٢٢٣٨).

[٢٤٠٣] **عرائس البيان**، ١/ ٣٧٢.

[٢٤٠٤] **الجامع الأحكام القرآن**، ٤١٧/٨.

[٢٤٠٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٦٥/٤.

وقيل: الدخول في الشَّيء على التلوث، وأصله: المشي في الماء.

وقال ابن الكمال: «وأصله في الماء، ثمّ استعمل بطريق الاستعارت في غمرات الأشياء التي هي مجاهل، تشبيهًا لها بغمرات الماء».[٢٤٠٦] وبالجملة المراد الخوض فيها بالاستهزاء بها والطَّعن فيها، والتكذيب بها كما كانت قريش في أنديتهم يفعلون ذلك فلا تمسّك فيه للحشوية في النهي عن الاستدلال والمناظرة في ذات الله وصفاته بناءً على أنه خوض فيها؛ فإن ذلك خوض بالحقِ ولا منع منه.[٢٤٠٧]

قيل فيه تقدير حال؛ أي: إذا رأيتهم خائضين فيها؛ لأن المأمورَ به الإعراض عنهم في تلك الحال لا مطلقًا بقرينة الغاية، والظَّاهر عدم الحاجة إليه؛ لأنه يفهم من تعليق الحكم بوصف الحوض لهم، ﴿وَإِذَا﴾ منصوبة بجوابها وهو: ﴿فَأَعْرِضْ﴾، أي: اِعْرِضْ عنهم في ذلك الوقت، أي: فلا تجالسهم وقُمْ عنهم.

وقال ابن الكمال: أمرهم بعدم التَّوجُّه بترك التّوجه إليهم، وعدم الإقبال عليهم، ويلزمه النَّهي عن المجالسة على المبالغة. ﴿حَتَّى يَخُوضُوا﴾ إلى أن يخوضوا ﴿فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ تذكير الضمير لاعتبار معنى الآيات وهو القرآن.

وقال ابن الكمال: وليس من هذا القبيل، بل من قبيل عوده على ما عُلم من سياق الكلام.[٢٤٠٨]

وأنت خبير: بأن هذا ليس بأولى مما ذكر، فنفى أحدهما وإثبات الآخر فيه ما لا يخفى.

﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾: وإن شَغَلَك بوسوسته، حتى تَنْسَى النَّهي عن مجالستهم ﴿فَلَا تَقْعُدْ﴾ معهم ﴿بَعْدَ﴾ أن تَذْكُرَ النَّهي. ويحتمل: وإن كان الشيطانُ يُنْسِيكَ قبل النَّهي قُبْح مجالسة المستهزئين؛ لأنها ممَّا تنكره العقول، ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ﴾ أن ذَكَّرْنَاك قُبحها ونبَّهْنَاك عليه معهم.[٢٤٠٩]

> فعلى الأول: الإنشاء استقبالي بعد وُرُود النّهي المشار إليه بقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ والمنسيُّ هو النهي، والذِّكْري هو ذكر النّبي لذلك النّهي، وعلى الثاني: ماضٍ قبل ورود النّهي والمنْسي فتح المجالسة المعلوم بدليل العَقل على ما هو رأي المعتزلة، في الحسن والقبح العقليين، والذّكري تذكير الله ذلك القبيح بدليل السمع والتّنبيه عليه بقوله: ﴿فَأَعْرِضْ﴾. وقدر بعد كلمة الشرط لفظ ﴿كَانَ﴾ ليفيد معنى المضي؛ لأن «كان» لقوّة دلالته على المضي لا تعلقه كلمة ﴿إِنْ﴾ إلى الاستقبال قال الله: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾ [يوسف ١٢/٢٦] ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ﴾ [المائدة ٥/١١٦]نصَّ عليه الفحول.فإن قيل: فعلى هذا «أنسيتك» خبر «كان» المحذوف، ولا شرط دَخلتْه «إن» الشرطية المؤكّدة بما فلا يصلح دخول نون التَّأكيد عليه.قلنا: صحَّ ذلك لكونه في الظَّاهر شرطًا أكَّد حرفه بما.[٢٤١٠]

وقرئ: ﴿يُنَسِّيَنَّكَ﴾[٢٤١١] بتشديد السّين، فإن «نَسِيَ» يتعدَّى بكلّ واحدة من الهمزة والتَّضعيف. والمفعول الثاني محذوفٌ على القراءتين؛ أي: وإمَّا ينسينك الشيطان ما أمرت به أو عرفت قبحه. وأما أصله: إنْ مَا فأدغمت، و«إن» حرف

[٢٤٠٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٤٠.

[٢٤٠٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٦٥.

[٢٤٠٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٤٠.

[٢٤٠٩] **الكشاف**، ٢/٣٣.

[٢٤١٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٣و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣/٤١٤.

[٢٤١١] قرأ بها ابن عامر. **النشر** لابن الجزري، ٢/١٩٥؛ **التيسير**، ص ٣٤٢.

شرط و«ما» صلةٌ، والنُّون للتّأكيد ذكرت الأولى بـ«إذا»؛ لأن خوضهم محقّق بخلاف إنساء الشيطان، فإن محض احتمال ذكر لبيان أن التّكليف ساقطٌ عن الناسي. و«الذكرى» مصدرٌ بمعنى الذّكر ولم يجيء مصدر على «فعلى» غيره.[٢٤١٢]

والإظهار [**١٢١**/و] موضع الإضمار للدلالة على ظلمهم، حيث وضعوا التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والاستعظام، وعلى وجه عدم القعود معهم، وفيه دلالة على اجتناب مصاحبة المبتدعين والمخالفين للشريعة. واستدلّ به الفقهاء على عدم حضور وليمة فيها لهوٌ أو غناءٌ، لكن يرد عليه أن الأصل ورد في النّهي عن مجالسة الخائضين وهو كفر، واللَّهو وغيره ليس بمنزلته، ففيه قياس الضعيف بالقويّ.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩)﴾

أي: لا يلحق المؤمنين الذين يتّقون الشرك والكبائر والفواحش شيءٌ من جزاء أعمال المستهزئين الذين يجالسونهم، ولكن عليهم أن يُذكِّروهم ذكرى، ويمنعوهم عن الخوض وغيره من القبائح، ويُظهروا كراهتها، ومن الذكرى أن يقوموا عنهم إذا لم يؤثر فيهم الوعظ، ولم يتركوا الخوض وصرَّح به المصنف، لكن ما روي في سبب النزول من أن المسلمين قالوا: لئن كنَّا نقوم كلَّما استهزؤا بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد ونطوف،[٢٤١٣] ربما يشعر أن يجوز الجلوس مع المنع والكراهة؛ ولذلك قيل: الأولى تضييق وهذه توسيع، أو الأولى للنبي وهذه لغيره واللائح ما ذكره المصنف.

و﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ زائدة وهو في محلّ الرفع على أنه فاعل ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لاعتماده على النفي و﴿مِنْ حِسَابِهِمْ﴾ حالٌ ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾؛ لأنه لو تأخَّر عنه لكان صفةً له، وصفة النّكرة متى قدّمت عليها انتصبت حالًا، والمعنى: ما استقرّ على الذين يتّقون الشّرك شيء كائنًا مما يحاسبون عليه.

و﴿ذِكْرَى﴾ نصبٌ على أنه مفعولٌ مطلق لفعلٍ مُضْمَرٍ، أي: أن يُذكِّروهم ذكرى، وهو مع عامله المضمر في محلّ الرفع على أنه مبتدأ حذف خبره، أي: عليهم أن يُذكِّروهم، أو على أنه مبتدأ حذف خبره بتقدير: أن يُذكِّروهم واجبًا عليهم، وعلى الوجهين لكن عطف به الجملة على الجملة السابقة.

فإن قلت: الجمع بين الواو، ولكن جمع بين حرفي عطف وهو ممتنع.

أجيب: بأن ﴿لَكِنْ﴾ يخرج عن العطف، ويخلّص للاستدراك عند مجيء الواو، كما أن اللّام مع «سوف» تخرج عن كونها للحال، وتخلّص للتأكيد.[٢٤١٤]

ولا يجوز أن يكون عطفًا على محلّ ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾، كقولك: ما في الدَّارِ مِنْ أحدٍ ولكن زيدٌ؛ لأن قوله: ﴿مِنْ حِسَابِهِمْ﴾ يأبى ذلك،[٢٤١٥] لِمَا مرَّ أنّه حالٌ ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ قدّم عليه، فصار قيدًا للعامل، فإذا عطف ﴿ذِكْرَى﴾ على ﴿شَيْءٍ﴾ عطفَ المفْرِدِ كانت جهةُ القيد معتبرةً فيه، وَيَؤول المعنى إلى: أنَّ عليهم من حسابهم ذكرى، وذكرى ليس من حسابهم.

فإن قيل: لا يلزَم من وصف المعطوف عليه بشيء وصف المعطوف به؟

[٢٤١٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٦٥.

[٢٤١٣] **الكشاف**، ٢/٣٣.

[٢٤١٤] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٦٦.

[٢٤١٥] **الكشاف**، ٢/٣٣.

قلنا: نحن لا ندَّعي ذلك، بل إنه إذا عُطف مفردٌ على مفرد لا سيَّما بحرف الاستدراك، فالقيود المعتبرة في المعطوف عليه السَّابقة في الذّكرِ عليه معتبرةٌ في المعطوف ألبتَّة، بحكم الاستعمال تقول: جاءني يوم الجمعة، أو: في الدَّار، أو: راكبًا، أو: من هذا القوم رجلٌ، ولكن امرأة»، يلزم أن يكون مجيء المرأة في يوم الجمعة، وفي الدَّار، وبصفة الرّكوب، وتكون هي[٢٤١٦] من ذلك القوم ألبتَّة، لا يجوز الاستعمال بخلافه، ولا يُفهم سواه، بخلاف مثل: ما جاءني رجلٌ من العرب، ولكن امرأة؛ فإنه لا يبعدُ كونُ المرأة من غير العرب.[٢٤١٧]

«ولا على شيء»[٢٤١٨] أيضًا لما ذكر من العلة؛ ولأنّ من لا تزاد في الإثبات، فإنَ ﴿لكِنْ﴾ حرفُ إيجاب فلو عطف ما بعدها على المجرور بـ«من» لفظًا لَزم زيادة «من» في الموجب. والبصريون لا يجوّزونه.[٢٤١٩]

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: لعلَّ الخائضين يجتنبون عن الخوض وغيره بتذكير المؤمنين لهم حياءٌ، أو كراهة لمسأتهم، وهي مصدر «سَاءَهُ يَسُوءُهُ سُوءٌ ومَسَاءَةٌ» بالفتح. فإضافتها إلى المفعول وهو: ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، ويجوز أن يكون إلى الفاعل، أي: كراهة لمساءتهم إيَّاهم، ويحتمل أن يكون الضَّمير للذين يتقون والمعنى: لعلهم يثبتون على تقواهم ولا تنثلم بمجالستهم شرط التذكير والانكار.[٢٤٢٠]

وقال سهل: «أخذ الله تع على أوليائه التذكير لعباده، كما أخذ التَّبليغ على أنبيائه، فعلى أوليائه أن يذكروا به، وإن دلوا عليه، إذا كان الله عزّ وجلَّ قد جعل ذلك عليهم، ومتى قعدوا عن ذلك كانوا مقصرين».[٢٤٢١]

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾

لما ورد أن يقال: ليس للمشركين دين من الأديان المشروعة من نبيٍ من الأنبياء. وقد أضيف إليهم دينٌ وأخبر بأنهم اتخذوه لعبًا ولهوًا، ذكر المصنف ثلاثة معانٍ: الأول: أنهم اتخذوا الدين المفترض عليهم شيئًا من جنس اللَّعب واللّهو، كعبادة الأصنام، وتحريم البحائر والسَّوائب، والدين المفترض الواجب عليهم وإن كان في الواقع دين الاسلام، لكن على هذا الوجه ليس المراد به هذا المفهوم، بل مجرَّد ما يصدق عليه مفهوم الدّين الواجب. الثاني: أنهم اتخذوا ما يتديَّنون به، وينتحلونه بمنزلة الدّين لأهل الأديان شيئًا من اللّعب واللّهو،وحاصل هذا المعنى: أنهم اتّخذوا اللَّعب واللَّهو دينًا لهم على ما صرَّح به المصنف، لا من جعل[**١٢١**/ظ] المبتدأ نكرةً، والخبر معرفة على ما يُتوهَّم.[٢٤٢٢]

[٢٤١٦] ج- هي.

[٢٤١٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٣و؛**حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٤١٥/٣؛ **حاشية الشهاب**، ٤/ ٧٩؛ **نواهد الأبكار**، ١٠٤/٦-١٠٥.

[٢٤١٨] **أنوار التنزيل**، ٤٩٧/١.

[٢٤١٩] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٦٦/٤-٦٧.

[٢٤٢٠] **أنوار التنزيل**، ٤٩٧/١.

[٢٤٢١] **عرائس البيان**، ٣٧٤/١.

[٢٤٢٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٣و؛ حاشية الشهاب، ٨٠/٤.

ويقال: الأول: محمول على معنى قوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوٰيهُ﴾ [الفرقان ٤٣/٢٥]؛ لأن الأصل: من اتّخذ هواه كالإله نزّل أمر الهوى في متابعة ما يدعوهم إليه منزلةَ الإله الواجب العبادة، ثم قيل: من اتخذ إلٰهه هواه فقدَّم المشبَّه به على المشبه، عكسًا للتشبيه، رومًا للمبالغة، وإيذانًا بأنَّ الهوى في باب استحقاق العبادة أقوى من الإلٰه.

فكذا الآية شبَّهَ ما بَنَوا عليه نِحْلتَهم من عبادة الأصنام وغيرها، بالدّين الواجب على كلّ أحدٍ أن ينتَحلَ به، فينتفع به آجلًا وعاجلًا، ثم سمِّيت تلك النِّحلة باللّعب، لكونها مبنيَّةً على التشهّي وأنهم لا ينتفعون بها، بل يتضرَّرون، ثم قدّم المشبّه به على المشبّه للمبالغة المذكورة.

وعلى هذا يُنسجُ الوجه الثاني عند السكاكي؛ لأن القلب عنده محمول على أصل المعنى، لكن المختار أنه مشي على أصل التّشبيه، من تقدّم المشبّه[٢٤٢٣] على المشبه به، وإن كان قلبًا في اللفظ. والأول أبلغ.[٢٤٢٤]

الثالث: أنهم اتّخذوا دينهم الذي فُرض عليهم، وكُلّفوا به أعني: دين الإسلام لعبًا ولهوًا حيث سَخروا به، واستهزؤا. فحاصل الأوّل: اتّخذوا الدّين الواجب لعبًا، والثاني: جعلوا اللّعب دينًا واجبًا، والثّالث: استهزؤا بالدّين الحقّ الذي يجب أن يعظّم غاية التّعظيم، ومعنى الإضافة في الأوّل والثالث ظاهرٌ، وفي الثاني: أنه عادةٌ لهم، ثمّ نقل بعد الثالثة وجهًا آخر وهو أنَّ المراد بالدّين العبد الذي يعاد إليه كلُّ حين معهود بالوجه الذي شرعه الله كعبد المسلمين، أو بالوجه الذي اعتادوه من اللَّعب واللَّهو كأعياد الكفرة من المشركين وبغيرهم.[٢٤٢٥]

وسمِّي العيد دينًا مجازًا؛ لأنه مبنيٌّ على العادات والدّين العادة، فهم اتّخذوا عيدهم لعبًا بخلاف المسلمين، حيث جعلوه وقت العبادات والصبائر، وتلك الوجوه مبنيّةٌ على تعدّي «اتَّخذ» إلى اثنين، ويحتمل أن يتعدَّى إلى واحدٍ فيكون لعبًا مفعولًا لأجله أي: اكتسبوه لأجل اللَّعب، وهو الحظوظ العاجلة؛ فإن العاقلين يأخذون بالدّين لأجل أنه أقام البرهان على أنَّه الحقُّ، وأنّه لنيل مرضاة الله، والسفهاء يتوسَّلون به إلى الدُّنيا. فمن توسَّل به إليها فقد اتّخذه لأجل اللَّعب لما ثبت أنها لعب.[٢٤٢٦]

﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ورضوا بها واطمأنُّوا إليها وتوهَّموا أن ما أُعْطُوا منها كرامةٌ لهم، وأدَّاهم ذلك إلى أن أنكروا الحشر، وهذا عطف على «اتخذوا» وصفوا بالاتِّخاذ والعزَّة.

وقال ابن الكمال: «اعتراض لبيان أنَّهم إنَّما بنوا أمرَ دينهم على اللَّعب؛ لأنها غرَّتهم حتى أنكروا البعث».[٢٤٢٧]

والمعنى: لا تبالي بأفعالهم وأقوالهم أو تهديد لهم كقوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر ١١/٧٤] ومن جعله منسوخًا حمله على الأمر بترك التّعرض لهم، ووجه النَّظم أنه يقول: ولا تَقْعُدْ بعد الذكرى مع هؤلاء الظُّلمة، ودَعْ مصاحبة مَنْ بَنَى دينَه على اللَّعب، وغرّته الحياة، أو الواو استئنافية، والآية مستطردة.[٢٤٢٨]

﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠)

[٢٤٢٣] ج- المشبَّه.

[٢٤٢٤] **فتوح الغيب**، ٦/ ١٣٠-١٣١.

[٢٤٢٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٣ظ-٣٣٤و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٤١٦/٣-٤١٧؛**حاشية الشهاب**، ٨٠/٤.

[٢٤٢٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٦٦-٦٨.

[٢٤٢٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٤٣.

[٢٤٢٨] **فتوح الغيب**، ٦/ ١٣١.

أي:وَذَكِّرْبالقرآن مخافة أن تُسلم إلى الهلاك، وتُرتَهن السوء عملها. والأصل الإبسال: والبَسْلُ: المنع؛ لأن الْمُسلِم إليه يمنع المسلَم،[٢٤٢٩] يعني: إذا أسلموا أحدًا إلى الهلاك، فالهلاك هو المسلم إليه بمنع الشخص المسلَم الخروج منه، فكأنَّ الأعمال السيئة تمنعها من الخلاص، كما أنَّ المسلم إليه يمنع المسلَم أن يتخلَّص منه، نحوه: في المعنى قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر٣٨/٧٤][٢٤٣٠] قال:

وَابْسَالِي بَنِيَّ بِغَيْرِ جُرْمٍ بَعَوْنَاهُ وَلَا بِدَمٍ مُرَاقِ[٢٤٣١]

البيت لعوف بن الأحوص حين حمل دمًا عن غني لبَني قشير، فقالوا: لا نرضى بك، فرهنهم بنيه طلبًا للصلح، يتلهَّف ويتحسَّر عن تسليمه بنيه للهَلَكة من غير جُرمٍ جفره، ولا دمٍ أراقوه. «والبغو»: الخيانة،[٢٤٣٢] ومنه: «أسدٌ باسلٌ»؛ لأن فريسَتَه لا يفلت منه، و«الباسل الشُّجاع»، لامتناعه من قِرْنِه، و«هذا بَسْلٌ عليك»: حرامٌ.

وقال الراغب: «البَسلُ»: ضمّ الشيء ومنعه، ولتضمُّنِه بمعنى الضّم استُعير لتقطيب الوجه، فقيل: هو بَاسِلٌ ومُبتسلُ الوجه. ولتضمُّنه بمعنى المنع قيل للمحرَّم والمرتَهَنِ: بَسْلٌ. والفرق بين الحرام والبسْل: أنَّ الحرام عامٌّ للممنوع منه حكمًا أو قهرًا. والبسل هو الممنوع منه قهرًا.[٢٤٣٣]

وعن ابن عباس: تُرهَنُ في جهنَّم بما كسبت في الدنيا. وعن الحسن: تُسْلَمُ للهَلكة: أي تُمنع من مرادها وتُخذل.[٢٤٣٤]

وجملة «ليس لها» مستأنفة للأخبار بذلك، أو في محلِّ الرَّفع صفة لـ﴿نَفْسٍ﴾ أو في محل النَّصب حالٌ من الضمير في ﴿كَسَبَتْ﴾ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ حالٌ من ﴿وَلِيٌّ﴾؛ لأنَّها لو أخرت لَكانت صفةً له، فتتعلَّق بمحذوف هو حالٌ.[٢٤٣٥]

﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ وإنْ تَفْدِ كلَّ [**١٢٢**/و] فداء، والعَدل: الفدية؛ لأنها تعادل بالمفدى، وههنا ليس بمعناه، بل المعنى المصدري. و﴿كُلَّ﴾ نصب على المصدر، فإنه يكون في حكم ما أُضيف إليه.[٢٤٣٦]

وفاعل ﴿يُؤْخَذْ﴾ قوله: ﴿مِنْهَا﴾ لا ضمير «العدل» لما عرفت أنَّه ههنا مصدر واقع مفعولًا مطلقًا، وهو ليس بمأخوذ نعم، يمكن أن يُرادَ بضميره الفديةُ على ما هو طريقُ الاستخدام، فيصحُّ الإسناد إليه كما في قوله تع: ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة٤٨/٢] من حيث إنه ليس المراد به ههنا المصدر، بل الشَّيء المفدى به، فصحَّ إسناد الفعل إليه، لكنَّه تكلُّفٌ لا حاجةَ إليه مع صحَّة الإسناد إلى الجارِّ والمجرور، كما في قولك: «سير من البلد» وأخذ من المال». وقد يقال: الاستخدام سائغ في تركيب البلغاء ولم يعد تكلّفًا ومستغنى عنه مع صحَّة الكلام بدونه، وأيضًا يجوز أن يراد بـ«العدل» الفدية، فيكون مفعولًا به فيصحُّ الإسناد إلى ضميره.[٢٤٣٧]

[٢٤٢٩] **الكشاف**، ٣٤/٢.

[٢٤٣٠] **فتوح الغيب**، ١٣٣/٦.

[٢٤٣١] **الصحاح** للجوهري، «بسل»؛ **الكشاف**، ٣٣/٢؛ **الجامع الأحكام القرآن**، ٨/ ٤٢٤.

[٢٤٣٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٤و.

[٢٤٣٣] **المفردات في غريب القرآن**، «بسل»؛ **فتوح الغيب**، ٦/ ١٣١؛ **نواهد الأبكار**، ١٠٨/٦.

[٢٤٣٤] **مفاتيح الغيب**، ٣٠/١٣.

[٢٤٣٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٦٩.

[٢٤٣٦] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٩٨؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٦٩؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٦٩.

[٢٤٣٧] **الكشاف**، ٣٤/٢؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٤و.

وقال الإمام: يستعمل «يؤخذ» بمعنى: «يقبل» قال الله ﴿**وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ**﴾ [التوبة ٩/١٠٤] أي: يقبلها. ويصح الإسناد إلى العدل بمعنى المصدر.[٢٤٣٨] ورد بأن المأخوذ أو المردود المفدى به لا المصدر، وفي الرد منع لا يخفى.

ثم المقصود من الآية بيان أن وجوه الخلاص منسدةٌ على تلك النَّفس؛ إذ لا ولي يتولّى دفع فيها ذلك المحذور، ولا شفيع يشفع فيها، ولا فدية تقبل ليحصل الخلاص بسبب ذلك حتى لو جعلت الدنيا بأسرها فدية عن عذاب الله لم تنفع، وإذا كانت وجوه الخلاص في الدُّنيا هي هذه الثلاثة وثبت أنَّ شيئًا منها لا يفيد في الآخرة ظهر أنه ليس هناك إلا الإبْسَال، والارتهان، والاستسلام، ومن أيقن بهذا كيف لا ترتعد فرائصه إذا أقدم على المعصية؟[٢٤٣٩]

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: المستهزءون، أو هم وغيرهم ﴿أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ أُسلموا إلى العذاب بسبب خبائث أعمالهم وعقائدهم، ثم أكّد ذلك وفصَّله بقوله: ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، أي: هم بين ماءٍ مَغْلِيٍّ يتجَرْجَرُ في بطونهم، ونارٍ تشتعلُ بأبدانهم بسبب كفرهم. فعلى هذا عطف العذاب الظاهري على الخوفي، ويجوز أن يكون من باب عطف العامّ على الخاصّ، وخصَّ ههنا مما كسوا كفرهم لغاية قبحه وأن سائره متفرَّع عليه.

﴿**قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١)**﴾

أنعْبُد من دونه ما لا يقدر على نفعِنا وضَرِّنا، حمل المضارع المنفي بمعونة المقام على استمرار عدم النفع والضَّر استمرارًا تجدديًّا، فيفهم منه عدم القدرة، والاستفهام للإنكار والتَّعجب من ترك عبادة من هو القادر على كلِّ شيءٍ إلى عبادة ما لا قدرةَ له على شيء. ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ ونرجع إلى الشرك.

فإن قيل: الأمر للنَّبي وهو ما أشرك فلا رجوع إليه.

قلنا: الرجوع مجاز عن مجرَّد الانتقال إليه أو الكلام على التَّغليب.

يقال لكلِّ مَنْ أعرض عن الحقِّ إلى الباطل: إنه ردّ على عقبه، ورجع على خَلْفه، ورجع القَهْقَرى. ووجهه أنَّ العلم والهدى يعرضان الإنسان بعد ما كان خلوا عنهما، فإذا رجع عنهما إلى الضَّلال فقد ردَّ إلى أوَّل أمره، فمثل حاله بحال من رجع عقبه بعد مضيّه.

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ فأنقَذَنا منه ورزقَنا الإسلام ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾كالذي ذهبت به مَرَدَةُ الجنّ في المهامِه، استفعالٌ من هَوَى يَهْوِي إذا ذهب في الأرض، كأن معناه: طَلَبَتْ هُوِيَّه وحرصت عليه.[٢٤٤٠]

وزعم أبو علي أنه من الهُوِيّ، أي: ألقته في هُوَّة، ويكون استفعل بمعنى أفعل، نحو استزلَّ وأزلَّ، ويأباه ما بعده.[٢٤٤١]

ومحلُّ الكاف النصب على الحال من فاعل ﴿نُرَدُّ﴾ أي مُشبهين الذين استهوته.[٢٤٤٢] فالتشبيه تمثيلي شبّه حالَ مَنْ خلصَ من الشرك، ثمَّ نكص على عقبيه، بحال من ذهب به الغيلان في الْمَهْمَهِ، بعدما كان على الجادَّة المستقيمة، أو على المصدر، أي: ردًّا مثل ردَّ الذي استهوته، فيكون التَّشبيه من المركَّب العقليّ.[٢٤٤٣]

[٢٤٣٨] **مفاتيح الغيب**، ٣٠/١٣.

[٢٤٣٩] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٦٩.

[٢٤٤٠] **الكشاف**، ٢/٣٤؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٩٨.

[٢٤٤١] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٤٥.

والشياطين والجنّ عند الملبين أجسامٌ لطيفةٌ تتشكّل بأشكالٍ مختلفةٍ وتقدر على أن تتولج في بواطن الحيوانات، وتنفذ في المنافذ الضيقة نفوذ الهواء المستنشق، واختلفوا في اختلافهما بالنَّوع مع الاتِّفاق على أنهما من أصناف المكلَّفين، فذهب بعضهم إلى أنّ الجنَّ أجسامٌ لطيفةٌ هوائية يظهر منها أفعالٌ عجيبةٌ، منهم المؤمن والكافر والمطيع والعاصي، والشياطين أجسامٌ ناريَّةٌ شأنهما إلقاء النفس في الفساد والغواية. وذهب آخرون إلى أن الشياطين صنف من الجنِّ وهي الشريرة منهم. والتفسير المذكور مبني على هذا.[٢٤٤٤]

والمصنف لَمَّا أنكر الجنَّ واستيلاءها على بعض [١٢٢/ظ] النفوس بقدرة الله، جعل ذلك مبنيًّا على زعم العرب واعتقاده من أن الجنَّ تستهوي الإنسان وتستولي عليه، والحال أنه مما يقول به العرب والعجم وأكثر أهل المِلَل، ويدعي مشاهدته كثير من الثِّقات. وليس بمنكره دليلٌ يقول عليه ويمكن حمل قوله: على ما ذهب إليه بعضهم في قوله ع م: «لا غُولَ»[٢٤٤٥]ليس نفيًا لعين الغُول ووجوده، وإنما فيه إبطال زعم العرب في تلوُّنه بالصُّور المختلفة، فيكون المعنى: أنها لا تستطيع أن تضلَ أحدًا، ويشهد له الحديث الآخر: «لَا غُولُ وَلَكِنْ السَّعالي»،[٢٤٤٦]والسعالي: سَحَرَةُ الجِنِّ، أي: ولكن في الجنِّ سحرة، هم تَلْبِيسٌ وتخييل.[٢٤٤٧]

﴿فِي الْأَرْضِ﴾ متعلّق بـ﴿اسْتَهْوَتْهُ﴾ ﴿حَيْرَانَ﴾ حال من «هاء» ﴿اسْتَهْوَتْهُ﴾ صفة مشبَّهة مؤنَّثة «حَيْرَى» ولذلك مُنع من صرفه، والفعل منه «حَارَ يَحَارُ حِيرَةً». و«الحيران»: المتردّد في الأمر بحيث لا يهتدي إلى المخرج منه. ﴿لَهُ أَصْحَابٌ﴾ من جملة التشبيه يرجع الضمير إلى المستهوى؛ إذ حينئذ يكمل التشبيه بخلاف ما لو قيل: لذلك الضالّ الكافر أصحابٌ يدعونه إلى الهدى، وهي جملة في محل النَّصب على أنه حال ثانية من الهاء أو صفة لـ﴿حَيْرَانَ﴾ أو حال من الضَّمير في ﴿حَيْرَانَ﴾ و﴿يَدْعُونَهُ﴾ صفةُ ﴿أَصْحَابٌ﴾، و﴿إِلَى﴾ متعلّق به، و﴿الْهُدَى﴾ حقيقةٌ أو مجاز مرسل تسمية المهدى إليه بالهدى، و﴿ائْتِنَا﴾ مقدَّر بالقول وهو في محلِّ الرَّفع على أنه صفةٌ لـ﴿أَصْحَابٌ﴾، ويدلُّ عليه ﴿يَدْعُونَهُ﴾ فشبَّه المشرك بالمتّصف بهذه الأوصاف.[٢٤٤٨]

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١)﴾ ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢)﴾

أي: ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ الذي هو الإسلام ﴿هُوَ الْهُدَى﴾ وحده، وما عداه ضلالٌ. بيانٌ لانحصار الهدى والإسلام قال تع: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران ٨٥/٣]، وتقريرٌ لقوله: ﴿أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

[٢٤٤٢]**أنوار التنزيل**، ١/ ٤٩٨.

[٢٤٤٣]**فتوح الغيب**، ٦/ ١٣٦-١٣٧.

[٢٤٤٤]**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٧١.

[٢٤٤٥]الغُولُ مفرد الغِيلان، تزعم العربُ أنه نوعٌ من الشياطين يَظهر للناس في الفلاة، فَيَتَلَوَّن لهم في صور شتَّى ويَغُولهم، أي يُضلِّلهم ويُهلكُهُم. **صحيح مسلم**، ١٧٤٤/٤ (٢٢٢٢)؛ **سنن أبي داود**، ٥٨/٦ (٣٩١٣).

[٢٤٤٦]**صحيح مسلم**،١٧٤٤/٤ (٢٢٢٢)؛ **سنن أبي داود**، ٥٨/٦ (٣٩١٣)؛ **النهاية في غريب الحديث**، ١٣٦/٦.

[٢٤٤٧]**فتوح الغيب**، ٦/ ١٣٦.

[٢٤٤٨]**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٧٠-٧١.

و﴿أُمِرْنَا﴾ في محلِّ النصب عطفًا على محلّ ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ﴾ على أنه مقول أيضًا، أي: قل هذا القول وقُلْ ﴿أُمِرْنَا﴾. واللام في: ﴿لِنُسْلِمَ﴾ للتعليل؛ أي: أمرنا بذلك لنُسْلِمَ.[2449]

قيل: تعليل الأمر بناءً على أنَّ الأمر يلزمه الارادة. وأمَّا أهل السنهة فيرَوْنَ في هذه اللَّام، وفي قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾ [الذاريات ٥٦/٥١]، إن كانت تعليلًا: أنهم بإزاحة العِلَل عومِلوا معاملةَ مَنْ أريد منهم ذلك، وإن لم تكن الطاعةُ مرادةً.[2450]

وزعم الكسائي والفرَّاء أن لام «كي» تقع في موضع «أن» في «أردتُ» «وأمرتُ»، قال الله تع:﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء ٢٦/٤].[2451]

وقيل: بمعنى الباء. وقيل: زائدة. أي: بأن نُسلم. ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا﴾ عطفٌ على ﴿لِنُسْلِمَ﴾، أي: للإسلام ولإقامة الصلاة بناءً على كون ﴿أَنْ﴾ مصدريةً موصولةً بالأمر، أو على موقعه، يعني: أنه كثيرًا ما يقع في هذا الموقع «أَنْ نُسْلِمَ» فعطف عليه، ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا﴾ بهذا الاعتبار على طريقة ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ﴾ [المنافقون ١٠/٦٣] بهذا يشعر قوله: «كأنه قيل: أمرنا أن نسلم وأن أقيموا». لكن لا يخفى أنَّ «أن» في «أَنْ نُسْلِمَ» مصدريةٌ ناصبةٌ للمضارع، وفي: ﴿أَنْ أَقِيمُوا﴾ مفسِّرةٌ.[2452] وقد يقال: إنَّ كون «أن» مصدرية موصولة بالأمر كثير الوقوع والواقع كذلك فلا حاجةَ إلى كونها مفسِّرةً.

وقيل: لا حاجةَ إلى هذا الاعتبار، بل المراد أنَّه عطفٌ على مجموع اللَّام وما بعدها.[2453] وإنما لم يذكر المعطوف عليه بصورة أمر الحاضر كالمعطوف؛ لأنَّ الكافر حال كفره يبعد عن ساحة غير الحضور والخطاب، ولا يناسبه أن يؤمر إلا بأمر الغائب، وإذا أسلم كان أهلًا لشرف الخطاب فيخاطب بأمر الحاضر.

وأنت خبير: بأنها نكتةٌ جليلةٌ في نفس الأمر مع قطع النَّظر عن كونه الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن يكون الخطابات له ع م لا يلائم ذلك.

واعلم أنه تعالى بيَّن أولًا أنَّ الهدى هو هدَى الله، وحصل به الترغيب في جميع الطَّاعات المأمور بها من أفعال القلوب والجوارح، والتنفير عن جميع المنكَرات والمعاصي، ذَكر عقيبَ هذا الكلام الإجمالي ما هو أشرفُ أقسام الهدى من كلِّ باب؛ فبدأ يذكر ما هو رئيس الطَّاعات الروحانية وهو الإسلام، ثم ذَكر الصلاة التي هي رئيس الطَّاعات الجسمانية، ثم ذَكر التقوى التي هي رئيس ما هو من قبيل التروك والاحتراز عن كلِّ ما لا ينبغي.[2454] فإنه كالتحلية من جميع الرذائل بعد التَّحلية بجميع الفضائل، ثم ذَكر أنَّ فائدة جميع هذه الأعمال إنَّما يظهر يومَ الحشر إلى الله ذي النوال المجازي لعباده الحسنة بأضعافها من عشرة إلى سبعمائة، بل إلى مضاعفة غير محدودة.

وقال عارف: الطريق إلى الله هو الأوضح، والقاصد غرضته هو المعافى، قال الله: ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [البقرة ١٢٠/٢].

وقال آخر: أمر العبد بالتسليم، والتَّسليم: تركُ التَّدبير والرضا بمجاري القضاء.

[2449] **الكشاف**، ٣٥/٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٩٩؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٤٦.

[2450] **فتوح الغيب**، ١٣٨/٦؛ **نواهد الأبكار**، ١١٣/٦.

[2451] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٤٦.

[2452] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٤و؛ **نواهد الأبكار**، ١١٤/٦.

[2453] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٤و؛ **نواهد الأبكار**، ١١٤/٦.

[2454] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٧٢.

وقال آخر: إقامة الصلاة حفظ حدودها، والدخول فيها بشرط الحرمة والقيام على سبيل الهيبة، والمناجاة [**١٢٣**/و] بلسان الافتقار والذلَّة، والخروج منها على رؤية التقصير والحرقة، هذه إقامة الصلاة لا الترسم بالركوع والسجود.

وقال آخر: إقامةُ الصَّلاة حفظُ حدودها مع الله، وحفظ الأسرار فيها مع الله أن لا يختلج في سرِّه شيءٌ سواه. [٢٤٥٥]

وقال آخر: من لم يحكم بينه وبين الله التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة. ومن يزود التقوى من الدّنيا لم يضرُّه ما فات، ومن فاته التَّقوى لم ينفَعْه ما يزود منها.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)﴾

لَمَّا أنكر أن يعبد غير الله بين البرهان على ذلك بأنَّه إذا كان خالق الكلّ يكون مالكه يتصرّف فيه تصرُّفَ المالك في ملكه، فهو الإله وما عداه المملوك.

﴿بِالْحَقِّ﴾ حالٌ من فاعل ﴿خَلَقَ﴾ والباء للتّعدية، أي: قائمًا بالحق والحكمة. وقيل: الباء بمعنى اللّام، أي: إظهارًا للحقِّ؛ لأنه جعل صنعه دليلًا على وحدانيَّته فهو نظير قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلًا﴾ [آل عمران ١٩١/٣].

قال أهل السنة: إنه تع خالق لجميع المحدثات مالكٌ لكلّ الكائنات وتصرف المالك في ملكه حسن وصواب على الإطلاق، فكان حقًّا على الإطلاق. وقالت المعتزلة: معنى كونه حقًّا أنه واقع على وفق مصالح المكلّفين مطابق لمنافعهم.[٢٤٥٦]

﴿قَوْلُهُ﴾ مبتدأ و﴿الْحَقُّ﴾ صفته، على أنَّ المراد به المعنى المصدري بمعنى قضائه الحكمة والصّواب؛ ليصحَّ الإخبار عنه بظرف الزمان، أعني: ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ فإن ظرف الزّمان وإن لم يقع خبرًا عن الأعيان إلا أنه يقع عن الحدث. وتقديم الخبر يكون لكونه الشائع في الاستعمال مثل: ﴿عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان ٣٤/٣١] وإن كان الحصرُ غيرَ مناسب هنا.

وما ذكر من الحصر بقوله: «لا يكون شيئًا من السَّموات والأرض وسائر المكوَّنات إلا عن حكمة وصواب»[٢٤٥٧] مستفادٌ من المقام؛ إذ لو جعل تقديم الخبر- أعني: «يوم يقول للحصر»- لَكان الحصرُ على عكس ما ذُكر، أي: قضائه الحق لا يكون إلا يوم يقول، وهو فاسد.[٢٤٥٨]

و«اليوم»: بمعنى: «الحين»، كأنه قيل: قوله الحقّ نافذ في أيِّ حين قال لشيء من الأشياء كن فيكون عقبه. والمعنى الذي يقتضيه النظم على ما أشار إليه قدس سره أنه الخالق للمكنات «قوله الحقّ نافذ في الكائنات»[٢٤٥٩] وظاهره أنه اختار ما ذهب إليه الأشاعرة من حمل كلمة «كن» على ظاهرها بأن أجرى الله عادته في تكوين الأشياء على أن يقول هذه الكلمة حال تكوينها فتكون عقيبها بلا فصل ولكنه اختار في سورة يس ما ذهب إليه أكثر المفسرين من أن قوله: «كن» مجاز عن سرعة التكوين.[٢٤٦٠]

[٢٤٥٥] **حقائق الفسير**،٢٠٣/١. **عرائس البيان**، ٣٧٥/١.

[٢٤٥٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٧٢.

[٢٤٥٧] **الكشاف**، ٣٧/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٤٦.

[٢٤٥٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٤ظ.

[٢٤٥٩] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٩٩.

[٢٤٦٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٧٢.

ثم إن «الواو» استئنافية، والجملة تذييلٌ لقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾؛ ولذا جعل «اليوم» بمعنى «الحين» ليقم الزَّمان.

وقيل: ﴿يَوْمَ﴾ منصوبٌ بالعطف على ﴿السَّمٰوَاتِ﴾، أي: «وخلق يوم يقول كن فيكون»، أو على «الهاء» في: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أي: «واتّقوا يوم يقول كن فيكون»، كقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة ٢٨١/٢]، أو بمحذوفٍ دلَّ عليه ﴿بِالْحَقِّ﴾، كأنه قيل: «يقوم بالحق يوم يقول». وعلى هذه الوجوه الثلاثة قوله: ﴿الْحَقُّ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ، والجملة تقرير لقوله: ﴿يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، أو فاعل يكون على معنى: وحين يقول لقوله: ﴿الْحَقُّ﴾، أي: لقضائه الحقِّ كن فيكون قوله: ﴿الْحَقُّ﴾، والمراد به حين تكون الأشياء وتحدثها مطلقًا، أو حين تقوم القيامة سيكون التكوينُ حشر الأموات وإحيائها، فكأنه قيل: يوم يقول للخلق موتوا فيموتون، وانتشروا فينتشرون، ولَمَّا توقَّف أمر البعث والجزاء على أصلين: أحدهما: كونه قادرًا على جميع الممكنات، والثاني: كونه عالِمًا بجميع المعلومات؛ لأنه على تقدير: أن لا يكون قادرًا على كلِّ الممكنات لم يقدر على البعث، وردّ الأرواح إلى الأجساد، وعلى تقدير: أن لا يكون عالِمًا بجميع الجزئيَّات لم يصح أن يجازيَ كلّ واحد من المطيع والعاصي على حسب عمله، ولا يحصل المقصود الأصلي.

قال: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ للدَّلالة على كمال القدرة والملك وإن كان له في جميع الأزمان إلا أنه يكون له فقط ظاهرًا وحقيقة في ذلك قوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [المؤمن ١٦/٤٠]. وقال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ للدَّلالة على كمال العلم رفع على المدح، أي: هو عالم، أو خبر بعد خبر، ثم قال: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ليكون كالفذلكة للآية، والحاصل لها؛ لأن الحكيم هو المصيب في أفعاله، والخبير هو العالم بحقائق الأشياء من غير اشتباه ظواهرها وبواطنها. والفذلكة في اصطلاح الحساب: إجمال ما عدّ أوَّلًا على سبيل التفصيل مأخوذ من فذلك كان كذا وكذا.[٢٤٦١]

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤)﴾

﴿آزَرَ﴾ عطفُ بيان لـ﴿أَبِيهِ﴾، ولما ورد عليه أنَّ أهل التَّواريخ على أنَّ اسم أبيه: تَارَحُ.

أجيب بأنَّ إجماع النَّسابين لا عبرة به في مقابلة صريح القرآن؛ لأنه يتقلّد بعضهم بعضًا، وبالآخرة يرجع إلى قول الواحد،[**١٢٣**/ظ]أو الاثنين مثل: وَهْبٍ وَكَعْبٍ ونحوهما، وربَّما يتعلَّقون بما يحدث به من أخبار اليهود والنصارى. ولو سلّم فهو لا يمنع أن يسمى بـ«آزر» أيضًا؛ لأنه يسمَّى بأكثر من واحد، ويحتمل أن يكون «تَارَحُ» لقبًا له، فاشتهر فذكره الله باسمه المختفي. ويحتمل العكس، ويحتمل أن يكون «آزر» وصفًا دالًّا على الذمّ كـ«الشيخ الهرم والمعوَجّ»، ويرد عليه أنه يشكل منع صرفه؛ لأنَّ العجمة إنما تؤثر بالعلميَّة، ويدفع بأنه باعتبار حمله على موازنه كما في: «سراويل» إذا لم يصرف وهو الأكثر، فإن هذا الوزن يمنع إذا جمع، أو نقل عن الجمع، وهو ليس كذلك فمنع حملًا على موازنه.[٢٤٦٢]

وقيل: نعتٌ مشتقٌّ من «الأَزْر» أو «الْوِزْرِ». فمنع للتعريف ووزن الفعل، والأقرب أنَّه علمٌ أعجميٌ على فاعَل كعَابر؛ لأنَّه هو الظَّاهر واعتبار الوصفية لا دليلَ عليه، فيمنع للعلميَّة والعجمة ولا جزم به أيضًا لاحتمال كونه على وزن «أفعل» كـ«آدم» لكن وزن فاعَل كثير في السريانية.[٢٤٦٣]

[٢٤٦١] **مفاتيح الغيب**، ٢٣/١٣-٢٥؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٧٣.

[٢٤٦٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٧٤-٧٧.

[٢٤٦٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٧٤-٧٧.

وقيل: اسمُ صَنم يعبُدُه فلقِّب به للُزوم عبادته،[٢٤٦٤] فإن المبالغ في محبَّة شيء سمي باسمه، كما نُبزَ ابن قيسٍ بالرُّقيَّات اللاتي كان يشبِّبُ بهنَّ، فقيل: ابن قيس الرُّقيَّات يقال: يشبِّب بفلانة، ذكر صفتها وحالها فيها، وابن قيس كان يشبِّب بالرُّقيَّات، فأضيف إليها فيمن يروى قبس بغير التنوين، وإلَّا فهو عطفُ بيان له وهذا أنسبُ بالمقصود،[٢٤٦٥] أو أُطلق عليه بحذف المضاف أن عابد آزر فأقيم المضاف إليه مُقام المضاف.[٢٤٦٦]

وقيل: المراد به الصَّنَم، ونصبه بفعلٍ مضمَر يفسِّره ما بعده؛ أي: أ تعبد آزر؟ ثم قال: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ تفسيرًا له وتقريرًا. ويدلُّ عليه أن قرئ: «أَإِزْرًا تَتَّخِذ أصنامًا»[٢٤٦٧] بفتح الهمزة الثابتة وكسرها، اسم صنم، معناه: أتعبد إزرًا؟ ثم قال: تتَّخذ أصنامًا آلهةً، تثبيتًا لذلك وتقريرًا وهو داخل في حكم الإنكار؛ لأنه كالبيان له.[٢٤٦٨]

وقرأ يعقوب بالضَّمِّ على النِّداء،[٢٤٦٩] وهو يدلُّ على أنه عَلَمٌ؛ لأن ذلك الأسلوب يكون فيه كقوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [يوسف ٢٩/١٢] لكن في ندائه باسم العَلَمِ استخفاف لأبيه المعروف بترك العقوق، ورعاية الحقوق يرشدك قوله: ﴿إِنِّي أَرَيكَ وَقَوْمَكَ﴾ حيث لم يقل: أنت وقومك ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: ظاهر كونه ضلالًا.[٢٤٧٠]

قالت الشيعة: لم يكن آباءُ الأنبياء كفَّارًا وآزر عمُّه، كما في قوله: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة ١٣٣/٢] سمَّوا إسماعيل أبًا ليعقوب مع أنه عمُّه. واحتجُّوا بقوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء٢١٩/٢] معناه: أنه كان ينقل روحه من ساجد إلى ساجد، وبقوله ع م: «لَمْ أَزَل أُنْقَلُ مِنْ أَصْلَابِ الطَّاهِرينَ إلى أرْحَامِ الطَّاهِرَاتِ».[٢٤٧١]

وأجيب عن الأول بأنّ له معانٍ أخر فلا يثبت المطلوب، ودفع بأنّه محتمل للكلّ وليس البعض أولى بالحمل عليه، فيحمل على الكلّ، ورفع بأن حمل المشترك على معانيه وكذا حمله على الحقيقة والمجاز معًا، وعن الثاني بأنه محمولٌ على أنه ما وقع في نسبه من ولد من الزّنى كما ورد في حديث آخر: «ولدتُ مِنْ نِكَاحٍ لَا مِنْ سِفَاحٍ».[٢٤٧٢]

ولما سلّم الخليل قلب للعرفان، ولسانه لإقامة البرهان على فساد أهل الشّرك والطُّغيان، وبدنه للنيران، وولده للقربان، وماله للضيفان سأل ربه وقال: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء ٨٤/٢٦] فوجب في كرم الله أن يجيب دعاءه ويحقّق مطلوبه فأجاب دعاءه، وجعل جميع الطوائف وأهل الأديان والملل معترفين بفضله، حتى إنّ المشركين أيضًا يعظّمونه ويفتخرون بكونهم من أولاده. ولَمَّا كانت العرب معترفين بفضله لاجرم جعل الله مناظرته مع قومه حجة على مشركي العرب.[٢٤٧٣] وذكره ههنا لمارن المقصود بيان التوحيد.

[٢٤٦٤] **أنوار التنزيل**، ١/ ٤٩٩.

[٢٤٦٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٤ظ.

[٢٤٦٦] **الكشاف**، ٣٧/٢؛ **فتوح الغيب**، ١٤١/٦؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٧٦.

[٢٤٦٧] **المختصر في شواذ القراءات**، ص ٤٤؛ **المحتسب**، ٢٢٣/١.

[٢٤٦٨] **الكشاف**، ٣٧/٢؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٧٤-٧٧.

[٢٤٦٩] **النشر**، ١٩٥/٢.

[٢٤٧٠] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٤٩.

[٢٤٧١] **اللباب**، ٢٣٤/٨.

[٢٤٧٢] **تارخ المدينة** لابن شبة، ٦٣٨/٢.

[٢٤٧٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٧٤-٧٧؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٤٩.

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (٧٥)

الإشارة إلى الإراءة التي تضمنها الآية، لا إلى إراءة أخرى شبه بها هذه كما يقال: ضربته كذلك، أي: هذا الضرب المخصوص.[٢٤٧٤] والجملة معترضةٌ بين المعطوف، وهو: ﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾، والمعطوف عليه، وهو: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾. والمعترضة مؤَكِّدة، فرتَّبتها التأخير، فيكون المشارُ إليه سابقًا في المرتبة، وإن تأخَّر في اللفظ،[٢٤٧٥] أو إلى ما سبق من إراءة صح عبادة الأصنام وضلالة أبيه وقومه فلا يكون حينئذ معترضة؛ لأنها لابدَّ أن تكون مستقلةً غيرَ متعلّقة بما قبلها وما بعدها إلا على جهة التأكيد، بل يكون معطوفة على: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ فيكون ﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ تفصيلًا بطريق تمثيل الإراءة.[٢٤٧٦]

وعلى الوجهين الكاف بمعنى المثل في محلِّ النَّصب على أنَّه صفة مصدر محذوف، أي: نُبَصِّر إبراهيم تبصيرًا مثل ذلك التبصير، وإنما قدرنا هكذا؛ تصحيحًا لتذكير اسم الإشارة؛ وتنبيهًا على أنه من رؤية البصر لكن استعيرت للمعرفة ونظر البصيرة؛ لأنَّ ملكوتهما بمعنى ربوبية الله لهما والوصية الثانية بهما ليس مِمَّا يبصر حسًا. ولا يشكل بأنها تحصل [١٢٤/و] لغير النَّبي فما وجه الرجحان؛ لأنَّ الاطِّلاع على آثار حكم الله في كلٍّ واحدةٍ من مخلوقات هذا العالم بسبب أجناسها وأنواعها وأحوالها لا يحصل إلا لأكابر الأنبياء، ومن ثمة قال ع م: «اللَّهُمَّ أَرِنَا الْأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ».[٢٤٧٧]

وقرئ «تُرِي»[٢٤٧٨] بالتاء الفوقانية، ورفع «ملكوت» لإسناد الفعل إليه، أي: تريه دلائل الرُّبوبية ربوبيته لهما. و«المَلَكُوت» مصدر على «فعَلَوت» من الملك بمعنى القدرة زِيدت الواو والتاء للمبالغة، كـ«الرَغَبوت» و«الرَّهَبُوت» و«الرَّحَموت» و«الجَبَرُوت». وهو مختصٌّ بِمُلْكِ الله وقولهم: فلانٌ له ملكوت اليمن مجاز للدلالة على استقلاله في السَّلطنة الظاهرة.[٢٤٧٩] وعلى القراءتين هو حكاية لحالٍ ماضيةٍ للاستحضار للاستغراب، والتَّأمل في ذلك كأنه في مرأى العين.

وقال الإمام: سبب العدول من أريناه أن المقصود من الإراءة معرفة جلال الله وقدسه وعظمته. ومخلوقات الله وإن كانت متناهيةً في الذَّات والصِّفات، إلا أن دلائلها على ذاته وصفاته غير متناهية. قال: سمعت من والدي الشيخ الإمام عمر قال: سمعت أبا القاسم الأنصاري قال: سمعت إمام الحرمين أنه يقول: معلومات الله غير متناهية، ومعلوماته في كلِّ واحد منها كذلك؛ لأن الجوهر الفرد يمكن وقوعه في أحياز غير متناهية على البدل، ويمكن اتّصافه بصفات لا نهاية لها على البدل، وكلُّ تلك الأحوال التقديرية معلوم الله تع، وكلُّها تدلُّ على قدرته وحكمته، وإذا كان حال الجوهر الفرد؛ فكيف القول في كل ملكوت الله.[٢٤٨٠]

وقيل: المراد إراءة البصرِ كشف له عن السموات والأرض، حتى العرشِ وأسفلِ الأرضين، ورأى مكانَه في الجنة، وذلك قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾[العنكبوت٢٩/٢٧]. وأراه ما في السموات من عبادة الملائكة والعجائبِ، وما في الأرض

[٢٤٧٤] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٧٧.

[٢٤٧٥] **فتوح الغيب**، ١٤٢/٦.

[٢٤٧٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٧٧.

[٢٤٧٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٧٤-٧٧؛ **صيد الخاطر** لابن الجوزي، ص ٤٢٩

[٢٤٧٨] قراءة شاذة، مرويّة عن أبي جعفر في رواية الشيرزي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص١٧١؛ **الكشاف**، ٣٧/٢.

[٢٤٧٩] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٧٧.

[٢٤٨٠] **مفاتح الغيب**، ٤٤/١٣-٤٥.

من عصيان بني آدم، وكان يدعو على مَنْ يَراه يَعْصي فيُهلكُه الله، فأوحى الله إليه: يا ابراهيم أَمْسِكْ عن عبادي، أما علمتَ أنَّ من أسمائي الصَّبور.[٢٤٨١]

فإمَّا أن يتوب إليّ وأتوبُ عليه، وإمَّا أن أُخرِجَ منه نَسمةً تعبد، وإمَّا أن يُبعث إليَّ فإن شئتُ عفوتُ، وإن شئتُ عذبت، ﴿وَلِيَكُونَ﴾ عطف على علّة مقدَّرة، أي: ليستدِلَّ وليكُونَ.[٢٤٨٢]

وقال ابن الكمال: ويأباه اللام والواو، فإنهما لا يذكران بين الاستدلال وما يترتَّب عليه.[٢٤٨٣]

ويمكن دفعه بأن ذلك للدَّلالة على نوع استدلال، أو علة لمحذوفٍ، أي: أريناه ذلك ليكون من الموقنين برؤية ملكوتها أو عجائبها، واليقين عبارة عن علم يحصل بعد زوال الشُّبهة بسبب الفكر والتَّأمل؛ ولهذا لا يوصف علم الله بكونه يقينًا؛ لأنَّ علمه غير مسبوق بشبهة ولا مستفاد من نظَر.[٢٤٨٤]

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦)﴾

اختار المصنِّف أن يكون عطفًا على ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾. وفيه إن قال مضاف إليه لـ«إذ» فتقدير إضافتها إلى ﴿لَمَّا جَنَّ﴾ غير معهود لفظًا، وغير مطبوعٍ معنىً، وإن أوَّل بأن المعنى واذكر وقت قول إبراهيم وقت هذه الجملة الشرطية فيكون ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي﴾ اعتراضيةً على ما مرَّ.

واختار قدس سره كونه بيانًا وتفصيلًا للإراءة، فإن تبصر الملكوت مجمل لا تعرض فيه لكيفية ففصل ذلك المجمل، فيعطف ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي﴾ على ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ لا اعتراضية.[٢٤٨٥]

وقال ابن الكمال: لا مجالَ لأن يكون تفصيلًا له؛ لأن ما ذُكر طريق النَّظر والاستدلال الشَّائع الذَّائع بين أصحاب الظَّواهر المقصود نظرُهم على عالَم الملك، فلا يصلح بيانًا لحال مَنْ يترقَّى منه إلى درجة الوقوف على سرائر عالَم الملكوت والمشاهدة لأسرار الرُّبوبية، فتعيَّن العطف.[٢٤٨٦]

وأنت خبير: بأن نظرَه واستدلَاله ليس كنظرِ غيره، وشيوع ذلك بعد أن وضعه الخليل وهو أول المناظرين والمستدلّين، وليس هذا من عالم الملك، بل من عالم الملكوت؛ فلكونه تفصيلًا مجال، ثم إنه على تقدير العطف يكون الاستدلال لإلزام قومه، والتَّنبيه على ضلالهم. ويؤيّده: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾؛ لأنه يدلُّ على كونه عارفًا بأن له ربًّا، وأنَ قومه على الضَّلال، وأن محاجة كانت مع منكر يبالغ حيث احتجَّ إلى القسم في ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي﴾ وأنه تع أخبر عنه أنه قال: ﴿لِأَبِيهِ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ وأنه ذكر الاستدلال بعد ذكر الإراءة، وأنه قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾.

[٢٤٨١] **الجامع لأحكام القرآن**، ٨/٤٣٦.

[٢٤٨٢] **معالم التنزيل** للبغوي، ٣/١٥٣.

[٢٤٨٣] **ج – عليه. تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٤٩.

[٢٤٨٤] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٧٧.

[٢٤٨٥] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٠؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٧٨.

[٢٤٨٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٥١.

فيكون قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ على سبيل الوضع والتَّسليم، فإن المستدِلَّ على فساد قولٍ يَحكيه على ما يقوله الخَصمُ، ثم يَكُرُّ عليه بالإفساد، وفي تقديم الاعتراض المذكور تنبيهٌ عليه؛ فإنه لولا ذلك البيان لَسبق إلى الوهم استدلالةً لنفسه وبعد التقديم سقط ذلك.[٢٤٨٧]

وعلى تقدير التفصيل يكون لنفسه. فورد عليه أنه كيف يصحّ أن يقول: هذا ربي وهو كفر ولم يقع من الأنبياء؟ ودفع بأنه إنما قالَه زمانَ مراهَقَته، أَوْ أوّل أوانِ بُلوغه وكان طالبًا للحقّ، [**١٢٤**/ظ] حتى وفقه رشده فلم يضرُّه الاستدلال، وهذا أنسب بقوله: ﴿**وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾.

قيل: لَمَّا خرج من السرب رأى ضوءَ الكوكب، وهو طالبٌ لربِّه، فظَنَّ أنه ضوءُه ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ علم أنه ليس بربِّه، وكذا رأي الشمسَ والقمرَ، فلمَّا رأى الكلَّ زائلًا دلَّ العلم أنه غيرُ مستحقٍّ لذلك، فنفاه بقلبه، وعلم أنه مربوبٌ وليس بربٍّ.[٢٤٨٨]

و«الأفول»: يقتضي الحركةَ والاحتجابَ وكلٌّ منهما يقتضي الإمكانَ والحدوثَ، فإن كلَّ متحرك جسمٌ وهو محتاج إلى أجزائه فيكون ممكنًا محتاجًا إلى الربِّ، وكذا ما احتاج في انبساط نوره وبقائه إلى ارتفاع الحجاب يكون ممكنًا محتاجًا إلى الغير وكلُّ ممكن موجود محدث ولا بدَّ له من محدِث. فالأفول يدلُّ على الحدوث وهو على الافتقار إلى المختار، أي: لا أحبُّ الأرباب الآفلين فضلًا عن عبادتهم.[٢٤٨٩]

والمصنف قدَّر «لا أحِبُّ عبادة الآفلين»،[٢٤٩٠] ولعلَّه مبني على إنكاره المحبَّة الحقيقية للرَّب على ما يقول به العارفون. والظاهر أن عبدة الأصنام لا يبعدها على اعتقاد أنَّ لها تأثيرًا في العالم، فمنشأ غلطهم أن منهم من يقول: إن الله فوَّض تدبيرَ العالم إلى الكواكب. ومنهم من يقول: هي أجسام واجبة الوجود لذواتها المدبّرات فاتَّخذوا أصنامًا ملائمة لتلك الكواكب في الصورة والمادة، فعبدوها قاصدين بها عبادتها، ومنهم من ثبت الإله والملائكة ويعتقدون أنهم صورٌ حسنةٌ يحتجبون عنا فيتخذون تماثيلَ أنيقة المنظر، فيقولون: إنها هيكل الإله والملائكة ويواظبون على عبادتها.

ومنهم من يعتقد أنه تع فوَّض تدبيرَ كلَّ واحد من الأقاليم إلى ملكٍ، فلمَّا اعتقدوا ذلك اتّخذوا لكلّ واحدٍ صنمًا مخصوصًا، وطلبوا من كلّ صنمٍ ما يليق بالروح السماوي الذي عملوه على مثاله.

﴿**فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧)**﴾

لم يفد ههنا قوله: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ اكتفاء بما ذكر أوَّلًا، بل استعجز نفسه واستعان بربِّه في درك الحقِّ، فإنه لا يهتدي إليه إلا بتوفيقه؛ وأشار به إلى أن القمر أيضًا لتغيُّر حاله لا يصلح للألوهيَّة، وإن من اتخذه إلهًا فهو ضالٌّ.[٢٤٩١]

والأسلوب ظاهر إذا أريد به استدلاله لنفسه، وإن أريد لقومه فسلكه طريق من يتلطَّف في البحث والإرشاد بإظهار المناصحة لنفسه وإمحاض النُّصح حيث أراد لصاحبه ما أراد لنفسه، ويَنسب الذَّم والتقريع إلى نفسه لا يواجه به الخصم ليكون أبعد من امتعاضه وعناده، وأشد تليينًا لعريكته، وكسرًا لعود شكيمته، كما قال صاحب يس: ﴿وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس ٢٢/٣٦]، وفيه تقريعٌ قويٌّ.

[٢٤٨٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٥١.

[٢٤٨٨] **الجامع لأحكام القرآن**، ٨/ ٤٣٩.

[٢٤٨٩] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٨١.

[٢٤٩٠] **الكشاف**، ٣٨/٢.

[٢٤٩١] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٠.

ولعله غاب عن نظره، أو لم يكن حين رآه في ابتداء الطّلوع بل كان في وراء الجبل ثم طلع منه، أو في جانبٍ آخر لا يراه، إلا ولا احتمال؛ لأن يطلع القمر من مَطلعه بعد أفول الكوكب، ثم يغرب قبلَ طلوع الشمس.[٢٤٩٢]

ويروى أنه رأى نمرود في منامه كان كوكبًا يطلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوءٌ، ففزع من ذلك فزعًا شديدًا فدعا السَّحرة والكَهنة فسألهم فقالوا: هو مولود يولد في ناحيتك في هذه السنة، فيكون هلاكك وهلاك ملكك وأهل بيتك على يديه. فأمر بذبح كلّ غلام يولد في ناحيته تلك السنة وحبس كلّ امرأة حبلى وحدث في ناحيته عنده إلا أمّ إبراهيم فإنه لم يعلم بحبلها؛ لأنها كانت جاريةً حديثةً لم يعرف الحبل ببطنها، فلمَّا دنت ولادة إبراهيم وأخذها المخاض خرجت هاربةً؛ أن يطَّلع عليها، فيُقتل ولدها، فوضعته في نهر يابس، ثم لفَّته في خِرقةٍ، ووضعته في حَلفاء، ثم رجعت وأخبرت زوجها، فانطلق فأخذ من ذلك المكان وحفر له سَرَبًا عند نهر، فواراه فيه، وسدّ عليه بابه بصخرة؛ مخافة السِّباع. وكانت أمّه تختلف إليه فرَضعته فقالت ذات يوم: لأنْظُرَنَّ إليه ما يفعل، فوجَدتْه يمَصُّ من أصبعٍ ماءً، ومن أصبع لبنًا، ومن أصبع عسلًا، ومن أصبع تمرًا، ومن أصبع سمنًا. وكان اليوم على إبراهيم في الشَّباب كالشهر والشهر كالسنة، فلم يمكث إبراهيم في السرب إلا خمسة عشر شهرًا، حتى قال لأمه: أخرجيني فأخرجته عشاء ونظر فتفكَّر في خلق السموات والأرض وقال: إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لربّي الذي مالي إله سواه. ثم نظر في السماء فرأى كوكبًا قال: هذا ربي. ثم اتبعه بصره يظره إليه حتى غاب فلمَّا أفل قال: لا أحبُّ الآفلين، ثم رأى القمر بازغًا فقال: هذا ربي، ثم اتبعه نظره ينظر إليه حتى غاب، ثم طلعت الشمس هكذا إلى آخره.وقيل: إنه في السرب سبع سنين. وقيل: ثلاث عشر، وقيل: سبع عشر. قالوا: فلمَّا شب إبراهيم وهو في السرب قال لأمه: مَن ربي؟ قالت: أنا. قال: فمن ربك؟ [**١٢٥**/ظ] قالت: أبوك. قال: فمن رب أبي؟ قالت له: اسكت. ثم رجعتْ إلى زوجها فقالت: أرأيت الغلام الذي كنا نحدث أنه بغير دين أهل الأرض فإنه ابنك. ثم أخبرته بما قال فأتاه أبوه فقال له إبراهيم: يا أبتاه من ربي؟ قال أمُّك. قال فمن رب أمي؟ قال: أنا. قال: ومن ربك؟ قال: نمرود. قال: فمن رب نمرود؟ فلطمه، ثم قال له: اسكت. فلمَّا جنَّ الليل دنى من باب السرب فنظر من خلال الصخرة فأبصر كوكبًا قال: هذا ربي إلى آخر القصة التي ذكرها الكسائي في **قصص الأنبياء** وهو كتاب حسن نظيف مما يُفترى.[٢٤٩٣]

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)﴾

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾

ذكَّر الإشارة ولم يقل: «هذه» مع كونه إشارةً إلى الشَّمس وهي مؤنثٌ سماعيٌ بناءً على تذكير الخبر، أو لأنه لا يفرِّق في غير لغة العرب بين المذكَّر والمؤنث في الإشارة، فأجرى الكلام على قاعدة تلك اللّغة في مقام الحكاية، وعلى قاعدة العربيَّة في مقام الإخبار.

وقال ابن الكمال: وأمَّا ما قيل: وكان اختيار هذه الطَّريقة واجبًا لصيانة الرَّبِّ عن شبهة التأنيث، فيَرِدُ عليه: أن هذا الوجوب في الربِّ الحقيقيِّ مسلَّم، وأمَّا الذي فرض ربًّا للإبطال بإظهار ما فيه من الأوصاف المنافية للرُّبوبية فالوجوب المذكور فيه ممنوع، بل المناسب ح إظهار علامة التَّأنيث؛ لما فيه من الإشارة إلى ما سِيقَ له العبارة.[٢٤٩٤]

[٢٤٩٢] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٥٢-٣٥٣.

[٢٤٩٣] **قصص الأنبياء** للكسائي، ص ١٢٩- ١٣٠؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٨١.

[٢٤٩٤] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٥٣.

وأنت خبير بأنه وإن فرض ربًا للإبطال إلا أنّه أورد الكلام على سبيل التسليم والتّنزل، وذلك يوجب الصّيانة أيضًا، قبل الشروع في الإبطال ليكون واردًا على مراعاة النَّصَفَةِ، كما ورد قوله: ﴿**هَذَا أَكْبَرُ**﴾ لذلك أيضًا، وأمَّا إذا ورد الكلام للاستدلال لنفسه فلا يخفى في الوجوب.

وقوله: ﴿**هَذَا رَبِّي**﴾ للتردُّد والترديد ليظهر التفريد، ولَمَّا ورد أن يقال: الأفول إنما يدلُّ على الحدوث من حيث إنه حركة، وعلى هذا يكون البزوغ أيضًا دليلًا عليه فلم استدلّ بالأفول؟

أجيب بأن الاحتجاج بالأفول أظهرُ لدلالته عليه من وجهين: من حيث إنه حركة، ومن حيث إنه احتجاب وغيبة، ومن كان إلهًا يجب أن ينعكس عنه نور الوجود إلى جميع الموجودات ابتداءً وبقاءً، فلا يجوز أن يغيب عنها طرفةَ عينٍ فلا يجوز الأفول عليه.[٢٤٩٥]

وزاد عليه قدس سره بأنه رأى الكوكب الذي يعبدونه في وسط السَّماء حين حاول الاستدلال،[٢٤٩٦] يعني: كان أوَّل ما تحقّق في مجلس المناظرة هو الأفول دون البزوغ فاستدلّ به، وأيضًا كان الأفول أعمَّ وأَشملَ بخلاف البزوغ حيث لم يقم الأول.

﴿**فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**﴾ من الأجرام المحدثة المحتاجة إلى محدِثٍ يُحدِثها ويخصِّص تخصيصها لما تختصُّ بها. وهذا كالصّريح في أن الكلام مع القوم والاستدلال لإلزامهم، وأمَّا إذا كان لنفسه فيمكن أن يقال: يجوز أن يتنبّه قبلَ الشروع في الاستدلال لما اعتاد عليه قربه، ولَمَّا استدلَّ بما دلَّ وظهر عنده حقيقة الحال، وتبيَّن به ما كان عليه قومُه من الضّلال قال ذلك؛ ردًّا لمذهبهم وإنكارًا لطريقتهم وإن لم يكونوا حاضرين معه مناظرين، ويجوز أن يقال: يجوز أن يكون قومُه حاضرين معه عند استدلاله لنفسه فعندما ظهر الأمر وتحقق عنده ردّ عليهم أيضًا بذلك.

فإن قيل: ما فائدة تخصيص فطردون أبدع وخلق؟ قلنا: لأنّ معناه الإيجاد المعتد بالابتداء وعدم سبق خلق عليه خفية معنى الخلق مع زيادة اعتراف الخصم به، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْاَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ﴾ [الزمر ٣٨/٣٩]، وفي ذكر الإبداع المستدعي لعدم تقدّم مادة تحتاج إلى إضمار وغموض، ويعلم من الآية أن الهداية لا تحصل إلا من الله؛ لأن التمكين وإزاحة الإعذار كانا حاصلين له ع مومع ذلك طلب الهداية، واستدل به على أن علوم الأنبياء نظرية، وإلا لما احتاج ع م إلى الاستدلال، ودفع بأنه يجوز أن يكون لإلزام الخصم فيمنع الملازمة، وما قيل: لو أمكن حصول معرفة الله بغير النَّظر لَما عدل ع مإليه مجرَّد دعوى لا دليل عليه، والكلام طويل الذيول وعند الله ما هو المأمول.

﴿**وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ**﴾ (٨٠)

لَمَّا أورد عليهم الحج‍ّة المذكورة أوردوا عليه حجَجًا على زعمهم، كالأخذ بالتقليد: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف ٢٣/٤٣] ونحو قولهم: ﴿اَجَعَلَ الْاٰلِهَةَ اِلٰهًا وَاحِدًا اِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص ٥/٣٨] ونحو تخوفيهم إياه بآلهتهم، فأجاب عنها بقوله: ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾، أي: في وحدانيته وتنزُّهه عن الشركاء. وقد هدان إلى توحديها بالحجَّة الحقَّة فكيف يلتفت إلى حجَّتكم الباطل وكيف يترك الحق الأبلج عنده. وقرأ الجمهور ﴿أَتُحَاجُّونِّي﴾[٢٤٩٧] بنونٍ ثقيلةٍ

[٢٤٩٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٨١.

[٢٤٩٦] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٠.

[٢٤٩٧] **النشر** لابن الجزري، ١٩٥/٢.

أصله: «أَتُحَاجُونَنِي» بنونين أوَّلهما نون الرفع [**١٢٥**/ظ] في الأمثلة الخمسة والثانية نون الوقاية فاستثقل اجتماعها فأُدغم الأولى في الثانية.

وقرأ نافع[٢٤٩٨] بنون خفيفة مكسورة بحذف إحدى النُّونين وكلاهما لغةٌ عند[٢٤٩٩] اجتماعهما. واختلفوا في أيتهما المحذوفة؛ فذهب سيبويه ومن تبعه إلى أنَّ المحذوفة هي الأولى، وذهب الأخفش ومَنْ تبعه إلى أنَّ المحذوفة هي الثانية.

وقوله: ﴿**وَقَدْ هَدَانِ**﴾ حال من الياء في ﴿أَتُحَاجُّونِّي﴾؛ أي: «أتحاجوني فيه حال كوني مَهْديًا من عنده، أو من اسم الله، أي: حال كوني هاديًا لي والظَّاهر أن قوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦ﴾ جملة استئنافية.

أخبر ع مبذلك ثقةً برحمته الواسعة وتوكُّلاً على كلائه وحفظه. والاستثناء متَّصل والمستثنى منه وقت محذوفٌ، والتَّقدير: لا أخاف معبوداتكم في وقت قط إلا وقت مشيئة ربّي شيئًا يخاف منه، فإنَّ المصدر قد يقوم مقامَ الوقت[٢٥٠٠] نحو: «آتيك خفوقَ النجم وصياح الديك»، أي: «وقت صياحه وخفوقه».[٢٥٠١]

و﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به لقوله: ﴿يَشَآءُ﴾ وليس بمصدرٍ على معنى: إلا أن يشاء ربي شيئًا من المشيئة،[٢٥٠٢] أي: إلا أن يشاء أن يُصيبني بمَخوفٍ من جهتها إن أصبتُ ذنبًا أَستوجبُ به إنزال المكروه، مثل أن يرجُمني بكوكبٍ أو بشِقَّةٍ من الشمس أو القمر، أو بجعلها قادرةً على مضرَّتي.[٢٥٠٣]

وإنما ذكر ع م هذا الاستثناء؛ لأنه لا يبعد أن يحدث الإنسان في مستقبل عمره شيءٌ من المكاره، فيقول الحمقى من الناس: إن ذلك المكروه إنما حدث به بسبب أنّه طعن في إلٰهية الأصنام، فذكره ليشير إلى أنه إن حدث به شيءٌ من المكاره، فإنما حدث بمحض مشيئة الله إيَّاه ولا مدخل فيه لطعنه في الأصنام.[٢٥٠٤] وأن ذلك بإذن الله وهو يقرب إلى الله فكيف يكون سببًا لوصول المكاره.

﴿**وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ اعتراضٌ كالتَّعليل للأشياء؛ أي: لا أعلم، والله أحاط بكلّ شيء علمًا، فلا يبعد أن يصيبني مكروه من جهتها.[٢٥٠٥]

وقيل: معنى الاستثناء أنه تعالى لا شاء إن أخافهم. وقيل: فائدة ذكر سعة علمه سبحانه أنه لو حدث شيءٌ من ذلك فذلك؛ لأنه سبحانه عرف وجه الصلاح فيه والخير لا القدح في الآلهة.

﴿**أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ**﴾ أبْعَدَ ما لخَّصه من الدَّليل لا يتذكرون مؤدَّاه؟ وهو أن لا مؤثر إلا الله، و«الفاء» للعطف على مقدَّر؛ أي: أتخوِّفونني فلا تذكرّون، فتميِّزون بين الصحيح والفاسد والقادر والعاجز.[٢٥٠٦]

[٢٤٩٨] **النشر** لابن الجزري ، ٢/١٩٥.

[٢٤٩٩] ج : في.

[٢٥٠٠] ج – وقت.

[٢٥٠١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٨٣.

[٢٥٠٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٨٣.

[٢٥٠٣] **الكشاف**، ٢/٤٠.

[٢٥٠٤] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٨١.

[٢٥٠٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٥٥.

[٢٥٠٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٥٥.

وقيل: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أنّ القدح فيما يدعي شريك الله لا يُوجب عقابًا.

وقال بعض العارفين: كان لإبراهيم مقاماتٌ: مقام الفاقة: ﴿ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَاةِ﴾ [إبراهيم ٤٠/١٤]، ومقام النّعمة: ﴿ٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء ٧٩/٢٦]،ومقام الاعتذار ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي﴾ [الشعراء ٨٢/٢٦]، ومقام المحبة: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام ٧٨/٦]، ومقام المعرفة ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ﴾، ومقام التّوكل ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام ٨٠/٦]، ومقام التسليم قال لجبريل: «أَمّا إِلَيْكَ فَلَا».[٢٥٠٧]

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)﴾

استفهام إنكار وتعجُّب، فإنّ الخوف مما لا قدرةَ له على شيءٍ من الضّرّ وعدم الخوف ممن يقدر على كلّ خوفٍ وصدور أعظم ما يقتضيه من الشرك في غاية العجب ونهاية الإنكار، فإنه قد جاوز التَّسوية بين القادر المطلق والعاجز المطلق، والصَّانع والمصنوع إلى ترجيح للمرجوح.

وقوله: ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ يحتمل أن يكون معطوفًا على ﴿أَخَافُ﴾ فتكون هذه الجملة داخلةً في حيّز التَّعجُّب والإنكار، وأن تكون جملةً حاليةً، أي: وكيف أخاف الذي تشركون حال كونكم غيرَ خائفين عاقبة إشراككم. ولا بدَّ حينئذٍ من إضمار مبتدأ قبل المضارع المنفي بـ«لا»؛ لأن المضارع المنفيّ بلا حكمه حكم المثبت من حيث إنه لا تباشره «الواو». وانظر إلى حسن هذا النّظم البليغ والقصد الأنيق حيث جعل متعلّق الخوف الواقع منه الأصنام، ومتعلّق الخوف الواقع منهم إشراكهم بالله غيره احترازًا عن أن يعادل الباري بأصنامهم بأن يقول: «وكيف أخاف معبوداتكم وأنتم لا تخافون الله»؟[٢٥٠٨]

وقال المصنف: يعني: وكيف أخاف لتخويفكم شيئًا مأمونَ الخوف لا يتعلّق به ضررٌ بوجه، ﴿وَ﴾ أنتم ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ ما يتعلّق به كلُّ خوف، وهو إشراككم بالله، كأنه قال: وما لكم لا تنكرون عليَّ الأمنَ في موضع الأمن، ولا تنكرون على أنفسكم الأمنَ في موضع الخوف؟[٢٥٠٩] زاد «الموضع» ليشير إلى أنَّه مُتمكّنٌ على الأمن، فلا يحوم الخوف بساحته وأنّهم على عكسه. وإنما زاد «أنتم» لينبّه على أنّهم أحقَّاءُ بالخوف، فبَنَى الكلام على تقوّي الحكم.

وفيه: أن الشّرك مكانُ الخوف ومعدِنُه، كما أنَّ التَّوحيد موضعُ الأمن ومقرّه؛ ولهذا استُؤنف بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بيانًا لأمْنِ مَنْ تمسَّك بالتَّوحيد، وتبرأً عن الشّرك، كأنّه سأل صلوات الله عليه وسلامه، أيُّ الفريقين- يعني: فريقَي [**١٢٦**/و] المشركين والموحّدين- أحقُّ بالأمن؟ فأجاب هو هم الذين آمنوا وهو من باب التَّبكيت، كقوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ [الأنعام ١٩/٦]، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [الرعد ١٦/١٣]. و«قُلْ» ههنا مقدَّرٌ.[٢٥١٠]

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ﴾ أي: بإشراكه سلطانًا، أي: حجةً وهو كنايةٌ عن عدم الحجَّة؛ إذ لو كانت لأثر لها. وفيه إشعارٌ بأنَّ الأمر إنما يثبت بالبرهان الإلهيّ.

[٢٥٠٧] **عرائس البيان**، ٣٧٨/١-٣٧٩.

[٢٥٠٨] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٨٤.

[٢٥٠٩] **الكشاف**، ٤٠/٢.

[٢٥١٠] **فتوح الغيب**، ١٤٧/٦-١٤٨.

وقيل: فيه تهكُّمٌ بهم، فإنَّ إقامة الحجة على الشِّرك ممتنعٌ وتعريضٌ بوجود الحجَّة على نفيه، ولَمَّا دلَّ الكلام على أنَّهم يخافون المأمون من كلِّ وجه وهم لا يخافون المخوف من جميع الوجوه. قال: ﴿**فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ**﴾ يعني: فريقَي المشركين والموحِّدين ولم يقل: فأيُّنا أحق بالأمن أنا أم أنتم؟ حفظًا للأدب واحترازًا عن تزكية النَّفس وحرمًا على الكلام الإنصافي.

﴿**إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ ما يحقُّ أن يُخاف منه، فيكون متعلّق العلم محذوفًا. ويجوز أن لا يراد تعلّقه بالمفعول على معنى إن كنتم من ذوي العلم، وجواب الشرط محذوفٌ، أي: فأخبروني.[2511] وفي الآية الكريمة عبرةٌ عظيمةٌ وعظةٌ جسيمة للذين لا يخافون الله القادرَ القوي، ويخافون العاجز الحقير، والذين لا يخافون من نحوسية أعمالهم القبيحة الشَّنيعة، ويخافون من قبيل الأفعال الحسنة والسَّليمة. فإنَّه قد فاش وانتشر بين الناس بوسوسة الوسواس الخنَّاس التَّهاون والتَّكاسل والمسامحة في حفظ الحقوق ورعاية الحدود. وقد كثر وانتشر الأعمال القبيحة من غير مبالاة، وشاع وذاع المخافة من إقامة أمور الدين خَوْفًا من الجبَّارين الظالمين، وكلُّ ذلك من قلَّة الخوف من الله وهجوم الخوف من غير الله، وكذا من قلَّة الخوف من نحوسة السيئات وعدم الاطمئنان للأمن في إظهار الحسنات. فنحن نستعين بالله في إقامة أمر الدين، وإفاضة شعائر اليقين، ونتوكَّل عليه في حصر الخوف للخوف من سلطانه ونجعله في بحر أعداء الدين إنه القويُّ الوليُّ المعين.

﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢)**﴾

استئناف من إبراهيم أو من الله بالجواب عما استفهم عنه.[2512] وقد مرّ أنه متعيّن في الجواب؛ فلذلك لم ينتظر فيه إلى الجواب من الخصم.

وقد شاع استدلال المعتزلة بهذه الآية على أن صاحب الكبيرة لا أمنَ له، ولا نجاة من العذاب حيث دلَّت على اختصاص الأمن لمن لم يخلط إيمانه بظلم؛ أي: بفسق. وأجيب بأن المراد بالظُّلم ههنا الشِّركُ الذي هو ظلمٌ عظيم كامل، ويشبه أن يكون تنكير ﴿ظُلْمٍ﴾ إشارة إلى هذا، بدليل ما روي عن ابن مسعود أنه قال: «لَمَّا نَزَلَتْ هذِهِ الآيَةُ، شَقَّ ذلكَ على أصْحابِ رسول الله، وقالوا: أيُّنا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟! فقالَ ع م: ليسَ هذا ما تَظُنُّونَ؛ إنَّما هو كما قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان ١٣/٣١]».[2513] فأشار المصنف إلى دفع ذلك بأن لبس الإيمان بالشرك، أي: خلطه به مّما لا يتصوّر؛ لأنهما ضدَّان لا يجتمعان، فلا معنى لاشتراط انتفائه، والحديث وإن صحَّ عن الثقات، لكنه خبر واحد في مقابلة الدليل العقلي القطعي فلا يعمل به، والقول بأن الفسق أيضًا لا يجامع الإيمان عندكم؛ لكونه اسمًا لفعل الطَّاعات واجتناب المعاصي، حتى أن الفاسق ليس بمؤمنٍ كما أنه ليس بكافرٍ، مدفوع بأنه كثيرًا ما يطلق على نفس التَّصديق، بل ربَّما لا يفهم من ذكره بلفظ الفعل إلا هذا، حتَّى أنه يعطف عليه عمل الصالحات مثل: ﴿آمَنُو وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة ٢٥/٢] (آمنوا، وأقاموا الصلاة). والجواب: أنه إن أريد بالإيمان مطلق التصديق سواء كان باللسان، أو غيره فظاهر أنه يجامع الشرك كالمنافق، وكذا إن أريد تصديق القلب لجواز أن يصَّدَّق بوجود الصَّانع دون توحيده كما ذكر في قوله تع: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف ١٠٦/١٢]، ولو أريد التَّصديق بجميع ما يجب التصديق به بحيث يخرج به عن الكفر. فلا يلزم من لبس الإيمان بالشّرك الجمع بينهما بحيث يصدق عليه أنه مؤمن ومشرك، بل تغطيته بالكفر وجعله مقلوبًا مضمحلًا، أو اتّصافه بالإيمان، ثم

[2511] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٨٤.

[2512] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠١.

[2513] **صحيح البخاري** ٣٣٦٠-٦٩٣٧؛ **صحيح مسلم** ١٢٣؛ **سنن الترمذي**، ٣٠٦٧.

الكفر، ثم الإيمان، ثم الكفر مرارًا، وبعد تسليم جميع ما ذكر فاختصاص الأمن بغير العصاة لا يوجب كون العصاة معذبين ألبتَّة، بل خائفين ذلك متوقعين احتمال العفو، ورجحان جانب الوقوع.[٢٥١٤]

وقد عرفت أن مقتضى النّظم الحمل على الشرك. فكان تفسير سيد المرسلين، وإمام الموحّدين أولَى بالتلقّي، [١٢٦/ظ] على ما روينا عن البخاري ومسلم وأحمدَ بن حنبل والتِّرمذي على ما ذكره،[٢٥١٥] وأيضًا أنَّ اسم الإشارة الواقع خبرًا للموصول مع صلتها، يشير إلى أنَّ ما بعده ثابت لمن قبله، لاكتسابه ما ذكر من الصِّفة، ولا ارتيابَ أنَّ الأمن المذكور بعده هو الأمن الحاصل للموحِّدين في قوله: ﴿أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾؛ لأنَّ المعرفة إذا أعيدت كان الثاني عينَ الأوَّل، فيجب أن يكون الظُّلم عين الشِّرك، ليتسق الكلام ويتجاوب النظام.[٢٥١٦]

وقال ابن طاهر في قوله: ﴿**لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ**﴾: لم يرجعوا في النوائب والمهمات إلى غير الله، ﴿**أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ**﴾الكفايات، ﴿**وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾راجعون إلى مَن إليه المرجع.[٢٥١٧] كما أن إبراهيم ع مقال لجبريل حين قال له: «هل لك من حاجة»؟ أمَا إليك فلا، فقال جبريل: فاسأل من الله حاجتك. فقال إبراهيم عليه صلوات الله وسلامه:«كَفَانِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي».[٢٥١٨]

وقال الاستاذ[٢٥١٩] قدس سره: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ**﴾ الذين أشاروا إلى الله، ثم لم يرجعوا إلى غير الله.[٢٥٢٠] وبالجملة.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)﴾.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥)﴾

إشارةٌ إلى ما احتجَّ به إبراهيم على قومه من قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ إن كان هذا الاستدلال لأجل قومه، أو من قوله: ﴿ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾ إن كان ذلك لأجل نفسه. و﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ و﴿حُجَّتُنَا﴾ خبره و﴿آتَيْنَاهَا﴾ في محل النَّصب على الحال والعامل فيها معنى الإشارة كما في قوله تع: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [النمل ٥٢/٢٧]، أو في محل الرَّفع على أنَّه خبرٌ ثانٍ أخبر عنها بخبرين: أحدهما مفردٌ والآخر جملةٌ. ولا يجوز أن يكون صفةً لـ﴿حُجَّتُنَا﴾؛ لأنها معرفة بالإضافة فلا تُوصف بالنّكرة، و﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾ متعلّقٌ بـ﴿حُجَّتِنَا﴾. ومن منع ذلك نظر إلى أنَّها مصدر، فيلزم الفصل بالحال أو الخبر بين الموصول وصلته. ولقائل أن يقول: لا نسلّم مصدريتها بل هي عبارة عن الكلام المؤلف للاستدلال على الشَّيء، ويرد أنه على هذا لا يظهر فيه يصحُّ أن يكون متعلِّقًا، وإن جعل ﴿حُجَّتُنَا﴾ بدلًا وبيانًا لـ﴿تِلْكَ﴾ وجعل الجملة الفعلية خبرًا عن المبتدأ لا يجوز أن يكون ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾ متعلّقًا بـ﴿حُجَّتُنَا﴾ للفصل بينهما بالخبر وهو

[٢٥١٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٥و؛**حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٤٢٥/٣-٤٢٦؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٨٤.

[٢٥١٥] ج + لا ارتياب.

[٢٥١٦] **فتوح الغيب**، ٦/ ١٤٩.

[٢٥١٧] **عرائس البيان**، ١/ ٣٨٠.

[٢٥١٨] وقد ذكره البغوي في تفسير سورة الأنبياء مشيراً إلى ضعفه (٣٢٧/٥) .

[٢٥١٩] هو القشيري.

[٢٥٢٠] **عرائس البيان**، ١/ ٣٨٠.

أجنبي عن المبتدأ ليس بمعمول فيتعلَّق بمحذوفٍ على أنَّه حال، أي: آتيناها إبراهيم حجة على قومه أو دليلًا.[٢٥٢١] وإيتاءها يأباه إرشاده إليها وتعليمه إيَّاها وتوفيقه لها. و﴿دَرَجَاتٍ﴾ منصوبٌ على أنه مفعول ﴿نَرْفَعُ﴾.

وقرأ الكوفيون[٢٥٢٢] ويعقوب بالتنوين[٢٥٢٣] الظرفية، أو على أنَّها مفعولٌ ثانٍ قدِّم على الأوَّل بتضمين ﴿نَرْفَعُ﴾ معنى فعل يتعدَّى إلى اثنين وهو يعطي مثلًا أو على نزع الخافض، أي: نرفع إلى درجات، والقراءتان متقاربتان؛ لأن مَنْ رُفعت درجاته فقد رُفع، ومن رفع فقد رفعت درجاته، ويؤيد الأولى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ [الغافر ١٥/٤٠]، وقوله ع م: «اللَّهُمَّ ارْفَعْ دَرَجَتَهُ».[٢٥٢٤] والمراد بالدرجات ههنا درجاتُ العلم والفهم، والحكمة، فإنَّه تع قد رفع درجات إبراهيم فيها، حتى فاق في زمن صباه شيوخ أهل عصره واهتدى إلى ما لم يهتد إليه أكابر الأنبياء.[٢٥٢٥]

وقيل: وجه كون تلك الحُجَجِ درجات أنها توجب الثواب العظيم. وقيل: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ في الدنيا بالنبوَّة والحكمة، وفي الآخرة بالجنَّة والثَّواب.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في رفعه وخفضه ﴿عَلِيمٌ﴾ بحال مَنْ يرفعه واستعداده له كذا قال قدس سره.[٢٥٢٦]

فقيل: المراد بالاستعداد والاستعداد الحاصل من الله بأسباب هي من الله فلا يخالف ما هو المشهور من أن سبق الاستعداد للرَّفع في حدِّ ذاته ليس بلَازم.

وقيل: الظَّاهر أن كلامه يشعر بتقدّم الاستعداد على طريق الوقوع دون اللُّزوم وأنّه فرق بأن يستعد أن النبوة واستعداد القربة التي أُشير إليها بقوله ع بحكاية عن الله: «لا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافلِ حتّى أحببْتُهُ».[٢٥٢٧]

وقال بعض العارفين: تشير إلى درجات العشق والمحبَّة والشوق، فهي مراقي القرب، رقَّاهم الله بها إليه أبد الأبدين.

وقيل: بصفاء السّر، وصحة الهمة. وقال جعفر الخلديّ: بالخلق السنى والهمّة والزكية.

وقال محمد بن الفضل: بطاعة الرّسول واتِّباع سنَّته. وقال النُّوري: بالكون مع الله والفهم عنه.

وقال بعضهم: بالسَّخاء وهو خلق الأنبياء.[٢٥٢٨]

وبالجملة: في الوجود درجاتٌ دنيويةٌ، ودرجاتٌ أخرويَّةٌ، ودرجاتٌ جسمانيةٌ، ودرجاتٌ روحانيةٌ، فالدَّرجات الجسمانيَّة في الدنيا المناصب والمراتب، والدَّرجات الرُّوحانية فيها العلوم والمعارف والحقائق والدقائق، والدرجات الجسمانيّة [**١٢٧/و**] في الآخرة مراتب الجنَّة، والدّرجات الرُّوحانية فيها العلوم الإلهية، والاستغراقات المعنويَّة أيضًا.

[٢٥٢١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٨٥-٨٦.

[٢٥٢٢] عاصم، حمزة، الكسائي، خلف.

[٢٥٢٣] **النشر**، ١٩٥/٢؛ **إتحاف**، ٥٣٥/١.

[٢٥٢٤] **الدعاء** للطبراني، ص ٣٥١ (١١٥٦).

[٢٥٢٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٨٦.

[٢٥٢٦] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٢.

[٢٥٢٧] **مسند أحمد**، ٢٦١/٤٣ (٢٦١٩٢)؛ **صحيح البخاري**، ١٠٥/٨ (٦٥٠٢).

[٢٥٢٨] **حقائق التفسير**، ٢٠٧/١.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤)﴾.

تعديد نعم الله على إبراهيمَ جزاءً على إظهاره حجَّة وحدانية الله، وبذل نفسه في دعوة المشركين إلى عبادته، كما أنَّ إيتاءَ الحجَّة الباهرة والدّرجات الظّاهرة كذلك، فإنه جعله عزيزًا بجعل أشرف النّاس وهم الأنبياء من ذريّته وإبقاء هذه الكرامة إلى يوم القيامة، فإنه جعل أنبياء بني إسرائيل من نسلهما وجعل سيد المرسلين من نسل إسماعيل.[٢٥٢٩]

قيل: لم يذكره معهما؛ لأن المقصود بالذّكر أنبياء بني إسرائيل الذين من أولادهما، ولم يخرج من إسماعيل إلّا سيّدنا ولم يذكره في هذا المقام؛ لأنه أمره ع م أن يحتج على العرب في نفي الشّرك بالله بأن جدهم إبراهيم كان موحدًا لله بريئًا من الشّرك، ورزقه الله أولادًا أنبياء وملوكًا. والظّاهر أنّه ذكره بعد استقلالًا وأصالةً وذكرهما على سبيل التبع لأبيهما، ولم يذكر متعلّق الهداية؛ ليذهب الذّهن كلّ مذهب من الهدايات والفضائل، فإنّهم اجتهدوا في طلب الحقّ فجازاهم بإيصالهم إلى الحقّ كقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت ٢٩/٦٩]. وقيل: الهداية المخصوصة بهم، وهي الهداية إلى النُّبوة.[٢٥٣٠]

﴿وَكُلًّا﴾، أي: كلّ واحدٍ من إسحق ويعقوب ﴿هَدَيْنَا﴾ ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ إبراهيم. قومُ نوحٍ أوَّلُ قومٍ عبدوا الأصنام، وهو وحَّدَ الله تعالى، ففي عبارة ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ إشارةٌ إلى أنّ فيه أسوةً حسنةً لإبراهيم، وأمَّا عدَّ هُداه نعمةً لإبراهيم من حيث إنّه أبوهُ، وشرفُ الوالد يتعدَّى إلى الولد، فحقُّه أن يَذكَر نوح بعلاقته لإبراهيم كما ذُكر مَنْ ذُكر بعده.[٢٥٣١] لكن كون الكلام المقام تعديد النِّعم مؤيّد لذلك، فكأنَّه قال: وهدينا إمامه الظاهرين أيضًا، وتخصيص نوح كما ذكر، وعدم تصريح العلاقة يجوز أن يكون للاشتهار أو للرّمز إلى حديث الأسوة أيضًا.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي: ومن ذرية إبراهيم فيكون ﴿دَاوُدَ﴾ وما عطف عليه منصوبًا بالعطف على ﴿إِسْحَاقَ﴾ مفعولًا لفعل الهبة. ويكون ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ متعلّقًا بذلك الفعل وتكون ﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية أو للتّبيين، أي: وهبنا له بعد إسحق ويعقوب هذه الأنبياء. ويرجح ذلك بأن الكلام في أمرهم بأنَّ يونس ولوطًا ليسا من ذرّيته، ويدفع بأن يونس أيضًا من ذريته لِمَا ذكر في **جامع الأصول**:[٢٥٣٢] أنه كان من الأسباط في شعيب، أرسله الله إلى نِينَوى من بلد الموصل،[٢٥٣٣] وأنّ لوطًا ابن أخ إبراهيم.

والعرب تجعل العمَّ أبًا كما أخبر الله عن ولد يعقوبَ أنَّهم قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة ٢/١٣٣]. وإسماعيل كان عمَّ يعقوب.[٢٥٣٤] فلا ضرورة في الدَّفع إلى تخصيص البيان بالمعدودين في الآية الأولى والثانية، وعطفِ المذكورين في الثالثة على نوح ع م، كما ذهب إليه قدس سره، أو من ذريته نوح ويرجح بكونه أقرب، ولَمَّا ذكر في المناقشة فيكون جميع ما ذكر بعده في الآيات الثلاث منصوبًا معطوفًا على قوله: ﴿نُوحًا﴾ ومعمولًا لفعل الهداية، ويكون من ذريته بيانًا لجميع هؤلاء المذكورين، ويحتمل أن يكون حالًا، أي: حال كون هؤلاء الأنبياء منسوبين إليه ع م.

[٢٥٢٩] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٨٦.

[٢٥٣٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٨٧.

[٢٥٣١] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٥٨.

[٢٥٣٢] **جامع الأصول في أحاديث الرسول** لابن الأثير (٦٠٦هـ)

[٢٥٣٣] **تتمة جامع الأصول في أحاديث الرسول** لمجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، تحقيق: بشير محمد عيون، دار الفكر، د.ت.، ١٢/١١٥-١١٦؛ **الجامع لأحكام القرآن**، ٨/٤٤٧.

[٢٥٣٤] **الأجامع لأحكام القرآن**، ٨/٤٤٧.

ولم ينصرف داودُ؛ لأنه اسمٌ أعجميٌّ ولما كان على «فاعول» لا يَحسُن فيه الألف واللّام.

وقرن ﴿سُلَيْمَانَ﴾ معه؛ لأنه كان ابنه واشتركا في الملك وقدّم الأب. ﴿وأَيُّوبَ﴾ مع يوسف؛ لأنهما اشتركا في المحنة والبلاء، وحصول سلامة العاقبة، وقدّم أيوب؛ لأنه أشدُّ بلاءً و﴿هَارُونَ﴾ مع ﴿مُوسَى﴾؛ لأنه أفضل.

و«الكاف» في محلِّ النَّصب على أنه صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، فيتعلَّق بـ﴿نجزي﴾ تعلَّق جزاء به، أي: ونجزي المحسنين جزاءً مثل ذلك الجزاء الذي جَزَيْنَا به إبراهيم برفع درجاته، وكثر أولاده واجتبائهم.

وفيه غايةُ ترغيب في الإحسان، ودلالةٌ على أنه ممَّا سينزل به جميع الخيرات وستمطر أعاظمُ البركات، وقد كثر ذكرُ ذلك في نظائره وأمثاله.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٥) ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٨٦)

ذكر ﴿يَحْيَى﴾ مع﴿زَكَرِيَّا﴾؛ لأنه ابنه ولاشتراكهما في البلاء ﴿وَإِلْيَاسَ﴾ مع ﴿عِيسَى﴾ لاشتراكهما في أنّهما لم يموتا إلى الآن، وقدّم ﴿عِيسَى﴾؛ لأنّه أفضلُ [**١٢٧**/ظ] وصاحبُ كتابٍ. وجمع ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ والثلاثة بعده في آية؛ لأنه لم يبق لهم من الخلق أتباع.

وفي ذكر ﴿عِيسَى﴾ دليلٌ على أن الذُّرّية تتناول أولاد البنت، فيكون الحسن والحسين من ذرية سيد المرسلين محمد ع م مع انتسابهما إليه بالأم، ومَنْ آذاهما فقد آذى ذريّته.[٢٥٣٥] ومن ههنا قال أبو حنيفةَ والشافعيُّ: مَنْ وقفَ على ولده وولدِ ولدهِ يدخل فيه ولدُ ولده وولدُ بناته ما تناسلوا. [٢٥٣٦]

﴿كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: من الكاملين في الصَّلاح، وباعتبار الكمال فيه صحَّ مدح الأنبياء بذلك الوصف، وهو الإتيانُ بما ينبغي، والتَّحرُّز عما لا ينبغي، ففي توصيفهم بذلك الوصف تنويةٌ له وتنبيهٌ على عظم قدره كما في وصف الملائكة والأنبياء بالإيمان، تنويه له؛ فإنّ أوصاف الأشرافِ أشرافُ الأوصاف.[٢٥٣٧]

﴿وَالْيَسَعَ﴾ هو يَسَع بن أخطوب. وقرأ حمزة والكسائي ﴿واللَّيْسَعَ﴾[٢٥٣٨] وعلى القراءتين علَمٌ أعجميٌّ، أُدخل عليه «الألف» و«اللام» كما أُدخل «اليزيد» في قوله:

رَأَيْتُ الوَلِيدَ بْنَ اليَزِيدَ مُبارَكًا شَدِيدًا بِأَعْباءِ الخِلافَةِ كاهِلُهُ[٢٥٣٩]

ويردُّه لزوم اللَّام له، فالوجه ما قال ابن **مالك**: ما قارنت «ال» نقلَه كالنَّضر والنُّعمان، أو ارتجاله كاليسع والسَّمَوأل، فإن الأغلب ثبوت الألف واللام فيه.[٢٥٤٠]

[٢٥٣٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٨٧.

[٢٥٣٦] **الأجامع لأحكام القرآن**، ٨/٤٤٧.

[٢٥٣٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٥٩-٣٦٠.

[٢٥٣٨] **التيسير**، ص ٣٤٤؛ **النشر**، ٢/١٩٥

[٢٥٣٩] **البيت لابن ميّادة في ديوانه ص ١٩٢؛ اللباب**، ٨/٢٦٧.

[٢٥٤٠] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٦٠.

وقد يقال: لا يوجد «لَيْسَعَ»؛ وهذا لا يلزم؛ لأنه جاء في كلام العرب: «حَيْدَر»، و«زَيْنَب»، والحقّ في هذا أنه اسم أعجميٌّ، والعجمة لا تؤخذ بالقياس، إنما تؤدَّى سماعًا، والعرب تغيّرها كثيرًا، فلا يُنْكَر أن يأتي الاسم بلغتين.

وقال **مكّي**: من قرأها باللامين، فأصل الاسم: لَيْسَعَ، ثم دخلت الألف واللام للتّعريف. ولو كان أصله يَسَع؛ لما دخله الألف واللام؛ إذ لا يدخلان على يزيدَ ويشْكُرَ، اسمان لرجلين؛ لأنهما معرفتان علَمان. وأما «ليسع» نكرةً فدخله الألف واللّام للتعريف، والقراءة بلامٍ واحدة. فالاسم يَسَع، ودخلت الألف زائدتين، كزيادتهما في الخمسة عشر.

وتَوَّهم قومٌ أن اليسع إلياس، وليس كذلك؛ لأن الله أفرد كلَّ واحد منهما. وقال وهب: اليسعُ صاحب إلياس، وكانوا قبل زكريا ويحيى وعيسى

وقيل: إلياس هو إدريسُ. وهذا غير صحيح؛ لأنّ إدريس جدُّ نوح، وإلياس من ذريته. وإلياس هو الخضرُ. وقيل: لا، بل الْيَسعُ الخضر.[٢٥٤١]

﴿**وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ بالنُّبوَّة على مَن ليس من الأنبياء، ولا بدَّ من هذا القيد كيلا يلزمَ تفضيل كلٍّ منهم على الآخر، أو تفضيلُ كل من المعاصرين على الآخر.[٢٥٤٢] وظاهره يدل على أنَّ الأنبياء أفضل من الملائكة بناءً على أنّ العالم اسم لكلّ موجود سوى الله فيدخل فيه الملائكة، ومن تَبع ذلك فإن المراد التفضيل على عالمي زمانهم وفي كتب الكلامية: لا نزاع في أن الأنبياء أفضلُ من الملائكة السُفليّة الأرضيّة إنما النّزاع في الملائكة العلويّة السّماوية.

وقال أكثر أصحابنا: الأنبياء أفضلُ. وعليه الشيعة وأكثر أهل الملل. وقالت المعتزلة وأبو بكر منَّا وأبو عبد الله الحليمي: الملائكة أفضل. وعليه الفلاسفة.[٢٥٤٣] وفيه دلالةٌ على أن النبوّة عطائيَّة محض تفضّلٌ من الله ذي الفضل العظيم يؤتيه من يشاء، وإشارة إلى أن الاعتبار في باب الفضيلة الفضائل الروحانية والشّمائل المعنويَّة وهو المعتدّ به عند الله لا اعتبار لغيرها.

﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩)﴾

﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ﴾ عطف على ﴿كُلًّا﴾ أوْ ﴿نُوحًا﴾، أي: فضَّلنا كلًا منهم، أو هدينا هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم فإنّ منهم من لم يكن نبيًّا ولا مهديًّا. وليس لعيسى ويحيى ذرية فإضافة الذريات إلى ضمير الجميع، إمَّا باعتبار الجميع أو اعتبار التَّغليب. ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ عطف على ﴿فَضَّلْنَا﴾ أو ﴿هَدَيْنَا﴾، أى: وكلًّا فضلنا على العالمين واجتبيناهم، أو كلًّا هدينا. واجتبيناهم: مشتقٌ من جَبَيتُ الماءَ في الحوض، جمعتُه. فالاجتباء: ضمُّ الشَّيء الذي يجتبيه إلى خاصَّتك. والجابية: الحوض، ومنه: جابي الأوقاف. ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تقريرٌ لبيان ما هُدوا إليه. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما دانوا به ﴿هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ دليل على أن الهدايةَ من الله وأنه متفضِّل بها.[٢٥٤٤]

[٢٥٤١] **الأجامع لأحكام القرآن**، ٨/ ٤٤٩-٤٥٠.

[٢٥٤٢] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٦٠.

[٢٥٤٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٨٨.

[٢٥٤٤] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٢-٥٠٣.

وقال ابن الكمال: دليل على أنها بمشيئة الله، وأمَّا أنه متفضِّل بها فمبناه على عدم لزوم المشيئة لذاته، وذلك غيرُ ظاهر من الكلام.[٢٠٤٥]

وأنت خبير: بأنه إن أراد عدم لزوم المشيئة المطلقة لذاته فهو ليس معنى التفضيل ولا تقريب، وإن أراد مشيئة الهداية فالظاهر من الكلام عدم [**١٢٨**/و] لزوم ذلك؛ لأنَّ اللزوم والمشيئة كالمتنافيين.

﴿**وَلَوْ أَشْرَكُوا**﴾ أي: ولو أشرك هؤلاء الأجلَّة مع فضلهم وعلوِّ شأنهم ﴿**لَحَبِطَ عَنْهم ما كانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ لكانوا كغيرهم في بطلان أعمالهم بسقوط ثوابها عنهم، ولكني عصمتُهم. وفيه غيةُ تنفير عن الشرك، وتصويرٌ وتقريرٌ لما لا يكون لأجل ما ذكر، فلا حاجةَ إلى ما قيل لعل المرادَ بيانُ حال الغير؛ لاستحالة صدور الشِّرك من الأنبياء.

فإن قيل: يشعر الظَّاهر بإيتاء الكتاب لجميع المذكورين فإن ثبت أنَ بعضهم لم يؤتَ كتابٌ، فما وجه الإطلاق؟

قلنا: أن يحقّق ذلك وهو الظاهر؛ فإنه لم يشتهر من الكتب سوى التوراة والإنجيل والصحف والزبور، وهي لطائفه مشهورة من الأنبياء فلأنه من التَّخصيص، ويكون الإطلاق باعتبار أن من لم يؤت الكتابُ كان مأمورًا باتِّباع كتاب غيره ﴿وَالْحُكْمَ﴾: الحكمة، أو فصل الأمر على ما يقتضيه الحقُّ، أو العلم الذي تمكَّنوا معه في ظواهر الخلق وبواطنهم.

﴿**فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا**﴾ أي: بالكتاب والحكم والنُّبوة ﴿**هَؤُلَاءِ**﴾ أي: كفَّار مكَّة ﴿**فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ**﴾ يعني: الأنبياء الثمانية عشر المذكورين أعني: نوحًا وإبراهيم وغيرهما ومَنْ تابعهم. ويدلُّ عليه وجهان، أحدهما: قوله: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾، فإنه إشارةٌ إلى الأنبياء المذكورين، فإن لم يكونوا هو الموكلين لزم الفصل بين ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، و﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ بالأجني. وثانيهما: قوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ فإنَّه متَّصل بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ مترتِّب عليه، وهو إشارةٌ إلى الذين هداهم الله بهداه، وأخبر بأنهم لو أشركوا لَحبطت أعمالهم، فالمعنى: فإن يكفر بها هؤلاء المشركون فقد وكَّلْنا بها القوم الذين لم يشركوا به، ولم يتصوَّر ذلك منهم إلا على سبيل الغرض والتقدير؛ فأقيم المظهر موضع المضمر ونكر تعظيمًا وتكريمًا.

و«الباء» صلة ﴿كَافِرِينَ﴾ بناءً على تجويز إعمال ما بعد حرف الجرِّ المزيدة فيما قبله، سيما الظَّرف أو على أن يتعلَّق بمحذوف يفسِّره المذكور.[٢٠٤٦]

وقيل: تعقيب جميع ما ذكر بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾ الآيتين للتسلِّي والتَّأسِّي، أما التسلِّي فإنَّ «الفاء»، إمَّا عاطفة الشَّرطيّة على الأولى على التَّرتيب، أي: أولئك الكَمَلَةُ، هم الذين آتيناهم ما آتيناهم، فإن يكفُرْ بها هؤلاء الحمْقَى فلا بأس، فإن أولئك الكَمَلَةُ قد آمنوا بها، وأنتَ منهم، فقد أمنتَ بكتابك ومن اتّبعك من المؤمنين.

أو جزائية؛ لأن في ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ معنى الشرط، والشرطية خبرٌ له، والجملة خبر أولئك. و لا بدَّ في الجزاء من رابط بالمبتدأ، فوضع ﴿قَوْمًا﴾ موضع الضمير، أي: منحناهم ما منحنا به، فقاموا بحقِّها، فإن أضاعها هؤلاء الكفرة، فأولئك الأقوام غير موصوفين بذلك، وأنت سيِّدهم، فلا تحتفلْ بذلك. وأما التَّأسِّي فهو قوله:[٢٠٤٧]

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٠)

[٢٠٤٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٦١.

[٢٠٤٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و ٣٣٥ظ.

[٢٠٤٧] **فتوح الغيب**، ٦/ ١٥٤-١٥٥.

فاختصَّ طريقتَهم بالاقتداء على أنَّ «الباء» داخلةٌ على المقصور كما في قولك: نخصك بالعبادة، أي: اجعل اقتداءك مقصورًا على هداهم وطريقهم. فقوله: ﴿**فَبِهُدَاهُمُ**﴾ متعلّق بـ﴿**اقْتَدِ**﴾ قدّم عليه ليفيد الاختصاص.[٢٥٤٨]

وقال قدس سره: والمراد: ما توافقوا عليه من التَّوحيد وأصول الدِّين، دون الفروع المختلَف فيها فإنَّها ليست هدًى مضافًا إلى الكلِّ، ولا يمكن التَّأسِّي بهم جميعًا، فليس فيهم دليلٌ على أنه ع م متعبَّد بشرع مَن قبله.[٢٥٤٩]

وقال ابن الكمال: بقي هنا قسمٌ آخر وهو الفروع المتَّفق عليه كالصَّوم والصَّلاة وحرمة الكذب والزِّنا، فيدخل هذا القسم من الفروع مع الأصول تحت مطلق الهدي من المشترك المضاف إلى الكلِّ، فيصلح متمسّكًا في الجملة لِمَنْ قال: إنه ع مكان متعبَّدًا بشرائع مَن قبله.[٢٥٥٠]

وأنت خبير: بأن اللائح أن منع التَّمسُّك على حاله؛ لأن من منع الدّلالة تدخل الفروع المتَّفق عليه في الأصول ولا يبقيه، ومن استدل يريد الدلالة في الفروع المختلَف فيه.

وأما قوله: ليست هدًى مضافًا إلى الكلِّ، ففيه أنّ الظّاهر أنّ الإضافة إلى الكلِّ غيرُ لازمةٍ؛ إذ الشَّمائل المتفرِّقة فهم قد اجتمع في النبيِّ، وبه ظهر فضله عليهم.

فإن قيل: الواجب في الاعتقادات وأُصول الدّين، هو اتِّباع الدّليل من العقل والسَّمع، ولا يجوز سيَّما للنَّبي أن يقلِّد غيره، فما معنى أمْرِه بالاقتداء بهداهم؟

قلنا: معناه: الأخذ به، لكن لا من حيث إنه طريقَهم، بل من حيث إنَّه طريق العقل والشَّرع، ففيه تعظيمٌ لهم وتنبيهٌ على أنَّ طريقتَهم هو الحقُّ الموافق لدليل العقل والسَّمع.[٢٥٥١]

وقد يقال: ظاهر الآية وسياق الكلام الأمر بالاقتداء بهداهم [**١٢٨**/ظ] من حيث إنه هداهم وطريقهم الذي آتاها الله إيَّاهم من غير ملاحظة لكونها طريقةَ العقل واعتبارها ههنا ولو على رأي المعتزلة بعيد.

وقيل: لعلَّ الأوجه في الجواب أن يقال: معناه الأخذ به لكن لا لمجرَّد كونه طريقتهم بل بالنّظر فيما يؤدّي إليها، والحقّ أنَّ الاقتداء بهم بعد أمر الله اقتداءً بالسَّمع وهو أقوى عند العارفين من الدليل العقلي، والكلام مبني على التّفريق والجمع فرقهم أو لا مع فضائلهم في تلك الآيات، ثمَّ جمعها في ذلك هدى الله وجمع دوابهم معها في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ وأمره ع م بالانخراط في مسلكهم ولا بدَّ من امتثاله بذلك الأمر فاجتمع فيه جميع خصائلهم المتفرقة، ويدخل في هذ العام بحسب المقام الصَّبر دخولاً أوَّليًا وهذه الفضيلة وهي كونه صلوات الله عليه مأمورًا باتِّباعهم أَعْلى فضائلهم وأَسْنى مراتبهم المذكورة؛ لأن سيد المرسلين أمر باقتدائهم.

و«الهاء» في ﴿اقْتَدِهْ﴾ للوقف، وليس لضمير؛ لما عرفتَ أنَّ ﴿بِهُدَاهُمْ﴾ متعلّق به ولا يتعدَّى إلى اثنين وحقّها أن لا تثبت في حال الوصل، كما لا تثبت همزة الوصل فيها؛ لأنَّ هذه الهاء في حال السَّكت بمنزلة همزة الوصل في حال الابتداء،

[٢٥٤٨] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٨٩.

[٢٥٤٩] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٣. **نواهد الأبكار**، ١٢٨/٦.

[٢٥٥٠] **نفسير ابن كمال باشا**،٣٦٢-٣٦٣.

[٢٥٥١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٥ظ؛ **نواهد الأبكار**، ١٢٨/٦؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٨٩.

فكما لا تثبت الهمزة حالة الوصل كذلك لا تثبت الهاء[٢٥٥٢] وذلك لأن هذه الهاء للوقف كما أنّ همزة الوصل للابتداء بالساكن.

ومن أثبتَها في الدّرج ساكنةً كابن كثيرٍ ونافعٍ وأبي عمرٍو وعاصمٍ أَجرى الوصل مُجرى الوقف، ولعلّ المقتضى لذلك لكونها ثابتةً في المصحف فكرهوا مخالفته فأثبتوها في الحالين، وأشبعَها ابنُ عامر على أنَّها كنايةٌ عن المصدر وليست بهاء الوقف كأنه قال: فبهداهم اقتد الاقتداء، والفعل يدلُّ على المصدر، فكنى عنه كما حكى سيبويه من قولهم: من كذب كان شرًّا له، أي: كان الكذب شرًا له. وابن ذكوان بكسرها بياءٍ[٢٥٥٣] وهشامٍ بلا ياءٍ وهما راويَا ابن عامرٍ، وحمزة والكسائي يحذفَانها في الوصل.[٢٥٥٤]

﴿**قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ**﴾ أي: على التَّبليغ أو القرآن ﴿**أَجْرًا**﴾: جُعْلًا من جهتكم، كما لم يسأل مَن قبلي. وهذا من جملة ما أُمِر بالاقتداء بهم فيه.[٢٥٥٥] وهو يؤيد دخول بعض الفروع في الأصول كما ذكرنا وذلك؛ لأنَّ شأنهم النَّصيحة، والنصيحة لا تمحصها ولا يتمحضها إلا حسم المطامع وما دام يتوهم شيءٌ منها لم ينجع ولم ينفع.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٩١)

﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ**﴾ اعلم أن المعرفة تُعبّر عنها بالقدر لكونه سببًا لها وطريقًا إليها. يقال: قَدَرَ الشيءَ يَقْدُرُهُ بالضم قَدْرًا إذا أسبره وحزره. وأراد أن يعلم مقداره. ومنه قوله: «إذا غُمَّ عَلَيْكُمْ الهِلَالُ فَاقْدُرُوا لَه»،[٢٥٥٦] أي: فاطلبوا أن تعرفوه.[٢٥٥٧]

فالمعنى: ما عرفوه حقَّ معرفته في الرَّحمة والإنعام على العباد، حين أنكروا الوحي وبعثةَ الرّسل، وذلك من عظائم رحمته وجلائل نِعْمته، فإن الخَلق لم يُخلقوا سُدًى؛ إذ لا يليق بالحكيم فهم مكلَّفون فلا بدَّ من التبليغ؛ إذ لا يكفي فيه العقل ولو سلّم الكفاية في الجملة، فلا بدَّ من التَّنبيه والتَّفصيل والشرح، أو في السَّخط على الكفَّار، وشدَّة البطش بهم حينَ جَسَرُوا على هذه المقالة.[٢٥٥٨] وذلك؛ لأن كلًّا من المعلَّق والمعلَّق به، أعني: ﴿مَا قَدَرُوا﴾ ﴿إِذْ قَالُوا﴾ يحتمل معنيَين مختلفين، فإذا فُسِّر الأول بصفة اللّطف يكون الثاني إنكارًا لها، وإذا فسّر بصفة القهر يكون الثاني جسارةً على جحودها.

«والقائلون هم اليهود» فورد عليه أنهم يعتقدون الإنزال والإرسال فكيف يقولون ذلك؟ وأجب: بأنهم قالوا ذلك مبالغةً في إنكار القرآن على طريقة الحمية والغضب يؤيده: أنَّ مالكَ بن الصَّيف خرج مع نفرٍ إلى مكَّة؛ ليسألوا معاندةً، وكان سمينًا فأتى النّبي فقال له: «أَنْشُدُك بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تجدُ فيها أن الله يُبْغِضُ الحَبْرَ السَّمِين»؟ قال: نعم، قال: «فأنتَ الحَبْرُ السَّمِينُ»، قد سَمِنْتَ من مأكلتِك التي تُطعمك اليهودُ»، فَضِحك القومُ، فخجل فقال ذلك غضبًا، فلمَّا رجع،

[٢٥٥٢] ج — الهاء.

[٢٥٥٣] أي: «فَبِهُدَاهُم اقْتَدِهِي قُلْ». **إتحاف**، ٥٣٦/١.

[٢٥٥٤]**التيسير**، ص ٣٤٤؛ **النشر**، ١٩٥/٢؛ **إتحاف**، ٥٣٦/١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٨٩-٩٠.

[٢٥٥٥]**نواهد الأبكار**، ١٢٩/٦.

[٢٥٥٦]**صحيح البخاري** ١٩٠٠.

[٢٥٥٧]**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٩٠.

[٢٥٥٨]**الكشاف**، ٤٢/٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٤؛

قال له قومُه: لم قلتَ ذلك؟ قال: قد أغضبني قالوا: كلّما غضبتَ قلتَ بغير حقٍّ فأخذوا الرّياسة عنه، وجعلوها إلى كعب بن الأشرف.[٢٥٥٩] وبهذا لا يرد أن السورة مكّيَّةٌ، وأنها نزلت دفعةً ومناظرة اليهود وقعت بالمدينة. ولا يحتاج إلى الجواب بأن هذه الآية مستثناة. وأمّا الاعتراض بأنها إذا نزلت دفعةً فكيف يمكن أن الآية العلانية نزلت في كذا فقد مرَّ ما يكون جوابًا عنه.

ووجه النّظم أنه تع لما وصف أمة محمد بقوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾، وأنهم الذين قاموا بحقوق جميع الكتب المنزَّلة على جميع الأنبياء، ووفّقوا بالإيمان بكلّها، ويحفظ مقتضاها، استطراد ذكر اليهود، وأنهم على ضدِّ ذلك، حيث طعنوا على الكتب المنزَّلة، وحرَّفوا التوراة [**١٢٩**/و] وغيّروها، وكتَموا بعضها.

وأمَّا إذا أريد بالقوم: الأنبياء، وهو الأوجه كما سبق، فالمعنى: أنهم الذين يعرفون الله، وجلالَ سلطانه، وكمال حكمته في إنشاء خلقه؛ لأنه تع: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر ١٥/٨٥]، وهو أن يُعْبَدَ حقَّ عبادته، ويُعرف حق معرفته، وذلك لا يتمُّ إلا بإرسال الرُّسل، وإنزال الكتب لإرشاد الخلق إلى ما خلقوا لأجله، وهؤلاء اليهود ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.[٢٥٦٠] إذ قالوا ما قالوا، أو المشركون فورد عليه أنهم وإن كانوا ينكرون الإنزال والإرسال مطلقًا، بحيث يمكن أن ينسب إليهم ذلك القول، لكن كيف يمكن نقضُ كلامهم وإلزامهم بنبوّة موسى ونزول التَّوراة مع ذلك الإنكار منهم؟

وأجيب: بأنهم كانوا مختلطين باليهود وكانوا يسمعون ذكرَ موسى والتوراةَ، وما أظهر الله على يده من المعجزات القاهرة فكان ذلك جاريًا مجرى اعترافهم بنبوَّة موسى، وإنزال التوراة، فلم يبعد إلزامهم بذلك، ويعلم من الآية أن النَّكرة تعمُّ في سياق النفي؛ لأنها لو لم تفد لم يتوجهْ النقصُ والإبطالُ بما يذكر.[٢٥٦١]

وعن بعض العارفين: كيف يقدر أحدٌ حقَّ قدره وهو يقدره، يريد أن يقدر قدره، وأوصاف الحدث أين تقع من أوصاف القدم.

وقال بعضهم: ما عرفوه حقَّ قدره، ولو عرفوا ذلك لذَابت أرواحُهم عند كلِّ واردٍ يرد عليهم من صنعه.[٢٥٦٢]

وعنه ع م: «تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللهِ، وَلاَ تَفَكَّرُوا فِي اللهِ؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَقْدِرُوا قَدْرَهُ».[٢٥٦٣]

﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٩١)

قرأ الجمهور الأفعال الثلاثة بتاء الخطاب[٢٥٦٤] ردًّا على ما قبله من لفظ المخاطبة، وهو قول: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾. أمر الله رسوله أن يسألهم مخاطبًا لهم بذلك، ويعضده أيضًا ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ و﴿قُلِ اللَّهُ﴾ فهذا كلُّه خطاب كما ترى. فلمَّا كان كذلك حمل عليه ليكون الكلامُ على سياقٍ واحدٍ، ثم إنّ الخطاب إن كان لليهود ففي الكلام مع الإلزام إدماجُ التَّوبيخ سوء صنعهم.

[٢٥٥٩] **الكشاف**، ٤٢/٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٤؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٩١-٩٢.

[٢٥٦٠] **فتوح الغيب**، ١٥٧/٦-١٥٨.

[٢٥٦١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٩١-٩٢.

[٢٥٦٢] **حقائق التفسير**، ٢٠٨/١؛ **عرائس البيان**، ٣٨٢/١.

[٢٥٦٣] **العظمة** لأبي الشيخ الأصبهاني، ٢١٤/١ (٤).

[٢٥٦٤] أي: ﴿تَجْعَلُونَهُ...تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ﴾ **السبعة**، ص ٢٦٢؛ **التيسير**، ص ٣٤٤.

وكان من حقِّ الظاهر قل: ما التوراة؟ ثمَّ مَن أنزل التوراة؟ فإنه كافٍ في الإلزام فعدل إلى قوله: ﴿الْكِتَابَ﴾، ووصفه باسم، وجعل صلته ما ينبئ عن التَّوبيخ والنَّعي، على سبيل الإدماج، حيث وصف الكتاب أولًا بالتَّعظيم، وذكر النبيّ المكرَّم، وجعله نورًا وهدًى للنّاس كافَّةً، ثم أتى بقوله: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾، على سبيل الاستئناف، لبيان الموجب، على سبيل التعكيس، لأنَّ كونه نورًا وهدًى يوجب أن يجعل ذريعةً إلى التَّخلُّص من ظلمات الجهالات، ووسيلةً إلى النَّجاة من ورطات الكفر والضَّلالات، فعكسوا وحقَّروه، حيث جعلوه ذا قراطيس مقطَّعة، وورقاتٍ مفرَّقة وبعَّضوه، فأَخْفَوا ما أرادوا، وأبدَوْا ما اشتَهْوا ليُضِلُّوا ويَضِلُّوا.[٢٥٦٥]

﴿وَعُلِّمْتُمْ﴾ لا يدخل من جهة المعنى في حيِّز ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ إلى آخره؛ ولذا قالوا: إنه في موضع الحال، أو عطفٌ على مقول ﴿قُلْ﴾ على أنه مفعولٌ آخر بالاستقلال، أي: علِّمتم على لسان محمد ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم وهو أكثر ما كنتم فيه تختلفون، كما قال تع: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل ٧٦/٢٧]، وإن كان للمشركين، ففيه إشكالٌ من وجهين، الأول: أنهم ما جعلوا الكتاب الذي جاء به موسى قراطيس لإبداء بعضٍ وإخفاء بعضٍ، فلعلَّ القائلَ به يتمحَّل ويقول: إنهم لَمَّا كانوا يسمعون من اليهود وكانوا راضين بفعلهم خوطبوا بذلك، الثاني: أنهم ما علموا ما لم يعلمه هم ولا آباؤهم، فيتمحَّل بأن الخطاب فيه كان لمن آمن منهم.

وفيه بعض تفكيك الخطابات فيصدر بأن يعلم بعضهم كتعليمهم على نسبة فعل واحد من الجماعة إليهم، وفيه ما فيه، وأمَّا جعل الخطاب في ﴿تَجْعَلُونَهُ﴾ لمؤمنيهم أيضًا ففيه ما فيه أيضًا اللَّهم إلا أن يجعل للناس على الالتفات.

وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو بالتاء[٢٥٦٦] حملًا للكلام على الالتفات، فإنّ قوله: ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ لما كان جوابًا لهم كان المطابق له تجعلونه على لفظ الخطاب إلا أنه التفت إلى طريق الغيبة تبعيدًا لهم عن ساحة عن الحضور والخطاب بسبب فعلهم القبيح، ثم التفت ثانيًا من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿وَعُلِّمْتُمْ﴾ تنبيهًا على أن الغائبين هم المخاطبون، وما أحسن هذان الالتفاتان: حيث أعرض عنهم عند إرادة نسبة القبيح إليهم، حتى لا يواجَهوا به وحيث نسبَ إليهم الحسن وهو عِلْم ما لم يعلموا خاطَبهم به.[٢٥٦٧]

قال الحسن: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ معناه: جعل لهم ما جاء به محمد فضيَّعوه ولم ينتفعوا به،[٢٥٦٨] ثمّ إنّ الكلام إن كان مع اليهود فالأمر ظاهرٌ، وإن كان للمشركين. فقوله: ﴿وَعُلِّمْتُمْ﴾ عطفٌ على ﴿أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ من حيث المعنى، أي: قل مَنْ أنزل التوراة؟ ومن علَّمكم ما لم تعلموا؟ [**١٢٩**/ظ] وتقديره أنَّهم لَمَّا قالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ قيل لهم: ما الكتاب المنزَّل على موسى واليهود يفعلون به ويصنعون ما يصنعون؟ وما ذلك الكتاب الذي عرفتُموه؟ حيث[٢٥٦٩] تُحدِّيتم به، وأنتم فرسان البلاغة، وزعماء البيان، فما قَدَرتم على الإتيان بأقصر سورة، فعرفتم أنَّه حقٌّ وصدقٌ.[٢٥٧٠]

فإن قيل: هل يمكن ﴿تَجْعَلُونَهُ﴾ راجعًا لهم أيضًا على سبيل الالتفات المذكور؟

[٢٥٦٥] **فتوح الغيب**، ٦/ ١٥٩-١٦٠.

[٢٥٦٦] **السبعة**، ص ٢٦٢؛ **التيسير**، ص ٣٤٤.

[٢٥٦٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٩٣/٤؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٦٤-٣٦٥.

[٢٥٦٨] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٩٣/٤.

[٢٥٦٩] ج — حيث.

[٢٥٧٠] **فتوح الغيب**، ٦/ ١٥٩.

قلت: يجوز على التَّوجيه المذكور هناك، ثمَّ لا يخفى عليك أنَّ خطاب ﴿عُلِّمْتُمْ﴾ لا يكون لمؤمنيهم على هذه المطالعة ولا التفات في الكلام، ويجوز أن يكون لهم على أن لا يعطف على أنزل، بل يكون على المنوال السَّابق في الوجه السَّابق.

﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾

أي: أنزله الله، أو الله أنزله[٢٥٧١] يعني: أنَّ السؤال جملة اسمية صورة، وفعلية حقيقة تقديره: أنزل الله أم غيره لا الله أنزله أم غيره. وذلك؛ لأن الاستفهام بالفعل أولى لكونه مغيّرًا، فلمَّا أريد الاختصار وضعت كلمة من دالة على تلك الدوابِّ إجمالًا ومتضمِّنة بمعنى الاستفهام، وبهذا التَّضمين وجب تقديمها على الفعل، فصارت الجملة اسميةً، وهي في الحقيقة فعليةٌ فروعي في الجواب جهتاها أمره ع م بالجواب عنهم؛ إشعارًا بأنّ الجواب متعيّنٌ لا يمكن غيره، وتنبيهًا على أنَّهم بُهتوا بحيث لا يقدرون على الجواب، و﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الكلام بعد الإلزام؛ أي: لا كلام إلا هذا، ولهذا سمّى كلامهم غير هذا خوضًا في الباطل؛ أي: هواءً وهَذَيَانًا، وسمَّاهم لاعبين؛ لأنَّ الكلام الذي ليس بنافع ولا معقول لعب.

ومعنى ﴿ذَرْهُمْ﴾: لا عليك بعد إلزام الحجَّة أن لا يسكتوا فاتركهم.[٢٥٧٢]

وفيه أيضًا من التَّهديد والتشديد ما لا يخفى، فلا حاجةَ إلى القول بأنَّها منسوخة بآية القتال؛ لأن ذلك المعنى لا ينافي حصولَ المقاتلة، فلم تكن آيةُ القتال رافعًا لشيء من مدلول الآية و﴿يَلْعَبُونَ﴾ حال.[٢٥٧٣]

أمَّا من ﴿هُمْ﴾ الأوَّل والظرف صلة ﴿ذَرْهُمْ﴾، أو صلة ﴿يَلْعَبُونَ﴾؛ أو حالٌ من مفعول ﴿ذَرْهُمْ﴾، كما أن ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حالٌ منه على مذهب من يجوّز تعدُّدَ الحال من ذي حالٍ واحدٍ، أو من فاعل ﴿يَلْعَبُونَ﴾، وأمَّا من ﴿هُمْ﴾ الثَّاني، وإنما جاز ذلك؛ لأنه في قوَّة الفاعل؛ لأن المصدر مضافٌ إلى فاعله. والتقدير: ذرهم يخوضوا لاعبين.

«ومن كرام بعض الكلام، كلام بعض الكرام، ومن آفات اللِّسان: الخوضُ في الباطل، وهو الكلام في المعاصي، كحكاية أحوال النِّساء، ومجالس الخمر، ومقامات الفسَّاق، وتنعُّم الأغنياء، وتجبُّر الملوك، ومراسمهم المذمومة، وأحوالهم المكروهة، فإنَّ كلَّ ذلك ممَّا لا يحلُّ الخوضُ فيه، فهذا حرام.

وأمَّا الكلام فيما لا يعني، أو أكثر ممَّا يعني فهو ترك الأولى، ولا تحريمفيه نعم، من يكثرُ الكلامَ فيما لا يعني، لا بدَّ من نيله الخوض في الباطل، وأكثر الناس يتجالسون للتفرُّج بالحديث، ولا ولا يعدو كلامهم التفكُّه بأعراض الناس، أو الخوض في الباطل. وأنواع الباطل لا يمكن إحصارها؛ ولذلك لا مخلصَ منه إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمّاتِ الدين والدنيا، في هذا الجنس تقع من الكلمات ما يهلك صاحبَها وهو مستحقرٌ لها.

وقد قال بلال بن الحارث: قال رسول الله صلعم: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوانِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أنهُ تَبْلُغُ مَا بلَغَتْ يكْتُبُ اللَّه بِهِ رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يلْقَاهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِنْ سَخَطِ اللَّه مَا يظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ بِهِ مَا بلَغَتْ فَيَكْتُبُ اللَّهُ عليه به سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.[٢٥٧٤]

[٢٥٧١] ج : أي: الله أنزله أو أنزله الله.

[٢٥٧٢] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٦٥.

[٢٥٧٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٩٣/٤.

[٢٥٧٤] **سنن الترمذي** ٢٣١٩؛ **سنن ابن ماجه** ٣٩٧٩.

وقال رسول الله قال رسول الله صلعم: «أَعْظَمُ النَّاسِ خَطَايَا يَوْمَ القِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ خَوْضًا فِي الْبَاطِلِ»،[٢٥٧٥] وإليه الإشارة بقوله تع: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ [المدثر ٤٥/٧٤]، وقوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء ١٤٠/٤].

وَقَالَ سَلْمَانُ:إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ذُنُوبًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ كَلَامًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ.[٢٥٧٦]

وقال ابنُ سيرين: «كَانَ رَجُلٌ من الأنصارِ يمرُّ بمجلسٍ لهم فيقول: تَوَضَّئُوا فإنَّ بعضَ ما تَقُولُون شرٌّ مِنَ الْحدثِ».[٢٥٧٧] فهذا هو الخوض في الباطل، وهو وراءَ الغيبة والنَّميمة والفحش وغيره، بل هو الخوضُ في ذكر محظوراتٍ سبق وجودها، أو تدبّر في التَّوصل إليها، من غير حاجةٍ دينيَّةٍ إلى ذكرها، ويدخل فيه أيضًا الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة، وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجهٍ يوهِمُ الطَّعن في بعضهم، وكلُّ ذلك باطلٌ، والحديث فيه خوض في الباطل.[٢٥٧٨] وقس على ذلك الخوض في الباطل فعلًا. وقد قال ع م: «عَلَامَةُ إِعْرَاضِ اللهِ مِنَ الْعَبْدِ اشْتِغَالُهُ لِمَا لَا يَعْنِيهِ».[٢٥٧٩]

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩٢)

لَمَّا أبطل قول من نفى الإنزال والإرسال أثبت أن القرآن كتاب أنزله الله على محمد ووصفه أوَّلًا بأنَّه أنزله ليعلم أنه هو المتولي إنزاله بالوحي على لسان جبريل وليس تركيب هذه [**١٣٠**/و] الألفاظ على هذه الفصاحة من قبل الرَّسول. وثانيًا: بأنه مبارك، أي: كثير النَّفع كيف لا، وفيه من العلوم النّظريَّة ما يتعلَّق بالذَّات والصِّفات والأسماء والأفعال والأحكام، ومن العلوم العمليَّة ما يتعلّق بالأخلاق وتزكية النفس وما يتعلق بالجوارح، وفيه بناء الأولين وخبر الآخرين وحكم المكلفين، وفيه ما يتعلَّق بنظام الدّنيا والدين وتفاصيل النشأة الأولى والنشأة الأخيرة وغير ذلك مما لا يحيط به الحصر، وثالثًا بأنه مصدِّق لما قبله من الكتب الإلٰهية، أمّا في الأصول فظاهر، وأمّا في الفروع فلأنه وإنْ وقع الاختلاف فيها باختلاف الأزمنة والأمم إلا أنَّ ما وقع في كلِّ عصر لما وافق لما اقتضته الحكمة كانت متوافقة من هذه الحيثية.[٢٥٨٠]

وقيل: فلان الكتب مشتملةٌ على البشارة بمقدم محمد، وإذا كان كذلك فقد حصل فيها أنّ التَّكاليف الموجودة فيها، إنما تبقى إلى زمان بعثته ع م، ثم تصير منسوخة، فالقرآن مصدق لهذا المعنى. قال الإمام: قد جرت سنة الله بأن يعطي الباحث عن القرآن وللتمسك به عز الدارين وأنا تعلَّمت أنواعًا من العلوم العقليَّة والنَّقلية، ولم يحصل بسبب تلك العلوم شيءٌ من أنواع السَّعادات في الدّنيا والدّين مثل ما حصل بسبب خدمة العلم بما في القرآن.[٢٥٨١]

[٢٥٧٥] **الصمت وآداب اللسان** لأبي الدنيا، ٧٤ (٧٩).

[٢٥٧٦] **المصنف لابن أبي شيبة**، ١٢٠/٧ (٣٤٦٥٩)؛ **الصمت وآداب اللسان** لأبي الدنيا، ٧٩ (٧٥)**حلية الأولياء** لأبي نعيم، ٢٠٢/١.

[٢٥٧٧] **الصمت وآداب اللسان** لأبي الدنيا، ١٠٥.

[٢٥٧٨] **إحياء علوم الدين**للغزالي، ٤١٦/٥-٤١٨. دار المنهاج، الطبعة الثالثة، ٢٠١٥/١٤٣٦، جدة.

[٢٥٧٩] لم أقفه.

[٢٥٨٠] **مفاتيح الغيب**، ٨٥/١٣-٨٦؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٩٤.

[٢٥٨١] **مفاتيح الغيب**، ٨٥/١٣-٨٦؛ **مفاتح الغيب**، ٨٥/١٣.

وعطف المصنفان قوله: ﴿وَلِتُنْذِرَ﴾ على ما دلَّ عليه صفة الكتاب، كأنه قيل: أنزلناه للبركات وتصديق ما تقدَّمه من الكتب والإنذار.[٢٥٨٢]

واعترض عليه النِّحرير بأنه لا حاجة إلى هذا التَّكلُّف لجواز عطفه على صريح الوصف، أي: مبارك وكائن للإنذار ومثل هذا، أي: عطف الظَّرف على المفرد في باب الخبر والصفة كثير.[٢٥٨٣]

وأنت خبير: بأن الظَّاهر المتبادر من نظم الآية وقوع لينذر ظرفًا لـ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ واقعًا موقع التعليل له بواسطة حرف العطف، كما وقع تعليلًا في بعض الآيات، لا كونه ظرفًا متعلِّقًا بمحذوف معطوف على الصِّفة. وصرفه عنه إلى ما ذكره ليس أقل تكلفًا من أن يجعل مباركًا دالًّا على معنى البركات، ويعطف ﴿لِتُنْذِرَ﴾ عليه؛ إذ فهم ذلك المعنى بواسطة تعلُّق ﴿أَنْزَلْنَا﴾بضمير ﴿كِتَابٌ﴾ موصوفبـ﴿مُبَارَكٌ﴾ غير معتد؛ لأنه في قوَّة ترتيب الحكم على المشتقّ المشعر بعلِّية مأخذ الاشتقاق.

﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ أي: أهل أمّ القرى على حذف المضاف، وهي مكَّة شرفها الله سميت بذلك؛ لأنها قبلةُ أهل القرى ومحجّتهم ومجتمعهم، وأعظم القرى شأنًا، ولأنَّ الأرض دحيت من تحتها ولأنها مكانُ أوَّل بيتٍ وُضع للناس.[٢٥٨٤]

وقال ابن الكمال: وإنما خصَّهم بالذِّكر مع أنَّ أصل الإنزال للإنذار العامّ؛ لأن نزوله عربيًّا لأجلهم، على ما أفصح عنه قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى ٤٢/٧].[٢٥٨٥]

وأنت خبير: بأن دليله لا يفيد مدعاه، بل هو يدلُّ أيضًا على عموم الإنذار وإن كان عربيًّا، اللهم إلا أن يقال: إنزاله عربيًا لأجلهم، ثم يتلقى سائر النّاس منهم بعد فهمهم.

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أهل الشّرق والغرب؛ فإنها لسطح الأرض كالنّقطة المركزية للدَّائرة فيكونان حولها. فبطل احتجاج طائفة من اليهود على أنه ع م مبعوث للعرب حملًا للحول على القرب المحيط بها، وزعمًا أن المراد جزيرة العرب مع أن الحمل عليه يبطله قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ ٣٤/٢٨] وإنما جعل الإيمان بالآخرة سببًا للإيمان بالقرآن والرَّسول ولمحافظة الصلاة؛ لأن من صدَّقها خافها، ولا يزال يحمله على النَّظر والتَّدبُّر حتى يؤمن بالثابت بالدليل ليكون له كالدليل، ويحافظ على الطاعة؛ ليفلح فيها ويخصص الصلاة؛ لأنها عماد الدِّين، وعلم الإيمان ومستتبعه سائر الطاعات، وناهيةٌ عن الفحشاء والمنكرات، وجالبة لأنواع المبرّات، وسالبة أصناف الآفات.[٢٥٨٦]

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ (٩٣) ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٩٤)

لَمَّا أبطل قول من قال: ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ وبيّن كون القرآن كتابًا نازلًا من عنده، وبيَّن شرفه ذكر وعيد من دعى النُّبوة كذبًا، كمسيلمة الكذاب صاحبِ اليمامة والأسودِ العَنْسِيِّ صاحبِ صنعاءَ.

[٢٥٨٢] **الكشاف**، ٢/٤٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٤.

[٢٥٨٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٦و.

[٢٥٨٤] **الكشاف**، ٢/٤٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٤؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٦٧.

[٢٥٨٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٦٧.

[٢٥٨٦] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٤؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٦٨.

وعنه ع م: «رَأَيْتُ فيما يرى النّائمُكَأَنَّ فِي يَدَيَّ سِوَارَيْنِ مِن ذَهَبٍ فَكَبُرَا عَلَيَّ ، وَأَهَمَّانِي، فأَوْحِى اللّهُ إِلَيَّ: أَنِ انْفُخْهُمَا، فَنَفَخْتُهُما فَطَارَا عَنّيِ، فأَوَّلْتُهما الكَذَّابَيْنِ اللَّذَيْنِ أَنَا بَيْنَهُمَا؛ كَذَّابُ اليَمَامَة مُسَيْلِمَة وكَذَّابُ صنعاء الأسود».[٢٥٨٧]

ووجه التأويل: أن السِّوار سيَّما الذهبي لا يناسب الرِّجال، سيَّما الأنبياء، وكونهما في يديه دليل على نزاع فيما يتَقَوَّى به من أمر النُّبوة ونفخه فيها على استحقار شأنهما وإزالتهما بأدنى التفات،[٢٥٨٨] أو إختلق على الله أحكامًا كعمرو بن لحيٍّ وهو أوَّل من غيَّر دينَ إسماعيل، ونصب الأوثانَ، وبحر البحيرةَ [**١٣٠**/ظ] وسيَّب السَّائبة. قال ع مفي حقِّه: «رَأَيْتُهُيَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ»[٢٥٨٩]

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ مبتدأ وخبر و﴿كَذِبًا﴾ مفعول ﴿افْتَرَى﴾، أي: اختلق كذبًا وافتعله ولا فائدة في جعله مفعولًا مطلقًا؛ لأنَّ الكذب أعمُّ من الافتراء، بخلاف ما إذا كان المصدر نوعًا من الفعل نحو: قعد القرفصاء، أو مرادفًا له نحو: قعدت جلوسًا. ويحتمل أن يكون مفعولًا له، أي: افترى لأجل الكذب أو مصدرًا واقعًا موقعَ الحال، أي: افترى حالَ كونه كاذبًا وهي حال مؤكِّدةٌ.[٢٥٩٠]

وقوله: ﴿أَوْ قَالَ﴾ عطفٌ على ﴿افْتَرَى﴾، وهذا كعبد الله بن سَعد بن سَرْح، كان يكتب لرسول الله، فلمَّا نزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون ١٢/٢٣]، فلمَّا بلغ قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون ١٤/٢٣] قال عبد الله: تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ تعجُّبًا من تفصيل خلق الإنسان، فقال ع م: «اكْتُبْهَا فَكَذَلِكَ نَزَلَتْ» فشكَّ عبد الله وقال: إنْ كان محمدٌ صادقًا لقد أوحي إليَّ كما أوحي إليه، ولئن كان كاذبًا لقد قلتُ كما قال، فارتدَّ عن الإسلام ولحق بالمشركين.[٢٥٩١]

فلمَّا دخل ع م مكَّة أمر بقتله ففرَّ إلى عثمان؛ إذ كان أخاه رضاعًا فغيَّبه، ثم أتى به رسول الله بعد ما أطمأنَّ أهل مكة، فاستأمنه له، فصَمَت ع مطويلًا، ثم قال: «نعم»، فلما انصرف عثمان قال ع ملمن حوله: «ما صَمَتُّ إلا ليقوم إليه أحدكم فيقتله». فقال رجل: هلَّا أَوْمَأْتَ إليَّ؟ فقال: «إنَّ النَّبيَّ لا ينبغي أن تكون له خائنةُ الأعين».

وقد قيل: إنه أسلم أيَّامَ الفتح، فحسُن إسلامه ولم يظهر منه شيءٌ ينكَر عليه بعد ذلك. وهو أحد النُّجباء العقلاء الكُرماء من قريش.[٢٥٩٢]

﴿وَمَنْ قَالَ﴾: عطف على ﴿افْتَرَى﴾ أيضًا، وهذا كالذين قالوا: لو شاء[٢٥٩٣]لقنا مثل هذا.[٢٥٩٤]

وعن عكرمة: نزلت في النَّضر بن الحارث؛ حيث عارض القرآن وقال: والطّاحنات طَحْنًا، والعَاجنات عجْنًا فالخابزات خبزًا، فاللّاقمات لَقمًا.[٢٥٩٥]

[٢٥٨٧] **صحيح البخاري**، ٤٢/٩ (٧٠٣٧)؛ **صحيح مسلم**، ١٧٨١/٤ (٢٢٧٤).

[٢٥٨٨] **فتوح الغيب**، ٦/ ١٦٤-١٦٥.

[٢٥٨٩] **صحيح البخاري، ٥٤/٦ (٤٦٢٣)**.

[٢٥٩٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٩٥.

[٢٥٩١] **الكشاف**، ٤٣/٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٥؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٦٨-٣٦٩.

[٢٥٩٢] **الجامع لأحكام القرآن**، ٤٥٩/٨-٤٦٠.

[٢٥٩٣] ج + الله.

[٢٥٩٤] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٥.

ومن هذا النَّمط مَنْ أَعرضَ عن الفقه والسُّنن، وما كان عليه السَّلف من السير، وقال: وقع في خاطري كذا، أو أخبرني قلبي بكذا، فيحكون بما يقع في قلوبهم ويَغلب عليهم من خواطرهم، ويزعمون أن ذلك لصفائها عن الأكدار، وخُلُوِّها عن الأغيار، فتتجلَّى لهم العلوم الإلهيةُ والحقائق الرَّبانية، فيقفون على أسرار الكلّيات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليَّات، ويقولون: إنما يُحكم بها على الأغبياء والعامَّة، وأمَّا الأولياء وأهل الخصوص، فلا يحتاجون إلى تلك النصوص. وقد جاء فيما ينقلون: استفت قلبك وإن أفتاك المفتُون، واستدلّوا على ما زعموا بالخَضِر، وأنه استغنى لما يحكى له من تلك العلوم، عمَّا كان عند موسى من تلك الفهوم، وهذا زَنْدَقَة وكفر، ويُقتل قائلُه ولا يُستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا إلى جوابٍ؛ فإنه يلزم منه هدُّ الأحكام وإثبات أنبياء بعد نبيِّنا، وسيأتي لهذا زيادة بيان في سورة الكهف إنشاء الله.[٢٥٩٦]

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

اللام إمَّا للعهد والإشارةُ إلى المذكورين من اليهود والمتنبّئين وسائر المدَّعين، وإمَّا للجنس فيدخل هؤلاء تحته دخولًا أوليًّا.

وحذف مفعول ﴿تَرَى﴾ لدلالة ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ عليه؛ أي: ولو ترى الظالمين. وحذف جواب ﴿لَوْ﴾ وهو: لرأيت أمرًا فظيعًا وهو لا عظيمًا؛ إيماءً إلى أنه لا يمكن وصفه لشدَّته.[٢٥٩٧]

و ﴿الظَّالِمُونَ﴾ مبتدأٌ و﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ خبره و﴿إِذْ﴾ مضافٌ إلى الجملة. وغمرات الموت: سكراته من غَمَرَهالماءُ إذ أعلاه وغطَّاه، فالغَمْرَة ما يَغْمُرُ من الماء استعيرت للشِّدة الغالبة؛ لأنها تَسْتُرُ بغمها من تنزل به.[٢٥٩٨]

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ مبتدأٌ وما بعده الخبر، والجملة حالٌ من الضَّمير قبله ﴿بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾في تقدير النُّون، أي: باسطون أيديهم ﴿أَخْرِجُوا﴾ في محلِّ النِّصب بقولٍ مُضْمَرٍ، أي: يقولون: أخرجوا والمحذوف حالٌ من الضَّمير في ﴿بَاسِطُوا﴾.

«وهذه عبارةٌ عن العُنْفِ في السِّياق، والإلحاح والتشديد في الإزهاق، من غير تنفيسٍ وإمهالٍ، وأنهم يفعلون بهم فعلَ الغريم الملظِّ، يبسط يدَه إلى من عليه الحقُّ، ويعنِّف عليه بالمطالبة ولا يمهِلُهُ، ويقول له: اخرج إليّ ماليَ عليك الساعة، ولا أَرِيمُ مكاني، حتى أنزعَه من أحد أحداقك».[٢٥٩٩] أو عن العُنْفِ في العذاب.

﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾، أي: خلِّصوها من أيدينا، أي: لا تقدرون على الخلاص، فعلى الأول: تمثيلٌ وتشبيهٌ لفعل الملائكة في قبض أرواح الظالمين بفعل الغريم الملظِّ في استيفاء حقه تصويرًا لعُنفهم في إزهاق الرُّوح والغلظة في المطالبة، والقبض من غير [**١٣١**/و] تنفيس. والسياق: نزع الروح، وإزهاقه: إخراجه، والملظّ الملازم الملح، لا أريم: لا أبرح.

وعلى الثاني: بفعل المؤاخذ الباطش القائل لأسيره؛ تهكُّمًا به: خلِّصْ نفسَك عنّي، ويؤيّد الأوَّل ما ورد في الخبر: أن نفس المؤمن تَنْشَط للخروج للِقاء ربّه، وأن روحَ الكافر تنزع انتزاعًا شديدًا، ويقال: أيتها النفسُ الخبيثةُ أخرجي ساخطةً مسخوطًا عليك إلى عذاب الله وَهَوَانه. وفيه دلالة على أن النفس غير الهيكل المحسوس.[٢٦٠٠]

[٢٥٩٥] **الجامع لأحكام القرآن**، ٨/٤٥٩-٤٦١.

[٢٥٩٦] **الجامع لأحكام القرآن**، ٨/٤٥٨.

[٢٥٩٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٦٨-٣٦٩.

[٢٥٩٨] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٩٦.

[٢٥٩٩] **الكشاف**، ٢/٤٤.

﴿الْيَوْمَ﴾ ظرفٌ لـ﴿أَخْرِجُوا﴾ فيتمُّ الوقف عليه، ويجوز أن يكون ظرفًا لـ﴿تُجْزَوْنَ﴾ ويتمُّ الوقف ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ يجوز أن يراد به وقت الإماتة، وما يعذَّبون به من شدَّة النَّزع، وأن يراد الوقت الْمُمْتدّ المتطاول الذي يلحقهم فيه العذابُ في البَرْزَخ والقيامة.

ولا بدَّ في الإضافة من الدلالة على اختصاص المضاف بالمضاف إليه، والعذاب مقرُون بالهوان متَّصف به، فإضافته إليه للدَّلالة على التمكُّن فيه والاختصاص، كأنَّه حقّه وملكه كقولك: رجلُ سوءٍ، يريد العَرَاقة فيه.

﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ متعلّقٌ بـ﴿تُجْزَوْنَ﴾ و«الباء» للسَّببية و﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ مفعول ﴿يَقُولُونَ﴾ ويجوز أن يكون وصفًا لمصدرٍ محذوفٍ، أي: قولًا غيرَ الحق، وذلك كنسبة الولد والشريك إليه، ودعوى النُّبوَّة والوحي كاذبًا وادّعاء الأحكام التي ليست إليه.

و﴿كُنْتُمْ﴾ عطف على ﴿كُنْتُمْ﴾ الأولى، أي: وبما كنتم، أو مستأنفٌ والاستكبار عن الآيات عدم الإيمان بها والحري على مقتضاها، وترك التأمُّل والنّظر فيها، والاستهزاء والسُّخرية ونحوها.

وقيل: ترك الصلاة لقوله ع م: «مَن سَجَدَ لِلَّهِ سَجْدَةً بِنِيَّةٍ صادِقَةٍ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الكِبْرِ»[٢٦٠١].

وعن ابن عباس رضي قال: قال رسول الله صلعم:«قَالَ اللَّهُ الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ». [٢٦٠٢]

عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ ، أَنَّ رسولَ الله قال: «ثَلاثَةٌ لَا يُسْأَلُ اللهُ عَنْهُمْ : رَجُلٌ نَازَعَ اللَّهَ رِدَاءَهُ ، فَإِنَّ رِدَاءَهُ الْكِبْرُ ، وَإِزَارَهُ العِزُّ ، وَرَجُلٌفي شَكٍّ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، وَالْقُنُوطِ مِنْ رَحْمَتِهِ».[٢٦٠٣]

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)﴾

أي: جئتم للمحاسبة والمجازاة منفردين من ديناكم، والأموال والأولاد وسائر ما آثرتموه منها، أو عن الأوثان التي زعمتم أنهم شفعاءكم.[٢٦٠٤]

و﴿جِئْتُمُونَا﴾ يحتمل الاستقبال، أي: تَجِيؤُنَنَا وإيراد الماضي لتحقُّقه لقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف ٧/٤٤] ولا ينافيه قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ إذ المراد التّكلم بما ينفعهم، ويحتمل أن يكون على ظاهره على أنَّه حكايةٌ لما يقال لهم في مقام الحساب؛ فإنَّ مجيئهم كذلك سابق عليه. فحينئذ يكون معطوفًا على قول الملائكة: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، أي: كما يقولون ذلك على وجه التَّعنيف، كذا يقولون: حكاية عن الله، ويجوز أن يقولوه من أنفسهم على الحكاية. والقائلون الملائكة الموكَّلون بقبض الأرواح أو بالعذاب.[٢٦٠٥]

[٢٦٠٠] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٣٧٠؛ **الجامع لأحكام القرآن**، ٨/٤٦٢.

[٢٦٠١] **مفاتيح الغيب**، ١٣/٩١.

[٢٦٠٢] **سنن ابن ماجه**، ٥/٢٧٣ (٤١٧٥)؛ **سنن أبي داود**، ٦/١٨٩ (٤٠٩٠).

[٢٦٠٣] **مجمع الزوائد** للهيثمي، ١/٩٩ (٣٥٩).

[٢٦٠٤] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٦.؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٧١.

[٢٦٠٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٩٧.

و﴿فُرَادَى﴾ نصب على أنَّه حالٌ من فاعل ﴿جِئْتُمُونَا﴾ وهي جمعُ «فَرْدَان»، كـ«سُكَارى وسَكْرَان»، أو جمع «فَرِيد» مثل «رُدَافَى» جمعُ «رَدِيفٍ»، أو جمع «فَرِدٍ» على غير قياس، والألف للتأنيث. وقرئ: «فرادًا»[2606] بالتنوين على أنه اسم صحيح، كـ«رُخَال ورَخِلٍ» وهو الأنثى من ولد الضَّأن، و«فُرَادَ» كثُلَاثَ، و«فَرْدَى» كَسَكْرَى.[2607]

﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾نصب على أنَّه صفة مصدرٍ محذوفٍ، أي: جئتمونا مجيئًا مثلَ مجيئكم يوم خلقناكم، أو حالٌ من فاعل جئتمونا إذا جوز تعدُّد الحال، أو من الضَّمير المستكنِّ في ﴿فُرَادَى﴾، أي: مشبهين ابتداء خلقكم، وفيه نظرٌ لأنَّهم لم يشهدوا بابتداء خلقهم فيقَّدر مضاف، أي: مشبهة حال مجيئكم بحال ابتداء خلقكم، أو بدلٌ من ﴿فُرَادَى﴾ والمعنى: على الصورة التي ولدتم عليها مِن الانفراد، أو حُفاةً عُراةً غُرلًا بُهْمًا ليس معكم شيءٌ فيحشر العبد غدًا وله من الأعضاء ما كان له في يوم ولد، فمن قطع منه عضوٌ يردُّ في القيامة عليه حتى يردَّ منه ما قطع عند الختان.

﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ أعطيناكم وتفضَّلنا به عليكم في الدنيا فشُغِلتم به عن الآخرة ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ مبالغةٌ في التَّرك وعدم الانتفاع به حيث لا يمكنه النَّظر إليه.[2608]

وأمَّا إذا لم يكن مشغولًا به معرضًا عن الآخرة بأنَّه صرفه إلى الجهات الموجبة لتعظيم أمر الله، والشَّفقة على خلق الله فح لا يكون تاركًا له وراء ظهره، بل يكون مقدّمًا له تلقاء وجهه، قال تع:﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾ [المزمل ٢٠/٧٣]. وذلك أنه تع: أعطى النَّفس الإنسانية هذه القُوى والآلات الجسدانيَّة لتحصيل المعارف اليقينيَّة والأعمال الصَّالحة، والمشرك لم يكتسب بما أعطي من القوى والآلات ما يسعده في الآخرة، بل جميعه إلى الشقاق والمعاصي، ثم إنه انتقل من العالم الجسماني إلى العالم الرّوحاني وَوَرَدَ محفل القيامة فرأى أن ما أفنى عمره في تحصِيله من المال [**١٣١**/ظ] والجاه. قد بقى وراء ظهره واستبان له أنه لم يحصل به ما ينفعه في هذا المقام وقد ضاع وقت الاكتساب وأسبابه أيضًا، فحقَّ أن يقال له ما قيل بخلاف المؤمنين، فإنهم صرفوا همتهم إلى العقائد الصحيحة والأعمال الصَّالحة، فبَقِيت معهم في قبورهم وحضرت معهم في القيامة فهم في الحقيقة ما حضروا فُرادًى.[2609]

وأيضًا لَمَّا لم يجدوا من الأصنام ما يزعمون من كونهم شفعاءَ لهم عند الله فحقّ أن يقال لهم: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ﴾، أي: في ربوبيَّتكم واستحقاق عبوديَّتكم شركاء لله تع، ولعلَّه لحال بينهم وبينهم والاستفسار عند ذلك، ثم إنهم يجمعون معهم على ما أفصح عنه قوله: ﴿وَإِذَا رَا الَّذِينَ اَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ [النحل ٨٦/١٦]. وفيه عبرةٌ لمن ضيع عمرَه في إطاعة مَن لا يجديه نفعًا في الآخرة، ولمن أضاع قدرَه في عمل كذلك.

﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

إن جُعل «بين» اسمًا بمعنى الوصل ولم يكن ظرفًا، فوجه رفعه ظاهرٌ، فإنَّ من النحاة مَنْ جَعله اسمًا غيرَ ظرفٍ، وجعله مشتركًا اشتراكاً لفظيًّا يستعمل للوصل والفراق؛ كـ«الجون» للأسود والأبيض، فيُعرب على حسب استدعاء العامل. وكذا إن جُعل ظرفًا غير لازم الظَّرفيَّة، فإن منهم مَنْ يجعله ظرفًا، لكن لا يتَّسع فيه ويجعل مسندًا إليه، كما قيل: قُوتِل خلفُكم وأمامُكم،

[2606] قراءة شاذّة، مروية عن أبي حياة وأبي البرهسم. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٧٢؛ **الكشاف** للزمخشري، ٤٥/١٢؛ **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٤٤.

[2607]**الكشاف**، ٤٥/٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٦؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٧١.

[2608]**تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٧١-٣٧٢.

[2609]**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٩٧-٩٨.

ويجعل كسائر الأسماء المتصرِّف فيها على استدعاء العامل، ويدلُّ عليه قوله تع:﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت ٤١/٥] فاستُعمل مجرورًا بـ«مِنْ»، وقوله: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف ٧٨/١٨]، ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ [المائدة ١٠٦/٥] حيث جعل بين في هذا المواضع مضافًا إليه متصرِّفًا فيه، ولو كانت لازمة الظرفية لَما جاز استعمالها إلا منصوبةً.[٢٦١٠]

وأمَّا على لزوم الظَّرفيَّة ووجوب انتصابه بمعنى: في فوجه الارتفاع أنه اتّسع فيه فاستعمل استعمال ما لم يكن ظرفًا.

نقل عن المصنف: «أنَّ الظَّرف اسم لاسم زمان أو مكان ينصب بمعنى «في»، ثمَّ يتّسع فيه ويستعمل استعمال المفعول به.

وقرأ نافع والكسائي وعاصم بالنصب[٢٦١١] على أنّ الفعل مسندٌ إلى ضمير مصدره؛ لأنَّ «تَقَطَّعَ» لابدَّ له من فاعل، و﴿بَيْنَكُمْ﴾ ظرف فيسند إلى مصدره، والتقدير: تقطّع التَّقطّع إلا أنه لابدَّ أن يأوّل الكلام بأن يجعل تقطَّع بمعنى: وقع؛ لأنه لو أبقى على تقطَّع التقطّع يكون المعنى: حصل الوصل وهو ضدُّ المقصود فكان معناه: وقع التقطع بينكم كما يقال: جمع بين الشيئين بمعنى: جمع الجمع بين الشيئين، أي: أوقع الجمع بينهما.[٢٦١٢]

واعتُرِض عليه بأنَّ التَّقطع لازمٌ، وما ذكره من النظر متعدّ، وهو قوله: «جمع بين الشيئين»؛ لأنه ليس في الأصل ممَّا أسند الفعل فيه إلى مصدره، بل هو من قبيل ما أُوقع الفعل على مصدره؛ لأن تقدير أصله: «أوقع الجمعَ بين الشيئين»، وهو من قبيل ما جعل المفعول به لنسيانه، بتأويل جمع الجمع بينهما، أو أوقع الجمع بينهما. هذا إذا كان متعدِّيًا، فأمَّا إذا كان لازمًا فليس كذلك. وقد يدفع أن الاستشهاد لمجرَّد إسناد الفعل إلى مصدره، سواء كان لازمًا أو متعديًا.[٢٦١٣]

وهذا الدفع ليس بقويٍّ إذ غرض المعترض أنه واقعٌ في الكلام مثل حيل بينهم بخلاف هذا، فالأولى أنه مسندٌ إلى ضمير الأمر لتقرره في النفوس أي: تقطَّع الأمرُ بينكم، أو إلى ما يفهم من السياق وهو قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ﴾، أي: لقد تقطَّع وصلكم أو سببكم، وهو ما كانوا عليه من الكفر والشِّرك. وقريبٌ من هذا ما يقال: إنَّ بينكم صفة أقيمت مُقامَ الموصوف الذي هو المسند إليه، أي: أمر بينكم.

وقيل: أصله: لقد تقطَّع ما بينكم، فـ«ما» نكرةٌ موصوفةٌ لا موصولة؛ لأنَّ حذف الموصول وإبقاء الصلة لا يجوز بخلاف الموصوفة، فحذف «ما» وأقيم بينكم مُقام موصوفه، وأيَّد ذلك بقراءة «لَقَدْ تَقَطَّعَ ما بَيْنَكُمْ».[٢٦١٤]

وقيل: حركته حينئذ حركة بناءٍ لإضافته إلى المبنيِّ، وهو ضمير الخطاب، فيكون فاعلًا لـ﴿تَقَطَّعَ﴾.[٢٦١٥] وهذا ما قيل: إنَّه كالرفع في المعنى لكنّه لما جرى منصوبًا في أكثر الكلام ترك على ما يكون عليه وهو مذهب أخفش.

ونظيره عنده: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن٧٢/١١] فـ﴿دُونَ﴾ موضع رفعٍ عنده وإن كان منصوب اللفظ.

[٢٦١٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٩٨؛ **الأكليل على مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام النسفي**، ١٩٧/٣.

[٢٦١١] **السبعة**، ص ٢٦٣؛ **التيسير**، ص ٣٤٥؛ **النشر**، ١٩٥/٢.

[٢٦١٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٩٩/٤.

[٢٦١٣] **فتوح الغيب**، ٦/ ١٦٩.

[٢٦١٤] قراءة شاذّة، مروية عن ابن مسعود. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٧٣؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٩٩.

[٢٦١٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٧٢.

﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ﴾ أي ضاع وبطل ﴿مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها شفعاؤكم، أو أنْ لا بعث ولا جزاء، فإن ما في قوله: ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ سواءٌ كانت موصولةً أو موصوفةً لا بدَّ أن تشمل الجملة الواقعة بعدها على ضميرٍ يعود إليها، وأنَّ ﴿تَزْعُمُونَ﴾ لا بدَّ له من مفعولين فقد الجميع في التَّقدير الأوَّل، وقس عليه الثَّاني لكن المناسب لقوله: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أن يقدّر ههنا: تزعمونهم شركاء الله في ربوبيته.[٢٦١٦]

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(٩٥)﴾

﴿فَالِقُ الْحَبِّ﴾ [**١٣٢**/و] بالسُّنبل والنَّوى بالنَّخل والخوخ وغيرهما. وقيل: المراد به الشَّقُّ الذي في النّواة والحبّ. ووجه الصنع فيه أنه يخلق الله الشَّجر من الشَّقِّ الذي يكون فرقًا، والفرق بحلقِه من شقٍّ آخر يظهر في أسفله، والحبَّة سبب لاتِّصال ما في الهواء إلى ما في الأرض، ولَمَّا كانت الطَّبيعة واحدةً وقد ظهر منها متضادَّان، أعني: ما في الهواء وما في عمق الأرض عُلم أنه ليس بمقتضى الطَّبع، بل لتخصيص إرادة الفاعل المختار، بل يحصل في الشَّجر طبائعُ مختلفةٌ للثَّمر والقِشر والجلد. فأعرب من هذا كلّه أن الأرض الصلبة التي لا يغوص فيها السكين يدخل فيه أطراف العرق الذي هو في غاية الضعف، بل الورقة الواحدة إذا تأملتَها وجدتَ فيها خطًّا هو كالنّخاع بالنّسبة إلى بدن الإنسان، ولا يزال يتشعَّب من كلِّ شعبة إلى أن يغيب من الحسِّ للصِّغر، وهي مع لطافتها تحدث من الأجزاء الأرضية ما هو كالغذاء لها. وإذا تحقَّق عناية الخالق في خلقها، وعلمتَ أنه خلق النَّبات لمصلحة الحيوان علمتَ أنَّ عنايته بخلق الحيوان أكملُ، وإذا كان الحيوان للإنسان فعنايته لخلق الإنسان أعظمُ، والمقصود من خلقه معرفة الله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات ٥١/٥٦].[٢٦١٧]

والحيّ والميِّت: مجاز عن النَّامي والجامد تشبيهًا للنَّامي بالحيِّ كما في قوله: ﴿يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم ٣٠/١٩]، والحيّ حقيقة في الموصوف بالحياة المستتبعة للحسّ والحركة الإرادية، والميِّت حقيقة في الخالي عنها مع كونها من شأنه، ولم يحملا على الحقيقة؛ لأنَّ الجملة بيانٌ لما قبله ولذلك لم يعطف عليه ولو حمل على الحقيقة لم يكن بيانًا له، وحمله بعضهم عليها، فقال: يخرج من النّطفة الميِّتة بشرًا حيًّا، ثم يخرج من البشر الحي نطفةً ميّتةً، ويخرج من البيضة فروجةً حيَّةً، ثم يخرج من الدَّجاجة بيضة ميّتة، وبعضهم على المجاز فقال: يخرج النَّبات الخضر من الحبِّ اليابس، ويخرج الحبُّ اليابس من النَّبات النَّامي. وعن ابن عباس: يخرج المؤمن من الكافر كإبراهيم والعكس، كولد نوح والمطيع من العاصي والعكس.[٢٦١٨]

وقد شاع في الكلام: يخرج الحي من الميِّت ويخرج الميِّت من الحيّ، وحسن التقابل، كما في يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وجاز عطف اسم الفاعل على المضارع؛ لأنه في معناه إذ سوق الآية على كون الصِّفات بلفظ اسم الفاعل، وإنما عدل في: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ﴾ إلى المضارع؛ استحضارًا له لكونه أولى في الوجود، وأعظم في القدرة، لكن لا يخفى أن قوله: ﴿مُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ لما لم يكن بيانًا للأولى كالثَّانية لم يحسن عطفه عليه، فعطف على ﴿فَالِقُ الْحَبِّ﴾.[٢٦١٩]

فإن قلت: فقدِّر لها مبيَّنًا، كما في قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ [النساء ٤/٩٥] على تقدير: فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وخالق الحبِّ والنّوى.

[٢٦١٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٩٩.

[٢٦١٧] **مفاتيح الغيب**، ١٣/٩٥-٩٧.

[٢٦١٨] **مفاتيح الغيب**، ١٣/٩٥-٩٧؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٠٠.

[٢٦١٩] **فتوح الغيب**، ٦/ ١٧١؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٦ظ؛**حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣/٤٢٥.

قلت: يفوتُ إذًا التَّعميم الذي هو الغرض من إرادة: «يخرج الحيوانَ والناميَ من النُّطفة والبَيْضِ والحَبِّ والنَّوى»، فإنه إنما يحصل إذا قدِّر: و﴿مُخْرِجُ﴾ معطوفًا على ﴿فَالِقُ الْحَبِّ﴾ ثم يسري العموم إلى قرينتها، فيصحُّ أن يقال: ﴿يُخْرِجُ﴾ الحيوانَ والناميَ من النُّطفِ والبيضِ والحبِّ والنَّوى، ومخرج هذه الأشياء الميِّتة من الحيوان والنَّامي. ولو عطف على ﴿يُخْرِجُ﴾ اختصّ بالحبِّ والنوى.[٢٦٢٠] هكذا قيل: وفيه نظر؛ لأنَّ الأولى إذا سيقت للبيان فلا عموم، وإذا لم يكن مسوقةً لها فلا مانع من العطف عليها[٢٦٢١] فتأمَّل.

والحَبُّ جمع حَبَّةٍ، والنَّوى جمعُ نُوَاةٍ. ولَمَّا قرَّر سبحانه أمر التوحيد وأردفه بتقرير أمر النبوة عاد إلى ذكر الدَّلائل الدَّالة على وجود الصانع، وكمال قدرته وحكمته وعلمه تنبيهًا على أن المقصود الأصلي هو معرفةُ الله بذاته وصفاته وأفعاله.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ أي: ذلكم الفالق المخرج هو الذي يحقّ له العبادة ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ تصرفون عنه إلى غيره، أو هو المدبِّر الخالق النافع الضَّار المحي المميت ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ في إثبات القول بعبادة الأصنام، أو لَمَّا ذكر أمر القيامة والبعث وأحوال الخلق وهي أمورٌ تُوصف إلى الاتِّصاف بالقدرة والعلم والإرادة ذكر ما هو كالدّليل على ذلك من أوجه، ثم قال: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾، أي: ذلك الموصوف القادر على ما ذكر هو الله المتّصف بكمال القدرة ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ عن الإقرار بالحشر، فإنه كما قدر على ما ذكر قدر عليه؛ لأنه مثله.

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾

لَمَّا استدلَّ بأحوال النّبات والحيوان استدلّ بأحوال الأفلاك، وهي أعظم في الدّلالة. ولَمَّا ورد أنَّ الظّلمة هي التي تتعلَّق في معنى: فلق الصّبح، كما قال أبو نواس في صفة الخمر:

كأنَّ بقايا ما عفَا من حُبابِها   تفاريقُ شَيْبٍ في سَوَادِ عِذَارِ

تردَّتْ به ثم انْفَرَى عن أدِيمها   تَفَرِّيَ ليلٍ عن بياض نهارِ[٢٦٢٢]

يعني: أنّ «الحُباب» ستر الخمر، فلمَّا انشقّ الحُباب عن وجهها ظهرت، كما إذا انشقَّ [**١٣٢**/ظ] الليل عن بياض النهار استبان.[٢٦٢٣]

أجيب عنه أوَّلًا بأنه كما يشقُّ الظُّلمة ويشقُّ ويخرج[٢٦٢٤] منها عمود الصُّبح وهو المستطيل الذي يشبه[٢٦٢٥] بذنب السرحان ويعقبه ظلمة، كذلك يشقُّ العمود ويخرج منه الظلمة، ويخرج بياض النَّهار أيضًا. فإنّ الإصباح أوَّلُ ما يبدو من النَّهار وهما صبحان: الأول: المستطيل الذي يعقبه الظلمة، ثم يطلع بعده الصبح المستطير في الأفقِ. فيصحُّ أنه فالقُ الإصباح الأوَّل عن ظلمة آخر اللّيل، وعن بياضٍ أيضًا.[٢٦٢٦]

وقالوا: انشقَّ عمودُ الفجر، وانصدع الفجر. وسمَّوا الفجر فَلَقًا بمعنى: مفلوق، قال الطائي:

[٢٦٢٠] **فتوح الغيب**، ١٧٠/٦.

[٢٦٢١] **ج – عليها**.

[٢٦٢٢] **ديوان لأبي نواس**، ٤٣٥/٢.

[٢٦٢٣] **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٤٣٧/٣.

[٢٦٢٤] ج – يخرج.

[٢٦٢٥] ج – يشبه.

[٢٦٢٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٠٠.

هَذِي مَخايِلُ بَرقٍ خَلفَهُ مَطَرٌ وَوَرْيُ زِنادٍ خَلفَهُ لَهَبُ

وَأَزرَقُ الفَجرِ يَبْدُو قَبلَ أَبيَضِهِ وَأَوَّلُ الغَيثِ رَشٌ ثُمَّ يَنسَكِبُ[٢٦٢٧]

وثانياً: بأنه على حذف مضافٍ، أي: فالق ظلمة الإصباح، وهي الغبش الذي يلي الإصباح المستطيل ويعقبه.[٢٦٢٨]

وقرئ: بفتح الهمزة؛[٢٦٢٩] جمع «صُبْحٍ» وأنشد قوله:

أفْنى رِياحًا وبَني رِياحِ تَناسُخُ الإمْساءِ والإصْباحِ

بالكسر والفتح مصدرين، جمع مُسْيٍ وصُبْحٍ.[٢٦٣٠] «والرياح»: حيٌّ من يربوع.[٢٦٣١] وقيل: اسم رجل. ويروى بفتح الرّاء والياء المنقوطة بواحدة و﴿سَكَنًا﴾ أي: يسكن إليه التَّعِبُ بالنَّهار لاستراحته فيه مَن سكن إليه إذا اطمأنَّ إليه استئناسًا به.[٢٦٣٢]

ومنه قيل للنَّار: سَكَنَ؛ لأنه يُستأنس بها؛ أو يسكن فيه الخلق كقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [يونس ١٠/٦٧]. ونصبه بفعلٍ دلَّ عليه ﴿جَاعِلُ﴾ لا بِهِ، فإنه بمعنى الماضي لقراءة «وَجَعَلَ اللَّيْلَ» عطفًا على معنى: «فالق» فإنه بمعنى: فَلَق؛ ولذلك قرئ به.[٢٦٣٣]

و﴿**سَكَنًا**﴾ مفعولٌ ثانٍ إن كان بمعنى التصيير، وحالٌ من ﴿**اللَّيْلَ**﴾ إن كان بمعنى الخلق فتكون مقدَّرة. «أو به» على أن المراد به جعل مستمرّ في الأزمنة، فورد عليه أنَّه مشعر بأنه إذا قصد به زمان مستمرٌّ تكون إضافته لفظيةً من حيث كونه مضافًا إلى معموله. وقد ذكر المصنفان في ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ [الفاتحة ١/٣] أنه المعنى له الملك في هذا اليوم على الاستمرار لتكون الإضافةُ حقيقيةً مفيدةً لوقوعه صفةً للمعرفة وهو صريحٌ في أنَّه إذا قصد به الاستمرار لا يعمل فبين كلاميهما تدافعٌ.[٢٦٣٤]

> فالتوفيق أن الاستمرار لَمَّا تَناول الأزمنة، فبالنظر إلى حال الماضي تُجعل الإضافةُ حقيقيةً كما في: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة ١/٣] إلى الآخرين غيرَ حقيقيَّةٍ، كما في «جاعل الليل»؛ لئلَّا يلزم مخالفةُ الظَّاهر بقطع ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة ١/٣] عن الوصفيَّة إلى البدليَّة ويجعل ﴿سَكَنًا﴾منصوبًا بمحذوفٍ.[٢٦٣٥] وما يقال: إنه لَمَّا بعد بمعنى المضيّ عن شَبَهِ الفعل فبمعنى الاستمرار أولى، ليس بشيء؛ لأن شبهه الخاصّ إنما هو بالمضارع، وباعتباره يعمل، ولهذا يشترط معنى الحال، أو الاستقبال الذي هو حقيقة المضارع عند الجمهور، والمضارع قد يجيء بمعنى الاستمرار كثيرًا، فاسم الفاعل بالاستمرار لا يَبْعُدُ عن شَبَه الفعل بخلاف معنى المضيّ.[٢٦٣٦] وأمَّا أن اللام الموصولة تدخل الذي بمعنى المضيّ

[٢٦٢٧] **الكشاف** ، ٢/٤٧؛ **فتوح الغيب**، ٦/١٧٣.

[٢٦٢٨] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٠٠.

[٢٦٢٩] قراءة شاذّة، مروية عن الحسن بن أبي الحسن وعيسى بن عمر وأبي رجاء. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٧٣.

[٢٦٣٠] **الكشاف** ، ٢/٤٧.

[٢٦٣١] **الصحاح** للجوهري، «روح».

[٢٦٣٢] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٧.

[٢٦٣٣] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٧؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٧٢.

[٢٦٣٤] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٠١؛

[٢٦٣٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٧و؛ **نواهد الأبكار**، ٦/١٤٥.

[٢٦٣٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٧و؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٧٥؛ **نواهد الأبكار**، ٦/١٤٦.

دون الذي بمعنى الاستمرار؛ فلأنَّ المعتبر في الكون صلةً هو محض الحدوث الذي هو أصل الفعل، حتى يقولون: إنه فعلٌ في صورة الاسم كما أن اللَّام اسمٌ في صورة الحرف؛ محافظةً على كون ما دخلته اللام التي في صورة التعريف اسمًا صورة، والاستمرار يَبْعُدُ عن معنى الحدوث الفعلي، فيكون محض مفردٍ فلا يقع صلةً بخلاف الْمُضيِّ.[٢٦٣٧]

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

قرأ الجمهور بنصبهما وهي واضحةٌ على قراءة الكوفيين ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾[٢٦٣٨] حيث يجعلان معطوفين على المنصوب بجعل ويكون ﴿حُسْبَانًا﴾ إما مفعولًا ثانيًا أو حالًا. وأمَّا على قراءات الجمهور: «جَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا»،[٢٦٣٩] فإن جعل ﴿جَاعِلُ﴾ بمعنى الماضي فلا بدَّ من إضمار فعل ينصبهما، أي: وجعل الشمس. وإن قلنا: أنه ليس بمعنى الماضي سواءٌ كان للاستمرار أو بمعنى الحال أو الاستقبال، يكون نصبهما بالعطف على محل المجرور كما في قوله:

هَل أَنتَ باعِثُ دينارٍ لِحاجَتِنا　　　أَو عَبدَ رَبٍّ أَخا عَونِ بنِ مِخراقِ[٢٦٤٠]

بنصب «عَبَدَ» والأحسن نصبهما بجعل مقدَّرًا،[٢٦٤١] كما عرفت أن اسم الفاعل، إذا كان بمعنى الماضي لا يكون لمجروره محل، وإذا كان بمعنى الاستمرار لا يكون عمله متَّفقًا عليه؛ ولأنَّ أكثر ما يقع العطف على المحل في الضمائر والمبنيات. وقرئ بجرِّهما[٢٦٤٢] عطفًا على لفظ ﴿اللَّيْلَ﴾.

وقال قدس سره: وهذه القراءاة يشهد العطف على المحلّ في القراءة الأولى.[٢٦٤٣]

وقال ابن الكمال: لا شهادة فيها عليه حتى ينافيَ نصبهما على إضمار فعلٍ.[٢٦٤٤]

وأنت خبير بأنه لا يخلو عن نوع شهادة؛ لأنه إذا قرئ بالجرِّ يكون معطوفًا على لفظ «﴿اللَّيْلَ﴾، فيحمل النصب على محلِّه نظرًا إلى أن فيه اتِّحاد ما عطف عليه، وتوافقه في القرائتين وأن يخالف لفظًا ومحلًا وهذا أقرب من الاختلاف عبارةً. وعلى هذه القراءة يكون نصب ﴿حُسْبَانًا﴾ [**١٣٣**/و] بفعلٍ مقدَّرٍ،[٢٦٤٥] أي: «جعل حسبانًا». وبرفعهما[٢٦٤٦] على الابتداء والخبر محذوفٌ، تقديره: والشمسُ والقمرُ مجعولان حسبانًا أو محسوبان حسبانًا.

ففي التقدير الأول: يكون ﴿حُسْبَانًا﴾مفعولًا به، وفي الثاني: مفعولًا مطلقًا. ومعنى: جعل الشمس والقمر حسبانًا، جعلهما علَمَي حساب؛ لأن حسابَ الأوقات يُعلم بدَورها وسَيرها.

[٢٦٣٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٧و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٤٣٨/٣؛ **نواهد الأبكار**، ١٤٦/٦-١٤٧.

[٢٦٣٨] **التيسير**، ص ٣٤٥.

[٢٦٣٩] **التيسير**، ص ٣٤٥؛ **النشر**، ١٩٦/٢.

[٢٦٤٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٠١/٤-١٠٢.

[٢٦٤١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٠١-١٠٢.

[٢٦٤٢] قراءة شاذّة، مروية عن الحسن بن أبي حياة ويزيد بن قطيب. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٧٣. **الكشاف** ، ٤٧/٢؛ **مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع**، ص ٤٥.

[٢٦٤٣] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٧.

[٢٦٤٤] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٧٥.

[٢٦٤٥] ج — مقدّر.

[٢٦٤٦] قراءة شاذّة، مروية عن بن محيص. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٧٣.

والحُسْبَانُ: –بالضّم–: مصدر «حَسَبَ» بفتح العين، كما أن «الحِسبان» —بالكسر–: مصدر «حَسِبَ» بكسرها،[٢٦٤٧] ومعناه: الظنُّ والتَّخمين، كما أنّ معنى الأوّل الحساب، والتقدير والعدّ؛ فإنه قدّر حركة الشمس بمقدار من السرعة والبطؤ بحيث تتمُّ دورتها في سنةٍ، وقدّر حركة القمر بحيث يتمُّ الدورة في شهر. وبهذا يتّم الأمر وتنتظم المصالح المتعلّقة بالفصول الأربعة، كنضج الثمار، وأمور الحرث والنسل، ونحو ذلك مما يتوقَّف عليه قوام العالم، وباختلاف المنازل للقمر وتجدُّد الأهِلَّة في كلّ شهر يعلم آجال الديون ومواقيت الأشياء. قال تع في حق الأهِلَّة: ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة ١٨٩/٢] وقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس ٥/١٠].[٢٦٤٨]

﴿ذَلِكَ﴾ قيل: إشارةٌ إلى جعلهما حسبانًا وهو ضعيف؛ لأنه لا فائدةَ فيه سوى رعاية الإفراد والتذكير، ولو جعل للمذكور، أو لكلٍّ واحدٍ كان أفيدَ من حيث المعنى وأحسنَ انتظامًا من حيث التركيب. وذكر العزَّة ههنا؛ لأنه تعقَهرهما وسخّرهما ومسيَّرهما على الوجه المخصوص، وعلمه؛ لأنه علم تدبيرهما وتقديرهما على الوجه الأنفعِ، والأسلوب الأصلحِ من التداوير الممكنة لهما.[٢٦٤٩]

وفي «**الموطأ**»**[٢٦٥٠]**عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ: أَنَّهُ بَلَغَهُ «أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ يَدْعُو وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ فَالِقَ الْإِصْبَاحِ، وَجَاعِلَ اللَّيْلِ سَكَنًا، ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام ٩٦/٦]، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وَأَغْنِنِي مِنْ الْفَقْرِ، وَأَمْتِعْنِي بِسَمْعِي وَبَصَرِي وَقُوَّتِي فِي سَبِيلِكَ».[٢٦٥١]

إن قيل: كيف قال: «متِّعْنِي بِسَمْعِي وَبَصَرِي»،[٢٦٥٢]في كتاب النَّسائيّ والترمذيّ وغيرهما: «وَاجْعَلْهُ الوارثَ منِّي»،[٢٦٥٣]وذلك يفنى مع البدن؟

قيل له: في الكلام تَجَوُّزٌ، والمعنى: اللَّهمَّ لا تُقدِّمْهُ قَبلي.[٢٦٥٤]

وعنه ع م: «الشَّمسُ والقمَرُ وجوهُهُما إلى العَرشِ ، وأقفاؤُهما إلى الدُّنيا».[٢٦٥٥]

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧)﴾

كلُّ واحد من اللاّمين في: ﴿لَكُمُ﴾ و﴿لِتَهْتَدُوا﴾ متعلّق بـ﴿جَعَلَ﴾ وجاز تعلّق حرفي جر متَّحدين لفظًا ومعنًى بعاملٍ واحدٍ لكون الثاني بدلًا من الأوّل بدل اشتمال بإعادة العامل. ونظيره قوله: ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾ [الزخرف٤٣/٣٣] فإنَّ ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدل من قوله: ﴿لِمَنْ يَكْفُرُ﴾ بإعادة العامل.[٢٦٥٦]

[٢٦٤٧]**الكشاف** ، ٤٧/٢.

[٢٦٤٨]**مفاتح الغيب**، ١٠٣/١٣؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٠٢.

[٢٦٤٩]**الكشاف** ، ٤٧/٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٧؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٧٥.

[٢٦٥٠]**هو الموطأ** للإمام مالك.

[٢٦٥١]**الموطأ** للإمام مالك، ٢١٢/١ (٢٧).

[٢٦٥٢]**سنن الترمذي**، ٥٨٣/٥.

[٢٦٥٣]**سنن الترمذي**، ٥١٨/٥ (٣٤٨٠)؛ **مسند البزار**، ٢٥٩/٦ (٢٢٩٤).

[٢٦٥٤]**الجامع لأحكام القرآن**، ٤٦٧/٨-٤٦٨.

[٢٦٥٥]**زهر الفردوس**، ٣١١/٥ (١٨٣٧)؛ **كنز العمال**، ١٥٢/٦ (١٥١٩٨)

وذلك إفراد لبعض منافعها بالذِّكر بعدما أجملها بقوله: ﴿لَكُمُ﴾إشارة إلى أنه أعظمُ منافعها وأجلّها. ومنها أن زينة السَّماء على ما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك ٦٧/٥] وأنه رجوم للشَّياطين على ما أشير إليه بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾.

وعنه ع م: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ».[٢٦٥٧]

﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: في ظلماتِ الليل في البرّ والبحرِ وإضافتها إليهما للملابسة، أو: في مشبهات الطُّرق والمسالك، وسمَّاها ظلمات على الاستعارة.[٢٦٥٨] وحمل الإمام على الاهتداء[٢٦٥٩] إلى وجود الفاعل المختار لاختلاف أشكالها وأحوالها وهيئاتها، وكونها متناهيةً ومحدودةً ومتغيِّرةً، قال: وذلك في ظلمات برّ التعطيل وبحر التشبيه؛ فإن العاقل لما لم يقل بألوهيتهما لهذه الصوب وجب تنزيه الإله عنها بأسرها،[٢٦٦٠] ثم إنَّ تخصيص ذلك ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنهم المنتفعون به، وهذه إشارة إلى آيات الآفاق، وقوله: ﴿أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ﴾ إشارةٌ إلى آيات الأنفس، ولا شكَّ أنّ آيات الآفاق أظهرُ وأَجلَى، وآيات الأنفس أدقُّ وأَخفى. فكان ذكر الفقه لها أنسب وأدلى، فكما أنَّ نفسَ بني آدم أدقُّ صنعًا، وأجمعُ لآثار القدرة ودلائلها، فكذلك الاستدلال بها على وجود الصَّانع وكمال قدرته أدقّ.[٢٦٦١]

ويوافقه ما ذكر **حجة الإسلام**:[٢٦٦٢] الطبيعيون: أكثروا البحث عن عجائب الحيوان والنبات، ورأوا في تشريح أعضاء الحيوان من عجائب صنعِ الله وبدائع حكمته ما اضطرّوا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم، مطَّلع على غايات الأمور ومقاصدها.[٢٦٦٣]

والفقه: عبارة عن الوقوف على المعنى الخفي. وأصل تركيب الفقه يدلُّ على الشقّ والفتح، والفقيه: العالم الذي يشق الأحكام ويفتش عن حقائقها [**١٣٣**/ظ]ويفتح ما استغلق عنها. ويسمّى علم الشريعة «فِقْهًا»؛ لأنه علمٌ مستنبط بالقوانين والأدلَّة، والأقيسة، والأنظار الدّقيقة

روي: أن سلمان نزل على نبطيةٍ بالعراق، فقال لها: هل هاهنا مكان نظيف أصلي فيه؟ فقالت: طهِّر قلبك، وصلّ حيث شئت. فقال: فقُهْت، وفَطِنت للحقِ، أي: نظرت نظرًا دقيقًا. فظهر أنَّ الفقه إنما يطلق حيث يكون فيه حذاقة ودقّة نظر.[٢٦٦٤]

والمقام يقتضيه أيضًا على ما أشير إليه، وبهذا استغني عما ذكره صاحب **الانتصاف** من أنَّه: لا يتحقَّق الفرق بينهما، وإنما أُريد أن يكون لكلّ أيةٍ فاصلةٌ مستقلَّةٌ بالمقصود، بُعدًا عن التّكرار، وتفنُّنًا في البلاغة. ويُحتمل أن يقال: الفقهُ أدنى درجات

[٢٦٥٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٠٣.

[٢٦٥٧] **صحيح مسلم**، ٤/١٩٦١ (٢٥٣١).

[٢٦٥٨] **الكشاف** ، ٢/٤٨؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٧؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٧٧.

[٢٦٥٩] **ج – على الاهتداء**.أبو حامد محمد الغزالي الطوسي الشافعي (ت ٥٠٥هـ)

[٢٦٦٠] **مفاتح الغيب**، ١٣/ ١٠٦.

[٢٦٦١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٠٤.

[٢٦٦٢] هوأبو حامد محمد الغزالي الطوسي الشافعي (ت. ٥٠٥هـ).

[٢٦٦٣] **المنقذ من الضلالة** للغزالي، ص ٤٣؛ **إحياء علوم الدين**، ١/١٠٥؛ **فتوح الغيب**، ١٧٣/٦.

[٢٦٦٤] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٠٤.

العلم، والجهل بالنجوم جهلٌ من خارج الذات، فسُمّي عارفه عَالِمًا، والآخر لا يخرج عن أحوال النفس، وجهلُ الإنسان بأحوال نفسه أبشع فسمِّي العارف به فقيهًا؛ لأن «الفقه» ههنا من «فَقِهَ» -بالكسر-: إذا فَهِمَ ولو أدنى فَهْم، وليس من باب «فَقُهَ» بالضم؛ لأنها درجةٌ عاليةٌ، أي: صار فقيهًا.

«وقولنا: «لا نَفقه»، أذمُّ من قولنا: «لا نَعلم»؛ لأن نفي العلم نفي لحصوله، وقد يكون فقيهًا، ويدلُّ على أن جهل الإنسان بأمر نفسه أقبحُ الإنكار، في قوله: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/٢١].[٢٦٦٥]

وبالجملة: الفقهُ والعلم من جلائل الأوصاف الرّوحانية يجب على المرء أن يحصل ذلك بالنّظر إلى الآيات، والتّدبّر في الوسائل والمقدمات؛ ليكون من أرباب السعادات.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (٩٨)

يعني: آدم ع م، وأمَّا حواء فهي مخلوقة من ضلع من أضلاعها فصار كلُّ الناس محدثةً ومخلوقةً من نفسٍ واحدةٍ حتى عيسى ع م؛ فإن ابتداءَ تكوينه كان من مريم التي هي مخلوقة من أبويها وهذا هو الدليل الرابع على وجود الإله، وكمال قدرته وعلمه، واقتداره للحشر استدلَّ عليه بكيفية إنشاء عالم الإنسان وبثّه في وجه الأرض.

﴿**فَمُسْتَقَرٌّ**﴾ مبتدأ محذوف خبره، ﴿**وَمُسْتَوْدَعٌ**﴾ عطفٌ عليه، أي: فلكم استقرار واستيداع على أن يكون كلُّ واحد من قوله: على لفظ اسم المفعول مصدرًا ميميًّا، ولا يجوز أن يكون الخبر المضمر منكم؛ لأنّ المعاني لا تحمل على الأعيان، أو فلكم مكان استقرار ومكان استيداع على أن يكون كلُّ واحد منهما اسم مكان الاستقرار والإيداع، ولا يجوز أن يكون اسم مفعول؛ لأن «استقرَّ» لا يتعدّى فلا يكون له مفعول بخلاف «استودع»؛ فإنه يتعدّى الى مفعولين. تقول: استودعت زيدًا ألفًا، وأودعت مثله، فالمستودع يجوز أن يكون اسم مفعول ويراد به إنسان استودع في مكان كما يجوز أن يكون مصدرًا ميميًا واسم مكان إلا أنه لا يجعل ليكون المعطوف مثل المعطوف عليه، ثم إنه جعل «المستقرّ» صلب الأب و«المستودع» رحم الأمّ؛ لأنَّ النّطفة ما حصلت في صلب الأب من قبل الغير، وحصلت في رحم الأمّ بفعل الغير؛ فأشبهت الوديعة كأنّ الرجل أودعها ما كان مستقرًّا عنده إلا أن أكثر الرّوايات.

عن ابن عباس أنه قال: «المستقرّ» هو: الأرحام و«المستودع»: الأصلاب. ثم قرأ ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ [الحج ٢٢/٥].

وقال سعيد بن جبير: قال لي ابن عباس: هل تزوجت؟ قلت: لا. قال: إما إنه ما كان مستودعًا في ظهرك فيستخرجه الله.

وقيل: «المستقر»: فوق الأرض لقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة ٢/٣٦]، و«المستودع»: القبر؛ لأن أهله إنّما يوعد فيه لأن تخرج منه تارةً أخرى.[٢٦٦٦]

وقال الحسن: «المستقِرُّ» مَن مات، و«المستودَع» أنتم. وأنشد:

فُجِعَ الأحبَّة قبلَنا   فالنَّاس مفجوعٌ به ومفجَّعُ

[٢٦٦٥] **فتوح الغيب**، ٦/١٧٧-١٧٧.

[٢٦٦٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٠٣-١٠٤.

مستودَعٌ أو مستَقرٌّ قد خلا فالمستقِرُّ يزورُه المستودَعُ

وكان يقول: يا ابن آدم أنت وديعة في أهلك. وينشد:

وَمَا الْمَالُ وَالأَهْلُونَ إِلَّا وديعةٌ ولابدَّ يومًا أن تُرَدَّ الْوَدَائِعُ[٢٦٦٧]

وروي عن ابن عباس أيضًا: أن المستقرَّ مَن خلق، والمستودَعَ مَن لم يُخلق.[٢٦٦٨]

وقرأ ابن كثير والبصريان أعني: أبا عمرو ويعقوب بكسر القاف[٢٦٦٩] على أنه اسم فاعل يراد به الأشخاص، فيكون المستودَع حينئذ اسم مفعول أيضًا، حتى يكونَ عبارة عن الأشخاص فيكون الخبر المحذوف حينئذ ﴿**مِنْكُمْ**﴾ لا ﴿**لَكُمْ**﴾، والتقدير: فمنكم مستقِرٌّ، ومنكم مستودَعٌ[٢٦٧٠] على ما مرَّ من وجوه التفاسير التي ذكرت في قراءة الجمهور، ووجه قراءتهم أن الاستقرار يكون من المستقرِّ والاستيداع من الغير، فلذلك كسر الأوَّل وفتح الثاني.

وقال ابن عطاء: خلق أهل المعرفة على جهةٍ، ومنزلةٍ واحدةٍ، ﴿**فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ**﴾ أي: فمستقرّ في حال معرفته مكشوف عنه، ومكشوف في حال معرفته مستقرٌّ عليه. [**١٣٤**/و]

وقال بعضهم: فمستقرٌّ بطاعته وعبادته من الإيمان به، ومستودع لذلك زائل عنه بعد مدة.

وقال الواسطي: مستقرّ فيه أنوارُ الذات على الأبد، ومستودع لا يعود إليه إذا فارقه.

وقال محمد بن عيسى الهاشمي: لم يزل عَالِمًا بخلقه شائيا لما أراد، أودع اللَّوح ما استقرَّ من كلامه، ثم أودع اللَّوح إلى المقادير ما استقرّ فيه، ثم كذلك حالًا بعد حالٍ حتى يبلّغه إلى درجات السّعادة أو الشقاوة.[٢٦٧١]

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾

إشارة إلى دليل خامس على كما قدرة الله، وعلمه وحكمته، ووجوه إحسانه، فإنها كما أنها دلائل فهي أيضًا فضائل، فإذا كانت إنعامًا من وجه ودليلًا من وجهٍ كان تأثيره في القلوب أشدَّ.

﴿**مِنَ السَّمَاءِ**﴾ أي: من جانبها. وظاهر اللَّفظ المؤيد بنصوص آخر نزول المطر من السماء ولا حاجة إلى العدول عن الظاهر من غير قاطع يمنعه، وما ذُكر من أن البخار يصعد، فينعقد الغيم منها ويتقاطر، وذلك هو المطر، فهو فاسد من وجوهٍ نذكر بعضها: وهو أن البرد قد يوجد في وقت الحر، بل في صميم الصيف، ويوجد المطر في البرد وقت ينزل غير جامد، ولا يجاب بأن البرد في الصيف يهرب إلى باطن السحاب ويقوي، فيحدث البرد، وفي وقت البرد يستولي على ظاهره، ولا يقوى

[٢٦٦٧] **ديوان للبيد**، ص ١٧٠؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٧٨-٣٧٩. **ديوان للبيد**، ص ١٧٠.

[٢٦٦٨] **الجامع لأحكام القرآن**، ٨/ ٤٧٠.

[٢٦٦٩] أي: «مستَقِرٌّ». **التيسير**، ص ٣٤٥؛ **النشر**، ٢/١٩٦.

[٢٦٧٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٠٣.

[٢٦٧١] **حقائق التفسير** ١/٢١٠؛ **عرائس البيان**، ١/٣٨٧.

على باطنه، فينزل ماء؛ لأنا نقول المقرر عندكم أن الطبقة العالية في الهواء باردةٌ جدًا، والهواء المحيط بالأرض في الشتاء باردٌ جدًّا، يوجب أن لا يحدث المطر في الشِّتاء لشدة البرد، وأيضًا لدام نزول المطر عند دوام صعود البخار وبطلانه ظاهر.[٢٦٧٢]

وقيل: من السحاب؛ لأنَّ العرب تسمي كلَّ ما في العلو سماءً.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ التفات من طريق المغايبة في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ﴾ إلى الإخبار عن نفسه بنون العظمة وهي ليست بنون الجمع حتى يقال: المخرج هو الله وحده لا شريك له فيه، لما وجه إيراد لفظ الجمع؛ فإن الملك العظيم يعبر عن نفسه بلفظ الجمع تعظيمًا له وتنويهًا لما أخبر به.[٢٦٧٣]

ولعلَّ سبب الالتفات الاهتمام بشأنه؛ إذ هو المقصود والضمير في «به» للماء. والنَّبت والنَّبات ما يخرج من الأرض من النَّاميات سواءٌ كان له ساقٌ كالشَّجر أو لم يكن كالنّجم. والمعنى: أخرجنا نبتَ كلِّ صنف من النبات، كنبات الحنطة والشّعير والرّمان والتّفاح وغيرها. وهذا ما قال الفراء الظاهر يقتضي أن يكون لكلّ شيء نبات وليس كذلك، بل المراد ما ذكر فما لا يكون له نبات لا يدخل في قوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾.

والمعنى: إظهار القدرة في إنبات الأنواع المفنَّنة بماءٍ واحد كما في قوله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ [الرعد ٤/١٣] ففيه إيماء إلى عجيب صُنعه وبَديع خلقه من كون السَّبب واحدًا والمسبّبات شتَّى.

و«المفنّنة»: قيل: من الفَنَنِ وهو الغصن. والأوْلَى من الفَنّ بمعنى النَّوع. وفي **المصادر**: «التَّفْنِين» نوع نوع كردن،**[٢٦٧٤]** و«التَّفَنُّنُ» نوع نوع شدن؛**[٢٦٧٥]**فكأنه قيل: من الأنواع المتنوّعة أو المنوّعة، ولعلّ القائل نظر إلى أن معنى التنويع والتنوّع سيعاد من الأنواع، فالأولى أن يحمل على فنٍّ آخر من المعنى وهو الفنن.

وقال الجوهري: التَفْنينُ: التخليطُ.[٢٦٧٦] فلا يبعد أن يحمل عليه أيضًا.

﴿فَأَخْرَجْنا مِنهُ﴾ أي: مِنَ النَّباتِ أوِ الماءِ. ﴿خَضِرًا﴾ شَيْئًا أخْضَرَ يُقالُ: أخْضَر وخَضِر كَأعْوَرَ وعَوِر، وهو الخارجُ مِنَ الحَبَّةِ المتَشَعِّبِ من أصل النَّبات الخارج من الحبَّة،[٢٦٧٧] يعني: أغصان الشجر وشعب النجم. ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ﴾ أي من ذلك الخضر المتشعّب حبًّا متراكبًا بعضُها فوق بعضٍ مثلَ سنابل البرِّ والشعير والقمح والسلب والذرة والأرز وسائر الحبوب، والجملة صفة لـ﴿خَضِرًا﴾.

وقرى: «يخرج» بياء الغيبة مبنيًا للمفعول وحب قائم مقام فاعله.[٢٦٧٨]

وعن النبي صلى الله عليه وسلم «أَكْرِمُوا الخُبْزَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهُ مِن بَرَكَاتِ السَّماءِ، وأَخْرَجَهُ مِن بَرَكَاتِ الأَرْضِ».[٢٦٧٩]

وعنه عليه السلام: «أَكْرِمُوا الخُبْزَ؛ فَإنه مِن بَرَكَاتِ السَّماءِ الأرْضِ، مَنْ أَكَلَ مَا سقط مِنَ السُّفَرة غُفِرَ له».[٢٦٨٠]

[٢٦٧٢] **مفاتيح الغيب**، ١١١/١٣.

[٢٦٧٣] **الكشاف** ، ٤٨/٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٧؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٧٧.

[٢٦٧٤] **تاج المصادر** للامام احمد بن على بن محمد البيهقى، ١٦٥و.

[٢٦٧٥] تاج **المصادر** للبيهقى، ٢١٤ظ.

[٢٦٧٦] **الصحاح** للجوهري، «فنن».

[٢٦٧٧] **الكشاف**، ٤٨/٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٧.

[٢٦٧٨] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٠٥.

[٢٦٧٩] **كنز المال** ١٥/ (٤٠٧٧٦)؛ **ضعيف الجامع**، ٥٩ (١١٢٦).

وكان ع م يدعو في الاستسقاء بدعوات منها: «اللهُمَّ اسْقِنا الغيثَ ولا تَجْعلنا من القانِطين، اللَّهُمَّ أنْبِتْ لنا الزَّرْعَ، وأدِرَّ لنا الضَّرْعَ، واسْقِنا من بَرَكاتِ السَّماءِ، وأنْبِتْ لنا من بَرَكاتِ الأرضِ».[٢٦٨١]

﴿**وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ**﴾

أي: وأخرجنا من النخل نخلًا من طلعها قنوان على أن يكون ﴿**مِنَ النَّخْلِ**﴾ متعلِّقًا بفعلٍ مقدَّر، ويكون ﴿**مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ**﴾ جملةً اسميةً قدِّم فيها الخبر على المبتدأ، وهذه الجملة في محلِّ النَّصب على أنَّه صفةٌ لمحذوف هو مفعول الفعل المقَّدر. والمعنى: أخرجنا نخلًا من جنس النخل موصوفةً بأنها مخرجة من طلعها قنوان، وهذه الجملة الفعليَّةُ معطوفةٌ على الفعليَّة التي قبلها، أو من النَّخل شيءٌ من طلعها قنوانٌ على أن ﴿**مِنَ النَّخْلِ**﴾ خبر مبتدأ محذوفٍ و﴿**مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ**﴾ جملة اسمية مرفوع المحلِّ على أنها صفة لذلك المحذوف، والجملة الاسميَّة الكبرى معطوفةٌ على الفعليَّة قبلها، أو ﴿**قِنْوَانٌ**﴾ مبتدأ مؤخَّر ﴿**وَمِنَ النَّخْلِ**﴾ خبر مقدَّم و﴿**مِنْ طَلْعِهَا**﴾ بدل منه بدل البعض من الكلِّ بإعادة العامل كما في قوله: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ**﴾ [الأحزاب٣٣/٢١].[٢٦٨٢]

«ويجوز أن يكون الخبر محذوفًا لدلالة ﴿**أَخْرَجْنَا**﴾ عليه، تقديره: «ومُخْرَجَةٌ من طلع النَّخل قنوان».[٢٦٨٣] وذلك أنَّ الظَّرف إذا كان عامله معنى الحصول والاستقرار وسمّي المستقرّ كان خبرًا ولا يقال: إنّ الخبر محذوفٌ ولا يحتاج إلى القرينة، وإذا كان معنى فعل خاصّ مثل: «زيدٌ جالسٌ في الدَّار، وعمرو في المسجد»، فالظرف لغو والخبر محذوفٌ يحتاج إلى قرينة؛ فلذا كان مخرجه من النَّخل قنوان معنى حذف الخبر بخلاف حاصلة من النخل.[٢٦٨٤]

والمصنِّف ذكر الوجهين الأخيرين وهو قدس سره ذكر الثلاثة الأوّل. ومن قرأ: «يَخْرُجُ مِنْهُ حَبٌّ مُتَرَاكِبٌ»،[٢٦٨٥] كان ﴿قِنْوَانٌ﴾ عنده معطوفًا على «حَبٌّ» ويلزمه أن يكون من النخيل عطفًا على منه، ويكون من العطف على معمولي عامل، كما تقول: «خرج من الدَّار زيدٌ ومن المسجد عمرٌو».

و«الأعذاق» جمع «عذق» بالكسر ويقال له: «القنو» و«الكباسة» أيضًا، وهو للتَّمر بمنزلة العنقود للعِنَب، والطلع أول ما يرى من عذق النخلة الواحدة طلعة.

وعن **أبي عبيد** أنه قال: اطّلعت النخل إذا أخرجت طلعها وهو كفراها قبل أن ينشقَّ عن الإغريض. و«الإغريض»: يسمّى طلعًا أيضًا. قال **الأصمعي**: الكافور والكُفُرَّي وعاء طلع النَّخل.[٢٦٨٦]

و«القنوان»: جمعُ قِنو، ونظيره: صِنْوٌ وصِنْوَان، وتثنيته قنوان بكسر النون، وقرئَ بضمِّ القاف وفتحها،[٢٦٨٧] على أنه اسم جمع كرَكْب؛ لأن «فَعْلَانَ» ليس من زنات التَّكسير.

[٢٦٨٠] **كنز العمال**، ١٥ (٤٠٧٧٧)؛ **كشف الأستار**، ٣/ ٣٣٤ (٢٨٧٧)؛ **الحلية** لأبي نعيم، ٥/ ٢٤٦.

[٢٦٨١] **معرفة السنن والآثار**، ١٧٧/٥ (٧٢١٠).

[٢٦٨٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٠٥-١٠٦.

[٢٦٨٣] **الكشاف**، ٢/ ٤٩.

[٢٦٨٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٧و.

[٢٦٨٥] **المختصر في شواذ القراءات**، ص ٤٥؛ **البحر المحيط**، ١٩٢/٤.

[٢٦٨٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٠٦.

[٢٦٨٧] **المختصر في شواذ القراءات**، ص ٤٥.

﴿دَانِيَةٌ﴾: سهلةُ الْمُجْتَنى معرَضةٌ للقاطف، كالشَّيء الدّاني القريب المتناوَل؛ ولأنّ النخلة وإن كانت صغيرةً ينالها القاعد؛ فإنها تأتي بالثَّمر لا ينتظر الطُّول.[٢٦٨٨]

فقوله: «ولأن النخلة» عطفٌ على قوله: «كالشيء الداني» يعني: يجوز أن يكون الدُّنو على حقيقته، كما أنه فيما مرّ المشابه بالشّيء القريب. وأعرض لي الشيء معناه: أمكنني وحقيقته: إبدالي عُرْضَة.

و«العُرض» بالضَّم الجانب، والفاء في خبر المبتدأ المقرون بـ«إنْ» الوصلية شائعٌ في عبارة المصنفينمثل: «زيد وإن كان غنيًّا فهو بخيل»، و«إلا» مثل: «لكنه»، أو إلا أنَّه بخيل.

ووجهه على أن يجعل الشرط عطفًا على محذوف، والفاء جوابه، والشرطيَّة خبر المبتدأ ظاهر، أي: إن لم يكن غنيًّا، وإن كان غنيًّا فهو يخيل، وإن جعل الواو للحال على ما يراه المصنّف، والشّرط غير محتاج إلى الجواب فلشبه الخبر بالجزاء حيث قرن بالمبتدأ الشَّرط، وأمَّا «لَكِنْ» و«إِلَّا» فنحتاج إلى تقدير آخر، أي: ليس بجواد لكنه يخيل.[٢٦٨٩]

ثم إنه على الوجهين السابقين يكون الوصف بالدنوّ بالنسبة إلى الجميع. وقيل: إنما اقتصر على ذكرها عن مقابلها لدلالتها عليه، كقوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل ١٦/ ٨١]، وزيادة النعمة فيها.[٢٦٩٠]

﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾

عطف على ﴿**نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ وقرئ بالرفع[٢٦٩١]على أنه مبتدأ محذوف الخبر، أي: وثَمَّ جناتٌ من أعناب، أي: مع النَّخل، أو عطف على ﴿**قِنْوَانٌ**﴾؛ على معنى: وحاصلةٌ من النخل قنوانٌ وجناتٌ من أعنابٍ،[٢٦٩٢] أي: من نباتِ أعنابٍ على حذف المضاف؛ لأن البستان لا يكون من العنب، بل من النَّبات والأشجار.[٢٦٩٣]

وأورد على الأوَّل أنه لا دلالة فيه على أنَّ الأعناب والجنات من آثار القدرة ولا خفاء في أنه لا يختصُّ بالوجه الأوَّل ولا بالجنَّات والأعناب، بل يجري في النخيل والقنوان. ويندفع بأن ذلك مفوّض إلى شهادة الفعل ودلالة المقام، وعلى الثاني أنه يقول إلى أن المعنى: ومن النخيل جنات من أعناب وليس كذلك، والجواب أنه حينئذ يكون من أعناب عطفًا على من النخيل عطف مفرد على المبتدأ، وآخر على خبره غايته أن المعطوف على المبتدأ يكون نكرةً غيرَ مخصوصة، ولا يمنع.

وقد قال الشاعر:

عِنْدِي اصطِبَارٌ وَشَكْوى عن قاتلتي فهل بِأَعْجَبَ مِن هَذَا امرؤٌ، وسمِعا[٢٦٩٤]

وقد يجاب بأنّ ﴿**مِنْ أَعْنَابٍ**﴾ صفةُ ﴿**جَنَّاتٍ**﴾، وهي لما كانت معروشةً تحت أشجار النَّخل جازَ وصفها بكونها مُخْرَجة من النّخيل مجازًا لكون هيئتها مُدركةً من خلالها كما يدركُ القنوانُ، وفيه جمع بين الحقيقة والمجاز، أو بأنَّ المراد أنه من

[٢٦٨٨] **الكشاف**، ٢/ ٤٩.

[٢٦٨٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٧ظ.

[٢٦٩٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٠٦.

[٢٦٩١] **أي**: «**جنَّاتٌ**» قراءة شاذّة. **جامع البيان** للطبري، ٥/٢٩٤.

[٢٦٩٢] **الكشاف**، ٢/ ٤٩.

[٢٦٩٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٠٦.

[٢٦٩٤] **فتوح الغيب**، ٦/ ١٨٢. **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٨١.

عطف الجملة، أي: ومخرجة من الخَضِر أو الكَرْم جنات من أعناب، ففي قوله: «عطف على قنوان» تجوّز لا حاجة إليه على هذا التقدير أيضًا لجواز أن يعتبر ﴿**جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ**﴾ عطفًا على ﴿**قِنْوَانٌ**﴾، والمحذوف أعني: «الخضر» عطفًا على ﴿مِنَ النَّخْلِ﴾. [٢٦٩٥]

﴿**وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ**﴾ عطف أيضًا على ﴿**نَبَاتَ**﴾ والأقرب لفظًا ومعنًى عطف ﴿**جَنَّاتٍ**﴾ على ﴿**خَضِرًا**﴾؛ لأن إخراج الجنَّات بعد إخراج النَّبات، كما أن إخراج الخضر بعده، وعطف ﴿**وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ**﴾ على ﴿جَنَّاتٍ﴾؛ لأنهما مخرجان في الطور الثالث مخاطب، لكن لم يذهب المصنفان إليه. أمَّا في الجنَّات فلأنه فسر إخراج الخضر من النَّبات بتشعّبه من أصله وإخراج الجنات ليس كذلك، وأمَّا في عطف الزيتون [**١٣٥**/و] والرَّمان فلأنَّهما وإن كانا مخرجين من الخضر المتشعّب من أصل النَّبات إلا أن ما ذكر من مرتبة الإخراج لما لم يعتبر في الجنَّات لم يعتبر فيهما أيضًا، ولأن كثرة صنوف المسبَّبات واقتنائها مع وحدة السبب وهو الماء أدخل في مقصود المقام أعني: بيان كمال القدرة والحكمة.[٢٦٩٦]

ثم «**الأحسن أن ينتصب**»[٢٦٩٧] الزَّيتون والرُّمان على الاختصاص؛ لأنهما انتصبا بلا خلاف مع اقتضاء ظاهر الكلام حفظهما عطفًا على ﴿أَعْنَابٍ﴾ فناسب أن يجعل العدول إلى النّصب لقصد الاختصاص.

والتَّنبيه على تميّز هذين[٢٦٩٨]وشرفهما؛ لأنّ في الزيتون كثر المنافع وشدّة الحاجة إليه أكلًا واحتياجًا به وغيرهما، وفي الرُّمان غداءٌ ودواءٌ ولطائفُ عظيمةٌ وفوائد جميلةٌ

﴿**مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ**﴾ يقال: اشتبه الأمران وتشابها، كـ«استَوَيَا وتَسَاوَيَا». والافتعال والتفاعل يشتركان كثيرًا. وقرئ: «مُتَشَابِهًا وغَيْرَ مُتَشَابِهٍ»، وتقديره: والزيتون متشابهًا وغير متشابه، والرمّان كذلك كقوله:

رماني بأمرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيًّا ومن أجل الطويّ رماني[٢٦٩٩]

قاله: حين ينازعه ناس من قشر في بئرٍ، فقال القشيري: هو لصّ بن لصّ ليغري عليه الحاكم فقال قصيدة فيها البيت

والطَّويّ: المبنِيُّ بالحجر ونحوه. والمقصود أن ﴿مُتَشَابِهًا﴾ حالٌ من ﴿الزَّيْتُونَ﴾ ومثله محذوف من ﴿الرُّمَّانَ﴾ وضمير ﴿مُتَشَابِهًا﴾ عائد إلى ﴿الزَّيْتُونَ﴾ لكن على خذف المضاف، أي: بعضه وهو متعدّد من جهة المعنى، والمعنى: بعضه متشابهًا وبعضه غير متشابه، في القَدر واللّون والطَّعم. وإنما قيّد بهذه الحال ليدلَّ على أن خلقه بالقصد والاختيار لا بطريق اتّفاق الحال.[٢٧٠٠]

وقيل: جعله حالًا من الرُّمَّان أوفق لفظًا ومن الجميع أحسنُ معنًى.

﴿**انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾

[٢٦٩٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٧ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٤٤٢/٣.

[٢٦٩٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٠٦-١٠٧.

[٢٦٩٧] **الكشاف**، ٢/ ٤٩.

[٢٦٩٨] ج + على.

[٢٦٩٩] البيت عمرو بن أحمر بن العمرَّد الباهلي. **الكشاف**، ٥٠/٢.

[٢٧٠٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و ٣٣٨و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٤٤٣/٣-٤٤٤.

إلى ثَمَرِ كلّ واحدٍ مّما ذكر، وهي جمع «ثمرة» نحو: «بَقَرٌ وبَقَرَةٌ وشَجَرٌ وشَجَرَةٌ». وقرأ حمزة والكسائي بِضَمِّ الثّاءِ والميمِ[٢٧٠١] على أنه جمع ثَمَرَةٍ كَخَشَبَةٍ وخَشَبٍ، أوْ ثِمارٍ كَكِتابٍ وكُتُبٍ، أو جمع ثَمَرٍ كأَسَدٍ وأُسُدٍ.

﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ ظرف لقوله: ﴿انْظُرُوا﴾ أي: إذا أخرج ثمره كيف يُثْمِر ضئيلًا نحيفًا لا يكاد يُنتفع به. ﴿وَيَنْعِهِ﴾ عطف على ﴿ثَمَرِهِ﴾ أي: وإلى حال نُضْجِه أو نضيجه كيف يعود ضخيمًا ذا نفعٍ ولذَّة، وهو في الأصل مصدر «يَنَعَت الثَّمرةُ» إذا أدركت، يَنَعَ بفتح العين في الماضي وكسرها في الغابر. ويقال أيضًا: «يَنَعَت الثَّمرة» تَيْنَعُ يَنْعًا ويُنْعًا من باب عَلِمَ. الفتح لغة الحجاز والضّمّ لغة بعض نجد، وأَيْنَعَت تُونِع إيناعًا ثلاثيًّا ورباعيًّا كلاهما بمعنى. والنَّعت يانع ومونع.[٢٧٠٢]

وقيل: جمع يَانِعٍ، كتَاجرٍ وتَجْرٍ.[٢٧٠٣]

وقرئ بالضم،[٢٧٠٤] وهو لغة فيه، و«يَانِعِهِ».[٢٧٠٥]

> نُقل عن المصنف في «**الحاشية**»:[٢٧٠٦] «فإن قلت: هلَّا قيل: من غضِّ ثمره وينعه؟ قلت: في هذا الأسلوب فائدة، وهي أن «الينع» وقع فيه معطوفًا على «الثَّمر»، على سنن الاختصاص على نحو قوله: ﴿وَجِبْرِيلَ﴾، للدلالة على أن الينع أولى من الغضّ».[٢٧٠٧] والتحقيق فيه أن قوله تعالى: ﴿**انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ**﴾ عامٌّ في جميع أحوال الثّمر، فيدخل النظر في حال بدئه ونضجه وغيرهما بعموم، فعطف ﴿وينعِهِ﴾ على ﴿ثَمَرِهِ﴾، ليؤذن بأحوال الثمر، وأن حالة النضج مُخرِجة للثمر اليانع عن أن يسمَّى ثمرًا، ونوعًا داخلًا في ذلك الجنس لشرفه وفضله.[٢٧٠٨]

وفيه نظر؛ لأنه قال في المتن: ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾: «إذا أخرج ثمره كيف يخرجُه ضئيلًا، ويَنْعه ونُضْجه كيف يعود شيئًا جامعًا لمنافعَ وملاذَّ».[٢٧٠٩] وهذا يشير إلى أن التقييد بقوله: ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ للإشعار بأنه حينئذ ضعيفٌ غير منتفع به، فيقابل حال الينع ويدلُّ كمال التَّفاوت على كمال القدرة،[٢٧١٠] فلا يتمّ الفعل المذكور على هذا التقدير، ويمكن أن يجاب بأنه يجوز أن يفسر قوله: إذا أثمر بما يلائم ما ذكر في الحاشية لا بما ذكر في المتن.

وقال القرطبي: هذا اليَنْع هو الذي يقف عليه جوازُ بيع التمرة، وهو أن يطيب أكل الفاكهة ويأمَن العاهة، وهو عند طلوع الثُّرَيَّا، بما أجرى الله عادته عليه. روي عن النبي: «إذا طَلَعت الثُّريَّا صباحًا، رُفعت العاهةُ عن أهل البلد». وطلوعُها صباحًا لأثني عشر تمضي من أيار،[٢٧١١] وهو أخر الشهور الثلاثة من أوّل فصل الربيع. ولا شكَّ أن الانتقال إلى الأحوال

[٢٧٠١] **أي: «ثُمُرِهِ». التيسير**، ص ٣٤٥؛ **النشر**، ١٩٦/٢.

[٢٧٠٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٠٧.

[٢٧٠٣] **نواهد الأبكار**، ١٥٠/٦.

[٢٧٠٤] **المختصر في شواذّ القراءات، ص ٤٥؛ الكشاف**، ٥٠/٢.

[٢٧٠٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٨١.

[٢٧٠٦] **يعني: حاشية الزمخشري على الكشاف.**

[٢٧٠٧] **فتوح الغيب**، ٦/ ١٨٦؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٨و.

[٢٧٠٨] **فتوح الغيب**، ٦/ ١٨٦-١٨٧.

[٢٧٠٩] **الكشاف**، ٥٠/٢.

[٢٧١٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٨و.

[٢٧١١] **الجامع لأحكام القرآن**، ٤٧٨/٨.

المضادة وحصول هذه التغيرات لا بدَّ له من سبب، وليس هو تأثير الطبائع والفصول والأنجم والأفلاك؛ لأن نسبتها إلى جميع هذه الأجسام النباتية متساويةٌ متشابهةٌ، والنسب المتشابهة، لا يمكن أن تكون أسبابًا لحدوث الحوادث المختلفة.[٢٧١٢]

فتبيّن الاستناد إلى الله تع؛ ولذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الذين يسلكون الطريق البرهاني الموصل إلى العرفان، فهم ينظرون نظرَ اعتبار، ويعلمون أن لابدَّ لحدوث الأجناس والأنواع والأصناف من محدث، ولانتقالها من ناقل، ولوصول هذه النعم إليهم [١٣٥/ظ] من موصل، فيستدلون بها على وحدته وقدرته وحكمته وتدبيره وإنعامه ويشكرون عليها، فتخصيص المؤمنين مع أن تلك آيات لغيرهم؛ لأنهم هم المنتفعون؛ لأن ذات الدّليل لا يوجب العلم، بل ذلك بشرط التَّفكر كما ينبغي، ورفع ما يمنع قبول الحقِّ.

وقيل: إن[٢٧١٣]المراد من هو بصدد الإيمان وطلبه، أو المؤمنون بتلك المقدّمات، فإنّها إنما ينتج السحر[٢٧١٤]لهم دون المنكرين.

وقيل: قوّة الدليل لا تعبد إلا إذا قدر الله للعبد الإيمان، وأمَّا مَن لم يقدر له ولا ينتفع بها، ومن يضلل الله فما له من هاد.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠)﴾

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾

أي: الملائكة بأن عبدوهم وقالوا: بنات الله يدبِّرون أحوالَ هذا العالم وسمَّاهم جنًّا لاجتنانهم تحقيرًا لشأنهم، وإشارة إلى بعدهم عن مرتبة الألوهية أو الشياطين؛ لأنهم أطاعوهم كما يُطاع الله، أو عبدوا الأوثان بتسويلهم وتحريضهم، «أو قالوا: الله خالقُ الخير وكلّ نافع، والشيطانُ خالقُ الشرّ وكلّ ضارٍ؛ كما هو رأي الثنويَّة». وهذا يناسب ما روي عن ابن عباس: أنها نزلت في الزنادقة الذين قالوا: الله خالق النور والناس والدوابّ والأنعام والحرث، وإبليس خالق الظلم والسباع والحيّات والعقارب والشرور فجعلوا له شركاء في الخالقية لا في مجرَّد العبادة.[٢٧١٥]

فإن قيل: فالمثبت على هذا شريك واحد لا شركاء؟ أجيب بأن لأبليس ذريةً واتباعًا يفوض إليهم كثيرًا من الأمور فمن جعل إبليس خالق الشُّرور وكلّ ضارّ بمعونة الشّياطين فقد جعل لله شركاء.

فإن قيل: أليس هذا قول المعتزلة بعينه؟

قلنا: لا، فإنَّ المراد بكل ضارّ ما يعمُّ الأعيان الضَّارَّة كالحيّات والأفاعي، والمعتزلة لا يقولون بذلك.[٢٧١٦]

قال الإمام: وهذا مذهب المجوس، وإنما نسبه ابن عباس إلى الزنادقة؛ لأنهم كانوا يُلَقبون بها؛ لأن الكتاب الذي زعم **زرادشت** اللعين أنه نُزِّلَ من عند الله سمي **بالزند**، والمنسوب إليه سمي بالزندي. فقيل: زِندِيقٌ، ثم جمع فقيل: زَنَادِقَة.[٢٧١٧]

[٢٧١٢]**مفاتيح الغيب**، ١٣/ ١١٧؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٠٧.

[٢٧١٣] ج – إن.

[٢٧١٤] ج – السحر.

[٢٧١٥]**الكشاف** ، ٢/٥٠؛ **معالم التنزيل** للبغوي، **١٧٣/٣**؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٨.

[٢٧١٦]**حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٨ظ.

قال الجوهري: «ولو سمِّيَ رجلٌ باثْنَيْنِ أو باثْنَي عَشَرَ لقلت في النسبة إليه»: ثَنَوِيٌّ.[٢٧١٨] فظهر منه أن الثنويّة الطائفة المنسوبة إلى اثنين، أي: إلى قول: إنّ الخالق اثنين أو إلى عبادة اثنين. يقال: المأمونية والويصاميه منهم، قالوا: فاعل الخير النور وفاعل الشّر الظلمة، والمجوس منهم ذهبوا إلى أن فاعل الخير «**يَزْدَان**»، وفاعل الشر «**أَهْرِمَن**»، يعنون به: الشيطان.[٢٧١٩]

ومفعولي ﴿**جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ**﴾ و﴿**الْجِنَّ**﴾ بدلٌ من ﴿**شُرَكَاءَ**﴾عند المصنِّفَيْنِ. وردّ بأن شرط البدل حلولُه محلَّ المبدل منه، ودفع بأنه لا يجب في كلٍّ بدل. يقال: «زيد مررت به أبي عبد الله» ولا يقال: «مررت بأبي عبد الله» لعدم العائد إلى المبتدأ على أنَّ المبدل منه ليس في حكم التنحية بالكلية، ومنصوب بمحذوف عند السكاكي جوابًا عن سؤال، كأنه قيل: مَنْ جعلوه شركاء لله؟ فقيل: الجنَّ. وفيه سلامة عن الرّد المذكور، أو ﴿شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ وردَّ بأن الكلام مسوقٌ للإنكار عن مطلق الشريك، والتقدير المذكور يوهم أنه لأجل كونه جِنًّا حتى لو كان غيرَ الجنِ لَما كان منكرًا، ودفع بأن فيه تقديمَ الثاني على الأوّل، وفائدته استعظامُ أن يُتَّخَذَ لله شريكٌ مَنْ كان؛ مَلَكًا أو جنيًّا، أو إنسيًّا، ولذلك قُدِّم اسم «الله» على «شُرَكَاءَ»، يعني: على تقدير كونه لَغوًا سواء تعلّق ﴿شُرَكَاءَ﴾ على ما هو الظاهر، أو يجعلوا على ما هو الظّاهر من كلام المصنف، وذلك لأنَّ حقَّ الظَّرف اللّغو أن يتأخَّر عن المفعول به.

وإنما قلنا: على تقدير كونه لغوًا، أو على تقدير كون ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ مفعولين يكون تقديم الخبر الظرف على المبتدأ النَّكرة جاريًا على الأصل غير معلَّل بالاهتمام والاستعظام، لكن السكاكي علَّله به أيضًا، وردَّه صاحب **الإيضاح**:[٢٧٢٠] بأن السَّوق للإنكار التَّوبيخي، فيُمتنع إنكار تعلّق ﴿جَعَلُوا﴾ بكل من الله وشُرَكَاءَ إلا باعتبار تعلُّقه بالآخر، فلا فرق بين: «جعلوا شركاء لله» «وجعلوا لله شركاء». والجواب أنه ليس في كلامه ما يدلُّ على أن المنكر تعلّق جواز جعلوا بالله من غير تعلُّقه بـ﴿شُرَكَاءَ﴾، بل كلامه أنَّ المنكر تعلّقه بهما، لكن العناية بالله أتمُّ لكونه نصبَ عين المؤمن.[٢٧٢١]

﴿**وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠)**﴾

﴿**وَخَلَقَهُمْ**﴾ حالٌ بإضمار «قد» والضمير للجاعلين لله شركاء، والمعنى: على تقدير العلم، أي: جعلوا له شركاء وقد علموا أنَّه خالقهم دونَ الجنِّ، أو للجنِّ.

فعلى الأوَّل: أنهم جعلوا غير خالقهم شريكًا لخالقهم، وليس مَنْ يخلق كمن لا يخلق، وعلى الثاني: جعلوا المخلوق شريكًا لخالقه وليس المخلوق كالخالق.

وقرئ: «وَخَلْقَهُمْ»[٢٧٢٢] بسكون اللام على أنَّه مصدر بمعنى: مخلوقهم، فيكون عطفًا على ﴿الْجِنَّ﴾ أي: جعلوا الجنّ وما يخلقونه وينحتونه من الأصنام شركاء لله، أو بمعناه، أي: اختلاقهم، أي: افتعالهم وكذبهم، فيكون عطفًا على ﴿شُرَكَاءَ﴾

[٢٧١٧] **مفاتيح الغيب**، ١٣/ ١١٩.

[٢٧١٨] **الصحاح** للجوهري، «ثني».

[٢٧١٩] **مفاتيح الغيب**، ١٣/ ١١٩.

[٢٧٢٠] **هو الإيضاح في علوم البلاغة** للخطيب القزويني.

[٢٧٢١] **فتوح الغيب**، ٦/ ١٨٨؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٨و-ظ؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٠٩. **حاشية الشهاب**، ٤/ ١٠٦.

[٢٧٢٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يعمر **شواذّ القراءات** للكرماني، ص١٧٤؛ **الكشاف** ، ٢/ ٥٠؛ **المختصر في شواذ القراءات، ص** ٤٥؛ **المحتسب**، ٢٢٤/١.

على أنه مفعول أوّل و﴿الجِنَّ﴾ بدل، و﴿لِلَّهِ﴾ ثان قدّم [١٣٦/و] على الأوّل، أي: جعلوا شركاء الجنّ وأباطيلهم التي افتعلوها لله حيث أثبتوا له شركاء ونسبوا إليه قبائحهم بأن قالوا: والله أمرنا بها.[٢٧٢٣]

﴿وَخَرَقُوا لَهُ﴾ افتعلوا وافتروا له. واختلقوا كان الرجل منهم إذا كذب كذبة في نادي القوم يقول له بعض أهل المجلس: قد خرقها والله. وقرئ بتشديد الراء[٢٧٢٤] للتكثير، و«حَرَّفوا»[٢٧٢٥] بالحاء المهملة والفاء وتخفيف الرَّاء بمعنى زوّروا؛ لأن المزوِّر محرِّف ومغيّر من الحقِّ إلى الباطل. ﴿بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ حيث قالت اليهود: عزير بن الله، وقالت النصارى: المسيح بن الله، وقالت العرب: الملائكة بنات الله.[٢٧٢٦]

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوا من خطأٍ أو صواب، ولكن رميًا بقول عن عمًى وجهالة من غير فكرٍ ورويَّةٍ، وهو في موضع الحال من الواو، أي: غير عالمين، أو صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، أي: خرقًا بغير علم. والذي يقتضيه النَّظم الفائق أن يكون ضمير ﴿خَلَقَهُمْ﴾ للجنِّ لِمَا عُلِم من قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأنعام٦/٩٨] هذا المعنى: أي: «خلق الجاعلين» فالواجب أن يُحمل على معنى زائد، لكن يجب تفسير الآية بما ذكره المصنف: من أنهم أشركوهم في عبادته، ليعمَّ جميع مَن اتَّخذ شريكًا لله، من المجوس وغيرهم، وجميعَ مَنْ جعلوه شركاء لله، من الملائكة والجنِّ وأَهْرِمَنَ؛ لأن السورة إلى سياقتها في شأن مشركي مكة، واختصاصها بالمجوس، مما يخرم النَّظم.

وأما نظم الآيات فإنها من لدن قوله: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾إلى خاتمة ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾[الأنعام٦/٩٥-١٠٢]كالتَّفسير لسورة الإخلاص، والتفصيل لمجملها، وإن قولَه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ عطفٌ على الجملة السابقة من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾[الأنعام٦/٩٥] من باب حصول مضمون الجملتين، على منوال ما سبق في فاتحة السورة التي هي كبراعة الاستهلال. يعني: حصل من الله تلك النِّعم العظمى، والآيات الباهرة، ليُعْبَد ويُوَحَّد، وحصل من بني آدم ما ينافيه.

وما أحسن موقع قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خاتمة لتلك الآيات الباهرات، وتخلُّصًا إلى هذا التقريع، وتعريضًا بالمشركين! ومن حقِّ التقريع أن يجعل: ﴿وَخَرَقُوا﴾ مِن: خَرَقَ الثوب، لينبِّهَ على التَبَاين الشديد بين طرفي الإفراط والتفريط.

ويؤيد العموم عطف قوله: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ يعني: جَمَعَ مَنْ مَالَ من الدين الحنيف بين هاتين العظيمتين، فوِزَان المعطوف عليه كلّه وزان قوله: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص ١١٢/١-٢]ووزان قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص ١١٢/٣-٤]، وزان قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾. ووزان قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ وزان قوله: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.[٢٧٢٧] ولَمَّا ذكر إشراكهم واختلاقهم نزَّه نفسَه عما يصفونه به.

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١)﴾

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾

[٢٧٢٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٨ ظ؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٠٩-١١٠.

[٢٧٢٤] أي: «خَرَّقوا». قرأ بها نافع وأبو جعفر. **النشر**، ٢/٢٩٦.

[٢٧٢٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر وابن عبّاس. **المحتسب**، ١/٢٢٤.

[٢٧٢٦] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٩؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١١٠.

[٢٧٢٧] **فتوح الغيب**، ٦/ ١٩١-١٩٢.

إضافة الصِّفة المشبهة إلى فاعلها، أي: بديع سمواته وأرضه ومكوِّنٌ من غير سبق مثال يقال: فلانٌ بديعُ الشعر، أي: بديعٌ شِعْرُه. و«الإبداع»: عبارة عن تكوين الشيء من غير مثال، أو إلى الظرف كقولهم: «ثَبْتُ الغَدَرِ»؛ أي: ثابتٌ فيه.

و«الغَدْرُ»: الموضع الخشن الكثير الحجارة، وفيه سقوق لا يأمن فيه عن العثار والسقوط يقال: «رَجُل ثَبْتُ الغَدَر»، أي: ثابت في القتال، و«فَرَس ثَبْتُ الغَدَرِ»، أي: مأمون عن المكيدة. ولَمَّا أشعر ظاهره بالجهة والمكان دفع بأن معناه عديمُ النَّظير فيهما، فالمقصود من الظرفية ليس كونه فيهما، بل بيان أنه منزّه عن المثل والنظير فيما ينتهي إليه عقلُ البشر من السموات والأرض.[٢٧٢٨]

فقيل: البديع بمعنى: الْمُبْدِعُ، وارتفاعه على أنه خبر مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو بديع السموات، أو فاعل ﴿تَعَالَىٰ﴾ أو مبتدأ وخبره: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾.[٢٧٢٩]

قال **النحرير**: وهذا إمَّا على تجويزِ كون الجملة الإنشائية خبر مبتدأ، وإمَّا على تأويل أنه استفهام إنكار بمعنى: لا يكون، وإمَّا على تقدير القول فتعسف ظاهر.[٢٧٣٠]

وقال **الشريف**:[٢٧٣١] إن الإنشائية لا تقع خبرًا إلا بتأويلٍ، وذلك أن الخبر لا بدَّ وأن يكون حالًا للمبتدأ، والإنشائية من حيث إنَّه إنشاء ليست حالًا للمبتدأ، فلا تقع خبرًا، فعلى هذا تقدير القول لا يكون تعسفًا إلا أن يقال: هو مستغنى عنه هنا بما ذكر من أن الاستفهام ليس على حقيقته.

وقرئ بالجرِّ[٢٧٣٢] بدلًا من ﴿لِلَّهِ﴾ أو ضمير ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أو وصفًا لله على تقدير كون الإضافة حقيقية، ويجوز الرّدّ على ﴿خَرَقُوا لَهُ﴾.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: من أين أو كيف يكون له ولد على أن ﴿أَنَّىٰ﴾ بمعنى: «أين» أو بمعنى: «كيف». والظاهر أنَّ ﴿يَكُونُ﴾ تامةٌ، أي: كيف يوجد له ولد وأسباب الولادة منتفية. ويجوز أن تكون ناقصةً و﴿وَلَدٌ﴾ اسمًا و﴿أَنَّىٰ﴾ خبرها، و﴿لَهُ﴾ في محلِّ النَّصب على الحال من ﴿وَلَدٌ﴾.[٢٧٣٣]

وقرئ «يَكُونُ»[٢٧٣٤] بالياء للفعل، كقوله:

لقد وَلَدَ الأُخَيْطِلَ أُمُّ سُوءٍ   عَلَى بَابِ اسْتِهَا صُلُبٌ وَشَامُ.[٢٧٣٥]

«الصُّلُبُ» جمع صَلِيبٍ. قيل: هو وَدَكُ الجيفة. وقيل: هو صليب النصارى، فإن الأخيطل كان من نصارى العرب يعني: أن صورة الصَّليب منقوشةٌ على أسنة و«الشام»: الخال،[٢٧٣٦] أو لأنه لم يكن مسندًا [**١٣٦**/ظ] إلى ﴿صَاحِبَةٌ﴾، بل

[٢٧٢٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٨ظ؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١١٠.

[٢٧٢٩] **الكشاف** ، ٢/ ٥٠.

[٢٧٣٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٨ظ.؛**حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣/ ٤٤٧.

[٢٧٣١] **هو سيد شريف جرجاني**.

[٢٧٣٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن صالح ابن محمد الشامي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٧٥؛ **الكشاف**، ٢/ ٥١؛ **المختصر في شواذ القراءات**، ص٤٥.

[٢٧٣٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١١٠-١١١.

[٢٧٣٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن إبراهيم. **الكشاف** ، ٢/ ٥١؛ **المختصر في شواذ القراءات**، ص٤٥؛ **المحتسب**، ١/ ٢٢٤.

[٢٧٣٥] **الكشاف** ، ٢/ ٥١؛**فتوح الغيب**، ٦/ ١٩٥-١٩٦.

إلى مستتر راجع إلى اسم الله وله خبر مقدّم. و﴿صَاحِبَةٌ﴾ مبتدأ مؤخر والجملة خبر ﴿تَكُنْ﴾ أو إلى ضمير الشأن، وله ﴿صَاحِبَةٌ﴾ جملة مفسرة لضمير الشأن.[٢٧٣٧] فعلى هذين الوجهين كان ناقصةً، وعلى الوجه الأوّل يحتمل النّقصان والتّمام على ما مرَّ بيانه.

وقال **الفاضل**: وأنا أرى أنَّ تذكير «كان» مع تأنيث اسمها أسهلُ من تذكير سائر الأفعال وتأنيث فاعليها، فـ«كان في الدَّار هند» أسوغ من: «قام في الدار هند»، وذلك أنه إنما احتيج الفعل إلى التأنيث عنده كون الفاعل مؤنثًا؛ لأنهما يجريان مجرى الجزء الواحد؛ لأنَّ كلَّ واحد منهما لا يستَغْنِي عن صاحبه، فإنك لو حذفت الفعلَ لَانفرد الفاعل، فلم يفد شيئًا، فأُنِّث الفعل إيذانًا بأن الفاعلَ المتوقَّع بعده مؤنَّث، بخلاف «كان» وأخواتها؛ لأنها لو حذفتَها لاسْتقلّ ما بعدها برأسه، فلم تَقْوَ حاجتُه إلى الفعل، فانحطَّت رتبته، ولم يذكر هذا الوجه غيره وهو لائح عن وجه.[٢٧٣٨]

ثم إنَّ الجملة حالٌ من مضمون الجملة المتقدمة، أي: كيف يوجد له ولد، والحال أنه لم يكن له زوجة. وقيل: إنها معطوفةٌ على قوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

لَمَّا ورد أن المقام مقامُ الإضمار، فلِمَ أعاد ذكر الشَّيء؟ أجاب عنه قدس سره: أن الأوَّل مخصص فلو أضمر لا وهم اختصاص علمه تعبعض الأشياء وذلك؛ لأنَّ الشَّيء المذكور أوَّلًا هو الممكن؛ لأن الواجب والممتنع ليسا بمخلوقين. وهو سبحانه عالمٌ بجميع ما يصحّ أن يعلم ويخبر عنه سواء كان واجبًا أو ممكنًا أو ممتنعًا، فأعيد «الشيء» ليعمَّ، لكن لا يساعده ما ذكر في أوائل البقرة[٢٧٣٩] من أنّ الشَّيء في الأصل مصدر شاء الخلق تارة بمعنى شاء فيتناول الباري، وبمعنى مشيئ وجوده أخرى فلا يتناول إلا ما وجد في أحد الأزمنة؛ لأن ما شاء الله وجوده فهو موجود في الجملة. وعلى التقديرين فالشَّيء يختصُّ بالموجود ولا يتناول الممتنع إلا عند المعتزلة.[٢٧٤٠]

فالأولى أن يقال: إنما أعاد ليشير به إلى استقلال كلّ من القدرة والعلم، بالإحاطة التامَّة، والقدرة الكاملة. ولهذا عطفت الاسمية على الفعلية. والآية تدلُّ على نفي الولد من وجوه الأول -على تقرير المصنف- أنَّ مبدعَ الأجسامِ لا ينبغي أن يتّصف بصفة الولادة؛ لأنه إذا اتّصف بها يكون جسمًا مثلها؛ لأن الولادة من صفات الأجسام، والله منزَّه عن أن يكون جسمًا؛ لأنه ممكن يحتاج في إنشائه إلى مخترع.[٢٧٤١]

وعلى تقريره قدس سره: أن من مبدعَاتِه السموات والأرض، وهي مع أنها من جنس ما يُوصف بالولادة، مبرَّأةٌ عنها لاستمرارها وطول مدتها فهو أولى بأن لا يتعالى عنها.

الثاني: على اتفاقهما أن المعقول من الولد ما يتولد من ذَكَرٍ وأنثى متجانسين والله منزَّهٌ عن المجانسة.[٢٧٤٢]

[٢٧٣٦] **فتوح الغيب**، ٦/ ١٩٥-١٩٦؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٨و.

[٢٧٣٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١١١.

[٢٧٣٨] **المحتسب**، ١/٢٢٤؛ **فتوح الغيب**، ١٩٦/٦.

[٢٧٣٩] **البقرة** ٢/ ٢٠.

[٢٧٤٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١١١.

[٢٧٤١] **فتوح الغيب**، ١٩٤/٦-١٩٥.

[٢٧٤٢] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٩.

وتوضيحه ما قال الإمام أن قولهم: بأن هذا والد لهؤلاء لا يخلو، إمّا أن يكون بمعنى أبدعها من غير تقدم نطفة ووالد، وإما بمعنى كون الإنسان والدًا لأولادها. فإن عنوا المعنى الأول لزمهم أن يقولوا: بأنه تع والد السموات والأرض لكونه مبدعًا لهما من غير سبق، وذلك محالٌ لم يقل به أحد. وإن عنوا المعنى الثاني توجه عليهم أن يقال: أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة.[٢٧٤٣]

الثالث: على تقرير المصنف: «أنه ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به، ومن كان بهذه الصّفة كان غنيًّا عن كلِّ شيءٍ، والولد إنما يطلبه المحتاج».[٢٧٤٤]

والظَّاهر أن العلم بكلّ شيء وجهٌ مستقل. فتكون الوجوه أربعةً إلا أنه أدرجه وجعله مع كلِّ شيء وجهًا واحدًا؛ لأن المعنى إنما يتحقَّق بالاتحاد والاختياري وذلك بالعلم، ولأنه ربّما يناقش في لزوم كون الولد كالوالد في العلم بكلّ شيء، وعلى تقريره قدس سره: إن الولد كفؤ الوالد، ولا كفؤ له، لوجهين: الأول: أن كلَّ ما عداه مخلوقةُ فلا يكافِئُه، والثاني: أنه لذاته عالمٌ بكل المعلومات، ولا كذلك غيره بالإجماع،[٢٧٤٥] فيرد عليه المناقشة المذكورة

وذكر ابن الكمال وجهًا آخر مأخوذًا من قوله: ﴿**بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ وهو أن الأجسامَ مبدعةٌ، والمبدِعُ هو الذي لا يوجد من مادَّةٍ، والولد لا يكون إلا من مادَّة شخصٍ، فالمبدعُ ليس بوالدٍ.[٢٧٤٦]

وقال الإمام بعد ما طوّل في تقرير الوجوه على غير هذا النمط: «ولو أن الأولين والآخرين اجتمعوا على أن يذكروا في هذه المسألة كلامًا يساويه أو يدانيه في القوَّة والكمال لعجزوا عنه».[٢٧٤٧]

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال الله تع: شَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَقَالَ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا وَأَنَا الْأَحَدَ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ وَيَعْلَمُ كَوْنَهُ شَتْمًا مِن الْوُجُوهِ الْمَذْكُورَةِ فِي الدَّلَالَةِ.[٢٧٤٨]

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢)﴾

تقريرٌ للكلام السَّابق [**١٣٧/و**] ودليلٌ على أنه المستحقُّ للعبادة، و«ذلك» إشارةٌ إلى الموصوف بما سبق من الصِّفات، وهو مبتدأ، وما بعده أخبارٌ مترادفةٌ؛ لأنَّ ﴿**اللَّهُ**﴾ علم لا يجوز أن يقع صفةً لاسم الإشارة، لكن يلوح أنه لا يقع خبرًا أيضًا إلا بتأويل، فيقع صفةً بذلك التأويل أيضًا، إلا أن يقال: لم يشع ذلك منهم في الصفة، ويجوز أن يكون ﴿**اللَّهُ رَبُّكُمْ**﴾ بدلًا و﴿**خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ خبرًا، أو يكون ﴿رَبُّكُمْ﴾ خبرًا و﴿خَالِقُ﴾ خبر محذوف، أي: هو خالق. وأجاز الكسائي والفرَّاء النصب فيه.[٢٧٤٩]

[٢٧٤٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١١٢.

[٢٧٤٤] **الكشاف** ، ٢/ ٥١

[٢٧٤٥] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٩.

[٢٧٤٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٨٧.

[٢٧٤٧] **مفاتيح الغيب**، ١٣/ ١٢٦؛ **نواهد الأبكار**، ١٥٧/٦.

[٢٧٤٨] **صحيح البخاري**، ١٠٦/٤ (٣١٩٣).

[٢٧٤٩] **الجامع لأحكام القرآن**، ٣٨٢/٨.

﴿**فَاعْبُدُوهُ**﴾ «مسبَّب عن مضمون الجملة؛ على معنى: أَنَّ[٢٧٥٠] من استجمعت له هذه الصِّفات كان هو الحقيقَ بالعبادة، فاعبدوه ولا تعبدوا من دونه من بعض خلقه».[٢٧٥١]

فهو حكمٌ ترتَّب على ذلك الأوصاف، وهي علَّة مناسبةٌ له، فحيث وُجدت وُجد، وحيث فُقدت فُقد، فلذلك قيل: «ولا تعبدوا غيره» وخصَّ «البعض»؛ لأنَّ الكلام في الملائكة والجنِّ، لقوله وجعلوا ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام ١٠٠/٦] ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾: تتميمٌ للصفات، أو تكميلٌ للأمر بالعبادة، أي: هو الحقيق بالعبادة، لأنه المنزَّه عن النقائص، والمنفرد بالإلهية، والمختصُّ بالخالقيَّة، ومع ذلك متكفّل لأرزاق العباد، رقيب على أعمالهم، بيده آجالهم وسائر ما يرتفقون، ويحتاجون إليه فلِمَ لا يخصُّونه بالعبادة؟![٢٧٥٢]

وقال قدس سره: «وهو مع تلك الصِّفات متولّي أمورِكم فكِلُوها وتوسَّلوا بعبادته إلى إنجاحِ مآربكم، ورقيبٌ على أعمالكم فيجازيكم عليها».[٢٧٥٣] يقال: «تولىّ الأَمْرَ» إذا فعله، وأصله: من الولي وهو القرب، وهذا مناسب لقول أهل اللغة: «الوكيلُ القائم بما فُوِّض إليه، وكأن‍ّ‍ه فعيلٌ بمعنى المفعول، أي: مَوْكولٌ إليه الأمر، أي: مفوَّض إليه»،[٢٧٥٤] فإنَّ عباد الله يفوّضون مصالحهم إليه اعتمادًا على إحسانه، واعتقادًا بأنها لا تحصل إلا منه. وأما قولهم: «الوكيل»: الحافظ من «الوكالة» بمعنى الحفظ، فلعلَّ ذلك مسبّب عن الاعتماد والتفويض، أو هو معنى مستقل لمجيء اللغة بذلك.

وقال بعض أرباب النَّظم: إن عطف قوله: ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ**﴾[الأنعام ١٠٠/٦] كما سبق، على قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام ٩٥/٦] على معنى: نحن أنعمنا عليهم بالنعم المتكاثرة، وأريناهم الآيات المتظاهرة؛ ليشكرونا، ولا يعبدوا غيرنا، وهم قد عكسوا، وعبدوا الجنَّ وخرقوا له بنين وبنات: دلَّ على أن استحقاق العبادة لله وعلى أنه ما خلق الخلق إلا للعبادة. فلما أراد أن يبطل ما نسبوا إليه على وجه يستتبع المقصود من اختصاص العبادة به عزَّ وجلَّ قال: ﴿**بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ إلى قوله ﴿**وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[الأنعام ١٠١/٦]ورتَّب عليه قوله:﴿**ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ**﴾إلى ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾، [الأنعام ١٠٢/٦].

ومن المقرَّر أنّ العبادة لا تكون معتدًّا بها، مقبولة، حتى تكونَ مصحوبةً بإخلاص غيرَ مشُوبةٍ بالرِّياء، فيه دلَّ بقوله: ﴿﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام ١٠٢/٦] على أنَّه بذاته الأقدس مراقبٌ لأحوالهم، حافظ لما يصدر منهم، كقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه٣٩/٢٠]، وأنَّ مراقبتَه على خلاف ما عليه المراقب في الشاهد؛ لأنه مراقبٌ بحيث لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار؛ لئلا يَبْطُلَ غرضُ الت‍ّ‍كليف؛ لأنَّ العابد إذا رآه يضطرُّ إلى العبادة.

وفي تخصيص إدراك الأبصار التَّلويح إلى المحافظة التَّامة، لئلا يسترق المرائي النّظر إلى الخلق، وفي ذكر صفة «اللطيف» و«الخبير» رمز إلى كمال المراقبة لما في الصدور.[٢٧٥٥] وهذا هو المعنى المناسب لما قبله من المعاني المذكورة في قوله:

﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)**﴾

[٢٧٥٠] ج – أنَّ.

[٢٧٥١] **الكشاف** ، ٢/ ٥١

[٢٧٥٢] **فتوح الغيب**، ٦/ ١٩٧.

[٢٧٥٣] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٩.

[٢٧٥٤] **العناية شرح الهداية** للبابرتي، ٧/ ٤٩٩.

[٢٧٥٥] **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٠٠.

استدلَّ المعتزلة بها على عدم وقوع الرؤية في الدّارين بمفهومها الظاهر، وهو نفي إدراك الأبصار؛ فإنه يقتضي أن لا يراه كلُّ بصر في جميع الأحوال بدليل صحة الاستثناء في بعض الأشخاص وفي بعض الأحوال، وهي من دلائِلِ العموم، وعلى امتناعها مع أنَّ ظاهرها نفي الوقوع وهو لا يوجب نفي الإمكان، بأن عدم رؤيته بعد سلامة الحاسَّة وحصول الشرائط المتعلِّقة بالرائي يجب أن يكون لامتناع رؤيته، وانتفاء بعض الشرائط المتعلّقة بالمرئي؛ إذ عدم المعلول عند عدم الأسباب والشرائط لازم، ولا يخفى عليك أن عليه منعًا ظاهرًا، وبأنه تعيتمدح بكونه لا يرى، وما كان من الصِّفات عدمية مدحًا كان وجوده نقصًا محالًا في حقه تع.

وقال ابن الكمال: لا تحيط به ﴿الْأَبْصَارُ﴾ فإذا لم يُحِطْ به الكلُّ فعدم إحاطة كلِّ واحدٍ منها به بطريق الأوْلَى، وهذا الوجه للعدول عن المفرد إلى الجمع، وإذا كان المنفيُّ الإدراكَ الخاصَّ فلا مُتمسَّك فيه لمن أنكر الرؤية.[٢٧٥٦]

وأنت خبير: بأن الظاهر أن كلَّ بصر لا يدركه لا أن الأبصار مجموعةً لا يدركه نفي ما ذكره خفاءً.

وأنت خبير بأن النَّفي مطلقًا ولو في مقام التّمدُّح لا يوجب الامتناع، بل ربَّما يدعى[٢٧٥٧]إيجاب أن يرى؛ إذ لو كان في نفسه ممتنع الرُّؤية لم يلزم من عدم رؤيته مدح، وعليه منع أيضًا بأن المدح في ممتنع الرؤية لتنزيه الذات عمَّا يوهم التشبيه.

ونحن نقول معاشرَ أهل السنة: إن الإدراك ليس مطلق الرؤية، بل على وجه إحاطة المرئي؛ إذ حقيقة النيل والوصول ﴿**قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾ [الشعراء ٦١/٢٦]، أي: لَمُلحقون، وأدركت الثمر، أي: وصلت إلى حدِّ النضج، وأدرك الغلام، أي: وصل البلوغَ فنقل إلى الرؤية المحيطة لكونها أقرب إلى تلك الحقيقة، فبقى الرؤية على وجه الإحاطة لا يمنع الرؤية وهو سبحانه لا يدرك، أي: كنهه؛ لأنه لا يدركه إلا هو ولا يحاط بحدوده وجوانبه لتنزهه عنها، فلا يتعلَّق به الإدراك والإحاطة وذلك لا يمنع تعلّق الرؤية.

ولو سلّم أن الإدراك [**١٣٧**/ظ] هو الرؤية مطلقًا، لكن لا نسلّم دلالتها على انتفائها في جميع الأوقات، فيحمل على الانتفاء في بعض الأوقات جميعًا بينها وبين النصوص الدالَّة على أن المؤمنين يرونه يوم القيامة وفي جميع الأشخاص، فيحمل على الانتفاء في بعض الأشخاص، كقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين٨٣/١٥] وذلك لأن الكلام في قوَّة قولنا: «لا كلُّ بصرٍ يُدْرِكُه»، أي: بمنزلة إيراد حرف السَّلب على الإيجاب الكلِّي فيكون رفعًا له وهو أعمُّ من السَّلب الكلِّي، وتحقيقه أنه إن اعتبرت النسبة إلى الكلِّ أولًا، ثم سلبت فهو سلب العموم، وإن اعتبرت السلب أولًا، ثم إيراد أداة العموم عليه فهو عموم السلب، فلمَّا احتمل الكلام كلاهما لم يثبت مدّعاهم، ولو سلم ذلك أيضًا لكن لا نسلم دلالته على امتناعها، فإن البصر على ما ذكره المصنف هو الجوهر اللطيف.

وقد يقال: إنه نور العين فكأنه أراد بالنور الجوهر الذي قام به الضوء، أو أراد المصنف بالجوهر غير معناه المقابل للعَرَض، فلا شكَّ أن الحاسَّة على ما هي الآن لا يدركه ولذلك قيل: الصحيح أن رسول الله ما رآه ليلة المعراج، وأما إذا طهَّرها من الكدورات، وأحدث فيها بلُطفه ما يستعين به العبد على رؤية الله في دار الثواب، كما أراده، ويليق بحاله بحيث لا تدركه الأذهان، فأيُّ بُعْدٍ فيه؟!

نقل الإمام عن ضرار بن عمرو: أن الله تع لا يُرى بالعين، وإنما يُرى بحاسَّة سادسة يخلقها الله يوم القيامة بها تحصل رؤية الله وإدراكه[٢٧٥٨] مع أن لقائل أن يقول: إن النفي لا يوجب الامتناع فيجوز أن يكون الله في نفسه جائز الرؤية، وأن

[٢٧٥٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٨٨.

[٢٧٥٧] ج + إلى.

تحجب الأبصار عن رؤيته في الدنيا، وأن يراه أهل الجنة ولا يراه أهل النّار بأن يخلق الله الرؤية في عيون أهل الجنة ولا يخلقها في عيون أهل النار؛ إذ الرؤية ليست إلا بخلقه وإرادته.

﴿**وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ ذكر الوصفين للدَّلالة على أنه يدرك ما لا تدركه الأبصار كالأبصار. فهذا الكلام دليلٌ على أن الخلق لا يُدركون الأبصار، أي: لا يعرفون كيفية حقيقة البصر. وأما الشيء الذي صار الإنسان به يبصر من عينه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه. ولما ذكر يظهر وجه تخصص الأبصار بإدراكه تع إيّاها مع أنه يدرك الكلّ على أن فيه تجنيس الكلام وتحسينه.

ويجوز أن يكون من باب اللّف؛ أي: لا تدركه الأبصار؛ لأنَّه اللَّطيف وهو يدرك الأبصار؛ لأنه الخبير فيكون اللطيف على هذا مستعارًا من مقابل الكثيف وهو الشفَّاف لما لا يدركه بالحاسَّة، ولا ينطَبع فيها.[٢٧٥٩]

وأما على الوجه الأوَّل فالمعنى: لطيف إدراكه مأخوذٌ من اللُّطف بمعنى دقّة النَّظر في الأشياء على ما قيل. وتقديم الضمير للإشعار لحصر الإبصار؛ لأنه العالم بحقائق الأشياء على ما هي عليها لا غير.

وقال بعض العارفين: لا تدركه الأبصار إلا بإبصار مستفادة من أبصار جلاله، وكيف يدركه الحدثان ووجود الكون عند ظهور سطوات عَظَمَتِهِ عدم؟!

﴿**وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ**﴾ ببصره القديم المنزَّه عن المشابهة بالحدثان، يكسيها أنوار صفاته لتراه به لا بنفسها؛ لأنه بلطف ذاته ممتنع عن مطالعة خلقه مع علو شأن علمه وإحاطته بجميعهم وجودًا وعدمًا، ومن لطف جماله انجذاب القلوب بنعت العشق إلى ضياء وجهه الكريم عجزًا واضطرارًا، من لطفه غرقت الأرواح في بحار محبَّته، وفَنِيَتْ الأسرار في قضاء هوِّيته، ودهشت القلوب في معارك أشواقه، واضمحلت العقول في بيداء ألوهيَّته من إدراك غوامض علمه.

وقال أبو يزيد في قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾: إن الله احتجب عن القلوب، كما احتجب عن الأبصار، فإن وقع تجليًا فالبصر والفؤاد واحد.

وقيل معناه: إن الله يطَّلع على الأبصار بالتجلي لها؛ لأن الأبصار تسموا إليه.

وقال الحسين في قوله: ﴿اللَّطِيفُ﴾: هو اللطيف[٢٧٦٠] الذي لطف عن الكنه فأنَّى له الوصف؟! ومن لطفه ذكره للعبد في الدهور الخالية؛ إذ لا سماء مبنيةٌ ولا أرض مدحيةٌ.

قيل: سبق الوقت وإظهار الكونين وما فيهما.

وقال القاسم: اللطيف الذي لم يدع أحدًا يقف على ماهية اسمه، فكيف الوقوف على وصفه؟!

وقال ابن عطاء: في قوله: ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾ ولا تحيط به العلوم ولا تدركه الفهوم، وأحاط بكل شيء علمًا.

وروى أبو سعيدٍ الخدري عن النبيعليه السلامأنه قال في قوله تع: ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾؛ «لأن الجنّ والإنس والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا صُفوا صفًّا واحدًا ما أحاطوا بالله أبدًا».[٢٧٦١]

[٢٧٥٨]**فتوح الغيب**، ٦/ ١٩٩.

[٢٧٥٩]**نواهد الأبكار**، ١٥٨/٦.

[٢٧٦٠] ج — اللطيف.

وقال الجنيد: اللطف مَنْ ربَّى جسمك بالغذاء، ونوَّر قلبك بالهدى، وجعل لك الولاية في البلوى، ويحرسك وأنت في لظى، ويُدخلك جنة المأوى.

وقيل: اللطيف الذي إن دعوتَه لبَّاك، وإن قصدتَه آواك، وإن أحببتَه أدناك، وإن أطعتَه كافاك، وإن عصيتَه عافاك، وإن أعرضتَ عنه دعاك، وإن أقبلتَ إليه هداك.[٢٧٦٢] [**١٣٨**/و]

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤)﴾

البصائر: جمع بصيرةٍ، وهي للنَّفس كالبصر للبدن، سمِّيت بها الدلالات القرآنية والدلالات العقليَّة؛ لأنها تجلِّي لها الحقّ وتبصِّرها، أي؛ لأن الدَّلالة تكشف للنَّفس الحقّ وتبصِّرها كما تبصر البصيرة. فاستعير لفظ البصيرة من القوّة المودعة في القلب؛ لإدراك المفعولات للحجَّة البيِّنة لكون كلٍّ واحدة منهما بسبب الإدراك.

وقد وصف الدلالة بالمجيء لتفخيم شأنها؛ إذا كانت بمنزلة الغائب المتوقَّع حضورُه للنَّفس، كما يقال: جاءت العافية وقد انصرف المرض،[٢٧٦٣] ولم يلحق الفعلَ تاءُ التأنيث للفصل بالمفعول؛ ولأنَّ تأنيث الفاعل غيرُ حقيقيٍّ.

و﴿**مِنْ**﴾ متعلِّقة بـ﴿**جَاءَ**﴾ ويجوز أن تكون صفةً للبصائر، فتتعلَّق بمحذوفٍ ﴿**فَمَنْ أَبْصَرَ**﴾ الحقَّ بهذه الدَّلالات، وآمن به. ﴿**فَلِنَفْسِهِ**﴾ أبصر، وإيَّاها عني وقدر الفعل متأخرًا لكون المعنى على الاختصاص، واللفظ على الفاء تقول: من جاء فللإكرام جاء، ولا تقول: فجاء للإكرام إلا بتأويلٍ، أي: فقد جاء.[٢٧٦٤]

فإن قلت: قد ينتفع الغير من جهته فكيف يمكن الحصر؟ قلنا: ذلك راجع إليه.

﴿**وَمَنْ عَمِيَ**﴾ عن الحقّ ولم يُبصره بها ﴿**فَعَلَيْهَا**﴾ وباله وإياها ضرّ بالعمى إذ ترك النّظر الصحيح، وأضاع فائدة الدَّلالة. ولعلَّه إنما ذكر أبصر دون استبصر مع أنه هو المستعمل في إدراك البصيرة وأبصر يستعمل في إدراك البصر إشارةً إلى أن الدَّلالات في الوضوح بمنزلة أبصار البصر.

فإن قلت: ذلك يقتضي أن يستعار البصر لها دون البصيرة.

قلت: إنما استعار البصيرة لقوة مناسبتها بتلك الدلالات. و﴿مَنْ﴾ مبتدأ فيجوز أن يكون شرطًا، ويكون الخبر أبصر وجواب من كلاهما، ويجوز أن يكون بمعنى: «الذي» وما بعد الفاء الخبر، والمبتدأ فيه محذوفٌ تقديره: فإبصاره لنفسه وكذلك قوله: ﴿**وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا**﴾ أشار المصنف إلى وجه النَّظم بقوله: جاءكم من الوحي والتَّنبيه على ما يجوز على الله وما لا يجوز ما هو للقلوب كالبصائر، يعني: أنه متعلِّقٌ بقوله: ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾ [الأنعام ١٠٣/٦] ولا يخلوا كلامه عن رائحة اعتزال وتعريض بأهل السنة بالإيماء إلى أنَّ الرؤية لما لا يجوز على الله وقد عرفت ما يدفعه.

وقال بعضهم: كما نفَى إدراكَ البصر عن المكلَّفين، أَثبت لهم البصيرة، ومنَّ عليهم بما منَّ لهم، وحذَّرهم أن يَغْفُلوا عنها بقوله: ﴿**وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا**﴾.[٢٧٦٥]

[٢٧٦١] **العظمة** للأبي الشيخ الأصبهاني، ٣٣٨/١ (٧٢).

[٢٧٦٢] **عرائس البيان**، ٣٨٨/١-٣٨٩.

[٢٧٦٣] **الجامع لأحكام القرآن**، ٤٨٦/٨.

[٢٧٦٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٩و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٤٤٩/٣.

[٢٧٦٥] **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٠٢.

وأنت خبير: بأن ذلك إنما يتَّضح إذا أريد البصيرة وقد عرفت أنها استعارةٌ للدلالة، على أن إدراك البصر إنما نفى عنهم بالنَّظر إلى الله والبصيرة كذلك بالنَّظر إليه.

والتحقيق أنَّ «قُلْ» ههنا مقدَّرةٌ، بدليل قوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ فإنه كلام الرسول، فكأنه تع يقول: قل يا محمد للقوم: قد جاءكم فيما سبق في هذه السورة، من الآيات البينات، والبراهين الساطعات، ما يفتح به؛ آذانٌ صُمٌّ، وأعينٌ عميٌ، وقلوبٌ غُلفٌ، فمن أبصر فلنفسه، ومن عَمِيَ فعليها، وأنا لا أحفظُ أعمالكم ولا أجازيكم عليها، وإنما أنا منذرٌ، والله هو الحفيظ عليكم.[٢٧٦٦]

فتقديم الضمير وإيلاؤه حرف النفي للحصر، وإن كان الخبر صفة لا فعلًا، أي: الحفيظ غيري وهو الله لا أنا، وأمَّا تقديم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فللاهتمام ورعاية الفاصلة، فيمن يجوز تقديم الظرف المعمول لما بعد حرف الجر المزيدة، وإلا فبمحذوف.[٢٧٦٧]

ولَمَّا قلنا: إن المراد: ﴿جَاءَكُمْ﴾ في السورة مما تقرّر التوحيد ويبطل الشرك ويثبت النبوَّة والقرآن ويبين الرشد من الغيّ[٢٧٦٨] ، وما بقى الأمر إلا باختياركم قال فذلكةً.

﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(١٠٥)﴾

«الكاف» في محلِّ النَّصب على أنه صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، أي: تصريفًا مثل ذلك التصريف نُصَرِّف.

﴿**وَلِيَقُولُوا**﴾ جوابه محذوفٌ تقديره: وليقولوا «دَرَسْتَ» نصرِّفها،[٢٧٦٩] أي: معلّله تشبيًا له بجواب الشَّرط الذي هو مسبّب، والشرط سبب، وتقدير الفعل متأخرًا للاختصاص المناسب للمقام.[٢٧٧٠] والتَّصريف المراد ههنا إجراء المعنى الدَّائر في المعاني المتعاقبة، من الصَّرف وهو نقلُ الشيء من حالٍ إلى حالٍ.

والظاهر أنَّ المشبه ليس غير المشبه به حقيقةً، بل قصد بذلك كمال التعظيم كما بين في قوله تع: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة ٢/١٤٣].

وقيل: كما صرَّفنا الآيات في الوعد والعيد والوعظ والتَّنبيه في هذه السورة نُصرِّف في غيرها.[٢٧٧١]

﴿**دَرَسْتَ**﴾ أي: قرأتَ وتعلَّمْتَ.[٢٧٧٢]

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «دَارَسْتَ»[٢٧٧٣] أي: دارستَ أهلَ الكتاب وذاكرتَهم. والمدارسة: المذاكرة بين اثنين.

وابن عامر ويعقوب: «دَرَسَتْ»[٢٧٧٤] من الدُّروس، وهو البلي وانمحاء الأثر؛ لتقادم العهد، أي: قَدُمَتْ هذه الآيات وعَفَت، كقولهم: «أساطير الأولين».

[٢٧٦٦] **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٠٢.

[٢٧٦٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و ٣٣٩أ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣/٤٤٩.

[٢٧٦٨] ج – من الغيّ.

[٢٧٦٩] **الكشاف** ، ٢/٥٢.

[٢٧٧٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و ٣٣٩و.

[٢٧٧١] **الجامع لأحكام القرآن**، ٨/ ٤٨٧.

[٢٧٧٢] **الكشاف** ، ٢/ ٥٢.

[٢٧٧٣] **التيسير**، ص ٣٤٦؛ **النشر**، ٢/١٩٦.

وقرئ: «دَرُسَتْ»[٢٧٧٥] بضم الرّاء[**١٣٨**/ظ] مبالغةً في «دَرَسَتْ». ووجهه أن ذلك البناء يختصُّ بأفعال الطبائع والغرائز فيدلُّ على ثبات الفعل وبمكّنه.

و«دُرِسَتْ»[٢٧٧٦] على البناء للمفعول، أي: «قرئت هذه الآيات» بمعنى: قرأها الذغره ويعلِّمها منه، أو «عُفيت»، وذلك إن درست جاء لازمًا ومتعدِّيًا بالمعنيين، وكذا عفا و«دَارَسَتْ»[٢٧٧٧] بمعنى: دَرَسَتْ وَعَفَتْ نحو: سافرت، والضمير للآيات أو على أهلها، أي: «دارستِ اليهود محمَّدًا»، وجاز الإضمار؛ لأن الشهرة بالدراسة كانت لليهود عندهم، ويجوز عندهم أن يكون الضمير للآيات، والمراد أهلها: أي: دارس أهلُ الآيات وحملتُها محمَّدًا، وهم أهل الكتاب.

و«دَرَسْنَ»[٢٧٧٨] أي: عَفَوْنَ، ودرس محمد، و«دَارِسَاتٌ»،[٢٧٧٩] على أنها خبر محذوف، أي: «هي دارسات»، أي: قَديماتٌ، أو ذاتُ درس على أن يكون بياء النسبة؛ فإنه كما يكون بإلحاق ياء النسبة يكون بلفظ اسم الفاعل كتامر، ومنه ﴿فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة ٢١/٦٩].

ولعلَّ اختلاف القراءة لاختلاف أقوالهم: منهم من قال: ﴿**إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ**﴾ [النحل ١٠٣/١٦] وهو تأويل «دَارَسَتْ»، ومنهم من قال: ﴿**إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾ [الأنعام٦/٢٥] وهو تأويل «دَرَسَتْ»، ومنهم من قال: ﴿**إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ**﴾ [الفرقان ٤/٢٥] وهو تأويل «درسَت»، أي: أخذته من أهل الكتاب.

واللام الأولى مجازٌ، والثانية حقيقةٌ؛ فإن الآيات صرفت للتَّبيين، ولم تصرّف ليقولوا: درست، ولكن لما آل الآمر إلى أن يقولوا: وكان غاية التصريف شُبِّه بالعلَّة، وسيق مساقها ونحوه قوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص ٨/٢٨] وباعتبار تلك المشابهة صحَّ عطف العلَّة الحقيقية عليه، ووجه المشابهة سيذكر هناك إنشاء الله.[٢٧٨٠]

وقيل: اللام الأولى عطفٌ على مضمر مثل لتهتدي به ولنبيّنه

وأنت خبير بأنه إن أضمر بالعاطف يلزم المحذور الذي فرَّ عنه، وإن أُضمر بلا عاطف يلزم العلق بالنظر إلى قوله: ﴿وَلِيَقُولُوا﴾.

وقال ابن الكمال: الظاهر أنها لام الأمر، والفعل مجزوم بها، لا منصوب بإضمار «أن»، ويؤيّده قراءة من قرأ بتسكين اللَّام، والمعنى عليه متمكِّن، كأنَّه قيل: ومثل ذلك نصرِّف الآيات ولْيقولوا هم ما يقولون، وهو أمرٌ تهديد، وعدم الاكتراث بما يقولون.[٢٧٨١]

وأنت خبير بأنه قلق بالنظر إلى ﴿**لِنُبَيِّنَهُ**﴾، والضمير «للآيات» باعتبار المعنى أو للقرآن للعلم به أو للمصدر نحو: «ضربته زيدًا»، فإن الضمير لمصدر «ضَرَبَ»، وتخصيص العالمين؛ لأنهم المنتفعون.

[٢٧٧٤] **التيسير**، ص ٣٤٦؛ **النشر**، ١٩٦/٢.

[٢٧٧٥] قرأ بها الأخفش. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص١٧٥؛ **الكشاف** ، ٢/ ٥٢.

[٢٧٧٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وقتادة والحسن. **المحتسب**، ٢٢٥/١.

[٢٧٧٧] **الكشاف** ، ٢/ ٥٣.

[٢٧٧٨] **البحر المحيط**، ٢٠٠/٤؛ **المحتسب**، ٢٢٥/١.

[٢٧٧٩] **الكشاف** ، ٥٣/٢؛ **البحر المحيط**، ٢٠٠/٤.

[٢٧٨٠] **البحر المحيط**، ٢٠١/٤.

[٢٧٨١] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣٩٠/٣.

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٦)﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ(١٠٧)﴾

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: اعتراضٌ بين قوله:**﴿اتَّبِعْ﴾** وبين قوله: **﴿وَأَعْرِضْ﴾**، توكيدًا لما في كلمة التَّوكيد التَّمسك بحبل الله، والاعتصام به، والتَّبرِي والإعراض عمَّا سواه. ولأنَّ الموحَى ليس إلا التَّوحيد. قال الله: **﴿إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾** [الأنبياء ٢١/١٠٨]، أو حالٌ مؤكِّدة كقوله: **﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾**[البقرة ٢/٩١] **﴿مِنْ رَبِّكَ﴾** بمعنى منفردًا في الألوهيَّة، وإن لم يكن مقرَّرة لمضمون الجملة الاسميّة؛ لأنَّه شرط وجوب حذف العامل شرط كونها مؤكدة، وقد وقعت بعد الفعلية على ما مرَّ بيانه عند قوله: **﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾**، أو استئناف.

وفيه تسليةٌ لرسول الله وحثٌّ على احتمال الأذى من الكفَّار، والصفحُ عن مساوئهم، وذلك أنه تعالى ختَم الآيات بقوله: **﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا﴾** [الأنعام٦/١٠٥].

وفيه معنى التعكيس، وهو أن تكرير الآيات البيِّنات ليس إلا ليهتدوا ويتَّبعوك، فقد جعلوها وسيلةً إلى الطَّعن فيك، والقول: بأنَّك دَرستَ وتَعلَّمْتَ من اليهود، فاصفح عنهم، واتَّبع ما جاءك من توحيد ربك.[٢٧٨٢] ولا تبال ما سمعتَ منهم: من أنَّك تُدارس أقوامًا وستُفيد هذا العلومَ منهم، ثم تنظِّمها قرآنًا، وتدَّعي أنه نزل عليك من الله، ولا تورث ذلك غمًّا في قلبك، ولا تفتر بسبب أقوالهم الزائغة في تبليغ الرِّسالة؛ فإنّ إلهك إلهٌ واحدٌ يجب طاعته، ولا يجوز الفتور في رعاية تكاليفه بسبب جهل الجاهلين، وزيغ الزائغين، وبهذا التقرير يظهر أنه لا حاجة إلى حمل الإعراض على ما يعمّ ترك القتال، والكفّ عنهم حتى يكونَ منسوخةً بآية السَّيف، ثم بيَّن أنَّهم إنما أشركوا بمشيئة الله، أي: لو أردتَ توحيدهم لَقدرت عليه، ولكنَّهم لما اختاروا الكفر وآثَرُوا تقليدَ أسلافهم، واتباع شهواتهم شئت لهم ذلك، فأشركوا بمشئتي.

وقالت المعتزلة: إنه تع لا يشاء من العبد إلا ما هو الأصلحُ له وهو الإيمان والطاعة، ولَمَّا دلت الآية على خلاف مذهبهم حملوا مشيئة الله لإيمانهم على مشيئة أن يؤمنوا طوعًا واختيارًا؛ فإنه هو الموجب للبناء والثواب، وحملوا مشيئة لإيمانهم على أنه لم يشاء إيمانهم الحاصِل بالقَهْر والجَبْرِ؛ فإن على سبيل القهر والإلجاء يُبْطِل التَّكليف، ويخرج الإنسان عن استحقاق الثواب، ولا يخفى ضعف ما ذهبوا إليه؛ لأنه لا شكَّ أنه تع هو الذي أقدَر الكافر على الكفر فقُدرةُ الكفر إن لم تَصْلُح للإيمان، فخالقُ تلك القدرة [**١٣٩**/و] لا شكَّ أن يكون مريدًا للكفر، وإن كانت صالحةً للإيمان، لم يترجَّحْ جانب الكُفْرِ على جانبِ الإيمان، إلا عند حصول داعٍ يدعوه إلى الإيمان أو الكفر، وإلا لَزِمَ رجحان أحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجِّح. وهو محالٌ، ومجموع القدرة مع الدَّاعي إلى الكُفْرِ، يُوجب الكفر، فإن كان خالق القدرة والدَّاعي هو الله، وثبت أن مجموعَهما يوجب الكفر، ثبت أنه أراد الكُفْرَ من الكافر.

ثم إنه تعالى لما بيَّن أن الأمر منوطة بمشيئة الله، وأن مراده واجب الوقوع بين أن مقتضى الرِّسالة ليس إلا التَّبليغ، والأمر والنَّهي لما يتعلَّق بالعلم والعمل، وما على الرّسول أن يُراقِب أعمالَ المكلفين، ولا أن يكون وكيلًا يقدم بأمورهم ويلجئهم إلى الإيمان والطَّاعة، فمن أطاع واتَّبع فنفعه عائدٌ إليه، ومن خالفه فضرُّه عائد إليه لا إلى الرسول.[٢٧٨٣]

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

[٢٧٨٢] **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٠٦-٢٠٧.

[٢٧٨٣]**مفاتيح الغيب**، ١٣/ ١٤٥-١٤٦؛ **اللباب**، ٣٦١/٨.

أي: ﴿وَلَا تَسُبُّوا﴾ آلهة ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ﴾يدلُّ على هذا المضاف قوله: ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ﴾ وما ذكروه في سبب النُّزول.

وقرأ يعقوب: «عُدُوًّا»[٢٧٨٤] بضم العين والدال وتشديد الواو. ويقال: عَدَا فلانٌ عَدْوًا وعُدُوًّا وعَدَاءً وَعُدْوَانًا إذا تجاوز الحدَّ وظلم، وانتصابه على المصدر لكونه نوعًا من عامله؛ لأن السبَّ من جنس العدوِّ، أو على العلَّة، أي: لأجل العدوِّ، أو الحال، أي: عادين. و﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال، أي: «مصاحبين بالجهل»؛ لأنهم لو قدروا الله حقَّ قدره لَمَا أقدموا عليه.[٢٧٨٥]

فإن قيل: أليس وصف آلهتهم بأنها ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء ٩٨/٢١] وبأنها لا تضرُّ ولا تنفع سبًّا لها؟

قلنا: لا؛ لأن السبَّ ذكر المساوي لمجرَّد التحقير والإهانة، وذلك إنما ورد في معرض الاستدلال على عدم صلوحها للإلٰهية والمعبودية، لكن يدافع هذا الجواب أنهم قالوا عند نزول قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء ٩٨/٢١]، لَتَنْتَهِيَنَّ عن سبِّ آلهتنا، أو لَنَهْجُوَنَّ إلٰهك.[٢٧٨٦]

ولعلَّ ذلك وجه عدوله قدس سره عنه إلى أن قال: روي: أنه ع مكان يطعن في آلهتهم فقالوا: لَتَنْتَهِيَنَّ عن سبِّ آلهتنا، أو لَنَهْجُوَنَّ إلٰهك[٢٧٨٧] وقد يدفع الموافقة بأنه إذا قصد بالتلاوة سبَّهم وغيظهم يستقيم النهي عنها.[٢٧٨٨]

وقال ابن الكمال: فيه تلوين الخطاب بالعدول عن خطابه ع م وحده إلى الخطاب في ضمن الكلّ، لِمَا في مواجهته بما ذكر من خلاف ما كان عليه من الأخلاق الكريمة، إذ لم يكن فحَّاشًا ولا سبَّابًا.[٢٧٨٩]

فعلى هذا ينبغي أن يقال في سبب النزول ما قاله قدس سره: كان المسلمون يسبُّونها فنُهوا لئلَّا يكون سبّهم سببًا لسبِّ الله.[٢٧٩٠]

فإن قيل: كانوا مقرّين بالله وعظمته، وأن الأصنام إنما تُعبَد لكونها شفعاء عند الله، فكيف يسبُّونه؟

قلنا: لا يفعلون ذلك صريحًا، بل ربما يفضي فعلهم إليه، كما قالوا: اترك شتمَ آلهتنا، وإلا شتمناك ومَنْ يأمرك بذلك.[٢٧٩١] لكن لا يساعد هذا الجواب قول العلَّامتين، أو لَنَهْجُوَنَّ إلٰهك. ويمكن أن يقال: لا يبعد من السفهاء الجهلة الذين يدعون من دون الله اختيار السبب للمشفوع إليه سبب الشفع، ويكون ذلك من أقبح سفاهتم وأشنع جهالتهم.

وقيل: كانوا يسبُّون رسولَ الله فأجرى الله ذلك مُجرى سبّه تعظيمًا له ع م. وسب آلهتهم طاعة وليس النهي بهذه الحيثية، بل لكونها سببًا إلى شرٍّ كالنهي عن المنكر، إذا عُلم أنه يؤدِّي إلى زيادة الشرِّ

[٢٧٨٤] **النشر**، ١٩٦/٢.

[٢٧٨٥] **اللباب**، ٣٦١/٨.

[٢٧٨٦] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٩؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٩و؛ **حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي** ، ١١١/٤.

[٢٧٨٧] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٠٩؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٩٤.

[٢٧٨٨] **فتوح الغيب**، ٢٠٧/٦.

[٢٧٨٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٩٢.

[٢٧٩٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١١٨.

[٢٧٩١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٩و؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١١٨؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٩٣.

وما روي عن الحسن وابن سيرين: أنهما حضرا جِنازة، فرأى محمدٌ نساءً، فرجع، فقال الحسن: لو تركنا الطاعة لمعصية لأَسرع ذلك في ديننا.[٢٧٩٢] أي: لأسرع فسادُ ذلك في ديننا، أو: لأسرع ذلك في إفساد ديننا. ضَمَّنْ «أَسْرَعَ» معنى التأثير: أي: أثَّر التَّركُ في ديننا سريعًا.[٢٧٩٣]

ليس من هذا القبيل؛ لأن حضورَ الرجال ليس بسبب لحضور النساء بخلاف سبِّ الآلهة، وإنما خُيِّل إلى ابن سيرين أنه مِثْله حتى نبَّه عليه الحسن.[٢٧٩٤] أي: مثل سبِّ الآلهة المفضي إلى سبِّ الله، حتى نبَّه الحسن على أن ذلك ليس مثله؛ لأن حضور الرِّجال ليس سببًا حتى يصيرَ بذلك معصية يجب الانتهاء عنه.[٢٧٩٥]

فقال قدس سره: «فيه دليلٌ على أن الطَّاعة إذا أدَّت إلى معصية راجحة وجب تركها فإن ما يؤدي إلى الشر شر».[٢٧٩٦]

وقال أبو منصور: وهذا فيما يكون مباحًا كسبِّ آلهتهم بخلاف المفروض، كقتالهم حيث لا يُترك مع أنه يؤدِّي إلى قتال المؤمنين، وتبليغ الرِّسالة حيث لا يترك مع أنه يؤدّي إلى التَّكذيب.[٢٧٩٧]

﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا(١٠٩)﴾

الكاف في محل النَّصب على أنَّه صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، أي: زيَّنَّا لكلِّ أمةٍ عملَهم تزيينًا مثلَ تزيين المشركين سبَّ الله وعبادة الأوثان، وهو أمرٌ عظيمٌ فاستبعده، من حيث أشار إليه بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾، ولا يحمل على مثل ذلك الأمر العظيم إلا التَّزْيين.[٢٧٩٨]

ويجوز تخصيص «العمل» بالشرِّ، و«كلّ أمَّة» بالكَفَرة وقد يرجح ذلك بأن الكلام في الكفار، والمشبَّه به تزيينُ سبِّ الله، والتهديد [**١٣٩**/ظ] الذي يدلُّ عليه قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ويمكن أن يقال: يجوز أن يعمَّ على طريقة التبديل وما جعل للتهديد يعمُّ أيضًا الوعد بأن يحاسبَ ويجازيَ كلّ أحدٍ بما يليق به، وذلك أولى والعلم عند المولى.

والآية صريحٌ في الدَّلالة على مذهب أهل السنة من أن اللهتع زيَّن للكافر الكفرَ، وللمؤمن الإيمانَ، وللعاصي المعصيةَ، وللمطيع الطاعةَ بمعنى إحداث ما يمكنهم منه ويحملهم عليه توفيقًا وتخذيلًا.

[٢٧٩٢] **الكشاف** ، ٢/٥٣.

[٢٧٩٣] **فتوح الغيب**، ٦/٢٠٨.

[٢٧٩٤] **الكشاف** ، ٢/ ٥٣.

[٢٧٩٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٩و. **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣/٤٥٢.

[٢٧٩٦] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١١.

[٢٧٩٧] **تأويلات القرآن** للماتريدي، ٥/١٧٤؛ **التيسير في التفسير**، ٥/٤٤٥؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٩٢. وما كان مباحًا فإنه يُنهى عمَّا يتولَّد منه وَيَحدُث، وما كان فرضًا لا يُنهى عن المتولِّد منه، وعلى هذا يقع الفرق لأبي حنيفة فِيمَنْ قطعَ يدَ قاطعِ يده قصاصًا فمات منه، فإنه يضمن الدِّية؛ لأن استيفائه حقٌّ مباحٌ، فأُخذ بالمتولِّد منه، والإمام إذا قطع يدَ السَّارق فمات لم يَضْمنْ؛ لأنه فرضٌ عليه، فلم يُؤخَذْ بالمتولِّد منه. لكن هذا سيقضي بما ذكروا في الأمر بالمعروف حيث اتفقوا على أنه يترك إذا أدّى إلى شر مع أنه فرض. منه. **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٩٣.

[٢٧٩٨] **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٠٨-٢٠٩.

ولَمَّا كان تزيينُ القبيح قبيحًا عند المعتزلة، ووجب تنزيهه عنه أوَّلها المصنف بجعل التّزيين مجازًا عن التَّخلية وترك اللُّطف، أو بجعل الإسناد مجازيًّا بأن أمهل الشَّيطان حتى زيّن لهم، أو بحملة على زعمهم، واعتقادهم أن الله قد زيَّن لهم، وإن لم يكن الواقع كذلك، وأمثال ذلك خروج عن السُّنن الظَّاهر الذي يدلُّ عليه الدَّليل الباهر، وإنما يصار إلى التأويل إذا تعذرحقيقة، والدليل العقلي يؤيد ما قلنا: من أن صدور الفعل عن العبد بحصول الداعي، وأنه يخلقه تع والداعي علمه أو ظنّه باشتمال ذلك الفعل على نفع، وإذا كان بفعله تعامتنع أن يصدر عن العبد فعل إلا بتزيينه ذلك الفعل في قلبه الضمير في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ للمشركين المتقدم ذكرهم، أي: حلف هؤلاء المشركون بالله ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ نصبٌ على المصدر، والعامل فيه ﴿وَأَقْسَمُوا﴾عند **سيبويه**؛ لأنه في معناه، وعند **المبرد**: فِعْلٌ من لفظه، أي: جَهَدُوا جَهْدَ أيمانهم.

وقيل: «مصدر في موقع الحال»،[٢٧٩٩] أي: أقسموا يجهدون جهد أيمانهم، فالحال هي الجملة الفعلية التي حذفت وأقيم المصدر مُقامه، أي: أوكد ما قدروا عليه من الأيمان وأشدها.

قال الكلبي ومقاتل: إذا قال الرجل بالله فهو جهد يمينه. وقال الزجاج: بالغوا في الإيمان.[٢٨٠٠]

واللَّام موطِّئَةٌ للقسم مؤذن به ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ بها «اللام» فيها هي المتلقية للقسم وأنه علامة، أي: والله لئن جاءتهم آية كما جاءت من قبلهم من الأمَم ليؤمنَنَّ بها، والداعي إلى ذلك القسم والتأكيد فيه التحكم على الرسول في طلب الآيات واستحقار مازاوا منها عنادًا واستكبارًا.

قيل: إن الكفار لَمَّا نزلت ﴿**إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ**﴾[الشعراء ٢٦/٤] أقسموا أنها إن نزلت آمنوا، فنزلت هذه الآية.

وقيل: قالت قريش: يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصى يضرب بها الحجرَ، فينفجر من اثنى عشر عينًا، وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقةٌ فآتنا من الآيات حتى نصدِّقَك!

فقال ع م: أيّ شيء تحب‍ّ‍ُون أن آتيكم به؟ قالوا: اجعل لنا الصفا ذهبًا، وابعث لنا بعضَ موتانا حتى نسألَهم عنك، أحقٌ ما تقول أم باطل، وأَرِنَا الملائكة يشهدون لك، أو ائتِنَا بالله والملائكة قبيلًا! وأراد النَّبي الدعاء، فجاء جبريل فقال: إنهم يعاجلون بالعقوبة إن لم تؤمنوا فنزلت.[٢٨٠١]

﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩)﴾

﴿**عِنْدَ اللَّهِ**﴾ وهو قادر عليه، ولكنَّه لا ينزِّلها إلا على موجب الحكمة، أو عنده لا عندي، ولا في قدرتي وإرادتي، فكيف أجيبكم إليها؟ وفائدة الحصر على هذا ظاهر بخلاف الأوَّل، فلعلَّه بالنظر إلى أنه لا ينزِّلها إلا على حسب الحكمة لا أنَّها منزلةٌ كيف ما كان.

﴿**وَمَا يُشْعِرُكُمْ**﴾ ليس في حيِّز «قل»، بل ابتداء كلام من الله، والضمير لآية لا للآيات، ولَمَّا ورد أن المؤمنين لَمَّا توَقَّعوا نزولها طمعًا في إيمان المقترحين بناءً على قسمهم كان مقتضى الظَّاهر إنكار الإيمان، لا إنكار عدمه، وأن يقال: وما يدريكم أنها إذا جاءت يؤمنون؟[٢٨٠٢]

[٢٧٩٩] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١١.

[٢٨٠٠] **مفاتيح الغيب**، ١٣/١٥٠.

[٢٨٠١] **مجمع البيان** للطبرسي ٧/١٦٢.

أجاب عنه العلّامَتَان بأن الاستفهام للإنكار بمعنى نفي علمهم بما هو الواقع، لا بما هو متوقعهم، يعني: أن الواقع أنهم لا يؤمنون على تقدير الآية، كما لم يؤمنوا أوّل مرةٍ، لكن لم يعلمكم بذلك شيء، وإنما يعلمه أنا لا غيري فلا تَتَمنَّوا مجيئ الآية، وإن علمتم فبإعلامي، وإنما زيّنا الكلام به لئلا يردَ أنهم علموا ذلك من نحو قوله: ﴿**وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَٰٓئِكَةَ**﴾ [الأنعام ١١١/٦]. وعبارته قدس سره: «أنكر السبب مبالغةً في نفي المسبَّب»،[٢٨٠٣] يعني: أنكر الدِّراية بهذا العلم، وأريد إنكارُ إظهار الحرص على إيمانهم، أي: أنتم لا تدرون؛ فلذلك تطمعون،[٢٨٠٤] أو بأن المراد نفي علمهم بما هو متوقعهم على أن يكون «لا» مزيدة. وعلى الوجهين ﴿مَا﴾ استفهامية في حيّز الابتداء، والجملة بعدها خبرها، وفاعل «يُشْعِرُ» يعود إليها، وهو يتعدّى إلى اثنين: الأوّل: ضميرُ الخطاب، والثاني: «أَنَّ» بما في حيزها، أو بأنَّ لفظه «أَنَّ» بمعنى: «لعلّ»، كقولهم: ائتِ السُّوق أنَّك تشتري لحمًا. أي: لعلَّك تشتري. وقال امرُؤُ القيس:

عُوجُوا على الطَّلَلِ الْمُحِيلِ لأَنَّنَا نَبْكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابنُ خِذَامِ[٢٨٠٥]

«عوجوا»: أقيموا عاج من راحلته: مال وعطَف، «المحيل»: والمحول الذي أتى عليه الحول، [**١٤٠**/و] أو حال وتغيّر من صفاته بصَوْب الأمطار، وهبوب الرياح، و«ابن خذام» بالخاء والذال المعجمتين، أوّل من بكى الدّيار من شعراء العرب.[٢٨٠٦] ويؤيد ذلك قراءة «لَعَلَّها»[٢٨٠٧] المفعول الثاني محذوفٌ، أي: وما يشعركم ما يكون منهم، ثم قيل: إنها جاءت لا يؤمنون، أي: لعلَّها.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوب: ﴿إِنَّهَا﴾ بالكسر،[٢٨٠٨] كأنه قال: وما يشعركم ما يكون منهم على أن المفعول الثاني محذوفٌ أيضًا، ثمَّ أخبرهم بما علم منهم بقوله: ﴿**أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾. فعلى الوجوه الخطاب للمؤمنين.

وقرأ ابن عامر وحمزة: ﴿لَا تُؤْمِنُونَ﴾ بالتاء،[٢٨٠٩] فيكون الخطاب للمشركين، فالظَّاهر حينئذ أن يكون ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ داخلًا في حيِّز ﴿قُلْ﴾، أي: قل لهم: إنما الآيات عند الله، وقل لهم: وما يشعركم أنها إذا جاءت لا تؤمنون، فيرد عليه أيضًا أنهم تزعمون أن تؤمنوا إذا جاءتهم، فيكون مقتضى الظَّاهر إنكار إيمانهم عند مجيئها فيدفع بأحد الوجوه الثلاثة المذكورة في توجيه الوجه الأوّل.

وأما قوله قدس سره: «وقيل الخطاب للمشركين إذ قرأ ابن عامر وحمزة: ﴿لا تُؤْمِنُونَ﴾ بالتاء».[٢٨١٠] ففيه نظر إذ يلوح منه جواز كون الخطاب للمشركين في القراءة المشهورة وفيه ما لا يخفى. وقرئ: «وَمَا يُشْعِرُهُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْهُمْ لَا

[٢٨٠٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٣٩ظ.

[٢٨٠٣] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١١.

[٢٨٠٤] **فتوح الغيب**، ٢١١/٦.

[٢٨٠٥] **ديوان لامرئ القيس**، ص ١٥١؛ **الكشاف** ، ٢/ ٥٥.

[٢٨٠٦] **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٠٨-٢٠٩.

[٢٨٠٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ ابن كعب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٧٦؛ **الكشاف** ، ٢/ ٥٢.

[٢٨٠٨] **التيسير**، ص ٣٤٦؛ **النشر**، ١٩٦/٢.

[٢٨٠٩] **التيسير**، ص ٣٤٦؛ **النشر**، ١٩٦/٢.

[٢٨١٠] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١١.

يُؤْمِنُونَ»،[٢٨١١] أي: يحلفون بأنهم يؤمنون عند مجيئها، وما يشعرهم، أي: تكون قلوبهم حينئذ كما كانت عند نزول القرآن وغيره مطبوعًا عليها، فلا يؤمنوا بها.[٢٨١٢]

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)﴾

عطفٌ على﴿**لَا يُؤْمِنُونَ**﴾، داخلٌ في حكم ﴿**وَمَا يُشْعِرُكُمْ**﴾، أي: وما يشعركم أنَّا نقلِّب أفئدتهم وأبصارَهم عند نزول الآيات المعترضة بها فلا يؤمنون؛ كما لم يؤمنوا بالله، أو بمحمَّد، أو بالقرآن، أو لأمره عند انشقاق القمر وعنده من الآيات، فعلى هذا في الكاف محذوف مناسب لقوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ و﴿مَا﴾ مصدريَّةٌ، و«الكاف» لتشبيه عدم إيمانهم ثاني مرَّة بعدم إيمانهم أوَّل مرَّة، وإنما ارتكب الحذف؛ لأن التّقليب من فعل الله وعدم الإيمان من فعلهم، ولا يتّضح تشبيه أحدهما بالآخر.

وجوز ابن الكمال: «أن يكون «الكاف» للتعليل، و﴿مَا﴾ مصدريَّةٌ، أي: يفعل بهم ذلك لكونهم لم يؤمنوا به».[٢٨١٣] فإنه كان ينبغي أن يؤمنوا إذا جاءتهم الآية، فرأوها بأبصارهم وعرفوها بقلوبهم. فإذا لم يؤمنوا كان ذلك سببًا للتَّقليب، كقوله: ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[المطففين ٨٣/١٤]. ولم يذكر أسماعهم؛ إذ لا يناسب التَّقليب، ولهذا لم يقل: قلوبهم بدلَ أفئدتهم.

وقيل: معناه: ونقلِّبُ أفئدةَ هؤلاء كيلا يؤمنوا،[٢٨١٤] كما لم تؤمن كفَّارُ الأُمم السالفة لَمَّا رأوا ما اقترحوا من الآيات.

وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخير أي: أنَّها إذا جاءت لا يؤمنون كما لم يؤمنوا أوَّل مرَّةٍ، ونقلّب أفئدتَهم وأبصَارهم.[٢٨١٥]

﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أيضًا، أي: وما يشعركم أنّا نَذَرُهم في طغيانهم، أي: نَدَعُهم ونُخلِّيهم فيه. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ حالٌ، أي: متحيّرين، ولا نهديهم هداية المؤمنين. بقى ههنا شيءٌ لم يتعرض له المفسّرون وهو أنه على تقدير أن تكون «لا» مزيدة في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يشكل عطف ذلك عليه، ولعلَّه يكون استئنافًا على ذلك التقدير.

وقرئ: «وَيُقَلِّبُ» «وَيَذَرُهُمْ»[٢٨١٦] على الغيبة. «وتُقَلَّبُ»[٢٨١٧] على البناء للمفعول،والإسناد إلى الأفئدة. «وَيَذَرْهُمْ»[٢٨١٨] بسكون الراء على أنه مخفَّفٌ لِثِقَلِ توالي الحركات، أو على أنه مجزومٌ عطفًا على ﴿يُؤْمِنُوا﴾. والمعنى: جزاءً على كفرهم، وأنه لم يَذَرْهُم في طغيانهم يعمهون، بل بيَّن لهم. والآية صريحةٌ في الدَّلالة على مذهب أهل السنة من أن الله يقلِّب الأفئدة من الحق إلى الباطل، ويترك في العمه والطغيان.[٢٨١٩]

[٢٨١١] قراءة شاذَّة. **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١١.

[٢٨١٢] **الكشاف** ، ٢/٥٥.

[٢٨١٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٩٧.

[٢٨١٤] **ج – يؤمنو**.

[٢٨١٥] **الجامع لأحكام القرآن**، ٨/٣٩٨-٣٩٩.

[٢٨١٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحي وإبراهيم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٧٦؛ **الكشاف** ، ٢/ ٥٥.

[٢٨١٧] **المختصر**، ص ٤٦؛ **الكشاف** ، ٢/ ٥٥؛ **البحر المحيط**، ٤/٢٠٦.

[٢٨١٨] **المحتسب** لابن جنّي، ١/٢٢٤؛

[٢٨١٩] **اللباب**، ٨/ ٣٧٧- ٣٧٨.

ويناسبها قوله عليه السلام:«يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ».[٢٨٢٠] .أي: يا من يقلّبه تارةً من دواعي الشَّرِّ إلى دواعي الخير وبالعكس؛ ولذلك قال ع م: «قَلْبُ الْعَبْدِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِن أصابعِ الرَّحْمَنِ».[٢٨٢١]

وقد قيل: المراد بالأصبعين الداعيان؛ لأنهما لما لم يحصلا إلا بإرادة الله عبّر عنهما بالأصبعين وحسن الاستعارة باعتبار أنّ الشّيء الحاصل بين أصبع الإنسان يكون كامل القدرة عليه،[٢٨٢٢] ومع الدَّلائل على صحّة ذلك[٢٨٢٣] تأويلهم خروج عن سواء السَّبيل، ونفور عن مقتضى الدّليل، بنحو ما قالوا: نقلِّب أفئدتهم وأبصارهم يوم القيامة على لهب النّار وحرِّ الجمر، كما لم يؤمنوا في الدنيا. ونَذَرهم في الدنيا، أي: نمهِلُهم ولا نعاقبهم. فبعض الآية في الآخرة، وبعضها في الدنيا. ونظيرُها: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ﴾ [الغاشية: ٨٨/٢]، وهذا في الآخرة. ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٨٨/٢]وهذا في الدنيا.[٢٨٢٤]

وقال النصر آبادي: النفوس في التّنفيل، والقلوب في التقليب؛ لذلك [**١٤٠**/ظ] قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ».

وقال أبو حمزة: أقبل الله على قلوبٍ أقبلت عليه، وأعرض عن قلوبٍ فأعرضت عنه.[٢٨٢٥]

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)﴾

لو أنزلنا على المقترحين كلَّ الملائكة، فشهدوا لك بالنُّبوة، وإن سألوا إنزالَ مَلَك حيث قالوا: ﴿**لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ**﴾، وأحيَيْنا كلَّ الأموات، فشهدوا لك، وإن سألوا منك إحياءَ قصيِّ بنِ كلَاب وجدعَان بن عمرو، وقالوا: لو شهدا لك بالنُّبوة لشهدنا.[٢٨٢٦]

﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وإن سألوا حضور الله والملائكة حيث قالوا: ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾ [الإسراء ٩٢/١٧]، فشهد لك النَّاطقون وغيرهم بإنطاق الله وكفَلوا لنبوّتك، وأمّا كفالة الله فإنما يظهر من جانب الملائكة لعدم استحقاقهم بمكالمة الله؛ ولذلك لم يذكره هنا استعظامًا له أو لاستحالته عند المعتزلة.

و﴿قُبُلًا﴾: جمع قبيل، بمعنى كفيلٍ، يقال: قَبَلَ به يَقْبُلُ ويَقْبِلُ من باب نَصَرَ وضَرَبَ قَبَالة كَفَالَة نحو: رَغِيفَ ورُغُف، أو جمع «قَبِيلٍ» الذي بمعنى: قَبِيلَة بمعنى: جماعاتٍ، أو: مصدرٌ، بمعنى: الْمُقَابلة والمَوَاجهة والمعَاينة، يقال: لقِيت فلانًا قِبَلًا وقبلًا ومقابلةً، أي: مواجهةً ومعاينةً. ويؤيده قراءة نافع وابن عامر: «قِبَلًا» بكسر القاف وفتح الباء،[٢٨٢٧] وهو على الوجوه حالٌ من ﴿كُلَّ﴾، وإنما جاز ذلك مع أن حقّ ما وقع حالًا عن النَّكرة أن يتقدَّم عليها لعمومه وإضافته.[٢٨٢٨]

[٢٨٢٠] **سنن الترمذي** دعوات ٨٩.

[٢٨٢١] صحيح مسلم، ٢٠٤٥/٤ (٢٦٥٤)؛ **مسند أحمد**، ١٣٠/١١ (٧٥٦٩)؛ ابن ماجه، ٩/٥ (٣٨٣٣)؛ **السنن الكبرى**، ٢٠٣/٧ (٧٨١٢).

[٢٨٢٢] **مفاتيح الغيب**، ١٥٥/١٣.

[٢٨٢٣] ج – ذلك.

[٢٨٢٤] **إعراب القرآن** للنحاس، ص ٢٨٠؛ **الجامع لأحكام القرآن**، ٣٩٨/٨.

[٢٨٢٥] **عرائس البيان**، ٣٩٢/١-٣٩٣.

[٢٨٢٦] **التيسير في التفسير**، ١٨٣/٦.

[٢٨٢٧] **التيسير**، ص ٣٤٦؛ **النشر**، ١٩٦/٢.

[٢٨٢٨] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٢؛**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٢٢.

﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ قال قدس سرَّه: لَمَّا سبق عليهم القضاءُ بالكفر.[٢٨٢٩]

وقال ابن الكمال: «لا لذلك؛ لأن فيه تعليل الحوادث بالتَّقدير الأزليِّ، ولا يخفى فساده؛ بل لبطلان استعدادهم وتبدُّل فطرتهم بسوء اختيارهم».[٢٨٣٠]

وأنت خبير: بأن اللَّائح ما ذكره قدس سره مع أنَّ ما ذكره القائل بعد قوله: هذا يشد من عضد ما قاله قدس سره حيث قال: ونزولها، بَيَّن أنَّ الآيات وإنْ توالت، وشُموسَ البرهان وإنْ تعالَتْ، فَمَنْ قصمَتْهُ العزَّة، ووكسته القسمة، لم يزده ذلك إلا ضلالًا، ولم يستجد إلا للقسوة حالًا.[٢٨٣١]

والاستثناء دلَّ على أنَّ الآية وإنْ عظُمت، لا تَضطرُّ إلى الإيمان، فإنَّه لا آيةَ أعظمُ من قيام السَّاعة، والله يقول: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام ٢٨/٦]، فيكون معنى قوله: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء ٢٦/٤] على مشيئة الله أن يخضعوا، إلا أنَّ الآية تضطرُّهم إلى ذلك.[٢٨٣٢]

وهو استثناء من أعمِّ عامِّ الظَّرف أو الحال أو المفعول له أو السبب، أي: لا يؤمنوا في وقتٍ إلا وقتَ أن يشاء، أو في حال إلا في حال أن يشاء، أو لعلَّه من العلل إلَا لعلَّة وهي إن شاء، أو سببٌ من الأسباب إلا لسبب وهو إن شاء، والاستثناء من الأعمِّ يكون في النَّفي وفي الإثبات يأول به نحو: أقسمت بالله لما فعلت، وإلا فعلت، أي: ما أطلب منك إلا الفعل.

وقيل: منقطعٌ أي: لكن إنْ شاء ذلك لهم. وقيل: الاستثناء لأهل السعادة الذين سَبَقَ لهم في علم الله الإيمان.[٢٨٣٣]

والآية صريح في الدَّلالة على مذهب أهل السنة من أنَّ الله لم يشأ إيمانَ الكافر ولا طاعة العاصي، ولذلك حمله المصنف على مشيئة القَسْر؛ لأن مشئة الاختيار حاصله عندهم ألبَتَّة، وذهب بعضهم إلى أن انقطاع الاستثناء على مذهبهم؛ لأنَّ الإيمان الحاصل بالقسر ليس من جنس الإيمان الاختياري، وبعضهم إلى أنه على مذهب أهل السنة، ولا يخفى ضعفها.

﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ**﴾ أنهم لو أُوتُوا آية لم يؤمنوا، فيقسمون على ما لا يشعرون، ولذلك أسند الجهل إلى أكثرهم مع أنَّ جميعهم جَهَلَةٌ أو أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون، فيطمعون في إيمانهم ويتمنَّون الآية، أو يجهلون أن الاقتراح لا يجوز بعد الآية أو يجهلون أن الأمر بالمشيئة.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾

«الكاف» بمعنى: المثل في محلِّ النصب على أنه صفةُ مصدر محذوفٍ، أي: جعلنا جعلًا مثلَ جعلهم ذلك الجعل. والمشار إليه بذلك مدلول ما سبق من الأقوال التي لا تصدُر إلا عن أعداء الأنبياء، مثل قولهم ﴿دَرَسْتَ﴾، ومثل السبِّ المفهوم من ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ﴾ والأقسام على الإيمان بمجيء الآية،[٢٨٣٤] أي: كما جعلنا لك عدوًّا جعلنا لكلِّ نبيٍّ سبقك عدوًّا وهو دليل على أنَّ عداوةَ الكفَّار للأنبياء لخلق الله، وهي معصيةٌ وكفرٌ، فيكون خالق الخير والشَّرِّ، والطَّاعة والمعصية، والكفر والإيمان هو لله لا العبد، فتكون حجةً لنا على المعتزلة. فتأويل المصنف بالتَّخلية بينه وبينهم وعدم المنع من عداوتهم [**١٤١**/و] لما فيه من

[٢٨٢٩] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٢.

[٢٨٣٠] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٩٨.

[٢٨٣١] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٩٨.

[٢٨٣٢] **تأويلات القرآن**، ١٨٢/٥؛ **التيسير في التفسير**، ١٨٥/٦؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٢٢.

[٢٨٣٣] **الجامع لأحكام القرآن**، ٥٠٠/٨.

[٢٨٣٤] **فتوح الغيب**، ٦/ ٢١٧.

الامتحان الذي هو سبب ظهور الصبر وكثرة الثَّواب خروج عن الظَّاهر، الذي يدلُّ عليه الدَّليل الباهر، وكذا التَّأويل بالحكم والبيان بناءً على أنه إذا حكم بكفر إنسان. قيل: إنه أكفر فلانًا.[٢٨٣٥]

.و«جَعَلَ» بمعنى: «صيَّر» فمفعوله الأوَّل: ﴿شَيَاطِينَ﴾، والثاني: ﴿عَدُوًّا﴾ و﴿لِكُلِّ﴾ حالٌ من ﴿عَدُوًّا﴾؛ لأنه صفته في الأصل، أو متعلِّق بالجَعْلِ، أو بـ﴿عَدُوًّا﴾، أو الأوَّل ﴿عَدُوًّا﴾ و﴿لِكُلِّ﴾ الثاني قدِّم عليه، و﴿شَيَاطِينَ﴾،بدلٌ من المفعول الأول.[٢٨٣٦]

والشيطان يطلق على سبيل التَّشبيه في الشرَّة، والاستعارة على كل عاتٍ متمرِّدٍ من الإنس، فالمعنى: الشياطين من الإنس والشَّياطين من الجنِّ، والشياطين من الجن إذا أعياه المؤمن وعجز عن إغوائه ذهب إلى متمرِّد من الإنس فأغراه على المؤمن ليفتنه.[٢٨٣٧]

قال ع م لأبي ذر: «يَا أَبَا ذَرٍّ، هَلْ تَعَوَّذْتَ مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ»؟ قَالَ: قلت: يَا رَسُولَ اللهِ! وهَلْ لِلْإِنْسِ شَيَاطِينُ؟ قَالَ: «نَعَمْ، هُمْ شَرٌّ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ».

وسمع عمرُ بن الخطاب امرأةً تُنشد:

إِنَّ النِّسَاءَ رَيَاحِينُ خُلِقْنَ لَكُمْ وَكُلُّكُمْ يَشْتَهِي شَمَّ الرَّيَاحِينِ

فأجابها عمر:

إِنَّ النِّسَاءَ شَيَاطِينُ خُلِقْنَ لَنَا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ الشَّيَاطِينِ[٢٨٣٨]

وقيل: المعنى الشّياطين الموكلون بالإنس والشّياطين الموكلون بالجنّ؛ فإنَّ إبليس قسم جنده فريقين فبعث منهم فريقًا إلى الإنس، وفريقًا إلى الجنِّ.

﴿**يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ**﴾ يوسوس شياطينُ الجنّ إلى شياطين الإنس، أو بعضُ الجنّ إلى بعض، وبعضُ الإنس إلى بعض.[٢٨٣٩] وعلى ما قيل يكون معناه: يلقي الشيطان المسلط على الجنّ الشّيطان المسلّط على الإنس، فيقول: إني أَضْلَلْت صاحبي بكذا، فأضلُّ صَاحِبَك بمثله، ويقول الآخر مثل ذلك.[٢٨٤٠]

و«الوحي»: الكلام الخفيُّ والقول السَّريع الذي يُلقى سرًّا. وسمّي الوسوسة به؛ لأنه يكون خفية، والجملة استئنافٌ يخبر عنهم بذلك، أو صفة لـ﴿عَدُوًّا﴾ أو حال من الشياطين أو صفة له على أنها في التّقدير نكرة بمعنى: شياطين من الفريقين.

﴿**زُخْرُفَ الْقَوْلِ**﴾ الأباطيل المموَّهة من زَخْرَفَهُ إذا زيَّنه. يقال: فلان زَخْرَفَ كلامَه إذا زيَّنه بالكذب والباطل وكل شيء مموَّه فهو مُزخرف. ومنه سمي الذهب زخرفًا.

[٢٨٣٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٢٤.

[٢٨٣٦] **اللباب**، ٣٨٣/٨؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٢٢.

[٢٨٣٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٢٤.

[٢٨٣٨] **الجامع لأحكام القرآن**، ٥٠٣/٨.

[٢٨٣٩] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٢.

[٢٨٤٠] **اللباب**، ٣٨٥/٨.

﴿**غُرُورًا**﴾ إمَّا مصدر بمعنى: يوحي بعضهم إلى بعض يغرُّون غُرُورًا على بناء الفاعل، أو إلى بعض يغرُّون غُرُورًا على بناء المفعول، أوعلَّة ل﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى: لنجعلهم مغرورين لما عندهم من القول المزخرف، أو ل﴿يُوحِى﴾ بمعنى: ليغُرُّوا الخلق بمزخرفاتهم، أو بعضهم بعضا.

واللام المقدَّرة للعاقبة حينئذ، أو حالٌ من نون ﴿جَعَلْنَا﴾، أي: غارّين بما عندهم، أو من ﴿عَدُوًّا﴾ أو الشياطين بمعنى: غارّين أو مَغْرورين على أنَّه مصدرٌ من المبني للمفعول، أو من بعضهم أو بعض على معنى غارّين أو مغرورين.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (١١٢) ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ (١١٣)

حذف مفعول ﴿شَاءَ﴾ لدلالة الجزاء عليه، أي: ولو شاء ربُّك أن لا يفعلوا معادات الأنبياء وإيحاء الزخارف ما فعلوه. فالضَّمير لما ذكر، أو منزل منزلةَ اسمِ الإشارة؛ ليصحَّ الرُّجوع إلى المتعدِّد على ما بين وجهه في قوله تع: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة ٦٨/٢]. ويجوز أن يجري على ظاهره على أنَّ الإيحاء أو الزخرف أو الغرور، ولكن ما شاء لما اقتضَتْه حكمتُه. فاستدلَّ بها على أنَّ الشُّرور صدورها عنه بمشيئَتِه، ولقائلٍ أن يقول: يدلُّ على أنَّه ما شاء عدم وقوع هذه الأمور الَّتي هي الكفر، أو أسبابه، فمن أين الدَّلالة على أنه شاء وقوعها.

وأشار المصنِّف إلى أنَّ معنى: ﴿لَوْ شَاءَ﴾ لوكفَّهم ولم يُخلِّهم؛ لأنَّ عدم مشيئة ترك المعادَات ونحوه بفتح من الله عندهم. ومنه يعلم أنّ دلالتها على عدم مشيئة أمثالها الجهر من دلالتها على أن الشُّرور بمشيئته.

﴿**فَذَرْهُمْ**﴾ أي إذا عرفْتَ أنه تع لم يشاء خلافَ ما وقع منهم وما لم يشاء لا يكون فدعهم.

﴿**وَمَا يَفْتَرُونَ**﴾ الواو عاطفة على ﴿هُمْ﴾، أو بمعنى: «مع» و﴿مَا﴾ موصولةٌ، والعائد محذوفٌ، أو موصوفةٌ، أو مصدريةٌ، أي: وكفرهم وافترائهم في ترويج ما اعتقدوه، والمراد بترك ذلك عدم الالتفات إلى ما فعلوا والإغماض عن سفاهتهم فلا ينافي الأمر بالمقاتلة. وقيل: ذرهم حتى يأتي أمر الله بأمر القتال.

﴿**وَلِتَصْغَى**﴾ عطفٌ على ﴿غُرُورًا﴾ إن جُعِل علَّة، ف«اللام» لام كي، والفعل بعدها منصوبٌ بإضمار «أن»، أي: للغُرُور وللصَّغْوِ وانتصب غرورًا لاتِّحاد فاعله مع فاعل عامله بخلاف الصَّغْوِ، فإن فاعل الوحي والغرور هو البعض، وفاعل الصَّغو «الأفئدة»، أو متعلِّق بمحذوفٍ، أي: إنما جعلنا الشياطين أعداءً من صفتهم أنَّه يوحي بعضهم إلى بعضٍ زخرُف القول؛ لتصغَى إليه افئدةُ الذين لا يؤمنون وتميلَ إلى ما قالوا، وتقبلو ذلك.[٢٨٤١]

وقال قدس سره: لما اضطرّوا فيه قالوا: اللام لام العاقبة.[٢٨٤٢]

وأنت خبير بأن الاضطرار إلى الحمل على العاقبة ليس مختصًّا بالمعتزلة؛ فإن أهل السنة وإن قالوا: إن أمثال ذلك فعل الله وخلقه، [**١٤١**/ظ] لكن لا يقولون: إنَّ المقصود منه حصول، نحو: صغو قلوب الكفار إلى كلام الأشرار، والتَّعليل يقتضي ذلك، فيحتاج إلى الحمل المذكور.

وقيل: هي لام القسم كسرت لَمَّا لم يؤكّد الفعل بالنون، أي: «والله لتصغي»، وجوابه: إذا كان مضارعًا مثبتًا يصدر باللَّام ويؤكّد نحو: لَاضَرَبن. وقلَّ خلوّه عن اللَّام استغناء بالنُّون[٢٨٤٣] وقد جاء:

[٢٨٤١] **اللباب**، ٣٨٣/٨؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٢؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٢٢.

[٢٨٤٢] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٢.

وَقَتيلُ مُرَّةَ أثأَرَنَّ فَإِنَّهُ ‏ فَرع وَإِنَّ أخاهم لَم يضهد[٢٨٤٤]

«فرع»، أي: شريف. «لم يضهد»: لم يقهر. والبَصْريُّ: لا يكتفي باللام عن النُّون إلا في الضرورة. قال:

تَأَلَّى ابْنُ أوْسٍ حَلْفَةً لَيَرُدُّنِي ‏ إلى نِسْوَةٍ كأَنَّهُنَّ مَفائِدُ

بفتح «لام» «يَرُدُّنِي» وضمّ دَاله. وبعضهم: بكسر «اللّام» نحو: والله لَيَفعلنَّ، لكن لم ينقل أنّه إذا اكتفى باللام بكسر، أو لام الأمر وضعفه أظهر؛ لأن لام الفعل لم يسقط، والحمل على الإشباع بعيد في محلِّ الالتباس، وكذا يأتي الحمل على القسم، أو الأمر عطف قوله: ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ والضمير فيهما لما له ضمير فعلوه.[٢٨٤٥]

و«الصَّغو»: الميل لغرضٍ من الأغراض، يقال: أصغيتُ الإناء: إذا أَملْتَه لتجمع ما فيه. ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾: وليكتسبوا ﴿مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ مكتسبون من الآثام فيتميَّز الشَّقي من السَّعيد.

وترتيب هذه الأفاعيل في غاية الفصاحة؛ لأنه أوَّلًا يكون الخداع، فيكون الميل، فيكون الرِّضى، فيكون فعل الاقتراف، وكان كلُّ واحد مسبَّبًا عمَّا قبلَه.[٢٨٤٦]

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤)﴾

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ على إرادة القول، أي: قل لهم يا محمد، والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على ما دلَّ عليه ما قبله.[٢٨٤٧]

وهذا يدلُّ على إنكار عظيم من القوم، ولذلك صدّرت بالهمزة، مع إضمار فعل المنكر، وتقديم المفعول. وقريب منه قوله تع:﴿**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ**﴾ [الأنعام ١٩/٦]، وهذا أبلغ، وذلك أنهم طعنوا في نبوّته، وما عَدُّوا القرآن معجزةً عنادًا، أو اتَّهموه تارةً بقولهم: ﴿دَرَسْتَ﴾ وتعلّمتَ من اليهود، وأنكروا نبوّته، وأخرى بقولهم: ﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام ١٠٩/٦]، يعني: أنَّك لست بنبيٍّ، وأنَّ ما جئتَ به ليس بآية ، فأت بآيةٍ حتى نؤمنَ بها. فبيَّن الله عنادهم، وأنهم مختوم على قلوبهم، وعلى وأبصارهم غشاوةٌ. وأمثاله في آيات تسلية نبيّه. ثمَّ أمره بأن يوبِّخهم، وينكر عليهم بذلك، أي: أأزال عن الطَّريق السّويّ بأباطيلكم هذا، فأخصَّ غير الله بالحكم؟ وهو الذي أنزل هذا الكتاب المعجزَ الذي أَفحَمَكم، وأَبْكَم فصحاءكم! وكفى به حاكمًا بيني وبينكم بإنزال هذا الكتاب المفصّل بالآيات البيّنات؛ من التَّوحيد، والعدل، والنبوَّة، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والقصص والإخبار عن الغيوب، وبما تضمَّن من الألفاظ الفائقة الرائقة، كالعِقد المفصّل الذي أعجزَكم

[٢٨٤٣] ج — بالنون.

[٢٨٤٤] الشاعر: المسيب بن عَلس.

[٢٨٤٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٢٥-١٢٦.

[٢٨٤٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٣٩٨. وبهذا التقرير يتَّضح أن ما قاله ابن الكمال: من أن اللام للتعليل، أو الغرض على الاختلاف في جواز أن يكون فعله معلَّلاً بالغرض، فلا يجدى نفعًا في دفع ما ذكرنا، فإن الكلام ليس في حجّة التعليل مطلقًا، بل في حجّة التعليل بنحو ما ذكر مما يكفر كفرًا أو سعبة. منه. ولعل وجه الكسر عند الاكتفاء، وطلب الفرقة بين لام القسم و لام الابتداء؛ لأنه يفتح. فلما لم يؤكد بالنفر كسر لولك. منه

[٢٨٤٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٤٠٢.

عن آخرِهِم، كأنه أجابهم على الأسلوب الحكيم، والقول بالموجب؛ لأنهم طَعَنُوا في معجزته، أي: القرآن، فبكَّتهم به على أحسن وجهٍ وأبيَنِه.[2848]

وروي أنّ مشركي قريشٍ قالوا له عليه صلوات الله وسلامه: اجعل بيننا وبينكم حكمًا من أحبار اليهود، وإن شئت من أساقفة النصارى؛ ليخبرنا عنك بما في كتابهم عن أمرك، فنزلت.[2849]

وإيلاء الهمزة لفظة غير إيماء إلى وجوب تخصيصه بالابتغاء والرِّضاء بكونه حكمًا، وإن الإنكار ليس لنفس الابتغاء حكمًا، بل لابتغاء غير الله وهو مفعول ﴿أَبْتَغِي﴾ و﴿حَكَمًا﴾ حالٌ منه، أو تمييزٌ له كقولهم: إن لنا غيرها إبلًا. ويجوز أن يكون ﴿حَكَمًا﴾ مفعولاً و﴿غَيْرَ﴾ حالًا منه؛ لأنه في الأصل يجوز أن يكون وصفًا له. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ﴾ حال مقرّرة لجهة الإشكال يعني: أغير الله أبتغي حكمًا، والحال أنه أنزل إليكم الكتاب المعجز و﴿مُفَصَّلًا﴾ حالٌ من الكتاب.

وقال قدس سره: و﴿حَكَمًا﴾ أبلغُ من «حاكم» ولذلك لا يوصف به غير العادل.[2850]

وقال ابن الكمال: وفيه: أن المبالغة من جهة التَّكرُّر، ولا دلالة فيه على الوصف.[2851] إن أراده به أنه لا دلالة في حكمٍ على الوصف فهو بعيدٌ؛ لأنه صفة مشبهة كيف لا يكون فيه معنى الوصف! وإن أراد أنه لا دلالة في التَّكرُّر على الوصف فهو مسلَّم، لكن لا يضرُّ بالمقصود؛ فإنَّ المقصود أنَّ التَّكرُّر يدلُّ على الملَكة والرُّسوخ، وبهذا الاعتبار يصحّ الملاقة، وتخصيصه لمن فيه كمالُ العدل.

وقيل: الحكَم أبلغُ من الحاكم؛ إذ لا يستحقُّ التسمية بحَكَم إلَّا مَنْ يَحكُم بالحقِّ؛ لأنها صفةُ تعظيمٍ في مدح. والحاكم صفةٌ جاريةٌ على الفعل، فقد يُسمَّى بها مَن يَحْكُم بغير الحق.[2852]

وقال قدس سره: «وفيه تنبيهٌ على أنَّ القرآن بإعجازه وتقريره مغنٍ عن سائر الآيات».[2853]

فقيل: لعلَّه نظر إلى أنَّ الحكم هو تفصيل الأمر، ولا يبقى بعده نزاعٌ، ولك أن تقول: لعلَّه نظر إلى أنَّ إنكار ابتغاء غيره حكمًا، وتقييده [**١٤٢/و**] بإنزاله الكتاب المعجز المفصّل تنبيهٌ على ذلك، فالتنبيه بانضمام الطرفين لا بأحدهما.

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

لَمَّا دلَّ على حقية القرآن، وأنه مُنزل من عند الله بإعجازه المدلول عليه باللَّام في الكتاب؛ فإنه للجنس المحمول على الكمال، أي: الكتاب الكامل البالغ في الفصاحة والبلاغة حدّ الإعجاز، وبقوله: ﴿مُفَصَّلًا﴾على ما قررنا قبل أكّد ذلك الدّلالة، وعضده بعلم أهل الكتاب بحقانيّته لموافقه كتابهم، وتصديقه ما عندهم مع أنه عليه السلام لم يُمارس كتبَهم، ولم يخالط علماءَهم، ولكون التوراة والإنجيل مشتملين، على الآيات الدَّالة على نبوَّة محمدٍ، وعلى حقية القرآن فتكون هذه الجملة عطفًا على قوله: وهو الدَّال أنزل إليكم الكتاب حالًا أيضًا، أو جملةٌ استئنافيةٌ، فالآية نظير قوله: **﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي**

[2848] **فتوح الغيب**، ٦/ ٢١٩-٢٢٠.

[2849] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٤٠٢.

[2850] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٣.

[2851] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٤٠٢.

[2852] **الجامع لأحكام القرآن**،٩/٥.

[2853] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٣.

﴿وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد١٣/٤٣]. وإنما وصف جميعهم بعلم ذلك بناءً على أن أكثرهم يعلمون فنزل الأكثر منزلة الكلِّ، أو على أنَّ من لم يعلم فهو متمكِّن منه بأدنى تأمّل فنزل المتمكن منزلة العالم.

وقيل: المراد منه مؤمنوا أهلِ الكتاب.

وقال عطاء: الذين أتيناهم الكتاب هم رؤساءُ أصحاب محمد: أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ رضوان الله عليهم.[٢٨٥٤]

ولما كان ظاهر الكلام النَّهي عن الامتراء في حقية القرآن، وهذا لا يُتَصَوَّر من النبي بالنظر إلى ظاهر حاله المعصوم المهذَّب من عند الله تعالى، وإلَّا فالاحتمال العقلي متصوّر من كلِّ بشرٍ مع قطع النَّظر عن عصمته على أنهم قالوا: العصمة لا يزيل المحنة بل يؤيِّدها ويشدِّدها. أجاب عنه العلَّامتان بوجوه الأوَّل أنَّه من باب الالهاب والتهييج، كقوله تع:﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص ٢٨/٨٧]. و«الإلهاب»: إيقاد النار، وإشعالها شبه به التهييج والتحريض على الأمر.

وقال في **أساسه**: «ومن المجاز: ألهبته الأمر: أردتُ بذلك تهييجَه»[٢٨٥٥]

فيراد به رسول الله خاصَّةً؛ مزيدًا للثبات على اليقين، والتجنُّب عن الامتراء، تهييجًا، ولأمَّته عامةً؛ بالطريق الأولى: فإنه إذا نهى عنه من لا يتصوَّر منه، فنهى من يتصوَّر منه ذلك، بل يقع أَوْلى وأَوْكَد، الثاني: أن متعلّق الامتراء هو علم أهل الكتاب بحقية القرآن، أي: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ وأنهم يعلمون ذلك لكن لا يخفى عليك أنه بعد أن أخبر الله به كيف يصحُّ امتراءُ النبي، فيحتاج فيه أيضًا إلى كونه من باب الالهاب، ولعلَّ كثرة الجحود والإنكار منهم ممَّا يوقع التردُّد والتحير، فاقتضى التَّقرير بالنَّهي بعد الإخبار بأنهم يعلمون ذلك، الثالث: أن الخطاب ليس للنَّبي عليه السلام، بل يُراد به جميعُ الناس ابتداءً، وذلك أنَّه لَمَّا أُمر النّبي عليه السلام بأن يقول: أفغير الله أطلب حاكمًا، وهو الذي أنزل القول الفَصْل، الفارق بين الحقِّ والباطل، المشهود له بالصِّدق، التُفتَ إلى مَن يصحُّ أن يخاطَب بقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، وهذا لا يُصار إليه، إلا أن ما يجري لأجله الخطاب، يعني: به جدًّا، فلا يختصُّ بواحدٍ دون واحد: وإليه الإشارة بقول المصنف: «إذا تعاضدت الأدلَّة على صحَّته وصدقه، فما ينبغي أن يمترِيَ فيه أحد»، الرابع: أنَّ الخطاب له لكن المراد نهي الأمَّة على سبيل التبعيَّة، تعظيمًا للمخاطب، لأنَّ الرَّسول رئيس أمَّته وعليه تَدُور رَحَى الأمَّة، كقوله تع: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ٦٥/١].[٢٨٥٦]

وذكر **السمرقندي**، خَامسًا: وهو: أن يكون الخطاب للسامع ممَّن يجوز ذلك.[٢٨٥٧]

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)﴾

أي: تمَّ كلُّ ما أخبر به وأمر ونهى ووعد وأوعد.وذلك بدلالة السّابق وهو قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام ٦/١٠٩]، أي: فصَّله بمثل تلك الأنواع. واللَّاحق وهو ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ على نشر اللفِّ التقديري، على ما قدرناه؛ فإنَّ الصّدق مناسب للخبر والوعد والوعيد، وإن العدل موافقٌ للأمر والنهي؛ لأنه تعالى يأمر وينهى بمقتضى حكمته، ويضع كلامَه في موضعِه، ويتصرَّف في ملكه بالأمر والنَّهي على ما أراد.

[٢٨٥٤] **الجامع لأحكام القرآن**،٩/٥.

[٢٨٥٥] **أساس البلاغة**، للزمخشري «لهب».

[٢٨٥٦] **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٢١-٢٢٢.

[٢٨٥٧] **بحر العلوم** للسمرقندي، أسد أفندي: ٦٧، ٩٩و.

وقد فُسِّرت «الكلمة» بـ«كُنْ»، والمقام يَنْبُو عنه كما ترى، ومعنى تمام الإخبار والوعد والعيد أَنْ يكون صدقًا، وفي الأمر والنهي أن يكون عدلًا؛ لأنَّ تمام الشَّيء انتهاؤه وكماله، لا يحتاج إلى خارج عنه، والناقص بخلافه.[٢٨٥٨]

وأيضًا هي تمام في كونها كافيةً في بيان ما يحتاج إليه المكلّفون إلى يوم القيامة علمًا وعملًا. ويجوز أن يجري الصدق والعدل على كلٍّ واحدٍ من تلك الأنواع؛ لأن الصِّدق قد يعبَّر به مجازًا عن كلِّ فعل فاضل، قال تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس١٠/٢] و ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾، و﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء ١٧/٨٠] وجميع ما أمر الله به فواضل، وما نهى عن أضدادها إلا لنقصانها.

ويستعمل الصِّدق في التَّحقيق، قال الله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح ٤٨/٢٧]:أي: حقَّق رؤيته، وقال: ﴿والَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر٣٩/٣٣]، أي: حقَّق ما أورده قولًا بما تحرَّاه، فعلًا. وأوامر الله ونواهيه محقَّقةٌ لما رُتِّب عليه من الجزاء.

وإنَّ «العدل»: هو: الاستواء والتَّقسيط على السواء، من غير زيادة ونقصان. فالكلمة الصَّادقة عادلةٌ مستقيمةٌ. وما فيه ارتيابٌ مُعَوَّجة منحرفةٌ، قال تع: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف ١٨/١] أي: جعله قيِّمًا مستقيمًا.[٢٨٥٩]

ونصبُهما على التَّمييز فتمامها يكون من جهة الصِّدق والعدل، والتَّقدير: تمَّ صدقها وعدلها، أو الحال من الكلمات، أي: تمَّت وبلغت الغاية في كمالها صادقةً وعادلةً، وجازت وإن كانت جمعًا؛ لأنهما مصدران في الأصل، أو العلَّة، أي: تمَّت لأجل الصِّدق والعدل الواقعين فيهما.

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا أحد يبدِّل شيئًا منها بما هو أصدقُ وأعدلُ كذا عبارة العلَّامتين.[٢٨٦٠] واللَّائح أن الباء في بما هو ليست في موقعها؛ لأن معنى بدله لحوقه أمنًا أزال خوفه إلى الأمْنِ.

وقيل: تم القرآن وبلغ الغاية في كونه معجزًا دالًّا على صدق محمد بحيث لم يبق مع نزوله إلى معجز آخر صدقًا في إخباره، وعدلاً في أحكامه لا مبدِّل لكلماته، ولا يقدر أحد على معارضته في إعجازه، أو لا أحدَ يَقْدِر أن يحرِّفها شائعًا ذائعًا،كما فُعل بالتوراة والإنجيل، فيكون ضمانًا لها من الله بالحفظ، كقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر ١٥/٩]، أو لا نبيَّ ولا كتابَ بعدها ينسخها ويبدِّل أحكامها.

وقرأ الكوفيون ويعقوب ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾[٢٨٦١] أي: ما تكلَّم به مطلقًا، أو القرآن خاصَّةً نظرًا إلى السباق كما مرَّ، وهذا على إرادة الجنس وقد سبق أنَّ استغراق المفرد أشملُ من استغراق الجمع، أو على الدَّلالة على أن الكلمات الكثيرة تسمّى كلمةً إذا كانت مضبوطة بضابطٍ واحدٍ، كما يقال: قال زهير في كلمته، أي: قصيدته، فكذلك كلمات الله كلمةٌ واحدةٌ من حيث إنها كلام الله، وكذا القرآن.[٢٨٦٢]

[٢٨٥٨] **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٢٢-٢٢٣.

[٢٨٥٩] **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٢٣.

[٢٨٦٠] **الكشاف**، ٥٧/٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٣.

[٢٨٦١] **التيسير**، ص ٣٤٧.

[٢٨٦٢] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٣؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٢٨.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لِمَا يقول الجاحدون ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يُضمرونه، فلا يهملهم وإن كان يمهلهم، أو «السميع»: لِمَا يقال في حقِّ الكلمات، و«العليم»: بالاعتقادات، فيجازي كلّ واحدٍ على حسب ذلك، أو «السميع» لمن يناجي بكلمات الله العليم بحاله العليم، فيقبل حاجته ويعطي سؤله.

﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦)﴾

أي: أكثرَ الناس. يريد به الكفَّار أو الجهَّال أو تُبَّاع الهوى.[٢٨٦٣] والمراد من الكفَّار مَنْ يضلُّ بالاعتقاد الباطل فيما يتعلَّق بالإلْهيات والنبوَّات وأمر المعاد، ومن الجهَّال مَن يضلُّ بالاعتقاد الباطل فيما يتعلَّق بالأحكام، كتحليل الميتة، وتحريم البحائر والسوائب؛ فإن كلَّ واحدٍ من الفريقين وإن صدق عليه أنَّه كافرٌ وجاهلٌ إلا أنَّ لفظ الكفر قد غلب في الاعتقاد الفاسد المتعلّق بأصول الدين، ولفظ الجهل في الاعتقاد الفاسد في الفروع، ومَنْ تُبَّاع الهوى الذين يخالفون ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة بتأويل الكتاب والسُّنة على حسب هواهم، كالمعتزلة، والشِّيعة، ونحوهما من أهل القبلة.[٢٨٦٤]

لكن يرد عليه أنَّ فرق أهل الأهواء حديث بعد النبي ع معلى ما دلَّ عليه قوله عليه السلام: «سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»[٢٨٦٥] فكيف يصحُّ قوله: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ خطابًا للنَّبي عليه السلام؟

ولعلَّ تلك الأهواء وأهلها كانت في عصره عليه السَّلام، لكن التخرب والتَّدوين كان بعد النبي. وقوله ع م: «سَتَفْتَرِقُ» محمول على ذلك.

وقيل: ﴿الْأَرْضُ﴾: أرض مكة.[٢٨٦٦]

﴿**يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ أي: عن الطَّريق الموصل إليه، وإلى رضاه وثوابه ولقائه، وهو الإسلام وذلك؛ لأن الضَّال في غالب الأمر لا يأمر إلا بما فيه ضلال.

وقيل: إن أريد بالإضلال الكفرُ فالأكثر الكفار، وإن أريد غيرُه فالجهال أو متبعوا الهوى، والأكثرية باعتبار أن أهل الحقِّ واحدٌ، وأهل الباطل فهم كثرة، وهذا يدلُّ على أنَّ أكثر أهل الأرض كانوا ضلالًا، ويلوح من هذا الكلام أن يراد من الكفَّار من يضل بالاعتقاد الباطل سواءٌكان في الإلهاب، أو في الأحكام ومن الجُهَّال من يضلُّبالجهل لأحكام الله وشرائعه، ومن متبعي الهوى من يضلُّ بمخالفة مقتضى علمه لا الفرق المخصوصة، كالمعتزلة فح يندفع الوارد المذكور.

﴿**إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ**﴾ وهو ظنُّهم أن آباءَهم كانوا على الحقِّ، فهم يقلِّدونهم. فالاتباع: بمعنى التمسك والأخذ به، أو جهالاتهم وآرائهم الفاسدة؛ فإن الظَّنَّ يطلق على ما يقابل العلم، فالاتباع بمعنى التدين.[٢٨٦٧]

﴿**وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**﴾ يكذبون على الله فيما ينسبون إليه كاتِّخاذ الولد وجعل عبادة الأصنام وُصلة إليه، وتحليل الميتة وتحريم البحائر، ويقدِّرون أنَّهم على شيءٍ، وحقيقة الخرص الظنُّ والتَّخمين.[٢٨٦٨] في **الصحاح**: الخَرْصَ حَرْزُ ما على النَّخل

[٢٨٦٣] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٣.

[٢٨٦٤] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٢٨.

[٢٨٦٥] سبق تخريجه.

[٢٨٦٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٤٠٢.

[٢٨٦٧] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٣؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٢٨.

[٢٨٦٨] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٣.

من الرُّطَب تمرًا.[٢٨٦٩] فيطلق على ما يقال من ظنٍّ وتخمينٍ، وبهذا يظهر ما في قوله قدس سره: «وحقيقة ما يقال عن ظنٍّ وتخمينٍ».[٢٨٧٠]

وما في قول ابن الكمال: «والخرص: التقدير [١٤٢و] والكذب».[٢٨٧١]

ولَمَّا أزال سبحانه وتعالى شبهه من تردُّدٍ في صحَّة نبوَّته عليه السَّلام، وأثبتها على وجه التَّأكيد والتَّقرير بين بهذه الآية أنه بعد زوال الشُّبهة وظهور الحجَّة لا مجالَ للالتفات إلى كلمات الجهَّال، وأهل الضَّلال؛ فإنَّهم لا يدعون إلَّا إلى ما يؤدي إلى الانخذال، وفيه عبرةٌ للمتبعين وعظةٌ للمقتدين.

وقد قال ع م: لكلِّ عملٍ شِرَّةٌ ولكلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ ، فمن كانت فترته إلى سنَّتي فقد اهتَدَى، ومن كانت فَتْرَتُه إلى غيرِ ذلك فقد هَلَكَ».[٢٨٧٢]

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١١٧)

أي: أعلم بالفريقين، فيجازي كلًّا على حسب حاله ومقتضى عمله. و﴿مَنْ﴾ موصولةٌ، أو موصوفةٌ في محلِّ النَّصب بفعلٍ دلَّ عليه ﴿أَعْلَمُ﴾ لا به؛ لأن أفعل التَّفضيل لا يعمل في الظَّاهر عند البصريين لا رفعًا ولا نصبًا لعدم كونه بمعنى الفعل؛ لأن الفعل لا يدلُّ على التفضيل، إلا إذا كان بحسب اللفظ جاريًا على شيءٍ وهو في المعنى صفة لأمرٍ آخر متعلِّق بذلك الشيء بحيث يكون ذلك الأمر مفضلًا باعتبار ذلك الشَّيء ومفضلًا على نفسه باعتبار غير ذلك الشيء، فإنه يعمل في الظاهر حينئذ نحو: ما رأيت رجلًا أحسَن في عَيْنه الكُحْلُ منه في عَيْن زيدٍ، فإنَّ أحسن جار على رجلٍ وهو في المعنى صفة للكحل المتعلّق به، والكحل مفضّل باعتبار الرَّجل، ومفضل على نفسه باعتبار غير الرَّجل وهو عينُ زيدٍ.

فقد عمل الرَّفع في الكُحْل، ومعناه: ما رأيت رجلاً حسن في عينه الكُحْل مثل حسنه في عين زيد لا في محلِّ الجرِّ وإبقاء عمله لدلالةٍ بالمهتدين عليه؛ لأن ذلك لا يجوز إلا في ضرورة الشِّعر، ولا بإضافة أعلم إليه لما سيجيء، أو استفهامية مرفوعة بالابتداء، والخبر ﴿يَضِلُّ﴾ والجملة معلّقٌ عنها الفعل المقدّر، وعلى هذا صرفه عن وفاق قيمة تعجّبًا من شأن المضلِّين المتبعين للظَّن الكاذب، وإبعادًا لهم واستبعادًا ذلك.

وقرئ: «مَنْ يُضِلُّ»[٢٨٧٣]أي: مَنْ يُضِلُّه الله،[٢٨٧٤] فتكون منصوبةً بالفعل المقدَّر، أو مجرورةً بإضافة ﴿أَعْلَمُ﴾ إليه، أي: أعلم المضلِّين، من قوله: **﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾** [الأعراف ٧/١٨٦]، أو من «أضلَلْتَه»: إذا وجدته ضالًّا.[٢٨٧٥] وإنما منعت هذه الإضافة على قراءة ﴿يَضِلُّ﴾ بفتح حرف المضارعة؛ لأنَّ أفعلَ التَّفضيل إذا أريد به الزيادة على ما أضيف إليه لا يُضاف إلا إلى ما يكون الموصوف بأفعل منهم نحو: زيدٌ أفضلُ الناس، ولا يجوز يوسفُ أحسنُ إخوته؛ لأنَّ الموصوف بأحسن ليس من إخوة يوسف لخُرُوجه عنهم بإضافتهم إليه فإذا قلت: زيدٌ أعلمُ الضَّالين لزم أن يكون زيدٌ من الضَّالين، ولو جعل ﴿أَعْلَمُ﴾ مضافًا إلى

[٢٨٦٩] **الصحاح** للجوهري، «خرص».

[٢٨٧٠] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٣.

[٢٨٧١] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٤٠٢.

[٢٨٧٢] **مسند أحمد**، ١١/٥٤٧ (٦٩٥٨).

[٢٨٧٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن البصري والحسن بن عمران والنهشلي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٧٦؛ **الكشاف** ، ٢/ ٥٥.

[٢٨٧٤] **الكشاف**، ٢/ ٥٨.

[٢٨٧٥] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٤؛ **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٢٣؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٤٠٥.

﴿مَنْ يَضِلُّ﴾ بفتح الياء لا نفهم كونه تعالى من جملة الضالين تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، بخلاف ما إذا قرئ «يُضِلُّ» بضم الياء، فإنه يجوز أن يجعل مضافًا ح حينئذ لعدم لزوم ذلك المحذور.[2876]

والقراءة المشهورة أحسنُ وأبهم لما قبله، وأوفقُ لما بعده؛ إذ لو كان بضمِّ الياء لقيل بالهادين، وأعلميته تعالى بكثرة العلم وإحاطته بالوجوه التي يمكن تعلّق العلم بها، ولزومه وكونه بالذّات لا بالغير وهو سبحانه وتعالى قسام الضلالة والهدى يُضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء، وهو أعلم بمستحقّي الضّلالة ومستحقي الهداية. وإنما قال في الأوّل: من يضلُّ وفي الثاني: بالمهتدين؛ محافظةً للأواخر؛ وإشارةً إلى أن الضّلال أمرٌ يحدث إذا خلق كلّ أحدٍ على الفطرة السّليمة والخلقة المستقيمة، وإنما حَدَثَ ما حدث بحسبِ العوائق والموانع الظّاهرة والباطنة.

قال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم:إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي كُلَّهُمْ حُنَفَاءَ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ أَتَتْهُمُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنزِلْ بِهِ سُلْطَانًا».[2877]وأن الهداية أمر حبلي وشأن خلقي ينبغي أن يدوم ويتقرر ولا ينتقل إلى خلاف الفطرة السليمة.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (١١٨).

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ (١١٩)

مسبَّبٌ عن إنكار اتّباع المضلّين، فإنه تع لما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ وأتبع ذلك قوله: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾ ليؤذن بمعنى قوله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس ١٠/٣٢]، أتى بنوع دعوة المشركين المسلمين إلى أهوائهم وأباطيلهم، وهو أنهم كانوا يقولون للمسلمين: إنكم تعبدون الله، فما قتلَ الله أحقُّ أن تأكلوا مما قتلتم أنتم، فقيل لهم: وكلوا مما ذُكر اسم الله عليه خاصَّةً، لا ما ذكر [**١٤٢**/ظ] عليه اسم غيره من آلهتهم، أو مات حَتْفَ أنفه ولا تتَّبعوا أهواءهم.[2878]

ف«الفاء» نتيجة فالحصر المستفاد من خاصَّة مستفاد من عدم اتّباع المضلّين، ومن التقييد بالشّرط؛ فإنَّ الإيمان ليس شرطًا في إباحة ما ذكر اسم الله عليه لحصولها في حقّ المؤمن وغيره، بل في قصد الإباحة عليه.

وقيل: من سبب النُّزول، فإن نزاع القوم إنما هو في الميتة دون ما ذكر اسم الله عليه، فلو لم يكن المرادُ إباحةَ ما ذكر اسم الله عليه فقط لَكان الكلام متعرضًا لما لا يحتاج إليه ساكتًا عمَّا يحتاج إليه.[2879]

«إن كنتم متحقّقين بالإيمان»[2880]: أي: إنْ صرتم عالمين بحقائق الأمور بسبب إيمانكم بالله، وهذا من جملة ذلك فالزَموه. ويجوز أن يكون «تَفَعَّلَ» في هذا التفسير بمعنى: «فَعَّل» للمبالغة، أي: إن كنتم ثابتين في الإيمان وراسخين فيه، وأن يكون بمعنى «استفعل»، أي: إن كنتم طالبين الحقَّ بسبب الإيمان.[2881]

[2876] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٢٩.

[2877] **صحيح مسلم**، ٤/ ٢١٩٧ (٢٨٦٥)؛ **السنن الكبرى** للنسائي، ٢٧٨/٢ (٨٠١٦).

[2878] **الكشاف**، ٢/ ٥٨؛ **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٢٦؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٤٠٦.

[2879] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٠و.

[2880] **الكشاف**، ٢/ ٥٨.

[2881] **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٢٦.

﴿وَمَا لَكُمْ﴾: وأيُّ غَرَضٍ لكم في أنْ لَا تأكلوا ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ممَّا لم يحرّم، بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة٥/٣].[٢٨٨٢]

وفيه أن «الأنعام» مكية و«المائدة» من آخر ما نزل، فكيف يخبر عما سيأتي بلفظ الماضي؟

ولذلك قال الإمام: الأولى قوله: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ [الأنعام ٦/١٤٥] الآية وهي وإن تأخّرت إلا أنَّه تعليلٌ فلا يمنع أن يكون هو المراد، ولا سيَّما أن السُّورة نزلت جملةً، فيكون التَّفصيل متقدّمًا بالنسبة إلى زمان تبليغ جبرئيل.[٢٨٨٣]

وأمَّا الجواب بأنه جعل في حكم النَّازل لتحقُّق نزوله، أو بأنَّ المراد تفصيله في علم الله أو اللوح، فبعيد إلا أن أبا الليث عدَّ الأنعام من المدنيات، والاحتمال في الفعلين أربعة معلومان أو مجهولان أو الأوَّل معلوم، والثاني مجهول والعكس.

وفي كتاب الإشارة: الفتح والضَّمُّ قراءة حمزة، وعلي، وأبي بكر، وحمادٌ على وفق: ﴿فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ و﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة ٥/٣] والفتح فيهما قراءة أبي جعفر، ونافع، وسهلٌ ويعقوب وحفص على أنَّ الضمير لاسم الله وهو مالك الأعيان ومبيّن الحلال والحرام، والضمُّ فيهما على توفيق الإجمال للتَّفصيل قراءة الباقين، ومنه يظهر ما في كلامه قدس سره؛ لأنه اختصر على فصل في القراءة من الأئمة الثلاثة، وحرّم في بيان القراءة من الأئمة الثلاثة مع أن هؤلاء المذكورين لم يفرّقوا بينهما إلا أنَّ الثلاثة الأوَّل ضمّوها والأخر فتحوها؛ ولأنه بين تفسيره أوَّلاً على قراءة حمزة والكسائي وأبي بكر وعادته أن يأتي أوَّلًا ما عليه أكثرُ الثمانية وهو القراءة بالضم، وأما العكس فلم يذهب إليه أحدٌ.

﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ﴾ مما حرّم عليكم؛ فإنه حلالٌ أيضًا فالاستثناء متَّصل مما حرّم على أنها مصدرية بمعنى المدَّة، أي: وقد فصَّل لكم المحرَّمات في جميع الأوقات إلا وقت الاضطرار إليها. وإنْ موصولة بعين الانقطاع؛ لأنَّ ما اضطرَّ حلالٌ لا يدخل تحت ما حرّم. إلا أن يراد جنس ما حرّم مع قطع النَّظر عن كونه محرمًا فيتَّصل؛ لأن ما اضطرَّ داخل في ذلك الجنس.[٢٨٨٤]

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠)﴾

﴿ظَاهِرَ الْإِثْمِ﴾: الإعلان بالزنى ﴿وَبَاطِنَهُ﴾ ما يُسَرُّ منه. وكانت العرب يحبُّون الزّنى، وكان الشريف يستسرُّ به وباتّخاذ الأخدان، وغير الشريف لا يبالي به فيظهره فيزني في الحوانيت. فيكون معطوفًا على قوله: ﴿فَكُلُوا﴾ أو داخلًا في التَّسبب عن إنكار اتّباع المضلّين في تحريم الحلال وتحليل الحرام.[٢٨٨٥]

وقيل: ﴿ظَاهِرَ الْإِثْمِ﴾: ما يعلن منه ﴿وَبَاطِنَهُ﴾: ما يُسرُّ سواءٌ كان ذلك الإثم من أعمال القلوب أو الجوارح. فيكون نهيًا عامًّا عن جميع المحرَّمات واعتراضًا بين المعطوف والمعطوف عليه وهما قوله: ﴿فَكُلُوا﴾ و﴿لَا تَأْكُلُوا﴾ فإنه تعلَّمًا بيَّن أنه

[٢٨٨٢] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٤.

[٢٨٨٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٣١.

[٢٨٨٤] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٣١.

[٢٨٨٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٣٢.

فصل المحرمات اتبعه بإيجاب تركها بالكلّية.[٢٨٨٦] وهذا أصحُّ؛ لأن تخصيص العامّ بصورةٍ معيَّنةٍ من غير دليلٍ غير جائزٍ، فيدخل في هذا العامّ جميعُ ما ذكره المفسّرون من المواد والمحامل.

فقيل: ظاهره ما يعمله الإنسان بجوارحه، وباطنه ما ينويه، ويقصده بقلبه وما يكون من أفعال القلوب خاصَّةً.[٢٨٨٧]

وقال **النسفي**:[٢٨٨٨] أصل الإثم: الشِّركُ، وظاهره: تكذيب اللِّسان، ﴿وَبَاطِنُهُ﴾ جحود القلب، والسُّورة في محاجَّة المشركين.

وقيل: هو تفسيرُ الاعتداء المذكور في آخر الآية التي قبلها، وهو ظاهرُ الإثم وباطنُه.[٢٨٨٩]

وقال عطاء: قليله وكثيره.

وعن الكلبي: ﴿**ظَاهِرَ الْإِثْمِ**﴾ ما للأغيار عليه اطِّلاعٌ بوجهٍ، وباطنه: ما هو سرٌّ بينك وبين الله، لا وقوفَ لمخلوقٍ عليه.[٢٨٩٠]

ويقال: باطن الإثم: ما تُلَبّسُه على نفسك بنوع تأويلٍ.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: استفتِ قلبَك وإن أفتاكَ المفْتُون».[٢٨٩١]

ويقال: ﴿ظَاهِرَ الْإِثْمِ﴾: ما يَظْهَر [**١٤٣**/و] لجنسك، ﴿وَبَاطِنَهُ﴾ ما يختصُّ الملَك الموكَّل بكَ.

ويقال: باطن الاثم: التَّتَبُّعُ إلى تَتَبُّع الرُّخَص. فإن اللَّائق بالهمَّة الفائقة طلب العزائم.

وقيل: ﴿ظَاهِرَ الْإِثْمِ﴾: الشِّرك الجليُّ، ﴿وَبَاطِنَهُ﴾ الشِّركُ الخَفِيُّ.

ويقال: أسبغت عليكم النِّعَم ظاهرًا وباطنًا، فإنَّ مَنْ شرط الشُّكر تركُ استعمال النِّعَم في مخالفة المنعِم.

وقيل: ﴿**ظَاهِرَ الْإِثْمِ**﴾: رؤيةُ الأفعال، ﴿وَبَاطِنَهُ﴾ الرُّكون إليها في السِّرِّ باطنًا.

وقيل: ﴿**ظَاهِرَ الْإِثْمِ**﴾: طلبُ الدُّنيا، ﴿وَبَاطِنَهُ﴾ طلبُ الجنَّة، وهما يشغلان عن الحقّ، وما يشغل عن الحقّ فهو إثمٌ.

وقيل: ظاهر الإثم ما ذمَّه الكتاب والسُنة، وباطن الإثم ما ذمَّه باطن الكتاب والسنة.

وأيضًا: ظاهر الإثم ما يعوّج الجوارح عن طريق السُّنة، وباطن الإثم ما يشوش القلوب عن رؤية المشاهدة.

وأيضًا: ظاهر الإثم حبُّ الدُّنيا، وباطن الإثم حبُّ الجاه.

وأيضًا: ظاهر الإثم ما يغرك برؤيتها من الأعمال، وباطن الإثم ما يسكن إليه نفسك من الأحوال. والأعمال هي وظائف الشريعة والأحوال لطائف الطريقة.

[٢٨٨٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٣٢.

[٢٨٨٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/١٣٠-١٣١.

[٢٨٨٨] هو أبي حفص النسفي نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي الحنفي ٤٦١/٥٣٧هـ.

[٢٨٨٩] **التيسير في التفسير**، ١٩٧/٦.

[٢٨٩٠] **لطائف الإشارات**، ٣٠٩/١.

[٢٨٩١] **مسند أحمد**، ٥٦/٢٥ (١٦٠٥٨)، **مسند الدارمي**، ١٦٤٩/٣ (٢٥٧٥).

وقال سهيل: اتركوا المعاصيَ بالجوارح، وحبَّها بالقلوب.

وقال الشِّبلي: ظاهر الإثم الغفلة، وباطنه نسيان المطالعة عن السوابق.

وقيل: باطن الإثم خفي العقائد، ومُسترقات الألحاظ.[٢٨٩٢]

ثم علَّل النهي بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾على طريقة التذييل؛ فإنه إذا كان هذا القسم كسب الإثم والله سبحانه يجري كل مكتسب للإثم لزم ثبوت جزائه إن لم يغفر له بالتَّوبة أو الشفاعة أو الرحمة الإلهية.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عائشةُ إيَّاكِ ومُحقَّراتِ الذُّنوبِ فإنَّ لها مِن اللهِ طالبًا».[٢٨٩٣]

وقال ع م: «إِيَّاكُمْ ومُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهلِكْنَهُ».[٢٨٩٤]

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ظاهرها حرمة كلّ ما لم يذكر اسم الله عليه من الحيوان أو غيره، لكن سوق الكلام، وسبب النُّزول وإجماع من عدا عطاء قد دلَّت على التَّخصيص باللَّحم والشَّحم ونحوهما من أعضاء الحيوان وأجزائه، لكنه يعمّ متروك التسمية مطلقًا.وقد ذهب الشافعي: إلى حلّ متروك التَّسمية عمدًا كان أو نسيانًا بوجوهٍ:

الأوّل: أنَّ التَّسمية على ذكر المؤمن، وفي قلبه ما دام مؤمنًا فلا يتحقَّق منه عدمُ الذّكر فلا يحرم من ذبيحته إلا ما أُهِلَّ به لغير الله.

الثاني: أن قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ على وجه التَّأكيد والتَّحقيق، لا يصحُّ في أكل ما لم يذكر اسم الله عليه عمدًا كان أو سهوًا؛ إذ لا فسقَ بفعل ما هو في محل الاجتهاد، ولا يخفى عليك أن إثبات عدم كونه فسقًا بعدم الفسق بما هو في محلِّ الاجتهاد لا يخلو عن مصادرة.

الثالث: أن قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ في موقع الحال؛ إذ لا يحسن عطف الإخبار على الإنشاء، وقد بين الفسق بقوله: ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام ٦/١٣٥]، فيكون النّهي عن الأكل معتدًا بكون ما لم يذكر اسم الله عليه، قد أُهل به لغير الله، فيحلُّ ما ليس كذلك، إمَّا بطريق مفهوم المخالفة، وإمَّا بحكم الأصل؛ فإن الأصل الإباحة في كل الأشياء إلا أن تعرض دليل الحرمة، وإما بالعمومات الواردة في حلِّ الأطعمة. واعترض بأنَّ التأكيد ب«إن» و«اللّام» بنفي كون الجملة حاليَّةً؛ لأنَّه إنَّما يحسن فيما قصد الإعلام بتحققه ألبتَّة، والرَّد على منكر تحقيقًا أو تقديرًا على ما بيَّن في علم المعاني، والحال الواقع من الأمر والنَّهي مبناه على التقدير، كأنَّه قيل: لا تأكلوا منه إنْ كان فسقًا فلا يحسن، وإنَّه لَفسقٌ، بل وهو فسق؟

والجواب: أنه لَمَّا كان المراد بالفسق ههنا الإهلال به لغير الله كان التَّأكيد مناسبًا، كأنَّه قيل: لا تأكلوا منه إذا كان هذا النَّوع من الفِسق الذي الحكم به متحقّق والمشركون ينكرون.[٢٨٩٥]

[٢٨٩٢] **التيسير في التفسير**، ٦/١٩٧-١٩٨. **عرائس البيان**، ١/٣٩٤.

[٢٨٩٣] **مسند أحمد**، ٤٧٨/٤٠ (٢٤٤١٦).

[٢٨٩٤] **مسند أحمد**، ٣٦٧/٦ (٣٨١٨).

[٢٨٩٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٠ظ-٣٤١و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٤٦٠/٣-٤٦١.

وقد ذهب أبو حنيفة إلى حلِّ متروك التَّسمية نسيانًا؛ لأن النَّاسي ليس بتاركٍ فيدخل في عموم النصّ؛ لأنَّ تسمية الله في قلب كلِّ مؤمنٍ، على ما روي أنه عليه السلام: «سُئِلَ عن متروك التَّسمية ناسيًا، فقال: «كُلُوه فإنَّ تَسميةَ اللهِ في قلب كلِّ امرئٍ مسلمٍ»،[٢٨٩٦] ولم يُلحِقْ به العامدَ؛ إمَّا لامتناع تخصيص الكتاب بالقياس، وإنْ كان منصوصَ العلَّة لقوله: «فإنَّ تسمية الله في قلب كلِّ مؤمن»، وإمَّا لأنه لَمَّا ترك التسمية عمدًا، فكأنَّه نَفَى ما في قلبه.

واعتُرِض بأنَّ تخصيص العامِّ الذي خصَّ منه البعضُ جائزٌ بالقياس المنصوص العلِّية وفاقًا.

وبأنَّا لا نسلِّم أنَّ التَّارك عمدًا بمنزلة النافي لما في قلبه، بل ربما يكون ذلك لوثوقه بذلك، وعدم افتقاره إلى الذِّكر.

فذهبوا إلى أنَّ النَّاسي خارجٌ بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾؛ إذا رجع الضميرُ إلى عدم ذكر التَّسمية، ومعلومٌ أن التَّرك نسيانًا ليس بفسقٍ لعدم التَّكليف والمؤاخذَة فتعيَّن العمد، وقد عرفتَ ما فيه.[٢٨٩٧]

وقد يدفع ما فيه بأنَّ العامد مستحقٌّ للتغليظ، والنّاسي للتّخفيف، فإقامة الملة مُقام الذكر في حقِّ الناسي لا يستلزم الإقامة في حقّ العامد، ويرفع [**١٤٣**/ظ] بأن الشارع نصَّ على أن علَّة الإباحة في كون التَّسمية في القلب، وأمَّا اعتبار استحقاق التّخفيف فهو ضمُّ أمر آخر إلى العلَّة المنصوصة وذلك غير جائز.

وقد ذهب **مالك** إلى ما ذهب إليه **الشافعي** في رواية، وإلى ما ذهب إليه أبو **حنيفة** في رواية وإلى عدم الرُّخصة في العمد والنسيان في زوايته.

﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾

قد عرفتَ أنَّ الجملة حاليةٌ. وقيل: «الواو» للاستئناف، أو للعطف على جملةٍ استئنافيةٍ للتعليل، حُذفت لدلالة باقي الكلام عليها، أي: إنه حرامٌ وإنه لفسق، والضمير لمصدر الفعل الذي دلّ عليه النَّهيُ، أي: وإنَّ الأكل منه لفسق، أو للموصول وهو ما لم يذكر، إمَّا بحذف المضاف، أي: وإنَّ أكلَه، وإمَّا بجعل ما لم يذكر نفسَ الفسق[٢٨٩٨] على طريقة رجل عدل، ولم يجعل الضمير للمصدر المأخوذ من مضمون لم يذكر اسم الله عليه، أي: إن ترك ذكر اسم الله عليه لَفِسقٌ؛ لأن كون ذلك فسقًا سِيَّما على وجه التَّحقيق والتأكيد مَّما لم يذهب إليه أحدٌ، ولا يلائم قوله: **﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾** [الأنعام ١٤٥/٦] مع أن القرآن يفسِّر بعضه بعضًا سيَّما في حكم واحدٍ، ولأنَّ ما لم يَذْكُرِ اسم الله يتأوَّل الميتة مع القطع بأنَّ تركَ التسمية عليها ليس بفسقٍ، واللّائح من كلام المصنف أنَّ المجتهدين الذاهبين إلى جواز أكلِ ما لم يذكر اسم الله عليه بنسيانٍ، أو عمدٍ يأوّلون هذا بالميتة، ولما ذكر غير اسم الله عليه بقوله: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾، لكن لا يخفى عليه أنَّ التَّأويل بهما إنما يتمُّ على مذهب الشافعي حيث لم يفرِّق بين العمدِ والنِّسيان.

وأمّا على قول أبي حنيفة: «فالنَّاسي ليس بتارك» على ما مرَّ بخلاف العامد، فالتأويل شاملٌ له عنده وإيراد كلمة «أو» في قوله: بنسيانٍ أو عمدٍ يشعر بالمذهبين ولو ذكر «الواو» لَكان مذهب الشَّافعي وحده.

[٢٨٩٦] لم أجده.

[٢٨٩٧] **نواهد الأبكار** للسيوطي، ١٨٠/٦-١٨١.

[٢٨٩٨] **تفسير ابن كمال باشا، ٣/ ٤٠٩.**

و﴿**وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ**﴾ ليُوَسْوِسُون ﴿**إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ**﴾ من الكفرة ﴿**لِيُجَادِلُوكُمْ**﴾ أي: ليجادل أولياءهم إياكم بقولهم لكم: تأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحكم وتدعون ما قتله الله.[٢٨٩٩] قال العلامتان: وفيه تأييدٌ للتأويل بالميتة.[٢٩٠٠]

وأنت خبير بأن التَّأبيد إنما يظهر على انحصاره الرِّواية فيما ذكر، لكن قد رُوى أيضًا أنهم قالوا: ولا تأكلون ما ذكر عليه أسماء آلهتنا. واللَّام متعلِّق بـ﴿يُوحُونَ﴾، أي: يوحون لأجل مجادلتكم.

وقيل: المراد بالشياطين مردة المجوس وبأوليائهم مشركوا قريشٍ، وذلك أنه لَمَّا نزل تحريم الميتة سمعه المجوس من أهل فارس فكتبوا إلى قريشٍ وكانت بينهم مكاتبة ومراسلة: أن محمَّدًا وأصحابَه يزعمون أنَّهم يتبعون أمر الله ثم يزعمون أن ما يذبحونه حلال وما يذبحه الله حرام. فجادل قريش بذلك أصحاب سيدنا فوقع في أنفس ناس من المسلمين شيء من ذلك فنزلت.[٢٩٠١]

والمجادلة: دفعُ القول على طريق الحجَّة بالقوَّة مأخوذٌ من «الأَجْدَلِ»: طائرٌ قَوِيٌّ.

وقيل: من الجَدَالة، وهي الأرض؛ فكأنه يغلِبه الحجة حتى يصيرَ كالمجدول بالأرض.

وقيل: من الجَدْل، وهو شدَّةُ الفَتْل، فكأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يفتِلُ حجةَ صاحبِه حتى يقطَعها، وتكون حقًّا في نصرة الحقِّ، وباطلًا في نصرة الباطل.[٢٩٠٢]

ولَمَّا أخبر أن الشياطين يوحون إلى أوليائهم لمجادلة لمؤمنين حذر عن قبول ما جادلوا فيه، فقال: ﴿**وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ**﴾ في استحلال ما حُرِّمَ ﴿**إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ**﴾ فإن من ترك طاعة الله إلى طاعة غيره واتبعه في دينه فقد أشرك.[٢٩٠٣] وذلك إذا أطاعه في الاعتقاد؛ وأمَّا إذا أطاعه في الفعل وعقدُه سليمٌ فهو عاصٍ غير مشرك.[٢٩٠٤]

وفيه دليل على أنَّ كلَّ من حرم شيئًا مما أحلَّه، أو عكس كان مشركًا، وهذا في المجمع عليه دون المختلف فيه، فإنَّه لا إكفارَ ولا تفسيقَ في محلِّ الاجتهاد، وحسن حذف الفاء؛ لأن الشرط بلفظ الماضي.

وقال ابن الكمال: إنه يقع ضرورةً، بل جواب قَسَم مقدَّرٍ قبل الشَّرط سادٌّ مسدَّ جوابه، أي: والله.[٢٩٠٥]

﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٢)

الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدَّرٍ دلَّ عليه ما قبله، أي: هل يكون المهتدي كالضَّالِّ ومن كان ميتًا فأحييناه؟[٢٩٠٦]

[٢٨٩٩] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٤.

[٢٩٠٠] **الكشاف**، ٢/ ٥٩؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٤.

[٢٩٠١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٣٤/٤.

[٢٩٠٢] **أحكام القرآن** لابن العربي، ٧٤٢/٢؛ **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ١٧/٩.

[٢٩٠٣] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٥.

[٢٩٠٤] **أحكام القرآن** لابن العربي، ٧٤٣/٢؛ **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ١٨/٩.

[٢٩٠٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٤٠٩.

[٢٩٠٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤١٠/٣.

وقيل: المعطوف عليه ﴿إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ والهمزة معجمة بينهما، فيعطف الإنشائية الاستفهامية على الإنشائية الشَّرطية، وفيه استعارتان تمثيليتان وتشبيه تمثيلي؛ إذ لا ذكر للمشبَّه صريحًا، ولا دلالةَ حتى يكون من باب التشبيه دون الاستعارة، وهذا كما تقول في الاستعارة الإفراديه: «أ يكون الأسد كالثَّعلب»، أي: الشجاع كالجبان. فشبه المهتدي بنور الحجج والآيات إلى حياة المعرفة بمن كان ميتًا، فجعل حيًا وأعطي نورًا يهتدى به في مصالحه. فأطلق عليه التركيب المستعمل في المشبه به. فقيل له [**١٤٤**/و] ذلك. فجعل القلب الخالي عن المعرفة بمنزلة الميت، والعرفان بمنزلة الحياة، والحجَج بمنزلة النور وشبه المصر على الكفر بمن استقر في وادٍ مظلمٍ أحاط به الظُّلمات من جوانبه متحيرًا لا خلاص منها، فأطلق عليه أيضًا التركيب المستعمل في المشبه به.[٢٩٠٧]

فالاستعارة الأولى بجملتها مشبَّه، والثانية مشبَّه به، نحوه في التَّشبيه: ﴿**أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا**﴾ [السجدة ١٨/٣٢].[٢٩٠٨]

وقرأ نافع ويعقوب: ﴿مَيِّتًا﴾ بالتشديد على الأصل.[٢٩٠٩] وإنما زاد: ﴿فِي النَّاسِ﴾ تقويةً للنُّور؛ فإن المشيَ بينهم يَعجز عنه ما في نور بصره ضعفٌ.[٢٩١٠]

و﴿مَنْ﴾ مبتدأ، و﴿كَمَنْ﴾ خبره، ﴿مِثْلُهُ﴾، أي: صفته العجيب الشأن؛ فلذلك شبه بالمثل وهو القول السائر المشبَّه مضربه بمورده، فأطلق عليه لفظ المثل كقوله تع: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل ٦٠/١٦]. و﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ خبره، كذا قال قدس سره ولم يزد عليه شيئًا، لكن لا يخفى أنَّه إنما يتَّضح بما يفهم من كلام المصنف وهو: أن يكون ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ خبر مبتدأ، وكونه خبرًا لـ﴿مِثْلُهُ﴾ على الحكاية بمعنى: أنَّه إذا وصف يقال له ذلك، وجملة ﴿مِثْلُهُ﴾ مع خبره صلة الموصول. وفهم بعضهم من كلامه أن ﴿مِثْلُهُ﴾ مبتدأ خبره محذوف، و﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ خبر محذوف حيث قدّر أولًا صفته هذه، ثم ثانيًا هو ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾.

وأنت خبير بأنه لا حاجةَ إليه، وتقدير هذه أوَّلًا ليس لبيان الإعراب، بل لإيضاح المعنى.

﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ﴾ حالٌ من المستكنِّ في الظرف، لا من الهاء في ﴿مِثْلُهُ﴾ للفصل بينه وبين الحال بالخبر.[٢٩١١]

والكاف: بمعنى «المثل» في محلِّ النَّصب على أنه صفةُ مصدر محذوفٍ، أي: زيّن للكافرين أعمالهم تزيينًا مثلَ ما زيّن للمؤمن إيمانه، والمزيّن هو الله باعتبار قضائه وخلقه لنفس الفعل، وما يدعو الله من دواعيه، أو الشيطان بوسوسته، أو الكفَّار بدعوتهم. وما قيل أو الله على التَّسبيب بأن خذلهم إسنادًا مجازيًا، كما قيل: سرَّتْني رؤيتك، أو بأن مكنى الشَّيطان على كون المجاز في المسند، فكلام اعتزالي لا يحتاج إليه أهل السنة؛ فإن الفعل بالدَّاعي وهو بخلقه، وهو عبارة عن العلم أو الظنِّ باشتمال ذلك الفعل على نفع زائد.

نزلت في حمزة وأبي جهلٍ، رمى رسولَ الله بفَرْث، فأُخبِر حمزة وهو راجعٌ من صيده، وبيده قوسٌ، فأقبل غضبانَ حتَّى علاه بالقوس وهو يتضرَّع ويقول: أما ترى ما جاء به؟ سفَّه عقولَنا، وسبّ آلهتنا وخالف آباءنا؟ فقال: ومن أسفهُ منكم؟!

[٢٩٠٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٣٤/٤.

[٢٩٠٨] **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٣٣.

[٢٩٠٩] **كتاب السبع**، ص ٧٢٦؛ **التيسير**، ص ٣٤٧؛ **النشر**، ١٩٧/٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٥.

[٢٩١٠] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤١٠/٣.

[٢٩١١] **التبيان في إعراب القرآن**، **١**/ ٥٣٦؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٥.

تعبدون الحجارة، فآمن وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،أو في عمر وأبي جهلٍ كانا يؤذيان النبيَّ فدعا لأحدهما فاستجيب له في عمر،[٢٩١٢] أو في عمَّار وأبي جهلٍ.[٢٩١٣]

وعلى تسليم خصوص سبب النزول فالحكم عامٌّ، والتمثيل شامل بمن كان على حسن الحال، ولمن كان على سوء الحال بحكم الملِك المتَعَال.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(١٢٣)﴾

أي: كما جعلنا في مكَّة أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾. و﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى: صيَّرنا، ومفعولاه: ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ﴾ قُدِّم الثَّاني على الأوَّل، أو الأوَّل ﴿أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾، والثاني ﴿لِيَمْكُرُوا﴾ و﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ ظرفُ لَغْو، وهذا هو الوجه الذي يقتضيه النَّظر الصائب، والتَّأمُّل الصَّادق وفي عبارة المصنفين.

و﴿أَكَابِرَ﴾ على هذين الوجهين مضاف إلى ﴿مُجْرِمِيهَا﴾؛ فإن أفعل من لا يجمع إلا مع اللَّام أو الإضافة، ومع الإضافة يجوز الإفراد والمطابقة، وعلى الأوَّل يقرأ: «أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا»،[٢٩١٤]

وأجاز أبو البقاء: أن يكون ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ بدلًا من ﴿أَكَابِرَ﴾.[٢٩١٥]

وأجازابن عطيَّة: أن يكون ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ المفعول الأوَّل، و﴿أَكَابِرَ﴾،المفعول الثاني،[٢٩١٦] والجعل: بمعنى التَّصيير أو التَّمكين، على أن يكون من قبيل: ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف ١٢/٣٦].[٢٩١٧]

فيردُّهما أنَّ أفعل التفضيل إذا كان بـ«من» ملفوظًا بها أو مقدَّرًا أو مضافًا إلى نكرةٍ، كان مفردًا مذكَّرًا دائمًا، سواءٌ كان لمذكَّرٍ أو مؤنَّثٍ، مفردٍ أو مثنًّى أو مجموعٍ، وإذا أُنِّث أو ثُنِّي أو جُمِعَ طَابَقَ ما هو له في ذلك، ولزمه أحد الأمرين: إمّا الألف واللام، أو الإضافة إلى معرفة، وعلى الوجهين المذكورين يلزم أن يكون ﴿أَكَابِرَ﴾ مجموعًا وليس فيه الألف واللام، ولا هو مضاف إلى معرفة واللَّازم باطل.[٢٩١٨] لكن يمكن بمشيتهما على قراءة «أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا»[٢٩١٩] وتخصيص الأكابر؛ لأنهم أقدر على المكر والغدر، وترويج الأباطيل على النَّاس واستتباعهم.

قال مجاهد: يريد العلماء. وقيل: الرؤساء والعظماء.[٢٩٢٠]

وقيل: «اللام» للصيرورة، والعاقبة ميل إلى مذهب المعتزلة؛ لأنه مُريدُ الخير والشر وخالقُهما، لكن بالنَّظر [**١٤٤**/ظ] إلى كونه علَّةً يلوح منه أن يكون مطلوبًا فح فحينئذ لا يَبعد الحملُ على الصَّيرورة، بخلاف ما إذا لم يكن علَّةً، بل إخبارًا عن فعله؛ فإنه لا يحتاج فيه إلى التَّأويل عند أهل السنة مطلقًا.

[٢٩١٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/١٣٥.

[٢٩١٣] **معالم التنزيل** للبغوي، ٣/١٨٥؛**أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٥.

[٢٩١٤] قراءة شاذّة. **البحر المحيط**، ٤/٦٣٦؛ **اللباب**، ٨/٤١٠.

[٢٩١٥] **اللباب**، ٨/٤١٠؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٤١٢.

[٢٩١٦] **المحرر الوجيز** لابن عطية، ٢/٣٤١.

[٢٩١٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٤١٢.

[٢٩١٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٤١٢.

[٢٩١٩] قراءة شاذّة. **البحر المحيط**، ٤/٦٣٦؛ **اللباب**، ٨/٤١٠.

[٢٩٢٠] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/٢٠.

و«المكر»: الحيلة في مقابلة الاستقامة، وأصله الفتلُ؛ والماكر يَفْتِل عن الاستقامة، أي: يَصْرِف عنها.

قال مجاهد: كانوا جلسوا على كل عَقَبَةٍ ينفِّرون عن اتِّباع النبي صلى الله عليه وسلم؛ كما فعل من قبلَهم من الأمم السالفة بأنبيائهم.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ لأنَّ وبال مكرهم راجعٌ إليهم وحائق بهم. وهو من الله الجزاء على مكر الماكرين.[٢٩٢١] فيكون من باب المشاكلة، أو تسمية جزاء المكر مكراً.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَلْعُونٌ مَنْ ضَارَّ مُؤْمِنًا أَوْ مَكَرَ بِهِ».[٢٩٢٢]

وعنه عليه السَّلام: «الْمَكْرُ وَالْخَدِيعَةُ فِي النَّارِ».[٢٩٢٣] وعنه عليه السلام: «الْمَكْرُ وَالْخَدِيعَةُ وَالْخِيَانَةُ فِي النَّارِ».[٢٩٢٤]

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ في الحال أنهم يمكرون أنفسهم وإن وبال مكرهم يرجع إليهم لفرطِ جَهْلهم، وزيادةِ غفلتهم وانخداعهم لما في الظاهر، وعدم تأمُّلهم في العواقب. ونعم ما قيل:

سوف تَرى إذا انْجَلَى الْغُبَارُ　　　أفَرَسٌ تحتك أم حمارٌ[٢٩٢٥]

وقال بعض العارفين: كما جعلنا في قلبِ من أحييناه بنا نورًا كذلك جعلنا في قرية كلِّ قالب أكابر من النَّفس والهوى والشَّيطان مجرميها؛ أي مفسدي حسن استعدادها لقبول السَّعادة ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام ١٢٣/٦] بمخالفات الشرع وموافقات الطبع، ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنعام ١٢٣/٦]؛ لأن فساد استعدادهم عائدٌ إليهم وما يشعرون ما يفعلون بأنفسهم.[٢٩٢٦]

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)﴾

يعني: كفَّار قريش؛ لما روي أن أبا جهل قال: زاحمَنَا عبد منافٍ، حتى إذا صرنا كفَرَسي رِهانٍ، قالوا: مِنَّا نبيٌّ يُوحى اليه، واللهِ لا نرضى به إلا أن يأتينا وحيٌ كما يأتيه، فنزلت.[٢٩٢٧]

﴿حَتَّى﴾ هذه ابتدائية وقع بعدها الجملة الشَّرطية، وهي: إذا صِرنا قالوا. وقوله: «والله لا نرضى» جملة قسميَّة، فكأنه قيل: هل تتَّبعونه فأقسم وقطع مظنَّة الاتِّباع؛ لأنه علّق بما لا يكون في الحكلة؛ ولأنَّ العبد بعد ما يأتيه الوحيُ يكون متبوعًا لا تابعًا، وهذا من غاية السَّفه؛ أن يقالَ لرجلٍ: آمن، فيقول: لا أؤمن حتَّى يَجعلني اللهُ نبيًّا، وإيراد النظم جميعًا، إما لأنَّ حال مثل ذلك رضًا به، وإما لأنَّ غيرَه رضوا بقوله.

[٢٩٢١] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/ ٢٠.

[٢٩٢٢] **سنن الترمذي**، ٣٣٢/٤ (١٩٤١).

[٢٩٢٣] **مسند البزار**، ٣٠٣/١٦ (٩٥١٧)؛ **مسند الشاميين** للطبراني، ٣٠٤/٣ (٢٣٣٦).

[٢٩٢٤] **المراسيل** لأبي داود، ١٥٩ (١٦٥).

[٢٩٢٥] **التمثيل والمحاضرة** للثعالبي،٧٤/١.

[٢٩٢٦] **التأويلات النجمية**، ٣٨٩/٢.

[٢٩٢٧] **الكشاف**، ٦٠/٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٦.

وقيل: معناه: وإذا جاءتهم آية من القرآن تأمرهم باتِّباع النبي: ﴿**قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ**﴾ من الآيات كما قالوا: ﴿**وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا**﴾ [الإسراء١٧/٩٠]. فعلى هذا ما طلبوا النبوة، بل طلبوا أن تأتيهم آياتٌ قاهرةٌ مثل آيات الأنبياء المتقدّمين تدلُّ على صدق محمَّدٍ. والأوَّل أولى وأنسبُ بما بعده.

فإن قلت: مقتضى الرواية أن يقال: حتى نؤتَى مثل ما أوتي محمد.

قلنا: ذكر ما في النَّظم، إمَّا لتعظيمه عليه السلام كقوله: ﴿**كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ**﴾، [الشعراء ٢٦/١٠٥] وإمَّا لأن طلب مثل ما أوتي محمد في قوّة طلب مثل ما أوتي النبيون،﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ كلام مستأنف للإنكار عليهم، وجوابٌ عن سؤال ناشئ مما قبله؛ لأنهم لما قالوا: والله ما نرضى به ولا نتَّبعه إلا أن يأتينا وحيٌ كما يأتيه، سُئِل: فما كان جواب البارئ عزّ شأنه لهم؟ قيل: أُجيبوا بأن النُّبوّة فضلٌ من الله يختصُّ بها من يشاء، وليس ذلك بالكِبَر والصِّغَر، بل بفضائلَ نفسانيَّةٍ يُجتبى لها مَن يصلُح لها.[٢٩٢٨]

وربَّما يشعر كلام العلامتين بأن يتعلَّق ﴿حَيْثُ﴾ بـ﴿أَعْلَمُ﴾ تعلّق المفعول به، وفيه إعمال «أفعل» التّفضيل في المفعول.[٢٩٢٩]

واللائح أنه يعلم محذوفًا مدلولًا عليها بـ﴿أَعْلَمُ﴾، وإن أوَّلته بـ«عالم» جاز أن ينصبه في رأي بعضهم، وإما جعل حيث ظرفًا ههنا فليس بواضحٍ؛ إذ المعنى: أنَّه يعلم المكان المستحقّ[٢٩٣٠] لوضع الرِّسالة فيه لا شيئًا في المكان، وكذا ما قيل: يجوز أن يكون على حذف المفعول بقرينة المقام على أنَّ الله أعلمُ بوجوه المصالح في المكان الذي وُضعت الرسالةُ فيه، وأن يكون من قتيل رميت الصيد في الحرم حيث لا يلزم كونُ الرَّامي في الحرم، بل يكفي كون المعلوم فيه، وكذا لا يلزم كون العالم في المكان بل يكفي كون المعلوم فيه.

وقيل: في محل الجرِّ بالياء أي بالموضع الذي يجعل رسالته، أي: يضعها فيه فلا يحتاج إلى التَّقدير.

وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم «رِسَالَتَهُ»[٢٩٣١] لإرادة الجنس ووجهِ الجمع الدَّلالة على الأنواع.

﴿**سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ**﴾ يوم القيمة، أو من عند الله، أو من إذلال الله ﴿**وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ**﴾ لا يحيط به الوصف وهما في الدَّارين جميعًا، أو الصِّغار في الدنيا والعذاب في العقبى، [**١٤٤**/ظ] و﴿الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ إظهار مقام الإضمار، أو اللَّام للجنس، فيدخل المذكورون أولًا فيكون تذييلًا ﴿**بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ**﴾ بسبب مكرهم أو جزاء عليه.

وتخصيص هذا الجنس من العذاب للمجازاة، تنقيص مدعيهم من كونهم أكابر، وبنقيض المحامل على تمرُّدهم وهو طلب الكبرياء. وفيه تقرير للإنكار باستحقاقهم النُّبوَّة بالكِبر؛ فإنه موجب الصِّغار لا الاجتباء والاختيار، وإيماء إلى أن الأنبياء استحقّوا بالعصمة عن الجرائم، وتنبيهٌ على أنَّ تصديقَ رسل الله يوجب عزَّ الدارين.

[٢٩٢٨] **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٣٧.

[٢٩٢٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤١و.

[٢٩٣٠] ج — المستحقّ.

[٢٩٣١] **النشر**، ١٩٧/٢.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٥)

الفاء رابطةٌ مرتِّبة للكلام على ما قبله، فإنه لَمَّا ضرب للفريقين مثلًا، بقوله: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام ١٢٢/٦]،ونصَّ على أنه هو المزيِّن للكافرين عملهم، وأنه صيَّر في كل قرية أكابر مجرميها، وحكى عنهم أنهم يطلبون ما ليس لهم، رتبة على ذلك، تسليًا لرسول الله، وإرشادًا إلى تفويض الأمور إلى الله، وإعلامًا بأن إرادته إذا تعلَّقت بهداية بعض العباد، ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾، وإذا تعلَّقت بضلالة بعضٍ ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا﴾.

وهؤلاء المجرمون الذين خلقهم للصَّغار والدّمار، وأراد ضلالتهم، لا يهتدون.[٢٩٣٢]

وهذا صريحٌ في الدَّلالة على مذهب أهل السُّنة من أنَّ الهداية والضَّلالة من الله، وأنَّه أراد هداية بعض وأراد ضلال بعض، والتَّأويل باللُّطف والخذلان، ونحوه: خروج عن السُّنن الظَّاهر ومقتضى الدَّليل الباهر، ولَمَّا لم يمكن حملُ الشَّرح والتَّوسيع للإسلام، والتصق له على حقيقة، جعل الشرح كناية عن استعداد الباطن، وتصفيته عمَّا ينافي قبول الحقِّ من ظلمات الشُّكوك والشُّبَهِ، فيصدق الرَّغبة في الإيمان، وجعل التضييق كناية عمّا يكدِّر الباطن، ويزيل الاستعداد، ويميل النَّفس في الشهوات، وينبو عن الحقِّ، وينقبض عنه ولا يقبله.[٢٩٣٣]

وذلك لأنَّ الصَّدر إذا كان مشروحًا يكون قابلًا بدخول شيءٍ فيه، فالقابلية من روادف الشرح، وقس عليه ضيق الصدر.

فإن قلت: إمكان المعنى الحقيقي شرط الكناية.

قلت: يوجد الإمكان في الجملة ولو بالنظر إلى النوع.

ويجوز أن يكون من قبيل الاستعارة التمثيلية. وعليه يحمل قوله ع م: حِينَ سُئل عن الشرح فقال: «نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ، فَيَنْشَرِحُ لَهُ أَوْ يَنْفَسِحُ. فَقَالُوا: هَلْ لِذَلِكَ مِنْ عَلَامَةٍ يُعْرَفُ بِهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ: الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ»،[٢٩٣٤] حيث عبّر عمَّا خلق الله في القلب من اعتقاد أن الإيمان راجح المصلحة بالنُّور المقذوف بالقلب، وجعل الإنابة والتَّجافي علامةً لخلق تلك الداعية؛ لأنَّ مَن آمن يعلم أن الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهْو، وأن منفعتها ليست إلا التوسُّل إلى الحياة الأبديَّة، فلا جرم يتجافى عنها، ويرغب إلى دار الخلود.[٢٩٣٥]

وقدرة العبد صالحة للضدّين، إنما يترجح بداعية في القلب إلى الفعل وهي علم أن فيه مصلحة وحصولها من الله، وبمجموع القدرة والدَّاعي يحصل الفعل، فمَن أراد منه الإيمانَ قوِيَ دواعيَه، ومَن أراد منه الكفر قويَ صوارفَه.[٢٩٣٦]

[٢٩٣٢] **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٣٩-٢٤٠.

[٢٩٣٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/ ٤١٥.

[٢٩٣٤] **المصنف** لابن أبي شيبة، ٧٦/٧ (٣٤٣١٤).

[٢٩٣٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٣٨-١٣٩.

[٢٩٣٦] **مفاتيح الغيب**، ١٨٧/١٣.

وقرأ ابن كثير: «ضَيْقًا»[٢٩٣٧] وهو تخفيف المشددة؛ كـ«سَيِّدٍ وسَيْدٍ»، أو مصدر «ضَاقَ يَضِيقُ»، وُصف به المصدر على أحد الوجوه في: «رَجُل عَدْل» من حذف المضاف، أو التّأويل باسم الفاعل، أو المبالغة، أي: ذا ضيق أو ضائقًا، أو نفس الضيق.

و﴿حَرَجًا﴾ صفةٌ لـ﴿ضَيِّقًا﴾، أو مفعول ثالث لـ«جعل»، فإنه يتعدَّد كما يتعدَّد الخبر، فإنَّ جواز تعدد الخبر قبل دخول نواسخ الابتداء عليه يقتضي جوازه بعد دخولها، و«الحرج» المتزايد في الضيق فهو أخصُّ من الأوّل، فكُلُّ «حرج» ضيق من غير عكس.[٢٩٣٨]

وقيل: هو جمع «حَرَجَة»، وهو ما التفّ من الشَّجر، ويضائق بحيث لم يقدر الماشية يدخله، فشبّه به قلب الكافر لضيقه.

وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم بالكسر.[٢٩٣٩] يقال: حَرَج وحَرِج فهما صفتان، وقيل: المفتوح مصدرٌ، فيجيء فيه الوجوه المذكورة في قراءة «ضَيِّقًا» والمكسور اسم فاعل.

وعنه ع م: «قَلْبُ الْعَبْدِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ».[٢٩٤٠]

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

﴿مَا﴾ كافَّة مهيِّئَةٌ لدخول ﴿كَأَنَّ﴾ على الجملة الفعليَّة «كهي» في قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ﴾ [آل عمران ٣/١٨٥].

والجملة التَّشبيهيّة يحتمل أن تكون مستأنفةً، وأن تكون حالًا من الضَّمير المستكنّ [١٤٤/ظ] في ﴿ضَيِّقًا﴾ أو ﴿حَرَجًا﴾ شبَّه حال مَنْ جعل الله صدره ضيِّقًا حرجًا؛ بحالِ مَن يطلب الصُّعود إلى السَّماء المظلّة، أو إلى مكانٍ مرتفعٍ وَعْرٍ، كالعَقَبَة الكَؤود مبالغة في ذلك، والمعنى: أنه يشقُّ عليه الإيمان كما يشقُّ عليه الصُّعود إلى السَّماء.[٢٩٤١] فإنه مثلٌ فيما يَبعدُ عن الاستطاعة، ويخرج عن الطَّاقة، أو شبّه حاله في نُبُوِّه عن الحقِّ، وتباعده منه ونفرته عنه، والتَّجافي بحال مَنْ يطلب الصُّعود إلى السَّماء إباء من شيء، وامتناعًا منه واستكراهًا له، أو شبّه بعهد قلبه عن الإيمان، وتباعده عن قبول الحقّ يبعد مَنْ يَصعَد من الأرض إلى السَّماء، فيمتنع منه الإيمان كما يمتنع منه الصعود.

وأصل ﴿يَصَّعَّدُ﴾ «يَتَصَعَّدُ»، وقد قُرئ به.[٢٩٤٢] فأدغم كما فيه معنى: فعل شيءٍ بعد شيءٍ، وذلك أثقلُ على فاعله.

وقرأ ابن كثير: ﴿يَصْعَدُ﴾[٢٩٤٣] بسكون الصَّاد وتخفيف العين مضارع صَعِدَ، أي: ارتفع وطلع. وأبو بَكْر عن عاصم: ﴿يَصَّاعَدُ﴾[٢٩٤٤] بتشديد الصَّاد وبعدها ألف، أصلها «يَتَصَاعَدُ»، أي: يتعاطى الصّعود ويتكلّفه.[٢٩٤٥]

[٢٩٣٧] **السبع**، ص ٢٦٨؛ **التيسير**، ص ٣٤٨؛ **النشر**، ٢/ ١٩٧.

[٢٩٣٨] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٣٩.

[٢٩٣٩] **أي**: «حَرِجًا». **كتاب السبع**، ص ٢٦٨؛ **التيسير**، ص ٣٤٨؛ **النشر**، ٢/ ١٩٧.

[٢٩٤٠] **سنن ابن ماجه**، ١٣٨/١ (٢٠٠)؛ **السنن الكبرى** للنسائي، ١٥٦/٧ (٧٦٩٠).

[٢٩٤١] **اللباب**، ٤٢٤/٨؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٤٠/٤.

[٢٩٤٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٧٨؛ **الكشاف** ، ٦١/٢.

[٢٩٤٣] **كتاب السبع**، ص ٢٦٨؛ **التيسير**، ص ٣٤٨؛ **النشر**، ٢/ ١٩٧.

[٢٩٤٤] **كتاب السبع**، ص ٢٦٨؛ **التيسير**، ص ٣٤٨؛ **النشر**، ٢/ ١٩٧.

[٢٩٤٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٣٩.

ففيه ما في معنى القراءة الأولى من معنى فعل شيءٍ بعد شيءٍ تكلُّفًا ومشقَّةً. يقال: تَصَعَّدَني الأمرُ، أي: شقَّ عليَّ. ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما تَصَعَّدَني شيءٌ ما تصعَّدَتني خِطْبَةُ النِّكاح».[٢٩٤٦]

قيل: إنما تَصَعَّبُ عليه لقرب الوجوه من الوجوه ونظَرِ بعضهم إلى بعض، ولأنَّهم إذا كانوا جالسين معهم كانوا نُظَراءَ وأَكْفاءً، وإذا كان على المنبر كانوا سُوقَةً ورعيَّة.[٢٩٤٧] ومنه قوله تع: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾ [المدثر ١٧/٧٤]، أي: عقبة شاقة. فوجه القراءة الثلث واضح، ولعلَّ ابن كثير نظر إلى أصالة الثّلاثي.

وقرئ: «يُصْعِدُ»[٢٩٤٨] من «أَصْعَدَ» بمعنى: صَعَد. و«الكاف» بمعنى: «المثل» في محلِّ النَّصب على أنَّه صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، أي: يجعل اللهُ الرِّجس جعلًا مثل ذلك الجعل البيّن، وهو جعل قلب مَنْ أراد أن يضلَّه ضيِّقًا حرجًا، أي: كما نجعل صدورهم ضيّقةً بجعل الرِّجس على الذين لا يؤمنون.

و«الرجس»: الخذلان والعذاب من الارتجاس وهو الاضطراب.ومنه حَدِيث سَطيح أنه «لَمَّا وُلِدَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارْتَجَسَ إِيوَانُ كِسْرَى».[٢٩٤٩]أَي اضطَرب وتحرَّك حَرَكة سُمِع لَهَا صَوْتٌ».

وعن ابن عباس: الرِّجس: هو الشيطان، أي: يسلِّطه عليهم. وقال مجاهد: هو: ما لا خير فيه. وقال الكلبي: المأثم. وقال الزجاج: هو: اللَّعنة في الدُّنيا، والعذاب في الآخرة.[٢٩٥٠]

وقيل: هو النَّجس. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا دخل الخلاء قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الرِّجْسِ النَّجَسِ».[٢٩٥١]

قال الفراء: وإذا بدؤوا بالنَّجَس ولم يذكروا معه الرِّجْس فتحوا النون والجيم، وإذا بدأُوا بالرَّجْسِ ثم أَتبعوه النَّجِس، كسروا الجيم.[٢٩٥٢]

والموصول ههنا يحتمل أن يكون مشتملًا بمن فيكون طريقة التَّذييل، ويحتمل أن يراد هؤلاء، فالإظهار مقام الإضمار للتَّسجيل عليهم بالكفر، وامتناع الإيمان، وتعليل الحكم، وأمَّا ما قيل يحتمل أن يكون غير مَن ففيه ما لا يخفى.

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) ۞ ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٧).

أي: وهذا البيانُ الذي جاء به القرآن، صراطُ ربِّك عادته، قد فصلّنا الآيات في الإلهيات، والنُّبوات، والمعاد مستقيمًا لا عوج فيه، أو عادلًا مطَّردًا لقومٍ يذَّكرون. فينتفعون بها ويكونون على مقتضاها، أو وهذا الإسلامُ صراطُ ربِّك طريقُه الذي ارتضاه للوصول إلى رضاه مستقيمًا.

[٢٩٤٦] **المفردات في غريب القرآن**، «صعد». ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢)، الكافي الشاف ٣٠٤ • منقطع

[٢٩٤٧] **لسان العرب** لابن منظور، «صعد».

[٢٩٤٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٧٨؛ **الكشاف** ، ٦١/٢.

[٢٩٤٩] **فنون العجائب** لأبي سعيد النقاش، ٨٦ (٧٠).

[٢٩٥٠] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/ ٢٠؛ **اللباب**، ٤٢٥/٨.

[٢٩٥١] **سنن ابن ماجه**، ٢٠٠/١ (٣٠٠).

[٢٩٥٢] **لسان العرب** لابن منظور، «رجس».

﴿**قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ**﴾ ذكرناها فصلًا فصلًا، بحيث لا يختلط واحدٌ منها بالآخر ﴿**لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ**﴾ فينظرون ويتفكَّرون حتى يتعوَّدهم النّظر إلى اتِّباع سبيل الحقِّ فيبذلون مجهودهم في ذلك، أو وهذا التَّوفيق لمن أراد أن يهديه، والخذلان لمن أراد أن يضلَّه صراط ربك عادته مستقيمًا. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ الدَّالة على القضاء والقدر متواليةً من طُرُق كثيرةٍ، ووجوهٍ مختلفةٍ ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، فيعرفون أن الله هو الواحد القهار، وأنَّ الهداية إلى صراطه السَّوي والضلالة عن ذلك بخلقه، وإرادته، وقضائه، وقدره، ويعلمون أن الكلَّ منه، فيسئلونه التوفيق ويعيذون به من الخذلان.

وقد تقرَّر في عقل كلِّ واحدٍ أن أحدَ طرفي الممكن لا يترجَّح إلَّا لمرَجِّح، وذلك لا يكون إلا منه تع قطعًا للتَّسلسل فالآيات يذكرهم ذلك.[٢٩٥٣]

و﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حالٌ مؤكِّدةٌ؛ لأنَّ الاستقامة لازمةٌ لكون المشار إليه صراط الله إلا أنَّ الصِّراط إذا كان بمعنى العادة جاز أن يجعل [**١٤٥**/و] مقيَّدة؛ لأنَّ العادة لا يلزم كونها مطَّردةً. والعامل فيها معنى الإشارة أو التَّنبيه.

﴿**لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ**﴾ دار الله؛ أضافَ الجنة إلى نفسهِ تعظيمًا لها.[٢٩٥٤] وتخصَّص هذا الاسم؛ لأن معناه منه، وبه السلامة وأهل الجنة سالمون، فيكون صفةً فعليةً، أو المسلّم على عباده، وأهل الجنة سلّم عليهم من الله ومن الملائكة، ومن بعضهم لبعض، فيكون صفةً كلاميَّةً، أو الذي سلّم عن النقائص، وأهل الجنة سالمون عن الآفات فيكون صفةً سلبيّةً، أو دار السَّلامة من المكاره، أو دارُ التحية ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم ٢٣/١٤] ﴿**وَالمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ**﴾﴿**سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ**﴾ [الرعد ٢٤/١٣]﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس٥٨/٣٦].

والجملة استئنافيةٌ لا محل لها، كأَنَّ سائلًا سأل عمَّا أعدَّ الله لهم، فقيل لهم ذلك، أو حالٌ من فاعل ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ و«قد» مقدَّرةٌ

﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ حالٌ من ﴿دَارُ السَّلَامِ﴾، والعامل فيها الاستقرار في ﴿لَهُمْ﴾ والعِنْدِيَّةُ، إمَّا كفايةٌ عن وعدها والتَّكفُّل بها، كما يقال: لفلانٍ عندي حقٌ لا ينسى، أو عن كونها ذخيرةً لهم لا يعلمون كمِّيَّتها،[٢٩٥٥] لقوله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة ١٧/٣٢]، أو عن أن يكون معدَّةً مهيأةً حاضرةً، ونظيره قوله: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البيّنة ٨/٩٨]. وهذا مُشعر بأن ذلك الأمر المدَّخر موصوفٌ بالقرب من الله بالشَّرف والرُّتبة لا بالمكان والجهة لتنزُّهه عنها.[٢٩٥٦]

وإضافة ﴿عِنْدَ﴾ إلى ﴿رَبِّهِمْ﴾ يُشعر بأنَّ وصولَ النِّعمة والرَّحمة إليهم في الجنَّة متواليةٌ اليه لا مقطوعةٌ ولا ممنوعةٌ.

والوَلِيُّ إنْ كان بمعنى المحبِّ أو الناصر كان الباء للسَّببية، أي: يحبُّهم وينصرهم بسبب أعمالهم، وإنْ كان بمعنى مُتولِّي الأمور والمتصرِّف فيها فالباء للملابسة، أي: متولِّي أمورهم ومتكَّفِّل مصالحهم ملتبسًا بجزاء أعمالهم على خذف المضاف.[٢٩٥٧]

والعِنْدِيَّةُ تدلُّ على قربهم، منه والولاية على قربه بهم.[٢٩٥٨] وهذا التَّشريف إنَّما يحصل بالتَّوحيد وانشراح الصدر للإسلام، فهم قد عرفوا من الآية أنَّ الكلَّ منه وبه، وإليه فالقطعوا إليه بشراشرهم، وسلوا إليه بجملتهم، فلما صاروا له كان وليّهم، ومنه جميع مصالحهم في الدَّارين.

[٢٩٥٣] **مفاتيح الغيب**، ١٣/ ١٩٨.

[٢٩٥٤] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٨.

[٢٩٥٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٤٠-١٤١.

[٢٩٥٦] **مفاتيح الغيب**، ١٣/ ١٩٩.

[٢٩٥٧] **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٤٤؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٤١.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)﴾

أي: اذكر يومَ نَحشرهم، أو: يوم نحشرهم قلنا، أو: يوم نحشرهم وقلنا: ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ كان ما لا يوصف لفظاعته![٢٩٥٩]

وهذه ثلاثة أوجهٍ: في نصب ﴿يَوْمَ﴾ و﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾، على الثاني: متعلِّق بذلك المحذوف مقول له، وعلى الأوَّل والثَّالث في موقع الحال بتقدير القول، أي: نحشرهم قائلين: يا معشر الجنِّ، فقوله: «وقلنا يا معشرَ الجنِّ»،[٢٩٦٠] بيانٌ للمعنى لا دلالةَ على حذف ﴿قلنا﴾ مع حرف العطف.[٢٩٦١]

وأمَّا تقدير: فنقول يا معشر الجن، أو فيقال :فيقتضي من تقدير قول آخر ناصب لـ«يوم». ومن قدّر المبنيّ للمفعول فقد نظر إلى أنه تعلا يكلِّمهم بالذَّات، كما قال: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران ٧٧/٣]، ويمكن أن يقال: التكلُّم المنعي ما يكون على وجه الإكرام، ويؤيِّده قوله ع م: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ».[٢٩٦٢]

وقرأ حفص: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء[٢٩٦٣] إسنادًا إلى ضمير ﴿رَبِّهِمْ﴾، ووجه الباقين[٢٩٦٤] للالتفات من الغيبة إلى التَّكلُّم، ولَمَّا ذكر تعأنَّ المتذكرين لهم دار السلام بيَّن حال أَضْدَادهم ضمًا للوعيد بالوعد، والضمير لمن يحشر من الثقلين وغيرهم.

و﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ. و«المعشر»: الجماعة التي تضبطهم جهة وحدة، وحصل بينهم معاشرة ومخالطة والجن الشياطين.

﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْمِنَ الْإِنْسِ﴾ أي: من إغوائهم على تقدير المضاف، أو كثرتم الاتباع منهم حيث اتَّبعوكم في الدنيا، وحشروا معكم في العقبى. فالتوجيهان؛ لأنَّ استكثار الجنِّ من نفس الإنس غيُر متصوّر؛ لأنَّ القادر على إيجاد الجسم وتكميله بالعقل[٢٩٦٥] والقوى ليس إلا لله.

وهذا تبكيت الجن، أي: توبيخهم على إضلال الإنس، ويتضمَّن تبكيتُ الإنس على اتِّباعهم الجنِّ، ولَمَّا بكت كلُّ واحدٍ من الفريقين حكى جواب الإنس بقوله: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ﴾، أي: أولياء الشياطين الذين أطاعوهم حالَ كونهم من الإنس؛ فإنَّ أولياء الشَّياطين جنسان: إنس وجنّ فصح البيان.[٢٩٦٦]

فإن قيل: الخطاب كان للشياطين والجواب كان من أوليائهم من الإنس؟

قلنا: لأن المقصود من خطاب الشَّياطين توبيخُ هؤلاء.

فإن قلت: إذا كان كذلك فلِمَ لم يكن الخطابُ لهم أيضًا؟

[٢٩٥٨] ج – منه والولاية على قربه بهم.

[٢٩٥٩] **الكشاف**،٢/٦١-٦٢.

[٢٩٦٠] **الكشاف**،٢/٦١-٦٢.

[٢٩٦١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤١ظ.

[٢٩٦٢] **صحيح البخاري**، ١٤٨/٩ (٧٥١٢).

[٢٩٦٣] **كتاب السبع**، ص ٢٦٩؛ **التيسير**، ص ٣٤٨؛ **النشر**، ٢/ ١٩٧.

[٢٩٦٤] **النشر**، ٢/ ١٩٧.

[٢٩٦٥] ج – بالفعل.

[٢٩٦٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٤١-١٤٢.

قلت: التعريضُ أبلغُ من التَّصريح على ما علم من نحو: قوله تع: ﴿**أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ [المائدة ٥/١١٦]، [**١٤٥**/ظ]والاستمتاع طلب المتاع. أمَّا انتفاع الإنس بالجنِّ، فمن حيث إن الجنَّ كانوا يُدلونهم على تلك الشَّهوات وما يتوصَّل به إليها، ويسهِّلون طريقَ تحصيلها عليهم، وأمَّا انتفاع الجنِّ بالإنس، فمن حيث إنَّ الإنس أطاعوهم، ولم يضيعوا سعيهم، والرَّئيس المطاع ينتفع بانقياد أتباعه له.

وقيل: انتفاع الإنس أن الرَّجل إذا سافر، وأمسى بأرضٍ قفر وخاف على نفسه، قال: أعوذ بسيِّد هذا الوادي من سفهاء قومه فيَبِيت آمنًا. وأمَّا انتفاع الجنِّ فتحصيل الرِّياسة بتلك الاستعاذة حتى تقول: قد سدَّت الأنس والجن، ويأباه قوله: ﴿**قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ**﴾؛ لأن من يقول: أعوذ بسيد هذا الوادي قليل.

وقيل: النقصان من الإنس؛ لانَّ استمتاعَ أحد النَّوعين من الآخر قليلٌ، بخلاف استمتاع بعض الإنس ببعض. وفيه أن هذا لا يصلح جوابًا للتَّبكيت المذكور.[٢٩٦٧]

﴿**وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا**﴾ يعنون: يومَ البعث، وكلامهم اعتراف بما كان منهم من اتِّباع الشياطين والهوى، والتَّكذيب بالبعث، واستسلامٌ لربهم، وتحسُّرٌ على حالهم؛[٢٩٦٨] لأنَّ معناه أنَّ ذلك الاستمتاعَ كان حاصلًا إلى أجل معين، ثمَّ جاءت الخيبة، والحسرة، والنَّدامة من حيث لا تنفع. وقيل: يعني: الموت والقبر.[٢٩٦٩]

﴿**قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾ ❁ ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩)**﴾

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ، والعامل ﴿مَثْوَاكُمْ﴾ إن كان مصدرًا، أي: ذات ثوابكم بتقدير المضاف ليصِحَّ حملُ المصدر على النَّار، أو معنى الإضافة إن كان اسم مكان، أي: منزلكم؛ لأنه لا يعمل عمل الفعل؛ لأنه ليس بمعناه، والاستثناء من مضمون الجملة التي قبله، كأنَّه قيل: يخلدون في عذاب النَّار الأبد كلّه إلا أوقات مشيئة الله أن ينقلوا من النَّار إلى الزَّمْهَرِير على أن «ما» مصدريَّة، ويقدر مضاف كما في آتيك خفوق النجم.[٢٩٧٠]

روي أنهم ينقلون من عذاب النَّار، ويدخلون واديًا فيه من الزَّمهرير ما يميِّز بعضَ أوصالهم من بعضٍ، فيتعاوَوْنَ ويطلبون الرَّدَّ إلى الجحيم،[٢٩٧١] أو ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ قبل الدُّخول، كأنَّه قيل: النار مثواكم أبدًا إلا ما أمهَلَكم،[٢٩٧٢] فالاستثناء متَّصل من مضمونها أيضًا إلا أنَّ المستثنى من أوقات الخلود، وليس الأوقات الواقعة بعد دخول النَّار، بل الواقعة بعد الحشر قبل الدُّخول.

وفيه أن حُكمَ الخلود والأبد بعد الدُّخول، ومن جهة المنتهى لا من جهة المبدأ، ولا يدفعه ما قيل: أجيبوا في ذلك الموقف بأن ﴿**النَّارُ مَثْوَاكُمْ**﴾، ولزم منه أن تكون النَّار موضع إقامتهم من ذلك الوقت إلى الأبد، فاستثني ما قبل

[٢٩٦٧] **مفاتيح الغيب**، ١٣/ ٢٠١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/١٤٢-١٤٣.

[٢٩٦٨] **الكشاف**،٢/٦١-٦٢.

[٢٩٦٩] **مفاتيح الغيب**، ١٣/ ٢٠٢.

[٢٩٧٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/١٤٣.

[٢٩٧١] **الكشاف**، ٢/٦٣.

[٢٩٧٢] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٨.

الدُّخول؛[٢٩٧٣]لأن الجواب على أنَّ ما لكم ذلك لا أنَّكم في الحال كذلك، أو من قبيل قول المتشفي المتقيّظ لخصمه الذي يطلب منه التَّخليص أهلكني الله إن نفَّستُ عنك إلا إذا شئتُ! وقد عَلِم أنه لا يشاء إلا التَّشفِّيَ منه بأقصى ما يَقْدِر عليه، فيكون من أشدِّ الوعيد، مع تهكُّم بالموعَدِ لخروجه في صورة الاستثناء الذي فيه إطماع.[٢٩٧٤]فالمراد المبالغة في الخلود، أي: لا ينبغي إلا وقت مشيئته تع وهو لا يكون، أو إلا ما شاء من عصيان المؤمنين، واستعمال ما في ذوي العقول شائع، كما في قوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف ٥٣/١٢]، أو إلا ما شاء من الأوقات التي تخرجون فيها من النَّار وهو ما ذكر في قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة ١٥/٢] من أنه يُفتح لهم وهم في النَّار بابٌ إلى الجنة، فيسرعون نحوَه، فإذا صاروا إليه سُدَّ عليهم البابُ، وذلك قوله: ﴿**فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ**﴾ [المطففين ٣٤/٨٣].

﴿**إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾ في أقواله وأفعاله، فيُكْرِم المتذكرين بدار السّلام، وكونه وليًّا لهم، ويُهِين أولياءَ الشيطان بدار الهوان، وكما خذلنا عُصَاة الجنّ والإنس حتى استمتع بعضهم ببعض، كذلك نَكِلُ بعضَهم إلى بعض في الآخرة؛ ليستعين به فلا ينفع. قال: ﴿**مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ**﴾ [إبراهيم ٢٢/١٤]. فالتَّولية من الولّي بمعنى النَّاصر، «أو نجعل بعضهم يتولَّى بعضًا فيغويهم»،[٢٩٧٥] فالولاية بمعنى التَّصرُّف، ﴿وَكَذَلِكَ﴾ إشارة إلى التَّولية المدلول عليها بقوله: ﴿نولِّي﴾ ولا يقصد به التَّشبيه بشيءٍ آخر، كما تقول: علمته كذلك، بيّن أوَّلاً أنَّ بعضهم يستمتع ببعض، ثم بيَّن أنَّه بقضائه وقدره، «أونجعل بعضَهم أولياء بعض وقرناءَهم في العذاب، كما كانوا في الدنيا»؛[٢٩٧٦] فإن الجنسية سبب انضمام في الدَّارين، فإن الأرواح الخبيثة تنضمُّ إلى ما يشاكلها في الخبيث وتحشر معه كما تنضمُّ إليه في الدنيا، فإن كلَّ واحد منها يَهتمُّ بشأن من يشاكله في النصرة والمعونة والتقوية.[٢٩٧٧] فالوليُّ بمعنى القريب.

وقيل: نُسلِّط بعضَهم على بعضٍ على أن يكون مِنْ وليت زيدًا المدينة، وذلك التسليط قبيح عند المعتزلة، ولذلك قال المصنف، أي: «نخلّيهم»[٢٩٧٨] وشأنهم حتى تصير الظلمةُ ولاةً، وعلى هذا الوجه ما قال الإمام: أنه يدلُّ على أنَّ الرَّعية إذا كانوا ظالمين، [**١٤٦**/و]فالله يسلِّط عليهم ظالما مثلهم.[٢٩٧٩]

ومنه ما قيل: «كما تكونون يولّى عليكم».[٢٩٨٠]

﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠)﴾

الرُّسُل من الإنس خاصّةً، لكن لَمَّا جُمِعوا مع الجنّ في الخطاب صحَّ ذلك، ونظيره: ﴿**يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ**﴾ [الرحمن ٢٢/٥٥] وإنما يخرجان من المِلْح دون العَذب.[٢٩٨١]

[٢٩٧٣]**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٤٣/٤.

[٢٩٧٤]**الكشاف**،٦٣/٢.

[٢٩٧٥]**أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٨.

[٢٩٧٦]**أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٨.

[٢٩٧٧]**مفاتيح الغيب**، ٢٠٤/١٣؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٤٣/٤.

[٢٩٧٨]**الكشاف**،٦٣/٢.

[٢٩٧٩]**مفاتيح الغيب**، ٢٠٤/١٣.

[٢٩٨٠]**كنز العمال**، ٨٩/٦ (١٤٩٧٠)؛ **مسند الشهاب** للقضاعي، ٣٣٦/١ (١٦٧/٢).

[٢٩٨١]**أنوار التنزيل**، ٥١٨/١.

وقيل: لأن الثَّقلين قد ضمَّهما عَرْصة القيمة، والحساب عليهم دون الخلق، فلمَّا صاروا في تلك العَرْصة في حسابٍ واحدٍ في شأن الثَّواب والعقاب؛ خُوطبوا يومئذ بمخاطبةٍ واحدةٍ كأنَّهم جماعةٌ واحدةٌ؛ لأنَّ بدو خلقهم للعبادة، والثوابُ والعقابُ عليها، ولأنَّ الجنَّ أصلُهم من مارجٍ من نارٍ، وأصلُنا من ترابٍ، وخلقُهم غيرُ خلقنا؛ ومنهم مؤمنٌ ومنهم كافرٌ. وعدوُّنا إبليس عدوٌّ لهم، يعادي مؤمنَهم، ويوالي كافرَهم. وفيهم أهواء: شِيعَةٌ وقَدريَّة ومُرْجئة.[٢٩٨٢]

وتعلَّق بظاهره قومٌ وقالوا: بُعث إلى كلٍّ من الثَّقلين رُسُلٌ من جنسهم؛ لأنَّ قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام ٩/٦] يدلُّ على أنَّ الحكمة تقتضي أن يجعل رسولُ الإنس من الإنس للإنس، فاقتضى أن يكون رسولُ الجنِّ من الجنِّ أيضًا.

وقال ابن الكمال: ولا دلالةَ في الآية على ذلك؛ إذ لم يقل: «رسلٌ من جنسكم» حتى يحتاج إلى التَّأويل بمثل ما ذُكِر في قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن ٢٢/٥٥] [٢٩٨٣] يعني: أنَّها إنَّما يقتضي أن يكون رسُلُ الفريقين بعضًا منهما، فإذا كان الرُّسل من الإنس يصدق أنَّ رسلَ الفريقين بعضٌ من مجموعهما، فلم يَلْزَمْ أن يكون رسولُ الجنِّ من الجنِّ.[٢٩٨٤]

وأنت خبير بأنه لا فرق بين العبارتين في الدَّلالة.

وقيل: غايته دلالتها على أن الجنّ أمامهم رسل منهم، ولا تدلُّ على أنَّهم الذين أوحى إليهم لجواز أن يكونوا رُسُلَ الرُّسُلِ بأن تكون الرُّسل الموحى إليهم من الإنس إلا أنَّه تع كان يلقي الدَّاعية في قلوب قومٍ من الجنِّ إلى استماع كلام الرُّسل، فيستمعون وينذرون قومهم بما سمعوا منهم، كقوله تع:﴿وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف ٢٩/٤٦].[٢٩٨٥]

وقال الكلبيُّ: كانت الرسل قبل أن يُبعثَ محمد يبعثون إلى الإنس والجنّ جميعًا. وهذا لا يصحُّ؛ لأنَّ الثابت أنَّ ذلك من خصائص رسولنا ع م.[٢٩٨٦]

وشهادتهم على أنفسهم اعترافٌ وإيجابٌ لاستفهام الداخل على النَّفي، وإقرارٌ بأن الرُّسل أتتهم، وأنهم عصوا وكفروا وأن الحجَّة لازمةٌ لهم وأنهم محجوجون، وهذا لا ينافي قولهم: ﴿**وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾ [الأنعام ٢٣/٦] لتعدد المواطن والأحوال، أو لأنَّ ذلك بلسانهم وهذا حين ما يختم على أفواههم.

وقال ابن الكمال: «هذه شهادتهم عند وفاتهم، على ما نطق به قوله تع: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ**﴾[الأعراف ٣٧/٧].ولذلك قالوا:شهدنا ش شهدنا بلفظ ﴿شَهِدْنَا﴾ بلفظ الماضي».[٢٩٨٧]

شهدنا بلفظ.

[٢٩٨٢] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/ ٣٢.

[٢٩٨٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٢١/٣.

[٢٩٨٤] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٤٥/٤.

[٢٩٨٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٤٥/٤.

[٢٩٨٦] **الكشاف**،٦٣/٢؛ **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/ ٣٢.

[٢٩٨٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٢١/٣.

ولَمَّا حكي ما يقال لهم يوم القيامة: ذمّهم في الدُّنيا على سوءِ نَظرهم وخطأِ رأيهم، حيث اغترُّوا بالحياة الدنيويَّة واللَّذات الغانية، وأعرضوا عن الآخرة، حتَّى كان أمرهم أن يضطرّوا إلى الشَّهادة على أنفسهم بالكفر، والاستسلام للعذاب المخلَّد، فكان حاصلُ أمرِهم لقصور نظرهم في حال الآيات والرُّسل ذلك فيكون تحذيرًا لغيرهم.[٢٩٨٨]

فالشهادة الأولى: لحكاية اعترافهم، والثانية: لذمِّهم.

وقيل قوله: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف ٥١/٧].بعد قوله: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا﴾ من باب ترتيب الحكم على الوصف المناسب، يعني: أنهم قالوا: ﴿شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾، إقرارًا منهم بأن حجة الله لازمةٌ لهم، وأنهم محجوجون لقلَّة نظرهم، وأنهم قومٌ غرّتهم الحياة الدُّنيا واللَّذات الْمُخْدَجَة. فعلى هذا عطف قوله: ﴿وَغَرَّتْهُمْ﴾ على ما قبله، من باب الإخبار عن وجود شيئَين مترتَّبين، وقد عوّلَ الترتيب إلى الذِّهن.

وأما الواو الدَّاخلة على: ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ فاستئنافيةٌ مصدّرةٌ على الجملة التَّذييليّة؛ نعى عليهم، بعد الفراغ من أخبار القيامة، سوءَ صنيعهم، تقبيحًا وتحذيرًا.[٢٩٨٩]

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١)﴾ ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢)﴾.

إشارةٌ إلى إرسال الرُّسل، خبر مبتدأ محذوف؛ أي: الأمر ذلك. وما بعده تعليلٌ للحكم، و﴿أَنْ﴾ مصدرية أو مخفَّفة من الثَّقيلة، أي: الأمر ذلك لانتفاء كون ربّك، أو لأنَّ الشَّأن: لم يكن ربُّك مهلك القُرى ﴿بِظُلْمٍ﴾ بسبب ظلم فعلوه، أو ملتبسين بظلمٍ أو ظالما.[٢٩٩٠]

فعلى الأوَّل: الباء للسَّببية متعلِّقة بـ﴿مُهْلِكَ﴾، وعلى الثاني: للملابسة حالٌ من ﴿الْقُرَى﴾، وعلى الثالث: حالٌ من ﴿رَبُّكَ﴾ أو من الضمير في ﴿مُهْلِكَ﴾، أي ملتبسًا ﴿بِظُلْمٍ﴾ منه. ولا يخفى أن قولَه: وهم غافلون [**١٤٦**/ظ] على هذا التَّقدير كالمستدرك؛ لأنَّ الظُّلم إنما يكون على تقدير غفلتهم، ولا يدفعه ما قيل: إن الظُّلم ليس مقصورًا على ذلك التَّقدير عند المعتزلة، بل يقع لزيادة جزائهم على سيئاتهم؛ لأنَّ ذلك الظُّلم غيرُ مراد ههنا ألبتَّة، فيلزم الاستدراك إلا أن يقال: حال مؤكِّدةٌ أو مبيِّنة للظلم. وفيه بعد نظمًا، وهذا الوجه يوهم أيضًا أنَّ الله لو أهلكهم قبل البعثة لكان ظالما، وليس الأمر كذلك عند أهل السنة؛ لأنه يصرّف في ملكه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، بل لو فعل بهم ذلك يكون في صورة الظُّلم.

فالوجهان الأولان أولى بالقبول لخلوّهما عما في الثالث معنًى ومذهبًا، ويجوز أن يكون ﴿أَنْ لَمْ يَكُنْ﴾ بدلًا من ﴿ذَلِكَ﴾، وأن يكون ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ، و﴿أَنْ لَمْ يَكُنْ﴾ خبره على حذف اللاّم، أي: ذلك الإرسال لأجل ﴿أَنْ لَمْ يَكُنْ﴾.

ومعنى الغفلة أن لا يبيّن لهم كيفية الحال، ولا يزيل عذرهم، وفيه دليلٌ على أن الوجوب من الشرع، ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من المكلّفين ﴿دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ من أعمالهم أو من جزائها أو من أجلها، فعلى الأول: «مَا» مصدرية، و﴿مِمَّا عَمِلُوا﴾ في محلِّ

[٢٩٨٨] **الكشاف**، ٦٤/٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٩.

[٢٩٨٩] **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٤٩.

[٢٩٩٠] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٩.

الرَّفع على أنَّه صفة ﴿دَرَجَاتٌ﴾. وكذا على قوله: «من جزائها» و«مَا» حينئذ موصولة والمضاف محذوف، وعلى الثالث: «مِنْ» للعلَّة.[٢٩٩١]

فالدَّرجات تعمُّ الدركات؛ تغليبًا للأشرف؛ إذ النار، يقال: فيها دركات والدرجات خاصة بالجنة العالية، أو نظرًا إلى أصل الوضع من أنها المنازل مطلقًا أو اكتفاءً، أي: درجات ودركات، فلكلِّ عاملٍ عملٌ، وله في عمله مراتبُ في الثَّواب والعقاب على قدر أعمالهم في الدنيا، وأنه تعالى عالم بها على التَّفصيل، فيرتِّب على كل درجةٍ ما يليق به من الجزاء.[٢٩٩٢]

وقال الماتريدي: ولكلٍّ من الكفَّار خاصة؛ لأنه جاء عقيب خطابهم فيكون راجعًا إليهم لكن لا يلائم ح ذكر الدَّرجات.[٢٩٩٣]

وقيل: هذا مختصٌّ بأهل الطَّاعة؛ لأنَّ لفظ «الدَّرجة» لا تليق إلا بهم.[٢٩٩٤]

فعلى هذا: الجملة معطوفةٌ من حيثُ المعنى على قوله: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾، يعني: إرسال الرسل لم يكن إلا لتنبيه الغافلين، لتَلزمَهم الحجَّة، ولظهور طاعة المطيعين، وثبوت درجاتهم لأعمالهم الصالحة، ليجازيهم على ذلك.[٢٩٩٥]

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فيوفِّي كلًّا جزاء عمله في وقته على حسبه.

وقرأ ابن عامر بالتاء[٢٩٩٦] على تغليب الخطاب على الغيبة لدخول المخاطبين في قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ﴾ أو على تغليب رسول الله صلى الله عليه وسلم.[٢٩٩٧]

وقيل: الآية ردٌّ على قوله: ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأنعام ١٣٠/٧] على معنى: أنَّ ربَّك غيرُ غافل عما يعملون، ولكن يؤخِّر تعذيبَهم رحمةً، أو: إنَّه على علمٍ بأعمالهم خلقَهم لا عن جهل؛ لأنَّ ضَرَر أعمالهم يرجع إليهم لا إلى الله.

تعلَّق الإمامان[٢٩٩٨] بظاهره: وأن الجنَّ لهم ثوابٌ وأبو حنيفةَ ذَهَب إلى التَّخصيص.[٢٩٩٩]

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣)﴾ ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤)﴾

قال الإمام: اعلم أنه تع لَمَّا بيَّن ثواب أصحاب الطَّاعات، وعقابَ أصحاب المعاصي، وذكر أن لكلِّ قوم درجةً مخصوصةً، ومرتَّبةً معيَّنةً، بيَّن أنَّ تخصيص المطيعين بالثواب، والمذنبين بالعذاب، ليس لأجل أنَّه يحتاج إلى طاعة المطيعين، أو

[٢٩٩١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٤٥/٤.

[٢٩٩٢] **مفاتيح الغيب**، ١٣/ ٢٠٨؛ **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٥١.

[٢٩٩٣] **تأويلات القرآن**، ٥/ ٢١٩.

[٢٩٩٤] **مفاتيح الغيب**، ١٣/ ٢٠٨؛ **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٥١.

[٢٩٩٥] **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٥١.

[٢٩٩٦] أي: «**تَعْمَلُونَ**» **السبع**، ص ٢٦٩؛ **التيسير**، ص ٣٤٨؛ **النشر**، ٢/ ١٩٧. وقال ابن الكمال: المغايبة ردٌّ على ما قبلهما، والمخاطبة ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾، وفيه ما فيه. منه.

[٢٩٩٧] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٩؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٤٥/٤.

[٢٩٩٨] هما: أبو يوسف ومحمَّد.

[٢٩٩٩] **تأويلات القرآن**، ٢١٨/٥-٢١٩؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٢٣/٣.

ينقصَ لمعصية المذنبين، فإنه تعغنيٌّ لذاته عن جميع العالمين، ومع كونه غنيًّا، فإنَّ رحمتَه عامةٌ كاملةٌ، ولا سبيلَ إلى ترتيب المكلَّفين، وإيصالهم إلى درجات الأبرار، إلا بعد التَّرغيب في الطَّاعات، والتَّرهيب عن المحظورات.[٣٠٠٠]

وإلى هذا المعنى أشار المصنف بقوله: «يترحَّم عليهم بالتَّكليف، ليعرِّضَهم للمنافع الدَّائمة».[٣٠٠١]

وقال قدس سره: «﴿الْغَنِيُّ﴾ عن العباد والعبادة. ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ يترحَّم عليهم بالتَّكليف تكميلًا لهم ويمهلهم على المعاصي، وفي تنبيهٌ على أنَّ ما سبق ذكرُه من الإرسال ليس لنفعه، بل لترحُّمه على العباد، وتأسيسٌ ما بعده من قوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾، أي: ما به إليكم حاجة، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها العصاة».[٣٠٠٢]

وقال الفاضل: وهذا أحسنُ لتأليف النَّظم، يعني: أنه إنما ذكر «الرحمة»، وقَرن به «الغنى» لأمرين: أحدهما: ليُشير إلى أنَّ ذلك الإرسالَ المذكور لم يكن إلا لمحضِ رحمة العباد؛ لأنه غنيٌّ مطلقًا، وثانيهما: أن يكون تخلُّصًا إلى خطاب العُصاة من أمة محمد بقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ لأجل ذلك الاقتران، يعني: أنه مع كونه ذا الرحمة، بإرسال الرُّسل، كذلك غنيٌّ عن العالمين، وعنكم خاصَّة أيها العصاة.[٣٠٠٣]

﴿إِنْ يَشَأْ﴾ إذهابكم ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾لعصيانكم ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ من الخلق المطيع ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ من أولاد قومٍ آخرين من أولاد قومٍ آخرين لم يكونوا على مثلِ [**١٤٧**/و] صفتِكم، وهم أهل سفينة نوحٍ.

وشبَّه إذهابَ المخاطبين من عُصاة الأمَّة واستئصالهم، وإنشاء قوم آخرين من بقايا صالحيهم، بالستئسال طالحي قوم نوحٍ، وإنشاء آباء المخاطبين من بقايا صالحيهم وهم أهل سفينة نوح.[٣٠٠٤]

إن قلنا: توالدوا وإلا فمن أولاده إن صحَّ أنهم ماتوا ولم يتوالدوا سوى أولادِ نوحٍ.

وقيل: خلق من أمثال الجنّ يكونون أطوع.[٣٠٠٥]

وقيل: خلق خلافهما ليكون أدلَّ على القدرة. والتَّركيب على الحصر وهو كذلك؛ لأن ما سوى اللهِ ممكنٌ لذاته مفتقر إليه، وله الغنيُّ على الإطلاق، وما من رحمة إلا من الله كيف وجميع الخيرات والسَّعادات الجسمانية والروحانية بالاستقراء لخلق الله، وإذا كان واجب الوجود واحدًا، فالرَّحمة داخلة في الممكن كائنة من الله لا غير. و«الكاف» في موضع نصب، أي: يستخلف استخلافًا مثل ما أنشأكم.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ يحتمل أن يكونَ من «أوعدت» في الشرِّ، والمصدر الإيعاد. والمراد عذاب الآخرة. ويحتمل أن يكون من «وعدت» على أن يكون المراد الساعة التي في مجيئها الخيرُ والشرُّ، فغلَّب الخير.[٣٠٠٦]

[٣٠٠٠] **مفاتيح الغيب**، ١٣/ ٢٠٩؛ **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٥١-٢٥٢.

[٣٠٠١] **الكشاف**،٢/٦٤.

[٣٠٠٢] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥١٩.

[٣٠٠٣] **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٥١-٢٥٢.

[٣٠٠٤] **فتوح الغيب**، ٦/ ٢٥٢-٢٥٣.

[٣٠٠٥] **مفاتيح الغيب**، ١٣/ ٢١٢.

[٣٠٠٦] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/ ٣٤.

والأوَّل أنسبُ إن كان الكلام ناظرًا إلى قوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾، والثاني: أقربُ إن كان ناظرًا إلى جميع الكلام ويؤيِّد الأوَّل قوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين طالبَكم به، أي: يدرككم حيث كنتم، يقال: قصدت فلانًا فأعجَزَني، أي سبقني ففاتني.[٣٠٠٧] أخبر بالغنيِّ عن جلاله، وبالرَّحمة عن جماله، فالسَّامعون بين الخوف والارتياح، وفيه ترجيح جانب الرحمة.

﴿قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥)﴾

«المكانة»: تجيء مصدرًا يقال: مَكُن مكانةً: إذا تمكَّن غايةَ التَّمكُّن، وبمعنى المكان، كالمقام والمقامة بمعنى موضع القيام، ثم يجعل مجازًا عن الجهة والحالة التي يكون الإنسان عليها، أي: اعملُوا على غايةِ تمكُّنِكم، أو على جِهتِكم ونَاحيتِكم من الكفر والعداوة. ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على مكانتي، أي: على غاية تمكّني، أو على جهتي وناحيتي من الإسلام والمصابرة معكم.

فحذف من الثَّاني للاختصار والمبالغة في الوعيد، والإشعار بأنَّ حاله لا يقف؛ فإنه تع يزيده على مرِّ الأيَّام قوَّةً ونصرةً.[٣٠٠٨] وهذا أمر تخلية، وتسجيلٌ بأنَّ المهدَّدَ لا يأتي منه إلا الشَّرُ كالمأمور الذي لا يقدر أن يَتَفصَّى عنه، وفيه استعارةٌ حيث شبّه الشرّ المهدّد عليه بالمعنى المأمور به الواجب الذي لا بدَّ أن يكون هذا على تقرير المصنِّف.[٣٠٠٩]

وقال قدس سره: مبالغة في الوعيد كأنه يُريد المهدِّد تعذيبَه مجمِعًا عليه، «أي: عازمًا يقال: أجمعت على الأمر: إذا عزمت عليه». فيحملُه بالأمر على ما يُفضي إليه، وتسجيلٌ بالمعنى المذكور».[٣٠١٠]

وقال ابن الكمال: والمعنى على كون المكانة مصدرًا: إظهارُ التَّجلُّد للعدوِّ وعدم المبالاة به، غاية الوثوق بحفظ الله، والاعتماد على نصرته، أي: لا تبغوا عليَّ وأنفذوا وسعكم في عداوتي، فإني فاعلٌ بكم ما أقدر عليه، وهذا غايةٌ في التَّهديد، ونهاية تعجيز للخصم. وعلى كونه بمعنى المكان والجهة: التَّخليَّة والتسجيل بالمعنى المذكور.[٣٠١١]

و﴿مَنْ﴾ إنْ جُعلت استفهاميةً تكون في محلِّ الرَّفع على الابتداء، وتكون مع اسمه وخبره في محلِّ الرَّفع خبر لها، ويكون العلم معلّقًا عنها بالاستفهام وهي قائمةٌ مقام المفعولين له، وإنْ جُعلت موصولةً فهي في محلِّ النَّصب على أنَّها مفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾ يتعدّى لواحدٍ بمعنى المعرفة، أي: فسوف تعلمون أينما تكون له عاقبة الدار، أو فسوف تعرفون الذي تكون له عاقبةُ الدَّار، والدَّار والعاقبة وإن أطلقنا إلا أنَّ المراد هذه الدَّار، أي: الدنيا والعاقبة الحسنى.[٣٠١٢]

فإن قلتَ: هذا يقتضي أن لا تكون للعصاة عاقبةُ الدار والحال إن عاقبتها، إمَّا بخير وإمَّا بشرٍّ؟

قلنا: قد وضع الدنيا مجازًا إلى الآخرة، وما أعدَّ فيها للمتَّقين، وجعل الدُّنيا دار الكسب والعناء، والآخرة دار الرَّاحة والغناء، فمن لقى فيها التَّعب والشقاء فإنما هو بتحريفه ما كلِّف به من الهدى، فالعاقبة الأصليَّة لها هي الحسنى، وعاقبة السُّوء لا اعتداد بها؛ لأنها من نتائج تحريف الفجار.[٣٠١٣]

[٣٠٠٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٤٢٤.

[٣٠٠٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٤٢٥.

[٣٠٠٩] **الكشاف**،٢/٦٤.

[٣٠١٠] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٠؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/١٤٧.

[٣٠١١] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٤٢٥.

[٣٠١٢] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٠؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/١٤٧.

[٣٠١٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/١٤٧.

وقيل: ﴿عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ كنايةٌ عن عاقبة الخير، فكأنَّه قيل: مَنْ تكون له عاقبةُ الخير، سواءٌ كان الظَّفر في الدُّنيا؛ فإنَّ العاقبة تكون على الكافر، وتكون له. كما يقال: لهم الكرَّة، ولهم الظَّفر. وفي ضده: عليهم الكرَّة، وعليهم الظَّفر، أو الجنَّة في العقبى، كما قيل: ﴿عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ الجنة.[٣٠١٤]

وفيه إنصافٌ في المقال حيث ذكر العملين بطريقٍ واحدٍ حيث قال:﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾، أي: على مكانتي، وأدبُ حسن حيث لم يُخاشن في الكلام ولم يصرّح بالعذاب، ومع هذا ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [**١٤٧**/ظ] ينبئ عن وعيدٍ شديدٍ، ويدلُّ على أنَّ المنذر واثقٌ أنَّ العاقبةَ الحسنةَ له لا لهم، يعني: أنِّي عالمٌ بذلك اليوم وأنتم أيضًا ستعلمون غدًا.[٣٠١٥]

﴿**إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ إظهار موضع الإضمار للإشعار بأنَّ عدم الفوز بالمقصود للظُّلم والتسجيل عليهم بذلك.

والمراد الكفر والعدول إلى الأعمّ؛ لأنَّه أكثرُ فائدة ولتهويل أمر الظّلم، وفيه أيضًا أدبٌ حيث لم يصرّح بنفي الفلاح عنهم، وإرخاء العنان والإيهام بأنِّي إنْ كنتُ أنا الظَّالم فلا فلاحَ لي.[٣٠١٦]

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)﴾

في قوله: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾: أي: خَلَقَ، تنبيهٌ على فرط جهالتهم حيث أشركوا الخالق فيما خلقه جمادًا لا يخلق شيئًا، ثمَّ رجحوه عليه بأن جعلوا الزاكي له، وكان العكسُ أولى.[٣٠١٧]ولم يقل: ولشركائهم نصيبًا تنبيهًا على أنَّه مقرّر محقّق حينئذ كأنهم يجعلونه بمنزلة الأصل، بل صرَّح بذلك في التفسير أعني: قوله: ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ﴾ الآيةَ.

وقيل: لم يذكره إيجازًا واكتفاءً بذكره في التَّفصيل الآتي، وإيماءً إلى جهالتهم بأنهم جعلوا لمن له الكلُّ نصيبًا مما خلقه، وأنَّ التَّسوية بشيءٍ لا يليق بالأدب التَّلفُّظ به مراعاةً للحشمة.[٣٠١٨]

﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ يعني: قولهم الذي هو غيرُ حقيقة؛ لأن معنى زعم حكاية قول يكون مظنَّة الكذب، ولذلك يجيء في موضع ذمٍّ لقائله. وإنما نسبوا إلى الكذب في قولهم: ﴿هَذَا لِلَّهِ﴾ وإن كانت الأشياء كلُّها لله لإضافتهم نصيب الأصنام مع نصيب الله.

و«الشُّركاء»: من الشّركة، وسمّى آلهتهم شركاء لهم؛ لأنهم جعلوا لها نصيبًا من أموالهم، وجعلوها شركاء لأنفسهم فيها. والإضافة إمَّا إلى المفعول، أي: الذين شاركونا في أموالنا، وإمَّا إلى الفاعل أي: الذين أشركناهم في أموالنا من المتَاجر والزُّروع والأنعام وغيرها، أو من الشِّرك، أي: للذين جعلوهم شركاء لله، وإنما أضافوها إلى أنفسهم لاعتقادهم إياها[٣٠١٩] كذلك.[٣٠٢٠]

روي: أنهم كانوا يُعَيِّنُون شيئًا من حرثٍ ونِتاج لله ويصرفونه إلى الضِّيفان والمساكين، وشيئًا منهما لآلهتهم وينفقون على سَدَنتها ويذبحون عندها.[٣٠٢١]

[٣٠١٤] **فتوح الغيب**، ٢٥٤/٦.

[٣٠١٥]**حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٢و؛ **حاشية العلوي على تفسير البيضاوي**، ٣٧٤/٢؛ **نواهد الأبكار**، ١٩٩/٦.

[٣٠١٦]**تفسير ابن كمال باشا**، ٤٢٧/٣.

[٣٠١٧]**أنوار التنزيل**، ٥٢٠/١.

[٣٠١٨]**تفسير ابن كمال باشا**، ٤٢٦/٣.

[٣٠١٩] ج – إياها.

[٣٠٢٠]**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٤٨/٤.

ثم إن سقط مما جعلوه لله في نصيب الأوثان بشيء تركوه وقالوا: إن الله غني عن هذا، وإن سقط ممَّا للأوثان في نصيب الله أخذوه وردوه إلى نصيب الصَّنم، فقالوا: إنه فقيرٌ. وإن هلك مما لأوثانهم شيء أخذوا بدله ممَّا لله ولم يفعل مثل ذلك لله.[٣٠٢٢] وإن زكَا ونمَا نصيب الأوثان ولم يزك نصيب الله تركوا نصيب الأوثان وإن كان بالعكس قالوا: لابدَّ لآلهتنا من نفقةٍ فأخذوا نصيب الله وأعطوا السَّدَنة. وذلك قوله: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية.[٣٠٢٣]

وقال ابن زيد: كانوا إذا ذبحوا ما لله ذكروا عليه اسمَ الأوثان، وإذا ذبحوا ما لأوثانهم لم يذكروا عليه اسمَ الله.[٣٠٢٤]

وقرأ الكسائي بضم الزاء[٣٠٢٥] في الموضعين وهو لغة فيه، وقد جاء فيه الكسر أيضًا كـ«الودِّ» بالحركات الثلاثة في الواو،[٣٠٢٦] ثم إنه ذمَّ هذا الفعل بقوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، أي: حكمهم هذا فـ﴿مَا يَحْكُمُونَ﴾، فاعل ﴿سَاءَ﴾ والمخصوص بالذمِّ ما قُدِّرَ، أي: بئس الشيء الذي يحكمونه حكمهم هذا، كأنه قيل: بئس الحكم حكمهم.[٣٠٢٧]

ويجوز أن يكون في ﴿سَاءَ﴾ ضمير أن يكون ما يحكمون في محلِّ نصب مفسَّرًا له، أي: ساء حكمًا حكمهم، ويجوز أن يكون ﴿مَا﴾ مصدريَّة، و﴿سَاءَ﴾ متعدِّية حُذف مفعولها لدلالة المعنى عليه تقديره: ساءهم حكمهم، أي جلب لهم السوء.[٣٠٢٨]

وكيف لا نذمُّ وستقبح، قيل: من اخترع من عند نفسه بزعمه الباطل ما لا يدلُّ عليه عقلٌ ولم ينصُّ عليه شرعٌ، ولا سيَّما أن يكون مخترعه أن يشرك الخالق فيما خلقه جمادًا لا يقدر على شيءٍ خصوصًا بإيثاره على الله، وترجيح جانبه في الرِّعاية على جانب الله.[٣٠٢٩]

وفيه موعظةٌ بليغةٌ للحكَّام الذين لا يلتفتون في أحكامهم إلى مقتضى الفعل، ومدلول الفعل، ويميلون إلى جانب الهوى والرِّشى، ومداهنة الأكابر نعوذ بالله من الكبائر.

﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧)﴾

﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ لَمَّا ذكر سبحانه وتعالى جهالةً عظيمةً منهم، فذكر بعده جهالةً أخرى. و«الكاف» بمعنى «المثل» في محلِّ النَّصب على أنَّه صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، أي: زيَّن لكثير تزيينًا مثلَ ذلك التَّزيين، والإشارة إلى مضمون قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾الآيةَ، أو إلى نفس هذا التَّزيين الذي هو تزيينُ قتل الأولاد على ما سبق مرارًا.

[٣٠٢١] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٠.

[٣٠٢٢] **مفاتيح الغيب**، ١٣/ ٢١٥.

[٣٠٢٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٤٨/٤.

[٣٠٢٤] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/ ٣٤.

[٣٠٢٥] **كتاب السبع**، ص ٢٦٩؛ **التيسير**، ص ٣٤٨؛ **النشر**، ٢/ ١٩٧.

[٣٠٢٦] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٠.

[٣٠٢٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٤٩/٤.

[٣٠٢٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٢٧/٣.

[٣٠٢٩] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٤٨/٤.

والمعنى: أن شركاءهم من الشياطين، أو من سَدَنَة الأصنام زيَّنوا لهم قتلَ أولادهم [١٤٨/و] بالوَأْد وبنحرهم للآلهة، وكان الرجلُ يَحْلِفُ في الجاهليّة: لَئِنْ وُلد له كذا غلامًا لَيَنْحَرَنَّ أحدَهم، كما حَلَفَ عبدُ المطلب، والقصةُ مشهورةٌ.[٣٠٣٠]

وقرأ العامة: ﴿زَيَّنَ﴾ مبنيًّا للفاعل ونصب ﴿قَتْلَ﴾ على أنه مفعول ﴿زَيَّنَ﴾ وجرّ ﴿أَوْلَادِهِمْ﴾ بالإضافة، ورفع ﴿شُرَكَاؤُهُمْ﴾ على أنه فاعل ﴿زَيَّنَ﴾، وابن عامر على بناء المفعول ورفع «قتل» على أنه مفعول ما لم يسمّ فاعله، ونصبُ «أولادهم» على أنَه مفعول المصدر وجرُّ «شركائهم» على إضافة المصدر إليه.[٣٠٣١]

والمفهوم من كلام المصنف: أنَّ الفصل بين المضاف والمضاف إليه إنما يجوز بالظَّرف على أن يكون في الشعر كقوله:

لله درُّ اليوم مَنْ لامها[٣٠٣٢]

وأما بغير الظَّرف ولو في الشّعر كقوله:

فَزَجَجْتُهَــــا بمِزَجَّــــةٍ   زَجَّ القَلُــــوصَ أَبِي مَــــزَادَهْ[٣٠٣٣]

بإضافة «زجّ» إلى «مَزَادَهْ» إضافة المصدر إلى فاعله، والفصل بالمفعول أعني: القلوص فمردود، ولعلَّ وجه الرّد أنّه لا ضرورة فيه لاستقامة الوزن والقافية بالإضافة إلى «القَلوص» ورفع «أبي مزاده».

و«الزَّجُّ»: الطَّعن. و«الْمِزَجَة» رمحٌ قصيرٌ. و«القَلُوصُ»: الشَّابَّة من النّوق. وضمير رجحتها للكتيبة.[٣٠٣٤]

ومن ههنا طعن في قراءة ابن عامر فقال: والذي حمله على ذلك أَنْ رَأى في المصاحف «شركائهم» مكتوبًا بالياء. وهذا عذر أشدُّ من الجرم، حيث طعن في إسناد القراءة السبعة ورُوَّاتهم، وزعم أنهم إنما يقرؤون من عند أنفسهم، وهذه عادته يطعن في تواتر القراءات السَّبع، وينسب الخطأ تارةً إليهم، كما في هذا الموضع، وتارةً إلى الرُّواة، وكلاهما خطأ؛ لأنَّ القراءة متواترةٌ وكذا الرّوايات عنهم، وهي مما ستشهد بها لا لها، فإذ قد وقع الفصل فيها بغير الظَّرف ينبغي أن يحكم فيه بالجواز، كما قالوا في:

تَمُرُّ عَلَى مَا تَسْتَمِرُّ وَقَدْ شَفَتْ   غَلَائِلَ عَبْدُ الْقَيْسِ مِنْهَا صُدُورِها[٣٠٣٥]

فـ«عَبْدُ الْقَيْسِ» فاعل «شَفَتْ»، وقع فصلًا بين المضاف وهو «غَلَائِلَ»، والمضاف إليه وهو «صُدُورِها».

وقوله:

تَنْفِي يَدَاهَا الْحَصَى فِي كُلِّ هَاجِرَةٍ   نَفْيَ الدَّرَاهِيمِ تَنْقَادُ الصَّيَارِيفِ[٣٠٣٦]

[٣٠٣٠] **الكشاف**، ٦٦/٢-٦٧.

[٣٠٣١] أي: «زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ» **النشر**، ١٩٧/٢-١٩٨؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٤٩/٤.

[٣٠٣٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٢ظ.

[٣٠٣٣] **معاني القرآن** للفراء، ٣٥٨/١؛

[٣٠٣٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٣و.

[٣٠٣٥] **خزانة الأدب** للبغدادي، ٣٧٩/٤؛ **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/ ٤٢؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و٣٤٣ب.

[٣٠٣٦] **خزانة الأدب** للبغدادي، ٣٧٩/٤؛ **شرح ابن عقيل** لابن عقيل الهمداني ٢/ ١٠٢؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و٣٤٣ب.

فـ«الدَّرَاهِيمِ» بالنَّصب فصل بين «نَفْيَ» و«تَنْقَادُ»، أو يحمل على حذف المضاف إليه من الأوَّل، وإضمار المضاف في الثاني، كما ذهب إليه السكاكي؛ لأن تخطئة الثِّقات أبعدُ من ذلك، أو يعتذر بمثله بما ذكر صاحب **الانتصاف**: منأنَّ إضافةَ المصدر إلى معموله وإن كانت محضةً، لكنّها تشبه غير المحضة، فاتّصاله بالمضاف إليه، ليس كاتِّصاله غيره، وقد جاز في الغير الفصل بالظَّرف فيتميَّز هو من الغير بجواز الفصل بغير الظَّرف.[٣٠٣٧]

وقرئ على البناء للمفعول، ورفع ﴿قَتْلُ﴾ لقيامه مقام الفاعل، وجرّ ﴿أَوْلَادِهِمْ﴾ بالإضافة، ورفع ﴿شُرَكَاؤُهُمْ﴾[٣٠٣٨] على أنَّه فاعل فعل مقدَّر تقديره: زيَّنه شركاؤهم، فإنه لَمَّا قيل: زُيِّنَ لكثيرٍ من المشركين قتلُ أولادِهم سأل سائلٌ، فقال: مَنْ زَيَّنه؟ فأجيب بذلك، كقوله تع: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ رِجَالٌ﴾ [النور ٢٤/٣٦-٣٧] على قراءة ﴿يُسَبَّحُ﴾ بفتح الباء،[٣٠٣٩] فإنه لما قيل: يسبح له، قيل مَنْ يُسَبِّحه؟ فأجيب بأنه يسبِّحه رجالٌ، وقوله:

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضارعٌ لخُصُومَةٍ ومُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوائِحُ[٣٠٤٠]

كأنَّه لما قال: «لِيُبْكَ يَزِيدُ»، دلَّ على أنَّ له باكيًا فقال: يبكيه ضارعٌ.[٣٠٤١]

﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾

أي: ليُهْلِكُوهم بالإغراء على تلك القبيحة الَّتِي هي قتل الأولاد. يقال: رَدِيَ يَرْدَى ردًى من باب عَلِمَ، وأرداه غيره إرداءً. و«اللَّام» متعلّقٌ بـ﴿زَيَّنَ﴾، وكذلك اللام في قوله: ﴿لِكَثِيرٍ﴾ ولا يلزم تعلُّق حرفي جر بلفظٍ واحدٍ، ومعنًى واحدٍ بعاملٍ واحدٍ من غير بدليَّة ولا عطف؟ لأنَّ معناهما مختلفٌ، فإنَّ الأولى للتعديَّة، والثانية للعلّية. ثمَّ إنْ كان التَّزيين من الشياطين، فـ«اللَّام» على حقيقة التَّعليل، وإنْ كان من السَّدنة، فهي لام العاقبة والصيرورة كما في قوله تع:﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص ٢٨/٨] لظهور أن قصد السَّدَنة لم يكن الارداء واللّبس بخلاف الشياطين، فإنه يفعل التَّزيين وغرضه بذلك الإرداء واللّبس فالتعليل فيه واضح.

﴿**وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ**﴾ وليُخَلِّطُوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل، حتى زلُّوا عنه إلى الشِّرك بشؤم لُبْسِهم، ورجعوا إلى مفترياتهم، أو ما وجب عليهم أن يتديَّنوا به ويكونوا عليه.

وقيل: معناه ليوقعوهم في دين ملتبس مشتبه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: ما فعل المشركون ما زيّن لهم من القتل، أو ما فعل الشياطين، أو السَّدَنة التَّزيين أو الإرداء أو اللّبس أو جميع ذلك إن جعلت الضمير مجرى اسم الإشارة كقوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:١٧/٣٦]. [١٤٨/ظ]

وأنشد ابن جني:

مِثْلَ الْفِرَاخِ نتقَتْ حَوَاصِلُهْ[٣٠٤٢]

[٣٠٣٧] **فتوح الغيب**، ٢٦٢/٦؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٣ظ. **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٤٧٤/٣.

[٣٠٣٨] أي: «زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ»، وهيقراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عبد الرحمن السلمي والحسن البصري وعبد الماك صاحب ابن عامر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٧٨؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٤٤/٨.

[٣٠٣٩] **كتاب السبع**، ص ٤٥٦؛ **التيسير**، ص ٣٤٩؛ **النشر**، ٢٤٩/٢.

[٣٠٤٠] **إعراب القرآن للنحاس**، ٩٨/٢.

[٣٠٤١] **المحتسب**، ٢٣٠/١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٥٤/٤.

أي: حواصل ذلك، أو حواصل ما ذكرنا، ذهب بالضمير إلى ذلك القدر والمبلغ، فلاحظ معنى الواحد فحمل عليه.[٣٠٤٣]

وفي الآية دليلٌ على: أنَّ ما فعله المشركون من القتل، أو الشياطين، أو السَّدَنة من التَّزيين والإرداء واللُّبس بمشيئة الله تعالى. ولَمَّا لم تكن الشرور والقبائح بمشيئة الله عند المعتزلة، بل شاء الله خلافها والمبطلون حرَّفوها كان مشيئة خلافها واقعة عندهم، والآية دلَّت على عدمِ وقوعِها على ما هو مقتضى «لو» أوَّلوا ذلك بأن قالوا: ولو شاء الله مشيئة القسر والإلجاء ما فعلوه، فحملوا المشيئة الثَّابتة على خلافها المشيئة الاختيارية، وحملوا المشيئة المنفيّة على المشيئة القسريّة، ولا يخفى عليك أن ذلك خروجٌ عن الظَّاهر الذي يدلُّ عليه الظَّواهر ويشهد به المظاهر. وقد كثُر في سورة الأنعام حديثُ إسناد الكلِّ إلى قدرة الله تعالى ومشيئته بحيث كان ينبغي للمصنف أن يرجعَ إليه، ويترك تأويل القسر والإلجاء والتخلية، لكن المصنِّف مرَّ على ما استمرَّ عليه ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ افترائهم، أو ما يفترونه من الإفك.

فعلى الأوَّل: ﴿مَا﴾ مصدريَّةٌ، وعلى الثاني: موصولةٌ بحذف العائد، أو مع ما يفترونه على تقدير أنها بمعنى: «مع» أو وفريقًا يفترون على أن «ما» نكرةٌ موصوفةٌ.

وعن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «سِتَّةٌ لَعَنْتُهُم، وَلَعَنَهُم اللهُ، وَكُلُّ نَبِيٍّ مُجَاب الدعوة الزَّائِدُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَ وَجَلَّ، وَالْمُكَذِّبُ بِقَدَرِ اللهِ، وَالْمُتَسَلِّطُ على أمتي بِالْجَبَرُوتِ لِيُذِلَّ مَنْ أَعَزَّ اللهُ وَيُعِزَّ مَنْ أَذَلَّ اللهُ، وَالْمُسْتَحِلُّ حُرْمَةَ اللهِ، وَالْمُسْتَحِلُ مِنْ عِتْرَتِي مَا حَرَّمَ اللهُ، وَالتَّارِكُ للسُنَّة» رواه الطبراني.[٣٠٤٤]

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١٣٨)

الإشارة إلى ما جُعل للآلهة من النَّصيب ﴿حِجْرٌ﴾، أي: حرامٌ، فعلٌ بمعنى مفعولٍ كالذِّبح، أي: مَحْجُورٌ يستوي المذكَّر والمؤنَّث والواحد والكثير؛ لأنَّ حكمه حكمُ الأسماء لا الصِّفات،[٣٠٤٥] وإنَّ الكائن بمعنى الاسم لا يفرق فيه المذكَّر والمؤنَّث، والواحد والجمع بخلاف الكائن بمعنى الوصف، وأصله: المنع. وسُمِّيَ العقلُ حِجرًا؛ لمنْعِه عن القبائح. وفلانٌ في حِجر القاضي، أي: مَنْعِه؛ حجرتُ على الصَّبيِّ حَجرًا. والحِجْر: الفرسُ الأنثى. والحجر: القرابةُ.[٣٠٤٦]

وقرئ: بضمِّ الحاء والجيم،[٣٠٤٧] وبفتح الحاء وإسكان الجيم[٣٠٤٨] لغاتٌ بمعنًى. «وحِرْجٌ»[٣٠٤٩] بكسر الحاء، وتقديم الراء على الجيم على أنه مثل جَبَذَ وجذَبَ في كونه مقلوبًا، أو على أنه من الحِرج؛ فإنَّ الحِرج بكسر الحاء لغةٌ في الحَرَج بفتحها، وهو الضِّيقُ والإثم، فيكون معناه الحرام.[٣٠٥٠]

[٣٠٤٢] **تهذيب اللغة للجوهري**، ٣٠٩/١. لسان العرب لابن منظور؛ **معاني القرآن للفراء ٢ / ١٠٩**

[٣٠٤٣] **فتوح الغيب**، ٢٦٣/٦-٢٦٤.

[٣٠٤٤] **سنن الترمذي**، ٤٥٧/٤ (٢١٥٤)؛ **الدعاء** للطبراني، ٥٧٨ (٢٠٩٠).

[٣٠٤٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٣١/٣.

[٣٠٤٦] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤٥/٩.

[٣٠٤٧] أي: «حُجُرٌ»، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن عثمان. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٧٨

[٣٠٤٨] وهي «حَجْرٌ». **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/ ٤٤.

[٣٠٤٩] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي بن كعب وابن مسعود وابن عبّاس وابن الزبير والأعمش. **المحتسب** لابن جني، ٢٣١/١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٧٩.

وقيل: أصله: حَرِج بفتح الحاء وكسر الراء.[3051]

﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ يعنون: خدمَ الأوثان، والرجالَ دون النِّساء ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾، أي: قولهم الباطل من غير حجّة ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ يعني: البحَائر والسَّوائب والحامي، ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ عند الذَّبح، وإنَّما يذكرون أسماء الأصنام، أو لا يحجُّون على ظهورها، فإنَّ مَنْ حَجَّ وجب عليه أن يُلَبِّيَ ويذكر اسم الله، فكنى بذكر اللازم عن الملزوم، أو لا يركبونها للخير، فإنَّه لما جرت العادة على ذكر اسم الله على فعل الخير، عبّر بذكز الله عن فعل الخير.[3052]

والمعنى: أنهم قسَّموا أنعامهم، فقالوا: هذه أنعام حجر، وهذه أنعام محرَّمة الظُّهور، وهذه أنعام لا يُذكَر عليها اسمُ الله، فجعلوها أجناسًا بهواهم، ونسبوا ذلك التَّجنيس إلى الله.[3053]

ويظهر من هذا التَّقرير أنَّ قوله: ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا﴾ معطوف على ما سبق كما هو الظَّاهر فيكون من مقولاتهم، فيرد عليه أنَّ ظاهرَ الكلام يقتضي حينئذٍ أن يقال: وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها بصيغة التَّكلم، أو لا يذكر بصيغة المجهول، ويوجّه بأنَّ ضمير ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ راجعٌ إلى الذَّابحين، فكأنَّهم قالوا: وأنعام لا يذكر الذَّابحون اسمَ الله عليها، ولو جعل وأنعام هذه مقطوعًا عمَّا قبلَه بأن يكونَ مبتدأ خبره محذوفٌ، أي: وعندهم أنعام لا يذكرون اسم الله عليها، وإنما يذكرون اسم الأصنام والقطع عمَّا قبله للإشارة إلى غاية منعه لم يخل عن وجهٍ.

﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ نصبٌ على المصدر؛ لأنَّ ما قالوه تقوُّل عليه، أي: كذبٌ، يعني: أنَّهم يفعلون ذلك، ويزعمون أن الله أمرَهم به، فيكون مصدرًا على غير لفظ العامل؛ لأنَّ القول المحكِيَّ عنهم افتراءٌ على الله، فيكون من قبيل قولهم: قَعَد القُرْفُصَاء، أو مصدرًا للفعل المقدَّر من لفظه، أي: افترَوا ذلك افتِراءً.

فعلى الوجهين: الجارُّ متعلّق بـ﴿قَالُوا﴾ لا بـ«الافتراء»؛ لأنَّ المصدر المؤكِّد لا يعمَل سواء ذكر مع الفعل أو بدونه، وكذا المصدر الذي يكون للنَّوع أو العدد؛ فإنَّه لا يعمل أيضًا، أو على الحال المؤكِّدة؛ لأن هذا القول المخصوص لا يكون قائله إلا مفتريًا، أو على المفعول له بمعنى قالوا ذلك لأجل الافتراء على الله، فعلى هذين الوجهين يتعلَّق الجارُّ بقوله: ﴿افْتِرَاءً﴾ أو بمحذوفٍ.[3054]

﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ أي: الله تعالى ﴿بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: بسبب افترائهم. وفيه زجرٌ شديدٌ للحكَّام والعوام من الافتراء في الشَّهادة والأحكام، فكما أنَّ المفتريَ على الله يجزى بعمله، فكذلك المفتري على عباد الله، فعلى الحكَّام أن لا يفتروا على الله لأجل الحطام، وعلى الناس أن لا يفتروا على عباد الله لأجل الحرام، وجلب قلوب العظام.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)

يعنون: أجنَّة البَحَائر والسَّوائب ﴿خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا﴾ **[١٤٩/و]**حلالٌ لهم خاصَّة ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾أي: على الإناث وذلك إنْ وُلد حيًّا؛ لقوله: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾،أي: فالذُّكور والإناث فيه سواءٌ، والتَّاء في ﴿خَالِصَةٌ﴾،

[3050] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/ ٤٤-٤٥.

[3051] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٥٤/٤.

[3052] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٥٤/٤.

[3053] **الكشاف**، ٦٨/٢.

[3054] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٥٤/٤.

إمَّا للتَّأنيث، وإمَّا للمبالغة مثلها في راوية الشِّعر مكان راوي الشعر، وإمَّا للمصدر وقع موقعَ «الخالص» كـ«العافية» على حذف المضاف أي: ذو خلوص، أو على وقوعِ المصدر موقعَ اسم الفاعل، نحو: رَجُلٌ عَدْلٌ أو عادلٌ، أو على جعله نفسَ الخلوص مبالغة.[٣٠٥٥]

ويؤيده قراءة «خَالِصةً»[٣٠٥٦] بالنصب، فإنها مصدرٌ مؤكِّد والخبر لذكورنا قطعًا لعدم جواز أن يكون حالًا من المجرور في الذُّكور؛ لأنها لا تتقدَّم عليه، ولا من الضَّمير في ﴿لِذُكُورِنَا﴾؛ لأنها لا تتقدَّم على العامل المعنوي.

وفيه بحث من وجهين: أحدهما: أن التَّقسيم غيرُ حاصر، لجواز أن يكون حالًا من ضمير الاستقرار ﴿فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ﴾ ويؤيِّده قراءة «خَالِصُهُ»[٣٠٥٧] بالإضافة.

وثانيهما: أنَّ التعليل بتقديم الحال ضعيف؛ لأنَّه يؤذن بأنها لو تأخَّرت عن المجرور لجَاز، وأنَّه لا يجوز معنًى؛ لأن ﴿خَالِصَةٌ﴾ جاريةٌ على ما في بطون هذه الأنعام لا على المذكور يدلُّ عليه حمل ﴿خَالِصَةٌ﴾ في قراءة الرفع. على أن المالكي أجاز تقديمها على المجرور، وذكر له شواهدَ.[٣٠٥٨]

ويدفع الأوَّل بأن جعلها حالًا من الضَّمير في الظَّرف الواقع صلةً لا معنًى له عند التأمُّل الصَّادق، وإذا أريد أنها في حال الخلوص من البطون والخروج عنها؛ تكون للذُّكور فهو معنى كونه حالًا من ضمير الخبر لا الصِّلة. وأمَّا القراءة بالإضافة فـ«خَالِصُهُ» بدلٌ أو مبتدأٌ، خبره ﴿لِذُكُورِنَا﴾، والجملةُ خبرُ ﴿مَا فِي بُطُونِ﴾ والمعنى: جيّد و(خياره)، أي: الحيّ منه دون الميت.[٣٠٥٩]

وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿وَإِنْ تكُنْ﴾ بالتاء، و﴿مَيْتَةً﴾ بالنصب على إسناد الفعل إلى ضمير ما حملا على المعنى؛ لأنَّ ما في معنى الأجنَّة، وهذا وجه تأنيث خالصةٌ وذكر محرّم للحمل على اللَّفظ، ونظيره: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ [محمّد ١٦/٤٧].

وقال الفرَّاء: تأنيثها لتأنيث الأنعام. وهذا القول عند قومٍ خطأٌ؛ لأنَّ ما في بطونها ليس منها؛ فلا يُشبه: «تَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَارَةِ» [يوسف ١٠/١٢]؛[٣٠٦٠] فإنَّ بعض السَّيارة سيَّارةٌ، وذا لا يلزم الفراءَ، فإنَّ ما في بطون الأنعام أنعامٌ مثلها؛ فأنّث لتأنيثها، أي: الأنعام التي في بطون الأنعام. وقيل: أي: جماعةُ ما في البطون.[٣٠٦١]

وابن عامر: بالتاء، ورفع ﴿مَيْتَةٌ﴾[٣٠٦٢] على جعل ﴿تَكُنْ﴾ بمعنى: تقع أو تحدث، ورفع الميتة بها، وإلحاق الفعل علامة التأنيث؛ إذا كان الفاعل في اللَّفظ مؤنَّثًا، وهو الميِّتة.

[٣٠٥٥] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٥٥/٤.

[٣٠٥٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس والأعرج وقتادة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٧٣؛ **المحتسب** لابن جني، ٢٣٢/١؛**المختصر لابن خالويه**، ص ٤٦.

[٣٠٥٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري والأعمش وأبي طالوت. **المحتسب** لابن جنّي، ٢٣٢/١؛**المختصر** لابن خالويه، ص ٤٦.

[٣٠٥٨] **فتوح الغيب**، ٢٦٥/٦-٢٦٦.

[٣٠٥٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٣ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٤٧٦/٣.

[٣٠٦٠] **المختصر لابن خالويه**، ص ٦٧.

[٣٠٦١] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤٦/٩-٤٧.

[٣٠٦٢] **كتاب السبع**، ص ٢٧١؛ **التيسير**، ص ٣٥٠؛ **النشر**، ١٩٩/٢-٢٠٠.

وابن كثير: بالياء ورفع ﴿مَيْتَةٌ﴾[٣٠٦٣] على جعل كان بمعنى الحدوث والوقوع أيضًا، وعدم إلحاق الفعل علامة التَّأنيث؛ إذ كان تأنيث الميتة غيرَ حقيقي، ولأنَّ الميتة والميت سواءٌ.

والباقون: بالياء ونصب ﴿مَيْتَةً﴾[٣٠٦٤] على إضمار اسم كان، وجعل ﴿مَيْتَةً﴾ خبرها، والتقدير: وإن يكن ما في بطون الأنعام ميتةً، وعدم إلحاق الفعل علامة التأنيث نظرًا إلى لفظ ﴿مَا﴾ والتَّذكير في ﴿فِيهِ﴾؛ لأنَّ المراد بالميتةِ ما يعمُّ الذَّكر والأنثى فغُلِّب الذَّكر.[٣٠٦٥]

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي: جزاء وصفهم الكذب على الله في التَّحريم والتَّحليل من قوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ [النحل ١٦/٦٢] ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في جزائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالهم. والآية تدلُّ على أنَّه ينبغي أن يتعلَّم مذهب المخالف للاحتراز عنه والرّد عليه.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)﴾

«نزلت في ربيعةَ ومُضَرَ والعرب الذين كانوا يَئِدُون بناتهم مخافةَ السَّبي والفقر، لخفَّة أحلامهم، وجهلهم بأنَّ الله رازق أولادهم، لا هم».[٣٠٦٦]

الظاهر أنَّ «جهْلِهم» عطفٌ على «خفَّة»، تفسير لقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، و«لخفَّة أحلامهم» تفسير لقوله: ﴿سَفَهًا﴾، وأنه مفعول له. ولا يجوز أن يكون ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ معطوفًا عليه، فلعلَّه بيانٌ للمعنى لا بيان الإعراب، أو إشارة إلى أنَّ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ صفة لـ﴿سَفَهًا﴾، أي: يقتلون للسَّفه المجامع لجهل أنه تعالى هو الرَّزَّاق، وإلا فقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يلوح أن يكون حالًا، أي: قتلوا أولادهم في حالِ كونهم جاهلين بالله، وبأنَّه هو الرزَّاق لأجل خِفَّة عقولهم.[٣٠٦٧]

ويجوز أن ينتصب ﴿سَفَهًا﴾ على الحال، أي: ذوي سَفه. ويؤيِّده قراءة «سُفَهَاء»[٣٠٦٨] على الجمع، أو على أنَّه مصدرٌ لفعلٍ مقدَّرٍ، أي: سَفَهُوا سُفَهَاء، أو على أنه مصدرٌ على غير لفظ عامله؛ لأن هذا القتل سفه.[٣٠٦٩]

قال الإمام: ذكر الله فيما تقدَّم قتلهم أولادهم وتحريمهم ما رزقهم الله، ثمَّ إنَّه تعالى جمع بين هذين الأمرين في هذه الآية وبيَّن ما لزمهم على هذا الحكم، وهو الخسران والسَّفاهة، وعدم العلم، وتحريم ما رزقهم الله، والافتراء عليه، والضَّلال وعدم الاهتداء.[٣٠٧٠]

[٣٠٦٣] **كتاب السبع**، ص ٢٧١؛ **التيسير**، ص ٣٥٠؛ **النشر**، ١٩٩/٢–٢٠٠.

[٣٠٦٤] **كتاب السبع**، ص ٢٧١؛ **التيسير**، ص ٣٥٠؛ **النشر**، ١٩٩/٢–٢٠٠.

[٣٠٦٥] ج – فغُلِّب الذَّكر.

[٣٠٦٦] **الكشاف**، ٦٨/٢.

[٣٠٦٧] **فتوح الغيب**، ٢٦٧/٦–٢٦٨.

[٣٠٦٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. **المختصر** لابن خالويه، ص ٤٦.

[٣٠٦٩] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٥٥/٤.

[٣٠٧٠] **مفاتيح الغيب**، ٢٢٠/١٣.

قال تع: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، [**١٤٩**/ظ] يحتمل أن يكون تأكيدًا طردًا وعكسًا وإيجابًا وسلبًا، ويحتمل أن زيادة «كان» للدَّلالة على الاستمرار، أي: استمَروا على عدم الاهتداء، على أن القيد المذكور داخلٌ على النَّفي في الاعتبار، وإن كان مدخولًا له في الظَّاهر فيندفع التَّكرار،[٣٠٧١] ويحتمل أنهم قد ضلُّوا الآن وما كانوا مهتدين قبل.

رُوِيَ عن رسول الله صلعم أنَّ رجلًا من أصحابه كان لا يزال مغتمًّا بين يديه، فقال ع مله: «ما لَك تكونُ محزونًا»؟ فقال: يا رسول الله، إني قد أذنبتُ في الجاهلية ذنبًا، فأخافُ أن لَّا يغفرَ لي وإنْ أسلمتُ؟ فقال عليه السلام له: «أَخبرني عن ذنبك». فقال: يا رسول الله، إني كنتُ من الذين يقتلون بناتهم، فولِدَت لي بنتٌ، فشفَّعت إليّ امرأتي أن أتركها، فتركتُها حتى كبِرتْ وأدركتْ، وصارت من أجمل النِّساء، فخطبوها؛ فدخل عليّ الحميَّة، ولم يحتمل قلبي أنْ أُزوِّجَها أو أَترَكَها في البيت بغير زوجٍ، فقلت للمرأة: إِنِّي أريد أن أذهبَ إلى قبِيلة كذا في زيارة أقربائي، فابعَثيها معي، فسُرَّت بذلك، فزيَّنتُها بالثِّياب والحليِّ، وأخذتْ عليَّ المواثيقَ بأن لا أخونَها، فجئتُ بها إلى رأس بئرٍ، فنظرتُ في البئر، ففَطِنتِ الجاريةُ لي أني أريدُ أنْ أُلقِيَها في البئر؛ فالتزمت بي وجعلتْ تبكي وتقول: يا أبي! أيّ شيء تريد أنْ تفعل بي! فرحمتها، ثم نظرتُ في البئر، فدخلتْ عليَّ الحميَّة، ثم التزمتني وجعلتْ تقول: يا أبي لا تضيّع أمانةَ أمِّي؛ فجعلتُ مرةً أنظر إلى البئر ومرَّةً أنظر إليها وأرحمها، فغلبني الشيطان، فأخذتها وألقيتُها في البئر منكوسةً، وهي تنادي في البئر: يا أبي، قتلتني. فمكثتُ هناك حتى انقطع صوتُها، فرجعتُ. فبكى رسول الله صلعم وأصحابه رضوان الله عليهم، وقال: «لو أُمِرْتُ أنْ أعاقبَ أحدًا بما فعل في الجاهلية؛ لعاقبتُك بما فعلت».[٣٠٧٢]

ولَمَّا فرغ من شرح أحوال الأشقياء، وتهجين طريقتهم وتسفيههم وتجهيلهم عاد إلى إقامة الدَّليل على تقرير التوحيد، وكمال القدرة والحكمة تهديدًا للعُصاة من عظيم قهره، وتثبيتًا للمطيعين على ملازمة طاعته فقال:[٣٠٧٣]

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١٤١)

قد سبق الآية في السُّورة على خلاف ذلك التَّرتيب، وذكر هناك الأمر بالنَّظر في أحوالها والاستدلال بها، وذكر ههنا الأمر بالانتفاع بها وصرف جزء منها إلى الفقراء، والاستدلال يحصل به سعادةٌ أبديَّةٌ، والانتفاع يحصل به سعادةٌ جسمانيَّةٌ، والأوَّل أولى ولذلك قدّم.[٣٠٧٤]

يقال: نَشَأَ الشَّيء نشأةً إذا ظهر، وأنشأه الله إنشاء أظهره. وعَرَشَ يَعْرِشُ وَيَعْرُشُ عَرْشًا، أي: بَنى بناءً من خشب. و«المعرُوشَات» المرفوعات على ما يحملها من الكُروم، و«غير المعروشات» الملوّنات على وجهِ الأرض منها منبسطة، أو «المعروشات» العِنَب التي يجعل له عروش، و«غير المعروشات» كل ما نبت منبسطًا على وجه الأرض مثل القَرَع والبِطِّيخ، أو «المعروشات» ما يحتاج إلى أن يتخذ له عريش يحمل عليه فيمسكه، وهو الكرم وما يجري مجراه، «وغير المعروشات» ما لا يحتاج إليه، بل يقوم على سَاقِه، كالنَّخل والزَّرع ونحوهما من الأشجار والبقول، أو «المعروشات» ما في الأرياف والعُمران مما غَرَسَه الناسُ واهتمُّوا به فعرشوه، و«غير المعروشات» مما أنبته الله وحشيًّا في البراري والجبال فهو غير معروش.[٣٠٧٥]

[٣٠٧١] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٣٥/٣.

[٣٠٧٢] **بحر العلوم** للسمرقندي، ٥١٧/١؛ **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤٩/٩؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٥٦/٤.

[٣٠٧٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٥٦/٤.

[٣٠٧٤] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٥٧/٤.

[٣٠٧٥] **مفاتيح الغيب**، ٢٢٣/١٣؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٥٦/٤.

ومن بيان ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾، وكان من حقِّ الظَّاهر أن يقال: وغير معروشات: ما في البراري والجبال وحشيًّا وأخّره، ليترتّبَ عليه قوله: «فهو غير معروش» ليؤذن بالفرق بين المأهول والوحشيّ.

وفقيه تنبيه على أنَّ من لم يكن تحت سياسة سائس، وتأديب مؤدّب، ولا ضبط ضابط، نشأ كما ينشئ الوحشي، غير مؤدَّب، كأرباب البَوَادي والجبال.[٣٠٧٦]

وقيل: «الجنة» في الأصل: بستانٌ جامع لأنواع الأشجار الدّاخل فيها الكَرْمُ والنَّخْلُ إلا أن وضعه بمعروشات أشعر بأنَّ المراد منها الكُروم، وأفرد النَّخل بعدها بالذكر بما فيها من الشَّرف، وأنها جنس معتَبر عند العرب كثير النفع في الواقع، وذكر بعدهما الزَّرع العام لأنواع من الحبوبات؛ إذ يتفرع على التقوي بها والتَّعيش عددها نظام العالم، وانتظام أمور الأحكام، والعمل والطاعة.

و﴿مُخْتَلِفًا﴾ حالٌ مقدَّرةٌ؛ لأنه لم يكن كذلك عند الإنشاء ﴿أُكُلُهُ﴾: ثمرُه الذي يؤكل، في الهيئة والكيفيَّة، والضمير للنَّخل، والزرع داخلٌ في حكمه لكونه معطوفًا عليه وذلك؛ لأنَّ الأكل إنما يطلق لما يكون للشَّجر دون النبات، ومن جعله اسمًا لما يؤكل، فيجوز عنده أن يكون الضَّمير للزَّرع لقربه، والباقي مَقيس عليه، أو لكلٍّ من الأمرين أولهما، أو للجميع على تقدير: أُكل ذلك، أو: كلّ واحد منها.[٣٠٧٧]

﴿مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ [**١٥٠**/و] أي: يتشابه بعض أفراد الزَّيتون والرُّمان باللَّون والطَّعم ولا يتشابه بعضها،[٣٠٧٨] وبه يحصل الإشارة إلى وجه الإفراد والتذكير مع كونهما حالين من الزَّيتون والرُّمان.

وقيل: حالٌ من ﴿وَالرُّمَّانَ﴾. وفي الآية دلالةٌ على الوحدانية؛ لأن المتغيّرات لابدَّ لها من مغيِّرٍ، وليس ذلك إلا الله وحده كما بيَّن في موضعه، وعلى المِنَّة منه تعالى علينا، ولو شاء لم يَخْلُقْ ذلك ولو شاء خلقه ولم يخلق على جمال المنظَر والمطعم والرائحة، وعلى القدرة في أنْ يكون الماءُ الذي من شأنه الرُّسوبُ، يصعَد بقدرته، من أسافل الشَّجر إلى أعاليها، حتى إذا انتهى إلى آخرها، نشأ فيها أوراقٌ ليست من جِنْسِها، وثمرٌ خارجٌ من صفته الجِرمُ الوافر، واللَّون الزَّاهر والجَنَى الجَديد، والطَّعم اللذيذ، فأين الطبائع وأجناسها؟ وأين الفلاسفة وأُناسها؟[٣٠٧٩]

﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

الضَّمير يعود إلى كلٍّ من النَّخل والزَّيتون، أو إلى الكلّ بتأويل المذكور، أو الشَّجر.

ولَمَّا ورد أن يقال: ما فائدة قوله: ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾، ومعلومٌ أنه لا يؤكل إذا لم يثمر؟

أجيب: بأن فائدته إباحة الأكل منه عند ابتداء الإثمار قبل إدراكه ويَنْعِه، ودفع توهُّم أنه لا يباح إلا إذا أينع بناءً على أنَّ المطلق ينصرف إلى الكامل وهو من التَّمر ما أدرك وأينَع.[٣٠٨٠]

[٣٠٧٦] **فتوح الغيب**، ٢٦٨/٦.

[٣٠٧٧] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٣٦/٣؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و٣٤٣أ.

[٣٠٧٨] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٢.

[٣٠٧٩] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٥٢/٩؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٥٦/٤.

[٣٠٨٠] **الكشاف**، ٦٨/٢.

وقيل: فائدته إباحة الأكل قبل إخراج الحقِّ؛ لأنه تع لَمَّا أوجب إخراجه كان الظاهر أن يحرم على المالك تناوله قبل إخراج حقِّ المساكين لمكان شركتهم فيه.[٣٠٨١]

والأمر الأوَّل للوجوب، والثاني للإباحة، وليس يمتنع في الشريعة اقترانُ المباح والواجب، وبدأ بذكر نعمة الأكل قبلَ الأمر بإيتاء الحقِّ؛ ليُبيِّنَ أن الابتداء بالنِّعمة كان من فضله قبلَ التَّكليف.[٣٠٨٢] وإن اللائق تقديم النَّفس كما قال ع م: «ابْدَأْ بِنَفْسِكَ ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ»،[٣٠٨٣]والمراد بـ«الْحَقِّ» ما يتصدَّق به يوم الحصاد، وكان ذلك واجبًا، حتى يستحبَّ بالزكاة.

وقيل: كان ندبًا لا الزكاة المفروضة المقدَّرة فإنها فرضت بالمدينة، والآية مكِّيَّة.

قال مجاهد: إذا حصدتَ فحضرَك المسكين، فاطرَح لهم من السُّنْبل، وإذا جَذَذت فألق لهم من الشَّماريخ، وإذا دَرَستَه ودُسْتَه وذَرَيْتَهُ فاطرَح لهم منه، وإذا عرفت كيلَه فأَخرِج زكاتَه.[٣٠٨٤]

وقيل: هو الزَّكاة والآية مدنيَّة. وإن كان أكثر السّورة مكِّية وبين العشر فيما سقي بماء السَّماء ونصف العشر فيما سقي بالكلفة كما سقي بالقرب أو الدّالية.

ولَمَّا ورد أن يقال: كيف يؤدى الزّكاة يوم الحصاد والحبّ في السُّنبل؟

أجاب عنه المصنف: بأن معناه: اعزموا على إيتاء الحقّ واقصِدوه واهتمُّوا به يوم الحصاد، حتى لا تؤخِّروه عن أوَّل وقتٍ يمكن فيه الأداء.[٣٠٨٥] وعبارته قدس سره: ليُهْتَمَّ به حينئذٍ حتَّى لا يؤخَّر عن وقت الأداءِ، وليُعلمَ أنَّ الوجوب بالإدراك لا بالتَّنقية.[٣٠٨٦]

وقال ابن الكمال: والظَّرف لـ﴿حَقَّهُ﴾ ليُعلم أنَّ الوجوب وجوبُه بالإدراك لا بالتَّنقية، لا للإيتاء ليحتاج إلى التَّأويل، والتَّوقيت في الأوامر حقُّه أن يحافظ على ظاهره كيلا يَشتبه الموقَّت بالمطلق.[٣٠٨٧]لكن يختلج في الخاطر أنَّ الأمر بإيتاء الحقِّ الواجب يوم الحصاد يراد به الإيتاء عند التَّمكن فيحتاج إلى التَّأويل أيضًا، وأنَّ الوجوب كيف يتعلَّق به عند الإدراك مع أنَّ التّمكن إنما يكون بعده أليس الشأن أنَّ الوجوب يتمكَّن الأداء. وأبو حنيفة جعلها مسوقةً لإيجاب العشر فأوجبه في الثمار حيث ذكر الأنواع الخمسة وأمر إيتاء الحقّ منها.

والحصد في اللغة: القطع فيتناول الكلّ، وأوجبه في القليل والكثير. والأكثرون: على أنه لا يجب لقوله: «لَيْسَ فِي الْخُضْرَوَاتِ صَدَقَةٌ».[٣٠٨٨]وقوله: «لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ مِنَ التَّمْرِ صَدَقَةٌ»[٣٠٨٩]

[٣٠٨١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٥٨/٤.

[٣٠٨٢] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٥٢/٩؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٥٦/٤.

[٣٠٨٣]التلخيص الحبير،٣٥٥/٢؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٥٨/٤.

[٣٠٨٤] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٥٣/٩.

[٣٠٨٥]**الكشاف**، ٦٨/٢؛ **مفاتيح الغيب**، ٢٢٥/١٣.

[٣٠٨٦]**أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٢.

[٣٠٨٧]**تفسير ابن كمال باشا**، ٤٣٧/٣.

[٣٠٨٨]**المعجم الأوسط** للطبراني، ١٠٠/٦ (٥٩٢١).

[٣٠٨٩]**صحيح البخاري**، ١١٩/٢ (١٤٥٩).

﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في الصَّدقة، كقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء ١٧/٢٩]،[٣٠٩٠]وذلك لقربه ولو علّق بالأكل والصَّدقة بقرينة الإطلاق لَكان أقربَ، وأمَّا إذا أريد بالحقِّ الزّكاة المفروضة فهي مقدَّرة لا تحتمل الإسراف فيه.[٣٠٩١]

وقيل: لا تأخذوا بغير حقِّه وتضعوه في غير حقِّه. وقيل: خطابٌ للوُلاة، لا تأخذوا فوق حقِّكم وما لا يجب على الناس. والمعنيان يحتملهما قولهُ ع م: «الْمُعْتَدي في الصَّدقة كمانِعها».[٣٠٩٢]

وقيل: لو كان أبو قُبيسٍ ذهبًا لرجل، فأنفقَه لم يكن مسرفًا، ولو أنفق درهمًا في معصية كان مسرفًا. قيل: لا هم لا خير في السَّرف؛ فقال: لا سَرَف في الخير.[٣٠٩٣] ويضعفه ما ذكره في سبب النُّزول على ما ذكره المصنف.[**١٥٠**/ظ]

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢)﴾

عطف على ﴿جَنَّاتٍ﴾ والجامع إباحة الانتفاع بالنَّوعين، أي: وأنشأ من الأنعام ما يَحمل الأثقالَ وما يُفرش للذَّبح، أو ما يُفرش المنسوج من شَعره وصُوفه ووَبَرِه.

وقيل: الكبارُ التي تصلح للحمل، والصِّغار كالفِصلان والعَجاجيل والغنم؛ لأنها دانيةٌ من الأرض لِلَطافة أجرامها، مثل الفَرش المفروش عليها.[٣٠٩٤]

وقال الضَّحاك: الحمولة: من الإبل والبقر، والفرش: الغنم؛ لقوله: ﴿ثمانية أزواج﴾. وقال الحسن: الحَمولة الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير. والفَرش: الغنم. وقال ابن زيد: الحمولة ما يركَب، والفَرْش: ما يؤكل لحمُه ويحلب.[٣٠٩٥]

وفعولةٌ- بفتح الفاء- إذا كان بمعنى الفاعل؛ استوى فيها المذكَّر والمؤنَّث؛ نحو قولك: رجلٌ فَروقة وامرأةٌ فروقة: للجبان والخائف. ورجلٌ صَرورة وامرأةٌ صرورة: إذا لم يَحُجَّا، ولا جمع له. وإذا كانت بمعنى المفعول بها فُرِّق بين المذكر والمؤنث بالهاء، كالحَلوبة والرَّكوبة. والحُمُولة بضمِّ الحاء: الأحمال. وأما الحُمُول بالضَّمِّ بلا هاء؛ فهي الإبل التي عليها الهوادج، كان فيها نساءٌ أو لم يكن.

وأما الفرش فقد قال الأصمعي فيه: لم أسمع له بجمعه. وقال: ويحتمِل أن يكون مصدرًا سُمِّيَ به؛ من قولهم: فرشَها الله فَرْشًا، أي: بَثَّها الله بثًّا. والفرْش: المفروش من متاع البيت[٣٠٩٦]. والفَرْش: الزَّرع إذا فُرِش. والفرش: الفضاء الواسع. وافترش الشيء: انبسط؛ فهو لفظٌ مشترك.[٣٠٩٧]

وقد يُتوهَّم من قوله: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ استدلالٌ على أنَّ الحرام ليس برزقٍ من الشَّكل الثاني، هكذا الحرام ليس بمأكولٍ شرعًا وهو ظاهر، والرِّزق مأكول شرعًا؛ لقوله: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾، فالحرام ليس برزقٍ، أو من الشَّكل الأوَّل هكذا

[٣٠٩٠] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٢.

[٣٠٩١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و٣٤٣و.

[٣٠٩٢] **سنن ابن ماجه**، ٣/٢٧ (١٨٠٨)؛ **أبو داود**، ٣/٣٥ (١٥٨٥)؛ **سنن الترمذي**، ٣/٢٩ (٦٤٦).

[٣٠٩٣] **مفاتيح الغيب**، ١٣/٢٢٥. **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/٧٢.

[٣٠٩٤] **الكشاف**، ٢/٧٠؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٣.

[٣٠٩٥] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/٧٤-٧٥.

[٣٠٩٦] ج — البيت.

[٣٠٩٧] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/ ٧٤-٧٥.

الرِّزق مأكولٌ شرعًا، ولا شيء من المأكول شرعًا بحرامٍ، فالرِّزق ليس بحرامٍ، فالحرام ليس برزقٍ، وكلاهما إنما يفيد لو صدق كلّ رزق مأكول شرعًا، والآية لا تدلُّ عليه.[٣٠٩٨]

ولذلك قال قدس سره: أي: «كلوا ما حلَّ لكم منه»،[٣٠٩٩] يعني: الحرام رزق كالحلال، والله إنما أباح أكل بعض ما رزقه وهو الحلال.[٣١٠٠]

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: لا تسلكوا طرائقَه التي سوَّلها لكم في التَّحليل والتَّحريم من عند أنفسكم، كما فعل أهل الجاهليَّة شبهت تسويلاته بالخطوات، وهي الآثار القدمية فاستعيرت لها، ولعلَّ الجمعَ إشارةٌ إلى الأنواع من الإتباع قولًا وعقدًا وفعلًا.

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، وهو تعليل للنَّهي. وقد قيل: ما في الدَّوابِّ خيرٌ من الإبل إن حُمِّلت أُثقلت وإنْ سارت أبعدَت، وإِنْ حُلِبَت أروَتْ وإن حُلبَتْ أشبعت.

وعن النبي عليه السلام: «الغَنَمُ بَرَكَةٌ مَوْضُوعَةٌ، وَالْإِبِلُ جَمَالٌ لأَهْلِهَا».[٣١٠١]

وعنه عليه السلام: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ لَهُ شَاةٌ إِلَّا قدس كلَّ يَوْمٍ فإِنْ كَانَتْ لَه شَاتَانِ قدس كلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ».[٣١٠٢]

وقال أبو الدرداء: «الضأن من دوابِّ الجنة، وهي صفوة من البهائم».[٣١٠٣]

وعنه ع م: «خُذْ الْحَبَّ من الحبِّ، والشَّاة من الغَنَم، والبَعِيرَ مِنَ الإِبِلِ، والبَقَرَةِ مِنَ الْبَقَرِ».[٣١٠٤]

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣)﴾

بدلٌ من ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾، أو من محلِّ ﴿مَا﴾، أو مفعول ﴿كُلُوا﴾، أي: كلوا ممَّا رزقكم الله ثمانية أزواج، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ اعتراض، أو مفعول فعل دلَّ عليه ﴿كُلُوا﴾، أي: تناولوا ثمانية أزواج، أو حالٌ ﴿مِمَّا﴾ بمعنى: مختلفة أو متعدِّدة، أو عطف على ﴿جَنَّات﴾.

والزَّوج: ما معه آخرُ من جنسه يُزَاوِجه، وقد يقال لمجموعهما. والمراد الأول. ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾: زوجين اثنين: الكبش والنَّعجة. و﴿مِنَ الضَّأْنِ﴾ بدلٌ ﴿مِنَ الْأَنْعَامِ﴾، و﴿اثْنَيْنِ﴾ من ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾، أو من ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ وإن كان بدلًا أيضًا على تجويز البدل من البدل، أو منصوب بإنشاء مقدرٍ، أو﴿مِنَ الضَّأْنِ﴾ متعلِّق بما نصب ﴿اثْنَيْنِ﴾.[٣١٠٥]

[٣٠٩٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٣و-٣٤٤ظ.

[٣٠٩٩] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٢.

[٣١٠٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٥٩/٤.

[٣١٠١] **مسند البزار**، ٤٥/٧ (٢٩٤٢)؛ **مجمع الزوائد**، ٢٥٩/٥ (٩٣٢٤).

[٣١٠٢] لم أجده.

[٣١٠٣] لم أجده.

[٣١٠٤] **سنن أبي داود**، ٤٧/٣ (١٥٩٩)، **سنن ابن ماجه**، ٣٠/٣ (١٨١٤).

[٣١٠٥] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٣؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٣٨/٣-٤٣٩؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٥٩/٤.

وقرئ «اثنان»[٣١٠٦] على الابتداء والخبر الجار قبله. والضَّأن: اسم جنس ويُجمع على «ضَئِينٍ»؛ نحو: «كَلْب» و«كَلِيب»، أو جمعُ «ضَائِنٍ» و«ضَائِنَةٍ»، كـ«تَاجِرٍ» و«تَاجِرَةٍ» و«تَجْرٍ».

وقرئ بفتح الهمزة[٣١٠٧] وهو لغة فيه، أو جمعُ تكسير لـ«ضَائِنٍ»، كما يقال: «خَادِمٌ» و«خَدْم».[٣١٠٨]

﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ التَّيس والعَنْز. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بفتح العين،[٣١٠٩] والباقون بسكونها[٣١١٠] لغتان في جمع «مَاعِزٍ»، فإن فاعلًا يُجمع على فَعْلٍ، نحو: تَاجِر وتَجْر وعلى فَعَلٍ،نحو: خَادِم وخَدَم، وعلى «مِعْزًى»[٣١١١] أيضًا، وقرئ به قال:

إذا لم تَكُــــنْ إبْـــــلٌ فَمِعْـــــزى   كَــأنّ قُــرُونَ جِلّتِهَـــا العِصِـــيُّ[٣١١٢]

﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ﴾ ذِكرِ الضَّأن وذكر المعْزِ ﴿حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ﴾: أم أُنْثَيَيْهِما، ونصب «الذكرين» و«الأنثيين» بحرّم. ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ﴾: [**١٥١**/و] أو ما حَمَلت إناثُ الجنسين ذَكَرًا كان أو أنثى.[٣١١٣]

وجَمَعَ الأرحام، وإن أضيفَ إلى «الاثنين»؛ لأنَّ ما كان منه في الحيِّ عضوٌ واحدٌ، فالإضافة إلى «الاثنين» فيه بالجمع لا من اللّبس، ونظيره قوله تع: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التحريم٦٦/٤].[٣١١٤]

ولَمَّا ورد أن يقال: كيف فَصَل بينَ بعضِ المعدودين وهو قوله: ﴿من الضأن اثنين ومن المعز اثنين﴾ «وبعضه»، وهو قوله: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِۗ﴾ بقوله: ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ولم يوالِ بين الإبعاض؟[٣١١٥]

أجاب عنه المصنف بأنه: قد وقع الفاصل بينها اعتراضًا غيرَ أجنبيٍّ من المعدود؛ وذلك أنه تع مَنَّ على عباده بإنشاء الأنعام لمنافعهم، وبإباحتها لهم، فاعترض بالاحتجاج على مَنْ حَرَّمهما، تأكيدًا وتشديدًا للتحليل، والاعتراضاتُ في الكلام إنما تساق للتأكيد.[٣١١٦]

يعني: أن قوله: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍۖ﴾ لَمَّا كان بدلًا من ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾، على تقدير: أنشأ من الأنعام كذا وكذا، وكان ذكرها للامتنان على المكلّفين، لينتفعوا بها أنواعَ الانتفاعات، ثم جيء بقوله: ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ إلى آخره، تفصيلًا لتلك الفَذْلكة، فَصَل المعدودَ بقوله: ﴿آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ﴾، للاحتجاج على مَنْ حَرّمها؛ لأن أصل الكلام كان مسوقًا في تحريم

[٣١٠٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن عثمان. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٠؛ **المختصر** لابن خالويه، ص ٤٦؛ **الكشاف**، ٧٠/٢.

[٣١٠٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن طاحة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٠؛ **المختصر** لابن خالويه، ص ٤٦.

[٣١٠٨] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٣؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٥٩/٤.

[٣١٠٩] «وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ».

[٣١١٠] **كتاب السبع**، ص ٢٧١؛ **التيسير**، ص ٣٥١؛ **النشر**، ٢٠٠/٢.

[٣١١١] **المختصر لابن خالويه**، ص ٤٧؛**الكشاف**، ٧٠/٢.

[٣١١٢] **كتاب ديوان امرئ القيس ت المصطاوي**، ١/ ١٦٥؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٣؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٥٩/٤.

[٣١١٣] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٣.

[٣١١٤] **التيسير في التفسير لأبي حفص النسفي**، ٢٤١/٦.

[٣١١٥] **الكشاف**، ٧١/٢؛ **فتوح الغيب**، ٢٧٣/٦.

[٣١١٦] **الكشاف**، ٧١/٢.

البحائر والسَّوائب وما تولَّد منها، وفي افترائهم على الله، وتضليلهم فيها يدلُّ عليه قولهم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا﴾، وقوله تع:﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.[٣١١٧]

﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾: أخبروني بأمر معلوم من جهة الله تع يدلُّ على أنَّه تعحرَّم شيئًا من ذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعمكم أن الله حرم هذا.[٣١١٨]

وعبّر عنه بالعلم مبالغة للتَّنبيه على أنَّ دليلَ التَّحريم لا بدَّ أن يكون قطعيًا. وفيه دلالةٌ على أنَّ التَّحريم والتَّحليل إنما يعرف بالسَّمع لا بالأراء والأهواء.

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤)﴾

كما سبق، والمقصودُ إنكارُ تحريمِ الله شيئًا من الأجناس المذكورة. وذلك أنهم كانوا يحرِّمون ذكورها تارةً وإناثَها أخرى، وأولادَها كيف ما كانت ذكورًا وإناثًا تارةً، وينسبون تحريمها إلى الله.[٣١١٩]

ولَمَّا كان المقصودُ إنكارَ فعل التَّحريم كان إيراده في صورة إنكار المفعول ليطابِقَ ما كانوا يدَّعونه من التَّفصيل في المفعول والردُّ يدفعه، فيكون الإنكارُ بطريقٍ برهانيٍّ، من جهة أنَّه لا بدَّ للفعل من متعلّقٍ، فإذا نفى جميعَ متعلّقاته على التَّفصيل لزم نَفْيُه.[٣١٢٠] وممَّا يدلُّ على بطلان ما قالوه: إنه لو كان التحريم للذُّكورة، أو الأنوثة يلزم تحريم جميع الذُّكور والإناث، وإن كان لإشمال الرَّحم يلزم تحريم الأولاد كلّها؛ لأنَّها مشتملةٌ على الذُّكور والإناث.

قال الإمام: لقائلٍ أن يقول: يجوز أن تكون علَّة تحريمها كونها بحيرةً أو سائبةً أو وصيلةً أو حامًا، فإذا قلنا: إن الله حرَّم ذبحَ بعض الحيوانات لأجل الأكل لا يَرِد عليه أن يقال: إن حرَّم لأجل الذُّكورة كان كذا إلى آخره، فالأقرب أن يقال: ما ورد الكلام على سبيل الاستدلال على بطلان قولهم، بل استفهامٌ على الإنكار بأنكم لا تُقِرُّون نبوَّة نبيٍّ، فكيف تحكمون أنَّ هذا يَحلُّ وهذا يحرم؟ وأنَّ حكمكم بالبحيرة والسَّائبة والوصيلة والحام مخصوصٌ بالإبل عندكم، فما وجه ذلك التخصيص؟[٣١٢١]

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾، بل أكنتم شهداء، فمعنى بل في «أَمْ» المنقطعة: الإضرابُ عن طلب العلم والدليل القطعيِّ الدالِّ على التَّحريم من عند الله على سبيل المسامحة، ومعنى الهمزة: إنكار المشاهدة، وذكرُها تهكُّمٌ بهم وبدِينهم؛ لأنهم لا يؤمنون بنبيٍّ ولا كتابٍ، وزعموا أنَّ الله حرَّم هذا، فلم يبقَ إلا طريقُ المشاهدة والسَّماع، فقيل لهم: أشاهدتم ربَّكم ﴿إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾: حين وصَّاكم بهذا التحريم وأمركم، والوصية مقدَّمة مؤكَّدة فيما يُفعل أو يترك.[٣١٢٢]

[٣١١٧]**فتوح الغيب**، ٦/٢٧٤.

[٣١١٨]**تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٤٤٠.

[٣١١٩]**تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٤٤٠.

[٣١٢٠]**حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٣و-ظ.

[٣١٢١]**مفاتيح الغيب**، ١٣/٢٢٩؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٦٠-١٦١.

[٣١٢٢]**تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٤٤١.

ولَمَّا أنكروا النُّبوَّة ولم يمكنهم أن يقولوا: شهدنا الله وسمعنا منه التَّحريم، تعيَّن أنَّهم أرباب الافتراء، وهو ظلم فرع عليه قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾: نسب إليه تحريمَ ما لم يحرِّم. كاذبًا، لا مخطئًا في ظنِّه، فإن فيه مندوحةً عن الكذب.[٣١٢٣]

واللَّفظ عامٌّ وكذا العلَّة فيترك على عمومه، ويدخل فيه أولًا عمرُو بنُ لُحَيّ المؤسِّس لتبحير البحائر وتسبيب السَّوائب، وإذاكان هذا حال الافتراء في الفروع، فما الظـّنُّ بالافتراء في الإلهيَّات والنُّبوَّات والمعاد.

والظَّاهر [١٥١/ظ] أنَّ اللَّام في ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ﴾ لام العاقبة؛ لأنَّ الإضلال لم يكن قصده، بل ثمرة فعله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حالٌ، أي: غير عارف بالله وبأحكامه وبعقابه على الافتراء، والإضلال أو غير متدبّر عاقبته.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ استئناف في غاية الجزاء له حيث نبَّه على غاية شنيع ما فعلوا وتعاظمه على القلوب والأسماع بحيث يتوجَّه للسَّامع أن يقال: الذين شأنهم ذلك ما مصير أمرهم في كمال الظُّلم، وكيف فعل الله بهم. فقيل: إن الله الجامع لصفات الكمال لا يخلق فيهم الهداية بتصميمهم على الكفر والظُّلم وتخليهم في ظلمات الضلالة عمهين. فهو ذمٌّ لهم بأنَّهم بالغوا في الظُّلم حيث افتروا على الله، وأضلّوا عبادَه فباؤوا بأن يخذلهم الله، وأنَّ كلَّ من سلك سبيلهم هكذا حالهم، ويجوز أن يكون إظهارًا موضع الإضمار تعليلًا للحكم وتقديم اسمهتع دلَّ على الاختصاص وأنه هو القادر عليه.

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥)﴾

كنَى بعدم الوجدان عن عدم الوجود، وَمَبناها على أنَّ طريقَ التَّحريم التَّنصيصُ من اللهلا الرَّأي، ففيها ثبوت المبنى اقتضاءً، وإشارةً إلى أنَّ من الأحكام المنزَّلة ما في العثور عليه حاجةٌ إلى التَّفقُّد لكونه بطريق الدَّلالة الخفيَّة، وإنما لم يقل: فيمَا أُنزل عليَّ؛ لأنَّ النَّص المحرِّم لا يلزم أن يكونَ من جنس الكتاب.[٣١٢٤]

﴿مُحَرَّمًا﴾: طعامًا محرماً من المطاعم التي حرَّمْتُموها.[٣١٢٥]

قيَّد المصنف بذلك؛ إذ ليس نفي المحرَّم على عمومه، ولا على ما ينفي بعد استثناء الأربعة لوجود محرَّماتٍ سواها، على أنّ في جعلِ الاستثناء متَّصلًا تكلُّفًا في اللَّفظ، أي: إلا إذا أن يكون بمعنى إلا الموصوف بأن يكون أحدُ الأربعة على أنّه بدلٌ من ﴿مُحَرَّمًا﴾؛ لكون الكلام غيرَ موجبٍ، أو إلا وقت أن يكون على أنه مفرغٌ بمعنى: لا أجد شيئًا من المحرَّمات في حالٍ من الأحوال إلا في حال أن يكون المطعوم أحد الأربعة، فإنِّي أجد حينئذ محرَّمًا.

والجواب: أنه قد ورد حصر المحرَّمات في غير الأربعة في غير هذا الموضع كقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة ١٧٣/٢] فناسب أن يحمل هذه الآية أيضًا على ذلك للتّطابق. وإشكال المحرَّمات الآخر يدفع بأن المعنى: لا أجد فيما أوحي إليّ عند تبليغ هذه الآية محرَّمًا سوى الأربعة، وهو لا ينافي الوجدان في وقتٍ آخر، أو بأنَّ

[٣١٢٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٤١/٣؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٦١.

[٣١٢٤] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٤٢/٣.

[٣١٢٥] **الكشاف**، ٧٢/٢.

تخصيصَ الكتاب غير الواحد أو الإجماع جائز؛ فإنَّ حاصل القول بأنه لا يحرم سوى الأربعة، هو أنَّ ما عداها ليست بمحرمةٍ، وهذا عامٌّ، فإثبات محرماتٍ آخر تخصيص له لا نسخ.[٣١٢٦]

وعبارته قدس سره: «أنها تدلُّ على أنَّه لم يجد فيما أوحي إلى تلك الغاية محرَّمًا غير هذه، وذلك لا ينافي ورود التَّحريم في شيءٍ آخر، فلا استدلال بها على نسخ الكتاب بخبر الواحد، ولا على حل الأشياء غيرها إلا مع الاستصحاب».[٣١٢٧]

لعلَّه يشير إلى ما قيل هي ونحوها من النُّصوص المحرِّمة كلّ واحدٍ منها رافع للحلّ الأصلي في حقِّ ما نصّ على تحريمه، وبقى ما لم ينص على تحريمه على الحال الأصلي، فيحكم على حلِّه بالاستصحاب وهو الحكم بثبوت الشَّيء في الزَّمان الثاني بناءً على ثبوته في الزمان الأوَّل.[٣١٢٨]

وقال ابن الكمال: فيها دلالةٌ على النَّسخ المذكور؛ لأن عبارتها وإن سكتت عن عدم محرَّم آخر، لكنَّ دلالتَها نطقت بأنه لا محرَّم غيرها، وليس فيها توقيت، فلمَّا زِيدَ محرَّم آخر بالسُّنَّة انتسخ حكمُ الدَّلالة.[٣١٢٩]

نَكَّر طعامًا تجريدًا له عن قيدٍ زائد حتى ينتظمَ الطَّاعمُ الظالم وغير الظَّالم، فيؤُول المعنى إلى أنه ليس في جنس المطعوم من حيث إنَّه مطعوم محرَّم إلا هذه الأربعة، فلا يتَّجه النقض بحرمة المأكول ظلمًا؛ لأن حرمته عن قيده لا من نفسه.

وفائدة التَّوصيف بقوله: ﴿يَطْعَمُهُ﴾ قطعُ المجاز، كما في ﴿طَائِرٍ يَطِيرُ﴾ [الأنعام ٣٨/٦]؛ فإن الطَّاعم يطلَق على المطعِم مجازًا.[٣١٣٠]

﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ إلّا أن يكون الطَّعام المحرَّم ميتةً.[٣١٣١]

وقرأ ابن كثير بالتاء[٣١٣٢]لتأنيث الخبر، وابن عامر بالتاء ورفع ﴿مَيْتَةٌ﴾على أن «كان» هي التَّامَّة.[٣١٣٣] فعلى هذا لم يتأت له أن يعطف أو «دمًا» على «ميتة»، فتعيَّن له أن يجعله معطوفًا على المستثنى وهو أن يكون ما في حيِّزه، أي: إلا وجودَ ميتة أو دمًا بخلاف قراءة العامَّة، فإنه يكون معطوفًا على خبر «كان» النّاقصة عندهم. والظَّاهر على قراءته أيضًا أن يكون الاستثناء منقطعًا؛ لأن المستثنى على قراءته كونٌ والمستثنى منه عينٌ.[٣١٣٤]

والمراد من الميتة هنا: ما فَقَدَ حياته بلا ذبحٍ أصلًا، أي: شرعيًّا كان أو غيرَ شرعيٍّ، ولهذا احتيج إلى ذكر المحرَّم الرابع.

وفي قوله: ﴿عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ دلالةٌ على أنَّ جِلدَ الميتة قبل الدِّباغ يحرم؛ لأنه قد يُشوَى ويؤكل وإذا دُبغ خرج من قابلية الأكل.[٣١٣٥]

[٣١٢٦]**حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٣ظ.

[٣١٢٧]**أنوار التنزيل، ١/ ٥٢٤؛ نواهد الأبكار، ٢٢٣/٦.**

[٣١٢٨]**حاشية محيي الدين شيخ زاده، ١٦٢/٤– ١٦٣.**

[٣١٢٩]**تفسير ابن كمال باشا، ٤٤٦/٣.**

[٣١٣٠]**تفسير ابن كمال باشا، ٤٤٢/٣.**

[٣١٣١]**الكشاف، ٧٢/٢.**

[٣١٣٢]**كتاب السبع**، ص ٢٧٠؛ **التيسير**، ص ٣٥٠؛ **النشر، ١٩٩/٢.**

[٣١٣٣]**كتاب السبع**، ص ٢٧١؛ **التيسير**، ص ٣٥٠؛ **النشر، ١٩٩/٢.**

[٣١٣٤] **أنوار التنزيل، ١/ ٥٢٤؛ حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٤/ ١٦٢.**

[٣١٣٥]**تفسير ابن كمال باشا، ٤٤٣/٣.**

﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٥٢/و]

قد عرفت العطف على القراءتين ﴿مَسْفُوحًا﴾ أي: مصبوبًا سائلًا في العُروق، لا كالكَبِدِ والطِّحال. وقد رُخِّص في دَمِ العُروق بعد الذَّبح.[3136]

وهذا التَّرخيص ووجهه مذكورٌ في فقه الحنفية، وأمَّا عند الشافعية: فحرمة الدَّم على عمومها عملًا بظاهر قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ [المائدة ٣/٥]؛ فيجب إزالته عن اللَّحم ما أمكن، والكبد والطِّحال ليسا دمين في العُروق، وإن نطق الحديث بكونهما دمين نظرًا إلى التَّحقيق وللأطباء فيه تدقيق.

وقال ابن الكمال: مصبوبًا ضائعًا، يرشدك إلى اعتبار هذا القيد الأخير الزائد على معنى الصَّبِّ في مفهوم السَّفح إطلاقُهم السِّفاح على الزِّنا باعتبار تضييعه الماء. قال ع م: «وُلِدْتُ مِنْ نِكَاحٍ لَا مِنْ سِفَاحٍ»[3137]

وإذا تَقَرَّر هذا ففي العبارة المذكورة إشارةٌ إلى أنَّ حقَّ هذا الدَّم التَّضييع والإهدار، لا الحفظ والادِّخار، وإنما خصَّ الدَّم بالقيد المذكور؛ لأنَّ ما اختلط باللَّحم منه وقد تعذر تخلّصه من اللَّحم عفوٌ مباحٌ، وأمَّا الطِّحال فليس بدم حقيقةً، وكذلك الكَبِد، فلا حاجةَ إلى الاحتراز عنهما إلى القيد المذكور.[3138]

ويمكن أن يقال: لا حاجةَ إلى اعتبار القيد المذكور للإشارة المذكورة، بل يحصل ذلك من مفهوم الصَّبِّ. ولو قيل: إنَّ المرادَ كونه مصبوبًا سائلًا في العُروق لا كونه مصبوبًا في الأرض، فنقول: إنه يرد أيضًا على اعتبار القيد المذكور؛ لأنَّه إنَّما يتَّضح اعتباره في المصبوب في الأرض لا في المصبوب في العرُوق. وإنما زِيد عبارة «لحم» لا؛ لأن كلَّه غير مأكول وإلا ليناسب زيادتها في الميتة أيضًا للاشتراك في العلَّة المذكورة، بل لئلَّا يسبقَ إلى الوهم أنَّه من قبيل صيد البحر حتى لا يبقى محرمًا بعدما صار لحمًا.

ولَمَّا كان المأكول المحرَّم من الخنزير غير منحصر في اللحم يدارك الحكم في الباقي بالتَّعميم دلالة حيث علل المذكور بقوله: ﴿فَإِنَّهُ﴾، أي: فإنَّ الخنزير ﴿رِجْسٌ﴾ قذرٌ يَنفِر عنه الطبع السليم لتعوّده أكل النجاسة، ولا يخفى ما في الاعتراض بين المعطوفين للتَّعليل من الدَّلالة على سائر أجزائه القابلة للأكل، ويجوز أن يراد باللَّحم ما يؤكل منه مطلقًا على طريقة التَّعبير عن الأكل بالجزء وعلى هذالا حاجة إلى صرف الضَّمير عن المضاف.

فإن قُلت: أليس في هذا التعليل غنًى عن إقحام اللَّحم لإفهامها ممَّا ذكر؟

قلت: لا؛ لأن التَّعليل النَّحوي لا يلزم أن يكون بالعلِّيَّة الشرعيَّة، بل قد يكون بالحكم التي لا يلزمها الاطِّراد ولا الانعكاس، وإنما خصَّ هذا والذي يليه بالتعليل عبارةً وإشارةً؛ لأن الطَّبع يساعد السَّمع في الأوَّلين بخلافهما في الآخرين.[3139]

﴿أَوْ فِسْقًا﴾ عطفٌ على ﴿لَحْمَ﴾ وجوز أن يكون مفعولًا له من ﴿أُهِلَّ﴾، وهو عطفٌ على ﴿يَكُونَ﴾، والمستَكنُّ فيه راجعٌ إلى ما رَجع إليه المستكنّ في﴿يَكُونَ﴾. والنيَّة على هذا توسيط قوله: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾؛ إذ لو كانت الأربعة متعاطفةً لَكان

[3136] **الكشاف**، ٧٢/٢.

[3137] سبق تخريجه.

[3138] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٤٣/٣-٤٤٤.

[3139] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٤٥/٣.

المناسب تأخره عن الكلِّ عودًا للضمير إلى الأربعة بالتأويل، لكن الأظهر أنه عائدٌ إلى الخنزير نفسِه دلالةً على أنه نجس العين فهو في موضعه.

فالأوَّل هو الوجه، ليَحْصُل التَّرقِّي، وليُؤذِن بأنَّ ما أُهلَّ لغير الله أقذرُ وأخبثُ من لحم الخنزير، ولذلك علَّل لحمَ الخنزير بالرِّجس، ثم أتبعه ذلك، وسمَّاه أولًا بنفس الفسق، ثمَّ وصفه بما يكشف عن حقيقته، كأنَّ الفسق تفسيره، وبيانه: أنه أهلَّ لغير الله. ففي تأخيرُ الدَّم عن الميتة الإشعارُ بأنَّه أخبثُ منه، وفيه تأييدٌ لمذهب الشَّافعي.[٣١٤٠]

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾: دعته الضرورة إلى أكلِ شيء من ذلك ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على مضطرٍ أجر ﴿وَلَا عَادٍ﴾ قدرَ الضرورة.

﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ﴾ لِمَا عسى أن يفرط عند العمل بالرُّخصة ﴿رَحِيمٌ﴾ بالرُّخصة فيه.[٣١٤١]

واختلف في أنه رخصةٌ بمعنى ترك المؤاخذة أو بمعنى الإباحة، ولا يرجح ذكر المغفرة الأوَّل لما ذكر من الْمُجْمَل ويرجح الثاني قوله: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ﴾ [الأنعام٦/١١٩] بعد ذلك المحرَّمات.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (١٤٦)

لَمَّا بيَّن المحرَّمات الأربعة ذكر عقيبه الأشياء التي حرّم على اليهود في قوله: ﴿حَرَّمْنَا﴾ تكذيبٌ لهم في قولهم: إن الله لم يحرم شيئًا علينا، وإنما حرَّمنا على أنفسنا ما حرَّمه اسرائيل على نفسه.[٣١٤٢] وكان بعض ذوات الظُّفر حلالاً لهم، فلمَّا ظلموا حرّم ذلك عليهم فعمَّ التحريم كلَّ ذي ظُفُر، بدليل قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء٤/١٦٠].[٣١٤٣] وتدَّعي النَّصارى أنَّ ذلك نُسِخ في شرع عيسى ع م، ويشهد بذلك التَّخصيص المستفاد من تقديم الظَّرف.[٣١٤٤]

و﴿كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾: أي: كلُّ ما له أُصبعٌ سواءٌ كان ما بين أصابعه منفرجًا كأنواع السِّباع والكِلاب والسِّنانير، أو لم يكن منفرجًا كالإبل [**١٥٢**/و] والنعامة والإِوزّ والبَطّ.[٣١٤٥]

وذوات الأظلاف وهي: البقر والغنم والظَّبي لا أصبع لها فهي محلَّلة لهم. وقيل: هو كلُّ ما لم يكن مشقوقُ الأصابع من البهائم والطَّير كالإبل والنَّعَامة والإِوَزّ والبَطّ.

وعن عبد الله بن مسلم قال: «ذو الظُّفر »كلُّ ذي مِخلَبٍ من الطَّير، وكلُّ ذي حافرٍ من الدَّوابِّ. وسمِّي الحافر ظُفُرًا على طريق الاستعارة.

وقال الإمام: حمل الظُّفر على طريق الحافر بعيدٌ من وجهين: الأوَّل أتى احتياج إلى الاستعارة، الثاني أنَّه لو كان الأمر كذلك لَوجب أن يقال: إنه تع حرَّم عليهم كلّ حيوان له حافرٌ وذلك غيرُ صحيح؛ لأن الآية تدلُّ على أنَّ الغنم والبقر مباحان

[٣١٤٠] **فتوح الغيب**، ٦/٢٧٧-٢٧٨.

[٣١٤١] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٤٤٥.

[٣١٤٢] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٤٤٦.

[٣١٤٣] **الكشاف**، ٢/٧٢.

[٣١٤٤] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٤٤٧.

[٣١٤٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٦٤؛ **روح البيان**، ٣/١٢١.

لهم مع حصول الحافر لهما. وإذا كان كذلك وجب حملُ الظُّفر على المخَالِب والبَراثِن؛ لأنَّ الْمَخَالبَ آلات لجوارح الصَّيد في الاصطياد، والبراثنَ آلات للسِّباع في الاصطياد.

وعلى هذا التَّقرير يدخل فيه أنواعُ السباع والكلاب والسنانير، ويدخل فيه الطُّيورُ التي تصاد؛ لأنَّ هذه الصِّفة تعمُّ هذه الأجناسَ.

وفي «الظُّفُرِ» لغاتٌ أعلاها ضمُّ الظَّاء والفاء وهي قراءة الجمهور.[٣١٤٦] وقرئ بسكون الفاء[٣١٤٧]وهي تخفيف بمضمونها. وقرئ: «ظِفْر» بكسر الظاء وسكون الفاء،[٣١٤٨] وكلُّ واحدة من هذه اللغات تجمع على «أَظْفَارٍ»، وفيه لغةٌ خامسةٌ وهي: «أُظْفُور» وتجمع على «أَظَافِير».

﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ كقولك: «من زَيْدٍ أخذت ماله»، تريد بالإضافة زيادةَ الرَّبط، أي: بإضافة مال إلى ضمير زَيْدٍ في المثال، وإضافة شحوم إلى ضمير البقر والغنم في الآية، والأفاضل الرَّبط حاصل بدونها مثل ومن البقر والغنم الشحوم، ومن زيد المال؛ لأن «من» متعلّق بهذا الفعل.

وأما فيمَنْ يجعل ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ﴾ عطفًا على ﴿كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ ويجعل قوله: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ تَبْيينًا للمحرَّم منهما، فالإضافة للرَّبط المحتاج إليه؛[٣١٤٩]لأنَّ قوله: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ﴾ ح يكون متعلّقًا بـ﴿حَرَّمْنَا﴾ الأوَّل فإذا قيل: حرّمنا عليهم الشحوم لم يعلم أنه منهما، أو من غيرهما فيحتاج إلى الضَّمير ليعلم أنها منهما.

والمعنى: أنه حرّم عليهم لحم كلِّ ذي ظفرٍ وشحمَه وكلَّ شيء منه، وترك البَقَر والغَنَم على التَّحليل، لم يحرّم منهما إلا الشُّحوم الخاصَّة، وهي الثُّروب وشحوم الكُلى؛ لأنهما الباقيان بعد الاستثناء.[٣١٥٠]

وقوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾: إلا ما اشتمل على الظُّهور والجُنوب من «السَّحْفة»- بفتح السين وسكون الحاء المهملتين-: «الشَّحمة» التي على الظَّهر الملتزقةُ بالجلد، فيما بين الكتفين إلى الوِرْكَين.[٣١٥١]

﴿**أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ**﴾ أو ما اشتمل عليه الأمعاء، ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ وهو شحم الأَلْيَة،[٣١٥٢]ربما يُفهم من هذا التَّعبير في التَّفسير أنَّ الحوايا عطفٌ على ظهورها، أي ما حملت الحوايا، لكن الأنسب عطفهما على ما حملت بتقدير المضاف، أي: شحوم الحوايا، وقوله: «أو ما اشتَمَلَ على الأمعاءِ»[٣١٥٣] بيانٌ لذلك.

وقيل: ﴿الْحَوَايَا﴾ عطفٌ على ﴿شُحُومَهُمَا﴾، فعلى الأول كانت عطفًا على المستثنى بمعنى: حرَّمنا جميع شحومهما إلا هذه الثَّلاثة، وكان المناسب هو «الواو» دون «أو»؛ لأن المخرج من حكم التَّحريم ثلاثتها لا أحدها فقط.

[٣١٤٦]**مفاتيح الغيب**، ١٣/٢٣٤-٢٣٥؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٦٤-١٦٥.

[٣١٤٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٠؛ **المختصر** لابن خالويه، ص ٤٦.

[٣١٤٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السمال. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٠؛ **المختصر** لابن خالويه، ص ٤٧.

[٣١٤٩]**حاشية الكشاف** للتفتزاني، و٣٤٤أ.

[٣١٥٠]**الكشاف**، ٢/٧٢؛ **فتوح الغيب**، ٦/٢٨٠.

[٣١٥١]**الكشاف**، ٢/٧٢؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٦٦؛ **فتوح الغيب**، ٦/٢٨٠.

[٣١٥٢]**الكشاف**، ٢/٧٢.

[٣١٥٣]**الكشاف**، ٢/٧٢.

وأجيب بأن الاستثناء من الإثبات نفي، و«أو» في النفي تفيد العموم، لكونه بمنزلة النَّكرة في سياق النَّفي، فيصير المعنى: لم يحرِّم واحدًا من الثلاثة لا على التَّعيين، وذلك ينفي المجموع ضرورةً، وهو معنى إباحة الكلِّ.

وفيه نظرٌ؛ لأنَّ الاستثناء إنما يفيدُ نفيَ الحُكم عن المستثنى بمنزلة قولك: «انتفَى التَّحريم عن هذا أَوْ ذاك»، والعموم إنما يُوجب نفي الحكم عن هذا، أو ذاك بمنزلة قولك: «انتفى تحريم هذا أو ذاك».

وحاصله أنَّ النَّكرة إذا تعلقَّت بالمنفيِّ عمَّت ضرورةَ أنَّ نفيَ إيجاب الْمُبهم لا يتحقَّق إلا بنفي الكلِّ، وأمَّا إذا تعلَّقت بالنَّفي كما في قولنا: «الأمِّيُّ مَن لا يُحسنُ القراءة حرفًا»، فلا يفيد سوى تعلُّق النَّفي بفردٍ مبهمٍ. وهذا ما يقال: إن «أو» في النَّفي قد تكون لنفيِ أحد الأمرين فتَعمُّ، وقد تكون لأحد النفيين فلا تعمُّ.

فالوجه أن يقال: كلمة «أو» في العطف على المستثنى أيضًا من قبيل: «جالس الحسَنَ، أو ابنَ سيرِينَ»، كما أنه من ذلك القبيل في العطف على المستثنى منه؛ بمعنى: أنها لإفادة التَّساوي في الحكم فيحرم الكلّ، وتحقيقه: أنَّ مرجع التَّحريم إلى النَّهي، كأنه قيل: «لا تَأْكُلْ أحدَ الثلاثة» وهو معنى العمُوم.

وهذا ما نُقل عن المصنِّف أن الجملة لَمَّا دخلت في حكم التَّحريم، فوجه العطف بحرف التَّخيير أنها بَليغةٌ في هذا المعنى؛ لأنك إذا قلت: «لا تطع زيدًا وعمروًا» كان له أن يطيع زيدًا على حِدَة، وأمَّا إذا قلتَ: «لا تطع زيدًا أو عمرًا أو خالدًا»، فالمعنى:[**١٥٣**/و] أنَّ هؤلاء كلَّهم أهلٌ أن لا يُطاع، فلا تُطعْ واحدًا منهم ولا الجمَاعة.

وبهذا تَبَيَّن فسادُ ما يوهم مِن أنَّه يريد على تقدير العطف على المستثنى منه يكون المعنى: حرَّمنا عليهم شحومهما، أو حرَّمنا عليهم الحوايا، أو حرَّمنا عليهم ما اختلط بعظمٍ، فيجوز لهم تركُ أكلِ أيِّها كان وأكلُ الآخرين.

والظاهر أنَّ مثل هذا وإن كان جائزًا عقلًا فليس في الشَّرع أن يحرَّم واحدٌ منهم من أمورٍ مُعَيَّنة، وإنما ذلك في الواجب فقط.[٣١٥٤]

و﴿الْحَوَايَا﴾ جمعُ «حاويةٍ» أو «حاوياء» أو «حويَّةٍ». وفي **الفريد**: أما وزنه على الأول، والثاني في الأصل: «ففواعَل»، كـ«ضاربةٍ» و«ضوارب»، و«قاصعاء» و«قواصع»، وعلى الثالث: فـ«فعائل» في الأصل كـ«سفينة» و«سفائن».[٣١٥٥]

و«الفعيلة» تُجمع على «فَعَائِل»، كالمثال الأخير، و«الفَاعِلَاءَ» على «فواعل» كالمثال الثاني، وفي المعتلِّ تُجمع بألف في آخره كـ«البَلِيَّة» و«البَلَايَا»، والمراد: «المبَاعِر» و«المصَارِين» جمع «مصران» جمع «مصير»، وهو «مفعل» من «صار» إليه المقام، ومنه يعلم تسميتها بـ«المباعر» و«الحوايا».

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٤٧)

﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى التَّحريم أو الجزاء، منصوب المحلِّ على أنه ثاني مفعولي ﴿جَزَيْنَاهُمْ﴾ قدّم على عامله للاهتمام؛ فإنَّ «جزى» يتعدَّى إلى مفعولين، والتقدير: جزيناهم ذلك التحريم، أو ذلك الجزاء بسبب بَغْيهم وظلمهم وهو قتلهم الأنبياء بغير حقٍّ، وأخذهم الرِّبوا وأكلهم أموالَ الناس بالباطل.[٣١٥٦]

[٣١٥٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٤و-ظ؛ **حاشية الشهاب**، ١٣٤/٤؛ **نواهد الأبكار**، ٢٢٧/٦-٢٢٨.

[٣١٥٥] **الفريد** للهمذاني، ٧١٣/٢-٧١٤.

﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في الإخبار عن كلِّ شيءٍ على ما يطابق الواقع لا سيَّما في الإخبار عن التَّحريم والجزاء المذكورين، وفي الإخبار عن بغيهم،[٣١٥٧]أو فيما أوعدنا به العصاةَ لا نُخلفه، كما لا نُخلف ما وعدناه أهلَ الطاعة، فلمَّا عصَوْا وبَغَوْا ألحقنا بهم الوعيدَ وأحللنا بهم العقاب،[٣١٥٨] وبه تمسك الوعيد به في أنه لا يخلف في الوعيد، كما لا يخلف في الوعد؛ لأن الخلف في كلِّ واحدٍ منهما كذب، فيستحيل صدوره منه، ويجاب بأنه يجوز منه الخلف في وعيده بناءً على أنَّه فضل وكرم بخلاف الخلف في الوعد، فإنه نقيصة وأنشد في المعنى:

وَإِنِّي إِذَا أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ   لِمُخلِفُ إِيعَادِي ومُنْجِزُ مَوْعِدِي[٣١٥٩]

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ الآية. فيها تقريراتٌ:

الأول للمصنف: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ في ذلك وزعموا أنه تعالى واسعُ المغفرة، وأنه لا يؤاخذ بالبغي، ويخلف الوعيد جودًا وكرمًا. ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ لأهل طاعته، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ مع سعة رحمته ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾، فلا يغترُّ برجاء رحمته عن خوف نِقمتِه. ففي هذا التقرير سعةُ الرحمة للمطيعين، وذكرها للمكذَّبين للنَّهي عن الاغترار بها؛ لأنهم غير مستأهلين، وبأسه للمجرمين وذكره لهم للوعيد عليهم، وزجرهم عمَّا كانوا عليه ممَّا يؤدي إليه، ولَمَّا ورد أنَّ الظَّاهر يقتضي على هذا أن يقال: «وذو بأس شديد».

أجاب عنه قدس سره: بأنه أقام مقامه «ولا يردُّ بأسه» لتضمُّنه التَّنبيه على إنزال البأس عليهم مع الدَّلالة على أنه لازبٌ بهم لا يمكن ردُّه عنهم.

الثاني له قدس سره: ذو رحمة واسعة يمهلكم على التَّكذيب فلا تغترُّوا بإمهاله، فإنه لا يُهمل ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ حين نزل.[٣١٦٠]

ففي هذا التقرير سعةُ الرحمة وعدم ردّ البأس مصروف إلى المكذِّبين، لكن الأوَّل بالنَّظر إلى الإمهال، والثاني بالنَّظر إلى عدم الإهمال، ففي ذكرها نهيٌ لهم عن الاغترار بالإمهال نظرًا إلى عدم الإهمال.

الثالث لأبن الكمال أي: لا تُعرض عنهم ولا تؤيسهم عن رحمتي، بل كن ثابتًا في مقام الدَّعوة على قَدَمَي الإبشار والإنذار، وذلك أنَّ ما ذُكر كلمةٌ جامعةٌ لهما؛ أمَّا الإبشار فلِمَا فُهم من العبارة من أنه يقبل التَّوبَة، فإن رجعوا عن التَّكذيب فلهم الفوز، وأمَّا الإنذار فَلِمَا فُهم من إشارتها إلى أنه تع لسعة رحمته يمهل، ولَمَّا كان في الإمهال مَظِنَّة الاندفاع تداركه بقوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ حين ينزل ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ولا تغترُّوا بإمهاله.[٣١٦١]

ففي هذا التقرير ذكر سعة الرَّحمة نهي عن التَّأييس وإثبات له ع معلى قَدَمَي الإبشار والإنذار، أمَّا الإبشار فمن العبارة، وأمَّا الإنذار، فمن الإشارة وذكر عدم ردِّ البأس لتدارك مظنَّة الاندفاع النَّاشئة من الإمهال.

[٣١٥٦]**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٦٧/٤.

[٣١٥٧]**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٦٧/٤.

[٣١٥٨]**الكشاف**، ٧٢/٢.

[٣١٥٩]**فتوح الغيب**، ٢٨٠/٦.

[٣١٦٠]**أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٥.

[٣١٦١]**تفسير ابن كمال باشا**، ٤٤٨/٣.

وقال القشيري: فيه بيان تخصيص الأولياء بالكرامة والرَّحمة، وتخصيص الأعداء بالطَّرد واللَّعنة. فالصُّورة الإنسانيَّة جامعةٌ لهم والقسمة الأزليَّة فاصلةٌ بينهم.[٣١٦٢]

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨)﴾

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ إخبارٌ بما سيقولون ولِما قالوه، قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل ٣٥/١٦]، وفيه إعجازٌ من حيث إنه وقع كما أخبر، وعطف ﴿آبَاؤُنَا﴾ على الضَّمير في ﴿أَشْرَكْنَا﴾ [**١٥٣**/ظ] من غير تأكيد للفصل بـ«لا».

قال المصنف: «يَعنُون بتمرُّدهم أنَّ شِركهم وشركَ آبائهم، وتحريمَهم ما أحلَّ الله، بمشيئة الله. ولولاها لم يكن كمذهب المجْبِرة.[٣١٦٣]

ونحن نقول: نعم، كمذبهم في كون كلِّ كائنٍ بمشيئته، لكنهم يحتجُّون به على حقيقة الإشراك وتحريم الحلال وسائر ما ارتكبوا من القبائح، وعدم كونها معصيةً؛ لموافقتها المشيئة الَّتي تساوي معنى الأمر على ما هو مذهبُ القدريَّة من عدم الفرقة بين المأمور والمراد، وأنَّ كلَّ ما هو مرادُ الله ليس بمعصية منهيٍّ عنها.

وَالْمُجْبِرة وإن اعتقدوا أن الكلَّ بالمشيئة، لكن يعتقدون أنَّ القبائح معصيةٌ، ومخالفةٌ للأمر، يلحقها العذاب بحكم الوعيد، ويعفو عن البعض بحكم الوعد، فيصدِّقون الله فيما دلَّ عليه العقل والشَّرع من امتناع أن يكونَ أكثرُ ما يأتي في ملكه على خلاف مراده، والكَفَرة يكذبونه في لحوق الوعيد على بعض ما هو بمشيئته، ويزعمون أنَّ الكفر والمعاصيَ إذا كانت بإرادته لم يكن عليها عقابٌ ألبتَّة، ولم تكن مخالفةً للأمر، بل ربَّما كانت مرضيَّةً عنده.

وعلى تقدير أن لا يكون الكلُّ بمشية الله لم يكن المجبرة إلا كاذبين لا مكذِّبين كيف وقد ذهبوا إلى هذا تصديقًا لما لا يعدّ ولا يحصى من الآيات الواردة فيه، ولم يأوّلوا المشيئة بمشيئة القسر والإلجاء رجمًا بالغيب.

فحاصل الكلام في هذا المقام ما قال الإمام: من أنَّ في كلامهم مقدمتين: أن الكفر بمشيئته، وأنه يلزم منه اندفاع دعوة النبي. والذَّمّ إنما هو على الثانية؛ إذ الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يشاء من الكافر الكفرَ ويأمره بالإيمان ويعذبَه على الكفر، ويبعث الأنبياء دعوة إلى دار السَّلام، وإن كان لا يهدي إلا من يشاء.[٣١٦٤]

وقيل: الذمُّ لم يكن لتعليقهم بالمشيئة، بل لذكرهم ذلك عندما لزمتهم الحجةُ دفعًا للإلزام كما هو دَيْدَن المحجوج، إذا لم يبق له حجَّةٌ يتمسَّك بها، التَّشبُّثُ بالتعليق بالمشيئة، ونحوه ما ذكر في قوله: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة ٢/ ٢٣] يعني: لا تستشهدوا بالله، ولا تقولوا: الله يشهد أن ما ندَّعيه حقٌّ، فإن ذلك ديدن العاجز عن الحجّة.[٣١٦٥]

وقيل: بل؛ لأنهم كانوا يستهزؤن بالدِّين ويبغون ردَّ دعوة الأنبياء، وكان قد قرع مَسامعهم من شرائع الرُّسل تفويضُ الأمور إلى الله، فلمَّا طولبوا بالإسلام والتزام الأحكام تعلَّلوا به، ولم يكن غرضُهم ذكرَ ما ينطوي عليه عقدهم.[٣١٦٦]

[٣١٦٢] **لطائف الإشارات**، ٣١٦/١.

[٣١٦٣] **الكشاف**، ٧٣/٢-٧٤.

[٣١٦٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٤ظ؛ **حاشية الشهاب**، ٢٢٢/٤؛ **نواهد الأبكار**، ٢٣٢/٦-٢٣٣.

[٣١٦٥] **فتوح الغيب**، ٢٨٤/٦-٢٨٥.

وقال قدس سره: لو شاء خلافَ ذلك مشيئة ارتضاء كقوله: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام ١٤٩/٦] لَما فعلنا، أرادوا به أنهم على الحقِّ المرضيِّ عند الله لا الاعتذار من ارتكابِ القبائح بإرادته إيَّاها منهم حتى ينهضَ ذمُّهم به دليلًا للمعتزلة،[3167] لم يرد بقوله: «لو شاء خلاف ذلك مشيئة ارتضاء» تقييدُ المشيئة بمشيئة الارتضاء حتى يردَ عليه أنه تع، كما لم يرد منهم خلاف ذلك مشيئة ارتضاء لم يشأ منهم مشيئةً ساذجةً. فما وجه التَّقييد بل أراد به اعتبار الرضاء في الجانب الآخر، يعني: أنهم قالوا: لو شاء عدم إشراكنا ورضي به لتحقُّق ذلك العدم، ولَمَّا لم يتحقق علمنا أنه لم يَشَأْ ولم يرض عدم إشراكنا، وكان إشراكنا مرضيًّا مرادًا له.[3168]

وبهذا يظهر لك ما في تقرير **الشارح المرحوم** كلامه، ومع ذلك لو ترك القيد المذكور. وأجاب بالفرق بين المشيئة والرّضاء لَكان أسلم من الوارد وأنسب بأصل أهل السنة فتأمّل.

﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾

أي: جاؤوا بالتَّكذيب المطلق؛ لأن الله ركَّب في العقول وأنزل في الكتاب ما يدلُّ على براءته من مشيئة القبائح، والرُّسل أخبروا به، فمن علَّقها بمشيته فقد كذَّب التّكذيب كلَّه، وهو تكذيبُ الله وكتبه ورسله، ونَبَذَ أدلَّة العقل والنقل وراءَ ظهره.[3169]

هذا تفسيرٌ اعتزاليٌّ على ما يقتضيه كلام المصنف، وليت شعري! من أين الدَّلالة العقليَّة والنَّقلية على أنَّها لا تكون بمشيئة، بل ما يدلُّ عليه العقل السَّليم والنَّقل القديم أنَّ ما يجري في العالم بمشيته وقضائه وقدره، على أنَّ خلق القبيح ومشيئة ليس بقبيحٍ، بل القبيحة اكتسابه والتّلبس به. وقد دلَّ قوله: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ على أنَّه لم يرد ردُّهم في تعليق الأمر بالمشيئة، بل أراد ردّهم في أنَّهم ذكروا ذلك ردًّا لدعوة الأنبياء وادِّعاء أنَّ ما كانوا عليه لما كان بمشيئة الله كان مرضيًا عنده، وذلك لأنه ذكر التَّكذيب دون الكذب ولو أراد ردّهم في التَّعليق المذكور لذكر الكذب ويقال: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾. ويؤيّده أيضًا قوله: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ﴾ [الأنعام ١٥٠/٦]، فإنَّه صريحٌ في أنَّهم [**١٥٤**/و] يدعون أنَّ الله حرَّم هذه الأشياء وأنَّهم على الحقِّ المشروع المرضي.

وأمَّا قراءة «كَذَبَ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ» بالتَّخفيف.[3170] فشاذَّةٌ، بل كادت أن تكون موضوعة، وابن جنّي ما ذكرها في **الاحتساب**، وردَّها الإمام أبلغَ ردّ. والقراءة بالتشديد هي المتَّفق عليها، والاستدلال بها لا بهذه. ولو أريد التفصّي بها يقال: إن قوله: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ دفعٌ لداعيهم إلى الإيمان. المعنى: إن الله لم يشأ منَّا الإيمان على زعمكم، فامضوا حيث جئتم منه، واتركوا فإذا قالوه، أجيب عنه بأنهم كذبوا في ذلك؛ لأن مشيئة الله مخفيّةٌ عن الخلق، ولا يعلم أحدٌ ما قُضي له من الكفر

[3166] **كتاب الإرشاد** للجويني، ص٢٥٠-٢٥١؛ **فتوح الغيب**، ٢٨٦/٦؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و٣٤٤ظ؛ **نواهد الأبكار**، ٢٣٣/٦.

[3167] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٥.

[3168] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٦٨/٤.

[3169] **الكشاف**، ٧٣/٢-٧٤.

[3170] **الكشاف**، ٧٣/٢-٧٤.

والإيمان، فمن ادَّعى العلم به يكون كاذبًا،[٣١٧١] أو يقال: كذلك كذب الذين من قبلهم حيث علقوا الأمر بالمشيئة وجعلوا ذلك دليلَ الحقَّانيَّة والمشروعيَّة، ولا شكَّ أن هذا الجعل كذبٌ.

﴿حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ غاية امتداد التَّكذيب، أي: حتى أنزل عليهم العذاب بتكذيبهم.[٣١٧٢]

فإن قيل: فمن كذب منهم ولم يعذب في الدنيا، بل مات حَتْفَ أَنفِه لم يكن العذاب غايةَ التكذيب؟

قلنا: بلى، لما لم يرجع عن التَّكذيب يكون مكذبًا إلى الموت وبه يذوق بأس الله.

﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ من أمر معلومٍ يصحُّ الاحتجاج به فيما ادَّعيتم ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ وهذا من التَّهَكُّم والشَّهادة بأنّ مثل ما ادّعوا محالٌ أن يكون له حجَّة ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ في ادِّعائكم وزعمكم المذكور ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تقدِّرون أنَّ الأمر كما تزعمون، أو تكذبون على الله.[٣١٧٣]

وقال قدس سره: وفيه دليلٌ على المنع من اتِّباع الظنِّ لا سيَّما في الأصول، ولعلَّ ذلك حيث يعارضه قاطع.[٣١٧٤]

قيل: عليه لَمَّا كان الكلام مع مَن ادَّعى دعوًى باطلةً مستندة إلى الظنِّ لم يلزم من عدم اعتبار ظنِّه عدم الاعتبار مطلقًا، فلا دلالة فيه على المنع، ودَفع بأنَّ الذمَّ على مجرَّد اتِّباع ا لظَّن مع قطع النَّظر عن بطلان دعواهم فالدَّلالة على حاله، لكن قوله: لا سيَّما في الأصول يقتضي المنع من اتِّباعه في الفروع أيضًا مع أنَّ أكثرَ الاجتهاديات على الظَّن، فالدَّفع ما أشار إليه في بعض المواضع من أنَّ الظَّنَّ في طريقه، واللائح جواز الاتِّباع فيما لا قاطعَ فيه سواءٌ في الأصول أو غيرِها.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(١٤٩)

يعني: فإن كان الأمرُ كما زعمتم أنَّ ما أنتم عليه بمشيئة الله، فللّه الحجة البالغة عليكم على قَوْدِ مذهبكم ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ منكم ومن مخالفيكم في الدِّين، فإنّ تعليقكم دينكم بمشيئة الله يقتضي أن تُعلّقوا دين مَن يخالفكم أيضًا بمشيئته، فتُوالوهم ولا تُعادوهم؛ لأنّ المشيئة تجمع بين ما أنتم عليه وبين ما هم عليه.[٣١٧٥]

يعني: أنّ الفاء في ﴿فَلِلَّهِ﴾ جواب شرط محذوفٍ مقدّر ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ﴾ بمنزلة البيان لقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾فهو أيضًا على تقدير ذلك الشّرط لا في نفس الأمر، فلا يلزم منه ما يعطيه كلمة ﴿لَوْ﴾ من أنّ عدم هداية الكلّ إنما هو لعدم مشيئة ذلك، فعلى ما يقتضيه ويعود إليه مذهبكم أيها القائلون: لو شاء الله ما أشركنا يكون ما عليه المخالفون بمشيئة الله، كما أنّ ما أنتم عليه بمشيئته، فينبغي أن تعذروهم على ذلك كما تعذرون أنفسكم على ما أنتم عليه ولا يكون بينكم معاداة، وهذا كما ترى تفسير أيضًا على أصل الاعتزال بمقتضى كلام المصنف. ولا أدري كيف ذهب إليه أنه لو أُريد هذا المعنى لَكان لهم حجّةً ظاهرةً، وهي أنَّ تلك المعاداة والمخالفة أيضًا بمشيئة الله.

[٣١٧١] **فتوح الغيب**، ٦/٢٨٦.

[٣١٧٢] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٥؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٦٩.

[٣١٧٣] **الكشاف**، ٢/٧٣-٧٤.

[٣١٧٤] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٥.

[٣١٧٥] **الكشاف**، ٢/٧٤.

والمفسّرون على أن الحجّة البالغة هي الكتاب والرّسول والبيان، والمعنى: وإذ قد ظهر أن لا حجّة لكم فلله الحجة البالغة، لكن لا يهدي الكلّ إليه لعدم مشيئته، فإنّ الأمور كلّها بمشيئة الله تعومع هذا فهو يبعث الأنبياء وينزل الكتب وينصب الأدلّة، إمّا لأن له في ذلك حكمًا ومصالح لا يهتدي إليها غيره، وإما لأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.[٣١٧٦]

فلا وجه لدفعهم دعوةَ الرّسول وادّعائهم أنهم على الأمر المشروع المرضي بقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ لما عرفت هناك أنّ كونه بمشيئة الله لا يدفع الدعوة ولا يوجب الحقّانية، فإنه يفعل ما يشاء فله أن يشاء من الكافر الكفر ويأمره بالإيمان وتعذيبه على الكفر ويبعث الأنبياء دعوة إلى دار السّلام وإن كان لا يهدي إلا من يشاء.

وقال ابن الكمال: الفاء للسببيّة، والجملة مسبّبة عمّا دلّ عليه الكلام السّابق، أي: وإذ قد ظهر عدمُ تمام حجّتكم فالحجّة التّامة له تع والفاء في ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قامت مقام «إنّ» في تحقيق ما دلّ عليه الكلام السّابق من كونهم محجوجين، وذلك أن فيه إلزامًا لهم بناءً على قولهم، أي: بل قد صدقتم، ولكن كما شاء كفركم لو شاء هدايتكم لهداكم كلّكم، [**١٥٤**/ظ] فبأي شيء[٣١٧٧] علمتم أنّه لم يشأ هدايتكم حتى أصررتم؟!

وهذا تهييج لمن عسى أن يكون له استعدادٌ منهم فينقمعَ ويهتدي، فيرجعَ عن الشرك ويؤمنَ.

وفيه فائدة أخرى، وهي تداركُ ما يخطر بالبال من إبطال احتجاجهم أن يكون الإختلال في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾بتصديقهم في ذلك المقال، ففيه حجّة دامغة لأهل الاعتزال.[٣١٧٨]

وقال **الشارح المرحوم**: مشيئةُ الله وعلمُه بما يكون من المشركين والعُصاة لا تكون علّةً موجبةً لها؛ لأنها تابعةٌ لعلمه وهو تابع لما عليه أعيان المكلّفين قبل وجودهم، فلمّا اقتضت ذوات الأشقياء إتباع الشّهوات وإضاعة عمرهم في المعاصي، والمنكرات علم ذلك منهم. وشاء فكان ما صدر عنهم بمشيئة الله التّابعة لعلمه بهم وبما تقتضي طبائعهم الخبيثة فمشيئته وعلمه الأزليان لا يوجبان ما وقع من العبد، بل هو مستند إلى كسبه وسواء اختياره ومع أقدارهم على الخير والشر، وإعطاء الأسباب وإزالة الموانع لا يصحّ ادّعاءهم العجز نظرًا إلى المشيئة؛ لأنها أمر خفي،[٣١٧٩] والحكم على ظاهر الحال والله محوّل الأحوال.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)﴾.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا﴾

﴿هَلُمَّ﴾ فيه لغتان، فعند الحجازيين: يستوي فيه الواحدُ والتّثنية والجمع، والمذكّر والمؤنّث نحو: هلُمّ يا زيدُ، يا زيدَان، يا زيدُون، يا هِندُ، يا هندَان يا هندَات.

وعند بني تميمٍ تلحقُها الضّمائرُ كما تلحق سائر الأفعال، فيقال: هَلُمَّ، هَلُمَّا، هَلُمُّوا، هلمِّي هلمَّا هلمُمْن.

[٣١٧٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٤ظ-٣٤٥و.

[٣١٧٧] ج + أقول بوجد الضلالما شاء الله كان لم يشأ لم يكن فاليتأمل.

[٣١٧٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٤٥١.

[٣١٧٩] ج + عن الخلق ولا يعلم أحدٌ ما قُضي له من الكفر والإيمان فمن ادّعى العلم به يكون كاذبًا كما مرّ. منه. **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٦٩-١٧٠.

وجمهور البصريين على أنّها مركبّة من هاء التّنبيه، ومن «الْمُمْ» أمرًا من: لَمَّ، يلمُّ: إذا قصد، فلمّا رُكّبتا حذفت ألفها لكثرة الاستعمال، أو لالتقاء الساكنين تقديرًا بناءً على أنّ حركة اللّام عارضةٌ، وإنّما ضُمَّت بنقل حركة الميم إليها للإدغام، فكان كلّ واحدٍ من ألفهَا واللّام ساكنًا، وسقطت همزة الوصل للاستغناء عنها بحركة الميم المنقولة إلى اللام لأجل الإدغام، وأُدغمت الميم في الميم، وبُنيت على الفتحة للخفّة، وهاء التنبيه ههنا لاستعطاف المأمور به.

وقيل: مركّبة من «هاء» التنبيه، ومن «لَمَّ» أمرًا من «لَمّ الله شَعْثه»، أي: جمعه، فمعنى: هلُمّ اجمع نفسَك إلينا، فحذفت ألفُها لكثرة الاستعمال، وليس فيه حينئذٍ إلا عمل واحد، وهو حذف ألفها وهو مذهب الخليل وسيبويه.

وذهب الفرّاء إلى أنها مركّبة من «هَلْ» التي للزّجر، ومن «أمَّ» من «الأَمّ» وهو القصد، وليس فيه إلا عملٌ واحد، وهو نقل حركة الهمزة إلى لام «هل».[٣١٨٠]

وهذا بعيد؛ لأنَّ لفظ «أم» و«هل» استفهام ولا معنى لدخوله على الأمر وإن كانت بمعنى «قد» فلا تدخل الأمر وإن كانت «هل» اسمًا للزّجر فتلك مبنيّة على الفتح، ثمَّ لا معنى لها هُهنا. وهلمّ هنا جاء على لغة الجاز وهو الأفصح وإن كان التّميمي فصيحًا أيضًا، كما في قوله ع م: «إنَّ لِلَّهِ مَلائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ فَيَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فإذا وجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنادَوْا: هَلُمُّوا إلى حاجَتِكُمْ».[٣١٨١] وهي تكون متعدّيةً بمعنى: «أحضر» ولازمةً بمعنى: «أَقْبل»، فمن جعلها متعديّة أخذها من «اللَّمّ» وهو القصد، ومن جعلها قاصرةً أخذها من «اللمم» وهو الدنوّ والقرب. واسم الفاعل يعمل عمل مسماه متعدّيًا كان أو لازمًا وههنا متعدّيةٌ؛ لأنّ ﴿شُهَدَاءَكُمْ﴾ مفعول به، أي: أحضروها.[٣١٨٢]

ولَمّا ورد أن يقال: كيف أمره باستحضار شهدائهم والحال أنَّهم شهداء بالباطل؟

أجاب عنه العلّامتان بأنه: لإلزام الحجّة وإلْقَام الحجَر، والإظهار للمشهود لهم بانقطاع الشّهداء أنّهم ليسوا على شيء، لتساوي أقدامِ الشَّاهدين والمشهود لهم في أنَّهم لا يرجعون إلى ما يصح التَّمسّك به.[٣١٨٣] وبهذا تبيّن وجه إضافة الشّهداء إليهم والتَّوصيف بالموصوليّة.

فإنّ الإضافة لكونها من طرق تعريف المضاف تدلّ على أنّ لهم أشخاصًا معهودةً بكونهم شهداءَ لهم، وأنَّهم إنما ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه بشهادة هؤلاء. وكذا الموصوليّة فإنّ الموصولات إنّما جعلت معارف لكونها موضوعةً؛ لأن يطلقها المتكلّم على ما يعتقد أنّ المخاطب يعرفه بكونه محكومًا عليه بحكمٍ حاصلٍ له وهو مضمون الصِّلة، فإنّ صلة الموصول لا بدَّ أن تكون جملةً معلومة الانتساب إلى ذات الموصول قبل إيرادها وإجرائها عليه.[٣١٨٤]

ولو قال: شهداء يشهدون لاوهم طلب شهداء بالحقّ، وليس بغرضٍ على ما يشهد به المقام، ولا يلائم بل يناقض لقوله: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ بمعنى: لا تُسلّمْ؛ لأنَّ اللّازم للشَّهادة بالحقّ هو التَّسليم لا المنع منه.[٣١٨٥] ومثاله قول الحاكم لمن [**١٥٥**/و] يدَّعي أنّ له شهداءَ، وهو يَعرف كذبهم: «هاتِ شهداءَكَ» فإذا شهدوا وظهر كذبُهم كان أَفحمَ له.[٣١٨٦]

[٣١٨٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٧٠-١٧١.

[٣١٨١] **صحيح البخاري**، ٨٦/٨ (٦٤٠٨).

[٣١٨٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٧٠-١٧١.

[٣١٨٣] **الكشاف**، ٧٥/٢؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٥-٥٢٦.

[٣١٨٤] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٧١/٤.

[٣١٨٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٥و.

﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٠)

﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ كذبًا وزُورًا إن الله حرّم هذا ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾أي: فلا تسلِّمْ لهم ما شهدوا به ولا تصدِّقهم؛ لأنَّه إذا سلّم لهم فكأنَّه شهد معهم.

فقوله: «**فكأنَّه شهد معهم**» ربَّما يُشعر بأن ﴿لَا تَشْهَدْ﴾مستعارٌ بمعنى: «لا تُسلّم» استعارةً تبعيَّةً حيث شبّه عدم التَّسليم بعدم الشَّهادة، فأطلق عليه اسم الشَّهادة استعارةً تصريحيةً فاشتقّ منه قوله: ﴿فَلَا تَشْهَدْ﴾ فكان استعارةً تبعيّةً.[٣١٨٧]

وقيل: مجاز مرسل من باب ذكر اللازم وإرادة الملزوم؛ لأنَّ الشَّهادة من لوازم التّسليم. فاطلق اللازم وأريد الملزوم، ويجوز أن يكون كنايةً بهذا الاعتبار، وأن يكون إطلاق الشَّهادة على التَّسليم لقوله: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ فهو من المشاكلة.

وقال ابن الكمال: كنّى عن ذلك بالشّهادة معهم مبالغةً في النّهي؛ دلالةً على أنّ الإصغاء إليهم دخول في عداد الشّهداء بالباطل.[٣١٨٨]إن أراد المبالغة من حيث إنه إثبات الشّيء بدليل على أسلوبٍ برهانيٍّ يكون المبالغة بالنَّظر إلى النَّهي عن التَّسليم، فلا يدلُّ على أن الإصغاء إليهم دخول في عدادهم، وإن أراد المبالغة من حيث إنه أفاد أن التَّسليم دخولٌ في العداد فدلّ على ذلك فيرد عليه أنّ الظّاهرَ غيرُ مقصودٍ في الكتابة فلا يفيد ذلك، اللّهمّ إلا أن يقال من حيث إنّ الظَّاهر غير ممتنع في الكلام بل حائز الإرادة وإن لم يرد وفيه أيضًا ما فيه، ولعلَّ الأولى، والعلم عند المولى، أن يقال: أمّا وجه عدم إرادة الظَّاهر فلأنَّ المقصود من الكلام النّهي عن شهادتهم الباطلة، والحثّ على بيانِ فسادها لا النَّهي عن الشَّهادة معهم، لكن لما كان التَّسليم في قوة الشهادة معهم وفي مثابتها ذكر ما لزم التَّسليم وما يؤول إليه مبالغة ودلالة على أنّ التسليم في الحال يكون في هذه المثابة في المآل فيكون من باب المجاز الأوّلي، كما في قوله: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف ١٢/٣٦].

وأظهر مقام المضمر حيث قال: ﴿أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ولم يقل: أهواءهم مع أنهم مذكورون. قيل: للدَّلالة على أنَّ مَنْ كَذَب بآيات الله وعَدَل به غيره فهو متبع للهدي لا غير؛ لأنَّه لو اتَّبع الدَّليل لم يكن إلّا مصدّقًا بالآيات موحّدًا لله وتسجيلًا عليهم بالتَّكذيب وترتيبًا عليه في الآية، فيعلم أن المتّصف بهذه الأوصاف لا تكون شهادتهم عند العقلاء مقبولةً، ففيه تعليقُ عدم التَّسليم بالوصف الذي يقتضي ذلك وذكر الأهواء إشارةً إلى أنَّ ما قالوه وما ذهبوا إليه هو محضٌ لا يرتضيه العقل السليم، ولا يقتضيه النقل القويم وما كان كذلك ليس من شأنه أن يُتَّبع كما أنَ من شأن من اتّصف بما ذكر كذلك.

وبهذا تبيّن أنّ الظَّاهر أن يكون قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ من قبيل عطف الصِّفة على الصِّفة، وإيراد العاطف والموصول للتَّنبيه على استقلال كلّ واحدٍ في الشّناعة، ثمَّ أورد الجملة الحالية دلالةً على أنّهم مع تلك الصفات الذميمة بربّهم الذي ربّاهم بأنواع النّعم يعدلون يجعلون له عديلًا ما لا يجدي تربية ولا يعطي نعمة فهي حالٌ مقرّرةٌ لجهة الإشكال والعدول فيه إلى الاسميَّة للدّلالة على تقرر الأمر وثبوته.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾

[٣١٨٦]**فتوح الغيب**، ٦/٢٨٩.

[٣١٨٧]**حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٤ظ-٣٤٥و؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/١٧١.

[٣١٨٨]**تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٤٥١.

﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ**﴾ ﴿تَعَالَوْا﴾ أمر من التّعالي. وأصله: أمر مَن كان في مكانٍ عالٍ لمن هو أسفل منه، فعُمِّم اتِّساعًا لكثرة الاستعمال. فاستعمل في مطلق الإتيان سواء كان من السّفل إلى العلو، أو بالعكس أو غيرهما، ثم اتّسع فيه فاستعمل في الأمر بالإقبال والتّوجه والإصغاء وهو المراد ههنا.

قال المصنف: ﴿مَا حَرَّمَ﴾ منصوب بفعل التلاوة، بمعنى: ﴿أَتْلُ﴾، الذي حرّمه ربُّكم، أو بـ﴿حَرَّمَ﴾ بمعنى: أَتْلُ أيَّ شيءٍ حرّم ربكم؟ لأن التّلاوة من القول.[3189]

فالأوّل: على أنّ ﴿مَا﴾ موصولةٌ، والعائد محذوفٌ، والثاني: على أنّ ﴿مَا﴾ استفهاميةٌ، والجملة أعني: ﴿حَرَّمَ﴾ مع مفعوله المقدّم مفعول ﴿أَتْلُ﴾؛ من حيث تضمنه معنى القول، كأنّه قيل: أَتْلُ أَيَّ شيءٍ حرّم؟

والإشارة إلى هذه النكتة قال في الأوّل بفعل التلاوة، أي: من غير أن يأوّل بمعنى فعل آخر، و﴿مَا﴾ الاستفهامية لا تصلح أن تكون متعلِّقةً بالتِّلاوة؛ لأنه يبطل صدارتها فيتعلّق بـ﴿حَرَّمَ﴾المتأخّر [**١٥٥**/ظ] ليكون صدرًا في جملتها، ولا يخفى أن المنصوب بـ﴿حَرَّمَ﴾مجرّد ما لا حرّم، ففي اللّفظ أدنى تسامح لوضوح المقصود.[3190]

وههنا احتمالٌ آخر وهو: أن تكون ﴿مَا﴾ مصدريّةً متعلّقةً بـ﴿أَتْلُ﴾ أيضًا، أي: أتلُ تحريمَ ربِّكم، ونفس التَّحريم لا يُتلى، وإنما هو مصدرٌ واقعٌ موقعَ المفعول به، أي: أتل محرّم ربّكم الذي حرّمه عليكم، ولهذا التَّكلّف لم يذكره المصنف.

فإن علَّقتَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بـ﴿حَرَّمَ﴾ فهو الوجه؛ لأنَّه الأقرب، وهو اختيار البصريين. وإنْ علَّقته بـ﴿أَتْلُ﴾ فجيِّدٌ؛ لأنه الأسبقُ وهو اختيار الكوفيين، فالتقدير في هذا الوجه: أَتلُ عليكم الذي حرّم ربُّكم.[3191]

ولَمّا بيَّن تعالى فسادَ ما يقوله الكفَّار: إن الله حرّم علينا كذا وكذا أردفه بيان الأشياء التي حرّمها عليهم، وهي الأشياء المذكورة في هذه الآيات لا ما زعموه.

وقد سلك سبحانه وتعالى في تفصيل المحرّمات إلى أسلوبٍ لطيفٍ وهو أنَّه نهى عن أنفس بعض المحرّمات، وعدل في بيان حرمة بعضها إلى الأمر بضدها مبالغةً في النَّهي عن أنفسها، وتنبيهًا على وجوب أضدادها، مثل أن قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وغيره، فإنه تع لم يكتف بالنَّهي عن إساءة الوالدين، بل أمر بالإحسان إليهما والحساب الإحسان إليهما يستلزم النَّهي عن إساءتهما، فالأمر به بمنزلة إثبات حرمة الإساءة ببيّنة، فيكون أبلغ من التَّصريح بحرمتها والنّهي عنها. ثمَّ إنَّ الأمر بالإحسان كما يدلّ على حرمة الإساءة أيضًا يدلّ على وجوب الإحسان؛ لأن النهي عن الشّيء لا يستلزم إيجاب ضده لجواز أن يكون ضدّه جائز الثبوت والانتفاء، فلمّا أمر بالإحسان إليهما علم حرمة الإساءة، وعُلم أيضًا أنَّ الإحسان إليهما واجبةٌ ألبتَّة وليس جائز الطرفين، وكذا الحال في غيره ممَّا أمر به، وأيضًا كانت العرب آخذين ما نُهوا عنه، ومائلين بالطبع إلى ما أُمروا به، فذكر النَّهي فيما كانوا عليه قلعًا لهم عنه، وذكر الأمر فيما كانوا عليه إبقاء لهم.

وهذه الآية وآيتان بعدها محكمات، كانت أحكامُها ثابتةً في كلّ الأمم، لم تُنسخ، ولا نُسَخ، وهنّ جوامعُ أصول الدِّين ومعالي الأخلاق، وفيها مصالح الدين والدنيا.[3192]

[3189] **الكشاف**، ٢/٧٥؛ **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٥-٥٢٦.

[3190] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و٣٤٥أ.

[3191] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ١٢٥/٩.

[3192] **التيسير في التفسير** ، ٦/ ٢٥٢.

وقال كعب الأحبار: هذه الآية مفتتح التورية: بسم الله الرحمن الرحيم قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم.[٣١٩٣] وفيها فوائد جميلة، وعوائد جليلة.

﴿**أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾ إنْ جعلت «أَنْ» مفسّرة على أنَّ «لَا» ناهيةٌ، والنَّواهي بيانٌ لتلاوة المحرّمات تَوجّه عليه، عطف ﴿أَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام ١٥٣/٦] على ﴿أَنْ لَا تُشْرِكُوا﴾، مع أنَّه لا معنى لعطفه على ﴿أَنْ﴾ المفسِّرة مع الفعل. فيكون عطف الخبري على الإنشائي مع عدم استقامة المعنى؛ لأن المفسّرة مع الفعل بيانٌ لتلاوة المحرّمات، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي﴾ ليس كذلك.

وعطف الأوامر من نحو: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ على النَّواهي مع أنها لا تصلح بيانًا لتلاوة المحرَّمات بل الواجبات.

وأجيب عن الأوَّل بأن قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي﴾ لا يعطف على ﴿أَنْ لَا تُشْرِكُوا﴾، بل تعليلٌ للاتّباع متعلّقٌ بـ﴿اتَّبِعُوهُ﴾ على حذف اللّام، والضّمير للصّراط لتقدُّمه في اللَّفظ.

فإن قيل: فيعطف ﴿اتَّبِعُوهُ﴾ على ﴿لَا تُشْرِكُوا﴾ ويقدّر: فاتَّبعوا صراطي؛ لأنَّه مستقيمٌ، فيجتمع حرفَا عطفِ الواو والفاء ولا يستقيم، وإن جعلنا الواو استئنافية اعتراضية.

قلنا: ورودُ الواو والفاء عند تقديم المعمول فصلًا بينهما شائعٌ مثل: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر ٣/٧٤]، فإن أَبَيْتَ الجمع ألبتَّة ومنعتَ زيادة الفاء، فاجعل المعمولَ متعلّقًا بمحذوفٍ والمذكور بالفاء عطفًا عليه مثل: عظِّم فكبّر، وآثِروه واتَّبعوه.

وعن الثاني بأنَّ عطف الأوامر على النّواهي الواقعة بعد ﴿أَنْ﴾ المفسّرة لتلاوة المحرّمات مع القطع[٣١٩٤] بأنَّ المأمور به لا يكون محرّمًا دلّ على أن التَّحريم راجعٌ إلى أضدادها، كأنَّها ذُكرت وقُصد لوازمُها التي هي النّهي عن الأضداد، حتى كأنَّه قيل: أَتل ما حرّم أن لا تسيؤوا الوالدين، ولا تبخسوا الكيلَ والميزانَ، ولا تتركوا العدل، ولا تنكُثوا العهد، ومثله وإنْ لم يجُز[٣١٩٥] بحسب الأصل، لكن يجوز بحسب العطف.[٣١٩٦]

وإن جُعلت مصدريةً و«لا» نافيةً توجه عليه أنه في محل النَّصب بدلًا من ﴿مَا حَرَّمَ﴾ فيلزم أن يكون المحرم ترك الإشراك وأنَّ الأوامر عطف عليه، فيلزم عطف الإنشائي على الخبري.

وأجيب بأن الكلام تمَّ عند قوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ وابتدأ بقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تُشْرِكُوا﴾ أي: الزموا تركَ الشِّرك، والأوامر معطوفة على قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾؛ لأنه بمعنى: الزموا، أو بأنَّه يدلُّ على كما ذكر، و«لا» مزيدة وعطف الأوامر باعتبارِ حرمة أضدادها، وعطفها على الخبر باعتبار تَضْمينه معنى الطَّلب.

وقول المصنّف: يستقيم عطف: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي﴾ على ﴿أَنْ لَا تُشْرِكُوا﴾، إذا جعلتَ هي النّاصبة، حتَّى يكون المعنى: أَتلُ عليكم نفيَ الإشراك والتَّوحيد، وأتل عليكم أنّ هذا صراطي مستقيمًا؟[٣١٩٧]

[٣١٩٣] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ١٠٦/٩.

[٣١٩٤] ج + النظر.

[٣١٩٥] ج – أَتل ما حرّم أن لا تسيؤوا الوالدين، ولا تبخسوا الكيلَ والميزانَ، ولا تتركوا العدل، ولا تنكُثوا العهد، ومثله وإنْ لم يجُز.

[٣١٩٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٥ظ؛ **نواهد الأبكار**، ٢٤٠/٦-٢٤١.

[٣١٩٧] **الكشاف**، ٧٦/٢.

أخذ بظاهر الحال، وإلا فعند التحقيق لا استقامة له؛ لأنّ ﴿أَنْ لَا تُشْرِكُوا﴾ إنما يصير مفعول ﴿أَتْلُ﴾؛ إذا جعل بدلًا من ﴿مَا حَرَّمَ﴾ ، و﴿مَا حَرَّمَ﴾ ليس نفي الإشراك بل الإشراك وعلى تقدير جعل «لا» مزيدة [**١٥٦**/و]حتى يكون المعنى: أَتْلُ ما حرّم الإشراك ولا استقامة لعطف ﴿أَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي﴾ على ﴿أَنْ لَا تُشْرِكُوا﴾؛ لأنه ليس بمحرّم قطعًا فالوجه عطفه على ﴿مَا حَرَّمَ﴾.[٣١٩٨]

وأمّا جعل «لا» ناهية موقع الصّلة؛ لأن المصدريّة على ما هو المذهب للمصنّف نقلًا عن سيبويه غير مبال باجتماع النّاصب والجازم لكون الجازم في نفس الفعل، والنّاصب في لا مع الفعل ولا سبيل إليه هنا؛ لأنّ زيادة «لا» النّاهية ممّا لم يقل به أحدٌ ولم يرِدْ به كلامٌ، أو بأنه ليس في محلّ النّصب، بل في محلّ الجرّ على حذف لام العلّة، والتقدير: أَتلُ ما حرَّم عليكم لئلا تشركوا، ولأن تحسنوا بالوالدين إحسانًا إلى آخره، أو في محلّ الرّفع أي: المحرّم أن لا تشركوا بزيادة «لَا»، أو المتلوّ بأن لا تشركوا.

و﴿شَيْئًا﴾ مصدر عبارة عن الإشراك، أي: إشراكًا ما، أو المفعول، أي: شيئًا من الإشراك وهو يعمّ أن يجعل له شريك، وأن يطاع مخلوقٌ في معصية والرّياء والسّمعة.[٣١٩٩]

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

الإحسان إلى الوالدين: برُّهما، وحفظُهما، وصيانتُهما، وامتثالُ أمرهما، وإزالة الرِّقِ عنهما، وترك السَّلطنة عليهما.[٣٢٠٠]

و﴿إِحْسَانًا﴾ مصدرٌ ناصبة ما قدّر في تقرير العطف، وقوله: ﴿أَوْلَادَكُمْ﴾ أشعر بأنه كان منهم مَنْ يقتل البنين كما أنّ أكثرَ أمرِهم قتلُ البنات، ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ من أجل إملاق ومن خشيته، كقوله: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء ١٧/٣١].

وهذا إشارةٌ إلى عدم الفرق بين ما في السّورتين بأن قدر المضاف ههنا، لكن الظّاهر الفرق بأنّ الخطاب ههنا للفقراء؛ فإن قوله: ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ يدلُّ على أنّ موجب القتل الفقر الحاضر، وقوله: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ اعتراض بين المتعاطفين لنفي عليه ما كانوا يقتلونهم لأجله بالبرهان، أي: ذلك بناءً على ظنّ أنّكم ترزقون أولادكم وليس كذلك، ولذا قدّم الضّمير للحصر، أي: نحن نرزق لا أنتم.

ولَمَّا دلَّ قوله: ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ على فقر حاضر آخر ضمير الأولاد، أي: ليس رزقهم عليكم، بل كما نرزقكم نرزقهم بخلاف ما في سورة بني إسرائيل؛ فإن هناك ذكر ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء ١٧/٣١]. وذلك يدلُّ على أنّ الخطاب فيها للأغنياء؛ فلذلك قدّم هناك ضميرُ الأولاد فقال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء ١٧/٣١]. فلا تخافوا الفقر بسببهم فهذا إنما يليق بالأغنياء؛ لأن الخسّة تدل على توقع الفقر لا حضوره، وأيضًا قال في **الأساس**: أَملَق الرَّجل: أنفق ماله حتى افتقر.[٣٢٠١]

ولَمَّا كان الإملاق باعتبار بدايته إنفاقًا وباعتبار نهايته فقرًا جاز استعمالُه في كلٍّ منهما. فناسب أن يفسَّر الإملاق ههنا بالفقر، وهناك بالإنفاق.[٣٢٠٢]

[٣١٩٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٦و.

[٣١٩٩] **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٤/ ١٧٣.**

[٣٢٠٠] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ١٠٦/٩.

[٣٢٠١] **أساس البلاغة** «ملق»؛ **تفسير ابن كمال باشا، ٤٥٤/٣.**

[٣٢٠٢] **تفسير ابن كمال باشا، ٤٥٤/٣.**

و﴿مِنْ﴾ سببيّة متعلّقة بالفعل المنهيّ عنه. و﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ في محل النَّصب على أنه بدلٌ من ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ بدلَ اشتمال، أي: لا تقربوا ظاهرَها وباطنها، كقولك: ضربت زيدًا ظاهره وباطنه، و﴿مِنْهَا﴾ حالٌ من فاعل ﴿ظَهَرَ﴾ فيتعلّق بمحذوف، وحذف «منها» بعد قوله: ﴿بَطَنَ﴾؛لدلالة الأوّل عليه.

قيل: كانوا يكرهون الزّنى علانيةً ويفعلون سرًا فنُهوا عنهما. وقيل: ما ظهر: الخمر وما بطن: الزّنى. والأولى أن يعمَّ جميع ما ظهر وما بطن من أنواع الفواحش، ولا يخصّ بنوع.[٣٢٠٣]

وَلَمَّا كان في إطلاق النفس شمولٌ للنفوس الحيوانيَّة –والأصل في قتلها الإباحة– قيَّدها بقوله: ﴿حَرَّمَ اللهُ﴾.[٣٢٠٤]

و﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ استثناء من ﴿لَا تَقْتُلُوا﴾، أو من قتلها المقدّر بعد قوله: ﴿حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أو وصف لمصدرٍ محذوفٍ، أي: إلا قتلًا ملتبسًا بالحقِ، أي: بما يحقُّ به قبلها لكفر بعد إيمانٍ، ورجمٍ بعد إحصانٍ، وقتل نفس ظلمًا.

ومنع وترك الصلاة عند المالكية والشافعية والحنابلة، وقد قَاتَل الصدّيقُ مانِعِي الزكاة. وفي التنزيل: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة ٩/٥].[٣٢٠٥]

﴿ذَلِكُمْ﴾ في موضع رفع بالابتداء، والخبر ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ﴾، أو في موضع النّصب على معنى: ألزمكم ذلك، و﴿وَصَّاكُمْ﴾،تفسيرٌ له.[٣٢٠٦]والإشارة إلى الأحكام المفصّلة والتَّوصية بحفظها؛ لئلَا يهملَ.

وقال ابن الكمال: ولَمَّا كان في الوصية معنى الاهتمامِ والمحافظة زيادةً[٣٢٠٧] على معنى الطَّلب استُعيرت للأمر المؤكَّد، والموصَّى به نفسُ ما ذكر، لا حفظُه.[٣٢٠٨]

فمعنى ما ذكر أوَّلًا: [**١٥٦**/ظ] أنّ التّوصية غير ما ذكر أوَّلًا من الأحكام؛ كأنه لما أمر ونهى وحكم، وصّى بعد ذلك بحفظها، والاهتمام بها، كما يقول السَّيد لعبده بعدما أمر ونهي أوصيتك به.

ومعنى الثاني: أنه إعادة له بلفظ التّوصية لما ذكره من العلّة فلا حاجة حينئذ إلى اعتبار الحفظ، ولَمَّا ورد أن يقال: إنهم عقلاء فكيف قيل: ﴿لَعَلَكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؟

أجيب بأن معناه ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تُرشدون؛ فإن غاية العقل الرُّشد،[٣٢٠٩]أو﴿لَعَلَكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما فيها من الفوائد دينًا ودنيًا، أو ﴿لَعَلَكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قبيح ما أنتم عليه فترجعون عنه.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٢)

[٣٢٠٣] اللباب، ٨/ ٥٥١؛**حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٧٣-١٧٤.

[٣٢٠٤]**تفسير ابن كمال باشا**، ٤٥٥/٣.

[٣٢٠٥]**الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ١٠٦/٩.

[٣٢٠٦]**الفريد**، ٧٢١/٢.

[٣٢٠٧] ج – زيادة.

[٣٢٠٨]**تفسير ابن كمال باشا**، ٤٥٥/٣.

[٣٢٠٩]**تفسير ابن كمال باشا**، ٤٥٥/٣.

نهى عن القُرب الذي يعمُّ وجوه التّصرّف، وفيه سدُّ الذريعة.[٣٢١٠] ﴿إِلَّا بِالَّتِي﴾ إلا بالفعلةِ أو الطريقة التي هي أحسنُ ولو ذكر الموصوف لم يَحَسُنْ بذلك الحسن، وذلك بحفظ أصولِه و تثمير فروعِه.

وقيل: إنْ كُنتَ وصيًّا فأصلحتَ ماله وقمتَ لله في ضيعته أكلتَ بالمعروف إنْ احتجتَ إليه، وإن كنتَ غنيًّا عنه فعفّف عن أكله.[٣٢١١]

﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ غايةٌ من حيث المعنى، أي: احفظوه عليه حتى يبلغ أوانَ الحُلُم مع الرّشد، فإذا بلغ فادفعوه إليه. ففي الكلام حذفٌ. وليس بلوغُ الأشدّ مما يُبيح قُرْبَ مالِه بغير الأحسن؛ لأنَّ الحرمة في حقِّ البالغ ثابتةٌ. وخصّ اليتيم بالذكر؛ لأنّ خصمه الله.[٣٢١٢]

والأشُدُّ جمع شدَّة، كنِعمةٍ وأنْعُمٍ قاله سيبويه. وفي **الصحاح**: لا تُجمع فِعْلةٌ على أفعُل، وأمّا أنعُم؛ فإنما هو جمع نُعْم؛ من قولهم: يوم بُؤْس ويوم نُعم. وأما قول من قال: واحدُه شَدّ؛ مثلُ: كلبٍ وأكلَب، أو شِدٌّ: مثل: ذِئب وأَذْؤب؛ وإنَّما هو قياس، وليس بمسموعٍ من العرب.

وقوله: ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: قوّته، وهو ما بين ثماني عشر إلى ثلاثين، وهو واحدٌ جاء على بناء الجمع، مثل آنُك وهو الأسرب.[٣٢١٣]

﴿بِالْقِسْطِ﴾ حالٌ من فاعل ﴿أَوْفُوا﴾ أي: ملتبسين بالعدل، أو من المفعول، أي: أوفوه تامًّا.[٣٢١٤]

وقال ابن الكمال: الإيفاء للكيل، والميزان عطف عليه، على ذكر أحد الفعلين وعطف متعلّق المحذوف على المذكور، على حسب ما يقتضيه لفظ، حتى كأنه شريكه في أصل الفعل، كقوله:

عَلَفْتُـــهُ تِبْنًـــا ومَـــاءً بَارِدًا[٣٢١٥]

و﴿بِالْقِسْطِ﴾ متعلّق بالمحذوف، أي: وزنوا الميزان بالقسط؛ فإنه مظنَّة البخس، بحيث لا يتفطَّن له صاحبه، بخلاف الكيل.[٣٢١٦]

﴿إِلَا وُسْعَهَا﴾: إلا ما يَسَعها، فهو فُعْلٌ بمعنى: فاعلٍ، أي: أمرٌ يسَعُ النَّفس ولا تعجزُ النَّفسُ عنه.[٣٢١٧]وذكره عقيبَ الأمر للدّلالة على أنّه لا يؤاخذها بتقصيرٍ يقع بعد الاجتهاد في مراعاة العدل،[٣٢١٨] ولأنَّه لو كلّف المعطي الزِّيادة لَضاقت نفسه، وكذا لو كلّف الآخذ الرِّضاء بالُّنقصان، ولما أمر بالعدل في الكيل والوزن، أمر بالعدل في تقويم اللِّسان الذي هو مكيال

[٣٢١٠] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٥٥/٣.

[٣٢١١] **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، ٣٣٧/٢.

[٣٢١٢] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ١١٣/٩.

[٣٢١٣] **الصحاح** للجوهري«شدد»؛ **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ١١٣/٩.

[٣٢١٤] **الفريد**، ٧٢١/٢.

[٣٢١٥] **معاني القرآن** للفراء، ١٤/١.

[٣٢١٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٥٦/٣.

[٣٢١٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٦و.

[٣٢١٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٥٧/٣.

الكلام، أي: إذا قلتم بالألسنة التي هي في أفواهكم، أو بالألسنة التي هي في أفواه قلوبكم، فاعدلوا فقولوا قولًا سديدًا موزونًا بميزان العقل والنقل، وهذا عامٌّ في الشهادة والدَّعوة إلى الله وأنواع المعاملات والحكومات.

﴿وَلَوْ كَانَ﴾، أي: المقول له أو عليه ﴿ذَا قُرْبَى﴾: من ذوي قرابتِكم.

﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ من إضافةِ المصدر إلى الفاعل، أي: بما عاهدكم الله عليه من أوامرِهِ ونواهِيه، أو إلى المفعول أو بما عهدتمُ الله عليه من النُّذُور والأَيمان

﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ الكلام فيه كالكلام فيما مرَّ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقرؤه حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص بتخفيف الدّال على حذف إحدى التّاءين، والباقون بالتَّشديد[٣٢١٩] على إدغام تاء التَّفعُّلِ في الدَّال، والأصل «تَتَذَكَّرُون». والقوم كانوا يفتخرون بالقبائح المذكورة في الآية السَّابقة، فنُهوا عنها لعلَّهم يعقلون قبحها وكانوا يفتخرون بالإنصاف بالمحاسن المذكورة في هذه الآية فأمروا بها لعلهم يذكرون الإعرض لهم سمان. وإحسان الوالدين وإن كان من قبيل الثاني، لكن لما نهى عن الكفر بالمؤثر الحقيقيِّ. نهى عن الكفران بالمؤثر الظَّاهريّ تنبيهًا على أنَّهم كما لم يرتكبوا الكفران فبطريق الأولى أن لا يرتكبوا الكفر.

وقال ابن الكمال: لَمَّا كان في هذه الأمور نوعُ خفاء بالقياس إلى ما سبقَ بحيثُ يحتاج إلى الاجتهاد والذِّكر الكثير ضُمَّت يتذكّرون.[٣٢٢٠]

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٤)﴾

الإشارة إلى ما ذكر، فإنها بأسرها في إثبات التّوحيد [**١٥٧**/و] والنُّبوَّة وبيان الشريعة،[٣٢٢١] أو إلى ما ذُكر في هذه الآيات؛ لأنها محكمةٌ.

قال ابن عباس: مَنْ عَمل بهنَّ دخل الجنة، أو إلى ما ذكر في القرآن.[٣٢٢٢]

وقرأ حمزة والكسائيُّ ﴿إِنَّ﴾[٣٢٢٣] بالكسر على الاستئناف، ويعضُده قراءة «وَهذَا صِرَاطِي»[٣٢٢٤] بحذف «أَنَّ».

ونافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم بالفتح والتَّشديد[٣٢٢٥] على إضمار الخافض، وهي: اللّام: والتقدير: ولأنَّ هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه، أو على العطف على ما حرّم، وقد مرّ تقريره في أوّلِ الآيات، وابن عامر بالفتح والتَّخفيف على أنها مخفَّفةٌ من التعليلية واسمها ضمير الأمر والشأن، أي: «وأنه هذا صراطي»[٣٢٢٦] و«هذا» رفع بالابتداء، و«صراطي» خبره،

[٣٢١٩] **السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٧٢؛ **التيسير** للداني، ص ٣٥١؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٠/٢.
[٣٢٢٠] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٥٧/٣.
[٣٢٢١] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٥٨/٣.
[٣٢٢٢] **الكشاف**، ٧٧/٢.
[٣٢٢٣] **السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٧٣؛ **التيسير** للداني، ص ٣٥١؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٠/٢.
[٣٢٢٤] **الكشاف**، ٧٧/٢.
[٣٢٢٥] **السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٧٣؛ **التيسير** للداني، ص ٣٥١؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٠/٢.
[٣٢٢٦] **الكشاف**، ٧٧/٢.

والجملة في موضع خبر «أن» والجملة الكبرى كما في القراءة بالتَّشْدِيد. وقرئ: «وهذا صراطُ رِبّكم» «وهذا صراطُ رِبّك».[٣٢٢٧]وقرأ ابن عامر: «صِرَاطِيَ» بفتح الياء.[٣٢٢٨]

والصِّراط من السبيل: ما لا التواء فيه ولا اعوجاج، بل يكون على جهة القصد، وإنما يُوصف بالاستقامة للاحتراز عن الميل إلى شيءٍ من الجوانب الأربعة بالصُّعود أو الهبوط أو نحوهما، إلّا أنّ الاحتراز المذكور حصل ههنا بالإضافة.[٣٢٢٩]

فقوله: ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حال مؤكِّدة، والعامل الإشارة أو معنى الإضافة ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾: الأديان المختلفة، أو الطُّرق التَّابعة للهوى، فإنَّ مقتضى الحقِّ واحدٌ ومقتضى الهوى متعدِّدٌ لاختلاف الطبائع والعادات، والفرق بينهما أن الأولى دين مشروعٌ، ثم نسخ كاليهودية والنصرانية، والثانية ليست بمشروعة أصلًا ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ فتُفَرِّقكم أيادي سبأ، فـ«الباء» للتَّعدية عدّى الفعل به، ويجوز أن يكون حالًا، أي: فتَفرَّق وأنتم معها.[٣٢٣٠]

«**وأيادي سبأ**»[٣٢٣١] في موقع الحال، أي: حالَ كونكم مثل أيادي سبأ وسيجئ الحقيقة في سورة سبأ، أو في موضع المصدر، أي: تفرّقًا مثل تفرُّقهم، وهو تفرُّق الاجتماع بعده، و«الفاء» في ﴿فَتَفَرَّقَ﴾ جوابُ النَّهي، والمضارع المحذوف «التَّاء» منصوبٌ بإضمار «أَنْ»، وفاعله ضمير ﴿السُّبُلَ﴾، أي: فتفرّقكم السّبل، أي: اتّباعها، ومنهم مَنْ لم يحذف التَّاء بل أدغمها في تاءِ التَّفعل، فقرأ «فَتَّفَرَّقَ» تشديد التَّاء.[٣٢٣٢]

وتعديته بـ﴿عَنْ﴾ لتضمُّنه معنى الإزالة، أي: فتزيلَكم متفرِّقين ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾، فيه التفات وتفنُّن، وتنبيهٌ على أنَّ الطّريق المنسوب إليه تع لا يكون إلا مستقيمًا.

والطَّريق: كلُّ ما يطرقه طارق معتادًاكان أو غير معتاد، والسَّبيل من الطريق: ما هو معتاد السُّلوك، أعمُّ مِن أن يكون على جهة القصد أو لا، والصِّراط من السَّبيل ما يكون على جهة القصد، وبهذا التقرير تبيَّن وجه إصابة كلٍّ من الصِّراط والسبيل محزَّه.[٣٢٣٣]

وسبيله تع صراطُ الله المستقيم الذي هو دين الإسلام. وقيل: الذي هو اتّباع الوحي واقتفاء البرهان.

وقيل: العلم النافع والعمل الصالح فالهرب الهرب، والنَّجاة النجاةَ! والتمسُّك في الطريق المستقيم والسّنن القويم، الذي سلكه السَّلفُ الصالحُ، وفيه المتْجَرُ الرابح.[٣٢٣٤]

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بالاستقامة على الجادّة، أو تتَّقون الضَّلال والتفرّق عن الحقِّ، أو لعلكم تنتظمون في سلك المتَّقين؛ لأن الاستقامة شعارهم. فعلى الأوّل يجعل الفعل منزلة اللّازم، وعلى الثَّاني يقدرّ له مفعول على ما يقتضيه السباق، وعلى

[٣٢٢٧] قراءة شاذّة. **الكشاف**، ٧٧/٢.

[٣٢٢٨] **السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٧٣؛ **الكشاف**، ٧٧/٢.

[٣٢٢٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٥٨/٣.

[٣٢٣٠] **التبيان في إعراب القرآن**، ٥٤٩/١.

[٣٢٣١] **الكشاف**، ٧٧/٢.

[٣٢٣٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٦و؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٥٩/٣.

[٣٢٣٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٥٨/٣-٤٥٩.

[٣٢٣٤] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ١١٧/٩.

الثالث يجوّز بالإلغاء عن الشّبه بالاتقاء والتزيّ بزيّهم والانتظام في سلكهم. ولما كان اتّباع الصِّراط المستقيم والاحتراز عن السَّبيل السَّقيم مظنَّة ذيله بالتَّقوى.

وقيل: ووجه ترتيب الخواتم؛ لأنهم يعقلون ثم يتفطّنون ثم يتَّقون.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤)﴾

عطفَه المصنِّفان على ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ﴾،[٣٢٣٥] أي: جملة ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ لظهور أنَّه ليس عطفًا على الفعليَّة الواقعة خبرَ ﴿ذَلِكُمْ﴾.

فوَرَد عليه أنّ الإيتاء قبل التَّوصية بدَهرٍ. فأجابا بأنَّها قديمةٌ، لم تزل تُوَصَّى بها كلُّ أمة، فكأنَّه قيل: وصَّاكم به يا بني آدم قديمًا وحديثًا، ثم أعظمُ من ذلك أنَّا آتيْنَا. فأوّله يشعر بأنها للتَّراخي الزمانيّ؛ لأنّ التّوصية كانت قبل التَّوراة، وآخره يُشعر بأنه للتّراخي الرّتبي لكون إيتاء التوراة وإنزال القرآن[٣٢٣٦] أعظمُ منها لاشتمالها عليها وعلى أمثالها.

فتقرير الجواب أنه ردّ على السّائل مقدّمته القائلة بأنَّ «الإيتاء قبل التَّوصية»؛ لأنها قبل التورية ومعها وبعدها لكونها ممَّا لم تَزَلْ تُوَصَّى بها الأمَمُ، ثم حكم بأنّها للتَّراخي الرّتبي دون الزّماني؛ [**١٥٧**/ظ] لأنَّ ابتداء التَّوصية وإن كان قبل الإيتاء، لكن تمامها سيّما المعلوم بهذه الآية ليس مقدّمًا على الإيتاء، فقدح في بعض مقدّمات السَّائل، ثم أجاب بما يتمُّ على تقدير تسليم تلك المقدّمة أيضًا. فيكون قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ داخلًا في حيّز ﴿ثُمَّ﴾ عطفًا على ﴿آتَيْنَا مُوسَى﴾، وغير الأسلوب ولم يقل: وأنزلنا إليك هذا الكتاب إظهارًا لشرفه؛ ولذا جعل الفاصلة تذكيرَ الإيمان، وهناك تذكير الرحمة.[٣٢٣٧]

وذكر المصنّف كون ﴿ثُمَّ آتَيْنَا﴾ عطفًا على ما تقدَّم قبل شَطْر السورة من قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [الأنعام ٦/٨٤]،[٣٢٣٨] وفي التَّعبير إشعار بضعفه. وذكر قدس سره: كون ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي في الإخبار؛[٣٢٣٩] فإنها قد تفيد كون المذكور بعدها كلامًا تامًّا مرتَّبًا على ما قبلها في الذِّكر لا أنّ مضمون ما بعدها واقع عقيب مضمون ما قبلها في الزّمان.[٣٢٤٠]

﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾، تمامًا للكرامة على مَن أحسن القيام به، ويؤيِّده قراءة «عَلَى الَّذين أَحْسَنُوا»،[٣٢٤١] فالتعريف الموصولي للجنس، وضمير ﴿أَحْسَنَ﴾ للموصول ومفعوله محذوفٌ.

و﴿تَمَامًا﴾ في موقع المفعول له، وجاز حذف اللَّام لكونه في معنى: «إتمامًا»، فيكون فعلًا لفاعل الفعل المعلَّلِ و«للكرامة» في موقع المفعول به لـ﴿تَمَامًا﴾. ولَمَّا استبعد كون تمامًا بمعنى: «إتمامًا»؛ لأنه مصدر «تَمَّ» وهو لازم، ذهب بعضهم إلى أنَّه في موقع المصدر لأَتْمَمْنَا المدلول عليه: بأنبتنا على طريقة أَنْبَتَ نباتًا، لكن تقرير المصنّف لا يساعدها، أو على الذي أحسن بتبليغه فالتَّعريف للعهد والمعهود موسى، وضمير ﴿أَحْسَنَ﴾ للموصول أيضًا ومفعوله محذوفٌ وهو التَّبليغ، أي: «إتمامًا

[٣٢٣٥] **الكشاف**، ٢/٧٧؛ **أنوار التنزيل**، ١/٥٢٧.

[٣٢٣٦] ج: الفرقان.

[٣٢٣٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و٣٤٦و–ظ.

[٣٢٣٨] **الكشاف**، ٢/٧٧.

[٣٢٣٩] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٧.

[٣٢٤٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٧٥.

[٣٢٤١] **المختصر** لابن خالويه، ص ٤٧.

للكرامة على العبد الذي أحسن الطّاعة في التّبليغ وفي كلّ ما أمر به، أو تمامًا على ما أحسنه، أي: أجاده من العلم والشّرائع، أي: زيادةً على علمه على وجه التتميم».[٣٢٤٢] فالتعريف للعهد والمعهود العلوم التي أحسنها موسى، ففاعل ﴿أَحْسَنَ﴾ ضمير ﴿مُوسَى﴾ ومفعوله محذوفٌ، وهو العائد إلى الموصول، فعلى هذا ينبغي أن يكون تمامًا بمعنى: زيادة حالًا من ﴿الْكِتَابَ﴾ وإن جاز العلية أو المصدرية بتكلف.[٣٢٤٣]

وقرئ بالرفع[٣٢٤٤] على أنه أفعلُ تفضيل خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، و﴿الَّذِي﴾ وصفٌ للدّين أو للوجه الذي تكون عليه الكتب، و﴿تَمَامًا﴾ على الوجهين حالٌ من ﴿الْكِتَابَ﴾، و﴿عَلَى الَّذِي﴾:

في الوجه الأوَّل متعلّق به، وهو على معناه المصدريّ.

وفي الثاني: مستقرٌّ حالٌ بعد حال، و﴿تَمَامًا﴾ بمعنى: «تامًّا»، أي: حالَ كون الكتاب تامًّا كاملًا كائنًا أحسن ما يكونُ، والأحسنيَّة تعتبر بالنِّسبة إلى غير دين الإسلام وغير ما عليه القرآن.[٣٢٤٥]

وفيه حذف المبتدأ الذي يعود على الموصول، وإنما سوّغ على طريقة: ما أنا بالذي قائلٌ لك شيئًا ﴿وَتَفْصِيلًا﴾ عطف على ﴿تَمَامًا﴾ تابع له في الإعراب، و﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ ما يُحتاج فيه إلى الدِّين، كقوله: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل ٢٣/٢٧]، واستدلّ به على عدم الاجتهاد في دين موسى؛ لأنه فرعُ الإجمال،[٣٢٤٦] وفيه مناقشة.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥)﴾ ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦)﴾ ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)﴾

﴿هَذَا﴾ مبتدأ إشارةٌ إلى القرآن ﴿كِتَابٌ﴾ خبره والتّنوين للتّنويه ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ صفة أو خبرٌ ثانٍ.

وقال ابن الكمال: إنَّما فرّق بينه وبين قرينه بـ﴿أَنْزَلْنَا﴾؛ لأن الانتفاع به بعد نزوله.[٣٢٤٧]

و﴿مُبَارَكٌ﴾ صفة ثانية، أو خبر ثالث. ولو كان قرئ مباركًا بالنصب على الحال جاز، أي: لا يتطرق إليه النسخ أو كثير الخير والنفع والبركة الزّيادة والنُّمو ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ فاعملوا به ﴿وَاتَّقُوا﴾ مخالفته والتّجاوز عنه، أو اتَّقوا في مجامع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ على رجاءكم الرَّحمة بالاتّباع والتّقوى أو بالاتِّباع أو بالتَّقوي، علَّقها بكلمة التَّرجِّي؛ لأن الشأن على خطر، ولأن ذلك غير موجب، ولأنَّ حصولها بالختم على الإيمان وفيه خطرٌ أيضًا.

﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ علّةٌ لـ﴿أَنْزَلْنَا﴾؛ أو لمقدَّرٍ دلّ عليه. ولا خفاء أن نفس هذا القول لا يصلحُ أن يكون علةً باعثةً للإنزال بل العلّة الباعثة هي عدم ذلك القول، فلذلك حمله الكوفيون على حذف «لا»، أي: لئلا تقولوا، والبصريون على حذف المضاف، أي: كراهة أن تقولوا.[٣٢٤٨]

[٣٢٤٢] **الكشاف**، ٧٧/٢.

[٣٢٤٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و٣٤٦أ؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٥٩/٣.

[٣٢٤٤] أي: «أَحْسَنُ»، وهي قراءة شاذّة نسبت إلى يحيى بن يعمر. **المحتسب** لابن جني، ٢٣٤/١.

[٣٢٤٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و٣٤٦ب؛ **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، و٢٢٩/٤.

[٣٢٤٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٦١/٣.

[٣٢٤٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٥٨/٣-٤٥٩.

﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ ولعلَّ الاختصاص في «إنما» لأنَّ الباقيَ المشهورَ من الكتب السماوية لم يكن غير كتبهم.[٣٢٤٩]

وقال ابن الكمال: أي: جنس الكتاب المنحصِر في التَّوراة والزَّبور والإنجيل؛ لقولهم: ﴿مِنْ قَبْلِنَا﴾، وأمَّا الصُّحف فليست من جنس الكتاب في العُرف.

والطائفتان: اليهود والنصارى، ودلَّ هذا على أن المجوس ليسوا من أهل الكتاب؛ إذ لو كانوا منهم لَكانوا ثلاث طوائف.[٣٢٥٠] [**١٥٨**/و]

﴿وَإِنْ كُنَّا﴾ هي المخففَّة من الثَّقيلة، ولذلك دخلت اللَّام الفارقة خبرَ «كان»، أي: وإنه كنا.[٣٢٥١] فقدر لذلك اسم هو ضمير الشَّأن على أعمالها حال كونها مخفّفة كما تعمل يكون مع حذف نونها في قولك: لم يك زيد قائمًا. نصّ عليه ابن الحاجب في **الكافية**.[٣٢٥٢]

﴿عَنْ دِرَاسَتِهِمْ﴾ عن قراءتهم ولم يقل: عن دراستهما مع أنَّ الضَّمير للطائفتين؛ لأنَّ كلَّ طائفةٍ جماعةٌ.[٣٢٥٣]

﴿لَغَافِلِينَ﴾ لا ندري ما هي؛ لأنه لم يكن على لغتنا، فلم نَقْدِر على قراءته، أو لا نعرفُ مثلها فلا نقدرُ على قراءته مثل ما قَدَروا عليها.

وقيل: هي أن النَّافية واللام بمعنى «إلا»، فكأنَّه قال: وما كنَّا عن دراستهم إلا غافلين.

﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ عطف على ﴿تَقُولُوا﴾ الأوَّل ترديدٌ في التعليل، ﴿لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى﴾ أرشد وأسرع اهتداء ﴿مِنْهُمْ﴾ من الطائفتين لحدَّة أذهاننا وثَقابة أفهامنا، وغَزَارة حفظنا لأيّام العرب ووقائعها، وخُطبها وأشعارها، وأسجاعها وأمثالها، على أنا أميُّون.[٣٢٥٤]

وقوله: «**وثَقابة أفهامنا**»، أي: أضاءتها واستنارتها والثاقب المضيء. ومنه قول الحجَّاج لابن عباس: «إنْ كان لَمِثْقَبًا» أي: ثاقبَ العلم، أي: مُضيئة. والمِثقب-بكسر الميم-: «العالم الفَطِن». ويُروى: «ثقافة»، بالفاء. من قولهم: «غلام ثَقِفٌ: لَقِنٌ، أي: ذو فطْنة وذكاء».[٣٢٥٥]

ومعنى الآية إزالةُ الحجَّة عن أيدي قريش، وسائر العرب بأنَّهم لم يكن لهم كتابٌ، فكأنَّه قال: وهذا القرآن يا معشر العرب كتابٌ مبارك أنزلناه حجةً عليكم وإزالة لحجَّتهم؛ لئلا تقولوا يوم القيامة: إنَّما أنزل التوراةُ والإنجيل بغير لسانِنا على غيرنا،

[٣٢٤٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٦ظ؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٧٧.

[٣٢٤٩] **نواهد الأبكار**، ٦/٢٤٩.

[٣٢٥٠] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣/٤٦٢.

[٣٢٥١] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٨.

[٣٢٥٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٧٧.

[٣٢٥٣] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٧٧.

[٣٢٥٤] **الكشاف**، ٢/٧٧.

[٣٢٥٥] **فتوح الغيب**، ٦/٢٩٩-٣٠٠.

ونحن لم نعرف غير ذلك، أو لئلا تقولوا: لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى. فهذا كتاب بلسانكم أنزلناه على رجلٍ منهم فلزمكم الحجّة وسقط عنكم المعذرة.[٣٢٥٦] ولذلك قال:

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ (١٥٧)

تبكيتٌ لهم وإلزام حجة. و«الفاء» جوابُ شرط محذوفٍ، أي: إن صدقتم فيما كنتم تعدُّون مِن أنفسِكم فقد جَاءَكُمْ،أو إن كنتم كما تزعمون أنَّكم إذا أُنزل عليكم كتابٌ تكونون أهدى من الطائفتين.[٣٢٥٧]

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ حجَّةٌ واضحةٌ تعرفونها؛ لأنَّها على لغتكم فأين مقتضى قولكم دعوتكم؟ ونحوه قول الشاعر:

قالوا: خُرَاسان أقصى ما يُرادُ بنا ... ثم القُفُول فقد جئنا خُرَاسَانا[٣٢٥٨]

أي: إن صحَّ ما قلتم: إنَّ خراسان المقصد، فقد جئناه، فأين الخلاص؟ فحذف الشَّرط وهو من أحاسن الحذف حيث دلَّ عليه بالفاء الفصيحة الخالصة كما في البيت.

وقيل: حذف الشرط رمز إلى أنَّه لم يثبت عنكم مجيء ما طلبتموه، مع بلوغه أقصى غاياته، وهو كونه بيِّنةً ظاهرةً من خالقِكم ومالِكُكم، وهاديًا إلى صراط مستقيم، ورحمةً من الله، كثير البركات، ومن ثمَّة قيل: «وهو من أحاسن الحذوف». وقد سُمِّي مثل هذا الفاء في سورة «الحجرات» فاء فصيحة، وإن كانت جزائية، لدلالتها على السّرعة، كما في قوله: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ﴾ [البقرة ٢/٦٠].[٣٢٥٩]

وقال ابن الكمال: فيه إيجاز بحذف الشرط إشعارًا بتصديقهم في دعوى الذَّكاء وحدّة الذهن، وأنَّ مَن يدَّعي ذلك فليتنَبَّهْ بمثل هذه النُّكتة، وليدرك البينة، وبعثًا لأفهامهم، وتهييجًا وإيذانًا بأن الأهمَّ هو الجزاء لا الشرط، والمعنى: إنْ صدَقتم في الدَّعوى فقد جاء أوان ظهور صدقه.[٣٢٦٠]

وهذا التبكيت على قراءة: «أَنْ يَقُولُوا»، «أو يَقُولُوا»[٣٢٦١] على لفظ الغيبة في غاية الحسن، لِمَا فيه من الالتفات وهو من مجازه؛ فإنه تع لَمَّا خاطبهم بقوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآيةَ، ثمَّ قال على الغيبة: ﴿أَنْ يَقُولُواإِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ﴾ الآية، ﴿أَوْ يَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، جَعَلهم بُعَداء، أي: أنزلناه؛ لئلا يقول أولئك البعداء المتصلّفون:[٣٢٦٢] ﴿لَوْ أَنَّا

[٣٢٥٦] **المحرر الوجيز**، ٢/ ٤٩٧.

[٣٢٥٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٧٨/٤.

[٣٢٥٨] **الديوان لعباس بن الأحنف؛ فتوح الغيب**، ٣٠١/٦.

[٣٢٥٩] **فتوح الغيب**، ٣٠١/٦.

[٣٢٦٠] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٦٣/٣.

[٣٢٦١] وهما قراءتان شاذّتان، قرأ بهما ابن محيصن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨١؛ **الكشاف**، ٧٨/٢.

[٣٢٦٢] المتصلِّفون: المتكبِّرون.

أُنزِلَ عَلَيْنَا الكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾. ولما عاد إلى[٣٢٦٣] المنزَّل عليهم، خاطبهم تبكيتًا وإلزامًا؛ أي: أنتم أولئك الذين تصلَّفْتم، وقلتم: كَيْتَ وكيت! فقد جاء مطلوبكم، فأين مقتضي قولكم؟[٣٢٦٤]

وقد ساعد عليه حذف الشَّرط على ما قرَّر فهو التفات في غاية الجزالة، ولَمَّا وصف اللهُ القرآنَ العظيم بأنه كتابٌ مباركٌ يكون اتِّباعه سببًا للرَّحمة، وأنه بيّنة نازلة من قِبل الرَّب الكريم، وهدًى ورحمة عظم كفر مَن كذب به فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بعدما عرف صحَّتها أو تمكَّن من معرفة ذلك.

والجمهور على التَّشديد،وقرئ بالتخفيف،[٣٢٦٥] وهو في معنى المشدّد، فيكون ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ مفعولًا. ويجوز أن يكون [**١٥٨**/ظ] حالًا، أي: كذب ومعه آيات الله.[٣٢٦٦]

﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ النَّاسَ، فضَلَّ وأَضَلَّ.[٣٢٦٧]

وقال قدس سره: أو ﴿صَدَفَ﴾، أي: أعرض.[٣٢٦٨]واختار ابن الكمال الأوَّل؛ لأن الإعراض قد حصل بالتَّكذيب.[٣٢٦٩] ويمكن أن يقال: التَّكذيب أمرٌ والإعراض عنها أمرٌ آخر.

﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل ٨٨/١٦]،[٣٢٧٠] من حيث إنَّ سوء العذاب جزاءٌ للتَّكذيب، والصدف بمنزلة عذاب فوق العذاب جزاء للكفر والصد لكن، قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ يأتي هذا المعنى ويدلّ على أنّ العذاب السّوء جزاء الصدف وجزاء التَّكذيب باق، إلا أن يقال: اكتفى بذكره ويدلُّ عليه وقوعه خاتمةً، وأما إذا فسّر الصدف بالإعراض فالأمر ظاهر.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨)﴾

﴿هَلْ﴾ استفهام معناه النَّفي، و﴿يَنْظُرُونَ﴾ بمعنى: ينتظرون، فإن النّظر يجيء بمعنى الانتظار،[٣٢٧١] أي: ما ينتظرون، يعني: أهل مكة. وهم ما كانوا منتظرين لذلك؛ لإنكارهم، ولكن لَمّا كان يلحقهم لحوقُ المنتظر شبّهوا بالمنتظرين.[٣٢٧٢]

﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ملائكةُ الموت أو العذاب. وقرأ حمزة والكسائي بالياء[٣٢٧٣] ذكر على معنى الجمع كقوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ [يوسف ٣٠/١٢]، ووجه التّاء أنه على معنى الجماعة، كقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ [الحجرات ١٤/٤٩].

[٣٢٦٣] ج + ذكر.

[٣٢٦٤] **فتوح الغيب**، ٣٠١/٦.

[٣٢٦٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى و إبراهيم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨١.

[٣٢٦٦] **التبيان في إعراب القرآن**، ٥٥١/١.

[٣٢٦٧] **الكشاف**، ٧٧/٢.

[٣٢٦٨] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٨.

[٣٢٦٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٦٤/٣.

[٣٢٧٠] **الكشاف**، ٧٧/٢.

[٣٢٧١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٧٨.

[٣٢٧٢] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٨.

[٣٢٧٣] أي: «أَنْ يَأْتِيَهُمْ». **السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٧٤؛ **التيسير** للداني، ص ٣٥٢؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٠/٢.

﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾أي: أمره على تقدير المضاف، أو كلّ آيات ربّك؛ ليقابل قوله: بعض الآيات ولو حمل على حقيقته لابتناء الكلام على اعتقاد الكفرة، كما في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة ٢١٠/٢]لم يبعد.

وقال ابن الكمال: هؤلاء الذين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [الإسراء ٩٠/١٧] الآية.

﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ ما ذكروه بقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء ٩٢/١٧].

﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ ما ذكروه بقولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء ٩٢/١٧]، وإنما عبّر عنه بـ﴿بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ تعظيمًا؛ لأنَّه أعظمُ الآيات الظَّاهرة قبل قيام الساعة.[٣٢٧٤]

وبالجملة معنى الآية: أنهم لا يؤمنون بك إلا إذا جاءهم أحدُ هذه الأمور الثلاثة، كأنه قيل: إني أقمتُ عليهم الحجَّةَ وأنزلتُ عليهم الكتاب فلم يؤمنوا، فما ينتظرون إلا أحد هذه الأمور.[٣٢٧٥]

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ يعني: أشراط الساعة. وقد ذكر العلّامتان في تفصيلها حديثًا شريفًا. وفيه ذكر جزيرة العرب، وهي: ما بين حفر أبي موسى إلى أقصى اليمن في الطول، وما بين رمل يبرين إلى منقطع سماوة في العرض سمّيت جزيرةً؛ لإحاطة بحر فارس وبحر السودان ونهر دجلة والفرات بها.[٣٢٧٦]

وعنه ع م: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ بِالْمَغْرِبِ بَابًا مَسِيرَةً عَرْضُهُ سَبْعُونَ عَامًا، لِلتَّوْبَةِ لا يُغْلَقُ ما لَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ مِنْ قَبْلِهِ، وذلك قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أيَاتِ رَبِّكَ﴾» [الأنعام ١٥٨/٦].[٣٢٧٧]

وقال ابن الكمال: يعني به: الآية المذكورة آنفًا يعني: ما ذكره بقوله: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء ٩٢/١٧]، لا بعضُ أشراط السّاعة مطلقًا؛ لأن الإيمان نافع بعدَ ظهورها، كيف ونزول عيسى لدعوة الخلق إلى دين الله بعد خروج الدَّجّال.[٣٢٧٨]

ولا يخفى عليك أنَّ ما ذكره وارد أيضًا، على قوله ع م: «ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ».[٣٢٧٩] وذلك لأن عيسى هو الذي يقتل الدَّجّال فكيف يتصوّر عدم قبول الإيمان بعد الدَّجال الذي هو قبل عيسى الذي يدعوا الناس إلى دين الله، وعلى ما روي عن عائشة: «إذا خَرَجَتْ أوّلُ الآيات طُرِحَتْ الأقلامُ وحُبست الحفظةُ، وشَهِدَت الأجسادُ بالأعمال.[٣٢٨٠] و﴿يَوْمَ﴾ منصوب بـ﴿لا يَنْفَعُ﴾».

[٣٢٧٤] **تفسير ابن كمال باشا**،٤٦٤/٣.

[٣٢٧٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٧٨.

[٣٢٧٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٧و؛ **فتوح الغيب**، ٣٠٣/٦.

[٣٢٧٧] **السنن الكبر** للنسائي، ٩٧/١٠ (١١١١٤) .

[٣٢٧٨] **تفسير ابن كمال باشا**،٤٦٤/٣.

[٣٢٧٩] **صحيح مسلم**، ١٣٨/١ (١٥٨).

[٣٢٨٠] **الفتن لنعيم بن حماد**، ٦٤٣/٢ (١٧٩٨).

وقرئ مرفوعًا[٣٢٨١] على الابتداء، وخبره ﴿لَا يَنْفَعُ﴾ والعائد محذوفٌ، أي: لا ينفع نفسًا إيمانها فيه،[٣٢٨٢] كالمحتضر إذا صار الأمر عيانًا، والإيمان برهاني، كذا قال قدس سره،[٣٢٨٣] وعبارة ابن الكمال: والإيمان المقبول برهانيًا كان أو تقليديًّا ما يكون بالغيب.[٣٢٨٤]

وأنت خبير بأن مراده قدس سره بالبرهاني ما يقابل العيان فلا غُبار عليه، فالإيمان المقبول ما يكون رغمًا للشيطان، وتعبدًا للرحمان، واختيارًا للإيمان من حيث كونه مأمورًا به من قبل المنان، وما يكون عند معاينة الإيمان ليس باختياري تحقيقًا، بل إيمان يأس وقع من الخوف.[٣٢٨٥]

و﴿لَا يَنْفَعُ﴾ صفة ﴿نَفْسًا﴾ فيقع الفاعل فاصلًا بين المفعول الموصوف، وصفته لعدم كونه أجنبيًّا عن الموصوف الذي هو المفعول لاشتراكها في العامل.[٣٢٨٦] ومَنْ منع ذلك جعله حالًا من ضمير إيمانها أو استئنافًا.

﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾

استدلَّ المصنف به على عدم نفع الإيمان المجرّد عن العمل، حيث لم يفرِّق بين النَّفس [**١٥٩**/و]الكافرة إذا آمنت في غير وقت الإيمان، وبين التي آمنت في وقتها ولم تكسب خيرًا.[٣٢٨٧]

والاعتراض بأنّ ﴿أَوْ﴾ لأحد الأمرين فتعمُّ في سياق النفي كالنَّكرة كقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان ٢٤/٧٦]، فعدم النَّفع للتي لم يكن فيها الإيمانُ ولا كسب الخير مدفوع بأنه لا يستقيم ههنا؛ لأنه إذا انتفى الإيمان انتفى كسب الخير فيه، فيكون ذكره لغوًا، فيحمل أو على المعنى الذي ذكره المصنِّفُ وهو التَّسوية المذكورة.

والحاصل أن العُموم إذا عطف أحد الأمرين على الأخر بـ«أو»، ثمَّ نفى مثل: ﴿لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ﴾، أو عملت لا إذا عطف بـ«أو»، نفي أمر على نفي أمر كما يقول: ﴿لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ﴾، أو لم تكن كسبت، وهنا تعذّر الأوّل للزوم التّكرار فتعين الثاني.

تلخيصه: العموم في نفي العطف بـ﴿أَوْ﴾ لا في عطف النفي بـ«أو»، فـ﴿كَسَبَتْ﴾ عطف على ﴿آمَنَتْ﴾ ظاهرًا، وفي التَّحقيق خبر «لم تكن» المحذوف المعطوف على ﴿لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ﴾، أي: نفسًا لم تكن أمنت أو لم تكن كسبت.

فأُجيب عن الاستدلال بأنه من اللفِّ التقديريّ، أي: لا ينفع نفسًا إيمانها ولا كسبُها في الإيمان لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فيه، فتوافق الآيات والأحاديث الشَّاهدةَ بأنَّ مجرّد الإيمان ينفع ولو بعد العذاب لَذنب، ويلائم مقصود الآية حيث وردت تحسيرًا للذين أخلفوا ما وعدوا من الرُّسوخ في الهداية عند إنزال الكتاب، حيث كذبوا به وصدفوا عنه، أي: يوم يأتي بعض الآيات لا ينفعهم تلهفهم على ترك الإيمان بالكتاب وعلى ترك العمل بما فيه.[٣٢٨٨]

[٣٢٨١] أي: ﴿ يَوْمُ... لَايَنْفَعُ﴾. **المحتسب** لابن جني، ٢٣٧/١.

[٣٢٨٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٧٩.

[٣٢٨٣] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٩.

[٣٢٨٤] **تفسير ابن كمال باشا**،٤٦٤/٣.

[٣٢٨٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٧٨-١٧٩.

[٣٢٨٦] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٧٩.

[٣٢٨٧] **الكشاف**، ٧٧/٢؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٧٩.

[٣٢٨٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٧و؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٧٩. **حاشية الشهاب**، ٤/ ٢٣٥.

وقريبٌ منه ما قال ابن **الحاجب** أنَّ المعنى: لا ينفعُ نفسًا إيمانُها، ولا كسْبُها، وهو العمل الصَّالحُ لم تكن آمنت قبل، أو لم تعمل الصالح قبل، فاختُصر للعمل به.[3289]

وأشار قدس سره إلى ثلاثة أجوبة: الأول: تسليم حمل التَّرديد على نفي العموم، وإفادة الكلام عدم نفع الإيمان المجرّد وتخصيص الحكم، أي: عدم النفع بذلك اليوم، فإنَّ عدم نفع مجرد الإيمان الحادث في ذلك اليوم، لا يستلزم عدم نفع الإيمان المجرَّد السَّابق على ذلك اليوم، والتّخصيص لحكمةٍ لا نعلمها.

الثاني: منع حمل التَّرديد على نفي العموم، بل هو لعموم النفي ودفع حديث اللَّغو بأنَّه إنَّما يلزم إذا أُريد الظاهر وليس كذلك، بل المرادُ بيان اشتراط النَّفع بأحد الأمرين، ووجه دلالة التَّرديد عليه أنه لما حمل على عموم النَّفي، وصار المعنى لا ينفع الإيمان نفسًا خلت عن الأمرين جميعًا قبل ذلك اليوم كان انتفائهما مانعًا من النّفع وارتفاع المانع شرط لوجود المعلول، فيكون وجود أحدهما شرطًا للنفع لارتفاع المانع بوجود أحدهما، فكأنه قيل: لا ينفع إيمان نفس خلَتْ عن كلِّ واحدٍ من الإيمان والعمل، فلو لم يكن خالية عن كلِّ واحدٍ منهما بل متّصفة بأحدهما نفعها.

الثالث: منع عطف ﴿أَوْ كَسَبَتْ﴾ على ﴿آمَنَتْ﴾ بل على قوله: ﴿لَمْ تَكُنْ﴾ وحمل الإيمان في قوله: ﴿فِي إِيمَانِهَا﴾ على الإيمان الحادث في ذلك اليوم، كأنه قيل: لا ينفع إيمان نفس كسبت فيه خيرًا في ذلك اليوم، أي: لا ينفع الإيمان الحادث في ذلك اليوم نفسًا لم تكن آمنت قبل ذلك اليوم، أو كسبت في إيمانه الحادث خيراً.[3290]

وقال ابن **الكمال:** أريد بالإيمان في إيمانها: المعرفة، وبكسب الخير: الإذعان والقَبول.

ونحن نقول: الإيمان النافع مجموع الأمرين، فلا حجَّة للمخالف؛ لأنَّ مبناها على حمل الإيمان على الاصطلاحي، وتخصيص الخير بما يكون بالجوارح، وكلٌّ منهما خلاف الظاهر، ولو سلّم فنقول: الإيمان النافع لا بدَّ فيه من أمرين؛ الاعتقاد بالقلب والإقرار باللِّسان وقد عبَّر عن الأوَّل بـ﴿آمَنَتْ﴾، وعن الثاني: بـ﴿كَسَبَتْ﴾؛ فإن الكسب يكون بالآلات البدنيَّة ومنها اللِّسان، فمنطوق الآية على وفق مذهبنا.[3291]

﴿قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾

وعيدٌ لهم وتهديدٌ، أي: انتظروا إتيانَ أحد الثَّلاثة فإنا منتظرون له، وحينئذ لنا الفوزُ وعليكم الويلُ.[3292]

وقيل: انتظروا بنا الدَّوائر إنَّا منتظرون بكم وهذا لا يناسب قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة ٢/٢١٠].

وَذَكَرَ الثَّعْلَبِيُّ فِي حَدِيثٍ فِيهِ طُولٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صلعم مَا مَعْنَاهُ: «أَنَّ الشَّمْسَ تُحْبَسُ عَنِ النَّاسِ- حِينَ تَكْثُرُ الْمَعَاصِي فِي الْأَرْضِ، وَيَذْهَبُ الْمَعْرُوفُ، فَلَا يَأْمُرُ بِهِ أَحَدٌ، وَيَفْشُو الْمُنْكَرُ فَلَا يُنْهَى عَنْهُ أحد فتمكث الشمس- مِقْدَارَ لَيْلَةٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، كُلَّمَا سَجَدَتْ، وَاسْتَأْذَنَتْ رَبَّهَا مِنْ أين تَطْلُعُ؛ لَمْ يَجِئْ لها لَهَا جَوَابٌ حَتَّى يُوَافِيَهَا الْقَمَرُ، فَيَسْجُدَ مَعَهَا، وَيَسْتَأْذِنَ مِنْ أَيْنَ يَطْلُعُ، فَلَا يُجَاء إِلَيْهِمَا جَوَابٌ حَتَّى يُحْبَسَا مِقْدَارَ ثَلَاثِ لَيَالٍ لِلشَّمْسِ وَلَيْلَتَيْنِ لِلْقَمَرِ؛ فَلَا يَعْرِفُ طُولَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ إِلَّا الْمُتَهَجِّدُونَ فِي الْأَرْضِ، وَهُمْ يَوْمَئِذٍ عِصَابَةٌ قَلِيلَةٌ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ. فَإِذَا تَمَّ لَهُمَا مِقْدَارُ ثَلَاثِ [**١٥٩**/ظ] لَيَالٍ

[3289] **الأمالي لابن الحاجب**١/٢٥٧؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٣٠٤؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، و٣٤٧أ؛

[3290] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٩. **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٨٠-١٨١.

[3291] **تفسير ابن كمال باشا**،٣/٤٦٥.

[3292] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٩.

أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمَا جِبْرِيلَ، فَيَقُولُ: إِنَّ الرَّبَّ يأمرُكما أَنْ تَرْجِعَا إِلَى مَغَارِبِكُمَا، فَتَطْلُعَا مِنْهُ، وَأَنَّهُ لَا ضَوْءَ لَكُمَا عِنْدَنَا وَلَا نُورَ. فَيَطْلُعَانِ مِنْ مَغَارِبِهِمَا أَسْوَدَانِ، لَا ضَوْءَ لِلشَّمْسِ وَلَا نُورَ لِلْقَمَرِ، مِثْلُهُمَا فِي كُسُوفِهِمَا قَبْلَ ذَلِكَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة ٩/٧٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير ١/٨١]، فيَرْتَفِعَانِ كَذَلِكَ مِثْلَ الْبَعِيرَيْنِ والقَرِينَيْنِ؛ فَإِذَا بَلَغَ الشَّمْس وَالْقَمَر سُرَّةَ السَّمَاء- وهي مَنْصِفُهَا- جَاءَهُمَا جِبْرِيلُ، فَأَخَذَ بِقُرُونِهِمَا، وَرَدَّهُمَا إِلَى الْمَغْرِبِ، فَلا يغربُهُمَا مِنْ مَغَارِبِهِمَا، وَلَكِنْ يغربهُمَا مِنْ بَابِ التَّوْبَةِ، ثُمَّ يَرُدُّ الْمِصْرَاعَانِ، ثُمَّ يَلْتَئِمُ مَا بَيْنَهُمَا، فَيَصِيرُ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا صَدْعٌ. فَإِذَا أُغْلِقَ بَابُ التَّوْبَةِ لَمْ تُقْبَلْ لِعَبْدٍ بَعْدَ ذَلِكَ تَوْبَةٌ، وَلَمْ تَنْفَعْهُ حَسَنَةٌ يَعْمَلُهَا؛ إِلَّا مَنْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنًا، فَإِنَّهُ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، ثُمَّ إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يُكْسَيَانِ بَعْدَ ذَلِكَ الضَّوْءِ وَالنُّورِ، ثُمَّ يَطْلُعَانِ عَلَى النَّاسِ وَيَغْرُبَانِ كَمَا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ يَطْلُعَانِ وَيَغْرُبَانِ». [٣٢٩٣]

وعلى هذا ينبغي أن تكون توبةُ كلٍّ من شاهد ذلك- أو كان كالمشاهد له- مردودةً ما عاش؛ لأن علمه بالله وبنبيِّه وبوعده قد صار ضرورةً. فإن امتدّت أيامُ الدُّنيا إلى أن ينسى الناس هذا الأمر العظيم ما كان، ولا يتحدَّثون عنه إلا قليلًا، فيصير الخبر عنه خاصًّا، وينقطع التواترُ عنه، فمن أسلم في ذلك الوقت أو تاب قُبِلَ منه. [٣٢٩٤]

وقيل: إنَّ الحكمة في طلوع الشَّمس من مغربها أن إبراهيمَ قال لنمرود: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة ٢٥٨/٢]، وأنَّ المُلحدةَ والمنجِّمةَ عن آخرهم ينكرون ذللك، ويقولون: هو غيرُ كائن؛ فيُطلعها الله يومًا من المغرب ليُرِيَ المنكرين قدرتَه أنَّ الشَّمس في مُلكه، إن شاء أطلعها من المشرق، وإن شاء أطلعها من المغرب. وعلى هذا فيحتمل أن يكون ردُّ التوبة والإيمان على من آمن وتاب من المنكرين لذلك؛ المكذِّبين لمحمَّد النَّبي بطلوعها، فأمَّا المصدِّقون لذلك فإنه تُقبل توبته وينفعه إيمانه قبل ذلك.

وعن ابن عباس: لا يُقبل من كافرٍ عملٌ ولا توبةٌ إذا أسلم حين يراها، إلا من كان صغيرًا يومئذ؛ فإنه لو أسلم بعد ذلك قُبل ذلك منه. ومن كان مؤمنًا مذنبًا فتاب من الذَّنب؛ قُبل منه.

وعن عمرانَ بنِ حُصين أنه قال: إنما لم يقبل وقتَ الطلوع حين تكون صيحةٌ، فيهلكَ كثيرٌ من الناس؛ فمن تاب بعد ذلك قبلتْ منه. [٣٢٩٥]

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩)﴾

آمنوا ببعض وكفروا ببعض، واختلفوا فيه، قال عليه السلام: «افترقت اليهودُ على إحْدى وسبعينَ فِرْقةً، كُلّها في الهاويةِ إلا واحدةٌ، وافترقتِ النَّصارى على ثنتينِ وسبعينَ فرقةً، كلّها في الهاويةِ إلا واحدةٌ، وتفْتَرِقُ أمّتي على ثلاثٍ وسبعينَ، كلّها في الهاويةِ إلا واحدةٌ». [٣٢٩٦]

فالإيمانُ بالبعض والكفرُ بالبعض تفريقٌ له إلى قسمين، وكذا الاختلافُ فيه تفريقٌ له، وتقسيمُ واحد كلّ فرقة قسمًا منه.

[٣٢٩٣] **جامع البيان**، ٢١/١٠؛ **الدر المنثور** للسيوطي، ٦٠/٣-٦١؛ **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/ ١٢٨-١٢٩.

[٣٢٩٤] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ١٣٠/٩.

[٣٢٩٥] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ١٣١/٩-١٣٢.

[٣٢٩٦] **سنن ابن ماجه**، ١٢٨/٥ (٣٩٩٢)؛ **سنن أبي داود**، ٥/٧ (٤٥٩٦) ٥٤٩٦؛ **سنن الترمذي**، ٢٥/٥ (٢٦٤٠)

وقرأ حمزة والكسائي﴿فَارَقُوا﴾،[٣٢٩٧] أي: تركوه وباينوه، ويعضده ما روي عن على: «والله ما فرّقوه، ولكن فارَقوه».[٣٢٩٨] والأوّل أعمُّ؛ لأنّ من فرق فقد فارقه، وليس بكلّ من فارق فقد فرق.

﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ فِرقًا تُشيّع كلُّ فرقةٍ إمامها.[٣٢٩٩] يقال: شاعه يشيعه شياعًا، أي: تَبعه.

وقيل: أصله الشِّياع، وهو الحطب الصغار تُوقد به النّارُ.[٣٣٠٠]

وأفاد شيخنا **جمال الدين**: أن «الدِّين» على الأوَّل: للجنس والإضافة إلى الكلِّ؛ لما أنَّ الكلَّ دين الكلّ شرع كلِّ واحدٍ من الأديان في زمان نبيٍّ من الأنبياء، لكلِّ أمَّة من الأمَم، وأمر أن تعتدوا به وتصدقوا غيره وهم ما فعلوا ذلك، بل آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعضٍ، فالإمام على هذا إمام حقٍ ومشايعتهم باعتبار زعمهم.

وعلى الثاني: دين كلِّ قومٍ بحسب نبيهم وكان افتراق غير أمةّ نبيًا سابقًا، فتكون الآية إخبارًا منه تعممًّا سبق وإشارةً إلى ما سيأتي وتحذيرًا عنه، ويكون الحديث بيانًا لمعنى الآية، وإخبارًا لما سيأتي من أمّته ع م فذلك من جملة معجزاته.

وعلى الثالث: دين الإسلام والإضافة؛ لأنه دينهم في الواقع لما أنَّ الله شرَعه على الكلِّ؛ لأن نبيَّنا ع مأُرسل إلى كافَّة النَّاس، والإمام في هذين الوجهين غير الأنبياء، ولكن غير الواحد منهم على غير الحقِ على مقتضى الحديث.

﴿لَسْتَ مِنْهُمْ﴾ في محلِّ الرَّفع على أنَّه خبر ﴿إِنَّ﴾ و﴿مِنْهُمْ﴾ خبر «ليس» و﴿فِي شَيْءٍ﴾ متعلِّق بالاستقرار الذي تعلَّق به ﴿مِنْهُمْ﴾، أي: لست مستقرًا منهم في شيء من السؤال عنهم وعن تفرّقهم، أو من عقابهم والعفو عنهم، إنما أنت مُنذر ومبلِّغ، أو أنت برئ منهم قال:

إذا حاوَلْتَ، في أسَدٍ، فُجوراً   فإني لستُ منكَ ، ولستَ مني[٣٣٠١]

وهذا يستعمل في نفي الاتِّصال بين اثنين كما أنَّ نحو: أنت مني يستعمل في إثبات الاتصال بينهما. وتعيين ما به الاتِّصال إنما يستفاد من القرائن الخارجية، فإن المحقّ لكونه [**١٧٠**/و] ضدّ المبطل لا يتَّصل به، وكذا من اتبع الحُجَج لا يتَّصل بمن يتمسّك بتقليد الأباء والأهوية.[٣٣٠٢]

وقيل: هو نهي عن التَّعرض لهم، فعلى هذا منسوخٌ بآية السَّيف حيث دلَتْ على وجوب التَّعرض لهم بالقتال والعقاب.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ يتولّى أمورهم وتقلّب أحوالهم ويعلم آمالهم إن شاء عاجلهم بالعقوبة، وإن شاء آخَّرهم إلى الآخرة، وإن شاء وفَّقهم للرجوع عنها، فعفى عنهم.[٣٣٠٣]

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ في الآخرة، ويجازيهم على ذلك.[٣٣٠٤] وفي الآية حثٌّ على اتِّفاق الكلمة والائتلاف والجمعية، وتخويفٌ عن التَّفرق والتَّفرقة واختلاف الكلمة، وكلُّ مَن ابتَدعَ وجاء بما لم يأمُرِ الله فقد فرَّق دِينَه.

[٣٢٩٧] **السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٧٤؛ **التيسير** للداني، ص ٣٥٢؛ **النشر** لابن الجزري، ٢/ ٢٠٠.

[٣٢٩٨] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/ ١٣٥.

[٣٢٩٩] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٢٩.

[٣٣٠٠] **تفسير ابن كمال باشا**،٤٦٥/٣. تفسير الدر المنثور: ٣/ ٦١، وكتاب الفتن لنعيم: ٣٩٧.

[٣٣٠١] **نابغة**

[٣٣٠٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٨٢.

[٣٣٠٣] **الحلية** لأبي نعيم، **١٣٨/٤**؛ **تفسير ابن كثير**، **٣٠٧٧/٣**.

وعنه ع م: «هم أهلُ البِدَع والشُّبهات، وأهل الضَّلالة من هذه الأمَّة».[٣٣٠٥]

وعنه ع م: «يا عائشة، إنَّما هم أصحابُ البدَع وأصحابُ الأهواء وأصحابُ الضَّلالةِ من هذه الأمَّة، يا عائشة! إنَّ لكلِّ صاحبِ ذنبٍ توبةً غيرَ أصحاب البِدَع وأصحابِ الأهواء، ليس لهم توبةٌ، وأنا بريءٌ منهم، وهم بَرَاءٌ منّي».

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠)﴾

لم يقل: مَن عمل بالحسنة؛ ليُعلمَ أنَّ النَّظر إلى ما خُتم به، وعلى ذلك قوله ع م: «الأعمال بالخواتيم»[٣٣٠٦]كما ورد أن يقال: الظاهر عشرة أمثالها؛ لأنَّ «الأمثال» جمعُ «مِثل»، وهو مذكر وقد تقرر أنَّ ثلاثة إلى عشرة إذا أضيف إلى مذكَّر يجب إلحاق التاء بالعدد نحو: ثلاثة رجالٍ إلى عشرة رجالٍ، أجيب بأنَّ الأمثال ليس مميّزًا بل التقدير: عشر حسناتٍ أمثالها، فهو من إقامة صفة الجنس المميّز مقامَ الموصوف.[٣٣٠٧]

وقيل: الأمثال لَمَّا أُضيفت إلى المؤنَّث يحسن التأنيث، كقوله: «تلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ»[٣٣٠٨] [يوسف ١٢/١٠].[٣٣٠٩]

وقرأ يعقوب: ﴿عَشْرٌ﴾ بالتَّنوين ﴿أَمْثَالُهَا﴾ بالرفع على الوصف.[٣٣١٠] والتَّضعيف فضلٌ من الله، وهذا أقلُّ ما وُعد منه، وقد جاء الوعد سبعين وسبعمائة وبغير حساب.[٣٣١١]

ولعلَّ ذلك بحسب تفاوت الأعمال والعمال، ويؤيده ما قيل: العشرة لسائر الحسنات والسبعمائة للنَّفقة في سبيل الله، والخاصّ والعامّ فيه سواءٌ، أو العشرةُ للعوام والسبعمائة للخواصّ، أو بحسب أوَّل الوعد وآخره.

ويؤيّده ما قال سفيانُ الثَّوري: لَمَّا نزلت، قال ع م: «ربّي زدني» فنزلت ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة ٢/٢٦١]،فقال ع م: «ربّي زدني» فنزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً﴾ [البقرة ٢/٢٤٥]، فقال ع م: «ربّي زدني»، فنزل قوله: ﴿إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر ٣٩/١٠].[٣٣١٢]

أو بحسب أنَّ الأعدادَ المذكورةَ للتكثير والتوفير دون التعيين، ويؤيّده ما قال **الزجاج**: المجازاة على الحسنة بدخول الجنة شيءٌ لا يُبلغُ وصفُ مقداره. فإذا قال: ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، أو سبعمائة، أو أضعافًا كثيرة، فمعناه: أنَّ جزاءَ الله على الحسنات على التَّضعيف للمِثل الواحد، الذي هو النِّهاية في التَّقدير وفي النفوس.[٣٣١٣]

[٣٣٠٤] **تفسير ابن كمال باشا**،٣/٤٦٦.

[٣٣٠٥] **جامع البيان** للطبري، **٣٠/١٠**؛ **تفسير ابن كثير**، **٣٠٧٧/٣**.

[٣٣٠٦]**صحيح البخاري**، ١٢٤/٨ (٦٦٠٧).

[٣٣٠٧] **تفسير ابن كمال باشا**،٣/٤٦٦.

[٣٣٠٨]**مختصر في شواذّ القرآن**، ص ٦٧.

[٣٣٠٩]**الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/ ١٣٦.

[٣٣١٠]**مختصر في شواذّ القرآن**، ص ٤٧؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٢.

[٣٣١١]**تفسير ابن كمال باشا**،٣/ ٤٦٧؛ **إرشاد عقل السليم** لأبي السعود، ٣/ ٤٢٤.

[٣٣١٢]**التيسير في التفسير لأبي حفص النسفي**، ٢٧١/٦.

[٣٣١٣]**معاني القرآن وإعرابه** للزجاج، ٩/ ٣١٠؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٠٤/٦.

وقيل: كان للأمم أعمارٌ طويلةٌ وطاعات كثيرة، فوضع لهذه الأمَّة ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر وأضعاف الأعمال، وأيضًا الخصماء يتعلَّقون بهم يوم القيامة، فيذهبون بأعمالهم ويقبضون منهم إلى أن تبقى الأضعاف، فيقول الله أضعافه ليس من فعلهم هو من رحمتي فلا أقبض منهم.[٣٣١٤]

وجزاء السَّيئة بالمثل قضيّة للعدل، ويفهم منه أنَّ الجزاء إذا لم يكن مثل السَّيئة لم يكن عدلًا، وهو ليس بمذهب أهل الحقِ، فإنَّ الكلَّ لله، وله الحكم والتَّصرف في ملكه كيف يشاء، وكلّ ما يُنسب إليه من ثوابٍ وعقاب قليلًاكان أو كثيرًا فليس بخارجٍ عن الفصل والعدل، فالمقصود منه الإشارة إلى مرتبة يظهر فيها زيادة الظُّهور، وهي المساواة بين السَّيِّئة وجزائها، ولحسم مادة الإشكال على وجه الإكمال.

قال ابن **الكمال**: هذا بحكم الوعد، لا باقتضاء العدل كما توهَّمه أهل الاعتزال؛ إذ لا حقَّ للخلق على ذي الجلال والجمال.[٣٣١٥]

فإن قيل: كفر ساعة يوجب عقاب الأبد فما وجه المماثلة؟

قلنا: إنه على عزم أنَّه لو بقى أبدًا لبقي على ذلك بخلاف المذنب؛ فإنه على عزم الإقلاع فينقطع عقوبته.

وفي الحديث القدسي: «الحسنةُ عشر أو أَزيد، والسَّيَّئة واحدةٌ أو أَغْفرُ، فالويلُ لمن غلبتْ آحادُه أعشَاره»، وفيه: «إذا همَّ عبدي بحسنةٍ فاكتبوها وإن لم يعملها، وإذا عملها فعشر أمثالها. وإذا همَّ بسيِّئة فلا تكتبوها فإن عملها فسيِّئة واحدة».[٣٣١٦]

وقال عارف: الحسنة للنفس: توفير الخدمة، وللقلب: حفظُ الحرمة، وللرّوح:[**١٦٠**/ظ] مراعاةُ أداب الحِشمة.

وأيضا: الحسنة للزاهدين: تركُ الدُّنيا، وللمريدين: تركُ الهوى، وللعارفين: قطع الْمُنى، وللموحِّدين: التَّخلِّي عن الدُّنيا والعُقبى، والاكتفاءُ بوجود المولى.

وأيضًا: الحسنة للمبتدئين: الصِّدقُ في الطَّلب، وللمنتهين: حفظُ الأدب، فالطالب: يبذل الميسور، والمتأدِّب يقطع الهمّة إلى شيءٍ.

وأيضًا: للعبَّاد جزاءٌ محصورٌ، ولأهل المواعيد لقاءٌ غيرُ مقطوعٍ ولا ممنوع.[٣٣١٧]

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١)﴾

لَمَّا علَّم رسوله أنواعه الدَّلائل في الوحدانية، والردّ على القائلين بالأضداد والانداد وغير ذلك من الأباطيل أمره بأن يختم الكلام بقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي﴾[٣٣١٨] أي: بالوحي والإرشاد إلى ما نصب من الحجَج.[٣٣١٩]وذلك يدلُّ على أن الهداية لا تحصل إلا من الله.

[٣٣١٤] **غرائب القرآن** للنسابوري، ٣/ ١٩٢.

[٣٣١٥]**تفسير ابن كمال باشا**،٣/ ٤٦٧.

[٣٣١٦]**صحيح مسلم**، ١/١١٧ (١٢٨)؛ **سنن الترمذي**، ٥/٢٦٥ (٣٠٧٣)؛ **السنن الكبرى** للنسائ، **١٠/٩٨ (١١١١٧)**.

[٣٣١٧]**لطائف الإشارات** للقشيري، ١/ ٣١٩؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٦/٢٧١.

[٣٣١٨]**اللباب**، ٨/ ٥٣٥.

[٣٣١٩]**أنوار التنزيل**، ١/ ٥٣٠.

و﴿دِينًا﴾ بدلٌ من محل ﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾؛ لأن معناه: هداني صراطًا؛ لقوله ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح ٤٨/٢٠]، أو مفعولُ فعلٍ مضمرٍ دلَّ عليه الملفوظ، أو حالٌ من ﴿صِرَاطٍ﴾؛لاختصاصه بالصِّفة، أو نصبٌ على المدح؛ أي: أعني- أو: أخصُّ.[٣٣٢٠]﴿قِيَمًا﴾ صفة ﴿دِينًا﴾.

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح القاف وكسر الياء المشدَّدة[٣٣٢١] على أنه صفةٌ مشبَّهةٌ من قام ردًّا للمختلف فيه على المجمع عليه؛ إذ هو مثله وهو قوله: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم ٣٠/٣٠] أصله: «قَيْوِم»، ثم أبدل من الواو ياءً، وأدغم الفاء في الياء،[٣٣٢٢] وهو بمعنى: القائم والمستقيم إلا أنَّه أبلغ منهما زنةً لكونها دالَّةً على الثُّبوت وهما على التجدد، وإن كان المستقيمُ أبلغَ منه صيغةً، فإنَّ بناءَ الاستفعال لكثرة حروفه يفيد ما لا يدلُّ عليه المجرّد.

وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بكسر القاف وفتح الياء المخففة[٣٣٢٣] على أنَّه مصدرٌ بمعنى: «القيام»، كـ«الحول» وصف به مبالغةً، أو بمعنى: «ذا قيم»، وكان الأصل أن يصح فيه الواو كما صحت في حولًا، لكنَّه اتَّبع فعله فأُعِلَّ كما أُعلَّ فعلُه وهو «قام»، ولم يعلَّ حولا؛ لأنه ليس بجار على فعله وفعله مصحح وهو «احولّ» كـ«احمرّ».

﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ عطف بيان لـ﴿دِينًا﴾.[٣٣٢٤] لِمَا في الإضافة من زيادة التَّوضيح، والدِّين هو الطّريقة المخصوصة الثَّابتة من النَّبي سمِّي من حيث الانقياد له دينًا، ومن حيث يُملى ويبيَّن للناس ملَّة، من أمْلَلت الكتاب، أي: أمليته ومن حيث يبيِّنها الله، أو من حيث يردها الواردون المتعطّشون إلى زلال نَيْل الكمال شرعًا وشريعةً؛ فالدين يُضاف إلى الله وإلى النَّبيِّ وإلى أحاد الأمَّة والملَّة إلى النَّبي وإلى الأمَّة وكذا الشريعة.[٣٣٢٥] لا يقال: ملَّة الله ولا ملَّة زيد، ويقال: دينُ الله ودينُ زيد ودينُ نبيٍّ.

﴿حَنِيفًا﴾ حالٌ من ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾.[٣٣٢٦] وجاز الحال من مثل هذا المضاف إليه لكونه في المعنى بمنزلة الحال من المضاف الذي هو معمول الفعل.[٣٣٢٧]

فيندفع مغايرة الحال وصاحبها عاملًا، وليس يلزم من كونه ع مأمر باتّباعه في الحنيفيَّة أن يكون إبراهيمُ أكملَ منه فيها؛ لأنه ع مقام بها قيامًا عظيمًا، وأكمل له إكمالًا تامًّا لم يسبقه أحدٌ إلى هذا الكمال؛ ولهذا كان خاتَم الأنبياء وسيّد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق كلهم حتى إبراهيم.

قال الراوي: كان رسولُ اللهِ صلعم إذا أَصبَحَ قال: «أَصبَحْنا على ملَّة الإسلامِ، وكَلِمةِ الإخلاصِ، ودِينِ نَبِيِّنا محمَّدٍ، ومِلَّةِ أبِينا إبراهيمَ، حَنيفًا، وما كان مِنَ المشركِينَ.[٣٣٢٨]

وعن ابن عباس قال: قيل لرسول الله: أيُّ الأديان أحبُّ إلى الله؟ قال: «الحَنيفِيَّةُ السَّمحَةُ».

[٣٣٢٠] **تفسير ابن كمال باشا**،٣/ ٤٦٧.

[٣٣٢١] أي: ﴿قَيِّمًا﴾. **السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٧٤؛ **التيسير** للداني، ص ٣٥٢؛ **النشر** لابن الجزري، ٢/ ٢٠٠.

[٣٣٢٢] ج – وأدغم الفاء في الياء.

[٣٣٢٣] أي: ﴿قِيَمًا﴾. **كتاب السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٧٤؛ **التيسير** للداني، ص ٣٥٢؛ **النشر في القراءات العشر** لابن الجزري، ٢/ ٢٠٠.

[٣٣٢٤] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٣٠.

[٣٣٢٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٧ظ؛ **الإكليل على مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، ٣/ ٢٧٧.

[٣٣٢٦] **الكشاف**، ٢/ ٨٠.

[٣٣٢٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٧ظ؛ **الإكليل** ، ٣/ ٢٧٧.

[٣٣٢٨] **مسند أحمد**، ٢٤/ ٨١ (١٥٣٦٧)؛**سنن الدارمي**، ٣/ ١٧٦٠ (٢٧٣٠)؛ **مشكات المصابيح**، ٢/ ٧٤٦ (٢٤١٥).

والحنيف: المائل عن الأديان الباطلة. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ عطف على ﴿حَنِيفًا﴾ حال مثله ونفى الشِّرك عنه ردّ للمشركين، وتعريض بهم. وفيه حثٌّ لهم على الاتِّباع؛ لأنه أبوهم وهم كانوا يفتخرون به.

وقال أبو عثمان المغربي: الصراط المستقيم الاقتداء والاتباع، وترك الهوى والابتداع، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم، ٥٣/٣].

وقيل في قوله: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي: سليمًا من الاعوجاج وهواجس النَّفس، ووجود لذَّة المراد فيه

وقيل: في ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾: هي المحبَّة والخلّة، والإقبال إلى الله والتَّبرأ عمَّا سوى الله.[٣٣٢٩]

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢) ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٦٣)

النُّسُك: سبائك الْفضَّة، كلّ سبيكةٍ منها: نسيكة، وقيل: للمتعبِّد: ناسكٌ؛ لأنَّه خلَّص نفسه من دنَس الآثام كالسبيكة المخلَّصة.[٣٣٣٠]

فيشمل كلّ ما يتقرَّب به، فتخصيص الصَّلاة لغاية شرفه، أو الذَّبح، وجمع بين الصلاة والذبح كما في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر١٠٨/٢]؛ لأن المشركين كانوا يعبدون الأصنامَ ويذبحون لها، فأمره ع م بمخالفتهم، أو حَجِّي، من مناسك الحجِّ، وإنما خصَّه بالذكر؛ لأن المشركين كانوا يُدخلون الشِّركَ في التَّلبية.[٣٣٣١]

وقيل: على هذا يناسب أن يراد بالصلاة صلاة العيد.

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ وما أنا عليه في حياتي وأموت عليه من الإيمان والطَّاعة، أو طاعات [**١٦١**/و] الحياة والخيرات المضافة إلى الممات كالوصيَّة والتَّدبير.[٣٣٣٢] فهما مجازان عمَّا يقارنهما، ويكون معهما، أو عمَّا يتعلَّق بهما؛ لأنَّه المناسب للحكم عليه بكونه خالصًا لوجه الله، كالصلاة وسائر العبادات.[٣٣٣٣]

وقيل: الحياة والممات أنفسهما، فلعلَّ هذا بناء على ما قيل: إنَّ محيا الكلِّ ومماتهم بالله، لكن محيا الأنبياء والأولياء فقط لله، أو على ما قيل: إنهما بخلق الله لا بمعنًى أنه يؤتي بهما لطاعة الله؛ لأنه فيما يكون لاختيار العبد مدخل فيه، وكذلك كون الصَّلاة والنُّسك له، فيدلُّ على أنَّ طاعة العبد مخلوقةٌ له،[٣٣٣٤]لكن لا يخفى ضعفه لفظًا ومعنًى، أمَّا لفظًافلأنَّ المناسب حينئذ أن يقال: بالله، وأمَّا معنًى فلانَّ مقصود الآية إظهار الإخلاص في جميع أموره، وهو الملائم سباقًا وسياقًا.

وقرأ الحسن: «ونُسْكي»[٣٣٣٥] بسكون السِّين. وأهل المدينة: ﴿مَحْيَايْ﴾[٣٣٣٦]بسكون الياء في الأدراج. والعامَّة بفتحها؛ لأنه يجتمع ساكنان.

[٣٣٢٩] **حقائق التفسير** للسلمي،١/ ٢١٧؛ **عرائس البيان** للبقلي، ١/ ٤٠٨.

[٣٣٣٠] **تهذيب اللغة** للأزهري «**نسك**».

[٣٣٣١] **تفسير ابن كمال باشا**،٣/ ٤٦٩.

[٣٣٣٢] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٣٠- ٥٣١.

[٣٣٣٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٧ظ؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٨٤.

[٣٣٣٤] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٨٤.

[٣٣٣٥] **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه ص ٤٧.

ولم يُجِزْهُ إلا يونس بناءً على أن ما قبله ألف، والألف المدَّة التي فيها تقوم مقامَ الحركة؛ ولذلك جوّز اضربان زيدًا، ومنع النحويون؛ لأنَّه جمع بين ساكنين ،وليس في الثاني إدغامٌ، ومن قرأ بقراءة أهل المدينة، وأراد أن يَسلَم من اللَّحن وقف على «محيايْ» فيكون غيرَ لاحنٍ عند النَّحويين.[٣٣٣٧] أو أجرى الوصل مُجرى الوقف وبدأ بقوله: ﴿قُلْ﴾ وختم بقوله: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾؛ بيانًا أنه يقوله: ائتمارًا لا افتخارًا.[٣٣٣٨]

فإن قيل: لِمَ قال: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾، أو ليس إبراهيمُ والنبيُّون قبله؟ قلنا: عنه ثلاثةُ أجوبةٍ:

الأول: أنه أوَّلُ الخلق أجمعَ معنًى، كما في حديث أبي هريرة من قوله ع م: «نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَومَ القِيامَةِ، ونَحْنُ أَوَّلُ مَن يَدْخُلُ الجَنَّةَ».[٣٣٣٩] ومن حديث حذيفة: «نَحْنُ الآخِرُونَ مِن أهْلِ الدُّنْيا، والأَوَّلُونَ يَومَ القِيامَةِ، المَقْضِيُّ لهمْ قَبْلَ الخَلائِقِ.[٣٣٤٠]

الثاني: أنَّه أوَّلهم لكونه مقدَّما في الخلق عليهم، قال الله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ [الأحزاب، ٣٣/٧].

قال قتادة: إنَّ النبيَّ ع مقال: «كنتُ أوَّلَ الأنبياء في الخَلْق، وآخرهم في البعث». فلذلك وقع ذِكره مقدَّما على نوحٍ وغيره.

الثالث: أوَّل المسلمين من أهل ملَّته. وعن عمران بن حصين أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا فاطمةُ، قومي فاشهدي أُضْحِيَّتَكِ، فإنه يُغْفَرُ لكِ بأوَّلِ قَطْرَةٍ من دمها كلُّ ذَنْبٍ عَمِلْتِهِ، ثم قولي: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾». فقالت: هذا لي خاصَّةٌ. قال: للمسلمين عامَّةٌ.[٣٣٤١]

وقال القشيري: مَنْ علِم أنه لله، لم يبقَ فيه نصيبٌ لغير الله، وأسلم لحكم الله، ولم يعترض على تقدير الله، ولا يعارض باختياره اختيارَ الله، ولم يعرض عن اعتناق أمر الله.[٣٣٤٢] ولم يأب عن الرِّضاء بقضاء الله، ولم يمتنعْ عن الصَّبر على بلاء الله، ولم يرتدع عن الشُّكر على نِعماء الله، ولا حولَ ولا قوَّة إلا بالله.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)﴾

هذا أبلغ من: أغيرَ الله أعبد؛ لدلالته على معناه بطريق برهانيٍّ، والإيماء إلى أنَّه لا يكون الطَّلب فضلًا عن أن يتَّخذه ربًّا، وتقديم المفعول؛ لأنه محلُّ الإنكار فيدلُّ على أنَّ المنكر طلب غير الله ربًّا وأنَّ طلبَ الله ربًّا ثابتٌ مقرّر، ويؤيّده أنه جوابٌ عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم.

[٣٣٣٦] **السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٧٤؛ **التيسير** للداني، ص ٣٥٣-٣٥٤؛ **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٠٠-٢٠١.

[٣٣٣٧] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/ ١٣٩.

[٣٣٣٨] **تفسير ابن كمال باشا**،٣/ ٤٦٩.

[٣٣٣٩] **صحيح مسلم**، ٢/٨٥ (٨٥٥).

[٣٣٤٠] **صحيح مسلم**، ٢/٥٨٥ (٨٥٦).

[٣٣٤١] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/ ١٤٢-١٤٣.

[٣٣٤٢] **لطائف الإشارات** للقشيري، ١/ ٣٢٠؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ٦/٢٧٤.

﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ حالٌ في موضع العلَّة للإنكار والدَّليل له، أي: وكلُّ ما سواه مربوبٌ مثلي لا يصلح للرُّبوبية.[٣٣٤٣]

وقال ابن الكمال: أي لا يصلح غيره أنْ يكون معبودًا أصلًا، فضلًا عن أن يكون شريكًا له تعفي الألوهية، وهو مستحِقٌّ لأن يكون معبودَ كلِّ شيءٍ.[٣٣٤٤]

وقال الإمام: لَمَّا أمر النَّبي بالتَّوحيد المحض، ذكر ما يدلُّ عليه وهو أنَّ ما سواه مربوبٌ مخلوقٌ له وحمله المشركين قائلون به فكيف يكون المخلوق شريكًا للخالق، والمربوب للرَّبِّ، والعبد لسيده؟ وهذا ظاهر على تقدير كون المراد من المحيا والممات أنفسهما؛ لأنَّ الآية الأولى ح تدلُّ على التَّوحيد وهذه دليل عليه، وأمَّا على تقدير كون المراد منهما ما يجاورهما ويقارنهما، فالآية الأولى تدلُّ على الإخلاص، والثانية على التَّوكُّل، فإن الله يجعل أحدهما قرينًا للآخر كثيرًا.

وجعل المصنف قوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ﴾ [الزمر ٦٤/٣٩] جوابًا عن قولهم ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ [الزمر ٦٤/٣٩].[٣٣٤٥]

وجعله قدس سره: لنفي نفع ما كانوا عليه من الانتفاء في ابتغاء ربِّ غيره، وجعل قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ جوابًا عن قولهم المذكور.[٣٣٤٦]

تقريره أنَّه معطوفٌ على الجملة الحالية قبلها، أي: وأنَّ الحال أنَّه لا يكون حياته نفس إلا عليها لا على غيرها، فلو حنيت بابتغاء غير الله ربًّا لَكان وباله عليَّ عليكم، ولا ينفعني في ابتغاء ربّ غير الله ما أنتم عليه من ابتغاء ذلك، وكونكم معذّبين به؛ لأنَّ تعذيبكم إنَّما هو جزاءُ عملكم لا جزاءُ عملي، وكيف أفعل [**١٦١**/ظ] ما أعاقب به غدًا؟ ولا تحمل كلُّ نفس إلا عقوبة نفسه، ولا تَحْمِل عقوبةَ غيره.

وقال ابن الكمال: أي: لا تكون جنايةُ نفسٍ إلَّا عليها، ومعناه السَّلبُ الكلِّيُّ، لا سلبُ الكلِّيِّ، فأداةُ السور داخلة على النَّفي معنًى، وإن كانت مدخولةً له لفظًا.[٣٣٤٧]

قال عطاء: قال الوليد بن المغيرة: اتَّبعوا سبيلي أحملْ عنكم، فنزلت.

وهذا نفيُ القدرة عن الغير على ذلك التَّحمل، وأمَّا نفيُ التَّحميل عن الله، فالآية ساكتةٌ عنه، فلا منافاةَ بينها وبين حديث أبي موسى المذكور في صحيح مسلم: «أنه يجيء يوم القيامة ناسٌ من المسلمين بذنوبٍ أمثالَ الجبال،فيغفرها الله لهم، ويضعُها على اليهود والنصارى».[٣٣٤٨]

و«الوزر» في الأصل بمعنى: «الثقل»، ومنه قوله تع: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ [الإنشراح، ٢/٩٤]، والمراد به ههنا الذَّنب، كما في قوله تع: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام، ٣١/٦]؛[٣٣٤٩]تشبيها بمقاساة عذاب الذَّنب بتحمل الحمل الثقيل، فأطلق عليها اسم التحمُّل والشفق منه ﴿يَحْمِلُونَ﴾ فهو استعارة تبعيَّة.

[٣٣٤٣]**أنوار التنزيل**، ٥٣١/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧٧/٣.

[٣٣٤٤]**تفسير ابن كمال باشا**، ٤٧٠/٣.

[٣٣٤٥]**الكشاف**، ٨١/٢.

[٣٣٤٦]**أنوار التنزيل**، ٥٣١/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧٧/٣.

[٣٣٤٧]**تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧٠/٣.

[٣٣٤٨]**صحيح مسلم**، ٢١٢٠/٤ (٢٧٦٧)؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٧٠/٣.

واستدل به من لم يجوّز بيع الفضولي وهو قول الإمام الشافعي.

ومَن جوَّزه قال: المراد من الآية تحمُّلُ الثواب والعقاب دون أحكام الدنيا، و﴿ثُمَّ﴾ متعلِّق بقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾، أو قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ إمَّا معترض تأكيدًا لما ذكر، وإمَّا عطف عليه.

﴿إِلَى رَبِّكُمْ﴾ لا إلى غيره ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ يبيّن الرُّشد من الغيّ، ويميّز المحِقّ من الْمُبطِل، واللفظ يعمُّ الاختلاف في الأديان والملَل والمذاهب.

وقيل: تختلفون في أمري في قول بعضكم: ساحر، وقول بعضكم: شاعر، وقول بعضكم: مفترٍ، وقول بعضكم: إنما يعلّمه بشر، وبعضكم: أساطير الأولين.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)﴾

هي: جمعُ «خَلِيفَةٍ»، كـ«سَفَائِنَ» و«سَفِينَةٍ»، أي: خلائف فيها يخلف بعضكم بعضًا، أو خلفاء الله في أرضه متصرّفون فيها، أو خلفاء الأمم السَّالفة؛ لأن محمَّدًا خاتمُ النَّبين فخلفت أمَّتُه سائرَ الأمم لقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس، ١٠/١٤].[٣٣٥٠]

والوجوه على العموم ويناسبه التعليل بالبلوى. وما قال قدس سره من أنَّ الأوَّلين: «على أنَّ الخطاب عامٌّ»، والثالث: على أنَّه للمؤمنين لا يخلو عن خفاء، وفي الأوَّل والثالث: الخليفة بمعنى: الخلف، وفي الثاني: بمعنى: الوالي المتصرّف فيها بالأمر والنهي.

و﴿دَرَجَاتٍ﴾ تحتمل أن تكون ظرفًا لرفع، وأن تكون مفعولًا على إرادة الجار، أي: إلى درجات، وذلك الرفع في الشَّرف، والعقل، والمال، والجاه، والرّزق، وإظهار هذه التَّفاوت ليس لأجل البخل والعجز، فإنه تع مُتعالٍ عنه، وإنَّما هو لأجل الابتلاء والامتحان على ما قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ من نعمة الجاه والمال، كيف تشكرون تلك النعمة؟ وكيف يصنع الشريفُ بالوضيع، والحرُّ بالعبد، والغنيُّ بالفقير؟ وهذا التفسير على ما جرى عليه العلاّمتان بالنظر إلى جعل خطاب ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ للمرفوعين، وتخصيص ما أوتوا بالنِّعم.

والظاهر أن ينظر بالنَّظر إلى المرفوعين والمرفوعين عليهم، وتعميم ما أوتوا بالنِّقم، على ما جرى عليه ابن **الكمال** حيث قال: ليبلوكم فيما آتاكم من النّعم بالشُّكر، وفيما ابتلاكم به من المحن بالصَّبر،[٣٣٥١] وعليه كلام **السَّمرقندي** حيث قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ من نعمة المال، والجاه، والصِّحَّة، والسّقم وغير ذلك من الأحوال، فإنه تعالى يخبر كلَّ أحد في أحواله، فيمتحن الغني في حال غناه، والفقير في حال فقره، والصحيح في حال صِحَّته، والسَّقيم في حال سقمه وفي غير ذلك من الأحوال.[٣٣٥٢]

[٣٣٤٩] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/ ١٤٥.

[٣٣٥٠] **أنوار التنزيل**، ١/٥٣١؛ **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٤/١٥.

[٣٣٥١] **تفسير ابن كمال باشا**،٣/٤٧١.

[٣٣٥٢] **بحر العلوم للسرقندي**، أسد أفندي رقم: ٦٧، ١١٦ظ.

فمَن ظهر منه الشُّكران يجازى بحسبه، ومَنْ ظهر من الكفران يجازى بحسبه، ومَنْ ظَهر منه الصَّبر والتَّحمُّل يجازى بحسبه، ومن ظهر منه الجزع والتهوّر يجازى بحسبه، وحقيقة البلوى مستحيلةٌ على الله تع؛ لأنها إنما تكون لمن ليس له علمٌ بما سيقع، والله تعالى عالمٌ بعِلمٍ أزليٍّ، متعلِّق بجميع الأشياء الوجودية والعدمية الجليَّة والخفيَّة، لا يخفى عليه خافيةٌ أزلًا وأبدًا، فعبَّر سبحانه عن تعلُّق علمه اللَّاحق بما يقع منهم باختبارهم على تعلُّقه السَّابق ببلوى وهي الجبرة استعارة، أي: ليعاملكم معاملة المختبر المبتلى.

وفي **الصحيح**: «إنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وإنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فنَاظِرٌ كيفَ تَعْمَلُونَ».[٣٣٥٣] وصف عليه السلام الدنيا بأنها حسنةٌ لذيذةُ الطعم، حضرةٌ حسن المنظر، غضَّة ناعمة طريَّة تعجب من تناولها ونظر إليها.

ومعنى «مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا»: أنه تع جاعلكم خلفاءَ في الدنيا التي هي أموال الله خلقها وأنشأها، ثمَّ إنَّه تعخوَّلكم إيَّاها لتستمتعوا بها، وإنَّما تملكونها وتتصرَّفون فيها بطريق الخلافة منه، وليست هي بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء في التَّصُرف، [**١٦٢**/و] فناظر هل تتصرَّفون فيها على الوجه الذي يرضى به المستخلف أوَّلًا، أو مستخلفكم ممَّنْ كان قبلكم، فيما في أيديكم بتوريثه إيَّاكم، فناظر هل تعتبرون بحالهم حيث انتقل منهم إليكم، وسينتقل منكم إلى مَنْ بعدكم، أو لا تعتبرون.

وفي الحديث تنبيهٌ على أنَّ الدُّنيا وزخارفَها ممَّا يجبُ الحذرُ عنها وعن خُداعها، ثمَّ إنَّ هذا المكلَّف الذي يمتحنه الله، إمَّا أن يكون مقصرًا فيما كلِّف به، فيكون نصيبهُ التخويفَ، وإمَّا أن يكون موفرًا فيه فيكون نصيبهُ المغفرةَ والتَّشريف؛ ولذلك عقبه بقوله:

﴿**إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾

أي: سريع العقاب لمن كفرَ نعمتَه، وغفور رحيم لمن قام بشكرها.[٣٣٥٤] وقيل: سريع العقاب لمن عصاه، وغفور رحيم لمن أطاعه.[٣٣٥٥]وقيل: سريع العقاب للمستحقِ غفور رحيم للمستقْصِرِ، والتَّائب وغيرهما فيما دون الشِّرك إن تعلَّقت به مشيئته.

وقيل: استئناف معنا التعليل لوجوب المرجع إليه وهو أنَّ الغرض ومقتضى الحكمة بإنشاء الخلق، وجعلهم خلائفَ الأرض هذا جزاء المكلَّفين على كسبهم وأعمالهم بأن سب بعضًا ويعفو عنه ويعاقب بعضًا.

فإن قيل: كيف قيل: «سَرِيعُ الْعِقَابِ» مع وصفه تع بالإمهال، ومع أنَّ عقابه إنما يكون في القيامة؟

قلنا: إنما وصف بالسُّرعة؛ لأن ما هو آتٍ قريبٌ، فهو سريعٌ على هذا. كما قال تع: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل١٦/٧٧]. وقال :﴿يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج ٧٠/٦-٧]. ويكون أيضًا سريع العقاب لمن استحقَّه في دار الدنيا؛ فيكون تحذيرًا لمِوَاقِع الخطيئة بهذه الجهة.[٣٣٥٦]

ولأنَّه يسرع إذا أراده، ووصف العقاب ولم يُضفه إلى نفسه، ووصف ذاتَه بالمغفرة وضمَّ إليه الوصف بالرَّحمة، وأتى ببناء المبالغة واللَّام المؤكِّدة تنبيهًا على أنه تعالى غفورٌ بالذَّات معاقبٌ بالعَرَض، كثيرُ الرحمة مبالغ فيها، قليلُ العقوبة مُسامحٌ فيها.[٣٣٥٧]

[٣٣٥٣]**صحيح مسلم**، ٢٠٩٨/٤ (٢٧٤٢).

[٣٣٥٤]**الكشاف**، ٨١/٢.

[٣٣٥٥]**الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/ ١٤٨.

[٣٣٥٦]**الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/ ١٤٨.

وتقريره: أن السَّريع وإن كان وصفًا للرَّبِّ ظاهرًا؛ لأنَّ فيه ضميرَ الرَّب لكنه في الحقيقة صفةُ العقاب؛ لأنَّ المعنى سريعُ عقابه فلم يُضفه إلى نفسه؛ دلالةً على أنه معاقبٌ بالعَرَض لا بالذَّات؛ فإنَّ موجب العقاب ما اقترفه العبد من المعاصي، والذُّنوب لا ذات الواجب، بخلاف المغفرة والرَّحمة، فإنهما ناشئان من ذاته بمقتضى الكرم والجود، لا باستحباب أمر أخر سوى الذَّات.

فإن قلت: فما وجهُ مناسبة ترتب سرعة العقاب على وصف الرُّبوبية بحسب الظَّاهر؟

قلت: لأنَّ العصيان مع نعمة التربية أقبحُ، فيقتضي سرعةَ العقاب.

فإن قيل: لَمَّا كانت المبالغةُ في جانب الرَّحمة أعظمَ فهلَّا قدَّمه في الذكر لا سيما وهو أنسبُ بقوله: ع محكاية عن ربه تعالى:«سَبَقَتْ رَحْمَتِي عَلَى غَضَبِي».[3358]

قلنا: لَمَّا كان مفتح السُّورة ذكر الحمد ختمت بالمغفرة والرَّحمة؛ للإشارة إلى أن من كانت فاتحة أمره الشكر لنعمة المنعم استحقَّ أن تكون خاتمته المغفرة والرَّحمة.

وقيل: كان افتتاح السُّورة بالحمد، وختامها بالرَّحمة التي لا نعمةَ أجلّ منها فانتظم أجرها بالأوَّل غاية الانتظام، وهكذا يكون كلامَ الملك العلَّام.

وقيل: جمعٌ في الآية بين التَّخويف والتَّرغيب مثل قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر ١٥/٤٩-٥٠].والمؤمن المستقيم مَنْ لم يَغْلب خوفه، فيؤدي إلى القنوط، ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر ١٥/٥٦]، بل يكون بين الخوف والرَّجاء، ولا يغلب رجاءه، فيأمن مكر الله، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

وعن أبي سعيد الخدري: «لَوْ تَعْلَمُونَ قَدْرَ سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لاتَّكَلْتُمْ عَلَيْهَا وَمَا عَمِلْتُمْ إِلَّا قَلِيلا، وَلَوْ تَعْلَمُونَ قَدْرَ غَضَبِ اللَّهِ تَعَالَى لَظَنَنْتُمْ أَنْ لا تَنْجُوا وَأَنْ لا يَنْفَعَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ».[3359]

وعن النبي ع م: «نزلت عليَّ سورةُ الأنعام جملةً، يشيّعها سبعُون ألفَ مَلَكٍ، لهم زَجَلٌ بالتَّسبيح والتَّحميد، فمَنْ قَرَأَهَا صَلَّى عليه، واستغفَرَ له أولئك السَّبْعُون ألف ملك، بعدد كلِّ آية من سورة الأنعام يومًا وليلةً».[3360]

وهذا مخالفٌ لما مرَّ أنها مكِّيَّةٌ غير ست آيات أو ثلاث، فلعلَّ نزولها جملة على إقامة الأكثر مُقام الكلّ، أو على أن ينزل أكثرها بمكة، ثم نزل مرَّةً أخرَى جملة في المدينة.

والحمد لله على اختتام سورة الأنعام، ونصلِّي على أولي الكرامة والإنعام، ونستعين به في افتتاح سورة الأعراف، أنه الرَّؤف الموصوف بأحاسن الأوصاف.

[3357] **نواهد الأبكار**، ٢٦٠/٦.

[3358] **صحيح البخاري**، كتاب التوحيد ٥٥.

[3359] **الفردوس** للديلمى، ٣٥٤/٣ (٥٠٦٨)؛ **جامع الأحاديث**، ١١٥/١٨ (١٩٠٠١).

[3360] **المعجم الصغير** للطبراني، ١٤٥/١ (٢٢٠)؛ **الموسوعة الحديثية**، ٤٣/٣.

[١٦٢/ظ]سورة الأعراف

مكيَّةٌ كلُّها، أو إلّا خمس أو ثمان آياتٍ من قوله: ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ [الأعراف٧/١٦٣] إلى الخامسة، أو إلى ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ [الأعراف٧/١٧١] محكم كلّها.

وقيل: وإلّا ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف٧/١٩٩]، وآيها مائتان وخمسن أو ست، وكلماتها ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمس وعشرون، وحروفها أربعة عشر ألفا وعشرة أحرف.

بسم لله الرحمن الرحيم

﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي أنزل الكتاب على رسوله لينذر به وذكرى للمؤمنين، ﴿الرَّحْمٰنِ﴾ الذي قصَّ فيه أنباء الأولين تنبيهًا للآخرين، ﴿الرَّحِيمِ﴾ الذي وعد فيه الرحمة للمستمعين له، والمنصتين بعد ختم سورة الأنعام بوعيد الكفار ووعد الأبرار، عقب بما فيه تسلية له ع موتحذيرًا عن أحوال الأعادي، فقال:

﴿الٓمٓصٓ﴾ (١) ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾

﴿الٓمٓصٓ﴾(١) ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ مذكورٌ على نمط التَّعديد في خبر الرَّفع على أنه مبتدأٌ حذف خبره، أو العكس، أي: المتحدى به مؤلَّف من جنس هذه الحروف التي هي عنصر الكلام، أو المؤلف منها هو المتحدّى به المطلوب منكم إتيان مثله فعجزكم مع هذا يدلُّ على أنَّه كلام ربَّاني، ومَنْ أتى به رسول حقاني، فمَن آمن به واتَّبع فقد فاز فوزًا عظيمًا، ومَنْ كذب وتولَّى فقد خسر خسرانًا مبينًا.

فالافتتاح بها تمهيد الإعجاز لتنشيط السَّامع والتَّالي؛ لقبول ما في الكلام العالي.

فقوله: ﴿**كِتَابٌ**﴾ جملةٌ مستقلةٌ على أنَّه خبر محذوف عائدٌ إلى المؤلَّف منها، أو إلى السُّورة باعتبار حضورها فيالعلم، وإلى الثَّاني مثل المصنّف؛ ولذا حمل الكتاب على السُّورة، وقدّر هو كتاب والتذكير باعتبار الخبر، ولو جُعل المقدَّر اسمَ إشارةٍ لم يبعد، وذلك الميل مبنيّ على أن البعض إذا استقلَّ بالكمال والإعجاز على ما ينبئ عنه أول السورة كان أبلغ، وكان الجميع أولى بذلك.

وإلا فالكلام على أسلوب ﴿الٓمٓ﴾ ﴿ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وقد حمله هناك على نفس الْكِتَاب الصالح؛ للهداية والإنذار والتَّذكير، فلعلَّ وجه الجملتين اختلاف الجملتين تعريفًا وتنكيرًا؛ حيث ورد هناك معرّفًا، وورد ههنا منكرًا، أو اسم لقب للسُّورة أو القرآن، وأسماء الألقاب لا تفيد فائدةً في المسمَّيات، بل هي قائمةٌ مقامَ الإشارات فلا يبعد أن يسمّى تعالى بذلك، فعلى هذا فلا حذف في الكلام، بل مبتدأ وخبر، والكلام جملةٌ واحدةٌ، وعلى ما سبق جملتان.

وقال ابن عبّاس: معناه: «أنا الله أفضل»،وعنه: «أنا الله أعلم وأفضل»، وعنه: أنه قسمٌ أقسم الله به وهو اسم من أسماء الله. وقال السدّي: «هو بعض اسمه المصوّر».

وقال أبو عالية: «الألف مفتاح اسم الله، واللام مفتاح اسمه اللطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد، والصاد مفتاح اسمه صادق وصبور.وقيل: هي حروف مقطعة استأثر الله بعلمها، وهي سره في كتابه العزيز، وقيل: هي حروف اسمه الأعظم، وقيل هي حروف تحتوي معاني دل الله بها خلقه على مراده».[٣٣٦١]

[٣٣٦١] **لباب التأويل في معاني التنزيل** للخازن، ٢/١٨٠.

و﴿أُنْزِلَ﴾ في موضع رفعٍ صفة ﴿كِتَابٌ﴾ وضميره إليه لا إلى الجارِّ؛ لخلو الصِّفة عن عائد، وإنزاله نقل الملك الحامل له الآخذ إيَّاه من موضع النقوش في اللَّوح من ربِّ العزَّة؛ تلففًا روحانيًا من أعلى إلى أسفل، فلا حجّة حينئذ لمن يدَّعي حدوث كلام الله واستحالة نزول الحروف بناءً على أنَّها متواليةٌ غير باقية في الزَّمانين، و لمن يقول بالمكان لمن تنزَّه عنه، وعن سائر أمارات الإمكان بناءً على أنَّ كلمة «مِنْ» لابتداء الغاية، و«إلى» لانتهائها، فيقتضي حصول مسافة مبدءها الله ومنتهاها محمدصلعم.

﴿فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ شكٌّ. فقيل: من المعلوم أنَّ الحَرج ليس حقيقةً فيه، فتعيّن كونه مجازًا فيه، فاحتجّ إلى بيان العلاقة بين المعنى الأصلي والمجازي. وهي أن الحرج من لوازم الشَّكِّ، واللَّفظ المستعمل في الملزوم مع عدم إمكان إرادة الأصلي مجاز، ولا يمكن ههنا إرادة حقيقة الحرج؛ إذ لا معنى لتحرج القلب عن نفس الكتاب، أو نفس إنزاله، أو عن نفس إسناد إنزاله إلى الله. وإنما المتصوَّر أن يحرج القلب عن التيقّن بكونه منزلًا من عند الله؛ فإن الشَّاكَّ في الحكم لايستقرّ أحد طرفي النِّسبة ويضيق قلبه عنه.[٣٣٦٢]

لكن لقائل أن يقول: عدم إمكان المعنى الحقيقي إن كان لأجل أنَّ القلب إنَّما يتحرّج عن الأجرام فذلك غير مسلّم؛ لأنَّ الحرجَ لايختصُّ الأجرام وإن كان لأجل أنه يتحرّج من المعاني، لكن لا معنىً لتحرّجه عن نفس الكتاب ونحوه، فذلك في جر المنع أيضًا؛ لأن تحرّجه ممَّا لم يتمرن به غير غزير يرشدك إلى هذا التَّأمل في معنى قوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، [المزمل٥/٧٣] ثم المعنى: لا شكَّ في أنَّه منزّل من الله[**١٦٣**/و]كقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس ٩٤/١٠]، أو ضِيق قلبٍ من تبليغه مخافة أن تكذَّب فيه، أو تقصِّر في القيام بحقِّه، فيكون الحرج على حقيقته بتقدير مضافٍ؛ فإنه عليه السلام: كان يخاف تكذيبَهم وأذاهم. فيضيق صدرُه فأمَّنه الله ونهاه عن المبالاة بهم.[٣٣٦٣]

وليس على هذا كناية عن عدم الخوف؛ إذ كان ضِيق الصدر من الأداء مستفادًا من الخوف؛ لأن الخوف من الأداء كان، بل المناسب بعد الحمل على الحقيقة جعل الجملة مجازًا أو كنايةً عن طلب عدم المبالات بالأعداء على ما أشير إليه.

ثمَّ إنَّ «الفاء» سواءٌ كانت عاطفةً أو جوابيَّةً على تقدير: «إذا أُنزل إليك لتُنذر، فلا يحرج صدرُك»[٣٣٦٤] آذنت بترتُّب النَّهي على كون الكتاب منزلًا، وتقريره على الشَّكِّ أن يقال: إذا حقَّقتَ أنَّ الكتابَ مُنزلٌ من عند الله فلا ينبغي أن تشكَّ فيه؛ لأنَّ اليقين، والشَّكَّ لا يجتمعان، والنَّهي من باب التَّهييج تهيج والإلهابِ ليُداوم على اليقين، ويزيد فيه، كقوله تع: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس ٩٤/١٠].

وعلى نفي الضِّيق والحرج أن يقال: ﴿الٓمٓصٓ﴾، إمَّا واردٌ قرع العصا لِمَنْ تحدَّى بالقرآن أو هو مقدِّمة لدلائل الإعجاز.

والمعنى: ﴿الٓمٓصٓ﴾ هو كتاب منزلٌ من عند الله بالغٌ حدّ الإعجاز، فكُنْ مُنشرحَ الصَّدر، فسِيحَ البال قَويَّ الجأشِ، ولا تُبال بهم وأَنذِرْهم به؛ فإنَّ لك الغلبةَ والسُّلطان، وهم مَقْهورون، فالنَّهي من باب التَّشجيع على أهل الزيغ والعناد.[٣٣٦٥].

[٣٣٦٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ١٨٦-١٨٧.

[٣٣٦٣] **الكشاف** للزمخشري، ٨٢/٢-٨٣.

[٣٣٦٤] **أنوار التنزيل**، ١/ ٥٣٣.

[٣٣٦٥] **فتوح الغيب**، ٣١٥/٦؛ **نواهد الأبكار**، ٢٦٩/٦.

ثم توجيه النهي إلى الحَرَج بعدم كونه في الصَّدر مع أنَّه لا يُؤمر ولا ينهى من ذكر اللَّازم، وإرادة الملزوم. فالمنهيُّ عدم كون المخاطب فيه كما في: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾[٣٣٦٦] ففيه مع المبالغة؛ لأنَّ النَّهي عن اللَّازم كالبينة على نهي الملزوم تنزيه ساحة النُّبوَّة عن التَّصريح بالنَّهي؛ فإن اللائق به أن يسر بما أنزل وينشرح لما فيه من تخصيصه بذلك وتشريفه حيث أهله لذلك، وجعله سفيرًا بينه وبين عباده.

وقال ابن الكمال: أي: فلا تكن شاكًّا أو خائفًا، على الكناية؛ فإن الشاكَّ والخائف ضيّق الصدر، أو: فلا يكن في قلبك شكٌّ أو خوف، على أنَّ الصدر مجازٌ عن القلب، والحرَجَ مجازٌ عن الشكِّ أو الخوف، وتوجيه النَّهي إليه لإيهام أنهلو كان ممَّا يُنهى عنه لنهياه عنك، فانته أنت عنه، ولايخفى ما في هذا الاعتبار من تعظيم شأنه ع م، أو فلا يكن في صدرك ضِيقٌ على أن يكون النَّهي للتَّكوين، ويعضده:﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الانشراح ٩٤/١][٣٣٦٧]

﴿لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلّق بـ﴿أُنْزِلَ﴾، أي: أُنزل إليك لإنذارك، أو بالنَّهي؛ لأنه إذا لم يَخَفْهُم أنذرَهم، وكذا إذا تيقّن أنه من عند الله شجَّعه اليقين على الإنذار؛ لأنَّ صاحبَ اليقين جَسورٌ متوكِّلٌ على ربِّه،[٣٣٦٨] يعني: يكون معمولًا للطَّلب أو المطلوب، أعني: انتفاءَ الحرج وهذا أظهرُ، لا للنَّهي أعني: الفعلَ الدّاخلَ عليه حرفُ النَّهي[٣٣٦٩] لفساد المعنى، ولَمّا كان البيانُ على ثاني تفسيري الحَرَج أظهرَ قَدَّمَه، وذكرَ الأولَ بقوله: «وكذالك إذا أيقن...» إلى آخره، لكن بعد ملاحظة قوله ﴿بِهِ﴾ لاحاجَة إلى ما ذكره منَ الاعتبارات، فليُتَدَبّر.

فإن قيل: هلّا جزم بتعلّقه بالنهي، أو صرّح بترجيحه لا أقل، فإنَّه لو تعلّق بـ﴿أُنْزِلَ﴾ لقدم على النهي المرتّب على الإنزال للإنذار، قلنا: لأنَّ كون الإنزال للإنذار من الواضحات التي تجري مجرى الضروريات، مع كون العامل صريحَ الفعل، ومذكورًا بطريق القصد دون التّرتيب، والتَّفريع، وأمَّا لزومُ تأخير النَّهي فعلى التفسير الأوّل للحرج غبر مسلّم، فإنَّه مترتّبٌ على مجردِ الإنزال إليه، وعلى الثاني: ترك للاهتمام المناسب للمقام كما لايخفى، حتى كان الواجب قبل الإنذار تحصيل الأمن التام.[٣٣٧٠]

وقيل: عدمُ التَّأخير على المعنى الأول؛ للإشعار بأنَّ كلًّا من الطَّرفين كافٍ في نفي الحرج فكيف إذا اجتمعا؛ لأن كون المؤلف من هذه الحروف كتابًا بالغًا حدّ الإعجاز يستدعي عدم الشَّكِّ، وكذا كونه منذرًا به، ولتذكير أن ذلك لا يتم إلا باليقين بحيث لا يحوم الشَّكُّ حوله، وعلى الثاني تعيّن ما ذكر؛ فإنَّ تشريفه ع م بإنزال هذا الكتاب الفائق يقتضي كونه منشرحًا غير مبال، وكذا التَّرشيح بالإنذار؛ لأن المخوف إنما يتمكّن من الإنذار بعدم المبالاة.

وقيل:متعلق بـ﴿حَرَجٌ﴾ على أن الحرج للإنذار لا ينبغي أن يكون فح المعلَّل منهي وفيما قبله المنهي معلّل وهو الوجه؛ فإنه نهى عن الحرج مطلقًا، ثم لما علَّل علم أن الإنذار الذي هو مقتضى الرِّسالة؛ لأنهم دون انتفائه، ومنه يظهر أن الحمل على ضِيق الصَّدر من الأداء أولى من الحمل على الشَّكِّ.

[٣٣٦٦] **سورة النمل** ١٨/٢٧.

[٣٣٦٧] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٧-٨.

[٣٣٦٨] **الكشاف** للزمخشري، ٨٣/٢.

[٣٣٦٩] ج — حرف النهي.

[٣٣٧٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٨و.

﴿وَذِكْرَىٰ﴾ في موضع النَّصب بإضمار فعله المعطوف على ﴿لِتُنْذِرَ﴾، [**١٦٣**/ظ] أي: لِتُنْذِرَ به، وتذَكِّر تذكيرًا؛ لأنه اسمٌ بمعناه[٣٣٧١]، وألفه للتأنيث ولذلك لم ينصرف، لا بالعطف على محلِّ الجارِّ والمجرورِ؛ لأنه يكون مفعولًا له لـ﴿أُنْزِلَ﴾ أو لـ﴿لَايَكُنْ﴾ فلا يكون فعلًا لفاعل الفعل المعلّل، فلا يوجد شرط حذف اللّام، والتَّذكير وإن كان فعلُ الله، لكن يُفَوِّت الملائمة للإنذار مع أنَّه لا يقارن في الوجود الاَّ أن يراد بالتذكير التَّمكن منه، ولا يكن وإن كان في معنى: لا شكّ، أو لايخف فيتَّحد الفاعل، لكن المعتبر هو الظاهر، أو الجرُّ عطفًا على محلِّ «أن تنذر» فإنّ «أن» مع الفعل، وإن كان في معنى المصدر، وهو مركَّب من فعل، وحرف، واسم، فلا يكون كلمة فلا يكون اسمًا، فلا يكون إعرابه إلا محلًا، وكذا الموصول الاسمي مع صلته، أو الرَّفع عطف على ﴿كِتَابٌ﴾ فيكون هذا المؤلف جامعًا بين أمرين كونه كتابًا معجزًا، وكونه ﴿ذِكْرَىٰ﴾ المبدأ والمعاد، أو خبر المحذوف، فيكون المؤلف المقيَّد بكونه كتابًا، كيت وكيت هو ذكرى لهم. فمن عطف الجملة على الجملة فيستقل بكلّ من الأمرين؛ فلذلك رجح لفظًا ومعنًا. وأيّد به الوجه الثَّاني في تفسير الحرج من إرادة التَّبليغ والتَّحدِّي. فالآية على وزان قوله:﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة ٢/٢٣] إلى قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [البقرة ٢/٢٤] إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة ٢/٢٥].

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلّق بناصب ﴿ذِكْرَىٰ﴾، وبه على باقي الوجوه، أو بمحذوفٍ صفةٌ له «أُطلق الإنذار لعمومه الفريقين، وخصّ التذكير بالمؤمنين؛ لأنَّهم المنتفعون به».[٣٣٧٢]

وقيل: الإنذار للمكذِّبين، والتذكير للمصدّقين؛ فإنَّ من النفوس بعضًا مستغرقًا في اللَّذَّات بعيدة عن الرُّوحانيّات، وبعضًا آخر مشرقة بالأنوار متوجهة إلى الآخرة، والبعثة لإيقاظ هؤلاء عن الرّقدة، وتخليص هؤلاء عن العقدة؛ فإنَّه ربَّما غشيها الجسمانيات فتذهل وحين سمعت الدعوة اتصلت بعالمها[٣٣٧٣]

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾

لَمَّا أمره بالتَّبليغ أمرالله بالاتّباع وكما شرفه بنيل حقائق ما أنزل شرفهم به، وأمرهم بالتَّخلّق به لنيل الكمالات.

و﴿مَا أُنْزِلَ﴾ لايختصّ الكتاب، فيكون من وضع الظَّاهر موضعَ المضمر، بل يعمّ السُنة ليُظهر فائدةَ ﴿إِلَيْكُمْ﴾ دونَ إليه، والمراد الإنزال من السَّماء ففي إنزالها زيادة تجوز.

ففيه شهم أن كلَّ ما جاء به حسن لازم الاتّباع، وتتميم لشرح صدره؛ فإنَّه لَمَّا شجَّعه أمَر الجميع باتّباع جميع ما أتى به؛ ليكون أَدْعَى للانشراح.

ولَمَّا كانوا مكلّفين به جعل كالمنزل إليهم ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ متعلّق بـ﴿أُنْزِلَ﴾ و﴿مِنْ﴾ ابتدائية مجازًا، أو بمحذوفٍ حالًا من الموصول، أو عائده، وفيه حثٌّ على الاتباع المنزل وأنه نزل مِنْ رَبِّكُمْ[٣٣٧٤] بما لا يحصى ومن جملة ذلك بل معظمه الإنزال والأمر بالاتباع.

[٣٣٧١] **الكشاف** للزمخشري، ٢/٨٣؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٨.

[٣٣٧٢] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٨.

[٣٣٧٣] **مفاتيح الغيب**، للرازي، ١٤/١٩.

[٣٣٧٤] ج – متعلّق بـ﴿أُنْزِلَ﴾ و﴿مِنْ﴾ ابتدائية مجازًا، أو بمحذوفٍ حالًا من الموصول، أو عائده، وفيه حثٌّ على الاتباع المنزل وأنه نزل من ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: «لَيْسَ مِنْ مُؤَدِّبٍ إِلَّا وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى أَدَبُهُ، وَإِنَّ أَدَبَ اللَّهِ الْقُرْآنُ».[٣٣٧٥] ولامجال لاتِّباع الآراء مع وجود النَّص، واستدلَّ على أنه يخصص عموم القرآن بالقياس، وأجيب بأنه مستفاد منه :﴿فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ﴾.[الحشر ٢/٦٠]. وردّ بعد التَّسليم بالتَّرجيح؛ لأن العمل بالمنزل ابتداء أولى منه بالواسطة.

والنَّهي تأكيدٌ للأمر، وتقريعٌ على توانيهم عن متابعته إلى اتِّباع غيره؛ ولذلك قلّل بذكرهم تقريرًا له، وقصّ عليهم المهلكين، فكأنه قيل: إنْ لم تَنْجَعْ المواعظُ فاعتبروا بمن ظلموا أنبياءهم. فالآية تفصيل الإجمال في ﴿لِتُنْذِرَ﴾، فكأنه قيل: كيف أنذرهم؟ فقيل: اتَّبعوا، ومنه قيل: بل مقدر، وقيل: بل أمر يعمه، وغيره.

﴿مِنْ دُونِهِ﴾ متعلّق بالفعل أو بمحذوف حالاً من ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وهي لم ينصرف؛ لأن ألفها للتأنيث، والضَّمير للرَّبِّ، أي: «لا تتولّوا من دون ربكم شياطين الإنس والجن، فيضلوكم عما أنزل، ويحملوكم على الأهواء، أو لما أنزل، أي: لا تتبعوا من دون ما أنزل إليكم؛ أي: من دون دِينِ الله دينَ أولياء»[٣٣٧٦] على تقدير مضافٍ.

واحتجّ به ما في القياس؟ وأجيب بما مرّ وبأن كونه حجّة بإجماع الصَّحابة، وظاهر العموم ظنّي فلا معارضة، وأورد بأنَّ حجيته بعمومٍ، ويتبع غير سبيل المؤمنين، والفرع لا يقوى على الأصل، ودفع بأن الأدلة لما تعاضدت في إثباته قوي الظنّ في ذلكن ومنكر النَّظر.

وأجيب بأنَّ العلم بحجته القرآن بالدلائل العقلية فكيف ينكر.

﴿قليلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ حيث تَتْرُكُون دينَ الله وتتَّبعون غيرَه بإضلال أولاياء من دون الله عن دين الله، كما في الوجه الأول، أو باتِّباعكم من دون دِينِ الله دينَ أولياء، كما في الوجه الثَّاني، ومنه يظهر أنَّ الخطاب للمندرين، والعلّة عبارةٌ عن العدم، كأنه قيل: لايذكرون اليقة، أي: ما أعملكم؛ ولذلك قيل: صدر الكلام عامٌّ، وآخره للكافرين، ولعلَّ ذلك باعتبار أنَّ [**١٦٤**/و] أكثرَهم كذلك.

و﴿مَا﴾ إبهامية مؤَكِّدة لما يُشعِر به الكلامُ من القلَّة أو الكثرة مثل: «كثيراً مَا». ﴿قليلًا﴾ نصب على أنَّه صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، وقد يوصف به «الحين»، فينتصب على الظَّرفية نحو: كثيرًا تسمَّى البلاغةُ فصاحةً،[٣٣٧٧] أي: حينًا كثيرًا معناه: تذكرًا قليلًا وزمانًا قليلًا ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ أو مصدرية موصولة بالفعل فلم ينتصب به؛ لأنَّ معمول المصدرلا يتقدَّم عليه، فيكون صفة زمانٍ محذوف في محل الرَّفع على الخبرية، و﴿مَا﴾مع مدخولها مبتدأ مؤخرٌ، أي: زمانًا قليلًا تذكّركم، أي: لا يقع إلا في بعض الأحيان.

حفص وحمزة والكسائي بحذف الثانية؛ لأن الأولى للاستقبال، والثانية للدَّلالة على التمَهُّل، نحو: تفهَّمْتُ الشيءَ أي: أخذتُه على مهْل، وتشديد العين يدلُّ عليه، ولو حذف الأولى لم يبق ما يدلّ على الاستقبال.

وابن عامر: بالياء والتاء[٣٣٧٨] على أنَّ الخطاب بعد الخطاب له ع م، أي: قليلًا ما يتذَكَّر هؤلاء الذين بعث إليهم، والباقون بالتاء والتَّشديد بإدغام تاء التفعل فيها؛[٣٣٧٩] لأنَّها مهموسةٌ وهي مجهورةٌ فأدغم الأنقص في الأزيد.

[٣٣٧٥] **مسند الدارمي**، ٢٠٩٣/٤ (٣٢٧٤).

[٣٣٧٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٩/٤.

[٣٣٧٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٨ظ.

[٣٣٧٨] أي: ﴿يتَذَكَّرُونَ﴾. **النشر** لابن الجزري، ٢٠١/٢.

[٣٣٧٩] أي: ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾. قرأ بها ابن كثير و نافع وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر. **النشر** لابن الجزري، ٢٠١/٢.

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ (٤)

﴿كَمْ﴾ خبريَّة للتكثير، رفع بالابتداء؛ لاشتغال الفعل بالضَّمير ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ تبيين و﴿مِنْ﴾ صلة، أو نصب بمفسر يقدر بعدها لتصدرها بمضارعتها الاستفهاميَّة وكونها يقتضيه ربّ ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ خبرًا ومفسر والضَّمير على معنى ﴿كَمْ﴾ فورد أنّ المجيء قبل الإهلاك.

فإجيب بأنَّ المراد إرادةُ الإهلاك والخذلان؛ لأنه سببه فعبّر عنه بالمسبَّب، أو لما كان الإهلاك والمجيء واحدًا جوز ذلك وردّ أن العطف للمغايرة، ودفع بأنَّه قد يجيء للتفسير، كقوله ع م: «لا يقبلُ اللهُ صلاةَ أحدكم حتّى يضعَ الطَّهورَ مواضعَهُ: فيغسلُ وجهَهُ ويديه»، ولا حاجة إلى تقدير مضافٍ؛ لأن الإهلاك يقع عليها كما يقع على أهلها، وعدم ملائمة التَّحذير، والقيلولة والبيات، وضمير ﴿هُمْ﴾ مرفوع بتقديره في قوله: ﴿فَجَآءَهَا﴾، أي: فجاء أهلها ﴿بَأْسُنَا﴾ العذاب الشديد منّا بقدرتنا القاهرة، ولا جمع فيه بين الحقيقة والمجاز؛ لأنَّه بإرادة النَّفس والأهل منها وليس كذلك. ولو قدّر في الأوّل فالضميران الأوّلان للملفوظ والثّالث للمقدّر.

﴿بَيَاتًا﴾ ظرف؛ لأنَّ المراد به اللَّيل، أو مفعول له أو حال من المفعول، على المعنى، أي: بائتينَ، أو على اللَّفظ، أي: بائتَةً، أو من الفاعل مبيِّتًا، أو مصدرٌ، فكأنَّه قيل: فبيَّتهم بأسنا بياتًا.

يقال: بيّت العدوّ، أي: أوقع بهم ليلًا، والاسم: «البيات»، ويكونُ مصدرُ «بَات يَبِيتُ بيتًا وبياتًا»، وذلك نحو: ما وقع بقوم لوطٍ، ولا ينافيه: أليس موعدُكم الصبح؟ لأنه قريب منه.

﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ عطفٌ على﴿بَيَاتًا﴾، أي: قائلين نصفَ النَّهار نحو ما وقع بقوم شعيبٍ. يقال: قَال يَقِيل قِيلًا وقيلولةً ومقيلًا فهو قائِلٌ، وهي الاستراحة وإنْ لَمْ ينم.

وقيل: بالنوم ويردّه قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان ٢٤/٢٥]. ويدفع بأنها ههنا خرجت عن موضوعه الأصلي إلى مجرّد الإقامة بدليل أنَّه لا يراد منها الاستراحةُ في نصف النهار أيضًا.

وإنما حذف واو الحال استثقالا؛ لاجتماع حَرْفَيْ العطف لا اكتفاء بالضمير؛ فإن المبتدأ في الاسميّة إذا كان ضميرَ ذي الحال، وجب الواو؛ لأنَّها إذا اتّحدت ذا الحال بضميره أشعَرتَ بأنَّ للجملة نوعَ استقلال، فلا بدّ من زيادة رابط، بخلاف ما إذا عطفت الحال على حالٍ نحو: جائني راجلًا، أو هو فارس؛ فإنَّه يترك الواو للاستقال بالنظر إلى الأصل؛ فإنَّ واو الحال واوُ عطفٍ استُعيرت للحال ترجيحًا للمجاز على الإشتراك، وبعد الاستعارة لم تبقَ عاطفةً، وكان الإعراب استقلالًا لا تبعًا. وبخلاف ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة ٣٦/٢]، و«كلَّمتُه فُوهُ إلى فِيَّ» مما هو في معنى المفْرَد، أي: اهبطوا مُتعادِينَ، وكلَّمتُه مشافِهًا.

وقيل: إنَّ الضَّمير إذا كان في صدر الجملة كما في هذه الأمثلة يَحْسُنُ تركُ الواو، ولحصول الرَّبط من أوّل الأمر، بخلاف «نَصَفَ النهارُ الماءُ غامِرُه».[٣٣٨٠] وبالجملة فاعتراض المصنف على **الزجاج** أنَّه سوى بين ما إذا عطفت الجملةُ على حالٍ، وما إذا لم تعطف.[٣٣٨١]

[٣٣٨٠] **لسان العرب** لابن منظور « نصف».

[٣٣٨١] **الكشاف** للزمخشري، ٨٣/٢؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٨ظ.

واوٌ ههنا أحسن من الواو؛ لأنَّها توجب الاجتماع، وفي التَّعبيرين مبالغةٌ في غفلتهم، وأمنهم من العذاب، وهما التَّعبير عن الأعيانبالمصدر واسمية الجملة؛ ولذا خصّ الوقتين؛ لأنهما وقت دَعَة، واستراحة، فيكون مجيءُ العذاب فيهما أفظعَ.[٣٣٨٢]

وإنما خولف بين العبارتين،[٣٣٨٣] وبنيت الحال الثاني[٣٣٨٤] على تقوِّي الحكم، والدلالةُ على قوّة أمرهم فيما أسند إليهم؛ لأنَّ القيلولة أظهر في إرادة الدَعَة؛ فإنَّها من دأب المترفين المتنعّمين دون من اعتاد الكَدْح، وفيه إشارةٌ إلى أنهم كانوا أربابَ أَشَر وبَطر،[٣٣٨٥] ووعيد شديد للكَفَرة بأن يغترّوا بأسباب الأمن والرَّاحة؛ فإنَّ طول [**١٦٤**/ظ] المهملة يوجب الغفلة، وإكثار الغفلات بوجب الهلكات

يَا رَاقِدَ اللَّيْلِ مَسْرُورًا بِأَوَّلِهِإِنَّ الْحَوَادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحَارَا[٣٣٨٦]

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥)﴾

أي: فما كان دعاؤُهم ربهم كقوله: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس ١٠/١٠]. مصدر دعوت الله له، أو عليه دعاءً ودعوًى، إلا أنَّ الثاني مشتركٌ بين الدُّعاء والادِّعاء ﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾ ظرف لـ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ ﴿بَأْسُنَا﴾ أوائله ﴿إِلاَّ أَن قَالُوٓاْ﴾ الفعل مع ما في حيّزه لا محلَّ له لوقوعه صلة «أَنْ» وهي مع ما في حيزِّها في محل النَّصب، أو الرفع ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ ﴿كُنَّا﴾ مع خبرها رفع خبر لـ﴿إِنَّا﴾ ، وهي مع ما في حيّزها في محلّ نصب محكيًّاً بـ﴿قَالُوٓاْ﴾

﴿ظَالِمِينَ﴾ أنفسنا بمقارفة الآثام ومفارقة الإسلام فيكون قولهم: هذا كنايةٌ عن اعترافهم بظلم أنفسهم، بسبب المعاصي كقوله: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ [غافر ١١/٤٠]. ولكن لا يقبل لفوت الوقت ولا يزيدون عليه لعلمهم أنَّ الدَّعاء لا ينفعهم، وأن لاتَ حين دعاء.

وهي «لا» المشبهة بـ«ليس» زيدت التاء عليها لتحصل لها المشابهة الصّورية كما أنَّ لها المشابهة المعنويَّة، فيحسن إضمارُ اسمها؛ لأنّ إضمار الاسم لا يكون في الحروف. والإضمار في «لات» كما في «ليس» ذكره **سيبويه**[٣٣٨٧] أي: ليس الحين حين دعاء، أو: وما كان دعويهم، أي: استغاثتُهم كما في قولهم:[٣٣٨٨]«دَعْوَيهم يَا لَكَعْبٍ»، أي: استغاثتُهم بآل كعبٍ.[٣٣٨٩]

﴿إِلاَّ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ في استغاثتنا الأصنام، فيكون القول كنايةً عن أنَّهم رجعوا مما كانوا يستغيثون إليه قبل ذلك؛ لأنَّهم علموا حينئذ أن لا مستغاث من الله بغيره،[٣٣٩٠] ولكن لا يفيد أيضًا، أو وما كان ادِّعائهم على ما هو المتعارف﴿إِلاَّ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فيما كنَّا عليه، فيكون القول كنايةً عن الاعتراف ببطلان ما كانوا يدّعونه من دينهم،

[٣٣٨٢]**أنوار التنزيل،** ١/ ٥٣٤. **حاشية محيي الدين شيخ زاده،** ١٩٠/٤.

[٣٣٨٣] يعني: بين العبارتين قوله تعالى: ﴿بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾.

[٣٣٨٤] أي: ﴿هُمْ قَائِلُونَ﴾.

[٣٣٨٥]**فتوح الغيب،** ٣٢٧/٦؛ **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي،** ١٥٠/٤.

[٣٣٨٦] محمد بن حازم الباهلي **الجامع لأحكلم القرآن** للقرطبي ٢/٢٠.

[٣٣٨٧] انظر: **الكتاب** لسيبويه ٥٧/١؛ **فتوح الغيب،** ٣٢٦/٦.

[٣٣٨٨] ج: قوله.

[٣٣٨٩]**الكشاف** للزمخشري، ٨٥/٢. **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٨ظ.

[٣٣٩٠]**فتوح الغيب،** ٣٢٦/٦.

وينتحلونه من مذهبهم، ولكن لا يفيد أيضًا، وبالجملة أنَّهم لم يقدروا على دفع النَّاس، فكان مآل أمرهم الاعتراف بالخيانة حين لا ينفع.

ثمَّ إنَّه إذا كان أحدُ جزئى جملةٍ كان «أَنْ» مع الفعل، فالكثير الرَّاجح رفعُه بالاسمية، ونصب الآخر بالخبريّة وإنْ قُدِّم كقوله تع: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا﴾ [النمل ٥٦/٢٧]، ﴿وَمَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُو﴾ [الجاثية ٢٥/٤٥]، ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا﴾ [الأنعام ٢٣/٦]، ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾ [الحشر ١٧/٥٩]، وذلك لأنَّ ﴿أَنْ﴾ مع الفعل لالا يكون إلَّا مصدرًا معرفةً، ولأنَّه يُشْبِهُ الضَّميرَ في أنَّه لا يوصف، ففي الجملة لا يكون هذا من قبيل انتفاء الإعراب لفظًا، والقرينة ليلزم جعل المتقدّممسندًا إليه، ولهذا جعل هذا الوجه هو الرَّاجح، وجوز أن يكون ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ رفعًا اسم كان نظرًا إلى ظاهر اللَّفظ، وقطع النَّظر عن القرينة، ثمَّ النَّفي والاستثناء على التَّقريرين يفيد قصر ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ على قولهم، كما هو مقصود الكلام؛ لأنَّ ما يلي ﴿إِلَّا﴾ مقصور عليه أبدًا، سواءٌ كان مسندًا إليه أو مسندًا، وأمَّا بدون النَّفي، والاستثناء فهل يحصل هذا المقصود حتَّى يكون «ما» و «إلَّا» تأكيد القصر لا تأسيسه ففيه خفاءٌ، والحقُّ نَعَم على الثاني، ولا يظهر إلَّا لِمَنْ له بصيرةٌ في علم المعاني.[٣٣٩١]

وقال بعض المحققين: كان زيدٌ أخوك لعالم زيد، ولكن متردِّد في أخوَّته وكان زيدًا أخوك لعالم الأخوَّة، ولكن متردِّد في أنَّه زيد فعند الإتيان بالنَّفي والإثبات أشَرْتَ إلى ارتقاء التردّد الى الإنكار، فأنت ترده عنه، فكذا إذا جعلت «الدَّعوى» اسمًا وقع التَّردُّدُ في القول، أي: القول هو هذا الدَّعوى لا غيره فيتَّفق معنى هذا مع معنى القَصْر، فيؤكده هذا، وإذا عكَسْتَ وقع التَّردُّد في «الدَّعوى»، أي: القول هو هذه الدَّعوى لا غيرها. وفيه إشكال.

وإذا جعلْت «الدعوى» خبرًا، فقد أَزَلْتَها عن مَقرّها، فكان الاهتمام بشأنها، والمقام يقتضيه، لأنَّ المقصود من الإيراد إظهار عجزهم، وإبداء تضرّعهم، واستغاثتهم. وأمَّا تخصيصُ القول فتابع.[٣٣٩٢]

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦)

«اللام» للقسم، و«الفاء» لعطف جملة عليها فيتعلَّق بقوله: ﴿اتَّبِعُوا... وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ وما بينهما اعتراضٌ للحثّ على التشمّر على الاتّباع بالاعتبار من أحوال الأمَم فإيرادها مقام ثمَّ لتقريب ما بينهما، وما أمر الساعة إلَّا كلمح البصر أو فصيحةٌ فتتعلق بما قبله، فإن ذلك يكون في الدُّنيا، وهذا يكون في القيامة لقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص ٦٥/٢٨]. ولقوله: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ/ الْحَقُّ﴾ **[١٦٥/و]** [الأعراف ٨/٧]. فكانَّه قيل: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ عند إتيان البأس في الدُّنيا إلا هذا فقطَعْنا دابرهم، ثم لنحشرنَّهم فلنسألنَّهم، فعلى هذا فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ إظهار في مقام الإضمار لمزيد التقرير.[٣٣٩٣] يسألون عن إجابة الدَّعوة، وإجابة الرُّسل مع أنهم اعترفوا بما فعلوا بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ وأنَّه تع عالمٌ به توبيخًا لهم، وتقريعًا عليهم، وتقريرًا لقبائحهم حين تفوّهوا بها، وشهد عليهم أنبياءهم، أو عن الدَّواعي التي دعَتْهم والصَّوارف التي صَرَفتهم لا عن نفس ذنوبهم لاشتمال كتبهم عليها فلا يخالفه قوله تع: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص

[٣٣٩١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٩و. وقال ابن الكمال: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾: دعاؤهم على أنفسهم بالويل. ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾: إلا قولهم هذا، يرشدك إلى أنَّ المعنى هذا قوله تع: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء ١١/٢١-١٥]. منه. **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١١/٤.

[٣٣٩٢] **فتوح الغيب**، ٣٢٧/٦-٣٢٨.

[٣٣٩٣] **فتوح الغيب**، ٣٢٨/٦.

٧٨/٢٨]، أو عن نفس الذنوب، فالسُّؤال المنفيُّ هناك ما يكون للاستخبار أو المثبت في موطن والمنفي في موطن، فإنَّ يوم القيامة يومٌ طويلٌ ومواقفة كثيرة.

وقال ابن الكمال: «المنفي السؤال عن الذَّنب لا مطلق السُّؤال، فلا ينافي هذا حتى يُحتاج إلى التَّوفيق بالاختلاف في الأوقات أو في معنى السؤال».[٣٣٩٤]

ولعل كلامه مبني على أنَّ المثبت السؤال عن القبول، والإجابة المنفي عن الذُّنوب، فلا ينافي حتى يُحتاج إلى ما ذكر، ولقائل أن يقول: السُّؤال عن القبول سؤال عن الذَّنب لحققا، أو يقول من يدَّعي الاحتياج بحمل المثبت والمنفي على السُّؤال عن الذُّنوب، وكذلك الرُّسل يسألون عما أجيبوا تفضيحًا لهم بشكاية أنبيائهم، وإشهادًا على ما وقع منهم عند ارتكابهم إنكارهم، أو عن التَّبليغمع العلم بأنَّهم لم يصدر منهم التّقصير ألبتَّة ؛ ليظهر عدم تقصيرهم في تبليغ ما حملوه من الرِّسالة ويلحق التقصير كله بالأمة فيتضاعف إكرام الله تع للرُّسل؛ لظهور براءتهم عن جميع موجبات التَّقصير، ويتضاعف الخزي والإهانة في حقِّ الكفَّار، وفيه إبطال قول مَن زَعم أن لا حساب على الأنبياءوالكفّار، نعم القول ما قيل: لنسئلن الأمم عن حفظ الحرمات، والرسل عن بسط الشفقات.

وقيل: الذين أرسل إليهم الأنبياء والمرسلون الملائكة[٣٣٩٥] الذين أرسلت إليهم ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ على الرُّسل حين يقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَاۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾. [المائدة ١٠٩/٥].

وقال ابن الكمال: «ولا يذهب عليك أنه لا يناسب السُّؤال بـ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾، سواء كان للاستخبار أو لغيره، ولا يخفى عليك أنَّ عدم المناسبة غيرُ ظاهر، أو على الفريقين ما كانوا عليه، ولَمّا كان سؤال الفريق الأول سؤالَ تعنيفٍ وتعذيبٍ، وسؤالُ الفريق الثاني سؤالَ تشريف وتقريب، لا الاستخبارَ والاستفسارَ،[٣٣٩٦] سكتوا عن الجواب وتركوا الخطاب، فناسب المقام تصدير الكلام بالفاء الفصيحة».[٣٣٩٧]

﴿بِعِلْمٍ﴾ حال أي: ملتبسين بعلم تامٍّ كاملٍ أو بمعلومنا منهم على أنَّ المصدر مفعول، والباء صلةٌ، أي: لنجزينَّهم بما علمنا منهم.

﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ علمًا عنهم وعن غيرهم، «فيخفى علينا شيءٌ من أحوالهم، وقيل: هو مجازٌ متفرّع على الكناية عن الإحاطة التَّامة بأحوالهم، حال في مقام التعليل؛ إذ لم أكن عنهم غافلين، ولم يقل: وما كانوا عنَّا غائبين؛ تنبيهًا على أن المنشأ لهذه الحال ما في شأنه تعالى من الكمال، لا أمر من جانبهم».[٣٣٩٨]

وقيل: تأكيدٌ لما قبله، وتخصيصٌ للعلم بالحضوري الذي لا يحوم حوله شكٌّ، والله عليمٌ بالكلّيات والجزئيّات، لا يعزب عن علمه شيءٌ، والإلهيّة لا يكمل إلَّا به سيَّما الاطِّلاع على أفعال المكلّفين ليفرق المسيء من المحسن، ويجزي كلًّا على مقتضى عمله.

وفيه تنزيةٌ عن الجهات وإيماءٌ إلى أنَّ وزن الأعمال ليس لخفاء الحال،[٣٣٩٩] فله تعلّق تام بطرفي الكلام.[٣٤٠٠]

[٣٣٩٤] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٢/٤.

[٣٣٩٥] ج – الملائكة.

[٣٣٩٦] ج–والاستفسار.

[٣٣٩٧] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٢/٤.

[٣٣٩٨] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٢/٤.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ (٨)﴾

هو في الأصل مصدر: وزَنتُ الشّيء وَزْنًا وزِنَةً، والمراد القضاء العدل على الكتابة بأَنْ يذكر الوزن، ويراد ذلك لكونه طريقًا لظهور العدل؛ فإنَّ العدل في الأخذ والإعطاء لايظهر له أثرٌ إلّا بالكيل والوزن، أو على التّشبيه؛ لأن العدل مشتمل على جعل الحكم على قدر استحقاق المقضي له، أو عليه، كما أنَّ الوزن جعلُ الشّيء على قدره بآلفة، أو مقابلة الأعمال بالجزاء، فإنَّ الرّجل إذا لم يكن له قدرٌ وقيمةٌ عند غيره يقال: فلان[3401] لا يقيم لفلان وزنًا.

فعبّر عن اعتدادها بالجزاء بالوزن، أو ما يوزن به حقيقة، والعقل قاصر عن إدراك كيفيته يجب الإيمان به؛ إذ هو ممكن أخبره الصّادق فلو أخرج عن الظاهر، فليحمل سائر ما ورد به الشّرع على خلاف الظّاهر ولا يخفى ما فيه، ولهذا أجمعت الأمّة في الصّدر الأوّل على الأخذ بالظّاهر على ما يدلُّ عليه النّقل الباهر.

وأنكره المعتزلة؛ لأن الأعمال [١٦٥/ظ] أعراض، إن أمكن إعادتها لم يمكِن وزنها؛ لأنها غيرُ مستقلّة بالوجود، وأيضًا إنَّ الأعمال معلومة لله فوزنها عبثٌ[3402].

والجواب عن الأوّل: أنَّ الموزونَ كُتُبُ الأعمال، كما قال ع م: «إِذَا خَفَّتْ حَسَنَاتُ المؤمن؛ أخرجَ رسول الله بِطَاقَةً كَالْأَنْمَلَةِ، يُلْقِيهَا فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ الْيُمْنَى الَّتِي فِيهَا حَسَنَاتُهُ، فَتَرْجَحُ الْحَسَنَاتُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا أَحْسَنَ وَجْهَكَ، وَمَا أَحْسَنَ خَلْقَكَ، فَمَنْ أَنْتَ؟! فَيَقُولُ: «أَنَا نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ، وَهَذِهِ صَلَوَاتُكَ الَّتِي كُنْتَ تُصَلِّي عَلَيَّ؛ قَدْ وَفَّيْتُكَ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهَا».[3403]

وقال ع م: «إِنَ داود سأل ربَّه أن يُريه الميزان فأراه إيَّاه، فقال: إلهي: مَنْ يَقْدر أن يملأ كفته حسنات، فقال: يا داود إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرةٍ».

وعن حُذَيْفَة: جبريل صَاحِبُ الميزان فيقول له ربُّه: « زِنْ بَيْنَهُمْ فَرُدَّ مِنْ بَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ». وقَالَ: لَيْسَ ثَمَّ ذَهَبٌ وَلَا فِضَّةٌ، فَإِنْ كَانَ لِلظَّالِمِ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَرُدَّ عَلَى الْمَظْلُومِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ الْمَظْلُومِ؛ فَتُحْمَلُ عَلَى الظَّالِمِ، فَيَرْجِعُ الرَّجُلُ وَعَلَيْهِ مِثْلُ الْجِبَالِ. أو الأجسام النورانيّة المصوَّرة من الحسنات، والأجسام الظُّلمانيَّة المصورة من السيئات كم ورد في الحديث.

أو الأشخاص كما قال ع م: «لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ.[3404]لا يقال: مراد قدره وحرمته لا وزن جسده؛ لأنَّ الاستدلال مبنيٌّ على الظّاهر، ويؤيّده قوله ع م في ابن مسعود «أَتَعْجَبُونَ مِنْ دِقَّةِ ساقَيْهِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُدٍ».[3405]

[3399] ج- الحال.

[3400]**تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٢/٤.

[3401] ج- فلان.

[3402]**شرح العقائد النّسفيّة** للتفتازاني، ص ١٠٠.

[3403]**الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ١٥٩/٩؛ **اللباب**، ٢٤/٩.

[3404]**صحيح البخاري**، ٩٣/٦ (٤٧٢٩).

[3405]**مسند أحمد**، (٩٩/٧).

وعن الثاني: على تقدير تسليم كون أفعال العباد معلّلة بالأعراض، لعلّ في الوزن حكمة لاتطلع عليه، وعدم اطّلاعنا على الحكمة لاتوجب العبث مع أنَّ فيه امتحانَ العباد في الدُّنيا أ يذعنون ذلك في الدنيا أملًا، وإقامة الحجَّة في العقبى، وإظهار النصفة، وقطع المعذِرة، وزيادة إظهار السرور أو الغمّ، وإظهار علامة السَّعادة والشَّقاوة كما يسألهم عن أعمالهم، فيعترفون بها بألسنتهم وتشهد عليهم جوارحهم والأشهاد، وكما كتبها فيقرؤونها.[٣٤٠٦]

قال المصنف: مبتدأ، وخبره: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، و﴿الْحَقُّ﴾ صفتُه أى: والوزن يوم يسألُ الله الأمَمَ ورسلَهم الوزن الحقُّ، أى: العدل.[٣٤٠٧]

ولم يجعل الحقّ خبرًا؛ إذ ليس المعنى على أنَّ الوزنَ يومئذ هو الحقُّ لا غيره أو لا الباطل، بل أنَّ الوزنَ العدلَ، وتميّز الأعمال يكون يومئذٍ لا في الدنيا. وهم يفصلون بين الموصوف والصفة، والفاصل هنا وإن كان إلَّا أنَّه ظرف يتسع فيه، ومن جهة المعنى متعلّقٌ بالمبتدأ وكالملزوم للصفة.[٣٤٠٨]

وقوله: أي: «الوزن» إلى آخره تفسيرٌ للمبتدأ والخبر، وبيان للمضاف إليه المحذوف.

وقوله: «الوزن الحقُّ، أى: العدل»[٣٤٠٩] ابتداء كلامٍ لبيان معنى، وصفِ الوزن بالحقِ وكيف يُتوهّم من كلامه المصدّر بحرف التفسير أنه جعلَ الحرف متعلّقًا بالوزن والحقُّ خبراً له،[٣٤١٠] لكن اللائح أن يجعل خبرًا بمعنى أنَّه الحقُّ لا الباطل أو الثابت المبين على السّنةالرُّسل وأخبار الكتب.

ورجّحه ابن الكمال: «بأن المقامُ مقامُ الإخبار عن الوزن الواقع يومئذ بأنه الحقُّ لاغيره، أو عن اليوم بأنَّ الوزن الحقّ فيه لا في غيره»[٣٤١١].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٨)﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنْفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ (٩)﴾

أي: موزوناته التي لها قَدْرٌ ووَزْنٌ، وهي الحسنات،[٣٤١٢] والتَّخصيص بذلك بدلالة معنى الكلام، وإلَّا فظاهرها يعمُّ الحسنات والسَّيئات، وعلى هذا فالموازين في ﴿خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ تكون موازين السَّيئات وفيه نظرٌ.[٣٤١٣]

فيكون جمع «موزون» وذلك متعدّد الأعمال وتكثُّرها وتنوّعها، ويدلُّ عليه قوله: ع م «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ على اللِّسَانِ، حَبِيبَتَانِ إلى الرَّحْمَنِ، ثَقِيلَتَانِ في المِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ»،[٣٤١٤] أو ما تُوزَن به أعمالُه، جمع مِيزَان، أصله: «مِوْزَان»، قُلبت الواوُ ياءً لكَسرة ما قبلها بالسُّكون، ويدلُّ عليه وصيَّة لأبي بكرٍ لعمر لَمَّا حضره الوفاة: إنَّما

[٣٤٠٦] **الكشاف** للزمخشري، ٢/٨٥.

[٣٤٠٧] **الكشاف** للزمخشري، ٢/٨٥.

[٣٤٠٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٩و.

[٣٤٠٩] **الكشاف** للزمخشري، ٢/٨٥.

[٣٤١٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٩و.

[٣٤١١] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/١٣.

[٣٤١٢] **الكشاف** للزمخشري، ٢/٨٥.

[٣٤١٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٤٩و.

[٣٤١٤] **صحيح البخاري**، ٨/١٣٩ (٦٦٨٢).

ثَقُلت مَوازِينُ مَن ثَقُلت مَوَازِينُه يوم القيامة باتّباعهم الحقَّ في الدُّنيا، وثِقَلِه عليهم، وحُقَّ لميزانٍ يُوضع فيها الحقُّ غدًا أن يكون ثقيلًا، وإنما خَفَّت موازينُ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ يوم القيامة باتِّباعهم الباطل في الدنيا، وخفَّته عليهم، وحُقَّ لميزانٍ يُوضع فيها الباطل غدًا أن يكون خفيفًا.[٣٤١٥]

فالجمع باعتبار [١٦٦/و]اختلاف ما يوزن ويكرر الوزن، أو لأنَّ لكلِّ أحدٍ ميزانًا، فالمراد ميزانُ الجميع باعتبار معنى «من»، أو لأنَّ لكلّ من أعمال كلّ أحدٍ ميزانًا، أو لتعدد أجزاء الميزان.

وقد وصفه ع م لأصحابه: إنَّها ذاتُ كفَّتين ولسان، وإنَّ كلَّ كفَّة طباق السَّموات والأرض، أو لتعظيم شأنه كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء ١٠٥/٢٦].

قال عبد الله بن سلام: ميزانُ ربِّ العالمين ينصب بين الجنِّ والإنس يستقبل بها العرش، إحدى كفَّتيها على الجنَّة، والأخرى على النَّار، فلَوْ وضعت السَّموات والأرض في إحديهما لوسعت، وجبريل أخذ بعموده ناظر إلى لسانه،[٣٤١٦] أو لأنَّ في هذا الكبير موازينَ صغار، أو «من» شرطية في محلِّ الابتداء، وخبره فعلُ الشَّرط أو جوابه، وإفراد الضمير هنا، والجمع في أولئك، باعتبار اللَّفظ والمعنى، والكلام في قوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ كما مرّ.

وقد قيل: في كيفيَّة الثقل والخفَّة يظهر هناك نور في رجحان الحسنات وظلمة في رجحان السَّيئات يشعره قوله ع م: «كفة الحسنات من نور وكفة السيئات من ظلمة والكفة الكبيرة النيرة للحسنات».

وقيل: يصعد الراجح عكس ما كان في الدُّنيا، ورد بأنَّ الظاهر أنَّ ما ثقل انخفض، وما خفّ ارتفع، ولذا قيل: الثِّقل والخفّة عبارة عنهما.

وقيل: بعد الوزن ترفع أعمال السعيد إلى الجنَّة، وأعمال الشَّقي إلى النَّار.

والخسران: ضد الرّبح وقد يراد ذهاب رأس المال أيضًا، والول يلائم العاصي حيث فقدوا فائدة العمل، وعذبوا إن شاء الله، والثاني: الكافر حيث ضيّعوا الفطرة واقترفوا ما يعرض الخلود في العذاب.

﴿بِمَا كَانُوا﴾ الباء سببية متعلّقة بـ﴿خَسِرُوٓا﴾، و﴿مَا﴾ مصدرية ﴿بِآيَاتِنَا﴾ متعلِّق بقوله ﴿يَظْلِمُونَ﴾؛ فلذلك أكّد به علمه كقوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف ٤٣/١٢]. أو لتضمين معنى التَّكذيب والجحود إن كان في الكفرة وإلَّا.

فبمعنى المعصية؛ فإنَّ الظُّلم وضعُ الشَّيء في غيرِ موضعه، لكن الظُّلم بالأيات يشعر بالأوَّل، ثمَّ إنَّ ظاهرها لا يلائم أن يكون الموزون الأشخاص وإلَّا لقيل: فمن ثَقُلَ ومن خفَّ ويدلُّ على أنَّ أهل العمة فريقان صاحبُ الرُّجحان وصاحب النُقصان، وصاحب التَّساوي غيرُ موجودٍ.

وقد قيل: يوزن لجميع أهل المحشر فيدخل مَنْ ليس له إلا الحسنات في الأوَّل، ومَنْ ليس له إلا السَّيئات في الثَّاني.

وقيل: لا يكون الوزن إلا لِمَنْ خلط، أمَّا الذين ليس لهم إلَّا الحسنات فيدخلون الجنَّة بغير حسابٍ، كقوله ع م: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَالْآخَرونَ[٣٤١٧] يَدْخُلونَ النَّارَ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

[٣٤١٥] **اللباب**، ٢٤/٩؛ **فتوح الغيب**، ٣٣١/٦؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ١٩٢/٤.

[٣٤١٦] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٢٠٢/١٤؛ **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، ٢٠٢/٣.

[٣٤١٧] ج : ليس لهم إلَّا الحسنات.

فالآيتان تفصيل للمجمل السَّابق وتقسيم لذلك الجمع، فوجب الموافقة بينهما في الوزن على ظاهره.

١٠-﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ ١١-﴿وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ﴾

جعلنا لكم فيها مكانًا وقرارًا، أو أقدَرْناكم على التَّصرف فيها، فالتَّمكين على الأوَّل حقيقة، وعلى الثاني: كناية.

فإن قلت: قد ذكر في «الأنعام» عند قوله: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام ٦/٦]. أن كِلْتَي العبارتين كنايةٌ.

قلت: الخطاب هناك مع أهل مكة، ليعتبروا بالأمَم السَّالفة، فالمناسب الكناية، ليكون أبلغ. يعني: أنّ أهلَ مكَّة لم يكونوا متمكِّنين في الأرض تمكَّنهم من البسطة في الأجسام، والسَّعة في الأموال، وهنا الخطاب عامٌّ للامتنان بدلالة ما بعده، فالمناسب الحمل على الحقيقة؛ لأن جميع بني آدم لم يكونوا متصرِّفين في الأرض، مملَّكين، ولذلك عَطَف عليه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ عليه.[3418]

نعم، يمكن ههنا أيضًا أن يجعل كناية بأن يكون الخطاب لأهل مكَّة، حيث فضلهم على العرب ومكَّنهم من الرِّحلة إلى الشَّام في الصَّيف، وإلى اليمن في الشِّتاء آمنين بكونهم مكان حرمةٍ ويتخطَّف الناسُ مِنْ حَوله.

و«الجعل»: بمعنى «الخلق» فالجارّان يتعلَّق به، أو بمحذوفٍ على الحالية من المفعول؛ إذ لو تأخَّر لَكان وصفًا أو التَّصيير مثاني المفعولين أحد الجارين، والأخر: إمَّا متعلِّقٌ به، أو بمحذوفٍ على الحاليَّة.[3419]

و﴿مَعَايِشَ﴾ جمع «معيشة» في الأصل مصدرُ «عَاشَ يَعِيشُ عَيْشًا، وعِيشةً ومعيشة ومعاشًا»، فجعل اسمًا لِما يُعاش به، والياء متحركةٌ في الأصل بوزن «مَفعِلةٌ»، فإذا جمعت على «مَفَاعِل» فيصرّح الياء ردًّا إلى الأصل، بخلاف «صحائف»؛ لأجل أنَّ ياء صحيفة أشبهت ألف رسالة، لأنَّه مدَّةٌ عارية من تقدير الحركة كالألف، فهمزت.

وأمَّا يائها فاصليةٌ متحركةٌ تقديرًا فلم تشبه ألفها، بل كالحرف الصحيح، ولذلك قالوا: «مقاوم» في «مقامة»، ولم يقولوا: «مقائم» كـ«عجائز» [**١٦٦**/ظ].[3420]

فوجهُ قراءة نافعٍ بالهمز تشبيهُ الأصلي الزَّائد، فكما تهمز ياء «صحيفة»، فكذا ياء «معيشة». والمراد جميع وجوه[3421] ما يعاش به مِمَّا أنعم الله ابتداء أو يتحصَّل بالمكاسب والصنائع؛ لأن الجميع بأقداره تع وتمكينه، وهذا عطفٌ على قوله: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ﴾ أتى عليهم من طرف المستقبل والماضي وأنذرهم بهما ألا يرى أنَّ قولك: اتبعوا فقد مكنّاكم صحيحٌ، كما صحّ اتبعوا فلنسئلَنّ، وذيل السابق بقوله: ﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ لأنه مناسب للتَّمييز من اتّباع دين الحق والباطل، ولما كان المناسب للتَّمكين الشُّكر قال: ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿قَلِيلاً﴾ نصبٌ بـ﴿تَشْكُرُونَ﴾ و﴿مَا﴾ مزيدة؛ لتاكيد القلَّة.

[3418] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٣٣/٦.

[3419] **اللباب**، ٢٥/٩.

[3420] **الفريد في إعراب القرآن المجيد** للهمذاني، ١٥/٣-١٦.

[3421] ج – وجوه.

والشُّكر اعتراف بالنِّعمة مع نوع تعظيم، والتَّعليل لإقرارهم بأنَّه خالقُهم ورازقُهم، ومع ذلك يعبدون الغير، أو للكناية عن العدم، أي: ما تشكرون ألبتَّة و﴿مَا﴾ الإبهامية فيه معنى التَّعجّب، أي: مَا أَكْفَرَكُم، أو لعموم الخطاب ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ، ١٣/٣٤]. وإنَّ ما وجد منهم وإنْ كثر فبالنسبة إلى النِّعمة قليلٌ، وإلى المنعم أقلُّ.

والخلق والتَّصوير لآدم ع م بتقدير المضاف، أو المجاز في الإسناد تعبيرًا عن خلقه ع م بخلقهم تنزيلًا له منزلتهم؛ لأنَّ خلقه لخلقهم، أو في المفرد؛ فإنَّ الخلق الإحداث والإيجاد بالتَّمام فاستعمل في إيجاد مبدئه المؤدِّي إلى التَّمام، فعبر عن الشُّروع في خلقهم بخلق أبيهم، فنعمة الأب نعمةٌ على الأولاد، فثُمَّ في موضعه؛ لأنَّ تصويره متأخر عن خلقه طينًا، والأمر بالسُّجود متأخّر عنهما، أو لبِنية، فالخلق في ظهر آدم والتَّصوير إخراج الذَّرّ، أو الخلق تقدير الله خلقهم والتَّصوير إثباتهم في اللَّوح كما أثبت صور كلّ كائنٍ فثُمَّ في حاله أيضًا، أو الخلق والتَّصوير في الأصلاب والأرحام، أو الأصلاب والتَّرائب أو في البطون، فثُمَّ للتَّراخيفي الأخبار أو الرُّتبة؛ لأنَّ كون أبيهم مسجود الملائكة أرفع منهما.

﴿ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (١١) ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (١٢)

لم يقل: ثُمَّ أمرنا؛ لأنَّ الأمر كان قبل خلقه ع م لقوله:﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سُجِدِينَ﴾ [الحجر ٢٩/١٥]، والواقع بعد التَّصوير إنما هو القول لهم: ﴿اسْجُدُوا﴾ [البقرة ٣٤/٢] والتَّعيين وقت السَّجدة المأمور بها قبل.[٣٤٢٢]

﴿فَسَجَدُوا﴾ أي: سارعوا إلى الامتثال، ولَمّا احتمل أن يكونالاستثناء بقوله: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ عن المقيّد راجعًا إلى قيده لا إلى أصله، احتيج إلى قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ دفعًا لذلك، فلا صارف فيه للاستثناء عن الاتِّصال، بناءً على ح لاحاجة إليه، وكان يكفي: لم يسجد، إلَّا أنَّه قصد مع الإخبار بعدم الائتمار، الإشعارَ بأنَّه على تقدير إظهار السُّجود لا يكون ساجدًا حقيقةً[٣٤٢٣] لِما فيه من إضمار الاستكبار، بل معدودًا من السَّاجدين فنفي ذلك أيضًا.[٣٤٢٤]

وقيل: هو استئناف جواب مقدَّر، كأنه قيل: لِمَ لم يسجد؟ فقيل: لأنه لم يكن منهم في علم الله تع؛ إذ يستحيل ما لم يكن فيه، فالوقف على ما قبله، أو تأكيدٌ للاستثناء، أو حالٌ، أي: حال كونه ممتنعًا من السُّجود، قال: أي: علّام الغيوب مائلا[٣٤٢٥] عن وجه الامتناع توبيخًا له، وإظهارًا لعناده، واستكباره، وازدرائه من هو المكرم من الله، وأنه خالف أمر ربه معتقدًا عدم وجوبه؛ لما رأى أنَّه أفضلُ منه.

وعدَل عن التكلُّم إيماءً- بعدم إسناد القول إلى نفسه صريحًا- إلى أنَّه لم تكن بالذات.[٣٤٢٦] و﴿مَا﴾ استفهام في محل الرَّفع بالابتداء، وخبره: ﴿مَنَعَكَ﴾، و﴿أَنْ﴾ في موضع نصب ب﴿مَنَعَكَ﴾ بعد حذف «من» و﴿لَا﴾ صلةٌ لقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [ص ٧٥/٣٨] يؤكد به معنى الفعل المدخول عليه، أي: ما منعك أن تحقق السجود، كما في قوله: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد٢٩/٥٧] أي: ليتحقَّق علمهم؛ لأنَّ «لا» إشارة إلى نفي ما عدا المذكور، فيلزم منه تحقق المذكور،

[٣٤٢٢] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٦/٤.

[٣٤٢٣] ج- حقيقةً.

[٣٤٢٤] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٦/٤.

[٣٤٢٥] ج – مائلا.

[٣٤٢٦] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٦/٤.

ويشعر أيضًا أن المفرّع عليه ترك السجود أو ثابتة؛ لأن الممنوع عن الشَّيء مضطرٌ إلى خلافه، فكأنه قيل: ما أضطرك إلى أن لا تسجد، ولأن المنع مجازٌ عن الدُّعاء وهي قرينةٌ له أي: دعاك إلى تركه، ولأنَّه يقال: لضدِّ العطيَّة في رجلٍ مانع، وفي الحماية في مكان منيع، أي: ما حماك وجعلك في منعه منفيّ في تركه، أي: في معاقبة تركه، وردَّ بأنَّ الجواب بقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾ غير ملائمله.

وأجيب بأنه لم يجد سبيلًا إلى الجواب؛ إذ لم يكن له مَنْ يحميه عدلٌ عن الصَّواب؛ أو لما حذف ههنا «يا أبليس»، واقتصر على الخطاب جمع ما في «ص»[3427] وما في «الحجر»[3428] فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [ص ٣٨/٧٥]، «مالك لا تسجد» فحذف «أن تسجد» من الأوَّل، و«مالك» من الثَّاني؛ لدلالة الحال، وما في السورتين، فبقي ما منعك أن لا تسجد، فهذا من الاحتباك، أو لأنَّ مَنع نظر صرف، فحُمل عليه في التَّعدية بـ«إلى»، أي: ما منعكعن أن تسجد إلى أن لا تسجد، ويظهر منه أنَّه لا دلالة في: «ما منعك أن تسجد» على زيادة «لا» في هذا القول؛ لانتظام معنى الصَّرف كِلَا القولين.

و﴿إذ﴾ معمولة لقوله: [**١٦٧**/و] ﴿مَنَعَكَ﴾، أي: مَا مَنَعَكَ، عن السُّجود في وقت ﴿أَمَرْتُكَ﴾ بالسجود فيه.[3429]

وقيل: ظرف «أن لا تسجد» في قوة التعليل، أي: لأن أمري لك أوجبه إيجابًا يقال: أَهَنْتُه لمخالفته وإذ خالف، وهذا إنّما يكون في «إذ» و«حيث» دون سائر الظُّروف، ولـمَّا وجب من الأمر علّله التوبيخ على التَّرك به، واستدلّ به على أنَّ مطلق الأمر للوجوب، وإلَّا لما ذمَّ على التَّرك، وعلى أنَّه للفور وإلَّا لما ذمّ في الحال.

ومنع ابن الكمال: بأنَّ الفور إنما لزم من تعيين الوقت بقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر ١٥/٢٩] وبأنَّ الفور مبناه على كون الاستفهام للتَّوبيخ، وكونه على عدم الائتمار. وهما ممنوعان لقوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص ٣٨/٧٥]؛ لأنه يشعر بأنَّ التَّوبيخ على مخالفته لمن هم أعلى منه، وترك متابعته، كما هو الظَّاهر من قوله: ﴿أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر ١٥/٣١].[3430]

وأنت خبيرٌ بأنه راجع أيضًا إلى التَّوبيخ على عدم الإئتمار على وجه الإشارة إلى شنعه بالتفرّد وعدم الموافقة.

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾

لَمَّا وَرَد أنَّه كيف يكون جوابًا لـ﴿مَا مَنَعَكَ﴾، وإنَّما هو أن يقول: مَنَعَنِي كذا؟ أجاب عنه العلَّامتان بما حاصله أنَّه استأنف به استبعادًا؛ لأن يكون مثلُه مأمورًا بالسُّجود لمثله، لكونه أفضلَ منه بالنَّظر إلى مادته وجوابًا من حيث المعنى، كأنه قال: الذي مَنَعَنِي منه ذلك المعنى، فأجاب وزاد عليه الإنكار للأمر، والاستكبار عنه، ولذلك عدل عن ظاهر الجواب إلى الأسلوب الأحمق، فبنى كلامَه على الحسن، والقبيح العقليَّين المبنيين على الأفضليَّة المبنيّة على فضل المادَّة.

وقد أخطأ في الكلّ؛ فإن الحسن العقلي غير معتدّ به خصوصًا ورد في مقابلة النَّصِّ؛ لأن اللَّائق بالعبد المأمور أَنْ يلاحظَ الآمرُ لا المأمور به، فلو كان محبًا مريدًا لَانقاد في كلِّ ما أمر به، وأَنَّ الأفضليَّة في المادّة غيرُ مستلزمةٍ للأفضليَّة؛ فإنها بفضل الله لا بسبب المادّة، ألا ترى أنَّه تع يُخرج الكافرَ من المؤمن وبالعكس، والنُّورَ من الظُّلمة وبالعكس، والحبشيّ المؤمن يفضل على القُرَشي الكافر، ولو سلّم ذلك، فلا نسلّم أفضليَّته من حيث المادّة على ما أشار إليه بقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾

[3427] ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [ص ٣٨/٧٥].

[3428] ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر ١٥/٣٢].

[3429] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/١٦.

[3430] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/١٧-١٨.

وهو جوهرٌ، مشرق عُلويٌ لطيفٌر حارٌ يابس مجاور، لجوهر السَّموات، ملاصقٌ لها، مؤثر مناسب للحرارة التي هي مادَّة الحياة؛ ولهذا فضل سِنّي التَّمييز والشَّباب لكونهما وقت الحرارة.

﴿وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾وهو مظلمٌ سفلي كثيف ثقيل بارد يابس، بعيدٌ عن الأجرام اللَّطيفة كلّها متأثر مناسب للبرودة التي هي مادّة الموت؛ ولهذا ذمَّ سِنّي الكُهولة والشَّيخوخة طِبًّا؛ لأنَّك إذا أمعنتَ النَّظر لَوجدت التُّراب مع ما فيه ما ذكر غالبًا عليها مع ما فيها ما ذكر؛ لما فيه من الرَّزانته والوقار وهو معدن الحِلم والحياة والصَّبر؛ ولذلك دَعا آدم إلى التَّوبة، ولما فيها من الطَّيش، والحدَّة، والتَرفُّع، ولذلك دعاه إلى الاستكبار؛ ولأنَّه سببُ الجمع وأنها سبب التَّفريق، ولأنَّها عمدة الممالك وأنَّها عدة المهالك، ولأنَّه في الجنة من مِسك أزفر وليس في النار، وأنَّها دون الجنة، ولأن الكافر يتمنّى أن يكون ترابًا، وأنهاكانت للطاغين مآبًا، ولأنها مئنة الأمانة والإنماء يقبل أنواع الودائع، ويضعف الحبّ بكلِّ ريعٍ رائع، وأنَّها مظنَّة الخيانة والإفناء، ولذلك حمل الآدمي الأمانة، وجدّ في حراستها بالرَّزانة، ولو سلِّم ذلك فلا نسلّم قصر الأفضليَّة على المادّة، وقد ذهل عن الفاعل«خلقته بيديّ»، وعن الصورة ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، وعن الغاية ﴿وَعَلَّم آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾، ولا منع فيها عن العباس؛ لأنه قاس عنادًا ورجَّح رأيه على دلالة النَّص، وبادر إليه قبل البحث عن مورد النَّص، وعليه يحمل ما قال ابن عباس: أوّلُ مَن قاس إبليسُ فأخطأ. فمن قاسَ الدينَ برأيه من غيرِ اتقانٍ مواد القياس بشيءٍ مِنْ رأيه قَرَنَه الله مع إبليس، ولا عن تخصيص النَّصِّ بالقياس بأنَّه لما تناول الملائكة فأخرج إبليس نفسه فاستحقّ الذَّم؛ لأنَّقياسَه أبطلُ النَّصِّ بالكلِّية؛ إذ لو قبح أمر من خلق من النَّار لَقَبح أمر من خُلق من النُّور، فيلزم عدم صحَّة الأمر بالملائكة، ويناقش بأنَّ الشَّريف إذا رضي بالخدمة فح لا يقبح الأمر فالملائكة رضوا، وإبليس لم يَرْضَ بإسقاط حقِّه، ودلَّت على أنَّ مبدأ خلقة آدم التُّراب، ومبدأ خلقة إبليس النَّار، ودلالتها على كون العناصر الأربعة مادة تكون الإنسان، بل مادَّة جميع المواليد الثلثة على الوجه الذي يدّعيه أربابُ الفلاسفة محلُّ بحث، [**١٦٧**/ظ] ولو سلّم ذلك فلعلّ إضافة خلقهما إليهما باعتبار الجزء الغالب.[٣٤٣١]

وقال ابن الكمال: يرد عليه: أن المناسب لهذا الاعتبار أن يقال: خلقتَه من ترابٍ.[٣٤٣٢]

﴿قَالَ فَاْهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاْخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّاغِرِينَ﴾ (١٣)

جزاءٌ لما دلّ عليه ما قبله، أي: إنْ تكبرتَ أو إنْ عصيتَ، فاهبط ﴿مِنْهَا﴾ من السّماء، وكان فيها، فلو فرض كون آدم وحوَّاء في الجنَّة، فوسوستهما لتمكّنه منها، وهو في مكان بمن هو في أقطاره قريبًا أو بعيدًا، أو من الجنَّة وهي عدن دون الخلود وكان من سكانها، أو من المنزلة الملكيَّة القدسية إلى الوضعيَّة في محلِّ الطَّرد، أو من الصورة الحسنة الملكيَّة إلى الصُّورة القبيحة الشيطانيَّة، أو من الأرض إلى جزائر البحور.

﴿فَمَا يَكُونُ﴾ فما يصحُّ وما ينبغي ﴿لَكَ﴾ خبر والاسم ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ﴾، أي: عن أمر الله وعلى آدم وغيره ﴿فِيهَا﴾ متعلِّق به؛ فإن الجنَّة مكان الخاشعين المتواضعين، والسَّماء مقام الملائكة المتواضعين والأرض منزل المرحومين، والملكيَّة معدن التَّواضع واللِّين والصُّورة الحسنة، تستتبع حسن السيرة، ولا مفهوم للظَّرف حتى يلزم حجة الكبر في غيرها، أو التَّقدير ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ﴾، ولا في غيرها، أو لا يسكن فيها المتكبِّر، وأمَّا في غيرها فقد يسكن، وفيه تنبيهٌ أن التَّكبر لا يليق بأهل الجنة، ولا ينبغي لمن كان في المنزلة الرفيقة، والصُّورة الحسنة، وأن مَنْ كان فيها أن أخرج بسببه منها فكيف يدخلها مَنْ لم يكن فيها، وهو

[٣٤٣١] **مفاتيح الغيب**، ١٤/٣٦-٣٧؛ ٢٠٢ **اللباب**، ٩/٣٢-٣٤؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/١٩٥-١٩٦.

[٣٤٣٢] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/١٩.

متّصف به، وأنه تع إنما طرده لاستكباره لا لمجرّد عصيانه، وآدم وحوّاء قيل لهما: اهبطا مع أنّهما لم يتكبّرا لكن لم يكن على وجه الطّرد؛ ولذلك قبلهما حسن القبول بعدما جرى قال ع م عليه السلام: «من تواضعَ للّهِ رفعَهُ اللّهُ ومن تكبّرَ وضعَهُ اللّهُ»[٣٤٣٣]

﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ من أهل الصِّغار والهوانِ على الله وعلى أوليائه لتكبُّرك، كما تقول للرجل: قم صاغرًا؛ إذا أهنته. وفي ضدّه: قم راشدًا، وذلك أنَّه لَمَّا أَظْهر الاستكبارَ أُلبِس الصِّغار.

وعن عمر رضـ: «مَنْ تَوَاضَعَ لِلّهِ رَفَعَ اللهُ حَكَمَتَهُ وَقَالَ: انْتَعِشْ نَعشَك الله. وَمَنْ تَكَبَّرَ وَعَدا طَوْرَهُ وَهَصَهُ اللهُ إِلَى الأَرْضِ».[٣٤٣٤]

و«الحَكَمَةُ» بفتح الحاء والكاف، وهي من الإنسان أسفل وجهه. ورفعُ الحَكَمة: عبارةٌ عن الاعزاز، لأنَّ مِنْ صفة الذَّليل أَنْ يَنْتَكس، ويضرِبَ بذقنِه صدره،[٣٤٣٥] و«قال» عطف على «رفع»، أي: قال الله له: قم وارتفع، وهذا تمثيل على نحو: قال له: «كن فيكون».[٣٤٣٦] «نَعَشهُ»: رَفَعَه. «عَدا طَورَه»: جاوز حدّه. و«الوَهْصُ»: كسر الشيء الرخو، والوهص أيضًا: شدة الوطء.[٣٤٣٧] ولعل ذلك تأكيد للأمر بالهبوط؛ لأنه بمعناه: فهو ينبئ عن زيادة الغضب عليه.

وقال ابن الكمال: ﴿فَٱهۡبِطۡ﴾ تفريعٌ على جوابه الخارج عن الأدب أو السَّداد، افتخر بما في عنصره من شرف الصعود، فجُوزي بذلِّ الهبوط، وهو نزولٌ من جهة العلوِّ إلى جهة السُّفل، فيعود الضَّميرفي: ﴿مِنۡهَا﴾ إلى جهة العلوِّ، ويلزمه النزولُ من السَّماء والخروجُ من الجنّة؛ فلذا ذهب إلى كلٍّ منهاذاهبٌ غافلًا عن أنّ عود الضمير إلى واحدٍ منهما بخصوصه إضمار قبل الذكر.[٣٤٣٨]

﴿فَمَا يَكُونُ﴾ تعليل للأمر المذكور في سورة الحجر ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ [الحجر ١٥/٣٤]؛ أي: من زمرة الملائكة السَّاكنين في السَّماء، تفريعٌ على عدم لياقته لأن يكونَ في جهة العلو.

﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾تعليلٌ للأمر بالخروج من بين المستحقِّين للعزّة، قوبل في كلٍّ من مقامَيِ الأمر بضدِّ ما ظهر من المأمور قالًا وحالًا،[٣٤٣٩]

يعني: «قوبل ما ظَهَر منه قالًا»: وهو الصُّعود، والفهوم من قوله: ﴿أَنَا خَيۡرٌ مِّنۡهُ﴾ بقوله: ﴿فَٱهۡبِطۡ﴾ وقوبل ما ظهر منه حالًا وهو أن يكون في جهة العلو، ومن زمرة المقرّبين المفهوم من الآباء من السُّجود بقوله: ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

اللهمّ اجعلنا من عبادي الخاشعين المتواضعين، ولا تجعلنا من الجبابرة المعجبين المنكرين.[٣٤٤٠]

﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤) ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾(١٥)

[٣٤٣٣] **كنز العمال**، ٧٠٢/٣ (٨٥٠٦).

[٣٤٣٤] **الزهد لأبي داود، ٨٥ (٧٠)؛ شعب الإيمان للبيهقي**، ٤٥٤/١٠ (٧٧٨٨).

[٣٤٣٥] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٣٩/٦.

[٣٤٣٦] ربما يشير إلى قوله: ﴿يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة ١١٧/٢].

[٣٤٣٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٣٩/٦.

[٣٤٣٨] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٢٠/٤.

[٣٤٣٩] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٢٠/٤.

[٣٤٤٠] وأنت خبير بأن المرجع الذي ذكره كما يفهم من المقام يفهم بالموهوب إليه من الكلام. منه.

أراد الإمهال إلى يوم البعث لئلا يذوقَ الموت؛ إذ لا موت بعده، وقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ يقتضي الإجابة إلى ما سؤال ظاهرًا، لكنّه محمولٌ على ما جاء معيدًا بقوله:﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر ٣٨/١٥]. وهو النفخة الأولى، وهو اليوم الذي يموت فيه جميعُ الأحياء، أو وقتٌ يعلم الله انتهاء أجله فيه، فالآتيان ساكنتان عن بيان الانتهاء، وهذا لأنَّه لو علم وقت جهله[٣٤٤١] لَاجترأ على المعصية ما لم يبلغْهُ، وهو منافٍ للتَّكليف، ولقائلٍ أن يقول: إنَّه تع لما علم سوء خاتمته كان الإعلام وعدمه في حقِّه سواءٌ، فلا يكون إغراء له؛ كما أنَّ الأنبياء عرفهم حسن الخاتمة لهم؛ لما علم أنَّهما سواءٌ فيهم، فلا يكون إغراء، أو الإمهالُ من العقوبة إلى يوم الجزاء، أو الإمهال لا ضلال العباد لبعده عن [**١٦٨**/و] الرَّشاد، أو الإمهال لاستيفاء حظِّه من الدُّنيا لما يئس من سعادة حظه العقبى، فأجاب إلى ما سأله، ولَمَّا ورد أن يقال: في هذا الإمهال إفساد العباد بالإضلال. أجاب عنه المصنف: «بأنَّ فيه ابتلاءَ العباد، وفي مخالفته عظيم الثَّواب».[٣٤٤٢]

ووجه السؤال ظاهرٌ عند مَنْ يَجعل أفعالَ الله معلّلةً بالأغراض ولا يسند الشرورَ والقبائحَ اليه.

وأمَّا الجواب فليسَ بشيءٍ؛ لأن حقيقةَ الإبتلاء محالٌ في حقِّهتع ومجازه وهو أن في الإمهال شبهَ ابتلاءٍ وامتحانٍ لا يدفعُ السؤال؛ ولأن ما في متابعة من أليمِ العقابِ، بل لو لم يكن له الإنظار والتَّمكين والإقدار لم يكن من العباد إلا الطاعات وترك المعاصي، فلم يكن إلا الثواب كما للملئكة، فالأَوْلَى أَلَّا يخوض العبدُ في أمثال هذه الأسرار، ويفوضَ حقيقتها إلى الحكيم المختار.[٣٤٤٣]

وفيه ودلالةٌ على عدم وجوب الأصلح على الله؛ لأنه أمهله مع علمه باتّباع أكثر الخلق له، لا يقال: لا يختلف حالُ من اتَّبعه بسبب وجود ابليس وعدمه؛ لأن الظَّاهر أنَّه مزيّن، وللتَّزيين تأثيرٌ قويٌ، ولا يقال: لو سلّم أنَّ لتزيينه تأثيرًا، لكن لا يوجب فعل القبيح وفي امتناعه تحصيل الثَّواب؛ لأنه لو لم يحصل الامتناع يستحق العقاب الأبد فدفع ما به حصول العقاب أصلح مما يؤدي إلى الثواب، وفيه أنَّ هذا معاملته تع مع من يسبّه فكيف معاملته مع من يحبّه.

وإنما خيره على طلب هذا الإمهال مع الذُّلّ في الحال، علمه بحلم الكبير المتعال، و عناه أن يوحشه مَن عصاه أو يزيد في ملكه من تولاه.

وإنه سئال الأمهال فأجيب إليه، ولو سئال المغفرة لَغفر. وأنه لم يرد بذلك التَّمكين إلا بشقوةٍ، فليعلم العامة أن كلَّ إجابة ليس بنعمة.

وقال ابن الكمال: «الإنظارك الإمهال قصُر أم طال، وذكر الغاية ببيان المدّة، وضمير ﴿يُبْعَثُونَ﴾ للمفهوم من تضاعيف المقال، المعلوم بقرائن الحوال، وفيه دليلٌ على اعتفاد اللعين بيوم الدين، والبعث، الإطلاق في الأمر، ثم استعمل مجازًا في الإخراج عن العدم». وقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾؛ أي: من جملة مَن قدِّر لهم الإنظار، فلا حاجة إلى السؤال، وفيه الإشعار بأن ذلك ليس من قبيل استجابة الدعوة. ثم إن فيه الإخبارَ عن حصول ما رامه من أصل الإنظار، ابتلاءً للعباد وتعريضًا للعبّاد بمخالفته للثواب، لا عن الوصول إلى المقصده من امتداده المعهود، وهو الأمانُ من خوف الفوت وألمِ ذوقِ

[٣٤٤١] ب: أجله.

[٣٤٤٢]**الكشاف** للزمخشري، ٧٨/٢.

[٣٤٤٣]**حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٠و.

الموت، حيث قال:﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ لله تع، وهو وقتٌ قدّر انتهاءُ أجل المنظَرين، في يومه يوم النفخة الأولى، وإنما أبهمه كيلا يخلوَ اللعين عن ألم الخوف في كل حينٍ، وفي إقحام اليوم زيادة إبهامٍ.[٣٤٤٤]

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)﴾

«الفاء» جوابيةٌ، و«الباء» سببيةٌ متعلّقةٌ بالقسم المحذوف، و«ما» مصدريَّةٌ، أي: إذا أمهلْتَني، فبسبب إغوائك إيَّاي أقسم بالله لأجتهدنَّ في إغوائهم بأيّ وجهٍ يمكِنني، حتى يَفسدوا بسببي، كما فسدت بسببهم، ولا يتعلّق بـ﴿أَقْعُدَنَّ﴾؛ لأنَّ لام جواب القسم لها صدرُ الكلام، ولا يتقدّم معمولُها عليها، وقيل: هي قسميَّةٌ.

وأصل الغيّ: الفساد، تقول العرب: غَوِي الفصيل، إذا بَشِمَ، والبَشَم: فساد اللَّبن في البطن.[٣٤٤٥]

فجعل عبارة عن جهلٍ من اعقادٍ فاسدٍ؛ فإنَّ الجهلَ قد يكون من كَوْن المرء غيرَ معتقِدٍ اعتقادًا لا صالحًا ولا فاسدًا.[٣٤٤٦]

فالإغواء الذي هو أفعالٌ منه حقيقةٌ من الله عند أهل السنة يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء، ويشهده العقل؛ لأنَّ المرء لا يغوي نفسه؛ لأنَّه لا يختار الغواية مع كونه غواية ولو فرض له مغو آخر لزم الدور، أو التَّسلسل فلا بدَّ أن ينتهي الأمور إلى فاعلها، وليس في أفعال الحكم الصَّانع الحكيم قبيح حتَّى يلزمَ إسناده إليه تع.

والمعتزلة: لَمَّا لم يجوّزوا على الحقيقة بناءً على عدم جواز إسناد القبيح، أجابوا تارةً بأنَّه كلام إبليس فهو من جملة جهالته حيث أسند إغوائه إليه تع، وردَّ بإسناد نوحٍ ع م حيث قال: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود ٣٤/١١]. ومن ههنا حقر **طاووس** قدريًا، فقيل: إنَّه فقيهٌ، فقال: إبليسُ أفقهُ منه، حيث يقول: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر ٣٩/١٥]، وهذا يقول: أنا أُغوي نفسي.[٣٤٤٧] وأخرى بأنَّ المراد تكليفه السُّجود الذي غوي بتركه، فيكون مجازًا في المسند أو الإسناد أو تسميته إيّاه ضالًا غاويًا، أو الإهلاك.

وأنت خبير بأنَّ أمثال هذا الكلام لا ينفع أصلهم في مثل هذا المقام، [**١٦٨**/ظ] وإن كان في نفسه معنًى صحيحًا؛[٣٤٤٨] ولذلك ذكره قدس سرَّه: هذه المعاني أيضًا؛ فإنَّ الفساد في منع الحقيقة لا في الحمل على أمثاله، وعلى المذهبين يصحُّ كونُه مقسمًا به، ولا يرد أنَّ الحَلِفَ بصفات الذَّات لا الفعل؛ لأنَّه مذهب فقهاء العراق، أو المراد: أنَّ عدم كونه مِمَّا يحلِف به في وجوب الكفَّارة عند الحِنث لا في كونه حَلِفًا عند العرب.

والقعود: كناية عن الترصُّد، والاجتهاد في الإغواء، بل مجازٌ متفرّع على الكناية؛ لأنَّ المراد من الصِّراط: الدِّين، وهو لايصلح متعلِّقًا للقعود الحقيقي. وذلك لأنَّ أحدًا إذا جدّ في أمرٍ تقول: «اقعد» ههنا حتى يحصل، وفي هذا المجاز، وإيراد القسم وتخصيصه بإغوائه المشعر بالانتقام، واللّامين، والنون شأن لا يليق بالغافل الغفلة عن ذلك.

[٣٤٤٤] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢١/٤-٢٢.

[٣٤٤٥] **لسان العرب** لابن منظور، «غوي»؛ **الكشاف** للزمخشري، ٨٩/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٢١/٤.

[٣٤٤٦] **المفردات في غريب القرآن** لاصبهاني، ص ٦٢٠.

[٣٤٤٧] **الكشاف** للزمخشري، ٨٨/٢.

[٣٤٤٨] ج: وإن كان معنًى صحيحًا في نفسه.

﴿صِرَاطَكَ﴾ نصبٌ على المفعول به على تضمين الفعل معنى اللُّزوم؛ أي: لأَلْزمنَّ صراطك مترصِّدًا كما يفعله قطَّاع الطَّريق للسابلة، أو على الظَّرف على أنَّ الصِّراط والطَّريق وإن كانا مكانين محدودين لا يصل الفعل إليهما بنفسه لا تقول: صليت المسجد إلا أنَّه لما كان المراد منه الإسلام صار كغير المحدود بالنَّظر إلى كثرة حدوده، وتجذّب شعائره، ولهذا قال ع م: «اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا»[٣٤٤٩] فلا حاجة إلى الاستشهاد بقوله:

لَـدْنٌ بهَـزِّ الكَـفِّ يعْسِـلُ مَتْنُـهُ فِيــهِ كَمــا عَسَــلَ الطَّرِيــقَ الثَّعْلَــبُ[٣٤٥٠]

أي: كما عسل الثعلب في الطَّريق حتى يقال: إنه شاذّ. و«اللَّدْنُ»: الرمح يصف الرمح باللَّين يقال: عَسَلَ الرمحُ، أي: اهتزّ واضطرب.[٣٤٥١]

و«عَسَلَ الثعلبُ» أي: أسرع يمينًا وشمالًا. وضمير «متنُهُ» للَّدن، وضمير«فيه» له أو للهَزِّ، أو على إسقاط الخافض نحو: ضُرِبَ زيدٌ الظَّهرَ والبطنَ، أي: عليهما، إلَّا أنَّ هذا ضعيفٌ بالنَّظر إلى أنَّ حذف حرف الجرَّ لا يطَّرد.

﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾ صفة «الصراط» وتوصيف الشَّيطان الصِّراط بالاستقامة، وإسناد[٣٤٥٢] الإغواء إليه تع تعالى واعترافه بالغواية يدلُّ على أنَّ كفره عنادٌ، ومن قال: إنَّه جهلأوّل بأنَّه ما قال اعترافًا بل على مذهب الخصم.

﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (١٧)

﴿ثُمَّ﴾ مستعارٌ لبُعد ما بين الإجمال المذكور والتَّفصيل في ضمن التَّمثيل. ويجوز أن يكون على أصله؛ لأنَّ الإتيان بعد القعود للترصُّد، وهذا معطوفٌ على جواب القسم داخلٌ في حيّزه، مثَّل إتيانه إيّاهم بقصد التسويل بأيِّ طريقٍ يمكن بإتيان العدوّ السابلة بأيّ طريقٍ يمكن؛ فإن العدوّ إذا كان قويًّا يأتي من أَمامه مبارزًا، وإذا كان مكارًا يراقب غرّة خصمه ويأتيه من خلفه، وقد يأتي عن الأيمان، وعن الشَّمائل، أو يأتيانه بقصد القتل ونهب الأموال، محيطًا بهم من جميع الجوانب كيلا يفوت الإستئصال، ولكونه استعارةً تمثيليّةً لم يذكر الجهتين؛ لأنّ العدوّ لا يأتي منهما، وإلّا فقصدُ التَّسويل يتيَسَّر له من جميع الجهات.

وقيل: لم يذكرهما؛ لأنَّ الفوق منزل الرَّحمة، والتَّحت يُوحش الإتيان منه، والوسوسة لا تحصل إلا بالاستئناس، أو لأنَّهما جهتا الخشوع؛ لما روي: أنَّ اللَّعين لَمَّا قال ذلك رقت الملائكة لابن آدم فقالوا: كيف يتخلَّص منه؟ فقال تع: بقي له جهتان، فإذا رفع يديه في الدُّعاء خاضعًا أو وضع جبهته ساجدًا غفرت له ذنوبُ سبعين سنةً.[٣٤٥٣]

أو ذكر تلك الجهات بناءً على نحو ما ذكر ابن عباس: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من قبل الآخرة؛ فإنها باعتبار إتيانها كما بين يديهم فيحملهم على إنكارها، والتَّردد في وقوعها، والتَّهاون فيما ينبغي لها ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من قبل الدنيا؛ فإنها من حيث إنَّها تنقضي كخلفهم، فيحملهم على لذّاتها، وشهواتها، واعتقاداتها قديمة، وأنها لاتزول وليس وراءها عالم، ويجوز عكس ذلك؛ لأنَّ الدُّنيا بين يدي الإنسان، والآخرة خلفهم؛ لأنها يأتي بعدها.

[٣٤٤٩] **موطأ مالك،** ٣٤/١ (٣٦)؛ **مسند أحمد،** ٦٠/٣٧ (٢٢٣٧٨)

[٣٤٥٠] **الكشاف** للزمخشري، ٨٩/٢.

[٣٤٥١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٤٢/٦.

[٣٤٥٢] ج – وإسناد.

[٣٤٥٣] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٤٥/١٤؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده،** ١٩٩/٤.

﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾: ومن جهة حسناتهم؛ لأنَّها ليمنها كيمنيهم ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ وعن طرف سيّئاتهم؛ لأنَّها لشؤمها لشمائلهم، ونحو ما ذكر عن غيره من بين أيديهم من حيث يعلمون ويقدرون التّحرّز عنه؛ فإنَّه كما بين يديهم للعلم، وللقدرة، ومن خلفهم ومن حيث لا يعلمون ولا يقدرون؛ فإنّه كخلفهم لعدم العلم، والقدرة وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ومن حيث يتيسَّر لهم العلم والتحرّز، ولكن لم يتفطَّنوا ولم تحتاطوا فغاب عنهم؛ فإنه كيمينهم وشمالهم؛ لأنَّ ما كان فيهما يعلم من وجهٍ دون وجهٍ.

ثم إن الآتي من الأوَّلين متوجّهٌ إليهم؛ فلذلك أتى حرف الابتداء ومن الأخيرين، كالمنحرف عنهم المار على عُرضهم، أو منحرف عن المأتي الأصلي؛ فإنه الأمام والخلف ولا يأتي الآتي من الأخيرين إلا لأمر عرض، أو لأن عن اليمين والشِّمال قعيدٌ [١٦٩/و] من الملائكة فيحرز اللَّعينُ من قربهم؛ ولذلك أتى حرف المجاوزة والبُعد، وهذا بيان حصول المعاني للحروف التي تعدّى الفعل بواسطتها، وأما لميّة استعمال الحرف في الموضع المخصوص فلا يسأل عنه؛ لأنَّ حروف التَّعدية واختلافها، والتَّعدية بها لغةٌ تُؤخَذ من العرب واستعمالاتهم.

وقد ورد الاستعمال في تعدية الإتيان إلى الأولين ب«من» و«إلى» الأخيرين بـ«عن»، ولا قياس فيه. ولكن ينبغي أن لا يقنع بذلك، بل يتفحّص عن هيئة ما بنوا كلامهم عليه.[٣٤٥٤]

وقالت الحكماء: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الوهم والخيال، والنَّاشئ منهما العقائد الباطلة والكفر، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾: الشهوة، والناشئ منهما الأحوال الشهويَّة، والغضبيّة، وضرّ الكفر لازم؛ لأنَّ عقابه دائم، وضرّ المعاصي مفارق؛ لأنَّ عذابها منقطعٌ، فلهذا السَّبب خصّ هذين القسمين بكلمة «عن»؛ تنبيهًا على أنّهما في اللُّزوم دون القسم الأوّل.

وإنّما اقتصر على الجهات الأربع، ولم يذكر الفوق والتَّحت؛ لأنَّ القُوى التي منها يَتولَّد ما يُوجب السَّعادات الرُّوحانيّةهي هذه الموضوعة في الجوانب الأربعة من البدن.[٣٤٥٥]

﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ موحدين طائعين مظهرين الشكر ﴿وَلاَ تَجِدُ﴾ بمعنى: لا تعلم و﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ مفعوله الأوَّل و﴿شَاكِرِينَ﴾ مفعوله الثاني، أو بمعنى: لا يلقى و﴿شَاكِرِينَ﴾ حال؛ وضعف بعدم الفائدة على أكثرهم دونه، والجملة استئنافية، أو معطوفةٌ على ﴿لأَقْعُدَنَّ﴾ داخلة في حيّز القسم أيضًا.

ولَمَّا ورد عليه أنَّه إخبارٌ بالغيب فكيف عرف إبليس ذلك؟ أجيب بأنه لم يقل ذلك عن علمٍ ويقينٍ، بل قاله ظنًّا، أو بناءً للأمر على الأمارة الدَّالة عليه بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبأ ٣٤/٢٠].

وقال ابن الكمال: ولا تعلُّقَ له بقوله:﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبأ ٣٤/٢٠]؛ لأن مظنونه بقرينة تمام ذلك الكلام-وهو قوله: ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ ٣٤/٢٠]- ما ذكره بقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ۞إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾، [ص ٣٨/٨٢-٨٣]، فإن انطباقه عليه لا بمضمون هذا الكلام.[٣٤٥٦]

ووجه ظنِّه أنَّه قد كان عازمًا عل المبالغة في تزيين الشَّهوات، وتحسين الطَّيِّبات، وقد علم أنَّ طبع الإنسان يميل إليها، ويرغب فيها، فغلب على ظنّه أنَّهميتبعونه فيما يدعوهم إليه، ويقبلون قوله فيه، ولا سيَّما أنَّه قد علم أن للنَّفس الإنسان تسعَ عشرة قوةً كلُّها تدعواالنفس إلى اللَّذات الجسمانيّة، والطيبات الشهوانية الخمسة منها: هي الحواسُّ الظَّاهرة، والخمسة منها: هي الحواس الباطنة، واثنتان منها: قوّتا الشَّهوة والغضب، وقوّة الشهوة موضوعةٌ في الكبد، وقوّة الغضب موضوعةٌ في البطن الأيسر

[٣٤٥٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥١و.

[٣٤٥٥] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٤/٤٥-٤٦؛ **اللباب** لابن عادل، ٩/٤٦-٤٧.

[٣٤٥٦] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٢٣-٢٤.

من القلب، والقوى: السبع منها هي القوّة النباتية وهي: الجاذبة، والماسكة، والهاضمة، والدافعة، والغاذية، والنّامية والمتولِّدة، ومجموعها تسعة عشر، وهي بأسرها تدعوا النفس إلى عالم الجسم وتُرغِّبها في طلب اللَّذات البدنيّة، والَّتي تدعوا النَّفس إلى عبادة الله والسَّعادة الروحانية هي قوة واحدة وهي قوة العقل، ولا شكَّ أنَّ استيلاء تسعَ عشرة قوةً أقوى، وأكمل من استيلاء قوة واحدة، ومن علم أنَّ الأمر كذلك يغلب على ظنّه أنَّ أكثرَ بني آدم يكونون طالبين لهذه اللَّذات الجسمانيّة معرضين عن معرفة الحقّ ومحبّة، وطلب مرضاته، وهذا هو مراد من قال: «لَمَّا رأى فيهم مبدأ الشر متعددًا، ومبدأ الخير واحدًا»،[٣٤٥٧] فهذا بيان سبب ظنّه على طريقة الإجمال، وتفصيله ما قرّرناه من المقال.[٣٤٥٨]

وقيل: «سمعه من الملئكة» الذين رأوا ذلك الحكم مكتوبًافي اللَّوح المحفوظ، أو الملائكة الذين أخبرهم الله بذلك،[٣٤٥٩] أو تلقف ذلك من اللَّوح المحفوظ، أو لما أغوي آدم قال: ذريته أضعف منه، أو استنبط من قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة ٢/٣٠]، أو لما أنه لَمَّا رآه بين مكة والطائف خلقًا أجوف قال: لو سلَّطت عليه لأغويته.

وعن إبراهيم التميم أنه قال: قال رجل عند عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ الْأَقَلِّينَ فَقَالَ عُمَرُ: مَا هذا الدعاء؟ قَالَ : إن اللَّهَ يَقُولُ : ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ قال عُمَرُ: كلُّ النَّاس أعلم منَّا.

وعن ربيع ابن أبي راشد أنه قال: «لو أني أعلم، أي: عملٌ أحبّ إلى ربّي لتكلَّفته لأنال رضاء ربِّي، فقيل له في المنام: أحبُّ الأعمال إلى الله الذِّكرُ والشُّكرُ، اذكر مولاك واشكر نعماك.

وقال بعض أهل الحقيقة: أكرمُ النَّاس على الله أتقاهم، وأتقَى النَّاس عند الله أحبّهم، وأحبّ الناس إلى الله أطوعهم، وأطوع النَّاس [**١٦٩**/ظ] عند الله أشكرهم له.

وحُكي: أن رجلًا قال لسهلٍ: دخل اللِّصّ في بيتي، وأخذ متاعي، فقال: اشكر لو دخل الشيطان قلبك، وأفسد التوحيد كيف يكون حالك؟

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)﴾

الكلام في مرجع منها على ما مرّ، وتكرير الأمر لشدَّة القهر، أو الأوَّل مطلق، والثَّاني مقيّد بالصِّغار، والثالث بالذأم ﴿مَذْؤُمًا﴾ حال من فاعل ﴿اخْرُجْ﴾ من: ذأمْتُ فلانًا، أذأَمه ذأمًا، إذا ذَمَّتُه، فهو مذؤومٌ فالمهموز العين والمضاعف بمعنًى وهو الذَّم الشَّديد، قال:

وقَـالَ لإِبْلِـيسَ ربُّ العبـادِ اخــرج دحــيرًا لَعِينـــا مـــذؤما.[٣٤٦٠]

وقرئ: «مَذُومًا»[٣٤٦١] بواوٍ واحدةٍ بغير همزةٍ على أن يكون أصله: «مذؤومًا» عل وزن «مسئولًا»، فخفّفت همزته بأن أُلقيت حركتُها على الذَّال السَّاكنة قبلها، فحذفت تخفيفًا فوزنه الآن «مَفُول» كـ«مَسُول»، أو يكون اسم مفعول من «ذَامَهُ

[٣٤٥٧] **أنوار التنزيل**، ١/٥٣٧.

[٣٤٥٨] **مفاتيح الغيب** للرازي، **١٤/٤٦**؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/٢٠١.

[٣٤٥٩] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/٢٠٠.

[٣٤٦٠] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٤/٤٦؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٩/٤٨.

[٣٤٦١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهر والأعرج . **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٣؛ **المختصر لابن خالويه**، ص ٤٨؛ **المحتسب** لابن جنّي، ١/٢٤٣.

يَذِيمُهُ»، كـ«بَاعَهُ» «يَبِيعُهُ» «ذَامًا» بالألف و«ذِيمًا» كـ«بِيعًا»، وفي المثل: لن تقدم الحسناء «ذَامًا» أي: عيبًا، فكان حقه «مَذِيم» كـ«مَبِيع» إلا أنه أبدلت الواوُ من الياء، كما قالوا: «مَكُول» في «مَكِيل» فوزنه ح «مَفُعْلٌ»، ونقل منه «مَذْيُومٌ» على التمام، فإن كان المحذوف العين بعد نقل الحركة فوزنه «مَفول»، وإن كان واو المفعول فـ«مَفُعْلٌ» أيضًا.

﴿مَدْحُورًا﴾ حال أيضًا على جواز تعددها، أو من الضمير في الحال الأولى، فيكونان متداخلين أو صفة لها. وأصله: الدفع بهوان من «دَحَره» «يَدْحَرُه» «دَحْرًا» و«دُحُورًا»، وفي الدعاء: اللهُمَّ أدْحِرْ عنَّا الشيطان،[٣٤٦٢] أي: أبعده، أي: أخرج من الجنّة، ومن كلّ خيرٍ على غاية الذَّمِّ ونهاية الطّرد؛ فإنَّك عزمت على على عظيم الذّنب ولئيم الشّر.

واللّام ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ﴾لتوطئة القسم، و﴿مَنْ﴾ شرطيّة في محلِّ الابتداء ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ جواب القسم المدلول وسادٌّ مسدَّ جواب الشَّرط، ولم يعكس لتقدم القسم، أو للإبتداء و﴿مَنْ﴾ موصولة مبتدأة، و﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ جوابُ قسم محذوفٍ، والجملة رفع خبر الموصول، أي: «للذي تبعك منهم والله لأملأنَّ»، والعائد منها إلى المبتدأ متضمّن في قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ أي: منك ومنهم فغلّب الخطاب كقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل ٥٥/٢٧]، بتاء الخطاب، وإن كان ضميرًا عائدًا إلى قومٍ وهو غائب من حيث كونه اسمًا مظهرًا، لكن فيه جهة خطاب من حيث كونه خبرًا من ضمير الخطاب الخطاب في: ﴿إِنَّكُمْ﴾ [الأعراف ١٣٨/٦] فغلَّب جانبَ الخطاب لكونه أشرف.

وقرئ: «لِمَنْ تَبِعَكَ»[٣٤٦٣] بكسر اللّام على أنه متعلِّق بـ﴿مَذْؤُمًا مَدْحُورًا﴾على التّنازع، أو علّة لـ﴿اخْرُجْ﴾، و﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ جوابُ قسم محذوف، كأنه قيل: اخرُج منها بهاتين الصفتين لأجل تباعك، أو خبر لمبتدأ دلّ عليه ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾، والتقدير: لمن تبعك منهم هذا الوعيد، أو خبر على الحكاية، أي: لمن تبعك هذا القول.

وأما نفس ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ فيمتنع أن يكون خبرًا لكونه جواب قسم، فمراده قدس سره بقوله: خبر ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ ما ذكرنا؛ فإن الجملة القسميّة لما دلّت على المبتدأ المحذوف، وسدّت مسدّه نسب إلى الدليل ما حقّه أن ينسب إلى المدلول.[٣٤٦٤]

﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيدٌ للضميرين، أي: لأملأنّها من المتبوع والتّابع لا أترك منهم أحدًا، والأكثر في أجمع وأخواته المستعملة للتأكيد أن يُؤتى بها بعد «كلّ»، وتجيء بدونه ومنه الآية.

ولَمَّا بالغ اللّعينفي قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾ بالغ تعفي ذمّه، وشدّد على مَن تبعه تشديدًا؛ كيلا يكون من اتباعه تحذيرًا أنَّه كان بعباده بصيرًا، ولا دليل فيها على لزوم دخول العصاة جهنّم؛ لأنه أخبر أنَّه يملأها من المتبعين لا أنَّ كلَّ متبع يدخل، لكن التَّأكيد يدافعذلك، فمقيد بعدم العفو، أو يقال: إنّهم لم يتبعوه تحقيقًا بل الشهوة، ولذلك يلعنونه عند قضائها.

﴿وَيَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩)

أي: وقلنا: يا آدم، وإنما قدّر هكذا، ولم يعطف يا آدم على ما بعد قال، أي: قال: يا إبليس اخرجْ، ويا آدمُ اسكنْ؛ لأنَّ ذلك في مقام الاستئناف والجزاء؛ لِمَا حَلَفَ عليه إبليسُ من القعود على الصراط والإتيان مِن الجهات، وهذا من تتمَّة الامتنان على بني آدم، والكرامةِ لأبيهم، وإنمالم يجعل عطفًا على ما بعد ﴿قُلْنَا﴾؛ لأنه يؤل إلى «قلنا للملائكة يا آدم».[٣٤٦٥]

[٣٤٦٢] **لسان العرب** لابن منظور، «دحر».

[٣٤٦٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم برواية عصمة . **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٣؛ **المختصر لابن خالويه**، ص ٤٨.

[٣٤٦٤] **أنوار التنزيل**، ٥٣٧/١.

[٣٤٦٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥١ظ.

وقال ابن الكمال: لا يؤول إلى ذلك، لكن لم يعطف عليه لبعد فيه.[٣٤٦٦] فقدر «قلنا»؛ لتكون الجملةُ عطفًا على: «قلنا للملئكة».[٣٤٦٧]

وقال: هنا ﴿فَكُلَا﴾ بالفاء وفي البقرة ﴿وَكُلَا﴾ [البقرة ٢/٣٥] بالواو؛ لأن «اسكن» ههنا من السُّكنى الذي هو الذي اتخاذ المواضع مسكنًا، وهذا لا يستدعي زمانًا ممتدًّا يمكن الجمع بين الاتخاذ والأكل فيه، بل يقع الأكل عقيبه وفي البقرة [**١٧٠**/و] من السكون الذي يراد به الإقامة فلم يصلح إلا بالواو، وأن المعنى: أجمعا بين الإقامة فيها، والأكل من ثمارِها، ولو كان بالفاء لَوجب تأخير الأكل إلى الفراغ من الإقامة.

وقيل: لأنهما إذا سكنا في الجنّة، فتسبّب سكناهما فقد جمعا في الوجود بينهما.

وقيل: الواو للجمع والفاء له على التعقيب، فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو، ولا منافاة بين النَّوع والجنس.

وقال ابن الكمال: اعتُبر ثمّة الاستقلال في أمر الأكل تعظيمًا لشأن تلك النِّعمة الجليلة، واعتُبر هنا تفرُّعه على الأمر الأول، وفيه زيادة التفخيم لذلك الأمر.[٣٤٦٨]

ويقال: لَمَّا قال الله لهما: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ قالا: نعم، ولا نقربها، ولا نأكل منها، ولم يستثنيا في قولهما، فوكّلهما الله في ذلك إلى أنفسهما حتى أكلا.

وقرئ: «هذي»[٣٤٦٩] وهو الأصل، و«الهاء» بدلٌ من «الياء»، ولذلك كُسرت الدال؛ إذ ليس في كلام القوم هاء تأنيث قبل الكسرة، فـ«ذا» اسم إشارة يشار بها إلى المذكّر، و«ذي» يشار به إلى المؤنث، تقول: ذي أمة الله، فإن وقفتَ عليه قلتَ: «ذِهْ» بهاءٍ موقوفةٍ، وهي بدلٌ من «الياء»، ليست للتأنيث؛ فإن أدخلت عليه «هاء» للتّنبيه قلتَ: هذا زيدٌ، وهذي أمةُ الله، وهذه أيضًا بتحريك الهاء.

قال أبو الفتح: يدلُّ على أنَّ الأصل الياء: قولهم في المذكر: «ذا»، فالألف في «ذا»: بدلٌمن «الياء» في «ذي»، وأصل «ذا» عندنا «ذَيٌّ»، وهو من مضاعف الياء مثل «حَيّ»، فحذفت الياءُ الثانيةُ التي هي لام تخفيفًا، فبقي «ذَيْ». قال لي أبو علي: فكرهوا أن يشْبِه آخرُه آخر «كَيْ» و«أيْ»، فأبدلوها ألفًا، كما أبدلت في يَائَس ويَايَس.

ويدل على أن أصل «ذا»: «ذَيٌّ»، وأنه ثلاثي، جواز تحقيره في قولك: «ذيًّا»، ولو كان ثنائيًا لَما جاز تحقيره، كما لا تحقر «ما»، و«مَن».[٣٤٧٠]

فلما صغّرت ردّت إلى الأصل «ذيّ» بيائين أصليين بينهما ياء التصغير أدغمت أولها في الثانية، وفتح الذال لتسلم الياء وقلبت الأخيرة ألفاً؛ لانفتاح ما قبلها فصار ذياًّ، والتصغير يردّ الأشياء إلى أصلها فيثبت أنه الياء، ولكنه لمذكره الذي هو «ذا» دون مؤنثه الذي هو «ذي».

[٣٤٦٦] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٢٣-٢٤.

[٣٤٦٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥١ظ.

[٣٤٦٨] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٢٤.

[٣٤٦٩] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيص. **المحتسب** لابن جنّي، ٢٤٤/١؛**شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٨٤.

[٣٤٧٠] **المحتسب** لابن جني، ٢٤٤/١.

وأمَّا الياء اللَّاحقة بعد الهاء في:﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ [يوسف ١٢/١٠٨] ونحوه، فزائدةٌ، لَحِقتْ بعد الهاء؛ تشبيهًا لها بهاء الإضمار في نحو: «مَرْرتُ بهي»، ووجه الشّبه بينهما أنَّ كلَّ واحد من الاسمين مبهمةٌ معرفةٌ لا يجوز تنكيرُه.[3471]

﴿ فَتَكُونَا﴾ جزمٌ عطفًا، أو نصبٌ جوابًا ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: الذين ظلموا أنفسهم أتى بصيغة الفاعل؛ لأنه أبلغ مِنْ: الذي ظَلَم، وأطلقه لينتظِم ظلم غيرَه من ذرّيته.[3472] فلعل المبالغين، لما أنَّ حسنات الأبرار سيئاتُ المقرّبين، أو لغاية التحذير، أو لما ترتّب عليه.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (٢٠)

«الفاء» للتَّرتيب على ما تقدّم من النهي، و﴿وَسْوَسَ﴾ غير متعدٍّ، نحو: وَلْوَلَت المرأةُ، ووَعْوَعُ الذِّئبُ، ورجلٌ مُوسْوِسٌ–بالكسر–ولا يقال: –بالفتح–، ولكن: موسوس له، وإليه، والمصدر بالفتح، والاسم بالكسر؛ ولذلك قال: ﴿لَهُمَا﴾ أي: لأجلهما وتعديته بـ«الى» لمعنى الإلقاء والإنهاء، والوسوسة في الأصل: الصوت الخفي، كالهَيْنَمَة والخَشْخَشَة، ومنه: «وسوس الحُليُّ»، وهذا أولى ممَّا قيل: كلامٌ خفيٌّ على وجه التَّكرار، والمراد حديثٌ يلقيه الشَّيطان في قلب ابن آدم على خلاف الشَّرع، وههنا الخواطر التي زينت لهما الشجرة وكيفيَّة اتِّصالها إليهما مرت في البقرة.[3473]

﴿لِيُبْدِيَ﴾ ليظهر متعلّق بـ﴿وَسْوَسَ﴾ للعاقبة؛ لأن غرضه وإنْ لم يكن ذلك بل على إيقاعهما في المعصية، لكن ممَّا كان نتيجة الوسوسة شبه بالدَّاعي الذي يفعل الفعل لأجله، فاستُعيرت «اللام» لما يشبه التعليل نحو: الأسد لمن يشبهه، أو للغرض نحو: على أنه أراد ايضًا أن يَسُوءَهما بانكشاف عورتهما؛ ولعلَّه علم ذلك من اللَّوح، أو من الملائكة، أو على أن يجعل كناية عن سقوط الحرمة وزوال الجاه، ولا يرد أنَّ «اللَّام» لم تحذف مع وجود الشرائط حذفها، وهي كونه مصدرًا وفعلًا لفاعل الفعل المعلّل، ومقارَنًا في الوجود؛ لأن بفقدان الشّرط ينعدم المشروط، ولا يجب عند وجوده كالوضوء للصلوة، مع أن في إيرادها تأكيدٌ أن هذا الغرض كان مهتمًّا بشأنه في الوسوسة.

﴿لَهُمَا﴾ متعلِّق بـ﴿لِيُبْدِيَ﴾ وفيه اختصاصٌ، وتنبيهٌ على عناية حيث لم يطلعْ على سوآتهما غيرهما ﴿مَاوُرِيَ﴾ مع صلته مفعولة من المواراة، وهي: جعلُ الشَّيء وراء ما ستره، يقال: ورايتُ الشيء ويوارى هو ولم تُقلب الواو همزة؛ لأنه إذا اجتمع واوَان في الأوَّل، وتحرّكت الثّانية، أو كان لها نظرٌ متحرك وجب إبدالُ الأولى نحو: «أُوَيْصِل»، «أَوَاصِل» في تصغير:[**١٧٠**/ظ] «واصِل» وتكسيره؛ فإن الأصل: «وُوَيْصِل وواصل»، ونحو: «أَوْلَى» أصلها «وُوْلَى»، والثانية ساكنةٌ، لكن قد تتحرَّك في الجمع نحو: «أُوَل» كـ«فُضْلَى وفُضَل»، وإن لم تتحرَّك ولم يكن لها نظير لم يجب القلب نحو: «وُوْطِئ أُوْطِئ».

وسره أن الواو في «ووري» لم يقصد الإتيان به، وإنما قصد الضمّ؛ لأنه علم بناء المفعول وهي جاءت اتِّفاقًا من حيث إن الألف لا تستقرُّ بعد الضمَّة، فإذا صار الألف في تقدير الثبات، وإذا كان الواو منقلبًا عن الألف وباقيًا على حاله في مصاحبة المدّ أجرى مُجراه، فلم يعتد واوًا، وصار كأنَّه لم يجتمع، فمن قرأ: «أُورِي»[3474] نظر إلى اللفظ واعتبر بالعارض.

﴿عَنْهُمَا﴾ متعلّق بـ﴿وُورِيَ﴾وكانا لا يريان عوراتهما ولا يرى كلّ من الآخر؛ لأنهما ألبسا ثوبًا أو نورًا أو ستر الكرامة.

[3471] **المحتسب** لابن جنّي، ١/٢٤٤.

[3472] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٢٦.

[3473] البقرة، ٤/٣٦.

[3474] **الكشاف**، ٢/٩١.

وفي إيراد الموصول والصلة موضع العورة، كما في قوله: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ [يوسف ٢٣/١٢]. إشعارٌ بزيادة التقبيح، وتنبيه على أن شأنهما أن يواريَ لا أن يكشف.

﴿**مِن سَوْءَاتِهِمَا**﴾ بيانٌ لـ«مَا»، وفيه إيذانٌ لمزيد الشَّناعة على منوال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ﴾ [البقرة ١٨٧/٢] جمع «سَوْءة» سمِّيت بها الفرج؛ لأن ظهوره يسوء المرأ ويحزنه، وضع الجمع مقام التثنية كراهة التثنيتين كما في: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم ٤/٦٦]، أو بالنَّظر إلى القُبل والدُّبر من كل واحد، ويؤيِّد الأوَّل قراءةُ «سوَّتهما»[٣٤٧٥] بالإفراد أي: من سوءة كلِّ واحدٍ منهما، أو لأنها في الأصل مصدر من: ساء يسوء.

واستدلّ به المصنف على أنَّ كشف العورة مستقبح في العقول؛ فإن أراد بمعنى كونه مذمومًا في حكم الله سواء ورد الشرع أو لا فلا دلالة، وإن أراد عدم الملاءمة للعقول السَّليمة، فلا نزاع في أنَّه لا يتوقّف على الشرع،[٣٤٧٦] نعم في كون الإبداء عرضًا للشيطان دلالة شرعية على الاستقباح.

﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَالِدِينَ﴾

القول بالمشافهة، أو الوسوسة يدل على الأول قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾، وعلى الثاني: أنه بيان لوسوسته، والواو للاستئناف، وفي إسناد النَّهي إلى ربِّهما دون أن يقول ربي إشعار بفرط كبرِه وغباوته، فإن ما نهاه الرَّبُّ ينبغي للعبد التحرّز عنه، وإنما نهاه على مقتضى تربيته وهذا يفصح خلاف مرامه من كلامه.

﴿**عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ**﴾ متعلّق بـ﴿مَا نَهَاكُمَا﴾ أي: ما نهاكما عنها لأمرٍ مَّا إلَّا كراهة أن تكونا، أو إلا أن لا تكونا بتقدير مضاف عند البصريين، ولا عند الكوفيين على أنَّه استثناء مفرّغ من أعمّ عام المفعول له، أي: أن تصيرا ملكين إيهامًا منه أنَّ البشر يصير ملكًا، أو أن تكونا في مرتبة الملكية من الكمال، ولايستدل بقول إبليس على تفضيل الملائكة؛ لأنه جاز أن يوافق المعتزلة فيه على ما يشعر به قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ فلا يفيد الأفضلية في نفس الأمر، وفي حكم الله مع أنَّ إيهام أن يصيرا ملكين ظاهر الفساد، وعلى تسليم ذلك تسبيب الأكل له مع أن الملائكة معصومون فيه غير معقول، وكذا التّسبب في نفسه؛ فإن آدم أعرفَ بالله وبصفاته، وأنه فاعلٌ مختارٌ فكيف يتصور منه تصديق ذلك؟ لا يقال الاستدلال ليس بمجرَّده، بل بأنَّه تع قررَ ذلك ولم ينكِر، وارتكبَ آدم المنهيَّ طمعًا فيه، فلولا أنه أفضلُ لم يَرْتَكِبْ؛ لأن التَّقرير غيرُ ظاهر، وعدم الإنكار لكون الصدد في حكايةِ ما وقع منه لهما مع قطع النَّظر عنه، وقد أشير إلى كونه بقوله: ﴿فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ حيث أشعر أنَّ تفضيل الملائكة من الغرور سيَّما وقد رتب التدلية بالأقسام على النصح لا على تصديق آدم، وأن ارتكاب آدم وحو الأ، لأن يصيرا ملكًا؛ «لأنه كان من المعلوم أنَّ الحقائق لا تنقلب، وإنما كان الرغبة في أن يحصل لهما أيضًا ما للملائكة من الكمالات الفطرية، والاستغناء على الأطعمة والأشربة، وذلك لا يدل على فضلهم مطلقًا»،[٣٤٧٧] بل إنَّما وقع لأجل القسم، لا لإخباره المتقدّم يرشدك إلى هذا قول المفسرين. فنزلهما إلى الأكل من الشجرة بما غرّهما من القسم بالله،[٣٤٧٨] وقوله عليه السلام: «حين سئل بلى وعزتك ولكن ما ظننت أن أحدًا من خلقك يحلف بك كاذبًا»[٣٤٧٩]

[٣٤٧٥] **اللباب** لابن عادل، ٥٥/٩.

[٣٤٧٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥١ظ.

[٣٤٧٧] **أنوار التنزيل**، ٥٣٨/١.

[٣٤٧٨] **فتوح الغيب**، ٣٥٢/٦.

[٣٤٧٩] **فتوح الغيب**، ٣٥٢/٦.

﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَالِدِينَ﴾ معطوف على الاستثناء يقدر ههنا ما قدر هنالك، وهو على ظاهره من التخيير، أو يكون الترغيب بمجموعهما الملكية والخلود بعدم الموت، أو في الجنة.

قيل: لو صدقا الخلود لزم إنكار البعث، وأجيب إن أُريد المكث الطويل فلا، وإن أريد الدوام فلا يلزم أيضًا؛ لأن العلم بالموت، ثم البعث يتوقف على السَّمع، فلعلَّه لم يرد حينئذ هذا، ولكن أهل التحقيق على أنَّ التَّصديق منهما فيما قاله لهما لم يَقَعْ لا قطعًا ولا ظنًّا، وإنما أقدما على الأكل؛ لما ذكرنا أو لغلبة الشَّهوة، وهذا يؤيّد ما قرَّر من قبل.[٣٤٨٠]

وقال القشيري: ما رَغِبا [١٧١/و] في الخلود لنصيبِ أنفسهما، ولكن للبقاء مع الله، وهذا أَوْلى ما يظنّهما تنزيهًا لمحلِّ النبوة. وقد قيل: ساعاتُ الوصل قصيرة، وساعات الفراق طويلة، ما لبثا في دار الوُصلة إلاَّ بعضًا من النهار، دَخَلاَ ضحوةَ النهار وخَرَجَا نِصْفَ النهار.

ويقال: إن الفراقَ عينٌ تصيب أهلَ الوصلة، وفيه قيل:

إنْ تكُــنْ عــينٌ أصــابَتْك فــلا ... زالــتِ العــين تصـيب الحَسَــنا[٣٤٨١]

وقيل: لَمَّا رأى اللعينُ نفسه طريدًا من الرحمة، ورأى آدم الذي حسده ساكنًا في الجنَّة لم يصبر، فاحتال؛ لإخراجه مع زوجته حواء فأتاهما وقال ما قال لغلب رويق الوصال على وحشة الانفصال، وكآبة الفراق.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّاصِحِينَ(٢١)﴾ ﴿فَدَلَّيهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا(٢١)﴾.

أقسم لهما، فالمفاعلة للمبالغة، بأنه اجتهد فيه اجتهاد المقاسم، أو أقسما أيضًابالقبول، فيقدر القسم والمقسَم عليه بغير المذكور، أو يجعل قبول النصح نصحًا للمقابلة، كما في قوله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى﴾ [أعراف ١٤٢/٧]. حيث جعل التزام موسى بالوعد وحضوره وعدا، أو يجوّز اختلاف متعلقات الفعل في جانبي المفاعلة، كما تقول: حالفتُ زيدًا على المسيرِ، مع أن حلفَ زيد على الإقامة،[٣٤٨٢] أو حملاه على القسم، وقالا له: أتقسم بالله إنك ناصح؟ فجعل ذلك مقاسمةً تنزيلًا لقولهما، «أَتُقسم» استفهام تقرير منزلة قسمهما.

قيل: فيه لفٌّ؛ لأنهما لايقسمان بلفظ المتكلم، بل بلفظ الخطاب لكن التغليب أقربُ.[٣٤٨٣]

واللام متعلِّق بـ«ناصح»، إن كان الألف واللَّام بمعنى: الذي في ﴿لَمِنَ ٱلنَّاصِحِينَ﴾، أو به إن كان للتَّعريف وهو تَعدّى باللَّام وبنفسه.

وقيل: المفعول محذوف، والمجرور هو الثاني يقال: «نَصَحْتُ لزيدٍ»، أي: نصحتُ له الرأي.

والنُّصْحُ: بَذْلُ الجُهْدِ في طلب الخَيْرِ، وضدُّهُ الغشُّ. من نَصَحَ، أي: أخْلَصَ ومنه: نَاصِحُ العسل، فمعنى: أخلص له الوُدَّ، أو من نَصَحْتُ الثَّوْبَ إذا أحكمت خياطتهما، ومنه النَّاصِحُ للخيَّاطِ، فمعناه أي: أحكم رأيه فيه.[٣٤٨٤]

[٣٤٨٠] **اللباب** لابن عادل، ٥٧/٩-٥٨.

[٣٤٨١] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٣٢٧/١؛ **اليسير في التفسير** للنسفي، ٣٠٨/٦

[٣٤٨٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥١ظ.

[٣٤٨٣] **فتوح الغيب**، ٣٥٣/٦.

[٣٤٨٤] **اللباب** لابن عادل، ٦٠/٩.

﴿**فَدَلَّىٰهُمَا**﴾فنزّلها إلى الأكل، وفيه إشارةٌ بأنه أَهْبطهما من درجةٍ عاليةٍ إلى منزلة سافلة؛ لأن التَّدلية إرسالُ الشيء من أعلى أسفل.[3485]

تقول: دَلَوْتُ الدَّلْوَ في البئر أَدْلُوها: أرسلتُها، وأدليتها، أي: أخرجْتها.[3486]

وعن الأزهري: أنَّ العطشان يُدلِي رِجلَه في البئر ليأخذ الماء، فلا يجده فيها، فوضعت موضع الإطماع فيما لا فائدة فيه.[3487]

ويقال: دليتُ فلانًا في البئر بحبل غرور؛ ولذلك قيل: دلَّاهما في بئر المحنة برشاء الفتنة، أو من الدَّال، والدّالّة، أي: الجُرْأة، أي: جَرَّأهما، أو من دَلَّلَ من الدَّلالة، فاستثقل توالي اللَّامات، فأبدل الثالث حرفَ لينٍ.[3488]

﴿بِغُرُورٍ﴾ متعلّق بـ﴿دَليهُمَا﴾، والباء للسببية، وفاعل المصدر ومفعوله محذوفان، أي: سبب تغريره إياهما باليمين بالله كاذبًا، وكانا يظنّان أنَّ أحدًا لا يحلف كاذبًا، وتعيين، أي: بسبب غروره القسم مستفاد من سياق الكلام، لا من لفظ الغرور، كما أنَّ تخصيص التَّدلية بالإنزال إلى الأكل مستفاد منه، أو حالٌ من المفعول، أي: ملتبسين بغرورٍ، أي: مغرورَين، أو من الفاعل، أي: غارًا لهما، والغرور: إظهارُ النصح مع إبطان الغشّ، وأصل الغَرّ: طيُّ الثوب، فإنَّ فيه إظهارَ حال وإخفاءَ أخرى، ومنه الغرر لخفاء ما لا يؤمَن فيه.

والذوق: إدراك طعم الشَّيء بالفم، والمراد نهايته التي هي الشروع في الأكل لقوله: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ﴾،كما أنَّ المراد منه بدايته بقرينة هذا، ففيه تنبيهٌ على أنَّهما عوتبا قبل أن يزدردا، أو كان بداء البدو بعد الذَّوق وكماله بعد الأكل، أو استعمل الذوق في معنى الأكل، كما في الحديث: «كنَّا لا ننفصل عن النبيّ إلا عن ذواق، أي: أكل».[3489]

﴿**بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا**﴾ ظهرت لهما عوراتهما وتساقط عنهما ما عليهما؛ فانتقص النّور الذي عليهما وتجسّد منه شيء على الأظفار تذكرةً لهما، ولأولادهما، حتى يجددوا الاستغفار عند رؤية الآثار دعا أوس أن يزيل البؤس الذي كان عليه، فأزاله إلا لمعة ليذكره بالنّعمة فيشكر، أو زال عنهما ما عليهما كالظفر في اللبن، فبقي عند الأظفار تذكيرًا للنعم وتجديدًا للندم، أو خلع عنهما حللهما من ذللهما.

روي: أنه ع م قال: «كَانَ آدَمُ رَجُلًا طُوَالًا؛ كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ، كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ ، فَلَمَّا وَقَعَ الخطيئة بَدَتْ لَهُ سوْءَتُهُ ، وَكَانَ لَا يَرَاهَا فَانْطَلَقَ هَارِبًافِي الجنّة، فَعَرَضَتْ له شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الجَنَّةِ، فَحَبَسَتْهُ بِشَعْرِهِ، فَقَالَ لَهَا: أَرْسِلِينِي، قَالَتْ : لَسْتُ بِمُرْسِلَتِكَ، قَالَ: فَنَادَاهُ رَبُّهُ:يا آدم، أَمِنِّي تَفِرُّ ؟ قَالَ: لَا يا رَبِّ؛ ولكنّي اسْتَحَيْتُكَ».[3490]

﴿**وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢)**﴾

[3485] **أنوار التنزيل**، ٥٣٨/١؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٢٧/٤.

[3486] **لسان العرب** لابن منظور، «دلو».

[3487] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٢٢٠/٥؛ **اللباب** لابن عادل، ٦٠/٩.

[3488] **اللباب** لابن عادل، ٦٠/٩-٦١.

[3489] لم أجده.

[3490] **جامع البيان** للطبري، ٣٥٤/١٢؛**المستدرك على الصحيحين** للحاكم، ٥٩٣/٢ (٣٩٩٨).

[١٧١/ظ] عطف على مقدّر؛ أي: فتداركا وأخذا وشرعا، فإن «طَفِقَ» من الأفعال التي تنبئ عن الشروع في الفعل، يقال: «طفِقَ يَطفَق طَفَقًا» بالكسر والفتح، «طَفَق يَطْفِق وطُفُوقًا» بالعكس. وقد قرئ به، وألف التثنية اسم «طَفِقَ» وخبره ﴿يَخۡصِفَانِ﴾،[٣٤٩١] أي: يجعلان ورقةً على ورقةٍ ويرقعان ليستترا به، كما تُخصف النَّعلُ من خصف النعل، والمِخْصَف الذي يثقب به، أو يقطعان من خصف الورق، ونحوه إذا قطع ومفعوله ﴿مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أو محذوفٌ هو صفته، أي: شيئًا مِن وَرق الجنَّة.

وقرئ: «يُخْصِفَانِ»[٣٤٩٢] بضمِّ الياء وكسر الصَّاد، من «أَخْصَفَ»، منقولٌ من «خَصَفَ»، فيتعدَّى إلى اثنين، فحُذف أحدُ مفعوليه، أو كلاهما كم يُفهم ممَّا سبق.

و«يُخَصِّفَانِ»[٣٤٩٣] بضمِّ الياء وفتح الخاء وكسر الصَّاد، مثقَّلًا من «خَصَّفَ» بالتَّشديد، فحكمُه حكمُ «أَخْصَفَ» في الحذف والتَّقدير.

و«يَخِصّفان»[٣٤٩٤] بفتح الياء وكسر الصَّاد المشدَّدة، افتعال منه،[٣٤٩٥] والأصل: «يَخْتَصِفَانِ» إلا أنَّه يجوز فتحُ الخاء على إلقاء حركة الياء إليها، وإدغامها في الصَّاد بعد قلبِها صادًا، أو كسرها على حذف حركة الياء حين أراد الإدغام، وتحريك الساكن بالكسر.

﴿عَلَيۡهِمَا﴾ على سوآتهما، لأنَّ ضمير الجمع فيهما بمعنى التثنية على ما مرَّ، ولا يرجع إلى آدمَ وحواء؛ لأنَّ ضمير ﴿يَخۡصِفَانِ﴾ عبارةٌ عنهما، فيكون الفاعل والمفعول عبارةٌ عن واحدٍ، ولا يجوز في غير أفعال القلوب إلا أن يقدّر مضاف نحو على بدنهما. و﴿مِنْ﴾ للابتداء أو التبعيض.

قيل: طاف على أشجار الجنة سأل منها ورقةً، فزَجَرته حتى رَحِمَتْه شجرةُ التِّين فأعطته، فكافأه الله بأن سوّى ظاهرَه وباطنه في الحلاوة والمنفعة وأعطاه ثمرتين في عامٍ، وكان ورقُه مدوّرًا، فصار هكذا بأصابع آدم.

وفيه دلالةٌ على قباحة الكشف من لدن آدم؛ حيث ابتدرا إلى التستر بالورق، ولذلك قال الشافعي: مَنْ لم يجد ثوبًا يجب عليه التستر به، وذلك إما نقلًا إذ لم يبعد أن يُؤمَرا به، أو عقلًا لما كان في طبعهما السليم كراهة ذلك.[٣٤٩٦]

ونداءهما بواسطة وحي، أو بالذَّات يؤيّده قوله: ع م حين سُئل عن آدم هو نبيّ متكلّم، ولا يدافعه اختصاصه بموسى؛ لأنه في الأرض وهو في الجنة، ويؤيّده ما روي أنه تع ناداه أفِرَارا منّي؟ قال: بل حياءٌ منك ما ظننت أن أحدًا يقسم بك كاذبًا، فقال: أما خلقتك بيدي، أما نفخت فيك من روحي، أما أسجد لك ملائكتي، أما أسكنتك جنّتي[٣٤٩٧] في جواري؟[٣٤٩٨]

[٣٤٩١] **الفريد** للهمذاني، ٢٨/٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٦٠/٩.

[٣٤٩٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. **المحتسب** لابن جنّي، ٢٤٥/١؛**شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٤.

[٣٤٩٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن بريدة والحسن والزهري والأعرج بخلاف عننهما. **المحتسب** لابن جنّي، ٢٤٥/١؛**شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٤.

[٣٤٩٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعرج بخلاف عنهما. **المحتسب** لابن جنّي، ٢٤٥/١؛**شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٤.

[٣٤٩٥] ج – منه.

[٣٤٩٦] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ١٨١/٧.

[٣٤٩٧] ج – جنّتي.

[٣٤٩٨] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٥٤/١٤.

﴿**أَلَمْ أَنْهَكُمَا**﴾ تقرير به مفسرة للنِّداء، لا محلَّ لها، أو مقول قول: ﴿**عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ** ﴾ عن أكل ثمرها، فعّلق النهي بها للمبالغة؛ وليوافق ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أشير إليها بما يشار به إلى القريب أولًا، وبما يشار به إلى البعيد ههنا؛ لأنَّهما بعد وقوع ما وقع فرّا منها فبعدت منهما.

﴿**وَأَقُل لَّكُمَآ**﴾ بنحو ما قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾[طه ١١٧/٢٠]، واللام متعلِّق بـ﴿عَدُوٌّ﴾ أو بمحذوفٍ هو حال منه متقدمة ﴿مُبِينٌ﴾ بيّن العداوة حيث أَبى السَّجود، وقال ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ [الأعراف ١٦/٧]، وهذا عتابٌ منه تع على مخالفة النهي البليغ، وتوبيخ على الاغترار بقول العدوِ بعد التَّحذير البالغ، وبه استدلَّ على أن مطلق النهي للتحريم،[٣٤٩٩] وردَّ بأنه مقيد بالمحرم وهو ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف ١٩/٧]،ودفع بأنَّ العِتاب على مجرَّد النَّهي مع قطع النَّظر عن تحققه في ضمن قولٍ مخصوصٍ.

وقال ابن الكمال: عتابٌ على النَّهي الإرشادي، فلا استدلال فيه على ما ذكر،[٣٥٠٠] ويؤيده أنَّ المستدلَّ ذكر في البقرة جوابًا عمَّا ورد على عصمة الأنبياء أنَّ النَّهيللتستر به فمع احتمال ذلك كيف يستدلّ به على التَّحريم لجواز ورود العتاب على مجرَّد مخالفة الخطاب.

﴿**قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ **(٢٣)**

قال ذلك ندمًا على ما فرط، واستدراكًا؛ لما فات والتجأ إلى حرم كرمه لما رَأَوا العتاب وسمعوا الخطاب. وحذف حرف النداء؛ تعظيمًا له، وتنزيهًا عمَّا لا يليق بكبريائه؛ فإنَّ صورة النِّداء فيها معنى الأمر فإنك إذا قلت: يا زيد، يكون معناه: تَعَال وأَقْبِل.

﴿**ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا**﴾ باقتراف المعصية، واكتساب الإساءة إن كان النهي تحريميًا، أو ينقص حظّها من المنحة، وتعريضها للمحنة إن كان تنزيهيًا؛ فإن من استعدّ للوزارة والملك يساعده عليها، ثمَّ إنَّه يتركها ويشتغل بالحياكة؛ فإنه يقال له: ظَلَم نفسه. وهذا هو اللائق بعصمة الأنبياء وعلى الأوَّل، وإن جوّزوا وقوع [**١٧٢**/و] الصغيرة، لكن ينبغي أن يحمل على ما قبل النبوَّة أو النِّسيان أو الخطأ في الاجتهاد.

﴿**وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا**﴾ وإن لم تستر علينا ما وقع منَّا ﴿**وَتَرْحَمْنَا**﴾ وتتفضَّل علينا برحمتك، ولم تجيء بالفاء؛ لأنَّ الحاجة إليهما والخسران بعدهما ليس لما تقدم من النَّقص والتَّعريض بل أمر وراء ذلك، وهذا يؤيِّد الثاني أيضًا، فإنَّ المناسب للأول ذكر الفاء ﴿**لَنَكُونَنَّ**﴾ جواب القسم المقدَّر قبل الشَّرط؛ فإنَّ لام التَّوطئة مقدَّرةٌ هنالك، ودالٌّ على جواب الشرط، ونظيره: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ﴾. [المائدة ٧٤/٥].

﴿**مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ من الهالكين الذين باعوا حظَّهم من الآخرة بقضاء شهوة ساعة، ثم إنّ استدعاءهما، والحكم بالخسران عند عدمهما ظاهر على الوجه الأوَّل، ودالٌّ على أنَّ الصَّغائر معاقب عليها إن لم تغفر، وعلى الثاني وارد على منوال ما قيل: مباحات العوام سيئات الأبرار، حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين، فحينئذ يضعف الدلالة.

وقيل: صرف الكلام عن ظاهره إلى أنَّه على عادة الصالحين في استعظام الذُّنوب كما قاله المعتزلة خلاف الظاهر لا يساعدون عليه.

[٣٤٩٩] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٢٨/٤.

[٣٥٠٠] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٢٨/٤.

ولقائلٍ أن يقول لهم: كيف يصحُّ أن يقال: إنها مغفورةٌ فقد جرى عليهما ما جرى من الخروج عن الجنّة، وظهور النُّبوَّة، وسقوط الثياب عنهما، والمبالغة الشَّديدة في لحوق الخسران على فرض عدم الغفران، سبحانك هذا من أعظم البهتان على خالق الديّان.

وقيل: لما رأيا أن النعمة صارت نقمةً تحسَّرا إذ ظلما، وكلّ خارجه منهما تنادى إلا هنا قد أسئنا، وما لنا إلا أنت، وإن لم تغفر لنا ما فرط منَّا، وترحمنا بقبول توبتنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لديننا وأنفسنا.

وفي الحديث: أن آدم مشى حتى قام على الصَّفا، وحواء جاءت من الجُدَّة وقامت على المروة، فدعيا وبكيا مائة سنة أو مائتي سنة، أو ثلاثمائة سنة، حتى قُبلت توبتُهما يوم الجمعة، فقال آدم: «مَن جاءك من ولدي يرجو رحمتك، ويخشى عذابك فأَجِره، قال :لك ذلك.[٣٥٠١]

وقيل: أضررنا أنفسنا،وتعاليت عن الضَّرر، وما خسرنا بعد إذ عفوك منتظر؛ فإنْ تحرمنا ولم ترحمنا خسرنا بالحرمان لا بالعصيان؛ لأنَ رأسَ مالِنا آمالُنا لا أعمالُنا. وقد ذكر من قبل أنَّ بني آدم منهم المفلحون، ومنهم الخاسرون، ثم قفَّى بذكر آدم وبيان كرامته، وأنه توعدّه بالظُّلم إن قرب الشجرةمخالف إلى ما نهى عنه وتوعَّد في ارتكابه مخالفة نفسه تنبيهًا على أن أساس أمرهم على ذلك بيان، وعرقهم راسخ فيه، ومن ثمَّة لم يخل أحد منهم عن ذلة.

وهي لا تُسقط العبدَ عن عين الله، وإنما تسقط بالإصرار وترك التوبة والإعراض عن الله، والإقبال على الشَّهوات وهي نكبة ينكب بها العبد، فينتعش من صرعته بالتَّوبة وهي سبب الوصلة للأنبياء والأولياء، ولذلك قيل:[٣٥٠٢] كانت الخطيئة مباركةً لداود ع م قال الله[٣٥٠٣]: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾. [ص ٢٤/٣٨-٢٥].

﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤)﴾ ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)﴾

خطابٌ لآدمَ وحوَّاءَ وذرِّيَّتهما؛ لأنَّهما منشأ البشر فكأنَّهما البشر فخوطبا مخاطبتهم، وهذا أولى ممَّا قيل: خاطبهم بشرط الوجود؛ لأنَّ الأمر بشرطه يصحُّ حيث يترتَّب على المأمور بعد وجوده، كالصلاة والصيام، ولا يتصوَّر الهبوط في الذرية بعد وجودهم، فلا يتعلَّق بهم من الأمر شيءٌ، أو لهما ولإبليسَ، كرَّر الأمرَ له تبعًا ليُعلم أنهم قرناءُ، أو أخبر عمَّا قال لهم مفرَّقًا»،[٣٥٠٤] أو أنَّه أُهبط أوَّلًا إلى السَّماء، ثم أُهبطوا جميعًا إلى الأرض، أو لهم وللحيَّة والطاووس على التَّغليب. ونعم ما قيل: آدم أُهبط من بُقعته فتداركتْه الرحمة، وإبليس من رتبة فوقعفي الفتنة.

وقيل: لم يخرج آدم من رتبة الفضيلة وإن أُخرج من دار الكرامة، ولذلك قال: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ [طه ١٢٢/٢٠]، وأمَّا إبليس فإنه[٣٥٠٥] أخرج من الحالة والرتبة، فلم ينتعِش قطّ من تلك السَّقطة.[٣٥٠٦]

[٣٥٠١] **التيسير في التفسير** للنسفي، ٣١١/٦.

[٣٥٠٢] ج – قيل.

[٣٥٠٣] ج + تعالى.

[٣٥٠٤] **أنوار التنزيل**، ٥٣٩/١؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٢٩/٤.

[٣٥٠٥] ج — فإنه.

[٣٥٠٦] **التيسير في التفسير** للنسفي، ٣١٢/٦.

﴿بَعْضُكُمْ﴾ مبتدأ ﴿لِبَعْضٍ﴾ صلة، وهو ﴿عَدُوٌّ﴾ أو حالٌ منه متقدمة، والاسمية وإن لم يكن فيها عاطفة صح أن يكون حالًا لإيقاعها موقع المفرد، أي: متعادين، ولا يرد فليقع في كلِّ موضع موقعه فلم يحتج إلى العاطف؛ لأنه ليس قولك: جاءني زيدٌ، وهو فارس في معنى: جاءني فارسًا، لما أشارَ إليه عبد القاهر من **الفرق** بين جاءني [**١٧٢**/ظ] زيدٌ كذلكوبين جاءني؛ فإنَّ لهذا نوع استئناف وابتداء.

ومَنْ فَرَّ عن هذا جعلها استئنافًا، كأنَّه لما أمروا بالهبوط سألوا كيف يكون حالُنا؟ فأجيبوا بها، والمعاداة بينها وبين إبليس، أو بين الذرّية، أو بين الإنس والجنّ، أو بينهما و بين الجنة، وبالجملة ليست بين آدم وحواء. وفيه تحذيرٌ لهما من كيد العدوّ، وفي الأرض كما كادهمافي الجنة.

﴿**وَلَكُمْ**﴾ خبر ﴿**فِي الْأَرْضِ**﴾ متعلِّق بالمتدأ وهو﴿**مُسْتَقَرٌّ**﴾ أي: ولكم فيها استقرار أو موضع استقرار على أنه مصدر أو اسم مكانٍ، وهو عام لزمن الحياة والإقامة والقبور: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات ٧٧/٢٥-٢٦].

﴿**وَمَتَاعٌ**﴾ وانتفاعٌ بعيشٍ ﴿**إِلَىٰ حِينٍ**﴾ إلى انقضاء الآجال، وانقطاع الآمال بالنَّظر، إلى كل أحدٍ، أو إلى قيام السَّاعة بالنَّظر إلى جنس بني آدم. والحين: الوقت طويلًا وقصيرًا وقرينة الحمل على مدة العمر، أو الدنيا التَّمتع؛ فإنه وقت الاستمتاع، والاستمتاع بعده إلا في الجنَّة.

قيل: هبط آدم بأرض الهِنْدِ على جبلٍ يقال له: واسم، بوادٍ يقال لها: نهيل، بين الدهنج والمندل، وهبطت حواءُ بجُدّة، وهبطت الحيَّة بأصبهان، وهبط إبليس بالأبلة.

﴿**قَالَ فِيهَا**﴾ أي: في الأرض، وتقديم الظَّرف على الأفعال للاهتمام أو للحصر ﴿**تَحْيَوْنَ**﴾ تعيشون وتقييد مدة الحياة المؤجَّلة بها يشعر بالتنقل إلى الجنَّة ﴿**وَفِيهَا تَمُوتُونَ**﴾ وتوارون عند انقضاء آجالكم ﴿**وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ**﴾ للجزاء والحساب والثَّواب والعقاب يُنْبِئ أنهم لا يعودون إلى الجنَّة[٣٥٠٧] أن يُحشروا، ثم يصير السعيد إلى الجنة، والشَّقي إلى النَّار.

وقيل: فهم آدم ممَّا سبق أنه يعود إلى الجنَّة، ففرِحَ بذلك. وقد ذكر المصنِّف كيفية وفاة آدم بحديث ثابتٍ البُنَانيّ بتقديم الباء على النون منسوبٌ إلى بنانةَ امرأة سَعْد بن لُؤَيّ بْنِ غَالِبِ.

وقوله: أصابني فيك، أي: بسببك، وهو أنَّ حوّاء سقَتْهُ خمرًا، فسَكِرَ، فتناول الشَّجرة، وردَّ بقوله:﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات ٣٧/ ٤٧].[٣٥٠٨] ودفع بأن سكر خمرها شدة الفرح، بحيث غفل عن النَّهي. وقيل: أكلتها حوّاءُ، ثم أكَلَها آدم.

قوله: وقالوا لبنيه هذه سنتكم فيه أنه لو كان معلومًا عند بنيه لم يتحير قابيل في مواراة سوءة أخيه، وأيضًا لم يشرع اللَّحد إلا لهذه الأمَّة.

قال ع م: «اللَّحدُ لَنا والشَّقُّ لغيرِنا».[٣٥٠٩]

[٣٥٠٧] ج –الجنَّة.

[٣٥٠٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٥٧/٦.

[٣٥٠٩] **مسند أحمد**، ٤٩٦/٣١ (١٩١٥٨)؛ **سنن ابن ماجه**، ٥٠١/٢ (١٥٥٥)؛ **سنن أبو داود**، ١١٧/٥ (٣٢٠٨)؛ **سنن الترمذي**، ٣٥٤/٣ (١٠٤٥)؛ **سنن النسائي**، ٨٠/٤ (٢٠٠٩).

﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦)﴾

يريد نوعَ الإنسان، والتعبير بما يشير إلى بدءِ خلقته وابتداء ولادته للرمز إلى خلقه عريانًا ليكمل الامتنان بقوله: ﴿**قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا**﴾ جَعل ما في الأرض مُنزلًا من السماء؛ لأنه قُضي به فيها وقدّر ثمة، فهو مطابقٌ للقضاء الأزلي والتدبير الإلٰهي، فكأنَّه نازلٌ أو لأنه خُلق بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة.[٣٥١٠]

فالأول: باعتبار العلم، والثاني: باعتبار الوجود، أو لأنه على حذف المضاف، أو على إطلاق المسبّب وإرادة السبب، ونحوه قوله تع: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر ٣٩/ ٦] ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد ٢٥/٥٧]، أو لأنه أنزل مع آدم وحوّاء ما به اللباس؛ إذ رُوي أنه أُهبط معه ثمانية أزواج من الجنة، وأتاه جبريل[٣٥١١] بالجلمين، وأمره أن يجزَّ الشاة ففعل، فغزَلته حواءُ، وحاكه آدمُ، فاتَّخذ عبائتين إحداهما لآدم والآخر لحوَّاء،[٣٥١٢] أو لأن «أنزل» بمعنى: «خلق»، أو لأن أفعال الله من علو في القدر والمنزلة.

﴿**يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ**﴾ في محلّ النَّصب صفة لـ﴿لِبَاسًا﴾ أو حالًا على طريقة ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ [النمل ١٩/٢٧]؛ أي: يستر ما يسوؤكم إنكشافه من الجسد، ويغنيكم من خَصْف الورق حين قصد الشيطان إبدائها.

لَمَّا ذكر واقعة آدم في إنكشاف السوءة، وقبحه استطرد حديث الستر وحسنه ونبَّه بخلق اللباس والأقدار على الستر، ودفع الضرورة على المنة العظيمة، والنعمة العميمة.

فقوله: ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً**﴾[الأعراف٢٨/٧] استطراد فيه؛ لأنه حكاية طوافهم بالبيت عراةً يرشدك إليه العود إلى الاستطراد الأول بقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف٣١/٧]، أو لَمَّا نزلت الآية في تقبيح العرب حيث كانوا يطوفون عريانًا، ويقولون لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها ذكر قصة[٣٥١٣] آدم بعدمه لذلك حتَّى يعلم أن انكشاف العورة أول سوءٍ أصاب الإنسان من الشيطان، وأنه أغواهم في ذلك كما أغوى أبوَيْهم، وأن الطبع السليم اقتضى الستر بالورق، أو لَمَّا ذكر تمتُّع بني آدم في الأرض ذكر معظم ما يتمتع به وهو الثياب والأثاث.

﴿**وَرِيشًا**﴾ عطفٌ على ﴿لِبَاسًا﴾ عطف صفةٍعلى صفةٍ، أي: لباسًا موصوفًا بالموارة والزينة يرشدك [**١٧٣**/و] إليه قوله ع م: «مَنْ اسْتَجَدَّ ثَوْبًا فَلَبِسَهُ، فَقَالَ حِينَ يَبْلُغُ تَرْقُوَتَهُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ سوءتِي، وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي اللباس، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى الثَّوْبِ الَّذِي خلَقَ وَتَصَدَّقَ بِهِ، كَانَ فِي ذمةِ اللَّهِ، وَفِي جواره وَكَنَفِه، حَيًّا وَمَيِّتًا.[٣٥١٤]

أو عطف ذات على ذاتٍ، أي: أنزلنا عليكم لباسين؛ لباسًا يواري سوآتكم ولباسًا ريشًا،ا أي: ذا رشٍ، أي: جمالٍ، فدلَّ على: أن الزينة غرض صحيح في الشَّرع كما قال: ﴿لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً﴾ [النحل١٦/٦]، فحذف الموصوف، وأقيم الصفة مُقامه.

[٣٥١٠] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٣٠/٤.

[٣٥١١] ج– جبريل.

[٣٥١٢] **التيسير في التفسير** للنسفي، ٣١٣/٦-٣١٤.

[٣٥١٣] ج — القصة.

[٣٥١٤] **مسند أحمد**، ١/ (٣٠٥)٣٩٦.

والريش: اسم للجناح، أو مصدر: رَاشَه يَرِيشُه رِيشًا؛ إذا جعل فيه الرِّيش، أو مشترك بينهما استُعير منه؛ للزينة والجمال؛ لأنه زينة للطائر أو للمال؛ لأنه للمرء كالرِّيش للطير، ولهذا فسّر به، ومنه: «تَرَيَّشَ الرَّجلُ إذا تموَّلَ».[٣٥١٥]

عن أبن الأعرابي: كل شيء يعيش الإنسان به من متاعٍ أو مالٍ أو مأكولٍ فهو ريشٌ.[٣٥١٦]

وقرئ: «ورِيَاشًا»[٣٥١٧] على أنه جمع «ريشٍ»، كـ«شِعْبٍ» و«شِعابٍ»، أو مصدر، كـ«ريشٍ» يقال: «راشه الله ريشًا ورياشًا» أي: أنعم عليه، أو لغةٌ فيه، كـ«فِعْلٍ» و«فِعَالٍ» فيكونان بمعنًى، وهو اللباس الفاخر.

وقيل: الرِّيش: المتاع والأموال، والرِّياش ما كان من لباسٍ أو حشوٍ من فراشٍ أو دثارٍ.

وعن رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ لَبِسَ ثَوْبًا فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ، غَفَرَ[٣٥١٨] مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ».

وعنه ع م: «مَا اشْتَرَى عبدٌ ثَوْبًا بِدِينَارٍ أو نصفِ دينارٍ فَلَبِسَهُ فَحَمِدَ الله عَلَيْهِ إِلَّا لَمْ يَبْلُغْ رُكْبَتَيْهِ إِلَّا غَفَرَ اللهُ لَهُ».

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

﴿وَلِبَاسُ﴾ مبتدأ **﴿ذَٰلِكَ﴾** مبتدأ ثانٍ **﴿خَيْرٌ﴾** خبره، والجملة خبرُ الأوَّل، والرابط الإشارة؛ لأنَّ أسمائها تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر؛ فإنك إذا أضمرت أعدت ما ذكرته أولًا فكذا في الإشارة، كأنك تشير إلى ما ذكرت أوَّلا، أو ﴿ذَٰلِكَ﴾ بدلٌ أو عطفُ بيان أو نعتٌ، والخبر ﴿خَيْرٌ﴾، ولا يرد أن شأن الموصوف أن يكون أخصَّ من الصِّفة أو مساويًا لها، ومن ثمةَ لم يوصف ذو اللام إلا بمثله، أو المضاف إلى مثله، والحال أن الإشارة أعرفُ منهما، فيلزم كون المقصود أقلَّ تعريفًا بالنسبة إلى غير المقصود؛ لأن من يجعله نعتًا يأوِّله بالمعرّف باللَّام؛ ولذلك قيل: أي: المشار إليه، أو لا يسلّم كونها أعرف من ذي اللَّام، أو ﴿لِبَاسُ﴾ خبر محذوف وما بعده جملة أخرى فيتعين أن يراد منه ما يواري العورة، ففسّر بأنه لباس التقوى بالإضافة؛ لأن الستر باب في التَّقوى، والإشارة بما أشار به إلى البعيد؛ لانقضاء المشار إليه في كلام آخر.

وخيريته أما بالنسبة إلى لباس الجمال؛ لأنَّ الستر فرضٌ، والتزيّن مندوب، أو إلى العرى ردًّا لمن يدعي أنَّه في الطواف خير من الاكتساء، وعلى الأولين يراد ما يواري فوجه الإشارة أن المنقضي كالمتباعد، ووجه الإضافة والخيرية كما مرَّ، أو ما يبقى به في الحروب فيكون ذكر أنواع اللِّباس على التَّرقي ذكرا ما يستر، ثم ما يزيِّن، ثم ما يتقى به، كقوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾[النحل ٨١/١٦].

فترجيح الثالث بالعدول إلى الرَّفع والتفخيم بالإشارة؛ لأنه دفع الهلاك، وبأس العدوِّ، أو ما يكتفى به من الصوف، والثوب الخشن غاية وسط بينهما وخير الأمور أوساطها.

فروي أن أبا ذر قال: كنتُ مع النبي فدخل المسجد فقال: « ارفع رأسك» فرفعت رأسي فإذا رجلٌ عليه ثيابٌ جياد، ثم قال: «ارفع» فرفعت فإذا رجل عليه خلقان فقال ع م: «هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا».[٣٥١٩]

[٣٥١٥] **اللباب** لابن عادل، ٦٨/٩.

[٣٥١٦] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٥٥/١٤.

[٣٥١٧] قراءة شاذّة. **المحتسب** لابن جنّي، ٢٤٦/١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٤.

[٣٥١٨] ج + الله.

[٣٥١٩] **مسند أحمد**، ٣١٦/٣؛ **المعجم الأوسط** للطبراني، ٨٢/٦ (٥٨٦٢).

فالترجيح والتفخيم ظاهر والإضافة؛ لأن الاكتفاء من التقوى أو العكس، أو يقدر المضاف، أي: ولباس أهل التقوى، أو خشية الله، أو الإيمان، أو السَّمت الحسن، أو الحياء، أو العفاف، فاللباس مجاز شبهت هذه الخصال به من حيث إنها يستر صاحبها، ويحفظه عما يضرّه، فالإضافة للملابسة من حيث إنه يؤدي إلى التقوى أو يحصل منها، والترجيح والتفخيم ظاهر.

فروي عن عثمان: اتقوا الله في هذه السرائر، فإني سمعته ع م: «ما عمل أحدٌ قطّ سرًّا إلا ألبسه الله علانيته، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، ثم تلا: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.[٣٥٢٠]

وقرأ نافعٌ وابنُ عامر والكسائيُّ بالنصب[٣٥٢١] عطفًا على ﴿لِبَاسًا﴾، أي: أنزلنا لباسًا مواريًا وزينة ولباسَ التقوى، فيؤيد كون ﴿رِيشًا﴾ صفة ثانية لا صفة ثان؛ لأنه لو كان كذلك لأبرز الموصوف كما أبرز المضاف.

﴿**ذٰلِكَ**﴾ أي: خلق أنواع اللباس من مواد أرضية بأسباب سماويّة، وإيصال منافع أحداهما بالأخرى مع[٣٥٢٢] بعد ما بينهما لمصالح بني آدم.

﴿**مِنْ آيَاتِ اللهِ**﴾ تدل على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، ودقة حكمته وعموم رحمته ﴿**لَعَلَهُمْ يَذَكَّرُونَ**﴾ فيعرفون بقدرته، ويحترزون من نقمته، أو فيعرفون نعمتَه ويشكرون، أو يتَّعظون ويتورّعون عن القبائح. والالتفات لانتقال الكلام من فعله [**١٧٣**/ظ] المشتمل على التفضيل إلى فعلهم المشعر بغفلتهم عن تصوره فضلًا عن العمل به فهم بمعزل عن حرم الحضور.

لا يقال: حمل ﴿لِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ على المجاز لا يناسب التتميم؛ لأنه حينئذ يشار إلى إنزال اللباس، ويذكر في اثباته لباس التقوى؛ إشعارًا بأن اللائق أن يتعروا عنه.

ونعم، ما قيل: لباسُ التَّقوى للنفس: الزهد، وللقلب: صدق القصد، وللروح: ترك العلائق،وللسرِّ: الإنقاء المساكَنات.[٣٥٢٣]

﴿**يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧)**﴾

لَمَّا ذكر قصَّة آدم وغرور الشيطان له ع م حذر بَنِيه منه؛ فإنَّ من قدر على إخراجه ع م من قدس المكان مع علوِّ السكّان، وفيضان القرب، وقوّة الأنس كان على منع بنيه منها في هذه الدنيا: الدنية مع استيلاء الشهوات الطبيعية أقدر، وتكرير النِّداء زيادة تنبيه، وإيقاظ عن الغفلة مع إطلاعهم بالأوَّل عن سماجة صورة أمرهم، وضربة المهانة إن تركوا ما أمروا، وبالثاني: سوء العاقبة في متابعة العدوِّ، وفي التَّعبير بالنبوّة له ع م رمزٌ إلى أنَّهم مظنة فتنة؛ لأنهم ذريَّة من فتنة.

[٣٥٢٠] **جامع البيان** للطبري، ١٤٩/٨؛ **جامع الأحاديث**، ٣٨٤/٢٢ (٢٥١٢٨).

[٣٥٢١] هو: ﴿وَلِبَاسَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾. **النشر** لابن الجزري، ٢٠٢/٢.

[٣٥٢٢] ج – مع.

[٣٥٢٣] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٣٢٩/١-٣٣٠؛ **عرائس البيان** للبقلي، ٣٢٨/١؛ **التيسير في التفسير** للنسفي، ٣١٧/٦.

إِذَا المــرءُ لمْ يلــبَسْ ثِيــابًا مــنَ التُّقــى ... تَقَلَّــبَ عُــريَانًا وإنْ كَــانَ كاسِــيًا

وخَــيرُ لِبَــاسِ المــرْءِ طَاعَــةُ ربِّــهِ ... ولا خَــيْرَ فِــيمَنْ كَــانَ لله عَاصِــيًا

منه. **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ١٨٥/٩,

﴿لاَيَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَانُ﴾ أي: لا يمتحننَّكم ولا يُوقعنَّكم في المحنة. يقال: فتنة محنة، والفتون محن الذَّهب بالنار للتخليص بأنْ يمنعَكم دخول الجنة بإغوائكم على ما تمنعون به منها.

﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ كما محنهما بأن أخرجهما منها بإغوائهما إلى ما أخرجا به منها. فـ«الكاف» في محلِّ النَّصب، صفة مصدرٍ محذوفٍ، و«ما» مصدريّة أي: فتنة مثل إخراجه؛ فإنه نوعٌ منها، أو موضوع موضع مصدر ﴿لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ﴾، وضعًا للسَّبب موضع المسبَّب، أي: أوقعه في البلاء والمحَنِ بسبب الإخراج.[٣٥٢٤]

أو لا يمنعكم دخول الجنة بالافتتنان كما افتتن أبويكم بما أدّى إلى إخراجهما منها، أو لا يضلَّنَّكم عن طريق الحقّ من فتنة إذا أضلَّه كما أخرج أبويكم منها بإيقاعهما في الذِّلة الموجبة للخروج، وبالجملة إسناد الإخراج إليه مجاز بعلاقة السببية، وتوجيه النَّهي إليه، والمقصود نهي المخاطبين عن امتناعه والافتنان به مبالغة في التَّحذير؛ لأن فتنته لازم لافتنانهم، فعبر عن النَّهي بالملزوم بالنَّهي عن اللازم لإثبات النهي بالبينة، ونسبة وقوع المعاصي إليه لتزيينهِ وتحسينه لتلك الأعمال فعند ذلك يخلق الله الدَّاعية والقدرة الموجبتين لذلك العمل ولا يستدلُّ بهأهل الاعتزال في خلق الأعمال.

وظاهر الآية يدلُّ على أنَّهما أخرجا عقوبة على الذِّلة وقوله تع: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة٢/٣٠] يقتضي خروجهما للخلافة، فالتَّوفيق أنه تعالى خلقهما لتلك الحكمة، وجعل سبب نزول تلك الذلَّة.

﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ حالٌ من فاعل ﴿أَخْرَجَ﴾ أو من ﴿أَبَوَيْكُمْ﴾؛ لأنَّ في الجملة عائدًا لكلٍّ منهما، ولذلك جوّز الحالية من الجميع أيضًا، وفيه حكاية الحال الماضية لاستحضار تلك الصورة الفظيعة، فيكون تقوية لفظاعة جانب المشبّه به، كما أن ذكره لذلك.

والنزع: قلعُ الشيء عن موضعه الذي هو ملابس له بقوة[٣٥٢٥] ومنه: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ [القمر٥٤/٢٠] ويستعمل في الإعراض، ومنه: نزع العداوة والمحبَّة من القلب.

والنَّازع حقيقة هو الله تع وإسناده إليه؛ لأنَّ سببَه الأكل من الشجرة المسبب عن تسويله ومقاسمته ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾ فالغاية أو الغرض من نزعه تلك الفضيحة، والمهانة لهما.

وقد يناقش ههنا بأن خصف ورق الجنَّة كان بعد النزع والخروج بعد ذلك، فكيف يكون حالًا؟ ويدفع بأن المراد بالإخراج ما يشارفه فتأمّل.

وقال ابن عباس: صدر الإنسان له مسكن، ويجري منه مجرى الدم.[٣٥٢٦]

وقال يحيى ابن معاذ: الشيطان قديم وأنت حديث، وهو كيّس وأنت سليم، وهو يراك وأنت لا تراه، وهو لا ينساك، وأنت تنساه، ومن نفسك له عون وليس لك منه عونوأنت لا تقاومه إلّا بعون الله تعالى.[٣٥٢٧]

﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾

الضمير للشأن أو الشيطان، و﴿هُوَ﴾ هو تأكيد للضَّمير المتَّصل؛ ليسوغ العطف عليه.

[٣٥٢٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٦٠/٦.

[٣٥٢٥] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٣٢/٤.

[٣٥٢٦] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٣٣/٤.

[٣٥٢٧] **الكشف والبيان عن تفسير القرآن** للثعلبي، ٣٣١/١٢؛ **التيسير في التفسير** للنسفي، ٣٢١/٦.

وقيل: لا حاجةَ إليه في صحة العطف؛ إذا الفاصل كاف فيها[٣٥٢٨] ﴿**وَقَبِيلُهُ**﴾ عطف على الضمير المؤكد بهؤلاء على المؤكد؛ لأن المعطوف لا يشارك فيه في الفعل، وعليه ينبغي أن يحمل ما نُقل عن المصنف أن العطف للتشريك في معمول الفعل في ﴿هُوَ﴾ المستكن دون البارز وإلا فالتوابع أيضًا معمولات لعوامل المتبوعات.

وقرئ: «وَقَبِيلَهُ»[٣٥٢٩] بالنصب نسقًا على اسم «إنَّ»، فيتعيّن حينئذ كون الضمير للشيطان؛ لأن كونَه للشأن لقصد التفخيم المناسب للمقام، وذلك العطف باب منه فلا يعتب [**١٧٤**/و] المقتضى مع وجود المانع، بخلاف الرَّفع والعطف على الضمير؛ فإنه غير مانعٍ، أو مفعولًا معه، أي: يراكم مصاحبًا لقبيله.

والقبيل: الجماعة من ثلاثةٍ فصاعدًا من طوائفَ مختلفةٍ مثل الرُّوم، والزنج، والعرب، وجمعه: قبل. والقبيلة: الجماعة من أبٍ واحدٍ ولهذا الاختلاف ليست هي تأنيث القبيل، والمراد: أصحابه وجنده.[٣٥٣٠]

وقيل: نسله كقوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ﴾[الكهف ١٨/ ٥٠] و﴿مِنْ﴾ لابتداء غاية الرؤية، و﴿حَيْثُ﴾ ظرف لمكان انتفاء الرؤية، و﴿**لاَ تَرَوْنَهُمْ**﴾ في محلِّ خفض بإضافة الظَّرف إليه، والجملة تعليلٌ للنَّهي، وتأكيدٌ للتَّحذير على سبيل الاستئناف، فلذلك رجح كون الضمير للشأن؛ لأنه أدخل في التفخيم؛ فإنه لما حذَّرهم ونهاهم مبالغًا اتجه لهم أن يسألوا لم هذا؟ فقيل: لأنه بمنزلة العدو المداجي بربّكم ولا ترونه.

قال مجاهد: قال الشيطان أعطينا أربع خصالٍ: نرى ولا نرى، ونخرج من تحت الثَّرى، ويعود شيخنا فتى.[٣٥٣١]

وقال ذو النون: إن كان هو يراك من حيث لا تراه فاستعن بالله عليه، فإن كيده كان ضعيفًا.[٣٥٣٢] فإن الله يراه من حيث لا يرى، ولا يمنع عدم رؤيته المحاربة معه فإنها ليست جسمانية، بل التجاء إليه تع ؛ كي يصونك منه قال الله تع: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ﴾. [الأعراف ٧/ ٢٠٠].[٣٥٣٣]

ولا دلالة فيه على أنهم لا يرون الإنس، بل فيه دلالةٌ على صحَّة رؤيتهم حيث لم يقل: ولا يرونهم؛ كيلا يذهب الوهم إلى عدم رؤيتهم مطلقًا، بل قال: ﴿مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾.

وليس فيه إلا تبيين أنهم بمنزلة العدوِّ المداجي، وربما يرى العدوَّ المداجي المكمن خصمَه، والخصمُ لا يراه، مع جوار رؤيته، بل وقوعها في وقت آخر، وربما كان أشَدَّ قوةً على الإبصار فيراه من مكان بعيد، والخصم لا يراه منه، بل من أقرب منه، وحديث رؤية الجنَّ مما يكاد يكون مواترًا، وسيجيءُ دلالةٌ على ذلك في قصة سليمان، وفي سورة الجنَّ، وفي سورة الأحقاف، من إخبار ابن مسعود برؤية جنٍّ نصّيبين، لا يقال: إنه خبر الواحد لا يعارض القرآن؛ لأنه لا يسلّم دلالة للنَّص على عدمها حتى يعارض، ثم إن علماء السُنة على أن عدم رؤيتهم؛ لأنه تع لم يخلُق هذا الإدراك في أعين الإنس، وهم يرون الإنس؛ لأنه خَلَق فيهم ذلك.[٣٥٣٤]

[٣٥٢٨] **اللباب** لابن عادل ٩/ ٧٤.

[٣٥٢٩] قراءة شاذّة، مروية عن اليزيدي. **اللباب** لابن عادل ٩/ ٧٥؛**شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٨٥.

[٣٥٣٠] **اللباب** لابن عادل ٩/ ٧٥.

[٣٥٣١] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٤/ ٥٨.

[٣٥٣٢] **تفسير الثعلبي** للثعلبي ٤/ ٢؛ **عرائس** للبقلي، ١/ ٤٣٠.

[٣٥٣٣] ج + من الشيطان الرجيم.

[٣٥٣٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٢ظ.

والمعتزلة: على أن عدمها لرقَّة أجساهم، بخلاف العكس لكثافة أجسام الإنس، ورؤية بعض الجنّ البعض بقوة شُعاع أبصارهم، ونحن نقول: هذا غير مستبعد على أصلنا وعلى أصلهم، أمَّا على أصلنا فلان ذلك يخلق الله تع وهو على كل شيء قدير.

وأمَّا على أصلهمفلان رؤية الإنس الجنّ إما بكثافة فيهم، أو قوَّةفي أبصارنا فكلاهما لا يبعد من قدرة الله بالتمثيل أو بخلق الإدراك، فإذا جاز أن يخلق الله قوَّة رؤية الله فرؤيةُ الجنّ أولى.[٣٥٣٥]

وقرئ: «مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُ»[٣٥٣٦] بالإفراد، على أن الضمير له دون قبيله لأنه رأسهم، وهم تَبَع، أو له ولهم إجراء له مجرى اسم الإشارة كقوله تع: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة ٢/٦٨].[٣٥٣٧]

﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧)﴾﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨)﴾

أوجدنا بينهم من التناسب في الخذلان والغواية، فصار بعضهم قرناءَ بعض وأعوانه، فالوليُّ: بمعنى الصديق ضدُّ العدوّ، يقال: تولَّاه واتخذه وليًّا صديقًا، أو أرسلنا عليهم، ومكنَّاهم من خذلانهم، وحملهم على ما سوَّلوا لهم، فالولي: من ولي الرجل الأمر ولاية؛ فإنَّ الشياطين لَمَّا حملوهم على ما سوَّلوا لهم صاروا بمنزلة من يتولى أمورهم، فيدلُّ على أنه تع هو الذي سلَّطهم عليهم فأضلَّهم وأغواهم.[٣٥٣٨]

ولَمَّا اضطرب المصنِّف مما يدلُّ عليه الظاهر قال: أي: «خلَّينا بينهم و بينهم، لم نكُفَّهم عنهم حتى تولَّوهم وأطاعوهم فيما سوَّلوا لهم».[٣٥٣٩]

وأنت خبير بأن تلك التّخلية إن لم تؤثر في ضلالهم فما فائدته، وإن أثرت فيعود المحذور على أنها ترك ما هو الأصلح لهم، وهو خلاف مذهبهم

وأمَّا ما قيل: حكمنا بأن الشيطان وليٌّ من لا يؤمن فضعيف أيضًا؛ لأنه إذا قيل: جعل هذا الثَّوبَ أبيض أو أسود لا يفهم منه الحكم بأحدهما بل التأثير في حصولهما.

والجملة تعليل للتعليل ولذلك فصل فكأنَّه قيل: كيف يمكن التَّمكين المذكور، ومِن أين يتأتّى له ذلك؟ فقيل: لأنا جعلناه موليًا مسلّطًا على أوليائه، كما قال: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [**١٧٤**/ظ][الإسراء١٧/٦٤].[٣٥٤٠]

ففيه تحذيرٌ آخر أشدُّ وأبلغُ من الأول لما يؤذن من كونهم أولياء مسلّطين، فإذًا لا منافاة بين كونه تعليلًا وتحذيرًا كما توهم.

[٣٥٣٥] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٥٨/١٤؛ **اللباب** لابن عادل ٧٧/٩.

[٣٥٣٦] قراءة شاذّة،. **اللباب** لابن عادل ٦٧/٩.

[٣٥٣٧]**اللباب** لابن عادل ٧٦/٩.

[٣٥٣٨] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٢٠٨/٤.

[٣٥٣٩]**الكشاف** للزمخشري، ٩٤/٢-٩٥.

[٣٥٤٠]**فتوح الغيب** للطيبي، ٣٦٣/٦.

وقال قدّس سرّه: «والآية مقصود القصة وفذلكة الحكاية».[3541]

﴿**وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً**﴾ أي: فعلة متناهية في نفس الأمر، وحقيقة الحال لا عندهم كيف وهم يعتقدون حسنها ويتقربون بها؟ والظاهر التعميم لكلّ قبيحٍ.

وقيل: أو الشرك أو ما يحرمونه من البحيرة والطواف عرياناً، وإذا حمل عليه يكون استطرادًا فيه على ما سبق، ويساعده السباق؛ فإنه: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾، وجه التشبيه في: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ﴾[الأعراف ٢٧/٧]، أي: لا تتَّصفوا بصفة يوقعكم الشيطان في الفتنة، وهي: العُرى في الطواف، فتُحرَموا دخول الجنة، كما حرَّمها على أبويكم، حين أخرجهما من الجنة، ونزعَ عنهما لباسهما، بسببِ وسوسته. والسباق: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف ٣١/٧].[3542]

وإذا حمل على غيره يكون من مستتبعات قوله: ﴿أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ بيانًا لتعوذ كيد الشياطين فيهم، والتقدير: وإذا فعلوا فاحشة فنهوا عنها وذكر لهم قبحها ﴿**قَالُوا**﴾ دفعًا للنهي، ورفعًا للاستقباح، وجوابًا للسائل ﴿**وَجَدْنَا عَلَيْهَا**﴾ أي: على تلك الفاحشة، وفعلها واستحسانها ﴿**آبَائَنَا**﴾ إن كان وجد علمية، فالظرف ثانٍ، أي: علمنا طريقهم أنها هذه وإن كان بمعنى: لَقِينَا، فحال، فلمَّا لاح لهم ضعف ما قالوا أيدوه بقولهم: ﴿**وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا**﴾ أو كان ذلك جوابًا ثانيًا أو هما جوابا سؤالين مترتّبين، كأنه قيل لهم لَمَّا فعلوها: لِمَ فعلتم؟ فقالوا: وجدنا عليه أبائنا. فقيل: ومن أين أخذ أباؤكم؟ فقالوا: الله أمرنا بها. وفيه: أنَّ حقّ النظم حينئذ: والله أمرهم بها،[3543] إلا أن يشيروا به إلى شدَّة اتِّصالهم بأبائهم، فكان الأمر كان لهم. وعلى الوجهين يمتنع القليد إذا قام الدليلُ على خلافه لا مطلقًا. كيف وأكثر حال السعداء التقليد، للفضلاء، ويقبل إيمان المقلّد فبي الصحيح، ولايضيع أعمال المقلدين الأئمة المهديّين.

ثم إنه تع أَعْرَض عن الجواب الأوَّل لظهور فساده؛ لأنه تقليد دلّ الدليل على خلافه، ولو كان مثلُ هذا التَّقليد دليلًا و طريقًا للعلم لزم حقيقة الأديان والمذاهب المتناقضة المبنيةِ على تقليد الأسلاف. وردَّ الثاني بقوله:

﴿**قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾

لايأمر بها بل ينهى عنها، ويأمر بخلافها كما قال: ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ...وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ﴾ [النحل ٩٠/١٦]. لكن لا؛ لأنه يقبح منه؛ إذ لا يتصوَّر ذلك في أفعاله؛ لأنه المالك على الإطلاق لا يُسئل عمَّا يفعل، بل لأنَّ وفُورَ رحمته، وشمول حكمته اقتضى جريان عادته على الأمر بما فيه الحسن والكمال من الفعال والخصال، وإنما قال هكذا ولم يقل: لم يأمر مع أنه الملائم لقوله: ﴿أَمَرَنَا بِهَا﴾ قصدًا إلى المبالغة بالدَّلالة على استمرار نفي الأمر بها عنه مطلقًا، ونظيره في الإثبات:﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأعراف ٤٥/٧] أي: الصدود مستمرٌّ دائمٌ منهم، والمعنى: لا يأمر ما ينفرُ عنه الطَّبع السليم، والعقلُ المستقيم، وثبوت القبح العقلي بهذا المعنى لا يكون حجةً للمعتزلة؛ لأن النزاع في ترتُّب الذَّمّ عليه آجلًا قبل ورود النَّهي عنه، ولم يثبت ذلك، وليس المعنى: لا يأمر بما ثبت قبحه شرعًا؛ لأنه يرجع إلى معنى: لا يحسن ما قبّحه، وفيه ما لا يخفى، وعدم الأمر بها لا ينافي إرادتها، ومشيئتها، وقضائها، وتقديرها؛ لأنه تع مريد لجميع الكائنات، وإنَّ شيئًا منها لا يخرج عن الحكم والإرادة، وما

[3541]**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٣٠/١.

[3542]**فتوح الغيب** للطيبي، ٣٦٥/٦-٣٦٦.

[3543]**تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٣٢/٤.

ذكره المصنف من أنهم: «كانوا يقولون: لو كره الله منَّا ما نقول لَنَقَلَنَا عنه»[٣٥٤٤]مبني على مذهبه من عدم التَّفرقة بين الأمر، والإرادة والنهي الكراهة، وهو ممنوع.

وما نقل عن الحسن: إن الله بعث محمدًا إلى العرب، وهم قدريُّة مجبرة يحمِلون ذنوبهم على الله. وتصديقه قول الله: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً﴾فرية عليه كيف.[٣٥٤٥]

وإنما يصح ذلك لو كانت الإرادةُ بالشيء أمرًا به، وكانت إضافةُ القبيح إليه بطريق المشبه، والخلقُ إضافة إليه بطريق الأمر وليس كذلك.[٣٥٤٦]

وإنَّ القدرية إنما ينبد به المعتزلة يرشدك إليه أنهم يلابسونه ويدافعونه، وينفونه، ولا يؤمنون به خيره وشرّه، ويثبتونه للعبد مع اختصاصه بالله، وأن المجوسية التي ذكرت في الحديث «أن الْقَدَرِيَّةَ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ»[٣٥٤٧] غلَّ في عنقهم؛ لأنهم ينسِبُون الشرورَ والقبائحَ إلى أَهْرِمَنْ والخيرات إلى يَزْدَانَ، وهو مذهبهم، وأنهم يثبتون مبدئين مستقلين، هما الظلمة والنور، أو يزدان وأهرمن وهم كذلك بجعل الله والعبد سواسية بنفي قدرته جل عما يقدر عليه عبده وبالعكس، لا يقال: الجماعة أثبتوا القدماء؛ لأنهم كثرهم الله لم يجعلوها واجبة لذاتها[٣٥٤٨] بل بوجوب الذات فلا يرد على أن المجوس أشركوا في الأفعال كالمعتزلة، [**١٧٥**/و] فيظهر التخصيص بهؤلاء من بين المشركين.

وأن الرواية على أنه ع م قال: «لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ وَمَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ قَدَرَ»،[٣٥٤٩] صريح في أنهم المرادون.

وأمَّا قولهم: القدر اسمٌ لأفعال الله، فمن أَدْخل فيه ما ليس منه وهو فعلُ العبد فقد أغرب، فوجب أن يلقبَّ به فحجَّة عليهم؛ لأنه إذا كان كلّ شيء بقدر وهو فعله تع، وهم يقولون: بعض القدر فعل العبد،[٣٥٥٠] فهم أدخلوا فيه ما ليس منه فأغربوا فيه فلقَّبوا به.

﴿**أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ**﴾ أَتفترون عليه، وإنما قال: ﴿**مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ إظهارًا لما في إفترائهم من زيادة القبح؛ لما فيه إخبار بما لا علم لهم به؛[٣٥٥١] لأن طريقة المكالمة معه تع وهو ظاهر الانتفاء عنهم، أو التَّلقّي من الأنبياء وهم ينكرونهم رأسًا؛ لأن هذه المناظرة مع كفَّار قريش المنكرين لأصل النبوَّة وشهادة على أن مبنى أمرهم الجهل المفرط، وإيماء إلى أن القول بلا علم مذموم.

وليس في الآية دليل على أن صدور ما صدر عنهم ليس بإرادة الله؛ لما بيَّنا أن الأمر قد ينفكّ عن الإرادة؛ فإنه سبحانه أمر الكافر بالإيمان، ولم يرد منه وإلا لاستحال عدم حصوله، ولا يلزم من عدم الأمر عدم الإرادة.

﴿**قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ(٢٩)**﴾

[٣٥٤٤] **الكشاف** للزمخشري، ٢/٩٤-٩٥.

[٣٥٤٥] **الكشاف** للزمخشري، ٢/٩٤-٩٥.

[٣٥٤٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٣و.

[٣٥٤٧] **سنن أبي داود، ٧/٧٧ (٤٦٩١)؛ المعجم الأوسط** للطبراني، ٣/٦٥ (٢٤٩٤).

[٣٥٤٨] ج- لذاتها.

[٣٥٤٩] **سنن أبي داود، ٧/٧٧ (٤٦٩٢)**

[٣٥٥٠] ج – فعل العبد.

[٣٥٥١] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٣٤.

بالعدل، وهو الوسطُ من كلِّ أمر، المتجافي عن طرفي الإفراط، والتَّفريط.

وقيل: بلا إله إلا الله لقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾ إلى قوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾. [آل عمران ٣/١٨].

وقيل: بالتوحيد بما نفى سبحانه أن يأمر بالفحشاء ذكر عقيبه ما يتعلَّق به أمره.

«وَقُلْ أَقِيمُوا» إنما قدّر «قل»؛إذ لو عطف ﴿أَقِيمُوا﴾على ﴿أَمَرَ رَبِّي﴾ لكان ظاهره عطف الإنشاء على الإخبار، وإن كان على سبيل الحكاية، وبتأويل هذا الكلام، ومثله شائع، وأيضًا لو لم يقدر لا وهم أن مقول «قل» هو مجموع قولك: أمر ربي وأقيموا بالعطف.

وقيل: عطف على الذي ينحلُّ إليه المصدر؛ أي: قل أمر ربي بأن أقسطوا؛ لأنها تنحل لأن وفعل أمر كما أنه ينحلُّ؛ لأن والماضي نحو: عجبتُ من قيام زيدٍ وخَرج؛ أي: مِن أَنْ[٣٥٥٢] قام، ولأن والمضارع نحو:

لَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وتَقَرَّ عَيْنِي[٣٥٥٣]

أي:لأن ألبس أو على معناه: أي: أمر ربي، فقال: أقسطوا أو على محذوف؛ أي: أمر بالقسط، فأقبلوا، أو المعنى: توجَّهوا إلى عبادته مستقيمين غير عادلين إلى غيرها.

﴿**عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾ في وقت كلِّ سجود، أو مكانه على أن يكون اسم زمان سجود أو مكانه، ويكون مجازًا عن الصلاة تسمية للكل بالجزاء، وإقامة الوجه، عبارة عن التوجّه بالاستقامة، وكون المتوجّه إليه العبادة مستعاد من عند كل مسجد، وعدم الأصول عنها مستعاد من الإقامة، ولما أمر الاستقامة في العبادة أمر الإخلاص فيها؛ فإن العمل لا يقبل إلا بهذين كونه صوابًا موافقًا للشرع، وكونه خالصًا لله.

فالدعاء: العبادة عبّر عنها به؛ لأنه مُخُّها، ولأنَّ من يعبد لا يخلوا عنه وعن حوارٍ، وعن تضرّع، أو توجّهوا إلى القبلة أو الكعبة، واستقبلوها عند كلِّ مسجد في كلِّ وقت سجودٍ أو مكانه، وهو الصلاة أيضًا على ما مرّ وجهه، ولما أمر استقبال القبلة فيها أمر بالإخلاص فيها.

فالدعاء: الصلاة؛ لأنه أشرف أعمالها فعبّر به عنها، أو توجّهوا إلى الصلاة في أيِّ مسجد حضرتم فيه ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم، ولَمَّا أمر الصلاة في أيِّ مسجد كان عند حضورها بغير تأخير إلى عود أمر بالإخلاص فيها.

فالدعاء: الصلوة أيضًا، توجَّهوا نكال وجوهكم عند كلِّ مسجدٍ ولا تسجدوا على إنصاف وجوهكم كما يسجد اليهود، وبما أمر بإكمال السجود أمر بالإخلاص فيها، أو توجَّهوا بعبادتكم إلى الله ولا تشركوا به شيئًا في عبادتكم، ولَمَّا أمر بإخلاص العبادة على سبيل الكناية، صرَّح بالأمر بإخلاص فيها، وأكَّده بذلك أو توجَّهوا بدينكم إلى الله، ومنه قوله تع: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُإِلَى اللَّهِ﴾ [لقمان ٣١/٢٢]. أي: يخلص دينه، ولَمَّا أمر الإخلاص في الدِّين دلالة صرح بذلك تقديرًا أو توجَّهواإِلَى اللَّهِ في صلاتكم، ولما أمر بالإخلاص في سائر الطاعات.

ويمكن أن يقال: لَمَّا أمر في أمر من الوجوه المذكورة أمر بالإخلاص الدعاء والتضرّعي؛ فإن كمال الامتثال بالدعاء، وكمال الدعاء بالإخلاص فيه.

[٣٥٥٢] **ج — أن.**

[٣٥٥٣] **المحتسب** لابن جني، ١/٣٢٦؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٣٤.

﴿**مُخْلِصِينَ**﴾ حال من الواو في: ﴿وَٱدْعُوهُ﴾، و﴿الدِّينَ﴾ مفعول له، وبعد الأمر بالإخلاص ذكر ما هو علّة لمقدّر يكون علّة لوجوب الإخلاص، أو بعد الأمر بالعبادة والصلاة [**١٧٥**/ظ] ذكر أنّها فائدتها في الآخرة فقال:

﴿**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾ ﴿**فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ**﴾

بَدَأَ وأَبْدَأَ بمعنى: أَنْشَأَ، وجمع في قوله: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت ١٩/٢٩]، ثم ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت ٢٠/٢٩]، وبَدَأْتُ بكذا، أي: قدّمته وأَبْدَأْتُ به.

والبدأ: السيّد؛ لأنه يبدئ به عند عدّ السادات، والكاف في محلّ النصب نعتًا لمصدرٍ محذوفٍ، أي: عودًا مثل ما بدأ ﴿تَعُودُونَ﴾ بإعادته.

وقيل: الأصل كما بدأ خلقكم تعود خلقكم، فحذف الخلق في الموضعين فصار المخاطبون في الأوّل مفعولين بعد أن كانوا مجرورين بالإضافة، وفي الثاني فاعلين بعد إن كانوا مجرورين بها، والتّشبيه من حيث إن قدرته عليهما سواء كقوله تع: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء ١٠٤/٢١]، ففيه ردٌّ لاستبعادهم، وتقرير لإمكانها، وتحقيق لوقوعها، أو من حيث التجرّد والانفراد، ولا يبقى إلّا ما هو خير الزاد كقوله ع م:«إِنَّكُمْ محشورونَ إِلَى اللَّه حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء ١٠٤/٢١]. [٣٥٥٤] أو من حيث إنه بدأكم من التُّراب فتعودون إليه كقوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾، [طه ٢٠/ ٥٥]، أو من حيث إن بدأكم على السّعادة والشّقاوة فأخر أمركم عليهما وإن عملتم بينهما خلاف ذلك كما في سحرة فرعون وإبليس، كقوله ع م: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنَّهُ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ». [٣٥٥٥]

أو من حيث العود في الدنيا إلى ما كان في عالم الميثاق فمن صدَّق هناك صدَّق ههنا، ومن كذب هناك كذب ههنا، أو من حيث إن بدأكم على الكفر والإيمان فتعودون في الآخرة كذلك كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[٣٥٥٦] فمن خلقه للسّعادة استعمله بعملها، وكانت العاقبة عليها، فيبعث على ما مات عليه ومن خلقه للشقاوة استعمله بعملها، وكانت العاقبة عليها يبعث على ما مات، كقوله ع م: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ»[٣٥٥٧] والتوفيق بينه وبين قوله ع م: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطرَةِ»[٣٥٥٨] وقوله: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم ٣٠/٣٠] أنه خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال، وإن فطر الكلّ على الفطرة كما أخذ عليهم بذلك الميثاق فجعله في غرائزهم، ومع هذا قدر منهم شقيًّا وسعيدًا.

وفسّر المصنف الهداية بالتوفيق ومقابلة بالخذلان بناءً على مذهبه؛ لأنَّ العبد هو المهتدى والضالّ عندهم،[٣٥٥٩] وعندنا خلق الهداية والضلال.

[٣٥٥٤] **صحيح البخاري،** ٥٥/٦ (٤٦٧٥).

[٣٥٥٥] **صحيح البخاري،** ١٣٣/٥ (٤٢٠٧)؛ **صحيح مسلم،** ٢٠٤٢/٤ (٢٦٥١).

[٣٥٥٦] **سورة التغابن** ٢/٦٤.

[٣٥٥٧] **صحيح مسلم،** ٢٢٠٦/٤ (٢٨٧٨).

[٣٥٥٨] **صحيح البخاري،** ١٠٠/٢ (١٣٨٥).

[٣٥٥٩] **الكشاف** للزمخشري ٩٦/٢.

وقدر كلمة الضلالة وهي الإخبار بأنهم يضلُّون، ولولا تقديرها وحقَّت نفس الضلالة لَبطل الاختياروالتكليف، و﴿فَرِيقًا﴾ الأوَّل منصوبٌ بـ﴿هَدَى﴾ والثاني بفعلٍ يفسِّره ما بعده.

والفعليتان في محلِّ النَّصب حالان من فاعل ﴿بَدَأَكُمْ﴾، أي: حال كونه هاديًا فريقًا ومُضِلًّا آخر، أو مستأنفتان، أو هما حالان من فاعل ﴿تَعُودُونَ﴾ وما بعدهما صفتان لهما، أي: فريقًا مَهْدِيًّا، وفريقًا حاقًّا عليه الضلالة، ولا بدَّ ح من العائد في ﴿هَدَى﴾ أي: هداهم، ويؤيِّده قراءةُ «تعُودُون فَرِيقَيْنِ فَرِيقًا هُدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ»[٣٥٦٠] لكون «فريقين» حالًا، و«فريقًا» بدلًا، أو منصوبًا بـ«أعني»، أو الأوَّل حالٌ منه، والثَّاني بإضمار يفسِّره ما بعده،[٣٥٦١] ثم إذا جعل بيانًا يكون مع المبيِّن كقوله: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، مع قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران ٥٩/٣]، ففي المبيّن قدم المشبَّه به للتنبيه على أن قضاء السوء لا يخالف القدر، والعلم الإلهي فروعي ذلك في المفسّر حيث قدّم مفعول ﴿هَدَى﴾ للدَّلالة على الاختصاص، وإن فريقًا آخر ما أراد الله هدايتهم، وقدر ذلك بأن عطف عليه ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَالَةُ﴾ وأبرزه في صورة الإضمار على شريطة التفسير، أي: أضلّ فريقًا حقَّ[٣٥٦٢] عليهم.

وفيه مع الاختصاص التوكيد، وإسناد الاوَّل إلى ذاته المقدس دون الثاني للرَّمز إلى سبق رحمته وسعتها، والإرشاد إلى أدب الكلام، وتحسين اللفظ، كقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة ٧/١]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء ٨٠/٢٦].

﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ(٣٠)﴾

إنَّ الفريق الثاني قبلوا ما دُعوا إليه بدون التَّأمّل والتمييز بين الحق والباطل؛ فلذلك أضلَّهم الله فيكون تعليلًا له، أو فلذلك حقَّ عليهم الضلالة، فيكون تحقيقًا لها ويؤيد التعليل قراءة «أَنَّهُمْ»[٣٥٦٣] بالفتح؛ لأنه نصّ فيه.

وقال المصنف: «دلَّ على أنَّ عِلْمَ الله لا أثر له في ضلالهم، وأنهم هم الضالُّون باختيارهم وتولِّيهم الشياطين».[٣٥٦٤] أراد به إبطالَ ما ذُكر في بعض كُتُب الكلام، وعليه إعتماد الإمام، [**١٧٦**/و] أنَّه تع لَمّا علِمنمن الضَّالِ الضلالَ استحال منه اختيار الابتداء، وهذا معنى الجبر.

إلا أنهم يقولون: إنه عَلِم من الضلال باختياره، وهو معنى الاختيار؛ فلهذا كان المختار إثباتَ الكسب والاختيار، وإنْ كان مجبورًا في ذلك الاختيار، والفعل[٣٥٦٥] واقعًا بقدرة القادر المختارِ، وصحّ التعليل بهذا الاعتبار،[٣٥٦٦] وهم قالوا: إن الله وهب للعباد قدرة مستقلّة بها يوجد الشرُّ وهو مقدور له لا مقدور الله، وأهل السنة: منهم من يقول: الخير والشرُّ كلُّه بقدرة مستقلَّة لله والعبد مظهر لهما، ومنهم من يقول: فعل العبد بقدرة الله ولكن اتصافه بالطاعة والمعصية باعتبار صدوره من العبد؛ لأن فعل الله لا يوصف بهما، ومنهم من يقول: فعل العبد يصدر بقدرتين: قدرة الله وقدرة العبد، وكلُّ واحدة من القدرتين إذا انفردت فهي غير مستقلَّة.

[٣٥٦٠] **المحرر الوجيز** ٣٩٢/٢؛ **البحر المحيط**، ٢٩٠/٣؛ **الدر المصون** ٢٥٩/٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٨٥/٩، **معجم القراءات القرآنية**، ١٦٨/٢.

[٣٥٦١] **اللباب** لابن عادل، ٨٥/٩-٨٦.

[٣٥٦٢] ج – حقّ.

[٣٥٦٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن سهل بن شعيب، وعباس بن المفضل. **اللباب** لابن عادل، ٨٦/٩؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٥.

[٣٥٦٤] **الكشاف** للزمخشري، ٩٦/٢.

[٣٥٦٥] ج – قادرًا ما.

[٣٥٦٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٣و.

وقال بعض أرباب النظم: إن المشركين لَمَّا ادَّعوا أنه تعالى شرع لهم الطواف عريانًا، وأمر به كما سبق، وردَّ الله عليهم بأنه لا يشرّعِ لهم ولا يأمر بما فيه الفحشاء والمنكر، بل يشرع بما فيه القسطُ والعدل من التوحيد، والإخلاص في العمل، نبَّههم على دقيقة جليلة، وهي التنبيه على خطأ رأيٍ من لا يفرّق بين الأمر والإرادة. يعني: أن الله وإن أمر بالقسط، لكن لا يهدي إليه إلا من أراده له، وسبق حكمه، وأبرم قضائه، لأنه ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾. ومن قضاءه وقدره أن هؤلاء الكفرة اتَّخذوا الشياطين أولياءَ من دون الله، وزيّن لهم سوء عملهم. ويجوز الاستئناف، كأنه قيل: فإذًا ما حكم هولاء الضُّلّال؟ فأجيب: بـ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾.[3567]

قال عمرو بن العاص: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ وَفِي يَدِهِ كِتَابَانِ. فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَدِهِ الْيُمْنَى «هَذَا كِتَابٌ مِنْ الله فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلاَ يُزَادُ فِيهِمْ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْهُمْ». وقَالَ لِلَّذِي فِي شِمَالِهِ : هَذَا كِتَابٌ مِنْ الله فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلاَ يُزَادُ فِيهِمْ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْهُمْ». فَقُلْنَا: فَفِيمَ الْعَمَلُ إِنْ كَانَ أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ فَقَالَ «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ عَمِلَ أَىَّ عَمَلٍ. وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنْ عَمِلَ أَىَّ عَمَلٍ». ثُمَّ قَالَ أي: أشار بِيَدَيْهِ، فَنَبَذَهُمَا ثُمَّ قَالَ «فَرَغَ رَبُّكُمْ مِنَ الْعِبَادِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ».[3568]

والظَّاهر أن قوله: «هذا كتاب من ربكم» صادر على طريق التمثيل والتصوير. و«أُجمل على آخرهم»: من قولهم: أجمل الحساب: إذا تُمّم، ورُدَّ من التَّفصيل إلى الجملة.[3569]

﴿**وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ تتميم للتعليل أو التَّحقيق، وتنبيهٌ على تركب جهلهم وفرط غيّهم، وإشعارٌ بأنهم لولا حسبانهم هذ لَنجع فيهم الإنذار، وفيه دلالةٌ على اشتراك المخطئ والمعاند في الذمّ، بل على الاستواء، ومن فرق حمله على المقصر في النظر؛ فإنه لا يخلو عن عناد لاعلى المخطئ فيه بعد الاجتهاد، وعلى أن مجرد الظنّ غير كافٍ في صحة الدين، بل لا بدَّ من تحصيل اليقين فلذلك ذمَّهم به.

﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾

ذكرهم بنبوَّته ع م ههنا للرّمز إلى أنَّ شأن أبيهم السَّتر عند الانكشاف، فاللّائق التخلّق به، وأخذ الزينة غيرَ متصوّرٍ، فيكون من إطلاق اسم الحال على المحل، والزّينة لا تحصل إلا بستر العورة، فحملت عليها بذلك، وبأن ظاهر الأمر للوجوب وما سوى ذلك غيرُ واجبٍ، وبما روي في سبب النزول: أنهم كانوا يطوفون عراةً، ويقولون: لا نعبد الله في ثياب أذنَبْنا فيها. وقيل: يفعلون ذلك تفاؤلًا لِيَتَعَرَّوْا من الذنوب كما تعرَّوْا من الثياب، والمرأة تطوف عريانةً فتعلّق على سفلها سيورًا مثل السُّيور التي تكون على وجه الحمار من الذباب، وتقول:

اَلْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ ... وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ[3570]

[3567] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٦٩/٦.

[3568] **جامع الترمذي**، ٤٤٩/٤ (٢١٤١).

[3569] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٦٩/٦.

[3570] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ١٩٢/٩.

وعن مجاهد: كان حيّ من أهل اليمن كان أحدهم إذا جاء حاجًّا أو معتمرًا يقول: لا ينبغي لي أن أطوف في ثوبٍ قد عصيت الله فيه، فيقول: من يعيرني مئزرًا، فإن قدر عليه، وإلا طاف عريانًا.

ومن الزهري: يفعلون ذلك إلا الحُمْس وهم قريش وأحلافهم؛ فمن جاء من غير الحُمْسِ وضع ثيابه وطاف في ثوب حُمْس، فإن لم يجدْ من يعيره منهم، فيلقي ثيابه فيطوف عريانًا، وإن طاف في ثياب نفسه ألقاها إذا قضى طوافه يحرمها فيجعلها حرامًا عليه.[٣٥٧١]

وعن طاووس: لم يأمرهم بالحرير والديباج، وإنما كان أحدهم يطوف عريانًا ويدع ثيابَه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه ضُرِبَ وانتُزعت منه.[٣٥٧٢]

ولما اقتضى الظاهر اللبس التام [**١٧٦**/ظ] والزينة الكاملة، ولكن ترك العمل به في القدر الذي لا يجب ستره من الأعضاء إجماعًا، استدلّ بالظاهر على أنَّ السُّنة أن يأخذ الرجل أحسنَ هيئته للصلاة، حتى فسّر بعضهم بالْمشط والطِّيب، وبتسريح المحاسن؛ لأن فيها العرض على الله فيستحب لها التزين والتعطّر كما يجب التطهّر والتستّر، كما استدلَّ به على ما ذكر على وجوب الستر، وما قيل: من أنها نزلت في شأن الطَّواف لا في حقِّ الصلاة، فكيف يستدلُّ بها في حقِّها مدفوع بأن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السَّبب.

وقوله: ﴿**عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾ عامٌّ فلا يختصُّ بالمسجد الحرام، والمراد منه الطَّواف والصلاة إطلاقًا لاسم المحل على الحال؛ لأن الأخذ لعين المسجد غير واجب؛ بل لأجلهما لا لأجل الناس؛ لأنَّ الناس في الأسواق أكثرُ منهم في المساجد، فلو كان لأجلهم لَقال عند دخول الأسواق، أو جعلا له اسم زمانٍ أو مكانٍ، أي: عند كلِّ زمان سجود أو مكانه وهو عبارة عنهما، وعلى التَّقديرين ففيه حذف مضاف، أي: عند قصد كلِّه، و﴿عِنْدَ﴾ من صلة ﴿خُذُوا﴾ وليس حالًا من الزينة؛ لأنَّ أخذَها يكون قبل ذلك، والحال لما أنت فيه.

والاستدلال بها على فرضية الستر في الصلاة مع أنها تفيد الوجوب في حقِّ الطَّواف؛ ولهذا كان طواف العاري معتدًا به، فلو أفادت الفرضية في الصلاة لَكان لفظ ﴿خُذُوا﴾ مستعملًا في الوجوب والإفراض، بانضمام قوله ع م: «لَا صَلَاةَ لِحَائِضٍ إِلَّا بِخِمَارٍ»[٣٥٧٣] من حيث إنها قطعيّ الثبوت دون الدَّلالة على ذلك التقدير، وأنه قطعي الدَّلالة لأداة الحصر ظني الثبوت لكونه خبر الواحد فبمجموعهما يحصل الدلالة على الفرض، وعطف أمر الإباحة عليه لا يمنع لعدم لزوم ترك الظاهر في المعطوف؛ لتركه في المعطوف عليه مع أنَّ الأكل والشّرب قد يكونان واجبين أيضًا.

وقال القشيري: زينة العبد بحضور الحضرة، ولزوم السُّدَّة، واستدامة شهود الحقيقة.

وأيضًا: زينة نفوس العابدين بآثار السُّجود، وزينة قلوب العارفين بأنوار الوجود؛ فالعابد على الباب بنعت العبودية، والعارف على البساط بحكم الحرمة.[٣٥٧٤]

[٣٥٧١] **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** للطبري، ٥/١٦٠-١٦٢.

[٣٥٧٢] **الكشاف** للزمخشري، ٢/٩٦.

[٣٥٧٣] **مسند أحمد**، ٤٢/٨٧ (٢٥١٦٧)؛ **سنن ابن ماجه**، ١/٤١٧ (٦٥٥)، **سنن أبي داود**، ١/٤٧٨ (٦٤١)، **سنن الترمذي**، ٢/٢١٥ (٣٧٧).

[٣٥٧٤] **لطائف الإشارات** للقشيري، ١/٣٣١؛ **عرائس البيان** للبقلي، ١/٤٣٢.

ولَمّا أمر بإقامة الصلاة، وكان ستر العورة شرط صحَّتها ذكره بعدها، أو لَمَّا أمر بالقسط، وكان من جملة أمر اللباس، والمأكول، والمشروب ذكره عقيبةً. [١٧٧/و]

﴿وكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾

أي: ما طاب لكم يدلُّ على ذلك التقييد ما ورد في مواضع. كان بنو عامرٍ لا يأكلون الطَّعام في أيام حجّهم إلا قوتًا، ولا يتناولون دَسَمًا؛ يعظِّمون به حجَّهم فهَمَّ المسلمون به فنزلت.[٣٥٧٥]

وفي الأكل حفظُ النفس، وحِراسة الحواسِّ، ولذلك نهى عن الوصال، لإضعافه الجسد، ومنعه عن العبادة، وليس لمن يمنع نفسَه قَدْرَ الحاجة حظٌّ من برٍّ، ولا نصيبٍ من زهدٍ؛ لأن ما حرَمَها من فعل الطاعة بالعجز، والضَّعفِ أكثرُ ثوابًا وأعظم أجرًا.

واختلف في الزائد على الحاجة؛ فقيل: حرام، وقيل: مكروهٌ. وقَدْرُ الشِّبَع يختلف باختلاف البلدان، والأزمان، والإنسان، والطُّعمان.[٣٥٧٦] ولَمَّا كان حذف المفعول مظنة التوسيع لدائرة الرُّخصة فيهما كمًّا وكيفًا دفعه بقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي: بالاعتداء في الاعتداء إلى الحرام، أو إلى ما فيه الملام.

قال ع م:المِعِدَةُ حَوْضُ البدَنِ، والعُروقُ إليها واردةٌ، فإذا صحَّتِ المِعِدَةُ صدَرَتِ العُروقُ بالصِّحَّةِ، وإذا أُسْقِمَتِ صدَرَتِ العُروقُ بالسَّقَمِ.[٣٥٧٧] يعني: أن الأشجار النَّابتة حول الحوض تزداد نظارة ومنفعة، إذا كان ماؤه صافيةً، وينعكس إذا كان أجاجًا، فكذا الحرارة الغريزية في البدن مسلّطة، تحلّل الرطوبات، وفيه قوّة جاذبةٌ في مجاري العروق، واردةٌ إلى الكبد، طالبة منه ما صفا من الأخلاط التي جعلت فيه، بسبب عروقٍ واردةٍ منه إلى الْمَعِدة، جاذبةٍ منها ما انهَضَم فيها من الغذاء، لينطبخ في الكبد مرةً أخرى، فيصير بدلًا لما يتحلَّل منه.

فهذا معنى الصدور بعد الورود؛ لأن العروق مجارٍ لما يرد فيها ويصدر منها، كعروق الشجر. والأسلوب من باب: جرى النَّهر.

فإذا صلح الغذاء في المعدة، وانحدر من تلك العروق إلى الكَبِد يحصل منه الغذاء الصالح للأعضاء، خلفًا لما يتحلَّل منها، وإذا كان فاسدًا،[٣٥٧٨] حرمه أو كثرة أو رداءة كان سببًا لفساد البدن باطنًا أو ظاهرًا أو جملةً، أو بتحريم الحلال والتحرّز عمَّا ليس فيه الوبال كترك الزينة عند الطواف، والاكتفاء بيسير الطَّعام أيام الحجّ، وتحريم البحائر والسوائب ونحوها،[٣٥٧٩]أو بإفراط الطعام والشرة فيه؛ فإن فيه ثقل المعدة والتثبّط عن الخدمة، وذهاب الفطنة، وغلبة النوم والسِّنة، ونَتْنُ التُّخَمَة، والأمراض المختلفة؛ ولذلك قال ع م: «الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ»[٣٥٨٠]، لعلَّه عبارةٌ عن الحثِّ على التقليل من الدنيا، والزهد من شهواتها، أو عن أنه يتناول دون سبعة، ويبقى ما زاد لغيره أو أنه في كافرٍ ضاف النَّبي، فشرب حلاب سبع شباه ثم أسلم، فشرب أقلّ من حلاب شاة لَمَّا آمن تنوَّر قلبه بنور التَّوحيد نظر إلى الطَّعام بعين التقوى، وقبله كان

[٣٥٧٥] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٣٨/١٢-٣٣٩؛ **الكشاف** للزمخشري، ٢٠/٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٨٨/٩.

[٣٥٧٦] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي١٩٦/٩.

[٣٥٧٧] **المعجم الأوسط** للطبراني، ٣٢٩/٤ (٤٣٤٣)؛ **شعب الإيمان** للبيهقي، ٦٦/٥ (٥٧٩٦).

[٣٥٧٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٧٢/٦-٣٧٣.

[٣٥٧٩] ج – ونحوها.قد كتب من﴿وكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ حتى «أو بإفراط الطعام مكرّراً في نسخة جار الله».

[٣٥٨٠] **صحيح البخاري،** ٧١/٧ (٥٣٩٣).

مظلمًا بالكفر أكل كالبهيمة أو أنَّهما يأكلان أكل من له معىً واحد أو سبعة، أو بالتجاوز عن الاعتدال في الإنفاق، أو بالإنفاق في المعاصي.

قيل: لبعض السلف لأشرف في الشرف. فقال: لا سرف في الشرف، أو بالإشراك بالله ومخالفة أمره مع أنكم تأكلون وتشربون منه، ثم علَّل النَّهي عن الإسراف بقوله:﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: لا يرتضي، ولا يريد الخير والثواب والإكرام والقرب لهم لإسرافهم، وصيغة الجمع للتعميم لأنواعه؛ فإنه مذمومٌ في كل أمر حتَّى في التصدُّق، فإن حمل على إسراف المسلم فلا يحبّه لإسرافه ويحبُّه لإسلامه وإن حمل على الشرك، فلا يحبّه مطلقًا،[٣٥٨١] بل ببغضه مطلقًا.

قال الإمام: هذا نهاية من التهديد؛ لأن من لا يحبّه بقي محرومًا عن الثواب؛ لأنَّه معنى محبَّته تع، ومتى لم يحصل الثواب فقد حصل العقاب للانحصار فيهما،[٣٥٨٢] جمع الآية أصول الأحكام من الأمر والإباحة والنَّهي والخبر، وهذا من لطائف القرآن، وإعجازه.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)﴾

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلْطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾

الاستفهام لإنكار التَّحريم؛ لأن الفعل لا يتصوّر بدون فاعلٍ، وإنكار الفاعل بالكلِّية إنكار له، وتوبيخ على من يحرِّمها، كمحرمي الشاة، وما يخرج منها عند الإحرام، ولَمَّا تضمَّن الإنكار لم يحتج إلى الجواب. وتعظيم الزّينة بالإضافة؛ للدلالة على عدم تحريمها من جهته تع، ويدخل فيه تنظيف البدن من جميع الوجوه، وأنواع الحليّ، ولولا النَّص بتحريم الذَّهب والإبريسيم للرجال لَدخل، ومن ههنا جوز اتخاذ اللباس الرَّفيع، والتَّجملِ في الجُمَع والأعياد ومزاوَرة العباد.

قال القرطبي: أين هذا ممَّن يرغب عنه ويُؤْثِر لبس الخشِن من الكَتَّان والصُّوف. ويقول: «لِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ»؟! أترى مَن ذكرنا تركوا لباسَ التَّقوى، لا والله! بل هم أهل التَّقوى، وغيرُهم أهل دَعوى. وكان السَّلف يلبسون المتوسط، [**١٧٧**/ظ] ويتخيّرون الأجود للجُمع والأعياد، فَإِنْ قيل: التَّجْوِيدُ هَوَى النَّفْسِ و أُمِرْنَا بِمُجَاهَدتِهَا، والتَّزين لِلْخَلْقِ وَ أُمِرْنَا بإخلاص له تع، يجاب بأن ليس كلُّ ما تهواه يُذَمُّ، ولا كلُّ ما يُتزيَّن به لهم يُكرَه، وإنما يُنهى إذا نهى، أو قصد الرِّيا. فإنَّ الإنسان يُحبُّ أن يُرى جميلًا، وذلك حظُّ النفس لا يُلام فيه. ويسرّح شعرَه، وينظر في المرآة، ويُسوِّي عمامتَه، ويلبس بطانةَ الثوب إلى داخل، وظِهارته إلى ظاهر، وليس بشيء منه مكروهًا.

قالت عائشة: «كَانَ نَفَرٌ يَنْتَظِرُهُ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَخَرَجَ يُرِيدُهُمْ، وَفِي الدَّارِ رَكْوَةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ فِي الْمَاءِ وَيُسوِّي شَعْرَهُ وَلِحْيَتَهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا؟! قَالَ: « إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى إِخْوَتِهِ؛ فَلْيُهَيِّئْ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ».[٣٥٨٣]

﴿ٱلَّتِيَ أَخْرَجَ﴾ أصلها ومادَّتها من النَّبات كالقُطن والكتَّان، ومن الحيوان كالحرير والصُّوف، ومن المعادن كالحديد وسائر الأجساد. **﴿لِعِبَادِهِ﴾** لمصالحهم، ومنافعهم ففي التَّوصيف أيضًا إشعار بما يقتضي حلّه وإيثاره على النَّاس رمزًا إلى أن

[٣٥٨١] ج – مطلقًا.

[٣٥٨٢] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٦٦/١٤؛ **اللباب** لابن عادل، ٩٠/٩.

[٣٥٨٣] **اعتلال القلوب** للخرائط، ١٧٩/١ (٣٥٢).

إخراجها لمصالح العبادة. ومن ههنا قيل: هي لهم بحقِّها من توحيد الله، والتَّصديق له، فإن وَحَّد المنعم عليه وصدَّقه، فقد قام بحقّ النِّعمة، وإن كفر فقد مكَّن الشَّيطان من نفسه[٣٥٨٤].

﴿**وَالْطَّيِّبَاتِ**﴾ ما يستلذُّه العقل السليم، والطبع المستقيم، وبهذا لا حاجةَ إلى العدول عن التَّفسير بالمستلذَّات إلى التفسير المحلَّلات؛ لأن المراد ذلك المعنى فيفيد تلك الفائدة مع أنّ المناسب للمقام عبارة الاستلذاذ ﴿**مِنَ الرِّزْقِ**﴾ من أنواع المأكولات، والمشروبات، ويدخل تحته التَّمتعُ بالنساء وبالطِّيب، فوصفُ الطيّب ههنا في مقابلة الإضافة في قرينة في إفادة المعنى المهمّ في المقام، وهو عدم التَّحريم من الشَّارع، فلا دلالةَ في الآية على أنَّ الأصل في المطاعم والمشارب وأنواع التجمُّلات الإباحة.[٣٥٨٥]

وإنَّما علم ذلك من هذه الآية، ثمَّ إنَّ تركَ الطَّيبات، والإعراض عن اللَّذَّات، ليس من القُربات، والفعلُ والترك يستوي في المباحات. وقيل: ليس قربةً لذاته، وإنما هو سبيل إلى الزُّهد، وقِصَرِ الأمل، وترك التكلّف؛ فمن أجل ذلك مندوبٌ إليه. وعَنْ عُمَرَ[٣٥٨٦]: «لو شئنا لاتخذنا صِلاءً وصَلائقَ وصِنابًا، ولكني سمعت الله يذمُّ أقومًا فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف ٤٦/٢٠].وقيل: فرّق بين حضور ذلك وبين تكلُّفه؛ لأنه لم يُنقل من النبيّ[٣٥٨٧] أنه امتنع عن طعام؛ لأجل طيبه، بل كان يأكل العسل والحلواء، والبطِّيخَ، وإنما يُكره التكلُّف لما فيه من التشاغُل بالشهوات عن الصالحات.[٣٥٨٨]

وقال القشيري: الزّينة للقاصدين ترك العادة، وللعابدين حسن العبادة، وللسان الذكر، وللقلب الفكر، وللظاهر السجود،وللنَّفس حسن المعاملة، وللروح دوام المواصلة.[٣٥٨٩]

﴿**قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾

أي: الزينة والطَّيبات ﴿**لِلَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ ولغيرهم ﴿**فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا**﴾ وقد دلَّ على المعطوف قوله: ﴿**خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ**﴾ إذ لو كانت خالصةً لهم في الدَّارين لم يخص بها أحدهما،[٣٥٩٠] وحسن الحذف للتَّنبيه على أنَّها خلقت لهم بالأصالة، والكفارُ تَبعٌ يرشدك إليه، إقحام ﴿**ٱلْحَيَاةِ**﴾ للإشعار إلى وجه التَّشريك بإفهام أنَّها للحاجة إليها في الحياة.[٣٥٩١] فيكون لهم قطعًا للمعذرة، وإلزامًا للحجة، أو هي غير خالصة للمؤمنين فيها خالصةً لهم يوم القيامة على أن يتعلّق ﴿**لِلَّذِينَ**﴾ يكون مقيَّد دون مطلقٍ، يدلُّ عليه ما ذكر، أو هي لهم فيها مشوبةٌ بالآلام، ومصحوبةٌ بالمكاره؛ لأنها سجنهم خالصةً عنها يوم القيامة، صافيةً عمَّا ينغِّصها، بل لذَّة باقية ومنفعة دائمةٌ، وذكر ﴿**يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ**﴾ ولم يذكردار الآخرة ليقابل ذكر الدنيا؛ للتَّنبيه على أنهم في زينةٍ وطيّبات قبل دخول الجنة.

[٣٥٨٤] **اللباب** لابن عادل، ٩/٩٢.

[٣٥٨٥] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٣٩.

[٣٥٨٦] ج +رضي الله عنه.

[٣٥٨٧] ج + عليه السلام.

[٣٥٨٨] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي ٩/٢٠٧-٢٠٨.

[٣٥٨٩] **لطائف الإشارات** للقشيري، ١/٣٣٢؛ **التيسير في التفسير** للنسفي، ٦/٣٣٢.

[٣٥٩٠] **اللباب** لابن عادل، ٩/٩٥.

[٣٥٩١] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٣٩.

ثم إن﴿**خَالِصَةً**﴾ حال من المستكنّ في الظَّرف الذي هو خبر للمبتدأ، وهو «هي»، والعامل فيها الظَّرف، وفي متعلّق بما تعلّق به الظَّرف من الاستقرار؛ إخبارًا عن استقرارها لهم فيها حال كونها مقدّرة الخلوص لهم يوم القيامة، أو بـ﴿آمَنُواْ﴾ إخبارًا عن ثبوتها لمن آمن فيها حال تقدير خلوصها يوم القيامة، فيتحقّق ظرفيته لـ﴿خَالِصَةً﴾.

وقرأ نافع: بالرفع على أنه خبرٌ بعد خبرٍ.[٣٥٩٢] و«في» إما متعلّق بالاستقرار أو بـ﴿آمَنُواْ﴾ والتقدير: هي مستقرّة للذين آمنوا فيها، وهي خالصةٌ لهم يوم القيامة، أو على أن الخبر «خالصةٌ» والظَّرف متعلّق به ولا ذكر ح فيه، ولا يمنع تعلّق الظَّرفين له؛ لأن الأوَّل تبيين للخلوص، والثاني: ظرف محض أو تبيينٌ متعلّق بمحذوف كقولهم: «سقيًا لك»، و«فِي» متعلق بـ﴿آمَنُواْ﴾ أي: هي خالصةٌ لمن آمن في الدنيا يوم القيامة.

روي عن عُثْمَانَ بن صفوان أتى النَّبِيَّ ع م فقال: «غلبني حديثُ النَّفْسِ عَزَمْتُ أن أخْتَصِي، فقال: مَهْلًا يا عثمان، إن خصاء [**١٧٨/و**] أمتي الصِّيام، قال: فإنَّ نَفْسي تحدثني بالترهب، فقال: إنَّ تَرَهُّبَ أمَّتِي القُعُودُ في المساجِدِ لانتظار الصلاة فقال: تُحَدِّثُني نَفْسي بالسِّياحَةِ، فقال: سيَاحَةُ أمَّتِي الغَزْوُ والحجُّ والعُمْرَةُ، فقال: تُحَدِّثُنِي نَفْسِي أنْ أخْرُجَ مِمَّا أمْلِكُ، فقال: الأوْلَى أنْ تَكْفِي نَفْسَكَ وعيالَكَ، وأنْ تَرحم، والمساكِينَ، فتُعْطِيَهُ أفضل مِنْ ذلك، فقال: تحدِّثُنِي نَفْسِي أنْ أطلِّققوله تع: إنَّ الهِجْرَةَ هِجْرَةُ ما حرَّم الله، فقال: تُحدِّثُنِي نَفْسِي ألاَّ أغْشَاها، فقال: إنّ المسْلِم إذا غشي أهْلَه أو ما مَلَكَتْ يَمِينُهُ، فإنْ لَمْ يُصِبْ من وقْعَتِهِ تِلْكَ وَلَدًاكان لَهُ وصيفٌ في الجَنَّةِ، وإنْ كان لَهُ وَلَدٌ مات قَبْلَهُ أو بَعْدَهُ كانَ لَهُ قُرَّةَ عَيْنٍ وفرح يَوْمَ القيامةِ، وإن مات قَبْلَ أن يَبْلُغَ الحنث كان لَهُ شَفِيعاً ورَحْمَةً يَوْمَ القيامةِ، فقال: تحدثني نَفْسِي ألاَّ أمَسَّ الطِّيب، قال: مَهلًا فإن جِبْرِيلَ أمَرَنِي بالطِّيب غبًّا وقال: لا تَتْرُكْه يوْمَ الجُمعَةِ، ثم قال: يا عُثْمَانُ: لا تَرْغَبْ عَنْ سُنَّتِي فإنَّ مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَمَاتَ قبل أنْ يتُوبَ صَرَفَت الملائكةُ وجْهَهُ عَنْ حَوْضِي».ففي الحديث الشريف دلالة أيضًا على أنَّ هذه شريعة كاملة، و أنّ جميع الزِّينة والطَّيبات مباح مأذون فيه إلا ما خصَّه الدليل.[٣٥٩٣]

وقال **السمرقندي**[٣٥٩٤]: كثير منهم استدلُّوا بالآية على إباحة التَّزيين بالثياب الفاخرة وطيب الأطعمة وزلَّ عنهم أنه تعالى إنما أباحه ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، وحسن العمل الزُّهد فيها، وتركها تواضعًا لله، وعدم الاغترار بها.[٣٥٩٥]

﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ مثل تفصيلنا هذه الأحكام في الحلال والحرام، ﴿**نُفَصِّلُ ٱلۡآيَٰتِ**﴾ الدالَّة على سائر شعائر الإسلام

﴿**لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ**﴾ نفضِّل للعلماء على غيرهم بتخصيص التفضيل لهم؛ لأن يحصل العلوم النظريَّة بتمكّن النَّظر، والاستدلال فهم المتيقّنون؛ ولذلك أقحم لفظ ﴿قَوۡمٖ﴾، وتغليب الذكور؛ لأصالتهم في الخطاب بإعلام الكلام، وإفهام الأحكام.[٣٥٩٦]

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾

لَمَّا أنكر تحريم الطيِّبات حصر المحرَّمات لقلب رأيهم في تعكيسهم.

[٣٥٩٢] **السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٨٠؛ **التيسير** للداني، ص ٣٥٥؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٢/٢.

[٣٥٩٣] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٢٣٠/٥-٢٣١؛ **اللباب** لابن عادل، ٩٠/٩-٩١.

[٣٥٩٤] ١٤٥٦/٨٦٠

[٣٥٩٥] **البحر العلوم** للسمرقندي، لَالَلي: ٩٨ ، ٤١٦ظ.

[٣٥٩٦] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٣٩/٤-٤٠.

والتحريم: المنع من الفعل بإقامة الدَّليل على وجوب تجنُّبه، وضدُّه التحليل وهو: الإطلاق في الفعل ببيان جواز تناوله.[٣٥٩٧]

و«مَا» في موضعين موصولةٌ موضعهما نصبٌ على البدل من ﴿ٱلْفَوَاحِشَ﴾ وهي: أقبح القبائح مطلقًا وظاهرها ما يكون علانيًا، وباطنها ما يكون سرًّا، أو الطواف عريانًا وظاهره فعل رجالهم نهارًا، وباطنه فعلُ نسائهم ليلًا، أو الزّنا؛ لأنَّ العرف خصَّها بها، كما قال: إنه[٣٥٩٨] كان فاحشة، فظاهر الزّنا جهرًا وباطنه المخادنة، أو ظاهره المناكحة الفاسدة وباطنه الزنى،[٣٥٩٩] أو ظاهر فعله وباطنه النَّظر واللَّمس.

﴿وَٱلإِثْمَ﴾ ما يوجبه تعميم بعد تخصيص ما أريد منهما، وتقديمهما للاهتمام بها.

وما قيل: الفواحش: الكبائر، والاثم: الصغائر، أو ما يوجب الحدَّ[٣٦٠٠] وما لا يوجب، ففيهما: أن الإثم الذَّنب مطلقًا، أو الخمر، فإنها تسمّى به، كقوله: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة٢/٢١٩].

وقوله:

شَـــرِبْتُ الْإِثْمَ حَـــتَّى ضَـــلَّ عَقْلِـــي　　　كَـــذَاكَ الْإِثْمُ يـــذهبُ بالعُقُـــولِ[٣٦٠١]

والتحقيق: أنها لم تسمّ به لا[٣٦٠٢] في الجاهلية ولا في الإسلام، وقد نصّوا على أنَّ البيت مصنوع.

وما روي عن ابن عباس: الإثم: الخمر، أي: سبب الإثم الخمر،[٣٦٠٣] لكن يرد عليه أنَّ السُّورة مكيَّة، وتحريمها في المدينة.

﴿وَالْبَغْيَ﴾ التعدي على الغير مبتدئًا أو منتصرًا نفسًا أو مالًا أو أهلًا أو عرضًا، ومعظمه الخروج على السُّلطان، وتخصيصه مع دخوله في الاثم، بل في الفواحش لغاية التَّقبيح، كأنَّه صار حقيقةً أخرى، ونحوه قوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل ١٦/ ٩٠].

وقيل: الإثم ما بينه وبين الله، وهو ما بينه وبين الغير ولغاية شنع البغي والكبر، وَرَد «الكبرياءُ رِدائي، والعظمةُ إزاري، فمَن نازعَني في واحدٍ منهُما، أدخلته النَّار». وعن أبي هريرة.[٣٦٠٤]

المتكبِّر يبغي على ربِّه وينَازِعُه، ويَبْغي على الخَلْقِ؛ لأنَّه يُنزِّل منزلَه فوق منزلتهم، ويرى الناس دونه فيهضِم حقَّهم بغير الحقّ زيادة بيان؛ لأن ما كان بحقّ لا يسمّى بغيًا.[٣٦٠٥]

[٣٥٩٧] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤٠/٤.

[٣٥٩٨] ج : إنه.

[٣٥٩٩] ج- أو ظاهره المناكحة الفاسدة وباطنه الزنى.

[٣٦٠٠] ج : الحدود.

[٣٦٠١] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي١٩٨/٧-١٩٩؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٩٦/٩.

[٣٦٠٢] ج - لا.

[٣٦٠٣] ج - الخمر.

[٣٦٠٤] ، **مسند أحمد**، ٢١١/١٥ (٩٣٥٩)؛ **سنن ابن ماجه**، ٢٧٢/٥ (٤١٧٤)؛ **سنن أبو داود**، ١٨٩/٦ (٤٠٩٠).

[٣٦٠٥] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٧٦/٦؛ **اللباب** لابن عادل، ٩٠/٩-٩١.

﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ﴾، عطفٌ على مفعول ﴿حَرَّمَ﴾، وتخصيصه أيضًا لغاية قبحه ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾ تهكُّمٌ بهم من حيث ذكره مع عدم جواز الإنزال وإيهامه من أوَّل الأمر أنَّه لو كان عليه سلطانٌ لم يحرم، ففيه رمزٌ على أنهم في التَّقليد، والغيّ دون العلم والاستدلال، وهو من قبيل:

ولا ترى الضَّب بها يَنْحجر[٣٦٠٦]

ولَمَّا لم يكن سلطان، ولا إنزال، لم يبق الشرك إلا باطلًا محضًا، فبقي لازمُه لنفي الملزوم بالأسلوب البرهاني، و السلطان: إظهارُ ما يُتسلّط به على نقيض المعنى بالإبطال، والبرهان: إظهار صحة المعنى وإفساد نقضيه، والبيان: إظهار المعنى للنفس كإظهار نقضيه ففي اعتبار ترتبه على البرهان، واشتراط نزوله دون ظهوره، تنبيه على عظم أمر الشرك، وفيه أن ما لا دليلَ عليه لا اعتداد به.[٣٦٠٧]

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وأن تَتقوّلوا عليه وتفتروا الكذب،[٣٦٠٨] وتلحدوا في [**١٧٨**/ظ] صفاته، كقولهم: الله أمرنا بها وتحريمهماالحلال الله ونحوه، وهو أيضًا معطوفٌ على المعطوف ومخصّص بالذِّكر لما لا يخفى ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ صرّح به مع أنه لا يكون إلا عن جهل إيماء إلى زيادة قبحه ما فعلوه.

وفيه زجر بليغ عن التجوّز فيما يسأل عنه من الأحكام، واتباع قول لا برهان عليه[٣٦٠٩] وبعث على وجوب الاحتياط فيه، وأن لا[٣٦١٠] يقول أنه جائز أو غير جائز إلا بعد إتقانٍ.[٣٦١١] ومن لم يعلم فليتق وليصمت، وإلا فهو إفتراء، وحصر المحرمات طاهرٌ على الحمل على العموم، وأمَّا على حمل الفواحش على الزنى، والإثم على الخمر؛ فلأنَّ أصول الجنايات خمس على الأنساب، وأُشير إليه بالزنى وعلى العقول، وأشير إليه بالخمر وعلى المال والنفس، وأشير إليه بالبغي وعلى الأديان، أما في التوحيد وأشير إليه بالشِّرك[٣٦١٢] أو في الأحكام، وأشير إليه بالتقوّل، والبواقي كالفروع.

وقال العارفون: الظاهر منها الزَّلَّة. والباطن الغفلة، أو الظَّاهر الارتكاب والباطن الإخطار، أو الظَّاهر ما يخالف الشريعة، والباطن ما يخالف الطريقة.[٣٦١٣]

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)﴾

﴿وَلِكُلِّ﴾ خبر مقدَّمٌ ﴿أَجَلٌ﴾ مبتدأ. والأمَّة: الجماعة التي يعمّها معنى: من أمَّه يؤمُّه إذا قصده، فهي الجماعة على مقصدٍ واحدٍ، والأجل: المضروب لانقضاء الْمُهَلِ؛ لأنَّ بين العقد الأوَّل الَّذي يضرب لنفس الأجل، وبين الوقت الآخر مَهلاً، مثل أجل الدّين وأجل الرّزق وأجل الوعد وأجل العمر، ويستعمل لجميع المدَّة ولآخرها، والمراد ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ مدَّة أو وقت لنزول العذاب بهم؛ لتكذيبهم الرُّسل فح يكون وعيدًا لأهل مكَّة بعذاب نازل في أجل معلومٍ عند الله كما نزل بالأمَم الماضية

[٣٦٠٦] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤٠/٤؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٢١٣/٤.

[٣٦٠٧] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤٠/٤-٤١.

[٣٦٠٨] **الكشاف** للزمخشري، ٩٧/٢.

[٣٦٠٩] ج+ لقائله.

[٣٦١٠] ج-لا.

[٣٦١١] **بحر العلوم** للسمرقندي، ١٢٧و.

[٣٦١٢] ج+ عن الشرك.

[٣٦١٣] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٣٣٢/١؛ **التيسير في التفسير** للنسفي، ٣٣٤/٦.

لتكذيبهم، ولعلَّهم سألوا نزول العذاب واستعجلوه تكذيبًا له، فأُخبروا أن له وقتًا لا يتخلفه ويرد عليه أنَّ أمَّة محمد ليس لهم عذاب الاستئصال فلا يساعده الكليّة، ويجاب بأنه أعمُّ من الاستئصال، وبهذا يتضح أيضًا كونه وعيدًا، فالآية رجوعٌ إلى الحثّ على الاتباع بعد إنتهاء حديث الاستطراد، وقد روعي نكتة في تعقيبه تحريم الفواحش؛ حيث ناسبه أيضًا، وقد وقع الوعيد والموعود بالمصرّين يوم بدرٍ ونحوه، أو لقبض أرواحهم وانقضاء حياتهم، فيرد عليه[٣٦١٤]أنَّ الظاهر حينئذٍ أن يقال: لكلِّ أحد ويدفع بأنَّ ذلك للإشارة إلى تقارب أعمار كلِّ عصرٍ، فكأنَّهم كالواحد في مقدار العمر، أو لكون المراد معلومًا عند كلِّ أحد، فعلى هذا يدلُّ على أن المقتول ميّتٌ بأجله، لا كما يقول المعتزلة: «إنه لو لم يُقتل لَحَيِيَ؛ لأنه لم يمت من أجل قتلِ غيره له، بل من أجل ما فعلَه الله من إزهاق روحه عند الضَّرب، وتوجيه القصاص والدِّية على الضارب لتعدِّيه وتصرُّفه فيما لم يؤذن له، لا لموته؛ إذ ليس من فعله؛ فلو ترك ولم يؤاخَذْ، لَأدَّى ذلك إلى الفساد ودَمار العباد».[٣٦١٥]

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ سَاعَةً﴾ أي: انقرضت مدَّتُهم أو حان وقتهم لاَ يَسْتَقْدِمُونَ سَاعَةً، أي:أدنى وقت؛ لأنها أقلُّ ما يستعمل في تقليل الأوقات عرفًا، و هي[٣٦١٦] في اصطلاح أهل التنجيم جزءٌ من أربعة وعشرين جزءًا من يوم بلَيْلته، فلو حمل على الظَّاهر لَأوهم جواز التقدُّم والتَّأخُّر أقلّ منها، وليس كذلك ﴿وَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أي: ولا يتأخَّرون «ساعةً» فحذفت لدلالة الأوَّل عليه، أو لا يطلبون التقدُّم، والتَّأخر لشدة الهول، وفضاعة الأمر، وللدُّخول، واعترض بأنّ «إذا» شرطيَّة، فالذي يترتَّب عليها إنما هو مستقبل، ولا يترتَّب على مجيئ الأجل في المستقبل إلا مستقبل، وذلك يتصوَّر في انتفاء الاستئخار، لا في انتفاء الاستقدام؛ لأن الاستقدام على مجيء الأجل في الاستقبال.

فيصير نظير قولك: «إذا قمت في المستقبل لم يتقدَّم قيامك في الماضي» ومعلوم أنَّهإذا قام في المستقبل لم يتقدَّم قيامه هذا في الماضي، وهذا يشبه قول زهير:

بــدا لي أني لَســتُ مُــدْرِكَ مــا مَضَــى ولاســابِقًا شَــيْئًا إذاكــان جائِيَــا[٣٦١٧]

ومعلوم أنَّ الشيء إذا كان جائعًا إليه لايسبقه، وأجيب أوَّلًا بأنَّ قوله: ﴿وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ منقطع من الجواب على سبيل الاستئناف للإخباريِّ، وهم لا يستقدمون الأجل، أي:[٣٦١٨]لا يسبقونه، وصار معنى الآية: أنهم لا يسبقون الأجل، و لا يتأخّرون عنه.

وثانيًا: بأنه داخلٌ في الجواب، ولكن أريد بالمجيء مقاربته، كما يقال: «جاء الشِّتاء إذا قارب». وفيه أنه يشكل حينئذ قوله: ﴿لاَ يَسْتَأْخِرُونَ﴾؛ لأن التأخُّر يكون إذا قارب، فإذا أريد حقيقة المجيء بالنسبة إليه يلزم استعمال المجيء فيهما، وفيه ما لا يخفى، وليس المراد أنه تع: لا يقدر على التَّأخير والتَّقديم كيف وهو فاعل مختار يفعل ما يشاء، بل المراد أنَّه اختار وقوعَ الأمر على ذلك.

وقرئ: «آجَالُهُمْ»[٣٦١٩] لتعدُّدها نوعًا أوشخصًا، ووجه الإفراد الجنسيَّة، والمصدريَّة في الأصل.

[٣٦١٤] ج – عليه.

[٣٦١٥] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٢٠٢/٧.

[٣٦١٦] ج – هي.

[٣٦١٧] **خزانة الأدب** للبغدادي، ٣٠٩/٣.

[٣٦١٨] ج – أي.

﴿يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا/ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)﴾ [١٧٩/و]

التفاتٌ يدلُّ على عظمة المتكلّم وتقصير أهل مكّة. وفي التعبير بنبوّته ع م بذكر لأوّل الرُّسل منهم. و﴿**إِمَّا**﴾ هي «إنْ» الشرطيّة ضُمّت إليها لتأكيد معنى الشرطية،ولذلك لزمت فعلها النونُ الثقيلة أو الخفيفة؛[3620] لئلا تنحطَّ رتبةُ فعل الشرط عن حرفه.

وقيل: إنها تفيد العموم، فقولك: «إما تَفْعلَنَّ»: إن اتَّفق منك وجود فعل «ما» و«إنْ»[3621] لِما لا يتحقق وقوعها؛ فلذلك لا يقع في كلام علّام الغيوب إلا حكايةً أو سوقًا للمعلوم مقام المشكوك لنكتة، وإذا لما يتحقَّق فإيرادها هنا مع إتيانهم متحقّق معيَّن عند الله؛ للتنبيه على أنّه أمر جائزٌ غيرُ واجب عليه تع، كما ظنَّه أهل التعليم الَّذين يقولون يجب عليه إرسالهم تعليمًا للدّين. فجاء التئكيد؛ لترجيح جانب الوقوع، وجمع الرُّسل مع أن المرسل إلى العرب سيِّد العالمين؛ لتعظيم شأنه، والتنبيه على سطوح برهانه، أو لإشعار أنَّ هذا الحكم غير مختصٍ بالأمَّة بل جاز في البرّية، أو لعموم الخطاب لبني آدم على التَّغليب ﴿**مِّنكُمْ**﴾ صفة ﴿**رُسُلٌ**﴾قدّم على الوصف بالفعل؛ لقربه من المفرد وهو الأصل فيه، وفائدة كونه من عشيرتهم؛ لأنه أدعى إلى الألفة، وأبلغ في الثقة وأقطع للمعذرة، وأنهم لَمَّا رأوا اقتداره مثل اقتدارهم، ثم بعد النُّبوة إذا أظهر المعجزات علموا أنها من الله.

﴿**يَقُصُّونَ**﴾ حالٌ من ﴿**رُسُلٌ**﴾ أو المستكن في ﴿**مِنكُمْ**﴾ أو صفة، و﴿**عَلَيْكُمْ**﴾ من صلته، أي: يتلونها كما أمروا.

والقصص: وصل الحديث بالحديث وأصله اتباعُ الشَّيء بالشيء[3622]. والآيات تشمل القرآن، والدلائل، والأحكام، والشرائع، مما يتعلّق بالمبدأ والمعاد.

﴿**فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ**﴾ حذف مفعولهما اختصارًا للعلم به، أي: اتقى ربَّه، وأصلح عمله، أو اتقى الشِّرك والمعاصي، وأصلح العمل في الإسلام، أو اتَّقى عما نهى اللهُ عنه وعمل بما أمر الله، أو أصلح ما أفسده قبل ذلك، أي: جاء بها على ما يصلح في الدين دون ما لا يصلح، فاستبدل النِّكاح بالسفاح، والحلال بالحرام، والعقود الصحيحة بالفاسدة، والصلاة ،كما ينبغي بالْمُكاء والتَّصدية، أو اقتصارًا، أي: كان من أهل التَّقوى والصلاح من أسلوب فلانٍ، يعطي ويمنع.

﴿**فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**﴾ من وقوع العقوبات لاتقائهم ﴿**وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ بفوات الثواب لإصلاحهم، أو لا خوف مما يستقبل ولا حزن مما فات، وظاهره يمنع وقوع المخافات لهم، كقوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء، ٢١/١٠٣] وإن سلّم ذلك بنحو قوله: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ [الحج ٢/٢٢] فيحمل على العاقبة كقول الطبيب للمريض: «لا بأس عليك ولا خوف، أي: باعتبار المآل».

﴿**وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَٰتِنَا**﴾ التي يجيء بها الرسل للهداية إلى أرشد السُّبل ﴿**وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ**﴾ تكبّروا عن قبولها، والمعنى: استمرّوا على التكذيب؛ فإن الاستكبار يقتضيه فيكون مقابلًا للاتقاء والإصلاح.[3623]

[3619] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن سيرين. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٨٥؛ **الكشاف** للزمخشري، ٩٨/٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٩٩/٩.

[3620] **الكشاف** للزمخشري، ٩٨/٢.

[3621] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٧٩/٦.

[3622] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤٣/٤.

[3623] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤٤/٤.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ الملازمون لها لتكذيبهم ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لاستمرارهم على التّكذيب، ثم إنّ ﴿مَنْ﴾ إن كانت شرطية، فهي مع جوابها مستقلّة للجوابية للشرط الأوّل، وإن كانت موصولةً، فهي مع خبرها والجملة التي بعدها جوابُ الأوّل، ولا بدَّ من تقدير رابطة ﴿فَمَنِ اتَّقَى﴾ منكم والذين كذبوا منكم، وإدخال الفاء في الأوّل دون الثاني للمبالغة في الوعد، والمسامحة في الوعيد؛ لأنها تدلُّ على سببيَّة السَّابق أو للاكتفاء بذكرها في قرينة.

وعن بعض العارفين: «مَن تقدس عمَّا دون الله فى رؤية جلال الله وعظمته، وأصلح ما بينه وبين الله من أنفاس ينفس بها فى غير الشوق إلى الله، وغير ملاحظة جماله وجلاله؛ لانَّ كلَّ نفس يخرج من العبد بغير هذه الملاحظة فاسد، وإصلاحه على العبد واجب بالمراقبة والرعاية والمحافظة عن جميع الخواطر، ومَن كان بهذه الصفة لم يبق عليه من جنايات النَّفس شيء فلا خوف عليه من فوت المقامات، ولا حزن من احتجابه عن المشاهدات».[٣٦٢٤]

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧)﴾

لَمَّا فُهِم من السِّياق غاية قبح الافتراء بمقارنة الشِّرك، ونهاية شنع التَّكذيب باقتضائه الخلود في العذاب، رتَّب عليه بالفاء أن يكون في الظلمة أَبْلَغ ظلمًا؟

﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يقول عليه ما لم يقُلْه. والافتراء: اختراع أمر لا أصلَ له في حقّ مَن يَشينه، ولذلك عدّى بـ«على»[٣٦٢٥]

﴿كَذِبًا﴾ تصريح ما عُلم، وإشارة إلى ما فيه من القبح المفرط بجمعه القبيحين. ومنه الاشراك بأنواعه، وإسناد البنين والبنات، ونحوه: من الأحكام الباطلة عليه.

﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ولم يقل: أو كذَّبه؛ لأنَّ مكذِّبَ كلامه يكذّبه منكِرًا لكونه كلامَه، ولم يقل بما قاله؛ لينتظم المعجزات النقليَّة.[٣٦٢٦] ومنه إنكار القرآن ونبوَّة محمدٍ ونحوه. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿يَنَالُهُمْ﴾ يصل إليهم، وأصله: الوصول إلى الشَّيء فإنْ قيِّد يختصّ لما يضرّ، وإن أطلق يقع على ما ينفع[٣٦٢٧] [**١٧٩**/ظ]

﴿نَصِيبُهُم﴾ أي: حظُّهم ﴿مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ حال كونه مستقرًا منه، وهو للابتداء أي: ممَّا كتب لهم أو من اللَّوح مما أثبت لهم فيه؛ لأنَّ كلَّ ما هو كائن مبيّن فيه، أي: «هؤلاء مع نهاية ظلمهم لا يَحرِمهم في الدنيا، بل يصل إليهم ما قُدِّر لهم من الأرزاق والأعمار»[٣٦٢٨] أو ما يجب على المؤمنين من عدم التَّعدّي على أهل الذِّمة، والإنصاف في حقّهم والذي عنهم، أو أنهم يقع لهم ما سبق من السَّعادة والشَّقاوة، أو يقع عليهم العذاب الموعود من سواد الوجه، وزرقة العين وغير ذلك، ولا يساعده قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا﴾ ملك الموت وأعوانه؛ لأنَّه غايةٌ لنيلهم نصيبهَم واستيفائه، اللّهم إلا أن يراد رسلُ العذاب يوم القيامة و﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي الابتدائية التي يقع بعدها الجملة، ويبتدأ بها وهي ههنا فعليَّة، ومع ذلك لا يخ عن معنى الغاية، فح هل

[٣٦٢٤] **عرائس البيان** للبقلي، ٤٣٥/١.

[٣٦٢٥] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤٤/٤-٤٥.

[٣٦٢٦] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤٥/٤.

[٣٦٢٧] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤٥/٤.

[٣٦٢٨] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤٥/٤.

هي جارَّة يتعلَّق بما قبلها تعلّق حرف الجرّ من حيث المعنى، والجملة في محل الجرِّ بها أم لا، والجمهور على أنه حرف ابتداء فقط.

﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ حالٌ من الرُّسل، أي: متوفّيهم أي: يستوفون أرواحهم ويقبضونها.

قال ابن عباس: يطالبون الكفار بهذه الأسباب[٣٦٢٩] عند الموت على سبيل الزّجر والتوبيخ، أو سيتكلمون عدّتهم عند حشرهم إلى النَّار حتى لا ينفلت منهم أحدٌ.[٣٦٣٠]

و﴿أَيْنَ﴾ استفهامٌ يحصل منه التَّقريع في محلّ الخبر للمبتدأ الَّذي هو ما الموصولة، وحقُّها أن تكون مفصولةً، لكن في الإمام متَّصلة فاتُّبع[٣٦٣١] أي: أين الآلهة التي ﴿كُنْتُمْ﴾ تعبدونها وتُعَفِّرون وجوهكم عندها ترجون المعونة في مثل هذه الشدائد، أو تدعونها بحوائجكم.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ غاية صلة الموصول ﴿قَالُواْ﴾ إقرارًا لخيبتهم عنها ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ غابوا فلا نراهم، مِن ضَلَّ يَضِلُّ ضَلَالًا إذا ضاع وهلك، وذلك عندما ونحو أعلى الاستعانة منهم، ولا ينافي أن يكون معهم في سائر الأوقات على ما يشعر به قوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [الصافات ٣٧/ ٢٢]، أو ما نفعوا لنا ولم يُغنوا عنَّا فكأنهم ضالُّون.

﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ اعترفوا بلفظ الشهادة التي تنبيء عن التَّحقيق عند معاينة الموت والعذاب، وكشف الغطاء ورفع الحجاب.

﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ﴾ ولم ينفعهم ذلك الاعتراف المؤكّد بلفظ الشهادة، وتصريح الكفر بعد الانفهام من قولهم: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾؛لأنه لم يكن في وقته، ولَمَّا ورد عليه ينافي هذا الاعتراف قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام٦/ ٢٣].

أجاب عنه ابن الكمال بأن شهادتهم عند رؤية آلهتهم كما قالوا: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو﴾ [النحل ١٤/ ٨٦]، وإنكارهم عند غيبتهم.[٣٦٣٢]

وأنت خبير بأن ذكر الشهادة عقيب قوله: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ المفتر بغابوا عنالا يساعد هذا الجواب، ثمَّ إنَّه استئناف الإخبار باعترافهم في المآل لما يردُّ عليهم من سوء الحال، أو معطوفٌ على الجواب، وفيه أنَّه إن أراد ﴿قَالُواْ﴾ فليس بجواب، وإن أراد مقوله فالظَّاهر ح شهدنا فيقتدر بأنَّه حكي الثاني على المعنى وفيه ما فيه.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨)﴾

[٣٦٢٩] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٧٦/١٤؛ **اللباب** لابن عادل، ١٠٤/٩.

[٣٦٣٠] ج: الأشياء.

[٣٦٣١] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤٥/٤.

[٣٦٣٢] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤٦/٤.

يقول الله للمفترين والمكذِّبين سخطًا لا إكرامًا، أو تسخيرًاكقوله: ﴿اِهْبِطُوا﴾ [البقرة ٢/ ٣٦]. فدخولهم في النَّار بلا قدرة منهم، واختيار، كما هو الظ من قوله: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ [الملك ٦٧/ ٨]، أو الملك بأمره تع ﴿فِيٓ أُمَمٍ﴾ صلة ﴿ٱدْخُلُواْ﴾، أو حال من الضَّمير أي: كائنين في عدادِهم أو مصاحبين لهم، فإنه يجيء بمعنى «مع».

﴿قَدْ خَلَتْ﴾ صفة ﴿أُمَمٍ﴾ أي: مضت؛ لأنَّ من مضى بالهلاك فقد انتَفَى عن مكانه، فخلا مكانه عنه، إلَّا أنَّه قَلب فنسب الخلوَّ إليه.[٣٦٣٣]

﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ صلة ﴿خَلَتْ﴾أو صفة ﴿أُمَمٍ﴾.

﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ حالٌ من ضمير ﴿خَلَتْ﴾،أو صفةٌ لها وقدّم الجنّ لأصالتهم في الإغواء؛ لأنَّ المقام للتحقير. فلا ينافي كون الإنس أفسد كما يشعر قوله: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام٦/ ١١٢].

﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ متعلّق بـ﴿ٱدْخُلُواْ﴾، فيتعلَّق الحرفان بمعنى يعامل فيدفع بأنَّ الأولى ليست للظرفية، بل للمعيَّة كقوله: ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ [الأحقاف٤٦/١٦]، وبأن الثَّانية بدل اشتمال كقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾النَّارِ﴾ [البروج٨٥/ ٤-٥]، أو حال من الذكر في ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أو في ﴿خَلَتْ﴾على تجويز التعدُّد، أو ظرف له.[٣٦٣٤] وفيه رمز إلى أنَّ الدُّخول في زمرتهم أشدّ عليهم منها، ولذلك قدّم عليها ونحوه في الوعد: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر٨٩/ ٢٩-٣]، ومن ههنا قيل: الجارُ ثم الدَّار.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ من تلك الأمم في النَّار، وهو ظرف لقوله: ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي سبقتها إلى النَّار، وهي أختها في الدين، ولم يقل أخاها لإرادة الأمَّة، ومع ذلك في اعتبار التَّأنيث ازدراءً وإهانةً لهم؛ ولذلك لم يرد في المصدّقين أختها، فكما أنَّ المؤمنين إخوةٌ في الدِّين، فكذا الكفرة.

عن ابن عباس: يلعن الأتباع القادة والرؤساء، إذا دخلوا في العذاب، بعد ما كانوا يتوادُّون في الدُّنيا، يقولون: أنتم أوردتمونا هذه الموارد فلعنكم الله.[٣٦٣٥] فالمشرك يلعن المشرك، فكذا سائر أديان الضلالة،ويرد على ظاهره أن يكون لكلِّ أمَّة داخلة في النار قادة يلعنها.[**١٨٠/و**] فيلزم التَّسلسل على ما هو مقتضى كلمة ﴿كُلَّمَا﴾ اللَّهم إلّا أن يقال: هي داخلة على الأمم المخصوصة منها ما يكون مبدأ.

و﴿حَتّى﴾ هي التي يبتدأ بعدها الكلام، وهي الشرطية ههنا غاية لما قبلها، أي: يدخلون فيها فوجًا فوجًا، ويَلْعَنُ بعضهُم بعضًا إلى أن تداركوا، أي: تلاحقوا، وهو الأصل، فقلبت التاء دالًا، فأدغمت واجتلبت ألف الوصل.

وقرئ على الأصل، وتقطع همزة الوصل على نية الوقوف على ما قبلها إجراءً للوصل مُجرى الوقف، وبإثبات ألف إذا مع سكون الدَّال إجراءً للمنفصل مُجرى المتَّصل، نحو: دابَّة وشابَّة.

و«ادَّرَكُوا» والأصل: «إِذْ تَرَكُوا» افتعال مِن «دَرَكَ» فقُلبت التَّاء دالًا فأدغمت.

[٣٦٣٣] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٤٦.

[٣٦٣٤] ج: لها.

[٣٦٣٥] **مجمع البيان** للطبرسي، ٨/٥٤

﴿**جميعًا**﴾ حالٌ من الضَّمير، أي: مجتمعين، وجواب «إذا» قوله: ﴿**قَالَتْ أُخْرَيهُمْ**﴾ منزلةً، وهم الأتباع، أو دخولًا ﴿**لأُولِيهُمْ**﴾ منزلةً وهم المتبوعون، أو دخولًا والمعنيان متلازمان؛ لأن المضلَّ مقدَّم على الضَّالِّ في الدُّخول، أي: يقولون لأجلهم والشكاية عليهم مخاطبين.

﴿**ربَّنَا هَؤُلَآءِ**﴾ المتبوعون ﴿**أَضَلُّونَا**﴾ بأن دعونا إلى الضَّلال وأمرونا به، كما حُكي عنهم: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ [سبأ الآية ٣٣/٣٤] أو سَنّوه فاقتدينا بهم، وسَعوا في إخفاء الدلائل وتزيين الباطل ﴿**فَآتِهِمْ**﴾ لضلالهم وإضلالهم ﴿**عَذَابًا ضِعْفًا**﴾ صفة أي: مضعفًا أو مضاعفًا. والتضعيف: المثل إلى ما زاد ولا يقتصر على مثلين بدليل قوله: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾ [سبأ الآية ٣٧/٣٤] وأقلُّه عشرة لقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام ١٦٠/٦]، وكذلك الإضعاف والمضاعفة.

وما روي عن الشافعي في رجلٍ أوصى بأن أعطي نصيب ضعف ولده لفلان أنَّه يعطى مثل نصيبه مرَّتين،[٣٦٣٦] فلعلَّه بناء على ما ينفاهم في العرف أو على الأخذ بالمتيقن ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ صفة بعد صفة، أو حالٌ لكونه موصوفًا.

﴿**قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)**﴾

قال الله مجيبًا لسؤالهم على خلاف مَرامهم ﴿لِكُلٍّ﴾ فريق من الأخرى، والأولى وهو خبر مبتدأه ﴿**ضِعْفٌ**﴾ أي:عذابٌ ضعفٌ، فحذف الموصوف، والصِّفة لدلالة المذكور عليهما؛ لأن كلًّا منهما كانوا ضالِّين ومضِلِّين، أمَّا القادة فظ، وأمَّا الأتباع فلأنَّ اتِّخاذهم إياهم رؤسًا يصدرون عن أمرهم مزيد في طغيان القادة كقوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن ٦/٧٢]، أو لأنَّ القادة كفروا وأضلّوا، والأتباع كفروا وقلَّدوا، ولَمَّا كان مضاعفة الجزاء بمضاعفة الجرم لم يرد أنَّ الزِّيادة ظلم، حتى يجاب بأنَّ عذاب الكفار مؤيّد، فكلّ ألم يحصل بعقبه حصول آخر إلى غير النهاية مع أنَّه يرد عليه أنَّه غير مختصّ بصنفٍ من الكفّار دون صنفٍ، ولا بشخصٍ دون شخصٍ فلا يصلح للجواب.

﴿**وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ**﴾ أيُّها السائلون ما لكم؟ أو أيها الفريقان ما لكلّ فريق منكم؟ وذلك؛ كيلا يحصلَ لهم نوعُ سلوةٍ وسرور، فإنه لو علم كلّ منهم ما بالأخرى بسبب إضلالهم إياهم لكان فيه نوعُ تسلٍّ وخفَّةٍ،[٣٦٣٧] أو يا أهل الدنيا لا تعلمون ما لهم.

ففيه تهويل له وإشعار بعظمه، فيكون الاستدراك منفصلًا، كما في قراءة عاصم برواية أبي بكر بالياء،[٣٦٣٨] أي: لا يعلم السائلون أو الطائفتان قدر ما لهم يا أهل الدنيا، ويجوز أن يحمل على كلّ؛ لأنه وإن كان للمخاطبين فهو اسم موضوع للغيبة، فحملٌ على اللَّفظ دون المعنى فاتصل.

﴿**وَقَالَتْ أُولاَهُمْ**﴾ مخاطبين ﴿**لأُخْرَاهُمْ**﴾ لَمَّا سمعوا الله سوى بينهم ﴿**فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا**﴾ الجار إن متعلّقان بـ﴿**كَانَ**﴾ إنْ تمّ، وواحد منهما خبرُه إن نقص، والاسم قوله ﴿**مِن فَضْلٍ**﴾ و﴿**مِن**﴾ للاستغراق فعطفوا هذا الكلام على قول الله، أي: رتّبوه عليه بمعنى: أنَّ القادة لَمَّا سمعوا قوله تع: ﴿**لِكُلٍّ ضِعْفٌ**﴾ قالوا للسَّفلة: ما لكم من فضل علينا؟ ولو أريد حقيقة العطف لزم أن يكون هذا مقول قال، وإذاتحقَّقت فالمعنى لقالوا: فما لكم علينا من فضلٍ؟ وإنَّا وإيَّاكم متساوون في

[٣٦٣٦] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٨٧/١٤.

[٣٦٣٧] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤٨/٤.

[٣٦٣٨] **النشر** لابن الجزري، ٢٠٢/١.

الضَّلال والإضلال واستحقاق النِّكال، وما قيل قول القادة من نفي الفضل كذب كيف وهم ضالُّون مضلُّون، ويجوز الكذب منهم يوم القيامة يرده كونُه مرتَّبًا على حكم الله، أو قالوا لهم ما دعاكم إليه تع: إنَّا أضللناكم وسؤالكم ما سئلتم، فما كان لكم علينا فضل في الدنيا بسبب اتِّباعكم لنا وموافقتكم في الكفر؛ لأنَّا ما حملناكم عليه إجبارًا، بل كفرتم وضللتم اختيارًا فح عطفوا كلامهم على محذوفٍ دلَّ عليه السَّابق فعلى هذا فالمناسب أن يكون قوله: ﴿**فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ**﴾ من كلام الأولى للأخرى على سبيل التشفي، وأن الذَّوق بسبب ما كسبتم لا بأنَّا أَضلَلْناكم، وعلى الأوَّل إمَّا أن يكون كذلك، أو يكون من قول البعض للبَعض بعد قطع التَّخاصم، وانقطاع رجاء الخلاص، أو يكون من قول الله لهم جميعًا، أي: فعلت أو فأقول لهم ونحوه قوله: ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر ٣٧/٥٤]، و«اللام» للعهد أو للجنس المعد للكفرة الذي لا يعلم كنهه لعظمه إلا الله.

اللَّهمَّ أجرنا من عذابك بحرمة أنبيائك. و«الباء» للسببية و«ما» مصدريَّةٌ أو موصولةٌ، وكنتم إشارة إلى الإصرار والاستمرار فيما كسبوا من تعدي حدوده، وتكذيب آياته وكذبهم عليه.

وعن النبي صلى الله [**١٨٠**/ظ] عليه وسلم: «تقول جهنم ائتني بأهلي وبما وعدتني قد كثرت سلاسلي وأغلالي وسعيري وحميمي وغساقي وغسليني وقد بعد قعري واشتد حري، فائتني ما وعدتني قال لك مشرك ومشركة وخبيث وخبيثة، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب قالت قد رضيت».[٣٦٣٩]

﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠)**﴾

من تمام وعيد الكفار. والآيات تعمُّ ما يدلُّ على أصول الدِّين وأحكام الشرع، كالدلائل الدَّالة على وجود الصَّانع الحكيم، ووحدته واستجماعه لجميع الصفات اللائقة بالألوهيَّة من الثبوتيَّة والسلبيَّة، كالدلائل الدَّالة على صحة النبوات، وصحة أمر المعاد وما يتعلَّق بهما، والمشركون يكذِّبون جميع ذلك، ويستكبرون، أي يترفعون بالباطل عن اتِّباعها، والعمل بمقتضاها.[٣٦٤٠]

وقيل: الدهريَّة ينكرون الدَّلائل الدَّالّة على الذَّات والصِّفات، والمشركون ينكرون دلائل التوحيد، ومنكروا النُّبوات دلائلها، ومنكروا محمد دلائل صحَّة نبوَّته، ومنكرو المعاد على الدلائل الدَّالة عليه.[٣٦٤١]

﴿**لاَ تُفَتَّحُ**﴾ في موضع الرفع خبر ﴿إنَّ﴾. ﴿لَهُمْ﴾ متعلِّق به ولَمَّا كان بمنطوقه وعيدًا لهم كان بمفهومه وعدًا للمؤمنين، فبالنَّظر إلى المفهوم جاء بصيغة الجمع في قوله: ﴿**أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ**﴾. فاضمحلَّ السؤال بأنَّ: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾[ص ٥٠/٣٨] في حقِّ المؤمنين يدلُّ على فتح جميع أبوابها، فعلى هذا القياس لا يلزم من نفي فتح الأبواب نفي فتح شيء منها.

ولم يحتج إلى الجواب بأنَّ النَّفي للفعل دون القيد، أي: لا تفتح لأعمالهم ولا لدعائهم مأخوذ من قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر ١٠/٣٥]،[٣٦٤٢] أو لأرواحهم إذا قبضت فلا تصل إلى مواضع بهجة الأرواح وأماكن سعادتها.

[٣٦٣٩] **ضعيفالترغيب والترهيب** للألباني، ٤٣١/٢.

[٣٦٤٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٢١٧/٤.

[٣٦٤١] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٨٠/١٤؛ **اللباب** لابن عادل، ١١١/٩.

قال النبي[٣٦٤٣] عليه السلام: «إنَّ رُوحَ المؤْمِنِ يُعْرَجُ بِها إلى السَّماءِ فَيُسْتَفْتَحُ لَها، فَيُقالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ الَّتي كانَتْ في الجَسَدِ الطَّيِّبِ، ويُقالُ لَها ذَلِكَ حَتّى تَنْتَهِيَ إلى السَّماءِ السّابِعَةِ، ويُسْتَفْتَحُ لِرُوحِ الكافِرِ فَيُقالُ لَها: ارْجِعِي ذَمِيمَةً، فَإنَّهُ لا تُفْتَحُ لَكَ أبْوابُ السَّماءِ».[٣٦٤٤]

وفي حديثالْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: أنه عليه ذكر قبض روح الكافر، وقال: «وَيَخْرُجَ مَعهَا رِيحٌ كَأَنْتَنِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَاوَلَا يَمُرُّونَ عَلَى مَلأ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هذه الرُّوحُ الْخَبِيثة؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانٌ ابْنُ فُلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِيسمي بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَنْتَهوا بِها إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُون فَلَا يُفْتَحُ لَهُم. ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف، ٧/ ٤٠] الآية»،[٣٦٤٥]أو لدخولهم الجنة؛ فإنَّ الجنَّة في السماء قال تع: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات٥١/ ٢٢]، أي: الجنّة، وضعف بذكر عدم دخول الجنَّة بعده فيكون تكريرًا، وقوّى بأنه نفي التطرّق إليها أوّلًا، ثم نفى دخولها ولا تكرير أو لنزول البركات عليهم، ووصول الخيرات إليهم من قوله تع: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر ٥٤/ ١١]، ورجّح ذلك بأنه أفاد بما بعده أنه ينسدّ عليهم، خير الدّارين وينغلق سبيل بركة المنزلين، ثم إنَّ التاء في﴿تُفَتَّحُ﴾ لتأنيث الأبواب والتضعيف لكثرتها.

وقرأ أبو عمرو بالتخفيف[٣٦٤٦] فيتحمل التكثير، وغيره والكسائي به وبالياء؛[٣٦٤٧] لأنَّ التأنيث غير حقيقي والفعل مقدَّم مع وقوع الفصل.

وقرئ على البناء للفاعل ونصب «الأبواب» بالتاء[٣٦٤٨] على أن الفعل لـ«لآيات»، وبالياء[٣٦٤٩] على أن الفعل لله، وعلى فتح الياء ونصب الأبواب، والأصل تتفتح فحذفت إحداهما.[٣٦٥٠]

وقال الإمام الرازي: وهذه الآية تدلُّ على أن الأرواح إنَّما تكون سعيدةً، إمَّا بأن يَنزلَ عليها من السَّماء أنواعُ البركات، أو بأن يصعدَ أعمالُ تلك الأرواح إلى السَّموات، وذلك يدلُّ على أنَّ السموات بَهجة الأرواح وأماكن سعادتها، ومنها تَنزلُ الخيراتُ والبركاتُ، وإليها تصعدُ الأرواحُ حالَ فوزها بكمال السعادات، ولَمَّا كان الأمرُ كذلك كان نفي فتح أبواب السَّماء لهم من أعظم أنواع الوعيد والتَّشديد، وأفظع أصناف التهديد.[٣٦٥١]

فنسئل الله العظيم أن لا يُحرمنا من بركات العالم الأعلى، ويحفظنا من نكبات المنزل الأدنى.

﴿وَلاَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِوَكَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

[٣٦٤٢]**اللباب** لابن عادل، ١١٢/٩.

[٣٦٤٣] ج– النبي.

[٣٦٤٤]**مفاتيح الغيب** للرازي، ٨١/١٤.

[٣٦٤٥] تفسير ابن كثير

[٣٦٤٦]أي: «لَا تُفْتَحُ». **النشر** لابن الجزري، ٢٠٢/١.

[٣٦٤٧]أي: «لَا يُفْتَحُ». **النشر** لابن الجزري، ٢٠٢/١.

[٣٦٤٨]أي: «لَا يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ». وهي قراءة شاذَة، مروية عن اليزيدي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٦. ٢٠٢/١.

[٣٦٤٩]أي: «لَا يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ ٱلسَّمَآءِ». وهي قراءة شاذَة. **الكشاف** للزمخشري، ٩٩/٢.

[٣٦٥٠]**مفاتيح الغيب** للرازي، ٨١/١٤؛ **الكشاف** للزمخشري، ٩٩/٢؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ١١١/٩.

[٣٦٥١]**مفاتيح الغيب** للرازي، ٨١/١٤.

استحال دخولهم فيها بإحالته على المحال وهو دخول ما هو مثلٌ في العِظَم فيما هو مثل في الضيق، فإن الجَمَل مثل في عظَم الجِرم، قال:

لا بأسَ بالقَـومِ مِـن طـولٍ ومِـن عِظَـمٍ　　جســمُ الجِمــال، وأحــلامُ العصــافير
كــأنهم قصــبٌ جُــوفٌ مُكاسِــرُهُ　　مُثَقَّــبٌ فيـــه أرواحُ الأَعَاصِــيرِ[٣٦٥٢]

«جُوفٌ»: جمعُ أجوف، «الأرواحُ»: جمع رِيح، أضيف إلى الأعاصير على وجه البيان.

وكان المنذر يسمع شِقَّة بْن ضَمْرَةَ ويعجِبه ما يبلغُه عنه، فلمَّا رآه استحقَره، وقال: تسمع بالْمُعَيْدِيِّ خيرٌ من أن تراه، قال: إنما المرء بأصغريه: لسانه وقلبه، إن قال قال بلسانه، وإن قاتلَ قاتل بجنانه ، فأعجب المنذر كلامُه، وسرَّه كل ما رآى منه.[٣٦٥٣]

وثقبة الإبرة مَثَلٌ في ضيق المسلَك. يقال: أضيَقُ من خرْتِ الإبرة، وقالوا للدَّليل الماهر: خِرِّيت، لاهتدائه في المضايق المشبَّهة بأَخرات الإبَر.[٣٦٥٤]

وقرئ: «الجَمْل»[٣٦٥٥] بالفتح والإسكان وهو لُغَيّة، وليس مخففًا من المفتوح لخفته.[**١٨١**/و]

و«الجُمُل»[٣٦٥٦] بضمتين على الجمع، نحو: أُسُد وأَسَد.

و«الجُمْل»[٣٦٥٧] بالضمّ والسُّكون تخفيف منه.

و«الجُمَّل»[٣٦٥٨] بالضمّ والفتح وتشديد الميم وتخفيفها، وكلاهما: الحبل الغليظ من القِنَّب، وقيل: حبل السفينة، وقد حمل ما عدا المشهورة على هذا المعنى، أيضًا، وذلك مناسب لذكر سمّ الخياط، وبه استدلّ على الحمل عليه لكن الأوّل أقوى لما علمت أنَّ فيه مثلين، وبه يحصل التّناسب بينهما. وفيه ظهور الاستحالة والكلام سبق له، ومن ذلك لَمَّا سئل ابن مسعود عن الجَمَل، فقال: زوج الحمل، استجهالًا للسائل، وإشارةً إلى أن طلب معنى آخر تكلُّف.[٣٦٥٩] ونظير ذلك قول الشاعر:

إذا شَــاب الغــرابُ أتيــتُ أهلِــي　　وصـــار القـــارُ كـــالَّلبنِ الحْلِيــبِ[٣٦٦٠]

والولوج: الدخول في مَضيقٍ، فهو أخصُّ من مطلقه، ومنه: الوَلِيجة لصاحب السِرّ، وسمُّ الخياط ثقب الإِبرة.

[٣٦٥٢] البيت لحسان بن ثابت. **ديوان حسان بن ثابت**، ص ٢١٤؛ **الكشاف** للزمخشري، ١٠٠/٢؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ١١٢/٩؛ **خزانة الأدب** للبغدادي، ٤٨٥/١.

[٣٦٥٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٤ظ.

[٣٦٥٤] **الكشاف** للزمخشري، ٩٩/٢-١٠٠.

[٣٦٥٥] قراءة شاذَة، مرويّة عن أبي السّمّال. **المحتسب** لابن جنّي، ٢٤٩/١؛ **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه ص ٤٨.

[٣٦٥٦]. **المحتسب** لابن جنّي، ٢٤٩/١.

[٣٦٥٧] **المحتسب** لابن جنّي، ٢٤٩/١.

[٣٦٥٨] **المحتسب** لابن جنّي، ٢٤٩/١.

[٣٦٥٩] **الكشاف** للزمخشري، ٩٩/٢-١٠٠.

[٣٦٦٠] **اللباب** لابن عادل، ١١٣/٩.

وقرئ: بضمّ السِّين وكسرها،[٣٦٦١] ويقال لكلّ ثقبٍ ضيقٍ، وقيل: كلّ ثقبٍ في البدن، والجمع «سُمُومٌ».

و«السُّمُّ»: القاتل، سمّي به للطفه، وتأثيره في المسامّ، فهو مصدر سمّي به الفاعل، ومنه «السَّامَّة» للخاصة. والسُّموم الرِّيح الحارَّة؛ لأنَّها تؤثر كالسّم. والخياط والمخيط التي يخاط بها فِعَال ومِفْعل كإِزَارٍ ومِئْزَرٍ.[٣٦٦٢]

والكاف: في محلِّ النَّصب على أنَّه نعتٌ مصدر محذوف، أي: ومثل ذلك الجزاء الفظيع والحرمان المنيع.

﴿**نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ**﴾ جزاءٌ مثل ما وصف، وهذا من باب الإظهار مقام الإضمار للتَّسجيل عليهم بالجرم والدَّلالة على أنهم أحقَّاء لما ذكر بسبب الجرم، أو من باب التَّذييل للدَّلالة أنَّ كلّ مجرمٍ فله ذلك إن أصرَّ ولم يتب، فيوكّد المذيَّل بإبراز حكمه في صورةٍ كلّيّة، كما في قوله: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل ٣٤/٢٧]، أي: كلُّ مَن مَلَك دأبُه الإفساد، عند دخوله أرض العدوّ.[٣٦٦٣] هكذا قيل لكن تأييد الآيات أن التذيل غير الاظه[٣٦٦٤] ولا يرد عليه عصاة المؤمنين؛ لأنه مقيد بعدم العفو والتَّجاوز تجاوز الله عنَّا بحرمة الأنبياء والمرسلين، وبجاه سيِّد العالمين، أو لأنَّ الجرم محمول على الجرم الكامل وهو الكفر والتّكذيب، ويدلُّ عليه كون سباق الكلام في المغترين والمكذّبين وأنه إعادةتذكرهم.

«عن أَبي سعيدٍ الخُدريّ رضيَ اللَّهُ عنه، عن النبيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم قَالَ: «احْتَجَّتِ الجَنَّةُ والنَّار، فقالتِ النَّارُ: فيَّ الجَبَّارُونَ والمتَكَبِّرُونَ، وقالَتِ الجنَّةُ: فيَّ فقراءُ المسلمينَ، وضعفاؤُهم. فَقَضَى اللهُ بيْنَهُمَا: إِنَّكِ الجَنَّةُ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبادِي، وإِنَّكِ النَّارُ عذَابي، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، ولِكِلَيْكُما عليَّ مِلْؤُها»[٣٦٦٥] رواهُ مسلم.

﴿**لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١)**﴾

لَمَّابيَّن حرمانهم عن الجنان عقبه باقتحامهم النّيران، والجملةتحتمل الحال والاستئناف، و﴿**جَهَنَّمَ**﴾ غير منصرف للتَّأنيث والتَّعريف من الجهومة وهي الغلظ، يقال: رجل جهم الوجهِ، أي: غليظه، فسميت به لغلظ أمره في العذاب.[٣٦٦٦] حال من ﴿مِهَادٌ﴾؛ لأنه لو تأخر عنه لَكان صفة، أو متعلِّق بمعنى اللّام وهو مبتدأ والظَّرف خبر، أو فاعل له فِعَالٌ بمعنى فاعل، أو مفعول.

أو جمع مهْدٍ، وهو الوطاء الذي يُفترش، ومنه: مَهْد الصَّبي، وتمهيد الأمور: تسويتُها وإصلاحها، فهو على طريقة قوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران ٢١/٣]، ولَمَّا فيه من التَّهكم آثره على لفظ الفراش مع أنَّ فيه صنعة التجنيس؛ ترجيحًا للمزيَّة المعنويَّة على اللَّفظيَّة.[٣٦٦٧]

﴿**وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ**﴾ جملةٌ اسميَّةٌ معطوفة على الجملة التي تليها، وهي: جمع غاشية، وهي لباس مجلِّل، والتَّنكير فيها وفي ﴿**مِهَادٌ**﴾ للتعظيم والتهويل،[٣٦٦٨] ولاختصاصه بجهة التَّحت لم يقيّد به، ولعدم اختصاصها بجهة الفوق قيّد به؛ لكونه مرادًا

[٣٦٦١] قراءة شاذَة، مرويّة عن أبي السّمّال. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه ص ٤٩.

[٣٦٦٢] **اللباب** لابن عادل، ١١٤/٩.

[٣٦٦٣] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٨٦/٦.

[٣٦٦٤] ج- هكذا قيل لكن تأييد الآيات أن التذيل غير الاظه.

[٣٦٦٥] **صحيح مسلم**، ٢١٨٧/٤ (٢٨٤٧)؛ **رياض الصالحين**، ١٠٤ (٢٥٤).

[٣٦٦٦] **اللباب** لابن عادل، ١١٥/٩.

[٣٦٦٧] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٥١/٤.

وذكرهما في قوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر١٦/٣٩]، لتعيين الجهتين في الموضعين لقيام الحاجة إليه، وعدم ذكر من جهنم في الثاني للاكتفاء بذكره في الأوَّل، وذكر فيه ما لم يذكر في الثاني، وذكر فيه ما لم يذكر في الأوَّل، والمراد أنَّ النار لا تفارق منهم شيئًا، ويشتمل عليهم كما اشتملوا في الدُّنيا على الكفر.

فلعلَّ قوله ع م: «مِنْهُمْ مَن تَأْخُذُهُ النّارُ إلى كَعْبَيْهِ، ومِنْهُمْ مَن تَأْخُذُهُ إلى رُكْبَتَيْهِ، ومِنْهُمْ مَن تَأْخُذُهُ إلى حُجْزَتِهِ، ومِنْهُمْ مَن تَأْخُذُهُ إلى تَرْقُوَتِهِ».[٣٦٦٩] محموَّل على عصاة الموحِّدين يرشدك إليه قوله ع م: «إن الله إذا قضى بين خلقه و زادت حسنات العبد دخل الجنة، وإن استوت حسناته و سيئاته حُبس على الصراط أربعين سنة، ثم بعد ذلك يدخل الجنة، وإن زادت سيئاته على حسناته دخل النار، فيعذّبون على قدر أعمالهم. فمنهم من تنتهي له النار إلى كعبيه، و منهم من تنتهي إلى ركبتيه، و منهم من تنتهي إلى وسطه»،[٣٦٧٠] ثم إن الجمع على وزن فواعل، إذا كان منقوصًا حذف لأمه غير منصرف عند الجمهور والتنوين ليس للتَّمكن، بل عوض عن الياء أو عن حركتها؛ فإنَّ أصله «غواشي» فاستثقلت الضَّمة فحذفت، ثم حذفت الياء اكتفاءً بالكسرة؛ فإنَّهم لَمَّا حذفوه في المفرد اكتفاءً، نحو: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد ٩/١٣] ففي الجمع أولى خصوصًا في أعلى الجموع، ومنصرف عند البعض؛ لأنه لَمَّا حذف نقص عن مفاعل وهو السَّبب في منع الصرف، فصار نحو: جَنَاحٍ فلحقه التَّنوين كما يلحق نحو: فراشٌ.[٣٦٧١]

وقرئ: «غَوَاشٌ»[٣٦٧٢]بالرفع لإسقاط [**١٨١**/ظ] الياء عن حيِّز الاعتبار في حقِّ الإعراب، وفي حقِّ منع الصَّرف وإجراء الإعراب على ما قبله يجعله آخرًا، وهذا يؤيّد أنَّ الياء حذفت حذفًا، وأنَّ التَّنوين فيه تنوين صرف، والكاف في محلِّ النَّصب على أنَّه صفة مصدر محذوفٍ، ومثل ذلك الجزاء الفظيع.

﴿**نَجْزِي الظَّالِمِينَ**﴾ جزاء، وهذا إظهار أو تذييل للتأكيد على ما مرَّ وجعله من باب التَّكرير ليس بظاهر، «وذكر الجرم تارةً والظّلم أخرى للإشعار بأن المكذّبين المستكبرين لهم إنصاف بتلك الأوصاف الشَّنيعة، وذكر الجرْم مع الحرمان من الجنَّة، والظُّلم مع التَّعذيب بالنَّار، تنبيهٌ على أنّه أعظم الإجرام وأقبحها»،[٣٦٧٣] وكما أنَّ الأنسب أن يحمل الجرم على الكفر والتَّكذيب، فكذا الأنسب أن يحمل الظُّلم عليه أيضًا على ما يقتضيه السباق والسياق والمساق.

ولَمَّا ذكر الكفار وبيَّن أعمالهم الخبيثة الموصلة إلى العقاب السّرمد ليكون تهديدًا للمصرّين واعتبارًا للمسلمين، ولا يجترؤوا على ما اجترأ هؤلاء إذا سمعوا هوانهم قفاه ببشارة عباده المؤمنين الصالحين تنبيهًا على مكانهم منه؛ وترغيبًا للسَّامعين في حيازة فضلهم، وتحصيل ما يوصل إلى درجاتهم، وكراماتهم فقال:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢)﴾

وقيل: إنهم الفريق المذكورون في قوله: ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾ [الأعراف ٣٥/٧] فإنما أعاد ليرتّب عليه، وصف حالهم في الجنَّة، وحسن كلامهم، كما أنَّه أعاد ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ [الأعراف ٤٠/٧] بالتَّأكدات البالغة؛ لئلا يتوهّم من الخلود

[٣٦٦٨] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٥١/٤.

[٣٦٦٩] **صحيح مسلم** ٢٨٤٥.

[٣٦٧٠] **التذكرة في احوال الموتى و امور الاخرة** للقرطبي، ص ٣١٤.

[٣٦٧١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٢١٨/٤.

[٣٦٧٢] قراءة شاذَة، مرويّة عن أبي رجاء. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه ص ٤٩.

[٣٦٧٣] **أنوار التنزيل وأسرارا التأويل** للبيضاوي، ٥٤٤/١. **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٨٦/٦-٣٨٧.

المكث الطويل، ويترتب عليه شدائد العذاب التي لم يذكر هنا إشارة[٣٦٧٤] بالإيمان إلى كمال النَّفس بحسب القوة النَّظرية بمعرفة البارئ تع بقدر الطَّاقة وما يتعلَّق بها؛ فإن كمالها معرفة الحقائق كما هي بقدر الوُسع، وأجلّها معرفة الله ذي الجلال والإكرام، وبالعمل الصَّالح إلى كمالها بحسب القوَّة العمليَّة بطاعة الله تع، فإن كمالها القيام بالأمور كما ينبغي، وفعل الخيرات وأفضلها خدمة الله وجلالة الأولى، وتوقّف صحة الثانية عليها قدَّمها.

﴿**لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ جملةٌ اعتراضةٌ بين المبتدأ والخبر، للترغيب في اكتساب النعيم المقيم بما يسعُه طاقتُهم ويسهُل عليهم.[٣٦٧٥] فإن ترتُّبَ الحكم الذي هو الخلود في النَّعيم على الموصول والصِّلة سيَّما مع توسيط اسم الإشارة لما دلَّ على اكتسابه بما رتَّب عليه من الصِّفات، فإذا عُلم أنَّ مبناها على الوُسْع والسُّهولة لا الضِّيق والصُّعوبة. زادت الرغبة في ذلك الاكتساب وغلت الهمة في سلوك طريق الصَّواب.

وقال ابن الكمال: للإشارة أوَّلًا إلى أنَّ المذكور في معرض الشَّرط الأعمالُ التكليفية، وثانيًا بأنه غير معتبَر في حقِّ غير المكلَّفين والمعذورين،[٣٦٧٦] أو خبر المبتدأ بتقدير العائد أي: لا نكلِّف نفسًا منهم إلا وُسعها، فحذف للعلم به فح قوله: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ**﴾ مبتدأ ﴿**أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ**﴾ خبر، والجملة خبر بعد خبر، ولَمَّا كان ملاك السعادة الخلود فإنَّ كلَّ عيش لا بقاء له عين، ألم قال: ﴿**هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾.

والنزع: قلع الشَّيء عن مكانه إمَّا بالتحويل أو بالإعدام ﴿**مِنْ غِلٍّ**﴾ حالٌ من «ما»، والعامل الفعل أو المستكنُّ في الظَّرف فهو العامل، والغلُّ: الغشُّ والحِقد والأذية والبُغض وسمّى به لوصوله إلى القلب بلطفه، ومنه: الغلول وهو: الوصول بالحيلَة إلى الذُّنوب الدقيقة.

والغُلُولُ: الأخذ في خُفْيةٍ، يقال: انغلَّ في الشيء، وتغلغل فيه إذا دخل بلطافته، وجمعه: غِلَال.

وقيل: مأخوذ من الغلالة، فكأنه تدرَّع ولبس الحِقْد والخيانة حتى صار إليه كالغلالة.[٣٦٧٧]

والصدر ما يصدر من جهة التَّدبير والرَّأي، ومنه سمي الرئيس الصَّدر أي: يخرج من قلوبهم أسباب الغلِّ بتصفية الطّباع عمَّا يحصل منه، وقطع الوساوس عنها، لاستغراق الشيطان في النِّيران، وعدم فراغه لإلقاء الوساوس في قلوب الإنسان، فلا يفوض لهم الغلُّ والحسد مما رأوا من تفاوت الدرجات، وتنوّع الكرامات، وليس هذا ببعيد من حال أهل الجنة، فإن أولياء الله في الدنيا أيضًا بهذا المثابة يحسن توفيقه ونور عنايته كلُّ منهم قد قنع بما حصل له، وهذا نتيجة التّسليم والرضا بالقضاء، والتسليم لأمر ربِّ الأرض والسَّماء، فيموتون على ذلك فيحرون كذلك، فلا يرد كيف يفعل عدم الميل ودفع النعم مع شهادة التفاضل، أو يطهّرها من الغلال الواقعة بينهم في الدنيا، ويزيل عنها الأحقاد الصادرة فيها يرشدك الله قوله: ع م «الغِلُّ من بابِ الجَنَّةِ كَمُبَارَكِ الْإِبِلِ قد نَزَعَهُ الله من قلوبِ المؤمنين».[٣٦٧٨]وقول عليٍّ رض: «أرجوا أن أكون أنا، وعثمان وطلحة والزبير منهم».[٣٦٧٩]

[٣٦٧٤] ج- هذا أشار.

[٣٦٧٥]**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٤٤/١.

[٣٦٧٦]**تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٥٢/٤.

[٣٦٧٧]**اللباب** لابن عادل، ١١٧/٩.

[٣٦٧٨]**صفة الجنة** لأبي نعيم، ١٤٦/٢ (٢٩٣).

[٣٦٧٩]**الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٢٢٢/٩.

فأنكر عليه بعضهم فقال: إن لم نكن نحن فمن يكون يعني: إن الذين كانوا على عهده عليه السلام لم يكن في قلوبهم الغلُّ حتى ينزع عنهم.

وقول مقاتل: إن أهل الجنة لَمَّا انتهوا إلى باب الجنة إذا هم بشجرة تنبع من أصل ساقها عينان، فيميلون إلى إحداهما فيشربون [**١٨٢**/و] منها، فيخرج الله ما كان في أجوافهم من غلٍّ، فيطهّر أجوافهم من غلٍّ[٣٦٨٠] بذلك، وهو الشراب الطُّهور، ثم يميلون إلى الأخرى، فيغتسلون منها، فيطيّب أجسادهم،[٣٦٨١] وبالجملة ففيه كمال اللّذة فإن النّعم وإن جلّت لايصفوا بالحسد، وهذا في مقابلة يرى أهل النار بعضهم من بعض.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾

حالٌ من الضَّمير **﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾** لأنها تأتي من المضاف إليه، إذا كان المضاف جزءًا منه لا لما ذكر من أنَّ العامل معنى الإضافة، حتى يرد أنَّ عمله إذا أمكن تجريد المضاف، وأعماله فيما بعده رفعًا أو نصبًا، بل لأنَّ العمل في الحال هو العامل في المضاف، وإن كانت الحال ليست منه؛ لأنهما لما كانا متضايفين، وكان مع ذلك شيئًا واحدًا ساغ ذلك، والمعنى: أنهم في حال كونهم في الجنَّة على الأنهار أَوِدَّاء لا غلَّ في صدورهم، ففيه إشارةٌ إلى ابتهاجهم والتَّذاذهم،[٣٦٨٢] أو استئناف يبيّن أحوالهم؛ فإن في جريانها لذَّة الباصرة، وبهجة البصيرة، واستمتاع الحواس، وكمال الاستيناس؛ فإن الجنان والرياض إن لم تجر فيها العيون كان السرور مفقودًا، والحظُّ الأوفر مطرودًا، ومن ثمه لا تبتهج النفس ولا تنشط إلا به، ولذلك جرى عادة الكتاب الكريم بذكر جريانها عند ذكر النعيم، والله تع: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص ٢٨/ ٧٠]، ولذلك حمدوه هناك كما حمدوه ههنا. قال عليه السلام: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ والتَّحْمِيدَ، كما تُلْهَمُونَ النَّفَسَ».[٣٦٨٣] ثم وصفوه بما استحقَّ ذلك الحمد بالوصف المناسب للمقام، وهو بدايته إيّاهم ودلالته وإرشاده إلى ما جزائه هذا النعيم وهو الإيمان والعمل، وفيه تنبيهٌ على أنَّهما وإن كانا في الوُسع والطَّاقة لا يحصلان إلا بالتَّوفيق والهداية، أو إلى طريق الجنة والوصول إلى تلك المنزلة السَّنيَّة، ثم قرَّروا ذلك وحقَّقوه بنفي الاهتداء عنهم إلا بهداية لله تع.[٣٦٨٤]

و«اللام» لتوكيد النَّفي مع ما في حيّزها خبر «كان»، والفعل منصوبٌ به، وعند البصريين متعلّق بالمحذوف وهو خبر «كان» وانتصابه بإضمار «أن» أي: وما كنَّا مريدين لأن نهتديَ أي: للاهتداء يعني: وما كان يصحُّ ويستقيم لنا أن نكون من المهتدين إلى ذلك مع يُسرِهِ **﴿لَوْلَآ أَنْ هَدَانَا ٱللَّهُ﴾** «أن» مع[٣٦٨٥] ما في حيّزها في محلّ رفع بالابتداء، والخبر محذوف، وكذا جواب «**لَوْلَآ**» مدلولٌ عليه بما قبله، أي: «لولا هداية الله موجودة ما اهتدينا»،[٣٦٨٦] و«الواو» للحال أو للعطف أو للاستئناف.

[٣٦٨٠] ج – من غلٍّ.

[٣٦٨١] **التيسير في التفسير** للنسفي، ٣٤٩/٦–٣٥٠؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٢٢٠/٤.

[٣٦٨٢] ج + باجتماعهم.

[٣٦٨٣] **صحيح مسلم**، ٢١٨٠/١ (٢٨٣٥).

[٣٦٨٤] ج: بهدايته تعالى.

[٣٦٨٥] ج: و.

[٣٦٨٦] **اللباب** لابن عادل، ١١٩/٩.

وقرأ: ابن عامر بغير واو[٣٦٨٧] على أنَّها مبينة للأولى. فترك لكمال الاتّصال. ففيه أنَّ الهداية منه ومن لم يهده لم يهتد مع ما في التَّأكيد، وحذف الجواب واشتمال الكمال على ذكر الهداية والاهتداء على التَّكرير تخصيصًا للهداية بالله والاهتداء بهم مبالغات، لا يخفى وما قاله المعتزلة: إن الهداية والإرشاد وقع في حقِ الجميع، وإنما حصل الامتياز بين المحقِ والمبطل بسعي نفسه، فخارج عن الظَّاهر وعن الصَّواب؛ لأنه يقتضي حينئذ أن يحمدوا أنفسهم؛ لِمَا حصلوا لها ما أوصل إليها.[٣٦٨٨]

فصَرف المصنِّف الهداية إلى اللُّطف تحريفٌ، وانظر أيُّ المعنيين أقربُ إلى لفظ: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَانَا﴾المقول في دار الجزاء، بعد تحقّق الحقِ، وهم في مقعد صدقٍ.[٣٦٨٩]

﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا﴾ جواب قسمٍ مقدَّرٍ، والباء ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ للتَّعدية فهو مفعول، أو للملابسة وهو حالٌ أي: ملتبسين به.

وجعل المصنّف الجملة القَسَمية علَّةً لهدايتهم، حيث قال: وكان مجيئهم لنا لُطفًا وتنبيهًا على الاهتداء، فاهتدينا،[٣٦٩٠] وهي إلى إثبات صدق وعدهم بالجنَّة أقرب وأولى؛ لتبْقَى الهدايةُ منْحَةً من الله، فضلاً منه؛ لأن الهداية عقليٌّ، ونبَّهْنا عليها،[٣٦٩١] نعم يجوز على أصلنا أن يكون ذلك السبب هداية الله تعالى.

ثمَّ إنهم يقولون ذلك تبجُّحًا بأن علموه علم اليقين صار لهم عين اليقين، واغتباطًا بما صادفوا، وسرورًا بما شاهدوا، وتلذّذًا بهذا الكلام، لا تكلّفًا في دار السلام.[٣٦٩٢]

وقال ابن عطاء: لَمَّا نظروا إلى هداية الحقِ إياهم، نسوا أفعالهم وطاعاتهم، وعرفوا المنَّة عليهم فقاموا مقام الشُّكر على نعم الله الجليلة، ولم ينظروا إلى أعمالهم القليلة العليلة.[٣٦٩٣]

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

النّداء الدُّعاء على طريقة: يا فلان، كأنه قيل لهم: أيُّها المؤمنون،[٣٦٩٤] ينادون رضاءً بما قالوا، وإكرامًا بما اعترفوا.

و﴿أَنْ﴾ مفسِّرة؛ لأنَّ النِّداء في معنى القول، ولا[٣٦٩٥]محلَّ لها، أو مخفّفة، واسمها ضمير الشأن، فهي وما بعدها في محلّ نصب أو جرّ؛ لأنَّ الأصل «بأن تِلْكُمْ».[٣٦٩٦]

والنّداء: إذا رأوها من بعيد لكن تبعده ترتبه على ما قبله، ف﴿تِلْكُمُ﴾ إشارة إليه لبعده، وهي مبتدأ، و﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ خبر، واللَّام للعهد إلى ما وُعدوا في الدنيا و﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ حالٌ، والعامل معنى الإشارة، أو خبرٌ ثانٍ، أي: «التي رأيتموها الجنة التي

[٣٦٨٧] **أي:** «**مَا كُنَّا**». **السبعة** لابن مجاهد ص٢٨٠؛ **التيسير** للدانيص ٣٥٦؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ١١٩/٩.

[٣٦٨٨] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٨٦/١٤؛ **اللباب** لابن عادل، ١١٩/٩.

[٣٦٨٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٨٨/٦.

[٣٦٩٠] **الكشاف** للزمخشري، ١٠١/٢.

[٣٦٩١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٨٨/٦.

[٣٦٩٢] **الكشاف** للزمخشري، ١٠١/٢.

[٣٦٩٣] **عرائس البيان** للبقلي، ٤٣٧/١.

[٣٦٩٤] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٥٤/٤.

[٣٦٩٥] ج: فلا.

[٣٦٩٦] **اللباب** لابن عادل، ١٢٠/٩؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٥٤/٤.

وعدتم [**١٨٢**/ظ] بها مُورَثةً أو موروثة»، أو الخبر ﴿**أُورِثْتُمُوهَا**﴾ و«﴿**ٱلْجَنَّةُ**﴾ صفة، أو إذا دخلوها، فالإشارة بـ«تلك» للتعظيم، واللام للعهد، والإعراب كما مرَّ، أو الإشارة إلى ما وُعدوا به في الدُّنيا، فيكون حينئذ خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: هذه تلكم التي وعدتم، فـ«الجنة» صفة و«اللام» كما مرَّ، أو مبتدأ محذوف الخبر أي: تلكم التي وعدتم هذه. وتسميتها ميراثًا؛ لأنهم يرثون منازل أهل النَّار يرشدك إليه قوله عليه السلام: «ليس من كافرٍ ولا مؤمنٍ إلّا وله في الجنّة والنَّار منزلٌ، فإذا دخل أهلُ الجنَّة الجنَّةَ، وأهلُ النَّار النَّارَ، رُفِعَت الجنةُ لأهل النَّار، فنظروا إلى منازلهم، فقيل لهم: هذه منازلُكم لو عملتم بطاعَةِ الله، ثم يقال: يا أهلَ الجنَّة، رِثُوها بما كنْتُم تعملون، فتُقْسَم بين أهل الجنة منازلُهم. أو لأَنَّها مشابهة بالميراث من حيث إنَّه يصير إلى أهله، كما أنَّها تصير إليهم، ففيه رمزٌ إلى التَّحقّق والتَّقرر لهم؛ لأنَّه أقوى أسباب الملك لحصوله حتمًا من غير اختيار وشعورٍ أو من حيث إنَّه يعطى من غير تعب في الحال كما أنَّها كذلك، أو من حيث ينتقل من الميّت ولا يكون عوضًا مستحقًّا عن شيء، بل عطيَّة خالصةً كما أنَّها ليست ممَّا يستحق بالعمل، بل هو محض فضل الله وعده على الطَّاعة.

ففيه حفظُ السَّامع عن المتبادر إلى الفهم من الباء السَّببية في قوله: ﴿**بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ من أن تكون تلك الأعمال أسبابًا حقيقيَّة لما يعطى لهم في الدَّار الآخرة، وهذه طريقة بليغةٌ سماها بعض الأفاضل بالتَّقدُّم بالحفظ وهي أبلغُ من طريقة التدارك، وذلك لأن سببيَّتَها إنما هي بحكم الوعد وجرى عادته تع بذلك، وقوله عليه السلام: «لا يُدخِلُ أحَدَكُم الجَنَّةَ عَمَلُه»[3697] نفيٌ للسَّبب الحقيقي وبه يتضح بطلان قول المصنف: «بسبب أعمالكم لا بالتفضُّل كما تقول المبطلة».[3698]

ورأس القدر وإن كان مكشوفًا فعلى الهرة أن يردعها بعض الحياء؛ فإنَّ تسمية السنّية بأهل الحقِ ممَّا يكاد ينطق به البكم، ويسمع به الصمُّ، فليس للمعتزلة أن تسميهم المبطلة، وما أحسَنَ ما قالَ المعرّي:[3699] رحمة الله عليه:

إِذَا وَصَفَ الطَّائِيَّ بِالبُخْلِ مَادِرٌ ... وَعَيَّرَ قُسًّا بِالفَهَاهَةِ بَاقِلُ
وَقَالَ السُّهَى للشَّمْسِ أَنْتِ خَفِيَّةٌ ... وَقَالَ الدُّجَى للصُبْحِ لَوْنُكَ حَائِلُ
فَيَا مَوْتُ زُرْ إِنَّ الحَيَاةَ ذَمِيمَةٌ ... ويَا نَفْسُ جِدِّي إِنَّ دَهْرَكِ هَازِلُ[3700]

ومع هذا فليتَ استدلالَه يكون بمثل: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة ١٧/٣٢]. ليحتاج إلى الجواب بأنَّ جعلَ النَّعيم الدَّائم مع التَّعظيم جزاءً لما صدر من العبد من الأعمال محض التفضل وإلَّا فهو لا يصلح شكرًا لبعض ما أفاض الله عليه من سوابق الإحسان، فكأنَّه لم يعرف أنَّ معنى التَّفضل أنَّه ليس بطريقِ الاستحقاق والاستيجاب بحيث لو تركَه كان ظُلمًا واستحقَّ الذمَّ.[3701]

وقد عبئ عليه تحقيق الآية ومعناها، وذلكأنَّ أهل الجنة لَمّا حَمِدُوا، ورأوا الهداية من الله كان ذلك اعترافًا منهم، بأن ذلك فضل الله وهضمًا لأنفسهم، فلمّا اعترفوا وهضموا أنفسهم لطَف الله بهم زيادة لطفٍ، وخاطبهم بما يريد به إكرامهم، وقد قال عليه السلام: «لَا يُدْخِلُ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَلَا يُجِيرُهُ مِنَ النَّارِ، وَلَا أَنَا، إِلَّاأَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ بِرَحْمَتِه».[3702]

[3697] **صحيح البخاري**، ١٢١/٧ (٥٦٧٣)؛ **صحيح مسلم**، ٢١٧/٤ (٢٨١٧).

[3698] **الكشاف** للزمخشري، ١٠١/٢.

[3699] «٤٤٩/١٠٥٧»

[3700] الأبيات لأبي العلاء المعرّي. **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٤ظ.

[3701] الأبيات لأبي العلاء المعرّي. **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٤ظ.

[3702] **صحيح مسلم**، ٢١٧٠/٤ (٢٨١٦)؛ **صحيح البخاري**، ١٢١/٧ (٥٦٧٣).

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤)﴾

لَمَّا شرحَ ثواب المؤمن ووعيد الكافرين أتبعه بذكر المناظرات بينهم، والنَّداء بعد استقرار كلّ من الفريقين في الدَّارين، والتَّعبير بالماضي لتحقّق وقوعه، وهو الدّعاء بامتداد الصَّوت، ورفعه، والدُّعاء قد يكون بعلامة كالإشارة من غير كلامٍ ولا صوتٍ، والصاحب المقارن على نيَّةِ طول المدَّة، والصّحبة والمقارنة نظيران، إلا أنَّ الصّحبة فيها الإرادة، وهذا النِّداء من كلّ أهل الجنة لكلِّ أهل النَّار؛ لأنَّ الجمع إذا قوبل يوزع الفرد إلى الفرد، وكلُّ فريقٍ ينادي مَن كان يعرفه من الكفَّار، ولا يستبعد ذلك مع أنَّ الجنَّة في أعلى السموات، والنار في أسفل الأرض، وبعد ما بينهما لا يعلمه إلا الله؛ لأنَّ البعد البعيد، والقرب القريب، ليس من موانع الإدراك وعند تسليم المنع في الشّاهد، لا يسلم في الغائب، وكلّ درجة من درجات الجنان يقابلها دركَة من دركات النِّيران، فأيُّ درجة ينزل فيها العامل بسبب عمله، يستحقّ تارك ذلك العمل دركةً من دركات الجحيم.

فيكون أهل كلّ درجة مشرفًا على أهل الدَّركة التي يقابلها كما قال تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصفات ٥٥/٣٧] فأمكن لهم ذلك.

﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من الثَّواب والكرامة على الإيمان، والاستقامة **﴿حَقًّا﴾** صحيحًا مطابقًا للواقع، وهو حالٌ إنْ كان «وَجَدْنَا» بمعنى: صادفنا، وإن كان بمعنى: علمنا، فمفعول ثانٍ، أو صفة مصدر مؤكّد كقوله: ﴿وَعْدَ اللهِ حَقًّا﴾ [لقمان ٩/٣١] و﴿**أَنْ**﴾ كما سبق.

﴿حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من العذاب والنّكال على الكفر والضَّلال ﴿حَقًّا﴾ واقعًا محققًا قالوه [**١٨٣**/و] لهم تبجُّحًا بحالهم، وسرورًا على حسن مآلهم، وشماتةً بأصحاب النَّار، وتحسيرًا لهم على فوات عقبى الدَّار، وزيادةً في عمومهم وآخراتهم، وحكى إليه ذلك في الدُّنيا؛ ليكون عبرةً يعتبر بها الناس، فيرغبون في حيازة فضل هؤلاء السُّعداء، ويحترزون عمَّا اجترأ عليه هؤلاء الأشقياء، ولم يقل: «مَا وَعدكُم» كما قال: **﴿مَا وَعَدَنَا﴾** تخفيفًا لدلالته عليه؛ أو لأن «ما وعدنا» يدلُّ على أنه تع خاطبهم بهذا الوعد، وكونهم مخاطبين تشريفًا لهم، وهو لائق بحالهم والكافر ليس أهلًا لخطاب الله ولا التَّشريف لائقًا به، ولهذا لم يذْكرْ أنَّه خاطبهم.

أو لأنَّه أُطلق ليتناولَ كلَّ ما وعد الله من البعث والحساب، والثواب والعقاب؛ لأنهم كانوا مكذِّبين بذلك أجمَع، ولأنَّ الموعود كلَّه مما يسوؤهم وما نعيم الجنة إلَّا عذاب لهم، وهذا مبنيٌّ على أنَّ ﴿وَعَدَ﴾ يستعمل في الخير والشَّرِّ جميعًا، وإنما الخاصُّ هو أَوْعَدَ؛ فإنه لا يستعمل إلا في الشرِّ، ولكن يرد على الأخير أنَّ أصحاب الجنة أيضًا مصدِّقون بالجميع وهو مما يَسُرُّهم، وكان الظَّاهر الإطلاق فيهم أيضًا.[٣٧٠٣]

﴿قَالُوا﴾ أي: قال أصحاب النَّار في جواب سؤال الأبرار ﴿نَعَمْ﴾ اعترافًا بوجدان الموعود، وتحسُّرًا من النَّار ذات الوقود، وعلى تقدير إطلاق السُّؤال يكون الجواب أيضًا مطلقًا تصديقًا لجميع وعد الله بوقوعه، وإقرارًا الحصول موعود المؤمنين ليتحسَّروا على نعيمهم، ويحزنوا لما فاتهم، و﴿نَعَمْ﴾تصديق لما تقدَّمها من مُثْبَتٍ أو مَنْفيٍّ خبرًا كان أو استفهامًا، فـ﴿نَعَمْ﴾ في جواب: قام زيد يثبت القيام، وفي لم يقم ينفيه، وفي أقام يثبته وفي أَلَمْ يَقُمْ بنفيه.

[٣٧٠٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٤ظ.

و﴿بَلَى﴾ إيجاب لما بعد النَّفي يقول لمن قال: لم يقم أو ألم يقم زيد؟ بَلى، أي: قام، ولذلك روي عن ابن عباس: «لو قالوا في جواب ﴿ألست بربكم﴾: نعم، لكان كفرًا»،[٣٧٠٤] وهذا من حيث اللُّغة، وقد يكون العرف على خلافه كما لو قال: أليس لي عليك دين؟ فقال: نعم، لزمه.

وقرأ الكسائي: بكسر العين[٣٧٠٥]وهما لغتان ويؤيده: أن عُمر سأل قومًا عن شيءٍ، فقالوا: نَعَم، قال: أمَّا النَّعم فالإبل قولوا: نَعِم،[٣٧٠٦] ولكن أبو عبيدة ينكر الرِّواية وجوّز كسر النُّون للإتباع.

وعن النضر بن شميل: أن «نحم» بالحاء لغة فيه.[٣٧٠٧]

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥)﴾

أُبهم للتنكير، ونكر للتفخيم. والتَّأذين: النداء، والتَّصويت بالإعلام، ومنه: الأذانُ الإعلام وقت الصَّلاة، وهو مَلَكٌ ينادي بأمر الله نداءً أَسمعَ الفريقين.

وقيل: صاحب الصُّور، أو جبرائيل، فمعنى ﴿**بَيْنَهُمْ**﴾: بين الفريقين؛ فإن فيه زيادةَ تحسير أهل النار، وكمال تفريح الأبرار، وفي حكاية تع في الدنيا عبرةٌ للمعتبرين، وعظةٌ للمتَّعظين، وما قيل بين القائلين ﴿نَعَمْ﴾،ولو كان المعنى: بين الفريقين، لَقيل: بينهما كما قيل: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف ٤٦/٧] يدفعه قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾ [الحديد ١٣/٥٧] مع أنَّ فيه فائدة التَّفريح، والمفسِّرون ذهبوا إليه منصوب بـ﴿أَذَّنَ﴾ أوبـ﴿مُؤَذِّنٌ﴾ وردّ بأنَّ التَّقدير يكون: أن مؤذِّنًا من بينهم أذن، والمعنى: أن مؤذِّنًا أوقع الأذان بينهم، أو صفةٌ لـ﴿مُؤَذِّنٌ﴾.[٣٧٠٨]

و﴿أَنْ﴾ كما مرَّ مخففةٌ أو مفسّرة؛ لأنَّ التَّأذين من القول.

وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ﴾[٣٧٠٩] بالتَّشديد والنَّصب. وقرئ: «إنَّ»[٣٧١٠] بالكسر على إرادة القول، أو إجراء ﴿**أَذَّنَ**﴾ مُجرى «قال»،وهو إخبار باللَّعن، أو إنشاء لعن منه عليهم والموصول مع صلته، في محلّ الجرِّ صفة لـ﴿**الظَّالِمِينَ**﴾ مقرّرة؛ لأنَّ المراد من الظُّلم كماله وهو الشِّرك، والكفر، فجرت الأوصاف عليه مؤكدةً، أو منصوبٌ على الذَّمِّ، أو رفع عليه.

[٣٧٠٤]**اللباب** لابن عادل، ١٢٢/٩.

[٣٧٠٥] أي: «نَعِمْ». **السبعة** لابن مجاهد ص٢٨١؛ **التيسير** للدانيص ٣٥٦.

[٣٧٠٦]**مفاتيح الغيب** للرازي، ٩٠/١٤؛ **اللباب** لابن عادل، ١٢٢/٩.

[٣٧٠٧]**شرح المفصل** لابن يعيش، ١٢٥/٢.

[٣٧٠٨]**التفسير الكبير** للرازي، ٢٤٤/٥؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ١٢١/٩؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٥٤/٤.

[٣٧٠٩]**السبعة** لابن مجاهد ص٢٨١؛ **التيسير** للدانيص ٣٥٦.

[٣٧١٠] الكشاف للزمخشري، ١٠٢/٢؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ١٢٣/٩؛ الكشف عن وجوه القراءات ٤٦٣/١ ؛ حجة القراءات، ص ٢٨٣.

و﴿يَصُدُّونَ﴾ متعدّ، ومفعوله محذوفٌ، أي: «يصدُّون النَّاس»، أو من باب فلان يعطي ويمنع، أي: الذين من شأنهم الصدُّ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ بالقهر أو الحيل، أو لازم أي:[3711] يعرضون عنه، وفي إظهار اسم الله مقام الضمير تشنيع أمرهم وتقبيح فعلهم وتعظيم ما يصدُّون عنه.

﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ يطلبون سبيل الله؛ فإنه يذكَّر كقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف ١٤٦/٧]، أو يؤنَّث كقوله ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ [يوسف ١٠٨/١٢]، والبغي يتعدّى إلى الثاني باللام وقد يسقط والأوَّل قوله ﴿عِوَجًا﴾ أي: زيغًا وميلًا عمَّا هو عليه من الاستقامة التَّامة، والحالة الكاملة بمحاولة تغييرها، وقصد تبديلها، أو يصفونها للناس بأنها معوّجة بإلقاء الشُّبهات لصدِّهم عن الدُّخول فيها، أو يقصدون لها ما هو مُحال؛ لأنَّ طريقَ الحقِّ لا يعوَّج، ففيه تهكُّمٌ بهم أو يرومونها بالصّلاة لغير الله وتعظيم من لم يعظمه الله، فيخطئون الطريق، ويضلُّون عنه، ويجوز انتصابه مصدرًا أي: يطلبونها طلبًا معوّجًا، نحو: رجع القهقري.

والعِوَج بالكسر: عيب المعاني وما لا انتصاب له من الأعيان كالأرض، وبالفتح: عيب الأعيان المنتصبة كالرمح والجدار

﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ بالدَّار الآخرة، وما يكون فيها من البعث والحساب والثواب والعقاب وغيرها، وقدَّمت لأجل الفواصل؛ لأنها متعلّقةٌ بالخبر، وهو قوله: ﴿كَافِرُونَ﴾ جاحدون مكذِّبون، وفيه إشعارٌ بأن جرأتهم على القبائح المذكورة وأمثالها لعدم إيمانهم بأنَّ مصيرهم إلى مَن يحاسبهم، ويجازي على أعمالهم، وتغيير الأسلوب للدَّلالة على تقررهم في الكفر بها، [**١٨٣**/ظ] وما سبق إشارة إلى استحداثهم الصَّدُّ والبغي شيئًا فشيئًا. ومن ههنا يظهر فساد قول المعتزلة: من أنَّ اللَّعن يعُم الفساق.

يروى أنَّ طاوسًا دخل على هشام بن عبد الملك فقال له: احْذَر يوم الآذان، فقال: وما يوم الآذان؟ فتَلَى الآية، فصَعِق هشام، فقال طاوسٌ: هذا ذُلُّ الصِّفة؛ فكيف ذلّ المعاقبة.[3712] ولَمَّا كان مناداة الفريقين منبئة عن القرب بينهما، ومظنَّة أن يتوهَّم وصول روح الجنة إلى أهل النَّار، وقيح النار إلى أهل الجنة، أو لَمَّا كانت الجنَّة في غاية الحسن واللَّطافةِ، والنَّارُ في غاية القبح والشِّدة كان منبئة[3713] وصول أثر كلِّ واحدةٍ منهما بالأخرى، وإن كانت الجنَّة فوق السموات، والجحيم أسفلَ السافلين دفع ذلك المنبئة، والمظنَّة الناشئة ممَّا ذكر بقوله:

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦)﴾

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾: وبين الفريقين، أو بين الدَّارين، ولا يمنع الثاني قوله في موضع آخر: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ [الحديد ١٣/٥٧]؛ لأنَّه إذا كان بينهم يكون بين الدَّارين، وأشار في الموضعين إلى التوجيهين ﴿حِجَابٌ﴾ يمنع وُصول أثر أحداهما إلى الأخرى، وهو في الأصل الحاجز المانع من الإدراك، والمراد ههنا: السُّور المضروب بينهم،فلا يبْعُد من قدرته تع مع بعد ما بينهما أن يكونا متجارين؛ بحيث يكون بينهما حدٌّ مشترك، يكون مبدأً لإحداهما ومنتهى الأخر، ولا يرد أنَّه كيف يسمع نداء أهل الأخرى ويرى حاله؛ لأنَّه تع قادرٌ على أن يخْلُق في بصر كلّ فريق، وسمعه قوة إبصار الآخر، ويسمع كلامه، فإنَّ تلك النشأة ليست كهذه.

[3711] ج – أي:

[3712] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٢٢٥/٩.

[3713] ج + عن.

﴿وَعَلَى الْأَعَرَافِ﴾خبر مقدَّم، جمعُ عُرْفٍ مستعارٌ من عُرفِ الفرس، والدّيك، أو هو ما ارتفع من الشيء؛ فإنَّه بظهوره أعرف من غيره، ومنه: عرف الفرس، والمراد أعراف الحجاب، أي: أعاليه، فاللَّام عوضٌ عن الإضافة، أو الحجاب نفسه عبّر عنه تارةً به وأخرى بها، فاللَّام للعهد، أو شرف الصِّراط، أو جبل أُحدٍ يوضع هناك، يرشدك إليه قوله: عليه السلام: «إِنَّ أُحُدًا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ، وَإِنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَمْثُلُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ يُحْبَسُ عَلَيْهِ أَقْوَامٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ».[٣٧١٤]

وعن السدى: سمّي[٣٧١٥] السُّور أعرافًا؛ لأنَّ أهله يعرفون الناس.[٣٧١٦]

وقيل: هي ليس بمكانٍ بل المعنى، وعلى معرفة أهل الدارين وتميّزهما.

﴿رِجَالٌ﴾ مبتدأ مؤخَّر أي: من الساقطين درجةً، ويؤيّده النَّظم فإنه تع لَمَّا ذكر الفريقين ذكر مقاولتهما وما يجري بينهما، فوسَّط بين المقالتين ذكر قوم توسطت حالهم بين حاليهما في المكان والمقام، أمَّا المكان فظاهر، وأمَّا المقام فهو[٣٧١٧] الرجاء على ما فُهِمَ من قوله: ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، والخوف على ما فُهم من قوله: ﴿لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾، فهؤلاء قوم قصّروا في العمل أو استوت حسناتهم مع سيّئاتهم، أو رضي عنهم أحد الأبوين دون الآخر، أو أطفال المشركين، أو أولاد الزِّنا، أو الذين ماتوا في الفترة، أو خرجوا الغَزو بلا رِضى الوالدين، أو كانت لهم صغائر فلم يكفِّرْ عنهم بالآلام والمصائب في الدُّنيا، أو كبائر لم يقع التوبة منها، أو من المقرَّبين منزلة، ويلائمه تخصيص الرجال ولا ينافيه تأخير دخولهم الجنة؛ لأنَّه يجوز أن يكون لإ كمال لذَّتهم بالاطلاع على أهل الموقف، أو بالشهادة عليهم، أو بمشاهدة مراتب أهل الجنّة، ودركات أهل النَّار، ونحوهما من الحِكم التي لايعلمها إلا الله، ولا يطمع الدخول فيها؛ لأنه بمعنى اليقين كما في قول أبراهيم ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾ [الشعراء ٨٢/٢٦]، أو يصرف الطمع إلى غيرهم كما[٣٧١٨] سيجيء.

ولا[٣٧١٩] الاستعاذة من مصاحبة الظالمين؛ لأنَّهم حضوا لجلاله وتواضعوا لكبريائه ،كيف فإن في قدرة الله كل شيءٍ وخلاف المعلوم مقدور، فهؤلاء الأنبياء أجلسهم الله على ذلك المكان العالي؛ إظهارًا لشرفهم، وليكونوا مشرفين على الفريقين مطَّلعين على مقادير ثوابهم وعقابهم.

أو عدول يوم القيامة الذي يشهدون على النَّاس بأعمالهم وهم في كلّ أمّة، أو العباس وحمزة وعلي ابن أبي طالب وجعفر ذو الجناحين يعرفون محبّهم ومبغضهم ببياض الوجوه وسوادها، أو فضلاء المؤمنين والشهداء فرغوا من شغل أنفسهم، وتفرَّغوا لمطالعة الفريقين، أو الصالحاء العلماء الفقهاء، أو الملائكة الموكَّلون بهذا السور يميّزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار، وإطلاق اسم الرِّجال عليهم؛ لأنهم يرون في صورهم، فعلى الوجهين المآل الجنة، أمَّا على الأوَّل فيفضل الله، وعلى الثاني ظاهرٌ.

وقيل: أصحابها مؤمنوا الجنّ؛ فإنه عليه السلام: «لَمَّا سِئلَ عن مُؤْمِنِهِمْ وَثَوَابِهِمْ، قال: هُمْ عَلَى الْأَعْرَافِ، لَيْسُوا فِي الْجَنَّةِ مَعَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ، فسُئلَ عنها فَقَالَ: "حَائِطُ الْجَنَّةِ تَجْرِي فِيهَا الْأَنْهَارُ، وَتَنْبُتُ فِيهِ الْأَشْجَارُ وَالثِّمَارُ».[٣٧٢٠]

[٣٧١٤] **صحيح مسلم**، ١٢٤/٤ (١٣٩٣)

[٣٧١٥] ج + ذلك:

[٣٧١٦] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي ، ٢١١/٧-٢١٣؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ١٢٦/٩؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٥٨/٤.

[٣٧١٧] ج : وهو.

[٣٧١٨] ج : على ما.

[٣٧١٩] ج – لا.

﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩)﴾

صفة ﴿رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من زمر السعداء والأشقياء، والتنوين بدل الإضافة ﴿سِيمَا﴾ «فِعْلى» مِن «سَامَ إِبِلَه» إذا أرسلها في المرعى مُعْلَمَةً، أو «عِفْلَى» من «وَسَمَ» على القلب، كـ«الجاه» من «الوجه»، أي: بعلامتهم التي أعلمهم الله بها، كبياض الوجه وسواده، فإذا دلّ الباء السَّببية على أنَّهم يعرفونهم بالعلامات الظاهرة.

فلا يظهر وجه ما قاله العلَّامتان، وإنما يعرفون ذلك بالإلهام، أو بتعليم الملائكة، وإن أريد أن معرفتهم بسيماهم ومعرفة سيماهم بأنها سيماء سعادة أو شقاوة بإلهام أو تعليم، فلا يخ عن بعد، ثمَّإنَّ الظَّاهر أنَّ المعرفة بها إنَّما هو في محفل القيمة، ونداء أهل الجنَّة وصرف الأبصار إلى أهل النَّار بعد ذلك؛ لئلا يرد أنَّهم إذا شاهدوهم في الدَّارين، فأيُّ حاجة إلى سيماء معرفة، ولو كان بعد الدخول فلا يخ عن الوجه أيضًا، وأمَّا تخصيص أصحاب الأعراف بالمعرفة بالسيماء، فلكون معرفتهم لعلوّ مكانهم أبينَ؛ أو لأنَّهم كانوا في الدنيا شهداءَ على أهل الخير والإيمان، وأهل الكفر والطُّغيان فالله يُجلسهم على الأعراف ليكونوا مطلعين على الكلّ يشهد على كلّ أحد بما يليق به.

﴿وَنَادَوْا﴾ أي: أصحاب الأعراف ﴿**أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ**﴾ إذا نظروا إليهم سلَّموا عليهم، أو دعوا لهم بالسَّلامة عن الآفات والتهنئة بالنعيم والدَّرجات، وليس هذا تقدير شرط في الكلام، كيف، و واو العطف ناب عن ذلك وليس في الكلام مقتضى له، بل هو بيانٌ للمعنى، وإشارةٌ إلى أنَّ نظرهم إلى أصحاب الجنة يكون برغبةٍ منهم، وإلى أصحاب النار لا يكون إلا بصرف صارف أبصارهم؛ ولهذا قرن الأوَّل بالتسليم، والثاني بالاستعاذة، فهو عطف على ﴿يَعْرِفُونَ﴾ مؤذن بأنَّ ذلك حالهم المستمرّة المحققة، ولو قوبل بقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ﴾ لزم أن يكون ذلك إذا نظروا إلى أهل الجنة، ولا وجه له بالنظر إلى كمال البلاغة، ثم في جعل الشرطية عطفًا على ﴿نَادَوْا﴾ مرتبطًا بما اعتبر من جهة المعنى زيادة حسن من حيث إنَّ لفظ الصرف يقع في محزّه، ثمَّ إنّه إنْ حمل أصحاب الأعراف على الساقطين يكون قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ استئنافًا جوابًا عن سائلٍ يسأل عن حالهم، أو حالًا من فاعل ﴿نَادَوْا﴾.

﴿**وَهُمْ يَطْمَعُونَ**﴾ الدُّخول لم يَيْئَسوا منه، فهو عطفٌ، أو حالٌ عن النَّفي أي: أنهم عند عدم الدُّخول كانوا طامعين، أو استئنافٌ يخبر عن طمعهم بعد الإخبار عن[٣٧٢١] دخولهم، وإن حملوا على المقرَّبين، يكون ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ استئنافًا جوابًا عن سائلٍ يسأل عن أصحاب الجنة، أو صفةٌ لهم أو حالٌ منهم، وفيه دفعٌ ما يتبادر إلى الفهم من عبارة أصحاب الجنَّة، ودفع وهم مخالفته لما في قوله: ﴿أُدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ وقوله: ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ على الوجوه السابقة.

والصَّرف: إمالةُ الشَّيء من جهةٍ إلى أخرى، وفي بناء الفعل للمفعول إشعارٌ بأنَّ نظرهم إليهم ليس نظر رغبةٍ وارتضاءٍ كما أنَّه إلى أهل الجنة؛ كذلك، بل لا[٣٧٢٢] ينظرون إليهم لكراهتهم ونفرتهم منهم، ولا يتأتّى منهم النَّظر إليهم طوعًا، حتى كان صارفًا صرف نظرهم إليهم؛ ليعلموا قدر ما هم فيه.

﴿**تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ**﴾ أي: جزائهم، وهي جهة اللّقاء، نُصِبَ على الظرفية للمكان، وفي الأصل مصدر ولم تأتِ من المصادر على تِفْعال إلا هذه والتبيان وما عداهما فمفتوح كالتكرار ونحوه: وأما الأسماء فمكسورة كالتِّمثال ونحوه.

[٣٧٢٠] **تفسير القرآن العظيم** لابن كثير، ١٢٧/١.

[٣٧٢١] ج + عدم.

[٣٧٢٢] ج – لا.

﴿قَالُوا﴾ تعوّذًا بالله والتجاءً إليه ممّا هم فيه ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ في النّار وفي ضمن الاستعاذة من مصاحبتهم صريحًا الاستعاذة من النّار، ففي هذا الاعتبار تقديم الفِرار من عذاب صحبة الفجّار على الفرار من عذاب النّار لما أنّه روحانيٌ وهذا جسمانيٌ، والرُّوحانيُ أشدُّ إيلامًا، ونقيض ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل ١٩/٢٧] فإنّ مصاحبة الصّالحين روح روحانيٌ فائق على الروح الجسماني الجناني.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩)﴾

قيل: هذا عطفٌ على قوله:﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فالشرطيّة، أي: ﴿إِذَا صُرِفَتْ﴾ لا يتمّ إلا عند قوله: ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ لعلّ جعل انقطاع الشرطيّة على أن لايكون خطاب ﴿ٱدْخُلُوا﴾ التفاتًا إلى أصحاب الجنّة، وإلا فيجوز أن يكون قوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ﴾ من القيمة بالعطف على الأوّل إلا أنّ إظهار الأعراف دون إضماره بأن يقول: ﴿نَادَوْا﴾ عطفًا على ﴿قَالُوا﴾ يشعر أن يكون ﴿وَنَادَىٰ﴾ عطفًا على ما سبق من قوله: ﴿وَنُودُوا﴾ و﴿وَنَادَوْاأَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ نعم يجوز أن يكون الإظهار في مقام الإضمار لنكتة ﴿نَادَوْا﴾ رجالًا من رؤساء الكفرة، وأعيان أهل النّار، ولم يصرّح بذلك لدلالة الكلام عليه ﴿يَعْرِفُونَهُمْ﴾ صفة ﴿رِجَالًا﴾ أي: يعرفهم أصحاب الأعراف ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ المعهود عندهم في الدُّنيا، فهذه معرفة أشخاصهم، وما سبق معرفة السّعادة، و الشّقاوة.

قال المفسّرون: الرِجَالُ هنا الوَلِيدُ بن الْمُغِيرة وأبو جَهْلٍ بن هِشَامٍ والعَاص بن وَائِلِ السّهمي ونظرائهم. وكانوا يقولون: إنَّ بلالًا وسليمانَ وعمَّارًا، وأمثالَهم يدخلون الجنَّة، ويدخلنا النَّار كلَّا، والله إن الله لايفضل علينا خَدَمَنا ورعاتنا أقسموا أن لا يخصّهم الله بفضلٍ دونهم فناداهم أصحاب الأعراف.[٣٧٢٣]

﴿قَالُوا﴾ استئناف ما نؤدي به ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ﴾ ما استفهاميّة في موضع نصب بـ﴿أَغْنَىٰ﴾ وهو للتّقريع، والتوبيخ والإنكار، أي: «أيّ شيءٍ أغنى عنكم»، أو نافيةٌ، أي: ما منعكم من عذاب الله، بل صرتم إلى ما أنتم فيه منه ﴿جَمْعُكُمْ﴾ فاعل ﴿أَغْنَىٰ﴾أي: اجتماعكم وتحربكم وكثرة اتباعكم، أو جمعكم المال والأسباب ﴿وَمَا كُنتُمْ﴾ مصدريَّةٌ للعطف على ﴿جَمْعُكُمْ﴾ وذكر الكون للإشارة إلى إصرارهم، وعدم انقلاعهم ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ خبر «كَانَ» بنظر الحقّ وغمط النَّاس، ولعلَّ هذا القول لهم منهم في مقابلة قولهم لأصحاب الجنة: سلام عليكم، ويستضعفونكم وسيعلون بأحوالكم، فلمّا قالوه لهم توجّهوا إلى أعدائهم، فقالوا: ما أغنى عنكم أموالكم، وما كنتم[٣٧٢٤] تتنعّمون وتفتخرون على هؤلاء الفقراء، ثم زادوا ذلك بما يزيد حسرتهم بقولهم ﴿أَهَٰؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾؛ لأنَّ الإحسان إليهم نكال لهم فوق النّكال، ويؤيّده قول الإمام قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ كالدّلالة على شماتة أصحاب الأعراف بوقوع أولئك في العقاب، وعلى تبكيتٍ عظيمٍ، ثم زادوا على هذا التَّبكيت بقولهم: ﴿أَهَٰؤُلَاء ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ لأنَّهم كانوا يستضعفونهم، ويستهزؤن لهم، ويأنفون من مشاركتهم في دينهم.[٣٧٢٥]

ويمكن أن يقال: لما كان أصل الكلام جاريًا في شأن أصحاب الجنة وتكريمهم، وكان تفريع أضدادهم متفرعًا عليه سلَّموا عليهم، وأقبلوا إلى أعدائهم، ومن كانوا يستهزؤن بهم ثم لمزيد التَّوبيخ أدخلوا ما أغنى عنكم جمعكم بين الكلام اعتراضًا،

[٣٧٢٣] **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، ٩٦/١٤.

[٣٧٢٤] ج + به.

[٣٧٢٥] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٩٦/١٤.

ثم إنَّ ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ مبتدأ و﴿ٱلَّذِينَ﴾ خبره، والهمزة للتَّقرير، والتَّقريع، والإشارة إلى فقراء أهل الجنة الذين كانت الكفرة يحتقرونهم، ويحلفون أنّ اللهلا يدخلهم الجنة، والخطاب في ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾ للكفرة، والمقسم عليه قوله: ﴿لاَ يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾.

قال الكلبي: ينادي أصحاب الأعراف وهم على السُّور: يا وليدَ ابن المغِيرة، يا أبا جهلٍ ابن هِشَام يا فلان، ثم ينظرون إلى الجنَّة فيرون فيها الفقراءَ والضُّعفاءَ ممَّن كانوا يستهزؤون بهم مثل: سلمانَ وصهيبٍ مثلًا فيقولون لأولئك الكفار:[٣٧٢٦]﴿أَهَٰؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ أنَّهم لا يدخلون الجنَّة.

﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾

إمّا من تمام قولِ أصحاب الأعراف لأصحاب الجنة ردًّا على الكفرة في قولهم: ﴿لاَ يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾؛ لكن لا يتضح هذا على تقدير كون أهل الجنة فيها اللّهم[٣٧٢٧] أن يراد الدخول المقيَّد بعدم الخوف مما يستقبل، وعدم الحزن على ما فات مع التَّعريض لأصحاب النَّار بأنَّ عليهم الخوف والبوار، ولعلهم لَمَّا رواُهم بصدد الدُّخول خاطبو المشركين بقولهم: ﴿أَهَٰؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ ثم التفتوا إلى أهل الجنة، فقالوا ذلك، ثم إنَّه لا يخفى عليك أنَّ هذا الوجه على أن يراد بأصحاب الأعراف المقرّبون درجةً؛ لأنه يليق بهم الأمر بالدُّخول من طرف الله، وإن جاز في الجملة على أن يراد الساقطون منزلةً، وإمّا أن يتمّ كلام أصحاب الأعراف عند قوله: ﴿لاَ يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾؛ ويكون قوله: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ مقول القول[٣٧٢٨] مقدّر، والمقول لهم أصحاب الأعراف، والقائل هو الله تع، أو الملئكة، أي:فقيل لأصحاب الأعراف: ادخلوا الجنة بفضل الله بعد أن حبسوا حتى أبصروا الفريقين، وعرفوهم وقالوا لهم ما قالوا، و هذا ظاهرٌ على تقدير أن يكون أصحاب الأعراف من السَّاقطين درجةً.

وقد روي عن ابن عباس: «إذا أراد الله أن يعافي الذين استوت أعمالهم فحبسوا في الأعراف انطلق بهم إلى نهر: يقال له: «نهر الحياة»، حافتاه قصب الذّهب ، مكلّل باللؤلؤ ، ترابه المسك ، فألقوا فيه حتى تصلح ألوانهم ، وتبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تع فقال : تمنّوا ما شئْتم فتمنّوا، حتى إذا انقطع أُمنيّتهم قال لهم: لكم الذي تمنيتم ومثله سبعون ضعفًا . فيدخلون الجنة وفي نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها ، يسمّون مساكين أهل الجنة».[٣٧٢٩]

وأمَّا أن يتمّ كلام أصحاب الأعراف عند قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلمّا عيّروا أهل النار بذلك، قال لهم أهل النار: إن دخل أولئك الجنة فأنتم لا تدخلونها، فعيَّروهم بذلك، وأقسموا أنَّ أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنة، ولا ينالهم الله برحمة، فيقول اللهُ أو بعضُ الملائكة الذين حبسوهم على الصِّراط لأهل النار: ﴿أَهَٰؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾يعني: أصحاب الأعراف، ثم يقول الله، أو الملئكة لأصحاب الأعراف رغمًا لأصحاب النار: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.[٣٧٣٠]

[٣٧٢٦] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٦٢/١٢؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ١٣٢/٩.؛ **اللباب** لابن عادل، ١٣٢/٩.

[٣٧٢٧] ج + إلا.

[٣٧٢٨] ج– قول.

[٣٧٢٩] تفسير القرآن العظيم لابن كثير، /١٥٦. تفسير الطبري

[٣٧٣٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٢٢٦/٤–٢٢٧.

وقيل: المشار إليهم بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هم أصحاب الجنَّة، والقائلون: هم الملائكة، والمقول لهم: أهل النَّار، أو المشار إليهم أصحاب الأعراف، وهم القائلون ذلك، والمقول لهم الكفّار، وقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ من قول أهل الأعراف أيضًا، أي: يرجعون فيخاطب بعضهم بعضًا.

ثم إن قوله: ﴿**لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ**﴾ على قراءة الجمهور حال من الضمير في﴿**ٱدۡخُلُوا**﴾ أي: ادخلوا آمنين، وكذا في قراءة «أُدْخِلوا»[٣٧٣١] على بناء المفعول ماضيًا من «أَدْخَلَ»، و قراءة «دَخلوا»[٣٧٣٢] ماضيًا مبنيًّا للفاعل، أي: أُدْخِلُوها، أو دَخلوها مقولًا لهم هذا الكلام الذي هو: ﴿**لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ**﴾ [**١٨٤**/و] ثم حذف القول وهو منصوبٌ على الحال، وأقيم مُقامه قوله:﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ﴾،فانتصب انتصابه، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿**لَا خَوۡفٌ**﴾ كلامًا مستأنفًا لايحتاج فيه إلى إضمار القول، لكن استأنف الله خطابهم، فلا محلَّ لها من الإعراب على هذا من حيث كانت مستأنفة مرتحلةً.

ولَمَّا صار أهلُ الأعراف إلى الجنَّة طَمِعَ أهلُ النّار في الفرج اليأس، فقالوا: ربَّنا إنَّ لنا قَراباتٍ من أهل الجنَّة، فأْذَنْ لنا حتى نراهم، ونكلِّمَهم، فأمَر الله الجنَّة فزخرفت، ثم نظر أهل جهنم إلى قراباتهم في الجنَّة وما هم فيه من النَّعيم، فعرفوهم، فنظر أهل الجنة إلى قَراباتهم من أهل النَّار فلم يعرفوهم، قد اسودَّت وجوهُهم وصَاروا خلقًا آخر، فيلقى أصحاب النَّار أصحاب الجنة كلماتهم، وذلك قوله:

﴿**وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠)**﴾

قد علم قبل هذا أنَّ بعد ما بينهما، وكون الحجاب فيه لا يمنع المناداة والمكالمة.

وروي: أنَّ في الجنَّة كوى ينظر أهلها منها إلى النَّار، وروي أنهم ينادون أهل الجنة بأسمائهم، فينادي الرَّجل أمَّه وأباه، وأخته، وأخاه، فيقولون: إنَّ النَّار قد أعمت أبصارنا، وأصمت أسماعنا، وأطلعت على قلوبنا، وإنا خرجنا من الدنيا عطاشًا، وسكنا القبور عطاشًا، وخرجنا منها عطاشًا. وقد قطع اليوم العطش حلقومنا.

و﴿**أَنْ**﴾ مصدريَّة أو مفسّرة، والإفاضة إجراء المائع من علوّ، ومنه قولهم: أفاضوا في الحديث أي: أخذوا فيه من أوّله؛ لأنَّه بمنزلة أعلاه وأفاضوا من عرفاتٍ إلى المزدلفة أي: صبّوا؛ ولذلك قالوا ﴿**عَلَيۡنَا**﴾. ففيه دليلٌ على أن الجنَّة فوق النَّار.

وقال ابن الكمال: إيراد عليّ لما فيالإفاضة من معنى الإحسان فلا دلالة على ما ذكر.[٣٧٣٣]

وأنت خبيرٌ بأنَّ مبنى الستدلالالبناء على الظَّاهر، وما قاله فيه نوعٌ صرف عنه ولا يدفعه.

﴿**مِنَ الْمَاءِ**﴾ متعلِّق بـ﴿أَفِيضُواْ﴾ و﴿**مِنَ**﴾ للتَّبعيض أو بمحذوف نعت لمحذوف هو المفعول، أي: شيئًا منه، و﴿مِنَ﴾ للتبيين[٣٧٣٤]واستدلَّ به على أنَّ سقي الماء من أفضل الأعمال.

وقد سُئل ابن عباس: أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: قَالَ عليه السلام: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ الْمَاءُ». أَمَا رأيت أهل النار لَمَّا استغاثوا بأهل الجنَّة قالوا: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾.[٣٧٣٥]

[٣٧٣١] وهي قراءة شاذّة. عن طاحة بن مصرّف. **المختصر في شواذ القراءات**، ص ٤٨؛ **المحتسب** لابن جني، ٢٣٩/١.

[٣٧٣٢] وهي قراءة شاذّة. عن عكرمة. **المختصر في شواذ القراءات**، ص ٤٨؛ **المحتسب** لابن جني، ٢٣٩/١.

[٣٧٣٣]**تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٦١/٤.

[٣٧٣٤]ج: للبيان.

وقال عليه السلام:مَنْ سَقَى شَرْبَةً مِنْ مَاءٍ حَيْثُ يَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ أَعْطَاهُ اللهُ بِكُلِّ شَرْبَةٍ سَبْعِينَ أَلْفَ حَسَنَةٍ وَ إِذَا سَقَاها حَيْثُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ، فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَ عَشْرَ رَقَبَاتٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ».[٣٧٣٦]

﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من سائر الأشربة ليلائم الإفاضة، أو من الطَّعام على تضمين ﴿أَفِيضُواْ﴾أفيضوا معنى أَلْقُوا، أو على تقديره كقوله:

علَفْتُهـا تِبْنًـا ومَـاءً بارِدًا حَـتَّى شَـتَتْ همَّالَـةً عَيْنَاهَـا[٣٧٣٧]

أي: وسقيتها ماءً باردًا، يقال: شتوت بموضع كذا إذا أقمت في الشِّتاء، وهملت عينه: فاضت، أو على أسلوب عموم المجاز.

وقال ابن الكمال: «الأوَّل هو الوجه، وتخصيص المشروب بالطلب لما بهم من غلبة العطش وشدَّة الحرارة، ولهذا أَتَوا بأداة التَّنويع، ولو كان المراد الطّعام لَمَا عَدلوا عن العطف بأدات الجمع؛ إذ لا بدَّ لهم من طلب الماء».[٣٧٣٨]

وأنت خبيرٌ بأنَّ بهم حاجة إلى الطَّعام لغلبة الجوع، كما أنَّ بهم حاجة إلى الشَّراب، وبه يظهر أيضًا وجه التَّنويع على أنَّ «أو» يمكن أن يكون بمعنى «الواو» على ما يشعر به ظاهر قوله: ﴿حَرَّمَهُمَا﴾ وإن أمكن تأويله أيضًا بأنَّ المعنى على حرّم كلّ واحدٍ منهما.

و﴿مَا﴾ موصولةٌ والعائد محذوفٌ، أو مصدرية على طلب إفاضة نفس الرِّزق مبالغةً، أو على أنَّ المصدر بمعنى المفعول، ﴿حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾ أي: منعهما منهم منع المحرّم عن المكلّف، فيكون استعارةً تمثيليةً شبّهت حالهم مع شراب الجنَّة، ورزقها بحال المكلّف مع ما حرم عليه في المنع عنه كقوله:

حَـرَامٌ عَلَـى عَيْـنَيَّ أَنْ تَطْعَـمَ الْكَـرَ وَأَنْ تَرْقَـآء حَـتَّى أُلاَقِيـكِ يَا هِنْـدُ[٣٧٣٩]

ولا يتصوّر حقيقة التحريم؛ لأنَّهم ليسوا في دار التّكليف.

وقال ابن الكمال: التحريم: المنع، وتعديته بـ﴿عَلَى﴾ كتعدية الشَّهادة بها؛ كما في قوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص ١٢/٢٨]، ولا خفاء في أن المنع اللّغوي أبلغُ من التَّحريم الشرعي، فلا وجه لِمَا ذكر.[٣٧٤٠] ويمكن أن يقال: التحريم الشرعيّ أبلغُ بالنَّظر إلى الشَّارع، وإن وكان يتناوله بعض المشروعين عليهم لعدم خوفه من الله تعالى، ففي الحمل على الاستعارة شأن لا يخفى، والإظهار للتعليل، وتعميم الجواب لغير السَّائلين، وفي الجواب بهذا الأسلوب والعدول عن التَّصريح بالمنع إلى ذكر سببه دفع مظنّة البخل، ومحافظة لجانب الكرم؛ لأنَّ سؤالهم أشعر بالتماسهم من الفَضَلة، ومما ليس للمسئولين

[٣٧٣٥] **مسند أبي يعلى**، ٧٧/٥ (٢٦٧٣)؛ **المعجم الأوسط** للطبراني، ٢٠٣/٦ (٦١٩٢)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٦٩/٥ (٣١٠٨).

[٣٧٣٦] لم أقفه.

[٣٧٣٧] **تأويل مشكل القرآن** لابن قتيبة، ص ٢١٣؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٨٨/٦؛ **نواهد الأبكار** للسيوطي، ٣١٩/٦.

[٣٧٣٨] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٦١/٤-٦٢.

[٣٧٣٩] **الكشاف** للزمخشري، ١٠٤/٢.

[٣٧٤٠] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٦١/٤-٦٢.

عنهم به حاجة، والامتناع عن الإجابة فيه كان مظنّة البخل، فدفع انظر كيف لايسقيهم قطرة مع استغنائه عن تعذيبهم، وقدرته على أن يعطيَهم ما يريدون، ولكن عزّة الألوهيّة اقتضت ذلك.

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١)﴾

في محلّ الجرّ صفة لـ﴿ٱلْكَافِرِينَ﴾، أو بدلٌ منهم، أو الرَّفع أو النَّصب على القطع، ولَمَّا كان الاتخاذ:[١٨٤ظ] أخذ الشيء بإعداد لأمر من الأمور، أشعر بدوامهم فيما شيع عليهم ﴿**دِينَهُمْ**﴾ الذي أمروا بالتدين به ﴿**لَهْوًا وَلَعِبًا**﴾ ملعبة يتلاعبون به يحرمون ويحلّلون على هوائهم، ولا يتبعون أمر ربهم، أو يستهزءون به ويسخرون منه، وممَّن دعا إليه، أو الّذي كانوا عليه من دين إسماعيل فغيّروه وتديَّنوا بما شاءوا، كتحريم البَحِيرة والتَّصدية حول البيت ونحو ذلك.

ويجوز أن يكون ﴿**دِينَهُمْ**﴾ مفعولًا ثانيًا، أي: اتَّخذوا ما هو بمنزلة اللَّهو واللّعب دينًا وعادةً لأنفسهم.

واللهو: صرف الهمّ بما لا يحسن أن يصرف به، واللّعبُ: طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب به، واشتقاقه من اللّعاب، وهو المرور على غير استواءٍ، وعَبَّر بهما عن عاداتم القبيحة، وأفعالهم الشّنيعة التي زيّن لهم الشيطان تنبيهًا على أن للعاقل أن لا يباشرها ويحترز عنها، كما لا يباشرهما، وأنَّ ما صرفوا إليه أعمارهم منهما، وأنَّهم تديَّنوا بما كان من قبيلهما مع أنَّ شأن الدين الجدّ والاهتمامُ دون الهزل.

﴿**وَغَرَّتْهُمُ**﴾ وخدعتهم وفتنتهم ﴿**ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا**﴾ حيث اغترّوا عندها، وافتتنوا بسببها فشغلهم ما هم فيه من خفض العيش، والدعة عن الإيمان، والأخذ منصب الآخرة حتى أتتهم المنيّة.

وحملة الأمر أنَّ الإنسان يطمع في طول العمر، وحسن العيش، وكثرة المال، وقوّة الجاه، فلشدَّة الرَّغبة في هذه الأشياء، يصير محجوبًا عن طلب الدِّين غريقًا في بحر الدُّنيا ومشتهياتها، وفيه إسناد الحكم إلى السَّبب؛ فإنَّها ليست غارّةً على الحقيقة، ثم قيل: إنَّ الجميع كلام الله تعالى على غير وجه الحكاية عن أهل الجنّة بعد حكاية كلامهم المنتهى عند قوله: ﴿عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾.

وقيل: إنّه من كلامهم أيضًا إلى قوله: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، ثمَّ استأنف سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ يوم القيامة ﴿**نَنسَىٰهُمْ**﴾ نتركهم في العذاب المهين جياعًا وعطاشًا؛ لإيجاب دعائهم ولا يرحم ضعيفهم، أو يُعاملهم معاملةَ النَّاسين بتركهم فيها على تلك الحال.

فالنِّسيان: مجازٌ عن التَّرك أو استعارةٌ تمثيليةٌ شبه معاملته تعالى معهم بمعاملة مَن نسى عبدَه من الخير ولم يلتفت إليه؛ لأنَّ حقيقة النسيان مستحيلٌ في حقّه تعالى، ولأنَّ النِّسيان عن الذِّكر تخفيفٌ في عذابهم، وليس ههنا التفاتٌ عن قوله:﴿إِنَّ اللهَ﴾ لأنَّهما ليسا من متكلّم واحد.

و«الكاف» في محلّ النّصب نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، و«ما» مصدريةٌ مجرورةٌ بها أي: نسيانًا مثل نسياهم، وهو أيضًا مجازٌ أو استعارةٌ؛ لعدم سبق الذكر للآخرة منهم، وللمقابلة وشموله؛ إذ ذاك للقسمين كما أشار إليه العلّامتان بقولهما: لم يخطروه ببالهم، ولم يهمّوا به.[٣٧٤١]

﴿**لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هذَا**﴾ والظَّرف متَّسع فيه بإضافة المصدر إليه إضافته إلى المفعول به، أو المفعول محذوفٌ، والإضافة إلى ظرف الحدث إلى لقاء الله، أو لقاء العذاب في يومهم.

[٣٧٤١] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٦٣/٤.

وقال ابن الكمال: والمراد من اليوم: الواقعة، ولهذا أضافه إليهم.[٣٧٤٢]

فإن يوم الآخرة لا اختصاص له بهم، ويمكن أن يقال: لا حاجةَ في صحَّة الإضافة إلى الاختصاص، بل يكفي الاشتراك.

﴿وَمَا كَانُواْ﴾أيضًا مصدريَّةٌ في موضع جرّ بالعطف على أختها، ولم يُعد الكاف لقربه لفظًا ومعنًى، أي: وككونهم ﴿بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ينكرون أنَّها من عند الله.

و«الباء»: مؤكّدة، أو عماد للتقدّم على الفعل، أو لأنَّ الجحود بمعنى التَّكذيب، ثم تشبيه نسيانه تعالى بنسيانهم اللِّقاء، وكونهم جاحدين للآيات في التَّحقُّق والوقوع، وأنَّه تعالى يفعل بهم ذلك الجزاء، كما تحقق منهم النِّسيان، والجحود، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات ٢٣/٥١]، ويجوز أن يكون الكاف للتعليل، كما هو الظَّاهر من المعطوف، أي: يعاملهم بهم معاملة النَّاس لنسيانهم لقاء يومهم هذا، وكونهم جاحدينَ بآياتنا.

٥٢-﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

«الباء» للتعدية، والضَّمير للسَّابقين، أو المعاصرين، والتَّنوين للتفخيم. وفي إسناد المجيء به إلى ذاته بنون العظمة زيادة تعظيم.

﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ صفة ﴿بِكِتَابٍ﴾ أي: جعلناه تفاصيل في معانٍ مختلفةٍ من دلائل التوحيد والأحكام والأمثال والمواعظ والوعد والوعيد وغيرها، أو فرقناه في التَّنزيل، ولم ينزل جملةً واحدةً، أو فصّلنا فيه كلَّ شيء يحتاج إليه العبادُ؛ لأنَّه القانون الذي يستند إليه السنَّة والإجماع والقياس بعد أدلَّة العقل، أو بيَّنَّاه ولخَّصناه، لا إشكال في ألفاظه، ولا إعضال في معانيه.

وقال ابن الكمال: «جعلناه فصولًا هي أصول الأمور الدينيّة والدنيويّة».[٣٧٤٣]

﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ حالٌ من الفاعل، أي: عالمين بوجهٍ يفصّله على وجوه المذكورة، حتَّى جاء حكيمًا قيما غير ذي عوجٍ؛ فيكون كنايةً عن كون الكتاب كذلك؛ لأنَّ الفاعل إذا كان عالما بما يفعل متقنًا فيه جاء فعله محكمًا مستقيمًا معجزًا باقيًا على وجه الدَّهر، وفي لفظ على ترشيح بكمال العلم، وكذا في التَّنوين، ففيه دلالةٌ على أنَّه عالمٌ بعلم، وأنَّه يعلم كلَّ شيء من الجزئيَّات والكلِّيَّات بشمول التَّفصيل عليها، أو من المفعول أي: مشتملًا على علوم، وحِكم، وحقائقَ تتعلَّق بالمبدأ، والمعاد، وينكشف بها ما فيه صلاح العباد.

وقرئ: «فَضَّلْنَاه»؛[٣٧٤٤] أي: على سائر الكتب عالِمِين بأنَّه حقيقٌ [**١٨٥**/و] للتَّفضيل عليها.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ حالٌ من «الهاء»، أو من «الكتاب» لتخصّصه بالوصف، أو مفعول له؛ أي: ذا هدًى وذا رحمةٍ، أو للهدى والرَّحمة.

وقرئ: بالجرّ[٣٧٤٥] صفة لـ﴿كِتَابٍ﴾، أو بدلًا منه، وبالرَّفع[٣٧٤٦] على تقدير المبتدأ؛ أي: «هو هدًى ورحمةٌ».

[٣٧٤٢] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٦٣/٤.

[٣٧٤٣] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٦٣/٤.

[٣٧٤٤] **المختصر في شواذ القراءات** لابن خالويه، ص ٤٩.

[٣٧٤٥] «هُدًى وَرَحْمَةٍ» قراءة شاذّة، مروية عن زيد بن عليّ. **اللباب** لابن عادل، ١٣٧/٩.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لمن آمن من عباده، واتبع لما فيه وتخصصهم؛ لأنَّهم هم المنتفعون به دون غيرهم. ففيه تعريضٌ لحصول ضدّي هاتين الخصلتين لغيرهم، ولذا قال عليه السلام: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ».[٣٧٤٧]
ووجه النَّظم أنَّه تع تعالى يقول: نَسوا أَمْرنا، وجَحدوا آياتنا، وقد كنَّا آتيناهم بكتابٍ شانه كذا وكذا.

وقيل: الآية كالخاتمة لجميع ما سبق في التَّخلّص إلى مشرع آخر من التَّذكير بالدَّلائل الدَّالة على القدرة الباهرة، وتقدير أحوال الأمم السّالفة تنبيهًا للغافلين، وتبصرةً للمتذكرين؛ فإنه تع لَمَّا نهاه عليه السلام عن ضيق الصَّدر وعلَّله بإنزال هذا الكتاب المعجز، ثمَّ أمره بالإنذار بقوله: «اتَّبِعُوا»، والتذكير بقوله: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ»، ثمَّ أدمج الكلام بعضه في بعض على أساليب عجيبةٍ عقبه بقوله:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ أي: جئنا بمثل هذا الكتاب الظَّاهر والمعجز الباهر، فما لهم بعد هذا التفصيل لا يؤمنون وينتظرون؟ وما ينتظرون إلا تأويله يوم لا ينفع النَّدم لمن زَلَّت به القدم؛ ولذلك عقبه بقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ما ينظر هؤلاء المكذّبون المستكبرون، فالضَّمير إليهم، وقصَّة أصحاب الأعراف استطرادٌ للتَّغريب والتَّرهيب ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ إلا ما يؤل إليه أمره.

والتأويل: مرجعُ الشيء ومصيره من: «آل الشَّيء يَؤُلُ»، ومن ثمَّة قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران ٣/٧]، وما يعلم عاقبة الأمر فيه إلا الله، وذلك تبيُّن صدقه وظُهور حجّته بوقوع ما نطق به من الوعد، والوعيد، والنَّظر ههنا بمعنى الانتظار وهو الإقبال على ما سيأتي بالتَّوقع.

فإن قيل: كيف يتوقَّعون وينتظرون مع جحودهم، وإنكارهم؟

قلنا: إنهم مع جحودهم إيّاه جعلوا بمنزلة المنتظرين له من حيث إنَّه يأتيهم لا محالة. ويجوز أن يكون فيهم أقوام تشككوا وانتظروا مآل الأمر.

وفي الحديث: «عَلَيْكُمْ بِكِتَابُ اللهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المسْتَقِيمُ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ».[٣٧٤٨]

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)﴾

يريد يوم القيامة، وانتصابه على الظرفية لـ﴿يَقُولُ﴾ والنِّسيان مجازٌ عن ترك العمل به والأيمان، أو استعارةٌ تبعيّة؛ حيث شبّه إعرَاضهم عنه بمنزلة نسيان[٣٧٤٩] الناسي، فاستُعير النسيان له فجري منه على الفعل، فصارت تبعيّةً.

﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ مقول القول، أي: يقولون: قد تبيّن لنا أنَّهم جاءوا بالحقّ وظهر ما أخبروا عنه. و«الباء» للتَّعدية، أو الملابسة، وكيف لا يعترفون فيهم قد عاينوها، ولكن لا ينفعهم لمضيّ وقته، أو قد جاءت الملائكة عند المعاينة بما أنذر بأنَّه معاينة.

[٣٧٤٦] «هُدًى وَرَحْمَةٌ» قراءة شاذّة. **اللباب** لابن عادل، ٩/١٣٧.
[٣٧٤٧] **صحيح مسلم**، ١/٥٥٩ (٨١٧).
[٣٧٤٨] **سنن الترمذي**، ٥/١٧٢ (٢٩٠٦).
[٣٧٤٩] ج-الناس.

﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾ يقولون ذلك لَمّا رأوْا أنفسهم في العذاب، وفي الاستفهام معنى التّمني؛ لأنهم قد علموا أو تيقّنوا أنّه لا شفيع لهم هنالك، والمعنى: «ليت».

﴿شُفَعَآءَ﴾ جمع «شَفِيع»، وهو الذي ينظم الطّالب في طلب، مأخوذ من الشّفع خلاف الوتر. و﴿لَنَا﴾ خبر مقدّم و﴿مِنْ﴾ مزيدة في المبتدأ، أو فاعل الظّرف لاعتماد الجار على الاستفهام ﴿فَيَشْفَعُواْ لَنَا﴾ منصوبٌ بإضمار «أن» على جواب الاستفهام فقد عطفت ما في تأويل الاسم على الاسم الصّريح، أي: فهل لنا من شفعاء فشفاعة منهم لنا ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ أو هل نرد إلى الدّنيا، فهي جملةٌ معطوفةٌ على الجملة الّتي قبلها، داخلةٌ معها في حكم الاستفهام، ورافعة وقوعه موقعًا يصلح للاسم، فإن رفع الفعل المضارع إنما هو بعامل معنويٍّ، وهو وقوعه موقع الاسم لا بسبب رفع فعل آخر، كما تقول ابتداءً: هل يُضرب زيد؟ فإنّ ما بعد «هل» يصلح للاسم، وكذا ما بعد «أو» العاطفة، والغرضُ الردّ على مَن زعم أنّه يعطف على محلّ ﴿لَنَا مِن شُفَعَآءَ﴾ لكونه في معنى: هل يشفع لنا شافعٌ، على أنّه ظاهرٌ أنّه لا معنًى:هل يشفع لنا شافعٌ فيَشْفَعوا لنا.

فإنْ قيل: الظرف مقدّر بفعل فاعله ﴿مِنْ شُفَعَاءَ﴾ بزيادة ﴿مِنْ﴾، والتّقدير: هل يكون لنا شفعاءُ أو نردّ، فيكون من عطف الفعل على الفعل، قلنا: فرقٌ بين صريح الشّيء والمقدَّر به، فليس هذا إلّا من عطف جملةٍ فعليَّةٍ على جملةٍ ظرفيَّةٍ، أو اسميّةٍ، إن جوّزنا جعلَ المرفوع مبتدأ، والظّرف خبرًا، ولم نجعل هذا من قبيل: هل زيد عرف المحكوم عليه بالفتح، على أنّ في مثل: هل يشفع لنا شافع، أو نردّ لا يلزم أنْ يعتبرَ عطفُ الفعل على الفعل، والاسم على الاسم، بل عطفُ الجملة الفعليّة على الجملة الالفعليّة.[٣٧٥٠]

وفائدة العدول إظهار القصد إلى توخّي الشُّفعاء، وأنّه أهمُّ عندهم، للتّخلّص بخلاف الرّدّ، وهذا ما قاله **السكّاكي**.

﴿هَلْ﴾ أَدعى للفعل من الهمزة. فترك الفعل معه يكون أدخلَ في الإنباء عن استدعاء المقام عدم التجدّد». ومن ثمة [١٨٥/ظ] أدخل ﴿مِنْ﴾ الاسغراقيّة»[٣٧٥١].

وقرئ: بالنصب[٣٧٥٢] عطفًا على ﴿فَيَشْفَعُواْ﴾، أو حملًا لـ﴿أَوْ﴾ على معنى «حتَّى أَنْ»؛ والمشهور جعلُ «أو» بمعنى:«إلى أن»، وأوثر «حتّى» على «إلى» تصريحًا بمعنى السببيّة، فالمعنى على الرّفع: تَمنّي الشّفاعة أو الرّدّ، وعلى أوّل وجهي النّصب تَمنّي الشفيع للشفاعة بدون الرّدِ أو للرّدِ، وعلى ثانيهما تمنّي الشفيع للشفاعة مُفضيًا إلى الرّدِ وسببًا ووسيلةً إليه.[٣٧٥٣]

﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ جواب ﴿نُرَدُّ﴾ أي: فيؤخذ بدل الاشتراك ويؤمن ويطيع بدل العصيان.

وقرئ: برفع «نَعملُ» ونصب «نردَّ»؛[٣٧٥٤] أي: «فنَحْنُ نَعْمَلُ». و«أَوْ يُردُّ» بضمّ الياء، أي: يردُّ ما كنّا فيه من الدنيا، ثم استأنف ببيان أنَّ ذلك التّمنّي لا ينفعهم شيئًا، وأنَّ مطلوبهم لا يكون ألبتَّة بقوله: ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنْفُسَهُمْ﴾ في الدنيا بإبطال استعدادهم، وصرف أعمارهم في الكفر والضَّلال. ففيه وجه عدم استجابتهم في الرّد؛ لأنَّه لا لايجديهم، وقد صرّح في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام ٦/ ٢٨].

[٣٧٥٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٤ظ.

[٣٧٥١] **مفتاح العلوم** للسكاكي، ص ٣٠٩؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٠٣/٤.

[٣٧٥٢] قراءة شاذّة، مروية لابن أبي إسحاق. **المختصر في شواذ القراءات** لابن خالويه، ص ٤٩؛ **المحتسب** لابن جني، ٢٥١/١.

[٣٧٥٣] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٦٥/٤.

[٣٧٥٤] قراءة شاذّة، مروية عن حسن. **الكشاف** للزمخشري، ١٠٥/٢.

﴿وَضَلَّ﴾ وغاب وبطل ﴿عَنْهُمْ﴾ في الآخرة فلم ينفعهم ﴿مَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ ما كانوا يزعمون، ويكذبون في الدنيا من أنَّ الأصنام التي يعبدونها يشفع لهم، فلمَّا أفيضوا إلى الآخرة ذهب ذلك عنهم، وعلموا بطلانهم في اعتقادهم ودعواهم، فلا مردّ لهم إلى الدُّنيا، ولا شفيع ينقذهم في العقبى، فكذا[٣٧٥٥] جزاء من كذَّب وتولَّى.

وهذه الآية تدلّ على أنَّه لا تكليف في الآخرة؛ لأنَّه لو كان في الآخرة لَما طلبوا الردّ إلى الدُّنيا ليعملوا عملًا غير الذي كانوا يعملونه. وفيه عبرةٌ للمقصّرين في العمل، واللّاهين عمّا يتّهمهم بطول الأمل.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾

لَمَّا دلَّ بالآيات السَّابقة على عظم شأنه، ووحدانيَّته وقدرته، وأنه منزل الكتاب الجامع للفوائد، ومرسل الرُّسل، والقادر على حشرهم وأممهم، اتّبعها ما يؤكّد الدَّلالة على ما ذكر من الآثار العلويّة، والسفليَّة؛ فإنها أظهرُ دلالةً، وأبينُ شهادةً مع ما فيها من التَّنبيه على وجوب المرجع إليه؛ لأنَّ الحكمة في خلقها جزاء المكلَّفين على أعمالهم على ما صرّح في قوله: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية ٤٥/ ٢٢]، أي: إنَّ الذي يربّيكم، ويصلح شأنكم، ويوصل الخيرات، ويدفع الآفات الذّات المسمى باسمه المعروف، وليس ربُّكم ما عبدتموه من الأصنام والكواكب والملائكة والجنّ والناس،[٣٧٥٦] بل[٣٧٥٧] كلُّ ذلك مخلوق ومربوبٌ،[٣٧٥٨] مُحتاج إلى مدبّر وحافظ، ثم وصفه بما دلّ على ربوبيَّته، وشهد على ألوهيّته، وأفصح عن كمال علمه وقدرته، وشمول حكمته، ورحمته بقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الفرقان٢٥/٥٩] على ما صرّح به في مواضع، ولذلك لم يذكره ههنا، ولأنَّه لم يقل بالفصل أحد؛ لأنَّهما إذا كانتا مخلوقتين له، فغيرهما بالأولى.

ويجوز أن يكون الجلالة بدلًا للبيان، وأن يكون الموصول مع صلته خبرًا، أي: إنَّ[٣٧٥٩] ربّكم المسمّى باسم الله القادر الذي خلق السَّموات والأرض، ويؤيّده قوله ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

وقراءة بكار «اللهَ»[٣٧٦٠] بالنَّصب. فمن بلغ كمال قدرته، وجمال رحمته إلى حيث خلق هذه[٣٧٦١] العظام، وأودع فيها المنافع الجسام، كيف يليق أن يرجع إلى غيره في طلب الخيرات، وتحصيل السَّعادات؟

وجعل الوصف، أو الخبر موصولًا يدلُّ على كون الصِّلة معهودًا عند السَّامع، ومفروغًا من تحقيق النسبة والعلم به.[٣٧٦٢]

﴿فِي سِتَّةِ ايَّامٍ﴾ في ستة أوقاتٍ؛ لأنَّ اليوم يجيء بمعنى الوقت، كقوله تع: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ [الأنفال ٨/١٦]، أو في مقدار ستة أيامٍ، لو كان هناك طلوع وغروب. وإنَّما قلنا هكذا؛ لأنَّ اليوم المتعارف الذي هو زمانُ طلوع

[٣٧٥٥] ج: فهذا.

[٣٧٥٦] ج:والإنس.

[٣٧٥٧] ج:و.

[٣٧٥٨] ج: مربوبٌ ومخلوق.

[٣٧٥٩] ج–إنَّ.

[٣٧٦٠] قراءة شاذّة. **المختصر في شواذ القراءات** لابن خالويه، ص ٤٩؛ **شواذ القراءات** للكرماني، ١/ ١٨٨.

[٣٧٦١] ج+ الأجرام.

[٣٧٦٢] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/ ٦٦.

الشَّمس إلى غروبها، لم يكن حينئذ، والظاهر من المقدار أن يكون من الزَّمان، وإنما يصحّ ذلك على عدم جعله عبارةً عن حركة الفلك؛ لأنَّه لم يكن أيضًا.

وقال ابن الكمال: المراد من اليوم: مقدار دورة العرش من الزَّمان.[٣٧٦٣]

ووجه تخصيص السِّتَّة علمه عند الله. وقيل: إنَّ لعدد السَّبعة شرفًا، فالأيَّام السِّتة: لتخليق العالم، والسَّابع: لتحصيل إكمال الملك والملكوت، والأكثرون على أنَّها أيَّام الدُّنيا؛ لأنَّ التَّعريف بها يقع. والظَّاهر أنَّها الأيَّام بلياليها.

وقيل: أيام الآخرة، كلُّ يوم ألف سنة.

وقيل: من يوم الأحَد إلى يوم الجمعة. فيكون يوم السَّبت يوم الفراغ من الخلق، ولذلك سمّي السّبتَ؛[٣٧٦٤] لأنَّه بمعنى القطع. ومن قال إنما سمّي به؛ لأنَّ قطع بعض الخلق كان فيه، فقد نظر إلى قوله ع م: «خَلَقَ اللَّهُ البريّةَ يَومَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ الجِبَالَ يَومَ الأحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَومَ الاثْنَيْنِ، وَخَلَقَ المكْرُوهَ يَومَ الثُّلاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَومَ الأرْبِعَاءِ، وَخَلَقَ فِيهَا الدَّوَابَّ يَومَ الخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ العَصْرِ مِن يَومِ الجُمُعَةِ، في آخِرِ الخَلْقِ، في آخِرِ سَاعَةٍ مِن سَاعَاتِ النَّهَارِ، فِيما بيْنَ العَصْرِ إلى اللَّيْلِ.[٣٧٦٥]

فيظهر من الحديث: أنَّ الخلق في سبعةٍ، فعَلى تقدير صحّته. فلعل السِّتة لخلق غير آدم، كما في الآيات، والسّبعة لخلق الجميع، كما في الحديث.

وإنما خلاقها مدرجًا مع القدرة على إيجادها دفعةً؛ لأنَّه أدلُّ على وجود عالمٍ مدبِّر يجريه على اختياره، ويمضيهعلى مقتضى [**١٨٦**/و] مشيئته.

وفيه اعتبارُ النظار من الملك، وغيره ممَّن يشاهده، وتعليم التأنّي في الأمور، ودفع وهم الوقوع على سبيل الاتفاق، وتنبيه على أنَّ كلّ مصلحة مؤقّت، فلا يحمل المكلّف تأخير الثَّواب، والعقاب على التَّعطيل.

وما قيل دلالة المحدثات على الصَّانع بحدوثها، أو إمكانها أو بهما. وأمّا الوقوع في ستَّة أو في واحدٍ، فلا أثر له فيه مدفوع بأنَّ الخلق في ستة مذكور في التوراة، والعرب كانوا يخالطون اليهود.فقيل لهم: إنَّ ربَّكم هو الذي سمعتم ممن اعتقدتم به، أنَّه خلقها مع عظمها في ستَّة.

﴿**ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ**﴾ لَمَّا تنزَّه تع عن الاستواء، بمعنى زوال الاعوجاج وعنه بمعنى الاستقرار، قال: من سلك الطريق الأسلم يؤمن به، وبكلّ العلم بكيفيّة الاستواء إلى الله؛ فإنَّ الاستواء على العرش صفةٌ له تع بلا كيفٍ. «وأنَّ له استواءً على الوجه الذي عناه منزَّها عن الاستقرار، والتّمكن».[٣٧٦٦]

ولذلك لَمَّا سئل مالك بن أنس عنه، أطرق رأسَه مليًّا، وعلاه الرحضاء، ثم قال: «الاستواءُ غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسُّؤال عنه بدعةٌ، وما أظنُّك إلَّا ضالًّا، ثم أمر بإخراج السَّائل. ونُقل ذلك أيضًا عن الصَّادق، والحسن، وأبي حنيفة.

[٣٧٦٣]**تفسير ابن كمال باشا**، ٦٦/٤.

[٣٧٦٤]ج: سبتًا.

[٣٧٦٥]**مسند أحمد**، ٢٨٢/٨ (٨٣٢١)؛ **صحيح مسلم**، ٢١٤٩/٤ (٢٧٨٩)؛ **مسند البزار**، ٣٥/١٥ (٨٢٢٨).

[٣٧٦٦]**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٤٧/١.

وقال من اختار السبيل الأحكم: إنَّ الاستواء عليه كنايةٌ عن الملك، والعزّ، والتَّصرف بذكر اللَّازم، وإرادة الملزوم:

إنْ يَقْتُلُوكَ فَقَدْ ثَللتَ عُرُوشَهُمْ بربيعة بنِ حَارِثِ بْنِ هِشَام[٣٧٦٧]

جعل «ثلَّ العرش» كناية عن زوال الملك. ويؤيده السِّباق والسِّياق؛ لأنَّهما يدلّان على القدرة التَّامة، والحكمة الكاملة ويرشد إليه قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس ١٠/٣]؛ فإن يدبّر جرى مجرى تفسير الاستواء، فكأنَّه قيل: خلق عالم الملك في ستَّة، كما أراد من غير منازع، وبعد ذلك استوى على الملك فيها بتحريك الأفلاك، وتسيير الكواكب، وتكوير الملوين على ما يقتضيه الحكمة.

ومن ههنا يظهر أنَّ ثمَّ لا يدفع ذلك التَّأويل؛ لأنَّه وإن كان مالكًا ملكًا أزلًا وأبدًا قادرًا مقتدرًا منزهًا عن سمّاة الحدوث، لكن تعلّق القدرة، وظهور التَّصرف على مقتضى الحكمة، إنما يتأتى بعد التّكوُّن، أو أنَّ الاستواء عليه استعلاء[٣٧٦٨]عليه بالتَّأثير فيه، وإيجاده والتَّصرف فيه على ما تقتضي الحكمة.

قَدْ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى العِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاق[٣٧٦٩]

فيعود الاستواء إلى صفة القدرة، والنُّكتة في تخصيص الاستعلاء[٣٧٧٠] عليه مع أنه يعمّ الكلّ الإشعار بالأدنى على الأعلى، فإذا استولى عليه، وهو أعظم المخلوقات فقد استولى على غيره. ف«ثم» إمّا للتَّراخي في الرُّتبة، كما في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة ٢/٢٩] فإن إيداع تلك الأجرام العظام والهياكل الجسام، وإن دلَّ على كمال عزَّة وعلوّ سلطانه، إلَّا أنَّ أجَلَّ الآيات وأدَلَّها فوق السَّموات. وهي: العرش والكرسي وصفوف الملائكة المرتجّة بالاستغفار، والتسبيح حول العرش، أو للتَّراخي في الزَّمان على نقل عن الفرَّاء، وأبي العباس، والزَّجّاج. فيكون للفظ استوى موقع حسن؛ لأنه عبارة عن انتهاء الأمر عنده، كما في قولهم: «بلغ الشمس إلى الاستواء»؛ فإنه تع بعد خلقهما خلق العرش العظيم المحيط بالأجسام، وجرى أمره فيه. فقد استقر أمر خلق الأجسام على العرش، وثم به خلقها ولم يخلق شيء آخر فوقها. ومن ههنا ظهر أن العرش الجسم المحيط[٣٧٧١] سائر الأجسام سمّي به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملك؛ فإنّه كما نزل[٣٧٧٢] أحكام الملك منه حال تمكنه عليه، نزل[٣٧٧٣] من العرش الأمور الإلٰهية والتَّدابير الرَّبانية بالاستواء على العرش بلا وصف التَّمكن.

وقيل: المراد من العرش ههنا الملك، كما يقال: «ذهب عرشُ فلان» أي: ملكُه، أي: ما الملِك الإلٰه.[٣٧٧٤] فح فيه دقيقة هي أنَّ خلقهما كان في ستَّة أيّام، ثم في السَّابع خلق الممتحنين، أي: الذين يتوجَّه عليهم خطاب التَّكليف، ولهم فضيلة العقل، وظهور تمام الملك لهم، فلهذا ذكر استوائه عليه بعد ذكر خلقهما في ستَّة.

[٣٧٦٧] **ديوان الحماسة** للتبريزي ١/٣٤٩؛ **اللباب** لابن عادل، ١٤٤/٩.

[٣٧٦٨] ج: استيلاء.

[٣٧٦٩] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٢٣٩/٩؛ **اللباب** لابن عادل، ١٤٤/٩.

[٣٧٧٠] ج: الاستيلاء.

[٣٧٧١] ج- بالأجسام، وجرى أمره فيه. فقد استقر أمر خلق الأجسام على العرش، وثم به خلقها ولم يخلق شيء آخر فوقها، ومن ههنا ظهر أن العرش الجسم المحيط.

[٣٧٧٢] ج: ينزل.

[٣٧٧٣] ج: ينزل.

[٣٧٧٤] **اللباب** لابن عادل، ١٤٤/٩.

وقيل: إنَّ ستَّة أيامٍ، هي أيّامُ الآخرة، كلُّ يوم ألف سنة. فجائز أن يكونَ تدبيرُ هذا العالم إلى ستَّة أيامٍ بمعنى ستة آلاف سنة، يكون اليومُ[٣٧٧٥] السَّابع يوم القيمة. وفيه ظهور تمام الملك، فيقر كلّ ممتحن فيه بأن الملك لله؛ قال الله:[٣٧٧٦] ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ القهّار﴾ [المؤمن ١٦/٤٠] . وقال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة ٤/١]، ثم لَمَّا ذكر استوائه على التدبير، وكان من معظم تكوير اللَّيل والنّهار، أو لَمَّا حصل اللَّيل والنّهار سبب حركة الفلك الأعظم الذي هو العرش، وكان ههنا ذكره عقب بقوله:

﴿يُغْشِي الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾

يغطِّي الله، ويلحق، ويلبس ﴿**الَّيْلَ**﴾،﴿**النَّهَارَ**﴾، فيكون اللَّيل فاعلًا معنويًا، والنهار مفعولًا لفظًا ومعنًى، فإنّ «غَشِيَ» الثلاثي يتعدّى إلى واحدٍ، وبالنقل إلى اثنين. فلما كانا ههنا ممَّا يصحّ أن يكون فاعلًا معنويًّا ومفعولًا لفظًا ومعنًى، ناسب جعل الأول فاعلًا معنويًا؛ لئلَّا يلتبس كما في قوله: نصر موسى عيسى، وأعطيت زيدًا عمرًا. ويؤيده قراءة «يَغْشَى اللَّيلَ النهارُ» بالثلاثي، ورفعِ «الليل»[٣٧٧٧]. ويظهر ذلك عند الفعل؛ لأنَّ التَّغشية بالليل [**١٨٧**/ظ] أنسب، ولم يذكر العكس للعلم به، والاكتفاء، كقوله: «بِيَدِكَ الْخَيْرُ» [آل عمران ٢٦/٣]، ولكون النظم محتملًا لكلّ واحدٍ منهما على سبيل البدل بناءً على التّعاقب من الطَّرفين؛ فإنَّ كلّ واحد منهما، وإن أزال صاحبه؛ فإنَّ صاحبَه أيضًا مزيل له، وكلُّ واحدٍ منهما فاعل وإن كان مفعولًا، ومفعول وإن كان فاعلًا، ودفع الالتباس بالقرائن. وذلك لا يستلزم أن يراد بلفظٍ واحدٍ مع إطلاق واحد مجموعًا[٣٧٧٨] معنييه معًا حتى يردّ، ولكون هذا الاحتمال قرئ: يَغْشى اللَّيلَ النهارُ» بالثلاثي، ورفعِ «النهارُ».[٣٧٧٩] وأيد بها حمل المشهورة على هذا الاحتمال، وبجعله تمهيدًا لقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ [الأعراف ٥٥/٧]، أي: ادعو من هذه ألطافة وآياته. وأما في الرَّعد،[٣٧٨٠] فلمَّا ذكر تسخير الشَّمس، والقمر، من قبل في تقدير الآيات، ثم ذكر التَّغشية ناسب أن يحمل على إدخال اللَّيل على النَّهار؛ ليطابق ذكر الإضاءة ذكر الظَّلام، وبأنَّ قوله: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾[يس، ٣٧/٣٦] يدلُّ على أن اللَّيل قبل النَّهار؛ لأنَّ المسلوخ منه قبل المسلوخ، فكان النَّهار كاللِّباس للَّيل، والنَّهار بالإدراك له أولى.

وقال النحرير: اللَّفظ يحتملُ جعل الليل لاحقًا بالنَّهار، بالحمل على تقديم المفعول الثاني:من غَشِيَته الثوب، وجعل النهار لاحقًا باللَّيل، يكون الثاني النَّهار.[٣٧٨١]

وأنت خبير بأن الأوَّل يقتضي كون اللَّيل أوّلًا، فكيف يجعل ثانيًا؟ من قبيل: غشيته الثَّوب فإن اللاَّحق هو الأوّل، وإن أُخّر لفظًا والملحق به هو الثاني، وإن قُدّم لفظًا، كما في: غشيته، أي: جعلته مستورًا به. وهذا من قبيل: يغشى الثوب زيدًا.[٣٧٨٢]

[٣٧٧٥] ج: يوم.

[٣٧٧٦] ج: فإن الله.

[٣٧٧٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن حميدٍ. **الحتسب** لابن جنّي ٢٥٣/١؛ **الكشاف** للزمخشري، ١٠٥/٢؛ **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٢٢١/٧.

[٣٧٧٨] ج: مجموع.

[٣٧٧٩] ج: الليل.

[٣٧٨٠] سورة الرعد ٣/١٣.

[٣٧٨١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٤ظ–٣٥٥و.

[٣٧٨٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٢٣٤/٤.

والجملة حالٌ من المستكن في ﴿خَلَقَ﴾ أو في ﴿اسْتَوَى﴾ أي: خلقهما، أو استوى عليه في هذه الحال، أي مغشيًّا، أو استئناف ببيان ما اقتضاه الكلام، كما مرَّ، وكذا على الشّاذَّة، لكن لا بدَّ من عائدٍ، أي: غاشيًا اللَّيل النَّهار بأمره.

﴿**يَطْلُبُهُ**﴾ يطلب اللَّيل النَّهار، ويعقُبه، أو العكس على العكس، وعلى قراءة رفع «النَّهَار» فيكون حالًا من الفاعل المعنويّ، أي: طالبًا له أو من المفعول لفظًا ومعنىً أي مطلوبًا؛ إذ في الجملة ذكر كلّ منهما، وتوصيفهما بالطلب استعارة؛ لأنَّ إتيان أحدهما في أثر الآخر؛ بحيث لا يفصل بينهما شيءٌ كالطلب له ﴿حَثِيثًا﴾ نعت مصدر، أي: طلبًا حثيثًا، أو حالٌ من فاعل ﴿يَطْلُبُهُ﴾ أي: حاثًّا، أو من المفعول،[٣٧٨٣] أي: محثُوثًا، أو منهما، ونحوه قوله: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ [مريم ٢٧/١٩].

وجوّز على الشّاذَّة كون هذه الجملة بدلًا من الأولى على التَّأكيد، والجملة ألْيَم على قراءة رفع «النَّهَار»؛ إذ يكون حالًا من النَّهار، وضمير الفاعل له، وهو أَنسبُ بالوصف بالطلب، والسرعة؛ لأنَّه نور وجوديّ، واللَّيل ظلمة عدميّة. وضمير المفعول للَّيل، والطَّلب يناسبه الإدراك غاية المناسبة.

والحثُّ: الإعجال والسرعة، والحمل على فعل شيء كالحضّ عليه، يقال: حثثتُ فلانًا وأحثثته، فهو حثيثٌ، ومحثوث.[٣٧٨٤] وللشَّمس حركة بحسب ذاتها، وهي إنّما يتمّ في سنة و حركة بحسب حركة الفلك الأعظم، وهي يتم في يومٍ وليلةٍ. فلمّا حصل بسبب حركة الفلك الأعظم الذي يقال له: العرش. ذكر ذلك عقيب ذكره، والإنسان إذا كان في غاية العدوّ في السَّير، فإلى أن يرفع رجلَه، ويضَعَها، يتحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف ميل. والتعاقب المتفرع على مثل هذه الحركة في غاية السرعة؛ فلذلك قال: ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾وفي هذا التَّعاقب إلى آخر مدَّة الدُّنيا نعمة جليلة، ومنَّة عظيمة يتفرّع عليه نظام العالم.

﴿**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾

معطوفاتٌ على السموات و﴿**مُسَخَّرَاتٍ**﴾ حالٌ منها. وقرأ ابن عامر كلَّها بالرفع[٣٧٨٥] على الابتداء والخبر، أي: خَلقهنَّ مسخرات، أو هنَّ مسخرات لما خلقن له، مذللات لما يراد منهنَّ من الطُّلوع والغروب والسَّير والرجوع والتّسخير الشَّديد، والنُّور القاهر، والتَّأثير العجيب للشمس التي هي سلطان الكواكب، ولذلك قدَّمها، وخصّها بالذكر، والترطيب، والتَّوليد للقمر الذي، هو نائبٌ عنها؛ فلهذا أتى به. وتأثيرُ كل واحدٍ من النُّجوم السَّيَّارات، والثابتات بخاصة مختصّة به، وغير ذلك ممَّا وضع الله فيهنَّ من المنافع التي لا يحصى خصوصًا للناظرين في اختلافهنّ، ومسائرهنّ؛ حيث يعلمون أن لا بدّ لانتقالها من ناقلٍ، وسيرهنّ من مسيّر، ويستدلون به على وجوده، ووحدته، وعزّته وكبريائه، ويشكرون على النّعم التي فيهنَّ من علم السّنين، والحساب، والاهتداء بهنَّ في الظّلمات وغير ذلك مما يتعلّق بالعادات، والديانات.

﴿**بِأَمْرِهِ**﴾ متعلِّق بـ﴿**مُسَخَّرَاتٍ**﴾ أي: بقضائه، وتصريفه على مقتضى حكمته، ووفق مشيئته سمي ذلك؛ أمرًا تشبهًا لهنَّ بالمأمورات بالجريان على هذا الوجه. فاستعار الأمر لذلك؛ لأنَّ حقيقة الأمر للعقلاء. وفيه إبطالٌ لقول من يقول: بتأثيرهن لذاتهن. ولَمَّا أفادت الآية أنَّه الخالق للأشياء، وأنه المدبِّر فيها على ما يشاء ذيّلَه بقوله: ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾ فاللّامان للجنس، فيدخل فيها الخلق والتّدبير المذكوران، ويدلّ على أنَّهما لا يختصّان بما ذكر، بل يعمّان الكلّ؛وأنه لا شركة لأحدٍ فيهما

[٣٧٨٣] ج: مفعوله.

[٣٧٨٤] **اللباب** لابن عادل، ١٥٤/٩.

[٣٧٨٥] **التيسير** للداني، ص ٣٥٦؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٢/٢.

صدّر بحرف التَّنبيه، وقدّم الظرف للتَّخصيص؛ إشعارًا بأن الأهم اعتقاد أنَّه الخالق لا خالق سواه؛ وأنه المدبّر لا مدبِّر إلا هو.[٣٧٨٦] ومنه قالت الأشاعرة: كل أثرٍ يصدر عن فلك أو ملك، أو جني أو إنسي فخالقه في الحقيقة هو الله.

[**١٨٧**/و] وأنه لا تأثير للكواكب في هذا العالم، وأنَّ القول بالطَّبائع، والعقول والنفوس باطل، وأنَّ خالق أفعال العباد هو الله، والخلق غير المخلوق، وهو صفة له، لا يقال: إنْ كان قديمًا يلزم قدم المخلوق، وإن كان حادثًا فيفتقر إلى أخر، فيتسلسل، ويلزم حدوث الصفة؛ لأنَّها قديمة والتَّعلُّق حادث، ولا ينافي الاختصاص نحو قوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران ٣/١٠٤]؛ لأنَّ الأمر ههنا أمر تسخيروإن كان نقيض النَّهي، فالموجب لأمر غيره هو الله

ومن ههنا قال ابن عُيينتة: فرَّق بين الأمر والخلق. فالخلق المخلوق، والأمر كلامه الغير المخلوق. فيبطل القول بحدوث القرآن، فيكون التقدير حينئذ: ألا له الخلق، والخلق فلا يصحّ.

وقال **الإمام**: «ماسوى الله إمَّا من عالم الخلق، فهو عالم الأجسام، أو من عالم الأمر فهو كلّ ما كان مجردًا عن الحجميَّة والمقدار. فدلَّ على أنَّه خصّ كلّ واحدٍ من الأفلاك، والكواكب التي هي من عالم الخلق بملَكٍ من الملائكة، وهو من عالم الأمر. والروايات تؤيِّده، فتسميته ما هو من عالم الخلق به الذي ينبئ عن التقدير المشعر بالمقدار، وما هو من عالم الأمر به الذي يشعر حصوله به مناسبةً لطيفةً.[٣٧٨٧]

ولَمّا كانت الآية لإثبات التَّوحيد، وقلع الإشراك ناسب أن يفسر قوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ بأن يقال تعالى بالوحدانيّة، والألوهية، وتعظَّم بالتفرُّد في الرُّبوبيَّة؛ لأنَّه ثبت أنه الخالق، والمدبّر، وأنه ربّ كلّ شيءٍ، ومليكُه، وهو من لوازم الألوهيّة، وخصائص الربوبيّة. فوجب على عباده أن يوحّدوه، ولا يشركو به شيئًا، ويثبتوا عليه، ويقبلوا على عبادته؛ فلذلك عقبه بالأمر بالدعاء على الضّراعة والاتجاء.

ولَمّا كان سياق الآية في ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ [المؤمنون ٢٣/١] لخلق الإنسان، وأطواره، ختم بقوله: ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون ٢٣/١٤]، وههنا المذكورات مع كونها من عظائم النِّعم، أدلّة التَّوحيد والجلال والكبرياء والكمال، آثر لفظ الرَّبّ الدّال على التكميل.

وقيل: ﴿تبارك﴾ إنَّ من «البروك»، وهو الدَّوام، فالله هو الدَّائم القائم بذاته الموجود الواجب لذاته الغني في ذاته، وصفاته، وأحكامه عن غيره، وإنَّ من «البَرَكَةِ»، وهي كثرة الخير وزيادته، فهو الذي تَزَايَد خيرُه وتكاثر بِرُّه، أو تَزَايد عن كلّ شيءٍ، وتعالى عن صفات الأجرام.

وعنه ع م: «من لَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ عَلَى مَا عَمِلَ، وَحَمِدَ نَفْسَهُ، فَقَدْ كَفَرَ به وَحَبِطَ ما عَمَل. وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ لِلْعِبَادِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى أنبيائِهِ».[٣٧٨٨]

وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ،[٣٧٨٩]وَلَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَإِلَيْكَ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، أسأَلُكَ مِن الخَيرِ كلِّهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ».[٣٧٩٠]

[٣٧٨٦] ج- إياه.

[٣٧٨٧] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٥/٢٧٢.

[٣٧٨٨] **جامع الأحاديث**، ٢١/٤٠٣ (٢٣٨٣٨)؛ **كنز العمال**، ٣/٢٦٥ (٦٤٧٤).

[٣٧٨٩] ج- كُلُّهُ.

[٣٧٩٠] **شعب الإيمان** للبيهقي، ٦/٢٣٢ (٤٠٨٨).

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥)﴾

﴿اُدْعُوا﴾ الذي ثبت كمال قدرته، ووفور حكمته، وشمول رحمته؛ فإنَّ منه يحصل المآرب حالًا مآلًا، أو اعبدوه بمقتضى ربوبيَّته، وتذلّلوا لجلال ألوهيَّته، وما قيل: إن المطلوب إن كان معلومه تعالى، أو مراده أو على الحكمة، وقع لا محالة، وإلا فلا فائدة فيه، وأيضًا أنَّه نوع سوء أدبٍ، وعدم الرِّضاء بالقضاء، وقد يطلب ما ليس فيه نفع، واشتغال بغير الله، وعدم التوَّكل عليه، مدفوع بأنه نوعٌ من أنواع العبادة، وفي رفضه رفض كثير من الوسائط.

ولو لم يكن فيه إلا معرفة ذلّة العبودية، وعزّة الرُّبوبيَّة لَكفى بذلك شرفًا؛ فإنَّ الدَّاعي إنما يقدم عليه؛ إذا عرف احتياجه، وعجزه، وقدرة إجابة ربِّه، ودفع حاجته. ومن ههنا قال ع م: «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ».[٣٧٩١] وإليه أشير بقوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾. وفيه تعليم أدب الدّعاء بأن يكون على هذين الوصفين، ومناسبة ما ثبت فيما سبق من الانكسار، والتَّذلل لألوهيته، والإخلاص لوحدانية ربوبيته. فإن الإخفاء سبيله لبعده عن الإشراك، والتَّضرع التذلّل، وهو إظهار الذّلّ الذي في النّفس، وأصله: الميل في الجهات ذلًّا يقال: ضَرَعَ الرَّجل يضرع ضرعًا إذا مال بأصبعه يمينًا وشمالًا ذلًا وخوفًا ومنه: ضرع الشاة؛ لأن اللَّبن يميل إليه. و المضارعة للمشابهة؛ لأنه ميل إلى شبهٍ، والضريع نبت لا يغنى؛ لأنه يميل مع كل داءٍ. ولا يبعد أن يكون من طلب ولد الأنعام، ضرعَ أُمّه بصوت، ويؤيده ما في **المصادر** التَّضرّع: زارى كردن.[٣٧٩٢]

والخفية: خلاف العلانية، وهو الإخفاء، وهو إغماض الشيء، بحيث لا يقع عليه الإدراك، وهمزته منقلبة عن الياء، كما أن الهمزة في الغناء منقلبة عن الياء بدلالة الغُنية. يقال: خفيت الشيء إذا أظهرته في إخفائه إزالة إظهاره، فالهمزة كما في: أشكيته.

والتعبير عن قسيم الدَّعاء خُفْيةً بما ذكر إشارةٌ إلى أنَّ الدُّعاء جهرًا إنما يصلح أن يكون مأمورًا به إذا كان مقرونًا بالاستكانة، والخشوع.[٣٧٩٣] وهذا على حمل التَّضرع على الإعلان، لكن الأَّئح أنه غير قسيم له، بل اللَّائق جمعهما؛ فإنَّ الإخفاء قد يكون بدون التَّضرع يرشدك إليه استدلالهم على استحباب الإخفاء به؛ فإنه لو كان قسيمًا له لَكان الإعلان، والإخفاء شيآن.

قال الحسن: «بَيْنَ دَعْوَةِ السِّرِّ[٣٧٩٤] والعَلانِيَةِ سَبْعُونَ ضِعْفًا».

ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدُّعاء، ولا يُسمع لهم صوتٌ إن كان إلّا همسًا بينهم وبين ربِّهم. وقد ذكر عبدًا صالحًا، ورَضي فعلَه فقال: ﴿إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا﴾ [مريم ١٩/٣].[٣٧٩٥]

وعن أبي موسى قال: كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم:فجعل الناس يجهرون بالتَّكبير، فقال ع م: «ارْبِعُوا عَلَى أنْفُسِكم، إنَّكم لا تَدْعُونَ [**١٨٧**/ظ] أصَمَّ، ولا غائبًا، إنَّكم تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا وهو مَعَكم».[٣٧٩٦]

[٣٧٩١] **سنن الترمذي**، ٥/٤٥٦(٣٣٧١).

[٣٧٩٢] **تاج المصادر** للبيهقي ١/ ٢٠٦.

[٣٧٩٣] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٦٩.

[٣٧٩٤] ج + دَعْوَةِ.

[٣٧٩٥] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٠٦.

[٣٧٩٦] **صحيح البخاري**، ٥/١٣٣ (٤٢٠٥).

قالوا: هذا بحسب المقام، وقد يأمر المرشد الكامل المبتدئَ برفع الصوت لينقلع عن قلبه الخواطر.ورجّح البعض الإعلان؛ لتشهير الخير، وترغيب الغير، والبعض رجّح الإعلان لمن أمن الرياء، والإخفاء لمن لم يأمن، والبعض رجَّح الإعلان في الفرائض، والإخفاء في النوافل. وهذا الخلاف جارٍ في سائر القربات غير مختصّ بالدعاء.

وانتصابهما على الحالية، أي: ذوي تضرّعٍ وخفيةٍ، أو متضرعين وخافين، أو المصدريَّة، أي: دعوة تضرّع، ودعوة خفية، أو على الظَّرف، أي: وقتي تضرع وخفية، أو على المفعول له.

وقرئ: ﴿خِفْية﴾[٣٧٩٧] بكسر الخاء لغة فيه.

﴿**إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ المتجاوزين ما أُمروا به في كلّ شيءٍ من الدُّعاء وغيره؛ تنبيه على أنَّ الدَّاعي ينبغي له أن لا يطلبَ ما لا يليقَ به،[٣٧٩٨] و لا يجوز كرُتبةِ الأنبياء، والصُّعود إلى السَّماء، وما فيه معصية أو مضرَّة له أو لغيره، ولاتتخيَّر الألفاظ المسجّعة ليست في الكتاب، والسُنة، ولا يترك الأدعية المأثورة إلى غيرها، أو تعليل للمقيّد، ومنع للداعي عن الصّياح والجهر الكثير، والإسهاب فيه. ولذلك عُدَّ ذلك من البدع.

وقيل: لا يحبُّ الذين دعاؤُهم صالحٌ، وعملهم فاسدٌ، أو لا يحب المشركين، ومحبته تعالى إيصال الثواب، أو إرادته لا ميل الطبع.

وقيل: إنَّ له محبّةً لا نعرفها، كما أنَّ له رؤيةً لانعرفها.

﴿**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)**﴾ ولا تفسدوا فيها بالكفر، والمعاصي؛ فإنّها توجب الهَرَج والمرج، وتخلّ بنظام العالم، وإن ارتكبها فيه إفساد النّفوس والأموال والأنساب والعقول، بنحو: القتل والسرقة والزنا وشرب الخمر. ففيه نهي كل فساد قلّ أو كثر، حتى تغوير الماء المعين، وقطع الشَّجر الْمُثمر، وتجارة الحكّام، ونحوها إلا بإذن الشرع، والمصلحة، بعد أن أصلح الله الأرض ببعثه الرُّسل، وتقرير الأحكام، ووضوح ملَّة محمد، وخلقها على الوجه الموافق للمصالح، والإضافة كإضافة ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية٤٥/٣٤]، أو على ظاهرها بتقدير مضافٍ، أي: إصلاح أهلها.

﴿**خَوْفًا**﴾ من الرّد لقصور الأعمال، واستغناء ذي الجلال ﴿**وَطَمَعًا**﴾ في الإجابة؛ بكمال الإحسان والنعمة،[٣٧٩٩]أو ﴿خَوْفًا﴾من العقاب ﴿وَطَمَعًا﴾ في الثَّواب، ولا يردّ عليه أنَّ من يدعو،كذلك لم يأت بالطاعة على وجهها، وهو الإتيان لأداء مقتضى الألوهية؛ لأنَّه يجوز أن يكون غاية التكليف من الأمر غير غايته من المأمور، فغاية الأولى: الإلهية، والعبودية، وغاية الثانية: الخلاص من العقاب والوصول إلى الثواب نعم، الأول أولى وأليم بالأمر بالدعاء، أو ﴿خَوْفًا﴾ من بُعده، ﴿وَطَمَعًا﴾ في قربه، أو﴿خَوْفًا﴾ من إعراضه ﴿وَطَمَعًا﴾ في إقباله، أو ﴿خَوْفًا﴾ منه ﴿وَطَمَعًا﴾ فيه.

وانتصابهما على ما مرَّ قبل. فالسابقتان إشارةٌ إلى شأن الدعاء، وهاتان إلى شأن الدَّاعي، أو هما من الأوصاف الظَّاهرة؛ لأنَّ الاستكانة، والإخفاء منها ذكرهما أولًا، وقيّد الأمر بالدّعاء بهما، ثم كرَّر الأمر اعتناءً بشأن الدعاء؛ وتمهيدًا لذكر الصفتين من الأوصاف القلبية؛ تكميلًا لما يليق من الصفات؛ ليقع القبول من مجيب الدَّعوات.

[٣٧٩٧] **التيسير** للداني ص ٣٥٧؛ النشر لابن الجزري، ٢/٢٠٢؛ **إتحاف** للدمياطي، ١/٥٦٨.

[٣٧٩٨] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٠٦؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٦٩.

[٣٧٩٩] ج: بكمال النعمة، والإحسان

والخوف: الانزعاج بما لا يؤمَن من المضارِّ، والطَّمع: توقُّع المحبوب، وقدّم الأوَّل لكونه أهمَّ، مع أنه ينبغي أن يكون أغلبَ على الرجاء طول الحياة، وعند الموت ينبغي عليه الرجاء. ولما سبقت رحمتُه غضبه، وإنما تصيب مَنْ سلك سبيلها، رجّح جانب الطَّمع، ونبّه سبيل الوصول إليها بالإخبار عن قرب رحمته من المحسنين؛ ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن٥٥/ ٦٠]، أو لما ذكر القيدين علّلهما به عبارة، وإشارة، أمّا الأول فظ، وأمَّا الثاني فلأن اشتراط الإحسان مظنَّة الخوف من الخسران.

وعبارة ابن الكمال: فلأنَّ اشتراطَ الإحسان–وهو وراء الإيمان والإسلام– مظنَّة الخوف لعامَّة المؤمنين.[٣٨٠٠]

وأنت خبير بأنَّ تفسير الإحسان بذلك، وتوجيه الخوف إلى العامّة فلا يخلو عن التضييق.

أو لَمَّا ذكر نعمة العظيمة، وأمرهم بما هو مخُّ العبادة، وأرشدهم إلى سلوك طريقه شكرًا لها، ونهاهم عما نهاهم عقَّبه بذلك تعميمًا بعد تخصيص، وحثًّا على لزوم الشُّكر، والانتهاء عن المنهيّ، وإيماءً إلى أنَّ من لازم ما ذكر فهو محسن، وهو منتهي مقامات السَّالكين، وإعلامًا بأن رحمته تصل إليه؛ لأنها قريب من كل محسنٍ، وتنبيهًا على مزيَّة من جميع هذه الخصال. و استشكل بأمر العاصي الغير التَّائب؛ لأنه يقتضي أن المراد بالمحسنين من خلصت أفعاله من الإساءة، ودفع بأنَّ ظاهرها يقتضي أنَّ الرَّحمة واصلة إلى مَن فعل الإحسان. وأمَّا أنه لا يصل إلى من جمع الإحسان والإساءة، وذلك موقوف عن الدَّلالة، وأن من آمن بالله، وأقرَّ بالتَّوحيد والنُّبوة فقد أحسن، والدَّليل عليه الإجماع على أن الصَّبيَّ إذا بلغ وقت الضحوة، ثم مات قبل الظهر فإنه يسمى محسنًا، وتنكير للإبهام والتَّعظيم، أي قريب أيّ قريب أو للتنويع، أي: بنوعٍ من القرب، والمراد من القرب قرب الوصول، سواءٌ كان في الدنيا أو في الآخرة، والإنسان يزداد بعدًا عن الماضي، وقربًا من المستقبل إلى الآخرة التي هي مقام الرحمة.

ويذكّر ﴿قَرِيبٌ﴾، مع أن الحكم في «فعيل» بمعنى: «فاعل» عدم الاستواء؛ لتأويل [**١٨٨/و**] الرحمة بالرُّحم، أو للنَّظر إلى معناه، وهو الثَّواب أو لاكتسابها التذكير من المضاف إليه كما في قوله: «لَيَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ»[٣٨٠١] على قراءة الياء، أو لكونه صفة محذوفٍ أي: شيءٌ قريبٌ، أو لتشبّهه بـ«فعيلٍ» بمعنى «مفعولٍ»، أو بفعيلٍ الذي هو مصدر. وأمَّا التَّذكير لكون التأنيث غير حقيقيٍّ فوهمٌ؛ لأنَّهم لم يفرقوا في الإسناد إلى الضَّمير بين الحقيقي، وغير الحقيقيّ، ولا بين ان يكون المسند فعلًا أو صفةً، واعتراض التقريب بأنَّ الوجوه غيرُ مطّردة ليس بقادحٍ.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ لَمّا ذكر الدَّلائل من العالم العلوي ذكرها من العالم السُّفليّ، أو لَمّا ذكر الدَّلالة على الصَّانع ذكر الدَّلالة على صحة الحشر، أي: هو الذي من عادته أن يرسلَها في الأزمنة المتباينة، والأوقات المختلفة؛ لإيراد حال ولا استقبالٍ. وإنما يراد الاستمرار، وهذا هو السير في التَّعبير بالصِّيَغ المختلفة في القرآن. وتخصيص بعض المواضع بالمضارع، وبعضها بالماضي؛ لملائمه السباق أو السياق أو المساق.[٣٨٠٢]

[٣٨٠٠] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/ ٧٠.

[٣٨٠١] قراءة شاذّة.مروية عن بديل بن ميسرة والضحاك وابن يعمر. **شواذ الفراءات** للكرماني، ١/ ٣٦٩.

[٣٨٠٢] ج– المساق.

والريح: هواءٌ متحرّك. وتحرّكه ليس لذاته، ولا للوازم ذاته، وإلّا لدام بدوام الذّات، فهو بتحريك الفاعل المختار. وأيضًا فجزءٌ منه يذهب يَمينةً، وجزءٌ يذهب يسيرةً، وكذا سائر الأجزاء، فإنَّ كلًّا [٣٨٠٣] منها يذهب إلى جانبٍ آخر. فلهذا الاختصاص لا بدَّ من مخصّص مختارٍ؛ لأنَّ طبيعة الهواء واحدةٌ، ونسبة الأفلاك والأنجم والطَّبائع إلى كلِّ واحدٍ من الأجزاء التي لا تتجزّى نسبة واحدة وجمعها؛ لأنَّ منها مشرقيَّةً، ومغربيَّةً، وشماليَّةً، وجنوبيَّةً. ضبطت كذلك، وإن كانت في الحقيقة تهبُّ من كلِّ جانبٍ.

ومنها: مُقَوِّية للزَّرع، والأشجار، وهي اللَّواقح، ومنها: مبطلةٌ لها كما في الخريف، ومنها: طيِّبة لذيذة موافقة للأبدان، ومنها: مُهلكة للحرّ الشّديد، كالسّموم أو البرد الشديد. وقد يصعد من قعر الأرض، فيشاهد غليانٌ شديد في البحر بسبب تولّد الرّياح في قعره، ثم لا يزال يتزايد ذلك الغليان إلى أن ينفصل الريح إلى ما فوق البحر، وحينئذٍ يعظم هبوب الرياح في وجه البحر.

وقيل: أربع منها: عذاب العاصف، والقاصف، والصَّرصر، والعقيم، وأربع منها: رحمة الناشرات، والمبشِّرات، والمرسلات، والذَّاريات.[٣٨٠٤]

وعن كعب: «لَوْ حَبَسَ اللَّهُ الرِّيحَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَأَنْتَنَ أَكْثَرُ الأَرْضِ».[٣٨٠٥]

وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: ﴿الرِّيحَ﴾[٣٨٠٦] نظرًا إلى الجنس، ورجح الجمع؛ لأنَّ استعماله في الرحمة، واستعمال المفرد في العذاب؛ ولذا قال ع م: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحًا وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحًا».[٣٨٠٧]

﴿**نُشُراً**﴾ بضمِّ النون، والشِّين، قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو،[٣٨٠٨] وجمع «نَشُورٍ» بمعنى: «ناشرٍ»؛ أي: ناشرات؛ لأنَّها تنشر السحاب، أو بمعنى: «مفعولٍ»؛ لأنها لانقطاعها كالمطويَّة، فنشرت، أي: «منشوراتٍ»، أو لأنَّها أحياها الله، من قولهم: نشر الله الميّت، أي: محييات، أو جمع «ناشرٍ» والمعنى كما سبق.

وبالضمّ والسُّكون قراءة ابن عامر تخفيفًا منه.[٣٨٠٩] وبفتح النون والسكون قراءة الكسائي[٣٨١٠] حيث وقع مصدر «نَشَرَ» الذي هو خلاف الطيِّ، أو الذي بمعنى الإحياء في موقع الحال، أي: ناشراتٍ أو منشوراتٍ أو ذات نشرٍ أو المفعول المطلق؛ لأنَّ الإرسال، والنشر، متقاربان. وبضمّ الباء والسُّكون، قراءة عاصم تخفيف «بُشُرٍ».[٣٨١١] وقد قرئ به على أنه «بُشُرٌ»،[٣٨١٢] أي: مبشرات؛ لأنها تبشرُ بالمطر، ويؤيده: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ [الروم ٤٦/٣٠].

[٣٨٠٣] ج: فإنَّ كلَّ واحد.

[٣٨٠٤] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٤٦/١٤-١٤٨؛ **اللباب** لابن عادل، ١٧٠/٩-١٧١.

[٣٨٠٥] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٤٦/١٤-١٤٨؛ **اللباب** لابن عادل، ١٧٠/٩-١٧١.

[٣٨٠٦] **التيسير** للداني ص ٣٥٧؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٢/٢.

[٣٨٠٧] المسند للشافعي ٥٠٢؛ المسند لابي يعلى ٢٤٥٦؛ معجم الكبير للطبراني ١١٥٣٣؛ الدعوات للبيهقي ٣٦٩.

[٣٨٠٨] **التيسير** للداني ص ٣٥٧؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٣/٢.

[٣٨٠٩] أي: ﴿نُشْرًا﴾. **التيسير** للداني ص ٣٥٧؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٢/٢.

[٣٨١٠] أي: ﴿نَشْرًا﴾. **التيسير** للداني ص ٣٥٧؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٢/٢.

[٣٨١١] **التيسير** للداني ص ٣٥٧؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٢/٢.

[٣٨١٢] **المحتسب** لابن جنّي، ٢٥٥/١.

وقرئ بفتح النُّون والشِّين[٣٨١٣] فعل بمعنى: مفعول، كالنقض بمعنى المنقوض، أي: منشورات، أي: يقدّر مضاف، أي: ذوات نشرٍ، وهو أن ينتشر الغنم بالليل على تشبيه الانتشار بالانتشار، وبفتح الباء والسُّكون، مصدر بشره، أي: باشرات، أو للبشارة، وبوزن «فُعلى»، يعني: بُشرى أي: مبشرات.

﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أمام رحمته، وهي الغيث؛ فإنَّه من أهمّ النّعم وقعًا وأتمّها نفعًا، وأجلّها على صلاح المعيشة، وأدلِّها على القدرة العظيمة. ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى ٤٢/٢٨] وذلك؛ لأنَّ الصَّبا تُثير السَّحاب، والشَّمال تجمعُه، والجنوبَ تُدرُّه، والدَّبورِ تفرّقه.[٣٨١٤]

ولعلَّ هذا بناء على الأغلب؛ فإنَّ المطر قلَّما لا يتقدمها رِياح يسلطّها الله على السَّحاب، ويحتمل أن يتقدَّم، ولا يطّلع عليها. واليدين مجازٌ عن الأمام؛ لأنهما يتقدمان الإنسان فاستعيرتا لما يتقدّم شيئًا. ومنه: «بَيْنَ يدي السَّاعة الفتن».[٣٨١٥]

وقال ابن الكمال: «وقد سبق بيان ما في عبارة ﴿بَيْنَ يَدَيْ﴾ من الدَّلالة على القرب، ولهذا تُؤثَر على عبارة القدَّام والأمام».[٣٨١٦]

وعنه عليه السلام: «الرِّيحُ من رَوْحِ الله، تأتِي بالعَذَاب، وتأتِي بالرَّحمة، فَلاَ تَسُبُّوهَا، وسَلُوا الله من خَيره، وعُوذُوا به من شرّها».[٣٨١٧] أي: من رحمة الله؛ لأنها إذا جاءت بالعذاب يكون رحمةً من زوجه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾

حملت ورفعت، وحقيقة أقلّه: وجده قليلًا، أو اعتقده قليلًا، كـ«أكذَبَه» جعله كاذبًا في زعمه، ثمَّ نُقل إلى معنى: حَمَلَ ورَفَعَ؛ لأنَّ الرافع المطيق يجعل ما يرفعه قليلًا في زعمه؛ ولذلك قيل: اشتقاق الإقلال من القلَّة.[٣٨١٨]

و﴿**حَتَّىٰ**﴾ غاية لـ﴿يُرْسِلَ﴾. [**١٨٨**/ظ] ﴿**سَحَابًا**﴾ جمع سحابةٍ، أعني: الجمع الذي على حدّ تمرٍ ونَخلٍ ممَّا يجوز تذكيره، وتأنيثه نظرًا إلى اللفظ والمعنى سمّي به لانسحابه في السَّماء ﴿ثِقَالًا﴾ بالماء، جمعُ «ثَقِيلٍ» يقال: ثقل الشيء ثقلًا كـ«صفر» صفرًا، فهو ثَقِيلٌ.

عنالسدي: «أن الله يرسلا الرِّياح فتأتِي بالسَّحاب من بين الخافقين، وهو طرف السَّماء والأرض حيث يلتقيان، فيخرجه من ثمة، ثم ينشره فيَبْسُطه في السماء كيفَ يشاءُ، ثم يفتح له أبواب السماء، فيسيل الماء على السَّحاب، ثم يمطر السحاب».[٣٨١٩]

وقيل: إن الله دبَّر لحكمته، أن الرِّياح تُحرّك تحريكًا شديدًا، فتُثير السَّحاب، ثم يضمُّ بعضه إلى بعض، فيتراكم، وينعقد، ويحمل الماء، ثمَّ يسوقه إلى حيث يشاء الله وهو قوله: ﴿**سُقْنَاهُ**﴾ الضَّمير للسحاب على اللَّفظ، ولو حُمل على المعنى لَأُنِّث،

[٣٨١٣] أي: ﴿نَشَرًا﴾. قراءة شاذّة.مروية عن مسروق. **شواذ الفراءات** للكرماني، ١٨٩/١.

[٣٨١٤]**تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٧٢/٤.

[٣٨١٥]**سنن الترمذي**، ٤٨٨/٤ (٢١٩٧)، **مسند أبي يعلى**، ١٩٣/٦ (٤٢٦٠)؛ **المستدرك على الصحيحين** للحاكم، ٤٨٥/٤ (٨٣٥٥).

[٣٨١٦]**تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٧٢/٤.

[٣٨١٧]**مسند أحمد**، ٦٩/١٣ (٧٦٣١)؛ **سنن أبي داود**، ٤٢٦/٧ (٥٠٩٧)؛ **السنن الكبرى** للنسائي، ٣٤٠/٩ (١٠٦٩٩)،

[٣٨١٨]**الكشاف** للزمخشري، ١٠٧/٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤١٢/٦.

[٣٨١٩]**جامع البيان عن تأويل آي القرآن** للطبري، ٥١٨/٥؛ **اللباب** لابن عادل، ١٧٠/٩-١٧١.

كما أن ثقالًا، لو حمُل على اللفظ لَأفرد، ونسبة السّوق إلى ذاته بنون العظمة التفاتًا؛ لِما فيه من عظيم المنَّة وجليل النعمة.[٣٨٢٠] ولأنَّه المنتظر على زيادة الاختصاص، وأنَّ الكل منه والوسائط أسباب ﴿**لِبَلَدٍ**﴾ أي: لأجله. والفرق بين ساق له المالَ، وساق لأجله، أنَّ في الأوَّل إيصاله له، وفي الثاني لا يلزم ذلك، بل يعمّإيصال الغير لأجله.

وقد قيل: بناءً على هذا الفرق، ولا يلزم أن يصل البلد، بل يكفي أن يكون وصولُه لما وَصل له لمصلحته، فينتظم السَّوق إلى الجبال والأودِيَة؛[٣٨٢١] لأنَّ فيه مصالحَ البلد، أو لإحيائه؛ أو لسقية، أو «اللَّام» بمعنى: «إلى».

والبلد: كلُّ موضعٍ من الأرض عامرٍ أوغير عامر، خالٍ أو مسكونٍ فيه،[٣٨٢٢] والطائفة منها: بَلْدَة، والجمع بِلَادٍ ﴿**مَيِّتٍ**﴾صفة ﴿بَلَدٍ﴾ استُعير الموت لجدبه وعدم نباته، وثمراته؛ لأنَّه كالجسد الذي لا روحَ فيه، من حيث عدم الانتفاع.[٣٨٢٣]

﴿**فَأَنزَلْنَا بِهِ**﴾ بالبلد، أو بالسحاب، أو بالسَّوق المدلول عليه أو، بالرِّيح ﴿**الْمَاءَ**﴾ الماء المعهود، وهو ما ثقل من السحاب، وعلى هذا الاحتمالات ضمير.

﴿**فَأَخْرَجْنَا بِهِ**﴾ فإن رجعا إلى البلد. فالباء الأولى للإلصاق، أو للظرفيّة، أي: فأنزلنا ذلك البلد الميّت، والثانية للظرفية وإن رجعا إلى غيره، فهما للسَّببيَّة، كما في: كَتَبْتُ بالقَلَمِ، والأظهر رجوعُ الثاني إلى الماء؛ لقربه لفظًا، ومعنًى، ومطابقةً، نظائره من نحو قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام ٩٩/٦]، ولا بأس بانفكاك الضَّمائر إذا قام الدَّليل، وظهر الملائمة.

وقال ابن الكمال: ولا يجوز رجوع الضمير الثاني إلى البلد على أنَّ الباءَ للظرفيّة؛ لقوله: ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾فإنَّ جميع أنواعها لا يخرج في البلد،[٣٨٢٤] ويمكن أن يدفع بجواز أن يكون من قبيلٍ، ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل ٢٣/٢٧]، أي: من كلِّ الثَّمرات التي بعضها مصالح البلد على أنَّ ما ذكره، إنما يرد على حمل البلد علة معنى المدينة. وأمَّا على المعنى الذي ذكرناه فلأمر ظاهر، ثم هو مفعول ﴿أَخْرَجْنَا﴾، أو بيان لمفعولٍ محذوفٍ، أي: رزقًا منها، أي: رزقًا هو الثمرات.

و﴿مِنْ﴾ تبعيضيةٌ أو ابتدائيةٌ أو بيانيَّةٌ، وعدم ذكر الحبوب؛ لأنَّ الثمرات أبدع، وشأنها أغربُ، أو لأنَّها من ثمرة الأرض، فيدخل فيها.

روينا في البخاري: عن عائشة أنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٣٨٢٥] «كانَ إذَا رَأَى المطَرَ، قالَ: اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا».[٣٨٢٦] ورويفي سُنَن ابن ماجه: أنه صلى الله عليه وسلم يقول ذلك مرَّتين، أو ثلاثًا.

وعنه ع م: «أُطْلُبُوا اسْتِجَابَةَ الدُّعَاءِ عِنْدَ الْتِقَاءِ الجُيُوشِ وَإِقَامَةِ الصلوة وَنُزُولِ الْغَيْثِ».[٣٨٢٧]

[٣٨٢٠] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٧٢/٤.

[٣٨٢١] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٧٣/٤.

[٣٨٢٢] ج – فيه.

[٣٨٢٣] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٧٣/٤.

[٣٨٢٤] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٧٣/٤.

[٣٨٢٥] ج : عليه السلام.

[٣٨٢٦] **صحيح البخاري**، ٣٢/٣ (١٠٣٢).

[٣٨٢٧] **معرفة السنن والآثار**، ١٨٦/٥ (٧٢٣٦).

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ «الكاف» في محلِّ النصب على أنَّه صفةُ مصدرٍ محذوفٍ. والإشارة بذلك إلى إخراج الثمرات على ما هو المتبادر من قوله: ﴿نُخْرِجُ﴾، أي: إخراجًا مثل ذلك الإخراج ﴿نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾فهذا الإخراج مثل ذلك الإخراج من حيث إنَّ كلَّ واحدٍ منهما إعادة للشَّيء بعد إنشائه، أمَّا إخراج الموتى فظاهر، وأمَّا الثمرات فلأنَّها أخرجت بعدما تفرَّقت، وتشتَّتَتْ، فإنَّ أكثرَها من التخم الساقطة على الأرض، والثَّمرة الساقطة علو ما ترى، أو من حيث إنهما بواسطة الماء. وأمَّا إخراج الثَّمرات فظاهر.

وأمَّا إخراج الموتى فلمَّا روي: أنَّ النَّاس إذا ماتوا في النفخة الأولىٰ أُمطِر عليهم ماء من تحت العرش يسمّى ماء الحيوان أربعين سنةً، أو أربعين يومًا، فينبتون من قبورهم نباة الزَّرع حتى إذا استكملت أجسادهم، نفخ فيهم الرُّوح، ثم يلقى عليهم النَّوم فينامون في قبورهم. فإذا نفخ في الصُّور النفخة الثانية عاشوا، ثم يحشرون من قبورهم، وهم يجدون طعم النَّوم في رؤسهم وأعينهم، كما يجد النائم حين يستيقظ من نومه، فعند ذلك يقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ فينادي المنادي: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس ٥٢/٣٦].[٣٨٢٨]

وإحيائهم على هذا الوجه يجري عادته، كما جرى عليه ابتداء خلقهم من الأبوين، لا على أنَّه لا يقدر إلا على هذا الوجه؛ فإنَّه على كلِّ شيء قديرٍ، و[٣٨٢٩]إلى إحياء البلد الميت، فهذا الإحياء مثل ذلك الإحياء من حيث إنَّه تعالى، كما أحدث القوَّة النامية [٣٨٣٠] وتطريتها،[٣٨٣١] بأنواع النبات، والثَّمرات بردِّ النفوس إلى موادِّ الأبدان، وتطريتها بالقوى والحواس.

ولَمَّا كان في الظَّاهر عدم الملائمة بين المشبه، والمشبَّه به؛ إذ المشبّه إخراج الموتى، والمشبه به إحياء البلد للميّة. أزال قدس سرَّه ذلك يقول:«كما نحييه بإحداث القوَّة النَّامية فيه وتطريتها بأنواع النَّبات والثمرات، نخرج الموتى من الأجداث، ونحييها بردِّ النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس».[٣٨٣٢] وذلك لأنَّ الإحياء مدلولٌ عليه بلفظ الإخراج، والتَّشبيه، فيكون في التَّحقيق تشبيه الإحياء بالإحياء، ويمكن أن يقال: إخراج الموتى إنَّما يكون بالإحياء، فيجوز أن يكون ذكر الإحياء في جانب المشبَّه إشارة إلى ذلك [**١٨٩**/و] لاتقديرًا بالدَّلالة، وفي كلامه إشعار بأنَّ التَّطريَّة كانت بعد الأجداث في المشبَّه به. وقيل: في المشبه.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ علّة بالمحذوف، أي: تلونا عليكم ما يدلّ على كمال قدرتنا، وتعود مشيئتنا؛ لكي تذكَّروا بالِّلسان والجنان، وتَعلموا أن لا فرق بين إخراجين على ما ذكر. وإنَّ من كمل قدرته، ولطف علمه، حتى تغلغل إلى إخراج الثَّمرات المختلفة الأصناف، والألوان، والطعوم، والروائح، والأشكال مع حسنها وبهجتها من الشَّجر اليابس المركوز في الأرض الهامدة بماءٍ واحدٍ، وبينهما تباينٌ ظاهرٌ كان قادرًا على إخراج الناس من الأجداث، وأن من أحيا البلد الميّت، وطريّتها بالثَّمرات، والأزهار المختلفة إحياءً كاملًا كان مقتدرًا على إحيائهم، وتطريّتهم بالقوى، والحواس تامًّا، والأرض تشاهد مزيّنة وقت الربيع، والصيف بالأنهار، والثمار،[٣٨٣٣] ثمَّ يصير عند الشِّتاء ميّتةً عاريةً عن تلك الزّينة، ثمَّ إنَّه تعالى يحييها مرّة أخرى. فالنَّاظر إلى هذه الحالة يتذكَّر، ويتدبَّر على وجه المشروح المذكور، ويستدلُّ به على البعث والنُّشور.

[٣٨٢٨] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٨٥/١٢؛ **روح البيان** للبرسوي، ١٨٠/٢.

[٣٨٢٩] ج: أو.

[٣٨٣٠] ج+ فيه.

[٣٨٣١] ج+ فإنَّ.

[٣٨٣٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٤٩/١.

[٣٨٣٣] ج: والثمرات.

عن أبي رزين العقيلي قَالَ: قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ يُعِيدُ اللهُ الخَلْقَ؟ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ؟ قَالَ : «أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي قومك جدبًا؟ ثم مررتَ به يَهْتَزُّ خَضِرًا؟ قَالَ: قُلْتُ: نعم، قَالَ: فتلك آيَةَ الله فِي خَلْقِهِ ﴿كَذَلِكَ يُحِيي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾.[٣٨٣٤] رواه رزين.

وعنه عليه السلام: «ما بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أرْبعُونَ، ثُمَّ يُنزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَآءِ مَاءً، فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، وليس من الإنسانِ شَيءٌ لا يَبْلَى، إلَّا عظمًا واحدًا وهو عَجْبُ الذَّنب، ومنه يُرَكَّب الخلقُ يومَ القيامةِ»[٣٨٣٥]. رواه الشيخان.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)﴾

أي: الأرض الكريمة التربة؛ فإنَّ طيب كلّ شيء ما به كماله ومنفعته، وطيب الأرض يكون بذلك كالأرض الحرّة ﴿**بِإِذْنِ رَبِّهِ**﴾بقضائه، وإرادته، وتيسيره. و«الباء» متعلّقةٌ بـ﴿**يَخْرُجُ**﴾، أو حالٌ من النبات، وهو عبارةٌ عن خروجه حسنًا وافيًا؛ لأن ما تمَّ أسبابه، وإذن فيه ربّه لا يكون إلّا كذلك فصحَّ مقابلته معنى بقوله: ﴿**وَالَّذِي خَبُثَ**﴾ لا كرم في تزيينه، ولا حصول في منفعته؛ فإن خبثها يكون به كالحرَّة والسبخة.

﴿**لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا**﴾قليلًا عديم النَّفع، نصب على الحال من المستكنِّ.

والنّكد: العَسِر لشدَّته، وهو الممتنع من إعطاء الخير على جهة البخل. وفعله: نَكِدَ يَنْكَدُ بالكسر والفتح نَكَدًا فهو نَكِدٌ. ولم يذكر﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ ههنا للرمزة المذكورة في مقابله، ولعدم تصريح الإسناد، كما صرَّح هناك المدح والتَّشريف، وإن كان كلا الإسنادين له.

ولَمَّا كان ظاهر الكلام على إسناد الخروج إلى الأرض قدّر المضاف في الثاني، أي: لا يخرج نباته، فحُذِف المضافُ وأُقيم المضاف إليه مُقامه-وهو الضمير المجرور- فصار مرفوعًا مستترًا لكونه فاعلًا، أو في الأوَّل، أي: إنبات الذي خبث، والأول أولى لموافقته بما قبله.

وقال ابن الكمال: «وتخصيص البلد بالذِّكر؛ لأنَّه أصلحُ مَنْبِتًا على ما قيل: الرّجال من القرى، ولهذا سقط في مقابِله».[٣٨٣٦]

وأنت خبير بأنَّه على حمل البلد على ما ذكره، وقد عرفت ما فيه. والتَّمثيل كالتَّفصيل للمتذكرين وغيرهم، وإيثار خصوص التَّمثيل بالأرض استطراد عقيب ذلك المطر وإنزاله بالبلد، وموازنه بين الرحمتين، ولقربه من الاعتراض جاء بالواو، وكأنه قيل: إنا بيَّنا تلك الآيات الدَّالة على القدرة، والعلم؛ لعلّكم تتفكَّرون فيها أيها النُّظار؛ لتعلموا: أنّكم إلينا راجعون، لكن لا ينجع تلك الآيات إلا فيمن شرح الله صدره. فيخرج نبات فكره، ومن جعل صدره ضيقًا لا يخرج نبات فكره إلا نكدًا. فلا يرفع بها رأسًا، فشبه المتذكّر بالأرض الطَّيِّبة التربة، والمعرض بالأرض السبخة.

وشبّه نزول القرآن على نوع الإنسان بنزول المطر على الأرض؛ فإنَّه إذا نزل بالطَّيِّبة يحصل فيها أنواع الثمار، والازدهار بخلاف الخبيثة، وكذا الرُّوح الطاهرة النَّقيَّة عن الكدورات الطبيعيَّة، إذا اتَّصل بها نور القرآن ظهرت فيها أنوارُ المعارف،

[٣٨٣٤] **مسند أحمد**، ١١٢/٢٦ (١٦١٩٣) (١٦١٩٢).

[٣٨٣٥] **صحيح البخاري**، ١٦٥/٦ (٤٩٣٥)؛ **صحيح مسلم**، ٢٢٧٠/٤ (٢٩٥٥).

[٣٨٣٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤٧/٤.

والطَّاعات بخلاف الرُّوح الخبيثة الكدرة، وتوصيف الأوَّل بالصفة المشبَّهة، وجعل الثاني موصولًا صلة فعل؛ حيث يدلُّ الأوَّل على الاستمرار، والثَّاني على التحدّث إشعارٌ بمعنى قوله ع م: «كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفطرةِ، فأبواهُ يُهَوِّدانِه ويُنَصِّرانِه».[٣٨٣٧]

وقرئ: «يُخْرِجُ»[٣٨٣٨] من الإخراج في الموضعين، ونصب ﴿نَبَاتُهُ﴾، أي: يخرجهُ الله أو البلد، فيكون ﴿إِلاَّ نَكِدًا﴾ مفعولًا. ويخرج مبنيًا للمفعول، و﴿نَكَدًا﴾بفتح الكاف على المصدر؛[٣٨٣٩] أي: ذا نكَدٍ، و:«نكْدًا»[٣٨٤٠]بالإسكان تخفيف نكدًا أو مصدرًا أيضًا.

﴿كَذَلِكَ﴾تصريفًا مثل ذلك التَّصريف من ذكر الرِّياح النَّافعة، وإنزال الأمطار البالغة وإحداث أنواع النباتات، وخلق طيِّبات الثَّمرات، أو مما ذكر في[٣٨٤١] أول السورة [**١٨٩**/ظ] إلى هذه الغاية.

﴿**نُصَرِّفُ**﴾ نردّد ونكرّر وننوّع ونقرّر ﴿**الْآيَاتِ**﴾ التي ذكرت، أو سائر الآيات الدَّالَّة على وجود الصَّانع، وعلمه، وقدرته، وحكمته، وهي مع كونها دلالاتٍ كانت نِعَمًا عظامًا يجب شكرها، وطاعةً منعمها؛ فلذلك قال: ﴿**لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ**﴾ نعم الله فيتفكَّرون فيها، ويستدلُّون بها عليه وعلى كمالِ صفَاته وعلى المعاد، فيشكرون له، ويعبدونه، وذكر الشُّكر بعد التَّذكر تَرَقّ؛ فإنَّ مَن تذكَّر آلاءَ الله عرف حقّ النّعمة، واستعدّ الشُّكر، ولَمّا ذكر الدَّلائل في المبدأ والمعاد شرع في قصص الأنبياء.

وفيها تسلية النبي عليه السلام من حيث إنَّ الإعراض عن الآيات عادةٌ معتادةٌ، وبيان سوء عاقبة المعرضين، وحسن عاقبة المطيعين، والتَّنبيه على أنه[٣٨٤٢]يهمل، وإن كان يمهل ودلالة على نبوَّته؛ لأنَّه إخبارٌ عن غيبٍ. فقال:

﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩)**﴾

ذكر قصَّة آدم من قبل، وكان نوحُ أوّل الرُّسل بعده، وأوَّل داعٍ إلى الله بجدّ، وأوَّل نذيرٍ على الشِّرك، وأوَّل مَن عذّبت أمتُه، وهو وشيخ المرسلين، وكبير الأنبياء. جواب قسم محذوف، وذكر هذه «اللام» مع «قد»؛ لأنَّ الجملة القسمية لاتساق إلا تأكيدًا للجملة المقسم عليها التي هي جوابها، وكانت مظنَّةً لمعنى التَّوقُّع للمُقسَم عليها؛ لأنَّ احتياجَها إلى الأقسام عليها دليلُ تردّدٍ في مضمونها، وتوقُّع عند سماع كلمة القسم صريحًا كما إذا ذكرت، أو ضمنًا كما إذا دلّ عليه بلام الجواب؛[٣٨٤٣] ولذلك نذر عنهم، نحو قوله:

حَلَفْــتُ لهــا باللهِ حَلْفَــةَ فَــاجِرٍ   لَنَـامُوا فمـا إنْ مِـن حَـدِيثٍ ولا صَـالِي[٣٨٤٤]

[٣٨٣٧]**صحيح البخاري**، ١٠٠/٢ (١٣٨٥).

[٣٨٣٨]**المختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص٥٠؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٣/٢.

[٣٨٣٩]**النشر** لابن الجزري، ٢٠٣/٢.

[٣٨٤٠] قراءة شاذّة.مروية عن طلحة بن مصرّق. **المختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص٥٠؛ **شواذ الفراءات** للكرماني، ١٨٩/١.

[٣٨٤١] ج: من.

[٣٨٤٢] ج+ لا.

[٣٨٤٣]**حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٥ظ.

[٣٨٤٤]**ديوان امرئ القيس** ص ١٤١؛ **شرح المفصل** لابن يعيش ٢٠/٩-٢١-٩٧؛ **الكشاف** للزمخشر، ١٠٨/٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٣١٧/٦.

يعني: طرقتُ الحبيبة، فاستشعرت خوفًا مِن القوم، فحلفتُ كاذبًا إنَّ القوم ناموا، وليس ههنا حديث لانتفاء المحدِّث، أو محادث، ولا مصطلى بالنَّار.[٣٨٤٥]

وهو نوحُ ابن لَمَك بن مُتَوَشْلَخ بن أُخْنُوخ، وهو اسم إدريس، فيكون قبله من أجداده، فيرد عليه قولُه لنبيّنا ليلة المعراج: مرحبًا بالنَّبي الصَّالح والأخ الصَّالح، وأيضًا أخبر عليه السَّلام من قول آدم علبه السلام: وأنَّ نوحًا أوّلُ رسول بُعث، اللَّهم إلَّا أن يقال بنبوّته، وإن ثبت رسالته بقوله: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصفات ٣٧/ ١٢٣]، ولعلَّ المراد أنَّه أوّلُ نبي بعث على هذه الصفة، وهي اشتهار بعثته لإصلاح الناس، وحملهم بالعذاب، والإهلاك إلى الإيمان، أو بعث لأهل الأرض كافّة.

ويرد قوله ع م: «بُعِثْتُ إلى النَّاسِ كافةً»،[٣٨٤٦] حيث يقتضي خصوص رسالة نوح أيضًا، ويؤيِّده قوله: ﴿إِلَى قَوْمِهِ﴾ولا يرد قوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾؛ [نوح ٢٦/٧١]؛ لأنَّ من لم يعمّ له دعوته لا يدخل تحت هذا الدُّعاء، أرسل وهو ابن خمسين، أو أربعين، أومائة، أو مائتين وخمسين سنة.

عن ابن عباس: «أوَّل ما عبدت الأصنام، أنَّ قومًا صالحين ماتوا، فبنى قومُهم عليهم مساجدَ وصوَّروا صُوَر، أولئك فيها، ليتذكَّروا حالهم وعبادتهم، فيتشبَّهوا بهم. فلمَّا طال الزمان، جعلوا تلك الصور أجسادًا. فلمَّا تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام، وسمَّوها بأسماء أولئك الصالحين، يَغُوث ويَعُوق ونَسْرًا. فلمَّا تفاقم الأمر بعث نوحًا إليهم».

﴿**فَقَالَ**﴾ أتى بالفاء الدّالة على التعقيب دلالةً على الاستعجال في الامتثال؛ للدَّعوة، والإقبال على مقتضى البعثة ﴿**يَا قَوْمِ**﴾ نداء مضاف حذف الياء اكتفاءً، ويجوز: «يَا قَوْمِي» على الأصل أضافهم إلى نفسه؛ إظهارًا للشفقة عليهم، وأنه إنما يريد لهم ما يريد لنفسه؛ ليكون النّصحُ أَنجعَ، والوعظُ أَنفعَ ﴿**اعْبُدُوا اللهَ**﴾ وحده، ولا تعبدوا معه غيره. وفيه إشعارٌ بأنَّ عبادته مع عبادة غيره ليست بعبادةٍ. وإنما حمل الاختصاص الذكري على الاختصاص الحصري لدلالة المقام؛ فإنَّهم كانوا مشركين يعبدون معه غيرَه، ولقوله: ﴿**مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾؛ فإنَّه بيانٌ وتنبيهٌ على اختصاصه تعالى بالعبادة، ورفض ما سواه، ولذلك لم يدخل العاطف. وفيه أَّن الإله هو الذي يستحقُّ العبادة؛ لأنَّ التَّقدير: ما لكم من معبود غيره ليتوارد النفي، والإثبات على مفهومٍ واحدٍ.

ولَمَّا لزم منه كون الأصنام آلهةً، وكونه تعالى غير إله في الأزل؛ لأنَّه غير معبود فيه، حمل على أنه المستحق للعبادة، فـ﴿مِنْ﴾ مزيدةٌ، و﴿إِلَهٍ﴾ في محل الرفع بالابتداء، أو بالفاعليَّة، والخبر ﴿لَكُمْ﴾ أو تبيينٌ، والخبرُ محذوفٌ، أي: في الوجود. و﴿غَيْرُهُ﴾ بدلٌ من موضع ﴿إِلَهٍ﴾.

وكذا على قراءة الكسائي بالكسر، لكن بالنَّظر إلى لفظه، ورجّح ذلك بأنَّ رعاية اللَّفظ أكثر، وعلى قراءة النصب استثناء، أي: ما لكم من إلهٍ إلا إيَّاه، كما تقول: ما في الدَّار من أحدٍ إلا زيدًا أو غير زيدٍ. وليس في القوَّة كالأوَّلين؛ لأنَّ غير الإيجاب يرجّح فيه الاتِّباع على النَّصب على الاستثناء.[٣٨٤٧]

﴿**إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾إن لم يؤمنوا بوحدانيَّته، ولم يخصّوه بالعبادة. بيانٌ للدَّاعي إلى عبادته، ووعيدٌ بأنَّه هو المحذور مِن عِقابه دون ما يعبدونه، فلم يعطف أيضًا، فالخوف جزم نزوله عليهم في الدّنيا أو في الآخرة، أو ظنٌّ لتجويز

[٣٨٤٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٥ظ.

[٣٨٤٦] **صحيح البخاري**، ٩٥/١ (٤٣٨).

[٣٨٤٧] **الكشاف** للزمخشري، ١٠٩/٢؛ **اللباب** لابن عادل، ١٧٧/٩.

الإيمان والاستمرار على [**١٩٠**/و] الكفر، أو لعدم العلم بالكيفيَّة، أو المقدار ﴿عَذَابَ يَوْمٍ﴾ أي: يوم وزاد التفخيم بوصفه ﴿عَظِيمٍ﴾لعظم ما فيه. فالإسناد مجاز، وهو يوم القيامة.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١)﴾

من الملأ، فإنهم يملئون العيون رواءً، والمجالس سطوةً، والقلوب هيبةً، أو[3848]: تمالأ القوم على أمر؛ أي: توافقوا، فإنهم يتفقون على خطب اسم جمع، كالرّهط، لكن لا واحدَ له من لفظه، ويوجد له من لفظه: «مالئ» كعازبٍ، فإنَّ جمعَه «عَزَبٌ».

﴿**مِنْ قَوْمِهِ**﴾ في محلِّ النَّصب على الحال، أي:كائنين منهم، فالوصفان لدفع توهّم، أنَّ هذا القول الشنيع لعلَّه صدر عن بعض ضعفائهم، فأسند إلى الكلِّ إسناد فعل واحد إلى جماعةٍ.[3849]

ففيه أنَّ عقلائهم، ورؤسهم، كذلك وأن مكذّبي الرّسل في أكثر الحال منهم؛ لقوله ﴿أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ [الأنعام ١٢٣/٦]، والرُّؤية للقلب لعلَّهم استعاروها للعلم بلا شبهة؛ تمهيدًا لما ادَّعوا من الظهور في المعلوم.

﴿**فِي ضَلَالٍ**﴾ مفعولٌ ثانٍ، أو للعين، أو للرأي الذي هو الاعتقاد. فيكون حالًا من الكاف، من: ضَلَّ الشَّيء يضِلُّ ضلالاً إذا ضاع وذهب، أي: زوال عن الحقِ بالغوا فيه بـ«أن»، و«اللّام»، والاستعارة، وإيراد «في» والتنكير والتوصيف، وإضافهم إلى نفسه تمهيدًا؛ لما يأتي من دعوى الإمحاص في النصح.

وقد بالغ في النَّفي؛ حيث قابل أداة الظَّرف بأداة الملابسة؛ لأنها أوسعُ دائرة، ففي النَّفي يكون أقطع لدابر احتمال الضَّلال، والتَّنكير بالتَّقليل؛ فإن الضَّلال، والضَّلالة، وإن جاء بمعنى إلّا أنَّ المقابلة ههنا، ونفيَها عندَ قصد المبالغة في الهداية دليلٌ على أنَّ التاء للوحدة، فيكون بعضًا من الجنس، وهو الفردُ الواحدُ، ويرجع معناه إلى أقلِّ ما ينطلقُ عليه اسم الضَّلال.

فنفيه أبلغُ من نفي الجنس المحتمل للكثرة، أو الانصراف إلى الكمال، كما يحتمل الحمل على نفس الماهية، ولا كذلك احتمال رجوع النَّفي في المرَّة أي: الوحدة، أي: ليس له ضلالةٌ، بل ضلالات؛ لأنَّه مضمحلٌ في المقام؛[3850] فإن من قال: ليس عندي تمرةٌ يحتمل أن يكون عنده تمرات. أمَّا لو قاله إنكارًا لمن يتّهمه بإنكار الثمرات، فلا على أنَّ الوحدة ليست صفةً مقيدةً، بل اللَّفظ موضوعٌ للجزء الأقل، وهو الواحد المتحقق مع الكثرة ودونها، وهذا معنى كونه أخصَّ لا بمعنىً أنَّ كلَّ ضلالة ضلال، دون العكس، فلا يعترض بأن نفي الأخصِّ لا يوجب نفي الأعمّ، ولا يحتاج إلى الدَّفع بأنهما كذلك بحسب المفهوم إلا أنَّهما كالمتساويين بحسب الوجوه، وتصريحهم في إسناد الضَّلال له بالكناية في إثبات الهداية له باعتبار لازم الاستدراك؛ فإنَّ الرِّسالة مستلزمةٌ لكمال الهداية، وذلك الاعتبار ظاهر، إذا قيل الاستدراك[3851] يقع بين كلامين متغايرين نفيًا وإثباتًا.

وأمَّا إذا قيل: هو دفع التَّوهُّم الناشيء من السّابق، فالاعتبار المذكور غيرُ وافٍ؛ بحلّه، بل تركه أولى؛ إذ ربّما يتوهّم المخاطبُ عند نفيِ الضَّلالة انتفاء الرِّسالة، لكن توهُّم انتفاءِ الهداية لا وجهَ له؛ إذ يبعد أن يقال: نفيُ الضَّلالة، ربّما يوهم نفيَ سلوك طريق، وحيث لا سلوكَ لا هدايةَ كما لا ضلالة، فالمصنّف لم يقصِد سوى أنَّه عند نفي أحد المتقابلين قد يتوهم انتفاء المقابل لا انتفاء الأمور التي لا تعلُّقَ لها به، فأوّل الاستدراك إلى مقابل الضَّلال، مثلاً يقال: زيدٌ ليس بقائمٍ، بل قاعدٌ، ولا يقال

[3848] ج+ مِنْ.

[3849] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٧٧/٤.

[3850] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٥ظ.

[3851] وقيل: هذا الاستدراك في علم البيان يسمى تأكيدً لمدح بما يشبه الذم، منه. **تفسير القرماني** جار الله، ١٩٠و.

بل شاربٌ إلا بتأويل إنَّ الشاربَ قاعدٌ، وقد يقال: حين أثبتوا الضَّلال له أرادوا تركَ دين الآباء، ودعوى الرِّسالة. فحين دفع الضلالة يوهّم منه كونه على دين الآباء، وترك دعوى الرِّسالة، فاستدرك بأنه رسولٌ، وعلى صراط مستقيم، وهذا ليس كلام المصنّف،[٣٨٥٢] وكذا ما قيل حين نفي الضَّلالة أوهم أنَّ فضيلته مقصورة عليه، واستدرك بأنه مع ذلك النَّفي بهذه المرتبة السّنيّة.

﴿مِنْ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾صفة ﴿رَسُولٌ﴾ و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية مجازًا، وفيه تتميمٌ لتعظيم الهداية المستفادة من الرِّسالة عل الكناية، وإشارةٌ إلى أنَّ رسالته لتربيتهم إذا تقرر هذا. فقد ظهر فرط مكابرتهم؛ حيث وصفوا من هو بهذه المنزلة من الهدى بالضَّلال المبين.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢)﴾

صفات لـ﴿رَسُولٌ﴾،ولا يمنعذلك[٣٨٥٣] كونه غائبًا؛ لأنَّه خبر عن متكلّم فروعي الضَّمير الَّذي له لا الظاهر، فإنَّ في كلِّ اسم ظاهر سبقه ضمير حاضر من متكّلمٍ أو مخاطب، يجوز فيه وجهان: مراعاة الضمير السابق، أو الاسم الظاهر، فتقول: أنا رجلٌ أفعل كذا، أو يفعل كذا،[٣٨٥٤] ونحوه قول علي رض:

أَنا الَّــذي سَمّتــني أُمــي حَيـدَره[٣٨٥٥]

فإنَّ الموصول فيه وقع خبرًا عن ضمير المتكلّم، فعاد إلبه ضمير المتكلّم، مع أنّ حقَّ الضمير العائدِ إلى الموصول الغيبة،

مثل: «أَنا الَّذي سَمته»، حتى قال المازني: لولا اشتهارُه وكثرةُ مورده لرددتُه يعني:[٣٨٥٦] بحيدرة أسدًا من جهة المعنى؛ لأنَّ أمّه فاطمةَ بنتَ أسدٍ سمّاه باسم أبيها، وكان غائبًا، ولَمَّا قدم كرهه، وسماه عليًّا. تمامه:

كلَيْـــثِ غـــاباتٍ كريـــهِ أُوفِيهُم بالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

المنظَره

[**١٩٠**/ظ] هي مكيالٌ عظيم. يعني: أي: أقتُل أهلَ خيبر قتلًا واسعًا.[٣٨٥٧] أو استئناف يبين كونه رسول ربِّ العالمين. والتبليغ: إيصال ما فيه بيان الإفهام، ومنه: البلاغة، وهي إيصال المعنى إلى النفس بأحسن صورةٍ من اللفظ.[٣٨٥٨]

قال ع م : «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً».[٣٨٥٩]

وقال عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مسؤولون عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ فَجَعَلَ يَرْفَعُ إِصْبَعَهُ إلى السماء وينكتُها عليهم ويقول: اللَّهُمَّ اشْهد ثلاث مرَّات».

[٣٨٥٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٦و.

[٣٨٥٣] ج-ذلك.

[٣٨٥٤] **الدر المصون** للسمين، ٣٥٦/٥.

[٣٨٥٥] **الكشاف** للزمخشري، ١٠٩/٢.

[٣٨٥٦] ج-يعني.

[٣٨٥٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٦و-ظ.

[٣٨٥٨] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٧٨/٤.

[٣٨٥٩] **صحيح البحاري**، ١٧٠/٤ (٣٤٦١).

وقرأ أبو عمر: «وأُبْلِغُكُمْ»[٣٨٦٠] من اللإبلاغ.

والرسالة: جملة من البيان يحملها القائم بها ليؤدّيَها إلى غيرها، والمراد ما أوحي إليه، وجمعها بحسب تعدد أوقاتها، أو باعتبار تنوُّعها بحسب المعاني من العقائد، والمواعظ، والأحكام، والنذائر، والبشائر، أو بإرادة رسالته، ورسالة من قبله كصحف آدم، وشيت، وإدريس.[٣٨٦١]

وفي قوله: ﴿رَبِّي﴾ بعد قوله: ﴿مِنْ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارةٌ أنفي[٣٨٦٢]الرّسالة تربية له، كما أنه تربية لهم.

والنَّصيحة: خلوص المحبّة للمنصوح له والتّحري فيما يستدعيه حقّه، أو إرادة الخير للمنصوح له. أو الدعاء: إلى ما فيه الصَّلاح، والنَّهي عمَّا فيه الفساد. وهي في اللغة: الخلوص، يقال: نصحتُ العسلَ: إذا خلّصتّه من الشمع،[٣٨٦٣] فالنَّاصح يخلص كلامه أو نفسه للمنصوح له من الغشّ. أو مأخوذ من: نَصَح الرجل ثوبه، أي: خاطه، شبَّهوا فعل النَّاصح فيما يتحرّاه من صلاح المنصوح له بفعل الخائط فيما يَسدُّ من خلل الثوب،[٣٨٦٤] ولكونها بابًا عظيمًا في الدِّين ونفعًا عميمًا للمسلمين.

قال ع م: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قيل: لِمَنْ يا رسول الله؟ قَالَ: لِلّهِ وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَ لِأَئِمَّةِ المؤمنين، وَعَامَّتِهِمْ».[٣٨٦٥]

يريد عليه السلام: عماد أمر الدين إنما هو النصيحة، وبها ثباته، كقوله ع م: «الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»؛ أي: صحَّتها و ثباتها بالنيّة[٣٨٦٦] وهي إرادة الخير لكلٍّ من المذكورين.

وزيادة اللّام للمبالغة، والدّلالة على كمال إمحاض النّصح لهم، فربّ نصيحةٍ ينتفع بها النَّاصح، أيضًا ولا نصيحة أمحضُ من نصيحة الله ورُسُله؛ لاجتماعهم على نحو أن يقولوا: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبأ ٣٤/ ٤٧] والتَّبليغ تعريف التَّكاليف، والنُّصح الترغيب، والرهيب.

و﴿مِنَ اللهِ﴾ في موضع الحال من ﴿مَا﴾، أو الرَّاجع إليه، و﴿مِنْ﴾ للبيان أو للتَّبعيض، والعلم: بمعنى العرفان، أي: «وأعلم من صفات الله، وأحواله، وهي قدرته وشدّة بطشه، وأنَّ بأسه لايردّ عن المجرمين ما لا تعلمون»، هذا عبارة المصنّف. والقدرة مثال لصفته، ولم يلزم منه الاعتراف بزيادة الصِّفات على الذَّات، بل بأنَّه قادرٌ بقدرته، وشدّة البطش مثال لحاله، والمراد بأحواله الإضافات، وتعلّقات الأفعال مما لم يقل أحدٌ يقدّمها، أو الآثار، والشؤن التي تظهر منه.

وإنَّما لم يعلموا؛ لأنَّهم أوَّل الأمَم الهالكة لم يسمعوا بقومٍ حلَّ بهم العذاب، أو متعلّق بـ﴿أَعْلَمُ﴾ و﴿مَا﴾، موصوفه، أي: وأعلم من جهة الله أشياء لا علم لكم بها. قد أوحيت إليّ، وفيه وعيدٌ لهم، وتقريرٌ لما في قوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، أو تنويةٌ للنصح، وترغيبٌ إلى قبوله وإضغائه، أو حمل لهم على الرُّجوع إليه في طلب تلك العلوم.

وقال القشيريّ: «أعلمُ أَنِّي وإنْ بالغتُ في تبليغ الرِّسالة، فمَنْ سبقه القسمة بالشقاوة لا ينفعه نصحي، فإن مَنْ أسقطتْه القسمةُ لم تنعشه النصيحة».[٣٨٦٧]

[٣٨٦٠] **النشر** لابن الجزري٢/٣٠٢.

[٣٨٦١] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٥٥٠؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/٧٨-٧٩.

[٣٨٦٢] ج-في.

[٣٨٦٣] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٤٢٩.

[٣٨٦٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٤٢٩.

[٣٨٦٥] **صحيح مسلم**، ١/٥٣ (٩٥).

[٣٨٦٦] **صحيح البخاري**، ١/٦ (١).

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣)﴾

الهمزة للإنكار، والواو للعطف على محذوف، أي أكذّبتُم وعجِبتم، فهما داخلان تحتَ الإنكار، والعَجَب تغيُّرُ النفس بما خفيَ سببُه، وخرج عن العادة مثله.[3868] فحاصل تعجُّبهم راجع إلى دعوى نوح النُّبوة، وإلا فلا يتصوَّر تعجُّبهم ممَّا قطعوا بانتفائه.

﴿أَن جَآءَكُمْ﴾: مِن أن جاءكم، فهو في موضع النَّصب بعجبتم بحذف الجار أو الجر على إرادته. والذِّكر الكتاب الذي أنزله على نوح سمّاه «ذكرًا»، كما سمّي القرآن به أو الرِّسالة، فإنها تتضمَّنه أو المعجزة التي جاء بها نوحٌ، فعلى هذا يكون «على» بمعنى: «مع» ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾متعلّق ب﴿جَآءَكُمْ﴾ أو صفة ل﴿ذِكْرٌ﴾، ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ فيه حذف مضافٍ، أي: على لسان رجلٍ، كقوله: ﴿مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران ١٩٤/٣] أو جعل«على» بمعنى «مع» فعلى التقديرين يكون من صلة ﴿جَآءَكُمْ﴾.

وقال ابن الكمال: «كلُّ ما يأتي من الله فله حكمُ النزول، فكأن ﴿جَآءَكُمْ﴾ معناه: نزل، فحسن معه أن يقال: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ ولا حاجة إلى لسان».[3869]

وأنت خبير: بأن الحاجة إلبه ليست لعدم اعتبار النُّزول فيما يأتي حتى يتخلّص باعتباره، بل لكون الجائي لهم، فيحتاج إليه[3870] حتّى لو قال: «أن جاء» لم يحتج إليه فتأمّل.

ويحتمل أن يكون في موقع الحال من المستكنّ في ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إذا جعلته صفة ل﴿ذِكْرٌ﴾، أي: نازلًا ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ فلا خذف منكم من جملتكم أو من جنسكم، فكأنَّهم استبعدوا الرسالة لاستبعادهم التكليف، وعلى التَّسليم استبعدوا كون الرَّسول بشرًا، وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون ٢٤/٢٣]، وعلى تسليم ذلك أيضًا استبعدوا كونه فقيرًا خاملًا، فأنكر نوحٌ جميعَ ذلك؛ لأنَّ له بحكم الآلهية أن يكلّف، ولا يجوز بلا واسطة لمنع كبريائه، وإفضاء إلى حدِّ الإلجاء، وبواسطة ملك كما قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام ٩/٦] فهو أعلم حيث يجعل رسالته له الخلق، [**١٩١**/و] والأمر، وكونه منهم أدعى إلى استئناسهم، ومعرفتهم أحواله، ففي إيثار الإطناب على الوجه المذكور، حيث لم يقل على بشر بيان مجيء الرسالة على مقتضى الحكمة، وهو كونه منهم، وعدم كونه أنثى ولا صغيرًا، ففيه ترشيح لإنكار تعجّبهم، ثم بيَّن ما لأجله الرِّسالة بقوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾، أي: ليحذركم عاقبةَ الكفر والتكذيب والمعاصي، وهي العذاب الأليم، والعقاب المقيم، والإنذار إعلام موضع المخافة، والتَّحذير، الزَّجر عنه.

فلمَّا كان الغرض من الأوَّل الثَّاني استعير له، ولم يذكر التَّبشير بعاقبة التَّصديق، والإيمان، والطَّاعة، وهو الثّواب والنَّعيم واللِّقاء والفوز العظيم اكتفاءً بذكر أحدهما، ولم يعكس؛ لأنَّ المذكور أهمُّ وأعمُّ.

﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ من تلك العاقبة لتصلوا إلى عقبى الَّذين اتَّقوا، أو ليُوجد منكم التَّقوى بالتَّمسك بالحبل الأقوى بسبب الإنذار لا يقال: لو اعتبر سببية الإنذار لقيل: فتتَّقوا؛ لأنَّا نقول إنه[3871] على منوال قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل ١٥/٢٧]على رأي السَّكَّاكي.[3872]

[3867] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٣٤٠/١؛ **التيسير في التفسير** للنسفي، ٣٨١/٦.

[3868] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٧٩/٤.

[3869] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٧٩/٤.

[3870] ج- إليه.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بالتَّقوى إن وجدت منكم؛ فإنَّ العاقبة للمتقين، ولعلَّ كلمة التَّرجّي ههنا على عادة السَّادة، والملوك وأن يكون إطماعهم مقطوع الوقوع، أو على ترجيح جانب الوقوع حتى تزداد الرغبةُ في تحصيل التقوى، أو للتَّنبيه على أنَّ التَّقوى غير موجب، والتَّرحم تفضُّلٌ، وأن المتّقي ينبغي أن لا يعتمد على تقواه، ولا يأمن سخط مولاه.[٣٨٧٣]

وقال ابن الكمال: والعطف بالواو دون الفاء للتَّنبيه على أن التَّرحُّم تفضّلٌ لا يوجبه التقوى، فهو في بقعة الإمكان، وكلمة التّرجي لترجيح جانب الوقوع،[٣٨٧٤] ولقائل أن يقول: إيراد الفاء لا يوجب الوجوب، بل يعنوا السببيّة، فلعلّ ذلك أيضًا من قبيل قوله تعالى: ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على رأي السَّكَّاكيِّ،[٣٨٧٥] وعلى رأي الجمهور، فتأمَّل في تخصيص رأي السكَّاكي من قبل، وإيراد رأي الجمهور ههنا أيضًا ليظهر لك وجهه.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)﴾

فتمادوا على تكذيب نوحٍ، ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل، كما نص عليه في موضعٍ آخر،[٣٨٧٦] أو كذّبوه صريحًا بعدما عرضوا بقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف ٧/٦٠].

فالفاء في قوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ فصيحةٌ تدلّ على المحذوف. وقد ذكر ما حذف في موضعٍ ولك أن تقول: في الوصل بينهما بأدات التَّعقيب تنزيل للتكذيب منزلة العذاب الذي يترتّب عليه، ولا يخفى ما فيه من التَّهويل والتَّعظيم لأمر التَّكذيب.[٣٨٧٧] هكذا قالوا، لكن اللائح أن للترتب بالفاء مجموع الإنجاء والإغراق، فحينئذ لا يحتاج إلى أحد التأويلين، بل لا يتّضح، وتقديم الإنجاء، للاهتمام بشأن المصدّقين، ورفع توهّم أن يكونوا مع المهلكين من أوّل الأمر، وتقدّم الإهلاك في أكثر المواضع، وله وجه ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ من البشر وسائر أنواع الحيوان. وكانوا ثمانين رجلًا وامرأة على التنصيف، أو تسعة بنوه: سام، وحام، ويافث، وستة ممن آمن به، وفي التعبير إشعار بأن نجاته سبب المتابعة، وبركة المصاحبة.

﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾ متعلّق بـ﴿مَعَهُۥ﴾ أي: استقرّوا معه في الفلك، أو صحبوه فيه؛ لأنَّه اسمٌ منصوبٌ على الظَّرفية وقع ههنا صلة، ففيه من جهة كونه ظرفًا مستقرًا معنى الاستقرار، ومن جهة معناه الموضوع هو له معنى المصاحبة، أو بـ﴿أَنجَيْنَاهُ﴾: أي: أنجيناهم فيه من الطُّوفان، ولا يعد في حمل الفاء على السَّببية، كما في قوله ع م: «إِنَّ امْرَأَةً دَخَلَتِ النَّارَ فِي هِرَّةٍ».[٣٨٧٨] أو بمحذوف على أنَّه حالٌ من الموصول أو من الضَّمير، في ﴿مَعَهُۥ﴾، أي: كائنين أو كائنًا فيه، واشتقاقه من: فلك ثدي المرأة إذا استدار سميت السفينة به؛ لأنه تدور على الماء كيف أديرت وهو يكون واحدًا وجمعًا. يقال: غرِق في الماء من باب: طَرِب، فهو غَرِق، وغَارِق وأغْرَقه غيرَه وغرَّقه فهو مغرّق وغريق. وما في حقِّ العقلاء من التكذيب، فبغير الباء نحو: «كذَّبوا رسلي وكذَّبوه، وما في حقِّ غيرهم فبالباء، نحو: «كذَّبوا بآياتنا». والتَّحقيق: أنَّ المراد كذّبوا رسلي بردّ آياتنا.[٣٨٧٩]

[٣٨٧١] ج – إنه.

[٣٨٧٢] **مفتاح العلوم** للسكاكي ص ١٢٣.

[٣٨٧٣] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٥٥٠.

[٣٨٧٤] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٨٠.

[٣٨٧٥] **مفتاح العلوم** للسكاكي ص ١٢٣.

[٣٨٧٦] سورة هود ١١/٤٠.

[٣٨٧٧] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٨١.

[٣٨٧٨] **صحيح البخاري**، ٤/١٣٠ (٣٣١٨)؛ **صحيح مسلم**، ٤/٢١١٠ (٢٦١٩).

[٣٨٧٩] **تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان** للنيسابوري، ٣/٢٦٨.

والمعنى: تموا على تكذيبها، وكان تكذيبهم لها في آخر المدّة المتطاولة، كتكذيبهم في أوّلها، وذلك عند مشارفة الهلاك، وفيه أنَّ إغراقهم كان بسبب تكذيبهم، وأمَّا إغراقُ سائر الحيوانات، فبِشُؤم معاصيهم،[٣٨٨٠] وفيه عبرة عظيمة لأولي الاعتبار حيث يصيب البراء[٣٨٨١] فتنة الأشرار.

﴿إِنَّهُمْ﴾: أي: إن المغرقين المكذبين ﴿كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾ عمي القلوب غير مستبصرين، فلذلك عَمُوا عن الآيات، وغَفَلوا عن تدبير الغايات.

ويجوز أن يكون من عمي العين، فيكون كقولهم: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف ١٧٩/٧]. فالجملة استئناف على سبيل التَّعليل، وهي: جمع «عَمٍ»، أصله: «عَمِيَ» على وزن «خَضِرَ» فاعل، كإعلال قاضٍ فاصل، جمعه: عَمِيين، فخفّف بحذف إحدى اليائين، فالوزن بعده: «فَعِينَ» يقال: رجل عمٍ في البصير، وأعمى في البصر. قال: وأعلم ما في اليوم والأمس قبله، ولكنه عن علم ما في غد عَمٍ. وقيل: هما بمعنى: كخَضِر وأَخْضَر.

وقرئ: «عَامَينَ».[٣٨٨٢] والأوَّل أبلغ لدلالة الصِّفة المشبهة على الثَّبات [**١٩١**/ظ] واسم الفاعل على الحدوث.[٣٨٨٣]

وإنما قال: قومًا على تغليب الذُّكور على الإناث تنبيهًا على تبعيَّتهنَّ للرجال في الضَّلالة الحاصلة بسب العُمْي.[٣٨٨٤] وفي القصة أنه ينتقم لأوليائه من أعدائه، وينجي رسولَه ومَن اتَّبعه، ويهلك أعدائَهم كما قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [مؤمن ٥١/٤٠] وإنَّ عاقبة المؤمنين المتبعين للأنبياء الفوزُ والنَّجاة، وعاقبةَ المكذّبين المعرضين الهلاكُ.

وعن بعض العارفين: كانوا محجوبين عن مشاهدة الله، ومبعّدين عن ذوق محبّة الله غيرَ مبصرين ببصائر الأسرار أنوار صفات الله، وذاته التي يظهر من كل ذرّة سطوعُها.

وقال بعضهم: كانوا متثاقلين فى القيام إلى الطَّاعات. وقال بعضهم: عَمِيَتْ أبصارُهم عن النَّظر الى الكون برؤية الاعتبار، ونظرهم نظر مراد وشهوة.[٣٨٨٥]

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥)﴾

عطف على ﴿نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾. فإن قلت: فإذا مقتضى العطف، وهودًا إلى قومه. قلت: غيّر الأسلوب ههنا لنكتة لا يخفى: أي: وأرسلنا إليهم، وهم أولاد عاد بن إرم بن عَوْص، أو ابن عوص بن إرَم الذين كانوا يأوون العمد في البرّ، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر ٦/٨٩-٧-٨] وذلك لشدَّة بأسهم، وقوتهم، فهو اسم للحيّ سُمُّوا باسم أبيهم الكبير، فلذلك صرف ولو جعل اسمًا للقبيلة لم يصرف، وقد كان ساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي: جبال الرَّمل بين عمّان وحضرموت، وكانوا قد فشوا في الأرض كلّها، وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي

[٣٨٨٠] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٨١/٤.

[٣٨٨١] ج + بمعنى الخلق. منه.

[٣٨٨٢] **المختصر في شواذ القراءات**، لابن خالويه ص ٥٠.

[٣٨٨٣] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٨١/٤.

[٣٨٨٤] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٨١/٤.

[٣٨٨٥] **عرائس البيان** للبقلي، ٤٤٧/١.

آتاهم الله، وكانت بلادُهم أخصبَ البلاد، وكانوا أصحابُ بساتينَ وزروعٍ، فسخط الله عليهم؛ فجعلها مفاوز وكانوا أصحابَ أوثانٍ يعبدونها، فبعث إليهم نبيًّا.

وليس المراد الأخوة في الدِّين بل واحدٌ منهم كقولهم: «يا أخا العرب»، فإنَّه هودُ بن عبد الله بن رَباحِ بن الخلودِ بن عادِ بن عَوْص ابن إرمَ بن سام ابن نوح، أو هودُ بن شَالَخَ بن أَرْفَخْشَذ بن سام بن نوح، فهود ابنُ عمِّ أبي عادٍ؛ لأنَّ إرم وأرفخشذ أخوان؛ لأنَّهما ابنا سام، وإنَّما جعل منهم؛ لأنَّهم أفهمُ لقوله، وأعرفُ بحاله، وأرغبُ في اقتفائه،[٣٨٨٦] وأسكن إليه، وأنس به، ولأنَّ ذلك أبلغُ في الحجَّة عليهم، أو واحدٌ من جنسهم بشرٌ لا ملكٌ لما ذكر من الوجوه.

﴿هُودًا﴾ عطفُ بيان لـ﴿أَخَاهُمْ﴾، أو بدل، وجوّز أن يكون أَعْجَميًّا، وصرفه مع وجود العُجمة والتَّعريف، لخفته كنوحٍ، وأن يكون عربيًّا من: هاد يهود، وفيه نظر؛ لأنَّه حكي أنَّ أهل اليمن يزعم أنَّ يعرب بن قحطان بن هود هو أوَّل مَن تكلَّم بالعربيّة، وبه سمّيت العرب عربًا.

روي أنه ع م: كان من أوسطِهم نسبًا، وأفضلِهم حسبًا، ولم يَزلْ في ديار قومه غير أنَّه يجانبهم في أصنامهم، حتى أتى عليه أربعون سنةً، نزل عليه الوحي: أن يا هود قد اخترتُك وجعلتُك نبيًّا إلى بني عادٍ، فصِر إليهم ولا تَخَفْ منهم، فانطلق إليهم.

ولَمَّا ورد أن يقال: لِمَ حذف العاطف من قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ ولم يقل: «فقال» كما في قصَّة نوحٍ؟ أجاب عنه العلامتان بأنه استأنف به؛ لأنَّه جوابُ[٣٨٨٧] سائلٍ قال: فما قال لهم هود حين أرسل؟ وكذلك جوابهم في قوله: ﴿قَالَ الْمَلأُ﴾ [الأعراف ٦٦/٧]، وتمام الجواب أن يبيّن وجه اختصاص قول نوح بالعطف والرّبط باللفظيّ، وقول هود بالاستئناف، والربط المعنويّ؟[٣٨٨٨]

فقيل: قصةُ نوح ابتداءُ كلام، فليست مظنَّة سؤال الخلاف قصّة هودٍ، فإنَّها معطوفةٌ على قصّة نوح، وكانت مظنّةَ أن يقال: أقال هود مثلَ ما قال نوح أم لا؟[٣٨٨٩]

وقيل: لإنَّ نوحًا كان مواظبًا على دعوتهم، مواصلًا للجواب عن شبهتهم، وكان كلامه شديد الملائمة بحرف التَّعقيب، ولا كذلك حال هودٍ.

وعن الواحديّ: ههنا حذف، وهو خبر ﴿مَا﴾ لأنَّ غيرَه صفةٌ لقوله: ﴿إِلَهٍ﴾ فلم يبق للنَّفي خبر، أي: «مالكم من إله غيره في الوجود».[٣٨٩٠]

وعن الرازي: اتفقوا على أن لا إله إلا الله، فيه إضمارٌ، أي: لا إله في الوجود إلا الله أو لا إله لنا إلا الله، فنقول: لِمَ لا يجوز أنَّ حرف النَّفي دخل على هذه الحقيقة، أي: لا تحقق لحقيقة الآلهية إلا في حقِّ الله في مستثنى عن الإضمار.

فإن قيل: لا يجوز؛ لأنَّه لا يمكن نفيُ الحقائق لا يقال: لا سواد بمعنى ارتفاع هذه الماهية، وإنما الممكن أنَّ تلك الحقائق غيرُ موجودة.

[٣٨٨٦] **نواهد الأبكار** للسيوطي، ٣٣٩/٦.

[٣٨٨٧] ج + سؤال.

[٣٨٨٨] ج – المعنويّ. **الكشاف** للزمخشريّ١١٢/١؛**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٥١/١؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٨٢/٤.

[٣٨٨٩]**تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٨٢/٤.

[٣٨٩٠]**اللباب** لابن عادل، ١٧٧/٩.

قلنا: لو كان الأمر كذلك لامتنع ارتفاع الوجود؛ لأنَّه من الحقائق ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ عاقبة الشِّرك وعذاب الله؛ والهمزة للإنكار والفاء لترتيبه على ما تقدَّم من موجب التَّوحيد، فهي مقدّمة على الهمزة معنى: وإن أخّرت لفظًا لتصدّرها، أو للعطف على محذوف، أي: تعبدون غيره فلا تتقون.

ولَمَّا كان واقعة قبلهم خوّفهم به، ولَمَّا لم يسمع قوم نوح مثلها خوّفهم بعذاب يومٍ عظيمٍ.

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦)﴾ [١٩٢/و] ﴿قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧)﴾ ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨)﴾

﴿**ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ صفة مميّزة؛ لأنَّ مِنْ أَشرافِ قومه مَن آمن، كمَرثد بن سعد الذي كتَم إسلامَه، ولم يظهر إلا عند مجيء وفد عاد إلى مكَّة يستغيثون، ولم يكن ذلك في قوم نوحٍ؛ فلذلك لم يقيّد، والاعتراض عليه بأنَّه وصفَ الملأَ في قوم نوحٍ أيضًا في المؤمنين غير واردٍ؛ لأنَّ التَّفرقة ههنا بين الذِّكرين يدلُّ على هذا المعنى، والذّكر هناك لمجرَّد الذَّم أو ذامّة، وهي ليست في معرض اللّزوم كالمميّزة، فلا يرد لِمَ لم يوصفْ قومُ نوح ههنا للذَّم ولا لِمَ وصفوا في سورة المؤمنين به على أنه يمكن أن يقال: إنَّ مقتضى المقام ذمُّ قوم هود ههنا؛ لشدَّة عنادهم، وفرط فسادهم على ما نقل منهم في حقِّه ع م، مع كونه معروفًا عندهم بالعقل والأمانة، وأرشدهم سجيّة، وأصدقهم بهجة بخلاف قوم نوح في هذا المقام؛ فلذلك ذموا أيضاً في سورة المفلحين؛ لما قالوا ما يدلّ على العناد، وفرط الفساد جعلوه متمكنًا في حقّه عقل لمخالفة دين آبائهم، ومفارقتهم وضع أشرافهم ومحبّته بدينٍ لا يعرفونه.

والسفاهة: ضد الحلم، وأصلها: الخفّة، والحركة، يقال: سفهت الريحُ الشجرة، إذا مالت به، والفعل: سَفُه يسْفُهُ بضمِّهما.[٣٨٩١]

والرؤية: قلبيّة، فالظرف مفعول، أو عينيّة فالظَّرف حالٌ من الكاف. ولَمّا خوَّف نوحٌ قومَه بالطوفان، وأراد عمل السفينة، ولا ما على الأرض ضلَّلوه في إتعاب نفسه من غير وجه، ولَمَّا زيّف هود عبادة الأصنام، وسفّه من عبَدَه قابلوه بالتسفيه، ولكون هذا تخطئةً له في فعله ع م ذكروا الرؤية التي تدلّ على الجزم، ولكون ما بعده تخطئةً له ع م في قوله: «ولا علمَ لهم كحقيقة الحال سوى التَّقليد الباطل، ذكروا الظَّن،وهذا يدلُّ على أنَّ الشَّكَّ في أصول الدين يوجب الكفر، ويحتمل أن يكون الظّنّ بمعنى اليقين، ويدلُّ عليه مبالغاتهم في مقالاتهم فردَّ كلامهم بأنهليس فيه شيءٌ منها، ولكنه على كمال العقل، والغاية القصوى من الحكم؛ لأنَّه رسول من رب العالمين، وقد مرَّ وجه الاستدراك على ما يدركه الإدراك.

وقيل: استدرك بـ«لكنّ»؛ لأنَّ فيه ما ما دعاني إلى أمركم السّفه، ولكن دعاني الله أني رسول، ولم يتعرّض لرد التَّكذيب؛ لأنَّ منشأة السَّفاهة فحيث لا سفاهة لا كذب. وقد مرَّ الكلام في قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ [الأعراف ٦٢/٧] أيضًا.

وقيل: أي: إن الشَّأن الذي أنا عليه تبليغ ما هذا شأنه من الإنذار، والتّخويف، والصَّرف عما يوصلكم لعضب الله بحمدي ﴿**وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ**﴾ أي: عرفت فيما بينكم بهما، فما حقي أن اتّهم، فجعلا من قبيل المهجور متعلّقة، فيفيد أنَّه أوحدي فيه موجد للحقيقتين، كأنَّه صناعته. فالجملة اعتراض كقوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة ٢/ ٥١] في أحد الوجهين، أو أنا لكم ناصحٌ فيما أَدْعوكم إليه أمين على ما أقول لكم لا أَكْذب فيه، فجعلا من قبيل المذكور متعلّقة، والجملة حال، كما في الآية المذكورة في الوجه الآخر.

[٣٨٩١] **الفريد في إعراب القرآن المجيد**، للهمذاني، ٨٠/٣-٨١.

وقول نوح: أنصح لكم؛ لكون عادته العود إلى تجديد الدعوة في كلِّ يومٍ، وفي كلِّ ساعة. وقوله ع م: ﴿لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ لثباته عل النُّصح غير مجدَّد إياه لحظة.

وقيل: وصفه بالأمانة، وتقديم الضمير المفيد للتَّقوى، وإيثار الاسميّة يدلُّ على فرط عنادهم، ومدح نفسه بأعظم الصفات؛ لأنه كان يجبّ عليه إعلام ذلك، وسدّ باب ما أسندوا إليه، ففيه دليلٌ على جواز مدح النَّفس عند الحاجة، كما قال يوسف ع م ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف ١٢/٥٥]، وقصر على وصف نفسه بالأمانة، ولم يقل: إني أعلم من الله ما لا تعلمون؛ لأنه لا يبعد أن يعلم نوح من أسرار الله ما لم يصل إليه علمه ع م، ويجوز أن لا يقتضي حال قومه ذلك.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) ﴾

الفرق بين العجب والعجب إن العُجب بضمِّ العين عقد النفس على فضله لها ينبغي أن يتعجب منها، وليس العَجَب بفتح العين والجيم، كذلك؛ لأنَّه قد يكون حسنًا، وفي المثل: لا خير فِيمَن لا يتعجب من العجب، وأرذل منه المتعجب من غير عجب.

وقد سبق أيضًا بيانه، وكذا وجه الاقتصار على ذكر الإنذار، وفي إجابة الأنبياء أممهم السفهاء عن كلماتهم الحمقاء بم أجابوا به، والإعراض عن جهالتهم، وترك مقابلتهم، كمال النّصح، ووفور الشَّفقة، وزيادة هضمِ النَّفس، وتمام حسن المجادلة، وفضل حسن الخلق، ولطف الأدب الحسن، وحكايته تعالى ذلك ليقتدي بهم المؤمنون في أداب المعاشرة، والناصحون في إيراد المناظرة، ثم لَمَّا خوفهم من عقابه، ونصحهم، ودلَّهم على الإيمان ذكرهم بنعمة الجسمية عليهم.

و﴿إِذْ﴾إذ مفعولٌ به، أي: اذكروا وقتَ استخلافهم.[**١٩٢**/ظ]ومن قال بانتصابه على الظرفيّة أبدا قدر الحادث قبله، وجعله ظرفًا أو جعله مفعولًا اتِّساعًا.

﴿**خُلَفَاءَ**﴾جمعُ «خَلِيفَةٍ» على التَّذكير، والمعنى: خلائف على اللفظ من عليهم بأن جعلهم سكَّان الأرض ﴿**مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ**﴾أو سكَّان مساكنهم من رَمل عالجٍ إلى بحر عمَّان، أو ملوكًا في الأرض، قد استخلفهم فيها بعدهم؛ فإنَّ شدَّاد بن عاد ممن ملك المعمورة من الأرض، وفي ذكر نوح إشارة إلى دفع تعجبهم بأنَّ الذي جئت به ليس ببدع، فاذكروا نوحًا وإرساله إلى قومه، وإشعار بالوعيد، والتهديد، أي: اذكروا هلاك قومه لتكذيبهم رسولَ ربِّهم، وتَعظيم النِّعمة حيث جعلهم من ذريّة من أهلك الله أهل الأرض بدعوته لمخالفتهم به ع م ﴿**فِي الْخَلْقِ**﴾متعلِّق بالفعل، أو في موضع الحال؛ لتقدُّمه على الموصوف وهو ﴿**بَسْطَةً**﴾وهي مفعولٌ ثانٍ لـ﴿زَادَكُمْ﴾، أو تمييزٌ له، أي: زادكم في الخلق امتداد قامتكم، وحسن صوركم، وعظم أجسامكم، وشدة قوّتكم، أو: في المخلوقين حيث لم يكن في زمانكم أمثالكم في الجثة، والقوَّة، والثَّروة يرشدك إليه قوله تع: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص٢٨/٧٨] يشير به إلى قوم عادٍ.

روي: أنه كان أطولُهم مائةَ ذراع، وأقصرُهم ستين ذراعًا، وكان رأس أحدِهم كالقبَّة العظيمة، وكان عينُ الرجل يفرخ فيها السِّباع، وكان الرّجل ليتخذ المِصراعين من حجارة، لو أقيم عليها خمسمائة من هذه الأمَّة لم يطيقوه.[٣٨٩٢]

ثم عمَّم بالأمر بذكر الآلاء تعميمًا بعد تخصيصٍ، فيدخل فيه أوَّلًا الاستخلاف، والبسطة، ففيه تقريرٌ، وتأكيد ليشكروها بتصديق رسوله، وبما جاء من عنده، ويتركوا الكفر، والكفران.

[٣٨٩٢] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/٢٦٤.

ومن جعل التَّعميم بعد التخصيص نعمة البسط، فلعلَّه حمل الاستخلاف على الملك، أو جعله خاصًا بنوعٍ من التَّأويل.

والآلاء: النعماء، وقد يفرق بينهما، وواحدها: «إِلًى» بكسر الهمزة، وألف بعد اللام، ك«إِنًى»، و«آنَاء»، وبفتحها أيضاً: ك«رَحًى» و«أرحاء»، وبكسرها مع سكون اللّام، ك«حِسْيٍ» و«أَحْسَاء»، وبضمِّها أيضًا ك«قُفْل»، و«أقفالٍ».[٣٨٩٣]

وعلَّق الفلاح بالذكر لكونه كنايةً عن الشُّكر؛ لأنَّ الذكر حقيقة لا يتخلَّف من التذكر، ففيها تنبيهٌ على أنَّ هذه النّعم، بحيث يستتبع ذكرها الشكر عليها، ففي تذكرها غنى عن الحثِّ على الشكر عليها، أو لكونه مفضيًا إلى الشُّكر المؤدي إلى الفلاح. وقيل: في الكلام مقدّر، أي: وشكروها لعلَّكم.

قال **ابن الكلام**: لاحاجة للأمر به بعده، بل لا وجه له لتفريقه عليه نعم كذلك على الحمل على أحد الوجهين، وأمّا على الظَّاهر فلاحتياج.[٣٨٩٤]

وقال **الواسطيّ**: العامَّة تحبّه على النّعماء، وذلك في قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة ٥/٧] والخاصة تحبّه على الآلاء، وذلك في قوله: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف ٧/٦٩] والأكابير تحبّه على الإيثار، والرّبوبيّة، ولكلٍّ علامة فعلامة الأولى دوام الذكر له، والفرح به، والثانية الاستئناس به لرؤية ما أبعده منه، والثالثة به عن كلٍّ قاطع يقطع عنه.[٣٨٩٥]

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١)﴾

لَمَّا دعاهم إلى التّوحيد، وترك عبادةِ الأصنام، وأقام الدليل بأنَّه تعالى أنعم عليهم بالنّعم العظام التي لا تحصى أنواعها، والأصنام لا نعمة لها؛ لأنَّها جماداتٌ لا تقدر على شيءٍ لم يبق لهم إلا التّمسك بالتقليد، والعادة. فالستبعدوا اختصاصَ الله بالعبادة، والإعراض عمَّا أشرك به آباؤهم انهمَاكًا في التَّقليد، وحُبًّا لما أَلِفوه.

ومعنى المجيء في﴿أَجِئْتَنَا﴾: إمّا المجيء من مكانٍ كان ع م فيه، فإنَّه ع م كان معتزلًا عن قومه يتحنَّث فيه، كما كان نبيّنا ع م يجيء قومه من حِراء، وكان اعتزل به عنهم، ومعنى: يتحنَّث يتعبّد، يقال:فلان يتحنّث، أي: يفعل فعلًا يخرج من الإثم، وإمّا المجيء من السماء استهزاءً به ع م؛ لأنه ع م ؛لما جاءهم لعبادة الله وحده على خلاف المعتاد عندهم عدّوا ذلك دعوى رسالة، ولم يجوزوا أن يكون البشر رسولًا، كان المعنى: أجئتنا من السماء، أو أرسلت ملكًا.

وقيل: إنهم لما استبعدوا اختصاصَ الله وحده بالعبادة بنوا الأمر على المحال كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾[٣٨٩٦] فإثبات المجيء حينئذ على الحقيقة استهزاءً. وأمّا ألقصد والتعرّض يقال: ذَهَبَ يَشْتُمُنِي ولا يراد حقيقةُ الذهاب؛ كأنَّهم قالوا: أقصدتنا.

[٣٨٩٣] **الفريد في إعراب القرآن المجيد**، للهمذاني، ٣/٨٢.

[٣٨٩٤] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٨٥.

[٣٨٩٥] **عرائس البيان** للبقلي، ١/٤٤٩.

[٣٨٩٦] سورة الأنعام ٦/ ١٢٥.

﴿**لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُ**﴾ وتعرَّضْتَ لنا بتكليف ذلك.[٣٨٩٧]

﴿**وَحْدَهُ**﴾ مصدرٌ بمعنى اتحادًا من قولهم، أوحدته برؤيتي اتحادًا، أي: لم أر غيره، ثُمَّ حُذفت الزوائد منه، وهي الهمزة والألف، بقي وحده حال من الله، أي: مُوحِّداً أو من الفاعل، أي: موحّدين، أو ظرف، أي: نعبده [**١٩٣**/و] على حياله، وهو مذهب كوفيّ.

﴿**وَنَذَرَ**﴾ ونترك ﴿**مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا**﴾ من الآلهة. و﴿**مَا**﴾ موصولة، أو موصوفة.

قال أبو منصور: قرّر الله سفههم بهذا تعريضًا، فإنه أخبر عنهم عجبوا بمجيء الرّسول من البشر، وقالوا: ﴿مَا هَٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون ٢٣/ ٣٣] فلم يرضوا برسالة البشر، ورضوا بآلهية الخشب والحجر، ثمَّ قلّدوا آباءهم في عبادة الأصنام التي لا تَعقل ولا تضُر ولا تنفع، ولم تقلّد المؤمنين من قوم نوح الذين آمنوا به فنجَوا معه، واتَّبعوا الكفَّار الذين هلكوا بالطوفان.[٣٨٩٨]

ونعم القول ما قيل: إنَّهم طاحوا في أودية التَّفرقة، واستطابوا صحبة الأغيار، فشقَّ عليهم حين طولبوا بهجران العادة والقرار في ساحات التَّوحيد حتى قالوا ما قالوا.[٣٨٩٩]

﴿**فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ**﴾ من معاجلة العذاب على الشِّرك المدلول عليه بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، أو مصرّح به منه ع م؛استعجلوه تكذيبًا له، واطمئنانًا بعدم وقوعه، وتيقّنًا على كذبه فيه.

﴿**إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ**﴾ فيما تعد معدودًا من جملتهم، وجواب الشَّرط محذوفٌ مدلولٌ عليه بما قبله.

﴿**قَالَ**﴾ هودٌ جوابًا لاستعجالهم، وقطعًا لإنكارهم ﴿**قَدْ وَقَعَ**﴾قد ثبت، أو وجب، أو حقَّ من إطلاق المسبّب على السَّبب، أو قد نزل على طريق المجاز الأولى.وإنَّما حمل على هذه الوجوه؛ لأنَّه لم يقع وقت استعجالهم، وإنما قال: ﴿**عَلَيْكُمْ**﴾ بحرف الاستعلاء، إمَّا لأنَّه ثبوت قوي آكد ما يكون وأوجبه له؛ أو لأنَّه ثبوتٌ حسي؛ لأمرٍ نازلٍ من علوّ، وعذاب الله موصوف بالنُّزول من السَّماء ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾متعلق ب«وقع»، أو حالٌ متقدّمة على موصوفه، وهو ﴿رِجْسٌ﴾، أي: عذاب من الارتجاس وهو الاضطراب. ومنه ما قيل: لما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلّم ارتجس إيوان كسرى، أي: اضطرب.

وقيل: الرِّجس: الرِّجز قُلبت الزاء سينًا، ومن فَسَّره بازدياد الكفر، والرّين على القلوب حذر عن لزومالتَّكرار بقوله: ﴿**غَضَبٌ**﴾، لكن لا يلزم ذلك بتفسيره بإرادة الانتقام، أو بإرادته بالعذاب الأَبدبعد العذاب في الدنيا، ولا بعد في جعله عطفاً تفسيريًّا له.

﴿**أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ**﴾

استدل به على أنّ الاسم هو المسمّى؛ لأنَّهم كانوا يجادلون في عبادة المسميّات، واتِّخاذها آلهة، ولولا أنَّ الاسم عبارة عن المسميّات لَمَّا توجّه الذّم والإبطال بأنَّها أسماءٌ سميتموها، وعلى أنَّ اللّغات توقيفية غير اصطلاحية؛ إذ لو كانت اصطلاحية لَما توجّه الذّم بتسميتهم الأصنام آلهةً من غير توقيفٍ من الله تعالى، وضَعف هذين الاستدلالين ظاهر. أمّا الأوّل: فلأنَّ الأسماء هي الزَّوال والمسمَّيات مدلولاتها، وذمّهم على مجادلتهم في الأسماء لا يوجب اتّحاد الأسماء مع المسمّيات؛ لأنه يقال: لمن ليس

[٣٨٩٧] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٨٥/٤.

[٣٨٩٨] **تأويلات القرآن** للماتريدي، ٤٠٢/٥-٤٠٣؛ **التيسير في التفسير** للنسفي، ٣٩٥/٦.

[٣٨٩٩] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٣٤١/١؛ **التيسير في التفسير** للنسفي، ٣٩٥/٦.

فيه ما هو مدلول اسمه أنَّه اسم مجرَّد لا معنًى له، فمرجع الذّم تسميتهم إياها بما لا يليق أن تسمّى به، ومعنى ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾: سمَّيتم بها، من: سمَّيتُه زيدًا، أي: بزيد، فالهاءُ ثاني مفعولي التَّسمية التي قد تكون مع الباء، والأوَّل متروكٌ وليست الأسماء مطابقةً للمسمَّيات؛ لأنَّ اسمَ الإله إنما يصحُّ إطلاقه على المستحقِّ للعبادة بالذَّات الموجد للكلِّ.

فبيّن أنَّ منتهى حجَّتهم وسندهم أنَّ الأصنام تسمَّى آلهة من غير دليلٍ يدلّ على تحقق المسمّى، وإسناد الإطلاق إلى مَنْ لا يؤبه بقوله إظهارًا لغاية جهالتهم وفرط غباوتهم.[٣٩٠٠]

وليس معناه في مسمَّيات اتّخذتموها آلهةً باختراعكم، حتى يدلّ على الاتِّحاد الأسماء مع المسمّيات، ولو سلّم أنَّ المعنى على ذلك، فلا نُسلم لزوم اتحاد الأسماء مع المسمّيات أيضًا؛ إذ يجوز أن يكون من قبيل إطلاق لفظ الاسم، وإرادة المسمَّى؛ فإن ذلك لا يستلزم اتِّحاد الاسم، والمسمّى في سائر المجازات، فكذا ههنا، وربّما يشعر عبارة العلَّامتين[٣٩٠١] أنَّ المعنى على ذلك، لكنّ اللائح أن يكون مرادهما التقرير الأوَّل؛ إذ هو أوضحُ، وأنسبُ لظاهر النَّظم.

وأمَّا الثَّاني فلأنَّه ليس المعنى على أنَّكم أطلقتم هذه الأسماء على تلك المسميات من غير توقيفٍ وتعليمٍ من الله، بل لمجرَّد اصطلاحكم، حتى يدلّ على كون اللغات توقيفيَّةً، بل إنَّكم أطلقتم الآلهية على المسمَّيات، واعتقدتم الآلهية فيها من غير استحقاق.

ونفي إنزال الله السّلطان بها تهكّمٌ بهم من حيث ذكره مع عدم جواز الإنزال، وفيه إيهامٌ من أوَّل الأمر، أنه لو كان عليه سلطانٌ لم يمنع منه، فيدلّ على أنَّهم في محض التَّقليد، والغيِّ دون العلم والاستدلال، وهو من قبيل: ولا ترى الضبّ بها ينحجر؛ إذ المعنى: على أنّه لاضبّ، ولا انحجار، ولما لم يكن سلطانٌ، ولا إنزالٌ لم يبق إلا باطلاً محضًا، فنفى لازمه لنفي الملزوم بالأسلوب البرهانيّ، وفيه إيماءٌإلى أن ما لا دليلَ عليه لا اعتداد به أصلًا.

وفي الحديث القدسيّ: قَالَ اللهُ: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا».[٣٩٠٢]

﴿**فَانْتَظِرُوا**﴾ نزول العذاب؛ فإنَّهم وإن لم يكونوا منتظرين العذاب لكنَّهم جعلوا كالمنتظرين له من حيث إنَّه تبيَّن الحقُّ، ووضح الأمر، وهم مصرّون على العناد مستحقّون لنزول [**١٩٣**/ظ] العذاب فكأنهم منتظرون له.

﴿**إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ**﴾ وهذا غايةٌ في التَّهديد، ونهايةٌ في الوعيد، وكمال وثوق بما يحلّ بهم، وأنَّه كائن لا محالة.[٣٩٠٣]

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «النَّادِمُ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ الرَّحْمَةَ، وَالمعْجَبُ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ المقْتَ».[٣٩٠٤]

أو فانتظروا بي الدَّوائر وهلاكي إنِّي معكم من المنتظرين هلاككم، وأن يصيبكم الدوائر، وذلك أنَّهم قالوا: ننتظر به الدَّوائر، ونوائب الزَّمان فيهلك كما هلك من قبله.

[٣٩٠٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٥٢/١؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٢٤٨/٤-٢٤٩.

[٣٩٠١] الزمخشري، البيضاوي.

[٣٩٠٢] **صحيح مسلم**، ١٥٨/٨ (٢٨٦٥).

[٣٩٠٣] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٨٦/٤.

[٣٩٠٤] **المعجم الصغير** للطبراني، ٣١٤/١ (٥٢٠)؛ **شعب الإيمان** للبيهقي ، ٤٥٣/٥ (٧٢٥٤).

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)﴾

الفاء فصيحة، والمحذوف ههنا مذكورٌ في موضع آخر، ولا بُعدَ أن يجعل جزاءً للشَّرط، أي: إذا كان الأمر كذلك، فأنجيناه وأهلكناهم. والإنجاء: التخليص من الهلاك، وأصله: النجوة وهي الارتفاع من الأرض.[٣٩٠٥]

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ الذين آمنوا به، واتبعوه. قيل: كانوا أربعةَ آلاف فيه أنَّ المعية النافعة ما كان في الدين والخلق، لا ما في الظاهر والخلق ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ عليهم، بتوفيقنا للإيمان الذي كان الإنجاء بسببه، أو بتغمّدنا إيَّاهم بالرَّحمة، لا بقوَّة وتدبير منهم. وفيه إشارةٌ إلى أنَّه عليه السلام مع رتبته في النُّبوة ودرجته في الرسالة، إنما نجا هو والذين آمنوا معه برحمة من الله ليعلم أنَّ النَّجاة لا يكون باستحقاق الذَّات، ولا باستيجاب العمل، وإنَّما تكون بفضل منه؛[٣٩٠٦] فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «لَا يَنْجُو أَحَدٌ إِلَّا بِرَحْمَةِ اللهِ، قِيلَ: وَلَا أَنْتَيَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُبِرَحْمَته».[٣٩٠٧] أو بسترنا ما كان منهم على مقتضى البشريّة، وموجب الطبيعة.

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ استأصلناهم، ولم يبق لهم نسلٌ ولا ذرّية؛ لأنَّ دابر الشيء آخره، فقطع دابرهم إهلاكهم من أوَّلهم إلى آخرهم. وفيه أنَّ قوم هود عليه السلام أُستؤُصلوا ولا عقب لهم، وأنه إنما لتكذيبهم الآيات، وأنَّه كان له معجزاتٌ، ولم تذكر لنا لخصوصها.

وإنما قال: ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ مع كون عدم إيمانهم معلومًا من تكذيبهم الآيات للتَّعريض بمن آمن منهم كمَرْثَدٍ بن سعد، وأضرابه، أي: قطعنا دابر الذين كذبوا منهم، ولم يكونوا مثل من آمن منهم، ونجوا، فيؤذن أنَّ النجاة مرتَّبة على الإيمان كما أن الهلاك مسبَّب عن التَّكذيب، وأن الإيمان هو الفارق بين الباقي والهالك.[٣٩٠٨]

فإذا سمع المؤمن ذلك اشتدَّ رغبته فيه، ويعظّم قدره عنده، ونظيره في اعتبار شرفه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [المؤمن ٤٠/٧]، فإنَّ وصفهم به لإيذان شرفه، والترغيب فيه.وقد ذكر العلّامتان[٣٩٠٩] قصّةَ الإهلاك فلا نعيده.

وروي: أن أوَّل مَنْ رأى ما في السَّحاب امرأةٌ من عادٍ يقال لها: مَهْدَدُ، فلمَّا أحسَّت صَاحَت وصَعِقَت، فلما أفاقت قالوا لها: ماذا رأيتَ؟ قالت: رأيت ريحًا فيها كشُهب النَّار أمامها رجالٌ يقودونها، فسخَّرها الله عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حسومًا، فلم تدع من عادٍ أحدًا إلا هلك، واعتزل هودٌ ومَن معه من المؤمنين، وحضرة ما يصيبهم الرّيح إلا ما تلين عليه الجلود، وتلذ الأعين، وإنها لتمر على عاد بالظَّعن فتحملهم ما بين السَّماء والأرض، فتدمغهم بالحجارة، وخرج وفدُ عاد من مكَّة حتى مرّوا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه، فبينما هم عنده إذا أقبل رجل على ناقة في ليلة قمراء ليلة ثالثة من مصاب عاد، فأخبرهم الخبر، فقالوا له: فأين فارقت هودًا وأصحابه؟ فقال: فارقتهم بساحل البحر، وكأنَّهم شكّوا فيما حدّثهم، فقالت هزيلة بنت بكر: صدق وربّ مكة.[٣٩١٠]

[٣٩٠٥] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٨٧/٤.

[٣٩٠٦] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٨٧/٤.

[٣٩٠٧] سبق تخريجه.

[٣٩٠٨] الكشاف للزمخشري ١١٥/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٨٧/٤.

[٣٩٠٩] الزمخشري، البيضاوي.

[٣٩١٠] **تاريخ الطبري** للطبري ١٥٥/١؛ **معالم التنزيل** للبغوي ٢٤٥/٣.

وروي عن علي رضي الله عنه :أنّ قبرَ هودٍ عليه السلام كان بحَضْرَمَوْت في كثيب أحمر.

وقيل: بين الرُّكنِ والمقامِ وزمزم تسعةٌ وتسعين نبيًا. وإنَّ قبرَ هودٍ، وشعيبٍ وصالحٍ، وإسماعيل في تلك البقعة. ويروى أنَّ النَّبي من الأنبياء كان إذا هلك قومَه جاء هو والصَّالحون معه إلى مكَّة يعبدون الله تعالى فيها حتى يموتوا.[3911]

وعنه ع م: «إِذَا أَرَادَ اللهُ رَحْمَةَ أُمَّةٍ، قَبَضَ نَبِيَّهَا، فَجَعَلَهُ فَرَطًا لَهَا، وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةَ أُمَّةٍ ، عَذَّبَهَا وَنَبِيُّهَا حَيٌّ، فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ يَنْظُرُ، فَأَقَرَّ عَيْنَهُ بِهَلَكَتِهَا حِينَ كَذَّبُوهُ وَعَصَوْا أَمْرَهُ».[3912]

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)﴾

عطف على قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف ٦٥/٧].وهمقبيلة أخرى من العرب، سمّوا باسم أبيهم الأكبر، وهو ثمودُ بنُ عابر بنِ إرمِ بن سام بن نوح، وعدم انصرافه والعُجمة.

وقيل: سميت ثمود لقلّة مائها، من «الثّمد»، وهو الماء القليل. فعدم انصرافه للتَّعريف والتأنيث. وقرئ مَصْرُوفًا[3913] بتأويل الحيّ أو باعتبار أصل الاسم.

وكانت مساكنُهم الحجر بين الحجَاز والشَّام إلى وادي القرى.[3914] وقد خلّفوا عادًابعد هلاكها، فعمّروا بلادها، وكثروا، وعُمّروا أعمارًا طِوالًا، حتى إنَّ الرَّجل يبني المسكن المحكم فينهدم في حياته، فنَحَتُوا البيوت من الجبال، وكانوا في خصب وسعة فعتوا عتوًّا كبيرًا، وعبدوا الأصنام، وأفسدوا في الأرض ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النَّسب لا في الدين [**١٩٤**/و] ﴿صَالِحًا﴾ عطف بيان لـ﴿أَخَاهُمْ﴾ وهو صالح بن آسَف بن ماسح ابن عبيد بن خادر بن ثمودَ. كان من أوسطهم حسبًا، وأفضلَهم نسبًا، فبعثه الله إليهم، وهو غلام.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ قد مرّ الكلام في بيانه، فلم يزل يدعوهم إلى الله وإلى عبادته، حتى شَمِطَ وكبر، فلم يتَّبعه منهم إلا قليلٌ مستضعفون، فلمَّا ألَحّ عليهم صالح بالدّعاء والتبليغ، وأكثر لهم التّحذير والتَّخويف، سألوه أن يريهم آيةً يكون مصدِّقًا، فقال: أيَّةَ آيةٍ تريدون؟ قالوا: اخرج معنا عيدنا فتدعوا إلهك، وندعوا آلهَتنا، وإن استُجيب لك اتَّبعناك، وإن استُجيب لنا اتَّبعتَنا، فخرج معهم فدعوْا أصنامهم فلم تُجِبْهُمْ، ثم أشار سيِّدُهم جُنْدعُ بن عمرو إلى صخرةٍ منفردة، يقال لها: الكاثبة، وقال له: اخرج لنا من هذه الصَّخرة ناقةً مخترَجَةً جوفَاء وبْراء، فإن فعلتَ صدَّقناك، فأخذ صالح عليهم مواثيقهم: لئن فعلتُ ذلك لتؤمِنُنّ! قالوا: نعم، فصلَّى ودعا ربَّه فتمخَّضت الصخرة تمخُّض النّتوج بولدها، فانصدعت عن ناقةٍ عُشراء جوفاء وبراء، لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله، وهم ينظرون، ثم نتجت ولدًا مثلها في العظم، فآمن به جندعٌ ورهطٌ من قومه، ومنع الباقين من الإيمان ذؤاب بن عمرو والحباحب صاحبا صاحبا قربانهم وربابٌ بن جمع، وكان كاهنهم.[3915]

[3911] **معالم التنزيل** للبغوي ٢٤٥/٣-٢٤٦.

[3912] **صحيح مسلم**، الفضائل ٤٣٦٣. ٢٢٨٨؛ **صحيح ابن حبان** ٧٢١٥ .

[3913] أي: ثَمُودٍ ، وهي قراءة شاذّة، مروية عن ابن محيص والأعمش والحسن. **المختصر في شواذ القراءات**، لابن خالويه ص ٥٠؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٠.

[3914] **الكشاف** للزمخشري ١١٦/٢.

[3915] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٤١٦/١٢-٤١٨؛ **الكشاف** للزمخشري، ١١٦/٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٥٤/١-٥٥٥.

يقال: ناقةٌ مخترجة: إذا خرجت على خلقة الجمل[٣٩١٦] من أخرجه بمعنى: استخرجه.

«الجَوْفَاءُ»: واسع الجوف، «**الوَبْرَاءُ**»: الكثير الوبر، «العُشَرَاء» التي أتت من يوم أُرسل فيها الفحلُ عشرةُ أشهر،[٣٩١٧] والمراد بما بين جنبيها: الولد أو البعد بينهما وصفًا لها بالعظم يُنْتَجَّت ولدًا على لفظ المبنيِّ للمفعول من: نَتَج الرَّجل الناقةَ ينتِجها إذا ولي نتاجها، حتى وضعت فهو ناتج.

والأصل: نَتَجها ولدًا معدًّى إلى مفعولين، فإذا بني للأوّل، قيل: نتجت ولدًا، ثمّ إذا بني للثاني، قيل: نُتج الولد.[٣٩١٨]

والبيّنة في الأصل صفة حجّة، ثم بالاستعمال الغالب صارت اسمًا، أي: جاءتكم حجة ظاهرة الدَّلالة على صحة نبوّتي، وصدق قولي، ولَمَّا كان المراد ههنا المعجزة فسّرت بها ﴿**مِنْ رَبِّكُمْ**﴾ متعلِّق بـ﴿جَاءَ﴾ أو صفة بينة، أي: من بينات ربِّكم على تقدير مضافٍ؛ ليتصادف الصفة والموصوف.

وفيه دلالةٌ على أنَّ كلَّ نبيٍّ كان يذكر الدَّلائل، ولا يكتفي بالتَّقليد، ولا يمنع ذلك ما ذكر من القصَّة؛ لأنه يجوز إن كان عليه السلام أري لهم آية أو آيات قبل ذلك. فلمَّا اقترحوا عليه هذه الآية سأل ذلك من الله ليزيل عذرهم، هكذا قيل لكن فيه نظرٌ بالنَّظر إلى قوله:

﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)﴾

استئناف لبيان «البيّنة»، وإضافة النَّاقة إلى الله للتَّعظيم، ولمجيئها بمحض قدرته بلا واسطة وأسباب، من نحو اجتماع الفَحْلِ والطَّرُوقَةِ، وهي أُنثى الفحل التي بلغت أَنْ يَضرِبَها الفحل، يقال: طرق النحل الناقة، ولكونها آية نيّرة للنَّاظرين، وعبرة بيّنة للمعتبرين، ولأنَّها لم يملكها أحدُ ﴿آيَةً﴾ نصب على الحال من النَّاقة، والعامل فيها معنى التَّنبيه، أو الإشارة، أي أُنبّه عليها، أو أُشير إليها حال كونها علامة، أو من المستكنّ في ﴿**لَكُمْ**﴾ وهو العامل فيها فح يكون خبرًا بعد خبر، أو خبرًا، و ﴿**نَاقَةُ اللَّهِ**﴾ بدلًا، أو عطف بيان، وعلى الأوّل بيان لمن هي له آية، وقريب منه ما قيل حالٌ من ﴿آيَةً﴾ وكانت، فقدّمت، وصارت حالًا، ففيه البيان المذكور، وهم ثمود، واختصاص كونها آيةً لهم؛ لأنَّهم شاهدوها، وعاينوها، وأمَّا الغير فنفسها لا يكون آية موجبة لهم؛ لأنَّهم لم يشاهدوها، بل الموجبُ إخبار الصَّادق، أو التَّواتر، مثلًا مُوجب الإيمان بنبوّة صالح بالنِّسبة إلينا هو إخبار الله، وإخبار النَّبيِّ، لا خُروج النَّاقة مِنَ الحجر.[٣٩١٩]

وقال ابن الكمال: وجه الاختصاص بأنَّ دعوة صالح كانت مخصوصة لهم، فمعجزته كانت لأجلهم، وتوسّط الأخبار في إيجاب تلك المعجزة للإيمان لا يوجب اختصاص إعجازها بالحاضرين.

وأنت خبير بأنَّ عبارة بنفسها لا يكون آية يدفع هذا الوارد على أنه يمكن أن يقال: للمراد زيادة الاختصاص بهم وتبعية غيرهم لهم؛ فإن المعانية ليست كالخبر، وهذا هو الأَئح من كلام المصنف مع أنَّ ما أورده واردٌ على ما اختاره؛ فإنَّ اختصاص دعوة صالح بهم لا يوجب اختصاصَ إعجازها بهم، نعم يمكن أن يقال: إنَّهم لما سألوها اقتراحًا فأظهرها الله عليهم.

[٣٩١٦] **الصحاح** للجوهري، «عشر»؛ فتوح الغيب للطيبي، ٤٤٥/٦.

[٣٩١٧] **الصحاح** للجوهري، «عشر».

[٣٩١٨] **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح** للقاري، ٢٦٢/١.

[٣٩١٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٧ظ.

ثم إنها في الحقيقة مشتملة على آيات، فخروجها من الجبل آيةً، وكونها من ذَكَرٍ وأنثى آية، وكمال خلقها من غير تدريج آيةً، وإن لها شرب يومٍ، وبجميعثمود شرب يوم آيةً، وكذا الكلام في قوّتها المناسب للماء، وفي غزارة لبنها، وكذا كون ولدها مثلها حين خرجت من بطن أمّها.

﴿**فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ**﴾فإنها لله والأرض له، والنبات له وليست الأرض أرضكم، ولا ما فيها من النَّبات نباتكم، وليس عليكم رعيها وإسامتها. ففيه إزاحة العذر عن التَّعرض لها، ولا ينافي حمل الإضافة في ناقة الله ههنا على الاختصاص حملها على التَّعظيم كما سبق؛ لأنَّهما [**١٩٤**/ظ] لا يتدافعان، وأما الإضافة في: ﴿أَرْضِ اللَّهِ﴾ فللاختصاص فحسب.

والفاء: للتَّسبيب عمَّا قبله، والظَّرف: متعلِّق بـ﴿تَأْكُلْ﴾ وهو منجزم على أنَّه جواب الأمر، أو نذورها، فح من قبيل التَّنازع وإعمال الثاني، ولو أعمل الأوَّل لأضمر في الثَّاني، فقال: تَأْكُلْ فيها في أرض الله.

وقرئ برفع: «تَأْكُلُ»[٣٩٢٠] على أنه حالٌ، أي: آكلةً. ثمَّ نهي عن المسّ الذي هو مقدّمة الإصابة بالسُّوء الجامع لأنواع الأذى مبالغةً في الأمر وإزاحةً للعذر».[٣٩٢١]

وقال ابن الكلام: قد سبق أن في المسِّ أمرًا زائدًا على معنى الإصابة، وهو تأثير الحاسَّة به، وأنَّ سوء العذاب أفظعُه، فلا وجه للقول المذكور».[٣٩٢٢]

وأنت خبير: بأن اعتبار الأمر الزائد في المسّ على معنى الإصابة يجوز أن لا يكون متّفقًا عليه، وأن لا يكون على طريق اللُّزوم، وأن الأفضعيّة فيما ذكره إنما استفيد من إضافة السُّوء إلى العذاب بمعونة المقام، ومقتضى المرام على أنه لو حمل على ما ذكره لا وهم أنَّ الإصابة بما هو أذى في الجملة غير منهي عنه.

فالقول: ما قالت خدّام. والباء للتَّعدية، أي: لا توقعوه عليه، أو للمصاحبة، أي: حال مصاحبتكم به ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ أي: يصيب على جواب النهي ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لارتكابكم المنهيّ، وإهانتكم بالآية العظيمة، وظلمكم.

قال ع م: «لَا تَسْأَلُوا الْآيَاتِ، قَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ فَكَانَتْ النَّاقَةُ تَرِدُ مِنْ هَذَا الفَجّ، وتَصْدُر مِنْ هَذَا الْفَجّ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ».[٣٩٢٣]

﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤)**﴾

قد سبق الكلام المتعلّق بأوّل الآية نظمًا وتفسيرًا، ولم يقل: من عادٍ؛ لما بينهما قرون هم خلائف بالذات منه ﴿**وَبَوَّأَكُمْ**﴾ وأسكنكم، ونزّلكم، ومكّنكم، يقال: بوأتُه منزلًا، وبوأت له منزلًا، إذا هيّأته ومكنت له فيه.[٣٩٢٤]

[٣٩٢٠] أي: ثَمُودٍ ، وهي قراءة شاذّة، مروية عن عبيد بن عمير. **المختصر في شواذ القراءات**، لابن خالويه ص ٥٠؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٠.

[٣٩٢١] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٨٩/٤.

[٣٩٢٢] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٨٩/٤.

[٣٩٢٣] **مسند أحمد**، (٦٦/٢٢ (١٤١٦٠)؛ **المستدرك على الصحيحين** للحاكم، ٣٥١/٢ (٣٢٤٨).

[٣٩٢٤] **الفريد** للهمذاني، ٨٤/٣.

والمَبَاءَة: المنزل، وهو يتعدّى إلى اثنين، والثاني محذوف، أي: منازل ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ متعلّق بالفعل، واللّام: للعهد، أي: أرض الحجر ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ حالٌ ﴿مِنكُمْ﴾ أو استئناف بين التبوّة معدي إلى مفعولين، وهما: ﴿مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أو إلى واحد فـ﴿مِنْ سُهُولِهَا﴾، إمَّا متعلّق به أو بمحذوف على أنَّه حال متقدِّمة لها؛ إذ في الأصل صفة لها لو تأخر.

فمادَّتها من سهولها كالطِّين، واللَّبن، والآجُرّ، كقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا﴾ [الأعراف ١٤٨/٧]، أو بناؤها فيها على أن «مِنْ» بمعنى: «في». روى: أنهم كانوا يسكنون في القصور صيفًا، وفي الجبال شتاءً.[٣٩٢٥]

والسُّهول: كالسُّهولة ضدُّ الحُزُونة، أو جمع «سَهل» ضدُّ الجبل، وهو ما لان وسهل الانتفاع به من الأرض.[٣٩٢٦]

والقُصُور: جمع «قَصْر» وهو البيت المنيف؛ لقصور الناس عن الارتقاء إليه، أو لقصور عامَّتهم عن بناء مثله، أو لاقتصاره على بقعة، بخلاف بيوت الشّعر والعُمُد؛ لارتحال أهلها، أو لقصره مَن فيه، ومنه: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾[الرحمن ٧٢/٥٥]؛[٣٩٢٧] أو لكونه مقصورًا بسُورٍ.

واستدلَّ به على جواز البناء الرَّفيع، ويؤيده قوله عليه السلام:«إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ أَحَبَّ أَنْ يُرَى أَثَرُ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ».[٣٩٢٨] ومن آثارها حسن البناء، والثياب.[٣٩٢٩]

وكرهه الحسن[٣٩٣٠] وغيره؛ لقوله: ع م: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْد سوء أَهْلَكَ مَالَهُ فِي الطِّينِ وَاللَّبِنِ»،وقوله ع م: «مَنْ بَنَى فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِه».[٣٩٣١]

﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ بمعنى: تتَّخذون أو تصيّرون ومفعولاه ﴿ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾أو بمعناه: أي: من الجبال على إسقاط الخافض، كقوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ [الأعراف ١٥٥/٧]. وقد صرّح به في موضع آخر: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [الحجر ٨٢/١٥]، أو ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ مفعول و﴿بُيُوتًا﴾ حالٌ مقدَّرة، كقولك: خِطْ هذا الثوبَ قميصًا، وجوّز حاليتها؛ لأنها في معنى معمورة، أو مبنيّة.

قال ابن عباس رض: كانوا يبنون القصور بكلّ موضع، وينحتون من الجبال بيوتًا يسكنونها شتاءً، لتكون مساكنُهم فيه أحصنَ وأدفأَ، ويروى أنَّهم لطول أعمارهم يحتاجون ذلك؛ لأنَّ السُّقوف والأبنية كانت تَبلى قبل فَناء أعمارهم.

والنَّحت: النَّجْر والنَّشر في الشَّيء الصلب كالحجر والشَّجر.[٣٩٣٢]

وقرئ: «تَنْحَتُونَ»[٣٩٣٣] بفتح الحاء؛ لكونه حرفَ حلقٍ، وهما لغتان، الأشهر الكَسر. «وتَنْحَاتُونَ»[٣٩٣٤] بإشباع الفتحة، والإشباع بأنَّه النظم.كقوله:

[٣٩٢٥] **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ١٩٥/٩.

[٣٩٢٦] **لسان العرب** لابن منظور، «سهل»؛ **الصحاح** للجوهري،«سهل».

[٣٩٢٧] **اللباب** لابن عادل، ١٩٥/٩.

[٣٩٢٨] **شعب الإيمان** للبيهقي، ١٦٣/٥ (٦٢٠٢).

[٣٩٢٩] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٢٦٧/٩.

[٣٩٣٠] الحسن البصريّ

[٣٩٣١] **المعجم الكبير للطبراني**، ١٥١/١٠ (١٠٢٨٧).

[٣٩٣٢] **اللباب** لابن عادل؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٩٠/٤.

[٣٩٣٣] وهي قراءة شاذّة، مروية عن الحسن والأعرج. **المختصر في شواذ القراءات**، لابن خالويه ص ٥.

يَنْبَـاعُ مِـنْ ذِفْـرَى أَسِـيلٍ حُـرَّةٍ   زَيَّافَـةٍ مِثْـلِ الفَنيـقِ المكْـدَمِ[٣٩٣٥]

«يَنْبُعُ»: فأشبع الفتحة لإقامة الوزن، أي: يَسِيلُ. و«الذِّفْرى»: أصل الأذن الموضع الّذي يَعْرَق خلفَ الأذن، و«أسيل»: صفة ناقة. يقال: خدّ أَسِيل، ليّنٌ طويلٌ، والحرّ من كلّ شيءٍ خالصُه. «زَيَّافة»: مختالةٌ، مثلَ الفحل المعَضَّض.[٣٩٣٦]

وتكرير الأمر بالذكر؛ لأن الأوّل لساني، وهذا جِناني، أو للتّأكيد والتّعميم بقوله: ﴿آلَآءَ ٱللَّهِ﴾نعمة من الاستخلاف، وما عطف عليه وغيرها.

والأمر بشكر مقدّر؛ لأنه المقصود أو الذكر كناية عن الشُّكر، وفيه إيماءٌ إلى أنها من النِّعم العِظام التي لا مانع من شكرها إلا الغفلة عنها.[٣٩٣٧] يقال: عَثَا يَعْثُوا إذا أفسد.

وقرئ: «لا تِعْثَوْا»[٣٩٣٨] بكسر التاء على أنه من: عَثِيَ يَعْثَى تنبيهًا على عين الفعل.

﴿فِي الْأَرْضِ﴾ متعلّق به، [١٩٥/و] أو بقوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ وهو حال مؤكِّدة نهي عن مثله بالسَّرقة،[٣٩٣٩] وقطع الطَّريق والغارة، وإهلاك الزروع، وكانوا يفعلون ذلك مع أنواع الفساد. وقيل: نهى عن عقر النَّاقة.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦)﴾

وقرأ ابن عامر بالواو[٣٩٤٠] نسقًا لها؛ لما قبلها أو موافقة لمصَاحِف الشّام ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾ تكبَّروا كاستعجب بمعنى: عَجِبَ،[٣٩٤١] أو طلبوا الكبر من أنفسهم، أو فَوْق القدر حتى أدّى بهم إلى إنكار ما دعوا إليه من الحقّ أنفةً من اتّباع الدّاعي إليه.[٣٩٤٢]

اللام في ﴿لِلَّذِينَ﴾: للتّبليغ لا للعلّة، ﴿ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ عدّوا ضعفاء، وطلب الضعف منهم وبناء المفعول؛ لأنَّهم غير مقصورين على مَنْ استضعَفهم تلك الملأ، أو للإشارة إلى أنَّ كونهم مستضعفين ليس فعلًا صادرًا عنهم، بل عن غيرهم فليس ذمًّا في حقّهم، بل عائد إلى الّذين استحقروهم بخلاف وصف الكفّار بكونهم مستكبرين؛ فإنّه فعلهم استوجبوا به الذّم.

﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ أي: من قومه فيكون بدل الكلّ من الموصول بتكرير العامل، فيدلّ على أنَّ الاستضعاف مقصورٌ على المؤمنين، ففيه تنبيهٌ على أنَّ الفقر خيرٌ من الغنى؛ لأنَّ الاستكبار يتولّد من كثرة المال والجاه والانقياد من قلّتهما.

[٣٩٣٤] وهي قراءة شاذّة، مروية عن حسن. **المختصر في شواذ القراءات**، لابن خالويه ص ٥٠؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٠.الكشاف، ١١٧/٢؛ **الفريد** للهمذاني، ٨٤/٣-٨٥؛ **اللباب** لابن عادل ١٩٥/٩-١٩٦.

[٣٩٣٥] البيت لعنترة بن شدّاد. الكشاف، ١١٧/٢؛ **اللباب** لابن عادل ١٩٦/٩؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٥٠/٦.

[٣٩٣٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٥٠/٦؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٧ظ.

[٣٩٣٧] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٩٠/٤.

[٣٩٣٨] **إعراب القرآن** للنحاس، ٤٥٠/١؛ **الفريد** للهمذاني، ٨٥/٣.

[٣٩٣٩] ج: مثل السرقة.

[٣٩٤٠] **النشر** لابن الجزري، ٢٠٣/٢.

[٣٩٤١] **اللباب** لابن عادل، ١٩٧/٩.

[٣٩٤٢] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٩١/٤.

وقد جرى سنَّة الله أنَّه لا يختصّ بإفضاله، وجميل إقباله، في الغالب من عباده، إلا من لا يَسمُو إليه طرف الإجلال، ولا يُضرب له قَدْرٌ بين الأضراب والأمثال، فأنصارُ كلِّ نبيٍّ إنما هم ضعفاء وقته، كما أنَّ أعدائهم أكابر زمانه، ثمَّ إن مَن لاحظهم بعين الاحتقار، من أهل الغفلة والاستكبار، فليس كما يذهب إليه الأوهام، ولا كما يعتقد منهم الأنام، بل الجواهر مستورة في معادنها، وقيمة المحَالِّ بساكنها.[٣٩٤٣]

أو من «الذين استضعفوا» فيكون بدلَ البعض من الكلِّ، فيدلُّ على أن المستضعفين مؤمنون وكافرون.

وقال ابن الكمال: بدلُ البعض على الأوَّل أيضًا؛ لأن من المستضعفين مَنْ لم يؤمنْ، وإنما آثر اختلاف المرجع من حيث إنَّه على الثاني لا يكون الاستضعاف مقصورًا عليهم بحكم دلالة اللفظ، بخلاف الأوَّل.[٣٩٤٤]

وأنت خبير: بأن عدم إيمان البعض المستضعفين غير مقطوع، بل مأخوذ من مقتضى اللَّفظ فلا قطع للبعضيّة، ولا منع من الكلّية على أنَّ تسليم القصر، ومنع الكلّية غير موجه.

﴿**أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ**﴾مقول قول ﴿الْمَلأُ﴾، والخطاب ﴿لِمَنْ آمَنَ﴾، قالوه لهم استهزاءً وسخريةً، لا استكشافًا واسترشادًا، كما تقول لمنكري الرؤية: أتعلم أن الله لا يُرى؟

﴿**قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ**﴾ أجابوا على الأسلوب الحكيم؛ إيذانًا بأنَّ إرساله أظهرُ من أن يشكَّ فيه عاقل، أو يخفى على أحد فيحتاج إلى السؤال عنه؛ لغاية وضوحه وإنارة برهانه، وإنَّما الكلام في وجوب الإيمان به فنخبركم بأنَّا مؤمنون.[٣٩٤٥] ولأن الإقرار بالرسالة لا يستلزم الإيمان بخلاف العكس.

وقال ابن الكمال في حواشي تفسيره: وليس فيه عدول عن الجواب السوي؛ لأنَّه على تقدير أن يكون السؤال استخبارًا.[٣٩٤٦]

وأنت خبير بأنَّ كون السؤال على سبيل الاستهزاء بناء على ما في اعتقادهم، وأمَّا ظاهر الكلام ففي صورة الاستخبار، وجواب المؤمنين مبنيّ على ذلك فعدلوا عن الجواب السويّ كما ذكر؛ ولأن الإقرار بالرسالة لا يستلزم الإيمان بخلاف العكس، وأنت إذا تأمَّلت في كلام ذلك الفاضل في تفسيره وجدت أنَّ الجواب معدول به مع الاعتراف بكون سؤالهم على وجه الستهزاء.[٣٩٤٧]

أو على طريق السوي بناءً على أنَّ ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾ بمعنى: أتصدَّقونه بقلوبكم، أو على أن يقدّر الإقرار بالرِّسالة في الجواب، واللَّائح هو الأوّل، ولَمَّا عدل المؤمنون عن الجواب السويّ عدل المستكبرون أيضًا، حيث وضعوا ﴿آمَنْتُمْ بِهِۦ﴾ موضع أُرسل به؛ لأنهم لو قالوه لَدلَّ على أن إرساله معلوم مسلَّم عنده، كما دلَّ عليه قولُ المؤمنين؛ فكأنهم قالوا بما عدلوا إليه ليس إرساله معلومًا مُسلَّمًا، وليس هناك إلا دعواه وإيمانكم به، ونحن بما آمنتم به كافرون. وهذا مبني على أن مقتضى الظاهر سلوك

[٣٩٤٣] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٣٤٢/١؛ **التيسير في الفسير** للنسفي، ٤١٣/٦-٤١٤.

[٣٩٤٤] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٩١/٤.

[٣٩٤٥] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٩١/٤.

[٣٩٤٦] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٩٢/٤.

[٣٩٤٧] حيث قال كلام قالوه على وجه الاستهزاء، ولذا لم يقولوا: نعم، بل أجابوا بما نقل عنهم للأيذان المذكور، وكان الظاهر في الجواب: «إنا بما أرسل به كافرون» إلا أنهم لَمَّا عدلوا عن الظاهر بأن جعلوا الإرسال مسلّمًا معلومًا كان جواب الكفرة أيضًا معدولًا عن الظاهر. منه. جار الله ١٩٥و.

طريق المجازاة، وسوق الكلام على وفق اعتقاد الخصم، وإلا ففي قولهم: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ﴾ تسليم للرسالة، فكيف يكون أصل كلامهم؟

فإن قلت لِمَ لم يقولوا على وجه التَّهكُّم، كما قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء ٢٦/٢٧]؟ قلت: هؤلاء بالغوا في التَّحرز؛ حيث لم يتفوّهوافي إثبات الرسالة له وإن تهكّمًا.[٣٩٤٨]

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧)﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨)﴾

نَحرُوها على أن العَقْر القتل، أو كشف العرقوب، ثُمَّ أطلق عليه إطلاقًا؛ لاسم السَّبب على المسبَّب.

وقيل: العَقر الجَرح الذي يأتي [**١٩٥**/ظ] على أصل النَّفْس، وهو من عُقر الحوض أصله.[٣٩٤٩] ولعلَّ ذكره دون القتل إشعارٌ بأنَّ مجرّد العقر من العظائم، كما علّق العذاب العظيم بمجرّد المسّ بالسوء.

فكيف يقتلها والإسناد إلى الجميع للملابسة؟يقال للقبيلة: أنتم فعلتم كذا، وما فعله إلا واحد منهم، أو لأنَّهم أمروا صاحبهم، فتعاطى فعقر، أو لأنَّه برضاهم.

روي: أنَّ عاقرها قال: لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين، وكانوا يدخلون على المخدَّرات للإذن حتى صبيانهم.

قال ع م: «يا علي، أتدري من أشقى الأولين؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: «عاقر ناقة صالح». قال: أتدري من أشقى الآخرين؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: «قاتلك».[٣٩٥٠] والقصة مذكورة في التفاسير خصوصًا في **التيسير**.**[٣٩٥١]**

والعُتُوُّ، والعُتِيُّ: النُّبُوُّ، أي: الارتفاع عن الطَّاعة يقال: عَتَا يَعْتُوا عُتُوًّا وعِتِيًّا، أعلت الواوان ياءين، والأحسن فيه إذا كان مصدرًا تصحيح الواوين كقوله: ﴿وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً﴾ [الفرقان ٢٥/٢١] وإذا كان جمعًا الإعلالُ نحو: قوم عُتِيٌّ، لأنَّ الجمع أثقلُ،[٣٩٥٢] أي: تولّوا واستكبروا عاتين ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ على تضمين معنى «التّولي»، والأمر: إمّا واحد الأوامر بمعنى المأمور به، وهو قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾[هود ١١/٦٤]، وإمّا واحد الأمور وهو شأن ربهم، أي: دينه أو صدر عتوُّهم عن أمر ربهم. وسببه لأنه لَمّا أمرهم ابتلاؤهم ما امتثلوا، صاروا عاتين لذلك. ولولا الأمر ما ترتَّب العتوُّ.[٣٩٥٣] على تضمين معنى الإصدار، والأمر: على معناه المصدري.

﴿**مَا تَعِدُنَا**﴾من العذاب والإبهام؛ لقلة الاهتمام ذريعة إلى التحقير في أمثال هذا المقام، أو لأنه كان معلومًا.

والوعد: يذكر في الخير والشَّر ويعرف بالقرينة عند الإطلاق، واستعجالهم له مع أن من حقّه الحذر والاحتراز فضلًا عن الاستعجال مبنيٌّعلى تكذيبهم له في الوعيد في مقابلة المسِ بالسوء؛ فكأنَّهم قالوا: أين ما أوعدتنا بالعذاب عند وقوع المسّ،

[٣٩٤٨] **اللباب** لابن عادل، ٩/١٩٨.

[٣٩٤٩] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٩٢.

[٣٩٥٠] **فضائل الصحابة** لابن حنبل: ٢ / ٥٦٦ (٩٥٣).

[٣٩٥١] انظر: **التيسير في الفسير**، للنسفي، ٦/٤٠٣-٤١١.

[٣٩٥٢] **اللباب** لابن عادل، ٩/١٩٨.

[٣٩٥٣]**فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٤٥٥.

فنحن عَقَرْنَاها فأتِ به، والدَّليل عليه تعليق الاستعجال بقوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقد أنكروا أن يكون منهم في قولهم:﴿**إِنَّا بِٱلَّذِيٓ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ**﴾

و﴿الرَّجْفَةُ﴾: الزلزلة الشَّديدة، يقال: رَجَفَت الأرضُ ترجُف رَجْفًا رَجَفَانًا إذا تحرَّكت واضطربت.[٣٩٥٤] ولا يخالفه قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [المؤمنون ٤١/٢٣]؛ لأنَّهما كانتا معًا، فصحّ أخذ كلٍّ واحدة منهما، أو لأنها مجازٌ عن الصَّيحة التي تفضي إليها، وأما قوله: ﴿فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة ٥/٦٩] فمعناه: سبب طغيانهم. والفاء للتَّعقيب؛ لأن أسباب الهلاك وجدت عقيب قولهم، أو لتقدير موعدهم العذاب بعد ثلاثة أيَّامٍ، فانقضت، فأخذتهم فلا ينافي قوله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود ٦٥/١١].

﴿**فَأَصْبَحُوا**﴾تامَّة، أي: دخلوا في الصَّباح، أو ناقصةٌ بمعنى: صاروا ﴿فِي دَارِهِمْ﴾في بلدهم؛ فلذلك أفرد وسمّى بها لأنه يدار فيها.

ومنه قول العرب الذين حوالَيْ مكة: «نحن مِن عَرَبِ الدَّار» يعنون: من عرب البلد، أو في مساكنهم. وإنما وُحّد لإرادة الجنس، وصُرّح الجمع في موضع آخر؛ لأنَّها ذكرت مع الصيحة النازلة من السماء، فبلوغها أشدَّ من الزَّلزلة، وهي متعلِّقة بقوله ﴿**جَاثِمِينَ**﴾وهو حال أو خبر، أي: جامدين ميّتين، يقال: الناس جُثَّمٌ، أي: قعود لا حَرَاك بهم.

وأصله: البروك، يقال: جثم ويجثُم ويجثِم جُثُومًا، إذا برك على ركبتيه.[٣٩٥٥]

قال أبو عبيدة: هو للناس والطير كالبروك للإبل.[٣٩٥٦]

وقيل: باركين على ركبهم غير قادرين على الحركة؛ لقوله: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾، [الذاريات ٤٥/٥١] فإنَّه صريحٌ في عدم كونهم ميّتين، ثم صاروا ﴿كَهَشِيمِ المحْتَظِرِ﴾ [القمر٥٤/٣١]؛ولمانع أن يمنع تصريح تلك الآية بعدم موتهم، ويؤيّد ذلك تفريعهعلى وقوع العذاب الهائل في مقابلة الشنع الباطل.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)﴾

فاعرض عنهم بعدما رآهم جاثمين، فخاطبهم كما خاطب نبيِّنا أهل قَلِيب بَدر، وقال: «إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربُّكم حقًّا؟

وروي أنَّه قال لهم: بئس عشيرة النَّبي كنتم لنبيّكم، كذبتموني وصدّقني الناس، وأخرجتموني وآواني النَّاس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النَّبيّ كنتم لنبيكم.[٣٩٥٧] وهكذا صالحٌ قال لهم: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾وحَّد الرسالة بخلاف ما مرَّ؛ لأن المراد هناك أشياء كانا يأمران بها بعد الايمان بالله، وههنا مجموع ما أدي من الرسالة لوقوعها في الآخر، أو أراد حديث النَّاقة ﴿**وَنَصَحْتُ لَكُمْ**﴾لَم آل جهدًا في النصيحة، فلم تنتفعوا بذلك؛ لأنَّكم لا تتَّبعون الحقَّ، ولا تتّبعون ناصحًا، ولذلك قال: ﴿**وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ**﴾ وهو حكايةُ حال ماضية.

[٣٩٥٤] **الفريد** للهمذاني، ٨٧/٣؛ **اللباب** لابن عادل ١٩٩/٩.

[٣٩٥٥] **الفريد** للهمذاني، ٨٦/٣

[٣٩٥٦] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٧٣/١٤.

[٣٩٥٧] **السيرة النبوية** لابن هشام ٦٣٩/١.

وفيه أنَّ من أحبّ إنسانًا قبل منه، ومن ذلك فرض الله تع تعالى على الأمم محبَّة الأنبياء وتوقيرهم؛ ليكون ذريعةً إلى قبول قولهم، وامتثال [١٩٦/و] أمرهم؛ فإن الإنسان مجبول على الطاعة من يحبّه، وإصغاء كلامه، وقبول قوله، وعلى عدم إطاعة من لا يحبّه.

وفيه أن عدم قبول النصح ومحبة الناصح، إتباع الهوى وترك سبيل التقوى. وأن ذلك من صفات الكفرة المعاندين، والفجرة المهلكين، أو خاطبهم به تحسُّراً عليهم، وإزالة للغصَّة الواقعة بسبب الوقعة؛ وليكون اعتباراً للمستمعين؛ لينزجروا عن طريقة الهالكين.وقد كان من عادة العرب البكّاء على الديار وأهلها، وكان ع م منهم، أو أعرض عنهم حين أبصر العلامات قبل نزول العذاب إعراض ذاهب عنهم منكر لإصرارهم على التكذيب.

روي: أنه خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي، فالتفت فرأى الدّخانَ ساطعًا، فعَلِمَ أنَّهم قد هلكوا، وكانوا ألفًا وخمسمائَة دارٍ. وروي أنه ع م رَجَع بمن معه، فسكنوا ديارهم، وكانوا أربعة آلاف.[٣٩٥٨]

وقيل: خرج بهم صالح إلى حضرموت، فلمّا دخل مات فسمّي حضرموت، ثم بني هؤلاء أربعة آلاف من المؤمنين مدينة يقال لها: حَاضُورَاء، وقال كثيرٌ منهم توفِّي صالح بمكة، وهو ابن ثمان وخمسين سنة. وقام في قومه عشرين سنة.

عن ابن عبّاس: لَمَّا مَرَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بوادِي عُسْفَانَ قال: «لقد مَرَّ به هودٌ وصالحٌ، على بَكَراتٍ خُطُمُها اللِّيفُ، أُزُرُهم العباءُ، وأَرْدِيَتُهُمْ النِّمَارُ، يُلَبُّونَ يَحُجُّونَ البيتَ العَتِيقَ».[٣٩٥٩]

وقال مقاتل:[٣٩٦٠]كان مؤمنو قوم صالح سبعين رجلًا، ومؤمنو قوم هودٍ كذلك، فتفرّقوا بعد موت صالحٍ وهود، فوقع مؤمنوا قوم صالح بجابلقا ومؤمن قوم هودٍ بجابلسا فهم فيهما، إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب، وأهل هاتين المدينتين أكثرُ من أَنْ يحصى وأن يأجوج سبعة أضعاف أهل الدنيا، وأهل هاتين المدينتين أكثرُ من يأجوجَ ومأجوجَ وراءهما تارس ومنسك، وهما من ولد يافث، وهما سبعة أضعافِ جابلقا وجابلسا، وكلُّهم أهل النار إلا من كان من بقية قوم صالحٍ وهودٍ في هاتين المدينتين، وعلى كلّ جانبٍ من هاتين المدينتين ألفُ بابٍ، من بابٍ إلى بابٍ فرسخٌ، يَحرس كلَّ ليلة على كلِّ بابٍ سبعون ألفًا لا تصل النَّوبة إليهم، ولولا بقيّة مؤمني قوم هودٍ وقوم صالحٍ ما أنظرهم الله تعالى طرفة عينٍ.[٣٩٦١]

ومن كرام الأقوال قول بعض الكرام: النَّصيحة سهلٌ، والْمُشْكِلُ قبولُها؛ لأنَّها في مَذاق متَّبَعى الهوى مرٌّ؛ إذالمناهي محبوبةٌ في قلوبهم، على الخصوص مَنْ كان طالب العلم السميّ، مشتغلَ فضلِ النفس ومناقب الدنيا؛ فإنه يَحسَب أنَّ مجرّد العلم له وسيلةٌ، يكون نجاتُه فيه، وأنَّه مُسْتَغنٍ عَن العَمَلِ. سبحانالله!! لا يعلم هذا القدْرَ أنَّه إذا يعمل بعلمه تكون الحجَّة عليه آكدَ.[٣٩٦٢] قال ع م: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْ اللهُ بِعِلْمِهِ».[٣٩٦٣]

[٣٩٥٨]**التيسير في الفسير**، للنسفي، ٤١٨/٦.

[٣٩٥٩]**مسند أحمد، ٤٩٥/٣ (٢٠٦٧)**.

[٣٩٦٠]**مقاتل بن سليمان** (ت ١٥٠هـ / ٧٦٧م) بالبصرة هو أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي من أعلام المفسرين صاحب التفسير المسمى "تفسير مقاتل". أصله من بلخ في أفغانستان «حاليا» وانتقل إلى البصرة، ودخل بغداد فحدث بها، لكن كان متروكا أي: كان متروك الحديث . **الأعلام** للزركلي، ٢٨١/٧.

[٣٩٦١]**التاريخ** للطبري، ٤٧/١-٥٢؛ **العظمة لأبي شيخ**، ١١٦٣/٤-١١٦٨؛ **التيسير في الفسير**، للنسفي، ٤١٧/٦- ٤١٨.

[٣٩٦٢]**أيها الولد** للغزالي دار المنهاج، تحقيق: اللجنة العلميّة بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، لبنان-بيروت، ٢٠١٤/١٣٣٥، ص ٣٨-٣٩.

[٣٩٦٣]**المعجم الصغير**للطبراني، ٣٠٥/١ (٥٠٧)؛ **شعب الإيمان** للبيهقي، ٢٨٥/٢ (١٧٧٨).

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠)﴾

وأرسلنا لوطًا، فيعطف بعض مفردات الجملة على مثله، و﴿إِذْ﴾ ظرفٌ للإرسال على أن يكون زمانًا ممتدًا يقع الإرسالُ في بعض أجزائه، وذلك القول في البعض الآخر، أو: واذكر لُوطًا فيعطف القصة على القصة، و﴿إِذْ﴾ بدلٌ منه على الحقيقة عند من يجوّز التَّصرّف فيه وبتقدير الحادث عند من لا يجوّزه، أو يقدر: «واذكر رسالة لوط إذ قال».

ولما ذكر الأنبياء لتثبيت قلبه ع م تسليةً مما يقاسِي عن قومه، كان المعنى: اذكر تلك الحالة، وصوّرها في نفسك، لتعلم أنَّ الأنبياء السَّالفة درجوا على ما أنت عليه مع القوم.[٣٩٦٤] ولوطٌ أعجمي، وإنما صرف مع العُجمة والعلميَّة؛ لكونه على ثلاثة أحرفٍ ساكن الأوسط.

وزعم بعضهم اشتقاقه من لُطْتُ الحوض: إذا أملستَه بالطِّين، وهذا أَلْوَطُ بقلبه، أي: أَلصق به. وهو لوط ابن هاران بن تارخ بن أخي إبراهيم، وكانت سارةً امرأة إبراهيم أخته، كان من أرض بابل مع عمّه إبراهيم، فهاجرا إلى الشَّام فنزل ابراهيم فلسطين، ولوط الأردن، فأرسل إلى أهل سدوم،[٣٩٦٥] وهي خمسةُ مدائن يدعوهم إلى الله، ونهاهم عن فعلهم القبيح، ولم يذكر ههنا دعائه إلى التَّوحيد أوَّلًا، كما في سائره، فلعلَّه كان ذكر نهيه عن هذا القبيحة أهمّ بالنَّظر إلى حال قومه الذين عتوا فيه، أتفعلون الفعلة المتمادية في القبح؟ والهمزة للإنكار، والتَّوبيخ، والتَّقريع. واللَّام للجنس، كأنَّها الفاحشة على الحقيقة، وما عداها ليس من جنسها؛ لغاية التَّفاوت بينهما في ذلك المعنى، أو للعهد كأنَّها علم بين الفواحش لا يذهب الذّهن إلى غيرها، والشَّهوة وضعت لبقاء النَّسل، وفيه خلاف تلك الحكمة.

والذُّكورة: مظنّة الفعل، والأنوثة: مظنة الانفعال، وفيه تعكيسٌ، وهو يورث العداوة الشديدة، حتى أنَّ المفعول قد يقصد قتل الفاعل بخلاف الجماع؛ ولهذا قال تع: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً﴾،[الروم ٢١/٣٠] وفي الرَّحم قوةٌ جاذبةٌ للمنيّ، ففي [**١٩٦**/ظ] وقوع الذكران يبقى بقية في مجاريه،[٣٩٦٦] فيحصل منه أمراض في الأسافل، والحيوانات تستنكف منها، ولا يفعله إلا الحمار والخنزير، وواضعه إبليس على ما سيجيء.

﴿**مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ**﴾ ما عملها أحد قبلكم قطّ؛ ولعلَّ من يقدّمهم كانوا يستقذرونها وينفّرون عنها طبعًا كالحيوانات، أو المراد أنَّ الإقبال الكلّي لم يوجد قبلهم، والجملة مبتدأةٌ مؤكِّدةٌ لمعنى الإنكار على التَّتميم والمبالغة، أي: ما كفاكم ارتكابها حتى اخترعتموها، فما من أحدٍ يعمل عملهم إلَّا كتب عليهم مثل أوزارهم، أو مستأنفة جواب لِسؤال مقدّر، كأنَّهم قالوا لم لا تأتيها؟ فقال: ما سبقكم بها أحدٍ فلا يفعلوها، أو حالٌ من الفاعل، أي: أتأتونها مبتدئين بها، أو من المفعول، أي: غير مسبوقةٍ من غيركم، والباء للظَّرفيَّة، أي: فيها، أو للملابسة على الحاليَّة التي تقدَّمت، أي: ما سبقكم أحدٌ مصاحبًا لها، أو للتَّعدية، أي: ما سبق أحد عملكم الفاحشة بعمله الفاحشة، أي: ما جعل عمله الفاحشة سابقًا على عملكم الفاحشة، وحاصله: ما عملها قبلكم، وهذا لا يخلو عن التقديرات مع أنَّ المصنّف مثَّله بقوله: «سبقته بالكُرة».

واعترض عليه بأنَّ الباء المعدّية في الفعل المتعدي لواحدٍ بجعل المفعول الأوَّل يفعل ذلك الفعل بما دخلت عليه الباء فهي كالهمزة، نحو: «صَكَكْتُ الحجرَ بالحجرِ»، أي: أَصْكَكْتُه به، أي: جعلتُه يصكُّه، ولا يصحُّ أن يقدَّر: أسبقتُ زيدًا الكرّة

[٣٩٦٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٥٨/٦.

[٣٩٦٥] **اللباب** لابن عادل ٢٠٣/٩.

[٣٩٦٦] **تفسير غرائب القرآن اللباب** للنيسابوري، ٣٧٩/٣.

أي: جعلت زيدًا يسبق الكرة إلا بمجاز متكلّف، وهو أن تجعل ضربك للكرة أوَّل جعل ضربه قد سبقها أي: تقدَّمها في الزّمان.[٣٩٦٧]

و﴿مِنْ﴾ مزيدةٌ لتأكيد النَّفي، وليست كالتي في قولك: «مَا جَاءَنِي مِنْ رَجُلٍ»؛ لأنها ههنا أفادت معنى الاستغراق، فهي مزيدة لفظًا لا معنًى، وفي قولك: مَا جَاءَنِي مِنْ أَحدٍ أفادت معنى التأكيد ليس إلا.

و﴿مِنْ﴾ في ﴿مِن ٱلْعَالَمِينَ﴾ للتَّبعيض؛ لتكون بدلًا من محلِّ ﴿أَحَدٍ﴾ أو صفة له وأراد بـ﴿ٱلْعَالَمِينَ﴾ النَّاس، أي: أنتم تفرَّدتم بهذا الفعل من بين مَنْ عداكم.

وقد قيل: «مانزَا ذكرٌ على ذكر في الدُّنيا حتى كان قوم لوطٍ».[٣٩٦٨]

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١)﴾

بيان لقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ﴾ [الأعراف ٨٠/٧]، والهمزة مثلها في الإنكار والاستقباح كرِّرت لإنكار غب إنكار، وتقريع بعد تقريع بإجمال، وتفصيل، ودلالةٍ على فسق مؤكّد مبالغ فيه مع مقارنتها بـ«إنَّ» و«اللام» والقيود؛ فلذلك كان أبلغَ من الأوَّل.

وقرأ نافع وحفص: «إنكم»[٣٩٦٩] على الإخبار المستأنف؛ اكتفاءً بالتوبيخ المتقدم.

وفي ذكر الرِّجال دون الذكور زيادةُ تقبيح لصنيعهم الشنيع، بتصريحِ أنَّهم يفعلون بأمثالهم في الرُّجوليَّة، وذلك لايخ عن الإيماء إلى أنهم يفعلونه كُرهًا، وأنهم يعكسون الفاعليَّة إلى الانفعاليَّة؛ لأنَّ شأن الرجوليَّة الامتناع منه، والفعل دون الانفعال.[٣٩٧٠]

يقال: شَهِيَ يَشْهَي شَهوةً، وشَهَى يشهُو شَهْوَةً. وهي مطالبة بفعلٍ ما فيه اللَّذة والتقييد بها من بين الدواعي والأغراض، سيّما كان الفعل لا يوجد بدونها نفي لغيرها، وحصر الدَّاعية لهم عليها لوصفهم بالبهيميَّة، ومتابعة مجرد الشهوة، «وتوخِّي قلب الحكمة في وضعها: أن تكونَ ذريعةً إلى بقاء النَّوع، وتكثير النَّسل والتّعفف، والتخلِّي للعبادة؛ حيث جعلوها الغرض الأصلي»،[٣٩٧١] واتبعوها بحيث لا تدعهم يتبعون داعية العقل، وفيه إشارةٌ إلى أن العاقل ينبغي أن يكون الدّاعي له إلى الإتيان طلب الولد، وإثبات ما في اللَّوح لإقضاء الوطر؛ فإنَّ ذلك لا يخلو من الخطر، بل مشحون بالضَّرر، وبتقرير آخر نصب على العلّة، أي: للاشتهاء من غير أن يكون لهم حامل عليه إلا مجرّد الشَّهوة، أو على الحاليّة بمعنى: مشتبهين، وعلى الوجهين فيه عدول عن الظَّاهر؛ إذ من المعلوم أنَّ الإتيان من دون الشَّهوة لا يمكن فإذًا علّل بما كان المعنى نفي باعث غيرها، وإذا قيّد بما كان المعنى تابعين لها، كأنَّها يتصرّف فيهم، ولا يدعهم يتّبعون داعي العفل، والأول: وصف بالبهيميَّة؛ لأنَّ الإتيان لمجرّد الشهوة من خواصّها، والثاني: وصف بغلبة داعي الهوى على داعي العقل، والأوّل أدخلُ في الذَّمّ، ويجوز أن يكون مصدرًا، أي: يشتهون.

[٣٩٦٧] **اللباب** لابن عادل ٢٠٤/٩.

[٣٩٦٨] **الكشف والبيان** للثعلبي ٤٣٥/١٢.

[٣٩٦٩] **التيسير** للداني، ص ٣٥٨.

[٣٩٧٠] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٩٥/٤.

[٣٩٧١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٦٠/٦.

﴿شَهْوَةًمِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾في محل النصب صفة للرِّجال، أو حالٌ منها، أو صفةٌ للشهوة، وفيه تذكيرٌ لتجاوزهم المعتاد المطبوع المشروع، وتقريعٌ على كون أدبار الرِّجال القذرة أشهى عندهم من فروج النِّساء الطاهرة عما يستقذر، وإظهارٌ لعدم الضَّرورة الدَّاعية إلى ذلك الفعل القبيح، وقطعٌ للمعذرة بالكليّة.

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ إضراب بطريق الانتقال إلى الأهم من غير قصد إلى إبطال المقدّم، وانتقال عن الإنكار لتجاوزهم عن الحدَّ إلى الإخبار عمَّا أداهم إلى ارتكاب القبائح، واتباع الشهوات من اعتياد الإسراف وتجاوز الحدِّ في كلّ شيء؛ ولذلك أسرفوا في باب قضاء الشهوة بالتجاوز عن المعتاد إلى نهاية الشنع، والفساد أو عن الإنكار عليها، أي: الذمُّ على أمثالها. فليس المنكر منهم هذه القبيحة، بل شأنهم الإسراف والتجاوز في كلّ شيء، أو عن محذوف مثل ما عدلتم، أو لا عذر لكم فيه، بل أنتم قومٌ عادتكُم الإسراف، وذكر الاسم ههنا للدلالة على الثُّبوت، وفي الموافقة. وفي النمل ﴿تَجْهَلُونَ﴾ [النمل ٥٥/٢٧]؛ لتجدّد جهلهم كلَّ وقتٍ ولمَّا ذُكروا [١٩٧/و] لغاية قباحة فعلهم، ووقاحة عملهم. وُصفوا تارةً بالإسراف المؤدّي إلى الإتلاف، وتارة بالجهل المؤدّي إلى حرمان الفضل، وتارةً بالعدوان المؤدّي إلى الخسران.

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عايه وسلم: «إذا ظُلِمَ أهلُ الذمةِ كانت الدَّولةُ دولةَ العدوِّ، وإذا كَثُرَ الزّنا كَثُرَ السَّبا، وإذا كَثُرَ اللوطيَّةُ رفع اللهُ يدَه عن الخلقِ فلا يُبالي في أيِّ وادٍ هلكُوا».[٣٩٧٢] رواه الطَّبراني.

وعنِ ابْنِ عبَّاس رضي الله عنهما عنِ النبيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال: «لعَنَ الله مَنْ ذبَح لِغَيْرِ الله، ولعَن الله مِنْ غيَّرَ تُخومَ الأرضِ، ولعنَ الله مَنْ كَمَّهَ أعْمى عنِ السبيلِ، ولعنَ الله مَنْ سَبَّ والديْه، ولعنَ الله مَنْ تولَّى غيرَ مَواليه، ولعنَ الله مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قومِ لوطٍ». رواه ابن حبان.[٣٩٧٣]

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣)﴾

قد سبق الوجه في القراءة بنصب جواب وبرفعها، والواو للتَّعقيب؛ لأنه أحد محاملها فتعين ههنا له بقرينة ما ذكر بالفاء في غير هذا الموضع، لا أنها اقتضت ذلك بوضعها، وذلك لأنَّ المراد لم يتأخَّر جوابهم عن نصيحته بقولهم: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾وليس هذا جوابًا عمَّا كلمّهم به لوط من إنكار الفاحشة، وتعظيم أمرها، ووسمهم بسِمَةِ الإسراف الذي هو أصل الشَّرِّ كلّه، ولكنّهم قابلوا نصيحته ووعظه بالأمر بإخراجه، بمَنْ معه مِنَ المؤمنين من قريتهم ضجرًا بهم، وبما يسمعونهم من وعظهم لغاية خبثهم ودعارتهم.

وفيه أنَّهم كانوا ملزَمين لا جواب لهم، حتَّى لم يقدروا على أن يتكلموا في معرض الجواب سوى هذا، وهذا قريبٌ من أسلوب ولا عيب فيهم غير أنَّ ضيوفهم تلام بنسيان الأحبة والوطن، وعلى هذا قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾[العنكبوت٢٩/٢٩]، وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾[الشعراء ٢٦/ ١٦٧].

فلا منافاة بينها بالنَّظر إلى ما أريد منها، وأنَّهم قابلوا إرادة الخير بإرادة الشَّرِّ وتضجَّروا من الكلام الحقّ، واستنكفوا من مصاحبة أهل الحقِّ، وفي كلِّ ذلك من الاعتبار لأولى الأبصار. وقوله: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ [النمل،٢٧ /٥٦] تفسير لهذه الكناية، وإن نزلت أوَّلًا، فصرّح وكُنِيَ.

[٣٩٧٢] **المعجم الكبير** للطبراني، ١٨٤/٢ (١٧٥٢).

[٣٩٧٣] **صحيح ابن حبان**، ٥٢٧/٣ (٢٨٨٥).

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ استئناف للتعليل، كأنَّه قيل لهم: لِمَ تخرجوهم منها؟ فقالوا: لأنهم يتنزَّهون عن القاذورات كلّها، فينكرون هذا العمل، ويعيظنا إنكارهم.

وقيل: ومع ذلك سخريّة بهم وبتطهُّرِهم من الفواحش، وافتخار بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الشُّطار من الفَسَقة لبعض الصُّلحاء إذا وعظهم: أبعِدوا عنَّا هذا المتقشِّف، وأريحونا من هذا المتزهِّد.[٣٩٧٤]

وفيه أنَّهم عابوا ما أحبَّه الله لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة، ٢٢٢/٢]وافتخروا بما أبغضه الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾[الأعراف، ٢٨/٧] والله لا يحب المسرفين.

فالفاء: فصيحةٌ، والمحذوف ههنا مذكور في موضعٍ آخر، والمراد من الإنجاء إخراجه من بينهم قبل نزول العذاب ﴿وَأَهْلَهُ﴾ من آمن به، أو أهله المختصّين به اختصاص القرابة يؤيد الثاني قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات، ٣٥/٥١-٣٦].

وقوله: ﴿إِلاَّ ٱمْرَأَتَهُ﴾ استثناء متّصل؛ لأنَّها من الأهل، أو منقطعٌ لكونها كافرةً. وقيل: فعصمناه وأهله من ذلك إلا امرأته، فإنها كانت مغضوبةً لكونها راضيةً به ومُعينةً عليه، والرَّاضي بالمعصية في حكم العاصي.

يقال: امرأة الرجل، ولا يقال: رجل المرأة؛ لأنَّ الزَّوج بمنزلة المالك لها دون العكس، وفيه عظةٌ عظيمةٌ لمن يطيع امرأته ويؤنّث رجوليّته ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ﴾ جوابُ سؤال مقدَّرٍ، أو نصبٌ على الحال منها، أي: كائنةً منهم، أي: من الباقين في ديارهم، فهلكوا وهذا على أنَّه خلفها مع قومها ولم يسر بها، أو من الباقين المعمّرين قد أتى عليها دهرٌ طويلٌ، فهلكت مع من هلك أو من المقيمين في الهلاك فتصحّ على الأوَّل، وعلى أنه أخرجها معهم وأمروا أن لا يلتفت منهم أحدٌ إلا هي، فالتفتت فأصابها حجر.

والغبور: يجيء للبقاء وللمضي وللإقامة، إمَّا على الاشتراك أو الحقيقة والمجاز، ولم يقل: في الغابرات لتقليب الذُّكور المهلكين. وفي النمل: ﴿قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[النمل ٢٧ /٥٧]، أي: كانت في علم الله من الغابرين فقدرناها منهم، وإن تأخرت نزولًا، فالمعنى: قدرناها من الغابرين فصارت منهم.

وفيه أنَّ أهل المرءِ على الحقيقة من كان على دينه، ولا اعتبار بالأهليَّة الظَّاهرة إذا لم يكن الأهل الباطنيّة، وفيه عبرة للذين يكونون أهلًا للصلحاء، ولا يتَّبعون سيرتهم، ولا يسلكون طريقتهم.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)﴾.

أرسلنا عليهم نوعًا من المطر، وقد بيّن في قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [الحجر ٧٤/١٥]، فيكون مفعولًا به لا مصدرًا.

قال المصنِّف: «يقال: مَطرَتْهم السماءُ، ووادٍ مَمْطور. وفي «نوابغ الكلم»: حرىً غيرُ مَمطور. حَرِيٌّ أن يكون غيرَ ممطور. ومعنى مطرتهم: أصابَتْهم بالمطر. ويقال: أَمْطَرت عليهم كذا، بمعنى: أرسَلَتهُ عليهم إرسالَ المطر. ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً﴾ [الأنفال ٨/ ٣٢]، ﴿وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً﴾» [الحجر ٧٤/١٥].[٣٩٧٥]

[٣٩٧٤] **الكشاف** للزمخشري، ١٢٢/٢.

[٣٩٧٥] **الكشاف** للزمخشري، ١٢٢/٢.

قوله: «حرىً غيرُ مَمطور»:[٣٩٧٦] أي: ساحة لايزورها الناسُ، ولا يطورون بها. «حَرِيٌّ»: أي: جديرٌ بأن لا تصيبه المطر.[٣٩٧٧]

وقال صاحب **الانتصاف**: «قصده الرَّد على من قال: «مطَر» في الخير، و«أمطر» في الشَّر. وبين أن «أمطر» بمعنى أرسل إرسال المطر، [**١٩٧**/ظ]

خيرًا كان أو شرًا، لكن اتَّفق أنَّ السَّماء لم ترسل شيئًا يشبه المطر، إلا كان عذابًا، فمن هاهنا أوهم الوهم لذلك القائل».[٣٩٧٨]

وقال الطيبي: يعني قوله: «أمطرت عليهم كذا» مطلق، يحتمل الخير والشَّرَّ، وليس كذلك، لأنَّ المصنِّف جعل هذا المثال مقدّمة للأمثلة بعده، وهي في الشَّرِّ.[٣٩٧٩]

وقالالنحرير: العرف أنَّ في الإمطار معنى الإرسال؛ فلذا عدِّي «إلي» مَنْ أصَابه بـ«عَلَى» وإلى ما أصيب وأرسل بنفسه كما في الآية ونحوها، وفي مَطَر معنى الإصابة، فيُعَدَّى إلى مَنْ أَصَابه بنفسه نحو: مطرتهم السَّماء، أي: أصابتهم بالمطر، وذكر في الأنفال أنَّهكثيرُ الإمطار في معنى العذاب، ومن ههنا قيل: إنَّ أَمْطَر لا يستعمل إلا في الشَّرِّ، ومَطَرَ في الخير.[٣٩٨٠]

ويقال: كأنه ضمن معنى الإرسال بعد الغَلبة، وجيء بـ«على» في التَّعدية، وباعتبار الغلبة لا يرد النقض على الاستعمال المذكور بقوله تعالى حكاية عن عادٍ: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف ٢٤/٤٦] بأنهم إنما عَنَوا بذلك الرحمة، ولا يحتاج إلى التَّخلص عنه بأنهما بمعنى واحدٍ يتعدَّيان لواحد، وههنا ضَمِنَ معنى الإرسال؛ ولذلك عدّي بـ«على»، ولعلَّ ذلك ذكر طَرَف مما وقع بهم لقوله تع: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود ٨٢/١١]؛ فلذلك قيل: أمطر عليهم، ثم خسف بهم.

روي عن مجاهد: نزل جبريل ع م فأدخل جناحيه تحت مدائن قوم لوطٍ، فاقتلعها ورفعها إلى السَّماء، ثُمَّ قلَّبها فجعل أعلاها أسفلها ثم اتبعوا بالحجارة.[٣٩٨١]

أو خسف بالمقيمين منهم، وأمطرت الحجارة على مسافريهم[٣٩٨٢]

﴿فَانْظُرْ﴾ من نظر العين، أو مستعار منه للعلم المحقق الذي هو العلم بالشيء موجودًا تشبيهًا له بنظر النَّاظر، والخطاب وإن كان للنَّبي والمراد أمته؛ ليعتبروا بما جرى، فينزجروا عن أمثال تلك القبائح المؤدِّية إلى مثل ذلك القهر العظيم آجلًا، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه ١٢٧/٢٠] فلا يَأْمَن من أحدٍ بالأمن من عذاب الاستئصال بحرمة سيد الأنبياء، فإن سوى عذاب الاستئصال أهوالًا وشَدائدَ.

[٣٩٧٦] **الكشاف** للزمخشري، ١٢٢/٢.

[٣٩٧٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٨ظ.

[٣٩٧٨] **الإنتصاف بحاشية الكشاف** لابن المنيّر، ١٦٦و؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٦٣/٦.

[٣٩٧٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٦٣/٦.

[٣٩٨٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، يوسف آغا ٧٢: ٣٥٨و.

[٣٩٨١] الحاوي في تفسير القرآن الكريم تفسير تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل/ الخازن.

[٣٩٨٢] **تفسير أبي السّعود** لأبي السعود، ٢٤٦/٣.

﴿كَيْفَ﴾ في محلِّ النَّصب بقوله: ﴿كَانَ﴾ لا بما قبله؛ لما فيه من معنى الاستفهام ﴿عَاقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ولم يلحق علامة التأنيث بفعلها؛ لأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقيٍ، ولأنَّها بمعنى الآخِر، وهي حالة تعقب البداية، ومنه العقاب؛ لأنَّه يعقب الذّنب، والعُقاب يعقب الصّيد، والعقب؛ لأنه يشدّ به شيء بعقب شيء، والعقب معلوم.

وفي التَّعبير عن الكفر بالإجرام تحذيرٌ عن الآثام، وعظةٌ للأنام، وتنفيرٌ عن الإجرام كما في قوله:﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح ٧١/٢٥] ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس ٩١/١٤] وبهذا يضعف الاستدلال على حدِّ اللُّوطي بأن ذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدلُّ على علِّية الوصف للحكم. وأنه لَمَّا ثبت في شرع لوط، والأصل بقاؤه إلى طريان الناسخ؛ لأنَّ معناه على أن يراد بالإجرام تلك الفعلة الشَّنيعة.

فقال الشافعي: «يحدّ برجم مُحْصَنًا أو غير محصن، وكذا المفعول به إن كان مُحتلمًا». وعنه: «إنْ كان محصنًا رجم، وإلّا محصن أدب وحبس».

وقد قال عليه السلام: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَل عَمَلَ قَوْمِ لوطٍ فاقْتُلُوا الفاعلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ».[٣٩٨٣]

وروي عن أبي بكر رضي الله عنه: الإحراق بالنَّار. وعن ابن الزُّبير: أنّه رجم المحصن، وحدّ غيره.

وعند أبي حنيفة: التَّعزير، وعندهما: الحدّ. وهذا الاختلاف في عمل ذلك بالأجنبي، ولو عمله بعبده أو أمته أو بمنكوحته لا يحدّ اتفاقًا، بل يُعزَّر.[٣٩٨٤]

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥)﴾

وأرسلنا إليهم وهم أولادُ مدين بن إبراهيم الخليل، فمنع صرفه للعجمة والعلميَّة.

وقيل: عربي اسم بلدة، فمنعه للعلميَّة والتَّأنيث، وعلى هذا عدم إعلاله على الشذوذ، كما شذوا في «مريَم»، وعند المبرّد ليس بشاذٍّ؛ لعدم جريانه على الفعل كـ«مَتَاعٍ» و«مَقَامٍ».[٣٩٨٥]

وكانوا أهل كفر، ونجس وظلم وفساد ﴿أَخَاهُمْ﴾ أخا مدين، أو أهل مدين؛ لأنَّه شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين، فالإخوة في النسب لا في الدِّين، ووصفه بالإخوة ههنا ولم يصفْهُ لها في الشُّعراء، حيث قال: إذا قال لهم شعيب مع قوله في سائر الأنبياء، إذا قال لهم أخوهم بناءً على أنه ع م: بعث مرَّتين.

وقيل: ثلثًا إلى قومين، أو ثلاثة. فمدين قومه وأصحاب الأيكة ليس بقومه، فوصفه به فيه دونه، ومدين أهلكوا بصيحة جبريلع م، وأصحاب الأيكة بنار أمطرت عليهم من السَّماء.

﴿شُعَيْبًا﴾ قيل: تَصْغِيرُ شَعْبٍ أَوْ شِعْبٍ، والأدب أن لا يقال ذلك، بل وضع على هذه الزِّنة؛ فإن أسماء الأنبياء لا يدخل فيها تصغيرٌ إلا ما نطق به القرآن الكريم على من نحوه على صيغة شبهيّة، وهو عربي.[٣٩٨٦]

[٣٩٨٣] **مسندأحمدبنحنبل، ٤/٤٦٤**(٢٧٣١) ؛ **سنن ابن ماجه،** ٣/٥٩٤ (٢٥٦١)؛ **سن أبي دود،** ٦/٥١٠ (٤٤٦٢)؛ **سنن الترميذي،** ٤/٥٧ (١٤٥٦).

[٣٩٨٤] **الهداية شرح بداية المبتدي** للمرغناني، ١/٣٩١؛ **الاختيار لتعليل المختار** للموصلي، ٤/٩١؛ **اللباب** لابن عادل، ٩/٢٠٩.

[٣٩٨٥] **اللباب** لابن عادل، ٩/٢١٠.

[٣٩٨٦] **اللباب** لابن عادل، ٩/٢١٠.

وروي عن النبي عليه السلام: أنَّه كان إذا ذكر شعيبًا قال: ذَاكَ خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ؛ وذلك لحُسن لِمُرَاجَعَتِهِ قَوْمَهُ.[٣٩٨٧] فإنه ع م أمر أو لا بما أمر به جميع الأنبياء، وهو الأهم الأقدم، ثم ادَّعى عن صحَّة نبوَّته ثانيًا ثم أقبل بالنُّصح على القبيح الذي كان قومه عليه من التَّطفيف، كما هو شأن سائر الأنبياء، ثالثًا ثُمَّ عمَّمَ ليشمل الجميع، كالغصب، والسّرقة، والرّشوة، وقطع الطريق، وانتزاع الأموال بطريق الاحتيال، رابعًا، ثم ينهى عن الإفساد العامِّ لشمول الأعراض والنفوس، وكل ما يوجب مفسدة دينه، خامسًا ثم رَغب على هذه الخمسة الَّتي حاصلها التَّعظيم لأمر الله، والشفقة على عباده، وقد علم أنَّه [**١٩٨**/و]

كانت له ع م معجزة لقوله: ﴿**قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ «ولأنه لا بدَّ لمدّعي النبوة من معجزةٍ تشهد له وتُصَدّقه، وإلا لم يصحَّ دعواه متنبئًا لا نبيًّا، غير أنَّ معجزاته لم تُذكر في القرآن، كما لم تذكر أكثر معجزاتِ نبيّنا فيه».[٣٩٨٨]

قال المصنّف: «ومن معجزات شعيبٍ: ما روي من مُحاربة عصا موسى التِّنِّين حينَ دفع إليه غنمَه، وولادةِ الغنم الدُّرْعَ خاصّةً حين وعدَه أن تكون له الدُّرْعُ من أولادها، ووقوعِ عصا آدمَ على يده في المرّات السبع».[٣٩٨٩]

وقال الإمام: كلامه مبنيٌّ على أصل مختلف فيه؛ لأنَّ عندنا أن ذلك إرهاص، وهو أن يظهِر الله على يد من سيصير نبيًّا خوارق العادات، وعند المعتزلة غير جائز.[٣٩٩٠]

وفيه نظر، لأنه قال في سورة «آل عمران» في قوله تعالى: ﴿وإِذْ قَالَتِ الملائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾ [آل عمران ٣/٤٢]. «إنهم كلَّموها شفاهًا معجزةً لزكريّا، أو إرهاصًا لنبوَّة عيسى ع م».[٣٩٩١]

ولقائلٍ أن يقول: لا يمكن أن يحمل تلك الخوارق على كونها معجزةً لشُعيبٍ؛ لأنَّها كانت بعد تقرّر نبوّته، حتى روي: أن موسى عليه السلام أدركه بعد هلاك قومه، ولم يكن ظهورُها على وجه التحدّي، وشرط المعجزة أن يكون كذلك، فلو فرض أنها من شعيب يكون كرامة له ع م، ولو فرض أنها من موسى يكون إرهاصًا لنبوَّته ع م، أو كرامة له ع م.

وقال **النسفي**:[٣٩٩٢] يجوز أن يكون المراد من «البيّنة»: شرائع ظاهر كونها صلاحًا و فلاحًا؛ من التَّوحيد والإخلاص وإيفاءِ حقوق النَّاس.[٣٩٩٣] وقيل: هي البيان. وقيل: الرسالة إليهم. وقيل: المواعظ الحسنة، والنصائح المستقيمة على ما ينبئ عنه الآيات الكريمة.

﴿**فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥)**﴾

التَّرتيب بالفاء للتسبب عمَّا قبله، فكأنَّه قيل: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ تدلّ على نبوّته، أوجبت عليكم الإيمان به، والأخذ بما أمركم به.

[٣٩٨٧] **المستدرك على الصحيحين** للحاكم؛ ٦٢٠/٢ (٤٠٧١).

[٣٩٨٨] **الكشاف** للزمخشري، ٢٣٨/٢.

[٣٩٨٩] **الكشاف** للزمخشري، ٢٣٨/٢.

[٣٩٩٠] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٨٠/١٤-١٨١؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٦٥/٦.

[٣٩٩١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٦٥/٦.

[٣٩٩٢] أبي حفص النسفي نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي الحنفي(٥٣٧/٤٦١ هجرياً)

[٣٩٩٣] **التيسير في التفسير** للنسفي، ٦/ ٤٢٦.

ولَمَّا ورد أنَّه لِمَ لَمْ يطابق الكلام كما في سورة هود: ﴿الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾[هود /٨٤-٨٥]؟ دفع بأنَّ التقدير: أوفوا آلة الكيل، أو الكيل: بمعنى المكيال، كـ«العيش» بمعنى «المعاش»، أو الكيل ووزن الميزان، أو الوزن، فإنه يجيء مصدرًا كـ«الميعاد» بمعنى الوعد.

وقال ابن الكمال: التَّأويل ليس لقوله: ﴿وَالْمِيزَانَ﴾؛ لمجيئته بمعنى الوزن، بل لما في سورة هود.[٣٩٩٤]

وأنت خبير: بأنَّ التَّأويل مبنيٌّ على ما هو الظَّاهر، وكونه مصدرًا على خلافه، فلذلك عدّ بعيدًا نعم، سؤال عدم المطابقة، والتأويلات لا يدفعه وفي سورة الأنعام ما يتعلّق بهذا المقام.

والإيفاء: إتمام الشيء إلى حدّ الكمال فيه، ومنه إيفاءُ العهد، وهو إتمامه بالعمل به.

والكيل: تقدير الشَّيء بالمكيال، حتى يظهرَ مقداره منه.

والوزن: تقديره بالميزان. والمراد بإيفائهما: إيفاء ما يُكال ويُوزن، فنُسب إلى الفعل مجازًا، أو إلى الآلة للملابسة، وفيه مبالغة لا يخفى.[٣٩٩٥]

وعنه ع م: أنه قال لأصحاب الكيل والوزن: «أنتم قد ولّيتم أمرًا فيه هلكت الأمَمُ السَّالفة قبلكم».[٣٩٩٦]

يقال: بَخَسه حَقَّه: إذا نَقَصه. ومنه قيل للمكس: البَخسُ، يتعدَّى إلى مفعولين، وهما ﴿**ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**﴾ في المبايعات في وزن الثمن، وكيل المبيع أكّد الأمرَ بالإيفاء بالنَّهي عن ضدِّه، وتقدير المبايعات بتلك القرينة، فالكلام محمول على التَّأكيد، أو في جميع الأشياء؛ فإنهم لَمَّا نهوا عن البخس في الكيل والوزن نهوا عنه في كلِّ شيءٍ، فالكلام محمولٌ على التَّأسيس، ويدخل فيه أخذ الرِشى والمؤن الديوانية والمراسم السلطانية،[٣٩٩٧] وفيه أنهم كانوا يبخسون القليل والكثير، والحقير والجليل.

وقيل: كانوا مكَّاسين لا يدَعُون شيئًا إلا مكسوه.[٣٩٩٨]

﴿**بَعْدَ إِصْلاَحِهَا**﴾ أي: بعد ما أصلح أمرها، أو أهلها الأنبياء.[٣٩٩٩] قدر المضاف، أو جعل الإضافة بمعنى «في»؛ لأن إصلاحَ نفسها وإفسادها لايتعلّق بها قدرة الإنسان وإختياره، فلا تتعلّق مصلحة شرعيّة بالنَّهي والأمر به، بل يتعلّق بإصلاح ما يقع فيها من الأمور، وإفسادها، وإصلاح أهلها، أو إفسادها بكون حدود الشرع محفوظة، أو مضيعة، فلذلك فسّر الإفساد بالكفر والحيف، والإصلاح بإقامة حدود الشرع.[٤٠٠٠] فعلى الأوَّل الضمير مفعول به بتقدير مضاف، وعلى الثاني مفعول فيه من جهة المعنى.

[٣٩٩٤] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٩٩.

[٣٩٩٥] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٩٩-١٠٠.

[٣٩٩٦] **تفسير ابن كثير**، ٣/٣٦٤.

[٣٩٩٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/٢٥٨.

[٣٩٩٨] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٥٥٧.

[٣٩٩٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٥٥٧.

[٤٠٠٠] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/٢٥٨.

وإلا فالتحقيق أنَّه من إضافة المصدر إلى الفاعل، حيث جعل الأرض مُصْلِحَةً على الإسناد المجازيِّ، كما جعل اللَّيل والنَّهار ماكرين.[٤٠٠١]

وقيل: جعل الأرض مصلحة تكلُّف، وإن مجازًا، ولا بعدَ في جعل الإضافة من قبيل مضارع مصر، أو من قبيل: يحبّونهم كحبِّ الله، أي: كما يحبُّ الله على أنه مصدر من المبنيّ للمفعول، أي: بعد أن يُصلح.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور مما أمر به ونهى عنه والعمل به ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مطلقًا في دنياكم وآخرتكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله والنُّبوة على زعمكم، أو على فرض إيمانكم، أو خير لكم في الإنسانية وحسن الأحدوثة، وما تطلبون من التكسُّب والرِّبح وزيادة المال؛ لأنَّ النَّاس إذا عرفوا منكم الأمانة والعدالة رغبوا في المتاجرة إن كنتم مصدِّقين لي فيما أقول لكم. ويؤيّده: أنَّ مثل [١٩٨/ظ] هذا الشَّرط إنما يجاء به في آخر الكلام للتَّوكيد، وهم ما كانوا مؤمنين ولكن كان شعيب بينهم مشهورًا بالصِّدق والأمانة، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم مشهورًا عند قومه بالأمِين،[٤٠٠٢] فالكلام من باب الاستدراج وإرخاء العنان.

فإن قلت: فعلى الوجهين يتوقَّق تحقق الخيرة على إيمانهم وتصديقهم، فالخيرية ثابتة على كل حالٍ.

قلت: إنَّ مَن لا يكون مؤمنًا بالله، وعارفاً بنبيه لم يمكنه أن يعلم أن ذلك خير له، فكأنه قال لهم: كونوا مؤمنين لتعلموا الخيرية، أو أن يقع ذلك بعد الإيمان أو أنَّ الشرط لفعلهم، فكأنَّه قيل: فأتوا به إن كنتم مصدِّقين بي.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦)﴾

تمثيلٌ لإغوائهم النَّاس عن دينِ الله بكلِّ ما يمكن من الحيلِ بِمَنْ يريد أنْ يقطعَ الطَّريق على السَّابلة، فيمكن لهم من حيثُ لا يدرون، ونحوه في التمثيل قول الشيطان: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف، ١٦/٧]. ونهى لهم عنه لما كانوا إذا رأوا واحدًا في شيءٍ منها بقولٍ أو فعلٍ منعوه، وأَوْعَدُوا عليه، وطريق الحقّ وإن كان واحدًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام، ١٥٣/٦]، لكن يَتشعَّب إلى معارفَ وعقائدَ جليلةٍ، وفضائلَ وأعمالٍ جميلةٍ، وحدودٍ وأحكامٍ كريمةٍ،[٤٠٠٣] يرشدك إليه قوله عليه السلام: «اَلْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً»،[٤٠٠٤] و بهذا الاعتبار قال: **﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾**. ويدلُّ على هذا المعنى التَّقييد بقوله: **﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾** أي: تمنعون عن كلِّ سبيل من آمن به. فسَبيلُ الله إظهار لكلِّ صراطٍ على غير لفظ السَّابق مقام الإضمار لبيانه، وتفخيم ما تصدُّون عنه، وزيادة تقبيح فعلهم، وكذلك يدلُّ التقييد بقوله: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: تَبغون لها اعوجاجًا بإلقاء الشُّبه المشكلة، أو وصفها للنّاس بأنَّها مُعْوَجّةٌ، وهو إخبار فيه توبيخٌ لهم كما في قوله: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [طه ٧١/٢٠] وترقّ في الذمّ، أي: ما كفاكم أنّكم تُوعِدون النَّاسَ في مُتَابعته، وتصدُّونهم عن سبيل الله حتى تصفونه بالاعوجاج لقصد أن يكون صدُّكم بالبرهان والدَّليل؟![٤٠٠٥] أو تحكّمٌ بهم وأنهم يطلبون لها ما هو محالٌ؛ لأنَّ طريق الحقِّ لا يعوج أصلًا، أو ليس بتمثيلٍ، بل محمول على ظاهره، ونهى عن جلوسِهم المراصدَ، وقعودِهم الجادّة يقولون لِمَنْ يريد شعيبًا: إنه كذّابٌ ولا يفتننَّك عن دينك، ويوعدون لِمَنْ آمن به، ويصدُّونه عن سبيل الله،

[٤٠٠١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٨و.

[٤٠٠٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٦٨/٦.

[٤٠٠٣] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٠١/٤.

[٤٠٠٤] **صحيح مسلم**، ٦٣/١ (٣٥).

[٤٠٠٥] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٧٢/٦-٤٧١.

أي: الإيمان به ويبغون لها عوجًا على الوجه المذكور، فليس سبيل الله على هذا إظهارًا مقام الإضمار؛ إذ المراد ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾: المراصد الظَّاهرة، وسبيلُ الله دينُ الحق، أو نهى لهم عن جلوسهم عليها، وقطعِها على السَّابلة يوعدونهم ويرهبونهم.

وفيه مبالغة في الوعيد، وأنَّ ما كانوا عليه من قطعِ السَّبيل؛ لما فيه من فساد الأرض يسري ضرره إل الدين، فكأنَّهم لَمَّا قطعوا سبيل المسلمين يصدُّون عن سبيل الله، ويبغون لها عوجًا، فلا يكون إظهارًا أيضًا، أو يراد بقوله: ﴿تبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ غيّهم في الأرض.

واعوجاج الطرق: عبارة عن فواتِ أمنها، فيكون إظهارًا لكن يراد ظاهر السَّبيل، كما في قوله: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ لا سبيل الحقّ، ويمكن أن يقال: يقطعونها على كلِّ طائفة تارةً بأخذ الأموال، وأخرى بإرادة الإضلال، أو نهي لهم عما كانوا عليه من أخذ العشر من كلِّ شيءٍ، ومثلهم اليوم هؤلاء المكَّاسون الذين يأخذون من الناس ما لا يلزمهم شرعًا في الوظائف المالية بالقهر والجبر؛ فإنَّه غصبٌ، وظلمٌ، وعسفٌ على النَّاس، وأذاعه، وعملٌ به ودوامٌ عليه، نعوذ بالله من ذلك، ثُمَّ إنّ حذف ما يوعدون به، ليعم أنواع ما يوعدون به، ويوعدون وما عطف عليه حالٌ من فاعل ﴿تَقْعُدُوا﴾ على الأوَّل، وكذا في باقي الوجوه.

وقيل: استئنافٌ فيها،كأنَّه قيل: لِمَ ذلك؟ فأجيب: لأنَّكم تُوعدون وتَصدُّون، والضَّمير في ﴿بِهِ﴾ عائدٌ إلى ﴿كُلِّ صِرَاطٍ﴾ على الأوَّل، وإلى ﴿اللَّهِ﴾ على غيره.

و﴿مَنْ آمَنَ﴾ مفعولُ ﴿تَصُدُّونَ﴾ على إعمالهم الأقرب، فحذف مفعول ﴿تُوعِدُونَ﴾؛ لدلالته عليه، ولو أعمل الأوّل لَوجب إضمار مفعول الثاني على المختار، حتى قال بعضهم: لايجوز حذفه إلا في ضرورة الشِّعر، ولو أضمر لَقيل: وَتَصُدُّونَهُمْ، لكن لم ينزل القرآن هكذا، فعلم أن ﴿مَنْ آمَنَ﴾ليس مفعول ﴿تُوعِدُونَ﴾ إلا أن يجعل ﴿تَصُدُّونَ﴾ بمعنى: «تعرضون» لازمًا.

﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ٨٧-﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ﴾

إمَّا أن يكون مفعولُه محذوفًا، فيكون الظَّرف معمولًا له، أي: اذكروانعمةَ الله عليكم في ذلك الوقتِ، وإمَّا أن يجعل نفس الظَّرف على قوله من لا يقول بلزوم ظرفيّته ذكرهم نعم الله؛ لآنَّ ذكرها مما يحمل على الطَّاعة، ويبعد عن المعصية، أو الذكر ذكر القلب، والتدبير؛ لتوفير الشُّكر ﴿قليلًا﴾ عددكم ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ الله ببركة النَّسل،[٤٠٠٦]أو«مقلّين فقراء فكثَّركم، وجعلكم موسرين، أو أقلّةً أذلةً، فأعزَّكم بكثرة العَدد والعُدد».[٤٠٠٧]

فهذه النِّعم الجليلة والمنن العظيمة تقتضي أن يُوحّد منعمها، ويصدّق ما جاء من عنده، ويعمل على مقتضى ذلك، فلمَّا رغَّبهم بها رهَّبهم [**١٩٩**/و]

بقوله: ﴿**وَٱنظُرُواْ**﴾، أي: بعُيُونكم نظر استبصار؛ لأنَّهم كانوا يرون آثار المهلكين، أو بقلوبكم نظر تفكر واعتبارٍ ﴿**كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ**﴾ آخر أمر من أفسد قبلكم من الأمَم من الخزي والنّكال، وعذاب الاستئصال سيّما المؤتفكة؛ لأنَّكم كنتم قريبي العهد مما أصابها؛ كي تعلموا وتيقّنوا، فتسارعوا إلى طلب الحقّ، والإيمان الذي ينجيكم قبل حلول العقاب على كفركم الَّذي يرديكم، وفيه إشعارٌ بأن الله لم يأخذ أمة بكفرها حسب، حتى يضيفوا إليه ذنبًا غيره، وكيف مع ما في حيّزها معلّقة للنَّظر عن العمل، فهي وما بعدها في حيّز النَّصب على إسقاط الخافض.

[٤٠٠٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٥٨/١؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٩٩/٤-١٠٠.

[٤٠٠٧] **الكشاف** للزمخشري، ١٢٤/٢.

وقوله: ﴿**طَآئِفَةٌ**﴾ صفة غالبة أُقيمت مُقام الموصوف، مأخوذةٌ من الاجتماع على الطَّواف،[٤٠٠٨] وهي اسم ﴿كَانَ﴾؛ لأنها وصفت بقوله: ﴿**مِنْكُمْ**﴾ فقوله: ﴿**آمَنُوا**﴾ خبره ﴿**بِالَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ**﴾ مفعول ﴿**آمَنُوا**﴾ ﴿**وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ**﴾ عطف المرفوع على مثله، وكذا المنصوب نحو: كان زيد فقيرًا أو عمرو غنيًّا، ولم يذكر صفة الثانية؛ لدلالة الأولى عليه، وكذا حذف متعلق الإيمان، «أو الإيماء إلى أنَّ عدم الإيمان بما أرسل به نبيّ يستلزم عدم الإيمان بما أرسل إليه سائر الأنبياء؛ لأنَّ كلًّا منهم يصدّق الآخرين»، أي: إن اختلفتم في رسالتي فصرتم فريقين وكافرين ﴿**فَاصْبِرُوا**﴾ خطابٌ للفريقين أَمَر المؤمنين بالصَّبر ليحصُل لهم الظَّفر، والكافرين لينظر عليهم الخطر. ففيه وعدٌ ووعيدٌ للفريقين، أو للمؤمنين فيكون وعدًا لهم أو للكافرين فيكون وعيدًا بهم ﴿**حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا**﴾ غلب فيه ضمير المتكلم على المخاطب؛ إذ المراد بيننا جميعًا فلا حاجة إلى تقدير بيننا وبينكم.

وقيل: الكلام تنازل معهم، أي: اصبروا فستعلمون مَن ينتصر ومَنْ يغلب مع علمه بأن الغلبة له،[٤٠٠٩] وهذا من أحسن ما يتلطَّف به في المحاورة؛ إذ أَبرز المتحقق في صورة المشكوك ﴿وَهُوَ﴾ أي: الله تعالى ﴿**خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ**﴾ لأنَّ حكمه حقٌّ عدل، لا جور، ولا ميل، ولا حيف فيه ولا معقب له؛ ولأنَّ حكمَ غيره على سبيل المجاز، وهو الحاكمُ في الحقيقة، ومن حكمه في حقِّ العباد ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم ٣٩/٥٣] ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾. [الإنفطار /١٣-١٤] ومعنى حكمه للبرّ والفاجر بالسَّعادة، والشَّقاوة أنَّه جعل البرَّ والفجور أسبابًا يسوق صاحبها إلى السَّعادة والشَّقاوة، كما جعلالأدوية والسموم المهلكة أسبابًا تسوق متناولِها إلى الشِّفاء والهلاك، فإذا كان معنى الحكمة، ترتيب الأسباب، وتوجيهها إلى الْمُسَبّبات كان المتّصف بها على الإطلاق حكيمًا مطلقًا؛لأنَّه مسبّب كلّ الأسباب جملتها، وتفصيلها، ومن الحكم ينشعب القضاء والقدر، فالحكم هو التدبير الآتي الأولي الكليّ، والأمر الأزليّ الذي كَلَمْحِ البصر، والقضاء هو الوضع الكلّي للأسباب الكلّية والقدر توجيه هذه الأسباب إلى المسبّبات الحادثة منها لحظة بعد لحظة على مقتضى حكمته، وموجب مشيَّته.

﴿**قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨)**﴾

﴿**يَاشُعَيْبُ**﴾ نداءٌ معترضٌ بين المعطوف عليه وهو الكاف، والمطعوف وهو قوله: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا**﴾ بما أُرسلت به تابعين لك، والمعنى: ليكُوننَّ أحدُ الأمرين: إمَّا إخراجكم من القرية، أو عَوْدُكم إلى الملَّة، والعود الرُّجوع، وهو مصير الشَّيء إلى حال كان عليها، ومنها إعادةُ الله الخلقَ، ويستعمل في الفعل مرّة ثابتةً حقيقةً، وفي فعل مثله مجازًا تقول: أعدت الكتابة والقراءة، ومعناه: فعلت مثله، ولَمَّا ورد أن يقال: كيف خاطبوا شعيبًا بالعود في ملتهم، وكيف أجابهم بنفي العود، والأنبياء لا يجوز عليهم كونهم على ملّتهم أوّلًا، أجيب بأنهم لَمّا شركوا شعيبًا في الإخراج مع الذين آمنوا معه شركوه في العود تغليبًا للجماعة على الواحد، وإن لم يكن عليه السلام في ملَّتهم قطّ، وكذلك أجرى عليه السلام جوابه على التَّغليب، ويجوز أن يكون قولهم على زعمهم؛ لأنَّه عليه السَّلام كان يخفي مذهبه في أوّل أمره فتوهّموا أنَّه على دينهم، ويكون قوله عليه السلام على المشاكلة، أو على التَّلبيس على العوام، وكلامه عليه السلام على ذلك الإبهام، ويجوز أن يكون العود بمعنى الصَّيرورة، فيحتاج حينئذ إلى الاسم والخبر و﴿**فِي مِلَّتِنَا**﴾ على هذا خبر، وعلى غيره حالٌ يرشدك إليه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس ٣٩/٣٦] وما يتوهم من أنَّ قوله: ﴿**بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا**﴾ لا يلائم ذلك المعنى مدفوع بأن النَّتيجة كما يطلق على التخليص بعد الابتلاءيطلق على الحفظ إبتداءً.

[٤٠٠٨] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٥٥٨؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٩٩-١٠٠.

[٤٠٠٩] **اللباب** لابن عادل، ٩/٢١٩.

وكلمة ﴿فِي﴾ أبلغ من: «إلى»؛ فكأنَّهم لم يرضَوا بأن يتظاهروا أنَّهم من أهل ملَّتهم، بل أرادوا تمكّنهم واستقرارهم فيها.

﴿قَالَ﴾ وهب لما نهاهم عن التَّطفيف، والبخس أرسل إليهم ملكهم، وقال له: ما تقول فيما أمرتُ به الناس من الإحتكار، ونقص المكيال والميزان لمصلحة النَّاس، فقال شعيب: إن في كتاب الله المنزَل أنَّ الملك إذا كان بمنزلتك، وصنع مثل ما صنعت يقال له: ملكٌ تاجرٌ ملعونٌ فاجرٌ، فقال الملك: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ الآية. قال شعيب جوابًا لكلامهم وردًّا لمرامهم.[**١٩٩**/ظ]

﴿**قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ**﴾، أي: أنعود فيها ونحن كارهُون لها، فالهمزة للاستفهام الإنكاري؛ أي: لا نعود فيها لأنَّا كارهون لها أشدَّ الكراهة؛ لما عرفنا من بطلانها، أو: أتُعِيدُوننا فيها في حال كراهتنا ومع كوننا كارهين. فالاستفهام للتوقيف على شناعة ما أَرادوا وقباحة ما قصدوا، أو للإنكار أيضًا، أي: لا تقدرون على ردّنا إلى دينكم على كُرْهٍ منَّا، فيكون على هذا كارهين بمعنى: مكرهين، وهذه الوجوه على صرف الكلام إلى الأمر الثاني من الأمرين، وصرَفه بعضُهم إلى الأمر الأوّل، حيث قال:أَتُخْرِجُننا من قريَتنا ونحن كارهون بمفارقَة الأوطان من غير ذنبٍ منَّا، وهو أمر منكر، وهو كقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [المؤمن ٢٨/٤٠]، وبعضهم إلى الأمرين معًا، أي: أيقع منكم أحدُ الأمرين على كلّ حالٍ، حتَّى في حال كراهتنا، والقول بأن «لو»، بمعنى: «إنْ» ليس شئ؛ لأنَّ المعنى:على المضيِّ.

وقد قيل: الشَّرط إذا كان لفظ كان وأدخل عليه، أنَّ الشرطيَّة، فهو باقٍ على المضيّ، واعترض على المصنِّف بأنه جعل الواو للحال،[٤٠١٠] وليست واو الحال التي يعبّر عنها النحويّون بواو الحال، بل هي واوُ العطف، عطفت على حال محذوفةٍ، كقوله ع م: «ردُّوا السَّائِلَ وَلَوْ بظِلْفٍ مُحْرِقٍ».[٤٠١١] وليس المعنى ردّوه في حال الصَّدقة عليه بظلف محرق، بل المعنى: «ردّوه مصحوبًا بالصَّدقة ولو مصحوبًا بظِلْفٍ مُحْرِقٍ».[٤٠١٢] ودفع بأنَّه لَمَّا كانت معطوفة على الحال كانت حالاً أيضًا ، فصحّ إن سمي واو الحال، وواو العطف.[٤٠١٣]

وقال الإمام القشيري رحمة الله عليه:كما أنَّ أهلَ الخير لا يميلون إلَّا إلى أشكالهم، وأهلُ الشَّرِّ لا يرضَون إلا بِمَنْ ساعدهم على أحوالهم، والأَوْحد في بابه مَنْ بايَنَ نهجَ أضرابه.[٤٠١٤] ولذلك ترى الجيران الاشتراء لايوانسون جارهم الصلحاء، وترى الصلحاء لا يساعدون الذين جاوروهم إلا من اشتراء، فخذل الله مَنْ يساعدهم ويداهنهم.

﴿**قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)**﴾

لَمَّا ورد أنَّه كيف يصحُّ كون مدلول قوله: ﴿**قَدِ افْتَرَيْنَا**﴾ جوابُ الشرط معلقًا عليه مع أنَّ مضمونه ماضٍ بالنِّسبة إلى زمان وقوع مضمون الشَّرط، والمعلّق بالشَّرط لا سبق عليه. أجاب عنه المصنف بوجهين كما يرى.

فإن قيل: هلاّ حملعلى ظاهره؟ قلنا: لأنَّ ﴿إِنْ﴾ لا تَقلبُ الماضي المصدَّر، ولا المقدَّم على الشَّرط، فكيف إذا اجتمعا الأمران، وظاهرٌ أنَّ الافتراء الماضي لا تعلُّق له بالعَوْد. ولا سبيلَ إلى الحمل على معنى: إن عدنا ظهر أنَّا قد افترينا ألبتَّة؛ لإيهامه

[٤٠١٠] **الكشاف** للزمخشري، ١٢٦/٢.

[٤٠١١] **موطأ إمام مالك**، ٩٢٣/٢ (٨). **مسند أحمد بن حنبل**، ٤٤٢/٤٥..

[٤٠١٢] **البحر المحيط** لأبي حيان، ٣٤٥/٤.

[٤٠١٣] **اللباب** لابن عادل، ٢١٥/٩-٢١٦.

[٤٠١٤] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٣٤٤/١؛ **التيسير في التفسير** للنسفي، ٦/ ٤٣٣.

أنَّ المانع هو ظهور الافتراء لا هو نفسه، ولأن المقيَّد بالعَوْد هو الافتراء نفسُه لا ظهورُه، كذا يقال، وفيه نظرلوروده على وجه الثَّاني، أعني: جعل ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا﴾ جواب القسم بحذف اللَّامِ، فإنَّه مقيّد بالشَّرط، ولانْدِفاعه بجعل الماضي بمعنى المستقبل؛ تنزيلًا له بمنزلة الواقع، ومقرّبًا إلى الحال، حتى كأنَّه قيل: قد افترينا الآن إنْ هَمَمْنا العَوْدِ، ذكره أبو البقاء،[٤٠١٥] وتبعه قدس سرّه.[٤٠١٦]

وبالجملة: فاستقامة ظاهر هذا الكلام على تقدير القسم، وعدمها بدونه محلّ نظر، ثم ما ذكر من التعجب مستفادٌ من سوق الكلام وقرينة المقام، وخصّه بالاستئناف لظهور أنَّ جواب القسم لا يكون استئنافَ كلام، ومن البعيد ما يقال: إنَّه على تقدير القسم ردٌّ لكلامهم بأبلغ وجهٍ، فلا يكون مستأنفًا بخلاف على التَّعجب، وكذا ما يقال في تقرير القسم: إنَّه لا يقصد بالشَّرط، والجزاء المنع من الفعل، أو الحمل عليه. فسمِّي يمينًا، فهذا يمينٌ على عدم العود على الكفر كما يقال: برئتُ من الله إن فعلتُ كذا، لكن لَمَّا كان أصل اليمين: بالله قدّر والله ولام جواب القسم.[٤٠١٧]

وحقيقة النَّجات إنَّما تكون بعد البتلاء، ولا ابتلاء ههنا، بالنظر إليه ع م، وإنما قاله بناءً على ما سبق من التَّغليب أو الزَّعم أو الإيهام أو أراد بعد ما حفظنا منه، وجنَبنا عنه وعلّمنا قبحه وفساده، وأرشدنا دلائلَ التَّوحيد والإيمان.

﴿**وَمَا يَكُونُ**﴾ أي: وما يصحُّ وما يستقيمُ ﴿**لَنَا**﴾ خبر كان واسمه قوله: ﴿**أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا**﴾ عودَنا، فيها استثناءٌ منقطعٌ، أي: إلا أن يريد الله إهلاكنا، أو متَّصلٌ، أي: إلا وقت مشيئة الله قاله ع م عليه السلام: على وجه التوضّع والتَّسليم، وإن كان من الذين جبلوا على القلب السَّليم، كما قال الخليل: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[إبراهيم ١٤/٣٥]، ويوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾، [يوسف ١٢ /١٠١] ونبيُّنا: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ [الأحقاف ٤٦/٩]. وفيه دلالةٌ على أنَّ الكفر بمشيئته، وأنَّ النَّجاة منه بإنجائه.

وقد دلَّت النُّصوص من الكتاب والسُنَّة على أنَّ الكائنات تابعةٌ لها، ولكن الله غيَّب عن الخلق علمَه فيهم، ومشيئته من أعمالهم، فأمرهم ونهاهم؛ لأن الحجَّة إنما تثبت من جهة الأمر والنَّهي. وكلُّ ذلك جارٍ على ما سبق من العلم، وجرت به المشيئة، فعليهم السَّمع والطَّاعة للأمر إذا أمروا، وهم جارون على ما عُلم منهم مختارون الطاعة أو المعصية.[٤٠١٨]

ولَمّا اضطرب المصنِّف ذكر ما حصله أنَّا لا نسلِمُ أنَّ المعنى: إلا أنْ يشاء الله عَوْدَنَا، بل خذلانَنَا ومنع الإلطاف منَّا، ولو سلَمَ، فلا نُسلِم أنَّه يَلزمُ منه جوازُ مشيئةِ الله. [**٢٠٠**/و]

للكفر، لجواز أن تكون من قبيل التَّعلُّق بالمحال، ولَمّا كان في المنع الأوَّل نوعُ بعد ﴿إِذْ﴾ لايُفهم من مثل هذا الكلام سوى إلا أن يشاء الله عودنا ذكر له سندًا سمّاه الدليل عليه، وهو أنَّه لو أريد إلا أن يشاء الله عودنا لَمَا كان لِذِكر سعةِ العلم بعده كثيرُ معنى، بل المناسب ذكرَ شمول الإرادةوأنَّ الحواث بمشيئته.[٤٠١٩]

ونحن نقول مع شر السّنة، إنَّما لم نقل إرادة؛ لأن الاستثناء بالمشيئة، ومعرفتها غيب ولا يعلمه إلَّا الله، ويؤيّده ذكر التَّوكل في التَّثبيت على الإيمان، نحو قوله تع: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ [الأحقاف ٤٦/٩]، أو للتَّنبيه على أن إراد به

[٤٠١٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٨ظ؛ **التبيان في إعراب القرآن**، ٥٨٣/١. **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٧٧/٦؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٢٦١/٤.

[٤٠١٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٥٨/١.

[٤٠١٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٨ظ.

[٤٠١٨] **معاني القرآن وإعرابه** للزجاج، ٣٥٦/٢.

[٤٠١٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٨ظ-٣٥٩و.

الكائنات تابعةٌ لعلمه الشّامل، «أو لأنَّ الإخبار عن سعة قدرته وإرادته إنما يناسب المقام، إذا كان مساق الكلام للإشعار بوقوع المستثنى، وأمّا إذا كان الإشعار بعدم وقوعه، فلا يناسب إلَّا سعة العلم، وفائدة هذا الإشعار جسم لجمعهم في العود بالتّعليق على ما لا يكون، وفي ذكر صفة الرُّبوبيّة نوع تأييد للإشعار المذكور، وفصل تأكيد للجسم المذكور من حيث إنَّ الرَّبّ في الأصل بمعنى التَّربية، وهي تبليغُ الشَّيء إلى كماله شيئًا فشيئًا.[٤٠٢٠]

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾

لَمّا كان السّعة ونقيضُها ممَّا يتعلَّق بالمكان، والله تعالى متعالٍ عنه جزم العقل بأنَّ العلم هو الذي وسع كل شيء، والأصل: وسع علمُ ربّنا كلَّ شيء، لكن أزيل الكلام عن أصله، فأسند الفعلُ إلى صاحب العلم، فأخرج منصوبًا على التَّمييز؛ للإغراق في وصفه بالعلم، كأنَّ ذاته علم واسع كل شيء، وأيضًا فيه جزالة اللَّفظ كما أنَّ فيه فخامة المعنى، وفي لفظ الماضي دلالةٌ على أنَّه كان في الأزل عَالِمًا بجميع المعلومات فلا يخرج شيءٌ عن مقتضى علمه، وهو معنى جفاف الأقلام وطيّ الصُّحف. ولزوم الأحكام، وسعادة السَّعيد وشقاوة الشَّقيّ، ويعلم من عموم كل شيء أنه علم الماضي والحال والمستقبل، وعلم المعدوم أنَّه لو كان كيف يكون. فهذه أربعة أقسام، يقع كلٌّ منها على أربعة أوجه؛ لأنَّه علم الماضي كيف كان. وعلم أنه لو لم يكن ماضيًا، بل كان حالًا أو مستقبلًا أو معدومًا محضًا، فإنَّه كيف يكون، فكذا الكلام في الأقسام الآخر فيكون ستة عشر. وإذا اعتبر كل منها بحسب جنس أو نوع أو صنفٍ أو شخصٍ من الجواهر، ومن الأعراض، صار مبلغًا تتحيَّر فيه العقولُ.[٤٠٢١] وقد عرفت قبل وجه ذكر سعة العلم ههنا.

وقيل: هو مصروف إلى الكلام السَّابق، أي: لَمّا قال شعيب: لنكُونَنَّ إما الإخراج، أو العود قال شعيب: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ﴾ فربّما كان في علمه قسمٌ ثالثٌ، وهو:أن يبقينا في القرية، ويجعلكم مقهورين، ويؤيده قوله: ﴿**عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا**﴾.

قال المصنف: في أن يثبّتنا على الإيمان، ويوفّقنا لازدياد الإيقان.[٤٠٢٢]

وقال قدس سره:في أن يثبّتنا على الإيمان، ويخلّصنا من الأشرار.[٤٠٢٣]

وهذا تخصيص الكلام على ما يناسب المقام. والأولى أن يقال: أي: في جامع أمورنا، ومواقع أحوالنا سيَّما في التَّثبيتِ على الإيمان، والعصمة من الكفر، والخذلان، والتخلُّص من أهل الشَّرّ والطُّغيان. وفي إظهار لفظ الجلالة ذكر ما يقتضي التوكُّل عليه من الألوهيَّة. وفي تقديمه حصره عليه، وهذا منه عليه السلام: ترق من الأسباب إلى مسبّبها، والتجاء إلى مصرّفها؛ فإنَّ مَنْ يتوكل عليه فهو حسبه، ثم ختم كلامه بدعائه، وثنى بثنائه قائلاً: ﴿**رَبَّنَا**﴾ في جعله مقدّمة الدُّعاء شأن لا يخفى؛ ولذلك كثر في أدعية الأنبياء، والأولياء ﴿**افْتَحْ**﴾ أي: احْكُمْ، واقْضِ, والفُتاحة: الحكومة، والفاتح: القاضي، والفتَّاح المبالغة، فإنَّه يفتح باب العلم الذي انغلق على غيره، وفاتحته في كذا، أي: قاضيته ﴿**بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا**﴾ وتكرير «البين» لتمييزه، ومن معه من قومه بخلاف ما ذكر من قبل ﴿**بِٱلْحَقِّ**﴾ بحكمك الحقّ، وهو وصف تحقيق لا وصف تمييز، وفيه إظهار الوثوق بأنَّه على الحقِّ المحض، أو أظهِر أمَرنا، حتى ينفتحَ بيننا وبينهم، وينكشفَ؛ بأن تنزلَ عليهم عذابًا يتبيّن معه أنَّهم على الباطل من فتح المشكل إذا بينه وأزال عنه الإشكال.

[٤٠٢٠] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٠٥/٤.

[٤٠٢١] **مفاتيح الغيب**، ١٩٠/١٤؛ **غرائب القرآن ورغائب الفرقان** للنيسابوري، ٢٨٨/٢٨٧/٣.

[٤٠٢٢] **الكشاف** للزمخشري، ١٢٦/٢.

[٤٠٢٣] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/ ٥٥٨.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَاتِحِينَ﴾ القاضين، ولا محاباةَ في حكمك، ولا ميلَ ولا زللَ ولا رشوةَ ولا شفاعةَ، ولا فضلَ لحاكم على غيره إلا بالعلم، والعدل، فهو أعلَمهم، وأعدَلهم فهم أخيرهم، وربّ غريق في الجهل، والجور من متقلدي الحكومة في هذا الزّمان يلقّب بأقضى القضاة، ومعناه: خير الحاكمين وفيه عبرة لأولي الأبصار، أو الكاشفين للأمور، والمظهرين بين الخيرات والشُّرور؛ لأنه العالم بجميع الأشياء، والقادر على كلّ ما يشاء.

كان لعليّ رضي الله عنه مؤذّنٌ، فخرجت جارية من بيته لتسقى الماء، فقال لها: أُحبُّك، وكان الأمر على ذلك كلّ يومٍ. فشكت.[٢٠٠/ظ]

عليًّا،فقال: قُولِي له: أُحبّكَ أيضًا، فقالت له ذلك، فقالت: فما بعد هذا؟ فقال: نصبر حتى يحكم الله بيننا بالحقِ، فذكرت ذلك لعليّ فوهبها له، فقال: هذا حكم الله بينكما.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١)﴾

قالوه لسَفلتهم،ومن دونَهم تثبيطًا لهم عن الإيمان، وتثبيتًا على الكفر والطُّغيان، وذكر ههنا صفة الكفر لإنكارهم البحث بعد ثبوت الحقِ، وفيما سبق صفة الاستكبار لملائمتها الإخراج والأكراه.

واللّام في: ﴿**لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ**﴾ موطّئة القسم، والقسم يقتضي وجوابًا. و﴿إِنْ﴾حرف الشَّرط وهو أيضًا يقتضي جوابًا، فالأكثرون جعلوا قوله: ﴿**إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ**﴾ جوابًا للمقتضيّين، ووافقهم المصنِّفان، فلعلّهما أرادا أنَّ هذه الجملة تجرى عن الجوابين، وإلّا فالمشهور الذي ذكراه في بعض المواضع أنَّ المذكور جواب القسم، وسادَّ مسدَّ جواب الشَّرط، يدلّ على ذلك عبارة سادَّ مسدَّ الجوابين هذا على ما ذكره أئمة العربيّة.

وقال شيخنا جمال الدين[٤٠٢٤]: ولو فكّرت الطبع أن يكون المذكور جواب الشَّرط، وجواب القسم المقدّر جملة قوله: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ﴾ وإذا ملغاة من العمل؛ فلذلك وقعت بين الاسمين ومجيئه للتأكيد.

وقيل: واقع في جواب الشَّرط، وجواب لمن قاوَلهم من قومهم، وهذه اللّام للابتداء؛ لأنَّها داخلة على الاسم أي: لخاسرون دينكم لاستبدالكم ضلالته بهدايتكم، أو دنياكم لفوات ما يحصل لكم من البخس، والتَّطفيف؛ لأنه ينهاكم عنهما، ويأمركم بالإيفاء والتسوية.

وقيل: تخسرون في عقولكم وتغبنون في آرائكم ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ**﴾ رتّبه بالفاء للدّلالة على أنَّ غاية ضلالهم، ونهاية إضلالهم أوجب نزول العذاب بهم ﴿**ٱلرَّجْفَةُ**﴾ الزلزلة، وفي سورة هود: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود ٩٤/١١]، وفي الشعراء: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء ١٨٩/٢٦]، فلعلّهما لقوم آخرين؛ لأنه ع م عليه السلام أُرسل إلى طائفتين، أو ثلاث وإن كانت القصَّة واحدة، فالتوفيق أنَّهم لتهكمهم نبي الله في قولهم: ﴿قَالُواْ يُشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ [هود ٨٧/١١] أخذوا بالصَّيحة. ولقولهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الشعراء ١٨٧/٢٦] ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء ١٨٩/٢٦]، ولما أرجفوه ع م عليه السلام، وأصحابه، وتوعدوهم بالإخراج والجلاء أخذتهم الرجفة. فقد اجتمع عليهم ذلك كلُّه، فجاءتهم سحابةٌ أظلتهم فيها شرر من نارٍ، ولهيب وهيج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السّماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوسُ، وخمدت الأجساد.

[٤٠٢٤] **هو جمال الدين إسحاق القرماني (١٥٢٧/٩٣٣).**

وقال وهب: سلَّط الله عليهم الحرّ و الغمّ حتّى أنضجهم، فلبثوا فيه سبعة أيامٍ ولياليها، ودخل الحرُّ عليهم في بيوتهم ومظالّهم، وفي الأودية وظلال الأشجار، وصار ماؤهم حميمًا لا يستطيعون شربه، فانطلقوا يسوقون ذراريَهم ونساءهم ودوابّهم حتى انتهَواإلى غيضةٍ وهي الأيكة كثيرة الشجر، وقد جاءهم سَمومٌ من جهنّم، سلّط الله عليهم الشمس من فوق رؤوسهم حتى تقلقلت جماجمُهم، والرمضاء من تحت أرجلهم حتى تساقطت لحوم أرجلهم، ثم نشئت لهم ظلّةٌ من سحابة سوداء، فابتدروها يستغيثون من بردها، فلمّا صاروا تحتها أَطبقت عليهم فهلكوا فيها.[٤٠٢٥]

وقال الإمام القشيريّعليه التجلّي السَّرمديّ: كانت لهم غلبة في وقتهم، ولكن لَمَّا اندرست آثارهم سَقَطَ صِيتُهم، و خمل ذكرهم، وتقشع سحابُ مَنْ تَوَهَّم أنَّ فيهم شيئًا.وظنّ أنهم يحسنون صنعًا، وهذا عاقبة من تغرّر بالباطل، وتزخرف ظاهرًا بالأمر العاطل، والحقُّ غالِبٌ في كل أمر وشأنٍ، والباطل زاهق بكل وصف وعنوانٍ، وإذا كانت العِزَّةُ نعتَ مَنْ هو أزليُّ الوجود، وسرمديّ الجود حقّ من هو الملك المعبود، والربّ الشاهد والمشهود، فأيّ أثر للفطرةمع القدرة؟ وأيّ خطر للعلل مع الأزل؟ فأيّ الحقّ في عزة، وجلال، وبهجة، وجمال، وأهل الباطل في حيّز الزّوال، وطرف الإضمحلال،[٤٠٢٦] وهذه الإشارة من قوله:

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)﴾

كَأَنْ لم يُقيموا فيها؛ أَحْيَاء متصرفين مترددين: من: غَنِيَ بالمكان بكسر العين يَغْنَى بفتحها غَنِيٌّ وغنِيَّةٌ إذا أقام به، والمغاني: المنازل وواحده مغنى، أو كأَنْ لم يعيشوا فيها مستغنين من الغِنَى الذي هو ضدُّ الفقر، فشبّه حالهم بحال من لم يكن في تلك الديار كقوله:

كَــأَنْ لم يَكُــنْ بــينَ الحَجُــون إلى الصَّــفَا أَنِـيْسٌ، وَلَمْ يَسْــمُرْ بِمَكَّــةَ سَــامِرُ[٤٠٢٧]

فجعل عبارة عن استئصالهم وانعدام آثارهم، وفي الجملتين اختصاصٌ من حيث إنَّ هذا التركيب قد يفيده، كما ذكر في قوله: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [الرعد ٢٦/١٣] من غير فرقٍ بين الْمُضمر والْمُظهر، والمنكَّر والمعرَّف، [**٢٠١**/و]

الموصول وغيره، وههنا وإنْ توسّط بين المبتدأ والخبر لفظ ﴿كَأَنْ﴾ المخفَّفة، فالخبر يُعَدُّ فعل المبتدأ، أو من حيث كون المبتدأ موصولًا فإنَّه يُشعر بعليّة الصّلة، فينتفي الحكم عند انتفائها سيَّما في الثانية؛ لمكان الضَّمير وتعريف الخبر، مع ما ذكر.

وفي الاستئناف بهما من غير عطفٍ، وبناء الخبر على المبتدأ، وتكرير ذِكْر ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبالغة في ردّ نصح الملأ لأشياعهم، حيث ذكر هلاكهم بالفاء الدّالّة على أنَّ تكذيبهم وعنادهم أوجب نزول العذاب بهم، ثُمَّ بيَّنه بأنَّهم كانوا لم يقيموا دارهم قط، وإنهم خَسِروا خسرانًا عظيمًا، وتسفيةٌ لرأيهم ببيان أنَّ الخسران في تكذيبه لا في اتّباعه كما زعموا، أو استهزاءٌ بنصحهم لما بيّن أن ما جعلوه نصيحةً صار فضيحةً ظهر أثرُها في الدُّنيا، وسيظهرُ ما في العقبى، واستعظامٌ لما جرى عليهم، حيث بيَّن أنَّ هلاكهم في الدُّنيا كان بالحيثيّة المذكورة، وقد اختصّوا بالخسران العظيم الَّذي هو أصل هلاك الآخرة.[٤٠٢٨] فتَأَمَّل

[٤٠٢٥] **التيسير في الفسير** لأبي حفص النسفي، ٣٤٥/٦.

[٤٠٢٦] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٣٤٤/١.

[٤٠٢٧] **مفاتيح الغيب**، ١٩٠/١٤؛ **اللباب**، لابن عادل، ٢٣٠/٩.

[٤٠٢٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٩و.

في المبالغات في تقرير هلاكم وخسارهم بالاستئناف، وإيراد الموصول، والتّشبيه، والتّكرير، واسميّة الجملتين، وتعريف الخاسرين وإطلاقه، وتوسيطهم.

﴿**فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ**﴾ على ما سبق من احتمال كون توليه حين رأى علامات العذاب، وظهور كونه بعده لتّرتيبه بالفاء على ما قبله. و﴿**وَقَالَ**﴾ خطابًا لهم، وتوبيخًا عليهم، وتعريفًا بتكذيبهم، أو تأسفًا بهم، وتحزّنًا عليهم؛ لشدَّة حسرته، وفرطِ حزنه ممَّا أصابهم لكثرة الأمّة، وطول الألفة، وشفقة القرابة، ورقة المجاورة.

﴿**يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي**﴾ جمعًا، وإن ذكرت في آخر القصَّة؛ لما أنَّه لم يذكرها في أوّلها جمعًا بخلاف ما في قصَّة هودٍ ﴿وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾ فلم يقبلوا نصحي، فوقع ما وقع، ثم لَمَّا رأى استحقاقهم، وفكَّر في عدم لياقتهم للحزن عليهم، أنكر على نفسه الحزن الواقع عليهم بقوله: ﴿**فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ**﴾، أو تعليلًا لعدم حزنه عليهم، واعتذارًا عن انعدام فرط الحسرة، أي: لقد بالغتُ في التَّبليغ، وبذلتُ وُسعي في الإنذار مما حلّ، ونصحتُ كلَّ النَّصيحة، وحذَّرت من الفضيحة، فلم تصدِّقوا رسالتي، ولم تَلْتفتوا إنذاري ونصحي، فكيف آسى عليكم؟

و«الآسىٰ»: شدة الحزن، من: أَسِيَ يَأسَى، كرَضِي يَرْضَى، و﴿آسَىٰ﴾ على بناء المتكلّم وحده على وزن أفعل قال العجّاج:

وانْحَلَبَـتْ عَيْنَـاهُ مـِنْ فَـرْطِ الأَسَـى   وَكِيــــفَ غَـــــرْبَيْ دَالجٍ تبجّســـــا[٤٠٢٩]

«وانْحَلَبَتْ»: سالت دمعُ عينه. «والوكيف»: القطر. «والغَرْبُ»: الدَّلو العظيم. «والداِلج»: الذي يأخذ الدَّلوَ من البئر، فيُفرِغها في الحوض.

يقول: سَالَ دمعُ عَيْنَيْهِ من شدّة الحزن، ووَكَفَتا وكيف دَلْوَي دَالجٍ تفجّرًا وانحباسًا.[٤٠٣٠]

﴿**عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ**﴾ إظهار في مقام الإضمار؛ للإشعار بعدم استحقاقهم التَّأسف عليهم لكفرهم، فالالتفات للإظهار، أو لأنَّه كأنَّه قيل: لِمَ لا تتأسف على قومك؟ فأجاب به، أو لأنه لَمّا ذكرهم بالكفر عدل من الخطاب؛ تبعيدًا لهم عن ساحة الحضور، وفيه دلالةٌ على عدم الدُّعاء بالخير للكافر، وعدم الحزن على هلاكهم، وهلاك الظالمين.

﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤)**﴾ ﴿**ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥)**﴾

تعدية الإرسال بـ«إلى»، فإيراد في الاعتبار معنى الاستقرار، حيث يدلُّ على استمرار أمر الإبشار والإنذار، وعند ذلك يظهر استحقاقُهم بالأخذ الآتي ذكرُه.[٤٠٣١]

و«القرية»: مجتمع القوم، فيدخل تحتها المدائنُ. وفي الكلام مقدّر، أي: فكذَّبوه، أو فكذَّبه أهلها وذلك؛ لأن الأخذ إنَّما كان لاستكبارهم عن اتباعه وتعزرهم عليه، ولا يقع بعد إلا ماضٍ إلا إذا سبقه فعل كما في الآية، أو قارنه «قد»، والجملة في موقع الحال، أي: «إلا آخذين أهلها».

[٤٠٢٩] **ديوان العجاج** ص ١٢٣؛ **الكشاف** للزمخشري، ١٢٧/٢.

[٤٠٣٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٨١/٦.

[٤٠٣١] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٠٨/٤.

والاستثناء مفرَّغ من أعمّ الأحوال. و﴿الْبَأْسَآءِ﴾: بالبؤس وهو الفقر.

﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ الضرُّ وهو المرض، وقيل: بالعكس، وقيل: آفة المال، والنفس، وقيل: ضيق العيش، وسوء الحال.[٤٠٣٢]

﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي: لكي يتضرَّعوا، ويتذلَّلوا، وَيحُطُّوا أردية الكِبْر والعزَّة، ويضعوا تيجان العجب والنخوة؛ فإن البلاء يليّن النفوسَ الطاغيةَ، وتذلل القلوب القاسية، وأصله: يتضرَّعو، فأدغم التاء في الضاد دون العكس.[٤٠٣٣]

﴿ثُمَّ﴾ آتيناهم بدل ما أعطيناهم من الفقر والبؤس والنقمة السعة والسلامة والنِّعمة ابتلاءً لهم بالحالين،[٤٠٣٤] وإكمالاً للأولى، كقوله تع: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف، ١٦٨/٧]، فإنَّه كما يتقهر النفوس الجافية بالجفاء، والشِّدة، تنقاد النفوس اللَّطيفة بالولاء، والسّعة مع أنَّ وُرودَها بعدها أدعي للانقياد، وأكمل في إيجاب الشُّكر، وفي كلمة «ثُمَّ» إشعارٌ بامتداد الحالة الأولى عليهم، ويرشح ذلك الإشعار ما في عبارة المكان من الدَّلالة على التمكّن.

«والتبديل»: وضع أحد الشَّيئين مكان الآخر، يتدعدَّى إلى مفعولين إلى المأخوذ بالذَّات، وإلى المتروك [**٢٠١**/ظ]

بالواسطة، فالحسنة هي المأخوذة، ومكان السَّيئة هي: المتروكة فحذف منه حرف الجرّ، والسيئة: كلُّ ما يسُوء صاحبه، والحسنة: كلُّ ما استحسنه الطَّبع والعقل.[٤٠٣٥]

﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾ كثروا عددًا وعُددًا ونموًّا في أنفسهم وأموالهم، من عفا النَّبات: إذا كثر، ومنه قوله عليه السلام: «إذا إذا دَخَلَ صفَرُ، وَعَفَا الوبَرُ»،[٤٠٣٦] أي: كثر وبر الإبل، وفي رواية «وعفا الأثر»[٤٠٣٧] أي: امحى، فهو من الأضداد، ويتعدَّى، ولا يتعدّى، عفت الرّيح المنزل، وعفى المنزل.

ويقال: عَفَاه، وأَعْفَاه، وعَفَّاه، ومه قوله ع م: «وَأعْفُوا اللِّحَى»[٤٠٣٨] بالضمّ والكسر، جمع «لِحْيَةٍ»، أي: وَفِّروها وأكثروا شعْرَها. وقال الحُطَيْئَةُ:

بِمُسْتأسِدِ القُرْيانِ عَافٍ نَبَاتُهُ   تُسَاقِطُنِي والرّحل من صَوْتِ هُدْهُدَ

وهو من أبيات في وصف النَّاقة.

فـإنْ نَظَـرَتْ يَوْمًـا بمـؤخِرِ عَيْنِهَـا   إلى علَـمٍ في الغَـوْرِ قالـت لـهُ: ابْعَـد

[٤٠٣٢] **اللباب في علوم الكتاب**، لابن عادل، ٢٣٢/٩.

[٤٠٣٣] **الكشاف** للزمخشري، ١٢٧/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٠٩/٤.

[٤٠٣٤] **الكشاف** للزمخشري، ١٢٧/٢.

[٤٠٣٥] **اللباب**، لابن عادل، ٢٣٣/٩.

[٤٠٣٥] **الكشاف** للزمخشري، ١٢٧/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٠٩/٤.

[٤٠٣٦] البخاري (١٥٦٤)، ومسلم (١٢٤٠)

[٤٠٣٧] البخاري (١٥٦٤)، ومسلم (١٢٤٠)

[٤٠٣٨] **صحيح البخاري**، اللباس ٦٣؛ **صحيح مسلم**، االطهارة ٥٢.

بأرضٍ تَــرى فَــرْخ الحُبَــارَى كأنَّــه   بها رَاكِبٌ مُوفٍ على ظهر قَرْدَدِ[٤٠٣٩]

بِمُسْتأسِدِ القُرْيَانِ البيت ضمير «نَظَرَتْ» للنَّاقة.و«في الغور»: حالٌ منه. و«الموفي»: المشرف. و«القَرْدَد»: المكان الغليظ المرتفع، وجزاء الشرط: «تُسَاقِطْني»، و«قالت»: صفةُ «علَم». و«القُرْيَان»: بضمّ القاف، جمع «قَرِيّ» على فعيلٍ، وهو مجرى الماء في الحَوض. واستأسد النّبت قَوِيَ والتفَّ. وبِمُسْتأسِدِ صفة موصوف محذوف، أي: بأرض قويّ نبات حياضة يصف به النَّاقة بالسُّرعة والنَّشاط، والمكان بالبُعد عن الأنيس بحيث تردي فيه النَّاقة فيها برحلها وراكبها، «مِنْ صَوْتِ هُدْهُد» خوفًا وسرعةً. وقيل: جزاءُ الشَّرط: «قالت»، و«تساقطني» حالٌ من الضَّمير «نَظَرَتْ»، أو «قالت».[٤٠٤٠] وقال:

ولَكِنَّـــا نُعِـــضُّ الســـيفَ مِنهَـــا   بأسْـوُقِ عَافيَـاتِ الشَّـحم كُـومِ[٤٠٤١]

أي: نجعله عاضًّا. «بأسْوُق»: جمعُ «ساق»، أي: نُعمل السيففي أسوق من النُّوق، كثير الشَّحم العظيمات الأسْنِمة.[٤٠٤٢]

و«حتَّى» غايةٌ، وتقديرها بـ«إلَى» بيان المعنى لا الإعراب؛ لأنَّ حتَّى الجارَّة لا تُبَاشِرُ إلَّا المضارع المنصوب بإضمار «أنْ»؛ لأنَّها في التَّقْديرِ داخلةٌ على المصدر المنْسَبِك منها، ومن الفعل، والماضي فلا يطَّرِدُ حذف «أنْ» معه، فلا يقدّر معه أنَّها حرف جرٍّ داخلةٌ على أن المصدريَّة.[٤٠٤٣]

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

وقالوا هذا القول؛ بطرًا بالسِّعَة، أو أَشَرًا بالنِّعمة، ونسيانًا لها، وتهاونًا بحقّها، واعتقادًا أن هذه عادةُ الدَّهر تُضيق تارةً وتُوسع أخرى، ويتعاقب فيه المحنة، والمنحة كما كان عليه حالُ آبائنا، فلم يَرَوْا ذلك ابتلاءً من الله،[٤٠٤٤] ولم يتفطَّنوا أن النَّقمة عقوبة، والنِّعمة استدراج، بل قالوا: كونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم؛ فإنَّهم لم يتركوا دينهم لما أصابهم.[٤٠٤٥]

وتقرير آخر: ابتلاهم الله بهذا وذاك، أي: بالضرّاء والسرّاء ليتضرّعوا، وينيبوا إلى الله، فما نجع فيهم لا هذا ولا ذاك، ولم يتنبّهوا بهذا ولا ذاك، بل قالوا ما قالوا، وإنما هو الدَّهر تارات وتارات، ولم يتفطّنوا لأمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين، وهذا خلاف حال المؤمنين الذين يصبرون على الضرّاء، ويشكرون في السّراء.

وفي **الصحيح**: «عَجَبًا لأمرِ الْمُؤْمِنِ إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأِحَدٍ إلاَّ لِلْمُؤْمِنِ: إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خيْرًا لَهُ».[٤٠٤٦]

[٤٠٣٩] ديوان الحطيئة؛ **شرح شواهد الكشاف** لمحب الدين الأفندي، ٣٧٢/٤؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٨٣/٦.

[٤٠٤٠] **تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات شرح شواهد الكشاف**، للمحب الدين الأفندي، ٣٧٢/٤؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٨٥/٦.

[٤٠٤١] **كتاب ديوان لبيد بن ربيعة العامري**، ص ١٢٠؛ **الكشاف** للزمخشري، ١٢٧/٢.

[٤٠٤٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٨٥/٦؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٩و.

[٤٠٤٣] **اللباب**، لابن عادل، ٢٣٣/٩.

[٤٠٤٣] **الكشاف** للزمخشري، ١٢٧/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٠٩/٤.

[٤٠٤٤] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٠٩/٤.

[٤٠٤٥] **اللباب في علوم الكتاب**، لابن عادل، ٢٣٤/٩.

فَالْمُؤْمِنُ يَتَفَطَّنُ لِمَا ابْتَلاهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: " لَا يَزَال الْبَلَاء بِالْمُؤْمِنِ حَتَّى يَخْرُج نَقِيًّا مِنْ ذُنُوبه، وَالْمُنَافِق مَثَله كَمَثَلِ الْحِمَار لَا يَدْرِي فِيمَ رَبَطَهُ أَهْله وَلَا فِيمَ أَرْسَلُوهُ». ولَمَّا لم يتنبهوا عن غفلتهم بإحدى الحالتين، ولم ينتقلوا عمَّاهم فيه بالبليّتين، فلم يبق بعد ذلك إلا أن تؤخذوا أخذًا شديدًا جزاءً بما صنعوا فأخذناهم أشدَّ الأخذ وهو الأخذ فجأة من غير شعور منهم؛ فإنه أعظم حسرةً، وأوضع وقعةً فلذلك قال عليه السلام: «مَوْت الْفَجْأَة رَحْمَة لِلْمُؤْمِنِ وَأَخْذَه أَسَف لِلْكَافِرِ»

فالفام معطوفٌ على جملة ﴿عَفَوْا﴾ وما عطف عيه؛ لأنَّ الأخذ ليس مسببًا عن العفاء فقط، بل عنه، وعن المقالة الجاهلية والبغتة الفجأة، وهي الأخذُ على غرّة من غير مقدمة يؤذن بالنازلة.

يقال: بغَتَه يَبغَتُه، بَغْتًا وبَغْتَةً، نصبها على المصدريّة، أو الحالية، من «هُم» أي: آمنين مغترّين بما هم فيه، وكذا الجملة بعدها، لكنها مؤكِّدة، وفي هذا الإجمال بعد تفصيل ذكر الأنبياء مع أممهم المذنبين الهالكين إشعارٌ بأنَّ الاستئصال ليس بمختصّ لهم، بل هذا عادتُنا لمن سلك مسلكهم، وأنَّه تعالى لايعجل العقوبة، بل يقدّم لهم المقدمات المنذرة بالهالك، لعلّهم يعتبرون، ويؤمنون، ثُمّ إنَّه تعالى، يكشفها عنهم لكي يشكروا به، فإن أبوا إلا الإصرار أخذهم بالإهلاك بغتةً، وكلّ هذا تسلية لنبيّه، وتحذيرٌ لقومه، وقد أخذوا بالجوع، ثمّ كشف عنهم، ولم يؤمنوا بهن كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون، ٧٦/٢٣]، ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان، ١٠/٤٤]، إلى قوله:﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان، ١٥/٤٤]، ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ [**٢٠٢/و**] الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان، ١٦/٤٤]، وفي قصصهم عبرة لمن يخشى عذاب الآخرة؛ لأنَّ ما أصابهم أُنموذج مما أعدَّلهم فيها، ومع ذلك إذا رأى شدَّته، وفكر عظمه اعتبر بذلك عظم الموعود، وحصَّل زاد اليوم المشهود، وهو التقوى الذي هو السبيل الأقوى، والعروة الوثقى لتحصيل كلِّ سعادة دينيَّة ودنيويَّة، وتكميل كلِّ منزلة دنيويّة وأخرويّة بها ترك المعاصي، والمنكرات، وبها الإتيان، والإقبال على جميع الطاعات، وبها الخلاص عن الدّركات، وبها الوصول إلى الدَّرجات، وإليه الإشارات بقوله:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (٩٦)﴾

القرية: مجتم الناس من: قريت الماءَ إذا جمعته، فتشمل المدينة، والتي حواليها، والمراد جنس القرى أو القرى التي دل عليها قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾ [الأعراف ٩٤/٧]، أو مكَّة وما حولها، وفيه أنَّ السُّورة مكِّيَّة ولم يقع العذابُ على أهلها، ورسول الله فيها لقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال ٣٣/٨] ويمكن أن يقال: يجوز أن يكون العذاب المنفي هناك ما يكون على طريق الاستئصال، ولو لتعليق الثاني بالأول الذي يجب بوجوبه، وينتفي بانتفائه، والفرق بينها وبين «إنْ» أنها قد تدخل على ما لا يمكن أن يكون كقولك: لو كان الجسم قديمًا لاستغني عن الصَّانع، وإن تدخل بالذي يمكن أن يكون، وأن لا يكون كقولك: إنْ آمن هذا استحق الثَّواب، وفتح أَنَّ بعدها؛ لِمَا أنها لا تدخل إلا على الفعل؛ فـ«أَنَّ» مع اسمها وخبرها في تأويل مفرد في محلّ الرَّفع بفعل مقدَّر ﴿آمَنُوا﴾ بالتَّصديق ﴿واتَّقَوْا﴾ الشّرك أو المعاصي، أو بفعل الطَّاعات وترك المحرمات، أو آمنوا باللِّسان واتَّقوا بالجنان؛ لما قال عليه السلام: «إِنَّمَا التَّقْوَى هَهُنَا وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ»،[٤٠٤٧] وهذا واضح بالنظر إلى الحديث، ولكن فيه ضعف من جهة إطلاق الإيمان على ما باللِّسان، ويمكن أن يراد به التصديق، ويراد بالتقوى

[٤٠٤٦] **صحيحمسلم**، ٢٢٩٥/٤ (٢٩٩٩).

[٤٠٤٧] **صحيح مسلم**، ١٩٨٦/٤ (٢٥٦٤)

ملكة قلبيّة على ترك المناهي، فيكون جنانيًّا أيضًا، فلا إشكال، وفي التعليق التعليق إشعار بقلّة إيمان أهل القرى الذي أرسل فيهم الرسل وتبيَّن لهم السُّبل يرشدك إليه قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس ١٠/٩٨].

وفتح البركات عليهم: تيسيرها عليهم كما يُيَسَّر أمرُ الأبواب المستَغْلِقَة بفتحها. ومنه قولهم: فَتَحْتُ على القارئ، إذا تعذَّرتْ عليه القراءةُ فيسَّرْتَها عليه بالتَّلقين.[٤٠٤٨]

«والْمُستَغْلِقَة»: بكسر اللام، من: استغلق البابُ، ومنه: استغلق عليه الكلام، ارتجّ شبّه التيسير بفتح المغلق، فأطلق الفتح استعارة.

وقيل: ﴿فَتَحْنَا﴾ فصارت تبعيّة، وفي عبارة« أمر الأبواب» إشعارٌ بأنَّها تمثيليّة حيث اعتبر في فتح الأبواب أحوالٌ. وقد يقال: لا حاجة إلى جعلها تمثليّة؛ لأنَّ التَّشبيه على ما مرّ. وجاء اعتبار الاستغلاق من ضرورة الفتح، وذكر السَّماء والأرض لتعميم الجهات لا لتعيين ما فيه البركات، كما هو رأي من فسرّهابالمطر والنَّبات.[٤٠٤٩]

وأصل البركة المواظبة على الشَّيء، ومن ههنا قيل: تابعنا عليهم بالمطر من السَّماء والنَّبات من الأرض، ورفعنا عنهم الجدب والقحط. وقيل: بركات السَّماء إجابة الدعاء، وبركات الأرض تيسير الحوائج.

وفيه تنبيهٌعلى أن العبرة ليست بكثرة النِّعمة، إنما العبرةُ بالبركة في النعمة؛ حيث لم يقل: لضاعفنا عليهم، بل ذكر البركات النَّاميات، والخيرات الثَّابتات، ﴿وَلَكِن كَذَّبُواْ﴾ الرُّسل، وتعوّدوا الإباء والاستكبار، ولم يقلقوا عن الإعراض، والإصرار استدراك مما دلّ عليه الجملة التعليقيّة، أي: ما آمنوا وما اتَّقوا ﴿**وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُمْ**﴾ بالسِّنين ونقص من الثمرات، وأنواع المعاهات، وأصناف العقوبات ﴿**بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**﴾ بسبب ما يكسبونه من المخالفة، والكفر، والتَّكذيب، والمعاصي، أو بسبب كسبهم أو بسبب أنَّهم فريق كانوا على سوء العمل، وكان للدَّلالة على استمرارهم في ذلك، واستقرارهم فيه، ولا ينافي ذلك ما وقع للأولياء من أنواع البلاء؛ لأنَّ ما وقع لهم على طريق القهر، والعقوبة، وما يقع لهم على طريق اللُّطف، والمثوبة، ومحو الزّلات، ورفع الدَّرجات وغير ذلك، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام ٦/ ٤٤]؛ لأنَّ ما علّق على إيمانهم، وتقواهم الفتح على طريق الكرامة، وما فتح على الناسين على سبيل الاستدراج. أرشدنا الله إلى أوضح المنهاج.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨)﴾

اختلف في العواطف بعد همزة الاسفهام، فقيل: عطفٌ على مذكور قبلها لا مقدَّرَ بعدها بدليل أنَّه لا يقع في أوّل الكلام، وقيل: بل بالعكس؛ لأنَّ الاستفهام للصدر، والمصنِّف يحملُها في بعض المواضع على هذا، وفي البعض على ذاك، بمقتضى المقام، ومساق الكلام، ولا يبطل الصدارة لها؛ إذ لم يتقدّمها شيءٌ من الكلام الذي. [**٢٠٢**/ظ].

دخلت هي عليه، وتَعلَّق معناها بمضمونه، غايةُ الأمر أنَّها توسَّطت بين الكلامين المتعاطفين؛ لإفادة إنكار جمع الثاني مع الأوّل، أو وقوعه بعده متراخيًا، أو غير متراخٍ، وهذا مراد من قال: إنَّها مُقْحَمةٌ مزيدةٌ لتقرير معنى الإنكار أو التَّقرير، أي: مقحمة على المعطوف مزيدة بعد اعتبار عطفه، ولم يرد أنَّها مزيدةٌ بمنزلة حروف الصّلة غير مذكورة؛ لإفادة معناها.

[٤٠٤٨] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٢٧.

[٤٠٤٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٩ظ.

والقصد إلى إنكار أن يقعَ بعد أخذ قوم شعيبٍ أمنُ أهل القرى أن يجيئَهم البأس بياتًا، ويجيئَهم البأس ضحًى من غير اعتبار ترتيبٍ بينهما، فلذلك عطفت الأولى بالفاء، والثانية بالواو، ودخلت الهمزة؛ لإفادة إنكار أن يقعَ بعد ذلك الأخذ هذان الأَمنان، ومع وضوح معنى الكلام، وصريح لفظ المصنِّف، أعني: «أَبْعَدَ ذلك أَمْنٌ»، قد سبق إلى بعض الأوهام أنَّ المراد إنكار الأمن الأوّل عقيبَ أخذ الأوّلين بخلاف الثاني؛ فإن إنكارُه مع إنكار الأوّل، لا بعده.

فإن قيل هلَّا جعل المعطوف عليه، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف ٩٦/٧] وأنَّه أقربُ؟

قلنا؛ لأنَّ مساقَ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ إلى ﴿يَكْسِبُونَ﴾ مساقُ التَّكرير والتَّأكيد بخلاف ما قبله ؛ فإنَّه لبيان حال القرى، وقصّة هلاكها مقيّدًا، فالعطف عليه أنسبُ، وإن كان هذا أقرب.[٤٠٥٠]

﴿بَيَاتًا﴾ مصدرٌ بمعنى البيتوتة، ظرف بتقدير الوقت، أو حالٌ من المفعول، أي: بائتين، أو بمعنى: التَّبْييت، كالسلام بمعنى: التَّسليم، حال؛ من الفاعل، أي: مُبَيِّتًا، أو من المفعول، أي: مُبَيَّتين، أو مصدرٌ؛ لأنَّ التَّبييت نوعٌ من الإتيان؛ فكأنَّه قيل: إن يُبيِّتهم بأسُنا تَبييتًا.[٤٠٥١]

﴿وَهُم نَائِمُونَ﴾ حالٌ من الضَّمير البارز أو المستتر في ﴿بَيَاتًا﴾ على كونه حالًا، أي: أفأمنوا أن يأتيهم عذابنا وقت بياتٍ فيبيتهم، وهم نائمون ساهون لا يشعرون، كما يبيِّت العدوُّ المباغت، وتكرير الاستفهام إنكار غب إنكار لأمنهم.

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: ﴿أَوْ﴾[٤٠٥٢] بالسُّكون على الإضراب لا على وجه الإبطال، بلكقوله: ﴿الٓمٓ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ [السجدة ٢/٣٢]، ثم قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [هود ١٣/١١]، أو على أنَّها التي في قولك: ضَرَبْتُ زيدًا أو عمرًا، أي: أفأمنوا إحدى هذه العقوبات، و﴿أَهْلُ الْقُرَى﴾ هم المذكورون أوَّلًا، وهم أهل مكَّة وحواليها، بل من بعث إليهم نبيًّا.

﴿ضُحًى﴾ نصب على الظرف، ومن ههنا يظهر أولويَّة جعل ﴿بَيَاتًا﴾ ظرفاً-أيضًا- للتناسب.

والضُّحى: بين البُكرة والضحوة، وفي الأصل ضوءُ الشَّمس إذا أشرقت، يقال: ضحى الشمس تضْحو ضَحْوًا سمِّي به الوقت المذكور لتكامل شعاعها حينئذٍ، ويكون منصرفًا وغير منصرفٍ، فالمنصرف ما لم يرد به وقته من يومٍ بعَينه نحو: «ضُحاك ضحًى مباركٌ».

فإن قلت: «أتيتك يوم الجمعة ضحًى»، فهذا لا ينصرف، بل يلزم النَّصب على الظرفيَّة.[٤٠٥٣]

وقيل: المراد النهار لمقابلة قوله: ﴿بَيَاتًا﴾، فإن معناه: ليلًا ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يلهون بصرف الهمّ بما لا ينفع أصلاً من فرط الغفلة، ويشتغلون بأمور الدُّنيا، قال تعالى: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الحديد ٢٠/٥٧] وفي القرينتين ظرفان، وحالان يناسبان لهما، وصيغة الاسم في الحال الأولى؛ لأنَّها حالة ثبوتٍ واستقرارٍ للبائتين، وصيغة الفعل في الثَّانية؛ للدَّلالة على التجدُّد المناسب للُّعب؛ لاشتغالهم بأفعالهم شيئًا فشيئًا.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾

[٤٠٥٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٥٩ظ-٣٦٠و.

[٤٠٥١] **الكشاف** للزمخشري، ١٢٩/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١١٠/٤.

[٤٠٥٢] **النشر** لابن الجزري، ٢٠٣/٢.

[٤٠٥٣] **اللباب**، لابن عادل، ٢٣٥/٩-٢٣٦.

لَمّا ورد أن يقال: فعلى ما ذكر في تقريرِ الحروف العاطفة الدَّاخلة عليها همزة الاستفهام، كان المناسب أن يستَمِرَّ على طريقة الواو؛ ليكون المجموع في حيِّز ﴿أَفَأَمِنَ﴾ فيستفاد إنكارُ وقوعِه بعد أخذهم، فأيُّ حاجةٍ إلى استئناف الفاء، وقصد ترتيبٍ لهذا الأمن على حدةٍ؟ أجاب عنه المصنف[٤٠٥٤] بأنه ليس أَمنًا آخر، حتَّى يعطف بالواو؛ ليكون المجموع في حيِّز ﴿أَفَأَمِنَ﴾، بل هو تكريرٌ لماسبقَ على طريقة الجمع بعد التَّقسيم مع زيادة التَّعميم قصدًا إلى زيادة التَّحذير والإنذار، مع أن الآيات طرقت بها آذان قومٍ لا يسمعون الآيات، وقلوب طائفة لا يتأملون البيّنات، فيقرع لهم العصا مراتٍ، ويقعقع السنّ تاراتٍ، فح يرجع الضمير إلى أهل القرى المبعوث إليهم نبيُّنا المشار إليهم بقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ تهديدًا للموجودين، ولو جعل الضَّمير إليهم وإلى القرى الهالكة المشار إليه بقوله تع: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى﴾ تكرير الجملة ما سلف من عزة القرى السَّالفة أيضًا على معنى أن الكلَّ نتيجة الأمن من مكر الله لم تخل عن وجهٍ.[٤٠٥٥]

وفيه وجهٌ ثالثٌ ذكره النسفي عن الحسن: «من أنَّ قوله:﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَى﴾ ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰ﴾﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ كلُّها من أمم السَّالفة، وفي ضمنه تحذير هذه الأمة عن مثل صنيعهم؛ لئلا ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك»[٤٠٥٦].

والمكر: الاحتيال بإظهار خلاف الإضمار، وإن شئت قلت إضرار أحدٍ من غير أن لا يشعر به.

وقيل: أصله الالتفاف، ومنه: ساقٌ ممكورة أي: ملتفة حسنة.

والمكور شجر ملتفّ، فمعنى:[**٢٠٣**/و]

مَكَرَ يَمْكُرُ مَكْرًا التفَّ تدبيره على مكروه لصاحبه.

وههنا استعارة لأخذ العبد بغتةً، ومن حيث لا يحتسب ولاستدراجه إيَّاه بما أنعم عليه في دنياه، والشبه الإخفاء والإضرار من حيث لا شعور.

وقيل: سمِّي العقوبة على أيِّ وجهٍ كان باسم الذَّنب الذي وقعت عليه العقوبة، وفي الإضافة من التَّهويل ما لا يخفى، ولما فيه من التَّشديد الشَّديد، والتَّهديد المدير، لا يأمن العاقل من الوعيد، نعم القول ما نقل عن عليٍ رضي الله عنه: لا تُنزلوا الموحِّدين العارفين المخبتِين الجنَّةَ، حتى يكون الله هو الحكم فيهم؛ لأن الله تعالى يقول:﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾، ولا تُنزلوا الموحِّدين المذنبين النَّار، حتى يكون الله هو يحكم فيهم؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف ١٢/٨٧].[٤٠٥٧]

وعن الحسن: المؤمن يعمل بالطَّاعات وهو مشفق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.[٤٠٥٨]

وقال الإمام أبو منصور: الآيتان على المعتزلة؛ لأنهم يأمنون مع الصَّغائر مكرَ الله، ويقولون: ليس له أن يعذِّبهم عليها، وييأسون من روح الله مع الكبائر، ويقولون ليس له أن يعفو عنها.[٤٠٥٩]

[٤٠٥٤] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٢٩؛

[٤٠٥٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٠و.

[٤٠٥٦] **التيسير في التفسير** للنسفي، ٦/٤٤١.

[٤٠٥٧] **التيسير في التفسير** للنسفي، ٦/٤٤٠.

[٤٠٥٨] **تفسير ابن كثير**، ٦/٢٠٣.

[٤٠٥٩] **تأويلات القرآن** للماتريدي، ٥/٤٣٦؛ **التيسير في التفسير** للنسفي، ٦/٤٤١.

قيل: الفاء متعلّق بمقدَّرٍ، كأنَّه قيل: فلمَّا أمنوا خسروا، فلا يأمن، «والظاهر أن يقال: إذا كان أخذه، واستدراجه على هذا الوجه، فلا يأمن».

وقيل: الفاء هنا للتنبيه على تعقيب العذاب أمن مكر الله مكر الله الخاسرون الذين خسروا أنفسهم باشتراء الضَّلالةعلى الهدى، والغفلة، والجهالة بالنَّظر، والاعتبار، وفي الكلام تصريحٌ بما تضمَّنته همزة الإنكار من النَّفي في المواضع المتقدِّمة، وإظهار موضع الإضمار؛ تشديدًا للوصية به، والاهتمام بشأنه مع ما فيه من التَّكرير الموجب للتقرير مع ما سبق من تهويل الإضافة، وذمِّ الأمن بأشَدِّ الذمِّ بحصره لمن تحقق منهم الخسران، وأحاط بهم الخذلان. ومن ههنا استدلَّ على أنَّه كفر، كما أن اليأس كذلك.

وقد قال شيخنا **جمال الدّين** رحمه الله: واتَّقوا أن تقطعوا حبل الرّجاء، أو تخرقوا ثوب خوفٍ حين ما حلّ انقباض وانشراح من عذاب الله خافوا، والرتجوا من رحمته، أنَّ كلًا منهما للمؤمن النَّاجي جناح.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾

عطفٌ على الجملة قبلها؛ إذ الأصل: «وَأَ لَمْ يَهْدِ»، لكن الهمزة قدِّمت للصدر، استفهام على وجه الإنكار، انتفاء الهداية ليفيد إثباتها، وفاعله ضميرُ اسم الله، ويعضده القراءة بالنون،[٤٠٦٠] أو العائد إلى ما يفهم من السباق، أي: أو لم يهد ما جرى للأمم السَّابقة، أو﴿أَن لَوْ نَشَآءُ﴾

والهداية: يتعدّى إلى المهدي بنفسه، فاللام لتضمينه معنى: «يبيّن».

وقال النِّحرير: التضمين على النّون، حيث ذكر المفعول الثاني، وأمَّا على الياء، فمن التنزيل منزلة اللازم،[٤٠٦١] أي: أو لم يفعل الهداية لهم، وردّ بأن التنزيل يكون بالنِّسبة إلى أحد المفعولين مع ذكر الآخر، كما يكون بالنِّسبة إلى أحد المفعول الصريح، فالقراءتان متساويتان في إعتبار التضمين والتنزيل، ودفع بأن قصد التعلّق إلى الثاني دليلٌ على قصد التعلّق إلى الأوّل، سيّما عند ذكرها يصلح أوّل أعني: ﴿لِلَّذِينَ﴾ بخلاف الياء؛ إذ لا قصد إلى التعلّق بشيءٍ.[٤٠٦٢]

﴿**يَرِثُونَ**﴾ يخلفون من خلا قبلهم، ويرثون أرضهم بعد هلاكهم. و﴿**أَنْ**﴾ مخفَّفة من الثَّقيلة، واسمها ضمير الشأن، ومفعول ﴿**نَشَاءُ**﴾ محذوفٌ لدلالة جواب «لو» عليه، وهو: ﴿**أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ**﴾، أي: بجزائها، أو أخذناهم، وعاقبناهم بسبب كفرهم.

وأتى جوابها بغير لامٍ، وإن كان مثبتًا على أحد الجائزين، و﴿أَنْ﴾ مع ما في حيّزها في محل النَّصب على أنَّه مفعول ثان ﴿يَهْدِ﴾، أو في محل الرَّفع فاعلٌ له، أي: «أو لم يهد لهم هذا الشأن»، وهو أنَّا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا مَن قبلهم، وأهلكنا الوارثين كما أهلكنا الموروثين.[٤٠٦٣]

[٤٠٦٠] «أَوَلَمْ نَهْدِ لهم». وهي قراءة شاذّة، مروية عن ابن عباس والسلمي. **مختصر في شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٤٠؛ **البحر المحيط**، ٣٥١/٤.

[٤٠٦١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٠و.

[٤٠٦٢] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٢٦٦/٤.

[٤٠٦٣] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١١٢/٤.

﴿وَنَطْبَعُ﴾[٤٠٦٤]عطفٌ على ما دلَّ عليه، ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ﴾ استفهامٌ بمعنى الإثبات إنكارٌ لتماديهم في الغفلة؛ فكأنه قيل: قد بيَّن لهم الشأن المذكور أنه لا ينبغي للعاقل اقتراف ما هلك به الأوَّلون، لكنَّهم يغفلون، ونطبع.

فالطبع: جزاءٌ لما فعلوا، أو استئنافٌ على: ونحن نطبع، ولا نعتبر، معطوف عليه معيَّن، وهي: الاستئنافيّة الدَّاخلة على الجملة المزيلة والمعترضة، فلا ينافي ما قيل الجملة، إذا قطعت عمَّا قبلها لم يكن موضعًا لدخول الواو؛ لأنَّ المراد منه واو العطف، أي: أنَّ من شأننا وعادتنا الطَّبع على أمثال هؤلاء، فلذلك اقْتَفَوْا آثار من قبلهم، ولم يعتبروا بالآيات، وأمنوا من البينات كمستخلفهم خذوا النَّعل بالنَّعل، ففيه تذييلٌ وتأكيدٌ؛ لما نفي عليهم من الغرَّة والأمن والخسران، ويضعف العطف على ﴿يَرِثُونَ﴾ من جهة لزوم الفصل بين إبعاض الصِّلة بالأجنبيّ؛ لأنَّ المعطوف على الصِّلة صلةٌ، ولا تعلَّق للشَّرطيَّة بالصِّلة سواءٌ كانت فاعلًا أو مفعولًا، ولا يعطف على ﴿أَصَبْنَاهُمْ﴾؛ لاستلزامه انتفاء الطَّبع؛ لأنَّ «لو» تقتضي انتفاء جُمَليَّتها واللازم بط، لا يقال: لا نسلم البطلان؛ لأنَّ المذكور كفرهم وذنبهم، وهؤلاء لا يلزم الطبع، وقد يهدَّد الكافر به، فهدّدوا بالإصابة بالذُّنوب، والطَّبع على القلوب ولئن سلَّم فليكن زيادة الطَّبع، [**٢٠٣**/ظ] وإدامته لأنَّا نقول السباق، والمساق، والسياق يدلُّ على كونهم مطبوعين، أمَّا السباق؛ فلأنه إنما لم يؤت بالفاء بين قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ وقوله: «﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ﴾؛ لما أنَّهما متفقتان للأمنين أمن إتيان البأس بياتًا، وأمن إتيانه ضحًى، فالأمن مكر الخاسر مطبوعٌ على قلبه، وأمَّا المساق فلأنَّ الكلام سيق لإنكار الغفلة والغرَّة التي هم فيه، والأمن ممَّا أصاب من سبقهم، لا على الغفلة، والأمن من أن يطبع على قلوبهم، وأمَّا السِّياق فلقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ما يتلى عليهم من آيات الله سَماع تدبُّر واعتبارٍ، فكأنَّهم عدموا فَهمَ القلوب واستماع الآذان؛ لأنَّ المراد استمرار هذه الحال؛ لأنَّه داخلٌ في حكم المشيئة؛ لأنَّ عدم السماع كان حاصلًا، ولقوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾، ولقوله: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾؛ إذ يعمُّ أهلَ القرى من الوارثين والمورثين.[٤٠٦٥]

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١)﴾

﴿**تِلْكَ**﴾ مبتدأ ﴿**الْقُرَى**﴾ صفته، والخبر ﴿**نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا**﴾ بعض أنبائها، ولها أنباءٌ غيرُها لم نقصَّها عليك، فهذا الاعتبار فائدة الإخبار، أو الخبر ﴿الْقُرَى﴾، و﴿نَقُصُّ﴾ حالٌ باعتبار إفادة الكلام، أو خبرٌ بعد خبرٍ؛ فإن قلت: بأن اللَّام للجنس، فلا فرق بين جعل ﴿نَقُصُّ﴾ حالًا، وجعله خبرًا ثانيًا في عدم الإفادة بناءً على أنَّ الحال فضلةٌ، وأنَّ للعهد فلا فرق بينهما في الإفادة بدونهما.

قلت: المعنى على التَّقديرين مختلف؛ لأنَّه إذا جعل حالًا يكون المقصود تقيّده بالحال؛ كما في: «هذا زيدٌ قائمًا» إذا جعل قيدًا للخبر، إنَّ الكلام إنَّما يكون مع مَنْ يعلم أنَّه زيدٌ، وإلا جاء الإحالة؛ لأنَّه زيد قائمًا أو لا، فإذا قلته لمن يعرفه، فيعمل في الحال التَّنبيهُ؛ أي: أُنبِّه، أو الإشارة أي: أُشير إليه في حال قيامه؛ لأنَّ هذا إشارةٌ إلى ما حضر بزيدٍ.

[٤٠٦٤] وعبارة المصنف: «لأنَّ القوم كانوا مطبوعًا على قلوبهم موصوفين بصفة مَن قبلهم من اقتراف الذُّنوب والإصابة بها». وأنت خبير بأنَّ قوله: «موصوفين» إلى آخر مع كونه زيادةً في البيان ليس بمستقيمٍ؛ لأنَّ القوم ليسو كذلك، كيف وقع ﴿أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أصل جواب ﴿لَوْ﴾ فدلّ على الانتفاء قطعًا، فكيف يصحُّ أنَّهم موصوفون بصفة مَنْ قبلهم من الإصابة بالذّنوب. وما يقال: إنَّ الإصابة بالذّنوب اقترافها واكتسابها لا الإهلاكُ بها، أو استحقاق الإصابة ففساد ظاهر من النظر في قوله: «وهذا التفسير يؤدي إلى خلوها عن هذه الصفة وأنَّ الله لو شاء لا تَصِفوا بها. منه. **تفسير القرماني** للقرماني، جارالله، رقم:١١١؛ ورق:٢٠٣ظ؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٠ظ.

[٤٠٦٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٠و.

فقوله: «ما حضر» تقييد المشار إليه بالحال، وإلَّا فلا فائدة في الجملة؛ لأنَّ السَّامع يعرفها، فكذا الآية؛ لأنَّ المعنى: نُخبرك عن القرى التي عرفتها في حال أنَّا قاصُّون بعض أنبائها ولها أنباءٌ لم نَقُصّها عليك.

وإذا كان المقصود من الإيراد هذا فلا بدَّ من ذكر الحال.[٤٠٦٦]

فكونها فضلة ليس من جميع الوجوه، وأمَّا إذا جعل خبرًا بعد خبر، فـ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ على أسلوب ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، و﴿نَقُصُّ﴾ خبر ثان تفخيمًا على تفخيمٍ؛ حيث أخبر عنها أوَّلًا بأنَّها القرى المعلومة حالُها، والمشهورة صفتها، أو القرى الكاملة في شأنها، وثانيًا بأنَّ لها قصصًا وأحوالًا أخرى مطوية، وما يقال: إنَّ حصول الفائدة بانضمام الخبر الثاني الذي هو بمنزلةِ الجزءِ على طريقة: «حُلو حَامِض»، فضعيف من حيث إنَّ هذا ليس من ذاك القبيل؛ لأنَّه بمعنى:«مُزَّ»، وههنا كلّ من الخبرين له استقلال.[٤٠٦٧]

وقال **النحرير**: لاخفاءَ في أنَّ الكلام فيما إذا أُريد الجنس، لا تلك القرى المعلومةُ حالُها وقِصّتُها، أو تلك القرى الكاملةُ في شأنها مثل ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة ٢/٢]؛ فإن ذلك بمنزلة الموصوف.[٤٠٦٨]

ولا يخفى عليك أنَّ إرادة الجنس غيرُ ظاهرة بالنَّظر إلى المقام، وعلى تسليم ذلك، وتسليم كونه بمنزلة الموصوف، ما الَّذي فيه من الأشكال، حتى يورد عليه بعض المقال.

وقد قال **صاحب النهر**:[٤٠٦٩] الخطاب لرسول الله، و﴿الْقُرَى﴾ هي: بلادُ قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ بلا خلافٍ بين المفسّرين، وجاءت الإشارة بـ«تلك» إشارةً إلى بعد هلاكها، وتقادُمه، وحصل الرّبط، بين هذه، وبين قوله: ﴿ولَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى﴾ [الأعراف٧/٩٦] و﴿نَقُصُّ﴾ يحتمل التبقيةعلى حاله من الاستقبال، والمعنى: قد قصصنا عليك ﴿مِنْ أَنْبَائِهَا﴾، ونحن نقصّ عليك منها أيضًا مفرّقًا في السُّوَر، ويجوز أن يكون عبَّر بالمضارع عن الماضي، أي: ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ قصصنا، والإنباء ههنا إخبارهم، وما آل إليه عصيانهم.[٤٠٧٠]

و﴿مِنْ﴾ التبعيضيَّة دلّت على أنَّ لها أنباء آخر لم نقصّها عليك، وإنما قصّ عليك ما فيه عظةٌ، وازدجارٌ، وإذكارٌ جرى على مَنْ خالف الرّسل؛ ليتَّعظ بذلك السّامع من هذه الأمَّة.

وقال النيسابوري: «والحاصل أنَّ تلك القرى المذكورة نقصُّ عليك بعض أنبائها، ولها أنباءٌ غيرها لم نقصّها عليك، وأيضًا خصَّصنا تلك القرى بقصص بعض أنبائها؛ لأنهم اغترّوا بطول الأمهال مع كثرة النِّعم، وكانوا أقرب الأمم إلى العرب، فذكرنا أحوالهم تنبيهًا على الاحتراز عن مثل أحوالهم».[٤٠٧١]

وقال عمر النَّسفي: «قصصنا عليك أخبارها فيما كان منّا إليهم من الإعذار، وما كان منهم من الإصرار».[٤٠٧٢] وفيها تسليةٌ للنَّبيّ عليه السلام، وإعلامٌ بأن الله ناصر الرُّسل والمؤمنين، ومهلك أعداءهم الكفرة المعاندين

[٤٠٦٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٤٩٤-٤٩٥؛ **نواهد الأبكار** للسيوطي، ٦/٣٧٧-٣٧٨؛ **حاشية الشهاب**، ٤/٣٣٦.

[٤٠٦٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٠ظ.

[٤٠٦٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٠ظ؛ **نواهد الأبكار** للسيوطي، ٦/٣٧٧-٣٧٨.

[٤٠٦٩] **هوالبحر المحيط** لأبي حيان الأندلوسي.

[٤٠٧٠] **البحر المحيط** لأبي حيان، ٤/٣٥٣.

[٤٠٧١] **غرائب القرآن ورغائب الفرقان** للنيسابوري، ٣/٢٩٢.

[٤٠٧٢] **التيسير في التفسير** للنسفي، ٦/٤٤٣.

والقصص: اتباع الحديث الحديث، يقال: فلان يقصّ الأثر، أي: يتبعه، ومنه: المِقصّ؛ لأنه يتبع في القطع أثر القطع، والنبأ الخبر عن أمر عظيم الشأن، وكذلك أخذ منه اسم النبيّ.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾

أي: ولقد جاء أهل تلك القرى ﴿**رُسُلُهُمْ**﴾ كلّ رسول منهم جاء إلى قومه، أضافهم ههنا إليهم، وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ [المائدة ٣٢/٥] إليه؛ لأنهم [**٢٠٤**/و] ينتفعون بهم، وهو تعالى مُرسلهم، فيصحُّ الملابسة في الاعتبارين ﴿**بِالْبَيِّنَاتِ**﴾ بالمعجزات والآيات الدَّالَّة على صدقهم.

قال عليه السلام: «مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنْ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».[٤٠٧٣]

﴿**فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ**﴾ عند مجيئهم بها، واللّام لتأكيد النفي والدَّلالة على استحالة إيمانهم لمنافاته لحالهم من إغراقهم في الكفر، وشدَّة شكيمتهم فيه؛ لأنَّ التقدير: فما كانوا مريدين له، وعلى أصل الكوفيِّين تأكيد الفعل معها أبلغ بدونها.

﴿**بِمَا كَذَّبُوا**﴾ ولا يجوز تقدير به وإن كان الموصول أيضًا مجرورًا بالباء لمغايرة المتعلّق ﴿**مِنْ قَبْلُ**﴾ من قبل مجيء الرُّسل بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم، يعني: أنَّهم كانوا أهل جاهلية مكذِّبين بالحقِ، فما وقع فصل بين حاليتهم بعد البعثة وقبلها، كأن لم يبعث إليهم أحد، أو فما كانوا ليؤمنوا مدَّة عمرهم، وإلى آخر آجالهم بما كذَّبوا به أوَّلًا عند مجيء الرُّسل؛ فإنَّ الفعل بما اشتمل على معنى الاستمرار في الحالات، وتلك الحالات متعاقبة، صحّ أن يقال: «بما كذبوا أوَّلًا».

فعلى الأوَّل المضارع وهو ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ على ظاهره، وعلى الثاني بمعنى الاستمرار، والباء على الوجهين صلة﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ كما في قولك: آمن بالله، ويمكن أن يكون سببيَّةً، و«ما» مصدريّة، أي: إنما لم يؤمنوا بالرسول لَمَّا خالفوا قبل مجيئهم عقلهم الهادي، وأبطلوا استعدادهم، أو لم يؤمنوا بهم قطّ، واستمرّ تكذيبهم لما حصل منهم التكذيب عند المجيء، والوجه الأوَّل مناسبٌ لأصول الاعتزال،

والثاني موافق بمذهبِ أهل السُنة؛ لأنَّ العقل غيرُ مستقلٍ لابدَّ من انضمام إنزال الكتب، وبعثة الرُّسل، فهؤلاء لَمَّا كذَّبوا الرسل والآيات، ولم تؤثِّر فيهم دعواتهم المتطاولة، والآيات المتتابعة، لاجرم لم يؤمنوا إلى آخر أعمارهم.[٤٠٧٤]

وهذا أنسب من الأوّل أيضًا لذكر الطَّبع بعده، أو وما كانوا ليؤمنوا عند مجيئهم بما كذَّبوه من قبل ذلك يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم؛ حيث أقرُّوا باللِّسان كرهًا، وأضمروا التكذيب.

ويجوز على هذا أيضًا السببيَّة والمصدرية، أو وما كانوا ليؤمنوا لو أصبناهم بعد هلاكهم بما كذَّبوا قبل هلاكهم، وهذا ما أراد مجاهدٌ من قوله: وهو كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام ٢٨/٦]، أو وما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات بما كذَّبوا من قبل رؤيتها، أو ما كانوا ليؤمنوا عند مجيئ الرُّسل بما كذَّبوا من قبل في علم الله تع، فإن من علم الله منهم التَّكذيب في الأزل لايؤمنون في الأبد، أو ما كانوا ليؤمنوا بما كذّب به آباؤهم، فهم وآباؤهم في الكفر سواءٌ.

﴿**كَذٰلِكَ**﴾ مثل ذلك الطبع العظيم الواقع على قلوب أهل القرى المارِّ ذكرُهم.

[٤٠٧٣] **صحيح البخاري**، ٩٢/٩ (٧٢٧٤).

[٤٠٧٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٩٦/٦.

و«الكاف» في محلّ النَّصب على أنَّه صفةُ مصدر محذوفٍ، أو الرَّفع ﴿**يَطْبَعُ اللهُ**﴾ والالتفات لإظهار لفظه الجلالة الدّالة على الألوهية، وكمال القهر لتناسب الطَّبع المذكور الذي فيه شديد القهر ﴿**عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكُفِرِينَ**﴾ والإظهار للإشعار بأنَّ سبب الطَّبع كفرهم الأصلي، وفسقهم الجبليّ، أو كفرهم بآيات الله والرُّسل، ولِلتعميم لهم ولغيرهم ممن لم يقدر إيمانهم.

وقيل: كما طبعنا على قلوب أهلِ القرى، نطبع على قلوب قومك المكذِّبين، وفيه رمزٌ إلى أنَّ عدم إيمانهم لذلك الطَّبع الشَّديد المسبّب ممَّا ذكر.

﴿**وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)**﴾ **وَقَالَ مُوسَى يَافِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤)**﴾

لأكثر النَّاس، فالآية اعتراض بين قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ وبين قوله: ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ وهذا صريحٌ بأنَّ الاعتراض لا يجب أن يتوسط بين الكلامين، بل يقعُ في آخر الكلام، أو لأكثر الأمم المذكورين، فيكون من تتمَّة الكلام السَّابق، ولأكثرهم متعلِّق بالوجدان، أو حالٌ من قوله: ﴿**مِنْ عَهْدٍ**﴾ وهو مفعوله، أو مفعول ثانٍ ويصحُّ ذلك بمواقفة ما بعده، والأوَّل باختلاف معنى الوجدانين.

و﴿**مِنْ**﴾ مزيدةٌ للاستغراق، وتأكيد النَّفي، والإشعار ينفي أنواعه، ودفعاته، والمراد نفي الوفاء به على سبيل المبالغة، حيث يقال: ما له عهدٌ لمن ينكث العهد، وأُريد بالعهد ما عاهدهم عليه، وهم في أصلاب آبائهم عليه السلام، حيث قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف ١٧٢/٧].

قال مقاتل: إنَّ الله أخذ مثاق ذرِّيّة آدم على المعرفة، فأقرّوا بذلك، فلمّا عقلوا نقضوا العهد،[٤٠٧٥] أو ما عهد إليهم في الإيمان، والتقوى بإنزال الآيات، ونصب الحجج، وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى﴾ [البقرة ٣٨/٢] الآية، أو ما عهدوا إليه تعالى حين في ضرٍّ ومخافة، مثل: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[يونس ٢٢/١٠] أوما عهدوا مع الأنبياء كما قال قوم فرعون لموسى عليه السلام: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز لَنُؤْمِنَنَّ﴾ [الأعراف ١٣٤/٧]إلى قوله:﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الأعراف ١٣٥/٧]. ولعله شامل لجملة ذلك، ولِمَا عاهدوا فيما بينهم، واسم ﴿إِنْ﴾ المخفّفة محذوفٌ، وفيه قولان: الأوَّل: ضمير الشَّأن، والحديث، والثاني: ضمير اسم الله، أي: «وإنَّا وجدنا»، والدَّليل على أنَّها مخفّفة مذكورٌ في أصل البصريّين، أي: علمنا أكثرهم الضَّمير فيه كالسَّابق ﴿لَفَاسِقِينَ﴾ مفعوله الثاني وذلك؛ لأنَّ ﴿إِنْ﴾ المخفَّفة، واللَّام الفارقة لا تدخلان إلا على المبتدأ والخبر، والأفعال الدَّاخلة. [**٢٠٥**/ظ]

عليهما، وهي لا تكون إلا من أفعال القلوب، وقيل: غيرُ عاملة بمباشرتها الفعل، فزال الاختصاص المقتضى لأعمالها.

وعند الكوفيين «إنْ» نافيةٌ، و«اللام» بمعنى: «إلّا» والمراد بفسقهم: خروجهم عن الطاعة مارقين عن الدين، أو نقضهم العهد وعدم الوفاء، ثُمّ أريد بذلك أكثر الناس، فالأمر ظاهر.

وأمّا إذا أريد اكثر الأمم المذكورين، فالحكم على الأكثر منهم، والنعي عليهم بعدم الوفاء والفسق؛ لأنَّ منهم مَن وَفَى بالعهد وحَفظَه، ولم يخرج عن الطَّاعة بالإيمان والتَّقوى، وسلوك سبيل الله على ما ينبئ عنه ذيل القصص المذكورة من ذكر إنجاء كلّ نبيٍّ مع من آمن به

[٤٠٧٥] **تفسير مقاتل بن سليمان**، ٤٠٥/١؛ **التيسير في التفسير** للنسفي، ٤٤٣/٦.

وقيل: قد يكون الكافر عدلًا في دينه، غير مرتكب لما يحرم في طريقته، وأكثرهم مع كفرهم فاسق في دينه، غير لازم لمذهبه، ناقضٌ للعهد، قليل الوفاء بالعقد.

وقال بعض العارفين: كأنه تعالى عاتب الجمهور حيث لم يفوا عهد الأزل، حيث وقف الكلُّ على ما وجدوا، وهكذا شأن من يلتفت فى مشاهدة المحبوب إلى غير المحبوب، ولكن هم معذورون؛ لان الحدثان لا يستقلّ أثقال محامل الكبرياء ومطايا القدم، والبقاء فى أودية الفناء.

وقال الجنيد قدس سره: أحسن العباد حالًا من وقف مع الله على حفظ الحدود، والوفاء بالعهود. قال الله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾.

وقال الأستاذ: نَجَم فى الغدر طارقُهم، وأفل من سماء الوفاء شارقُهم، فعدم أكثرهم رعايةَ العهد، وحقَّ لهم من الله قسمة الرَّدِّ والصدِّ.

ويقال: شكا عن أكثرهم إلى أقلِّهم، فالاكثرون من ردّه القسمة، والأقلون قبلة الوصلة.[٤٠٧٦]

وعن أنس رضي الله قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فقال: «أَلَا لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ».[٤٠٧٧]رواه أحمد، والبزّار، والطبراني في الأوسط، وابن حبّان في صحيحه.

وعنه عليه السلام: «مَا نَقَضَ قومٌ عَهْدًا إِلَّا الْقَتْلَ بَيْنَهُمْ».[٤٠٧٨] رواه الحاكم.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)﴾

البعث: الإرسال، وهو في الأصل: النَّقل باعتمادٍ يوجب الإسراع في الشيء.

فالبعث بعد الموت: نقل إلى حال الحياة، وبعث الأنبياء: نقل بالإرسال عن حاله إلى حال النبوّة.[٤٠٧٩]

﴿**مِنْ بَعْدِهِمْ**﴾ من بعد الرّسل في قوله: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ**﴾[الأعراف ١٠١/٧]، أو من بعد الأمم المدلول عليها بقوله: ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ [الأعراف ١٠١/٧]، والأوّل أوفق؛ لأنَّ تلك القصص ذكرت تسليةً لرسول الله صلى الله عليه وسلّم النبي أصالة، كما قال: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود ١٢٠/١١]. ولَمَّا سلَّاه، وبّخ أمَّته بقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بياتًا﴾ [الأعراف ٩٧/٧] إلى آخره، وزجرهم وعنَّفهم عاد إلى ذكر نبيّ، هو أعظمهم آيةً، وأكثفُهم أمَّةً؛ وأشبع في بيان أحواله مع أمَّته. ولهذا أفرز أطنب في قصّته كلّ الإطناب.

والذي يقوّي أنَّ الضَّمير راجع إلى الرّسل، أنّه قيل:﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ ولم يقل: ثم أنشأنا من بعدهم أمَّةَ فرعون، وبعثنا إليهم موسى.[٤٠٨٠]

وهو موسى بن عمران بن قاهر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.[٤٠٨١]

[٤٠٧٦]**عرائس البين وحقائق القرآن** للبقلي، ٤٥٢/١؛ **التيسير في التفسير** للنسفي، ٤٤٥/٦.

[٤٠٧٧]؛ **مسند أحمد**، ٣٣/٢٠ (١٢٥٦٧)؛ **مسند البزار**، ٤٣٩/١٣ (٧١٩٦)؛ **المعجم الأوسط** للطبراني، ٩٨/٣ (٢٦٠٦)؛ **صحيح ابن حبان**، ١٣٤/٥ (٤١٤٢).

[٤٠٧٨]**المستدرك على الصحيحن** للحاكم، ١٣٦/٢ (٢٥٧٧).

[٤٠٧٩]**مجمع البيان** للطبرسي، ١٣٢/٩.

[٤٠٨٠]**فتوح الغيب** للطيبي، ٤٩٩/٦.

ووزنه «مفعل»، والميم زائدةٌ؛ لكثرة زيادتها أوَّلًا كالهمزة، حتى صارت أغلب من زيادة الألف أخيرًا، غير منصرف؛ لأنه أسمٌ أعجمي، معرفة، وموسى الحديد عربي إن سُمِّيت به رجلًا لم تصرف؛ لأنَّه مؤنث ومعرفة على أكثر من ثلاثة أحرفٍ، كما لو سمِّيت بعناق لم تصرف.[٤٠٨٢]

﴿بِآيَاتِنَا﴾ بالآيات التِّسع المختصَّة بموسى العصا واليد البيضاء والسِّنون والقحط والجراد والقمَّل والضَّفادع والدَّم والطَّمس، وعدَّ البعض منها: فلِق البحر والحجر ونتق الجبل، وليس بذاك؛ لأنَّها بعد هلاك فرعون آيات لبني إسرائيل، ففي هذه التعريف الإضافي فائدة التَّعريف باللَّام، حيث قصد الإشارة إلى تلك الآيات.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ وزنه «فِعْلَوْن» مثل «برزون»، فالواو زائدةٌ؛ لأنَّها جاءت مع سلامة الأصول الثَّلاثة، والنُّون زائدة للزومها غير منصرف؛ لأنَّه اسم أعجمي معرفة عُرف في حالة تعريفه؛ لأنَّه نقل من الاسم العلم، ولو عرب في حالة تنكيره لَانصرف، كما ينصرف «ياقوت» في اسم رجلٍ.

﴿وَمَلَإِيْهِ﴾ وأشرافه، وتخصيصهم مع أنه عليه السلام مبعوث إلى غير أشرافه أيضًا؛ لأن بإيمانهم يؤمن الأتباع ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ الظلم لا يُعدّى بالباء، بل بنفسه، فوجهه أنه مجازٌ عن الكفر بقرينة الباء؛ فإنهما من وادٍ واحد، كما قال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان ١٣/٣١]، أو الباء للسَّببية، والمفعول محذوفٌ، أي: ظلموا النَّاسَ بسببها، حيث صدّوهم عنها، وأوعدوهم على الإيمان بها، وآذوهم على الإيمان، أو ظلموا أنفسهم، حيث ردّوها، ولم يقبلوها، أو ضمن معنى الكفر، أي: كفروا بها ظالمين إيَّاها بوضع الكفر موضع الإيمان بها الذي هو حقّها الواجب لوضوحها، وعدم الاشتباه فيها، أو معنى التَّكذيب، أو معنى الجحود.

﴿فَانْظُرْ﴾ نظر تأمّل واعتبارٍ بعين العقل. والخطاب لنبيّنا، أو لِمَن من شأنه الاعتبار ﴿كَيْفَ﴾ خبر مقدّم على ﴿كَانَ﴾ لتصدُّره واسمه ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾. [٢٠٥/و]

والجملة الاستفهاميَّة في محلِّ نصبٍ على إسقاط حرف الجرِّ، واللّام للعهد لا غير؛ لأنَّه إشارةٌ إلى فرعون وملائه، وإفسادهم ضلالهم وإضلالهم، وظلمهم المذكور؛ فلذلك فرّع أمر النَّظر بمآل أمرهم على ذكر ظلمهم، وقد كان مآلهم الإهلاك بالإغراق، ثم أُدخلوا النار فعُذبوا بالإحراق وهذه جملة إجماليَّة، ثم شرع التفصيل بقوله:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (١٠٤)﴾

خاطبه بأحسن ما يُدْعى به، وإجهالُه؛ لأنه من الألقاب الشريفة المخصوصة بملوك العَمالقة؛ فإن فرعون لقب لمَنمَلَكَ مصر، كتبَّع لمن ملك اليمنَ، والنَّجاشيّ لمن ملك الحبشة، ففيه ائتمار بالأمر الوارد في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ [طه ٤٤/٢٠] وهو فرعون يوسف آمن به، فلمّا توفّي يوسف عاد إلى الكفر، واستعبد بني إسرائيل، وكان اليوم الَّذي دخلفيه يوسف مصر، واليوم الَّذي دخل فيه موسى أربعمائة عام، والصحيح أنَّه ابن أخيه فرعون موسى الوليد بن مصعب بن الرَّيّان، وكان من القبط عمَّر أربعمائة سنة، ولفرط ظلمه وتجبّره، اشتقّ منه: «تَفَرْعَنَ» بمعنى: تَجَبَّرَ وظلم، وفرعون يوسف الوليد بن الرّيَّان.

﴿إِنِّي رَسُولٌ﴾ أي: إليك. وقيل: لم يقل: إليك؛ لعدم اختصاص رسالته عليه السلام له، لكن اللّائح أنّ التصريح بذلك لاينافي عدم الختصاص. والرسول: يجيء بمعنى المرسَل وبمعنى الرِّسالة، ومن الأوَّل قوله:

[٤٠٨١] **التيسير في الفسير** لعمر النسفي، ٤٤٥/٦؛

[٤٠٨٢] **مجمع البيان** للطبرسي، ١٣٢/٩.

أَلِكْـــني إليهـــا وخَـــيرُ الرَّســـول أعلَمَهُـــــــــم بنَـــــــــوَاحِي الخَـــــــبَرْ

ومن الثاني قوله:

لقــد كَــذَب الواشُــون مــا بُحْــتُ عنــدَهُمْ بِسِــرٍ ولا أرســلتُهم برســولِ[٤٠٨٣]

وهو منه عليه السلام بيان منّه الله تعالى له، وإظهار لرسالته؛ لأنَّ عادة الملوك أن لا ينالوا بمكروهٍ للرسول، ودعوة له إلى جناب المرسَل ورضائه ﴿**مِن رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ**﴾ صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾ ذكر ذلك؛ لأن فرعون ادَّعى الربوبية فنبّه على الوصف الذي ادَّعاه، وأنه فيه مبطل لا مُحقّ، وللإشعار بأن هذا الإرسال من مقتضى ربوبيته؛ ولأن منعم يجب الإيمان به شكرًا لنعمه.

وقد قيل: إنه عليه السلام حين ادّعى الرسالة بين يدي فرعون، ولم يخْلُ عن ارتياب منه، وكان قوله: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾، واردًا لإزالة ذلك الارتياب، كقول الرسل في المرّة الأولى: ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس٣٦/١٤]، ثمّ لَمَّا سمع فرعون قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾، أنكره، فزاد موسى عليه السلام في المبالغة؛ لما ذكر بعده،[٤٠٨٤] ولذلك بالغ فيه على ما يجيء كقول الرُسل في المرّة الثانية. ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس٣٦/١٤].

ذكر وهبٌ: أن موسى وهٰرون لَمّا دخلا دار فرعون ووقفا بين يديه، لَقَّن الله موسى دعوةً، فقال: لاإله إلا الله الحليم الكريم، وسبحان الله رب السماوات السبع وربّ العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين، اللهمّ إني أدرأ بك في نحره، وأعوذ بك من شرّه، أَستعين بك عليه، فاكفِنيه بما شئتَ، فتحوّل ما في قلب موسى من الخوف أمنًا، وتحوَّل ما في قلب فرعون من الأمن خوفًا فمن دعى بهذا الدعاء وهو خائف أمّنه الله تعالى، ونفَّس كربته، وخفّف عنه كربة الموت، فتأمّلها فرعون ساعةً حتى عرفهما، فقال له: من أنت؟ قال أنا رسول ربّ العالمين، قال: أسألك عن نسبك واسمك؟ قال موسى عبد الله وابن عباده وابن إمائه، أذلّ عباده وأفقرهُم إلى ربّ خلقني من ترابٍ، ثمّ يعيدني فيه، ثم يُنشرني منه يوم الحساب، وهذا النسب الذي تصير إليه يا فرعون، ومنه خُلقتَ وفيه تعود ومنه تُنشر، وإليه يصير الأوّلون والآخرون، وقال فرعون: لَغير هذا الاسم وهذا النسب أولى بك وألزم لك، أَوَلا تقول: عبدُ فرعون وابن عبيده وابن إمائه، الكافرُ لنعمه، الناسي لإحسانه، الغادر بسيده، اللّصُّ القاطع القاتل؟ وقال موسى: تبارك الله، هو أعزّ وأجلّ وأعظم من أن يكون معه إله، أو لعباده ربٌّ غيرُه، بل أنت يا فرعون أحقّ بما تقول، قال فرعون: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[الشعراء ٢٦/١٨-١٩] وصرت بعد ذلك أجيرًا ذليلًا خائفًا فقيرً طريدًا؟ وأجابه موس بما أجاب على نبيّن في سورة الشعراء.[٤٠٨٥]

﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥)﴾

خبر مبتدأ محذوفٍ، أوصفة لـ﴿رَسُولٌ﴾، ولكن يلزم تقديم الصِّفة الغير الصَّريحة على صريحها، فينبغي حينئذٍ جعل ﴿مِنْ﴾ للابتداء مجازًا، وتعليقها بـ﴿رَسُولٌ﴾، أو خبرٌ ثانٍ لـ﴿إِنِّي﴾، و﴿**الحَقّ**﴾ الواجب.

[٤٠٨٣] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ١٥/١٦.

[٤٠٨٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٠٣/٦.

[٤٠٨٥] **التيسير في الفسير** لعمر النسفي، ٤٤٨/٦.

وقيل: الثَّابت الدَّائم، والحقيق مبالغة فيه، وهو بمعنى فاعلٍ أو مفعولٍ ﴿**عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ**﴾ إنما قال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ في الرِّسالة تحميلَ العهدة على المرسل الذي نقل عنه الرِّسالة.[٤٠٨٦]

﴿**إِلاَّ ٱلْحَقَّ**﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ، و﴿الْحَقُّ﴾ مفعول به لتضمُّنه معنى جملة، أو مصدر، أي: القول الحقُّ، ثم إنَّ مدلول الكلام أنَّ موسى حقيقٌ واجبٌ على قول الحقّ، والأمر بالعكس؛ لأنَّ الأفعال والتروك يجبان على المرء لا العكس، فحمل على القلب، نحو: «عرضتُ النَّاقة على الحوض»لا من الإلباس مع ما فيه من المبالغة، كان الوجوب الذي هو صفته سرى إلى القول فاضمحلّ بذلك تضعيفه بتخصص ذلك [**٢٠٥**/ظ] بالضَّرورة، واشتراط التضمين بمعنى بديع، ومنه قوله:

وَتَلْحَـــقُ خَيْـــلٌ لا هَـــوادَةَ بَينَهـــا وتَشْـقى الرِّمــاحُ بالضَــياطِرةُ الحُمْــرِ[٤٠٨٧]

والمراد بـ«الخَيْلِ»: ههنا الرِّجال. و«الهوادة»: الصلح. و«الضَيْطَار»: الرَّجل الضخم الذي لا غناء عنده.وقياسُ جمعه الضَّياطير، إلا أنه عوّض الهاء عن المدّة كـ«بياطِرة» مِنْ بَيْطَارٍ، و«الحُمْرُ»: عندهم من صفة العَجَم وهي صفة حرم، والمعنى: وتشقى الضَّياطرة بالرِّماح.[٤٠٨٨]

فقلت: لوضوح المراد، أو جَعْل وجوبه على الواجب مجازًا عن لزومه له بعلاقة اللُّزوم؛ فإنَّ الواجب ومن يجب عليه بينهما ملازمة، فعبّر عن لزومه للواجب بوجوبه له، وفيه مبالغةٌ حسنة أو ضمن معنى حريص كقوله:

إِذا تَغَــنّى الحَمــامُ الــوُرقُ هَيَّجَــني وَوَلَــوْ تَعَزَّيْــتُ عَنهــا أُمَّ عَمّــارِ[٤٠٨٩]

حيث ضمَّنه «هَيَّجَ» معنى «ذكَّر»؛ فلذلك عُدِّي إلى ثانٍ وهو «أُمَّ عَمّارِ».«وَوَلَوْ تَعَزَّيْتُ عَنها»:معترضة، ولذلك لم يكون الضمير في «عنها»إضمارًا قبل الذِّكر، أي: ولو تسلَّيت عنها وتصبّرت، أو جعل بمعنى: جدير وخليق إلَّا أنَّه ضمن معنى المجبول؛ فلذلك عدِّى بـ﴿عَلَى﴾؛ أي: مجبول على ذلك جديرًا به، وفيه إشارة إلى أنَّ مَن هو في مقام الرسالة يكون في غاية العصمة عن وصمة الكذب حتى لو قصده لا يقدر عليه.[٤٠٩٠]

أو جعل قول الحقّ بمنزلة رجلٍ يجب عليه شيءٌ، وجعل نفسه عليه السلام أو قابليَّته لقول الحقِّ، وقيامه به بمنزلة الواجب على قول الحقِّ، فيكون استعارةً مكنيَّة مبنيَّةً على التَّخييل، حيث شبّه القول بالعاقل، وأثبت لازم المشبَّه به له للدَّلالة على التَّشبيه المضمر، ففيه إغراق لوصفه عليه السلام بالصِّدق يعني: كيف ينسب إلى الكذب؛ إذ لو كان الصدق ممن يعقل لَكان الواجب عليه أن يجعلني قائله ويجتهد لتحصيل ما يوجب أن أكون القائم بمصالحه، كما يقوم القيِّم بمصالح اليتيم، والمقام يستدعي ذلك على ما ذكرنا.

[٤٠٨٦] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١١٦/٤.

[٤٠٨٧] البيت لخداش بن زهير. **لسان العرب** لابن منظور، «ضطر»؛ **الصحاح** للجوهري، «ضطر»؛ **الدر المصون**، ٣١٤/٣؛ **الكشاف** للزمخشري، ١٣٢/٢.

[٤٠٨٨] **الكشاف** للزمخشري، ١٣٣/٢؛ **فتوح الغيب**، ٥٠١/٦؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦١و.

[٤٠٨٩] **دوان النابغة الذبياني** ص ٢٠٣؛ **فتوح الغيب**، ٥٠٣/٦.

[٤٠٩٠] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١١٦/٤.

قيل: ورقّق بعضهم فيه، فقال: هذا إنّما يحسن إذا لم يسند قوله: ﴿الْحَقَّ﴾ إلى المتكلّم، وأما أنا واجب على قولي، أو واجب على قول الحقّ أن أكونَ أنا القائل له، فليس له كثير معنًى، أو الحقيق مبالغة في الحقّ الذي هو الثابت الدائم، أي: أنا ثابت مستمرٌّ على أن لا أقول، أو وضع ﴿عَلَى﴾ موضع الباء لقصد التَّمكُّن، كقولهم: جئت على حالةٍ حسنةٍ، ويؤيّده قراءةُ أبيٍّ بالباء،[٤٠٩١] وقرئ: «حَقِيقٌ أنْ لَا أقولَ»[٤٠٩٢] فيقدَّر كقراءة أبيٍّ، أو المشهورة.

وقراءة نافع: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ﴾[٤٠٩٣] فهي واضحةٌ، فتمَّ الكلام عند ﴿حَقِيقٌ﴾، و﴿عَلَيَّ﴾خبرٌ مقدَّم و﴿أنْ لَا أقولَ﴾ مبتدأ، أو كان ﴿حَقِيقٌ﴾ خبر مقدَّمٍ، و﴿أنْ لَا أَقُولَ﴾ مبتدأ، وكان ﴿أنْ لَا أَقُولَ﴾ فاعلَ ﴿حَقِيقٌ﴾، فعلى الآخرين: تعلّق ﴿عَلَيَّ﴾ بـ﴿حَقِيقٌ﴾،وفي الأوَّل بالمحذوف.

وفي **الكواشي**: «إن جعلتَ ﴿حَقِيقٌ﴾ صفةً لـ﴿رَسُولٌ﴾ ما وقفتَ على ﴿الْعَالَمِينَ﴾، وإن جعلتَه خبرَ مبتدأٍ وقَفْتَ عليه».[٤٠٩٤]

﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦)﴾

أي: بمعجزة قاهرة تدلُّ على وجود الإله القادر المختار، وصدق مجيء رسولًا منه، فالجملة جَرَتْ من قوله: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ مجرى البيان، والإيضاح، والتفسير؛ لأنَّ دعوى الرِّسالة لا يثبت إلا بتلك البيِّنة الشَّاهدة على صدقه، وإنما أفردها ومعه بيِّنات؛ لأنَّ المراد ههنا إثبات الدَّعوى ببرهانها، وكذا القول في توحيد بآية ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ صفة لـ﴿بَيِّنَةٍ﴾، وفي توصيفها بكونها منه تلقين إلى قبولها، والانقياد لها، وإشعارٌ بأن حقَّها ذلك.

﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ﴾ فخَلِّ، وأطلِقْ من عقال التَّسخير، وقيد الأسر، والاستبعاد **﴿بَنِيٓ إِسْرَائِيلَ﴾** حتى يرجعوا معي إلى الأرض المقدَّسة التي هي وطن آبائهم، فإن يوسف لما توفِّي وانقرضت الأسباط، غلب فرعونُ نسلَهم، واستعبدهم، واستخدمهم في الأعمال الشاقة فأنقذهم الله بموسى عليه السلام،[٤٠٩٥]وفي ذكرهم بنبوَّة إسرائيل إشعارٌ بقبح ما فعله بهم من الإيذاء، والإيلام، وتعليل باستخلاصهم عن الآلام؛ فإنَّهم أولاد كرام، لا يليق بشأنهم ظلم اللِّئام، وإن احترامه تعالى بإرسال موسى لاستنقاذهم لحرمة آبائهم، فمن كمال لطفه تعالى رحمة الأبناء بشرف الآباء **﴿قَالَ﴾** فرعون لموسى **﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾** ﴿إِنْ﴾ ههنا لم تنقل الماضي إلى الاستقبال من قوة كان.

وقيل: نقلها أي: إن تكن جئت فهي للنقلين للنقل إلى الشَّرط، والنَّقل إلى الاستقبال، فلا يخرج عن مقتضاه مهما أمكن.

قال المصنّف: فإن قلت: كيف قال له: ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ بعد قوله: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾؟ قلت: معناه: إن كنتَ جئتَ من عند مَن أرسلَك بآيةٍ فأْتني بها وأحضِرها عندي؛ لتَصِحَّ دعواك، ويثبُت صِدْقُك.[٤٠٩٦]

[٤٠٩١] أي: «حَقِيقٌ بأنْ لَا أقولَ». وهي قراءة شاذّة. **مختصر في شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٤٠؛ **البحر المحيط**، ٣٥١/٤.

[٤٠٩٢] **الكشاف** للزمخشري، ٢١٣/٢؛ **أنوار التنزيل**، ٥٦٢/١.

[٤٠٩٣] **الكشاف** للزمخشري، ١٣٢/٢؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٣/٢.

[٤٠٩٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/ ٥٠٥.

[٤٠٩٥] **الكشاف** للزمخشري، ١٣٣/٢.

[٤٠٩٦] **الكشاف** للزمخشري، ١٣٣/٢.

ووجهُ السؤال أنَّ ظاهرَ الكلام طلبُ حصولِ الشَّيء على تقدير الحصول، فاجاب ببيانِ مغايرة المطلوب للمحصول،[٤٠٩٧] أي: «فأحضِرها عندي، وأظهرها لدي لتصحَّ دعواك»، ويثبت مدَّعاك، فتغاير المطلوب المحصول باعتبار المبدأ والمنتهى؛ فإن مبدأ المجيء هو جناب المرسل، ومنتهى الإتيان هو المرسل إليه، وهذا مراد مَنْ قال: السؤال عن اتخاذ الشرط والجزاء،وأمَّا جعْلُ السؤالِ كيف قيَّد [**٢٠٦**/و] جزاء الشرطِ؟ وما معناه؟ والجوابُ أنَّ الشرط الثاني كالتعليل والتأْكِيدِ، فليس بكلام الكتاب.[٤٠٩٨]

وهذا الاستدعاء يحتمل أن يكون على سبيل الاختبار، وتجويزه ذلك. ويحتمل أن يكون: على سبيل التعجيز؛ لما تقرَّر في ذهن فرعون، أنَّ موس عليه السلام لايقدر على الإتيان ببيّنةٍ.[٤٠٩٩]

وجاز وقوع الأمر جواب الشرط؛ لأنَّ فيه معنى: فإني ألزمك أن تأتي بها، فعاد إلى وجوب الثاني بوجوب الأوَّل ﴿إِنْ كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ في دعوى الرِّسالة منه تعالى، وهذا كالتأكيد والتعليل، وقد أشير إلى معنى التعليل بما قيل: «لتصحَّ دعواك»، فالشرط الثاني جوابه جواب الشَّرط الأوَّل، أي: إن كنتَ صادقًا فأت بها إن كنتَ جئتَ بها، ولذلك قيل: قد أوجب فرعون أنَّه ليس بإلٰهٍ، كما ادَّعى؛ لأنَّه قد أوجب له الصدق إذا أتى بآيةٍ يعجز عنها المخلوقون.

وقيل: إن كنت صادقًا ائتِ بها، فحذف الجزاء لدلالة ما قبله من الأمر بالإتيان بها عليه، ففيه إيذانٌ بأنه لا يأتي بها إلا الصَّادق في دعواه؛ لأنَّها تصديقٌ من الله، والحكيم لا يصدّق الكاذب.

روي أنَّ فرعون قال لموسى: ما الذي تسئلني؟ قال: أسئلك أن تعبد الله وحده لا شريك له، و أعطيك الشباب لا تهرم، والملكَ لاينازعك فيه أحد، والصحةَ لا تَسقم، والجنة خالدًا، فخضع له فرعون فقال: أستأمر آسية، فاستأمرها، فقالت: امتثِلْ، فخرج فدعى هامان، فذكر له ذلك فاستشاره، فقال له هامان: أتَعْبُدُ بعد إن كنتَ تُعْبد؟! فبدا له، وذكر أمرَ الشيب، فقال؟ أنا أردُّك شابًّا.[٤١٠٠]

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨)﴾

الفاء للجواب، فكان جوابه لفرعون. الإلقاء: وهو من اللِّقاء الذي هو الإلقاء، فيكون الإلقاء بمعنى إزالة الاتِّصال عمَّا كان عليه.

والعَصَا: في الأصل عُودٌ كالقضيب يابسٌ، وأصله: الامتناع ببيّنة، يقال: عَصي بالسيف يعصى إذا امتنع، ويقال: عصى بالسيف إذا أخذه أخذ العصا، وليست المعصية بمشتقَّة من العصا؛ لأنَّ العصا من باب الواو، والمعصية من باب الياء.[٤١٠١]

وقال ابن الكمال: يقال: عصى: إذا امتنع، ومنه: العصى لمن عصى.[٤١٠٢]

[٤٠٩٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦١و.

[٤٠٩٨] **فتوح الغيب** للطيبي،٦/ ٥٠٥؛ **شرح الكشاف** للتفتزاني، ٣٦١و.

[٤٠٩٩] **البحر المحيط**، ٣٥٧/٤.

[٤١٠٠] **تارخ الدمشق** لابن عساكر، ٦٤/١٦-٦٥؛ **التيسير في الفسير**، ٤٥٣/٦.

[٤١٠١] **مجمع البيان** للطبرسي، ١٣٣/٩.

[٤١٠٢] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١١٧/٤.

والمراد منها ههنا ما أعطاه ملك حين توجَّه إلى مدين. وقيل: عصى آدم من آنس الجنَّة حين أهبط، وكان يدور بين أولاده حتى انتهت النَّوبة إلى شعيب عليه السلام،وكان ميراثًا مع أربعين عصًا كانت لأبائه. فلما استأجر موسى أمره بدخول بيتٍ فيه العصى، فقال له: خُذ عصًا منها، فوقع تلك العصا في يد موسى، فاستردَّه شعيبٌ، وقال: خذ غيرها، حتى فعل ذلك مرَّاتٍ في كل مرَّة يقع يده عليها دون غيرها، فتركها في يده في الرَّابعة، فلمَّا خرج من عنده متوجِّهًا إلى مصر، ورأى نارًا، وأتى الشجرة، فناداه الله: ﴿أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص ٣٠/٢٨] وأمره بإلقائها ألقاها فصارت حيَّةً فولَّى هاربًا فناداه الله: ﴿لَا تَخَفْ﴾ فأدخل يده بين لحييها فعادت عصًا، فلمَّا أتى فرعون ألقاها بين يديه ﴿فَإِذَا﴾ الفاء للتعقيب، و﴿إِذَا﴾ للمفاجأة. وهي ظرفُ مكانٍ، كما تقول: خرجتُ فإذا زيدٌ بالباب.

وقيل ظرف زمان. وقيل حرف ﴿هِيَ﴾ رفع بالابتداء، وخبره ﴿ثُعْبَانٌ﴾ كأنَّه قيل: هي ثعبان هناك أو في ذلك الزَّمان.

فإن قلت: هل يجوز في الكلام نصب ﴿ثُعْبَانٌ﴾ على الحال، على أن يكون ﴿هِيَ﴾ مبتدأ و﴿إِذَا﴾ خبره؟ قلتُ: قد جُوِّز ذلك، ﴿فَإِذَا﴾ على هذا لا يكون إلا ظرفَ مكان؛ لكونه خبرًا عن الجثَّة.

فإن قلت: ما ذو الحال، وما العامل فيها؟ قلت: ذوا الحال المستكنُّ في الظَّرف، والعاملالظَّرف نفسه.

والثعبان: الحيَّة الضَّخمة الطَّويلة، مشتقٌّ من: ثَعَبْتُ الماء، وانثعبت إذا فجَّرتُه، فانفجر والمثْعَب موضع انفجار الماء، فسمِّي به؛ لأنَّه يجري كعنق الماء عند الانفجار، وإنما قال في موضع آخر: ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [النمل، ١٠/٢٧]، وهو الحيَّة الصغيرة باعتبار اختلاف الحالتين؛ فإنها صارت جانًّا ابتداءً، ثم صارت ثعبانًا انتهاءً، أو باعتبار اجتماع الوصفين ،كبرِّ الثعبانيَّة وسرعة الجانيَّة، وهذا أبهر في باب الإعجاز، أو باعتبار اختلاف الزمانين؛ فإنَّها صارت جانًّا في ابتداء النبوَّة، ثم صارت ثعبانًا عند لقآئه فرعون.

﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر الثعبانيَّة لا يشكُّ فيها، أو أبان عن نفسه أنَّه ثعبانٌ حقيقةٌ لا شيء يشبه الثعبان، كما يكون الأشياء المذورة بالشّعوذة والسحر، أو أَبَان قول موسى عن قول المدّعى الكاذب، وأثبت رسالته، وبدأ بالعصا دون سائر المعجزات؛ لأنَّها تحتوي على معجزاتٍ كثيرةٍ منها انقلابها ثعبانًا وانقلاب خشبته لحمًا ودمًا قائمةً به الحياة من أعظم الإعجاز، ويحصل بإلقائها ما لا يحصلفي غيره من التَّهويل، وبَلعُها حبال السّحرة، وعصيّهم، وإبطالها لما صنعوا من كيدهم، وسحرهم.

وقال وهب: صار أعظمَ ثعبانٍ نظر إليه الناظرون، أسودَ مدلهمًّا يدبُّ على قوائم غلاظٍ قصارٍ شدادٍ في مثل بدن البختيِّ العظيم، إلا أنه أطولُ منه بدنًا وعنقًا ومشفرًا، وإن له ذنبًا طويلاً غليظًا يقوم عليه فيُشرف على حيطان المدينة برأسه وعنقه، ثم يقع على الأرض ولا يأتي على شئ إلا حطَمه أو خدَش بقوائمه الصخر والرخام.[٤١٠٣]

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨)﴾

النزع: إزالة الشَّيء عن مكانه الملابس له المتمكِّن فيه، كنزع الرِّداء عن الإنسان، والنَّزع: والقلع والجذب نظائر، أي: أخرجها من جيبه، أو من تحت إبطه، كا قال: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ [النمل، ١٢/٢٧].

﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ﴾ بياضًا عجيبًا خارجًا عن العادة **[٢٠٦**/ظ**]** في غاية القوَّة، واللَّطافة، وللدلالة عليه قال: ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾؛ لأنَّ اجتماع النَّظارة للنظر إليه؛ إنما يكون بذلك لاستعجابهم واستغرابهم، فيكون تتميمًا بمعنى: بيضاء، وهذا هو مراد من قال: إنَّه متعلِّق به لا التَّعلُّق النَّحوي كيف وهو متعلق بمحذوفٍ؛ لأنَّه صفته.

[٤١٠٣] **تارخ دمشق** لابن عساكر، ٦٣/١٦-٦٤؛ **التيسير في التفسير**، ٤٥١/٦-٤٥٢.

وقال ابن الكمال: وقيل: بيضاء للنظّار، لا أنّها كانت بيضاء حقيقةً. ويردُّه قوله تعالى في موضع آخر: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل، ١٢/٢٧]؛ لأنّه صريحٌ في انقلابها أبيضُ؛ لأنَّ مظنّة السُّوء عند ذلك.[٤١٠٤]

ويمكن أن يقال: ليس مراد القائل نفي انقلابها أبيضُ حقيقةً، بل نفي كونها بيضاء في أصل خِلقتها يدلُّ عليه عبارة جِبلّتها التي غيرها ذلك الفاضل في النّقل، ووضع عبارة حقيقة، وبني إيراده على هذا التغيير.

فإن قلتَ: فعلى ما وجّهت به، فهلّا يكون غير المعنى الأوّل، فهل يكون فيه فائدة؟

قلت: لا يكون عين المعنى الأوّل، والفائدة جليلة، وهي أنَّ كونها بيضاء لأجل النّاظرين، لا لأصل خِلقتها، فعلى الأوّل مونها بيضاء للنّاظرين غير أنّه بياضها، وعلى الثّاني حدوثها لهم لا أنّها كذلك، في خلقتها يرشدك إلى ما قلنا ما روي أنه عليه السلام «كَانَ آدَمُ شَدِيدَ الْأُدْمَةِ».[٤١٠٥]

فلمَّا أرى الآية الأولى لفرعون قال: فهل غيرها؟ فأخرج يده، فقال: ما هذه؟ قال: يدك، فما فيها فأدخلها في جيبه، أو في تحت إبطه، وعليه مدرعة صوف، ثم نزعَها فإذا هي بيضاء بياضًا نورانيًّا غلب شعاعُها شعاع الشمس تكلُّ منها الأبصارُ، يسطع نورها في السماء، قد أضاء ما حولها ودخل نورها البيوتَ، وأضاءت منها المدينة، فرأى فرعون من وراء الحجب، فلم يستطع النظر إليها، ثم ردَّها موسى عليه السلام في كمّه، ثم أخرجها، فإذا هي على لونها الأوّل.[٤١٠٦]

وقال في آية أخرى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾[النمل، ١٢/٢٧]، قال أهل التفسير: من غير بَرَص.

قال أبو منصور: معناه عندنا: من غير أن تُستقذر أو تُستقبح؛ لأنَّ خروج الشيء عن خِلقته وجوهره مما يُستقبح ويُستقذر، فأخبر أنه لم يكن كذلك.

فإن قيل: ما الحكمة في إلقاء العصا، ونزعِ يده من جيبه وتغييرها بعد ذلك، ولم يغرّها الله وهما بحالهما؟

قلنا: لعلَّ ذلك أنه أراهم كذلك بعد إخراجه من سلطانه وتدبيره؛ ليُعلم أنهما صارتا كذلك بمحض صنع الله تعالى لا بفعله، وتصرّفه، فإن العصا صارت حيّةً بعد ما أخرجت من يده، وصارت يدهُ بيضاء بعد ما غيّبها؛ ليُعلم أنهما صارتا،كذلك يجعل الله لا بمزاولة منه.[٤١٠٧]

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «صارت نورًا ساطعًا يُضيء ما بين السماء والأرض، له لمعان مثل لمعان البرق، فخرّوا على وجوههم»، وما أعجب أمرَ هذين الخارقين العظيمين، أحدهما في نفسه وذلك اليد البيضاء، والآخر في غير نفسه وهي العصا، وجمع بذلك تبدُّل الذّوات من الخشبية إلى الحيوانية، وتبدُّل الأعراض من السّمرة إلى البياض السّاطع، فكانا دالَّين على جواز الأمرين، فإنهما كلاهما ممكنُ الوقوع.[٤١٠٨] والله تعالى قادرٌ على جميع الممكنات في الذّاتيّات والعرضيّات.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩)﴾﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠)﴾

[٤١٠٤] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١١٧/٤.

[٤١٠٥] **المستدرك على الصحيحن** للحاكم، ٤٥٩/٣ (٥٧٢٦)؛ **حلية الأولياء لأبي نعيم**، (٨١/٢).

[٤١٠٦] **التيسير في التفسير**، ٤٥١/٦-٤٥٢.

[٤١٠٧] **التيسير في التفسير** لعمر النسف، ٤٥٥/٦.

[٤١٠٨] **البحر المحيط** لآبي حيان، ٣٥٨/٤.

قاله بعضهم لبضٍ لَمَّا شاوروا في أمره عليه السلام في السِّرِّ، وتجاذبوا أهداب القول عليهم عالم بالسِّحر ماهرٌ فيه، فيأخذ بأعين النَّاس حتى يخيَّل لهم أن العصا صارت حيَّةً، ويُرى الشيء بخلاف ما هو عليه،كما أراهم يده بيضاء، وهو آدم اللون.

وقيل: كانوا يقولون للعالم الماهر: ساحر لاستعظامهم علمَ السحر، وإنما قالوا ذلك لغلبة السحر في ذلك الزَّمان، وإتيانه عليه السلام بما يعجز عنه غيره؛ خوفًا وفرقًا من غلبة ملكهم، وأرضهم تثبيطًا للناس عن اتِّباعه؛ وتحيّرًا بما بُهتوا به، وتمحَّلاً لما التزموا.

﴿**يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ**﴾ بسحره. وقد صرَّح به في موضع؛ لكون القصة ههنا أبسطُ، أي: أنه يطلب بذلك الملك، والرِّياسة، وأن يلقي العداوة والفرقة بينكم، ويستميل بعضكم؛ ليُحارب به بعضكم، فيخرجكم من بلادكم. والجملة استئنافٌ أو حالٌ من اسم الإشارة،كقوله: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [الأعراف ٧/١٠١]

و﴿**مَاذَا**﴾ اسم واحد في محلّ النَّصب على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ﴿تَأْمُرُونَ﴾ بعد حذف الياء، فالمفعول الأوَّل محذوفٌ؛ أي: بأيِّ شيءٍ تأمرونني.

أو ﴿مَا﴾ استفهام في محلِّ رفع بالابتداء، و﴿ذَا﴾ موصولٌ، وصلته ﴿تَأْمُرُونَ﴾، والعائد محذوفٌ أيضًا؛ أي: فما الذي تأمرونَنيه.[٤١٠٩]

فلمّا اتّفقت آرائهم أشاروا إلى فرعون برأيهم ﴿**قَالُوٓاْ أَرْجِهْ**﴾ فلا منافاة بينها وبين آية الشُّعراء، وهي: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾؛[الشعراء ٢٦/٣٤-٣٥-٣٦]؛ لأنَّ فرعون كان داخلًا في المشاورة قائلًا: ما قالوه؟ فحُكي عنه هنالك، وعنهم ههنا، وكان القائلون في السورتين بقوله: ﴿أرجئه﴾ ﴿الملأ﴾، ولكن هنالك قالوه بعدما قال لهم فرعون ما قالوه، ههنا وههنا قالوه بعدما قالوا ما قاله هنالك،أو قاله فرعون ابتداءً فتلقَّتْه منه الملأ، فقالوه لأعقابهم، أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ، كما تفعل الملوك؛ يرى الواحد منهم الرأي، فتكلّم به مَن يَليه من الخاصَّة، ثم تبلغُه الخاصَّة العامَّة. والدَّليل عليه أن القوم أجابوا فرعون وخاطبوه بقولهم: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾.فلو لم يكنْ الكلامُ تبليغًا منْ فرعون إليهم لَما كان لهذا الجوابِ والخطاب وجه، لكن بقي أن يقال الجواب وهو: ﴿أَرْجِهْ﴾ كلام الملأ في الشعراء، وكلام [**٢٠٧**/و] مندونهم ههنا، وأجيب بجواز تطابق الجوابين، أو قال الملأ لفرعون؛ تعظيمًا له، أو له ولخدمه، وأعوانه.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ﴾إلى قوله: ﴿مِنْ أَرْضِكُمْ﴾، ثم قال لهم فرعون مجيبًا لهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فيكون على تقدير: فقال لهم فرعون، ويؤيّد كونها كلام فرعون قوله: ﴿أَرْجِهْ﴾ فيطابق ما في الشعراء من أنَّ قوله: ﴿مَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ من كلام فرعون، وأنَّ قوله: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ كلام الملأ لفرعون، ولكن قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ﴾ إلى قوله: ﴿مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ كلام الملأ لفرعون ههنا، وبالعكس هنالك، فيحمل على أنَّهم قالوه له مرَّة، وأنَّه قاله لهم أخرى.

وقيل: ﴿تَأْمُرُونَ﴾ على حقيقته إن كان الكلام للملأ مع فرعون، ومن المؤامرة وهي المشاورة، يقال: آمرته فأمرني بكذا إذا شاورتَه، فأشار إليك برأي إن كان لفرعون مع الملأ، ويمكن أن يقال: تحيّر هذا الملعون عند غلبة سلطان المعجزة، فنسي دعوى الألوهيّة، ومرتبة كونه آمراً ناهيًا. فخاطبهم خطاب الأذلّاء المقهورين المكلّفين المأمورين، وذلك لما به من فرط الدّهش

[٤١٠٩] **اللباب** لابن عادل، ٩/٢٥٢.

والحَيرة والخوف لايدري ما يصنع، وفيه عبرةٌ لمن يدَّعي ما ليس حقّه، ثمّ يظهر غلبة الحقّ وسطوعه، فيتحيّر هذا المدَّعي ويدهش، فيعود بالله من الدُّعاء الخالية عن المعاني.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١)﴾

﴿قَالُوا أَرْجِهْ﴾ أرجأتُ الأمر وأرجيتُه إرجاءً فيهما، إذا أخَّرته لغتان فاشيتان، فعلى كونه أمرًا من الأوَّل متَّصلًا بالضمير الراجع إلى موسى.

قرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب بسكون الهمزة، وضمِّ الهاء من غير إشباع؛[٤١١٠] لأن الهاء خفيّة، لو أشبعت كان كالجمع بين الساكنين.

وقرأ ابن كثير: ﴿أَرْجِئْهُو﴾ بإشباع الضمّ على الأصل؛ لأن الهاء فاصل؛ فإنَّ أصله في هاء الضمير، إذا كانت ضمير الواحد المذكَّر، وكانت مضمومة، وسكن ما قبلها أن تكون موصولةً بواوٍ، وإذا كانت مكسورةً وسكن ما قبلها أن يكون موصولةً بياءٍ سواء كان ذلك الساكن حرف علَّة، أو حرف صحّةٍ، فالمضمومة نحو: «شَرَوْهُو»، والمكسورة نحو: «فيهي».[٤١١١]

وقرأ ابن عامر: ﴿أَرْجِئْهُ﴾ بالهمزة، وكسر الهاء على اتباعها كسر الجيم إجراءً للهمزة الساكنة مُجرى الياء الساكنة؛ لانقلابها إليها حال التسهيل، إذا كان قبلها كسرةٌ نحو: بِئْرٍ، وذِئْبٍ، وعلى كونه أمرًا من الثَّاني متصلاً به.

قرأ نافع في رواية ورش وإسماعيل والكسائي: ﴿أَرْجِهِي﴾ بكسر الهاء مع الإشباع على الأصل اعتدادًا بالهاء حاجزًا نظرًا إلى الأصل، أو لعدم ما يوجب حذفها نظرًا إلى اللفظ.

وقرأ في رواية قالون: ﴿أَرْجِهِ﴾ بكسر الهاء وحذف الياء لكسرة الجيم، والاجتزاء بكسرة الهاء عن الياء نظرًا إلى اللَّفظ دون الأصل.

وقرأ حمزة وحفص: ﴿أَرْجِهْ﴾ بسكون الهاء.[٤١١٢] فعلّله قدس سرّه بقوله: «فلتشبيه المنفصل بالمتَّصل وجعل «جِهْ» كإبْلِ في إسكان وسطه».[٤١١٣]

فقال **الشارح المرحوم**:[٤١١٤] علّل بتعليلين: تقرير الأولى أن إسكان هاء الضمير عند من قرأها ساكناً إنما يكون إذا تحرّك ما قبلها، بحيث لم يتخلّل بينهما حرف ساكن، نحو: ضَرَبْتُه بسكون الهاء، وههنا قد تخلّل بينها ساكن نظرًا إلى الأصل إلا أنه شبّهت الهاء المنفصلة عن الحركة بالمتّصلة نظرًا إلى صورة الكلمة بعد حذف لام الفعل.

وفيه نظرٌ؛ لأن الإصطلاح المتّصلة والمنفصلة في الحروف دون الحركات ولو سلّم، فلا يدلّ على المطلوب، بل يُومي إلى خلافه على ما يشعر به العلّة الثانية، وتقريره على ما قاله: أن أصل الكلمة «أرجي» بياء ساكنة، فحذفت الياء علامة للجزم، ثم أقيمت هاء الضمير مُقامه، فلمّا حلّت محلّ الياء الساكنة أسكنت. وعبّر عن هذا المعنى بقوله: «وجعل جه كإبل» يعني:

[٤١١٠] أي: «أَرْجِئْهُ».

[٤١١١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٢٧٢/٤.

[٤١١٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٦٣/١؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٥٣/٩؛ **الفريد** للهمذاني، ١٠٣/٣.

[٤١١٣] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٦٣/١. هو: شيخ زاده (ت٩٥٠/١٥٤٣)

[٤١١٤] هو محي الدين شيخ زاده (ت٩٥٠/١٥٤٣).

جِهِ، وإن كان على صورة به إلا أن أصل الكلمة: «أرجيه» حذفت لام الكلمة، وأقيمت الهاء مُقامها فكتب بسكونها التي هي السكون.[٤١١٥]

وفيه نظرٌ أيضًا؛ لأنَّ تشبيه «جِهْ» بـ«إِبْلِ»لا يرى له أثر في إثبات المدّعي، وهو إسكان الهاء القائمة مقام الياء الساكنة، فلعلَّ الوجه الذي يحصل به الاعتذار أيضًا من النظر المذكور ما قال **ابن التمجيد:** «أي: فلتشبيه الحرف الخارج عن حروف نفس الكلمة بالحرف الذي هو من حروف الكلمة، فشبه هو بـ«أخرج» و«أكرم» أمرًا للمخاطب، جعل هاء «أَرْجِهْ» الذي هو ضمير المفعول بمنزلة الجيم والميم في «أخرج» «وأكرم»، وقوله: «وجعل جِهْ كإِبْلِ» تعليل آخر؛ لإسكان هاء الضمير بعد تعليله بالتشبيه المذكور، أي: وجعل هاء الضَّمير في «أرجه» الواقع في آخر الكلمة كالحرف الوسط من «إِبْلِ»في الإسكان».[٤١١٦] لكن فيه ما فيه؛ لأن قياس ما في الآخر على ما في الوسط لا يخلو عن بُعد.

وقال **السيوطيّ**: قوله: «فلتشبيه المنفصل بالمتصل»،[٤١١٧]أراد يالمنفصل واو وأخاه لانفصالها عن جه وبالمتّصل عن جه، وبالمتّصل لام إبْل لاتصالها بما قبلها فعلى هذا، فقوله: وجعل جِهْ كإِبْلِ عطفُ تفسيرٍ بما قبله، وفي ذلك مع العلاقةقصور؛ إذ كان حقّه أن يقول: وجعل جِهْ مع الواو كإِبْلِ، ولا يخفى عليك أن اعتبار واو وأخاه، وجعله بمنزلة المتّصل، وتشبيهه بإبل لا يخل عن بعدِ أيضًا.

وقال **في الفريد:** «وأمَّا إسكان الهاء فعلى إجراء الهاء مُجرى لام الكلمة، كقولهم: لم يقرَ فلان القرآن، أو على إجراء الوصل مُجرى الوقف، قال: وقد أوضحتُ جميع ذلك في الكتاب الموسوم**بالدُّرة الفريدة في شرح القصيدة**».[٤١١٨]

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢)﴾

معنى ﴿أَرْجِهْوَأَخَاهُ﴾: أخّرهما وأصدرهما عنك حتَّى ترى ربّك فيهما وتدبّر أمرهما.

وقيل: يدلّ على تقدّم أمرٍ، فكأنه هَمّ [**٢٠٧**/ظ] بقتله حتحكي عنه: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَ﴾ [المؤمن ٢٦/٤٠]، فقالوا: أخِّر قتله واحبِسه ولا تقتله؛ لتتبيّن كلّ سحره عند الخلق جميعًا، ويكون غلبتك عليه بالحجّة؛ كي لايقعَ الناس في الشبهية.[٤١١٩]

وقيل: الحمل على الحبس لايساعده اللُّغة إلا أن يقال: الحبس نوعٌ من التأخير، ولأنّه ما كان قادرًا على حبسه بعد ما رآى منه، ولم يثبت أنه حبَسهما، ويدلّ عليه قوله: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ﴾ [طه ٢٦/٢٠] وهرون وإن لم يجر ذكره ههنا، لكن قد بيّن من غير آيةٍ أنهما ذهبا معًا، وأرسلا إليه بالموازرة، والموافقة، فلذلك أشاروا بتأخيرهما، ﴿وَأَخَاهُ﴾: معطوف على الهاء فلاضرورة على النَّصب على المعيّة.

﴿**وَأَرْسِلْ**﴾ عطف على﴿أَرْجِهْ﴾ وَذكر في موضع ﴿وَابْعَثْ﴾؛ لأن الإرسال يفيد معناه: مع العلوّ فيفيد أنَّ المخاطب به فرعون دون غيره. و﴿فِي﴾ وفي متعلّق بـ﴿أَرْسِلْ﴾ وإنما عدّي به مع أنَّ تعديته بـ«إلى» تضمينًا لمعنى الاستقرار؛ ليفيد

[٤١١٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٢٧٢/٤.

[٤١١٦] **حاشية القنوي على تفسير البيضاوي، ومعه حاشية ابن التمجيد**، تحقيق: عبد االه محمود محمّد عمر، دار الكتب العلمية،بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢/٢٠٠١، ٤٦٦/٨.

[٤١١٧] **نواهد الأبكار** للسيوطي، ٣٨٦/٦.

[٤١١٨] **الفريد** للهمذاني، ١٠٣/٣.

[٤١١٩] **التيسير في التفسير**، ٤٥٨/٦.

الاهتمام في أمر الحشر، ولأنَّ المقصود إتيان حذَقة السَّحرة، ومَن هم في أعلى الطَّبقة من ذلك الجنس، ولا يكون ذلك إلا بالتفحُّص التَّام، فلا بدَّ من مكث في مظانِّهم من المدائن.[4120]

وهي: جمع مدينة، من: مَدَن بالمكان يمْدُن مُدُونًا، إذا قام به، ولهذا أطبق القرَّاء على همز «مدائن»؛ لأنَّه كـ«صحائف»، أو مفعلةٌ، من دنت، أي: ملكت، وهذا القائل، كأنَّه لا يهمزها، أو مفعولةٌ من: دانه إذا قهره وساسه، فُعِلَ به ما فعل بنحو: «مبيع» في «مبيوع»، والمراد «مَدَائِنَ» صعيد مصر لا كلّها. وكان الرؤساء من السَّحرة بأقصى مدائنه[4121] عُدَّةً للأشياء إذا حزبه أمر جاء بهم، وأمرهم كذا ﴿حَاشِرِينَ﴾ مفعول ﴿أَرْسِلْ﴾ ومفعوله محذوف، أي: السحرة.

والحشر: الجمع من جهات مختلفةٍ إلى مكان واحدٍ ﴿يَأْتُوكَ﴾ مجزوم جواب الأمر؛ ولذلك سقطت عنه النُّون ﴿بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي: مثله في علم السِّحر وعمله، ويدلُّ عليه ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ [الأعراف ١٢٠/٧] و﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ [الشعراء ٤٠/٢٦]؛ فإنَّ السَّحَرَةَ جمعُ سَاحرٍ، وكذلك قوله: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف ١١٦/٧].

وقرأ حمزة، والكسائي ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾[4122] فيه، وفي يونس،[4123] ويؤيِّده اتِّفاقهم عليه في الشعراء،[4124] ووصفه بـ﴿عَلِيمٍ﴾، فإنه يدلُّ على تناهيه فيه، وحذقه به، وكونه أبلغَ؛ لأنَّ اعتبارَ المبالغة في وصف مَن يُؤتِي للمغالبة أولى.

وقيل: السحَّار العَالِم المعْلَم بالسِّحر، والسَّاحر من يعلمه ولا يعلّمه، أو الأول: مَن يدوم سحره، والثاني: مَن لا يدوم.

«وفي دخول كلمة «كُلّ» على المفرد دلالةٌ على أنَّ كلَّ واحد منهم منفردٌ عن الآخرين، مطلوب بالإتيان ومقصود أصالة وبالذَّات».[4125]

وقيل: ولقد تحيَّروا لما رأوا الآيتين، وارتعدت فرائضهم خوفًا وفرقًا، فآمروا، وشاوروا، واستأخروا، واستمهلوا، واتَّفقوا على أن يقابلوا بمثل ما أتى، ولم يعلموا أنَّ الإعجاز الإلهيَّ لا يقال بالسحر، والتمويه، فجاءوا بكلمة الإحاطة والشُّمول، وصفة المبالغة لِيُطَأْمِنُوا من نفسه وأنفسهم، ويُسَكِّنوا بعض قَلَقِه وقَلَقِهم ولا يُظَنّ بهم الانكسار والذلَّة، والانحطاط عن أوج السَّلطنة والعظمة، ولا يُتوقَّع غلبة خصمهم وعلوّه.

وروي أنَّ فرعون لَمَّا رأى من سلطان الله في العصا قال: إنّا لا نقاتل موسى إلَّا بمن هو أقوى منه، فاتّخذ غلمانًا من بني إسرائيل، وبعث بهم إلى مدينة، يقال لها: الفرما يعلّموهم السّحر، فعلّموهم سحرًا كثيرًا، وواعد فرعون موسى مواعدًا، ثمّ بعث إلى السَّحرة، فجاؤا ومعهم معلّمون، فقال فرعون للمعلّم: ماذا صنعت؟ فقال: قد علَّمتُهم سحرًا لايطيقه سحر أهل الأرض، إلا أن يكون أمرًا من السماء؛ فإنَّه لا طاقة لهم به.[4126]

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤)﴾

[4120] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١١٩/٤.

[4121] **غرائب القرآن** للنيسابوري، ٢٩٨/٣.

[4122] **إتحاف** للدمياطي، ٥٧٤/١.

[4123] سورة يونس ٧٩/١٠.

[4124] سورة الشعراء، /٣٤.

[4125] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٢٠/٤.

[4126] **جامع البيان** للطبري، ٢٥/١٣؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٤٦٤/١٢-٤٦٥.

أي: فأرسل الحاشرين على ما أشاروا به إليه، وجاؤا بعد ذلك، فالواو فصيحة كالفاء في ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ﴾ [الشعراء، ٣٨/٢٦]، والسحر: لطف الحيلة في إظهار أعجوبة توهم المعجزة.

وقيل: هو صرفُ الشيء عن حقيقته إلى غيره، وأصله: خفاء الأمر، والسَّحَرُ: آخر الليل لخفاء الشخص ببقية ظلمته، والسُّحْرُ: الرئة لخفاء أمرها ﴿قَالُوا﴾ وإنما لم يقل: «فقالوا» مع أنَّ كلام السَّحرة مع فرعون كان عقيب مجيئهم؛ لأنَّه استئناف على تقدير سائل سأل: ما قالوا إذا جاؤه؟ فأجيب بذلك.

وقيل: المعنى على لَمَّا جاءوا قالوا، فلم يصحَّ دخول الفاء. وقيل: محلُّه النصب على الحال من فاعل ﴿جَاءَ﴾.

﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ استفهموا عن الأجر لهم لتقوى باعثهم، فيكون أدعى للنصح، ولم يقطعوا بذلك، وبه رجّحت تلك القراءة، وباتِّفاقهم في الشعراء عليها، وأكَّدوا كلامهم؛ لما أن استفهامهم عن تحقق ذلك، وتقرُّره لهم.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وحفص، عن عاصم ﴿إِنَّ لَنَا﴾[٤١٢٧] على الإخبار، وإيجاب الأجر لهم، كأنهم قالوا: لا بدَّ لنا من أجرٍ لعظم ما يفعل من أمر، وبه رجّحت تلك القراءة، والتنكير للتعظيم، كقولهم: إنَّ له لَعلمًا، وإنَّ له لزهدًا، ومن ههنا يظهر أنَّ أهل السحر ليسوا قادرين على قلب الأعيان، وإلا قلبوا الحجر ذهبًا، بل قلبوا ملك فرعون إلى أنفسهم، ولم يطلبوا منه الأجر، فينبغي أن لا يغر بأكاذيبهم.

﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ﴾ تعليق لاستفهام تحقق الأجر، أو الإخبار عن تقرُّره بتقدير الغلبة، وشرطه جوابه محذوف للدَّلالة عليه، أو ما تقدَّم عند من يجوّز تقديم، و﴿نَحْنُ﴾ [**٢٠٨**/و] تأكيدٌ للضمير المرفوع، أو فصل فلا محلَّ له، أو محلُّه الرَّفع أو النَّصب ﴿قَالَ﴾ جوابًا عن الاستفهام، أو تصديقًا في الإخبار.

﴿نَعَمْ﴾ وهو حرف مع أنه يجوز الوقف عليه؛ لأنه في الوجوب نظير لا في النفي، وجاز الوقف على كلِّ واحدٍ منهما؛ لأنَّه جواب لكلام يستغني بدلالته عليه عمَّا يتصل به، والواو في قوله: ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ للعطف، فكأنَّه قال لكم ذلك، ﴿وَإِنَّكُمْ﴾وهو في مخرج الكلام،[٤١٢٨] كأنَّه معطوف على الحرف وكسرت الألف من ﴿إِنَّ﴾؛ لأنه في موضع استئناف[٤١٢٩] بالوعد، ولم يكسر لدخول اللام في الخبر؛ لأنَّه لو لم يكن اللام لكانت مكسورةً.

﴿لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ إلى المراتب الجليلة التي يكون فيها الخاصَّة، ولا يتخطَّى إليها العامّة، قرّر أمنيتهم وزاد على ذلك ما لم يتصوَّروه مع التحقيق بـ«إنَّ» و«اللام»، أي: لا أقتصر على الجزاء العظيم[٤١٣٠] وإنَّ لكم معه ما يؤل ذلك به من التَّقريب والتعظيم؛ لأنه إنما يهنأ، إذا كان مقرونًا بالتكريم تحريضًا لهم، وتقوية على العمل، وفيه جلالة مرتبة التقرُّب، ورفعة شأنه؛ فلذلك قيل: هو رأس كل كرامة؛ فإن مَن قرب من الملك وصل إلى كلِّ شيءٍ.

وقيل: المراد منه يكونون أوَّل من يدخل عليَّ، وآخر من يخرج من عندي. وقيل: وعدهم أن يأذن لهم في كلِّ أربعين مرةً أن يدخلوا عليه. وقيل:أراد حوائجكم عندي مقضيَّة، وشفاعتكم مقبولة، ومراتبكم في الدُّخول والخروج مرفوعة، وفي هذا دلالة على حاجة فرعون وذلّته، لو استدلَّ قومه به وأحسنوا النَّظر فيه لنفوسهم؛ لأنَّ من المعلوم أنَّه لم يحتجَّ إليهم إلا لعجزه وضعفه.

[٤١٢٧] **الكشاف**، ١٣٤/٢؛ **إتحاف** للدمياطي، ٥٧٥/١.

[٤١٢٨] ج – الكلام.

[٤١٢٩] ج : الإستئناف.

[٤١٣٠] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٢١/٤.

قال بعضهم: دعا فرعونُ السَّحرة الى القرب منه، وجرى لهم في الأزل مقام القرب من الحقّ.

قال: إنكم لمن المقربين فقرَّبوا الى منازل الأبرار، وبعدوا من قرب الاشرار.

وقيل لَمَّا أتو بالسحر سألوا التقرّب من فرعون من رأس الطَّبيعة، وجرى في الأزل قربهم من رؤية الحقّ، فنطق الله على لسان عدوّه إخبارًا عن سابق العناية للسحرة بقوله:﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ المنطق بالخير، هو الله، وإن لم يعرفوا مقام الخطاب، ولكن جرى على وفق العناية خبر الغيب بغير علمهم، وفرعون واسطة.[٤١٣١]

﴿قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦)﴾

إمَّا أن تلقي عِصِيّك وحبَالك؛ لأنهم يزعمون أنَّه يفعل كفعلهم ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ عصِيّنا وحبالنا، و«إِنْ» مع «مَا» يليه منصوبٌ بفعل مضمر، أي: اختر إمَّا إلقاءك وإمَّا إلقاءني، أو مرفوع؛ على أنَّه مبتدأٌ خبره محذوف، أي: إمَّا إلقاءك مبدوءٌ به، وإمَّا إلقاؤنا، أو خبر مبتدأ محذوفٍ أي: الأمر إمَّا إلقاؤك وإمَّا إلقاؤنا.

و«إمَّا» للتخيير، ونقل عنهم في باب «أمَّا»: و«إمَّا» إذا كنت آمرًا أو ناهيًا أو مخبرًا فهي مفتوحةٌ، وإذا كنت مشترطًا أو شاكًّا أو مخبرًا فهي مكسورة.

فإن قلت: لِمَ دخلت «أنْ» مع «إمّا» ههنا ولم تدخل معه في قوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة ١٠٧/٩]؟[٤١٣٢]

قلتُ: قيل: لأنَّ في ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾ معنى الأمر، كأنه قيل: اخْتَر إمّا أن تلقي أنتَ، وإمّا أن نُلقي نحن، والأمر مستقبلٌ، و«أن» علم في الاسقبال، فلمّا كان كذلك دخلت «أن» ههنا لتحقّق هذا المعنى، ولم تدخل ثمّة؛ لأنَّه خبرٌ، والخبر لم يحتجَّ إلى «أن».

خيَّروا موسى في الإلقاء أولًا لا في مجرَّد الإلقاء دليلُه ما[٤١٣٣] في موضع آخر: ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه ٦٥/٢٠]، إمَّا رعايةً لأدبِ حسن معه، وتواضعًا له وإشعارًا بإعطائهم المنصفة من أنفسهم، وما ذلك إلَّا من تباشير صبح السَّعادة لهم، وكان الله عزَّ وجلَّ ألهمهم ذلك، وقد راعوا فيه أدبًا أخر، حيث قدموا موسى، فلمَّا راعوا الأدب لا جرمَ رزقهم الإيمان، بل العرفان ببركة ذلك، وإمّا ثقة بأنفسهم وإيهامًا للغلبة، وعدم الاكتراث بأمر موسى، فأظهروا الاقتدار وقالوا: إن بدأتَ أنتَ أو بدأنا فلا خوف علينا ولا حذار، ولكن كانت رغبتهم أن يكونوا هم الملقين أوَّلًا على ما يشعر به تغيير النظم إلى ما فيه رجحان طرفهم من الجملة الابتدائية، وتعريف الخبر المفيد للاختصاص، وتأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل المفيد رفع التجوُّز عن المسند إليه، أي: نحن نفعل الإلقاء ألبتَّة لا غيرنا، أو توسيط الفصل المخصّص الإلقاء بهم؛ لأنَّه لتخصيص المسند بالمسند إليه.

والإلقاء: إرسال المعتمد إلى جهة السُّفل، وضدّه الإمساك.[٤١٣٤]

[٤١٣١] **عرائس البيان** للبقلي، ٤٥٤/١.

[٤١٣٢] **اللباب** لابن عادل، ١١٥/٩.

[٤١٣٣] ج – ما.

[٤١٣٤] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٢١/٤.

قال: بل ألقوا. وَلَمَّا ورد أن يقال: إنَّ إلقاء الحبال، والعصيّ معارضةٌ للمعجزة بالسِّحر، وذلك غير مشروعٌ، فكيف يصحّ الأمر به؟

أُجيب بأنَّه عليه السلام قد عَلِمَ أن لا بدّ لهم أن يفعلوا ذلك، والتخيير في التقديم، والتأخير فجوّز لهم التقديم، لا لإباحة ذلك، بل كَرمًا منه لما كارموه، وتسامحًا وإظهارًا للفضيلة، وتحقيرًا لهم وعدم مبالاة بهم، وثقة بالله وما خصَّه به من التَّأييد السَّماوي، وإيقانًا بأنَّ المعجزة لن يغلبها سحر أبدًا، وعلمًا بأنَّ الباطل يضمحلُّ بيد، والحق وأن مثله لا يحول ولا يؤل ناصره، وأنَّه غالبهم على جميع ما لهم لا محالة.

وأنَّ علوّ كلمة الله وظهور دينه، وكبت الكفرة وزهوق البطلة على رؤوس الأشهاد، وفي المجمع الخاصّ يكون ألبتَّة، أو إخبار إلقائهم [٢٠٨/ظ] أوَّلًا، حتى يظهروا ما معهم من مكائد السحر، ويستفرغوا مجهودهم، ويستنفذوا أقصى وسعهم، وقصارى طوقهم، فإذا فعلوا أظهر الله سلطانه وقذفَ الحقَّ على الباطل، فدَمَغَه وسلَّط المعجزة على السِّحر، فمحقته، وكانت آيةً نيّرةً للناظرين، وعبرةً بيّنةً للمعتبرين. وذلك يزيد رغبة كلِّ راغب في اتّباع الحقّ، قوّة كل محقٍّ، وبكلّ حدّ كلّ مبطلٍوشيعته، ويكثرالمحدث بذلك الأمر العَلَم في كلّ بدوّ وحضرٍ وشيعٍ في جميع أهل الوبر، والمدر إلى أن يقع الحشر والنشر.

روي أنه اجتمع اثنى عشر ألف ساحرٍ، أو خمسة عشر ألفًا، أو خمسة وعشرون ألفًا، وليس منهم ساحرٌ ألاّ يحسن من السِّحر ما لا يحسن صاحبه، وكان أكثرهم ألف ساحرٍ، وهم الذين عملوا بالحبال، والعصيّ.

وقيل: أجمع سبعون ألفًا، فميّز منهم سبعة آلاف ساحرٍ، ثم ميّز حتّى أخيار سبع مائة، ثم ميّز حتى أخبار منهم بسبعين وهم الذين عملوا الحبال والعصيّ.

﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦)﴾ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧)﴾

أَرَوها بالحيل والشَّعوذة، وخيَّلوا إليها ما لا وجود له، بل الحقيقة بخلافه؛ لما روي أنهم ألقوْا حِبالًا غلاظاً وخُشبًا طوالًا لطَّخوها بالزِّئْبَقِ، فلمَّا ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت، فإذا هي تخيَّل إليهم أمثال الحيَّاة، وقد ملئت الأرض، وركب بعضها بعضًا فظهر أنَّ السحر لا يقلب عينًا، بل مجرّد التخييل بنحو ما ذكر من الحيل، والتَّمويه والتَّلبيس، ولعلَّ عدم اطلاع الحاضرين بتزويرهم؛ لما خفى ذلك عليهم لبعده منهم، فإنهم لم يخلّوا الناس يدخلون فيما بينهم، ولو كانت حقيقة لَقال: فلمَّا ألقوا صارت حياتٍ، أو سحروا قلوب الناس، وأرهبوهم إرهابًا شديدًا.

فالسين للتأكيد أو كأنَّهم استدعوا رهبتهم بما أروهم مما رهبوا به، أو استفعل بمعنى: أفعل، كاستبلَّ بمعنى: أبلَّ، أو بَعَثوا جماعة يُنادُون عند إلقاء ذلك: أيها الناس احذروا. والرهبة: الخوف مع الفزع.[٤١٣٥]

﴿عَظِيمٌ﴾ في باب السحر، أو في عين من رآه لبُعد مرام الحيلة فيه، وشدَّة التمويه به، فيعظمه من يراه، ولأنه في عدَّة السحرة، وكثرتهم كان مع كلِّ واحدٍ منهم حبلٌ وعصيٌّ، فلمَّا ألقوْها وخيّل إلى الناس أنَّها تسعى استعظموا ذلك، وخافوه.

روي: «أن الأرض ميلًا في ميلٍ صارت حياتٍ وأفاعي في أعين[٤١٣٦] الناس»[٤١٣٧] تأمل في عظم أمر عظمة الملك الذي يصغَّر عنده كلُّ عظيم.

[٤١٣٥] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٢٢/٤.

[٤١٣٦] ج : عين.

والظاهر: أن الوحي وحي إعلامٍ، كما روي: أن جبرائيل أتاه فقال له: إن الحقَّ يأمرك أن تلقي عصاك، وكونه وحي إعلامٍ فيه زيادة تثبيت للجأش، وتبشير بالنصر.

وقيل: وحي إلقاء إليه من وجهٍ لا يشعر به إلا هو ﴿أَنْ﴾ مع ما بعدها بمنزلة المصدر، أي: بالإلقاء، أو تفسيريَّة؛ لأن الوحي فيه معنى القول ﴿عَصَاكَ﴾ التي معك، فألقاها فصارت حيَّةً ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ فالفاء فصيحة، و﴿إِذَا﴾ فجائيةٌ، ومَن جوّز زيادة الفاء جعل هذه الجملة داخلةً فيما أوحي إليه بخلاف الأوَّل.

﴿**تَلْقَفُ**﴾ تبتلع تناولًا بفيها بسرعةٍ منها، ويؤيده قراءة: «تَلْقَمُ»؛[4138] أي. تبتلع كاللقمة.[4139] أصله: تتلقَّف من: تَلقَّفَ يَتَلَقَّف، فحذفت التاء التي للمطاوعة، وثبتت التي للمضارعة.

وقرأ حفص عن عاصم ﴿تَلْقَفُ﴾ خفيفةً ساكنة اللاّم، وفي طه[4140] والشعراء[4141] مثله من: لَقِفَ يَلْقَفُ على وزن عَلِمَ يَعْلم. يقال: لقِفتُ الشيءَ أَلْقَفُهُ لَقْفًا ولَقَفَانًا، وتلقفتُهُ أَتَلَقَّفُه تَلَقُّفًا: إذا أَخَذْتَهُ بِسُرعةٍ، فأَكَلْتَهُ أو ابْتَلَعْتَهُ.[4142]

﴿**مَا يَأْفِكُونَ**﴾ ما يقلبونه عن الحقّ إلى الباطل بكيدهم، ويزوّرونهم بسحرهم، فيحيلون في حبالهم وعصيّهم أنها حياتٌ تسعى؛ فإنَّ الإفك قلب الشيء عن وجهه، ومنه: الإفك للكذب؛ لأنَّه قلب للمعنى من وجهة الصَّواب، وجوّز جعل «ما» مصدرية على أنَّها مع الفعل بمعنى المفعول؛ لأنَّ اللَّقب يستدعي عينًا تسلطه عليها، فتسمية تلك الأشياء المأفوكة إفكًا مبالغةً، وفي وضع المضارع موضع الماضي استحضار لتلك الحالة الهائلة.

وعن ابن عباسٍ: «ألقى موسى عصاه فصارت ثعبانًا رأسه في السماء وأحد شِدْقَيْه في الأرض، ثم ابتلع ما كان من سحرهم حتَّى ما ترك في الوادي من سحرهم شيئًا، وانكشف الناس ولَّوا هاربينوالثعبانُ على إثرهم، فمات بعضهم على بعضٍ بقدر سبعين ألفًا».[4143]

وقيل: إنَّ فرعون كان في خيمته، إذا أقبل الثعبانُ في آثار الحيات حتى اقتحم على فرعون في خيمته، فقام فرعون عن سريره، ونزل إلى الأرض، وكان أعرجَ لم يُعرف ذلك إلا يومئذٍ، فإنه مشى يومه ذلك سبعَ خطوات فعرفوا بذلك أنه أعرج،[4144] ثم أخذها موسى فصارت عصًا كما كانت، فظاهر الحقّ، وبطل ما كانوا يعملون من السِّحر، وذلك أنَّ السحرة قالوا: لو كانوا يصنع موسى سحرًا لبقيت حبالنا، وعصيّنا، فلمّا فقدرت علموا أنَّ ذلك من أمر الله تعالى.

﴿**فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩)**﴾

أي: حصل وثبت، استعير الوقع [**٢٠٩**/و] للثبوت والحصول؛ لإفادة شدَّة الرُّسوخ؛ لأنَّ الوقع يستعمل في الأجسام يقال: وقع الشيء على الأرض وقوعًا وأوقعته أنا إيقاعًا، وهو كقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء

[4137] **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٦٤/٣.

[4138] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩١.

[4139] **البحر المحيط** لأبي حيان، ٣٦٣/٤؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٢٢/٤.

[4140] سورة طه ٦٩/٢٠.

[4141] سورة الشعراء ٤٥/٢٦.

[4142] **اللباب** لابن عادل، ٢٦٢/٩.

[4143] **التيسير في التفسير** لعمر النسفي، ٤٦٥/٦.

[4144] **التيسير في التفسير** لعمر النسفي، ٤٦٥/٦.

١٨/٢١] استُعير القذف لإيراد الحقِ على الباطل، والدَّمغ للإذهاب؛ لأنَّ القذف والدَّمغ يستعملان في الأجسام، ولعلَّه نظر إلى هذا المعنى من فسّر الوَقْع بالتأثير،[٤١٤٥] حيث قال: «فوقع قلوبَهم، أي: فأثَّر فيها»،[٤١٤٦] ولكن فيه ما لا يخفى، والحقّ ههنا أمر موسى ع م وحجَّة نبوَّته، ودلالة معجزته. وقيل: صيرورة العصا حية.

وقال ابن الكمال: «الوقوع: ظهور الشيء بوجوده نازلًا إلى مستقرّه، والحقّ: كون الشيء في موضعه الذي اقتضته الحكمة».[٤١٤٧]

﴿وَبَطَلَ﴾ وزال وذهب ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الأعيان التي أفكوها من الحبال والعصيّ التي سحروا بها، ويجوز كون ما مصدريّة على بابها بخلاف ما سبق؛ لأنَّها بمعنى المفعول لما ذكر، أي: عملهم من السِّحر والتَّمويه والمعارضة، كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء، ١٨/١٧].

وقال بعضهم: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ يفيد قوّة الظهور والثبوت بحيث لا يصحّ فيه البطلان كما لايصحُّ في الواقع أن يصير لا واقعًا. ومع ثبوت الحقّ بطلت وزالت تلك الأعيان التي أفكوها.[٤١٤٨]

﴿**فَغُلِبُوا**﴾ لما جاء الحقُّ وزهق الباطل ﴿**هُنَالِكَ**﴾ في ذلك المقام، وفي تلك الحال، دخلت اللام فيه لتدلَّ على بعد المكان المشار إليه، كما دخلت في ذلك لبعد المشار إليه، فههنا لما بعد قليلًا، وهنالك لما كان أشدّ بعدًا، وهو ظرف مبهمٌ، وفيه معنى الإشارة، وإنَّما دخلت كاف المخاطبة مع بعد الإشارة؛ لتشعر بتأكيد معنى الإشارة.

﴿**وَانْقَلَبُوا**﴾ إلى المدينة ﴿**صَاغِرِينَ**﴾ حال، أو صاروا فهو خبر، أي: أذلّاء منهزمين مبهوتين مقهورين، وفعله: صَغِرَ يَصْغَر بالكسر والفتح صَغَرًا وصَغَارًا، إذا ذلَّ.[٤١٤٩]

والضمير: لفرعون وقومه، أو للسحرة، إذا جعل الانقلاب قبل إيمانهم، أو انقلبوا بمعنى: صاروا وإلا فلا؛ لأنَّهم لا يوصفون بالصَّغار بعد الإيمان،[٤١٥٠] فإنهم انقلبوا بعزّة الإيمان أعزّاء.

وعن النبي صلى الله عليه وسلّم: «التذلُّل للحقِّ أقرب إلى العزِّ من التعزز بالباطل». وعنه عليه السلام: «الحقُّ أصلٌ في الجنَّة والباطل أصلٌ في النَّار».

وقال بعض العارفين[٤١٥١]:السِّحر الحقيقيُّ من عالم الفعل بواسطة الكسب البشري، والمعجزة من عالم القدرة القديمة، لَمَّا ظهرت الصفة تلاشت معالم الاكتساب وغابت قوانين الفعلية.

قال السوسى: أظهر الحقّ لطيفة من صنعه فى خشية عجز السحرة عنها، وجعلها سببًا لنجاتهم، فقال: ﴿وَقَعَ الْحَقُّ﴾ باظهار القدرة فى جماد وبطل ما كانوا يعملون من الاباطيل. ولَمَّا ظهر قهر القدم بلباس العظمة من عصا موسى عليه السلام انهزموا من سطوات العظمة، وياليتهم لو ثبتوا ورأوا مشاهدة جلاله من لباس عظمته الذى تجلَّى من العصا يكون حالهم كحال

[٤١٤٥] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥١٣/٦.

[٤١٤٦] **الكشاف** للزمخشري، ١٣٦/٢.

[٤١٤٧] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٢٣/٤.

[٤١٤٨] **اللباب في علوم الكتب**، ٢٦٣/٩.

[٤١٤٩] **الفريد**، ١٠٦/٣.

[٤١٥٠] **اللباب في علوم الكتب**، ٢٦٤/٩.

[٤١٥١] هوالبقلي، (ت.٦٠٦هـ)

السحرة، لكن غابوا فى بحر ضلال الازل ولم يوفقوا بما وفق السَّحرة عند ما كوشف لهم وجه جلال القدم، فراوه بلا حجاب فألقوا أنفسهم بنعت الإذعان له عشقًا ومحبة وشوقًا الى تلك المشاهدة.

وقال الواسطى: أدركتهم سابق ما جرى لهم فى الازل من العبادة فأظهر منهم السجود.

وقال جعفر: وجدوا نسيم رياح العناية القديمة بهم فالتجئوا إلى السجود شكرًا.

وقال أبو سعيد القرشي: نازع موسى مع فرعون كان سبب نجاة السحرة، وذلك قوله تعالى:[٤١٥٢]

﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠)﴾ ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١)﴾ ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢)﴾

عبّر عن خرورهم باختيارهم بالإلقاء مع أنَّ أفعال العباد وإن كانت حاصلة بخلق الله وإيجاده إلَّا أنَّ الغالب الشائع فيها إسنادها إلى مَنْ قامت هي به هذا على أصل السنة، وعند المعتزلة مع أنَّه يفهم من الكلام أنَّ خرُورهم وسجودهم كان بإلقاء الله إيَّاهم وإيجاد ذلك فيهم؛ للتَّنبيه على أنَّ الحقَّ يهزُّهم واضطرَّهم إلى السجود بحيث لم يبق لهم تمالك ممَّا رأوا، حتَّى رمَوْا أنفسهم إلى الأرض، فإنَّهم لَمّا رأوا الآيات الباهرة علموا أنَّه أمر سماويٌّ لا يقدر عليه غير الله، فمنها قلبُ العصا حيَّةً في الحقيقة، ومنها أكلها حبالهم وعصيّهم مع كثرتها، ومنها فناء حبالهم وعصيّهم في بطنها، ومنها عودها عصا كما كانت، وكلٌّ منها يعلم كلُّ عاقل أنَّه لا يدخل تحت مقدور البشر، فاعترفوا بالتوحيد والنبوة، وصار إسلامهم حجةً على فرعون، أو أنَّ الله ألهمهم ذلك، وحملهم عليه، ووفقهم له حتَّى ينخذل فرعون بالذين أراد بهم كسر موسى، أو للمبالغة في سرعة خرورهم وشدّته وللمفهوم من كلام القوم أن يكون الكلام تمثيلًا، لكن في الوجه الأوّل المتشعب إلى وجهين شبّه حالهم بالنَّظر إلى قوّة الدَّليل، أو بالنّظر إلى التَّوفيق الإلهيّ بحال مَنْ أُلْقِيَ، وفي الوجه الثاني المتشعب إلى وجهين على تعبير المصنّف شبّه حالهم في شدّة الخرور، أو سرعة بحاله، [**٢٠٩**/ظ] وفاعل الإلقاء لو صرّح به هو الله تعالى؛ لأنَّه ألقاهم بما خوَّلهم من التَّوفيق، أو إيمانهم أو ما عاينوا من المعجزة الباهرة، ويجوز أن لا يقدر فاعل؛ لأنَّ ﴿أُلْقِيَ﴾ بمعنى: سقط وخرَّ.[٤١٥٣]

وأنت خبير بأن الحمل على التشبيه لا ينفع المعتزلة، كما أن الحمل على ما ذكر قبله حجّة عليهم؛ لأن خلق تلك الدَّاعية من الله، وإلا لافتقر خلقُ الدَّاعية إلى داعية أخرى، ولزم التَّسلسل المحال، فاصل القدرة مع تلك الدَّاعية موجب للفعل، وخالق ذلك الموجب هو الله.[٤١٥٤]

وجعل ابن الكمال الوجوه واحدًا حيث قال: إنَّما قال كذا للمبالغة، كأنَّهم ألقاهم ملق لشدة خرورهم؛ لأنَّ الحقَّ يهزُّهم[٤١٥٥] واضطرَّهم إلى السجود بحيث لم يبق لهم تمالك، وقد وفَّقهم الله بذلك.[٤١٥٦]

﴿**سَاجِدِينَ**﴾ حالٌ من ﴿السَّحَرَةُ﴾، ولَمَّا كان السجود أقرب القرب؛ إذ أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجدٌ بادروا به ملتبسين بالقول الذي لا بدَّ منه عند القادر عليه وهو: ﴿**قَالُوا آمَنَّا**﴾ استئناف جواب سائل يقول: ما قالوا حين ما سجدوا؟ أو حالٌ بإضمار «قد» من الضمير في ﴿سَاجِدِينَ﴾، أو من ﴿السَّحَرَةُ﴾، أو بدل من ﴿أُلْقِيَ﴾ بدل اشتمال، فجعلوهما شكرًا لله على الفوز بالمعرفة والإيمان، وعلامة من انقلابهم من الكفر إلى العرفان، وإظهارًا للتَّذلُّل والإيقان، فثبت أنهما

[٤١٥٢] **عرائس البيان** للبقلي، ٤٥٤/١-٤٥٥.

[٤١٥٣] وقيل: ذكر الإلقاءات فروعيت المشاكلة. منه. **تفسير القرماني**، جار الله، ٢٠٩و.

[٤١٥٤] **اللباب** لابن عادل، ٢٦٥/٩.

[٤١٥٥] «بهرهم»: **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٢٣/٤.

[٤١٥٦] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٢٣/٤.

بعد اعتقادهم وتصديقهم الذي هو الإيمان فلا يرد السؤال بتأخيرهم الإيمان، ويجاب أيضًا بأنَّهم عند الذهاب إلى السُّجود ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ ويؤيده البدلية ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قصدوا به موافقة موسى، حيث قال عند مجيئه: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف ١٠٤/٧]، وأخذوه منه، وحفظوا هذا الاسم فنفعهم يوم إلقاء العصا، فينبغي لمن سمع علمًا أن يحفظ، وإن كان لا يعمل به في الحال؛ لعلَّه ينفعه في المآل.

﴿**رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ**﴾ بدلٌ من الأوَّل نعت له، أو عطفُ بيان لنفي توهُّم من يتوَّهم من نحو قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات، ٢٤/٧٩].

روي: أنهم لَمَّا قالوا: ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقال لهم فرعون: إياي يعنون، فأراد أن يلبس على قومه، فقالوا: بـ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ، فندم على ما سألهم لما علم الناس أنَّهم لم يريدوا فرعون.

وروي: أنهم لما قالوا: ﴿رَبِّ مُوسَى﴾ قال أيضًا: إياي أعني، فلمَّا زادوا هارون، زالت الشُّبهة، وللإشعار بأنَّ الدَّاعي إلى إيمانهم موسى وهارون، وما ظهر في أيديهما، ولتعظيمهما، وتخصيصهما من جملة من يدخل تحت التربية، وتقديم موسى مع كون أخيه أَسَنَّ منه لكبره في الرُّتبة، أو لوقوعه فأصله فلذلك أخِّر في طه، أو لأنَّ كلَّ طائفة منهم، قالت إحدى المقالتين، فنسب إلى المجموع فعل البعض تأمل في غفرانهم بعد كفر سنين بإقرار وسجدة والذي نشأ في الإسلام وعاش فيه كيف لا يغفر.

﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣)**﴾

استفهام على سبيل الإنكار والتقريع.

وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب بتحقيق الهمزتين من غير إدخال ألف بينهما، وبعدهما ألف مبدلَّة من الهمزة التي هي فاء الكلمة لسكونها بعد مفتوحة، والأولى محققة بلا خلاف، والثالثة مقلوبة حتمًا، فالخلاف في الثانية تحقيقًا وتسهيلًا.[٤١٥٧]

وقرأ حفص ﴿آمَنْتُمْ﴾ بهمزة واحدة بعدها الألف المبدلة على الإخبار؛ لقصد التوبيخ أيضًا على ما يقتضيه المقام، فإن إلقاء الجملة الخبرية قد يكون لأغراض سوي إفادة الحكم، أو لازمه كما في قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ [آل عمران ٣٠/٣]، فههنا يحمل على التقريع والتشنيع بقرينة ما بعده.

وقرأ ابن كثير في الوصل ﴿وَآمَنْتُمْ﴾ بإبدال الأولى واوًا لانضمام ما قبلها، وفي القطع كرفيقة.[٤١٥٨]

﴿**بِهِ**﴾، أي: بالله ويلائمه السياق والسباق، ومنعه ابن الكمال: بأن قوله في سورة الشعراء: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾[٤١٥٩] لا ينتظمه، ويمكن أن يقال: قضية الانتظام هنالك لا ههنا، فيحمل في كلِّ مقام على ما يناسبه، أو بموسى على ما في السُّورتين فذلك ذكر فيهما ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾، وههنا ذكر «الباء»، ففيه تأييدٌ أيضًا رجوع الضَّمير هنا إلى الله.

وقيل: ﴿آمَنْتُ بِهِ﴾ و﴿آمَنْتُ لَهُ﴾ بمعنى ﴿قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ﴾ كان قوم مصر لا يعلمون شيئًا إلا بإذنه، أي: ليس ما ظهر في يده عليه السلام حجَّة ظاهرة، ولو كانت لآذنت فلِمَ آمنتم بدون إذني؟ وقد ناقض نفسه في دعوى الألوهيَّة؛ لأنَّه لو

[٤١٥٧] **النشر** لابن الجزري ٢٨٧/١.

[٤١٥٨] **النشر** لابن الجزري ٢٨٧/١.

[٤١٥٩] **سورة الشعراء**، ٤٩/٢٦.

كان إلهًا لَما جاز أن يأذن لهم في الإيمان به مع أنه يدعوا إلى آلهة غيره، وهذا من جملة جهالته وأيضًا جعل دينهم مفارقة الإذن دون نفس الإيمان به، ففيه إشعارٌ بتزيين أمره ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ما فعلتم من الإلقائين، وإيمانكم بغلبته ليس من ظهور الحقِ في يده، بل إنه ﴿لَمَكْرٌ﴾ لحَيلة ﴿مَكَرْتُمُوهُ﴾ احبلتموه، وصعتموه فيما بينكم وبين موسى ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ متعلّقٌ بـ﴿مَكَرْتُمُوهُ﴾ أي: في مصر قبل خروجكم إلى هذا الموضع، ومكان الوعد ﴿لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ لتستولوا عليها، فتخرجوا منها القبط، وتَخلُصَ لكم ولبني إسرائيل، قاله ولم يسمع من موسى والسحرة ما يشعر بهذا المعنى تمويهًا على الناس خوفًا من إيمانهم أيضًا؛ لكون إيمان السَّحرة عند المحاجَّة حجةً بأنه مكر أحدثوه لا لقوَّة الدَّليل وظهوره، وغرضهم إبطال [**٢١٠**/و] ملك القوم وكونهم متصرِّفين.

وقد آتاهم من قبل كونه مكراً، ومن قبل مفارقة الوطن والنّعمة المألوفة، ومعلوم أنَّ كلَّ أحد ينفر عن كلٍ منهما أشدَ نفرة.

وأنت خبير بأن ما قاله في غاية البعد، فإنه عليه السلامبمجرَّد ما جاء من مدين دعاه إلى الله، وأظهر المعجزات القاهرة، فأرسل فرعون في مدائن ملكه، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل، وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وموسى لا يعرف أحدًا منهم ولا رآه ولا أجتمع به، وفرعون يعلم ذلك فظهر أنَّه إنما قاله تستُّرًا على جهلة الجاهلين بمثل هذا الأمر الظاهر، ومن ذلك اعتقادهم لقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات ٧٩/٢٤].

وقيل: سمع من موسى ع م، والسَّحرة ما يشعر به كما جاء في الرواية: «أنَّ موسى قال للساحر الأكبر: أتؤمن بي إن غلبتُك؟ قال: لآتينَّ بسحرٍ لن يغلبه سحر، وإنْ غلبتَني مع ذلك لأُومنَنَّ بك،[٤١٦٠] وكان فرعون يَسْمَع ذلك».[٤١٦١]

فلمّا آمنوا قال: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وهذا منكم مكرٌ مكرتموه، أي: تواطأتم عليه؛ لتدخلوا في دينه وتجمعوا على بني إسرائيل لتكونوا لهم[٤١٦٢]عبيدًا وخَدَمًا وتبعًا.

﴿**فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ عقبة ما فعلتم، أو وباله، أو ما أحاربكم به، وعيدٌ إجماليٌّ تفصيله:

﴿**لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥)**﴾

روي أنَّهم قالوا: هذه الأيدي جزائها القطع؛ لأنَّا رفعنا إليك، فقلنا: أنتَ آلهتنا وأجب دعائنا، وهذه الأرجل أيضًا؛ لأنَّا سعينا به إلى نبي الله، وقلنا: بعزَّة فرعون لنغلبنَّ.

روي أنهم لَمَّا قالوا ذلك قال الله من فوق عرشه: لأغفرنَّ ﴿مِنْ خِلَافٍ﴾ من كلِّ شقٍّ طرفًا، مثل أن يقطع اليد اليمنى، والرِّجل اليسرى؛ لأنَّ كل واحدٍ من العُضوين يخالف الآخر؛ لأنَّ هذا يد وذاك رِجل، وهذا يمينٌ وذاك شِمال، فـ«من» للابتداء؛ لأن القطع يبتدئ من مخالفة العضو الأضو لا من وِفاقه إيَّاه، فمحلُّ الجارِّ والمجرور النَّصبُ على الحال، أي: مختلفةً؛ لأنها إذا خالف بعضها بعضاً فقد اتّصفت بالاختلاف.

قيل: هذا جهل منه أيضًا؛ لأنَّه أيسر من قطعهما من جانب؛ لأنَّ ذاك متلف، وذا ليس بمتلفٍ، ولذلك شرع في الحدود، وذا يعجز عن الصعود وهذا يقدر عليه.

[٤١٦٠] ج – بك.

[٤١٦١] **الكشاف**، ٢/١٣٦.

[٤١٦٢] ج: له.

وقيل: بل ذلك للتشديد في العذاب؛ فإنَّ الإنسان لا يتعيَّش بقطعهما من طرفٍ بخلاف ما إذا كانتا من طرفين، ولهذا يُقطع رِجلُ السارق في المرة الثانية من خلافٍ.

فلما كان الأول يأسًا من الانتفاع بالحيوة الباقية يكون الموت بعده راحةً بخلاف الثاني، فإنَّ في الموت بعده خصوصًا حال كونه متراخيًا أَلَمًا جديدًا، فأراد أن يضمن وعنده التشديد بتشديد العذاب بالقتل بعد ما زال أَلَمَ القطع، وعاد لذَّة الحيوة على ما دلَّ عليه كلمة ﴿ثُمَّ﴾ أو من أجل مخالفتكم إيَّاي كقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ [نوح٧١/٢٥] فالجار والمجرور في محلِّ النصب على المفعول له ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ تفضيحًا لكم وتنكيلًا لأمثالكم.[٤١٦٣]

والصُّلب: الشدُّ على الخشبة وغيرها، وأصله: من: صلابة الشيء أو من: صلب الودك وهو استخراجه من العظم، فكأنَّ المصلوب يخرج دهنه.

والجمهور بتشديد العين من التَّقطيع والتَّصليب.

وقرئ: «لَأَقْطَعَنَّ.... ولَأَصَلِبَنَّ»[٤١٦٤] بالتخفيف، وذكره ب«الواو» لا ينافي التَّراخي الحاصل من ﴿ثُمَّ﴾؛ لأنها صالحة للمهلة.

وقيل: إنه أوَّل من قطع وصلب،[٤١٦٥] فشرع الله للقطَّاع تعظيمًا لجرمهم، ولذلك سمَّاه محاربة الله ورسوله، ولكن على التَّعاقب لفرط رحمته[٤١٦٦] ﴿أَجْمَعِينَ﴾ «تأكيدٌ للكاف والميم أتى به دون كلمة «كُل» وإن كان الأكثر سبقه به».[٤١٦٧]

روي: أنهم قالوا: إن صَلَبَتَنا أظهرت أنك لستَ بإله؛ لأنَّا إذا صَلَبنا نكون فوقك، والإله فوق كلِّ شيءٍ إنْ شئت فاقطع الأيدي، وإن شئت فاقطعْ الأرجل نَصْبر على كلِّ شيء إلا قطع السِّرِ عن المولى، فإنه لا صبر لنا عليه. ومن ذلك قال العارفون: الصبر محمود إلاّ الصبر عنه؛ فإنَّه لا يحمد[٤١٦٨]

﴿قَالُوا﴾ تصلُّبًا في الدِّين وعدم مبالاةٍ بوعيده ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ بالموت ألبتَّة، فما تفعل أهون أسبابه وأرجاها، أو فما تقدر أن تفعل بنا إلا ما لا بدَّ لنا، أو فالصبرُ اليوم على عذابك أحقُّ لنتخلَّص من عذابه، فإنَّ عذابه أشدُّ وأبقى، أو إنَّا لمنقلبون إلى ربنا وثوابه، ونتخلَّص منك ومن لقائك إن فعلت ما فعلت، فكأنَّهم استطابوه شغفًا على لقاء الله، أو إنَّا نريد أن ننقلب إلى ربِّنا بقتلك ليحصل لنا أجلُ النفع وأعظم الأجر؛ لما في الصَّبر عليه من أعظم الثواب، وتكفير السيئات مع أعواض فائتة للحصر خارجة عن الحساب، أو إنَّا ننقلب إليه يوم الجزاء فيثيبنا على شدائد القطع والصُّلب، أو إنّا جميعًا يعنون أنفسهم وفرعون ينقلب إلى الله، فيحكم بيننا ويجازي كلّا على وفق بعمله.

وقال بعض العارفين: «هدّدهم فرعون بالبلاء ولم يعلم أنهم غرقوا فى بحار رؤية المبلي متحملين بَلَاياه بروية جماله، ولولا ذلك ما قالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه ٢٠/٧٢].

وقال سمنون: يحمل إلٰهنا كلَّ من البلايا على المشاهدة ما لا يحمله فى حال الغيبة».[٤١٦٩]

[٤١٦٣] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٢٥/٤.

[٤١٦٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وحميد وابن محيص. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٥٠؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٢.

[٤١٦٥] **الكشاف** للزمخشري، ١٣٦/٢.

[٤١٦٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٦٥/١.

[٤١٦٧] **اللباب** لابن عادل،٢٦٨/٩.

[٤١٦٨] **روضة المحبين ونزهة المشتاقين** لابن القيم، ١٣٦.

﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ [٢١٠/ظ] رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)﴾

النقمة: العقوبة والإنكار، يقال: نَقِمْتُ على الرَّجل أَنقم ونقمت، والفصيح الأوَّل.

وقرأ الحسن من الثاني وتعديته بقوله: ﴿مِنَّا﴾ لتضمّنه معنى «تنال»، أي: ما تنال منّا آخذًا إيّانا بالعقوبة بشيء من الأشياء إلا أن آمنّا، فيكون مفعولًا من أجله استثناءً مفرَّغاً، وإلى هذا المعنى أشار مَن قال: ما لنا عندك ذنب تعذِّبنا عليه إلا أن أمنَّا،[٤١٧٠] أو ما تنكر وما تعيب منَّا إلا أن أمنَّا، فيكون مفعولًا به، والاستثناء مفرغٌ أيضًا، ثُمَّ إنَّه ليس ممَّا يؤاخذ عليه بالعقوبة، ولا ممَّا ينكر ويعاب عليه، ولا مما يتأتى لنا العدولُ عنه طلبًا لمرضاتك أو خوفًا من عقوبتك، بل هو خير الخصال المرضيَّة، وأساس الأعمال المرعيَّة، وأصل المناقب وأفضل المفاخر، ففيه أسلوب قوله:

ولا عَيْــبَ فِــيهِمْ غَــيْرَ أَنَّ سُــيُوفَهُمْ   بهــنّ فلــولٌ مــنْ قــراعِ الكَتَائــبِ[٤١٧١]

﴿بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ وهي ما أَتى به موسى عليه السلام آمنًا بها إنها من عند الله لا يقدر على مثلها إلا هو، فلذلك أضافوها إليه وأضافوا أنفسهم الله لاعترافهم بربوبيّته وقيامهم بعبوديته ﴿لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ ظرفيَّة، والعامل فيها «آمِنَّا»، أو حرف وجوب لوجوب، فيقدر الجواب، أي: آمنا بها من غير توقُّفٍ ﴿رَبَّنَآ﴾ تأمَّل في كمال لطف الله لهم، وحسن توفيقه في زمانٍ قليلٍ، حيث قالوا أوَّلًا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف ١٢١/٧]، ثم قالوا: ﴿بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾، ثم انتقلوا من الغيبة إلى الحضور، وكانوا من أهل المناجات، وسئلوا منه أعظم الحاجات.

والإفراغ في اللُّغَةِ: الصَّبُّ. يقال: درهمٌ مفرّغ، إذا كان مصبوبًا في قالبٍ غير مضروب، وأصله: من إفراغ الإناء وهو صبٌّ ما فيه بالكليَّة، أي: إلى أن يفرغ، أي: أفضِ علينا صبرًا يغمرنا، كما يغمر الماء، أو صُبَّ علينا ما يطهّرنا من الآثام، وهو الصَّبر على ما وعيد به فرعون؛فعلى الأول «أفرِغْ» استعارة تبعيَّة و «صَبْرًا» قرينة شبّه إنزال الصبر وإكثاره عليهم بإفراغ الماء في الفيضان والغمر؛ لأنَّ إفراغه يكون غامرًا يصبّ عليه، ثم قيل: «أفرغ» بدل أنزل على الاستعارة التَّبعيَّة، وعلى الثاني: «صَبْرًا» استعارة أصليَّة مكنيَّةٌ، و«أفرغ» تخييليَّة، شبَه الصَّبر بالماء في أنه مطهِّر من الأوزار، كما أن الماء مطهّر من الأحداث، وجعل إيقاع الإفراغ عليه قرينة الاستعارة بالكناية؛ لأنه إنَّما يستعمل في الماء، وقد فهم البعض من قوله:«**كما يُفْرَغُ الماءُ**»[٤١٧٢] أنَّ الأوّل أيضًا كذلك، إلّا أن الجامع ثمة الغمْرُ وهُهنا التطهيرُ.[٤١٧٣]

والتنكير للتعظيم والتكثير، أي: صبرًا عظيمًا واسعًا. وهو حبس النَّفس عن إظهار الجزع، وهو على الحقّ عزّ، وعلى الباطل ذلّ.

وفي الصحيح قال ع م: «لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ خَيْرًا أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ».[٤١٧٤]

[٤١٦٩] **عرائس البيان** للبقلي، ٤٥٥/١.

[٤١٧٠] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٢٦/٤.

[٤١٧١] **الكشاف** للزمخشري، ١٣٧/٢.

[٤١٧٢] **الكشاف** للزمخشري، ١٣٧/٢.

[٤١٧٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦١ظ.

[٤١٧٤] **سنن أبي داود**، ٨٤/٣ (١٦٤٤)؛ **السنن الكبرى** للبيهقي، ٣٢٧/٤ (٧٨٦٦).

﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام، أو مستسلمين لقضائك أخبروا عن إيمانهم أوّلًا، وسئلوا التوقّي على الإسلام ثانيًا، وفيه إشعار باتحادهما وأنهما بخلقه تعالى، وإلا لم يطلبوا ذلك منه.

والمعتزلة: يحملونه على الألطاف. واختلف في وعيد فرعون وعدمه، ويستدلّ على الأوّل بطلبهم الصبر، فإنَّه عند نزول البلاء، وبأن الملأ قالوا: لفرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ﴾ [الأعراف ١٢٧/٧] حيث لم يذكروا والسحرة، وذلك يدلُّ على عدم تركهم، ويجاب بأن طلبهم الصَّبر على الثبات على الإيمان، وعدم المبالاة، وبأن السحرة داخلون تحت قوله: ﴿وَقَوْمَهُ﴾، وعلى الثاني: بسؤالهم التوفي من عنده لا من طرف غيره، والظاهر الإجابة وبقوله: ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص٣٥/٢٨].

وقال ابن الكمال: فيه نظر؛ لأنَّ المراد من اتبعهما قبل غلبتهما فلا يتناول السّحرة.[٤١٧٥]

وقال القشيري: لَمَّا عَمِلُوا لله، وأوذوا في الله، صرفوا القصد إلى الله، وطلبوا المعونة من عند الله، وكذا السُنّة ممَنْ كان كلُّه لله.[٤١٧٦]

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧)﴾

إنما اعترضوا عليه بهذا وعارضوه، وأنكرو عليه فعله مع أنهم يعتقدونه أنَّه ربُّهم، وهم عبيده؛ لأنه جرى على خلاف العادة للملوك في ترك السَّطوة عند ظهور المعارض الذي يخاف منه على المملكة،[٤١٧٧] ولم يتعرَّضْ له فرعون وما أخذه وما حبسه، بل خلّى سبيله؛ لأنَّه كلَّما رأى موسى بعد الواقعة خافه أشدَّ الخوف، وكان يبول كبَوْل الحمار، فحملوه على أخذه وحرّشوه عليه، وقدحوا زيد تغيّظه عليه؛ ليكون ذلك أبقى عليهم منازلهم؛ إذ هم الأشراف فخافوا من زوال ملكهم وشرفهم.

﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾ أتتركهم؟ والاستفهام على حقيقته ويحتمل غيره ﴿لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عليك و على قومك دنياكم بما يظهر من الفتن بسببهم، والتهارج الذي يخيّل بالأمن، وانتفاء استقامة أحوال الناس، أو بالغلبة عليه، وأخذ موسى قومه منها، أو بإفساد ملكك وأمرك، أو دينكم بأن يغيّروه، ويدعوكم ألى دينهم، [**٢١١**/و] وعبادة غيرك، ويلائم ذلك أنَّه وافق السَّحرة على الإيمان بستمائة ألف نفسٍ، فأرادوا بالإفساد فيها ذلك.

﴿وَيَذَرَكَ﴾ عطف على ﴿لِيُفْسِدُوا﴾ بدؤوا أولًا بالعلَّة العامَّة، ثم اتبعوه بالخاصَّة، وقد علَّلوا بتركهم بالإفساد فيها، وترك موسى فرعون وآلهته، وليس ترك فرعون موسى وقومه لذلك، ولكن لَمّا ترتب عليه في زعمهم أخّروه بمثابة العلَّة كما في قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص٨/٢٨]. ونسبوا الإفساد إلى الجمع، والترّكَ إلى موسى خاصّة؛ لأنَّ التَّركَ المذكور راجعٌ إلى أمر الدّين، وقومُه تابعون له فيه، فذِكْرُ تركه كافٍ بخلافالفساد؛ لأنَّه من جهة الدُّنيا والملك وهم مستقلّون فيه.[٤١٧٨]

[٤١٧٥] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٢٦/٤.

[٤١٧٦] **لطائف الإشارات**، ٣٤٨/١؛ **التّيسير في التفسير**، ٤٧٠/٦ .

[٤١٧٧] **التّيسير في التفسير**، ٤٧٤/٦.

[٤١٧٨] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٢٧/٤.

أونُصِبَ على جواب الاستفهام بالواو كما يجاب بالفاء، أي: كيف يكون الجمع بين تركك موسى وقومه مفسدين، وبين تركهم إياك وعبادة آلهتك، أي: لا يمكن وقوعه[٤١٧٩] على أنَّ الاستفهام للإنكار، وقد لا يكون لذلك نحو: هل تعينني وأكرمك؛ فإن المسئول عنه اجتماع الأمرين الإعانة والإكرام.

وقرئ بالرفع[٤١٨٠] عطفًا على ﴿أَتَذَرُ﴾ أي: أَتَذَرُهُ وَأَيَذَرُكَ، أي: أتُطلق له ذلك؟ أو استئنافًا فيكون جملةً معترضةً مؤكدةً لمعنى ما سبق، أي: أتذَره وعادته تركك وآلهتك؟ فلا بدَّ من تقدير «هو» ليدلَّ على الدَّوام،[٤١٨١] أو حالٌ مقرَّرة لجهة الإشكال، فيقدَّر «هو» أيضًا؛ ليصير اسميَّةً، فإن الواو لا تجيء مع المضارع المثبت.

وقرئ بالسكون[٤١٨٢] جزمًا عطفًا على التوهم، فإن جواب الاستفهام كثيرًا ما يكون بالجزم وترك الفاء، وكأنَّه ههنا كذلك؛ لأنَّه لو لم يكن في ﴿لِيُفْسِدُوا﴾ اللام جاز أن يكون مجزومًا جوابًا، فيقدَّر كأنَّه ليس فيه اللام فيعطف عليه، ونحوه قوله: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[٤١٨٣] فإن ﴿أَصَّدَّقَ﴾ منصوب في جواب التحضيض إلَّا أنَّه ينزل منزلة المجزوم في جوابه مع ترك الفاء، فعُطف عليه أو تخفيفاً للرَّفع لثقل الضمة على توالي الحركات.

وقرئ: «وَنَذَرَكَ»[٤١٨٤] بالنُّون والنصب إخبارًا عن الملأ، أي: يصرفنا عن عبادتك فنذَرَها. وقرئ: «وَنَذَرُكَ» بالنون والرفع تَوَعَّدوه بذلك، أو أن الأمر يؤول إلى ذلك فيكون خبرًا محضًا.[٤١٨٥]

انظر إلى سوء ما قاله الملأ ولو كان لهم بصيرة صحيحة لَرَغّبوه على الإيمان بموسى، والانقياد له فضلًا عمّا قالوه، ويشير إليه قوله عليه السلام برواية أبي أيّوب رضي الله عنه: «مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ ، ولا استخلَفَ مِنْ خليفَةٍ إلَّا لَهُ بطانتانِ : بطانةٌ تأمرُهُ بالمعروفِ ، وتنهاه عن المنكر، وبطانَةٌ لا تألوه خبالًا، فمن وُقِيَ شرَّها فقد وُقِيَ»[٤١٨٦]. رواه البخاري.

﴿وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾

عطف على الكاف، أي: «وَيَذَرُ آلِهَتَكَ» التي كنتَ تعبدها، فإنَّه كان منكرًا لوجود الصانع، وكان يقول مدبِّر هذا العالم السفليِّ الكواكب، وأمَّا المخدوم للخلق والمرئي لهم، والواجب عبادته عليهم، فهو نفسه فاتخذ أصنامًا على صورها يعبدها ويتقرّب إليها على ما هو دين عبدة الكواكب، فقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات، ٢٤/٧٩] ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص٣٨/٢٨]، فبالنسبة إليهم فلا ينفي ذلك، أو يعبد بقرة له، وكانوا إذا رأوا بقرةً حسناء أمرهم أن يعبدوها؛ فلذلك أخرج السامريُّ لهم عجلًا جسدًا له خوارٌ، أو يعبد صليبًا علَّقه على عنقه، أو صنع لقومه أصنامًا فأمرهم بعبادتها تقرُّبًا

[٤١٧٩] **اللباب**، ٢٦٩/٩.

[٤١٨٠] أي: «وَيَذَرُكَ» قراءة شاذّة. **المحتسب** لابن جني، ٢٥٨/١؛ **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٥٠؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٢.

[٤١٨١] **الكشاف** للزمخشري، ١٣٧/٢؛ **فتوح الغيب**، ٥١٩/٦.

[٤١٨٢] أي: «وَيَذَرْكَ» قراءة شاذّة مروية عن الأشهب. **المحتسب** لابن جني، ٢٥٨/١؛ **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٥٠؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٢.

[٤١٨٣] سورة المنافقون، /١٠.

[٤١٨٤] أي: «وَنَذَرَكَ» قراءة شاذّة مروية عن أنس. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٥٠.

[٤١٨٥] **الكشاف** للزمخشري، ١٣٧/٢؛ **اللباب**، ٢٦٩/٩.

[٤١٨٦] **صحيح البخاري**، ٧٧/٩ (٧١٩٨).

إليه، كما يعبد عبدةُ الأصنام الأصنام، ويقولون: ليقرِّبونا إلى الله زلفى. وقال هذه آلهتكم، وأنا ربها وربكم، فلذلك قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات، ٧٩/٢٤]، فعلى هذا فالإضافة لأدنى ملابسة.

وقرئ: «وإِلَهتَكَ» بكسر الألف، يقال: أَلِهَ آلهة، أي: عبد عبادة، أي: عبادتك فلا يعبدك أو اسم للشمس، من حيث إنها تعبد فلذلك منعت الصرف للعلمية والتأنيث، فإنَّه كان يعبدها أو قومُه يعبدونها.

وقال بعض المشايخ: الأقوال كلُّها صحيحة لجواز أنَّه كان يعبد أوائل أمره وترك عبادة الأصنام في الأواخر، وأمر قومَه بعبادته وعبادة الأصنام، ويدل عليه قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات، ٧٩/٢٤].

﴿قَالَ﴾ فرعون جوابًا للملأ: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ يعني: سنعيد عليهم، ما كنَّا محنَّاهم به من قتل الأبناء، ليعلموا أنَّا على ما كنَّا عليه من الغلبة والقهر، وأنَّهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا، وأنَّ غلبة موسى لا أثَر لها في ملكنا، ولئلا يتوهَّم العامَّة أنه هو المولود الذي تحدَّث المنجِّمون بذهاب ملكنا على يده، فيثبِّطُهم ذلك عن طاعتنا، ويدعوهم إلى اتِّباعه، وأنه منتظر بَعد.[٤١٨٧]

فقوله: «**وأنه منتظر**» متعلِّقٌ بمحذوفٍ معطوف على «لئلا يتوهَّم العامَّة» أي: وليتصوَّروا ويعتقدوا أنَّ ذلك المولود منتظر بعدما نحن فيه، فهذا على طريقة:

علَّفْتُهَا تِبْنًا وَمَاءً بَارِدًا.[٤١٨٨]

وقد جرى الأحمق في الجواب على الأسلوب الحكيم؛ لأن جواب الملأ: إنَّا سنقتِّله وقومَه ونَسْبي ذراريهم.[٤١٨٩]

فعدل عنه إلى ما ذكر؛ لأنَّه قد انقطع طمعه عن قتل موسى وقومه لِمَا رأى من علوِّ أمره، وعظيم شأنه فانتقل إلى عذاب المستضعفين [**٢١١**/ظ] منهم ليوهم أنَّه يتم ذلك فيهم أيضًا، ولأنَّه إذا ترك قتلَ الأبناء، وشَرع في قتل الرِّجال لتُوُهم أنَّ ذلك للخوف منهم، وأنَّ موسى هو المولود الموعود، فلما صرَّح بالعَودِ إلى ما كانوا عليه من القهر: بإبقاءِ الرِّجال، وقتل الأولاد، واستحياء النِّساء، دلَّ على ذلّة بني إسرائيل، وأنَّ موسى غير المولود الموعود به، فكأنَّه قال لا تَلْتفتُوا إليه أيها القِبط، ودُوموا على ما كنتم عليه من قبلُ، ولا تعتمدوا عليه، يا بني إسرائيل، ولا تعتضدوا به، وأنتم بعد أذلَّاء مقهورون.[٤١٩٠]

وقيل: سنقتّل أبناءهم الذين يكون فيهم النَّجدة والقوّة، ويصلحون للقتال، فإنَّه إنّما يمكنه الإفساد بواسطة الرّهط، والشّيعة.

﴿**وَنَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ**﴾ بناتهم نستبقيهنَّ؛ إذ لا يكون فيهنّ نجدة وقوّة للمهنة والخدمة استدلالًا لهتّكما كنّا نفعل بهم قبل ذلك﴿**وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ**﴾ غالبون، وهم مقهورون تحت أيدينا، ولم يزالوا مستمرّين بصفة القهر، فهو كالتَّذييل للكلام السابق بالتَّعميم والتقرير على طريقة قوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾بعد قوله: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل، ٢٧/٣٤].

[٤١٨٧] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٣٨.

[٤١٨٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٥٢٠؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٢ظ.

[٤١٨٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٥٢١.

[٤١٩٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٥٢١.

﴿**قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)**﴾جملة مستأنفة، ولذلك خلت عن العاطف بخلاف قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ﴾ [الأعراف ١٢٧/٧]؛ لأنَّه معطوف على ما سبقه.

قاله لهم لَمَّا سمعوا قول فرعون، وتضجَّروا منه وجَزِعوا تسكينًا لهم وتسلية: ﴿**اسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ**﴾ في دفع بلاء فرعون عنكم ﴿**وَاصْبِرُوا**﴾ على دينكم، وعلى أذى فرعون.

والصَّبر: نتيجة الاستعانة بالله، فإنَّ مَن عرف أنه لا مدبِّر للعالم إلا الله انشرح قلبه بنور المعرفة، وعلم أنَّ الكلَّ بقضاء الله وقدره، فيسهل عليه كلُّ ما يصل إليه، وقد جرى الحكيم في الجواب أيضًا على الأسلوب الحكيم، «أي: ليس كما قال فرعون: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾، فإن القهر والغلبة لمن صَبَر، واستعان بالله، ولمن وعده توريثَ الأرض أن ذلك الموعود الذي وعدكم الله النصرة به، قهرًا للأعداء، وتوريثَ أرضهم».[٤١٩١]

﴿**إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ**﴾ يعني: أرضَ مصر، فاللَّام للعهد كما في قوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾[الزمر ٧٤/٣٩]، أو جنسها، فيتناول أرضَ مصرَ تناولًا أوَّليًّا؛ لأنَّها من جنسها، فهذا أبلغ، ونحوه قوله ضمْرَةُ: «إنما المرءُ بأَصْغَرَيْه»، فإنه يريد بالمرء الجنس، وغرضه أن يتناوله تناولًا أوَّليًا على الكناية.[٤١٩٢]

روي: أن المنذر كان يسمعه، ويعجبه أخباره، فلمَّا رآه استحقره، وقال:«تسمع بالْمُعَيْدي خيرٌ من أن تراه»، فأجابه بذلك.[٤١٩٣]

﴿**يُورِثُهَا**﴾ في محلِّ النصب على الحال من الجلالة، والعامل الاستقرار؛ لأنَّه العامل في ذي الحال، أي: حال كونه مورثًا لها، أو من الضمير المستتر في الجار، أي: إن الأرض مستقرّة لله حال كونها مُوَرَّثَةً من الله، أوفي محلِّ الرفع خبرًا ثانيًا، أو خبرًا و﴿لِلَّهِ﴾ هو الحال، أو استئنافًا.

﴿**مَنْ يَشَاءُ**﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ«يُورِثُ» ومفعول ﴿يَشَاءُ﴾ محذوف يدلّ عليه السِّباق ﴿**مِنْ عِبَادِهِ**﴾ بيان ﴿مَنْ﴾، وهذا منه عليه السلام تسلية لهم، وتقرير الأمر بالاستعانة والتثبُّت في الأمور، وتذكير بانتزاع الملك من أيدي القِبط وتخلُّص بني إسرائيل من شرِّهم، لكنَّ بقي أنَّ هذا الانتزاع يكون لهم أو لغيرهم، فلمَّا قيل: ﴿**وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ دلَّ على أن الانتزاع يكون إلى أتقياء وهم بنوا إسرائيل من الطائفتين لا القبط، وأنهم داخلون في المشيئة في قوله: ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فحصل البِشارة على سبيل الكناية الرَّمزيَّة من مجموع القرينتين أنَّ العاقبة المحمودة لهم، وأنَّهم هم المتقون، وأنَّ عدوَّهم يُهلَكون ويستخلفون مكانهم، وفي تعليق الإيراث بالمشيئة والإجمال في القرينة الأولى، ثُمَّ البيان بالقرينة الثانية شأنٌ لا يخفى سيَّما، وقد عرف الطرفان فيها ودخل اللام في المعرف إفادة اختصاص عن اختصاص، ومزيد تقرير للبشارة بالنُّصرة، ثُمَّ في الآية أن الاستعانة بالله، والصبر من أعظم أبواب التقوى المنجح للآمال، والحاكم للدولة بالإقبال في الحال والمآل والدنيا والدين، وفي التَّعبير جرى على الإنصاف وإلا فمعلوم أن القبط لا يقوى لهم، أو تنبيهٌ بأن كل من اتَّقى الله وخافه، فالله الغني الكريم بعينه في الدنيا والآخرة، والعاقبة ما يؤدي البادية إلا أنه إذا قيل: العاقبة له فهو في الخير، وإذا قيل: العاقبة عليه فهو في الشَّرِّ.

[٤١٩١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٢١/٦-٥٢٢.

[٤١٩٢] **الكشاف** للزمخشري، ١٣٨/٢.

[٤١٩٣] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٢٢/٦.

وقال بعض العارفين: انظر إلى أدب موسى كيف علَّم قومه معاملة الله أمرهم بالالتجاء اليه والاستعاذة به والاستعانة به فى تحمل مشقّة الصبر، ووجدان حسن الرِّضا فى البلاء، وأخبرهم أنَّ مَن كان له بالله صبر يكون مظفرًا على جميع المراد ويكون خليقة الله فى أرضه.

قال أبو عثمان: مَن استعان بالله فى أموره، وصبر على ما يلحقه فى مسالك الاستعانة، أتاه الفرج من الله، قال الله: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف ١٢٨/٧] على أمر الله، وأن يصبروا على أدب الله.[٤١٩٤]

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)﴾ [٢١٢/و]

أي: قال بنوا إسرائيل لموسى: **﴿أُوذِينَا﴾** بقتل الأبناء، والاستعباد، والامتهان بالخدمة، وأنواع التعذيب. والأذى: ضرر لا يبلغ بصاحبه أن يأتي على نفسه.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة، والإتيان ينتظم المجيئ وما يقابله وهو الذهاب.[٤١٩٥]

﴿وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ بإعادة ما ذكر علينا. وقيل: كان فرعون يسخرهم قبل مجيء موسى إلى نصف النَّهار، فلمَّا جاء استسخرهم جميع النهار بلا أجر.

وعن الكلبي: كانوا يضربون اللَّبِن بتبن فرعون، فلما جاء موسى أجبرهم أن يضربوه بتبن أنفسهم.[٤١٩٦]

وروي: أنهم قالوا ذلك حين خرج بهم موسى عليه السلام، ويتبعهم فرعون، وكان ورائهم، والبحر أمامهم،[٤١٩٧] وبالجملة أرادوا نحن لم نزل مقهورين مغلوبين تحت أيديهم، فمن أين لنا التسلُّط عليهم، وتوريث ديارهم، وكيف نفوز بالنصرة؟ فظهر أنَّهم قالوه من الضجرة، واستبطاء النَّصرة، وسؤال الكيفيّة، وفهم الفوز من العدَّة لا نفرة عن مجيئة وكراهة له؛ لأنهم مؤمنون ﴿قَالَ﴾ موسى جوابًا لهم وتصريحًا بما رُمز إليه من البِشارة المذكورة؛ لما رأى أنهم لم يتسلّوا بذلك وتجديدًا للوعد ليثقوا به وتحقيقًا له وذلك؛ لأنَّ قوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٤١٩٨] بأن الخاتمة المحمودة للمتَّقين من بني إسرئيل ومن القبط، ومعلومٌ أنَّهم بنوا إسرائيل لا القِبط، وبأنَّ المشيئة المشار إليها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَامَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف، ١٢٨/٧] بعد قوله: ﴿ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا﴾ [الأعراف ١٢٨/٧] متناولةٌ للمتّقين الذين هم بنو إسرائيل، وكان هذا الكلام رمزًا إلى أنَّ الملك يصير إليهم، ويُنزَع من القبط،[٤١٩٩] فهذا تصريح بذلك، وأَتى بفعل الطَّمع تأكيدًا لذلك على ماجرت به عادة الملوك من الإجابةبمثله، ووقوع ذلك منهم موقع البتّ والقطع، بحيث لا شبهة في إنجاز ذلك؛ لأن وعد الله، ووعد أنبيائه الذين ينطقون بالوحي لا يحوم حولَه الخلف، أو تحرّزًا عن الجزم باستخلافهم بأعيانهم، أو أولادهم.

وقد روي: أن مصر إنما فُتح في عهد داود ع م، أو إطماعًا لهم في ذلك، أو تعليمًا لهم وجوب الترجح بين الخوف والرجاء؛ لأنَّهما جناحا المؤمن، ويدلُّ على الأوَّل كونه قول نبي الله وكليمه وما بعده.

[٤١٩٤] **عرائس البيان** للبقلي، ٤٥٦/١.

[٤١٩٥] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٢٩/٤.

[٤١٩٦] **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٦٨/٣.

[٤١٩٧] **اللباب** لابن عادل، ٢٦٣/٩.

[٤١٩٨] **الكشاف** للزمخشري، ١٣٨/٢.

[٤١٩٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٢و.

وعدل إلى الْمُظْهَر في ﴿عَدُوَّكُمْ﴾ للإيذان بأن استحقاقهم الهلاكَ بسبب كونهم أعدائهم. ففيه إدماج معنى: «مَنْ عَادَى وليًّا لله فقد بارز بالمحاربة مع الله».[٤٢٠٠]

﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بأن يملككم ما كانوا يملكونه في الأرض من بعدهم ﴿فَيَنْظُرَ﴾ فيرى؛ لأن النَّظر بمعنى الفكر، وتقليب الحدقة غير متصوّر في حقِّه تعالى.

وقيل: إنما جاز النظر عليه وفيه معنى المقابلة؛ لأنَّه ههنا مستعار للعلم المحقق الذي هو العلم بالشيء ثابتًا شبّه بنظر الناظر، وعيان المعاين في ثبوته وتحققه ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ موضع ﴿كَيْفَ﴾منصوب به لا بالنَّظر، كما فيه معنى الاستفهام، أي: إعمالًا حسنًا يعملون أم قبيحًا، أو أشاكرين كنتم أم كافرين وذلك؛ لأن الله تعالى لا يجازي عباده على ما يعلمه منهم، إنما يجازي على ما يقع منهم حديثًا، فيتعلق الرؤية الأزليَّة به على ما رتب بالفاء التعقيبية، والتّعلّق نسبة حادثة والنسب والإضافات لا وجود لها في الأعيان فلم يلزم حدوث الصفة، وفيه تخضيض لهم على العزم على الشُّكر عند حلول النعم، وزوال النِّقم، وتنبيهٌ بالنِّعمة لظهور الشكر منهم، كما ابتلاهم بالنِّقمة لظهور سبرهم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠)﴾

اللام للقسم، وقد يقرب الماضي من الحال؛ لأنه إذا تُوُقِّع كون أمر. فقيل قد كان دلَّ على قربه من الحال ذكر ما أنزله بفرعون وقومه من المِحَنِ حالًا بعد حال، إلى أن وصل إلى الهلاك زجرًا للسامعين عن الكفر،[٤٢٠١] أو بيّن ما امتحنوا به، ولم يقوموا بحقه كما يدلُّ عليه آخر الآية و﴿آلَ﴾ الرجل خاصَّته الذين يؤل أمرهم إليه، وأمره إليهم، وأصل «أهل» لتَصْغيره على «أُهَيْل» إلَّا أنَّه لا يستعمل إلا فيمن له خطر، يقال: آل النَّبي وآل الخليفة، ولا يقال: آل الحجّام وهم من اقتفى إثره في العتوِّ، والاستكبار من نسله، وغيرهم الذين كانوا في حكمه، وعهده، وإيثاره على عبارة القوم لانتظامها الآيات حقيقة، ولا نكتة للتغليب، وللإشعار بأن أخذهم لاتِّباعهم فرعون فيفهم منه سلامة مَن آمن من قومه، ودخول فرعون في الحكم المذكور بطريق الدَّلالة وتخصيصهم مع أنَّ فيهم بني إسرائيل؛ لأنَّ اللهقادرٌ على ذلك، ولأنَّهم كانوا يأكلون للشَّهوة، وبنو إسرائيل للحاجة، ومن يأكل للحاجة كان أقلَّ حاجة، فلا يكون الأخذ أضرهم.

﴿بِالسِّنِينَ﴾ بسِني القحوط، بقلَّة الأمطار والمياه والنَّبات، جمعُ «سَنة»، وهي والحول والعام بمعنًى إلَّا أنَّها غلبت على زمان القحط، كما غلب العام على زمان الخصب؛ لأنَّه نادرٌ في الانفراد بالحد، والنَّادر أحقّ [٢١٢/ظ] بالانفراد بالذكر لانفراده بالمعنى الذي ندر به، ولكثرة ما يذكر منه ويؤرخّ به، ثم اشتقَّ منها. وقيل: أَسْنَتَ القوم إذا أقحطوا.[٤٢٠٢]

في **الصحاح**: «السَّنَة»: إذا قلته بالهاء، وجعلتَ نقصانَه الواو، فهو من النَّاقص، يقال: أَسْنَى القوم يُسْنون إسناءً: إذا لَبِثوا في موضع سنة. وأَسْنَتُوا: إذا أصابهم الجدوبة، تقلب الواو تاءً للفرق بينهما.[٤٢٠٣] قال المازنيُ: هذا شاذّ، لا يُقاس عليه. وقال الفراء: توهَّموا أنَّ الهاء أصليَّةٌ، إذ وجدوها ثالثة، فقلبوها تاءً.[٤٢٠٤]

[٤٢٠٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٢٦/٦.

[٤٢٠١] **اللباب** لابن عادل، ٢٧٤/٩.

[٤٢٠٢] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٣٠/٤.

[٤٢٠٣] **الصحاح للجوهري** «**سنه**»؛ **السان العرب** لابن منظور «**سنه**».

[٤٢٠٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٢٧/٦؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٢و.

وقيل: أصله: سَنْهَةٌ، بوزن: جَبْهَة، فحذفت؛ لأنَّها نُقلت حركتُها إلى ما قبلها؛ لأنَّها من: سنهت النخلة وتسنَّهت، إذا أتى عليها السِّنون، وعلى تقدير كون أصلها: سنوة بالواو حذفت أيضًا، ويدل على الأصلين قولهم: استأجرته مُسَانَهَةً ومساناةً وسُنَيْهة وسنيَّة وسنهاتٍ وسنواتٍ، وفي جمعها جمع الصِّحة كسرتْ السينُ؛ للإيذان بأنَّها جمعت على غير قياسٍ، وأنَّها ليست بجمع السَّلامة الحقيقي؛ لأنه لا يكون فيه تغيير؛ وإعرابه كإعراب مسلمين.[٤٢٠٥]

وقيل: بالياء في كلِّ حالٍ على جعل الإعراب على النُّون، فيكون بالحركة، فإذا أضفتَها على الأوَّل حذفت نون الجمع بالإضافة، وعلى الثاني لا تحذفها.

﴿**وَنَقْصٍ مِّن ٱلثَّمَرَاتِ**﴾ بكثرة الآفات، وشدَّة العاهات.

وعن كعب: يأتي على الناس زمانٌ لا تحمل النخلةُ إلا تمرة.

عن ابن عباس: السِّنون كانت لبادتيهم، والنقص لأمصارهم.[٤٢٠٦]

و﴿**مِنْ**﴾ صلة ﴿**نَقْصٍ**﴾، وإيراده للدَّلالة على البقية وإنها لم تنقص بالكليَّة ﴿**لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾ لكي يتنبَّهوا على أن ذلك بشوم تصميمهم على الكفر، والجحود وارتكاب المفاخر، فيتَّعظوا ويتوبوا إلى الله ويرجعوا إلى التوحيد والطاعة، أو تليّن قلوبهم وترقّ أفئدتهم، فيتضرعوا إليه، ويتنزَّلوا عما هم عليه ويخضعوا بكلِّهم، ويسترحموا بجملتهم؛ فإن الشدائد تليّن القلوب القاسية، وترخّي الشكائم العاتية سيّما الجوع، والهزال؛ فإنه أشد من القتل والأسر، أو يعلموا أن فرعون لو كان إلهًا لَما كان يستسلم لذلك الضرِّ، وليس فيه دلالة على إرادة التذكر منهم، وعدم قيامهم على ما كانوا عليه، حتى متمسكًا للمعتزلة؛ لأنَّه تعالى يعاملهم معاملة الاختبار، ولا اختبار حقيقة. ومن ههنا يظهر أن تفسير «لَعَلَّ» بالإرادة لا يستقيم على أصل أهل السنة؛ لأنَّ إرادة الله يستلزم حصول المراد عندهم، ولم يقع منهم التّذكّر والاتّعاظ، بل اشتدّ عتوّ العاتين وغلظة الغلاظ.

﴿**فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)**﴾

الفاء فصيحة؛ لترتّب مدخولها على مقدَّرٍ دلَّ عليه سباق الكلام ولحاقُه من عدم تنبُّههم لما ذكر، وتفصيل لذلك ﴿**الْحَسَنَةُ**﴾ المطلقة، أي: جنسها، فتعريف جنس الحسنة، إمَّا تعريف عهديٌّ وهو أقضى لحق البلاغة؛ لدلالته على أن الحسنة المطلقة لكثرة ورودها فيما بينهم صارت بمنزلة الحاضر المعهود، كأنه يصيب أعينهم، فيكون أنسبَ باستعمال ﴿إِذَا﴾، وأدخل في اللَّوم على دعوى الاختصاص وترك الشُّكر، وإمَّا تعريف جنسيٌّ كما ذهب إليه الجمهور، لكنه خالٍ عن الاعتبار المذكور، وعلى هذا معناه الإشارة إلى ما يعرفه كلّ أحد من معنى الحسنة، كما ذكر في تعريف الحمد لله. «والجنس لكثرة وقوعه واتّساعه كالمقطوع؛ لحصول تحقّقه في ضمن كلِّ فردٍ، فلهذا عرِّفت تعريف الجنس، وأُوقعت في حيِّز ﴿إِذَا﴾ والماضي»[٤٢٠٧] وبما يخصّ، يندفع ما يقال: إذا كان المراد الحسنة المطلقة أيّ جنسهما فكيف يكون تعريفها عهديًّا؛ لأنَّ العهد إنَّما يكون في حصص الأجناس لا في أنفسها، وإن أراد بالعهد العهدَ الشامل لتعريف الجنس عنده لم يصحَّ جعل تعريف الجنس قسيمًا له.

[٤٢٠٥] **لسان العرب** لابن منظور «**سنه**».

[٤٢٠٦] **التّيسير في التفسير**، ٤٧٨/٦.

[٤٢٠٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٢و.

وقيل: التعريف في ﴿الْحَسَنَةُ﴾ للعهد الخارجيّ التقديري بدليل ذكر مقابلة في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾، [الأعراف، ١٣٠/٧]؛ فلذلك فسَّر بالخصب والرَّخاء، فح مراد من قال: «لأنَّ جنس الحسنةِ وقوعه كالواجب»أي: جنس الخصب والرَّخاء، وفيه مبالغةٌ، أي: أنَّه لكثرة الوقوع كان الجنس كلّه واجب الوقوع، ولهذا لا يزال يتكاثر حتى يستغرق الجنس.

﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: هذه مختصَّة بنا، ونحن مستحقّوها لكرامتنا.[4208] ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ وهي محمولةٌ على الجنس كالحسنة إلّا أنَّ وقوع جنس السَّيئة نادر بالنسبة إلى وقوع جنس الحسنة؛ لعمومه الأوقات؛ فإنَّ العبد لا يخلو عنها لحظةً، فجيء بلفظ ﴿إِنْ﴾ في جانبها، ونكّرت؛ لأنَّها إذا وقعت لم يقع إلا شيءٌ منها.

﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ يتشاءموا بهم، ويقولوا هذا بشؤمهم، ولولا مكانهم فينا لَما أصابنا.

أصله: يتَطَيَّروا، فأُدغم الثاء في الطاء، والتَّطَير: التَّشَاؤم، وأصله: التَّفاؤل بالطَّير، فغلب على الشَّر.

عن الأزهريِّ: العرب تُسَمِّى الشؤمَ طيرًا وطائرًا وطِيرةً؛ لتشاؤمهم ببارحها، وبنعيق غرابها، وبأخذها ذات اليسار إذا أثاروها.[4209]

وكانت العرب تزجر الطائر، فتشأم بالبارح، وهو الذي يجيء من يمين الإنسان، ويجوز إلى جهة يساره، [**٢١٣**/و] فلا يمكن رميه حتى ينحرف الرّامي إليه ويتبرّك بالسانح، وهو الذي يجيء من مياسر الإنسان، ويجوز إلى جهة يمينه، ولعلَّه لما جعلوا الطَّائر أمارة على الشؤم سمِّي به تسمية للمدلول باسم الدَّال، وهذا نهاية الغباوة والضلالة، حيث حملوا ما أخذهم الله به من الشَّدائد للاستنزال عن الطغيان، واسترقاق القلوب إلى طرف الإيمان على التشاؤم من النَّبي واتِّباعه الصالحين وخصّوا الحسنة بأنفسهم مع كونهم من المقهورين المخذولين، وجعلوا ما هو سبب الهدي ذريعةً إلى زيادة الكفر والشَّقاء؛ فلذلك بولغ في إنكار التَّطيّر بموسى ومن معه، ووصف طِيرة القبط وشؤمهم بغاية الهول، والفضاحة.

«قال الفَرَّاءُ: وقد تَشَاءَمَت اليهود بالنبي – صلى الله عليه وسلم – بـ«المدينة»، وقالوا: غَلَتْ أسْعَارُنَا، وقَلَّتْ أمطارنا مذ أتانا.

وأعلم الله على لسان رسول الله أنَّ طِيرتَهُم باطلةٌ، فقال عليه السلام: «لا طيرة ولا هامة»وكان عليه السلام يَتَفَاءَلُ ولا يَتَطَيَّرُ.

والفَرْقُ أن الأرْوَاحَ الإنسانيَّة أقوى من البهيمية والطَّيرية، فالكلمة التي تَجْرِي على لسان الإنسان يمكن الاسْتِدْلالُ بها؛ بخلاف حَرَكَاتِ البهائم».[4210]

﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)﴾

بالغ فيه بإيراد كلمة التَّنبيه، واستئناف الجملة واسميَّتها، وأداة الحصر واشتمال الكلام على اسمه الشريف المنبيء ذكره في مقام الوعيد عن غاية السخط والبطش، والقهر والانتقام، أي: أنَّ شؤمهم؛ لأنَّه إذا كان التطيّر التشاؤم فيكون الطائر الشؤم. وقد نقل عن ابن عباسٍ رضي الله عنه. ويدلَ عليه ما ذكرنا قبلُعن الأزهري.

[4208] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٣١/٤.

[4209] **تهذيب اللغة** للأزهري، ١١/١٤؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٢و.

[4210] **اللباب** لابن عادل، ٢٧٧/٩-٢٧٨.

﴿عِنْدَ اللهِ﴾ أي: من قِبله، وبحكمه، ومشيئته، وقضائه، أو أنَّ سبب خيرهم وشرِّهم؛ لأنَّه لما نسب الخير والشر إلى الطّائر استعير لما كان سببهما ممَّا كان عند الله من قدره وقسمته، أو من عمل العبد الذي هو السبب في الرَّحمة، والنِّقمة، ومنه: قالوا طائر الله لا طائرك، أي: قدر الله الغالب الذي ينسب إليه الخير والشَّرُّ للطائرك الذي تتشاءم به وتتيمَّن، أو لأنَّ الطائر قد يطلق على الحظِّ والنَّصيب، سواءٌ كان خيرًا أو شرًا، فعلى هذا فالظَّاهر تقدير المضاف، والمعنى: سببهم الذي يجيء منه خيرهم وشرهم عند الله، وهو قدره وقسمته إن شاء رزقهم، فأصابهم الحسنة، وإن شاء حرَّمهم، فأصابهم السيئة وليس شؤم أحد، ولا يُمْنُه بسبب في ذلك، كقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [النساء، ٧٨/٤] وهذا أبلغ لما أنَّ فيه تعلّقًا بادِّعائهم الاختصاص بالحسنة كما لا يخفى، أو سبب شؤمهم بتقدير المضاف أيضًا، وحمل الطائر على الشؤم عند الله، وهو عملهم المكتوب عنده، فإنه الذي يساق إليهم ما يسؤهم، ومنه نزل بهم ما نزل عقوبة لهم وفتنة.

وقرئ: «إِنَّمَا طَيْرُهُمْ»[٤٢١١] على أنه اسم جمع بمنزلة الجاهل والباقر، وليس بتكسيرٍ؛ لأنَّ فعلًا بالسكون لم يوجد في صيغ الجمع، أو جمعُ «طَائِرٍ»، وهو تكسير كـ«صَاحِبٍ» و«صحب»، أو واحد.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ قيْدُ الأكثر يدلُّ على أنَّ قليلًا منهم كانوا عالمين، لكن تابعوا الأكثر في هواهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ شؤمهم عند الله، ومن قبله وحكمه، أو أنَّ ما جاءهم من الخصب في السعة والجَدب والضّيقة بإرادة الله وقضائه، ليس لأحدٍ في ذلك مدخل؛ لأنَّ الكلَّ بخلق الله ولا خالق سواه، كما لا ضارّ، ولا نافع إلا هو؛ فإن كلَّ موجود إما وجب لذاته، أو ممكن لذاته، والواجب لذاته واحد، وما سواه ممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الواجب، وأكثر الناس يضيفون الحوادث إلى الأسباب المحسوسة، ويقطعونها عن قضاء الله، وهذا جهل عظيم، أو أن ما أصابهم مما يشؤهم شؤم أعمالهم، ومقتضى أفعالهم.

وقال بعض العارفين:المتفرد بالإيجاد ولكن بصائرهم مسدودة، وعقولهم عن شهود الحقيقة مصدودة، وأفهامهم عن إدراك المعاني مردودة.[٤٢١٢]

فعلى العارف أن لا ينظر إلى الأشياء الظاهرة بل ينظر إلى مسبِّبها ولا ينفع ذلك الإسناد، بل ينظر في أنَّ هذا الأمر إنَّما وقع منه امتحانًا لعباده ردعا لهم عن المخالفة وحثًّا على الموافقة، فيتذكَّر بذلك وينزجر عن المهالك، وسلك بالخير خير المسالك. وقد ذمَّ الله المنافقين بقوله: ﴿أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ اَوَلَا يَرَوْنَ اَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً اَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة ١٢٦/٩] على عدم التَّوبة والإنابةوعدم التذكّر والاستقامة، وأن يعلم أنَّ ما يقع من الآفات والبليّات، إنَّما يقع غالبًا بشؤم أعمال العصات وبشؤم أفعالهم وأقوالهم وعقائدهم. وقد قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ اَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم ٤١/٣٠]فمن تذكَّر هذا ورجع إلى الله فله المغفرة والثواب، ومَن لم يتذكَّرولم يرجع عمّا فيه فحاله على خطر عظيم. نعوذ بالله من الإصرار على ما يؤدي إلى العذاب المقيم

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾

حكى عنهم نوعًا آخر من الضَّلالة، وهو عدم الفرق بين المعجزة والسّحر بعد ما حكى [**٢١٣**/ظ] أنَّهم بجهلهم أسندوا الحوادث لا إلى قضاء الله.

[٤٢١١] قراءة شاذّة، مروية عن الحسن. **المحتسب** لابن جني، ٢٥٧/١؛ **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٥٠؛ **شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٩٣.

[٤٢١٢]**لطائف الإشارات** للقشيري ٣٤٩/١.

﴿مَهْمَا﴾ «ما» الشَّرطيَّة ضمَّت إليها «ما» المزيدة لتأكيد الجزاء وزيادة التَّعميم كما في: «أينما» و«مينما» و«حيثما»، ثم قلبت ألفها هاءً استثقالًا لتكرير المتجانسين، أو كلمةٌ برأسها موضوعةٌ لزيادة التَّعميم، أو «مَهْ» بمعنى: اكفف وما هي الشرطيَّة، والمعنى: اكفُفْ عن كل شيءٍ ما تَفْعَل أفْعَل فيفيد أنَّه ما من شيءٍ تَفْعَله إلَّا وأنا أَفْعله عمومًا فوق الحال عن الأمر بالكفِّ عن كل شيء، ومحلُّه الرَّفع على الابتداء، أي: أيّما شيء والخبر فعل الشرط أو فعل الجزاء أو هما معًا، أو النَّصب بمضمر وهو تُحْضِرُنا تفسيره قوله: ﴿تَأْتِنَا﴾ وهو مجزومٌ وعلامته سقوط الياء؛ لأنَّه من حروف المد واللين وهي مجانسة لحركات الإعراب، ومن شأن الجازم أن يحذف حركة فإذا لم يصادف حركة عمد في نفس الحرف لئلَّا يتعطَّلَ من العمل به.

الضمير لـ﴿مَهْمَا﴾ و﴿بِهِ﴾ يتضح فساد جعله في الآية بمعنى: ميَّما؛ لأنَّه مفعولٌ به ولو جعل إلى «متى» لَكان مفعولًا فيه، كما يقال: اليوم خرجت فيه وبتبيينه بقوله: ﴿مِنْ آيَةٍ﴾؛ لأنَّ الآية ليست بزمانٍ بل لإخفاء في أنها ليست أينما وقعت بمعنى: ميَّما ولا يصح ذلك فيما يطلع عليه في استعمالاتها، وإنَّما الكلام في أنَّها هل جاءت على الندرة والشُّذوذ بمعنى ميَّما.

قال صاحب اللباب: وقد تستعمل للظرف.[4213] وأمَّا المنطقيون فيستعملونها استعمال كلَّما، ويجعلونها سور الموجبة المتَّصلة الكلِّية مثلها، فيقولون: مهما كانت الشمسُ طالعةً فالنَّهار موجودٌ، ولا يدَّعون أنَّها من وضع العربية ولا يفسِّرون به شيئًا من كلام العرب.[4214]

وقال **بعض الفحول**: غرَّ مَنْ ذَهَبَ أنها بمعنى: ميَّما.

قوله سيبويه: سألت الخليل من «مهما» فقال: هي «ما» أدخلت عليها «ما» لغوًا بمنزلتها مع «متى» ما تأتي آتك[4215]وكان هذا القائل اعتبر تشبيه الخليل لها بـ«متى» وظنَّها بمعنى، وإنَّما شبَّه خليل بها ما الثانية من مهما في نحو قها زائدة مؤكِّدة.

﴿لِتَسْحَرَنَا﴾ لتسحر عيوننا فتشبَّه الأمر علينا ﴿بِهَا﴾ وهذا الضمير أيضًا لـ﴿مَهْمَا﴾ وتذكيره أوَّلًا لما عاد إلى «مهما» ولفظه مذكر وتأنيثه ثانيًا لما رجع إليه بعدما بيّن بقوله: ﴿مِنْ آيَةٍ﴾؛ ونحوه قول زهير:

ومَهْما يكُنْ عند امْرِءٍ من خليقةٍ وإنْ خَالها تَخفي على النَّاس تُعلم[4216]

ولم يجز بجعل في الآية لـ﴿آيَةٍ﴾، وفي البيت لـ«خليقة» لما أنَّ وجه الكلام مع ﴿مَهْمَا﴾ والبيان فضلةٌ جيئ به لمحض التَّبيين والتفسير.[4217]

﴿**فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ إقناط لموسى وردع له عن الاشتغال بإظهار المعجزات، فلذلك عدلوا في الجزاء عن: لن نؤمن إلى الاسميّة مع تكيد النفي بالباء، وتحقيق الجزء بزيادة «ما»، أي: فلا تشتغل بإيرادها فما نحن بمصدقين لك أنَّها من عند الله، وهذا منهم غاية الضلالة والعناد؛ إذ كذَّبوه بما لم تأت به بعدُ، وقرَّروا به تكذيب بما آتاهم به، وأظهروا أنهم مصرُّون على الكفر وعدم الإيمان أبدًا، غير منقادين للحقِّ أصلًا وإن بدا وظهر.[4218]

[4213]**اللباب** لابن عادل، ٢٨٠/٩.

[4214]**حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٢ظ.

[4215]**كتاب سيبويه**، ٢/ ٣٠٩.

[4216]**الكشاف** للزمخشري، ١٤١/٢.

[4217]**حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٢و.

[4218]**تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٣٣/٤.

وكثر إتيان الدلائل واشتهر فظهر منه أنَّ تسميتهم ما يأتيهم به آيةً بناء على زعمهم على طريقة قوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء /٢٧]؛ لأنَّهم جعلوها من قبيل السحر وسلبو الإيمان بسببها، وقصدوا بذلك الاستهزاء والتَّلهى

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣)﴾

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ﴾ أي: لَمَّا قالوا ما قالوا فلم يأتهم بمحض الآيات، بل بآيات تتضمَّن البليات التي تكاد تلجيء إلى الإيمان، أو فتابَعْنا لهم الآية ولم نقطع عنهم البراهين لِما أظهروا من الجهالات.

﴿الطُّوفَانَ﴾ جمعُ «طُوفَانَةٌ» اسم جنس ك«قمح» و«قمحة»، أو مصدر ك«الرُّجحان» وهو من كل شيء: ما كان كثيرًا محيطًا مطبقًا بالجماعة من كلِّ جهة أي: ماءً طاف بأماكنهم ودخل بيوتهم فقاموا فيه إلى تراقيهم، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل المشتبكة بيوتهم قطرة ما، فقالوا لموسى: ادع لنا ربَّك يكشفْ عنَّا فنؤمن بك، فكشف عنهم ونبت لهم من الكلأ والزُّروع ما لم يُعهد، فنكثوا.

وقيل: الجدريّ وهم أوَّل مَنْ عذِّبوا به فبقي في الأرض، وقيل: الْمُوتَان، وقيل: الطَّاعون ومات من أبكارهم في ليلة ثمانون ألفًا، ومن أبكار الدَّواب كذلك، واحتال فرعون فجمع بين أبكار القبط و أبكار بني إسرائيل بين كلِّ بكرين بسلسلةٍ، فماتت في الليل أبكارُ القبط دون أبكار بني إسرائيل.[٤٢١٩]

وقيل: أمر من أمر الله طاف بهم كقوله تع: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ [القلم ٦٨/١٩]

﴿والجراد﴾ جمعُ جرادة الذكر والأنثى فيه سواء وإذا أريد الفرق جيء بالنعت مشتقٌّ من الجرد والاشتقاق في أسماء الأجناس قليل يقال: أرضٌ جرداء، أي: ملساء.وسبب الجراد أنَّ موسى عليه السلام أشار بعصاه شرقًا و غربًا [**٢١٤**/و] فجاء الجراد حتى ظهرت في الهواء كالغمام الأسود فسدَّت الشمس. فلمَّا وقعت أكلت الزُّروع والثّمار، ثم أخذت تأكل السقوفَ والأبواب والثّياب ففزعوا إليه فخرج إلى الصحراء، فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت إلى النَّواحي فنكثوا.

وجوَّز جمهور الفقهاء قتل الجراد إذا أفسد؛ لأنَّ فيها فسادَ الأموال وقد رخَّص النبي عليه السلام بقتال المسلم إذا أرا أخذ ماله فالجراد أولى بذلك، كما أنَّهم اتفقوا على جواز قتل الحيَّة والقرب.

ومن أدعية النَّبي عيه السلام:«اللَّهُمَّ أهلِكْ كِبارَه، واقتُلْ صِغارَه، وأفسِدْ بَيضَه، واقطَعْ دابِرَه، وخُذْ بأفواهِه عن مَعاشِنا، وارزُقْنا؛ إنَّك سَميعُ الدُّعاءِ، قال: يا رَسولَ اللهِ، كيف تدعو على جُندٍ مِن أجنادِ اللهِ يَقطَعُ دابِرَه؟ قال الجراد: إنَّه نثرةُ حوتٍ في البَحرِ»

وقيل: لا يقتل؛ لأنَّه خلق عظيمٌ من خلق الله يأكل من رزقه، وقد روي:«لَا تَقْتُلُوا الْجَرَادَ فَإِنَّهُ جُنْدُ اللهِ الْأَعْظَمُ»[٤٢٢٠]

عن النبيّ ع م: إنَّ اللهَ خَلَقَ أَلْفَ أمَّةٍ ستمئةٌ منها في البَحْرِ وأربعمئة في البرّ وأنَّ أوَّل شيءٍ هلاك هذه الأمم الجراد فإذا هلَكتْ الجراد تتابعَتْ الأمم مثلَ النِّظامِ السلك إذا انقطع وإنما صارت أوَّلها هلاكًا؛ لأنَّها خلقت من الطِّينة التي فضلت من طينة آدم، وإنما يهلك الأمم لهلاك الآدميين؛ لأنَّها سخرة لهم.

[٤٢١٩] **التّيسير في التفسير**، ٤٨٦/٦.

[٤٢٢٠] **المعجم الكبير** الطبراني ٢٩٧/٢٢ (٧٥٧)؛ **شعب الإيمان** للبيهقي، ٢٣٢/٧ (١٠١٢٧).

وفي صدر الجراد مكتوبٌ جند الله الأعظم. وروي: مكتوبٌ على صدر كلّجراد جند الله الأعظم.[٤٢٢١]

﴿وَالْقُمَّلَ﴾ جمعُ «قملة» وهي: السّوس الذي يخرج من الحنطة. وقيل: «الدَّبى» جمعُ «دباة» وهي: أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها. وقيل: «الحمنان» جمعُ «حمنانة» وهي: ضرب من القراد. وقيل: البرغيث. وقيل: دوابّ صغار سود ويقرب هذا من الوجه الأوَّل.

وقرئ: «القَمَلَ»[٤٢٢٢] بفتح القاف والسكون وهي لغة في المشدّدة، أو هي القمل المعروف. وقد روي أنَّ القمَّل خرجت من الأرض حيث نكث فيها بالعصا، ولَمَّا أرسلت أكلت البقية من الجراد، ووقعت في الأطعمة ودخلت بين أثوابهم وجلودهم فمصّتها، ففزعوا إليه عليه السلام فكشف، فقالوا: قد تحقَّقنا الأن أنَّك ساحر، ولم يزدادوا إلا عتوًّا واستكبارًا

﴿وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ جمعُ «ضِفْدِع» بزنة درهمٍ، ويجوز كسر داله وهو مؤنث وليس بمذكر، فيفرق بين بينهما بالوصف، يقال: ضفدع ذكرا أو أنثى، كما في الملتبس بتاء التأنيث نحو: حمامة. وخرجت من النيل بإشارته بالعصا بأمر الله تعالى. ولَمَّا أرسلت صارت بحيث لا يُكشف طعام إلا وجدت فيه، وكانت تملأ مضاجعهم، وتَثِبُ إلى قدورهم وهي تغلي، وأفواههم عند التكلُّم ففزعوا إليه وتضرَّعوا فأخذ عليهم العهود فدعا فكشف عنهم فنكثوا. وقد نهى النبي ع م عن قتل الصّرد والضِّفدع والنَّملة والهدهد؛ لأن الصّرد كان دليل إبراهيم لَمّا خرج من الشّام إلى الحرم لبناء البيت والضِّفدع كانت تصبّ الماء على نار نمرود وتَثِب التَّنانير حين سلَّط على فرعون غضبًا لله، وأسكنها الله في الماء وجعل نقيقها تسبيحًا وكان أكثر النَّاس تسبيحًا.

﴿وَالدَّمَ﴾ بأن ضرب النيل بعصاه بأمر الله، فصار دمًا غبيطًا، فصارت مياههم دمًا، حتى كان القبطيُّ والإسرائيليُّ يجتمعان على إناء، فيصير ما يلي الإسرائيلي ماءً وما يلي القبطي دمًا ويمصُّ القبطي من فم الإسرائيلي فيصير دمًا في فيه.

وقيل: سلطَّ عليهم الرُّعاف ﴿آيَاتٍ﴾ نصبٌ على الحال من المذكورات، أي: أرسلها الله عليهم هذه البليات حالَ كونها آياتٍ ﴿مُفَصَّلَاتٍ﴾ مبيَّناتٍ طاهراتٍ لا تُشكل على عاقلٍ أنَّها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره وأنَّها عبرةٌ لهم ونقمة على كفرهم، أو: منفصلاتٍ فصل بين بعضها وبعض بزمانٍ يُمتحن فيه أحوالهم ويُنظر أَيستقيمون على ما وعدوا من أنفسهم ليلًا إلزامًا للحجَّة عليهم قالوا: وكان بين كل اثنين منها شهر وكان امتداد كلّ واحدة من الآيات أسبوعًا، أو فصل في الابتلاء بها بين طائفتين عظيمتين من المحقين والمبطلين ولا يتأتى ذلك في السِّحر وكانت بحيث لا يشكُّ عاقل في أنَّها من الله

﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإيمان بها وقبولها، والإذعان لها، وهذا أكبر الكبر إذ تهاونوا آيات ربِّهم بعد تبيّنها لهم وتعظَّموا عنها.

عن عبد الله بن مسعود

بَطَر الحقّ بفتح الباء الموحدة والطاء المهملة هو احتقارهم وازدرائهم، وكذلك غمصهم بالصاد المهملة. وقد رواه الحاكم فقال: [**٢١٤**/ظ] ولكن الكبر من بطر الحق، وازدرى الناس.

[٤٢٢١] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٢٨٠/٤.

[٤٢٢٢] قراءة شاذّة، مروية عن الحسن. **المحتسب** لابن جني، ٢٥٧/١؛ **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٥٠؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٣.

﴿**وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ**﴾ كفارًا مصرّين على إجرامهم ومستمرّين على آثامهم؛ فلذلك استكبروا عنها واجترؤوا على ردِّها، فإن قيل: لما علم الله من حالهم عدمَ إيمانهم فما الفائدة في توالي الآيات وقوم محمد طلبوها فما أجيبوا؟ قلنا: يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد لا يُسئل عمَّا يفعل وهم يسئلون. وعند المعتزلة: لعلَّه علم من قوم موسى عليه السلام أنَّ بعضهم كان يؤمن عند ظهور المعجزة كمؤمن من آل فرعون وكالسحرة وعلم من قوم محمدٍ أنَّ أحدًا منهم لا يزداد بظهورها إلا كفرًا وعنادًا ولذلك لم يجب.

﴿**وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤)**﴾

لَمَّا ذكر استكبارهم وإصرارهم فصَّل كلّ واحدٍ منهما بذلك.

وأصل الرِّجز: الميل عن الحقِ، ومنه: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر ٧٤/٥]، والعذاب رِجزٌ؛ لأنَّه عقوبةٌ على الميل عنه، والرَّجز: رعدة في رجل النَّاقة لداءٍ يلحقها تعدل به عن حقّ سيرها. والرجز: ضرب من الشعر، أخذ من رجز الناقة؛ لأنَّه متحرّك وساكن، ثُمّ متحرك وساكن في كلِّ أجزائه، فهو كالرِّعدة في رجل الناقة يتحرَّك بها، ثُمَّ يسكن ثم، يستمرُّ على ذلك.[٤٢٢٣]

يريد به العذاب المفصَّل ويدل عليه قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف ٤٣/٥٠]؛ لأنَّه المراد ههنا. وقال ابن الكمال: ولو أريد هذا لَكان المناسب تصدير الكلام ب:كلما؛[٤٢٢٤] ويمكن أن يقال: إنَّما يلزم إذا أريد ههنا وقوعُ كلّ واحدٍ منه على التَّفصيل، أو الطَّاعون وهو العذاب السَّادس بعد الخمس حتى مات منهم سبعون ألفًا في يومٍ واحدٍ فأمسوا وهم لا يَتَدَافنون.

قال ع م: «الطّاعُونُ رِجْزٌ، أَوْ عَذابٌ أُرْسِلَ على بَنِي إِسْرائِيلَ، أَوْ على مَن كانَ قَبْلَكُمْ، فَإِذا سَمِعْتُمْ به بأَرْضٍ، فلا تَقْدَمُوا عليه، وإذا وَقَعَ بأَرْضٍ وَأَنْتُمْ فيها، فلا تَخْرُجُوا فِرارًا منه».[٤٢٢٥]

﴿**قَالُوا يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ**﴾ فيه علامة غاية غوايتهم حيث لم يقولوا: رَبَّنا؛ إظهارًا للإصرار على الإنكار في حالة نهاية الإضطرار ﴿**بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ**﴾ ﴿مَا﴾ مصدريَّةٌ، أو موصولةٌ.

والمراد: النُّبوَّة سمِّيت عهدًا؛ لأنَّه تعالى عاهد نبيَّه على أن يكرمه بها، وعاهد ربَّه على أن يستقلَّ بأعبائها، أو لما فيها من الكلفة بالقيام بأعبائها ومن الاختصاص كما بين المتواثقين، أو لأنَّ لها حقوقًا تحفظ كما يحفظ العهد، أو لأنَّه من العهد الذي يُكتب للوُلاة كأنَّ النُّبوَّة منشورٌ من الله يتوليه مَنْ أكرمه بها،[٤٢٢٦] أو استجابة الدَّعوة التي وعدها الله إيَّاه، أو ما عهده من كشف العذاب عمَّن آمن، أو من الإيمان والعمل الصَّالح فوفى به، أو الدُّعاء الذي علمه تعالى أن يدعوه به فيجيبه.

[٤٢٢٣] **مجمع البيان** للطبرسي، ٩/٥.

[٤٢٢٤] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ١٣٥/٤.

[٤٢٢٥] **صحيح مسلم**، ١٧٣٧/٤ (٢٢١٨).

[٤٢٢٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٢و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**؛ تحقيق: محمد فاضل جيلاني، مركز جيلاني للبحوث العلمية والطبع والنشر، إسطنبول، الطبعة الاولى، ٢٠٢١/١٤٤٣، ٦٠٦/٣.

قال المصنف: والباء متعلّق بـ﴿ادْعُ لَنا رَبَّكَ﴾ على وجهين: إمّا أَسْعِفنا إلى ما نطلبُ إليك من الدُّعاء بحقِ ما عندَك من عَهد النُّبوّة، وإمّا على ادع الله لنا متوسّلًا إليه بعهده عندك، أو قسم يجاب بـ﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾،[٤٢٢٧] يريد أنَّهما إمَّا للقسم وجوابه ﴿ادْعُ﴾ مثل: بحياتك أخبرني على أنَّه قسم استعطاف، أو ﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾، مثل: بالله لَئِنْ جِئْتَني لأكرمنَّك، واللَّام الأولى موطِّئة، أو للسببيَّة والتَّوسُّل مثل: اطلب حاجَتك بما قدَّمت من الطّاعات، فيكون حالًا من ضمير ﴿ادْعُ﴾.[٤٢٢٨]

وقال قدّس سره: وهو صلة ﴿ادْعُ﴾، أو حالٌ من الضَّمير فيه بمعنى: ادع الله متوسِّلًا إليه بما عهد، أو متعلِّقٌ بفعلٍ محذوفٍ دلَّ عليه التماسهم مثل: أَسْعِفنا إلى ما نطلبُ منك بحقّ ما عهد عندك، أو قسمٌ يجاب بقوله: ﴿**لَئِنْ كَشَفْتَ**﴾ الآية.[٤٢٢٩]

لعلَّه أراد أن يكون صلة ﴿ادْعُ﴾ ما قيل، أي: ادعه بالدّعاء الذي علمك لكن في قوله: أو متعلِّقٌ بمحذوفٍ تأمَّل؛ لأنَّ الظاهر أنَّه لم يرد التَّعلق اللَّفطي وهو تعلّق حرف الجرِّ بعامله؛ لأنَّ الياء ح قسم الاستعطاف ولا يتعلَّق لفظًا بقوله: «أسعفنا»، بل هو جواب قسم الاستعطاف. ولا شكَّ أنَّ قوله: ﴿ادْعُ﴾ يصلح جوابًا لذلك القسم، فأيّ حاجة إلى اعتبار الحذف، وجعل ﴿ادْعُ﴾ دليلًا على المحذوف كما عرفت قبل.

والاسعاف: قضاء الحاجة، يقال: أَسْعَفْتُ بحاجته، أي: قضيتها، وعدّي بالباء لتضمُّنه معنى الإيصال، ثُمَّ إذا لم يكن: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾ جواب المذكور، يكون جواب قسم مقدَّرٍ. وفيه دلالةٌ على أنَّه ع م طلب منهم ما أشير إليه بقوله ﴿ **وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ وإنَّما زاد معك؛ لأنه ع م كان طالبًا لإرسالهم معه كما قال: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[الشعراء ٢٦/ ١٧].

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥)﴾

الفاء فصيحةٌ عاطفة على مقدَّرٍ، كأنَّه قيل: فدعا موسى ربَّه فكشف عنهم الرِّجز، وقد أسند الله الكشف إلى ذاته على ما هو حقيقة لحال وهو خالقُ جميعِ الأعمال وأسندوه إلى موسى ع م بناءً على جهالتهم وتماديهم في ضلالتهم. وهم تارةً يكذِبونه وأخرى عند الشدائد، يفزعون إليه فزع الأمّةَ إلى نبيّها ويسألون أن يسأل ربَّه دفعها [**٢١٥**/و]، وذلك يقتضي تسليم نبوَّته، فهذا يناقض قبيح منهم.

﴿**إِلَى أَجَلٍ**﴾ غاية للكشف إلى حدّ من الزّمان وهو وقت الموت أو وقت عيَّنوه لإيمانهم بعد معاندتهم باجتماع الحاضر والبادي فيه. وقيل: وقت الغرق، لا يقال: إنَّ منهم مَن مات قبل الغرق، ومنهم من بقي بمصر؛ لأنَّ إلحاق الكلام يدفعه على ما ستقف عليه

﴿**هُمْ بَالِغُوهُ**﴾ فيعذِّبون عند بلوغهم إياه لا محالة، أو يهلكون ولا يؤخِّرون عنه فلذلك بولغ في وصف الأجل بالجملة الإسميَّة مع تجريد الخبر عن شائبة الحدوث إشارةً إلى ضرورة بلوغهم الحدّ المقدَّر لهم ولزومه، ولا يلزم من تقييد الكشف بالغاية أن يكون النَّكث بعد موتهم، أو غرقهم؛ لأنَّه إنما يفاجئ ابتداء وقوع الكشف لا الكشف المنتهي إلى أجله. والتَّقييد إنَّما ذكر لبيان أنَّ الكشف ليس المراد منه ارتفاع الرِّجز عتهم بالكليَّة، وهذا أولى من تقدير مضاف، أي: فلمَّا كشفنا عنهم إلى قرب أجلٍ هم بالغوه؛ لأنَّه يشعر مفاجأة النكث استمرار الكشف إلى قربه، وذلك ينافي ما ورد الكلام؛ لأجله من فجأة وقوع

[٤٢٢٧] **الكشاف** للزمخشري، ١٤١/٢.

[٤٢٢٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٢و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٦٠٦/٣.

[٤٢٢٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٦٨/١.

النّكيث منهم من غير توقُّفٍ وتأمُّلٍ، وكذا ينبغي أنَّه يفاجئ النكث ابتداء الكشف على تفسير الأجل بالوقت المعيّن لإيمانهم، أو حالٌ من ﴿الرِّجْزُ﴾ متعلِّقة بمحذوفٍ، أي: الرجز كائنًا إلى أجل، فيفيد أنَّ العذاب كان مؤجّلًا فح لا إشكال؛ لأنَّ مفاجأة النكث وقت كشف العذاب المقرَّر عليهم إلى أجلٍ.

﴿**إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ**﴾ جواب ﴿لَمَّا﴾ أي: فاجئوا النَّكث هكذا قدَّروا محافظةً على ما ذهبوا إليه مِنْ أنَّ ما يلي كلمةَ ﴿لَمَّا﴾ من الفعلين يجبُ أن يكون ماضيًا لفظًا أو معنًى، إلا أنَّ مقتضى ما ذكروا من أنَّ «إذ» و«إذا» المفاجأة في موقع المفعول به للفعل المتضمّن هما إياه، أن يكون التقدير: فاجَؤوا زمانَ النكث أو مكانه.[4230] فلعلَّهم نظروا إلى أنَّ مفاجأة زمانه مفاجأة له فأرادوا إيضاح المعنى وتصريح المقصود، ثُمَّ إنَّ في الكلام إشعارًا بوقوع خلاف المتوقع منهم؛ لأنه أتى منهم نقض العهد بدلًا من الوفاء، فكأنَّه فاجئ الرأي عجب من نكثهم.

والنَّكثُ: النَّقض، وأصله من: نَكَث الصوف المغزول وهو نَكِث بالكسر، والجمع إِنْكَاثٌ، فاستعير لنقض العهد بعد إحكامه وهي من أحسن الاستعارات.

وقال بعض العارفين:أخبر الله سبحانه عن نقض عهد المفسدين بعد رؤيتهم وضوح الآيات، وظهور المعجزات، ونيّرات الكرامات، وذوقهم طعم العذاب فى البليات جحودًا وإنكاراً بعد علمهم بصدق الرِّسالة والنُّبوة والولاية، ولَمَّا وقعوا فى ورطة الهلاك التجؤوا الى نبيِّ الله صلى الله عليه وسلم بعد جفائهم به، فلم ينفع التجاؤهم وتوبتهم لِمَا سبق لهم فى قديم العلم من الشّقاوة ولِمَا نفذ فيهم سهام الهمة النُّبوية الولائيَّة، وهكذا شأن مَنْ جفا المشايخ برعوناتهم وسوء آدابهم لاينفعهم استعانتهم بالقوم.

قال القاسم: مَن لا يراع أسرار الأولياء فى الأوقات لا ينفعه الالتجاء اليهم فى اوقات البلاء، ألا ترى كيف لم يوثر على أصحاب فرعون الالتجاء الى موسى فى اعتقاد المخالفة قال الله تعالى:[4231]

﴿**فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)**﴾.

فأردنا النتقام منهم وهو سلب النِّعمة بالعذاب ﴿**فَأَغْرَقْنَاهُمْ**﴾ فالإغراق هو الانتقام، أو أحللنا بهم النِّقمة، وهي ضدُّ النِّعمة فيكون الإغراق تفسيرًا له كما في قولك: رزق زيد المال فمنع المعروف فلم يحسن إلى الفقراء ﴿**فِي الْيَمِّ**﴾ وهو البحر الذي لا يُدرك قعرُه، وقيل: لجُة البحر ومعظم مائه، وقيل: البحر الذي يقال له إساف، وفيه غرق فرعون. ويرده قوله: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص ٧/٢٨]، فإن المراد به نِيلُ مِصْرَ، وهو غير الذي غرق فيه فرعون، واشتقاقه: من التيمُّم وهو القصد؛ لأن المتنفعين به يقصدونه كالغوَّاصين لآليءَ والتَّاجرين إلى البلاد الشّاسعة ﴿**بِأَنَّهُمْ**﴾ أي: الإغراق بسبب أنهم ﴿كذبوا بآياتنا﴾ التي ظهرت على يد موسى من المعجزات ﴿**وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ**﴾ عن آياتنا ﴿غَافِلِينَ﴾ مُعرضين غير مُلتفتين إليها ولا متفكّرين فيها حتى صاروا كالغافلين عنها فإنَّ نفس الغفلة ليست باختياري يؤاخذ به مع أنَّها غيرُ ظاهر في حقهم بمشاهدتهم ومقارنتهم إيَّاها.

[4230] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٢ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف،** ٦٠٧/٣؛ **نواهد الأبكار** للسيوطي، ٤٠٦/٦.

[4231] **عرائس البيان** للبقلي، ٤٥٧/١.

وقيل: غفلتهم عن جهة دلالتها على صدق موسى في دعوى الرّسالة غفلة عنها في الحقيقة؛ لأنّها بدون الدّلالة المذكورة لا يبقى آيات. وفي الكلام إشعار بأنَّ سبب تكذيبهم هذه الغفلة، وأنّهم لو تداركوا التَّكذيبَ ولم يستمرُّوا عليه ما حلَّ بهم ما حلَّ، أو عن النّقمة المدلول عليها بقوله: ﴿فَانْتَقَمْنَا﴾ فيكون إشارةً إلى أنَّ العذب فاجئهم وهي أشدُّه

﴿**الْقَوْمَ**﴾ مفعول أوّل لـ﴿أَوْرَثْنَا﴾؛ لأنَّ «وَرِثَ» يتعدّى إلى واحد فبالنَّقل إلى اثنين [**٢١٥**/ظ] ﴿**الَّذِينَ**﴾ بصلته صفة القوم ﴿**يُسْتَضْعَفُونَ**﴾ خبر «كان»، والسين للطلب، أي: يطلب منهم الضّعف مجازًا، أو من باب وجده كذا استضعفهم القبط بالاستعباد وذبح الأبناء واستحياء النِّساء وغير ذلك. فأورثناهم منهم على مقتضى قوله ع م: «مَن آذى جارَه ورَّثَه اللهُ دارَه».[٤٢٣٢]

﴿**مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا**﴾ مفعولٌ ثان و﴿الْأَرْضِ﴾: أرض مصر والشّام؛ لأنّها هي التي كانت تحت حكم فرعون ملكها بنوا إسرائيل بعد الفَرَاعنة والعَمَالقة، وتصرَّفوا كيف شاؤوا في أطرافها ونواحيها الشرقية والغربية، أو أرضُ مصر؛ لأنّها أرض القبط أو الأرض؛ لأنّها خرج من جملة بني إسرائيل داود وسليمان عليهما السلام، وقد ملكا الأرض كلّها، أو أرض الشّام؛ لأنَّ القوم المستضعفين لم يعودوا إلى ديار مصر، بل أقاموا في الأرض المقدسة، ولأنَّ التَّوصف ملائم وهو قوله: ﴿**الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا**﴾ بالبركات الدِّينية والدنيوِّية؛ لأنَّ فيها الخصب، وسعة الأرزاق، وطيب عيش الفقير والغني، ومواطن الأنبياء ومثابة الأولياء، وأمّا حجة الحمل على غيرها؛ فلأنَّ مصر قد بعث فيها موسى وهارون ويوسف وغيرهم؛ وأمَّا غيرهما فلأَنَّ الله جعل في الأرض البركات، ووصل إلى أكثرها شرائع الأنبياء وآثارهم، ولأنَّ الشيء ينسب إلى جميع المذكور وإن كان ملتبسًا ببعضه كقولك: دخلت الشام وقعدت فيها، وإنما دخلت في طرف منها وما قعدت إلّا في شيءٍ من أماكنها، ثُمَّ إنَّ الوصف لقوله: ﴿مَشَارِقَ﴾ فيكون في محلِّ النَّصب. وقيل في محلِّ الجرّ صفة للأرض. ففيه أنه تفرقة بين الموصوف وصفته بالمعطوف، ويحتمل أن يكون هذا مفعولًا ثانيًا والضّمير راجعًا إلى الموصوف المحذوف و﴿مَشَارِقَ﴾ ظرفًا لـ﴿يُسْتَضْعَفُونَ﴾ وأن يكون صفة الظَّرف، والمفعول الثاني محذوفًا نحو: الأرض أو الملك.

وعنه ع م:«الأرضُ أرضُ اللهِ والعبادُ عبادُ اللهِ مَنْ أَحْيا مَواتًا فهُوَ لَهُ».[٤٢٣٣]

﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ**﴾.

مَضَت عليهم واستمرَّت ما كان مقدَّرًا في علمه الأزلي وهي عِدته إيَّاهم بالنَّصرة على الأعداء، والتَّمكين في أراضيهم، واتَّصلت بالإنجاز؛ فإنَّ الوعد بالشَّيء يبقى كالمعلَّق، وإذا حصل الموعود به فقد تمَّ ذلك الموعود، وكَمُلَ كما إذا حصل المعلَّق عليه يتمّ المعلَّق وينقضي وإليها الإشارة في قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ [القصص٢٨/٥]، ولَمَّا كان قصص بني إسرائيل وفرعون لم يكن معلومةً عند رسولنا قبل الوحي جيئ بقوله: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ [الأعراف ١٣٦/٧]، ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ ودمَّرنا على الحكاية، وخصَّ هذه اللَّفظة، وهي: ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ بالخطاب على الالتفات لكونها معلومةً عنده ع م، أي: تمت ما تعرفه من إجراء كلِّ شيءٍ بتقدير ربِّك وقضائِه ومشيئته وللإدماج بأَنَّه ستتم كلمة ربّك في شأنك أيضًا ﴿الْحُسْنَى﴾ وصفها بها مع أنَّ جميعَ كلماته حسنة للإشعار بأنَّ ما تمَّ عليهم نعم حسنة.

وقرئ: «كَلِمَاتُ رَبِّكَ الحسنى»[٤٢٣٤] لتعدُّد المواعيد وتكثرها ونظيره في وصف الجمع بالمفرد المؤنث بالصّيغة، وإن كان الشائع الوصف بالمفرد المؤنث بالتاء قوله: ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم ١٨/٥٣] بناءً على أنَّه لا فرق؛ لأنَّ معناه على

[٤٢٣٢] لم أجده.

[٤٢٣٣] **سنن أبي داود**، ١٤٣/٣ (٣٠٧٦)؛ **المعجم الأوسط** للطبراني، ١٤٧/٨ (٨٢٢٨).

تأويل الجمع بالجماعة لا يقال: يجوز أن يكون التقدير: لقد رأى الآية الكبرى؛ لأنَّه اختيار بما يتعيَّن ما ذكر في بعض الأماكن نحو: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه ٢٠/١٨].

﴿عَلَى﴾ صلة ﴿تَمَّتْ﴾. وفيه مبالغةٌ في إنجاز الوعد وشموله، كأنَّه استعلاهم لا صلة الكلمة للزوم الفصل بين الموصول وصلته بالصِّفة، وكذابما صبروا،

و﴿مَا﴾ مصدريَّة، أي: بسبب صبرهم على أذى فرعون وقومه، وعلى أمر الله وثباتهم على الإيمان والطَّاعة والعمل بقوله موسى: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾[الأعراف ٧/١٢٨]،.

والصبر حبسُ النَّفس عن شهواتها المحظورة والمباحة وتَجرّع الغُصَص واحتمال المكاره والبلايا في طاعة الله، وفيه بعث لأولي الألباب عليه ودلالة على أنَّ مقابلة البلاء به، وانتظار الفرج مِمَّا يوجب رفع الحرج، وأنَّ مقابلتها بالجزع لا يحصل إلا الفزع، ومن ههنا قال الحسن ما قال على ما قاله المصنّف.

والتدمير: الإهلاك والدّمار الهلاك التَّام، يقال: دَمَرَ القوم يَدْمُرونَ دَمَارًا إذا هلكوا، وهو متعدّ بنفسه فقوله: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [محمد ٤٧/١٠] بتقدير المفعول، أي: خَرَب عليهم منازلَهم، والمفعول ﴿مَا﴾ وهي: موصولةٌ، والضَّمير في: ﴿كَانَ﴾ يرجع إليه وهو اسمه، وجملة: ﴿يضع فرعون وقومه﴾ أي: يصنعه بتقدير العائد خبر ﴿كَانَ﴾، أو ﴿فِرْعَوْنُ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾، و ﴿يَصْنَعُ﴾ خبر مقدَّم والجملة الكونيَّة صلة ﴿مَا﴾، والعائد محذوفٌ [**٢١٦/و**]، أي: الذي كان فرعون يصنعه. وردّ بأنَّ «قام زيد» يجب أن يكون من باب الفعل والفاعل، ولا يجوز أن يدّعي فيه: أنَّ قام فعلٌ وفاعلٌ، والجملة خبر مقدَّم، وزيد مؤخَّر مبتدأ ، فكذا هنا؛ لأنَّ ﴿يَصْنَعُ﴾ يصحُّ أن يسلّط على فرعون ولا يدّعي فيه التَّقديم، وأجيب بأنَّ المانع في المثال هو اللّبس وهو مفقود ههنا.

وأنت خبير بأنَّ الشَّيءَ إذا وقع في رتبته فلائح دعوى التَّقديم والتَّأخير من غير اضطرار عن تعسُّف، أو ﴿كَانَ﴾ زائدة، أي: الَّذي يصنعه فرعون وعلى هذا يجوز أن يكون ﴿مَا﴾ مصدريَّة أيضًا والظاهر أن يكون المرد ممَّا يصنع ويعمل ويُسوّى هو وقومه شاملًا لتخيُّلاتهم وأفكارهم الباطلة، وتدبيراتهم العاطلة، ولقصورهم لقصورهم، وعماراتهم لجهلاتهم؛ حيث اشتغلوا بتعمير الخراب، وغفلوا عن حسن المآب.

﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ يرفعونه من الجنَّات والبَساتين والبُنيان كصَرْح هامانَ. وأصل التعريش: الرفع.

وقرأ ابن عامر وأبو بكر بضم الرَّاء[٤٢٣٥] وهم لغتان، والكسرُ أفصحُ. وقرئ بتشديدها وضمّ الياء من التَّعريش للمبالغة، وفيه دلالة على أنَّ عاقبة المستضعفين المظلومين الصَّابرين الخلاص واليسار، وأنَّ عاقبة الجبّارين الظالمين الهلاك والدّمار

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨)﴾

الباء للتَّعدية كالَّتي في قولك: ذهبت بزيد، وجاوز الوادي وأَجَازَه وجوَّزَه واجتازه بمعنى إذا قطعه وخلفه ورائه، فلا وجه لما قيل: إنَّ جاوز به أبلغ مِن: أجازه، كما أنَّ «ذهب به» أبلغُ من: أذهبه، ثمَّ إنَّه لم يقل: وجاوز بنوا إسرائيل تَنْبِيهًا على أنَّ الجواز كان خارقًا للعادة خارجًا عن طَوْق البشر.

[٤٢٣٤] قراءة شاذّة، مروية عن الحسن. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٥١.

[٤٢٣٥] «يَعْرُشُونَ». **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٠٤.

﴿الْبَحْرَ﴾ الذي غرق فيه فرعونُ وقومُه، وهو بحر القُلْزُم أو النِّيل. لَمَّا تمّ قصتهم ذكر سبحانه ما أحدثَه بنوا إسرائيل بعدما رَأَوْا من الآيات الظاهرة، وصادفوا من النِّعَم الباهرة من الأمُور الشّنيعة؛ تسليةً لنبيِّنا ع م مِمَّا رأى منهم في المدينة، وإعلامًا بأنَّ حال الإنسان كما وصفه: ظَلُومٌ كفَّار جَهُولٌ إلَّا من عصَمَه الله، ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ ٣٤/١٣]، وإيقاظًا للمؤمنين لئلّا يغفلوا عن سياسة نفوسهم ومحسبتها، وحَراسة أحوالهم ومراقبتها، ولا يغترُّوا بصفاء الأوقات، فإنَّ تحتها غوامض الآفات.

﴿فَأَتَوْا﴾ فمرّوا ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ من العَمَالقة الذين أُمِرَ موسى ع م بقتالهم.

وقيل: من لَخْم حيٌّ من اليَمَن، ومنهم كانت ملوكُ العرب في الجاهلية. وعن المصنِّف: قبيلة مِنْ مُضَرَ.[٤٢٣٦]

﴿يَعْكُفُونَ﴾ صفة لـ﴿قَوْمٍ﴾، أي: يواظبون ويلازمون. والعكوف: الإقامة على الشَّيء وبالمكان ولزومهما، يقال: عَكَفَ يَعْكِفُ وَيَعْكُفُ عُكُوفًا فهو عاكِفٌ، واعتَكَفَ يَعْتَكِفُ اعْتِكَافًا فهو مُعْتَكِفٌ، ومنه: المعتكف لمن لازم المسجد للعبادة ﴿عَلَى أَصْنَامٍ﴾ على عبادتها، وكانت تماثيلَ بقَرٍ، ومن ههنا نشأ أمر العجل حتى عبدوه لِمَا مال قلوبهم إليه عندما رَأَوا ذلك ﴿لَهُمْ﴾ صفة أصنام وفيه إشعارٌ بغايةِ غَبَاوتهم حيث عبدوا ما يملكونه فلمَّا رأوهم ومالوا إليهم.

﴿قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ صنمًا ومثالًا نعبده ونعكف عليه توهَّموا أنَّه يجوز عبادة غير الله، ولم يعرفوا أنَّ المجعول لا يكون إلهًا وأنَّ الأصنام لا تكون آلهةً، أو ظنُّوا أنه يجوز أن يتقرب به إلى الله، وإن اعتقدوا أنَّه لا يشبه الأشياء ولا تشبهه، ولم يكونوا مشبهَّة ولم يشكُّوا في وحدانية الله فيتوجَّه الذَّمُّ عليهم بأنَّ العبادة غاية التَّعظيم سواء اعتقد في المعبود أنَّه إلٰه، أو مقرّب إلى الله ونهاية التَّعظيم لا يليق إلا بما صدر منه غاية الإنعام وكأن هذا لم يصدر من مشاهيرهم كالسَّبعين المختارين، بل من عوامهم وجَهلتهم لفرط غباوتهم وفساد طباعهم بطول العبودية لفرعون.

والكاف: في محلِّ نصب صفة لـ﴿إِلَهًا﴾، و﴿مَا﴾ مصدريَّة تقديره: كما ثبت لهم ﴿آلِهَةٌ﴾ وهي فاعل ثبت المقدَّر، أو كافَّةٌ لكاف التَّشبيه عن العمل؛ لأنَّها حرف جر شرطها الدُّخول على المفرد، فلمَّا وقعت ههنا الجملة كفَّت بما، أو موصولةٌ صلته الظَّرفُ، والعائد المستكنّ فيه والتَّقدير: استقر دون مستقر إذ الصِّلة لا يستقر بالمفرد، و﴿آلِهَةٌ﴾ بدلة من المستكنّ أو خبرٌ محذوفٌ، وفي إطلاق الجهل حيث لم يذكر المفعول للتعميم، أو نزّل الفعل منزلة اللّازم وتصدير الجملة بإنَّ، وتوسيط قومٍ وجعل ما هو المقصود بالإخبار وصفًا له ليكون كالمتحقّق بالمعلوم، ومجيء الفعل الّدالِّ على التجدُّدِ الدَّائم المشعر بأنَّ ذلك منهم كالطبع والغريزة لا ينتقلون عنه في الحال، وتغليب الخطابة على الغيبة في ﴿تَجْهَلُونَ﴾ الذي هو أقوى وأَرسخ منها وتعقيب هذه الجملة بقولهم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ بعدما رَأَوْا من إغراق فرعون وإنجائهم منه ومجاوزتهم البحر إشعار بالتعجّب العظيم من جهلهم، أي: ما أجهلهم كأنَّهم ما شهدوا تلك الآيات وما عَرفوها، فإنَّ العاقل العالم [٢١٦/ظ] بحقائق الأمور بعد ما رأى تلك الآيات العظام لا يصدر منه مثل تلك الكلمة الحَمْقَاء فصدورها منهم موضع تعجُّب وتعجِيب.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩)﴾

إشارةٌ إلى القوم جعل المسند إليه اسم الإشارة مع إفادته كمال التَّمييز وزيادة التَّحقير من حيث كونه مِمَّا يشارُ به إلى البعيد وكون تمييز المشار إليه ذريعة إلى التَّحقير ينبّه عند تعقيبِ المشار إليه بالوصف على أنَّه جديرٌ بما يَرِد بعد اسم الإشارة؛ لأجل ذلك الوصف وهو العكوف على الأصنام ههنا، فيكون التَّبار والإحباط المسند إلى هؤلاء لازمًا لهم كلزوم سببه الذي هو

[٤٢٣٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٤٢/٦؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٣و.

العكوف، ويختصُّ بهم لاختصاص العلَّة حيث لم يتعرَّض لإثباتها لغيرهم ولا يكون أحد أحقّ به منهم، ثم في توكيد مضمون الجملة بأن يريد الدلالة على ذلك وكما بولغ بذلك بولغ أيضًا بالإخبار عنهم بالتَّبَّار الكلّي والإحباط الجلُّيّ حيث قيل: ﴿مُتَبَّرٌ﴾ مكسَّر مدبَّر مهلك. والتَّتبير: التَّكسير والتَّحطيم، ومنه التِّبر؛ لأنَّه كسارة الذَّهب أو الإهلاك فتسميتها متبرًا لتهالك الناس عليها وهو خبر مقدم مبتدؤه ﴿مَا هُمْ فِيهِ﴾ من الجملة الموصوليَّة التي وقعت الصِّلة فيها جملة إسمية، ورجع الضَّمير في الخبر فيها إلى الموصول، أي: إن الله يهدم دينهم الباطل الذي هم فيه ويحطم أصنامهم ويجعلها رضاضًا ﴿وَبَاطِلٌ﴾ أي: مضمحلٌ ضائع لا يجدي عليهم نفعًا ولا يدفع عنهم ضررًا.

والبطلان: عدمُ الشَّيء بعدم ذاته أو بعدم فائدته، وهو أيضًا خبرٌ مقدمٌ مبتدؤه ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الجملة الموصوليَّة التي وقعت الصلة فيها فعليَّة، ولكن ههنا يجوز كون ﴿مَا﴾ مصدريَّة، أي: الذي كانوا يعملونه، أو عملهم من عبادة الأصنام التي مضت منهم، فالقَرينة الأولى لما عليهم الآن والثانية لما مضى منهم، أو الأولى بالنَّظر إلى الاعتقاد والثَّاني بالنَّظر إلى العمل، فلذلك نسب إلى الأوَّل التَّبَّار وإلى الثاني البطلان وكما بولغ في الإخبار بالجملتين عن أنّ بولغ أيضًا بتقديم الخبرين فيهما لإفادة أنَّ ما هم عليه متبَّر لا ثابتٌ وباطل لا حَقٌّ على القصر القلبي، وإن كان يحتمل احتمالًا مساويًا أو مرجوحًا أن يكون ﴿مَا هُمْ فِيهِ﴾ فاعل ﴿مُتَبَّرٌ﴾؛ لاعتماده على المسند إليه، والأصل في الإخبار أن يكون مفردةً لا يعدل عنها مهما أمكن، وذلك لاقتضاء المقام الحصر المستفاد من التَّقديم، واعتبار المرجِّح المعنويّ أولى من اللّفظيّ، ولم يتعرَّض المصنّف في تقريره لهذا الحصر لظهوره، وإنَّما تعرَّض للحصر على المسند إليه بقوله: «هم المعرَّضون للتّبّار» لخفائه، ولك أن تجعل قوله: «لايعدوهم» إشارةً إلى الحصر على المسند.[٤٢٣٧]

وهذه المبالغات إيقاع الجملة تعليلًا لإثبات الجهل المؤكّد للقوم لاقتراحهم أن يجعل لهم إلهًا. والتَّنبيه منه عليه السلام على غاية فسادهم ونهاية كسادهم تنفيرًا لقومه عمَّا سئلوا وتحذيرًا عمَّا طلبوا، وأبلغ من ذلك أَنَّ المذكور ليس جوابًا له بل مقدمةً وتمهيدًا له وإنَّما الجواب قوله: ﴿قال أغير الله أبغيكم﴾ وكيت وكيت إلى أن قال: قال ربُّكم: اذكروا إذ أنجيناكم من آل فرعون انظر إلى هذه التشديدات حيث حكم عليهم بالجهل للمطلق، ثمّ حكم عليه ما كانوا بالتَّبّار، وحكم على عملهم بالبطلان، وعدم النفع في الدُّنيا والدِّين، ثمَّ عجب من حالهم على وجه الإنكار بما سيذكر.

وعن أبي واقد: أن رسول الله لَمَّا خَرَجَ غَزْوَةَ حُنَيْنٍ مرَّ بشجرةٍ لِلْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالُوا: اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام: «سُبحانَ اللهِ! هذا كما قال قَومُ موسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ [الأعراف ١٣٨/٧]، والذي نَفْسي بيدِه، لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَن كان قَبلَكم».[٤٢٣٨]

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠)﴾

هذا جوابٌ لهم وما قبله تمهيدٌ على ما مرَّ بيانه، أو جوابٌ آخر بعد الجواب أي: أغير المستحقّ للعبادة؛ فإن استحقاق العبادة بالنَّظر إلى ذات الله من اللَّوازم، وأمَّا بالنسبة إلى المفهوم فبالنَّظر إلى ما قبل العلميَّة وهو لاختصاص الإنكار بغير الله دون إنكار الاختصاص، فيكون طلب العبادة مختصًّا بغير الله فيختصُّ طلب العبادة بالله، وذلك من تقديم المفعول على الفعل وهو ﴿أَبْغِيكُمْ﴾ أي: أبغي لكم فحذف الحرف، وأوصل الفعل إليه وهو غير منقاسٍ يقال: بغيت فلا شيئًا وبغيت له قال تع: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة ٤٧/٩]، أي: يبغون لكم فعلى هذا فقوله: ﴿إِلَهًا﴾ تمييزٌ له أو حالٌ منه. وفيه نظر، وقيل: هو

[٤٢٣٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٣و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٦١٠/٣؛ **نواهد الأبكار** للسيوطي، ٤١١/٦.

[٤٢٣٨] **جامع الأصول**، ٣٤/١٠ (٧٤٩٢)؛ **مشكاة المصابيح**، ١٤٨٨/٣ (٥٤٠٨).

المفعول وغير حال متقدّمة منه، فيفيد تقديم المسند إليه على الفعل اختصاص الله بتفضيلهم كما أنَّ اختصاصهم بالنِّعمة التي لم يعطها أحدًا والتَّفضيل حاصلٌ من جوهر الكلام وهو قوله ﴿**فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾، أي: على جميع من سواكم إلا ما يخصُّه العقل من الملائكة والأنبياء؛ إذ لو كان لغيرهم أيضًا تفضُّل على جميع من سواه لم يكن لهم تفضُّلٌ على من سواهم.

فالحاصل على مقتضى الاختصاصات الثلث أنَّ لما خصَّكم الله دون غيره بالنِّعمة من بين العالمين فخصّوه [**٢١٧**/و] بالعبادة، أي: أجعلوه منفردًا بها غير مشارك، ومعنى الهمزة الإنكار والتَّعجب من طلبهم عبادة غير الله مع كونهم مغمورين في نعمة الله، ومن ههنا يظهر أنَّ الجملة حاليةٌ من الله أو من المخاطبين؛ لأنَّ الجملة مشتملةٌ على كلِّ واحدٍ من الضَّميرين أو الاستئنافيَّة مقرَّرة لجهة الإشكال، وتنبيهٌ على سوء مقابلتهم وقبح معاملتهم حيث قابلوا تخصيص الله تعالى إيَّاهم من أمثالهم بما لم يستحقُّوه تفضُّلًا وإحسانًا لهم بأن قالوا: إلى أن أشركوا به أخسّ شيء من مخلوقاته وهكذا حال النَّفس إذا خصَّصتها بنعمةٍ فهي تقابلك بأخسّ الأشياء وأدونها وأخبثها وأشرها، فكُنْ على حذر في كلِّ وقت ولا تأمن شرورها؛ فإنَّ شرورها لا يدرك غايتها على ما وَرَد في الحديث.

وقيل: فضَّلهم على عالمي زمانهم أو خصَّهم بتلك الآيات القاهرة ولم يحصل مثلها لأحدٍ من العالمين وإن كان غيرهم فضَّلهم بسائر الخصال مثلَ من يعلم علمًا واحدًا وآخر يعلم علومًا كثيرة سوى ذلك العلم.

وقال أبو منصور رحمه الله: وفيه تعليمٌ أنه كيف يؤمَر بالمعروف، ويُنهى عن المنكَر، وكيف يُعامل مرتكب المنهيّ، يعامَل بالرِّفق واللِّين والشفقة، دون الغِلظة والجفرة والعنف، كما فعل موسى عليه السلام بهم مع ما استقبَلوه من الأمر المنكَر، يقول عليه السلام: أمَا تستحيون من هذا القول مع ما لله عليكم من المنَّة والطّول،[٤٢٣٩] ومن جملة «ما منَّ الله عليهم» ما روي عن وهب رحمه الله أنهم لَمّا عبَّروا البحر أرسل موسى عليه السلام جندين عظيمين في كلِّ جندٍ اثنى عشر ألفًا ونقب عليهم يوشع بن نون وكالف بن يوفنا وهما اللّذان أنعم الله عليهما إلى مدائن فرعون وخزائنهوهي يومئذ خلوٌ عن أهلها قد هلكوا ولم يبق منهم إلَّا النِّسوان والصِّبيان والزّمنى والهرمى، فغنموا أموالهم من الذَّهب والفضَّة والجواهر والأمتعة ما لا يعلم إلَّا الله وأورثهم الله ديارهم وأموالهم.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ مسعودٍ رضي الله عنه؟ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلمأيُّ الذَّنبِ أعظمُ عند الله؟ قال: «أن تَجعلَ للهِ نِدًّا وهوَ خلقَك».[٤٢٤٠] قلت: إنَّ ذلك عظيمٌ.

﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)﴾

أي: قال ربُّكم ﴿**إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ**﴾ ومقتضى التَّقدير وجود العاطف ولا معطوف عليه فيقدَّر ما يمكن تقديره. وقد جاء في البقرة معطوفًا على الإنعامات وإنما أضمرنا؛ لأنَّه لا يدخل تحت كلامه ع م لكونه من كلام الله.

وقيل: إنه كالتَّفسير بقوله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ﴾ [الأعراف ١٤٠/٧] وأصل الكلام: وهو فضلَّكم على العالمين وفضلَّكم أو أنجاكم.

[٤٢٣٩] **تأويلات القرآن** للماتريدي، ٤٣/٦-٤٤؛ **التيسير في التفسير** لعمر النسفي، ٤٩٣/٥.

[٤٢٤٠] **صحيح البخاري**، ١٥٢/٩ (٧٥٢٠).

فقيل: ﴿**إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ**﴾ على أنَ الله متمّم لكلام موسى ع م كما في قوله تع: ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا﴾بعد قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه ١٥/٢٠].

وقيل: خاطب الله بني إسرائيل الذين كانوا في زمن نبيّنا ع م على وجه الامتنان عليهم بما أنعم به على أسلافهم، ويؤيّدُه سياق الكلام، أي: اذكروا صُنْعِي معكم في ذلك الوقت.

وقرأ ابن عامر: ﴿أَنْجَاكُمْ﴾[٤٢٤١] فح الأمرُ ظاهر ﴿**يَسُومُونَكُمْ**﴾ يُولونكم من: سُمْتُهُ خَسْفًا إذَا أَوْلَيْته إياه[٤٢٤٢] ﴿**سُوءَ الْعَذَابِ**﴾ مفعولٌ ثانٍ له، والإضافة من قبيل إضافة الصِّفة إلى الموصوف. وقيل: يطلبونكم لكن الطلب متعدٍّ إلى واحدٍ فلا بدَّ من تضمين فعلٍ يتعدَّى إلى اثنين وهو التَّكليف، أي: يطلبونكم مكلَّفين إيّاكم سوء العذاب، والجملة حالٌ من المخاطبين أو من آل فرعون أو منهما لاشتمالها على الضَّميرين أو استئناف ببيان ما أنجاهم به.

﴿**يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ**﴾ بيانٌ لقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾، إمّا بأن يكون مستأنفة لبيان كيفيّة سومهم لهم سوءِ العذاب؛ كأنّه قيل: كيف كان سومهم العذاب، فقيل: يقتِّلون أو بأن يكون بدلًا من الجملة التي قبلها كقوله:

مَــتَى تَأْتِنَــا تلْمِــمْ بِنَــا فِي دِيِارِنَا[٤٢٤٣]

فإنَّ البدل فيه معنى البيان أيضًا، ولذلك ترك العاطف، وذكره ههنا دون يذبِّحون كما قال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [الأعراف ١٢٧/٧] وصيغة التَّفعيل للدلالة على كثرة الفعل.

وقرأ نافع: ﴿يَقْتُلُونَ﴾[٤٢٤٤] بالتخفيف ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ يفتعلون من الحياة، أي: يستبقونَهنَّ أحياءً. وقيل: يفتِّشون حياء النساء، أي: فرجها ينظرون هل فيها حملٌ أم لا.وسمِّي به؛ لأنه يستحي من كشفه ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ وفيما فعل الله بكم من الإنجاء من آل فرعون، ويؤيِّد هذا المعنى قولُه: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ووصف البلاء بقوله: ﴿عَظِيمٌ﴾، أي: عظيمُ قدره، أو فيما فعل آل فرعون بكم من العذاب نقمة من ربِّكم؛ لأنَّ الأمور بمشيئته عظيمٌ لشدَّته، أو فيما فعل الله بكم من الإنجاء وفيما فعل آل فرعون بكم من العذاب ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ امتحانٌ عظيمٌ، وليس هذا من استعمال المشركين في معنييه، حتّى يختصّ بمن قال به، كأنه قيل: وفي كلِّ واحدٍ منهما بلاء وامتحانٌ من ربّكم.

والتَّحقيق: أنَّ البلاء في الأصل الاختبار، ولما كان اختباره تعالى عباده تارةً بالمِنْحة وأخرى بالْمِحْنة أطلق عليهما يرشدك [**٢١٧**/ظ] إليه قوله تع: ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف ١٦٨/٧] وأطلق على المجموع بالنَّظر إلى أصل معناه، وهو الاختبار الشائع.

و﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿بَلَاءٌ﴾. وقيل: رفع صفة لـ﴿بَلَاءٌ﴾، فيتعلَّق بمحذوفٍ، وفيه نظرٌ من حيث إنَّه إذا اجتمع الصفتان قدّمت الصّريحة على المأوَّلة، وفيه تنبيهٌ على أنَّ كلّ ما يصيب العبد من نعمة أو بلاء، فهو اختبار من الله، فينبغي أن يشكر في النعمة، وأن يصبر في البلاء ليكون خير المختبَرين، أي: الممتحين؛ لكونه جامعًا لرأس مكارم الأخلاق، وهو الشُكر والصبر.

[٤٢٤١] **النشر** لابن الجزري، ٢٠٤/٢.

[٤٢٤٢] **لسان العرب** لابن منظور، «سنم».

[٤٢٤٣] **شرح المفصل** لابن يعيش، ٢٨١/٤.

[٤٢٤٤] **النشر** لابن الجزري، ٢٠٤/٢.

وعن النَّبي صلى الله عليه وسلَّم: «الْبَلَاءُ الامْتِحَان والاخْتِبَار فَيَكُونُ حَسَنًا وَيَكُونُ سَيِّئًا، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَبْلُو عَبْدَهُ بِالصُّنْعِ الْجَمِيلِ لِيَمْتَحِنَ شُكْرَهُ وَيَبْلُوهُ بِالْبَلْوَى الَّتِي يَكْرَهُهَا لِيَمْتَحِنَ صَبْرَهُ».[٤٢٤٥]

وعنه عليه السلام: «البلاء معلَّق بين السماء والأرض مثل القنديل، فإذا سئل العبد ربه العافية صرف الله عنه البلاء وقد أبرم له إبرامًا».[٤٢٤٦]

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)﴾

وقرأ: أبو عمرو ويعقوب: ﴿وَعَدْنَا﴾،[٤٢٤٧] ويؤيِّده كون «وَاعَدْنَا» بمعناه، وأمَّا على الحمل على المشاركة، فلا بدَّ أن يكون المضاف المحذوف من المفعول الثاني متضمِّنًا لكل واحدٍ ممَّا وعده الله، ووعده ﴿مُوسَى﴾ وهو ﴿ثلٰثين﴾ أي: واعدناه صوم ثلٰثين، أو وحي ثلاثين، ووعد موسى المجيء والاستماع والتَّلقّي، ولا بدَّ من حذف المضاف؛ لأنَّ الموعود يجب أن يكون فعل الواعد، والزَّمان ليس بفعلٍ لواحدٍ ممَّنْ قام به المواعدة، ولا يجوز كونه ظرفًا؛ لأنَّ الوعد ليس في الثلاثين

﴿**لَيْلَةً**﴾ تمييزٌ دلَّت على أن التَّاريخ يكون باللَّيالي دون الأيَّام؛ لأنَّها أوائل الشُّهور. وبها كانت الصحابة تُخبر عن الأيَّام، حتى رُوي عنهم: صُمنا خمسًا مع رسول الله، والعرب تخالف في ذلك، فتحسب بالأيام؛ لأنَّ تعلوها على الشمس، وحسابها للمنافع، وحساب القمر للمناسك،[٤٢٤٨] ولذلك جرى ههنا على ما ذكر. ﴿**وَأَتْمَمْنٰهَا**﴾ أي: المواعدة أو الثلاثين ﴿**بِعَشْرٍ**﴾ حُذف تمييزه لدَّلالة الكلام عليه.

وقيل: حذف الهاء من ﴿عَشْرٍ﴾؛ لأنَّ العَدَد مؤنث، ولَمَّا ورد أن يقال: ما الحكمة في تفصيل الأربعين ههنا إلى الثلاثين والعشر مع الاقتصار على الأربعين في سورة البقرة؟

أجيب: بأن الثَّلاثين للعبادة، والعشر لإزالة الخلوف على ما روي أنَّه عليه السلام وعد بني إسرائيل بمصر أن يأتيهم بعد مَهلك فرعون بكتابٍ فيه بيان ما يأتون وما يَذَرون، فلمَّا هلك فرعونُ سَأَل موسى ربَّه الكتاب ما، فأمره بصومِ ثلاثين، وهو شهر ذي القَعْدة، فلمَّا أتمَّ الثلاثين أنكر خَلُوف فمه، فتسوَّك فقالت الملائكة: كنا نشمُّ من فيك رائحةَ المسك فأفسدته بالسِّواك».[٤٢٤٩]

وروي: أن الله أوحى إليه: أَمَا علمتَ أن خلُوف فَم الصَّائم أطيبُ عندي من ريح المسك؟ فأمره الله أن يزيد عليها عشر أيامٍ من ذي الحَجَّة لذلك، أو بأنَّ الثلاثين للتَّقرب، والعشر لإنزال التوراة؛ لِما روي: أنه تعالى أمَره بأن يصوم ثلاثين يومًا، وأن يعمل فيها بما يقرّبه من الله، ثم أَنْزَلَ عليه التَّوراة في العشر، وكلَّمه فيها،[٤٢٥٠] أو بأن العِدةَ كانت ذا القعدة، وعشر ذي الحجة، ولو قال أربعين ليلةً لم يعلم أنَّه كان الابتداء أوَّل الشَّهر، ولا أنَّ الأيَّام كانت متواليةً، ولا أن الشَّهر شهرٌ بعينه، أو بأنَّ فيه زيادة البيان، والتَّأكيد، والإجمال في البقرة؛ لأنَّها مدنيَّة لا تحتاج فيها إليه بعده.

[٤٢٤٥] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٣٨٦/١.

[٤٢٤٦] **بحار الأنوار** للمجلسي، ٢٩٥/٩٠.

[٤٢٤٧] **النشر** لابن الجزري، ٢٠٤/٢.

[٤٢٤٨] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٣٢٢/٩.

[٤٢٤٩] **الكشاف** للزمخشري، ١٤٥/٢؛ **أنوار التنزيل**، ٥٧٠/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ١٤٠/٤.

[٤٢٥٠] **الكشاف** للزمخشري، ١٤٥/٢.

دلَّت الآية على أن ضرب الأجل للمواعَدة سنَّةٌ ماضيةٌ، ومعنًى قديمٌ اشتبه الله في القضايا، وحَكَم به للأُمم، وعرَّفهم به مقادير التَّأَنِّي في الأعمال.

فإذا ضُرب الأجل لمعنًى يحاوَل فيه تحصيلُ المؤجَّل، فجاء الأجل ولم يتيسَّر، زيد فيه تبصرةً ومعذرةً. وقد بيَّن الله ذلك لموسى، فضرب له أجلاً ثلاثين، ثم زاده عشرًا، وأبطأ موسى في هذا العشر على قومه، فما عَقَلوا جواز التَّأني والتَّأخُّرِ حتَّى قالوا: إن موسى ضلَّ ونَسِي، فنكثوا عهدَه وعبدوا إلهًا غير الله.[٤٢٥١]

﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ﴾ وهو ما وقت به الشيء، أي: حُدَّ، ومنه مواقيت الإحرام وهي الحدود التي لا يتجوزها من يريد دخول مكة إلا مُحرِمًا، وأمَّا الوقت وهو وقت الشَّيء قدّره مقدِّرٌ أو لم يقدِّره.

وفي عبارة ﴿رَبِّهِ﴾ إشارة إلى أنه لتربيته ومصلحته، فلذلك عدل عن التَّكلم إليه والإضافة مثلها: في خَاتم فضَّة ﴿أَرْبَعِينَ﴾ نصبٌ على الحاليَّة أي: بالغًا أربعين، أو على المفعوليَّة على تضمين «تَمَّ» معنى: بلغ، أو الخبريَّة على جعله من الأفعال النَّاقصة على تضمين معنى التَّصيير أو التَّمييز به منقولًا من الفاعل، وأصله: فتَمَّ أربعون ميقات ربِّه، أي: كملت، ثُمَّ أسند التَّمام إلى ﴿مِيقَاتُ﴾ وانتصب ﴿أَرْبَعُونَ لَيْلَةً﴾ تمييزًا،[٤٢٥٢] والفذلكة للتأسيس، وقطع احتمال كون العشر من نفس الثلاثين، أو عشر ساعاتٍ مع أنَّه لم يكن فيما سبق أنَّ تعيين ذلك كان بتعيين الله، أم بتعيين موسى، فدلَّ ذلك على أنَّه بتعيين الله على ما روي: أنَّه جعل الوقت ذا القعدة، وعشر ذي الحجة، أو للتأكيد والتقرير.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى [٢١٨/و] وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ(١٤٢)﴾﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)﴾

قال له: لَمَّا أراد المضيّ إلى الميقات، و﴿هَارُونَ﴾ عطفُ بيانٍ ﴿لِأَخِيهِ﴾ أو بدل أو مقدَّر بـ«أعني».

وقرئ: بالضَّمِّ على النِّداء،[٤٢٥٣] نحو: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [يوسف، ٢٩/١٢]، أو خبر محذوف، أي: هو هارون ﴿اخْلُفْنِي﴾، أي: كن خليفتي ﴿فِي قَوْمِي﴾ وفِّ أمورهم وشأنهم، والحكم فيما بينهم، ولا ينافي الاستخلاف كونه رسولًا أيضًا؛ لأنَّ موسى صار أصلًا فيها، وهارون مُعينًا له، حتَّى لا يجوز أنْ يقولَ: هارون له مثل ذلك مع أنَّه يجوز أن يطلب خلافته على حصّته.

وقيل: فيه دلالةٌ على أن منزلة الإمامة متفضّلة من النُّبوة وغير دخلة فيها، وإنَّما اجتمع الأمران لأنبياء مخصوصين؛ لأنَّ هارون لو كان له القيام بأمر الإمامة من حيث كان نبيًّا لَمَا احتاج فيه إلى استخلاف موسى إيَّاه وإقامته مُقامه.

وروي في الصحيح أنه عليه السلام قال لعلي وقد خلَّفه في بعض مغازيه: أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»[٤٢٥٤] وله تحقيق فليطلب من شروح الأحاديث.

[٤٢٥١] **الجامع لآحكام القرآن**، ٣٢٠/٩.

[٤٢٥٢] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٤٢/٤.

[٤٢٥٣] أي: «يا هُرُونُ». **شواذ القراءات** للكرماني، ١٩٣/٣.

[٤٢٥٤] **مسند أحمد**، ١٥٥/٣ (١٦٠٠)؛ **صحيح البخاري**، ١٩/٥ (٣٧٠٦)؛ **صحيح مسلم**، ١٨٧٠/٤ (٢٤٠٤)، **سنن الترمذي**، ٥/ ٦٣٨ (٣٧٢٤).

﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يجب أن يصلح من أمورهم أو كُنْ مصلحاً، والمراد التَّأكيد والجري على طريقته في الصلاح، أو له الخطاب به على إرادة إصلاح قومه؛ لما علم من عدم التَّثبت منهم، وكذا الكلام في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ولا تَتَّبع من سلك الإفساد، ولا تُطع مَن دعاك إليه، أو لا تتَّبع المفسدين في سبيلهم كقوله: ﴿لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف ٥٢/١٢] أي: لا يهدي الخائنين في كيدهم، أو لا تسلك سبيل المفسدين متبعين لهم، والنَّهي شامل لسلوك طريقة من يفسد في الأرض بإظهار المعاصي من نفسه، أو الرِّضاء من غيره، وتقريرهم على ذلك.

﴿فَلَمَّا جَاءَ مُوسَى﴾ فلمَّا انتهى لميقاتنا إلى المكان الذي وقَّتناه له وأمرنا بالمصير إليه لنكلِّمَه، ونزل التوراة عليه، أو الزَّمان الذي وقَّتناه له أن يأتي ذلك المكان فيه؛ فإنه كما يقع على الزَّمان يقع على المكان.

واللَّام للاختصاص، أي: اختصَّ محبته لميقاتنا، أي: لتمامه، فلا بدَّ من تقدير المضاف وذلك على حمل الميقات على المذكور أوَّلًا، وأمّا على الحمل على غيره على ما قرَّرناه فلا حاجة إلى التَّقدير.

﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ من غير سفير كما تكلّم الملائكة بأن يسمعه كلامه القديم بلا صوتٍ وحرفٍ، فيسمعه، كما قيل من جميع الجهات بلا جهاتٍ؛ لأنَّ سماع كلامه القديم ليس من جنس سماع كلام المحدثين، فكما لا يبعد رؤية ذاته مع أنه ليس بجِسْمٍ ولا عَرَضٍ، فكذا لا يبعد أن يسمع كلامه مع أنه ليس بحرفٍ ولا صوتٍ، ولهذا خصَّ عليه السلام باسم الكليم لاختصاصه بذلك من بين البشر، أوبأَنْ يسمعه صوتًا دالًّا على كلام الله، وكان اختصاصه باعتبار أنه استمعه صوتًا تولّى تخليقه من غير أنْ يكونَ ذلك الصوت مكتسبًا لأحدٍ من الخلق، و غيره يسمع صوتًا مكتسبًا للعباد، فيفهم منه كلام الله وإليه ذهب أبو منصور، وعليه أهل الاعتزال كلُّهم يجعلون ذلك المخلوق كلام الله لا دالًّا على الكلام النفسي؛ لأنهم لا يقولون به، والعدول عن الظاهر، وهو وكلّمناه إلى ما ذكر كالعدول عن ميقاتنا إلى ميقات ربه، والنّكتة مشتركة بينهما.[٤٢٥٥]

وعن ابن عباس رض: كلّم أربعين يومًا وليلةً، وكتب له الألواح فلاحاجةَ إلى تقدير المضاف في الميقات.

وقيل: لَمَّا كلَّمه في رأس الأربعين وهو بعيدٌ، والمشهور أنها وقع تمام الأربعين يوم النَّحر، وفي مثله أكمل الله لمحمدٍ عليه السلام دينه حيث قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة، ٣/٥]، فإنَّه نزل بعد العصر من يوم عرفة عام حجَّة الوداع، وهو واقف بعرفةَ وفَدَى لإسماعيل فيه.

وقيل: يوم عاشوراء على أن الثلاثين ذو الحجة والعشر عشر المحرم.

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي﴾ في جعل ذلك القول والسؤال جواب ﴿لَمَّا﴾ الواقع بعده مجيئه للميقات، وتكليم الله له إشعار بأنه لَمَّا نال ذوقَ السَّماع هاجَ له ذوق المشاهدة والوصال، وإشارة إلى أنَّه حال ما جاء وكلَّم طَلَب الرُّؤية بدون الإمهال، لما في لما من المفاجأة والمبادهة، وسرعة الحال، وأين مراودة القوم وتماديهم في السؤال، حتى يحمل عليه على ما يزعم أهل الاعتزال.

«ودلالة على صحّة قياس رؤية الذَّات على سماعِ الكلام، في أن كلًّا منها إدراكٌ بالحاسّة لما ليس في مقابلة وجهةٍ، وما يقال: إن الإدراك ببعض الحواسِّ إنما يصحُّ فيما كان في جهه ممنوع بأنَّه إنما يَتِمُّ إذا كانت الحاسَّة على هذه الحالة والقوَّة، على هذه الصّفة، لكن لِمَ لا يجوز أن يخلق الله في العين قوَّةً بها يُتمكَّن من رُؤْيَة من ليس في جهةٍ؟ بمعنى هذا النوع من الإدراك الذي يحصُلُ عند النَّظر، وفتحِ العين وتقليبِ الحدَقة.[٤٢٥٦]

[٤٢٥٥] **مفاتيح الغيب**،٢٣٨/١٤؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٢٨٩.

[٤٢٥٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٣ظ. أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك السهروردي

ومن ههنا قال بعض المحقِّقين: إن القوم لَمَّا اعترفوا بأن العين لا يبقى على هذه الصِّفة، بل يخلق الله فيها استعداد رؤيته تعالى، وخصومهم أنكروا الرؤية والعين هذه العين بمشخصاتها جمع، فالصّلح خير كما أشار إليه شيخ الشيوخ قطب الأولياء شهاب الحق والدين أبو حفص عمر [**٢١٨**/ظ] السهروردي[٤٢٥٧]قدسَّ الله سره **فيمختصر** صنَّفه في الاعتقاد.

وأنت خبير بأن الصّلح إنما يتم لو اعترف الخصم بما قاله القوم، والظاهر أنهم لا يعترفون بذلك أصلًا، وفي سؤال عليه السلام الرؤيةَ حجَّة بيِّنة على جوازها؛ لأنَّه لو استحال كونه مرئيًا لما يسأل؛ لأنَّه حينئذٍ إمَّا أن يعلم استحالته أو يجهَلَها، فإن علم فالعاقل لا يطلب المستحيل؛ لأنه عيبٌ، وإن لم يعلم فالجاهل بما لا يجوز على الله، ويمتنع لا يكون نبيًّا ولا يصلح للنُّبوَّة؛ لأن المقصود من النبوة البعثة الدَّعوة إلى العقائد الحقَّة والأعمال الصَّالحة، وغاية ما يلزم أنه عليه السلام ظنَّ أنَّه جائزُ الرُّؤية في الدُّنيا، وهذا لا يقدح في مرتبته، ولا يحطّ من منزلته كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة، ٢/٢٦٠].

وعنه عليه السلام: «نَحْنُ أَحَقُّ بالشَّكِّ مِن إبْرَاهِيمَ إذْ قالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كيفَ تُحْيِي الموْتَى﴾»،[٤٢٥٨] على أن المشتاق الذي يتوق إلى محبوبه المتيقن بحصول مطلوبه يستعجل الوصول، ويتشبث بكلِّ أمارة، وينتظر كل بأرق، فإنه عليه السلام لَمّا وعد الميقات وسمع الخطاب، فلو لم يتحرَّكْ له أريحته الطّلب ويتقنع بالسُّؤال والجواب؛ لما كان له اشتيَاق.

وقد روي: أنه قال: إلهي سمعت كلامك، واشتقْتُ إلى النَّظر إليك؛ ولأن أنظر إليك، ثُمَّ أموت أحبُّ إليّ مِنَ أَن أعيش ولا أراك، وناداهبالاسم الشَّريف كما هو عادة أولياء الله عند طلب الأمر المنيف.

﴿أَرِنِي﴾ أصله: «أَرْإِنِي» فنقل الحركة، وحذفت الهمزة، وهو منقولٌ من: رأيت الذي يراد به إدراك البصر، فلمَّا نقل بالهمز تعدّى إلى مفعولين، وحذف ثاني مفعوليه، أي: ذاتكَ المقدسة؛ لأنَّ ما يتعلّق بالفعل الثاني يدلُّ عليه، ومعنى الكلام يقتضيه، ولرعاية كمال الأدب في مقام الطَّلب.

وقال بعض العارفين: لَمّا جاء موسى عليه السلام باسطه الحقُّ بالكلام، فلم يتامالك أن طلب الرّؤية؛فإن غَلَبات الوجد عليه استنطقه بطلب كمال الوُصلة من الشُّهود، وقد قالوا شعر:

وَأَبْـرَحُ مَـا يَكُـونُ الشَّـوْقُ يَوْمًـا إِذَا دَنَـتِ الْخِيَـامُ مِـنَ الْخِيَـامِ

وقالوا: لا يؤخذ المغلوب بما يقول، وقالوا: إنَّه لا يُسكر ثم ينكر، وأشدُّ الشَّوق لحبيب قرب من الحبيب؛ هذا موسى، وقف في محلّ المناجاة، وحوت عليه الكرامات، وكلّمه بلا واسطةٍ ولا[٤٢٥٩] جهاتٍ، «قال ربّ أرني» كأنه غائب، وهو شاهد، لكن مازداد القومُ شربًا إلا ازدادوا عطشًا، ولا ازدادوا قربًا إلا ازدادوا شوقًا، ولا ازدادوا شوقًا إلا ازدادوا طلبًا.[٤٢٦٠]

﴿أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ جوابٌ لـ﴿أَرِنِي﴾ مترتّبٌ عليه؛ ولَمّا ورد أن يقال: إن كان النَّظَرُ عبارةً عن الرُّؤية يلزم ترتُّبُ الشيء على نفسه، وإن كان عبارةً عن مقدّمتها التي هي تقليب الحدقة إلى جانب المرئيّ يلزم إثبات الاجِهة، وجعل مقدّمة الشّيء

[٤٢٥٧] هو أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك السهروردي.

[٤٢٥٨] **صحيح البخاري**، ٣١/٦ (٤٥٣٧).

[٤٢٥٩] ج- لا

[٤٢٦٠] **لطائف الإشارات**، ٢٥١/٢ -٢٥٠؛ **عرائس البيان**، ٤٦٢/١-٤٦٤.

كالنَّتِيجَةِ له، أجيب بأنه بمعنى الرؤية، لكن ليس المرادُ من الإراءة خلقَ الرؤية، بل التّمكُّن منها بأن يُعطى له استعدادًا لها، أو يتجلّى له بطريق إطلاق اسم المسبّب، وإرادة السَّبب.

وتقريرٌ آخر: أنَّ ﴿أَرِنِي﴾ تكفي في الطَّلب؛ لأنه تعالىإذا أراه نفسه لابدَّ له أن ينظر إليه، فما فائدة إردافه به؟ والجواب: أن فائدته التأكيدُ والكشفُ التَّام، فإنه لَمّا أردفه به أفاد طلب رفع المانع، وكشف الحجاب، والتَّمكين من الرؤية، بحيث لا يتخلَّف عنه النظر ألبتَّة، نحو قولك: نظرتُ بعينيّ، وقبضتُ بيديّ، فالنظر حينئذٍ مسبَّب.[٤٢٦١] فلذلك قال المصنف: «اجعلني متمكّنًا مِنْ رُؤْيَتِكَ بِأَنْ تَتَجلّى لي، فأنظر إليك وأراك».[٤٢٦٢]

وفي سؤاله ع م إشعارٌ ببطلان أنَّ الطَّلب كان للقوم كما تأوّل به المعتزلة؛ لأن في «اجعلني متمكّنًا من رؤيتك بأن تتجلّى لي، فأنظر إليك وأراك» من المبالغة والتَّأكيد، والدُّعاء ما ليس من كلام من أكره على الشَّيء، وأُلزم به، ومن له طَبْع سليمٌ، وذوقٌ مستقيمٌ يعلم أن هذا الكلام لا يصدر إلا عمن له قوّة عزم، ورسوخِ قُدم في الطَّلب ولو كان معذورًا في الْمَطْلب لَكان فيه ما ينبئ عنه، ونِعْمَ ما قال بعض المحققين: والحمل على أنَّ الطَّلب كان للتبكيت بشيءٍ لا يدلُّ عليه اللَّفظ دلالةً خفيَّةً أو جليَّة، وارتكاب مثله في الكلام الذي أبكم كلّ منطيق ركوب بمتن الباطل، وعدول عن سواء الطَّريق على أنَّ القوم لم يحضروا هذه النّوبة، وإنما طلبها لنفسه ع م وفي النَّوبة الثانية كان القوم معه، وطلبوا الرؤية فما أجابهم فإذًا لا حاجة إلى أن يقال: كأن مجيئه عليه السلام، وتكليم الله والطلب مطلقًا والحمل على السؤال لقومه تقييد بلا دليل؛ لأنَّه ليس من المطلق حتى يحتاج إلى دليل التقييد، فإنَّ الدَّليل قائمٌ على انتفاء القيد؛ لأنَّ المقام غيرُ واحد، وأيضًا أنَّ الذين طلبوا الرؤية أن كانوا ليمؤمننَّ بموسى يكفيهم قوله: وردُّه وإن لم يكونوا فلن ينتفعوا بهذا الجواب، وأيضًا أن لو كان السُّؤال طلبًا للمحال لَمنعهم عنه كما منعهم عن سئوالهم: ﴿اِجْعَلْ لَنَا إِلهًا﴾ وكيف وهذا السُّؤال عندهم صعبٌ؛ لأنَّ طلب الرؤية مع استحالته جَهلٌ في ذات الله بإثبات صفة يقتضي نقصًا في ذاته، وطلب اتخاذ [**٢١٩**/و] العجل جهلٌ في غير الله باستحقاق العبادة له، وأيضًاكان يجب عليه إقامة الدَّليل القاطع على نفي الرُّؤية، وكيف يظنّ أنه ترك مما كان واجبًا عليه، وطلب ما كان محظورًا، وأنه من أولى العَزم، وما قيل: إن «إلى» للانتهاء وما ليس في جهة لا معنًى للانتهاء بالنسبة إليه، وأيضًا يستدعى النَّظر المقابلة بين الأبصار والمبصر ساقطٌ بما تقدَّم من كونه تأكيدًا للرؤية، فلا نظر إلى خصوص بعد تجرُّده للتأكيد على أنَّ الخصم تجوّز مقابلةٌ ما ليس في جهة لما هو فيها، فكل النِّزاع في ذلك، ومن ههنا يظهر أيضًا[٤٢٦٣] فساد ما قيل: إنَّه لم يسأل الرؤية، بل تجوّز بها عن العلم الضَّرُوريّ؛ لأنَّه لازمها وإطلاق اسم الملزوم على اللَّازم شائع سيَّما استعمال رأى بمعنى: «علم»، وأَرَى بمعنى: «أعلم»، فكأنَّه قال: اجعلني عَالِما بك علمًا ضروريًّا؛ لأن الرُّؤية المطلوبة لو كانت بمعنى العلم لَكان النَّظر المترتَّب عليه بمعناه أيضًا، والنَّظر الموصول بـ«إلى» حقيقة للرُّؤية، وحمله على غيرها مخالفة للظَّاهر، وهي لا يجوز إلا بدليلٍ ولا دليل فيحمل على الرُّؤية، بل على تَقْلِيبِ الحدقة المؤدِّي إليها، ويدلُّ عليه النَّفي الآتي.

﴿**قَالَ لَنْ تَرَانِي**﴾ فكما أنَّ في سؤاله عليه السلام دلالةً على جوز الرؤية، فكذا في جوابه عزَّ وجَلَّ إشارةٌ إليه، حيث لم يقل: لن أُريك نفسي؛ لقوله: ﴿أَرِنِي﴾ أو لَنْ يُنظر إليّ؛ لقوله: أنظُر إليك للتَّفادي عن اليأس، وحسم الطمع، يعني: لَنْ تَرَانِي على حالة أنت فيها، فإذا ارتفع المانع كيف أَمْنَعُ أريك نفسي لتنظر إليه، وهذا معنى قول ابن عباس: لَنْ تراني في الدنيا فالجواب من الأسلوب الحكيم؛ فإنَّ معنى قوله: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ إن المانع من الرؤية كوني غيرَ متمكّن منها لاحتجابك عنّي

[٤٢٦١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٤٨/٦-٥٤٩.

[٤٢٦٢] **الكشاف** للزمخشري، ١٤٧/٢.

[٤٢٦٣] ج- أيضًا.

فارفع الحجاب بيني وبينك؛ لِأنظرَ إليك وأريك، وذلك حين سمع الخطاب والكلام القديم بغير واسطةٍ، ومعنى «لَنْ تَرَانِي» أنَّ المانع ليس إلا مِنْ جانبك، وإني غير محجوبٍ، بل محجَّب بحجابٍ مِنْك، وهو كونك فإنَّك فانٍ وأنا باقٍ، ووصفي باقٍ، فإذا جاوزت قنطرة الفناء وصلت إلى دار البقاء قرب مطلوبك، يرشدك إلى ما قلنا: «أنه لو كان مع إنسانٍ حَجَر، وقال صاحبه: ناولْني هذا لآكله، فإنه يقول: هذا لا يؤكل. ولو قال: لن تأكُل، لم يصحّ. ولو كان معه تفَّاحٌ، فقال: هذا لا يؤكل، لم يصحَّ. ولو قال: لن تأْكُل، عُلم أنه ممَّا يُؤكل، ولكنك لا تأكُل».[٤٢٦٤]

وقال المصنف:«لَمَّا قال: ﴿أَرِنِي﴾ بمعنى: اجعلني متمكناً من الرؤية التي هي الإدراك، عُلم أنَّ الطَّلبة هي الرؤية لا النَّظر الذي لا إدراك معه، فقيل: ﴿لَن تَرَانِي﴾، ولم يقل: لن تنظر إليّ».[٤٢٦٥]

وفيهِ دلالةٌ أيضًا على أنَّه ما سئل ذلك لتَبْكيت قومه وإلا لقيل في النَّظم: أرِهُمْ ينظروا إليك؟ قال: لن يروني، ويبعد نحو ما أجاب به المصنِّف: «من أنَّه تعالىكلَّم موسى وهم يسمعون، فلمَّا سَمِعوا كلامه أرادوا أن يرى موسى ذاتَه، فيُبصروه معه، كما أَسمَعَه كلامَه، فَسَمِعُوه معَه، قياسًا فاسدًا، ولأنَّه إذا زُجر عمَّا طلب مع اختصاصه، كان غيره أولى بالزجر،ولأنّ الرسولَ إمامُ أمَّته، فكان ما يُخاطب به أو ما يخاطب راجعًا إليهم.[٤٢٦٦]

أراد بالقياس قياسَ رؤية الذات على سماعِ الكلام، في أنَّ كلًّا منهما إدراكٌ بالحاسّة لما ليس في مقابلةٍ وجهةٍ، ووجهُ الفساد عنده ما أشير إليه في تفسير التَّكليم مِنْ أنَّ السماعَ إنَّما يكون لِمَا خُلِقَ في بعض الأجسام، فيكون لامحالة في مقابلةٍ وجهةٍ.

ونحن نقول: الإنصاف! أنَّ في قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف ١٤٣/٧] دلالةً ظاهرةً على هذه المقايسة، وأنَّه عليه السلام لَمّا نال ذوقَ السَّماع هاجَ له ذوق الوصال.[٤٢٦٧]

وأنَّ له تعالى كلامًا نفسيًّا قديمًا ليس من جنس الحروف، وهو المسموع له عليه السلام، فجعل القياس فاسدًا من فساد القياس، وما قيل: إن ﴿لَنْ﴾ للتَّأبيد، فإذا لم يَرَه موسى أبدًا لم يره غيره إجماعًا، مدفوع بأنَّ «لَنْ» ليس للتأبيد، بل هو للنَّفي المؤكد في المستقبل فقط، كقوله: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْنَهُ﴾ [القرة ٩٥/٢]، أي: الموت أبدًا، ولا شك أنهم يتمنَّونه في الآخرة للتَّخلُّص عن العقوبة، فالمراد نفيُ الرُّؤية في الحال حين السؤال أو في الدُّنيا، وما قيل: إنَ ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ تأكيدٌ وبيانٌ؛ لأنَّ المنفي منافٍ لصفاته مدفوعٌ بأنه لا دلالة على المنافاة، بل لمجرَّد التَّأكيد وقد سلَّمه القائل في قوله: ﴿فَلَنْ ابْرَحَ الْاَرْضَ﴾ [يوسف ٨٠/١٢] وأمثاله ولو سلم، فالمسند إليه المخاطب، فيفيد منافاتها لحال المخاطب حال السُّؤال والمعترف يعترف به.

وقال قدس سره: «لا يدلُّ الإخبارُ عن عدم رؤيته إيَّاه على أن لا يراه أبدًا وأن لا يراه غيره أصلًا فضلًا من أن يدلَّ على استحالته، ودعوى الضَّرورة فيه مكابرةٌ أو جهالةٌ بحقيقة الرؤية،[٤٢٦٨] يعني: أنَّها وإن كانت بتقليب الحدقة نحو: المرئي، وأنَّه إنَّما يكون إذا كان المدرك في جهةٍ، لكن لِمَ لا يجوز أن يخلق الله في الحاسَّة قوّة بها يتمكَّن من رؤية ما ليس في جهةٍ، فإن الرَّائي

[٤٢٦٤] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٣٥٥/٥؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٤٨/٦-٥٤٩.

[٤٢٦٥] **الكشاف** للزمخشري، ١٤٧/٢.

[٤٢٦٦] **الكشاف** للزمخشري، ١٤٨/٢.

[٤٢٦٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٤و.

[٤٢٦٨] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٧١/١.

[**٢١٩**/ظ] ليس العُضْوُ ولا القوّة الحالة فيه، بل شيء آخر يستعين في الرؤية بهما بما خلق الله فيهما، ما يستعدّ به النَّفس من مشاهدة المرئيّ.

﴿**وَلَٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ**﴾ استدراك يريد أن يبيّن به أن لا يطيقَه، فإنَّ الجبل مع شدته وصلابته إذا لم يستقرّ فالآدميُّ مع ضعف بِنيته أولى أن لا يستقرَّ، وفيه تسكينٌ لقلب موسى عليه السلام، وتخفيفٌ عنه ثقل أعباء المنع.[٤٢٦٩] وتنبيهٌ على أن المنع ليس بخلّ وانعدام فيض، بل لعدم الإطاقة للرُّؤية وإدماج بإثبات الرؤية، فإنَّه لَمَّا منع المشتاق الدائم عن مطلوبه أشار إلى ما لا يقطع طمعه، ولا ييأس من طمعه بطريق يرمز إلى الموعد يعني: أنَّ الدنيا لا يصلح لما يطلبه؛ لأنَّها في شرف الزَّوال والهلاك، ألَا ترى أنَّ أعظم الأشياء فيها رسوخًا لم يثبت عند بعض التَّجلّي، وأنَّ الأخرة لهي الحيوان، فالموعد هناك وتخلُّص من نفي الرؤية إلى إثباتها بواسطة الاستدراك، وهذا هو الذي يقتضيه معنى الاستدراك، لا ما قال المصنِّف: «مِنْ أَنَّ اتصاله بما قبله على معنى أنّ النظر إليَّ محالٌ فلا تطلُبْه، ولكن عليك بنَظَرٍ آخر، وهو أن تَنْظُرَ إلى الجبل الذي يرجفُ بك وبمن طلبْتَ الرؤية لأجلهم، كيف أفعل به وكيف أَجعله دكًّا بسبب طلبك الرؤية؟ لتستعظم ما أَقدَمْتَ عليه بما أُريك من عظم أثره، كأنه عزّ وعلا حقَّق عند طلب الرؤية ما مثَّله عند نسبة الولد إليه في قوله: ﴿وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم ٩١/١٩]».[٤٢٧٠]

ولا يخفى عليك أن الاستدراك بالمعنى الذي ذكره لا يناسب المقام، ولو كان المراد به استحالة الرؤية وجب أن يذكر شيئًا يدلّ على الاستحالة، ودكّ الجبال كما يصلح له يصلح لغيره، والمشترك لا يكون دليلًا،

وأمّا قوله: «كأنه حقَّق عند طلب الرؤيةما مثَّله عند نسبة الولد إليه»،[٤٢٧١] فمن الإغراق والمبالغة التي تؤدّي إلى أنَّ طلبَ الرؤية أعظمُ من نسبة الولد إلى الله.

ولعمري إنَّه كيف ذاق مع هذه الآية قوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وتَنشَقُّ الأَرْضُ وتَخِرُّ الجِبالُ هَدًا﴾ [مريم ٩١/١٩]. من تكرير الأفعال، وإخراج كلّ على ما يناسبه. وفي إبهام الضَّمير في ﴿مِنْهُ﴾، وإبداله بقوله: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ ولَدًا﴾ [مريم ٩١/١٩] من الفخامة والهيبة ما لا يخفى على البليغ، بخلاف هذا التطبيق، فإنَّه كالتَّمهيد لإثبات الرؤية، كما يعطيه الذوق![٤٢٧٢] وعليه كلام الأئمَّة. وأيضًا نسبة الولد إلى الله منسوبٌ إلى أجهل الخلق وأظلمهم،[٤٢٧٣] ونسبةُ الرؤية منسوبٌ إلى أفضل الخلق وأهداهم. فأين هذا من ذاك؟[٤٢٧٤]

وقال القشيري: سأل موسى الرؤية بالكلام، فأجيب: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ بالكلام، وأسرَّ المصطفى في قلبه ما كان يرجوه من تحويل القبلة من ربّه فقيل له: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [اليقرة ١٤٤/٢]. وأنَّه عليه السلام سأل الله الرُّؤية، فقال له: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾، وقال للخَضِر: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف ٦٦/١٨] قال له: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف ٦٧/١٨] فصار جوابه: ﴿لَنْ﴾ من الحقّ ومن الخَلق؛ ليبقى موسى بلا موسى، ويصفوَ موسى من كلِّ نصيبٍ لموسى من موسى، وهذا أشدّ عليه من قوله: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾؛ لأنَّه مُنع عن رؤية مقصوده، وأُمر برؤية غيره، ولو أُذن في أن يُغمض عَيْنَيْه، ولا ينظر إلى شيءٍ بعده لَكان الأمر عليه أَسْهلَ. وفي قوله: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ ردٌّ

[٤٢٦٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٤٤/٤.

[٤٢٧٠] **الكشاف** للزمخشري، ١٤٩/٢.

[٤٢٧١] **الكشاف** للزمخشري، ١٤٩/٢.

[٤٢٧٢] ج – الذوق.

[٤٢٧٣] ج – وأظلمهم.

[٤٢٧٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٥٨/٦.

صريحٌ، وفي اليأس راحةٌ، وفي قوله: ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ﴾ إطماعٌ فيما مُنعه، فلمَّا اشتدّ توقُّعه جُعل الجبل دكًّا، وكان قادرًا على الإمساك، لكنّه قهر الأحباب، وبه سبق الكتاب.[٤٢٧٥]

﴿**فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي**﴾: علّق سبحانه الرؤية على استقرار الجبل، واستقرار الجبل أمرٌ ممكنٌ في نفسه، وما علّق على الممكن فهو ممكن؛ إذ لو كان ممتنعًا لأَمكن صدق الملزوم وهو استقرار الجبل بدون صدق اللّازم وهو الرؤية، وصدق الملزوم بدون صدق اللازم ممتنعٌ، واعترض عليه بوجهين الأوّل أنّه علّق الرؤية على استقرار الجبل، إمّا حال سكونه، أو حال حركته الأوّل ممنوع، والثاني: مسلّم بيانه أنّه لو علّقه، أي: وجود الرؤية عليه حال سكونه لزم وجود الرؤية لحصول الشّرط الّذي هو الاستقرار وهوبط، فأذن قد تعيّن أنه علّق عليه حال حركته، ولا خفاء في أنّ الاستقرار حال الحركة فحينئذ فيكون تعليق الرؤية عليهما تعليقًا بالمح، فلا يدلُّ على إمكان المعلَّق، بل على استحالته، والجواب أنَّه علّقه على استقرار الجبل من حيث هو من غير قيدٍ بحال السُّكون أو الحركة، وإلا لزم الإضمار في الكلام، وأنَّه، أي: استقرار الجبل من حيث هو ممكن قطعًا؛ إذ لو فرض وقوعه لم يلزم منه فحينئذ لذاته، وأيضًا، فإن استقرار الجبل عند حركة، أي: في زمانها ليس بمح؛ إذ في ذلك الوقت قد يحصل الاستقرار بدل الحركة فلا محذور فيه إنما المحّ هو الاستقرار مع الحركة، أي: كونهما مجتمعين لا وقوع شيء منهما في وقت الآخر بدل صاحبه الثاني: أنَّه لم يقصد من التَّعليق المذكور بيان إمكان الرؤية [**٢٢٠**/و] أو امتناعها، بل بيان عدم وقوعها لعدم المعلَّق به وهو الاستقرار سواءٌ كان ممكنًا أو ممتنعًا فلا يلزم إمكان المعلَّق، والجواب أنه قد لا يقصد الشَّيء في الكلام قصدًا بالذَّات ويلزم منه لزومًا قطعيًّا والحال ههنا كذلك، فإنه إذا فرض وقوع الشَّرط الذي هو ممكن في نفسه، فإمّا أن يقع المشروط فيكون هو أيضًا ممكنًا، وإلا فلا معنى للتَّعليق، وإيراد والشرط والمشروط؛ لأنَّه حينئذ منتف على تقديري وجود الشَّرط وعدمه، لايقال: فائدة التَّعليق ربط العدم بالعدم مع السُّكوت عن ربط الوجود بالوجود؛ لأنَّا نقول أنَّ المتبادر في اللُّغة من مثل قولنا: «إِنْ ضَرَبْتَنِي ضَرَبْتُكَ» هو الرَّبط في جانبي الوجود والعدم معًا لا في جانب الوجود فقط؛ كما هو المعتبر في الشرط المصطلح، والمعنى: إن استقرّ مكانه وبقي على حاله عند التّجلّي، فسوف تراني بعد رفع الموانع.[٤٢٧٦]

أتى بالتَّعليق، ثم التَّسويف مبالغةً في تعذُّر المطلب: أمَّا التَّعليق فلبيان أنَّ طاقةَ البشرية لا تتحمَّل رؤيته، وأمَّا التَّسويف فلبيان أنه على تقدير التَّحمُّل لا بدَّ من ارتفاع مَوَانع زوالها تدريجيٌّ يقتضي مهلة ومدَّة، وهو أمر ممكنٌ في نفسه، لكنّ المانع من جهته على ما دلَّ عليه قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى ٥١/٤٢] حيث قال: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ ولم يقل: ما كان له تعالى.[٤٢٧٧]

وبهذا التقرير إضمحلَّ ما ذكره المصنّف من أنه: «تعليقٌ لوجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه حين يدكّه دكًّا، وهذا كلامٌ مُدمج بعضه في بعض على أسلوبٍ عجيبٍ، ألا ترى كيف تخلَّص من النَّظر إلى النّظر بكلمة الاستدراك؟ ثُمَّ كيف بنى الوعيد بالرَّجفة الكائنة بسبب طلب النظر على الشريطة في وجود الرؤية؟ أعني قوله: ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾».[٤٢٧٨]

[٤٢٧٥] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٣٥٣/٢-٣٥٤؛ **التيسير في الفسير** لعمر النسفي، ٥١٠/٦-٥١١.

[٤٢٧٦] **مفاتيح الغيب** للطيبي، ٣٥٦/٥

[٤٢٧٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٤٤/٤-١٤٥.

[٤٢٧٨] **الكشاف** للزمخشري، ١٤٩/٢.

وأنت خبيرٌ بأنَّ التخلُّص أنسبُ لتأويلنا، فإن الخروج من نفي الرؤية إلى إثباتها بواسطة الاستدراك، هو المعنى من التَّخلُّص، لا من نفيها إلى نفيها. وأما الجواب عن حديث «الرَّجفة» فيُظهر بالتَّأمل.[٤٢٧٩]

﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ**﴾ ظهر له ظهور المرئيّ للرَّائي بلا كيف، وخَلق فيه حيوةً وعلمًا ورؤيةً حتَّى رأى ربَّه، ولا يبعد ذلك من قدرته تعالى كما جعله محلًّا لخطابه بقوله: ﴿يا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبأ ١٠/٣٤] وكما جعل الشَّجرة محلًّا لكلامه، وكلّ هذا لا يُحيله مَن يؤمن بأن الله على كل شيء قديرٌ، ويؤيِّده المقصود من الكلام من أنَّ موسى لن يُطيقَ رؤية الله، بدليلِ أنَّ الجبل بعظمته، لَمَّا رأى الله اندكَّ.[٤٢٨٠]

والمروي عن ابن عباس: ظهر نورُ ربِّه للجبل.[٤٢٨١] وعن الضحاك: أظهر الله من نور الحجب مثل بحر نور.

وقيل: ما تجلَّى من عظمة الله للجبل إلا مثل سَمِّ الخِياط، حتى صار دكًّا.[٤٢٨٢] وقيل: ماتجلّى إلا قدر الخنصر.[٤٢٨٣]

وقيل: أظهر له شيئًا من الملكوت، ولا يستقرّ الدُّنيا لإظهار أثر منها، وأيضًا أن «تَجَلَّى» مطاوع «جَلَّيْتُهُ»، أي: أظهرتُه فظهر، ففي هذا أيضًا نصٌّ في إثبات الرؤية، وردٌّ على المنكر.

وأما ما قيل: ظهر اقتداره وتصدّى له أمره وإرادته على تمثيل ظهور ذلك له، وتعلّق الإرادة، بدكِّه بالتجلّي له، لا أنَّ ثمَّة تجلّيًا، كما أنَّ قوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس ٨٢/٣٦] مثل؛ لأنَّ ما أراد يدخل تحت الوجود من غير توقُّف، لا أنَّ ثمة قولًافبعيدٌ من مساق الكلام، ومن المفهوم الاشتقاقيِّ ومن قانون أصحاب السنَّة قريبٌ من أصل أهل البدعة الذين لم يذوقوا لذّة الرؤية.

والدَّكُّ والدقُّ أخوان كالشَّكِّ والشَّقِّ. وهو مصدر قولك: دَكَّه يدكُّه دكًّا، إذا دقّه وسحقه، وإنَّما قال: دكًّا مبالغة– كرجل عدل–، والمجاز عقليٌّ، وهذا أولى من جعله بمعنى المفعول، والمجاز لغويٌّ.

فإن قلت: أليس صدق الكلام وصحة المرام يقتضي معنى المدكوك؟

قلتُ: لا نزاعَ فيه، إنَّما النزاع في طريق إفادته وكيفية إرادته من عبارة الدكّ.

وانتصابه على أنَّه مفعولٌ ثانٍ أو مصدرٌ، فكأنَّه قيل: دَكَّه دكًّا؛ لأنَّهما متقاربان.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿دَكَّاءَ﴾[٤٢٨٤] كـ«حَمْرَاءَ» مأخوذةٌ من قولهم: «ناقةٌ دَكَّاءُ» أي: منبسطة السَّنَام، أي: جعله أرضًا مستويةً، أو من قولهم: أرض دكّاء للنَّاشزة؛ لما روي أنه لم يذهب كلّه، بل ذهب أعلاه.

وقرئ: «دُكًّا»،[٤٢٨٥] كحُمْرٍ جمع دَكَّاءَ بالمدّ، أي: جعله قِطَعًا،[٤٢٨٦] فعلى هذه القراءة يتعيَّن المفعولية.

[٤٢٧٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٥٩/٦.

[٤٢٨٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٦١/٦.

[٤٢٨١] **اللباب** لابن عادل، ٣٠٢/٩.

[٤٢٨٢] **البحر المحيط** لأبي حيان، ٣٨٣/٤.

[٤٢٨٣] **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٧٧/٣–٢٧٨.

[٤٢٨٤] **التيسير** للداني، ص ٣٦١؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٤/٢.

[٤٢٨٥] قراءة شاذَة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. ***مختصر في شواذ القرآن*** لابن خالويه ص ٥١؛ **الكشاف** للزمخشري، ١٤٩/٢.

[٤٢٨٦] **الكشاف** للزمخشري، ١٤٩/٢–١٥٠؛ **اللباب** لابن عادل، ٣٠٢/٩.

وروي عنه عليه السلام: «لَمّا تجلّى ربُّه للجَبَلِ صارَ لعَظَمَتِهِ ستَةَ أَجْبَل، فوقعت ثلاثةٌ مِنْهَابالمدينة: أحد، وورقان، ورضوى. ووقع ثلثة بمكة: ثور، وثبير، وحراء».[٤٢٨٧]وقيل: صار رملًا هائلًا. وقيل: ساح في الأرض حتى وقع في البحر فهو يذهب فيه.[٤٢٨٨]

وقال الشيري:هذا أشدُّ عليه من جميع ذلك أنَّ الجبل أعطى التَّجليَ؛ ثُمَّ أَمَرَ موسى بالنَّظر إلى الجبل الذي قدم عليه في هذا السؤال، وهذا صعبٌ شديد!! لكن موسى رضي به وانقاد لحكمه، وفي معناه أنشدوا:

أريـــدُ وصـــالَه ويريـــد هجـــري ۞ وأتــرك مــا أريــد لمــا يريــد[٤٢٨٩]

وقيل: بل هو لطف به حيث لم يصرّح بردّه علّله عَوْنًا له على صبره.

وقد قيل: فذرني اصبر قليلًا قليلًا.[٤٢٩٠]

ومن اصطلاحات القوم السَّتر والتَّجلي، وعوامُّ هذه الطَّائفة في التَّجلي، وبلائهم [**٢٢١**/ظ] في السَّتر. وأمَّا الخواصُّ، فهم بين طيش وعيش، إذا تجلى لهم طاشوا، وإذا ستر عليهم ردّوا إلى الحظ فعاشوا.

وقد قيل: العوامّ في غطاء السَّتر، والخواصّ في دوام التَّجلّي. وفي الخبر: إذا تجلَّى الله بشيءٍ خشع له. وصاحب التَّجلي أبدًا ينعت خشوعه، والسَّتر للعوام عقوبة وللخواصِ رحمة؛ إذ لولا أنَّه يستر عليهم ما يكاشفهم به لتلاشوا عند سلطان الحقيقة.[٤٢٩١]

﴿**وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا**﴾ سقط. وقيل: الخُرُور: السقوط الذي يُسمع له خريرٌ ﴿صَعِقًا﴾ حالٌ مقارنةٌ من موسى يقال: صَعِقَ يَصْعَقُ صَعْقًا وصَعْقَةً وتَصعاقًا، إذا غشي عليه أو مات، وبهما فسر ههنا، وصَعَقَه الله فيتعدَّى ولا يتعدَّى، كَسَكب الماء وسكبتُه، وفَغَرَ فُوهُ وفَغَرَ فَاهُ.[٤٢٩٢]

وقال المصنِّف: هو من باب: فَعَلْتُهُ فَفَعِلَ. أي: صَعَقْتُه فَصَعِقَ، وأصله من الصَّاعِقة. ويقال لها: الصاقِعة؛ من صَقَعَه: إذا ضَرَبه على رأسه.[٤٢٩٣] وصعقته عليه السلام ترتب أيضًا على التَّجلي، لا لهول ما رأى من تلاشي الجبل وإلَّا لكان حقُّ النَّظم العطفَ بالفاء.[٤٢٩٤] ويؤيِّده ما ذكر القرطبي عن القاضي عياض عن القاضي أبي بكر بن الطَّيِّب: أنه عليه السلامرأى اللهَ، فلذلك خَرَّ صَعِقًا، وأنَّ الجبل رأى ربَّه، فصار دكًّا واستنبط ذلك من هذا المقام.[٤٢٩٥]

[٤٢٨٧] **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٧٨/٣؛ **الدر المنثور** للسيوطي، ٢٢٢/٣؛ **تفسير القرآن العظيم** لابن كثير، قال السيوطي: وهذا حديث غريب ، بل منكر.

[٤٢٨٨] **الدر المنثور** للسيوطي، ٢٢٢/٣.

[٤٢٨٩] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٢٥٣/٢.

[٤٢٩٠] **روح البيان** للبرسوي، ٢٣٧/٣-٢٣٨.

[٤٢٩١] **الرسالة القشيرية** للقشيري، ص ٦٦-٦٧.

[٤٢٩٢]**الفريد** للهمذاني، ١٢٦/٣.

[٤٢٩٣]**الكشاف** للزمخشري، ١٥٠/٢.

[٤٢٩٤]**تفسير ابن كمال باشا**، ١٤٦/٤.

[٤٢٩٥]**الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٣٢٤/٩؛ **البحر المحيط** لأبي حيان، ٣٨٤/٤.

وقال جعفر بن محمد: شغله بالجبل حتى تجلّى- ولولا ذلك لَمات صعقًا بلا آفةٍ. وقوله: هذا يدلُّ على أنَّ موسى رآه. وقد وقع لبعض المفسِّرين في «الجبل» أنَّه رآه، وبرؤية الجبل له استدلّ من قال برؤية نبيّنا له إذ جعله دليلًا على الجواز. ولا مِرية في الجواز؛ إذ ليس في الآية نصٌّ بالمنع. وأمَّا وجوبه لنبيّنا ع م، والقول: بأنّه رآه بعَيْنِه فليس فيه قاطع أيضًا ولا نصّ؛ إذ المعَوَّل فيه على آيتي النّجم والتّنازع فيهما مأثور والاحتمال لهما ممكن وَلَا أَثَرَ قَاطِعٌ مُتَوَاتِرٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عليه وسلم بذلك.[٤٢٩٦]

وقال الكلبيّ وقتادة: خَرّ موسىٰ صعِقًا يوم الخميس يوم عَرَفة، وأُعطي التوراةيوم الجمعة يوم النحر.[٤٢٩٧]

روي: أنه استَبّ رجلان: رجل من اليهود ورجل من المسلمين، فقال المسلم: والذي اصطفى محمدًا على العالمين.وقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده عند ذلك فلَطَم اليهودي، فذهب اليهودي إلى رسول الله، فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لاتخيّروني على موسى، فإنَّ النَّاس يصعقون يصعقون، فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فِيَمَن صعق فاق قبلي، أو كان فيمن استثنى الله عزَّ و جلَّ؟

واستشكل هذا الحديث بأنَّ موسى عليه السلام قد مات فكيف يدركه الصعقة، وإنما يصعق الأحياء، وقوله: «ممن استثنى الله» يدلُّ على أنَّه كان حيًّا، ولم يأت أنَّ موسى رجع إلى الحيوة، ولا أنَّه حيٌّ، كما جَاء في غيره. وقد قال: «لو كُنْتُ ثَمَّةَ لَأَرَيْتُكم قبره إلى جانبِ الطريق»،[٤٢٩٨] وأُجيب بأنه يحتمل أن يكون هذه الصعقة صعقة فزعٍ، أي: الغشيّ بعد البعث حين تنشقُّ السموات والأرض، ويؤيده قوله عليه السلام: فأفاق؛ لأنَّه إنَّما يقال: أفاق من الغشي، وأمَّا الموت، فيقال: بعث منه، وصعقة الطُّور لم تكن موتًا. وفيه نظرٌ؛ لأنَّه جاء أوّل من بعث، أو في أوَّل مَن بعث، وجاء فلا أدري أَحوسب بصعقة يوم الطُّور، أو قبلي؟ والجواب أنَّه ورد في روايةٍ أحوسب بصعقة كما مرَّ وفي رواية، أو اكتفى بصعقة الطُّور، وفي روايةٍ أم جُوزي بصعقة الطور، وذلك كلُّه بدل على أنَّ هذه الصَّعِقَة بدل من تلك، أو عوض أو مقابل، وتلك لم يكن موتًا فهذه أيضًا كذلك، وحينئذ يجعل لفظ البعث الوارد، في بعض الرِّوايات كما مرّ مجازًا عن الإفاقة توفيقًا بين الروايات؛ فإن قيل: أيُّ الشَّيئين من الترديدات أنسب؟

أجيب بأن نبيّنا عليه السلام أوّل من ينشقّ عنهم الأرض، وكان موسى جوزي بصعقة الطُّور، فكان ممَّن استثنى.

وأنت خبيرٌ بأنَّ تعليل الأَنسبيّة بأن نبيّنا أوّل من ينشقّ عنهم الأرض مما لا يحتاج إليه، لأنَّ أوّل من يفيق غير أوَّل منينشقّ، بل التَّعليل بحديث المجازاة، فيردّ أنه لا وجه حينئذ للتَّرديد، فيقال: لعلَّه ورد قبل العلم بأنه جوزي به.[٤٢٩٩]

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾

الإفاقة: رجوع الفهم والعقل إلى الإنسان بعد جنونٍ أو سكرٍ، ومنه: إفاقةُ المريض، وهو رجوع قوّته، وإفاقة الحلّب، وهي رجوع الدِّرِّ إلى الضّرع.

والفُواق: ما بين حَلْبَتَي الحالب، وهذا يؤيّد أنَّه عليه السلام غشي عليه؛ لأنَّه لا يقال للميت: أفاق من موته، فلذلك قال تعالى في الذين ماتوا: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة ٥٦/٢].[٤٣٠٠]

[٤٢٩٦] **الشفا بتعريف حقوق المصطفى** للقاضي عياض، ٣٨٥/١-٣٨٦.

[٤٢٩٧] **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٧٨/٣، **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٣٢٥/٩.

[٤٢٩٨] **صحيح البخاري**، ٩٠/٢ (١٣٣٩).

[٤٢٩٩] **فتح الباري** لابن حجر، ٣١٩/٦.

«أما تسبيحه فلمّا تبيَّن له من أنَّ العلم قد سبق بعدم وقوع الرُّؤية في الدُّنيا، والله مقدَّس عن وقوع خلاف معلومه، وأمَّا التوبة في حقِ الأنبياء فلا يلزم أن يكون عن ذنبٍ، لأن منزلتَهم العليّة تُصَان عن كلِّ ما يحطُّ [**٢٢١**/و] عن مرتبة الكمال. وكان عليه أن يتوقَّف في سؤال الرُّؤية على الإذن، فترك الأولى. وقد ورد: حسنات الأبرار سيئات المقربين.[٤٣٠١]

وأمّا ذكر الجبل فقد ذكر سببه ووجهه، والحكم فيه وما يدلُّ عل أنَّه لم يكن على سبيل المؤاخذة.

وقال الإمام أبو نصر: خرج هذا الكلام منه عليه السلام مخرج العادة عند رؤية الأفزاع حسَبَ ما يجري على ألسنة الأنام عند الأخطار، لا عن ذنب يتذكَّرونه ويتوبونه.

ونظير هذا التَّسبيح ما في قول عيسى عليه السلام: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة، ١١٦/٥] ونظير ذكر التَّوبة بغير ذنبٍ ما في قول النَّبي عليه السلام: «فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ».[٤٣٠٢]

فنحن نزّه الله ممَّا قال المصنِّف: «أنَزّهك ممَّا لا يجوز عليك من الرؤية وغيرها» ونتوب إليه ممَّا قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من طلب الرؤية، ونشكوا إلى الله ممَّا قال: انظر إلى إعظام الله أمر الرؤية، ثُمَّ تَعَجَّبْ من المتَسَمِّين بالإسلام والمتسمِّين بأهل السُّنة والجماعة،كيف اتَّخذوا هذه العظيمةَ مَذهبًا، ولا يَغُرَّنَّك تستُّرهم بالبَلْكَفة، فإنَّه من مصنُوعات أشياخِهم، والقولُ ما قال بعض العدْليَّة، فيهم:

لَجَمَاعَـــــةٌ سَمَّـــــوْا هَـــــواهُمْ سُـــــنَّةً ... وَجَمَاعَـــــةً حُمُـــــرٌ لَعَمْـــــرِي مُوكَفَـــــه
قَـــــدْ شَـــــبَّهُوهُ بِخَلْقِـــــهِ وَتَخَوَّفُـــــوا ... شُـــنَعَ الْـــوَرَىٰ فَتَسَـــتَّرُوا بِالبَلْكَفَـــة[٤٣٠٣]

قوله «المتَّسَمِينَ»: من الاتِّسام، يقال: اتّسم بالشَّيء إذا صار موسومًا به معلمًا.

وقوله:«المِتَسَمِّينَ»: من التسمّي، مطاوع التَّسمية. يقال: سمّي به، أي: صار مسمّى به.

وَ«البَلْكَفَة»: القول بأنَّ الرؤية بلا كيف.و«مُؤْكَفَة»: أي: مشدودةٌ عليها، الإكاف: وهو البَرْذَعَة. والشُّنَع بالضَّمِّ جمعُ شَنَعَة: اسمٌ مِن الشَّناعةِ، ولقد عُورِض ما أنشَدَهُ أو أنشأهُ:

لَجَمَاعَـــــةٌ كَفَـــــرُوا بِرُؤْيَـــــةِ رَبِّهِـــــمْ ... وَلِقَائِـــهِ حُمُـــــرٌ لَعمْـــــرِي مُوكَفَـــــة
هُـــــمْ عَطَّلُـــــوه عَـــــنِ الصِّـــــفَات وَعَطَّلُـــــوا ... عنهـــا الفِعَـــالَ فَيَالَهَـــا مِـــنْ منكفـــه

هُـــــمْ نَازَعُـــــوهُ الْخَلْـــــقَ حَـــــتَّى أَشْـــــرَكُوا ... بِاللهِ زُمْـــــرَةَ حَاكَـــــةٍ وَأَســـــاكِفَة
هُـــــمْ غَلَّقُـــــوا أَبْـــــوَابَ رَحمتِـــــه الَّـــــتِي ... هِـــي لَا تَـــزَالُ علـــى المعاصـــي مُوكَفَـــة

[٤٣٠٠] **اللباب** لابن عادل، ٣٠٣/٩.

[٤٣٠١] **الإنتصاف بحاشية الكشاف** لابن المنير، ١٧٥و؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٦٢/٦.

[٤٣٠٢] **تأويلات أهل سنة** للماتردي، ٤٤٤/٤؛ **التيسير في التفسير**، ٥٠٧/٦؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ١٤٦/٤.

[٤٣٠٣] **الكشاف** للزمخشري، ١٥١/٢.

لَهُمْقَوَاعِـــــدُ فِي الْعَقَائِـــــدِ رَذْلَــــةٌ وَمَـــــذَاهِبُ مَجْهُولَـــــةٌ مســــتنكفة
يَبْكِــي كتَـــابُ اللهِ مِـــنْ تَأْوِيلِهِـــمْ بِدُمُوعِـــهِ الْمُنْهَلَّـــةِ المســـتَوْكِفَة

وكَـــذَا أَحَادِيـــثُ النَّـــبِيِّ دُمُوعُهَـــا مِـــنْهُمْ علـــى الْخَـــدَّينِ غـــيرُ مُنكَفَّـــة
واللهُ أَمْطَـــرَ مِـــنْ ســـحابِ عَذابِـــه وعقَابِـــه علـــيهم أبـــدًا أَوْكَفَـــة[٤٣٠٤]

والنَّكف: تنحيتك الدّمع عن خدّك بإصبعك.[٤٣٠٥] والإسكاف والأسكوفة كفش كر، والجمع أساكفة والعرب تسمّي كلّ مُحْتَرِفٍ إسكافًا. والموكَفَه من الإيكاف المأخوذ من الوكف، وهو لازم ويجيء متعدِّيًا بمعنى الأمطار كما في البيت الأخير. وفي الحديث «استوكف ثلاثًا؟ غسل يديه ثلاثًا».[٤٣٠٦] مأخوذُ من: وكف البيت، كأنَّهأخذ ثلاث دفع ممَّن المياه.

وقيل: بالغ في الغسل حتى وكف منه الماء وهذه الكلمات[٤٣٠٧] مقابلة ومعاقبة على مقتضى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾[النحل ١٦/١٢٦] والله على ما نقول وكيل.

﴿**وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ بأنَّك لا ترى في الدُّنيا، أو بما أخبرت به في حقِّ الرُّؤية من أنَّه لا يطيقها هذه البنية للبشر، وإنما أخفى عليه عليه السلام إلى ذلك الوقت أنه لا يُعطي الخلق رؤيته في الدُّنيا مع جوازها، ليوجد منه عليه السلام سؤال الرُّؤية بناءً على معرفة جوازها ليتحقَّق جواز الرُّؤية بسؤاله عليه السلام ذلك، ويكون حجَّة قاطعةً لأهل الحقِّ على المنكرين له من أهل البدعة، واستنباط أمثال هذه الأحكام، مما يجري على لسان الكرام، وسوق الحكمة الإلٰهية أمثال هذه القضيَّة من الإخفاء للسؤال والإظهار عنده بحقيقة الحال مما لا يخفى على المطَّلعين؛ لحكم الله الجليلة، وألطافه الكريمة الجميلة.

وعن بعضهم: الرؤية ههنا عبارةٌ عن الانكشاف التَّام، ومرتبة عين اليقين، وهذه المرتبة إنَّما تحصل إذا كانت النَّفس فانيةً مقطوعة النَّظر عن وجوده فضلًا عن غيره، فلمَّا طلب موسى هذه المرتبة من الانكشاف، وعبَّر عن نفسه بـ﴿أَنَا﴾ دلَّ على أنَّ نظره كان باقيًا على نفسه، وهي لا يكون كذلك إلا متعلّقة بالعلائق الجسمانية مشوبة بالشوائب المادّية لا جرم منع عنه هذه المرتبة، وأُشير إلى أنَّ منع هذه المرتبة إنما كان لأجل بقاء أنا وأنت في قوله: ﴿أَرِنِي﴾ و﴿لَنْ تَرَانِي﴾، ثم لم يردْ حرمانه عن حصول هذه المرتبة مع استعداده، واستئهاله لها علَّم طريق المعرفة بقوله: ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾، فإنَّ الجبل لعدم تجرُّد روحانيَّته لما لم يطق نظره من نَظَرات التَّجلِّي، فموسى مع تعلُّقه يكون كذلك، فلمَّا أدرك موسى الرّمز خرَّ مَغشيًّا عليه متجرّدًا عن العلائق فانيًا في نفسه، فحصل له المطلوب،[٤٣٠٨] فلمَّا أفاق علم أنَّ طلبه للرؤية في تلك الحالة التي كان عليها كان سوء أدبٍ فتاب عنه.

[٤٣٠٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٤ظ؛ **حاشية كشاف** للتفتزاني ص ١٢٥.
[٤٣٠٥] **لسان العرب** لابن منظور، «نكف».
[٤٣٠٦] **مسند أبي داود**، ٢/٤٣٥ (١٢٠٧)؛ **سنن الدارمي** ١/٥٤٣ (٧١٩).
[٤٣٠٧] ج– الكلمات.
[٤٣٠٨] ج+ الملكوت.

وأنت خبير: بأنَّه إن كان ذلك الكلام على طريقة التَّفسير، فلا يخفى [٢٢١/ظ] بعده نظمًا ومعنًى، وإن كان على طريقة التَّأويل في[٤٣٠٩] إشارة العارفين فلا كلام فيه.

وقال عليّ عن أبيه عن جعفر رضي الله عنهم قال: لَمَّا سمع الكليم الكلام، واستوى على ذلك المقام سمع كلام الملك العلَّام، قال بلسان الدِّلال على بساط الوصال تحت ظلال الجلال: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ فإني بين يديك، فأجابه ربه: ﴿لَن تَرَانِي﴾ الآن فى غير الوقت، بل تراني ببرهاني وشواهدي، فإنَّك الآن لا تحتمل نورجلالي وسلطاني. ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ لَترى عجائب قدرتي، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ فصار بأربع قطعٍ، وتبدّدت في أربع مواطن، وتقطّع قلب موسى بأربع قِطَعٍ، قطعةٌ سقطت في بحر الهيبة، وقطعةٌ سقطت في روضة المحبَّة، وقطعةٌ سقطت فى بساتين رؤية المنَّة، وقطعةٌ سقطت في أودية القدرة. ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ خرج عن الشِّدَّة وصاح إليه بالتَّعظيم، بلسان الحياء ﴿تُبْتُ﴾ أن أسالك سؤال المحال فى غير الوقت.

وقال أبو عثمان المغربيّ: لَمَّا قال موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، قال الله: يا موسى اضرب بعصاك الجبل، فضرب عصاه الجبل فظهر سبعون ألف جبلٍ على كلِّ جبلٍ سبعون ألف موسى عليهم الكساءُ وبِيَدِهم العصاء، ويقولون كلّهم: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، فلمَّا رأى ذلك ﴿خَرَّ موسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.[٤٣١٠]

روي: أنه مكث بعد أن كلمه الله أربعين ليلةً لايراه أحدٌ إلّا مات من نور الله.

وروي: لا يستطيع أحدٌ أن ينظر إليه لما غشي وجهه من النُّور، ولم يزل عليه برقع حتى تُوفّي، وقالت له امرأته: أنا أيم منك منذ كلمك ربُّك فكشف لها عن وجهه فأخذها مثل شعاع الشمس وخرّت ساجدةً لله.[٤٣١١]

﴿قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾

تعدية لنعمه، وأمر بشكرها، وتسلية لما منع من الرؤية، أي: إن كنتُ منعتك منها فقد أعطيتُك من النِّعم العظيمة كذا وكذا، فلا يضيق صدرُك به وانظر إلى أنواع النِّعَمِ التي خصّصتك بها، واشتغل بشكرها.

وقيل: فيه إشارةٌ لطيفة، كأنَّه قال: إن منعتُك عن مطلوبك، فلا تشكُني إلى قومك بعد رجوعك، وأنشدوا:

إنْ أَعْرَضُـوا فهـمُ الـذين تَعَطَّفـوا ... كـم قـد وفَـد واصْـبِرْ لهـم إنْ أَخْلَفـوا[٤٣١٢]

وفيه أيضًا دلالة على حجّة الرؤية، وإلا لَمَّا احتاج إلى كمال التَّسلية.

والاصطفاء: استخلاص الصَّفوة أي: اخترتُك واتَّخذتُك صفوةً على الناس.

[٤٣٠٩] ج: و.

[٤٣١٠] **عرائس البيان** للبقلي، ٤٧١/١-٤٧٢.

[٤٣١١] **روح البيان** للبرسوي، ٢٥٣/٣.

[٤٣١٢] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٥٦٨/١؛ **التيسير في الفسير** لعمر النسفي، ٥١٣/٦.

وعن ابن عباس: «فضّلتُك».[٤٣١٣]﴿عَلَى النَاسِ﴾ يعني: الموجودين في زمانك، وهارون وإن كان نبيًّا كان مأمورًا باتّباعه، ولم يكن كليمًا ولا صاحب شرعٍ.[٤٣١٤]

والتَّخصيص؛ لأن محمدًا سيّد ولد آدم من الأوَّلين والآخرين، ولهذا خصَّه الله بأن جعله خَاتَم الأنبياء والمرسلين الذي يستمرُّ بشريعته إلى قيام الساعة، واتّباعه أكثر من اتّباع الأنبياء كلِّهم، وبعده في الفضل والشرف: إبراهيم الخليل، ثم موسى الكليم وهذا أولى مما قيل خصّه من دون النَّاس بمجموع أمرين لما يرد عليه أن محمدًا اصطفى بهما أيضًا؛ لما أنه تعالى كلَّمه ليلة المعراج بغير سفيرٍ، وفَرَضَ عليه وعلى أمَّته الصلوات، ورفعه إلى حيث سمع صريف الأقلام كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم ١١/٥٣] وذكر النَّاس دون الخلق؛ لأنَّ الملائكة قد تسمع كلامه تع بغير واسطةٍ ودلَّ هذا على أنَّ قومه لم يشاركه أحدٌ منهم في التّكليم، ولا أحدٌ من السبعين؛ لأنَّ الاصطفائيّة تنصيصٌ على التخصيص، لكن بقي ههنا إشكال بالنظر إلى قوله عليه السلام: «إِنَّ اللهَ أَعْطَى مُوسَى الْكَلاَمَ، وأَعْطَانِي الرُّؤْيَةَ»[٤٣١٥] ﴿بِرِسَالَاتِي﴾ يعني: أسفار التوراة، ومجلّداتها، وألواحها، وهي جمعُ سِفْرٍ وهو الكتاب، يقال: سَفَرَه، أي: كَتَبَه، والكِرامُ السَّفرة، أي: الكَتَبَة.

وقيل: جمعه اعتبارًا بضروب الرّسالة وأنواعها، ويجمع المصدر لاختلاف أنواعه؛ كقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ﴾ [لقمان،١٩/]. فجمع لاختلاف أجناس الأصوات، واختلاف الصَّوتين، ووحّد في: لَصَوت لما أراد جنسًا واحدًا من الأصوات، يعني:بأن أرسلتُك بما أوحيتُ إليك من الأوامر والنواهي، والوعدِ والوعيد، والأحكام، ويردّ عليه أنَّ كثيرًا من الناس ساواه في الرسالة، وقد يدفع بأنَّ التَّخصيص لمجموع الأمرين، وهو لم يحصل لغيره بكلامي تفسير الرسالة بغير الأسفار، أي: بتكليمي إيّاك من غير واسطة.

وقيل: يحتملُ أن يراد به التَّوراة، وما أوحاه إليه من قولهم: القرآن كلام الله تسميةً بالمصدر.[٤٣١٦] وفيه أنَّه يكون تكرارًا فيلزم تفسير الرِّسالة بغير الأسفار، وفيه ما فيه، وعلّل تقديم الرِّسالة بكونها أسبق وذا إنَّما يصحّ على أن لا يفسّر بالأسفار أيضًا، وقد عرفت ما فيه.

وقيل: للتّرقّي من الشريف إلى الأشرف، وذا يصحّ على كلِّ تفسيرٍ؛ لأنَّ شرف التَّكليم بغير واسطة لايقابله شيءٌ، وتكرار الجارّة للتَّنبيه على مغايرة الاصطفاء.

وقرئ: «بِكَلِمِي»[٤٣١٧] جمعُ «كِلْمَةٍ». «وَتَكْلِيمِي»[٤٣١٨] وهو يؤيد المصدريَّة في المشهورة.

﴿**وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾ من باب المبالغة، أي: كُنْ بَليغ الشُّكر، ومعدودًا في [**٢٢٢**/و] عداد الشاكرين، بأن يكون لك مساهمةٌ كاملةٌ فيهم؛ لأنَّ النِّعمة التي أُوتيت من أجل النّعم، وذلك بالقيام بعهدتها علمًا وعملًا.[٤٣١٩]

[٤٣١٣] **اللباب** لابن عادل، ٣٠٤/٩.

[٤٣١٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٧١/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ١٤٧/٤.

[٤٣١٥] **فيض القدير**، ٢١٣/٢.

[٤٣١٦] **اللباب** لابن عادل، ٣٠٤/٩.

[٤٣١٧] قراءة شاذَة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه ص ٥١.

[٤٣١٨] قراءة شاذَة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه ص ٥١.

[٤٣١٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٦٩/٦.

وقيل: يقال: دابَّةٌ مشكورٌ، إذا ظهر عليها من السِّمَن فوق ما تُعطَى من العَلَف. والشاكر معرَّضٌ للمزيد كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم، ١٤/٧].[٤٣٢٠]

ففيه رمزٌ إلى أنَّ الشُّكر يُبَلِّغُكَ إلى ما سئلتَ؛ كما قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس١٠/٢٦].

قال: عليه السلام: «الزِّيَادَةُ هِي الرُّؤْيَةُ وَالْحُسْنَى الْجَنَّةُ».[٤٣٢١]

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥)﴾

أضاف الكتابة إلى نفسه تعظيمًا؛ إذ هي مكتوبةٌ بأمره كتبها جبرئيل بالقلم الذي كتب به الذّكر، واستمدّ من بحر النُّور كتابة أظهرها الله وخلقها في الألواح يرشدك إليه قوله عليه السلام: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ بِيَدِهِ، وَكَتَبَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ، وَغَرَسَ شجرة[٤٣٢٢] بِيَدِهِ».[٤٣٢٣]

روي: أنَّ جبرائيل قبض موسى بجناحه، فمرَّ به في العُلا حتى أدناه، حتى سمع صَرِيفَ القلم[٤٣٢٤] حين كتب الألواح.[٤٣٢٥] وإنَّما قال له؛ لأن الوقوف بالمكتوب فيها على تفصيل كلِّ شيءٍ كان مخصوصاً به عليه السلام.[٤٣٢٦]

والألف واللام للماهية، أو للعهد؛ إذ روي: أنه عليه السلام هو الذي قطَّعها. والكوفي يجعله بدلًا من الضَّمير كقوله: ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات ٧٩/٤١] ولا ضرورة تدعو إليه على أصلهم أيضًا،[٤٣٢٧] وهي: جمع لَوْحٍ، وأصله: اللَّمع، من قولهم: لَاحَ يَلُوحُ لَوْحًا، إذا لَمَعَ وتَلَأْلَأَ، فكأنَّ اللَّوح الذي يكتب فيه تلوح فيه المعاني المكتوبة.[٤٣٢٨]

واختلف في أنَّها: كانت عشرةً، أو سبعةً، أو تسعةً، أو اثنين على إطلاق الجمع. عليه من زُمُرُّدٍ جاء بها جبريل، أو زَبَرْجَد، أو يَاقُوت أَحْمَر، أو صَخرة صمَّاء، أو برد، أو من سدر الجنّة نزل من السماء، أو وقع في الجبل الذي قام عليه، وطولها اثنى عشر ذراعًا، أو على طول موسى، أو عشر أذرعٍ والمكتوب فيها التوراة أو غيرها.

وعن الحسن: بعث الله جبرئيل إلى جنَّة عدنٍ، فقطع منها سبعة ألواحٍ، فكان من زمرُّدٍ أخضرَ طولُ كلِّ لوحٍ عشرةُ أذرعٍ بذراع موسى، وكذلك عرضُه، فكتب التوراةَ ويسمع موسى صريرَ القلم. فوضعها على السماء فشكَت إلى الله، ولم تُطِقْ حملَها، فبعث جبرئيل أن يحملها وينقلها إلى موسى، ولم يطِقْ حملَها، فقال: من يُطيق حملها بما فيها من النُّور والبيان والعهود،

[٤٣٢٠] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/٣٢٧-٣٢٨.

[٤٣٢١] **تفسير ابن كثير**، ٢١٢.

[٤٣٢٢] ج+ طوبى.

[٤٣٢٣] **الأسماء والصفات** للبيهقي، ٢/١٢٥ (٦٩٢).

[٤٣٢٤] ج- القلم.

[٤٣٢٥] **الجامع لأحكام القرآن**، ٩/٣٢٨.

[٤٣٢٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/١٤٧-١٤٨.

[٤٣٢٧] **اللباب** لابن عادل، ٩/٣٠٥.

[٤٣٢٨] **الفريد** للهمذاني، ٣/١٤٥.

وهل خلقتَ من يُطيقها؟! فأتوا بملائكةٍ يحملونها؛ بعدد كلِّ حرفٍ ملَكٌ، فبلَّغوها موسى، ووضعوها على الجبل، فانصَدع، وقال: يا رب! مَن يطيقها بما فيها؟ وقد ضرب الله لهذا القرآن مثلًا وقال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [الحشر، /٢١] الآية.[٤٣٢٩]

ويشعر كلام العلَّامتين: أنَّ ﴿مِنْ﴾ مزيدةٌ، و﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ في محلّ النَّصب على أنه مفعول ﴿كَتَبْنَا﴾. و﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا﴾ بدل منه، ولم يجعلا ابتدائيّة حالًا من ﴿مَوْعِظَةً﴾، و﴿مَوْعِظَةً﴾ مفعولًا؛ لأنه ليس له كثير معنًى، ولم يجعلا ﴿مَوْعِظَةً﴾ مفعولًا له، وإن كانت شرائطُ النَّصب حاصلةً؛ لأنَّ الظاهر أنَّ ﴿تَفْصِيلًا﴾ عطف عليه، وظاهر أنَّه لا معنًى كقولك: كتبنا له من كلِّ شيءٍ لتفصيل كلِّ شيءٍ، فالمعنى: كتبنا له كلَّ شيءٍ احتاجوا إليه من المواعظ، وتفصيل الأحكام، فخصّ كلّ شيء أوَّلًا بما يحتاجون إليها، وثانيًا بالأحكام على ما يناسب المقام والحال، لظهور أنَّه ليس على عمومه.[٤٣٣٠]

وقيل: ﴿مِنْ﴾ تبعيضيَّة، و﴿مَوْعِظَةً﴾ بدل، و﴿تَفْصِيلًا﴾ عطف على محل الجارِّ والمجرور. فيختلفُ جهتا كلّ من قوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ... وَتَفْصِيلًا﴾، وأخذ كلّ من الموعظة وتَفْصِيلًا حقَّه، ولا تضيع فائدةُ اتِّصال ﴿كُلِّ شيءٍ﴾، أي: وكتبنا بعضَ كل شيء في التوراة: من نحو السُّور والآيات وغيرهما ﴿مَوْعِظَةً﴾، وكتبنا فيها تفصيلَ كلِّ شيءٍ يحتاجون إليه من الحلال والحرام ونحوه. ففيه فائدة اختصاص الإجمال والتَّفصيل بالموعظة؛ للإيذان بأنَّ الاهتمام بها أشدُّ، والعناية بها أتمُّ، ومن ثمة كثر مدح النَّبي بالبشير النَّذير. وإشعار بجعل ﴿مِنْ﴾ للتَّبعيض بأن الموعظة ممَّا يجب أن يُرجع إليه في كلِّ أمرٍ، ويُكرّر به في كل سورة، بل في كل أيةٍ؛ ألا ترى إلى أن أكثرَ الفواصل التنزيلية واردٌ على هذا النَّمط، نحو: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ونحوها. وإلى سورة الرحمن كيف أُعِيدَ فيما ذكر ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.[٤٣٣١]

وقيل: الموعظة هي التي تحمل القلوب على القبول، والجوارح على العمل، وقيل: هي التي تنهى عمّا لا يحلّ، وقيل: هي التي تلين القلوب القاسية، وتدمع العيون الجامدة، وتصلح الأعمال الفاسدة، وقيل: هي التي تذكر العواقب وتحمله على العمل.

﴿**فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا**﴾ عطفٌ على ﴿كَتَبْنَا﴾ بإضمار «قلنا»؛ لأنَّ الجملة الإنشائيَّة ليس يجوز عطفها بالفاء على الإخباريَّة، بل لأنَّ قوله: و﴿كَتَبْنَا لَهُ﴾على سياق الغيبة فقصد التَّناسب، والضمير للألواح أو لـ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ لأنه بمنزلة الأشياء، أو بدلٌ من: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾، فالضَّمير للرّسالات، أو التورية، وفيه أنَّ ﴿كَتَبْنَا﴾ مع ما عُقِّب به من قوله: ﴿فَخُذْهَا﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿قَالَ يَا مُوسَى﴾ مع ما عقّب به من قوله: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ حيث أجمل أوَّلًا بقوله: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ﴾ ففصَّله بقوله: ﴿وَكَتَبْنَا﴾ على التعظيم.[**٢٢٢**/ظ] وقال: ﴿بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ ففصَّله بقوله: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وقال: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾، ثم أعلَمَ أنه أعطاه من كلِّ شيءٍ يحتاج إليه في أمر الدِّين، فقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ﴾ فلو جعل بدلاً لَدخل بين المعطوف والمعطوف عليه أجنبيٌّ ﴿بِقُوَّةٍ﴾: بجدٍّ وعزيمةٍ، أي: خذْها أخْذًا مثلَ أخذِ أولي العزم من الرُّسل، مجدّين صابرين؛ لأنَّه إذا أخذها بضعْفٍ أدَّاه ذلك إلى الفتور،[٤٣٣٢] فيكون مفعولًا مطلقًا.

وقيل: حالٌ من الفاعل أو المفعول، وفيه دليلٌ على أنَّ الاستطاعة مع الفعل؛ لأنَّها لا يبقى في زمانين فلو لم يكن مع العمل لم يكن الأخذ بقوّة. ولعلَّ الأمر له عليه السلام بالأمر لقومه بعد الأمر له يأخذها بقوّةٍ؛ للإشعار بأنَّ التَّكليف على

[٤٣٢٩] **التيسير في التفسير** للنسفي، ٥١٦/٦-٥١٧.

[٤٣٣٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٤ظ.

[٤٣٣١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٧١/٦-٥٧٢.

[٤٣٣٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٧٣/٦.

موسى كأنَّ أشدَّ حيث لم يرخّص له ما رخص لغيره من قومه، أو عليه الامتثالُ بما فيها وتبليغها إليهم ﴿يَأْخُذُوا﴾ مجزومٌ جوابًا للأمر، ولابدَّ من التَّأويل؛ لأنَّ الحكم في مثله انحلال الجملتين إلى شرطٍ وجزاءٍ، وكون ما هو في معنى الجزاء لازمًا لما هو في معنى الشَّرط ولا يلزم من أمره عليه السلام الأخذ بدليل عصيان البعض.

وقيل: على إضمار اللَّام، أي: ليأخذوا؛ لأنَّه ذكر شيء بمعنى: «قل» والجزم به إنما يكون في جوابه ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ بأحسن ما فيها، وهو مفعولٌ، والباء مزيدةٌ أو حالٌ، والتقدير: يأخذوا أنفسهم أي: بما هو واجب وندب؛ فإنه أحسن من المباح أو بواجباتها، فإنها أحسن من غيرها أو بأحسن ما فيها، فإنَّ فيها ما هو حسن وأحسن كالصبر بالنسبة إلى الانتصار.

وقال المصنف: «كالاقتصاص، والعفو».[٤٣٣٣] وهذا ينافي ما سبق منه من أن المكتوبَ على بني إسرائيل هو القِصاص قطعًا.

والجواب: بأنَّه مثالٌ للحسن والأحسن، لا لكونه في التوراة بعيدٌ جدًّا،[٤٣٣٤] ثمَّ إنَّ ذلك لا يمنع الأخذ بالحسن حتى يقدح في حسنه؛ لأنَّ الأمر باختيار الأفضل على طريق النَّدب، أو بما هو البالغ في الحسن مطلقاً، لا بالإضافة وهو المأمور به كقولهم: «الصَّيفُ أحَرُّ من الشِّتَاءِ» أي: أبلغ في حرِّه من الشتاء في برده، وذلك؛ لأن تفضيلَ حرارة الصَّيف على حرارة الشِّتاء غير مرادٍ؛ إذ ليس مما شكّ فيه، بل هو لتفضيل كثرة الحرارة، أو قوّتها على كثرة البُرودة أو قوَّتها أو باعتبار الإحساس، وذلك؛ لأنَّ معنى أحرّ وأبلغ حرًّا متقاربان، ولهذا يوصل في الممتنع بنحوه: فكذلك لحسن المأمور به مرتبة، ولقبح المنهي عنه مرتبة، ومرتبة حسن المأمور به أَعلَى وأَوْلَى من مرتبة قبح المنهي عنه.

وعن ابن عباس: يحلّوا حلالها ويحرِّموا حرامها، ويتدبَّروا أمثالها، ويعملوا بمحكمها، ويقفوا عند متشابهها.[٤٣٣٥]

وقال بعض العارفين: سرّ الله عند عباده ولأهل خصوصيَّته لا يحمله منهم إلا الأقوياء بأبدانهم بذاتهم وقلوبهم، ألا ترى أنَّ الله يقول لكليمه عليه السلام: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ والقوَّة هو الثِّقة بالله والاعتماد على الله؛ ولذلك قال بعضهم: عطاياه لا يحمل إلا مطاياه.

وقيل: خذها بي ولا تأخذها بنفسك، فالقويّ مَنْ لا حول له ولا قوَّة، ويكون حوله وقوَّته بالقوي.[٤٣٣٦]

﴿**سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَاسِقِينَ**﴾ دَارَ الذين أهلكهم الله بفسقهم ساقطةً على عروشها، وهذه المقدَّرة حالٌ إن كانت من رؤية العين المتعدّية إلى الاثنين، أو مفعول ثالثٌ إن كانت قلبيَّةً، وفي حذفه كلامٌ والوجه هو الأوّل، فينتظم دارَ فرعون وقومه بمصر، فإنَّكم ترجعون إليها، ودار العمالقة، زمنازل عادٍ وثمود، وقرون المهلكين؛ فإنَّها في ممرّكم في أسفاركم، و إني سأدخلكم الشام، فأريكم منازلهم؛ لتعتبروا بهم وتحترزوا عن الفسق مثل فسقهم؛ لئلَّا ينكل عليكم مثل نَكالهم لفسقهم، أو دارهم في الآخرة وهي جهنَّم مسعّرة؛ فإنها مصيرهم فيها فاحْذَروا أن تكونوا مثلهم. فإيراد الوصف للإشارة إلى هذا الاعتبار، والتَّنبيه على أن الفسق هو الذي جلب لهم الدّمار، فالكلام تأكيدٌ لأمر القوم بالأخذ بأحسن ما في التوراة، وبعثٌ عليه، وتحذيرٌ من المخالفة، وتهديدٌ عليها.

[٤٣٣٣] **الكشاف** للزمخشري، ١٥٢/٢.

[٤٣٣٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٥و.

[٤٣٣٥] **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٨١/٣.

[٤٣٣٦] **عرائس البيان** للبقلي، ٤٧٤/١.

وفي موضع الإراءة موضع الاعتبار إقامة السَّبب موضع المسبَّب أيضًا مبالغة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمجْرِمِينَ﴾ [النمل ٦٩/٢٧].وفيه التفات أيضًا، لأنَّ أصل الكلام: ﴿وَامُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾، سأريهم دار الفاسقين، ليجِدُّوا، ولا يتهاونوا في امتثال الأمر.[٤٣٣٧]

وأمَّا جعله تغليبًا فغير ظاهر لما عرفت أنَّ المعنى: لتعتبروا ولا تفسقوا، وذا لايصحّ إلا في القوم نعم يكون تغليبًا على قراءة: «سَأُورِثُكُمْ»،[٤٣٣٨] ويؤيّده قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ﴾ [الأعراف ١٣٧/٧] أي: سأُورِثُك وقومَك أرضَ مصر، وعلى هذا فالجملة استئنافيّة، على سبيل التعليل للأمر، وبِشارة لهم بأنَّه تعالى سيُورثهم أرض أعدائهم.

وقرئ: «سأُوْرِيكُم»،[٤٣٣٩] وهي لغةٌ فاشيةٌ بالحجاز. يُقَالُ: أَوْرِنِي كَذَا، وأَوْرَيْتُهُ، ووجهه أن تكون من: أَوْرَيْتُ الزَّنْدَ، كأنَّ المعنى: بَيِّنْهُ لي وأنِرهُ لأستَبينَه»[٤٣٤٠]

وقيل: «الدار: الهلاك، وجمعه أَدْوَار. وذلك أَّن الله تعالى لَمَّا أغرقَ فرعون، أوحى إلى البحر أن اقذِف بأجسادهم إلى الساحل، قال: ففعل، فنظرَ إليهم بنو إسرائيل، فأَراهم إهلاكَ الفاسقين».[٤٣٤١]

وفي التَّعبير إشعارٌ بذمّ مصر، [**٢٢٣**/و] وأنَّه دار الفسق والفجور، ومدار العجب والغرور الهلاك، ولا بُعد فيه؛ لأنه عُشّ الشَّيطان ومَقَامه على ما يدلّ عليه قوله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم:«أَتَى الشَّيْطَانُ الْعِرَاقَ فَقَضَى حَاجَتَهُ فِيهَا، ثُمَّ أَتَى الشَّامَ فَطَرَدُوهُ ، ثُمَّ دَخَلَ مِصْرَ فَبَاضَ فِيهَا وَفَرَّخَ ، وَبَسَطَ عَبْقَرِيَّهِ».[٤٣٤٢]

وقال عليه السلام: «إنَّ مصرَ ستُفتَحُ بَعدِي فانتَجِعوا خيرَها ولا تتَّخِذوها دارًا فإنَّه يُساقُ إليها أقلُّ النَّاسِ أعمارًا».[٤٣٤٣]

فإيَّاك ثم إيَّاك أن تسكن في مصر وتتخذها دارًا، وعليك بالإقامة في الشَّام؛ فإن الشام مشحونٌ ببركات الله ومقام أنبيائه وأوليائه إلى أن يأتي أمر الله.

وقال رسول الله صلى الله عليه والسلَّم: «البدلاء أربعون اثنان وعشرون بالشام وثمانية عشر بالعراق كلما مات واحد منهم بدَّل الله مكانه آخر فإذا جاء الأمر قبضوا كلهم».[٤٣٤٤]

وعن زيدِ بن ثابتٍ قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «طُوبَى لِلشَّامِ. قُلْنَا: لِأَيٍّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لِأَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَنِ بَاسِطَةٌ بأَجْنِحَتِهَا عَلَيْهَا».[٤٣٤٥]

[٤٣٣٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٧٥/٦-٥٧٦.

[٤٣٣٨] قراءة شاذَة، مرويّة عن قسامة بن زهير وابن عباس. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه ص ٥١؛ **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٢/٢.

[٤٣٣٩] قراءة شاذَة، مرويّة عن الحسن. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه ص ٥١؛ **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٢/٢؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٤.

[٤٣٤٠] **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٢/٢.

[٤٣٤١] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٣٣٠/٩.

[٤٣٤٢] **الفردوس بمأثور** الخطاب، ٤٢١/١ (١٧١٠).

[٤٣٤٣] **الموضوعات** لابن الجوزي، ٥٧/٢؛ **كشف الخفاء** للعجلوني، ٤٧٧/٢؛ **تنزيه الشريعة** لابن عراق، ٥٠/٢.

[٤٣٤٤] **الكامل في ضعفاء الرجال**، ٣٧٨/٦؛ **كنز العمال**، ١٩٠/١٢ (٣٤٦٠٩)؛ **كشف الخفاء للعجلوني**، ٣٩/١-٤٠.

[٤٣٤٥] **مسند أحمد**، ٤٨٣/٣٥ (٢١٦٠٦)؛ **سنن الترمذي**، ٧٣٤/٥ ٣٩٥٤.

وفيه أيضًا غاية تحذير عن الفسق والمعاصي؛ فإنَّ لهم الويل في الدُّنيا، ويوم يؤخذ بالنَّواصي، وأنه مادَّة الهلاك في الدَّارين، وسبب الدّمار في المنزلين.

وقد قال عليه السلام: «إذا مُدِحَ الفاسِقُ غَضِبَ الرَّبُّ وَاهْتَزَّ لِذَلِكَ الْعَرْشُ».[٤٣٤٦]

وقال بعض العارفين: المواعظ الإلهية تدلُّ على ترك الدنيا وطلب الآخرة، وللآخرة درجاتٌ بعضها فوق بعضٍ، وأعلاها أحسنها ﴿فَيَأۡخُذُوا بِأَحۡسَنِهَا﴾، أي: بأعلاها درجةً، وأكملها فضيلةً، وأيضًا كما أنَّ طلب الآخرة أحسنُ من طلب الدُّنيا، كذلك طلب الله أحسنُ من طلب الآخرة، فـ﴿دَارَ ٱلۡفَاسِقِينَ﴾، أي: الخارجين من طلب الآخرة إلى طلب الدُّنيا، فدارهم أسفل السافلين، ودار الخارجين من طلب الدُّنيا إلى طلب الآخرة، فدارهم الجنّة، ودار الخارجين من طلب الآخرة إلى طلب الله مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ. **﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)﴾**

أي: عن آياتي المنصوبة في الآفاق حتى لا يتفكَّروا في خلقها ولا يَعتبروا بها، وفي الأنفس حتى لا يَروا فنائها ويُعجبوا بها. والمنزلة حتى لا يتدبَّروا آياتها، ولم يُذعنوا ما فيها والظَّاهرة في أيدي الأنبياء، حتَّى لا يدركوا إعجازها ولم يصدقوها ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ الذين يتجبَّرون على عبادي، ويحاربون أوليائي، ويرون أنَّهم أفضلُ الخلق، فكذلك لايطيعون الأنبياء طلبًا للعلوّ والرِّياسة.

قال عيسى عليه السلام: «أنَّ الزَّرع ينبت على السَّهل ولا ينبت على الصَّفا، كذلك الحكمة تغمر في قلوب المتواضعين ولا تغمر في قلوب المتكبّرين».

وعن ذي النون: «أبى الله أن يكرم قلوب المتكبّرين البطَّالين بمكنون حكمة القرآن».[٤٣٤٧]

وعن بعض السلف: «لَا يَنَالُ الْعِلْمَ حَيِيٌّ وَلَا مُسْتَكْبِرٌ». «مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى ذُلِّ التَّعَلُّمِ سَاعَةً، بَقِيَ فِي ذُلِّ الْجَهْلِ أَبَدًا».[٤٣٤٨]

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إشارة إلى كونهم من العالم السُّفلي الَّذي لا يليق التَّرفع بشأنِ مَن كان منها، فيكون تمهيدًا لقوله: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾؛ أي بدون الاستحقاق، حالٌ من فاعل ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾.[٤٣٤٩]

قال الله: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، اَدْخَلْتُهُ النَّارَ».[٤٣٥٠]

فالمتكبِّر على آخَر إنَّما يتكبَّر لما لم يره مِثْلاً لنفسه، أو لما يَرى نفسه سليمةً عن العيوب ورأى في غيره عيوبًا، أو رأى لنفسه حقوقًا عليه، وإذا كان الخلق كلُّهم أكفاء بعضُهم لبعض، وفيهم العيوبُ والحاجات، فلا يسعُ أحدًا التكبّرُ على أحدٍ،

[٤٣٤٦] **معجم أبي يعلى**، **١٥٦** (١٧١)؛ **شعب الإيمان** للبيهقي، ٢٣٠/٤ (٤٨٨٤)

[٤٣٤٧] عرائس البيان، ٤٧٥/١.

[٤٣٤٨] تفسير ابن كثير، ٤٤/٤.

[٤٣٤٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٤٩/٤.

[٤٣٥٠] **سنن ابن ماجه**، ٢٧٣/٥ (٤١٧٥)؛ **سنن أبي داود**، ٢٧٣/٥ (٤٠٩٠)

فهو لله لا مِثلَ له وهو منزَّه عن العيوب والحاجات،[٤٣٥١] أو صلة لـ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾ أي: يتكبَّرون بما ليس بحقٍ وهو دينهم الباطلة، ففي التَّقييد به إشعار بأن التَّكبُّر على الغير ربَّمَا يكون بالحقِ كتكبُّر المحقّ على المبطل، وفي المشهور أنَّ التَّكبُّر على المتَكبِّر صدقةٌ.

وقال بعضهم: التكبُّر تكبران: تكبُّر بحقٍ، وتكبٌّر بغير حقٍ؛ والتكبُّر بالحقِ تكبُّر الفقراء على الأغنياء استغنوا بالله عمَّا فى أيديهم، والتكبُّر بغير حقّ تكبُّر الاغنياء على الفقراء ازدراءً لما فيهم من فقرهم.

وقال الواسطي: التَّكبُّر بالحقِ هو التَّكبُّر على الأغنياء والفسقة وعلى الكفَّار وأهل البدع؛ لأنه روي في الأثر: «القوا أهل البدع والمعاصى بوجوه مكفهرة».[٤٣٥٢]

وقيل: تخصيص الكبرياء بالله تعالى أَوْلَى؛ لأنَّ الكبرياء صفة المولى على ما دلَّ عليه الحديث القدسي، ثم إنَّ ذلك الصَّرف بالطَّبع على قلوبهم لعنادهم الحقَّ عقوبة له عليهم، وجزاء بحرمان الهداية بمقابلة الكبر والضَّلالة، وهذا نحو قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف ٥/٣٨]. وهذا أَوْضَحُ دليلٍ على مذهب أهل السنة، وإثبات خلق الأفعال وإثبات فعل العباد. وتأويل المعتزلة بالخذلان، ومنع الإلطاف من الاعتساف، وترك الإنصاف، أو سأصرفهم عن إبطالها والاعتراض عليها والطّعن فيها، وأن يفعلوا ما يمنع من إبلاغها كما فعل فرعون فعاد عليه بإعلاء شأنها وتقوية أمرها، أو بإهلاك المعارضين لها ﴿وإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ ﴾ منزلةٍ أو معجزةٍ ﴿لَا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ لسدّ الطّبع طريق الإدراك، أو لعنادهم أو إغراقهم في الكفر وشدة شكائمهم فيه، أو اختلال عقلهم بانهماكهم في الهوى والتَّقليد، لا بالخلقة الأصليَّة.

فعلى هذا: الكلامُ مع قوم رسول الله [**٢٢٣**/ظ] فيكون متَّصلًا بما سبق من قصَّتهم، وهي: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [الأعراف، ١٠٠/٧]، ويكون إيرادُ قصَّة موسى وفرعون للاعتبار كما قال: «وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون»، فقوله: ﴿وإِنْ يَرَوْا﴾ عطفٌ على ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾ أي: سأصرف هؤلاء الموصوفين بتلك الصِّفات.

وعلى الأوَّل الآية عامَّةٌ، وعطف ﴿وإِنْ يَرَوْا﴾ على ﴿سَأَصْرِفُ﴾ للتعليل، على منوال قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾[النمل ١٥/٢٧] على رأي السَّكاكي، أو متعلِّق بقوله: ﴿وَامُرْ قَوْمَكَ﴾، أي: الأمرُ كذلك، وأما الإرادةُ فإني سأصرف.[٤٣٥٣]

﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿الرَّشَدِ﴾[٤٣٥٤] بفتحتين. وقرئ: «الرَّشَادِ»،[٤٣٥٥] وثلاثتها لغاتٌ كالسُّقْم والسَّقَمِ والسَّقَامِ. والرُّشْد مصدر رَشَدَ يَرْشُدُ بالفتح والضم، والرَّشَد والرَشَاد مصدر رَشِد يَرْشَد بالكسر والفتح.[٤٣٥٦]

[٤٣٥١] **تأويلات القرآن** للماتريدي، ٦٤/٦-٦٥؛ **التيسير في التفسير**، ٥٢٣/٦.

[٤٣٥٢] **مسندالفردوس** للديلمي، ٥٥٩/٢؛ **عرائس البيان** للبقلي، ٤٧٥/١.

[٤٣٥٣] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٧٦/٦-٥٧٧.

[٤٣٥٤] **النشر** لابن الجزري، ٢٠٤/٢.

[٤٣٥٥] قراءة شاذَة، مرويّة عن عليّ. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه ص ٥١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٤.

[٤٣٥٦] **الفريد** للهمذاني، ١٢٩/٣.

والمراد: سبيل الحق والهدي والصواب والفلاح. وقيل: بضم الرَّاء الفلاح لقوله: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء، ٦/٤] وبفتحتين الاستقامة في الدِّين. قال تعالى: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف ٦٦/١٨].

﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾؛ لأنَّ على أبصارِهم غشاوة الغباوة، أو لانهماكِهم في الغيِّ وإفراطهم في العناد والضّلال، وتنفّرهم عمّا يوجب الفضل والكمال.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ﴾ وهو ضدُّ الرشد، وهو الضلال والخيبة، يقال: غَوَى الرجل يَغْوِي غَيًّا وغَوايةً فهو غاوٍ.[٤٣٥٧]

﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾؛ لأنَّهم عماه يقودهم الشيطان إليه، أو لاستيلاء الشَّيطنة عليهم، وتماديهم في تقليد آبائهم وحُبّ الشهوات ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ خبره، أي: ذلك الصَّرف بسبب ﴿أنَّهم﴾، أو مصدر من الفعل السَّابق، أو ممَّا يدلُّ عليه، و«الباء» متعلِّقةٌ به أي: أصرف ذلك الصَّرف بسبب أنهم.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ معطوفٌ على﴿كَذَّبُوا﴾ داخلٌ في السَّببيَّة للصّرف، ويحتمل أنَّ الصّرف بسببه التكذيب، ويكون قوله: ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ استئنافُ إخبارٍ منه تعالى عنهم؛ أي: من شأنهم أنَّهم كانوا عنها غافلين عن الآيات وتدبُّرها، فأورثهم الغفلةُ التكذيبَ بها.

وقال ابن الكمال: «هذا ما ذكره القوم، والوجه عندي هو أن يكون إشارةً إلى التكبر؛ لأنَّ سببَ الصَّرف قد عُلم من قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ لِمَا تقرّر في الأصول أنَّ ترتيب الحكم على الموصول يدلُّ على عليَّة الصِّلة له، وإنما المحتاج إلى البيان سببُ ذلك التكبُّر، فالكلام على ما أشرنا يكون على أحسن وجوه الانتظام، حيث يشار فيه أوَّلًا إلى أنَّ سبب الصَّرف هو التكبُّر عن الانقياد للأنبياء، ثم يصرَّح بأنَّ سبب التَّكبر تكذيبُ المعجزات الدَّالةِ على صدقهم، ثم ينبّه على أنَّ سببَ التَّكذيب انهماكُ المتكبِّرين في الغفلة».[٤٣٥٨]

وقيل: الإشارة إلى مجموع ما ذكر أي: عدم الإيمان بالآيات ، وترك سبيل الرُّشد، وسلوك سبيل الضَّلال بسبب التَّكذيب والغفلة عنها، أو بسبب التَّكذيب وعدم الاطمئنان بها وهو سبب الغفلة عنها، ثُمَّ إنَّ المراد من الغفلة غفلة الإعراض، والعناد، والنُّكول عن التدبُّر فيها والتفكّر في مقتضاها، لا غفلة جهلٍ وسهوٍ التي ربّما يعذر بها.

وقيل: المراد بالغفلة ههنا التَّشبيه، لا الحقيقة مثل قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة ١٨/٢]؛ لأنَّهم لَمَّا أعرضوا عن الانتفاع بالآيات والتَّأمُّل فيها أشبهت حالهم حالَ مَن كان غافلًا ساهيًا عنها.

وقال بعض المفسِّرين: الغفلة ثلثة أنواع: مذمومة، وممدوحة، وغير مذمومة ولا ممدوحة. فالمذمومة: الغفلة عن الله، وعن ذكره، وعن الآخرة، قال تعالى: ﴿عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس ٧/١٠] ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم ٧/٣٠] ، والممدوحة: هو الغفلة عن الشرّ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾ [النور ٢٣/٢٤]، وغير الممدوحة والمذمومة ما في نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف ٣/١٢].

وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «الغَفلةُ في ثلاثٍ: عن ذِكرِ اللهِ، وحينَ يُصلّى الصُّبحُ إلى طلوعِ الشَّمسِ، وغَفلةُ الرَّجلِ عن نفسِهِ في الدَّينِ حتَّى يركبَهُ».[٤٣٥٩]

[٤٣٥٧] **الفريد** للهمذاني، ١٢٩/٣.

[٤٣٥٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٥٠/٤-١٥١.

[٤٣٥٩] **المعجم الكبير** للطبراني، (٤٩/١٤) (١٢١)؛ **شعب الإيمان** للبيهقي، ٤١٣/١ (٥٧١).

وبالجملة: رأسُ كلّ آفة و بليّة، واليقظة هلاك كلّ راحةٍ وعطيّة، وما وقع أحد في سخط الله وعذابه إلّا بالغفلة، وما دخل داخل في رحمة الله وحرم رضاه إلا باليقظة. جعلنا الله من المتيقّظين بحرمة سيّد المرسلين.

١٤٧-﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَآءِ ٱلآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

لَمَّا ذكر عاقبة المكذّبين في الدُّنيا ذكر عاقبتهم في العقبى ﴿وَلِقَآءِ ٱلآخِرَةِ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، أي: ولقائهم الآخرة، أو إلى الظَّرف؛ أي: ولقاء ما وعد الله في الآخرة،[٤٣٦٠] ففي الأوّل مفعولٌ به على الحقيقة، وبالنَّظر إلى المعنى أيضًا، وفي الثاني هو منزَّل منزلَةَ المفعول به، كما ذكر في ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة ٣/١][٤٣٦١] من أنَّ ذلك من إضافة اسم الفاعل إلى الظَّرف على طريق الاتّساع، مُجرًى مجرَى المفعول به، كقولهم:

يَا سَـــارِقِ اللَّيْلَـــة أهـــل الـــدَّار[٤٣٦٢]

والمعنى على الظَّرفيّة. ومعناه، مالك الأمر كلّه في يوم الدّين، كقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [مؤمن، /١٦]، يريد أنَّ الظَّرف وإن قطع في الصُّورة عنعن تعديّة[٤٣٦٣] «في»، وأوقع موقع المفعول به إلا أنَّ المعنى المقصود الذي سيق الكلام لأجله على الظرفيّة؛ لأن كونه مالكًا ليوم الدين كناية [**٢٢٤**/و] عن كونه ما الكافية للأمر كلّه، وبهذا التَّقرير يتّضح الجواب عمّا قيل: إن الليلة أوقعت موقع المفعول به، وأضيف إليها «سارق» من غير تقدير «في» فكيف ينصب به «أَهْلَ الدَّار» أيضًا[٤٣٦٤]؟ فإنَّ أجزاء الظَّرف لما لم يغن عن تقدير المفعول به فعند مفعوليَّة المذكور أولى؛ فإنَّه لايلزم من جعل المفعول فيه بمنزلة المفعول به، وعدم كون الإضافة بمعنى: «في» أن يكون الظَّرف مفعولًا به حقيقة حتى يستغنى عن تقدير المفعول به، فالعدول عن الأصل إلى طريق الاتِّساع لكونه أبلغَ من الأصل، فإنَّك إذا تأمّلتَ فيما بين أن يقال: فلانٌ صاحب الزَّمان، ومالكُ الدّهر» وبين أن يقال: مالكُ الأمور في الزَّمان، وجدتَ الأوَّل أَبلغَ في الدَّلالة على استغراق الأمور المملوكة؛ لأن تملُّك الزَّمان يستلزم تملّك ما فيه على أبلغ وجهٍ، فتأمَّل في هذا الكلام ما في هذا المقام.[٤٣٦٥]

﴿**حَبِطَتْ**﴾ بَطَلت وتلاشت، وصارت هباءً منثورًا، أو الحُبُوطُ والحبط في الأصل: الانتفاخ من: حَبِطَ بطنه إذا انتفخ، ثُمَّ استُعير للهلاك والبطلان من: حبط بطون الماشية، إذا أكلت الخضر فَاستوبَلَته وهَلَكت به، ومنه: حبط دمُ القتيل هَدَرَ وبطل، ومنه: حبط الجرح وجَبَرَ إذا غفر وهو نكسه وترامیه إلى الفساد جعل التكذيب بآيات الله ولقاء الآخرة في أضراره بالأعمال كالدَّاء والحرض لمن يصاب به عصمنا الله من حبط الأعمال، وخيبة الآمال بمنّه وكرمه، وخلاصة أهل حرمه.

فيحتمل أنّهم كانو مؤمنين، ثُمَّ كفروا فحبطت الطَّاعة التي عملوها في الإيمان، ويحتمل أنَّه أراد به المعروف والصنائع من صلة الرَّحم والصَّدقات، والخيرات التي عملوا بها في الكفر. حبط ثواب ذلك حين لم يؤمنوا، ولقد بيّن سبحانه وتعالى بذلك أنَّ حال المكذّبين سواءٌ في العقوبات كان متكبّرًا أو متواضعًا. لو قيل: الإحسان أو كثير الإحسان، واحتمال عموم الأعمال

[٤٣٦٠] **الكشاف** للزمخشري، ١٥٣/٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٣١٤/٩.

[٤٣٦١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٥و.

[٤٣٦٢] **خزانة الأدب** للبغدادي، ٣٤٦/١.

[٤٣٦٣] ج : تقدير.

[٤٣٦٤] ج – أيضًا.

[٤٣٦٥] **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٧٥/١.

المحبطة السيّئات، قد اندفع بقوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ أي: ما يجزون ﴿إِلَّا مَا كَانُوا﴾ أي: إلا بما كانوا أو على ما كانوا أو جزاء ما كانوا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي، و﴿مَا﴾ موصولة مفعول ثانٍ لـ﴿يُجْزَوْنَ﴾، ثم إنَّ الموصول مبتدأ، خبره ﴿حَبِطَتْ﴾ وهذا خبرٌ ثانٍ، أو مستأنف، أو هذا خبر و﴿حَبِطَتْ﴾ حالٌ من فاعل ﴿كَذَّبُوا﴾ بتقدير: «قد».

عن النبيّ عليه السلام: «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ يَأْكُلُ مِنْهُ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، أَلَا وَإِنَّ الْآخِرَةَ وَعْدٌ صَادِقٌ، وَيَقْضِي فِيهَا مَلِكٌ قَادِرٌ، ألا وإنَّ الخيرَ كلَّهُ بحذافيرِهِ في الجنةِ، أَلَا وإنَّ الشرَّ كلَّهُ بحذافيرِهِ في النارِ، ألا فاعملوا وأنتم مِنَ اللهِ على حذرٍ، واعلموا أنَّكم معروضونَ على أعمالِكم، فمن يعملْ مثقالَ ذرَّةٍ خيرًا يرهُ، ومنْ يعملْ مثقالَ ذرَّةٍ شرًّا يرهُ».[٤٣٦٦]

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨)﴾

عطفٌ على قوله: ﴿وَوَاعَدْنَا﴾ عطف قصّة على قصّة؛ لما أخبر تعالى: أنَّ بني إسرائيل لَمَّا جاوزوا البحر، وأغرق فرعون، رَأَوْا قومًا يعكُفون على أصنامٍ لهم، وطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهًا، أي: يتخذ لهم أصنامًا مثل تلك الأصنام، ليعكفوا على عبادتها، كما كانوا عاكفين، وأخافهم نبي الله وزجرهم، أخبر بعد ذلك عن حاله عليه السلام مع ربّه، وفِراقه إياهم إلى الطُّور، وعن حال قومه بعده، وانتهازهم تلك الفرصة، لتحقيق متمنَّاهم[٤٣٦٧] من الميل إلى عبادة البقر حين رأوا تلك الأصنام التي كانت تماثيل بقر على ما ذكرنا هنالك أنَّ ذلك أوَّلُ شأن العجل.

﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد ذَهَاب موسى عليه السلام للميقات، فالضَّمير راجع إليه بتقدير؛ لأنَّ اتخاذهم لم يكن بعده، بل بعد ذهابه، وفي إفراد الضَّمير دلالةٌ على أنَّ موسى فارق القوم إلى الطُّور وحدَه، ولم يصحب معه أولئك السبعون الذين طلبوا الرؤية،[٤٣٦٨] كما قيل: والجارّ متعلّق بالفعل وكذا ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ لاختلاف معنييهما؛ لأنَّ الأُولى للابتداء، والثانية للتَّبعيض، أو هو متعلّقٌ بمحذوفٍ على أنه حال متقدّمة من ﴿عِجْلًا﴾؛ لأنه لو تأخّر عنه لكان صفةً.[٤٣٦٩]

و«الحُلِي»: ما يتّخذ للزّينة من الذَّهب والفضَّة، يقال: حَلِيَ الشَّيء في عيني يَحْلَى حَلًى، وحَلَا في فمي يَحْلُو حَلَاوَةً،[٤٣٧٠] والحكم في كلِّ جمع على «فُعول» من المعتلِّ اللَّام سواءٌ كان لامُه واوًا كما في «عِصِيٍ»و«دُلِيّ» جمعُ عَصًا ودلْو أصلهما «عُصُووٌ» و«دُلُووٌ»، أو ياءً كما في «حُلُيّ» و«ثُدِيّ» أصلهما «حُلُوي» و«ثُدُوي» قلب الواو ياءً بعد قلب ما وقع في الطّرف في الواوي ياءً، والإدغام وكسر عين الكلمة وإن كانت مضمومةً في الأصل لتصحَّ الياء، ثم لك بعد ذلك: تركُ الفاء على ضمّها، أو اتّباعها للعين في الكسرة، فلذلك قرأ حمزة والكسائي بالكسر،[٤٣٧١] وقرأ يعقوب على الإفراد[٤٣٧٢] اكتفاء بالجنس.[٤٣٧٣]

[٤٣٦٦] **معرفة السنن والآثار**، ٣٦٩/٤ (٦٣٩٥)؛ **مشكاة المصابيح**، ١٤٣٨/٣ (٥٣١٦).

[٤٣٦٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٦٩/٦.

[٤٣٦٨] فتوح الغيب للطيبي، ٥٧٠/٦.

[٤٣٦٩] **اللباب** لابن عادل، ٣١٥/٩.

[٤٣٧٠] **مجمع البيان** للطبرسي، ٢٤/٩.

[٤٣٧١] أي: «حِلِيِّهِم». **التيسير** للداني، ص٣٦٢؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٤/٢.

[٤٣٧٢] أي: «حَلْيِهِمْ». **النشر** لابن الجزري، ٢٠٤/٢.

[٤٣٧٣] **اللباب** لابن عادل، ٣١٥/٩؛ **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٢٩٧/٤.

وقال المصنف: «الإضافة تكون بأدنى مُلابسة، وكونها عواريَّ في أيديهم كفى به ملابسةً على أنهم قد مَلَكوها بعد الْمُهْلَكين، كما ملكوا غيرَها من أملاكهم؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ﴿كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ﴾»[الشعراء / ٥٧ – ٥٩].[٤٣٧٤]

وقال ابن الكمال: الوجه هو الأوّل، وأمّا قوله: «على أنَّهم قد مَلَكوها» فلا صحّة له لفظًاولامعنًى:

أمّا الأوّل: فلأنَّ التدافُع بين الوجهين يأبى عن عبارة العلاوة.[**٢٢٤**/ظ]

وأمَّا الثاني: فلأنَّ المهلَكين هم الرِّجال والحليُّ كانت لنسائهم.

وقيل: هذا الحليُّ ما أخذه بنو إسرائيل من قوم فرعون بعد الغرق، وعلى هذا يصحُّ الوجه الثاني.[٤٣٧٥]

ولا يخفى عليك أنَّه لاتدافع بين كونها عارية في أيديهم ابتداءً وتملكهم بعد المهلكين ، وأنَّها إذا كانت لنسائهم يكون لهم أيضًا بعد المهلكين لتملّكهم نساءَهم أيضًا فلا حاجة لتصحيح الوجه الثاني إلى القيل المذكور.

ففي الأوّل: دلالةٌ على أنَّ العارية يجوز أن تُنسب إلى المستعير، فيدلُّ على أنَّ مَنْ حَلَفَ لا يدخل دارَ فلانٍ، فدخل دارًا له عارية حَنِثَ.[٤٣٧٦]

وفي الثاني: على أنَّ الاستيلاء على أموال الكفّار يوجب زوال ملكهم عنها، فإن قيل: الغنائم لم تحل لأحدٍ قبل رسول الله صلعم؛ فلذلك روي: أنَّ السامري قال لهم: لما أبطأ موسى في العشر الزائد إنَّما وقع ذلك؛ لأنَّ عندهم حليُّ القبط وهو حرامٌ عليكم، فهاتوا ما عندكم فنُحْرقه.

وروي أنَّ هارون هو الّذي قال لهم ذلك، قلنا: لعله قضيّة بني إسرائيل مستثناة لقتل القبط أبناءهم واستعبادهم إيَّاهم، فعلى هذا يشكل الروايتان الأخيرتان ويرد عليهما أيضًا، فلِمَ لم ينكر موس عليه السلام وأجيب بأنَّه يجوز أن لا يطلع موس على تلك الحليّ في أيدي بني إسرائيل؛ فلذلك أحرق العجل بعد رجوعه ونسفه في اليم، وفيه أنَّ ما فعله عليه السلام لا يدلُّ على ذلك لاحتمال أن يفعل ذلك لاتّخاذ العجل إلهًا.

﴿**عِجْلاً جسدًا لَهُ خُوَارٌ**﴾ مفعول ﴿اتَّخَذَ﴾ فيكتفى به، ونسبة الاتّخاذ حينئذٍ إلى جميعهم مع أن الفعل للسَّامري؛ لأنَّهم رضوا به وهو بين ظهرانيهم فكأنَّهم باشروه، وكذا الكلام إذا جعل من حليّهم مفعولًا ثانيًا. وأمَّا على حذف المفعول الثَّاني وهو إلها فالنسبة ظاهرةٌ؛ لأنَّهم ايضًا أخذوها إلهاً، وإنما حذف لدلالة مساق الكلام عليه، وفيه إيهام أنَّ ما صنعوا أمر منكر مع قطع النَّظر عن عبادته، ومنه يظهر الجواب عمّا قال ابن الكمال: مِنْ أَنَّ نسبة الاتّخاذ إليهم لا لأنَّهم رضوا بفعله، بل لأنَّ المراد اتخاذُهم إلهًا على ما دلَّ عليه التشنيع الآتي نعم،ما ذهب إليه أظهر؛ لأنَّ التَّشنيع ليس مجرد الاتّخاذ، لكن يمكن أن يقال: إنَّ الاتّخاذ على الوجه المأخوذ متضمِّن لذلك، ويدلّ عليه حذف المفعول الثَّاني في التوجيه الثاني، والله أعلم بأسرار المعاني، وإنما أبدل منه ﴿جَسَدًا﴾ للدَّلالة على أنَّ له دمًا ولحمًا؛ لأنَّه اسمٌ لجسم له ذلك، أو دفعًا لما كان المتبادر منه أن يكون عِجلًا حقيقةً، أي: لا روحَ له؛ لأنَّه بمعنى الجثَّة، أو أن يكون مخطوطًا، أو مرقومًا.

[٤٣٧٤] **الكشاف** للزمخشري، ١٥٤/٢.

[٤٣٧٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٥٢/٤.

[٤٣٧٦] **تأويلات القرآن** للماتريدي، ٦٦/٦-٦٧؛ **التيسير في التفسير**، ٥٢٥/٦.

وقيل: الجسد جسم الحيوان مثل البدن وهو روح وجسد، فالرُّوح ما لطف والجسد ما كثف، والجسم يقع على جسد الحيوان وغيره من الجمادات.

وقيل: إنما لم يقل بدنًا؛ لأنَّ الرأس وسائر الأطراف خارجٌ عنه. وفي جعله نعتًا احتياج إلى التَّأويل؛ لأنَّه ليس مشتقًّا، وشأن النَّعت أن يكونَ كذلك، وعطف البيان في النّكرات قليلٌ أو ممتنعٌ.

والعجل: ولد البقر والعجّول مثله، وجمعه عجاجيل. والخوار: صوتُ البقر وهو صوتٌ غليظٌ وبناء فُعَال يدلُّ على الآفة نحو: الصُّراخ والسُّكاة والعُطاس يقال: خَارَ يَخُورُ خُوَارًا، إذا صاح.

روي: أن السامريَّ – واسمه موسى بن ظَفَر– ينسب إلى قريةٍ تُدعى سَامِرة. وُلد عامَ قَتْل الأبناء، وأَخْفته أمُّه في كهف جبلٍ، فغذّاه جبرائيل؛ فعرفَه لذلك، فأخذ – حين عبرَ البحر على فرسٍ وَدِيقٍ[٤٣٧٧] ليتقدَّم فرعونَ في البحر– قبضةً مِن أثر حافر الفرس.

وكان موسى وعد قومَه ثلاثين يومًا، فلمَّا أبطأ في العشر الزَّائد، ومضت ثلاثين ليلةً قال لبني إسرائيل– وكان مطاعًا فيهم–: هاتوا ما عندكم من الحُلِيِّ، فنحرقَه. وكان سَمِعَ قولَهم من قبل: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف، ١٣٨/٧]، وكانت تلك الآلهةُ على مِثال البقر؛ فصاغ لهم عجلًا فألقى في فمه تلك القبضة من التُّراب، أو ألقى في النَّار على الحُلِيِّ؛ فصار حيًّا يخور ويمشي.[٤٣٧٨]

وقيل: كان قد جعل ذلك العجل مجوفًا، وجعل في جوفه أنابيب على شكلٍ مخصوصٍ. وكان وضع ذلك التِّمثال على مَهبِّ الرِّيح، وكانت الرِّيح تدخل في تلك الأنابيب ويظهر منه صوتٌ مخصوصٌ يُشبه خُوار العجل.[٤٣٧٩]

قيل: ما خار إلا مرَّةً. وقيل: يخور كثيرًا كلَّما خار سجدوا له وإذا سكت رفعوا رؤوسَهم.[٤٣٨٠] وكانوا يرقصون حوله فيتواجدون.

ومن ههنا قيل: هو أوَّل من أحدثه السَّامريّ، وهو دين الكفَّار وعبّاد العجل، ومن ذلك حرَّمه الفقهاء والمفسِّرون. ولعلَّ ما يفعله عشَّاق الله مع الوَجد الصَّادق الذي يخرج به العبد عن دائرة الاختيار، ويدخل بغلبة الحال في حرم الاضطرار خارجٌ عن ذلك، ومع ذلك لا يخلوا عن مطانِّ المهالك فعليك بالتَّمسُّك بأقوى المسالك، كما هو اللائق بشأن السالك.

وعن أبي هريرة: لَمَّا قال الله لموسى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه، ٨٥/٢٠] قال: يا ربِّ! هذا العِجْلَ اتَّخذوه السامريُّ فممَّن كان صوته؟ قال: منِّي، قال: يا رب! أنت فتنتَ قومي؟ فقال: إنَّما فعلت ذلك لأنَّك سلَّمتهم إلى هارون فقلتَ: اخلفني في قومي، ولو سلّمتهم إليّ لما وقع [**٢٢٥**/و] منهم ما وقع.[٤٣٨١]

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾

[٤٣٧٧] هِيَ الَّتِي تَشْتَهِي الفَحْل. **النهايه في غريب الحديث والاثر** لابن الأثير،«ودق».

[٤٣٧٨] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٣٣٣/٩-٣٣٤.

[٤٣٧٩] **اللباب** لابن عادل، ٣١٦/٩-٣١٧؛ **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٢٩٨/٤.

[٤٣٨٠] **اللباب** لابن عادل، ٣١٦/٩-٣١٧؛ **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٢٩٨/٤.

[٤٣٨١] **تفسير مقاتل**، ١٠٣/١؛ **تفسير أبي الليث**؛ ٥٦٦/١؛ **التيسير في الفسير**، ٥٢٦/٦.

تعجيبٌ من الله عبادَه من سفَههم، وتسجيل عليهم بالغيّ المبين، والظُّلم العظيم، وتنبيهٌ على فرط ضلالتهم، ونهاية جهالتهم وإخلالهم بالنَّظر، وشرادهم عن الحقِّ، وتجافيهم عن اتِّباع المحقَّق، ثُمَّ إنَّ «اتَّخَذَ» إنْ تعدَّى إلى اثنين، وأنَّ الثاني محذوفٌ كما ذكر فلا حاجة حينئذ إلى ادِّعاء حذف جملة يتوجّه عليها هذا الإنكار، وإن قلنا: إنَّها متعدِّية لواحدٍ كما ذكر أيضًا، فلا بدَّ من حذف جملة ليتَوجَّه الإنكار عليه نحو: فعبدوه ألم يعلموا حين اتَّخذوه إلهًا ﴿أَنَّهُ﴾ أي: العجل الذي اتَّخذوه إلهًا وعبدوه ﴿لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ أي: لا يقدر على التَّكلُّم ولا على الإرشاد كأحاد البشر حتى حسبوا أنَّه خالق الأجسام، والقوى، والقدر، أو اختاروهُ على مَن لو كان البحر مدادًا لكلماته لَنَفِد البحر قبلَ أن تنفد كلماته، وهو أعطى كلّ شيء خلقه، ثُمَّ هدى وأرشد إلى سبل الهدى.

ففيه تعريضٌ بالإلٰه الحقِّ، وبعلمه الشامل، وبهدايته العامَّة التَّامَّة، أو على الله الذي كلَّم موسى تكليمًا، وهدى قومه طريقًا مستقيمًا، ففيه تعريضٌ بذلك أيضًا، ولَمَّا كان الإرشادُ إلى السَّبيل ممكنًا بالإرْشادة، كان نفي الثاني أبلغَ فأخَّر على طريق التَّرقي، ثم ليس فيه أنَّه لو كلَّمهم أو هداهم يجوز أن يُعْبَد؛ لأنَّ ذكر حكم الحظر في حالٍ لا يُوجب إباحةَ ذلك في حالةٍ أخرى.

وهو معنى قولهم: تخصيصُ الشَّيء بالذِّكر لا يدلُّ على نفي ما عداه.[٤٣٨٢] أو لأنَّ الملازمة ممنوعة؛ فإنَّ الدعوى ليست إلا أن كُلَّ إلهٍ؛ فإنَّه يجب أن يكون متكلِّماً هاديًا، والموجبة الكلِّية لا تنعكس كنفسها، أو لأنَّه لا متكلِّمَ ولا هاديَ في الحقيقه إلا الله، أو لأنَّ نفي الوصفين يستلزم نفي جميع الأوصاف الإلٰهية؛ لأنَّ انتفاء التَّكليم يستلزم انتفاء العلم، وانتفاء الهداية يستلزم انتفاء القدرة، وانتفائهما يستلزم انتفاء باقي الأوصاف.

وقوله: ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ كنايةٌ عن جميعِ ما سلف من الاتِّخاذ على الوجه المخصوص المشتمل على الذَّمِّ على طريقة قوله:

شَـــجْوُ حُسّـــادِهِ وَغَـــيْظُ عِـــداهُ   أنْ يَـرَى مُبصِـرٌ، وَيَســمَعَ وَاعِ[٤٣٨٣]

كرَّره لزيادة الاعتناء بذكر ذلك، والتَّقريع عليه وليبني عليه قوله: ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ وإلا فيكفي أن يذكر كونهم ظالمين بعد قوله:﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾ من غير ابتداءٍ لذكر الاتِّخاذ فهو اعتراضٌ للتَّذييل توكيدًا لظلمهم الواقع بإيثارهم المذكور، ودلالة على أنَّ عادتَهم وضع الأشياء غيرَ مواضعها، فلم يكن هذا بدعًا منهم، ولا أوَّل مناكيرهم، ويجوز أن يكون حالًا بتقدير «قد» أي: اتَّخذوه وقد كانوا ظالمين لأنفسهم، حيث أعرضوا عن عبادة الله واشتغلوا بعبادة العجل.

وقال الإمام القشيري: قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ فيه إشارة إلى مخاطبتِهِ تعالى عبيدَه، وأنَّ ملوكَ الخلق إذا جلَّتْ رتبتهمأَنفوا من مخاطبة خدمهم قال قائلهم شعر:

ومــا عَجَــبٌ تناسـي ذكـرِ عبـدٍ   على المولى إذا كَثُرَ العبيدُ

[٤٣٨٢] **تأويلات القرآن** للماتريدي، ٦/٦٧؛ **التيسير في الفسير**، ٦/٥٢٧.

[٤٣٨٣] **إعراب القرآن** للدرويش، ٤/٢٤٣.

والله تعالى بخلاف ذلك هذا أجرى سنّته على عباده الأولياء والأعداء؛ فإنه يقول لهم: ﴿ٱخْسَئُواْ فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون ١٠٨/٢٣]، وأمّا الأولياء فقد[٤٣٨٤] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ»،[٤٣٨٥] وأنشدوا في هذا المعنى:

وما يَزْدَهِينَا الكبرياءُ عليهم — إذا كلَّموا أَنْ نُكَلِّمَهُمْ نزرا[٤٣٨٦]

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)﴾

أصل الكلام: سقط فُوهُم في أيديهم، أي: وقع؛ لأنَّ من اشتدَّ نَدَمَه يعُضُّ يدَه، فحذف الفاعل وأسند الفعل إلى الجارّ والمجرور نحو: مرَّ بزيد، فهو كنايةٌ من اشتداد نَدَمهم؛ لأنَّ العضَّ من لوازم المتحسِّر النَّادم، فكنى بذكر اللَّازم عن الملزوم، ولم يجعل مجازًا لعدم المانع من الحقيقة وللمبالغة في الكناية.

قيل: معناه: ولَمّا اشتدَّ ندَمهم. وقرئ: «سَقَطَ»[٤٣٨٧] على بناء الفاعل فحينئذ فيه ضمير العضّ، فالأيدي على هذا حقيقة والكلام كنايةٌ أيضًا، «وجعلَ الفاعل ضمير العضِّ دونَ الفم؛ لأنَّه أقربُ إلى المقصود؛ لأنَّ كونَه كناية عن النَّدم إنما هو حيثُ يكون سقوطُ الفم على وجه العضِّ».[٤٣٨٨]

وقال الزَّجاج: معناه: سقط النّدم في أيديهم، أي: في قلوبهم، كما يقال: حصل في يده مكروهٌ، وإن كان محالًا أن يكون في اليد، تشبيهًا لما يحصُلُ في القلب بما يحصل في اليد.[٤٣٨٩]

ففيه استعارةٌ بالكناية. وهل الكلام كناية؟ لا دلالة عليه إلا أن يقال: إنَّ سقوط النَّدم في القلب كنايةٌ عن ثبوته للشَّخص، وإنَّما اعتَبر فيما يحصُلُ لا في اليَدِ ليكونَ استعارةً تصريحيةً؛ لأنَّه لا معنى لتشبيه اليد بالقلب إلا بهذا الاعتبار.[٤٣٩٠]

وقيل: قوله الزجاج من الاستعارة التَّمثيلية؛ لأنه شبّه حال الندم في القلب بحال الشيء في اليد في التحقيق والظهور، ثم عبّر عنه بالسقوط في اليد، وذا لاينافي كونه من باب الكناية؛ لأنَّ الكناية الإيمائيَّة عبارةٌ عن أخذ الزبدة من مجموع الأشياء المتوهَّمة، وهي مسبوقة بالاستعارة[**٢٢٥**/ظ] التمثيليَّة؛ لأنَّ الوجه في التمثيليَّة منتزع من عدّة أمورٍ متوهَّمةٍ، وإذا نُظر إلى مفردات التركيب، قيل: استعارة، وهي مسبوقةٌ بالتَّشبيه، وإذا نُظر إلى زبدة المجموع من حيث هي هي، قيل: كناية إيمائية، وهي مسبوقة بالاستعارة.[٤٣٩١]

[٤٣٨٤] ج — قد.

[٤٣٨٥] **صحيح البخاري**، ١٨٩/٤ (٧٥١٢)؛ **صحيح مسلم**، ٧٠٣/٢ (١٠١٦).

[٤٣٨٦] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٣٥٧/١-٣٥٨؛ **التيسير في الفسير**، ٥٢٨/٦.

[٤٣٨٧] قراءة شاذَة، مرويّة عن ابن سميفع اليمني. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه ص ٥١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٤؛ **الكشاف** للزمخشري، ١٥٤/٢.

[٤٣٨٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٥و.

[٤٣٨٩] **معاني القرآن** للزجاج؛ ٣٧٨/٢؛ **الكشاف** للزمخشري، ١٥٤/٢.

[٤٣٩٠] **معاني القرآن** للزجاج؛ ٣٧٨/٢؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٥و؛ **حاشية كشاف** للتفتزاني، ص ١٣١.

[٤٣٩١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٨٣/٦.

﴿وَرَأَوْا﴾ وتبيّنوا تبيُّنًا، كأنّهم أبصروا أوثر هذه الاستعارة؛ لما أنّه أبلغُ وأوفى بإفادة المقصود من حمل «رَأَوْا» على العلم، ورؤية القلب كما فسّره به ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ باتخاذ العجل الّذي هو مثل الغباوة والبلادة، لا يقال: تبين الضلال سابق على النّدم فلم آخر؛ لأنّا نقول الانتقال من الجزم بالشّيء إلى تبيُّن الجزم بالنقيض لا يكون دفعيًّا في الأغلب، بل إلى الشّك، ثم الظّن بالنقيض، ثم الجزم به، ثم تبيُّنه على أنّ الواو لا يوجب التّرتيب.

﴿قَالُوا﴾ اعترافًا بذنوبهم وانقطاعًا إلى ربّهم والتجاءً إلى رحمته خوفًا من نقمته ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بإنزال التّوراة علينا، أو بقبولها ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بالتّجاوز عن الخطيئة.

وقيل: لَمّا كان ذنبُهم أعظمَ الذنوب بدأوا بالمرحمة التي وَسِعت كلَ شيءٍ ومن نتائجها غفران الذّنب ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ الكاملين في الخسران المغبُونين في الدنيا والآخرة.

وقرأ حمزة والكسائي:﴿تَرْحَمْنَا...وتَغْفِرْ لَنَا﴾ بالتّاء، و«رَبَّنَا» بالنّصب على النِّداء.[٤٣٩٢]

«فيجوز أن يكون هذا الكلام صَدَرَ من جميعهم على التّعاقب، أو هذا في طائفةٍ، وهذا في طائفةٍ، فمن غلب عليه الخوف، وقوي على الْمُواجهة خاطب مستقيلًا من ذنبه، ومَنْ غلب عليه الحياء أخرج كلامهُ مُخرج الْمُسْتَحِي من الخطاب، فأسند الفعل إلى الغائب».[٤٣٩٣] وهذا كلام التّائبين، كما قال آدم وحوّاء، ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا و تَرْحَمْنَالَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف ٧/] وكان هذا النّدم، والاسترحام، والاستغفار منهم بعد أن رجع موسى إليهم.

واللّام الأُولى مُوَطِّئَةٌ للقسم المحذوف، والثّانية لامُ الجواب وهو سادٌّ مسدَّ الجوابين: جواب القسم والشرط، وفي التّعبير مبالغات لا تخفى.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠)﴾

دلّ على أنّه حال رجُوعه من الطُّور كان على هذا الوصف، إذا كان رجوعه قبل وصوله إليهم، فدلّ على أنّه كان قبل الوصول عَالِمًا لما وقع منهم بإخباره تعالى بقوله ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ﴾ [طه ٨٥/٢٠]، فظهر ضعف ما قيل: إنَّ الوصف حصل له عند مجيئه إليهم لمعرفةِ حالهم عنده.

﴿غَضْبَانَ﴾ منصوبٌ على أنّه حالٌ من موسى، وهو فعلان مؤنثة، فعلى نحو: غضبان وغضبي ولا ينصرف؛ لأنَّ فيه الألف والنون المضارعتين لأَلِفَي التأنيث في «حَمْرَاء» ﴿أَسِفًا﴾ حالٌ منه أيضًا أن تجويز تعدّد الحال وإلَّا، فمن الضّمير المستتر في «غضبان»، أو بدلٌ منه بدلُ بعض من كلّ، أو بدلُ اشتمال على تفسيري الأسف، حيث فسّر بشدّة الغضب كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخروف ٥٥/٤٣].

يقال: أَسِفَ يَأْسَفُ بالكسر والفتح أسَفًا، فهو آسفٌ. وقد أسف على ما فاته وأسف عليه، أي: غضب وأسفه أي: أَغْضبه، وبالحزن كقوله عليه السلام: «إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ».[٤٣٩٤] والتّحقيق أنّه ثوران دم القلب شهوة الانتقام، فمتى كان

[٤٣٩٢] **التيسير** للداني، ص٣٦٢؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٤/٢. **الكشاف** للزمخشري، ١٥٤/٢؛ **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٣٣٦/٩.

[٤٣٩٣] **اللباب** لابن عادل، ٣٢١/٩.

[٤٣٩٤] **صحيح البخاري**، ١٤٣/١ (٧١٢).

على دونه انتشر فصار غضبًا، ومتى كان على فوقه انقبض فصار حزنًا؛ ولذلك لَمَّا سُئل ابن عباس عنهما فقال: مخرجهما واحدٌ، واللَّفظ مختلف. وكان غضبه عليه السلام لِمَا وقع منهم من عبادة العجل وحزنه لما استحقُّوا بذلك العُقوبَة وفوّتوا المثوبةَ.

وكان ينبغي لكلِّ مؤمنٍ أن يغضب لله إذا رأى ارتكاب منكرٍ، ويتأسَّف على ما نال العصاة، وقد قال في نبيِّنا عليه السلام: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء ٢٦/٣].[٤٣٩٥]

وقد قال عليه السلام: «خَيْرُ أُمَّتِي أَحِدَّاؤهَا»،[٤٣٩٦] أي: في الدِّين، وفقد الغضب مذموم؛ إذ يتم الرياضة بتسليط الغضب على الشَّهوة، حتى يغضيب على نفسه عند الميل إلى الشَّهوات الخسيسة، والمحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدِّين، فينبعث حيث يجبّ الحميَّة، وينطفي حيث يحسن الحلم وحِفظه على حدّ الاعتدال هو الاستقامة التي كلَّف اللهُ بها عبادَهُ، وهو الوسط الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث قال: «خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا».[٤٣٩٧]

قال موسى: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي﴾ بئسما فَعَلْتُم وعَمِلْتُمْ بعدي. يقال: خلفه بما يكره إذا عمل بعده ذلك العمل، حيث عبدتم العجلَ مكانَ عبادة الله فالخطاب للعبدة، أو قمتم مقامي وكنتم خلفاء.

يقال: خَلَفَ فلانٌ فلانًا إذا كان خليفته، فالخطاب لهارون والمؤمنين معه، وقد كان قال لهارون من قبل: ﴿اخلُفْني﴾ [الأعراف ٧/١٤٢]، وقال ههنا[٤٣٩٨] خَلَفْتُموني، لأنَّه كان يجب على كلِّ واحدٍ منهم أن يحوط صاحبه ويحميه من الضَّلال.

و﴿مَا﴾ نكرةٌ موصوفةٌ تُفسّر المستكنّ في ﴿بِئْسَ﴾ لا فاعله؛ «لأنَّه يلزم أن يكون مُضْمرًا مفسَّرًا بالنَّكرة، أو مظهرًا معرَّفاً باللَّام، أو بالإضافة إليه».[٤٣٩٩]

ولا مخصوص بالذَّم؛ لأنَّه إنما يضمر فاعله بشرط أن يعقبه المفسّر، فيكون ذلك محذوفًا تقديره: بئس شيئًا خلفتمونيها خلافتكم، [**٢٢٦**/و] وكذا الحكم إذا كانت مصدريّةً، أي: خلافةً.

وقيل: موصولةٌ في موضع رفعٍ على الفاعليّة ﴿**مِنْ بَعْدِي**﴾ أي: من بعد ما كنت فيه، وعليه فيما بينكم من توحيد الله وتنزيهه والحمل عليه، والكفّ عما ينافيه ومن حقِّ الخلفاء أن يشيروا سيرة المستخلف ولا يُخالِفوه، ونحوُه: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلَفٌ﴾ [مريم ١٩/٥٩] أي: من بعد أولئك الموصوفين بالصفات المحمودة.[٤٤٠٠] وكانوا خلَفًا؛ لأنهم كانوا على الصِّفات المذمومة، وإنما فسَّرها.

قلنا: لأنَّه ليس معناه من بعد حياتي وانقرَاضي، وهو ظاهرٌ، ولا مِن بعد غَيبَتي وذَهابي؛ لأن ﴿خَلَفْتُمُونِي﴾ يدلُّ عليه، ولا يقتضِي للتَّأكيد، ليكون من قبيلِ أَبصرتُهُ بعيني.[٤٤٠١] لكن قدس سره جوّز الثاني حيث قال: «من بعد انطلاقي».[٤٤٠٢]

[٤٣٩٥] **اليسير في الفسير**، ٦/٧.

[٤٣٩٦] **شعب الإيمان** للبيهقي، ٦/٣١٣ (٨٣٠١).

[٤٣٩٧] **كشف الخفاء**، ١/٤٤٢.

[٤٣٩٨] ج– ههنا.

[٤٣٩٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٥و.

[٤٤٠٠] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٥٥.

[٤٤٠١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٥و.

[٤٤٠٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٥٧٣.

وقال الفاضل: فخلاصة التَّفسير للذكور أنه من بابِ قولِهِ تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل١٦/٢٦] ومعلومٌ أنَّ السقف لايكون إلا مِن فوق، وفائدة ذكرِه تصويرُ حالة الخرور في الذِّهن، وما يتّصل منه إلى الخرور عليه، تهويلًا وتخويفًا، فكذا ههنا قال: ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ تصويرًا لمعنى ثبات المستخلِف من بعده وتزواله سيرته.٤٤٠٣

﴿**أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ**﴾ الاستفهام للإنكار والتَّهديد. أتركتم، يقال: عَجِلَ عن الأمر: إذا تركَه غيرَ تامٍّ، ونقيضه: تمَّ عليه واستعماله بغير «عن»، إمَّا للحذف والإيصال، أو لتضمين معنى: «سَبَقَ».٤٤٠٤

﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ مَا أَمَركم به على أنَّ الأمر واحد الأوامر وأنَّه بمعنى المؤمور به، وهو أن ينتظروا موسى أربعين يومًا حافظين لعهده، وما وصَّاكم به من التَّوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى، حتى يأتيَكم بكتاب الله المشتمل على المواعظ والأحكام، أي: أَعَجِلتم عن أمر ربِّكم أو أسبقتم أمر ربِّكم متمّين إيّاه بأن فعلتم ما بدالكم،٤٤٠٥ أو أعجلتم وعد ربِّكم على أنَّ الأمر واحدُ الأمور، أي: الوعد الذي وعدنيه من الأربعين، وما أَعْمَمْتُموه كما وعده الله تع، وقدَّرتم موتي، فبادرتم عل تغيير دين الله كما غيَّرت الأممُ بعد أنبيائهم.

ولعلَّ هذا الميعادَ غيرُ ميعاد الله لموسى عليه السلام في قوله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾فضرب ميعاد موسى قبلَ مضيّه إلى الطُّور، لقوله:﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف، ٧/١٤٢] وميعاد القوم عند مضيّه لقوله: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾.٤٤٠٦

فروي: أنَّهم عدُّوا كلَّ واحدٍ من عشرين يومًا وعشرين ليلة يومًا كاملًا، فجعلوا الجميعَ أربعين يومًا، فلمَّا لم يرجع موسى عند مُضيّهِ قالوا قد مضى الأربعون ولم يرجع فقدروا أنَّه قد مات فوبخهم موسى على ذلك.

وقيل: ما كان رجوعه إليهم إلا بعد ما استوفى الأربعين ذا القعدة، وعشر ذي الحجة، وهذا يقتضي أن يكون ذلك الميعاد ما وعد به موسى عليه السلام، ويدلُّ عليه ما رُوي أنَّه عليه السلام قال لقومه: إنَّ ربِّي وعدني ثلاثين ليلة أن أَلقاه، وأَخلفَ فيكم هارون، فلمَّا وصل موسى إلى ربِّه زاده الله عشرًا، فكانت فتنتُهم في العشر الذي زاده الله بما فعلوه من عبادة العجل، فما عقلوا جواز الثاني والتّأخر، حتى قالوا: إنَّ موسى ضلَّ ونَسى ونكثوا عهدَه.

وذكر قدس سره الوجهين. وذكر المصنف الوجه الثاني وعبارته: «أعجِلْتُم عن أمر ربِّكم، وهو انتظار موسى حافظين لعَهدِه وما وصَّاكم به، فَبَنَيْتم الأمرَ على أنَّ الأمر قد بلغ آخِره، ولَمْ يرجعْ إليكم، فحدَّثْتم أنفسكم بموتي، فغيَّرتم».٤٤٠٧

فقوله: «وما وصَّاكم به»عطفٌ على سبيل البيان على قوله: «عهده». ويؤيده رواية: «ما وصَّاهم به».

فقوله:«وهو انتظارُ موسى حافظين لعهده وما وصَّاهم به» من كلام المصنِّف؛ تفسير الأمر، اعتراض بين «أعجلتم» ومتعلقه، وهو: «فبنيتم». ويجوز أن يكون «وما وصَّاكم به» عطفًا على «أمر ربِّكم» على أن يكون من كلام موسى عليه السلام، وقوله: «وهو انتظارُ موسى حافظين لعهده» من كلام المصنف؛ معترض بين المعطوف والمعطوف عليه.٤٤٠٨

٤٤٠٣**فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٥٨٦؛ **درر الأصداف** لليمني، ١٣٤ظ.

٤٤٠٤**تفسير ابن كمال باشا**، ٤/١٥٥.

٤٤٠٥ **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٤/٣٠٠.

٤٤٠٦**فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٥٨٨؛

٤٤٠٧**الكشاف** للزمخشري، ٢/٢٢٢.

٤٤٠٨**فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٥٨٧؛

وقال ابْنُ عبَّاسٍ: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي: ميعاد ربِّكم فلمْ تَصْبِرُوا لهُ؟[٤٤٠٩]

وقال الكلبي: أعَجِلْتُم، أي: أسبقتم بعبادة العِجْلِ قبل أنْ يأتيكم أمْر ربكُم.[٤٤١٠] أي: لو جاز أن يعبد العجل تقرُّبًا إلى الله بعبادته لأمر الله تعالى، فلم عبدتم قبل أن يأتيكم أمرٌ من الله؟

ومعنى العجلة: التقدّم بالشَّيء قبل وقته، ولذلك صارت مذمومةً، وهي من مقتضى الشَّهوة والسرعة غير مذمومة؛ لأن معناها: عملُ الشيء في أوَّل وقته.

ولقائلٍ أن يقول: لو كانت العجلة مَذْمُومةً لم يقل موسى عليه السلام: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[٤٤١١]

ولمجيبٍ أن يجيب عجلته إنّما كانت بناءً على ظنِّهجوازها في أمرٍ محمودٍ، وهو طلب الرِّضى وأيضًا، «لما وفد إلى طور سينا بالوفد اشتاق إلى ربّه، وطالَتْ عليه المسافة من شدَّة الشوق فلم يصبر حتى خلَّفهم من غَلَبة الشَّوق».[٤٤١٢]

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ طرحها من شدَّة الغضب لله، وفرط الضَّجرة حميَّةً للدِّين واستنكافًا من حديث العجل، وكان حديدًا مجبولًا على الحدَّة والتَّصلب في كلِّ شيء حديد الغضب، وكان هارونُ [**٢٢٦**/ظ] أكبرَ منه بثلاث سنين وألينَ منه جانبًا، ولذلك كان أحَبَّ إلى بني إسرائيل من موسى ع م.

روي: «أن التوراة كانت سبعةَ أسباعٍ، فلمَّا ألقى الألواح تكسَّرت، فرُفِعَ منها ستةُ أسباعها، وبقي سُبُعٌ واحد، وكان فيما رُفِعَ تفصيلُ كلِّ شيءٍ، وفيما بقيَ الهدى والرَّحمة».[٤٤١٣]

وهذه تنافي أنَّ التوراة أنزلت وهي سبعون وِقْرَ بعير، يُقرأ الجزء منه في سنة، لم يقرأها إلّا أربعة نفر: موسى، ويوشع، وعزير، وعيسى عليه السلام،[٤٤١٤] ولكن يدلُّ على الأوَّل قولُه عليه السلام: «يرحم اللهُ أخي موسى ليس الخبرُ كالمعاينة إنَّ الله أخبرَ موسى أنَّ قومه قد ضلُّوا فلم يكسرْ الألواحَ فلمَّا عَاين ذلك كسر الألواح».[٤٤١٥]

وعن ابن عباس: «انكسر لوحان فتطايرا في السَّماء بما فيهما من النُّورِ والْبَيَانِ».[٤٤١٦]

ومن ههنا استدلَّ الصُّوفيَّة على تخريق الثِّياب عند الوجد، وردّ بأنَّه لم يصحَّ أنه رماها رميَ تكاسر؟ والذي في القرآن: إلقائها، فمن أين لنا أنها تكسَّرت؟ وإنه لجُرأة عظيمةٌ على كتاب الله، ومثله لا يليق بالأنبياء ويؤيّده قوله: ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾؛ إذ يدلُّ على أنَّه لم ينكسر شيءٌ منها، بل أخذها بأعيانها.[٤٤١٧]

ويمكن أن يقال: الجرأة تحصل بنفس الإلقاء، لا بالتَّكسير الذي لا يتعلَّق باختياره، فكلُّ ما يجعل عذرًا عن نفس الإلقاء يصحُّ أن يجعل عذرًا عن التّكسير، ثُمَّ لو قيل: تكسّرت فمن أين لنا أنه قصد كسرَها؟ ثم لو صحّ ذلك عنه قلنا: كان في

[٤٤٠٩] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٢/١٥؛ **اللباب** لابن عادل، ٣٢٣/٩.

[٤٤١٠] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٢/١٥؛ **اللباب** لابن عادل، ٣٢٣/٩.

[٤٤١١] **اللباب** لابن عادل ، ٣٢٣/٩.

[٤٤١٢] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤١/٤.

[٤٤١٣] **الكشاف** للزمخشري، ، ٢٢٢/٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٧٣/١.

[٤٤١٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٨٩/٦.

[٤٤١٥] **مسند أحمد**، ٣/ ٣٤١ (١٨٤٢)؛ **كشف الخفاء**، ١٩٥/٢-١٩٦.

[٤٤١٦] **التيسير في التفسير**، ٧/٧.

[٤٤١٧] **اللباب** لابن عادل، ٣٢٥/٩.

غيبةٍ، حتى لو كان بين يديه بحرٌ مِنْ نار لَخاضه. ومَنْ يصحِّح لهؤلاء غَيْبتهم وهم يعلمون المغْتِي من غيره، ويحذرون لو كانت عندهم. ثم كيف تقاس أحوال الأنبياء على أحوال هؤلاء السُّفهاء.[٤٤١٨]

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ بِشَعْرِ رأسه؛ لأنَّه لو أخذ عينَ رأسه لم يحتجْ إلى جرّه، ودلَّ على أنَّه لو مسح رأسه فوق الشَّعر ثم زال شعره لم يسقط عنه حكمُ المسح، وإذا مسح على لِحيته ثم سقطت زال حكمه ووجب غسلُ ذقنه، لما سمَّى الشعر رأسًا ولم يسمّ اللِّحية وجهًا،[٤٤١٩] ثُمَّ إنَّه عليه السلام أخذ بلحيته أيضًا على ما نصَّ عليه في موضعٍ آخر.

﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ في محلّ النَّصب حالٌ من المستكنّ في ﴿أَخَذَ﴾، أو من الرأس أي: جارًّا أو مجرورًا إليه، ولَمَّا ورد أنَّ هارون كان نبيًّا؛ فإن كان له ذنبٌ استحقّ به التأديب من موسى فذلك هو المطلوب، وإلَّا فإيذاؤه بلا استحقاق ذنبٍ صَدر من موسى.

أجيب: بأن ما فعله لفَرط دَهمه من الأمر الذي استفزَّه، ظنًّا بأخيه أنه قصَّر في الكفِّ، وذلك لا ينافي العصمة؛ إذ لم يقصد به العدوان.

وقيل: لم يكن الجرّ إيذاءً، بل أدناء ليتفحصَّ منه حقيقة الحال، فخاف هارون أن يعتقد بنو إسرائيل بخلافه؛ فلذلك قال ما قال.

وقيل: لما رأي جزع واضطرابه لما جرى من قومه أخذه ليسكنه من قلقه، كما يفعل الواحد منّا إذا أراد.

وقيل: إن ذلك كان متعارفًا عندهم كما كانت العرب بفعله من قبض الرَّجل على لحية أخيه وصاحبه إكرامًا له وتعظمًا، والآية دلَّت على أن الأنبياء كانوا يعملون بالاجتهاد، كما كانوا يعملون بالوحي؛ فإنَّ موسى أخذ رأس أخيه بالاجتهاد إنكارًا على هارون ترك النكير على قومه، ولو كان بالوحي لم يقل هارون: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي﴾، وهارون أيضًا عمل مع قومه بعد عبادتهم العجل بالاجتهاد لا بالوحي، ولهذا اعتذر عنه وقال: ﴿خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [طه ٢٠/٩٤] ولو فعل شيئًا بالأمر لم يعتذر منه إليه عليه السلام.

وفيه وعظٌ لأرباب الهمة، ونصحٌ لأصحاب العزيمة، وتنبيهٌ أنَّ اللائق تركُ الإهمال في أمر الله، وإظهار الغضب لله، في إمضاءدين لله، والهرب عن عباد الله.

﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

نسبه إلى أمِّه وإن كان من أبٍ وأُمٍّ؛ ترقيقًا له بأنَّهما ولدًا من بطنٍ، وارتضعا ثديا، «ولأنَّها كانت مؤمنةً فاعتدّ بِنَسَبها، ولأنَّها هي التي قاست فيه المخاوف والشَّدائد، فذكَّره بحقِّها».[٤٤٢٠] وقيل: كان أخاه ولأمِّه.

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: ﴿يَا ابْنَ أُمِّ﴾[٤٤٢١] بالكسر كسرة بناءٍ عند البصريين؛ لأجل ياء المتكلِّم بإضافة مجموع الاسم المركَّب إليه، وكُسِر آخرُه لذلك، ثم اجتُزِئ عن الياء بالكسرة، نحو: يا أَحَدَ عشري، ثم: يا أحد عشرِ بالحذف، ولا جائز أن يكونا باقيين على الإضافة؛ إذ لم يجز حذفُ الياء؛ لأن الاسم ليس منادى، بل مضاف إليه.[٤٤٢٢]

[٤٤١٨] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤١/٤.

[٤٤١٩] **التيسير في التفسير**، ٩/٧.

[٤٤٢٠] **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٢/٢.

[٤٤٢١] **كتاب السبع** لابن مجاهد، ص٢٩٥؛ **التيسير** للداني، ص ٣٦٢؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٤/٢؛ **إتحاف** للدمياطي، ٥٨١/١.

وكسرة إعراب عند الكوفيين؛ لما سيفهم. والباقون بالفتح فعند البصريين ساء عليه لتركهما، كخمسة عشر، فليس ابن حينئذٍ مضافًا لـ﴿أُمَّ﴾.

وعند الكوفيّينَ: أنَّ ﴿ابْنَ﴾ مضاف لـ﴿أُمَّ﴾ و﴿أُمَّ﴾ مضافة لياءِ المتكلِّم، وياء المتكلِّم قد قلبت ألفًا، كما تُقْلَبُ في المنَادَى المضاف إلى ياء المتكلم، نحو: يَا غلامًا، ثم حُذفت الألفُ واجتزئ عنها بالفَتْح، فح حركته حركة إعراب، ففي الكسرة اجْتزاء بالكَسْرَةِ عن الياءِ.[4423]

ومن العرب من يقول: «يَا ابْنَ أُمِّي» بإثبات الياء على الأصل، وبه قرأ بعض القرّاء.[4424] وأنشد:

يا ابْـنَ أُمّـي وَيَا شُـقَيّقَ نَفْسِـي ... أنْـــتَ خَلَّفْتَـــنِي لِـــدَهْرٍ

شَـــــــــــــــــــــــدِيدِ[4425]

وقرئ أيضًا: «ابْنَ إِمِّ»[4426] بكسر الهمزة والميم على الإتّباع.

و«ابنَ أمِّ»: نداء مضاف، وحذف [**٢٢٧**/و] حرف النِّداء كما حذف من قوله: ﴿فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ﴾ [يوسف، ١٢/١٠١].[4427]

﴿**إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي**﴾ لم يَهابُوا مني ولم يستحيُوا منّي وعدُّوني ضعيفًا لا معينَ له ﴿**وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي**﴾ أي: بذلتُ وُسعي في كفِّهم حتى قهروني وقاربوا قتلي، قاله له عليه السلام: إزاحةً لتوهُّم التَّقصير في حقِّه؛ لأن نهي المنكر يسقط إذا أدَّى إلى ما ذكر، وقد أدّى المقدار الواجب عليه.

﴿**فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ**﴾ فلا تفعل بي ما يشمتون بي لأجله، وما هو أمنيّتُهم من الشماتة بي،[4428] والشَّماتة: الفرح ببليَّة الأعداء، وفعله شَمِتَ به يَشْمَت بالكسر والفتح شَمَاتَةً، وأشمته فلان فلانًا، إذا عرضه لتلك الحال،[4429] ولأنَّ شماتةَ الأعداء أشدُّ البلاء وأصعبها؛ فلذلك كان مطمح نظر هارون أن لا يحلَّ به شيء من ذلك. قال عليه السلام: «اللهمَّ إني أعوذُ بِكَ من سوءِ القضاء، ودَرْكِ الشقاء وشَماتة الأعداء»[4430].

وقال عليه السلام: إن أيُّوب قيل له: «أيُّ البلاء أشدُّ عليك؟ قال: شماتة الأعداء».

[4422] **اللباب** لابن عادل، ٩/٣٢٥.

[4423] **اللباب** لابن عادل، ٩/٣٢٥.

[4424] قراءة شاذَة. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه ص ٥١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٤؛ **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٥٤.

[4425] **كتاب شرح الشواهد الشعرية**، ١/٢٨٦؛ **سيبويه**، ١/ ٣١٨، **شرح المفصل**، ٢/ ١٢؛ **الهمع**، ٢/ ٥٤، **الأشموني**، ٣/ ١٥٧.

[4426] قراءة شاذَة. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه ص ٥١؛ **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٥٤.

[4427] **الفريد** للهمذاني، ٣/١٣٥-١٣٦.

[4428] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/١٥٧.

[4429] **الفريد** للهمذاني، ٣/١٣٦.

[4430] **صحيح البخاري**، ٨/٧٥ ٦٣٤٧؛ **مسند أحمد ابن حنبل**، ٧/١٦٩ (٧٣٤٩)؛ **صحيح مسلم**، ٤/٢٠٨٠ (٢٧٠٧).

والشماتة للمؤمن محرَّمة منهيٌّ عنها. وفي الحديث عن النبي عليه السلام أنه قال: «لا تُظْهِرِ الشَّمَاتَة لأَخِيكَ؛ فيعافيَه الله وَيبتَليكَ»[٤٤٣١]

وقرئ: «فلا تَشْمَتْ بِيَ الأعداءُ» بفتح التَّاء والميم ورفع الأعداء على نهي الأعداء في اللَّفظ، وفي المعنى لموسى، كقولك: لا أرينَّك ههنا. والمراد: أن لا يحلَّ به ما يشمتون به لأجله، فالتَّاء على إرادة الجماعة، والياء جائزة على إرادة الجمع.

وقرئ: «فَلا تَشْمَتْ بي الأعداءَ» بفتح التاء والميم ونصب ﴿الْأَعْدَاءَ﴾، على تقدير فعل، كأنَّه قيل: لا تشمت أنت بي. وناصب ﴿الْأَعْدَاءَ﴾ فعل مضمرٌ وفاعله الشَّماتة أي: فتشمت بي الأعداء، يعني: فشماتتك تشمت بي الأعداء.[٤٤٣٢]

﴿**ولا تجعلني مع القوم الظالمين**﴾ المفتونين الذين خلفهم موسى مع هرون «ولا تجعلني في مؤجِدَتك عليَّ وعقوبتك لي قرينًا لهم، أو ولا تعتقد أنِّي واحدٌ منهم مع براءتي منهم ومن ظلمهم».[٤٤٣٣]

فـ«الجعل» في الأول: على الحقيقة، كأنه قال: لا تسلك بي سلوكك بهم في المعاتبة، وفي الثاني: من باب ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف ١٩/٤٣]. والمعية: بمعنى الإدخال في غمارهم وحينئذٍ يلزم أن يسلك بهم مسلكهم بنظر ثانٍ.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)﴾

قال المصنف: «لَمّا اعتذر إليه أخُوه وذكرَ له شماتةَ الأعداء، استغفر لنفسه ولأخيه؛ ليرضيه، ويُظهِر لأهل الشَّماتة رضاه عنه، فلا تَتِمَّ لهم شماتَتُهم، واستغفَرَ لنفسه مما فَرَطَ منه إلى أخيه، ولأخيه إنْ عسى فرَّط في حسن الخلافة».[٤٤٣٤]

في التركيب إشكال، وهو أنَّ «عَسَى» تقتضي أن يُؤتَى لها إمَّا باسمٍ وخبرٍ، وشرطُ الخبر أن يكون «أَنْ» مع الفعل. وربَّما يستعمل بغير «أن» تشبيهًا لها بـ«كاد»، نحو قوله:

عَسَى الْكَرْبُ الَّذي أَمْسَيْتُ فيه ... يكونُ وَرَاءَه فَرَجٌ قَريبُ[٤٤٣٥]

وذلك شائع في باب: «كاد»، ولا يشترط فيه ما يشترط في: «عسى» قال تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة ٢٠/٢].

وقد يجئ خبرُها اسمًا منصوبًا بالرجوع إلى الصِّلة المتروك، نحو قوله: «عسى الغُوَيْرُ أَبْؤُسًا». وإمَّا بـ«إن» والفعل خاصَّة، فيُستَغْنى بذلك عن اسم قبلها، نحو: «عسى أن يخرج زيد»، وهي في التركيب غير واقعة على أحد هذه الصُّور. فيقال: أفعال المقاربة، والأفعال الناقصة، مشترك في معنى كونها من دواخل المبتدأ والخبر.

وكما جاز مجيءُ باب «كان» و«ظننت» زائدتين، في نحو قول الشاعر:

[٤٤٣١] **سنن الترمذي**، ٦٦٢/٤ (٢٥٠٦). من حديث واثلة بن الأسقع بلفظ: «لا تُظْهِرِ الشَّمَاتَة لأَخِيكَ؛ فيرحمه الله وَيبتَلِيكَ». وقال: حديث حسنٌ غريب.

[٤٤٣٢] **الفريد** للهمذاني، ١٣٦/٣-١٣٧.

[٤٤٣٣] ؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٩٠/٦؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٥و.

[٤٤٣٤] **الكشاف** للزمخشري، ١٥٦/٢.

[٤٤٣٥] **خزانة الأدب** للبغدادي، ٨١/٤، ٣٧٢/٣؛ **الكتاب** لسيبويه، ١٥٩/٣؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٩١/٦.

وَجِـــيرَانٍ لَنَـــا كَـــانُوا كِـــرَامِ[٤٤٣٦]

وقولهم: زيدٌ ظنّي مقيمٌ، كذا هذا، على أن الأخفش أجاز زيادة «كاد» مستدلًّا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه ٢٠/١٥][٤٤٣٧] فيكون «عسى» ههنا كذلك.[٤٤٣٨]

وقال النِحرير: كلمةُ «عَسَى» مُقْحمةٌ لإفادةِ زيادة الشّكِ والاحتمالِ، ولا يقدَّر له خبر، وهذا على التّشبيهِ بـ«كاد» حيثُ تقعُ زائدة، وكذا تقحم في صدرِ الصِّلةِ ونحوِ ذلك ممَّا لا تقعُ الإنشاء هنالك، إلا أنَّ هذا في كلامِ المصنفين ولا يُوجدُ في كلامِ العربِ، ومنهم منْ يجعلُ اسمَ «عسى» ضميرَ التفريطِ، والخبرَ محذوفًا أي: «عسى» التفريطِ الذي أنْ يكون حاصِلًا والجملةُ معترضةٌ بين «إنْ» والشرطِ أو ضميرِ أخيهِ، و«فرَّطَ» خبرُ يكون المحذوف، أي: إنْ عسى أنْ يكون فرَّط، وفيه جعْلُ عَسَى فِعلَ الشرط.[٤٤٣٩]

وههنا تقريرٌ آخر في التَّفسير وهو أن يقال: قال موسى لَمَّا سَمِع عذرَ أخيه، وعَلِمَ أنه لم يكن منه تقصير وكفّ غضبه ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ ما فعلته بأخي ممَّا أوهم ظاهره كثيرًا من الناس أنَّه كان مَوجَدَةً منّي عليه، وعقوبةً له ﴿وَلِأَخِي﴾ أن فرط في كفّهم، وكان منه شيء من ذلك وإن كان قد بَذَلَ جُهده في الوعظ والإرشاد للقوم، وكذا ينبغي للكامل الموقر أن يستقصر نفسه، فيما يجب لله عليه، وأولى الناس بهذه الحالة الأنبياء وفي ضمِّ نفسه إليه في الاستغفار ترضية له ودفع للشّماته عنه، وفي استغفاره انقطاع الله وتقرّب وجرى على ذلك ما قيل: مناجات العوام سيئات الأبرار، حسنات الأبرار سيئات المقربين.

«وطلب أن لا يتفرَّقا من رحمته، ولا تزالَ مُنْتَظِمَةً لهما في الدنيا والآخرة».[٤٤٤٠] وذلك لما في كلمة «في» من الشُّمول والإحاطة، وإنَّالرَّحمة كالدَّار التي يدخلها أهلها ويساكنونها مع الإطلاق والسكوت عن إحدى الدَّارين لا سيَّما وقد وصفت بالدوام المستفاد بالجملة الأسميَّة في قوله: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأحقاف ٤٦/١٥] والواو للعطف [**٢٢٧**/ظ] على مقدّرٍ، كأنه قيل: أنت الغفور، وأنت أرحم الراحمين، فأنت ارحم بنا منَّا على أنفسنا تغفر الذَّنب الكثير بالعذر اليسير، ثم تجود بالعطاء الجزيل، وترضى بيسير الشُّكر من عظيم النِّعم.

وقيل: بالغ موسى عليه السلام في السؤال، وألطف فيه بحسن المقال، حيث ذكر أنفسهما بما يوجب الرَّحمة، وأن لهما الافتقار إلى رحمة الغفّار افتقار المظروف إلى ظرفه، والموعيّ إلى وعائه، وذكر ربَّه بغاية الرَّحمة عن النَّبي صلى الله عليه وسلم: «إنَّ للهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ، قسَّمَ منها رحمةً بينَ الخلائقِ، فبِها يتراحَمونَ، وبِها يتَعاطفونَ، وبِها تعطف الوحشُ على أولادِها، وأخَّرَ تسعةً وتسعينَ رحمةً، يرحمُ بِها عبادَهُ يومَ القيامةِ».[٤٤٤١]

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢)﴾

[٤٤٣٦] **ديوان الفرزدق**، ٢/٢٩٠؛ **خزانة الأدب** للبغدادي، ٤/٣٧.

[٤٤٣٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٥٩٢.

[٤٤٣٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٥٩١-٥٩٢.

[٤٤٣٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٥ظ.

[٤٤٤٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٥٩٢.

[٤٤٤١] صحيح ابن ماجه ٣٤٨٤.

المفعول الثاني من مفعولي «الاتخاذ» محذوف، أي: اتَّخذوا العجل إلهًا ومعبودًا، وهم الذين عَبَدُوهَا ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ سيلحقهم عقوبة على عبادتهم والنَوْل اللّحوق وأصله: مدُّ اليد إلى الشَّيء الَّذي يبلغُه، ومنه قولهم: نَوْلكَ أَنْ تفْعَلَ كَذا، أي: ينبغي أن تفعله فإنَّه يلحقك خيرُه.

﴿غَضَبٌ﴾ هو القتل الذي أمروا به، حيث قال: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾[البقرة، ٢ /٥٤] والتَّنكير للتَّنويع أو التَّعظيم ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ في موضع الرَّفع صفة له، أو النَّصب حالا منه.

وفيه إشارةٌ إلى ما في ضمنه من أثر الرَّحمة حيث كان فيه قبولُ توبتهم، ولهذا قدّمه على قوله: ﴿وَذِلَّةٌ﴾ إخراجًا له عن حيّز التربية لهم أي: صغر النفس والمهانة باستسلامهم القتل.

﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ من صلة ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾، أو من صلة الغضب والذِّلَّة على جهة الصِّفة، فيتعلّق بمحذوفٍ، أو من صلة الذِّلة على أنَّها في الدنيا والغضب في الآخرة؛ لمن مات منهم قبل التوبة، أو قبل رجوع موسى إليهم، أو الذين اشرِبُوا في قلوبهم العجل، لا يقال: كيف يصحّ هذا؟

و«السين» للاستقبال؛ لأنَّا نقول هذا حكاية عمَّا أخبر الله موسى به في الميقات من افتتان قومه، وكان سابقًا على وقوعهم فيهما، أو الآيتان تتمَّة قول موسى فح يحمل قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ على الاعتراض.

وقال الفاضل ﴿٦٨٠-١٢٨١/٧٥٠-١٣٤٩﴾: في وجه النَّظم أنَّه تع لَمّا بيَّن أن القوم ندموا عن عبادة العجل بقوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ والنَّدم توبة، ولذلك عقَّبوه بقوله: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾، وذكر غضب موسى على أخيه عليهما السلام، ثم استغفارَه بقوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ اتَّجه لسائلٍ أن يقول: يا ربّ إلى ماذا مصيرُ ندمِ القوم وتوبتهم، واستغفار نبيّ الله؟ وهل قَبِلَ الله توبتهم؟ فأجاب: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾، أي: نعم، قَبِلَ توبةَ موسى وأخيه له، ولأخيه خاصَّة، وكان من تمام توبة القوم أن أَمَرَ الله بقتل أنفسهم، فوضع ﴿الذين اتَّخذوا العجل﴾ موضع «القوم» استعارًا بالعلّية.[٤٤٤٢]

وأنت خبير بأنَّ الظَّاهر على هذا أن يقال في الجواب عن سؤال السائل: زمن نزول الوحي إنَّ الذين اتَّخذوا العجل نالهم غضب من ربهم وذلّة، ثم تاب عليهم، ولا مجال لأن يقالَ السؤال بالنَّظر إلى زمن موسى؛ لما عرفت أن ذلك ما قيل لموسى عليه السلام قبل وقوعهم فيهما، أو تتمَّة كلام موسى عليه السلام، فلعلّ المخلص أن يقال: جاء في الجواب عن السؤال بعين ما قيل في زمنه عليه وحكى على ذلك المنوال.

وقيل: أولاد الذين اتخذوا بتقدير مضاف أو بنسبة قبائح الآباء إلى الأبناء سينالهم غضبٌ من ربهم في الآخرة، وذلَّةٌ في الحياة الدنيا بضرب الجزية، أو غَضَبٌ وَذِلَّةٌ كلاهما في الدنيا بالقتل والجلاء، كما نال بني قريضة والنَّضير، والمعنى: مثلَ جزاء متَّخذي العجل نجزي كلَّ مفترٍ إلى يوم القيامة.

وقرئ: «يَجْزِي» بالياء،[٤٤٤٣] ولا فرية أعظمُ من فِرْيتهم هذا: إلهكم وإله موسى، وناهيك بهذه الآية داعية لك على وجوب الاحتياط فيما يقول، وزاجرة زجرًا بليغًا عن أن يقول شيئًا يقضي إلى شيء من الافتراء على الله.

قال أبو قلابة وابن عُيينة: هذا لكلِّ مفترٍ ولكلِّ مبتدعٍ إلى يوم ا لقيامة.

[٤٤٤٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٩٣/٦.

[٤٤٤٣] قراءة شاذَة مروية عن يحيى وإبراهيم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٥.

وقال الحسن البصري: إنَّ ذلّ المبتدع على أكتافهم، وإن هَمْلَجَتْ بهم البغلات، وطَقْطَقَتْ بهم البرازين.

فإيَّاك ثم إيَّاك أيها القاضي والمفتي والأمير أن تحكموا بغير الحق، وتركنوا إلى ما لم يرض به اللهُ ورسوله، فإنَّ ذلك افتراء لا شبهة فيه، وذلك جزاؤكم.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣)﴾

عامٌّ للكَفَرَة وغيرهم؛ لأنَّ الذين من صنيع العموم والعظائم والصَّغائر؛ لأنَّ الجمع المعرَّف باللَّام يفيد العموم **﴿ثُمَّ تَابُوا﴾** رجعوا إلى الله واعتذروا إليه وعبارة، ثُمَّ للدَّلالة على أنَّ التَّماديَ فيها لا يضرُّ بعدما تاب فيها **﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾** من بعد السَّيِّئات.

﴿وَآمَنُوا﴾ «وأخلصوا الإيمانَ» إنما فسَّر بذلك لظهور أنْ ليس المعنى على إحداث الإيمان، أي: التَّصديق لبقائه على تقدير كون السَّيئة غيرَ الكفر، وإن أُريد بالإيمان ما يشملُ الأعمالَ، أو كانت السيئةُ هي الكفر، فإخلاص الإيمان يتناولُ إحداث ما هو الواجب.[٤٤٤٤]

وعبارته قدس سره: «واشتغلوا بالإيمان [**٢٢٨**/و] وما هو مقتضاه من الأعمال الصَّالحة»[٤٤٤٥] ولعلَّ هذا أظهر كما لا يخفى.

وقال القشيري: ذَكَر الإيمان بعد التَّوبة، والإيمان الذي هو بعدها يحتمِل أنَّهم آمنوا بأنَّه يَقبل التَّوبة، أو آمنوا بأنَّ الحقّ لا يَضرُّه عصيانٌ، أو آمنوا بأنَّهم لا ينجون بتوبتهم من دون فضل الله، أو آمنوا؛ أي: عَدُّوا ما سبق منهم من نقض العَهْدِ شِرْكًا فآمنو من الرَّأس، أو استداموا الإيمان، أو آمنوا بأنَّهم لَوْ عادوا إلى ترك العهد وتضييع الأمر سقطوا عن عين الله؛ إذ ليس كلّ مرّة تَسْلَمُ الجرّة.[٤٤٤٦]

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد السَّيئات. وقيل: من بعد التَّوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ محَّاءٌ لها وإن كبُرت كعبادة العجل، وكثرت كجرائم بني إسرائيل ﴿رَحِيمٌ﴾ مُنْعِمٌ عليهم بالثَّواب والجنَّة بعد غفران الحوبة.

وقيل: بالإمهال وترك الاستعجال في الأخذ والنَّكال وكارة «ثم» تمهيدٌ لهذا جمع ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ وعرّفها باللَّام الاستغراقيّ، ثُمَّ أعادها بعد ذكر التَّوبة في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾، وعطف ﴿آمَنُوا﴾ على ﴿تَابُوا﴾ تعظيمًا للذَّنب، وإشعارًا بأنَّ التَّوبة منها لا بدَّ معها من إخلاص الإيمان، وعقَّب ذلك بوصف الرُّبوبيّة.[٤٤٤٧] والتَّأكيد بـ«إن»، واللَّام وصفتي الرحمة بصيغتي المبالغة؛ ليعلم أنَّ الذُّنوب وإن جلَّت وعظمت، فإن عفوه وغفرانه وكرَمه وإحسانه إذا تاب صاحبها وأخلص أجلُّ وأعظم، وفيه تحذيرٌ عن السَّيّئات وتحريضٌ على التَّوبة وحثٌّ على الإخلاص.

[٤٤٤٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٥ظ.

[٤٤٤٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٧٤/١.

[٤٤٤٦] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٣٥٩/١؛ **التيسير في التفسير**، ١٣/٧.

[٤٤٤٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٩٤/٦.

وقال المصنف: «ولكن لا بدَّ من حفظ الشريطة، وهي وجوبُ التَّوبة والإنابة، وما وراءَه طمعٌ فارغٌ وأشعَبيَّةٌ باردةٌ، لا يلتفت إليها[٤٤٤٨] حازم».[٤٤٤٩] ولا خفاءَ في أنَّ الشريطة على تقديرها هي التَّوبة نفسُها لاوجوبِها، ولعلَّ الظَّاهر ما وجد في بعض النَّسخ من عبارة الوجود بالدَّال مكان الوجوب بالياء.

وقوله: «وَمَا وَرَاءَهُ طَمَعٌ فَارِغٌ»تعريضٌ بأهل السنة، ولهم أن يقولوا: نحن لا نمنع في هذه الآية من حفظ تلك الشريطة؛ لأنَّ التَّوبة فيها مقترنةٌ بالإيمان، مصحوبة، والآية بجملتها تذييلٌ لحديث عبدة العجل، وإنما الكلام في توبة المؤمن الموحّد المرتكب للمعاصي.[٤٤٥٠]

لكن يرد عليه أن ما ذكر في تفسير ﴿آمَنُوا﴾ يدلُّ على العموم، وإن كانت تذييلًا لحديثهم، والاعتبار لعموم اللَّفظ والتَّوبة مشروطة فيه.

و«أَشْعَبُ»: اسمُ رجلٍ طمّاع، وفي المثل: أَطْمَعُ مِنْ أَشْعَبَ.[٤٤٥١] روي: أنه إذا كان في طمعه بحيث إذا خرّج عروس كان يُنظّف ويكنُس أمام بابه طمعًا في نزول تلك العروس بيتَه، ونحن نقول معاشر أهل السنَّة نعم، ما ذكرت أشعَبيَّة باردة إلا أن اليأس من روح الله أبردُ من ذلك. وقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر ٣٩/٥٣] ونعم ما قيل:

يَا رَبِّ، إنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً ... فلقَدْ علِمْتُ بأنَّ عفوك أعظمُ

إنْ كَانَ لا يرجوكَ إلَّا مُحْسِن ... فَبِمَنْ يَلُوذُ وَيَسْتَجِيرُ المجْرِمُ![٤٤٥٢]

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)﴾

لَمَّا بيَّن ما وقع منه عليه السلام حال الغضب بيَّن ما وقع منه حال سكونه، وضمَّن سكت معنى زال ولذلك عُدِّي بـ«عَنْ»؛ أي: لَمَّا زال ﴿عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ ساكتًا باعتذار هارون، أو بتوبتهم وفي الكلام مبالغة وبلاغة؛ لأنَّ فيه تشبيهَ الغَضب بشخصٍ كان يغريه على ما فعل، ويقول له: قُلْ لِقَوْمِكَ كَذَا، وألقِ الألواح، وخُذ برأس أخيك، على طريق الاستعارة بالكناية،[٤٤٥٣] ثم تخيّل حالة شبيهة بالسكون وعبّر عنها بالسكوت، وأسند إلى الغضب فهو قرينة الاستعارة.

وقال ابن الكمال: كون السُّكوت على حقيقته غيرَ مجازٍ عن السكون أبلغُ، أو طريقةِ الاستعارة التمثيليّةِ على تشبيه حال سكون الغضب بحال سكوت الناطق الآمر الناهي، وشرطها أن يكون أجزاء الكلام على معانيها الأصليّة.[٤٤٥٤]

[٤٤٤٨] ج- إليها.

[٤٤٤٩] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٥٦-١٥٧.

[٤٤٥٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٥٩٥.

[٤٤٥١] **لسان العرب** لابن منظور، «شعب».

[٤٤٥٢] **ديوان أبي نواس** ص ٦١٨؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٥٩٥.

[٤٤٥٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/١٥٩.

[٤٤٥٤] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/ ١٥٩.

وقال النحرير: ويرجع الثاني إلى الأوّل، وفيه مالا يخفى، أو طريقة الاستعارة التَّبعية بتشبيه سكون الغضب بسكوت الناطق.[4455]

وعن الزجاج: مصدر سَكَتَ الغضب سكتٌ، ومصدر سَكَتَ الرَّجل: سكوت.[4456]

وهذا يقتضي أنَّه فعلٌ على حِدَةٍ وليس من سكوت النَّاس، ويؤيده قولُ يونس بن حبيب: تقول العرب: سال الوادي يومين ثُمَّ سَكَت، فعلى هذا ﴿سَكَتَ﴾ بمعنى: «سَكَنَ» وقد قرئ به.[4457]

وقرئ: «سُكِّتَ» و«أُسْكِتَ»[4458] على أن الْمُسكِتَ هو الله، أو أخوه بالاعتذار، أو قومه بتوبتهم، وفيه إشارةٌ إلى حُسن إمهال الله العبدَ إذا تغَيَّرَ عن حاله وغلب عليه ما لا يطيق.

وإذا كان أولوا العظم من الرُّسل يغلبه ما يَصرفه عن الاختيار فكيف الظنُّ بمن دونه؟![4459]

﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ الَّتي ألقاها على أن اللَّام للعهد، ففيه دلالةٌ على أن الألواح المأخوذة هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ وإنَّ شيئًا منها لم ينكسر ولم يبطل، وأنَّ ما روي من أنَّ ستَّة أسباع التوراة رُفعت إلى السَّماء ليس كذلك، بل إنَّه قد كان وضعها في موضع ليتفرغ لما قصد له لا رغبة عنها، فلما فرغ عاد إليها فأخذها بعينها، فعلى هذا معنى قوله: ﴿وفي نسختها﴾ فيما نسخ لرفيها نقلًا من اللَّوح المحفوظ؛ فإنَّ النسخ النقل [**٢٢٨**/ظ] والتحويل، ومنه نسخ الحكم ونسخ الشمس الظِّلّ، أو فيما كتب فيها، فإنَّ النسخ قد يطلق على الكتابة وإن لم يكن من أصل آخر، أو فيما نسخ منها وهذا مبنيٌّ على ما روي أنه عليه السلاملَمَّا ألقى الألواح تكسَّرت فصام أربعين يومًا، فأعاد الألواح وفيها نقش ما في الأولى، أو وفيما انتسخ بنو اسرائيل منها.

قال المصنِّف: النُّسخةُ: «فُعْلَةٌ بمعنى: مفعول، كالخطبة»[4460] «نَوَّنَ «فعلة» لأنَّه تابع لموزونها».[4461]

قال **ابن الحاجب**: «هذه الأمثلة وضعت لموزونها أَعْلَامًا، على الإيجاز، نحو: أسامة، على قول»، إلى قوله: «وإن كان موزونها مذكورة معها، كقولك: وزن قائمة: فاعلة، منهم من يجعل له حكم نفسه، فلا يصرفه، ومنهم مَنْ يجعل له حكم الموزون فيصرفه». كذا في هذا المقام.[4462]

وهي: خبر مقدّم مبتدأه ﴿هُدًى﴾ والجملة الاسمية حال من﴿الْأَلْوَاحَ﴾، أي: بيان للحقِ وإرشادٌ من كلِّ ضلالة ومن كلِّ عمي ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عطفٌ على ﴿هُدًى﴾، أي: إرشادٌ إلى الصلاح والخير، وعصمةٌ من كل غضبٍ، ولعنة، وعذاب.

[4455] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٥ظ؛ **حاشية كشاف** للتفتزاني، ص ١٣٥؛ **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٥٦-١٥٧

[4456] **معاني القرآن للزجاج**، ٢/٣٧٩؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/١٥٩.

[4457] قراءة شاذَة، مروية معاوية بن قرة. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه ص ٥١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٥؛ **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٥٦-١٥٧

[4458] قراءة شاذَة،. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه ص ٥١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٥.

[4459] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/١٦٠.

[4460] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٥٧.

[4461] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٥٩٦.

[4462] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٥٩٧.

﴿لِلَّذِينَ﴾ متعلّقٌ بمحذوفٍ على أنه صفةُ ﴿رَحْمَةٌ﴾ ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿لِرَبِّهِم﴾ مفعول ﴿يَرْهَبُونَ﴾ وهو خبر والجملة صلة الموصول، فاللّام لتقوية العمل لتأخُّر الفعل، أو المفعول محذوفٌ، واللام للعلّة، أي: يرهبون المعاصي أو العقاب؛ لأجل ربِّهم لا رياء وسمعة، والرهبة: خوف معه تحرُّزٌ واضطراب.

وعنه عليه السلام: «مَنْ دَفَعَ غَضَبَهُ دَفَعَ اللّهُ عَنْهُ عَذَابَهُ».[٤٤٦٣]

وعنه عليه السلام: «لَنْ يَغْضِبَ رَبُّ الْعِزَّةِ على مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَخَافَةٌ».[٤٤٦٤]

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥)﴾

الاختيار افتعالٌ من لفظ الخير، وهو: أخذُ الخير والخيار من الشَّيء، ومنه: سمّي فعل الحيوان فعلًا اختياريًّا؛ لأنَّ صدور الفعل عنه موقوفٌ على حكمٍ يكون ذلك الفعلُ خيرًا له من تركه، يتعدّى إلى اثنين إلى أوَّلهما بنفسه، وإلى ثانيهما بحرف الجرِّ ثم يتّسعُ ويُحذف الجارُّ ويُوصل الفعل، ولذلك قيل: ﴿قَوْمَهُ﴾، أي: من قومه، وفي الحذف إيهام تنزيل جلِّ القوم منزلة كلِّهم، ومفعوله الأوَّل ﴿سَبْعِينَ﴾ وقيل: هو بدلُ بعض من كلٍّ، وضُعّف بلزوم حذف المختار منه، والرَّابط بين البدل والمبدل منه وهو منهم، وجوز الإرادة من القوم السَّبعون المعتبرون إطلاقًا؛ لاسم الجنس على ما هو المقصود منه فح يكون سبعين عطف بيان، وذلك أنَّه تعالى أمره أن يأتيَه إلى الطُّور في سبعين من قومه من كلِّ سبط فِرقة؛ ليسمعوا كلامَه موسى بالأوامر والنواهي، فيكون ذلك أدعى لهم إلى الطاعة، واختار من كلِّ سبط ستَّة نفر فزاد اثنان، فتشاحُّوا في التَّخلُّف، فقال موسى عليه السلام: من تخلَّف فله أَجر من حضر وأثر يوشع وكالب التَّخلف، فخرج موسى متقدِّمًا قومه.

وقيل: قدومهم وظهورهم كان سؤال رُؤْيته وما جرى له من الصَّعقة، واندكاك الجبل وإنابته، فسأله عزّ و جلَّ بعد ذلك عن سبب تقدُّمه عن قومه مع أنَّه كان مأمورًا باستصحابهم، فأجاب بأن مُوجب التقدُّم هو المسارعة إلى مرضاته، بقوله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه ٢٠/٨٤] فقال: ﴿إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ ذهابك ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾، ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ﴾ وجرى مع أخيه وقومه ما حكاه الله تعالى في كتابه، وعاد إلى الطُّور ومعه السبعون، فلمَّا دَنَوْا من الجبل غشيَتْه غمامة،[٤٤٦٥] فدخل موسى بهم الغمام وخرُّوا سجَّدًا فسمعوا كلامَه موسى عليه السلامبالأوامر والنَّواهي، فلمَّا انكشف الغمام قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة ٢/٥٥]فعلى هذه الرِّواية يظهر عدم ذكر جناية عبادة العجل بعد تمام قصَّة الميقات، وذكر طلب موسى الرؤية وخرّوره صعقًا من غير تعرّض بحال قومه أوَّلًا، وذكر طلبهم الرؤية وأخذ الصاعقة إيَّاهم عقيبه من غير تعرُّض بحال موسى ع م، ثانيًا: وتسقط الاعتراض بأنه لِمَ لم يذكرْ جناية عبادة العجل بعد تمام قصَّة الميقات، وطلب الرُّؤية لأجل القوم، وذكر أوَّلًا طلب موسى الرؤية وخروره صعقًا من غير تعرُّضٍ بحال السبعين، وآخرًا طلب السبعين الرؤية، وأخذ الصَّاعقة إيّاهم من غير تعرّض بحال موسى، ويتّضح بعد تأويل المصنِّف من جملة طلب الرؤية منه ع م لأجل القوم، ويؤيِّد ذلك بعضُ قول المحققين: من أنَّ الإنصافَ كونُ المجموع قصَّةً واحدةً في شَأْنِ ما منَّ على بني إسرائيل بعد إنجائهم من تحقيق وعد إيتاء الكتاب، وضرب ميقاته، وعبادة العجل وطلب الرؤية كانا في تلك الأيَّام وفي ذلك الشَّأن فالبعض

[٤٤٦٣] **المعجم الأوسط** للطبراني، ٨٢/٢ (١٣٢٠).

[٤٤٦٤] **المعجم الأوسط** للطبراني، ٣٦١/١٨ (٩٢٨).

[٤٤٦٥] ج- غمامة.

مربوط بالبعض وإيثار هذا الأسلوب؛ لأنَّ الأوَّل في شأن الامتنان عليهم، وتفضلُّهم كيف وقد عطف واعدنا على أنجيناكم، وقد بيَّن أنَّه تبيينٌ للتفضل وتعقيب حديث الرؤية مستطرد ليفرق بين الطَّلبتين عندنا ويلقهم الحجر عندهم.

وقال بعض العارفين: اختار من شربه فى الولاية شربه فى النُّبوة من أولياء أمَّته، ألَا ترى قولهم لَمَّا سمعوا خطاب الحقّ بلا واسطة واستلذُّوه، وسكروا بطيب الخطاب كيف قالوا: ﴿أرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ وكيف أحرقهم الصعقة؛ لانَّهم ضعفاء فى الحقائق، اختار منهم سبعين؛ لأنَّ فى كلِّ أُمَّة سبعين من البُدلاء والأولياء والنُّجباء، وكذا فى أمَّة محمد».[٤٤٦٦]

﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ [**٢٢٩**/و] متعلّقٌ بـ﴿اِخْتَارَ﴾ أي: لأجله، ويجوز معنى الاختصاص، أي: اختارهم مخصَّصًا بهم الميقات، نحو: اختر لك كذا وهو ميقات الكلام، وسؤال موسى الرُّؤية والقصّة واحدةٌ وسَّط بينهما قصَّة عبادة العجل اعتناءً لبيان جنايتهم بعد الإحسان إليهم بالإنجاء من آل فرعون، وإيتاء الكتاب الجليل، وضرب الميقات على ما مرَّ تقريره.

وقيل: هو ميقات الاعتذار عن عبادة العجل؛ لأنَّه تعالى ذكر ميقات الكلام وطلب الرؤية، ثم أتبعها ذكر قصَّة العجل وما يتَّصل بها، فظاهر الحال ومقتضى الفصاحة الفرقانيَّة أن تكون هذه القصة مغايرةً للأولى صيانةً للكلام عن الاضطراب وانفكاك النَّظم بذكر قصَّة، ثم النَّقل منها إلى الأخرى، ثُمَّ الرُّجوع إلى الأولى، وإن أمكن الاعتذار بأن قصةً واحدةً يتكرَّر في القرآن يذكر في سورة بعضها وفي سورة أخرى بعض آخر، وليس ذلك إلا بتكرار المعتبرين شيء بشيء من تلك القصة، فإذا جاز ذلك في سورٍ فلِمَ لا يجوز ذلك في مواضع من سورة؟!

ويؤيده أيضًا[٤٤٦٧] ما روي عن السُّدي رحمه الله: أنه قال أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يأتيَه في ناسٍ من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادةِ العِجْل، فاختار سبعين رجلًا، ﴿فَلَمَّا﴾ أتوا ذلك المقام قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّٰى نَرَى اللّٰهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة ٢/٥٥]، واعترض عليه بأنَّ هذا يخالف ما نقله محي السنة في قوله تعالى: ﴿لَوْ شِئْتَ اَهْلَكْتَهُمْ﴾ [الأعراف ٧/١٥٥]: إنهم كانوا له وزراء مطيعين فاشتد عليه فقدُهم، فرحمهم موسى عليه السلام وخاف عليهم الموت، وأين لن نؤمنَ لك من الطَّاعة وحسن الاستيزاد، وأيضًا الظاهر من قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللّٰهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ [النساء٤/١٥٣] إن اتخاذه متأخّر عن مقالتهم تلك خلاف ما نقل عن السدِّي، والحمل على تراخي الرتبة لابدَّ له من سند كيف ولا ينافي التَّراخي الزماني، فلا بدَّ من دليل يخصّه به ويمكن أن يقال: لعل ما قاله: محي السنة رحمه الله[٤٤٦٨] على رواية وهب: من أنَّ الرجفة لم تكن موتًا ولا عقوبةً، بل هيبةً، ولكن القوم لَمَّا رأوا تلك الهيبة أخذتهم الرجفة وقَلِقُوا ورَجَفوا، حتى كادت أنْ تَبِينَ منهم مفاصلُهم، ولَمَّا رأى موسى ذلك رحمهم وخاف عليهم الموت، واشتدَّ عليه فقدُهم، وكانوا له وُزراءَ على الخير سامعين مطيعين، فعند ذلك دعا وبكى وناشد ربَّه، فكشف الله عنهم تلك الرَّجفةَ،[٤٤٦٩]

فظنَّ موسى أنَّهم عوقبوا باتخاذ بني إسرائيل العجل. فقال: سائلًا مستفهمًا ﴿أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا﴾ ولعلَّ تخصيصَ التراخي بالرُّتبي للاتّفاق على أنَّ اتِّخاذ العجل كان قبل مجيء موسى عليه السلام بالتوراة، ولأنَّه حكى في سورة البقرة قصة العجل قبل أخذ الصاعقة والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

[٤٤٦٦] **عرائس البيان** للبقلي، ١/٤٧٨-٤٧٩.

[٤٤٦٧] ج-أيضًا.

[٤٤٦٨] ج+ بناءً.

[٤٤٦٩] **معالم التنزيل** للبغوي، ٣/٢٨٦.

وعن علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: انطلق موسى وهارون إلى سَفْح جَبَلٍ، فنامَ هارونُ عليه السلام على سريرٍ، فتوفَّاه. فلمَّا رجعَ موسى إلى بني إسرائيلقالوا له: أنت قتلتَه، حسَدْتَنا على حسن خُلُقه بنا ولِين جانبه وعطفه علينا، وكان هٰرون عليه السلام محببًا في بني إسرائيل، فقال لهم موسى عليه السلام: اختاروا مَنْ شئْتم، حتى يظهرَ لكم حقيقة الحال، فاختَارُوا سبعين رجلًا. فلمَّا انتهَوْا إليه قالوا: يا هارون، مَنْ قتلك؟ قال: ما قتلني أحدٌ، ولكنَّ الله توفَّاني. فلمَّا أصابهم ما أصابهم، جعل موسى يرجع يمينًا وشمالًا، ويقول ما يقول فأَحْيَاهم الله عزَّ وجلَّ تطبيبًا لقلب موسى عليه السلام.[٤٤٧٠]

﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾

أي: الصَّاعقة لقوله تع: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ [الذاريات ٤٤/٥١]، أو رجفة الجبل، أو رجفة أبدانهم على ما روي عن وهب؛ فإنها في الأصل الارتعادُ والحركة الشديدة ﴿قَالَ﴾ موسى: يا رب ﴿لَوْ شِئْتَ﴾ إهلاكنا ﴿أَهْلَكْتَهُمْ﴾ جواب «لو» والأكثر الإتيانُ باللام، فلذلك لم يأت مجرَّدًا منها إلا هنا، وفي قوله: ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ﴾ [الأعراف ١٠٠/٧] ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ الاختيار وأخذ الرَّجفة ﴿وَإِيَّايَ﴾ قد يتعلَّق به من يرى جواز انفصال الضَّمير مع القدرة على اتِّصاله، إذا كان يمكن إهلكنا، ويجاب: بأن مقصوده عليه السلام التَّنصيص على هلاك كلٍّ على حِدَتِه تعظيمًا للأمر وأيضًا، فإنَّ موسى لم يتعاط ما يقتضي إهلاكه بخلاف قومهتمنَّى هلاكه وهلاكهم قبل أن يري ما رأى، كما يقول المبتلَى ببليَّة: لو شاء الله لأهلكني قبل هذا، أي: ليت مشيئتك تعلقت بإهلاكنا قبل وقوعها؛ لكي لا نراها، وهذا إنما يستفاد من لو بحسب المقام وإلا فلو إذا كان للتَّمني لا يحتاج إلى الجواب، وأمَّا قوله: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لضُرٍّ»[٤٤٧١] يرى به. فمحمول على عدم الرِّضا بما نرى من مشاقِّ الدُّنيا، وأمَّا التمنِّي لأجل الخوف على الدِّين فلا كراهة فيه.

«أو استَرْحم الله، فقال: إنك قدرت أن تُهلكنا بسببٍ آخر؛ كإقدار فرعون علينا والإغراق بالبحر وغيرهما، فترحَّمت وأنجيتنا، [**٢٢٩**/ظ] فإن ترحَّمت مرَّةً أخرى لم يَبْعُد من عَميم إحسانك».[٤٤٧٢]

قاله ع م خوفًا من أن يتَّهمَه بنو إسرائيل على السبعين، إذا عاد إليهم ولم يصدقوا أنَّهم أخذتهم الرجفةُ، فماتوا أو إشفاقًا عليهم لما أخذتهم الرعدة وخاف هلاكهم.

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ استفهام عن الله يعمُّهم بالإهلاك أم يخصُّه السُّفهاء، أو نفي أنَّه تعالى لا يهلك من لم يذنب بذنب غيره، كقولك: أتُهين مَنْ يَخْدُمك؛ إذ قد عَلِم أنَّه أعدلُ من أن يأخذَ أحدًا بجريمة غيره ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ﴾ إشارةٌ إلى الفضل، و﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ إلى العدل، أو استعطاف واسترحام، أي: لا تهلكنا وارحَمْنا. و﴿ما﴾ فعلُه ﴿السُّفَهَاءُ﴾ طلب رؤية الله عيانًا تجاسرًا وعنادًا، وكان القائل بعضهم: فسفَّههم، أو عبادة العجل؛ إذ لو كان لَطلب الرؤية لَقال بما قال السُّفهاء، فدلَّ على أنَّ الميقات غير ميقات الطَّلب ﴿مِنَّا﴾ في محلِّ النَّصب حالٌ من السُّفهاء، ويجوز كونُه للبيان ﴿إِنْ هِيَ﴾ ما الفتنة التي وقع فيها السُّفهاء، والكتابة للمقدَّر الذِّهني، كما تقول: ما هي إلَّا هند.

﴿إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ إلا اختبارك وابتلاءك حين أسمعتَهم كلامَك حتى طمعوا في الرؤية، أو أوجدت في العجل خُوارًا فزاغوا به. وهذا بخلاف ما قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء ٨٠/٢٦] وقول يوشع: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ

[٤٤٧٠] **جامع البيان** للطبري، ٢٣٣/٣؛ **الجامع لأحكام القرآن**، ٣٤٨/٩؛ **تفسير القرآن العظيم** لابن كثير، ٣٧٨/٣.

[٤٤٧١] **صحيح البخاري**، ١٢/٧ (٥٦٧١).

[٤٤٧٢] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٦٢/٤.

أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف ٦٣/١٨] ولعله عليه السلام استنبط ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ [طه ٨٥/٢٠]، وفيه تأكيدٌ لما أريد من قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ وتمهيدٌ لطلب المغفرة من حيث إنَّ أسباب الجريمة منك، فالالتجاء في الغفران إليك ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ بتلك الفتنة ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾ ضلالة بالتَّجاوز عن حده، أو باتِّباع المخايل، وهو مَن علمتَ منه اختيار الضَّلالة ﴿وَتَهْدِي﴾ بها ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾ هدايته فيَقْوى بها إيمانُه وهو مَن علمت منه اختيار الهداية، وكذا شأن كلِّ ابتلاء، والجملتان استئناف يبين الفتنة، أو حالٌ من الكاف، أو من الفتنة، والمضارع مع أنَّ الهداية والإضلال قد وقعا للدلالة على استمرارهما في الحال والاستقبال، أو على استمرار وجودهما منه تعالى في الأزمنة كلِّها، وفيه دلالةٌ على أنَّهما من الله؛ فأنَّ القدرة الصَّالحة للضِّدَّين لا يترجح إلا لداعية وخالقها هو الله تع.

﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾

أنت نَاصِرُنا ومتولِّي أمورنا والمحسن إلينا. وفيه قصر المسند على المسند إليه، أي: لأولى إلا أنتَ، كقولك: أنت إلهنا، أي: لا إله لنا إلا أنتَ، وحد ﴿وقصد﴾ اختصاص الألوهية بالله تعالى، واعلم أنَّ كونه تعالى وليًّا للعبد يناسبه أن يطلب منه دفعَ المضارّ وجَلْبَ المسارّ؛ ليظهر آثارَ كرمِه وألوهيَّته، وكذا استقبال العبد بالتَّوبة والخضوع، فذكر السبب الأوَّل، ثم رتَّب عليه الدُّعاء بقوله: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ فاسْتُرْ علينا، وَامْحِ ما كان منَّا تذكّر أنَّ قوله: ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ جُرْأةٌ فاشترك نفسه مع قومه في طلب المغفرة، أو هضمًا لنفسه وإنابةً إلى ربه، كما هو شأن الكبراء، وهذا إشارةٌ إلى دفع المضارِّ، وأشار إلى تحصيل المنافع بقوله: ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾ وقدّم الأول على الثاني؛ لأنَّ الدفع متقدّم على الجلب، ولما كان هو وأخوه من المعصومين من الذُّنوب لم يؤَكّدْ المغفرة، بل الرَّحمة ولما اندرج قومُه ههنا في سؤاله، وكانوا أصحاب الذنوب أكَّد استعطاف ربِّه في غفران تلك الذُّنوب بقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَافِرِينَ﴾ تَغْفِرُ الذَّنب الكبير بالعذر اليسير، بل تجود بالعطاء الجزيل الكثير، وأيضًا عفو الغير لطلب الثَّناء أو الثَّواب أو دفع رقَّة الجنسيَّة، وأمَّا أنت فتغفِر لا لطلبٍ أو دفعٍ، بل بمحض فضلٍ وكرمٍ، وأيضًا أنَّك تُحبُّ الغفرَ، ثُمَّ فصّل سؤال الرَّحمة إلى استدعاء ما يشتمل الدَّارين، ويحتوي الدَّولتين بقوله:

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾

﴿**وَاكْتُبْ لَنَا**﴾ أي: اثبت لنا واجعل، وإنَّما ذكر الكتابة؛ لأنَّها أثبتُ وأدومُ يقال: كتب رزق فلانٍ في الدِّيوان، فيدلُّ ذلك على مرور الأزمان.

﴿**فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا**﴾ زيادة هذه لتنزيلِ شأنها عن شأن الآخرة، أو للإشارة إليها لكونها حاجزةً.

﴿**حَسَنَةً**﴾ عافيةً وحياةً طيِّبةً وحسنَ سيرةٍ وتوفيقٍ طاعةً وثناءً جميلًا ونحوها ممَّا يعتني شأنها ﴿**وَفِي ٱلْآخِرَةِ**﴾ أي: وفيها حسنةٌ أيضًا من الجنَّة وما فيها، والوصول إلى الرِّضا والفوز باللِّقاء، ونحوه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾، [البقرة ٢٠١/٢]، ثُمَّ ختم الكلام بذكر السَّبب الثاني على سبيل التَّعليل، فقال: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ تُبنا ورجعنا مِن: هَادَ إليه يهود هَوْدًا، فهو هائدٌ، وجمعه: هودٌ، كحُهولٍ في جمعِ هَائِلٍ، قال:

يا راكِبَ الذَّنْبِ هُدْ هُدْ وَاسْجُدْ كَأَنَّكَ هُدْهُدْ[٤٤٧٣]

[٤٤٧٣] **الكشاف** للزمخشري، ١٥٩/٢؛ **الفريد** للهمذاني، ١٤١/٣.

وقرئ: بكسر الهاء،[٤٤٧٤] من: هَادَهُ يَهِيدُه هيدًا إذا حرَّكه، فهو مبنيٌ للفاعل، ومفعوله محذوفٌ، أي: حرّكنا أنفسنا إليك، أو للمفعول بلا حذفٍ أي: حرّكنا إليك فإنَّك إذا بنيتَ فعلَه له تقول: هِيدَ يُهاد كما تقول: عِيدَ المريضُ يُعادُ أصله: عُوِد بضَمِّ العين وكسر الواو، فبعضهم ينقل كسرةَ الواو إلى العين، ثم يقلب الواوَ ياءً للسُّكون[**٢٣٠**/و]وانكسار ما قبلها، وبعضهم يحذفُ الكسرةَ ويقول: عُودَ، وبعضهم بالإشمام، وهو: تقريب الكسرة من الضمة وهو جيِّد؛ لإفادته الفصل بين الفاعل والمفعول، والضَّم ضعيفٌ لثقله مع الواو فعلى هذا يجوز أن يكون قراءة الجمهور أيضًا مبنيًّا للمفعول من: هَاده يَهيدُه فتأمَّل.

وقيل: أصل الهَوِد: الرجوع برفقٍ وبه سمِّيت اليهود وكان اسم مدح، قيل: نسخ شريعتُهم، فلمَّا نُسخت صار اسم ذمٍّ. وقيل: ليست اليهوديَّة به مشتقَّةٌ منه؛ فإنَّها صفةُ ذمٍّ، والهود صفة مدح قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ [آل عمران، ٦٧/٣]، لكنَّها مشتقَّةٌ من يهوذا نسبوا إليه وغيَّرت الذَّال الدَّال في النِّسبة.

﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾

﴿**قَالَ**﴾ الله لموسى جوابًا لسؤاله: ﴿**عَذَابِي**﴾ من صفته إني ﴿**أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ**﴾ تعذيبه بمقتضى عدلي، وأن لا أعفو عنه، وهو الذي شاء منه الكفر والمعصية، وعلم منه ذلك وليس لأحدٍ عليه اعتراضٌ في ذلك؛ لأن الكلَّ ملكُه، ومن يصرف في ملكه ليس لأحدٍ أن يعترض عليه، وأمَّا ما قيل أي: من وجب عليّ في الحكمة تعذيبه، ولم يكن للعفو عنه مَساغ لكونه مفسدة، فعلى قوله أهل الاعتزال ﴿**وَرَحْمَتِي**﴾ من شأنها أنَّها ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لم يخل عنها ذرَّة لكونها الرحمة الدُّنيويَّة الفائضة على كلِّ موجود والشَّاملة للوجود والحياة، وسائر ما يناله الموجودات من الكمالات، وعمَّت المسلم والكافر والمطيع والعاصي، ولا شيء من الأشياء إلا وهو منقلبٌ في رحمته ويختصُّ في الآخرة على ما يدلُّ عليه السِّياق.

وقال ابن الكمال: ولا اختصاصَ لرحمة الآخرة لمسلمٍ على ما بينَّاه في سورة الفاتحة.[٤٤٧٥]

﴿**فَسَأَكْتُبُهَا**﴾ في الآخرة على حمل السين على الاستقبال، أو فأكتبها كتبة على حملهاعلى التأكيد خاصَّة منكم يا بني إسرائيل ﴿**لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ**﴾ وهم الذين يكونون في آخر الزَّمان من أمَّة محمدٍ.

«فلمَّا وَعَدَ كَتْبَةَ تلك الرحمة، وذَكَرَ المكتوبَ إليه باللَّام، وإجراء الصفات التي تُلائم الاستحقاقَ والاستعداد، فأشعر بالاختصاص، عُلم أنها رحمةٌ أَعظمُ وأَكملُ وأَفخمُ وأشمُل، تتناول الدَّارين سيَّما الباقية أبدَ الآباد»،[٤٤٧٦] وأمَّا أنهم من بني إسرائيل فلقوله: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ [الأعراف ١٥٧/٧]، وأمَّا وجودهم في زمان محمد؛ فلأنَّ اتباعه لا يمكن قبل وجوده وبعثته، والاختصاص بالإضافة إلى بني إسرائيل الموجودين في زمانه غير مؤمنين به، فلا يلزم أن لا يثبت لغيرهم من المؤمنين.

[٤٤٧٤] «إِنَّا هِدنا» قراءة شاذَة، مروية عن أبي وجزة السعدي. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه ص ٥١؛ **المحتسب** لابن جنّ، ٢٦٠/١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٥.

[٤٤٧٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٦٤/٤.

[٤٤٧٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٦و.

وقالالفاضل[٤٤٧٧]: هذا الجواب واردٌ على الأسلوب الحكيم، وهذا – أعني قوله: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ –كالتَّمهيد للجواب، والجواب: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾.

طلب موسى عليه الغفران والرَّحمة والحسنة في الدَّارين، لنفسه ولأمَّته خاصَّةً، بقوله: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا﴾، وتعليله بقوله: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾. فأجابه بأنَّ تقييدك المطلق ليس من الحكمة، فإنَّ عذابي من شأنه أنَّه تابعٌ لمشيئتي، فإن أمَّتك، لو تعرَّضوا لما اقتضى الحكمة تعذيب من باشره، لا ينفعهم دعاؤُك لهم، وإنَّ رحمتي من شأنها أن تعمَّ الخلق: صالحهم وطالحهم، مؤمنهم وكافرهم، فتخصيصك لأمَّتك بقوله: ﴿واكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [الأعراف،٧/ ١٥٦] تَحَجُّرٌ لِلْوَاسِع.[٤٤٧٨]

لكن لقائلٍ أن يقول: يجوز أن يكون تخصيصُه باعتبار انضمامهم الحسنة الأخرويَّة؛ فإنه عليه السلام لَمَّا استدعى لهم حسنة الدَّارين أجاب سبحانه بأن الدُّنيويَّة لا اختصاص لها، وأما الأخرويَّة بل الجمعيّة فهي للمتَّصفين بتلك الصفات.

وقال بعضهم: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ جواب قول موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ وهو الذي شاء منه الكفرُ والمعصية، وهو الذي علم منه ذلك.

وقيل: هو ناظر إلى قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾. وقيل:قد كتبها. والسِّين للمبالغة والمضارع للتَّصوير بصورة الحاضر، أو فسأَظْهرها.

وقال القشيريُّ: خصَّ بالعذاب من شاء وعمَّ بالرحمة كلَّ شيءٍ، وفيه مجالٌ لآمالِ العُصَاة.[٤٤٧٩]

وقال الكتاني: تسع كلَّ شيءٍ، لكن خصَّ به الأتقياء.

وقال أبو عثمان: لا أعلم فى القرآن أقنطَ من قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ والناس يرونها أرجى آية في القرآن، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، ومَن يمكنه تصحيح التَّقوى فتكون بشرط الآية.[٤٤٨٠] وسيجيء زيادة الكلام في كونه جوابًا لسؤاله عليه السلام.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾

لَمَّا كانَ التَّقوى هلاك الأمر جعلها عنوانًاللصِّفات تنويهًا لها وتنبيهًا على غاية شرفها، وإشعارًا بأنَّها أساسُ الصِّفات بها يحتصل جميع الكمالات، ويتحرَّز عن جميع المنكرات.

وخصَّ ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بالذِّكر إظهارًا لإنافتها، ولا ينافي ذلك كون الإنافة حقَّ الصلاة التي هي عمادُ الدِّين؛ لأنَّها عديلها وقرينها، ولذلك لا ينفكُّ ذكر أحدهما عن الأخرى غالبًا، ولأنَّها أجلبُ شيءٍ إلى استنزال الرَّحمة [**٢٣٠**/ظ] واستئهالها؛ لكونها أقوى دليلٍ على ثبات العبد على الإيمان واليقين، وصدق نيَّته، ألا يُرى إلى أهل الرِّدة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما

[٤٤٧٧] هو: شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي.

[٤٤٧٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٦٠٣-٦٠٤.

[٤٤٧٩] **لطائف الإشارات** للقشيري، ١/٣٦١؛ **التيسير في الفسير**، ٧/٢٣.

[٤٤٨٠] **عرائس البيان** للبقلي، ١/٤٨١.

تظاهروا إلا بمنع الزكاة وقوتلوا ونصب لهم القتال، ولأنَّها أشقُّ شيءٍ على النَّفس، ويحتمل أن يراد بها تزكية. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيهَا﴾ [الشمس ٩/٩١] وأشار إلى الأعمال القلبيّة بالإيمان، وتقديم الظَّرف للاختصاص باعتبار قيد الاستغراق من الجمع المضاف.

ففيه تعريضٌ ببعض أمّة موسى حيث لم يؤمنوا ببعضها، وفيها بعث لكلّ مسترحم على التَّقوى، وبذل المال في الله وصدق الإيمان بآياته، وفي تخلُّل العطف من الخصال الثلاث بعد ذكر لامِ الاختصاص إيذان من جمعها وخصّها بالرِّعاية وريضت نفسُه بالتَّحامل عليها صار حقًّا على الله أن يرحمه، ويختصّه برحمتِه ونعتِه ويزكّيه ويؤمنه من عذابه وسخطه.

وقيل: الأولى إشارةٌ إلى التُّروك، والثانية إلى ما يجب في المال، والثّالثة إلى ما يجب في القَال والبَال والحَال.

و﴿الَّذِينَ﴾ مرفوع، أو منصوب على الاختصاص، أو مجرور بدل من ﴿لِلَّذِينَ﴾ بدل الكلّ أو البعض، والمراد من آمن منهم بمحمدٍ، أو صفة له على طريق الكشف والبيان، أو المدح والثّناء؛ لأنَّ اتّباعه من أَمْجد الصِّفات وأَجلّها وأَحْسَنِها وهو متمنّى الصالحين، ولجلالته عند الله أفرده بالذكر، وتمنّى موسى عليه السلام حيث قال: يا ليتني من أصحاب محمدٍ.

وقال في بعض دعائه: اللهم اجعلني من أمة محمدٍ. وعنه عليه السلام: «لَوْ كَانَ مُوسَى فِي الْأَحْيَاءِ مَا وسعه إِلَّا اتّبَاعِي»[4481] فما أعظم توفيق من صدقه واتبعه في كلّ ما ورد وصدر، فنسأل الله العظيمَ أن يوفّقنا لاتّباعه والاقتداء به في الأقوال والأفعال والأحوال بمنّه وسعه ورحمته.

و﴿الرَّسُولَ﴾ الذي نوحى إليه كتابًا مختصًّا به وهو القرآن و﴿النَّبِيَّ﴾ صاحب المعجزات؛ لأنَّ مَن ادَّعى النُّبوَّة لا بدَّ له من المعجزة؛ ليثبت دعواه ولذلك خُطِّأ من قال: لم يكن لشعيب آيةٌ وهو الفرق بينهما على ما قيل، وردّ بأن أكثرَ الرُّسل لم يكونوا أصحاب كتاب مستقلٍّ كيف وقد نصّ تعالى على أنَّ إسماعيل ولوطًا وإلياس ويونس من المرسلين، ولم يوح إليهم كتابٌ وكم وكم.

والتحقيق أن النَّبيَّ هو الذي ينبئ عن ذات الله وصفاته، وما لا يستقلُّ العقول بدرايته ابتداءً بلا واسطة بشر، والرَّسول هو المأمور مع ذلك بإصلاح النَّوع، فالنُّبوة نظر فيها إلى الأنباء عن الله، والرِّسالة إلى المبعوث إليهم، والثاني: وإن كان أخصَّ وجودًا إلَّا أنَّهما مفهومان مفترقان، ولهذا لم يكن الجمع بينهما مثل إنسان وحيوانٍ.

وقال ابن الكمال: الرسالة باعتبار تبليغ الأحكام من الله، وقدَّمه لأنه الأعمُّ حيث يُوصف به الملَك، والنُّبوة باعتبار إنبائه عن الله وصفاته، وإخباره عن الغيوب وأحوال الآخرة، وفيها جهةُ عموم إذا اعتُبر الرسالةُ في بني آدم، فلو اعتُبر هذه الجهة يكون تقديم الرِّسالة بالنَّظر إلى أنَّه أرسله الله إلى الخَلق، فأنبئهم عنه،[4482] ويقرب منه ما قيل: إنما سمّاه رسولًا بالإضافة إلى الله ونبيًّا بالإضافة إلى العباد.

﴿الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

الذي لَا يكتب ولا يقرأ، وصفه به تنبيهًا على أنَّ كمالَ علمه مع أنَّه لم يقرأ شيئًا، ولم يكتب أصلًا ليس إلا اختصاصًا من عند الله، واصطفاءً من لدنه وإعجازًا فكما أنَّ ذلك من معجزاته، فهو من أغربها لما فيه الجمع بين شبه الضِّدين، وفيه نفي للتهمة قطعًا، كما أشير إليه بقوله: ﴿إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت ٤٨/٢٩] وهو منسوبٌ إلى أمَّة العرب في صفتهم،

[4481] **غريب الحديث لأبي** عبيد، ٣٢٢/٢ (٢٢٥).

[4482] **تفسير ابن كمال باشا،** ١٦٥/٤.

قال عليه السلام: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ»[٤٤٨٣] أو إلى «الأُمِّ»، فإنَّ الولد يولد منه غيرَ قارئٍ ولا كاتبٍ ولا حاسبٍ.[٤٤٨٤]

وقيل: منسوبٌ إلى أمِّ القرى وهو مكة، فحينئذٍ يكون تشريفًا له عليه السلام بالنسبة إليه.

وقرئ: بفتح الهمزة[٤٤٨٥] بالنسبة إلى الأمِّ مصدر قولك: أممْتُ فلانًا أمًّا إذا قصدْتَه أي: الذي هو على القصد والسَّداد، أو الذي يقصده كلّ أحدٍ، أو بأن يكون الفتح من تغييرات النّسب، كما قيل في النسبة إلى أُمَيَّة: أَمَويّ بالفتح، وإلى الدَّهر دُهْرِيّ بالضَّم وإلى الأمسى: إمْسِيُّ.

﴿**يَجِدُونَهُ**﴾ أي: يجدون اسمَه وصفَته ﴿**مَكْتُوبًا**﴾ حالٌ من الضَّمير؛ لأنَّه من وجد مطلوبه، أو مفعولٌ ثانٍ، كقولك: وجدتُ زيدًا ذا الحِفاظ.[٤٤٨٦]

﴿**فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنْجِيلِ**﴾ ظرفان لـ﴿يَجِدُونَهُ﴾، أو لـ﴿مَكْتُوبًا﴾ وهو الأظهر، أي: كُتِب اسمُه ونَعْتُه عندهم في كتابيهم.

وقال ابن الكمال: وفي زيادة ﴿عِنْدَهُمْ﴾ إفادة أنَّه وجد في الكتابين حالَ كونهما محفوظَين، ولا احتمال لِأَنْ يكون ذلك ملحقًا من خارج.[٤٤٨٧] لكن يلوح أن الواجدين المعاصرون في زمن نبيِّنا، وقد وجد الإلحاقات والتَّحريفات وقتئذٍ، فاللَّائح أن يجعل إشارةً إلى أنَّ المكتوبَ مسلم على قوانينهم لا مجال لأن يحمل على ما ألحق، وفي هذا الوصف رفع لذكره وإشارة به [**٢٣١**/و] بأنَّه مذكور في كتب الله أخبر عنه الأنبياء السَّابقون، وأقرُّوا بنبوَّته ودلالة على أن حجة نبوَّته مذكورة فيهما، وإلا كان ذكره من أعظم القوادح لأهل الكتابَين عن قبول قوله.

وقد ذكر في السِّفر الخامس من التوراة: " إِنِّي سأُقِيمُ لَكُمْ نَبِيًّا مِنْ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فيهِ، وَيَقُولُ لَهُمْ كلَّما أُوصِيهِ بِهِ."[٤٤٨٨]وفيها أيضًا: «وأمَّا ابن الأمَّة فقد باركت عليه جدًا جدًا، أوسيلد اثنى عشر عظيمًا وادَّخره لأمة عظيمة، وفيها أيضًا: «أتانا اللهُ من سينَاء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فَارَان».[٤٤٨٩]

وفي الإنجيل بشارة بالفار قليط في مواضع منها «يعطيكم فار قليط آخر يكون معكم آخر الدهَّر كلّه، وفيه أيضًا قول عيسى عليه السلام للحواريين: «أنا أذهب وسيأتيكم فار قليط» روح ا لحق الذي لا يتكلَّم من قبل نفسه أنَّه نذيركم بجميع الخلق، ويخبركم بالأمور المزمعة ويمدحني ويشهد لي.

﴿**يَأْمُرُهُمْ**﴾ في محل النَّصب حالًا من ﴿الرَّسُولَ﴾ أو من «الهاء» في ﴿يَجِدُونَهُ﴾ على أن يكون حالًا مقدَّرةً، وفيه ما لا يخفى أو من المستكنِّ في ﴿مَكْتُوبًا﴾ أو استئناف أو خبر كما مرَّ.

[٤٤٨٣] **مسند أحمد**، ٥٩/٩ (٥٠١٧) **صحيح البخاري**، ٢٧/٣ (١٩١٣)؛ **صحيح مسلم**، ٧٦١/٢ (١٠٨٠).

[٤٤٨٤] **التيسير في الفسير**، ٢٤/٧.

[٤٤٨٥] «الأَمِّيّ» قراءة شاذَة، مروية عن اليماني. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه ص ٥١؛ **المحتسب** لابن جنّ، ٢٦٠/١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٦.

[٤٤٨٦] **الفريد** للهمذاني، ١٤٣/٣.

[٤٤٨٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٦٥/٤.

[٤٤٨٨] **كتاب المقدس** سفر التثنية، ١٨:١٨؛ **تفسير التبيان الجامع لعلوم القرآن** الطوسي، ٢٤/٧.

[٤٤٨٩] **كتاب المقدس** سفر التثنية، ٣٣: ٢؛ **تفسير التبيان الجامع لعلوم القرآن** الطوسي، ٢٤/٧.

ويجوز أن يكون هذا ابتداء من قول الله مدحًا للنّبي، وأن يكون مكتوبًا في الكتابين فيكون موصولًا بما قبله، ولعل قول من قال: يجدونه أنَّه يأمرهم بيان ذلك الاتِّصال المعنوي، لا التّقدير الإعرابي، فلا يرد عليه ما أورد ﴿**بِٱلْمَعْرُوفِ**﴾ بالإيمان والأعمال الصالحة، ومكارم الأخلاق، وصلة الأرحام ﴿**وَيَنْهَاهُمْ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ**﴾ عن الكفر والمعاصي، وعبادة الأوثان وقطع الأرحام. وفي ذكر هذا الوصف بذكر المتبعين تنبيهٌ لهم بأنَّ من حقهم أن يتَّبعوه في جميع ما أمرهم به ونهاهم عنه، وأن يأمروا بما أمر وينهوا عما نهى تحقيقًا للاتّباع حتَّى أنَّ من ترك اتّباعه في ذلك؛ كأنَّه لم يتّبعه في شيءٍ، كما قال عليه السلام: «التَّارِكُ للأمْرِ بالمعروف والنَّهيِ عَنِ الْمُنْكَرِ لَيْسَ مُؤْمِنًا بِي وَلَا بِالْقُرْآنِ».[٤٤٩٠]

وإشارة إلى أن يكونوا مثلَه في الإخلاص في ذلك وتعريضٌ بالتَّاركين لهما، وأنَّهم منسلخون عن هذه الكرامة، والتَّعريض بأهل الكتاب الَّذين لم يأتمروا بما أمرهم به ولم ينتهوا عمَّا نهاهم عنه.

﴿**وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلأَغْلَالَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾

في ﴿**ٱلطَّيِّبَاتِ**﴾ و﴿**ٱلْخَبَآئِثَ**﴾ قولان أحدهما الأشياء التي يستطيبها والتي يستخبثها الطَّبعُ، ففيهِ دلالةٌ على أنَّ الأصل في كلِّ ما يستيطبها النَّفس ويستلذُّه الطَّبع الحلّ، وفي العكس الحرمة إلا لدليلٍ منفصلٍ، وثانيهما ما طاب في حكم الشَّرع، أو ما خبث فمعناه: ما حكم الشرع بحلّه وما حكم بحرمته، فيرجع الكلامُ إلى أنَّه يحلّ ما يحكم بحلّه، ويحرم ما يحكم بحرمته، ففيه ما لا يخفى.

وأجيب: بأن المراد ويبيّن لهم ذلك وفائدة العدول أن يعلم أنَّ كلَّ حلال مستطاب طبعًا، وأنَّ الأصلَ فيه الحلُّ وكذا العكس، فمن قبيل الأوَّل في الأوَّل: «ما حُرِّم عليهم من الأشياء الطيِّبة، كالشُّحوم وغيرها»، ومن قبيل الثاني في الثاني: ما طاب في الشريعة والحكم، ممَّا ذُكِر اسمُ الله، وما خلا كسبُه من السُّحت، ومن قبيل الأوَّل في الثاني: ما يُستَخْبثُ من نحو الدَّم والميتة ولحم الخنزير، ومن قبيل الثاني في الثاني: ما خَبُث في الحكم، كالرِّبوا والرِّشوة، وما أُهلَّ بِه لغير الله.[٤٤٩١]

﴿**وَيَضَعُ**﴾ ويحطُّ ﴿**عَنهُمْ**﴾ عن المتَّبعين لهذا النَّبي من بني إسرائيل ﴿**إِصْرَهُمْ**﴾ الأصل: الثِّقل الذي يَأْصِر صاحبَه؛ أي: يحبسه من الحَرَاك لثقله.[٤٤٩٢]

وقرأ ابن عامر: ﴿آصَارَهمْ﴾[٤٤٩٣] بالجمع على صيغة «أفعال» فانقلبت الهمزةُ التي هي فاءُ الكلمة ألفًا لسبقها بمثلها، نظرًا إلى اعتبار متعلّقاته وأنواعه، مع مطابقة ما قبله وما بعده، ووجه اللإفراد الاكتفاء بالجنس وبذلك صحَّ عطف الجمع عليه وهو قوله: ﴿**وَالْأَغْلَالَ الَّتِي**﴾ جمع غُلّ، وهو: الحديدة التي تُجمع يد الأسير إلى عنقه ولكون ما أريد بالأصار أشقُّ وألصقُ ذكرت بالإضافة إليهم فلم يضف الأغلال، بل وصفت بقوله: ﴿**الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾ وهما استعارتان لطيفتان للثقل الذي كان عليهم من التَّكاليف الشَّاقة المانعة عن حركاتهم بمقتضَى الهوى والقيودِ التي تمنعهم عن اختيارهم: كاشتراط قتل النَّفس في صحَّة التَّوبة، وتحريم السَّبت، وتحريم الصلاة في غير المسجد وتحتُّم القصاص في القتل، وقطع موضع النَّجاسة، وفرضيةُ صلاة الليل،

[٤٤٩٠] **كنز العمال**، ٦٥/٣ (٥٥١٦).

[٤٤٩١] **الكشاف** للزمخشري، ١٥٩/٢.

[٤٤٩٢] **الكشاف** للزمخشري، ١٥٩/٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٣٤٢/٩.

[٤٤٩٣] **كتاب السبع** لابن مجاهد، ص ٢٩٥؛ **التيسير** للداني، ص ٣٦٢؛ **الكشاف**، ١٥٩/٢.

وربعُ النصاب للزَّكاة، وخمسون صلاة في اليوم والليل، وقطع اللِّسان في الكذب، والذَكَر في الزِّنا، والعين في النَّظر إلى الأجنبيَّة، وظهور الذُّنوب في السِّر على أبواب البيوت.[٤٤٩٤]

وقيل: الإصر: الإثم كما في قوله عليه السلام: من تأخر عن الجمعة له كيلان من الإصر؛ لأن التَّكاليف الشَّاقَّة علمت من الأغلال.

وقيل: العهد، أي: يضع عنهم العهد الذي أخذ عليهم بالعمل في التوراة، فإنَّ القرآن ناسخ لما قبله.

وقيل: هو ما جعلوه على أنفسهم. قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد ٢٧/٥٧].

وقيل: قَالت الْيَهُودُ ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة ٤٦/٥]، أي: محبوسةٌ عن عقوبتنا، فقال الله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا [**٢٣١**/ظ] بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة، ٦٤/٥]، أي: غُلَّت أيديهم في النَّار إلى أعناقهم، فأخبر أن محمَّدًا لَمَّا آمنوا به وصدَّقوه رفع تلك الأغلال عنهم، فهي على هذا حقيقة، وكذا على ما نُقل عن عطاء: كانوا إذا قاموا إلى الصَّلاة لبسوا المسوحَ وغَلُّوا أيديهم في أعناقهم؛ تواضعًا لله، وخوفًا من عذابه، وطمعًا في ثوابه،[٤٤٩٥] فنَبيُّنا عليه السلام يخفِّف عنهم جميعَ ذلك، ويرفعه عنهم.

وفيه دلالةٌ على أنَّ الأصلَ في المضار الحرمة ،كما قال عليه السلام: «بُعِثْتُ بالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ السَّهْلَةِ»[٤٤٩٦]

وقال القشيري: لا شيءَ أثقلُ من كَدِّ التَّدبير، فَمَنْ نُقل كدّ التدبير إلى رَوحِ شهود[٤٤٩٧]التَّقدير، فقد وضع عنه كلّ إصرٍ، وكفى كُلَّ وِزر وأمر.[٤٤٩٨]

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

أي: آمنو بمحمدٍ، والفاءُ للتَّرتيب على ما تقدَّم من صفاته الكريمة المقتضية المستدعية للإيمان به ولغيره، وبذلك يتحقَّق الاتِّباع ويستحق لانحصار الفلاح، فذكر ذلك للإشعار بهذه النّكت الجليلة **﴿وَعَزَّرُوهُ﴾** ووقَّروه وعظَّموه بالعقوبة.

وقرئ: بالتَّخفيف[٤٤٩٩] ولعلَّ ذلك تفسير باللَّازم؛ لأنَّ أصل العَزْر: المنع، ومنه: «التعزير» وهو: الضَّرب دون الحدِّ؛ لأنَّ فيه المنع من المعاودة؛ ولذلك سُمِّي الحدُّ حدًّا، وهو المنع لما فيه ذلك.

وعن يونس بن حبيب: «التَّعْزِيرُ: الْمَدْحُ وَالثَّنَاءُ».[٤٥٠٠]

وقيل:نصروه نصرة بعد أخرى. فيكون عطف قوله: ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ عليه من عطف العامّ على الخاصِّ، أي: ونصروه على عدوِّه، أو ونصروا دينَه، وعلى ما مرَّ يكون من باب التَّأكيد والنُّور القرآن؛ لأنَّ نورَ العالم؛ لما فيه من العلوم والحكم والشرائع التي هي الأنوار الإلهيَّة، ولأنَّه أظهرُ طرق الهداية من مهالك الضَّلالة، وأوضح ما فيه اِحتياج الأمَّة في أصول الدِّيانة، ولأنَّه

[٤٤٩٤] **التيسير في التفسير**،٢٧/٧.

[٤٤٩٥] **التيسير في التفسير**،٢٦/٧.

[٤٤٩٦] **مسند أحمد** ٦٢٤/٣٦؛ **مسند الروياني**، ٣١٧/٢ (١٢٧٩)؛ **المعجم الكبير** للطبراني ، ١٧٠/٨ (٧٧١٥).

[٤٤٩٧] ج- شهود.

[٤٤٩٨] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٣٦٢/١؛ **التيسير في التفسير**،٢٨/٧.

[٤٤٩٩] «وَعَزَرُوهُ» قراءة شاذة، مروية عن الجحدزي. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه ص ٥٢؛ **المحتسب** لابن جنّ، ٢٦١/١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٦.

[٤٥٠٠] **البحر المحيط** لأبي حيان، ١٩٣/٥.

بإعجازه ظاهرٌ في نفسه مُظهر لغيره، ولأنَّه كاشفُ الحقائق مظهرٌ لها، و﴿مَعَهُ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿أُنْزِلَ﴾، ولما ورد عليه بأنَّه إنما أنزل مع جبريل.

أجاب المصنِّف: «بأنَّ معناه أُنزل مع نبوَّته؛ لأنَّ استنبائَه كان مصحوبًا بالقرآن مشفوعًا»، ففيه تقدير المضاف، «أو بـ﴿اتَّبِعُوا﴾ أي: واتَّبعوا القرآنَ المنزلَ مع اتِّباع النَّبي والعمل بسنَّته، وبما أمَرَ به ونهى عنه».[٤٥٠١]

وقال قدس سره: «فيكون إشارة إلى الكتاب والسُّنة».[٤٥٠٢]

وقال ابن الكمال: «فيكون إشارةً إلى السنة»؛[٤٥٠٣] لأنَّ إيتاء الكتاب مذكورة عبارة، ولا يخفى عليك أنَّ المراد بالإشارة ههنا غير الاصطلاحية الأصوليَّة، فلا يرد ما ذكره، أو واتَّبعوا القرآنَ، كما اتَّبعه مصاحبين له في اتِّباعه.

فقوله: «مع اتِّباع النَّبي»[٤٥٠٤] ربَّما يُشعر بأنَّ هذا على حذف المضاف أيضًا، كما يُشعر قوله: «مصاحبين له» بأنَّ الظَّرفَ في الوجه الثَّالث مستقرٌّ في موضع الحال من ضمير ﴿اتَّبِعُوا﴾.

والحقُّ أنه لغوٌ في الوجوه وما ذُكر بيانٌ للمعنى، وأنَّه على الثاني للمشاركة والمصاحبة في المفعولِ بمنزلة اتَّبعوا القرآن والنَّبي، وعلى الثالث: في الفاعل بمنزلة اتَّبعوهم وهو.[٤٥٠٥]

وقيل: «مع» بمعنى: «على». وقيل: الضمير لـ«جبريل» عليه السلام، والإشارة بـ﴿أُوْلَئِكَ﴾ للدلالة على أن اختصاصهم بالفلاح الكامل، واستحقاقهم به[٤٥٠٦] إنما هو باتِّصافهم لجميع الأوصاف المذكورة.

ومضمون الآية جوابٌ لدعاء موسى عليه السلام، كأنَّه لَمَّا سَئَل لنفسه ولقومه خير الدارين، أُجِيب بأنَّ عذابي لغير التَّائبين فضمّن التوبيخ لبني إسرائيل على ما صدر عنهم من الكفر بالآيات العظام وسائر المعاصي كما عرَّض بذلك بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف ١٥٦/٧] على ما مرَّ ورحمتي الدنيوية تعمُّ التائب وغيره، وأمَّا الجمع بين الرحمتين فهو للمستعدّين، فإن تاب من دعوت لهم وثبتوا كأعقابهم نالتهم الرحمةُ الخاصَّة وأثر فيهم دعاؤك، وإنْ داموا على ما هم فيه بَعُدُوا عن القبول، ففيه ترغيبٌ لهم على الثَّبات على التَّوبة والعمل الصالح، وتحذيرٌ عن المعاودة إلى ما فرط منهم، وتحريضٌ على التَّصديق لما في التوراة والإنجيل من نعته؛ ليُوَطِنوا أنفسهم على الإيمان به طمعًا في الرَّحمة التي خصَّصها بهم، فيرحموا معهم وهم عبد الله بن سلام وأضرابُه مع أنَّ فيه تخلُّصًا من قصَّة موسى عليه السلام إلى ذكر مغر المحجَّلين، ومدح سيد المرسلين، والحثّ على اتِّباعه.

وهذا من التخلّصات الفائقة، والتَّلفيقات الرائقة، بحيث يحيّر الألباب ويبدي للتَّأمل فيه العجب العُجاب، وقد مرَّ بعض الكلام في الجواب، والله أعلم بالصَّواب.

[٤٥٠١] **الكشاف** للزمخشري، ١٦٠/٢.

[٤٥٠٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٧٦/١.

[٤٥٠٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٦٧/٤.

[٤٥٠٤] **الكشاف** للزمخشري، ١٦٠/٢.

[٤٥٠٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٦و–ظ.

[٤٥٠٦] ج: له.

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)﴾

لَمَّا بيّن أنَّ حصولَ الرَّحمة لأولئك المتقين المتبعين للرَّسول حقّق عموم رسالته. والخطاب عامٌّ؛ فإنَّه ع م مبعوثٌ إلى النَّاس كافَّةً، بل إلى الجنّ والإنس عامَّةً. فكان كلّ نبيّ يبعث إلى قومه خاصّةً، وبهذا يتَّضح فساد دعوى اليهود خصوص رسالته إلى العرب؛ فإنَّه قد تواتر أنَّه ادّعى العموم فلزم، وإلا يلزم القدح في رسالته، بل في [**٢٣٢**/و] تعقيب التَّخلُّص المذكور بذلك الخطاب تبكيتٌ لهم وتنبيهٌ لسائر النَّاس على افترائهم أنَّه مبعوثٌ إلى العرب، واحتجاج عليهم على الوجه الأبلغ؛ لأنَّه إخبار بما في كتبهم بمن لم يكتب ولم يقرأ ولم يسمع، وكأنَّه قيل: اسمعوا أيها اليهود خاصَّةً هذا الدُّعاء والإجابة، واعلموا أنَّ بينكم وكتابكم شاهدان أنَّ اختصاص الحسنَيين إنما يكون بالتَّقوى، ومتابعة النَّبي الأميّ المكتوب اسمه في الكِتَابين.

وقيل: الآية وإن دلَّت على العموم، لكن لم يدلَّ على أنَّه من خصائصه، وقد تمسَّك به جمع بقوله عليه السلام: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي»[٤٥٠٧] وردَّ بأنَّ مجموعَ هذه من خصائصه، لا كلّ واحدٍ واحدٍ، وبأنَّ آدم بُعث إلى أولاده عامَّةً في زمانه، وأُجيب بأنَّه خاتم النَّبيين وحده.

وفي رواية: «وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّ لأَحَدٍ مِنْ قَبْلِي»[٤٥٠٨] فإذا كان بعض هذه من خصائصته لزم أن يكون كلّ واحدٍ منها كذلك، وإنَّ آدم عليه السلام لم يكن مبعوثًا إلى حوَّاء؛ لأنَّها عرفت التكليف لا بواسطته.

﴿**جَمِيعًا**﴾ حالٌ من ﴿إِلَيْكُمْ﴾، والأحسن انتصاب الموصول بإضمار «أعني»: لخُلُوّه عن الفصل لفظًا، ولِمَا له نوع أصالة، واستقلال معنًى،[٤٥٠٩] ولأنَّ صفاته تعالى جارية على المدح، ويجوز كونُه وصفًا لله أو بدلًا منه، وإن حيلَ بينهما بما هو متعلّق المضاف إليه؛ لأنَّه كالمتقدّم عليه، ولأنَّ نحو هذا ممَّا سدّد القصَّة ويؤكّدها، أو مبتدأ خبره: ﴿لآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ وهو على الوجوه الأوَّل، وقوله: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ بدلان من الصِّلة، فيكون من التَّوابع التي لا إعرابَ لها كالجُمَلِ المستقلَّة والإبدال، لا ينافي البيان كما مرَّ في: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ﴾، ولم يجعل عطف بيان لتغاير المدلولين، ولأنَّه ليس لمجرَّد الإيضاح، والتَّفسير.

والظَّاهر أنَّه بدل اشتمالٍ؛ لأنَّ الصِّلة مشتملةٌ لمعنييهما إجمالًا؛ لأنَّ مالكهما هو الإله الحقّ، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ﴾ [الزمر ٣٩/٣٨]

ومن كان إلهاً في الحقيقة، كان مُحييًا ومميتًا؛ لأنَّ غيره لا يقدر عليهما، ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة ٢/٢٥٨][٤٥١٠]

وقيل: الوجه أنّ في مالكيَّتهما دلالة على أنَّه ينبغي أن يكونَ متصرّفًا فيهما تصرّفًا تامًّا، وأن لا يكون متصرّفًا فيهما غيرُه لقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء٢١/٢٢][٤٥١١] وإلى الثّاني الإشارة بالأولى، وإلى الأولى بالثَّانية.[٤٥١٢]

[٤٥٠٧] **صحيح البخاري**، ٧٤/١ (٣٣٥).

[٤٥٠٨] **صحيح مسلم**، ٣٧٠/١ (٥٧١).

[٤٥٠٩] **الكشاف** للزمخشري، ١٦٠/٢؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٧ظ.

[٤٥١٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦١٢/٦.

[٤٥١١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦١٢/٦.

[٤٥١٢] **فتوح الغيب للطيبي**، ٦١٢/٦.

وقيل: المقصود من الصِّفات بيانٌ أنَّه مبدأ للموجودات ومعادلها؛ لتوقُّف ثبوت الرِّسالة على ثبوتهما، فالصِّلة وإن كان فيه دلالةٌ عليهما؛ لأنَّ مالكَ العالم يكون مبدأً ومعادًا له إلَّا أنَّ الأولى أدلُّ علىالمبدئية، والثانية على المعاد، فيكونان بَدَلين أَقُولُ ارْحَلْ لا يقيمنَّ عندنا ؛لأن لا يقيمنَّ أدلّ على كراهة الإقامة.

وقيل: كلّ جملة لاحقه استئناف لبيان لمية سابقتها؛ لأنَّه إذا لم يكن إلٰه إلا الله كان له ملك العالم، وإذا كان هو «المحي والمميت» كان لا إله إلا هو، ولإفادة هذا التَّخصيص يقدّر هو يحيي ويميت، وفيه تناسب الجملتين السابقتين، ولأنَّ صفاتَه ثابتةٌ من حقِّها التَّعبير بما يفيد ذلك، وفيه معمزية تقرير لاختصاصه بالألوهية إراءة أنَّه الحقيق بأن يملك العالم ويعبد ويبقى دون ما لا يقدر على شيءٍ.

﴿فَآمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

لَمَّا ذكر أنَّه رسول الله أمرهم بالإيمان به عليه السلام، وبدأ بالإيمان بالله؛ لأنَّه أصل يتفرَّع عليه الإيمان بالرِّسالة، والتفتَ عن التكلُّم إلى الغيبة، حيث لم يقل: «وبي» بعد قوله: ﴿إِنِّي﴾ للافتنان في الكلام وما يعطيه من الحسن والرَّوعة، فيرتفع الكلام به في طبقة البلاغة سيَّما إذا كان لفظ الغائب منبئًا عن العظمةِ والفخامة خصوصًا مع تكرير ذلك الرَّسول، وإعادة صفات المدح الدَّاعية إلى الإيمان به والاتِّباع له، وللتَّنبيه على أنَّ الذي وجب الإيمان به واتِّباعُه هو الموصوف بهذه الصِّفات لأجلها كائنًا مَنْ كان إظهارًا للنَّصَفة وتفاديًا عن العصبيَّة، ولاتِّعاظ السامع؛ لئلا يغفلَ عنه فيتمَكَّنَ وقعُه في نفسه من تلك الأوصاف الجليلة المفيدة للفوائد الجميلة.[4513]

قوله: ﴿ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ مع إفادة أنه عليه السلام يدعوهم لما اتّصف به أوَّلًا، وأنّ اتِّصافه به مقدَّم على دعوتهم إليه، وأنَّ ما جاء به ليس أمرًا غريبًا لم يَرَ، ولم يسمع، بل مع الموافقة لما تقدَّم، ومن تقدم كما قال: ﴿مصدِّقاً لما بين يديه﴾، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَكَلِمَاتِهِ﴾ وجميع ما كلم الله به بما أنزل عليه وعلى سائر الأنبياء صلوات الله عليهم، أو جميع كلماته المكتوبة في اللَّوح وغيره.

وقيل: معجزاته، إمَّا في ذاته وإليه الإشارة بقوله: ﴿ٱلأُمِّيِّ﴾، كما مرَّ وجْهُ إعجازه، أو من خارج مثل انشقاق القمر وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَكَلِمَاتِهِ﴾لَمَّا كان حدوثها أمرًا غريبًا سُمِّيت كلمات كما سمّي عيسى كلمةً لذلك. [**٣٢٣**/ظ]

وقرئ: «وكَلِمَتِهِ»[4514] على إرادة الجنس، أو القرآن، أو عيسى بن مريم، وفيه تعريضٌ لليهود، وتنبيهٌ على أنَّ من لم يؤمن به لم يُعتبر إيمانه.[4515]

وقيل: هي الكلمة التي وجد بها الكلّ، وهو قوله: ﴿كُنْ﴾.[4516]فحينئذٍ تخصّص هذا الاسم؛ لأنَّه لم يولد إلا بكلمة وحدها من غيرِ واسطة أبيه، وفيه تسمية المسَبَّب باسم السَّبَب، كما سمي الشحمبالنَّدى والنَّبت بالسماء. وأشار إلى الحكم النَّظرية بالأمر بالإيمان، وإلى الأحكام العمليَّة بالأمر بالاتِّباع، أو الأولى إشارة إلى التكاليف المستفادة من أقواله، والثانية إلى المستفادة من افعاله؛ فإنَّ كلَّ فعلٍ واظب رسول الله صلى الله عليه وسلّم لابدَّ أن يكون جانب فعله راجحًا، ثُمَّ إنَّ ظاهر الأمر للوجوب فيجب علينا إتباعه، وإن كان ذلك مندوبًا له إلا أن يدلَّ دليلٌ منفصلٌ على أنَّه من خصائصه، وفائدة الأمر لمن علم

[4513] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٦٩/٤.

[4514] قراءة شاذَة، مروية عن المجاهد. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه ص ٥٢؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٦.

[4515] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٧٦/١؛ **نواهد الأبكار** للسيوطي، ٤٣٤/٦.

[4516] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٦٩/٤.

الله تعالى منهم الإيمان والاتّباع ظاهرة، وأمّا لغيره فلإلزام الحجّة وقطع المعذرة يرشدك إليه قوله تعال: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ [طه ٢٠/ ١٣٤].

﴿**لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ أي: اتَّبعوه اتّباعَ مَن يرجو ويطمع أن يضمَّ اتّباعه، ولا يخيب اقتدائه وهو يجتهد بأقصى وُسعه أن ينتظمَ في سلك المهتدين، ويدخلَ في زمرتهم.

وقيل: إرادة أن تهتدوا وفي جعل رجاء الاهتداء إثرَ الأمرين تنبيهٌ على أنَّ مَنْ صدَّقه، ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو بعدُ في خِطَط الضلالة،[٤٥١٧] وفي ذكر الاتّباع بلفظ الماضي، والمضارع، والأمر رمزٌ إلى قوّة لزوم اتباعه في الأزمان، وكثرة اتّباعه إلى آخر الزّمان، كما قال عليه السلام: «أَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَمَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا مَعَهُ غَيْرُ مُصَدِّقٍ وَاحِدٍ».[٤٥١٨]

وإنما ختم الآية الأولى بالفلاح، وهذه بالاهتداء؛ لأنَّ مضمون تلك الآية أنَّ المتَّصف بتلك الصِّفات يفلح، ومضمون هذه الاية الأمربالاتّباع لحصول الاهتداء إلى الحقّ الموصل إلى ذلك الفلاح، فتقديم ذلك في الذّكر لكونه مقصودًا بالذّات، وإن كان هذا مقدَّمًا عليه باعتبار السببيّة والحصول، والله هو المأمول.

١٥٩-﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾

يعني: من بني إسرائيل، والتّنكير في ﴿**أُمَّةٌ**﴾ للتّكثير أو التّعظيم ﴿**يَهْدُونَ**﴾ الناسَ ويدلُّونهم على الثّبات، والصّدق، ويرشدونهم ﴿**بِالْحَقِّ**﴾ محقّين، أو بكلمة الحقّ ﴿**وَبِهِ**﴾ أي: بالحقّ ﴿**يَعْدِلُونَ**﴾ بينهم في الحكم لا يجورون، والمراد بها الثابتون على الإيمان والقائمون بالحق من أهل زمانه، لَمّا قدم ذكر الظالمين منهم والمتزلزلين قفى على أثره بذكر أضدادهم على سبيل الاستطراد، لبيان أنَّ بعضهم ثَبتوا على الحقّ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ اٰمَنَ اَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَاَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران ٣/ ١١٠]، وللتنبيه على أنَّ تعارضَ الخير والشرّ وتزاحمَ أهل الحق والباطل أمر مستمرٌّ.

ولدفع ما أُوهم تخصيص الرحمة في جواب دعاء موسى عليه السلام بالذين يتّبعون الرّسول في آخر الزّمان أنَّ غيرهم كلّهم من أهل الضلالة.

وفيه تسليةٌ له عليه السلام حين ما قال: رب اجعلني من أمّة أحمد، فأعطاه تعالى آيتين لم يعطهما أمة محمد هذه الآية، وقوله: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ﴾ [الأعراف ٧/ ١٤٤].

وقيل: قال رسولُنا صلى الله عليه وسلّم: لَمَّا قرأ: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف ٧/ ١٨١]، هذه لكم، وقد أعطى الله قوم موسى مثلها، أو المدركون زمان نبيّنا صلى الله عليه وسلّم، والمؤمنون به من أعقابهم كعبد الله بن سلام وأضرابه، وردّ بأنهم كانوا قليلين في العدد ولفظ الأمة يقتضي الكثرة، ودفع بأنهم لَمَّا كانوا مخلصين عظَّموا بذلك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً أُمَّةً﴾ [النحل ١٦/ ١٢٠]، أو الَّذين تبرَّوا مما صنعوا، واعتذروا حين ما قيل بنوا إسرائيل أنبيائَهم، وكفروا وسألوا اللهَ أن يفرِّقَ بينهم وبين إخوانهم، ففتح الله لهم نَفَقًا في الأرض، فساروا إلى الصّين رآهم رسولنا ليلةَ المعراج فآمنوا به.

[٤٥١٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/ ١٦٩.

[٤٥١٨] **صحيح مسلم**، ١/ ١٨٨ (١٩٦).

وقد ذكر المصنف[٤٥١٩] قصَّتهم بتمامها، وردَّ بأنَّه إذا لم يصل إليهم أحدٌ منَّا، فمن الذي أَوْصَل خبرهم إلينا، وذهاب جبرائل بالنَبيِّ ليلةَ الإسراء لم يرد في نقلٍ صحيحٍ، ولا رواه أئِمَّة الحديث، ولا الثِّاقات إلى أخبار القصاص، وكيف بلغوا النَّبيِّ عليه السلام سلام موسى عليه السلام، وقد سلَّم عليه في السَّماء السَّادسة، وقولهم: أقرأ عليهم عشر سوَرٍ وقد نزل عليه بمكَّة أكثر من ذلك، وكان فرض الزكاة بالمدينة فكيف يأمرهم بها قبل فرضيَّتها، ثُمَّ إنَّه على هذين القولين يكون وجه النَّظم أنه تعالى لَمَّا أجاب عن دعاء موسى بقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ إلى قوله: ﴿يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾، [الأعراف، ١٥٦/٧-١٥٧]. وقد سبق أن قولَه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ تبكيتٌ لليهود، وتنبيهٌ لسائر النَّاس على افترائهم في أنَّه عليه السلام مبعوثٌ إلى العرب خاصَّة، وأنَّ قوله: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ ورَسُولِهِ﴾ [الأعراف، ١٥٨/٧] إظهارًا [**٢٣٣**/و] للنَّصَفة، عقبه تنبيهًا على أنَّ بعض هؤلاء الذين حكينا منهم ما حكينا آمنوا، وأَنْصفوا من أنفسهم، ويهدون النَّاس بكلمة الحقِّ من الله والرسول الموعود، النبي الأمِّيّ، الذي نجده في التوراة. ويعدلون في الحكم، ولا يجورون، ولكنَّ أكثرَهم ما أنصفوا، ولَبَسوا الحق بالباطل، وكَتموه، وجاروا في الأحكام.[٤٥٢٠]

وأمَّا ما قيل: هم قومٌ موجودون في طرف من الدنيا باقون على دين موسى؛ لأن النَّسخ لم يبلغهم، فوُصفوا بهداية النَّاس والعدل في الحكم فضعيفٌ؛ لأنَّ هؤلاء القوم لا يكونون موجودين إلا على سبيل الفرض، وإلَّا فقد طار الخبرُ بشريعة محمدٍ إلى كلِّ أفقٍ، فلا ينطبق على الآية ضرورة أنَّ المراد أمَّةٌ موجودةٌ حقيقة.

وعن مسروق: قُرِئ بين يَدَيْ عبد الله، فقال رجلٌ: إنِّي منهم، فقال عبد الله: وهل يزيد صُلَحاؤكم عليهم شيئًا؟ مَن يهدي بالحقِّ وبه يعدل؟[٤٥٢١]

فقوله: «إِنِّي مِنْهُمْ»[٤٥٢٢] أي: ممَّن يدينُ بدينِهم. وهل يزيد صلحاؤكم استفهامُ إنكار، وكان عبد الله فَهِمَ أن ذلك القائلَ إنَّما قال ما قال جهلًا بقدرِهم فردّ عليه ذلك.[٤٥٢٣]

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)﴾

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ عطفٌ على قوله: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف، ١٣٧/٧]، وقوله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى﴾ [الأعراف، ١٤٢/٧]، وقوله: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى﴾ [الأعراف، ١٤٨/٧]، ويعضده ما ورد في البقرة من قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ [البقرة٢/ ٥٠] ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى﴾ [البقرة٢/ ٥١] ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ [البقرة٢/ ٥٤] وقوله: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ [البقرة٢/ ٦٠]ممَّافي هذه السُّورة كالتَّفصيل لما هنالك.

﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ حالٌ من المفعول، أي: فرّقناهم معدودين بهذا العدد، أو مفعولٌ ثانٍ؛ لأنَّه متضمِّن بمعنى: «صيَّر»، وتأنيثه مع كونه عبارة عن قوم موسى باعتبار أنَّهم في معنى الأمَّة أو القطعة.

[٤٥١٩] **الكشاف** للزمخشري، ١٦١/٢-١٦٢.

[٤٥٢٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦١٢/٦.

[٤٥٢١] **الكشاف** للزمخشري، ١٦١/٢.

[٤٥٢٢] **الكشاف** للزمخشري، ١٦١/٢.

[٤٥٢٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٧ظ؛ **حاشية كشاف** للتفتزاني، بحث و تحقيق: محمد فاضل جيلاني، مركز جيلاني للبحوث العلمية، الطبع والنشر اسطنبول، الطبعة الأولى،١٤٤٣ /٢٠٢١. ٢١/٤.

والجمهور: على إسكان الشين حجازية، وقرئ: بكسرها[٤٥٢٤] تميميَّة. وقرئ: «عَشَرَةَ» بفتحها،[٤٥٢٥] على تشبيه «اثنتي عشرة» بالعقود ما بين العشرة إلى المائة، ألا تراك تقول: عشرون وثلاثون، فتجد فيه لفظَ التذكير ولفظَ التأنيث، أمَّا للتَّذكير فالواو والنُّون، وأمَّا التأنيث فقولك: ثلاثٌ من «ثلاثون»، وبهذا الاعتبار تصحُّ القراءة؛ لأنَّ «اثنتي عشرة» تختصُّ بالتأنيث، وعَشَرة بالتَّذكير، وكلُّ واحدٍ من هذين يدفع صاحبَه[٤٥٢٦] والعدد المذكور؛ لأنَّهم كانوا من اثني عشر رجلًا من أولاد يعقوب، فأنعم الله عليهم بذلك التَّقطيع حين ما أخرجهم من مِصْر، وأدخلهم البركة؛ ليكون أمرُ كلِّ فرقة متفرِّقًا من جهة رئيسهم، فَيَخِفَّ الأمر على موسى فيما يحتاج إليه من تعرف أحوالهم، ويسهل عليهم جمعهم إذا أراد وتعلم كلّ فريق مرجعهم في أمورهم، ولينتظم أحوالهم ولئلا يتحاسدوا.

﴿**أَسْبَاطًا**﴾ بدلٌ من ﴿ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾، أو من المميِّز المحذوف لدلالة الحال، وهو فرقةٌ ولم يَجعلْ تمييزًا؛ لأنَّ المعدود مؤنثٌ لفظًا، ولأنَّ مميِّزَ أحد عشر إلى تسعة عشر مفردٌ منصوبٌ، وجوَّزه المصنِّف؛ لأنَّه الجمع الذي وقع موقع المفرد؛ لأنَّ معناه: القبيلة؛ كأنَّه قيل: اثنتي عشرة قبيلةً، فالتَّمييز لا يكون إلَّا مفردًا، ولو قيل: اثنتي عشرة سبطًا لَصدق على اثنتي عشر ولدًا من السبط، وليس بمرادٍ.[٤٥٢٧] بل المراد اثنتي عشرة قبيلةً كلّ قبلية أسباط، فحذفت القبيلة وأُقيم ﴿أَسْبَاطًا﴾ مُقامها، ولهذا أنّث اثنتي عشرة، ومنه: قول أبي النَّجم:

تَبَقَّلَـــتْ فِي أَوَّلِ التَّبَقُّـــلِ   بَـيْنَ رِمَـاحَيْ مَالِـكٍ ونَهْشَـلِ[٤٥٢٨]

نزّل الرماح –وهو جمع– منزلةَ الواحد، ثم ثنّي. فقيل: «رِمَاحَيْ» بمعنى: جماعتين من ذلك الجنس، فيكون «رِمَاحَيْ» تثنيةَ رِمَاحٍ، وهو جمعٌ، وقع مفردًا لكونهافي معنى الجماعة.

يَصف رُمْكَةً[٤٥٢٩] تعوَّدت الحرب، بحيث تحسبها روضةً تَتَبَقَّلُ فيها، أي: ترعى البقل. وهذا بخلافِ ﴿ثَلَاثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ﴾ [الكهف ٢٥/١٨]بالإضافةِ، فإنَّه يتمُّ المرادُ بثلاثمائةِ سنةٍ، فلذا بثَّ القولَ فيه بأنَّهُ وضعُ الجمْعِ موضعَ الواحدِ في التَّمييزِ، كقولِه: ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف ١٠٣/١٨].[٤٥٣٠]

والأسباطُ: واحدها سِبطٌ، مأخوذٌ من السَّبَط، نوعٌ من الشَّجر، فجعل الأب الذي يجمعهم كالشَّجرة التي تتفرّع عنها الأغصان.[٤٥٣١]

فهي: من ولد إسحق كالقبائل من ولد اسماعيل، فولدُ كلِّ ولد من أولاد يعقوب سِبطٌ، وولد كل قبيلةٍ من أولاد إسماعيل قبيلةٌ، وسمّوا هؤلاء بالقبائل، وهؤلاء بالأسباط؛ ليفصل بين ولد إسماعيل وولد إسحاق. ومعنى القبيلة: الجماعة، يقال: للشجرة: لها قبائل.[٤٥٣٢]

[٤٥٢٤] «عَشِرَةَ». قراءة شاذَة، مروية عن يحيى والأعمش وطلحة بن سليمان. **المحتسب** لابن جني، ٢٦١/١.

[٤٥٢٥] قراءة شاذَة، مروية عن الأعمش. **المحتسب** لابن جني، ٢٦١/١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٦.

[٤٥٢٦] **المحتسب** لابن جني، ٢٦٣/١؛ **الفريد** للهمذاني، ١٤٦/٣.

[٤٥٢٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٧ظ؛ **حاشية كشاف** للتفتزاني، بحث و تحقيق: محمد فاضل جيلاني، ٢٢/٤.

[٤٥٢٨] خزانة الأدب، ٤٠١/١–٤٠٣؛ كتاب شرح المفصل لابن يعيش، ٢٠٩/٣.

[٤٥٢٩] الرُّمْكة في ألوان الإبل حمرة يخلِطها سواد عن كراع. **لسان العرب** لابن منظور «رمك».

[٤٥٣٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٧ظ؛ **حاشية كشاف** للتفتزاني، بحث و تحقيق: محمد فاضل جيلاني، ٢٢/٤.

[٤٥٣١] **الفريد** للهمذاني، ١٤٦/٣.

﴿أُمَمًا﴾ على جعل ﴿أَسْبَاطًا﴾ غير تمييزٍ، بدل بعد بدل، أو صفة لـ﴿أَسْبَاطًا﴾ أو نعتٌ له وعلى جعله تمييزًا بدل من اثنتي عشرة؛ لأن كلَّ قبيلةٍ أسباطٌ، وكلُّ أسباطٍ كانت أمَّةً عظيمةً كثيفة العدد، وكلُّ واحدةٍ كانت تؤمُّ خلافَ ما تؤمُّه الآخرى لا تكاد تأتلف، ولا يجوز حينئذٍ البدليَّة من ﴿أَسْبَاطًا﴾لما عرفت أنه نزلت منزلةَ قبيلة، فيكون أمةً لا أُممًا؛ لأنَّها عبارةٌ عن جماعةٍ متَّحدةٍ قصدًا ودينًا وأمرًا.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ [٢٣٣/ظ] عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

طلبوا منه السُّقيا في التِّيه؛ لما عطشوا فيه. و﴿أَنْ﴾ مصدريَّة أو مفسِّرة للإيحاء، فضرب فَٱنبَجَسَتْ، فحذف لعدم الإلباس، ولهذا سمِّيت الفاء فصيحةً؛ لأنَّها تفصح عن المحذوف، ولترتيب الانبجاس على الإيحاء للدَّلالة على سرعة امتثال المأمور، وتحقق وقوع المأمور به، بحيث لا حاجة إلى الذِّكر، وللإيماء إلى أنَّ الضرب لم يكن مؤثرًا يتوقف عليه الفعل في ذاته.

وقالابن الكمال: وأمَّا أنَّ موسى لم يتوقَّف في الامتثال فالدَّلالة[٤٥٣٣] عليه في قوله: فضرب، محذوفًا كان أو مذكورًا.[٤٥٣٤]

ولا يخفى عليك أن الدَّلالة عليه في الحذف أقوى وأبينُ منها عليه في الذِّكر؛ إذ فيه الدَّلالة على أنَّ اتباعه الأمر، بحيث لا يحتاج أن يقال: فضرب.

والانبجاس: الانفتاح سِعَةً وكثرةً، وقال:

وَكَيْـــفَ غَـــرْبَيْ دَالِـــجٍ تَبَجَّسَـــا   وَانْجَلَبَــتْ عَيْنَــاهُ مِــنْ فَــرْطِ الْأَسَــى[٤٥٣٥]

«الغَرْب»: الدلو الدَّالج الذي يأخذ الدَّلو من البئر إلى الحوض، حتى يُفْرِغها فيه، والمعنى: سال دمعُ العينين سيلان دلوي دالج تبَجَّسا فح لا منافاة لقوله: ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾.

وقيل: الانبجاس: خروج الماء بقلَّةٍ، والانفجار: خروجه بكثرةٍ.[٤٥٣٦] فإطلاقهما بالنَّظر إلى الابتداء قليلًا ثُمَّ كونه كثيرًا.

وقيل: الانبجاس: أكثرُ ما يقال فيما يخرج من شيءٍ ضيِّقٍ، والانفجار يُستعمل فيه وفيما يخرج من شيءٍ واسعٍ، وما يُستعمل حيثُ ضاق المخرج اللفظان، ففرّق بينهما بالعموم والخصوص، فكلُّ انبجاسٍ انفجارٌ بلاعكس.[٤٥٣٧]

﴿مِنْهُ﴾ من الحجر عند ضربه بإذن الله ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ﴾ على عدد الأمَم المذكورة لكل أمَّة عينًا؛ لئلا يقع بينهم الهرج والمرج.

[٤٥٣٢] **مجمع البيان** للطبرسي، ٩/٤٤.

[٤٥٣٣] «فلا دلالة» انظر: **تفسير ابن كمال باشا،** ٤/١٧١-١٧٢.

[٤٥٣٤] **تفسير ابن كمال باشا،** ٤/١٧١-١٧٢.

[٤٥٣٥] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٦١؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٦١٢.

[٤٥٣٦] **مجمع البيان** للطبرسي، ٩/٤٦.

[٤٥٣٧] **المفردات في غريب القرآن** للراغب الأصفهاني، ص ٤٧؛ **اللباب** لابن عادل، ٩/٣٥٢.

﴿**قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ**﴾ نظير قوله: ﴿ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ يعني: جمع ليُبيِّنَ أنَّ المرادَ كلّ فرقةٍ وجماعة، كما جمع «أسباطًا»، إذ لو قيل: كُلّ أناس، لم يكن تحقيقًا للمراد.[٤٥٣٨]

يعني: كلّ أمَّة من الأمم اثنتي عشرة، فإنَّ إضافة «كُلّ» إلى النَّكرة يُوجب شمولَ أفراده سَواءً كان مفردًا أو مُثَنًّى أو مجموعًا، فمعنى كلُّ رجلٍ: كلُّ فردٍ من أفراده، ومعنى كُلُّ رجلينِ: كلُّ اثنين، ومعنى كلُّ رجالٍ: كلُّ جماعةٍ، وكذا أناس؛ لأنَّه اسم الجمع.

وليس بـ«تكسير» بدليل عَوْد الضَّمير المفرد إليه وتصغيره على لفظه، ولأنَّ فُعالًا بالضَّمِّ ليس من صيغ الجمع، وما يقال في كتب اللّغة أنَّ «رُخالًا» بالضَّمِّ جمعُ «رِخْلٍ» بكسر الخاء – وهي الأنثى من ولد الضأن– فمبنيٌّ على أنَّهم يعنون بالجمع ما يعمُّ اسمَ الجمع، كما يقولون: إنَّ رَكْبًا جمعُ راكبٍ.[٤٥٣٩]

وذلكنحو: رُخالٍ، وثُناءٍ، وتُؤامٍ، وأخواتٍ لها. وقد نظمَّه المصنِّف:

مــا سَمِعْنــا كَلِمًــا غــيرَ ثَمــانٍ ... هــي جَمْــعٌ، وهْــيَ في الــوَزْنِ فُعــالُ

فـــرُبابٌ وفُـــرَارٌ وتُـــؤَامٌ ... وعُـــرامٌ وعُـــرَاقٌ ورُخـــالُ

وظُـــؤَارٌ جَمْـــعُ ظِئْـــرٍ، وبُســـاطٌ ... جَمْـعُ بِسْـطٍ، هكـذا فيمـا يُقـالُ[٤٥٤٠]

وقيل: «إنَّ الأصل الكسرُ والتكسير، والضَّمَّة بدلٌ منه، كما أُبدلت في نحو: سُكَارى من الفتحة».[٤٥٤١]

﴿**مَشْرَبَهُمْ**﴾ عينَهم التي يشربون منها، ويختصُّون بها، ولا يتعرض بعضهم ببعض ولا يزدحمون. وقد مرَّ الكلام في باقي الآية في سورة البقرة،[٤٥٤٢] وههنا محذوفٌ، وهو فظلموا بكفران هذه النعم، إمَّا لكونهم ادَّخروا ما منعهم الله منه، أو أقدموا على الأكل في وقت منعهم الله منه،[٤٥٤٣] وسؤالهم غير ذلك منه، والدَّلالة على المحذوف، قوله: ﴿**وَمَا ظَلَمُونَا**﴾ وما رجع إلينا ضررُ ظلمهم، ﴿**وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ ولا يتعداهم ذلك.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١)﴾

[٤٥٣٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٦٢٤.

[٤٥٣٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٧ظ.

[٤٥٤٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٦٢٤؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٧و؛ **حاشية كشاف** للتفتزاني، بحث و تحقيق: محمد فاضل جيلاني، ٤/٢٣.

[٤٥٤١] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٦٣.

[٤٥٤٢] ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [سورة البقرة ٢/٦٠].

[٤٥٤٣] **اللباب** لابن عادل، ٩/٣٥٣. [البقرة ٢/٦٠]

﴿وَإِذْ﴾ نصبٌ بإضمار: اذكر، وذكر ههنا هكذا؛ إعلامًا للسَّامع بأن هذا القائل هو ذاك المذكور في البقرة[٤٥٤٤] بقوله: ﴿وَقُلْنَا﴾ [البقرة، ٥٨/٢] وذكر هناك ﴿وَٱدْخُلُواْ﴾والسكنى يعقب الدّخول، فأُمروا هناك المبدأ وهنا بما تسبَّب عنه. والقرية بيت المقدّس.[٤٥٤٥]

﴿وَكُلُوا﴾ ذكر هناك بالفاء، فأفاد تسبَّب سكناهم؛ للأكل ولم يتعرَّض له ههنا اكتفاءً بذكره ثمة، أو بدلالة الحال عليه بناءً على جودة ذِهن السَّامع، وأنَّه مما يستغنى في إفادة الترتيب بمجرد الإشارة.

وقيل: تلك الآية كالتقييد لهذه؛ لأنَّ الاجتماع أعمُّ من السَّببيّة والمسببيَّة.

وقيل: لأنهم إذا سكنوا القرية فتسبَّب سكناهم للأكل منها. فقد جمعوا في الوجود بينهما والأولى أنَّ الدخول حالةُ منقضية فحَسُنَ ذكرُ فاء التعقيب، والسكنى حالةٌ مستمرّةٌ فحَسُنَ الأمر بالأكل معه لا بعده.[٤٥٤٦]

﴿مِنْهَا﴾ أي: من القرية ثمارِها وأَطْعمتها، و﴿حَيْثُ﴾ للمكان المبهم، أي: أيّ مكانٍ ﴿شِئْتُمْ﴾ وزاد هناك ﴿رَغَدًا﴾ بعد الأمر بالدُّخول؛ لأنَّها حالة قدوم فالأكل فيها أَلَذُّ وأتمُّ، وهم إليه أحوجُ، بخلاف السكنى المذكور ههنا، فإنها حالة استقرار واطمئنان فليس الأكل فيها كالأكل [**٢٣٤**/و] عند الدُّخول.[٤٥٤٧]

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ سبق البيان غير أنَّ هناك قدّم عليه، قوله: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ وهنا بالعكس؛ لأنَّ الواو للجمع دون التَّرتيب، فسواء قدموا «الحِطَّة» أو أخَّروها، فهم جامعون في الاتِّحاد بينهما.

وقيل: للتَّنبيه على حسنِ تقديم كلّ واحدٍ من المذكورين على الآخر؛ لأنَّه لَمَّا كان المقصود منهما تعظيم الله لم يتفاوت الحال بحسب التقدُّم والتَّأخر، والأولى أن يقال: ناسب تقديم الأمر بدخول الباب سجَّدًا مع تركيب «ادخلوا»؛ لأنَّه فعل دالّ على الخضوع، وحِطَّة قول والفعل أقوى في إظهار الخشوع منه، ولأنَّ قبله ادخلوا فناسب الأمر بالدُّخول بابها على هيئة الخشوع، ولأنَّ دخول القرية لا يمكن إلا بدخول بابها، فصار باب القرية كأنَّه بدلٌ من القرية أُعيد معه العاملُ بخلاف الأمر بالسكنى.

﴿نَغْفِرْ لَكُمْ﴾ وعدٌ لهم بالغفران بمقابلة امتثال ما أُمروا به؛ فلذلك صار مجزومًا في جواب الأمر والاختلاف في جمع القلَّة والكثرة ههنا، وفي البقرة[٤٥٤٨]إشارة إلى أن هذه الذنوب سواء كانت قليلةً أو كثيرةً، فهي مغفورة عند الامتثال.

وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب: ﴿تُغْفَرْ لَكُمْ﴾ بالتاء والبناء للمفعول، و﴿خَطِيـَٔاتُكُمْ﴾ بالجمع والرفع إلا أنَّ ابن عامر قرأ: ﴿خَطِيئَتَكم»﴾ وقرأ أبو عمرو: «خَطَايَاكُمْ».[٤٥٤٩]

[٤٥٤٤] [البقرة ٥٨/٢].

[٤٥٤٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٧٣/٤.

[٤٥٤٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٧٣/٤.

[٤٥٤٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٧٣/٤.

[٤٥٤٨] [البقرة ٥٨/٢].

[٤٥٤٩] **كتاب السبع** لابن مجاهد، ص ٢٩٥؛ **التيسير** للداني، ص ٣٦٣؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٤/٢؛ **إتحاف** للدمياطي، ٢٠/٢؛ **نواهد الأبكار** للسيوطي، ٤٣٩/٦.

﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهو أيضًا بمزية الإحسان على الغفران؛ فلذلك جاء بالواو في البقرة[4550] وطرحه هنا لا يُخلّ بذلك؛ لأنّه استئنافٌ وقع جوابًا عن قول القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقيل له: ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.[4551] وإخراجه عن صورة الجواب للإيذان بأنه تفضّلٌ محضٌ ليس في مقابلة شيءٌ من العمل.[4552]

ولعلَّ قُدس سرُّه أراد بقوله: «إنما أخرج الثاني مخرج الاستئناف»؛[4553] للإيذان المذكور ذلك المعنى، فلا يرد عليه ما قال ابن الكمال: «من أنَّ مبناه الغفولُ عن الواو الجامعة بينهما في البقرة الدَّالة على التَّشريك في المقابلة المذكورة».[4554]

كيف وقد سلَّم ذلك القائل التشريك هناك، ومع ذلك فقد أفاد الإيذان المذكور بناءً على الإخراج المذكور، ولكن لَمَّا وقع الإخراج المؤذن ههنا بطريق الإخراج مخرجَ الاستئناف، علَّق قدس سره الإيذان به ظاهرًا جَريًا على ما هو المذكور، ظاهرًا ههنا فلا ينافي تعليقه بالإخراج هناك.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)﴾

في الكلام حذفٌ؛ لأنَّ ﴿بَدَّلَ﴾ يتعدَّى إلى اثنين إلى أحدهما بالباء، وهو المتروك وإلى الآخر بغير الباء وهو المأخوذ. والتَّقدير: فبدَّل الذين ظلموا بالذين قيل لهم قولًا غير الذي قيل لهم. والظَّاهر أن الذي أُمروا به أن يقولوا لفظًا يؤدِّي ما يؤدّيه لفظ ﴿حِطَّةٌ﴾ لا أَن يقولوا: هذه اللَّفظة بعينها، والمراد أنَّهم أُمروا بقول معناه التوبة والاستغفار، فخالفوا إلى قوله ليس معناه معنى ما أمروا به. روي أنهم قالوا: حِنْطَة مكان حطَّة.

وقيل: قالوا بالنَّبطية حنطاء شمقاثا، أي: حنطة حمراء استهزاء منهم بما قيل لهم، وعدولًا عن طلب عفو الله ورحمته إلى ما يشتهون من أغراض الدنيا. ولو جاؤا بلفظٍ آخر يفيد معنى ما أمروا به مثل أن يقولوا مكان حطّة نستغفرك ربَّنا ونتوب إليك، أو اللَّهم اغفر لنا وما أشبه ذلك لم يؤاخذوا به.[4555]

والفاء: أفاد تسبّب تبديلهم القول بالإرسال، وكفى به زاجرًا زجرًا بليغًا عن التَّبديل في الأحكام، وباعثًا على وجوب الاحتياط في ذلك، وأن لا يضع أحدٌ في شيء باطلًا بدل الحقِّ، فإن قصّ تعذيبهم بسبب تبديلهم للتَّحذير والاعتبار؛ لئلَّا يجترو على ما اجترأ عليه أهل البوار، وإنما قال هناك ﴿أَنْزَلْنَا﴾، وههنا ﴿أَرْسَلْنَا﴾ لأنَّهما من واد واحدٍ.

وقيل: الإرسال يشعر بالكثرة بخلاف الإنزال، فكأنَّه أنزل العذاب القليل، ثم جعل كثيرًا، وردّه الشيخ **علي السمرقندي** (١٤٥٦/٨٦٠) رحمه الله وقال: ليت شعري كيف صحّ ذلك في اللُّغة؟ وهل يسمع من الثِّقات؟ ثم ليت شعري كيف إشعار إحدى الأختين بالكثرة دون الأخرى؟ وكيف يطبقهما المفصل كسائر أخواتهما على أنه روي: أنه مات بالطَّاعون في ساعةٍ واحدةٍ أربعة وعشرون ألفًا، أو سبعون ألفًا، والمراد بإيراد الرِّجز وإرسال الزجر ذلك الطاعون، أعني: إنزالَه وإرساله وهو تأثيره كلُّه في ساعةٍ واحدةٍ لا غير، ولو سلّم فلا يدلُّ تنكير ﴿رِجْزًا﴾ في الموضعين إلا على شيءٍ واحدٍ وهو التعظيم، أو النَّوعية، أو التقليل تنبيهًا على أنَّه مع عظمته وشدَّته شيءٌ قليلٌ، بل أقلّ قليل بالنِّسبة إلى سائر عذاب الله المعَّد للظالمين

[4550] [البقرة، ٥٨/٢].

[4551] **الكشاف** للزمخشري، ١٦٤/٢.

[4552] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٧٧/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ١٧٣/٤.

[4553] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٧٧/١

[4554] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٧٣/٤.

[4555] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣١٥/٤.

والفاسقين، وناهيك بعلمك قطعًا أنَّ عذاب الله ليس له نهاية، كما نطق به الكتاب والسنة، [**٢٣٤**/ظ] وهذا قد انتهى. وكان زمان تأثيره ساعةً واحدةً دلالةً قاطعةً على ذلك.[٤٥٥٦]

وأنت خبيرٌ: بأنَّ مثل هذا الفرق ليس بعزيزٍ في كلام العرب، وأنَّ أوّل وقوع الشيء ليس كآخره، وأنَّ ذكر السَّاعة لا بيان لغاية شدَّة العذاب، لا أنَّه وقع ساعةً فحسب. وإن الرِّجز وإن نوّن لاندفاع أن يكون له ابتداء وغاية بينهما تفاوت.

و﴿**مَا**﴾ مصدريةٌ، أي: بسبب ظلمهم، أو موصولة ﴿يَظْلِمُونَ﴾ به، أو نكرةٌ موصوفةٌ بـ«قوم» ﴿كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ يعني: بسبب أنَّهم قوم كانوا في الزّمان الماضي المتطاول على الظُّلم مصرّين عليه ذكر ظلمهم أوَّلًا بلفظ الماضي، ثم بلفظ المضارع دلالة على إفراطهم في الظُّلم، وتماديهم في الغيّ، وتصمُّمهم عليه، وشدَّة شكائمهم في ذلك، وأنهم العتاة المرَدَة من الظُّلمة، وإنَّما قال هناك ﴿يَفْسُقُونَ﴾ و ههنا ﴿يَظْلِمُونَ﴾؛ لأنَّهما من وادٍ واحدٍ.[٤٥٥٧]

وقيل: لأنهم ظالمون أنفسهم، فاسقون لخروجهم عن طاعة الله. ففي ذكرهما دلالةٌ على اتصَافهم بهما معًا.

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣)﴾

واسئل المعاصرين بك منهم، فيكون عطفًا على «اذكر» المقدَّر عند قوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ﴾. وإنما عُدل إلى السُّؤال؛ لأنَّه أبلغُ في التوبيخ والتحدّي؛ لأنَّ السؤال للتَّقرير والتَّقريع، كالهمزة في قولك: «أَعَدَوْتَ في السبت؟» بقديم كفرهم واعتدائهم حدود الله إثباتًا بأنَّ الكفر بمحمدٍ ليس بأول مناكيرهم، ونفيًا لما ادعوا من أنَّهم أبناءُ الله وأحباؤه من سبط خليله، ومن سبط إسرائيله، ومن سبط كليمه، ومن سبط ولده عُزَير. وأنَّه لم يقع في أسلافهم عصيان، ولا معاندة، ولإظهار المعجزة عليهم؛ لأنَّه من العلوم التي لا تحصل إلا بالتعلُّم أو بالوحي، ولم يتعلّم ع م قطُّ. فثبت الإعجاز ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ﴾، أي: عن خبرها وما وقع بأهلها، وهي: أَيْلَةُ، أو مَدْيَن، أو طبريَّة، والعرب تُسمِّي المدينة بها.

ومنه: ما رأيتُ قَرويَّين أفصحَ من الحسَن والحجَّاج، فإنَّهما من أهل المدن، واشتقاقها من: قَريت أي: جمعت. والمقراة: الحوض الذي يجمع فيه الماء، وبيت النمل قرية لاجتماعها فيه، والبلد لاجتماع النَّاس.

﴿**ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ**﴾ قريبةً منه مشرفةً عليه. والحضور: ضدُّ الغيبة ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة ١٩٦/٢].

و﴿**إِذْ**﴾ ظرفٌ لكانت على تجويز عمله في غير الاسم والخبر أو الحاضرة، وفي تقييد العامل بتحقق مضمونه في ذلك الوقت إشارة إلى أنَّ القرية خربت بعد ذلك.

وقال المصنِّف: «بدلٌ من ﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾، والمراد أهلها، كأنَّه قيل: واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم، وهو من بدل الاشتمال»:[٤٥٥٨] ظاهرُ العبارةِ أن القرية مجازٌ إلَّا أنَّ المراد حذفُ المضافِ -كما يُفصِحُ عنه آخرُ الكلامِ- وذلك لأنَّ الظاهر أن ضميرَ ﴿كَانَتْ﴾ للقريةِ نفسِها، وضميرَ ﴿يَعْدُونَ﴾ لأهلِها، إلّا أنْ يكون ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ منصوبًا بـ﴿كَانَتْ﴾، أو

[٤٥٥٦] **بحر العلوم للسمرقندي**، مكتبة سليمانية، أسد أفندي، رقم: ٦٧، ١٦٨و-ظ.

[٤٥٥٧] **بحر العلوم للسمرقندي**، مكتبة سليمانية، أسد أفندي، رقم: ٦٧، ١٦٨و.

[٤٥٥٨] **الكشاف** للزمخشري، ١٦٥/٢.

بـ﴿حَاضِرَةَ﴾ فإنَّهُ إنَّما يحسنُ بعضَ الحُسنِ لو جعل الضميرانِ للأَهْلِ نظرًا إلى لفظِ القريةِ، وضميرِ ﴿يَعْدُونَ﴾ نظرًا إلى المعنى.[4559]

وقيل: في جعله بدلًا منه تجويز دخول «عن» عليها؛ لأنَّ البدل على نيَّة تكرير العامل أنَّ ﴿إِذْ﴾ من الظُّروف التي لا يتصرَّف، ولا يدخل عليها حرف، وإنَّما يتصرَّف فيها بأن أُضيف إليها بعضُ الظُّروف الزمانيَّة نحو: يوم إذ كان كذا فينبغي أن يكون منصوبًا بالمضاف المقدَّر، أي: واسألهم عن خبر القرية.

يقال: عَدَا فلانٌ يَعْدو عُدْوانًا وعَداءً وعَدْواً وعُدوًا إذا تجاوز، أي: متجاوزون حدّ الله ﴿فِي السَّبْتِ﴾ أي: في تعظيم السَّبت بالاصطياد فيه مع المنع عنه، فهو: مصدر سَبَتَتِ اليهود: إذا عظَّمت سبتها بترك الصَّيد والاشتغال بالعبادة. وسُبِتَ الرجل –للمفعول– سُبَاتًا: أخذه ذلك، وهو مثل الخرس. وأَسْبَت: سَكَنَ ولم يتحرَّك. والقوم: صاروا في السبت. واليهود: دخلوا فيه، وهو اليوم المعروف، وهو من الرَّاحة والقَطْع، ومنه: سَبَتَ السَّيْرَ، قطَّعه، فسُمِّي بذلك؛ لأنَّ الله ابتدأ بخلق العالم يومَ الأحد فقطَعَ العمل في السَّبت، فنُصب اليوم معه ومع الجمعة؛ لما فيهما من معنى الفعل، نحو: اليومَ السبت واليومَ الجمعة لمعنى الانقطاع والاجتماع، وفي سائر الأيام بالرفع، نحو: اليوم الأحد لعدم معنى الفعل فيها، ويُجمع أَسْبُت وسُبُوت وأَسْبَات.

وعنه عليه السلام: «مَنِ احْتَجَمَ يَوْمَ السَّبْتِ، فَأَصَابَهُ بَرَصٌ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ».[4560] ولعلَّ ذلك لأن الدَّم يجمُد يومه، فإذا مَددتَه لتستخرجه لم يَجْرِ وَعَاد برصًا.[4561]

وقرئ: «يَعَدُّون»[4562] وأصله: يَعْتَدُون، فأُدغمت التَّاءُ في الدَّال، بعد نقل الحركة لقرب المخرج.

و«يُعِدُّونَ»[4563] من الإعداد، أي: يُعِدُّون آلاتِ الصَّيد في حال تعظيم السَّبت، أو يوم السَّبت وقد نُهوا عنه وأُمروا بالتجرُّد للعبادة فيه.

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

ظرف لـ﴿يَعْدُونَ﴾ أو بدل بعد بدل. وقد عرفت [**٢٣٥**/و] ما فيه.

والحيتان: السَّمك، وكذا النِينَان جمع حُوتٍ ونُونٍ، وانقلاب الواو ياءً لسكونها وانكسار ما قبلها. وأكثر ما تَستعمل العرب الحوتَ في معنى السَّمكة، أي: الفرد دون الجنس فعند قصد الكثرة لا بدَّ من صيغة الجمع، فلذلك لم يقل: حوتهم بخلاف سمكهم. واختلف في إطلاق لفظ السَّمكة على ما سوى الحوت من الحيوانات البحريَّة، والذي نصَّ عليه الشافعي في «**الأمّ**» و«**المختصر**» إنما تطلق على الجميع، قال صاحب «**الروضة**»: وهو الصحيح.[4564]

﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ أي: يوم تعظيمهم أي: السَّبت، فيراد من المصدرُ، كما يراد ممَّا سبق.

[4559] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٧ظ.

[4560] **مسند الفردوس**، ٦٠٨/٣ (٥٩٠٣).

[4561] **الجامع لأحكام القرآن**، ٣٦٢/٩؛ **اللباب**، ٣٥٧/٩.

[4562] قراءة شاذَة، مروية عن شهر بن حَوشَب وأبي نهيك. **المحتسب** لابن جني، ٢٦٤/١؛**المختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٥٢.

[4563] **الكشاف** للزمخشري، ١٦٥/٢؛ **البحر المحيط** لأبي حيان، ٣٦٣/١٠ ؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ١٧٣/٤.

[4564] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٧٦/٤

وقد وقيل: اسم اليوم، كما قيل هناك، فالإضافة لاختصاصهم بأحكامٍ فيه.[4565]

﴿شُرَّعًا﴾ جمعُ «شَارِعٍ»، كـ«رُكَّعٍ» جمعُ «راكعٍ». حالٌ من الحِيتان، أي: ظاهرةً على وجه الماء، مِن شَرَعَ علينا: إذا دنا وأشرف.

وأصله: الظهور، ومنه: الشِرعة والشَّريعة وهو الظَّاهر المستقيم من المذهب، والمشرعة والشَّريعة لكونهما في مكان ظاهرٍ من النَّهر وشراع السَّفينة لظهورها، أو دانية عليهم تشرع على أبوابهم، كأنَّها كِباش البيض، وكلُّ شيءٍ دَان من شيء فهو شارعٌ ودار شارعة إذا دنت من الطَّريق، ونجوم شوارع أي: دنت من المغيب، «أو مقبلة عليهم مصطفَّةً؛ كما تقول: أُشرعت الرماح: إذا مُدَّت مصطفَّةً»[4566]، ثم إنَّه يؤيِّد المصدرية قراءة «وَيَوْمَ إِسْبَاتِهِمْ».[4567]

وكذا قوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾؛ لأنَّ النَّفي في مقابلة الإثبات فيقتضي أن يكون معنى: يوم سبتهم يوم يسبتون، والفعل الَّذي أُضيف إليه للظَّرف في موضع المصدر.

وقرئ: بضمِّ الباء،[4568] وهو لغةٌ والكسر أفصح. و«لا يُسْبِتُوَن» من أَسْبَت.[4569] وقد سبق معناه، و«لَا يُسْبَتُونَ»[4570] على البناء للمفعول، أي: لا يدخلون في السَّبت.

﴿**لَا تَأْتِيهِمْ**﴾ أي: الحيتان، وهو العامل في ﴿يَوْمَ﴾. وفيه دلالةٌ على جواز عمل ما بعد النَّفي فيما قبله. وقد جوَّزه البعض مطلقًا، ومنعه البعض مطلقًا، وخصَّ البعض بأن يكون لا جواب للقسم. وسئل البعض هل تجد في كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتًا، والحرام يأتيك جُزافًا؟ قال: نعم، إذ تأتيهم الحيتان يوم التَّحريم شرَّعًا، ويوم الإباحة لا تأتيهم.

﴿**كَذَلِكَ**﴾ أي: بلاء مثل ذلك البلاء الشَّديد وهو إتيان الحيتان يوم السَّبت، وعدم الإتيان في سائر الأيام ﴿**نَبْلُوهُمْ**﴾ أو لا تأتيهم الحيتان إتيانًا مثل ذلك الإتيان الذي يوم السبت، فيتوقَّف على الأوَّل على تأتيهم وهو الوجه، وعلى الثاني على كذلك ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب استمرارهم على الفسق، وتمرُّنهم على العصيان، ففيه دلالةٌ على أن من أطاع الله خفَّف الله عليه أحوالَ الدُّنيا والآخرة، ومن عصاه ابتلاه بأنواع البلاء وتعليق الباء على الوجه الثَّاني بـ﴿يَعْدُونَ﴾ لا يخلو عن البعد، وإن كان قريبًا من حيث إنَّ تعليل العدوان باستمرار الفسق أظهرُ من تعليل البلاء به، وكذا جعل ﴿مَا﴾ موصولة لتكلّف حذف العائد على التَّدريج، ثم إنَّ كيفيَّة عدوانهم ولمية بلائهم مذكور في التَّفاسير، فلم نعده.

وقال ابن كثير: «هَؤُلَاءِ قَوْمٌ احْتَالُوا عَلَى انْتِهَاكِ مَحَارِمِ اللهِ، بِمَا تَعَاطَوْا مِنَ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي مَعْنَاهَا فِي الْبَاطِنِ تَعَاطِي الْحَرَامِ».[4571]

[4565] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٧٥/٤

[4566] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٧٦/٤

[4567] قراءة شاذَة، مروية عن عمر بن عبد العزيز. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه ص ٥٢؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٧.**الكشاف** للزمخشري، ١٦٤/٢.

[4568] «لَا يَسْبُتُوَن» قراءة شاذَة، مروية عن الحسن بن عمران. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه ص ٥٢؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٧؛ **الكشاف** للزمخشري، ١٦٤/٢.

[4569] قراءة شاذَة، مروية عن الحسن والأعمش والمفضل. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه ص ٥٢؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٧؛ **الكشاف** للزمخشري، ١٦٤/٢.

[4570] قراءة شاذَة، مروية عن الحسن. **الكشاف** للزمخشري، ١٦٥/٢.

وقد روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى الله عليه وسلَّم قال: «لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَت الْيَهُودُ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللَّهِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ».[٤٥٧٢] وقد ذكر المحدِّثون أن إسناد الحديث جَيِّدٌ لا دخل فيه.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤)﴾

عطفٌ على ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ وحكمه كحكمه دون ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ﴾، وإن كان أقرب لفظًا، أمَّا على انتصابه فظاهرٌ، وأمَّا على إبداله فلأنَّ البدلَ الأوَّل أقربُ إلى الاستقلال، وأيضًا عطفه عليه يُشعر أو يُوهم أنَّ القائلين من العادين في السَّبت الماسِّين للحيتان، لا من مطلق أهل القرية.[٤٥٧٣]

﴿**أُمَّةٌ مِنْهُمْ**﴾ أي: جماعةٌ من أهل القرية مِنْ صلحائهم الذين اعتزلوا عن المقارفين، وسكتوا عن النَّهي.

فإن قلتَ: ترك النَّهي عن المنكر معصية، فإذا سكتوا فكيف يكونون صلحاء؟ قلتُ: لعلّهم إنما تركوه بناءً على أنَّه غلب على ظنِّهم أنَّهم لا يلتفتون إليه على أنَّ النَّهي فرض كفاية، وفيهم مَن وَعَظهم.

وقد قيل: إنَّ بني إسرائيل افترقت ثلاثَ فِرَق، فرقة عَصَت وصادَتْ، وكانوا نحوًا من سبعين ألفًا. وفرقة نَهَتْ عن المنكر واعتزلت، وكانوا اثنَيْ عشر رجلًا. وفرقة اعتزلت ولم تَنْهَ ولم تعظ،[٤٥٧٤] أو الذين بالغوا في وعظهم، وبذلوا المجهود في نهيهم، حتى ملُّوا وأَيِسوا من قبولهم، وتفرَّسوا من حالهم أنه لا يؤثِّر فيهم لآخرين منهم لم يتركوا موعظتهم؛[٤٥٧٥] لأَنْ يَأسهم لم يستَحْكم كما استحكم يأسُ الأولين، ولم يخبروهم كما خَبروهم، أو لفرط حرصهم وجِدِّهم في أمرهم، كما وصف الله رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾[الكهف ٦/١٨][٤٥٧٦][**٢٣٥**/ظ]

وأمَّا كون التقاول بين المجتهدين الآيسين، فلا يخفى ما فيه من عدم الملائمة سباقًا وسياقًا ومساقًا، أو من غير صلحائهم الموعوظين لما وعظوا، وهذا مبنيٌّ على ما قيل: إنهم كانوا فرقتين: فرقة مذنبة وفرقة واعظة لهم، وهذا على خلاف ظاهر الآية؛ لأنَّ المتبادر منها أن يقسم أهلها إلى القائلين هذا القول وإلى الواعظين وإلى الموعوظين وأيضًا على هذا ينبغي أن يقال: لعلَّكم خطابًا بالفرقة المذنبة، ويمكن أنْ يعتذرَ عنه بأن يقال: عدل من الخطاب إلى الغيبة نظرًا إلى أنَّهم ذكروا أنفسهم بلفظ الغيبة، حيث قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ ولم يقولوا: لم تعظوننا ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أي: مخزيهم، والجملة الاسميَّة صفة قوم ويعطف على خبرها، قوله: ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الآخرة، أو قومًا قد أشرفوا على أن يهلكهم الله فيَصْطَلِمَهم، أو يعذبهم غير مصطلم، ثُمَّ إن كان هذا قول التاركين، أو الآيسين من القبول للواعظين المستمرِّين عليه، فالاستفهام مبالغةٌ في أنَّ الوعظ لا ينفعهم، أو سؤال عن علَّة الوعظ والغرض فيه، والحكم عليهم بالإهلاك والتَّعذيب؛ لما علموا من جريان عادة الله بإضرابهم، وإنَّ عاقبة المعصية شؤم والمنهمك فيها لا يكاد يفلح، ويحمل الاستفهام على أحد الوجهين سقط ما قيل: كيف يصحّ من الصُّلحاء أن يقولوا لِمَ تعظون مع أنَّ الظاهر منه أن يكون إنكارًا للوعظ، والنَّهي عن المنكر، وإنكار النَّهي عن المنكرِ معصية بعيدة من

[٤٥٧١] **تفسير ابن كثير**، ٤٩٢/٣.

[٤٥٧٢] **تفسير ابن حاتم**، ٤٥/١١.

[٤٥٧٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٧ظ.

[٤٥٧٤] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٣٦٥/٩.

[٤٥٧٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٧٦/٤.

[٤٥٧٦] **الكشاف** للزمخشري، ١٦٥/٢.

الصلحاء؟ وإن كان قول الموعوظين المذنبيين للواعظين، فالاستفهام للرّد عليهم والتّهكم بهم، أي: لم تعظون منها قوما تزعمون أنّ الله مهلكهم.

قيل: إذا علم النّاهي حال المنهيّ، وأنّ النّهي لا يؤثّر فيه، سقط عنه النّهي، وربّما وجب التّرك لدخوله في حدّ العبث، ألَا ترى أنّك لو ذهبتَ إلى المكّاسِين القاعدين على المآصِرِ والجلّادين المرتّبين للتّعذيب؛ لتعظهم وتكفهم عمّا هم فيه، كان ذلك عبثًا منك، ولم يكن إلّا سببًا للتّهكم بك! فالواعظون لهم إنّما لم يُعرضوا عنهم لعدم استحكام يأسهم.[٤٥٧٧]

﴿ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥)﴾

أي: قال الواعظون جوابًا للسائلين، فبيّنوا لوعظهم علتين: الأولى يرجع إلى الواعظين، والثانية إلى لموعوظين فذكروا الأولى بقولهم: ﴿**مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ**﴾ وهي خبر مبتدأ محذوف، أي: موعظتنا إيّاهم معذرة إلى الله، وتأدية لفرضه في النّهي عن المنكر؛ لئلا يقولَ لنا: لِمَ لَمْ تعظوهم؟ والمعذِرة والعذر، والعذري، والعذرة، واحد: مصدر عذرته أعذره.

وقيل: اسم مصدر وهو العذر. وقيل: بمعنى الاعتذار والعذر التّنصل والتبرّئ من الذّنب.

وقرأ حفص بالنصب على المصدريّة، أي: اعتذرنا به معذِرَةً أو العليّةِ أي: وعظناهم لأجل المعذرة، أو المفعوليّة؛ لأنها تتضمَّن كلامًا والمفرد المتضمِّن له إذا وقع بعد القول نصب نصب المفعول به نحو: قلت خطبة ورجّح الرفع بأنّهم لم يريدوا أن يعتذروا اعتذارًا مستأنفًا من أمرٍ لنموا عليه ولكنهم قيل لهم: لم تعظون قومًا؟ فقالوا: موعظتنا معذرةٌ، وذكروا الثانية بقولهم: ﴿**وَلَعَلَّهُمْ يتقون**﴾ ولطَمَعِنا في أن يتّقوا بعض الاتّقاءِ؛ لأنَّ تمام اليأس لا يحصل إلا بالهلاك.

وفيه تنبيهٌ على أنَّ اللائق بأصحاب الهمَّة وأرباب العزيمة أن لا يقعدوا عن النَّصيحة وإن كان الموعوظ أَقْسى قلبًا، وأقبح عملًا لما ذكر من الفوائد الجميلة، والفوائد الجليلة، فإنَّ فيه دفع احتمال التَّقصير، ورجاء الهداية من الله القدير، وأن الواعظ ينبغي له أن يقصد هذه الفوائد، ولا يتعلّق بالأغراض والزّوائد.

﴿**فلمَّا نَسُوا**﴾ فلمّا تركوا ترك الناسي شبَّه تركهم عمدًا بترك من ترك ناسيًا، فأطلق عليه اسم النسيان، فاشتق منه. ﴿نَسُوا﴾استعارة تبعيَّة.[٤٥٧٨]

وقيل: جُعل الترك نسيانًا مبالغةً؛ إذ أقوى أحوال التّرك أن يُنسى المتروك ﴿مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ ما ذكَّرهم به صلحائهم من الوعظ والذكر، فيحتمل أن يراد به الذكر نفسه أي: نفس الموصول مرادًا به المصدر، أي: الذِّكر الَّذي ذكروا به، أو ما كان في الذِّكر أي: نفس الشَّيء المذكور به الذي هو متعلِّق للذكر.

﴿أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ هي عامَّة في المعاصي، ويدخل فيها صيدُ الحوت دخولًا أوليًّا.[٤٥٧٩] وفيه تنبيهٌ على أنَّ إنجائَهم بنهيهم عنها.

[٤٥٧٧] **الكشاف** للزمخشري، ١٦٥/٢.

[٤٥٧٨] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣١٩/٤.

[٤٥٧٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٧٧/٤.

روي عن درَّة بنت أبي لهب رضي الله عنها قالت: «قلت يا رسول الله من خير الناس؟ قال: أتقاهم للربّ عزَّ وجلَّ، وأوصلُهم للرحم، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر». رواه الشيخ ابن حبَّان في كتاب «**الثواب**» والبيهقيّ في «**الزهد الكبير**».[٤٥٨٠]

وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «لا تزالُ لا إلهَ إلّا اللهُ تنفعُ من قَالَها وتردُّ عنهم العذابَ والنِّقمةَ ما لم يستخفُّوا بحقِّها قالوا: يا رسولَ اللهِ وما الاستخفافُ بحقِّها قال يُظهرُ العملَ الصّالحَ بمعاصي اللهِ فلا يُنكرُ ولا يُغيِّرُ» رواه الأصبهاني.[٤٥٨١]

وروي عن رسول الله صلى الله عليه و سلم: «يا أيها النَّاس مُرُوا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا الله فلا يستجيب لكم وقبل أن تستغفروه فلا يغفر لكم. إنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر لا يدفع رزقًا ولا يقرب أجلًا وإنَّ الأحبار من اليهود والرهبان من النَّصارى لَمَّا تركوه لعنهم الله على لسان أنبيائهم ثم عموا بالبلاء».[٤٥٨٢]

﴿**وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ**﴾

أي: الَّذين ظلموا بالاعتداء ومخالفة أمر الله، «وفيه إشعارٌ بأن العلَّة للأخذ هي الظلم»،[٤٥٨٣] ثُمَّ إنَّ القائلين لم تعظون إن كانوا هم المباشرين.

فأهل القرية طائفتان قد نصَّ على إحداهما بالإنجاء وعلى الأخرى بالأخذ، وإن كانوا غيرهم من السَّاكتين ابتداء، أو بعدما تفرَّسوا واجتهدوا فأهلها ثلاثُ فرقٍ مذنبةٍ، قد نصَّ على أخذهم وناهية قد نصَّ على إنجائهم وقائلة لم تعظون لم يصرّح حكمهم، فلذلك اختلفت فيهم.

فعن ابن عباس قال: «نسمع الله يقول: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، فلا أدري ما فعلت الفرقة السَّاكتة»؟[٤٥٨٤] وفي رواية: «ليت شعري ما فعل بهؤلاء الذين قالوا: لم تعظون»؟[٤٥٨٥]

قال **عكرمة**: فقلت: جعلني اللهُ فداك، ألا تراهم كيف أنكروا، وكرهوا ما هم عليه وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، وإن لم يقل الله أنجيتهم لم يقل: أهلكتهم، فأعجبه قولي، وأمرني ببردين، فقال: نجت السَّاكتة، هذا،[٤٥٨٦] ولكن يختلج في الخاطر أنّهم إذا عدّوا من المنكرين كما دلَّ عليه قول عكرمة. فلم لم يدخلوا تحت ﴿أَنْجَيْنَا﴾ على ما دلَّ عليه آخر كلامه، وإذا عدُّوا من غير المنكرين فلم نجوا؟

وعن ابن زيد: نجت الناهية، وهلكت الفرقتان، وهذه أشدُّ آيةً في ترك النهي عن المنكر.[٤٥٨٧]

[٤٥٨٠] **الزهد الكبير** للبيهقي، ٣٢٧ (٨٧٧).

[٤٥٨١] **الترغيب والترهيب** للمنذري، ٣/١٦٢-١٦٣.

[٤٥٨٢] **الترغيب والترهيب** للمنذري، ٣/١٦٢

[٤٥٨٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/١٧٧.

[٤٥٨٤] **جامع البيان** للطبري، ٦/٩٥-٩٦؛ **معالم التنزيل** للبغوي، /١٧٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٩/٣٦٢.

[٤٥٨٥] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٦٥.

[٤٥٨٦] **اللباب** لابن عادل، ٩/٣٦٢.

[٤٥٨٧] **معالم التنزيل** للبغوي ، /١٧٢.

وروي ذلك عن ابن عباسٍ أيضًا: «وكان إذا قرئ عليه هذه الآية بكى وقال: أين هؤلاء الذين سكتوا عن النّهي عن المنكر هلكوا، ونحن نرى أشياء ننكرها، ثم نسكت، ولا نقول شيئًا».[٤٥٨٨] فلعلَّ هذا مبنيٌّ على أن سكوتهم بلا علّةٍ، وقولهم: لم تعظون ليس سؤالًا عن حكمه، بل على ما في قلوبهم من علّة. وقد روي أيضًا أنَّ ابن عباس رجع منه إلى قول عكرمة كما ذكر.

﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ شديدٍ، فعيل من بَؤُسَ يَبْؤُسُ بأسًا: إذا اشتدَّ،[٤٥٨٩] أو مصدر مثل النَّذير وصف به ويجوز تقدير المضاف، أي: بعذابٍ ذي بئيسٍ، أي: ذي بؤس، أي ذي شدةٍ.[٤٥٩٠]

وقرأ أبو بكر في رواية: «بَيْئَسٍ»[٤٥٩١] على: فَيْعَلٍ بوزن حَيْدَرٍ، وهو ملحق بجَعْفَر كضَيْغَمٍ وهو صفة العذاب أيضًا.

وابنُ عامر: ﴿بِئْسٍ﴾[٤٥٩٢] بكسر الباء وسكون الهمزة على أنَّه «بَئِسٍ»[٤٥٩٣] كـ«حَذِرٍ»، كما قرئ به، فخُفّف بنقل حركة العين إلى الفاء بعد إزالة حركتها، كـ«كِبْدٍ» في «كَبِدٍ»، أو بكسر الباء اتّباعًا، وحذف حركة الهمزة، أو على أنَّه فعلٌ ماضٍ نُقل إلى الاسم ووصف به، يعضده قوله عليه السلام: «إنَّ اللهَ يَنْهَى عَن قِيلٍوَقَالٍ».[٤٥٩٤] والأصل: قيلَ وقالَ، أو على أنَّه ممَّا جاء من الأوصاف على فِعْلٍ نحو: نِقْص.[٤٥٩٥]

ونافع: ﴿بِيْسٍ﴾[٤٥٩٦] كقراءته، إلا أنَّه جُعل مكان الهمزة ياءً ساكنةً على القلب القياسي، كـ«ذِيبٍ» في «ذِئْبٍ»، فالقول فيه كالقول فيما قبله.[٤٥٩٧] إذا تحقَّقت ذلك فلا يخفى عليك ما في تحذيره قدس سره ههنا.[٤٥٩٨]

وقرئ: «بَيْئِس»[٤٥٩٩] على فَيْعِل، وهو شاذٌّ؛ لأنَّه بناء اختص به المعتلُّ نحو: سيِّد وليِّن؛ فلذلك نسب هذه الرواية إلى الوهم، ودفع بأن فيعل في الهمزة لمشابهتها حرف العلّة لما يلحقها من التغيير، ولذلك أَلحقها البعض بحرف العلة.

و«بَيِّسٍ»[٤٦٠٠] كريِّس، على قلب همزة «بَيْئِسٍ» ياء، وإدغام الياء فيها قياسًا على قول من قال في تخفيف «سوءةٍ» «سوّة»، وفي «شَيْءٍ» «شيٍّ» على تخفيف ذلك، كـ«هَيْن» في «هيِّنٍ».[٤٦٠١]

و«بائس» اسم فاعل من بئس وبَئِسَ، أي: بئس العذاب، وبَأْسٌ على فَعْل وبِيئَاس على فيعال.

[٤٥٨٨] **اللباب** لابن عادل، ٣٦٢/٩.

[٤٥٨٩] **الكشاف** للزمخشري، ١٦٦/٢.

[٤٥٩٠] **الفريد** للهمذاني، ١٥١/٣.

[٤٥٩١] **كتاب السبع** ص ٢٩٦؛ **التيسير** للداني، ص ٣٦٣؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٥/٢.

[٤٥٩٢] **كتاب السبع** ص ٢٩٦.

[٤٥٩٣] قراءة شاذَة، مروية عن زيد بن ثابت. **المحتسب** لابن جني، ٢٦٥/٢.

[٤٥٩٤] **صحيح البخاري،** ٩٥/٩ (٧٩٩٢).

[٤٥٩٥] **الفريد** للهمذاني، ١٥١/٣.

[٤٥٩٦] **النشر** لابن الجزري، ٢٠٥/٢.

[٤٥٩٧] **الفريد** للهمذاني، ١٥٢/٣.

[٤٥٩٨] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٧٩/١.

[٤٥٩٩] قراءة شاذَة، مروية عن الأعمش وعيس البصرة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٧.

[٤٦٠٠] قراءة شاذَة، مروية عن نصر بن عاصم. **المحتسب** لابن جني، ٢٦٥/٢.

[٤٦٠١] **الفريد** للهمذاني، ١٦٦/٢.

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب كونهم فاسقين، واستمرارهم على ذلك، وعدم انقلاعهم منه، ولإفادة ذلك زاد لفظه «كَانَ»، وفيه زيادة ذمّ للفسق والخروج عن الطّاعة ،وبتغير عنه سيَّما الإصرار عليه، وبيان أن ذلك يؤدّي إلى العذاب الفضيع، والأخذ الوضيع، نعوذ بالله من فعل الشّنيع.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)﴾

العتوّ: الخروج إلى أفحش الذُّنوب، والعاتي: البالغ في المعاصي، واللّيل العاتي: الشديد الظلمة،[٤٦٠٢] أي: فلمَّا عتوا عن ترك ما نُهوا عنه، وزادوا عصيانًا وتَفَرْعُنًا. وقدّر المضاف؛ لأنَّ العتوَّ عمَّا نهوا عنه طاعة لا يوجب العقوبة، فدلَّت الحال على ما قدّر، ونظيره قوله: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف ٧٧/٧] فإنهم لم ينتهوا عمَّا نهوا بأن أتوا بالفعل المنهي عنه تكبُّرًا، وعدم مبالاة كما أمروا بالإتيان بالفعل المأمور به فتكبَّروا عنه وتركوه.

﴿**قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً**﴾ كقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل١٦/٤٠]، من حيث إنَّ المراد أنَّه تعالى مسخهم قردةً بتعلُّق إرادته، ونفوذ قدرته إلَّا أنَّه [**٢٣٦**/ظ] شبّه تأثير ذلك في المراد من غير توقّفٍ وامتناعٍ، ومن غير مزاولة عمل واستعمال آلة بأمر المطاع للمطيع في حصول المأمور به من غير امتناع وتوقُّف على الاستعارة التمثيليَّة، فلا قول ثمة ولا أمر؛ لأنَّ المأمور به يجب أن يكون قادرًا عليه، وهم ما كانوا قادرين على قلب أنفسهم.[٤٦٠٣]

وقيل: يجوز أن يكون ثمة قول مسموع، وهذا أبلغ في النَّازلة بهم، ثُمَّ الظَّاهر من ترتّب الكلام أن يكون الفاء فصيحةً، أي: «فلمَّا نسوا ما ذكروا به عَذَّبْنَاهم ليتنبَّهوا، ويتَّعظوا، فما نَجَع فيهم الوعظ، فعتَوْا بعد ذلك فمسخناهم، فالمسخ غير العذاب، والعتوُّ غير النسيان، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾[الأعراف ٧/٩٤-٩٥].[٤٦٠٤]وجوّز أن تكون الآية الثانيةُ تقريرًا وتفصيلًا للآية الأولى.[٤٦٠٥] ففسّر النسيان بالعتوّ، والعذاب البئيس بالمسخ.

وَ«الْقِرْدُ» مَعْرُوفٌ وَجَمْعُهُ «قُرُودٌ» وَ«قِرَدَةٌ» مِثْلُ فِيلٍ وَفِيَلَةٍ وَالْأُنْثَى «الْقِرْدَة» وَالْجَمْعُ «قِرَدٌ» مِثْلُ قِرْبَةٍ وَقِرَبٍ.[٤٦٠٦]

﴿**خَاسِئِينَ**﴾ خبرٌ بعد خبرٍ، أي: كونوا جامعين بين القردية والخسوء، وهو الصِّغار والطَّرد، والخاسيء: المطرود المبعَد عن الخير، من: خسأت الكلب إذا اقتصيتُه فَخَسأ، أي: بَعُدَ.

وجوّز أن يكون حالاً من اسم «كان». وقرئ: «خاسين» بغير همزة.[٤٦٠٧]

والقصَّة مذكورةٌ في التفاسير، ونعم الكلام الحسن ما ذكره الحسن: «أكلوا —والله– أَوخم أكلةٍ أكلها أهلُها، أثقلها خزيًا في الدنيا، وأطولها عذابًا في الآخرة هَاه! وأيّم الله ما حوت أخذه قومٌ فأكلوه أعظمَ عند الله من قتل نفسٍ مسلمةٍ، ولكن الله جعل موعدًا: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر ٥٤/٤٦].[٤٦٠٨]

[٤٦٠٢] **مجمع البيان** للطبرسي، ٩/٥١.

[٤٦٠٣] **اللباب** لابن عادل، ٩/٣٦٣.

[٤٦٠٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٦٣٥.

[٤٦٠٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٥٧٩.

[٤٦٠٦] **مختار الصحاح** للرازي، «قرد».

[٤٦٠٧] **معجم القراءات**، ٣/٢٠٧.

[٤٦٠٨] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٦٦.

قوله: «أوخم» من: وَخِمَ الرجل بالكسر، أي: أتخم والاسم التخمة. و«أَكَلَةٍ» بالفتح: المصدرُ، وبالضمّ: الاسمُ، والضَّمير في «أَكَلَهَا» يجزوز أن يكون مفعولًا به، وأن يكونمفعولًا مطلقًا للتّأكيد أكلها أهلها صفة أكلة. وفي الكلام معنى التعجب، أي: أكلوا —والله– أكلةً ما أوخمها من جهة الأكل! وما أثقلها من جهة الخزي! وما أطولها من جهة العذاب!

قوله: «ولكن الله جعل موعدًا»،أي: إن لم يعذب قاتل النَّفس في الدنيا، على قتل النفس أعظم من تلك الأكلة، لكن الله يعذِّبه في الآخرة.[٤٦٠٩]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهِ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ فَلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ. ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ۞كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة ٥/ ٧٨–٧٩]، ثُمَّ قَالَ: «كَلاَّ وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا. رواه أبو داود والترمذي. وقال حديث حسن غريب.[٤٦١٠]

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧)﴾

لَمَّا ذَكر قبائح اليهود ذَكر بعده ما حكم به عليهم، أي: أعلم إعلامًا بليغًا يضمحلُّ عنده الشُّبهة.و«تأذَّن»، و«أذَّن» و«آذَن» بمعنًى، فيقدَّر المفعول الأول حينئذ نحو: أسلافهم على ألسنة أنبيائهم، وليس معنى التفعّل ههنا إظهار شيء ليس فيه كما أن تعالى معناه علا وارتفع لا بمعنى أنَّه أظهر من نفسه العلو وإن لم يحصل له ذلك، أو: عَزَمَ؛ لأنَّ العازم على الأمر يشاور نفسه في الفعل والتَّرك، ثم يجزمُ عليه، ويطلب من النفس الإذنَ به. فكنى عنه به، للإيذان بأنَّ العزم لا يمكن إلا بعدَ إتقانٍ ومشورةٍ. وأجري مُجرى فعل القسم كـ«عَلِمَ الله، وشَهِد الله»، أمَّا في الأوَّل فلإفادة الصِّيغة المبالغة، وأمَّا في الثاني فلأنَّ العازم على الشيء جازم قازم، فصار كقوله في التأكيد، ولذلك فسر بـ«تأتى ربّك»، وأُجيب بما يجاب به القسَم،[٤٦١١] وهو: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ أي: أوجب على نفسه وحكم، وقضى لَيُسَلِّطَنَّ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لا على نسل من ذكر في قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ لانقطاعهم بالمسخ إلا أن يقال: من نسلهم من لم يعتد ولا على البقيَّة من الصُّلحاء، بل على من أَصرّ على اليهوديَّة من بني إسرائيل؛ لما روي: أنَّه تعالى بعث عليهم بعد سليمان بُخْتَ نَصَّرَ، فخرَّب ديارهم، وقاتل مقاتِلَتهم وسبَى نسائهم وذراريهم، وضرب الجزية على مَن بقي منهم، وكانوا يؤدُّونها إلى المجوس، حتى بعث الله محمدًا ففعل ما فعل، ثم ضرب عليهم الجزية، ولا تزال مضروبةً عليهم إلى نزول عيسى ع م؛ لأنَّه بعد نزوله يضع عنهم الجزية على ما ورد في الحديث وينقلب إلى أشدّ منها وهو تكليف الإسلام بالقتل، وسوء العذاب ينتظمهما.[٤٦١٢]

[٤٦٠٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٣٣/٦.

[٤٦١٠] **سنن أبي داود**، ٣٩١/٦ (٤٣٣٦)؛ **سنن الترمذي**، ٢٥٢/٥ (٣٠٤٨).

[٤٦١١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٦٣/٦.

[٤٦١٢] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٨٠/٤.

ويجوز أن يكون المراد من ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: وقت ظهور بعض شرائطها، فح لا حاجة إلى انتظامهما، وهو متعلِّق بـ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾.[٤٦١٣]

وقيل: بـ﴿تَأَذَّنَ﴾ ولا يتعلَّق بقوله: ﴿مَنْ يَسُومُهُمْ﴾؛ لأنَّ الصِّلة أو الصِّفة لا تعملان فيما قبلهما، وهو مفعول: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾، أي: يذيقهم ويوليهم من سامه كلفه ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ العذابُ السوء من إضافة الصِّفة [**٢٣٧**/و] إلى الموصوف، كنحو: الإذلال، وضرب الجزية والجلاء.

وقال الإمام:«على الذين كانوا في زمان نبيّنا لقوله: ﴿وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾، ولأنَّ المقصودَ تخويفهم وزجرهم عن البقاء اليهودية لما سيكون عليهم».[٤٦١٤]وفيه معجزةٌ له ع م لوقوع ذلك، وتحققه على ما ذكر، ودلالة على أنَّه لا دولة لهم إلى آخر الدَّهر، وما روي: «أنَّ اتِّباع الدَّجال هم اليهود»[٤٦١٥] إن صحَّ، فمعناه: أنَّهم قبل خروجه بيهود، ثم قالوا: بآلهته، فذكروا بالاسم الأوَّل، فلا يناقض الغاية غيرهم وقت اتِّباعه، أو أنَّ ذلك العزّ الحاصل من الاتِّباع ذلٌّ لهم لازديادهم كفرًا، وإهلاكهم المسلمون بعد هلاك الدَّجَّال.

﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ**﴾ لمن كفر نعمتَه، فلذلك عاقبهم في الدنيا وجعلهم نَكَالًا، وهذا لا ينافي وصفه بالحكم؛ لأنَّ شرعته بالنَّظر إلى عقاب الآخرة وإلَّا فقد أمهلهم رويدًا، أو إذا أفضوا إلى الآخرة كان عذابهم أشدَّ فسرعته لعدم احتياجه إلى إعداد الآلات، وإحضار الأسباب، أو يعاقبهم في الدَّارين ﴿وَإِنَّهُ﴾ مع كونه سريع العقاب ﴿لَغُفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تاب وأناب عن كفرانها، وترك القيام بشكرها، وفي اتباع الوصفين تمام ذكر أهل القرية وسبب إهلاك الفريق وإنجاء الآخر تقرير لذلك أيضًا، وتمكين له في النفوس وقد وصف نفسه في الأنعام[٤٦١٦] بسرعة العقاب، وكان سوق الكلام مع المؤمنين فلم يؤكّد باللام، وههنا كان مع ذكر العاتين المنزل عليهم البأس أكّد به، وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة؛ لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرًا لتبقى النُّفوس بين الخوف والرجاء، وفي الوصف الثاني دلالةٌ على علوّ الرحمة، وزيادة المغفرة والمسامحة في العقوبة بذكر اللام وصيغتي المبالغة وتنكيرهما.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨)﴾

فرّقنا اليهود في أقطار الأرض، بحيث لا يخلوا قطر من فرقة منهم، تتميمًا لإدبارهم حتى لا يكون لهم شوكة بالاجتماع.[٤٦١٧] وتعاون وتناصر، فكما تفرّقوا ظاهرًا مكانًا تحزَّبوا أيضًا دينًا ومذهبًا، فلا يتَّفق كلمتهم ﴿أُمَمًا﴾ فرقًا مختلفةً وجماعاتٍ شتًّى، حالٌ من المفعول، أو مفعولٌ ثانٍ ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّالِحُونَ﴾ الذين أقاموا على الاستقامة، لا الذين آمنوا في المدينة لما سيفهم من النَّظم، و﴿ٱلصَّالِحُونَ﴾ فاعل الظرف لاعتماده على الموصوف، أو مبتدأ و﴿مِنْهُمُ﴾ خبره، والجملة صفة لـ﴿أُمَمًا﴾.

وقيل: بدل ومنه ولعلَّ ذلك على حاليه أي: فرَّقناهم أُممًا حالَ كونهم.

[٤٦١٣] **الكشاف**، ١٦٧/٢؛ **فتوح الغيب**، ٦٣٦/٦؛ **اللباب**، ٣٦٦/٩؛ **أنوار التنزيل**، ٥٨٠/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ١٨٠/٤.

[٤٦١٤] **مفاتيح الغيب**، ٤٤/١٥.

[٤٦١٥] **المصنف** لأبي شيبة، ٤٩٩/٧ (٣٥٥٢٧).

[٤٦١٦] ﴿**إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [الأنعام ١٦٥/٦].

[٤٦١٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٨١/٤.

﴿مِنْهُمُ ٱلصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ قد شاع في الاستعمال وقوعُ المبتدأ والخبر ظرفين، واستمر النُّحاةُ على جعل الأول خبرًا، والثاني مبتدأً بتقدير موصوفٍ دون العكس، وإنْ كان أبعدَ من جهة المعنى، والتأخير بالخبر أَحرى، وكأنَّهم يرونَ المصير إلى الحذف في آوانه أولى.[٤٦١٨]

وأجاز أبو الحسن: رفع ﴿دُونَ﴾ بالابتداء، وإن كان منصوب اللّفظ لتمكّنه في الظرفية، ونظيره: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام ٦/٩٤] فيمن نصبه.[٤٦١٩]

وذلك إشارة إلى الصَّلاح المدلول بتقدير المضاف لاعتدال التَّقسيم، أي: ومنهم ناس دون أهل الصَّلاح، أو إلى ﴿الصَّالِحُونَ﴾؛ فإنَّه يستعمل للمثنى والمجموع ولا تقدير حينئذٍ، أي: ومنهم قوم دون أولئك، والمراد كفرهم وفسقتهم.

وقال ابن عطيّة: فإن أريد بالصلاح الإيمان فـ«دون» بمعنى غير يراد به الكفر، إن أراد أنَّ «دون» ترادف «غيرًا» فهذا ليس بصحيح، وإن أراد أنَّه يلزم مِمَّنْ كان دون شيء أن يكون غيره فصحيح.[٤٦٢٠]

وذكر الطبري: «ناس من بني إسرائيل، آمنوا بالله ورسوله، وثبتوا على دينهم قبل مبعث عيسى».[٤٦٢١]

وروى البغوي عن ابن عباس ومجاهد: أن المراد بالصَّالحين الذين أدركوا النَّبي من اليهود، وآمنوا به.[٤٦٢٢] والصحيح ما ذكره الطبري. يدلّ علبه قوله بعده: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾. والخلف إنما كان بعد هؤلاء الذين وصفهم بالصلاح من بني إسرائيل ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ﴾ وفعلنا بهم ما يفعل المبتلى لأحوالهم، فإنه تعالى عالمٌ بما كان وما سيكون من أعمال العاملين، وأحوالهم قبل وجودهم، ولكنَّه لَمَّا كان في صورة الابتلاء المبتلين وشبهه سُمِّي ابتلاءً ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ بالنّعم والنّقم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما كانوا عليه بالانتباه، فإن تقلُّب الأحوال يورث البصيرة في الآمال وسلامة الأخلاق في الأعمال.

وبعبارة أخرى: بلوناهم بما يجب فيه الشّكر من العطايا، وبما يجب الصبر من البلايا إرادة أن يرجعوا إلينا، ويقبلوا علينا؛ لنجازيهم على ما يوجد منهم من الصبر والشكر، فإن من رجع إلى الله في حال النعمة والطاعة بالحمد له، والثناء عليه، فهو حبيب إليه محسن، والله يحب المحسنين. ومن رجع إليه في حال النقمة والبليّة والمعصية بالخوف والرهبة، والندم والاستغفار فهو حبيبه أيضًا، إن الله يحب الخائفين ويحب التَّوابين.

قال عليه السلام: «ما شمّ رائحة الجنّة إنسان خلا قلبه من الخوف من الله» [**٢٣٧**/ظ].[٤٦٢٣]

وقال ابن مسعود: «رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللهِ»[٤٦٢٤]

وتحقيقه أن من خافه دلَّه ذلك على كل خير فيتسارع إلى الرجوع إلى الله في جميع الحسنات والسيئات، ويقبل إليه في جميع الأحوال والأوقات. ففي الآية تعليم للعباد بأن يرجعوا إليه في جميع صفاتهم وأفعالهم خيرهم وشرهم، ويقبلوا إليه ولا ينظروا إلى غيره، وإن كانوا فيما يورث النِّقم من المعاصي والسيِّئات؛ إظهارًا لكمال الافتقار إليه واعترافًا بالاضطرار، وإنَّه لا نجاة منه

[٤٦١٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٧ظ.

[٤٦١٩] **الفريد** للهمذاني، ٣/١٥٥.

[٤٦٢٠] **البحر المحيط** لأبي حيان الأندلسي، ٤/٤١٣.

[٤٦٢١] **جامع البيان** للطبري، ٢/٢٢٣.

[٤٦٢٢] **معالم التنزيل** للبغوي، ٢/٢٩٥.

[٤٦٢٣] لم أجده.

[٤٦٢٤] **تفسير ابن أبي حاتم**، ١١/١٧٥؛ **كشف الخفاء**، ١/٤٧٧-٤٧٨.

إلا به هذا تحقيق **السمرقندي**.[٤٦٢٥] وفيه أنَّ مبناه يعم الحسنات والسيئات بالطاعات والمعاصي، وليس كذلك، بل المراد بهما ههنا النّعم والنقم كما لا يخفى.

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ (١٦٩)﴾

أي: من بعد أولئك الصُّلحاء، أو من بعد ذلك الجيل الذي فيهم الصَّالح والطَّالح ﴿خَلْفٌ﴾ بدل سوء، وهو مصدرٌ نُعت به، يقال: خَلَفَ فلانٌ فلانًا: إذا عَقَبَه، وجاء خَلَفَه خَلْفًا وخِلْفَةً، فلذلك يقع على الواحد والجمع.

وقيل: اسم جمع «خالِف» كـ«رَكْبٍ» و«رَاكِبٍ»، وفيه لو كان كذلك لَما أطلق على الواحد، ثُمَّ إنَّه بالسكون شائع في الشر وبالحركة في الخير. وقد يوضع أحدهما مكانَ الآخر. قال حسَّان:

لَنَـــا القَـــدَمُ الأولى إليـــك وخَلْفُنـــا ... لأوَّلنـــــا في طاعـــــة الله تَابـــــــــــــــــــــــعُ[٤٦٢٦]

أو الأوَّل الأولاد، والثاني البدل وإن كان غريبًا، أو هما للسُّوء، والثاني للصالح لا غير. واشتقاقه من الخلافة؛ فإنَّه يخلف من قبله، أو من: خلف اللَّبن إذا طال مكثه حتى يتغيَّر، ومنه: خلوف فَم الصَّائم، والمراد به الذين كانوا في عصر رسول الله. منهم ﴿وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة من أسلافهم يقرؤونها ويقفون على ما فيها ولكن لا يعملون بها، وهو صفة ﴿خَلْفٌ﴾، وفيه إشارة إلى أنَّها وصلت إليهم بلا استحقاقٍ منهم، كما يصل المال الموروثُ من المورث الصَّالح إلى الولد الطَّالح.[٤٦٢٧] فليعتبر الذين لا يعملون بمقتضى علمهم.

﴿**يَأْخُذُونَ**﴾ بلا إذنٍ شرعيٍّ ووجهٍ غير رضًى ﴿عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ حطامَ هذا الشيء الأدنى، يعني: الدنيا وما يتَمَتَّعُ به منها.[٤٦٢٨]

والعرض: ما ينقل ويقل لبثه، ومنه سمي العرض القائم بالجسم عرضًا؛ لأنَّه يعرض في الوجود، ولا يجب له من اللبث في الأجسام،[٤٦٢٩] ويطلق بالتحريك جميع متاع الدنيا.

قال عليه السلام: «الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ، يَأْكُلُ مِنْهَا كل برّ وَفَاجِر، وَالْآخِرَةُ وعد صَادِقٌ، يَحْكُمُ فِيهَا مَلِكٌ عادل قَادِرٌ»،[٤٦٣٠] وبالتسكين ما خالف النقدين. وكل ثان أوَّل بدون العكس.

و﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾ مذكَّر الدنيا، وإنما ذكر؛ لأنه لم يذكر الموصوف من نحو الدَّار، بل جعل وصفًا للشيء أو المكان من الدُّنوِّ يقال: دنوت منه دنوًا أي: قربت والدَّني القريب، أو من الدناءة بمعنى الخسَّة يقال: دنى الرجل دناءة ودنوءة أي: صار دنيًّا خسيسًا، ففيه تخسيسٌ وتحقيرٌ له، أمَّا على الثاني فظاهر، وأمَّا على الأوَّل؛ فلأن الشيء الحقير سهل التناول قريب المأخذ.

[٤٦٢٥] **البحر العلوم** للسمرقندي، ١٧٠ظ.

[٤٦٢٦] **ديوان حسان**، ص ٣١٠؛ **اللباب** لابن عادل، ٣٧٠/٩؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ١٨١/٤؛ **الفريد** للهمذاني، ١٥٥/٣.

[٤٦٢٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٨١/٤.

[٤٦٢٨] **الكشاف** للزمخشري، ١٦٧/٢

[٤٦٢٩] **مجمع البيان** للطبرسي، ٥٦/٩.

[٤٦٣٠] **معرفة السنن والآثار**، ٣٦٩/٤ (٦٣٩٥)؛ **مشكاة المصابيح**، ١٤٣٨/٣ (٥٣١٦).

والإشارة بـ﴿هَذَا﴾ لمزيد التحقير، فالراغب فيه أحقرُ منه سيَّما على وجهٍ يحرم من الثواب، ويؤدي إلى أشد العذاب لما أنهم كانوا يأخذون الرِّشي في الأحكام، وعلى تحريف الكلم للتَّسهيل على العامَّة، وفيه ما يقوم به على حكام زماننا الطَّامَّة، وسيظهر ذلك يوم الحاقّة.

والجملة حال من فاعل ﴿وَرِثُوا﴾، أو استئناف أخبر عنهم به ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾: لا يؤاخذنا الله بما أخذنا ويتجاوز عنه، وفاعل ﴿سَيُغْفَرُ﴾ الجار والمجرور، أو مصدر ﴿يَأْخُذُونَ﴾وهو الأنسب بأصل استعمال هذا الفعل، وأوفق بأمانيهم. والذُّنوب كالرشى والتَّحريف وإن عظمت فإن عفوَ الله أعظمُ، ولكن بشرط وهو الإيمان والرجوع منها، وما رواه أمنيته فارغة.

قال عليه السلام: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ».[٤٦٣١]

والجملة استئناف، أوحال من فاعل ﴿وَرِثُوا﴾ لكن المضارع المثبت يكتفي فيه بالضمير نحو: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر ٧٤/٦]، اللَّهم إلا أن يقدرهم كما في: «قمت وأصُكُّ وجهَه» أي: وأنا أصُكُّ.[٤٦٣٢]

﴿**وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ**﴾ مثل ما أخذوه أو لا يأخذوه، والشَّرطية استئناف ببيان غاية حرصهم واستمرارهم على الذُّنوب، أو حال من الضمير في ﴿لَنَا﴾ أي: يرجونها المغفرة جازمين بها وهم مصرُّون على الذُّنوب عائدون إلى مثله غير تائبين عنه، مع أنَّه ممَّا يلزم الكفر كتحريف كلامه تع، وأخذ الرّشى استحلالًا، فمذهبهم إمَّا الجزم بالغفران مع الإصرار على العصيان، والتَّمسك به في الإقدام على المعاصي، أو رجاء المغفرة مع الكفر بلا رجوعٍ عنه، فأين هذا من مذهب أهل السنة القائلين: بأنه لا يجب ثواب المطيع والتائب، ولا عقاب العاصي والمقصر، بل يجوز تعذيب الأوَّل وعفو الثاني، لكن احتمالًا مرجوحًا بحكم الوعد والوعيد، بل الأقرب إليه مذهب الاعتزال، وهو [**٢٣٨**/و] القول يثبت غفران التَّائب بحيث لا يجوز التَّعذيب.

﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

على الخلف الوارثين المرتكبين ما سبق، والقائلين ما ذكر. والهمزة الإنكاريّة دخلت النَّفي، وأفادت الإثبات ﴿مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ الإضافة بمعنى: «في» و﴿أَنْ﴾ مصدرية في محلّ الرَّفع عطف بيان للميثاق، أو بدل منه، أو متعلّق به؛ أي: بأن لا يقولوا، أو مفسِّرة له؛ لأنَّه بمعنى القول فحينئذٍ لا ناهية أي: ألم يقل لهم: لا يقولوا؟ أو مفعول له إنْ فُسِّر الميثاق بما بُيِّن فيه، أي: لئلا يقولوا، و﴿الْحَقَّ﴾ مفعول به، أو مصدر، والمراد توبيخهم على ما قالوا أو فعلوا، ودلالة على أنَّه افتراءٌ على الله، وخروج عن ميثاق الكتاب، والأوَّل الجزم بالمغفرة مع عدم التَّوبة، والإصرار على المعصية، والثاني ترك استحفاظهم كلامَ الله، والتَّمادي في التَّحريف، وأخذ الرِّشى عليه، وإليه يشير قوله تع: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة ٥/٤٤].[٤٦٣٣]

فإن قلت: فعلى هذا: يلائم أن يقال: ألا يفعلوا دون ألا يقولوا.

[٤٦٣١] **مسند أحمد بن حنبل**، ٢٨/ ٣٥٠ (١٧١٢٣)، **سننابن ماجه**، ١٤٢٣/٢ (٤٢٦٠)؛ **سنن الترمذي** ٦٣٨/٤ (٢٤٥٩).

[٤٦٣٢] **حاشية الشهاب**، ١٢٣/١-١٢٤.

[٤٦٣٣] **الكشاف** للزمخشري، ١٦٧/٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٤٢/٦.

قلت: إذا بدّلوا، لا بدّ أن يقولوا: هو من عند الله، ليأخذوا عليه الرّشى، يرشدك إليه قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران ٧٨/٣]

وروي: أن الْمُحِقَّ يجيئهم برشوة، فيخرجون التوراة الصحيحة، فيقرؤنها، وأنّ المبطل يجيئهم بها فيخرجون المحرَّف ويقولون: هذا من عند الله، ثم لا يخفى أن ميثاقَ الكتاب مُبيّن بأن لا يقولوا على الله إلا الحقَّ، على ما يعمُّ جميعَ ما فيه من الأَحكام، أو معلِّل بذلك على أنَّه مفسِّر بنحو ما ذكرنا، وأنَّ المصنِّف مع اعتنائه بأمر القرآن -المصون عن التحريف- قد ينقلُ منه ما ليس فيه؛ ولا أدري كيف أحاطَ بالتوراة قبل التحريف وأخذ منها ما ذكر في تفسير الميثاق،[٤٦٣٤] من أنَّ مَن ارتكب ذنبًا عظيمًا، فإنه لا يغفر إلا بالتوبة،[٤٦٣٥] ففيه تقوُّلٌ بما ليس بحق سيَّما في كلام الله المصون عن التَّحريف وعلى تقدير الصِّحة تعين الحمل على الشِّرك بقواطع من كتاب الله الدَّالة على جواز غفران الذُّنوب بدونها، أو يكون ذلك لهم، وهذا لهذه الأمة المرحومة خاصةً.

والدَّرس: تكريرُ الشيء، يقال: درس الكتاب: إذا كرَّر قراءته، ودرس المنزل: إذا تكرر مرور الأمطار والرياح، حتى انمحى أثره، فإن أخذ من الأول ففيه قطعٌ لمعذرتهم، وأنهم لم يخالفوا الميثاق على جهلٍ وغفلةٍ منها، بل إنهم كانوا يقرؤنها، ويدرسون ما فيها، ويقفون على ما أمر الله وما نهاه عنه، وإن أخذ من الثاني فمعناه: محوه بترك العمل به، والفهم له كقوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة، ١٠١/٢] وهو عطف على: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾؛ لأنَّه تقريرٌ من جهة المعنى، أي: أُخذ عنهم ودَرسوا، أو على ﴿وَرِثُوا﴾؛ أو حالٌ بتقدير «قد» نسقًا على الجملة الشرطية، أو من فاعل ﴿يَأْخُذُوهُ﴾.

فقوله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾ اعتراضٌ ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ وما فيها مما أعدَّها الله لأوليائه، وأهل طاعته ﴿خَيْرٌ﴾ مما يأخذ هؤلاء من عَرَضَ هذا الأدنى ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله ويخافون عقابه، ويعملون بكتابه، ولا يحرِّفونه طمعًا في الرِّشى ونحوه، وفيه تعريضٌ بأنهم يستحبون الحياةالدنيا على الآخرة، ويستبدلونها بها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أتأخذون العرض الحقير بدلَ النعيم الخطير، فلا تعقلون فتعلموا قبح ذلك، فتتركوه أو النسبة بينهما، فلا تستبدلوه وكأنَّهم في ذلك مسلوبوا العقول؛ لأنَّ أدنى العقل يمنع ذلك.

وقرأ نافع وابن عامر وحفص ويعقوب بالالتفات إلى الخطاب،[٤٦٣٦] أو يتلونه إلى هذه الأمَّة، أي: أفلا تعقلون أنتم بحال هؤلاء، وتتعجبون منها قبح فعلهم بوجوه بأنه خلاف الميثاق وبأنَّه افتراءٌ على الله، وبالتأكيد بالدراسة وبالتعريض المذكور، وبالإشارة إلى أنَّه خارجٌ عن مقتضى العقل.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)﴾

يقال: مسَّكْتُ بالشيء، وتَمَسَّكتُ به، واسْتَمْسَكْتُ به، وامتَسَكْتُ به، بمعنًى، أي: اعتصمت به، والباء للآلة.

وقرأ أبو بكر: «يُمْسِكُوَن»[٤٦٣٧] بالتخفيف، فمفعوله محذوفٌ؛ لأنَّه لا يقال: أمسكتُ بالشَّيء إنما يقال: أمسكت الشيء، أي: يمسكون دينهم وأعمالهم بالكتاب، فالباء للآلة، أو للحال. وعلى الأوَّل يؤمنون به ويعملون بما فيه، ويحكمون به،

[٤٦٣٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٧ظ؛ **حاشية كشاف** للتفتزاني، بحث و تحقيق: محمد فاضل جيلاني، ٣٢/٤؛ **حاشية كشاف** للتفتزاني، ص ١٥٤.

[٤٦٣٥] **اللباب** لابن عادل، ٣٧٢/٩.

[٤٦٣٦] ﴿تَعْقِلُونَ﴾ التيسير للداني ص ٣٦٤؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٥/٢؛ اتحاف، ٥٨٦/١.

[٤٦٣٧] **كتاب السبع** لابن مجاهد، ص ٢٩٧؛ **التيسير** للداني، ص ٣٦٤.

وهم مؤمنو أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه، يمسكون بالكتاب الذي جاء به موسى، فلم يحرِّفوه، ولم يتخذوه مأكلة، فيكون جملة مبتدأة معطوفة على قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [الأعراف ١٦٩/٧] من حيث المعنى، والمعطوف والمعطوف عليه مستطرد لذكر قوله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف ١٦٨/٧]، فإنَّ قوله: ﴿وَإِذ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ [الأعراف ١٧١/٧] عطفٌ على قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ [الأعراف ١٦٧/٧] ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ﴾ [الأعراف ١٦٤/٧] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا﴾ [الأعراف ١٦١/٧] ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَاهُ﴾ [الأعراف ١٦٠/٧]

فإنَّه تعالى لَمَّا حكى عن بني إسرائيل: أنهم كانوا قبل مبعث النبي أممًا منهم الصالحون، ومنهم الكفرة والفسقة.[**٢٣٨**/ظ] ذكر أنَّهم بعد مبعثهم أيضًا أداموا على ما كانوا فرقة منهم ما تمسَّكوا بمقتضى التوراة مع أنهم كانوا يقرونها إلى آخر ما ذكر من قبل، وفرقة تمسَّكوا وعملوا بما فيها، أو هم الذين آمنوا مطلقًا من أمَّة محمد عليه السلام، واعتصموا بالكتاب، فيكون معطوفًا على ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، فقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ اعتراض، وبالجملة فالتّمسك بكتاب الله من جلائل الأوصاف، ومن أوصاف الجلائل، وعدم التمسّك من رذائل الصفات وصفة الرذائل.

نقل القرطبيُ عن معاذ بن جبل: «سَيَبْلَى القرآنُ في صدور أقوامٍ كما يَبْلَى الثّوب فيتهافَتَ، يقرؤونه لا يجدون له لذَّةً ولا شهوةً، يَلْبَسون جلودَ الضَّأن على قلوب الذِّئاب، أعمالُهم طمعٌ لا يخالطه خوفٌ، إن قصَّروا قالوا: سنبلُغ، وإن أساؤوا قالوا: سَيُغْفَرُ لنا؛ إنَّا لا نشرك الله شيئًا.[٤٦٣٨]

وإفراد إقامة الصَّلاة بالذكر مع اندرجها في التَّمسك بالكتاب للتنبيه على فضلها، حتى كأنَّها ليست من جنس التَّمسك به تنزيلًا للتغاير في الوصف منزلةَ التَّغاير في الذات، فإنَّها أمُّ العبادات، ومجمع القربات، ومنهاة السيئات، وعماد الدين، وعرس الموحِّدين، ومناجات رب العالمين

﴿**إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ**﴾ على الأوَّل خبر الموصول على تقدير العائد، أي: «منهم»، أو وضع الظاهر موضعَ المضمر تنبيهًا على أنَّ شأنَهم الإصلاح، وأنَّه كالمانع من التضييع، وإيماءً إلى أنَّ السابقين مفسدون بما يفعلون، أو استئناف لتعليل الخبر المحذوف أي: نُوفِّيهم أجورهم لأنَّا لا نضيع أجر المحسنين،[٤٦٣٩] وعلى الثاني اعتراض، أو استئناف لبيان حسن حال المتقين، والمتمسّكين الذي يقتضي حسن مألهم، وكانت الأخرة خيرًا لهم.

روى ابن مسعودٍ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ اتَّبَعَ كِتَابَ اللهِ هَدَاهُ اللهُ مِنَ الضَّلَالَةِ وَوَقَاهُ سوءَ الحساب يومَ القِيَامَةِ».[٤٦٤٠] روى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كِتَابَ اللهِ هو الحبل الممدود من السماء إلى الأرض».[٤٦٤١]

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم:«أوَّلُ ما افترضَ اللهُ على أمَّتِي الصلواتُ الخمسُ، فمن كان ضيَّعَ شيئًا منها يقولُ اللهُ تباركَ وتعالى: انظروا إلى أعماله هَلْ تجدونَ لعبدي نافِلَةً مِنَ صلاةٍ تُتِمُّونَ بِهَا ما نَقَصَ مِنَ الفريضَةِ»؟[٤٦٤٢] وعنه صلى الله عليه وسلم: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ كَانَ أَتَمَّهَا كُتِبَتْ لَهُ تَامَّةً، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَتَمَّهَا قَالَ اللهُ للملئكة:

[٤٦٣٨] **سنن الدارمي، ٢١٠٧/٤** (٣٣٨٩).

[٤٦٣٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٨٥/٤.

[٤٦٤٠] **المعجم الكبير** للطبراني، (٤٨/١٢) (١٢٤٣٧).

[٤٦٤١] **سنن الترمذي**، ٦٦٣/٥ ٣٧٨٨.

[٤٦٤٢] **حلية الأولياء** لأبي نعيم، ٢٣٣/٥؛ **كنز العمال**، ٢٧٦/٧ (١٨٨٥٩).

انْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَتُكْمِلُونَ بِهَا فَرِيضَةً؟ ثُمَّ الزَّكَاةُ كَذَلِكَ، ثم تُؤْخَذُ الْأَعْمَالُ عَلَى ذَلِكَ».[٤٦٤٣] جعلنَا الله من الممسكين بكتابه والمقيمين الصلاة بحرمة محمدٍ وآله.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)﴾

يقال: نَتَقْتُ الشَّيءَ أَنْتُقُهُ نَتْقًا، إذا قلعته ورفعته،[٤٦٤٤] ونتقت الدَّابَّة صاحبها حين تعدوا به، أي: حرَّكته ورفعته.[٤٦٤٥] ويدلُّ عليه قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [النساء، ٤/١٥٣]، أو النَّتق: قلعُ الشيء من موضعه والرَّمي به يقال: نتق ما في الجراب إذا رمى به وامرأة ناتق مِنتاق إذا كثر ولدها؛ لأنَّها ترمي بهم رميًا[٤٦٤٦] فح لابدَّ من التَّضمين ليصح تعليق قوله: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ به، أي: رفعناه بنتقه فوقهم، فيكون ظرفًا للمضمّن، وعبارته قدس سره: «قلعناه ورفعناه فوقهم».[٤٦٤٧] فالأوَّل تفسير النَّتق، والثاني تقدير للناصب، ولا بعد أن يكون إشارة إلى التَّضمين، ويجوز أن يكون حالًا مقدرةً من ﴿الْجَبَلَ﴾ ولكنَّها غير مؤكّدة؛ لأنَّ رفع الجبل فوقهم تخصيصٌ له ببعض جهات العلوِّ مع أنَّ النتق قد لا يكون فيه معنى الرَّفع كما فهمت.

وأيقنوا وعَلِموا ﴿أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ ساقط عليهم؛ لأنَّ الجبل لا يثبت في الجوِّ عادةً على ظاهر الحال، ولأنَّهم كانوا يوعدون به، فلولا علمهم لما أجابوا حذرًا مما أوعدوا به. وإنما أطلق الظنّ؛ لأنَّه لم يقع متعلّقة، فالظنُّ أقرب إليه من الاعتقاد الجازم، وحمل الظنّ على ظاهره بناءً على احتمال عدم وقوعه بحسب خرق العادة خلاف الظاهر كيف وشأنهم الأُلفة بالعادة، وإنكار الخوارق وبهذا التقرير سقط ما قال إبن الكمال: «عدم ثبوته في الجوِّ لا يقتضي تيقّنهم بوقوعه بهم؛ لأنَّه على جري العادة، وأمَّا على تقدير خَرْقِه فلا بُعد فيه، وكذا لا يقتضيه إيعادهم به وعدم وقوع المتعلّق لا يصلح وجهًا لإطلاق الظنِّ على الاعتقاد الجازم، لعدم الفرق بينهما في عدم الاقتضاء لوقوعه.[٤٦٤٨] والقصة مذكورة في الكشاف[٤٦٤٩] وغيره.

وذكر أنَّ موسى عليه السلام قال لهم: هذا كتاب، أتقبلونه بما فيه؟ فإن فيه بيان ما حلّ لكم وما حرِّم عليكم، ومأأمركم وما نهاكم. قالوا: انشر علينا ما فيها، قالوا: لا، حتى نعلمَ ما فيها، كيف حدودها وفرائضها. فراجعوا موسى مرارًا، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع وارتفع في السماء، حتّى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء، قال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربي، لئن لم تقبلوا التوراة [**٢٣٩**/و] بما فيها لأرمينّكم بهذا الجبل.[٤٦٥٠]

والجملة حالٌ بتقدير «قد» أو عطف على ﴿نَتَقْنَا﴾ فيكون محلُّه جرًّا بـ«إذ»، أو مستأنف ﴿خُذُوا﴾ على إضمار القول، أي: رفعناه. وقلنا: خذوا أو قائلين ذلك ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجِدٍّ في الهمة وقصد في العزيمة على تحمُّل مشاقه وقبول تكاليفه. وهو حالٌ من الواو ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ بالعمل به ولا تتركوه كالمنسيّ، أو اذكروا ما فيه من التّعريض؛

[٤٦٤٣] **سنن ابن ماجه**، ٢/٤٢٥ (١٤٢٥)؛ **سنن الترمذي**، ٢/٢٦٩ (٤١٣).

[٤٦٤٤] **الفريد** للهمذاني، ٣/١٥٩.

[٤٦٤٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/١٨٥.

[٤٦٤٦] **مفاتيح الغيب** للرازي ١٥/٤٥؛ **الدر المصون** للسمين الحلبي

[٤٦٤٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٥٨١.

[٤٦٤٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/١٨٦.

[٤٦٤٩] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٦٩.

[٤٦٥٠] **تفسير القرآن العظيم** لابن كثير، ٦/٤٣٢.

للثّواب العظيم، فارغبوا فيه، أو خذوا ما أتيناكم من الآية العظيمة بقوَّة إن كنتم تطيقونه، كقوله: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ [الرحمن٥٥/٣٣].

﴿**وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ**﴾ من الدلالة على القدرة الباهرة، والإنذار،[٤٦٥١] فعلى هذا، نَتقُ الجبل لإظهار المعجز لا غير، كما في الآية المستشهَد بها، أي: إن كنتم تطلبون آيةً قاهرةً، وتعترفونها، خذوا ما أتيناكم إن كنتم تطيقونه.[٤٦٥٢]

وقرئ: «واذَّكَّرُوا»[٤٦٥٣] ما فيه، وأصله: «إذ تكروا» بمعنى: تذكَّروا وتفكَّروا، فكأنَّهم أمروا بالتَّذكر والتَّفكر، وهي قرينة من المشهورة؛ لأنَّهم إذا تذكَّروا ذكروا ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق. فتستكملوا بذلك القوة النظرية والعمليَّة، فعلى هذا الاتِّقاء بمعناه اللغويّ، ويقدّر له مفعول، أو يعملون عمل أهل التقوى في المحافظة على ما أُمرتم به ونُهيتم عنه، فعلى هذا التقوى مجاز عن العمل عمل أهل التقوى، أو ينتظمون في زمرتهم؛ لأنَّ الأخذ بالعزم والعمل بما فيه شعارهم، فهذا يجوز بالالإتقاء عن التشبُّه بالأتقياء.

﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢)**﴾

واذكر يا محمد وقتَ أخذه، أو الحادث فيه ﴿مِنْ﴾ متعلّقٌ بـ﴿أَخَذَ﴾ ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بدل ﴿مِن بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بإعادة الجارّ، كقوله: ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ﴾ [الأعراف، ٧/٧٥] بدل البعض من الكلّ.

وقيل: بدل اشتمال ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ مفعول به لـ﴿أَخَذَ﴾، وهو يقع جمعًا، كقوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء ١٧/٣] ومفردًا، كقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران ٣/٣٨].

وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر: ﴿ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾[٤٦٥٤] لتخلص الكلمة إلى المقصود منها، ولأنَّ ظهور بني آدم استخرج منها ذريات متناسبة أعقاب بعد أعقاب.

قال أصحاب الدراية: أخرجَ من أصلاب بني آدم نسلَهم على ما يتوالدون قرنًا بعد قرنٍ على ما مرَّ الزمان.

وما رواه عمر عن النبيّ: «خلَقَ آدَمَ، ثمَّ مسَحَ ظَهرَه بيَمينه، فاستَخرَجَ منه ذُرِّيَّةً، فقالَ: خَلقْتُ هؤلاء للجنَّةِ، وبعَملِ أهْلِ الجنَّةِ يَعمَلونَ، وَمسَحَ ظَهرَه بيده، فاستَخرَجَ ذُرِّيَّةً، فقالَ: خَلقْتُ هؤلاء للنّارِ، وبعَملِ أهْلِ النّارِ يَعمَلونَ».[٤٦٥٥] فيحمل الإخراج على توليد بعضهم من بعضٍ على ما مرَّ الزمان أيضًا، فالمراد من بني آدم وأولاده، فكأنَّه صار اسمًا للنَّوع، ولكن اقتصر في الحديث على الأصل، والماسح الملك الموكّل على تصوير الأجنة والإسناد إليه؛ لأنَّه بأمره أو الله، فالمسح تمثيل أو من المساحة بمعنى التَّقدير.

[٤٦٥١] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٦٩.

[٤٦٥٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٦٤٦.

[٤٦٥٣] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٦٩؛ **معجم القراءات**، ٣/٢١٤.

[٤٦٥٤] **كتاب السبع**، ص ٢٩٨؛ **التيسير**، ص ٣٦٤؛ **النشر** لابن الجزري ٢/٢٠٥.

[٤٦٥٥] **موطأ مالك**، ٢/٨٩٨ (٢)؛ **مسند أحمد**، ١/٢٩٨ (٣١١)؛ **سنن أبي داود**، ٧/٩٠ (٤٧٠٣)؛ سنن **الترمذي**، ٥/٢٦٦ (٣٠٧٥).

وقال أرباب الرواية: «خَلَقَ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَسَقَطَ كُلُّ نَسَمَةٍ مِن ذُرِّيَّتِهِ إِلى يَوْمِ القِيامَةِ»[٤٦٥٦] فأخذ منهم المثاق. وحديث ابن عمر وإن أمكن تأويله، لكن لا يمكن تأويل حديث ابن عبّاس إلا أن يقال: إنه من اللآحاد، فلا يترك به ظاهر الكتاب، وهو يؤدي إلى سدّ باب كبير من الفتوحات.

عن ابن عباس عن النبي ع م:«أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان-يعني: عرفة- فأخرج من صلبه كل ذرِّيَّة، فنثرهم بين يديه كالذَّرِّ، ثم كلَّمهم قِبَلًا قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ إلى آخرهوبه استدلَّ: أنَّ من مات صغيرًا دخل الجنة؛ لإقراره في الميثاق الأوَّل ومن بلغ لم يغنه الميثاق الأوَّل شيئًا،[٤٦٥٧] بل يكون ذلك حجَّة عليه إن أخلَّ بالتَّصديق، حيث ضيَّع تمكّنه من ذلك بالنَّظر الصحيح فما نصب له من دلائل الوهيَّة، وأقلّها أنَّه أخرجهم من أصلاب آبائهم، ونقلهم إلى أرحام أمَّهاتهم إلى أن يبلغوا بتقليب الأحوال عليهم من نطفةٍ، ثم من علقةٍ، ثم من مضغةٍ مخلَّقةٍ وغير مخلَّقةٍ إلى أن كانو كاملي العقل مستعدِّين للاستدلال بما شاهدوا من آثار صنعه، وهي الفطرة السَّليمة.

والجواب عمَّ قيل: من أنَّ المناسب حينئذٍ من ظهره وذرِّيَّته أنَّ المراد آدم و ذرِّيَّته، لكن غلَّب إخراج الذَّراري من أصلاب أولاده نسلًا بعد نسلٍ على ذراري نفسه؛ لأنَّ الأحكام في الاحتجاج على الأولاد بشهادة قوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنْفُسِهِمْ﴾، ونحوه، لكن في إرادة الامتنان، قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [سورة الأعراف، ١١/٧] والمراد آدم، بقرينة قوله: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [سورة الأعراف، ١١/٧] ما روي عن الكسائي: أنه قال لم يذكر ظهر آدم، وإنما أُخرجوا جميعًا من ظهره؛ لأنَّ الله أخرج ذرِّيَّة آدم بعضهم من ظهور بعضٍ، على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء، واستغني عن ذكرظهر آدم؛ لما عُلم أنهم كلُّهم بنوه أخرجوا من ظهره.

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾

عطف [**٢٣٩**/ظ] على ﴿أَخَذَ﴾ فموضعه جرٌّ بـ﴿إِذْ﴾ وأشهد بعضهم على بعض حين قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وليس نفي، واستفهام التَّقرير أكَّد معنى النَّفي، والباء في الخبر زادته تأكيدًا ﴿قَالُوا بَلَى﴾ أجابوا به؛ لإثبات ما بعد النَّفي وتحقيق إيمانهم، ولو أجابوا بـ«نَعَمْ» لكفروا؛ لأنَّه للتَّصديق لما سبق من نفي أو إثبات، و«بلى» لإثبات ما بعد النَّفي، وفيه نظرٌ؛ لأن هذا النَّفي صار مقرَّرًا، فكيف يكفرون بتصديق التقرير؟ وإنما المانع من جهة اللُّغة، وهو أنَّ النَّفي مطلقًا إذا قُصد إيجابه أُجيب بـ«بلى»وإن كان مقرَّرًا بسبب دخول الاستفهام عليه، وإنما كان ذلك تغليبًا لجازت اللَّفظ ولا يراعى جانب المعنى إلا في شعر،[٤٦٥٨] ثُمَّ إنَّ ذلك على ظاهره على رأي أرباب الرِّواية، وعلى رأي أصحاب الدِّراية أنَّه أشهدهم على أنفسهم بأن نصب لهم من الأدلَّة على ربوبيَّته ووَحدانيَّته، وركب فهم العقول والبصائر، وجعلها مميِّزةً بين الحق والباطل، فنزّل تمكينهم من العلم بربوبيَّته بنصب الدلائل، وخلق الاستعداد فيهم منزلة الإشهاد، ويمكنهم من معرفتها والإقرار بها منزلة الاعتراف تمثيلًا على تشبيه الحال بالحال، وتخيُّلًا على الإيقاع في الخيال، وتصويرًا للمعقول بصورة المحسوس؛ لأن أُلفَ العامَّة بالمحسُوسِ أتمُّ وأكملُ وإدراكهم لها أعمُّ وأشملُ، ونظيره: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل ٤٠/١٦] ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[فصلت١١/٤١] وقوله:

[٤٦٥٦] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٥٠/١٥.

[٤٦٥٧] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٣٨٠/٩.

[٤٦٥٨] **اللباب** لابن عادل، ٣٨٣/٩.

قالـــت لهـــا ريـــحُ الصَّـــبَا: قَرْقَـــارِ   وَاخْـــتَلَطَ الْمَعْـــرُوفُ بِالْإِنْكَـــارِ،[٤٦٥٩]

أي: قَرْقِرْ وصوِّت، والضمير للسحاب. «واختلط المعروف»: من الأرض بالمنكر منها في عموم المطر، أو اختلط النَّافعُ من المطر بالضَّار، أو اختلط المطر المعروف بالمنكر من البرق، والسّيل والصَّاعقة.[٤٦٦٠]

وقال **الشيرازي**[٤٦٦١]: ليس المراد بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ إلا أنَّه نصب الأدلة على الربوبيَّة، وليس المراد بقولهم: ﴿بَلَى﴾ إلَّا تمكَّنهم من الاستدلال فهما استعارتان مصرحتان، وكذلك شبّه إيجاد الله في ترتّب الأثر عليه من غير توقُّف بقوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس ٨٢/٣٦] أيضًا استعارة تصريحية وشبه حال الله مع السموات والأرض وحالهما مع الله في سرعة تأتيهما وانقيادهما لما أراد منهما بقوله: ﴿ائْتِيَا﴾ وقولهما: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت ١١/٤١] فهما أيضًا استعارتان، وشبّه تصريف الرّيح السحاب وتسويقه إيَّاه، بحيث يترتب عليه الرَّعد بقوله: «قَرْقَار» فليس في كلّ منها إلا تشبيه فعل، أو حال بقول وليس هناك، فهي استعارة مصرّحة ولا تظنن أنها من الاستعارة التَّمثيلية؛ لأنَّ فيها تشبيه حال شيء بحالٍ آخر، وههنا تشبيه حال شيء بقوله: لا بقول آخر.

وقال قدس سره: ويدل على رأي أصحاب الدِّراية قوله: ﴿بَلَى﴾ ووجه الدَّلالة أنَّه تعالى، وإن كان له أن يكلّم عباده إلا أنَّ العقل السليم يأبى عن أن يتكلم الذريات المأخوذة من الأصلاب بلسان المقال؛ لأنَّ كون تلك الذرّيات تامّ الخلقة سويّة الأعضاء يقتضي أن لا يكون خلق الإنسان من النطفة، بل أن يكون خلقًا على سبيل الإعادة والإجماع على أنَّ خلقه منها هو الخلق المبتدأ، واستدلّ بعضهم بأنَّ مجموع تلك الذُّريات يمتنع حصولها بأسرها في ظهر آدم، ويمكن أن يجاب عن الأوّل: بأن خلقها من النُّطفة لا يكون على سبيل الإعادة بالنَّظر إلى الخلقة الظاهرة، والخلقة الميثاقيّة خلقة أخرى.

وعن الثاني: بأن البنية ليست شرطًا عندنا لحصول الحياة والعلم، فإن الجزء الذي لا يتجزأ، قابل للحياة والعقل، فإذا جعلنا كلَّ واحد من تلك الذرّات جوهرًا فردًا، فلِمَ قلتم إن ظهر آدم لا يتسع لمجموعها؟ هذا إذا قلنا: إن الإنسان عبارةٌ عن الجواهر الفردة، وأما إذا قلنا: إن الإنسان هو النفس الناطقة وأنَّه جوهر غير متحيّز، ولا حال في المتحيّزة فالسؤال زائل.[٤٦٦٢]

وأمَّا ما قيل: لو صحَّ القول بأخذ الميثاق لَوجب أن يتذكره الإنسانُ الآنَ، فمدفوع بأن الله هو خالق العليم بالأحوال الماضية، وهو فاعل مختار جاز أن لا يخلقه.

﴿شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾

شهدنا، أما من الملائكة، فإن الذرِّيَّة لَمَّا قالوا: «بلى» قال تعالى لهم: اشهدوا، فقالوا: شهدنا عليهم بالإقرار كراهة أن تقولوا، أو لئلا تقولوا فيتعلّق ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ بقول الملائكة ﴿شَهِدْنَا﴾، وكلام «الذرّية» انقطع عند قولهم: «بلى» فيحسن

[٤٦٥٩] **لأبي النجم العجلي**. في ديوانه ٢٠٣-٢٠٤؛ **الكشاف** للزمخشري، ١٦٩/٢.

[٤٦٦٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٧ظ؛ **حاشية كشاف** للتفتزاني، بحث و تحقيق: محمد فاضل جيلاني، ٥٣/٤؛ **حاشية كشاف** للتفتزاني، ص ١٥٦-١٥٧.

[٤٦٦١] محمود بن مسعود الفارسي، قطب الدين الشيرازي، قاض، عالم بالعقليات، مفسر. من كتبه: فتح المنّان في تفسير القرآن. مات سنة٧١٠ هـ. انظر: **الدر** الكامنة ١٠٨/٥؛ و **بغية الوعاة**، ٢٨٢/٢. **ومفتاح السعادة**، ٢٠٤/١.

[٤٦٦٢] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٥٤/١٥-٥٥.

الوقف عليه، وأمَّا من الذُّرية فقوله: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ مفعول متعلّق بقوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ بكذا كراهة أن تقولوا، أو لئلا تقولوا فلا وقفَ على ﴿شَهِدْنَا﴾؛ لـ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ متعلِّق بـ﴿أَشْهَدَهُمْ﴾ فلا يقطع عنه أمَّا عدم احتجاجهم بالغفلة، فللتنبيه بالدليل، وأمَّا عدم احتجاجهم بالتَّقليد فلبطلانه عند قيام الدَّليل والتَّمكن [**٢٤٠**/و] من العلم به، واستدلَّ به أصحاب الدِّراية على ما ذهبوا إليه.

فإنَّ إقرار الذُّرية إن كان عن اضطرار، حيث كُوشفوا بحقيقة الأمر، وشاهدوه عين اليقين، فلهم أن يقولوا يوم القيامة: شهدنا يومئذٍ، فلما زال عنَّا عِلْمُ الضرورة، ووُكِّلنا إلى آرائنا كان منّا مَن أصاب، ومنّا من أخطأ، وإن كان عن استدلال، ولكنهم عُصموا عنده من الخطأ، فلهم أيضًا أن يقولوا: أُيِّدنا يوم الميثاق بتوفيقٍ وعصمةٍ، وحُرِّمناهُما من بعدُ، ولو أُمْدِدنا بهما أبدًا، لَكانت شهادتنا في كلِّ حين كشهادتنا في اليوم الأوَّل.[٤٦٦٣]

فقد تبيَّن أن الميثاق: ما ركَّب الله تعالى فيهم من العقول، وأتاهم من البصائر؛ لأنَّها هي الحجَّةُ الباقية المانعة لهم عن قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾؛ لأنَّه تعالى لَمَّا بيَّن وأوضح دلائلَ وحدانيَّته،وصِدْقِ رُسلِه فيما أخبروا به، وأبدع نوع الإنسان على الفطرة السَّليمة التي يتمكنون بها على معرفة الحقِّ استدلالًا بتلك الدَّلائل لم يتأت لهم أن يقولوا: إن كنا عن هذا غافلين، ولأن يعتذروا ببطلان أسلافهم؛ لأن الأدلَّة المنصوبة وتمكّنهم من العلم بها قائمٌ معهم ولا غدر لهم في سلوك طريق الضَّلال أصلًا، وأجاب عنه أرباب الرِّواية بأنَّه إن اختير الشَّق الأول من التَّرديد الزموا بأنَّكم ما وُكِّلتم إلى رأيكم، بل أرسلنا رسلنا تترى لتوقظوكم عن شبه الغفلة، كما قال تعالى ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء ١٦٥/٤] وقريب منه ما قيل: إنَّه تعالى أوضح الدَّلائل على وحدانيته، وصدق رسله فيما أخبروا، فمن أنكره كان معاندًا ناقضًا للعهد، ولَزِمَتْه الحجةُ، ونسيانهم، وعدم حفظهم لا يسقط الحجاج بعد إخبار المخبِرِ الصَّادق. وبه يسقط ما قيل: إنَّ المكذبين من المشركين يكذِّبون بجميع ما جاءتهم به الرُّسل من هذا وغيره، وهذا جعل حجَّةً مستقلَّةً عليهم، فدلَّ على أنَّه الفطرة التي فطروا عليها، وإن اختير الشِّقُّ الثاني فهو مشترك الإلزام؛ لأنَّه إذا قيل لهم أيضًا: ألم نَمْنحْكُم العقول والبصائر؟ فلهم أن يقولوا: فإذا حُرِّمنا اللطف والتَّوفيق، فأيُّ منفعة لنا في العقل والبصيرة؟ فما جوابكم؟ فهو جوابنا.[٤٦٦٤]

والروايات متعاضدةٌ فيما قلنا، منها ما رَوى الطبري سنده عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أُخِذُوا مِنْ ظَهْرِه كَمَا يُؤْخَذُ بالمِشْطِ مِنَ الرَّأس، فَقالَ لَهُمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قالُوا بَلى، قالَتِ المَلائِكَةُ: ﴿شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غافِلِينَ﴾[٤٦٦٥]

وقال السُّدِّيُّ: أخرج الله آدم من الجنَّة ولم يهبط من السَّماء، ثُمَّ إنَّه مسح صفحة ظهره اليمنى، وأخرج منه كهيئة الذَّرِّ بيضاء، فقال: ادخلوا الجنة برحمتي، ثم مَسح صفحة ظهره اليسرى، فأخرج منه كهيئة الذَّرِّ سَوْدَاء، فقال: ادخلوا النَّار ولا أبالي، ثم أخذ منهم الميثاق، فأعطاه طائفة طائعين وأعطاه طائفة كارهين على وجه التقية.

﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)﴾

أبعدَ تأسيس آبائنا المبطلين الشِّرك، وجعلِهم إياه سنةً لنا تهلكنا بما فعلوه؟![٤٦٦٦]

[٤٦٦٣] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٥٣/٦.

[٤٦٦٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٥٩/٦.

[٤٦٦٥] **جامع البيان** للطبري، ١٦٥/١٠.

[٤٦٦٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/ ١٨٨.

وههنا تلفيق حقيق وتطبيق دقيق **للشيرازي**: «ظواهر ألفاظ الآية دافعةٌ لظاهر حديث عمر، لكن لَمَّا كان معلومًا في العقل أنَّ بني آدم من ظهره، فكُلُّ ما أُخرج من ظهورهم في «لا يزال» هم الذرّ، أخرجهم الله في الأزل عن صلب آدم، وأخذ منه الميثاق الأوَّل، ليعرفَ منه أنَّ هذا النَّسل الذي يخرج في «لا يزال» من أصلابهم هو الذّرّ الذي أخرج في الأزل من صلبه ع م، وأُخذ منه الميثاق الأوَّلُ، وهو المقاليُّ الأزليُّ، كما أُخذ منهم في «لا يزال» بالتَّدريج، حين أخرجوا الميثاق الثاني، الحالي «اللايزاليّ». ولَمَّا كان لله ميثاقان مع بني آدم؛ أحدهما: يهتدي إليه العقول من نصب الأدلة الباعثة على الاعتراف الحالي، وثانيهما: المقاليُّ الذي لا يهتدي إليه العقل، بل يتوقَّف على توقيف واقف على أحوال العباد من الأزل إلى الأبد، كالأنبياء، أراد النَّبي أن يُعْلِم الأمَّة ويخبرهم أنَّ وراء الميثاق الذي تهتدون إليه بعقولهم ميثاقًا آخر أزليًّا، فقال ما قال من مسح ظَهْر آدم في الأزل، والميثاق الآخر. وهذا قريب من الأسلوب الحكيم، على منوال قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾ [البقرة ٢/٢١٥] سألوا عن بيان ما ينفقون، وأجيبوا ببيان المصرف، وضُمِّن بيانَ ما ينفقونه كذا ههنا: سأل الصحابيُّ عن بيان الميثاق الحالي، وأجاب عليه السلام عن المقالي، وضُمِّن فيه الحاليُّ على ألطف وجه».[٤٦٦٧]

ثُمَّ إنَّ الآية تذييلٌ لما قبله تعميمًا بعد التَّخصيص، وإلزامًا لليهود بمقتضى الميثاق العامّ بعدما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم المدلول عليه بقوله: ﴿وإذ نتقنا الجبل﴾ لقوله: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور﴾ وإظهارًا لتماديهم في الغيّ بعد الميثاقين الوثيقين واحتجاجًا عليهم بالحجج السَّمعيَّة [**٢٤٠**/ظ] ومنعًا لهم عن التَّقليد، وحملًا على النَّظر والاستدلال، كما صرَّح به فيما بعده، أو عطف على ما قبله؛ لأنَّه أظهرُ منه نظرًا إلى ظاهر اللَّفظ، ولأنَّه إذا أخصَّ بالمشركين فالعطف أولى منه والدَّليل على أنَّها فيهم و في أولادهم قوله: ﴿أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل﴾ فيخصّ بنو آدم بأسلاف اليهود، حيث قالوا: ﴿عزير بن الله﴾ والذُّرية بأخلافهم في عهده عليه السلام؛ لأنَّ هذه الآية على نمط الآيات التي عطف عليها، هي وعلى نمط الآيات التي عطفت عليها ولكن مع هذا التَّخصيص نظرًا إلى ظاهر اللَّفظ، فالأمر كذلك في حقِّ عموم الناس أيضًا، وليس ذلك الأخذ مختصًّا بهم على ما مرَّ التقرير.

وأنت خبير: بأنَّ الحمل على التزيل أتمُّ فائدةً وأعمُّ عائدةً وأنسبُ بألفاظ الآية من البداية إلى النِّهاية، وأوفق لما ورد في الرِّواية، وألْيَمُ لما قرر بالدِّراية. وتعليل أخذ الميثاق بكراهة قولهم المذكور لا يستلزم وقوع ذلك، حتى يدلَّ على أنَّها فيهم. والكاف في محلِّ النَّصب على أنَّه صفة مصدر محذوف، والإشارة إلى ما فهم من السّباق، أي: تفصيلًا مثل ذلك التَّفصيل البليغ.

﴿**نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ**﴾ نميّز بعضها عن بعض قطعًا لمعذرتهم ليتمَكَّنوا على الاستدلال، ويتفطَّنوا على حقيقة الحال ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن التَّقليد والباطل إلى مقتضى الميثاق من الحقِّ الكامل.

وقيل: إرادة أن يرجعوا عن شركهم تفصّلها.[٤٦٦٨]

وقال القشيري:أخبر بهذه الآية عن سابق عهده، وصادق عقده، وتأكيد وُدِّه، بتعريف عبده، وفي معناه أنشدوا:

سُـــقيًا لليْلَـــى واللَّيَـــالِي الَّـــتي   كُنَّـا بلَيْلَـى نَلْتَقِـي فِيهَـا[٤٦٦٩]

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥)﴾

[٤٦٦٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٦٥٧-٦٥٨.

[٤٦٦٨] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٧١.

[٤٦٦٩] **لطائف الإشارات** للقشيري، ١/٣٦٦.

على اليهود؛ ليتَّعظو به، وينزجروا عمَّاهم فيه، ويخافوا مآل ما كانوا عليه. والآيات من نحو تعليم حجج التوحيد وتفهيم أدلَّته، حتى صار عارفًا بها، ويعلم ما في الكتب الإلٰهية والأسرار الرَّبانية، وفي جمعها وإضافتها إلى نون العظمة شأن لا يخفى، والمراد عالمٌ من علماء بني إسرائيل، نحو: «البَسُوس»، أعطي ثلاثُ دَعَوَات، فقالت امرأتُه: اجعل لي منها دعوةً واحدةً، فقال: فما تُريدين؟ قالت: ادعُ أن أجعل أجمل امرأة، فدعا لها نهاية حسنها رغبت عنه فغضب، فدعا عليها، فصارت كلبةً، فقال له: بنوها ليس لنا على هذا قرار، فدعا فعادت كما ما كانت، فذهبت فيها الدعوات،[٤٦٧٠] أو بَلْعامُ بن بَاعَوراء من الكنعانيّين؛ أُوتي علمَ بعض كتب الله. كان في زمن موسى، وكان بحيث إذا نظر يرى العرش، وكان في مجلسه اثني عشر ألف محبرة للمتعلِّمين، ثم صار بحيث كان أوَّل من صنَّف كتابًا أنَّ ليس للعالم صانعٌ[٤٦٧١] نعوذ بالله.

فغزا موسى قومه، فاستشفعوا إليه، وبذلوا له الأموال، فدعا عليه فحار موسى في التِّيه، وكان مجاب الدعوة وعنده اسم الله الأعظم، فلمَّا استجيب له ووقع موسى وبنوا إسرائيل في التِّيهِ بدعائه، فقال: يا رب بأيِّ ذنبٍ وقعنا في التيهِ؟ فقال تعالى: بدعاء بَلْعام بن بَاعَوراء، فقال صلى الله عليه وسلم: كما سمعت دُعاءَهُ عليَّ، فاسمع دعائي عليه، أن ينزع عنه اسم الله الأعظم والإيمان، فسلخه اللهُ بما كان عليه.[٤٦٧٢]

وضعف بأنَّ الظاهر أنَّ احتباسهم في التِّيه كان بقولهم: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة، ٢٤/٥] وكيف يليق لموسى أن يدعو على بلعام بزوال الإيمان، وكان مبعوثًا إلى الناس فيدعوهم إلى الإيمان، وعلى تقدير صحَّة هذه الرِّواية، يقال: إنَّ موسى عليه السلام إنَّما دعى على بَلْعَام بعد ان ثبت عنده أنَّ بلعام كفر وارتدّ عن الإيمان بدعائه على موسى، وإيثاره الحاة الدنيا، فدعى عليه مقابلة لدعائه عليه.

روي: أنهم لما ألحُّوا له بأن يدعوَ على موسى قال: ويلكم نبيُّ الله ومعه الملائكةوالمؤمنون، وإن فعلت ذلك خرجت من الدنيا والآخرة، فألحّوا عليه فقال: استأمر ربي فأتى في المنام، فقيل له: لا تدع عليهم، فألحّوا عليه، وأعطوه هديّة، فافتتن فعزم على الدعوة،[٤٦٧٣] أو أُمَيَّة ابن أبي الصَّلت، كان قد قرأ الكتب وعلم أنَّ اللهم مرسِل في ذلك الزمان رسولًا، وتوقَّع أن يكون هو، فلمَّا بُعث محمد حسده وكفر به.[٤٦٧٤]

قال عليه السلام: «مَثَلُ بلعام بن باعوراء في بني إسرائيل كمثل أمية ابن أبي الصلت في هذه الأمة»[٤٦٧٥] وقصتهم بالتَّمام مذكورة في **المعالم**[٤٦٧٦] وغيره.

﴿**فَانْسَلَخَ مِنْهَا**﴾ أي: من الآيات بأن كفر بها وخرج عن حكمها؛[٤٦٧٧] لأنَّ السلخَ حقيقةً هو: كشطُ الجلد عن المسلوخ، وإزالته عنه بالكلِّية. فيقال: لكلِّ مَن فارقَ الشيء بالكلّية: انسلخ منه.[٤٦٧٨] ففي هذه الكناية من المبالغة ما لا يخفى.

[٤٦٧٠] **تفسير ابن أبي حاتم**، ١٦١٧/٥؛ **أسباب النزول** للواحدي، ص ٢٢٣-٢٢٤؛ **تفسير القرآن العظيم** لابن كثير، ٥٠٧/٣-٥٠٨؛ **الجامع لأحكام القرآن**، ٣٨٥/٩.

[٤٦٧١] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٣٨٣/٩.

[٤٦٧٢] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٥٧/١٥؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٣٠١/٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٣٨٦/٩.

[٤٦٧٣] **معالم التنزيل** للبغوي، ٣٠١/٣.

[٤٦٧٤] **معالم التنزيل** للبغوي، ٣٠١/٣. **تفسير ابن كمال باشا، ٤/ ١٨٩.**

[٤٦٧٥] **تارخ دمشق، ٤٠٦/١٠**

[٤٦٧٦] **معالم التنزيل** للبغوي، ٣٠١/٣.

[٤٦٧٧] **تفسير ابن كمال باشا، ٤/ ١٨٩.**

﴿**فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ**﴾ فلحقه وأدركه وصار قرينًا له، يقال: تبعتُ القومَ وأَتْبعتُهم، أي: تَلَوْتُهم فلحقتهم، وفيه مبالغة حيث جعل إمامًا للشيطان، كما قيل: و

كنت فتًى من جند إبليس فارتقى   بي الحال حتى صار إبليس من جندي.[٤٦٧٩]

ويقال: أَتْبَعْتُه الشيءَ فتَبِعَه. فحينئذٍ المفعول الثاني محذوفٌ، أي:[**٢٤١**/و] فأتبعه الشيطانُ جنودَه، أو خطواته، أو استَتْبَعَه.[٤٦٨٠]

وقرئ: «فاتَّبَعَه»[٤٦٨١] أي: فتبِعَه، وهو يؤيِّد الأوَّل ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ فصار بذلك من الضَّالين الكاملين، فإنَّ الكاملين في الغواية هم الكفرة، أو فكان كذلك في علمه تعالى، فلذلك فعل ما فعل، فمن أوتي الهدى فانسلخ منه إلى الضَّلال، ومال إلى الدنيا، حتى تلاعب به الشيطان كان منتهاه البوار والرَّدي.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)﴾

﴿**وَلَوْ شِئْنَا**﴾ أن نرفعه إلى منازل الأبرار ﴿**لَرَفَعْنَاهُ**﴾ إليها بسبب تلك الآيات، والمواظبة على العمل بها ﴿**وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ**﴾، أي: مال ورغب، يقال: أخلد إلى فلان إذا ركن إليه، ومنه أخلد بالمكان إذا لزمه ﴿**إِلَى الْأَرْضِ**﴾ أي: إلى الدنيا؛ لأنَّ ما فيها من الضِياع والعقار كلِّها أرضٌ، وسائر أمتعتها من المتاع، والمعادن، والنَّبات، يستخرج من الأرض وبها يكمل ويقوى، أو لتشبيه العرض الذي مال إليه بالتُّراب، أو إلى السِّفالة والنذالة والخساسة، ففي الأوَّل مقابلة بمنازل الأبرار؛ لأنَّها ليست بمنازلهم لقوله: «فاعبروها ولا تعمروها، وفي الثاني لفظ ﴿رَفَعْنَا﴾

﴿**وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**﴾ في إيثار الدنيا وحبِّها واسترضاء قومه، وطاعة أهل المعاصي، وأعرض عن مقتضى الآيات. «ولَمَّا كان ظاهر الآية مخالفًا لسِفالة مذهب المصنِّف القاطع، بوقوع الكائنات بمشيئة الله تعالى، أخلد إلى التَّأويل بجعلِ مشيئة الله مجازًا عن سببها، وهو لزومُ العمل بالآيات بقرينة الاستدراك بما هوفعلِه المقابل لِلزُوم الآيات، وهو الإخلاد إلى الأرض والميلُ إلى الدنيا، لكنَّه ذهَل عن أنَّ هذا مصيرٌ إلى المجاز قبل آوانه بجواز أن يكون، ﴿لَوْ شِئْنَا﴾ على حقيقته، و﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ مجازًا عن سببه الذي هو عدم مشيئة الرَّفع»بل الإخلاد.[٤٦٨٢] وعليه كلامه قدس سرّه وهو:«إنما علّق رفعه بالمشيئة، ثم[٤٦٨٣] استدرك ثم[٤٦٨٤] بفعل العبد، تنبيهًا على أنَّها سبب لفعله الموجب لرفعه، وأنَّ عدمه دليل عدمها دلالةَ انتفاء المسبب على انتفاء السَّبب، وأنها هي السبب الحقيقي، والأسباب وسائط معتبرة في حصول المسبب من حيث إنَّها تعلقت به كذلك».[٤٦٨٥]

[٤٦٧٨] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٥٧/١٥؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٦٢/٦.

[٤٦٧٩] ديوان للخبز أرزي؛ **بحار الأنوار** للمجلسي، ٣٣٠/١٢.

[٤٦٨٠] **الفريد** للهمذاني، ١٦١/٣. **الصحاح** للجوهري «تبع».

[٤٦٨١] قراءة شاذّة، مروية عن الحسن وقتادة وطلحة. **اللباب** لابن عادل ٣٨٧/٩؛**شواذ القراءات** للكرماني، ص ١٩٩.

[٤٦٨٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٨و؛ **حاشية كشاف** للتفتزاني، بحث و تحقيق: محمد فاضل جيلاني، ٥٣/٤؛ **حاشية كشاف** للتفتزاني، ص ١٥٨-١٥٩.

[٤٦٨٣] ج: و.

[٤٦٨٤] ج+ عنه.

[٤٦٨٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٨٣/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ١٩٠/٤.

ثم الواجب علينا أن نبيّن وجه رجحان هذا من غير التعصُّب، فنقول: إنه تع لَمَّا قال:﴿ٱلَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَٱنْسَلَخَ مِنْهَا﴾ بمعنى: نحن فعلنا إيتاءَ الآيات، فعقَّبها هو بفعل الانسلاخ، توهم منه أنه مستقلٌ في إيجاد الفعل، فقيل: دفعًا لذلك التَّوهم: لو شئنا أن نرفعه بالآيات إلى المراتب العليّة لَفعلنا، فلا يحصل منه الانسلاخ إذًا، لكن تعلَّقت مشيئتُنا بانحطاطه إلى الأرض، فحصل منه الانسلاخ منها، فوضع موضعه ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾؛ ليطابق الرفعة. وإنما جاء قوله المصنف: «ولكنه أخلد إلى الأرض، فحططناه»، على عكس هذا التقرير: لأنه جعل مشيئة الله تابعةً لفعل العبد.

وأمَّا قوله: «ولو كان الكلام على ظاهره، لَوجب أن يقال: ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنا لم نشأ»، فجوابه: أنَّك لَمَّا جعلت المشيئة ابتداءً تابعةً للزوم هذا الإنسان الآيات، لزمك هذا، فاجعل لزومه الآيات تابعًا للمشيئة، كما فعلنا، لتنظر كيف يجيء الكلام على سننه![٤٦٨٦]

وقال قدس سره: «وكان من حقه أن يقول: ولكنه أعرض عنها فأوقع موقعه ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، مبالغةً وتنبيهًا على ما حمله عليه وأنَّ حبَّ الدنيا رأس كلِّ خطيئة».[٤٦٨٧]

وقال ابن الكمال: حكمت اقتضت أن يُتبع إرادَته اختيار العبد. وأشير إليه حيث قال في موقع «ولكن لم نشأ»: ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾.[٤٦٨٨]

وأنت خبير: بأن هذا لا يخ عن إيهام تبعيّة كلٍّ منهما الآخر فلا بدَّ من اختلاف الجهتين، حتى يندفع الإشكال، وهو غير واضح. وللشيخ السمرقندي ههنا كلامٌ يقومُ به الطاعةَ على علماء السّوء.[٤٦٨٩]

وقيل: خصّ الرَّجل بآياته، ولما تبع الهوى[٤٦٩٠] انسلخ من الدِّين، فيدلُّ على أنَّ كلَّ من كانت نعم الله عليه أكثر، إذا أعرض، كان بعده عن الله أعظم.[٤٦٩١]

فلا يغترّ أحدٌ بعلمه ولا بعمله، إذ الخاتمة على خطرٍ، ولا يأخذ الرِّشوة لإبطال حقٍّ أو عكسه، ولا يقلّد لعالم إلا بحجَّة؛ لأنَّ هذا العالم قد انسلخ منها، فيخاف مثل هذا على غيره.[٤٦٩٢]

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾

فصفته التي هي مَثَلٌ في الخسّة **﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾** كصفته في أخسِّ أحواله وهو: **﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾** أي: يلهث دائمًا سواء حُمل عليه بالزَّجر والطَّرد، أو تُرك ولم يُتعرّض له من الحملة لا من الحمل.[٤٦٩٣]

واللَّهَثُ: هو إدلاعُ اللسان من التَّنفس الشديد الذي يَلْحَق الإنسان وغيرَه من شدَّة الإعياء، وهو في الكلب طبعٌ لضعف فؤاده، وقد يكون من العطش.[٤٦٩٤]

[٤٦٨٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٦٥/٦.

[٤٦٨٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٨٣/١.

[٤٦٨٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٨٩/٤-١٩٠.

[٤٦٨٩] **بحر العلوم** للسمرقندي، ١٧٤ظ.

[٤٦٩٠] ج-الهوى.

[٤٦٩١] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٦٠/١٥.

[٤٦٩٢] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٣٨٩/٩.

[٤٦٩٣] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٨٣/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ١٩٠/٤-١٩١.

يقال: لَهَثَ الكلب يلهَثُ بالفتح فيهما لَهَثًا ولهاثًا، إذا أخرج لسانَه من الطَّبع، [٢٤١/ظ] أو التَّعب أو العطش.[٤٦٩٥] بخلاف سائر الحيوانات، فإنَّه يلهث عند التحريك والإزعاج ولا يلهث في غيره.

وقيل: معناه إن وعظته، فهو ضالّ، وإن لم تعظْه فهو ضالّ كالكلب إذ طردته فسعى لهث وإن تركته على حاله لهث.

وقيل: لَمَّا دعى على موسى خرج لسانه، فوقع على صدره، وجعل يلهث كالكلب.[٤٦٩٦]

قوله: «**فصفَتُهُ**» يشير إلى أنَّ ليس المراد بالمثل ههنا الحالَ والقصَّة؛ ليقطع بأنه من تشبيه المركَّب بالمركَّب، بل الظاهرُ مِنْ سوق الكلام أنَّه تشبيهٌ لصفته بصفةِ الكلب، أو لنَفسه بنفسه في غاية الخِسَّة، والذِّلَّة.

و«الشَّرطية» وإن جعلت حالًا بيانًا لوجه الشَّبه، لكن قد يُفهم من جعلها حالًا، وأنَّها حال للكلب قيّدٌ للتشبيه به أن التشبيه مركَّبٌ، وأمَّا على الوجه الثاني المشار إليه بقوله: «وقيلَ معناه فلا جوابَ في أنَّ التشبيه مركَّب، وكان الأوْلى أن يجعلَ الشرطيَّة على الوجه الأوَّل بيانًا لا حالًا.[٤٦٩٧]

وقيل: على الأوَّل التَّشبيه مركَّبٌ عقليٌّ؛ لأنَّه اعتُبر من المجموع الصفة والخِسَّة؛ فإنه من حيث مَالَ من المرتبة العالية، ومنازلِ الأبرار من العلماء، إلى أسفل السافلين، والميل إلى الدنيا وحُطامِها، بالكلب في الحالتين معًا. والوجه: هو الزبدة والخلاصة من الصفة والخِسَّة.[٤٦٩٨]

فحينئذ التمثيليَّة واقعةٌ موقع لازم التركيب؛ لأن مدلول قوله: «ولكنه أخلد إلى الأرض إنا لم نشأ» رفعه ونفى رفع المشيئة يلزمه نفي الرفع، ووضع المنزلة، ففيه مبالغةٌ وزيادة بيان من حيث إنَّه كتابة بالنظر إلى أصل المعنى والكناية أبلغ من التصريح، وأن التشبيه عدولٌ عن أصل المعنى، ورَوْمٌ للمبالغة، ففي قولك: «زيدٌ شجاعٌ»، تقول: «زيد كالأسد» لإبراز المشبَّه في صورة المشبَّه به، ليثبتَ في النفس خيالُه، فيكون أدخَل في الرَّوعة وآكد في الدَّلالة.[٤٦٩٩] وأنَّ في تصوير المعقول في صورة المحسوس شأنًا لا يخفى.

وعلى الثاني: مركَّب وَهْمِيٌّ؛ لأنَّه توهّم في الوجه متعددٌ وهو عدم تغيير حالتي الإغراء والترك. وهو المراد من قوله: «إن وَعَظْتَه فهو ضالٌّ، وإن لم تَعِظْه فهو ضالٌّ.[٤٧٠٠] والتمثيليَّة واقعة موقع لازم التَّركيب أيضًا، لكن التَّقدير حينئذ: إنَّا لم نشأ هدايته فنفي ذلك يلزمه الضلال الدَّائم، وعلى الثالث: مفرد حسي.

ثُمَّ إنَّ للنَّحويين في وقوع الجملة الشرطيَّة حالًا من غير أن تُجعل خبرَ مبتدأ وتُصَدَّر بالواو مثل وهو ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾، كلامًا، إلا إذا قصد التسويةَ بعطف النَّقيض على النَّقيض، مثل: آتيك إن تأتني وإن لم تأتني، أو التأكيدَ مثل: آتيك

[٤٦٩٤] **التيسير في التفسير**، ٧١/٧؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ١٩١/٤.

[٤٦٩٥] **الفريد** للهمذاني، ١٦٢/٣.

[٤٦٩٦] **الكشاف** للزمخشري، ١٧٢/٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٨٣/١.

[٤٦٩٧] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٨و؛ **حاشية كشاف** للتفتزاني، بحث و تحقيق: محمد فاضل جيلاني، ٣٧/٤-٣٨؛ **حاشية كشاف** للتفتزاني رسالة دقطورة، ص ١٦٠.

[٤٦٩٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٦٧/٦.

[٤٦٩٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٦٦/٦.

[٤٧٠٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٦٧/٦.

وإن لم تُكرِمْني، وإنما جاز ههنا لأنَّها في معنى عطف النَّقيض على النَّقيض، أو لأنَّها في موقع على ما أشار إليه المصنف بقوله: «ذليلًا دائم الذِّلَّة».[٤٧٠١]

وروي: أن آدم لَمَّا نزل إلى الأرض شَمِتَ به العدوُّ فذهب إلى السِّباع فأشلاهم على آدم، وكان الكلب من أشدِّها، فنزل جبريل بالعصى التي صُرِفَتْ إلى موسى بمدين، وجعلها آيةً له إلى فرعون وملائه، وجعل فيها سلطانًا عظيمًا، وكانت من آسِ الجنة، فأعطاها آدم يومئذ ليَطْرِدَ بها السِّباعَ عن نفسه، وأمرَه أن يدنوَ من الكلب ويضع يده على رأسه، فمِن ذلك أَلِفَ الكلب، ومات الفؤاد لسلطان العصا، وأَلِفَ به وبأولاده إلى يومنا هذا؛ لوضع يده على رأسه، وصار حارسًا من حُرَّاس ولده. وإذا أُدِّبَ وعُلِّمَ الاصطياد تأدَّب وقَبِلَ التعليم، قال الله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُۖ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ﴾ [المائدة، ٥/٤].[٤٧٠٢]

﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧)﴾

يعني: لا اختصاص للتَّمثيل المذكور بالذي ورد في حقِّه، بل يعمُّه وغيرَه من المكذِّبين بآياتنا، كما لا اختصاص للأحكام النَّازلة بأسباب نزولها، ومن ههنا يتَّضح وجهُ التفريع في قوله:﴿**فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ**﴾ المذكورة المشتمِلة على التمثيلات المشبِّهة لمن حالُه كحالهم. ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ فيه فيتَّعظون به ويحذرون مثلَ عاقبته.[٤٧٠٣]

ومَن خصَّه باليهود نظر إلى أنَّ حالهم كحال من وقع له المثل المذكور من الانسلاخ عن الآية عندما جاءتهم البيِّنة بعدما قرأوا بَعث رسولنا، وذكر القرآن المعجز وما فيه، وبشَّروا الناس باقتراب مبعثه، وكانوا يستفتحون به، فالملائم حينئذٍ «فاقصُصْ» قَصَصَ بلعمَ الذي هو نحوُ قَصَصِهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيحذرون مثل عاقبته، إذا ساروا نحوَ سيرته، وزاغوا شبه زيغِه، ويعلمون أنَّك علمْتَه من جهة الوحي، فيزدادوا إيقانًا.[٤٧٠٤]

ومَن حمله على أهل مكة نَظر إلى أنَّهم كانوا يتمنَّون هاديًا يهديهم، فلمَّا جاءهم نبيٌّ لا يشكُّون في صدقه كذَّبوه، فلم يهتدوا، وبقُوا في الضَّلالة في كل الأحوال، كالكلب يلهث على كل حالٍ.[٤٧٠٥]

﴿**سَاءَ**﴾ بمعنى: «بئس»، وهو إن بَقِيَ على أصله يتصرف نحو: سَاءَ يَسُوءُ سُوءً،لبقائه على أصل وضعه وإن ضمن معنى الذمَّ، فهو غير متصرف، بل بُنيت على فعلٍ، وجرت عليه أحكام بئس ﴿**مَثَلًا**﴾ مفسِّرٌ للفاعل المضمر فيه، والمخصوص فيه [**٢٤٢**/و] ﴿الْقَوْمُ﴾، ولا بدَّ أن يصدق الفاعل، والمميّز والمخصوص على شيءٍ واحدٍ، فاحتيج إلى تقدير مضافٍ، إمَّا في التَّمييز؛ أي: ساء أصحاب مَثَل القوم، وإما في المخصوص؛ أي: ساء مَثَلًا مثلُ القوم، فحذف الفاعل لدلالة المفسّر والمضاف لعدم اللُّبس وارتفاعه على الابتداء، والخبر ساء، أو على إضمار مبتدأ، وهذه الجملة تأكيدٌ للجملة السَّابقة ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ بعد قيام الحجَّة عليها، وعلمهم بها وهو صفة القوم.

[٤٧٠١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٨و؛ **حاشية كشاف** للتفتزاني، بحث و تحقيق: محمد فاضل جيلاني، ٣٧/٤-٣٨؛ **حاشية كشاف** للتفتزاني رسالة دقطورة، ص ١٦٠.

[٤٧٠٢] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٣٨٨/٩.

[٤٧٠٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٩١/٤-١٩٢.

[٤٧٠٤] **الكشاف** للزمخشري، ١٧٢/٢.

[٤٧٠٥] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٥/ ٦١؛ **اللباب** لابن عادل، ٩/ ٣٩١.

وقرئ: «سَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ»[٤٧٠٦] على حذف المخصوص بالذَّمِّ، أو جعل الموصول المخصوص به بتقدير المضاف، وليس الذَّمُّ متوجِّهًا إلى المثل فإنه ذكر مع أنَّ فيه لطفًا للعباد وحملًا على الرَّشاد، بل إلى ما أفاده المثل من تكذيبهم بالآيات، حتى صاروا بمنزلة أخسّ الحيوانات.

فمن تفَكَّر في هذا المثل، وسائر الأمثال المضروبة في التنزيل، في حقِّ المشركين والأصنام؛ من بيت العنكبوت، والذُّباب تحقَّقَ له أن حال علماء السوء أَسْوَأُ وأَقبحُ من ذلك، فما أنعاه من مَثَلٍ عليهم، وما هم فيه من التهالك في الدنيا؛ مالها وجاهها، والركونِ إلى لذّاتها وشهواتها، ومن متابعة النَّفس الأمَّارة وإرخاء عنانها في مرامها![٤٧٠٧]

﴿وَأَنفَسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ بإعراضهم عن الهدى، وطاعة المولى إلى الرّكون إلى دار البلى والإقبال على تحصيل الثواب، ومتابعة الهدى، إمَّا معطوف على ﴿كَذَّبُوا﴾ داخلٌ في حيِّز الصِّلة، أي: الذين جمعوا بين التكذيب، والظلم على أنفسهم، فما أقْبحَ ما عَامِلُوا به مع آيات الله وما أخسروا فيما فعلوا بأنفسهم، أو كلامٌ منقطعٌ عنها تذييلًا وتأكيدًا بمضمون الجملة السَّابقة وعلى التقديرين، فلا محلَّ لها، وهذا الأخير أحسنُ، أي: وما ظلموا بالتَّكذيب إلَّا أنفسهم؛ لأنَّ عقاب ما يفعلونه من المعاصي يحلّ بهم، والله لا يضرّه ذلك كما لا ينفعه إيمانُهم، ولهذا التَّخصيص قدّم المفعول، وفيه دليلٌ على تقدّم خبر «كان» عليها؛ لأنَّ تقديم المعمول يؤذنُ بتقديم العامل غالبًا، وقد يمنع ذلك نحو قوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى ٩/٩٣] فإن ﴿الْيَتِيمَ﴾ مفعولٌ لـ﴿تَقْهَرْ﴾ ولا يجوز تقديمه على جازمه، وفيه بحث.[٤٧٠٨] وفي الآية عظةٌ عظيمةٌ، وعبرةٌ حكيمةٌ فاللائق بالعاقل اللبيب أن يتخلَّق بالأخلاق المرضيَّة، ويتعوَّد بالأعمال المرعيَّة؛ كي يكونَ مظهرًا للمثل الحسن، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة، ٢٦١/٢] وقال: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ﴾ [الفتح ٤٨/ ٢٩]، وأن يتجنَّب عن الأخلاق الخبيثة، والأعمال الردية؛ كي لا يكون مَظهرًا للأمثال الخبيثة.

قال عليه السلام: «ليسَ لَنا مَثَلُ السَّوْءِ العائد في هِبَتِهِ كالكَلْبِ يعود في قَيْئِهِ».[٤٧٠٩]

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)﴾

أي: مَن يَهدِهِ بالتوفيق والعصمة والمعونة، لا بمجرَّد الدلالة والبيان؛ لاستقراء الجميع فيه الْمُنَافي لما المحلّ يقتضيه ولعدم استلزام ترتب الاهتداء عليه المستفاد. ومن قوله: ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِوَمَن يُضْلِلْ﴾ بعدم التوفيق والعصمة.

﴿فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ ففيه تصريحٌ بأنَّ الاهتداء مخصوص بهدى الله، وتنزيل للهداية التي لم يترتَّب عليها الاهتداء منزلةَ العدم، وأنَّ الهدى والضلال من الله، وأن هداية الله مخصوصٌ ببعض دون بعضٍ، وأنها مستلزمة للاهتداء،[٤٧١٠] ولا يردُّه قوله تع: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾[فصِّلت ١٧/١٧]؛ لأنَّ الهداية هناك بمعنى الدلالة والبيان، ولَمَّا كان هذه التصريحات مخالفة لما اشتهته أنفس المعتزلة اضطربوا، وذكروا وجوهًا ضعيفةً في التأويل منها ما ذكره **الجبائي**: من أنَّ

[٤٧٠٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري والأعمش. **مختصر في شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٥٣؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٩ .الكشاف، ١٧٢/٢.

[٤٧٠٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٦٧/٦.

[٤٧٠٨] **اللباب** لابن عادل، ٩/ ٣٩٣.

[٤٧٠٩] **صحيح البخاري**، ٢٧/٩ (٢٦٢٢).

[٤٧١٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٨٣/١؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٧٢/٦.

المراد من يهده الله إلى الجنة والثواب في الآخرة، فهو المهتد في الدنيا السالك طريق الرشد فيما كلّف به، فبيَّن تعالى أنَّه لا يهدي إلى الثَّواب في الآخرة إلا مَن هذه صفتُه، ومن يضلله عن طريق الجنَّة ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾.[٤٧١١]

وبيان ضعفه أنه حمل قوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ على الهداية في الآخرة إلى الجنة، وقوله: ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدْ﴾ على الاهتداء إلى الحقِّ في الدنيا، وذلك يوجب الرَّكاكة في النَّظم، بل يجب أن تكون الهداية والضَّلالة راجعين إلى شيءٍ واحدٍ، حتى ينتظمَ الكلام.[٤٧١٢]

وفي الإفراد في الأوَّل للَّفظ «مَنْ» والجمع في الثاني لمعناه تنبيهٌ على أن المهتدين كنفسٍ واحدةٍ لاتِّحاد طريقتهم، واتِّفاق شريعتهم، كما قال عليه السلام: «المؤمنون كالشخص الواحد إذا اشتكى رأسه اشتكى كلَّه بخلاف الضالين»[٤٧١٣] فإنَّ لهم طُرُقًا لا تنحصر، وأنَّ اجتماعهم لا يُجدي نفعًا في دفع الخسران عنهم.

وفي الاقتصار في الإختبار عمَّن هداه الله بـ﴿الْمُهْتَدِ﴾، تعظيمٌ لشأن الاهتداء، وتنبيهٌ على أنَّه في نفسه كمالٌ كاملٌ، ونفعٌ شاملٌ، لو لم يحصل له غيرُه لَكفى نَفْعًا وَوَفَى رِبْحًا؛ لأنَّه المستلزم بجميع الكمالات، والمستدعي لمعالي الدَّرجات من النعيم والرضوان والقربات.[٤٧١٤]

وفي تغيير الأخيار عمَّن أضلَّه الله عن الضلال إلى الخسران اللازم، له دلالةٌ على أن الضَّلال يلزمه كمال الخسران لزوماً قطعيًّا، ويبقى له شائبة الربح جليًّا وخفيًّا، ووجه النَّظم أنه لما وصف الضالِّين وعرّف حالهم [**٢٤٢**/ظ] بالمثل المذكور بيَّن بها أنَّ كلّ واحدٍ من الهدى والضلال من الله.

وقيل: لَمّا تقدّم ذكر المهتدين، وذكر الضالِّين، أخبر تعالى أنه هو المتصرّف فيهم بما شاء من هداية وضلالٍ. وقيل: هذه الجملة كالبيان لقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ [الأعراف ٧/١٧٦]، وكاللّف لقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾[الأعراف ٧/١٧٩]، ولقوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف ٧/١٨١].

وقال **الفاضل**[٤٧١٥]: والآية تذييلٌ للتمثيلين وتأكيدٌ؛ لأن المشيئة هي السَّبب في فعل العبد من الاهتداء والضَّلال، وأنَّ لزوم «بَلْعَم» الآياتِ تابعٌ لمشيئة الله، وأنَّ الكلام فيه مُجْرًى على ظاهره»[٤٧١٦] لا كما ذكره المصنّف، كما قررناه هناك.

والآية الثالثة المصدَّرة بالقسمية تذييلٌ لقصة الفرقة الضالَّة بعد عدِّ قبائحهم، وتسجيل بأنَّهم لا يؤمنون، تسليةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليُعرِض عنهم، ويُقبِل إلى من يُجْديه الإنذار ويَنْجع فيه الوعظ. يدلُّ عليه قوله: ﴿وذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف ٧/١٨٠]، وقوله: ﴿وممَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ﴾[الأعراف ٧/١٨١] أي: دع هؤلاء الذين يحرِّفون كلام الله،[٤٧١٧]

[٤٧١١] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٥/٦٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٩/ ٣٩٤.

[٤٧١٢] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٥/٦٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٩/ ٣٩٤.

[٤٧١٣] **صحيح مسلم**، ٤/٢٠٠٠ (٢٥٨٦) **مسند أحمد**، ٣٠/٣٤١ (١٨٣٩٣).

[٤٧١٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٥٨٣-٥٨٤؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٦٧٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/١٩٣.

[٤٧١٥] أي: شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي.

[٤٧١٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٦٧٢

[٤٧١٧] ج- الله.

ويميلون بأسمائه الحسنى إلى التأويل الزائغ، واشتغل بأمَّتك الذين لا يحرِّفون كلام الله، ويتمسَّكون بكتاب الله، ولا يتَّبعون المتشابه.[٤٧١٨]

وعن بعض المشايخ: «من ساعدته المشيئة الازليَّة لم تَلْحَقْه الشقاوةُ الابديَّةُ، ولكن مَنْ قصمته السوابق لم تنعشْه اللواحقُ، وليس النَّاجى من سعى، وأحسن السعي، وإنما النَّاجى من سبقت له الهداية من الهادي».[٤٧١٩]

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾

الذرء والإنشاء والإحداث والخلق نظائر، واللام متعلّقٌ بـ﴿ذَرَأ﴾، أو بمحذوفٍ على أنَّه حالٌ متقدمةٌ من ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ صفةٌ له، وتقديمه على الإنس؛ لأنَّ الكلام في مقام التَّحقير، وهم الذين ثبت في علمه تعالى إصرارهم على الكفر المطبوع على قلوبهم المعلوم، منهم: أنه لا ينجع فيهم الإنذار، فلهم عملٌ مقدَّم اختياري سبب في إدخالهم النَّار، والله عالم به قبل خلقهم نشأ منهم الكفر، وخلق فيهم ذلك، وجعل لمصلحة جهنم؛ لأنَّها مظهر جلال الله وقهره ولا يناسب الحكمة تعطيلُه، ومن ههنا يظهر وجه خلقه تعالى مَن لا حظَّ له من الإهتداء.[٤٧٢٠]

فهذا صريحٌ في أنهم خُلقوا لها حقيقةً، ويدلُّ عليه الأحاديث الواردة، منها قوله عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ».[٤٧٢١] والنّظم الفائق أيضًا على ما مرّ تقريره.

والتصدير بالقسم لقَلع شُبهة مَنْ عسى أن يتصدّى التّأويل، بأنَّه جعلهم لإغراقهم في الكفر، وشدة شكائمهم فيه، وأنَّه لا يتأتّى منهم إلا أفعالُ أهل النار، كأنهم مخلوقون للنار.

ومما يؤاخيه: أن أعرابيًا لَمّا سمع: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ۝فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات ٥١/٢٢–٢٣] من ذا الذي أغضب الجليل، حتى حلَف؟ كأنهم لم يصدِّقوه حتى ألجأ إلى اليمين.[٤٧٢٢] ولا ينافيه قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات ٥١/٥٦] لأن مَن علم منه أنَّه يكون منه العبادة خلقه لها، ومَن علم منه الكفر خلقه لها، فيكون عامًّا مخصوصًا.

﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ**﴾ صفة ﴿كَثِيرًا﴾ أو حالٌ منه لتخصُّصه، أو لهم على حِدته وصف، أو حال و﴿قُلُوبٌ﴾ فاعل له، والأولى الاستئنافيّة ﴿**لَا يَفْقَهُونَ بِهَا**﴾ صفةٌ للقلوب، وكذا الكلام فيما بعده، ولَمَّا لم يحصل من قلوبهم ومشاعرهم خَاصية الخاصَّة التي لها خلقت، وبها نفعت لما قدّمت وأخّرت نفوسهم، فكأنه لا إدراك لها، ثُمَّ إنَّ موقع هذه الجمل مع ما قبله موقع قوله: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة ٢/٧] مع ما قبله، وفصَّل هذا عليه بأنه مصدّرٌ بالجملة القَسَمية، وأنَّ المذكورات ههنا

[٤٧١٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٦٧٢.
[٤٧١٩] **لطائف الإشارات** للقشيري، ١/٣٦٨؛ **عرائس البيان** للبقلي، ١/٤٩٧.
[٤٧٢٠] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/١٩٤.
[٤٧٢١] **صحيح مسلم**، ٤/٢٠٥٠ (٢٦٦٢).
[٤٧٢٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٦٧٤.

مستقلّةٌ في كونها جُملًا صِراحًا، واسميَّة مكرَّرة الجار والمجرور، والاستئناف ههنا بإعادة اسم مَن استؤنفَ عنه الحديث، كأنه تعالى لَمَّا أقسم على خلقهم لجهنم. قيل: فما يكون لهم حينئذٍ لهم كيت وكيت.[٤٧٢٣]

﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصِّفات ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾ في عدم الفقه للقلوب، والاعتبار للأبصار، والتدُّبر للآذان، أو في أنَّ مشاعرهم وقوتهم متوجِّهةٌ إلى اللذَّات الدينيَّة، لا تطمح أبصارهم، ولا تلتفت بصائرهم إلى المعاني العالية يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهم عن لآخرة هم غافلون.

والإنسان يشارك الأنعام في القوى الغاذية، والنَّامية، والمولدة، ومنافع الحواس الظَّاهرة والباطنة، والتخيّل، والتَّوهم، والتَّذكر، ولا اعتبار إلَّا بالعقليَّة التي تهديه إلى معرفة الحقِّ لذاته، والخير لأجل العمل به، فلمَّا أعرضوا عنها، والتَّوسل بها عن المعرفة والعمل كانوا كالأنعام، ثم أَضرب منه إلى أَسوَأ الحال لا على طريقة الإبطال بقوله: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ منها؛ لأنَّها مع عدم العقل تدرك المضارَّ وتجتنبها والمسار وتجلبها بخلاف الكفَّار، بل هم على عكس ذلك، إذ أكثرهم يعلم أنه معاندٌ، فيقدم على المضارِّ، ويجترئ على النَّار، ويتقاعد عن مسار دار القرار، ولأنَّها لا قدرة لها على تحصيل الفضائل، [**٢٤٣**/و] وهؤلاء مقصِّرون، ولأنها مطيعة لله وهم لا يطيعونه، ولأنَّها تعرف ربَّها وتذكره، وهم لا يعرفونه ولا يذكرونه، ولأنَّها إذا كان معها مرشدٌ لا تضلُّ، وهم يضلُّون مع المرشد.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة استئناف يقرّر كونهم أضلَّ؛ أو تؤكد حملة كونهم كالأنعام، وكونهم أضلَّ؛ لأنَّها ليست كاملة الغفلة فيما يتعلَّق بحالها بخلافهم، وكذلك كرّر قصر المسند على المسند إليه بالتَّعريف والتَّوسيط، وقد غفلوا عن الإيمان المنجي، والشرك المردي، وعمّا أعدَّ الله لأوليائه من الثَّواب، ولأعدائه من العقاب، وعن المبدأ والمعاد، وسلوك سبيل الرَّشاد.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾

أي: الألفاظ التي تطلق عليها، و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ تأنيث الأحسن وصف بها الأسماء على إرادة الجماعة، ولو أريد جمعيتها لَقيل: الحسن كالأيَّام الأخر.

وقيل: مصدر كـ«الزُّلفى» وأحسنيتها لدلالتها على أحسن المعاني، ولحلاوتها في القلوب، والأسماع، ولاستحقاق الذَّاكر بها أحاسن المحاسن في الدَّارين، ومن عرف أسمائه يجب اتِّصافه بها فتعلو همته عن عبودية غيره تعالى ويتّسم بعبودية الله. ومَن عرف اسمه نسي رسمَ نفسه، وتنعَّم برَوْح أُنسه قبلَ وصوله إلى دار قدسه.

والدُّعاء: بمعنى التَّسمية، لا بمعنى النِّداء، يتعدَّى لاثنين نحو: دعوتُه زيدًا، ويُترك أحدهما استغناء دعوت زيدًا أي: فسمَّوه بها لا بغيرها، ولا تدعوا بها غيره.

وينبغي للدَّاعي بها معرفة معانيها، واستحضار عزَّة الرُّبوبيَّة، وذلَّة العُبوديَّة، كما أنَّ الله أكبر يشير إلى أنه لا نسبة لكبريائه إلى ما سواه، وإخلاص النيَّة وعزم المسألة ورجاء الإجابة وقصد المناسبة بالطَّلب بكلِّ اسمٍ ما يليق به نحو: يا رحيم ارحمني اللَّهم إلا أن يذكر اسمًا عامًّا نحو: يا الله فح تعلّق به ما شاء لاستجماعه لكلِّ اسم، ولا يقول: يا رزَّاق اهدني إلا أن يريد اهدني الخير، فإذا فعلجميع ذلك عظم موقع الدُّعاء، وكان له أثرًا عظيمًا، أو الأوصاف التي يتّصف بها، فإنَّ إطلاق الاسم

[٤٧٢٣] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٦٧٥.

على ما يدلُّ على معنًى، أو على معنىً تام غير مقارن للزّمان شائع إلا أنَّه ينبغي أن يفسّر بمثل العالم بعلمٍ قديمٍ، والقادر على كلِّ شيءٍ، والخالق لكلِّ شيءٍ، والمريد لكلِّ شيء كائنٍ إنما يقوله المصنّف اعتزالًا كما لا يخفى.

فالتحقيق أن الجميع على التوقيف، فما أذن أن يُدعى الله به سواءٌ كان مشتقًّا أو لا، فهو اسم وكلُّ ما نُسب إليه من غير هذا الوجه سواءٌ كان قولًا أو غير قول فهو وصف.[٤٧٢٤]

قال عليه السلام: «إنَّاللهَ حَيِيٌّ كريمٌ يَستَحِي إذا رَفَع العبدُ إليه يدَيه أنْ يرُدَّهُما صِفرًا حتى يضع فيهما خيرًا».[٤٧٢٥]

فالكريم: اسم، والحيي: صفة، فيقال: يا كريم ولا يقال: يا حَيِي، وقوله: يردَّهما ويضع نُسبا إليه، فيجوز اعتبار لفظهما فقط. ولا يقال: يا رادّ يا واضع، وقس على ذلك لا على العقل، وقل لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثبت على نفسك، واستدلَّ بها على أنَّ الاسمَ غير المسمّى لدلالتها، وفيه كلامٌ والتَّسمية غير الاسم؛ لأنَّها عبارة عن تعيين اللَّفظالمعيَّن لتعريف ذات الشيء.

والاسم عبارة عن تلك اللَفظ المعيَّن، وكما يجب تنزيه ذاته يجب تنزيه أسمائه﴿**وَذَرُوا**﴾ واتركوا تسمية الزائغين فيها، أو توصيفهم الذين يسمونه، أو يصفونه بما لا توقيف فيه، أو بما يوهم معنًى فاسدًا ،كقول أهل البدو: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، وكتوصيف أهل الضلال بالجسميّة، والجوهريَّة، والعقل العلّة، وتقدير المضاف بقرينة المقام، وإيقاع يلحدون صلة الموصول، أو لا تبالوا بإنكارهم ما سمي به نفسه وأبائهم عن التَّسمية به، نحو: أن يقولوا: يا الله، ولا يقولوا: يا رحمان، ويقول: لا نعرف إلا رحمان اليمامة.

وروي أن رجلًا دعى الله في صلاته ودعى الرحمن، فقال رجل من المشركين: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربًّا واحدًا فما بال هذا يدعو ربين اثنين، فنزلت أو وزروهم وإلحادهم فيها بإطلاقها على الأصنام واشتقاق أسمائها منها كـ«اللَّات» من الله و«العُزّى» من العزيز و«مَنَات» من المنَّان ولا توافقوهم عليه أو أعرضوا عنهم، فإن الله يجازيهم ويعضد هذا الأخير قوله: ﴿**سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ وقد أمر بالدعاء بها، ثُمَّ نَهى عن الإلحاد فيها، ثم أوعد عليه واكَّده بالسين.

وقرأ حمزة «يَلْحَدُونَ»[٤٧٢٦] بفتح الياء والحاء وينصره اللّحد وقوله تعالى: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ [الحج ٢٥/٢٢] يؤيد الجمهور، ولأنَّه لا يكاد يُسمع لَاحِد وهما بمعنى. وأصله: العدول عن الاستقامة والانحراف عنها، ومنها اللَّحد الذي يحفر في جانب القبر خلاف الضريح الذي يحفر في وسطه.

وفي الصحيح: «إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْمًا، مِئَةً إلَّا واحِدًا، مَن أحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ».[٤٧٢٧]

وليس المراد حصر الأسماء فيها، بل الإخبار عن دخول من أحصاها الجنّة، والأحصاء الحفظ أو العدُّ أو المراعاة أو التَّدبير [**٢٤٣**/ظ] في معانيها.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)﴾

[٤٧٢٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٨٠/٦؛ **روح المعاني** للآلوسي، دار الرسالة العالمية، بيروت ٢٠١٥/١٤٣٦ ٤٩٧/٩.

[٤٧٢٥] **سنن الترمذي**، ٥٥٦/٥ (٣٥٥٦)؛ **المستدرك** للحاكم، ٦٧٥/١ (١٨٣١)؛ **السنن الكبرى** للبيهقي، ٣٠٠/٢ (٣١٤٦).

[٤٧٢٦] **السبع** لابن مجاهد، ص ٢٩٨؛ **التيسير** للداني، ص ٣٦٤؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٥/٢.

[٤٧٢٧] **صحيح البخاري**، ١٩٨/٣ ٢٧٣٦.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ خبر مقدَّمٌ و﴿مَنْ﴾ موصولةٌ أو موصوفةٌ ﴿أُمَّةٌ﴾ مبتدأ وصف بقوله: ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾وقد مرَّ بيان مثله، وهو معطوفٌ على جملة قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف ١٧٩/٧] للدلالة على أنه كما خلق للنَّار طائفةً ضالِّين ملحدين عن الحقِّ، خلق أيضًا للجنَّة أمةً هادين بالحقِّ، عادلين في الأمر. ومن ههنا قدر بعضهم وممن خلقنا للجنة لتصريح المقابلة؛ لأنَّ الأوَّل محمول على الظاهر على ما ذهب إليه أهل السنة، وقوله: ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ إذا أخذ بجملته وزيدته، كالمقابل لقوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف ١٧٩/٧] والمعطوفات كالنشر لقوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ﴾ [الأعراف ١٧٨/٧] فقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف ١٨٠/٧] كالاعتراض لمناسبة حديث الأسماء أسماء الله العظام التي أوتيها بَلْعَام، وفيه ما يتعلَّق باليهود، فكأنَّه قال: تمسَّك بما جاءك من أسماء الله وصفاته، وأفعاله من الله، وذر الذين يحرِّفون الكلم عن مواضعه، ويغيِّرون ما جاءهم من الله، ولا تنافي فيه؛ لأنَّ الأصل قصَّتهم.

وأمَّا تعلّقُه بما قبله، فللتنبيه على أنَّ الموجبَ لدخول جهنَّمَ هو الغفلة عن ذكر الله، والأسماء الحسنى. وأرباب الذوق والمشاهدة، يجِدون ذلك من أرواحهم؛ لأنَّ القلب إذا غفل عن ذكره، وأقبل على الدنيا وشهواتها، وقع في نار الحرص، ولا يزال ينزل من ظلمة إلى ظلمةٍ، حتى ينتهي إلى دركات الحرمان، وبخلاف ذلك إذا انفتح عليه باب الذكر؛[٤٧٢٨] فإن مَن علم ذكر الله واشتغل به سَمَت رتبته، وعلت في الدَّارين منزلته، ومَن أَجلَّ قدر الله أجلَّ اللهُ قدرَه.

قيل: إن بِشْرَ الحافي كان في بدأته من الشُّطار، فرأى يوماً قرطاسًا فيه اسم الله مكتوب، فرفعه ونظفه واشترى بدرهم مسك فطيبته، فقيل له في النوم: يا بشر طيّبتَ اسمي، فوعزتي لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة.[٤٧٢٩]

وحكى الأستاذ عن بعضهم: أن الله – سبحانه – وقف الخلق بأسمائه فهم يذكرونها قالة، وتعزَّزَ بذاته، فالعقول وإن صَفَتْ لا تهجم على حقائق الأسرار، إذ الإدراك لا يجوز على الحقِّ، فالعقول عند بواده الحقائق متقنّعة بنقاب الحيرة عن التَّعرض للإحاطة، والمعارف تائهة عند قصد الإشراف على حقيقة الذَّات والأبصار حسيرةٌ عند طلب الإدراك في أحوال الرؤية، والحق، سبحانه عزيز، باستحقاق نعوت التعالي متَفَرِّد،[٤٧٣٠]

ثُمَّ إنَّ الآية في أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّ عليه الصلاة والسلام إذا قرأها يقول: «هذه لكم، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها. ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ﴾ [الأعراف ١٥٩/٧] الآية[٤٧٣١] يعني: حاصل لكم، ونازل فيكم، وهي مختصَّة بكم، وقد أعطي بنو إسرائيل مثلها فلا تحملوها عليهم،[٤٧٣٢] واستدلَّ به على صحة الإجماع؛ لأن المراد منه أنَّ في كلِّ قرن طائفة بهذه الصفة لقوله عليه السلام:لا يَزالُ طائفَةٌ مِن أُمَّتي على الحق، إلى أَنْ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وهُمْ ظاهِرُونَ؛[٤٧٣٣] إذ لو اختصَّ بعهد الرَّسول أو غيره لم يكن لذكره فائدة، فإنَّه معلوم ولقائل أن يمنع المعلوميَّة على الوجه المخصوص، والوصف المرصوص وعلى التَّسليم فلم لا يجوز أن يكون ذكرهم للثناء عليهم والرِّضاء عن حالهم تثبيتًا لهم وحثًّا للغير على مثل حالهم، كما ورد كثيرٌ من الآيات الكريمة في الطَّوائف المخصوصية، وعلى تسليم جميع ذلك معسر الوقوف عليه لانتشارهم وجواز خفاء

[٤٧٢٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٨٢/٦.

[٤٧٢٩] **شرح القشيري لأسماء الحسنى** للقشيري، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧١ ص ١٢.

[٤٧٣٠] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٣٧٠/١.

[٤٧٣١] **الكشاف** للزمخشري، ١٧٢/٢.

[٤٧٣٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٨٣/٦.

[٤٧٣٣] **صحيح البخاري**، ١٠١/٩ (٧٣١١).

واحد وخموله وكذبه خوفًا من سلطان أو رجوع قبل فتوى الآخر، نعم لا يتعذر ذلك في زمان الصحابة. وقيل: في العلماء والدُّعاة إلى الدِّين.

وقيل: في الأمم المحقة من جميع الخلق ويؤيده: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾. وقيل: في مؤمني أهل الكتاب، والله أعلم بالصواب.

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢)﴾ ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)﴾

بآيات الله التي تضمنَّها القرآن؛ لقوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ [القلم ٦٨/٤٤] وهو في محلِّ الابتداء، أو النَّصب بفعلٍ، والخبر أو المفسر ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ سنقربهم إلى الهلاك في الدَّارين قليلًا قليلًا.

ففي الأصل النَّقل درجة بعد درجةٍ، من أسفل إلى علوٍ فيكون استصعادًا، أو بالعكس، فيكون استنزالًا، وقد استُعمل في البيت الذي نقله المصنف في مطلقِ معناه، أي: لَيَنْقُلَكَ هِجَائي من البئر استصعادًا، أو من السماء استنزالًا. حتى تَهُرَّه، أي: تكره ذلك القولَ أو تُبغضه، حتى تعلم أني غير مقحم من جوابك، تقول: أقحمت فلانًا إذا لم يطق جوابك، وليس استعماله في المعنيين بحسب الاشتراك اللفظي؛ ليكون ما في البيت من استعمال المشترك في معنييه.[٤٧٣٤]

ثم اتُّسع فأُطلق على التقريب قليلًا قليلًا، ومنه: درج الصبي بين خطاه، أو من الدَّرج بمعنى اللَّفِّ، يقال: دَرَجَ الكتاب؛ أي: طواهُ شيئًا بعد شيءٍ.

قال **الخليل**: سنطوي عمرهم في اغترار منهم، ومنه أُدرج الميت في أكفانه.[٤٧٣٥] ﴿مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ما نريد بهم، أو أنَّه استدراج، وذلك أن يواتر الله نعمه مع غيّهم، فكلَّما جدّدَت ازدادوا بطرًا فيتدرَّجون [**٢٤٤**و] في المعاصي بسَبَبِ ترادفها، ظانِّين أنه أَثَرةٌ من الله، وإنما هو خذلانٌ، فهو استدراجه تعالى.[٤٧٣٦]

قوله: «**فَيَتَدَرَّجُونَ فِي الْمَعَاصِي**» يُحمل على الاستصعاد، بزعمهم أنَّ متواترة النعم أثرة، أو على الاستنزال باعتبار حقيقة الحال، فإنَّ الخلقة الإنسانية متهيِّئةٌ لقبول الحقِّ، فإذا أخلد إلى الأرضِ، واتّبع الشهوات، ارتكب المعاصي، ونزل درجةً درجة، إلى أن يصير إلى أسفل السافلين.[٤٧٣٧]

وعنه عليه السلام: «إذا رأيتَ الله يُعطي العبادَ ما يحبُّون وهم على ما يكره فليعلموا أنهم في استدراج».[٤٧٣٨]

وقيل: نُزَيِّن لهم أعمالهم لهلكهم، أو نُسبغ عليهم النعم، ونُنسيهم الشكر والإيلاء الإمهال من المليِّ ثقيلةَ الياء: يقال: مضي عليه مليٌّ من الدهر وملاوةٌ- بفتح الميم وضمِّها وكسرها-؛ أي قطعةٌ منه، أي أمهَلهم وأطولَ عمرَهم، وأؤخِّر عذابهم؛ ليتمادُّوا في الآثام كقوله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران، ٣/١٧٨] وسعة الرِّزق والصِّحة، ونحوه: إفضال من الله يوجب الشكر، ويثمر الفلاح السَّرمد، ولكنهم جعلوها سببًا في الكفر والمعاصي باختيارهم، وتدرَّجوا بها إلى الهلاك، فوصف المنعم بالاستدراج وهو عطف على: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ داخل في حكم السين، والمقام يقتضي التأكيد القصدي، فلا يتوجه ما

[٤٧٣٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٨ظ؛ **حاشية كشاف** للتفتزاني، ص ١٦٥؛ **حاشية كشاف** للتفتزاني للجيلاني، ٤/٤٢.

[٤٧٣٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/١٩٦-١٩٧.

[٤٧٣٦] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٧٥.

[٤٧٣٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٦٨٥.

[٤٧٣٨] **الزهد والرقائق** لابن المبارك، ١٠٩ (٣٢١)

قال ابن الكمال: إنه عطف على ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾لا على «نستدرجهم»؛ فإن الإملاء يلزمه الاستدراج المذكور لزومًا بيّنًا، فتأكيده يُغني عن تأكيد هذا.[٤٧٣٩]

فلا خطأ مرة فضلًا عن مرتين في تعبير مَن قال: «عطفٌ على﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾، وهو داخلٌ في حكم السين»؛[٤٧٤٠] لوقوع ذلك المسامحة في تعبير المصنفين[٤٧٤١] بناءً على رِكاء المخاطب، ولم يقل: «نملي»؛ ليوافق ما قبله للطرق بينهما، فإنَّه بالتدبير العادي الذي يتوسَّط فيه المدبِّرات أمرًا، والإملاء بالتقدير الإلهي لا دخل فيه لأحدٍ،[٤٧٤٢] أو استئنافٌ أو خبر محذوفٌ.

وقال ابن الكمال: الكيد: الأخذ خفاءً على الحقيقة ههنا لا على التشبيه؛ كما زعمه مَن قال: سماه كيدًا؛ لأنه على صورته، ولا يُعتبر فيه إظهار خلاف ما أبطنه، وبه يفارق المكرَ، فإنه يشارك الكيدَ في المذكور، ويمتاز عنه باشتماله القيدَ المذكور.[٤٧٤٣]

وأنت خبير: بأنَّ التشبيه أولى المقام؛ لأن الظَّاهر ما أخذهم به إحسانٌ، وباطنه خذلانٌ. وقد يُعتبر القيد المذكور في مفهوم الكيد؛ لأنه قريب من المكر استعمالًا، بل ذاتًا، والمتن من المتن، وهو اللحم الغليظ الذي على جانبي الصلب وهما متنان، أي: قويٌ لا يدفعه دافع، ولا يمنعه مانعٌ، والجملة تأكيد وزيادة بيان لهلاكهم بالاستدراج والإملاء، أو استئنافٌ معناه التعليل لوجوب هلاكهم بهما، وهو أن ذكرَ استدراجهِ، وإملائه إثباتٌ لكيده لهم على وجه التأكيد، وبيان هلاكهم بها. ولَمَّا ذكر قوّة كيده وجب الهلاك لهم.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤)﴾

الواو للعطف على محذوفٍ أي: ألم يعلموا ولم يتفكروا. والرؤية بالبصر حالةٌ مخصوصة بالانكشاف والجلاء، ولها مقدمةٌ، هي: تقليب الحدقة نحو: المرئي كذلك رؤية البصيرة، وهي المسمَّاة بالعلم واليقين متعينة بالوضوح والإنارة، ولها مقدِّمةٌ، هي: تقليب الحدقة إلى الجوانب طلبًا لذلك في هذه الحالة يسمّى بنظر العقل وفكرته.

﴿مَا﴾ استفهاميةٌ في محلّ الابتداء ﴿بِصَاحِبِهِمْ﴾ في محلّ الخبر ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾ من جُنون فهي: الهيئة، كالجلسة، أو من: «جنَّ»، كقوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس ١١٤/٦]، أي: مسَّ: جنَّ، أي: أيُّ شيءٍ بصاحبكم من الجنَّة، أو نافيةٌ، و﴿بِصَاحِبِهِمْ﴾ خبرٌ، و﴿مِنْ﴾ مزيدةٌ و﴿جِنَّةٍ﴾ مبتدأ، أي: ليس بصاحبهم من جنة بالغ في نفي الجنون عنه، بنفي الجنة منكّرًا قاصدًا بتنكيرها التقليلَ، أي: ليس به شيءٌ من الجنة، وبزيادة ﴿مِنْ﴾ الدَّالة على ما يُنْسَب إليها أيضًا، وإن لم يكن منها حقيقةً، ففي تقديم ﴿بِصَاحِبِهِمْ﴾ تعريضٌ لهم، وفي عبارة الصاحب ونسبته إليهم إشارةٌ إلى أنَّه لو كان به تلك الحال لَما خَفِيَت عليكم؛ لما بينكما من المصاحبة، والمخالطة.[٤٧٤٤]

فالجلمة الاستفهاميَّة، أو المنفيّة في محلّ نصب بعد إسقاط الخافض؛ لأنهما علقا التفكر؛ لأنه من أفعال القلوب، أو ابتداء كلامٍ آخر استفهام إنكار، أو نفي بعد الحسب على التَّفكر في شأنه، ومكارم أخلاقه، أو التَّعجب ممَّا قالوا في حقِّه،

[٤٧٣٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٩٧/٤.

[٤٧٤٠] **الكشاف** للزمخشري، ١٧٥/٢.

[٤٧٤١] **الزمخشريوابن كمال**.

[٤٧٤٢] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٩٨/٤.

[٤٧٤٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٩٨/٤.

[٤٧٤٤] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٩٨/٤-١٩٩.

فعلى هذا لا بدَّ من تقدير متعلق التفكر نحو: أو لم يتفكَّروا في شأنه، أو فيما قالوا، أو موصولة، فعلى هذا خرج الكلام على زعمهم، أي: أو لم يتفكر فما بصاحبهم على زعمهم مع استقامة شأنه عليه السلام فيعلموا بطلان ما يصدر منهم، وإنّما جنّنوه؛ لأنَّه كان معرضًا عن الدنيا، ومقبلًا إلى العقبى، وداعيًا إلى الله وكان مخالفًا لفعلهم، أو لأنَّه كان يغشاه حالةً عجيبةً عند نزول الوحي، فيتغير وجهه الكريم ويصفر لونه المليح، وتعرض له حالة شبيهة بالغشي، أو لأنَّه كان كثيرًا ما يحذِّرهم عقوبة الله، ووقائعه، فقام على الصَّفا ليلًا، وجعل يدعو قريشًا فَخِذًا فخذًا: «يا بني فلان، يا بني فلان» إلى الصَّباح، فقال قائلهم: إن يصاحبكم هذا جنونًا بات يصوِّت إلى الصَّباح. والفخذ من العشائر أوَّل من البَطن أوَّلها الشعب، ثم القبيلة، ثم الفصيلة، ثم العمارة، ثم البَطن، ثم[**٢٤٤**/ظ] الفَخِذ.

وقيل: الفخذ: الجدُّ الأعلى، ويؤيِّد الأخير قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ أي: ما هو في تلك الحال الشريف، وهي الدَّعوة إلى الله إلا نذير من رب العالمين وليس به جنونٌ ﴿مُبِينٌ﴾ أي: موضح إنذاره بأعلى صوته، وعلى ما في الوجوه معناه ليس فيه ما نسبوا إليه، إنما شأنه مقصور على أنَّه نذيرٌ موضح إنذاره، بحيث لا يخفى على ناظر ومتأمِّلٍ، ويجوز أن يكون الإبانة من اللازم بمعنى الوضوح والظهور، وبالجملة من كان شأنه الدَّعوة إلى الله، وإقامة الدلايل القطعيَّة، والبيِّنات الباهرة بألفاظٍ فصيحةٍ بلغت الفصاحة إلى حيث عجز الأوَّلون والآخرون عن معارضتها، وكان حسن الخلق طيِّب العيش مرضيّ الطريقة نقيّ السيرة مواظبًا على أعمالٍ حسنةٍ صار بها قدوة لعقلاء العالمين، وأسوة للفضلاء العاملين، كيف يتصوَّر أن يكون فيه نوعٌ من الجنون فضلًا أن يكون من المجانين، بل هو رحمةٌ للعالمين، ولذلكبالغ في نفي ذلك عنه حث حثَّهم على التفكّر أوَّلًا ليظهر لهم حاله، ثمَّ قصَّره على الإنذار المبين بطريق النفي ولاستثناء تأكيدًا لتكذيبهم،ثمَّ تجبّهم على ترك النَّظر فيما يدلُّ على صدقه، وصحَّة ما يدعوهم إليه من توحيد صانع العلم، وعظم شأنه وكمال قدرته؛ لتطمئن قلوبهم على التَّصديق بنبوَّة الداعي؛ فإن النَّظر في أمر النبوة متفرع على النَّظر في دلائل التوحيد، وثبوت الصانع الحكيم.

وقد روى ابن كثيرعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عن رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي حِينَ نَزَلْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فنَظَرْتُ إلى أَسْفَلَ مِنِّي فَإِذَا أنا بِرَهْجٍ وَدُخَانٍ وَأَصْوَاتٍ , فَقُلْتُ مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَذِهِ الشَّيَاطِينُ يَحُومُونَ عَلَى أَعْيُنِ بَنِي آدَمَ، أن لَا يَتَفَكَّرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَوْلَا ذَاكَ لَرَأَوْا الْعَجَائِبَ».[٤٧٤٥]

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) ﴾

فيما يدلَّان عليه من عظم الملك، أو فيما يملكه به السموات والأرض من ملكوتهما. فإن الملكوت: الملك العظيم أو الملكية؛ أي: جنس الملائكة المدبِّرة لها بأمره.[٤٧٤٦] والتَّاء للمبالغة في الملك ولَمَّا يقتصر الدَّلالة عليهما، بل عمَّت كلُّ موجود عمّم الحثّ على النَّظر فيه بقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ ﴿مَا﴾ موصولةٌ في محلِّ الجرِّ عطفًا على ﴿مَلَكُوتِ﴾ أي: وفيما خلق الله ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ ممَّا يقع عليه اسم الشَّيء من الأجناس والأنواع والأصناف العاتية للحضر، وأيُّ جهلٍ أعظمُ من جهل مَن ينظر إليها، كالبهائم غافلًا عمَّا فيها، ولم يذهب فهمه إلى تدبيرها، والاعتبار بها، والاستدلال على قدرة مُقَدِّرها، وحكمة مدبِّرها ووحدة صانعها، وعظم شأن من أوجدها وأودعها ما أودعها ممَّا لا يعرف كنهه إلا هو عزَّت قدرته، ولطف علمه ولا إله غيره، فلا نعبد إلَّا إيَّاه، وكلُّ ذرَّةٍ من العالم فيها برهان باهرٌ، ودليل قاهرٌ على وحدانيَّة؛ لأنها مختصَّة بحيِّزٍ معيَّن من الأحياز الغير المتناهية، وبقدرٍ معيَّنٍ من الأقدار وبوضع معيَّن من الأوضاع وكذا الكلام في لونها، وشكلها، وطبعها. وطعمها، وسائر صفاتها،

[٤٧٤٥] **المصنف** لابن أبي شيبة، ٣٧٦/٢٠ (٣٩٣٣٤)؛ **تفسير القرآن العظيم** لابن كثير، ٢١/٣.

[٤٧٤٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٩٩/٤.

فكلُّ واحدة من هذه الاختصاصات لا بدَّ له من مخصَّص، ومن الانتهاء إلى واجبٍ واحدٍ في ذاته، وفي جميع اعتباراته، واستدل بأمثالها على وجوب النَّظر في آياته والاستدلال بمخلوقاته؛ إذ ذمّ من لم ينظر وسلب الانتفاع من حواسهم؛ واختلف في أوَّل الواجبات هل النظر، والإيمان الذي هو التَّصديق الحاصل في القلب الذي ليس من شرط صحته المعرفة.

فقيل: النظر؛ لأن من لم ينظر لم يعرف؛ لأنه نظريٌ، ومن لم يعرف فهو جاهلٌ، والجاهل به كافرٌ، وليس بالبين؛ لأن الإيمان يصحّ باليقين الذي قد يحصل لمن هداه الله بالتقليد، وبأول وهلة من الاعتبار بما أرشد الله إلى الاعتبار به في غير ما آية والإجماع على تسمية العامة والمقدرين مؤمنين، ولأنَّه لو ل يصحَّ الإيمان إلا بعد النظر لَقال الكفار عند القتال لا يحلُّ لكم قتلنا فأخِّرونا حتى ننظرَ وهذا يؤدّى إلى تركهم حتى يستدلوا.

وقد قال صلى الله عليه وسلم «أُمِرتُ أَنْ أُقاتِلِ النَّاسَ حتَّى يَقُولُوا لاَ إِلهَ إِلاَّ اللّٰهُ ويؤمنوا به وبما جئت به» ولأنه يلزم اكفار كثير من المسلمين، وتخصيص رحمة الله على شرذمة من المتكلمين.

﴿وأَنْ﴾ مخففةٌ من الثقيلة؛ لأنّ ﴿أَنْ﴾ المصدرية لا تدخل الأفعالَ الغير المتصرّفة التي لا مصادر لها، ولهذا لم يُحتج إلى حرف التعويض الفارق بينهما، كما في الدَّاخلة على الاسميَّة نحو: «أَنْ هالكٌ كلُّ مَا يَحْفَى ويَنْتَعِلُ».[٤٧٤٧] والشرطية نحو: ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ﴾ [النساء، ٤/١٤٠]. واسمه ضمير الشأن، وخبره ﴿عَسَى﴾، لكن في قلوب الإنشائية خبر ضمير الشأن كلام، والمصنف يرتضيه كثيرًا ﴿أَنْ يَكُونَ﴾: فاعل ﴿عَسَى﴾ فهي تامَّة لرفعها ﴿أَن﴾ وما في حيّزها واسمه ضمير الشأن أيضًا.[٤٧٤٨]

﴿قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ الجملة في موضع النصب خبر ﴿يكون﴾ وهي مفسّرة للضمير وكان المانع من حمل مثل هذا على التنازع بأن يتنازع أن يكون، وقد اقترب في أجلهم؛ لأنَّه خلاف الأصل لما فيه من التزام الإضمار قبل الذكر، فلا يصار إليه حيث يكون عنه غني، لكن الشأن في ضمير الشأن [**٢٤٥**/و]؛ فإنَّه أيضًا من هذا القبيل من التكرار ههنا، أي: أنَّ الشأن عسى أن يكون الشأن والكلام معطوفٌ على ﴿ملكوت﴾ أي: أو لم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ولعلَّهم يموتون عن قريب، أو السَّاعة التي لا بدَّ لهم ولكلّ خلق سواهم من الانتهاء إليها والاستعداد أولها فتسارعوا إلى النَّظر فيها يهديهم إلى الحق وتبادوا إلى ما ينجيهم من العذاب ويؤيدهم إلى جزيل الثَّواب قبل مفاوضة الموت ومعارضة الفوت، وحلول الحساب، ونزول العذاب.

وعن عارفٍ: النَّظر فى الملكوت يورث الاعتبار، والنظر الى المالك يسقط عنه الاشتغال بماسواه.

وأيضًا النَّظر الى الملكوت بعين العبرة لا بعين الشهوة، وبعين اليقين إلى قدرة القادر، وبعين المعرفة من الْمُلك الى المالك. والأوَّل يورث حقيقة التَّوحيد، والثاني يورث الإخلاص، والثالث يورث المعرفة.[٤٧٤٩]

وأيضًا: أَطلع الله أقمار الآيات، وأماط عن ضيائها سحاب الشبهات؛ فمَن استضاء بها ترقَّى إلى شهود القدرة.[٤٧٥٠]

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥)﴾ ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)﴾

[٤٧٤٧] **ديوان للأعشى**، ص ٥٩. **خزانة الأدب** – البغدادي ، ٨ /٣٩٣.

[٤٧٤٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٨ظ-٣٦٩و.

[٤٧٤٩] **عرائس البيان** للبقلي، ٥٠٠/١.

[٤٧٥٠] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٣٧١/١؛ **عرائس البيان** للبقلي، ٥٠٠/١.

الباء صلة كانت، أو سببيةٌ متعلِّقة بقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ والبعديَّة زمانيَّةٌ، أو رتبيّة وهو اللَّائح من كلام المصنِّفَيْن حيث قال المصنف: «**فبأيّ حديث أحقّ منه**».[٤٧٥١]

وقال قدس سره: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا به، وهو النهاية في البيان.[٤٧٥٢] والكلام متعلِّق بقوله: ﴿أو لم ينظروا﴾ نظرًا إلى التَّوبيخ المستفاد من المجموع واستفهامًا سبق للتعجّب عن تصميمهم على الكفر بعد إلزام الحجَّة بنهاية البيان والإرشاد إلى النظر، أي: إن لم تؤمنوا به وهو النهاية في البيان، فكيف تؤمنون بغيره، أو نظرًا إلى الحثِّ المستفاد منه أيضًا، فإن النَّظر في عجائب السموات والأرض، وفي سائر الأشياء سيَّما في النفس، وتقبلُّها من حال إلى حال، وفي ملاحظة حلول الأجل يؤدي إلى العلم بصانعها والإيمان بها، فما لهؤلاء لا ينظرون فيها نظر الاعتبار ليضمحلَّ شبهتهم، وينقلع إنكارهم عن أصله بآيات الله البيِّنات، ويزاح رتبتهم وإنكارهم بالقرآن الذي هو أَجَلُّ الآيات و أعظمها، فحين لم يؤمنوا به، فبأيّ كتاب بعده يؤمنون، أو متعلِّق بقوله: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ﴾ كأنَّه قيل: لعلّ أجلهم قد اقترب فما لهم لا يبادرون الإيمان بالقرآن، وماذا ينتظرون بعد وضوحه؟ وإن لم يؤمنوا به فبأي حديثٍ أحقّ منه يريدون أن يؤمنوا به؟[٤٧٥٣]

وقال **الفاضل**: وتقرير هذا الوجه: ﴿وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ متَّصل بقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾، وأنَّ اتصال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ بقوله: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ﴾ اتصالُ المسبَّب بالسبب، لكن على تقدير معطوفات، حيث قدّر للفاء مدخولًا آخر، وعطف ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ بالواو عليه.

المعنى: أو لم يتفكروا أنَّ الشأنَ والحديثَ أن يكون قد اقترب أجلهم، فيسارعوا إلى الكفر بالقرآن، والإيمان به. وماذا ينتظرون بعد وضوح الحقّ؟ وبأيِّ حديث أحقُّ منه يريدون أن يؤمنوا به.[٤٧٥٤]

وقال النحرير وغيره: المذكور الذي قدّر بيانٌ وتوضيح للمقصود، وتنبيهٌ على معنى الاستبطاء الذي في ضمن «أيِّ»: وأنه ليس بعد هذا البيان الواضح أمر منتظر لا أنَّه لا بدَّ من تقديره ليستقيم الكلام، ثم إنَّه يؤيد الوجه الأول قوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾؛ لأنَّه استئناف في موقع التعليل؛ كأنه قيل: لِمَ لَمْ يؤمنوا وما لهم ثابتين على الكفر والإنكار بعد التزام الحجَّة؟ فقيل: لأنه أضلَّهم الله، ومن أضله الله فلا هادي له.

وقيل: أي: ليس في صاحبهم جِنَّةٌ، ولا في الملكوت من خفاء في الدَّلالة، ولا في القرآن نوعٌ اشتباه، بل أراد الله لهم الإضلال وأفرد الضمير ههنا نظرًا إلى اللَّفظ، وجمع نظرًا إلى المعنى في قوله: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ بالرفع على الاستئناف، والنون على الالتِفَات من الغيبة إلى التَّكلُّم، وفيه من الروعة والاستحسان عند السامع، وزيادة التسجيل عليهم بالضلالة والإجتراء على أسبابها، والتَّعرض لخذلان الله وسخطه، حيث فخّم بالإسناد إلى اسمٍ يُنبئ عن كمال الانتقام في معرضه أوَّلًا وبالنسبة إلى المختصّ بصفة العظمة، والكبرياء ثانيًا.

وقرأ: أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء؛[٤٧٥٥] لقوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾، وحمزة والكسائي به وبالجزم[٤٧٥٦] عطفًا على محلّ ﴿فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾؛ لأن المنفية جواب الشرط في محلّ الجزم، كأنه قيل: لا يهده ويذَرْه. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ حالٌ منهم، والعَمَه: التردَّد والتحيَّر، وقد عَمِهَ بالكسر يَعْمَهُ بالفتح، فهو عَمِهٌ وعَامِهٌ.[٤٧٥٧]

[٤٧٥١] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٧٥؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٥٨٦.

[٤٧٥٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٥٨٦.

[٤٧٥٣] **نواهد الأبكار** للسيوطي، ٦/٤٦٩.

[٤٧٥٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٦٨٨.

وعن عبد الله بن الحارث قال: «خَطَبَنَا عمر بن الخطاب بالجابية فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يضلل فلا هادي له، فقال نصراني: بركس بركس، فقال عمر رضي الله عنه: ما يقول؟ قالوا: يقول: إن الله يهدي ولا يضلُّ قال: كذبت يا عدوَّ الله! أن الله خلقك، وهو أضلَّكوهو يدخلك النار إن شاء الله لولا ولث عهد من رسول الله لضربتُ عنقك.[٤٧٥٨]

فلَمَّا ذكر اقتراب الأجل بيَّن أنَّ وقت الساعة مكتومٌ ليصير حاملًا على المسارعة [**٢٤٥**/ظ] وأيضًا لَمَّا ذكر النبوة والتوحيد والقضاء والقدر أتبعه المعاد[٤٧٥٩] فقال:

﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)**﴾السائلون اليهود قالوا: أَخْبرنا متى الساعة إن كنت نبيًّا، فإنَّا نعلم متى هي، امتحانًا له عليه السلام، أو قريش قالوا: إن بيننا وبينك قرابةً وأشر إلينا متى هي؟[٤٧٦٠] وهذا أقرب لكونها مكيَّةً.

﴿**عَنِ السَّاعَةِ**﴾ عن يوم القيامة؛ لقوله: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الذاريات ١٢/٥١] سُمِّيت بها، أمَّا لوقوعها بغتةً، أو لسرعة حسابها، أو على عكس ما هي عليه من الطول، تمليحًا كتسمية المهْمَه مفازةً،[٤٧٦١] أو لأنها على طولها عند الله كساعة وهذه الوجوه مناسبة للإطلاق، ثم صارت بحسب الغلبة من قبيل الإعلام.

ومن ههنا قيل: ولما كانت كذلك ولم يكن من قبيل الكُنى والألقاب حسن ترك التعرُّض بوجه تسميتها بها كما، في إخواتها؛ ولذلك لم ينقل كثير التَّعرّض من أعاظم السلف.

﴿**أَيَّانَ مُرْسَاهَا**﴾ متى أرسائها أو وقتُ إرسائها، أي: إثباتها وإقرارها أي: متى يقيمها الله. والضمير في موقع المفعول للمصدر، والفاعل غير مذكور لظهوره، و﴿**أَيَّانَ**﴾ يسئل به عن الزَّمان المستقبل على جهة الظَّرف للفعل، ولذلك بني لتضمُّنه الاستفهام، كمتى وهو أخصُّ منه؛ لأنَّه يسئل به عن الماضي والمستقبل، ويستعمل في موضع التفخيم: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة ٦/٧٥] أي: وقوع يوم الدين؛ لأنَّ الظرف لا يقع خبرًا إلا عن الحدث، ومن ههنا يظهر الجواب عمَّن منع كون ﴿مُرْسَاهَا﴾ اسم زمان، ومن قال بتركّبه جعل أصله أيَّ أَوَانٍ، فحذفت الهمزة على غير قياسٍ، وقلبت الواو ياءً على غير قياس، فاجتمع ثلاث آيات فحذفت إحداهن، ومن قال اشتقاقه مع أنه في غير المتصرّفةِ مما يأباه الأكثرون ذكر أنه من «أيّ» بفتح الهمزة فَعْلَان وبكسرها فِعلان، والنون فيهما زائدةٌ حملا على الأكثر في زيادة النون ونحو ذلك ولأن معناه: أيَّ وقت ولأنَّ كليهما استفهام ولم يجعل فعالًا من لفظ «أيْن» لما أنه ظرف زمان وهو ظرف مكان و«أيّ» من لفظ «أَوَيْتُ» ومعناه: أمَّا اللفظ فلأن باب «شَوَيْتُ» و«طَوَيْت» أضعاف باب «حَيِيْتُ» و«عَيِيْتُ»، وهذا ما قال

[٤٧٥٥] «وَيَذَرْهُمْ».

[٤٧٥٦] «وَيَذْرْهُمْ». **كتاب السبع** لابن مجاهد، ص ٢٩٨؛ **التيسير** للداني، ص ٣٦٤؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٥/٢.

[٤٧٥٧] **الفريد** للهمذاني، ١٦٨/٣.

[٤٧٥٨] **شرح كتاب الإبانة من أصول الديانة** لابن بطة، ص١٤؛ **تاريخ مدينة دمشق** لابن عساكر ٣١٦/٢٧.

[٤٧٥٩] **تفسير غرائب القرآن** للنسابوري، ٣٥٦/٣.

[٤٧٦٠] **الكشاف** للزمخشري، ١٧٦/٢؛ **تفسير غرائب القرآن** للنسابوري، ٣٥٦/٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٣٠٩/٩.

[٤٧٦١] **الكشاف** للزمخشري، ١٧٦/٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٩٠/٦.

«صاحب المفتاح» أنه إذا لم يعلم أصل الكلمة: أنه واويٌّ أو يائيٌّ يحمل على الأكثر، وأما المعنى: فلأن البعض آوٍ إلى الكلّ، ومتساندٌ إليه، فأصلها على هذا: «أَوْيٌ»، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت في الياء، فصارت أيًّا، كقولك: طَوَيْتُ الكتاب طَيًّا، وشَوَيْت اللّحم شيًّا.[٤٧٦٢]

وكلُّ شيءٍ ثقيلٍ رُسُوُّهُ واستقراره. ومنه: رَسَى الجبلُ وأَرْسى السَّفينَةَ.

و﴿**مُرْسٰهَا**﴾ مستقرّها حيث ينتهي إليه. والمرسي: الأنجر الذي ترسى به، لاستعارة مرسيها لإثبات الساعة مع استعمال الرُّسُوّ في الأجسام الثَّقيلة لثقلها في المعنى، ولا أثقلَ منها. قال الله: ﴿ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا﴾ كما سيصرح هناك.

ثم إنَّ ﴿أَيَّانَ﴾: خبرٌ، و﴿مُرْسٰهَا﴾: مبتدأ، ومحلُّ الجملة النَّصب لكونها معمول مدلول السُّؤال، أي: قائلين: متى إرسائها؟[٤٧٦٣] أو بدلًا من السَّاعة، وذلك لأنَّه على نية تكرير العامل وهو معلّق عن العمل؛ لأنَّ الجملة فيها استفهامٌ، ولَمَّا علَّق الفعل وهو يتعدَّى بعده صارت الجملة في موضع نصب على إسقاط حرف الجرِّ فهو بدل في الحقيقة عن موضع عن الساعة؛ لأن موضع الجرِّ نصبٌ.

﴿**قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا**﴾ أي: علم وقت إرسائها، والمصدر مضاف إلى المفعول وهو مبتدأٌ خبره قوله: ﴿**عِنْدَ رَبِّي**﴾ استأثر به، ولم يُطْلع عليه ملكًا مقرَّبًا ولا نبيًّا مرسلًا، يكاد يخفيها من نفسه.[٤٧٦٤]

عن النبي صلى الله عليه وسلم: «تَسْأَلُونِي عَنِ السّاعَةِ؟ وإنَّمَا عِلْمُها عِنْدَ اللهِ، وَأُقْسِمُ باللَّهِ ما على الأرْضِ مِن نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ تَأْتِي عَلَيْها مِئَةُ سَنَةٍ».[٤٧٦٥]

ولَمَّا كان السؤال عن الساعة عمومًا، ثم خصَّص بالسؤال عن وقتها، جاء الجواب عنها عمومًا، ثم خصَّص من حيث الوقت فقيل: ﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ﴾ لا يُظهر أمرَها، ولا يكشفه للناس في وقتها. واللام للتأقيت كما في قوله:﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء ٧٨/١٧].[٤٧٦٦]

والتَّجْلِيَةُ إظْهارُ الشَّيْءِ والتَّجَلِّي ظُهُورُهُ،[٤٧٦٧] وتقدير المضاف؛ لأنَّه تع قد كشف نفس قيامها بدلائل قطعيَّةٍ، ووجب العلم والإيمان بها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ والمعنى: أن الخفاء بها مستمرٌّ على غيره إلى وقت وقوعها، ولا يظهرها إلا في ذلك الوقت الذي تقع فيه بغتةً بنفس الوقوع لا بإخبار عنها؛ ليكون أَدْعى إلى الطاعة وأَنْهى عن المعصية، كإخفاء الأجل الخاصِّ الذي هو وقت الموت.[٤٧٦٨] والجملة تأكيد لما قبله.

﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾

[٤٧٦٢] **المحتسب** لابن جني، ٢٦٨/١؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٩١/٦؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٩و.

[٤٧٦٣] **الفريد الفريد** للهمذاني،١٧٠/٣.

[٤٧٦٤] **الكشاف** للزمخشري، ١٧٧/٢؛ **الفريد** للهمذاني، ١٧٠/٣؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ١٩٩/٤.

[٤٧٦٥] **مسندأحمد**، ٣٧٧/٢٢ (١٤٤٩٣)؛ **صحيح مسلم**، ١٩٦٦/٤ (٢٥٣٨).

[٤٧٦٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٨٦/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ١٩٩/٤.

[٤٧٦٧] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٨٥/١٥.

[٤٧٦٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ١٩٩/٤.

شق وصعب على أهلها خفائها، وعدم العلم بأحوالها، فإن المستعدَّ بمعرفة الأمر تألم إذا اشتدَّ طريق الوصول إليه، أو توقعها وخوف شدائدها وأهوالها ،كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى ٤٢/١٨] أو وقوعها وقيامها؛ لتفاقم تلك الشدائد والأهوال عنده ففي هذه الوجوه

﴿**ثَقُلَتْ**﴾ مجازٌ عن المشقَّة وحذف المضاف من الطرفين، أو ثقلت عند الوقوع على السموات حتى انشقَّت، وعلى الأرض حتى انهدَّتْ، وتبدَّلت [**٢٤٦**/و] حالهما، أو فنيتا واضمحلَّتا على المذهبين ففيها الكلام على ظاهره، وعلى الوجوه كلمة «في» استعارةٌ منبّهةٌ على تمكُّن الثِّقَل فيها.[٤٧٦٩]

والذي ذكره المصنف هو: الوجه الأول، والثاني، والرابع، والذي قدس سره يحمّل أن يكون الثاني، وأن يكون الثالث، حيث قال: عظمت على أهلها من الملائكة والثقلين؛ لهولها وكأنه إشارة إلى الحكمة في إخفائها، وذلك لأنه يجوز أن يراد عظم توقُّعها فيكون الثاني،وأن يراد عظم وقوعها فيكون الثالث، لكن الإشارة خفية.

فقال ابن الكمال: «أي: لا يطيقون حمل أخبارها».[٤٧٧٠] وأنت خبيرٌ: بأنه إن أريد إخبار أحوالها، وأهوالها فعدم الإطاقة ممنوعٌ، كيف وأكثر القرآن في الإخبار عن أهوالها، وإن أريد إخبار وقوعها وتعيينها، فالتقريب غير ظاهر إلا أن يقال: أراد عظم توقعها عليهم فضلًا عن تعيينها، فإن ربّ أمرها، بل يتسلّى عنه بعدم التعيين.

﴿لَا تَأْتِيكُمْ﴾ الساعة عند قيامها ﴿إِلَّا بَغْتَةً﴾: إلا فجأة على غفلةٍ منكم، وهو مصدر في موضع الحال من المستكن في الفعل، أو من المخاطبين.

عن النبي عليه السلام: «ولَتَقُومَنَّ الساعةُ وقد نشر الرجلانِ ثوبَهما، فلا يَتَبايَعَانِهِ ولا يَطْوِيانِهِ، ولَتَقُومَنَّ الساعةُ وقد انصرف الرجلُ بلَبَنِ لِقْحَتِهِ فلا يَطْعَمُه، ولَتَقُومَنَّ الساعةُ وقد رفع أُكْلَتَه إلى فِيهِ فلا يَطْعَمُها».[٤٧٧١]

﴿**يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا**﴾ حفيٌّ فعيل من: حَفِيَ عن الشيء: إذا بالغ في السؤال عنه، أي: عالمٌ بها علمًا رَصِينًا؛ لأن المبالغ في السؤال عنه استحكم علمه فيه فكنى به عنه، ولكون معنى السؤال الأصليّ ملحوظًا في معناه الكنائي، عُدِّي بـ«عَنْ» وهذا ما قال الزجاج: «كأنك أكثرت المسألة عنها»[٤٧٧٢] أي: يظنُّ اليهود أنك مبالغ؛ في السؤال عنها حتى منحك الله علمَها، فيسألون: إياك لذاك؟[٤٧٧٣]

وعلى هذا المفعول الثاني للسؤال محذوفٌ، أي: يسألونك عنها وإن علّق عن ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ فلا بدَّ من تقدير صلة العلم أي: حفي بها، أو من حَفِيَ بفلان يحفَى، بالكسر والفتح حفاوة، وتحفَّى به، إذا بالغ في البرية، أي: كأنك حفيٌّ تتحفَّى بهم، وتتشفق عليهم، فتختصُّهم بتعليم وقتها لأجل القرابة، وتَزْوي علمَها عن غيرهم، ولو أخبرت بوقتها لكنتَ مُبلِّغَه القريبَ والبعيدَ من غير تخصيص، كسائر ما يوحى إليك، وذلك أن قريشًا قالوا له: إن بيننا وبينك قرابة، فقل لنا متى الساعة؟[٤٧٧٤]

[٤٧٦٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٩و.

[٤٧٧٠] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٠٣/٤.

[٤٧٧١] **صحيح البخاري**، ١٠٦/٨ (٦٥٠٦).

[٤٧٧٢] **معاني القرآن وإعرابه** للزجاج، ٣٩٤/٢.

[٤٧٧٣] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٩٤/٦.

[٤٧٧٤] **الكشاف** للزمخشري، ١٧٨/٢؛ **الفريد** للهمذاني١٧٠/٣

فـ«عن» متعلِّقٌ بالسؤال، فتقدّر صلة «حَفِيٌّ» الباء المتَّصل بضمير قريشٍ، أو من حفي به حفاوة وتحفَّى به: إذا فرِحَ وسرَّ به، أي: كأنك حَفيٌّ بالسؤال عنها تحبُّه وتؤثِرُه وتسر به، والحال أنك تكره؛ لأنه من علم الغيب الذي استأثر الله تعالى به، ولم يؤته أحدًا من خلقه، فـ«عن» أيضًا متعلقٌ بالسؤال، وصلة «حفي» متَّصل بالسؤال عنها.[٤٧٧٥]

وقرئ: «حفيٌّ بها»[٤٧٧٦] أي عليمٌ بليغٌ في العلم بها.[٤٧٧٧] وهذا يؤيد كون «عن» بمعنى الباء، كما قيل، وتركيب «حفي» للمبالغة في الشيء، ومنه إحفاء الشارب. ومنه قوله عليه السلام: «أَحْفُوا الشَّوارِبَ، وأعفُوا اللِّحَى»،[٤٧٧٨] واحتفاء البَقْل: استيصاله، وأحفى في المسألة به وتحفَّى به[٤٧٧٩] على مرَّ ذكره، «و«كَأَنَّكَ» على الوجوه المذكور في موضع الحال، أي: مشبّهًا حالك حال الحفيّ نظرًا إلى زعمهم واعتقادهم».[٤٧٨٠]

(﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾)

قال المصنف:فإن قلتَ لم كرَّر ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ وإنما علمها عند الله؟ قلتُ: للتأكيد، ولما جاء به من زيادة قوله: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾[٤٧٨١]

قيل: الأولى الاكتفاء بالتأكيد؛ لأنَّه لا زيادة في ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ ولا دفع لسؤال تكرير ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ بأنه لِمَ لمْ يجيء بالزيادة مع ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ الأولى من غير تكرير له، والجواب أنَّ ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ ليس تكريرًا محضًا حاليًا عن الفائدة، وفي «إنما علمها عند الله» زيادة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وإن لم يتعرَّضْ لذكرها فاللائح أن يقال: إنما كرّر ذكر السؤال والجواب للتأكيد والمبالغة في إنكار سؤالهم، ولَمَّا نِيطَ بالأول الجملة التشبيهية، وبالثاني الجملة الاستدراكية، ومفعول ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ محذوفٌ، أي: لا يعلمون أنَّ علمها عند الله تعالى لم يؤته أحدًا من خلقه، وأنها الحق فطلب العلم والإيمان بها ممن لم يخلقا فيه إنما يكون قطعًا للمقدَّرة، وإلزامًا للحجَّة. وقولنا: القيامة حقٌّ مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى ٤٢/١٨].

وقيل: السؤال الأول: عن وقت قيامها، والثاني: عن كنه ثقلها ومهابتها، ولهذا خصّ باسم الجلالة الدَّالة على غاية المهابة في موضعها، فإنَّ الله اسم للذات مستجمعٌ لمجامع الصِّفات، فيعتبر من تلك الصِّفات ما يقتضيه المقام، وههنا المقام مقام التهويل فيدلُّ على ذلك دلالة جليلة.

وقيل: للدلالة على تكرار وقوع السؤال عنهم مرةً بعد مرةٍ؛ قصدًا إلى زيادة الاستهزاء والإنكار بالبعث، أو إماطة الشبهة والشَّك، فإنَّ منهم: من كان يقطع القول بإنكار القيامة، ومنهم: من شك وعلى أن المرة الثانية أبلغُ من الأولى، ولذلك قال ههنا ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ أي: لم يحصل علمها إلا للذَّات الجامع لصفات الكمال على وجه الكمال، وأيضًا في التكرير تخصيصٌ لهم بالسؤال عنها، وأنهم هم الذين يستعصون [**٢٤٦**/ظ] ويشددون في ذلك، ويستعجلون بها قال الله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى ٤٢/١٨].

[٤٧٧٥] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٧٨؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٦٩٤؛ **الفريد** للهمذاني، ٣/١٧٠.

[٤٧٧٦] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٧٨؛ **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٥٣؛ **المحتسب** لابن جني، ١/٢٦٩.

[٤٧٧٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/٢٠٣.

[٤٧٧٨] **صحيح البخاري، صحيح مسلم**،١/٢٢٢ (٢٥٩).

[٤٧٧٩] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٧٨.

[٤٧٨٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٦٩و.

[٤٧٨١] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٧٨.

وقيل: وفي التكرير نكتةٌ لا توجد إلا في القرآن، فإنه إذا بُنِي الكلام على مقصد، واعترض في أثنائه عارضٌ، وأريد الرجوع لتتمَّة المقصد الأوَّل، وقد بَعُدَ طَرِّيَ[٤٧٨٢] لتتَّصل النهاية بالبداية، فإنه تعالى ابتدأ بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ وطال الكلام، إلى قوله: ﴿بَغْتَةً﴾، وأراد إنكارَ سؤالهم بوجهٍ آخر، وهو قوله: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ وتعلُّقه قويٌّ بالسؤال، فَطُرِّيَ، وغالب التطريةِ بإجمالٍ، ولهذا قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ ولم يذكر «السَّاعة» اكتفاءً بما تقدَّم، وأعاد: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ إجمالًا.[٤٧٨٣]

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾

وقوله: ﴿لِنَفْسِي﴾ متعلِّقٌ بـ﴿لَا أَمْلِكُ﴾، أو حال متقدمةٌ من ﴿نَفْعًا﴾ أو معمولٌ له، واللَّام لتقوية العمل؛ لأنه فرعٌ أي: أن أنفع نفسي، ولا أن أضرَّها؛ وهو وجه حسنٌ، والمعنى: لا أقدر جلبَ نفعٍ من غني وصحَّةٍ وهدايةٍ، ولا دفعَ ضُرٍّ من فقر ومرضٍ وضلالةٍ، كسائر عباد الله، وتقديم النفع مع أنَّ أكثر ما جاء بالعكس؛ لأنَّ العابد يعبد خوفًا من عقابه أوَّلًا، ثم طمعًا في ثوابه ثانيًا لسابقة لفظٍ يتضمَّن معنى نفع في قوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ وفيما بعد، ولأنَّ النفوس القدسية مطمح نظرها الأمور الدينية.

﴿**إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ**﴾ استثناءٌ منقطع، أي: ولكن ما شاء الله كائنٌ، أو متَّصل أي: ما شاء الله أن أملكَه، وفيه إظهار العبودية، وتَبَرِّى عما يختصُّ بالربوبيَّة من علم الغيب، فإنَّ القدرةَ الكاملة والعلمَ المحيط ليس إلا له، وفيه دلالةٌ على أن الإيمان والكفر بمشيئة الله، وأجوبةُ المعتزلة عدولٌ عن الظاهرة، وعمّا يقتضيه العقل الباهرة؛ فإنَّ القدرة على الكفران لم تصلح للإيمان، فخالقها مريد له وإن صلحت امتنع صدوره بدله إلا عند داعيةٍ جاريةٍ فخالقها مريدٌ، ثُمَّ لما نفى عن نفسه علم الغيب، وأحال الأمر إلى مشيئة الله استدلَّ على ذلك بقوله: ﴿**وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ أي: ولو كنت أعلمه لخالفت خلاف ما هي عليه، من استكثار الخير، باجتلاب المنافع والاستخلاص عن الشر باجتناب المضارِّ، كما هو مقتضى طبع البشر.[٤٧٨٤]

وفيه دلالةٌ على أنه لا تأثير للعدور، وإلَّا لما أمكن التغيير بالتدبير على تقدير العلم بأسبابهما.

عن ابن عباس: قال أهل مكة: ألا يخبرك ربُّك بالسِّعر الرخيص قبل أن يغلوَ، فنشتريَ ونربحَ؟ وبالأرض التي تريد أن تجدب فنرحلَ عنها؟[٤٧٨٥]

وقيل: «لَمَّا رجع من غزوة بني المصطلق جاء في الطَّريق ريحٌ نفرت الدوابُّ منها، فأخبر ع م بموت «رفاعة» في المدينة، وكان فيه غيظٌ للمنافقين، وقال: انظروا أين ناقتي؟ فقال عبد الله بن أُبيٍّ لقومه: ألا تعجبون من هذا الرَّجل يخبر عن موتِ رجلٍ بالمدينة، ولا يعرف أين ناقته؟ فقال عليه السلام: إنَّ ناسًا من المنافقين قالوا: كيت وكيت، وناقتي في هذا الشعب، قد تعلَّقت زمامُها بشجرةٍ، فوجدوها على ما قال؛ فنزلت».[٤٧٨٦]

[٤٧٨٢] أي: ذكر.

[٤٧٨٣] **الانتصاف بحاشية الكشاف** لابن المنير، ١٧٧ظ-١٧٨و؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٦٩٦.

[٤٧٨٤] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/٢٠٥.

[٤٧٨٥] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٢/٦١٩؛ **التيسير في الفسير**، ٧/٩٥؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/٢٠٥.

[٤٧٨٦] **البحر المحيط** لأبي حيان، ٤/٤٣٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٩/٤١٤.

وقيل: ولو كنت أعلم وقتَ الموت لَاستكثرت من العمل الصالح، واجتنبت ما يكون منه الشرّ، وفيه إنَّ عمله ع م السلام كان ديمة ينظر إلى الله في جميع أحواله اللهُمَّ إلا أن يراد إرشاد الغير.

وقيل: لو علمتُ وقتَ الساعة لأخبرتُكم حتى تؤمنوا وما مسَّني تكذيبكم.

وقيل: وما مَسَّني السوء أي: الجنون؛ لأنهم ينسبونه إليه فيكون ابتداء كلام، ثُمَّ اعتبر إذا كان حال سيّد عباده أن لا علم له بشيء منه، وإن وقت خويصة، وبعثه ونشوره، ونفعه وضرّه من الغيب لا يعلمه فما ظنّك بغيره ومن هو دونه، وفيه بيان لعجز العباد، ووصف لقصور علمهم، فَعَليهم أن لا يستقصوا ولا يشدِّدوا في السؤال عن غيبه سيَّما إذا كان معالم يطلع عليه أحداً.

وقيل: أخفى غيبه عن الخلق ولم يطلع عليه أحدًا؛ لئلا يأمن أحدٌ من عبيده مكره.

وقال أبو حيان: ظاهر الآية على جهة عموم الغيب، كما قال عليه السلام: «لا أعلم وراء هذا الجدارِ إلا أن يُعلِمَنيهِ ربي». بخلاف ما يذهب إليه هؤلاء الذين يدعون الكشف، وأنَّهم بتصفية نفوسهم يحصل لهم اطِّلاع على المغيَّبات، وإخبار بالكوائن التي تحدث، شاهدنا ادِّعاء الناس لهذا الأمر -وخصوصًا في ديار مصر-، حتى أنهم ينْسُبون ذلك إلى رجلٍ مُتضمّخٍ بالنجاسة يظلُّ دهره لا يصلي، ولا يستنجي من نجاسة، ويكشف عورتَه للناس حتى يبول، وهو عار عن العلم والعمل الصَّالح.[٤٧٨٧]

وعن النبي عليه السلام: «واللهِ ما أدْرِي – وأَنَا رَسولُ اللهِ – ما يُفْعَلُ بِي ولَا بكُمْ»[٤٧٨٨] ولا يجوز حمل الدِّراية على تردُّده في مآل أمره لدلالة الكتاب والسنة على اجتبائه تعالى إيّاه، بل يحمل على نفي علم الغيب، عن نفسه بالمقدور والمكنون من أمره وأمر غيره.

وقال حسن البصري: لأدري أموت أم أقتل، ولا أدري أيُّها الأمم المكذبة ما يفعل بكم مثل ما فعل بالأمم المكذِّبة من رمى بالحجارة، والخسف ومسح الصور أم لا، فان قلت قد أخبر عن المغيَّبات، وقد جائت أحاديث بذلك، وكان من أعظم معجزاته. قلت يحتمل أن يقول ذلك على سبيل التواضع، و يحتمل أن يقوله قبل أن يطلعه الله على الغيب.

﴿**إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ**﴾ وما أنا إلا عبد أُرسلتُ للإنذار، [**٢٤٧**/و] والبِشارة وما من شأني أن أعلم الغيب ﴿**لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ متعلِّقٌ بهما من جهة المعنى، وكان في اللَّفظ معمولًا لواحدٍ، أو بتأويل أُرسلت جامعًا بينهما ﴿لِقَوْمٍ﴾ وتخصيصهم؛ لأنهم المنتفعون بهما، أو متعلِّقٌ ب﴿بَشِيرٌ﴾ ، ومتعلّقُ ﴿نَذِيرٌ﴾ محذوفٌ للتعميم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس ١٠/٢]، أو لدلالة المقابلة إلا نذير للكافرين، وبشير للمؤمنين، والقوم مختصٌّ بالرجال والبِشارة عبارةً تختصّ بهم، ودلالةً تعمُّ النساء حيث علِّلت بالإيمان، فإن ترتب أمرٍ بموصوفٍ يدل على علِّيَّة الوصف له، وفيه تحريض للكفَّار على الإيمان.

قال أبو عثمان: عجز الخلق عن إيصال نفعٍ، أو دفع ضرٍّ عاجلًا، فكيف يثق بايمانه، وكيف يعتمد بطاعته؟

وقيل: لو كنتُ أملك الغيب، أو أَقدر عليه، لَما مسَّني السوءُ، ولكن طُويت الغيوب عنَّا، والزمت الملامة علينا.[٤٧٨٩]

[٤٧٨٧] **البحر المحيط** لأبي حيان، ٤/٤٣٤.

[٤٧٨٨] **صحيح البخاري**، ٣/١٨١ (٧٠١٨).

[٤٧٨٩] **عرائس البيان** للبقلي، ١/٥٠١.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩)﴾

﴿**مِنْهَا**﴾ من جسدها من ضِلَعٍ من أضلاعها، وهو الضّلع الأعلى. قال عليه السلام: «اسْتَوْصُوا بالنِّساءِ خَيْرًا؛ فإنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِن ضِلَعٍ، وإنَّ أعْوَجَ شَيءٍ في الضِّلَعِ أعْلاهُفإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وإنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أعْوَجَ، فاسْتَوْصُوا بالنِّساءِ خَيْرًا»،[٤٧٩٠] أو من جنسها كقوله: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾[الروم ٣٠/٢١]، وفي عطف ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني: حوّاء على ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ﴾ يعني: آدم. كلامٌ ذكر في أول النساء وهما أعني تشعب هذا الخلق الغائب للحصر من نفس آدم، وخلق حوَّاء من قصيراه آيتان من أجل الآيات الدَّالة على الوحدانية، وباهر الحكمة، وعظيم القدرة. ومَن قدر على مثل ذلك قدر على كل شيءٍ، منه: قيام الساعة، وعقاب الكفرة والعصاة، وثواب أهل الإيمان، والطَّاعة، فالنَّظر فيه يوجب أن يبقي القادر على ذلك، ويخاف عقابه الذي أنذر به رسولُه ويرجى ثوابُه الذي بَشَّر به، ثم إنَّ إحديهما جعلها الله عادة مستمرّة دون الأخرى؛ إذ[٤٧٩١] لم يخلق غير حوَّاء من قصيري رجل، وكانت أبينَ وأدخل في كونها آيةً، وأجلب لعجب السامع فأفردها بالذِّكر وعطفها على الأولى؛ إشعارًا بمغايرتها، ومباينتها لها فضلًا، ومزيَّةً، ودلالةً على نعمةٍ سابقةٍ أخرى عليهم، فحقّهم أن يشكروه ولا يكفروه.

وتذكيرُ الضمير ههنا بعدما أنّث ذهابًا إلى معنى النَّفس ليبين أنَّ المراد منها آدم ع م، ولأنه أحسن طباقًا للمعنى، وإن كانت التأنيث أوفقَ باللفظ ولا خفاء أنَّ رعاية جانب المعنى أولى، ووجه الأحسنيَّة الإيماء إلى أنَّ الذكر هو الذي يميل في غالب الأمر إلى الأنثى ويجامعها، وأيضًا خلق الذَّكر أوَّلًا وجعل منها زوجها إزالةً لاستيحاشه، وكان نسبة المؤانسة إليه أولى.[٤٧٩٢]

﴿**فَلَماَّ تَغَشَّاهَا**﴾ جامعها. وأصل التَّغشي: التغطية كنى به عن الجماع. يقال تغشَّى حليلته وغشيها: إذا علاها؛ فقد صار كالغاشي لها، وكذلك الغِشيان والإتْيان، وفيه أيضًا حسن رعاية جانب المعنى؛ لأنَّ الذكر هو الذي يتغشَّاها.

والفاء فيه للتعقيب، كقوله تع: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة ٢/٥٤].

وفيه أن المقصود الأول من الازدواج التَّوالد والتَّناسل، حيث أوقعَ الغِشيان ومقدِّمته، أي: السكون، علة للجعْل.

ومن عنده أدنى مُسْكةٍ يعلم أنَّ الجِماع غير مطلوب بالذَّات، وإنما هو ذريعة إلى تكثير نوع الإنسان، فظهر منه أن عطفَ ﴿فَلَماَّ تَغَشَّاهَا﴾ على ﴿لِيَسْكُنَ﴾ مانعٌ عن أن يُحمل «السكون» على الأنثى.[٤٧٩٣]

فيضعف ما قيل: لو أُنِّث ضمير ﴿لِيَسْكُنَ﴾ لتُوُهّم أنَّ فاعلَه ضميرُ الزَّوج، والضمير المجرور للنفس، وأدَّى إلى أن الأنثى هي التي تَسْكنُ إلى الذّكر.[٤٧٩٤]

﴿حَمَلَتْ﴾ جوابُ ﴿لَمّا﴾﴿حَمْلًا﴾ مصدر، أو مفعول به، وهو الظَّاهر، أي: نفس الجنين.

[٤٧٩٠] **صحيح البخاري**، ٧/٢٦ (٥١٨٦)، **صحيح مسلم**، ٢/١٠٩١ (١٤٦٨).

[٤٧٩١] ج – إذ.

[٤٧٩٢] **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٤/٤٩.

[٤٧٩٣] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٦٩٨-٦٩٩.

[٤٧٩٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٦٩٨.

وقيل: النطفة: وهو بالفتح ما كان في بطنٍ، أو على رأس شجرٍ، وبالكسر ما كان على ظهرٍ أو الدَّابة ﴿خَفِيفًا﴾ لكونه أوَّلَ ما تحمل من النُّطفة ولم يكن حينئذ شيئًا ثقيلًا أو خفَّ عليها ولم تَلْقَ منه ما يلقى الحَبَالى غالبًا من حملهنَّ من الكرب والأذى، ولم تستثقِلْه كما يستثقلنه، وقد تسمع بعضَهُن تقول في ولدها: ما كان أخفَّه على كبدي حين حملته!

﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ فقامت به وقعدت؛ أي: تردَّدت به لخفَّته كما لم تكن تحمل، أو استمرَّت به إلى وقت ميلاده، كما هو قراءة ابن عباس[٤٧٩٥] من غير إخداجٍ[٤٧٩٦] ولا إزلاقٍ.[٤٧٩٧]

والمصنِّف حمل المعنى الأول: على ما ذكرنا في ﴿خَفِيفًا﴾ أوَّلًا، والمعنى الثاني: على ما ذكرنا فيه ثانيًا، وأنت خبير بأنَّه لا ضرورةَ إلى تخصيص الوجه بالوجه.

وقرئ: «فَمَرَتْ»[٤٧٩٨] فهي كالمشهورة لكنها خفِّفت؛ نحو: «مست» و«ظلت»، أو من المِرْية أصله: «مريت»، أي: شَكَّتْ بسببه أهو حمْلٌ أو مرضٌ؟

و«فَمَارَتْ»[٤٧٩٩] من المَوْرِ يقال: مَارَ يَمُورُ؛ أي: جاء وذهب. أصله: «مَوَرَتْ» قلبت الواو ألفًا، أو من المِرْيَة فأصله: «مَارَيَتْ» «كَضَارَبَتْ» قلبت الياء ألفًا، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين.[٤٨٠٠]

﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

صارت [**٢٤٧**/ظ] ذات ثِقلٍ لقولهم: أَلْبَنَ الرَّجُلُ، أو دخلت فيه، نحو: أَصْبَح الرَّجل بِكبرِ الْوَلَد في بطنها.

وقرئ: على البناء للمفعول؛[٤٨٠١] أي: أثقلها حملها ﴿دَعَوَا ٱللَّهَ﴾ أي: دعاء آدم وحواء ﴿رَبَّهُمَا﴾: مالك أمرهما الذي هو المُنْعِمُ بالنِّعم كلِّها الحقيق بالدعاء والالتجاء ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ ولدًا سويًّا قد صلحَ بدنُه وبَرِئ. ولعل ذلك لَمَّا رأى عند عرض الذرِّيات له بعض أولاده سويًّا، وبعض أولاده غير سويٍّ، أو ذكرًا؛ لأن الذُّكورة من الصلاح والجودة، أو ذا صلاحٍ ودينٍ ينتفع به.

قال عليه السلام: « اَلْوَلَدُ الصَّالِحُ رَيْحَانَةٌ مِنْ رَيَاحِينِ الْجَنَّةِ».[٤٨٠٢] وقيل: إنما قالا ذلك لإرادتهما أولادًا يؤنسونهما في الموضع لاستيحاشهما، حيث إذا غاب أحدهما عن الآخر بقى الآخر مستوحشًا بلا مؤنس، والقسمية دالةٌ على متعلِّق الدعاء مفسّرة له، أو معمولةٌ لقول مضمر ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ﴾ لك على هذه النِّعمة المجدّدة العظيمة.

[٤٧٩٥] أي: «فاستَمَرَّت به» وهي قراءة شاذّة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٠.

[٤٧٩٦] ناقة خادج: ألقت ولدها قبل الوقت وإن تمَّ خلقه، ومخدج: جاءت به ناقص الخلق وإن كان لوقته. **أساس البلاغة** للزمخشري، «خدج»؛ أسقطت.

[٤٧٩٧] أزلقت الناقة: أسقطت. **الصحاح** للجوهري، «خدج».

[٤٧٩٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خلويه، ص ٥٣؛ **المحتسب** لابن جني، ١/٢٦٩؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٠.

[٤٧٩٩] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن عمر. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خلويه، ص ٥٣؛ **المحتسب** لابن جني، ١/٢٧٠؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٠.

[٤٨٠٠] **اللباب** لابن عادل، ٩/٤١٧.

[٤٨٠١] أي: «أُثْقِلَتْ». **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٨٠.

[٤٨٠٢] **الكافي** للكليني، ٦/٣.

وقيل: على نعمائك، ويدخل فيه ذلك دخولًا أوَّليًّا، وفيه ما لا يخفى وهو جواب القسم مدلولٌ به على جواب الشَّرط، وفي القسم المؤكد ووعد كونهما من المبالغين في الشُّكر المعدودين في زمرة الشاكرين ما لا يخفى من الدَّلالة على عِزِّ المطلب، وعلوّ الشَّأن واقتضائه فضل المنّة، وكمال الشُّكران.

﴿**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠)**﴾

لا بمعناه الحقيقي المنزّه عن شائبته الأنبياء، بل بمعنى: سمَّيا ولدهما بعبد الحارث.

قال ابن عباس: «لَمَّا ولد له أوَّل ولد، أتاه إبليس فقال: إني سأنصح لك في شأن ولدك هذا، سمّه عبد الحارث! فقال آدم: أعوذ بالله من الشيطان، إني أطعتك في أكل الشجرة، فأخرجتَني من الجنَّة، فلن أطيعَكَ. فمات ولده، ثم ولد له بعد ذلك ولد آخر، فقال: أطعني وإلا مات كما مات الأوَّل! فعصاه، فمات، فقال: لا أزال أقتلهم حتى تسمّيَه «عبد الحارث». فلم يزل به حتى سمّاه «عبد الحارث». قال ابن عباس: «أشركه في طاعته في غير عباده، ولم يشرك بالله، ولكن أطاعه». وقال قتادة: أشركا في الاسم، ولم يشركا في العبادة.

قال العلماء: فلم يكن ذلك شركًا في العبادة، ولأنَّ الحارث ربٌّ لهما؛ لأن آدم كان نبيًّا معصومًا، ولكن قصدا تسميتهما الولد بعبد الحرث أنَّه كان سبب نجاة الولد، وسلامته، وسلامة أمِّه، وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به أنه مملوك لما قال الشاعر:

وإنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ ما دَامَ ثاوِيًا[٤٨٠٣]

أخبر عن نفسه أنَّه عبدُ الضيف ما أقام عنده مع بقاء الحرمة عليه، وإنما أراد بالعبوديَّة خدمة الضيف، والقيام بمواجب حقوقه، كما يقوم العبد بمواجب حقوق سيِّده، وقد يُطلق اسم الرَّب بغير ألفٍ ولامٍ على غير الله، كقول يوسف لعزيز مصر: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف ٢٣/١٢] أراد به التربية، ولم يرد به أنَّه ربُّه ومعبودُه وكذلك هذا، وإنما أخبر عن آدم بقوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾؛ لأن حسنات الأبرار سيِّئات المقرَّبين، ولأنَّ منصب النبوَّة أعلى المناصب فعاتبه الله على ذلك؛ لأنه نظر إلى السَّبب ولم ينظر إلى المسبِّب، وفيه من التَّغليظ والتَّشديد عليهما على طريقة قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة ٨٢/٥٦]، حيث ضمن الكلام للامتنان عليهما، وطلب الشرك والتفادي عن الكفران، ولالتزامهماعلى أنفسهما الشُّكر على سبيل المبالغة.

فلمَّا وقعت النِّعمة وقع منهما ما وقع، فعلى هذا يتمُّ الكلام ههنا، فيكون الفاء الفصيحة مع متعلّقها المحذوف، كالتَّخلص من قصَّتهما إلى توبيخ المشركين، أي: إذا كان الأمر على ما ذكر وهو أنَّ التَّسمية التي لها محل كثيرة في التبرُّئ عن الشِّرك مأخوذ على أبي البشر، فما بال القول بألوهيَّة الحجر وتصريح اسم الشركاء عليها فقال:

﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ وفي المقام وجهٌ آخر وهو أن يكون المعنى: ﴿فَلَمَّآ آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ أي: جعل أولادهما لله تعالى شركاء فيما آتيهما، أي: فيما آتى أولادهما فسَمَّوْه عبد العزى وعبد منافٍ مكان عبد الله وعبد الرحمن. فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مُقامه ويدلُّ عليه قوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وما بعده؛ لأنَّ صريح في أنَّ الذين أَتوا بهذا الشرك جماعة، وأنَّه ردّ على عبدة الأصنام على ما سيجيئ، فالله سبحانه افتتح السورة ناهيًا نبيه عليه السلام عن ضيق الصدر والحرج عمَّا كان يلقَى

[٤٨٠٣] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٩٣/١٥؛ **ديوان الحماسة**، ٣١٠/٢.

من المشركين من أنواع الأذى، ثم قصَّ عليه قَصَص الأنبياء، وعاقبة صبرهم والأمم، وما كان مغبَّة[٤٨٠٤] تكذيبهم تشجيعًا له عليه السلاموتثبيتًا لقلبه.

ثم ختم بذكر موسى، وأطنبَ في أحوال أمَّته إلى أن انتهت إلى قصة بَلْعَام وأحواله، وكانت قصَّته شبيهة بقصَّة اليهود الذين أدركوا زمن الرسول عليه السلام وأورد قوله: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ﴾ [الأعراف ١٧٧/٧]. فكرَّر راجعًا إلى ما بدأت السورة بقوله: و﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.[٤٨٠٥]

فذكر سؤالهم عما لا يغنيهم، فلمَّا أريد بيان أنَّ ذلك ممَّا لا يهتمهم، وإنما المهتمّ لهم إزالة ما أنتم منغمسون فيه من أوصاف الشِّرك والآثام مهّد له قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ مضمّنًا معنى المالكية، والامتنان المقتضيين للتوحيد والعبودية، ثم قيل: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أي: أجعلتمبأولادهما.[**٢٤٨**/و]

ولقد كان لكم في أبويكم أسوةٌ حسنةٌ في قولهما: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ وكان المعنى: والله أعلم فلمَّا آتيهما ووفيا بما وعدا به ربَّهما من القيام بمواجب الشُّكر خالفتم أنتم بأولادهما، فأشركتم وكفرتم النِّعمة، وفي هذا الالتفات من الخطاب في قوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ﴾، ثم إضافة فعلهم إلى الأبوين على عكس ما جُعل من خلق الأب، وتصويره في معرض الامتنان متعلِّقًا بهم إيماءً إلى غاية كفرانهم، ونهاية تماديهم في الغيّ، وعليه ينطبق تفريع قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ فظهر أنَّ إجراء ﴿جَعَلَا لَهُ﴾، على غير ما أجري عليه الأوَّل، والتعقيب بالفاء لا يوجب إخلال النظم، بل يوجب التيامة؛ لأنَّ إيتاء آدم وحواء الولد نعمةٌ في حق الأولاد؛ لأنَّه سبب وجودهم وليس كلمة «لَمّا» للزمان المتضايق، بل الممتد فلا يلزم أن يقعَ مضمون الشَّرط والجزاء في يوم أو شهر أو سنةٍ، بل يختلف ذلك باختلاف الأمور، كما تقول: لَمَّا ظهر الإسلام ظهرت الفلاح من دنس الكفر والإلحاد وإن أيد الوجه الأول بأن الإشراك ممَّا آتاهما الله ليس إشراكًا على الحقيقة؛ لأنَّ معناه أيضًا في حقِّ الأولاد تسميتهم أولادَهم بعبد العُزَّى وعبد مَناة وعبد شَمس، والإعلام لا يقصد مفهوماتها الأصلية، والحديث صريحٌ في أنَّ المراد آدم وحوَّاء، وتقدير المضاف لا يصار إليه إلا عند الحاجة يجاب عنه بأنَّ إشراكهما بالله ولو بمعنى تسمية الولد بعبد الحارث اتباعًا لأمر الشَّيطان مرجوح، وإن لم يكن محظورًا على أنَّهم لا يجعلون الإعلام المضافة عن الإيماء إلى المعاني الأصليَّة وملاحظة لها، وهذا القدر من الحاجة في تقدير المضاف والحديث من باب الآحاد، ولم يرد في معرض البيان للكتاب على أنَّ التسمية بِعَبْد الحارث جعل شريك لا شركاء إلا بتأويل وعدول عن الظاهر، وكذا جعل فتعالى الله تخلُّصًا إلى حال المشركين خلاف الظاهر، وأمَّا الحمل على تقدير المضاف فله وجه وجيه معنًى ونظمًا على ما قررناه بما لا مزيد عليه.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١)﴾

الهمزة للإنكار والتَّعجُّب، فإنَّ كلَّ عاقل ناظر في إشراكهم جمادًا لا يقدر على شيء ينكره، ويتعجَّب منه، وللتَّوبيخ بمعنى: أليس لهم حياءٌ من ارتكاب هذا الشنيع؟ وللتعجيب أي: اسمعوا أيها العقلاء السامعون أمرهم المستنكر منه العجب ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾ ما لا يقدر على خلق شيءٍ قدّر ذلك ليلائم ما بعده، ولأنَّ نفي القدرة أبلغُ في العجز من نفي الإيجاد ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؛ لأن الله خالقهم وإفراد الضَّمير ثم جمعه بالنَّظر إلى اللَّفظ والمعنى وجمع العقلاء مع أنَّه ضمير الأصنام على تسميتهم إياها آلهة، وزعمهم فيها تمييزًا لجهلهم وغوايتهم، أو أريد به كلّ معبود باطل من الجنّ والإنس فغلب، ثم إنَّه تعالى طعن في

[٤٨٠٤] المغبّة: العاقبة.

[٤٨٠٥] **فتوح الغيب** للطيبي، ٧٠٣/٦.

إِلَاهيَّتِها لكونها لا يخلق شيئًا، والطعن لا يتمُّ إلا إذا لم يخلق شيئًا وهذا، يقتضي أنَّ العبد لو كان خالقًا لَكان إلهًا وفساده ظاهر، وفي الآية وجهٌ ثالثٌ وهو أنَّ الخطاب لآل قُصيّ من قريش ألا ترى إلى قوله: في قِصَّة أُم معبَد:

فيا لَقُصَيٍّ ما زَوَى الله عَنكُم ... به مِن فَخَارٍ لا يُبَاري وسُؤدُدِ[٤٨٠٦]

أي: «هو الذي خلقكم من نفسٍ قُصَيٍّ، وجعل من جنسها زوجَها عربيةً قريشيَّةً ليسكن إليها، فلما آتيهما ما طلبا من الولد الصالح السويّ جعلا له شركاء فيما آتيهما، حيث سمَّيَا أولادَهما الأربعةَ بعبد منافٍ، وعبدِ العُزَّى، وعبد قُصَيٍّ وعبد الدَّار، يكون ضمير ﴿يُشْرِكُونَ﴾ لهما ولأعقابهما المقتدين بهما في الشرك».[٤٨٠٧]

واستبعد ذلك أيضًا بأنَّ المخاطبين لم يُخلَقُوا من نفس قُصَيٍّ لا كلَّهم ولا جلَّهم، وإنما هو مجتمعُ قريش، ولم يكن زوجُها عربيةً قريشيَّةً، بل هي بنتُ سيد مكَّة من خزاعةَ، وقريشٌ إذ ذاك متفرقون.[٤٨٠٨]

ليسوا بمكة ومن أين العلم أنَّهما وَعَدا عند الحمل إن يكونا من الشاكرين لله، ولا كفران أشدّ من الكفر الذي كانا فيه، وما القائل بهذا الوجه إلا كمن بنى قصرًا وهدم مصرًا، غاية الأمر أنه خُصَّ في البيت بنو قُصيّ بالذِّكر؛ لأنهم ألصق برسول الله، أو لأنه كان سيّدهم وآمرهم يشتمل ذكره الكلّ شمولَ فرعون لقومه، ومعلومٌ أن الكلَّ ليسوا من نسل فرعون.

واللَّام للتعجب، كما في يا لَلماء، أو المراد يا آل قُصَيٍّ، وما في «ما زَوَي» استفهاميةٌ أو موصولةٌ، أي: «تعالوا يا قُصَي لنتعجَّب منكم فيما أغفلتموه من حظِّكم، وأضَعْتُمُوه من عِزِّكم بعصيانكم رسولَ الله، وإلجائكم إيَّاه إلى الخروج بين أظهُرِكم.[٤٨٠٩]

و«ما»: مبتدأ بمعنى الذي، والخبر: من «فَخَارٍ»، و«لا يُجَازى»: صفته ورُوي «لا يُبَارى»، والضمير في «به» لرسول الله، والباء للسببية.

وقصةُ أمّ معبد مذكورةٌ في «**الفائق**».[٤٨١٠] والبيت من أبيات سمِعُوها بمكة بصوتٍ عالٍ لا يدرون مَنْ صاحبُه وهي [**٢٤٨**/ظ] قوله:

جـزى اللهُ ربُّ العـالمين خـيرَ جزَائِـه ... رفيقَـيْنِ قـالا خَيْمَـتَيْ أمّ مَعْبَـدِ
همـا نزلاهـا بالهُـدى واهتَـدَتْ بهـم ... وقـد فـازَ مَـن أَمْسـى رفيـقَ محمـدِ
فيـا لَقُصَـيٍّ مـا زوى اللهُ عـنكم ... بـه مـن فخـارٍ لا يُبَـارى وسُـؤْدَدِ

لِـيَهْنِ بـني كعـب مقـامُ فتـاتِهِم ... ومقعـدها للمـؤمنين بمَرْصَـدِ
سَـلُوا أختكم عـن شـاتها وإنائِهـا ... فـإنَّكم إنْ تسـألُوا الشـاةَ تَشْـهَدِ
دعاهـا بشـاةٍ حائـلٍ فتحلَّبَـتْ ... لـه بضـرع ضـرَّة الشـاة مُزبِـد

[٤٨٠٦] **الكشاف** للزمخشري، ١٨٠/٢.

[٤٨٠٧] **الكشاف** للزمخشري، ١٨٠/٢-١٨١

[٤٨٠٨] **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٥٢/٤.

[٤٨٠٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ٧١١/٦؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٥٢/٤.

[٤٨١٠] **الفائق في غريب الحديث** للزمخشري، ٩٩/١. تحقيق: علي محمد البجاوي -محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان د.ت.؛ **فتوح الغيب**، ٧١١/٦؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٥٢/٤.

فغَادرهـــا رَهْنًـــا لـــديها بحَالِـــبٍ يردِّدُهَـــا في مصـــدرٍ ثُمَّ مَـــوْرِدِ[٤٨١١]

الضَّرَّةُ: أصلُها الضرع الذي لا يخلو عنْ لبَنٍ وقيل: هي الضرعُ كلُّهُ ما خلا الأَطْبَاء.[٤٨١٢]

وقوله «خيْمتي»: نصبٌ على الظَّرفِ إجراءً للمؤقتِ مُجرى المبهم، وقيل:الصَّوت صوتُ مسلم الجنّ، أَقبلَ من أسفلِ مكَّة، حتى خرج بأعلاها.[٤٨١٣]

روي: «أنه عليه السلام خرج مهاجرًا مع أبي بكرٍ فمرَّا على خيمة أمّ مَعْبَد، وفيها شاةٌ لا لَبن لها، فدعاعليه السلام بها، فمَسَح بيده ضرعها، فتَفَاجَّت عليه، ودَرَّتْ، ودعا بإناءٍ، يُرْبِضُ الرَّهط، أي: يرويهم، فحَلَبَ فيه ثجًّا، حتى علاه البهاء. ثم سقاها حتى رويت، وسقى أصحابه، حتى رَووا، ثم حلب ثانيًا، وغادره عندها».[٤٨١٤]

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢)﴾ ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣)﴾

أي: لايستطيعون الأصنام لِعَبَدَتهم ﴿**نَصْرًا**﴾، ثم ترقى في بيان عجزهم بقوله: ﴿**وَلَآ أَنْفُسَهُمْ يَنصُرُونَ**﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها من الحوادث، بل عبدتهم هم الذين يدفعون عنها.

وقيل: إنهم لا ينصرون من أطاعهم ولا يقتصون ممَّن عصاهم، والمعبود يجب أن يقدر على نفع من أطاعه، ودفع الضرّ عنه وعلى من عصاه بالعكس والخطاب في: ﴿**وَإِن تَدْعُوهُمْ**﴾ للمشركين وهم ضمير الأصنام ﴿**إِلَى الْهُدَى**﴾ أي: إلى أن يكونوا على هدى ورشاد ﴿**لَا يَتَّبِعُوكُمْ**﴾ لا يجيبوكم ولا يحصلوا ذلك في أنفسهم، ولا يتّصفوا بذلك، أو وإن يطلبوا إلى أن يهدوكم بمعنى الدَّلالة على الصِّراط المستقيم، أو الدَّلالة الموصِلة إلى البُغْية، لا يتبعوكم إلى مرادكم، ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله، ويدلُّ على أن معنى: لا يتَّبعوكم يجيبوكم إلى مرادكم قوله: ﴿ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ [الأعراف ١٩٤/٧]، أي: لا يقدرون على استجابتكم، وإيصال ما طلبتم إليكم.

وفيه تنبيهٌ على غاية ضلالهم، ونهاية اختلالهم، حيث أشركوا خالقَ العالم سميع الدعوات المجيب للحاجة القادر على بغيةِ المقتدر على جميع أمنيَّة جمادًا حقيرًا لا عجزًا بين من عجزه لا يقدر على شيء من أفعال الله، ولا من أفعال العباد، ولا نفع منه لنفسه فضلًا لغيره.

وقيل: الخطاب للمؤمنين، وضمير من ﴿هُمْ﴾ للمشركين، أي: تدعوهم إلى الإسلام لا يتَّبعوكم، وفيه مع عدم ملائمته سباقًا وسياقًا ومرامًا و نظامًا لا يوجد وجه إيثارٍ سواءٌ عليكم حينئذ، كما لا يخفى ثم إن الآيات الكريمة بالنَّظر إلى ما قبله واردةٌ على طريقة الأسلوب الحكيم، وتحريره: إني ما بُعثت لأن أكشف لكم عن إيان السَّاعة؛ لأنه من الأمور الإلهيَّة لا إطّلاع لي عليه ﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ﴾ [الأعراف ١٨٧/٧]﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [الأعراف ١٨٨/٧] بعثت لكم عن الاستعداد

[٤٨١١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٧١١/٦؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٥٣/٤.

[٤٨١٢] **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٥٣/٤.

[٤٨١٣] **فتوح الغيب** للطيبي، ٧١٠/٦؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٥٣/٤.

[٤٨١٤] **شرح السنة** للبغوي، ٢٦١/١٣-٢٦٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٧٠٨/٦.

لها، والعمل بما ينفعكم، وممّا هو أهمّ الأشياء، وأدعي إليه الآن أن أكشف لكم عن قبح ما أنتم فيه من الشِّرك بالله وأُوْقفكم على أن الشرك لظلمٌ، ومن هذا الأسلوب ما رويناه عن البخاري والمسلم عن أنسٍ: أنَّ رَجُلًا سَأَلَ النبيَّ عليه السلام، فقالَ رسول الله: مَتَى السَّاعَةُ؟ ما أَعْدَدْتَ لَهَا؟ الَ فَكَأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَكَانَ أي: ذلَ وخضع، ثم قالَ: ما أَعْدَدْتُ لَهَا كَثِيرِ صيام وَلَا صَدَقَةٍ، ولَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ ورَسولَهُ، قالَ: أنْتَ مع مَن أَحْبَبْتَ.[٤٨١٥]

«...قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: فأنَا أُحِبُّ النبيَّ، وأَبَا بَكْرٍ، وعُمَرَ، وأَرْجُو أنْ أَكُونَ معهُمْ بحُبِّي إيَّاهُمْ، وإنْ لَمْ أعْمَلْ أعْمَالهِمْ».[٤٨١٦]

انظر إلى هذا العلاج الصائب لمرضى القلوب، فإنَّ الطبيب الحاذق قد يحتاج في علاجه إلى تدبير دفع الإخلاط الرديئة لإزالة المرض، وقد يحتاج إلى تدبير حفظ الصِّحة فقط، والمشركون لَمَّا سألوا عن وقت الساعة، ولم يكن أهمّ شيءٍ لهم إلا قلع الشرك.

فقيل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ إلى آخر الآيات، وأدرج في الجواب الحكيم معرفة المستدلَّ عنه، وإنَّما مما استأثر الله بها، ولم يحتج في جواب الصحابي إلى هذا القدر فلم يذكر، يعني: أنَّك بصدد أن يجب عليك أن لا يخطر ببالك هذا؛ لأنَّك ممَّنْ تؤمن أنَّ علم ذلك يختصُّ بالله تعالى، وأمَّا إزالةُ الشِّرك، فإنَّك قد فرغت منها بقي عليك ما يخلصك من أهوال القيمة من العمل، فما أعددت لها فأجاب هو أيضًا بالكلمة الحكيمة الجامعة بقوله: «لَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ ورَسولَهُ»، فالنَّظر إلى هذه الرموز، وتأمّل فيما أودع في كلامه من الكنوز مما يتحيَّر فيه العقول، ويتحيَّر في ميدان موافقة الفحول.

وقرأ نافع: «لاَ يَتْبِعُوكُمْ»[٤٨١٧]بتخفيف الياء. فقيل: هما لغتان بمعنًى ولهذا جاء في قصَّة آدم: ﴿فَمَنْ تَبِعَ﴾ [البقرة ٣٨/٢]، وفي موضعٍ آخر:﴿فَمَنِ اتَّبَعَ﴾ [طه ١٢٣/٢٠]. وقيل: تَبِعَ بمعنى: اقْتَفَى أثَره، واتَّبع بالتشديد بمعنى: اقتدي به.

وعنه عليه السلام: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ؟ قَالَ: "أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ».[٤٨١٨]

﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤)﴾

[**٢٤٩**/و] إنَّما لم يقل: أم صمتُّم مع أن مقتضى القياس والشائع في الاستعمال بعد همزة التسوية وأختها هو الفعل ليؤوّل بالمصدر؛لأنَّ المراد تسويةُ أحداث الدُّعاء، واستمرار الصُّمت لا إحداثه؛ لأنَّ عادتهم الصُّمت عن دعائهم، فإنَّهم جماداتٌ، وهو حَسَبَ حالَهم، وإذا دَهمهم أمرٌ دعوا الله دون الأصنام، أو لأنَّهم عُرضة للحوادث ففي جميع الأحوال دعوا الله، ويكونون صامتين عن دعوة الآلهة، ولو حصل لهم في بعض الأحوال، فرح دعوا الآلهة وكانت حالهم المستمرة الصّمت عن دعوتها، وفيه مبالغةٌ في عدم إفادة الدَّعاء من حيث هو مستو يدوام الثبات على الصمات. فلا يكون لهم معهم فلاح على تقديري الدُّعاء وعدمه، ومن ههنا ظهر وجه إيثار «سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ» على«سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ»، كما في ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ [البقرة، ٦/٢]، والجملة مقررة للسابقة، أو مقابلة لها من جهة المعنى، أي: إن تطلبوا منهم الخير والهدى لا يتبعوكم، وإن تطلبوا

[٤٨١٥] **صحيح البخاري، ٦٤/٩** (٧١٥٣)؛ **صحيحمسلم**، ٢٠٣٣/٤ (٢٦٣٩).

[٤٨١٦] **صحيح البخاري**، ١٢/٥ (٣٦٨٨).

[٤٨١٧] **كتاب السبع** لابن مجاهد، ص ٢٩٩؛ **التيسير** للداني، ص ٣٦٥؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٥/٢.

[٤٨١٨] **صحيح البخاري**، التفسير(الفرقان)، ٢.

منهم دفعَ الشرِّ عنكم، لا يجيبوكم البتَّة، ففي الكلام إدماج بطريق المفهوم اضطرارهم إلى الله، والتجائهم إليه، تتميمًا لذمِّ آلِهَتِهِمْ.[٤٨١٩]

﴿تَدْعُونَ﴾ تعبدونهم وتسمونهم آلهةً، فإنَّ الدعاء مخُّ العبادة وباب منها ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ من حيث إنَّها مملوكةٌ مسخَّرةٌ، لما أريد منها مذلَّلة له، فإن التَّعبيد التذليل، وقولهم: طريق معبَّد أي: مذلَّلٌ مسلوك، ثم وبَّخهم على اعتقاد الإلهيَّة فيها مع ذلك الأمر بقوله: ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ في مهمَّاتكم فهو غير الدُّعاء الأوَّل ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أمر على سبيل التعجيز والتهجين والاستجابة الإجابة.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إنهم آلهةٌ عندهم نفع وبهم دفع، وهذا واردٌ على التعليل لما سبق، بدليل كلمة ﴿إِنَّ﴾ وقوله: ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ وقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ مرتَّب عليه ترتُّب الحكم على الوصف المناسب، ومن ههنا يظهر عدم ملائمة النَّظم؛ لكون الخطاب السابق للمؤمنين، ويحتمل أنهم لَمَّا نَحَتُوهَا بصُور الأناسي، قال لهم: إنَّ قُصارى أمرهم أن يكونوا أحياءً عقلاءَ، أمثالكم فلا يستحقُّون عبادتكم كما لا يستحقُّ بعضُكم عبادة بعضٍ، فيكون قوله: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ كنايةٌ عن الأحياء العقلاء مسوقًا على سبيل الفرض والتَّقدير، ولكن ترتُّب قوله: ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ حينئذٍ لا يخفى عن خفاءٍ يحتاج إلى التَّأمُّل الدَّقيق، والوجه هو الأوَّل، وعبَّر عنها بضمير العقلاء في قوله: ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ حيث لم يقل: «التي» بناءً على أن المشركين لَمّا ادَّعوا أنَّها تضرّ وتنفع؛ وجب أن يعتقدوا فيها كونها عقلةً فاهمةً، فوردت الألفاظ على حسب اعتقادهم.[٤٨٢٠]

وقرئ: «إِنِ الَّذِينَ» بتخفيف «إِنْ» ونصب «عِبَادًا» على أنها نافيةٌ عملت عمل «ما» الحجازية،[٤٨٢١] وجوَّزه المبرِّدُ تشبيهًا بـ«ما»، ومنعه سيبويه؛ لأنها لا تختصُّ بنفي الحال مثل «ليس» لتجرِي مجراه. وقيل: لأنَّ عمل «ما» بمعنى: «ليس» ضعيفٌ، و«إِنْ» التي بمعناها تكون أضعف، لا يقال: إنها تدلُّ على نفي المماثلة، والمشهورة على إثباتها فينافيها؛ لأنَّه يدفعه الحملُ على الغرض، وتفسير الأمثال بالمملوكين.[٤٨٢٢]

وقيل: محصولهما ومؤديهما موافقٌ، وهذه أدَلُّ على المعنى المقصود بطريق الأولى؛ لأنّ نفي المماثلة أريد به أنَّ الأصنام أحقرُ من عابديها، وهم أقدرُ على الضُرِّ والنَّفع منها.

وقيل: «إِنْ» مخفَّفةٌ و«عِبَادًا» بدل من العابد المحذوف، أو حالٌ منه، والخبر ﴿فَادْعُوهُ﴾ والفاء لتضمُّن الموصول الجزاء، أو محذوف، أي: محدثون فيوافق المشهورة بلا كلفةٍ، وفي هذا عبرةٌ عظيمةٌ للذين لا يرجون، ويخافون منه الأشكال والأمثال، ويطلبون منهم الدَّفع والنَّفع في الآمال، بل يتركون بسبب ذلك طاعة الملك المتعال، والله القادر على أن يحوِّلَ حالَهم إلى أحسن الحال.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥)﴾

[٤٨١٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٧١٤.

[٤٨٢٠] **اللباب** لابن عادل، ٩/٤٢٦-٤٢٧.

[٤٨٢١] **المحتسب** لابن جني، ١/٢٧٠؛ **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٨٢؛ **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/٤١٦؛ **اللباب** لابن عادل، ٩/٤٢٦؛ **فتوح الغيب فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٧١٥؛ **نواهد الأبكار** للسيوطي، ٦/٤٨٠-٤٨١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/٢٠٦؛

[٤٨٢٢] **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٤/٥٥.

تفضيلٌ لعبدتهم عليهم، وتحقيرٌ لشأنهم على الوجه الأوَّل، وإبطال أن يكونوا عبادًا أمثالهم بعد الغرض والتَّقدير بإثبات أنهم أعجزُ منهم على الثَّاني، والهمزة للإنكار والتَّعجُّيب، ويتبيَّن أنهم جمادٌ لا حراك لها، فاقدون لهذه الأعضاء ومنافعها التي خلقت لأجلها، فهم أفضلُ من هذه الأصنام؛ لأن لهم هذا التّصرّف والإنكار، قد يتوجَّه إلى انتفاء هذه الأعضاء وانتفاء منافعها، فيسلَّط النفي على المجموع؛ لأن تصويرهم هذه الأعضاء للأصنام ليست أعضاءً حقيقةً، وقد يتوجَّه إلى الوصف، وإن كانت لهم هذه الأعضاء بالتصوير.

وقرئ: بضمِّ الطَّاء[٤٨٢٣] ههنا، وفي القصص[٤٨٢٤] والدُّخان،[٤٨٢٥] وهما لغتان.

والبطش: «الأخذ بقوَّةٍ والقدرةُ على الإمساكِ، وبهذه الزّيادة يكون الأخذُ من خواصِ اليد من بين الأعضاء، كما أنَّ المشي بما فيه من الزّيادة على مطلق الحركة يكون من خواصِّ الرجل».

و﴿أَمْ﴾ منقطعةٌ فتقدَّر بـ«بل» والهمزة، وهو إضراب على معنى الانتقال لا على طريق الإبطال، وإنما هو تقريرٌ على نفي كلِّ واحدة من هذه الجمل.[٤٨٢٦]

وإعادةُ أداة الاستفسار [**٢٤٩**/ظ] على وجه الإنكار دون أداة الجمع؛ للإشعار بالاستقلال انتفاء كلٍّ منهما في التفضيل أو الإبطال، والإثبات المذكور آنفًا بناءً على الوجهين.[٤٨٢٧] وإنما وقع التَّرتيب في الكلام على هذا النَّمط؛ لأن المدعوَّ للنّصرة أوَّل ما يحتاج إليه آلة المشي، ثم آلة البطش للفتك بالخصم، ثم التّبصر للتوقّي عن مكايدة، ثم السَّمع بعد فقد الآلات؛ ليسمع المقال لدى المؤامرة، فيورد ما عنده على ما يقتضيه الحال، ولا ينافي نفي البصر والسماع ههنا عنهم، وإثباتهما لعبدتهم مفهومًا نفيهما عنهم أيضًا في قوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[الأعراف، ١٧٩/٧]؛ لأنَّ المنفيَّ هناك التَّمتُّع الخاصّ المختصّ بكمال الإنسانية، والمثبت لهم ههنا النَّفع العامُّ، ثم إنَّ عدم هذه الأعضاء ممَّا من شأنه أن يكون له نقصانٌ، ومن جَلَّ عن ثبوتها له فعدمها بالنِّسبة إليه فضيلة وكمال، فإنَّ القادر القاهر من غير افتقار إلى آلة وعدّة كان أشرف ممن يفتقر في أفعاله إليها فضلًا عمن لا فعل له ولا آلة. فلا يرد اعتراض من طرف المشبهة إنَّ الله لو لم يكن له هذه لَكان عدمها دليلًا على عدم إلهيّته، ثم إنَّه لَمَّا أثبت عجزهم تهكّم بهم بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ واستعينوا بهم على عداوتي.

وروي: أنهم كانوا يخوّفونه بآلهتهم كما قال قومُ هودٍ: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود ١١/ ٥٤].[٤٨٢٨]

﴿**ثُمَّ كِيدُونِ**﴾ جميعًا أنتم وشركاءكم، أي: بالغوا فيما تقدرون عليه من مكرٍ وكيدٍ.[٤٨٢٩]

وقرأ أبو عمرو «كِيدُونِي»بإثبات الياء وصلًا، وهشام بإثباتها في الحالين.[٤٨٣٠]

[٤٨٢٣] أي: ﴿يَبْطِشُونَ﴾. **النشر** لابن الجزري، ٢٠٥/٢-٢٠٦.

[٤٨٢٤] [القصص ١٩/٢٨]

[٤٨٢٥] [الدخان ١٦/٤٤]

[٤٨٢٦]**تفسير ابن كمال باشا**، ٢١٢/٤.

[٤٨٢٧]**تفسير ابن كمال باشا**، ٢١٢/٤.

[٤٨٢٨]**غرائب القرآن ورغائب الفرقان** للنيسابوري، ٣٦٢/٣.

[٤٨٢٩]**تفسير ابن كمال باشا**، ٢١٢/٤.

[٤٨٣٠]**كتاب السبع**، ص ٢٩٩؛ **التيسير**، ص ٣٦٦؛ **النشر**، ٢٠٧/٢.

﴿**فَلَا تُنْظِرُونَ**﴾ فلا تمهلوني فإني لا أبالي بكم، وبكيدكم، ولا أخاف موتكم وإن تعاونتم عليّ لوثوقي على ولاية الله وحفظه، وهذا شأنُ الواثق بعصمة الله وهو أن لا يباليَ بغير الله كائنًا من كان، ولَمَّا كان بلوغهم إلى الغاية في بذل الجهد متراخيًا عن الاستعانة المذكورة عطَفه عليها بأداة التَّراخي، وكان عدم الإهمال مترتِّبًا عليه صدَّره بحرف التعقيب.[٤٨٣١] وهذا شأن الأنبياء الأسفياء في التوكل على الله، والأولياء الأقوياء في الاعتصام بالله.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ ، فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ».[٤٨٣٢] وعنه عليه السلام: «قال الله تبارك وتعالى: ليس شيءٌ أفضلَ عِنْدِي مِنَ التَّوَكُّلِ عليّ والرِّضا بمَا قَسَمْتُ».[٤٨٣٣]

﴿**إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨)**﴾

قراءة الجمهور بيائين الأولى شديدة مكسورة، والثانية خفيفة مفتوحة، ورفع اسم الله على خبر ﴿إن﴾، فالياء الأولى ياء فعيل، وهي ساكنةٌ، والثَّانية لام الفعل وهي مكسورةٌ أدغمت الأولى فيها، والثالثة ياء الإضافة. والوليُّ بمعنى الناصر والحافظ أي: إنَّ الذي يتولَّى نصرتي وحفظي هو الله.

فإن قيل: كيف ساغ الياءات وذلك مجتنب في كلامهم، ولذلك قالوا: في تصغير خطايا -اسم رجل-: خُطَيٍّ بالهمزة؟ قلنا: إنَّ الثالث ياء النَّفس وهو بمنزلة المنفصلة.

وقرئ: «إنَّ وَلِيَّ الله»[٤٨٣٤] بياءٍ واحدةٍ مشدَّدةٍ مفتوحةٍ على حذف الياء التي هي لام الكلمة، وإدغام ياء فعيل في ياء النَّفس.

و«إنَّ وليِّيْ ٱلله» بيائين الأولى مشددة مكسورة، والثانية ساكنة محذوفة في الوصل في اللفظ، لسكونها وسكون ما بعدها.[٤٨٣٥]

﴿**الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ**﴾ أوحى إليَّ كتابَه، وأعزَّني برسالته، وكلَّمه إلَّي مراده وإن لم يصرِّحْ. والتَّعريف اللَّاميُ عوضٌ عن الإضافي، وإيحاء الكتاب إليه يستلزم رسالته، ففيه تقريرٌ لولايته، وكمال عنايته له، وإشعارٌ بأن منزلَ الكتاب المعجز إليَّ قادرٌ على إعجاز مَن يخاصمني.

وقيل: إنما خُصَّ وصفُ اسم الذات في هذا المقام بإنزال الكتاب، وجعلت الآية تعليلًا لقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا تُنْظِرُونَ﴾ للدَّلالة على تفخيم أمر المنزَّل، وأنه الفارقُ بين الحقِّ والباطل، وأنه القامع لضلالات الكفر، والْمُجَلِّي لظلمات الشرك، والْمُفْحِمُ لألسن أرباب البيان، المعجزُ الباقي في كلِّ آوان، وهو النُّور المبين، والحبل المتين، وبه أصلح الله شئون رسوله؛ حيث كمَّل به خُلقه، وأقام به أوره، وأفسد به أباطيل المعطِّلة وأقحمَ ملفَّقات المعارضة.

[٤٨٣١] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢١٢/٤-٢١٣.

[٤٨٣٢] **كتاب التوكل على الله** لابن أبي الدنيا، ص ٤٩ (٩).

[٤٨٣٣] لم أجده.

[٤٨٣٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والجحدري وأبي حياة وابن أبي عبلة وأبي عمرو. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٠.

[٤٨٣٥] **الفريد** للهمذاني، ١٧٨/٣.

ومن ثَمَّ جِيء بقوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف ١٩٦/٧] كالتَّذييل والتقرير لما سبق، والتعريض بمن فقد الصلاحَ بالخذلان والْمَحْق، أي: إن وليِّيَ الله الذي نزل الكتاب المشهور، الذي تعرفون حقيقته، ومثلُ ذلك يتولَّى الصالحين، ويخذُل الطّالحين.[٤٨٣٦]

وقال قدس سره: «ومن عادته أن يتولى الصالحين من عباده فضلًا عن أنبيائه».[٤٨٣٧]

وقال ابن الكمال: أعيان الأنبياء طلبوا اللُّحوق بالصالحين والدخولَ في زمرتهم، فعبارةُ فضلًا لم تصادف محزَّها.[٤٨٣٨]

وأنت خبيرٌ بأنها في في محزّها، والمراد هناك كمال الصَّلاح وهو في الأنبياء ولا شكَّ أن عناية الله لهم ليس كعنايته [**٢٥٠**/و] لغيرهم.

يُحكى أن عمر بن عبد العزيز كان لا يدَّخر لأولاده شيئًا، فقيل له في ذلك، فقال: إما أن يكون ولدي من الصالحين فوليّه الله ولا حاجة له إلى مالي، وإما أن يكون من المجرمين وقد قال تعالى ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ ومن ردّه الله لم أشتغل بإصلاح مهماته.[٤٨٣٩]

ثم إنه تعالى أعاد بيان عجز آلهتهم؛ لأنَّ الأول للتقريع، والثاني لتتميم التعليل لعدم مبالاتهم. فهذا وما بعده كالمقابل لقوله: ﴿إن وليي الله﴾ ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا﴾؛ لأنَّها جمادٌ لا تحسُّ، وليس هذا موضع اشتباهٍ، بخلاف أمر النَّظر، فإنهم صوَّروها بصورة مَن ينظر إلى مَن يواجه، ولهذا قال: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ استعارة تبعية شبِّه مقابلة الأصنام إليه عليه السلام بنظرِها إليه، ومن ذلك قيل: يشبهون الناظرين إليك.

﴿وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ والحال أنه لا قدرةَ فيهم على الإبصار، فليس ما تراه على الحقيقة،[٤٨٤٠] أو وإن تدعو أيها المؤمنون المشركين إلى الهدى لا يسمعوا أي: لا يعقلوا لذلك بقلوبهم، وتراهم يا محمد ينظرون إليك بأعينهم وهم لا يبصرون بقلوبهم إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

حكي أنَّ بعض السلاطين قال لبعض الصالحين: أخبرني عن الشيخ أبي يزيد لانتسابه إليه، قال: كان يقول: من أبصرني لا يشقى، فقال: كيف هذا إنكارًا عليه، ثم قال: إن كثيرًا من الكفَّار قد أبصروا النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يؤمنوا وتموا على شئونهم قال: يا فلانٌ لا تتجاوز عن حدِّك أن الكفَّار لم يبصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم استدلالًا بالآية يعني: لو أبصروا لآمنوا به.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾

﴿الْعَفْوَ﴾ السهلَ، وما تيسَّر من أفعال الناس وأخلاقهم من غير كلفةٍ، ولا تطلب منهم الجهد وما يَشُقّ عليهم من التكاليف، من العفو الذي ضدُّ الجهد،[٤٨٤١] ونحوه قوله عليه السلام: «يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا، وبَشِّرُوا، ولا تُنَفِّرُوا».[٤٨٤٢] ويدخل

[٤٨٣٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٧١٦/٦-٧١٧؛ **روح المعاني** للآلوسي، ٥٤٤/٩-٥٤٥.

[٤٨٣٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٨٩/١.

[٤٨٣٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢١٣/٤.

[٤٨٣٩] **تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان** للنيسابوري، ٣٦٢/٣.

[٤٨٤٠] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢١٣/٤-٢١٤.

[٤٨٤١] **الكشاف** للزمخشري، ١٨٣/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢١٤/٤.

[٤٨٤٢] **صحيح البخاري**، ٢٥/١ (٦٩).

فيه صلةُ القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرِّفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين، أو الفضل من صدقاتهم وما يسهل عليهم ويتيسَّر لهم، وذلك قبل وجوب الزكاة.[٤٨٤٣]

وأنت خبير: بأنه تقييد المطلق من غير دليلٍ، ولو سلّم فايجابها بالمقادير المخصوصة لا ينافي ذلك؛ لأنّ آخذها مأمور بأن لا يأخذ كرائم الأموال، ولا يشدد الأمر على المزكّي.[٤٨٤٤]

و«العرف» مصدر بمعنى المفعول أي: المعروف المستحسن من الشرع القويم والعقل المستقيم من الأقوال، والأفعال، والأحوال، ويدخل فيه صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغضُّ الأبصار، والاستعداد لدار القرار.[٤٨٤٥]

وَالإعْراض عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ عدم مماراتهم، وترك مكافأتهم بمثل أفعالهم، والحلم عنهم والإعصاء عما يسؤ منهم، «ويدخل فيه الحضُّ على التَّخلُّق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتَّنزه عن منازعة السُّفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء».[٤٨٤٦]

وقيل: الإعراض عن المشركين فنُسخت بآية القتال، وأنت خبير بأنه أمر بأن لا يقابل سفاهتهم، فلا ينافي الأمر بقتالهم، وبهذا ظهر ضعف ما قيل أوّلها وآخرها منسوخٌ، ووسطها محكم، ثم إن ما ذكر إذا لم يكن هتك؛ لما روت عائشة: لم ينتقم رسول الله لنفسه قط، وإذا انتهك شيء من حرمات الله لم يقاومه أحدٌ، فالآية كما ترى جامعةٌ لمكارم الأخلاق آمرة للرسول باستجماعها.

وعن الصادق: أمر الله نبيَّه بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آيةٌ أجمع لمكارمها منها.[٤٨٤٧]

وعنه عليه السلام: «إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي لِتَمَامِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَكَمَالَ مَحَاسِنِ الْأَفْعَالِ».[٤٨٤٨]

وههنا تحقيقاتٌ: الأول: لَمَّا نزلت سَأَل رسول الله لجبريل: «ما هذا؟»، قال: «لا أدري حتى أسأَلَ»، ثم رجع فقال: يا محمد، أَمَرَك أن تَصِلَ مَن قَطَعَك، وتُعطِيَ مَنْ حَرَمَك، وتَعفُوَ عَمَّن ظَلَمَك».[٤٨٤٩]

والتطبيق باعتبار الخلاصة، فإنها لتحرِّي حُسن المعاشرة بالناس، وتوقّ بذل المجهود في الإحسان إليهم، والمداراةُ معهم، والإغضاء عن مساويهم، وعليه معنى الحديث، ولكنه أصعبُ منه متناوَلًا، وكذلك ينبغي أن يكون؛ لأن القرآن مَأْدُبَة عامَّة، والحديث القدسي خاصَّةٌ، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة، ٢/٦٠.]، أو باعتبار تقابل الجمل، فإنَّ وصل مَن قطعك عفوٌ عنه، وإعطاءَ مَن حرمك إتيانٌ بالمعروف، والعفوَ عمَّن ظَلَمك إعراضٌ عن الجاهل، وكلّ ممَّا ذكر فردٌ من أفراد المذكورات في الآية، يشبهُ أن يكون العمدة في القصد والإرادة.[٤٨٥٠]

الثاني: الأخذ بالعفو من إصلاح القوَّة الشهوية، والأمر بالمعروف الذي هو نهاية الجود من إصلاح القوَّة الفكريَّة، والإعراض عن الجاهلين من إصلاح القوَّة الغضبيَّة، وكذا دلَّ في الحديث يوصل من قطع على العفّة والرّأفة اللَّتين لا يتصوَّر

[٤٨٤٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢١٤/٤.

[٤٨٤٤] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٠١/١٥

[٤٨٤٥] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤١٨/٩.

[٤٨٤٦] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤١٨/٩.

[٤٨٤٧] **الكشاف** للزمخشري، ١٨٣/٢؛ **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤٢٠/٩.

[٤٨٤٨] **شرح السنة** للبغوي، ٢٠٢/١٣ (٣٦٢٢)؛ **مشكاة المصابيح**، ١٦٠٦/٣ (٥٧٧).

[٤٨٤٩] **الكشاف** للزمخشري، ١٨٣/٢؛ **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤٢٠/٩؛ **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٠١/١٥.

[٤٨٥٠] **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٥٧/٤.

حصولهما إلا بإصلاح الشهويّة، ودلَّ بإعطاء مَن حرم على الجود والإحسان اللذين هما تابعان لإصلاح الفكريَّة، وبالعفو عمَّن ظلم على نهاية [**٢٥٠**/ظ] الحلم والشَّجاعة اللَّذين هما لازمان لإصلاح قوّة الغضب، ومعنى الخلق الحسن إصلاح هذه القوى الثلاث، وبه يقع التفاضل، ومتى أصلحت هذه حصلت العدالة، وهي: جميع مكارم الشريعة، وتزكية النفس والعدل الذي قامت به السموات والأرض.

الثالث الخُلقَ -بضم اللام وسكونها-: الطَّبع والسَّجيَّة. وحقيقته: أن الإنسان له صورةٌ باطنةٌ، وهي نفسه، ولها صفاتٌ حسنةٌ، وصفاتٌ قبيحةٌ، وعليهما يترتَّب الثواب والعقاب. والأنبياء بُعثوا لتغيير القبيحة إلى الحسنة؛ ليتخلَّص الناس من العقاب، ويَصلوا إلى الثواب. ونبيُّنا عليه السلام خاتمهم، بُعث لإتمام ما دعوًا الناس إليه، «وَكَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنُ»[٤٨٥١] فدعا الناس بخُلُقه إلى صراط مستقيم على حسبمراتب المدعوُّ على ما سنذكره.[٤٨٥٢]

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١)﴾

﴿إِمَّا﴾ كلمتان: ﴿إِنْ﴾ التي هي للشرط، و﴿مَا﴾ التي هي صلةٌ زائدةٌ، والنُّون للتأكيد.

«والنَّزغ والنَّسْغ: والنَّخس الغَرْزُ، شبّه وسوسته للناس، إغراءً لهم على المعاصي، وإزعاجًا بغرز السائق ما يسوقه»،[٤٨٥٣]ثم اشتق منه، ففيه استعارةٌ تبعيةٌ.

وقيل: النزوغ: الازعاج بالتحريك إلى الشرّ؛ وجعل النَّزغ نازغًا، إسنادًا مجازيًا على طريقه: «جِدَّ جَدُّه»، وفيه تنبيهٌ على مبالغة الفاعل، وملابسة الفعل؛ بحيث صار جميع ما قام به من الأعراض والمعاني ملابسًا بذلك الفعل،أي: إنْ اعترض لك الشيطان بإفساد شيء من هذه الأخلاق التي أُمرتَ بها، ويحملك على خلافها باعتراء غضبٍ وفكرةٍ، ويجوز أن يراد بنزغ الشيطان إعتراء الغضب كقَوْل أَبِي بَكْرٍ: «إِنَّ لِي شَيْطَانًا يَعْتَرِينِي».[٤٨٥٤]

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من شرّه، وامض على شأنك، ولا تطعه في شيءٍ، وفيه دلالةٌ على أنَّ اعتراء نحو ما ذكر لا لوجه الله تعالى من نزغات الشيطان، وأنَّ إزالته بالالتجاء إلى الرحمن يرشدك إلى هذا قوله عليه السلام: «لَمَّا رأى رجلاً يخاصم أخاه قد احمرَّ وجهُه وانتفخت أوداجُه من الغضب «إني لأعلم كلمة لو قالها لَذهب عنه ما يجد من الغضب لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما يجد».[٤٨٥٥] ونحوها قوله عليه السلام: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولَ له: مَن خَلَقَ كَذا وكَذا؟ حتَّى يَقُولَ له: مَن خَلَقَ رَبَّكَ؟ فإذا بَلَغَ ذلكَ، فَلْيَسْتَعِذْ باللَّهِ ولْيَنْتَهِ».[٤٨٥٦]

أَمَر عليه السلام بالاستعاذة لكون تلك الوساوس من آثار الشيطان، وبالانتهاء عن الرُّكون إليها، والالتفات نحوها، وهذا لا ينافي عصمته عليه السلام؛ لأنَّ التعليق لا يستلزم التحقق ولو سلَّم أنه حصل لكن الله عصم من تأثيره يرشدك إليه قوله

[٤٨٥١] **مسند أحمد بن حنبل**، ١٤٨/٤١ ٢٤٦٠١.

[٤٨٥٢]**فتوح الغيب** للطيبي، ٧١٩/٦.

[٤٨٥٣]**انوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٩٠/١.

[٤٨٥٤] **الكشاف** للزمخشري، ١٨٤/٢.

[٤٨٥٥] لم أجده

[٤٨٥٦]**صحيح البخاري** ، ١٢٣/٤ (٣٢٧٦).

عليه السلام: «ما مِنكُم مِن أحَدٍ، إلَّا وقدْ وُكِّلَ به قَرِينُهُ مِنَ الجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ الملائكة قالوا: وإيَّاكَ؟ يا رَسولَ اللهِ، قالَ: وإيَّايَ، إلَّا أنَّ اللَّهَ أعانَنِي عليه فأسْلَمَ، فلا يَأْمُرُنِي إلَّا بخَيْرٍ».[٤٨٥٧] ولو سلم فمحمول على ترك الأولى.

وقيل: الخطاب له والمراد أمَّته ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الله تعالى ﴿سَمِيعٌ﴾ سمع استعاذتك ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم ما فيه صلاح أمرك فيحملك عليه، أو سميع بأحواله من آذاك عليم بأفعاله، فيجازيه عليها مغنيًا إياك عن الانتقام، ومتابعة الشيطان، أو سميع بما تقول أنت، ويقول الشيطان عليم بما تعمل أنت ويعمل هو فهو ناصرك عليه وعاصمك من شرِّه، أو اذكر لفظَ الاستعاذة بلسانك، فإني سميع واستحضر معناها في قلبك، فإنِّي عليم بما في ضميرك، ففيه إشعار بأنَّها لا يفيد إلا إذا أحضر المعنى في القلب.

واعلم أن المدعوَّ إمَّا: مؤمن موافق، أو مخالف؛ والمخالف إمَّا معاندٌ أو غير معاند، فطريقه الدعوة مع الفرقة الأولى بلأمر بأداء العبادات، وتزكية النَّفس بالفضائل وتخليتها عن الرذائل،وإليه الإشارة بقوله: ﴿وامُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف، ١٩٩/٧].

ومع الثانية بالمداراة والمساهلة في الجملة، وإرخاء العنان، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿خُذِ العَفْوَ﴾ [الأعراف ١٩٩/٧]، وقال: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللَّهَ﴾ [آل عمران ٦٤/٣]

ومع الثالثة بالمتاركة والإعراض. وإليه أومى: ﴿وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف، ١٩٩/٧]،. وقال تعالى: ﴿وقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ۞ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف، /٨٨ – ٨٩].

وعلى هذا القسم ينطبق الكلام مع السّابق؛ لأنه كلام في المشركين المعاندين، فوضع موضع ضمير هم ﴿الْجَاهِلِينَ﴾ تسجيلًا عليهم بعدم الارعواء، وإقناطًاكليًّا منهم؛ لأن جهلهم جهل مركَّب، ألا ترى كيف أعاد الضمير في قوله: ﴿وإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ ۞ وإِذَا لَمْ تَاتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا﴾ [الأعراف، ٧/ ٢٠٢ – ٢٠٣].

وأن الحقوق التي تستوفى من الناس و يخؤخذ منها ما يجوز المساهلة فيها، ومنها ما لا يجوز فيها ذلك، والقسم الأوَّل هو المراد بقوله: ﴿خُذِ العَفْوَ﴾، وأما القسم الثاني: فالحكم فيه أن يؤمر بالمعروف ولو اقتصر على العفو، لأدّى ذلك إلى تغيير الدين، وإبطال الحقِّ، وأنه لا يجوز إذا أمر بالمعروف، ورغب فيه، ونهى عن المنكر، ونفر عنه، أقدم بعض الجاهلين على السفاهة؛ ولذا قال: ﴿وَأَعْرِضْ﴾، ولَمَّا كان هناك مداخل [**٢٥١**/و] الشيطان بالغضب، وغيره أمر بالاستعاذة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ٢٠١﴾

لَمَّةٌ منه كما قال ع م: «إنَّ للشَّيطانِ لَمَّةً بابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً».[٤٨٥٨] وهو اسم فاعل من: طَاف يطوف؛ كأنها طافت بهم ودارت حولهم فلم تَقدر بأن تؤثِّر فيهم.[٤٨٥٩]

وقال ابن الكمال: «مبناه الغفول عن دلالة المسِّ على التأثير».[٤٨٦٠] ويمكن أن يقال: هذه الدلالة باعتبار الابتداء، وعدم التَّأثير باعتبار الانتهاء، كما يدلُّ عليه الجزاء، أو من طَاف به الخيالُ يَطيف طَيْفًا، وطيف الخيال الصُّورة المتمثلة في محل القوَّة المتخَيِّلة:

[٤٨٥٧]**صحيح مسلم**، ٢١٦٧/٤ (٢٨١٤).

[٤٨٥٨]**سنن الترمذي**، ٢١٩/٥ (٢٩٨٨).

[٤٨٥٩]**نواهد الأبكار** للسيوطي، ٤٨٤/٦؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢١٦/٤.

[٤٨٦٠]**تفسير ابن كمال باشا**، ٢١٦/٤. **نواهد الأبكار** للسيوطي، ٤٨٠/٦–٤٨١

أَنَّى أَلَمَّ بِـكَ الخَيَـالُ يَطِيـفُ وَمَطَافُـهُ ذِكْـرَةٌ لَـكَ وشُـغُوفُ[٤٨٦١]

أَلَمَّ: نزل، والإلمام: الزيارة. والذكرة: ضد النسيان. والشغوف: امتلاء القلب من الحبّ.[٤٨٦٢]

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو الكسائي ويعقوب: ﴿طَيْفٌ﴾[٤٨٦٣] على أنَّه مصدر منه، أو تخفيف «طَيِّف» فَيْعِل من طَاف يَطيف، كليّنٍ من لَان يَلِين، أو من طَاف يطُوف، كمَيْتٍ من مَات يمُوت. وأصله: طيوفٌ فخفّف كما يخفَّفان وبالتثقيل قرئ.[٤٨٦٤]

﴿**تَذَكَّرُوا**﴾ ما أمر الله به ونَهى عنه، أو عقاب الله وثوابه، وقدرة الله وإنعامه عليهم. وهذا جواب الشرط، والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾ ثم رتَّب عليه قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ بسبب التَّذكر مواقع الخطأ ومكائد الشيطان، فيتحرزون عنها ولا يتَّبعونه فيها.[٤٨٦٥]

وعبّر عن العلم الحاصل بعده بالإبصار مبالغة في تيقُّنهم فيه، ثم إنَّ الخطاب في قوله: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ إما مختصٌّ بالرسول على ما هو الظاهر ممَّا قبله. فالمناسب أن يراد بـ«المتقين» المرسلون من أولي العزم، كما قال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف ٣٥/٤٦]، أو عامٌّ على طريقة: «بَشِّر المشَّائين إلى المساجد بالنُّور التَّامّ»، أو خاصٌّ يراد به العامُّ، كنحو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق ١/٦٥]، فالمتَّقون حينئذٍ: الصالحون من عباده.[٤٨٦٦]

وقيل: انظر لحسن هذا الكلام، حيث كان الكلام للرسول كان الشرط بلفظ أن المحتملة للوقوع وعدمه، وذكر النزغ الذي يمكن أن يقع وأن لا يقع، وذكر الأمر المرتَّب على الشَّرط، وحيث كان للمتقين كان بإذا التحقيقية، والمسُّ الواقع والجملة الخبريَّة والتذكّر الدَّال على النِّسيان من الطَّائف وعلى التقادير، ففيه تقريرٌ لما تقدَّم من وجوب الاستعاذة عند النزغ، وبيانٌ أن المتقين عادَتُهم إذا أصابهم أدنى نزغٍ وإلمامٍ بوسوسته أن يستعيذوا ويتذكَّروا قبل أن يصير خاطرًا وجالت فيه النفس بالفكر،[٤٨٦٧] سيَّما سيد المتقين فإنه أولى به.

واعلم أن الغضب إنما يهيِّج الإنسان إذا استقبح من المغضوب عليه عملًا من الأعمال، ثمَّ اعتقد في نفسه كونه قادرًا، وفي المغضوب عليه كونه عاجزًا. هذا إذا كان واقفًا على ظلمات عالم الأجسام، فيغترّ بظواهر الأمور، أمّا اذا انكشف له نور عالم العقل عرف أنَّ المغضوب عليه إنما أقدم على ذلك العمل؛ لأن الله خلق فيه داعية، وقد علم منه تلك الحال في الأزل، ومتى كان كذلك فلا سبيل له إلى تركها، فح يغتر غضبه، كما قال عليه السلام: «من عرف[٤٨٦٨] سرَّ الله في القدر هانت عليه

[٤٨٦١] **ديوان كعب بن زهير**، ص ١١٣.

[٤٨٦٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٧٢٢/٦.

[٤٨٦٣] **كتاب السبع** لابن مجاهد، ص٣٠١؛ **التيسير** للداني، ص ٣٦٥؛ النشر لابن الجزري، ٢٠٦/٢ **إتحاف** للدمياطي، ٢٣٤/١.

[٤٨٦٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن جبير.. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠١؛ **الفريد** للهمذاني، ١٧٩/٣-١٨٠؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٣٣/٩.

[٤٨٦٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢١٦/٤.

[٤٨٦٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٧٢٣/٦.

[٤٨٦٧] **الكشاف** للزمخشري، ١٨٤/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢١٧/٤.

[٤٨٦٨] ج : علم.

المصائب»، وأيضًا أنه كم أساء في العمل وقد تجاوز الله عنه، وأنه قد كان أقدر عليه، وأنه إذا أمضى الغضب كان شريكًا، للسباع، وإذا اختار الخوف، والعفو كان مضاهيًا للأنبياء، وأهلًا للثواب الجزيل.[٤٨٦٩]

فقوله: ﴿**إِذَا مَسَّهُمْ**﴾ إشارةٌ إلى الاعتقاد المذكورة أوّلًا. وقوله: ﴿**تَذَكَّرُوا**﴾ إلى الاعتقادات التي تردُّ تلك الاعتقادات الأوليّة.

رأى الجُنَيْدُ فى المنام إبليس،[٤٨٧٠] فقال: هل تقدر أن تمرَّ على مجالس أهل الذكر؟ فقال: كما أن أحدًا منا يمرُّ على أحدٍ منكم، ويمسُّه، ويصير مجنونًا ومصروعًا، فمنا من يمرُّ على مجلس الذِّكر يصير مصروعًا، ونسمِّيه بيننا مأيوسًا، كما تقولون مصروعًا بينكم مجنون».

وقال بعضهم: من حال سرَّه فى ميادين الأنس والقربة، حجز نفسه عن طوارق الفتنة وطوائف الشيطان، قال الله تعالى: ﴿**إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ**﴾.[٤٨٧١]

﴿**وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)**﴾

وإخوان الشياطين الذين لم يتّقوا يمدُّهم الشياطين ﴿**فِي الْغَيِّ**﴾ بالتَّزيين والحمل عليه. ﴿**وَإِخْوَانُهُمْ**﴾ مبتدأ و﴿**يَمُدُّونَهُمْ**﴾ خبرٌ جرى على غير مَن هو له في المعنى؛ لأن المدَّ مسندٌ إلى الشيطان في المعنى، وفي اللفظ خبر عمَّا ذُكر، والعائد إليه ضَمير المفعول، وهو الشيطان باعتبار الجنس، كما في قولك: «جاريةُ زيدٍ يضربها» أخبر عن الجارية بفعل غيرها، ولم يقل:[٤٨٧٢] يضربها هو؛ لأنَّ إبراز الضمير إنما يجب في مثلها إذا كان الخبر صفةً لا فعلًا ونحوه قوله:

قَــوْمٌ إِذَا الخَيْــلُ جــالُوا في كَوَاثِبِهَــا　　　فَــوَارِسُ الخَيْــلِ لَا مِيــلٌ وَلَا قَــزَمٌ[٤٨٧٣]

«الخيل»: مبتدأٌ، و«جالُوا»: مُسندٌ إلى ضمير «القوم»، و«الخيل» على حقيقتها؛ لأن جعلَها بمعنى الفرسانِ، وجَعْلَ ضمير «جالُوا» لها، وضمير «كَوَاثِبِهَا» للأَفْراس المدْلُول عليها بذكرِ الخيل أو للخيل؛ مرادًا بها الأفراس عل طريقة الاستخدام خلاف الظاهر من غير ضرورة. واعتُرض بأن «إذا» إنَّما تضاف إلى الجملة الفعليَّة، فـ«الخيل» ههنا فاعل فعلٍ محذوفٍ؛ كما في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق، ١/٨٤]، فلا يكون ممَّا جَرى فيه الخبرُ [**٢٥١**/ظ] على غير ما هو لهُ.

وأجيب بأنَّ ذاك في «إذا» الشرطيَّة، وهذه لمجرَّد الظرفيَّة، أي: قومٌ هم فَوارسُ الخيل زمانَ جولهم في كواثبها، ولم يُعرف في النّحو هذا التفصيلُ، بل الجواب: أنه قد عُلم في باب الإضمار على شرطيّة التَّفسير أنَّ النصبَ بعد «إذا» راجحٌ لا واجبٌ؛ بناءً على جَواز إضافتها إلى الجملة الاسميَّة في الجملة، وههنا يمتنع، أو يَبْعُد جعلُ الخيل فاعلُ فعل محذوفٍ؛ لأنَّ الظاهر لا يصلحُ تفسيرًا لكونه مسندًا إلى ضمير القوم، اللهمَّ إلا أن يجعلَ الخيل بمعنى الفرسان، وضمير «كواثبها» للأفراس وفيه بُعْد.[٤٨٧٤]

[٤٨٦٩] **غرائب القرآن ورغائب الفرقان** للنيسابوري، ٣٦٦/٣.

[٤٨٧٠] ج- إبليس.

[٤٨٧١] **عرائس البيان** للبقلي، ٥٠٦/١.

[٤٨٧٢] ج-يقل.

[٤٨٧٣] **المحتسب** لابن جني، ٢٩١/١؛ **البحر المحيط** لأبي حيان، ٤٤٧/٤؛ **الكشاف** للزمخشري، ١٨٤/٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٣٥/٩.

[٤٨٧٤] **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٥٩/٤.

يقال: مدّ الدَّواة وأمدَّها: زادها ما يُصلحها. ومدَّه الشيطان في الغيِّ إذا أَوْصله بالوساوس، عليه حتى يتلاحقَ غيُّه.[٤٨٧٥]

وقرئ: ﴿يُمِدُّونَهُمْ﴾[٤٨٧٦] من أَمَدَّ، ولعلَّ ذلك استعمال ما هو للخير في ضدّه كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران، ٣/٢١]؛[٤٨٧٧] لأن عامَّة ما جاء في التنزيل مما يحمد على وزن أفعلت، نحو: وأمددناهم بفاكهة ويمادُّونهم، كأنَّهم يُعينونهم بالتسهيل والإغراء، وهؤلاء يعينونهم بالاتِّباع والامتثال، والظرف متعلِّقٌ بالفعل، أو بمعنى الإخوان، أو حالٌ من ضمير الفاعل أو المفعول.

﴿ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾ لا يمسكون عن إغوائهم حتى يردُّوهم.[٤٨٧٨]

والإقصار: الكفُّ عن الشيء، والانتهاء عنه مع القدرة عليه، فإن عجزت عنه، قلت: قصرت بلا أَلفٍ، وهذا أشدُّ من الأوَّل، ولهذا عطف عليه بـ«ثم» المستعارة للتَّراخي والرُّتبة. ويجوز أن يكون الضمير للإخوان، أي: لا يكفُّون عن الغيِّ، ولا يقصرون كالمتقين.

وعن ابن عباس رضـ: لا يفترون عن الضَّلال والإضلال. فالضمير للجميع، ويجوز أن يراد بالإخوان الشياطين، ويرجع الضمير إلى الجاهلين، فيكون الخبر جاريًا على ما هو له لفظًا، ومعنى: حيث أخبر عن الشياطين بفعل أنفسهم أي: الشياطين الذين هم إخوان الجاهلين، يمدُّون الجاهلين ولكن يفوت مقابلة الكلام ح ولهذا يصحُّ الأوَّل، وفيه حسن النظم، فإنَّ قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ أمرٌ للنَّبيِّ بالاستعاذة منه. و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ كالتَّعليل له أي: دأبُ مَن على صفتِك من التقوى الاستعاذةُ عندَ النزغ، ودأبُ مَن يخالفُك بخلافه.

وأيضًا، الكلام في الأصل جارٍ على المشركين المعاندين، وأن قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ وقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ بعد ذكر العفو، والأمر بالعُرف، والإعراض، ونزغ الشيطان، والاستعاذة، كالتَّخلُّص منه إلى ذكر ما ابتُدِئ له الحديث.

وفيه أنه يجب عليك، أيُّها الدَّاعي البشير النَّذير، إذا لَحِقَك منهم أذًى أن تعفوَ عنهم، وإن اعتراك غضبٌ يَحمِلك على الانتقام فذاك نزغةٌ، إذا استعذتَ بالله بَطَلت؛ لأنه ليس له[٤٨٧٩] عليك سلطانٌ؛ لأنَّك من المخلَصين من عباده، ولكنَّ هؤلاء المشركون هم الذين اتبعوا الشياطين، فلا يفارقونهم كالأخ لشقيقه. والشياطين أيضًا يَمُدُّونهم غيًّا بعد غيٍّ. وكذلك إذا أَعرضت عنهم،[٤٨٨٠] اجترؤا إلى ما ذكر بقوله:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)﴾

كان أهل مكَّة يسئلون النبيَّ،ولا يجيبهم؛ انتظارًا للوحي، فربَّما يتأخَّر نزول الوحي عليه، فيقولون: هلَّا افتعلتها وتقوَّلتَها، وجئت لها من قبل نفسك كسائر ما تقرؤه علينا؛ لأنهم كانوا ينكرون كون القرآن وحيًا إلٰهيًّا، ويقولون: إنه تقوَّله من عند نفسه

[٤٨٧٥] **فتوح الغيب** للطيبي، ٧٢٥/٦.

[٤٨٧٦] قرأ نافع. **السبع** لابن مجاهد، ص٣٠١؛ **التيسير** للداني، ص ٣٦٥؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٦/٢ **إتحاف** للدمياطي، ٢٣٤/١.

[٤٨٧٧] **اللباب** لابن عادل، ٤٣٦/٩.

[٤٨٧٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢١٧/٤.

[٤٨٧٩] ح–له.

[٤٨٨٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٧٢٥/٦-٧٢٦.

و﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾ [الفرقان ٢٥/٤]، فإذا تأخَّر الوحي عن زمان سؤالهم يقولون: هلّا اخترت شيئًا تقرؤه علينا من عند نفسك، وما اعتذارك بإبطاء الوحي عنك، فعلى هذا يكون من: اجتبيت الكلام واختلقته وارتجلته إذا فعلتَه من قبل نفسك، وأيضًا كانوا يطلبون منه آيات معيّنة على سبيل التعنُّت كقوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء ١٧/٩٠] ونحو ذلك.

فربّما لا يأذن الله له في إتيان ما اقترحوه، فيقولون: هلاَّ اخترت هذا الذي سئلناك، وآتيت، وأنت رسولٌ بزعمك، ولا بدَّ للرَّسول من معجزةٍ يطمئنُّ بها قلب الأمَّة، فهلاَّ تأتينا بالمعجزة التي نطلبها منك بأن يطلب من الله أن يخلقها على يديك، ففيه تهكُّمٌ منهم لرسول الله، كقولهم: يا أيها الذي نُزّل عليه الذكرُ فلا غيّ بعد اقتراح الآيات مع الاستهزاء، فعلى هذا يكون من أُجْبِيَ إليه الشيءُ فاجتباه أي: أخذه كقولهم: جُلِيت إليه العروسُ فاجتلاها، أي: «هلَّا أخذْتَها منزلَّةً عليك مقترَحة»: هلاَّ طلبتَ من الله وأنت مقترَح، ليكون اقتراحك سببًا لأن يأخذها وهي مقترحة؟

﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ ليست بمختلِقٍ للآيات، أو لست بمقترحٍ لها، ثمّ بيَّن أنَّ فيما أوتي كناية عمّا سألوا، ولا حاجة إلى ما اقترحوا وإنما هو تعنُّت واقتراحٌ بعد ثبوت النُّبوَّة، وكفاية الحاجة بقوله: ﴿هَٰذا﴾ أي: القرآن ﴿بَصَائِرُ﴾ أي: حجج بيّنة تعود المؤمنين بها بصائر بعد العمى.

فإن البصائر: جمع بصيرةٍ تطلق على القوَّة المودعة **[٢٥٢/و]** في القلب لإدراك المعقولات، كما أنَّ الباصرة قوَّة مودعة في العين، لإدراك المبصَرات، ولَمَّا توقف ذلك الإدراك على النَّظر والفكر في الدَّلائل، وحصل به أطلق لفظ البصائر على الدلائل، وعلى القرآن لاشتماله عليها في الاعتقاديَّات والعمليات مجازًا بإطلاق المسبّب على السَّبب، أو بصائر القلوب بها تبصر الحقَّ وتدرك الصَّواب، فيكون تشبيهًا بليغًا محذوف الأداة، حيث شبّه القرآن بالبصائر من حيث إنَّها سبب إدراك الحقِّ، كما أنَّ الصيرة سبب الإدراك، والحمل على الاستعارة فيه نظرٌ إذا الطَّرفان مذكوران، وفي وصفه بأنَّه ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ تنبيهٌ على أنَّه من باب التَّربية ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

فكأنه قيل: قل: إن آيتي هذا الكتابُ المعجز الظَّاهر لمن له بصيرة، تمييز بين الحقِّ والباطل، وفرق بين الافتراء والصِّدق المحض، وهدًى ورحمةً لمن آمن من عند الله، وليس بافتراء.

وتعريضٌ لهم أن لا بصائرَ لهم ولا هداية، وأنَّهم عميٌ من أهل غضب الله والآيسين من رحمته، حيث لم يرفعوا به رأسًا، كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾[البقرة، ٢/٢٦].[٤٨٨١]

وههنا لطيفةٌ، وهي في الفرق بين هذه المراتب الثلاث، وذلك لأنَّ الناس متفاوتون في درجات العلوم، فمنهم مَن بلغ الغاية في علم التَّوحيد حتى صار كالمشاهد، وهم أصحاب عين اليقين، ومنهم مَن بلغ درجة الاستدلال والنَّظر، وهم أصحاب علم اليقين، ومنهم المسلم المستسلم وهم عامَّة المؤمنين، وهم أصحاب حقّ اليقين، فالقرآن في حقِّ الأوَّلين، وهم السَّابقون بصائر، وفي حقِّ القسم الثاني وهم: المستدلُّون هدًى، وفي حقِّ قسم الثالث وهم عامَّة المؤمنين رحمة.[٤٨٨٢]

ونعم ما قيل: ولقد تجلَّ الله في كلامه لعباده، ولكن لا يبصرون. وقد قال عليه السلام: «الْقُرآن هُوَ الدَّوَاءُ»[٤٨٨٣]

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)﴾

[٤٨٨١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٧٢٦.

[٤٨٨٢] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٥/١٠٦؛ **السراج المنير** للشربيني، ١/٦٢٨.

[٤٨٨٣] **كشف الخفاء** للعجلوني، ٢/١٢٤؛ **مسند الشهاب** للقضاعي، ١/٥١ (٢٨).

اللَّام متَعلّق بالفعل، والضَّمير للقرآن أي: لأجله، أو صلةٌ، أي: فاستمعوه. وفيه أنَّ هذا لا يجوز إلا في موضعين، إمَّا تقديم المعمول، أو كون العامل فرعًا، أو بمعنى «إلى» ولا حاجةَ إليه.

والإنصات: السُّكوت للاستماع يقال: نَصَتَ وَأَنْصَتَ، وهذا لكونه مقدمَّة الاستماع حقّه التقديم في الذّكر، وإنما أخَّره اِهْتِمَامًا لشأنه وإخراجًا له عن حيّز الاتباع إلى حدّ الاستقلال؛ وتنبيهًا على أنَّه مقصود بالذَّات ومأمور به أصالة، حتى لو كان في مجلس القراءة نائبًا عن القارئ، فحقُّه أن ينصت، وإن لم يتيسَّر له الاستماع؛ تعظيمًا لشأن القرآن، وإحرازًا لأحدى الفضيلتين، ولو قدّم لتبادر إلى الفَهم أنَّ الأمر به لمصلحة الاستماع، ولا يجب بدونها.

و﴿لَعَلَّ﴾ للترجِّي بحسب المخاطبين، أو للتعليل لَمَّا ذَكر القرآن بالصفات الجليلة أمر باستماعه إذا شرع في قراءته وبالإنصات؛ لأنَّ ما اشتمل على تلك الأوصاف حريٌّ بأن يصغي إليه حتى يحصلَ له للمنصِت المستمع هذه النتائج العظيمة فيَستبصر من العمى ويهتدي من الضَّلال، ويُرحم بها.

وقيل: نزلت في الصلاة، كانوا يتكلمون فيها فأمروا باستماع قراءة القرآن، والإنصات له.

وإطلاقُ الأمر يقتضي وجوبَهما حيث يُقرأ القرآن، وعامَّة العلماء على استحبابهما خارج الصلاة، فيلزمالجمع بين معنَيَيِ الأمر، وجوِّز عند اختلاف المحلّ على ما ذهب إليه العراقيُّون.

وعن ابن عباس: أنه عليه السلام قرأ في المكتوبة، وقرأ أصحابه خلفَه، فنزلت.

فيه يتَّضح وجه احتجاج من لا يرى القراءة على المأموم بها، ويضعف منع ذلك؛ بناءً على أنها نزلت لتحريم الكلام فيها أو لتحريم الجهر بالقراءة خلف الإمام مع أنَّ إمكان استماع قراءة الإمام مع قراءته في نفسه في حيّز المنع. وكذا قراءته في سكت الإمام؛ لأنه ليس له حدٌّ محدودٌ، والمأمومون ببطء القراءة وسرعتها، فربَّما لا يتمكَّن المأموم من إتمام قراءة الفاتحة فيه، وأيضًا الإمام يصير في هذا السكوت كالمأموم، وبالحمل ظاهرها يراعى عند الشافعي في القراءة بالفاتحة حال سكتة الإمام، ولا حاجة إلى ما قيل: «لاصلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» خصّ عموم القرآن لجواز تخصيص عمومه بالسنَّة، وأما ما قيل: إنها في الخطبة، فضعيفٌ؛ لأنَّ الآية مكيَّةٌ، والخطبة بعد الهجرة.

وقيل: المراد: العمل به، وعدم التجاوز عنه، فيكون من قبيل «سمع الله لمن حمده» أي: أجاب إلا أنَّ الاستماع أبلغُ من السماع، حتَّى كأنَّه يقبل بالكلية عليه، ولهذا ضمَّ إليه عدم المجاوزة.

وهذا أوفقُ للنَّظم، وأجمعُ للمعاني والأقوال، فإنَّه تعالى لَمَّا ذكر تعريضًا بأن المشركين إنما استهزؤوا بالقرآن، ونبذوه ورائهم ظهريًّا؛ لأنهم فقدوا البصائرَ، وعَدِموا الهدايةَ والرحمةَ، وأنَّ حالَهم على خلاف المؤمنين أمرَ بمزيد ما كانوا عليه بمجرَّد الاستماع، وهو العمل بما فيه، والتَّمسك به، [٢٥٢/ظ] وأن لا يجاوزوه ترتيبًا للحكم على تلك الأوصاف.

ولذلك قيل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾: وضعًا للمُظْهَر موضعَ الْمُضمر، لمزيد الدلالة على العليَّة. يعني: إذا ظهر، أيُّها المؤمنون، أنكم لستم مثلَ هؤلاء المعاندين، فعليكم بهذا الكتاب الجامع لصفات الكمال، الهادي إلى الطَّريق المستقيم، الْمُوصِل إلى مقام الرحمة والزُّلفى، فاستمعُوه وبالغُوا في الأخذ منه، والعمل بما فيه، ليحصلَ المطلوب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

فيدخل فيه وجوب الإنصات، وفي الصَّلاة، بالطريق الأولى؛ لأنها مقام المناجاة، والاستماع من المتكلم. وعلى هذا الإنصات عند تلاوة الرسول، وفيه أنَّ رفعَ الجُناح في غير الصلاة، فمن باب السُّهولة وضعف القوَّة.[٤٨٨٤]

«مَنِ استمَعَ إلى آيةٍ من كتابِ اللهِ، كُتِبتْ له حسنةٌ مضَاعَفةٌ، و مَن تَلا آيةً من كتابِ اللهِ كانتْ له نُورًا يومَ القِيامةِ».[٤٨٨٥]

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥)﴾

عامٌّ في الأذكار من قراءة القرآن والدُّعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك، وفي ذكر الرَّبِّ تنبيهٌ على أنَّ سبب الذكر هو التربية، والإنعام، وإشعار بالطَّمع، والرَّجاء إلى مَا لِكَكَ، والنَّاظر في مصلحتك ﴿فِي نَفْسِكَ﴾؛ لأنه أدخلُ في الإخلاص، وأبعدُ عن الرياء، وهو التَّفكر في جلال الله، وصفاته، وأفعاله، وآياته في أرضه، وسمٰواته، وفي معاني الكتب والأحاديث.

وقيل: هو أن يذكره عارفًا بمعاني الأذكار التي يقوله بلسانه مستحضرًا لصفات الجلال والعزِّ والعظمة والكبرياء؛ لأنَّ الذكر باللِّسان إذا كان عاريًا عن الذكر بالقلب كان عديم الفائدة. وكان بعض أرباب القلوب إذا أراد أن يأمر واحدًا من المريدين بالخلوة والذكر أمره أربعين يومًا بالخلوة والتَّصفية، ثم عند استكمال هذه المدّة وحصول التّصفية التَّامة يقرأ عليه الأسماء التسعة والتسعين، ويقول لذلك المريد: اعتبر حال قلبك عند سماع هذه الأسماء، فكلُّ اسم وجدت قلبك عند سماعه قَوِي تأثيره وعظم شوقه، فاعْرِفْ أنّ الله إنما يفتح أبواب المكاشفات عليك بواسطة المواظبة على ذكر ذلك الاسم بعينه.

يقال: ضَرعَ الرجلُ يَضْرَعُ ضَراعةً: إذا خضع وذلَّ واستكان لغيره. وأصلُ خِيفة: خِوْفَة؛ قُلبت الواو ياءً لسكونها وانكسارِ ما قبلها. مفعولان من أجله؛ أي: لتَضَرُّعٍ وَخِيفَةٍ، فإنَّ للذِّكر في النَّفس لأجلهما، ولتحصيلهما أثرًا قويًّا كما يُشاهده أرباب القلوب، أو مصدران في موقع الحال؛ أي: متضرّعًا وخائفًا، أو مصدرا الفعل المذكور من غير لفظه، ثُمَّ إنَّ كمال حال الإنسان في انكشاف عزَّة الربوبية وذلَّة العبوديَّة، فالذِّكر في النفس إشارة إلى الأولى والتَّضرع والخفية إلى الثانية، وأيضًا فيه جمع بين الخوف والرجاء؛ لما في ذكر لفظ الرب إشعار الرَّجاء، وفي ذكرهما إشعار الخوف، وهو إما خوف العقاب وهو مقام المذنبين، وإمَّا خوف الجلال وهو مقام العارفين، فإذا كوشفوا بالجمال عاشوا، وإذا كوشفوا بالجلال طاشوا،[٤٨٨٦] وأمَّا خوف الخاتمة، بل خوف السَّابقة فإنها علَّة الخاتمة.

﴿و َدُونَ الْجَهْرِ﴾ معطوف على ﴿فِي نَفْسِكَ﴾؛ أي: ذكرًا في نفسك، وذكرًا دون الجهر، أو على ﴿تَضَرُّعًا﴾؛ أي: وقائلًا قولًا دون الجهر، ولذا جعل قوله: ﴿مِنَ الْقَوْلِ﴾؛ بيانًا للجهر،[٤٨٨٧] والمراد أن يقع ذلك الذكر متوسطًا بين الجهر والإخفاء.

وعن ابن عباس: هو أن يذكر ربه على وجه يسمع نفسه.[٤٨٨٨]

واختلف في أنَّ التسبيح والتهليل ونحوهما بمجرد القلب أفضلُ أو باللِّسان مع حضور القلب، فمن رجَّح الأول قال: إن عمل السِّر أفضلُ، ومن رجَّح الثاني قال: إن العمل فيه أكثرُ، فالأجرَ أوفرُ.

[٤٨٨٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٧٢٨-٧٢٩.

[٤٨٨٥] لم أجده.

[٤٨٨٦] ج + أي: ذهب عقولهم.

[٤٨٨٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/٢٢٠.

[٤٨٨٨] **مفاتيح الغيب**، ١٥/١١٣.

الغدوُّ: مصدرُ غدًا، فيقدَّر المضاف أي: بأوقات الغدوِّ، وهي الغَدَوَات، فعبّر بالفعل عن الوقت، كما تقول: أتيتُك طلوعَ الشمس،[٤٨٨٩] أو جمع غُدْوَة، وهي: ما بين صلاة الغداة وطُلوع الشمس.

والآصال: جمع «أصيلٍ»، نحو: «يَمِين وأَيْمَان». وهي: ما بعد العصر إلى المغرب، أو جمع أُصُلٍ وهو جمعُ أَصيلٍ.

وقرئ: «والإِيصَالُ»[٤٨٩٠] مصدر آصَلَ فهو مُؤصِلٌ، أي: دخل في الأصيل، كأفجر إذا داخل الفجر، فيوافق الغدوَّ ويدلُّ على أنه مصدرٌ، واشتقاقه من الأصل الذي ينتهي إليه النَّهار، وينشئ عنه الليل فهو أصل لهما على هذا المعنى وتخصيصهما؛ لما أنَّ فيهما انقلاب العالم من الظُّلمة إلى النُّور وبالعكس، وكمال الدَّلالة على القدرة القاهرة والحكمة الباهرة، وانتقال بني آدم من النَّوم الذي هو أخ الموت إلى اليقظة التي كالحياة وبالعكس، فينبغي أن يكون أوَّل أعماله وآخر آماله على ذكر الله، ولأنَّ عمل الليل يصعد عند طلوع الفجر وعمل النَّهار بعد العصر إلى المغرب، أو لإرادة الدّوام تعبير عن جميع الأوقات بقُطْريه.[٤٨٩١]

﴿**وَلَا تَكُنْ مِّنَ ٱلْغَافِلِينَ**﴾ من الذين يغفلون عن ذكر الله وهو أبلغُ مِن: ولا تكن غافلًا، كما أنَّ فلانًا من الفضلاء أبلغُ من فلانٍ فاضلٍ؛ لأنَّك تشهد له بكونه منتظمًا في سلكهم معدودًا في زمرتهم مشهورًا مساهمته لهم في الفضل [**٢٥٣**/و] أو من الكاملين فيها عمّا أمر به ونهى عنه، فإن من كمل غفلته عنهما، فقد وقع في كلِّ محنة، والغفلة أصل الشَّرِّ كلِّه، ومنه يتشعب جميع ما يحلّ السخط والشَّقاء، والنهي بعد الأمر زيادة تأكيدٍ، وفضل إيقاظٍ، وتنبيهٍ.

وفي الآية دلالةٌ على أنَّ الأصل في الذِّكر اللِّساني مراعاةُ سُلوكِ القصد والاعتدال، ونظيره قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء ١٧/١١٠].

وأمَّا قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف ٧/١١٥]، فمُختصٌّ بالدُّعاء، واستنزال الإجابة، هذا إذا جُعِل الخطاب عامًّا، نحو قوله عليه السلام: «بشِّر المشَّائين إلى المساجدِ بالنُّور التَّام يوم القيامة». وأمَّا إذا خصَّ به عليه السلام، تأديبًا له، وتأسّيًا لأمَّته، وإظهارًا لبيان مكانته ومنزلته، فيكون في الآيات إشعارٌ بمراتب الذِّكر، وبيان درجات الذَّاكرين، بحسب تفاوت منازلهم ومقاماتهم، فقوله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا﴾ [الأعراف ٧/٢٠٥] إشارةٌ إلى أعلى المراتب، وهو حِصَّةُ الواصلين المشاهدين، وقوله: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ هي المرتبة الوسطى، وهي نصيب السائرين إلى مقام المشاهدة، وقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ إيماءٌ إلى مرتبة النَّازلين من السَّالكين.

فالأمر في قوله: ﴿واذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وخِيفَةً﴾ للوجوب، وفي ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ للترخّص تأسّيًا، والنهي بقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ مِّنَ ٱلْغَافِلِينَ﴾ للترفع عن هذا المقام، على سبيل التهييج والإلهاب. يعني: ولا تكن من الجاهرين بالصوت، لأنَّ منزلتك فوق هذا المقام، لأنَّك من الواصلين إلى عين الحقيقة، الماثلين في مقام الشُّهود، المنخرطين في سلك المقرَّبين الذين جاهدوا في قَمْع خواطر النفس، وإماطة لَوث الهوَى.

وفي ذكر الخوف الإشعار باستشعار هيبة الجلال، قال:

أَشْتَاقُه فَإِذَا بَدَا ... أَطْرَقْتُ مِنْ إِجْلَالِه
لَا خِيفَةً بَلْ هَيْبَةً ... وَصِيَانَةً لِجَمَالِه

[٤٨٨٩] الفريد، ٣/١٨٢.

[٤٨٩٠] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي مجلز لاحق بن حميد. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠١.

[٤٨٩١] **مفاتيح الغيب**، ١٥/١١٣.

ومن هذا المقام نهى صلوات الله عليه، على ما روينا في الصحيح، عن أبي موسى: كنَّا في سفرٍ، فجعل النَّاس يجهرُون بالتَّكبير، ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ: أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا على أَنْفُسِكُمْ، إنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ، وَلَا غَائِبًا، إنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا، وَهو معكُمْ». [٤٨٩٢]

فعلى هذا: حالُ المبتدئ والسالك منوطةٌ برأي الشيخ المرشد، فإنَّه قد يأمره برفع الصوت بالذكر، لقلع الخواطر، وحديث النفس، لرسوخها فيه في بدء الأمر. ﴿وَلاَ تَكُنْ مِّنَ ٱلْغَافِلِينَ﴾ إشارة إلى هذا المقام.

وعن بعض العارفين: «بِنْيةُ العبد ووجوده يُحكي مدينةً جامعة، وأعضاؤه وجوارحه بمثابة سكَّان المدينة وقُطَّان البلد. والعبد، في وقت إقباله على الذِّكر، كمؤذِّنٍ صَعِدَ منارةً على باب المدينة، ويَقصِد إسماعَ أهل المدينة بالأذان، فهكذا الذاكر المحقِّق، يقصد إيقاظَ قلبه، وإنباهَ أجزائه وأبعاضه، يَذْكر بلسانه، ويَعِي الذكر بقلبه ومتفرِّقات جوارحه، فتكون مناداةُ الذِّكر باللسان، وصداه في قبَّة القلب، يستحضر بالذِّكر سكَّان مدينة النفس، ويستجمع شوارد عساكر الفهم والحسِّ، يقول ببعضه، ويسمع بكلِّه، إلى أن تنتقلَ الكلمةُ من اللسان إلى القلب، فيتنوَّر بها، ويظفر بجَدوى الأحوال، ثم ينعكس نور القلب على القالَب، فيتزيَّن بمحاسن الأعمال». [٤٨٩٣]

وأيضًا في الآية إشارة إلى أن الذكر العلمي يجب أن يداوم عليه، ولا يزال الإنسان يستحضر جلال الله وكبريائه بحسب الطَّاقة البشرية؛ ليتنوَّر جوهر النَّفس ويستعد لقبول الإشراقات القدسيَّة فيضاهي سكَّان حظائر القدس الذين أشار إليهم عليه السلام بقوله: «ذَاكرُ الله في الغافلين كالمقَاتِل خَلْفَ الفَارِّينَ، وذاكرُ اللهِ في الغافلين كغُصْنٍ أخضرَ في شجرٍ يابِسٍ، وذاكِرُ الله في الغَافلينَ كمثل مِصْبَاحٍ في بَيْتٍ مُظْلِمٍ، وذاكِرُ الله في الغَافلينَ يُرِيهِ الله مقعده من الجنَّة وهو حيٌّ، وذاكِرُ الله في الغَافلينَ يستغفر له كُلُّ فصيحٍ وأعجمٍ». [٤٨٩٤] وقد أشار تعالى إلى سكَّنها بقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ(٢٠٦)﴾

لَمَّا رغَّب رسولهُ وغيره في الذِّكر، وفي الملازمة عليه ذكر عَقِيبَه ما يُقوِّي دواعيه في ذلك، فإن الذين عند الله تعالى غاية طهارتهم وعصمتهم عن الكدورات الطبيعية الحاملة على الغضب، والشَّهوَةِ، والغِلِّ، والحقدِ، والحسدِ، لَمَّا كانوا مُواظبينَ على العبوديَّة، والخُضُوعِ التامِّ، فالإنسانُ مع كونه مُبتَلًى بظلمات عالم الجسمانيَّات أَوْلَى بالمواظبةِ على الطَّاعاتِ، يعني: الملائكة الملأ الأعلى المكرمين عنده منزلين لكرامتهم عليه منزلة المقرَّبين عند الملوك على طريق التمثيل، والبيان؛ لشرفهم، وقربهم، وفضلهم على كثير من خلقه، فعند بيان منزل[٤٨٩٥] الكرامة دون المكان، فإن الله تعالى مُتعالٍ عن ذلك.

وقدّم عدم استكبارهم؛ لأنَّه كما أنَّ الاستكثار مقدّمة العصيان، كذلك عدمه مقدّمة الطَّاعة، ثم ذكر الطَّاعة القلبيَّة؛ لتقدُّمها وأصالتها، وهي التَّنزيه والتَّطهير عن جميع ما لا يليق بذاته، وصفاته وأسمائه، وأفعاله، وأحكامه، ثم ذكر والطاعة القالبيَّة– وهي الحال التي يكون العبد فيها أقربَ إلى الله تعالى، كما قال تعالى: **﴿واسْجُدْ وَقْتَرِبْ﴾** [العلق ١٩/٩٦]، وتقديم

[٤٨٩٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٧٣١/٦-٧٣٢.

[٤٨٩٣] **عوارف المعارف** للسهروردي، ص ١٩٨-١٩٩؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٧٣٢/٦-٧٣٣.

[٤٨٩٤] **جمع الفوائد**، ٤٤/٤ (٩٢١٢)؛ **كشف الخفاء**، ٤٧٦/١.

[٤٨٩٥] ج: قرب.

له للاختصاص؛ أي: ويخصُّونه بالعبادة والتَّذَلُّل لا يشركون به غيره، وهو تعريضٌ بمن سواهم حيث لا يخصُّونه [**٢٥٣**/ظ] بالعبادة،[٤٨٩٦] بل قد يشركون وبما ذكرنا في تفسير السجود سقط السؤال بقوله: ﴿**فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ**﴾ [الحجر ٣٠/١٥]، حيث أثبت سجودهم لآدم فلا حاجة إلى الأجوبة التي ذكرها القوم، ويمكن أن يقال: إنَّ التقديم لمراعاة الفواصل، وأن الآية بتمامها تعريضٌ؛ لأنَّ وزان قوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ الآية ، مع قوله: ﴿**واذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ**﴾ [الأعراف ٢٠٥/٧] الآيةَ وزان قوله: ﴿**فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ**﴾ [فصلت ٣٨/٤١] مع قوله: ﴿**وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ [فصلت ٣٨/٤١] في ترتب الثاني على الأوَّل والمخالفة بالفاء والاستئناف، لا يمنع العليَّة المعنى: ائتوا بالعبادة على سبيل التضرع والاستكانة، واستشعار الخوف سرًّا، والخفض من الصَّوت جهرًا؛ لأنَّ المطلوب المواظبة بين السِّرِّ والعَلانية في التَّواضع، والمداومة، والإخلاص، وإن لم تؤتوا بالإخلاص على وجهها بالكيفيَّة المذكورة، فاعلموا أنَّا مُغنون عنكم؛ لأنَّ لنا عبادًا مكرمين مقرَّبين دأبهم وعادتهم التواضع، وعدم الاستكبار في جميع أحوالهم وبهذا التقرير ظهر أن القول بالمداومة في ﴿**بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ**﴾ هو الوجه، ويدلُّ عليه قوله: ﴿**وَلاَ تَكُنْ مِّنَ ٱلْغَافِلِينَ**﴾ [الأعراف ٢٠٥/٧]. والتعريض بالأفعال المضارعة؛ لأنها تدلُّ على أن عدم الاستكبار، والتَّسبيح، والسَّجْدة دأبهم وعادتهم لقوله: ﴿**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ**﴾ [الأنبياء ٢٠/٢١].

وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن، فيستحبُّ للقارئ، والمسمِع أن يسجدَ عند قوله: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ليوافق الملائكة المقرَّبين في عبادتهم.

وفي الصحيح عَنْ عبد الله ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم: «كَانَ يَقْرَأُ القرآن فَيَقْرَأُ سورةً فِيها سجْدَةٌ فَيَسْجُدُ فَنَسْجُدُ مَعَهُ، حَتَّى مَا يَجِدُ بعضُنَا مَوضِعًا لِمَكان جَبْهَتِهِ فِي غَيْرِوَقْتِ صَلَاة».[٤٨٩٧]

وَ عَنْ ثَوْبانَ مَوْلى رسولِ اللَّهِ قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللَّه يَقُولُ: «عليكَ بِكَثْرةِ السُّجُودِ لله، فإنَّك لَا تَسْجُد للَّهِ سجْدةً إلاَّ رفَعكَ اللَّهُ بِهَا دَرجَةً، وحطَّ عنْكَ بِهَا خَطِيئَةً».[٤٨٩٨]

وعنه عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سورةَ الأعراف جعَلَ الله بينه يوم القيامة وبين إبليس سدًّا، وكان آدم شفيعًا له يوم القيامة».[٤٨٩٩]

والحمد لله على تمام سورة الأعراف، ونشكره على نعمه بالإقرار بقصورنا، والإعتراف ونستعين به في افتتاح سورة الأنفال، ونسئله الهداية والتَّوفيق بالأنوال.

[٤٨٩٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٢١/٤.

[٤٨٩٧] **صحيح مسلم**، ٤٠٥/١ (٥٧٥).

[٤٨٩٨] **صحيح مسلم**، ٣٥٣/١ (٤٨٨).

[٤٨٩٩] **الكشاف** للزمخشري، ١٨٦/٢.

سورة الانفال

مدنية. وكذا ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ**﴾ [الأنفال، ٣٧/٨] إلى آخرها وإن كانت الواقعة بمكَّة. وهى خمسٌ أو ستٌّ وسبعون آيةً، وألف وخمس وتسعون كلمةً، وخمسةُ آلاف وثمانون حرفًا.

بسم لله الرحمن الرحيم

﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١)**﴾

﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ**﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه و سلم، وحسن إسناد السؤال إلى مَن لم يسبق ذكرهم؛ لأنَّ السائل كان معلومًا حال نزول الآية، فلم يحتج إلى انصراف السُّؤال الى سبق ذكرهم. والسؤال: إمَّا لاستدعاء معرفةٍ أو ما يؤدّي اليها، وإمَّا لاستدعاء مالٍ أو ما يؤدّي اليه.

فجواب الأول باللّسان، واليد خليفة له بالكتاية أو الإشارة، وهو يعدّى بنفسه وبالجار: سألته كذا، وعن كذا، وبكذا وبـ«عن» أكثر، وجواب الثاني باليد، واللِّسان خليفة لها إمَّا بوعدٍ أو ردّ، وهو يعدّى بنفسه، و«عن» ﴿**وَسْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ**﴾ [النساء ٣٢/٤]، وههنا السؤال للاستعلام لتعديته بـ«عن»، وإن كان نزُوله في استعطاء الشيئان على[٤٩٠٠] ما عيّن لهم؛ لأنَّه لا يبعد أن يكون هناك استفتاء أيضًا.

وقيل: على هذا يكون «عَنْ» بمعنى «مِنْ»، أو صلةٌ ويؤيّده القراءة بإسقاط «عن»،[٤٩٠١] فتعيّن حينئذ أن يكون الاستعطاء معنى ونزولًا اللَّهم إلا أن يحمل على الحذف والإيصال نحو: ﴿**وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ**﴾ [الأعراف ١٥٥/٧].

والأنفال: جمع «نَفَلٍ» بفتحتين، وأصل الزّيادة على الشّيء، ومنه نوافل العبادات لزيادتها على الفرائض.

قال لبيد:

إنَّ تَقْــــوَى رَبِّنَـــا خَــــيرُ نَفَــلْ	وبإذْنِ اللهِ رَيْثِــــي وعَجَـــلْ
أحْمَــــدُ اللهَ فَــــلا نِــــدَّ لَــــهُ	بيَدَيْــــهِ الخَــيرُ مَـــا شَــاء فَعَــلْ
مَــنْ هَــداهُ سُــبُلَ الخَــيرِ اهْتَــدَى	ناعِــمَ البَــالِ ومَــنْ شَــاءَ أضَــلّْ[٤٩٠٢]

وسميت به الغنيمة؛ لأنَّها زيادة على القيام بالجهاد وحماية الحَوْزَة والدُّعاء إلى الله، أو لأنَّ المسلمين فضّلوا بها وجعلت لهم زيادة على سائر الأمَم، أو لأنَّها من فضل الله وعطائه. وما ينفله الغازي، أي: يُعطاه بأن يقول: الإمام تحريضًا على البلاء في الحرب: «مَنْ قتل قتيلًا فله سَلَبُه»،[٤٩٠٣] لزيادةٍ سهمه وكونه عطيةً له. ولا يَخَمّس المنفَّل، ويلزم الإمام الوفاء بما وَعَد منه، واستدلَّ الشّافعي على عدم لزومه بحديث المقتحمين يوم بدرٍ.[٤٩٠٤]

[٤٩٠٠] ج – على.

[٤٩٠١] «يَسْئَلُونَكَ الْأَنْفَال».قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٥٤. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠١.

[٤٩٠٢] **ديوان لبيد بن ربيعة**، ص ٩٠.

[٤٩٠٣] **صحيح البخاري**، ٩٢/٤ (٣١٤٢).

[٤٩٠٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦/٧.

ويمكن أن يقال: إنها لما نزلت صار ما شرع بالسنة منسوخًا بالكتاب قبل العمل به فلا متمسك فيه، والآية تحتمل معنيين؛ بناءً على الوجهين، ويؤيد الأوَّل ما روي أنَّه وقع اختلاف بين المسلمين ﴿**٢٥٤**/و﴾ في غنائم بدر، وفي قسمتها، فسألوا رسولَ الله كيف تقسم، ولمن الحكم في قسمتها؟ أللمهاجرين أم للأنصار؟ أم لهم جميعًا؟

والثاني ما روي أنه عليه السلام: شرط لمن كان له غناءٌ أن ينفله، فتسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين، ثمَّ طلبوا أنفلهم، وكان المال قليلًا، فقال الشيوخ الذين كانوا عند الرايات: كنّا ردءًا لكم وفئةً تنحازون إليها، فنزلت. فقسمها بينهم على السواء.

وعن سعد بن أبي وقاص: قتل أخي عمير يوم بدر، وقتلت سعيد بن العاص، وأخذت سيفَه، فاستوهبتُه منه ع م، فقال: هذا ليس لي ولا لك، اطرحه في القَبَضِ، وبي ما لا يعلمه إلا الله مَنْ قتل أخي وأخذ سَلبي، فما جاوزت قليلاً حتى نزلت. فقال ع م: سألتَني السَّيف وليس لي، وإنه قد صار لي فاذهب فخذه.[٤٩٠٥]

ويؤيّده ما روي عن ابن عباسٍ: أنَّ هذه اللآية نزلت أوَّلًا فصارت الأنفال لرسول الله، ثمَّ نزلت ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ**﴾ [الأنفال ٨/٤١] الآية. فقسم الله ذلك الخمس لرسوله ولمن سمّي فيها.[٤٩٠٦]

وكلُّ ما ذُكر في سبب النُّزول يحتمله الآية، وليس فيها دلالةٌ على ترجيح بعضها على البعض. فإنْ صح دليلٌ على التعيين قضى به إلا فالكلّ محتملٌ.[٤٩٠٧]

وقرئ «يَسْأَلُونَكَ عَلَّنْفَالِ»[٤٩٠٨] بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وإدغام نون «عن» في اللّام.[٤٩٠٩]

﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾

قال المصنف: « فإن قلت: ما معنى الجمع بين ذكر الله والرَّسول؟ قلت: معناه أنّ حكمها مختصّ بالله ورسوله، يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته ويمتثل الرسول أمر الله فيها، وليس الأمرُ في القسمة مفوّضًا إلى رأي أحد. والمراد: أنّ الذي اقتضته الحكمة وأمر به رسوله أن يواسي المقاتلةُ المشروطُ لهم التنفيل الشيوخ الذين كانوا عند الرّايات، فيقاسموهم على السَّوية ولا يستأثروا بما شرط لهم، فإنهم إن فعلوا لم يؤمن أن يقدح ذلك فيما بين المسلمين من التَّحاب والتَّصافي»[٤٩١٠].

الظاهر أنّ السؤال على الوجهين: وهما حمل الأنفال على الغنيمة، والسُّؤال على الاستعلام، والحمل على المشروط للمقتحمين والسؤال على الاستعطاء، وصدر جوابه يشعر بذلك الإطلاق، بل بالوجه الأوَّل، أوفق حيث سألوا رسول الله كيف تقسم؟ ولمن الحكم في قسمتها؟ إلا أنَّ قوله: «والمراد أنّ الذي اقتضته حكمة الله...إلى آخره»، يشعر بأنَّه على الوجه الثاني؛ سيَّما وقد ذكر بعد تقرير الوجه الأول قبل ذلك، فقيل له: قل لهم: «هي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، خاصَّةً، وهو الحاكم

[٤٩٠٥] **الكشاف** للزمخشري، ١٨٨/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٢٧/٤.

[٤٩٠٦] **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ١٢٢/٧-١٢٣.

[٤٩٠٧] **اللباب** لابن عادل، ٤٤٦/٩.

[٤٩٠٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن. **مختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٥٤. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠١.

ابن محيصن بخلفه: نقل حركة الهمزة إلى لام التعريف وأدغم نون [عن] في هذه اللام. وهذا ضرب من ضروب تخفيف الهمز بالنقل، وهو مبني على الاعتداد بالعارض. **الميسر في القراءات الأربع عشرة** لمحمد فهد خاروف، ص ١٧٧.

[٤٩٠٩] **الكشاف** للزمخشري، ١٨٨/٢.

[٤٩١٠] **الكشاف** للزمخشري، ١٨٩/٢.

فيها خاصَّةً»، فإنَّها تدلّ[٤٩١١] على أنه ذكر الله لتشريفه وتعظيم شأنه، وللإيذان بأنَّ طاعتَه طاعةُ الله، وأنَّه خليفة الله في أرضه، وكما أنَّه لاينطق عن الهوى كذلك لا يفعل بالهوى.[٤٩١٢] وأنه عليه السلام يتصرّف فيها على ما يرتضيه تعالى ويقتضيه حكمته.[٤٩١٣]

فإن قيل: هلاّ كان ذكر الله في الوجه الثاني أيضًا كذلك؟ أو في الوجه ما ذكر من أنّ الحكم لله تع بحسب الأمر، وللرسول بحسب الإمتثال، وما وجه التخصيص؟

قلنا: الظاهر تجويز الأمرين في الوجهين في كلّ على واحدٍ، اختصارٍ واعتمادٍ على انسياق الذهن إلى الآخر.[٤٩١٤]

وقيل: الحمل على ما ذكر أولى في الوجه الأوّل والحمل على التمهيد، أو في الثاني، ووجه الظهور يظهر بالتأمّل في أنَّ الوعد جرى منه في المشروط دون الغنيمة.

واختلفوا في حكم الآية، فقيل: منسوخةٌ بقوله: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ**﴾ [الأنفال ٤١/٨] كانت الغنائم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقسمها كيف يشاء ولمن يشاء، ثم نسخت بالخمس.

وقيل: ناسخة من وجهٍ ومنسوخة من وجهٍ؛ فإنَّ الغنائم كانت محرّمةً، فأبيحت بها ثم نسخت بآية الخمس.

وقيل: محكمةٌ فإنها لله مع الدُّنيا والآخرة وله عليه السلام نصفها حيث أمره الله وقد بيَّن المصارف في تلك الآية.

وعَن عبَادَة بن الصَّامِت: نزلت فِينَا يا معشر أَصْحَاب بدر حِين اخْتَلَفْنَا فِي النَّفْل، وَسَاءتْ فِيهِ أَخْلَاقنَا فَنَزَعَهُ من أَيْدِينَا فَجعله لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَسمهُ بَين الْمُسلمين عَلَى السوَاء. وَكَانَ فِي ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين.[٤٩١٥] أي: كان في نزع النفَل من أيدينا وجعْله لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقسمته عل السّواء. وتقو الله فانَّ كلَّ أحدٍ منهم كان يظنُّ أنَّ حقَّه أو فى من حقّ صاحبه؛ لما كان يرى من جهاده فيقع التشاجرُ والتنازعُ، فلمَّا نزع الله من أيديهم ارتفع الظَّنُ والاختلافُ خشية أن يتصرَّف في ماله بغير إذنه وطاعة رسوله: فانه لَمَّا قُسم بينهم على السوية رضُوا به. وإصلاح ذات البين: فإنهم لم يروا ح أنَّ لكلّ منهم فضلًا على الآخر، وأنَّ كل ما يفعله الله تفضُّلٌ منه تعالى لا أجرٌ لسَعيهم.

وفيه إشارةٌ الى أنَّ ثواب الاخرة على الأعمال تفضُّلٌ منه تعالى، كما عليه علماء السنة.[٤٩١٦]وهذا تفسيرٌ حسنٌ للآية من صاحب رسول الله مع الموافقة لما يذكر بعده.[٤٩١٧]

وروي عن الكلبي: أنَّ الخمس لم يكن مشروعًا يومئذٍ، وإنَّما شرع يوم أحد. وعنه: لَمَّا نزلت عرف المسلمون أنَّها لرسول الله، فقالوا: اصنع ما شئتَ فنزل قوله: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم**﴾ [الأنفال ٤١/٨] [**٢٥٤**/ظ] أي: ما غنمتم بعد بدرٍ؛ إذ روي أنَّها لم تخمس.

[٤٩١١] ج: فإنَّها تدلّ.

[٤٩١٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٠/٧.

[٤٩١٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٢٧/٤.

[٤٩١٤] **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٦٤/٤.

[٤٩١٥] **مسند أحمد**، ٤٤/٣٧ (٢٢٤٧٨).

[٤٩١٦] يريد: أهل اسنة والجماعة، خلافًا للمعتزلة حيث قالوا: إنّ إثابة المطيع وتعذيب المعاصي واجبٌ على الله.

[٤٩١٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٨/٧-٩.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ «في الاختلاف والتَّخاصم، وكونوا متَّحدين متآخين في الله»،[٤٩١٨] أو في محافظة حقوقه فيما أمر ونهي.

﴿وَأَصْلِحُوا﴾ الحال التي بينكم بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله وتسليم أمره إلى الله والرسول،[٤٩١٩] «حتى تكون أحوال ألفةٍ و محبَّة مودةٍ واتّفاقٍ».[٤٩٢٠]

وعن عطاء: كان الإصلاح بينهم أنَّ دعاهم وقال: اقسموا غنائمكم بالعدل، فقالوا: قد أكلنا وأنفقنا، فقال: ليردّ بعضكم على بعض.[٤٩٢١]

ولَمَّا كانت ملابِسةً للبَيْن أضيف إليه صفتُها؛ لأنَّ ﴿ذَاتَ﴾ في الأصل نَعْتٌ لِمَفْعُولٍ مَحْذُوفٍ، أيْ: أحْوالًا ذات بينكم.[٤٩٢٢] فحذف الموصوف وأقيمت الصفةُ مُقامه.

والبَيْنُ: بمعنى الافِتراق، أو الوصل، أو الظرف، ونظيره: اسْقِنِي ذا إنائِكَ، أيْ: ماءُ صاحِبِ إنائِكَ، لَمَّا لابَسَ الماءُ الإناءَ وُصِفَ بِذا وأُضِيفَ إلى الإناءِ.[٤٩٢٣]

ومنه قوله تعال: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُور﴾ [آل عمران، ٣/١١٩].

و عن النبي صلى الله عليه وسلم: « اتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ يُصْلِحُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ يوم القيمة».[٤٩٢٤]

وعنه عليه السلام: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ من درجةِ الصِّيَامِ والصَّدقةِ والصَّلاةِ؟ قُلْنَا: بَلى يا رسولَ اللهِ، قال: إِصْلاَحُ ذاتِ البَيْنِ وفساد ذاتِ البَيْنِ هي الحالِقَةُ . لا أقولُ: أحْلقُ الشَّعْرَ ولكن تَحْلِقُ الدِّينَ».[٤٩٢٥]

وروي عن أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ عليه السلام قال لأبي أيوب: «أَلا أَدُلُّكَ على تجارةٍ»؟ قال: بلى، قال: «صِلْ بَيْنَ النَّاس إِذَا تفَاسدُوا، واقترب بينهم إذا تباعدوا».[٤٩٢٦]

« وعن أبي أيوب الأنصاري قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا أيوب، «أَلَا أَدُلُّكَ على صدقةٍ يُحِبُّها اللهُ ورسوله»؟ تُصلحُ بين الناسِ، إِذَا تباغَضوا وتفَاسدُوا».[٤٩٢٧]

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بتفويض أمركم لهما والتَّسليم لحكمهما.[٤٩٢٨]

[٤٩١٨] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٨٩.

[٤٩١٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/٦.

[٤٩٢٠] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٨٩.

[٤٩٢١] **الكشاف** للزمخشري، ٢/١٨٩.

[٤٩٢٢] **البحر المحيط** لأبي حيان، ٤/٤٥٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٩/٤٤٧.

[٤٩٢٣] **البحر المحيط** لأبي حيان، ٤/٤٥٣. ٤/٤٥٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٩/٤٤٧.

[٤٩٢٤] **البعث** لابن أبي داود، ٣٥/٣٢

[٤٩٢٥] **موطأ مالك، ٢/٩٠٤ (٧)؛ سنن أبي داود، ٤/٤٣٢ (٤٩١٩)؛ سنن الترمذي، ١١٨ (١٤٨).**

[٤٩٢٦] **مجمع الزوائد** للهيثمي، ٨/٨٢

[٤٩٢٧] **مسند أبي داود، ١/٤٩١ (٥٩٩)؛ المعجم الكبير للطبراني، ٤/١٣٨ (٣٩٢٢). مجمع الزوائد** للهيثمي، ٨/٧٩ (١٣٠٤٩).

[٤٩٢٨] **تفسير ابن كمال باشا، ٤/٢٢٧.**

﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ شرطٌ، جوابه مدلولُ مَا تقدّم، أي: فاتّقوه وأصلحوا وأطيعوا. ولَمّا ورد أن يقال: الشرط ملزومٌ للجواب، وهو لازم له، والنتفاء اللازم يستلزم انتفاء الملزوم، وذلك يقتضي انتفاء الإيمان عند انتفاء الأعمال المذكورة.

أجيب عنه أولًا: بأنَّ المشروط بما ذكر ليس حقيقة الإيمان، بل القيام بمقتضاه وموجبه؛ فإنَّ الإيمان يقتضي ذلك ويوجبه، ثانيًا: بأنَّ المشروط بذلك كمال الإيمان. أي: «إن كنتم كاملي الإيمان».[٤٩٢٩]

فقد جَعلَ الأمور الثلاثة من لوازمه وشرائطه؛ إيذانًا بأنَّ كماله موقوفٌ عليها، حتى لو فُقدت كان كَلاَ إيمان، كما تقول: إنْ كنتَ من الرجال فأَوْفِ بعهدك، تشير إلى لزوم الوفاء للرُّجولية.[٤٩٣٠]

وهذا هو الذي ذكره المصنف، لكنَّ اللَّائح أنَّه لا احتياج على مذهبه إلى هذا التَّكليف[٤٩٣١] واعتبار الكمال؛ لأنَّ حقيقة الإيمان عندهم: عبارة عن التَّصديق والأعمال، وما ذكره بعض الشارحين من أنَّه أراد الإيمان بمعنى التصديق تكلّف أيضًا؛ لأنَّه لا وجه لاعتبار ذٰلك ههنا كما لا يخفى، ولئن سلّم فليس المناسب حينئذ اعتبار الكمال، لأنَّ ما ذكر عندهم حقيقة الإيمان لا كماله، بل المناسب اعتبار اللغويّ والإصطلاحيّ، أي: إن كنتم مصدّقين فامتثلوا؛ فإنَّ ذلك كماله.

وقال بعض العارف: لكلّ طائفةٍ فى طريق المجاهدة والقتال مع النفس فتح وغنيمة، فغنيمة المريدين صفاء المعاملات، وغنيمة المحبّين ذوق الحالات، وغنيمة العارفين كشف المشاهدات، والسُؤال عن ذلك اقتباس نور الشريعة من مشكاة النبوة، واستعلام الأدب فى طريق المعرفة لله، هذه الكرامة لا بالاكتساب يؤتيه من يشاء.

﴿وَٱلرَّسُولِ﴾: الحكم فيه لجهة تربية الأمّة، وأن الله مستغنٍ عن الخليقة، ورسوله مطهَّر فى أداء رسالته عن حظوظ نفسه.

ثم حذَّرهم بنفسه عن نفسه فى طريقه، ومواساة عباده، بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾ أى: اتقوا الله فى طلبه، ولا تلتفتوا إلى غيره، وأسوأ قلوب إخوانكم يبذل مهجتكم لهم[٤٩٣٢] فى مؤاخاتكم، ومصادقتكم لله وفى الله. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ فى الحقيقة، ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فى الشَّريعة.

﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أَىْ: إنْ كنتم صادقين فى دعوى المحبَّة.[٤٩٣٣]

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٢)﴾

أي: الكاملون فيه. فاللاَّم إشارةٌ إليهم؛ جريًا على الأصل فيه، أعني: العهد سيَّما، وقد انضمَّ قرينة لاحقة هي قوله: ﴿أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ بلفظ ﴿أُوْلَٰئِكَ﴾ الصريح في الإشارة إليهم، وتعريف الخبر وتوسيط الفصل، مع القطع بأنَّ أصل الإيمان لاينحصر فيهم،[٤٩٣٤] وفيه إماءٌ إلى أنَّ غيرهم كأنهم ليسوا بمؤمنين.

[٤٩٢٩] **الكشاف** للزمخشري، ١٨٩/٢.

[٤٩٣٠] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٢٨/٤.

[٤٩٣١] ج: تكلّف.

[٤٩٣٢] ج: إليهم.

[٤٩٣٣] **عرائس البيان** للبقلي، ٥٠٨/١-٥٠٩.

[٤٩٣٤] **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٥٦/٤.

وهو مبتدأ خبره: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع صلته، يقال: وَجِلَ، يَوْجَل، يَأجَل، بقلب الواو ألفًا؛ لفتحة ما قبلها، وهو بأمن اجتماعها مع الياء، ويَيْجَلُ على قلبها ياءً، وَيِيجَلُ على لغة وتِعْلَم. أي: فزعت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ لذكره تعالى استعظامًا له، وتهيُّبًا من جلاله، وهذا الخوف لا يزول عن قلب مَنْ ذكره بنعوت جلاله، وصفات كماله، سواءٌ كان نبيًّا مرسلًا، أو مَلَكًا مقرَّبًا، أو مؤمنًا تقيًّا نقيًّا؛ فإنَّ كلَّ واحد منهم عند ذكره، يلاحظ عظمته واستغنائه عن جميع ما سواه، ويعلم احتياجه إليه في [**٢٥٥**/و] جميع مهمَّاته، فلا جرم بها به ويقشعرّ جلدُه، ويغلب عليه الدهشةُ؛ بحيث يكاد يفنى وجودُه.

وقيل: هو الرَّجل يهُمُّ بمعصية، فيقال له: اتّقوا الله فينزع عنه خوفًا من عقابه.[٤٩٣٥]

وهذا لا يحصل بمجرّدِ الذِّكر، بل بملاحظة معصيته، وذكر قهر الله وعقابه واللائق بالمقام الأوَّل؛ لأنه اللازم بكمال الإيمان.

وقيل: الثاني؛ لأنَّهُ التزامُ أهل بدرٍ طاعةَ الرَّسول في القسمة.

وهذا الذِّكر خلاف الذكر في قوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [زمر ٢٣/٣٩]؛ لأنّه ذكر رحمته وثوابه.[٤٩٣٦]

وكذا في: ﴿اَلَا بِذِكْرِ اللّٰهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد، ٢٨/١٣] وهذا مقام الخوف، وذلك مقام الرجاء ولا بدَّ من جمعهما للمؤمن من تحاشيًا عن الأمن والبأس.

وما روي عن أمّ الدرداء: الوجل في القلب كاحتراق السَّعَفة، أما تجد لها قَشْعريرة؟ قال: بلى، قالت: فادع الله؛ فإنّ الدعاء يذهبه».[٤٩٣٧] فمحول على أنها ذكرت جوابًا؛ لسائلٍ، وكأنَّه اشتكى إليها ما يجد من الفزعة عند الذكر، فأرشدته إلى طريق إزالتها ولم ترد إذهابها بالكلّية، بل أرادت تعديله حتى لا يذهبَ به إلى وادي القنوط ألا ترى الى قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وتعقيبه بقوله: ﴿ثُمَّ تَلينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ اِلٰى ذِكْرِ اللّٰهِ﴾ [الزمر ٢٣/٣٩]، فالمراد بالإذهاب تحصيلُ اللّين الحاصل من الرجاء أو الإنس.[٤٩٣٨]

وزيادة الإيمان بالآيات بزيادة التَّصديق؛ فإنَّه كان من الكيفيَّات النفسانيَّة المتفاوتة قوَّتًا وَضَعفًا، لا يقال: الواجب اليقين والتفاوت لايكون إلا لاحتمال النقيض؛ إذْ يجوز أن يكون بالقوَّة والضعف بلا احتمال النقيض، وإلا يستوي إيمان النبيّ مع الآحاد والظنّ الغالب الذي لا يخطر معه احتمالُ النقيض حكمُه حكمُ اليقين؛ فإنَّ إيمان العوام كذلك، إذْ بحسب المتعلَّق؛ فإنَّ التّصديق التفصيلي في أفراد ما علم مجيئه به جزء من الإيمان، يثاب عليه ثوابه على تصديقه للإجمال، يعني: أنَّ أفراد ما جاء به متعدِّدة وداخِلة في التَّصديق الإجماليّ، فإذا علم واحد منها بخصوصه وصدق به كان هذا تصديقًا مغايرًا للتَّصديق المجمل وجزء من الإيمان، والتَّصديقات التَّفصيلية تقبل الزيادة فكذا الإيمان، والآية ظاهرة في هذا المعنى. وقول إبراهيم في المعنى الأوّل، أو بحسب العمل على قوله: من جعله داخلًا فيه على ما يدلُّ عليه قوله: ع م: «الإيمانُ بضعٌ وسبعون شعبةً».[٤٩٣٩]

[٤٩٣٥] **الكشاف** للزمخشري، ١٨٩/٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٦/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٢٨/٤.

[٤٩٣٦] **الكشاف** للزمخشري، ١٨٩/٢.

[٤٩٣٧] **الكشاف** للزمخشري، ١٨٩/٢.

[٤٩٣٨] **كشف الكشاف** للقزويني، مكتبة سليمانية، يوسف آغا، رقم: ٨١، ١٣٤و.

[٤٩٣٩] **صحيح البخاري**، ١١/١ (٩)؛ **كشاف اصطلاحات الفنون** للتهانوي، ٣٠٢/١.

ولكن يمكن حمله على الإيمان الكامل كما في قول عمر بنعبد العزيز على ما ذكره المصنف.[٤٩٤٠]

وهذا هو الجواب أيضًا عن التَّمسك بالآية على الدُّخول.

﴿يَتوكَّلُونَ﴾ أي: يفوِّضون إليه أمورهم ولا يخشون إلا الله ولا يرجون إلا منه.[٤٩٤١]

وتقديم الظرف للإشارة إلى أن المؤمنين الكاملين شأنهم التبرّي عن الحول والقوّة، والتفويض الكامل وقطع النَّظر عما سواه، والمضارع للتلويح الى استيعاب مراتبه وتجدّده حالًا فحالًا.

وعن بعض العارفين: التَّوَكُّلُ: كِلَةُ الْأَمْرِ كله إِلَى مَالِكِهِ، وَالتَّعْوِيلُ عَلَى وَكَالَتِهِ، وَهُوَ مِنْ أَصْعَبِ مَنَازِلِ الْعَامَّةِ عَلَيْهِمْ. وَأَوْهَى السُّبُلِ عِنْدَ الْخَاصَّةِ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ قَدْ وَكَلَ الْأُمُورَ كُلَّهَا إِلَى نَفْسِهِ وأيأس العالم من ملك شيءٍ منها.[٤٩٤٢]

والوجل إشارةٌ إلى بدْءِ حال المريد في التصقيل والزِّيادة، أي: أخْذه في السُّلوك والتَّجلِّي، وعروجه في الأحوال، والتوكّل إلى صعوده في المقامات.[٤٩٤٣]

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾

دلَّ على أنّ الإيمان التَّصديق؛ لأنَّ الظاهر أنَّ الموصولية واردةٌ على المدح، إمَّا بتقدير: «أعني» أو «هم». وعلى كون العمل داخلًا فيه تجعل بدلًا من السَّابق؛ لأنَّ في إقامة الصلاة إشارةً إلى تعديل أركانها، وتوفية حدودها وإدامتها، وذلك لا يتَأتَّى إلا من المؤمن المخلص.

﴿حَقًّا﴾ صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، أي: إيمانًا حقًّا، أو مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمون ما سبق، أي: حقَّ ذلكَ حقًّا، كقوله: هو عبد الله حقًّا، أي أحقّه حقًّا. ويجوز على ضعف أن يكون مؤكِّدًا؛ لمضمون الجملة الواقعة بعده على أن يتمَّ الكلام عند قوله: ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ جمع بين أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوّكل، وبين أعمال الجوارح من الصلاة والزكاة؛ لأنَّ الظَّاهرَ عنوان الباطن، والباطنُ أساس الظاهر، فكما أنَّ الثلاثة الأُول أصول الأعمال القلبية ومِلاكها، فالأخريان أصول القالبيّة وعيارُها، فهي مستعتبةٌ لسائرها.[٤٩٤٤]

والتَّمسك بما ذكر الثوريُّ على الاستثناء في الإيمان بناءً على أنَّه ذكر لهم أوصافًا، ثم رتَّب عليها أنَّهم المؤمنون حقًّا، وأنَّ لهم الدرجات فلو صحَّ قطعهُم بالإيمان لَصحَّ قطعهم بالدَّرجات.

واللازم منتف مدفوعٌ بأنّ المراد المؤمنون الكاملون، وعدم القطع به يستلزم عدم القطع بأصل الإيمان على ما يُفصح عن هذا التفصيل قول الحسن المذكور في الكشاف،[٤٩٤٥] أيضًا وقول قتادةَ قال: اتِّباعًا لإبراهيم في قوله: **﴿وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ**

[٤٩٤٠] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٠/٢. وعن عمر بن عبد العزيزرضي الله عنه: «إن للإيمان سننًا وفرائض وشرائع، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان».

[٤٩٤١] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٠/٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٦/٢.

[٤٩٤٢] **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، لابن القيم الوزية ٩٤/٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ١٣/٧.

[٤٩٤٣] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٣/٧.

[٤٩٤٤] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٢٩/٤.

[٤٩٤٥] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٠/٢.

لِي﴾ [الشعراء ٨٢/٢٦] يعني به أنَّه عليه السلام ذكر غفران الخطيئة الذي هو من ثمرات الإيمان على الرجاء بلا قطعٍ [**٢٥٥**/ظ] مع أنَّ حالَ النَّبي الغفران.

وفيه أيضًا أنَّ عدمَ القطع بالمغفرة لايوجب عدم القطع في الإيمان، ويمكن الجواب عن إلزام أبي حنيفة بأنَّ الكلام في مطلق الإيمان، وههنا المراد: ﴿**أَوَلَمْ تُؤْمِن**﴾ [البقرة ٢/ ٢٦٠] بإحياء الموتى، وفي مثله لاخلافَ في عدم الاستثناء سيَّما، وكان الطَّلب لزيادة الإطمئنان.

وقال **صاحب الكشف**:[٤٩٤٦] مَنْ جوَّزه إنما جوَّز إذا سئل عن مطلق الإيمان أمَّا إنْ قيل: هل أمنت بالقدر؟ فقال: إن شاء الله لا يجوز؛ لأن التَّبرك لا معنىً له بل للإيهام بما ليس له فاطر في الإطلاق، فلمَّا دلَّ على الكمال وهو المنتفع به في الآخرة علّق تيمنًا؛ فإنَّ «إنْ شَاءَ الله» خرجت عن موضعها إلى المعنى المذكور في العرف، أو يستعملونها في كلّ ما لهم اهتمام بحصوله، فلا وجه لما قيل: معنى التَّبرك أنا أشكُّ في إيماني تبركًا، والمشيئة غيرُ مشكوكة عنده بل تعليق بما لا بدَّ منه نظرًا إلى أنه السَّبب الأصلي وأنه تفويض إلى الله تعالى ومن فوَّض كُفِيَ لا نظرًا إلى أن المشيئة غيبٌ غيرُ معلومٍ فيكون شكًّا في الإيمان، وقد جاء «مَن شَكَّ في إيمانه كفر».[٤٩٤٧]

وأنت خبيرٌ بأنه خلْط وجه التبرُّك بوجه الكمال مع الاستقلال، في المقال ويؤيّده قول النحرير: تأويل الاستثناء فيه عدم القطع بالكامل، أو التَّبرك والتَّفويض، أو الشكّ في الخاتمة، أو في المنجي الذي يترتَّب عليه دخولُ الجنة، وليس للشَّكِّ في حصول الإيمان له في الحال فح يرتفع الجدال.[٤٩٤٨]

﴿**لَهُمْ دَرَجَاتٌ**﴾: روحانيَّةٌ وجسمانيَّةٌ في الدارين؛ لأنَّ تلك الأخلاق والأعمال مؤثرات في تنوير الباطن والظَّاهر، وكلَّما كان المؤثر أقوى كانت الآثار أولى، ولَمَّا كان للمؤثر مراتبُ كان للآثار درجاتٌ.

فقد قيل: سبعون درجة ما بين كلِّ درجتين حضر الفرس المضمَّر سبعين سنةً.[٤٩٤٩]

وعنه ع م: «فِي الجنةِ مائةُ درجةٍ ما بين كلّ درجتينِ مائةُ عامٍ».[٤٩٥٠]

وعنه ع م: «إن في الجنةِ مِائةَ درجةٍ لو أن العالَمينَ اجتمَعوا في إحداهنَّ لَوَسِعَتْهم».[٤٩٥١]

﴿**عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾: ظرفٌ للظرف، أوصفةٌ لـ﴿**دَرَجَاتٍ**﴾ أو متعلّق بالمعطوفين، كـ﴿**مِنْ قَبْلُ**﴾ في قوله: ﴿**لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ**﴾ [الأنعام ١٥٨/٨]، وفيه تفخيمٌ لَمَّا أعدّلهم، وإشعارٌ بعلوّ شأنه.

﴿**وَمَغْفِرَةٌ**﴾ لِمَا فرَط منهم ﴿**وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ لاينقطع عدده، ولاينتهي أَمده.[٤٩٥٢]

[٤٩٤٦] فإنه يقصد القزويني، هو سراج الدين القزويني، (ت. ١٣٤٤/٦٤٥)، له «الكشف على الكشاف» «حاشية على كشاف الزمخشري»، انظر: **الأعلام** للزركلي، ٤٩/٥.

[٤٩٤٧] **كشف الكشاف** للقزويني، نسخة: مكتبة يوسف آغا، ورق. ١٣٣ظ.

[٤٩٤٨] **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٦٨/٤.

[٤٩٤٩] **جامع البيان** للطبري، ٣٣٩/١٣.

[٤٩٥٠] **مسند أحمد**، ٣٠٠/١٣ (٧٩٢٣)؛ **سنن الترمذي**، ٦٧٤/٤ (٢٥٢٩).

[٤٩٥١] **سنن الترمذي**، ٦٧٦/٤ (٢٥٣٢).

[٤٩٥٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٦/٢.

وقيل: فقُوبلَت الصِّفات القلبيَّة بالدَّرجات، والقالبيَّة بالغفران، والمايَّة بالرِّزق الكريم.[٤٩٥٣]

وقيل: المغفرة إشارةٌ إلى تخلية القلب عن الظُّلمات الطَّبيعية، والرِّزق الكريم إلى الواردات الإلٰهيَّة.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥)﴾

خبرٌ محذوفٌ، أي: هذه الحال من قسمة الغنائم كما شاء بمقتضي الآية في كراهتهم؛ لِمَا في طبْع مَنْ له غناءٌ من الشُّبان المتسارعين شيء منها؛ حيث لم يصل إليهم ما شُرط لهم، أو من الشَّرط لهم بالتَّنفيل في كراهتهم أيضًا؛ لِمَا في طبع الشيوخ الثابتين عند الرَّايات شئٌ منها؛ خوفًا من عدم مساعدة السّهام لقلَّة المال وكثرة الرِّجال، «كحال إخراجك» للحرب في كراهتهم له على ما سيجيء، أو صفةُ الفعل المقدَّر في قوله: ﴿**لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ**﴾ أي: الأنفال ثبتَتْ لهما مع كراهتهم على ما مرَّ ثباتًا مثلَ ثبات إخراجك ربَّك له مع كراهتهم.[٤٩٥٤]

والوجه الأوَّل: لأنَّ الناصبَ بعيدٌ والفاصل كثيرٌ، وجعل ﴿**كَمَا رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ**﴾ داخلًا في حيِّز «قل» ليس بحسن الإنتظام.

وقيل: لا يمنع الفصل بين العامل والمعمول بالجمَل المتعددة، لأنَّ الفاصلَ غيرُ أَجنبي، بل جارٍ مجرى الاعتراض بل هذا أدقُّ التئامًا من الأول، والتشبيهُ فيه أكثرُ تفصيلا؛ لأنَّه حنئذٍ من تتمَّة الجملة السَّابقة داخلٌ في حيِّز المقُول مع مراعات الالتفات.

فالفاء في ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ رابطةٌ للوصْف بالحكم، جاعلةٌ تتمَّة الآية من جملة حال المشبَّه ومترتِّبة عليه، وكأنَّه قيل: قل الانفالُ استقرَّت لله مع كراهتكم، وكان خيرًا لكم؛ بمَا حَصَل لكم من تقْوى الله وطاعةِ الرسول وإصلاح ذات البين، كما استقرَّ إخراجي الى القتال مع كراهتكم إيَّاه، وكان خيرًا لكم؛ لِمَا نِلتُم من الفتح والغنيمة. فالاول: مركَّبٌ عقليٌّ يحصل من مجرَّدِ أخذِ الزبدة والخلاصة، والثاني: مركب وهميٌّ، لا بدَّ من تصوُّر جزئيَّات الكلام، لئلَّا يختَلَّ أمر التمثيل، فعلى هذا قوله: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ**﴾ استئنافٌ على الاسطراد؛ للحثِّ على طاعةِ الله وطاعةِ رسوله وقلْع الهوى الكامِن في النُّفوسِ والأبدان، بأنَّ المؤمنَ الكاملَ مَنْ يجعل هواهُ تبَعًا لما جاء به الرَّسولُ كما قال ع م: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ».[٤٩٥٥]

ثم في تقديم عجُزِ القصة- وهي ذكر قسمة الأنفال والسؤال فيها- على صدرها؛ وهو الخروج من المدينة إلى بدرٍ، إلى آخر هذه القصة الواردة في هذه السورة، استبعادٌ لكراهتهم هذه بعدما شاهدوا أمثالَ هذه الحالة، فكرهوها، ثمَّ تبيَّن لهم حقيقتُها، واستحضارٌ لمعنى التأديب في قوله: ﴿**لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ [الحجرات ١/٤٩]، ولَمَّا بيّن لهم من وجه الحكمة في قوله: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ**﴾ [الحجرات ٧/٤٩].

كأنَّ السورة من الفاتحة [**٢٥٦**/و] إلى الخاتمة جوابٌ عن سؤالٍ واحدٍ، وإرشادٌ للصحابة في تحرّي طاعة رسول الله وتوخِّي رضاه، وامتنانٌ عليهم بما منّ لهم مِنْ نعمة الصُحْبة، وإنْ شئْتَ فجرِّبْ ذَوْقَك في تكرير «إذ» في التَّفصيل الوارد في

[٤٩٥٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٣٠/٤.

[٤٩٥٤] **الكشاف** للزمخشري، ١٩١/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٣٠/٤.

[٤٩٥٥] **شرح السنة** للبغوي، ٢١٢/١-٢١٣؛ **مشكات المصابيح**، ٥٩/١ (١٦٧).

السورة وإيراد القَصَص من غير ترتيب، ثم في كُلٍ مِن تلك الإيرادات الرمز إلى المقصود، ثم في إدراج تقسيمِ المسؤولِ عنه في أثناء ذلك، يعني قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ [الأنفال، ٤١/٨] بيانٌ لكيفيَّةِ تصرُّف مَنْ وُكِلَ إليه أمرُ الغنائم.[٤٩٥٦]

وتخصيص هذا المشبَّه به بالذِّكر من بين سائر الأحكام الله لِمَا أنَّ القصة واحدةٌ، و وجه جعل الاخراج مشبّهًا به كونه أقوى في وجه الشّبه؛ لأنَّ مدارَ القصة عليه.

﴿مِن بَيْتِكَ﴾ من المدينة؛ لأنها مُهاجَرُهُ ومَسْكَنُه، فلها اختصاصٌ به اختصاصَ البيت بصاحِبه[٤٩٥٧]. وقال ع م: «إِذْ طَلَعَ لَهُ أُحُدٌ، هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ ، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ ، وَأَنِي حَرَّمْتُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا»،[٤٩٥٨] أو من بيتك فيها.

﴿بِٱلْحَقّ﴾ حالٌ من الكَاف، أي: ملتبسًا به، أو صفةُ مصدرٍ، أي: إخراجًا ملابسًا له؛ لأنَّه كان بأمر الله ووحي جبريل؛ لإعلاء دينه وإمضاء كلمته، وقهرِ أعدائه ونصر عبّاده، ومن ههنا يظهر وجهُ إسناد الإخراج إليه تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًامِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ حالٌ؛ أي: أخراجك في حال كراهتهم إخراجك طبعًا لا عقلًا وشرعًا.

وفيه دلالةٌ على أنَّها إنّما كانت من بعضهم.[٤٩٥٩]

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦)﴾

أي: في الجهَاد الذي هو الحقُّ؛ لأنَّ فيه إعلاءَ كلمة الله ونصرَة دينه بإيثارهم عليه تلقّى العير حيث آثرته عليه، وقولهم: ما كان خروجُنا إلّا للعير، وهلَّا قلتَ لنا لنَسْتَعدَّ ونتأهَّب؟[٤٩٦٠]

وقيل: في الحقِ الذي وجب عليهم، أو في الوعد الَّذي وعدهم الله من الظَّفرِ والغنيمة، وهو استئناف إخبار، أو حالٌ بعد حالٍ، أو من الضمير ﴿لَكَارِهُونَ﴾.

﴿بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ منصوبٌ بالجدال، و﴿مَا﴾ مصدريَّةٌ، أي: بعد تبيَّن الحقُّ ووضُوحِه، أو أنَّهم منصورون أيْنما توجَّهوا بإخبار الرَّسول الصَّادق، وفيه زيادةُ الإنكار للجدال، حيث وقع بعد اتضاح حقيقة الحال.

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إلى ٱلْمَوْتِ﴾ حالٌ من فاعل ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾، أو صفةُ مصدرٍ مقدرٍ منه؛ لأنَّ جِدالهم نشأ من الكراهة فكان بمعناه، أي: مُشْبِهين بمَن يُساق إلى الموت،[٤٩٦١] أو يكرهون القتال كراهة منْ يُساق، أو استئناف ببيان حالهم.

﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ حالٌ من ضمير ﴿يُسَاقُونَ﴾ شبَّه حالهم في شدَّة فزَعهم وفرْط رُعْبهم لنفرة الطبيعة أو لقلَّة العَدد و العُدد من الفرس والسلاح؛ إذْ رُوِي أنهم كانوا رجّالةً، وما كان فيهم إلَّا فارسان، مع أنهم يُسار بهم إلى الظفر والغنيمة بِحَال مَن يُساق بالذُلِّ والصِّغار إلى القتل المتيقّن، وهو شاهد أسبابه، ناظرٌ إليها.[٤٩٦٢]

[٤٩٥٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٩/٧-٢١.

[٤٩٥٧] **الكشاف** للزمخشري، ١٩١/٢.

[٤٩٥٨] **صحيح البخاري**، ١٠٣/٥ (٤٠٨٤)

[٤٩٥٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٣٠/٤.

[٤٩٦٠] **الكشاف** للزمخشري، ١٩١/٢.

[٤٩٦١] **تفسير ابن كمال باشا**،٢٣٢/٤.

[٤٩٦٢] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٣/٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٨/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**،٢٣٢/٤.

ففيه إشعارٌ بأنَّ الجدالَ كان للجُبْن والفَزَع لما ذكر؛ لأنَّ المعذرة به مع وعد النصرة لا موجب لها إلَّا ذلك، فمِنْ ههنا يتَّضح وجهُ تشبيه مجادلتهم تلك، وحالهُم منها بحال[٤٩٦٣] مَنْ ذَكَر.

وقيل: إنما جادلوه طلبًا للرُّخصة في الإنصراف لا ردًّا لأمرالله، ومع ذلك كان هذا من بعضهم، فأمَّا أكثرُهم فكانوا في أشدِّ رغبةٍ فيه على ما يدلُّ عليه القصَّة المذكورة في **الكشاف** فقوله فيها: «النَّجَاءَ النَّجَاء»[٤٩٦٤] مصدرٌ، أي: أسْرِعوا الإسراع، أو إغراءٌ، أي: الزَمُوا الإسراع.

«عيركم»:[٤٩٦٥] أي: الزَمُوا عيرَكم وبادِرُوهاواحفظوها. وتحليق الطائر: طيرانه في الهواء على استدارةٍ، وحلّق بها رماها إلى فوق كذلك، «النَّفِيرُ»: الجماعة ينفرون إلى أمرٍ وهم ههنا الذين خرجوا مع أبي جهلٍ لاستخلاص العير، وهى في الأصل: الإبل التي تحمل الميرة.

وأوَّل من قال: «لا في العير ولا في النَّفير» أبو سفيان حين انصرف بنو زُهرَة وعدلوا عن قريشٍ إلى مكَّةَ، يعني بالعِير: عيرَ قريشٍ التي أَقْبلَتْ مع أبي سفيانَ من الشَّام، وبالنَّفير: مَنْ خرج مع عتبة بن أبي ربيعة لاستنقاذها من أيد المسلمين، قال الأَصْمعيّ: «يضرب لمن يُحطُّ أمره ويُصَغَّر قدرُه».[٤٩٦٦]

وقيل: لمن لايصلح لمهمّ. «القَيْنَاتُ»:[٤٩٦٧] الْمُغَنِّيَات. «الْمَعَازِفُ»: آلاتُ الملاهي التي يُضرب بها، الواحد مِعْزَفٌ. «أعْضَضْناه»: جعلناه عاضًّا أناملَه من الغيظ والنَّدَم، وهذا تأدُّبٌ وإلا فمعناه: قلنا عَضَضْتَ بَظْرَ أمِّك، وعضضتَ أَيْرَ أبيك، وذلك من شتائم العرب، والمعنى: ألحقنا به الذّلَّ والمهانَة.

قالوا: «بل العير» هذا قول بعض أصحابه، وإن أسند إلى الجمع. «فأحسنا» الكلام، أي: أمالوه إلى المضي إلى العدوِّ. و«عَدَن أَبْيَنَ» قَصَبَةٌ بأقصى اليمن، وبعدها البحر، و أَبْيَن: اسم رجلٍ من حِمْير ينسب إلى عَدَنَ.

«يتخوّف أن لا تكون الأنصارُ لا ترى» أحد اللَّائين زائدةٌ. «لو استعرضتَ بنا هذا البَحر»،[٤٩٦٨] أي: طلبتَ أن نقطعه عرضًا في صحبتك، أو طلبت من البحر عرض هذا البحر ما عنده من الأمواج [**٢٥٦**/ظ] والأهوال ملتبسًا بنا. «وهو» أي: العباس في قيْدِهِ؛ لأنَّه أُسير وقيِّد بالوَثَاق. «لايصلح» هذا الرأي وهو التوجُّه إلى العير. «وكانت الكراهة» أي: كراهة ترك العير إلى النَّفير من بعض الصحابة، فلا يتوَهَّم قدحٌ في كبارهم، والرَّاسخين في متابعته ع م.[٤٩٦٩]

رُوِيَ أنَّ سعيدَ ابن خيثمة وأباه تنازَعَا في الخروج إلى القتال، وَكلُّ واحدٍ منهما يقول: أنا أخرج وتتخلَّفُ أنتَ، فقال سعدٌ: لو كان غير الجنة لَآثرتك؛ أني لَأرجو الشهادةَ في وجهي هذا، فقال خيثمة: آثِرْني فأقم، فأبى سعدٌ فقال خيثمة: إنَّه لا بدَّ لأحدٍ من أن يقيم، فاستهَما، فخرج سهم سعد، فنهض فاستشهد.[٤٩٧٠]

[٤٩٦٣] ج: وحالهم من الحال.

[٤٩٦٤] **الكشاف** للزمخشري، ١٩١/٢.

[٤٩٦٥] **الكشاف** للزمخشري، ١٩١/٢.

[٤٩٦٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٢٣/٧.

[٤٩٦٧] **الكشاف** للزمخشري، ١٩١/٢. (القَيْنَاتُ) جمع قيْنَة: وهي الأمة المغنّية.

[٤٩٦٨] **الكشاف** للزمخشري، ١٩١/٢.

[٤٩٦٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٢ظ-٣٧٣و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٦٩/٤-٧٠.

[٤٩٧٠] **المستدرك على الصحيحين** للحاكم، ٢٠٩/٣ (٤٨٦٦)؛ **التيسير في التفسير** لأبي حفص النسفي، ١٣٢/٧.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧)﴾

على إضمار «اذكر». وقرئ بإسكان الدَّال لتَوَالِي الحركات وثِقَل الضَّمَّة.[٤٩٧١] **﴿إِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ﴾** مفعول ثانٍ لـ**﴿يَعِدُ﴾**.

قيل: تقدير مضافٍ أي: مِلك إحداهما والتَّسلط عليهما؛ لأنَّ الوعد لا يقع على الأعيان إنَّما يقع على الأحداث.

وأنت خبيرٌ بانَّه لا احتياجَ إلى التَّقدير لكونه قولَه: **﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾** بدلًا منه بدلَ اشتمالٍ؛ لعدم الكليَّة والجزْئيَّة. **﴿وَتَوَدُّونَ﴾** وتحبُّون وتتمنَّون، وفي وضْع الودادة موضعَ الإرادة؛ حيث ذُكرت الارادةُ في مقابلة إشارة الى بطلان إرادتهم. وأنَّها ودادةٌ طبيعيةٌ، وإرادةٌ ميليَّةٌ.

﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾ أي: أَنَّ العير الذي ليس فيها شوكةٌ؛ إذ روي أنه لم يكن فيها إلا أربعون فارسًا، يكون لكم دون النَّفير لكون الشَّوكة فيها؛ لكثرة عَدَدهم وعُدَدهم ففي وضْع المذكور في النَّظم أن موضعَ العير إيماءٌ إلى جبنهم وحذرهم.

والشَّوكة: شدَّة البأس والحِدّ في السّلاح مستعارةٌ من واحدة الشوك. وقد شاك الرجلُ يشَاك شَوْكًا، أي: ظهرت شَوْكَتُه وحِدَّته، فهو شائكُ السّلاح وشاكى السلاح مقلوبٌ منه، ويقال: شوكُ القَنَا؛ لشَبَاها. ثم غلبت في كلّ مدّةٍ وحدةٍ.[٤٩٧٢]

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ﴾ أي: أن[٤٩٧٣] يثبتَه ويعليَه، وذلك يكون تارةً بإظهار الدَّلائل وتارةً بتقوية أهل الحقِ وقهر أهل الباطل، وذلك لأنَّ الحقَّ حقٌ لذاته لايحصل بجعل جاعلٍ فالمراد ما ذُكر، وكذا الكلام في إبطال الباطل. **﴿بِكَلِمَٰتِهِ﴾** يعني: أي: بآياته المنزَلة في مُحاربة ذات الشَّوكة، وبما أَمَرَ الملائكةَ من نُزولهم للنُّصرة، وبما قضى من أسْرهم وقتلهِم وطرْحهم في قَليبِ بدرٍ.[٤٩٧٤]

فإنَّ ما قضى وحكم مكتوبٌ في اللَّوح يصحُّ تفسيرُ الكلمات به، فهذا التفسير أولى من القصر على الأوَّلين على سبيل التَّرديد كما ذهب اليه قدس الله سرّه،[٤٩٧٥] ومن إيراد الجميع لكن بالتَّرديد بين الأوَّل وبين الأخيرين كما في تقرير ابن الكمال.[٤٩٧٦]

﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ والدَّابر: الآخِر، فاعلٌ مِن دَبَر: إذا أدبر، ومنه: دابرةُ الطائر. وهي: الظُّفْر النَّاتي خَلْفَ المِخْلَب[٤٩٧٧] كالإبهام للإنسان. فقطْعه: عبارةٌ عن الاستئصال، والمعنى: أنَّكم تريدون الفائدة العاجلة وسَفْسَاف الأمور، وأن لا تَلْقَوْا ما يَرزَؤكم في أبدانكم وأحوالكم والله يريد معاليَ الأمور، وما يرجع إلى عِمارة الدين، ونصرة الحقِ، وعلوّ الكلمة، والفوز

[٤٩٧١] قراءة شاذَة، مروية عن أبي زيد وسلمة بن محارب. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٢.

[٤٩٧٢] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٣/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٣٣/٤.

[٤٩٧٣] ج- أن.

[٤٩٧٤] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٣/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٣٣/٤.

[٤٩٧٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٨/٢-٩.

[٤٩٧٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٣٣/٤.

[٤٩٧٧] ظفر كلّ سَبُعٍ من الماشي والطائر.

بالدَّارين، وشتَّان ما بين الإرادتين وبعد ما المرادين. ولأجل تلك الإرادة العليّة والعناية الجليّة اختار لكم الطَّائفة ذات الشوكة، كَسَر قوّتَهم بضعفكم، وغَلَب كثرتهم بقلَّتكم، وأعزَّكم وأذلَّهم، وحصل لكم ما لا تعارض أدناه العير وما فيها.[٤٩٧٨]

وفيه زجرٌ شديدٌ لأرباب الهمّة الرّديّة والإرادة الدينية، وتنشيطٌ قويّ لأصحاب الغريمة القويَّة، والإرادة السويَّة، وتنبيهٌ على أنَّ الَّائق لأولى العناية الرَّبّانيَّة، والكفاية السبحانيّة، أن يقصدوا أعالي معالي الدرجات، وأفاضل فضائل القربات، وأن لا يميلوا إلى الراحات النّفسانيّة، والمهمّات البدنيّة الدنيويَّة، بل يكون جلُّ عزيمتهم، وكلُّ نيَّتهم على ترك الرَّاحات، واختيار الشدائد والمشقَّات، وسلوك سبيل المجاهدات؛ لإعلاء الدِّين، ونصرة المؤمنين، وقهر الضّالّين المضلّين، والارتقاء بذلك إلى مراتب اليقين، ودرجات دار المتَّقين.

وقد قال ع م: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَعالِيَ الأُمُورِ وَيَبْغُضُ سَفَاسِفَها».[٤٩٧٩]

وقال ع م: «علوّ الهمَّة من الإيمَان».[٤٩٨٠]

وقد قيل: بقدر الصَّدمات يصل إلى الدرجات، وبقدر المجاهدات يصل إلى المشاهدات.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨)﴾

اللَّام متعلقٌ بمحذوفٍ تقديره: ليحقَّ الحقَّ ويبطل الباطلَ فَعَل ذلك، ما فعله إلَّا لهما. وهو إثبات الإسلام وإظهاره، وإبطال الكفر ومحقُه.[٤٩٨١]

وقد يتوهَّم ههنا التَّكرار؛ بناءً على أنَّ جَعل حكم علَّة لفعل في قوة إرادته منه، فكأنَّه قال: أراد أن يحقَّ الحقَّ فلأجل ذلكفعل ما فعل من إثبات الإسلام وإبطال الكفر،وليس هذا بعد قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ﴾ بمنزلة قولك: أريدُ أنْ أُكْرِم زيدًا [**٢٥٧**/و] لإكرامه أنعمت عليه بما أنعمت، وجوابه أنَّ الأوَّل: لبيان الفرق بين الإرادتين؛ فإنَّه تع يريد إثباتَ الحقّ وما هو من معالي الأمور، وهم يريدون الفائدة العاجلة وما هو من سَفْسَافِها، والثاني: لبيان أنَّه لم يفعل ما فَعل من نُصرة المؤمنين وخذلان المشركين إلّا لهذا الغرض الصحيح، والحكمة البالغة، وهو إثبات الإسلام وإبطال الكفر.[٤٩٨٢]

وقال الفاضل: في تقرير المقام أنَّ نظيرَ الآيات قولُك: أردت أن تَفعل الباطل، وأردتُ أن أفعل الحقّ، ففعلتُ ما أردتُه لكذا، لا لمقتضى إرادتك، ولهذا أخَّر المحذوفَ ليفيدَ الاختصاصَ؛ لأنَّ المقامَ يقتضي نفيَ إرادتهم، وإثباتَ إرادته تعالى،[٤٩٨٣] وكان أصل الكلام: تودُّون أن العير تكون لكم، ويريد الله ملاقات النفير، ففعل الله ما أراده دونَ ما أردتم. فوضع ﴿أَن يُحِقَّ الحَقَّ﴾ موضعَ «ملاقات النفير» للدَّلالة على حصول الفوز في الدَّارين، و﴿لِيُحِقَّ﴾ إلى آخره، مع إرادة المحذوف متأخّرًا، موضع «ففعل الله ما أراده دونَ ما أردتم» للدَّلالة على تعظيمِ ذلك الفعل،[٤٩٨٤] وللتَّنبيه على أنَّ الحاصل به سيّد الحكم والمصالح ومعظمها.

[٤٩٧٨] **الكشاف** للزمخشري ، ١٩٣/٢.

[٤٩٧٩] **المعجم الأوسط** للطبراني، ٢١٠/٣ (٢٩٤٠).

[٤٩٨٠] **مرقات المفاتيح شرح مشكات المصابيح**، ١٥٧٣/٤.

[٤٩٨١] **الكشاف**، ١٩٣/٢-١٩٤.

[٤٩٨٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٣؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٧٤/٤.

[٤٩٨٣] **حاشية على الكشاف** لليمني، مكتبة سليمانية، نور عثمانية: ٥٦٣، ١٣٩و.

[٤٩٨٤] **فتوح الغيب**، ٣٠/٧-٣١.

وقيل: الأوَّل جزئيٌّ، أي: أنتم تريدون العير والله يريد النفير، والثَّاني: كلّيٌّ يشمل هذه القضيّة وغيرها من القضايا التي في ضمنها اعلاءُ كلمة الله وقمعُ كلمة الكفر، ولعلَّ ذلك حاصل ما ذكر أنّ الأوَّل تثبيت ما وعده في هذه الواقعة من الظَّفر بالأعداء، والثاني: إعلاءُ الإسلام ومحقُ الكفر.

﴿**وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ**﴾ أي: الكافرون والمشركون لقوله: ﴿**وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ**﴾، ﴿**وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ**﴾ إثبات الاسلام: وإظهاره، وإبطال الكفر وإفناؤه، والجملة في موض الحال.[٤٩٨٥]

﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩)**﴾

و﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ**﴾ بدلٌ من ﴿**إِذْ يَعِدُكُمْ**﴾: بأن يكون ﴿**إِذْ**﴾ عبارةً عن زمانٍ متَّسعٍ وقع الوعد في بعض أجزائه والاستغاثة في البعض، وبذلك سقط أيضا مناقشة اتّحاد البدل والمبدل منه ذاتًا، وهذا أبلغ؛ لتكرير التذكير لمزيد الامتنان والتعبير[٤٩٨٦] لِمَا وُجد منهم من الكراهة والخوف،[٤٩٨٧] أو متعلّق بقوله: ﴿**لِيُحِقَّ**﴾ وفيه: أنَّه مستقبل؛ لانتصابه بإضمار «أنْ»، والظرف لِمَا مضى، فكيف يعمل هو[٤٩٨٨] فيه،[٤٩٨٩] أو نصبٌ بإضمار «اذكروا»، فينقطع عمَّا قبله.

وهي: طلب الغوث والنّصرة، يقال: استغثتُه فأغاثني من الغوث، وأغاثني من الغيث، فيقع الفرق بينهما بالفعل، والفرق بينها[٤٩٩٠] وبين الاستجارة أنَّ الاوّل: طلب الظّفر، والثاني: طلب الخلاص، واستغاثتهم: أنَّهم لَمَّا علموا أن لا محيصَ من القتال أخذوا في التضرُّع ولابتهال.

أو أنَّه ع م:« لَمَّا نَظَرَ إِلَى كَثْرَةِ الْمُشْرِكِينَ وَ قِلَّةِ الْمُوَحِّدِينَ، اسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ دَاعِيًا، فَمَا زَالَ ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ فقال أَبُو بَكْرٍ: كَفَاكَ مُنَاشَدَتكَ رَبَّكَ ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ».[٤٩٩١]

فعلى هذا إنَّما جمع للتعظيم، أو لأنَّ تضرعَه لا يخ عن تضرُّع مَنْ معه عليه السلام، ووجهها مع سبق الوعد إظهارَ الاستكانة، والخوف من عدم رعايتهم شرائط العناية وتعليمَ الأمَّة وشهودَ الفاقة وعدم المشَبَّه والطَّاقة والتَّحقيق بانفراد الحقِّ بالقدرة على إزالة الشكاية وكونها منهم؛ لأنَّ الوجه الذي لأجله أقدم الرَّسول كان حاصلًا فيهم، بل خوفهم كان أشدَّ.[٤٩٩٢]

﴿**فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾

أغاثكم وأجابكم بسرعة مَنْ صدق لجائكم، وفيه تنبيهٌ على أنَّ من صدق فيه وفي الاستغاثة أُجيب في الوقت والاستجابة هي العطيَّة على موافقة المسئلة بـ﴿**أَنِّي مُمِدُّكُمْ**﴾، فحذف الجارّ وسُلِّط عليه الفعل، فمحله النَّصب على عدم الجارّ أو الجر على إرادته.[٤٩٩٣]

[٤٩٨٥] ج- الحال.

[٤٩٨٦] ج + والتعين.

[٤٩٨٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٠/٧-٣٢.

[٤٩٨٨] يعني: المستقبل.

[٤٩٨٩] يعني: الماضي.

[٤٩٩٠] يعني: الاتغاثة.

[٤٩٩١] **مسند أحمد**، ١/ ٢٥٣ (٢٠٨)؛ **صحيح مسلم**، ١٥٦/٥ (١٧٦٣)؛ **سنن الترمذي**، ٢٦٩/٥ (٣٠٨١).

[٤٩٩٢] **اللباب** لابن عادل، ٤٦٠/٩.

[٤٩٩٣] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٣/٢.

و«أَرْدَفَ» يتعدّى إلى اثنين، تقول: وأردفْتُه إياه: إذا أَتْبَعْتَه، وإلى واحدٍ تقول: أردفتُه، أي: اتَّبعْتُه. فقال المصنِّف: فلا يخلو المكسور الدال من أن يكون بمعنى: مُتْبعين، أو متَّبعين، فإن كان بمعنى «متبعين»: فلا يخ من أن يكون بمعنى: متبعين[٤٩٩٤] بعضَهم بعضًا، أو مُتْبعين بعضَهم لبعضٍ، أو بمعنى مُتْبعين إياهم المؤمنين، أي: يتقدَّمونهم فيُتْبعُونهم أنفسَهم،[٤٩٩٥] أو مُتَّبعين لهم يشيِّعونهم ويقدِّمونهم بين أيديهم وهم على ساقتِهم؛ ليكونوا على أعينهم وحفظهم، أو بمعنى: متْبِعين أنفسهم ملائكةً آخرين، أو متَّبعين غيرهم من الملائكة ويعضُد هذا الوجه قولُه: ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [سورة آل عمران ١٢٤/٣][٤٩٩٦] ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [سورة آل عمران ١٢٥/٣].

اعلم أنَّ حقَّ الكلام أنْ يقال: « فلا يخ المكسورُ الدال من أن يكون بمعنى: مُتْبعين بعضهم بعضًا، أو متَّبعين بعضهم لبعضٍ» إلى الآخر إلاّ أنّ الرِّواية على زيادة المتوسِّطة وهو ظاهر الاختلال؛ حيث لم يذكر لقوله: فإن كان بمعنى مُتْبعين ما يقابله، وأدرج معاني المقابل أعني: متَّبعين بالتَّشديد في جزاء الشرط الذي، فإن كان بمعنى: مُتْبعين بالتخفيف وغاية ما أنفق الناظرون عليه أنَّ في الكلام الذي [**٢٥٧**/ظ] في موقع اللَّفِّ حذفًا واختصارًا، أي: إن كان بمعنى متْبعين بالتخفيف، فكذا وإن كان متَّبعين بالتشديد فكذا ثقةً بالذّكر فما هو بمنزلة النّشر ونكتة الخلط الإشارة إلى أنَّ مآل اللغتين إلى واحدٍ وله بمحلٍّ آخر، وهو أنْ يجعل فوق متْبعين في قوله: فإن كان متْبعين كلمة معا لتعميم المخفّف والمشدّد أي: سواء كان بمعنى: متْبعين أو بمعنى: متَّبعين، فقوله: «إيَّاهم» أي: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ثاني المفعولين، وفاعل يتقدَّمونهم، ومفعول فيشيِّعونهم ضمير المؤمنين، والثلاثة الباقية ضمائر ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ومفعول يشيّعونهم ويقدِّمونهم ومجرور ساقتهم، ومرفوع ليكونوا للمؤمنين، والبواقي للملائكة.

وقوله: «ملائكةً آخرين»[٤٩٩٧] يحتمل أن يكون المفعول الثاني، فيكون الآخرون يأتون،[٤٩٩٨] وأن يكون الأوَّل فيكونون متبوعين فيوافق قوله: «أوْ متَّبعين غيرهم من الملائكة ويعضد هذا الوجه»[٤٩٩٩] أي: الوجه الأخير على اللّغتين قوله: «بثلثة آلافٍ» لدلالته على أنَّ الملائكة أكثرُ من ألفٍ.

فحاصل الوجوه التي ذكرها أنَّ المكسور الدَّال، إمّا بمعنى الإتباع أو الأتباع، وإمّا كان فإمّا أن يكون بالنِّسبة إليهم بعضهم إلى بعضٍ، أو بالنسبة إلى المؤمنين، أو بالنسبة إلى الملائكة الآخرين، وإمّا أنَّ مآل المعنى في اللُّغتين إلى واحدٍ فلأنَّ جعل الملائكة بعضًا منهم تابعًا لبعضٍ، واتباع بعضهم لبعضٍ متلازمان، وكذلك إذا تقدَّمهم المؤمنون فيجعلون أنفسهم تابعةً للمؤمنين، أو تقدَّم المؤمنون الملائكة ويشيّعهم الملائكة؛ ليكون المؤمنون على أعينهم، فلا يخ أحد القسمين عن الآخر، وهكذا المعنى الثالث، وإنّما الفرق بينه وبين الثاني: أنه وارد في اتِّباع أنفسهم المؤمنين، وذلك في اتِّباع أنفسهم الملائكة الآخرين.

وقرأ نافع ويعقوب[٥٠٠٠] بفتح الدّال، فإن كان مفعولًا من المتعدي إلى واحدٍ، فمعناه: متَّبعين بكونهم مقدمة الجيش، وإن كان من المتعدي إلى اثنين فمعناه: متْبعين بكونهم ساقةً، وفيه تطابق تفسير المفتوحة لتفسير المشهورة.

[٤٩٩٤] ج – متبعين.

[٤٩٩٥] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٤/٧.

[٤٩٩٦] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٣/٢.

[٤٩٩٧] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٥/٢.

[٤٩٩٨] ج: تابعين.

[٤٩٩٩] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٥/٢.

[٥٠٠٠] ﴿مُرْدَفِينَ﴾. **النشر** لابن الجزري، ٢٠٧/٢.

وقرئ: «مردِّفين»[٥٠٠١] على ما قرَّره العلّامتان[٥٠٠٢]ولكن لم يذكرا فتح الرّاء على الفاء حركة التّاء عليها، ولعلّه لم يطّلعها على القراءة به، فان كان من اللّازم، فالمعنى: مترادفين وإن من المتعدي إلى واحدٍ فمتْبعين.

وقرِئ: «بآلَافٍ»[٥٠٠٣] ليوافق ما في آل عمران، فموضعه خبر على النعت، ويجوز على فتح الدَّال الحالية أيضًا من المنصوب في ﴿**مُمِدُّكُمْ**﴾ فإنَّه منصوب في المعنى؛ لأنَّ اسم الفاعل بمعنى الاستقبال.

﴿**وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)**﴾

أرجع المصنِّف الضَّمير إلى ﴿**أَنِّي مُمِدُّكُمْ**﴾ وإنْ قُرِئَ بالكسر؛ لأنّه مقول القول المضمر فهو في معنى القول، ولَعلَّ السّر فيه حمل البِشارة على الحقيقة، فإنها الخبر السّارّ، أو دفع عدم منافاة نزول الملائكة للقتال وإنْ أرجع الى الإمداد على ما ذكره أيضًا، وذكره قدّس سرّه: فحسب، فيفيد بظاهره أنَّهم لم يكونوا نازلين للقتال، ويحمل البِشارة على الفعل السَّارّ؛ تشبيهًا له بالخبر السَّار واستفادة إياه له، وحذف «لكم» ههنا دون ما في «سورة آل عمران»؛[٥٠٠٤] لأنَّ المخاطبين معلومون في قوله: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَكُمْ**﴾.

﴿**وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ**﴾ عطفٌ على﴿**بُشْرَى**﴾ بتقدير طمأنينة أو ليبشِّركم فيجعلان فعلين أو مصدرين ليتَّفقا، وقدَّم قلوبكم وأخَّر في «آل عمران» إزدواجًا بين المخاطبين وعكس ههنا ازدواجًا بين الغائبين.

﴿**وَمَاٱلنَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِٱللَّهِ**﴾ «يريد: ولا تحسبوا النّصر من الملائكة، فإنَّ النَّاصر هو الله لكم وللملائكة، أو: ﴿**وَمَاٱلنَّصْرُ**﴾ بالملائكة وغيرهم من الأسباب ﴿**إلا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ**﴾، والمنصور: منْ نصره الله».[٥٠٠٥]

فعلى الأوَّل: النَّصر مقيَّدٌ بالملائكة بقرائن المقام، والجملة داخلةٌ تحت الحِسبان، نزلهم لاعتمادهم على نصرة الملائكة منزلةَ من يزعم أنَّ الملائكة هم النَّاصرون، فقَصَرَ الحكمَ على أَّن فاعلَ النصر هو الله على القلب، وعلى الثَّاني: النَّصر مطلق شائعٌ في جِنْسه، ولذلك قدّر: «وغيرِهم من الأسبابِ» والقصر إفرادي؛ لأنه نَفى زعمَ الفرق بين المؤثِّر المشاهَد، وأنَّ بعضه مستقلٌّ وبعضه سببٌ، فقَصر الحكمَ على أنَّ الكلَّ أسبابٌ لافرق بينها.[٥٠٠٦]

وقيل: في الأوَّل إزالة وهم المخاطبين، وفي الثاني إفادة أنَّ النَّصر ليس إلا من الله، سواءٌ كان هناك أسبابٌ و وَسَائط أو لم يكن، والمنصور مَنْ نصره الله، وإلى هذا الأخير يميل قوله قدَّس الله سرَّه حيث قال: «وما النّصر إلاّ منه وإمداد الملائكة وكثرة العدد والأُهَب ونحوهما وسائطُ لا تأثير لها ولا تحسبوا النّصر منها ولا تيأسوا منه بفقدانها».[٥٠٠٧]

واختلف في مقاتلتهم فقال قومٌ: نزل جبرائيل في خمسمائة ملك على الْمَيمنة، وفيها أبو بكر، وميكائيل في خمسمائة ملكٍ على الْمَيسرة، وفيها علي بن أبي طالب في صورة الرجال عليهم ثياب بيض فقاتلوا.[٥٠٠٨]

[٥٠٠١] قراءة شاذَة، مروية عن خليل بن أحمد. **المحتسب** لابن جني ٢٧٣/١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٢.

[٥٠٠٢] العلامتان: الزمخشري والبيضاوي.

[٥٠٠٣] قراءة شاذَة، مروية عن الجحدري وأبي البرهسم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٢.

[٥٠٠٤] آل عمران ١٢٦/٣.

[٥٠٠٥] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٥/٢.

[٥٠٠٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٣٨/٧.

[٥٠٠٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٠/٢.

[٥٠٠٨] **تفسير غرائب القرآن و رغائب الفرقان** للنيسابوري، ٣٧٨/٣.

وقيل: قاتلوا يوم بدْرٍ [**٢٥٨**/و] ولم يقاتلوا يوم الأحزاب، ويوم حنينٍ.[٥٠٠٩]

وقال آخرون لم يُقاتلُوا في شيءٍ من معارك القتال، وإنّما كانوا يكثرون السَّواد ويثبتون المؤمنين، وذلك قوله: ﴿**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [الأعراف ١٢/٧] ولو نزلوا للقتال لَكان الملك الواحد كافيًا في إهلاك أهل الدنيا كلّهم؛ فإنَّ جبريل أهلكَ بريشةٍ من جناحه مدائنَ قوم لوطٍ، وأهلك بلادَ ثمود، وقوم صالح بصيحة واحدة.

روي أنّه ع م: أخذ كفًّا من الحصى فرمى المشركين بها فقال: «شاهتِ الوُجوه، اللّهمّ أَرعِب قلوبَهم وزَلزِلْ أقدامَهُم»، فانهزم أعداء الله لا يلوون على شيء، والمسلمون يأسرون ويقتلون.[٥٠١٠]

ثُمَّ إنّ قصّة بدرٍ سابقة على قصة أحدٍ، فقيل في «الأنفال»: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [الأعراف ١٢/٧]؛ ليستقر الخبر، وفي آل عمران صفة؛ لأنَّ الخبر قد سبق. ومن آثار عزّته ما وقع في ذلك اليوم من النُّصرة والغلبة، ومن آثار حكمته ما وقع سببه من إعلاء الدّين ونصرة المسلمين.

وعن بعض العارفين: «بيّن الله آثار النُّصرة، وبدو السَّلامة، فمن لم يطلب النصرة والسلامة فمن بالذلّة والافتقار لا ينالها؛ لأنَّ طلب النُّصرة بالقوَّة والقدرة منازعة للربوبيّة، ومن نازع المولى قهره. فتعزَّز بعزته فى نصرة أوليائه عند تبرّيهم من حولهم وقوّتهم».[٥٠١١]

﴿**إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١)**﴾

﴿**إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ**﴾ بدل من ﴿**إِذْ يَعِدُكُمُ**﴾ لإظهار منّة ثالثة، أو متعلّق بـ﴿**النَّصْرُ**﴾ وفيه إعمال المصدر المعرّف، وفيه خلاف وفصل بينه وبين معموله بالخبر، وإعمال ما قبل «إلّا» فيما بعدها، في غير الصّوَر الجائزة بأن يكون مستثنى، أو مستثنى منه أو صفة له، أو بما في عند الله من معنى الفعل. وفيه لزوم كون استقرار النَّصر مقيّدا بهذا الظَّرف، وهو منه تعالى لايتقيَّد بوقتٍ وقد يجاب بأنَّ المراد بهذا النصر الخاصّ المقيَّد به، أو مقدَّر بـ«اذكر».

قرأ ابنُ كثير، وأبو عمرو بفتح الياء وسكون الغين ورفع ﴿**النُّعَاسَ**﴾ على الفاعليَّة.[٥٠١٢] ونافع بضمِّ الياءِ وسكون الغين وكسر الشِّين ونصب ﴿**النُّعَاسَ**﴾.[٥٠١٣] والباقون بضم الياء وبفتح الغين وتشديد الشّين المكسورة ونصب ﴿**النُّعَاسَ**﴾، والفاعل على الأخيرتين ضمير الباري[٥٠١٤] و﴿**النُّعَاسَ**﴾ فيهما مفعول به.

و﴿**أَمَنَةً**﴾ نصب على أنّه مفعول له ولَمَّا ورد وعدم اتحاد الفاعل؛ لأنَّ التغشية والإغشاء فعل الله والأمنة فعل المخاطبين؟ أجيب بأنَّه متَّحد معنى؛ لأنّه في قوله: إذ تنعسون أمنة والأمن فعل الناعس ولا حاجة إلى تقدير ذلك في النّظم كما

[٥٠٠٩] **اللباب** لابن عادل، ٤٦٤/٩.

[٥٠١٠] **التيسير في التفسير**، لأبي حفص النسفي، ١٤٥/٧.

[٥٠١١] **عرائس البيان** للبقلي، ٥١٥/١.

[٥٠١٢] أي: ﴿يغْشاكُمُ النُّعَاسُ﴾. النشر لابن الجزري، ٢٠٧/٢.

[٥٠١٣] أي: ﴿يُغْشِيكُمُ النُّعَاسُ﴾. النشر لابن الجزري، ٢٠٧/٢.

[٥٠١٤] **التيسير** للداني، ص ٣٦٧؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٦٦/٩.

فيهم من تعبير المصنّف، أو يجعلها مصدر آمنة ضد خوفه على الأخيرتين، لكنّه بعيد في اللغة؛ لأنّ المشهور: أَمِنَ يَأْمَنُ أَمْنًا وأَمَانًا وأَمَنَةً، وبوجه ثالث مختصّ بقراءة ابن كثير.[٥٠١٥]

وهو أن تجعل الأَمَنَة فعلَ النعاس على الإسناد المجازي؛ لكونه من ملابسات أصحاب الأمن، أو على تشبيه حاله بحال شخصٍ مشابه الأمن والخوف، وأنّه حصل له من الله الأَمَنَة من الكفّار في مثل ذلك الوقت المخوف؛ فلأجل ذلك غشيّهم وأتاهم، فيكون الكلام تمثيلًا وتخْييلًا للمقصود بإبراز المعقول في صورة المحسوس.[٥٠١٦]

أو على تشبيهه بشخصٍ طالبٍ للأمْن، ثم خَيَّلَ أنّه إنسانٌ بعينه، حيث أَثبت له على سبيل الاستعارة التَخْييليَّة الأَمَنَةَ التي هي من لوازم المشبَّه به، وجعل نسبتَها إليه قرينةً مانعةً من إرادة الحقيقة، ففيه إغراقٌ في الوصف؛ لأنّه جعل ﴿**النُّعَاسَ**﴾ الذي هو سببٌ للأمن بسبب غِشيانه إياهم مُلتَمسًا للأمن منهم.[٥٠١٧]

ولا يخفى عليك أنّ الظّاهر أمنة النعاس من الكفّار كما في الوجه السّابق لا أمنته الملتمسة من أصحابه، ونظير هذا التّمثيل والتّخييل قول من قال:

يَهَـابُ النَّـوْمُ أنْ يَغْشَـى عُيُـونا تَهَابُـكَ فَهُـوَ نَفَّـارٌ شَـرُودُ[٥٠١٨]

يعني: أنّ النّوم يهاب أن يغشى عيون أعدائك ومخالفتك، فإنّهم لا ينامون من خوفك، وقوله: «تَهَابُكَ»: صفة «عُيُونًا»، و«نَفّارٌ»: مبالغةُ «نافر»، و«شَرُودُ»: فَعُولٌ بمعنى فاعل، من شَرَدَ البعيرُ إذا نفر، وفي البيت مبالغة حسنة.

وقرئ «أَمْنَةً»[٥٠١٩] بسكون الميم كـ«رَحْمَة»، كما قرئ: «أَمَنَةً» بفتح الميم مثل: «حيي حيَاةً»: أصله: حَيَيَةً، قلبت الياء الثانية ألفًا.[٥٠٢٠]

﴿**مِنْهُ**﴾ صفة لها والضّمير إلى الله، ثمّ إنّ كلّ نعاسٍ لا يحصل إلى من قبله تعالى، فتخصيص هذا النّعاس بأنّه ﴿**مِنْهُ**﴾ للإشارة إلى تفخيم هذا النّعاس وانطوائه على ما لا يوجد في سائر آحاد جنّته؛ لأنّ الخائف من العدوّ لا يأخذه نوم، فحصول النوم لهم في وقتِ الخوف الشّديد دليلٌ على زوال الخوف عنهم، وحصول الطمأنينة لهم كما قال ابن عباس: «النعاسُ في القتالِ أمنةٌ من الله، وفي الصلاة وسوسةٌ من الشّيطان»؛[٥٠٢١] ولأنّ ذلك النُّعاس لو لم يحصل لهم لَما تمكّنوا من القتال في اليوم الثاني، ولَمّا تمّ الظّفر لهم ولأنّهم ما ناموا نومًا غرقًا بحيث تمكّن العدوّ من أخذهم على غِرّة، بل كان ذلك نعاسًا، فحصل لهم زوال الكلال والإعياء مع أنّهم كانوا، بحيث لو قصدهم العدوّ [**٢٥٨**/ظ] لَعرفوا وصوله ولَقدروا على دفعه، ولأنّ هذا النّعاس غشيهم دفعةً واحدةً مع كثرتهم، وحصول النّعاس دفعة للجمع العظيم في الخوف الشّديد أمر خارق للعادة، فلذلك كان في حكم الإعجاز.

[٥٠١٥] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤/ ٣٦٩.

[٥٠١٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٤و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٧٩/٤.

[٥٠١٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٠/٧.

[٥٠١٨] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٦/٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤١/٧-٤٠؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٦٧/٩؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٣٨/٤.

[٥٠١٩] قراءة شاذّة، مروية عن ابن محيص. **المحتسب** لابن جني ٢٧٣/١؛ **شواذ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٣.

[٥٠٢٠] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٥/٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤١/٧-٤٠؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٦٧/٩.

[٥٠٢١] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٥/٢؛ **البحر المحيط** لابي حيان، ٤٦٢/٤.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾

وقرئ: «مَا لِيُطَهِّرَكُم بِهِ».[٥٠٢٢] قال ابن جنّي: «ما» موصولة، وصلتها حرفُ الجرّ بما جرّه، فكأنّه قال: ما لِلطُّهور.[٥٠٢٣] أي: ما استقرّ وحصل للتطهير؛ لأنّه المصدر الحاصل من «أَنْ يُطَهِّرَكم» إلّا أنه أقام الطّهور مُقامه؛ لكونه اسمًا لما يتطهّر به؛ فالوجه على هذا فتح الطّاء.[٥٠٢٤]

وقيل: فاللّام التي في المشهورة، هي اللّام في قولك: زرتُك لتكرمَني، وفي الشاذّة فمتعلّقة بمحذوفٍ، كقولك: دفعت المال الذي له، أي: استقرّ وثبت له، وفيها ضمير لتعلُّقها بالمحذوف، ومعنى القراءتين يرجع إلى واحد، والمشهور أفصح لتصريح التعليل فيها.[٥٠٢٥] أي: ﴿**لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ**﴾ من الحدث والجنابة.[٥٠٢٦]

﴿**وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَانِ**﴾ يعني: الجنابة؛ لأنّها من تخييله. ولا تكرار؛ لأنّ الأوّل عام أو أثرها كإزالة المنيّ، ففيه دلالة على نجاسته أو وسوسته اياكم بأنّكم تصلّون على الجنابة وتدعون أنّكم أولياءُ الله، أو تخويفه إيّاكم من العطش وسوء الحال.

وسمّي الوسواس رجزًا؛ لأنه سبب الرّجز. وقرئ بالسين[٥٠٢٧] وهو القذر فجعل ما يفضي إلى الفوات رجسًا لقذارته.

﴿**وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ**﴾ سبب نزول المطر بالوثوق على لطف الله بكم، والتّمكن من الصّبر والجرأة واليقين وعدم اضطرابها بوسوسة الشيطان.

وأصل الرَّبط أشدّ، فكلُّ مَن صبر على أمر: فكأنَّه رَبط قلبَه عليه؛ لئلا يضطربَ و«على» صلة له، وعُدِّي به؛ لإفادة زيادة التمكين والاستعلاء، فكان الوثوق والصَّبر استعلى عليها وثبت فيها.

وقيل: هى صلة، أي: ليربط قلوبكم.

﴿**وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ**﴾ في مواقف الالتقاء للقتال. والضّمير في ﴿**بِهِ**﴾ للرّبط، فإنّ القلب إذا قوِيَ باليقين والوثوق بالله ثبت القدم في المعركة. وقيل: للمطر؛ فإنَّ به يتلبَّد الرَّمل فلا تسوخ القدم فيه.[٥٠٢٨] لكن حينئذ لا بدَّ من ذكر وجه إعادة الجارِّ والمجرور في هذه المرتبة دون الأوليين، ولعلّ ذلك لطول الكلام ولكونه تمام النّظام ولغاية الإهتمام، انظر إلى فصاحة مجيء هذه التعليلات بَدَأَ أوّلًا منها بالتّعليل الظاهر، وهو يُطَهِّرَكُم من الجنابة، وهو فعلٌ جسمانيٌّ أعني: اغتسالهم من الجنابة، وعطف عليه بغير لام العلّة ما هو من لازم التّطهير، وهو إذهاب رجز الشيطان حيث وسوس إليهم بكونهم يصلّون ولم يغتسلوا من الجنابة، ثُمَّ عطف بلام العلَّة ما ليس بفعلٍ جسمانيٍ وهو فعلٌ محلّه القلبُ، وهو التّشجع والإطمئنان والصّبر على اللّقاء، وعطف عليه بغير لام العلَّة ما هو من لازمه، وهو كونهم لا يفرّون عند الحرب فحين ذكر التّعليل الظّاهر الجسماني، والتّعليل الباطن القلبي، ظهر

[٥٠٢٢] قراءة شاذّة، مروية عن الشعبي. **المحتسب** لابن جني ٢٧٤/١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٣.

[٥٠٢٣] **المحتسب** لابن جني ٢٧٤/١؛ **الكشاف** للزمخشري، ١٩٥/٢.

[٥٠٢٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٤و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٨٠/٤.

[٥٠٢٥] **المحتسب** لا ابن جني، ٢٧٤/١؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٢/٧.

[٥٠٢٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٠/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٣٨/٤.

[٥٠٢٧] أي: «رِجْسَ الشَيْطَان» قراءة شاذّة، مروية عن أبي العالية. **المحتسب** لابن جني ٢٧٤/١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٣.

[٥٠٢٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٣٩/٤.

حرف التّعليل وحين ذكر لازمها لم يذكر بلام التّعليل، وبدأ أوّلًا بالتّطهير؛ لأنّه إلا كدّ وإلا سبق والذي يُؤدِّي به أفضلَ العبادات ومجيء به القلوب، ومن ههنا يظهر قوة إرجاع الضمير إلى الرّبط؛ إذ على إرجاعه إلى المطر لايكون الثُّبوت من لوازم الرّبط، فحقّه أن يعاد فيه أداة التعليل اللّهم إلا أن يقال: لما لم يعد فيها كان لازم الأوّل لم يعد ههنا موافقة للنّظم وفيه بعد.

وقيل: الأولى: لتطهير الظ، والثاني: لتطهير الباطن، والثّالث: للشّجاعة الباطنة، والرابع: للشّجاعة الظّاهرة.

وعن بعض العارفين: ماء اليقين إذا نزل على الأسرار، أسقط عنها[٥٠٢٩] الاختلاج والشكّ. وأيضًا: ربط على قلوب أوليائه؛ لتلقى البلاء بأسلحة الصَّبر، وربط على قلوب العارفين، لثبات الأسرار في مشاهدة ما يبدو لهم من الغيوب، ويثبّت أقدام أهل الاستقامة، فاستقاموا في جميع الاحوال، وأيضًا: قلبٌ مربوط بالأكوان، وقلبٌ مربوط بالأسامى والصِّفات، وقلبٌ مربوط بالحقِ.[٥٠٣٠]

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢)﴾

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ﴾ بدلٌ ثالث أو متعلقٌ بـ**﴿وَيُثَبِّتَ﴾** على عوْد الضمير في **﴿بِهِ﴾** إلى الرّبط لا على عوْده الى الماء؛ فإنّ إنزالَ المطر وما تعلّق به من تعليلاته متقدّم على التّغشية والإيحاء كان وقت القتال **﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾** في إعانتكم المؤمنين، وليس المعنى إزالة الخوف كما في: **﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾** [العنكبوت ٣٣/٢٩]؛ لأنَّ الملائكة ما كانوا خائفين من الكفّار، وأصله: بأنّي فحذف الجارّ وأوصل الفعل وهو مفعوله.

وقرئ: بالكسر[٥٠٣١]على إرادة القول أو على إجراء الوحي مُجراه. اعلم انه يحتمل أن يكون **﴿سَأُلْقِى﴾** تفسيرًا لقوله: **﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾** إذ لا معونةَ أعظمُ من إلقاء الرُّعب في قلوب الكفرة، وقوله: **﴿فَاْضْرِبُواْ﴾** تفسيرًا لقوله: **﴿فَثَبِّتُوا﴾** إذ لاتثبيتَ أبلغُ من ضرب أعناقهم، واجتماعهما غاية النّصرة.[٥٠٣٢]

ففسَّر الخبرية بالخبرية، والإنشائيّة بالإنشائية؛ فلذلك لم يعطف قوله: **﴿سَأُلْقِي﴾** على ما قبله، وأن يكون غيرَ تفسيرٍ ففيه [**٢٥٩**/و] احتمالان، أحدهما: أن يفسّر التثبيت بإخطار مقوّيات ثبات المؤمنين، وإظهار ما يتيقّنون به الإمداد بالملائكة.[٥٠٣٣]كما روي: أنَّ الملك يتشبّه بالرجل الذي يعرفون وجهَه فيأتي، فيقول: إني سمعت المشركين يقولون: والله لئن حملوا علينا لننكشفنّ، ويمشي بين الصَّفَّين فيقول: أبشروا، فإن الله ناصرُكم لأنّكم تعبدونه وهؤلاء لا يعبدونه.[٥٠٣٤]

فيكون قوله: **﴿سَأُلْقِي﴾** جملة استانافية جارية مجرى التعليل؛ لإفادة التثبيت بأنّه مصدِّقة و مبيِّنة؛ لإعانته إيّاهم على التثبيت، وليس رجوعًا إلى الأوّل، فإنَّ في هذا الوجه نفى أن يكون المجموع تفسيرًا، وفي الأوّل المجموع تفسير؛ فإنَّ في الثاني قوله: **﴿فَاضْرِبُوا﴾** ليس من التفسير في شيءٍ وقوله: **﴿سَأُلْقِي﴾** مدْمَجٌ فيه التفسير، لكن الغرض من سوقه ما يقوم.

[٥٠٢٩] ج: سقط عنه.

[٥٠٣٠] **عرائس البيان** للبقلي، ٥١٧/١.

[٥٠٣١] أي: «إنِّي». قراءة شاذَّة، مروية عن عيسى الثقفي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٣.

[٥٠٣٢] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٧/٢.

[٥٠٣٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٤و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٨١/٤.

[٥٠٣٤] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٨/٢.

فقوله: ﴿فَاضْرِبُوا﴾ جملة مستعقبة على هذا؛ للتثبيت بمعنى: لا تقتصروا على التثبيت وأمِدّوهم بالقتال عقيبه من غير تراخ، وكان المعنى: «أنّي معكم فيما آمركم به فثبّتوا واضربوا. وجيء بالفاء للدلالة على الاستعقاب، ووسّط ﴿سَأُلْقِي﴾ تصديقًا للتثبيت وتمهيدًا للأمر بعده، وثانيهما: أن يكون ﴿سَأُلْقِي﴾ تلقينًا، على إضمار القول على أنه تفسير للتثبيت، أو استئناف على طريق السؤال والجواب، كأنّه قال: قولوا لهم قولي هذا، أو كأنَّهم قالوا: كيف نثبّتهم؟ فقيل: قولوا لهم قولي: ﴿سَأُلْقِي﴾.

فالخطاب في ﴿فَاضْرِبُوا﴾ للمؤمنين ح صادرًا من الملائكة حكاه الله لنا، ويحتمل أن يكون ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ﴾ خطابًا للملائكة، والباقي خطابٌ للمؤمنين على تفسير الخطاب، وإمّا ما قيل: خطاب قوله: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ للمؤمنين على أنَّ المراد أنَّه تعالى: «أَوْحى إلى الملائكة أنّي مع المؤمنين فانصروهم وثبّتوهم»، وتأييد ذلك بانّ أني مع فلان إنّما يقال: إذا كان الفلان خائفًا ويُقصد به إزالة خوفه، والملائكة ما كانوا يخافون الكفّار حتى يقال لهم: أني معكم إزالةً لخوفهم، وإنّما الخائف منهم هم المسلمون، فينبغي أن يكون الخطاب فيه مع المؤمنين على تفسير الخطاب بأن انتقل من خطاب الملائكة إلى خطاب المؤمنين بناء على أنّه لا غائب بالنسبة إليه تعالى فيخاطب من شاء من عباده، ففيه أي: في جعل خطابٍ أنّي معكم للمؤمنين نبوة عن قوله: ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ﴾، ثمّ إنّ بعض الوجوه المذكورة يقتضي أن يقاتل الملائكة مع الكفّار، وبعضها لا يقتضي ذلك فالدِّرايتان مبتنيتان على الروايتين؛ إذ روي أنّهم قاتلوا مع الكفار، وروي أنهم ما قاتلوا على ما مرّ بيانه.

والرُّعب: الخوف الذي يملأ القلب، من قولهم: رَعَبَ السَّيل الواديَ إذا ملأه، أو يقطع القلب من ترعيب السَّنام وهو تقطيعه.[٥٠٣٥]

﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ لا كلام في أنَّ ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ ظرف، لا مفعول به إلاّ أنَّ الضّرب فوق الأعناق يحتمل أن يراد به ضرب الأعالي التي هي المكان الفوق من الأعناق وهي المذابح وأن يراد ضرب الرؤوس الموضوعة فوق الأعناق.

وقيل: على الأوّل مفعول به على السعة؛ لأنّه قد استعمل اسمًا بشهادة قوله: ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف ٤١/٧]، وعلى الثاني ظرف والمفعول به محذوف، أي: الرؤوس فوقها.

وقيل: الوجه كونه مفعولًا به على إقامة الصفة مقام الموصوف، أي: مكانًا فوقها. يعضده قول المبرّد فوق يدلّ على إباحة ضرب وجوههم؛ لأنّها فوقها، واستشهد على الثاني بقوله:

وَأَضْـرِبُ هَامَّـة الْبَطَـلِ الْمُشِـيحِ[٥٠٣٦]

«الهام»: وسط الرأس، و«المشِيحُ» -بالحاء المهملة-: المجدّ المسرع، ورجل مشيح: حذِرٌ، وأشاح الرجل: إذا جدّ في القتال.

وبقوله:

غَشَّـيْتُهُ وَهْـوَ فِي جَـأْوَاءَ بَاسِـلَة ... عَضْـبًا أَصَـابَ سَـوَاءَ الـرَّأْسِ فَانْفَلَقَـا[٥٠٣٧]

[٥٠٣٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٤٠/٤.

[٥٠٣٦] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٨/٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٢/٧.

[٥٠٣٧] **الحماسة** لأبي تمام، ص ١٥؛ **الكشاف** للزمخشري، ١٩٨/٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٢/٧؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٦٧/٩.

أي: في كسيةٍ سوداء من كثرة السلاح، والجأدة: سواد الحديد، والبسالة: الشّجاعة، والعَضْب: السَّيف القاطع، والسَّواء: الوسط، يقول: رُبّ فارسٍ صفته كيتَ وكيتَ، أنا ضربته وهو في جيش تام السلاح، بسيفٍ قاطعٍ نال وَسَط رأسه، فشقَّه.[٥٠٣٨]

و﴿مِنۡهُمۡ﴾ متعلّق بقوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ﴾، أو بمحذوفٍ على أنّه حالٌ متقدمة من قوله: ﴿كُلَّ بَنَانٖ﴾. والبنان: الأصابع، واحدها بَنَانةٌ، وهي جمع التكثير، وجمع القلة بناناتٌ، واشتقاقها من أبنَّ بالمكان، إذا قام به. وقيل: من أبنّت السحابة إبنانًا، إذا لزمت، سمّيت بذلك؛ لأنّ بها صلاح الأحوال الإنسان التي يريد أن يقيمها، أو التي بها يمكن للإنسان أن يُبنَّ أي: يقيم، أو التي يلزم بها ما يقبص عليه، ومن ههنا ظهر وجه التخصيص في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾[القيامة، ٧٥/٤] وههنا لأجل أنّهم بها يقاتلون ويدافعون، فالأوّل: إشارة إلى القتل، والثاني: إلى إفناء آلة المحاربة.

والمصنّف جعلها عبارة عن الأطراف عمومًا، أي: فاضربوا المقاتل والشَّوى؛ لأنه إمَّا واقعٌ على مقتل أو غير مقتل، فأمرهم بأن يجمعوا عليهم النَّوعَين معًا.[٥٠٣٩]

وفائدته: الضَّرب المتواتر بلا تحاشٍ.[٥٠٤٠] وقريبٌ منه ما قيل: ما فوق العنق [**٢٥٩**/ظ] هو الرأس، وهو أشرف الأعضاء والبنان عبارةٌ عن أضعفها، فذكرهما تنبيه على كلّها كذا قيل: لكنّ الظاهر أنّهما مستقلان كما لا يخفى.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣)﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الضّرب أو الأمر به، والخطاب لرسول الله، أو لكلّ أحدٍ من المخاطبين.[٥٠٤١] خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر ذلك، أو مبتدأ خبره: ﴿بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: بسبب مشاقّتهم لهما، ومخالفتهم، وعدم طاعتهم. «والشِّقاق، والمشاقّة»: الخلاف والعداوة، واشتقاقه من الشّقّ؛ لأنّ كلًّا من المعاندين[٥٠٤٢] في شقّ خلاف شقّ صاحبه. كالمعاداة من العدوة؛ لأنّ هذا في عدوة، وذاك في عدوة.[٥٠٤٣]

و«العدوة»- بضم العين وكسرها-: جانب الوادي وحافّته، والجمع: عِداء، مثل: بُرْمَة وبِرام، والمخاصمة من الخصْم، وهو الجانب، وقولهم: ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ [ص ٢٢/٣٨] لا تُبعد، وهو من الشّطّ، أي: الجانب، فمعناه: أخذ جانب الشّيء وترك وسطه وأقربه، كما قيل: تجاوز، من الجِيزة، جانب الوادي.[٥٠٤٤]

وقيل: مشاقّة الله مشاقّة أولياءه ودينه، وأنت خبير بأنّه لاحاجة إليه على حملها إلى المجاز؛ فإنّه تعالى لما شرع شرعًا، وأمر بأوامر كذّبوا وصدّوا، فكأنّهم صاروا في شقّ غير شقّه.[٥٠٤٥]

[٥٠٣٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٦/٧.

[٥٠٣٩] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٨/٢.

[٥٠٤٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٧/٧.

[٥٠٤١] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١١/٢.

[٥٠٤٢] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٩/٢.

[٥٠٤٣] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٩/٢.

[٥٠٤٤] **المحتسب** لابن جنّي، ٢٣١/٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٧/٧.

[٥٠٤٥] **البحر المحيط** لأبي حيان، ٤٦٦/٤.

ومن أدعية النبي صلى الله عليه وسلّم: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشِّقَاقِ، وَالنِّفَاقِ، وَسُوءِ الْأَخْلَاقِ».[٥٠٤٦]

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

﴿مَنْ﴾ شرط، في موضع رفع بالابتداء، وأجمعوا على فكّ الإدغام هنا؛ لرسم المصحف، ولأنَّ حركة القاف الثانية عارضةٌ، فلذلك لم يعتدوا بها، وهي لغة أهل الحجاز، وغيرهم يُدغم حرصًا على إزالة المثلين. والإدغام ههنا جائز في الكلام، غير أنّ الاختيار الكسر؛ لأجل الألف واللام، والخبر: الجملة الواقعة بعد ﴿مَنْ﴾، أو الواقعة جزاءً،أو مجموعهما، ومن التزم عود ضمير من جملة الجزاءِ على الشرط قَدَّر له،[٥٠٤٧] وهذا تقريرٌ للتعليل، وبيانٌ لاقتضاء المشاقّة ما ذكر أو وعيدٌ بما أعدَّ لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدُّنيا.[٥٠٤٨]

وقيل: تقرير ووعيد، أي: ذلك العذاب في الدُّنيا بسبب المشاقَّة، ومن يشاقق فلا يقتصر به على هذا، فإنّ الله شديدٌ عقابُه في الآخرة.[٥٠٤٩]

والخطاب في ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ للكفرة على طريق الالتفات من الغيبة في ﴿شَاقُّوا﴾ لزيادة يستحيل عليهم بالشِّقاق والجرأة به على الله، والتَّعرض لعقابه وسخطه، وتنبيهٌ على عظم مخالفتهم.

وفيه إرشاد إلى أنَّ الخطاب المعتبر في الالتفات أعمُّ من أن يكون بالاسم على ما هو الشائع كما في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة، ١/٤]، أو بالحرف كما في ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ بشرط أن يكون خطابًا لمن وقع الغائب عبارة عنه.[٥٠٥٠]

ومحله الرَّفع على الخبرية، أي: الامر أو العقاب ذلكم، أو بالعكس، أي: ذلكم الأمر والعقاب، فعلى هذا يكون الفاء في قوله: ﴿فَذُوقُوهُ﴾ شرطيةٌ، مثل قوله:

خـــــولانُ فــــــانكحْ فتـــــــاتهم[٥٠٥١]

أي: هؤلاء خولان، المعنى: ذلكم العذابُ الذي تستحقّونه، فإذا كان كذلك فذوقوه،[٥٠٥٢] أو النّصب بفعل دل عليه ﴿فَذُوقُوهُ﴾ أو بتقدير: «عليكم»، أي: إلزموه.

ومرجعه إلى «ذوقوا العذاب» إلا أنَّه عدل في المقدّر عن المجاز، واعترض بأنَّ أسماء الأفعال لا تُضْمَر، وأجيب بأنّه ميل إلى المذهب الكوفي فإنَّهم يجرونه مُجرى الفعل مطلقًا، ولذلك يُعمِلونه متأخرًا، نحو: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء ٤ /٢٤]؛[٥٠٥٣] فالظاهر حينئذ كون الفاء زائدةً، أو بنحو: باشروا، فتكون الفاء عاطفةً، وفي عبارة الذّوق إشعارٌ بأنّ ما ذكر من

[٥٠٤٦] **سنن أبي داود**، ٢/٦٤٥ (١٥٤٥).

[٥٠٤٧] **اللباب** لابن عادل، ٤٧٣/٩.

[٥٠٤٨] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١١/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٤١/٤.

[٥٠٤٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٤١/٤.

[٥٠٥٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٤ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٣٨/٤.

[٥٠٥١] **الكتاب** لسيبويه، ١٣٩/١.

[٥٠٥٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٨/٧.

[٥٠٥٣] **اللباب** لابن عادل، ٤٧٤/٩.

العذاب شيءٌ قليل بالنِّسبة إلى ما أشير اليه بقوله: ﴿**وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ**﴾ وهو عطف على ﴿**ذَٰلِكُمْ**﴾ في الرَّفع، فإن كان خبر مبتدأ محذوفٍ يكون ما عليه أيضًا كذلك، أي: والختم المقضي به، أو الواجب ﴿**لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ**﴾.

وإن كان المعطوف عليه مبتدأ حذف خبره يكون المعطوف كذلك، أي: واستقرار عذاب النار للكافرين حتم أو مقرّر؛ وإمّا إذا نصب ذلكم فاللَّائح أن يكون هذا نصبًا على المفعول معه، أي: ذوقوا العذاب العاجل مع الآجل الذي لكم في الآخرة، لا على العطف على المنصوب بالإضمار على شريطة التَّفسير وقد أجازه البعض، وفيه كلام ووضع الكافرين موضع الضمير؛ للتَّسجيل عليهم بالكفر، والتنبيه: على أنّه سببُ العذاب الآجل، أو سبب الجمع بين العاجل والآجل، فاللاّم على هذا للعهد.

وقرىء: «وَإِنَّ»[٥٠٥٤] بالكسر على أنّه تذييلٌ، والّام للجنس، والواو استئنافيّةٌ، فكأنّه قيل: أيها الكفّار، إنَّ العقاب في الدنيا من ضرب الأعناق وقطع الأطراف لكم خاصَّةً فذوقوه، ثمّ الأمر في الآخرة أن تدخلوا في زُمرة الجاحدين المخلَّدين في عذاب النار.[٥٠٥٥]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه قَالَ: «لَوْ كَانَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ مِائَة أَلفٍ أَوْ يَزِيدُونَ وفيهم رجلٌ من أهل النار فَتَنَفَّسَ فَأَصَابَ نَفَسُهُ لَاحْتَرَقَ الْمَسْجِدُ وَمَنْ فِيهِ»،[٥٠٥٦]رواه أبو يعلى وإسناده صحيح.[٥٠٥٧]

﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥)**﴾

«اللّقاء»: الإجتماع على وجه المقاربة؛ لأنّ الإجتماع قد يكون على غير وجهها، فلا يكون [**٢٦٠**/و] لقاء، كاجتماع الأعراض في المحلّ الواحد. ﴿**زَحْفًا**﴾ أى: حيث كثيرًا أطلق عليهم من مصدر قولهم: زَحَفَ الصبيُ، يَزْحَفُ، زَحْفًا: إذا دبّ على مقعده قليلًا قليلًا؛ لانّهم لكثرتهم كانهم يزحفون، أو لأنَّهم لا يخلون عن حركة شيئًا فشيئًا، فلذلك جمع على زُحُوفٍ، وصحّ كونه حالًا من العين؛ لأنَّ الحال لكونه خبرًا في المعنى عن ذوي الحال يصحّ حملها عليه، واسم المعنى لا يصحّ حمله على اسم[٥٠٥٨] الذَّات،[٥٠٥٩] وهو إمّا حال من الموصول الثاني.

فروي عن عطاء أنها منسوخة بقوله في آخر السورة: ﴿**الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِۚوَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الأنفال ٦٦/٨] أوجب الله أوّلًا على الواحد أن يقاوم العشرة والثبات لهم، ثم خفّف وأوجب على الواحد أن يقاوم الاثنين، فليس لقوم أن يفرّقا من مثلهم، وكان لهم أن يفرّقا من ثلاثة أمثالٍ، وهذه دلّت على عدم الفرار إلا في حالتين من غير فرق بين أن يكون عددُ الكفار مثلي عدد المسلمين فنسخت بذلك.

والجمهور: أنّها مُحكمة لكونها مخصوصةً بذلك ولا ضرورة للنّسخ؛ لأنها إنما يلزم لو صرّح فيها بحرمة الانهزام على تقدير كون عدد الكفّار أكثر من عشرة أمثال عدد المسليمين، وإمّا من الموصول الأوّل فيكون إشعارًا بما سيكون منهم يوم حنين

[٥٠٥٤] قراءة شاذَة، مروية عن الحسن. **المختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٥٤؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٣.

[٥٠٥٥] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٩/٧.

[٥٠٥٦] **مسند أبي يعلى**، ٦٣/٩ (٦٦٧٠).

[٥٠٥٧] **الترغيب والترهيب**، للمنذري، ٢٥٠/٤

[٥٠٥٨] ج – اسم.

[٥٠٥٩] ج: الذوات.

حين تولَّوْا، وهم زَحْفٌ من الزّحوف اثني عشر ألفًا، وتقْدمةُ نهي عنه، وقوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ أمارةٌ على الإشعار والتّقدمة؛ لأنه وعيدٌ وتأكيدٌ للنّهي، وتعريضٌ لمن كان منه التّولية سيّما وقد ذكر الجزاء بلفظ «قد» والماضي، وإن كانت الشرطيّة في نفسها لا تدلّ على وقوع الشّرط، والتّولية إنّما وقعت يوم حنينٍ لا يوم بدرٍ.[٥٠٦٠]

وأيضًا التحيّز إلى فئةٍ إنّما يصحّ إذا كان للمسلمين فئة تتحازون إليها، ويوم بدرٍ لم يكن لهم في الأرض فئةٌ، وأمّا بعد ذلك فالمسلمون كثروا، يدلّ قوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة، ٩/٢٥]،[٥٠٦١] وإمّا حال منهما متزاحفين يدِبُّون إليكم وتدِبّون إليهم، وجوز أن يكون على معناه المصدريّ بتقدير مضافٍ، أي: ذوي زحفٍ فتصحّ الوجوه المذكورة أيضًا.

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ جزاء الشّرط وجعله قدّس سرّه: كناية عن الانهزام،[٥٠٦٢] وقال ابن الكمال: كنايةٌ عن الفرار، ولا يلزمه الانهزام على ما أفصح عنه الاستثناء الآتي ذكرُه.[٥٠٦٣]

وأنت خبير لأكثر فرقٍ بين الاعتبارين؛ لأنّ الفرار وعدم القرار من وادي الانهزام على أنّ إفصاح الاستثناء في حيّ الخفاء أيضًا، بل اللائح تلويحه إلى الانهزام كما لا يخفى على أولى الإفهام.

والتّولية: جعل الشئ يلي غيره، يقال: ولّاه دبره: إذا جعله يليه، فهو يتعدّى إلى مفعولين، ومنه ولّاه البلد: من ولاية الإمارة. وتولّى هو: إذا قبل الولاية. وأولاه نعمة؛ لأنه جعلها تليه.[٥٠٦٤]

وعَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ».[٥٠٦٥] يعني: أنّ الجنّة تحصل للرجل عند استعمال السيوف في قتال الكفار، وإنّما ذكر السيوف من آلات الحرب؛ لأنّ أكثر سلاح العرب السيوفُ في قتال الكفّار، ولأنّ استعمال السيف أشدّ من استعمال السّهم؛ لأنّ أكثر استعمال السيوف إنّما يكون بمقاربة العدوّ، ومقاربته أشدّ خوفًا من مباعدته؟

قال **الخطابي**: معناه الدنوُّ حتى يعلوَه ظلُّ سيفه لا يولّي عنه، ولا يفرّ منه، وكل شئ دَنَا منك، فقد أظلَّك.[٥٠٦٦]

﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٦)﴾

أراد باليوم وقت اللِّقاء، ولم يرد بياض النّهار خاصّةً دون اللّيل ويجوز إعرابه؛ لانه متمكّن أضيف على تقدير الإضافة الحقيقية، كقولك: هذا يوم ذاك وبناؤه؛ لأنَّه متمكِّن أضيف إلى مبني إضافةً غير حقيقية فالشبه الأسماء المركّبة، أي: من يحول ﴿دُبُرَهُ﴾ مما يليهم، وإنّما ذكر الدّبر دون الظهر؛ تقبيحًا للفرار.

[٥٠٦٠] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٤ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٨٤/٤.

[٥٠٦١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٤٩/٧.

[٥٠٦٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١١/٢؛

[٥٠٦٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٤٣/٤.

[٥٠٦٤] **مجمع البيان** للطبرسي، ١٢٠/٩-١٢١.

[٥٠٦٥] **صحيح البخاري**، ٥٤/٤ (٢٩٦٥).

[٥٠٦٦] **عون المعبود شرح سنن أبي داود** ٢٣١/٤.

﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾ يريد الكرَّ بعد الفرّ،[٥٠٦٧] وهو من باب من خدعِ الحرب ومَكايدِها، وأنَّه منهزِمٌ، ثم يعطِف عليه.[٥٠٦٨]

وقيل: إلَّا تاركًا موقفًا إلى موقفٍ آخر أصلح للقتال من الأوَّل. والتّحرف: الزّوال عن جهة الاستواء إلى جهة الحرف، ومنه الاحتراف وهو أن يقصد جهة الحرف لطلب الرِّزق، ومنه حروف الهجاء؛ لأنّها أطراف الكلمة كحرف الجبل ونحوه.[٥٠٦٩]

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ﴾ أو مُنحازًا، أو منضمًّا إلى فئةٍ أخرى من المسلمين.

ووزنه: مُتَفيْعِل، لامتفعِّل، وإلاّ لكان متحوِّزًا؛ لأنَّه من حازَ الشيءَ يحوزه؛ أي: ضمَّه وجمعَه، والحيِّز: مجتمَع القوم؛ فيعل[٥٠٧٠] من الحوز، والتحيُّز: الانضمام إليهم والدُّخول في جملتهم، وهو تَفيعلٌ من الحيِّز.[٥٠٧١]

وقد قيل: هو كالمتديّر، وجعل[٥٠٧٢] المصنّف في **المفصّل**:[**٢٦٠**/ظ] تديَّر من باب التفعُّل، فاعترض[٥٠٧٣] بأنّ حقّه تدوّر؛ لأنَّه واويّ، بل هو تفيعل فأذعن له. وذكر: الإمام المرزوقي أنَّ «تديّر» «تفيعل» نظرًا إلى شيوع «ديَّار» بالياء، وعلى هذا يجوز أن يكون «تحيّز» «تفيعل» نظرًا إلى شيوع الحيِّز بالياء، ولهذا لم يجئ[٥٠٧٤] تدوّر ولا تحوّز،[٥٠٧٥] ثمّ إنّ أصله تَحَيْوَزَ، قلبت الواو ياءً، فأدغمت.

والفئة: الجماعة المنقطعة من غيرها، من: فأت رأسه بالسيف: إذا قطعته.[٥٠٧٦] وذكرها في هذا الموضع حسنٌ جدًّا، وانتصاب ﴿مُتَحَرِّفًا﴾ و﴿مُتَحَيِّزًا﴾ على الحال، استثناء مفرّغ من أعمّ العامّ ملتبسًا بأيّة حالةٍ إلّا في حال كذا، ووجه صحة الاستثناء المفرّغ مع أنّه ليس في الكلام نفي ظاهرًا هو أنَّه في معنى النَّفي، كأنّه قيل: ومن لا يقدّم، أو لا يعطِف عليهم في حالٍ من الأحوال إلّا في حال كذا، أو على أنّه استثناءٌ تامٌّ على حذف الموصوف، أي: إلّا رجلًا منهم،[٥٠٧٧] و﴿إِلَّا﴾ على الأوّل: لغوٌ في اللَّفظ يستوي وجودُها وعدمُها في حقّ إعراب ما بعدها؛ لأنّ العامل وهو ﴿يُوَلِّهِمْ﴾، قد وصل إلى بعدها بدونه ولكن يعتبر معنى، وعلى الثاني: يكون عاملًا أو شاركًا للعامل، أو واسطةً في العمل، واعتبر بعضهم قرب ذلك الفئة؛ لينحاز إليهم وليستعين بهم، ومنهم من لم يعتبر ذلك لما روى عن ابن عمر رضي الله عنه: «أَنَّهُ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ بَعثهم رسولُ الله ففرّوا إلى المدينة ، فقلتُ: يا رسول الله، نحن الفرّارون، فقال: بل أنتم العكَّارون وأنا فئتكم».[٥٠٧٨]

[٥٠٦٧] ج- لتغرير العدوّ.

[٥٠٦٨] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٩/٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١١/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٤٣/٤.

[٥٠٦٩] **مجمع البيان** للطبرسي، ٩/ ١٢١-١٢٢.

[٥٠٧٠] ج: فنقل.

[٥٠٧١] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٤٤/٤.

[٥٠٧٢] ج: وقول.

[٥٠٧٣] ج - عليه.

[٥٠٧٤] ج - يجئ.

[٥٠٧٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٥و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٨٥/٤؛ **حاشية الشهاب**، ٢٥٩/٤.

[٥٠٧٦] **مجمع البيان** للطبرسي،٩/ ١٢١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٤٤/٤.

[٥٠٧٧] ج + كذا.

[٥٠٧٨] **مسند أحمد**، ١٣٥/١٠ (٥٩٨٥)؛ **سنن أبي داود** ٢٨٤/٤ (٢٦٤٧)؛ **سنن الترمذي**، ٢١٥/٤ (١٧١٦)؛ **السنن الكبرى** للبيهقي، ٢٥٦/١٨ (١٨١٣٨)؛ **مسند أبي يعلى**، ٤٤٦/٩ (٥٥٩٦).

وقيل: الآية مخصوصةٌ بأهل بيته عليه السلام والحاضرين معه في الحرب؛[٥٠٧٩] إذ ليس لهم فئة ينحازون إليها دون النبي ع م، فلا ينحازون إلى من يتقوى به، فيكون انحيازهم كبيرةً وفرارًا عن الزّحف بخلاف مَن عداهم من المسلمين؛ فإنّ لهم فئة ينحازون إليها فلا يكون فرارهم كبيرة عند الطّمع في مقاومة العدوّ بسبب كثرة الفئة.

وقيل: إنّها مختصّة بمن انهزم يوم بدرٍ؛ إذ ليس لهم أن ينحازوا؛ لأنَّه لم يكن لهم في الأرض يومئذٍ فئة، وأمّا بعد ذلك فإنّ المسلمين بعضهم فئة لبعضٍ، كما قال ع م: «أَنْتُمُ الْعَكَّارُونَ وَأَنَا فِئَتُكُمْ».[٥٠٨٠]

وقال: محمد ابن سيرين: لَمَّا قُتل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمرَ رضي الله عنه فقال: لو انحاز إليَّ لكنتُ له فئةً وأنا فئةُ كلّ مسلمٍ.[٥٠٨١]

وَعَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْفَعُ مَعَهُنَّ عَمَلٌ: الشِّرْكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَالْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ.[٥٠٨٢] رواه الطبراني في الكبير.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧)﴾

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ فلم تقتلوهم بقوّتكم لضعفكم عنهم، ولكنّ الله قتلهم بنصره إيّاكم، وتقوية قلوبكم، وإذهاب الفزع عن صدوركم، وإمدادكم بالملائكة وتسليطكم عليهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم.

روي أنّ قريشًا لَمَّا طلعت من العَقَنْقَلِ، وهو الكثيبُ الذي جاؤا منه إلى الوادي.

قال عليه لسلام: هذه قريشُ جاءت بخُيلائِهَا وفَخْرِهَا يكذبون رسُولكَ، اللَّهُمَّ إني أسألك ما وَعَدْتَنِي، فأتاه جبريل، وقال: خُذْ قبضةً من التُّراب، فارمهم بها، فلمّا التقى الجمعان، تناول كفًّا من الحصباء، فرمَى بها في وجوههم وقال: «شاهتِ الوجوه»، فلم يق مشرك إلاَّ شغل بعينه. فانهزمُوا ورَدَفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم. ثم لَمّا انصرفوا أقبلوا على التَّفاخر فيقول الرجل: قتلتُ وأسرتُ، فنزلت؛ صيانةً لهم عن الإعجاب، وتنبيهًا على أن الله هو الذي هيَّأ لهم هذه الاسباب،[٥٠٨٣] فعلي هذا كان الرّمي أيضًا يوم بدرٍ.

والفاء جواب جوا بشرط محذوف تقديره: إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لَمْ تقتلوهم ولكن الله قتلهم. ولكن يأباه عطف قوله: **﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾** عليه.[٥٠٨٤] وتقدير المبتدأ في الجواب لكون الكلام على نفي الفاعل دون الفعل، والدّليل عليه الاستدراك؛ فإنّ فيه إثبات أنّه هو الله.

[٥٠٧٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٢/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٤٤/٤.

[٥٠٨٠] **مسند أحمد**، ١٣٥/١٠ (٥٩٨٥)؛ **سنن أبي داود** ٢٨٤/٤ (٢٦٤٧)؛ **سنن الترمذي**، ٢١٥/٤ (١٧١٦)؛ **السنن الكبرى** للبيهقي، ٢٥٦/١٨ (١٨١٣٨)؛

[٥٠٨١] **اللباب** لابن عادل، ٤٧٩/٩؛ **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣٧٦/٤-٣٧٥.

[٥٠٨٢] **المعجم الكبير** للطبراني، ٩٥/٢ (١٤٢٠).

[٥٠٨٣] **الكشاف** للزمخشري، ١٩٩/٢؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٣٧/٢-٢٣٨؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٨٠/٩-٤٨١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٢/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٤٥/٤.

[٥٠٨٤] **الكشاف**، ٢٠٠/٢-٢٠١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٢/٢.

وقيل: لصحة دخول الفاء في الجزاء؛ لأنَّ الجزاء إذا كان ماضيًا بتقدير لايجوز دخول الفاء عليه، فالمفسرون قد ذكروا الرمي في الموضعين، وقد نصّوا عليه روايةً، واستدلّوا عليه درايةً بأنّه، لولا ذلك للزم دخول كلام أجنبيٍّ في أثناء القصَّة، وأمّا المحدّثون فعلى أنَّ الرمي كان يوم حنينٍ. روينا في «**صحيح مسلم**» عن سلمة بن الأكوع قال: «غزونا مع رسول الله حُنينًا، فلمَّا واجهنا العدوّ»، وساق الحديث إلى قوله: «فولّى أصحابُ النبي، ومررت منهزمًا على رسول الله وهو على بَغْلته الشَهْباء، فقال: «لقد رأى ابن الكوع فزَعًا»، فلمّا غشوا رسولَ الله نزل عن بغلته، ثم قبض قبضةً من تراب الأرض، ثم استقبل به وجوههم، وقال: «شاهت الوجوه»، فما خلق الله منهم إنسانًا إلا ملأ عينَيْه ترابًا بتلك القبضة، فهزمهم الله».[٥٠٨٥]

فوجه النّظم على هذا أنّ قوله: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ**﴾ كالفاتحة التي يتخلّص منها إلى تعداد أحوال المؤمنين مع رسول الله، وكراهة بعضِهم رَأْيَه عليه السلام في كثيرٍ من الأمر، كما سبق في قوله تعالى: ﴿**كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ**﴾، فبدأ بقصة بدرٍ، وذكر نبذًا منها، وخَتَمها بقوله: ﴿**ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ**﴾، ثمَّ عمَّ الخطاب بقوله: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ [٢٦١/و] ٱلْأَدْبَارَ ۞ وَمَن يُوَلِّهِمْ**﴾.[٥٠٨٦] لما أنَّ حُكمَ الآيةِ عامٌّ في حقِّ كلِّ مَنْ وَلَّى مُنهَزِمًا.[٥٠٨٧] ثم رَتَّبَ النهيَ عن التَّولِّي علىٰ الوَصْفِ المناسِب، وهو قوله: ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ**﴾ وقوله: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ**﴾، يعني: أتحسَبُونَ أنَّ النَّصْرَ يحصُلُ بفِعْلِكم أو بفِعْلِ الغير، فلم تَقتُلُوهُم حينَ قَتلتُمُوهُم يومَ بدر، ولا هَزَمتُمُوهُم حينَ هَزَمتُمُوهُم يومَ حُنَين، فإذا كان النَّاصِرُ والمتولِّي هو اللهَ، فكيفَ تُوَلُّونَ الأدبار؟! لأنَّ اللهَ ناصِرُكم ومُعينُكُم. والذي يُؤيِّدُ أنَّ تَعْدادَ القَصَصِ للاستِذكارِ: إيرادُها هكذا من غير ترتيبٍ على مِنْوالِ ما سبقَ في قِصَّةِ البقرة، ألا ترىٰ كيفَ عَقَّبَه بقوله: ﴿**إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ**﴾ [الأنفال ١٩/٨]، وأنه في شأن المشركين حينَ خَرَجُوا من مكَّة لِقتالِ المسلمين، وبقوله: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً**﴾ [الأنفال ٢٥/٨]، وأنّه في شأن عليٍّ وعمَّارٍ يومَ صِفِّين، وفي شَأْنِه و شَأْنِ طلحة والزُّبيرِ يومَ الجَمَل، وبقوله: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ**﴾ [الأنفال ٣٠/٨] وأنّه في رسول الله ونَجاتِهِ من مَكْرِ قُريشٍ قبلَ الهجرة، وعلىٰ هذا إلىٰ آخِرِ السُّورة.[٥٠٨٨] فح لا تكون الفاء جزائيّةً، ويكون الكلام في قوّة الماضي عطف عليه قوله:

﴿**وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ**﴾.

﴿**وَمَارَمَيْتَ**﴾ أنت يامحمد بتلك الرّمية التي رميتَها على الحقيقة؛ لأنّك لو رميتَها، لَمَا بلغ أثرُها إلا ما يبلغُ به أثرُ رمْي البشر، ﴿**إِذْ رَمَيْتَ**﴾ أتيتَ بصورة الرّمي. ﴿**وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ**﴾؛ لأنّ أثرها الذي لا يطيقه البشر فعل لله، وكان الله هو فاعلَها على الحقيقة، وكأنَّها لم توجد منه عليه السلام.[٥٠٨٩]

وبهذا يظهر وجه نفي الرّمي عنه عليه السلام حين ما أثبته له عليه السلام وإثباته لله تعالى، ويندفع توّهم التّناقض هذا على ما يقتضيه كلام المصنف، وأمّا مقتضى كلامه قدّس سرّه: فهو أنّ الرمي المنفيّ كماله المؤثّر بأثرٍ خارجٍ عن عادة البشر،

[٥٠٨٥] **صحيح مسلم**، ١٤٠٢/٣ (١٧٧٧).

[٥٠٨٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٢/٧.

[٥٠٨٧] **معالم التنزيل** للبغوي، ٣٣٨/٣؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٢/٧.

[٥٠٨٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٢/٧.

[٥٠٨٩] **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٠/٢-٢٠١؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٤/٧-٥٥.

وغايته التي هي الإيصال على طريق الاستئصال والمثبت له مسمّاه، أي: الذي يقال له: الرمي عند الخلق، والفعل قد يُطلق ويُراد به مسمّاه، وقد يطلق ويراد به كماله، والمقصود منه أي: غايته.[٥٠٩٠]

وقيل: مبنى إسناد الفعل إلى الله تعالى أنّه كان بنصْره وتأييده، أو أنّ معناه الإماتةُ، وذلك فعلُ الله تعالى قطعًا، وإنّما فعلُ العبد الجرحُ، أو أنَّ إسناد الرّمي إلى الله من جهة أنَّ إيصال التراب القليل إلى عيون الكثيرين لم يكن الّا فعله تعالى، أو أنّ المراد الرّمى المقرون بإلقاء الرُّعب في قلوبهم، وذلك فعل الله تعالى.[٥٠٩١]

فعلى هذه الوجوه لا دلالة في الآية على كون أفعال العباد بخلق الله ولا يخفى ما في ما عدا الأوّلين من التكلّف، والخروج عن الظاهر؛ بل الوجه الظّاهر أنّه تعالى نفى القتل عن المؤمنين، والرّمي عن النبي عليه السلام، وأثبتهما لله.

ومعنى ﴿**إِذْ رَمَيْتَ**﴾: إذ باشرت صرف الآلات، والحاصل ما رميت خلقًا إذ رميت كسبًا،[٥٠٩٢] فحينئذٍ في الآية دلالةٌ على ما ذكر واعترض عليه بعدم ظهور وجه التّخصيص لجريانه في جميع الأفعال عند من يقول: بالكسب، وعدم حجته على قول مَنْ ينكره، ويمكن أنْ يجاب بأنَّ الجريان في جميع الأفعال لا ينافي المقصود ههنا من دفع تفاخرهم ببيان ما هو الواقع من أنّ الكلَّ بإرادة الله تعالى وبخلقه، أو تأكيد النهي السّابق بنفى الحسبان على ما قرّر إلا أنَّ الواقع ههنا رمي خارقٍ للعادة؛ ليكون معجزةً بها يكمل إيمان الكاملين ويثبّت إيمان النّاقصين.

«فإنْ قلتَ إمَّا يكفي في الجواب عن الإعجاب، أو تأكيد النَّهي ما قبله، وكيف يكون ذلك من تمامه؟

قلتُ: لا، لأنَّ تمكّنهم من قطع دابرهم وانهزامهم كان بتلك الرّمية».

وقيل: نزلت في يوم أحدٍ في قتل أُبَيّ بن خَلف، وذلك أنه أتَى النَّبيَّ عليه السلام بعظم رميمٍ وفتَّه، فقال: يا محمَّدُ، من يُحْيي هذا؟ فقال عليه السلام: «يُحيِيه اللّهُ تع، ثم يُمِيتُكَ ثم يُحْيِيك ثم يُدخلُك النَّارَ فأُسِر يوم بدرٍ، فلمَّا افتُديَ، قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ عندي فرسًا أعلّفها كلَّ يومٍ فرقًا من ذرّة، أقتلك عليه، فقال عليه السّلام: «بَلْ أنا أَقْتُلكَ إنْ شاءَ اللّهُ» فلمَّا كان يوم أُحُد أقبل أُبَيّ بركض ذلك الفرس حتى دنا من الرسول فاعترض له رجالٌ من المسلمين ليقتلوه. فقال ع م: «اسْتَأْخِرُوا» فرماه بحَرْبَة فكسر ضِلعًا من أضلاعه، فحمل فمات ببعض الطَّريق.[٥٠٩٣]

وقيل: نزلت يوم حنينٍ، حين أخَذَ النَّبي عليه السَّلام وهو على بابه، فرمى سهمًا، وأقبلَ السّهمُ حتّى قتل ابن أُبيّ الحقيق، وهو على فرسه، إذا تحققت ما ذكر.[٥٠٩٤]

والحاصل: أنّه لا يخ من أن يكون الرميُ رميَ الحصا، أو غيره، وعلى الأوّل: إمّا يوم بدرٍ أو يوم حنينٍ، وعلى الثاني: إمَّا طعنه فيه أو رميه في خيبر[٥٠٩٥] وقد عرفت رجحان الاوّل.

وقال القشيري: ﴿**إِذْ رَمَيْتَ**﴾ فَرْقٌ، ﴿**وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ**﴾ جمع. والفرق صفة العبودية، والجمع صفة الربوبيّة.[٥٠٩٦] والفرق من الرّكون إلى الأسباب والوسائط، والجمع من الرُّجوع إلى مسبب الأسباب، وقطع النَّظر عن الرّواطب.

[٥٠٩٠] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٤٦/٤.

[٥٠٩١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٥و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٨٦/٤؛ **حاشية الشهاب**، ٤٥١/٤.

[٥٠٩٢] **حاشية الشهاب**، ٤٥١/٤.

[٥٠٩٣] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٤٦٧/١٥؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٨١/٩.

[٥٠٩٤] **مفاتيح الغيب** للرازي، ٤٦٧/١٥.

[٥٠٩٥] ج: حنين.

﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [**٢٦١**/ظ].

وليُنْعِمَ عليهم، والإبلاء: الإحسان، ومنه قوله ع م: «مَنْ أُبْلِيَ فَذَكَرَ فَقَدْ شَكَرَ».[٥٠٩٧]

﴿**مِنْهُ**﴾: من الله، أو من الظّفر على الأعداء،[٥٠٩٨] أو من الرّمي، ﴿**بَلَاءً حَسَنًا**﴾ عطاءً جميلًا، ونعمةً جميلةً[٥٠٩٩] بالنَّصر والغنيمة ومشاهدة الآيات وحصول المثوبات ووصول الكرامات.

وهو اسم مصدر أي: إبلاء، أو نفس الشيء المبلوّ به، وكما يطلق على النعمة يطلق على النقمة؛ لأنّ أصله ما يظهر به الأمر من الشّكر أو الصّبر فيبتلى عباده، أي: يختبرهم بالنّعم؛ ليظهر شكرهم عليها، وبالمحن؛ ليظهر عندها الصبرُ الموجبُ للأجر والاختبار منه تع إظهار ما علم كما علم لا تحصيل علم ما لم يعلم.

قال زهير:

جَزَىٰ اللهُ بالإحسانِ ما فَعَلَا بِكُم فأبْلَاهُما خَيْرَ البَلاءِ الذي يَبْلُو[٥١٠٠]

أي: جَزىٰ اللهُ الممدوحينَ بالإحسانِ جَزاءَ ما فَعَلَا بكم، وأعطاهما خيرَ العطاءِ، فـ«ما» موصولة، حُذِفَ منها المضاف، وأُقيمَتْ مقامَه.[٥١٠١]

و«الذي يَبْلُو» فاعل «أبْلَاهُما» وهو الله، أو صفة البلاء، أي: خير الصنيع الذي يعطيه الله، أو يختبر به عباده.

وقيل: الظاهرُ أنْ يُفسَّرَ قولُه: ﴿**بَلَاءً حَسَنًا**﴾ بالإبلاءِ في الحرب، كما «في حديثِ سَعْدٍ يومَ بدر: «عَسَىٰ أن يُعطَىٰ هَذَا مَنْ لا يُبلي بَلَائي»،[٥١٠٢] أي: لا يَعمَلُ مِثلَ عملي في الحرب، كأنَّه يُريد: أفعَلُ فِعْلًا أُختبرُ فيه، ويظهرُ به خيري وشَرّي»، لِمَا أنه في مُقابِل توهين كَيْدِ الكافرين، أي: ليُعطِيَ المؤمنين منه قُوَّةً ونَجْدةً، وليُوهِنَ أمْرَ الكافرين.

ويُمكِنُ أن يُوجَّهَ الوجه الأوّل على هذا بحَمْلِ العطاءِ على ما ذكر؛ لأنَّ العطاءَ الحسنَ في مقام الحربِ النَّجْدةُ والقُوَّة.[٥١٠٣]

واللام في ﴿**وَلِيُبْلِيَ**﴾: متعلقٌ بمحذوفٍ، أي: وليبلي فعل ذلك، أو متعلّق بما قبله بأن يكون معطوفًا على علةٍ محذوفة، أي: ولكن الله رمى ليقهر الكافرين، وليُبْلي المؤمنين.[٥١٠٤]

﴿**إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ**﴾: لاستغاثتكم ودعائكم. ﴿**عَلِيمٌ**﴾ بأفعالكم وضمائركم.

[٥٠٩٦] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٣٨٤/١.

[٥٠٩٧] **النهاية في غريب الحديث والأثر** لابن الأثير، ١٥٥/١؛ **لسان العرب** لابن منظور، «بلا».

[٥٠٩٨] ج — على الأعداء.

[٥٠٩٩] ج — جليلة.

[٥١٠٠] **الكشاف** للزمخشري، ٢٠١/٢؛ **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٨٩/٣؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٥/٧؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٨٢/٩.

[٥١٠١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٦/٧.

[٥١٠٢] **سنن الترمذي**، ٢٦٨/٥ (٣٠٧٩).

[٥١٠٣] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٦/٧.

[٥١٠٤] **اللباب** لابن عادل، ٤٨٢/٩.

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو رضي الله عنه أن النبيَّ عليه السلام: «خرج يومَ بدرٍ في ثلاث مِئةٍ وخمسةَ عَشَرَ، قال: «اللهم! إنهم حُفاةٌ فاحمِلْهم، اللهم! إنهم عُراةٌ فاكْسُهُم، اللهم! إنهم جِياعٌ فأَشْبِعْهُم»، ففتح اللهُ له، وانقلبوا وما منهم رجلٌ إلا وقد رَجَع بجملٍ أو جَمَلَيْنِ، واكتَسَوْا، وشَبِعُوا».[٥١٠٥]

﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨)﴾

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الإشارة إلى البلاء، وقيل: إلى القتل أو الرّمي، والخطاب للمؤمنين، وفيه إلتفات، ومحلُّه الرَّفع على الخبر، أي: المقصود، أو: الأمر ذلكم،[٥١٠٦] أو على الابتداء أي: ذلكم البلاء حقٌّ وحتمٌ، أو النّصب، أي: فعل ذلكم.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معطوف على﴿ذَٰلِكُمْ﴾، عطف خبرٍ، فحكمه كحكمه في الإعراب، «ويجوزُ أن يكونَ عطف جُملة على جملة، أي: المقصود ذلكم والمقصود أنَّ اللهَ مُوهِن».[٥١٠٧]

قرأ حفص: ﴿مُوهِنُ كَيْدِ﴾ بجرّ ﴿كَيْدِ﴾ بإضافة ﴿مُوهِنُ﴾ إليه وتخفيف الهاء، وغير حفصٍ ينوّنون لفظ «مُوهِنُ» وينصبون كيدًا على الأصل،[٥١٠٨] إلا أنّ الحرميين[٥١٠٩] وأبا عمرو وممن قرأ بالّتنوين يقرأ: ﴿مُوَهِّنٌ﴾ بفتح الواو، وتشديد الهاء،[٥١١٠] والباقون من أصحاب التّنوين يقرؤن: ﴿مُوْهِنٌ﴾ بإسكان الواو وتخفيفي الهاء، والتخفيف جاء على الأكثر؛ لأنّ ما عينه حرف حلقٍ غير الهمزة تعديته بها ولا يُعَدَّى بالتَّضعيف إلا كلم محفوظة نحو: وهَّنْتُه وضعَّفْتُه.[٥١١١]

وقيل: الأمران فيهما حسن جيّد، وتوهينهم باطّلاع المؤمنين على عوراتهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، وتفريق كلمتهم، ونقض ما أبرموا بسبب اختلاف عزائمهم.[٥١١٢]

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه: «يهنى رسوله بإيهان وهن عدوّه وقتل خيارهم وأسر أشرافهم».[٥١١٣]

وقال القشيري: «البلاء الحسن»: توفيق الشُّكر في المِنْحة، وتحقيق الصَّبر في المحنة، ويقال: البلاء الحسن أن تَشْهَدَ المبْلِي في عين البلاء.[٥١١٤]

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)﴾

الاستفتاح: طلب الفتح وهو النصر الذي تفتح به بلاد العدوّ، والفتح أيضًا الحكم، ويقال للقاضي: الفتّاح، وأصله من الفتح الذي هو ضدُّ الإغلاق».[٥١١٥]

[٥١٠٥] **سنن أبي داود**، ٣٣/٣ (٢٧٤٧).

[٥١٠٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٣/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٤٦/٤.

[٥١٠٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٦/٧.

[٥١٠٨] وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: ﴿مُوْهِنٌ كَيْدَ﴾. **كتاب السبع** لابن مجاهد، ص ٣٠٥.

[٥١٠٩] «نافع وابن كثير».

[٥١١٠] **كتاب السبع** لابن مجاهد، ص ٣٠٤.

[٥١١١] **التيسير** للداني، ص ٣٦٧؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٨٢/٩.

[٥١١٢] **التيسير في التفسير** للنسفي، ١٧٨/٦.

[٥١١٣] **مفاتيح الغيب** للرازي ٤٦٨/١٥؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٨٣/٩-٤٨٤.

[٥١١٤] **لطائف الإشارات** للقشري، ٣٨٤/١.

«والخطاب لأهل مكة على سبيل التهكّم»،[٥١١٦] فإنّه تع لَمّا أجمل في قصّة بدرٍ، ووصّى المؤمنين بالثبات في مقاتلة الأعداء، عاد الى التّفصيل وحكى خطابه لهم قبل اللِّقاء.

«وذلك أنَّهم حين أرادوا الخروج تعلّقوا بأستار الكعبة، وقالوا: اللّهمّ انصر أَعْلى الجندين، وأهْدى الفئتين وأكرمَ الحزبين. وروي أنهم قالوا: اللهمّ انصر أقرانًا للضَّيف، وأوْصَلنا للرَّحِم وأفكّنا للعاني، إن كان محمدًا على الحقّ فانصره، وإن كنّا على الحقّ فانصرنا. وروي أنّ أبا جهل قال يوم بدر: اللهمّ أيُّنا كان أهجرَ وأقطعَ للرَّحِم فأحِنْه اليوم، أي: فأهْلِكْه».[٥١١٧]

وقيل: «قاله أبو جهلٍ وقت القتال».

وقال النَّضر ابن الحارث: «اللّهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليمٍ. وهو ممن قتل ببدرٍ».[٥١١٨]

﴿**وَإِنْ تَنْتَهُوا**﴾ عن الكفر، ومعاداة الرسول والمؤمنين. «والإنتهاء ترك الفعل لأجل النَّهي عنه، يقال: نهيته فانتهى وأمرته فائتمر».[٥١١٩] ﴿**فَهُوَ**﴾ أي: الانتهاء ﴿**خَيْرٌ لَكُمْ**﴾ «لتضمنه سلامة الدَّارين وسعادة المنزلين».[٥١٢٠]

﴿**وَإِن تَعُودُوا**﴾ لمعاداته ومحاربته. ﴿**نَعُدْ**﴾ لنصره عليكم، ولخذلانكم, وقهركم ﴿**وَلَن تُغْنِيَ**﴾ [**٢٦٢**/و] ولن تدفع ﴿**عَنكُمْ فِئَتُكُمْ**﴾: جماعتكم ﴿**شَيْئًا**﴾ من الإغناء أو المضار.[٥١٢١] فيكون مصدرًا، أو مفعولًا به.

وقرئ: «وَلَنْ يُغْنِيَ»[٥١٢٢] بالياء للفصل، ولكون المؤنث غير حقيقيٍ. ﴿**وَلَوْ كَثُرَتْ**﴾ أي: فئتكم، و﴿**لَوْ**﴾ وصليّة لا تحتاج إلى الجزاء، ويجوز أن تكون شرطيّة مدلول على جزائه بما سبق، وذلك لأنّه لا اعتبار للعَدد، والمدد، والعُدد؛ بل النَّصر من عند الله ولاحول ولا قوّة إلا بالله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿**وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ بالنّصر والمعونة والولاية والوقاية والرعاية، والحماية.

وقال ابن الكمال: ويُشْكِلُ هذا بيوم أحدٍ؛ فإنّهم عادوا فيه للمحاربة وكانت الغلَبة لهم.[٥١٢٣]

وأنت خبير بأنّ الاعتبار للخاتمة. وقد كانت الغلبة في ذلك اليوم للمؤمنين أيضًا مآلًا، وإن وقع بعض ما وقع ابتلاءً لهم وجزاءً لما وقع منهم من بعض المخالفة.

وقرأ نافع وابن عامر وحفص: ﴿**وَأَنَّ**﴾ بالفتح[٥١٢٤] على: ولأن الله مع المؤمنين كان كيت و كيت،[٥١٢٥] والكسر أوجَه إمّا لفظًا، فلاستغنائها عن الإضمار، وإمّا معنًى فلإيذانها بأنَّ الله مع المؤمنين في جميع الأحوال.[٥١٢٦]

[٥١١٥] **مجمع البيان** للطبرسي، ١٢٤/٩.

[٥١١٦] **الكشاف** للزمخشري، ٢٠١/٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٣/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا، ٢٤٦/٤**.

[٥١١٧] **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٢/٢.

[٥١١٨] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٤٧٩/٩.

[٥١١٩] **مجمع البيان** للطبرسي، ١٢٤/٩.

[٥١٢٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٣/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا، ٢٤٧/٤**.

[٥١٢١] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٣/٢.

[٥١٢٢] قراءة شاذَة، مروية عن يحيى وإبراهيم. **المختصر في شواذ القرآن** لابن خالويه، ص ٥٤؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٤؛ **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٢/٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٨٦/٩.

[٥١٢٣] **تفسير ابن كمال باشا، ٢٤٧/٤**.

وقيل: لأنَّ الجملة حينئذٍ تذييلًا، فكأنّه قيل: المقصود إعلاءُ المؤمنين، وخِذلان الكافرين، كقوله: ﴿**وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ [الصافات ١٧٣/٣٧].

ويجوزُ علىٰ قراءة الفَتْح أيضًا هذا التقرير، كما قال أبو البقاء: الأمرُ ذلكم، والأمرُ أنَّ اللهَ مَعَ المؤمنين»، ولكنَّ الأوَّلَ أحسَنُ وأدلُّ على إرادة التذييل، لأنه نصٌّ فيه.[٥١٢٧] وأيضًا يؤيده قراءة «إنَ الله» بلا واوٍ، و«واللهُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ».[٥١٢٨]

وقيل: الخطاب الأوَّل للمؤمنين، والباقي للكافرين. وقيل: الجمع للمؤمنين، لا على التّهكم، والمعنى: إن تَسْتَنْصِرِوا فقد جاءكم النَّصر، وإن تنتهوا عن التَّكاسل في القتال والرغبة عما يستأثره الرسولُ فهو خير لكم وأسلم، وإن تعودوا اليه نَعُدْ عليكم بالإنكار، وتهييج العدوّ، ولن تغني فئتكم إذا لم يكن الله ناصركم؛ فإنّه مع الكاملين في إيمانهم يؤيده قوله:[٥١٢٩]

﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠)**﴾ ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(٢١)**﴾ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢)**﴾

خصَّ المؤمنين بالطاعة، وإن وجبت على غيرهم، لإجلال قدرهم، فيدخل الغير بالتبع، أو لإعراضهم عمَّا وجب عليهم.

وقرئ: بإدغام التاء،[٥١٣٠] فيجتمع سَاكِنان، لكن هل ذلك على حدهما؟ فيه كلامٌ؛ فإنّ الأوَّل وإن كان[٥١٣١] حرف مدٍّ، والثاني حرفُ لين مدغَم، لكنهما في كلمتين.[٥١٣٢]

وضمير ﴿**عَنْهُ**﴾ للرّسول؛ «فإنّ المراد الأمرُ بطاعته، والنَّهي عن الإعراض عنه، وذكرالله تمهيدٌ، واختصاص الرسول به تعالى، وتنبيهٌ أنّ طاعته طاعتُه»،[٥١٣٣] وإشعارٌ بأنّ طاعتَهما شيءٌ واحدٌ، ﴿**مَنْ يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ**﴾ [النساء ٨٠/٤]. «فالرجوع إليه كالرجوعه إليهما، كقولك: الإنعام والإكرام لا ينفع عند فلان»،[٥١٣٤] «أو للجهاد، أو للأمر الذي دلَّ عليه الطَّاعة».[٥١٣٥]

[٥١٢٤] **كتاب السبع** لابن مجاهد، ص ٣٠٥؛ **التيسير** للداني، ص ٣٦٧؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٨٦/٩.

[٥١٢٥] **نواهد الأبكار** للسيوطي، ٥٢٦/٦.

[٥١٢٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٥و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٨٥/٤.

[٥١٢٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٦/٧.

[٥١٢٨] قراءة شاذَة، مروية عن ابن مسعود. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٤؛ **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٢/٢؛ **معجم القراءات**، لعبد اللطيف الخطيب، دار السعد الدين، القاهرة، د.ت. ٢٧٧/٣-٢٧٨.

[٥١٢٩] **نواهد الأبكار** للسيوطي، ٥٢٦/٦.

[٥١٣٠] «وَلَا تَّوَلَّوْا»: **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٢/٢؛ **النشر** لابن الجزري، ١٦٤/٢-١٦٥.

[٥١٣١] ج – وإن كان حرف مدٍّ.

[٥١٣٢] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٥و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٨٨/٤.

[٥١٣٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٤٨/٤.

[٥١٣٤] **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٢/٢.

[٥١٣٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٣/٢.

﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ والحال أنّكم تصدّقون الرّسول، وتذعنون لكونكم مؤمنون لستم كالصُّمّ المكذبين، فالسماع مجاز عن التَّصديق، أو تسمعون ما يتعلّق بالجهاد، أو الأمر، «أو المواعظ القرآن سمْعَ فهمٍ وتصديقٍ».[٥١٣٦]

﴿كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ لا كالكفرة والمنافقين ادّعوا السَماع ﴿وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾ سماعًا ينتفعون به؛ لأنّهم لا يصدّقون فكأنّهم لايسمعون رأسًا.

والمعنى: أنّكم تصدّقون بالقرآن والنّبوّة، فإذا تولَّيتم عن طاعة الرّسول في بعض الأمورِ من قسمة الغنائم وغيرها، كان تصديقُكم كلا تصديق، وأشبَه سماعكم سماع مَن لا يؤمن. فدلّت على أنَّ قول المؤمن: «سمعت وأطعت» لا فائدة له ما لم يظهر أثره بامتثال فعله، فإذا قصر في الأوامر فلم يأتها واعتمد النواهي، واقتحمها فأيّ سمع عنده وأيّ طاعةٍ، وذلك هو المراد من النَّهي عن التّشبه بهؤلاء.

وقد سبق أنّ السورة مشتملةٌ على تشديد أمر طاعة الرَّسول، وتحريض أصحابه على الإنقياد لأوامره، والإمتناع عن مخالفته، فلمّا ذكر في مفتّتَح السورة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال ١/٨]، وساق حديث قصّة بدرٍ، وأطال الكلام فيها، كرّ إلى ما بدأ به، وشدَّد فيه غاية التشديد، حيث جعل طاعة الرسول طاعته، وعقّب الأمر بالطَّاعة النهي عن المخالفة بقوله: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا﴾، ثم أكّده بالتَّذييل التشبيهي، وهو ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾، ثم تَمَّمَ المعنى على المبالغة بضرب المثل بقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابّ﴾،[٥١٣٧] شرَّ مَنْ يدُبّ على الأرض، أو شرّ البهائم. والأوّل: على إرادة المفهوم اللغويّ جارٍ على الحقيقة إلّا أنّه ذكر في معرض الذّم كقولك لمن لا يَفْهم الكلامَ: جسدٌ. والثاني: على التشبيه بالبهائم؛ بل جعلهم شرّها لعدولهم عن الانتفاع بالحواسّ، وإبطالهم ما ميّزوا به وفضّلوا لأجله.

«فأصل التشبيه: الصّمّ البكم كالبهائم، ثم: كشرِّ البهائم، ثم: شرُّ البهائم كالصّمّ البُكم، على القلب للمبالغة،كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل ١٧/١٦] وقوله:

وبَـدَا الصَّـباحُ كـأنَّ غرّتَـه   وجْـهُ الخَليفَـةِ حِـينَ يُمْتَـدَحُ

وفي تعريف الخبر الدَّلالة على الحصر، وأنَّ مَنْ لم يُطِعِ اللهَ ورسولَه هو شَرُّ خَلْقِ الله تعالىٰ، ولا دابَّةَ شَرٌّ منه، [**٢٦٢**/ظ] وإن كانَ مُطاعًا عندَ الناس».[٥١٣٨]

﴿عِنْدَ اللهِ﴾ في حكمه وقضائه. ﴿الصُّمُّ﴾ عن الحقّ لايعيه، وإنَّما جمع الصمّ وهو خبر بشرّ لإرادة الكثرة فيه، ولو حمل على اللَّفظ لقيل: الأصمّ، وتعريفه للدّلالة على الحصر، وأنَّ من لم يطع الله ورسوله هو شرُّ خلقٍ،[٥١٣٩] ولا دابَّةَ شرٌ منه، و إن كان مطَاعًا عند الناس.

﴿ٱلْبُكْمُ﴾ لاينطقون به ﴿ٱلَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ إيَّاه، ولم يذكر العمى؛ لأنّ الكلامَ في امتثال أوامره، والبصر لامدخلَ له في ذلك.

[٥١٣٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٣/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٤٨/٤.

[٥١٣٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٥٩/٧.

[٥١٣٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٠/٧-٦١.

[٥١٣٩] ج + الله.

وعن بعض العارفين «الصّم»: عن سماع الذكر، وفَهم معانيه، و«البكم»: عن مداومة تلاوة الذّكر وطلب الزيادة منه، ﴿ٱلَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ ما خوطبوا به، وما خُلقوا له، وما هم صائرون إليه في المآب».

وقال القشيري: «مَنْ صُمَّ عن إدراك ما خُوطب به سِرُّه، وعمِيَ عن شهود ما كوشف به قلبه، وخَرِسَ عن إجابة ما أُرْشِدَ إليه من مناجحة فهمه وعقله، فَدُونَ رُتْبةِ البهائم قدْرُه، وفوق كلّ[٥١٤٠] خسيسٍ من حكم الله ذلّه وصُغره».[٥١٤١]

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥)﴾

عبّر عن عدم استقرار الخير فيهم بعدم علم الله بوجوده فيهم؛ لأنَّ كلّ ما كان حاصلًا؛ فإنّه يجب أن يعلمه الله فعدم علمه بوجود شيءٍ من لوازم عدمه، فعبّر باللّازم عن الملزوم لكونه أبلغ؛ لأنّ كون[٥١٤٢] لازم الشّئ نفي لنفس ذلك الشئ بيّنه.[٥١٤٣]

قال المص: ﴿**لَوْ عَلِمَ**﴾ في هؤلاءِ الصُّمِّ البُكْم انتِفاعًا باللُّطْف، لَلَطَفَ بهم، حتىٰ يَسمَعُوا سماعَ الصّدِّقين، ولو لَطَفَ بهم لَمَا نَفَعَ فيهم اللُّطْف، فلذلكَ مَنَعَهم الألطاف،[٥١٤٤] ولو لَطَفَ بهم فصَدَّقُوا لارتَدُّوا ولم يَستَقيمُوا».[٥١٤٥]

> يعني: أنّ قوله: ﴿**لَتَوَلَّواْ**﴾ في معنى عدم انتفاعهم باللّطف، فلا يَرِدُ ما قيل: إنّ قوله: ﴿**لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ**﴾ يدلّ على عدم التَّولّي، وهو خير فيناقض ما سبق من أن الله لم يعلم فيهم خيرًا؛ فإنّه يستلزم انتفاء الخير فيهم ضرورة أنّ عِلم الله مطابق، لكن لا يخفى أنّ الإشكال بحاله، بل أظهر؛ لأنّ قوله: «لَمَا نفع فيهم اللُّطف» يوجب بمقتضى أصل «لو» أن يكون قد يقع فيهم اللُّطف، وهذا خير كلّ الخير، فلا محيص[٥١٤٦] سوى أن يُجعل من قبيل: «نعمَ الرّجلُ صهيب، لو لم يَخَفِ اللهَ لم يعصِه»، أي: لاينفع فيهم اللّطفُ ويكون منهم التّولي على تقدير الإسماع، فعلى تقدير عدمه بطريق الأولى، وأيضًا؛ لا نسلّم أنَّ عدم التولّي لعدم الإسماع خيرٌ. وإنّما الخيرُ أن يسمعوا ويحصلَ منهم التَّصديق لا الإعراضُ، واعلم أنّ سَوق الشَّرطية الأولى هو أنَ الله لو علم فيهم خيرًا لأسمعهم، لكن لم يعلم فلم يُسْمِعْهُم، والثانية أنَّه لو أَسْمَعَهم لَكان منهم الإعراضُ لا التّصديق، فكيف على تقدير عدمه؟ وقد يُتوهّم أنّهما مقدّمتان لقياس اقتراني هكذا: لو عَلِم فيهم خيرًا لَأسمعهم، ولو أسمعهم لتولّوا، ينتج لو عَلِم فيهم خيرًا لتولّوا، وفساده بيّنٌ؟ وأجيب: بأنّه إنما يلزم النتيجةُ الفاسدةُ لو كانت الثانيةُ كلّيةً وهو ممنوعٌ، وهذا المنع وإن صحَّ في قانون النَّظر إلا أنَّه خطأٌ في تفسير الآية لابتِنَائه على كونِ المذكور قياسًا مفقود شرائط الإنتاج،[٥١٤٧] ولا مساغَ لحَملِ كلامِ الله على ذلك.[٥١٤٨]

وعبارة بعض الأمثال في تقرير الإشكال أنّها في صورة قياس شرط، فإذا حذفناه الحد الأوسط بقيت النتيجة: لو علم الله فيهم خيرًا لَتولّوا، ولكن كلمة «لو» وضعت للدَّلالة على انتفاء الشئ لأجل انتفاء غيره، فيكون التَّولي منتفيًا لأجل انتفاء

[٥١٤٠] ج– كلّ.

[٥١٤١] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٣٨٥/١؛ **عرائس البيان** للبقلي، ٥٢١/١.**التيسير في التفسير** للنسفي، ١٧٢/٧.

[٥١٤٢] ج: نفى.

[٥١٤٣] **روح البيان** للبرسوي، ٣٢٩/٣.

[٥١٤٤] ج + أو.

[٥١٤٥] **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٢/٢-٢٠٣.

[٥١٤٦] ج: يختصّ.

[٥١٤٧] ج: مفقودًا بشرائط الإنتاج.

[٥١٤٨] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٥و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٨٩/٤.

علم الله الخير فيهم؛ بل لأجل انتفاء الخير فيهم. لكن انتفاء التّولّي خير من الخيرات، فأوّل الكلام يقتضي نفي الخير عنهم، وآخر الكلام يقتضي حصول الخير فيهم، وهذا تناقض والجواب المنع من أنّ الحدّ الأوسط مكرّر؛ لأنّ المراد بالإسماع الأوّل إسماع التّفهم وإلزام القبول، والمراد بالإسماع الثاني صورة الإسماع فحسب.[٥١٤٩]

وقريبٌ من هذا التقرير ما قال صاحبُ **الانتصاف**: «إطلاق أنَّ اللُّطفَ يحصلُ مِنَ الله للعَبْدِ ولا يَنفَعُه: قبيحٌ مردود، فاللُّطفُ عندنا: أن يخلقَ في قوله[٥١٥٠] قَبُولَ الحقِ والإصغاءَ له، وهذه عقيدةُ أهل الحقِّ، ولو بُحِثَ معه على مَذهَبه لم يَستَقِمْ قولُه: «لو عَلِمَ الله فيهم خيرًا لَلَطفَ بهم، ولو لَطَفَ لَتَولَّوْا»، فيلزمُ تولّيهم على تقدير عِلمِ الخيرَ، فيجبُ أن يُجعَلَ الإسماعُ الواقعُ جوابًا لـ﴿**لَوْ**﴾ غيرَ الإسماع الواقع شرطًا للثاني، أي: ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خيرًا لأسمَعَهم إسماعًا يحصُلُ معه الهدىٰ والقَبُول، ولو أسمَعَهم لا علىٰ أن يَخلُقَ لهم الهدىٰ إسماعًا مُجَرَّدًا لَتولَّوْا».[٥١٥١]

وقال قدّس سرّه: «﴿**وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا**﴾ سعادةً كتبت لهم أو انتفاعًا بالآيات ﴿**لَأَسْمَعَهُمْ**﴾ سماع تفهّم. ﴿**وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ**﴾ وقد علم أن لا خير فيهم. ﴿**لَتَوَلَّواْ**﴾ ولم ينتفعوا به».[٥١٥٢]

وقال ابن الكمال: ﴿**وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ**﴾ شيئًا من جنس الخير ﴿**لَأَسْمَعَهُمْ**﴾ سماع تفهُّمٍ؛ أي: لا يُسمعهم؛ لأنه لا يجدي فيهم نفعًا، فقوله: ﴿**وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ**﴾ أي: لم ينتفعوا به تقرير وتأكيد له، فهو من قبيل العطف على ما قبله باعتبار المعنى. فلا حاجة إلى قيد وقد علم أن لا خير فيهم، ثمّ إنّ التولّي قد يكون للتّردُّد والتّدبُّر. فقوله: ﴿**وَهُم مُّعْرِضُونَ**﴾ تأسيس.[٥١٥٣]

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ [٢٦٣/و] وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)﴾

«الاستجابة»: بمعنى الإجابة، لكن عرف الكلام أن يتعدّى استجاب بلام دون أجاب ﴿**يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ**﴾ [الأحقاف ٣١/٤٦] وقد يتعدّى الأوّل بغيره. قال:

وَدَاعٍ دَعَـا يَا مَـنْ يُجِيـب إِلَى النَّـدَى ... فَلَـمْ يَسْـتَجِبْهُ عِنْـد ذَاكَ مُجِيـب[٥١٥٤]

«والاستجابة»: مجاز عن الطّاعة والامتثال، «والدعاءُ»: عن البعث والتحريض»[٥١٥٥]، ويجوز أن يكونا على معناهما الحقيقتين كما في الرّواية الآتية.

ووحّد الضمير في قوله: ﴿**إِذَا دَعَاكُمْ**﴾ لما سبق في قوله: ﴿**وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ**﴾ ولأنّ دعوة الله تُسمع من الرسول. وقال ابن الكمال: قصد التمهيد يأباه إعادة الصّلة.[٥١٥٦]

[٥١٤٩] **غرائب القرآن ورغائب الفرقان** للنيسابوري، ٣٨٨/٣.

[٥١٥٠] ج: قلبه.

[٥١٥١] **الكشاف** للزمخشري، ٥٦٨/٢-٥٦٩؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٢/٧.

[٥١٥٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٤/٢.

[٥١٥٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٤٩/٤.

[٥١٥٤] **كتاب شرح الشواهد** للشراب، ١٢٧/١؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٨٩/٩.

[٥١٥٥] **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٣/٢؛ ١٣؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٤/٧؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٥٠/٤.

وأمّا فيما سبق فلم يكرّر، فأمكن الحمل على التمهيد. وروي: «أنّه عَلَيْهِ السّلاَمُ مَرَّ علىٰ أُبَيّ وهو يصلّي، فدعاه، فعَجَّلَ فِي صَلاتِه، ثم جاء، فقال: «ما مَنَعَكَ عن إجابتي»؟ قال: كنتُ أُصَلِّي، قال: «ألم تُخبَرْ فيما أُوحِيَ إليَّ: ﴿**ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ**﴾؟!».[5157] أخرجه **الترمذي** عن أبي هريرة، وقال هذا حديث حسن صحيح.

وفي **البخاري** عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ المعَلَّى، «قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فِي المسجيد، فَدَعَانِي رَسُولُ الله فَلَمْ أُجِبْهُ ، ثُمَّ أَجَبْتُ فقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿**اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ**﴾؟ الحديثَ.[5158] وقد يتمسّك به على أنّ ظاهر الأمر للوجوب، وإلّا فلا يتوجّه اللَّوم، ثمّ قيل: إنّ هذا من خصائص النبيّ يجب على الْمُصَلّي إذا دعاه أنْ يجيبه، ولا يبطل صلاته؛ لأنّ إجابته صلاةٌ.

وقيل: استدل به الشافعي على أنّ الفعل الفرض، أو القول الفرض لا يبطل الصلاة إذا أتى به فيها لأمره عليه السلام بالإجابة وإن كان في الصلاة.

وقيل: «إنَّ دعائه كان لأمر لم يحتمل التأخير، وإذا وقع مثله للمُصَلّي فله أن يقطع صلاته».[5159] وقد عُلم من ذلك التفصيل أنّ قولَ المصنّف فيه قولان؛ محلّ تأمّل إذْ يكون الأقوال ثلاثة.

وقال الكوراني:[5160]والقول بأن إجابته لاتبطل الصلاة إذا كان دعاؤه لأمرٍ لا يحتمل التأخير ليس بشيءٍ؛ لأنّ الكلام في الصلاة والانصراف عنها قصدًا مبطل إجماعًا.

وكون الأمر مما لا يحتمل التأخير ليس مخصوصًا به عليه السلام؛ لأنّ من رأى أعمى يقع في بئرٍ يجب عليه قطع صلاته إجماعًا.[5161]

وأنت خبير بأنّ قياس ما نحن فيه على الكلام والانصراف قصدًا قياس مفارق؛ إذ بينهما فرق فارق، وكون الأمر المذكور مخصوصًا به، يجوز أن يكون بالنظر إلى عدم إبطال الصلاة فلا ينافي أن يعمّ بالنَّظر إلى لزوم الانصراف على طريقة القطع لا على طريقة عدم الإبطال.

﴿**لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ متعلّق بـ﴿**دَعَاكُمْ**﴾ أي: لما يحيكم حياة نافعة بها رونق الحياة الطبيعية من العلوم الدِّينية والمعارف اليقينيّة، فإنّ الجهل بمنزلة الموت، والعلم بمنزلة الحياة.

لاَ تُعْجِبَنَّ الجَهُولَ حُلَّتُه ... فَذَا مَيتٌ وَثَوْبُهُ كَفَن
لا يُعْجِبَنّ مَضِيمًا حُسْنُ بِزّتِهِ ... وهَلْ تَرُوقُ دَفينًا جُودَةُ الكَفَنِ

[5156] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٤٩/٤.

[5157] **سنن الترمذي**، ٥/٥ (٢٨٧٥).

[5158] **صحيح البخاري** ، ١٧/٦ (٤٤٧٤).

[5159] **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٣/٢.

[5160]هو شمس الدّين أحْمَد بن إسماعيل الكوراني شمس الدّين شيخ الإسلام الرُّومِي الْحَنَفِيّ توفى سنة ٨٩٣ ثَلَاث وَتِسْعين وَثَمَانمِائَة لَهُ من التصانيف الدُّرَر اللوامع فِي شرح جمع الْجَوَامِع للسبكي فِي الأصول.رِسَالَة فِي الرَّد على منلا خسرو فِي الْوَلَاء.شافية قصيدة فِي الْعرُوض، العبقري تعليقة على حرز الاماني للشاطبي، غَايَة الأماني فِي تَفْسِير الْكَلَام الرباني،كشف الأسرار عَن قِرَاءَة ائمة الأعصار فِي شرح منظومة الجزرى، الْكَوْثَر الجارى على رياض البُخَارِيّ وَهُوَ شرح الْجَامِع الصَّحِيح فِي مجلدات، المرشح شرح الكافية لِابْنِ الْحَاجِب فِي النَّحْو. **هدية العارفين**، ١٣٥/١.

[5161] **غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني** للكوراني، ٦٣/٣-٦٤-٦٥.

وَالْجَهْــــلُ مَوْتُـــــهُ وَالْجَاهِـــلُ ميّـــت   وَإِنْ لَمْ يُـدْفَنْ بَيْتُـهُ قَـبْرٌ وَثَوْبُـهُ كَفَـن.[٥١٦٢]

وقيل: من الإيمان؛ لأنّ الكافر ميّت فيحيى بالإيمان، وقيل: من القرآن؛ لأنّه حياة القلوب، وفيه النَّجات والعصمة في الدّارين، وقيل: من الحقّ، أو حياة طبيعية من الجهاد؛ لأنّه سبب البقاء؛ إذ لو رفضوا الأعداء لَغلبوهم، أو حياة أبديّة، ولّذة سرمديّة في النعيم الدَّائم من العقائد السنيّة، والأعمال القلبيّة، سيّما الشهادة في سبيل الله بقوله: ﴿**بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ [آل عمران ١٦٩/٣].

وقال عارف: استجيبوا لله بسرائركم، وللرّسول بظواهركم. حياة النفوس بمتابعة الرسول، وحياة القلوب بمشاهدة الغيوب وهو الحياء من الله برؤية التَّقصير.[٥١٦٣]

﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾

يقال: حال بين الشّيئين إذا دفع أحدهما عن الآخر. تمثيلٌ لغاية قربه من العبد علمًا كقوله:[٥١٦٤]﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ**﴾ [ق ١٦/٥٠]، فإنّ الحائل بين الشّئ وغيره أقرب إليه منه، وتنبيهٌ على أنّه مطّلع على خفيّات القلوب، فيعلم ما عسى يغفل عنه صاحبُها، ففيه تحذيرٌ شديدٌ، أو حثٌّ على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها قبل أن يحول الله بينه وبين قلبه بالموت أو غيره، وتحذيرٌ عن تأخير الإجابة، وفوت الفرصة، وزيادة ﴿**اعْلَمُوا**﴾ بمزيد التَّأكيد، أو تصويرٌ أو تخييل للتصرف التّامّ بقلوب عباده، فيفْسَخ عزائمَه، ويُغيّر مقاصدَه، ويحول بين الكافر وطاعتِه حتى إذا أراد أن يؤمن، والله لايريد حالَ بينه وبين قلبه، أي: قلّبه كيف يشاء. وكذا إذا أراد المؤمن الكفر ولم يرد الله.[٥١٦٥]

وبالجملة: فالسعيد: مَن أسعده الله، والشّقيّ: من أضلّه الله. وهذا ما ورد به الرواية عن ابن عباس والضّحاك، وشهد به الدّراية؛ لأنَّ أحوال القلب: إمّا العقائد، وإمّا الدَّواعي والإرادات، فالعقائد: إمّا العلم، وإمّا الجهل، أمّا العلم فهو من الله، وأمّا الجهل فلذلك؛ لأن الإنسان لايختار الجهل لنفسه، وأما الدّواعي فحُصُولها إن لم يكن بفاعلٍ لَزم الحدوثُ لا عن محدِث، ولا يجوز أن يكون محدثَهُ العبد، والّا لزم توقُّفُ ذلك القصد إلى قصدٍ آخر، إلى ما لا نهايةَ له، فتعيَّن [**٢٦٣**/ظ] أن يكون الفاعلُ الله.[٥١٦٦] وكذا النّظم الفائق، وسياقُ الآيات راجعٌ إلى إثبات مسألة العلم، وخلْق الدّاعية، كما عليه مذهب أهل السنة؛ فإنّه تعالى لَمّا نصّ بقوله: ﴿**وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا أَسْمَعَهُمْ**﴾ [الأنفال ٢٣/٨]، على أنَّ الإسماعَ لاينفع فيهم؛ تسجيلًا على أولئك الصمِّ البكم؛ منَّ على المؤمنين بما مَنَحهم من الإيمان، ويسَّر لهم من الطاعة، كما قال ع م: «كُلٌّ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له»،[٥١٦٧] يعني: أنّكم لستم مثل أولئك المطبوعون على قلوبهم، فإنّهم إنما امتنعوا عن الطّاعة؛ لأنهم إنَّما خلقوا للكفر، فما تَيسَّر لهم الاستجابة، فأنتم لَمّا منحْتُم الإيمان ووفّقْتم فاستجيبوا الله وللرسول إذا دعاكم لِمَا فيه حياتكم من مجاهدة الكفّار وطلبِ الحياة الأبديّةِ واغتَنمَوا تلك الفُرصة، واعلموا أنّ الله يحول بينه وبين الطاعة، ثمّ يجازيه بالنار في الآخرة. تلخيصُه: أوليتُكم النِّعمةَ فاشكُرُوها ولا تكفُرُوها لِئَلَّا

[٥١٦٢] **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٣/٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٤/٧؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٥٠/٤.

[٥١٦٣] **عرائس البيان** للبقلي، ٥٢٢/١.

[٥١٦٤] ج- كقوله.

[٥١٦٥] **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٤/٢؛ **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٥٢/١٥؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٥/١؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٦/٧؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٥٠/٤.

[٥١٦٦] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٥٢/١٥؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٥/٧-٦٦.

[٥١٦٧] **صحيح البخاري**، ١٥٩/٩-١٦٠ (٧٥٥١).

أُزيلَها عنكم. ويُؤيِّدُ هذا التأويلَ أنَّ أكثر دُعائه عليه السلام: «يا مُقلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قلبي على دِينِك. و قالت أمّ سلمة: ما أكثرُ دُعائِكَ بهذا؟! قال: «يا أُمَّ سَلَمة، إنه ليسَ آدميٌّ إلا وقلبُه بينَ أُصبُعَينِ مِن أصابعِ الرحمن، فمَنْ شاءَ أقام، ومَنْ شاءَ أزاغ». وتصديقه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ [آل عمران ٣/٨].[٥١٦٨]

إذا تقرّر هذا ظهر أنه ليس قول الظالمين بل ردّه قول الجاهلين.

وقيل: في معنى الآية أنّ القوم لَمّا دُعُوا إلى القتال، والجهاد وكانوا في غاية الضّعف والقلّة، ضاقت قلوبهم، وضاقت صدورهم، فقيل لهم: قاتلوا في سبيل الله ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ ليبدّل[٥١٦٩] الخوف أمنًا، والأمن خوفًا، والجبن جرأةً.

﴿وَأَنَّهُ﴾ وأن الأمر، أو وأنّ الله، ويؤيده قوله: ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ «فيجازيكم على النّقير والقطمير من أعمالكم وأحوالكم، قالبيَّةً كانت أو قلبيّةً».

وفيه زيادةُ تحذيرٍ عن التّهاون لأمر القلوب، والتّكاسل في إصلاحها وتصفيتها، وترك الترصّد لتقلّبها، والتقصير بالتأخير والتّراخي، وإليه يشير قوله عليه السلام: «عجّلوا بالصَّلاة قبل الفوت، وعجِّلوا بالطَّاعة قبل الموت».[٥١٧٠]

وعن بعض العارفين: «أنّ الله أشار إلى قلوب أحبائه بأنَّه يأخذها منهم، ويجمعها لهم ويقلبها بصفاته ،كما قال عليه السلام: «قلبُ ابْن آدَمَ بَيْنَ إِصْبِعَيْنِ مِنْ أَصابع الرَّحْمن يقلِّبُها كَيْف يَشَاءُ»،[٥١٧١] فيختمها بخاتم المعرفة، ويطبعها بطابع الشوق.

ويقال: «يحول بينهم وبين قلوبهم؛ لئلّا يكون لهم رجوع إلا إلى الله»[٥١٧٢]

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥)﴾

إمّا نفي، فالنتفاء الإصابة عن الظالمين خاصّةً فتثبت لهم ولغيرهم، فجزم جواب الأمر والنُّون لما فيه من معنى النَّهي، كما في: «انْزِلْ عن الدّابّة لا تَطرَحنَّكَ»؛ لأنَّه وإن كان خبرًا جوابًا للأمر، بمعنى: إنْ تَنْزِلْ لا تَطْرَحْكَ، لكن عدم الطَّرح مطلوبٌ، فأشبه النّهي، وكذا عدم إصابة الفتنة. وأورد بأنّ الشَّرط المقدّر لجواب الأمر مضمون الأمر مثل: «أَسْلِمْ تدخل الجنّة»؛ أي: إنْ تُسْلِمْ تدخل، فالتقدير: إن تَتَّقوا لا تصيبنَّ الظالمين؛ بل تعمُّكم فلا يصحّ. ودفع بأنّه رأي الكوفيّين يقدرون ما يناسب، ولا يلتزمون كونه من جنس الملفوظ؛ ففي: «لَا تَدْنُ من الأسَد يَأْكُلْكَ، إنْ تَدْنُ يأْكُلْكَ»، وفي: «اتقوا لاتصيبنَّكم»، إنْ لم تتقوا تصبكم. والمصنّفان قدّرا شرطًا يستقيم به المعنى لا مضمون الأمر ولا يقتضيه فلا يَتَبيَّن به كون المذكور جواب الأمر. فقيل: المراد أنَّ تقدير: إن تتَّقوا[٥١٧٣] لا تُصِبْكُم وإن أصابتكم لا تصبِ الظّالمين؛ بل تعمّ، فأقيم جوابُ الشرط الثاني مقامَ جواب الشرط المقدَّر الذي هو مضمونُ الأمر لتسبُّبه عنه. وأنت خبيرٌ بأنّ عموم إصابة الفتنة ليس مسبَّبًا عن عدم الإصابة ولا عن الأمر، وقيل: المراد أنّ التقدير: إن لم تتَّقوا أصابتكم

[٥١٦٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٥/٧-٦٦.

[٥١٦٩] ج: فيبدّل.

[٥١٧٠] لم أجده. **تفسير إبن كمال باشا**، ٢٥١/٤.

[٥١٧١] **صحيح مسلم**، ٢٠٤٥/٤ (٢٥٦٤)؛ **المعجم الأوسط** للطبراني، ٣٠٦/٨.

[٥١٧٢] **عرائس البيان** للبقلي، ٥٢٣/١.

[٥١٧٣] ج- تتَّقوا.

–على رأي الكسائ– وإن أصابتكم لا تختصّ الظالمين. وأنت خبيرٌ بأنه لاحاجة إلى اعتبار الواسطة، بل يكفي: إن لم تتّقوا لا تُصِب الظالمين خاصّة.[٥١٧٤]

أو مرفوع صفة ﴿فِتْنَةً﴾ فالنون تشبيه النفي بالنّهي، وهو شاذٌّ ضعيفٌ، ولذلك لم يذكره المص. وذكره قدس سرّه مع ذكره ما فيه أو فيه استئناف جواب قسم، والقسمية صفة لها، أي: فتنة والله لاتصيبَنَّ الظالم بل تعمُّ ودخول النون أيضًا قليلٌ.

وقال أبُو البقاءِ: دخولها على المنفي في غير القسم على الشُّذُوذِ.[٥١٧٥] وظاهرُه أنَّهُ إذا كان في جوابه يَطَّرِد دخولُها، وليس كذلك، فـ﴿مِنْ﴾ للتَّبعيض على هذه الوجوه؛ لأنّ الخطاب لأمَّة والذين ظلموا بعض منهم.

وإمّا نهي فوارد بعد أمر ﴿اتَّقُوا﴾ استقلالًا تأكيدًا وتوضيحًا، أي: لا تتعرّضوا معاشر أصحاب رسول الله للظلم؛ فإنّه سبب إصابة الفتنة التي هي أثر الظلم ووباله، فتصيب الفتنة الظالمين الذين هم أنتم خاصّة بناءً على ظلمكم، وإنّما أصابتهم على ظلمهم خاصّةً دون سائر الناس؛ لأنّ الظُّلم منهم أقبح من الظُّلم من سائر النّاس، ثمّ جعل النهي الفتنة المبالغة، وأقيم الذين ظلموا مُقام ضميرهم؛ تنبيهًا على أنّ سبب إصابة الفتنة إيّاهم هو ظلمهم، ثمّ بيّن الظّاهر بقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾، للدَّلالة على أنّ [**٢٦٤**/و] ظلمهم له خصوصيّة ليست بظلم غيرهم، ثمّ أكّد تلك الخصوصيّة بقوله: ﴿خَاصَّةً﴾، أو واقع صفة لفتنة بتقدير القول كما في قوله:

حَـتَّى إذَا جَـاءَ الظَّـلَامُ فـاخْتَلَطَ   جَـاءُوا بِمَـذْقٍ هَـلْ رَأَيْـتَ الـذِّئْبَ قَـطْ[٥١٧٦]

لأنّ الجملة الطلبيّة لا تقع صفةً إلا بتقدير القول، فيكون المعنى أيضًا نهيًا لهم عن التّعرض للظُّلم على معنى ﴿ٱتَّقُواْ فِتْنَةً﴾، يقال: في حقّها: لا تتعرّضوا للظلم فتصيبكم هي فقوله: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ سواء جعل نهيًا مؤكّدا للأمر، أو نهيًا صفة لفتنة ظاهره أن يكون نهيًا للفتنة. ومعلوم أن ليس المراد ذلك بل نهي للمخاطبين، ثمّ أنّه ليس نهيًا لهم عن إصابة الفتنة إيّاهم؛ لأنّها فعل الفتنة ولا ينتهي أحد عن فعل غيره، بل هو نهي لهم عن سبب إصابة الفتنة إيّاه وهو الظلم.[٥١٧٧]

فـ﴿مِنْ﴾ على هذين الوجهين للتبيين؛ لأنّ الخطاب لبعض الأمّة الذين باشروا الظلم خصوصًا ويعضد هذين قراءة «لَتُصِيبَنّ»؛[٥١٧٨] لأنَّها يشتركان في تخصيص العذاب بالمتعرّضين، ويدلّ على النهي الاستقلالي، وفيه دلالة أيضًا على كون المشهورة جواب قسم وإن اختلفا في المعنى؛ لأنّه على كون المشهورة جواب قسم يكون صفة ﴿فِتْنَةً﴾ على ما ذكرنا، أو يكون كلامًا استقلاليًّا على ما يوحى إليه قولُه قدّس سرّه: يصير المعنى على نفي خصوص الإصابة، وإثبات عمومها، وعلى الشاذة يكون على إثبات خصوص الإصابة خاصّة أصله أن يكون نعتًا لمصدر محذوفٍ أي: إصابةً خاصّةً وهي حالٌ من المستكنّ في: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وعيدٌ شديدٌ، وفي زيادة ﴿وَاعْلَمُوا﴾ مزيد تهديد.[٥١٧٩]

[٥١٧٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٥ظ-٣٧٦و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٩٢/٤-٩٣؛ **نواهد الأبكار** للسيوطي، ٥٣٣/٦.

[٥١٧٥] **التبيان في إعراب القرآن** للعكبري، ٦٢١/٢.

[٥١٧٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٦٤/٧.

[٥١٧٧] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٣٨٢/٤-٣٨٣.

[٥١٧٨] قراءة شاذَة، مروية عن ابن مسعود زيد بن ثابت ابن عالية. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٤.

[٥١٧٩] **تفسير إبن كمال باشا**، ٢٥٢/٤.

وقيل: ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن ظلم منكم، وهذا العقاب لهم في الدنيا خاصّةً بالقتل، والزلازل، والفتن، ولغيرهم في الدّارين.

قال ع م: «إنَّ أمتي أمَّة مرحومةٌ إنما جعل عذابها في القتل والزّلازل والفتن».[٥١٨٠]

وعنه عليه السلام : «إن أمتي أمة مرحومة مغفورلها جعل الله عذابها بأيديها في الدنيا فإذا كان يوم القيامة أعطى الله كلَّ رجلٍ من أمتي رجلًا من أهل الأديان فيقال: هذا فداؤك من النَّار».[٥١٨١] ثمّ اعلم أنه إن فسّرت الإصابة بالذَّنب فأصابتها إصابة أثرها، ووبالها، وإن فسّرت بالعقاب فأصابتها بنفسها، وأنّه إذا أريد بالإصابة الإصابة على وجه العموم ينبغي أنْ يفسّر الفتنة بنحو إقرار المنكر بين أظهرهم؛ لأنّ التّنكير فيها لنوع ما منها، وهذا كما يحكى أنّ علماء بني إسرائيل نُهوا عن المنكر؛ تعذيرًا فعمّهم الله بالعذاب.

وعن ابن عبّاس: هذا في تركه الأمر بالمعروف عند غلَبة المنكر، فيصيب الفسقة بفسقهم وغيرهم بتركهم الأمر بالمعروف.

وهذه الفرقة وإن كانوا مذنبين، لكنّهم ليسوا من الذين ظلموا، أي: باشرا الظّلم.[٥١٨٢] ومن ههنا اندفع السؤال بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام ١٦٤/٥] وأوجبوا هجران بلدان أهل العصيان والهرب منهم إذا لم يتيسّر التّغيير.

قال عليه السلام: «إنَّ اللهَ لا يعذّبُ العامَّةَ بعملِ الخاصَّةِ حتى يَرَوُا المنكرَ بين ظَهْرَانِهِم وهم قادرون على أن يُنْكِرُوه ولا يُنْكِرُونه، فإذا فعلوا ذلك عذّب اللهُ العامَّةَ والخاصَّةَ».[٥١٨٣]

نعم قد يصيب الصالح والطالح، ثم يكون للصالح كفارة، وللظالم عقوبة على أنّ الله يفعل ما يشاء لايسئل عمّا يفعل، ولعلّ فيه حكمًا ومصالح لايطّلع عليها.

قال ع م: «إِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ الْعَذَابَ عَلَى قَوْمٍ، أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ، ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ».[٥١٨٤]

وإذا أريد بها الإصابة على وجه الخصوص ينبغي أن يفسّر الفتنة بنحو: افتراق الكلمة، وهو ما حدث بين أصحاب بدرٍ يوم الجمل، والمخاطبون هم حينئذ خاصّة، نهوا عن القربان منها.

فإذا قيل لك: اتَّقِ فتنةً شأنُها كيت وكيت، أريد: أنّك لو تعرّضت لها أصابتك ألبتَّة، وإن اتقيتَ عنها سلمتَ. وليس معناه: أن تعرُّضك لها سبب لإصابة الغير، ولا تعرّض الغير سبب لإصابتها إيّاك. روينا عن البخاري وغيره عَنِ الْأَحْنَفِ قَالَ: «خَرَجْتُ وَأَنَا أُرِيدُ هَذَا الرَّجُلَ ولَقِيَنِي أَبُو بَكْرة، فَقَالَ : أَيْنَ تُرِيدُ؟ قُلْتُ : أُرِيدُ نَصْرَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ قَالَ: يَا أَحْنَفُ ارْجِعْ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ : «إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ». قَالَ فَقُلْتُ: أَوْ قِيلَ: هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا على قَتْلِ صَاحِبِهِ».[٥١٨٥]

[٥١٨٠] **مسند أحمد**، ٤٥٤/٣٢؛ **المعجم الأوساط** للطبري، ٢٣٠/٤ (٤٠٥٥)؛ **المستدرك** للحاكم، ٢٨٣/٤ (٧٦٤٩).

[٥١٨١] **المعجم الكبير** للطبراني، ٢٩٤/١ (٩٧٤)؛**المستدرك** للحاكم،٤٩١/٤ (٨٣٧٢).

[٥١٨٢] **تفسير إبن كمال باشا**، ٢٥١/٤-٢٥٢.

[٥١٨٣] **مسند أحمد**، ٢٩/ ٢٥٨ (١٧٧٢٠)؛ **شرح السنة** للبغوي، ٣٤٦/١٤ (٤١٥٥).

[٥١٨٤] **صحيح البخاري**، ٥٦/٩ (٧١٠٨).

[٥١٨٥] **صحيح البخاري**، ١٥/١ (٣١)؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٧٢/٧.

وعن الإمام أحمد بن حنبل عن أبي صَيْفِيٍّ وكان له صحبة: أَنَّ عَلِيًّا لَمَّا قَدِمَ الْبَصْرَةَ بَعَثَ إِلَيْهِ: مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَتْبَعَنِي؟ قَالَ: أَوْصَانِي خَلِيلِي، وَابْنُ عَمِّكَ قَالَ: إِنَّهُ سَتَكُونُ فُرْقَةٌ وَاخْتِلَافٌ، فَاكْسِرْ سَيْفَكَ، وَاقْعُدْ فِي بَيْتِكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ يَدٌ خَاطِئَةٌ أَوْ مَيِّتَةٌ قَاضِيَةٌ ، فَفَعَلْتُ مَا أَمَرَنِي، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تَكُونَ الْيَدَ الْخَاطِئَةَ ، فَافْعَلْ» [**٢٦٤**/ظ].[٥١٨٦]

والمقام يقتضي هذا القول؛ لأنَّ قوله: ﴿**اتَّقُواْ فِتْنَةً**﴾، عطف على قوله: و﴿**اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ أي: لمجاهدة أعداء الذين، واتّفاق الكلمة فيما بينكم واتّقوا المخالفة لتمكّنوا على المجاهدة.[٥١٨٧]

وقال عارف: حذّر الله أهل القصّة من الدعاوى الكاذبة، وهى التى لم يبلغ صاحبها الى ما تدّعى من المقامات، فيفتتن بها هو وغيره من المريدين، فإنّ من أظهر شيئًا من نفسه، ولم يكن أهل ذلك، فهو يحتجب به عن كلّ مقصودٍ.

ويُضلّ من يقتدي به ممن لا يعرف الحقّ من الباطل، قال ع م: «المُتَشَبِّع بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَي زُورٍ».[٥١٨٨]

وأيضًا: «إذا باشر زلّة بنفسه، عاد إلى القلب منه الفتنة، وهى القسوة،[٥١٨٩] وتصيب النفس من الفتنة العقوبة، والقلب إذا حصل منه زلّة، وهو همّه فيما لا يجوز يتأدى فتنته الى السرّ، وهي الحُجبة».[٥١٩٠]

﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)**﴾

﴿**إِذْ أَنتُمْ**﴾ نصبٌ على أنّه مفعول به مذكورٌ، فقوله: مذكور تاكيد لقوله: مفعول به، لأنّ مفعول ﴿اَذْكُرُوٓاْ﴾ مذكور، كما أنّ مفعول أضرب مضروب، أي: اذكروا وقت كذا. فدلّ على أنّها ليست من الأسماء اللازمة الظرفية، ومَن التزم ذلك جعلها ظرفًا بمعنى: اذكروا الحادث فيه، وهو مضمون ما أُضيف إليه الظرف، وإذا تحقّقت فهذا أوفى بالمقصود.[٥١٩١]

﴿**قَلِيلٌ**﴾ في أوّل الإسلام قبل أن تكملوا أربعين، وقيل: قبل الهجرة، والخطاب للمهاجرين.

﴿**مُسْتَضْعَفُونَ**﴾ مقهورون. ﴿**فِي الْأَرْضِ**﴾ في أرض مكّة، لم يقل: «ذليل» مع ما فيه من حسن الازدواج ب﴿قَلِيلٌ﴾؛ تفادياً عن إطلاقه على ما هو عزيزٌ بعزّة الإسلام.[٥١٩٢]

﴿**تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ**﴾كفّار قريش أو من عداهم؛ فإنهم كانوا جميعًا معادين لهم مضادِّين.والجملة خبرٌ ثالثٌ، أو صفة ل﴿قَلِيلٌ﴾؛وصف بالمفرد ثم وصف بها، أو حالٌ من ضمير ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ﴾.

والتخطّف: الأخذ والإنتزاع بسرعة. ﴿**فَآوَاكُمْ**﴾ إلى المدينة، وجعل لكم مأوًى تتحصّنون به من أعدائكم. يقال: أوى بالقصر إذا انضم وبالمدّ إذا ضمّ.

[٥١٨٦] **مسند أحمد ابن حنبل**، ١٧٨/٤٥ (٢٧٢٠٠).

[٥١٨٧] **فتوح الغيب** للطيبي، ٧٢/٧-٧٣.

[٥١٨٨] **صحيح البخاري**، ٣٥/٧ (٥٢١٩). **عرائس البيان** للبقلي، ٥٢٣/١.

[٥١٨٩] ج + المعجلة.

[٥١٩٠] **لطائف الإشارات** للقشيري، ٣٨٨/١؛ **عرائس البيان** للبقلي، ٥٢٤/١.

[٥١٩١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٦و-ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٩٤/٤.

[٥١٩٢] **تفسير إبن كمال باشا**، ٢٥٢/٤-٢٥٣.

﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ على الكفّار بنحو مظاهرة الأنصار، و بإمداد الملائكة يوم بدرٍ. ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَاتِ﴾ من الغنائم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لكي تشكروا هذه النِّعَم الجليلة فكيف يصحّ منكم الاشتغال بنحو المنازعة في الأنفال، وبهذا يظهر ما وعدنا في أول السورة من أنّ مدارها على تعداد النعمة وتذكار المنّة.[٥١٩٣]

وعن قَتادة: كان هذا الحيُّ مِنَ العربِ أذلَّ الناس، وأشقاهم عَيْشًا، وأعراهُم جِلْدًا، وأبيَنَهم ضَلالًا، لا يُؤَكِّلُون ولا يَأكُلون، فمَكَّنَ اللهُ لهم في البلاد، ووَسَّعَ لهم في الرِّزقِ والغنائم، وجَعَلَهم مُلُوكًا.[٥١٩٤]

قال في **أساس**: «مأكولُ حِميَرَ خيرٌ من آكِلِها، أي: رَعِيَّتُها خير مِن واليها. وهو مِن ذوي الآكال، أي: مِنَ السَّاداتِ الذين يأكُلونَ المِرْباعَ، ولمَّا قال الممثقّب:

فـإنْ كُنـتُ مـأكولًا فكُـنْ خـيرَ آكِـلٍ   وإلا فـــأدرِكْني ولمَّـــا أُمَـــزَّق

قال له النُّعمان: «لا آكُلُكَ ولا أُوكِلُكَ غيري».[٥١٩٥]

المِرباعُ: «الرُّبُع، كان الأميرُ في الجاهلية يأكلُ رُبُعَ الغَنيمة، فخمَّسَتْها الشريعة».[٥١٩٦]

وقيل: الخطاب لعامّة العرب. أي: واذكروا إذ أنتم أقلة وأذلة في أيدي فارس والرّوم، فجعل الله لكم مأوى تتحصنون به من أعدايكم فنصركم بنصرة نبّه، ورزقكم من الغنائم والحلالات؛ فينبغي أن تطيعوا رسوله، ولا تخالفوا أمره، وتشكروا هذه النِّعم بالطاعة، ولاتكفروها بالخروج عن دائرة الإطاعة، وعلى تقدير كونه الخطابَ لقريشٍ يكون المعنى: فآويكم إلى الحرم ويؤيده قوله تع: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ ﴿وَرَزَقَكُمْ مِّنَ ٱلطَّيِّبَاتِ﴾ من الثمرات لقوله: ﴿وَارْزُقْهُمْ مَنَ الثَّمَرَاتِ﴾.

وقيل:لَمَّا آثار رسول صلى الله عليه وسلّم بعض المؤلفة بالعطاء بعد حنينٍ ولم يُعط الأنصار شيئًا، قالوا: العجب إن قريشًا تقطُر سيوفنا من دمائهم وتُرَدُّ غنائمُنا إليهم، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فجمعهم في قبة، وقال: ما حديث بلغني عنكم قالوا: هو الذي بلغك قال: ألم تكونوا فقراء فأغناكم الله بي ألم تكونوا ضلالًا فهداكم الله بي وكلّما قال كلمة قالوا: الله ورسوله أعلم. ثم قال والله إني لأعطي رجالًا أتألفهم إلى الإسلام أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبون برسول الله فيكم المحيا وفيكم الممات.

وقال القشيري: «رَزَقَ الأشباحَ من طيبات الغذاء، ورزق الأرواح والسرائر من صنوف الضياء».[٥١٩٧]

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)﴾

[٥١٩٣] **الكشاف** للزمخشري، ٢/٢٠٤؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/١٦؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/٢٥٢-٢٥٣.

[٥١٩٤] **الكشاف** للزمخشري، ٢/٢٠٦.

[٥١٩٥] **أساس البلاغة** للزمخشري، «أكل».

[٥١٩٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٧/٦٥-٦٦.

[٥١٩٧] **لطائف الإشارات** للقشيري، ١/٣٩٠

﴿لاَ تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ بتعطيل الفرائض والسنن، فإنها أماناتٌ ائتمن عليها العبادُ؛ لتحافظوا على أدائها برعاية حدودها، وحقوقها، فمن ضيّعها فقد خان فيها، أو بإضمار خلاف ما ظهر[**٢٦٥**/و] كاستبطان الكفر، وإظهار الإيمان، واستسرار عدم الخوف وإظهاره، أو بالغلول في الغنائم؛ فإنها عطيّة الله أمر رسوله بقسمته، فمن خان فيهما فقد خانهما، أو بإفشاء أسرار المؤمنين إلى المشركين فلذلك.

قيل: نزلت في حاطب ابن أبي بلتعة حين كتب إلى أهل مكّة خروج النبي إليها، أو في رجلٍ كتب إلى أبي سفيان لَمّا خرج من مكّة، فعلم النبي عليه السلام. والأوَّل أعمُّ وَأشْمَلُ.[٥١٩٨] «والمشهور نزولها في أبي لُبابة،وقصته في التّفاسير. وقيل: نزلت في قتل عثمان.

وأصل الخون: النّقص، كما أنّ أصلى الوفاء التّمامُ. ومنه تخوَّنه، إذا تنقّصه، ثم استُعمل في ضد الأمانة والوفاء؛ لأنّكإذا خُنتَ الرجلَ في شيءٍ فقد أدخلتَ عليه النُّقصانَ فيه، وقد استُعيرَ. فقيل: خانَ الدَّلْوَ الكَرَبُ.[٥١٩٩]

والكَرَب: حبلٌ قصيرٌ يُوشدّ بالرِّشاء ويكون على العَرَاقي، سُمّيَ كَرَبًا؛ لأنه يكرب أي: يَقرُبُ مِنَ الدَّلْو.

«وخانَ المشتارَ السَّبَبُ»:[٥٢٠٠] والْمُشْتار: مجتّبى العَسَل، والسَّبَب: ما يُتوصَّلُ إليه.[٥٢٠١]وذلك «لأنه إذا انقطع به فكأنّه خانه لَمْ يَفِ به».[٥٢٠٢] فيكون استعارة متفرّعة على مجازٍ.

وقيل: «الخيانة»: تطلق للذَّنب في الإسلام، كهذه الآية.

وفي السّرقة، كقوله: ﴿وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء، ١٠٥/٤].

وفي نقض العهد، كقوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ [الأنفال، ٥٨/٨].

وللمخالفة، ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم -١٠/٦٦].

وللزّنا، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف، ٥٢/١٢].

﴿وَتَخُونُواْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ «فيما بينكم؛ أي: لايصدرُ منكم خلافُ ما هو من حكم الإيمان».[٥٢٠٣]

وقيل: ائتمنكمالله عليه من فرائضه وخدوده.

قال الكلبي: أما خيانة الله ورسوله فمعصيتهما وأما خيانة الأمانة. وكلّ واحد مؤتمن على ما افترضه الله عليه، إن شاء خانها وإن شاء أدَّاها لا يطَّلع عليه أحد إلا الله.[٥٢٠٤]

[٥١٩٨] **اللباب** لابن عادل، ٤٩٧/٩.

[٥١٩٩]**الكشاف** للزمخشري، ٢٠٦/٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٦/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٥٣/٤-٢٥٤.

[٥٢٠٠]**الكشاف** للزمخشري، ٢٠٦/٢.

[٥٢٠١]**فتوح الغيب** للطيبي، ٧٩/٧.

[٥٢٠٢]**الكشاف** للزمخشري، ٢٠٦/٢.

[٥٢٠٣]**تفسير ابن كمال باشا**، ٢٥٤/٤.

[٥٢٠٤]**التيسير في التفسير** للنسفي، ١٨٤/٧.

وقال قتادة: «اعلموا أنّ دين الله أمانة فأدُّوا إلى الله ما ائتُمنكم الله عليه من فرائضه وحدوده، ومن كانت عليه أمانة فليُؤدِّها إلى من ائتمنه عليها».[٥٢٠٥]

ومنه الحديث: «أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ ، وَلا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»،[٥٢٠٦] أخرجه أبو داود. وقال: حديث حسن غريب.

وكان عليه السلام يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ؛ فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ، وَمِنَ الْخِيَانَةِ؛ فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ»،[٥٢٠٧] أخرجه النسائي.

وقرئ «أَمَانَتِكُمْ»[٥٢٠٨] اكتفاءً بالجنس وهو مجزومٌ بالعطف على الأوّل، داخلٌ في حكم النّهي، أو منصوبٌ على الجواب بعد الواو الواقعة بعد النهي، أي: لاتجمعوا بينهما كقوله:

لا تَنْــهَ عَــنْ خُلُــقٍ وتأتِيَ مِثلَــه　　　عَــارٌ عليْــكَ إذَا فَعَلْــتَ عَظِــيمُ

والجزمأولى؛ لأن فيه النهي عن كلِّ واحدٍ على حدته بخلاف النَّصب؛ فإنَّ النهى عن الجميع لا يسلزمُالنهي عن كلِّ واحدٍ[٥٢٠٩].

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وباله، أو أنّكم تخونون، يعني: توجد الخيانة منكم عن تعمّدٍ، أو قُبح القبيح، وحسن الحسن،[٥٢١٠] فمفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾ «مقدّر منويّ بقرينة السباق في الوجه الأوّل، والثاني وغير منويّ بمنزلة اللازم في الثالث، فقوله: «قُبح القبيح» مقدر من جهة الالتزام، لا أنَّه مفعولٌ منويّ، يعني: إذا كنتُم علماءَ من أهلِ المعرفةِ فلِمَ تُباشِرونَه»؟![٥٢١١]

وقال بعض العارفين: «من خان الله فى السّرّ هتك ستره فى العلانية. وأيضًا: خيانة الله فى الأسرار من حبِّ الدنيا، وحبّ الرياسة، وإظهار خلاف الإضمار، وخيانة الرسول فى آداب الشّريعة، وترك السّنن والتّهاون بها، وخيانات الأمانات فى المعاملات والأخلاق، ومعاشرة المؤمنين فى ترك النصيحة لهم.[٥٢١٢]

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)﴾

بليّةٌ وآفةٌ لكونهم أسبابًا مؤديةً إلى الوقوع فيها بارتكاب المعاصي في الدنيا، والوقوع في العقاب في العقبى، أو محنةٌ يمتحن اللهُ بها عبادَه؛ ليظهر من اتّبع الهوى عمَّن آثر رضاء المولى، فلا يحملنّكم حبّهم على ترك الطّاعة، وارتكاب الخيانة، كأبي لُبابة، وتقديم الأموال لعمومها في الناس، ولكونها شقيق الرّوح.

[٥٢٠٥] **معالم التّنزيل** للبغوي، ٣٤٨/٣.

[٥٢٠٦] **سنن أبو داود**، ٣٩٥/٣ (٣٥٣٥).

[٥٢٠٧] **سنن النسائي، ٢٦٣/٨ (٥٤٦٨) (٥٤٦٩).**

[٥٢٠٨] قراءة شاذَة، مروية عن ابن مسعود ومجاهد. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٤.

[٥٢٠٩] **اللباب** لابن عادل، ٤٩٧/٩.

[٥٢١٠] **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٦/٢.

[٥٢١١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٧٩/٧.

[٥٢١٢] **عرائس البيان** للبقلي، ٥٢٥/١.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ بأن آثر رضا الله وحبّه رضاهم وحبّهم، وراعى حدوده فيهم، فأنيطوا هِمَمكم بما تؤديكم إليه. ولا تَحرِصُوا علىٰ جَمْعِ المالِ وحُبِّ الأولاد، حتىٰ تُورِّطُوا أنفُسَكُم مِن أجلِهما، فقوله: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ كقوله: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ كقوله: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ﴾ [الكهف، ١٨/٤٦].

وفي قوله: ﴿عِندَهُۥٓ﴾ تشريفٌ للأجر المذكور، وبيانٌ أنّه في مقرّ الغاية، ومحلّ الكرامة، وأنّ ذلك مصونٌ عن الضّياع والزّوال محفوظ بحفظ الله الباقي المتعال.

وبالجملة: ففيه إرشادٌ إلى أنّه يجب على العقل أنْ يَحْذَرَ من المضارّ المتولّدة من حبّ المال، والولد؛ لأنَّ ذلك شغل القلب، ويصيّره محجوبًا عن خدمة المولى. وهذا من أعظم الفتن.

روى البغوي سنده عن عائشة «أن النبي عليه السلام أُتي بصبي فقبَّله، وقال: «أما إنّهم مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ وإنّهم لَمِنْ ريحانِ اللّهِ».[٥٢١٣]

وَعَنْ خَوْلَة قَالَتْ: «خَرَجَ النبيّ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ مُحْتَضِنٌ أَحَدَ ابْنَيْ ابْنَتِهِ وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّكُمْ لَتُبَخِّلُونَ وَتُجَبِّنُونَ وَتُجَهِّلُونَ، وَإِنَّكُمْ لَمِنْ رَيْحَانِ اللّهِ» [**٢٦٥**/ظ][٥٢١٤] أي لمن رزق.

وفي **الخبر**: «إن العبد ليوقف عند الميزان وله من الحسنات أمثال الجبال فيسأل عن رعاية عياله والقيام بحقهنّ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، حتى يستغرق بتلك المطالبات كل أعماله، فلا تبقى له حسنة، فتنادي الملائكة: هذا الذي أكل عياله حسناته في الدنيا وارتهن اليوم بأعماله».[٥٢١٥] ويقال: إن أوّل ما يتعلّق بالرّجل في القيامة أهله وولده فيوقفونه بين يدي الله تعالى ويقولون: يا ربنا خذ لنا بحقّنا منه، فإنَّه ما علّمنا ما نجهل وكان يطعمنا الحرام.[٥٢١٦]

وقال ع م: «أَخِلَّاءُ ابْنِ آدَمَ ثَلَاثةٌ، وَاحِدٌ يَتْبَعُهُ إِلَى قَبْضِ رُوحِهِ، وَ الثَّانِي يَتْبَعُهُ إِلَى قَبْرِهِ، وَ الثَّالِثُ يَتْبَعُهُ إِلَى مَحْشَرِهِ. فَالَّذِي يَتْبَعُهُ إِلَى قَبْضِ رُوحِهِ فَهو مَالُهُ، وَالَّذِي يَتْبَعُهُ إِلَى قَبْرِهِ فَهو أَهْلُهُ، وَ الَّذِي يَتْبَعُهُ إِلَى مَحْشَرِهِ فَهو عَمَلُهُ».[٥٢١٧]

وروي أنّ محمّد بن كعب القرظيّ أصاب مالًا كثيرًا، فقيل له: لو ادَّخرتَه لولدك من بعدك، قال: لكن أدّخره لنفسي وأدخر لولدي.[٥٢١٨]

قال الحواريون لعيسى بن مريم: مالك تمشي على الماء ولا نقدر نحن على ذلك؟ فقال لهم: ما منزلة الدينار والدرهم عندكم؟ قالوا: حسنة، قال: لكنهما عندي والمدر سواءٌ.[٥٢١٩]

وقال بعض العارفين: بيّن سبحانه أنّ من اتّكل إلى المال في معيشته، وتولَّى إلى أولاده فى طلب نصرته، فقد افتتن فى طريق الله بغير الله.

[٥٢١٣] **معالم التّنزيل** للبغوي، ٣/٣٤٨.

[٥٢١٤] **سنن الترمذي**، ٣/٤١٧ (١٩١٠).

[٥٢١٥] **تخريج أحاديث إحياء علوم الدين** للزبيدي، ٢/٩٦٣. قال العراقي: لم أقف له على أصل.

[٥٢١٦] **إحياء علوم الدين** للغزالي، ٢/٣٨.

[٥٢١٧] **تخريج الإحياء**للعراقي، ٣/٢٨٧؛

[٥٢١٨] **إحياء علوم الدين** للغزالي، ٣/٢٣٤.

[٥٢١٩] **إحياء علوم الدين** للغزالي، ٣/٢٣٣.

وأيضًا: «أموالكم»: فتنة إن جمعتم وأمسكتم، ونعمة إذا أنفقتم، وبذلتم فى وجوه الخيرات.

وقال بعضهم: «المال» فتنة لمن طلب الفتنة، ونعمة لمن كان خازنًا لله فيه يأخذه بأمره، ويخرجه بأمره الى اربابه.

وقال أبو الحسين الورّاق: ما اعتمدت سوى الله من الدنيا والاخرة، فهو فتنة حتى تُعرض عن الجميع، وتُقبل إلى مولاك، وتعتمد عليه.[٥٢٢٠]

وعن النبيّ عليه السلام: «حبُّ المال والشرف ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل».[٥٢٢١].

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامَ: «مَا ذِئْبَانِ ضاريان أرسلا في زريبة غَنَمٍ بِأَكْثَرَ فيها فسَادًا فِيهَا مِنْ حُبِّ الْمَالِ وَالْجَاهِ فِي دِينِ الْمُسْلِمِ».[٥٢٢٢]

وَقَالَ عَلَيْهِ السَلام: «هَلَكَ الْأَكْثَرُونَ مالًا إِلَّا مَنْ قَالَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ هكذا وهَكَذَا وهكذا وقليلٌ مَا هُمْ».[٥٢٢٣]

وقال علَيْهِ السَّلام: «شَرُّ أُمّتي الأغْنِيَاءُ».[٥٢٢٤]

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾

لَمّا حذّر الله عن الإنهماك في محبّة الأموال والأولاد رغّب في تقوى الله باتّباعأوامره واجتناب نواهيه، وترك الشبهات؛ مخافة الوقوع في المحرّمات، وشحن القلب بالنّيّة الخالصة، والجوارح بالأعمال الصالحة، والتحفّظ عن شوائب الشرك الخفيّ، والظاهر بمراعاة غير الله في الأعمال والرّكون إلى الدنيا في الغفلة عن المآل؛ فإنّ من حصل التقوى جعل الله ما يتميّز به عن غير المتّقين في الدنيا والآخرة.

أمّا في الدنيا فبأن يهدي قلبه، وينوّره بنور المعرفة واليقين، وبأن ينصره ويذلّ المبطلين، وبأن ينصب له براهين قاطعةً يتفصى بها عن الشبهات في أمر الدّين، وبأن ينجيه عمّا يخافه، وبأن يظهر شأنه، ويُعلي قدره، وأمّا في الآخرة فظاهرٌ، فكما أنّها فرقانٌ يُفرق بها بين المتّقي وغيره، فهي أيضًا فرقانٌ بالنسبة إلى نفس المتّقي مع قطع النظر عن قسمة.

فإنّ الهداية فرقانٌ له يفرق بها بين الحقّ والباطل، وكذا النصر إذ يفرق به أنّه على الحقّ، والمنصور عليه على الباطل، وكذا المخرج والنجاة فإنّهما يفرقان بينه وبين الشبهات، وما يخاف منه.[٥٢٢٥]

والفرقان: مصدر بمعنى الفرق كالرجحان والنقصان، ولكن فيه مبالغةٌ أطلق على ما يكون سببًا للفرق والتمييز بين الأمرين، ثمّ إنّ الحمل على جميع هذه المعاني، أو إلى من الحمل على أحدها؛ لأنّها كالخامة بجميع ما سبق بدليل عوده إي بدء القصّة، وهو قوله: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ فـ«أو» في كلام المصنّفين ينبغي أن يحمل على التّخيير، نحو: جالس الحسن أو ابن سيرين

[٥٢٢٠] **عرائس البيان** للبقلي، ٥٢٥/١.

[٥٢٢١] **كتاب تخريج أحاديث إحياء علوم الدين** للزبيدي، ٣٨٥/٤.

[٥٢٢٢] **إحياء علوم الدين** للغزالي، ٢٣٨/٣؛ **كتاب تخريج أحاديث إحياء علوم الدين** للزبيدي، ٣٨٥/٤.

[٥٢٢٣] **كتاب تخريج أحاديث إحياء علوم الدين** للزبيدي، ٣٨٦/٤.

[٥٢٢٤] **كتاب تخريج أحاديث إحياء علوم الدين** للزبيدي، ٣٨٥/٤.

[٥٢٢٥] **حاشية محي الدين شيخ زاده**، ٣٨٥/٤.

وقيل: إرادة الجميع من المنكر وليس من المنواطي فمنكم، وفيه تأمّلٌ.

﴿**وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ وسترها في الدّنيا ﴿**وَيَغْفِرْ لَكُمْ**﴾ ذنوبكم بالتّجاوز والعفو عنها في العقبى.

وقال ابن الكمال: «الكفر للصغائر، وأراد به الإزالة، ولذلك قال: ﴿**عَنكُمْ**﴾، وهي بالحسنات لقوله: ﴿إِنّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السّيِّئَاتِ﴾ [هود ٢/١١٤].

والكفر بالكبائر، وهو السّتر، ضمّنه معنى الرّحمة ولذلك قال: ﴿**لَكُمْ**﴾، وكنّى به عن التّجاوز والعفو عنها، وذلك بالإستغفار والشفاعة.[٥٢٢٦]

وقيل: المراد ما تقدّم وما تأخر؛ لأنّها في أهل بدرٍ، وقد غفرها الله لهم.

﴿**وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ**﴾ «تنبيه على أن ما وعد لهم على التّقوى تفضّل منه وإحسان، وأنه ليس مما يوجب تقواهم عليه، كالسيد إذا وعد عبده إنعامًا على عملٍ».[٥٢٢٧] أو تقرير لما وعده، وتأكيد لما أعدّه؛ فإنّه لَمَّا كان ذا فضلٍ عظيمٍ، كان وافيًا بما وعد أحسن الوفاء. ﴿**وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ**﴾ [الحديد ٥٧/١٢٨].

وقال ابن الكمال: ﴿**ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ**﴾ باللّطف الوافي في الدنيا، والإحسان الباقي في دار القرار، لما عرفتَ أنّ العبد [**٢٦٦**/و] أعطي جزاء حسناته بإزالة سيّئاته، فكان وصل إليه من اللطف والإحسان فضلًا من الله، ووعده على التّقوى أيضًا تفضلٌ، فإطلاق الأجر على ما وعده في مقابلته بطريق الإستعارة».[٥٢٢٨]

وقال غيره: ومن عظم فضله أنّه يتفضل بذاته من غير واسطة، وبدون التماس عوض، وكلّ متفضّل سواه لايتفضّل إلا بعد أن خلق الله فيه داعية التفضّل، وبعد أن تمكّن المتفضّل عليه من الإنتفاع بذلك، وبعد أن يكون قد تصوّر فيه ثوابًا، أو ثناءً، أو حمله على ذلك رقّة القلوب، أو عصبيّة، ولافضلَ ح في الحقيقة إلا الله، ولهذا وصفه بالعظم.

وقيل: «يتفضّل على الطّائعين بقبول الطّاعات، وعلى العاصين بغفران السيئات. وقيل: معناه أنّ بيده الفضل العظيم فلا يطلب من عند غيره».

وقال الجنيدي: إذا اتّقى العبدُ ربّه جعل له تبيانًا يتبيَّن به الحق من الباطل، وهذه نتيجة التقوى.

فقيل له: اليس التقوى فرقانًا؟ قال: بلى، الأول: بذاته، والثاني: اكتساب، فإذا اتّقى الله، اكتسب بتقواه معرفة التّفرقة بين الحق والباطل، فيتبيّن هذا من ذاك.

وقيل: العلماء في فرقان برهانهم، والعارفون في فرقان إلهامهم، فهؤلاء في مجهود نفسهم، وهؤلاء في جود ربهم، والفرقان تعريف، والتّكفير تخفيف، والغفران تشريفٌ.[٥٢٢٩]

﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)**﴾

[٥٢٢٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/٢٥٥.

[٥٢٢٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/١٧.

[٥٢٢٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/٢٥٦.

[٥٢٢٩] **عرائس البيان** للبقلي، ١/٥٢٦.

لَمّا ذَكّر ما منّ به عليه من قهر العدوّ بالقتل والأسر، وردّ أمر الغنيمة إليه، وأمر المؤمنين بطاعته واستجابة دعائه، والمسارعة إلى امتثال أوامره ذكره سوابق نعمة من انجائه من مَكْرَ قُرِيشٍ به حينَ كانَ بمكَّة، ليَشكُرَ نِعْمَةَ الإنْجَاء مِن مَكْرِهِم واستيلائِهِ عليهم، وما أتاحَ اللهُ مِن حُسْنِ العاقبة، أو لَمّا ذَكّر المؤمنين نعمة عليهم بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ ذكر ذلك على طريقة العطف عليه؛ لأنّ نعمة الله عليه نعمة لهم، وبذكره بذكرهم، والمعنى: اذكُروا ذلك الوقت، أو الحادث في ذلك الوقت.

والمكر: القتل إلى جهة الشرّ في خفّة، والفرق بينه وبين الغدر، أنّ الغدر ينقض العهد الذين يجب الوفاء به، والمكر قد يكون ابتداءً من غير عقدٍ.

﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ متعلّق بـ﴿يَمْكُرُ﴾، والإثبات: إلزام الشئ بموضعٍ؛ فذلك فسّر شدّه بوثيقه بالوثاق؛ لأنّ من شدّ فقد أثبت وبحبسه كماهو رأي أبي البَختري من أصحاب المكر، وبإثخانه، أي: توهينه، وإصفاقه بالخرج، بحيث[٥٢٣٠] لايقدر معه على الحركة، «ومنه قولهم: ضربه حتى أثبته لاحراك، ولا بَراح.[٥٢٣١]

وقُرِئ: «لِيُثَبِّتُوك» بالتشديد،[٥٢٣٢] و«لِيُبَيِّتُوك» مِنَ البيات،[٥٢٣٣] و«لِيُقَيِّدُوك»،[٥٢٣٤] وهو يؤيّد التفسير الأوّل المشهورة كما أنَّ رواية رأي أبي البختري يؤيد الثاني، ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكّة إلى طرف من أطراف الأرض.

وقيل: يخرجوك على بعيرٍ، ويطردونه حتى يذهب في وجهه، كما هو رأي هشامٍ.[٥٢٣٥] ولا بدّ ههنا أن يلاحظ ورود الترديد في الترتيب على غير ما ورد في الرواية؛ لأنّها وردت على تأخير ذكر أبي جهلٍ والقصة مشهورة في التفاسير.

﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ بإخفاء المكائد له ﴿وَيَمْكُرُونَ اللهُ﴾ بإخفاء ما أعدّ لهم له حتّى يأتيهم بغتةً، أو بردّ مكرهم عليهم، أو بمعاملة الماكرين معهم حيث أخرجهم إلى بدرٍ وقلّل المسلمين في أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا.[٥٢٣٦]

فإطلاق المكر على الإخفاء من قِبله تعالى، إذا جعل بحسب أنّ صورته تُشبه صورة المكر فاستعارة، وإذا جعل باعتبار المشاكلة والوقوع في صحبة المكر العبد فلم يتبيّن أنّه من أيّ قِسم من أقسام الكلام، وإليه ذهب قدّس سرّه حيث قال: «إسناد أمثال ذلك إنّما يحسن للمزاوجة، لا ابتداء لما فيه من إيهام الذمّ».[٥٢٣٧]

وقال ابن الكمال: «فكأنّه غافلٌ عن قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف ٧/٩٩].[٥٢٣٨]

[٥٢٣٠] ج – بحيث.

[٥٢٣١] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/٢٥٦.

[٥٢٣٢] قراءة شاذَة، مروية عن يحيى و إبراهيم. **الكشاف** للزمخشري، ٢/٢٠٩؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٤.

[٥٢٣٣] قراءة شاذَة، مروية عن يحيى و إبراهيم. **الكشاف** للزمخشري، ٢/٢٠٩؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٤.

[٥٢٣٤] قراءة شاذَّة، مروية عن ابن عباس. **الكشاف** للزمخشري، ٢/٢٠٩.

[٥٢٣٥] **مجمع البيان** للطبرسي، ٩/١٣٧.

[٥٢٣٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/٢٥٦-٢٥٧.

[٥٢٣٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/١٨.

[٥٢٣٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/٢٥٧.

وأنت خبيرٌ بأنه قدّس سرّه لم يدّع أن جهة الحسن مقصورةٌ على المزاوجة حتى يرد الإشكال بما ذكر هناك إطلاق خير الماكرين عليه، إذا جعل باعتبار أنَّ مكْرَه أنفذُ وأبلغُ تأثيرًا، فالإضافة للتَّفضيل على المضاف إليه؛ لأنّ لمكر الغير أيضًا نفوذًا في الجملة، وهذا معنى أصل فعل الخير، فتحصل المشاركة فيه، وإذا جعل باعتبار أنه لا ينزل إلَّا الحقّ، ولا يصيب إلّا بما استوجبه الممكور به،فلا شركة للغير فيه، فالإضافة حينئذٍ للاختصاص كما في «أعداد بني مروان لانتفاء المشاركة»، وقيل: من قبيل الصّيف أحرّ من الشّتاء، بمعنى: أنّ مكره في خيريَّته أبلغُ من مكر الغير في شرّيَّته.[٥٢٣٩]

وقيل فسّر مكرهم بإخفاء المكائد، ومكره تعالى بإخفاء ما أعدّلهم حتى يأتيهم بغتةً، وجمعهما في خير الماكرين، وفسّر بأنَّ تأثير مكره أبلغ. [**٢٦٦**/ظ].

فالخير: بمعنى التفضيل، والتَّعريف للعهد. وأمّا إذا قيل: لا ينزل إلّا ما هو حقّ فلا شركة فيه؛ لأنَّه من باب «أعداد بني مروان»، في تسميته ذلك بالمكر على سبيل الإستعارة بجامع الإخفاء والأخذ بغتةً، فالتعريف للجنس.[٥٢٤٠]

قال الراغب: المكر صرف الغير عمَّا يقصِده بحيلة، وذلك إمّا محمود وهو أن يُتحرَّى بذلك فعلًا جميلًا، وعليه ورد الآية، وإمّا مذمومٌ وهو أن يُتحرّى فعلًا قبيحًا، قال تعالى:

﴿**وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ**﴾ [فاطر ٤٣/٣٥]، وقيل: مكر الله إمهال العبد وتمكينه من أعراض الدّنيا، ولذلك قال عليٌ: «من وُسّع عليه دنياه، فلم يعلم أنه مُكِرَ به فهو مخدوعٌ».[٥٢٤١]

﴿**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١)**﴾

حكاية مكرهم في دينه عليه السلام بعد حكايته في ذاته، فيكون معطوفًا عليه كأنّه قيل: «واذكر ذاك واذكر هذا»، وفي عدم توصيف الآيات بالبينات إشارةٌ إلى فرط عنادهم، وأنّهم لم يقولو تلك المقالة عن تدّبر فيها. ﴿**قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا**﴾ ما تتلوه علينا.

وقيل: قولك، أي: أدركناه بآذاننا، فإنّ السَّماع إدراك الصّوت بحاسّة الأذن، وما سمعوا على الحقيقة؛ لأنَّها قرآن يهدي إلى الرّشد كما سمعت الجنّ.

فلذلك قالوا: ﴿**لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا**﴾ وهذا مبالغةٌ منهم في المكابرة، ونَفَاجَة، وصَلَفٌ تحت الرّاعدة، فإنهم لم يتوانوْا في مشيئتهم لو ساعدتهُم الاستطاعة، وإلَّا فما مَنعهم، إن كانوا مستطيعين، أن يشاؤوا غلبة مَنْ تحدّاهم وقرَعَهم بالعجز، حتى يفوزوا بالقِدح المعَلّي دونه؟ مع فرط أَنَفتِهم واستنكافهم أن يُغلبوا في باب البيان، وأن يماتنهم واحد، فيتعلّلوا بامتناع المشيئة، ومع ما عُلم وظَهر ظُهور الشّمس، مِن حرصهم على أن يقهَروا رسول الله، وتهالُكهم على أن يَغْمُروه.[٥٢٤٢] النَّفاجةُ: الكِبر والفَخْر، في «**أساس**»[٥٢٤٣] «نفجت الرّيح: جاءت بقوةٍ، وريحٌ نافجةٌ، ومن المجاز فلانٌ نفَّاجٌ، وسمعت منْ يقول: فيه نفَاجةٌ». والرَّاعدة: السماء ذات الرَّعد، والصَّلف قلَّة المطر، وَصَلَف تحت الرَّاعدة: مثلٌ يضرب لمن يتوعَّد ثم لايقوم به، وقيل:

[٥٢٣٩] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٦ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٩٨/٤.

[٥٢٤٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ٨٤/٧.

[٥٢٤١] **فتوح الغيب** للطيبي، ٨٤/٧؛ **المفردات في غريب القرآن** للراغب الإصفهاني، ص ٤٧٣.

[٥٢٤٢] **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٩/٢.

[٥٢٤٣] **أساس البلاغة** للزمخشري، «نفج».

للبخيل مع الوجد والسَّعة. «ماتنَهُ»:[٥٢٤٤] عارضَه في الشِّعر وغيره. و«إلَّا» أي: ومن لم يكن هذا نفاجةً وصلفًا فأيُّ شيء منعهم على تقدير الإستطاعة من أن يشاؤا غلبة من دعاهم إلى المعارضة ليفوزوا بالغلبة ولايفوز هو مع فرطِ استنكافهم ما أن يصيروا مغلوبين ومع غاية حرصهم على قهر العدوِّ، فقوله: «وأن يماتِنَهم واحدٌ» دون أن يقول: وأن يماتنوا، كما قال: «وأن يغلبوا»؛ لأنَّ استنكافَهم مع المماتنة في البيان فوق إستنكافهم من المعلومة في الجملة بحيث لايتحمَّلون أن يماتِنهم واحدٌ. وقوله: «فيتعلَّلوا»[٥٢٤٥] عطفٌ على «يغلبوا»، أو «يماتنهم»، وقيل: جواب الإستفهام وسطٌ بين المتَعاطفَين لتعلُّقه بالأوَّل خاصَّة.[٥٢٤٦]

وقيل: إنهم توهَّموا أن يأتوا بمثله، كما توهَّمت سحرةُ فرعون، ثم راموا ذلك فعجزوا.[٥٢٤٧] ولا ينافي هذا كون الإعتماد على إعجاز القرآن تحدَّى العرب بمعارضة وعدم إتيانهم؛ لأنَّ لو لانتفاء الشيء لانتفاء غيره فما وقعت المشية والقول وإنما هو إخبار مجرَّد تقوَّل دون إتيان بالمعارضة.

﴿**إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾ ما سطَّره المتقدمون مما لاحقيقة له جمع «أسطار» جمع «سطر» أو جمع «أسطورة»، كـ«أحاديث» و«أحدوثة» يقال: سطر إذا كتب.

وهذا قول النَّضْرَ بن الحارث كان يختلف تاجرًا إلى فارس والروم والحيرةِ، فيسمع أحاديث رُسْتم وأسفنديار، وأحاديث العجمِ، واشترى أحاديث كَلِيلة وَدِمْنة، ويمرُّ باليهود والنصارى فيراهم يقرؤن التوراةَ والإنجيل، ويركعون ويسجدون. فجاء مكَّة فوجد محمدًا صلى الله عليه وسلم يصلِّي ويقرأ القرآن، وكان يقعدُ مع المستهزئين والمستقسمين وهو منهم فيقرأ عليهم أساطير الأوَّلين. وكان يزعمُ أنها مثل ما ذكره مُحمَّد من قصص الأوَّلين.

فإسناده إلى الجميع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم، فإنَّه كان قاصّهم، وقد أسر يوم بدر وقتل جبرًا، فإنَّه عليه السلام قال: يا عليّ عليَّ بالنضر واتعبه، فأخذ علي بشعره وكان رجلًا جميلًا له شعر فجاء به إلى رسول الله فقال: يا محمد أسئلك الرحم بيني وبينك أنْ أجريتني كرجل من قريش إن قتلتهم قتلتني وإن فاديتهم فاديتني فقال عليه السلام: «لا رحم بيني وبينك قطع الله الرحم بالإسلام قَدّمه يا علي فاضرب عنقَه فضرب عنقه. روى أن ابنته جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأنشدت أبياتًا [**٢٦٧**/و] فرّق لها النبي وبكى، فقال: «لو جئتني من قبل لَعفوت عنه»، ثم قال: لايُقتَل قريشٌ بعد ذلك جبرًا.[٥٢٤٨]

﴿**وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)**﴾

أي: واذكر إذ قالوا، وهذا أيضًا من كلام ذلك القائل.[٥٢٤٩]

روي أنه لَمَّا قال النَّضر: «إن هذا إلا أساطير الأوَّلين» قال له النبي: «ويلك! إنَّه كلام الله» فقال ذلك.[٥٢٥٠]

وعن ابن عباسٍ: لَمّا قصَّ رسولُ الله شأن القرون الماضية قال النَّضْرُ: لو شئت لقلتُ: مثل هذا إن هذا إلّا أساطر الأوَّلينَ.

[٥٢٤٤] **الكشاف** للزمخشري، ٢/٢٠٩.

[٥٢٤٥] **الكشاف** للزمخشري، ٢/٢٠٩.

[٥٢٤٦] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٦ظ-٣٧٧و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ٤/٩٨-٩٩.

[٥٢٤٧] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٩/٤٩٥.

[٥٢٤٨] **صحيح مسلم**،٣/١٤٠٩ (١٧٨٢).

[٥٢٤٩] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٢٥٨.

[٥٢٥٠] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/٤٠٦.

فقال عثمان بن مظعون: اتق الله فإنَّ محمدًا يقول: لا إله إلاَّ الله، قال: وأنا أقول: لا إله إلاَّ الله، ولكن هذه الأصنام شركاء الله،[٥٢٥١] ثم قال ما قال وهو أبلغ في الجحود من الأوَّل لقوله: ﴿**ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا**﴾ أي: القرآن ﴿**هُوَ ٱلْحَقَّ**﴾ الضمير للفصل و﴿**ٱلْحَقَّ**﴾ خبرُ ﴿**كَانَ**﴾.

وقرئ: بالرفع[٥٢٥٢] على أنَّ الضَّمير مبتدأ وهو خبره والجملة خبر له، وذلك لأنَّ مراده ذلك القائل:نفيُ كونه حقًّا، فإذا انتفى كونه حقًّا لم يستوجب منكره عذابًا فكان تعليقُ العذاب حقًّا مع اعتقاد أنه ليس بحقٍّ، كتعليقه بالمحال في قولك: إنْ كان الباطل حقًّا فأمطر علينا.[٥٢٥٣]

ومبناه على أنّ فرضَ المحال غيرُ قطعيّ الإنتفاء ليصحَّ تعليق الشيء بكلمة ﴿**إِنْ**﴾ الموضوعة للمعاني المحتملة المشكوكة الخالية عن الجزم بالوقوع وعدمه، فيصير كالتَّنبيه على إنتفاء ذلك الشيء، وما يتوهَّم من كون ﴿**إِنْ**﴾ الخالى عن الجزم بالوقوع أعمّ من الجزم بعد الوقوع، إنما نشاء من الاقتصار في بعض الكتب على أنَّها لعدم الجزم بالوقوع من غير تعرّضٍ لجانب اللَّاوقوع، قصدًا إلى التَّفرقةبينها وبين «إذا»، فإنَّ عدم الجزم باللاوقوع مشتركٌ بينهما.[٥٢٥٤]

وقال قدس سره: وفائدة التعريف في الحقّ الدلالة على أنَّ المعلَّق به كونه حقًّا بالوجه الذي يدَّعيه النبي وهو تنزيله لا الحقّ مطلقًا لتجويزهم أن يكون مطابقًا للواقع غير منزلة، كأساطير الأولين.[٥٢٥٥] ويرد عليه ما في الصحاح: الأساطير: الأباطيل، الواحد «أسطورة»[٥٢٥٦] على أنَّ تلك الفائدة تحصل من قوله: ﴿**مِنْ عِندِكَ**﴾ وهو حال من معنى الحقّ، أي: الثابت حال كونه كذا، والأقرب أن يقال: هي التَّهكم، يقال: أمطرت السماء؛ كثر مطرها، كقولك: أَثْجَمَتْ إذا كَثُرَ ودَامَ، وأَسبَلَتْ، أي: هَطَلَتْ ومَطَرَتْ، كقولك: هَتَنَتْ وهَتَلَتْ، وقد كَثُرَ الأَمْطَارُ في معنى العذاب.[٥٢٥٧]

﴿**حِجَارَةً**﴾ أي: السِّجِّيل، وهي الحجارة المسوَّمة للعذاب. روي أنَّها حجارة من طين طُبخت بنار جهنم مكتوبٌ عليها أسماء القوم، فلذلك وصفت بقوله: ﴿**مِنَ السَّمَاءِ**﴾؛ لأنَّه ليس مطلق الحجارة بل الحجارة منه فوضعت موضعه، كما تقول: صبّ عليه مسرودةً من حديدٍ، تريد دِرعًا، فإنها هي المسرودة من الحديد لا المسرود مطلقًا وحينئذ وفي وضعها موضعه؛ زيادة للبيان وتصوير للمُسمَّى، كما يعبَّر عن الشَّيء بمعناه، فتقول في الكناية عن الإنسان: حيٌّ مستوي القامةِ عريضُ الأظفار. ويرد نحوه قوله: ﴿**وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ**﴾ [القمر ٥٤/١٣] «أراد السَّفينة، وهي الصِّفات التي تقوم مقام الموصوفات فتنوب منابها، وتؤدي مُؤدَّاها.[٥٢٥٨]

وقيل: متعلّق بـ﴿**أَمْطِرْ**﴾ فذكره للمبالغة لما فيه من الهول أو الإحتراز عن الأمطار من أحجار الأرض، فإنّ من المشهور منهم أمطر عليه الحجارة، أو لمقابلتهم مجيء الأمطار من الجهة التي ذكر عليه السلام أنَّه يأتيه الوحي من جهتها، أي: إنَّك

[٥٢٥١] **اللباب** لابن عادل، ٥٠٣/٩.

[٥٢٥٢] أي: «هُوَ الْحَقُّ» قراءة شاذَة، مروية عن الأعمش وأبي عبلة. **الكشاف** للزمخشري، ٢١٠/٢؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٥.

[٥٢٥٣] **الكشاف** للزمخشري، ٢١٠/٢.

[٥٢٥٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٧و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ١٠٠/٤.

[٥٢٥٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٠٦/٢.

[٥٢٥٦] **الصحاح** للجوهري، «سطر».

[٥٢٥٧] **الكشاف** للزمخشري، ٢١٠/٢.

[٥٢٥٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ٨٩/٧.

تذكر أنَّ الوحي يأتيك من السماء،فأتنا بعذاب من الجهة التي يأتيك من الوحي[٥٢٥٩] وعلى جميع الأمطار إستعارة؛ لأنَّه إنزال المطر والحجارة ليست منه والتشبيه بينهما ظاهر.

﴿**أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ أي: بنَوْع آخر من جنسِ العذاب الأليم، فعطف على قوله: ﴿**فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً**﴾عطف الجنس على النَّوع فخصَّ بالعطف الجنس فيتناول بعضًا آخر غير ما سبق، أي: ائتنا بعذاب أليم سواه فهذا من باب عطف العامّ الذي خصَّ بالعطف.

﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)**﴾

بيانٌ لسببِ إمهالهم، والتَّوقف في إجابة دعائهم.

واللام لتأكيد النَّفي، والدلالة على أنَّ تعذيبهم حال كون النبي فيهم غيرُ جائز في الحكمة؛ لأنَّ سنة الله جارية بأن لا يستأصل قومًا بالعذاب ما دام نبيُّهم بين أظهرهم، ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ**﴾ [التوبة ١٤/٩]؛ لأنَّ المراد منه غيرُ عذاب الاستئصال.

وفيه إشعارٌ بأنهم مُرصَدون للعذاب إذا هاجر عنهم، لدلالة قوله: ﴿**وَمَا لَهُمْ**﴾ على إثبات التعذيب، كأنَّه قال: وما كان ليعذبهم وأنت فيهم، وهو معذبُهم إذا فارقتَهم.[٥٢٦٠]

لكن بقي أن يقال: يفهم مما سبق أنَّه تعالى يستأصلهم إذا هاجر عليه السلام عنهم وهو خلاف ما ثبت في الحديث من أن أُمَّته لا يستأصلون وفيما سيجيء جواب عنه.

ولَمَّا [**٢٦٧**/ظ] كانت كينونته عليه السلام فيهم سببًا لانتفاء تعذيبهم أكَّد خبر ﴿**كَانَ**﴾ باللام على رأي الكوفيين، أو جعل خبر ﴿**كَانَ**﴾ الإرادة المنتفيَة على رأي البصريين، وانتفاء الإرادة للعذاب أبلغ من انتفاء العذاب، ولَمَّا كان استغفارهم دون تلك الكينونة الشريفة لم يؤكَّد باللَّام، فشتَّان ما بين استغفارهم وكينونته عليه السلام فيهم.[٥٢٦١]

﴿**وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ معناه: نفي الاستغفار عنهم أي: ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لَما عذبهم، كقوله: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾ [هود ١١/ ١١٧].

فليست هذه القرينة كالقرينة الأولى في انتفاء العذاب لوجود الاستغفار، كانتفائه لوجود الرسول فيهم، لاقترانها بها؛ إذ المعنى: استحقاق العذاب يدلُّ على عدم الاستغفار، إذ لو استغفروا ما استحقوا، وهو نوع من الكناية، كما أن في الآية كذلك؛ إذ لو أصلحوا ما أهلكهم الله، لانه ليس بظلام للعبيد.[٥٢٦٢]

وقال النحرير: النَّفي مستفاد من دلالة القرينة والمقام لا نفس الكلام، وإلّا لَكان معنى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ**﴾ نفي كونه فيهم، فإن قيل: الحال قيدٌ والنَّفي في الكلام راجعٌ إلى القيد، قُلنَا: ﴿**وَأَنْتَ فِيهِمْ**﴾ أيضًا حالٌ، فإن قيل: الاستغفار عن الكفر ينافي التَّعذيب، فقد ثبت أنَّهم معذَّبون بمفارقة النبي عليه السلام وبقوله: ﴿**وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ**﴾ فينتفي الاستغفار، قُلْنَا: وكذلك كونه فيهم ينافي بحكم العادة، وقضيَّة الحكمة، تعذيبهم، وقد ثبت أنَّهم معذَّبون. فإن قيل: كونه

[٥٢٥٩] **اللباب** لابن عادل، ٥٠٥/٩.

[٥٢٦٠] **الكشاف** للزمخشري، ٢١٠/٢؛ **تفسير ابن كمالباشا** لابن كمال، ٢٥٩/٤.

[٥٢٦١] **تفسير ابن كمالباشا** لابن كمال، ٢٦٠/٤.

[٥٢٦٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ٩١/٧.

فيهم ليس مما يستمرُّ، بل يزول ألبتَّة فيحدث التَّعذيب، قلنا: الاستغفار عن الكفر أيضًا يحتمل ذلك، غايتُه أنَّه احتمالٌ بعيدٌ، ويمكن أن يقال: هم يستغفرون للاستمرار فينتفي بالتَّعذيب ولو بعد حينٍ، بخلاف ﴿وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾، فإنه لمجرَّد الثبوت وهو متحقِّقٌ ما لم يفارقهم ولم يصبهم العذابُ، وهذا إنَّما يتمُّ إذا جعلها ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ للاستمرار والدَّوامدون مجرد الثُّبوت.[٥٢٦٣]

وقيل: أي: وما كان معذِّبهم وفيهم مَن يستغفر، وهم المسلمون ممَّن تخلَّف عن النبي ع م من المستضعفين.[٥٢٦٤]

واستغفارهم طلب المغفرة للكَفرة وتوفيق الإيمان، فالإسناد إلى ضمير الجمع باعتبار صدور القول عن البعض.[٥٢٦٥] ومنهقيل: للحوار حرمة فجار الكرام في ظل إنعامهم.

وقيل: هذا أبلغ من الأوَّل؛ لَمَّا دلّ على أن استغفار الغير مما يُدفع به العذاب من الكفرة.[٥٢٦٦]

وقيل: إنَّ المشركين يقولون بعد الطواف: غفرانك. وروي أنهم كانوا يندمون على قوله: فأمطر علينا حجارة، فيقولون: غفرانك اللَّهم.

وقيل: ما كان معذِّبهم وفي علمه أنَّه يكون منهم من يؤمن وأنَّ بعضهم يؤل أمره إلى الإيمان ممَّن آمن يوم الفتح وقبله وبعده، وفي خبر أنَّ الإستغفار كينونة النبيدلالة على شرفه. قال عليه السلام: «أنزل اللهُ عليَّ أمانَينِ لأُمَّتي: وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ فإذا مضيت تركتُ فيهم الاستغفارَ.[٥٢٦٧]

قال عليه السلام: قال الشيطان: بعزَّتِكَ لا أَبرَحُ أُغْوي عبادَكَ ما دامَتِ أرواحُهم في أجسادهم، فقال الرَّبُّ: بِعِزَّتِي وجَلالي لا أزال أَغفِرُ لهم ما استَغْفَروني».[٥٢٦٨]

وقال ع م:«أنّ العبد آمِنٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ ما استَغْفَر الله».[٥٢٦٩]

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤)﴾

﴿مَا﴾ إستفهاميَّةٌ، معناه: التَّقرير، وقيل: نافيةٌ، و«أَنْ» مصدريةٌ، موضعها نصبٌ، أو جرٌّ؛ لأنَّها على حذف الجارّ، وهو متعلّق بما تعلّق به: ﴿لهم﴾ أي: أيّ شيء استقرّ لهم في عدم تعذيب الله إياهم؟ وما يمنع ذلك متى زال المانع المذكور أي: يستحقون ذلك ويعذبون، وقد وقع ذلك يوم بدرٍ.

وقيل: يوم فتح مكة[٥٢٧٠] لقوله: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: وحالهم صدّ أوليائه عنه، ويدلّ على هذا المحذوف ما بعده، وقد صدُّوا النبي عليه السلام والمؤمنين عام الحديبية، ومن قال يوم بدرٍ ذهب إلى أن إخراجه ع موالمؤمنين في

[٥٢٦٣] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٧و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ١٠١/٤-١٠٢.

[٥٢٦٤] **الكشاف** للزمخشري، ٢٠٩/٢.

[٥٢٦٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٧و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ١٠١/٤-١٠٢.

[٥٢٦٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٩١/٧.

[٥٢٦٧] **سنن الترمذي**، ٢٧٠/٥ (٣٠٨٢).

[٥٢٦٨] **مسند أحمد**، ٣٤٤/١٧ (١١٢٤٤)، ٣٤٤/١٧ (١١٢٣٧),

[٥٢٦٩] **مسند أحمد**، ٣٧٦/٣٩ (٢٩٩٥٣).

[٥٢٧٠] ب + بدليل.

حكم الصدّ. وقد يناقش على الأوّل بأنّه كان بعد قتل النّضر ونظرائه، فلا انتظام له مع ما سيق الكلام له في هذا المقام، ثم إنّه لا ينافيه الآية الأولى؛ لما عرفت أنّه لاستدعاء الاستغفار، وعدم التعذيب عنده مطلقًا، فلمَّا لم يفعلوا عُذّبوا وبين استحقاقهم.

وقيل: الأوّل: عذاب الاستئصال، والثاني: عذاب السّيف والأسر ونحوهما.[٥٢٧١]

وقيل:ا لأوّل عذابٌ دنيويٌّ، وهذا عذابٌ أخرويٌّ.

وقيل: الأول منسوخ بذلك وفيه بعد؛ لأنه خبر، والإخبار لايدخله النسخ.

﴿**وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ**﴾ ليسوا أولياء المسجد الحرام مستحقِّين ولاية أمره مع شركهم، وفيه ردٌّ لِمَا كانوا يقولون: نحن ولاة البيت والحرم، فنصُدُّ مَنْ نشاء، وندخل من نشاء.[٥٢٧٢]

والجملة استئنافية، أو نسق على الحالية، أي: وهم متصفون بالصدِّ، وانتفاء كونهم كذا.

﴿**إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلاَّ ٱلْمُتَّقُونَ**﴾ أي: المؤمنون الذين يتّقون عن الشِّرك، ولا يعبدون فيه غيره، ويحترزون عن المنكرات، كالذي كانوا [**٢٦٨**/و] يفعلون عند البيت على ما يفصح عنه ما بعده، والمعنى: ما استحقوا لولاية البيت، ولاحظٌ لهم منها؛ لأنها مخصوصة بالمتقين من المسلمين، ليس كلُّ[٥٢٧٣] مسلم يصلح لذلك، فكيف بالمشركين من أعداء الدين؟[٥٢٧٤] ومن ههنا يظهر وجه العدول من المؤمنين إلى المتقين. وقيل: الضمير لله تعالى.

﴿**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ أنْ لا ولايةَ لهم عليه، نبَّهَ بالأكثر أنَّ منهم مَنْ يعلم ويعاند،[٥٢٧٥] أو أراد بالأكثر الكلّ؛ لأنَّ له حكمة في كثيرٍ من الأحكام، ولكونه الجزء الذي عليه مدار أمر[٥٢٧٦] الجميع، ونظيره إرادة العدم من القلَّة.

وقال بعض العارفين: ذكر سبحانه أنه يعذّب من يعادي نبيَّه في الدنيا بالسَّيف، ولا يعذِّب عذاب الاستئصال إلا في الآخرة، بقوله: ﴿**وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ**﴾ لحرمة نبيّه، وإنّ المؤمنين الصَّادق في إيمانه لايعذّبه الله في الآخرة؛ لأن نبيَّه يكون فيهم يوم القيامة، وبشّرنا سبحانه أنه لايعذِّب أمَّته مادام هو فيهم، فيكون في الآخرة هو فيما بين المؤمنين، فيدخل المؤمن النَّار؛ تحلة للقسم، وبأن يُطفئ بنوره نارَه، وذلك قوله عليه السلام: «جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك ناري». يدخل المؤمن والكافر في النار، فيبقي الكفَّار في النَّار، والمؤمنون يمرُّون على الصراط كالبرق الخاطف.

فإن وصلت النار إلى المجرمين من أمّته، لاتصل لهم لجهة الخلود، بل لجهة الخلوص، ثم بيّن سبب ايصال العذاب، بقوله: ﴿**وَهُمْ يَصُدُّونَ**﴾ الآيةَ. كانوا يعملون شيئًا ليس لهم، فإنهم ليسوا من أهل الحرم مع جهلهم بالله، وهم لا يعلمون أن ليس لهم صدّ المؤمنين عنه، فإن أحبّاء الكعبة، هم الذين قدّسوا أعينهم من النَّظر إلى ما سوى الله غير الكعبة، التي هي مرآة تجلي صفاته.[٥٢٧٧]

[٥٢٧١] **لباب التأويل في معاني التنزيل** للخازن، ٣١٠/٢؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٣٥٥/٣.

[٥٢٧٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٠٦/٢؛. **تفسير ابن كمالباشا**، ٢٦٠/٤.

[٥٢٧٣] ج–كلّ.

[٥٢٧٤] **تفسير ابن كمالباشا**، ٢٦٠/٤.

[٥٢٧٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٠٦/٢.

[٥٢٧٦] ج – أمر.

[٥٢٧٧] **عرائس البيان** للبقلي، ٥٢٨/١–٥٢٩.

ثم لَمَّا نفى عنهم أن يكونوا من ولاة البيت، ذكر من فعلهم القبيح ما يؤكِّد ذلك، وأنَّ من كانت صلاته ما يُذْكر لا يستأهل أن يكونوا أوليائه،[٥٢٧٨] أو لَمّا علَّل التعذيب بقوله: ﴿**يَصُدُّونَ**﴾ عطف ذلك المذكور عليه؛ لأنَّه نوع من الصدّ. وقوله: ﴿**إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ**﴾ معترضةٌ، وقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ يتعلَّق بها، أو بما قبلها. فقال:

﴿**وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)**﴾

لَمَّا ورد أن ما يفعلونه ليس من جنس الصلاة اللُّغوية، وهي: الدُّعاء، ولا الشَّرعيَّة، فما وجه الإستثناء؟ أجيب بأنه على زعمهم وتسميتهم ذلك صلاة، أو وضعهم موضعها.

وقال المصنف هو من قوله:

وَمَـا كُنْـتُ أَخْشَـى أَنْ يَكُـونَ عَطَـاؤُه   أَدَاهِـمَ سُـودًا أَوْ مُحَدْرَجَـةً سُمْـرًا.

والمعنى: أنه وضع القيود والسِّياط موضع العطاء، ووضعوا ما فعلوا موضع الصلاة.[٥٢٧٩]

«الأداهِم»: القيود، «اَلْمُحَدْرَجةُ»: السّياط المحكمة الفتل، و«أخشى»، أي: أعلم، وأظن.

قالوا: فهو من أسلوب قولهم في التّهكّم:

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ.[٥٢٨٠]

حيث وضعوا الضّرب الوجيع موضع التحية.

قال النحرير: التمثيل بالبيت دون قولهم ذلك مع شهرته، وتقرير الكلام بقوله: «والمعنى: أنه وضعَ القُيودَ» إلى آخره، ربَّما يرشد إلى أنَّه ليس من هذا القبيل وعلى طريقة التّهكُّم.[٥٢٨١]

وقيل: إنه ما لا يدخل تحت الشيء قد يستثنى منه لمصلحة، كقصد المدح أو الذم، «كما يقال: ما لفلان عيب إلا السخاء، فكذا الغرض منها، أنّ من كان هذا صلاته فلا صلاة له»[٥٢٨٢]، وقد أمروا بها، وهذا لا يعبد أيضًا عن التّهكم.

﴿**عِندَ ٱلْبَيْتِ**﴾ ظرف لـ﴿**صَلَاتُهُمْ**﴾، وهو الكعبة علَمٌ لها بالغلبة كالنّجم.

﴿**إِلاَّ مُكَآءً**﴾: صفيرًا، فُعَال مِنْ مَكَا يَمْكُو مَكْوًا ومُكاءً، إذا صفَر بفيه، أو بين أصابعه أو بين كفَّيه. وهمزته مبدلة بلام الكلمة، وهي واو، بشهادة قولهم: المَكْوُ ومَكَوْنا.[٥٢٨٣]

[٥٢٧٨] **تفسير ابن كمالباشا**، ٢٦١/٤.

[٥٢٧٩] **الكشاف** للزمخشري، ٢١١/٢.

[٥٢٨٠] **الكتاب** لسيبويه، ٣٢٣/٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٩٤/٤-٩٥.

[٥٢٨١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٧ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ١٠٣/٤-١٠٤.

[٥٢٨٢] **اللباب** لابن عادل، ٥١٢/٩.

[٥٢٨٣] **الفريد** للهمذاني، ٢٠٥/٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٥١٢/٩.

أو تصويتًا مثل تصويت المكاء، وهو طائر من طيور العرب مليحُ الصَّوت يفعل مثل ما يفعل «القُبَّرة» يتدلى بين السماء والأرض، وكأنّه سمي به لكثرت مُكَائه، وأصله الصّفة، نحو: الوُضَّاء والقُرَّاء؛ فإنها بمعنى الوضيء، والمتَنَسِّك من وَضُؤَ وَقَرأ مهموزين، وهذا غير القرّاء جمع قارئ.[٥٢٨٤]

وقرئ: «مُكَا»[٥٢٨٥] بالقصر، ونظيرهما: البُكاء والبكى بالمدِّ، الصّوت مع البكاء، وبالقصر خروج الدمع.[٥٢٨٦]

﴿**وَتَصْدِيَةً**﴾ أي: تصفيقًا، تَفْعِلَة من الصّدى، فمعتل اللّام، وهو صوت يرجع من مكان صقيل،[٥٢٨٧] أو من الصّديد الذي هو الضّجيج.

﴿**إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ**﴾ أي: يضجُّون يقال: صدَّ يَصدُّ بالكسر والضمّ أي: ضجَّ أو منعا يقال: صدّه عن الأمر صدًّا أي: منعه وصرفه عنه، وينقل إلى باب التَّفعيل للتكثير، فأصلها تَصْدِدَةً على الآخرين، وأبدلت الدّال الآخيرة ياءً كراهة التَّضعيف، كما قيل:«دَسّيهَا»، والأصل : دَسَّسَها، فيراد صدّهم عن المؤمنين عن المسجد وعن الدين وعن الصلاة.

قتادة: المكَاء ضرب بالأيدي، والتّصدية صياح.[٥٢٨٨]

وروي: كانوا يطوفون البيت عُراةً، مشبّكين بين أصابعهم يَصْفرون فيها ويُصفِّقون.

وقيل: كانوا يفعلونه إذا صلى النبيّ يخلِّطون عليه، أو يُرُون أنهم يصلُّون أيضًا.[٥٢٨٩]

فعلى هذا المكاءُ والتصدية: نوع أذًى للنبي من قبيل قولك: زرتُ الأمير؛ فجعل جفائي صلتي، أي: أقامه مقامه، والأصحّ كونهما نوع عبادة [**٢٦٨**/ظ] لهم؛ لظاهر التَّسمية ولا بعد في الجمع بينهما.

وقرىء: بالنّصب «صَلاتَهُمْ» ورفع «إِلَّا مُكَاءٌ»[٥٢٩٠] على تقديم خبر كان على اسمه.[٥٢٩١]فحمله السَّكَّاكي على القلب؛ إذ لا يخبر عن النَّكرة بالمعرفة إلا في ضرورة، كقول حسَّان:

كَـأَنَّ سَـبِيئَةً مِـنْ بَيْـتِ رَأْسٍ   يَكُـون مِزَاجَهَـا عَسَـلٌ وَمَـاءُ.[٥٢٩٢].

وقال ابن جنّي: لا حاجة إليه، فإنَّهما جنسان؛ لأنَّهما مصدران، ونكرة الجنس تفيد فائدة معرفتها، ألا ترى أنَّك تقول: «خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب» تجد معناه معنى قولك: «فإذا الأسد بالباب» لا فرق بينهما؛ لأنَّك لا تريد في الموضعين أسدًا

[٥٢٨٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٧و-ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ١٠٣/٤-١٠٣.

[٥٢٨٥] قراءة شاذَّة، مروية عن ابن عباس أبي عمرو. **المختصر في شواذَ القرآن** لابن خالويه، ص ٥٤؛ **الكشاف** للزمخشري، ٢١١/٢؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٥.

[٥٢٨٦] **الكشاف** للزمخشري، ٢١١/٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٩٤/٤-٩٥.

[٥٢٨٧] **المفردات** للإصفهاني ص ٢٨٢.

[٥٢٨٨] **الجامع لاحكام القرآن** للقرطبي،

[٥٢٨٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٠٦/٢؛ **تفسير ابن كمالباشا**، ٢٦٢/٤.

[٥٢٩٠] قراءة شاذَّة، مروية عن أبي البرهسم وأبي الحيات وعاصم. **الكشاف** للزمخشري، ٢١١/٢؛ **المحتسب** لابن جنّي، ٢٧٨/١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٥.

[٥٢٩١] **الكشاف** للزمخشري، ٢١١/٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٥١١/٩-٥١٠.

[٥٢٩٢] **اللباب** لابن عادل، ٥١١/٩.

بعينه، إنما تريد واحدًا من الجنس، وكذا لا فرق بين «إِلاَّ مُكَآءً وَتَصْدِيَةً» و«وَإِلاَّ المكَآءُ وَالتَّصْدِيَةُ»، بمعنى إلا هذا الجنسَ من الفعل. ولم يجرِ مجرى قولك: «كان أخاك قائم»،وكان زيدًا منطلق، أو ليس فيهما الجنسية.[٥٢٩٣]

وما يقال: في المعرفة الإشارة إلى الجنس، واعتبار الحضور في الذهن، والنّكرة خلوٌ عنه، فتدقيقٌ علميٌّ بينهما، وفائدة اللّام على أنّ ههنا نفيًا وإثباتًا، ويجوز فيه ما لا يجوز.[٥٢٩٤]

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦)﴾

عذاب القتل والأسر يوم بدرٍ، و الظّاهر أن يكون للعهد والمعهود ما ذكر في قوله: ﴿**أوائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الأنفال ٣٢/٨]. وجوّز أن يكون للجنس إشارة إلى ما يلحقهم من العذاب في الدّارين، وأن يكون عذاب الآخرة، يعني: يقال لهم ذلك فيها.

وقال ابن الكمال: لايجوز أن يراد عذاب الآخرة؛ لأن الفاء تأباه، وذلك لأن السببيّة للعذاب مطلقًا قد استفِيدَتْ من الباء، والفاء إنما تفيد إذا كان ذلك العذاب السَّببَ بما ذكر معجلًا».[٥٢٩٥]

ويمكن أن يقال: أمر الساعة كلمح البصر، فيفيد الفاء بالنظر إلى ذلك، ويجوز أن يكون الحاصل من الباء تأكيدًا وتصريحًا ﴿**بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ**﴾ بسب كفركم وأعمالكم الناشئة منه،كالمكاء والتّصدية، أتى بصيغة المضارع، وزاد عليها عبارة ﴿**كُنتُمْ**﴾ للدلالة على الإستمراري التجدُّدي، ولَمَّا شرح أحوال هؤلاء الكفَّار في الطاعات البدنيَّة اتبعها شرح أحوالهم في القربات المالية ينفقون أموالهم؛ ليمنعوا بذلك الناسَ عن دين الله الذي أتى به محمدٌ عليه السلام، واتّباع رسوله.

فاللّام صلة ﴿**يُنْفِقُونَ**﴾؛ فإنّ غرضهم بالإنفاق الصّدُّ عن سبيل الله الذي هو عبارة عما ذكر بحسب الواقع، ونفس الأمر وإنْ لم يكن سبيله بحسب إعتقادهم. وفيه تنبيهٌ على غاية غباوتهم ونهاية جهالتهم، فإنَّ الصّدّ عن اتباع عليه السلام صدٌّ عن سبيل الله وهم غافلون عنه.[٥٢٩٦]

نزلت في الْمُطْعِمين يوم بدرٍ، وكانوا اثني عشر:[٥٢٩٧] أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ، وَعُتْبَةُ، وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ، وَنَبِيهٌ وَمُنَبِّهٌ ابْنَا الْحَجَّاجِ، وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ بْنُ هِشَامٍ، والنضر بن الحرث، وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ، وَأُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ، وَزَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ، وَالْحَارِثُ بْنُ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ وَالْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وكلُّهم من قريشٍ، كان يطعم كلُّ واحدٍ منهم كل يوم عشر جُزُر.[٥٢٩٨]

وأسلم من هؤلاء: العَبَّاس بْن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عمّ رسول الله وَحَكِيم بْن حِزَامٍ، أو في أبي سُفْيَان بن حرب، استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش سوى مَنِ استجاش من العربِ، وأنفق عليهم أربعين أوقيّة، والأوقيَّة: اثنان وأربعون مثقالًا، هكذا قيل.[٥٢٩٩] لكن المشهور أنَّها أربعون درهمًا، والرّطل: إثنى عشرة أوقية، يقاتل بهم النبي ع م وفيهم يقول كعب بن مالك:

[٥٢٩٣] **المحتسب** لابن جني **٢٧٩/١**؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٩٤/٤؛ **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٧ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ١٠٣/٤-١٠٤.

[٥٢٩٤] **نواهد الأبكار** للسيوطي، ٥٤٨/٦-٥٤٩.

[٥٢٩٥] **تفسير ابن كمالباشا** لابن كمال، ٢٦٢/٤.

[٥٢٩٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ٩٤/٤-٩٥.

[٥٢٩٧] ج – عشر.

[٥٢٩٨] **معالم التنزيل** للبغوي، ٣٥٥/٣؛ **تفسير ابن كمالباشا**، ٢٦٢/٤-٢٦٣.

فَجِئْنَا إِلَى مَوْجٍ مِنْ الْبَحْرِ وَسطَهُم أَحَابِيشُ مِنْهُمْ حَاسِرٌ وَمُقَنَّعُ

ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَنَحْنُ نَصِيَّةٌ ثَلَاثُ مِئِين إِنْ كَثُرْنَا فَأَرْبَعُ[٥٣٠٠]

«أَحَابِيشُ»: جمع «أُحْبُوشٍ» وهي الجماعة من الناس من قبائل شتَّى، أو في أصحاب العير؛ فإنه لَمَّا أصيب قريش يوم بدرٍ، ورجع كلّهمإلى مكة، مشى صفوان ابن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، في رجال من قريشٍ أصيب آباؤهم وإخوانهم ببدرٍ، وكلّموا أبا سفيان بن حرب، و من كانت له تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمدًا قد وترکم، وقتل أخيارکم، فأعينونا بهذا المال الذي أقلت على حربه؛ لعلّنا أن ندرك به ثأرنا، ففعلوا.

انظر إلى هذا العجب العجيب قومٌ يبذلون أرواحهم وأموالهم في الصدّ عن سبيل الله،[٥٣٠١] فهؤلاء المخذولون المبعَدون من رحمة الله وقد قال تع: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [لقمان ٦/٣١] ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ**﴾ [ص ٢٦/٣٨]، وقومٌ يبذلون أرواحهم وأموالهم في سبيل الله فهؤلاء المهديُّون المقرَّبون من رحمة الله وقد قال تع: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**﴾ [التوبة ١١١/٩].

﴿**فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ**﴾

قال قدس سره: «ولعلَّ الأوَّل إخبار عن إنفاقهم في تلك الحال وهو إنفاق بدر، والثاني إخبار عن إنفاقهم فيما يستقبل وهو إنفاق أُحُد، ويحتمل أن يراد بهما واحد على أن مساق الأوّل لبيان غرض الإنفاق ومساق الثاني لبيان عاقبته وإنه لم يقع بعد».[٥٣٠٢]

وابن الكمال: ردّ [**٢٦٩**/و] الأوَّل يأباه ترتيبه بالفاء على الأوَّل،[٥٣٠٣] ويمكن أن يقال: معناه إذا وقع منعهم هذا فيقع أيضًا، فالتّسبب باعتبار أنّ المرء يستمرّ على ما يمرّ، والثاني: بأنَّه يأباه زيادة السين في الثاني، والترتيب بالفاء على الأوَّل، ويمكن أن يقال: السين للتأكيد، والفاء للتّفسير باعتبار مابعده، فالوجه الأسلم أن يحمل الأوَّل على عزمهم على الإنفاق، والثاني على وقوعه عن قريبٍ متفرعًا على ذلك العزم.

﴿**ثُمَّ تَكُونُ**﴾ أي: الأموال ﴿**عَلَيْهِمْ**﴾ على المنفقين، وهو من صلة قوله: ﴿**حَسْرَةً**﴾ ولَمَّا كانت عاقبة الإنفاق حسرة واستلزمها وانقلب إليها سريعًا جعلت ذواتها عين الحسرة مبالغةً.

وقيل: إنّه من قبيل الإستعارة في المركّب شبّه كون عاقبة إنفاقهم ندمًا بكون ذواتها ندمًا، فأطلق المشبَّه به على المشبّه.[٥٣٠٤]

[٥٢٩٩] **الكشاف** للزمخشري، ٢١٢/٢؛ **اللباب** لابن عادل ٥١٣/٩؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٤٧/٢؛ **تفسير ابن كمالباشا**، ٢٦٣/٤.

[٥٣٠٠] **جامع البيان** للطبري، ٥٣٠/١٣.

[٥٣٠١] ج – الله.

[٥٣٠٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٠/١.

[٥٣٠٣] **تفسير ابن كمالباشا**، ٢٦٣/٤.

[٥٣٠٤] **نواهد الأبكار** للسيوطي، ٥٥٠/٦.

«والحسرة»: غَمٌّ بما انكشف من فوت إستدراك الخطيئة، وذلك الغمّ سُمي ندامةً، وأصلها الكشف، من قولهم: حَسَرَ عن ذراعيه».[٥٣٠٥]

﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ ثم لا يبقى حالهم على النَّدم والحسرة لفقد الأموال وفقدان الغرض، حتى يصير آخر الأمر إلى المغلوبيَّة التي هي ضدّ الحالة التي قصدوها، فيرجعون طلقاء، وإن كانت الحرب بينهم وبين وبين المؤمنين قبل ذلك سجالًا».[٥٣٠٦]

فالأوّل: إشارة إلى الغمّ من عدم حصول ما انفقوا لأجله، والثاني: إلى حصول عكسه وبأسهم بالمرّة .

وقيل: يكون عليهم حسرة يو القيامة، فالأوّل: إشارة إلى حصول العذاب، والثاني: إلى عدم حصول المقصود، فتقديم الأوّل لكونه أدومَ وأفضحَ. و﴿ثُمَّ﴾ في الجملتين للتَّراخي في الزّمان لما بين الإنفاق وظهور ما يترتب عليه من الإمتداد، أو الرُّتبة لغاية بعد ما بين غرضهم في الإنفاق وبين ما يحصل منه ويقع بعده، ثم إنّ حملة الكلام على كون ﴿يُنْفِقُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، وكون ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا﴾ معطوفًا عليه.

وقال بعض الأفاضل:[٥٣٠٧] وتحقيق المعنى: أنّ قوله ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا﴾ جوابٌ عمّا يتضمّنه الموصول مع صلتها من معنى الشّرط، كما في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [البروج ١٠/٨٥]. و﴿يُنفِقُونَ﴾ إمّا حالٌ أو بدلٌ من ﴿كَفَرُوا﴾ أو عطف بيان، وفي تضمُّنِ الجزاء من معنى الإعلام والإخبار: التوبيخُ على الإنفاق والإنكار عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل ١٦/ ٥٣] وفي تكرير الإنفاق في الشّرط والجزاء: الدّلالةُ على كمالِ سوء الإنفاق المذكور، كما في قوله: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران ١٩٢/٣]. وقولهم: من أدرك الصَّمَّان فقد أدرك المرعى. وتلخيص المعنى: أنّ الذين ينفقون أموالهم لإطفاء نور الله، والصَّدّ عن متابعة رسول الله، فسيعلمون عن قريبٍ سوءَ مغبَّة تلك الإنفاق وانقلابها إلى حسرة ما أبعدها من الحسرات، ثم المآل إلى القتل والأسر في الدنيا، والخزي والنَّكال في العقبى. ما أفصحها من آية![٥٣٠٨]

وفي هذا دلالة على نبوّة النّبي؛ لأنَّه أخبر بالشّيء قبل وقوعه فوجد على ما أخبر به، ووعد وبشارة له وللمسلمين بأنهم منصورون غالبون، وعاقبة الحسنى لهم، ووعيد للكفرة بأنهم المخذولون المقهورون، ولهم عاقبة السُّوء قال الله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[الصافات٣٧/ ١٧٣-١٧٤]، ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة ٢٢/٥٨] الفائزون بالسَّعادات كلُّها في الدَّارين.وفي هذا عبرة عظيمة، وعظة جسيمة للذين يصرفون أعمارهم في غير طاعة الله، ويبذلون أموالهم على غير وجه الله ثم لايدركون مطالعهم، ولا يَصلون مآربهم، فيبقون في الحسرات ويتلهَّفون في النّدامات، ولا خلفَ لما تلّف منهم، ولا قضاءَ لما فات عنهم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧)﴾

أي: استمرّوا على الكفر منهم خصّهم، ولم يقل: ثم يغلبون ﴿إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾؛ لأنّ منهم من أسلم وحسن إسلامه. ولا بعد أن يراد الجنس فيندرج فيه حكمُالمستمرّين ﴿إِلَى جَهَنَّمَ﴾ لا إلى غيرها فلذلك قدّم.

[٥٣٠٥] **تفسير ابن كمالباشا**، ٢٦٣/٤.

[٥٣٠٦] **تفسير ابن كمالباشا**، ٢٦٣/٤-٢٦٤.

[٥٣٠٧] هو: شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي.

[٥٣٠٨] **فتوح الغيب** للطيبي ٩٧/٧.

وقيل: لرعاية الفاصلة ﴿يُحْشَرُونَ﴾ يجمعون ويساقون من كل جانبٍ بعد تحسّرهم في الدنيا، ووقوع الظفر بهم، ومن ههنا يظهر ضعفُ حملِ الحسرة على ما في الآخرة، وكونُ هذه الجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿يُغْلَبُونَ﴾، يعني: يغلبون جميعًا ثم بعضهم يُسلمون وبعضهم يموتون على الكفر ويحشرون.

وفي الصحيح: «وَيَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارُ، أي: تجمعهم وهم الكفار، تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وتَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وتُمسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا».[٥٣٠٩] يعني: النار تلازم هذه الفرقة في جميع أحوالهم.

والتمييز: إخراج الشيء عمّا خالفهمَّا ليس منه، وإلحاقه بما هو منه يقال: مَيَّزَهُ يُمَيِّزُهُ ومَازَهُ يَمِيزُهُ وامتَاز وانْماز.

وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب: «ليُمَيِّز»[٥٣١٠] من التَّمْيِيز وهو أبلغ من المِيْز.[٥٣١١] وإن كان كلّ منهما يتعدّى إلى واحد؛ لأنّ فيه دلالة على الاعتمال، وقرئ: «ليُمِيزَ»[٥٣١٢] من الإِمَازة.

﴿الْخَبِيثَ [**٢٦٩**/ظ] مِنَ الطَّيِّبِ﴾: الفريقَ الكافر من الفريق المؤمن، أو الفساد من الصلاح، في الدنيا بالغلبة، والنَّصر، والأسماء الحسنة، والأحكام المخصوصة. فاللام متعلِّقة بـ﴿يُغْلَبُونَ﴾، أو في الآخرة بالثواب، والجنّة، والعقاب، والنار، فهي متعلِّقةبـ﴿يُحْشَرُونَ﴾، أو: المال الخبيث الذي أنفقه المشركون في عداوة الرّسول من المال الطّيب الذي أنفقه المسلمون في نصرته.[٥٣١٣]

فهي متعلقة بـ﴿تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾؛ إذ لا معنًى لتعليل حشرهم بتمييز المال، كما أنَّه لا معنىً لتعليل كون أموالهم حسرةً بتميز الكفَّار من المؤمنين.

﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ﴾ بعد التمييز من الطيّب، وهو تصييريّة بنصب مفعولين، أو بمعنى الإلغاء، وعلى التَّقديرين قوله: ﴿بَعْضَهُ﴾ بدل بعض من كل، وقوله: ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾؛ مفعولٌ ثانٍ، أو ومتعلّق بالفعل.

وقيل: حال، أي: غالبًا على بعض.

و«الرّكم»: جمع الشئ فوق الشئ، حتى يصير رُكامًا ومركومًا كما يركم الرّمل والسحاب،[٥٣١٤] وهو المتراكب بعضه فوق بعضٍ بأن يضيق عليهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾ [الفرقان ١٢/٢٥] في الأصفاد، وهذا نوعٌ من العذاب لهم ﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ من الضّمير في ﴿فَيَرْكُمَهُ﴾ أو تأكيدٌ، والمعنى ويجعل الكافر بعضه على بعض، فيجمعهم ويضم بعضهم حتى يتراكبوا، أو يتراكموا، كقوله: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن ١٩/٧٢] يعني: لفرط إزدحامهم ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ جعلَ الكفارَ في الانضمام والازدحام والاجتماع في النَّار شيئًا مركومًا، كحطبٍ مرتكبٍ بعضُه على بعضٍ، مجموعٍ ملقًى في جهنم مبالغةً.[٥٣١٥]

[٥٣٠٩] **صحيح البخاري**، ١٠٩/٨ (٦٥٢٢).

[٥٣١٠] **النشر** لابن الجزري، ١٨٤/٢.

[٥٣١١] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٠/١.

[٥٣١٢] قراءة شاذَّة، مروية عن ابن مسعود. **الكشاف** للزمخشري، ٢١٢/٢؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٥.

[٥٣١٣] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٠/١؛ **تفسير ابن كمالباشا**، ٢٦٤/٤.

[٥٣١٤] **اللباب** لابن عادل ٥١٤/٩.

[٥٣١٥] **تفسير ابن كمالباشا**، ٢٦٤/٤.

أو جعل المال الخبيث كذلك ملقًى ﴿**فِي جَهَنَّمَ**﴾: من جملة ما يُعذَّبون به، يشير إليه قوله تعالى:﴿**يَوْمَ يحمى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فتكوى بِهَا جِباهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ**﴾ [التوبة ٩/٣٥].

وأمّا ما قال قدس سره: «أو يضمّ إلى الكافر ما أنفقه ليزيد به عذابه كمال الكانزين»[٥٣١٦] فلعلّه مبنيٌ على تعميم الخبيث للرجال والأموال، وجعل الأوّل عبارة عن الأموال، والثاني عن الرجال فلا يخ عن التّكلف.

﴿**أُوْلَٰٓئِكَ**﴾ إشارةٌ إلى الفريق الخبيث على الأوّل، وإلى الذين كفروا على الثاني.[٥٣١٧]

وقيل: إلى المنفقين ولا يلائمه ما سبق من أنّ منهم من أسلم.

﴿**هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ**﴾ الكاملون في الخسران؛ لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم[٥٣١٨] ودنياهم وآخرتهم، لم يبق لهم الرُّجوع والتدارك وبقوا في أنواع المهالك.

﴿**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨)**﴾

لمن بقي من كفّار قريش بعد مَنْ قُتِلَ منهم ببدرٍ،كأبي سفيان وأصحابه، وهذا إرشادٌ لهم إلى الصّواب بعد بيان ضلالهم في البدنيّة والمالية. واللام للتعليل، أي: قل لأجلهم ونحوه: ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ**﴾ [الأحقاف ٤٦/١١]. فإنّ الكفرة خاطبوا بقولهم غيرَهم من الكفّار لأجل المؤمنين ليسمعوه، «أو للتّبليغ، أمر أن يبلّغهم معنى هذه الجملة المحكيّة بالقول، سواء أوردها بهذا اللّفظ أم بلفظٍ آخر مؤدٍّ لمعناها».[٥٣١٩] وفيه أنّه لو كان بمعنى خاطبهم لجاعلي الخطاب نعم، يتضح ذلك على القراءة بالتّاء والكاف في قوله: «إِنْ تَنْتَهُواْ يُغَفَرْ لَكُمْ مَا قَدْ سَلَفَ».[٥٣٢٠]

الانتهاء: الإقلاع عن الشيء؛ لأجل النهي يقال: نهيته فانتهى.

«والسّلوف»: التقدّم، أي: إِنْ يَنْتَهُواْ عمّا هم عليه من معاداة الرّسول وقتاله بالإسلام. ﴿**يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ**﴾ من ذنوبهم؛ «لأنّ الإسلام يَجُبُّ ما قبلَه». وقرئ: ﴿**يَغْفِرْ**﴾[٥٣٢١] على البناء للفاعل وهو الله.[٥٣٢٢]

وهذه لطيفةٌ من الله بها على الخلق؛ لإنّ الكفّار يرتكبون الكفر والجرائم، فلو كان ذلك يوجب لهم لَما استدركوا أبدًا توبةً، ولا نالتهم مغفرة، فيسّر الله عليهم قبولَ التّوبة عند الإنابة، وبذل المغفرة بالإسلام، وهدم جميع ما تقدّم، ليكون ذلك أقربَ لدخولهم في الدِّين، وأدعَى إلى قبولهم لكلمة المسلمين، ولو علموا أنهم يؤاخذون لَمَا تابوا ولا أسلموا، يستوجب العفوَ الفَتَى إذا اعترف. ثم انتهى عمَّا أتاه واقترف لقوله: ﴿**قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ**﴾.

وعنه عليه السلام: «إِذَا أَسْلَمَ العَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلاَمُهُ، يُكَفِّرُ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا ، وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ القِصَاصُ : الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهَا».[٥٣٢٣]

[٥٣١٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٠/١

[٥٣١٧] **تفسير ابن كمالباشا**، ٢٦٥/٤.

[٥٣١٨] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٠/١؛ **تفسير ابن كمالباشا**، ٢٦٥/٤.

[٥٣١٩] **اللباب** لابن عادل ٥١٤/٩.

[٥٣٢٠] قراءة شاذّة، مروية عن ابن مسعود. **الكشاف** للزمخشري، ٢١٢/٢؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٥؛ **اللباب** لابن عادل ٥١٥/٩.

[٥٣٢١] قراءة شاذّة، مروية عن عبيد بن عمر. **الكشاف** للزمخشري، ٢١٣/٢؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٥؛ **اللباب** لابن عادل ٥١٥/٩.

[٥٣٢٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٠/١؛ **تفسير ابن كمالباشا**، ٢٦٥/٤.

وعن يحيى بن معاذٍ: «توحيد ساعة لم يعجز عن هدم ما قبله من كُفْرٍ، أرجو أن لا يعجز عن هدم ما بعده من ذنوب».

واستدلَّ بها على عدم الخطاب للكفَّار بالفروع؛ لأنَّها لا تصحّ منهم في حال الكفر، ولا يقضى بعد الإسلام، وعلى قبول توبة الزّنديق لشمولها الجميع، ولأنّه يكلّف بالرجوع، ولا طريق له إلا التوبة، فلو لم يقبل لزم التكليف بما لا يطاق.

﴿**وَإِن يَعُودُوا**﴾ إلى قتالهم م﴿**فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ**﴾ منهم الذين دُمِّروا يوم بدرٍ أو من الذين تحزَّبوا أنبيائهم، من الأمم فأهلكوا، أو غلبوا كقوله: ﴿**كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي**﴾ [المجادلة ٢١/٥٨] «وهذا تعليل للجواب أقيم مقامه، والتقدير: وإن تعودوا انتقمنا منهم وأهلكناهم، فقد مضت». والسّنة، والسّيرة، والطريقة، نظائر، وإضافتها إليهم لجريانها عليهم، وإلى الرُّسل في قوله: ﴿**سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا**﴾ [**٢٧٠**/و] لوقوعها على أيديهم، وإلى ذاته تقدّس في قوله: ﴿**وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا**﴾[المجادلة ٧٧/١٧]؛ لأنه يجريها فيهم.

وقيل: الموصول لايخصّ المذكورين، وماسلف هو الكفر والمعاصي، ﴿**وَإِن يَعُودُوا**﴾: هو العود إلى الكفر، ولكن لا يخفى أن المراد بـ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾: الكفر الأصلي، ويدلّ عليه مقابله، وبما سلف ما مضى في حال الكفر.

فاحتجاج أبي ح [حنيفة] على أنّ من عصى طول العمر، ثم ارتدّ، ثُمَّ أسلم لم يبق عليه ذنب في غاية الضَّعف.[٥٣٢٤] وقالوا: الحربي إذا أسلم لم يبق عليه تبعةٌ قطّ، وأمَّا الذِّمّي فلا يلزمُه قضاءُ حقُوق الله، وتبقى عليه حقوق الناس؛[٥٣٢٥] لنقضه العهد حال كفره، ثم إنّ في القول الأول: تهديدًا لقريش المرادين بقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينِ يُنْفِقُونَ**﴾ والموصول مع صلتها مُظْهر موضع المضمر، والتّعريف في الأولين للعهد أو للجنس على ما قرّر، وفي الثاني: ترغيبًا في الدّخول في الإيمان، وحثًّا عليه، «ولكن على هذا لا يَحْسُنُ التقابُلُ بين قوله: ﴿**إِنْ يَنتَهُوا**﴾ وبين قوله: ﴿**وَإِنْ يَعُودُوا**﴾ حُسْنَه في الوجه الأوَّل؛ لأن التقابل الظاهر: إن ينتهوا عن الكفر يكون كذا، و إن لم ينتهوا- أي: داموا عليه- يكون كذا؛ لأن العَوْدَ الرجوعُ إلى ماكان[٥٣٢٦] عليه بعد الفصل عنه، والكفرة لم ينفصلوا عنه، ومن ههنا ذهب بعضهم إلى المراد العود إلى القتال فى الثاني أيضًا.

﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) ۞ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)**﴾

بيانٌ لحكم إصرارهم بعد بيان الغفران عند الانتهاء والتّوعّد عند العود، وبين علّة إيجاب القتال بقوله: ﴿**حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ**﴾ إلى أن لا يوجد فيهم شرك قطّ.

وقيل: «حتَّى لا يفتن مؤمن عن دينه».[٥٣٢٧]

وعن ابن الزبير: «كان المؤمنون يفتنون عن الدين في المبدأ، فافتتن البعض، فأمر عليه السلام بالخروج إلى الحبشة، وفتنة ثانية لَمَّا بايعت الأنصارُ بيعة العقبة، فأراد قريش أن يفتنوا المؤمنين بمكة، فأصاب المؤمنين جهدٌ شديدٌ، فأمر بالقتال لتقع الفتنة في الزوال.[٥٣٢٨]

[٥٣٢٣] **صحيح البخاري**، ١٧/١ (٤١).

[٥٣٢٤] **حاشية الشهاب**، ٢٧٥/٤.

[٥٣٢٥] **الكشاف** للزمخشري، ٢١٣/٢.

[٥٣٢٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٠٠/٧.

[٥٣٢٧] **اللباب** لابن عادل، ٥١٥/٩.

وقيل: حتى لا يكون كافر بغير عهدٍ؛ لأنّ الكافر إذا كان بغير عهد كان عزيزًا في قومه، ويدعوا الناس إلى دينه.

﴿**وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ**﴾ بأن تضمحلَّ عنهم الأديانُ الباطلةُ كلُّها، ويبقى فيهم الإسلام وحده.[٥٣٢٩]

وعن أبي عبد الله: لم يجئ تأويلها ولو قد قام قاعدًا بعدُ، سيرى من يدركه ما يكون من تأويل هذه الآية، وليبلغنّ دين محمد ما بلغ اللَّيل حتى لايكون شرك على ظهر الأرض وزاد ههنا لفظه ﴿**كُلُّهُ**﴾؛ لأنَّ القتال مع جميع الكفار بخلاف ما في البقرة لكونه مع أهل المكة فحسب.

﴿**فَإِنِ انْتَهَوْا**﴾ عمَّا يجب الإنتهاء عنه وأسلموا، والفاء للتَّرتيب على ما قدّم. ﴿**فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ تعليلٌ لما تضمّنه الجواب من عدم التّقصير في المجازاة، تقديره: فيجازيهم على الإمتثال ولا يضيع نقيرٌ وقطميرٌ من التروك وأعمال.[٥٣٣٠]

وقرئ: «تَعْمَلُونَ» بالتاء،[٥٣٣١] على المعنى: فإن الله بما تعملون من الجهاد والدَّعوة إلى الإسلام، والإخراج من ظلمة الكفر ﴿**بَصِيرٌ**﴾ يجازيكم عليه.[٥٣٣٢]

وقال قدس سره: فيكون تعليقه بإن انتهوا على الغيبة للدلالة على أنه كما يستدعي إثابتهم للمباشرة يستدعي إثابة مقاتليهم للتَّسبب.[٥٣٣٣] يعني: أن انتهاءهم سبب الجهاد، والإخراج، وفيه أنها لا يتوقّف على الانتهاء، بل يحصل بالجهاد سواءٌ انتهوا أو لم ينتهوا، فلا وجهَ للتعليق به، بل الوجه التغليب، أي: إنّه بصير بعملكم وعملهم، فيثيبكم جميعًا، ويجازي كلًّا بحسب عمله.[٥٣٣٤]

﴿**وَإِنْ تَوَلَّوْا**﴾ عن الإمتثال، ولم ينتهوا عن القتال والجدال ﴿**فَاْعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ مَوْلاَكُمْ**﴾ ناصركم، وسيدكم، وحافظكم، فلا تبالوا بهم، وثقوا به تعالى؛ فإنّه ينصر أعدائهم عليهم وهم أولياء الدّين، حتى يقهرهم هذا على المشهورة.

وأمَّا على قراءة التاء فمعناه: لا تتوانوا في الجهاد والإخراج، فإنّه ناصركم إلى آخره. «وفي زيادة ﴿**اعْلَمُوا**﴾ لتضمنه الدلالة على تنزيلهم منزلة الجاهل؛ لنكتةٍ خطابيةٍ تناسب المقام، وتزيد في البلاغة درجة الكلام- مزيدُ تهييجٍ لهم على ذلك».[٥٣٣٥]

﴿**نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ**﴾ الله، أو ربّكم، لا يُضيع من تولّاه ﴿**وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ**﴾ فلا يغلب مَنْ يَنْصُرُه. فكلُّ من كان في حماية من هذا شأنه أَمن من الآفات، ووصل إلى المرادات، والظاهر أنَّ موليكم خبر ﴿**أنَّ**﴾، والمدحية مستقلَّة، ويجوز كونه بدلًا من الله والمدحية الخبر واعلم أنَ هذه خاتمة شريفة في أمر الجهاد، ولذلك كانت تخلُّصًا إلذكر ما بدأت السورة به من حديث الغنائم وقسمتها.

[٥٣٢٨] **مفاتيح الغيب** للرّازي ١٣١/١٥؛ **اللباب** لابن عادل، ٥١٥/٩.

[٥٣٢٩] **تفسير ابن كمالباشا، ٢٦٦/٤.**

[٥٣٣٠] **تفسير ابن كمالباشا، ٢٦٦/٤.**

[٥٣٣١] قراءة شاذَّة، مروية عن الحسن و يعقوب. **الكشاف** للزمخشري، ٢١٣/٢؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٥؛ **اللباب** لابن عادل ٥١٦/٩.

[٥٣٣٢] **الكشاف** للزمخشري، ٢١٣/٢.

[٥٣٣٣] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٠٧/٢

[٥٣٣٤] **تفسير ابن كمالباشا، ٢٦٦/٤.**

[٥٣٣٥] **تفسير ابن كمالباشا، ٢٦٧/٤.**

وعن بعض العارفين: الإشارة الى كَفَرَة النفوسِ الامَّارة بالسُّوء، أي: جاهدوها، وأميتوها حتى يتقدس مزارع أنوار اليقين، ومرابع سناء الإسلام والدين، ويصير القلب كله مستغرقًا في بحار محبّته، وأشار [**٢٧٠**/ظ] إلى الاستعانة بقوله: ﴿**نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ**﴾.

وقيل: ﴿**نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ**﴾لمن والاه ﴿**وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ**﴾ لمن استنصره. وقيل: ﴿**نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ**﴾ لأهل الولاية ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ لأهل الإرادة. وقيل: ﴿**نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ**﴾ بالتعريف. وقيل: التكليف، ونعم النَّاصِر لك بالتخفيف والتضعيف يضعف الحسنات ويخفف السيّئات.[٥٣٣٦]

﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)**﴾

ذكر حكم الغنيمة؛ لما تضمَّنها الأمر بالقتال، والتّصدير بالعلم لزيادة الإهتمام، ولا يراد العلم المجرّد، بل المستلزم للعمل؛ فإنّه المقصود من العلم العملي إذا أمر به، والإعتقاديات مقصودة بذواتها، فإن قيل: المقصود منه أيضًا الانقياد، وتحصيل الثواب، أجيب من طريق المعاملة بأنَّ ذلك وسيلةٌ إلى المثوبة الأبديّة المتوقّفة على الإيمان بنفسه، والعملي إلى كمالها بالعمل بمقتضاه لا بنفسه، ومن طريق المكاشفة أنّ ذلك هو السّعادة العظمى؛ إذ هو لذّةٌ أبديّة أعلى اللذّات وهو المقصود من العبادات.

و«مَا» موصولةٌ، حقّها أن تكتب منفصلةً، ولكن كذا رُسِمَت، والعائد محذوفٌ لاستكمال الشُّروطِ، أي: غَنِمْتُمُوه.

وأصلها من الغُنْمِ، وهو الفوزُ، يقال: غَنِمَ يَغْنَمُ غُنمًا فهو غَانِم، وهو من الغَنَم هذا الحيوان ، فإنَّ الظَفر به يُسَمَّى غُنْمًا، فاتُّسِع، فَسُمِّي كلُّ شيء مظفورٍ به.[٥٣٣٧]

وفي الشريعة: ما دخلت في أيدينا من المشركين على سبيل القهر، وأنها لم تحللأمَم، وأحلت أربعة أخماسها كما يبَّن في آخر السورة، وههنا مصارف خمسها، والفيء: بمعناها.

وقيل: ما كان عن صلح بلا قتالٍ يؤيِّد الأوَّل قوله عليه السلام في غنائم خيبر: «مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم».

وفي الصحيح: «أَيُّمَا قَرْيَةٍ أَتَيْتُمُوهَا، وَأَقَمْتُمْ فِيهَا، فَسَهْمُكُمْ فِيهَا، وَأَيُّمَا قَرْيَةٍ عَصَتِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ خُمُسَهَا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ، ثُمَّ هِيَ لَكُمْ».[٥٣٣٨]

وفيه دلالةٌ على أنَّ المال الفيء لا الخمس خلافًا للشافعي.

﴿**مِنْ شيءٍ**﴾ في محلّ النصب على حال من العائد، أي: كائنًا منه قليلًا أو كثيرًا حتى المِخْيطِ والخَيطِ، فمجيء البيان به للتعمم. ﴿**فَأَنَّ لِلَّهِ**﴾ في موضع رفعٍ مبتدأ حذف خبره، أي: فثابت أنَّ لله خمسه، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: فالحكم أنَّ لله خمسه.[٥٣٣٩]

[٥٣٣٦] **عرائس البيان** للبقلي، ٥٢٩/١-٥٣٠.

[٥٣٣٧] **اللباب** لابن عادل، ٥١٦/٩-٥١٧.

[٥٣٣٨] **صحيح مسلم**، ١٥١/٥ (١٧٥٦).

[٥٣٣٩] **اللباب** لابن عادل، ٥١٨/٩؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ١٠٢/٧.

وفيه زيادة حذف أعني: اللام إلا أنه يرجح بأن حذف المبتدأ أكثر.

«وقرئ: بكسر «إنَّ»،[٥٣٤٠] ويؤيدُه قراءة «فللَّه خُمُسُهُ»،[٥٣٤١] والمشهورة آكَدُ للإيجاب وأثْبَتُ، كأنّه قيل: فلا بدّ من إثبات الخُمُس فيه، بلا إخلالٍ ولا تفريطٍ، من حيث إنّه إذا حذف الخبر وَاحْتَمَلَ غيرَ واحدٍ، كان أقوى»؛ لأنّ السامع يذهب كلّ مذهبٍ، وما يقال: إن فيه إجمالًا ليس بشيءٍ، إذ لا لبس أن المراد الإيجاب، وأنّ المحذوف ما يؤدي إليه، والجملة في كلّ الرفع على أنها خبر «أنَّ» وهي مع ما اتَّصل بها معمول ﴿اعْلَمُوا﴾، والفاء: لتضمُّن العموم المدلول عليه كما الشرط وذكر الله، إمَّا لافتتاح كلام على التّبرك، وإضافة المال إليه لشرفه، لا لأنّ سهمًا منها نصيبٌ له؛ فإنّ في الدَّارين كلّها له، أو للتّمهيد لذكر الرسول، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[التوبة ٩ /٦٢] أو لذكر هؤلاء المصاريف الأخصّين به، فالمراد قسم الخمس على الخمس المعطوفين، وعليه مذهب الإمامين، أبي حنيفة، والشافعي، ويؤيّده قوله ع م: «مالي مِمَّا أَفَاءَ الله عَلَيْكُمْ إلا الخُمُس».[٥٣٤٢] فلو كان لله سهم على هذه لكان سهمه السّدس لا الخمس، وأمّا لتخصيص الخمس به تعالى بأن يكون متقرّبًا به إليه لاغير، وذكر المعطوفين إنما وقع للخصوص والتفضُّل على الغير من وجوه القُرَب كقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَٰلَ﴾[البقرة ٢/ ٩٨]، ومنه قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[البقرة ٢١٥/٢]، فللرجل أن يُنْفِقَ في البِرّ على هذه الأصناف كيف يشاء، وههنا أيضًا يجوز التقسيمُ بينهم، وإعطاءُ بعضٍ دون بعضٍ، وإخراجُهم من القَسْم إن كان أمرُ غيرِهم أهمَّ من أمرهم. على رأي الإمام، واجتهاده، وعليه مذهب مالك.

وأمّا لاتجاب التسوية بين حقِ الله، وبين هؤلاء بأن يقسم الخمس على ستّة أسهُم. وعليه أبو العالية، ثم اختلف،فقيل: إنه يُصْرفُ إلى الكعبة.

وقيل: لبيت المال، وقيل: مضموم إلى سهم الرسول، ويدلّ على الأوّل ما روي أنه عليه السلام: «كان يأخذ الخُمُس فيضرب بيده فيه، فيأخذ منه قبضة، للكعبة.

﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾

سهم الرسول ثابتٌ عند الشافعي يصرف بعده إلى ما كان يصرفه إليه من مصالح المسلم كعُدّة الغُزاة من الكُراع، والسّلاح، وسدّ الثغور، وعمارة الحصون، والقناطير، والمساجدوأرزاق الغزاة، فالأهمّ والأهمّ، أو الإمام، أو الأصناف الأربعة ﴿وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أقارب النبي من أولاد هاشمٍ، والمطّلب ابن عبد منافٍ دون بنى عبد شمسٍ، وبني نوفل؛ فإن النّبي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد منافٍ، وكان لعبد منافٍ أربعة بنين هاشم، والمطّلب، وعبد شمسٍ، ونوفل، ولَمّا قسم غنائم خيبر قسم خمس ذوي القربى: في بني هاشمٍ، وبني عبد المطّلب. وكان عثمان من أولاد عبد شمسٍ، وجبير بن مطعم من أولاد نوفل، قالا لرسول الله: «هؤلاء [**٢٧١**/و] إخوتك بنوا هاشمٍ لا ننكر فضلَهم لمكانك الذي جعلك الله منهم، فإنّ بني هاشم أفضلُ مِنّا؛ لأنّهم أقرب إليك منّا؛ لأنّ فيهم وجدّك واحدٌ؛ ولكن نحن وأصحابنا من بني المطلب في النّسب سواءٌ؛ لأنّ آباءهم أخو هاشم وكذا أبونا فلم حرَّمْتنا؟ فقال: «إنهم لم يفارقوني في الجاهلية ولا في الإسلام، إنَّما بنو هاشمٍ وبنو المطّلب شيء واحد»، وشَبَّك بين أصابعه. فإنّ سائر بطون قريش على معاداة بني هاشم، وحلفوا على أن لا ينكحوا، وكتبوا به صحيفةً، وعلّقوها على باب الكعبة، فوافقهم عليه بنو عبد شمسٍ وبنو نوفلٍ.

[٥٣٤٠] قراءة شاذّة، مروية عن يحيى وإبراهيم. **الكشاف** للزمخشري، ٢١٤/٢؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٥؛ **اللباب** لابن عادل ٥١٨/٩.

[٥٣٤١] قراءة شاذّة، مروية عن النخعي. **الكشاف** للزمخشري، ٢١٤/٢؛ **اللباب** لابن عادل ٥١٨/٩.

[٥٣٤٢] **السنن الكبرى** للبيهقي، ٢٦/٧ (١٣١٧٧).

وقيل: بنو هاشم وخَدَمهم.

وقيل: جميع قريش. وقيل: الذين لا يحلّ لهم الصدقة، والحنفية: يعتدون بالفقر؛ لأنَّه مقترن لما شرط فيه ذلك فابن السبيل إنما يعطى لانقطاعه عن ماله.

وعن الشافعية: الإطلاق لعطفه على الرسول بلا قيد وابن السبيل وغيره مخصوصٌ بالدليل، ولا يبعد أن يجعل الاستحقاق بحسب المفهوم الألفاظ الخمسة، وفي التّنزّل من الأعلى إلى الأدنى التنبيه على الاستحقاق بحسب الأولويّة، وعلى أنّ ذكر الله لتعظيم الرَّسول، كما ذهب إليه الإمامان، وأن العلَّة في الإستحقاق كونه ذا القربى لا الاحتياج، وسيجيء من الحنفية ما ينقض ذلك وقولهم الخلفاء الراشدون بعد رسول الله كانوا يعطونه ولا يفضل فقير على غني، والنبي أعطى العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله، فالحق بالميراث الذي يستحق باسم القرابة،فيعطى الرجل سهمَيْنِ والأنثى سهمًا .

وقيل: الخمس كله للقرابة، وعن علي رضي الله عنه أنَّه قيل له: إنّ الله قال: ﴿**وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ**﴾ [البقرة ٨٢/٢]فقال: «أيتامنا ومساكيننا».[٥٣٤٣] فذكرهم من قبيل ﴿**وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ**﴾ بعد ذكر الملائكة، ثم إنَّ سهم القرابة باقٍ عند الشافعي، فيقسم كما قسم النبي، ونحن نقول علّل رسول الله بصحبتهم أو نصرتهم إياه، فلم يبق بوفاته. فالمراد: المصاحبة لا القرابة، وقد فاتت فيفوت الاستحقاق بها يستحقون بعد وفاته بالفقر، حيث قال عليه السلام: وعوّضكم، أي: الله بخمس الخمس. ولَمَّا كان عوضًا عن الزكاة فيستحقّه من يستحقّها، ونقل: إن الخلفاء كانوا يقسمون على ذلك وكان عمر رضـ يعطي فقرائهم.

وعن ابن عباسٍ: أنه كان على ستةٍ: لله وللرسول سَهمان، وسهمٌ لأقاربه حتى قُبض، فأجرى أبو بكر الخمسَ على ثلاثة.

وروي: أنّه منع بني هاشم الخمسَ، وقال: إنما لكم أن يُعطى فقيرُكم، ويُزوَّج أيِّمُكم، ويُخدَّم من لا خادم له، فأمّا الغنيُّ منكم فبمنزلة ابن سبيل غنيّ، لا يُعطى من الصدقة شيئًا، ولا يَتِيمٌ موسِر.

وقال: زيد بن علي: لا يبنى منه حصون، ولا يركب منه البراذين.[٥٣٤٤]

والْيَتَامَى: جمع «يَتِيمٍ»، وكلّ حيوان يتيم من قبل أمّه إلا الإنسان، فإنه من قِبَلِ أبيه يصرف إليه سهم إن كان فقيرًا.

وَالْمَسَاكِينُ: جمع «مِسْكِينٍ» وهو المحتاج الذي أسكته الحاجة عما ينهض به الغني، وابن السبيل: المسافر الذي المنقطع به في سفره البعيد من ماله سمي به؛ لأن السبيل أخرجه إلى هذا المستقرّ، كما أخرجه أبوه إلى مستقره.

نزلت ببدر، وهو أوَّلُ مشهد شهده عليه السلام. وقيل: كان الخمُسُ في غزوة بني قَيْنُقَاعَ بعد بدرٍ بشهرٍ وثلثة أيَّامٍ.[٥٣٤٥]

﴿**إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾

شرطٌ جوابه ما دلَّ عليه ﴿**وَٱعْلَمُوٓاْ**﴾ أي: اجعلوا الخمس لله وأخْبَابِه للتّقرب إليه، واقطعوا أطماعكم فيه، واصرفوا إلى مَنْ عيّن من المخصوصين واقتنِعُوا بالأخماس الأربعة[٥٣٤٦]، وإنما قدَّرنا بالمدلول بالعلم بعنوان العمل؛ لما عرفت في بيان الدّال،

[٥٣٤٣] **الكشاف** للزمخشري، ٢١٥/٢.

[٥٣٤٤] **الكشاف** للزمخشري ٢١٥/٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٥٢٣/٩.

[٥٣٤٥] **نواهد الأبكار** للسيوطي، ٥٥٥/٦.

ولأنّ في هذا الشرط- المذَيَّل به الكلامُ- التأكيد؛ لما فيه من التَّكرير، وضُمَّ معه قيد الإيمان،[٥٣٤٧] فإنَّ العلم المجرّد يستوي فيه المؤمن والكافر.[٥٣٤٨]

فإيراده للمبالغة في الحثّ على امتثال أمر الله لا لأنَّهم في حالٍ يصح أن يشك بذلك في إيمانهم؛ لعلوّ شأنهم، وفيه إيماء إلى أنَّ مَنْ لم يمتثل حكمه تعالى، فكأنَّه لم يؤمن به يرشدك إلى هذا أن الصحابة رضي الله عنهم لَمّا قالوا يوم خيبر: فلان شهيدٌ.

قال ع م: «كَلَّا إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ. فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا». يا ابْنَ الْخَطَّابِ! اذْهَبْ فَنَادِ فِي النَّاسِ أَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ الْمُؤْمِنُونَ».[٥٣٤٩]

وقيل: جوابه ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: إن آمنتم فأيقنوا نصره ﴿**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا**﴾ في محلِّ الجرّ عطفًا على ﴿**بِاللَّهِ**﴾ فإن أريد به ما أنزل من الآيات المتلوّة وهي: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ**﴾ [الأنفال ١/٨] فوجه الرَّبط أنّه لما وقع التّشاجر بين المؤمنين فيها دفع ذلك، ووطَّن نفوسهم بأنّ حكمها له تعالى ولرسوله، يفعل كيف يشاء بإذنه، ثم بين بعد التوطين أن خمسها للمذكورين، إمّا بنسخ ما تقدم على ما تقدَّم، أو بغير نسخة، بل الأوَّل للتّوطين وهذه ما لأجله التوطين، وأن أريد ما أنزل من الآيات الدّالة على قدرة الباهرة،فهو أنه إن آمنتم بقدرته وجلال عزَّته، وحقية دينه، وصدق نبيِّه فيما قاله بما شاهدتم منها سمعًا ورؤيةً، فاعملوا ذلك واعملوا به، أو فأيقنوا بنصره وفي إسناد الإنزال إلى ذاته تع وتقدس، وإضافة العبد إليه والعدول عن أن يقال:[**٢٧١**/ظ] وما أنزل على نبيِّه ونحوه شأن لا يخفى والمقام يقتضيه، والذوق السليم يرتضيه وعبارة المص:«المراد ما أنزل عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذ».[٥٣٥٠]وفيه رائحة الجمع بين الحقيقة والمجاز.

وقيل: يعني: لم يذكر مفعولَ «ما أنزل» يشتميل على جميع ما يناسب أن ينزل في ذلك المقام، ثم في قوله أيضًا مطلقة، فيجوز أن يراد بها الآيات المتلوة، وأن يراد بها الآيات، الدّالة على القدرة الباهرة، ويكون عطف «الملائكة والفتح» من باب عطف ﴿**وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ**﴾ على﴿**وَمَلَائِكَتِهِ**﴾ [البقرة ٩٨/٢]، والذي يشعر بالثاني ذكر وصف القدرة بعده.

وقراءة من قرأ: «عُبُدِنَا»،[٥٣٥١] بالجمع.

﴿**يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ**﴾ ظرفٌ لـ﴿**أَنْزَلْنَا**﴾ يعني: يومَ بدرٍ، فإنه فُرِّق فيه بين الحق والباطل، وبين المؤمنين والمشركين بإعزاز هؤلاء، وقمع أولئك، «وفيه تصوير تلك الحالة على ضَعف أحد الفريقين وقوة الفريق الآخر، وغلبة الضعيف على القوي بما أنزل إليه من أسباب الفتح والنُصرة»[٥٣٥٢] ودواعي الظفر والغلبة، ولو قيل: يوم بدرٍ، لم يفد ذلك، ولذلك أبدل منه على وجه التتميم.

[٥٣٤٦]**تفسير ابن كمالباشا**، ٢٦٨/٤.

[٥٣٤٧]**فتوح الغيب** للطيبي، ١٠٨/٧.

[٥٣٤٨]**الكشاف** للزمخشري، ٢١٦/٢.

[٥٣٤٩]**صحيح مسلم**، ١٠٧/١ (١١٤)؛ **صحيح ابن حبان**، ٩٢/٧ (٦١٥٨).

[٥٣٥٠]**الكشاف** للزمخشري، ٢١٦/٢.

[٥٣٥١]قراءة شاذَّة، مروية عن زيد بن علي. **اللباب** لابن عادل ٥٢٦/٩؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٦.

[٥٣٥٢]**فتوح الغيب** للطيبي، ١٠٩/٧.

قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين وهم ثلثمائة وبضعة عشر رجلًا، وجمع الكافرين وهم بين تسعمائة إلى ألفٍ من صناديد قريش ورؤسائهم، فهزموهم وقتلوا منهم زيادة على سبعين وأسروا منهم مثل ذلك.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قد مرَّ تقريره من أوّل البقرة، وذكره ههنا للدلالة على أنهيقدر على نصر القليل على الكثير، وعلى ألا يدلَّه بالملائكة وغير ذلك مما يدلّ عليه الحال. ممَّا لا يحيط به المقال من الفوائد والأنوال، على أحسن المنوال.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)﴾

بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ وقيل: من ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾. «والعُدوة»: شطّ الوادي وشفيره، وله عُدوتان، وهما جانباه، والجمع عُدًى، وعِدًى وعِدَاءً، كـ«بُرْمَةٍ» و«بِرَامٍ». سميت بذلك؛ لأنها عَدَتْ ما في الوادي من ماءٍ ونحوه أن يتجاوزها، أي: منعته.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالكسر،[٥٣٥٣] وهو لغة أهل الحجاز.وقال أبو عبيدة: أنَّ الضمَّ أعرفُ اللغتين، وأكثرهما

وقُرئ: «بالعِدْيَة»[٥٣٥٤] على قلب الواو ياءً لمكان كسرة العين، وترك الاعتداد بالساكن؛ لأنَّه حاجزٌ غير حَصين، ونظيرها: الصِّبْيَة.

و«الدُّنْيَا» تأنيث «الأدنى» من دَنَى يَدْنُو أي: قَرُبَ بمعنى الدنيا القربى؛ من المدينة، ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ البُعدى؛ منها، والواو عاطفة لما بعدها على﴿أَنْتُمْ﴾؛ لأنَّها مبتدأ تقسيم أحوالهم، وأحوال عدوهم، ويجوز أن يكون للحال.

و«القُصْوَى» تأنيث «الأقصى»، من قَصَى يَقْصُوا، أي: الأبعد، والقَصْوُ: البعد، وههنا قولان: الأوّل المشهور أن «فُعْلَى» من ذوات الواو، وإن كانت اسمًا أبدلَتْ لامُها ياءً، نحو: الدُّنْيَا، والعُلْيَا، والقُصْيَا، فرقًا بينه وبين الصفة وهذا بالنظر إلى أنها جرت مجرى الجوامد.

وأمَّا بالنظر إلى الأصل الذي هو الصفة كما في الآية، فالقياس أن لا يقلب؛ لأنَّ لام الصّفة أُقِرّت على حالها، نحو: «الحلوى»، تأنيث «الأحلى» ونصّ على أنَّ «القصوى» شاذَّة، وإن كانت لغةَ أهل الحجاز.

وقال المصنف:وهو كـ«القوَد» في مجيئه على الأصل، وقد جاء استعمال «القصيا» إلا أنّ الأول أكثر، كما كثر استعمال «استصوب» مع مجيء «استَصَاب» و«أغيَلت» مع «أغالت».[٥٣٥٥]

وقرئ بالثاني[٥٣٥٦] قياسًا على لغة بني تميم. والثاني الغير المشهور وهو العكس، أي: الإبدال في الصفة، كالأمثلة المذكورة والتقرير في الاسم؛ نحو: «حُزْوَى» فـ«قصوى» على خلاف القياس في الوجهين، وإنما يظهر الفرق في «الحلوى» و«حزوى»،

[٥٣٥٣] أي: ﴿العِدْوَةِ﴾ **السبعة** لابن مجاهد، ص ٣٠٦؛ **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٠٧.

[٥٣٥٤]قراءة شاذَّة. **الكشاف** للزمخشري، ٢/٢١٦؛ **البحر المحيط** لأبي حيان، ٤/٥٠٠؛ **اللباب** لابن عادل ٩/٥٢٧.

[٥٣٥٥]**الكشاف** للزمخشري، ٢/٢١٦؛ **اللباب** لابن عادل، ٩/٥٢٧.

[٥٣٥٦]أي: «بالعدوة القصيا» قراءة شاذَّةمرويَّة عن زيد بن علي. **اللباب** لابن عادل ٩/٥٢٧.

فإن الأوَّل على القياس عند الأوّلين لكونها صفةً، وشاذةً عند االآخرين؛ لأنّ الحكم القلب فيها، و«الحُزْوى» عكسها؛ لأنَّ الأولين يقلبون في الأسماء، دون الصِّفات، والآخرون على عكسهم.[٥٣٥٧]

ثُمَّ إنَّ الإطناب بإبدال ﴿**يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ**﴾ وتعيين مراكز الفرق الثلث تصوير الواقعة المفضية إلى إعلاء كلمة الله كيف كانت، والدّلالة على ضعف المسلمين وقوة المشركين والإمتنان على المؤمنينوالتنبيه على أنها من الآيات الدالة[٥٣٥٨] على كمال القدرة، وصحة النبوة، وأما التصوير، فحيث أخبر المؤمنين بإقبال العير، حتى خرجوا وأقلق الكفار سماع خبرهم لكي ينفروا، و سبَّبَ الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالدنيا، وهؤلاء بالقصوى، وأما الدلالة فلأنَّ الدنياكانت خَبَارًا تسوخ فيه الأرجل، ولم يكن فيها ماءٌ بخلاف القصوى، ولأن الأعداء استظهروا بالركب ووطَّنوا أنفسهم على أن لا يبرحوا مواطنهم؛ وأبي عن الركب، وأنَّ المسلمين في ضعف الحال والإثبات الأمر، وإما الامتنان فبتأييدهم بالنصر، والملائكة، والمطر، وإلقاء الرعب في قلوب الكفرة وغيرها، وإما أنه من الآيات، «فإنّ غلبتهم في مثل هذه الحال ليس إلا بتأييدٍ من الله، وأنّ الحول والقوة كلّه له، وأنّ الفتح كان صنعًا إلهيًّا من خوارق العادات»، [**٢٧٢**/و][٥٣٥٩] سيّما وقد وقع على ما أخبر الصادق عن ربه في وعد النصر والفتح، والمقصود من جملة ذلك أن يتحقّقوا كونه صنعًا إلهيًّا، ويعلموا ما فيه لهم، فيزدادوا إيمانًا وثقةً وشكرًا وامتثالا لأوامره التي من جملتها إيصال الخمس إلى مصارفها؛ ليكون وصلة إلى الانتصار في سائر الوقائع.

﴿**وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا**﴾

﴿**وَالرَّكْبُ**﴾ أي: العير، أو الأربعين الذين كانوا يقودونها، وهو اسمُ جمعٍ لراكب، لا جمع تكسيرٍ له؛ خلافًا للأخفش، ويشهد كونه جمعًا في المعنى دون اللفظ، تصغيره على «رُكَيب»، والأكثر على أنَّه لا يقال إلا للذي على الإبل، ولا يقال لمن كان على فرسٍ أو غيره.

﴿**أَسْفَلَ مِنكُمْ**﴾ في مكانٍ أسفلَ من مكانكم؛ يعني: الساحل، وهذا[٥٣٦٠] منصوب على الظرف، وفي التحقيق صفة لظرف محذوفٍ، تقديره: والركب مكانًا أسفل من مكانكم، ومرفوع المحل لكونه خبرًاللمبتدأ،كقولك: زيد عندك.

و«السفل» قرار فوقه قرار، و«العلو» قرار تحته قرار.[٥٣٦١]

و﴿**مِنْكُمْ**﴾ من صلة ﴿**أَسْفَلَ**﴾؛ لأنَّ فيه معنى التّسافل، والجملة في محل الجرّ عطفًا على ﴿**أَنْتُمْ**﴾ المجرور بإذ[٥٣٦٢] كالسّابقة، أو النَّصب حالًا من الظرف قبله.

قال: المصنف: «ما فائدة ذكر مراكز الفريقين، وأنّ العير كانت أسفل منهم؟ قلت: الإخبار عن الحال الدّالة على قوّة العدوّ، وضعف المسلمين، وأنّ غلبتَهم في مثل هذه الحال ليست إلا صنعًا من الله».[٥٣٦٣]

[٥٣٥٧] **اللباب** لابن عادل، ٥٢٨/٩-٥٢٧.

[٥٣٥٨] ج – الدالة.

[٥٣٥٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧٠/٤.

[٥٣٦٠] ج: هو.

[٥٣٦١] **مجمع البيان** للطبرسي، ١٥٢/١٠.

[٥٣٦٢] **الفريد** للهمذاني، ٣ /٢١١.

[٥٣٦٣] **الكشاف** للزمخشري، ٢١٦/٢.

ووجه السؤال ظاهرٌ وحاصلُ جوابُهاَنَّ فائدة الدلالة على أن المنزَّل كان من الآيات الباهرة الدّالة على القدرة القاهرة، والامتنان على المؤمنين، ومع ذلك فيه تصويرُ الوقعة المفضية إلى إعلاء كلمة الله، وليس السؤال ما فائدة الإخبار بما ذُكر مع أنه معلوم، والجواب أنّ الفائدة قد تكون لازم الحكم؛ إذ لا تنحصر في الحكم ولازمِه، بل قد تكون غيرهما كالمعاني المذكورة، وكالتَّحسّر في:﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ [آل عمران، ٣٦/٣] وأذكار تفاوت الأمرين في: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر، ٩/٣٩]، والتّفجُّع في: «قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أُمَيْمَ أخِي»[٥٣٦٤]إلى غير ذلك، أو أنّ ما ذُكر وإنْ كان معلومًا في الأصل، إلاّ أنَّ هذا تذكيرٌ، وتجديد إعلامٌ، وإحضار في الذّهن.[٥٣٦٥]

﴿**وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ**﴾ أنتم وهم القتالَ، ثم علمتم حين اللقاء حالهم في الكثرة والقوّة والشّوكة وتمهُّد العُدَّة، وحالَكم في القلّة والضّعف وعدم أسباب الظّفر، ﴿**لاَخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَادِ**﴾ لاختلفتم أنتم فيه تهيّبًا منهم، ويأسًا من الظّفر عليهم وظنًّا بالمغلوبيّة.[٥٣٦٦]

مع أن الفتوّة تقتضى الوفاء به خصوصًا؛ لما عقد للمحاربة وهذا أيضًا يؤيد ضعفهم وقوّة أعدائهم، وأنَّ ما وقع من الواقعة لم يكن إلا بتقديرٍ ربّاني وتدبيرٍ إلآهيّ على وجه الإعجاز ولذلك قال: ﴿**وَلَكِنْ**﴾ دبَّر ذلكتدبيرًا عجيبًا حيث وعد إحدى الطائفتين مبهَمة، وأخرجكم راغبين في العير، وأخرجهم ليمنعوا عِيرهم، وسبَّب الأسباب، وجمع بينكم وبينهم على هذه الحالة من غير ميعاد.[٥٣٦٧]

﴿**لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا**﴾ ليظهر قضائه؛ إذ الله قد قضى ما هو ما هو كائن، فالمرتب على الشأن المذكور ظهور ذلك ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ في علمه وحكمه، أو حقيقًا بأن يفعل يقال: للأمر الكائن لا محالة هذا أمر مفروغ عنه، وهو إظهار الإسلام وإعلاء كلمته، ونصرة أوليائه، ومَحْق الباطل، وقهر أعدائه، ثم إنّ ما ذكر في تفسير الاختلاف ما يقتضيه كلامه قدس سره، وقال المصنف: «يخالف بعضكم بعضًا فثبّطكم قلتُكم وكثرتُهم عن الوفاء، وثبَّطهم ما في قلوبهم من تَهَيُّب رسول الله والمسلمين، فلم يتَّفقْ لكم من التَّلاقي في ما وفَّقه الله وسبَّب له».[٥٣٦٨] وقد نوقش عليه بأنه لا يلائم التأييد المذكور بتمامه بل بعضه.

﴿**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾

بدل من ﴿**لِيَقْضِيَ**﴾ بتكرير العامل، أو متعلقٌ بـ«يقضي»، أو بـ﴿**مَفْعُولًا**﴾، والأوّل أولى؛ لأنّ المراد بالحياة الإيمان، وبالهلاك الكفر، وبالبيّنة إظهارُ كمال القدرة الدّالة على الحجّة الدّامغة، أي: فعلنا ذلك لِتظهرَ حجةُ مَنْ أسلم ويَدْحضَ باطلُ مَن كفرَ، ولا ارتيابَ في أنَّ هذه المعاني في هذا التركيب أوضحُ منها في قوله: ﴿**لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا**﴾.[٥٣٦٩]

ولعلَّ ذلك من قبيل بدل الإشتمال، والمعنى: ليكون كفرُ مَنْ كفر عن وضوح بيّنةٍ، لا عن مخالجة شبهة، حتى لا تبقى عند الله معذرةٌ، ويَصدرَ إسلامُ من أسلم أيضًا عن يقينٍ بأنَّه دين الحق الذي يجب الدخولُ فيه والتّدين به، وذلك لأنَّ وَقْعة بدر كانت من الآيات الغُرِّ المحجَّلة التي من كفر بعدها كان مكابرًا لنفسه مغالطًا لها.[٥٣٧٠]

[٥٣٦٤]**شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية**، محمد بن محمد حسن شُرَّاب، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٧م، ٨٣/٣.

[٥٣٦٥] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٨ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ١١٢/٤.

[٥٣٦٦]**تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٢٧٠/٤.

[٥٣٦٧]**تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٢٧٠/٤.

[٥٣٦٨]**الكشاف** للزمخشري، ٢١٧/٢.

[٥٣٦٩]**فتوح الغيب** للطيبي، ١١٥/٧.

ففيه استعارة الهلاك للكفر، والجامع كون كلٍّ منهما فساد ما يوصف به، والحيوة للإسلام والجامع [**٢٧٢**/ظ] كون كلٍّ منهما صلاح ما يوصف، كما يُستعار الموتُ والحياة للجهل والعلم، وهذا ما ذكره المصنف،[٥٣٧١] وذكر قدس سره وجهًا آخر وقدَّمه وهو: «ليموت من يموت عن بينة عاينَها ويعيش من يعيش عن حجَّة شاهدَها لئلا يكون[٥٣٧٢] له حجة ومعذرة».[٥٣٧٣]

فعلى هذا ففي البدلية نوع خفاء كما لا يخفى لا يقال: إنَّ الهلاك الهالك و إحياء الحي تحصيل الحاصل؛ لأنّ المراد بـ«من هلك» و«من حيّ» المشارف لهما، أو من هذا حاله في علم الله وقضائه أي: ليظهر ذلك، أو الماضي ههنا بمعنى المستقبل، أو التحصيل بالنظر إلى الآخرة، والحاصل بالنّظر إلى الدنيا.

و«هلك»: فعل لازم عند الجمهور، فـ﴿**مَنَ**﴾ فاعلٌ ومتعدٍّ عند تميم، فـ﴿**مَنْ**﴾ مفعول، أي: «ليهلك الله مَن هلك».[٥٣٧٤]

وقرئ: «لِيَهْلَكَ» بفتح اللام،[٥٣٧٥] فهي لغة شاذة، نحو: أبى، يأبى؛ لأنَّ «هلك» مفتوح في غير حرف الحلق، ولذلك قيل: إنَّه من المتداخلة.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر ويعقوب: ﴿**مَنْ حَيِيَ**﴾[٥٣٧٦] بفكِّ الإدغام؛ لأنَّه الأصل ولأن الإدغام يؤدّي إلى تضعيف حرف العلّة، وهو ثقيل في ذاته؛ ولأنَّ حرف الثاني يتنقل في اللفظ عند قولك "يَحَيّ" ولأن المضارع لا يدغم ؛ لأنَّ حركته غير لازمة؛ لزوالها في حال الرفع وذهابها في الجزم مع الياء فحمل عليه طردًا؛ ولأنَّ حركة الياء يزول عند اتِّصال الياء بالضَّمير، فصارت بمنزلة حركة الإعراب لذلك؛ ولأن الحركتين مختلفان، كاختلاف الحرفين، ووجه الإدغام استثقال ظهور الكسرة في حرف يجانسه؛ ولأنَّ حركة الثانية لازمة؛ لأنّها حركة بناء، ولا يضرّ زوالها كما لا يضرّ ذلك فيما يجب إدغامُه من الصحيح، نحو: «ظللت» وهذا كلُّه في الحركة البنائية.

وأمّا في الإعرابية فالإظهار، نحو: «لن يُحْيِيَ».[٥٣٧٧] ثمّ إنَّ العين والام منه مثلان وليس اللام منه بدلًا من واوٍ، وأمّا الحيوان فالواو فيه بدلٌ من الياء، وأمّا قولهم الحوَّاء في صاحب الحيّات، فليس من لفظ الحيّة، بل من حوى يحوي إذا جمع بجمعه لها في جؤنه وأوعيته، و﴿**عَنْ**﴾ في الموضعين من صلة الفعل الأول دون الثاني.

﴿**وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ «بكفر من كفر وعقابه، وإيمان من آمن وثوابه، والجمع بين الوصفين لاشتمال الأمرين على القول والاعتقاد».[٥٣٧٨]

وقيل: «يعلم كيف يدبّر أموركم ويسوّي مصالحكم»،[٥٣٧٩] فيدبّرها على ما يقتضي المصلحة بمشيئة التَّامة.

[٥٣٧٠] **الكشاف** للزمخشري، ٢/٢١٧؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٢٧١/٤.

[٥٣٧١] **الكشاف** للزمخشري، ٢/٢١٧؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/ ٢٧١.

[٥٣٧٢] ج: ليكون.

[٥٣٧٣] **أنوار التنزيل واسرار التأويل** للبيضاوي، ٢٣/١.

[٥٣٧٤] **الفريد في إعراب القرآن المجيد** للهمذاني، ٣ /٢١١-٢١٢.

[٥٣٧٥] قراءة شاذَّة، مروية عن الأعمش ويحيى عن أبي بكر. **اللباب** لابن عادل ٥٢٦/٩؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٦.

[٥٣٧٦] **السبعة** لابن مجاهد، ص ٣٠٦؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٧/٢.

[٥٣٧٧] **اللباب** لابن عادل، ٥٢٩/٩-٥٣٠.

[٥٣٧٨] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٠٩/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧١/٤.

وقيل: «سَمِيعٌ» لدعائكم واستعانتكم به، «عَلِيمٌ» بكم؛ فإنّكم تستحقون النصر على أعدائكم.

وقال بعض العارفين: لا حياة إلا لمن حيي بذكره وأنس بقربه، والخلق كلُّهم متحرِّكون في أسبابهم، والحيّ منهم من تكون حياته بالحي الذى لا يموت.[٥٣٨٠]

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣)﴾

مقدّر بـ«اذكر»، أو هو بدلٌ ثانٍ من ﴿**يَوْمَ الْفُرْقَانِ**﴾ [الأنفال ٤١/٨]، أو متعلّق بـ﴿**عَلِيمٌ**﴾ [الأنفال ٤١/٨]، أي: سميع بأحاديث نفوسكم في كراهة القتال، عليم بتدبير أموركم،[٥٣٨١] وقت الإراءة، وفيه تقييد هذه الصفة بهذا الوقت، والخطاب لمحمدٍ، والضمير لقريش، والإراءة علميةٌ تتعدَّى في الأصل لواحدٍ أو اثنين، وبالنقل لثانٍ أو ثالثٍ، فالضميران مفعولان. ﴿فِي مَنَامِكَ﴾ متعلّقٌ بالفعل مصدر ميميٌ بمعنى النوم، أي: في رؤياك.

وقيل: في عينك التي تنام بها وكونُ العين مكان النوم نظرًا إلى الظاهر أظهرُ مِن أَنْ يخفى، لكن فيه عدولٌ عن الحقيقة بلا قرينةٍ، مع شهرة رؤيا النبيّ عليه السلام، وتجوّز حال عن لطفٍ وحسنٍ،وما قيل:أنَّ فائدة العدول الدلالة على الأمن الوافر فليس بشيءٍ؛ لأنّه لايفيد ذلك، فالنَّوم في تلك الحال دليل الأمن لا أنْ يُرِيَهمفي عينه التي هي محلُّ النَّوم، وأيضًا النظم يأباه؛ لأنَّ الآية داعيةٌ إلى المخالفة بين الرؤيتين، وقد يجاب عنه: بإنّها في الأول خُصّت بالرسول، و بالثاني عمّت، كانه عليه السلام أُرِيَ في اليقظة أنهم قليلون لتشجيع أصحابه، فأخبرهم بما رأى لئلا يجبنوا، ثم لَمَّا التَقَوا حقق الله تلك الإراءةَ في عين أصحابه[٥٣٨٢] فستحاوت الآيتان، وعدم إفادة العدول بـ«اذكر» في حيّز المنع كما لايخفى.

﴿**قَلِيلًا**﴾ حالٌ من المفعول الثاني، أو ثالث، وفعيل وفعول، قد يستوي فيه القلّة والكثرة والتَّذكير والتأنيثُ، «أراهم الله إياه في رؤياه قليلًا، فأخبر به أصحابه فثبّتهم ذلك وشجّعهم على عدوهم».[٥٣٨٣] والقلّة: نقصان عن عدَّة كما أنّ الكثرةزيادة عن عدة،[٥٣٨٤] والرُّؤيا إمّا من الله ولها تأويلٌ، أو من الشّيطان، أو من غلبة الأخلاط، أو من الأفكار، وغيرُ الأول أضغاث أحلام،ورؤيا النّبيّ عليه السلام هذه كانت بِشارة له وللمؤمنين.[٥٣٨٥]

﴿**وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ**﴾ الفشل: ضعف من الوجل، يقال: فشِلَ يفشَل فشَلًا إذا جبن فهو فشِلٌ، ولم يقل: لفشلتَ؛ «لأنه عليه السلام كان معصومًا من النقائص فأسند الفشل إليه على سبيل التغليب؛ رعايةً [**٢٧٣**/و]لجانب الكلام والمقام»[٥٣٨٦] لايقال: هم كثير ورؤيتهم قليلًا فكيف يجوز من الله؟ لأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، أو لعلّه أراه البعض فحكم عليه السلام بالقلَّة عليهم، أو لأنَّه أراه ما كان تأويله ضعف أمر العدوّ، وهو رؤيتهم قليلًا وليس هذا إراءةَ الشَّيء على

[٥٣٧٩] **الكشاف** للزمخشري، ٢١٧/٢.

[٥٣٨٠] **عرائس البيان** للبقلي، ٥٣١/١.**حقائق التفسير** للسلمي، ٢٦٧/١.

[٥٣٨١] **الكشاف** للزمخشري، ٢١٧/٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٠٩/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧١/٤-٢٧٢.

[٥٣٨٢] **فتوح الغيب** للطيبي، ١١٧/٧- ١١٨.

[٥٣٨٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧٢/٤.

[٥٣٨٤] **مجمع البيان** للطبرسي، ١٥٢/١٠.

[٥٣٨٥] **مجمع البيان** للطبرسي، ١٥٥/١٠.

[٥٣٨٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧٢/٤.

غيرما هو عليه؛ لأنَّ الرؤيا تخييلٌ وتنبيهٌ على شيء يتمثل صورته في المخيّلة، فعلى هذا يكون معناه لو رأيت ما يكون تأويله قوّة أمرهم ثم أخبرتهم لفشلوا.

﴿**وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ**﴾: أمر القتال، وتفرقت آراؤكم بين الفرار والقَرار.

والتنازع: الإختلاف الذي يحاول كلٌّ منهما نزْعَ الآخَرِ مما هو عليه.[٥٣٨٧]

﴿**وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ**﴾: أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع، وعصمكم منهما[٥٣٨٨] بلطفه لكم وإحسانه إليكم حتى بلغتم ما أردتم من عدوكم، والسلامة: النجاة من الآفة، وأسلم الإنسان دخل في السلم. وسلَّمه إذا نجاه، واستلم بالحجر: إذا طلب لمسَه على السلامة.[٥٣٨٩]

﴿**إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ**﴾: لما سيكون فيها من الجبن و الجرءة والجزع والصبر، وما يُغَيِّر أحوالها.[٥٣٩٠] فلذلك فعل ما فعل لعله بأنكم لو علمتم كثرتهم لَفررتم، وحرف الاستقبال في الفسير إشارة إلى ما يحصل عند الملاقات.

عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه: علم ما في صدوركم من الحُبِّ في الله،[٥٣٩١]فلعله تعليل لما من عليهم به.

والصدر: الموضع الأجل الذي يكون فيه القلب، وصدر المجلس: أجلُّه؛ لأنه موضع الرئيس.[٥٣٩٢]

﴿**وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)**﴾

عطف على ﴿**إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ**﴾ والكلام فيهما واحدٌ، وأجاز يونس «وَإِذْيُرِيكُهُمْ» بإسكان الميم وضمها بلا واوٍ وإثباتها هو الوجه؛ لأنَّ الضميرَ يرد الشيء إلى أصله، والكاف والميم كناية عن المذنبين، والهاء والميم عن المشركين.[٥٣٩٣]

والالتقاء: اجتماع الاتِّصال؛ لأنّ الاجتماع قد يكون في معنًى غير اتِّصالٍ كاجتماع القوم في الدَّار، وإن لم يكن هناك اتِّصالٌ، ويقال للعسكرين إذا اتَّصافا التقيا لوقوع العين على العين.[٥٣٩٤]

﴿**فِيٓ أَعْيُنِكُمْ**﴾ في اليقظة، ﴿**قَلِيلاً**﴾ حالٌ من الثاني لا ثالثٍ؛ لأنَّ الرُّؤية ههنا بصريَّة، قلَّلهم في أعين المسلمين حتى قال ابن مسعود لمن إلى جنبه: أتراهم سبعين؟ فقال: أراهم مائة؛ تثبيتًا و تشديدًا لطمعهم وجرءتهم، وتصديقًا لرؤيا النبي. وقيل: في كونه تصديقًا لها نظر فتأمل فيه.

﴿**وَيُقَلِّلُكُمْ**﴾ أيها المؤمنون في أعينهم في أعين المشركين حتى قال أبو جهلٍ: إن محمَّدًا وأصحابه أَكَلةُ جَزُورٍ.

[٥٣٨٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/٢٧١-٢٧٢.

[٥٣٨٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/٢٧٢.

[٥٣٨٩] **مجمع البيان** للطبرسي، ١٠/١٥٢-١٥٣.

[٥٣٩٠] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/٢٧٢.

[٥٣٩١] **معالم التنزيل** للبغوي ٣/٣٦٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٩/٥٣١.

[٥٣٩٢] **اللباب** لابن عادل، ٩/٥٣١-٥٣٢؛ **مجمع البيان** للطبرسي، ١٠/ ١٥٥.

[٥٣٩٣] **مجمع البيان** للطبرسي، ١٠/ ١٥٥.

[٥٣٩٤] **مجمع البيان** للطبرسي، ١٠/ ١٥٣.

قلَّلهم في أعينهم قبل التحام القتال لِيَجْتَرِؤوا عليهم، ويبالغوا في الاستعداد والتَّأهب، ثم كثَّرهم حتى رأوهم مثليهم لتفاجئهم الكثرة فتبهتهم وتكسر حدّتهم وشدّتهم، وهذا من عظائم آيات تلك الوقعة، فإنَّ البصر وإن كان قد يَرى الكثير قليلًا والقليل كثيرًا لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الحدِّ، وإنما يتصوَّر ذلك بصدِّ الله الأبصار عن إبصار بعض دون بعض مع التساوي في الشُّروط.[٥٣٩٥]

«ففيه دليلٌ أنَّ الله هو الذي يخلق اللإدراكَ في الحاسَّة، ويكون غيرَ موقوفٍ على مقابلةٍ أو ارتفاع حُجُبٍ أو غيرها؛ إذ لو كانت هذه الأسباب موجبةً للرؤية، لَمَا أمكن أن يستتِر عنهم البعضُ، فيجوز خلق الإدراك مع انتفاء هذه الأسباب، وأن لا يخلقَه مع اجتماعها، وقد ورد على من أنكر رؤية الله».[٥٣٩٦]

فقول المصنف: «بأن يستر الله بعضه عنهم، أو يحدث في عيونهم ما يستقلّون به الكثير»،[٥٣٩٧] نفي لما هو الحقّ الظَّاهر من الآية من أنَّ الرؤية وسائر الإدراكات بمحض خلق الله لا يجب عند تحقُّق ما يجعله الفلاسفة شرطًا، ولا يمتنع عند فقدان بعضها وقد مرَّ الكلام في قوله: ﴿**لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا**﴾ وكرَّره لاختلاف المعلَّل به، فإنّه الجمع بين الفريقين على الحالة المذكورة في الأوَّل، وتعليل كلّ واحد من الفريقين في عين الآخر في الثَّاني، أو الاختلاف العلَّة بأن يراد بالأمر ثمة: التقائهما على الوجه المحكي، حتَّى يكون استيلاء المؤمنين على المشركين على وجه الإعجاز، وهاهنا: إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال المشركين وحزبه، أو للتأكيد والتقرير.[٥٣٩٨]

﴿**وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ**﴾ لا إلى غيره فيصدرها كيف يشاء فلا رادَّ لقضائه ولا تغيير لتقديره.

وقيل: فيه أنَّ أحوالَ الدنيا غيرُ مقصودة لذواتها، وإنما المراد منه أن يكون زادًا للمعاد.

وقيل: تُرْجَعُ الْأُمُورُ إليه في الآخرة فيجازى كلّ عامل على حسب عمله، فالمحسن بإحسانه والمسيء بإساءته أو يغفر.[٥٣٩٩]

وقيل: نبَّه بعلمه لمصالح خلقه وما يتعلّق بهم، ثم بعلمه ذوات الصدور، ثم برجوع الأمور كلِّها إليه أنه واسع العلم لا يخفى عليه شيءٌ من الكليات والجزئيات مالك الأمور لا يرجع شيءٌ من الأمور في العاقبة إلا إليه، فيفعل[**٢٧٣**/ظ]كلّ ما يفعل على موجب العلم والحكمة والصَّواب والمعنى: لا يرجع شؤن أهل الأرض وغيرهم إلا إليه، وهو العالم لحصرها مع إفراط كثرتها، وتباعد أطراف عددها ثم لماذكر نعمة يوم بدر علمهم آداب اللِّقاءبقوله:

﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥)**﴾

أي: إذا حاربتم؛ فإنَّ اللِّقاء ممَّا غلب في القتال.

﴿**فِئَةً**﴾ جماعةً من الكفَّار، ولم يقل: فئةً كافرةً مع أنه المقصود، ولأنَّ المؤمنين ما كانوا يلقون إلَّا الكفَّار. فيكون اللِّقاء قرينةً باعتبار معناه الغالب، ولا يلزم أن يكون متناولًا للبغاة حتى يتناول بتغليب الكفار تغليظًا.

[٥٣٩٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٤/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧٣/٤.

[٥٣٩٦] **الإنتصاف** لابن المنير، رقم: ١٦٦، ١٨٣و–ظ؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ١١٩/٧.

[٥٣٩٧] **الكشاف** للزمخشري، ٢١٨/٢.

[٥٣٩٨] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٠٥/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧٣/٤.

[٥٣٩٩] **لباب التأويل** للخازن، ٣١٦/٢.

وقيل: «الانقطاع معتبر في مفهوم الفئة، أصلها: من فأوتَ رأسَه بالسفِ: إذا قطعتَه، والجمَاعة المنقطعة عن المؤمنين كفارٌ أو بغاةٌ، ومن لم يقف على هذه الدقيقة الأنيقة قال: لم يصفهم؛ لأنّ المؤمنين إلى آخره هذا».[٥٤٠٠]

وأنت خبير بأنّ الظاهر التناولُ للبغاة لقوله: ﴿**فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي**﴾ [الحجرات ٩/٤٩]. وقطّاع الطريق لقوله: ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾ [المائدة ٥/٣٣] ولعلَّ عدم التوصيف بقوله: ﴿**كَافِرَةٌ**﴾ لذلك.

﴿**فَٱثْبُتُوا**﴾ لقتالهم ووطّنوا أنفسكم على لقائهم وقتالهم، فلا تحدّثوها بالقول ولا ينافيه الرخصة في التّحرّف والتّحيّز؛ فإنّهما ممَّا يحصل الثبات به عن النبيع م: «لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العدُوِّ، وأسْألُوا اللّهَ العَافيةَ فإذا لقِيتُمُوهُم فاثبتوا، واعلَمُوا أنَّ الجنَّة تحت ظلالِ السُّيُوفِ».[٥٤٠١]

﴿**وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ**﴾ ذكرًا ﴿**كَثِيرًا**﴾ بالجنان واللسان داعين لاسيّما بنحو: ﴿**رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة ٢/٢٥٠] ونحو: «اللَّهُمَّ مُنزلَ الكتابِ، ومُجْرِيَ السَّحابِ، وهازِمَ الأحْزابِ، اِهْزِمْهُمْ، وانْصُرْنا عليْهِمْ».[٥٤٠٢] مستظهرين بذكره فإنّه ممّا يستمطر به الخيرات، ويدفع ببركة الآفات مترقبين لنصره، فإنّه كان حقًّا عليه نصر المؤمنين.

﴿**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ «تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة».[٥٤٠٣] وتخصيص الفلاح به لترتبه على الثّبات في الحرب، وذكر الله فيه كما أنَّ تخصّصهما بما ذكر لترتبهما على اللقاء.

وفيه إدماج لوجوب ذكر الله في جميع المواطن الْمُهْلِكة؛ لأنَّه تعالى جعل الأمر بالذكر مُسَبَّبًا عن لقاء العدوِّ في الحرب، ولا مَقامَ أشغلُ للقلب منه، وإيجاب التكلُّف لجمع اليقين لأجل ذكر الله والتّوكل عليه وتوفيض الأمر إليه، وإن كانت أفكاره مُتوزِّعة؛ لأنَّه تعالى قرَّر الأمر بالذكر بقوله: ﴿**فَٱثْبُتُوا**﴾ ليقبل إليه بشراشره فارغ البال واثقًا بأنَّ لطفه لا ينفكُّ عنه في شيءٍ من الأحوال.[٥٤٠٤]

فينبغي أن يكون مطارحَ همّته ومظانَّ فكره ومطامحَ نظره جناب الله تعالى، و يعتصم بذاته المكنونة لجميع الذوات غير ملتفت إلى ما سواه ولا مستظهر بالأدوات ولا مشتغل بشيءٍ عن ذكره في عموم الأحوال والأوقات، وإن تعاقب الشدائد، وجرت متتابعات على الأسلات، فإذا فرغ الذاكر صدره من الشواغل وهى أصول الظلمات ومظانّ المعاصي ينوَّر قلبُه بشموس الإنس والمودَّة، ويضرب فيها سرادقات العصمة والمحبَّة ويضمحلُّ عنه خيال الغير إذا نزل الحبيب ديار القلب لم يبق فيه نزيل من الأغيار.

قال بعضهم: إنّ أبغض الأوقات إلى وقت الإفطار؛ لأني أتشاغل بالأكل عن الذكر، أنَّ للرجال في قصر النهار والليل وطولهما عن الأكل والنوم شغلًا، وكذلك في المعارك ومواطن الحرب وإن تفاقم الشاغل، «وناهيك لما في خُطَبِ أمير المؤمنين في

[٥٤٠٠] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/٢٧٤.

[٥٤٠١] **صحيح البخاري**، ٤/٥١ (٢٩٦٥).

[٥٤٠٢] **صحيح البخاري**، ٤/٥١ (٢٩٦٦).

[٥٤٠٣] **الكشاف** للزمخشري، ٢/٢١٩.

[٥٤٠٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ٧/١٢١.

أيام صفّين وفي مَشاهده مع البغاة والخوارج؛ من البلاغة والبيان ولطائف المعاني، و بليغات المواعظ والنصائح، دليلًا على ذلك.[٥٤٠٥]

عنه عليه السلام: «ذاكرُ اللهِ في الغافلين بمنزلة الصَّابرين في الفارّ، وذاكر اللهِ في الغافلين كالمصباح في البيت المظلم وذاكر اللهِ في الغافلين كمثل الشَّجرة الخضراء في وسط الشَّجر الذي قد تحات من الصرير».[٥٤٠٦]

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)﴾

المراد الإطاعة في سائر الأوامر؛ لأنَّ الجهاد لا ينفع إلا مع التّمسك بسائر الطاعات. وقيل: في اتّفاق الكلمة لقوله: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ أي: باختلاف الكلمة، تنازُعَكم بأحدٍ.[٥٤٠٧]

وقرئ: بتشديد التاء[٥٤٠٨]مع إثبات الألف على اجتماع الساكنين، ولكن هل هو على حده فيه كلام.

﴿فَتَفْشَلُواْ﴾ جواب النّهي منصوبٌ بإضمار «أنْ»، وقيل: مجزومٌ لدخوله في حكم النَّهي.[٥٤٠٩]

ويدلُّ على الأوَّل القراءة المشهورة بالتَّاء والنَّصب، وعلى الثَّاني بالياء والجزم في قوله: «ويَذْهَبْ رِيحُكُمْ».[٥٤١٠] وقرئ: «ويُذهْبُ ريحَكم»، «ويُذهبُ ريحُكم»[٥٤١١] بالرفع مبنيًّا للمفعول أي: وتَذْهب دولتكم، على أنَّها استعارة لها، شبِّهت في نفاذ أمرها، وتمشيتها بها في جريهاوهبوبها، وأُدخل المشبَّهُ في جنس[**٢٧٤**/و] المشَبَّه به ادّعاءً، وأُطلق اسمه عليه، يقال: هبَّت رياحُ فلانٍ: إذا دالتْ له الدَّولةُ ونفذ أمره قال:

إذا هَبَّـــتْ رياحُفاغتنمْهـــا ... فـــإنَّ لكـــلِّ خافقـــةٍ سُـــكُونُ

ولا تَغْفُـــلْ عـــن الإحســـانِ فيهـــا ... فمـا تـدري السـكونُ متى يكـونُ

ومنه قوله:

يا صـاحِبيَّ أَلاَ لاَ حَـيَّ بالـوادِى ... إلاَّ عَبِيـــــدٌ وآمٍ بَــــيْنَ أَذْوَادِ

أَتَنْظُــرَانِ قَلِــيلًا رَيْــثَ غَفْلَــتِهِمْ ... أَمْ تَعْدُوَانِ فإِنَّ الرِّيحَ لِلْعَادِى.[٥٤١٢]

[٥٤٠٥] **الكشاف** للزمخشري، ٢١٩/٢.

[٥٤٠٦] **كنز العمال** للهندي،٤٣٠/١.

[٥٤٠٧] **تفسير ابن كمال باشا** ، ٢٧٥/٤.

[٥٤٠٨] قرأ ابن كثير برواية عن البزي، أي: ﴿وَلَا تَّنَازَعُوا﴾ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٧/٢.

[٥٤٠٩] **تفسير ابن كمال باشا** ، ٢٧٥/٤.

[٥٤١٠] قراءة شاذَّة، مروية عن عيسى بن عمر. **الكشاف** للزمخشري، ٢١٩/٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٥٣٥/٩.

[٥٤١١] قراءة شاذَّة، مروية عن

[٥٤١٢] **الشعر والشعراء** لابن قتيبة الدينوري، ٢٨٣/١؛ **الكشاف** للزمخشري، ٢١٩/٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ١٢٣/٧. **اللباب** لابن عادل، ٥٣٤/٩.

«وآمٍ»: جمع أمّةٍ،و«الذَّوْد» من الإبل: ما بين ثلاثة إلى عشرة. «أتنظران»: من انتظرتُه، «ريثَ»: قَدْر، «أم تعدوان»: تَفْتِكان، «للعادي»: للفاتك؛ يخاطب صاحبيه حين الطَّلع على الحيِّ: أتنظران قليلًا قدر ما يغفلون، فتسرقان أو تقتلان من غير انتظار الغفلة، وذلك أنَّ سُليكًا مع صاحبين له أتَوا جوفَ مُرادٍ من اليمن، فإذا نَعَمٌ كثيرة، فهابوا أن يغيروا، فقال: سليك: كُونا قريبًا حتى آتيَ الرِّعاء، فأعْلَمَ لكما أنّ الحيّ قريبٌ أم بعيدٌ، وإن كان قريبًا رجعت إليكما، وإن كان بعيدًا قلت لكما قولًا، فأغيروا، فانطلق حتى استعلم أنّ الحيَّ بعيدٌ، فقال للرِّعاء: ألا أُغنِّيكم؟ قالوا: بلى، فغَنّى بأعلى صوته: يا صاحبيَّ ألا لاحيَّ.... البيتين فأتيا، فاذهبوا بالإبل، ولم يُدركوا.[٥٤١٣]

وقيل: حقيقة الريح إذ لم يكون نصرٌ إلا بها يبعثها الله تضرب وجوه العدو ومنه قوله عليه السلام: " نُصِرتُ بالصَّبا وأُهْلكت عادٌ بالدَّبور "[٥٤١٤]

وعن نعمان بن مقرن أنه قال: شَهِدْتُ مَعَ رَسُوْلَ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–وَ كان إِذَا لَمْ يُقَاتِلْ أَوَّلَ النَّهَارِ، انْتَظَرَ حَتَّى تَزُوْلَ الشَّمْسُ، وتهبَّ الرياح، فينزل النَّصر».[٥٤١٥] فعلى هذا ذهابها حقيقةٌ أيضًا، ويجوز أن يكون كنايةً عن ذهاب النصر.[٥٤١٦]

﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ على الشدائد والمحن وتفاقمها، وفيه إشعارٌ بأنّ كمال أمر الجهاد على الصبر. بالكلاءة والنصرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾ هو ولي الذين يصبرون على احتمال المكاره والبلايا، وتجرّع الغصص في طاعة الله وطاعة رسوله وناصرهم، «والآية تحذير بالنَّهي عن التّنازع واختلاف الرأي، نحوَ ما وقع لهم بأُحُدٍ لمخالفتهم رسولَ الله مِن فَشَلهم وذهاب ريحِهِم».[٥٤١٧]

فهي: وإن وقعت في أثناء قصّة بدرٍ، لكنها معترضةٌ، والأمر عامٌّ في جميع المواطن؛ لأن حرب أحدٍ وقعت بعد حرب بدرٍ بزمانٍ.

وهذا يقوي أنَّ هذه السورة نازلةٌ في بيان تعداد أحوال أصحاب النبي حالًا فحالًا، من غير ترتيبٍ لتكثر الحالات، وأنَّ حمل قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال ١٧/٨] على قصّة بدرٍ، وقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ [الأنفال ١٧/٨]على قصة حنينٍ، صحيحٌ.[٥٤١٨]

وقال بعض العارفين: «اصبروا فى بلاء محبّتى، وانظروا إلى مقام البلاء حتى تروني، فانى التّجلي للصابرين مكان صبرهم».

«وأيضًا اصبروا لي، فإنّ الصبر معي يوجب مراد الصابرين فى نصرتهم على عدوّهم من النُّفوس والشياطين».[٥٤١٩]

[٥٤١٣] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٢٤/٧-١٢٣.

[٥٤١٤] **صحيح البخاري،** ٣٣/٢ (١٠٣٥).

[٥٤١٥] **سنن الترمذي،** ١٦٣/٤ (١٦١٣).

[٥٤١٦] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٢٤/٧.

[٥٤١٧] **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٠/٢.

[٥٤١٨] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٢٥/٧.

وعنه عليه السلام: «وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ».[٥٤٢٠]

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧)﴾

الخطاب للمسلمين، و﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِم﴾ قريش حين خرجوا الحماية العير. والبَطَرُ: سوء احتمال الغنى، ومن آثاره: الفخر والأشرُ.[٥٤٢١] وجعل مقابلة النعمة بالتَّكبر والخيلاء.

والتحقيق أنَّ النِّعَم إذا كثرت من الله على العبد فإنْ صرفها إلى مرضاته وعرف حقّ الله فيها فذاك هو الشُّكر، وإن توسَّل بها إلى المفاخرة على الأقران والمكاثرة على أبناء الزّمان فذاك هو البَطَر، والرياء: إظهار ما ليس في الباطن من قصد الجميل.

وقيل: إظهار الجميل ليراه الناس وإبطان القبيح. وقيل: إظهار الطَّاعة مع إبطان المعصية كما أنَّ النِّفاق إظهار الإيمان مع إبطان الكفر.[٥٤٢٢]

وهما مصدران وقعا مفعولًا لهما، أو حالان إمّا بإيقاع المصدر موقع الصفة مبالغةً، أو بتقدير العامل على أنَّهما مفعولان مطلقان واقعان موقع عاملهما المحذوف، فبذلك أطلق عليهما الحال، لعلّ مراد مَنْ تأوّلهما ببيطرون ويراؤن هذا الذي ذكر، وإلا فكون المصدر في معن الفعل لا يخ عن تكلُّفٍ.

﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عطف عليهما، فعلى الأول: يأول بالمصدر، أي: لِبَطرٍ ورئاءٍ وصدٍّ، وعلى الثاني: بالصفة، أي: بطرين، مرائين، صادّين، وعلى الثالث: يبطرون ويراؤون ويصدون، وعلى الوجوه في عطف الفعل على الاسم تنبيهٌ على أنَّهم مجبولون على البطر والرِّياء وأمَّا صدهم فحصل في زمان النُّبوة.[٥٤٢٣]

فإنَّ الاسم يدلُّ على التَّمكين والاستقرار، نحو: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ [الكهف ١٨/١٨]، والفعل على التجدد، نحو: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس ٣١/١٠]، فإنَّه تعالى يوصل الرزق إليهم شيئًا فشيئًا.[٥٤٢٤]

ثم إنها نزلت في أبي جهلٍ وأصحابه، خرجوا من مكَّة لنصرة العير بالقينات والمعازف، فنهى الله المؤمنين أن يكونوا مثل هؤلاء بَطِرين مرائين لأعمالهم. ويلزمه الأمر بالتقوى والإخلاص بناءً على[**٢٧٤**/ظ] أنَّ النهي عن الشيء يستلزم الأمرَ بضدِّه.

وأمّا ما قيل: وذلك أنهم لَمّا بلغوا جحفة، وأتاهم رسول أبي سفيان أنْ ارجعوا فقد سلمتْ عيرُكم، فقال أبو جهل: لا والله حتى نقدَم بدرًا، و نشرب بها الخمور، وتعزف علينا القِيَان، ونطعم بها من حضرنا من العرب، فوافَوها ولكن سُقُوا كؤس المنايا، وناحت عليهم النوائح و نهب أموالهم، فلا يصلح وجهًا لخروجهم من مكَّةبطِرين مرائين.[٥٤٢٥]

[٥٤١٩] **عرائس البيان** للبقلي، ٥٣٢/١.

[٥٤٢٠] **صحيح البخاري**، ١٢٢/٢ (١٤٦٩)؛ **صحيح مسلم**، ٧٢٩/٢ (١٠٥٣).

[٥٤٢١] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧٦/٤.

[٥٤٢٢] **لباب التأويل في معاني التنزيل**، المؤلف: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١هـ) تصحيح: محمد علي شاهين الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ٣١٧/٢؛ **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٧٨/١٣.

[٥٤٢٣] **اللباب** لابن عادل، ٥٣٧/٩؛ ، ٣١٧/٢ ؛ **غرائب القرآن ورغائب الفرقان** للنيسابوري، ٤٠٥/٣.

[٥٤٢٤] **اللباب** لابن عادل، ٥٣٧/٩.

[٥٤٢٥] **الكشاف** للزمخشري ٢٢٠/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧٦/٤.

ولعلَّ القائل ينظر إلى أنَّ البطر وقصد الرّياء وقع هناك لكن لما كان مآل خروجهم[٥٤٢٦] كذلك، فما قيل: بيان لوقوع ذلك. وقيل: لوجعلناه عطفًا على الصّلة لم يحتج إلى هذه التّكلفات، ونوقش بلزوم عطف المستقبل على الماضي، وجعل بعضهم الواو للاستئناف، وعلى هذا فلا بعد في نصب الأوّلين على بطَرٍ ورئاءٍ.

﴿**وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ**﴾ عالمٌ به فيجازيهم على ذلك، ففيه وعيدٌ وتهديدٌ لمن بقي من الكفّار.[٥٤٢٧]

والإحاطة بالشيء علمًا أن يعلم من جميع جهاته لايخفى منه معلومٌ وهذا من أبينِ دليلٍ على أنه عالم بالجزئيّات كعلمه بالكلّيّات.

وقرئ: «بما تَعْمَلُونَ»[٥٤٢٨] بالتاء تناسبًا لقوله: ﴿**وَلاَ تَكُونُوا**﴾ فيكون تهديدًا على النّصح بأنه يجازي كلَّ عاملٍ بما عمل، وترغيبًا على الصالح من العمل.

عن بعض العارفين: حذر أولياءه عن المشابهة بهؤلاء المرائين، الذين يخرجون من زواياهم بألوان زي السالوسين، ويتبخترون فيها من فرحهم بالجاه عند الظالمين، الذين لا يعرفون الهر من البرّ، ويدفعون أهل الإرادة من صحبة الأولياء؛ لترويج نفاقهم، حتى يجتمعوا عليهم.[٥٤٢٩]

﴿**وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨)**﴾

مقدّرٌ بـ«اذْكُرْ»، أو عطفٌ على ﴿**إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ**﴾، أو حالٌ من ﴿**خَرَجُوا**﴾ و«قد» مضمرة، و﴿**لَكُمُ**﴾ خبر ﴿**لاَ غَالِبَ**﴾ أي: لاغالب كائنٌ لكم، أو صفةٌ، والخبر محذوفٌ أي: لا غالب كائنًا لكم واقع، وليس من صلة ﴿**إِذْ**﴾ لو كان معمولًا له بمعنى: لا غالبا إيّاكم؛ لما جاز بناء غالب، بل يكون معربًا منصوبًا؛ لأنَّ اسم «لا» إذا عمل فيما بعده يكون مشابهًاللمضاف، من حيث إنَّ كلَّ واحدٍ منهما عاملٌ فيما بعده، ومن حيث إنَّ ما بعدهما متمّمٌ ومخصّصٌ لهما،وقد تقرّر أنَّ اسمه إذا كان نكرةً مضافًا أو مشابهًا له وكان تاليًا بكلمة «لا» بلا فاصلةٍ يجب النّصب كما يقال: لا ضاربًا زيدًا عندنا، فلمّا بنى تعيّن عدم كونه صلةً.

﴿**ٱلۡيَوۡمَ**﴾ من صلة الخبر ومعمول له، ولا يجوز نصبه بـ﴿**غَالِبَ**﴾؛ لأنَّ اسم «لا» إذا عَمل فيما بعده لايجوز بناؤه.[٥٤٣٠]

وكذلك ﴿**مِنَ ٱلنَّاسِ**﴾، وقيل:هو[٥٤٣١] حالٌ من الضَّمير الذي في ﴿**لَكُمُ**﴾؛ لتضمُّنه معنى الإستقرار. وقيل: بيان لجنس الغالب.[٥٤٣٢]

[٥٤٢٦] ج + ذلك كان خروجهم.

[٥٤٢٧] **تفسير ابن كمال باشا** ، ٢٧٧/٤.

[٥٤٢٨] قراءة شاذّة، مروية عن قتادة والحسن بن عمران.**شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٦.

[٥٤٢٩] **عرائس البيان** للبقلي، ٥٣٢/١.

[٥٤٣٠] **فتوح الغيب** للطيبي ١٢٨/٧.

[٥٤٣١] ج – هو.

[٥٤٣٢] **اللباب** لابن عادل، ٥٣٨/٩.

﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ مثبتة معطوفة على منفية، أو حالٌ من فاعل ما تعلّق به الخبر، «و«الجار» يُجمع في القلّة: على «أجوار» «وجِيرةٍ»، وفي الكثرة: على جيرانٍ، وألِفُه منقلبةٌ عن واوٍ، بشهادة قولك: جاورته مجاورة وجِوارا وجُوارًا، والكسر أشيعً، وتجاور القوم واجتوروا بمعنًى».[٥٤٣٣]

ومعناه ههنا : الدَّفع عن صاحبه أنواع الضرر كما يدفع الجار عن جاره، والعرب تقول : أنا جارٌ لك من فلانٍ، أي: حافظٌ لك من مضرته ولا يصل إليك منه مكروه.[٥٤٣٤]

و﴿لَكُمْ﴾ متعلِّقٌ بمحذوف صفة له، أو متعلِّق به لما فيه معنى الفعل.

﴿تَرَاءَتِ﴾ تفاعلت من الرؤية؛ أي: رأى كلٌ من الفريقين الأخرى، وهذه الحالة وإن كانت قبل الإلتقاء.[٥٤٣٥] لكن لما كان ترتيب الجواب ظاهرًا عليه، وتلك الحال واقعة عنده فسّر به.

﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ يقال: نكَصَيَنكِص يَنكُص ونُكوصًا فيهما، وهو الرجوع قَهْقَرى هاربًا. قيل: هذا أصل معناه: إلاّ أنه قد اتَّسع فيه، حتى استعمل في كلّ رجوعٍ، وإنْ لم يكن قهقرى؛ والمراد ههنا مطلق الرجوع؛ لأنَّه كنايةٌ عن الفرار، وفيه نظرٌ؛ لأنَّ غالبَ الفرار في القتال رجوع القَهْقَرى، فالجار والمجرور حالٌ مؤكّدة عند من يخصّصه ومؤسِّسةٌ عند من يطلقه.[٥٤٣٦]وقيل:صلة﴿نَكَصَ﴾.

وعنه عليه السلام: : «ما رُئِيَ الشيطانُ يومًا هو فيه أصغَرُ ولا أدحَرُ ولا أحقَرُ ولا أغيَظُ منه في يومِ عَرَفة؛ وما ذاك إلا لِمَا يَرىٰ من تنزُّلِ الرحمة، وتجاوُزِ الله عن الذُّنوبِ العِظام، إلا ما رأىٰ يوم بدرٍ، فإنه قد رأىٰ جبريلَ يَزَعُ الملائكة.[٥٤٣٧]

و«الدَّحر»: الدفع بعنف على سبيل الإهانة، وأفعَلُ التفضيل فيه كأشهَرَ وأجنَّ، من شُهِرَ وجُنَّ»، «يزع الملائكة» أي: يرتّبهم ويسوّيهم في القتال، فكأنَّه يكفُّهم عن الانتشارِ.

و«في يوم عرفة»: متعلِّقٌ بـ«أفعل»، فهو يعمل في المستتر والظرف ونحوهما؛ لأنَّ فيه رائحةَ الفعل. وأمّا رواية المصنف: «ما رُئِيَ إبليسُ يومًا أصغَرَ ولا أدحَرَ ولا أغيَظَ مِن يومِ عَرَفَة، إلا ما رُئِيَ يومَ بدر».[٥٤٣٨] فقيل: «نزِّل وصف الشيطان بأنَّه أدحر منزلةَ وصفِ اليوم به، لوقوع ذلك فيه، كأنَّ اليومَنفسه هو الأدحر».[٥٤٣٩]

فعلىٰ هذا «أدحر» صفةُ «يومًا»، و«من عرفة»: مُتعلِّق به، فهو مُطابقٌ [**٢٧٥**/و]بتلك الرواية؛ لأنَّ الأصل: ما رُئِيَ إبليسُ في يومٍ من الأيامِ هو أصغرُ من نفسِه إلا ما رُئِيَ في يومِ عرفة»، ثم عَلَّقَ الظَّرْفَ بـ«أفعل من» علىٰ التوسُّع، كما في قولهم: «زيدٌ نهارُه صائم»، أي: هو في نهارِه صائم، وما قيل: إنَّ «أصغر» مفعولٌ ثانٍ لـ«رُئِيَ»، أو حالٌ من «إبليس»: فمُتعسَّف.[٥٤٤٠]

[٥٤٣٣] **الفريد** للهمذاني، ٢١٦/٣.

[٥٤٣٤] **حاشية محيي الدين شيخ زاده، ٤٠١/٤.**

[٥٤٣٥] **تفسير ابن كمال باشا ، ٢٧٨/٤.**

[٥٤٣٦] **اللباب** لابن عادل، ٥٣٨/٩.

[٥٤٣٧] **موطأمالك، ٤٢٢/١ (٢٤٥).**

[٥٤٣٨] **الكشاف** للزمخشري ٢٢٠/٢

[٥٤٣٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٢٧/٧.

[٥٤٤٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٢٧/٧.

وقال النحرير: قوله: «مِنْ يَومِ عَرَفَةَ»، أي: منه في يوم عرفة على ما هو صريح رواية المَوطأ وإلا ما رُئيَ استثناءٌ من يومًا،بمعنى: إلا وقت أنْ رُئِيَ.[٥٤٤١]

وقال عارفٌ: ترك الذنوب قد يكون حياءً من نعمة كيوسف، وقد يكون خوفًا كإبليس.[٥٤٤٢]

﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

في كيفية التّزيين قولان: الأول: وسوس إليهم من غير أن يتمثل، وقال: مقالة نفسانية فأُلقي في روعهم وخُيل إليهم أنهم لا يُغلبون ولا يُطاقون لكثرة عدَدهم وعُدَدهم، وأوهمهم أنَّ اتّباعهم فيما يظنُّون أنها قرباتٌ مجيرٌ لهم حتى قالوا: اللهم انصر أَهدي الفئتين وأَفضل الدينين، فلمّا تَلاقَى الفريقان بَطل كيدُه وعاد ما خيّل إليهم أنَّه مجيرهم بسبب هلاكهم، فإنَّهم لو لم يتبعوا الشيطان ولم يخالفوا الرَّسول ما وقع عليهم ما وقع، وتبرأ منهم وترك الوسوسة لعلمه أن لا فائدةَ فيها ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء ٧٦/٤] وخاف عليهم وأيس من حالهم؛ لما رأى إمدادَ الله المسلمين بالملائكة، وهذا التقرير يظهر كون القول مجازًا عن الوسوسة، والنُّكوص على عقبيه مجازًا عن فراغه منها.

وقيل: استعارةٌ تمثيليّة شبه حاله بحال مّن يقدم على فعلٍ لا يتيسّر له، ثمَّ يرجع عنه على عقبيه، والجامع عدم تيسّر المقصود، وهكذا كما تقول: أراك، تقدّم رجلاً وتُؤخّر أخرى، والتبرء مجازٌ عن بطلان كيده.

وقال ابن الكمال: «ولا يخفى ضعفه؛ فإنَّ قوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ ليس مِمَّا يُلْقى بالوسوسة، وكذا النُّكوص على عقبيه وما بعده من الأقوال، وليس مما يُلْقى بها».[٥٤٤٣]

الثاني: تمثّل بصورة سُراقةَ بن مالك، وهو من بني بكر بن كنانة حين تخوّف المشركون من بني بكر بن كنانة؛ إذ كانوا قَتلوا منهم قتيلًا، فلم يأمنوا يوم خروجهم إلى بدرٍ أن يأتوهم من ورائهم، وقال: «لا غالِبَ لَكُمْ اليَوْمَ وإني مُجيركم من بني كنانة»، فركنوا إلى قوله: وساروا معه، حتى إذا التقى المسلمون والكفّار أسلمهم شرَّ مَسْلمٍ وتبرأَّ منهم، ولَمّا نَكَصَ على عقبيه أخذ الحارث بن هشام بيده فقال: أعلى هذه الحالة:تَخْذلنا؟قال: إني أرى ما لا ترون، فلعلّه تعليل لبراءته كأنه يقول: إنّي كنتُ مجيركم من الناس وضمنت لكم الغلبة عليهم وأرى ما ليس من جنسهم جاؤا لمحاربتكم، قال الحارث: والله ما نرى إلا جواسيس يثرب، قال: إني أخاف الله، قال الحارث: فهلّا كان هذا أمس، فدفع في صدر الحارث فانطلق، فلما قدموا مكة، قالوا: هزم الناس سراقةُ ابن مالك، فقال: والله ما شعَرْتُ بمسيركم حتى بلغني هزيمتُكم، فقالوا: ما أتيتنا يومَ كذا؟ فحلف لهم، فلما أسلموا علموا أنَّ ذلك كان الشيطان.[٥٤٤٤] فعلى يجري الكلّ على الحقيقة، ومعنى قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أخاف عقابه على أيدي من أراهم ولا تروهم أنتم، أو أخاف ممَّا أرى من الأمر وهو له أنه الوقت الذي أنظرت إليه.[٥٤٤٥]

وقيل: «هذه معذرة كاذبة لم يخف قطّ».[٥٤٤٦]

[٥٤٤١] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٩و؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ١١٨/٤.

[٥٤٤٢] **عرائس البيان** للبقلي، ٥٣٣/١.

[٥٤٤٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧٨/٤

[٥٤٤٤] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧٧/٤-٢٧٨.

[٥٤٤٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧٩/٤

[٥٤٤٦] **البحر المحيط** لأبي حيان، ٥٠١/٤.

فإنْ قلتَ: كيف يتصوّر بصورة البشر، فكيف يسمّى ح شيطانًا؟قلتُ: أعطاه الله قوةً على ذلك، كما أعطى الملائكة قوةً على أن يتصوَّروا بصورة البشر، لكن النَّفس الباطنة[٥٤٤٧] لم يتغير، فلم يتغير الحقيقة. وقيل: إنه يجوز أن يقدر الله الجنَّ ومن جرى مجريهم على أن يجمعوا ويعتمدوا ببعض جواهرهم على بعضٍ، حتى يتمكّن الناس من رؤيتهم ويتشبهوا بغيرهم من أنواع الحيوان؛ لأنَّ أجسامهم من الرّقة على ما يمكن ذلك فيها، وقد وجدنا الأنسان بجمع الهواء، ويفرّقه ويغيّر صورة الأجسام الرّخوة ضروبًا[٥٤٤٨] من التغيّر وأعيانها لم تزد ولم تنقص وقد ترأى إبليس لأهل دار النَّدوة في صورة شيخ نجديٍّ، وظهر جبريل لأصحاب النَّبي ع م في صورة دحية.

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا يُردُّ عقابه بشيء ولا يُقاوَم من بقية كلام إبليس، قاله: صدقًا أو تلبيسًا، أو من كلامه تعالى؛ تشديدًا لمن خالفه، فيكون استئنافًا أي منقطعاً عن المحكي، وإلا فعلى كونه بقية استئنافٍ أيضًا، وبه سقط ما قيل على تقدير استئنافه يكون تقريرًا لمعذرته، ولا يقتضيه المقام.[٥٤٤٩]

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩)﴾

العامل في ﴿إِذْزَيَّنَ﴾ أو ﴿نَكَصَ﴾ أو ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، أو «اذكر».

ولم يدخل العاطف؛ لأنَّه ابتداء كلام ودخل في ﴿إِذْ زَيَّنَ﴾؛ [**٢٧٥**/ظ] لأنَّهُعطف على حالهم وخروجهم بطراً ورئاءً،والقائلون من أهل المدينة.[٥٤٥٠]

قيل: هم قومٌ من الأوس والخزرجِ، ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ والذين ليسوا بثابتي الأقدام في الإسلام، بل كانوا على حرفٍ.[٥٤٥١]

قيل: هم قوم من قريش أسلموا وما قوي إسلامهم، وكانوا بمكَّة مستضعفين، قد أسلموا وحبسهم أقرباؤهم عن الهجرة، فلمَّا خرجت قريشٌ إلى بدرٍ أَخرجوهم كُرْهًا، فلمَّا نظروا إلى قلّة المسلمين ارتابوا وارتدُّوا.[٥٤٥٢]

أو المنافقون، والعطف باعتبار تغاير الوصفين، أي: يقول الجامعون بين صفتي النفاق ومرض القلب سواءٌ جعل عطفا تفسيريًّا، أو فسر مرض القلب بالإحَن[٥٤٥٣] والعداوة والشك ممَّا هو غير النفاق، وليس من أقحام الواو لتأكيدِ لُصوق الصِّفة بالموصوففي شيءٍ ألبتَّة، ولا من قبيل: أعجبني زيدٌ وكرَمُه، ويؤيِّد هذا الوجهَ ورودُ هذا الوصف في حقّهم، حيث قال بعد قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة ٢/٨]، ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة ٢/ ١٠]، فيكون العطف نحو قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة ٢/٤] بعد قوله: و﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالغيب﴾ [البقرة ٢/٢]، فإنهما لواحدٍ على وجه ذكر هناك، أو المشركون، فإنَّ الكفر مرضٌ مُهْلِكٌ، لكن

[٥٤٤٧] ج: الناطقة.

[٥٤٤٨] ج: ضروريًّا

[٥٤٤٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧٩/٤.

[٥٤٥٠] **اللباب** لابن عادل، ٥٤٠/٩.

[٥٤٥١] **الكشّاف** للزمخشري، ٢٢١/٢.؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٧٩/٤.

[٥٤٥٢] **اللباب** لابن عادل، ٥٤٠/٩.

[٥٤٥٣] الإحن: جمع إحنة وهي البغض. منه.

المشهور أنَّه وصف المنافقين، كما ذكر:﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ الجملة في محلِّ النَّصب بالقول والإشارة إلى المؤمنين، يعني: «أنهم وَثِقُوا به، واطمئنّوا بأنهم يُنصَرون من أجله، حتى تعرَّضوا لِمَا لا يَدَى لهم بهم، فخرجوا وهم في ثلاث مائة وبضعة عشر إلى زُهَاءِ ألفٍ»،[٥٤٥٤] أو سعوافي قتل أنفسهم، رجاءً أن يجعلوا إحياء بعد الموت، ويثابوا على هذا القتل.[٥٤٥٥]

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ومن يسلّم أمره إلى الله، ويثقُ بفضله، ويعوِّل على إحسانه، وجواب الشَّرط محذوفٌ يدلُّ عليه قوله:﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: «غالبٌ لا يَذِلُّ من استجار به وإن قلَّ، ويتسلَّط بتأييده على الكثير القويّ»[٥٤٥٦].

﴿حَكِيمٌ﴾ «يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ويعجز عن إدراكه».[٥٤٥٧] «نحو تسليط القليل الضعيف على الكثير القويّ»،[٥٤٥٨] فهذا جواب للقائلين، وردٌّ لهم وبيانٌ أنَّه ليس من باب الغرور، بل الاعتماد على حول الله وقوَّته، واعتقاد أنَّ الأمر بيده، فإن كان منه تأييد و نصر يتحقق الغلبة، وإنْ قلَّ العَدَد وضعف العُدد، وإنْلم يمكن منه تأييدٌ و نصرٌ فلا يتحقَّق الغلبة وإنْ كثر العَدَد وقَوِي العُدد، ومن ذلك كان المستحب اعتماد المجاهدين على فضل الله، وسؤال النّصرة والظَّفر من الله، والإقبال الكلّي على عون الله.

وروينا في صحيحي البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهماقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في قبّته: اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ فأَخَذَ أبو بَكْرٍ رضي الله عنه بيَدِهِ، فقالَ: حَسْبُكَ يا رسول الله فقد ألححت على ربك، فَخَرَجَ وهو يقولُ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر ٥٤/٤٥– ٤٦]، وفي رواية كان ذلك يوم بدرٍ.[٥٤٥٩]

قال: ومن أدعيته ع م: «اللّهُمَّ منزلَ الكتاب، ومُجْرِيَ السحَابِ، وهازمَ الأَحْزَابِ، اهْزَمْهُمْ وانْصُرنا عليهم».[٥٤٦٠] وفي رواية ع م: «اللهم منزلَ الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، وتزلزلهم».[٥٤٦١]

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠)﴾

ولو رأيتَ وعاينتَ، ولذا يعدّى إلى واحدٍ محذوفٍ، أي: الكفرة، أو حالهم، ف«لو» تجعل المضارع ماضيًا، كما أنَّ «إنْ» يعكس، فإنْ أُريد المقتولون ببدرٍ فالعدول إلى المستقبل لتصوير الحال الماضية بالاستحضار؛ لأنَّه يدلُّ على الحال الحاضر الذي من شأنه أنْ يبصر ويشاهد استفظاعا لها. والماضي محمول على الغرضوالتَّقدير، كأنه قيل: قد مضى هذا ولم تَرَهُ، ولو رأيته لرأيتَ أمرًا فظيعًا، وإلَّا فظاهر أن ليس المعنى على حقيقة المضيّ، وإنْ أريد من يقبض أرواحهم من الكفرة فدخولها على المضارع لتنزيله منزلةالماضي؛ لأنَّه كلام من لا خلاف في إخباره والمترقّب فيه، كالماضي المقطوعبه في تحقُّق الوقوع على منوال قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف ٧/٤٤]، فالفعل مستقبلٌ في التحقيق ماضٍ بحسب التأويل، ونحو: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓإِذْ

[٥٤٥٤] **تفسير ابن كمال باشا،** ٤/٢٨٠.

[٥٤٥٥] **اللباب** لابن عادل، ٩/٥٤٠.

[٥٤٥٦] **تفسير ابن كمال باشا،** ٤/٢٨٠.

[٥٤٥٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي،١/ ٢٥-٢٦، **تفسير ابن كمال باشا،** ٤/٢٨٠.

[٥٤٥٨] **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٢٢١.

[٥٤٥٩] **صحيح البخاري،** ٤/٤١ (٢٩١٥).

[٥٤٦٠] سبق تخريجه.

[٥٤٦١] **صحيح البخاري،** ٩/١٤٢ (٧٤٨٩)؛ **صحيح مسلم،** ٣/١٣٦٣ (١٧٤٢).

﴿وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام ٢٧/٦]، ويجوز أن يكون «لو» لتمنّي المخاطب؛ لأنَّه قد رأى منهم الشدائد، وتجرّع منهم الغُصص فجعل[٥٤٦٢] له تمني أن يراهم على تلك الصورة الفظيعة شماتةً بهم ليقرّ به عينه.

وقرئ: «وَلَوْ يَرَى» بالياء،[٥٤٦٣]و﴿إِذْ﴾ نصبٌ على أنه ظرفٌ لـ﴿تَرَى﴾، وجوّز أن يكون مفعولًا له فلا حذف، و ﴿ٱلْمَلَآئِكَةُ﴾ فاعل ﴿يَتَوَفَّى﴾، والتذكير للفصل، ولأن التأنيث غير حقيقيٍ، ويدلُّ عليه قراءة ابن عامر بالتاء،[٥٤٦٤] والأصل التَّوافق بين القراءتين، فيضعف أن يكون الفاعل ضمير الله في قراءة الجمهور.

﴿يَضْرِبُونَ﴾ [**٢٧٦**/و] حالٌ من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أو من ﴿ٱلْمَلآئِكَةُ﴾ أو منهما؛ لاشتماله على الضميرين، وعلى الثانية خبر ﴿ٱلْمَلآئِكَةُ﴾، والجملة حال منهم استغنى فيه عن الواو، أو استئناف، ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أي: «ظهورهم، وَأَسْتَاهم وتخصيصُهما بالضّرب لكون الخزي والنَّكال في ضربهما أشدّ، أو المرادتعميمُ الضرب لِمَا أقبل منهموما أدبر»،[٥٤٦٥] أي: أجسادهم كلّها، أو أشرف الأعضاءوأخسَّها لِعَدم المبالاة بهم.

فقيل: الذين قتلوا ببدر ضربت الملائكة وجوهَهم وأدبارَهم عند قبض أرواحهم، أو ضربوهم بآلة الحرب.

وعن ابن عباس: «كانوا إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسَّيف وإذا ولَّوْا ضربوا أدبارهم، فلا جرم قابلهم بمثله عند نزع الرُّوح».[٥٤٦٦]

وقيل: «هو عند الموت تضرب الملائكة وجوه الكفَّار وأدبارهم بسياط النَّار».[٥٤٦٧]

ونُقل عن أهل الصين: «أنّ عقوبة الزاني عندهم أن يصبَّر، ثم يُعطى الرجلُ القويُّ البطشِ شيئًا عُمل من حديدٍ كهيئة الطَّبق، فيه رزانةٌ، وله مِقْبضٌ، فيضربه على دبره ضربةً واحدةً بقوّته، فيجْمُدُ في مكانه».[٥٤٦٨]

وحذف جواب «لو» للتفظيع والتهويل، وليذهب الذهن كل مذهبٍ، أي: رأيت أمرًا عظيمًا وهولًا شديدًا لا يمكن وصفُه،[٥٤٦٩]

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ عطف على ﴿يَضْرِبُونَ﴾ بتقدير القول، وليس هذا بمجرد قبح عطف الإنشاء على الإخبار، بل لأنَّ المعنى على ذلك؛ لأنَّ هذا من كلام الملائكة، أي: يقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق؛ فإنَّ الحريق اسمٌ لها، وذلك إمَّا بتقدير المضاف، أي: مقدّمة النّار؛ فإنَّ الضرب مقدّمتها، أو بأنَّه كانت معهم مقامعُ من حديدٍ كلَّما ضربوا بها التهبت النارُ، أو باتِّصال عذابها بعذاب الدنيا بأن يسلّط عليها بعد السَّكرات عذاب القبر، وينتهي ذلك إلى دخول النَّار، أو بطريقالبِشارة التهكميَّة؛ ليجتمع لهم النّكال في الدُّنيا والخوف من النَّكال في الآخرة، أوبأن يكونَ القول لهم يوم القيامة.

[٥٤٦٢] ج+ الله.

[٥٤٦٣] قراءة شاذّة، مروية، عباس عن أبي عمرو.**شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٧.

[٥٤٦٤] أي: ﴿إِذْ تَتَوَفَّى﴾. **السبع** لابن مجاهد، ص ٣٠٧؛ **التيسير** للداني، ص ٣٦٨.

[٥٤٦٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٨٠/٤.

[٥٤٦٦] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٨٤/١٥؛ **اللباب** لابن عادل، ٥٤٢/٩.

[٥٤٦٧] **لباب التأويل في معاني التنزيل** للخازن، ٣١٩/٢.

[٥٤٦٨] **الكشّاف** للزمخشري، ٢٢١/٢.

[٥٤٦٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٨١/٤.

«والذَّوق: وجود الطَّعم في الفم، وأصله فيما يقِلُّ تناولُه دون ما يَكثُر، فإنه يقال له: الأكل، وقد يُعبَّر به عن الاختبار، وعن مطلق الادراك».[٥٤٧٠] ففي ذكره إشارةٌ إلى أن ما[٥٤٧١] وقع من العذاب كالشَّئ الذي يذاق بالنَّظر إلى ما سيقع.

اللَّهم أجرنا من عذابك بحرمة أنبيائك.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١)﴾

﴿ذَلِكَ﴾ الضَّرب والعذاب، وهو منصوبٌ بفعلٍ، أي: فقلنا ذلك، أو مبتدأٌ خبره محذوفٌ، أي: جزاؤكم، أو قوله: **﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾** أي: بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصي، عبّر عن النّفس باسم أعظم آلاتها؛فإنَّها جوهرٌ واحدٌ وهو الفعَّال، وهو الدرَّاك، وهو المؤمن، والكافر، وهو المطيع، وهو العاصي، والأعضاء آلاتها،[٥٤٧٢] أو غلب العمل باليدين على سائر الأعمال التي يباشر بغيرها، حتَّى قيل: في عمل القلب هو ممَّا عملت يداك وفي عمل من لا يَدَيْ له، هذا مما عملت يداه.

ومنه قوله: **﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾**[يس ٣٦/ ٧١]، فإن عمل ذي اليدين أكثر أعماله بهما، أو اليد مجاز عن القدرة والجامع التأثير في الفعل، وهذا من كلام الله، أو الملائكة، قال المصنف: **﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾** عطفٌ عليه، أي: ذلك بسببين: بسبب ما كسبوا، وبـ**﴿أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾**.[٥٤٧٣]

وردّه قدّس سرّه: «بأنَّ ترك التعذيب من مستحقّه ليس بظلمٍ شرعًا و لا عقلًا حتى ينتهضَ نفي الظُّلم سببًا للتَّعذيب».[٥٤٧٤]

فذهب إلى أنه للدلالة على أنّ سببيَّته مقيَّدةٌ بانضمامه إليه؛ إذ لولاه لأَمكن أن يعذّبهم بغير ذنوبهم.

وردَّه ابن الكمال: «بأن الحاجة إلى ما ذكر لانحصار السببيَّة فيما كسبوا، بحيث لا يكون التَّعذيب بسببٍ آخر محتملًا، وذلك غير مستفادٍ من الكلام، وليس بمقتضى المقام».[٥٤٧٥]

وأنت خبير بأن الحاجة إليه لانحصار السببية فيما كسبوا بل لتقرير السببيَّة، ولئنْ سلّم فقد استفاده ذلك من الكلام، والمقام ممنوع أيضًا، ولَمَّا ورد أن يقال: إنّه تعالى ليس بظلّامٍ أصلًا، ونفى الظَّلام، أي: كثير الظلم لا يستلزم نفي الظُّلم، بل ربّما يوجب إثباته بدليل الخطاب، وبروجوع النَّفي إلى القيد.[٥٤٧٦]

أجاب المصنّف: بأنه للتكثير لأجل العبيد نفي أنَّه بطريق التَّوزيع، كما يقال في مقابلة الجمع؛ لأنَّ العبيد يدلُّ على الكثرة بل الاستغراق، فالظالم لهميكون كثير الظلم لإصابة كلٍّ منهم ظلمًا.فصار المعنى:ليس بظالملهذا ولا لذاك إلى ما لا يحصى، فالمبالغة راجعةٌ إلى الكثرة والكميّة، وباعتبار نفي الظلم عن كلّ فردٍ وفردٍ لا عن مجموعٍ يندفع ما قال ابن الكمال:

[٥٤٧٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٣٠/٧.

[٥٤٧١] ج-ما.

[٥٤٧٢] **اللباب** لابن عادل، ٥٤٢/٩.

[٥٤٧٣] **الكشّاف** للزمخشري، ٢٢٢/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٨٢/٤.

[٥٤٧٤] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٦/١.

[٥٤٧٥] **تفسير ابن كمال باشا** ، ٢٨٣/٤.

[٥٤٧٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٨٣/٤.

«المعنى نفيُ ظلمه عن الكلِّ حينئذ، ولا يلزمه نفيه عن كلّ واحدٍ، فإنَّ رفعَ الايجاب الكلّيِّ لا ينافي الايجاب الجزئيَّ».[٥٤٧٧] «أو لأنَّ العذاب من العِظَمِ بحيث لولا الاستحقاق لكان المعذِّبُ [٢٧٦/ظ] بمثله ظلاَّمًا».[٥٤٧٨]

فعلى هذا المبالغة راجعة إلى الشدّة والكيفيَّة، أي: بلغ استحقاقهم للعذاب الغاية، بحيث لولاه لكان تعذيبهم غاية في الظُّلم لصدوره عمَّن هو غاية في العدل، «فنفي الظُّلم الكثير عند وجود الذنب العظيم من العادل: عبارةٌ عن حصول الذنب العظيم من المعذَّب. مثاله: أنَّا إذا نظرنا إلى مَنْ يضرب شخصًا بأنواع العذاب، ويبالغ التشديد، وقطَعْنا النَّظَر من الموجِب، حكمنا بأن المعذِّب ظالمٌ كثيرُ الظلم، أمَّا لو علمنا أنه عادل لا يضع الشيء إلا في موضعه قطعنا بأن المعذَّب مستوْجِب لذلك، لأنه متمرِّدٌ متجاوزٌ في الذَّنب حدَّه».[٥٤٧٩]

والمقام يقتضيه أيضًا؛ لأنَّه في مخصوصين فإنَّ قوله: ﴿**وَلَوْ تَرَى**﴾ في المشركين الذين ناصبوا الحربَ يوم بدرٍ، والمنافقون لَمَّا طعنوا في المسلمين يقولون: ﴿**غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ**﴾ بمعنى: أن المسلمين اغترُّوا بدينهم، فخرجوا وهم قليلٌ على الكثير القوي، أجاب بقوله: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ**﴾، ثم حَقَّقَه بقوله: ﴿**وَلَوْ تَرَى**﴾، والخطابُ مع هذا القائل، أي: لو رأيتَ، أيها القائلُ، إذ يَتَوفىَّ الملائكةُ المشركينَ الذين تَعُدُّهم كثيرينَ، يَضرِبُونَ منهم فوقَ الأعناقِ وَكُلَّ بَنَانٍ قائلين: ذُوقُوا عذابَ الخزيِ في الدُّنيا وعذابَ الحريقِ في الآخرة، وأنَّ ذلكَ العذابَ بسَبَبِ مُناصَبَتِهم رسولَه، وأنَّه تع ليسَ بظلام، لرأيتَ قُوَّةَ أوليائِهِ ونَصْرَهم على أعدائه.[٥٤٨٠]

وقيل: كلُّ صفة لله فهي في المرتبةالعليا، فلو كان ظالما لَكان ظلاَّما، فنفى اللازم لينتفي الملزوم.

وقيل: نفي الظَّلَّام أبلغُ من الظلم؛ لأنه كنايةٌ عنه إذ نفي الظلام لازم لنفي الظالم؛ لأنَّه إذا انتفى الظلم انتفى الظلامية، والانتقال من اللازم إلى الملزوم كنايةً .

﴿**كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢)**﴾

«لَمَّا بيَّن ما أنزل بأهل بدر من الكفار عاجلًا وآجلًا،بيَّن أن هذه طريقتُه وسنَّتُه في الكلِّ».[٥٤٨١]

والكاف يحتمل الرفع، أي: دأبُ هؤلاء مثلُ دأبهم، وهو عملهم وطريقتهم الذي دَأبوا فيه، فإنَّه مصدرُ دَأَبَ على الشيء يدْأَب دَأْبًا ودُؤوبًا إذا داوم وواظب على الشئ، وأتعب نفسه فيه، ثم سميت العادة به للمداومة عليها، يعني: عادة هؤلاء في كفرهمومعاصيهم كعادة آل فرعون فيه، فجوزي هؤلاء بالقتل والأسر يوم بدرٍ، كما جوزي آل فرعون بالإغراق.

وعن ابن عباس: آل فرعون أيقنوا أنَّ موسى نبيٌّ من الله فكذَّبوه، فكذلك هؤلاء لَمَّا جاءهم محمد بالصدق كذَّبوه، فأنزل بهم عقوبةً، كما أنزل بهم.[٥٤٨٢]

[٥٤٧٧] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٨٣/٤.

[٥٤٧٨] **الكشّاف** للزمخشري، ٢٢٢/٢.

[٥٤٧٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٣٢/٧.

[٥٤٨٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٣٠/٧-١٣١.

[٥٤٨١] **اللباب في علوم الكتاب**، ٥٤٣/٩.

[٥٤٨٢] **اللباب في علوم الكتاب**، ٥٤٣/٩.

والنَّصب، أي فعلنا بهم فعلًا مثل فعلنا بهم، «والفرق بينه وبين أصحاب فرعون أنه مأخوذ من الصحبة وكثرة الموافقة في المذهب، كما يقال: أصحاب الشافعي وأبي حنيفة يراد به الموافقة في المذهب، ولا يقال: آل الشافعي إلا لمن يرجعون إليه بالنسب الأوكد الأقرب».[٥٤٨٣]

﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من قبل آل فرعون، في محلّ الجرّ بالعطف عليه، أي: وكدأب الذين من قبلهم من الكفَّار﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ تفسيرٌ لدأبهم.

وقيل: حالٌ من الموصول بتقدير «قد»،أو خبرٌ على جعله مبتدأً.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أخذ هؤلاء، وأقام المضمر دلالة على شدَّة أخذه هؤلاء[٥٤٨٤] وكمال الانتقام منهم، وهذا تحذير من وخامة عاقبة التكذيب لكلِّ مَنْ صمَّم عليه، ورداءةِ ارتكاب الذُّنوب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ أي: قادرٌ على كل أمرٍ باهر القدرة، غالبٌ على كلِّ شيء لا يغلِبُه شيءٌ، فيأخذ مَنْ كفر به، وكذَّب رسله، ولا يقدر أحدٌ على منعه منه.

وتنكيره للتفخيم والتعظيم، كأنَّه قال: قومي لا يعرف كنه قوَّته لعظمته. ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا يطاق عقابه، ولا يُردُّه شيءٌ، وهو مثل: «حسن الوجه» في أنَّه صفةٌ مشبَّهةٌ أضيفت إلى الفاعل، تقديرُه: «شديد عقَابه» لا يبرح من هذا التقدير، ولا يوصف إليه بأنه شديدٌ؛ لأن الشَّديد هو المتداخل على صعوبة تفككه، فالجملة تقريرٌ لقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾، وإظهارٌ بقوَّة ذلك، وتنبيهٌ على أنَّ لهم عذابًا مدَّخرًا سوى ما نزّل بهعاجلًا.

وعن أنسٍ رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلَّم قال: «يامعشرَ المسلمين! ارْغَبوا فيما رغَّبكم اللهُ فيه، واحذَروا وخافوا ممَّا خوَّفكم اللهُ به من عذابِه وعقابِه ومن جهنَّمَ؛ فإنها لو كانت قطرةٌ من الجنَّةِ معكم في دُنياكم التي أنتم فيها حلَّتْها لكم، ولو كانت قطرةٌ من النَّارِ معكم في دنياكم التي أنتم فيها خبَّثَتْها عليكم» رواه البيهقي.[٥٤٨٥]

وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مَرَّ بِقَوْمٍ وَهُمْ يَضْحَكُونَ، قال: «أَتضحكونَ؟ وَالجنَّةُ والنَّارُ بينَ أظهُرِكُم؟! قال : فما رُئِيَ أحدٌ مِنْهَا ضَاحِكًا حتَّى ماتَ قال: ونزلَتْ فيهم :﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر ١٥/٤٩-٥٠].[٥٤٨٦]

«وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَرَّ بِقَوْمٍ ، فقال: «لا تَنْسَوا العَظِيمَتَيْنِ: الجَنَّةَ، والنَّارَ» [٢٧٧/و] ثُمَّ بَكَى حَتَّى جَرَى أَوْ أَبَلَّ دُمُوعه جَانِبَيْ لِحْيَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْس بِيَدِهِ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِنْ أَمْرِ الآخِرَةِ، لَمَشَيْتُمْ إِلَى الصَّعِيدِ، ولحَثَيْتُمْ عَلَى رؤوس التُّرَاب».رواه أبوا يعلى.[٥٤٨٧]

أعاذنا الله من عقابه، وعذابه بحرمة النَّبيّ وأصحابه.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣)﴾

[٥٤٨٣] **مجمع البيان** للطبرسي، ١٠/١٦٤.

[٥٤٨٤] ج + هؤلاء.

[٥٤٨٥] **البعث والنشور** للبيهقي، ٣٠٣ (٥٤٦).

[٥٤٨٦] **ضعيف الترغيب والترهيب** للألباني، ٢/٤٣٢ (٢١٢٣).

[٥٤٨٧] **صفة النار** لابن أبي الدنيا، ، ٢/١٤؛ **ضعيف الترغيب والترهيب** للألباني، ٢/٤٣٢ (٢١٢٣).

الإشارة إلى ما حلَّ بهم، وهو في محلِّ النَّصب، أي: فعلنا ذلك بهم، أو الرفع بالابتداء وخبره ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ بسبب أنَّه تعالى، ﴿لَمْ يَكُ﴾ أصله: «يكون»، فلمَّا دخلتْها «لَمْ» جزمتْها، فالتقى ساكنان، فحذفت الواو، فبقي: لم يكن، ثم حذفت النون؛ لأنه[٥٤٨٨] يشبه الغُنة المحضة، فأشبهت حروف اللِّين ووقعت طرفًا، كما تقول: لم يدْعُ ولم يَرْمِ، ونوقض بـ«لم يَزِنْ» و«لم يخُنْ».

وأجيب بأنَّ «لم يكن» سيد الأفعال، من حيث إنَّ كلَّ فعل فقد حصل منه معنى «كان»، نحو: «ضرب»، فإن معناه: «كان ضرب»، فاحتيج إلى كثرة الإعمال، بخلاف[٥٤٨٩] ما ذُكر، أي: «لم ينبغ» و«لم يصح» في عادته وحكمته أن يُبدِّل نعمته عند قومٍ بالنقمة، حتى يبدِّلوا ما بأنفسهم من الحال الجميلة بالحال القبيحة، والطاعة بالمعصية، وسكران النعمة بكفرانها.

فإن قلتَ: أيّ حالٍ للكفرة مرضيّة فيُغيّروها إلى حالٍ مسخوطةٍ؟ قلتُ: كما أنهم لَمَّا كانوا متمكنين من الإيمان، ثم تركوا ذلك ولم يؤمنوا، كان ذلك حاصلًا لهم فَغَيَّروه كقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ [البقرة ١٦/٢].[٥٤٩٠]

«وتحقيقه: أنَّ بعثة الرسول في نفسها نعمةٌ دونها كلُّ نعمة، فلما نسي المشركون هذه النعمة الأسنى، وكانوا متمكِّنين من قبولها والاهتداء بهداها، فلمَّا امتنعوا منه واضطرُّوه إلى المهاجرة، ثم استأصل شأفتَهم يومَ بدر، قيل ذلك لهم. وعلى هذا أمرُ فرعون مع موسى، ويؤيِّده قوله تعالى ههنا: ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنفال ٥٢/٨].[٥٤٩١]

«أو: كما تُغيّرُ الحالُ المرْضيَّةُ إلىٰ المسخُوطة، تُغيّرُ الحالُ المسخُوطةُ إلىٰ أسخَطَ منها، وأولئكَ كانوا قبلَ بِعثةِ الرسولِ إليهم كَفَرةَ عَبَدةَ أصنام، فلما بُعِثَ إليهم بالآياتِ البيِّنات، كَذَّبُوه، واستهزؤا به وعادَوْه، وتَخونوا عليه، سَاعِينَ في إراقةِ دَمِه، غَيَّرُوا حالَهم إلىٰ أسوَأَ ما كانت، فغَيَّرَ اللهُ ما أنعَمَه مِنَ الإمهال، وعاجَلَهم بالعذاب».[٥٤٩٢]

ويقرب من هذا التقرير ما قيل: كما بدّلت قريشٌ حالَهم في صلة الرَّحم وعدم التَّعرضِ للآيات والرُّسل وإن كانوا كفرةً؛ لأنَّ الكفر لا يمنع النِّعمة الدنيوية؛ لقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾[البقرة ١٢٦/٢] بمعاداة الرسول ومَنْ تابعه، وإيذائهم، والسعي في قتلهم، والاستهزاء بالآيات، إلى غير ذلك ممَّا أحدثوه بعد النُّبوة، فبدل الله ما أنعمَ على ما ذكر، ثم إنَّه ليس السبب عدم تغيير الله ما أنعم عليهم، حتى يُغيّروا حالهم، بل ما هو المفهومله، وهو جري عادته على تغييره متى غيَّروا حالهم، فالسبب مفهوم ما ذُكر لا منطوقُه.[٥٤٩٣]

واستدل المعتزلة بها على أنَّه تع لا يبدأ أحدًا بالعذاب، فلو كان تعالى خلق الخلقَ، وخلق عقولَهم وحيوتهم ابتداءً للنار، لَمَا صحَّ ذلك.

[٥٤٨٨] «لأنَّها لم تشبه الغنَّة» انظر: **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٨٧/١٥؛ **اللباب** لابن عادل، ٥٤٤/٩.

[٥٤٨٩] **اللباب** لابن عادل، ٥٤٣/٩.

[٥٤٩٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٣٣/٧.

[٥٤٩١] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٣٢/٧-١٣٣.

[٥٤٩٢] **الكشّاف** للزمخشري، ٢٢٢/٢.

[٥٤٩٣] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٦/١؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٢٢/٢.

وأجيب: بعدم حمل الكلام على ما يشعر به ظاهره وإلا لزم كونُ صفة الله معلَّلَةً بفعل الإنسان، فثبت أنه لولا حكمه وقضاؤه أولاً لَما أمكن العبد أن يأتي شيءٍ من الأفعال.[٥٤٩٤]

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ عطفٌ على بأن الله، أي: وبسبب ذلك فيعاقبهم على ما سمع من أقوالهم، ويعمل من أعمالهم، وفيه وعيدٌ لهم، وتعريضٌ بآلهتهم، وأنَّها لا تسمع ولا تعلم، وفي إظهار الجلالة شأنٌ لا يخفى.

وقُرِءِ بالكسر[٥٤٩٥] على الاستئناف، ففيه تقريرٌ لقوله: ﴿مُغَيِّرًا﴾؛ لأن تغيير أحوالهم ليس إلا بالعلم.

«وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ للهِ على أقوامٍ نِعَمًا يُقِرُّها عندَهم ما كانوا في حوائِجِ الناسِ ما لم يَمَلُّوا فإذا مَلُّوا نقَلَها إلى غيرِهِم». «إِنَّ للهِ عِنْدَ أَقْوَامٍ نِعَمًا أَقَرَّهَا عِنْدَهُمْ؛ مَا كَانُوا فِي حَوَائِجِ الْمُسْلِمِينَ مَا لَمْ يَمَلُّوهُمْ».

وعنه عليه السلام: «إنَّ للهِ أقوامًا اختصَّهم بالنعَمِ لمنافِعِ[٥٤٩٦] العبادِ يُقِرُّهم فيما بذلوها فإذا منَعوها نزعَها منهم فحوَّلَها إلى غيرِهم».[٥٤٩٧]

قال جعفر: ما دام العبد يعرف نعم الله عنده؛ فإنَّ الله لا ينزع عنه نعمه، حتى إذا جهل النعمة، ولم يشكر الله عليها إذا ذاك جُزي عنه بأن ينزع منه النعمة ويحلّ به النقمة.[٥٤٩٨]

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)﴾

تكريرٌ للتأكيد، وَلَمَّا نِيطَ به من زيادة الدَّلالة على كفران النِّعم وجحود الحقِّ، حيث لم يقل بها، أو بآياته مع سبق آيات الله، بل ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ بلفظ الرَّب المضاف إليهم المشعر بكونه مالكَهم والمنعِمَ عليهم، وبيان الأخذ بالذُّنوب بذكر الإغراق، ففيه موازنةٌ بين الآيتين، ومقابلةٌ بين كلّ من القرينتين[٥٤٩٩]، فالسابقة[٥٥٠٠] لم يفهم منها أنَّ تلك النِّعمة المكفورة من أيِّ نوعٍ من أنواع النِّعم؟ هي نعمة الآيات المنصوبة، أو الآيات المنزلة؟ وأنَّ الكفران من أيِّقبيل الإعراض عن الآيات المنصوبة، أو هو من قبيل الكذب بالآيات [**٢٧٧**/ظ] النَّازلة؟ وأن الأخذ مشتملٌ لجميع أنواع التَّعذيب، فعُلِم من اللَّاحقة أنها هي من نعمة الآيات المنزلة. وأنّ ذلك الكفران تكذيبُها وجحودُ الحق، وأن الإغراق نصٌّ في التعيين.[٥٥٠١]

«وقيل: الأوّل لتشبيه الكفر والأخذ به، والثاني: لتشبيه التغيير في النّعمة بسبب تغييرهم ما بأنفسهم».[٥٥٠٢]

«وفيه أنه لا مساعدة للتَّخصيص المذكور، لا من جهة المقام، ولا من جهة نظم الكلام».[٥٥٠٣]

[٥٤٩٤] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٨٧/١٥؛ **اللباب** لابن عادل، ٥٤٤/٩.

[٥٤٩٥] قراءة شاذَّة، مروية، عن عبيد بن عمير. **شواذ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٧.

[٥٤٩٦] ج: بمتابعة.

[٥٤٩٧] **المعجم الكبير** للطبراني، ٢٠٦/١٣ (١٣٩٢٥)؛ **شعب الإيمان** للبيهقي، ١١٨/٦ (٧٦٦٢).

[٥٤٩٨] **عرائس البيان** للبقلي، ٥٣٤/١.

[٥٤٩٩] ج: من الفريقين.

[٥٥٠٠] ج: والسابقة.

[٥٥٠١] **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٢/٢؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ١٣٣/٧-١٣٤.

[٥٥٠٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٧/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٨٥/٤.

فإنَّ قوله: ﴿**كَفَرُواْ بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ**﴾ [الأنفال ٥٢/٨] جملةٌ مبتدأةٌ بعد ذكر المشبَّه والمشبَّه به، صالحةٌ؛ لأنْ تكونَ بيانًا لوجه التَّشبيه، فوجب حملُها عليه، كقوله: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ**﴾ [آل عمران ٥٩/٣]، جملة مفسّرة لما له شُبِّه عيسى بآدم. وأما قولُه: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ**﴾ كالتَّعليل لحلولِ النَّكالِ للكُفْران، لِمَا تقرَّرَ: أنَّ اسمَ الإشارةِ في مِثلِ هذا المقامِ مُؤذِنٌ بأنَّ ما بعدَه جديرٌ لما قبله لأجلِ اكتِسابِه مُوجِبَه.

وقد اعتُرِضَ بين التَّشبيهَين، وهو غيرُ مُختَصٍّ بقوم فِرعونَ وقُريش، بل هو مُتناوِلٌ لجميع مَنْ يُغيِّرُ نِعمةَ الله منَ الأمم السَّالفةِ واللَّاحقة، بالكُفرانِ وتكذيبِ الآيات. فاختِصاصُه بالوجهِ الثاني دونَ الأولِ، وإيقاعُه وجهًا للتشبيه، مع وُجُودِهِ صريحًا بعيدٌ.[٥٥٠٤]

وقيل: الأول إشارةٌ إلى أنَّهم أنكروا دلائلالإلٰهية، وكان لازمة الأخذ، والثاني: إشارة إلى أنهم أنكروا دلائل التَّربية والإحسان، وكان لازمة الإغراق والإهلاك.[٥٥٠٥]

﴿**فَأَهْلَكْنَاهُمْ**﴾ عاجلًا ﴿**بِذُنُوبِهِمْ**﴾ على العموم،[٥٥٠٦] بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالحجارة، وبعضهم بالريح، وبعضهم بالمسخ، كذلك أهلكنا كفَّار قريشٍ بالسَّيف.[٥٥٠٧]

ودلالة الباء على السَّببية المطلقة، والسَّببيةللعذاب العاجل إنما يستفاد من الفاء.[٥٥٠٨]﴿**وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ**﴾ على الخصوص، وفي هذا التخصيص والتَّعيين ما لا يخفى، ولذلك جعلهم عنوان المشبَّه بهم، ﴿**وَكُلٌّ**﴾ من الفرق المكذبة، أو من غَرْقَى القِبْط وقتلى قريشٍ. والظَّاهر أن يقال: المشَبَّهُون الذين هم قتلى قريشٍ، والمشبَّه بهم الذين هم آل فرعون والذين من قبلهم كلّهم، ﴿**كَانُوا ظَالِمِينَ**﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي.[٥٥٠٩] وغيرَهم بالإيذاء والإيحاش، فتسبب شدّة ظلمهم؛ لعقابهم، ففيه بيان سبب الأخذ وتقريرٌ لقوله: ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾ «وجمع الضميرين لمراعاة معنى «كُلّ»،ولو رُوعِي لفظه لأفرد ورجح رعاية المعنى لرعاية الفواصل».[٥٥١٠]

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي: إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا»،[٥٥١١] رواه مسلم.

وَعَنْ جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».[٥٥١٢]

﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦)**﴾

[٥٥٠٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٨٥/٤.

[٥٥٠٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٣٥/٧.

[٥٥٠٥] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٨٧/١٥–١٨٨؛ **اللباب** لابن عادل، ٥٤٥/٩.

[٥٥٠٦] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٨٥/٤.

[٥٥٠٧] **اللباب** لابن عادل، ٥٤٥/٩.

[٥٥٠٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٨٥/٤.

[٥٥٠٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٧/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٨٥/٤.

[٥٥١٠] **اللباب** لابن عادل، ٥٤٥/٩.

[٥٥١١] **صحيح مسلم**، ١٩٩٤/٤ (٢٥٧٧).

[٥٥١٢] **صحيح مسلم**، ١٩٩٤/٤ (٢٥٧٨).

شرّ كلّ فردٍ مما يدبُّ على الأرض ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ أي: في علمه، أو حكمه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أصرُّوا على الكفر ورسخوا فيه؛ لأنَّ بمجرَّد الكفر لا يصحُّ الإخبار عنهم بعدم الإيمان.

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾فلا يُتوقَّع منهم إيمانٌ؛ لأنَّ بناء الفعل على «هم» يفيد تقوِّيَ الحكم، ولأنَّ معناه لا يقع منهمإيمانٌ في أزمنة الاستقبال، وإذا لم يقع منهم إيمانٌ في زمانٍ لم يتوقع منهم إيمانٌ.

ومعنى الفاء السَّببية: التَّنبيه على أن كفرهم في الرُّسوخ بحيث يوجب انتفاءَ صدور الايمان منهم.[٥٥١٣] وهؤلاء الصُّمُّ البكم الذين لا يعقلون. فسَّرهم في تلك الآية، فعدم إيمانهم لعدم القابلية بانتفاء آلةالإدراك والقوَّة الدرَّاكة التي هي العقل.

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ﴾ بدلٌ من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بدل الكلّ أو البعض؛ للبيان أو للتَّخصيص، أو خبرٌ محذوفٌ، أو منصوبٌ على إضمار فعل، ﴿مِنْهُمْ﴾ صلة ﴿عَاهَدْتَّ﴾، وتعديته بـ«من» مع أنه يتعدَّى بنفسه كقوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ﴾ [الأحزاب ١٥/٣٣]؛ لتضمُّنه معنى الآخذ، ففيه من التأكيد والاختصار، أو حالٌ من العائد المحذوف، أي: عاهدتهم كائنين مِنْهُمْ، فـ﴿مِنْ﴾: للتبعيض؛ لأنَّها وقعت من رؤسائهم.

وقيل: ﴿مِنْ﴾ صلة ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ﴾،﴿ثُمَّ﴾ لتبعيد النَّقض العهد، وعطف المضارع على الماضي؛ للدَّلالة على استمرار النَّقض، ولذلك قال: ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ من مرّات المعاهدة، أو المقابلة، ثُمَّ جعل ذلك بدلًا من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجعلوا شَرَّ الدَّوَاب، فيكون المعاهدين الناقضين شرَّها.

وذلك؛ لأنَّ نقض العهد خروجٌ عن المروءة ولإنسانيَّة، فخالفوا مقتضى فطرتهم بالكفر ونقض الأوَّل الفطريّ، فانحطّوا عمَّا جُبِلوا عليه، ثمَّ أصرّوا على ذلك، ثمَّ نكثوا العهد الظاهر، فكانوا شَرَّ الدَّوَاب؛ لكونها على ما جبلت عليه.

﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ عاقبة الغدر، ولا يبالون بوخامتها في الدُّنيا والآخرة، من العار والنَّار.[٥٥١٤] أو لا يتقون الله فيه، أو عقابه أو نصره للمؤمنين وتسلّطهم عليهم.

روي: أنَّ بني قريظة، كانوا معاهدين رسولَ الله هم وبنوا نظير، فنقضوا [**٢٧٨**/و] العهد، وأعانوا المشركين على رسول الله وأرسلوا كعبَ بن الأشرف إلى مكَّةَ؛ ليعقد الحلف معهم، فعلم رسول الله بذلك، فأرسل إليه محمد بن سلمة ومعه ثلاثة نفر فقتلوه، ثم جاء رسول الله إلى اليهود، وقال: يا معشر اليهود أَسلِموا تَسْلَمُوا، قالوا: لقد بلَّغْتَيا أبا القاسم، قال: ذلك أردت، اعلموا يا معشر اليهود: أنَّ الأرض لله ولرسوله، وأَني أريد أن أُجْلِيَكم من هذه الأرض، فأَجْلَى بني النضير ، ومَنَّ على على قريظة، حتَّى كان يوم الخندق، غزوة الأحزاب نقضوا العهدَ، وحاربوا رسولَ الله، وأعانوا المشركين عليه، فَلَمَّا رَجَعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَضَعَ السِّلَاحَ ، وَاغْتَسَلَ، جَاءَ جِبْرِيلُ، وَهُوَ يَنْفُضُ رَأْسَهُ مِنَ الْغُبَارِ ، فَقَالَ: وَضَعْتَ السِّلَاحَ، فوَاللَّهِ مَا وَضَعْنَاهَا، اخْرُجْ إِلَيْهِمْ، فَأَشَارَ إِلَى بني قُرَيْظَةَ، فحاصرهم، ونزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فحكم بأَنْ تُقْتَلَمُقَاتِلَتُهُمْ، وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ.[٥٥١٥]

[٥٥١٣] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٨٥/٤.

[٥٥١٤] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٨٦/٤-٢٨٧.

[٥٥١٥] **صحيح البخاري**، ٢١/١ (٢٨١٣)؛ **صحيح مسلم**، ١٣٨٩/٣ (١٧٦٩).

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ،فَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ».[٥٥١٦] رواه مسلم وغيره. وفي رواية لمسلم: «لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يعرف به يقال: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ».[٥٥١٧]

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧)﴾

تُصادِفَنَّهم وتَظفَرَنَّ بهم، والضمير للناقضين. «والثقْف: الإدراك بسرعة والظَّفر».

قال:

فإمَّـــا تَثْقَفُـــوني فـــاقْتُلُوني ... فـإنْ أَثْقَـفْ فَسَـوْفَ تَـرَوْنَ بَالِي[٥٥١٨]

يقال: ثقِفته بالكسر أَثْقَفه ثَقْفًا،[٥٥١٩] «دخلت نون التأكيدلَمَّا دخلت «ما» المؤكدة بمعنى الشَّرط؛ لئلا ينحطّ رتبته عن رتبة الحرف، ولأنه كدخول القسم في أنَّه علامة تؤذِن أنَّه من مواضع توكيد المطلوب من التَّصديق؛ لأن النُّون يدخل لتأكيد المطلوب فيما يدلُّ على الطَّلب، وهي في ستةُ مواضع: الأمر، والنهي، والاستفهام، والعرض، والقسم، والجزاء مع «ما».[٥٥٢٠]

﴿فِي الْحَرْبِ﴾ في المحاربة والمقاتلة، **﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ﴾** فَفَرِّقْ عن مناصبتك ومحاربتك، ونكِّل عنها بقتلهم، والنِّكاية فيهم، **﴿مَنْ خَلْفَهُمْ﴾** مَنْ وَرَائَـهُم من الكفَّار،[٥٥٢١] يكون ذلك التَّنكيل سببًا؛ لشرود هؤلاء خوفًا منك. «والتَّشريد: التَّفريق على اضطراب»،[٥٥٢٢] ثم إن كان الثقف بمعنى الإدراك، فالفاء فصيحةٌ تقتضي محذوفًا هو سبب التَّشريد نحو:وتَظْفَرَنَّ بهم وإن كان بمعنى الظَّفر كما في البيت المذكور، فالفاء جزائيَّةٌ، ونحوه: «الفاء» في قوله: **﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**.[٥٥٢٣]

وقُرِئ: «فَشَرِّذْ بِهِمْ»[٥٥٢٤]بالذَّال المعجمة ولم يوجد في اللُّغة تركيب «ش- ر- ذ» فلعلَّ الذَّال بدلٌ من الدَّال؛ لأنهما مهجوران ومتقاربان، كما قالوا: خَرْدَلت اللَّحم وخرذَلته، إذا قطعته صغارًا.

أو هو مقلوبٌ من قولهم: «تَفَرَّقوا شَذَرَ مَذَرَ، إذا ذهبوا في كلِّ وجه»، ومنه: الشذْر، وهو: ما يلتقط من المعدن من الذَّهب لتفرُّقه.[٥٥٢٥]

و«مِنْ خَلْفِهِمْ»[٥٥٢٦] بكسر الميم على تنزيلالفعل منزلةَ اللاَّزم، وكون «مِنْ خَلْفِهم» ظرفًا له على مقاربة معنى «مِنْ»، وفي تقول: اضرب زيدًا من وراء عمرو ووراء عمرو بمعنى «في» ورائه، فالقراءتان متَّحدتان معنًى؛ «لأنه إذا شرَّد الذين ورائهم

[٥٥١٦] **صحيح مسلم**، ١٣٥٩/٣ (١٧٣٥).

[٥٥١٧] **صحيح مسلم**، ١٣٦١/٣ (١٧٣٦).

[٥٥١٨] **لسان العرب** للهمذاني، «ثقف».

[٥٥١٩] **الفريد في إعراب القرآن المجيد** للهمذاني، ٢٢٠/٣.

[٥٥٢٠] **مجمع البيان** في تفسير القرآن للطبرسي، ١٦٧/١٠.

[٥٥٢١] **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٣/٢.

[٥٥٢٢] **مجمع البيان** في تفسير القرآن للطبرسي، ١٦٧/١٠؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٢٨٥/٤.

[٥٥٢٣] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٣٧/٧.

[٥٥٢٤] قراءة شاذَّة، مروية، عن ابن مسعود. **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٣/٢؛ **شواذ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٧.

[٥٥٢٥] **المحتسب** لابن جنّي، ٢٨٠/١؛ **الفريد في إعراب القرآن المجيد** للهمذاني، ٢٢٠/٣، **فتوح الغيب** للطيبي، ١٣٧/٧.

فقد فعل التَّشريد في الوراء، وأوقعه فيه؛ إذا الوراء جهته المشرَّدين ، فإذا جُعل الوراءُ ظرفًا للتشريد فقد دلَّ على تشريد مَنْ فيه»،[٥٥٢٧] فالتشريدُ ورائهم كنايةٌ عن تشريدهم في الوراء؛ لأنَّه من لوازمه،[٥٥٢٨] وليس هذه القراءة من قبيل:

يَجْـــــرَحْ فِي عَرَاقيبِهـــــا
نَصْـــــــــــــــلِي[٥٥٢٩]

إذ ليس الظَّرف مفعولًا به في الأصل.

﴿**لَعَلَّهُمْ**﴾ لَعَلَّ المشرَّدين ﴿**يَذَّكَّرُونَ**﴾: يَتَّعِظُونَ ويعتبرون، ولا ينقضون العهد، أو يُنصفون عن أنفسهم، فيؤمنون بالله، ويكفرون بالطاغوت؛ لما أنّ الواقع من شواهد الحقِّ، وآثاره. وقال العلماء: إذا ظهرت آثار نقض العهد ممَّن هادنهم الإمام من المشركين بأمرٍ ظاهرٍ مستفيض، استغنى الإمام عن نبذ العهد وإعلامهم بالحرب، وإنْ ظهرت الخيانات بأمارات تلوح وتتضح له من غير أمر مستفيض، فح يجب على الإمام نبذ العهد إليهم وإعلام الحرب، وذلك؛ لأنّ قريظة كانوا قد عاهدوا النبيَّ ع م، ثمَّ أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله، فحصل لرسول الله خوف الغدر به وبأصحابه، فهاهنا يجب على الإمام أن ينبذ إليهم على سواءٍ، ويعلمهم بالحرب، وأمَّا إذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعًا، فلا حاجة للإمام إلى نقض العهد، بل يفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل مكة لَمَّا نقضوا العهد بقتل خزاعة، وهم في ذمة النبيِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يرعهم إلا وجيش رسول الله يمرّ الظهران،[٥٥٣٠] وبيان ذلك قوله تع:

﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١)**﴾

أي: إن تخف من قومٍ معاهدين نقض عهدٍ بأماراتٍ [**٢٧٨**/ظ] تلوح.

فإن قيل: الخوف ظنٌّ، فكيف يسقط يقينُ العهد معه؟ يجاب: بأنَّ آثارها إذا ظهرت؛ وجب النبذ؛ لئلَّا يُوقع التمادي عليه في الهَلَكة، وجاز إسقاط اليقين ههنا ضرورة.

وأمَّا إذا عُلم اليقين؛ فيستغنى عن النبذ، وقد سار النبيّ إلى أهل مكة عام الفتح؛ لَمَّا اشتهر منهم النقض بغير أن ينبِذ.[٥٥٣١]

وقيل: الخوف بمعنى اليقين، ويرد عليه فعله عليه السلام في فتح مكَّة، ثم اختلف في أنها في قريظة بناءً على أنَ ما وقع منهم أماراتٌ، أو مقطوع عنهم بناءً على أنَّ الواقع ما يوجب العلم واليقين.

[٥٥٢٦] قراءة شاذَّة، مروية، عن الأعمش؛ **الختصرشواذّ القراءات** لابن خلويه، ص ٥٥؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٧.

[٥٥٢٧] **الكشاف** للزمخشري، ٢/٢٢٣.

[٥٥٢٨] **حاشية محي الدين شيخ زاده، ٤/٤٠٩**

[٥٥٢٩] البيت جزء من شعر لذي الرُّمَّة. تمامه: وأن تَعتَذِرْ بالْمَحْلِ من ذي ضُرُوعها إلى الضَّيْفِ يَجْرَحْ في عَرَاقِيبِهَا نَصْلِي. **كتاب شرح المفصل** يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع، قدم له: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ–٢٠٠١م، ١/٤١٨؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ٧/١٣٧.

[٥٥٣٠] **إعراب القرآن وبيانه** للدرويش، ٣/١٦٠.

[٥٥٣١] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ١٠/٥١.

﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ جواب الشرط، أي فاطرح إليهم عهدهم

والنبذ:إلقاء الخبر إلى من لا يعلمه، والسواء: العدل، ومنه قيل للوسط العدل لاعتداله إلى الجهات.[٥٥٣٢] وقيل: بمعنى الاستواء، فعلى الأوَّل: صفة محذوف حالا من النابذ، أي: ثابتًا على طريق مستوٍ قصد في العداوة ،أو في النبذ بأن تظهر لهم نبذ العهد، وتخبرهم إخبارًا مكشوفًا بيِّنًا أنَّك قطعتَ ما بينك وبينهم، ولا تناجزهم الحرب وهم على توُّهمِ بقاءِ العهد؛ لئلَّا يكون خيانةً.[٥٥٣٣]

وعلى الثاني: حالٌ من المجموع، أي: على استواءٍ ومن النابذ والمنبوذ إليهم في العلم بإلقاء الخبر وإظهار النقض؛ ليكون الجميع في العلم بالنَّقض على استواءٍ، أو في العداوة، وأمَّا ما قيل على سواءٍ في الخوف وهو في موضع الحال من النابذ أو المنبوذ أو منهما ففيه تأمُّل وخفاء.

روي أنَّ معاوية كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرُّومِ عَهْدٌ وَكَانَ يَسِيرُ نَحْوَ بِلاَدِهِمْ ليقرّب حَتَّى إِذَا انْقَضَى الْعَهْدُ غَزَاهُمْ فَجَاءَ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ وَهُوَ يَقُولُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ وَفَاءٌ لاَ غَدْرٌ فَإِذَا هو عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ فَسَأَلَهُ فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلاَ يَشُدُّ عُقْدَةً وَلاَ يَحُلُّهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» فَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ.[٥٥٣٤]

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ تعليلٌ للأمر بالنبذ والنَّهي عن متأخرة القتال المدلول عليه بالحال على طريقة الاستئناف.[٥٥٣٥] ولعلَّ نفي المحبة دون إثبات النقض للإيماء إلى أنَّه يحب الموفين.

«رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِي قَال قَال رَسُولُ اللهِ ﷺ: لِكُلِّ غَادِرٍ لِواءٌ يَوْمَ القِيامةِ، يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ، أَلَا وَلا غَادر أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عامَّةٍ».[٥٥٣٦]

قالوا: إنَّما كان الغدر في حقِ الإمام أعظمَ وأفحشَ منه في غيره لِمَا في ذلك من المفسدة؛ فإنهم إذا غدروا وعُلم ذلك منهم، ولم ينبِذوا بالعهد، لم يأمنهم العدوُّ على عهد ولا صلح، فتشتدُّ شوكته، ويعظُم ضررُه، ويكون ذلك منفِّرًا عن الدخول في الدين، وموجبًا لذَمِّ أئمَّة المسلمين. فأمَّا إذا لم يكن للعدوّ عهدٌ، فينبغي أن يُتحيَّل عليه بكل حيلة، وتُدار عليه كلُ خديعة. وعليه يُحمل قوله صلى الله عليه وسلم: «الْحَرْبُ خَدْعة».[٥٥٣٧]وقد اختلف العلماء؛ هل يجاهَد مع الإمام الغادر؛ على قولين؛ فذهب أكثرُهم إلى أنه لا يقاتَل معه، بخلاف الخائن والفاسق. وذهب بعضهم إلى الجهاد معه. قال القرطبي: القولان في مذهبنا.[٥٥٣٨]

[٥٥٣٢] **مجمع البيان** في تفسير القرآن للطبرسي، ١٠/١٦٦-١٦٧.

[٥٥٣٣] **الكشاف** للزمخشري، ٢/٢٢٣.

[٥٥٣٤] **سنن أبي داود**، ٤/٣٨٨ (٢٧٦٠).

[٥٥٣٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٢٨؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/٢٨٨.

[٥٥٣٦] **صحيح مسلم** كتاب الجهاد، ١٧٣٨؛ **رياض الصالحين** للنووي، ١٥٩٠.

[٥٥٣٧] **صحيح البخاري** ٧٤٨٩؛ ٣٠٣٠ ٣٠٢٩؛ **صحيح مسلم** ١٧٣٩ ١٧٤٠؛ **سنن أبي داود** ٢٦٤٦؛ **معجم الكبير** ٤٨٦٦.

[٥٥٣٨] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ١٠/٥٣.

«وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثَلاَثَةٌ قَالَ اللَّهُ: أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي الْعَهْدَ ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا وَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ الْعَمَلَ وَلَمْ يُوفِهِ أَجْرَهُ».[٥٥٣٩]

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩)﴾

قرأ الجمهور: بالتاء وكسر السين،[٥٥٤٠] وقرأ عاصم في رواية أبي بكرٍ بها ونصب السِّين، والخطاب له عليه السلام أو لكل أحدٍ، وقرئ: «ولا تَحْسَبِ الذين كفروا»[٥٥٤١] بكسر الباء وبفتحها على حذف النون الخفيفة بقلبها ألفًا ثم إسقاطها للساكنين. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾مفعول أوّل، ﴿سَبَقُوٓاْ﴾ مفعول ثانٍ، أي: لا تحسبنهم فاتوا وأفتلوا من أن يُظفرَ بهم،

قال المصنف: وقرأ حمزة: بالياء؛ على أنَّ الفعلَ لـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وقيل فيه: أصلُه: أنْ سَبَقُوا، فحُذِفَت «أنْ»، كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الروم ٢٤/٣٠]، واستُدِلَّ عليه بقِراءةِ ابنِ مسعودٍ: «أنَّهم سَبَقُوا»، وقيل: وقعَ الفِعلُ على «أنهم لا يُعجِزُون»؛ على أنَّ ﴿لا﴾ صِلة، و﴿سَبَقُوٓاْ﴾ في محلِّ الحال، يعني: سابقين، أي: مُفلِتينَ هاربين، وقيل: معناه: ولا يَحسَبَنَّهم الذينَ كَفَروا سَبَقُوا، فحذفَ الضَّميرَ لِكونِهِ مفهومًا، وقيل: ولا يَحسَبَنَّ قَبيلُ المؤمنينَ الذينَ كَفَروا سَبَقُوا. وهذهِ الأقاويلُ كُلُّها مُتَمحَّلة، وليسَت هذهِ القراءةُ التي تَفرَّدَ بها حمزةُ بنيّرة.[٥٥٤٢]

وما تَفرّد بها حمزةُ فباطل؛ لما ذُكر في **التيسير**[٥٥٤٣] وغيره أنها قراءة عاصم في رواية حفصٍ وابن عامرٍ وحمزة،وأمَّا أنَّها ليست بنيِّرة الوجوه، أي: واضحة الوجوه مبيّنة مقرّرة، فحقّ لما أنَّ شيئًا من الأقاويل المذكورة لا يخ عن تكلُّفٍ وتمحّلٍ، [**٢٧٩**/و] وخروجٍ عن الظاهر.[٥٥٤٤]

فإنَّ الأوَّل على أنَّ «أنْ» مصدريَّة، فهي مع ما بعدها يسدُّ مسدَّ المفعولين؛ لأنَّ المقصودَ مسند ومسند إليه وهما حاصلان، وفيه أنْ المصدريّة كالموصولة فلا تحذف، والثاني: على ﴿إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ﴾ سادَّ مسدَّ المفعولين، وفيه أنَّ كون «لا» مزيدة في محلّ يصحّ كونها غير مزيدة غير قويٍّ، والثالث: على أنَّ الضمير المحذوف مفعول أوّل ، وفيه أنّ حذف أحد مفعوليه متكلِّف، وإن أجاز المصنِّف في مواضع، والرابع: على إضمار الفاعل مثل: ولا تحسبنَّ أحدًا ولا تحسبنَّ جماعة المؤمنين وعبّر عنها بقتيل المؤمنين محافظة على الياء التَّحتانية وفيه تكلّف إضمار الفاعل.

والأظهر أنَّ قوله: ﴿إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ﴾ تعليلٌ للنَّهي، أي: لأجل أنَّهم لا يفوتون الله من أعجزه الشَّيء فاته، أو لايجدون طالبَهم عاجزًا عن إدراكهم من: «أعجزت الرجل وجدته عاجزًا»؛ فإنَّ الهمزة قد تكون لوجدان المفعول على فاعليَّة، أصله إنْ كان الفعل لازمًا ومفعوليَّته إنْ كان متعدّيًا، وكذا إن كسرت «أنَّ» إلا أنَّه تعليلٌ على سبيل الاستئناف ابتداء كلامٍ متَّصل كقوله تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت ٤/٢٩] بعد قوله:﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ﴾ إلى ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ فإنَّه تمّ به الكلام، ثمّ قال: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ فكما أنَّ قوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ منقطع من الجملة التي قبلها، كذلك قوله: ﴿إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ﴾ بخلاف ما لو فتحت ألف ﴿إنَّهم﴾؛ فإنَّ الجملة حينئذ تكون متعلِّقة بالجملة الأولى.

[٥٥٣٩] **صحيح البخاري** كتاب البيوع، ١٧٣٨، ٢٢٢٧، ٢٢٧٠ ؛ ابن ماجه ٢٤٤٢؛ احمد،٨٦٧٧.

[٥٥٤٠] أي: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾. **السبع** لابن مجاهد، ص ٣٠٧؛ **التيسير** للداني، ص ٣٦٨؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٨/٢.

[٥٥٤١] قراءة شاذَّة، مروية، عن الأعمش. **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٤/٢.

[٥٥٤٢] **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٤/٢.

[٥٥٤٣] **التيسير** للداني، ص ٣٦٨.

[٥٥٤٤] **حاشية الكشاف** للتفتزاني، ٣٧٩ظ؛ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف**، ١٢٤/٤.

وقرئ: «يُعْجِزُونِ»[٥٥٤٥] بكسر النُّون، أي: «لاَ يُعْجِزُونَنِي» فحذفت إحداهما للمثلين، والياء للكسرة وبالكسر والتَّشديد بإدغام نون الرفع في نون الوقاية، وبفتح العين وتشديد الجيم وكسر النُّون، من «عَجَّزَ» مشدَّدًا، ولعلَّ الآية إزالة لما يرد على قوله: ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الأنفال ٥٨/٨]، كأنَّه قيل: كيف ننبذ ونوقظ العدوَّ ونعلّمهم بفسخ العهد قبل المحاربة مع أنَّهم إن علموا بذلك إمَّا أن يتأهَّبوا للقتال ويستجمعوا أقصى ما يمكن لهم من أسباب التَّقوى والغلبة، أويفرّوا أو يتخلَّصوا، وعلى التقديرين يفوت الانتقام منهم، وإمّا يكفي في المحاربة معهم ظهور أمارات نقض العهد فأزيح بذلك.

وقيل: نزلت فيمن أفلت من فلِّ المشركين تطبيبًا لقلبه في الهاربين كما طبب قلبه في المقتولين والمأسورين.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠)﴾

الخطاب للمؤمنين، «والإعداد: اتِّخاذ الشَّيء لغيره لما يحتاج إليه في أمره».[٥٥٤٦] لما أمر ع م: بالنبذ أمر بالإعداد لما يعقبه، أو لما قصدوا الكفار يوم بدرٍ بلا آلة يوم بدرٍ أن لايعاد لمثله، أو لما ذكر أنَّ الفارّين ليسوا بفائتين، وكان مظنّة التَّكاسل ارتكالًا عليه حثّهم عليه لهم، أي: لناقض العهد، أو للكفَّار.

و﴿مَا﴾ موصولةٌ، ومحلُّ ﴿مِّن قُوَّةٖ﴾ النَّصب على الحاليَّة من ﴿مَا﴾، والعامل ﴿أَعِدُّوا﴾، أو من الرَّاجع المحذوف، والعامل ﴿اسْتَطَعْتُمْ﴾، و﴿مِنْ﴾ للتبعيض، أو للبيان وهي ما يتقوى به في الحرب.

وقوله عليه السلام: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ»[٥٥٤٧]، كقوله ع م: «الحَجُّ عَرَفَةٌ»[٥٥٤٨] لما أنَّه أشرفُها وأقومُها، ولذلك قال عليه السلام: «مَنْ تَعَلَّمَ الرَّمْيَ ، ثُمَّ تَرَكَهُ ، فَلَيْسَ مِنَّا»[٥٥٤٩] وذلك لأنَّه أقوى في التَّأثير؛ لأنَّه يدفع العدوَّ من بعيدٍ، ولا يمكنه الإحتراز منه؛ لعدم الإحساس به، ولإنَّ ضرب العرب أكثرُ ما يكون بالحراب والسيوف، فحثّهم على تعاطي الرمي وقد مات عقبة عن سبعين قوسًا في سبيل الله. وقيل: هي الحصون.[٥٥٥٠] عن النبي عليه السلام: «كُلُّ شيءٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ بَاطِلٌ، إِلَّا رَمْيَهُ بِقَوْسِهِ، وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ، وَمُلَاعَبَتَهُ أَهْلَهُ ، فَإِنَّهُ مِنَ الحَقِّ».[٥٥٥١]وذلك لأنَّ ما لا يفيده عاجلًا وآجلاً باطل، ولكن هذه اتَّصلت لما يفيد من تمرّن الحرب وتحصيل الولد، فلذلك كانت من الحقّ.

والرِّباط: شدٌّ أيسر من العقد، يقال: ربَطَه رَبْطًا ورِبَاطًا ورَابِطَةً مرابطة ورباطًا، وصار اسمًا للمربوط، إلا أنَّه لا يستعمل إلا في الخيل، فباعتبار عُموم المفهوم الأصليّ يندفع إضافة الشيء إلى نفسه، وباعتبار الاستعمال،[٥٥٥٢] يقال: إنَّه اسمٌ للخَيْلِ التي تُربَطُ في سبيل الله، ، ويحتمل أن يكونَ جمعَ «رَبيط»؛ كـ«فَصِيل» و«فِصَال»، و«فعال» بمعنى «مفعول».[٥٥٥٣]

[٥٥٤٥] قراءة شاذَّة، مروية، عن ابن محيص. **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٤/٢؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٧.

[٥٥٤٦] **مجمع البيان** للطبرسي، ١٦٩/١٠-١٧٠.

[٥٥٤٧] ؛ **صحيح مسلم**، ١٥٢٢/٣ (١٩١٧)؛ **سنن أبي داود**، ١٦٩/٤ (٢٥١٤)؛. **سنن الترمذي**، ٢٧٠/٥ (٣٠٨٣).

[٥٥٤٨] **سنن ابن ماجه**، ٢١٨/٤ (٣٠١٥)؛ **سنن الترمذي، ٢٢٨/٣ (٨٨٩)؛ سنن النسائي، ٢١٦/٥ (٣٠١٦)، وفي «السنن الكبرى، ١٥٩/٤(٣٩٩٧)،**

[٥٥٤٩] **اللباب** لابن عادل، ٥٥٢/٩.

[٥٥٥٠] **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٤/٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٥٥٢/٩.

[٥٥٥١] **جامع الترمذي** أبواب الصلوة ١٦٣٥

[٥٥٥٢] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٢٩٠/٤.

[٥٥٥٣] **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٤/٢.

وقيل: المطابق للرَّمي أن يكون الرِّباط على بابه مصدرًا،[٥٥٥٤] أي: اقتنائُها ورباطُها للغزو، ولعلَّ عدم حمل الجمهور عليه نظرًا إلى المعطوف عليه ولا يحسن حمله أيضًا عليه لضعف دخوله في حيِّز الإعداد.

وقرئ: «رُبُطِ الخَيْلِ»[٥٥٥٥] بضمِّ الباء وسكونها[٥٥٥٦] جمعُ رِباطٍ. فعلى تعميم القوة يكون عطفها لعطف جبريل وميكال على الملائكة.[٥٥٥٧]

لَمَّا كانت أصل الحروب وأوزارها التي عقد الخير في نواصيها وهي أقوى القوة وأشدّ العدَّة، وحصون الفرسان، وبها يُجال في الميدان.

وعن هذا أجاب ابن سيرين حين سئل عمَّن أوْصَى بثُلُثِ مالِه في الحصون؟ بقوله:[**٢٧٩**/ظ] يشترى به الخيل، فترابط في سبيل الله ويُغزى عليها، فقيل له : إنما أوصى في الحصون، فقال: ألم تسمع قول الشاعر:

ولقــد عَلِمــتُ علــىٰ تَــوَقِّيَّ الــرَّدَىٰ   إنَّ الــحُصُونَ الخيــلُ لا مَــدَرُ القُــرىٰ[٥٥٥٨]

وعلى تخصيصها يكون عطف بعض عُدد الحرب على بعض.

عن النبيّ ع م: «مَنِ احْتَبَسَ فَرَسًا في سَبيلِ اللَّهِ إيمانًا باللهِ وتَصْدِيقًا بوَعْدِهِ، فإنَّ شِبَعَهُ ورِيَّهُ ورَوْثَهُ وبَوْلَهُ في مِيزانِهِ يَومَ القِيامَةِ»[٥٥٥٩].

وقيل: «كانت الصَّحابةُ يستحبُّون الذكور الخيل عند الصفوف، والإناث عند الغارات لعدم صهيلها».[٥٥٦٠]

وقيل: ربط الذُّكور أولى للفرِّ والكرِّ. وقيل: بل الإناث للنسل. وقيل: اللفظ عامٌّ.

﴿**تُرْهِبُونَبِهِ**﴾ أي: بما استطعتم، فيكون حالًا من المفعول، أي: مرهبًا به، أو من الفاعل، أي: مرهبين، أو بالإعداد، فيتعين الحال من الفاعل، «والإرهاب: إزعاج النفس بالخوف».[٥٥٦١]

وعن يعقوب: ﴿**تُرَهِّبُونَ**﴾ بالتشديد،[٥٥٦٢] ﴿**عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾ يعني: كفار مكَّة وفي حكمهم من عداهم، وذلك لأنَّهم إذا علموا تأهّب المسلمين للقتال لم يخبروا عليهم وخافوهم، وربَّما يدعوهم إلى الإنقياد والطَّاعة. وفيه بيان حكمه الحكم، وتنبيهٌ عاى فائدته للحثِّ والتَّرغيب.

وعن بعض العارفين: «القوَّة»: هي الثِّقة بالله.

[٥٥٥٤] **الإنتصاف** لابن المنير، ١٨٤و؛ **روح المعاني** للآلوسي، ٢٥/٥.

[٥٥٥٥] قراءة شاذَّة، مروية، عن الحسن. **مختصر في شواذّ القرآن**، لابن خالويه، ص ٥٥؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٧.

[٥٥٥٦] قراءة شاذَّة. مروية عن أبي حيوة. **مختصر في شواذّ القرآن**، لابن خالويه، ص ٥٥؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٧.

[٥٥٥٧] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٨/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٩٠/٤.

[٥٥٥٨] **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٤/٢.

[٥٥٥٩] **صحيح البخاري**، ٢٨/٤ (٢٨٥٣).

[٥٥٦٠] **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٥٥٤/٩.

[٥٥٦١] **مجمع البيان** في تفسير القرآن للطبرسي، ١٧٠/١٠؛ **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٢٩١/٤.

[٥٥٦٢] **النشر** لابن الجزري، ٢٠٨/٢.

وقيل: إنَّ الرمي في الظَّاهر من القسيّ، وفى الحقيقة رمي سهام اللَّيالى فى الغيب بالخضوع والاستكانة، ورمي القلب الى الحقِ معتمدًا عليه، راجعًا عمَّا سواه.

وكان ذو النُّون فى غزوٍ، وغلب المشركون، فنزل عن دابَّته وسجد، فانهزموا، وأُسروا وقُتلوا». [٥٥٦٣]

﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

عطفٌ على ﴿**عَدُوَّ ٱللَّهِ**﴾ أو على ﴿**لَهُمْ**﴾﴿**مِن دُونِهِمْ**﴾ صفة من غيرهم من الكفرة؛ هم اليهود والمنافقون، وفيه أنَّهم منحرطون مع المؤمنين فكيف يرهبون؟ والجواب أنَّ الخائن خائفٌ، وكلَّما إزداد شوكة المسلمين إزداد المنافقون في أنفسهم خوفًا ورعبًا، فربَّمايدعوهم ذلك إلى الإخلاص، أو أهل فارس، أو عدوّ المسلم من المسلمين؛ لأنَّ منهم من يعاديه، والصحيح عدم التعيين لما وصفوا به إلا أن يصحَّ حديث نحو قوله ع م: «هُمُ الجنُّ». [٥٥٦٤]

وفي الحديث:«إنَّ الشَّيطانَ لا يَقرَبُ صَاحِبَ فَرَسٍ، ولا دارًا فيه فَرَسٌ عَتيقٌ»، [٥٥٦٥] ورُوِي: «أنَّ صَهيلَ الخَيْلِ يُرهِبُ الجِنَّ». [٥٥٦٦]

﴿**لاَ تَعْلَمُونَهُمُ**﴾ بأعيانهم، والعلم بمعنى المعرفة؛ ولذلك يعدّى إلى واحدٍ، أو بمعناه، فيقدَّر باغين أو محاربين، وبمعناه في قوله: ﴿**ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ**﴾؛ لأنَّ المعرفة تستدعي سبق جهلٍ، وإنَّها تتعلَّق بالذَّوات دون النسب، وقد نصُّوا على عدم إطلاقها عليه تعالى. [٥٥٦٧] فمن فسَّر بها؛ فلعلَّه نظر إلى معنىً يصحّ الإطلاق، ثم تقديم اسمه تعالى مبتدأ مبيّنًا عليه «يعلم» هو الدَّال على معنى الإختصاص، أي: ألله وحده هو العالم بهم، وبحصرهم مع إفراط كثرتهم بذواتهم، وصفاتهم وأسمائهم ومستقِرهم ومستودعهم كلٌ في كتاب مبينٍ.

﴿**يُوَفَّ إِلَيْكُمْ**﴾ أجره وجزائه، وفي عبارة ﴿**يُوَفَّ**﴾ بعد بيان ما ينفق بقوله: ﴿**مِنْ شَيْءٍ**﴾ إشارة إلى أنَّه وإن كان قليلًا فجزاؤه جليلٌ. [٥٥٦٨]

﴿**وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ**﴾ بتضييع العمل، أو بنقص الثواب. [٥٥٦٩] وردّ الثاني ابن الكمال: بأنَّ مبناه على استحقاق العبد بالعمل الثواب، وقد عرفت ما فيه في تفسير: ﴿**وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ [البقرة ٢/١٠٥]. [٥٥٧٠]

وأنت خبيرٌ بأنَّه واردٌ أيضًا على الأول.

[٥٥٦٣] **تفسير عرائس البيان في حقائق القرآن** للبقلي، ١/٥٣٤-٥٣٥.

[٥٥٦٤] **مسند الحارث**، ٢/٦٧٦ (٦٥٢)؛ **تخريج الكشاف** للزيلعي، ٢/٣٤؛ **تفسير ابن أبي حاتم**، ٥/ ١٧٢٣ (٩١٠٤).

[٥٥٦٥] **مسند الحارث**، ٢/٦٧٦ (٦٥٢)

[٥٥٦٦] **جامع البيان** للطبري، ١٤/٣٨؛ **الكشاف** للزمخشري، ٢/٢٢٥؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٩/٥٥٦.

[٥٥٦٧] **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٩/٥٥٦.

[٥٥٦٨] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٤/٢٩١.

[٥٥٦٩] **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** للبيضاوي، ١/٢٨.

[٥٥٧٠] **تفسير ابن كمال باشا**، ٤/٢٩١.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١)﴾

﴿وَإِن جَنَحُواْ﴾ وإن مالوا بعد ما فعلوا من النقض والمخالفة لَمَّا بيَّن الإرهابيَّن حكم ميلٍ يقع عنده، والجنوح: الميل ومنه جناح الطائر؛ لأنَّه يميل به في أحد شقَّيه ولميلانه فيه، ولا جناحَ عليه، أي: ميل إلى مآثم، ويعدّى باللّام وإلى، وقيل: اللام بمعنى إلى.[٥٥٧١] **﴿لِلسَّلْمِ﴾** للصلح والاستسلام.[٥٥٧٢] وقرأ أبو بكر بالكسر.[٥٥٧٣]

﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ فمِلْ لها وصالِحْهم وعَاهِد معهم، فإنّه قد ينفع شوكةَ الإسلام بأن يختلطوا محاسن الإسلام وسيتعوا آيات القرآن فيكون سببًا إلى قبول الإسلام، ونحو ذلك، وتأنيث الضَّمير؛ لأنَّ السِّلم مؤنث حقيقي كنقيضه، قال:

السِّـلْم تأخـذُ منهـا مـا رَضِـيتَ بـه والحـربُ تكفيـك مِـنْ أنفَاسِـها جُـرعُ[٥٥٧٤]

وقيل: لحمله على نقيضه لكونه بمعنى المحاربة، فليكن تأنيثه بمعنى المسالة وإن كان سماعيًّا، فليكن كذلك.

وقرئ: «فَاجْنِحْ» بكسر النُّون،[٥٥٧٥] «فَاجْنُحْ» له بضمِّها،[٥٥٧٦] والتَّذكير على لغة البعض.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ واعتَمِدْ عليه، ولا تَخَفْ من إبطانهم المكر في جنوحهم، فإنَّه يكفيك من مكرهم ويحيقه بهم **﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾** لأقوالكم **﴿ٱلْعَلِيمُ﴾** بنيَّاتكم. ففيه زجرٌ عن نقض العهد ما أمكن، أو لأقوالهم وأفعالهم، فيكون تعليلًا للأمر بالتوكُّل.

قيل: إنَّها مخصوصة بأهل الكتاب لاتِّصالها بقصَّتهم،[٥٥٧٧] وفيه أنَّ قوله: **﴿لَايَحْسَبَنَّ﴾** [الأنفال ٥٩/٨] نزلت فيمن أفلَت يوم بدرٍ، وعلى التسليم لايمنع إجرائها على ظاهر العموم.

وقيل: عامَّةٌ نسخَتها: **﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** [التوبة ٩٢/٩] والصحيح يوقف الأمر على الإمام في الصُّلح والحرب.

وقيل: محكمةُ نزولها في الحديبية لَمَّا صدّ المشركون، وآية السيف لا يدلُّ على الوجوب، [**٢٨٠**/و] بل الإذن بعد الحرمة.

وقيل: الصلح عند عدم قوّة المسلمين، وأمّا عندها فلا ينبغي، بل يقاتلهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية لو لم يكن من العرب، وإنَّما لم يوضع الجزية عليكم؛ كي لايبقى بقيَّة الكفر في أنسابه؛ لأنَّ كلَّهم من نسبه، وإنما أمر الصلح عند الضَّعف

[٥٥٧١] **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٥٥٧/٩.

[٥٥٧٢] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٢٩١/٤.

[٥٥٧٣] أي: **﴿لِلسِّلْمِ﴾**.**السبع** لابن مجاهد، ص ٣٠٨؛ **التيسير** للداني، ص ٣٦٨؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٨/٢.

[٥٥٧٤] **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٥/٢؛ **اللباب في علوم الكتاب** لابن عادل، ٥٥٨/٩.

[٥٥٧٥] قراءة شاذَّة. مروية عن العقيلي.**شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٨.

[٥٥٧٦] قراءة شاذَّة. مروية عن زيد بن علي. **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٥/٢؛ **مختصر في شواذّ القرآن**، لابن خالويه، ص ٥٥؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٨.

[٥٥٧٧] **تفسير ابن كمال باشا** لابن كمال، ٢٩٢/٤.

والمهادية عنده جائزة بحسب الحاجة إلى عشر سنين إقتداء به ع م حين صالح أهل مكّة بالهديبية إلا أنّهم نقضوا، والحاجة باقية استونفت، وأما عند القوّة فأربعة أشهرٍ فما دونها لقوله تع:﴿**فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ**﴾ [التوبة ٢/٩]

﴿**وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢)**﴾

وإنْ يرد الجانحون ﴿**أَنْ يَخْدَعُوكَ**﴾ في الصلح بأن يقصدوا به دفع أصحابك، والكف عن القتال حتى يقووا فيبدؤك بالقتال من غير استعداد منكم فلا يجتنب الصلح؛ لأنَّ الحكم فيه مبنيٌّ على الظاهر، كما أنَّ أصل الإيمان مبنيٌّ عليه فلاتخف من خديعتهم.

﴿**فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ**﴾فإنَّ مُحسِبَكَ اللهُ وكافيك، قال جَريرٌ:

إني وَجَـدتُ مِـنَ المكـارِمِ حَسْبَـكُمْ أنْ تَلبَسُـوا حُـرَّ الثِّيـابِ وتَشـبَعُوا
وإذا تُـــذوكِرَتِ المكـــارمُ مَـــرَّةً في مَجلِـسٍ أنـتُمْ بِـهِ فتَقَنَّعُـوا[٥٥٧٨]

يَهجُوهُم بأنهم لِئامٌ هِمَمُهم مقصورةٌ على الأكل واللُّبس.

«فَتَقَنَّعُوا»: أي: غَطُّوا وُجُوهَكم من الحياء، ووقوعُه صفة للنكرة في قولك: عندي رجلٌ حَسْبُكَ رجلًا، دليلٌ علىٰ أنَّه اسم الفاعل.[٥٥٧٩] وإضافته لايعرف ولا ينافي بينها وبين قوله:﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ**﴾ [الأنفال ٥٨/٨]؛ لأنَّ هذه المخادعة محمولة على أمور مخفيَّة تدلُّ على الغلّ والنفاق، وذلك على أماراتٍ قويَّةٍ تدلُّ على كونهم قاصدين للشَّرِ وإثارة الفتنة و﴿**هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ**﴾ فيما يحتاج إليه، والتأييد: التمكين من الفعل على أتمّ ما يصح فيه ﴿**بِنَصْرِهِ**﴾ من غير واسطة أسبابٍ معتادةٍ ﴿**وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ وبواسطتها وبهذا يضمحلُّ السُّؤال، وينكشف حقيقة الحال.

وعن ابن عباس قال: «أسلم مع رسول الله تسعة وثلثون رجلا وامرأةً، ثم أسلم عمر، فصاروا أربعين، فنزل جبريل بالآية».

﴿**وأَلَّفَ**﴾ أي: أوقع التأليف وهو الجمع على تشاكل ﴿**بَيْنَ قُلُوبِهِمْ**﴾ بيانٌ لكيفيَّة نصره بهم وإشارة إلى أنَّه بجماعتهم، واتِّفاق كلمتهم، ثم إنّه من باب الآيات الغرّ المخجّلة التي تدلُّ على كمال القدرة، وحقيقة الرِّسالة؛ «لأنَّ العرب لِمَا فيهم من الحميَّة والعصبيَّة، والانطواء على الضَّغينة في أدنى شيءٍ، والتهالك على الإنتقام، لايكاد يأتلف فيهم قلبان، ثمَّ ائتلفت قلوبهم على اتِّباعه عليه السلام ،واتَّحدوا، وأنشؤوا يرمون عن قوسٍ واحدةٍ، وذلك لِما نظم اللهُ من ألفتهم، وجمع بين كلمتهم، وأنشأ بينهم مِنَ التَّحابِّ والتَّوادّ، وأزاح التباغُض والتماقُت، وكَلَّفَهم مِنَ الحبِّ في الله والبُغْضِ في الله»، ولا يَقدِرُ علىٰ ذلك إلا مَنْ خلق الأشياء كلِّها، ويملك قلوب عباده بأسرها، وما فعل ذلك إلا تأييدًا لرسوله وتثبيتًا لأمره.[٥٥٨٠]

ومن ههنا ظهر أنَّ أحوال القلوب من العقائد والإرادات والكرامات كلّها من خلق الله، وأنَّه الذي يقلِّبها عن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن العداوة إلى المحبة، ومن الوحشة إلى الألفة، وبالعكس لا كما قال القاضي عبد الجبار: لولا ألطاف الله تعالى ساعة فساعة، لَما حصلت هذه الأحوال، فأضيفت تلك المخالصة إلى الله على هذا التأويل، كما

[٥٥٧٨] **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٦/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٩٢/٤.

[٥٥٧٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٤٤/٧.

[٥٥٨٠] **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٦/٢.

يضاف علم الولد وأدبه إلى أبيه، لحصولها بمعونته وتربيته؛ لأنَّه خلاف ظاهر الآية، والدلالة العقليَّة؛ لأنَّ القلب يتصف بأحد الضدَّين ورجحان أحدهما على الآخر لا بدَّ له من مُرَجِّحٍ، فإن كان ذلك المرجّح هو العبد عاد التقسيم، وإن كان هو الله، فهو المقصود.[٥٥٨١]

وقال أبو سعيد الخرَّاز: ألَّف بين الأشكال، وغيَّر الرسوم لمقامٍ أخر، فكلٌّ مربوطٌ بمنحته، ومستأنسٌ في أهل نحلته وهذا معنى قول النبيِّ ع م: «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ»[٥٥٨٢] وقيل: ألَّف بين قلوب المرسلين بالرسالة، وقلوب الأنبياء بالنبوَّة، وقلوب الصدِّيقين بالصَّبر، وقلوب الشهداء بالمشاهدة، وقلوب الصالحين بالخدمة، وقلوب عامَّة المؤمنين بالهداية، وجعل المرسلين رحمةً على الأنبياء، والأنبياء رحمة على الصدّيقين، وجعل الصديقين رحمةً على الشهداء، وجعل الشهداء رحمةً على الصالحين، وجعل الصالحين رحمةً على المؤمنين، وجعل المؤمنين رحمةً على الكافرين.[٥٥٨٣]

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)﴾

لو أنفقمننفقٌ في إصلاح ذات بينهم على أنَّ الخطاب للمثال لا للتخصيص **﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾** من الأموال بقرينة الإنفاق **﴿جَمِيعًا﴾** حالٌ من **﴿مَا﴾** أو [**٢٨٠**/ظ] من الذِّكر في الظرف **﴿مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾** لم يقدر ذلك المنفق على التأليف والإصلاح، وهذا بيانٌ لتناهي عداوتهم، وإنَّ تأليفهم إنما وقع من الله على وجه الإعجاز، ولذلك استدرك بقوله: **﴿وَلَكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾** بقدرته القاهرة وحكمته الباهرة؛ فإنَّ المالك للقلوب يقلِّبها كيف يشاء على الخطوب، فاكرمهم بالإسلام، وأعزَّهم باتباع سيِّد الأنام، وقطع عنهم أمر الجاهليَّة رأسًا وبالكليّة.

وتحقيقه أنّ المحبَّة لا تحصل إلا عند تصوّر حصول خير من المحبوب، ثمَّ إن كان سببها أمرًا سريع التغيّر، كالمال، والجاه، أو اللذَّة الجسمانيَّة، كانت تلك المحبَّة بصدد الزوال، كالمعشوق يريد العاشق لماله، والعاشق يريد المعشوق لاستيفاء لذَّة بهيمية، فمهما حصل مرادهما كانا متحابّين، ومتى لم يحصل كانا متباغضين، وإن كان سببها كمالًا روحانيًا دائمًا لم يتصوَّر لها زوالٌ وتغيُّرٌ؛ لأنَّ حال المعلول في البقاء أو التبدّل تابعة لحال العلَّة، ومن ههنا يظهر أيضًا سرُّ قوله تعالى: **﴿الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ﴾**[الزخرف ٦٧/٤٣]، ثم إنَّ العرب كانوا قبل مقدَّم النبيّ عليه السلام مقبلين على التسابق في المفاخرة، والمال، والجاه، والتعصُّب والتفوّق فلا جرم كانوا متحابّين تارةً ومتباغضين أخرى، فلمّا جاءهم النبيّ ودعاهم إلى عبادة الله والإعراض عن الدنيا، والإقبال على الآخرة، وتحصيل السعادات الأخرويّة الأبديَّة توحّد مطلبهم، وصاروا إخوانًا متراحمين متحابّين في الله لله.[٥٥٨٤]

﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب تامُّ القدرة والغلبة، لا يُعصى عليه ما يريده.[٥٥٨٥]

[٥٥٨١] **مفاتيح الغيب** للرازي، ١٩٥/١٥-١٩٦.

[٥٥٨٢] **صحيح البخاري** ١٣٤/٣ (٣٣٣٦).

[٥٥٨٣] **عرائس البيان** للبقلي، ٥٣٧/١-٥٣٦.

[٥٥٨٤] **غرائب القرآن** للنيسابوري، ٤١٤/٣.

[٥٥٨٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٨/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٩٢/٤.

فمن ذلك بُعثَ النبيُّ عليه السلام، وجعلَ بعثتَه من الآياتِ الباهرةِ والمعجزاتِ القاهرة، حيثُ ألّفَ به قلوبَهم، وأذلَّ صَعْبَهم؛ بأنْ أوقعَ بينَهمُ الرحمةَ والتَّواضُع، ورفَعَ الأنَفةَ والكِبر، وإليه يشير قوله عليه السلام: «إنَّ قُلُوبَ بني آدَمَ بَيْنَ إصبَعَينِ مِنْ أَصَابعِ الرَّحْمنِ».[5586]

﴿حَكِيمٌ﴾ باهر الحكمة يعلم أنه كيف ينبغي أن يريده، ويفعل كل ما يفعل على وجه الحكمة، والصواب.

ومن ذلك تدبير أمورهم التّدبير العجيب، وأحدَاث الألفة، وجمع الكلمة بينهم، وههنا يظهر مناسبة تخصيص الصفتين؛ فأنَّ الفاصِلةَ كالتعليلِ للتأليف.[5587]

وقيل: الآية في الأوسِ والخزرج، كانَ بينَهم مِنَ الحروبِ والوقائعِ ما أهلَكَ سادتَهم ورُؤَساءَهم، ودَقَّ جماجِمَهم، فلم يَكُنْ لبَغْضائِهم أمَدٌ ومُنتَهى، وبينهما التجاوُرُ الذي يُهيّجُ الضَّغائن، ويُديمُ التَّحاسُدَ والتنافُس، وعادةُ كُلِّ طائفتَين كانتا بهذهِ المثابةِ أن تَتَجنَّبَ هذه ما آثَرَتْهُ أختُها، وتكرهُه وتَنفِرُ عنه، فأنسَاهُمُ اللهُ ذلكَ كُلَّه وألَّف بينهم بالإسلام، حتى اتَّفَقُوا على الطاعة في كلّ شيء، وتَصَافوا، وصاروا أنصارًا.[5588]

وفي الحديث: أنَّهم تذاكروا يومَ بغاثٍ وهو يومٌ مشهورٌ عندهم، وكانت الغلبة في ذلك اليوم الأوس حتى تراعى القبيلتان للحرب، فجاءهم رسول الله فقال: أتدعون بدعاء الجاهليَّة وأنا بين أظهركم؟ فعلموا أنها نزغةٌ من الشيطان فتابوا وتعاقنوا.

وفي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم:«لاَ تَقَاطَعُوا، ولاَ تَدَابَرُوا، وَلَا تَباغَضُوا، ولا تَحاسَدُوا، وكُونُوا عِبادَ اللهِ إخْوانًا، ولا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يَهْجُرَ أخاهُ فَوْقَ ثَلاثٍ».[5589] رواه البخاري وغيره.

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤)﴾ ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥)﴾

﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ ابتداء وخبرٌ، أي: كافيك، ويجوز أن يرفع الجلالة على الفاعليَّة، أي: يكفيك الله وعد بالنصر، والظَّفر مطلقًا بعد ما وعد به عند المخادعة، فلا تكرار ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ في محلّ الرفع[5590] عطفًا على اسم الله على وجهين لا يقال: من كان الله ناصره فلا حاجةَ إلى غيره، وأيضًا إسناد الحكم إلى المجموع يوهم أن الواحد منه لا يكفي وتعالى الله عنه؛ لأنَّا نقول: الكلّ منه، لكن أشير إلى ما يكون بواسطة وإلى ما لا يكون بها كما سبق إلا أنَّ فيه ضعفًا؛ لما روي أنه عليه السلام: نهى أن يقال: «ما شاء الله وشئت».[5591] أو مبتدأ وخبره محذوفٌ، أي: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ كذلك، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: «وحسبك تبَّاعك»، أو النَّصب على المفعول معه؛ لمصاحبة المعمول المنصوب كقوله:

إِذَا كَانَتِ الهيجاءُ وانْشَقَّتِ العَصَا　　　كَفَاكَ والضَّحَّاكَ سَيْفٌ مُهَنَّدُ[5592]

[5586] **صحيح مسلم**، ٤/٢٠٤٥ (٢٦٥٤).

[5587] **فتوح الغيب** للطيبي، ٧/١٤٦.

[5588] **الكشاف** للزمخشري، ٢/٢٢٦.

[5589] **صحيح البخاري**، ٨/١٩ (٤٦٠٦)؛**صحيح مسلم**، ٤/١٩٨٦ (٢٥٦٣).

[5590] ج — في محلّ الرفع.

[5591] **صحيح البخاري**، ٨/١٣٣.

[5592] **الفريد** للهمذاني، ٣/٢٢٥.

والمعنى: وكفاك وكفا تُبَّاعك الله ناصرًا،[٥٥٩٣] أو الجرّ عطفًا على الكاف عند الكوفيين، وأمَّا عند البصريّين، فلا يجوز عطف الظاهر المجرور على المكْنِيِّ بغير إعادة الجارّ، ولو عطف لقيل: «وحسب من اتَّبعك»، وقد ذهبوا إلى أنَّ إضافته، وإضافة أخواته إضافة غير محضة؛ لكونها في قوّة اسم فاعلٍ ناصبٍ لمفعولٍ به على ما مرَّ، وقد نصَّ [**٢٨١**/و] عليه بوقوعها صفة للنَّكرة. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: «حسبيَ اللَّهُ ونعمَ الوَكيلُ أمانٌ لكلِّ خائفٍ»،[٥٥٩٤] رواه شدّاد. والآية مكيّة، كتبت بأمر رسول لله سورة مدنيَّة.

قال القرطبي: مَا ذَكَرَهُ مِنْ إِسْلَامِ عُمَرَ، قَدْ وَقَعَ فِي السِّيَرِ خِلَافُهُ؛ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: كُنَّا نَقْدِرُ عَلَى أَنْ نُصَلِّيَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ حَتَّى أَسْلَمَ عُمَرُ، فَلَمَّا أَسْلَمَ قَاتَلَ قُرَيْشًا حَتَّى صَلَّى عِنْدَ الْكَعْبَةِ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ. وَكَانَ إِسْلَامُ عُمَرَ بَعْدَ خُرُوجِ مَنْ خَرَجَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى الْحَبَشَةَ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ جَمِيعُ مَنْ لَحِقَ بِأَرْضِ حَبَشَة وَهَاجَرَ إِلَيْهَا، سِوَى أَبْنَائِهِمُ الَّذِينَ خَرَجُوا بِهِمْ صِغَارًا أَوْ وُلِدُوا بِهَا، ثَلَاثَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، إِنْ كَانَ عامر بْنُ باهرٍ معهم. وَهُوَ يَشُكُّ فِيهِ.وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: نَزَلَتِ بِالْبَيْدَاءِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ قَبْلَ الْقِتَالِ.[٥٥٩٥]

ثمَّ أعاد النِّداء المذكور بعد الكلام المزبور، وأمر بالتحريض على القتال إشعارًا بأنَّ نصره بالتحريض والحَرَض على القتال لا بمجرَّد الاتِّكال مع التَّكاسل والإهمال، أي: بَالغْ في حثّهم عليه يعطهم الله، وتذكير الثواب الموعود، وبيان وعد الله لهم من النصر، والظَّفر، واغتنام الأموال من الحَرَض، وهو، وهو أن يُنهِكَهُ المرضُ ويَتَبالَغَ فيه، حتىٰ يُشفِيَ علىٰ الموت، ومنه قوله تعالى: ﴿**حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا**﴾ [يوسف ٨٥/١٢]، فأخذ منه بالنظر إلى مجرَّد المبالغة، أو باعتبار أنَّه كان ينسبه إلى الهلاك لو تخلَّف عن المأمور، أو كأنَّه يأمره أن يبالغ فيه وفي تحصيله حتى يدنو من التلف، أو سمّهم حرضًا، على طريقة فسَّقته، أي: نسبته إلى الفسق، وفي ذلك من المبالغة ما لا يخفى.

وعن بعض العارفين: لَمَّا مننت عليك بائتلاف قلوب المؤمنين فى نصرتك، فلا تلتفت إليهم فى محلّ التَّوحيد، فإنِّي حسبك وحدي بغير معاونة الخَلق، فينبغى أن تفرد القِدم من الحدوث فى سيرك منى إليَّ، وأنا حسب المؤمنين عن كلّ ما دوني، وإن كان ملكًا مقرَّبًا، أو نبيًّا مرسلًا، ولا ينبغي فى حقيقة التوحيد النظر إلى غيرى، وإن كان منّي، وفى هذه الإشارة قد أشار بقوله سبحانه فى وصف كبرياء بحال المقربين، بقوله: ﴿**مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ**﴾ [الأنعام ٥٢/٦]. وقيل: حسبك الله وليًّا وحافظًا وناصرًا، ومَن اتَّبعك من المؤمنين، فالله حسبهم.[٥٥٩٦]

﴿**إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥)**﴾

«كان» تامَّة ﴿**مِنْكُمْ**﴾ متعلِّق به، أو حال متقدمة لـ﴿**عِشْرُونَ**﴾ أو ناقصةٌ فهى الخبر، وكذا القول فيما بعدها من نظائرها وكسر العين حملًا على الهمزة من اثنتين؛ لأنَّ عشرين من عشرة بمنزلة اثنتين من واحدٍ، وكذا حملت ستون وتسعون من ستة وتسعةٍ، وقيّد بالصبر في الشرط الأول، واكتفى به في الثاني، ولا يحصل إلا بكونه شديد الاعتصام قويًّا جلدًا شجاعًا غير

[٥٥٩٣] **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٦/٢–٢٢٧.

[٥٥٩٤] **الفردوس** للديلمي ، ٢٦٨٨؛ **كشف الخفاء** للعجلوني، ٤٠٤/١–٤٠٥.

[٥٥٩٥] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٦٧/١٠–٦٨.

[٥٥٩٦] **عرائس البيان** للبقلي، ٥٣٧/١.

جبان، وعند حصولها يحصل الموعود لما سبق من وعد النَّصر في«حسبك الله» وهو الذي حسن هذا التكليف، وهذا عدة منه تعالى وبِشارة بأنَ الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أَمثالهم بعونه، واعترض بلزوم عدم غلبة مائتين على عشرين قط.

وأجيب بعد تسليم وقوع مثل ذلك أن الخلل لعلَّه من فقدان الشَّرط وهو الصَّبر، والظاهر أنَّه خبر في معنى الامر كقوله: ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ**﴾ [البقرة ٢/٢٣٣]. بدليل النسخ؛ فإنَّه أليق بالخبر والتأييد بالمعية؛ فإنَّه أنسبُ به أيضًا يرشدك إليه ما روي عن ابنِ جُرَيج: «كانَ عليهم أن لا يَفِرُّوا ويَثْبُتَ الواحدُ[٥٥٩٧] للعشرة، وكانَ عليه السلام بَعَثَ حمزةَ في ثلاثينَ راكبًا، فلَقِيَ أبا جَهْلٍ في ثلاثِ مئةِ راكب».[٥٥٩٨] فالتقدير: إن يَكُن منكُمْ عِشْرُونَ فليصبروا، وليجتهدوا في القتال حتى يغلبوا.

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: ﴿**إِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ**﴾[٥٥٩٩] بالتاء ههنا وفيما بعده، ووافقهم البصريان[٥٦٠٠] فيما بعده، وجه الجمهور تَجَوُّر التأنيث، ووقوع الفصل، ووجه التاء اعتبارًا للفظ، وعدم اعتداد الفصل، ووجه الفرق النظر إلى ﴿**يَغْلِبُوا**﴾ في الثاني، و إلى التوصيف بالمؤنث في الثالث ﴿**مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ المكتفى بهذا البيان عنه في الأوَّل، لكن بقي وجه تخصيص تصريح القيد في الأوَّل، والبيان في الثاني، وتكرار المعنى الواحد وهو مقاومة الجماعة لأكثر منها بالإعداد المتناسبة للدَّلالة على وقوع غلبة المؤمنين متحققة وإن ازداد الكفار بتلك النسبة بالغًا ما بلغ، ولمطابقة الواقع؛ لأن السَّرايا التي كانت يبعثها عليه السلام كان لا ينتقص عددها عن العشرين، وما كانت تزيد على المائة.

﴿**بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ**﴾ إشارةٌ إلى علَّة تلك الغلبة وهي أمران:

أحدهما: جَهلُهم بالمعاد حتى يقاتلون من غير احتسابٍ كالبهائم بخلاف المؤمنين؛ فانهم يؤمنون بالمعاد، ويقدمون على الجهاد على بصيرةٍ طلبًا للثَّواب، وعَوَالِي الدَّرجات.

والثاني: جهلُهم بالمبدأ فيعوِّلون[**٢٨١**/ظ] على قوتهم، وينبعث دواعيهم من الهوى والشَّيطنة، فلايستحقُّون به إلا الهوان؛ لتوليهم الشَّيطان، والمؤمنون يستعينون به، ويسألون النُّصرة والمعونة وأيضًا من لا يعرف الآخرة يشحُّ بهذه الحياة الدُّنيا غاية الشُّحّ فيجبن، ومَنْ اعتقدها وحصول السعدة فيها لم يبال بهذه، فيخوض بقوَّة وشجاعة، وأيضًا أهل العلم يكون لهم في أعين الناس هيبةً وحشمةً، ويكونون في أنفسهم أقوياءَ أشدًا لما تجلّى عليهم من أنوار المعرفة بخلاف الجهلة الذين لا نور لهم.

روي: أن خالد بن الوليد في بعض الحروب مع الروم بارز يومًا من الأيَّام بنفسه– وكان أمير الجيش– فقتل ألف بطلٍ من أبطال الروم، ثمَّ تقدَّم اليه بطريق منهم، وقال له: يا أمير! هل أخبرك نبيَّكم أنك لا تموت؟ قال خالد: لِمَ ذلك؟ قال: لأنَّ ما تفعله من الإقدام إنما يفعله من أخبره صادق القول بأنْ لا سبيلَ للموت اليه، فقال خالد: أخبرني صادق القول بأنَّ كلَّ نفسٍ ذائقةُ الموت، وأخبر أيضًا بما أعدَّ الله لمن يقتل في سبيله من النعيم، وكان غذائي اليوم خبز الشعير مُبْتَلًّا بالماء، فأنا أستعجل الموت للفوز بذلك النعيم. فأسلم البطريق.[٥٦٠١]

﴿**الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)**﴾

[٥٥٩٧] ج + منهم.

[٥٥٩٨] **الكشاف** للزمخشري، ٢/٢٢٧.

[٥٥٩٩] **السبع** لابن مجاهد، ص ٣٠٨؛ **التيسير** للداني، ص ٣٦٨؛ **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٠٨.

[٥٦٠٠] أي: أبو عمرو ويعقوب.

[٥٦٠١] **غاية الأماني في تفسير الكلام الرَّبَّاني** للكوراني، ٣/١٦٣-١٦٤.

﴿الْآنَ﴾ مبنيٌ مع اللّام؛ لأنَّه خرج عن التمّكن بشبه الحرف،[٥٦٠٢] ﴿خَفَّفَ﴾ بمقاومة الواحد للاثنين بعد ما أوجب عليه مقاومة العشرة؛ لما ثقل ذلك عليهم، وذلك بعد مدَّةٍ ضجَّ المهاجرون فقالوا: نحن جِيَاعٌ، وعدوُّنا شِبَاعٌ، ونحن في غربة وعدوُّنا في أهليهم، ونحن أُخرجنا من ديارنا، وعدوُّنا ليس كذلك، وقال الأنصار: شغلنَا بعدوّنا وواسينا إخواننا فنزل التخفيف.[٥٦٠٣]

وقيل: كان التَّثقيل يوم بدرٍ، وقيل: كان فيهم قلَّة فأمروا به، ولَمّا كثروا خفّف عنهم.

فإنْ قلتَ: كيف يصحّ مع بناء التخفيف على الضعف، والتَّحويل من القلَّة إلى الكثرة يَزيدُ القوَّة لا الضَّعف؟

قلتُ: لَمَّا كان موجبَ القلَّة اعتمادُهم على الله، لا على الكثرة، كما في بدرٍ، أوجب أنْ يقاوم واحدٌ عشرةً، ولهذا يُعلَّل بالفقاهة، ولَمَّا كثُرُوا واعتمدوا عليها بعضَ الاعتماد، كما في حنين، خفّف عنهم.[٥٦٠٤]

أو كان في أوَّلِ الأمر لخواصِّ الأصحاب زيادةُ استبصار، حتى لقي حمزة من لقي علي ما مرَّ. فلما اختلط بهم سائر الناس، وفيهم من يحبّ والمال، والولد، وأنَّه يضعف القلب عن مقاومة الكثير، خفّف عنهم.[٥٦٠٥]

واختلف في أنه نسخٌ أو تخفيفٌ. وعن أبي الطيب: «أنَّ الحكم إذا نسخ بعضه أو بعض أوصافه أو غير عدده فجائز أن يقال: أنه نسخ.[٥٦٠٦]

وتقييد التخفيف بـ﴿الْآنَ﴾ ظاهرٌ، لكن في تقييد العلم بالضعف إشكالٌ يوهم ابتغاء العلم بالحادث قبل وقوعه، والدَّفع أن العلم متعلِّقٌ به أبدًا قبل الوقوع بأنه سيقع، وحال الوقوع بأنَّه واقعٌ، وبعده بأنَّه وقع فعلمُه تع صفةٌ قديمةٌ تتجلى المعلومات عند تعلُّقاتها، وتتكثَّر إلى الماضي، والحال، والاستقبال، باختلاف التعلّقات ففي مثل علم الله، ويعلم الله يعتبر التجدَّد والتَّكثر باعتبار حدوث التعلُّق وتكثره، ولا يلزم منه التغيّر في العلم القديم، وكذا القول في قدرته، وكلامه، وسمعه، وبصره، فإن كلًا منها واحدةٌ قديمةٌ، والحدوث والتَّكثر في التَّعلقات والإضافات لاستحالة قيام الحوادث بذاته، ولانعدام دليل علي تكَّثر كلّ منها في نفسها، فالله تعالى عالم بالحوادث قبل الوقوع، وحال الوقوع وبعد الوقوع، وعِلْمُه أزليٌّ شاملٌ ليس بعرَضٍ، ولا مستحيل البقاء ولا ضروريٍّ ولا مكتسب، والضَّعف ضعف الواحد عن مقاومة العشرة والمائة عن مقاومة الألْف وهو البدنيّ.

وقيل: ضعف البصيرة على ما مرَّ.

وقوله: ﴿فَإِنْ يَكُنْ﴾ تفصيلٌ للتَّخفيف، ولَمَّا كان صفةُ الصبر معتبرة فيه، كما أنَّها معتبرة في التَّثقيل صرّح بها ههنا أيضًا ولم يكتف اعتناء بشأنها، فكلّ مسلمٍ بالغٍ مكلَّف وقف بإزاء المشركين عبدًا كان أو حرًّا، فالهزيمة محرمةٌ ما دام معه سلاح، وإن قابله ثلثة حلّت، ولكنَّ الصَّبر أحسنُ. وتكرير معنى ثبات الواحد للاثنين باللإعداد أيضًا للطِّباق.

ولَمَّا ذكر من الدَّلالة مع ما فيه من الإشارة الى ترقِّيهم، ووخامة عاقبة أعدائهم فكم بين العشرين والمائة، وبين المائة والألف واكتفى بالبيان في التثقيل عن البيان ههنا.

[٥٦٠٢] **مجمع البيان** للطبرسي، ١٧٤/١٠.

[٥٦٠٣] **اللباب** لابن عادل، ٥٦٦/٩.

[٥٦٠٤] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٤٨/٧.

[٥٦٠٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٩٥/٤.

[٥٦٠٦] **المحرر الوجيز** لابن عطية، ٥٥٠/٢.

﴿**بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ بأمر الله وتقديره، وتيسيره، وتأييده، وفيه إيذان بأن ما يقع من الغلبة إنما يقع بحول الله وقوّته وإرادته، ونصرته.

﴿**وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ بالنصر والمعونة فاضمحلَّ ما قال الحلوليَّة والاتّحاديَّة وتميَّز عن المعية العامَّة التي أشير إليه بقوله: ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ**﴾ [المجادلة ٧/٥٨] وقوله:[٥٦٠٧] ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ**﴾ [الحديد ٤/٥٧] وتخصيصهم بالذكر مع المعية الخاصّة، وختم الآية به لشدة [**٢٨٢**/و] الاهتمام بالصَّبر؛ ولذلك كرَّره في مواضع؛ تشريفًا لهم؛ وتنبيهًا على مكانهم؛ ودلالةً على أن ولاية الله مختصَّةٌ بهم، فلايليق بغيرهم، وليكون ذلك حثًّا للسامعين على حيازة فضلهم.

﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧)**﴾

ما كان لنَبِيٍ من الأنبياء فلا يكن منك. وقرئ: «للنبيّ»[٥٦٠٨] على العهد، أي: ما كان لهذا النَّبي الكريم، وما صحَّ وما استقام. ﴿**أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى**﴾ جمعُ «أَسِيرٍ»، كـ«أَسَارَى»، لكنَّها أقيسُ منها؛ لأنَّه «فعيل» بمعنى: «مفعول» فجُمع على «فَعلَى» مثل: «جَرِيحٍ» و«جَرحَى»، و«قَتِيلٍ» و«قَتْلَى»، ولكثرة ذلك، واستمراره شبّه به غيرُه ممَّا ليس منه، ولكن لموافقته مثل «مَرْضَى»، و«هَلْكَى»، و«مَوْتَى»، وذلك أنَّ هذه أمور ابْتُلوا بها، وأُدخلوا فيها وهم لها كارهون، فصار لذلك مشَّبهًا به، وإنما قالوا أسارى تشبيهًا لكُسَالَى، كما قالو: «كسلى» على التشبيه بـ«أسرى».

وعن الازهري: هي: جمع الجمع،[٥٦٠٩] وقد يفرق بينهما من جهة المعنى، بأنَّ الأسارى الذى شُدُّوا بالقدِّ، والأسرى الذين أُخذوا ولم يُشَدُّوابعد.

والأسر: الشَّد على المحارب بما يصير بهفي قبضة الأخذ له وفلانٌ مأسورٌ، أي مشدودٌ.[٥٦١٠]

﴿**حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ**﴾ غايةٌ للنَّفي والمنع، أي: لا يجوز إلا بعد تكثير القتل والمبالغة فيه، بحيث يعزُّ الإسلامُ ويستولي أهله ويذلُّ الكفر ويضعف حزبه؛ فإنَّ الإثخان: تغليظ الحال بكثرة القتل، والثخن الغلظ، والكثافة. وقد أثخنه المرض: إذا اشتدَّتْ قوتُه عليه، وأثخنه الجراح: إذا أثبته حتى يثقل عليه الحركة،[٥٦١١] وفي ذكر الأرض والقتل لا يكون إلا فيها الإشارة إلى أنه لا ينبغي له أن يقصد إلى أن يأتيَه العدوُّ بل يمشي في مناكب الأرض، ويسعى لإعلا كلمة الله كما فعل عليه السلام غزا في عشر سنين سبعًا وعشرين غزوةً، وله نيف وخمسون سريَّة، وقال: «لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْت خَلْفَ سَرِيَّةٍ»[٥٦١٢] فالاية كقوله تع: ﴿**فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً**﴾ [محمد ٤/٤٧] في الدلالة على تقديم الإثخان، ثم بعده أخذ الفداء.

﴿**تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا**﴾ حطامها، سمِّي به؛ لأنَّه قليلُ اللُّبث لا ثباتَ له، ومنه استَعارَ المتكلِّمون العَرَض لما لا ثبات له إلا بالجوهر،[٥٦١٣] فانه تطرأ عليه فتزول عنه، وهو بحاله والمراد ما أخذوه من الفداء.

[٥٦٠٧] ج: وهو قوله.

[٥٦٠٨] قراءة شاذَّة. مروية عن أبي الدرداء وأبي حيوة. **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٨/٢؛ **مختصر في شواذّ القرآن**، لابن خالويه، ص ٥٦.

[٥٦٠٩] **تهذيب اللغة** للأزهري، ١٧٦/١٠.

[٥٦١٠] **مجمع البيان** للطبرسي، ١٧٦/١٠.

[٥٦١١] **مجمع البيان** للطبرسي، ١٧٧/١٠.

[٥٦١٢] **صحيح البخاري** كتاب الإيمان ٣٦.

[٥٦١٣] **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٩/٢؛ **المفردات في غريب القران** ص ٣٣٤؛ **فتوح الغيب** للطيب، ١٥٢/٧.

قال القرطبي: النَّبِيُّ لَمْ يَأْمُرْ بِاسْتِبْقَاءِ الرِّجَالِ وَقْتَ الْحَرْبِ، وَلَا أَرَادَ قَطُّ عَرَضَ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا فَعَلَهُ جُمْهُورُ مُبَاشِرِي الْحَرْبِ، فَالتَّوْبِيخُ وَالْعِتَابُ إِنَّمَا كَانَ مُتَوَجِّهًا بِسَبَبِ مَنْ أَشَارَ عَلَى النَّبِيِّ بِأَخْذِ الْفِدْيَةِ. وَجَاءَ ذِكْرُ النَّبِيِّ فِي الْآيَةِ حِينَ لَمْ يَنْهَ عَنْهُ حِينَ رَآهُ مِنَ الْعَرِيشِ وإذ كره[٥٦١٤] سعد بن مُعَاذٍ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، وَلَكِنَّهُ ع م شَغَلَهُ بَغْتُ الْأَمْرِ وَظهور النَّصْرِ فَتَرَكَ النَّهْيَ عَنْ الِاسْتِبْقَاءِ، وَلِذَلِكَ بَكَى هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ حِينَ نَزَلَت.[٥٦١٥]

.وتأويلها عنده: ماكان لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنَّبي أسرى قبل الإثخان، ويمكن أن يقال أيضًا: بأنَّ الغاية تدلُّ على أنَّ الأسرى كان مشروعًا، لكن بشرط سبق الإثخان، ولا شكَّ أنَّ الصَّحابة قتلوا يوم بدرٍ خلقًا عظيمًا، فلعل العتاب إنما يترتَّب؛ لأنَّ الإثخان أمرٌ غيرُ مضبوطٍ، فظنُّوا أنَّ ذلك القدر من القتل بلغ حدَّ الإثخان فأخطأوا في الاجتهاد، وكان قوله: ﴿**فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ**﴾ [الأنفال ١٢/٨] مختصًّا بحالة الحرب فلم يتناول الأسر بعد انهزام الكفَّار.

﴿**وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ**﴾ لكم؛ أي: ثوابها، أو سببَ نيلها من إعزاز دينه وقمع أعدائه.

وقرئ بجرّ «الآخرةِ»،[٥٦١٦] على إضمار المضاف كقوله:

أَكُــلَّ امْــرِئٍ تَحْســبِينَ امْــرَأً   وَنَارٍ تَوَقَّدُ بِاللَّيْلِ نَارًا[٥٦١٧]

أي: «كلَّ نارٍ» والحمل عليه لئلا يلزم من عطف امرءٍ العطف على معمولي عاملين مختلفين، أعني «كُلَّ» و«تحسبين»، فالتقدير: والله يريد عرض الآخرة، وإنَّما جاز للمشاكلة وإلا فثواب الآخرة لايكون عرضًا، أي: حطامًا، ومتاع الدنيا؛ لأنه دائمٌ لا ينقطع لا يقال: دلَّ ذلك على فسادٍ وأنَّ كلَّ ما يكون من العبد فالله يريده؛ لأنَّ هذا الأسر وقع منهم على هذا الوجه، ونصّ الله على أنَّه لا يريده بل يريد منهم ما يؤدي إلى ثواب الآخرة، وهو الطَّاعة؛ لأنَّا نقول: ما أراد هذا أن يكون منهم طاعةً فلا يلزم نفي كونه مراد الوجود.

﴿**وَٱللَّهُ عَزِيزٌ**﴾ يغلِّب أولياءه على أعدائه.[٥٦١٨]﴿**حَكِيمٌ**﴾ يعلم ما يليق بكلِّ حالٍ ويخصُّه بها، كما أمر بالإثخان ومنع عن الاقتداء حين كانت الشوكة للمشركين، وخيَّر بينه وبين المنِّ لَمَّا تحوَّلت الحالُ، وصارت الغلبة للمؤمنين.[٥٦١٩]

وقيل: يُغلِّبُ أولياءَه علىٰ أعدائه، ويَتَمكَّنُونَ منهم قَتْلاً وأَسْراً، ويُطلِقُ لهمُ الفِداء، ولكنَّه ﴿**حَكِيمٌ**﴾ يُؤخِّرُ ذلكَ إلىٰ أن يَكثُروا ويَعِزُّوا، وهم يَعجَلون.[٥٦٢٠] فتأمَّل الفرقَ بين التفسيرين.

وقيل: إن طلبتم الآخرة لم يغلبكم [**٢٨٢**/ظ] عدوُّكم؛ لأنَّ الله عزيز لايقهر، حكيمٌ في تدبير مصالح العالم.[٥٦٢١] والقصَّة مذكورةٌ في التفاسير.

[٥٦١٤] في المطبوع «أنكره».

[٥٦١٥] **الجامع لأحكام** القرآن للقرطبي، ٤٦/٨.

[٥٦١٦] قراءة شاذَّة. **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٩/٢.

[٥٦١٧] **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٩/٢؛ **المفردات في غريب القران** ص ٣٣٤؛ **فتوح الغيب** للطيب، ١٥٣/٧. **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣١/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٩٦/٤.

[٥٦١٨] **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٩/٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣١/١.

[٥٦١٩] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣١/١؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٩٦/٤-٢٩٧.

[٥٦٢٠] **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٩/٢.

قال قدس سره: فخيَّر أصحابَه فأخذوا الفداء، فنزلت.[٥٦٢٢]

ولقائل أن يقول: إن كان هذا التَّخيير بوحي سماويٍّ على ما روي عَنْ عَلِيٍّ عن رَسُولِ اللَّهِ: «إِنَّ جِبْرِيلَ هَبَطَ عَلَيْهِ – عليه السلام– فَقَالَ لَهُ : خَيِّرْهُمْ – يَعْنِي أَصْحَابَكَ – فِي أُسَارَى بَدْرٍ القَتْلَ وَالفِدَاءَ عَلَى أَنْ يُقْتَلَ مِنْهُمْ قَابِلًا مِثْلُهُمْ ، قَالُوا: الفِدَاءَ وَيُقْتَلُ مِنَّا».[٥٦٢٣]

فيخالف ما يدلُّ عليه ظاهر الآية وما صحَّ في الأحاديث من أنَّ أخذ الفداء كان رأيًا رَأَوه، فعُوتبوا عليه وإن كان بخبرٍ سماويٍّ لَمَا عُوتبوا عليه، ولَمَّا ظهر لهم شأن العاقبة بقتل سبعين منهم بعد غزوة أحد عند نزول قوله: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا**﴾ [آل عمران ١٦٥/٣].

فذكر التوربشتي: [٥٦٢٤] تاويلًا حاصله يرجع إلى ضعف الحديث.

وقال الطيبي: لعلَّ الله امتحن النبي وأصحابه بين أمرين: القتل، والفداء، وأنزل جبريل بذلك فاختاروا الثاني عوتبوا عليه؛[٥٦٢٥] لِما «أن حسنات الأبرار سيئات المقربين».[٥٦٢٦]

قال القرطبي: التوبيخ وقع أوّلاً لحرصهم على أخذ الفداء، ثم وقع التَّخيير بعد ذلك. ولعلَّ العقاب إنما يتوجه؛ لأنَّ قضية بدرٍ كانت عظيمةَ الموقع، والتصرُّف في صناديد قريشٍ، وساداتهم وأموالهم بالقتل والاسترقاق والتَّملك؛ ذلك كلُّه عظيمُ الموقع، وكان حقُّهم أن ينتظروا الوحيَ فلا يستعجلوا، فلمَّا استعجلوا ولم ينتظروا توجَّه عليهم ما توجَّه.[٥٦٢٧]

وإن لم يكن بوحيٍ فيكون اجتهادًا ولا يمنع ذلك مشاورته بعضَ أصحابه، وأخْذه برأي أبي بكرٍ؛ فإنَّ مشاورته عليه السلام في كثيرٍ من الأمور المتعلّقة بالحروب وغيرها لا يكون إلا لتقريب الوجوه، وتخمير الرأي؛ إذ لو كان لتطييب قلوبهم، فإنْ لم يعْمل برأيهم كان ذلك إيذاءً واستهزاءً لا تطييبًا وإن عمل فلا شكَّ أنَّ رأيه أقوى، وإذا جاز له العمل برأيهم عند عدم النَّص فرأيه أولى؛ لأنَّه أقوى، ففيه دلالةٌ على وقوعه من الأنبياء، وعلى أنَّه قد يكون خطاء؛ ولذلك قال عليه السلام: «مَا نَجَا مِنْهُ غيرُ عمر رضي الله عنه، وسعد بن معاذٍ، لقوله:كان الإثخان في القتل أحبَّ إليَّ».[٥٦٢٨]

وعلى أنه لا يقررون عليه وقد أجمعوا عليه، لكن مع ذلك الوحي الظَّاهر أولى؛ لأنَّه أعلى، ولأنه لا يحتمل الخطاء لا ابتداءً ولا بقاءً، والباطن لا يحتمل بقاءً، يعني: الوحي في الباطن وهو القياس يحتمل الخطاء في حال الابتداء، لكن لا يحتمل القرار على الخطاء، فهذا هو المراد بالبقاء، والوحي الظاهر لا يحتمل أصلًا لا ابتداءً ولا بقاءً، فكان أقوى.

[٥٦٢١] **اللباب** لابن عادل، ٥٧٠/٩.

[٥٦٢٢] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣١/١.

[٥٦٢٣] **سنن الترمذي**، ١٣٥/٤ (١٥٦٧).

[٥٦٢٤] هو: فضل الله بن الحسن التوربشتي تاج الدين والملة أبو عبد الله

[٥٦٢٥] **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق: جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ٢٠٠١/١٣٢٢، ٤٨٣/٧.

[٥٦٢٦] **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٩٧/٧.

[٥٦٢٧] **الجامع لأحكام** القرآن للقرطبي، ٧٥/١٠–٧٦.

[٥٦٢٨] **جامع البيان** للطبري، ٧١/١٤؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٣٧٧/٣.

وعن بعض العارفين: أخبرالله عن سرِّ فطرة النفس[٥٦٢٩] الأمَّارة التى من جبلَّتها أن تميل فى أكثر الأوقات إلى شهواتها، وكذلك ميلان النفس، لا ميلان القلب.

أخبر عن الخطرات دون الوطرات، وحاشا أنهم يريدون عرض الدنيا، ولا يريدون مشاهدة الحقِّ، ولقاء الآخرة لكن ما سامحهم الله فى حرمان تلك الخواطر لقدس أسرارهم، وطهارة نيَّاتهم فى معرفته وخدمته، ألا ترى كيف حذَّر نبيّه مع جلالته عن النَّظر إلى عرض الدُّنيا بقوله: ﴿**وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا**﴾ [الكهف ٢٨ /١٨]، أى: تريدون الرَّفاهية فى المجاهدة من قبيل النَّفس خاطرًا، وأنا أريد بكم كشف مشاهدة الآخرة، ووصولكم الى مقام القربة.[٥٦٣٠]

﴿**لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨)**﴾

﴿**كِتَابٌ**﴾ رفعٌ بالابتداء ﴿**مِنَ اللَّهِ سَبَقَ**﴾ صفتان، والخبر محذوفٌ، أي: تداركَكم. ولك أن تجعل ﴿**مِنَ اللَّهِ**﴾ من صلة ﴿**سَبَقَ**﴾، وسبق: حالًا من الذكر الَّذي في الظَّرف على أن يكون ﴿**مِنَ اللَّهِ**﴾ صفة لـ﴿**كِتَابٌ**﴾، ولا يجوز أن يكون ﴿**سَبَقَ**﴾ خبر المبتدأ؛ لأنَّ الاسم المبتدأ الواقع بعد لولا الامتناعيَّة لا يظهر خبره لطول الكلام ، ولدلالة الحال.[٥٦٣١]

أي: لولا حكم وقضاء سبق إثباته في اللَّوح، وهو أن لايعاقب المخطئ في اجتهاده؛ فإنَّهم نظروا إلى أنَّ استبقائهم ربَّما كان سببًا لإسلامهم وتوبتهم، وأنَّ فدائهم يُتَقَوَّى به على الجهاد في سبيل الله، وخَفِيَ عليهم أنَّ قتلهم أعزُّ للاسلام،وأَهيب لمن وراءهم، وأذلُّ لشوكتهم.[٥٦٣٢]

أو أن لا يعذب أهلَ بدرٍ على ما يدلُّ قوله ع م لعُمَرَ في أهل بدرٍ : «ومايدريك لعلَّ الله اطَّلع على أهل بدرٍ، فقال: اعملُوا ما شِئْتم فقد غَفَرْتُ لَكُمْ»،[٥٦٣٣] واعترض بأنَّه يوجب عدم التَّكليف، ومن ههنا خصَّ هذا الوجه.

وقيل: على أصل السنة، لولا حكم في الأزل بالعفو عن هذا الواقعة، وعلى أصل الاعتزال لولا حكم فيه أنَّ من احترز عن الكبائر يغفر له الصغائر، و أجيب بأنَّ عدم العقاب على الذَّنب لا يوجبه، فلعلَّ التكليفَ لأجل زيادة الثواب.

أو قومًا بما لم يصرح لهم بالنَّهي عنه. قيل: عليه إن لم يرد على المنع دليلٌ شرعيٌّ أو عقليٌّ لم يحصل المنع، فاذا كان الإذن حاصلًا فكيف تَرتَّب العقاب، ويمكن أن يقال: يكفي في ترتيبه مجرد عدم الإذن لعظم شأنهم، وعظم الحادثة وقد حقّق من قبيل، أو أن الفدية[٥٦٣٤] التي أخذوها يستحلّ لهم.[٥٦٣٥] وفيه أنَّ التَّحليل [**٢٨٣**/و] إن كان[٥٦٣٦] في الوقت امتنع إنزال العذاب، وإلَّا كان حرامًا فيه وكونه بحيث تصريفه بعد ذلك حلالًا لا يوجب التَّخفيف، وإلَّا امتنع إنزال العذاب بسببه، فلا يخوف بسببه.

[٥٦٢٩] ج: نفس.

[٥٦٣٠] **عرائس البيان** للبقلي، ٥٣٨/١.

[٥٦٣١] **الفريد** للهمذاني، ٢٢٩/٣.

[٥٦٣٢] **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٩/٢.

[٥٦٣٣] **صحيح مسلم**، ٥٩/٤ (٣٠٠٧).

[٥٦٣٤] ج: العقوبة.

[٥٦٣٥] **الكشاف** للزمخشري، ٢٢٩/٢.

[٥٦٣٦] ج + حاصلًا.

قال ابن العربي: دلَّت عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا اقْتَحَمَ مَا يَعْتَقِدُهُ حَرَامًا مما هُوَ فِي عِلْمِه تعالى حَلَالٌ إِنَّهُ لَا عُقُوبَةَ عَلَيْهِ، كَالصَّائِمِ إِذَا قَالَ: هَذَا يَوْمُ نَوْبتِي فَأُفْطر الْآنَ، وتقول المرأة: هَذَا يَوْمُ حَيْضِي فَأفطر، فَفَعَلَا ذَلِكَ وَكَانت النَّوْبَة وَالْحَيْض الْمُوجِبَانِ لِلفِطْرِ، فمفَشْهُور الْمَذْهَب أن فِيهِ الْكَفَّارَة، وهو قَول الشَّافِعِي.

وقال أبُو حنيفة: لا وجه الأوَّل أنَّ طريان الإباحة لا يثبت عذرًا عند عقوبة التَّحْرِيمِ عند الهتكِ، كما لَوْ وَطِىءَ امرأة ثمَّ نكحها.

ووجه قول أبي حنيفةَ: أنَّ حرمة اليوم ساقطة عند الله، فصادف الهتْك محلًّا لا حرمةَ له في عِلْمِ الله، كما لو قصد وطئ امرأةٍ زُفَّت إليه، وهو يعتقدُ أنَّها ليست بزوجةٍ له، فإذا هي زوجته.[٥٦٣٧]

والتَّحقيق: أنَّ العتاب واقع على ترك الأولى الذي هو الإثخان، فإنَّ التَّحريم، أي: تحريم الفداء مستفادٌ من هذه الآية، فقيل: نزولها لا تحريم، وبهذا يضمحلُّ أيضًا تمسّك الطَّاعنين بعصمة الأنبياء.

﴿**لَمَسَّكُمْ**﴾ جواب الشَّرط، والمسُّ: إصابة يتأثَّر منه البشرة ﴿**فِيمَآ أَخَذْتُمْ**﴾ بسبب ما أخذتم من الفداء؛ لإنَّهم أخذوه قبل أن يؤذن لهم ﴿**عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ استُدل به بأنَّ المجتهد المخطئ مخطئٌ ابتداءً وانتهاءً؛ لأنَّه لو كان صوابًا من وجهٍ لَما استحقوا باتِّباعه العذاب العظيم لوجود الامتثال في الجملة.

وأجيب بأنَّ العزيمة في حكم الأسارى القتلُ أو المنُّ، وقد رخَّص النَّبي في الفداء أيضًا، فالمعنى: لولا سبق الحكم بإباحة الفداء والرُّخصة فيه لَمسَّكم العذاب في ترك العزيمة، فوجوب العذاب معلَّق بعدم سبق الكتاب، لكن المعلَّق عليه غير واقعٍ لتحقيق سبق الكتاب، ولا يتحقَّق وجوب العذاب، ومن هذا الجواب يظهر التزام ما لم يلزم في التَّحقيق الذي ذكرت، ولكن فيه نظرٌ بالنَّظر إلى كونه جوابًا عن الاستدلال؛ لأنَّ لولا لانتفاء الشَّيء لوجوده غيره فيدلُّ على أنَّ انتفاء العذاب على الخطأ في الجتهاد إنما كان بوجود سبق الكتاب بإباحة الفداء حتَّى لو لم يتحقَّق ذلك لَكان الخطأُ موجبًا لاستحقاق العذاب، وهذا يدلُّ على كونه خطأً من كلِّ وجهٍ، وعدم وقوع العذاب لا ينافيه؛ لأنَّه مبنيٌّ على وجود المانع وهو سبق الكتاب.

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩)﴾

من الفدية على ما يقتضيه السياق؛ وهي من جملة الغنائم, وقيل: امسكوا عن الغنائم فنزلت.

وقال ابن الكمال: «وفي عموم ﴿**مَاغَنِمْتُمْ**﴾ تدخل الفدية، فإذا كان تقدير الكلام: أحللت لكم الغنائم، ﴿**فَكُلُوا**﴾ على أنَّ الفاء للتَّسبب، وحُذِف السببُ، لا يكون فيه متمسَّكٌ لمن زعم أنَّ الأمر الوارد بعد الحظر للإباحة».[٥٦٣٨]

وأنت خبيرٌ بانَّ هذا التقدير غيرُ متعيّن، فأنَّه إنّما يقدّر إذا أريد الغنائم مطلقًا، وأمّا إذا أريد الفدية فيقدَّر ما يلائم ذلك،[٥٦٣٩] فإذا يكون فيه متمسَّك للزاعم.

وقيل: كان الله كتب في[٥٦٤٠] الكتاب أنَّ الغنائم والأسارى حلالٌ لأمَّة محمدٍ، فأخذوا قبل أن ينزل في ذلك شيءٌ، فلمَّا نزلت الآية امسكو عن الغنائم ولم يمدُّوا أيديهم[٥٦٤١] إليها، فنزلت.

[٥٦٣٧] **الجامع لأحكام** القرآن للقرطبي، ٧٩/١٠؛ **اللباب** لابن عادل، ٥٧٢/٩-٥٧٣.

[٥٦٣٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٩٩/٤.

[٥٦٣٩] ج – ذلك.

[٥٦٤٠] ج + أمّ.

و﴿مَا﴾ مصدريةٌ وهو في معنى المفعول، أو موصولةٌ فالعائد محذوفٌ.

﴿حَلَٰلًا﴾ حالٌ من المغنوم، أو صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، أي: أكلًا حلالًا، وفائدته: إزالة ما وقع في نفوسهم بسبب العتاب، ولذلك وصفَه بقوله: ﴿طَيِّبًا﴾ لبيان أنَّه لاتبعةَ فيه، فإنَّ الحلال له قد يكون مكروهًا، فاذا وُصِفَ بالطّيبِ لايبقى هذا الاحتمال، وأمَّا الإباحة فلا تجامعه الكراهة، فالمباح أخصُّ من الحلال، ومن ههنا تَبَيَّن أنَّ حقَّ المقدر أن يكون: أحللْتُ، دون: أبحْتُ.

وجُوِّزَ أن تكون الفائدة ما وقع في نفوسهم بسبب حرمة الغنائم على الأولين. وردَّه ابن الكمال: بأنَّه بعد ما رخَّص فيها وخيَّر بين القتل والفداء لا وجه لأنْ يبقى في نفوسهم احتمال الحرمة، خصوصًا بعد ما أقدموا على أخذ الفداء وعملوا بموجب الرُّخصة.[٥٦٤٢]

وأنت خبيرٌ بأنّ ما ذكره مبنيٌّ على إرادة الفداء، وأمّا على إرادة الغنائم، فلما وقع في نفوسهم وجهٌ، **وللشارح المرحوم**[٥٦٤٣] مطالعة أخرى، وهي: أنَّ عبارة الأوَّلين بفتح اللام إشارةٌ إلى الاستخراجين المذكورين في كلام المجوِّز عند قوله: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ وذلك أنَّ أخذ الفداء على تقدير ابتنائه على الخطأ في الاجتهاد، وعلى تقدير كونه حرامًا في حكم الله،[٥٦٤٤] وإن لم يصرّح بالنَّهي عنه تكون الآية دالَّة على حرمة أخذ الفداء يرشدك إلى هذا ما ذكر في التحقيق المذكور هنالك ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الايتمار بأوامره، والانتهاء عن نواهيه سيَّما في الإقدام على ما لم يُعهد اليكم فيه حكمٌ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ غفر لكم ذنبَكم ﴿رَّحِيمٞ﴾ أباح لكم ما أخذتم. ولايخفى لطفُ موقعهذا الكلام وحسنُ انطباقه لمقتضى المقام، فان في الأمر بالاتقاء ما يسبق إلى الأوهام من بقاء [**٢٨٣**/ظ] التَّبعة وشيءٍ من الآثام فيما صدَر عنهم من الإقدام والالتزام.[٥٦٤٥]

وقيل: إنه متَّصل بقوله: ﴿فَكُلُواْ﴾ من حيث إنَّه كالعلة له، أي: اتَّقوه ولا تقدموا بعد ذلك على مثل صنيعكم، واعلموا أنه قد غفر ما سبق.

وقيل: معناه: أنَّكم إذا اتقيتموه بعد ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل أن يؤذن لكم فيه، غَفَر لكم، ورَحِمكم وتاب عليكم.

وقيل: إنه سَتورٌ لما مضى منكم من الذُّنوب محَّاء له، مُنْعِم عليكم برضوانه والجنَّة اذا اتقيتموه وأطعتموه.

وعن بعض العارفين: أمرَ الله سبحانه بأكل الحلال الطيِّب، الذى يتوَلَّد من كسب الحلال مثل الجهاد، وذلك أنَّ لقمة الحلال معجونة بنظر لطفه، تُقَوِّى أبدان الصديقين، وقلوب المقرَّبين، وأرواح المحبِّين ولا يتولَّد منه إلا ماكان فيها معجونًا، وهو لطف الباري سبحانه، وهيجه إلى طهارة القلب من الوسواس؛ لأنَّ الحرام ميراث الشياطين، وهم يتَّبعون ميراثهم، ويطلبون عوضه حال الصادق وإيمانه.

[٥٦٤١] ج – أيديهم.

[٥٦٤٢] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٩٩/٤.

[٥٦٤٣] هو: محمد محيي الدين بن مصطفى مصلح الدين القوجوي شيخ زاده (٩٥١هـ).

[٥٦٤٤] **حاشية محيي الدين شيخ زاده**، ٤١٩/٤.

[٥٦٤٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٢٩٩/٤-٣٠٠.

وقيل: «الحلال»: ما لا يُعصى الله فيه، و«الطَّيب»: ما لا يُنسى الله فيه.

وقيل:[٥٦٤٦] ما أخذتَه عن ضرورة، و«الطَّيِّب»: من الحلال ما آثرتَ فيه مع الحاجة والفاقة.[٥٦٤٧]

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠)﴾

في ملكتكم، كأنَّ أيديكم قابضةٌ عليهم. وقرأ أبو عمرو: ﴿**مِنَ الْأُسَارَى**﴾[٥٦٤٨] لما أخذ الفداء منهم وشقَّ عليهم ذكر ذلك استمالةً لهم ترغيبًا في الإسلام.

وقيل: نزلت في العباس، وكان فداء كلِّ أسيرٍ كان أربعين أوقيةً، وفداؤه ضعف ذلك وكلَّفه أن يفديَ ابنَي أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فأدّىٰ عنهما ثمانين أوقيةً، وعن نفسه ثمانين، وأخذ منه عشرون أوقيةً وقت الحرب. وذلك أَنَّهُ كَانَ أَحَدَ الْعَشَرَةِ الَّذِينَ ضَمِنُوا الإِطْعَامَ لِأَهْلِ بَدْرٍ، فَبَلَغَتِ النَّوْبَةُ إِلَيْهِ يَوْمَ بَدْرٍ فَاقْتَتَلُوا قَبْلَ أَنْ يُطْعِمَ، وَبَقِيَتِ الْعِشْرُونَ مَعَهُ فَأُخِذَتْ مِنْهُ وَقْتَ الحَرْبِ، فَأُخِذَ مِنْهُ مِائَةُ أُوقِيَّةٍ وَثَمَانُونَ أُوقِيَّةً. فَقَالَ لِرسول الله: لَقَدْ تَرَكْتَنِي أَسْأَلُ قُرَيْشًا بِكَفِّي. فَقَالَ عَلَيْهِ السَلام: «أَيْنَ الذَّهَبُ الَّذِي تَرَكْتَهُ عِنْدَ امْرَأَتِكَ أُمِّ الْفَضْلِ»؟ فَقَالَ الْعَبَّاسُ: أَيُّ ذَهَبٍ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَلام: «إِنَّكَ قُلْتَ لَهَا لَا أَدْرِي مَا يُصِيبُنِي فِي وَجْهِي هَذَا، فَإِنْ حَدَثَ بِي حَدَثٌ فَهُوَ لَك وَلِوَلَدِكِ» فَقَالَ: يَا بْنَ أَخِي، مَنْ أَخْبَرَكَ بِهَذَا؟! قَالَ: «أَخْبَرَنِي اللَّهُ». قَالَ الْعَبَّاسُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ صَادِقٌ، وَمَا عَلِمْتُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَمْ يُطْلِعْكَ عَلَيْهِ إِلَّا عَالِمُ السَّرَائِرِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَكَفَرْتُ بِمَا سِوَاهُ. وَأَمَرَ ابْنَيْ أَخيهِ فَأَسْلَمَا.[٥٦٤٩]

﴿**إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا**﴾ إنْ يعلم الإيمان والإخلاص والتَّصديق فيها موجودًا كما علمه قبل وجوده أنَّه يوجد ويقرب منه ما قيل: إن تعلَّق علمه بذلك، أو أن يقع فيه خير؛ لأنَّ علمه تعالى لازمٌ له ودالٌّ عليه فذكر العلم وأريد المعلوم.

وقيل: إنَّ «إنْ» للمعاني المحتملة المشكوكة، وأنها إنما تستعمل فيما يترجَّح، ثم الإحتمال بالنَّظر إلى حال الشئ في نفسه، وفرض الكلام مقول،[٥٦٥٠] على لسان من يجوز عليه الشكُّ والتَّردُّد، وأمّا بالنظر إلى علم الله فليس إلا الجزم بالوقوع أو اللاالوقوع فاضمحلَّ الإستدلال بها على أنه تعالى لا يعلم الجزئيات إلا عند وقوعها.

﴿**يُؤْتِكُمْ خَيْرًا**﴾ جواب الشرط ﴿**مِمَّا أُخِذَ مِنكُمْ**﴾ من الفداء: إمَّا بأن يُخلِفكم في الدُّنيا أضعافَه، أويُثيبَكم في الآخرة، أو يؤتكم خيرًا منه في الدارين. وقرئ: «يُثِبْكُمْ خَيرًا».[٥٦٥١] أو ﴿**مِمَّا أَخَذَ مِنكُمْ**﴾ على البناء للفاعل.

وروي أنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَراحِ لَمَّا جاء بِمَالِ البَحْرَيْنِ، وكان أكثر ما جيء به رسول الله، فَلَمَّا انْصَرَفَ من صَلَاةِ الصُّبْحِ تَعَرَّضَ لَهُ الأَنْصَارُ، فلمَّا رَآهُمْ تَبَسَّمَ، وَقَالَ: أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ بِمجيء أَبِي عُبَيْدَةَ، فقَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فقَالَ: أَبْشِرُوا وَاللَّهِ لا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تُبْسطَ عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُو فيهَا، ثم جاء فجلس فلم يقم، وهناك منه درهمٌ فجاء به العباس فقال: يا رسول الله مُرْ أحدًا يحمله معي، فقال: لا، فقال: فاحمله أنت قال فنثر منه شيئًا، ثم

[٥٦٤٦] ج + الحلال.

[٥٦٤٧] **عرائس البيان** للبقلي، ٥٣٩/١.

[٥٦٤٨] **السبع** لابن مجاهد، ص ٣٠٨؛ **التيسير** للداني، ص ٣٦٩؛ **النشر** لابن الجزري، ٢٠٨/٢.

[٥٦٤٩] **الجامع لأحكام** القرآن للقرطبي، ٥٢/٨-٥٣.

[٥٦٥٠] ج: معقولًا.

[٥٦٥١] قراءة شاذَّة. مروية عن الأعمش. **الكشاف** للزمخشري، ٢٣٠/٢؛ **مختصر في شواذّ القرآن**، لابن خالويه، ص ٥٦.

قام؛ لِيحمله فلم يقدر، قال: يا رسول الله مرْ أحدًا معي يحمله فقال: لا، فقال: فاحمله أنت، قال: فنشر منه شيئًا ثم قام ليحمله فلم يقدر، قال: يا رسول الله مُرْ أحدًا معي يحمله قال: لا، قال: فاحمله أنت فنشر منه ذهب يحتمله فاتبعه رسول الله بصيرة تعجَّباً من حرصه.[٥٦٥٢]

فَقَالَ الْعَبَّاسُ: هَذَا خَيْرٌ مِمَّا أُخِذَ مِنِّي، وَأَنَا بَعْدُ أَرْجُو أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، وَأَعْطَانِي زَمْزَمَ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا جَمِيعَ أَمْوَالِ أَهْلِ مَكَّةَ.

وعنه أَنَّهُ قَالَ: فِيَّ نَزَلَتْ حِينَ أَعْلَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ بِإِسْلَامِي، وَسَأَلْتُهُ أَنْ يُحَاسِبَنِي بِالْعِشْرِينَ أُوقِيَّةً الَّتِي أُخِذَتْ مِنِّي قَبْلَ الْمُفَادَاةِ فَأَبَى، فقال: ذلك فَيْئٌ فَأَبْدَلَنِي اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ عِشْرِينَ عَبْدًا كُلُّهُمْ تَاجِرَ بِمَالِي.[٥٦٥٣] وكان أدناهم يضرب في عشرين ألفًا.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما سلف، وقيل: الإيتاء: المنافع العاجلة، والغفران: [**٢٨٤**/و] الآجلة، أو الإيتاء: الإثابة والغفران الإزالة.

﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ**﴾ لانهاية لمغفرته ﴿**رَحِيمٌ**﴾ لاغاية لرحمته. ﴿**غَفُورٌ**﴾ لمن تاب من كفره ومعاصيه وآمن، ﴿**رَحِيمٌ**﴾ بأهل طاعته.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾

يعني: إن يريد الذين في أيديكم من الأسرى ﴿**خِيَانَتَكَ**﴾ نقضَ ما عاهدوك عليه مِنَ الإسلام، والرِّدةَ واستحبابَ دينهم آبائهم.

وهي مصدر خَانَهُ في كذا يخونه خِيَانَةً وخَوْنًا ومخانة، فقلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها، ووقوع الألفِ بعدها.[٥٦٥٤]

﴿**فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ**﴾ بالكفر ونقضِ ميثاقه المأخوذ بالعقل.[٥٦٥٥]

وذلك: لَمَّا أُسِر مَنْ أُسِرَ من المشركين تكلَّم قومٌ منهم بالإسلام، ولم يُمْضُوا فيه عزيمةً، ولا اعترفوا اعترافًا جازمًا، ويشبه أنَّهم أرادوا أن يقرُبُوا من المسلمين، ولا يبعُدُوا من المشركين. وقد بيَّن اللهُ لرسوله الحقيقةَ، وذكر أنَّه إنْ كان هذا القولُ منهم خيرًا ويعلَمُه اللهُ فيَقبَل منهم ذلك، ويعوِّضهم خيرًا مِمَّا خرج عنهم، ويغفرُ لهم ما تقدَّم مِنْ كفرهم وخيانتهم ومكرهم، وإن كان هذا القول منهم خيانةً ومكرًا ولا يعد منهم ذلك؛ إذ قد خانوا الله من قبل، فوضع عليه الجزاء موضعه.

وقد قال العلماء: إن تكلَّم الكافر بالإيمان في قلبه وبلسانه، ولم يُمْض فيه عزيمة لم يكن مؤمنًا، وإذا وُجد مثلُ ذلك من المؤمن كان كافرًا، إلَّا ما كان من الوسوسة التي لايقدر على دفعها، فإن الله قد عفى عنها وأسقطها.[٥٦٥٦]

﴿**فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ**﴾ فأمكنَكَ منهم؛ كما فعل يوم بدرٍ جزاءً لخيانتهم الأولى. يقال: مكَّنتُهُ من الشيء وأمكنتُه منه، فتمكّن منه واستمكن.[٥٦٥٧]

[٥٦٥٢] **مسند أحمد**، ٣٢٧/٤؛ **صحيح البخاري**: ٣١٩/٧ (٤٠١٥).

[٥٦٥٣] **الجامع لأحكام القران** للقرطبي، ٥٣/٨.

[٥٦٥٤] **الفريد** للهمذاني، ٢٣٠/٣.

[٥٦٥٥] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٣/١.

[٥٦٥٦] **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٥٥/٨.

[٥٦٥٧] **أساس البلاغة** للزمخشري، ٢٢٣/٢.؛ **فتوح الغيب** للطيبي، ١٥٦/٧.

وحذف المفعول الأول؛ لأنَّ المقصود القدرة على الخائنين لا تعيينَ من مكَّن فقدر عليهم. ففي هذا الحركة:[٥٦٥٨] معنى قولهم: «إنْ تُكْرِمْنِي الآن فَقَدْ أكْرَمْتُكَ أمْسِ»، وهو متضمِّنٌ للتوبيخ والوعيد من حيث أفاده أن دَيْدَنهم الخيانة والنَّقض، وأنك ستمكَّن منهم إن أعادوها ثانيًا كما مكَّنك أوَّلًا، ونحوه قوله: ﴿**عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا**﴾ [الإسراء ٨/١٧].

فهذه الآية قرينةٌ للآية السابقة، والتحقيق: قل: للأسارى إن أردتم الإخلاص في الإيمان، وصحَّتْ نيَّاتُكم فيه، فالله لايضيع حقَّكم في الدنيا والآخرة، وإن أردتم الأخرى- وهي دأبكم وعادتكم — فالله قادرٌ على أن يُمْكِنَ منكم، فوضع الخيانةَ موضع عدم الإخلاص في الإيمان، تهجينًا لدأبهم، وإيذانًا بأنَّ الإيمان هو الأمانةُ التي استودعه الله في بني آدم ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ**﴾ [الأحزاب ٨٢/٣٣] الآيةَ.[٥٦٥٩]

وقيل: المراد من الخيانة منع ما ضمنوا من الفداء.[٥٦٦٠]

﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ**﴾ بكلِّ شيءٍ من سِرِّهم وعلَنهم وخفيِّهم وجليِّهم وغير ذلك؛ إذ ما من شيء ظهر ويظهر وما من شد الخفاء والغيبوبة إلا وقد علمه الله وأحاطه وأثبته في اللوح المبين، ولذلك قالوا قاطبةً: إنّ الكائنات مظهرما في لوح المحفوظ.

﴿**حَكِيمٌ**﴾ باهر الحكمة وهي العلم بالأشياء على ما هي عليه، والإتيان بالأفعال على ما ينبغي، ويجوز أن يكون بمعنى محكم من الأحكام وهو إتيان[٥٦٦١] التدبير وإحسان التقدير.

وَعَنْ بُرَيْدَةَ عَنْ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ، إلا كَانَ الْقَتْلُ بَيْنَهُمْ، وَلا ظَهَرَتْ الفَاحِشَة[٥٦٦٢] فِي قَوْمٍ، إلا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ، وَلا مَنَعَ قَوْمٌ الزَّكَاةَ، إلا حَبَسَ اللَّهُ عَنْهُمُ الْقَطْرَ»،[٥٦٦٣] رواه الحاكم. وقال صحيح على شرط مسلم.

وعن صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ، عَنْ عِدَّة أَبْنَاءٍ من أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ عَنْ آبَائِهِمْ أَنَّ رَسُول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، وأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»،[٥٦٦٤] رواه أبو داود.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢)﴾

أي: ﴿**آمَنُوا**﴾ بكلِّ ما يجب الإيمان به من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإنقياد لجميع التكاليف، وفارقوا أوطانهم وقومهم حبًا لله ولرسوله من الهجر ضدَّ الوصل، والمراد المهاجرون ﴿**وَجَاهَدُوا**﴾ بتحمُّل المشاقِّ في قتال أعداء الذين من جهده الأمر جهدًا ﴿**بِأَمْوَالِهِمْ**﴾؛ لأنهم إذا فارقوا الديارَ ضاعت مساكنُهم ومزارعُهم وضياعتُهم، وبقيت

[٥٦٥٨] ج: الجزاء.

[٥٦٥٩] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٥٦/٧.

[٥٦٦٠] **اللباب** لابن عادل، ٥٧٦/٩.

[٥٦٦١] ج: اتقان.

[٥٦٦٢] ج: فاحشة.

[٥٦٦٣] **السنن الكبرى**، ٤٨٣/٣ (٦٣٩٧)؛ **المستدرك** للحاكم، ١٣٦/٢ (٢٥٧٧).

[٥٦٦٤] **سنن أبي داود**، ٦٥٨/٤ (٣٠٥٢).

في أيدي الأعداء، واحتاجوا إلى الإنفاق في تلك العزيمة وفي الغزوات والمحاربات ﴿**وَأَنْفُسِهِمْ**﴾ بالإقدام على القتال سيَّما في يوم بدرٍ من غير آلةٍ ولا عدَّةٍ، والأعداء في غاية الكثرة[٥٦٦٥] والشدة، وذلك يدلّ على أنَّهم أزالوا أطماعهم عن الحياة، وبذلوا أرواحهم ﴿**فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ من أجله وسببه يريد سبيل الدين إشعارًا بأنَّ تلك الأعمال الفائقة السنيّة جاءت منهم عن خلوص الإعتقاد، وصدق النيّة، وصحَّة الدِّين، وكانوا أوَّل الناس إقدامًا عليها، والتزامًا لها، ولهذه السابقة أثرٌ قويٌّ في تقوية الدِّين ﴿**لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا**﴾ [**٢٨٤**/ظ] [الحديد ١٠/٥٧]، وذلك أنّ غيرهم يقتدي بهم ويقوي دواعيهم بما يرون منهم والمحن يخف على القلوب بالمشاركة؛ ولأنَّ المهاجرين لهم سابقة قدمٍ في الإسلام، ولذلك ذكر الله الأنصار بعدهم فقال: ﴿**وَالَّذِينَ آوَوْا**﴾ المهاجرين إلى ديارهم وأنزلوهم فيها.

والإيواء: ضمُّ الإنسان غيره إليه بإنزاله عنده وتقريبه له، يقال: آواه يُؤوِيه إيوَاءً، وأَوَى يَأْوِي أُوِيًّا، وآويت معناه: رجعت إلى المأوى.[٥٦٦٦]

﴿**وَنَصَرُوا**﴾ ونصروهم على أعدائهم وبذلوا المهج في نصرتهم[٥٦٦٧]

﴿**أُوْلَئِكَ**﴾ أي: المهاجرون والأنصار وهو مبتدأ ﴿**بَعْضُهُمْ**﴾ مبتدأ ثانٍ، خبره: ﴿**أَوْلِيَاء بَعْضٍ**﴾ والجملة خبر ﴿**أُوْلَئِكَ**﴾، والجملة الكبرى خبر ﴿**إِنّ**﴾ جعلهم الله طائفةً واحدةً، وأوجب على كلِّ واحدٍ منهم موالاة الأخر، ومواساته ومواخاته؛ فلذلك كان عليه السلام أخًا بين المهاجرين والأنصار، فجعل لكلِّ مهاجريٍ أخًا أنصاريًا، فجروا على ذلك حتى تشاطروا المهاجرين أموالهم ودُورَهم، ويكون لرجلٍ من الأنصار امرأتان فيعرضهما على أخيه المهاجر على أن ينزل له عن أيّهما شاء، وكان التوارث في الإبتداء بهذه المواخاة دون القرابة إذا لم يكن معها هجرة حتى نسخ بقوله: ﴿**وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ**﴾ [الأنفال ٧٥/٨].

وقيل: ﴿**بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ**﴾ في النصرة والمظاهرة، فإنَّ «أولياء» جمع «وليٍّ» نحو: «صديق» و«أصدقاء» ضدُّ العدوِ، يقال: منه تولّاه ويجيء بمعنى الناصر، وكلُّ واحدٍ منهما مناسبٌ؛ لأنَّ كلًا من الفريقين صديق الآخر يعظِّمه، ويهتمُّ شأنه، ويخصّه بمعاونته ومظاهرته، ورجّح ذلك بظهور اللَّفظ فيه، وبعده عن معنى الوراثة وتقدم لزوم النسخ حينئذٍ، ومنع دعوى الإجماع في الحمل على الولاية في الميراث، وردّ بأنَّ الولاية المثبتة من الولاية المنفية في الثَّانية وهي ليست بمعنى النصرة والقرب لوجوب الموالات في الدين والإيجاب النُّصرة بقوله: ﴿**فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ**﴾ فتعيَّن أن يكون ههنا بمعنى الإرث، وأجيب: بأنَّا لو حملناها على التعظيم لَزال الإشكال وحصل التغاير؛ لأنَّ أهلَ الإيمان قد ينصر بعض أهل الذِّمَّة في بعض الأحوال مع أنَّهم لا يوالونهم بمعنى الإجلال والتَّعظيم ولذا قد ينصر المولى عبدَه ولا يعظم.

﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾

«في ذكر ﴿**آمَنُوا**﴾ ههنا دون الثاني؛ لأنَّ قوله: ﴿**آوَوْا**﴾ يغني عنه، بخلاف قوله: ﴿**وَلَمْ يُهَاجِرُوا**﴾ بل يُوهِم خلافَه ﴿**مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ**﴾ أي: من تولّيهم في الميراث.

[٥٦٦٥] ج: الكثر.

[٥٦٦٦] **مجمع البيان** للطبرسي، ١٨٢/١٠.

[٥٦٦٧] **مجمع البيان** للطبرسي، ١٨٣/١٠.

وقرئ: ﴿وِلاَيَتِهِمْ﴾ بالكسر؛[٥٦٦٨] تشبيهًا له بالعمل والصِّناعة، كأنَّه بتولِّيه صاحبه يزاول عملًا».[٥٦٦٩] فإنَّ المصدر الذي يجيء على فعالةٍ بالكسر إنَّما يكون في الصَّناعات، وما يكون بمزاولة العمل، كالكتابة والزِّراعة والخياطة والحراثة والتِّجارة والقصارة، والصِّناعة،[٥٦٧٠] ونحوها.

وعن الجوهريِّ: الوِلايةُ بالكسر: السُّلطان، وبالفَتْح: النُّصْرة، وعن سِيبَوَيْهِ: بالفتح: المصدر، وبالكسر: السُّلطان.[٥٦٧١]

وقيل: هما لغتان. ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ غاية للنّفي، وإزالة لوهم سقوط الولاية عنهم مطلقًا؛ لما لم يهاجروا معه عليه السلام.

قيل: إنَّ الهجرة انقطعت بعد فتح مكة؛ لأنَّها دار السلام بعده لقوله عليه السلام: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ».[٥٦٧٢]

وعن الحسن: لا انقطاع مجيبًا بأنَّ المراد المخصوصة من مكَّة إلى المدينة، وأمّا من كان من المؤمنين في بلدٍ يخاف على إظهار دينه من كثرة الكفّار وجب عليه أن يهاجر إلى بلدٍ لايخاف فيه عليه.

وعن خباب بن الأرت قال: «هَاجَرْنَا مع رَسولِ اللهِ، نَبْتَغِي وَجْهَ اللهِ، فَوَقع أَجْرُنَا علَى اللهِ، فَمَضَى مَن مَضَى لَمْ يَأْكُلْ مِن أَجْرِهِ شيئًا، منهمْ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ، قُتِلَ يَومَ أُحُدٍ، فَلَمْ يُوجَدْ ما يُكَفَّنُ فيه إلَّا نَمِرَةٌ، فَكُنَّا إذَا غطَّينا رَأْسَه خَرَجَتْ رِجْلَاهُ، وإذَا غطَّينا رِجْلَيْهِ، خَرَجَ رَأْسُهُ، فَقالَ عليه السلام: غُطّوا بها رَأْسَهُ، وَاجْعَلُوا علَى رِجْلَيْهِ من الإذْخِرِ، وَمِنَّا مَن أَيْنَعَتْ ثَمَرَتُهُ، فَهْوَ يَهْدِبُهَا.[٥٦٧٣]

يقال: أَيْنَعَ التمر يُونِعُ إيناعًا يَنَعَ يَيْنَعُ يَنَعًا ويُنُوعًا فهو مونعٌ يانِعٌ، أي: أَدْرَكَ ونَضِجَ وأَيْنَعَ أكثر استعمالًا،[٥٦٧٤] وهَدَبَهَا يَهْدِبُهَا هَدَبًا، أي: اجتناها،[٥٦٧٥] أي: منَّا من وقع أجره على الله دون أن يأكل من أجره شيئًا وهو الغنيمة؛ لأنَّه استشهد في سبيل الله، ومنَّا من رجع سالما غانمًا. والنَّمِرة: كلُّ شَمْلَةٍ مخطَّطة من مآزر الأَعْرَاب، كأنَّها أُخذت من لونِ النَّمِرِ لما فيه من السواد والبياض.[٥٦٧٦]

﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ﴾ أي: طلب الذين لم يهاجروا من أرض الحرب النَّصر والإعانة منكم بنفيرٍ أو مالٍ ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾فيجب عليكم أن تنصروهم على المشركين، «وهو مبتدأ وخبر، أو فعل وفاعل عند الأخفش، ولفظ «عَلَى» تُشعرُ بالوُجُوبِ»[٥٦٧٧]، وهذا دفع لما يتوهَّم من نفي الولاية من أن تكون النصرة منفيَّةً أيضًا.

[٥٦٦٨] قراءة شاذَّة. **الكشاف** للزمخشري، ٢٣٠/٢.

[٥٦٦٩] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣٠٢/٤.

[٥٦٧٠] ج: والصياغة.

[٥٦٧١] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٥٧/٧.

[٥٦٧٢] **صحيح البخاري**، ٢٣/٤ (٢٨٢٥).

[٥٦٧٣] **صحيح البخاري**، ٦٣/٥ (٣٩١٤).

[٥٦٧٤] **لسان العرب** لابن منظور، «أينع».

[٥٦٧٥] **لسان العرب** لابن منظور، «هدب».

[٥٦٧٦] **لسان العرب** لابن منظور، «نَمِرَ».

[٥٦٧٧] **اللباب** لابن عادل، ٥٧٩/٩.

﴿إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ عهدٌ، فإنه لا يجوز أن يُنقض عهدهم بنصرهم عليهم.[٥٦٧٨]

والاستثناء مفرَّغ، أي: على أعدائهم كلّها إلا على قوم شأنهم هذا. [**٢٨٥**/و].

وقد قيل: إنَّه منسوخ بآية السيف.

وعن **ابن العربي**: إلا أن يكونوا مستضعَفين فإنَّ الولاية معهم قائمةٌ، والنصرة لهم واجبةٌ، والعناية لهم لازمةٌ، حتى لا تبقى منها عينٌ تَطرِفُ حتى تخرج إلى استنقاذهم إن كان عددُنا يحتمل ذلك، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم، حتى لا يبقى لأحدٍ درهمٌ كذلك. قال مالكٌ وجميع العلماء: فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، على ما حلّ بالخلق في تركهم إخوانَهم في أَسْر العدوِّ وبأيديهم خزائن الأموال، وفُضولُ الأحوال.[٥٦٧٩]

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ من موالاة من يجب له ويتركها لمن لا يجوز له. فهو تحذيرٌ عن تعدِّي حدِّ الشرع فيها وفي تركها.

وقيل: عالمٌ بأعمالكم ودرجاتها، فيجازيكم على حسبها. وقرئ: بالياء[٥٦٨٠] ردًّا إلى ما قبله من الغيبة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣)﴾

ذكر قسم ليس له ما يوجب شيئًا من أسباب الفضيلة بعد ذكر من لهم الفضل التَّام من المهاجرين والأنصار، ثُمَّ من حكمهم متوسّط بين الإجلال والإذلال،[٥٦٨١] فالترتيب في غاية الحسن.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ يتولى بعضهم بعضًا في الميراث، أو المؤازرة. ظاهره إثبات الموالاة والمؤازرة بينهم كإثباتها بين المؤمنين، ومعناه: نهيُ المسلمين عن ذلك، وإيجاب مباعدتهم ومصارمتهم، وإن كانوا أقارب، وإن يُتركوا[٥٦٨٢] يتوارثون بعضهم بعضًا.[٥٦٨٣]

وذلك لأنَّ في تعليق الحكم بالوصف دلالةٌ بيّنةٌ على أنَّ موالاة أهل الكفر إنما يليق بالكفرة، فعلى المسلمين أن لايوالوا إلَّا المسلمين.

وقال **القرطبيّ**: قالَ عُلَمَاؤُنَا فِي الْكَافِرَةِ يَكُونُ لَهَا الْأَخُ الْمُسْلِمُ: لَا يُزَوِّجُهَا، إِذْ لَا وِلَايَةَ بَيْنَهُمَا، وَيُزَوِّجُهَا أَهْلُ مِلَّتِهَا. فَكَمَا لَا يُزَوِّجُ الْمُسْلِمَةَ إِلَّا مُسْلِمٌ، وكذا الْكَافِرَةُ لَا يُزَوِّجُهَا إِلَّا كَافِرٌ قَرِيبٌ لَهَا، أَوْ أُسْقُفٌ، وَلَوْ مِنْ مُسْلِمٍ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ مُعْتَقَة، وإِنْ عَقَدَ عَلَى غَيْرِ مُعْتَقَةٍ فُسِخَ إِنْ كَانَ لِمُسْلِمٍ، وَلَا يَعْرِضُ لِلنَّصْرَانِيِّ وَقَالَ أَصْبَغُ: لَا يُفْسَخُ، عَقْدُ الْمُسْلِمِ أَوْلَى وَأَفْضَلُ.[٥٦٨٤]

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ «إِلَّا» كلمتان «إِنْ» التي للشَّرط، و«لَا» التي هي للنفي. وحذفت النون من آخر الفعل؛ للجزم بالشَّرط، والضَّمير بمنزلة اسم الإشارة الذي يشار به إلى جميع ما ذكر ممَّا يدلُّ على الأمر والنَّهي، وهو قوله: ﴿**بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ**

[٥٦٧٨] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣٠٣/٤.

[٥٦٧٩] **أحكام القرآن** لابن العربي، ٤٤٠/٢؛ **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي، ٨٧/١٠.

[٥٦٨٠] قراءة شاذَّة. مرويّة عن السُّلمي والحسن والأعرج. **الكشاف** للزمخشري، ٢٣٠/٢؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٨.

[٥٦٨١] ج: الإذلال والإجلال

[٥٦٨٢] ج- وإن يُتركوا.

[٥٦٨٣] **الكشاف** للزمخشري، ٢٣٢/٢.

[٥٦٨٤] **الجامع لأحكامالقرآن** للقرطبي، ٥٧/٨.

﴿بَعْضٍ﴾ بعد ذكر المؤمنين وذكر الكافرين، أي: إن لم تمتثلوا ما أمرتم به، ولا تنتهوا عما نهيتم عنه من تواصل المسلمين وتولي بعضهم بعضًا حتى في التوراة تفضلًا لنسبة الإسلام على نسبة القرابة، وموالاة الكافرين وموارثتهم.

وقيل: إن لا تفعلوا ما أمرتم به من تواصل المسلمين وقطع العلائق من الكافرين فتأمّل الفرقَ.

﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ﴾ تحصل فتنةٌ عظيمةٌ اكتفى بالتنكير في توصيفها بالتكبير؛ للتنبيه على أنه لا يفي به التعبير ﴿فِي الأَرضِ﴾ أي: عليها وهي ضعفُ الإسلام وقوَّةُ الكفر.[٥٦٨٥]

﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ في الدين؛ ولعلَّ القصد إلى تقييد الفتنة بكونها فيها، والفساد بكونه كبيرًا، أو الاكتفاء بما ذكر في أحدهما عمَّا يُذكَر في الآخر.

وقيل: الفتنة قوَّة الكفر والفساد ضعف الإسلام، وذلك أنَّ المراد ظهور الإسلام وأهله واضمحلال الباطل واستيصال أهله كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال ٧/٨] والمسلمون إن لم يفعلوا ما أمروا به ولم يصيروا يدًا واحدةً على الشِّرك لم يكمل سعيهم فيما يرجع إلى عمارة الدِّين ونصرة الحقّ وظهور مراد الله. وكان الشِّرك ظاهرًا، وهو من المفسدة، والمحنة، والشِّدة، بحيث لا يخفى.

وقيل: الفتنة الحرب والغارات والجلاء والأسر. وقرئ: «كثيرًا» بالثاء.[٥٦٨٦]

وذكر الترمذيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مسلمٍ عن هُرْمُزَ ، عَنْ مُحَمَّدٍ وَسَعِيدٍ ، ابْنَيْ عُبَيْدٍ ، عَنْ أَبِي حَاتِمٍ المزَنِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كبيرٌ ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ؟ قَالَ: إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ».[٥٦٨٧]

وقيل: الضمير يعود على حفظ العهد والمثاق الذي تضمَّنه قوله: ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [الأنفال ٧٢/٨]، هذا وإن لم يفعل فهو الفتنة نفسها.

وقيل: يعود على النَّصر للمسلمين في الدِّين جعل للمهاجرين والأنصار أهل ولايته، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض، ثم قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ وهو أن يتولى الكافر دون المؤمن تكن فتنة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤)﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)﴾

حذف بأموالهم وأنفسهم اكتفاءً بما ذكر قبلها وقدّم ذكرهما ههنا؛ لأنَّ في هذه السُّورة تقدّم ذكر المال، والفداء، والغنيمة، في قوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ [الأنفال ٦٧/٨] وفي قوله: ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ [الأنفال ٦٨/٨] وفي قوله:

[٥٦٨٥] **تفسير ابن كمال باشا**، ٣٠٤/٤.

[٥٦٨٦] قراءة شاذَّة. مرويّة عن عيس بن سليمان الحجازي عن الكسائي. **مختصر في شواذّ القرآن**، لابن خالويه، ص ٥٦؛ **الكشاف** للزمخشري، ٢٣٢/٢؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٨.

[٥٦٨٧] **سنن الترمذي** ، ٣٨٧/٣ (١٠٨٥).

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ [الأنفال ٦٩/٨] وأخّر [**٢٨٥**/ظ] في براءة لما تقدَّم ذكر الجهاد في سبيل الله نحو قوله: ﴿**وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ**﴾ [آل عمران ١٤٢/٣]، وقوله: ﴿**وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا**﴾ تقدَّم بيانه ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا**﴾ إيمانًا حقًّا، أو حقَّ ذلك حقًّا على أنَّه صفة مصدرٍ أو مصدر مؤكّد للجملة.

لَمَّا قسم المؤمنين ثلاثةَ أقسام بيَّن أنَّ الكاملين في الإيمان، منهم هم الذين حقَّقوا إيمانهم بتحصيل مقتضاه؛ من الهجرة والجهاد وبذلِ المال ونصرة الحقّ، ووعد لهم الموعدَ الكريم مخصوصًا بهم وبمن لحقهم على ما دلَّ عليه تقديمُ الجارّ والمجرور حيث قال: ﴿**لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ أي: مغفرةٌ عظيمةٌ ونوعٌ من الرزق لا تَبِعَة ولا منَّة فيه.[٥٦٨٨]

وقيل: لهم تجاوزٌ وعفوٌ عن آثامهم وسيئاتهم، ونعيمُ الجنة، يعني: لهم منافع حسنةٌ دائمةٌ على سبيل التعظيم، وهذا هو معنى الثواب؛ فالآية الأولى لحكم ما بينهم، وهذه لشرف حالهم وحسن مآلهم.

وقيل: صفاتهم الجليلة إنما جِيئَت بها أوَّلًا، وعُقِّب بقوله: ﴿**أُولئِكَ**﴾ ليؤذِن بأنَّهم السابقون في الدين الفائزون بالقِدْح الْمُعَلَّى فيه، فلا يُشَقُّ غُبارهم، فهم لذلك أحرِيَاءُ بأن يكونوا إخوانًا، وأنْ لا يُؤْثِر بعضُهم نفسَه بالمزايا الدُنيويَّة على أخيه، وأُعيدت ثانيًا لتُعَلَّق به ما لهم عندَ الله من المراتب السَنيَّة، والفوز بالرِّضوان والمقامات العَليَّة، فح[٥٦٨٩] خيرَ الدارين بتَيْنِك الخُلَّتَيْن.[٥٦٩٠]

وأنت خبير بأن فيهم سبقهم، وفوزهم ظاهرٌ من الثَّانية دون الأوَّل، وأنَّ التعليق في الثَّانية ليس مخصوصًا بما لهم مآلًا، بل شاملٌ لوصفهم حالًا، وفيه دلالة إلى أن هذه السَّعادات العالية إنما حصلت لهم لتركهم اللَّذات الحسِّية، وتنبيهٌ على أنه لا طريقَ إلى تحصيلها إلا بالإعراض عنها.

وقيل:كان المهاجرون على طبقاتٍ، منهم: من هاجر قبل الحديبية، ومنهم من هاجر بعدها وقبل الفتح، وهي الثانية، ومنهم ذو الهجرتين[٥٦٩١] هاجروا إلى الحبشة وإلى المدينة، فالمراد من الأولى: الأولى، ومن الثانية: الثانية.

وأنت خبيرٌ بأنَّ المدح والثناء غالب في الثانية من الأولى فكيف تحسن تلك الإرادة على أنَّ التوجيه بذلك لا يتم لقوله: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ**﴾ بعد الحديبية، أو بعد يوم بدرٍ، أو بعد الهجرة الأولى ﴿**وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ**﴾ يريد بهم اللاحقين بعد السَّابقين إلى الهجرة كقوله: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ**﴾ [الحشر ٥٩/ ١٠].[٥٦٩٢]

﴿**فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ**﴾ أيها المهاجرون والأنصار ألحق اللَّاحقين بالسابقين لاتِّسامهم بسِميتهم في شرف الحال وحسن المآل؛ تفضُّلًا منه وترغيبًا لهم وتكريمًا، ففيه شأن السابقين، ولولا كونهم لما حسن الإلحاق.

وعن بعض العارفين: «جهاد النَّفس فى هجرانها، وهجرانها نزعها عن المألوفات، وإجراؤها على سبيل الله بإسقاط العلائق من المألوف والأهل، وأيضًا فارقوا قرناء السوء، والأعمال القبيحة، والدعاوي الباطلة، و أيضًا آمنوا ببذل القلوب لله،

[٥٦٨٨] **أنوار التنزيل**، للبيضاوي، ٣٤/٢؛ **تفسير ابن كمال باشا**، ٣٠٤/٤.

[٥٦٨٩] «**فجمع**» في المطبوع. انظر: **فتوح الغيب** للطيبي، ١٥٩/٧.

[٥٦٩٠] **فتوح الغيب** للطيبي، ١٥٩/٧.

[٥٦٩١] ج: هجرتين.

[٥٦٩٢] **الكشاف** للزمخشري، ٢٣٢/٢.

وهاجروا ببذل الأملاك لله،[٥٦٩٣] وجاهدوا ببذل الروح لله في سبيل الله، فمن بذل قلبه لمحبّته وبذل ملكه لرضاه، وبذل نفسه وروحه لإعزاز دينه كان محبًا حقيقة، ومن كان محبًّا حقيقة كان مؤمنًا حقًّا».[٥٦٩٤]

﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

أي: ذووا القرابات، وهو مبتدأ ﴿**بَعْضُهُمْ**﴾ مبتدأ ثانٍ ﴿**أَوْلَى**﴾ خبره، والجملة خبر الأوّل ﴿**بِبَعْضٍ**﴾ متعلِّق بـ﴿**أَوْلَى**﴾ أي: أحقّ وأجدَر بالتوارث من الأجانب، ففيه نسخٌ؛ للتوارث بالهجرة والنصرة، ومن فسَّر الولاية هناك بالنّصرة والمحبّة جعل هذا الكلام إزالة وهم من يجعلها هناك بمعنى الإرث وبيانًا أنَّ ولاية الإرث إنّما تحصل بسبب القرابة، وأنَّ تلك الولاية مخالفة للولاية بسبب الإرث ﴿**فِي كِتَابِ ٱللَّهِ**﴾ من صلة ﴿**أَوْلَى**﴾ أي: في حكمه وقضائه، أو في اللّوح المحفوظ، كقوله: ﴿**إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا**﴾ [الحديد ٢٢/٥٧]، أو في القرآن وهو آية الموارث، الباقون توريث ذوي الأرحام، احتجّوا بأنه تع ذكر في آية المواريث نصيب ذوي الفروض، والعصبات، ولم يذكر لذوي الأرحام شيئًا، ولو كان لهم حقٌّ لَبيّنه ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**﴾ [مريم ٦٤/١٩].

وأجابوا عن دلالة الآية بأنَّها مجملةٌ جامعةٌ، وآياتُ المواريث مفسّرة، والمفسّر قاضٍ على الْمُجْمَل، ومبيَّن، وهذا أولى من جوابهم بان قوله: ﴿**بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ**﴾ دالٌّ على حصول الأولويّة، لكنَّها قيّدت بقوله: ﴿**فِي كِتَابِ ٱللَّهِ**﴾ ومعناه: في الأحكام التي تثبت في كتابه، وتلك الأحكام ليست إلّا ميراث أصحاب الفرائض، والعصبات؛ لأنَّ هذا إيمانهم إذا كان المراد منه القرآن، وقد عرفت تعدَّد ما فسّر به، والمثبّتون احتجّوا بها عليه، لآنَّ معناه: بعضهم أولى بميراث بعضٍ فيما كتب الله وحكم به؛ لأنَّها يستحبّ التوريث بالموالاة، كما كان في ابتداء قدومه عليه السلام المدينة، فما كان لمولى الموالاة، والمواخاة في ذلك الزّمان صار مصروفًا إلى ذوي الأرحام، وما بقي عندهم من إرث مولى الموالاة صار متأخّرًا عن إرث [**٢٨٦**/و] ذوي الأرحام على ما نبَّه عليه في موضعه، وقد شرع الله لهم الميراث بلا فصل بين ذي رحمٍ له فرض وتعصيب، وبين ذي الرحم ليس له شئٌ منهما، فيكون ثابتًا للكلّ بهذه الآية، ولا يجب تفضّلهم كلُّهم في آيات المواريث، وقالوا: ذو الرحم معناه: ذو القرابة في اللغة، وفي الشّريعة كلُّ قريبٍ ليس بذي سهمٍ ولا عصبة، وهم أربعة أصنافٍ: صنف: ينسب إلى الميّت، كأولاد البنات، وأولاد بنات الابن، ثمَّ أولاد هؤلاء من كان أقرب منهم إلى الميّت فهو أولى، وصنف: ينسب إليه الميّت وهو السّاقط من الأجداد، والجدَّات، كأب أم الميّت، وأمّ أب أمّه إلى ما لا يتناهى، وكان أولاهم أقربهم، وصنف: ينسب إلى أبوي الميّت، كأولاد الأخوات لآبٍ وأمٍّ، أو لأبٍ، أو لأمٍّ، وأولاد الإخوة والأخوات لأمٍّ، ثمَّ أولاد هؤلاء، وصنَّف: ينسب إلى جدي الميّت، كالأخوال، والخالات، والعمّات، والأعمام لأمٍّ و بنات الأعمام لأبٍ وأمٍّ، أو لأبٍ، ثمَّ أولاد هؤلاء، وفي كِلا الصِّنفين، أيضًا من كان أقرب إلى الميّت فهو أولى، فالصنف الأوَّل أولى من الثاني، ثمَّ الثالث، ثمَّ الرابع.[٥٦٩٥]

وقد كان جمهور الصحابة، كعمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عبَّاس، وأبي عبيدة، ومعاذٍ، وأبي الدرداء، وغيرهم يرون توريث ذوي الأرحام، وإليه ذهب علقمة، وإبرهيم، وابن سيرين، ومجاهدٌ وعطاء، وشريخ، وقال: زيد ابن ثابت، وابن عباس في رواية شاذّة «لاميراث لذوي الأرحام، ويضع المال في بيت المال، وإليه ذهب ابن المسيّب وابن جبيرٍ، وبه قال مالك والشافعي رحمهما الله [**١٣٩**/ظ].[٥٦٩٦]

[٥٦٩٣] ج + سقط.

[٥٦٩٤] **عرائس البيان** للبقلي، ٥٤٠/١.

[٥٦٩٥] **بحر العلوم** للسمرقندي، مكتبة سليمانية، أسد أفندي: ٦٧، ٢٠٧و.

[٥٦٩٦] رقم الصفحة من نسخة بيازيد؛ إذ نسخة جار الله نقصان قدر نصف صحيفة أكملت من نسخة بيازيد.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قال قدس سرّه: «من الموارث والحكمة في إناطتها بنسبة الإسلام والمظاهرة، أوّلًا واعتبار القرابة ثانيًا».[5697]

وقال السمرقندي: هذا جيّد لولا فيه الإشارة إلى التخصيص، وقد أجمعوا على أنّه من العام الذي لا يخصّه شيء كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة ٢/٢٠] وليت شعري ما منعه من إيراد كلمة أخرى يحصل بها الشمول، وأنت خبير بأنَّ مراده ليس تخصيص علم الله بالأمرين اللذين ذكرهما، بل تخصيص من العامّ الذي يدلّ عليه كلمة ﴿كُلِّ﴾ ما هو المقصود بالنَّظر إلى الساق والتفسير إلا سلم ما قال ذالك القائل: عالم بذوي الأرحام، والفروض، والعصبات، وغيرها، فلا تضيّعوا حقّ كل ذي حقٍّ، واعلموا بما حكم الله وقَسَمَ في كتابه الكريم، ولا تنبذوه وراءَ ظهوركم، ولا تتّبعوا الهوى، اعلم أنَّ كلّ أمّة من الأمَمِ قبلنا ما ضلّت إلّا بنبذ الكتاب وراء ظهورهم، واتّباع ضلاَّل آبائهم، وفسّاق علماء دهورهم، ومن ثمَّة أوصى بالتَّمسك بالكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: عند موته، فقال: «تركت فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي».[5698]وقال ع م: «إذا رُوِيَ لَكُمْ عنّي حديثٌ فاعْرِضُوهُ عَلَى كِتَابِ اللهِ، فَمَا وافَقَ فاقبَلوهُ، وما خالَفَ فرُدُّوه».[5699] وكان لعُمَر كتبٌ إلى العمّال فلها حِكَمٌ كثيرة، فلمّا بلغه اشتغال الناس بها جَمعها ومَحاها، وقال: خفت أن أشغلكم بها عن كتاب الله، ثم في العموم تكذيب للفلاسفة وأضرابهم؛ لأنّه نصٌّ قطعيٌّ فيه عموم علمه تع.[5700]

> وعن بعض العارفين: بيّن سبحانه أنَّ ميراث الأولياء والصدّيقين من العلوم الغيبيّة، والحكَم الغربية، والأنباء العجيبة، وبيان المكاشفات والمشاهدات، وأسرار الجذبات، وأحكام المواجيد إلى المريدين الصّادقين، والطّالبين الموقّنين، والقاصدين المودين، والمحبّين، والمستغرقين فى أنوار الأذكار، والطيّارين من المشتاقين بأجنحة الأفكار؛ لأنَّهم فى محاضر الولايات خرجوا برسم الأرواح جميعًا من معادن الأفراح، وظهروا من أرحام العدم بتجلّي القِدم، ومَن كان منهم من أهل الدعاوي والمترسّمين، لم يصل إليه ميراث بَلَابل بساتين الملكوت، وعناديل رياض الجبروت. ولا يعرف ألحان تلك الأطيار إلا طيرٍ يطير بجناح الرِّسالة والمحبّة، والنّبوة، والولاية ألا ترى كيف وصف الله خليفة ملكه سليمان عليه السلام، حيث نشر فضائل ما منَّ الله عليه، بقوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل ٢٧/١٦] من نُسب إليهم بطريق من هذه الطرق، فهو نسبهم فى الولاية، وله منهم ميراث علوم الحقيقة، وأنَّ الله بيَّن فى كتابه الأزلي، بقوله : ﴿فِي كِتَابِ ٱللَّهِ﴾ قُسِّمت أرباب هذه المواريث. قال عليه السلام فى هذه الإشارة: «اَلْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»،[5701] ورثوا علمهم بقدر حواصلهم وفهومهم وأحوالهم، وسرعة سيرهم فى الملكوت، واقتباسهم أنوار الجبروت، أولئك هم إلهيُّون، ورثوا نعيم مشاهدته، وهم فيها خالدون، ثم أثنى على نفسه بأنه كان عالما فى الأزل باختياره هؤلاء الصدّيقين بهذه الكرامات، محيطًا بعلمه على اصطلاحهم بعد إيجاده إيّاهم بوصف قبولهم ، بقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الدخان ٤٤/٣٢]، وبقوله فى تمام السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.[5702]

[5697] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٤/٢.

[5698] **المستدرك على الصحيحين** للحاكم، ٤٦٣٦.

[5699] **الفوائد المجموعة** ص ٢٩١.

[5700] **بحر العلوم** للسمرقندي، أسد أفندي، ٢٠٧و.

[5701] **سنن أبو داود**، ٤٨٥/٥ (٣٦٤١)؛ **سنن الترمذي**، ٤١٤/٤ (٢٦٨٢)؛ **سنن ابن ماجه**، ٨١/١ (٢٢٣).

[5702] **عرائس البيان** للبقلي، ٥٤٠/١-٥٤١.

وعنه عليه السلام: «مَنْ قرأ سُورةَ الأنفالِ وبَراءة، فأنا شفيعٌ له يومَ القيامة، وشاهِدٌ أنه بريءٌ مِنَ النِّفاق، وأُعطِيَ عَشْرَ حَسَناتٍ بعَدَدِ كُلِّ مُنافِقٍ ومُنافِقة، وكانَ العرشُ وحَمَلتُه يَستَغفِرُونَ له أيامَ حياتِهِ».[٥٧٠٣]

والحمد لله على ختم سورة الأنفال، ونسأله أن يحوّل حالنا إلى أحسن الأحوال، ونستعين به في فتح سورة التَّوبة ونطلب منه الأَوْبة إليه من كلّ حوبة.

[٥٧٠٣] **الكشاف** للزمخشري، ٢/٢٣٢.

المصادر والمراجع

▪ **البدور الزاهرة الانتصاف بحاشية الكشاف؛**

عبد الفتاح القاضي (١٣٢٥/١٤٠٣)

تحقيق: أحمد عنية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص ١٠١.

▪ **الانتصاف بحاشية الكشاف؛**

لابن المنيّر أبو العباس ناصر الدين أحمد بن محمد بن منصور الجزامي الجروي الإسكندري.

مكتبة سليمانية، نسخة حمدية:١٦٦

▪ **الايضاح في شرح الإصلاح في الفقه الحنفي؛ لابن كمال باشا؛**

شمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا (٩٤٠هـ / ١٥٣٤م).

تحقيق: عبد الله داود خلف المحمدي ومحمود شمس الدين أمير الخزاعي، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٢٧هـ/٢٠٠٧م

▪ **اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر؛**

شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطي، البناء (ت.١١١٧هـ/١٧٠٥م).

تحقيق: أنس مهرة، دار الكتب العلميّة، لبنان ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

▪ **أحكام القرآن؛**

محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي (٥٤٣هـ - ١١٤٩م).

تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ١٤٢٤هـ /٢٠٠٣م.

▪ **إحياء علوم الدين؛**

محمد بن محمد الغزالي (أبو حامد) (٥٠٥هـ - ١١١٢م).

دار المعرفة، بيروت، د.ت.

▪ **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم؛**

شيخ الإسلام أبو السعود محمد بن العمادي (٩٨٢هـ - ١٥٧٤م).

تحقيق: مجموعة من المحقّقين، دار الرياحين، ٢٠٢١.

▪ **أساس البلاغة؛**

جار الله الزمخشري (٥٣٨هـ -١١٤٤م).

دار صادر، بيروت ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م.

▪ **إعراب القراءات الشواذ؛**

عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري المعروف بأبي البقاء (٦١٦هـ - ١٢٢٠م).

تحقيق: محمد السيد أحمد عزوز، عالم الكتب، بيروت — لبنان١٤١٧هـ -١٩٩٦.

▪ **الأعلام؛**

خير الدين بن محمود الزركلي (١٣٩٦هـ -١٩٧٦).

دار العلم للملايين، د.م، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

▪ **أنوار التنزيل وأسرار التأويل؛**

ناصر الدين الشيرازي البيضاوي (٦٨٥هـ - ١٢٨٧م).

تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

▪ **بحر العلوم؛**

علاء الدين علي بن يحيى السمرقندي (٨٦٠هـ-١٤٥٦م).،

مكتبة سليمانية، نسخة أسد أفندي، مرقمة: ٦٧.

▪ **البحر المحيط في التفسير؛**

محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين (٧٤٥هـ -١٣٤٥م).

تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمود معوض، دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان ١٤١٣هـ /١٩٩٣م.

▪ **تاج العروس من جواهر القاموس؛**

محمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي (١٢٠٥هـ -١٧٩١م).

تحقيق: جماعة من المختصين، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت ١٣٨٥هـ /١٤٢٢م =١٩٦٥هـ/٢٠٠١م.

▪ **التأويلات النجمية في التفسير الإشاري الصوفي؛**

أحمد بن عمر بن محمد نجم الدين الكبرى، (ت. ٦١٨هـ -١٢٢١م).

تحقيق: أحمد فريد المزيادي، دار الكتاب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م، ٢/٢٦٦-٢٦٧.

■ **التبيان في إعراب القرآن؛**

عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري المعروف بأبي البقاء (٦١٦هـ - ١٢٢٠م).

تحقيق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، د.م.ت.

■ **تتمة جامع الأصول في أحاديث الرسول؛**

مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (٦٠٦هـ).

تحقيق: بشير محمد عيون، دار الفكر، د.ت

■ **تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري؛**

جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي (٧٦٢هـ - ١٣٦١م).

تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة، الرياض ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

■ **تفسير ابن كمال باشا؛**

شمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا (٩٤٠هـ / ١٥٣٤م).

تحقيق: ماهر أديب حبوش، مكتبة الإرشاد، إسطنبول- تركيا ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.

■ **تفسير السمرقندي؛**

نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي المعروف بأبي الليث (٣٧٣هـ -٩٨٤م).

د. ن. م. ت.

■ **تفسير الألوسي؛**

شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (١٢٧٠هـ -١٨٥٤م).

تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

■ **التفسير البسيط؛**

علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري (٤٦٨هـ -١٠٧٦م).

عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٣٠هـ /٢٠٠٩م.

▪ **تفسير الراغب الأصفهاني؛**

أبو القاسم الحسين بن محمد المفضّل، الراغب الأصفهاني (ت: بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي)

تحقيق من الآية ١١٤ من سورة النساء – وحتى آخر سورة المائدة: هند بنت محمد بن زاهد سردار،كلية الدعوة وأصول الدين – جامعة أم القرى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١م.

▪ **تفسير القرماني؛**

أحمد بن محمود الأصمّ القرماني اللارندي، (٩٧١هـ/١٥٦٤م)

مكتبة سليمانية، نسخة قيلج علي باشا: (٥٤).

▪ **تفسير القرآن العظيم؛**

عبد الرحمن بن محمد الرازي ابن أبي حاتم (٣٢٧هـ -٩٣٩م).

تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية ١٤١٩هـ /١٩٩٩م.

▪ **تفسير القرآن؛**

إسماعيل بن عمر بن كثير (٧٤٧هـ -١٣٤٧م).

تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، د.م،١٤٢٠هـ /١٩٩٩م.

▪ **تفسير مقاتل ابن سليمان؛**

أبو الحسن مقاتل ابن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (١٥٠هـ).

تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت ١٤٢٣هـ.

▪ **تفسير النسفي؛**

عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (٧١٠هـ -١٣١١م).

تحقيق: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت ١٤١٩هـ /١٩٩٨م.

▪ **التقريب في التفسير؛**

محمد بن مسعود بن محمود بن أبي الفتح السيرافي (كان حيًا سنة ٧١٢هـ -١٣١٣م).

تحقيق: عبد الرحمن بن سند بن راشد الرحيلي، د.ط.م.ت.

▪ **تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة؛**

نور الدين، علي بن محمد بن علي بن عبد الرحمن ابن عراق الكناني (المتوفى: ٩٦٣هـ).

تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف , عبد الله محمد الصديق الغماري الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ.

▪ **تهذيب اللغة؛**

محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي (٣٧٠هـ –٩٨١م).

تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٢٢هـ/٢٠٠١.

▪ **التيسير في التفسير؛**

أبو حفص النسفي نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي (٥٣٧هـ–١١٤٢م).

تحقيق: ماهر أديب حبّوش، دار اللباب، إسطنبول– تركيا ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.

▪ **التيسير في القراءات السبع؛**

عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (٤٤٤هـ – ١٠٥٣م).

تحقيق: خلف محمود الشغدلي، دار لأندلس، المملكة العربية السعودية ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.

▪ **جامع البيان عن تأويل آي القرآن؛**

محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ – ٩٢٣م).

دار التربية والتراث – مكة المكرمة، د.ت.

▪ **الجامع لأحكام القرآن؛**

محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ –٩٢٣م).

دار التربية والتراث، مكة المكرمة، د.ت.

▪ **حاشية الشهاب؛**

شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي (١٠٦٩هـ –١٦٥٩م).

دار صادر، بيروت، د.ت.

▪ **حاشية القونوي على تفسير الإمام البيضاوي؛**

عصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي (١١٩٥هـ – ١٧٨١م).

تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، د.ت.

▪ **حاشية التفتزاني على تفسير الكشاف؛**

سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، (ت. ٧٩٢ هـ –١٣٩٠ م).

تحقيق: محمد فاضل جيلاني، مركز جيلاني، للبحوث العلمية والطبع والنشر، إسطنبول، الطبعة الاولى، ١٤٤٣هـ/٢٠٢١م، ٦٠٦/٣.

▪ **حاشية الكشافللتفتزاني؛**

سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، (ت. ٧٩٢ هـ –١٣٩٠ م).

مخطوطة، مكتبة سليمانية، نسخة: يوسف آغا، مرقمة (٧٢).

▪ **حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي؛**

محيي الدين محمد بن مصلح الدين مصطفى، شيخزاده، (ت. ٩٥١هـ/١٥٤٣م).

دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

▪ **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب؛**

عبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٩٣هـ –١٦٨٢م).

تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

▪ **خزانة الأدب وغاية الأرب؛**

تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي،

تحقيق: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى ،١٩٨٧م، ٣٩٩/٢.

▪ **الخصائص؛**

عثمان بن جني الموصلي (٣٩٢هـ –١٠٠٢م).

الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.م.ت.

▪ **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين؛**

أبو العباس شهاب الدين أحمد أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، السمين الحلبي (ت. ٧٥٦هـ – ١٣٥٥م).

تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

▪ **دلائل الإعجاز في علم المعاني؛**

أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الجرجاني (ت. ٤٧١هـ - ١٠٧٨-١٠٧٩م).

تحقيق: ياسين الأيوبي الناشر: المكتبة العصرية- الدار النموذجية الطبعة، د.ت.

▪ **ديوان أبي زيد الطائي؛**

حرملة بن المنذر (٦٢هـ - ٦٨٢م).

تحقيق: نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف، بغداد ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

▪ **ديوان الأعشى؛**

ميمون بن قيس (٧هـ -٦٢٩م).

تحقيق: محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، د.م.ت.

▪ **ديوان الحطيئة برواية وشرح؛**

ابن السكيت يعقوب بن إسحاق البغدادي النحوي، (٢٤٤هـ/ ٨٥٨م).

دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م

▪ **ديوان العباس بن الاحنف؛**

العباس بن الأحنف (١٩٣هـ -٨٠٩م).

مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

▪ **ديوان العجاج.**

عبد الله بن رؤبة (نحو ٩٠هـ - ٧٠٨م).

تحقيق: عبد الحفيظ السطلي، مكتبة أطلس، دمشق، د. ن.

▪ **ديوان المتنبي؛**

أبو الطيب المتنبي (٣٥٤هـ -٩٦٥م).

دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م.

▪ **ديوان امرؤ القيس؛**

امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي (٨٠ق.هـ -٥٦٥م).

تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

■ **ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي؛**

بشر بن أبي خازم الأسدي (٢٢ق. هـ -٦٠١ م).

دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

■ **ديوان حسّان بن ثابت؛**

حسّان بن ثابت (٥٤هـ-٦٧٤م).

دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

■ **ديوان ذي الرمة شرح أبي نصر؛**

أبو نصر أحمد بن حاتم الباهلي (٢٣١هـ -٨٤٦م).

تحقيق: عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، جدة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

■ **ديوان زهير بن أبي سلمى؛**

زهير بن أبي سلمى بن رياح المزني (٦٠٩ م).

مطبعة التوفيق الأدبية، د.م.ت.

ديوان سقط الزند؛

أبو عالاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرّي (٤٤٩. هـ-١٠٥٧م).

ضبطه: عمر فارق الطباع، دار الأرقام، بيروت - لبنان ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

■ **ديوان عبيد الله بن الحر الجعفي بين أناشيد الطفولة وآلام الندم؛**

عبيد الله بن الحر الجعفي (٦٨هـ - ٦٨٧م).

تحقيق: أحمد علي دهمان، من منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

■ **ديوان عمر بن أبي ربيعة؛**

عمر بن أبي ربيعة (٩٣هـ -٧١١م).

دار القلم، بيروت -لبنان، د.ت.

■ **ديوان قيس بن زهير؛**

قيس بن زهير (١٠هـ -٦٣٢م).

مطبعة الآداب في النجف الأشرف، د.م.ت.

▪ **الرسالة القشيرية؛**

أبو القاسم عبد الكريم هوازن القشيري النيسابوري، (ت. ٤٦٥هـ-١٠٧٢م).

تحقيق: معروف زريق علي عبد الحميد بلطجي، دار الخير، بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

▪ **روح البيان؛**

إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي المعروف بأبي الفداء (١١٢٧هـ - ١٧١٥م).

دار الفكر، بيروت، د.ت.

▪ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني؛**

أبو الثنا شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي البغدادي (ت. ١٢٦٠هـ -١٨٥٤م).

تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الرسالة العالمية، بيروت، ١٤٣٦هـ /٢٠١٥م.

▪ **سنن ابن ماجه؛**

محمد بن يزيد القزويني المعروف بان ماجه (٢٧٣هـ -٨٨٧م).

تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، محمد كامل قرة بللي، عبد اللطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

▪ **سنن أبي داوود؛**

سليمان بن الأشعث المعروف بأبي داود (٢٧٥هـ -٨٨٩م).

تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت د.ت.

▪ **سنن الترمذي؛**

محمد بن عيسى الترمذي (٢٧٩هـ - ٨٩٣م).

تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

▪ **سير أعلام النبلاء؛**

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (٧٤٨هـ -١٣٤٨م).

مؤسسة الرسالة، د.م، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

▪ **شعب الإيمان؛**

أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨هـ -١٠٦٦م).

تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي، الهند، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

▪ **شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية؛**

محمد بن محمد حسن شُرَّاب (٢٠١٣م).

الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ.

▪ **شرح المقاصد؛**

سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، (ت. ٧٩٢ هـ -١٣٩٠ م).

قدمله: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ٢٠١٠م.

▪ **شرعة الإسلام (إلى دار السلام)؛**

الإمام زاده محمد بن أبي بكر (٥٧٣هـ)

بخط محمد بن مصطفى دار الكتب المصرية، ١١٣٤هـ.

▪ **الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛**

عصام الدين طاشْكُبْري زَادَهْ (٩٦٨هـ -١٥٦١م).

دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.

▪ **مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع؛**

أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه (٣٧٠هـ-) ،

مكتبة المتنبي، القاهرة،

▪ **شواذ القراءات؛**

رضيّ الدّين شمس القرّاء أبي عبد الله محمّد بن أبي نصر الكرماني، (٥٦٣هـ/١١٦٧م).

تحقيق: شمران العجلي، مؤسسة البلاغ، بيروت-لبنان، د.ت.

■ **شرح المعلقات السبع؛**

حسين بن أحمد بن حسين الزَّوْزَني (٤٨٦هـ/١٠٩٣م).

دار احياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

■ **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية؛**

إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (٣٩٣هـ -١٠٠٣م).

تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

■ **صحيح البخاري؛**

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبه البخاري الجعفي (٢٥٦هـ -٨٧٠م).

الطبعة: السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، ١٣١١.

■ **صحيح مسلم؛**

مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٦١هـ -٨٧٥م).

تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

■ **عرائس البيان في حقائق القرآن؛**

صدر الدين روزبهان بن أبي نصر البقلي (٦٠٦هـ -١٢١٠م).

أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨.

■ **العناية شرح الهداية؛**

محمد بن محمود أكمل الدين أبو عبد الله بن الشيخ شمس الدين ابن الشيخ جمال الدين الرومي البابرتي (٧٨٦م).

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م.

■ **عوارف المعارف؛**

شهاب الدين السهروردي (٦٣٢هـ/١٢٣٤م).

تحقيق: أحمد عبد الرحمن السايح توفيق علي وهبة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٣٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص ٢٥-٢٦.

■ **غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني؛**

شهاب الدِّين أحْمَد بن إسماعيل الكوراني (٨٩٣هـ)

تحقيق: محمد بن سريع بن عبد الله السريع، دار الحضارة العلميه، الرياض ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.

■ **غرائب القرآن ورغائب الفرقان؛**

نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (٧٣٠هـ -١٣٢٩م [؟]).

تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلميه، بيروت ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

■ **الفائق في غريب الحديث والأثر؛**

جار الله الزمخشري (٥٣٨هـ -١١٤٤م).

تحقيق: علي محمد البجاوي -محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان د.ت.

■ **فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب؛**

شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (٧٤٣هـ -١٣٤٣م).

تحقيق: إياد محمد الغوج، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.

■ **الفردوس بمأثور الخطاب؛**

شيرويه بن شهردار المعروف بأبي شجاع الديلميّ الهمذاني (٥٠٩هـ -١١١٦م).

تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

■ **الفريد في إعراب القرآن المجيد؛**

المنتجب الهمذاني (٦٤٣هـ -١٢٤٦م).

تحقيق: محمد نظام الدين الفتيح، دار الزمان للنشر والتوزيع، المدينة المنورة-المملكة العربية السعودية ١٤٢٧هـ /٢٠٠٦.

■ **القاموس المحيط؛**

أبو الطاهر مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزآبادي (ت. ٨١٧هـ/١٤١٥م).

تحقيق: مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

■ **الكامل في التارخ؛**

أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير(ت. ٦٣٠هـ/١٢٣٣م).

تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م

▪ **الكامل في ضعفاء الرجال؛**

أبو أحمد بن عدي الجرجاني (٣٦٥هـ - ٩٧٦م).

▪ **الكتاب؛**

عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه (١٨٠هـ -٧٩٧م).

تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود-علي محمد معوض، الكتب العلمية، بيروت-لبنان ١٤١٨هـ/١١٩٧.

▪ **كتاب السبعة في القراءات؛**

أبو بكر بن مجاهد البغدادي (٣٢٤هـ - ٩٣٦م).

تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر ١٤٠٠هـ/١٩٨٠.

▪ **كتاب شرح المفصل؛**

يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء،

تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م) .

▪ **كتاب غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة؛**

أبو إسحق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي المعروف بالوطواط، تحقيق: ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، ص ٢٦٩-٢٧٠.

▪ **المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى**

أبو حامد محمد بن محمد بن الغزالي (٥٠٥هـ/١١١١م).

تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي دار ابن حزم، ١٤٢٤/٢٠٠٣، بيروت، ص ٨٦.

▪ **كشاف الخفاء ومزيل الإلباس؛**

إسماعيل بن محمد العجلوني (١١٦٢م).

تحقيق: يوسف بن محمود الحاج أحمد،مكتبة العلم الحديث، دمشق، ١٤٢٣هـ /٢٠٠١م.

■ **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل؛**

جار الله الزمخشري (٥٣٨هـ - ١١٤٤م).

تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٤١٥هـ /١٩٩٥م.

■ **الكشف والبيان عن تفسير القرآن؛**

أحمد بن إبراهيم الثعلبي (٤٢٧هـ -١٠٣٦م).

تحقيق: عبد الله بن عواد الجهني- هاشم بن محسن باصرة، دار التفسير، جدة - المملكة العربية السعودية ١٤٣٦هـ/٢٠١٥

الكفاية في شرح الهداية،

جلال الدين بن شمس الدين الكرلاني الخوارزمي (٧٦٧هـ).

تحقيق: محمد أحمد الحقّاني الأفغاني، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٩٧١، ١/٤٢-٤٣.

■ **اللباب في علوم الكتاب؛**

سراج الدين عمر بن علي بن عادل (٧٧٥هـ -١٣٧٤م).

تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت / لبنان ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

■ **لسان العرب؛**

جمال الدين ابن منظور (٧١١هـ - ١٣١٢م).

دار صادر، بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

■ **لطائف الإشارات؛**

عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (٤٦٥هـ - ١٠٧٣م).

تحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

■ **مجمع البيان في تفسير القرآن؛**

أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (٣١١هـ).

دار مكتبة بالحيات،بيروت-لبنان، د.ت.

■ **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها؛**

أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (٣٩٢هـ -١٠٠٢م).

تحقيق: مجموعة من المحقّقين، دار سزكين للطباعة والنشر، د.م. ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م،

■ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز؛**

عبد الحق بنعطية الأندلسي المحاربي (٥٤٢هـ - ١١٤٨م).

تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٢هـ /٢٠٠٢م.

■ **مختار الصحاح؛**

زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت ٦٦٦هـ).

المحقق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت- صيدا، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

■ **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ؛**

محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي(ت. ٧٤١هـ).

تحقيق: جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ٢٠٠١/١٣٢٢، ٤٨٣/٧.

■ **المستدرك على الصحيحين؛**

محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ -١٠١٥م).

تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

■ **مسند أحمد؛**

أحمد بن حنبل (٢٤١هـ -٣٥٦م).

تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، د.م، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

■ **مشكات المصابيح؛**

محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، (٥٠٢هـ-١١٠٩م).

تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥.

■ **معالم التنزيل في تفسير القرآن؛**

أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي (٥١٠هـ -١١١٧م).

تحقيق: مجموعة من المحققين، دار طيبة، الرياض ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

■ **معاني القرآن وإعرابه؛**

إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج (٣١١هـ - ٩٢٤م).

تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

■ **مفتاح العلوم؛**

يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي (٦٢٦هـ - ١٢٢٩م).

تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

■ **المفردات في غريب القرآن؛**

الراغب الإصفهانى (٤٢٥هـ - ١٠٣٤م).

تحقيق: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت — لبنان ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

■ **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم؛**

محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (١١٥٨هـ/١٧٤٥).

تحقيق: علي دحروج نقل النص الفارسي إلى العربية: عبد الله الخالدي الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان -بيروت الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

■ **موطأ مالك رواية أبي مصعب الزهري؛**

مالك بن أنس (١٧٩هـ - ٧٩٦م).

تحقيق: بشار عواد معروف - محمود محمد خليل، مؤسسة الرسالة — بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

■ **النهاية في غريب الحديث والأثر؛**

مجد الدين أبو السعادات المبارك ابن أثير (٦٠٦هـ - ١٢١٠م).

تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية — بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

■ **نواهاد الأبكار وشوارد الأفكار؛(حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي)؛**

أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت. ٩١١هـ - ١٥٠٥م).

تحقيق: تحقيق: ماهر أديب حبوش، مكتبة الإرشاد، إسطنبول- تركيا ١٤٤٣هـ/٢٠٢٢م.

▪ **الهداية شرح بداية المبتدي؛**

برهان الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر الفرغاني المرغيناني (ت. ٥١١).

دار الأرقام، بيروت-لبنان، د.ت.

▪ **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين؛**

إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

دار إحياء التراث العربي بيروت — لبنان، د.ت.

▪ **وفيات الأعيان؛**

شمس الدين أحمد ابن خلكان (٦٨١هـ - ١٢٨٣م).

تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.